

تفسير الكشاف

سبحه حقانوه النزيل ومحيي القواويل في جموه الناول

تأليف

أبي القاسم جابر الله بن محمد بن محمد بن محمد

الرخشي السخاوي

٤٦٧ - ٥٣٨ هـ

اعتنى به وخرجه أماديه وعلمه عليه

مخبره بن محمد بن محمد بن محمد

دار المعرفة

بيروت - لبنان

تفسير الكشاف

بحر حقانوه التنزيل وحوى الله قايلى في جموده النأويل

تأليف

أبي القاسم جابر الله محمد بن محمد الزنجشيري الخوارزمي

٤٦٧ - ٥٣٨ هـ

اعتنى به وفزع أحاديثه وعلق عليه

خليفة المأمون رشيداً

وعليه تعليقات كتاب «الانتصاف» فيما تضمنه
الكشاف منه الاعتزال «لإمام ناصر الدين ابن منير المالكيت»

دار المعرفة

بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953 - 420 - 87 - 4

الطبعة الثالثة
1430هـ - 2009م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

تفسير الكشاف
بمعاني القرآن الكريم
تأليف: محمد باقر المكي
مطبعة دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وجوه القراءات من الحفاظ، ليكون نوراً يَهْتَدَى به من الضلالة، وَيَفْهَم به مراد رَبِّهِ لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ من الجهالة، فَيُخَكِّم بالفلاح لمن تفهم معانيه واتبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه.

وها نحن نضع بين يديك كتاب «الكشاف»، ليكون لصدرك الدواء الشاف، للإمام المفسر الجليل، اللغوي الأديب الخليل، أبي القاسم الزمخشري محمود، عفا الله عنه لا عتزاله المعهود، وغفر له زلته وأكرمه بمقام محمود، فقد أوَّلَى مصنّفه عناية كبيرة، وأحسن انتقاء أحاديثه الغزيرة، فألفه بشكل وسط لا بالطول الممل، ولا بالمختصر المخل، رحمه الله تعالى.

وأخيراً أسأل الله أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، ونوراً لقبورنا ومصدراً كريماً لعيشنا وسرورنا، إنه قريب مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين.
بيروت في 17 جمادى الأولى 1423
الموافق 26 تموز 2002

كتبه النليل إلى مولاه الجليل
خليل مامون شيجا

الحمد لله الذي نَزَّل كلامه القديم على عبده فآلهمه التأويل والتفسير، فكان قرآناً عربياً تحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله إنه كان عليمًا قديرًا، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثله فقال: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، والصلاة والسلام على من أُرْسِل للعالمين بشيراً نذيراً، ومعلماً لكتاب الله الحكيم وسراجاً منيراً، وعلى آله الذين حفظوا آياته فأذهب الله عنهم الرجس بنصه وطهرهم تطهيراً، وعلى أصحابه الذين تفهموا مراده فباعوا به الدنيا والنيبين والقناطر، وعلى أتباعه الذين انتهجوا نهجهم فتدبروا آياته تدبيراً، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون قليلاً كان أم كثيراً.

أما بعد:

فإن علم التفسير أشرف العلوم أبداً؛ لأنه علم يختص بكتاب الله العزيز أكرم به مدداً، فبه يفهم القرآن وتدرك معانيه، وبه يكشف عن مقاصده ومرامييه، هذه المقاصد لا تعرف إلا بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على المنسوخ منه والناسخ، ليتبين لنا الحق كالنور الراسخ، وإدراك الخاص منه والعام، وإظهار حكمهما للأنام، والاستنباط لمعاني دلالات الألفاظ، ومعرفة

ترجمة الإمام الزمخشري

اسمه:

محمود بن عمر بن محمد بن عمر.

كنيته:

أبو القاسم.

لقبه:

جار الله.

ولقب بهذا اللقب؛ لأنه لما سافر إلى مكة - حرسها الله تعالى - وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه.

نسبه:

الخوارزمي الزمخشري.

وخوارزم: بلدة في العراق.

وزمخشري: قرية من قرى خوارزم القريبة منها، وقيل: إن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها، فصارت من جملة محالها.

مولده:

ولد رحمه الله تعالى وعفا عنه بزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربع مئة من الهجرة النبوية الشريفة.

نشأته ورحلاته:

نشأ الإمام الزمخشري محباً للعلم منذ صغره، فما أن وصل إلى سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم وهناك قطعت رجله، فجعل له رجلاً من خشب يستعين بها في المشي، ومن هناك كانت بدايته، ففتح الله تعالى عليه من العلم ما لم يفتح على غيره من أهل بلده في عصره، فكان أعلم الفضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً وأطلاعاً، وبه ختم فضلاؤهم حتى أصبح يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وقد ساعده على ذلك التوفيق أولاً، ثم إقباله على العلم ثانياً، وبدأ يحيط رحله من

بلد إلى آخر، فورد العراق فلما دخل بغداد اجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني⁽¹⁾، فسأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أنني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، وانفلت من يدي، فاندركته وقد دخل في خرق، فجنبتة فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت أُمي لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عليّ عملاً أوجب قطعها.

وكذلك دخل خراسان، ثم خرج منها إلى الحج، فلما نزل مكة شرفها الله تعالى وجد بها الشريف السيد الفاضل الكامل أبا الحسن علي بن عيسى الحسني فعرف قدره ورفع أمره، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري وأخذ الزمخشري عنه ونشطه لتصنيف ما صنف، وقال الشريف مانحاً للزمخشري:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداء زمخشرا وأحرى بأن تهني زمخشري بامرئٍ إذا عُد في أسد الشرى زمخ الشرى ثم انتقل مقيماً برهة في الحجاز، حتى هبت على كلامه رياح البادية، وورد مناهل العرب العاربة، ثم انكفأ راجعاً إلى خوارزم، وأكثر من التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، حتى بدأت تشد إليه الرحال في فنونه، ثم قوي عزمه على الرحلة عنها، وعوده إلى الحجاز، فقيل له: قد زجيت أكثر عمرك هناك فما الموجب؟ فقال: القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا.

وكان كلما دخل بلدًا اجتمع عليه أهل هذا البلد وتلمذوا له، واستفادوا منه ونقلوا عنه، وبعد أن جاب الدنيا ورحل من هنا وهناك عاد من مكة إلى وطنه الحبيب خوارزم وبقي فيها يصنّف ويلقي بها الأكابر والأفاضل، ويتلمذ فيها إلى أن توفاه الله تعالى.

اعتقاده:

لقد أشارت كل التراجم بدون استثناء أن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، متشدداً بأرائه، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه

(1) هو الإمام أحمد بن علي بن محمد أبو الحسين الدامغاني المتوفى

في الدخول يقول لمن يأخذ له الإنن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب.

والظاهر أنه كان يتفاخر ويتباهى باعتزاله، كيف لا، وقد وصفه أحدهم بأنه كبير المعتزلة، المتحقق به. أعاننا الله تعالى وإياكم من سوء الاعتقاد.

وسنورد كلاماً خاصاً عن أثر اعتقاده في تفسيره الكشف وكيف أنه فسر القرآن الكريم بالطريقة التي تنصر مذهب الباطل.

مذهبه:

لم تشر التراجم إلى مذهب الزمخشري الفقهي، باستثناء كتابين، أحدهما: كتاب: «العقد الثمين» 137/7، للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي المتوفى سنة 832هـ حيث يقول معنوياً: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الحنفي أبو القاسم المعروف بالزمخشري والثاني: كتاب: «المغني» ص 123 للإمام محمد طاهر بن علي الهندي المتوفى سنة 986هـ حيث يقول: الزمخشري منه: محمود بن الخوارزمي الحنفي مذهباً صاحب تصانيف عجيبة. ولعل الذي يؤكد ما ذهب إليهما الإمامين اجتماعه بالفقيه الحنفي الدامغاني رحمه الله تعالى في بغداد.

ويؤكد الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «طبقات المفسرين» 474/1 انتماءه للمذهب الحنفي قائلاً: وهو معتدل - في المسائل الفقهية - لا يتعصب لمذهبه الحنفي والله أعلم بالصواب.

شيوخه:

لم تذكر لنا المصادر أسماء شيوخه الذين لقيهم وتلقى العلم عليهم، ولكن اكتفوا بذكر أسماء ستة من شيوخه وهم:

- 1 - أبو الخطاب نصر بن البطرية.
- 2 - أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري.
- 3 - أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني.
- 4 - أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة.
- 5 - أبو سعد الشقاني.
- 6 - أبو منصور الحارثي. وغيرهم كثير.

تلاميذه:

ظهر للزمخشري جماعة من التلامذة منهم:

- 1 - أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان.
- 2 - وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بآبيورد.
- 3 - وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر.
- 4 - وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي بسمرقند.

- 5 - وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم.
 - 6 - وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي.
 - 7 - وزينب بنت عبد الرحمن الشَّعْري وجماعة سواهم.
- والظاهر أنَّ تلاميذه كثير؛ لأنه جاء في المصادر ما نصه: وما نخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه.

مصنفاته:

ألف الإمام الزمخشري كتباً كثيرة وصلت إلى (49) كتاباً تقريباً، منها في علوم التفسير والحديث واللغة والنحو وعلم البيان والمواظ والفقه والتاريخ وغيرها. وسنعرض لما وصلتنا من أسماء مؤلفاته حسب ترتيبها الألف بائي وهي كالتالي:

حرف الألف

- 1 - الأجnas. في اللغة.
- 2 - الأسماء. في اللغة.
- 3 - الأصل.
- 4 - الأمالي. في النحو.
- 5 - أسس البلاغة. في اللغة.
- 6 - أطواق الذهب. في المواظ.
- 7 - أعجب العجب في شرح لامية العرب.

حرف التاء

- 8 - تسلية الضرير.

حرف الجيم

- 9 - الجبال والأمكنة.
- 10 - جواهر اللغة.

حرف الحاء

- 11 - حاشية على المفصل.

حرف الدال

- 12 - ديوان التمثيل.
- 13 - ديوان خطب.
- 14 - ديوان رسائل.
- 15 - ديوان شعر.

حرف الراء

- 16 - الرائض في الفرائض.
- 17 - الرسالة الناصحة.

18 - ربيع الأبرار. في الأدب والمحاضرات.

19 - رسالة الأسرار.

20 - رسالة المسامة.

21 - روح (رؤوس) المسائل. في الفقه.

حرف السين

22 - سوائر الأمثال.

حرف الشين

23 - شافي العي من كلام الشافعي.

24 - شرح كتاب سيويه.

25 - شرح مقاماته.

26 - شقائق النعمان. في حقائق النعمان في مناقب الإمام أبي حنيفة.

حرف الصاد

27 - صميم العربية.

حرف الضاد

28 - ضالة الناشد.

حرف العين

29 - عقل الكل.

حرف الفاء

30 - الفائق في غريب الحديث.

حرف القاف

31 - القسطاس في العروض.

حرف الكاف

32 - الكشف. في التفسير، وهو كتابنا الذي بين أيدينا، وقد أقرننا فصلاً خاصاً للكلام عليه آخر هذه المقدمة.

33 - الكلم النوايع. في المواعظ.

حرف الميم

34 - المحاجة ومتمم سهام أسباب الحاجات في الأحاجي والألغاز.

35 - المستقصى في الأمثال.

36 - المفرد والمؤلف في النحو.

37 - المفرد والمركب في اللغة.

38 - المفصل في النحو.

39 - المنهاج في الأصول.

40 - متشابه أسماء الرواة.

41 - مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.

42 - معجم الحدود.

43 - مقامات في المواعظ.

44 - مقمة الأدب في اللغة.

حرف النون

45 - النموذج في النحو.

46 - نزهة المستانس.

47 - نصائح الصغار.

48 - نصائح الكبار.

49 - نكت الأعراب في غريب الإعراب.

أشعاره:

إنَّ للزمخشري رسائل مسجوعة، ومقامات مصنوعة، محلاة بالبدیع، وفيها أثر التعلُّم؛ جرياً مع العصر الأدبي الذي كان يعيش فيه. وله أيضاً ديوان شعر تشيع فيه عبارة الفقهاء فمن قوله:

سهرى لتنقيح العلوم الدُّلي من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة اشهى واحلى من مدامة ساق
وصرير اقلامي على أوراقها احلى من الدوكاء والعشاق
والذ من نقر الفتاة ليلها نقرى لالقي الرمل عن أوراق
أبيت سهران الدجى وتبيته نوماً وتبغى بعد ذلك لحاق
ومن شعره أيضاً هذه الأبيات:

ألا قل لسعدى أما لنا فيك من وطن وما تطلبين النُّجْل من أعين البقر
فإننا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوه ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أر إذ غازلته قرب روضة إلى جنب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بورد وإنما أربت به ورد الخلود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرفي أجيء به فقلت له هيهات ما لي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر فقلت له: إني قنعت بما حضر

ومن شعره يرثي شيخه أبا نصر منصور:
وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا أبو مضر أدني تساقطن من عيني
ومن شعره أيضاً على ما يقال:

هو النفس الصعاد من كبد حزى إلى أن أرى أم القرى مرة أخرى

وما عنر مطروح بمكة رحله على غير بؤس لا يجوع ولا يعرى
يسافر عنها يبتغي بدلاً بها وربك لا عنرى وربك لا عنرى
وغير هذا كثير مكتفين بهذا القدر خشية الإطالة والملل.

وفاته:

توفي الزمخشري ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين
 وخمسمائة من الهجرة النبوية الشريفة بجرجانية خوارزم
 بعد رجوعه من مكة، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه آمين.
 وقيل: إنه أوصى بعد موته أن تكتب على قبره هذه
 الأبيات:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
 ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
 اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول
 وراثه بعضهم قائلاً:

فأرض مكة تنري اللمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود
 وجرجانية: بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون
 الراء وكسر النون وتشديد الياء، وهي قسبة خوارزم وتقع
 على شاطئ جيحون.

التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه

سنة 808هـ) في «المقدمة» ص 491، فقال: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري.

9 - ونكره الإمام ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (المتوفى سنة 852هـ) في «لسان الميزان» 4/6، فقال: محمود بن عمر الزمخشري المفسر... يسمى كتابه الكشاف تعظيماً له.

10 - ونكره حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (المتوفى سنة 1067هـ) في «كشف الظنون» ص 1475، فقال: الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام العلامة أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري.

11 - ونكره ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة 1089هـ) في «شذرات الذهب» 4/118، فقال: أبو القاسم الزمخشري... صاحب الكشاف.

12 - ونكره البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين (المتوفى سنة 1339هـ) في «هدية العارفين» 2/402، فقال:

13 - ونكره بروكلمان (المتوفى سنة 1376هـ) في «تاريخ آداب اللغة العربية» 215/5، ونص على وجود مخطوطاته في مكتبات العالم، وذكر المطبوع منها، وما لم يطبع.

14 - ونكره الزركلي، خير الدين (المتوفى سنة 1396هـ) في «الأعلام» 178/7، فقال: أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن.

15 - ونكره الدكتور الذهبي، محمد حسين (المتوفى سنة 1397هـ) في «التفسير والمفسرون» 1/429، واستفاض في الكلام عليه.

16 - ونكره كحالة، عمر رضا (معاصر) في «معجم المؤلفين» 186/12، فقال: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المفسر... من تصانيفه الكثيرة: الكشاف عن حقائق التنزيل.

هذه هي من أهم المصادر التي ترجمت للزمخشري، ونكرت تفسيره الكشاف، ولا يشك أحد من المترجمين له نسبة هذا الكتاب للإمام الزمخشري.

(1) توثيق نسبة الكشاف للزمخشري:

أجمع الذين ترجموا للزمخشري على نسبة هذا التفسير المسمى «بالكشاف» له، وسنذكر بعض أهم المصادر التي نصت على نسبة الكتاب له، وفق التسلسل الزمني لوفيات أصحابها:

1 - نكره الإمام الزمخشري نفسه مباحاً له:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها العمري مثل كشافني إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي ويكفي قوله هذا في توثيق نسبة الكتاب له.

2 - ونكره الإمام السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة 562هـ) في «الأنساب» 3/163، فقال: لقي الأفاضل والكبار وصنّف تصانيف في التفسير. وهو أقدم من ترجم له وعاصره، فقد قال: ورد مرو في زماني ولم يتفق لي رؤيته والاقتباس منه. ولم يصرح بذكر اسم الكتاب.

3 - ونكره الإمام ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (المتوفى سنة 597هـ) في «المنتظم» 37/18، فقال: وصنّف التفسير الكبير، ولم ينص على اسمه أيضاً.

4 - ونكره الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى سنة 624هـ) في «إنباه الرواة» 3/265، فقال: صنّف التصانيف في التفسير وغريب الحديث. ولم يصرح باسمه كذلك.

5 - ونكره الإمام ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (المتوفى سنة 681هـ) في «وفيات الأعيان» 5/168، فقال في بداية ترجمته معنواً: الزمخشري صاحب الكشاف.

6 - ونكره الإمام الذهبي، شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان (المتوفى سنة 748هـ) في «سير أعلام النبلاء» 20/152، فقال: أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الزمخشري... صاحب الكشاف.

7 - ونكره الإمام ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (المتوفى سنة 774هـ) في «البداية والنهاية» 12/219، فقال: صاحب الكشاف في التفسير.

8 - ونكره الإمام ابن خلدون، عبد الرحمن (المتوفى

(ب) سبب تأليفه للكشاف:

يذكر الإمام الزمخشري في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه فقال: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستفتيت، فابوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد.

والذي حدثني إلى الاستعفاء - على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين - ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله، وركاكّة رجاله، وتناصر مهمم عن أنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي البيان والمعاني، فاملت عليهم مسألة في الفواتج، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيل والانتاب، وإنّما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتمونه، ومثالاً يحتنون به، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإنابة بحرم الله فتوجهت لتقاء مكة، وجئت مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطش الأكباد إلى العثور على تلك المملّى، متطلعين إلى إيناسه حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي.

فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من البوذة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن بن حمزة بن وهاس - أدام الله مجده - وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبدًا، والهيبهم حشئ، وأوفاهم رغبة، حتى نكر أنّه كان يحدث نفسه في مدة غيبيتي عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطي المهامه، والإفاذة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العمل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب بفاقة الرقاب، فاخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكتير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجي، ونوراً على الصراط يسعي بين يدي ويميني، ونعم المسؤول أهـ. وكان الفراغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع

الأخر في عام ثمان وعشرين وخمسائة.

(ج) قيمة الكشف العلمية:

إن كتاب الكشف من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعة الاعتزالية، وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه.

وقيمة هذا الكتاب تبرز من خلال علمين مختصين بالقرآن الكريم وهما: علم المعاني وعلم البيان، وبهما برع الزمخشري حتى أصبح سلطان هذا الفن، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب.

ولقد أحسن الزمخشري حين استخراج من القرآن الكريم محاسن النكت، ولطائف المعاني التي يستعمل فيها الفكر؛ لإظهار جمال النظم القرآني، ورونقة الإعجاز منه، من خلال أسرار البلاغة وليس كالمزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن الكريم وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النوع العلمي والأدبي على تفسير الكشف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء، وعلق به قلوب المفسرين.

ويمتاز الكشف بأمور منها:

- 1 - خلوه من الحشو والتطويل.
- 2 - سلامته من القصص والإسرائيليات.
- 3 - اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.
- 4 - عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز.

5 - سلوكه فيما يقصد إيضاحه طرق السؤال والجواب كثيراً، ويعنون السؤال بكلمة «فإن قلت» بفتح التاء، ويعنون الجواب بكلمة «قلت» بضم التاء.

وهذا مما زاد في تفسير الكشف قيمة يجعل النفوس تميل إليه، والطباع راغبة في قراءته وتناوله.

وهكذا نجد أن الأئمة الذين تكلموا على الإمام الزمخشري وعلى تفسيره من الناحية الاعتزالية - كما سيأتي في فصل خاص - قد أثنوا على الكشف من الناحية العلمية الأدبية والبلاغية واللغوية وغيرهم، وإليك بعض مقالاتهم:

1 - مقالة الإمام الهروي

ويشهد الإمام الهروي أحد الذين تتبعوا زلات الزمخشري بأن كتاب الكشف: كتاب علي القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيدة كلمة المهرة المتقنين، واجمعت على محاسن أساليبه الانيقة السنة الكلمة المفلقين، ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشديد معاقده، وكل كتاب بعده

1 - انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبار:

فمثلاً يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾⁽¹⁾. هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمو منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ننب محمو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: «لزال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»، وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه»، وفيه: «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه»، وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله».

والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم منهاهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أم على قلوب أقفالها⁽²⁾... فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله: ومن يقتل أي قاتل كان من مسلم، أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليات بليل مثله.

2 - انتصاره لرأي المعتزلة في الحسن والقبح

العقليين

ولما كان الزمخشري يقول بمبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذا النص المنافي لمذهبه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾⁽³⁾ فنراه في هذه الآية يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل: لأن معهم ألة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً

2 - مقالة الإمام ابن خلدون

وهذا هو ابن خلدون يشهد للكشاف أنه أفضل الكتب في التفسير من حيث معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى فيقول: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق. ثم يقول: فلتفتنم مطالعته لغرابته فنونه في اللسان.

3 - مقالة الإمام التاج السبكي

وكذلك نجد أن الإمام تاج الدين السبكي يشهد أيضاً ما للكشاف من الفوائد وما للزمخشري من طول باع في هذا العلم فيقول: وأعلم أن «الكشاف» كتاب عظيم في بابيه أي: في بابيه العلمي الأدبي، ومصنفه إمام في فنه.

4 - مقالة الإمام ابن المنير المالكي

وهذا الإمام رغم شدة ووروثه على الزمخشري ورده العنيف عليه - كما سيأتي - لا ينسى ما للزمخشري من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابه به؛ لتتويجه بأساليب القرآن العجيبة، وكثيراً ما يعترف بتقدير كبير بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية. فتارة نراه يقول منصفاً بعد تعقبه تفسيره: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز، والعمق في آثار معانته، وإبراز محاسنه.

وتارة أخرى نجده يقول أيضاً باعتدال: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحقافة في علم البيان.

هذه بعض شهادات العلماء الذين رثوا على الزمخشري اعتزاله وشنوا عليه الحرب، وحذروا من كشافه، نجدهم يشهدون أن للكشاف قيمة غنية من ناحية البلاغة، والإعجاز، واللغة، والبيان، بإنصاف دون انتقاص من قيمته العلمية شيئاً.

(د) انتصار الزمخشري لعقيدته الاعتزالية في الكشاف:

لقد نحى الزمخشري في تفسيره منحى الاعتزال، وقد مرّ سابقاً أنه متشدد بأرائه ومتعصب بأفكاره، وقد جعل من هذا التفسير طريقاً سهلاً لنصرة مذهبه الفاسد، وإظهار آرائه وأفكاره الباطلة، فنرى أنه يؤيد مذهبه الاعتزالي بكل ما أوتي من قوة الحجة، وسلطان الدليل، وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلى أن يتاول ما كان منها معارضاً

(3) سورة الإسراء، الآية: 15.

(1) سورة النساء، الآية: 93.

(2) سورة محمد، الآية: 24.

هذا المعنى - اللطف الإلهي - الذي تمسك به هو والمعتزلة، ونفعهم في كثير من المواضع.

3 - انتصاره لرأي المعتزلة في السحر

نجد من خلال تفسيره لسورة الفلق انتصاره لرأي المعتزلة النافين للسحر وللسحرة حيث يستهزئ ويُسخر بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر قائلاً:

(النفاثات) النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقيين، والنفث: النفخ مع الريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبوت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسب به الحشو والرعاع إليهم وإلى نفثين، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعيثن به.

فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعه السحر ومن إثمهن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿إن كيبن عظيم﴾⁽¹⁾ تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك.

4 - انتصاره لرأي المعتزلة في حرية الإرادة

وخلق الأفعال

لقد تشدد الزمخشري في مسألة حرية الإرادة وخلق الأفعال، رغم وجود آيات صريحة تصادم مقولته وهي أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فتفادى هذا التصادم لتعصبه لمذهبه الباطل باعتقاده باللطف الإلهي الذي يسهل على الإنسان عمل الخير، وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

فنراه يفسر قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾⁽²⁾ فيقول: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تبلنا ببلايا تزغ فيها قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لينك أو لا تمنعنا أظافك بعد إذ لطف بنا.

وهكذا نجده قد خرج من ورطته الكبرى فساعدته على

5 - انتصاره لرأي المعتزلة في عدم

رؤية الله تعالى

ناهيك عن تفسيره للنصوص بما يوافق عقيدته الاعتزالية، فهو يتذرع بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، فنراه كغيره من المعتزلة إذا مرّ بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجوداً في اللغة.

فمثلاً نراه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾⁽³⁾ يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ﴿ناظرة﴾؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه القائل بعدم رؤية الله تعالى فنراه يثبت له معنى آخر وهو التوقع والرجاء فيقول:

﴿إلى ربها ناظرة﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾⁽⁴⁾، ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾⁽⁵⁾، ﴿إلى الله تصير الأمور﴾⁽⁶⁾، ﴿إلى الله المصير﴾⁽⁷⁾، ﴿والإيه ترجعون﴾⁽⁸⁾، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾⁽⁹⁾ كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم؛ لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حملة على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء.

(هـ) موقف الزمخشري من الفقهيات:

ونجد أن الزمخشري لا يتوسع في المسائل الفقهية أبداً، بل على العكس نراه أنه يتعرض لها إلى حد ما دون الميل إلى مذهبه الحنفي، فهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الفقهي على عكس مذهبه الاعتقادي فإنه متعصب جداً.

(و) موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

إن الناظر في كتب التخریجات لأحاديث الكشاف، يجد أن الزمخشري مثل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو

(6) سورة الشورى، الآية: 53.

(7) سورة آل عمران، الآية: 28.

(8) سورة البقرة، الآية: 245.

(9) سورة الشورى، الآية: 10.

(1) سورة يوسف، الآية: 28.

(2) سورة آل عمران، الآية: 8.

(3) سورة القيامة، الأيتان: 22 - 23.

(4) سورة القيامة، الآية: 12.

(5) سورة القيامة، الآية: 30.

الشرس لأهل السنة والجماعة؛ لذلك نجد أن تفسيره هذا الاعتزالي أثار عليه خصومه من أهل السنة، فتعقبوه بالمناقشة والتقنيد، وردوا بشكل حاسم على ما أورده في كشفه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنها جافة وقائمة على الرأي الطليق.

(ح) موقف أهل السنة من الزمخشري وتفسيره:

لقد تصدى أهل السنة لأقاويل الزمخشري واعتقاده، فتتبعوا زلاته المشينة التي تطاول بها على أهل الفوز والنجاح، وردوها كلها وبنوا ركافة مذهبه وأبطلوه بحجج وبراهين قوية لا ينكرها إلا مشرك أو كافر، وما نحن ننكر لكم بعض الأئمة الذين أقاموا حملات على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي فمنها:

1 - حملة ابن القيم

فهذا هو الإمام العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور على الزمخشري من أجل كشفه الاعتزالي. فنراه بعدما أورد تفسير الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه...﴾⁽³⁾ يقول: فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشينة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قديراً⁽⁴⁾.

2 - حملة تاج الدين السبكي

فهذا هو الإمام العلامة تاج الدين السبكي يشن هجوماً على الزمخشري وكشفه الاعتزالي قائلاً: إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببذعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء إليه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشف من ذلك كله⁽⁵⁾.

3 - حملة أبي حيان

فهذا هو الإمام العلامة أبو حيان صاحب البحر المحيط في التفسير يتعقب الزمخشري في تفسيره فيجد فيه من الزلات الكثيرة، ويصفه بالجهل والضلالة والسرقة، ويصفه بالمرقوق من الدين فيقول بعد ذكر ما مدحه به:

ولكنه فيه مجال لناقد
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً
ويشتتم أعلام الأئمة ضلة
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة
يقول فيها الله ما ليس قائلاً
ويخطئ في تركيبه لكلامه

وزلات سوء قد أخذن المخانقا
ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً
ولا سيما إن أولجوه المضايقا
بتكثير الفاظ تسمى الشفاشقا
وكان محباً في الخطابة واقعا
فليس لما قدر كبوه موافقا

يتبع خطة للكشف عن هذه الروايات، بأن يصدر الرواية بلفظ «وي»، المشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس الدين، وإما أن ينبئه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتأكد فليُنظر في التفسير ويعود إليه، والله أعلم.

(ز) موقف الزمخشري من أهل السنة والجماعة:

إن الناظر اللبيب في تفسير الكشف ليجد أن الزمخشري قد مزج تفسيره بنصوص قاسية مليئة بالسخرية والاستهزاء بأهل السنة، وكذلك يجده لا يدع فرصة تفوته إلا ويحقرهم فيها ويقلل من قدرهم، فتارة يسميهم المجبرة، وتارة أخرى يسميهم الحشوية، حتى أنه رامهم بالقدرية والمشبهة، أعاننا الله وإياكم من سوء الاعتقاد.

ومع هذا كله نراه أنه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلى ناحية مخالفته في العقيدة من أهل السنة والجماعة.

والظاهرة الأعجب في تفسيره وفي اعتقاده الزائف أنه يخرج خصومه السننيين من بين الإسلام ويحكم عليهم بالكفر الصريح.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم...﴾⁽¹⁾ سائلاً:

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعنده؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعنده بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد - يعني في قوله: إن الدين عند الله الإسلام - قلت: فائدته أن قوله: لا إله إلا هو؛ توحيد، وقوله: قائماً بالقسط؛ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾⁽²⁾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى.

فمن خلال هذا التفسير يظهر الزمخشري بمظهر المتعصب القوي لاعتزاله، وكذلك يظهر بمظهر العدو

(4) إعلام الموقعين: 1/ 202.

(5) النماذج الخيرية ص 310.

(1) سورة آل عمران، الآية: 18.

(2) سورة آل عمران، الآية: 19.

(3) سورة الاعراف، الآية: 176.

في الخطأ والخلط، سقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فُتشت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الالابية وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالترزم في كتابه أمور أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواه، فتكررت مشاريعه الصافية، وتضيق موارد الصافية، وتزلزلت رتبته العالية:

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتتها، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتفسفات جامدة... وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى... وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لقرط عناده.

ومنها: أنه.. أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالا غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها.

ومنها: أنه ينكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارة فاحشة⁽³⁾.

وأخيراً هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه، ومهما يكن من شيء، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه.

(ط) الأئمة الذين كتبوا على الكشاف ولخصوه وخرجوا أحاديثه:

لما اشتهر الكشاف وطار في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محشى وضّح ونقّح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزاً وأسنداً وصحح وانتقد، ومن مختصر لخص وأوجز.

(١) فمن الأئمة الذين كتبوا على الكشاف:

- 1 - الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمد ابن المنير الإسكندراني المالكي (المتوفى سنة 683هـ)، له كتاب اسمه «الانتصاف» وهو الذي لخصناه.
- 2 - الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي (المتوفى سنة 704هـ)، له كتاب سماه «الإنصاف» وجعله حكماً بين الكشاف والانتصاف.

وينسب إبداء المعاني لنفسه ليومهم أعماراً وإن كان سارقاً ويخطئ في فهم القرآن لأنه يجوز إعراباً أبى أن يطابقا وأخرعانه فما هو لاحقاً لمذهب سوره فيه أصبح مارقاً مغارب تخزيق الصبا ومشارقا لسوف يرى للكافرين مرافقا⁽¹⁾

4 - حملة ابن المنير

فهذا هو الإمام القاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الذي خصص جهوده للكشف عن حقيقة الكشاف، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) ناقش فيه الزمخشري وجاله ورد عليه أقواله الاعتزالية، فنجدته يتوجه إلى الزمخشري باللوم على تفسيره لقلوه تعالى: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾⁽²⁾ قائلاً: فانظر إليه كيف اشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التوكل عليه، لأنه اخذ من أهل البدة بثار أهل السنة، فأصمى أفتلتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة.

وكثيراً نراه يعمن السخرية أيضاً من المعتزلة ويغرق في التكبر على الكشاف، ويصفه بالبشاعة المنطقية، وكل هذا مقابل ما اعتمده الزمخشري في حملاته السخرية على أهل السنة، حتى إننا نجد ابن المنير يتطرف فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك الخفي.

وهكذا نجد أن أهل السنة والجماعة تحذر الناس من الزمخشري واعتقاده الفاسد الباطل، وكذلك تحذر الناس من تفسيره المليء بالاعتزال والاعتراض على أهل السنة والجماعة. فكن حذراً من كشافه، هذه مقولة أكثر أهل السنة.

5 - حملة الشيخ حيدر الهروي

فهذا هو الشيخ حيدر الهروي أحد الذين علقوا على الكشاف نجده يصف الكتاب وصفاً دقيقاً فيمدحه بما فيه من رونق البلاغة وأناقته أساليبه ثم ينكر ما فيه من الآراء الفاسدة نكراً؛ ما ضيع عليه هذا الرونق والأناقته وما أبطل صيته الرنان فقال: ولو فرض أنه لا يخلو - أي: الكشاف - عن النقيير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتني أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع

(3) كشف الظنون: 2/ 176 - 177.

(1) البحر المحيط: 7/ 85.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

وأبي حيان وأجوبة السمين الحلبي والسفاقي مع زيادة تخرّيج أحاديته.

17 - الإمام علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بمصنفه (المتوفى سنة 871هـ)، له عليه حاشية.

18 - الإمام محيي الدين محمد ابن الخطيب (المتوفى سنة 901هـ)، له على حاشية السيد حاشية.

19 - الإمام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بحفيد التفتازاني (المتوفى سنة 906هـ)، له حاشية بلغ بها إلى أواسط سورة البقرة.

20 - الإمام شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا المفتي (المتوفى سنة 940هـ)، وقد علق على بعض مواضعه، وهو من أحسن تأليفاته.

21 - الإمام خير الدين خضر بن عمر العطوفي (المتوفى سنة 948هـ)، له عليه حاشية.

22 - الإمام أبو السعود بن محمد العمادي (المتوفى سنة 982هـ)، له حاشية على سورة الفتح سمّاها «معاهد الأطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف».

23 - الإمام صنع الله بن جعفر المفتي (المتوفى سنة 1021هـ)، له حاشية على أوائله، وغيرهم أيضاً ولكن اكتفينا بهذا القدر من الأئمة الذين كتبوا على الكشاف.

(ب) فمن الأئمة الذين اختصروا ولخصوا الكشاف:

1 - الإمام محمد بن علي الانصاري (المتوفى سنة 662هـ)، وقد أزال عنه الاعتزال.

2 - الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (المتوفى سنة 692هـ)، له تلخيص سمّاها «أنوار التنزيل»، وهو سيد المختصرات.

3 - الإمام قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الغالي الشقار (المتوفى سنة 698هـ)، لخصه وسمّاها «تقريب التفسير».

4 - الإمام محب الدين محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الحنفي (المتوفى سنة 859هـ).

5 - الإمام عبد الأول بن حسين الشهير بأبى ولد (المتوفى سنة 950هـ)، وغيرهم كثير مكتفين بهذا العدد من الأئمة الذين لخصوا واختصروا الكشاف.

(ج) فمن الأئمة الذين خرّجوا أحاديث الكشاف:

1 - الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزبلي الحنفي (المتوفى سنة 762هـ)، وقد طبع هذا الكتاب بأربع مجلدات ضخمة.

3 - الإمام قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (المتوفى سنة 710هـ)، له عليه حاشية في مجلدين لطيفين.

4 - الإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي (المتوفى سنة 743هـ)، له عليه حاشية في ست مجلدات ضخمة.

5 - الإمام عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (المتوفى سنة 745هـ)، له حاشية سمّاها «الكشف» وهي في مجلد واحد.

6 - الإمام فخر الدين أحمد بن حسن الجاربردي (المتوفى سنة 746هـ)، له عليه حاشية.

7 - الإمام عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي، المعروف بالفاضل اليميني (المتوفى سنة 750هـ)، له حاشية سمّاها «دبر الأصداف في حل عقد الكشاف»، وله حاشية أخرى اسمها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف».

8 - الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام (المتوفى سنة 762هـ)، اختصر الانتصاف والإنصاف.

9 - الإمام قطب الدين محمد بن محمد التختاني الرازي (المتوفى سنة 766هـ)، له عليه حاشية كلها اعتراضات، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار.

10 - الإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (المتوفى سنة 786هـ)، له عليه شرح وصل به إلى تمام الزهراوين.

11 - الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفى سنة 792هـ)، لخص فيها حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، وصل فيها إلى سورة الفتح.

12 - الإمام يوسف بن حسن التبريزي (المتوفى سنة 804هـ)، له عليه حاشية.

13 - الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (المتوفى سنة 805هـ)، له حاشية في ثلاث مجلدات سمّاها «الكشاف على الكشاف».

14 - الإمام السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة 816هـ)، له عليه حاشية.

15 - الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (المتوفى سنة 817هـ)، له حاشية شرح فيها خطبة الكشاف، سمّاها «قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف».

16 - الإمام ولي الدين أبو زرة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العراقي (المتوفى سنة 820هـ)، له حاشية لخص فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي

علماء الأزهر، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف».

2 - الإمام محب الدين أفندي، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «تنزيل الآيات على الشواهد عن الأبيات».

2 - الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (المتوفى سنة 852هـ)، لخص كتاب الزيلعي، واستدرك عليه ما فات الإمام الزيلعي وسمّاه «الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف»، وقد طبع هذا الكتاب في آخر «كتاب الكشاف» بمفرده، كملحق له.

(د) فمن الأئمة الذين شرحوا شواهد الكشاف:

1 - الإمام محمد عليان المرزوقي الشافعي من أكابر

المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة

علم التفسير

(1) تعريف التفسير:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان⁽¹⁾: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من التفسير أي الإبانة والكشف، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل.

وأما في الاصطلاح: فهو علم يبحث عن كيفية النطق بالفاظ القرآن، ومسلولاتها، وأحكامها الإقرائية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك.

تعريف التأويل:

التأويل في اللغة: مأخوذ من الأول وهو الرجوع يقال: أول الكلام تأويلاً وتأولته: دبرته وقدره وفسره، والتأويل: عبارة الرؤية. فكان المؤول أَرْجَعَ الكلام إلى ما يحمله من المعاني. وأما في الاصطلاح: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه.

وفرق بعض العلماء بين التفسير والتأويل.

(ب) نشأة التفسير:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم⁽²⁾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، لذلك كان الصحابة الكرام يفهمون القرآن في جملته، أي بالنسبة لظواهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء فقد تفاوتوا في ذلك، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم، وبمعرفة أسباب النزول، فكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ فيما لم يفهموه فيفسره لهم لذا فقد أئز عنه ﷺ عدد كبير من الأحاديث تتناول تفسير القرآن.

وبعد وفاة النبي ﷺ اشتهر عدد كبير من الصحابة بالتفسير، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن

مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

1 - مصادر التفسير في عهد الصحابة:

1 - القرآن الكريم نفسه: حيث إن آياته يفسر بعضها بعضاً، وما أجمل في موضع منه قد يبين في موضع آخر، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة المؤمن⁽³⁾: ﴿وَإِنْ يَكُ صَاحِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، بأنه العذاب الأدنى المعجل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر السورة، الآية: 77 ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَاكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَاكَ فَاِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

2 - السنة النبوية الشريفة: فقد فسّر النبي ﷺ كثيراً من آيات القرآن الكريم، والذي يرجع إلى كتب الحديث يجدها حافلة بابواب التفسير الماثور عن النبي ﷺ، من ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «(الصلاة الوسطى) صلاة العصر».

3 - أقوال الصحابة: كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا لم يجدوا التفسير في القرآن، ولم يسمعه من رسول الله ﷺ، رجعوا في ذلك إلى اجتهداهم لأنهم عاينوا نزول القرآن، ولأنهم كانوا من خلص العرب، يعرفون عاداتهم والألفاظ ومعانيها، ومناحي العرب في كلامهم، ومعتدين في ذلك على الشعر الذي هو ديوان العرب كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كان الصحابي الجليل ابن عباس صاحب النصيب الأكبر من ذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه دعا له فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» ولذلك لقب «بترجمان القرآن».

2 - مدرسة التفسير على عهد الصحابة:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم، وتوزع الصحابة في البلاد المفتوحة، وحملوا معهم علومهم وجلس إليهم كثير من التابعين يتعلمون عليهم، فقامت في هذه البلاد مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهرت من بين هذه المدارس ثلاث هي:

(1) اقتبسنا الكلام في هذا الفصل من كتاب «التفسير والمفسرون»

للمرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي.

(2) السيوطي، الإتيقان 2/ 88.

(3) السيوطي، الإتيقان 2/ 189.

الزجاج، والواحدي في «السيط» وأبو حيان في «البحر المحيط».

2 - التفسير العقلية: ومنهم من عني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، ينكر شبههم والرد عليهم، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»...

3 - التفسير الفقهي: وهي التي عني مؤلفوها باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها، وإيراد الفروع الفقهية كل وفق مذهبه مع الرد على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي في «أحكام القرآن»، والقرطبي المالكي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن».

4 - التفسير التاريخية: وهي التي عني مؤلفوها بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، كما فعل الثعلبي والخازن.

5 - تفسير الفرق: وهي التي وضعها أصحاب الفرق والعقائد المتباينة، محاولين تأويل كلام الله حسب مذاهبهم، كما فعل الرماني، والجبائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري...

6 - تفسير المتصوفة: وهي التي قصد مؤلفوها نواحي الترغيب والترهيب، واستنباط الأسرار الباطنية والإشارات الرمزية، كما فعل ابن عربي، وأبو عبد الرحمن السلمي...

(د) التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور - أو التفسير النقلي - هو تفسير القرآن بما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته، وبما أُثِرَ عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وقد كان هذا النوع من التفسير أولها ظهوراً كما تدرج خلال تطور هذا العلم من الرواية في عصر الصحابة والتابعين إلى التنوين في القرن الثاني؛ لأن الحديث كان أول ما اهتم العلماء بتنوينه، ثم لما انفصل التفسير عن الحديث وأُرد بتأليف خاص كان أول ما ظهر فيه صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ثم ظهرت أجزاء في التفسير كجزء أبي روق، وأجزاء محمد بن ثور عن ابن جريج، ثم ظهر التأليف الموسوعي في التفسير الذي جمع أصحابه فيه كل ما روي من التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير الطبري، وتوسع أصحابها في النقل واكتثروا منه بالأسانيد المتصلة حتى استفاض.

ثم وُجد بعد ذلك أقوام نَوَّنوا التفسير بالمأثور بدون ذكر الأسانيد، واكتثروا من نقل الأقوال بدون التفرقة بين الصحيح وغيره، مما أفقد الثقة بها، وبخاصة عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب، حتى نُقِلَ عن الإمام الشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبهة بمائة حديث» وهو عدد لا يكاد يُذكر أمام ما يُروى عن ابن عباس في التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير بالمأثور من الروايات الموضوعة والإسرائيلية، ولقد كانت كثرة المرويات أكبر عامل في صرف همة العلماء إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح،

1 - مدارس مكة المكرمة: استأذها الصحابي الجليل ابن عباس، وتلاميذها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وعطاء...

2 - مدرسة المدينة المنورة: استأذها الصحابي أبي بن كعب، وتلاميذها: زيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي...

3 - مدرسة العراق: استأذها الصحابي عبد الله بن مسعود، وتلاميذها: علقمة، ومسروق، والأسود، ومرة، وعامر، والحسن، وقتادة...

وقد أضيف للتفسير في هذا العهد أقوال التابعين، وبدأ الخلاف يظهر فيه، كما بدأ يتسرب إليه الروايات الإسرائيلية بسبب رجوع بعض المفسرين لأهل الكتابين اليهود والنصارى.

3 - تنوين التفسير على عهد التابعين:

مع بداية القرن الثاني للهجرة، بدأ المسلمون بتنوين علومهم، بعد أن كانوا يعتمدون على الرواية في حفظها وتبليغها، وأصدر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (المتوفى سنة 101هـ) أمره لعماله في الآفاق بجمع حديث رسول الله ﷺ، وكان التفسير باباً من أبواب الحديث، ولم يفرد له أول الأمر تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة من مبدئه إلى منتهاه، ثم انفصل التفسير تدريجياً عن الحديث، وبدأت تظهر المحاولات الأولى للتأليف في تفسير القرآن تمثلت بكتب «غريب القرآن» التي تناولت ألفاظه فقط ككتب الرؤاسي (المتوفى سنة 170هـ) والكسائي (المتوفى سنة 189هـ) والفراء (المتوفى سنة 207هـ)، ثم ظهرت التفسيرات الأولى التي تناولت السور والآيات كتفسير ابن ماجه (المتوفى سنة 273هـ) وابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ)، وابن المنذر النيسابوري (المتوفى سنة 318هـ) وابن أبي حاتم (المتوفى سنة 327هـ).... وتناولت هذه التفسيرات الأولى غريب الألفاظ، وإيراد ما ورد من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات.

(ج) أنواع التفسير:

كانت المحاولات الأولى للتفسير تعتمد على المأثور من حديث رسول الله ﷺ، وما نُقِلَ عن السلف، ثم تدرج التفسير بعد ذلك لتنوين العلوم العقلية إضافة للتفسير النقلي، وبدأ هذا الجانب يتضخم شيئاً فشيئاً متأثراً بالمعارف العامة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، وامتزج كل ذلك بالتفسير وتحكمت الاصطلاحات العلمية والعقائد المذهبية بعبارات القرآن الكريم، وظهرت آثار الثقافات والفلسفات في تفسير القرآن، وراح كل من برع في فن من الفنون يفسر القرآن على الفن الذي برع فيه:

1 - التفسير اللغوية: فاللغوي، والنحوي يهتم بجانب الإعراب ووجوهه، والنحو ومسائله وفروعه وخلافياته، ويكثر من الشواهد النثرية والشعرية كما فعل

منه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

الإسرائيليات وأثرها في التفسير بالمأثور:

قسم العلماء الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول وهو ما علم صحته بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك كتعيين اسم الخضر عليه السلام، إذ ورد فيه حديث صحيح عند البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، أو ما كان له شاهد من الشرع يؤيده.

والثاني: مسكوت عنه: وهو ما لم يعلم صحته ولا كذبه، وهذا القسم تجوز حكايته للغة والعبرة، ولا نؤمن بصدقه ولا كذبه امتثالاً لأمر النبي ﷺ: «لا تصلقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...».

والثالث: مرفوض: وهو ما علم كذبه لتناقضه مع شريعتنا أو مخالفته للعقل، ولا يصح تصديقه ولا قبوله ولا روايته، وإذا رواه المفسر في تفسيره وجب عليه بيانه. وقد كان لهذه الإسرائيليات أثر سيئ في التفسير، إذ انخلت فيه كثيراً من القصص الخيالي المخرع، والأخبار المكذوبة، وهذا ما دفع العلماء لمقاومتها، وإخضاعها لمعايير نقد الرواية، وموازين الشريعة لتمييز المقبول من المرفوض. وبسبب هذه الإسرائيليات تفاوتت الثقة في كثير من التفاسير التي وضعها كبار الأئمة.

(و) أشهر كتب التفسير بالمأثور:

اشتهر من بين هذه الكتب ثمانية، تفاوتت قيمتها عند الأئمة بين القبول والرفض، وسنذكرها مع تبيان قيمة كل واحد منها:

1 - جامع البيان لابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ): وهو من أقدم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين بالنقل والعقل، نظراً لما فيه من الروايات والاستنباطات، وترجيح بعضها على بعض، ويقع في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد طبع هذا التفسير في دار المعرفة في بيروت، كما قام العلامة أحمد شاكِر رحمه الله بتحقيق نصفه فوافته المنية قبل إتمامه.

2 - بحر العلوم للسمرقندي (المتوفى سنة 373هـ):

صاحبه هو الإمام أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، الفقيه الحنفي المعروف بإمام الهدى، وهو تفسير لطيف مفيد لكنه يذكر الروايات مجردة عن أسانيد، دون ترجيح، وقد خرج أحاديثه قاسم بن قطلوبغا (المتوفى سنة 854هـ)، وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار بدار الكتب المصرية.

3 - الكشف والبيان للثعلبي - أو الثعالبي - (المتوفى سنة 427هـ): صاحبه أبو إسحاق أحمد بن

وترجع أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى كثرة الوضع، ودخول الإسرائيليات.

أما الوضع فقد كان مصدره أهل البدع والأهواء والفرق، والأقوام الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم يبتغون الكفر بقصد الكيد له وتضليل أهله، فوضعوا الروايات الباطلة في تفسير القرآن ليصلوا إلى أغراضهم، فكثرت الروايات، وضمّن مؤلفو التفاسير هذه الروايات في كتبهم دون تحرر منهم لصحة أسانيدها؛ لأنّ منهجهم في التأليف كان إيراد كل ما ورد من الروايات في الآية الواحدة تاركين أمر تمحيصها لثقافة القارئ. ولقد بذل المحدثون في هذه الفترة جهوداً جبّارة في مقاومة الوضع وتمييز الصحيح من الروايات عن غيره، ووضعوا في ذلك التصانيف، وأنشأوا علم مصطلح الحديث، ووضعوا قواعد دقيقة جداً لمعرفة الصحيح من غيره، حتى ميّزوا الصحيح من الموضوع فحفظ الله بهم دينه ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾⁽¹⁾.

(هـ) التفسير والإسرائيليات:

وأما الإسرائيليات: فيمكن تعريفها بأنها الروايات المأخوذة عن اليهود والنصارى في أخبار أهمهم السابقة وقصص أنبيائهم، وإن كان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره، وغلب على الجانب النصراني بسبب أغلبية اليهود في تلك الوقت واختلاطهم مع المسلمين في بلادهم، ولقد نزل القرآن بموضوعات وردت في التوراة والإنجيل، كقصة آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وقصة موسى عليه السلام مع قومه اليهود، وقصة عيسى عليه السلام وأمّه مريم، كل ذلك ورد في القرآن الكريم موجزاً يقتصر على ذكر العظة والعبرة من قصصهم دون التعرض لتفاصيل قصصهم، وقد وجد المسلمون تفصيل هذا الإيجاز عند أهل الديانات السابقة بما لا يتعارض مع شريعتهم، فلجأوا إليهم، واقتبسوا منهم، دون تحرر منهم لصحة هذه الأخبار.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنّ أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾⁽²⁾ وقال: ﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٍ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَيُؤْتُونَ لَهَا بِمِثْلِهَا قَوْلًا كَذِبًا﴾⁽³⁾. كما بيّن النبي ﷺ لأصحابه الموقف الواجب اتّخاذها تجاه أهل الكتاب فقال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»⁽⁴⁾ ولكن المسلمين تساهلوا في الأخذ عن أهل الكتاب وهكذا نخلت الإسرائيليات في كتب التفسير، وكانت مصادر الإسرائيليات تدور حول أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن

(4) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (الحديث: 7542).

(1) سورة يوسف، الآية: 21.

(2) سورة النساء، الآية: 46.

(3) سورة البقرة، الآية: 79.

الجزء الأول في القاهرة، ولا يزال الباقي مخطوطاً، وهو يقع في عشرة مجلدات كبار يوجد منه أجزاء بدار الكتب المصرية.

6 - الجواهر الحسان للثعالبي (المتوفى سنة 876هـ): مؤلفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي المالكي، الإمام الحجة، العالم، الزاهد الورع. وقد اعتمد في تفسيره على تفسير ابن عطية وأبي حيان وزاد عليهما. وهو يذكر الروايات المأثورة بدون أسانيدھا. وإذا ذكر الإسرائيليات تعقبھا بالنقد والتمحيص. وقد طبع الكتاب في الجزائر في أربعة أجزاء.

7 - الدر المنثور للسيوطي (المتوفى سنة 911هـ): اختصر السيوطي في هذا التفسير كتاباً مسنداً ألفه قبله هو «ترجمان القرآن» جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف بأسانيدھا. ثم رأى حذف أسانيدھا والاقتصار على متونها فقط وذكر من خرجھا، فوضع الدر المنثور، وهو حافل بالأحاديث دونما تمييز بين صحيحھا وسقيمھا ويقتصر من بين سائر الكتب المذكورة سابقاً على الحديث دون غيره، وقد طبع بدار المعرفة في بيروت في ست مجلدات كبار.

إبراهيم النيسابوري المقرئ، المفسر، الحافظ، الواعظ، رأس التفسير والعربية. وقد ذكر الثعالبي في مقدمة تفسيره منهجه ومصادره وأسانيدھ إلى من يروي عنه، واكتفى بذلك عن ذكر الأسانيد أثناء الكتاب وهو كتاب حافل بالإسرائيليات دون التنبيه عليها، ويوجد منه مخطوط غير كامل في مكتبة الأزهر ينتهي عند أواخر سورة الفرقان.

4 - معالم التنزيل للبغوي (المتوفى سنة 516هـ): صاحبه أبو محمد الحسين بن مسعود، الفراء، البغوي، الفقيه الشافعي، المحدث، وهو من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلامھا، جامع للصحيح من الأقاويل. وقال عنه ابن تيمية في أصول التفسير: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة). وقد طبع هذا التفسير مؤخراً بدار المعرفة في بيروت في أربع مجلدات بتحقيق خالد العك ومروان سوار.

5 - المحرر الوجيز لابن عطية (المتوفى سنة 546هـ): مؤلفه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأنلسي المغربي الغرناطي، الحافظ، القاضي، من بيت علم وأدب، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري الغص وأغوص. وقد طبع من هذا التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعانة مختتماً وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً، وفصله سوراً وسوره آيات، وميز بينهم بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشئ مخترع، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالخلو عن العدم، أنشاه كتاباً ساطعاً تبياناً، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببيانات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان؛ دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أقحم به من طولب بمعارضته من العرب والعرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغاتهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضادة والمضارة، ولقائهم الشرائر على المعازة والمعاراة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن اتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمائرة رموه بمائر، وقد جرد لهم الحجة أولاً والسيوف آخراً فلم يعارضوا إلا السيوف وحده على أن السيوف القاضب مخراق لآعب إن لم تمض الحجة حده فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب، والصلاة على خير من أوحى إليه حبیب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشاوخ الغرّة، الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل، وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

يسيرة أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معانٍ يدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وخصهم، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم. ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الأبواب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكتها، ومستودعات أسرار يلقي سلكتها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما نكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالنقيح وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحو وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما أونة، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون أخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكاً لللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرزمة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريش بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه، (ولقد رأيت) إخواننا في الدين

اعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناعات فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطأ

من أفاضل الفئة الناجية⁽¹⁾ العنلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعبود الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة، لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله وركاكة رجاله وتقصير همهم عن أننى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأملت عليهم مسألة في الفواتح وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيل والانتاب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وإن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتنونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإنابة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجبت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ما هم عطشى الأكباد إلى العثور على تلك المملى متطلعين إلى إيناسه حراساً على اقتباسه، فهز ما رأيت

من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده، وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم أعطش الناس كبداً وألهبهم حشياً وأوفاهم رغبةً حتى نكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتني عن الحجاز مع تزلحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامم والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض. فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب نقاة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكتثير من الفوائد والفحص عن السرائر ووفق الله وسدّد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني ونوراً لي على الصراط يسعني بين يدي وبيمينني ونعم المسؤول.

(1) هي التي سماها أهل السنة بالمعتزلة فقولوه: إخواننا في الدين يقتضي أنه من المعتزلة ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول بقول المعتزلة فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبهاها على ظاهرها وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم عفى الله عنه.

وقول الأعرابي: باليمن والبركة. بمعنى: أعرست أو نكحت. ومنه قوله: فقلت إلى الطعام فقال منهم:

فريق تحسد الإنس الطعما

فإن قلت⁽²⁾: لم قدرت المحذوف متأخراً؟ قلت: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبنون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموجد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إياك نعبد﴾⁽³⁾ حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله: ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: فقد قال: ﴿اقرأ باسم ربك﴾⁽⁵⁾ فقدم الفعل! قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم.

فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلّق بها تعلق القلم بالكتابة في قوله: كتبت بالقلم، على معنى: أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»⁽⁶⁾ وإلا كان فعلاً كلاً فعل جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم. والثاني: أن يتعلّق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله: تنبت بالدهن على معنى: متبركاً بسم الله اقرأ. وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين. ومعناه: أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين. وهذا الوجه أعرب وأحسن.

فإن قلت: كيف قال الله تبارك وتعالى متبركاً باسم الله؟ ﴿اقرأ﴾ قلت: هذا مقول على السنة العباد كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى آخره. وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه، ويمجبنونه، ويعظمونه.

فإن قلت: من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو: كاف التشبيه، ولام الابتداء، وواو العطف، وفائه، وغير ذلك ... فما بال لام الإضافة، وبائها بنيتاً على الكسر؟ قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء. وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجذر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون؛ فإذا نطقوا بها مبتدئين زانوا

سورة فاتحة الكتاب

مكية، وقيل: مكية ومننية، لأنها نزلت بمكة مرة، وبالمدينة أخرى، وتسمى أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، وسورة الكنز والوافية لذلك، وسورة الحمد والمثاني لأنها تثني في كل ركعة، وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها، وسورة الشفاء والشفافية. وهي سبع آيات بالاتفاق إلا أن منهم من عد ﴿أنعمت عليهم﴾ نون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ② مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها. كما بدئ بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا أمين. فلولاً أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى.

فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره بسم الله اقرأ، وأتلو؛ لأن الذي يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل، وبسم الله ارتحل، وكذلك الذابح، وكل فاعل يبدأ في فعله ببسم الله كان مضمرًا ما جعل التسمية مبدأ له، ونظيره في حذف متعلق الجار قوله عز وجل: ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾⁽¹⁾ أي: اذهب في تسع آيات، وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس بالرفاء والبنين،

(1) سورة النمل، الآية: 11.

(2) قال أحمد: وفي قوله إن اسم الله هو: الذي صير فعله معتبراً شرعاً، حيد عن الحق المعتقد، لأهل السنة في قاعدتين أحدهما: أن الاسم هو: المسمى، والآخرى: أن فعل العبد موجود بقدره الله تعالى، لا غير فعلى هذا تكون الاستعانة باسم الله، معناها: اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه، وهو مكحل له لا غير، وأما وجود الفعل فيه، فيأش الله تعالى، أي: بقدرته تسليمًا لله في أول كل فعل، والزمخشري رحمه الله لا يستطيع هذا التحقيق، =

= لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم الله تعالى، الذي هو: التسمية معتبر في شرعية الفعل، لا في وجوده إذ وجوده على زعمه بقدره العبد، فعلى ذلك بنى كلامه.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) سورة هود، الآية: 41.

(5) سورة العلق، الآية: 1.

(6) أخرجه البخاري تعليقاً عن أبي عبيدة، في كتاب: التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب.

في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح.

فإن قلت: هل تفخم لامة؟ **قلت:** نعم قد نكر الزجاج: أن تفخيمها سنة وعلى ذلك العرب كلهم وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر. و﴿الرحمن﴾ فعلاً من رحم، كغضبان وسكران من غضب وسكر، وكذلك ﴿الرحيم﴾ فعيل منه، كمریض وسقيم من مرض وسقم. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمَن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، ويقولون إنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الزجاج في الغضبان: هو الممتلئ غضباً. ومما طن على أنني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشقف، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق. فقلت في طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردت المحمل العراقي. فقال: ليس ذاك اسمه الشقف؟ قلت: بلى. فقال: هذا اسمه الشقنداف. فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة: كالبران، والعويق، والصق، لم يستعمل في غير الله عز وجل. كما أنَّ الله من الأسماء الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة: رحمَن اليمامة، وقول شاعرهم فيه: وأنت غيث الوري لا زلت رحماناً

فباب من تعنتهم في كفرهم.

فإن قلت: كيف تقول الله رحمَن، أتصرفه أم لا؟ **قلت:** أقيسه على أخواته من بابه، أعني نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه.

فإن قلت: قد شرط في امتناع صرف فعلاً أن يكون فعلاً فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلاً فعلى فلم تمنعه الصرف؟ **قلت:** كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشي، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلاً كندمانه، فإذا لا عبرة بامتناع التانيث للاختصاص العارض؛ فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، القياس على نظائره.

فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة، ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطاقها على ما فيها؟ **قلت:** هو مجاز عن إنعامه على عباده لأنَّ الملك إذا عطف على رعيته وبق لهم أصابهم بمعرفه وإنعامه، كما أنه إذا أدركته الفظاظ والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعرفه.

فإن قلت⁽²⁾: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما

همزة لثلا يقع ابتدأهم بالساكن إذ كان دأبهم أن يبتدؤوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة؛ ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة. وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدنها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سم وسم قال: باسم الذي في كل سورة سمه، وهو من الأسماء المحنوفة الأعجاز كيد ودم وأصله سمو بليل تصريحه كاسماء وسمى وسميت واشتقاقه من السمو، لأنَّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بنكره، ومنه قيل للقب النبز من النبز بمعنى النبر: وهو رفع الصوت، والنبز: قشر النخلة الأعلى. **فإن قلت:** فلم حذف ألف في الخط وأثبتت في قوله: ﴿باسم ربك﴾؟ **قلت:** قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال، وقالوا: طولت الباء تعريضاً من طرح الألف، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه: طول الباء، وأظهر السنوات، وور الميم و﴿الله﴾ أصله الإله قال:

معاذ الإله أن تكون كظبية

ونظيره الناس أصله الأناس قال:

إن المنايا يطلع ن على الإنسان الأمنين
فحذفت الهمزة، وعوض منها حرف التعريف. ولذلك قيل في النداء: يا الله، بالقطع. كما يقال: يا إله، والإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس. اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل. ثم غلب على المعبود بحق، كما أنَّ النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره، ومن هذا الاسم اشتق تاله، واله، واستاله. كما قيل: استنوق واستحجر في الاشتقاق من الناقة والحجر.

فإن قلت: الاسم هو أم صفة؟ **قلت:** بل اسم غير صفة، ألا تترك تصفه ولا تصف به لا تقول شيء إله كما لا تقول شيء رجل وتقول: إله واحد صمد. كما تقول رجل كريم خير، وأيضاً فإنَّ صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال.

فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ **قلت:** معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: إله إذا تحير، ومن أخواته بله وعله ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنَّ الأوهام تتحير

= العكس، فإنه ترق من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات، وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى، تقول ما فلان تحريراً، ولا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار، إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى، وكل ذلك مستمدة في عموم الأدنى، وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

(1) قال أحمد رحمه الله: فالرحمة على هذا من صفات الأفعال، ولك أن تفسرها بإرادة الخير، فيرجع إلى صفات الذات، وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة، وأمثلة ما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى، فمنهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل.

(2) قال أحمد رحمه الله: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين؛ لأنَّ في تقديم أعلاهما ثم الإرداف بأدناها نوعاً من التكرار، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى، نكره بعده غير مفيد، ولا كذلك =

تجدد وحديثه. والمعنى: نحمد الله حمداً، ولذلك قيل: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾⁽³⁾ لأنه بيان لحمدهم له. كأنه قيل: كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في إرسالها العراك وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو العراك ما هو من بين أجناس الأفعال والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم. وقرأ الحسن البصري ﴿الحمد لله﴾ بكسر الدال لإتباعها اللام: وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿الحمد لله﴾ بضم اللام لإتباعها الدال. والذي جسرهما على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم: منحدر الجبل ومغيرة تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين. وأشرف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن: الرب المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يريني رجل من قريش أحب إلي من أن يريني رجل من هوزان. تقول ربه يريه فهو رب؛ كما تقول: نم عليه ينم فهو نم، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقييد بالإضافة كقولهم: رب الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: ﴿ارجع إلى ربك﴾⁽⁵⁾ فإنه ربي أحسن مثواي⁽⁶⁾ وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ﴿رب العالمين﴾ بالنصب على المدح، وقيل: بما دل عليه الحمد لله. كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين، العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض.

فإن قلت⁽⁷⁾: لم جمع؟ قلت: ليشمل كل جنس مما سمي به.

هو بونه والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحري وشجاع باسل وجواد فياض. قلت: لما قال الرحمن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه الرحيم كاللزمة والريف ليتناول ما بق منها ولطف.

الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والثناء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أثابتمك النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه السلام: الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده. وإنما جعله رأس الشكر لأن نكر النعمة باللسان والثناء على موليا أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وأداب الجوارح، لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه. والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران. وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله وأصله النصب⁽¹⁾ الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم: شكراً وكفراً وعجباً وما أشبه ذلك، ومنها سبحانه ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها، ولذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشرعية المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾⁽²⁾ رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحييتهم، لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون

= النوع الثاني، من نوعي العهد، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس لعدم اعتدائه، باصطلاح أصول الفقه، وغير الزمخشري جعله للجنس، فقضى بإفادته لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد، قال محمود رحمه الله: العالم لنوي العلم من الملائكة إلى آخره.

(5) سورة يوسف، الآية: 50.

(6) سورة يوسف، الآية: 23.

(7) قال أحمد رحمه الله: تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر، فإن عالمياً كان قرره اسم جنس عرف باللام الجنسية، فصار العالم وهو مفرد، أدل على الاستغراق منه جمعاً، قال إمام الحرمين رحمه الله: التمر أخرى باستغراق الجنس من الثمر، فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمر تدره إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب انتهى كلامه، والتحقيق في هذا، وفي كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس، أنه يفيد أمرين أحدهما أن تلك الجنس تحته أنواع مختلفة، والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها لكن المفيد لاختلاف الأنواع الجمع، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف ألا ترى أنه إذا جمع مجزئاً من التعريف دل على اختلاف الأنواع، ثم إذا عرف أفاد استغراق =

(1) قال أحمد رحمه الله: ولأن الرفع أثبت اختار سببويه في قول القائل: رأيت زيدا، فإذا له علم، علم الفقهاء الرفع، وفي مثل رأيت زيدا، فإذا له صوت، صوت حمار النصب، والسر في الفرق بين الرفع والنصب، أن في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعاراً بالتجدد والطرد، ولا كذلك الرفع فإنه إنما يستدعي اسماً تلك الاسم صفة ثابتة ألا ترى أن المقدّر مع النصب نحمد الله الحمد ومع الرفع الحمد ثابت لله، أو مستقر، قال محمود رحمه الله: وتعريف الحمد نحو التعريف في إرسالها العراك، وهو تعريف الجنس ومعناه الخ.

(2) سورة هود، الآية: 69.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) قال أحمد رحمه الله: تعريف التكرار باللام إما عهدي، وإما جنسي، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس، باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد، كالتعريف في نحو، فعصى فرعون الرسول، وإما أن ينصرف العهد فيه إلى الماهية باعتبار يميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في: نحو أكلت الخبز وشربت الماء والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الآحاد نحو الرجل أفضل من المرأة، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها، وإنما يوجب الجنس خاصة، فالزمخشري جعل تعريف الحمد من =

ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة، والجلال والبقا، ومن كونه مالكا للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: ﴿الحمد لله﴾ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله. ﴿إياك﴾ ضمير منفصل للمنصوب والواحد التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك وإياه وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما لا محل للكاف في رأيك وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون. وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فشيء شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿قل أغير الله تاملوني أعبد﴾ (4) ﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾ (5). والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة. وقرئ ﴿إياك﴾ بتخفيف الياء، و﴿إياك﴾ بفتح الهمزة والتشديد، و﴿هياك﴾ بقلب الهمزة هاء: قال طيفل الغنوي:

فهياك والأمر الذي إن تراجعت موارده ضاقت عليك مصابره والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذل، ومنه: ثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسيج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع.

فإن قلت (6): لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ (7). وقوله تعالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ (8) وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاث أبيات:

القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب المائل، في الجمع على غير المائل.

- (1) سورة النمل، الآية: 2.
- (2) سورة الأعراف، الآية: 44.
- (3) سورة الأعراف، الآية: 48.
- (4) سورة الزمر، الآية: 64.
- (5) سورة الأنعام، الآية: 164.
- (6) سورة يونس، الآية: 22.
- (7) سورة فاطر، الآية: 9.
- (8) قال أحمد رحمه الله: يعني أنه ابتداء بالخطاب، ثم التفت إلى الغيبة، ثم إلى التكلم، وعلى هذا فهما التفاتان لا غير، وإنما أراد الرزمشري، والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب خطاب، لخاصة، وغازية، وانفسية، فوهم بقوله ثلاث التفاتات، أو تجعل الأخير ملتفتاً للتفاتين عن الثاني، وعن الأول، فيكون ثلاثاً، والأمر فيه سهل.

فإن قلت: هو اسم غير صفة، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام. قلت: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم، قرئ: ملك يوم الدين، وملك وملك بتخفيف اللام، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿ملك يوم الدين﴾ بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿مالك﴾ بالنصب. وقرأ غيره: ﴿ملك﴾ وهو نصب على المدح، ومنهم من قرأ: ﴿مالك﴾ بالرفع، وملك هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لمن الملك اليوم؟﴾ ولقوله: ﴿ملك الناس﴾ (1) ولأن الملك يعم والملك يخص، ويوم الدين يوم الجزاء، ومنه قولهم: «كما تدين تدان» وببيت الحماسة.

ولم يبق سوى العلوا ننام كمالنا ولم يبق سوى العلوا ننام كمالنا فإذن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع مجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾.

فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان في تقدير الانفصال كقولك: مالك الساعة أو غداً، فأما إذا قصد معنى الماضي كقولك: هو مالك عبده أمس أو زمان مستمر، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في ملك يوم الدين، ويجوز أن يكون المعنى ملك الأمور والدين، كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (2) ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ (3) والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: ﴿ملك يوم الدين﴾. وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكا للعالمين لا يخرج منهم شيء من

غير موقوف على الجمعية، إذ هذا حكم مفردة إذا عرف، فقول الرزمشري إذا أن فائدة جمع العالمين الاستغراق مردود بثبوت هذه الفائدة، وإن لم يجمع وقول الإمام الحرمين إن الجمع يؤيد الإشعار بالاستغراق لما نخيله من الرد إلى الوجدان مردود، بأن فائدة الجمع الإشعار باختلاف الأنواع، واختلافها لا ينافي استغراقها بصيغة المفرد المقرر من تعريف الجنس، وإن أراد أن الجمع يخيل الإشارة إلى أنواع محله معبودة، فهذا الخيال يعينه من المفرد، فللعالم إذا جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والإنس والملائكة، وعرف ليفيد عموم الربوبية لله تعالى في كل أنواعه، وتوضيح هذا التقرير أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا أبعاد متساوية، وهو الذي يسميه غير النحاة: النوع الأسفل، لما جاز جمع هذا بحال، لا معرفاً ولا منكرأ، وبهذه الفائدة يرد قول إمام الحرمين إن التور جمع من حيث اللفظ، لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق، ونياق، وأنيق، وأما تحليل الرزمشري جمعه بالواو والنون، بلإشعاره لصفة العلم، فيلحق بصفات من يعقل، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم، وأما على

﴿الصراف﴾ الجادة من سرط الشيء إذا ابتلعه؛ لأنه يسترط السابلة إذا سلكه كما سمي لقمًا لأنه يلتقمهم؛ والصراف من قلب السين صاءً لأجل الطاء كقوله مصيطر في مصيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي وقرئ بهنً جميعاً، وفصاحهن إخلاص الصاد وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام ويجمع سرطاً نحو: كتاب وكتب، وينكر ويؤنث كالطريق والسبيل. والمراد به طريق الحق وهو ملة الإسلام. ﴿صراف الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراف المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل. كأنه قيل: ﴿اهدنا الصراف المستقيم﴾ اهدنا ﴿صراف الذين أنعمت عليهم﴾ كما قال ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾.

فإن قلت: ما فائدة البذل؟ وهلا قيل: اهدنا صراف الذين أنعمت عليهم! قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراف المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراف المسلمين بالاستقامة على إبلاغ وجه وأكده. كما تقول: هل اترك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان. فيكون ذلك إبلاغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل اترك على فلان الأكرم الأفضل؟ لأنك ثبتت نكره مجملاً أولاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته علماً في الكرم، والفضل، فكانت قلت: من أراء رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو الشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. ﴿والذين أنعمت عليهم﴾ هم المؤمنون، (7) وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قيل أن يغفروا. وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: صراف من أنعمت عليهم ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإن قلت: كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، كقوله:

تطاول ليلك بالإتمد ونام الفلسي ولم تترقد
وبك وباتت له ليلة كليلية ذي العائثر الأمد
وذلك من نسب إجماعني وخبرته عن أبي الأسود
وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقفه بفوائد ومما اختص به هذا الموضع أنه لما نكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب تلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: ﴿إياك﴾ يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينة، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

فإن قلت: لم قرئت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته.

فإن قلت (1): فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها. فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن يراد الاستعانة به وبتوقيفه على أداء العبادة ويكون قوله: ﴿اهدنا﴾ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراف المستقيم. وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجرة بعض. وقرأ ابن حبيش: نستعين، بكسر النون، هدى أصله أن يتعدى باللام أو يالي كقوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (2) ﴿وانك لتهدي إلى صراف مستقيم﴾ (3). فعول معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾ (4) ومعنى طلب الهداية وهم مهتدون طلب زيادة مهتدون طلب زيادة الهدى بمنح الإطلاف كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ (5) ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (6). وعن علي وأبي رضي الله عنهما: ﴿اهدنا﴾ ثبتنا وصيغة الأمر والدعاء واحدة لأن كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة. وقرأ عيد الله: أرشدنا

(1) قال أحمد رحمه الله: معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء تعالى الله عن ذلك، والثواب عندنا من الإمانة في الدنيا على العبادة، ومن صنوف النعيم في الآخرة ليس بواجب على الله تعالى، بل فضل منه وإحسان، في الحديث، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» مضافاً إلى دليل العقل المحيل، أن يجب على الله تعالى شيء، لكن قام الدليل عقلاً وشرعاً، على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلاً وشرعاً، وعلى أن خبره تعالى صدق، ووعدته حق، أي: يجب عقلاً أن يقع، فإما أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيعاب، وأراد وجوب صدق الخبر، وإما أن يكون أخرجه على =

= قواعد البديعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى، وإن لم يكن وعد.

(2) سورة الإسراء، الآية: 9
(3) سورة الشورى، الآية: 52.
(4) سورة الأعراف، الآية: 155.
(5) سورة محمد، الآية: 17.
(6) سورة المعنكوت، الآية: 69.
(7) قال أحمد رحمه الله: إن إطلاق الإنعام يفيد الشمول، كقوله إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه، وليس بمسلم، فإن الفعل لا عموم لمصدره، والتحقق أن الإطلاق إنما يقتضي إبهاماً وشيوعاً، والنفس إلى المبهم أشوق، منها إلى المفيد لتعلق الأمل مع الإبهام، لكل نعمة تخطر بالبال.

وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأتس عن رسول الله ﷺ. وعند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ولا الضالين قال: آمين⁽⁶⁾، ورفع بها صوته. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بن كعب: «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلاً؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»⁽⁷⁾. وعن حنيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»⁽⁸⁾.

سورة البقرة

مدنية وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ

اعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك: ضاد، اسم سمي به ضه من ضرب إذا تهجته، وكذلك رابا اسمان، لقولك: ره به، وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كاسماتها، وهي حروف وحادن، والأسامي عدد حروفها مرتقياً إلى الثلاثة، أتجه لهم طريق إلى أن يملوا في التسمية على المسمى، فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى. إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماه لأنه لا يكون إلا ساكناً، ومما يضاهيها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى التهليل والحولقة والحيطة والبسطة. وحكمها ما لم تلتها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفة كاسماء الأعداد، فيقال: ألف، لام، ميم، كما يقال: واحد، اثنان، ثلاثة. فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب، تقول: هذه ألف وكتبت ألفاً ونظرت إلى ألف، وهكذا كل اسم عمدت إلى تانية ذاته فحسب قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من

ولقد أمر على اللئيم يسبني

ولأن المغضوب عليهم والضالين خلاف النعم عليهم فليس في غير إن الإيهام الذي يابى عليه أن يتعرف، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب. ورويت عن ابن كثير: ونو الحال الضمير في عليهم، والعامل أنعمت. وقيل: «المغضوب عليهم» هم اليهود، لقوله عز وجل: «ومن لعنه الله وغضب عليه». والضالون هم النصارى لقوله تعالى: «قد ضلوا من قبل». فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى غضب الله؟ قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم، وإن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. نعوذ بالله من غضبه ونسأله رضاه ورحمته.

فإن قلت: أي فرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية؟ قلت: الأولى، محلها النصب على المفعولية، والثانية: محلها الرفع على الفاعلية.

فإن قلت: لم دخلت لا في ولا الضالين؟ قلت: لما في غير من معنى النفي كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيدا غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيدا مثل ضارب، لأنه بمنزلة قولك: أنا زيدا لا ضارب. وعن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قرأ: وغير الضالين. وقرأ أيوب السخيتاني: ولا الضالين، بالهمز. كما قرأ عمرو بن عبدي: ولا جان وهذه لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين، ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شابة ودابة. آمين⁽²⁾. صوت سمي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد وحيل وهلم أصوات سميت بها الأفعال التي هي أمهل وأسرع وأقبل، وعن ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن معنى: آمين، فقال: «افعل»⁽³⁾، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها. قال: ويرحم الله عبداً قال آميناً⁽⁴⁾. وقال:

أمين فزاد الله ما بيننا بعداً

وعن النبي ﷺ: «لقد نني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب»⁽⁵⁾، وقال: إنه كالختم على الكتاب، وليس من القرآن بليل أنه لم يثبت في المصاحف. وعن الحسن: لا يقولها الإمام لأنه الداعي. وعن أبي حنيفة رحمه الله مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها!

(6) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (2875)، وأخرجه التيساني في كتاب الاقتراح، باب: تأويل قول الله عز وجل: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»، الحديث رقم: (913)، وأخرجه الحاكم في المستدرک: 557/1، وأخرجه البخاري عن ابن سعيد بن المعلی في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (4474)، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في أم القرآن، الحديث رقم: (37).

(7) الشاهد من مسند الدارمي.

(8) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب: سورة المؤمنين.

(1) قال أحمد رحمه الله: أدرج في هذا ما يقتضي عنده وجوب وعيد العصاة، وليس مذهب أهل السنة بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكل إلى المشيئة، فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته، والانتقام منه، فيقع ذلك لا محالة، ومنهم من أراد والله الموفق.

(2) أخرجه الثعالبي بسند واه.

(3) (آمين مثل المطابع على الصحيفة). أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التامين وراء الإمام، الحديث رقم: (938).

(4) قال ابن حجر: لم أجد عن واحد منهما، وقال الزيلعي: غريب جداً.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التامين وراء الإمام، الحديث رقم: (932).

لخصته من الدليل؛ والسبب في أن قصرت متهجاة، ومنبت حين مسها الإعراب أن حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه أكثر.

فإن قلت: قد تبين أنها أسماء الحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وإن سكوت أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت: فيه أوجه:

أحدها: وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السور، وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على نكرها في حد ما لا ينصرف بباب أسماء السور، وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب نحو: كهيعص والمر.

والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً كص، وق، ون، أو أسماء عدة مجموعها على زنة مفرد كحم، وطس، ويس، فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك طسم، يتأتى فيها أن تفتح نونها وتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعل اسماً واحداً كدار أبجرد. فالنوع الأول محكي ليس إلا، وأما النوع الثاني فسألف فيه الأمران: الإعراب والحكاية: قال قاتل محمد بن طلحة السجادة، أو هو شريح بن أوفى العنسي:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلاتلحاميم قبل التقدم فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كلما أعرب من أخواتها لاجتماع سببي منع الصرف فيها، وهما العلمية، والتأنيث. والحكاية أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى، كقولك: دعني من تمرتان، وبدأت بالحمد لله، وقرأت سورة أنزلناها. قال:

وجننا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار وقال نو الرمة:

سمعت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالاً وقال آخر:

تناودا بالرحيل غداً وفي ترحالهم نفسي وروي منصوباً ومجزوراً، ويقول أهل الحجاز في استعلام من يقول: رأيت زيداً من زيداً. وقال سيبيويه: سمعت من العرب لا من أين يا فتى.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ ص، وق، ون مفتوحات؟ قلت: الأوجه أن يقال ذاك نصب وليس بفتح،

تأثيراتها فحكك أن تلفظ به موقوفاً. ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسابنا كيف تصنع، وكيف تلقينا إغفالاً من سمة الإعراب، فنقول: دار، غلام، جارية، ثوب، بساط، ولو أعربت ركبت شططاً.

فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالإسمية، وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين؟ قلت: استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في أسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك: ألف دلالة على أوسط حروف. قال: وقام دلالة فرس على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الداليتين. ألا ترى أن الحرف ما دل على معنى في غيره، وهذا كما ترى، دال على معنى في نفسه، ولأنها متصرف فيها بالإمالة. كقولك: باتا وبالتفخيم كقولك: ياه، وبالتعريف، والتذكير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المنصرفة. ثم إنني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك قال سيبيويه قال الخليل يوماً وسال أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف⁽¹⁾ التي في لك، والياء التي في ضرب؟ فقبل نقول: بالكاف، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه به. وذكر أبو علي في كتاب «الحجة في يس». وإمالة يا أنهم قالوا: يا زيد في النداء، فأمالوا. وإن كان حرفاً قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء فلان يميلوا الاسم الذي هو يس أجدر. ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها.

فإن قلت⁽²⁾: من أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة؟ أم مبنية؟ قلت: بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكوت زيد وعمرو، وغيرهما من الأسماء؛ حيث لا يمسه الإعراب لفقد مقتضيه وموجبه. والدليل على أن سكوتها وقف وليس ببناء أنها لو بنيت، لحدت بها حذو كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: ص، ق، ن، مجموعاً فيها بين الساكنين.

فإن قلت: فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مد فقال: هذه باء وياء وهاء. وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك لا مقصورة، فإذا جعلتها اسماً مددت، فقلت: كتبت لاء. قلت: هذا التخييل يضمحل بما

(1) قال أحمد رحمه الله: وسأله أيضاً كيف ينطقون بالفاء من يقبل، فقالوا: قاف كقولهم الأول فأجابهم كجواب الأول، وقال: أما أنا فأقول قه، فالحق رضي الله عنه أولاً هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانياً همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة، وعلى الوجه الثاني، يحتمل أن يكون أراد أن الفتحة لالتقاء الساكنين نشأت عن سكوت الحكاية، فإنها إنما تحكي ساكنة مجردة من سمة الإعراب، فلا تكون الحركة إذا إعراباً؛ إذ لا مقتضى له مع الحكاية، ولا بناء إذ هي معرفة عنده على هذا

= التقدير، ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية، فتكون الحركة مثلها في أين، وكيف حركة بناء، والأول هو الظاهر من مراده، إذ حتم قبل أنها معربة على أن سيبيويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه، قال: وأما ص، فلا يحتاج إلى أن يجعل اسماً أعجمياً؛ لأن وزنه في كلامهم ولكنه يجوز أن يكون اسماً للسورة، فلا يصرف، ويجوز أن يكون أيضاً يس وص اسمين غير متمكنين، فيلزمان الفتح، كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو كيف، وأين، وحيث، وأمس اه كلام سيبيويه وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه، أن تكون معربة، وإن فتحها نصب أو لالتقاء

تجعل الواو للعطف لمخالفة الثاني الأول في الإعراب.

فإن قلت: فقدرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: الله لأفعلن، مجروراً ونظيره قولهم: لاه أبوك، غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، وأجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. قلت: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقسم الله بهذه الحروف⁽³⁾.

فإن قلت⁽⁴⁾: فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر. قلت: وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين، والذي يبسط من عذر المحرك أن الوقف لما استمر بهذه الأسامي شاكلت، لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات فعولت تارة معاملة الآن، وأخرى معاملة هؤلاء.

فإن قلت⁽⁵⁾: هل تسوِّع لي في المحكية مثل ما سوَّعت لي في المعربة من إرادة معنى القسم؟ قلت: لا عليك في ذلك، وإن تقدَّر حرف القسم مضمراً في نحو قوله عز وجل: ﴿حَمَّ وَالْكَبَّابِ﴾⁽⁶⁾ كأنه قيل أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المبين، ﴿أَنَا جَعَلْنَاهُ﴾. وأما قوله ﷺ: «حم لا يبصرون»⁽⁷⁾، فيصلح أن يقضى له بالجر والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره.

فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت: كان المعنى في تلك الإشارات بأن الفرقان ليس إلا كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ كما قال عز من قائل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾⁽⁸⁾.

فإن قلت⁽⁹⁾: فما بالها مكتوبة في المصحف على صور

ولمّا لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ما ذكرت، وانتصابها بفعل مضمر، نحو: أنكر. وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في حم، وطس، ويس، ولو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أن بعضهم قرأ يس، ويجوز أن يقال: حركت لالتقاء الساكنين كما قرأ من قرأ ولا الضالين.

فإن قلت⁽¹⁾: هلا زعمت أنها مقسم بها، وأنها نصبت نصب قولهم: نعم الله لأفعلن، وآي الله لأفعلن، على حذف حرف الجر، وإعمال فعل القسم. وقال ذو الرمة:

الأرب من قلبي له الله ناصح

وقال آخر:

فذاك أمانة الله الثريد.

قلت: إن القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على قسم واحد، وقد استكروها ذلك. قال الخليل في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى⁽²⁾ الواوان الآخرين ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمّان الأسماء إلى الأسماء في قوله: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. قال سيبويه: قلت للخليل فلم لا تكون الآخرين بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلياً آخر فيكون كقولك: بالله لأفعلن، بالله لأخرجن اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك، وحق زيد لأفعلن، والواو الأخيرة أو قسم لا يجوز إلا مستكراً. قال: وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلن، فثم ههنا بمنزلة الواو، هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن

= الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً، وسيأتي له أيضاً ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البيت. أقول بعد تسليم أن الأول هو الظاهر من مراده، فما نكره حكاية عن سيبويه غير وارد عليه، لأنه اختار أحد الوجهين.

(1) قال أحمد رحمه الله: وله البقاء على أنها منصوبة على القسم، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل، وسيبويه في أمثاله، ويسلك حينئذ في العطف سبيل:

ولا سائق شيئاً إذا كان جائياً

فإن المقسم به، وإن كان منصوباً؛ لأنه محل يعمد، وفيه الخبر، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد وههنا أولى بالصحة منه في بيت زهير المذكور، لأن انتصاب المقسم به، إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه ليس ناشئاً عن حذف، غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها خيلاً، فمراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض، فقد تحرر في فتح ص، وجهان أحدهما: أن يكون إعراباً، وهو إما جر على الوجه الذي أبداه الزمخشري، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه، ثانيهما: أنه لا إعراب ولا بناء، وهو عروضه على الوقف في الحكاية.

(2) سورة الليل، الآيات: 1 - 3.

(3) أخرجه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكة، وبذلك على أن تحتها التي قال قبل: إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء أنه إنما أراد السكون العارض في =

= الحكاية لا سكن البناء، وهو مخالف لنص سيبويه، كما نبهت عليه أيضاً.

(5) قال أحمد رحمه الله: وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم، لما تقدم وأجاز أن يكون حم في الحديث المذكور، منصوبة على القسم بخلاف حم في القرآن، فذلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل، أو مجرورة على القسم، وأما النصب مع القسم، فلا يجيزه إلا في الحديث، والفرق عنده، أن المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الإعراب، إذ المعطوفات كلها مجرورة، ويتعذر عنده القسم في الثواني، خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد، ولا كذلك الحديث، فإنه لم يأت بعده ما يباه، فلذلك خص جواز هذا الوجه بالحديث، وأما على الوجه الذي أوضحته، فيعم جواز ذلك القرآن، والحديث جميعاً، (قال محمود رحمه الله: فإن قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف الخ).

(6) سورة النخان، الآية: 1، وسورة الزخرف، الآية: 1.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في الرجل ينادي بالشعار، الحديث رقم: (2596)، واللفظ له. وأخرجه الترمذي في كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الشعار، الحديث رقم: (1682). والنسائي في اليوم والليلة، باب: كيف الشعار، الحديث رقم: (620).

(8) سورة يوسف، الآية: 2.

(9) قال أحمد رحمه الله: على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضي الله عنه، في كتاب الانتصار، في الجواب عما نقل عن عثمان رضي الله عنه، أن عكرمة لما =

أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى رده، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: فلان يروي قفا نيك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: الحمد لله، وبراءة من الله ورسوله، ويوصيكم الله في أولادكم، والله نور السموات والأرض، وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية واستفيد منها ما يستفاد من التسمية قالوا: تلك على سبيل المجاز دون الحقيقة، وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة حضرموت، فلماذا غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها لأنها من باب التسمية بما حقه أن يخكى حكاية كما سموا بتأبط شراً، وبرق نحره، وشاب قرناها، وكما سمي بزيد منطلق، أو بيت شعر، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم دلالة قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتها فلست بتصيير الاسم والمسمى واحداً لأنها تسمية مؤلف بمفرد، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه كقولهم: صاد. فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً، الوجه الثالث: أن ترد السور مصدرة بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالف أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة. كما قال عز وجل: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا خطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ (2) فكان حكم

الحروف أنفسها لا على صور أساميتها؟ قلنا: لأن الكلام لما كانت مركبة من نوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت، ومتى قيل للكاتب: اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف نفسها؛ عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، وأيضاً فإن شهرة أمرها وإقامة السن الأسود والأحمر لها، وأن الالفاظ بها غير متهجاة لا يحلى بطائل منها، وأن بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده، أمئت وقوع اللبس فيها، وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ، وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه المترجم بكتاب «الكتاب المتمم في الخط والهجاء»: خطان لا يقاسان خط المصحف لأنه سنة، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبتته اللفظ، ويسقط عنه ما أسقطه (1) الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعنيد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن، وبغربة نظمه، وكالتحريك النظر في أن هذا المثلث عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤدبهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم بونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحرّاص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتتان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي برزت بلاغة كل ناطق وشقت غبار كل سابق ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر، وإنه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوة والخلافة بالقبول بمنزل ولناصره على الأول أن يقول: إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبوحاً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء، وأربعة، وخمسة والقول بأنها أسماء السور حقيقة يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدي

= لانه غاية الصناعة، ونهاية البراعة لولا الإخلال بلطيفة لو سلكها لتعت فصاحتها، وهي انه بنى أول الكلام على النفي، وطول فيه حتى انتهى إلى الإثبات، فكان أول الكلام رهيباً لآخره يفهم على الضد، حتى ينقضى على البعد، فهو كما انتقد على أبي الطيب قوله في الخيل:

ولا ركبت بها إلا إلى ظفر ولا حصلت بها إلا على امل
فإنه صدر الصدور والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب في العرض، مستندركاً بعد، وإنما يؤخذ بهذا مثل أبي الطيب، والزمخشري؛ لأن لهما في مراتب الفصاحة علواً يفتن السامع، لمثل هذا النقد.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 48.

= عرض عليه المصحف، وجد فيه حرفاً من اللحن، فقال لا يغيروها، فإن العرب ستقيمها بالسنن، فلو كان الكاتب من ثقيف، والمثل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف قال القاضي: وإنما قال عثمان رضي الله عنه ذلك، لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء، وهذيلاً كانت تظهر الهمز والهمزة إذا ظهرت في لفظ الملل كتبها الكاتب على صورتها، فما أراد عثمان رضي الله عنه، إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط، مثل كتابة الصلوة والزكوة بالواو لا بالالف، قال القاضي: وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة، وأما الخط، فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم الخط، أه كلاه.

(1) قال أحمد رحمه الله: إنما أربت هذا الفصل في كلام الزمخشري: =

نقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطوائف التنزيل واختصاراته، فكان الله عز اسمه عدد على العرب الالفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. ⁽²⁾ ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثرت وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر.

فإن قلت: فهلا عدت بأجمعها في أول القرآن، ومالها جاءت مفردة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقديره.

فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة، ولم اختلفت أعداد حروفها؟ فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين. وآل، وآلر، وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر على أربعة أحرف، وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف؟ قلت: هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك.

النطق بذلك مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأفاضيل المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالبطانة من غير أن يسمعا من أحد. واعلم ⁽¹⁾ أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء هي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف الحروف بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء. ومن المفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقة نصفها: القاف والطاء، ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي أغنى الله ذكرها من هذه الأجناس المعنودة مذكورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي

= منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان، وبين الصمت، فالحق أنهما صنفان ضعيف تمييزهما، فلم يعتبر جريانها على النمط المستمر في غيرهما من الأصناف البين امتيازها، وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقة، وذكر أن المذكور منها النصف القاف، والطاء، وهم، فإنها خمسة أحرف لم يذكر منها في الفواتح، سوى الحرفين المذكورين، وعلى الجملة، فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه، يمكن الاستئناس إليه.

(2) قال أحمد رحمه الله: الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل، فعندما عد الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح، قال إنها نصف حروف العربية، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفاً، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد، إما اللينة أو الهمزة، وإلا كانت تسعة وعشرين، والظاهر أن الساقط الهمزة، وعندما قال في العدد، والظاهر من كلامه أن الألف عنده هي اللينة، فلذلك على تسميتها بالألف بان النطق لما تعذر بها أولاً استقرت الهمزة مكانها وفاء، بمرعاة تلك اللطيفة التي قدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه، وأما عند النحاة، فالألف المعنودة في حروف المعجم مفردة، هي: الهمزة وأما اللينة، فهي المعنودة مع اللام، حيث يقولون لام ألف، ويكتبونها على صورة لا.

(1) قال أحمد رحمه الله: بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد نكر تعالى نصفها الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء، والمطبقة، وقد نكر تعالى نصفها الصاد، والطاء، والمفتحة: وقد نكر نصفها الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء. وحروف الصغير لما كانت ثلاثاً: السين، والصاد، والياء لم يكن لها نصف، فنكر منها اثنين السين، والصاد، وتلك العادة المانوسة فيما يقصد إلى تنصيفه، فلا يمكن، فيتم الكسر ألا ترى طلاق العبد، وعدة الأمة، ونحو ذلك، والحروف اللينة، وهي: ثلاثة الألف، والياء، والواو، ونكر منها اثنين الألف، والياء كحروف الصغير، والمكرر، وهو الراء، والهاوي، وهو الألف، والمنحرف، وهو اللام، وقد نكرها، ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط، إلا ما بين الشديد، والرخو، فإنه لم يقتصر منها على النصف: لأن ما نكر منها زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاقتصاد لها كالشديدة، والرخوة فلم يكن بها عناية، وأما حروف الذلاقة، والمصمتة، فالصحيح أن لا يعدا صنفين، ولمن عدتهما صنفين متميزين خبط طويل في جهة تمييزهما، حتى أبعد الزمخشري في مفصله في تمييزهما، فقال حروف الذلاقة، التي يعتمد الناطق فيها على ذلك اللسان، أي: طرفه، وهو تميز مردود جداً: لأن من جملتها الميم، والياء، والفاء، ولا مدخل لطرف اللسان فيها، ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمتة، إذ المصمتة مفسرة عنده، بانها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية، فما زاد =

القسم بها وكونه بمنزلة الله والله على اللغتين، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأة وللنفردات المعددة.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٦).

فإن قلت^(٦): لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟ قلت: وقعت الإشارة إلى ﴿الْم﴾ بعدما سبق التكلم به وتقصي، والمتقصي في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام، يحث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه، ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: ﴿لَا فَرْصَ وَلَا بَكَرَ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (٧) وقال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (٨) ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك، وقيل: معناه ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت^(٩): لم نكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؟ قلت: لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته، فإن جعلته خبره كان ذلك في معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير كما أجرى عليه في التانيث في قولهم: من كانت أمك. وإن جعلته صفته فإنما أشير به إلى الكتاب صريحاً لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له تقول هند: ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا. وقال النيباني:

نبئت نعمي على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذلك العائب^(١٠) الرازي^(١١)
فإن قلت: أخبرني عن تأليف ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾^(١٢) مع ﴿الْم﴾ قلت: إن جعلت ﴿الْم﴾ اسماً للسورة ففي التأليف وجوه أن يكون ﴿الْم﴾ مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول، ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كان ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً كما تقول: هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال:

هم القوم كل القوم يا أم خالد

فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه والمباذير كلها في تادية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمي الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً لم يقل له لم خصصت ولك هذا يزيد وذلك بعمره؟ لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك، ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل، وذلك بالفرس، ولم قيل للاعتماد بالضرب، وللاختصاص بالقيام ولنقيضه القعود؟

فإن قلت: ما بالهم عدوا بعض هذه الفواتح أية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقفي لا مجال للقياس فيه كعمرة السور، أما الم فآية حيث وقعت من السور المفتحة بها وهي ست، وكذلك المص أية، والمر لم تعد أية، والر ليست بأية في سورها الخمس، وطسم أية في سورتيها، وطه، ويسر آيتان، وطس ليست بأية، وحم أية في سورها كلها. وحمعسق آيتان، وكهيعص أية واحدة، وص وق ون ثلاثها لم تعد أية. هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لم يعدوا شيئاً منها أية.

فإن قلت: فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة أية؟ قلت: كما عد ﴿الرحمن﴾^(١) وحده و ﴿مدهامتان﴾^(٢) وحدهما آيتين على طريق التوقيف.

فإن قلت: ما حكمها في باب الوقف؟ قلت: يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينطق بالأصوات، أو جعلت وحدها إخبار ابتداء محنوف كقوله عز قائلًا: ﴿الْم * الله﴾ أي هذه ﴿الْم﴾^(٣) ثم ابتداء فقال: ﴿الله لا إله إلا هو﴾^(٤).

فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب؟ قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور لأنها عند كسائر الأسماء الاعلام.

فإن قلت^(٥): ما محلها؟ قلت: يحتمل الأوجه الثلاثة: أما الرفع فعلى الابتداء، وأما النصب والجر فلما مر من صحة

(1) سورة الرحمن، الآية: 1.

(2) سورة الرحمن، الآية: 64.

(3) سورة آل عمران، الآية: 1.

(4) سورة آل عمران، الآية: 2.

(5) قال أحمد رحمه الله: وإنما جاز النصب مع القسم، فيما لا يعقبه معطوف مجرور، فاما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص، وق، ون، فإنه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة، ويحمل على إضمار فعل، أو على أن الفتح في موضع الجر، وأما على وجه بدئه، فيما تقدم، فيجوز النصب مع القسم في جميعها، فجدد به عهداً، وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيبويه في كتابه. قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾.

(6) قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواء، ما يقطعون بثم للإشعار بترأخي المراتب، وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه، وسيأتي أمثاله.

(7) سورة البقرة، الآية: 68.

(8) سورة يوسف، الآية: 37.

(9) قال أحمد رحمه الله: ولو مثل ذلك بقول القائل حصان كانت دابتك، لكن أقوم، وأسلم من الفرق بما في لفظ من الإبهام الصالح للمذكر والمؤنث ومثل هذا قوله يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فيمن وصل الكلام، فجعل هم العدو جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان، وعدل عن أن يقول هي العدو، نظراً إلى به المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصيحة، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى، وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري، وتسمى الجملة بالتاء، والياء عقيب قوله، والكلام هو المركب من كلمتين بهذا التوجيه. قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾.

(10) العائب: ذو عيب.

(11) الرازي: الرازي الذي يروي العنب.

(12) سورة البقرة، الآية: 2.

وأن يكون الكتاب صفةً ومعناه هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون الم خير مبتدأ محذوف أي هذه الم، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً على أن الكتاب صفة، وأن يكون هذه الم جملةً وذلك الكتاب جملةً أخرى، وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدر مبتدأ محذوف أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه، وتأليف هذا ظاهر، والريب مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة وإن الصلح طمانينة»⁽¹⁾. أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحاً صالماً مما تطمئن له وتسكن. ومنه ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوابه، ومنه أنه مر بطبي حاقف فقال: «لا يربه أحد بشيء».

فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكَم من مراتب فيه؟ قلت: ما نفى أن أحداً لا يرتاب فيه، وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله»⁽²⁾. فما أبعد وجود الريب منهم، وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل بونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

فإن قلت: فهلا قُدم الظرف على الريب كما قُدم على الغول في قوله تعالى: «لا فيها غول»⁽³⁾؟ قلت: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفى الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكتب كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أن

كتاباً آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله: «لا فيها غول» تفصيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي. كانه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والتقصية. وقرأ أبو الشعثاء: لا ريب فيه، بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة أن المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوزه، والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفوا على «لا ريب»، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً ونظيره قوله تعالى: «قالوا لا ضير»⁽⁴⁾ وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير لا ريب فيه. «فيه هدى» الهدى مصدر على فعل كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى»⁽⁵⁾. وقال تعالى: «العلی هدی أو في ضلال مبين»⁽⁶⁾. ويقال: مهدي في موضع المدح كهمته، ولأن اهتدى مطاوع هدى، ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله. لا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشياء ذلك.

فإن قلت⁽⁷⁾: فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون؟ قلت: هو كقولك للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته. كقوله: «اهدنا الصراط المستقيم»⁽⁸⁾ وجه آخر وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»⁽⁹⁾. وعن ابن عباس: إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة وتكتنف الحاجة. فسمي المشارف للقتل والمرض والضلal قتيلاً ومريضاً وضالة. ومنه قوله تعالى: «ولا يلبوا إلا فأجراً كفاراً»⁽¹⁰⁾ أي: صائراً إلى الفجور والكفر.

فإن قلت: فهلا قيل هدى للضالين؟ قلت: لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقيين على الضلالة، فبقي أن يكون هدى لهؤلاء.

والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتده، فإذا ثبت وروده على المعنيين، فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً، وأما قول الزمخشري إن القرآن لا يكون هدى للمعلوم، بقاؤهم على الضلالة، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم، وأما إذا أريد معناه الأول، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين، وبين للناس ما نزل إليهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من حقت عليه الضلالة هذا مذهب أهل السنة.

- (8) سورة الفاتحة، الآية: 6.
- (9) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلاً فله سلبه. الحديث رقم: (3142)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القاتل، الحديث رقم: (4541).
- (10) سورة نوح، الآية: 27.

- (1) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والودع، باب: (60)، الحديث رقم: (2518)، وقال حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرک 13/2 و4/99، وأخرجه البيهقي في: شعب الإيمان، باب: في المطاعم والمشارب، فصل: في طيب المطعم والملبس، الحديث رقم: (5747).
- (2) سورة البقرة، الآية: 23.
- (3) سورة الصافات، الآية: 47.
- (4) سورة الشعراء، الآية: 50.
- (5) سورة البقرة، الآية: 16.
- (6) سورة سباء، الآية: 24.
- (7) قال أحمد رحمه الله: الهدى يطلق في القرآن على معنيين: أحدهما الإرشاد، وإيضاح سبيل الحق، ومنه قوله تعالى: «وإما نود فبهديناهم» فاستحبوا العمى على الهدى، وعلى هذا يكون الهدى للضال، باعتبار أنه رشد إلى الحق سواء حصل له الاهتداء أولاً =

للمتقين ﴿ فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبنا هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة.

ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشقه.

وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة.

وفي الثالثة: ما في تقديم الربيب على الظرف.

وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هادٍ وإيراده سكرًا، والإيجاز في نكر المتقين زائناً الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِيزُونَ الْفُتُورَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾

﴿الذين يؤمنون﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة أو مدح منصوب أو مرفوع بتقدير أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون. وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ ﴿أولئك على هدى﴾ (4) فإذا كان موصولاً كان الوقف على المتقين حسناً غير تام، وإذا كان مقتطعاً كان وقفاً تاماً.

فإن قلت: ما هذه الصفة أوردة بياناً وكشفاً للمتقين، أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها، أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيده؟ قلت: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات. أما الفعل فقد انطوى تحت نكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها وذكر الصلاة والصدقة، لأن هاتين أمّا العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما. ألم تر كيف سمى رسول الله ﷺ «الصلاة عماد الدين» (5) وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة؟ وسمى الزكاة قنطرة الإسلام؟ وقال الله تعالى: ﴿وويل للمشركين﴾ الذين لا يؤتون الزكاة (6) فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجراز سائر العبادات

فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقليل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإيجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل: هدى للمتقين، وإيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين، وسنام القرآن، وأول المثاني بنكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

والمتقي: في اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة، ومنه فرس وإق، وهذه الدابة تقي من وجاها إذا أصابه ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. واختلف (1) في الصغائر وقيل: الصحيح أنه لا يتناولها لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر. وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر. ومحل ﴿هدى للمتقين﴾ (2) الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه، ويجوز أن ينصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال: إن قوله: ﴿الْم﴾ (3) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و ﴿ولا ريب فيه﴾ ثالثة، و ﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من الربيب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص انقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لنتك؟ فقال: في حجة تتبخر اتضاحاً، وفي شبهة تتضائل افتضاحاً، ثم أخبر عنه بانه هدى

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن تمنى القدرية على الله تعالى، اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وأنه يجب أن يعفو الله عنها، لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحاذاة لآيات الله البينات، وسنن رسول الله ﷺ الصراح، والحق أن غفران الصغائر، وإن اجتنبت الكبائر موكل إلى المشيئة، كما أن غفران الكبائر موكل إليها أيضاً، ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فإنه ناطق بالمؤخذة بالصغائر، ويتحيزون عند قوله تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ فإنه مصرح بمغفرة الكبائر، أما أهل السنة، فقد ألوا بين هاتين الآيتين، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

= يشاء﴾ فإن التقيد بالمشيئة في هذه، يقضي على الآيتين المطلقتين. قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 2.

(3) سورة البقرة، الآية: 1.

(4) سورة البقرة، الآية: 5.

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات الحديث رقم: (2807)، أما حديث معاذ فأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، الحديث رقم: (2616)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة الحديث رقم: (242)، وأخرجه الطبراني الجامع الصغير 2/ 281 الحديث رقم: (4589).

(6) سورة فصلت، الآيات: 6، 7.

قابل والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه أو نصب لنا ليلياً عليه، ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب، وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوت وما يتعلق بها، والبعث، والنشور، والحساب، والوعد، والوعيد، وغير ذلك، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما الإيمان الصحيح؟ قلت: إن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله، فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق. ومعنى إقامة الصلاة، تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زرع في فرائضها وسننها وأدائها، من أقام العود إذا قومه، أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾⁽⁵⁾، والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾⁽⁶⁾. من قامت السوق إذا نفقت وأقامها قال:

أقامت غزالة سوق الضراب لاهل العراقيين حولاً قمياً
لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه، أو التجلد والتشمر لأدائها، وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها، ولا توار من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه، إذا تقاعس وتثبط. أو أدأها فعبّر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها، كما عبّر عنه بالقنوت والقنوت القيام، وبالركوع وبالسجود. وقالوا: سبح، إذا صلى لوجود التسبيح فيها فلولاً أنه كان من المسبحين. والصلاة فعله من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلويين لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، ونظيره: كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه لأنه ينثنى على الكائنتين وهما الكافرتان. وقيل للداعي مصلى تشبيهاً في تخشعه بالراكع والساجد⁽⁷⁾.

واستتباعها، ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، وأما الترك، فكذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽¹⁾ ويحتمل أن لا تكون بياناً للملتزمين وتكون صفةً براسها دالة على فعل الطاعات، ويراد بالملتزمين الذين يجتنبون المعاصي، ويحتمل أن تكون منحاً للموصوفين بالتقوى وتخصيصاً للإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بالذكر إظهاراً لإناقتها على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات. والإيمان أفعال من الأمن. يقال: أمنت وأمنت به غيري، ثم يقال: أمنة، إذا صدقه. وحقيقته أمنة التكذيب والمخالفة، وأما تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقر وأعترف، وأما ما حكى أبو زيد عن العرب: ما أمنت أن أجد صحابة، أي: ما وثقت، فحقيقته صرت ذا أمن به، أي: ذا سكون وطمأنينة. وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب، أي: يعترفون به أو يثقون بأنه حق، ويجوز أن لا يكون بالغيب صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته ملتبسين بالغيب، كقوله: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾⁽²⁾ ليعلم أنني لم أخنه بالغيب، ويعضده ما روي أن أصحاب عبد الله نكروا أصحاب رسول الله ﷺ وإيمانهم، فقال ابن مسعود: إن أمر محمد كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية.

فإن قلت: فما المراد بالغيب إن جعلته صلة وإن جعلته حالاً؟ قلت: إن جعلته صلة كان بمعنى الغائب إما تسمية بالمصدر من قولك غاب الشيء غيباً كما سمي الشاهد بالشهادة، قال الله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾⁽³⁾ والعرب تسمي المطمئن من الأرض غيباً. وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلالها، يريد بالغيب الخمصة التي تكون في موضع الكلية إذا بطنت الدابة انتفخت، وإما أن يكون فيعلا فخفف كما قيل قبل وأصله

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 49.

(3) سورة السجدة، الآية: 6.

(4) قال أحمد رحمه الله: يعني بالفاسق غير مؤمن، ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية، وما أنزل الله بها من سلطان، ومعتقد أهل السنة أن الموحّد لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن، وإن ارتكب الكبائر، وهذا الصحيح لغة وشرعاً، أمّا لغة فإن الإيمان هو التصديق، وهو مصدق، وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان، دلّ على أن الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان، لكان العطف تكراراً، وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة، بقوله: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه، وصدقه بعمله، فجعل التصديق من حظ العمل، حتى يتم له أن من لم يعمل، فقد فوت التصديق الذي هو الإيمان لغة، ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب، ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح، =

= فما يحق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله، ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح، فهو مؤمن باتفاق، وإن لم يعمل وأصق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أحكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فراق ناقة عمل يعمل أهل الجنة؛ فكتب من أهل الجنة؛ وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفراق الناقة؛ لأنه الغاية في القصر، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة، ومع ذلك، فقد عدّه من أهل الجنة، وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين، والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً.

(5) سورة المعارج، الآية: 23.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 9.

(7) قال أحمد رحمه الله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يريز إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يريزه لنفسه، حتى يقسمون الأرزاق قسمين، هذا لله بزعهم وهذا لشركائه، وإذا

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: قوله ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إن عني به القرآن بأسره والشرعية عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم. فكيف قيل: ﴿أُنْزِلَ﴾ بلفظ الماضي؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومتروقه واجب. **قُلْتُ:** المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه متروقاً تغليظاً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب فيقال: أنا وأنت فعلنا، وأنت وزيد تفعلان. ولأنه إذا كان بعضه نازلاً وبعضه منتظر النزول جعل كان كله قد نزل وانتهى نزوله وبطل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ يَدِ مُوسَى﴾⁽¹⁾ ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله منزلاً ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا ونظيره قولك: كل ما خطب به فلان فهو قصيص، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر. ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب دون الآتي لكونه معقوداً بعضه ببعض ومربوطاً آتية بماضيه. وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على لفظ ما سمي فاعله، وفي تقديم الآخرة وبناء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على هم تعويض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من آمن ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. والإيقان: إتيان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، والآخرة تأنث الآخر الذي هو نقيض الأول وهي صفة الدار بلبيل قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾⁽²⁾ وهي من الصفات الغالبة وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة والقي حركتها على اللام كقوله: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾⁽³⁾ وقرأ أبو حية النميري يؤقنون بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه فقلها قلب واو وجوه ووقنت ونحوه.

لحب المؤقنان إلى موسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ونظم الكلام على الوجهين إنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهب به مذهب الاستئناف، وذلك أنه لما قيل: هدى للمتقين، واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر، وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلفظ بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي: الذين

وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه، وأدخل من التبعية صيانة لهم وكفاً عن الإسراف والتبذير المنهي عنه، وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم. كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة لاقتارنه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة، وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبيل الخير لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق، وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، وعن يعقوب: نفق الشيء ونفذ واحد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فдал على معنى الخروج والذهاب، ونحو ذلك إذا تأملت.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ ﴿٦﴾

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أهم غير الأولين أم هم الأولون، وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد وفي قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزبحم وقوله:

يا لهف زياطة للحارث الصـ ابح فالغانم فالكيب
قُلْتُ: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا فاشتمل إيمانهم على كل وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واجتماعهم على الإقرار بالنشأة الأخرى، وإعادة الأرواح في الأجساد، ثم افتراقهم فرقتين منهم من قال: تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا. ودفعه آخرون فزعوا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم، والأرواح العابقة، والسماع اللذيذ، والفرح، والسرور، واختلافهم في الدوام والانقطاع، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه.

فَإِنْ قُلْتَ: فإن أريد بهؤلاء غير أولئك فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟ **قُلْتُ:** إن عطفهم على الذين يؤمنون بالغيب بخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزميرتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم، وإن عطفهم على المتقين لم يدخلوا. وكأنه قيل: ﴿هدى للمتقين﴾ وهدى للذين

(1) سورة الأحقاف، الآية: 30.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

(3) سورة سبا، الآية: 14.

= أثبتوا خالقاً غير الله، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره، أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقدهم، إلا الله سبحانه تصديقاً بقوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو، فإني أتوكلون﴾ أيها القدرة.

العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررّة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائتته الدلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أنّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. ومعنى التعريف في المفلحون الدلالة على أنّ المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة؛ كما إذا بلغك أنّ إنساناً قد تاب من أهل بلنك فاستخبرت من هو فقلت: زيد التائب، أي: هو الذي أخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوّروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدّون تلك الحقيقة. كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ أنّ زيدا هو هو، فانظر كيف كرّر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي نكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصر كمراتبهم ويرغب في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدّموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتعني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، اللهم زينا بلباس التقوى واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة، والمفلح الفائز بالبغيّة، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلّق عليه. والمفلح بالجيم مثله، ومنه قولهم للمطلقة: استغلّحي بأمرك بالحاء والجيم، والتركيب دال على معنى الشق والفتح، وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو: فلق وفلذ وفلى. لما قدّم ذكر أوليائه وخاصّة عباده بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده، وبين أنّ الكتاب هدى ولطف لهم خاصّة قفى على أثره بذكر أصدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته.

فإن قلت: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف؟ كنحو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾⁽²⁾ وغيره من الآي الكثيرة. قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما نكرت لأنّ الأولى فيما نحن فيه مسوقة لنكر الكتاب وأنه هدى للمتقين، وسيقت الثانية لأنّ الكفار من صفاتهم كيت وكيت فبين الجمليتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف. فإن قلت: هذا إذا زعمت أنّ الذين يؤمنون جار على المتقين، فأما إذا ابتدأته وبينت الكلام لصفة المؤمنين ثم عقبته بكلام آخر في صفة أصدادهم كان مثل تلك الآي المتلوّة. قلت: قد مرّ لي أنّ الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف وأنه مبني على تقدير سؤال، فلنك إدراج له في حكم المتقين وتابع له في المعنى وإن كان مبتدأ في

هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح، ونظيره قوله: أحبّ رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا نونه وكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين وقع الاستئناف على أولئك كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح أجلاً. وأعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه.

فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأوّل على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم الإشارة الذين هو أولئك إيذان بأنّ ما يرد عقبيه فالمنكحرون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّنت لهم كما قال حاتم: ولله صعلوك ثم عند له خصالاً فاضلة ثم عقب تعييدها بقوله:

فلك إن يهلك فحسنى ثنأؤه وإن عاشر لم يقدّ ضعيفاً منماً
ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الخوابة مركباً وامتنى الجهل واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هدى من ربهم﴾ أي: منحوه من عنده وأوتوه من قبله وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي إلى الأفضل فالأفضل، ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كأنه قيل: على أي هدى؟ كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وقال الهنلي:

فلا وأبى الطير المرية بالضحي على خلد لعد وقعت على لحم والنون في من ربهم أدغمت بغنة وبغير غنة. فالكسائي وحزمة ويزيد وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها، وقد أغناها الباقون إلا أبا عمرو فقد روي عنه فيها روايتان. وفي تكرير ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كلّ واحدة من الأثرتين في تمييزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها.

فإن قلت: لم جاء مع العاطف، وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون﴾⁽¹⁾؟ قلت: قد اختلف الخبران ههنا فلننك بخل

(4) أفلح

فإن قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلت: هو لاجن خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع السالكين على غير حده، وحده أن يكون الأول حرف لين، والثاني حرفاً مدغمًا، نحو قوله: «الضالين» (5) وخويصة، والثاني إخطاء طريق التخفيف لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح قبلها أن تخرج بين بين، وأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس، والإنذار التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي.

فإن قلت: ما موقع «لا يؤمنون»؟ قلت: إما أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبراً لأن، والجملة قبلها اعتراض.

ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (7).

الختم والكتم: أخوان لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاوة: الغطاء، فعلة من غشاه إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة.

فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والاسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فإن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرهما من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجّه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين، كأنما غطي عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك. وأما التمثيل فإن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعى ختماً عليه فقال:

ختم الإله على لسان عذافر ختماً فليس على الكلام بقاسر

اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦).

والتعريف في «الذين كفروا» يجوز أن يكون للعهد أن يراد بهم ناس بأعيانهم كابني لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وأن يكون للجنس متناولاً كل من صمم على كفره تصميماً لا يروعى بعده وغيرهم، ودل على تناوله للمصريين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم. و«سواء» اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى: «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم» (1) «في أربعة أيام سواء للسائلين» (2) بمعنى مستوية، وارتفاعه على أنه خبر لأن. وأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع المرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوي عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون أنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء، وسواء خبراً مقدماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن.

فإن قلت: الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً من ذلك قولهم: لا تاكل السمك وتشرب اللبن، معناه: لا يكن منك اكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وام مجزئتان لمعنى الاستواء (3) وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام راساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعني، أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استواءهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا يعينه فكلاهما معلوم بعلم غير معين. وقرئ: «أنذرتهم» بتحقيق الهمزتين والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققتين وبتوسيطها، والثانية بين بين، ويحذف حرف الاستفهام، ويحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله. كما قرئ: «قد

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.

(2) سورة فصلت، الآية: 10.

(3) قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه، فالهمزة المعادلة لـ «ام» موضوعة في الأصل، للاستفهام عن أحد متعاليين في عدم علم التعيين، فنقلت إلى مطلق المعادلة، وإن لم يكن استفهاماً واستعملت في الجزء الحقيقي، وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل، لتخصيص المنادي بالنداء، ثم نقل إلى مطلق التخصيص، ولا نداء كما يكون المجاز بالتخصيص.

= والقصر مثل تخصيص الدابة بنوات الأربع، وإن كانت في الأصل لكل ما دب، فقد يكون بالتعميم، والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع اسداً، نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص، وهو الحيوان المعروف إلى كل موصوف، بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي. قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم» الآية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 1.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 7.

بعذاب عظيم، ويجوز أن تضرب الجملة كما هي وهي «ختم الله على قلوبهم»⁽⁵⁾ مثلاً كقولهم: سال به الوادي إذا هلك، وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة. وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته، وإنما هو تمثيل مثلث حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكنك مثلث حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عز وجل فعل في تجافياها عن الحق ونبوها عن قبوله وهو متعالٍ عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره، حقيقة تفسير هذا

وإذا أراد النطق خُلَّتْ لسانه لهما يحركه لصق رناقر فإن قلت⁽¹⁾: فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ولعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: «وما أنا بظلام للعبيد»⁽²⁾ «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين»⁽³⁾ «إن الله لا يأمر بالفحشاء»⁽⁴⁾، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل. قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقى غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه، وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد

والتقبيح، وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد، لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل، فليمن طرد ذلك غالباً قيل لهم، ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القبايح، والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك مع القدرة على ردعه؛ ورده من الأول عنها، وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى، على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة إعطاء سيف بائر، لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل، ويسبي به الحريم، وذلك في الشاهد قبيح جزماً، فسيقولون أجل إنه لقبيح في الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعملها فرقت بين الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة، على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك في الشاهد، وفي هذا الموطن تزلزل أقدامهم، وتتكنس أعلامهم إذا لاحت لهم قواطع اليقين، ووبراق البراهين، فيقال لهم: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى، ويعاقب العبد عليها لمصلحة، وحكمة استأثر الله بها، كما فرغتم منه الآن، سواء فلم لا يسلك أحكم الطريق للأعدل، وينظر عاقبة هذا الأمر، فيصير آخر أول، وليفوض من الابتداء إني خالقه، ويتلقى حجة الله تعالى عليه بالقبول، والتسليم ويسلك مهتدياً بنور العقل، ومقتدياً بدليل الشرع الصراط المستقيم، فإن نازعته النفس وحادثته الهولجس، ورغب في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاز الفكر، فليخطر بباله ما نكر عند كل عاقل من التمييز، بين الحركة الاختيارية والقسرية، فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريباً، فإذا استشعر ذلك، فليتنبه فقد لطف به إلى أن انصرف عن مضايق الجبر، فادرا أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه بوثها بزمام دليل الوجدانية على أن لا فاعل، ولا خالق إلا الله تعالى، فإذا وقف لم يقف، إلا وهو على الصراط المستقيم، والطريقة المثلى ماراً عليها في أسرع من البرق الخاطف، والريح العاصف، فليتأمل الناظر هذا الفصل، ويتخذ وزره في قاعدة الأفعال يقف على الحق إن شاء الله تعالى.

(2) سورة ق، الآية: 29.

(3) سورة الزخرف، الآية: 76.

(4) سورة البقرة، الآية: 7.

(5) سورة فصلت، الآية: 5.

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا أول عشواء خطبها في مهواة من الأهواء هبطها، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله ابتغاء الفتنة استبقاء، لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردھا. الأولى: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى، ومقتضاه أنه لا حالت إلا بقدرة الله تعالى، لا شريك له، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوائث، فوجب انتظامه في سلك متعلقات القدرة العامة المتعلقة بالكائنات والممكنات. الثانية: مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل، كأمثال قوله تعالى: «الله خالق كل شيء» هل من خالق غير الله، وهذه الآية أيضاً، فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصاً، والزمخشري رحمه الله لا يابى ذلك، ولكنه يدعي الاتجاه إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه، فإذا أثبت أن الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه وجب إيقاؤها على ظاهرها، بل لو وردت على خلاف ذلك، لوجب تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل. الثالثة: الفرار من نسبة ما اعتقده قبيحاً إلى الله تعالى تنزيهاً على زعمه، أن الإشراك به في اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم، والكافر يخلقه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه، فلقد استوخم من السنة المناهل العذاب، وورد من حميم البدعة موارد العذاب. الرابعة: الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهداً يقبح غائباً، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحاً في الشاهد، وجب على زعمه أن يكون قبيحاً من الغائب، وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها. الخامسة: اعتقاده أن ذلك لو فرض وجوده بقدرة الله تعالى، لكان ظلماً، والله تعالى منزه عن الظلم بقوله تعالى: «وما أنا بظلام للعبيد» ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم، فإنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى، وكل مفروض محصور بسور ملكه عز وجل الملك الشواهد القهار. السادسة: أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى، فتورط فيه إلى عنقه؛ لانه قد جزم بأن المنع من قبول الحق، لو كان من فعل الله تعالى، لكان ظلماً، فيقال له وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى، فيلزمك أن يكون ظلماً تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والخيال الذي يندنس حوله هؤلاء أن أفعال العبد، لو كانت مخلوقة لله تعالى، لما نعاها على عباده، ولا عاقبهم، ولا قامت حجة الله عليهم، وهذه الشبهة قد أجراها في إدراج كلامه المتقدم، فيقال لهم: لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله، لما نعاها على عباده، فإن أسندوا هذه الملازمة، وكذلك يفعلون إلى قاعدة التحسين، =

وَأَنْتَ تَرِيدُ الْجَمْعَ رَفْضُهُ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ السَّمْعَ مُصَدَّرٌ فِي أَصْلِهِ وَالْمَصَادِرُ لَا تَجْمَعُ فُلْمَحَ الْأَصْلِ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَمْعُ الْأَذْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرًا﴾ وَأَنْ تَقْدِرَ مِضَافًا مَحذُوفًا أَي: وَعَلَى حَوَاسٍ سَمِعَهُمْ. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ: وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا مَنَعَ إِبْرَاهِيمَ وَالْكَسَائِيَّ مِنْ إِمَالَةٍ أَبْصَارِهِمْ مَا فِيهِ مِنْ حَرْفِ الْإِسْتِعْلَاءِ وَهُوَ الصَّادُ! **قُلْتَ:** لِأَنَّ الرِّاءَ الْمَكْسُورَةَ تَغْلِبُ الْمُسْتَعْلِيَةَ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّكْرِيرِ كَانَ فِيهَا كَسْرَتَيْنِ، وَذَلِكَ أَعُونُ شَيْءٌ عَلَى الْإِمَالَةِ وَأَنْ يَمَالَ لَهُ مَا لَا يَمَالَ، وَالبَصَرُ نَوْرُ الْعَيْنِ، وَهُوَ مَا يَبْصُرُ بِهِ الرَّائِي وَيَدْرِكُ الْمَرْتَبَاتِ، كَمَا أَنَّ الْبَصِيرَةَ نَوْرُ الْقَلْبِ، وَهُوَ مَا بِهِ يَسْتَبْصِرُ وَيَتَأَمَّلُ. وَكَأَنَّهُمَا جَوْهَرَانِ لَطِيفَانِ خَلَقَهُمَا اللَّهُ فِيهِمَا آلَتَيْنِ لِلْإِبْصَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ. وَقُرِئَ: ﴿وَعِشَاوَةٌ﴾ بِالْكَسْرِ وَالنَّصْبِ، وَعِشَاوَةٌ بِالضَّمِّ وَالرَّفْعِ، وَعِشَاوَةٌ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْبِ، وَعِشَاوَةٌ النِّكَالُ بِالْكَسْرِ وَالرَّفْعِ، وَعِشَاوَةٌ بِالْفَتْحِ وَالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، وَعِشَاوَةٌ بِالْعَيْنِ غَيْرُ الْمَعْجَمَةِ، بِنَاءٌ وَمَعْنَى لِأَنَّكَ تَقُولُ: أَعَذَّبَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا أَمْسَكَ عَنْهُ. كَمَا تَقُولُ: نَكَلَ عَنْهُ، وَمِنَ الْعَذْبِ لِأَنَّهُ يَقْمَعُ الْعَطَشَ وَيَرْدَعُهُ بِخِلَافِ الْمَلْحِ فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ نَقَاحًا لِأَنَّهُ يَنْقُخُ الْعَطَشَ أَي يَكْسِرُهُ، وَفَرَاتًا لِأَنَّهُ يَرْفِثُهُ عَلَى الْقَلْبِ، ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ فَسَمِيَ كُلُّ أَلَمٍ فَادِحٌ عَذَابًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نِكَالًا أَي: عِقَابًا يَرْتَدِعُ بِهِ الْجَانِي عَنِ الْمَعَاوِدَةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ أَنَّ الْعَظِيمَ نَقِيضُ الْحَقِيرِ، وَالْكَبِيرُ نَقِيضُ الصَّغِيرِ، فَكَانَ الْعَظِيمُ فَوْقَ الْكَبِيرِ كَمَا أَنَّ الْحَقِيرَ دُونَ الصَّغِيرِ، وَيَسْتَعْمَلَانِ فِي الْجَنَّةِ وَالْأَحْدَاثِ جَمِيعًا. تَقُولُ: رَجُلٌ عَظِيمٌ وَكَبِيرٌ، تَرِيدُ جَنَّتَهُ أَوْ خَطَرَهُ، وَمَعْنَى التَّنْكِيرِ أَنْ عَلَى أَبْصَارِهِمْ نَوْعًا مِنَ الْأَغْطِيَةِ غَيْرَ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَهُوَ غَطَاءُ التَّعَامِي عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَلَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْأَلَامِ الْعِظَامِ نَوْعٌ عَظِيمٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ أَجْرْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَلَا تَبْلِنَا بِسَخَطِكَ يَا وَاسِعَ الْمَغْفَرَةِ.

وَمَنْ كَثَّارٍ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَيْهِ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

اقتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم السننهم ووافق سرهم علمهم وقطعهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً والسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتلبساً وبالشرك استهزاءً وخداعاً، ولذلك أنزل

أَنَّ لِلْفِعْلِ مَلَاسِيَتَاتٍ شَتَى يَلَابِسُ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ وَالْمَصْدَرُ وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ وَالْمَسَبِّبُ لَهُ، فإِسْنَادُهُ إِلَى الْفَاعِلِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ يَسْنَدُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْمُسَمَّى اسْتِعَارَةً وَذَلِكَ لِمُضَاهَاةِهَا لِلْفَاعِلِ فِي مَلَاسِيَةِ الْفِعْلِ كَمَا يُمَازِيهِ الرَّجُلُ الْأَسَدُ فِي جَرَأَتِهِ فَيَسْتَعَارُ لَهُ اسْمُهُ. فَيُقَالُ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ: عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ وَمَاءٌ دَافِقٌ، وَفِي عَكْسِهِ سَيْلٌ مَفْعَمٌ. وَفِي الْمَصْدَرِ: شَعْرٌ شَاعِرٌ وَذَيْلٌ ذَائِلٌ، وَفِي الزَّمَانِ: نَهَارُهُ صَائِثٌ وَلَيْلُهُ قَائِثٌ، وَفِي الْمَكَانِ: طَرِيقٌ سَائِرٌ وَنَهْرٌ جَارٍ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: صَلَّى الْمَقَامَ، وَفِي الْمَسَبِّبِ: بَنَى الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ، وَنَاقَةٌ ضَبُوثٌ وَحُلُوبٌ. وَقَالَ:

إِذَا رَأَى عَافِي الْقَدَرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا

فَالشَّيْطَانُ هُوَ الْخَاتِمُ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ الْكَافِرُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا كَانَ هُوَ الَّذِي أَقْدَرَهُ وَمَكَّنَهُ أَسْنَدُ إِلَيْهِ الْخَتْمُ كَمَا يَسْنَدُ الْفِعْلُ إِلَى الْمَسَبِّبِ، وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَلَى الْقَطْعِ وَالبِتِّ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ وَلَا تَغْنِي عَنْهُمْ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ وَلَا تَجْدِي عَلَيْهِمُ الْأَلْطَافُ الْمَحْصَلَةُ وَلَا الْمُقَرَّبَةُ إِنْ أَعْطَوْهَا، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعِلْمِ بَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا طَوْعًا وَاخْتِيَارًا طَرِيقَ إِلَى إِيْمَانِهِمْ إِلَّا الْقَسْرُ وَالْإِجْءَاءُ، وَإِذَا لَمْ تَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يَقْسِرَهُمُ اللَّهُ وَيُلْجِئَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَقْسِرَهُمْ وَلَمْ يُلْجِئَهُمْ لئَلَّا يَنْتَقِضَ الْغَرَضُ فِي التَّكْلِيفِ، عَبْرَ عَنْ تَرْكِ الْقَسْرِ، وَالْإِجْءَاءُ بِالْخَتْمِ إِشْعَارًا بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ تَرَامَى أَمْرُهُمْ فِي التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهِ إِلَى حُدٍّ لَا يَتَنَاوَهُونَ عَنْهُ إِلَّا بِالْقَسْرِ وَالْإِجْءَاءِ وَهِيَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى فِي وَصْفِ لِحَاجَتِهِمْ فِي الْغِي، وَاسْتِشْرَافِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْبَغْيِ. وَوَجْهٌ خَامِسٌ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا كَانَ الْكُفْرَةُ يَقُولُونَهُ تَهْكَأُ بِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^(١)، وَنَظِيرُهُ فِي الْحِكَايَةِ وَالتَّهْكَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٢).

فَإِنْ قُلْتَ:^(٣) اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغطية فعلى أيهما يعول؟ **قُلْتَ:** عَلَى نَحْوِهَا فِي حُكْمِ الْخَتْمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَخْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾^(٤) وَلَوْ قَفَّهِمْ عَلَى سَمْعِهِمْ دُونَ قُلُوبِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَي فَائِدَةٍ فِي تَكْرِيرِ الْجَارِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾؟ **قُلْتَ:** لَوْ لَمْ يَكُرَّرْ لَكَانَ انْتِظَامًا لِلْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ فِي تَعْدِيَةِ وَاحِدَةٍ، وَحِينَ اسْتَجَدَّ لِلْأَسْمَاعِ تَعْدِيَةً عَلَى حِدَةٍ كَانَ أَدْلَ عَلَى شِدَّةِ الْخَتْمِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَوَحْدَ السَّمْعِ كَمَا وَحْدَ الْبَطْنِ فِي قَوْلِهِ: كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَغْفُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا أَمِنَ اللَّبَسُ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ كَقَوْلِكَ: فَرَسَهُمْ وَثَوْبَهُمْ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٢) سورة البينة، الآية: ١.

(٣) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ جَدِي رَحِمَهُ اللَّهُ يَنْكَرُ هَذَا، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَسْمَاعَ وَالْقُلُوبَ لَمَّا كَانَتْ مُحْوِيَةً، كَانَ اسْتِعْمَالُ الْخَتْمِ لَهَا =

= أَوَّلَى، وَالْأَبْصَارُ لَمَّا كَانَتْ بَارِزَةً وَإِدْرَاكُهَا مُتَعَلِّقٌ بِظَاهَرِهَا، كَانَ الْغِشَاءُ لَهَا الْبَقِيَّةَ.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خبيثة للمسلمين واستهزاء بهم، وأروهم أنهم مثلم في الإيمان الحقيقي كان خبثاً إلى خبث وكفراً إلى كفر، وأيضاً فقد أوهموهم في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان من جانبيه واكتنفوه من قطريه، وأحاطوا بأوله وآخره، وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ قولهم: ﴿أما بالله وباليوم الآخر﴾ والأولى في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ **قلت:** القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج نواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لها علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذ شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾⁽⁴⁾ هو أبلى من قولك: وما يخرجون منها.

فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول؟ **قلت:** يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المنكسر عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ولا من الإيمان بغيرهما.

فإن قلت: ما المراد باليوم الآخر؟ **قلت:** يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع لتأخره عن الأوقات المنقضية، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده.

يَخْرُجُونََ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْرِجُونََ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ⁽⁵⁾.

والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه، من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارس يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر. **فإن قلت**⁽⁵⁾: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح

فيهم: **إن** المنافقين في الدرك الأسفل من النار⁽¹⁾، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم وسفهمهم واستجهمهم واستهزاء بهم وتهكم بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمهمهم ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل ناس: أناس حذفت همزته تخفيفاً. كما قيل: لوقة، في الوقعة. وحذفها مع لام التعريف كاللزام لا يكاد يقال: الإنسان، ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وأنس. وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجن لاجتنانهم، ولذلك سمو بشراً. ووزن ناس فعال لأن الزنة على الأصول ألا تراك تقول: في وزن قه افعل، وليس معك إلا العين وحدها، وهو من أسماء الجمع كرجال، وأما نوبس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبره كاتيسيان ورويجل، ولام التعريف فيه للجنس، ويجوز أن تكون للعهد والإشارة إلى الذين كفروا الماز نكرهم. كانه قيل: ومن هؤلاء من يقول: وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق، ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقروني والقوم لثام. ومن في **من يقول:** موصوفة كانه قيل: **ومن الناس:** ناس يقولون كذا كقوله: **ومن المؤمنين رجال:**⁽²⁾ إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة كقوله: **ومنهم الذين يؤمنون النبي:**⁽³⁾.

فإن قلت: كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ **قلت:** الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس مغايراً للنوع الآخر بزيادة زائدها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس، فلان الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأتي للدخول تحت الجنسية.

فإن قلت: لم اختص بالذكر الإيمان **بإله** والإيمان **باليوم الآخر**؟ **قلت:** اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتمانيهم في الدعارة لأن القوم كانوا يهوداً وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان لقولهم: عزيز ابن الله. وكذلك إيمانهم باليوم الآخر لأنهم يعتقدونه على خلاف صفة فكان قولهم: **أما بالله وباليوم الآخر** خبثاً

= أخذ ما فيه من السنة أمناً من التورط في ضرر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين، فمما خالف فيه السنة قوله إن الله تعالى عالم بذاته يريد لا يعلم، وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يجحدون صفات الكمال الإلهي يبنون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه، ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالم يعلم قديم أزلي متعلق بكل معلوم واجب، أو ممكن، أو مستحيل، ولا يعزب

(1) سورة النساء، الآية: 145.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) سورة التوبة، الآية: 61.

(4) سورة المائدة، الآية: 37.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الفصل من كلام الزمخشري، جمع فيه بين الغث والسمين، ونحن ننبه على ما فيه من الزيد، ليتم للنظر =

توطئة وتمهيد لنكر فضله.

فإن قلت: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت: وجهه أن يقال: عني به فعلت، إلا أنه أخرج في زنة فاعلت لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة والفعل متى غلب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مباراة لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ يخدعون الله والذين آمنوا وهو أبو حية. و﴿يخادعون﴾ بيان ليقول، ويجوز أن يكون مستأنفاً، كانه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقه في ذلك فقيل يخادعون.

﴿فإن قلت﴾: عم كانوا يخادعون؟ قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإغافهم عن المحاربة، وعمّا كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار، ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغنم ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم لاختلاطهم بهم على الأسرار التي كانوا حراساً على إذاعتها إلى منابذهم.

فإن قلت: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخادعهم عنها. قلت: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفاسد، واستبقاء إبليس وزيته ومتاركتهم وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشد من ذلك، ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة.

فإن قلت: ما المراد بقوله: ﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾؟ قلت: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم، لأن ضررها يلحقهم ومكرها يحق بهم. كما تقول: فلان يضار فلاناً، وما يضار إلا نفسه. أي دائرة الضرر راجعة إليه وغير متخفية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمتنونها بالإباطيل ويكذبونها فيما يحثونها به وأنفسهم كذلك تمنيه وتحدثهم بالأمان، وأن يراد: وما يخدعون، فجاء به على لفظ يفاعلون للمبالغة.

لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا. ألا ترى إلى قوله: واستمطروا من قریش كل منخدع. وقول ذي الرمة.

إن الحليم وذا الإسلام يختلب

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يات بالخدع! قلت: فيه الوجوه. أحدها: أن يقال: كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم، حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم. والثاني: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان ادعائه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غني عن فعل القبائح، فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله تعالى في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يلبس على عباده ويخدعهم. والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ لانه خليفته في أرضه والناطق عنه بأوامره ونواهي مع عباده كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا، وإنما القائل والرسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه. مصداقه قوله: ﴿إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽²⁾. والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبتني زيد وكرمه، فيكون المعنى: يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص. ولما كان المؤمنون من الله بمكان سلك بهم ذلك المسلك، ومثله والله ورسوله أحق أن يرضوه، وكذلك إن الذين يؤنون الله ورسوله، ونظيره في كلامهم: علمت زيداً فاضلاً. والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه لانه كان معلوماً له قديماً. كانه قيل: علمت فضل زيد، ولكن نكر زيد

= منه في الإطلاق، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلاً، لما ذكره من خداع المنافقين، كمقابلة المكر بمكرهم علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سماه خداعاً مقابلة ومشاكلة، وإلا فهو قاصر على هتك سترهم، وإنزال العذاب بهم رأي العين، فهذا معتقد أهل السنة في هذه الآية وأمثالها، إلا كالزخشي وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحون، فيجحدون وينزهون، فيشركون، والله الموفق للحق، وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز، عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد على أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ ففي هذه التهمة نفي احتمال الحقيقة، حتى تتعين جهة المجاز ومما عده البيانون من ألة المجاز صدق نفيه، فتأمل هذا الفصل، فله على سائر الفصول الفضل.

(1) سورة الفتح، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 80.

= عن علمه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر إلا في كتاب مبين، وجسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى، وفي عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك، ولسنا بصدد ذكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مخلوقاً لله تعالى؛ لانه قبيح على زعمه، كالمفهوم من الخداع في هذه الآية، وما جره إلى هاتين النزعتين، إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعاً، إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه؛ لانه قبيح على زعمهم، ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه، ولا شرط فيه، فنحن معاشر أهل السنة نعتقد أن الله تعالى عالم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعاً؛ لأن علمه عندنا عام التعلق، كما وصفنا، ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود، إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى، لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة، وإظهار المكتوم، هذا هو الموهوم =

وقرىء: وما يخذعون ويخذعون، من خَدَعَ ويخدعون بفتح الياء بمعنى يخذعون ويخدعون ويخادعون على لفظ ما لم يسم فاعله. والنفس ذات الشيء وحقيقته يقال: عندي كذا نفساً، ثم قيل للقلب نفس لأن النفس به. ألا ترى إلى قولهم: المرء بأصغريه، وكذلك بمعنى الروح، وللم نفس لأن قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾⁽¹⁾. وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه كقولهم: صدر الرجل. وقولهم: فلان يؤامر نفسه، إذا تردد في الأمر واتجه له رأيان وداعيان لا يدرى على أيهما يعرج. كأنهم أرادوا داعي النفس وهاجسي النفس فسموهما نفسين. إما لصورهما عن النفس، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والأميرين له شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين. والمراد بالانفس ههنا نواتهم، والمعنى: بمخادعتهم نواتهم أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم، ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وأراؤهم.⁽²⁾ والشعور علم الشيء علم حس من الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمامي غفلتهم كالذي لا حس له.

في قلوبهم مَرَضٌ مَرَضَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ⁽³⁾.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقةً ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الآلم كما تقول: في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: ﴿قد بنت البغضاء من أقواهم وما تخفي صدورهم أكبر﴾⁽⁴⁾ ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إن تمسككم حسنة

تسؤهم﴾⁽⁴⁾، وناهيك مما كان من ابن أبي وقول سعيد بن عباد لرسول الله ﷺ: اعف عنه يا رسول الله واصفح⁽⁵⁾ فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك. ولقد اصطاح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصاة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك. أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور لأن قلوبهم كانت قوية، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به أن ربح الإسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقر، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله. وإما لجرائتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جبناً وخوراً حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة. قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»⁽⁶⁾. ومعنى زيادة الله إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكان الله هو الذي زادهم ما ازدلوه إسناداً للفعل إلى المسبب له كما أسنده إلى السورة في قوله: ﴿فزدانهم رجساً إلى رجسهم﴾⁽⁷⁾ لكونها سبباً، أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطاً في البلاد، ونقصاً من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلاً وبغضاءً، وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقوا به رجاءهم وجبناً وخوراً، ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع. وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي: مرض ومرضاً بسكون الراء. يقال: ألم فهو **الليم**، كوجع فهو وجيع، ووصف العذاب به نحو قوله: تحية بينهم ضرب وجيع. وهذا على طريقة قولهم جد جده، والآلم في الحقيقة للمؤلم كما أن الجد للجاد. والمراد بكنبهم قولهم أمانة بالله وبالיום الآخر وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته وتخيل أن العذاب الآليم لاحق بهم من أجل كذبهم. ونحوه قوله تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾⁽⁸⁾ والقوم كفرة وإنما خصت الخطيئات استعظاماً لها وتنفيراً عن ارتكابها، والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبح كله، وأما ما يروى عن إبراهيم عليه السلام أنه كذب ثلاث كذبات⁽⁹⁾ فالمراد التعريض ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمي به. وعن أبي بكر رضي الله عنه وروى

في قلوبهم مَرَضٌ مَرَضَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ⁽³⁾.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقةً ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الآلم كما تقول: في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: ﴿قد بنت البغضاء من أقواهم وما تخفي صدورهم أكبر﴾⁽⁴⁾ ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إن تمسككم حسنة

(1) سورة الأنبياء، الآية: 30.
(2) قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور، كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ، أنه لما كانت مفسدة التفاف عائدة على المناق عوداً بيناً، جلياً، محسوساً، نعى عليهم جهلهم بالمحسوس، فنقى شعورهم به، ولا كذلك معرفة الحق، وتميزه عن الباطل، فإنه أمر عقلي نظري.
(3) سورة آل عمران، الآية: 118.
(4) سورة آل عمران، الآية: 120.
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿ولنسمع من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الحديث رقم: (4566)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين الحديث رقم: (4635).
(6) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى ﴿فلم تجدوا ماء﴾. الحديث رقم: (335)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1163).
(7) سورة التوبة، الآية: 125.
(8) سورة نوح، الآية: 25.
(9) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ الحديث رقم: (3358)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ الحديث رقم: (6097)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء عليهم السلام الحديث رقم: (3166).

(1) سورة الأنبياء، الآية: 30.
(2) قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور، كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ، أنه لما كانت مفسدة التفاف عائدة على المناق عوداً بيناً، جلياً، محسوساً، نعى عليهم جهلهم بالمحسوس، فنقى شعورهم به، ولا كذلك معرفة الحق، وتميزه عن الباطل، فإنه أمر عقلي نظري.
(3) سورة آل عمران، الآية: 118.
(4) سورة آل عمران، الآية: 120.
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿ولنسمع من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الحديث رقم: (4566)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين الحديث رقم: (4635).
(6) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى ﴿فلم تجدوا ماء﴾. الحديث رقم: (335)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1163).
(7) سورة التوبة، الآية: 125.
(8) سورة نوح، الآية: 25.
(9) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ الحديث رقم: (3358)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ الحديث رقم: (6097)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء عليهم السلام الحديث رقم: (3166).

في كلتا الكلمتين إلا وإن من التاكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، وقوله: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ توهم في النصيحة من وجهين: أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجره إلى الفساد والفتنة، والثاني: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع نوي الاحلام ودخولهم في عداهم. فكان من جوابهم أن سفهوه لفرط سفههم، وجهلهم لتمادى جهلهم، وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقي من الجهلة.

فإن قلت: كيف صح أن يسند قيل إلى لا تفسدوا وأمنوا، وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ قلت: الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل وهذا إسناد له إلى لفظه كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام فهو نحو قولك: ألف ضرب من ثلاثة أحرف، ومنه: «زعموا مطية الكذب»⁽⁶⁾.

وإذا قيل لهم ءآيئنا كَمَا ءَاتَىٰ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَاتَىٰ السَّهَآءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّهَآءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ^(١٣).

وما في ﴿كما﴾ يجوز أن تكون كافةً مثلها في ربما ومصدريةً مثلها في بما رحبت. واللام في الناس للعهد، أي: كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه، أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كاليهود في فقد التمييز بين الحق والباطل. والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ في معنى الإنكار واللام في ﴿السفهاء﴾ مشار بها إلى الناس كما تقول لصاحبك إن زيدا قد سعى بك. فيقول: أو قد فعل السفية. ويجوز أن تكون للجنس وينطوي تحته الجاري نكرهم على زعمهم واعتقادهم لأنهم عندهم أعرق الناس في السفة.

فإن قلت: لم سفهوه واستركوا عقولهم وهم العقلاء المراجيح؟ قلت: لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفياً. ولأنهم كانوا في رئاسة وسطة في قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب فدعوه سفهاء تحقيراً لشأنهم، أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم، وما غاظهم من إسلامهم وقت في أعضادهم، قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفة بمعزل، والسفة سخافة العقل وخفة الحلم. فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها

مرفوعاً: «إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان»^(١). وقرئ: يكذبون من كذب الذي هو نقيض صدقه، أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب كما بولغ في صدق. فقول: صدق، ونظيرهما بان الشيء وبين، وقلص الثوب وقلص، أو بمعنى الكثرة كقولهم: موتت البهائم وبركت الإبل. أو من قولهم: كذب الوحشي، إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه لأن المناق متوقف متردد في أمره: ولذلك قيل له: مذبذب. وقال عليه السلام: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»⁽²⁾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ^(١٤) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ^(١٥).

﴿وإذا قيل لهم﴾: معطوف على يكذبون، ويجوز أن يعطف على يقول آمننا، لأنك لو قلت ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً والأول أوجه. والفساد خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض هيج الحروب والفتن لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتقاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية. قال الله تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾⁽³⁾ ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾⁽⁴⁾ ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يميلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من صنيعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: لا تفسدوا. كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيك ولا تلق نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته، وإنما لقصر الحكم على شيء كقولك: إنما ينطلق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب. ومعنى: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قاذح فيها من وجه من وجوه الفساد، و﴿إلا﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيراً كقوله: ﴿أليس ذلك بقادر﴾⁽⁵⁾ ولكنها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي أما من مقدمات اليمين وطلائعها: أما والذي لا يعلم الغيب غيره. أما والذي أبكى وأضحك. رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلى رد وأدله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستثناء، وما

(3) سورة البقرة، الآية: 205.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة القيامة، الآية: 40.

(6) أخرجه أحمد في المسند 5/401.

(1) أخرجه أحمد في المسند 5/1، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب: ما جاء في الصدق والكذب. الحديث رقم: (19).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (6974).

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصديق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهرائي المهاجرين والانصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل. ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا﴾. وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم مقبل منهم فكان مظنةً للتحقيق ومثنةً للتوكيد.

فَإِنْ قُلْتَ: انى تعلق قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؟ قلت: هو توكيد له لأن قوله: إِنَّا مَعَكُمْ معناه الثبات على اليهودية. وقوله: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ رد للإسلام وبلغ له منهم لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقض الشيء تأكيد لثباته أو يدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾. فقالوا: فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَيَسْتَهْزِئُ فِي طَائِفَتِهِمْ يَهُودُ⁽¹⁶⁾.

والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة من الهز وهو القتل السريع، وهزا يهزأ مات على المكان، عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزاناً على مكاني، ونافته تهزأ به أي: تسرع وتخف.

فَإِنْ قُلْتَ: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى لأنه متعالٍ عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هَذَا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽³⁾ فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما نكرنا شاهد لذلك، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون، ويجوز أن يراد به ما مَرَّ في يخادعون من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في

بلا يشعرون؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤذي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد نكر السفه وهو جهل فكان نكر العلم معه أحسن طباقاً له.

وَإِذَا لَعُزَّاءُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُكُطِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَنْ مُسْتَهْزِؤُونَ⁽¹⁷⁾.

مساق هذه الآية بخلاف ما سبقت له أول قصة المنافقين فليس بتكرير لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكنيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصافقين وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما في قلوبهم. وروي أن عبد الله بن أبي أصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله: انظروا كيف ارد هؤلاء السفهاء عنكم فاخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار البازل نفسه وماله لرسول الله. ثم اخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في بين الله البازل نفسه وماله لرسول الله. ثم اخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأنشأ عليه خيراً⁽¹⁸⁾ فنزلت، ويقال: لقيته ولاقيته، إذا استقبلته قريباً منه وهو جاري ملاقي ومراوقي وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى، وخلاك نَمَ أي عداك، ومضى عنك، ومنه القرون الخالية ومن خلوت به إذا سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعبث به. ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحنثوهم بها كما تقول: أحمد إليك فلاناً وإنمّه إليك.

﴿وشياطينهم﴾: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم. وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة، والدليل على أصلتها قولهم تشيطن واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده من الصلاح والخير، ومن شاط إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، ومن أسعته الباطل. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: إِنَّا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم.

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 16.

(2) قال أحمد رحمه الله: وبني هذا التقرير على أن الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بـ «أن» مرفقة، بـ «إنما» على أنه

حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله: = (3) سورة البقرة، الآية: 67.

وهو فعل الشياطين ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإخوانهم يمتنونهم في الغي﴾⁽⁸⁾؟

فإن قلت: إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله الطافه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين فسمى ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم، وإما على منع القسر والإلجاء، وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخليه بينه وبين إغواء عباده.

فإن قلت: فما حملهم على تفسير المد في الطغيان بالإمهال، وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ **قلت:** استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح. فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل، ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره في ضلالتهم يتماون، وأن هؤلاء من أهل الطبع.

والطغيان: الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه في طغيانهم بالكسر وهما لغتان لكفيان ولقيان، وغنيان وغنيان.

فإن قلت:⁽⁹⁾ أي نكتة في إضافته إليهم؟ **قلت:** فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقتترفته أنفسهم واجترحتهم أيديهم، وأن الله بريء منه رداً لاعتقاد الكفرة القائلين لو شاء الله ما أشركنا، ونفياً لوهم من عسى يتوهم عند إسناد المد إلى ذاته لو لم يصف الطغيان إليهم أن الطغيان فعله، فلما أسند المد إليه على الطريق الذي نكر أضاف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في صدر

الظاهر، وهو مبطن بإخبار ما يراد بهم. وقيل: سمي جزء الاستهزاء باسمه كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾⁽¹⁾ **فمن اعتدى عليكم فاعتبوا عليه**⁽²⁾.

فإن قلت:⁽³⁾ كيف ابتدئ قوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ ولم يعطف على الكلام قبله؟ **قلت:** هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال، ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله.

فإن قلت:⁽⁴⁾ فهلا قيل: الله مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾⁽⁵⁾؟ **قلت:** لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجديده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم. أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم. **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون**⁽⁶⁾. **ويمدهم في طغيانهم** من مد الجيش وأمه إذا زاده والحق به ما يقويه ويكرهه، وكذلك مد النواة وأمهأ زادها ما يصلحها، ومدت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسما، ومدَّ الشيطان في الغي وأمه إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انتهاكاً فيه.

فإن قلت: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإماء والإمهال؟ **قلت:** كفك ليلاً على أنه من المدد دون المدد قراءة ابن كثير وابن محيصن: ويمدّم، وقراءة نافع وإخوانهم: يمتنونهم، على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مد له مع اللام كأملى له.

فإن قلت:⁽⁷⁾ فكيف جاز أن يوليههم الله مدداً في الطغيان

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة البقرة، الآية: 194.

(3) قال أحمد رحمه الله: فإن قال قائل، أفلا تستفاد هذا المعنى من العطف، قيل له لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملةتين، وإعراض عن هذا المبني، الذي ينفرد به الاستئناف.

(4) قال أحمد رحمه الله: ولهذا الفرق بين الفعل، والاسم ورد قوله تعالى: ﴿إننا سخرنا الجبال﴾ معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة، لما كان التسييح من الطوائف متكرراً متجدداً شيئاً فشيئاً، وحشر الطير معه أمر دائم ذكر التسييح بصيغة الفعل، والحشر بصيغة الاسم، وسياتي إن شاء الله تعالى مزيد تقرير فيه.

(5) سورة البقرة، الآية: 14.

(6) سورة التوبة، الآية: 64.

(7) قال أحمد رحمه الله: ما يمنعه أن يقره على ظاهره، ويبقيه في نصابه، إلا أنه توحيد محض وحق صرف، والقدرية من التوحيد

= على مراحل.

(8) سورة الأعراف، الآية: 202.

(9) قال أحمد رحمه الله: كل فعل صدر من العبد اختياراً، فله اعتباران إن نظرت إلى وجوده وحيثه، وما هو عليه من وجوه التخصص، فانسبب ذلك إلى قدرة الله وحده وإرادته، لا شريك له، وإن نظرت إلى تمييزه عن القسر الضروري، فانسبه في هذه الجهة إلى العبد، وهي النسبة المعبر عنها شرعاً بالكسب، في أمثال قوله تعالى: ﴿بما كسبت أيديهم﴾ وهي المتحققة أيضاً، إذا عرضت على ذلك الحركتين الضرورية الرعية، مثلاً والاختيارية، فإنك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة، فإذا تقرر تعدد الاعتبار، فمدّم في الطغيان مخلوق لله تعالى، فاضافه إليه، ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب، أضافه إليهم، ففرّع على أصول السنة بحسن ثمار فروعه في الجنة، لا كما تفرّع القدرية، فإنهم ينجون ولكن على أنفسهم، اللهمنا الله التحقيق وأيدنا بالتوفيق.

دالة لم يصح.

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال فما معنى نكر الربح والتجارة كان تم مبيعة على الحقيقة؛ قلْتُ: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز النزوة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه بدياجةً وأكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشح، وذلك نحو قول العرب في البليد: كأن أنفي قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار ثم رشحوا ذلك روماً لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أننين وادعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معانية، ونحو: ولما رأيت النسر عز ابن داية وعشش في وكريه جاش له صدي لما شبّه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه نكر التعشيش والوكريه. ونحوه قول بعض فتاكهم في أمه:

فما أم السربين وإن أملت بعالمه بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التوام
أي: إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثني المحكم. يريد إذا حررت وأساءت اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوه من خلقها. استعار التقصيع أولاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل التوام. فكذا لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾؟ قلْتُ: معناه أن الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح. وهؤلاء قد اضاعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الننيوية لأن الضال خاسر دامر ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح. وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَعَمَ فِي ظُلُمَتِهِ لَا يُبْصَرُونَ^(٧).

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في

من يلحد في صفاته، ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيدته بالإضافة في قوله ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾.

والعمه: مثل العمى إلا أن العمى عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردد لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله بالجاهلين: العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضاً عمها لا منار بها.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِغُرُوبِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ^(٨).

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة^(٩) لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ومنه:

أخنت بالجمة رأساً زعراً وبالثنايا الواضحات الدوبرا وبالبويل العمر عمرأ حيدراً كما اشترى المسلم إن تنصرا وعن وهب قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: تفقهون لغير الدين، وتعملون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلْتُ: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

والضلالة: الجور عن القصد وفقد الاهتداء. يقال: ضل منزله وضل دريص نفقه، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين.

والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي الشف من قولك أشف بعض ولده على بعض إذا فضله، ولهذا على هذا شف.

والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشترى للربح، وناقة تاجرة كأنها من حسننها وسمنها تباع نفسها. وقرأ ابن أبي عتبة: تجارتهم.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلْتُ: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتريين.

فَإِنْ قُلْتَ: هل يصح ربح عبك وخسرت جاريتك على الإسناد المجازي؟ قلْتُ: نعم إذا بلغت الحال، وكذلك الشرط في صحة رأيت أسداً، وأنت تريد المقدم إن لم تقم حال

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا النوع قريب من التيمم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء:

وإن صخرأ لتاتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع أتبعته ذلك ما يناسبه، وبحقيقته، فلم تقنع بظهور الارتفاع، حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر، باشتعال النار في رأسه.

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن هذا القبيل، منع مالك رضي الله عنه أن يشترى إحدى أوزتين منبويتين، يختارها المشتري منهما؛ لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما، ثم بائعاً لها بالأخرى، فيبخله الربا وهو الذي يعبر عنه متأخروا أصحابه، بأن من ملك أن يملك هل يعد مالكا، أو لا، وربما قالوا من خير بين شيئين، عد متقللاً على أحد القولين.

النار سطوعها وارتفاع لهبها، ومن أخواته: **وقل في الجبل إذا صعد وعلا.**

والنار: جوهر لطيف مضيء حار محرق.

والنور: ضوؤها وضوء كل نير وهو نقيض الظلمة واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً والنور مشتق منها.

والإضاءة: قرط الإنارة ومصداق ذلك قوله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾⁽⁵⁾ وهي في الآية متعديّة ويحتمل أن تكون غير متعديّة مسندة إلى ما حوله، والتأنيث للحمل على المعنى لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: ضاءت، وفيه وجه آخر وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار، ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها، على أن ما مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة، وحوله نصب على الظرف، وتأليفه للدوران والإطافة، وقيل للعام حول لأنه يدور.

فَإِنْ قُلْتَ: أين جواب لما؟ **قُلْتَ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن جوابه ﴿ذهب الله بنورهم﴾.

والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به﴾. وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى: كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

فَإِنْ قُلْتَ: فإذا قدر الجواب محذوفاً فبم يتعلق: ﴿ذهب الله بنورهم﴾؟ **قُلْتَ:** يكون كلاماً مستأنفاً كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل له: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان؟

فَإِنْ قُلْتَ: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني؟ **قُلْتَ:** مرجعه الذي استوقد، لأنه في معنى الجمع، وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في حوله فللحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾؟ **قُلْتَ:** إذا طفئت النار بسبب سماوي ريح أو مطر فقد أطفاها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، ووجه آخر وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله، ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام وتلك النار متقاصرة

صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبيكيت للخصم الألد وقع لسورة الجامع الأبوي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾⁽¹⁾ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال، والمثل في أصل كلامهم بمعنى: المثل، وهو: النظير. يقال: مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبهه وشبيه، ثم قيل للقول السائر: الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حوفظ عليه وحمل من التغيير.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾؟ وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبه أحد المثليين بصاحبه؟ **قُلْتَ:** قد استعير المثل استعارة الأسد المقدم للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: مثل الجنة التي وعد المتقون، أي وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة. ثم أخذ في بيان عجائبها والله المثل الأعلى أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. مثلهم في التوراة: أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثله في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ **قُلْتَ:** وضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وخضمت كالذي خاضوا﴾⁽²⁾ والذي سوغ وضع الذي موضع الذين ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران:

أحدهما: أن الذي لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة وتكاثر وقوعه في كلامهم ولكونه مستطالاً بصلته حقيق بالتخفيف ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصرصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين.

والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً. على أن المنافقين ونواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد ونحوه قوله: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾⁽⁴⁾ ووقود

(4) سورة محمد، الآية: 20.

(5) سورة يونس، الآية: 5.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 43.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) سورة الجمعة، الآية: 5.

إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد، ويجوز أن يشبهه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاق الله على أسرارهم، وما اقتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق. **مِمَّ بَكُم عَمِي فَهَمَّ لَا يَرْجُونَ (٨)**.

والأوجه أن يراد الطبع لقوله: **﴿صم بكم عمي﴾** وفي الآية تفسير آخر، وهو أنهم وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضئية ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتنكير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سئوا عن الإصاغة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به السننهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقولهم:

صم إذا سمعوا خيراً نكرت به وإن نكرت بسوء عندهم أننوا
أصم عما ساءه سميع

أصم عن الشيء الذي لا يريدُه وأسمع خلق الله حين أريد فأصممت عمراً وأعميته عن الجود والفخر يوم الفخر **فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان؟ قلت: طريقة قولهم هم ليوث للشجعان ويجوز للأشياء إلا أن هذا في الصفات وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً. تقول: رأيت ليوثاً ولقيت صماً عن الخير، وبجا الإسلام وأضاء الحق.**

فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوي نكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام. كقول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقنف له لبد أظفاره لم تقلم
ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن تومهم صفحاً. قال أبو تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء
ولبعضهم:

لا تحسبوا أن في سرباله رجلاً ففيه غيث وليث مسبل مشبل
وليس لقاتل أن يقول: طوى نكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فانساق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه في حكم المنطوق به. نظيره قول من يخاطب الحاج:

أسد علي وفي الحروب نعاماً فتخاء تنفر من صغير الصافر
ومعنى **﴿لا يرجعون﴾** أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامعين

مدة اشتغالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله: **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾**، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ويتهدوا بها في طرق العيث فاطفاها الله وخيب أمانهم.

فإن قلت: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ قلت: هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تنبيهه.

فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله ﴿فلما أضاءت﴾؟ قلت: نكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف نكر عقيبهم ﴿وتركهم في ظلمات﴾، والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكرها، وكيف اتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمه لا يترأ فيها شبحان وهو قوله: **﴿لا يبصرون﴾.**

فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت: هذا على مذهب قولهم للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح. والفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً. ويقال: ذهب به، إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله أخذه، فلما ذهبوا به إذا لذهب كل إله بما خلق. ومنه ذهب به الخيلاء، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له، فهو أبلغ من الإذهاب، وقرأ اليماني: أذهب الله نورهم. وترك بمعنى طرح وخلق إذا علق بواحد كقولهم: تركه ترك ظبي ظله، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير فيجري مجرى أفعال القلوب كقول عنتره:

فتركته جزر السباع ينشنه

ومنه قوله: **﴿وتركهم في ظلمات﴾** أصله هم في ظلمات ثم نخل ترك فنصب الجزأين، والظلمة: عدم النور، وقيل: عرض ينافي النور، واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا؟ أي: ما منعك وشغلك، لأنها تسد البصر، وتمنع الرؤية، وقرأ الحسن: ظلمات، بسكون اللام: وقرأ اليماني: في ظلمة على التوحيد، والمفعول الساقط من لا يبصرون من قبيل المترك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال لا من قبيل المقدر المنوي كأن الفعل غير متعد أصلاً، نحو يعمهون في قوله: **﴿ويتركهم في طغيانهم يعمهون﴾** (١).

فإن قلت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ قلت: في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتوڑطوا في حيرة.

فإن قلت: وأين الإضاءة في حال المنافق، وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ قلت: المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجرة على السننهم ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم

في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون، وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه؟

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَرَبٌّ يَّجْعَلُونَ أَسْمِعُ مِّنْ ءَادَانِهِمْ مِّنَ الْفَرَقِ حَذَرَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ بِأَلْقَانِهِمْ (١٨).

ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذا ذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشيع. أئند الجاحظ:

ترمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خيفة الرقباء ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات (١) ولا ترى إلى ذي الرمة كيف صنع في قصيدته:

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه أذاك أم خاضب بالسعي مرتعه
فإن قلت: قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فماذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق؟ قلت: لئلا أن يقول شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل نوري صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فإين ذكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما في قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ (٢) والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء؟ وفي قول امرئ القيس:

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكروها العناب والحشف البالي
قلت: كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطوياً نكره على سنن الاستعارة كقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ (٣) ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل (٤). والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة بون المفارقة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل، والمذهب الجزل، بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجرة ذاك فتشبهها بنظائرها. كما فعل امرؤ القيس، وجاء في القرآن. وتشبه

كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها. كقوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ (٥) الآية، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتسايي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب، وكقوله: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (٦) المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فإما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومضرة شيئاً واحداً فلا، فكذا لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفتت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

فإن قلت: الذي كنت تقدره في المفرق من التشبيه من حنف المضاف وهو قولك: أو كمثل نوري صيب، هل تقدر مثله في المركب منه؟ قلت: لولا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره لأنني أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا على أولى حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ (٧) الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره، ومما هو بين في هذا قول لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بهايوم حلوها وغنوا بالاقع
لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية.

فإن قلت: أي التمثيلين أبلغ؟ قلت: الثاني لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخرجوهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

فإن قلت: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلت: أو في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك. ونلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ (٨) أي الأثم والكفور متساويان في وجوب عصيانتهما. فكذا قوله: ﴿أو كصيب﴾ معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن

(٥) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٧) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٨) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٩ - ٢٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٩.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

مكانهما السحاب؟ قلت: إذا كانا في اعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة به فهما فيه. الا تراك تقول: فلان في البلد وما هو منه إلا في حيز يشغله جرمه.

فإن قلت: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالابلاغ كقول البحري:

يا عارضاً متلفعاً ببروده يختال بين بروقه ورعوده وكما قيل: ظلمات. قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً، روعي حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع.

والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق. وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف. وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب. كما قال: أو هم قائلون، لأن المحذوف باقي معناه وإن سقط لفظه. الا ترى إلى حسان كيف عول على بقاء معناه في قوله:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل حيث نكر يصفق لأن المعنى ماء بردى ولا محل لقوله يجعلون لكونه مستأنفاً لأنه لما نكر الرعد والبرق على ما يؤنن بالشدة والهول فكان قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل تلك الرعد؟ فقيل: «يجعلون أصابعهم في آذانهم». ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: يكاد البرق يخطف أبصارهم.

فإن قلت⁽²⁾: رايص الأصبع هو الذي يجعل في الآنن فهلا قيل: أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها. كقوله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم»⁽³⁾ «فاقطعوا أيديهما»⁽⁴⁾ أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ. وأيضاً ففي نكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل.

فإن قلت⁽⁵⁾: فالأصبع التي تسد بها الآنن أصبع خاصة، فلم نكر الاسم العام بون الخاص؟ قلت: لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بأدب القرآن، الا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسبابة والمهلهلة والدعاءة.

فإن قلت: فهلا نكر بعض هذه الكنايات؟ قلت: هي

القستين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فانت مصيب وإن مثلتها بهما جميعاً فكنك. والصيب: المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيب أيضاً. قال الشماخ:

وأسحم داني صانق الرعد صيب وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار في التمثيل الأول. وقرئ: كصائب، والصيب أبلغ.

والسما: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف. فإن قلت: قوله: «من السماء» ما الفائدة في نكره والصيب لا يكون إلا من السماء؟ قلت: الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفي أن يتصوب من سماء أي من أفق واحد من بين سائر الأفاق لأن كل أفق من أفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله، «وإوحى في كل سماء أمرها»، والدليل عليه قوله:

ومن بعد أرض بيننا وسماء والمعنى: أنه غمام مطبق أخذ بأفاق السماء، كما جاء بصيب وفيه مبالغت من جهة التركيب والبناء والتذكير، أمد ذلك بأن جعله مطبقاً وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر، ويؤيده قوله تعالى: «وينزل من السماء من جبال فيها من برد»⁽¹⁾.

فإن قلت: بم ارتفع «ظلمات»؟ قلت: بالنظر على الاتفاق لاعتماده على موصوف.

والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كان أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حلتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد.

والبرق: الذي يلعب من السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع.

فإن قلت: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر فايهما أريد فما ظلماته؟ قلت: أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقاً فظلماته سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل، وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل.

فإن قلت: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد، وإنما

= والحيرة، أو فعلهم يؤثرون في هذه الحال سد آذانهم بالوسطى؛ لأنها أصم للأنن، وأوجب للصوت، لم يلزم اقتصارهم على السبابة، وأما السؤال الثاني فمفرغ على الأول، وقد ظهر بطلانه، وأيضاً ففيه مزيد رككة، إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من نوي الحيرة، فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم بالمسبحات، ولعل السننهم ما سبحت الله قط، ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأنان تصور المحسوسات، فذلك خليق ينكر الصرائح، واجتناب الكنايات والرموز. قوله تعالى: «إن الله على كل شيء قدير».

(1) سورة النور، الآية: 43.
(2) قال أحمد رحمه الله: لأن فيه إشعاراً، بأنهم يبالبغون في إخال أصابعهم في آذانهم، فوق العادة المعتادة في تلك فراراً من شدة الصوت.
(3) سورة المائدة، الآية: 6.
(4) سورة المائدة، الآية: 38.
(5) قال أحمد رحمه الله: لا ورود لهذين السؤالين. أما الأول: فلائنه غير لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة، ولا به فإنها حالة حيرة ودهش، فاي أصبع اتفق أن يسدوا بها، فعلموا غير مرجحين على ترتيب معتاد في ذلك، فنذكر مطلق الأصابع أدل عليه الدهش =

لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزداد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم. وأضاء إما متعدد بمعنى كلما نور لهم ممشى ومسكاً أخذوه، والمفعول محذوف، وإما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم. ﴿مشوا﴾ في مطرح نوره وملقى ضوءه. ويعضده قراءة ابن أبي عبة: كلما ضاء لهم. والمشي جنس الحركة المخصوصة فإذا اشتد فهو سعي فإذا ازداد فهو عو.

فإن قلت: كيف قبل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذا؟ قلت: لأنهم حراس على وجود ما مهمم به معقود من إمكان المشي وتأتيه فكلمة صانفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتجسس. وأظلم يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعداً منقولاً من ظلم الليل، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: أظلم، على ما لم يسم فاعله، وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هما أظلماحالي ثمت أجليا ظلاميها عن وجه امرئ أشيب وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يروي. ألا ترى إلى قول العلماء الليل على بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. ومعنى: ﴿قاموا﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه قامت السوق إذا ركبت، وقام الماء جمداً ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد، لا يكابون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله:

فلوشئت أن أبكي بسألبكيت

وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهاً لاتخذناه من لينا﴾ (2) و ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدأ﴾ (3) وأراد ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ بقصيف الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق. وقرأ ابن أبي عبة: لذهب بأسماعهم، بزيادة الباء. كقوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾ (4) والشيء ما صَحَّ أن يعلم ويخبر عنه. قال سيبويه في ساقاة الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم من العربية: وإنما يخرج التانيث من التذكير. ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أنكز هو أم أنتى، والشيء منكز وهو أعم للعام، كما أن الله أخص الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم. تقول شيء لا كالأشياء، أي معلوم لا كسائر المعلومات وعلى المعلوم والمحال.

فإن قلت: (5) كيف قيل: ﴿على كل شيء قدير﴾؟ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل وفعل قادر آخر!

الفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد وإنما أحثوها بعد. قوله: ﴿من الصواعق﴾ متعلق ببجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. كقولك: سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنفض معها شقة من نار، قالوا تنقذ من السحاب إذا اصطلكت أجرامه وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حثتها سريعة الخمود، يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفت. ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكته، فصعق أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ (1). وقرأ الحسن: من الصواعق، وليس بقلب للصواعق لأن كلا البناءين سواء في التصرف وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله. ألا تراك تقول: صعقه على رأسه، وصقع الديك، وخطيب مصقع مجهر بخطبته. ونظيره جذب في جذب ليس بقلبه لاستهوائهما في التصرف، وينأوها إما أن يكون صفة لقصفه الرعد أو للرعد والتاء مبالغة كما في الرواية، أو مصدرأ كالكاذبة والعافية. وقرأ ابن أبي ليلى: حذار الموت، وانتصب على أنه مفعول له. كقوله:

وأغفر عوراء الكريم انخاره والموت فساد بنية الحيوان وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة. وإحاطة الله بالكافرين: مجاز، والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة، وهذه الجملة اعتراض لا محل لها.

يَكْذِبُ الْبَرُّ يَخْلُفُ أَصْرَهُمْ كَمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَسْأَ يَدٍ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَاتُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠).

والخطف: الأخذ بسرعة. وقرأ مجاهد: يخطف، بكسر الطاء، والفتح أقصح وأعلى. وعن ابن مسعود: يختطف. وعن الحسن: يخطف، بفتح الباء والخاء وأصله يختطف، وعنه: يخطف، بكسرها على اتباع الباء الخاء. وعن زيد بن علي: يخطف من خطف، وعن أبي: يتخطف، من قوله: ويتخطف الناس من حولهم. ﴿كلما أضاء لهم﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صانفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهروا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفت

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 17.

(3) سورة الزمر، الآية: 4.

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع: أما على الأصل، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة، =

= وأما على الفرع فلأننا وإن فرعنا على معتقد القدرية، والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم، الذي يصح وجوده، فلا يتناول المستحيل إذاً على هذا التفريع، فإيراده إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين، وأما المقذور بين قادرين، فإنها ورطة إنما يستاق إليها القدرية، الذين يعتقدون أن ما تعلقت به قدرة العبد، استحال أن يتعلق به للقدرة الرب إذ قدرة العبد خالفة، فيستغني =

ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به وأبصر! قلتُ: هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظانِّ الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقرِّبين هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهاك على استجابة دعوته، والإنان لندائه وأبتهاله.

وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن نو والذي واصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يرفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو أي والاسم التابع له صفته كقولك: يا زيد الظريف، إلا أن أيا لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة. وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لغائبتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أي من الإضافة.

فإن قلتُ: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلتُ: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عبادته من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعدته ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينابوا بالأكّد الأبلغ.

فإن قلتُ: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة. على ما روي عن علقمة والحسن: فالمؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل:

فلو أنني فعلت كنت من تسد إليه وهو قائم أن يقوما
وأما الكفار فلا يعرفون الله ولا يقرّون به فكيف يعبدونه؟ قلتُ: المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها، وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما. وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم ينكر حيث لم

قلتُ: مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلاً فالمستحيل مستثنى في نفسه عند نكر القادر على الأشياء كلها. فكانه قيل: على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره: فلان أمير على الناس، أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه.

فإن قلتُ: مم اشتقاق القدير؟ قلتُ: من التقدير لأنه يوقع فعله على مقدار قوّته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز. لما عند الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، ونكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويريد بها، أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾ وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما إن فلاناً من قصته كيت وكيت فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حَقَّ أن تترجم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي على جادة السداد في مصارك وموارك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيهه واستدعيت إصغاهه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجيته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتتان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع ويستنهش الأنفس للقبول.

يَتَأْتِي النَّاسَ عِبْدُوا رَبِّكُمْ أَلَّا يَرْى عِلْمَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ بَيْنِكُمْ لَمَلَكٌ نَقُورٌ⁽²⁾.

وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة أن كل شيء نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾⁽²⁾ فهو مكّي، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁽³⁾ فهو مني، فقلوه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ خطاب لمشركي مكة، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله أي والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل، وإن قرب تنزيلاً له منزله من بعد فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً.

فإن قلتُ: فما بال الداعي يقول في جواره: يا رب،

= عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أصنق القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قلنا القدرة تتعلق بمقدورها، فتوجد فيكون حينئذ شيئاً فلما كان مأل ما تعلقت به القدرة، إلى الشيء حتماً، صَحَّ إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي من قتل قتيلاً، فله سلبه، وإذا سموا الشيء باسم ما يؤل إليه غالباً فما يؤل إليه حتماً أجبر.

(1) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(2) سورة الزخرف، الآية: 87.

(3) سورة البقرة، الآية: 172.

= الفعل بها عن قدرة خالق آخر: ﴿تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً﴾، وأما أهل السنة، فالقادر الخالق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل، فيخلقه وتتعلق به قدرة العبد تعلق اقتران لا تأثير، فلذلك لم يخلق مقنور بين قادرين على هذا التفسير، وقد حشى الزمخشري في إخراج كلامه هذا، سلب القدرة القديمة وجدها، وجعل الله قادراً بالذات لا بالقدرة بس تلك تحت قوله، وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليقتطن لبغائنه، وكم من ضلالة استسها في هذه المقالة، والله الموفق. فإن قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء =

مالك الملوك ذي العز والكبرياء، أو يجيء على طريق الإطعام دون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (4).

فَإِنْ قُلْتَ: ففعل التي في الآية ما معناها وما موقعها؟ **قُلْتَ:** ليست مما نكرناه في شيء لَّانَّ قوله: ﴿خَلَقَكُمْ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم، لَّانَّ الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسيد أيضاً (5)، ولكن لعل واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة: لَّانَّ الله عزَّ وجلَّ خلق عباده ليتعبد بهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم، وهادهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليرتجى أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل، ومصادقه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (6) وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبهه بالاختيار بناء أمرهم على الاختيار.

فَإِنْ قُلْتَ: كما خلق المخاطبين لعلمهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم دون من قبلهم؟ **قُلْتَ:** لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إراحتهم جميعاً.

فَإِنْ قُلْتَ (7): فهلا قيل تعبدون لأجل عبادوا أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم. **قُلْتَ:** ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: عبادوا ربكم الذي خلقكم للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعد على العبادة وأشد إلزاماً لها وثابت لها في النفوس. ونحوه أن تقول لعبك: احمل خريطة الكتب فما ملكتك يميني إلا لجر الأثقال، ولو قلت: احمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ رِيشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِيشًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَسْلُونَ (١٧).

قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له

ينفعل إلا به، وكان من لوازمه على أن مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿وَلَنُثَبِّتَنَّ سَالَتَهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: فقد جعلت قوله ﴿اعْبُدُوا﴾ متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بازديادها! **قُلْتَ:** الزيادة من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿رَبِّكُمْ﴾ ما المراد به؟ **قُلْتَ:** كان المشركون معتقدين ربوبيتين ربوبية الله، وربوبية آلهتهم. فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً. وكان قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به ربكم على الحقيقة، والذي خلقكم صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة إلا أن الأول أوضح وأصح، والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء. يقال: خلف النعل، إذا قدرها وسواها بالمقياس. وقرأ أبو عمرو: خلقكم بالإدغام، وقرأ أبو السميغ: وخلق من قبلكم. وفي قراءة زيد بن علي: والذين من قبلكم، وهي قراءة مشكلة ووجهها على إشكالها أن يقال: أقم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً، كما أقم جرير في قوله:

يأتيم تيم عدي لا أبالك

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه. وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في لا أبالك. ولعل للترجي أو الإشفاق، تقول: لعل زيدا يكرمني، ولعل يهينني. وقال الله تعالى: ﴿لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١٧) لعل الساعة قريب (٢). ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ (٣) وقد جاءت على سبيل الإطعام في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطعام من كريم رحيماً إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجري أطعامه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به. قال من قال: إن لعل بمعنى كي، ولعل لا تكون بمعنى كي ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك، وأيضاً فمن يدين الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات، أو يخلوا إخالاً أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة. فإذا عثر على شيء من ذلك منهم لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة الشورى، الآية: 17.

(3) سورة الشورى، الآية: 18.

(4) سورة التحريم، الآية: 8.

(5) قال أحمد رحمه الله: كلام سيد إلا قوله، وأراد منهم التقوى والخير، فإنه كلام أبرزه على قاعدة القدرية، والصحيح، والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين، والطلب والأمر عند أهل السنة مباين للإزادة، ألهمنا الله صواب القول وسداده.

(6) سورة الملك، الآية: 2. وسورة هود، الآية: 7.

(7) قال أحمد رحمه الله: كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة، فإنه مفرع على تلك النزعة المتقدمة آنفاً، والعبارة المحررة في ذلك على قاعدة السنة أن يقال: عبادوا ربكم الذي خلقكم على حالة من خلقكم معها، أن تستولوا على أقصى غاية العبادة، وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول، وبينه لكم من البواعث على تقواه، فكان جديراً بكم، أن لا تدعوا من جهدكم في التقوى شيئاً.

ثمرات^(١) ولأن المنكرين أعني ماء ورزقاً يكتنفانه، وقد قصد بتكثيرهما معنى البعضية، فكأنه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهذا هو المطابق لصحة المعنى لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ولا جعل الرزق كله في الثمرات، ويجوز أن تكون للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً.

فإن قلت: فيم انتصب ﴿رزقاً﴾؟ **قلت:** إن كانت من للتبعيض كان انتصابه بأنه مفعول له، وإن كانت مبنيةً كان مفعولاً لأخرج.

فإن قلت: فالثمرات مخرج بماء السماء كثير جم، فلم قيل: الثمرات، نون الثمر والثمار؟ **قلت:** فيه وجهان: أحدهما: أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك: فلان أدركت ثمرة بستانه تريد ثماره، ونظيره قولهم: كلمة الحويدة لقصيدته، وقولهم: للتقرية المدرة، وإنما هي مدر متلاحق.

والثاني: أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقاءها في الجمعية كقوله: ﴿كم تركوا من جنات﴾ و﴿ثلاثة قروء﴾؟ ويعضد الوجه الأول قراءة محمد بن السميع: من الثمرة، على التوحيد. و ﴿لكم﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إليكم.

فإن قلت: بم تعلق ﴿فلا تجعلوا﴾؟ **قلت:** فيه ثلاثة أوجه، أن يتعلق بالأمر أي: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له ﴿انداداً﴾؛ لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد، وأن لا يجعل لله ند ولا شريك، أو بلعل على أن ينتصب تجعلوا انتصاباً قاطعاً في قوله عز وجل: ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾ أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى^(٢) في رواية حفص عن عاصم: أي خلقكم؛ لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه. أو بالذي جعل لكم إذا رفعته على الابتداء، أي: هو الذي خَصَّكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية فلا تتخذوا له شركاء.

والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ، قال جرير:

أنيما تجعلون إلي ندأ وماتيم لذي حسب نديد
وناديت الرجل خالفته ونافرت، من ند ندوداً إذا نفر، ومعنى قولهم: ليس لله ند ولا ضد، نفي ما يسد مسدّه ونفي ما ينافيه.

فإن قلت: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتنأويه! **قلت:** لما تقرّبوا إليها وعظموها وسموها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قاذرة على مخالفته ومضادته، ف قيل لهم: ذلك على سبيل التهكم كما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفزع شأنهم بأن

خلقهم أحياء قادرين، أولاً لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما. ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومقلبه ومقرشه. ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار. ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم ليكون لهم نكح معتبراً ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف، ونعمةً يتعرفونها فيقابلونها بلأزم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها. فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلهما حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر. والموصول مع صلته إما أن يكون في محل نصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم. وإما أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصيب من المدح.

وقرأ يزيد الشامي: بساطاً. وقرأ طلحة: مهاداً. ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده.

فإن قلت: هل فيه دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكربة؟ **قلت:** ليس فيه إلا أن الناس يفتروشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها، وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل.

والبناء: مصدر سمي به المبنى بيتاً كان أو قبةً أو خباءً أو طرافاً، وأبنية العرب أخبيتهم ومنه: بنى على امراته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جديداً.

فإن قلت: ما معنى إخراج الثمرات بالماء، وإنما خرجت بقدرة ومشيتها؟ **قلت:** المعنى أنه جعل الماء سبباً في خروجها ومادة لها، كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء منرجاً لها من حال إلى حال ونقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ورواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبداً وأفكاراً صالحة، وزيادة طمأنينة وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته. ليس نكح في إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب.

ومن: في ﴿من الثمر﴾ للتبعيض بشهادة قوله ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾. وقوله: ﴿فأخرجنا به

قال الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ (2) فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبة، وهلموا نجماً فرداً من نجومه، سورة من أصغر السور أو آيات شتى مفتريات، وهذه غاية التبكيك ومنتهى إزاحة العلل.

وقرىء: على عبدنا، يريد رسول الله ﷺ وأمثه. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي اقلها ثلاث آيات وواوها إن كانت أصلاً فلما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها، ولما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولرهب حزاب وقدسورة في المجدليس غرباها بمطار
لاحد معنيين لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، وهي أيضاً في أنفسها مرتبة طوال وأواسط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه.

فإن قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزيور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور، وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده أن الجنس إذا انحطت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبى وأفخم من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان انشط له واهز لعطفه وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى فرسخاً أو انتهى إلى رأس يريد نفس ذلك منه ونشطه للسير، ومن ثم جزأ القراءة القرآن أسباعاً وأجزاءً وعشوراً وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغضب به، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا (3)، ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل، ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع. ﴿من مثله﴾ (4) متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا أو لعبدنا،

جعلوا انداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ند قط. وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه:

أربأً ولحداً أم الفرب أدين إذا تقسمت الأمور
وقرأ محمد بن السميع: فلا تجعلوا لله نداً.

فإن قلت: ما معنى ﴿وانتم تعلمون﴾؟ قلت: معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صفة تمييزكم بين الصحيح والفساد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير والدعاء والفتنة بمنزل لا تدفعون عنه، وهكذا كانت العرب خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة لا يصطلي بنارهم في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها، ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل: وانتم من أهل العلم والمعرفة والتوبيخ فيه أكد. أي: انتم العارفون المميزون، ثم إن ما أنتم عليه في أمر دينكم من جعل الأصنام لله انداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدّر وانتم تعلمون أنه لا يماثل، أو وانتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو انتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله. كقوله: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ (1).

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأقولوا فوراً من ينزله
وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صديقين (3).

لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويحققها ويبطل الإشراف ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أن من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه، عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراه كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم وينوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته.

فإن قلت: لم قيل ﴿مما نزلنا﴾؟ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم، وهو من محازة لكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً وشيئاً فشيئاً حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة.

(1) سورة الروم، الآية: 40.

(2) سورة الفرقان، الآية: 32.

(3) أخرجه أحمد في المسند 3/245.

(4) قال أحمد رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدي عليهم في

= التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أي: أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً، عجزة عن الإتيان بطائفة منه، وأما على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم، يكون معارضاً للمتحدّي، بأنه يأتي بمثل ما أتى به، أو ببعضه ولا شك أن عجز =

﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا، أو بشهداءكم، فإن علقته بشهداءكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى:

تريك القذى من نونها وهي نونه

أي: تريك القذى قدامها وهي قدام القذى لرققتها وصفائها، وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصلحته غاية التهكم بهم. أو ادعوا شهداءكم من دون الله أي من دون أوليائه ومن غير المؤمنين ليشهدوا لكم أنكم اتيتم بمثله، وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مدارة القوم الذين هم وجوه المشاهد، وفرسان المقالوة والمناقلة، تابى عليهم الطباع وتجمع بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فسادهم واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته. وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز، وإن علقته بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم. يعني: لا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا الله يشهد أن ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه، وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخزالهم، وأن الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبهاً غير قولهم الله يشهد أنا صادقون، وقولهم هذا تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة. وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشي والحمد لله، فقيل له: قولك الحمد لله في هذا المقام ريبة. أو ادعوا من دون الله شهداءكم، يعني: أن الله شاهدكم؛ لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم، والجن والإنس شاهدوكم، فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم. فهو في معنى قوله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن﴾ (٥) الآية. لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسره وامتنياز حقه من باطله قال لهم: فإذا لم تعارضوه، ولم يتسهل لكم ما تبغون، وبن لكم أنه معجز عنه، فقد صرح الحق عن محضه، ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدث به معجزاً، والإخبار بانهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله.

فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهل جاء بإذنا

ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿فاتوا﴾ والضمير للعد.

فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت: معناه فاتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فاتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك، ولكنه نحو قول القبيعري للحجاج وقد قال له: لأحملنك على الأدهم مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب، أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج، ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى: ﴿فاتوا بسورة مثله﴾ (١) ﴿فاتوا بعشر سور مثله﴾ (٢) ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ (٣) ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فها هو أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مربوذاً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أن محمداً منزلاً عليه فها هو قرآناً من مثله. ولأنهم إذا خاطبوا جميعاً وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة.

ومعنى نون: أنى مكان من الشيء. ومنه الشيء الدون وهو النني الحقيق، ونون الكتب إذا جمعتها لأن جمع الأشياء إنباء بعضها من بعض، وتقليل المسافة بينها. يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحط منه قليلاً. وبونك هذا، أصله خذه من بونك، أي من أننى مكان منك، فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب. فقيل: زيد دون عمرو في الشرف والعلم. ومنه قول من قال لعدوه وقد رآه بالثناء عليه: أنا دون هذا وفوق ما في نفسك. واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي حكم إلى حكم. قال الله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ (٤) أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. وقال أمية:

يا نفس ما لك دون الله من واقبي

أي: إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يبق غير.

(3) سورة الإسراء، الآية: 88.

(4) سورة آل عمران، الآية: 28.

(5) سورة الإسراء، الآية: 88.

= الخلاق أجمعين، أبهى من عجز واحد منهم، ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

(1) سورة يونس، الآية: 38.

(2) سورة هود، الآية: 13.

اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد من حيث إنه من نتاجه، لأن من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أربتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد: فاطيعوني واتبعوا أمري وأفعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار مناً به وإبرازه في صورته مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتقطيع أمرها.

والوقود: ما ترفع به النار، وأما المصدر فمضموم وقد جاء فيه الفتح. قال سيبويه: وسمعنا من العرب من يقول: وقدت النار وقوداً عالياً، ثم قال: والوقود أكثر، والوقود الحطب، وقرأ عيسى بن عمر الهمداني: بالضم، تسمية بالمصدر كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده، ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط. أي: ليست حياته إلا به، فكان نفس السليط حياته.

فإن قلت: صلة الذي والتي يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت: لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب أو سمعوه من رسول الله ﷺ أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾⁽¹⁾.

فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكراً في سورة التحريم وهنا معرفة؟ قلت⁽²⁾: تلك الآية نزلت بمكة فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾؟ قلت: معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها لا تنقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولاً بوقود، ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماءه، وتلك أعاننا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ما يحرق ويحمى بالنار، وبأنها لإفراط حرها وشدة نكلها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها.

فإن قلت: نار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ قلت: بل هي نيران شتى منها نار توقد بالناس والحجارة يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾⁽³⁾ ﴿فانذرتكم ناراً تلتظى﴾⁽⁴⁾ ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أن لكفرة الإنس ناراً وقودها هم جزء لكل جنس بما يشاكله من العذاب.

فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة

الذي للوجوب دون إن الذي للشك؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حسابهم وطمعهم وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لتالكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً به.

﴿إِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا وَلَنْ تَنْعَمُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽⁵⁾.

فإن قلت: لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه؟ قلت: لانه فعل من الأفعال تقول: أتيت فلاناً. فيقال لك: نعم ما فعلت. والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه. ألا ترى أن الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا وشتمته ونكلت به، ويعدّ كيفيات وأفعالاً فتقول له: بشما فعلت. ولو نكرت ما أنبته عنه لطال عليه، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تاتوا بسورة من مثله ولن تاتوا بسورة من مثله.

فإن قلت: ﴿ولن تفعلوا﴾ ما محلها؟ قلت: لا محل لها لأنها جملة اعتراضية.

فإن قلت: ما حقيقة ﴿لن﴾ في باب النفي؟ قلت: لا ولن أختان في نفي المستقبل إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك: لا أقيم غداً. فإن أنكرك عليك قلت: لن أقيم غداً، كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروایتين عنه أصلها لا أن. وعند الفراء لا أبليت ألفها نوناً وعند سيبويه وإحدى الروایتين عن الخليل حرف مقتضب لتأكيد نفي المستقبل.

فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقضوه إذ خفاء مثله فيما عليه مبني العادة محال لا سيما والطاعنون فيه أكثر عدداً من الذابيين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة.

فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم ياتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صبح عندهم صق رسول الله ﷺ، وإذا صبح عندهم صبقه ثم لزموا العناد ولم يتقاضوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار ف قيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع ﴿فاتقوا النار﴾ موضعه لأن

(1) سورة التحريم، الآية: 6.

= القصة المشهورة أصبق شاهد على ذلك، فالظاهر أن الزمخشري وهم في نقله، أنها مكية.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) سورة التحريم، الآية: 6.

(4) سورة الليل، الآية: 14.

(2) قال أحمد رحمه الله: يعني بالآية: قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾، لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين، أن سورة التحريم مننية، وما اشتعلت عليه من

معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق، ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بلحساني إليهم، وفي قراءة زيد بن علي رضي الله عنه: وبشر، على لفظ المبني للمفعول عطفاً على أعدت، والبشارة الإخبار بما يظهر سرور المخبر به. ومن ثم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أَيْكُم بِشَرْنِي بِقُدُومِ فَلَانٍ فَهُوَ حَرٌّ، فبشروه فرادى، عتق أولهم لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره نون الباقيين. ولو قال مكان بشرنِي: أخبرني، عتقوا جميعاً، لأنهم جميعاً أخبروه. ومنه البشارة لظاهر الجلد، وتبشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما فبشروهم بعذاب اليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتآلمه واغتمامه كما يقول الرجل لعنوه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك. ومنه قوله: فاعتبوا بالصيلم والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. قال الحطية:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني
والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة واللام للجنس.
فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟

قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه.

فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف. والجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه. قال زهير:

تسقي جنة سحفاً

أي: نخلاً طوالاً. والتركيب دائر على معنى الستر، وكأنها لتكاثرها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرة من مصدر جنه إذا ستره كأنها سترة واحدة لفرط تنافقها، وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان.

فإن قلت: الجنة مخلوقة أم لا؟ قلت: قد اختلف في ذلك

معههم وقوداً قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعيبروها من دونه قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (1). وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (2) في معنى الناس والحجارة ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (3) في معنى وقودها. ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دونه أن الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستشفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم، جعلها الله عذابهم فقرنهم بها محمأة في نار جهنم إبلاغاً في إيلامهم وإغراقاً في تحسيرهم، ونحوه ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهابهم وفستهم عذةً ونخيرةً فشحوا بها ومنعوها من الحقوق حيث يحى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل. ﴿أَعْتَدْتُ﴾ هيئت لهم وجعلت عذةً لعذابهم. وقرأ عبد الله: أَعْتَدْتُ مِنَ الْعَتَادِ بِمَعْنَى الْعُدَّةِ. من عانته عَزَّ وَجَلَّ في كتابه أن ينكر الترغيب مع التهريب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتشبيب عن اقتراف ما يلف، فلما نكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَبِّهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ تُنْظَرُ وَهُمْ فِيهَا خالدون (١٥).

فإن قلت: من المأمور بقوله تعالى: ﴿وبشِّر﴾؟ قلت: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ وأن يكون كل أحد كما قال عليه الصلاة والسلام: «بشِّر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة» (4). لم يامر بذلك واحداً بعينه وإنما كل أحد مأمور به، وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وقمامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به.

فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام الحديث رقم: (561)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة =

= الحديث رقم: (223)، وفي كشف الاستار كتاب: الصلاة، باب: المشي إلى المساجد في الظلم الحديث رقم: (432) عن أبي موسى، وأخرجه ابن ماجه عن أنس في كتاب المساجد والجماعات، باب: المشي إلى الصلاة الحديث رقم: (781)، وحديث سهل الحديث رقم: (780)، والحاكم في المستدرک عن أنس وسهل 212/1.

والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالاعلام كالنبي والرسول والكتاب ونحوها.

فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان.

فإن قلت: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر، وأن لا ينعدم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية فهلا شرط ذلك؟ قلت: لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء إذا لم يتعقبه مما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً وأعلم بقوله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾⁽¹⁾ وقال تعالى للمؤمنين: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم﴾⁽²⁾ كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالدخل تحت النكر.

فإن قلت: كيف صورة جري الأنهار من تحتها؟ قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وعن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وإنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظلمة والأنهار في خلالها مطردة. ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت أنقى شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء؛ وإلا كان الانس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً وكانت كتمائيل لا أرواح فيها وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشبيين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعمتها. والنهر المجري الواسع فوق الجدول ودون البحر. يقال لبردى: نهر دمشق. وللنيل: نهر مصر. واللغة العالية النهر بفتح الهاء ومدار التركيب على السعة، وإسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازي كقولهم: بنو فلان يطؤون الطريق وصيد عليه يومان.

فإن قلت: لم نكرت الجنات وعرفت الأنهار؟ قلت: أما تنكير الجنات فقد ذكر، وأما تعريف الأنهار فإن يراد الجنس كما تقوله لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب، واللوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم

المخاطب. أو يراد أنهارها فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾⁽³⁾ ويشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾⁽⁴⁾ الآية. وقوله: ﴿كلما رزقوا﴾ لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس. فقيل: إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها، وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله.

فإن قلت: ما موقع ﴿من ثمرة﴾؟ قلت: هو كقولك كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك، فموقع من ثمرة موقع قولك: من الرمان. كانه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو غيرها أو غير ذلك رزقاً قالوا ذلك، فمن الأولى والثانية كلتاهما لا ابتداء الغاية لأن الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة، وتنزيله تنزيل أن تقول: رزقني فلان فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من رمان. وتحريره أن رزقوا جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار، ووجه آخر وهو أن يكون من ثمرة بياناً على مناج قولك: رأيت منك أسداً، تريد أنت أسداً، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار والجنات الواحدة.

فإن قلت: كيف قيل ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل⁽⁵⁾ وشبهه. ببديل قوله: ﴿واتوا به متشابهاً﴾⁽⁶⁾ وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كان ذاته ذاته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿واتوا به﴾؟ قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً. لأن قوله: هذا الذي رزقنا من قبل انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾⁽⁷⁾. أي بجنسي الغني والفقير. لدلالة قوله: ﴿غنياً أو فقيراً﴾ على الجنسيتين، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقيل: أولى به على التوحيد.

فإن قلت: لاي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما

= مراتب التشبيه، كقولهم أبو يوسف، أبو حنيفة.

(6) سورة البقرة، الآية: 25.

(7) سورة النساء، الآية: 135.

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

(2) سورة الحجرات، الآية: 2.

(3) سورة مريم، الآية: 4.

(4) سورة محمد، الآية: 15.

(5) قال أحمد رحمه الله: وهذا من التشبيه بغير الأداة، وهو أبلغ =

يكتسب بآنفسهن، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة، ومن سائر عيوبهن ومثالهن وخبثهن وكيدهن.

فإن قلت: فهلا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ **قلت:** هما لغتان فصيحتان يقال: النساء فعلن، وهن فاعلات وفواعل والنساء فعلت، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة:

وإذا العذاري بالسخان تقنعت واستعجلت نصب القبور فملت

والمعنى: وجماعة أزواج مطهرة، وقرأ زيد بن علي: مطهرات. وقرأ عبيد بن عمير: مطهرة، بمعنى مطهرة. وفي كلام بعض العرب: ما أحوجني إلى بيت الله فاطهر به أطهرة. أي فاطهر به تطهرة.

فإن قلت: هلا قيل: طاهرة؟ **قلت:** في مطهرة فعامة لصفتهن ليست في طاهرة وهي الإشعار بأن مطهرة طهرهن، وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم.

والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَ فُهِمَ الْخَالُونَ﴾⁽¹⁾. وقال امرؤ القيس:

ألا ناعم صلباً أيها الطفل البالي وهل ينعم من كان في العصر الخالي
وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الْآلِيَةُ فَآمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الْآلِيَةُ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾⁽²⁾.

سقت هذه الآية لبيان أن ما استكره الجهلة والسفهاء، وأهل العناد والمراء من الكفار واستغريه، من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإنشاء المتوهم من المشاهد. فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذا، إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له. وتستجره إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ كيف تمثل له بالضياء والنور، وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة، ولما كانت حال الأكلية التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلاً في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي نوبها مثلاً لم يستنكر، ولم

بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر؟ **قلت:** لأن الإنسان بالمؤلف آنس وإلى المجهود أميل، وإذا رأى ما لم يالغه نفر عنه طبعه. وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقنن له معه ألف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أفرط ابتهاجه واعتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقيق مقدار الغبطة به؛ ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين، فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكن، والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر. كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا، وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة بسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما، وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان. عن مسروق: «نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عانت مكانها أخرى، وإنهارها تجري في غير أخدود، والعنقود اثنتا عشرة ذراعاً». ويجوز أن يرجع الضمير في أتوا به إلى الرزق كما أن هذا إشارة إليه، ويكون المعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه. كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة لياكلها فما هي بواصلة إلى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلاًها»⁽¹⁾. فإذا أبصروها، والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك والتفسير الأول هو هو.

فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مَثَابَهُا﴾ من نظم الكلام؟ **قلت:** هو كقولك: فلان أحسن بفلان، ونعم ما فعل ورأى من الرأي كذا وكان صواباً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُنْثَىٰ وَكَنتَ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير.

والمراد بتطهير الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من الأقذار والأناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا مما

(2) سورة النمل، الآية: 34.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 34.

(1) كشف الاستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في ثمار الجنة الحديث

رقم: (3530).

الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير منتكس القوة منتقص الحياة. كما قالوا: هلك فلان حياة من كذا، ومات حياة، ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء، وذاب حياة، وجعد في مكانه خجلاً.

فإن قلت: كيف جاز وصف القديم سبحانه به⁽¹⁾، ولا يجوز عليه التغير، والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردّهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً»⁽²⁾؛ قلت: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخيب العبد، وأنه لا يردّ يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج إليه حياة منه. وكذلك معنى قوله: «إن الله لا يستحي» أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بدیع وطرّاز عجيب منه قول أبي تمام: من مبلغ أقاء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل وشهد رجل عند شريح فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعد عني. فقال: لله بلانك، وقبل شهادته. فالذي سورج بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار وسبوبة الشهادة لامتنع تجعيدها، وله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه، وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه.

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كزعن⁽³⁾ بسبت⁽⁴⁾ في إناء من الورد وقرأ ابن كثير في رواية شبل: يستحي، بياء واحد، وفيه لغتان التعدي بالجار، والتعدي بنفسه. يقولون: استحييت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا. وضرب المثل اعتماده، وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وفي الحديث: اضطرب رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب⁽⁵⁾ وهما

يستبدع، ولم يقل للمتمثل استحي من تمثيلها بالبعوضة لأنه مصيب في تمثله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه محتج على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، وليبان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بنظر العقل إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحتها، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون، ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أنّ حب الرياسة، وهوى الآلف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا. وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وإنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وإنهمك الفاسقين في غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبيوتهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء، فقالوا: أجمع من نزة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة، وأكل من السوس، وقالوا: في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض، ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة: كالزوان والنخالة، وحب الخردل والحصاة والأرضة واللود والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء بأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أننى مسكة، ولكن يبدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل، ولا متشبث بأمانة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن أعمال الحيلة بدفع الواضح، وإنكار المستقيم، والتعويل على المكابرة والمغالطة: إذا لم يجد سوى ذلك معولاً، وعن الحسن وقتادة: لما نكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية. والحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، واشتقاقه من الحياة. يقال: حيي الرجل. كما يقال: نسي وحشي وشظي الفرس؛ إذا اعتلت هذه الأعضاء جعل

رقم: (3556)، واللفظ له بون حتى يضع فيهما خيراً، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء باب: رفع اليدين في الدعاء، الحديث رقم: (3865)، والحاكم في المستدرک 1/ 497 عن سلمان وعبد الرزاق في مصنفه عن أنس 251/2 الحديث رقم: (3250) كتاب الصلاة، وأبو نعيم في الحلية 7/ 254، وأخرجه الحاكم عن أنس 1/ 498، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق (7)، باب الادعية، حديث رقم: (876).

(3) الرعن: موضع لين.

(4) سبت: أصله من السبات؛ وهي الراحة.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: من جعل فص الخاتم في بطن كفه الحديث رقم: (5876). بلفظ: «أن النبي ﷺ اصطنع خاتماً من ذهب».

(1) قال احمد رحمه الله: ولقائل أن يقول، ما الذي دعاه إلى تأويل الآية، مع أنّ الحياء الذي يخشى، نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب في الآية، كقولنا: لا ليس بحسم، ولا بجوهر في معرض التنزيه والتقييس، وأما تأويل الحديث فمستقيم؛ لأنّ الحياء فيه ثبت لله تعالى، وللمؤمن خشي أن يجيب بأن السلب في مثل هذا، إنما يطرا على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه، إذ مفهوم نفي الاستحياء عنه في شيء خاص ثبوت الاستحياء في غيره، فالحاجة داعية إلى تأويله لما اقتضى إليه مفهومه، وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً، كقولنا: الله لا يحول ولا يزول، فإنّ ذلك لا يثبت ومحال، بل يقال: هو مقدس منزّه مطلقاً.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء الحديث رقم: (1488)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (105) الحديث

هذه إيهامية⁽¹⁾ وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إيهاماً وزانته شيعاً وعموماً. كقولك: أعطني كتاباً ما تريد: أي كتاب كان، أو صلة للتأكيد كالتي في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ كأنه قيل لا يستحي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة هذا إذا نصبت «بعوضة»، فإن رفعتها فهي موصولة صلتها الجملة؛ لأن التقدير هو بعوضة فحذف صدر الجملة كما حذف في تماماً على الذي أحسن ووجه آخر حسن جميل وهو أن تكون⁽²⁾ التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات. قال: إن الله لا يستحي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة، مثلاً بله البعوضة فما فوقها. كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما ينار وبيناران. والمعنى أن الله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل. كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ، وبما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه أو بالمعذوم. كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد. ولقد ألم به قوله تعالى: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من لونه من شيء﴾⁽³⁾ وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج وهو أمضغ العرب للشيع، والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه وهو المطابق لفصاحته، وانتصب بعوضة بأنها عطف بيان لـ «مثلاً» أو مفعول لـ «يضرب»، ومثلاً حال عن النكرة مقدّمة عليه أو انتصبا مفعولين فجري ضرب مجرى جعل، واشتقاق البعوض من البعوض، وهو

(1) قال أحمد رحمه الله: وفيها وهم إمام الحرمين في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام: «ليما امرأة تكحت بغير إذن ولها»... الحديث، فإنه قرر للعموم والإيهام في أي، ثم قال فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم، فاعتقد أن المؤكدة هي الشرطية، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض، وأما ما الشرطية، فاسم كمن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: جعلها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرره فيه نظر، لأن قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ في الحقارة، فيكون معناه فما دونها، وأما أن يراد به فما هو أكبر منها حجماً، وعلى كلا التقديرين يتقرر الاستفهام؛ لأنه إنما يستعمل في مثل ما ينار وبيناران أي إذا جاد بالكثير، فما القليل وإذا ذهب في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالاً، إذ يكون المراد: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالمحقرات، فما البعوضة، وما هو أحقر منها، وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات، وفي الوجه الآخر ليست نهاية، بل النهاية في قوله: ﴿فما فوقها﴾ أي: دونها، فإذا حمل ما يعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم ينظم التنبيه المذكور، بل ينعكس الغرض فيه، إذ المقصود في مثل قولنا: فلان لا يبالي بعباءة الألوف، فما الديار الواحد التنبيه، على أن إعطائه القليل منه محقق بعباءة الكثير، بطريق الأولى، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير، أنه لا يستحي من ضرب المثل بالمحقرات، التي لا تبلغ النهاية، فكيف يستحي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة، كالبعوضة هذا عكس لنظم الأولوية، ولو كانت الآية مثلاً وأردت على غير هذا التكلم، كقول=

القطع كالبيضع، والغضب. يقال: بعضه البعوض، وأنشد:

لنعم البيت بيت أبي نثار إذا ما خاف بعض القوم بعضاً

ومنه بعض الشيء لأنه قطعه منه، والبعوض في أصله صفة على فاعول كالقَطوع فغلبت، وكذلك الخُموش: ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان: أحدهما فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة. نحو قولك لمن يقول فلان أسفل الناس وأنزلهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة، والثاني فما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك وقد نَمَ من عرفته يشح بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه، تريد بما فوقه ما بخل فيه، وهو الدرهم والدرهمان. كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين. ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم، عن الأسود قال: نخل شباب من قرش على عائشة رضي الله عنها وهي بمئى، وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرّ على طنب فسطاط فكانت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا، إني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»⁽⁴⁾. يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة، وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أصاب مؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياها حتى نخبة

= القائل: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالبعوضة، التي هي نهاية في الحقارة، فما الانعام التي هي أبهى من البعوضة، أو أبعد منها عن الحقارة، بما لا يخفى، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً وما أراه والله أعلم، إلا وأما في هذا الوجه، وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه، إلا أنه محل ضيق، ومعنى متعاض لا يخلص إلى القهم، إلا بهذا المزيد من البسط، ونهايك بموضع العكس على فهم الزمخشري، بل مع تعوّذ فهمه وإصابة نسجه خصوصاً في تنسيق المعاني، وتقصيلها، والله الموفق، وما توجهه بالعمور على الوجه الذي ظن أن رؤية بن العجاج رعاه في قراءته، فكلام ريك تروهم أن القراءة موكولة إلى رأي القارىء، وتوجيه لها، ونصرت بالعربية، وفصاحتها في اللغة، وليس الأمر كذلك، بل القراءة على اختلاف وجوها، ويعد حروفها سنة تتبع وسماع يقضي بنقله الفصيح، وبغيره على حدّ سواء، لا حيلة للفصيح في تعمس شيء منه، عما سمعه عليه، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بند كل فصاحة، وعزل كل بلاغة، فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول، إلا عما سمعه، فوعاه وتلقنه من الأقواء، فأداه إلى أن ينتهي ذلك إلى استماع من أقصص من نطق بالضاد سينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتأمل هذا الفصل، فإن فاهمه قليل.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(4) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها الحديث رقم: (6506).

مرفوعاً وعلى الثاني منصوباً ليطابق الجواب السؤال، وقد جَوَزُوا عكس ذلك. كما تقول في جواب من قال: ما رأيت خير، أي المرثي خير. وفي جواب ما الذي رأيت خيراً، أي رأيت خيراً. وقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾⁽⁶⁾ بالرفع والنصب على التقديرين.

والإرادة: نقيض الكراهة وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك، وفي حدود المتكلمين الإرادة معنى يوجب للحی حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه نون وجه، وقد اختلفوا في إرادة الله فيعصمهم على أن للباري مثل صفة المرید منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالمًا غير ساء، وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها، وهو غير ساء ولا مكره، ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها، والضمير في أنه الحق للمثل أو لأن يضرب. وفي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ استبدال، واستحقاق. كما قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاصي: يا عجباً لابن عمرو هذا! ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز كقولك: لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً؟ ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً؟ أو على الحال، كقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ﴾⁽⁷⁾ آية. وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بـ «أما»، وأن فريق العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم يكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأن الجهل بحسن موده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خطاً في ظلماتهم.

فإن قلت: لم وصف المهديين بالكثرة⁽⁸⁾ والقلة صفتهم، وقليل من عبادي الشكور وقليل ما هم الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة وجدت الناس أخير ثقله! قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم وحين يوصفون بالقلة؛ إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً فإن القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة قسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً.

إن الكرام كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب،

النملة⁽¹⁾؛ وهي عضتها، ويحتمل ما هو أشد من الشوكة. وأوجع كالخزير على طنب القسطاط.

فإن قلت: كيف يضرب المثل بما نون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت: ليس كذلك فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للدنيا⁽²⁾ وفي خلق الله حيوان أصغر منها، ومن جناحها. ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة نوبية لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواربها، ثم إذا لوحت لها بيك حانت عنها وتجنبت مضرتها، فسيحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة. وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾⁽³⁾. وأنشدت لبعضهم:

يا من يرى مذبذبع جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها⁽⁴⁾ في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته⁽⁵⁾ ما كان منه في الزمان الأوّل

﴿وَأَمَّا﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائضته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد. تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبيويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدلل لفائضتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدرتين به، وإن لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون: إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء. ﴿وَالْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره. يقال: حق الأمر إذا ثبت ووجب، وحقت كلمة ربك، وثوب محقق محكم النسج. ﴿وَمَاذَا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي فيكون كلمتين، وأن يكون ذا مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة، فهو على الوجه الأوّل مرفوع المحل على الابتداء، وخبره ذا مع صلته، وعلى الثاني منصوب بالمحل في حكم ما وحده. لو قلت: ما أراد الله، والأصوب في جوابه أن يجيء على الأوّل

(1) لم أجده، قال ابن حجر، وأصل الحديث نون ما في آخره مروى بطرق كثيرة، وقال الزيلعي: غريب جداً.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل الحديث رقم: (2320).

(3) سورة يس، الآية: 36.

(4) نياطها: موتها.

(5) فرطاته: أي ضيّع ما عنده فلم يعمل له.

(6) سورة البقرة، الآية: 219.

(7) سورة الاعراف، الآية: 73.

(8) قال أحمد رحمه الله: جوابه صحيح وتنظيره بالبيت، وهم لأن =

= الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام، وإن كان قليلاً منهم في نفسه، فالواحد منهم لعموم نفعه. وانبساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً، وعدد اللئام، وإن كثروا فالأكثر منهم يعلون بواحد من غيرهم، لغل أبيهم، وانقباضها عن الجواد، وعدم تعذي نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن زيد:

الناس ألف منهم كواحد وواحد كالف إن أمر عرا

وأما الآية، فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه، ومضمون الآيات الأخر، وأن عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فغير عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

والعهد: الموثق، وعهد إليه في كذا إذا وصاه به ووثقه عليه، واستعهد منه إذا اشترط عليه واستوثق منه، والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبار اليهود المتعنتون أو منافقوهم أو الكفار جميعاً.

فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كآته أمر وصاهم به، ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألا يدعوا لله شركاء﴾ (3) أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصنقه الله بمعجزاته صنفوه واتبعوه ولم يكتفوا بآياته فيما تقدمه من الكتب المنزلة عليهم كقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ (4). وقوله في الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه: (سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل وما أريته إياهم من الآيات وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به وما ضيعوا من عهدي إليهم وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهدهم ونصره إياهم وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غنروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهدهم) لأن اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد ﷺ من التحريف والجور، وكفروا به كما كفروا بمحمد ﷺ، وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغي بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأول الذي أخذه على جميع نرية آدم الإقرار بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك﴾ (5)، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة، وقيموا الدين، ولا يتفرقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ (6)، وعهد خص به العلماء، وهو قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه﴾ (7). والضمير في ميثاقه للعهد، وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله والزامه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه كما أن الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى أي من بعد توثيقه عليهم أو من بعد ما وثق به عهده من آياته، وكتبه، وإنذار رسله. ومعنى قطعهم ﴿وما أمر الله به أن يوصل﴾. قطعهم الأرحام وموالات المؤمنين. وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد، والاجتماع على الحق في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض.

لأنه (1) لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم. وعن مالك بن دينار رحمه الله: أنه نخل على محبوبس قد أخذ بمال عليه وقيد فقال: يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود. فرفع مالك رأسه فرأى سلة فقال: لمن هذه السلة؟ فقال: لي. فأمر بها تنزل، فإذا بجاج وأخبصة. فقال مالك: هذه وضعت القيود على رجلك. وقرأ زيد بن علي: يضل به كثير، وكذلك، وما يضل به إلا الفاسقون.

والفسق: الخروج عن القصد. قال رؤية:

فواسقاً عن قصد ما جوارثا

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين أي بين منزلة المؤمن والكافر. وقالوا: إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة وأصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه، وكونه بين بين أن حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث، ويفسل ويصلى عليه، وينفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وإن لا تقبل له شهادة، ومذهب مالك بن أنس والزيدية أن الصلاة لا تجزئ خلفه، ويقال للخلفاء: المردة من الكفار الفسقة، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان يريد اللزم، والتنازع: إن المنافقين هم الفاسقون.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُؤْصَلَ رُبُّهُمْ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٢٧).

النقض: الفسخ، وفك التركيب.

فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحيل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان، في بيعة العقبة: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبلاً ونحن قاطعوها فنخشى أن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك (2)، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يستكثروا عن نكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روائفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفتسر أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراس.

= به مثله، ونظير صار به حادثاً عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة، نسال الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة، وهو ولي التوفيق.

(2) أخرجه أحمد في المسند، 3/ 461-462.

(3) سورة الأعراف، الآية: 172.

(4) سورة البقرة، الآية: 40.

(5) سورة الأعراف، الآية: 172.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 7.

(7) سورة آل عمران، الآية: 187.

(1) قال أحمد رحمه الله: جرى عن سنة السببية في اعتقاد، أن الإشراك بالله، وإن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل، بل من مخلوقات العبد لنفسه، على زعم هذه الطائفة تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وانظر إلى ضيق الخلق، فغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ، فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى، واقتحام الهلكة، وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الإضلال، لا خالفه كما أن السلة سبب في وضع القيود في رجل المحبوس، وإنسان الفلح الله عز وجل مجاز لا حقيقة كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك يا له في تمثيل صار =

فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة، فما وجه صحته؟ قلت: قد نكرنا أن معنى الاستفهام في كيف الإنكار، وإن إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه.

فإن قلت: إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتاً فاحياهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلت: قد تمكنوا من العلم بها بالدلائل الموصلة إليه فكان ذلك بمنزلة حصول العلم، وكثير منهم علموا ثم عانوا.

والأموات: جمع ميت كالأقوال في جمع قيل.

فإن قلت: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جماداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى؟ قلت: بل يقال ذلك لعالم الحياة كقوله: «بلدة ميتة»⁽¹⁾ «وآية لهم الأرض الميتة»⁽²⁾ أموات غير أحياء، ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح، ولا إحساس.

فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر، وبالرجوع النشور، وأن يراد به النشور وبالرجوع المصير إلى الجزاء.

فإن قلت: لم كان العطف الأول بالفاء، والإعقاب بـ «ثم»؟ قلت: لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت؛ إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمعه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور.

فإن قلت: من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي نكرها الله لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً لأن ما عنده آيات وهي مع كونها آيات من أعظم النعم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْرَوَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَكَرَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يَكْفِي عَنِ الْعَالَمِ^(٣٦)

«لكم» لاجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم، ودينكم، أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأما الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة وبنوائها وعقابها لاشتماله على أسباب الانس واللذة من فنون المطاعم، والمشارب والفواكه والمناجك والمراكب والمناظر الحسنة البهية. وعلى أسباب الوحشة، والمشفقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغوم والمخاوف، وقد استدلل بقوله: «خلق لكم» على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها⁽³⁾ ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقاً لكل

فإن قلت: ما الأمر؟ قلت: طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور. لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به، فقيل له: أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به. كما قيل له: شأن، والشأن الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده «هم الخاسرون» لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بنوائها.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣٧)

معنى الهمزة التي في «كيف» مثله في قولك: أتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟

فإن قلت: قولك: أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر بغير مستحيل مع ما نكر من الإماتة والإحياء. قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوي من الصارف عن الكفر، والداعي إلى الإيمان.

فإن قلت: فقد تبين أمر الهمزة، وأنه لإنكار الفعل والإيدان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه. فما تقول في كيف، حيث كان إنكار الحال التي يقع عليها كفرهم. قلت: حال الشيء تابعة لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال، فكان: إنكار حال الكفر لأنها تتبع ذات الكفر وريفيها إنكاراً لذات الكفر وثبوتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ. وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو: في قوله: «وكنتم أمواتاً» للحال.

فإن قلت: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض ولا يقال: جئت وقام الأمير، ولكن وقد قام لا أن يضمّر قد. قلت: لم تدخل الواو على كنتم أمواتاً وحده، ولكن على جملة قوله: «كنتم أمواتاً» - إلى - «ترجعون» كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وقصصكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم، فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم بعد الموت ثم يحاسبكم.

فإن قلت: بعض القصة ماض وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟ قلت: هو العلم بالقصة. كأنه قيل: كيف تكفرون، وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها؟

(1) سورة الفرقان، الآية: 49.

(2) سورة يس، الآية: 33.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهب، إلى أن

حكم الله تعالى الإباحة في نوات المنافع، التي لا يدل العقل على=

وَقَدْ دُسَّ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

أحد أن يتناولها ويستمتع بها.

فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها، وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. و﴿جميعاً﴾ نصب على الحال من الموصول الثاني.

والاستواء: الاعتدال والاستقامة. يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل. ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾^(١) أي قصد إليها بإرادته ومشيتته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد بالسماء جهات العلو. كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. والضمير في ﴿فسواهن﴾ ضمير مبهم. و﴿سبع سموات﴾ تفسيره كقولهم: ربه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، والسماء في معنى الجنس. وقيل: جمع سماء، والوجه العربي هو الأول، ومعنى تسويتهن تعديل خلقهن، وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهن. وهو بكل شيء عليم. فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم.

فإن قلت: ما فسرته به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه ثم لإعطائه معنى التراخي والمهلة؟ قلت: ثم هنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السموات على خلق الأرض لا للتراخي في الوقت كقوله: ثم كان من الذين آمنوا. على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به لأن المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك أي في تضاعيف القصد إليها خلقاً آخر.

فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاهم﴾^(٢) اقلت: لا لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء، وأما دحاهم فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهينة الفهر عليها بخان ملتزق بها ثم أوسع الدخان، وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله: ﴿كانتا رتقا﴾^(٣) وهو الالتزاق.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

﴿وإذ﴾ نصب بإضمار انكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا. والملائكة جمع ملاك على الأصل كالشمال في جمع شمائل والحق التاء لتأنيث الجمع. و﴿جاعل﴾ من جعل الذي له مفعولان سخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله: ﴿في الأرض خليفة﴾ فكانا مفعوليه، ومعناه مصير ﴿في الأرض خليفة﴾ والخليفة من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم. لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم، وذريته. فإن قلت: فهلا قيل خلائف أو خلفاء؟ قلت: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما استغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم، أو أريد من يخلفكم أو خلفاً يخلفكم، فوجد لذلك، وقرئ خليفة بالقف، ويجوز أن يريد خليفة مني لأن آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي إذا جعلنا خليفة في الأرض. فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. ﴿أتجعل فيها﴾ تجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير.

فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض. فافسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.

وقرئ يسفك، بضم الفاء. ويسفك ويسفك من أسفك وسفك.

والواو في ﴿ونحن﴾ للحال كما تقول: اتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان، والتسبيح تعبيد الله عن السوء. وكذلك تقديسه من سبح في الأرض والماء، وقس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. و﴿بحمك﴾ في موضع الحال أي: تسبح حامدين لك وملتبسين بحمك لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك. ﴿أعلم ما لا تعملون﴾ أي: أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم.

= الأشياء، فإن دلت الآية على الإباحة، فنحن نقول بموجبها، ويكون إذا إباحة شرعية سميعة، وإن لم تدل على الإباحة، لم يبق في الاستدلال بها مطمح.

(1) سورة البقرة، الآية: 29.

(2) سورة النازعات، الآية: 30.

(3) سورة الانبياء، الآية: 30.

= تحريمها قبل ورود الرسل تلقياً من العقل، وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق، داعية إليها، فحلها مع خطرهما على العباد خلاف مقتضى الحكمة، فوجب عندهم بمقتضى العقل، أن يعتقوا إباحتها في حكم الله عز وجل، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقيح الباطلة، وأما استدلال الزمخشري لهذه الفقرة بالآية، فغير مستقيم، فإن دعواهم أن العقل كافٍ في إباحة هذه

أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك، وبين لهم بعض ما أجمل من نكر المصالح في استخلافهم في قوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾⁽⁴⁾ وقوله: ﴿الم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون﴾ استحضار لقوله لهم: إني أعلم ما لا تعلمون. إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح.

وقرىء: وعلم آدم، على البناء للمفعول. وقرأ عبد الله: عرضهن، وقرأ أبي: عرضها، والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها، لأن العرض لا يصح في الأسماء.

قَالَ يَكَاذِبُ أَتَنَبَّأُ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَتْلُكُمْ لَكُمْ إِنْ أَتَمُّ عَيْبَ السُّبُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ⁽³⁷⁾

وقرىء: أنبيهم، بقلب الهمزة ياءً، وأنبيهم بحذفها، والهاء مكسورة فيهما.

وَإِذْ لَمَّا لِلْمَلِكَةِ أُسْجِدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ⁽³⁸⁾

السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة، كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف وإخوته له، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه، وقرأ أبو جعفر: للملائكة اسجدوا، بضم التاء للإتباع. ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتياع إلا في لغة ضعيفة كقولهم: الحمد لله. ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل لأنه كان جنبا واحداً بين أظهر الألف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه. في قوله: ﴿فسجدوا﴾ ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً. ﴿إبليس﴾ امتنع مما أمر به، ﴿واستكبر﴾ عنه. ﴿وكان من الكافرين﴾ من جنس كفره الجن وشياطينهم، فلذلك أبى واستكبر كقوله: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾⁽⁵⁾ السكنى من السكون لأنها نوع من البث والاستقرار.

وَلَمَّا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ⁽³⁹⁾

فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِ فَقَالَ أَتُبْنُونَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁽⁴⁰⁾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ⁽⁴¹⁾

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ واشتقاقهم آدم: من الأدمة ومن أنيم الأرض نحو اشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلas. وما آدم إلا اسم أعجمي وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالغ وقالغ واشباه ذلك.

الأسماء كلها: أي أسماء المسميات⁽¹⁾، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً ملولاً عليه بذكر الأسماء لأن الاسم لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: ﴿واشتعل الرأس﴾⁽²⁾.

فإن قلت: هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: ﴿أتنبؤني بأسماء هؤلاء﴾ ﴿أتنبئهم بأسمائهم﴾ فلما أتاهم بأسمائهم⁽³⁾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات، ولم يقل أتنبؤني بهؤلاء وأنبتهم بهم وجب تعليق التعليم بها.

فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراد الأجناس التي خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿ثم عرضهم﴾ أي عرض المسميات، وإنما نكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم، وإنما استنبأهم، وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبيكيت ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني: في زعمكم أنني استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء. وإرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي

(1) قال أحمد رحمه الله: وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى؛ لأن ذلك معتقد أهل السنة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية، بقوله أتنبئهم بأسمائهم، ويتغافل عن قوله، ثم عرضهم على الملائكة، فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً، ولم يجر نكر الأسماء، فدل على أنها للمسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم، وإن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير، غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لنوات المسميات، وإطلاعه على حقائقها، وما أورد الله تعالى فيها من خواص وأسرار، وعلى تسميتها أيضاً، فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها، فقد ثبت بهاتين النكتتين أن المراد بالأسماء: المسميات، وأما استدلاله بقوله: أتنبؤني بأسماء هؤلاء، فغايته إضافة الأسماء إلى النوات، فلمهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هي النوات، لزمتم إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا ما لا مطمع فيه، فإن هذه الإضافة مثلها في قولك: نفس زيد حقيقته، =

= فالمراد إذا أنبؤني بحقائق هؤلاء، ولا نكير في هذه الإضافة، فإن الأسماء بمعنى المسميات، والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم، والمضاف إليهم فصحت الإضافة لما بين الأعم، والأخص من التغاير، وهذا هو المصحح للإضافة في نفس زيد وأشباهاه، فهذه نبذة من مسألة الإسم والمسمى تختص بهذه الآية، وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عذها المتكلمون، من فن الكلام، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية، والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة.

(2) سورة مريم، الآية: 4.

(3) سورة البقرة، الآية: 33.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة النكهف، الآية: 50.

عدو⁽⁴⁾ ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هَدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَتَبُوا بَيِّنَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽⁵⁾. وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض، والهبوط النزول إلى الأرض. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار أو استقرار، ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع بالعيش. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريد إلى يوم القيامة، وقيل إلى الموت.

قُلْتُ يَا أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَيْفَ تَنَابَ عَيْلِي إِنَّهُ هُوَ الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ (٢٧).

ومعنى: تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرئ نصب آدم ورفع الكلمات على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به.

فَأَنْ قُلْتُ: مَا مِنْ؟ قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾⁽⁶⁾ الآية. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ مَا قَالَهُ أَبُوْنَا أَدَمَ حِينَ اقْتَرَفَ الْخَطِيئَةَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَنكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يَا رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَفْخُ فِي الرُّوحِ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَمْ تَسْكُنِي جَنَّتِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ إِنْ تَبِتَ وَأَصْلَحْتَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ⁽⁷⁾ واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء لأنها كانت تبعاً له كما طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك، وقد نكرها في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾⁽⁸⁾. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول.

قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنَّا جَيْمًا فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٩).

فَأَنْ قُلْتُ: لم كَرَّرَ ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا﴾؟ قُلْتُ: للتأكيد، ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. فَأَنْ قُلْتُ: ما جواب الشرط الأول؟ قُلْتُ: الشرط الثاني مع جوابه كقولك: إِنْ جِئْتَنِي فَمِنْ قَدَرْتُ أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ، والمعنى: فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى بِرَسُولِ أَيْدِيكُمْ وَكِتَابِ أَنْزَلَهُ عَلَيْكُمْ، بليل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَتَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هَدَايَ﴾. فَأَنْ قُلْتُ: فلم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى⁽⁹⁾ كائن

و «أَنْتَ» تأكيد للمستكن في «اسكن» ليصح العطف عليه. و «رَغْدًا» وصف للمصدر أي: أكلاً رغداً واسعاً رافهاً. و «حَيْثُ» للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة «شَتَّتَمَا» أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة لليلة حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الفائقة للحصر، وكانت الشجرة فيما قبل الحنطة أو الكرمة أو التينة. وقرئ: ولا يقربا بكسر التاء، وهذا الشجرة بكسر الشين، والثيرة بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنه كرهها وقال: يقرأ بها بربابة مكة وسودانها. «مَنْ لِلظَّالِمِينَ» من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله «فَتَكُونُوا» جزم عطف على «يتقربا» أو نصب جواب للنهي.

فَأَرْزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبَاطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٠).

الضمير في «عنها» للشجرة أي: فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها وعن هذه مثلها في قوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾⁽¹⁾ وقوله:

ينهيون عن أكل وعن شرب

وقيل: فأزلهما عن الجنة، بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: نزل⁽²⁾ عن مرتبته، وزل عني ذاك إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا. وقرئ: فأزلهما. «مِمَّا كَانَا فِيهِ» من النعيم والكرامة، أو من الجنة إِنْ كَانَ الضمير للشجرة في عنها. وقرأ عبد الله: فوسوس لهما الشيطان عنها، وهذا دليل على أَنَّ الضمير للشجرة لَأَنَّ المعنى: صدرت وسوسته عنها.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف توصل إلى إزالتهما وسوسته لهما بعدما قيل له: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾⁽³⁾؟ قُلْتُ: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاءً لأدم وحواء. وقيل: كان ينو من السماء فيكلمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى. وروي: أَنَّهُ أَرَادَ الدُّخُولَ فَمُنَعَتْهُ الْخَزَنَةُ، فَنَدَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ حَتَّى نَخَلَتْ بِهِ وَهْمٌ لَا يَشْعُرُونَ. قيل: ﴿أَهْبَطُوا﴾، خطاب لأدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية، والصحيح أَنَّهُ لَأَدَمَ وَحَوَّاءَ والمراد: هما ونزيتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبيهما جعلاً كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

(7) أخرجه الحاكم في المستدرک 542/2.

(8) سورة الاعراف، الآية: 23.

(9) قال أحمد رحمه الله: هاتان زلتان زلتهما، فزلهما في قرن: الأولى إيراد السؤال بناء على أَنَّ الهدى على الله تعالى واجب، والثانية: بناء الجواب على أَنَّ الوجوب الشرعي يثبت بالعقل، قبل ورود الشرع، والحق أَنَّ الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، وإنما يدخل تحت رتبة التكاليف المربوب، لا الرب،

(1) سورة الكهف، الآية: 82.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد له قوله تعالى: ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾.

(3) سورة الحجر، الآية: 34.

(4) سورة طه، الآية: 123.

(5) سورة البقرة، الآيتان: 38، 39.

(6) سورة الاعراف، الآية: 23.

ومعنى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، كقوله: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ (2) ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ (3) ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (4) ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. ﴿وإياي فارهبون﴾ فلا تنقضوا عهدي. وهو من قولك: زيداً رهبت، وهو أوك في إفادة الاختصاص من ﴿إياك نعبد﴾ (5)، وقرئ: أوف بالتشديد، أي: أبلغ في الوفاء بعهدكم، كقوله: ﴿ومن جاء بالحسنة فله خير منها﴾ (6) ويجوز أن يريد بقوله: وأوفوا بعهدي ما عاهدوا عليه ووعده من الإيمان بنبي الرحمة، والكتاب المعجز، ويدل عليه قوله.

وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنْزَلْنَا مِصْرًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَتَّبِعُوا بِآيَاتِي سُبُلًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّوْنُ (١١).

﴿وَأَمْنُوا﴾ بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، أول من كفر به، أو أول فريق أو فوج كافر به، أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. كقولك: كسانا حلة، أي: كل واحد منا، وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به ويصفته، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه، والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعنون اتباعه أول الناس كلهم؛ فلما بعث كان أمرهم على العكس. كقوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ (7) إلى قوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ (8) فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، ويجوز أن يراد، ولا تكونوا مثل أول كافر به يعني من أشرك به من أهل مكة. أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه منكوراً في التوراة موصوفاً مثل من لم يعرفه، وهو مشرك لا كتاب له، وقيل الضمير في به لما معكم لأنهم إذا كفروا بما يصدقه فقد كفروا به.

والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ (9) وقوله:

لا محالة لوجوبه؟ قلت: للإيدان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً كان الإيمان به وتوحيده واجباً لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الآلة ومكنهم من النظر والاستدلال.

فإن قلت: الخطيئة التي أهبط بها آدم (1) إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس، والإخراج من الجنة والإهباط من السماء كما فعل إبليس ونسبته إلى الغي والعصيان، ونسيان العهد وعدم العزيمة، والحاجة إلى التوبة؟ قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي لجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة وتقظيماً لشأنها وتهويلاً ليكون ذلك لطفاً له ولزيرته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم والتنبية على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها نو خطايا جمّة. وقرئ: فمن تبع هدى، على لغة هذيل فلا خوف بالفتح.

يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَمْحَىٰ آلِيَّ أَتَمَنَّىٰ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَرَأَيْتُمُ اللَّهَ فَآرَهُمْ (١٠).

﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام لقب له، ومعناه في لسانهم صفوة الله، وقيل عبد الله، وهو بزنة إبراهيم وإسماعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة، وقرئ: إسرائيل وإسرئيل. وذكرهم النعمة أن لا يخلوا بشكرها ويعتدوا بها ويستعظموها ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عند عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشر به في التوراة والإنجيل.

والعهد: يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. يقال: أوفيت بعهدي، أي: بما عاهدت عليه، كقوله: ﴿ومن أوفى بعهد من الله، وأوفيت بعهدك أي: بما عاهدتك عليه.

وَأَمَّا وجوب النظر في آلة التوحيد، فإنما يثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، بل محض للعقل كافٍ فيه باتفاق.

(1) قال أحمد رحمه الله: مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهراً، بوقوع الصفات من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها، على أن تجوز الصفات عليهم قد قال به طوائف أهل السنة، في طي وقوعها لإطاف وزيادة في الالتجاء إلى الله تعالى، والتواضع له والإشفاق على الخطائين، والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له، يدعو للخطائين كثيراً، وعلى الجملة فالقدرى يجوز الصفات على الأنبياء، ويقول: إن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصفات في حق أحد الناس، فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق، فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير، والمحور غير مؤاخذ عليها، ولا مستوجب بسببها عقوبة، ولا شيئاً مما وقع

= في هذا لا جواب للزمخشري عنه، إلا الإنصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة، والمذاهب الملحّة، ولقد شنع السؤال بقوله: إن الذي جرى على آدم عليه السلام، كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة، ومعاد الله أن يكون الحالان سواء، والعاقبتان كما تعلم أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم، وإن إبليس خالد في العذاب الأليم.

- (2) سورة الفتح، الآية: 10.
- (3) سورة التوبة، الآية: 75.
- (4) سورة الاحزاب، الآية: 23.
- (5) سورة الفاتحة، الآية: 5.
- (6) سورة النمل، الآية: 89.
- (7) سورة البينة، الآية: 1.
- (8) سورة البينة، الآية: 4.
- (9) سورة البقرة، الآية: 16.

نعمتي وتفضيلي. ﴿على العالمين﴾ على الجم الغفير من العالم كقوله تعالى: ﴿باركنا فيها للعالمين﴾⁽⁴⁾، يقال: رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة.

وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي تَنْسَ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُسْرَرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿يوماً﴾ يريد يوم القيامة. ﴿لا تجزي﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق. ومنه الحديث في جذعة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعك⁽⁵⁾، و ﴿شيئاً﴾ مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي: قليلاً من الجزاء. كقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾⁽⁶⁾. ومن قرأ: لا تجزئ من أجزاء الله إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الأجزاء. وقرأ أبو السرار الغنوي: لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً، وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوماً.

فَأَنْ قُلْتُ: فإين العائد منها إلى الموصوف؟ قلت: هو محنوف تقديره لا تجزي فيه. ونحوه ما أنشده أبو علي: تروحى أجدر أن تقيلي

أي: ماء أجدر بأن تقيلي فيه. ومنهم من ينزل فيقول: اتسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا. ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقنات الكلي القطاع للمطامع، وكذلك قوله: ﴿ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل﴾: أي: فنية، لأنها معادلة للمفدي. ومنه الحديث: «لا يقبل منه صرف ولا عدل»⁽⁷⁾: أي: توبة ولا فدية. وقرأ قتادة: ولا يقبل منها شفاعاة، على بناء الفعل للفاعل، وهو الله عز وجل، ونصب الشفاعاة، وقيل: كانت اليهود تزعم أن آباهم الأنبياء يشفعون لهم فاويسوا.

فَأَنْ قُلْتُ⁽⁸⁾: هل فيه دليل على أن الشفاعاة لا تقبل للعصاة؟ قلت: نعم لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعاة

فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة⁽¹⁾. وقيل: الصبر الصوم، لأنه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر، ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء، وأن يستعان على البلايا بالصبر والاتجاء إلى الدعاء والابتهاال إلى الله تعالى في نفعه. ﴿وانها﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها. من قوله: ﴿انكروا نعمتي﴾ - إلى - ﴿واستعينوا﴾. ﴿الكبيرة﴾ لشاقة ثقيلة، من قوله: كبر علي هذا الأمر: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾.

فَأَنْ قُلْتُ: ما لها لم تثقل على الخاشعين، والخشوع في نفسه مما يثقل؟ قلت: لأنهم يتوقعون ما آتخر للصابرين على متاعها فتهن عليهم.

الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ أي: يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطمعون فيه. وفي مصحف عبد الله: يعلمون، ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسر يظنون ببيتقنون، وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة، فتقلت عليه كالمناققين، والمرائين بأعمالهم. ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجره زائدة على مقدار عمله، فنراه يزاوله برغبة، ونشاط وانسراح صدر ومضاحكة لحاضريه، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»⁽²⁾، وكان يقول: «يا بلال، روحنا»⁽³⁾.

والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة المرملة المتطامنة، وأما الخضوع فاللين والانقياد، ومنه: خضعت بقولها، إذا لينته.

يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرَ أَشْيَىٰ آتَىٰ أَهْلَهُ عَتِكَوْا وَآلِي فَصْلَتَكُمْ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾.

﴿وإني فضللكم﴾ نصب عطف على نعمتي أي: انكروا

= الحديث رقم: (1870)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فضل المدينة الحديث رقم: (3314)، وعبد الرزاق في مصنفه 263/9 الحديث رقم: (17153)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الحج، باب: فضائل المدينة، الحديث رقم: (3317)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في المتشيق الحديث رقم: (5006).

(8) قال أحمد رحمه الله: أما من جحد الشفاعاة، فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصنّفها، وهم أهل السنة والجماعة، فأولئك يرجون رحمة الله ومعقدهم، أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما أخرت لهم، وليس في الآية دليل لمنكرها؛ لأن قوله يوماً أخرجه منكراً، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معبود بخمسين ألف سنة، فيعجز أوقاتها ليس زماناً للشفاعة، وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد وردت أي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها، واختلاف أوقاتها منها قوله تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ مع قوله: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ فيتعين حمل =

(1) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 128/3، وأخرجه الحاكم في المستدرک 160/2.

(2) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 128/3، وأخرجه الحاكم في المستدرک 160/2.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الآداب، باب: في صلاة العتمة، الحديث رقم: (4985)، وأخرج الحديث الثاني، الحديث رقم: (4986)، وأخرجه أحمد في المسند 364/5، والرواية الثانية أخرجه 371/5.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 71.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب: قول النبي ﷺ لا يبي بردة ضحّ إلخ... الحديث رقم: (5556)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: وقتها الحديث رقم: (5043).

(6) سورة مريم، الآية: 60.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل المدينة باب: حرم المدينة، =

شفيع، فعلم أنها لا تقبل للعصاة.

والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَاكُمُ وَأَعْرَفْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَشْمُ نَسْلِهِمْ

﴿فرقنا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرئ: فرقنا، بمعنى فصلنا. يقال: فرق بين الشيئين، وفرق بين الأشياء، لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط.

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: مَا مَعْنَى ﴿بِهِمْ﴾؟ قُلْتُ: فِيهِ أُوجِهَ أَنْ يَرَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْلُكُونَهُ وَيَتَقَرَّقُ الْمَاءُ عِنْدَ سُلُوكِهِمْ، فَكَانَ فَرْقُ بَيْنِهِمَا كَمَا يَفْرُقُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِمَا يَوْسُطُ بَيْنَهُمَا، وَأَنْ يَرَادَ فَرْقُهُمَا بِسَبَبِهِمْ⁽³⁾ وَبِسَبَبِ إِنْجَائِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعٍ الْحَالِ بِمَعْنَى: فَرَّقْنَاهُ مِلْتَسَاءً بِكُمْ، كَقَوْلِهِ:

تنويع بنى الجماعات والتربية

أي: تلوسها ونحن راكبوها. وروي⁽⁴⁾: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم. فقال: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة. فأوحى إليه أن قل بعصاك هكذا. فقال بها على الحيطان فصارت فيها كوى فتراها وتسامعوا كلامهم. ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى تلك وتشاهدونه لا تشكون فيه. لما نخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذى الحجة.

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

وقيل: ﴿أزبعون ليلة﴾ لأنَّ الشهور عرَّها باليالي،
وقرىء: وإعنا لأنَّ الله تعالى وعده الوحي ووعده المجيء
للميقات إلى الطور. ﴿من بعده﴾ من بعد مضيه إلى
الطور. ﴿وانتم ظالمون﴾ بإشراككم.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ .

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ ⁽⁵⁾ حين تبتم ﴿مَنْ بَعْدَ نَكَاحٍ﴾ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم، وهو اتخاذه العجل. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إرادة أن تشكروا النعمة في العفو عنكم.

فإن قلت: الضمير في ﴿ولا يقبل منها﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى لا يقبل منها شفاعته، إن جاءت بشفاعة شفيح لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها. ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني: ما لئت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة، والتذكير بمعنى العباد والإناس كما تقول: ثلاثة أنفس.

وَأَذِّنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ
أَنفُسَكُمْ رَسْتَعِيرُونَ إِنَّمَا كُنَّ فِي ذَالِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

أصل ﴿آل﴾ أهل، ولذلك يصغر بأهـل، فابليت هاؤه ألفاً وخص استعماله بأولي الخطر والشأن كالمـلوك وأشباههم فلا يقال: آل الإسكاف والحجام، و﴿فرعون﴾ علم لمن ملك العمالة كـنـيـصـر لـمـلـك الروم، وكـسـرى لـمـلـك الفـرس، ولـعـتـو الفـراـعـنـة اشـتـقـوا فـرـعـن فـلان إذا عـتـا وتـجـبـر، وفـي ملح بعضهم:

قد جاءه موسى الكلوم فزاد في أقصى نجرعنه وفرط عرامه وقرى: أنجينانكم ونجيتكم. (يسومونكم) من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن يقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبيعونكم ﴿سوء العذاب﴾ ويريدونكم عليه، والسوء مصدر السيئ، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل. يراك قبحهما. ومعنى سوء العذاب - والعذاب كله سيئ - أشدّه وأفظعه، كأنّه قبحه بالإضافة إلى سائرهِ. و ﴿يذبحون﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾، ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى: ﴿يضاهون قول الذين كفروا﴾⁽¹⁾ وقرأ الزهري: يذبحون، بالتحقيق. كقولك: قطعت الثياب وقطعتها. وقرأ عبد الله: يقتلون. وإنما فعلوا بهم ذلك لأنّ الكهنة أنثروا فرعون بأنّه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنثر نمرود، فلم يغن عنهما اجتنباهما في التحفظ، وكان ما شاء الله.

والبلاء: المحنة إن أشير بئلكم إلى صنيع فرعون،

أسندت ظهري بالحائط، والوجه الأول ضعيف من حيث إن مقتضاه، أنَّ تفريق البحر وقع ببني إسرائيل، والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز، أنَّ البحر إنما انفرق بعصا موسى يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَضْرَبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ فالأصل التفريق العصا لا بنو إسرائيل.

(5) قال أحمد رحمه الله: أخطأ في تفسير لعل بالإرادة؛ لأنَّ مراد الله تعالى كائن لا محالة، فلو أراد منهم الشكر، لشكروا، ولا بد وإنما أجزاه الزمخشري على قاعته الفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد منه، ما يقع ومنه ما يتعذر تعالى الله عن ذلك ما

الآيتين على يومين مختلفين، ووقتتين متبايعتين أحدهما: محل
للتساؤل، والآخر: ليس محلاً له، وكذلك الشفاعة وأثالة ثبوتها
لا تحصى كثرة، رزقنا الله الشفاعة، وحشرنا في زمرة أهل السنة
والجماعة.

(1) سورة التوبة، الآية: 30.

(2) قال أحمد رحمه الله: فتكون الباء على هذا الوجه، استعانة مثلها في كتبت بالقلم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه سببية، كما تقول أكرمتك بإحسانك إلي.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه للمصاحبة، مثلها في =

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِمَنْ تَحْتَدُونَ ﴿٥٢﴾

﴿الكتاب والفرقان﴾ يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاً يفرق بين الحق والباطل، يعني التوراة. كقولك: رايت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَنُكْرًا﴾^(١) يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً ونكراً أو التوراة. والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انفراق البحر، وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(٢) يريد به يوم بدر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْبَيْتَ مُقَرَّبِينَ إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْلُبُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّذِينَ خَلَقَكُمْ بِأَرْكَكُمْ فَآبَاكُمْ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

حمل قوله: ﴿فَأَقْلُبُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ على الظاهر وهو البعخ، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد، وروي أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمرهم أن يحتبوا باقية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم. وقيل لهم: اصبروا فلعل الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل. فيقولون: آمين. فقتلهم إلى المساء، حتى دعا موسى وهرون وقال: يا رب، هلك بنو إسرائيل البقية البقية. فكشفت السحابة، ونزلت التوبة، فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً.

فإن قلت: ما الفرق بين الفأآت؟ قلت: الأولى للتسبب لا غير لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب، لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاقبلوا أنفسكم، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل

تمام توبتهم فيكون المعنى: فتوبوا، فاتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم، والثالثة متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم ففتعلق بشرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم.

فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بنكر الباري؟ قلت: الباري هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾^(٣)، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تفرع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي براهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، إبراء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة في أمثال العرب: أبلد من ثور - حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركه من خلقهم وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها. قيل: القائلون السبعون الذين صعقوا، وقيل: قاله عشرة آلاف منهم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ اللَّيْلَةُ وَأَنْتُمْ نَظْرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿جهرة﴾ عياناً، وهي مصدر من قولك جهر بالقرأة والدعاء، كان الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر لأنها نوع من الرؤية فنصب بفعالها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى نوي جهرة، وقرئ: جهرة، بفتح الهاء. وهي إما مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر. وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رآهم القول وعزهم أن رؤية ما لا يجوز عليه^(٤) أن يكون في جهة محال، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراس. فرائه بعد بيان الحجة

تعالى أنه لا يراه في الدنيا، وصار ذلك عنده، وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة، أن الله تعالى لا يرى في دار الدنيا؛ لأنه أخبر أنه لا يرى، والخبر واجب الصق، وكما خبر أنه لا يرى في دار الدنيا، فقد وعد الوعد الصالح عز وجل برويته في الدار الآخرة، وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤيا في الدنيا تعنتاً، أو شكاً في الخبر، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة، وكيف تخيل الزمخشري وشيعته، أن موسى عليه السلام طلب من الله، ما لا يجوز عليه، وهل هو لو كان الأمر على ما تخيله، إلا كبني إسرائيل، ومعاذ الله لقد براه من ذلك، وكان عند الله وجبهاً، وأما الأئمة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلاً، والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة، فأكثر من أن تحصي، وهي مستقصاة في فن الكلام، وإنما غرضنا في هذا الباب مباحة الزمخشري، والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه، وأخذة قوماً منه، والله الموفق.

شاه الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والتفسير الصحيح في لعل هو الذي حرره سيبويه رحمه الله، في قوله لعل يتنكر أو يخشى، قال سيبويه: الرجاء منصرف إلى المخاطب، كأنه قال كوناً على رجائكم في تنكره وخشيته، وكذلك هذه الآية معناها: لتكونوا على رجاء لشكر الله عز وجل، ونعمه، فينصرف الرجاء إليهم، وينزه الله تعالى.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 48.

(2) سورة الأنفال، الآية: 41.

(3) سورة تبارك، الآية: 3.

(4) قال أحمد رحمه الله: لقد انتهر الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية، التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها، فبني الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه، وأني له ذلك، وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه، هو كل السبب، وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا، فأخبره الله

النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله:

صبر جميل فكلانا مبتلى

والأصل صبراً على اصبر صبراً. وقرأ ابن أبي عبيدة بالنصب على الأصل. وقيل: معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها.

فإن قلت: هل تجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها يقولوا على معنى قولوا هذه الكلمة! قلت: لا يبعد، والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، وينصب محل ذلك المضمر يقولوا. وقرأ: ﴿يَغْفِر لَكُمْ﴾ على البناء للمفعول بالياء والياء. ﴿وَسَوْفَ يُغْفِرُ لَكُمْ﴾ أي: من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

قَدْ أَلْزَمَ طَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ طَلَمُوا رِجَالًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّوهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَزَلُّوا فَكَانُوا يَخْشَوْنَ (٣٦)

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: وضعوا مكان حطة ﴿قَوْلًا﴾ غيرها. يعني: أنهم أمروا يقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه، وهو لفظ الحطة، فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكار حطة نستغفرك ونتوب إليك، أو اللهم اعف عنا، وما أشبه ذلك. وقيل: قالوا مكان حطة حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية حطا سققا، أي: حنطة حمراء، استهزاء منهم بما قيل لهم وعدوا عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا. وفي تكرير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (٢) زيادة في توبيخ أمرهم، وإيضاح بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم، وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ (٣) على الإضمار.

والرجز: العذاب، وقرأ بضم الراء، وروي أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً. وقيل: سبعون ألفاً عطشوا في التيه فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له:

وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا كُلُّ أَتَّاسٍ نَضِيبَةٌ كُتِبَتْ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ (٣٧)

﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ واللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط

ووضوح البرهان ولجوا، فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين، ودلالة على عظمهما بعظم المحنة. و﴿الصاعقة﴾ ما صعقهم، أي أماتهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل الله جنوداً سمعوا بحسبها فحزوا صعقين ميتين يوماً وليلة. وموسى عليه السلام لم تكن صعقته موتاً ولكن غشيةً بلبيل قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ (١) والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. وقرأ علي رضي الله عنه: فأخذتكم الصعقة.

ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ رَبُّ بِدُورِكُمْ لَكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٨)

﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذ اتقنتم الموت.

وَلَقَدْ لَبَّيْنَا عَلَى كُفْرَانٍ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ آتِينَ وَالسَّلَاطِ كُفْرَانٍ مِنْ طَبِيعَتِنَا مَا زَرَعْتُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٩)

﴿وظللنا﴾ وجعلنا الغمام يظلمكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيهرهم يظلمهم من الشمس، وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى. وينزل عليهم ﴿المن﴾ وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم ﴿السلوى﴾ وهي السماني، فينبذ الرجل منها ما يكفيه. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول: ﴿وما ظلمونا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحنفة لدلالة ﴿وما ظلمونا﴾ عليه.

وَإِذْ قُلْنَا أَنْتَلُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَكَلِمَةً مِمَّا رَفَعْنَا وَنَزَّلْنَا آتَابَ سَجْدًا وَفُولًا وَحَصَّةً فَنَزَلَ لَكُمْ عَذَابُكُمْ وَرَفَعُوا لَكُمْ (٤٠)

﴿القرية﴾ بيت المقدس. وقيل: أريحاء من قرى الشام أمروا بدخولها بعد التيه. ﴿الباب﴾ باب القرية، وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً. وقيل: السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ليكون بدخولهم بخشوع وإخبات. وقيل: طوطى لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوها، ودخلوا متزحفين على أوراكنهم. ﴿حطة﴾ فعلة من الحط كالجلسة، والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسالمتنا حطة، وأمرك حطة، والأصل

(3) سورة الأعراف، الآية: 162.

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر، وهو مفيد لذلك، إذ هو من قبيل الأشهر، لهذا المعين.

لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً. يراد بالوحدة: نفي التبديل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا انهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحه أهل زراعت فما نريد إلا ما الفناه، وضربنا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك. ومعنى ﴿يُخْرِجُ لَنَا﴾ يظهر لنا ويوجد. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كاللبناع والكرفس والكراث وأشباهاها. وقرئ: وقثائها بالضم.

والفوم: الحنطة، ومنه فوموا لنا، أي: اخبزوا، وقيل: الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وفومها؛ وهو العنس؛ والبصل أوفق. ﴿الذي هو ابني﴾ الذي هو أقرب منزلة وأبون مقداراً، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار، فيقال: هو داني المحل، وقريب المنزلة، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحل، وبعيد الهمة يريدون الرفعة والعلو، وقرأ زهير الفرقي: أنا بالهزمة من الدناءة. ﴿اهبطوا مصر﴾ وقرئ: اهبطوا بالضم، أي: انحدروا إليه من التيه. يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج. وبلاد التيه ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. ويحتمل أن يريد العلم، وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث لسكون وسطه كقوله: (ونوحاً ولوطاً) وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد وإن يريد مصراً من الأمصار. وفي مصحف عبد الله، وقرأ به الأعمش: اهبطوا مصر بغير تنوين، كقوله: ﴿انخلوا مصر﴾ وقيل: هو مصراثيم فعر. ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ جعلت الذلة محيطاً بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه، أو الصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغروا أذلاء أهل مسكنة ومقنعة، إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، ومكافاته، أي: صاروا أحقاء بغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب. أي: ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وقد قتلت اليهود - لعنوا - شعياً وذكرياً ويحيى وغيرهم.

فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة نكره؟ قلت: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم، فقتلوهم. فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم ينكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم. وقرأ علي رضي الله عنه: ويقتلون بالتشديد. ﴿ذلك﴾ تكرار

الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. وقيل: اهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فنفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة فقر به فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: أرفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة. فحمله في مخلاته، وإما للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه⁽¹⁾. قال: وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة. وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة؟ فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا القاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فيبيس. فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً. فأوحى إليه لا تفرج الحجارة، وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون، وقيل: كان من رخام، وكان ذراعاً في ذراع. وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من آس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار. ﴿فانفجرت﴾ القاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب، فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت. كما نكرنا في قوله: ﴿فتاب عليكم﴾⁽²⁾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ. وقرئ: عشرة، بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. ﴿كل أناس﴾ كل سبط ﴿مشربهم﴾ عنيهم التي يشربون منها. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿من رزق الله﴾ مما رزقكم من الطعام، وهو المن والسلوى، ومن ماء العيون. وقيل: الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب.

والعني: وهو أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد حال فسابكم، لأنهم كانوا متمامين فيه. كانوا فلاحاً فنزعوا إلى مكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة، وطلبت أنفسهم الشقاء.

وَأَذِّنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَى طَعَامِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَخِفُّونَ
لَنَا يَوْمَئِذٍ الْأَرْضُ مِنْ بَيْنَيْهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَبَيْنَهُمْ قَالَ
أَسْتَبْدِلُ الْآزَى مَوْ أَدَّى بِالْآزَى مَوْ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مَضْرًا فَإِنَّ
لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالنَّسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَنَسْرِ مِمَّنْ
أَلَّفَ ذَلِكَ يَأْتَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ بِمَنَ الْهَوَى
ذَلِكَ يَمَّا عَمُوا وَكَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾

﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوا في التيه من المن والسلوى.

فإن قلت: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها قيل:

(2) سورة البقرة، الآية: 54.

(1) قال ابن حجر: حديث الحسن في قوله: ﴿إن اضرب بعصاك الحجر﴾ لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، ثم قال: وهو أظهر في الحجة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦﴾

﴿والسبت﴾ مصدر سببت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أي: جاوزوا ما حالهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرقت. كما قال: تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يستطيعون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم. ﴿قردة خاسئين﴾ خبر إن أي: كونوا جامعين بين القرديّة والخسوء، وهو الصغار والطرء.

لَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾

﴿فجعلناها﴾ يعني: المسخة، ﴿نكالاً﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل القيد. ﴿لما بين يديها﴾ لما قبلها، ﴿وما خلفها﴾ وما بعدها من الأمم والقرون لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، أو أريد بما بين يديها، ما بحضرتها من القرى والأمم، وقيل: نكالاً عقوبة منكرة لما بين يديها لأجل ما تقدمها من نذوبهم وما تأخر منها. ﴿وموعظة للمتقين﴾ للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل متقى سمعها. كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدينه، فأمرهم الله أن ينبحوا بقرّة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله.

وَلَا تَقَالُ تَوْسِينَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ نَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَلْذَنَّا هَؤُلَاءِ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٨﴾

﴿قالوا اتلذثنا هزوا﴾ اتلذثنا مكان هزو، أو أهل هزو. أو مهزوا بناء، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء. ﴿من الجاهلين﴾ لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وقرئ: هزوا بضمهم، وهزا بسكون الزاي نحو كفوا وكفوا. وقرأ حفص: هزوا بالضمين والواو، وكذلك كفوا. والعياذ واللياذ من واد واحد.

قَالُوا آتِ لَنَا رِزْقًا يَّزِينُ لَنَا مَا يَرْيَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا تُرْصَشُ وَلَا يَكُرُّ عَوَاذُ بَنِيكَ ذَلِكَ فَافْكَوْا مَا تَوَرَّوْتُمْ ﴿١٩﴾

في قراءة عبد الله: سل لنا ريك ما هي؟ سؤال عن حالها وصفتها، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر.

والفارض: المسنة، وقد فرضت فروضاً فهي فارض. قال

خفاف بن ندية:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً تساق إليه ما تقوم على رجل وكانها سميت فارضاً لأنها فرضت سنّها أي قطعته،

للإشارة ﴿بما عصوا﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِقِينَ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ بالسنتهم من غير مواطاة القلوب، وهم المنافقون. ﴿والذين هادوا﴾ والذين تهودوا. يقال: هاد يهود وتهود، إذا دخل في اليهودية، وهو هاند، والجمع هود. ﴿والنصارى﴾ وهو جمع نصران. يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة لم تحنف، والياء في نصراني للمبالغة كالتي في حمري سموا لأنه نصرى المسيح. ﴿والصابقين﴾ وهو من صبا إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدا الملائكة. ﴿من آمن﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصيلاً ﴿وعمل صالحاً﴾ فلهم أجرهم الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم.

فإن قلت: ما محل ﴿من آمن﴾؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتدأ خبره ﴿فلهم أجرهم﴾، والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم أجرهم. والفاء لتضمن من معنى الشرط.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ بالعمل على ما في التوراة. ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ حتى قبلتم وأعطيت الميثاق، وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح قرأوا ما فيها من الأصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها. فامر جبريل فقلع الطور من أصله ورفعاه وظلله فوقهم. وقال لهم موسى: إن قبلتم، وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. ﴿خذوا﴾ على إرادته القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿وانكروا ما فيه﴾ واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا وانكروا إرادة أن تتقوا.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ثم توليتم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به. ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم. وقرئ: خذوا ما آتيتكم وتذكروا وانكروا.

وبلغت آخرها.

والبكر: الفتية.

والعوان: النصف. قال: نواعم بين أبكار وعون. وقد عونت.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿بَيْنَ﴾ يقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على ﴿نَلَكَ﴾؟ قلتُ: لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلتُ: جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدم للاختصار في الكلام، كما جعلوا فعل نائباً عن أفعال جمّة تنكر قبله. تقول للرجل: نعم ما فعلت، وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك! وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا قال أبو عبيدة: قلت لرؤية في قوله:

يها خطوط من سواد وبلق⁽¹⁾ كأنه في الجلد توليع البهق⁽²⁾

إن أردت الخطوط فقل كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال: أردت كأن ذاك يلك، والذي حسن منه أن أسماء الإشارة تثنيتهما وجمعها وتانيتهما ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع. ﴿مَا تَوَمَّرُونَ﴾ أي: ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قوله: أمركم الخير، أو أمركم مأموركم، تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير.

قَالُوا أَوَ لَنَا رَيْبٌ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا شَرْ أُنْطِرُونَ⁽³⁾

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس. كما يقال: أسود حالك وحالك. وأبيض يقق ولهق. وأحمر قاني وذريحي. وأخضر ناضر ومدهام. وأورق خطبائي، وأرمك رداي.

فَإِنْ قُلْتَ: فاقع ههنا واقع خبراً عن اللون، فلم يقع توكيداً لصفراء؟ قلتُ: لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل، واللون من سببها وملتبس بها فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها.

فَإِنْ قُلْتَ: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في نكر اللون؟ قلتُ: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكانه قيل: شديدة الصفرة صفرتها، فهو من قولك جدّ جدّه، وجنونك مجنون. وعن وهب: إذا نظرت إليها

خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

والسرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه. وعن علي رضي الله عنه: من لبس نعلًا صفراء⁽⁴⁾ قل همه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسْرُ النَّاضِرِينَ﴾. وعن الحسن البصري: صفراء فاقع لونها، سوداء شديدة السواد، ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها تملوه صفرة، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جَمَالَاتُ صَفَرًا﴾⁽⁴⁾. قال الأعشى:

تلك خليلي منه وتلك ركابي من صفرا ولدها كالزبيب
قَالُوا أَوَ لَنَا رَيْبٌ لَنَا مَا لَنَا إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا شَاءَ
اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ⁽⁵⁾

﴿مَا هِيَ﴾ مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدانوا بياناً لوصفها. وعن النبي ﷺ: «لو اعترضوا أنى بقرة فنبحوها لكفتهم»⁽⁵⁾، ولكن شدوا فشدد الله عليهم والاستقصاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم. فكتب إليه: بأيهما أبدا؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني بأي نوع منها أبداً، وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرك أن تعطي فلاناً شاةً سألتني أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أنكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء فإذا أمرك بشيء فلا تراجعني⁽⁶⁾. وفي الحديث: «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، حرم لأجل مسألته»⁽⁷⁾. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح. وقرئ: تشابه، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين، وتشابهت، ومتشابهة، ومتشابه. وقرأ محمد ذو الشامة: إن البقر يشابه بالياء والتشديد. جاء في الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»⁽⁸⁾. أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى: إننا لمهتدون إلى البقرة المراد نبجها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَ
مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا اتَّقِ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَمَا يَسْأَلُكُمْ
بَعْمَلُونَ⁽⁹⁾

﴿لَا ذَلُولَ﴾ صفة لبقرة، بمعنى بقرة غير ذلول، يعني لم تنال للكراب وإثارة الأرض، ولا هي من النواضع التي يسنى عليها لسقي الحروث، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي على

(6) لم اتقف عليه.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال الحديث رقم: (7289)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له... الحديث رقم: (6069).

(8) أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً.

(1) بلق: بياض.

(2) البهق: بياض دون البرص.

(3) أخرجه العتيقي في كتاب: الضعفاء الكبير: 446/3، رقم 1496، عن ابن عباس ولم أجده عن علي.

(4) سورة المرسلات، الآية: 33.

(5) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم:

(2188).

تَكْتُمُونَ ﴿مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف أعمل ﴿مخرج﴾، وهو في معنى الماضي؟ قُلْتُ: وقد حكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ كما حكى الحاضر في قوله: ﴿بأسط نراعيه﴾⁽¹⁾ وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف عليه، وهما ﴿إداراتم﴾ و﴿فقلنا﴾.

قُلْنَا أَصْرُوهُ بِعَضَا كَذَلِكَ يُبَيِّ اللَّهُ أَلْمَوْقَ وَرَبِّكُمْ ءَاتِيهِ لَكُمْ تَقُولُونَ ﴿٧٦﴾.

والضمير في ﴿أضربوه﴾ إما أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان، وإما إلى القتل لما دل عليه من قوله: ﴿ما كنتم تكتُمُونَ﴾⁽²⁾ ﴿ببعضها﴾ ببعض البقرة، واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذها اليمنى، وقيل: عجاها، وقيل: العظم الذي يلي الخضروف وهو أصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين. والمعنى فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿كنك يحيي الله الموتى﴾⁽³⁾. روي: أنهم لما ضربوه قام بإنان الله وأوداجه تشخب دماً وقال: قتلني فلان، وفلان لابني عمه، ثم سقط ميتاً. فأخذوا وقتلوا، ولم يورث قاتل بعد ذلك. ﴿كنك يحيي الله الموتى﴾ إما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتل بمعنى: وقلنا لهم كنك يحيي الله الموتى يوم القيامة. ﴿ويريكم آياته﴾ ودلائله على أنه قادر على كل شيء. ﴿لعلكم تعقلون﴾ تعملون على قضية عقولكم، وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث، وإما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن رسول الله ﷺ.

فَإِنْ قُلْتُ: هلا إحياء ابتداء، ولم شرط في إحيائه نبخ البقرة وضربه ببعضها؟ قُلْتُ: في الأسباب والشروط حكم وفوائد، وإنما شرط ذلك لما في نبخ البقرة من التقرب وإداء التكليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ولآخرين في ترك التشديد والمسارة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البر بالوالدين والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء، وبيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوق في اختيار ما يتقرب به وأن يختاره فتي السن غير قحم ولا ضرع حسن اللون برياً من العيوب يونق من ينظر إليه، وأن يغالي بثمنه. كما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه

أن الفعلين صفتان لذلول. كأنه قيل: لا لذلول مثيرة، وساقية. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: لا لذلول. بمعنى لا لذلول هناك. أي: حيث هي، وهو نفي للثقل ولأن توصف به. فيقال: هي لذلول، ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولا جبان. أي: فيهم أو حيث هم. وقرئ: تسقى بضم التاء من أسقى: ﴿ومسلمة﴾ سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه. كقوله:

أرمعبر الظهر ينبي عن وليته ما حرج ربه في الدنيا ولا اعتمرا أو مخلصه اللون، من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان. ﴿لاشبة فيها﴾ لا لمعة في نقتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرننها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر، ومنه ثور موشى القوائم. ﴿جئت بالحق﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها. ﴿فنبجوها﴾ أي: فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فنبجوها. وقوله: ﴿وما كانوا يفعلون﴾ استتقال لاستقصائهم، واستبطاء لهم، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استقصائهم ما كانوا ينبجونها، وما كانت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها، وتعمقهم. وقيل: وما كانوا ينبجونها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وروي: أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الفيضة وقال: اللهم إني أستودعكها لابني حتى يكبر، وكان برأ بوالديه، فشببت وكانت من أحسن البقر وأسمه. فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

فَإِنْ قُلْتُ: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرّة من شق البقرة غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فنبجوها المخصوصة فما فعل الأمر الأول؟ قُلْتُ: رجع منسوخاً لانتقال الحكم إلى البقر المخصوصة، والنسخ قبل الفعل جائز على أن الخطاب كان لإيهامه متناولاً لهذه البقرة الموصوفة، كما تناول غيرها، ولو وقع النسخ عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالاً له، فكنك إذ وقع عليها بعد التخصيص.

وَإِذْ قُلْتُمْ نَسَا فَاذْكُرْهُمْ يَوْمَ اللَّهِ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ خطبت الجماعة لوجود القتل فيهم. ﴿فإداراتم﴾ فاختلقتم واختصمت في شأنها، لأن المتخاصمين يدرا بعضهم بعضاً أي يدفعه ويزحمه، أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فنفع المطروح عليه الطارح، أو لأن الطرح في نفسه دفع، أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه. ﴿وإذ مخرج ما كنتم

بَكَلٍ مِّنْ كَسَبِ سَيِّئَةٍ وَأَكَلْتُمُ بِهٖ حَبِطَتُمْ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿٨٢﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَمْرًا مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾

﴿بلى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: ﴿لن تمسنا النار﴾، أي: بلى تمسكم أبداً بليل قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾. ﴿من كسب سيئة﴾ من السيئات؛ يعني: كبيرة من الكبائر، ﴿واحطت به خطيئته﴾ تلك، واستولت عليه كما يحيط العدو، ولم يتقص عنها بالتوبة، وقرئ: خطاياها، وخطيئاته. وقيل في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته، وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله ألا أراك ذا لحية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها واخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

رَأٰٓءِىٰ اٰخٰذًا مِّشْقٰٓيَ بَنِيۤ اِسْرٰٓءِيْلَ لَا تَعْبُدُوْنَ اِلَّا اللّٰهَ وَيَاۤوْلٰٓئِيۡنَ اِحْسٰٓنًا وَّزٰٓي اَلْقُرْۢى وَالْيَسٰٓرَ وَالسَّكِيۡنَ وَقُوْلُوْا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَاٰمُرُوْا بِالصَّلٰوةِ وَآتُوْا الزَّكٰوةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ اِلَّا قَلِيْلًا مِّنْكُمْ وَاَنْتُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٨٣﴾

﴿لا تعبدون﴾ إخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتفاء فهو يخبر عنه، وتنصره قراءة عبد الله، وأبي: لا تعبدوا، ولا بد من إرادة القول يدل عليه أيضاً قوله: ﴿وقولوا﴾. وقوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾. إما أن يقدر وتحسنون بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا. وقيل: هو جواب قوله: ﴿أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ إجراء له مجرى القسم. كأنه قيل: وإذا أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل: معناه: أن لا تعبدوا فلما حذفت أن رفع. كقوله:

الأمم الزاجري أحضر الوغى

ويدل عليه قراءة عبد الله: أن لا تعبدوا، ويحتمل أن لا تعبدوا أن تكون أن فيه مفسرة، وأن تكون أن مع الفعل بدلاً عن الميثاق. كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم، وقرئ بالتاء. حكاية لما خاطبوا به، وبالباء لأنهم غيب. ﴿حسناً﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه، وقرئ: حسناً وحسنى على المصدر كبشرى. ﴿ثم توليتم﴾ على طريقة الالتفات، أي توليتم عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إلا قليلاً منكم﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وانتم معرضون﴾ وانتم قوم عاندكم الإعراض عن المواثيق والتولية.

رَأٰٓءِىٰ اٰخٰذًا يَّشٰكُمُ لَا تَنۢفِكُوْنَ وِمَا كُنْتُمْ لَا تُخۢرِجُوْنَ اَنْفُسَكُمْ مِّنۢ بَيۡتِكُمْ ثُمَّ اَقۢرَبْتُمْ وَاَنْتُمْ تَسۡتَهۡزِءُوْنَ ﴿٨٤﴾

﴿لا تفسكون بئامكم ولا تخرجون أنفسكم﴾ لا يفعل ذلك بعضكم ببعض، جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتل غيره فكانما قتل نفسه لأنه يقتص منه. ﴿ثم اقربتم﴾ بالميثاق، واعترفتم على أنفسكم

أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم: اتحدونهم إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فيناقضون المؤمنين، وينافقون اليهود. ﴿ليحاوكم به عند ربكم﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله ألا تراك تقول: هو في كتاب الله وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد.

أَوَلَا يَسۡمَوْنَ اَنَّ اللّٰهَ يَسۡمُوْهُمۡ مَا يَشۡۤاۤوُنَ وَمَا يَشۡۤاۤوُنَ ۙ

﴿يعلم﴾ جميع ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ ومن تلك أسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وَيَسۡۤئَرُ اَبۡۤسُوۡنَ لَا يَسۡمَوۡنَ اَلۡكِتٰبَ اِلَّا اَمَآٓءٌ وَّانۡ هُمۡ اِلَّا يَشۡكُرُوْنَ ﴿٨٥﴾

﴿ومنهم أفسون﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها. ﴿يعلمون الكتاب﴾ التوراة ﴿إلا أماني﴾ إلا ما هم عليه من أمانيتهم، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وما تمنيتهم إخبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وقيل: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن داب في شيء حدث به: هذا شيء رويته أم تمنيته، أم اختلقته؟ وقيل: إلا ما يقرؤون من قوله: تمنى كتاب الله أول ليلة. والاشتقاق من منى إذا قدر، لأن التمني يقدر في نفسه ويحذر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. وإلا أماني من الاستثناء المنقطع. وقرئ: أماني بالتخفيف. نكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوام الذين قلوبهم، ونبه على أنهم في الضلال سواء؛ لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِيۡنَ يَكۡتُبُوۡنَ اَلۡكِتٰبَ بِاَيۡدِيۡهِمْ ثُمَّ يَقُوۡلُوۡنَ هٰذَا مِنۢ عِنۡدِ اللّٰهِ لِيَسۡتَرۡدٰٓءَ بِهٖ ثُمَّ قَلِيْلًا مِّنۡهُمۡ يَّوۡمَئِذٍ لَّهُمۡ مَّا كَتَبَتۡ اَيۡدِيۡهِمْ وَوَيَّلۡ لَّهُمۡ مِّمَّا يَكۡسِبُوۡنَ ﴿٨٦﴾

﴿يكتبون الكتاب﴾ المحرف ﴿بأيديهم﴾ تأكيد، وهو من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبه بيمينك هذه. ﴿مما يكسبون﴾ من الرشا.

وَقَالُوۡا لَنۡ نَّسۡتَا اَلۡنَّارَ اِلَّا اَنۡيَاۡمًا مُّسۡدَرَةً فَلَۤا اَخۡذَتۡهُمۡ عِنۡدَ اللّٰهِ عَهۡدًا فَلَنۡ يَحۡيِلَ اللّٰهُ عَهۡدَهُۥۤ اَمْ نَقُوۡلُوۡنَ عَلٰٓى اللّٰهِ مَا لَا تَعۡمَلُوۡنَ ﴿٨٧﴾

﴿إلا إيماناً معدودة﴾ أربعين يوماً عند أيام عبادة العجل. وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعدب مكان كل ألف سنة يوماً. ﴿فلن يخلف الله﴾ متعلق بمحنوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده. ﴿وأم﴾ إما أن تكون معاملة بمعنى: أي الأمرين كائن على سبيل التقرير لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة.

بِمَا لَا تَهْتَفِ أَنْتُمْ أَنْتُمْ كَذَبْتُمْ فَزَيْفًا تَقُولُونَ ﴿٨٧﴾

﴿الكتاب﴾ التوراة آتاه إياها جملةً واحدة. ويقال: وقفاه، إذا اتبعه من القفا. نحو: ذنبه من الذنب، وقفاه به اتبعه إياه. يعني: وأرسلنا على أثر الكثير من الرسل. كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾^(١) وهم: يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل: ﴿عيسى﴾ بالسريانية أيشوع، و﴿مريم﴾ بمعنى الخادم. وقيل: المريم بالعربية من النساء كالزير من الرجال، وبه فسر قول رؤبة:

قلت لزير لم تصله مريمه

ووزن مريم عند النحويين مفعول، لأن فاعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب. ﴿البيّنات﴾ المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ: وأبيناه، ومنه أجده بالجيم إذا قواه. يقال: الحمد لله الذي أجدني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر. ﴿بروح القدس﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صق. ووصفها بالقدس، كما قال: وروح منه، فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطواصت، وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: وروحاً من أمرنا. وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم. ﴿افكلما جاءكم رسول﴾ منهم بالحق ﴿استكبرتم﴾ عن الإيمان به، فوسط بين الفاء، وما تعلق به همزة التوبيخ والتعجب من شأنهم، ويجوز أن يريد ولقد آتيناكم ما آتيناكم ففعلتم ما فعلتم، ثم وبخهم على ذلك، وبخول الفاء لعطفه على المقرّر.

فإن قلت: هلا قيل: وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، وقال ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خبير تعاونني، فهذا أوان قطعت أبهري».

وَقَالُوا ثُلُوفًا عَلَتْ كُلِّ لُجَّةٍ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٨٨﴾

﴿غلف﴾ جمع أغلف أي: هي خلقه، وجبلة مغلشة باغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يخن. كقولهم: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾⁽²⁾. ثم رد الله أن تكون قلوبهم

بلزومه. ﴿وانتم تشهدون﴾ عليها كقولك: فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها، وقيل: وانتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق. ثم أنتم هؤلاء استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعنوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون. يعني: أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تنزيلاً لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْتُمْ كَذَبْتُمْ فَزَيْفًا تَقُولُونَ وَيَكْفُرُونَ بِآيَاتِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَدْلَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعْدُ الْقَائِمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْرَى الْمَكَايِدِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

وقوله: ﴿تقتلون﴾ بيان لقوله: ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾. وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذي. وقرئ: تظاهرون، بحذف التاء وإدغامها، وتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظاهرون أي: تتعاونون عليهم. وقرئ: تفدوهم وتغالوهم، وأسرى وأسارى. ﴿وهو﴾ ضمير الشأن، ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره. ﴿إخراجهم أفئذمون ببيع بعض للكتاب﴾ أي: بالفداء، ﴿وتكفرون ببعض﴾ أي: بالقتال والإجلاء. وذلك أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا بيارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فغيرتهم العرب، وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم؟ فيقولون: أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نذل حلفاءنا.

والخزي: قتل بني قريظة وأسره، وإجلاء بني النضير، وقيل: الجزئية، وإنما رد من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب: لأن عصيانه أشد. وقرئ: يربون، ويعملون، بالياء والتاء.

أَوَلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُهُمْ الْمَكَايِدُ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٩١﴾

﴿فلا يخفف عنهم﴾ عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالنفع عنهم، وكذلك عذاب الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِالْأَسْفَلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَّتْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(1) سورة المؤمنون، الآية: 44.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من نواصب الزمخشري على تنزل الآيات على عقائدهم الباطلة، وإنه له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ألا تراه كيف أخذ من رد الله =

= على هذه الطائفة، أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر، أن الكفر والامتناع عن قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم، تمهيداً لقاعته الفاسدة في خلق الأعمال، وسبيل الرد عليه أن الله تعالى، إنما كنهم ورد عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان، وسلب =

يكفروا^١ واشتروا بمعنى باعوا. «بغياً» حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشتروا. «أن ينزل» لأن ينزل، أو على أن ينزل. أي: حسدوه على أن ينزل الله «من فضله» الذي هو الوحي. «على من يشاء» وتقتضي حكمته إرساله «فبأعوا بغضب على غضب» فصاروا أحقاء بغضب متراف لأنهم كفروا بنبي الحق، وبغوا عليه. وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل: بعد قولهم: عزيز ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك من أنواع كفرهم.

وَلَا يَدْرِي لَهُمْ عَابُوا يَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ يَمْ أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا يَمْ وَكَافَرُوا وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فِيمَ تَخْتَلُونَ أَلَيْسَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ (٩١).

«بما أنزل الله» مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب. «قالوا تؤمن بما أنزل علينا» مقيد بالتوراة. «ويكفرون بما وراءه» أي: قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. «وهو الحق مصدقاً لما معهم» منها غير مخالف له، وفيه رد لمقاتلهم^(١)؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة، والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢).

«وانتم ظالمون» يجوز أن يكون حالاً، أي: عبثتم العجل، وانتم واضعون العبادة غير موضعها. وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وانتم قوم عادتكم الظلم. وكثر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد.

وَلَا آمَنَّا بِمِثْلِكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا تَيْمَنًا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْوَجَلُ يَكْفُرُهُمْ قُلْ يَكْفُرُ يَأْمُرُهُمْ بِهِ لِبَسَانِهِمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣).

«واسمعوا» ما أمرتم به في التوراة. «قالوا سمعنا» قولك، «وعصينا» أمرك.

فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة. فقالوا: سمعنا، ولكن لا سماع طاعة. «واشربوا» في قلوبهم العجل^١ أي: تداخلهم حبه والحرص على عباته

مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق بأن الله لعنهم وخللهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، وتسببوا بذلك لمنع اللطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين. «فقليلًا ما يؤمنون» فأيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم. وقيل: غلف تخفيف غلف، جمع غلاف أي: قلوبنا أوعية للعلم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمين.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَنْتَعِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٩٤).

«كتاب من عند الله» هو القرآن. «مصدق لما معهم» من كتابهم لا يخالفه، وقرىء: مصدقاً على الحال. فإن قلت: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف كتاب بقوله: «من عند الله» وجواب لما محذوف، وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك. «يستفتحون على الذين كفروا» يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نفعه وصفته في التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد اطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وقيل: معنى يستفتحون: يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه، والسين للمبالغة، أي: يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم. «فلما جاءهم ما عرفوا» من الحق «كفروا به» بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسة. «على الكافرين» أي: عليهم وضعا للظاهر موضع المضممر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للبعد، ويجوز أن تكون للجنس، ويخلوا فيه دخولا أولياً.

يَكْفُرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا يَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٥).

«ما» نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بشش بمعنى بشش شيئاً «اشتروا به أنفسهم» والمخصوص بالذم «أن

= سبباً في خلفهم الإيمان في قلوبهم كل هذا تستر من الإشرار، واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر «تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً».

(١) قال أحمد رحمه الله: وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية، على أحد قولَي مالك والشافعي، والقاضي رضي الله عنهم، فإن العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة، يصلح بعضها بعضاً، فجحد أحداً كفر به، ثم كفر بالجميع، نسأل الله تعالى العصمة.

= التمكن وعلواً ذلك، بأن قلوبهم غلف وصنع الله ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة إياه في قلوبهم، بعدما انشأهم على الفطرة، فقيام حجة الله تعالى عليهم بانه خلقهم متمكنين من الإيمان، غير مقسورين على الكفر، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة، في اعتقاد أن الله تعالى خالق ذلك في قلوبهم، على وفق اختيارهم هذا هو الحق الأبلج، والصرط الأبهج، والله الموفق. وقول الرزمخشري أن كفرهم إنما خلقوه، لأنفسهم بسبب منع اللطاف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم، وكانت

لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى وليت كلمة التمني. ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا، لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك.

فإن قلت: لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدقون. قلت: كم حكى عنهم من أشياء قالوا بها المسلمين من الافتراء على الله، وتحريف كتابه، وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصنفين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت، ولم يبالوا. فكيف يمتنعون من أن يقولوا: إن التمني من أفعال القلوب، وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خاف لا سبيل إلى الاطلاع عليه. والله عليم بالظالمين تهديد لهم.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمُ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ حَسَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
أَحَدُهُمْ تَوَّابٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْرَافٌ
وَأَلَّهُمْ بَصِيرٌ يَمَا يَمْشُرُونَ (٦١).

﴿ولنجزيهم﴾ هو من وجد بمعنى: علم، المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجبت زيداً ذا الحفاظ، ومفعولاه هم ﴿أحرص﴾.

فإن قلت: لم قال: ﴿على حنوة﴾ بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطولة، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: على الحياة. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ محمول على المعنى أحرص الناس أحرص من له الناس.

فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى ولكنهم أفرقوا بالترك لأن حرصهم شديد، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا، فحنف لدلالة أحرص الناس عليه، وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا. فحرصهم عليهم لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ.

فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا لعلمهم بحالهم بأنهم صاثرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس، لأنهم كانوا يقولون لمولوكهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾، كلام مبتدأ أي: ومنهم ناس. ﴿يؤود أحدهم﴾

كما يتداخل الثوب الصبيغ، وقوله: ﴿في قلوبهم﴾^(١) بيان لمكان الإشراب. كقوله: ﴿إنما يلكون في بطونهم ناراً﴾^(٢). ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم. ﴿بئس ما يامرهم به إيمانكم﴾ بالتوراة لأنه ليس في التوراة عبادة العجائيل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم، تهكم كما قال قوم شعيب: ﴿اصلاتك تأمرك﴾^(٣)، وكذلك إضافة الإيمان إليهم. وقوله: ﴿وكذلك إضافة الإيمان إليهم وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له. قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ آذَانُ أَسْمَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ تَبْلُغُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِكَةً يُنَادِي الْمُرْسَلِينَ إِنْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٦٢).

﴿خالصة﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة والمراد الجنة. أي: سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق يعني: إن صح قولكم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. ﴿والناس﴾ للجنس، وقيل: للعهد، وهم المسلمون. ﴿فتمنوا الموت﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب، كما روي عن المبشرين بالجنة ما روي. كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفيين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزّي المحاربين، فقال: يا بني لا يبالي أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت^(٤)، وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلق من ندم^(٥). يعني: على التمني. وقال عمار بصفين: الآن لاقي الأوبة محمداً وحزبه^(٦). كان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن إليه، وعن النبي ﷺ: ﴿لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي﴾^(٧).

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٦٣).

﴿بما قدمت أيديهم﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد ﷺ، ومما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان. وقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾^(٨).

فإن قلت: ما ادراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك، كما نقل سائر الحوادث، ولكن ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من النزر وليس أحد منهم نقل ذلك.

فإن قلت: التمني من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه ليت

(6) كشف الاستار، كتاب: علامات النبوة، باب: مناقب عمار بن ياسر الحديث رقم: (2690).

(7) أخرجه البيهقي في «شرح السنة» (الحديث: 83/1)، ونكره القرطبي في تفسيره (96/18).

(8) سورة البقرة، الآية: 24.

(1) سورة البقرة، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 10.

(3) سورة هود، الآية: 87.

(4) لم أقف عليه.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک، الحديث: 502/4، مطولاً.

ولأنتم أكثر من الحمير، ومن كان عبداً لأحدهما كان عبداً للآخر، ومن كان عبداً لهما كان عبداً لله، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي ﷺ: «لقد وافقك ربك يا عمر». فقال عمر: لقد رأيتني في بين الله بعد ذلك أصلب من الحجر.

وقرىء: جبريل بوزن قفشليل، وجبريل بحنف الباء، وجبرائيل بحنف الهمزة، وجبريل بوزن قنديل، وجبرائيل بلام شديدة، وجبرائيل بوزن جبراعيل، وجبرائيل بوزن جبراعل⁽²⁾، ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة، وقيل: معناه عبد الله. الضمير في «نزله» للقرآن، ونحو هذا الإضمار أعني: إضمار ما لم يسبق نكره فيه فخامةً لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بنكر شيء من صفاته. «على قلبك» أي: حفظه إياك وفهمك. «بإذن الله» بتيسيره وتسهيله.

فإن قلت⁽³⁾: كان حق الكلام أن يقال على قلبي؟ قلت: جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي «من كان عبداً لجبريل فإنه نزله على قلبك».

فإن قلت⁽⁴⁾: كيف استقام قوله «فإنه نزله» جرأ للشرط؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصداقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصح المنزل عليهم.

والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصداقاً لكتابتهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن، ولموافقتهم لكتابتهم، ولذلك كانوا يحرقونه ويجحدون موافقتهم له. كقولك: إن عاداك فلان فقد أنيته وأسأت إليه. أقرد الملكان بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أن التغيرات في الوصف ينزل منزلة التغيرات في الذات.

من كان عبداً لله وتلقاه ربه ورؤيته وجبريل وميكائيل فإن الله عبداً للمكائيلين⁽⁵⁾.

على حذف الموصوف كقوله: «وما منا إلا له مقام معلوم» والذين أشركوا على هذا مشار به إلى اليهود لأنهم قالوا: عزيز ابن الله والضمير في «وما هو» لأحدهم. و «أن يعمر» فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، وقيل: الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره، وأن يعمر بدل منه، ويجوز أن يكون «هو» مبهماً، وأن يعمر» موضحة، والزحزحة التبعيد والإنحاء.

فإن قلت: «يؤد أحدهم» ما موقعه؟ قلت: هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

فإن قلت: كيف اتصل «لو يعمر» ب «يؤد أحدهم»؟ قلت: هو حكاية لودادتهم، ولو في معنى التمني، وكان القياس: لو أعمار، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: «يؤد أحدهم»، كقولك: حلف بالله ليفعلن.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَرَكَ بِيَدِهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ⁽¹⁷⁾.

روي: أن عبد الله بن سوريا من أحبار فندك حاج رسول الله ﷺ وسأله عمن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لأمانا بك، وقد عادانا مراراً وأشدنا أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله، فلقبه ببابل غلاماً مسكيناً فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلمكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونوه؟ وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا⁽¹⁾. وروي: أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر قد أحببناك وإننا لنطمع فيك. فقال: والله ما أجبتكم لحكم، ولا أسألكم لأنني شاك في ديني، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سأله عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى؟ قالوا: أقرب منزلة جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عبو لجبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعنوين،

(1) أخرجه الواحد في أسباب النزول، ص 20.

(2) أخرجه الواحد في أسباب النزول، ص 19 - 20.

(3) قال أحمد رحمه الله: الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة اللفظ، فعمل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام، أن يحكى معنى قول الله تعالى له من كان عبداً لجبريل، فإنه نزله على قلبك بلفظ المتكلم، ونظير هذا قوله تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهاداً» إلى قوله: «والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً» فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم بما يفهم، أنه قول الله عز وجل، لا على سبيل الحكاية عنهم إذ هم لا يقولون، فأنشربنا، وإنما يقولون، =

= فأنشربنا على لفظ الغيبة، ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأن معنى قولهم فأنشربنا الله، هو معنى قول الله عن ذاته، فأنشربنا ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة، إلى التكلم الذي يسمى التفتاتاً، فإن في هذا مزيداً، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام، «قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض»، إلى قوله: «فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى» فأول الكلام يفهم قول موسى، وآخره يفهم قول الله تعالى، والطريق الجامع في ذلك ما قررته، والله أعلم.

(4) قال أحمد رحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزء على هذا الوجه مستحقاً لسببين، أحدهما: أنه جملة إسمية، والآخر: أنه ماض صحيح.

بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نبذوا العمل به. وعن سفیان: أرجوه في الديباج والحريير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله، ولم يحرموا حرامه.

وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا النَّبِيِّ عَلَىٰ مَا لَكُمْ سَلْبَةً وَمَا كَثُرَ سَلْبَتُهُ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ كَثُرُوا يَلْمُونَ النَّاسَ النَّاسَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ مُّزُورٍ وَمَا يُلْمَنُ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَ إِنَّمَا فَتْنَةٌ فَمَا تَكْفُرُ يَتَكَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَقْرَأُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَكَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَخِرَ مَا سَخَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿واتبعوا﴾ أي: نبذوا كتاب الله واتبعوا. ﴿ما تتلوا﴾ الشياطين. يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿على ملك سليمان﴾ أي: على عهد ملكه وفي زمانه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكايب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره. ﴿وما كفر سليمان﴾ تكذيب للشياطين، ويقع لما بهت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفراً ﴿ولكن الشياطين﴾ هم الذين ﴿كفروا﴾ باستعمال السحر وتوحيته. ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم. ﴿وما أنزل على الملكين﴾ عطف على السحر، أي: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. وقيل: هو عطف على ﴿ما تتلوا﴾. أي: واتبعوا ما أنزل ﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً.

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

كما ابتلى قوم لوط بالنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني. وقرأ الحسن: على الملكين، بكسر اللام على أن المنزل عليهم علم السحر كانا ملكين ببابل. وما يعلم الملكان أحداً حتى ينباها وينصحاها ويقولوا له: ﴿إنما نحن فتنة﴾ أي: ابتلاء واختبار من الله. ﴿فلا تكفر﴾ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر. ﴿فيتعلمون﴾ الضمير لما دل عليه ﴿من أحد﴾. أي: فيتعلم الناس من الملكين. ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي: علم

وقرىء: ميكال بوزن قنطار، وميكائيل كميكايل، وميكايل كميكايل، وميكايل كميكايل. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. ﴿عدو للكافرين﴾ أراد عدو لهم، فجاء بالظاهر ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف. والمعنى: من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب.

وَلَقَدْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿إلا الفاسقون﴾ إلا المتمردون من الكفرة، وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم تلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال ابن سوريا لرسول الله ﷺ: «ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فننتبع لها، فنزلت»^(١). واللام في الفاسقون للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب.

أَوْكَلْنَا عَهْدُورَا عَهْدَا نَبَدُورِيقُ وَتَهُمْ بَلْ أَكْرَمُوا لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿أو كلما﴾ الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال: بسكون الواو على أن الفاسقون بمعنى: الذين فسقوا. فكأنه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة. وقرىء: عوهدا، وعهدوا. واليهود موسومون بالغفر ونقض العهود، وكما أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكما عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة. والنبد الرمي بالذم والرفضة. وقرأ عبد الله: نقضه ﴿فريق منهم﴾ وقال فريق منهم لأن منهم من لم ينقض. ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء، فلا يعنون نقض المواثيق ننبأ ولا يبالون به.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ لَكِبَتْهُمْ لَآ يَكْفُرُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿كتاب الله﴾ يعني: التوراة لأنهم بكفروهم برسول الله المصديق لما معهم كافرون بها نابنون لها، وقيل: كتاب الله القرآن، نبذوه بعدما لزمهم تلقية بالقبول. ﴿كانهم لا يعلمون﴾ أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك. يعني: أن علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابرُوا، وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل ما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه، وقلة التفات إليه. وعن الشعب: هو

(١) رواه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا، ثم ابتدئ: ﴿لَمْ تُؤْمَرْ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاتَوْا لَا تَعْلَمُوا رَعَا وَكُلُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَرُوا
رَلْعَنِيكَ عَذَابُ آيَةٍ ۝١٤

كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا لقي عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله. أي: راقبنا، وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا، افترضوه، وخاطبوا به الرسول ﷺ، وهم يعنون به تلك المسبة. فنهى المؤمنين عنها، وأمروا بما هو في معناها وهو ﴿انظرونا﴾ من نظره إذا انتظره. وقرأ أبي: أنظرونا من النظرة أي أمهلنا حتى نحفظ. وقرأ عبد الله بن مسعود: راعونا، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير، وقرأ الحسن: راعناً بالتثنية من الرعن، وهو الهوج. أي: لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن، بمعنى: رعنياً كدراع ولابن، لأنه لما أشبه قولهم راعينا، وكان سبباً في السب اتصف بالرعن. ﴿واسمعوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ويلقي عليكم من المسائل بأذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراجعة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾⁽²⁾. أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتهم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة. وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه⁽³⁾. فقالوا: أو لستم تقولونها، فنزلت ﴿وللكافرين﴾ ولليهود الذين تهاونوا برسول الله ﷺ وسبوه ﴿عذاب اليم﴾.

مَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٥

من الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون، كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾⁽⁴⁾. والثانية: مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة: لابتداء الغاية.

والخير: الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾⁽⁵⁾ والمعنى: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي ﴿والله يختص﴾ بالنبوة ﴿بمن يشاء﴾

السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرق والنشوز والخلاف ابتلاء منه لا أن السحر له في نفسه. بلبيل قوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله، وربما لم يحدث. ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ لأنهم يقصدون به الشر، وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية. ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي: استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ من نصيب، ﴿وليبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي: باعوها، وقرأ الحسن: الشياطين، وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون، وقد نكر وجهه فيما بعد، وقرأ الزهري: هاروت وماروت بالرفع على هما هاروت وماروت، وهما اسمان أعجميان بلبيل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت، وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفاً، وقرأ طلحة: وما يعلمان من أعلم. وقرئ: بين المرء بضم الميم وكسرهما مع الهمز، والمر بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الأعمش: وما هم بضاري بطرح النون، والإضافة إلى أحد، والفصل بينهما بالظرف.

فإن قلت: كيف يضاف إلى ﴿أحد﴾ وهو مجرور بمن؟ قلت: جعل الجار جزءاً من المجرور.

فإن قلت: كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: ﴿ولقد علموا﴾، على سبيل التوكيد القسمي، ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾. قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَاتَوْا رَأْيَ لَمْ تُؤْمَرْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝١٦

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ برسول الله والقرآن. ﴿ولتقوا﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله، واتباع كتب الشياطين، ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ وقرئ: لمثوبة كمشورة ومشورة. ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لترك العمل بالعلم.

فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع في ﴿سلام عليكم﴾ لذلك.

فإن قلت: فهلا قيل: لمثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى لشيء من الثواب خير لهم⁽¹⁾، ويجوز أن يكون قوله: ولو أنهم آمنوا، تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله

(3) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، ص 19.

(4) سورة البينة، الآية: 1.

(5) سورة الزخرف، الآية: 32.

(1) قال أحمد رحمه الله: التمني مجاز عن إرادة الله تعالى، لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعلل بالإرادة، والرد عليه على سبيله، ثم قوله تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 93.

ونفروا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم يروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمت، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فلاني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه. فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما⁽⁴⁾. فنزلت.

وَعَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَدَىٰ إِيْمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَدَىٰ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْتَبَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾

فَأَن قُلْتُ⁽⁵⁾: بم تعلق قوله: ﴿من عند أنفسهم؟﴾ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بـود، على معنى: أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم، وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيمهم من قبل الحق. وإما أن يتعلق بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل انفسهم.

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل، والعداوة، ﴿حتى ياتي الله بأمره﴾ الذي هو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وإذلالهم بضرب الجزية عليهم. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم.

وَأُتِمُّوا الْحِكْمَ وَآثَارُ الرَّكَّةِ وَمَا نَقَلُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ حَيْرٍ فَعُدُّوا عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ ﴿١٥﴾

﴿من خير﴾ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرها. ﴿تجدوه عند الله﴾ تجدوا ثوابه عند الله. ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ آمَانِيكُم مَّا كَانُوا بِرُءُوسِكُمْ إِن كُنْتُمْ مَّصْدُوقِينَ ﴿١٦﴾

الضمير في ﴿وقالوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأما من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونحوه، وقالوا: ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾⁽⁶⁾.

ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ إشعار بأن إتياء النبوة من الفضل العظيم، كقوله تعالى: ﴿إن فضلته كان عليك كبيراً﴾⁽¹⁾ روي أنهم طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينههم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً فنزلت.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وقرىء: ما ننسخ من آية، وما ننسخ بضم النون من أنسخ أو نساها، وقرىء: ننسها وننسها بالتشديد، وتنسها وتنسها على خطاب رسول الله ﷺ، وقرأ عبد الله: ما ننسك من آية أو ننسخها، وقرأ حذيفة: ما ننسخ من آية أو ننسكها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونسوها تأخيرها، وإزهابها لا إلى بدل، وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل. ﴿نات﴾ بآية خير منها للعباد أي: بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك. ﴿على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٨﴾

﴿له ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أموركم ويديرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ. لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومديرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقررهم على ذلك بقوله: ﴿ألم تعلم﴾ أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدون به وينزل عليهم، وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم. كقولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾⁽²⁾، ﴿أرنا الله جهرة﴾⁽³⁾، وغير ذلك.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ الْكَيْدِ ﴿١٩﴾

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلّة وشك فيها، واقترح غيرها ﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾ روي أن فنحاص ابن عازورا، وزيد بن قيس،

(5) قال أحمد رحمه الله: يبعد الوجه الثاني دخول عند، ويقرب الأول قوله تعالى: ﴿تلك آمانيتهم﴾.

(6) سورة البقرة، الآية: 135.

(1) سورة الإسراء، الآية: 87.

(2) سورة الأعراف، الآية: 138.

(3) سورة النساء، الآية: 153.

(4) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

واليهود: جمع هاء، كعائد وعوذ، وبازل وبزل.

فإن قلت: كيف قيل: كان هوداً، على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت: حمل الاسم على لفظ من، والخبر على معناه. كقراءة الحسن: إلا من هو صالو الجحيم. وقوله: ﴿فإن له نار جهنم خالدين فيها﴾⁽¹⁾. وقرأ أبي بن كعب: إلا من كان يهودياً أو نصرانياً.

فإن قلت⁽²⁾: لم قيل: ﴿تلك أمانيتهم﴾، وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة﴾ أمنية واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المنكورة وهو أمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يربوهم كفاراً، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم، وقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾، متصل بقولهم: ﴿لن يدخل الجنة﴾ إلا من كان هوداً أو نصارى، وتلك أمانيتهم اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمانى أمانيتهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. يريد أن أمانيتهم جميعاً في البطلان مثل أمانيتهم هذه، والأمنية أفعولة من التمني مثل الأضحوك والأعجوبة. ﴿هاتوا برهانكم﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إن كنتم صابقين﴾ في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وإن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت، وهات صوت بمنزلة هاه، بمعنى: احضر.

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾.

﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿من أسلم وجهه لله﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فله أجره﴾ الذي يستوجبه. فإن قلت: ﴿من أسلم وجهه﴾، كيف موقعه؟ قلت: يجوز أن يكون بلى رداً لقولهم ثم يقع من أسلم كلاماً مبتدأ، ويكون من متضمناً لمعنى الشرط وجوابه فله أجره، وأن يكون من أسلم فاعلاً لفعل محنوف أي: بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله: ﴿فله أجره﴾ كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْكَرَّةُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾.

﴿على شيء﴾ أي: على شيء يصح ويعتد به⁽³⁾، وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفى إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، وهذا كقولهم: أقل من لا شيء. ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وأمن به أن لا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابيين مصنفٌ للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً. ﴿كنك﴾ أي: مثل تلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج. ﴿قال﴾ الجهلة ﴿الذين﴾ لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعتلة ونحوهم. قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. وروي: أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ اتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه، وكفروا بموسى والتوراة⁽⁴⁾. ﴿فأله يحكم﴾ بين اليهود والنصارى ﴿يوم القيامة﴾ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم الله بينهم أن يكذبهم ويخلفهم النار.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَوَّىٰ فِي حُرَابِهِ أَوْلِيَّاءَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِبِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾.

﴿أن يذكر﴾ ثاني مفعولي ﴿منع﴾ لأنك تقول منعت كذا، ومثله وما منعت أن نرسل وما منع الناس أن يؤمنوا ويجوز أن يحذف حرف الجزم مع أن، ولك أن تنصبه

(1) سورة الجن، الآية: 23.

(2) قال أحمد رحمه الله: يبعد هذا الجواب، قوله تعالى عقيب ذلك. ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ إن كنتم صابقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فإن البرهان المطلوب منهم ههنا، إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم، ويحقق هذا قوله بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه، فإنما يعني الجنة ونعيمها، رداً عليهم في نفى غيرهم عن دخولها، ففي هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها، ليس إلا ما طولوا بإقامة البرهان على صحته، وهو أمنية واحدة، والله أعلم، والجواب القريب أنهم لشدة تمنيتهم، لهذه الأمانى، ومعاونتهم لها وتأكدتها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤنثاً واحداً، ونظيره قولهم معاً جياح، فجمعوا الصفة ومؤنثاً واحداً لأن موصوفها واحد، تأكيداً لنبوتها وتمكنها وهذا =

= المعنى أحد ما يرى في قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء لشرمة قليلون﴾ فإنه جمع قليلاً، وقد كان الأصل إفرادهم، فيقال لشرمة قليلة، كقوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً، فتعبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان، والله الموفق.

(3) قال أحمد رحمه الله: وتفسيره الشيء مخالف لفريقي أهل السنة، والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود، وعند المعتزلة، يطلق على الموجود، وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولاً للمحال، بحال عندهما، وقد تقدم له مثله.

(4) أخرجه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى:..

وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره»⁽³⁾ «فَنَمَّ وَجَهَ اللَّهِ» أي: جهته التي أمر بها ورضيها، والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان. «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ» الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم «عَلِيمٌ» بمصالحهم. وعن ابن عمر: نزلت في صلاة المسافرين على الرحلة أينما توجهت، وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطاهم فعذروا، وقيل: معناه: فإينما تولوا للدعاء والذكر، ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فإينما تولوا، بفتح التاء من التولي، يريد: فإينما توجهوا القبلة.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كَلَّ لَمْ يَكُنْ دُونَ (١٧)

«وقالوا» وقرأ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله «سبحانه» تنزيه له عن ذلك وتبعية. «بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح، «كَلَّ لَمْ يَكُنْ دُونَ» منقادون لا يمتنع شيء منه على تكوينه وتقديره ومشيتته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، والتثنوين في كل عوض من المضاف إليه، أي: كل ما في السموات والأرض، ويجوز أن يراد: كل من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرّون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم.

فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله «قانتون»؟ قلت: هو كقوله: سبحان ما سخرنا لنا، وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم، وتصغيراً لشأنهم كقوله: وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً.

يقال: بدع الشيء فهو بديع، كقولك بزغ الرجل فهو بزيع.

يَرِجُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١٨)

«وبدع السموات» من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي: بدع سمواته وأرضه، وقيل: البديع بمعنى: المبدع، كما أن السميع في قول عمرو:

أمن ريحانة الداعي السميع

بمعنى: المسمع، وفيه نظر، «كُنْ فيكون» من كان التامة: أي: أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا

مفعولاً له؛ بمعنى: منعها كراهة أن ينكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من نكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمتنعون الناس أن يصلوا فيه، وأن الروم غزوا أهله فحربوه، وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسبوا، وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

فإن قلت: فكيف قيل «مساجد الله» وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً، ومن اظلم ممن أذى الصالحين، وكما قال الله عز وجل: «وويل لكل همزة لمزة»⁽¹⁾ والمنزول فيه الأخنس بن شريق. «ووسعى في خرابها» بانقطاع الذكر، أو بتخريب البنين. وينبغي أن يراد بمن منع العموم، كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين «أولئك» المانعون «وما كان لهم أن يدخلوها» أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله «إلا خائفين» على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعقوبهم، وقيل: ما كان لهم في حكم الله. يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متكرراً مسارقة. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنهك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل: نادى رسول الله ﷺ: «ألا يا حجج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان»⁽²⁾. وقرأ عبد الله: إلا خيفاً، وهو: مثل صميم، وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد، فجوز أبو حنيفة رحمه الله، ولم يجوز مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول، والتخلة بينهم وبينه. كقوله: «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله». «خزي» قتل وسبي، أو نلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية، ورومية، وعمورية.

وَلِلَّهِ الشَّرَفُ وَكَالرَّحْمَةِ فَإِنَّمَا تُولَوا وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١٩)

«وجه المشرق والمغرب» أي: بلاد المشرق والمغرب، والأرض كلها لله هو مالكا ومتولياها. «فإينما تولوا» ففي أي مكان فعلتم التولية. يعني: تولية وجوهكم شطر القبلة، بليليل قوله تعالى: «قول وجهك شطر المسجد الحرام

= كتاب الحج، باب: لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان الحديث رقم: (3274).

(1) سورة الهمزة، الآية: 1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب: لا يطوف بالبيت

عريان ولا يحج مشرك الحديث رقم: (1622)، وأخرجه مسلم في = (3) سورة البقرة، الآية: 150.

قول ثم، كما لا قول في قوله:

إذ قالت الانساع للبطن الحق

وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل، لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مبالغة لأحوال الأجسام في توالدها. وقرئ: بديع السموات، مجروراً على أنه بدل من الضمير في له، وقرأ المنصور: بالنصب على المدح.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١٧٤).

«وقال الذين لا يعلمون» وقال الجبهة من المشركين، وقيل: من أهل الكتاب، ونفي عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به. «لولا يكلمنا الله» هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوا. «أو تأتينا آية» جحوداً لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها. «تشابهت قلوبهم» أي: قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى، كقوله: اتواصوا به. «قد بينا الآيات لقوم» ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١٧٥).

«إننا أرسلناك» لأن تبشر وتنذر، لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه، لأنه كان يغمم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسلك «عن أصحاب الجحيم» ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت، وبلغت جهنك في دعوتهم، كقوله: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»^(١). وقرئ: ولا تسأل، على النهي. روي أنه قال: ليت شعر ما فعل أبوي. فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة، والاهتمام بأعداء الله، وقيل: معناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان، سائلاً عن الواقع في بلية؟ فيقال لك: لا تسأل عنه، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضره، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل. وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: ولن تسأل، وقراءة أبي: وما نسأل. كأنهم قالوا: لن نرضى عنك، وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا. إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فحكى الله عز وجل كلامهم، ولذلك قال:

وَلَنْ رَمَى عَنْكَ أَهْلُودُ وَلَا التَّمْرِيُّ حَتَّى تَنْجِيَ يَلَدَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ

هُوَ الْمُنْتَدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأْتَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ آلِهِ مِنْ ذِكْرٍ وَلَا شَيْعٍ (١٧٦).

«قل إن هدى الله هو الهدى» على طريقة إيجابتهم عن قولهم. يعني: أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراء هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: «ولئن اتبعت أهواءهم» أي: أقوالهم التي هي أهواء وبدع «بعد الذي جاءك من العلم» أي: من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة.

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكَنْبَ يَتْلُونَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ (١٧٧) يَنْتَهِ إِسْرَافُكَ أَذْكُرُوا يَمُنُّوا إِلَهِ أَنْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَأَنَّى فَضْلُكَ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٧٨) وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُعْرَوْنَ (١٧٩).

«الذين آتيناهم الكتاب» هم مؤمنو أهل الكتاب، «يتلون حق تلاوته» لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ. «أولئك يؤمنون» بكتابهم دون المحرفين، «ومن يكفر به» من المحرفين «فأولئك هم الخاسرون» حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

وَلَا تَنْتَهِ إِسْرَافُكَ رُبَّمَا يَكْفُرُونَ فَأَنْتَهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٨٠).

«ابتلى إبراهيم ربه بكلمات» اختبره بأوامر ونواهي، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهي العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه: إبراهيم ربه، رفع إبراهيم ونصب ربه، والمعنى: أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إلهي أم لا.

فَإِنْ قُلْتَ: الفاعل في القراءة المشهورة بلى الفعل في التقدير فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر! قلْتُ: الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربه إبراهيم، فأما ابتلى إبراهيم ربه، أو ابتلى ربه إبراهيم، فليس واحداً منهما بل إضمار قبل الذكر. أما الأول: فقد نكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير نكراً ظاهراً، وأما الثاني: فأبراهيم فيه مقدم في المعنى، وليس كذلك ابتلى ربه إبراهيم، فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى صحته. والمستكن في «فاتمه» في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بهن حق القيام وأداهن أحسن التادية من غير تفريط وتوان ونحوه. وإبراهيم الذي وفي، وفي الأخرى الله تعالى بمعنى: فاعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً. ويعضده ما روي عن مقاتل أنه فسّر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله:

يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذنب ظلم.

وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتِنَا مَنَاجَى لِلنَّاسِ وَأَنَّا وَاعِدُونَ مِّن مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ مَكْرَهُمَا بَيْنِي لِلْعَالَمِينَ وَالْمَكْرُورِينَ وَأَكْرَمَ الْجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿والبيت﴾ اسم غالب للعبة، كالنجم للثريا. ﴿مناجاة للناس﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج، والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه. أي: يثوب إليه أعيان الذين يزورونه، أو أمثالهم. ﴿وأمناء﴾ وموضع أمن، كقوله: حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم. ولأن الجاني يأوي إليه، فلا يتعرض له حتى يخرج، وقرئ: مثابات، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم سواء العاكف فيه والباد. ﴿واتخذوا﴾ على إرادة القول. أي: وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، وعن النبي ﷺ أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أقلنا نتخذه مصلى يريد: أقلنا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطن قدم إبراهيم؟ فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت⁽⁸⁾، وعن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ استلم الحجر، ورمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعة حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾⁽⁹⁾، وقيل: مصلى مدعى، ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل المطلب بن أبي وداعة: هل تدري أين كان موضعه الأول؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء: مقام إبراهيم عرفة والمزلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع، ودعا فيها. وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم. وقرئ: واتخذوا، بلفظ الماضي عطفاً على جعلنا. أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم - الذي رسم به لاهتمامه به وإسكان نريته عنده - قبلة يصلون إليها. ﴿وعهنا﴾ أمرناهما ﴿أن طهرا بيتي﴾ بأن طهرا أو أي طهرا، والمعنى: طهرا من الأوثان، والانجاس، وطواف الجنب، والحائض، والخبائث كلها، أو إخلصها لهؤلاء لا يغشه غيرهم. ﴿والعاكفين﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي:

﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾⁽¹⁾ ﴿واجعلنا مسلمين لك﴾⁽²⁾ ﴿وابعث فيهم رسولا منهم﴾⁽³⁾ ﴿ربنا تقبل منا﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما العامل في إذ؟ قلت: إما مضمر، نحو: وانكر إذ ابتلى، أو وإن ابتلاه كان كيت وكيت، وإما ﴿قال﴾ إنني جاعلك.

فإن قلت: فما موقع قال؟ قلت: هو على الأول استئناف، كأنه قيل: فماذا قال له ربّه حين أتته الكلمات؟ فقيل: قال إنني جاعلك للناس إماماً، وعلى الثاني: جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون بيانا لقوله: ابتلى، وتفسيراً له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت ورفع قواعده، والإسلام قبل ذلك في قوله: ﴿إذ قال له ربّه أسلم﴾⁽⁵⁾ وقيل في الكلمات: هنّ خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في البين: الختان، والاستحدا، والاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الأبط. وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في إراءة التائبون العابون⁽⁶⁾ وعشر في الأحزاب إن المسلمين والمسلمات وعشر في المؤمنون، وسأل سائل إلى قوله: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾⁽⁷⁾. وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والتعريف، وغيرهنّ. وقيل: ابتلاه بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، ونبح ابنه، والنار، والهجرة. والإمام: اسم من يؤتم به على زنة الآفة، كالإزار لما يؤتزر به. أي: يأتون بك في دينهم. ﴿ومن نريتي﴾ عطف على الكاف، كأنه قال: وجاعل بعض نريتي، كما يقال لك: ساكرمك، فتقول: وزيداً. ﴿لا ينال عهدي للظالمين﴾. وقرئ: الظالمون، أي: من كان ظالماً من نريتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم. وقالوا: في هذا ليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصره زيد بن علي رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد، وأرأوني على عد أجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف

(8) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ الحديث رقم: (4483)، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل عمر رضي الله تعالى عنه الحديث رقم: (6156).

(9) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

(2) سورة البقرة، الآية: 128.

(3) سورة البقرة، الآية: 129.

(4) سورة البقرة، الآية: 127.

(5) سورة البقرة، الآية: 131.

(6) سورة التوبة، الآية: 112.

(7) سورة المعارج، الآية: 34.

أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين: الواقفين، يعني: القائمين في الصلاة، كما قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽¹⁾ والمعنى: للطائفين والمصلين، لأنَّ القيام والركوع والسجود هيأت المصلي. أي: اجعل هذا البلد أو هذا المكان:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ثَمَرِهِمْ وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا مَاءً طَهُرًا إِنَّ اللَّهَ وَارِقُ الْآفِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَمَّ قِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَشَى الْمَوْتُ⁽¹⁷³⁾.

﴿بلدًا آمناً﴾ ذا أمن، كقوله: ﴿عيشة راضية﴾⁽²⁾ أو آمناً من فيه، كقوله: ليل نائم. و﴿من آمن منهم﴾ بدل من أهله، يعني: وارزق المؤمنين من أهله خاصة. و﴿ومن كفر﴾ عطف على من آمن، كما عطف، ومن ﴿نريتي﴾ على الكاف في جاعلك.

فإن قلت: لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى رد عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة، فعرف الفرق بينهما، لأنَّ الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم: بخلاف الرزق، فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق والزماً للحجة له، والمعنى: وارزق من كفر فامتعه، ويجوز أن يكون، ومن كفر مبتدأ متضمناً معنى الشرط، وقوله: ﴿فامتعه﴾، جواباً للشرط. أي: ومن كفر، فإنا امتعه. وقرئ: فامتعه. فاضطره، فالزه في عذاب النار. لز المضطر الذي لا يملك الامتناع، مما اضطر إليه. وقرأ أبي: فامتعه قليلاً ثم نضطره. وقرأ يحيى بن وثاب: فاضطره، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس: فامتعه قليلاً ثم اضطره، على لفظ الأمر. والمراد: الدعاء من إبراهيم، دعا ربه بذلك.

فإن قلت: فكيف تفكير الكلام على هذه القراءة؟ قلت: في قال ضمير إبراهيم، أي: قال إبراهيم بعد مسألته لاختصاص المؤمنين بالرزق، ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن: فاطره، إدغام الضاد في الطاء، كما قالوا: اطبع، وهي لغة مرنولة لأنَّ الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هي فيما يجاورها، وهي حروف ضم شفر.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁽¹⁷⁴⁾.

﴿يرفع﴾ حكاية حال ماضية. و﴿القواعد﴾ جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها: الثابتة، ومنه: قعدك الله، أي: أسأل الله أن يقعدك، أي: يثبتك، ورفع الأساس البناء عليها، لأنها إذا بني عليها

نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها: سافات البناء، لأنَّ كل ساف قاعدة للذي يبني عليه ويوضع فوقه، ومعنى: رفع القواعد، رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا يرفع إبراهيم ما قعد من البيت، أي: استوطأ. يعني: جعل هيئته القاعدة المستوطنة مرتفعة عالية بالبناء، وروي أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم، فبنى على الأساس، وروي أن الله تعالى أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد شرقي وغربي، وقال لأم عليه السلام: اهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي. فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً وتلقته الملائكة، فقالوا: برَّ حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفى عام⁽³⁾، وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة، فهو البيت المعمور، ثم إنَّ الله تعالى أمر إبراهيم ببناؤه، وعرفه جبريل مكانه، وقيل: بعث الله سبحانه أظلمته، ونودي أن ابن على ظلها لا تزدد ولا تنقص. وقيل: بناه من خمسة أجيال: طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وأسسها من حراء. وجاء جبريل بالحجر الأسود من السماء، وقيل: تمخض أبو قبيس، فانشق عنه، وقد خبئ فيه في أيام الطوفان، وكان ياقوتة بيضاء من الجنة، فلما لمست الحبيص في الجاهلية اسود، وقيل: كان إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة. ﴿ربنا﴾ أي: يقولان ربنا، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين: ربنا. ﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائنا ﴿العليم﴾ بضمائرنا ونياتنا.

فإن قلت: هلا قيل قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلت: في إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام ما ليس في إضافتها، لما في الإيضاح بعد الإيهام من تفخيم لشأن المبين.

رَبَّنَا رَاجِعْنَا مُسَبِّحِينَ لَكَ وَمِنْ دُورَيْنَا إِنَّهُ مُسْتَمِعٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا رَبَّنَا عَلَيْنَا لَكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ⁽¹⁷⁵⁾.

﴿مسلمين لك﴾ مخلصين لك أوجهنا. من قوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾⁽⁴⁾ أو مستسلمين. يقال: أسلم له، وسلم، واستسلم إذا خضع وأذعن، والمعنى: زينا إخلاصاً أو إنعائاً لك. وقرئ: مسلمين، على الجمع كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع، لأنها منه. ﴿ومن نريتنا﴾ واجعل من نريتنا ﴿أمة مسلمة لك﴾ ومن للتبعيض أو للنبیین، كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا

= 127، وأخرجه أحمد في المسند 262/5، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: حب النبي ﷺ الحديث رقم: (1385)، والحاكم في المستدرک 600/2.

(4) سورة البقرة، الآية: 112.

(1) سورة الحج، الآية: 26.

(2) سورة القارة، الآية: 7.

(3) كشف الاستار، كتاب: علامات النبوة، باب: قدم نبوته الحديث رقم: (2365)، والحاكم في المستدرک 418/2. وأحمد في المسند 4/4 =

(1) منكم.

فَإِنْ قُلْتَ: لم خصا نريتهما بالدعاء؟ قلْتُ: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (2) وَلَا نِزْلَ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ بِهِمْ غَيْرُهُمْ وَشَايَعُوهُمْ عَلَى الْخَيْرِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُقَدِّمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْكَبَرَاءِ إِذَا كَانُوا عَلَى السَّدَادِ كَيْفَ يَتَسَبَّبُونَ لِسَدَادٍ مِنْ وَرَاءِهِمْ؟ وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَمَةِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. ﴿وَأَرْنَا﴾ منقول من رأى بمعنى: أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين أي: وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها، وقيل: مذابحنا. وقرئ: وأرنا بسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ، وقد استرذلت لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة ليل عليها، فإسقاطها إجحاف. وقرأ أبو عمر بإشمام الكسرة. وقرأ عبد الله: وأرهم مناسكهم. ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ ما فرط منا من الصغائر أو استتاباً لذريتهما.

رَبَّنَا وَابْتَغْ فِيهِمْ رِسُولًا يَتْلُوَ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْكَائِمِينَ (13).

﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رِسُولًا مِنْهُمْ﴾ من أنفسهم، وروي أنه قيل له: قد استجب لك، وهو في آخر الزمان. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورؤيا أمي» (3). ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ الْقُرْآنَ، وَالْحِكْمَةَ الشَّرِيعَةَ وَبَيَانَ الْأَحْكَامِ. وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس. كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (4).

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَوَّاهُ فَقَدْ ائْتَمَّ بِمِلَّةِ الْفَاسِقِينَ (14).

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم. ﴿وَمَنْ سَفِهَهُ﴾ في محل الرفع على البذل من الضمير في يرغب، وصح البذل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد. سفه نفسه امتنهنها واستخف بها، وأصل السفه الخفة، ومنه: زمام سفه. وقيل: انتصاب النفس على التمييز نحو: غبن رأيه، وألم رأسه، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

ولا بفزارة الشعر الرقبابا أجب الظاهر ليس له سنابم وقيل: معناه سفه في نفسه، فحذف الجار. كقولهم: زيد

ظني مقيم أي: في ظني، والوجه هو الأول. وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس» (5). وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذلال نفسه، وتعجزها حيث خالف بها كل نفس عاقلة. ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ بيان لخطأ رأي من رغب عن ملته، لأن من جمع الكرامة عند الله في الدارين بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا، وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِ مَا لَكَ أَنْتَ مِنَ الْبَنِينَ (15).

﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه، أي: اخترناه في ذلك الوقت، أو انتصب بإضمار أنكر استشهاده على ما ذكر من حاله، كأنه قيل: أنكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله. ومعنى قال: له أسلم: أخطر ببالة النظر في الدلال المؤدية إلى المعرفة والإسلام. ﴿قَالَ اسْلَمْتُ﴾ أي: فخطرت وعرف. وقيل: أسلم أي: أذعن وأطع. وروي: أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فقال لهما: قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فاسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فنزلت.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (16).

قرئ: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. الضمير في ﴿بِهَا﴾ لقوله: ﴿اسْلَمْتُ لرب العالمين﴾ (6) على تأويل الكلمة والجملة. ونحوه رجوع الضمير في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية﴾ (7) إلى قوله: ﴿إنني براء مما تعبديون﴾ إلا الذي فطرني (8) وقوله: ﴿كلمة باقية﴾ دليل على أن التانيث على تأويل الكلمة. ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنبيه أيضاً، وقرئ: ويعقوب بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه: ووصى بها إبراهيم بنيه، ونافلته يعقوب. ﴿يا بني﴾ على إضمار القول عند البصريين وعند الكوفيين، يتعلق بوصى لأنه في معنى القول، ونحوه قول القائل:

رجلان من ضبة أخبرانا أنارينا رجلاً عربيانا بكسر الهمزة، فهو بتقدير القول عندنا وعندهم يتعلق بفعل الإخبار، وفي قراءة أبي، وابن مسعود: أن يا بني. ﴿اصطفي لكم الدين﴾ أعطاكم الدين الذي هو صفوة

= الحديث رقم: (548)، والحاكم عن أبي هريرة 182/2، وأحمد في المسند 4/133.

(6) سورة البقرة، الآية: 131.

(7) سورة الزخرف، الآية: 28.

(8) سورة الزخرف، الأيتان: 26، 27.

(1) سورة النور، الآية: 55.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) قال ابن حجر: أخرجه الفاكهي في كتاب: مكة.

(4) سورة الأعراف، الآية: 157.

(5) كشف الاستار، كتاب: الإنكار، باب: فضل لا إله إلا الله الحديث رقم: (3069)، وأخرجه البخاري في الابن المفرد 4/2، باب: الكبير، =

الاديان، وهو دين الإسلام، ووقفكم للأخذ به. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع. فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته.

فإن قلت: فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة، وليس بمنهي عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: إنك عنها إذ لم تصلها على هذه الحالة. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»⁽¹⁾. فإنه كال تصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا في المسجد، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. وتقول في الأمر أيضاً: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات، إنما أمرته بالموت اعتدالاً منك بميتته، وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن بحث عليها.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَبُذْ إِلَهُكَ إِنَّ إِلَهُنا أَيْدِيكُمْ إِزْجِرْ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَإِذَا وَجِدَ وَجْهَ رَبِّكَ فَكَيْفَ فَقَالَ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ هي: أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها: الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب⁽²⁾ للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. وقيل: الخطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية. إلا أنهم لو شاهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم. فكيف يقال لهم: أم كنتم

شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. يعني: أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد، وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء. وقرئ: حضر، بكسر الصاد، وهي لغة. ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي شيء تعبدون، وما علم في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن، وكفكك لئلا قول العلماء من لما يعقل، ولو قيل: من تعبدون لم يعم إلا أولي العلم وحدهم، ويجوز أن يقال: ما تعبدون سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات؟ و﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف ببيان آياتك، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آياته لأن العم أب والخالة أم لانخراطهما في سلك واحد، وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام: «عم الرجل صنو أبيه»⁽³⁾. أي: لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»⁽⁴⁾. وقال: «ربوا علي أبي فأني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود». وقرأ أبي: وإله إبراهيم بطرح آياتك، وقرئ: أهلك⁽⁵⁾، وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف ببيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون. قال: وفدينا بالآيينا. ﴿إِلَهاً واحداً﴾ بدل من إله آياتك، كقوله تعالى: ﴿بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾⁽⁶⁾ أو على الاختصاص أي: نريد بإله آياتك إلهاً واحداً. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله لرجوع الهاء إليه في له، ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة. أي: ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مدعون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَبِّحُونَ اللَّهَ كُلَّ نَفَسٍ فَهُمْ عَنْهَا مُنْكَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿تَلِكُ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم قتلتكم نفساً، إذ قتلتم يا موسى إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود، فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 1/246، والدارقطني في کتاب: الصلاة، باب: الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر الحديث رقم: (2) وابن أبي شيبه في 1/345، کتاب: الصلوات، باب: من قال إذا سمع المنادي فليجب.

(2) قال أحمد رحمه الله: وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة؛ لأنه لو جعلها منقطعة كالأول، لكان مضمون الكلام نفي شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثاني لوقفة يعقوب، والوصية بالإسلام، وحينئذ يكون ذلك كإقامة حجته على جحد الإسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضد ذلك، وإنما كان الكلام يقتضي النفي حينئذ؛ لأن الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره، فتعين صرفه إلى الإنكار، لأن السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب، ووصيته على التفسير الأول لا سيما، والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام، بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم، وتعاطيهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿وَرَفِي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله﴾ الحديث رقم: (1468)، ولم يذكر فيه: «عم الرجل صنو أبيه». وإنما تفرد بها مسلم قتال، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها الحديث رقم: (2274).

(4) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه 12/109، كتاب الفضائل، باب: العباس.

(5) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه 14/481، كتاب المغازي، باب: حديث فتح مكة.

(6) سورة العلق، الآيتان: 15، 16.

يعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقماً كان أو متاخراً فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا تنفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افترضوا بأوائهم، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»⁽¹⁾.
﴿ولا تسالون عما كانوا يعملون﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تنفعكم حسناتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥).

﴿بل ملة إبراهيم﴾ بل تكون ملة إبراهيم أي: أهل ملته. كقول عدي بن حاتم: إني من دين، يريد من أهل دين⁽²⁾. وقيل: بل تتبع ملة إبراهيم. وقرئ: ملة إبراهيم بالرفع أي: ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى: أهل ملته. و﴿حنيفاً﴾ حال من المضاف إليه كقولك: رايت وجه هند قائمة.

والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق، والحنف الميل في القدمين. وتحنف إذا مال، وأنشد:

ولكننا خلقنا لإدخالنا حنيفاً أينما عن كل دين

﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم، وهو على الشرك. ﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين. أي: قولوا لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل، وكذلك قوله: بل ملة إبراهيم، يجوز أن يكون على بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.

والسبب: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَيَسَّى وَمَا أُوتِيَ آلُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَبَعِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْأَكْبَرُ (١٣٧).

﴿والأسباط﴾ حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ﴿لا تفرق بين أحد منهم﴾ لا تؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى⁽³⁾. و﴿أحد﴾ في معنى الجماعة ولذلك صح دخول ﴿بين﴾ عليه.

﴿بمثل ما آمنتم به﴾ من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، ومن يبتغ غير

الإسلام ديناً فلن يقبل منه. فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين. فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسادق فقد اهتدوا. وفيه أن دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل لأنه حق وهدى، وما سواه باطل وضلال، ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به. وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيك صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه، ويجوز أن لا تكون الباء صلةً وتكون باء الاستعانة كقولك: كتبت بالقلم وعملت بالقدم، أي: فإن نخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود: بما آمنتم به، وقرأ أبي: بالذي آمنتم به. ﴿وإن تولوا﴾ عما تقولون لهم ولم ينصفوا، فما هم إلا ﴿في شقاق﴾ أي: في مناوأة ومعاندة لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيء، أو وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فسيكفيكم الله﴾ ضمان من الله لإظهار رسول الله ﷺ عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة، وسبيهم وإجلاء بني النضير، ومعنى السين: أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين. ﴿وهو السميع العليم﴾ وعيد لهم أي: يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه، أو وعد لرسول الله ﷺ بمعنى: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرالك.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨).

﴿صبغة الله﴾ مصدر مؤكد منتصب على قوله: آمنا بالله، كما انتصب ﴿وعد الله﴾ عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقولون المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتك، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس. كما يغرس إلى مرالك.

(1) لم أقف عليه، قال الزيلعي: غريب جداً: 91/1.

(2) رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة عدي بن حاتم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي، تفيد العموم لفظاً، حتى يتناول المفرد فيها منزلة الجمع، في تناوله الأحاد مطابقة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن ملولها بطريق المطابقة في النفي، كملولها في الإثبات، وذلك الدلالة على =

= الماهية، وإنما لزم فيها العموم، من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الأفراد، لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي، إذ سلب الأعم، أخص من سلب الأخص، فيستلزمه، فلو كان لفظاً، ما لا إشعار له بالتعبد والعموم وضماً، لما جاز دخول بين عليها.

فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم. ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ يعني: أنه يصنع عباده بالإيمان، ويظهرهم به من أوصار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وقوله: ﴿ونحن له عابنون﴾ عطف على آمنا بالله، وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم. وإخراج الكلام عن التأمه واتساقه، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سييويه، والقول ما قالت حذام. قُلْ أَتَمَّاجُونًا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُنَا وَنَحْنُ لَمْ نَعْمَلُونَ (٦٧).

قرأ زيد بن ثابت: أحتاجونا، بإدغام النون، والمعنى: أحتاجوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لانزل علينا، وترونكم أحق بالنبوة منا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي بون عربي إذا كان أهلاً للكرامة. ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ يعني: أن العمل هو: أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك، ثم قال: ﴿ونحن له مخلصون﴾ فجاء بما هو سبب الكرامة أي: ونحن له موحسون نخلصه بالإيمان، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لانا أهل كتاب، والعرب عبدة أوثان.

أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِزْوَعُوا لِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاكُ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا قُلْ أَأَشْهَرُ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا يَتَمَلَّوْنَ (٦٨) يَلِكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبَتْ وَلَا تَتْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩).

﴿أم تقولون﴾ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معاملة للهمزة في أحتاجوننا بمعنى: أي الأمرين تاتون: المحاجة في حكمة الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء، والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً وأن تكون منقطعة بمعنى: بل اتقولون، والهمزة للإنكار أيضاً. وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة. ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾ يعني أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ (١). ﴿ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله﴾ أي: كنتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية، ويحتمل معنيين:

أحدهما: إن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كنتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها.

والثاني: إن لو كنتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا، فلا نكتمها، وفيه تعريض بكنتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهادته، ومن في قوله شهادة عنده من الله مثلاً في قولك: هذه شهادة مني لفلان، إذا شهدت له، ومثله: براءة من الله ورسوله.

سَيَقُولُ الشَّهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ إِلَهٌ كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الشَّرِيقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٠).

﴿سيقول السفهاء﴾ الخفاف الأحلام، وهم اليهود كراهمتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ، وقيل: المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء. وقيل: المشركون قالوا رغب عن قبله آياته، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم.

فَأَن قُلْتُ (٧٢) أي فائدة في الأخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائنته أن مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطيئ النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم. ﴿ما ولاهم﴾ ما صرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهي بيت المقدس. ﴿والله المشرق والمغرب﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها. ﴿يهدي من يشاء﴾ من أهلها ﴿إلى صراط مستقيم﴾ وهو ما توجه به الحكمة والمصلحة من توجيههم تارة إلى بيت المقدس وأخرى إلى الكعبة.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّائِهِمْ لَرْبُوفًا رَّحِيمٌ (٧٣).

﴿وكنك جعلناكم﴾ ومثل ذلك جعل العجيب جعلناكم أمة وسطاً. خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ونحوه قوله عليه السلام: ﴿وأنطوا الشجعة﴾ (٣) يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء، وصفاً بالشج وهو وسط الظهر، إلا أنه الحق تاء التانيث مراعاة لحق الوصف (٤)، وقيل: الخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار والأوساط محمية محوطة. ومنه قول الطائي:

كانت في الوسط المعمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً وقد أكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من

(1) سورة آل عمران، الآية: 67.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولهذه النكتة أجرى من حزن النظر في إدراج مناظرتهم العمل، بمقتضى الذي هو كذا، السالم عن معارضة كذا، فسيقول درء للمعارض، قبل ذكر الخصم له، وهي =

(3) ذكره القاضي عياض في الشفاء، انظر نسيم الرياض: 1/403.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم.

= نكتة بديعة، أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية، فتفتن لها، فإنها من الملح.

أَنْ أَصِلَ أَمْرَكَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الكعبة، وَأَنْ أَسْتَقْبِلَكَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ كَانَ أَمْرًا عَارِضًا لْغَرَضٍ، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا الْجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا قَبْلَ وَقْتِكَ هَذَا وَهِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ لِنَمْتَحِنَ النَّاسَ وَنَنْظُرَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا يَتَّبِعُهُ وَيَنْفِرَ عَنْهُ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَتْ قَبْلَتَهُ بِمَكَّةَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ الْكعبةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ⁽⁸⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ لِنَعْلَمَ، وَلَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِذَلِكَ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ لِنَعْلَمَهُ عَالِمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَزَاءُ، وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَهُ مَوْجُودًا حَاصِلًا وَنَحْوَهُ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾⁽⁹⁾. وَقِيلَ: لِيَعْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا أَسْنَدَ عِلْمَهُمْ إِلَى ذَاتِهِ لِأَنَّهُمْ خَوَاصُهُ وَأَهْلُ الزَّلْفَى عِنْدَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لِنَمَيِّزَ التَّابِعَ مِنَ النَّاكِصِ، كَمَا قَالَ ﴿لِنَمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، فَوَضَعَ الْعِلْمَ مَوْضِعَ التَّمْيِيزِ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِهِ يَقَعُ التَّمْيِيزُ بِهِ. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ هِيَ: إِنَّ الْمَخْفِقَةَ الَّتِي تَلْزِمُهَا اللَّامُ الْفَارِقَةُ، وَالضَّمِيرُ فِي كَانَتْ لَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾⁽¹⁰⁾ مِنَ الرَّدَّةِ أَوْ التَّحْوِيلِ أَوْ الْجَعْلَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْقِبْلَةِ لَكَبِيرَةً لِثَقِيلَةِ شَأْنِهَا. ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إِلَّا عَلَى الثَّابِتِينَ الصَّادِقِينَ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ الَّذِينَ لَطَفَ اللَّهُ بِهِمْ وَكَانُوا أَهْلًا لِلطَّهَةِ. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ﴾ أَي: ثَبَاتَكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَزَلُوا وَلَمْ تَرْتَابُوا، بَلْ شَكَرَ صَنِيعَكُمْ وَأَعَدَّ لَكُمْ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَتْرَكَ تَحْوِيلَكُمْ لِعِلْمِهِ أَنْ تَرُكَهُ مَفْسُودَةً وَإِضَاعَةً لِإِيمَانِكُمْ، وَقِيلَ: مَنْ كَانَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَ التَّحْوِيلِ فَصَلَاتُهُ غَيْرُ ضَائِعَةٍ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا وَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكعبة قَالُوا: كَيْفَ بَمَنْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ مِنْ إِخْوَانِنَا؟ فَزَلْتُ⁽¹¹⁾. ﴿لِرُؤُفٍ رَحِيمٍ﴾ لَا يُضَيِّعُ أَجُورَهُمْ وَلَا يَتْرَكَ مَا يَصْلَحُهُمْ، وَيَحْكِي عَنِ الْحِجَاجِ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَسَنِ: مَا رَأَيْكَ فِي أَبِي تَرَابٍ؟ فَقَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾⁽¹²⁾، ثُمَّ قَالَ: وَعَلَى مِنْهُمْ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنَهُ عَلَى ابْنَتِهِ وَأَقْرَبَ النَّاسَ إِلَيْهِ وَأَحْبَبَهُمْ.

سَطَاتِنَهُ، أَرَادَ مِنْ خِيَارِ الدُّنَانِيرِ، أَوْ عُلُولًا، لِأَنَّ الْوَسْطَ عَدْلٌ بَيْنَ الْأَطْرَافِ لَيْسَ إِلَى بَعْضِهَا أَقْرَبُ مِنْ بَعْضٍ. ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ رَوَى أَنَّ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْعَلُونَ تَبْلِيغَ الْأَنْبِيَاءِ، فَيَطْلُبُ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ بِالْبَيْتَةِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا وَهُوَ أَعْلَمُ. فَيُؤْتَى بِأَمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيُشْهِدُونَ، فَيَقُولُ الْأَمَمُ: مَنْ أَيْنَ عَرَفْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: عَلِمْنَا نَكَ بِإِخْبَارِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ النَّاطِقِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ، فَيُؤْتَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيُغَيِّسُ عَنْ حَالِ أُمَّتِهِ، فَيُزَكِّيهِمْ، وَيَشْهَدُ بِعَدَالَتِهِمْ⁽¹⁾، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾⁽²⁾.

فَإِنْ قُلْتَ⁽³⁾: فَهَلَا قَبِلَ لَكُمْ شَهِيدًا وَشَهَادَتَهُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ؟ قُلْتُ: لَمَّا كَانَ الشَّهِيدُ كَالرَّقِيبِ وَالْمُهَيِّمِ عَلَى الْمَشْهُودِ لَهُ جَاءَ بِكَلِمَةِ الْأَسْتِعْلَاءِ، وَمِنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽⁴⁾. ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽⁵⁾ وَقِيلَ: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا فِيمَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِشَهَادَةِ الْعَدُولِ الْأَخْيَارِ. ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يَزَكِيكُمْ، وَيَعْلَمُ بِعَدَالَتِكُمْ. فَإِنْ قُلْتَ⁽⁶⁾: لَمْ أَخْرَجْتَ صَلَاةَ الشَّهَادَةِ أَوَّلًا وَقَمْتُمْ آخِرًا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْغَرَضَ فِي الْأَوَّلِ اثْبَاتُ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الْأَمَمِ، وَفِي الْآخِرِ اخْتِصَاصُهُمْ بِكَوْنِ الرَّسُولِ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ. ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ لَيْسَتْ بِصِفَةٍ لِلْقِبْلَةِ إِنَّمَا هِيَ ثَانِي مَفْعُولِي جَعَلَ، يُرِيدُ: وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الْجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَهِيَ الْكعبة، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَصْلِي بِمَكَّةَ إِلَى الْكعبة، ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ تَأْلَفًا لِلْيَهُودِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى الْكعبة، فَيَقُولُ: وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي تَحِبُّ أَنْ تَسْتَقْبِلَهَا الْجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا أَوَّلًا بِمَكَّةَ، يَعْنِي: وَمَا رَدَدْنَاكَ إِلَيْهَا إِلَّا امْتِحَانًا لِلنَّاسِ وَابْتِلَاءً، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ الثَّابِتَ عَلَى الْإِسْلَامِ الصَّادِقَ فِيهِ. ﴿مِمَّنْ﴾ هُوَ عَلَى حَرْفٍ يَنْكُصُ. ﴿عَلَى عَقْبِيهِ﴾ لِقَلْقَلَةٍ فَيَرْتَدُّ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁷⁾ الْآيَةَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِلْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَتَهُ. يَعْنِي:

= بثبوت كونهم شهداء، وفي الثاني: ثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية، خصوصاً من هذا الرسول المعظم، ولو قُتِمَ شَهِيدًا، لَا تَنْقُلُ الْغُرُوضُ إِلَى الْاِمْتِنَانِ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِأَنَّهُ شَهِيدٌ، وَسِيَاقُ الْخُطَابِ لَهُمُ وَالْاِمْتِنَانُ عَلَيْهِمْ يَاأَيُّهَا الرَّزْمَشَرِيُّ الْاِخْتِصَاصُ مِنَ التَّقْدِيمِ: لِأَنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِالْأَهَمِيَّةِ وَالْعَنَانِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يَجْرِي، أَي: نَفْكَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ، وَفِيهِ نَظَرٌ.

(7) سورة المدثر، الآية: 31.

(8) كشف الاستار، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء إلى القبلة الحديث رقم: (418).

(9) سورة آل عمران، الآية: 142.

(10) سورة البقرة، الآية: 143.

(11) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه الحديث رقم: (4680)، والترمذي في كتاب: التفسير، باب:

سورة البقرة الحديث رقم: (2964).

(12) سورة البقرة، الآية: 143.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (4487).

(2) سورة النساء، الآية: 41.

(3) قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية، أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب، وفي آخرها بالشهيد، على وجه التخصيص أولاً، ثم التعميم ثانياً، وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره: كنت محسناً إليّ وأنت بكل أحد محسن، وكأنه لما قال: كنت أنت الرقيب عليهم، وكان ذلك مخصصاً لرقبتيته تعالى على بني إسرائيل أراد أن يصفه بما هو أهله، حتى ينفي وهم الخصوصية، فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كذلك، فوضع شهيداً موضع، كذلك المشار به إلى رقيبته، فلا يتم الاستدلال بها، إلا على هذا الوجه، وفيه غموض على كثير من الأقدام، والله الموفق.

(4) سورة المجادلة، الآية: 6.

(5) سورة المائدة، الآية: 117.

(6) قال أحمد رحمه الله: لأن المنة عليهم في الطرفين، ففي الأول: =

الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسمي المسجد مسجد القبلتين⁽⁵⁾. وشرط المسجد نصب على الظرف أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد. أي: في جهته وسمته، لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد، وذكر المسجد الحرام بون الكعبة دليل في أن الواجب مراعاة الجهة بون العين. **﴿يلعلمون أنه الحق﴾** أن التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلي إلى القبلتين. **﴿يعملون﴾** قرئ: بالياء والتاء.

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَنُيَ لَهُمْ قِبْلَةٌ عَلَيْهِمْ قِبْلَةٌ وَكَيْفَ تُجِيبُونَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٥٠).

﴿ما تبعوا﴾ جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط **﴿بكل آية﴾** بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق. ما تبعوا **﴿قبلتك﴾** لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق. **﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾** حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكانا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم، وقرئ: بتابع قبلتهم، على الإضافة. **﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾** يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجو اتفاقهم كما لا ترجو موافقتهم لك، وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه، فالحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمة في عناده. وقوله: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾** بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: **﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾** كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر، **﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾** المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف

وقرئ: إلا ليعلم، على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن يكون من متضمنة لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو؟ وقرأ ابن أبي إسحق: على عقبيه، بسكون القاف. وقرأ اليزيدي: لكبيرة، بالرفع، ووجهها أن تكون كان مزيدة كما في قوله:

وجيران لنا كانوا كرام
والأصل وإن هي لكبيرة، كقولك: إن زيد لمطلق، ثم وإن كانت لكبيرة، وقرئ: ليضيع بالتشديد.

قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَئِكَ قِبْلَةً رَضْنَاهُ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (٥١).

﴿قد فرى﴾ ربما نرى⁽¹⁾، ومعناه: كثرة الرؤية. كقوله: قد أترك القرن مصغراً أنامله **﴿ثقلب وجهك﴾** تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم⁽²⁾ وادعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل: **﴿فلنولينك﴾** فلنعتينك. ولنمكنك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس. **﴿ترضاه﴾** تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرت. ووافقت مشيئة الله وحكمته⁽³⁾. **﴿شطر المسجد الحرام﴾** نحوه. قال: وأظعن بالقوم شطر الملوك

وقرأ أبي: تلقاء المسجد الحرام. وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله ﷺ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة⁽⁴⁾. وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصلاة واستقبل

عيناها، إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير، لكن الجواز في مثل هذا مع البعد، متفق عليه، وأما على قول الجهة، فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً، إلى الجهات الثلاث؛ لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعى على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت، ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الإحياء، فلا تطول بذكره، والتحقيق عند الفتوى أن المعتبر مع البعد: الجهة، لا السمت.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان الحديث رقم: (369).

(5) ذكره أبو الفتح اليعمرى في سيرته نقلًا عن الواقدي، قاله الزيلعي: 95/1.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من المواضع التي يتألف العرب فيها، بالتعبير عن المعنى بضم عبارته، ومنه ربما: **﴿يود الذين كفروا﴾** والمراد: كثرة موبتهم للإسلام في القيامة، وعند معاينة جزائه ونوابه، وكذلك: **﴿يوقد تعلمون أنني رسول إليكم﴾** ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته، يقيني مؤكّد، ومع ذلك يكفرون به.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد نقل أصحابنا المالكية، خلافاً عن المذهب في الواجب، فقيل: الجهة، وقيل: العين، هذا مع البعد، وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام، فمن خرج عن السمت، ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال، أما على قول العين، فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل، زيادة على مسامحة الكعبة شرفها الله تعالى؛ لانا نعلم بالضرورة، وإن لم نشاهد، أن بعضهم يصلي إلى غير =

مع علمهم، أو في أنه من ربك.

وَلِكُلِّ وُجْهٌ مِّنْ مَّوَلًىٰ فَاسْتَبِقُوا الْحَزَبَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٤﴾

﴿ولكل﴾ من أهل الأديان المختلفة. ﴿وجهة﴾ قبله، وفي قراءة أبي: ولكل قبله ﴿هو موليها﴾ وجهه، فحذف أحد المفعولين، وقيل: هو الله تعالى، أي: الله موليها إياه. وقرئ: ولكل وجهة على الإضافة، والمعنى: وكل وجهة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول، كقولك: لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه، وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أي: هو مولى تلك الجهة، وقد وليها، والمعنى: لكل أمة قبله تتوجه إليها منكم، ومن غيركم. ﴿فاستبقوا﴾ انتم ﴿الخيرات﴾ واستبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره، ومعنى آخر: وهو أن يراء، ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أي: جهة يصلي إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات. ﴿إينما تكونوا يات بكم الله جميعاً﴾ للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه، ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسماة للكعبة وإن اختلفت، إينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا فَعَلُوا ﴿١٨٥﴾

﴿ومن حيث خرجت﴾ أي: ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إذا صليت. ﴿وإنه﴾ وإن هذا المأمور به، وقرئ: ﴿يعملون﴾ بالباء، والياء، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مضان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصيلة بينه وبين البداء، ففكر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجنوا، ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلقت فوائدها.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرًا إِلَّا بَيْنَكُمْ وَجْهٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي يَوْمَ أَلْتَمِسُ إِلَيْنَا الْغَائِبِينَ ﴿١٨٦﴾

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه: لثلاث يكون حجاً لأحد من اليهود إلا للمعاندین منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحجاً لبلده،

للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الذليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتبيح إلهاب للثبات على الحق.

فَإِنْ قُلْتَ^(١): كيف قال: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ ولهم قبلتان لليهود قبله وللنصارى قبله؟ قلْتُ: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبله الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبله واحدة.

الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ كِتَابٌ يَعْرِفُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿يعرفونه﴾ يعرفون رسول الله ﷺ معرفةً جليةً يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص. ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لا يشبهه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني يا بني. قال: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي ففعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه، وجاز الإضمار وإن لم يسبق له نكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام، وقيل: الضمير للعلم، أو القرآن، أو تحويل القبلة، وقوله: كما يعرفون أبناءهم يشهد للأول، وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام.

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١٨٨﴾

فَإِنْ قُلْتَ^(٢): لم اخص الأبناء؟ قلْتُ: لأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء الزم ويقلوبهم الصق. وقال: ﴿فريق منهم﴾ استثناء لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذين قالوا: يقال فيهم، ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب.

﴿الحق من ربك﴾ يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف أي: هو الحق، أو مبتدأ خبره من ربك. وفيه وجهان: أن تكون اللام للبعد والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ، أو إلى الحق الذي في قوله: ﴿ليكتُمون الحق﴾، أي: هذا الذي يكتُمونه هو الحق من ربك، وإن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره: يعني: أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل.

فَإِنْ قُلْتَ: إذا جعلت ﴿الحق﴾ خبر مبتدأ فما محل ﴿من ربك﴾؟ قلْتُ: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وإن يكون حالاً. وقرأ علي رضي الله عنه: الحق من ربك على الإبدال من الأول، أي: يكتُمون الحق: الحق من ربك. ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ الشاكين في كتمانهم الحق

= ﴿واحد﴾ وللزمخشري عنه جواب آخر، سلف بمكانه.

(2) قال أحمد رحمه الله: بني كلامه هذا على أن الإنث لا يدخلن في لفظ الأبناء، كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك، بل اللفظان سواء في شمول الإنث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف، إذا وقف على بني وبني بنيه، كما يدخلن في لفظ الأولاد، هذا مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

(1) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ مع أنه متعدد، وهو: المن والسلى، فقيل: إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه، وأثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعمان المذكوران في الرفاهية، جعلوهما طعاماً واحداً، وهذا المعنى في إنكار الطعام، أبلغ؛ لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم: ﴿لن نصبر على طعام﴾ حتى اكدره بقولهم: =

ولو كان على الحق للزم قبله الانبياء.

فَأَنْ قُلْتُ: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟ **قُلْتُ:** كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبله أبيه إبراهيم، كما هو مذكور في نعته في التوراة.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ **قُلْتُ:** لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبله إبراهيم وإسماعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له، فرجع إلى قبله آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ألا الذين ظلموا منهم، على أن إلا للتنبيه، ووقف على حجة ثم استأنف منها. **﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾** فلا تخافوا مطاعهم في قبلكم، فإنهم لا يضرونكم. **﴿وَلَا خَشَوْنِي﴾** فلا تخالفوا أمري، وما رأيته مصلحة لكم. ومتعلق اللام محذوف معناه: ولإتمامي النعمة عليكم وإراني اهتداءكم أمرتكم بذلك، أو يعطف على علة مقفلة، كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم، وقيل: وهو معطوف على **﴿لَنْ لَا يَكُونَ﴾**، وفي الحديث: «تمام النعمة، دخول الجنة»⁽¹⁾. وعن علي رضي الله عنه: تمام النعمة، الموت على الإسلام.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ^(١٥٦).

﴿كما أرسلنا﴾ إما أن يتعلق بما قبله أي: ولاتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده أي: كما نكرتكم بإرسال الرسول.

فَأَذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ وَأُنْذِرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ^(١٥٧) **يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتِغِيثُوا وَغَابِرُوا وَغَابِرُوا** ^(١٥٨) **مَعَ الْغَابِرِينَ** ^(١٥٩).

﴿فانذروني﴾ بالطاعة **﴿انذركم﴾** بالثواب **﴿واشكروا لي﴾** ما أنعمت به عليكم. **﴿ولا تكفرون﴾** ولا تجحسوا نعمائي.

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْيَاهُ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ^(١٦٠).

﴿أموات بل أحياء﴾ هم أموات بل هم أحياء **﴿ولكن لا تشعرون﴾** كيف حالهم في حياتهم. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها، وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعم وإن كانت في حجم الذرة، وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَوْجِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالتَّارِثِ وَبَشِيرٍ غَيْرِ الْمَوْتِ ^(١٦١) **إِذَا اسْتَبْتَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ^(١٦٢).

﴿ولنبلوكنكم﴾ ولنصيبكنم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ **﴿وبشيء﴾** بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه. **﴿وببشر الصابرين﴾** المسترجعين عند البلاء لأن الاسترجاع تسليم وإذعان، وعن النبي ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»⁽²⁾. وروي: أنه طفى سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»⁽³⁾. وإنا قلل في قوله بشيء ليؤن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويربهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزيلهم، وإنا وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم.

﴿ونقص﴾: عطف على شيء، أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال، والخطاب في **﴿وببشر﴾** لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى منه البشارة⁽⁴⁾، وعن الشافعي رحمه الله: الخوف خوف الله، والجوع صيام شهر رمضان، والنقص من الأموال الزكوات والصدقات، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد، وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة،

من الله تعالى، لم يزل مشحوناً في قلوب المؤمنين، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص، وقد عبر عنها الشرع بالزكاة، التي هي النمو ضد النقص، وورد ما نقص مال من صدقة، ويمكن أن يقال: هي نقص حساً، وإنا سميت زكاة، باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو، فالعوض المرجو من كرم الله خلف، فلما نكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها، عبر «عنها بالزكاة، تسهلاً لإخراجها على المكلف، لأنه إذ استشعر العوض من الله تعالى، ونمّ ماله بذلك، هان عليه بذلها، وسمحت نفسه لذلك.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: 94 الحديث رقم: (3527)، وأحمد في المسند 231/5.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب الحديث رقم: (9689).

(3) رواه أبو داود في المراسيل، كتاب الجنائز الحديث رقم: (412).

(4) قال أحمد: وفي تفسيره هذا نظر؛ لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل، مذكور قبل وقوعه، توطئاً عليه عند الوقوع، ولعله ما من بلية نكرها، إلا وقد تقدّمت لهم قبل نزول الآية، إذ الخوف =

وسموه بيت الحمد⁽¹⁾.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ⁽²⁾.

والصلاة: الحنو والتعطف فوضعت موضع الرافة وجمع بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: «رَافَةٌ وَرَحْمَةٌ»⁽²⁾ رؤوف رحيم والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة أي رحمة. «وأولئك هم المهتدون» لطريق الصواب حيث استرجعوا، وسلموا لأمر الله.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ⁽³⁾.

والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم.

والشعائر: جمع شعيرة وهي: العلامة. أي: من أعلام مناسكه وعباداته.

والحج: القصد، والاعتمار: الزيارة، فغلبا على قصد البيت: وزيارته للنسكين المعروفين وهما في المعاني: كالتجم، والبيت في الأعيان. وأصل «يطوف» يتطوف فادغم، وقرئ: أن يطوف، من طاف.

فإن قلت: كيف قيل إنهما من شعائر الله، ثم قيل: «لا جناح عليه أن يطوف بهما»؟ قلت: كان على الصفا أساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامراًة زنيا في الكعبة فمسحوا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبدا من بون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية، وأن لا يكون عليهم جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح، واختلف في السعي فمن قائل: هو تطوُّع بليل رفع الجناح، وما فيه من التخيير بين الفعل والترك، كقوله: «فلا جناح عليهما أن يتراجعا»⁽³⁾ وغير ذلك، ولقوله: «ومن تطوَّع خيراً» كقوله: فمن تطوَّع خيراً فهو خير له، ويروى ذلك عن أنس، وابن عباس، وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم، وعند الأولين لا شيء عليه، وعند مالك والشافعي هو ركن لقوله عليه السلام: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»⁽⁴⁾. وقرئ: «ومن يطوَّع» بمعنى: ومن يتطوَّع فادغم، وفي قراءة عبد الله: «ومن يتطوَّع بخير».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِ مَا يُبَيِّنُكَ

لِنَاسٍ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ⁽⁵⁾.

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ» من أحبار اليهود «ما أنزلنا» في التوراة «من البينات» من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ «والهدي» والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان به. «من بعد ما بيناه» ولخصناه «للناس في الكتاب» في التوراة لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم فعمدوا إلى تلك المبين المخلص فكتموه ولبسوا على الناس. «أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ⁽⁶⁾.

«وأصلحوا» ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم، «وبينوا» ما بينه الله في كتابهم فكتموه، أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم، ليمحوا سمة الكفر عنهم، ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به، ويقبضي بهم غيرهم من المفسدين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ⁽⁷⁾.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني: الذين ماتوا من هؤلاء الكافرين ولم يتوبوا نكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً. وقرأ الحسن: والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في التقدير، كقولك: عجبني من ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو. كأنه قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة.

فإن قلت: ما معنى قوله: «والناس أجمعين» وفي الناس المسلم والكافر؟ قلت: أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون، وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخْتَلِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ⁽⁸⁾.

«خالدين فيها» في اللعنة، وقيل: في النار، إلا أنها أضمرت تفخيماً لشدانها وتهويلاً. «ولا هم ينظرون» من الإنظار أي: لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتدروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَجَاتٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ⁽⁹⁾.

«إله واحد» فرد في الإلهية لا شريك له فيها، ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً، و«لا إله إلا هو» تقرير الوحداية بنفي غيره وإثباته «الرحمن الرحيم» المولى

(2) سورة الحديد، الآية: 27.

(3) سورة البقرة، الآية: 230.

(4) أخرجه أحمد في المسند 6/421. والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت، الحديث رقم: (85)، والحاكم في المستدرک 70/4.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: فضل المصيبة إذا

احتسب الحديث رقم: (1021)، وأخرجه ابن حبان في كتاب

الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض الحديث رقم:

(2948).

لجميع النعم أصولها وفروعها ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإن كل ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنسَانِ الْكَبِيرِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَحْرِ وَمَا بَيْنَهُمْ مِنْ نِعَمٍ إِنَّ اللَّهَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ لَغَافِلٌ أَعْمَى ﴿١٦٦﴾

وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فات بآية نعرف بها صدقك، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنسَانِ الْكَبِيرِ﴾ واعتقباها لأن كل واحد منهما يعقب الآخر كقوله: جعل الليل والنهار خلقاً. ﴿يَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها، أو ينفع الناس.

فإن قلت: قوله: ﴿وَبِثِّ فِيهَا﴾ عطف على أنزل أم أحيا؟ قلت: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لأن قوله: ﴿فأحيا به الأرض﴾ عطف على ﴿أنزل﴾ فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة، ويجوز عطفه على ﴿أحيا﴾ على معنى فأحيا بالمطر الأرض، وبث فيها من كل دابة لأنهم يمتنون بالخصب ويعيشون بالحب. ﴿وتصريف الرياح﴾ في مهابها قبولاً ونبوراً وجنوباً وشمالاً، وفي أحوالها حارة وباردة وعاصفة ولينة وعقماً ولواقيح. وقيل: تارة بالرحمة، وتارة بالعذاب. ﴿والسحاب المسخر﴾ سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء. ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة، وعن النبي ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها» أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وقرئ: والفلك بضممتين، وتصريف الرياح على الإفراذ.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ فِيهِمْ مَوَاطِنَ أَنْبَاءٍ كَمَا أَنْبَأَ نوحاً وهوداً ولوطاً ولما أرسلناك نذيراً لقومك فقالوا: سحرة كاذبون ﴿١٦٧﴾

﴿أنباء﴾ أمثالا من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم، واستدل بقوله: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ (1). ومعنى (2): ﴿يحبونهم﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كحب الله﴾ كتعظيم الله والخضوع له، أي: كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبني

للمفعول، وإنما استغنى عن نكر من يحبه لأنه غير ملبس. وقيل: كحبهم الله. أي: يسوون بينه وبينهم في محبتهم، لأنهم كانوا يقرّون بأله ويتقرّون إليه فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. ﴿أشدّ حبا لله﴾ لأنهم لا يعملون عنه إلى غيره بخلاف المشركين، فإنهم يعملون عن اندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبدون الصنم زماناً، ثم يرفضونه إلى غيره، أو ياكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام المجاعة. ﴿الذين ظلموا﴾ إشارة إلى متخذي الانداد، أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون اندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا﴾ (3) وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، وقرئ: ولو ترى بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً. وقرئ: إذ يرون على البناء للمفعول، وإن في المستقبل كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (4).

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّكَ الْمَذَابَ وَتَقَطَّعَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٨﴾

﴿إذ تبرأ﴾ بدل من إذ يرون العذاب، أي: تبرأ المتبعون، وهم الرؤساء من الاتباع. وقرأ مجاهد الأول على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، أي: تبرأ الاتباع من الرؤساء. ﴿ورأوا العذاب﴾ الواو للحال، أي: تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب. ﴿وتقطعت﴾ عطف على تبرأ و﴿الأسباب﴾ الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب والاتباع والاستتباع، كقوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا رَبَّنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٩﴾

﴿لو﴾ في معنى التمني، ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني. كأنه قيل: ليت لنا كربة فننبرأ منهم. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿يريههم الله أعمالهم حسرات﴾ أي: ندامات، وحسرات ثالث مفاعيل أرى، ومعناه أن أعمالهم تنتقل حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم. ﴿وما هم بخارجين﴾ (5) هم بمنزلته في قوله:

(1) سورة البقرة، الآية: 166.

(3) سورة الانعام، الآية: 27.

(4) سورة الاعراف، الآية: 44.

(5) قال أحمد رحمه الله: أشد ما أخفي في هذه الكلمات، معتقد أو رب صدره كلمات، فهو ينفس عن نفسه خناق الكتمان، بما ينفثه منه في بعض الإحسان، وكشف ذلك أن يقال، لما استشعر دلالة الآية =

(2) قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول، ولكن هذا مسمى الفاعل، وفعله مبني للفاعل، عند فكه من السبك. قوله تعالى: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ الآية. (قال محمود رحمه الله: هم هنا بمنزلتها في قوله: هم يفرشون الخ).

هم يفرشون اللبـد كل طمرة

في دلالتـه على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ عَنَّا طَرَبًا وَلَا تَنفَعُ حُطُوتُ السَّيِّئِينَ إِنَّمَا لَكُمْ عَذَابُ يُبَيِّنُ (١٧٦).

﴿حلالاً﴾ مفعول كَلُوا، أو حال مما في الأرض. ﴿طَرَبًا﴾ طاهراً من كل شبهة. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ فتدخلوا في حرام. أو شبهة أو تحريم حلال، أو تحليل حرام، ومن للتبعيض لأن كل ما في الأرض ليس بمأكول.

وقرىء: خطوات بضمـتين، وخطوات بضمة وسكون، وخطوات بضمـتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كانها على الواو، وخطوات بفتحـتين، وخطوات بفتحة وسكون.

والخطوة: المرة من الخطو، والخطوة ما بين قدمي الخاطي، وهما: كالغرفة، والغرفة والقبضة والقبضة. يقال: اتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته. ﴿مُبَيِّنٌ﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٧٧).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالقبيح. ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وما يتجاوز الحد في القبح من العظام، وقيل: السوء ما لا حد فيه، والفحشاء ما يجب الحد فيه. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو قولكم هذا حلال وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

فَأَن قُلْتُ: كيف كان الشيطان أمراً مع قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١). قلت: شبه تزيينه وبعته على الشر بأمر الأمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا، وتحتة رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وسأوسه، ولذلك قال: ولأمرنهم فليبيتكن أذان الأنعام، ولأمرنهم فليغيثن خلق الله وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٢) لما كان الإنسان يطيعها فيعطيهما ما اشتتهت.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْكَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

أَوَلَوْ كَانُوا يَأْكُلُونَ لَمْ يَلْمِزُوا شَيْئًا وَلَا يَسْتَدِينُونَ (١٧٨).

﴿لَهُمْ﴾ الضمير للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للدناء على ضلالهم لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون؟ قيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَكِنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم. وآفكنا بمعنى: وجننا. بليل قوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾. ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَأْكُلُونَ﴾ الواو للحال، والهمزة بمعنى: الرد والتعجب. معناه: آيتبعونهم ولو كان آبأؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتمون للصواب.

وَمَثَلُ الْآرِينِ كَمَثَلِ الْآرِيِّ يَرَىٰ بِمَا لَا يَنصَحُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ مُّمٌّ بِكُمْ عَنْهُ فَهُمْ لَا يَصِفُونَ (١٧٩).

لا بد من مضاف محذوف تقديره، ومثل داعي الذين كفروا ﴿كَمَثَلِ الْآرِيِّ يَنْعِقُ﴾ أو ومثل الذين كفروا كيهائم الذي ينقع، والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثـل الناقع بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناقع ونداء الذي هو تصويت بها، وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون، ويجوز أن يراد بما لا يسمع الأصم الأصلح الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير من غير فهم للحروف، وقيل: معناه ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثـل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحتـه، فكنـذك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل. وقيل: معناه ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثـل الناقع بما لا يسمع. إلا أَنَّ قوله ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع شيئاً.

والنعيق: التصويت، يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضان، قال الأختل:

فانـعق بضانك يا جرير فإنما مَنـذَكَ نفسك في الخلاء ضلالاً
وأما نعق الغراب فبالغيث المعجـمة. ﴿صَمٌّ﴾ هم صمّ، وهو رفع على الذم.

يَأْتِيهَا الْكُوفَرُ ۖ آمَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن

= لزم حصر نفي الخروج من النار في هؤلاء الكفار، نون غيرهم من الموحدين، لكن الزمخشري يابى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة، بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المنكـور، يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم، لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة؛ لأن العصاة، وإن خللوا على زعمه، إلا أَنَّ الكفار أحق بالخلود، وأنـخل في استحقاقه منهم، فسبحان من امتحن بهذه المحنة، على حق وفطنة، والله ولي التوفيق.

(1) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(2) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

= لاهل السنة، على أنه لا يخلد في النار، إلا الكافر، وأما العاصي، وإن أصر على الكبار، فتوجيهه يخرجـه منها، ولا بد وفاء بالوعد، ووجه الدلالة منها على ذلك، أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثـل هذا النظم يقتضي الاختصاص والحصر لغة، وستمـر للزمخشري مواضع، يستدل فيها على الحصر بذلك، فقد قال في قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أَنَّ معناه: لا ينشر إلا هم، وَأَنَّ المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم، وكذلك يقول في أمثال قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أَنَّ معناه: الحصر، أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابتنى الأمر على ذلك،

كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿مَنْ طَيَّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مستلذاته لَأَنَّ كل ما رزقه الله ما يكون إلا حلالاً، ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَكُمْوهَا﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إِنْ صَحَّ أَنَّكُمْ تَخْصُونَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَتَقْرَأُونَ أَنَّهُ مَوْلَى النِّعَمِ، وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «إِنِّي وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ أَخْلَقْتُ وَبَعِدْتُ غَيْرِي، وَارْزُقْتُ وَبَشَرْتُ غَيْرِي»^(١).

إِنَّا حَرَمَ عَلَيْكُمُ النِّمَةَ وَالَّذِمَّ الْخَنِزِيرَ وَمَا أُهِلَ بِهِ،
يَلْبِسُ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (١٧٦).

قرئ: حرم على البناء للفاعل، وحرم على البناء للمفعول، وحرم بوزن كرم. ﴿أَهْلًا بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية باسم اللات والعزى. ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ على مضطر آخر بالاستيثار عليه. ﴿وَلَا عَادٍ سِدَّ الْجُوعَةِ﴾.

فَإِنْ قُلْتُ: فِي الْمَيْتَاتِ مَا يَحِلُّ وَهُوَ السَّمَكُ وَالْجَرَادُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَبِمَا»⁽²⁾. قُلْتُ: قَصْدُ مَا يَتَفَاهَمُهُ النَّاسُ وَيَتَعَارَفُونَهُ فِي الْعَادَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ: أَكَلَ فُلَانٌ مَيْتَةً لَمْ يَسْبِقِ الْوَهْمَ إِلَى السَّمَكِ وَالْجَرَادِ، كَمَا لَوْ قَالَ: أَكَلَ مَاءً، لَمْ يَسْبِقِ إِلَى الْكِبْدِ وَالطَّحَالِ، وَلِاعْتِبَارِ الْعَادَةِ وَالتَّعَارُفِ قَالُوا: مَنْ حَلَفَ لَا يَأْكُلُ لَحْمًا فَأَكَلَ سَمَكًا لَمْ يَحْنُثْ وَإِنْ أَكَلَ لَحْمًا فِي الْحَقِيقَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا»⁽³⁾ وَشَبَّهَهُ مِمَّنْ حَلَفَ لَا يَرْكَبُ دَابَّةً فَرَكَبَ كَافِرًا لَمْ يَحْنُثْ وَإِنْ سَمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى دَابَّةً فِي قَوْلِهِ: «إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الذِّنِّ كُفْرًا»⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: فما له نكر لحم الخنزير بون شحمه؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الشحم داخل في نكر اللحم لكونه تابعاً له وصفة فيه بلبيل قولهم: لحم سمين يريدون أنه شحم.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ بِهِ كَذِبًا
لَقَدْ آتَيْنَاكَ مَا يَكْفُرُ فِي بَطُونِهِمْ إِلَّا أَنْزَارٌ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِسْمَةِ وَلَا يَرْكَبُهمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿فِي بَطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه. **﴿إِلَّا النَّارُ﴾** لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبةً عليه فكأنه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدبة التي هي بدل منه. قال:

أَكَلْتُ مِمَّا إِنْ لَمْ أُرْعَكَ بِضُرَّةٍ

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعبير نعم الله عز وجل وشكرها الحديث رقم: (4563).

(2) أخرجه أحمد في المسند 97/2، وابن ماجه في كتاب الأطعمة،

باب: الكبد والطحال الحديث رقم: (3314)، والدارقطني في كتاب:

الدائم السكنى إلى الناس لأنه لا شيء له، كالمسكين الدائم السكر، **«وابن السبيل»** المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص: القاطع وابن الطريق. وقيل: هو الضيف لأن السبيل يرعف به. **«والسائلين»** المستطعمين، قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه»⁽⁵⁾. **«وفي الرقاب»** وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، وقيل: في ابتياع الرقاب وإعتاقها، وقيل: في فك الأسارى.

فإن قلت: قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه، ثم قفاه بإيتاء الزكاة، فهل دل ذلك على أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت: يحتمل ذلك، وعن الشعبي أن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية. ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبار. وفي الحديث: «نسخت الزكاة كل صدقة»⁽⁶⁾. يعني: وجوبها. ودوي: «ليس في المال حق سوى الزكاة»⁽⁷⁾.

«والموفون» عطف على **«ومن آمن»**. وأخرج **«الصابرين»** منصوباً على الاختصاص والمدح إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال على سائر الأعمال. وقرئ: والصابرون، وقرئ: والموفين والصابرين. **«الأيام»** الفقر والشدّة **«والضراء»** المرض والزمانة. **«صدقوا»** كانوا صادقين جادين في الدين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمُ وَالْمَرْءُ وَالْمَرْءَةُ
بِالْمَرْءِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى مَن عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعَ بِالسُّبُوتِ وَأَدَاءَهُ
إِلَيْهِ بِإِسْنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَبْدِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨).

عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء

وجوهكم قبل المشرق والمغرب⁽¹⁾ الخطاب⁽¹⁾ لاهل الكتاب لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق، وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وزعم كل واحد من الفريقين أن البرّ التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم، وقيل: ليس البرّ فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البرّ، ولكن البرّ ما نبينه. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمّة بر من آمن، وقام بهذه الأعمال. وقرئ: وليس البرّ، بالنصب على أنه خبر مقدم، وقرأ عبد الله: بأن تولوا، على إسخال الباء على الخبر للتأكيد، كقولك: ليس المنطلق بزيد. **«ولكن البر من آمن بالله»** على تأويل حذف المضاف، أي: بر من آمن، أو يتأول البر بمعنى: ذي البر. أو كما قالت:

فإنما هي إقبال وإسباز

وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت. ولكن البرّ، بفتح الباء. وقرئ: ولكن البار. وقرأ ابن عامر ونافع: ولكن البرّ، بالتخفيف. **«والكتاب»** جنس كتب الله، أو القرآن. **«على حبه»** مع حب المال والشح به، كما قال ابن مسعود: أن تؤتیه وأنت صحيح صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم⁽²⁾ قلت لفلان: كذا ولفلان كذا. وقيل: على حب الله، وقيل: على حب الإيتاء. يريد أن يعطيه وهو: طيب النفس بإعطائه. وقدم ذوي القربى لأنهم أحق، قال عليه الصلاة والسلام: «صدقك على المسكين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان لأنها صدقة وصلة»⁽³⁾. وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصنعة على ذي الرحم الكاشح»⁽⁴⁾. وأطلق **«ذوي القربى واليتامى»** والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس، والمسكين

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا منقول عن المبرد، مصمى بسهام الرد، فإن فيه إبهاماً، بأن اختلاف وجوه القراءة موكل إلى الاجتهاد، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة، جازت القراءة به، لمن يعد أهلاً للاجتهاد في العربية واللغة، وهذا خطأ محض، فالقرآن سنة متبعة، لا مجال فيها للدرابة، على أن ما قاله، وقدر أنه الأوجه، ليس ببالغ نزوة فصاحة الآية، إلا على القراءات المستفيضة؛ لأن الكلام مصدر بذكر البر، الذي هو المصدر قولاً واحداً، فلو عدل إلى ذكر البر، الذي هو: الوصف، لانفك المطابقة ومعنى النظام، ولذلك كان تأويل الآية، بحذف المضاف من الثاني على تأويل بر آمن أوجه، وأحسن وأبقى على السياق، ومن ظن أنه يشق غباراً، أو يتعلق بأنيال فصاحة المعجز للفصحاء، فقد سؤلت له نفسه محلاً، ومنته ضلالاً.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 55/9، الحديث رقم: (16324)، وأخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح، الحديث رقم: (1419)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح الحديث رقم: (2379).

(3) أخرجه أحمد في المسند 214/4، والدارمي في كتاب: الزكاة، باب: =

= الصدقة على القرابة الحديث رقم: (1680)، والحاكم في المستدرک 407/1، وأخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، الحديث رقم: 658، والنسائي في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على الأقارب الحديث رقم: (2582)، وابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة، الحديث رقم: (1844)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع الحديث رقم: (3344)، وابن أبي شيبة 192/3، كتاب: الزكاة، باب: الرجل يدفع زكاته إلخ. (4) رواه أحمد في المسند 402/3، والحاكم في المستدرک 406/1. (5) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: حق السائل، الحديث رقم: (1665)، ومالك في الموطأ، كتاب: الصدقة، باب: الترغيب في الصدقة، الحديث رقم: (3). (6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الصيد والذبائح والأطعمة، الحديث رقم: (39)، وعبد الرزاق في المصنف 505/7، الحديث رقم: (14046). (7) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما أدى زكاته ليس بكنز الحديث رقم: (1789)، ورواه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة الحديث رقم: (660).

فإن قلت: إن عفى يتعدى بعن لا باللام، فما وجه قوله: ﴿فمن عفى له﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿عفا الله عنها﴾⁽⁶⁾، فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى. كما تقول: غفرت له ذنبه، وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى له عن جنايته، فاستغنى عن ذكر الجناية.

فإن قلت: هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن أعفاه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأعفوا للحي»⁽⁷⁾.

فإن قلت: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محى له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقلة في مكانها، والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتب والسنة واستعمال الناس، فلا يجعل عنها إلى أخرى قلقلة ثابتة عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله على اختراع لغة وإدعاء على العرب ما لا نعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها.

فإن قلت: لم قيل شيء من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية. «فاتباع بالمعروف» فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع، وهذه توصية للمعفو عنه والعافي

وعكرمة⁽¹⁾، وهو مذهب مالك والشافعي رحمة الله عليهم أن الحر لا يقتل بالعبد، والذکر لا يقتل بالأنثى، أخذاً بهذه الآية، ويقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: «النفس بالنفس»⁽²⁾، ولأن تلك وإرادة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون، وكتب عليهم ما فيها، وعن سعيد بن المسيب والشافعي والنخعي وقتادة والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنها منسوخة بقوله: «النفس بالنفس» والقصاص ثابت بين العبد والحر، والذکر والأنثى، ويستدلون بقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»⁽³⁾. وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس بلبيل أن جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وروي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول على الآخر، فاقسموا لنقتل الحر منكم بالعبد منا، والذکر بالأنثى، والآنثى بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزلت وأمرهم أن يتباؤوا ﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾ معناه⁽⁴⁾: فمن عفى له من جهة أخيه شيء من العفو، على أنه كقولك: سير بزيد بعض السير، وطائفة من السير، ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به؛ لأن عفا لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة.

وأخوه: هو ولي المقتول، وقيل له: أخوه، لأنه لا بسه من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أنى ملاسة، أو نكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بنكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام.

النكاح = إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه، ويقول أصحابه: عفوه على أحد وجهين: إما من استرجاع النصف الواجب، إن كان قد سلم جميع المهر، وأما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه، إن كان لم يسلمه، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء، ويوقي هذا الوجه في أنه لا قصاص، قوله: «فاتباع بالمعروف» لأن المخاطب بالاتباع بالمعروف، إنما هو الولي، فإذا جعلنا الضميرين له، انساق الكلام سياقة واحدة، إلى جهة واحدة، وصار المعنى: فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى، ولما خالفه الولي عن التقاضي، خاطب القاتل بحسن الأداء، فليتنظم الكلام موجهاً إلى وجهة واحدة، وأما على الوجه الذي قرره الزمخشري، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل، وتقدير الكلام: فمن عفى له من القتلتين عن جنايته شيء من العفو، فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف، فيكون المخاطب أول الآية القاتل، وآخرها الولي، بخلاف الوجه الذي قررته، والله أعلم، وكلا الوجهين حسن جيد.

(5) سورة التوبة، الآية: 43.

(6) سورة المائدة، الآية: 101.

(7) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ولفظه: انتهكوا الشوارب وأعفوا للحي، في كتاب اللباس، باب: إعفاء للحي الحديث رقم: (5893)، وأخرجه مسلم ولفظه: «أحفوا الشوارب وأعفوا عن للحي» في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة الحديث رقم: (599).

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من الزمخشري، وهم على الإمامين، فإنهما يقتضيان من الذکر للأنثى بلا خلاف عنهما، وأما الحر والعبد عندهما، فهو: الذي وهم الزمخشري عنهما.

(2) سورة المائدة، الآية: 45.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الديات، باب: إيقاد المسلم بالكافر الحديث رقم: (4530)، والنسائي في كتاب القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكافر، الحديث رقم: (4746)، وأخرجه الحاكم في المستدرک عن عمرو بن العاص 141/2، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السرية الحديث رقم: (2751)، وابن ماجه في كتاب: الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم الحديث رقم: (2685)، وعن ابن عباس الحديث رقم: (2683)، وعن معقل بن يسار الحديث رقم: (2684)، وعن عائشة، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى 30/8.

(4) قال أحمد رحمه الله: ويوقي هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية، والخيار إلى الولي، وهو أحد القولين في مذهب مالك رضي الله عنه ومشهورهما، إذ لو جعلنا موجب العمد للقود على القول الآخر، لكان في ذلك تضيق على الولي، والآية مشعرة بالتخفيف والسعة، وتحتل الآية وجهاً آخر، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي، وقالوا على هذا الوجه: يكون العفو إعطاء البذل، كأنه قال: فمن أعطى شيئاً من أخيه، أي: بدلاً من أخيه، ويكون من مثلهما في قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي، قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة

أماراته. ﴿خَيْرًا﴾ مالا كثيراً، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار. فقالت: ما أرى فيه فضلاً، وأراد آخر أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإنَّ هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك. وعن علي رضي الله عنه: إنَّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة، فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال، وليس لك مال. و﴿الوصية﴾ فاعل و﴿كتب﴾ وذكر فعلها للفصل ولأنَّها بمعنى: أن يوصي، ولذلك نكر الراجع في قوله:

﴿فَمَنْ بَنَىٰ بَعْدَهُمَا سَمِعَهُ﴾

والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بآية الموارث ويقول عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ أَلَا وَصِيَّةٌ لِّوَارِثٍ؟﴾ (2). ويتلقى الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الآحاد لأنَّهم لا يتلقون بالقبول إلا الثابت الذي صحت روايته، وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين، وقيل: ما هي بمخالفة لآية الموارث، ومعناها: كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَاكُمْ﴾ (3) وكتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم وأن لا ينقص من أنصبتهم ﴿بالمعروف﴾ بالعدل وهو: أن لا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد أي: حق ذلك حقاً.

فَمَنْ بَنَىٰ بَعْدَهُمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبْنُونَهُ إِنَّ اللَّهَ تَجِبُ عَلَيْهِ (٧٦)

﴿فَمَنْ بَنَىٰ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَهُمَا سَمِعَهُ﴾ وتحققه، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبْنُونَهُ﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبنييه دون غيرهم من الموصي والموصى له لأنَّهما بريان من الحيف. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبذل.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْسٍ جَفَا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٧)

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع. يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم. ﴿جَفَا﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو تعمداً للحيف. ﴿فَأَصْلَحَ بينهم﴾ بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون

جميعاً. يعني: فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة، وليؤدِّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان بأن لا يمتله ولا يبخسه. ﴿نَكَ﴾ الحكم المنكور من العفو والدية ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأنَّ أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرَّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الإنجيل العفو، وحرَّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعةً عليهم وتيسيراً. ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بالتخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمِّن القاتل بقبوله الدية، ثم يظفر به فيقتله. ﴿قُلْهُ عَذَابُ اللَّهِ﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية، لقوله عليه السلام: «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْأَنْبِيَاءُ لَمَّا كُنْتُمْ تَتْلُونَ (٧٨)

﴿ولكم في القصاص حياة﴾ (1) كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أنَّ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محن البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة لأنَّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنَّهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة. أي: حياة أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل لأنَّه إذا همَّ بالقتل فعلم أنَّه يتقص فارتدع منه سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصاص حياة، أي: فيما قصَّ عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل: القصص القرآن، أي: ولكم في القرآن حياة للقلوب. كقوله تعالى: ﴿رَوْحاً مِنْ أَمْرَانَا﴾ ﴿وَيُحْيِي مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَةٍ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لعلكم تتقون، تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالائمة.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٧٩)

﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ إذا دنا منه وظهرت

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث الحديث رقم: (2870)، والترمذي في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء لا وصية لوارث الحديث رقم: (2120)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث الحديث رقم: (2713).

(3) سورة النساء، الآية: 11.

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله: جعل أحد الضمين محللاً للآخر، كلام إما هم فيه، أو تسامح، لأنَّ شرط تضاد الحياة والموت، اجتماعهما في محل واحد تقديرًا، ولا تضاد بين حياة غير المقتص منه، وموت المقتص، والبلاغة التي أوضحها في الآية، بينة بدون هذا الإطلاق.

الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنه في سعة من الإفطار. وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾. وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل. واختلف أيضاً في القضاء فعامة العلماء على التخخير، وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: إن الله لم يرخص لكم في فطره، وهو يريد أن يشق عليكم في قضاؤه، إن شئت فواتر، وإن شئت ففرق⁽⁴⁾ وعن علي وابن عمر والشعبي وغيرهم: أنه يقضي كما فات متتابعاً⁽⁵⁾. وفي قراءة أبي: فعدة من أيام آخر متتابعات.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ على التنكير، ولم يقل فعدتها أي: فعدة الأيام المعدودات؟ قلت: لما قيل: فعدة، والعدة بمعنى المعدود، فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكانها علم أنه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة. ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفتروا ﴿ففيها طعام مسكين﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مده، وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعوبوه فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية. وقرأ ابن عباس: يطوقونه، تفعليل من الطوق إما بمعنى: الطاقة، أو القلادة أي: يكلفونه أو يقلدونه. ويقال لهم: صوموا، وعنه: يتطوقونه، بمعنى: يتكلفونه أو يتقلدونه ويطوقونه بإدغام التاء في الطاء، ويطبقونه ويطبقونه بمعنى: يتطوقونه. وأصلهما يطبقونه ويطبقوقونه على أنهما من فعمل وتفعليل من الطوق، فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء، كقولهم: تدبر المكان وما بها ديار، وفيه وجهان: أحدهما نحو معنى يطبقونه، والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر، وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية. وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ، ويجوز أن يكون هذا معنى: يطبقونه أي: يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم. ﴿فمن تطوع خيراً﴾ فزاد على مقدار الفدية. ﴿فهو خير له﴾ فالتطوع أخير له أو الخير، وقرئ: فمن يطوع بمعنى: يتطوع. ﴿وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وحملتكم على أنفسكم وجهتكم طاقتكم ﴿خير لكم﴾ من الفدية وتطوع الخير، ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً. وفي قراءة أبي: والصيام خير لكم. رمضان مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء، فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والالف والنون، كما قيل: ابن داية للغراب: بإضافة الابن إلى داية

بإجرائهم على طريق الشرع. ﴿فلا إنم عليه﴾ حينئذ لأن تبدليه بتبديل باطل إلى حق، ذكر من يبذل بالباطل ثم من يبذل بالحق ليعلم أن كل تبدل لا يؤثم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنَفُّونَ ﴿٢١٧﴾.

﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم. قال علي رضي الله عنه: أولهم آدم. يعني: أن الصوم عبادة قديمة أصلية ما أدخل الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحكمكم. ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي لأن الصائم أظلم لنفسه وأردع لها من موقعة السوء. قال عليه السلام: «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»⁽¹⁾. أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأن الصوم شعارهم. وقيل: معناه أنه كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فاصابهم موتان فزالوا عشراً قبله وعشرأ بعده فجعلوه خمسين يوماً، وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحر الشديد فشق عليهم في أسفارهم ومعاشيهم، فجعلوه بين الشتاء والربيع وزالوا عشرين يوماً كفارة لتحويله عن وقته.

أَيُّهَا مُمَدِّدَاتُ فَمَن كَانَتْ مِنكُمْ نِيَّةٌ أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهِ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٨﴾.

وقيل: الأيام المعدودات عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، كتب على رسول الله ﷺ صيامها حين هاجر، ثم نسخت بشهر رمضان. وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء، وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾⁽²⁾ الآية. ومعنى: ﴿معدودات﴾ موقات بعدد معلوم، أو قلائل. كقوله: ﴿بدرهم معدودة﴾⁽³⁾ وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد وينحصر فيه، والكثير يهال هيلاً، ويحصى حثياً، وانتصاب أياماً بالصيام، كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة. ﴿أو على سفر﴾ أو راكب سفر. ﴿فعدة﴾ فعلية عدة. وقرئ: بالنصب، بمعنى: فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدة. ﴿من أيام أخر﴾ واختلف في المرض المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض لأن الله تعالى لم يخص مرضاً نون مرض، كما لم يخص سفرأ دون سفر، فكما أن لكل مسافر أن يفطر، فكذلك كل مريض، وعن ابن سيرين أنه نخل عليه في رمضان وهو ياكل فاعتل بوجع أصبعه. وسئل مالك عن

(3) سورة يوسف، الآية: 20.

(4) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب الصيام، باب: القبلة للمصائم الحديث رقم: (63).

(5) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 242/4 الحديث رقم: (7658).

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: من لم يستطع البائة فليصم الحديث رقم: (5066)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح، الحديث رقم: (3384).

(2) سورة البقرة، الآية: 187.

البعير لكثرة وقوعه عليها إذا ببرت.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ سَمِي **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾**؟ **قُلْتَ:** الصوم فيه عبادة قديمة، فكانهم سموه بذلك؛ لارتماضهم فيه من حرّ الجوع ومقاساة شدّته، كما سموه ناتقاً؛ لأنّه كان ينتقهم أي: يزعجهم إضجاراً بشدّته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالآزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر.

فَإِنْ قُلْتَ: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»⁽¹⁾، «من أدرك رمضان فلم يغفر له»⁽²⁾؟ **قُلْتَ:** هو من باب الحذف لا من الإلباس، كما قال بما أعيا النطاسي حنيماً: أراد ابن حذيم وارتفاعه على أنّه مبتدأ خبره.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفَرَاقِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ وَلِتُحَبِّبُوا إِلَٰهَ عَلَٰكُمْ هَٰذَا هُدًى لِّلنَّاسِ وَلَكُم مِّنْكُمْ شُكْرٌ (١٨)

﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾، أو على أنه بدل من الصيام في قوله: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾** أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب على صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من أياماً معبودات، أو على أنه مفعول وإن تصوموا، ومعنى: أنزل فيه القرآن، ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر. وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوماً. وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾**⁽³⁾ كما تقول: أنزل في عمر كذا وفي علي كذا. وعن النبي عليه السلام: «نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لسبّ مضيّن، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين مضيّن»⁽⁴⁾. **﴿هدى للناس وبينات﴾** نصب على الحال أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحق والباطل.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿وبينات من الهدى﴾** بعد قوله: **﴿هدى للناس﴾**؟ **قُلْتَ:** ذكر أولاً أنّه هدى، ثم نكر أنّه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال. **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** فمن

كان شاهداً أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر، والشهر منصوب على الظرف، وكذلك الهاء في فليصمه، ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة، لأنّ المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر **﴿يريد الله﴾** أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، ومن جملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض، ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر حتى زعم أنّ من صام منهما فعليه الإعادة. وقرئ: اليسر والعسر بضمّتين⁽⁵⁾. الفعل المعمل محذوف ملول عليه بما سبق تقييره: **﴿ولتكمّلوا العدة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكّرون﴾** شرع ذلك يعني: جملة ما نكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: **﴿لتكمّلوا﴾** علة الأمر بمراعاة العدة، ولتكبّروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ولعلكم تشكّرون علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النقب المحدث من علماء البيان، وإنّما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنّه قيل: ولتكبّروا الله حامدين على ما هداكم، ومعنى: **﴿ولعلكم تشكّرون﴾**، وإرادة أن تشكّروا. وقرئ: ولتكمّلوا بالتشديد. **فَإِنْ قُلْتَ:** هل يصح أن يكون **﴿ولتكمّلوا﴾** معطوفاً على علة مقدرة كأنّه قيل: لتعلموا ما تعملون ولتكمّلوا العدة؟ أو على اليسر، كأنّه قيل: يريد الله بكم اليسر ويريد بكم لتكمّلوا، كقوله: **﴿يزيدون ليطفئوا﴾**⁽⁶⁾؟ **قُلْتَ:** لا يبعد ذلك والأوّل أوجه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨)

فَإِنْ قُلْتَ: ما المراد بالتكبير؟ **قُلْتَ:** تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هو التكبير عند الإهلال.

﴿فإني قريب﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجابه حاجة من سألّه بحال من قرب مكانه، فإذا دعي أسرع تلبيةً ونحوه: **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**⁽⁷⁾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «هو بينكم وبين أعناق رواحلكم»⁽⁸⁾. وروي: أنّ أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد

(5) قال أحمد رحمه الله: ولقبه الخاص به في صناعة البعير، رد أعجاز الكلام إلى صدره، ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه، فهو منظم في سلك حسناته.

(6) سورة الصف، الآية: 8.

(7) سورة ق، الآية: 16.

(8) أخرجه الدارقطني في: المؤلف والمختلف.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان الحديث رقم: (38)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في قيام رمضان الحديث رقم: (1778).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل» الحديث رقم: (3545).

(3) سورة البقرة، الآية: 183.

(4) أخرجه أحمد في المسند 107/4.

حرتكم»⁽¹¹⁾. «من قبل أن تمسوهن»⁽¹²⁾. «فما استمتعتم به منهن ولا تقر بهن»⁽¹³⁾. قلت: استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم.

فإن قلت: لم عدى الرفث بالي؟ قلت: لتضمنيه معنى: الإفضاء. لما كان الرجل والمرأة يعتقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه. قال الجعدي:

إذا ما الضجيع نثني عطفاً ثلثت فكانت عليه لباساً

فإن قلت: ما موقع قوله «هن لباس لكم»؟ قلت: هو استئناف، كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنباهن، فلذلك رخص لكم في مباشرتهن. «تختانون أنفسكم» تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير، والاختيان من الخيانة، كالإكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة «فتاب عليكم» حين تبتم مما ارتكبتم من المحذور. «وابتغوا ما كتب الله لكم» واطلبوا ما قسم الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل. وقيل: هو نهي عن العزل لأنه في الحرائر، وقيل: وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم، وحله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم، وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر، وقرأ ابن عباس: وابتغوا. وقرأ الأعمش: وأتوا، وقيل: معناه: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتوها، وهو قريب من بدع التفاسير. «الخيطة الأبيض» هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيطة الممدود، و«الخيطة الأسود» ما يمتد معه من غيب الليل، شبهها بخيطين أبيض وأسود. قال أبو داود:

فلما أضاءت لناسفة ولاح من الصبح خيطان

وقوله: «من الفجر» بيان للخيطة الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للثاني، ويجوز أن تكون من للتبعية لأنه بعض الفجر وأوله.

فإن قلت⁽¹⁴⁾: أهذا من باب الاستعارة أم من باب

فئانية⁽¹⁾؟ فنزلت: «فليستجيبوا لي» إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أتى أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم. وقرئ: يرشدون ويرشدون بفتح الشين وكسرهما.

أَلَمْ لَكُمْ لَيْلَةُ الْأَيَّامِ الَّتِي أَنْزَلْنَا فِيهَا لِبَاسًا لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَازِغُورُهُمْ وَاتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَبَطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَبَطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَازِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَىكُمْ فِي السَّجْدَةِ ذِكْرُ اللَّهِ فَذَلِكَ تَقَرُّوهُنَّ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٧٧).

كان الرجل⁽²⁾ إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ بيكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله إني اعتدت إلى الله واليك من نفسي هذه الخاطئة، وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت جديراً بذلك يا عمر». فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت⁽³⁾. وقرئ: أحل لكم ليلة الصيام الرفث أي: أحل الله. وقرأ عبد الله الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه أنشد وهو محرم:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصلق الطيرنك لميسا

ف قيل له: أرفثت؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء⁽⁴⁾، وقال الله تعالى: «فلا رفث ولا فسوق»⁽⁵⁾ فكنى به عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك.

فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: «وقد أقضى بعضكم إلى بعض»⁽⁶⁾. «فلما تغشاهما»⁽⁷⁾. «بأشروهن»⁽⁸⁾. «أو لامستم النساء»⁽⁹⁾. «دخلتم بهن»⁽¹⁰⁾. «فاتوا

(4) أخرجه البخاري في كتاب: باب: غزوة خيبر الحديث رقم: 276/2.

(5) سورة البقرة، الآية: 197.

(6) سورة النساء، الآية: 21.

(7) سورة الأعراف، الآية: 189.

(8) سورة البقرة، الآية: 187.

(9) سورة النساء، الآية: 43.

(10) سورة النساء، الآية: 23.

(11) سورة البقرة، الآية: 223.

(12) سورة البقرة، الآية: 237.

(13) سورة النساء، الآية: 24.

(14) قال أحمد: وجه استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذر: لأن

إقران النية بأول الصوم وجوداً، غير معتبر باتفاق، وتقديمها من

الليل، وتستصحب معتبر باتفاق، فإن لا تنافي بين الأكل =

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر الحديث رقم: (4205)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب:

استحباب خفض الصوت بالذكر الحديث رقم: (6802)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب: (3) الحديث رقم: (3374)، واللفظ له.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد لصحة هذا الجواب، أنه لما استقرت الإباحة فيه، قال: فالآن بأشروهن، فكنى عنه الكناية المألوفة في الكتاب العزيز، ويشكل بقوله: فلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في الحج، فإن هذه العبارة استعملت، ولم ينقل في الحج ما نقل في الصوم من سبب نزول الآية، وهو موافقة المكروه، ويمكن أن يجاب عنه، لما وقع في آية الحج منهاهياً عنه، أريد للشعبة عندهم، كيلا يقعوا فيه، فعبر عنه بما هجنه لكون ذلك منفراً لهم عن التورط.

(3) رواه الطبري في تفسيره.

على فعله إذا استوضح المراد منه. ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم الوصال. ﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف أن يجلس نفسه في المسجد يتعبد فيه.

والمراد بالمباشرة: الجماع لما تقدم من قوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ... فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾. وقيل معناه: ولا تلامسوهن بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل. وعن قتادة: كان الرجل إذا اعتكف خرج فبأشهر امرأته، ثم رجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك، وقالوا: فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد. وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبي وهو أحد المساجد الثلاثة، وقيل: في مسجد جامع، والعمامة على أنه في مسجد جماعة. وقرأ مجاهد: في المسجد. ﴿تِلْكَ الْأَحْكَامُ الَّتِي نَزَّلْنَا بِهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تغشوها.

فإن قلت: كيف قيل: فلا تقربوها⁽⁴⁾ مع قوله: ﴿فَلَا تَعْتَبُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الوسطة متباعدًا عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَحِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، فَالْزَمْنَا حَوْلَ الْحِمَى وَقُرْبَانَ حِيزِهِ وَاحِدًا»⁽⁵⁾. ويجوز أن يريد بحُدُودِ اللَّهِ محارمه ومناهيهِ خصوصاً لقوله: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ﴾ وهي حدود لا تقرب.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْمَكْرِ إِنْ تَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

التشبيه؟ قلت: قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً.

فإن قلت: فلم زيد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ حتى كان تشبيهاً، وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر من الفجر لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد من الفجر فكان تشبيهاً بليغاً. وخرج من أن يكون استعارة.

فإن قلت: فكيف التيسر على عدي بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسائتي فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فضحك وقال: «إن كان وسائلك لعريضاً»⁽¹⁾. وروي: «إنك لعريض القفا»⁽²⁾، إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل؟ قلت: غفل عن البيان، ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته. وأنشدتني بعض البيديات لبديوي:

عريض القفا ميزانه في شماله قد انحص من حسب القرايط شاربه

فإن قلت: فما تقول فيما روي عن سهل بن سعد الساعدي أنها نزلت، ولم ينزل من الفجر⁽³⁾، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال ياكل ويشرب حتى يتبين له، فنزل بعد ذلك ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه إنما يعني بذلك: الليل والنهار، وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة. ولا بتشبيه قبل نكر الفجر، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهي غير مرادة! قلت: أما من لم يجوز تأخير البيان وهو أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم، فلم يصح عندهم هذا الحديث، وأما من يجوز فيقول ليس بعبت لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب، ويعزم

= والشرب إلى الفجر، وبين نية الصوم المستقبل من الليل، ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار، لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر، ينافي صحة استصحاب النية، وكان اقتضاء الآية جواز الأكل، والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر، لوجود المناقي لها، ولا بد منها، فيتعين أن يقع بعد الفجر على هذا التقدير، وذلك التقدير، كما علمت متفق على بطلانه، وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين، فصحيح مستند، والله أعلم، ولتقطن الزمخشري لبطلان الاستدلال، بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم، فقال: قالوا لا يقولها، إلا في مثل هذا المعنى، ولم يسهه التنبيه على بطلان الاستدلال؛ لأنه على وفق مذهبه.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (4510)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2528).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قول الله تعالى: «وكلوا واشربوا» الحديث رقم: (1917)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2529).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه الحديث رقم: (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات الحديث رقم: (4070).

(4) قال أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل بين، لمذهب مالك رضي الله تعالى عنه في سد الذرائع، والاحتياط للمحرّمات، لا يدافع عنه.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأقضية، باب: في قضاء القاضي إذا أخطأ الحديث رقم: (3584)، وأحمد في المسند 230/6، والحاكم في المستدرک 95/4، وابن أبي شيبه في المصنف كتاب أقضية رسول الله ﷺ 168/10.

حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برًا، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج لأنه كان من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلًا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله. ثم قال: ﴿وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أي: وياشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد: وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه لما في السؤال من الاتهام بمفارقة الشك: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾⁽⁴⁾.

وَتَقُولُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ كَوْنَهُ لَا تَعْدُوا إِرْكَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَرِكَ⁽⁵⁾.

المقاتلة في سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ﴾ الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾⁽⁵⁾ وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة. فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل ويكف عن كف، أو الذين يناصبونكم القتال نون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم، لأنهم جميعاً مضانون للمسلمين قاصون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة قاتلوا أو لم يقاتلوا. وقيل: لما صد المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش. ويصدونهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكروها ذلك، نزلت، وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال من نهيتهم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان، والذين بينكم وبينهم عهداً، وبالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة.

ولا يأكل بعضكم مال بعض ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبيحه الله ولم يشره. ولا ﴿تَدْلُوا بِهَا﴾ ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَاكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور أو باليمين الكاذبة أو بالصلح مع العلم بأن المقضي له ظالم. وعن النبي ﷺ أنه قال للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً، فإن ما أفضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي. فقال: «أذهباً فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه». وقيل: ﴿وَتَدْلُوا بِهَا﴾، وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. ﴿وَتَدْلُوا﴾ مجزوم داخل في حكم الذم، أو منصوب بإضمار أن كقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾⁽¹⁾ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح وما صاحبه أحق بالتوبيخ.

يَتْلُوكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنْ أَلِمْ مِّنْ أَمْتَرُ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتُّوا اللَّهَ لِمَا كُنْتُمْ تَدْلُونَ⁽²⁾.

وروي: أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الانصاري قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو نقياً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة⁽²⁾ فنزلت: ﴿مَوَاقِيتُ﴾ معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وقطرهم وعدد نساءهم وأيام حيضهن ومد حملهن وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته.

كان ناس من الانصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ بترحركم من دخول الباب ﴿وَلَكِنْ الْبِرُّ﴾ بر ﴿مِنْ اتَّقَى﴾ ما حرم الله.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽³⁾ ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الآلهة وعن الحكمة في نقصانها وتمامها معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا

= النوع، الذي نبه عليه الزمخشري؛ لأنه مفرد عن الاستطراد الذي يوب عليه أهل صناعة البنيان، والمطابق لما يؤيوا عليه سواء قوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ، كَمَا يَئِسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ فإنه ذم اليهود، واستطرد بذلك ذم المشركين المعتكرين للبعث، على نوع من التشبيه لطيف المنزع، وفي البيوع التمثيل بقوله:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

(4) سورة الانبياء، الآية: 23.

(5) سورة التوبة، الآية: 36.

(1) سورة البقرة، الآية: 42.

(2) رواه الواحدي في أسباب النزول ص 31.

(3) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من الاستطراد في كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا غَضِبَ فَرَاتٍ سَائِغَ شَرَابِهِ، وَهَذَا مِلْحٌ لَّجَاجٍ، وَمَنْ كُلُّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إلى آخر الآية، فإنه تعالى بين عدم الاستواء بينهما، إلى قوله: ﴿أَجَاجٍ﴾ وبذلك تم المقصد في تمثيل عدم استواء الكافر، والمسلم، ثم قوله ومن كل تاكلون لا يتقرر به عدم الاستواء، بل المفاد به استواءهما، فيما ذكر، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المذكور، وإنما مثلت هذا

عَلَيْهِ يَمُوتُ مَا أَغْدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾

قاتلهم المشركون عام الحبيبية في الشهر الحرام، وهو نو القعدة، فقبل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكرهتهم القتال وذلك في ذي القعدة. ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتك بهتته: يعني: تهتك حرمة عليهم كما هتكوا حرمة عليكم. ﴿والحرمة قصاص﴾ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فاعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧﴾

الباء في ﴿بايديكم﴾ مزيدة مثلها في: أعطى بيده للمنفاد، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة أيديكم. أي: لا تجعلوها آخذةً بأيديكم مآلةً لكم، وقيل: بأيديكم بأنفسكم، وقيل: تقديره ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفرق نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقلال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعنق. وروى: أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة⁽²⁾، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فيها، صحبنا رسول الله ﷺ، فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وأثربناه على أهاليها وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهاليها وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. وحكى أبو علي في الحلبيات، عن أبي عبيدة: التهلكة والهلاك والهلك واحد. قال: فدل هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر، ومثله ما حكاه سيبويه من قولهم: التضرة والتسرة، ونحوها في الأعيان التنضلة والتنفلة. ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما على أنها مصدر من هلك، فأبدلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار.

وَأَيُّوا لَكُمْ وَالْمَرْءَ لِلَّهِ إِنْ أُخْرِجْتُمْ فَمَا اسْتَسَرَّ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْيِهِ فَنَدِيَةٌ مِنْ مِثْلِهِ أَوْ مَدَقَوْ أَوْ سَلَوْ إِذَا أُنْتُمْ مَنْ تَمَعَ وَالْمَرْءَ إِلَى لَحْيِهِ فَمَا

وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿حيث ثقفتهم﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم، والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه. قال:

إما تثقفوني فأتقوني فمن ثقف فليس إلى خلود

﴿من حيث أخرجوكم﴾ أي: من مكة، وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح. ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت: جعل الإخراج من الوطن من الفتنة والمحن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل:

لقتل بحد السيف أهون موقعاً على النفس من قتل بحد فراق

وقيل: الفتنة عذاب الآخرة، نوقوا فتنكم، وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم، فلا تبالوا بقتالهم. وقرئ: ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم. يقال: قتلنا بنو فلان، وقال: فإن تقتلونا نقتلكم.

فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٧﴾

﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك والقتال، كقوله: ﴿إن انتهوا﴾ يغفر لهم ما قد سلف.

وَيَقُولُ حَتَّى لَا تَكُونَ يَنْتَهَى وَيَكُونَ إِلَيْهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾

﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك. ﴿ويكون الدين﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ فلا تعنوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: ﴿إلا على الظالمين﴾ موضع على المنتهين، أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمي جزاء الظالمين ظلماً للمشكلة، كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾⁽¹⁾ وأريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

الْشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُوتِ قَصَاصٌ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

== التفسير، باب: تفسير سورة البقرة الحديث رقم: (2976)، وأحمد في المسند 4/281.

(1) سورة البقرة، الآية: 194.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الحديث رقم: (2512)، والترمذي في كتاب: ==

الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهلت بهما، وإذا أهل بالعمرة وجبت عليه، كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة، والدليل الذي نكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقي الحج وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان، وستة من شوال، في أنك تأمره بفرض وتطوع، وقرأ علي وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم: والعمرة لله بالرفع، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب **﴿فإن أحصرتكم﴾** يقال: أحصر فلان إذا منعه أمر من خوف، أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: **﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾** (7) وقال ابن ميادة:

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول وحصر إذا حبسه عدو عن المضي أو سجن، ومنه قيل للمحبس: الحصر، وللملك: الحصر، لأنه محبوس هذا هو الأكثر في كلامهم. وهما بمعنى: المنع في كل شيء مثل صده وأصدّه، وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى: كل منع عنده من عدو كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار، وعند مالك والشافعي منع العدو وحده، وعن النبي ﷺ: **﴿من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل﴾** (8). **﴿فما استيسر من الهدى﴾** فما تيسر منه. يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدى جمع هدية. كما يقال: في جديّة السرج جدي. وقرئ: من الهدى بالتشديد، جمع هدية كمطية ومطي. يعني: فإن منعت من المضي إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة.

﴿فإن قلّت: أين ومتى ينحر هدى المحصر؟ قلّت: إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء، عند أبي حنيفة يبعث به ويجعل للمبعوث علي يده يوم أمار، وعندهما في أيام النحر. وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً، وما استيسر رفع بالابتداء أي: فعليه ما استيسر أو نصب على فاهداً ما استيسر. **﴿ولا تحلقوا رؤوسكم﴾ الخطاب للمحصرين، أي: لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ. **﴿محله﴾** أي: مكانه الذي يجب نحره فيه، ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر**

أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ مَنْ لَمْ يَحِدْ قَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَمِعُوا إِذَا رَجَعُوا إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَأَمَلِهِ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ حَاذِرِي الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١٦).

﴿واتموا الحج والعمرة لله﴾ اتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير تواني، ولا نقصان يقع منكم فيهما. قال:

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلا به، وقيل: إتمامها أن تحرم بهما من نوبرة أهلك. روي ذلك عن علي، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وقيل: أن تفرد لكل واحد منهما سفراً، كما قال محمد: حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل، وقيل: أن تكون النفقة حلالاً، وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الننيوية.

﴿فإن قلّت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلّت: ما هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً إلا أن تقول الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما بدليل قراءة من قرأ: وأقيموا الحج والعمرة، والأمر للوجوب في أصله إلا أن يدل دليل على خلاف الوجوب، كما دل في قوله: **﴿فأصطابوا﴾ (1) **﴿فانتشروا﴾** (2) ونحو ذلك. فيقال: لك فقد دل الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي أنه قيل: يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا ولكن أن تعتمر خير لك» (3). وعنه: «الحج جهاد والعمرة تطوع» (4).**

﴿فإن قلّت: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن العمرة لقريظة الحج﴾ (5)، وعن عمر رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني وجبت الحج والعمرة مكتوبين علي أهلت بهما جميعاً. فقال: هديت لسنة نبيك (6)، وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام، فكانت واجبة مثل الحج. قلّت: كونها قريظة للحج، أن القارن يقرن بينهما وأنهما يقتربان في الذكر، فيقال: حج فلان واعتمر، والحجاج والعمار؛ ولأنها الحج الأصغر، ولا دليل في ذلك على كونها قريظة له في الوجوب. وأما حديث عمر رضي الله عنه، فقد فسر

(1) سورة المائدة، الآية: 2.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 53. وسورة الجمعة، الآية: 10.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في العمرة الواجبة هي أم لا الحديث رقم: (931)، والدارقطني في كتاب الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (224 و225).

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: العمرة الحديث رقم: (2989).

(5) البخاري تعليقاً، كتاب: العمرة، باب: العمرة، وجوب العمرة وفضلها.

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الإقراء الحديث رقم: (1799)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: القرآن الحديث رقم: =

= (2720)، وابن ماجه في الحج، باب: قران الحج والعمرة الحديث رقم: (2970)، وابن حبان في كتاب: الحج، باب: القرآن الحديث رقم: (3910).

(7) سورة البقرة، الآية: 273.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الإحصار الحديث رقم: (1862)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الذي يهل بالحج فيكسر أو يمرج الحديث رقم: (940)، والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن أحصر بعد الحديث رقم: (2860)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: المحصر الحديث رقم: (3077)، وأحمد في المسند 450/3، والحاكم في المستدرک 482/1.

على مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

فَإِنْ قُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَحَرَ هَدِيهٍ حَيْثُ أَحْصَرَ⁽¹⁾. قُلْتُ: كَانَ مُحْصَرَهُ طَرَفَ الْحَدِيدِيَّةِ الَّذِي إِلَى أَسْفَلِ مَكَّةَ، وَهُوَ مِنَ الْحَرَمِ. وَعَنِ الزَّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَحَرَ هَدِيهٍ فِي الْحَرَمِ، وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: الْحَدِيدِيَّةُ هِيَ طَرَفُ الْحَرَمِ عَلَى تِسْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ. «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا» فَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ يَحُوجُهُ إِلَى الْحَلْقِ، «أَوْ بِهِ أَذَى مِنْ رَأْسِهِ» وَهُوَ الْقَمْلُ أَوْ الْجَرَاخَةُ، فَعَلِيهِ إِذَا احْتَلَقَ فِدْيَةً «مَنْ صِيَامًا» ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، «أَوْ صَدَقَةً» عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بَرٍّ، «أَوْ نَسْكَ» وَهُوَ شَاةٌ، وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «لَعَلَّكَ أَذَاكَ هَوَامُكَ». قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «احْلُقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعَمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ نَسْكَ شَاةً»⁽²⁾. وَكَانَ كَعْبٌ يَقُولُ: فِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَرَوَى: أَنَّهُ مَرَّ بِهِ وَقَدْ قَرَحَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «كُفَى بِهَذَا أَذَى». وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْلُقَ وَيُطْعِمَ أَوْ يَصُومَ⁽³⁾. وَالنَّسْكَ: مُصَدَّرٌ، وَقِيلَ: جَمْعُ نَسِيكَةٍ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ: أَوْ نَسْكَ بِالْتَّخْفِيفِ. «فَإِذَا أَمْنْتُمْ» الْإِحْصَارُ يَعْنِي: فَإِذَا لَمْ تَحْصُرُوا وَكُنْتُمْ فِي حَالِ أَمْنٍ وَسَعَةٍ، «فَمَنْ تَمَتَّعَ» أَي: اسْتَمْتَعَ «بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ» وَاسْتَمْتَاعُهُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى وَقْتِ الْحَجِّ انْتِفَاعُهُ بِالتَّقَرُّبِ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ الْانْتِفَاعِ بِتَقَرُّبِهِ بِالْحَجِّ. وَقِيلَ: إِذَا حَلَّ مِنْ عُمْرَتِهِ انْتَفَعَ بِاسْتِبَاحَةِ مَا كَانَ مُحْرَمًا عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَحْرِمَ بِالْحَجِّ. «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» هُوَ هَدْيُ الْمَتْعَةِ، وَهُوَ نَسْكَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَكُلُّ مِنْهُ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يَجْرِي مَجْرَى الْجَنَابَاتِ، وَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ، وَيَنْبَحُهُ يَوْمَ النَحْرِ عَنَيْنًا، وَعِنْدَهُ يَجُوزُ نَبَحُهُ إِذَا أَحْرَمَ بِحَجَّتِهِ. «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» الْهَدْيَ «فَعَلَيْهِ» «صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ» أَي: فِي وَقْتِهِ، وَهُوَ: أَشْهُرُهُ مَا بَيْنَ الْإِحْرَامَيْنِ إِحْرَامِ الْعُمْرَةِ وَإِحْرَامِ الْحَجِّ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يَصُومَ يَوْمَ التَّروِيَةِ وَعَرَفَةَ وَيَوْمًا قَبْلَهُمَا، وَإِنْ مَضَى هَذَا الْوَقْتُ لَمْ يَجِزْهُ إِلَّا الدَّمُ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ لَا تَصَامُ إِلَّا بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ تَمَسْكًا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ: «فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ»: بِمَعْنَى: إِذَا نَفَرْتُمْ وَفَرَعْتُمْ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى أَهْلِيهِمْ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ:

وسبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام، كأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام، كقوله: «أو إطعام في يوم ذي مسغبة» يتيمًا⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتُ: فما فائدة الفذلة؟ قُلْتُ: الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين، ألا ترى أنه لو جالسا جميعاً أو واحداً منهما كان ممثلاً، ففذلكت نفياً لتوهم الإباحة، وأيضاً ففائدة الفذلة في كل حساب أن يعلم العدد جملة، كما علم تفصيلاً ليحاط به ومن جهتين فيتأكد العلم. وفي أمثال العرب: علمان خير من علم، وكذلك «كاملة» تأكيد آخر، وفيه زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عندها، كما تقول للرجل: إذا كان لك اهتمام بامرئ تامره به، وكان منك بمنزل الله: الله لا تقصر، وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدى، وفي قراءة أبي: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. «ذلك» إشارة إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه: لا متعة ولا قرآن لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن، كان عليه دم، وهو دم جنابة لا يأكل منه، وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك ياكلان منه. وعند الشافعي إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئاً. وحاضر المسجد الحرام وأهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة «وأتقوا الله» في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره. «واعلموا أن الله شديد العقاب» لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم في التقوى.

أَلْعَجَ أَشْهُرٌ مَمْلُوءَةٌ مِمَّنْ رَمَى فِيهِمْ أَلْعَجَ فَلَا رَدَّ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَتَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْتَلِمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُوا فَإِنَّ خَيْرَ الْأَزَادِ الْكُفْرُ وَأَتَوْنِ بِأَوَّلِ الْأَلْبَابِ (RV).

أي: وقت الحج «أشهر» كقولك: البرد شهران. والأشهر المعلومات⁽⁵⁾: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي تسع ذي الحجة وليلة يوم النحر. وعند مالك ذو الحجة كله.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء الحديث رقم: (4251).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المحصر، باب: قول الله تعالى «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى...» الحديث رقم: (1814)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز حلق رأس المحرم إذا كان به أذى الحديث رقم: (2873)، وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الفدية الحديث رقم: (1856)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في المحرم يحلق رأسه الحديث رقم: (953)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: في المحرم يؤذيه القمل الحديث رقم: (852)، وابن ماجه في كتاب: الحج، باب: فدية المحصر حديث رقم: (3079)، ومالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: فدية من حلق قبل أن ينحر.

(3) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (280).

(4) سورة البلد، الآيات: 14، 15.

(5) قال أحمد: الذي نقله عن مالك أحد قوليه، وليس بالمشهور عنه، وأما استدلاله لهذا القول بكراهية عمر الاعتماد إلى أن يهل المحرم، فلا ينهض دليلاً لماك؛ لأنه يقول لا تتعقد العمرة في أيام منى خاصة، لمن حج ما لم يتم الرمي، ويحل بالإفاضة، فتتعقد وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك، إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لا غير، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة، ولعمري أن هذا القول حسن دليلاً، فلا يحتاج إلى مزيد، ولكن ظاهر الآية، ومقتضاها أن جملة الأشهر =

الأولين على معنى النهي، كأنه قيل، فلا يكونن رفث ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدل. كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج. وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة، وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسى، فرد إلى وقت واحد ورد الوقوف إلى عرفة فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج، واستدل على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدل، بقوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج كهيئة يوم ولدت أمه⁽³⁾». وأنه لم ينكر الجدل. «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» حث على الخير عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدل الوفاق والأخلاق الجميلة، أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» أي: اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القباح فإن خير الزاد اتقاؤها، وقيل: كان أهل اليمن لا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس، فنزلت فيهم، ومعناه: وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقل عليهم، فإن خير الزاد التقوى. «واتقون» وخافوا عقابي «يا أولي الأبواب» يعني: أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الأبواب فكانه لا لب له.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْرِ الْحَرَّاءِ وَادْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قِبَلِهِ لَمَنِ الْمَسَاكِينِ (٣٨)

﴿فضلاً من ربكم﴾ عطاءً منه وتفضلاً، وهو: النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، يسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون:

= فالنهي عنه خاص بالحج، وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي، وقد نبه مالك رضي الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء إلا أن ذلك قد يوقع في الوهم أنه يؤدي إلى ترك المحظور، وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرفث للحاج، وما يتعلق به، والله أعلم، وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبية، وتحريم الغيبة على الصائم، فيقولون وعلى المفطر، فلا فائدة في تخصيص الصائم، ويعنون ذلك وهماً منه، وهم بمعزل عن هذه الآية، وأمثالها، فقد أوسعته عنراً في عبارته تلك، إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة، وصحة العبارات.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، الحديث رقم: (1521)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة الحديث رقم: (3278).

فإن قلت: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت: فائدته أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا: فيها، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضاً عند الشافعي في غيرها. وعند أبي حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه.

فإن قلت: فكيف كان الشهران، وبعض الثالث أشهراً؟ قلت: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بلبيل قوله تعالى: «فقد صغت قلوبكما»⁽¹⁾ فلا سؤال فيه إذن، وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات، وقيل: نزل بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيك سنة كذا أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر، وإنما رآه في ساعة منها.

فإن قلت: ما وجه مذهب مالك وهو مروي عن عروة بن الزبير؟ قلت: قالوا وجهه أن العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر، فكانها مخصصة للحج لا مجال فيها للعمرة، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهن. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لرجل: إن أطعني انتظرت حتى إذا أهملت المحرم خرجت إلى ذات عرق فأهملت منها بعمرة. وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر. «معلومات» معروقات عند الناس لا يشككن عليهم، وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه وإنما جاء مقررًا له. «فمن فرض فيهن الحج» فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة، وعند الشافعي بالنية. «فلا رفث»⁽²⁾ فلا جماع لأنه يفسده أو فلا فحش من الكلام. «ولا فسوق» ولا خروج عن حدود الشريعة، وقيل: هو السباب، والتنايز بالألقاب. «ولا جدال» ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين، وإنما أمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه مع الحج أسمع، كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن، والمراد بالنفي وجوب انتفاها وأنها حقيقة بأن لا تكون.

وقرىء: المنقيات الثلاث بالنصب وبالرفع، وقرأ أبو عمر وابن كثير الأولين بالرفع، والآخر بالنصب: لأنهما حملا

= هي زمان الحج، ألا ترى أن من قال، وعشر من ذي الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه، إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه، ويستشهد على ذلك بقوله:

ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال

وإنما أحوجه إلى الاستشهاد خروج مقالته عن ظاهر الآية، فالتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة، واقف مع اقتضاها، غير مضطر إلى مزيد عليه.

(1) سورة التحريم، الآية: 4.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان، وهي: أن تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه، والفسوق، والجدال يشعر بأنها في غير الحج، وإن كانت منهياً عنها، وقبيحة إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج، كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج، فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة، والله أعلم على أن الرفث إن كان التحدث في أمر الجماع خاصة، =

بعده. وعن النبي ﷺ: «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج»⁽⁵⁾ **﴿فَانْكُرُوا اللَّهَ﴾** بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، وقيل: بصلاة المغرب والعشاء. و**﴿المشعر الحرام﴾** قزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميمنة، وقيل: المشعر الحرام ما بين جبلي المزدلفة من مازمي عرفة إلى واد محسر، وليس المازمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام. والصحيح أنه الجبل، لما روى جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما صلى الفجر يعني: بالمزدلفة بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر⁽⁶⁾. وقوله تعالى: **﴿عند المشعر الحرام﴾** معناه: مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها في حكم المشعر، ومتصلة به عند المشعر، والمشعر المعلم؛ لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرم لحرمة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه نظر إلى الناس ليلة جمع، فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون، وقيل: سميت المزدلفة وجمعاً لأن آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء، وأذلف إليها أي: دنا منها، وعن قتادة: لأنه يجمع فيها بين الصلاتين، ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله أي: يتقربون بالوقوف فيها. **﴿كما هداكم﴾** ما مصدريه، أو كفاة، والمعنى: وأنكروه نكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، وأنكروه كما علمكم كيف تنكرونها لا تعبوا عنه. **﴿وإن كنتم من قبله﴾** من قبل الهدى **﴿للمن الضالين﴾** الجاهلين لا تعرفون كيف تنكرونها وتعبونها، وإن هي مخففة من الثقلية واللام هي الفارقة.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَكَسَ الْأَكَسَ وَأَسْتَنْوُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

﴿ثم أفيضوا﴾ ثم لتكن إفاضتكم **﴿من حيث أفاض الناس﴾** ولا تكن من المزدلفة⁽⁷⁾، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع على الناس والتعالي عليهم وتعظيمهم

هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة ونو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا⁽¹⁾، فقال: سال رجل رسول الله ﷺ عما سألت، فلم يرد عليه حتى نزل: **﴿ليس عليكم جناح﴾** فدعا به، فقال: انتم حجاج، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معاشنا إلا من التجارة في الحج⁽²⁾. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فضلاً من ربكم في مواسم الحج. إن تبتغوا في أن تبتغوا. **﴿أفضم﴾** دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء، وهو صبه بكثرة، وأصله أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول، كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: صب في دقران، وهو يخرش بغيره بمحجنه⁽³⁾، ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه. و**﴿عرفات﴾** علم للموقف سمي بجمع كاذرعات.

﴿فإن قلت﴾⁽⁴⁾: هلا منعت الصرف فيها السببان التعريف والتأنيث؟ قلت: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة، كما في سعاد فالتى في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، ولا يصح تقدير التاء فيها؛ لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها، كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها، وقالوا: سميت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها، وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها، فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا، وقيل: لأن الناس يتعارفون فيها، والله أعلم بحقيقة ذلك. وهي من الأسماء المرتجلة لأن العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف، وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة، لأن الإفاضة لا تكون إلا

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الكري الحديث رقم: (1733).

(2) رواه الطبري في تفسيره.

(3) الشافعي في مسنده ص 369.

(4) قال أحمد رحمه الله: يلزمه إذا سمي امرأة بمسلمات، أن لا يصرفه، فيقول هذا مسلمات بغير تنوين، وهو قول ردي، بل الأصح الصحيح في مسلمات، إذا سمي به أن ينون، وإنما بنى الزمخشري كلامه هذا، على أن تنوين عرفات للمتكين، لا للمقابلة، ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين، التي عدّها في مفسله على أنه راجع إلى تنوين المتكين.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: من لم يدرك عرفة الحديث رقم: (1949)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج الحديث رقم: (889) =

= والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة الحديث رقم: (3044)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة الجمع الحديث رقم: (3015)، والحاكم في المستدرک 1/464.

(6) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: صفة حب النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

(7) قال أحمد رحمه الله: وقد اشتملت الآية على نكتتين إحداها عطف الإفاضتين، إحداها على الأخرى، ومرجعها واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهم من التغاير ما بين العام، والخاص، والمخير عنه، ولا الإفاضة من حيث هي غير مقيدة، والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع المهمة، وذلك يستدعي =

بذكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين. ﴿أَتَنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتائنا أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: من طلب خلافي، وهو: النصيب، أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب لأنَّ هَمَّهُ مقصور على الدنيا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٨).

والحسنتان ما هو طلبه الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن علي رضي الله عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار امرأة السوء.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٩).

﴿أُولَئِكَ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نصيب مما كسبوا﴾ أي: نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو: الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا كقوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ (٣) أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيه من ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة، وسمي الدعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعاً وإن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا. ﴿والله سريع الحساب﴾ يوشك أن يقيم القيامة، ويحاسب العباد فيأدوا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلاق على كثرة عندهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه. روي: أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة. وروي: في مقدار فواق ناقة. وروي: في مقدار لمحة (٤).

عن أن يسأروهم في الموقف، وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمه، فلا نخرج منه فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات. فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس، ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بهتم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما، فذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال: ﴿ثم أفيضوا﴾ التفاوت ما بين الإفاضتين وإن أحدهما صواب، والثانية خطأ، وقيل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ وهم الحمس أي: من المنزلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات. وقرئ: من حيث أفاض الناس بكسر السين أي الناسي، وهو آدم من قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾ (١) يعني: أن الإفاضة من عرفات شرع قديم، فلا تخالفوا عنه. ﴿واستغفروا الله﴾ من مخالفتكم في الوقف، ونحو ذلك من جاهليتك.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ وَكْرًا قَوْلَ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٣٠).

﴿فإذا قضيت مناسككم﴾ أي: فإذا فرغتم من عبادتكم الحجية، ونفرتهم، ﴿فأذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه، كما تفعلون في نكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدون فضائل آبائهم وينكرون محاسن أيامهم. ﴿أو أشد كركاً﴾ (٢) في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله: ﴿كذكركم﴾ كما تقول: كنكر قریش آباءهم، أو قوم أشد منهم نكرًا، أو في موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى: أو أشد نكرًا من آبائكم على أن نكرًا من فعل المذكر. ﴿فمن الناس من يقول﴾ معناه: أكثروا ذكر الله ودعاهه فإنَّ الناس من بين مقل لا يطلب

آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما نكره سيئويه، قال: ويقولون: هو أشج الناس رجلاً، وهما خير الناس رجلاً، وهما خير الناس اثنين، فالمجروح هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل، والاثنين كما انتصب الوجه في قولك هو أحسن منه وجهاً، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ، فإنما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة هو أشجع الناس غلاماً، فإنَّ هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ، كما في المثال الأول، ويجوز أن يكون غيره، فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأول، فيكون نكر المنسوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنسوب واقعاً على أشج، فكانه قال أو أشد الانكار نكرًا، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة إلا هذا الوجه الذي زنته، فإنَّ خاطري أبو عنتره، كخشية الله، أو أشد خشية، ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

(3) سورة نوح، الآية: 25.

(4) لم أجده. وقد روى القرطبي في تفسيره: وأن الله يحاسب في قدر حلب شاة 435/2 بدون إسناد.

التراخي مضافاً إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلقة، والمقيدة تراخ، فالجواب غير ذلك أن التراخي، كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبعدما في العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط، وإيضاح.

(1) سورة طه، الآية: 115.

(2) قال أحمد رحمه الله: فعلى الأول يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول، وهو خلاف القياس، وقد نكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم اتسبل مرأة التحسين، وأنا أسر منك على الذكر الأول، لئلا يكون واقعاً على الذكر، وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه، فيكون الذكر ذاكراً، وهو محال لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه، والحقه بباب قولهم شعر شاعر وجن جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه، حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكيناً لثبوتها، ووضح ذلك أن انتصاب الذكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه، إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله نكرًا على ما صار إليه أبو الفتح: إنك لو قلت زيداً أكرم أباً، لكان زيد من الأبناء، ولو قلت زيد أكرم أب لكان من الآباء، ويحتمل عطفه على الذكر أعني وجهاً

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٤).

﴿من يعجبك قوله﴾ أي: يروقك ويعظم في قلبك، ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهو: الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق إذا لقي رسول الله ﷺ لأن له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أنني صادق، وقيل: هو عام في المنافقين كانت تحلو لي السننهم وقلوبهم أمر من الصبر.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾؟ قلت: بالقول أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا، لأن ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما تراء بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول، فكلماه إن في الدنيا لا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ﴿يعجبك﴾ أي: قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه. ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام. وقرئ: ويشهد الله، وفي مصحف أبي: ويستشهد الله. ﴿وهو ألد الخصام﴾ وهو شديد الجدل والعداوة للمسلمين، وقيل: كان بينه وبين ثقيف خصومة، فبيتهم ليلاً وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم، والخصام المخاصمة، وإضافة الألد بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر، أو جعل الخصام ألد على المبالغة، وقيل: الخصام جميع خصم، كصعب وصعب، بمعنى: وهو أشد الخصوم خصومة.

وَلَا تَوَلَّى سَوًى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ (٢٥).

﴿وإذا تولى﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول وأحلاء المنطق ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ كما فعل بثقيف، وقيل: ﴿وإذا تولى﴾ وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه الفطر فيهلك الحرث والنسل. وقرئ: ويهلك الحرث والنسل، على أن الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى. وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة نحو أبي بابي، وروي عنه: ويهلك

﴿وأنكروا الله في آياتهم ثم عدوهم﴾ مَن سَجَل في يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَمَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَهُكُمْ تُعْتَذِرُونَ (٢٦).

الأيام المعدودات أيام التشريق، وذكر الله فيها التكبير في إلبار الصلوات وعند الجمار، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يكبر في فسطاطه بمنى، فيكبر من حوله حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف. ﴿فمن تعجل﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى: عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل، ومتعديين يقال: تعجل الذهاب واستعجله، والمطاوعة أوفق لقوله: ﴿ومن تأخر﴾ كما هي كذلك في قوله:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل لأجل المتأني ﴿في يومين﴾ بعد يوم النحر يوم القر، وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده، ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم، وهو مذهب الشافعي، ويروى عن قتادة، وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر. ﴿ومن تأخر﴾ حتى رمى في اليوم الثالث، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة، وعند الشافعي لا يجوز.

فإن قلت: كيف قال: ﴿فلا إثم عليه﴾ عند التعجل والتأخر جميعاً؟ قلت: دلالة على أن التعجل والتأخر مخير فيهما، كانه قيل: فتعجلوا أو تأخروا.

فإن قلت^(١): ليس التأخر بأفضل؟ قلت: بلى ويجوز أن يقع التخيير بين الفضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل، وقيل إن أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل أثماً، ومنهم من جعل المتأخر أثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً. ﴿لمن اتقى﴾ أي: تلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه أثام في الإقدام عليه، لأن ذا التقوى حذر متحز من كل ما يريبه، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله. ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ ليعبأ بكم، ويجوز أن يراد ذلك الذي مر ذكره من أحكام الحج وغيره. ﴿لمن اتقى﴾ لأنه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: ﴿ذلك خير﴾^(٢) للذين يريدون وجه الله.

= والأي أن ضمنونها نفي الإثم عن الطرفين جميعاً، وهذا القدر مشترك بين النيب، والكراهة، والإباحة لكن يتميز النيب بترجيح الفعل على الترك، وتتميز الكراهة والإباحة بالتخيير بينهما، فلا تنافي إذا بين النيب إلى التأخير، وإنه أفضل، وبين نفي الإثم عن تاركه إلى التعجيل، وحينئذ لا يرد السؤال الذي لزمه، فاجاب عنه.

(2) سورة الاعراف، الآية: 26.

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله إن التخيير يقع بين الفضل، والأفضل غير مستقيم، فإن التخيير يوجب التساوي في غرض المخير، وينافي طلب أحد الطرفين، والأمر به وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب، والترجيح، وما يوجب التساوي والتخيير، وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا، فإنه ميز الوجوب من النيب، بأن النيب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك، ولا كذلك الوجوب، ولم يرضه محقق الفن، وإنما أخل الزمخشري في تفسيره الآية، فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه، وبيان عدم التطبيق بين تفسيره، =

على البناء للمفعول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ آلِهَهُمْ (٣٦).

﴿لأخذته العزة بالإثم﴾ من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه والزمته إياه، أي: حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه والزمته ارتكابه، وأن لا يخلى عنه ضراراً ولجاجاً، أو على رد قول الواعظ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ (٣٧).

﴿يشري نفسه﴾ ببيعها أي: يبيئها في الجهاد، وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيبي بن سنان أرادته المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير إن كنت معكم لم أنفكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فخلوني وما أنا عليه، وخنوا مالي، فقبلوا منه ماله، وأتى المدينة. ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ حيث كلغهم الجهاد فعرضهم للشواب الشهداء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٣٨).

﴿السلم﴾ بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش: بفتح السين واللام، وهو الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله وأطيعوه ﴿كافة﴾ لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته، وقيل: هو الإسلام، والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتباتهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بالسنتهم، ويجوز أن يكون كافة حالاً من السلم لأنها تؤنث، كما تؤنث الحرب. قال:

السلم تأخذ منها ما رزيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع
على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة، أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يخلوا بشيء منها، وعن عبد الله بن سلام أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يقيم على السبت، وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل^(١).

وكافة: من الكف، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم.

فَإِن رَّكِبْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلِبُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٩).

﴿فإن زلتم﴾ عن الدخول في السلم ﴿من بعد ما جاءتكم البينات﴾ أي: الحجج والشواهد، على أن ما دعيتم

إلى الدخول فيه هو الحق. ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حكيم﴾ لا ينقم إلا بحق، وروي أن قارثاً قرأ: غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا ينكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه، وقرأ أبو السمال: زلتم بكسر اللام، وهما لغتان نحو ظلت وظللت.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَهِيَ تَكُونُ دُخَانًا وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٠).

إتيان الله: إتيان أمره وبأسه، كقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾^(٢) فجاءهم بأسنا، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: ﴿فإن الله عزيز﴾^(٣) ﴿في ظلال﴾ جمع ظلة وهي: ما اظلك، وقرئ: ظلال وهي جمع ظلة، كقلة وقلال، أو جمع ظل. وقرئ: والملائكة بالرفع، كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾^(٤) وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام. فإن قلت: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظلم وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظة لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾^(٥) ﴿وقضي الأمر﴾ وتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه، وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: وقضاء الأمر، على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة. وقرئ: ترجع وترجع على البناء للفاعل والمفعول بالتانيث والتذكير فيها.

سَلِّ بِحَقِّ إِسْرَائِيلَ كَمْ مَاءٍ بَيْنَهُمْ وَمِنَ آيَمٍ يَبِينُ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَدَا بِجَآنِهِ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤١).

﴿سل﴾ أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقرير، كما تسئل الكفرة يوم القيامة ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام. و﴿نعمة الله﴾ آياته وهي أجل نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة وتبديلهم إياها أن الله أظهرها لتكون أسباب هدايم، فجعلوها أسباب ضلالتهم، كقوله: ﴿فزالتهم رجساً إلى رجسهم﴾^(٦) أو حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ.

فإن قلت: كم استفهامية، أم خبرية؟ قلت: تحتل الأمرين، ومعنى الاستفهام فيها للتقرير.

(١) رواه الدارمي في أسباب النزول ص 37.

(٢) سورة النحل، الآية: 33.

(٣) سورة الزمر، الآية: 47.

(٤) سورة التوبة، الآية: 125.

(٥) سورة الأنفال، الآية: 49.

(٦) سورة النحل، الآية: 33.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَعَيَّنَ اللَّهُ الْيَتِيمَ مُبْتَلًى وَنَذِيرًا وَنَزَلَ بِهِمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا بِهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على دين الإسلام ﴿فبعث الله النبيين﴾ يريد فاختلفوا، فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ عليه. وفي قراءة عبد الله: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فاختلفوا، ﴿فبعث الله﴾. والدليل عليه قوله عز وعلا: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾⁽¹⁾ وقيل: كان الناس أمة واحدة كفاراً فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم، والأول الوجه.

فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق، فاختلفوا، وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة. وآنزل معهم الكتاب يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه، ﴿ليحكم﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه. ﴿فما اختلفوا فيه﴾ في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق. ﴿وما اختلف فيه﴾ في الحق إلا الذين أوتوه. إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي: ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الاختلاف واستحكامه. ﴿بغيا بينهم﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم. ﴿ومن الحق﴾ بيان لما اختلفوا فيه، أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَنْثَبَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّةُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

فإن قلت: ما معنى ﴿من بعد ما جاءته﴾؟ قلت: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها، أو عرفها، كقوله: ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾⁽¹⁾ لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها، أو لم يعرفها، فكانها غائبة عنه. وقرئ: ومن يبذل بالتخفيف.

رَبِّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٣٤﴾

المزين⁽²⁾: هو الشيطان زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم، فلا يريدون غيرها، ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها، أو جعل إمهال المزين له تزييناً، ويدل عليه قراءة من قرأ: زين للذين كفروا الحياة الدنيا، على البناء للفاعل. وويسخرون من الذين آمنوا. كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم. أي: لا يريدون غيرها، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها. والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة⁽³⁾ لأنهم في عِلين من السماء، وهم في سجين من الأرض، أو حالهم عالية لحالهم لأنهم في كرامة وهم في هوان، أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم، كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا، ويرون الفضل لهم عليهم. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون⁽⁴⁾ والله يرزق من يشاء بغير حساب. بغير تقدير يعني: أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة، وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم.

فإن قلت: لم قال ﴿من الذين آمنوا﴾، ثم قال: ﴿والذين اتقوا﴾؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، وليكون باعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

(1) سورة البقرة، الآية: 75.

(2) قال أحمد رحمه الله: وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز، وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجاز على قواعد السنة، والزمخشري يعمل على عكس هذا، فإن أضاف الله فعلاً من أفعاله إلى قدرته، جعله مجازاً، وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته، جعله حقيقة، وسبب هذا التعكيس، باتباع الهوى في القواعد الفاسدة.

(3) قال أحمد رحمه الله: وهذا من وضع الظاهر موضع المضممر بصفة أخرى، ومثله في كتاب الله كثير، قال الله تعالى: ﴿إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾، إلا أن الظالمين في عذاب مقيم. وكان الأصل ألا إنهم، الآية، فوضع الظاهر موضع المضممر بصفة أخرى، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران، وفي كلام الزمخشري طماع إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة، ألا تراه يقول، ليريك أنه لا يسعد=

= عنده، إلا المؤمن المتقي، إشارة إلى أن غير المتقي، وهو المصر على الكبرائر شقي، حتى كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا، ومنهم من يتمحل، فيقول: لأنه جعل المؤمن عين المتقي، ومقتضى قاعدته الفاسدة، أن الإيمان يستلزم التقوى، حتى لا يفرض مؤمن إلا متقياً إذ الإيمان، فيما فسر هو في تفسيره هذا، وفيما فسر أهل بدعته في كتبهم، هو تصديق الاعتقاد الصحيح، والنطق بالعمل الصالح، والمخل عندهم بالعمل، إما بالإصرار على كبيرة، أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر، فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أن كل مؤمن متقي، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يابى ذلك ويتنقضه.

(4) سورة المطففين، الآية: 34.

(5) سورة يونس، الآية: 19.

مَعَهُ مَقَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٥﴾

لَا تَسْأَلُونَ

﴿إم﴾ منقطعة، ومعنى الهزمة فيها للتقير، وإنكار الحسين واستبعاده. ولما نكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: **﴿إم حسبتم﴾**. **﴿ولما﴾** فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرة قد في الإثبات، والمعنى: أن إتيان ذلك متوقع منتظر. **﴿مثل الذين خلوا﴾** حالهم التي هي مثل في الشدة، و**﴿مستهم﴾** بيان للمثل، وهو: استئناف، كان قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقل: مستهم البأساء. **﴿وزلزلوا﴾** وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة، بما أصابهم من الأهوال والأفزع، **﴿حتى يقول للرسول﴾** إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها **﴿مضى نصر الله﴾** أي: بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب الصبر وتمنيه واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتمديه في العظم؛ لأن الرسل لا يقار قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها. **﴿إلا إن نصر الله قريب﴾** على إرادة القول، يعني: فقل لهم: ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر. وقرئ: حتى يقول، بالنصب على إضمار أن، ومعنى: الاستقبال، لأن أن علم له، وبالرفع على أنه في معنى الحال، كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجز بطنه، إلا أنها حال ماضية محكية.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِالْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّيْلَ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

﴿إِنْ قُلْتُ﴾ كيف طابق الجواب السؤال في قوله: **﴿قل ما أنفقتم﴾**، وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا ببيان المصروف؟ **﴿قُلْتُ﴾** قد تضمن قوله ما أنفقتم **﴿من خير﴾** بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصروف، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. قال الشاعر:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يَصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ جَاءَ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ، وَهُوَ شَيْخٌ هَمٌّ وَلَهُ مَالٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ: مَاذَا نَنفِقُ مِنْ أَمْوَالِنَا، وَأَيْنَ نَضَعُهَا؟ فَزُلْتُ، وَعَنْ السَّيْدِيِّ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِفَرْضِ الزَّكَاةِ. وَعَنْ الْحَسَنِ: هِيَ فِي التَّلَوُّعِ.

كَيْبَ عَلَيْكُمْ أَلَيْقَالُ وَهُوَ كَرُّ لَكُمْ وَعَيْ أَنَّ تَكْرَهُوا شَيْئًا

وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَيْ أَنَّ تَجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَتْلُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

﴿وهو كره لكم﴾ من الكراهة، ببليلى قوله: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾**، ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغةً كقولها: فإنما هي إقبال وإدبار. كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له، وإما أن يكون فعلاً بمعنى: مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز أي: وهو مكروه لكم، وقرأ السلمي: بالفتح على أن يكون بمعنى: المضموم، كالضعف والضعف، ويجوز أن يكون بمعنى: الإكراه على طريق المجاز، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم، ومنه قوله تعالى: **﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾** ^(١). وعلى قوله تعالى: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾** جميع ما كلفوه فإن النفوس تكرهه وتتفر عنه وتحب خلافه، **﴿والله يعلم﴾** ما يصلحكم وما هو خير لكم **﴿وانتم لا تعلمون﴾** ذلك.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآخَرَةِ فَقَالَ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَثِيرٌ مِمَّا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ، وَالسَّيْدِ الْآخَرَةِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ، مِنْهُ أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُبْعِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَمُوا وَمَنْ يَزِيدْ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ، فِيمَتْ وَهُوَ كَارٍ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليرتصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب، وهم يظنون من جمادى الآخرة. فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يامن فيه الخائف، ويذعر فيه الناس إلى معايشهم، فوقف رسول الله ﷺ العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى ^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة، والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و**﴿قتال فيه﴾** بدل الاشتمال من الشهر، وفي قراءة عبد الله: عن قتال فيه، على تكرير العامل، كقوله **﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾** ^(٣) وقرأ عكرمة: قتل فيه، قل: قتل فيه كبير، أي إثم كبير. وعن عطاء أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام، إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. **﴿وصد عن**

(3) سورة الأعراف، الآية: 75.

(1) سورة الاحقاف، الآية: 15.

(2) الواحد في أسباب النزول، ص 38.

وَمَنْعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِهِمَا وَسَيُكَلِّمُكَ مَاذَا يُقُولُونَ قُلِ
الْعَمَلُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾

نزلت⁽¹⁾ في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ﴿ومن ثمرات
النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾⁽²⁾ فكان المسلمون
يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من
الصحابة قالوا: يا رسول الله اقتنا في الخمر فإنها مذهب
للعقل مسلبة للمال⁽³⁾. فنزلت: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع
للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن
عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فأثم بعضهم، فقرا: قل يا
أيها الكافرون أعبد ما تعبدون. فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة
وأنتم سكارى﴾⁽⁴⁾. فقل من يشربها، ثم دعا عتيان بن مالك
قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا،
وتناشوا حتى انشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار
فضربه أنصاري بلحي بعير فشجّه موضحة، فشكا إلى
رسول الله ﷺ، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً
شافياً. فنزلت: ﴿إنما الخمر والميسر﴾⁽⁵⁾ إلى قوله: ﴿فهل
أنتم منتهون﴾⁽⁶⁾ فقال عمر رضي الله عنه: انتبهنا يا رب،
وعن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت
مكانها منارة لم أؤمن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف
ونبت فيه الكلال لم أرعه⁽⁷⁾. وعن ابن عمر رضي الله عنهما:
لو انحلت أصبعي فيه لم تتبعني⁽⁸⁾. وهذا هو الإيمان حقاً
وهم الذين اتقوا الله حق تقاته.

والخمر: ما غلى واشتد وقنف بالزبد من عصير العنب،
وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن
طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلى واشتد ذهب خبثه ونصيب
الشيطان، وحل شربه ما دون السكر إذا لم يقصد بشره
اللهم والطرب. عند أبي حنيفة وعن بعض أصحابه: لأن
أقول مراراً هو حلال أحب إلي من أن أقول مرة هو حرام،
ولأن آخر من السماء فاتقطع قطعاً أحب إلي من أن أتناول

سبيل الله﴾ مبتدأ، وأكبر خبره. يعني: وكبائر قریش من
صدّهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وكفرهم بالله،
 وإخراج أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله والمؤمنون.
﴿أكبر عند الله﴾ مما فعلته السرية من القتل في الشهر
الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على الظن. ﴿والفتنة﴾
الإخراج أو الشرك. والمسجد الحرام عطف على سبيل الله،
ولا يجوز أن يعطف على الهاء في به. ﴿ولا يزالون
يقاتلونكم﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم
لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها:
التعليل، كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي:
يقاتلونكم كي يردوكم، و﴿إن استطاعوا﴾ استبعاد
لاستطاعتهم. كقول الرجل لعنوّه: إن ظفرت بي فلا تبق
علي، وهو واثق بأنّه لا يظفر به ﴿ومن يرتدد منكم﴾
ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطلوهم على ردّه إليه.
﴿فقيمت﴾ على الردة. ﴿فأولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا
والآخرة﴾ لما يفوتهم بإحداث الردّة مما للمسلمين في
الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من
ثواب الآخرة. وبها احتج الشافعي على أنّ الردة لا تحبط
الأعمال حتى يموت عليها. وعند أبي حنيفة أنها تحبطها
وإن رجع مسلماً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكْبَرُ
رَجْوَنَ رَحْمَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ روي أن عبد الله بن
جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ظنّ قوم أنّهم إن
سلموا من الإثم فليس لهم أجر. فنزلت: ﴿أولئك يرجون
رحمت الله﴾ وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم
جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وإنه من رجاء طلب،
ومن خاف هرب.

سَيُكَلِّمُكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

= مخالطة اليتيم، وانفراد عنه، وأما السؤال الثالث منها، وهو الواقع
عن النساء الحيض، فقد ورد أنهن في الجاهلية كانوا يعتزلون
الحيض في المؤالفة، والمسكنة، يقتدون في ذلك باليهود، فسألوا
السؤال المنكور، كما كانوا يعتزلون اليتامى في المسكنة،
والمؤالفة تحرجاً جاهلياً، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما
تري، فحسن أن يعطف الآخر على ما قبله، تنبيهاً على ما بينهما
من المشاكلة، والله أعلم.

(2) سورة النحل، الآية: 67.

(3) أخرجه الثعلبي من غير إسناد، قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ /1
132.

(4) سورة النساء، الآية: 43.

(5) سورة المائدة، الآية: 90.

(6) سورة المائدة، الآية: 91.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 4/8 كتاب: الأشربة، باب: في
الخمر.

(8) أخرجه أحمد في المسند 1/446.

(1) قال أحمد: ويظهر لي سر واقع، مما ذكره في هذا الغرض، وذلك
أن السؤال الأول من الأسئلة المقرنة بالواو، عين السؤال الأول
من الأسئلة المجردة عن الواو، ولكن وقع جوابه أولاً بالمصرف؛
لأنه الأهم، وإن كان المسؤول عنه، إنما هو المنفق لا وجه مصرفه،
ثم لما لم يكن في الجواب الأول تصريح بالمسؤول عنه، أعيد
السؤال، ليجابوا عن المسؤول عنه صريحاً، فقبل العقوف، أي:
الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حيثما ورد في
تفسيره، فتعين إذا اقتصر هذا السؤال بالواو، ليرتبط بالأصل،
ويحتمل أنهم لما أجيبوا أولاً ببيان جهة المصرف، ولم يصرح
لهم بالجواب على عين المنفق ما هو أعاد السؤال، لكي يتلقوا
جوابه صريحاً، فتعين دخول الواو، وأما السؤال الثاني من الأسئلة
المقرنة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى، وهل يجوز لهم
مخالطتهم في النفقة، والكسوة، والسكنى، وقد كانوا يتخرجون من
ذلك في الجاهلية، فلما كان مناسباً للسؤال عن الإنفاق، باعتبار
المنفق، وباعتبار جهة المصرف عطف عليه، ليكمل لهم بيان
المشروعية في النفقة، وأدائها البينية بياناً شافياً؛ لأنه قد اجتمع
في علمهم ما ينفقون، وفيهم ينفقون، وعلى أي حالة ينفقون من

النساء فاجتنبوهن يعني فاجتنبوا مجامعتهن. روي: أنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يسكنوها في بيت، كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة، فإن أئثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحيض. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت، كفعل الأعاجم»⁽⁵⁾. وقيل: إنَّ النصراني كانوا يجامعونهن ولا يباليون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمروا الله بالاقتصاد بين الأمرين. وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فابو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وروي محمد حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ عبد الله بن عمر سألها: هل يبشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها على سفلتها، ثم ليبشرها إن شاء⁽⁶⁾. وما روى زيد بن أسلم: أنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها»⁽⁷⁾. ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة. وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك⁽⁸⁾.

وقرئ: يطهرن، بالتشديد، أي: يتطهرن، بليل قوله: **«فإذا تطهرن»** وقرأ عبد الله: حتى يتطهرن. ويطهرن بالتخفيف، والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض. وكلتا القراءتين مما يجب العمل به. فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح ويعضده قوله: **«فإذا تطهرن»** **«من حيث أمركم الله»** من المأتي الذي أمركم الله به وحلله لكم؛ وهو القبول. **«إن الله يحب التوابين»** مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك **«ويحب المتطهرين»** المتنزهين عن الفواحش، أو إن الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب، ويحب المتطهرين من جميع الأقدار كمجامعة الحائض، والطاهر

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَأَمَنَ مُؤْمِنَةٌ حَرِّمَ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْبَبَكُمْ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبَدَ مُؤْمِنٌ حَرِّمَ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْبَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾

«ولا تنكحوا» وقرئ: بضم التاء، أي: لا تتزوجوهن أو لا تزوجوهن. و**«المشركات»** الحريبات، والآية ثابتة، وقيل: المشركات الحريبات والكتابيات جميعاً لأنَّ أهل الكتاب من أهل الشرك لقوله تعالى: **«وقالت اليهود عذير ابن الله وقالت النصراني المسيح ابن الله»**⁽¹⁾ إلى قوله تعالى: **«سبحانه عما يشركون»**⁽²⁾ وهي منسوخة بقوله تعالى: **«والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم»**⁽³⁾ وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط، وهو قول ابن عباس، والأوزاعي. وروي أنَّ رسول الله ﷺ بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق فاتته، وقالت: ألا نخلو. فقال: ويحك إنَّ الإسلام قد حال بيننا، فقالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فاستأمره، فاستأمره، فنزلت⁽⁴⁾. **«ولامة مؤمنة خير»** ولامة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، وكذلك **«ولعبد مؤمن»** لأنَّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. **«ولو أعجبكم»** ولو كان الحال أنَّ المشركة تعجبكم وتحبونها، فإنَّ المؤمنة خير منها مع ذلك. **«أولئك»** إشارة إلى المشركات والمشركين. أي: يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال. **«والله يدعو إلى الجنة»** يعني: وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة. **«والمغفرة»** وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم. **«بإلنائه»** بتيسير الله وتوفيقه لعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة. وقرأ الحسن: والمغفرة بإلنائه، بالرفع. أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره.

رَبِّعَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا أَلَيْسَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرَ فَأَوْفَرُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿٣٤﴾

«المحيض» مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً وبيات مبيتاً. **«قل هو أذى»** أي: الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه، نفرة منه وكراهة له. **«فاعتزلوا»**

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الطهارة، باب: ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض الحديث رقم: (93).

(6) أخرجه مالك في الموطأ، برواية محمد بن الحسن، كتاب أبواب الصلاة، باب: الرجل يصيب من امرأته أو يبشرها وهي حائض الحديث رقم: (73).

(7) أخرجه الدارمي في كتاب: الطهارة، باب: مباشرة الحائض الحديث رقم: (1040) ولم يذكر ذلك ما سواه.

(8) لم أجده، كذا قال ابن حجر.

(1) سورة التوبة، الآية: 30.

(2) سورة التوبة، الآية: 31.

(3) سورة المائدة، الآية: 5.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في قوله تعالى: **«الزاني لا ينكح إلا زانية»** الحديث رقم: (2051)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النور، الحديث رقم: (3176)، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب: تزويج الزانية الحديث رقم: (3228).

العطف لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوها عن الحوادث الآخر في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق. والسؤال عن كذا وكذا.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ يَبْعَثُ رُسُلَهُ فِي حَيْثُ يَشَاءُ (٣٧٤).

العرضة: فعلة بمعنى: مفعول، كالقبضة والغرفة. وهي اسم ما تعرضه نون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض نونه ويصير حاجزاً وامناعاً منه. تقول: فلان عرضة نون الخير، والعرضة أيضاً المعرض للآمر. قال:

فلا تجعلوني عرضة للوائم

ومعنى الآية: على الأولى أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه. فقيل لهم: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» أي: حاجزاً لما حلفت عليه، وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فات الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٥). أي: على شيء مما يحلف عليه، وقوله: «أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا» عطف بيان لأيمانكم أي: للآمر المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بِمَ تَعَلَّقَتِ اللَّامُ فِي «لَا أَيْمَانَكُمْ»؟ قُلْتُ: بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض بمعنى لا تجعلوه شيئاً يعترض البر. من اعترضني كذا، ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لاجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا، ومعناها: على الأخرى، ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه، «وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْنًا» بأشنع المذام وجعل الحلاف مقمته، وأن تبروا علة للنهي. أي: إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا.

قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباح وغير ذلك.

يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَقُوهَ رَحْمَتَكُمْ أَنْ يَشْفِيَ رَحْمَتَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَكْلُوفُونَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٣٧٥).

«حرث لكم» مواضع حرث لكم، وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبنور، وقوله: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ» تمثيل أي: فاتوهن كما تاتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة نون جهة، والمعنى: جامعهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث، وقوله: «هُوَ أَدَى فَأَعْتَزَلُوا النَّسَاءَ»^(١) «من حيث أمركم الله»^(٢) «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ» من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه واشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكفلوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم. وروي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجيبة من دبرها في قبلها كان ولدها أحول. فنكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كذبت اليهود»^(٣). ونزلت: «وَقِيمُوا أَنْفُسَكُمْ» ما يجب تقيمه من الأعمال الصالحة، وما هو خلاف ما نهيتكم عنه. وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء. «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فلا تجتروا على المناهي «وَاَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَكْلُوفُونَ» فتزوبوا ما لا تفضحون به. «وبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما موقع قوله: «يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ» ما قبله؟ قُلْتُ: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ» من حيث أمركم الله^(٤) يعني: أن المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له، وتفسيراً وإزالة للشبهة، ودلالة على أن الغرض الأصلي في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تاتوهن إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما بال «يَسْأَلُكُمْ رَبُّ» جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قُلْتُ: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأولى وقع في أحوال متفرقة فلم يؤت بحرف

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: «يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ» الحديث رقم: (٤٥٢٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: جواز جماعة امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها، الحديث رقم: (٣٥٢١ و ٣٥٢٢)، وأبو داود في السنن، كتاب: النكاح، باب: في جامع النكاح الحديث رقم: (٢١٦٠)، والترمذي في التفسير، باب: من سورة البقرة الحديث رقم: (٢٩٨٠)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب: النهي من إتيان النساء في أبنائهن الحديث رقم: (٧٩٢٥)، كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة، الحديث رقم: (٣١٩٢).

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: من لم يسأل الإمارة الحديث رقم: (٧١٤٦)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً... الحديث رقم: (٤٢٥٧)، وأخرج أبو داود الشطر الأول في كتاب الخراج والإمارة، باب: ما جاء في طلب الإمارة الحديث رقم: (٢٩٢٩) والشطر الثاني أخرجه في الأيمان والذنور، باب: العبد يكفر قبل أن يحث الحديث رقم: (٣٢٧٧)، والترمذي في كتاب: الذنور والأيمان، باب: ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها الحديث رقم: (١٥٢٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: آداب القضاة، باب: النهي عن مسألة الإمارة الحديث رقم: (٥٣٩٩)، الشطر الأول والشطر الثاني، أخرجه في كتاب الأيمان، باب: الكفارة قبل الحث الحديث رقم: (٣٧٩٢).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَدِي بَيْنَ، وَهُوَ مَعْدِي بَعْلِي؟ قُلْتَ: قَدْ ضَمِنَ فِي هَذَا الْقِسْمِ الْمَخْصُوصِ مَعْنَى الْبَعْدِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَبْعِدُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ مُؤَلِّينَ أَوْ مُقْسِمِينَ، وَيجوز أن يراد لهم **«مَنْ نَسَائِهِمْ تَرَبَّصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» كَقَوْلِهِ: لِي مِنْكَ كَذَا. وَالْإِيْلَاءُ مِنَ الْمَرَاةِ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ لَا أَقْرِبُكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَصَاعِدًا عَلَى التَّقْلِيدِ بِالْأَشْهُرِ، أَوْ لَا أَقْرِبُكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَلَا يَكُونُ فِي مَا دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ إِلَّا مَا يَحْكِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَحَكَمَ⁽¹⁾ نَكَاحُ أَنْهُ إِذَا فَاءَ إِلَيْهَا فِي الْمَدَّةِ بِالْوُطْءِ إِنْ امْكَنَهُ، أَوْ بِالْقَوْلِ إِنْ عَجَزَ، صَحَّ الْفِيءُ وَحُنْتُ الْقَادِرُ وَلِزِمَتْهُ كِفَارَةُ الْيَمِينِ، وَلَا كِفَارَةُ عَلَى الْعَاجِزِ. وَإِنْ مَضَتْ الْأَرْبَعَةُ بَانَتْ بِتَطْلِيقَةٍ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ لَا يَصَحُّ الْإِيْلَاءُ إِلَّا فِي أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ يَقِفُ الْمَوْلَى، فَإِذَا أَنْ يَفِيءَ، وَإِذَا أَنْ يَطْلُقَ، وَإِنْ أَبَى طَلَّقَ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: **«فَإِنْ فَاءُوا»** فَإِنْ فَاءُوا فِي الْأَشْهُرِ، بِدَلِيلِ قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: **«فَإِنْ فَاءُوا فِيهِنَّ: «فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** يَغْفِرُ لِلْمَوْلِينَ مَا عَسَى يَقْدُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ طَلَبِ ضَرَارِ النِّسَاءِ بِالْإِيْلَاءِ، وَهُوَ الْغَالِبُ، وَإِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رِضَا مِنْهُنَّ إِشْفَاقًا مِنْهُنَّ عَلَى الْوَلَدِ مِنَ الْغَيْلِ، أَوْ لِبَعْضِ الْأَسْبَابِ لِأَجْلِ الْفَيْئَةِ الَّتِي هِيَ مِثْلُ التَّوْبَةِ.**

وَأَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ⁽²⁾.

«وَأَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ» فْتَرَبَّصُوا إِلَى مَضِيِّ الْمَدَّةِ **«فَإِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»** وَعِيدَ عَلَى إِصْرَارِهِمْ وَتَرْكِهِمُ الْفَيْئَةَ. وَعَلَى قَوْلِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعْنَاهُ: فَإِنْ فَاءُوا، وَإِنْ عَزَمُوا بَعْدَ مَضِيِّ الْمَدَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: كَيْفَ مَوْقِعُ الْفَاءِ إِذَا كَانَتْ الْفَيْئَةُ قَبْلَ انْتِهَاءِ مَدَّةِ التَّرَبُّصِ؟ قُلْتَ: مَوْقِعٌ صَحِيحٌ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «فَإِنْ فَاءُوا» وَإِنْ عَزَمُوا، تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ» وَالتَّفْصِيلُ يَعْقِبُ الْمَفْصَلَ، كَمَا نَقُولُ: إِنَّا نَزَلْنَاهُ هَذَا الشَّهْرَ، فَإِنْ أَحْمَدْتُمْ أَقَمْتُ عِنْدَكُمْ إِلَى آخِرِهِ، وَإِلَّا لَمْ أَقْمِ إِلَّا رِيثًا أَتَحُولُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁽³⁾

لَأَنَّ الْحَلْفَ مَجْتَرَى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ مَعْظَمٍ لَهُ، فَلَا يَكُونُ بَرًّا مُتَقِيًّا وَلَا يَثِقُ بِهِ النَّاسُ فَلَا يَدْخُلُونَهُ فِي وَسْطَاتِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَآوِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ⁽⁴⁾.

اللُّغُو: السَّاقِطُ الَّذِي لَا يَعْتَدُ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: لِمَا لَا يَعْتَدُ بِهِ فِي الدِّيَةِ مِنْ أَوْلَادِ الْإِبِلِ لُغُو، وَاللُّغُو مِنَ الْيَمِينِ السَّاقِطُ الَّذِي لَا يَعْتَدُ بِهِ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ الَّذِي لَا عَقْدَ مَعَهُ، وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ: وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ. وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيهِ فَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ، هُوَ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ يَظُنُّهُ عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَظْهَرُ خِلَافُهُ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: هُوَ قَوْلُ الْعَرَبِ لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ، مِمَّا يُؤَكِّدُونَ بِهِ كَلَامَهُمْ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمُ الْحَلْفُ، وَلَوْ قِيلَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: سَمِعْتُكَ الْيَوْمَ تَحْلِفُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، لَأَنْكَرَ ذَلِكَ. وَلَعَلَّهُ قَالَ: لَا وَاللَّهِ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَفِيهِ مَعْنَانِ:

أَحَدُهُمَا: لَا يُؤَاخِذُكُمْ، أَيْ: لَا يَعَاقِبُكُمْ بَلْغُو الْيَمِينِ الَّذِي يَحْلِفُ أَحَدُكُمْ بِالْظَّنِّ، وَلَكِنْ يَعَاقِبُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ. أَيْ: اقْتَرَفْتُمْ مِنْ إِثْمٍ الْقَصْدُ إِلَى الْكُذْبِ فِي الْيَمِينِ. وَهُوَ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ خِلَافُ مَا يَقُولُهُ وَهِيَ الْغُمُوسُ.

وَالثَّانِي: لَا يُؤَاخِذُكُمْ، أَيْ: لَا يَلْزِمُكُمْ الْكُفَارَةُ بَلْغُو الْيَمِينِ الَّذِي لَا قَصْدَ مَعَهُ، وَلَكِنْ يَلْزِمُكُمْ الْكُفَارَةُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ. أَيْ: بِمَا نَوَتْ قُلُوبُكُمْ وَقَصَدْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَلَمْ يَكُنْ كَسْبُ اللِّسَانِ وَحْدَهُ. «وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» حَيْثُ لَمْ يُؤَاخِذْكُمْ بِاللُّغُو فِي آيَاتِكُمْ.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبَّصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ⁽⁵⁾.

قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَا مِنْ نَسَائِهِمْ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقْسِمُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ.

تَرَبَّصْتُ لَكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، الْمَقْتَضَى مِنْهَا حِينَئِذٍ بَدِيقَةً وَاحِدَةً، فَلِذَلِكَ التَّرَبُّصُ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ وَقَعَ عِنْدَ ضَرْبِ أَجْلِ الْمَوْلَى، قَدْ تَرَبَّصْتُ لَكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى **«لِيَنْظُرَ أَبْيَعُ»** وَيَصْلُقُ رَبُّ الدِّينِ فِي أَنْ يَقُولَ لِمَدْيَانَةَ حَالَةَ الْقَرْضِ قَدْ أَجَلْتُكَ بِهَذَا الدِّينِ سَنَةً، وَإِنْ الْمَقْتَضَى مِنْهَا حِينَئِذٍ بَدِيقَةً وَاحِدَةً، فَلِذَلِكَ التَّرَبُّصُ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ وَقَعَ عِنْدَ ضَرْبِ الْأَجْلِ الْمُنْكَوِّرِ، فَالْفَيْئَةُ الْوَاقِعَةُ فِي الْأَجْلِ إِنَّمَا يَقَعُ بَعْدَهُ، فَالْفَاءُ عَلَى بَابِهَا الْمَعْرُوفِ.

⁽³⁾ قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذَا الْجَوَابِ إِسْلَافُ جَوَابٍ عَنْ سُؤَالٍ آخَرَ يَتَوَجَّهُ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيَقَالُ لَهُ إِذَا كَانَ مَضَى الْأَرْبَعَةَ الْأَشْهُرَ، يَجُوبُ عِنْدَكَ وَقُوعُ الطَّلَاقِ بِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُوقِفٍ عَلَى إِيقَاعٍ مِنْ أَحَدٍ، فَمَا الَّذِي يَسْمَعُ إِذَا وَهُوَ امْكَنُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي قَدَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ، فَإِنْ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ: عَبَّرَ بِالْعَزْمِ عَنِ الْإِيقَاعِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُهُ غَالِبًا، وَفِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ نَكْتَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى التَّنْبِيهِ عِنْدَ قَوْلِهِ، وَالْعَزْمُ مِمَّا يَعْلَمُ وَلَا يَسْمَعُ وَالَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ أَنْ

(1) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا التَّفْسِيرُ مَنْزِلٌ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى الْفَيْئَةَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ مُقْبِدَةً، إِذَا وَقَعَ الطَّلَاقُ بِنَفْسِ مَضِيهَا، لَا تَكُونُ الْفَيْئَةُ مُعْتَبَرَةً عِنْدَهُ، إِلَّا فِي أَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ خَاصَّةً.

(2) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مَوْجَهٍ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى الْفَيْئَةَ فِي الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ، خَاصَّةً لَا فِيمَا بَعْدَهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى عَطَفَ الْفَيْئَةَ عَلَى تَرَبُّصِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ بِالْفَاءِ، وَمَقْتَضَاهَا كَمَا عَلِمْتَ وَقُوعُ مَا عَطَفَهُ بَعْدَهَا عَطَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَلْزِمُ وَقُوعَ الْفَيْئَةِ الْمُعْتَبَرَةَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ، وَأَبُو حَنِيفَةَ يَبَاهُ، فَلِذَلِكَ أَجَابَ عَنْهُ الزَّمْخَشَرِيُّ بِجَوَابِهِ الْمَتَقَدِّمِ، وَالسُّؤَالُ عِنْدِي يَنْدَفِعُ بِطَرِيقٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ التَّرَبُّصُ، وَهُوَ حَاصِلٌ مِنْ أَوَّلِ الْمَدَّةِ، فَوْقُوعِ الْفَيْئَةِ فِي الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ عَلَى تَرَبُّصِهَا، بِنَاءً مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصْدُقُ قَوْلُ الْقَائِلِ قَدْ تَرَبَّصْتُ بِفُلَانٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، إِلَّا إِذَا انْقَضَتْ الْمَدَّةُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَصْدُقُ مِنَ الْحَاكِمِ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ ضَرْبِ أَجْلِ الْمَوْلَى، قَدْ

نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر⁽³⁾ فاقام الأشهر مقام الحيض ونون الأطهار؛ ولأن الغرض الاصيل في العدة استبراء الرحم والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام نون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة، ويقال: أقرت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرءة. وقال أبو عمرو بن العلاء: نفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء.

فإن قلت: فما تقول في قوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ الطلاق الشرعي، وإنما هو في الطهر؟ قلت: معناه: مستقبلات لعدتهن، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلًا لثلاث، وعدتهن الحيض الثلاث.

فإن قلت: فما تقول في قول الأعشى:

لما ضاع فيها من قروء نسائك

قلت: أراد لما ضاع فيها من عدة نسائك لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن. أي: من مدة طويلة كالمدة التي تعدد فيها النساء. استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات، وأنه تمرّ على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها، أو أراد من أوقات نسائك، فإن القرء والقارئ جاء في معنى الوقت، ولم يرد لا حيضاً ولا طهرًا.

فإن قلت: فعلام انتصب «ثلاثة قروء»؟ قلت: على أنه مفعول به، كقولك: المحتكر يتربص بالغلاء أي: يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء.

فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة نون القلة التي هي الأقراء؟ قلت: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: «هأنفسهن» وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع. وقرأ الزهري: ثلاثة قرو بغير همزة. «وما خلق الله في أرحامهن» من الولد، أو من دم

وعزمهم الطلاق مما يعلم، ولا يسمع. قلت: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفية والضرار لا يخلو من مقالة وبدمية، ولا بد له من أن يحدث نفسه ويتأججها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله، كما يسمع وسوسة الشيطان.

والمطلقات يترصصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتنن ما خلق الله في أرحامهن إن كنن يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤلنن حق يؤمن في ذلك إن أرادوا إصلاً وكفن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن ذمة والله عزير حكيم (٣٧).

والمطلقات أراد المدخول بهن من نوات الأقراء. فإن قلت: كيف جازت إراتهن خاصة، واللفظ يقتضي العموم؟ قلت: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكه وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك.

فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام ولتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكانهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها، وينأه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة.

فإن قلت: هلا قيل: يتربصن ثلاثة قروء، كما قيل: تربص أربعة أشهر. وما معنى نكر الانفس؟ قلت: في نكر الانفس تبين لهن على التربص وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستكنن منه فيحملن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال فأمرن أن يقمن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

والقروء: جمع قرء أو قرء. وهو: الحيض، بليل قوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك»⁽¹⁾. وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»⁽²⁾. ولم يقل طهران. وقوله تعالى: ﴿واللاني ينسن من المحيض من

المسألة، فنقول مضي أربعة الأشهر، بمجرد لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج؛ لأن الأصل بقاء العصمة، وقد جعل الله له الفية بعد تربص الأجل المذكور، ونحن وإن بينا أولاً أن الآية لا تأبى وقوع الفية في الأجل، وهي أيضاً تأبى وقوعها بعد الأجل، فينتظم من أصلية، أعني بقاء.

(1) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحيض الحديث رقم: (36).
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في سنة طلاق العبد (الحديث رقم: (2189)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في أن طلاق الأمة تطليقتان الحديث رقم: (1182)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: في طلاق الأمة وعدتها، الحديث رقم: (2080)، وأخرجه الدارقطني عن ابن عمر، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء الحديث رقم: (104).

(3) سورة الطلاق: الآية: 4.

قاعدة أهل السنة، أن كل موجود يجوز أن يسمع، حتى الجواهر والألوان، والمعاني بجملتها، وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم، وليس بحرف، ولا صوت، فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً، ولا نطقاً غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع، ومرئي، ولمسوس، ومشموم، ومنوق، وهو المعلوم بالحواس، وإلى معلوم بغير ذلك، وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده، وإن كان الزمخشري ثابتاً، فيما قاله على الأمر العرفي معتقداً ما نكرناه من حيث المعروف، وما أراه كذلك، فالأمر سهل، وإن كان أخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال، وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات، لا يجوز أن يسمع عقلاً، فالحنز الحنر من هذه القاعدة الفاسدة، والله المستعان، ثم لا بد لنا في مسألة الإيلاء من البصر، لما يعتقد من مذهب مالك رضي الله عنه، ومذهب مالك رضي الله عنه، هو الذي اقتضاه الشافعي رضي الله عنه في

الحيض، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض قد طهرت استعجالاً للطلاق، ويجوز أن يراد اللاتي يبيغين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة، فلا يعترفن به ويجحدن لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه ﴿إِنْ كُنْ يَوْمُنَ بَالَهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ﴾ تعظيم لفعلهن، وإن من آمن بالله ويعقابه لا يجترئ على مثله من العظامم. والبعولة جمع بعول، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع، كما في الحزونة والسهولة، ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعول حسن البعولة، يعني: وأهل بعولتهن. ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ برجعتهن. وفي قراءة أبي: بردتهن. ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في مدة ذلك التريض.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف جعلوا أحق بالرجعة، كان للنساء حقاً فيها؟ قُلْتُ: المعنى: أَنَّ الرجل إن أراد الرجعة وأبته المرأة وجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً في الرجعة. ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَاحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليها. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفهن ما ليس لهن، ولا يكلفونهن ما ليس لهم، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال. ﴿بِدَرَجَةٍ﴾ زيادة في الحق وفضيلة. قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ كَإِسْأَلِكِ يَمْزُوجُكِ أَوْ تَسْرِحُكِ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْصِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْصِيََا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٣٧).

﴿الطلاق﴾ بمعنى: التطليق كالسلام بمعنى: التسليم، أي: التطليق الشرعي، تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال بفعلة واحدة، ولم يرد بالمرتبتين التثنية ولكن التكرير. كقوله: ﴿ثُمَّ أَرْجِعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (١) أي: كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من التثاني التي يراد بها التكرير قولهم: لبيك وسعديك وحنانيك وهذا نيك

وبإحسان. وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجهتهن، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرتان، لأنه لا رجعة بعد الثلاث، فإمساك بمعروف أي: برجعة، أو تسريح بإحسان، أي: بأن لا يراجعها حتى تبين العدة عليها، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضرارها. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث، وروي: أَنَّ سَائِلًا سأل رسول الله ﷺ: أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان» (٢). وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال له: إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبلاً فتطلقها لكل قرء تطليقة (٣). وعند الشافعي: لا بأس بإرسال الثلاث، لحديث العجلاني الذي لاعن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه. روي أَنَّ جميلة بنت عبد الله بن أبي كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يحبها، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا أنا ولا ثابت، ولا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً إنني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامَةً وأقبحهم وجهاً (٤)، فنزلت. وكان قد أصبقها حقيقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلق كان في الإسلام.

فَأَنْ قُلْتُ: لمن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾، إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْصِيََا حُدُودَ اللَّهِ﴾، وإن قلت: للأئمة والحكام، فهو لا يسوا بأخذين منهم ولا بمؤتتهن. قُلْتُ: يجوز الأمران جميعاً، أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره. وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكانهم الأخذون والمؤتون. ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مما أعطيتموهن من الصدقات ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ إلا أن يخافا الأزواج فيما يلزمهما من موجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت. ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾... الحديث رقم: (4745)، ومسلم في كتاب: اللعان الحديث رقم: (3723).

(١) سورة الملك، الآية: 4.

(٢) أخرجه الدارقطني في كتاب: الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (١)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 259/5، كتاب: الطلاق، باب: قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾.

(٣) أخرجه الدارقطني في كتاب الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (84).

وتتسع في البلوغ أيضاً، فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه، ويقال: قد وصلت، ولم يصل وإنما شارف. ولأنه قد علم أن الإمساك بعد تقضي الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له في غير عدة منه، فلا سبيل له عليها. **﴿فما سكوهن بمعروف﴾**، فإذا أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، **﴿أو سرحوهن بمعروف﴾**، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار. **﴿ولا تمسكوهن ضرار﴾**، كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً. **﴿لتعتدوا﴾** لتظلموهن، وقيل: لتلجثوهن إلى الافتداء. **﴿فقد ظلم أنفسه﴾** بتعريضها لعقاب الله. **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾** أي: جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخنتوها هزواً ولعباً. ويقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازيء، ويقال: كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج، ويقول: كنت لاعباً. وعن النبي ﷺ: «ثلاث جدن جد وهزلن جد: الطلاق، والنكاح، والرجعة»⁽¹⁾. **﴿وانكروا نعمة الله عليكم﴾** بالإسلام، وبنبوة محمد ﷺ. **﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾** من القرآن والسنة، ونكرها: مقابلتها بالشكر والقيام بحقها. **﴿يعظكم به﴾** بما أنزل عليكم.

وَيَتَسَع فِي الْبُلُوغِ أَيْضاً، فَيُقَالُ: بَلَغَ الْبَلَدَ إِذَا شَارَفَهُ وَدَانَاهُ، وَيُقَالُ: قَدْ وَصَلْتَ، وَلَمْ يَصِلْ وَإِنَّمَا شَارَفَ. وَلِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْإِمْسَاكَ بَعْدَ تَقْضِي الْأَجْلِ لَا وَجْهَ لَهُ، لِأَنَّهَا بَعْدَ تَقْضِيهِ غَيْرُ زَوْجَةٍ لَهُ فِي غَيْرِ عِدَّةٍ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا. **﴿فَمَا سَكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾**، فَإِذَا أَنْ يَرِاجِعَهَا مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ ضَرَّارٍ بِالمَرَّاجَعَةِ، **﴿أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾**، وَإِمَّا أَنْ يَخْلِيَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا وَتَبَيَّنَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّارٍ. **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَاراً﴾**، كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ وَيَتْرَكُهَا حَتَّى يَقْرُبَ انْقِضَاءُ عِدَّتِهَا، ثُمَّ يَرِاجِعُهَا لَا عَنْ حَاجَةٍ وَلَكِنْ لِيُطَوِّلَ الْعِدَّةَ عَلَيْهَا، فَهُوَ الْإِمْسَاكُ ضَرَّاراً. **﴿لِتَعْتَدُوا﴾** لَتُظْلَمُوهُنَّ، وَقِيلَ: لَتُلْجِثُوهُنَّ إِلَى الْإِفْتِدَاءِ. **﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** بِتَعْرِيفِهَا لِعِقَابِ اللَّهِ. **﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً﴾** أَي: جَدُوا فِي الْأَخْذِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، وَارْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَإِلَّا فَقَدْ اتَّخَذْتُمُوهَا هُزْوَاً وَلَعِباً. وَيُقَالُ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي الْأَمْرِ: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ وَهَازِيءٌ، وَيُقَالُ: كُنْ يَهُودِيّاً وَإِلَّا فَلَا تَلْعَبُ بِالتَّوْرَةِ. وَقِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ وَيَعْتِقُ وَيَتَزَوَّجُ، وَيَقُولُ: كُنْتُ لَاعِباً. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثُ جَدَنَ جَدٍ وَهَزْلَنَ جَدٍ: الطَّلَاقُ، وَالنِّكَاحُ، وَالرَّجْعَةُ»⁽¹⁾. **﴿وَانْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾** بِالإِسْلَامِ، وَبِنَبِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. **﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾** مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ، وَنَكَرَهَا: مُقَابَلَتُهَا بِالشُّكْرِ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهَا. **﴿يُعَظُّكُمْ بِهِ﴾** بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ.

﴿وَلَا تَلْعَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بَلَّغَتْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَمْسُكُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَوْلَاهَهُنَّ إِذَا تَزَوَّجُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُعَظُّ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَنْ لَكُمْ وَاللَّهُ يَتْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁽²⁾. **﴿فبليغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾**، إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج، والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهن، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن. روي: أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول، وقيل: في جابر بن عبد الله حين عضل بنت عم له، والوجه أن يكون خطاباً للناس. أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، والعضل الحبس والتضييق، ومنه: عضلت الدجاجة، إذا نشب بيضها فلم يخرج، وأنشد لابن هرمة: وإن قصائدي لك فاصطنعني عقائل قد عضلن عن النكاح وبلوغ الأجل على الحقيقة، وعن الشافعي رحمه الله: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين. **﴿إذا تراضوا﴾** إذا

فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: **﴿ذلك يوعظ به﴾**؟ قلت: يجوز أن يكون لرسول الله ﷺ، ولكل أحد، ونحوه **﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾** **﴿أزكى لكم وأطهر﴾** من أناس الآثام، وقيل: أزكى وأطهر أفضل وأطيب. **﴿والله يعلم﴾** ما في ذلك من الزكاء والطهر. **﴿وانتم لا تعلمونه﴾**، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع، وأنتم تجهلونه.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِضْعُهُنَّ وَكُسُوبُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا ضَرْكَاً وَلِلدَّاءِ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يُولَدُوهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَائِسِ إِنْتِهَاءٍ وَنَكَائِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَلَكِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُم مَاءً آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوَا اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ⁽³⁾.

﴿يرضعن﴾ مثل يتربعن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد. **﴿كاملين﴾** تأكيد كقوله: **﴿تلك عشرة كاملة﴾**⁽²⁾ لأنه مما يتسامح فيه. فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: أن يكمل الرضاعة. وقرئ: الرضاعة، بكسر الراء، والرضعة، وأن تتم الرضاعة، وأن يتم الرضاعة برفع الفعل تشبيهاً لأن بما لتأخيهما في التأويل.

فإن قلت: كيف اتصل قوله: **﴿لمن أراد﴾** بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم كقوله تعالى: **﴿هيته لك﴾**⁽³⁾ لك بيان للمهية به. أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة: حولين كاملين. ثم أنزل الله اليسر والتخفيف، فقال: **﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾** أراد أنه يجوز النقصان. وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه، بعد أن لا يكون في انقطاع ضرر، وقيل: اللام متعلقة بيرضعن، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده. أي: يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الآباء، لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئر إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح، وعند الشافعي: يجوز، فإذا انقضت عدتها جاز بالاتفاق.

فإن قلت: فما بال والوالدات مأمورات بأن يرضعن

= السنن، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء، الحديث رقم: (50)، والحاكم في المستدرک 197/2.

(2) سورة البقرة، الآية: 196.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل

الحديث رقم: (2194)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في

الجد والهزل الحديث رقم: (1184)، وابن ماجه في كتاب: الطلاق،

باب: من طلق ونكح... الحديث رقم: (2039)، والدارقطني في =

وأَنَّهُ ليس بأجنبي منها، فمن حَقَّها أن تشفق عليه وكذلك الوالد. ﴿وعلى الوارث﴾ عطف على قوله: وعلى المولود له رزقهنَّ وكسوتهنَّ، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، فكان المعنى: وعلى وارث المولود له مثل ما يجب عليه من الرزق والكسوة. أي: إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي نكرت من المعروف، وتجنب الضرر. وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، واختلفوا. فعند ابن أبي ليلى كل من ورثه. وعند أبي حنيفة من كان ذا رحم محرم منه. وعند الشافعي لا نفقة فيما عدا الولاد، وقيل: من ورثه من عصبته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعلم وابن العم، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأَنَّهُ إن مات أبوه ورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في مثله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه. وقيل: على الوارث، على الباقي من الأبوين. من قوله: واجعله الوارث منا ﴿فإن أراداً فصلاً﴾ صائراً ﴿عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ في ذلك زاداً على الحولين أو نقصاً، وهذه توسعة بعد التحديد. وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما في الفصال وتشاورهما. أما الأب فلا كلام فيه، وأما الأم فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي. وقرئ: فإن أراد.

استرضع: منقول من أَرْضِع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي لتعنيهِ إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجحت الحاجة، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولاكم، فحنف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجحت الحاجة، ولا تنكر من استنجحته، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأول. ﴿إذا سلمتم﴾ إلى المراضع ﴿ما آتيتكم﴾ ما أُرِيتُم إيتاءه، كقوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ (2) وقرئ: ما آتيتكم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّه كان وعده ماثياً﴾ (3) أي: مفعولاً. وروى شيبان عن عاصم: ما أوتيتكم، أي: ما آتاكم الله، وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه: ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾. وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو: ندب إلى الأولى، ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه الموضع من أهني ما يكون لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لسان الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كانه قيل: إذا أيتم إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن. ﴿بالمعروف﴾ متعلق بسلامتم، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطييين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

أولادهنَّ: قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار. وقيل: أراد الولادات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع. ﴿وعلى المولود له﴾ وعلى الذي يولد له، وهو الوالد، وله في محل الرفع على الفاعلية، نحو: عليهم، في ﴿المغضوب عليهم﴾.

فإن قلت: لم قيل المولود له دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الولادات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للأبَاء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات. وأنشد للمأمون بن الرشيد:

فإنما سميات للناس أوعية مستودعات ولأبَاء إبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظفار. ألا ترى أَنَّهُ نكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى: ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ (1) ﴿بالمعروف﴾ تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضرار. وقرئ: لا تكلف، بفتح التاء. ولا تكلف، بالنون. وقرئ: لا تضار بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضار بكسر الراء، وتضار بفتحها. وقرأ: لا تضار بالفتح أكثر القراء. وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين أيضاً. ويبين ذلك أَنَّهُ قرئ: لا تضار، ولا تضار بالجزم وفتح الراء الأولى وكسرهما. وقرأ أبو جعفر: لا تضار، بالسكون مع التشديد على نية الوقف. وعن الأعرج: لا تضار بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضيره، ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً. وعن كاتب عمر بن الخطاب: لا تضار، والمعنى: لا تضار والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس يعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعدما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً وما أشبه ذلك. ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعه شيئاً مما يجب عليه من رزقها وكسوتها، ولا يأخذ منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون تضار بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته. أي: لا تضر والدة بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعهد، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضر الولد به بأن ينتزع من يدها، أو يقصر في حقها، فتقصر هي في حق الولد.

فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه

(3) سورة مريم، الآية: 61.

(1) سورة لقمان، الآية: 33.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك. وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ، وحق جدي علي، وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك أخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك، فقال: أو قد فعلت، إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي. قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، وكانت عند ابن عمها أبي سلمة، فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده من شدة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة⁽⁵⁾.

فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده. ﴿أو أكنتم في أنفسكم﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بالسننكم لا معرضين ولا مصرحين. ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن ولا تصبرون عنه. وفيه طرف من التوبيخ، كقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾⁽⁶⁾.

فإن قلت⁽⁷⁾: أين المستدرك بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن﴾؟ قلت: هو محذوف لدلالة ستذكرونهن عليه تقديره: علم الله أنكم ستذكرونهن فانكروهن، ولكن لا تواعدوهن سراً، والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء لأنه مما يسر. قال الأعشى:

ولا تقربن جارة أن سرها عليك حرام فانكحن أو تابدا
ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد لأنه سبب فيه كما

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٣٧).

﴿والذين يتوفون منكم﴾ على تقدير حذف المضاف، أراد أزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، وقيل معناه: يتربصن بعدهم، كقولهم: السمن منوان بدرهم، وقرئ: يتوفون بفتح الياء أي: يستوفون أجالهم⁽¹⁾. وهي قراءة علي رضي الله عنه، والذي يحكى أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة فقال له رجل: من المتوفي، بكسر الفاء؟ فقال: الله تعالى، وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي رضي الله عنه على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو تناقضه هذه القراءة. ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ يعتدين هذه المدة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: عشراً، ذهاباً إلى الليالي والأيام داخله معها، ولا تراهم قط يستعملون التنكير فيه ذاهبين إلى الأيام⁽²⁾. تقول: صمت عشراً، ولو تكرت خرجت من كلامهم، ومن البين فيه قوله تعالى: ﴿إن لبثتم إلا عشراً﴾⁽³⁾ ثم ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾⁽⁴⁾ ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ فإذا انقضت عنتهن. ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأئمة وجماعة المسلمين ﴿ففيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، والمعنى: أنهن لو فعلن ما هو منكركان على الأئمة أن يكفوهن، وإن فرطوا كان عليهم الجناح.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِلَابِ الْمَنَاءِ أَوْ اكُمْسْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (١٣٨).

﴿فيما عرضتم به﴾ هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة، ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه

المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقبيها، ونظير هذا النظم قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾، فتاب عليكم، وعفا عنكم، فالآن بأشروهن﴾ الآية، ولهذا الحنف سر، والله أعلم، وهو اجتناب؛ لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً، بل اختصت بوجه واحد من وجوه، وذلك الوجه المباح عسر التمين، عما لم يبيح، فنكرت مستثناة بقوله إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، تنبيهاً على أن المحل ضيق، والأمر فيه عسر، والأصل فهي الحظر، ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم، فإنه أبيض مطلقاً غير مفيد، فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد، تلواً للإباحة، وتبعاً في الذكر؛ لأنها حالة فائدة، والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم، ولكن الأمر يتعلق به، من حيث المصاحب، وهو الاعتكاف، فتفطن لهذا السر، فإنه من غرائب النكت. قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ الآية.

(1) قال أحمد رحمه الله: ولعل السائل لأبي الأسود كان ممن يفهم عنه، أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح، وهو الظاهر، على ذلك أجابه أبو الأسود، فلا تناقض حيثن.

(2) قال أحمد رحمه الله: ومنه من صام رمضان، وأتبعه بسبب من سؤال، فكانه صام الدهر، فغلب الليالي، وإن كان الصوم غير متصور فيها، حتى قالوا إن شرطه النية، وزمانها الليل، فلها جعل لها حظاً في الصوم، وغلبها. قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ الآية.

(3) سورة طه، الآية: 103.

(4) سورة طه، الآية: 104.

(5) أخرجه الدارقطني في 3/224، كتاب النكاح الحديث رقم: (18).

(6) سورة البقرة، الآية: 187.

(7) قال أحمد رحمه الله: وقويت دلالة هذا المنكح على ما حذف؛ لأن =

فعل بالنكاح ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو: أَنْ تعرضوا ولا تصرحوا.

فَبِأَنْ قُلْتُ: بِمَ يَتَعَلَّقُ حَرْفُ الِاسْتِثْنَاءِ؟ قُلْتُ: بِمَا تَوَاعَدُوهُنَّ، أَيْ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ مَوَاعِدَةً قَطْ إِلَّا مَوَاعِدَةً مَعْرُوفَةً غَيْرَ مَنْكَرَةٍ، أَوْ لَا تَوَاعَدُوهُنَّ إِلَّا بِأَنْ تَقُولُوا: أَيْ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ إِلَّا بِالْتَعْرِيزِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعًا مِنَ الْإِدَائَةِ إِلَى قَوْلِكَ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ، إِلَّا التَعْرِيزُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ جَمَاعًا، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: إِنْ نَكَحْتُكَ كَانَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، يُرِيدُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا تَحْتَ اللَّحَافِ. إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا. يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ رَفْثٍ، وَلَا إِفْحَاشٍ فِي الْكَلَامِ، وَقِيلَ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ سِرًّا، أَيْ: فِي السِّرِّ، عَلَى أَنَّ الْمَوَاعِدَةَ فِي السِّرِّ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَوَاعِدَةِ بِمَا يَسْتَهْجِنُ، لِأَنَّ مَسَارَتَهُنَّ فِي الْغَالِبِ بِمَا يَسْتَحْيَا مِنَ الْمَجَاهَرَةِ بِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: هُوَ أَنْ يَتَوَاتَقَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرُهُ، وَلَا تَعَزِّمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ. مِنْ عَزَمَ الْأَمْرَ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ، وَنَكَرَ الْعَزْمَ مُبَالِغَةً فِي النِّهْيِ عَنِ عَقْدَةِ النِّكَاحِ فِي الْعِدَّةِ، لِأَنَّ الْعَزْمَ عَلَى الْفِعْلِ يَتَقَدِّمُهُ، فَإِذَا نَهَى عَنْهُ كَانَ عَنِ الْفِعْلِ أَنْهَى، وَمَعْنَاهُ: وَلَا تَعَزِّمُوا عَقْدَ عَقْدَةِ النِّكَاحِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَقْطَعُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ، وَحَقِيقَةُ الْعَزْمِ الْقَطْعُ، بِبَلِيلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَعْزَمْ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ»⁽¹⁾. وَرَوَى: «لِمَنْ لَمْ يَبَيْتِ الصِّيَامَ»⁽²⁾. «حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ لِحُلِهِ» يَعْنِي: مَا كُتِبَ وَفُرضَ مِنَ الْعِدَّةِ. «يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» مِنَ الْعَزْمِ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ، «فَاحْذَرُوهُ» وَلَا تَعَزِّمُوا عَلَيْهِ. «غُفُورٌ حَلِيمٌ» لَا يَعْلَاجُكُم بِالْعُقُوبَةِ.

لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا كُنَّ تَسَوَّهْنَ أَوْ تَفَرَّضْنَ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَيَتَوَهَّنَ عَلَى الْوُسْعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَتَزَّجَةِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٣٧).

﴿لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لَا تَبْعَةٌ عَلَيْكُمْ مِنْ إِيْجَابِ مَهْرٍ ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ مَا لَمْ تَجَامَعُوهُنَّ، ﴿وَأَوْ

تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إِلَّا أَنْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، أَوْ حَتَّى تَفَرَّضُوا، وَفَرَضَ الْفَرِيضَةَ تَسْمِيَةً الْمَهْرِ، وَنَكَرَ أَنَّ الْمَطْلَقَةَ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا إِنْ سَمِيَ لَهَا مَهْرٌ فَلَهَا نِصْفُ الْمَسْمُومِ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَ لَهَا فَلَيْسَ لَهَا نِصْفُ مَهْرِ الْمَثَلِ وَلَكِنْ الْمَتَّعَةُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْجَنَاحَ تَبْعَةُ الْمَهْرِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَنُصِّفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾⁽³⁾ فَقَوْلُهُ: ﴿فَنُصِّفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ إِثْبَاتٌ لِلْجَنَاحِ الْمُنْفِيِّ ثَمَّةً، وَالْمَتَّعَةُ دَرَجٌ وَمَلْحَقَةٌ وَخِمَارٌ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَهْرٌ مِثْلُهَا أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَهَا الْأَقْلُ مِنْ نِصْفِ مَهْرِ الْمَثَلِ، وَمِنْ الْمَتَّعَةِ: وَلَا يَنْقُصُ مِنْ خَمْسَةِ دِرَاهِمٍ؛ لِأَنَّ أَقْلَ الْمَهْرِ عَشْرَةُ دِرَاهِمٍ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْ نِصْفِهَا. وَ﴿الْمَوْسِعُ﴾ الَّذِي لَهُ سَعَةٌ، وَ﴿الْمُقْتَرُ﴾ الضَّيْقُ الْحَالُ، وَ﴿قَدْرُهُ﴾ مَقْدَارُهُ الَّذِي يَطْبِقُهُ؛ لِأَنَّ مَا يَطْبِقُهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ. وَقُرِئَ: بِفَتْحِ الدَّالِ، وَالْقَدْرُ وَالْقَدَرُ لُغَتَانِ، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَسْمَ لَهَا مَهْرًا، ثُمَّ طَلَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمْسَهَا: أَمْتَعْتُهَا؟ قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ. قَالَ: «مَتَّعَهَا بِقُلْنُسُوتِكَ»⁽⁴⁾. وَعِنْدَ أَصْحَابِنَا لَا تَجِبُ الْمَتَّعَةُ إِلَّا لِهَذِهِ وَجْهًا، وَتَسْتَحِبُّ لِسَائِرِ الْمَطْلَقَاتِ، وَلَا تَجِبُ ﴿مَتَّعًا﴾ تَاكِيدٌ لِمَتَّعُوهُنَّ بِمَعْنَى: مَتَّعِيًا. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِالْوَجْهِ الَّذِي يَحْسُنُ فِي الشَّرْعِ وَالْمَرْوَةِ. ﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ لِمَتَّعَا أَيْ مَتَّعًا وَاجِبًا عَلَيْهِمْ، أَوْ حَقٌّ نَكَحًا حَقًّا. ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ عَلَى الَّذِينَ يَحْسِنُونَ إِلَى الْمَطْلَقَاتِ بِالتَّمَتُّعِ، وَسَمَّاهُمْ قَبْلَ الْفِعْلِ مُحْسِنِينَ، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ».

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسَوَّهْنَ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنُصِّفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَمُوتَا أَوْ يَمُوتَا الَّذِي يَكُونُ عَقْدَرًا أَلَيْكَ الْكَوْثُ وَأَنْ تَمُوتَا أَزْوَبٌ لِلْفَقْوَةِ وَلَا تَسَوَّاهُ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ (٣٨).

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يُرِيدُ الْمَطْلَقَاتِ. فَإِنْ قُلْتُ⁽⁵⁾: أَيْ فَرَقَ بَيْنَ قَوْلِكَ الرِّجَالُ يَعْفُونَ وَالنِّسَاءَ

(1) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ: الصَّوْمِ، بَابِ: النِّيَّةِ فِي الصِّيَامِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (454)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ: الصَّوْمِ، بَابِ: مَا جَاءَ لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَعْزَمْ مِنَ اللَّيْلِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (730)، وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ: الصِّيَامِ، بَابِ: ذَكَرَ اخْتِلَافَ النَّاظِلِينَ لِخَبَرِهِ... الْحَدِيثِ رَقْمًا: (2337)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ: الصِّيَامِ، بَابِ: مَا جَاءَ فِي فَرَضِ الصَّوْمِ مِنَ اللَّيْلِ وَالْخِيَارِ فِي الصَّوْمِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (1700).

(2) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ: الصِّيَامِ، بَابِ: 68 الْحَدِيثِ رَقْمًا: (2331).

(3) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ: 237.

(4) ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (202/3).

(5) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا النُّقْلُ وَهُوَ فِيهِ الزَّمْخَشَرِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ مَذْهَبَهُ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ: النِّزَاجُ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَرَادَ: الْوَلِيُّ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَلَّى الزَّمْخَشَرِيُّ أَنَّهُ قَوْلُ ظَاهِرِ الصَّحَّةِ، عَلَيْهِ رَوْنَقُ الْحَقِّ، وَطَلَاوَةُ الصَّوَابِ لَوُجُوهِ الْأَوَّلِ: أَنَّ «الَّذِي يَبْدُو عَقْدَةَ النِّكَاحِ» ثَابِتَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ هُوَ: الْوَلِيُّ، وَأَمَّا الزَّوْجُ،

= فَهُوَ ذَلِكَ حَالَةُ الْعَقْدِ الْمُتَقَدِّمِ خَاصَّةً، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ الطَّلَاقِ، وَالْكَلامُ حِينَتْهُ لَيْسَ مِنْ عَقْدَةِ النِّكَاحِ فِي شَيْءِ الْبَتَّةِ، فَإِنْ قِيلَ: أُطْلِقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بَعْدَ الطَّلَاقِ بِتَأْوِيلٍ كَانَ مَقْدَرُهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَى الْمُصَفِّ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَعْدِ، وَالْخُرُوجُ عَنْ حَدِّ إِطْلَاقِ الْكَلَامِ وَأَصْلُهُ. الثَّانِي: أَنَّ الْخُطَابَ الْأَوَّلَ لِلزَّوْجَاتِ اتِّفَاقًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ وَفِيهِمْ مَنْ لَا عَوْفَ لَهَا الْبَتَّةَ، كَالْأَمَةِ وَالْبِكْرِ، فَلَوْلَا اسْتِثْنَاءُ التَّقْسِيمِ بِصَرْفِ الثَّانِي إِلَى الْوَلِيِّ، عَلَى ابْنَتِهِ الْبِكْرِ أَوْ أُمِّهِ، وَإِلَّا لَزِمَ الْخُرُوجُ عَنْ ظَاهِرِ عُمُومِ الْأَوَّلِ، وَحَيْثُ حَمَلَ الْكَلَامَ عَلَى الْوَلِيِّ، صَارَ الْكَلَامُ بِمَعْنَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ إِنْ كُنَّ أَهْلًا لِلْعَفْوِ، أَوْ يَعْفُو لَهُنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا، وَلِهَذَا كَانَ الْوَلِيُّ الَّذِي يَعْفُو، وَيَعْتَبَرُ عَفْوُهُ عِنْدَ مَالِكٍ هُوَ الْآبُ فِي ابْنَتِهِ الْبِكْرِ، وَالسَّيِّدُ فِي أُمِّهِ خَاصَّةً. الثَّلَاثُ: أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ جَدِيرٌ بِتَنَاسُبِ الْأَقْسَامِ، وَاتِّتِظَامِ أَطْرَافِ الْكَلَامِ، وَالْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هَذَا الْمَحْمَلِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، فَإِنَّ آيَةَ حِينَتْهُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى خُطَابِ الزَّوْجَاتِ، ثُمَّ الْإِوْلِيَاءِ، ثُمَّ الْأَزْوَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فَتَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِلْجَةً بِالْفَوَائِدِ، جَامِعَةً لِلْمَقَاصِدِ. الرَّابِعُ: أَنَّ الْمُضَافَ إِلَى الزَّوْجَاتِ هُوَ الْإِسْقَاطُ بِلا رَيْبٍ،

تتسوا الفضل بكسر الواو.

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾.

﴿الصلاة الوسطى﴾ أي: الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى من قولهم للأفضل الأوسط، وإنما أقررت وعطفت على الصلاة⁽²⁾ لانفرادها بالفضل، وهي صلاة العصر. وعن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملا الله بيوتهم ناراً»⁽³⁾. وقال عليه السلام: «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب»⁽⁴⁾. وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرأها، فأملت عليه والصلاة الوسطى صلاة العصر⁽⁵⁾. وروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما: والصلاة الوسطى وصلاة العصر⁽⁶⁾، بالواو. فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين إحداهما: الصلاة الوسطى إما الظهر وإما الفجر وإما المغرب على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: هي صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار⁽⁷⁾، وكان رسول الله ﷺ يصليها بالهجرة، ولم تكن صلاة أشد على أصحابه منها، وعن مجاهد: هي الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. وعن قبيصة بن نؤيب: هي المغرب؛ لأنها وتر النهار، ولا تنقص في السفر من الثلاث⁽⁸⁾. وقرأ عبد الله وعلي:

يعفون؟ قلت: الواو في الأوّل ضميرهم والنون علم الرفع، والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب. ويعفو عطف على محله، و ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ الولي. يعني: إلا أن تغفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأيي ولا خدمته ولا استمتع بي، فكيف أخذ منه شيئاً. أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأوّل ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوّج، فإذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة، فقد عفا عنها، أو سماه عفواً على طريق المشاكلة، وعن جبير بن مطعم أنه تزوّج امرأةً وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص، فعرض عليه بنتاً له، فترجّحها، فلما خرج طلقها، وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت رده. قيل: فلم بعث بالصداق؟ قال: فإين الفضل⁽¹⁾. و ﴿الفضل﴾ التفضل، أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمروا ولا تستقصوا. وقرأ الحسن: أو يعفو الذي، بسكون الواو، وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيه لهما بالآلف؛ لأنهما أختاهما. وقرأ أبو نهيك: وأن يعفو بالياء. وقرئ: ولا

(2) لعله على الصلوات.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ الحديث رقم: (4533)، وفي كتاب: المغازي الحديث رقم: (4111)، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب: الليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1424)، والترمذي أخرج حديث ابن مسعود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الوسطى أنها العصر الحديث رقم: (181)، وحديث سمرة (1820).

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في 505/2، كتاب: الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

(6) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره الحديث رقم: (6323).

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1426)، وأبو داود في وقت صلاة العصر الحديث رقم: (410)، والترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة البقرة الحديث رقم: (2982)، والنسائي في كتاب: الصلاة، باب: المحافظة على صلاة العصر الحديث رقم: (471)، ومالك في الموطأ، كتاب: صلاة الجماعة، باب: الصلاة الوسطى الحديث رقم: (25)، وأحمد في المسند 73/6.

(8) أخرجه الطبري في تفسيره. وأخرجه ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت 505/2، كتاب: الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

= ولو كان المراد بصاحب العقدة: الزوج، لتعين حمل العفو على تكميل المهر، وإعطائه ما لا يستحق عليه، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضل، ومن ثم قال في خطاب الأزواج: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ لأن المبتول من جهته غير مستحق عليه، فهو فضل لا عفو. ولا يقال: لعل الزوج تعجل المهر كاملاً قبل الطلاق، وطلق، فيجب استرجاع النصف، فيسقطه ويعفو عنه، وحينئذ يبقى العفو من جانب الزوج، على ظاهره وحقيقته. لانا نقول: حسبنا في ردّ هذا الوجه ما فيه من الكلفة، وتقدير ما الأصل خلافه. الخامس: أن صدر الآية خطاب للأزواج في قوله: ﴿ولن تلتقموهن﴾ إلى قوله: ﴿فرضتم﴾ فلو جاء قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ مراداً به: الزوج، لكان عدولاً والتفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وليس هذا من مواضعه، ولأجل هذا جاء قوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ على صيغة الخطاب؛ لأن المراد به: الأزواج، لخطابهم أوّل الساسن: أن قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ وأصل الكلام على الولي، استقام، إذ هم لو كملوا المهر لهن، فالتنصف واجب عليهم، لا يتغير، ولا يخالف الحالة المستثناة، مما وقع منه الاستثناء، فلا يجري الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأوّل والثاني، إلا أن يقال مقتضى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واجب عليكم، أن النصف الآخر، غير مؤدّى إليهن؛ لأنه ساقط عن الزوج، فإذا عفى، بمعنى: كمل المهر، فقد صار النصف الآخر مؤدّى إليهن، ففي هذا التأويل من الكلفة، ما يسقط مؤنة رده.

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (12/5) وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (369/12).

الصلاة الوسطى. وقرأت عائشة رضي الله عنها: والصلاة الوسطى، بالنصب على المدح والاختصاص، وقرأ نافع: الوصل بالصاد، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿فَانْتَيْن﴾ ذاكرين لله في قيامكم، والقنوت أن تنكر الله قائماً، وعن عكرمة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا. وعن مجاهد: هو الركود وكف الأيدي والبصر. وروي: أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمدّ بصره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا.

فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿فإن خفتم﴾ فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره ﴿فرجلًا﴾ فصلوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل ويقال: رجل رجل، أي: راجل، وقرئ: فرجالاً بضم الراء، ورجالاً بالتشديد، ورجلاً، وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصلون في حال المشي والمسابقة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي رحمه الله يصلون في كل حال، والراكب يومي ويسقط عنه التوجه إلى القبلة. ﴿فإذا أمنتم﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فانكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من صلاة الأمن، أو فإذا أمنتم، فاشكروا الله على الأمن، وانكروه بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٨﴾

تقديره فيمن قرأ: وصية بالرفع، ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو الذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم. وفيمن قرأ: بالنصب، والذين يتوفون، يوصون وصية، كقولك إنما أنت سير البريد بإضمار تسير، أو والزم الذين يتوفون وصية، وتدل عليه قراءة عبد الله: كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول، مكان قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ وقرأ أبي: متاع لأزواجهم متاعاً. وروي عنه: فمتاع لأزواجهم، ومتاعاً نصب بالوصية إلا إذا أضمرت يوصون فإنه نصب بالفعل. وعلى قراءة أبي: متاعاً نصب بمتاع؛ لأنه في معنى: التمتع، كقولك: الحمد لله حمد الشاكرين، وعجبنى ضرب لك زيداً ضرباً شديداً. و ﴿غير إخراج﴾ مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول، أو بدل من متاعاً، أو حال من الأزواج، أي: غير مخرجات، والمعنى: أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملاً أي:

ينفق عليهم من تركته، ولا يخرج من مساكنهم، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾⁽¹⁾ وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار ونسخت النفقة بالإرث الذي هو: الربع، والثلث، واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى لهن. ﴿فيم فعلن في أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للخطاب. ﴿ومن معروف﴾ مما ليس بمنكر شرعاً.

فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت قد تكون الآية متقدمة في التلاوة، وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾⁽²⁾ مع قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾⁽³⁾.

وَالْمُطَلَّاتِ مَتَّعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمَشْرَيْتِ ﴿١٢٩﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿وللمطلقات متاع﴾ عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبهن لواحدة منهن وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: ﴿حقاً على المتقين﴾ كما قال: ثمة حقاً على المحسنين. وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري: أنه واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الذَّرِّ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذَرُّهُ قُصْبٌ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٣١)

﴿ألم تر﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب.

وروي: أن أهل داوردان - قرية قبل واسط - وقع فيه الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم، ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل: مرّ عليه حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم، وتفرقت أوصالهم، فلوى شبقه وأصابه تعجباً مما رأى، فأوحى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله، فنأى فنظر إليهم قياه يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، وقيل: ه قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خذراً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. ﴿وه أوف﴾ فيه دليل على الألوف الكثيرة، واختلف في ذلك فقيل: عشرة، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون، ومن بد. التفاسير ألوف متألفون، جمع ألف كقواعد وقعود.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت: معناه: فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتة

(3) سورة البقرة، الآية: 144.

(1) سورة البقرة، الآية: 234.

(2) سورة البقرة، الآية: 142.

والشرط فاصل بينهما، والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا يعني: هل الأمر كما اتوقعه أنكم لا تقاتلون. أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا. بمعنى: اتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب في توقعه، كقوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ (2) معناه: التقرير وقرئ: عسيتم بكسر السين، وهي ضعيفة. ﴿وما لنا إلا نقاتل﴾ أي داع لنا إلى ترك القتال وأي غرض لنا فيه ﴿وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ ذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين. ﴿إلا قليلاً منهم﴾ قيل: كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر. ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي إِسْلَمِهِ وَالْجَسَمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٧)

﴿طالوت﴾ اسم أعجمي. كجالوت وداود، وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم ووزنه إن كان من الطول فعلوت منه أصله طولوت إلا أن امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبراني وافق عربياً كما وافق حنطاً حنطه، وبشمالاً لها رخماناً رخيماً، بسم الله الرحمن الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببية العجمة لكونه عبرانياً. ﴿أنسى﴾ كيف ومن أين؟ وهو إنكار لملكه عليهم واستبعاد له.

فَأَن قُلْتُ (3): ما الفرق بين الواوين في ﴿ونحن أحق﴾ و﴿ولم يؤت﴾؟ قلت: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتهما معاً في حكم واو الحال، والمعنى: كيف يملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين؛ ولأنه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً. وروي: أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت. ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم﴾ يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما نكروا

وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (1) وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وأن الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله. ﴿لنؤ فضل على الناس﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به، ويستبصرون كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم أو لنؤ فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا، فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله.

وَقَدْ تَلَوْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٨)

﴿واعلموا أن الله سميع﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون، ﴿عليم﴾ بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضَاعًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِطْنَةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٩)

إقراض الله مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، والقرض الحسن إما المجاهدة في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله. ﴿أضعافاً كثيرة﴾ قيل: الواحد بسبعمئة، وعن السدي: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله. ﴿والله يقبض ويبسط﴾ يوسع على عباده ويقتل، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبذلكم الضيقة بالسعة. ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ إِذْ قَالُوا لَنَبِيٍّ لَّهُمْ بُعِثَ لَنَا مُلْكًا فَتَنَّبَلُوا لَكُمْ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ قَالُوا هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ إِلَّا تَقْتُلُونَ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنَ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٠)

﴿لنبي لهم﴾ هو يوشع أو شمعون أو إسموئيل. ﴿ببعث لنا ملكاً﴾ أنهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره. طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله ﷺ من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره، وروي: أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم. ﴿نقاتل﴾ قرئ: بالنون والجزم على الجواب، وبالنون والرفع على أنه حال، أي: أبعثه لنا مقدرين القتال، أو استثناف كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك! فقالوا: نقاتل. وقرئ: يقال بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة لملكاً. وخبر ﴿عسيتم﴾ ﴿ألا تقاتلوا﴾

= الحالية بنفسها، وأقادت الجملة الثانية الحالية أيضاً، لكن بواسطة الواو العاطفة، وهذا النظر من السهل للممتنع.

(1) سورة يس، الآية: 82.

(2) سورة الدهر، الآية: 1.

(3) قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا، أن الواو الأولى، أقادت جملة =

وهي لغة الانصار.

فَإِنْ قُلْتَ⁽¹⁾: ما وزن التابوت؟ قلتُ: لا يخلو من أن يكون فعلوتاً أو فاعولاً، فلا يكون فاعولاً لقلته نحو سلس وقلق ولأنه تركيب غير معروف، فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذا فعلوت من التوب وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعته، وأما من قرأ بالهاء فهو فاعول عنده، إلا فيمن جعل هاء بدلاً من التاء لاجتماعهما في الهمس وأتتهما من حروف الزيادة ولذلك أبليت من تاء التانيث. وقرأ أبو السمال: سكيئة بفتح السين والتشديد، وهو غريب. وقرئ: يحمله بالياء.

فَإِنْ قُلْتَ: من «آل موسى وآل هرون»؟ قلتُ: الانبياء من بني يعقوب بعدهما؛ لأن عمران هو ابن فاهث ابن لاوي بن يعقوب فكان أولاد يعقوب ألهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهرون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

ثُمَّ قَالَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ بَيِّنُكُمْ يَنْهَكُم مِّنْ شَرِّ بْنِ يَسَّى وَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بَيْنَهُ فَتَرَدَّدُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّثَلَّوْا اللَّهَ كَم مِّنْ فِتْنَةٍ قَالُوا قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

﴿فصل﴾ عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله فصل نفسه ثم كثر محنوف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل، وقيل: فصل عن البلد فصولاً. ويجوز أن يكون فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقف وصدا ونحوهما، والمعنى: انفصل عن بلده. ﴿بالجنود﴾ روي أنه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا تاجر مشغول بالتجارة، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبين عليها، ولا ابتغي إلا الشاب النشط الفارع، فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً وسلخوا مفازة، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً ف﴿قال إن الله مبتليكم﴾ بما اقترحتموه من النهر، ﴿فمن شرب منه﴾ فمن ابتدأ شربه من النهر بأن كرعه فيه، ﴿فليس مني﴾ فليس بمتصل بي ومتحد معي، من قولهم: فلان مني، كانه بعضه لاختلاطهما واتحادهما. ويجوز أن يراد

من النسب والمال، وهما: العلم المبسوط، والجسامة. والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها، وقيل: قد أوحى إليه ونبي، وذلك أن الملك لا بد أن يكون من أهل العلم، فإن الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهازة لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب.

والبسط: السعة والامتداد، وروي: أن الرجل للقائم كان يمد يده فينال رأسه. ﴿يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي: الملك له غير منازع فيه فهو يؤتيه من يشاء، من يستصلحه للملك ﴿والله واسع﴾ الفضل والعطاء يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عليه﴾ بمن يصطفيه للملك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُّلتِكُمْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ

﴿والتابوت﴾ صندوق التوراة، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قومه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون.

والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كراس الهر ونسب كتنبيه وجناحان، فتثن فيزف التابوت نحو العلو وهم يمشون معه، فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن علي رضي الله عنه: كان لها وجه كوجه الإنسان، وفيها ريح هفافة. ﴿وبقية﴾ هي: رضاض الألواح، وعصا موسى وثيابه، وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام، فنزلت به الملائكة تحمله، وهم ينظرون إليه، فكان تلك آية لإصفاة الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار، فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين فساقهما الملائكة إلى طالوت. وقيل: كان من خشب الشمشام ممواً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، وقرأ أبي، وزيد بن ثابت: التابوت بالهاء

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد: لأن الغاء تاء، واللام كذلك، والعرب تستقل ما فاؤه ولامه حرف واحد؛ لأنه توأم للتكرار. قوله تعالى: ﴿فمن شرب فليس مني﴾ الآية.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفي هذه الآية تقوية، لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجمال، لا يتعين عوده إلى الأخيرة، لاحتمال عوده إلى ما قبلها، ورد على من منع ذلك، محتجاً بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه، بأجنبي من الاستثناء، ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة، وتوقف في انعطافه على ما تقدمها، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة، وأما عوده على ما قبل

= الأخيرة بونها، فمعترض عن هذا القائل، فلم يقف في العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة، وقد بين القاضي أبو بكر صلاحية عوده إلى ما قبل الأخيرة بونها، رداً على هذا القائل، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ولو ربه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذي يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ ووجه استشهاد، أن المعنى يابى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة، ويعين عوده إلى ما قبلها، وسياقي بيان ذلك عند الكلام على الآية. قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا﴾ الآية.

بالذكر؟ قلتُ: لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة. ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل، وهو آية من الآيات، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل، وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا ﷺ هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع. اللهم أرزقنا شفاعته يوم الدين. ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة إلجاء وقسر، ﴿وما اقتتل الذين﴾ من بعد الرسل لاختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً. ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن﴾ لالتزامه دين الأنبياء، ﴿ومنها من كفر﴾ لإعراضه عنه. ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ (3) كثره للتأكيد، ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ من الخذلان والعصمة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا إِنَّمَا رِزْقُكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَنَّ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿انفقوا مما رزقناكم﴾ أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه لا بيع فيه. حتى تتباعوا ما تنفقونه، ﴿ولا خلة﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به (4)، وإن أرتبتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب لم تجبوا شفيعاً يشفع لكم حط الواجبات؛ لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير. ﴿والكافرون هم الظالمون﴾

الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة (1)، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤت أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر نون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تخفيف فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة، على أنه العَلَم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس. ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحكم، أو بعضكم. يريد به الذي تعرف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأثوره بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فنكر زهيراً والنابيعة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه. ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره، ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنا في المسجد نتذكر فضل الأنبياء فنذكرنا نوحاً بطول عيابه، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله أفضل منهم بعث إلى الناس كافة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل عليه السلام، فقال: «فيم أنتم؟» فنكرنا له، فقال: «لا ينبغي لأحد أن يكون خير من يحيى بن زكريا، فنكر أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهيم بها» (2).

فإن قلت: فلم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء

كان على وفق المشيئة، ثم طال الكلام، وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى، كما نفعت في هذا الأمر الخاص، وهو اقتتال هؤلاء، فهي نافذة في كل فعل واقع، وهو المعنى المعبر عنه في قوله: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ طرأ نكر تعلق المشيئة بالاقتتال، لتوهم عموم تعلق المشيئة، لتناسب الكلام وتعريف كل بشكله، فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر، ويرتاح السر، والله الموفق، رأي قدم بثبت للاعتزال قبالة هذا؛ لأنه الدائرة القاطعة لدابرته، الكافلة بالرد على منتحله وناصره، ولذلك جوزها الزمخشري لاعتياصها على تأويله، واعتصامها بالنصوصية من حيله ونحيله. قوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع﴾ الآية.

(4) قال أحمد رحمه الله: أما القدرية، فقد وطئوا أنفسهم على حرمان الشفاعة، وهم جدير أن يحرموها، وأدلة أهل السنة على إثباتها للعصاة من المؤمنين، أوسع من أن تحصي، وما أنكرها القدرية، إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة، وللعاصي على المعصية، إيجاباً عقلياً على زعمهم، فهذه الحالة في إنكار الشفاعة في بعضها ثابتة، فكل ما ورد مفهماً لنفيها، حمل على الأيام الخالية منها، جمعاً بين الأدلة، كما ورد قوله تعالى: ﴿فإننا نخف في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ وورد: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وورد: ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ وورد: ﴿ونقومهم إنهم مسؤولون﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق، إلا الحصول على تعدد أوقات القيامة، واختلاف أحوالها وإيامها، وكذلك أمر الشفاعة، سواء رزقنا الله الشفاعة، وحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(1) قال أحمد رحمه الله: وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له، لفظاً ومعنى، وتبركاً بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه، وأصحاب الزمخشري في قوله، حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتي الأنبياء، على الجميع الصلاة والسلام، وليس كما يقال عن بعض أهل العصر، من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من أحاد الأنبياء، وينبغي الوقوف عن نسبته له، فإنه من العلماء الأعلام، وعمد دين الإسلام، والوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه. قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ الآية.

(2) كشف الاستار 108/3، كتاب: علامات النبوة، باب: يحيى عليه السلام الحديث رقم: (2358).

(3) قال أحمد رحمه الله: ووراه التأكيد سر أخص منه، وهو: أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد، ثم اعترضها مقصد آخر، وأرادت الرجوع إلى الأول، قصدت نكره إمّا بتلك العبارة، أو بقريب منها، وذلك عندهم مهيج من الفصاحة مسلوب، وطريق معتد، وكان جدي لامي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير، يعد في كتاب الله تعالى مواضع هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معجزة بغير علم﴾ إلى قوله: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم﴾ وهذه الآية من هذا النمط، لما صدر الكلام بأن اقتتلهم

أراد التاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: والكافرون للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج: ﴿ومن كفر﴾ مكان ﴿ومن لم يحج﴾، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وويل للمشركين﴾ الذين لا يؤتون الزكاة⁽¹⁾ وقرئ: لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعاة بالرفع.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (256).

﴿الحي﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر. ﴿والقيوم﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقرئ: القيام والقيم. والسنة: ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس. قال ابن الرقاق العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم. وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً. ومنه حديث موسى أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينما ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيبك قارورتين مملوءتين، فاحذهما والقي الله عليه النعاس، فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزلتا. ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. كقوله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾⁽²⁾. ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما كان قبلهم، وما يكون بعدهم، والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء، أو

لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء. ﴿من علمه﴾ من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ إلا بما علم. الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد⁽³⁾، وفي قوله: ﴿وسع كرسيه﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطه وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد. كقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾⁽⁴⁾ من غير تصور قبضة وطى ويمين وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسي. ألا ترى إلى قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

والثاني: وسع علمه: وسمى العلم كرسيّاً تسميةً بمكانه الذي هو كرسي العالم.

والثالث: ﴿وسع ملكه﴾ تسميةً بمكانه الذي هو كرسي الملك.

والرابع: ما روي أنه خلق كرسيّاً هو بين يدي العرش بونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش. ﴿ولا يؤده﴾ ولا ينقله ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ حفظ السموات والأرض، ﴿وهو العليّ﴾ الشأن العظيم، الملك والقدرة.

فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي وأردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه، والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساء عنه، والثانية: لكونه مالِكاً لما يديره. والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب لشفاعة وغير المرتضى. والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره.

فإن قلت⁽⁵⁾: لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها

(1) سورة فصلت، الآيتان: 6، 7.

(2) سورة النبا، الآية: 38.

(3) قال أحمد رحمه الله: قوله في الوجه الأول: أن ذلك تخييل للعظمة سوء أب في الإطلاق، ويعد في الإضرار، فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صق، فإن يكون معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد: وكان جدي رحمه الله عليه يقول: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً، فيها اسم الله تعالى، ظاهراً في بعضها، ومستتخفاً في بعض، ويظهر لكثير من العائدين منها ستة عشر، إلا على بصير حاد البصيرة، لدقة استخراجها، الأول: الله،

== الثاني: هو، الثالث: الحي، الرابع: القيوم، الخامس: ضمير لا تأخذه السانس: ضمير له، السابع: ضمير عنده، الثامن: ضمير إلا بإذنه، التاسع: ضمير يعلم، العاشر: ضمير علمه، الحادي عشر: ضمير شاء، الثاني عشر: ضمير كرسيه، الثالث عشر: ضمير ولا يؤده، الرابع عشر: وهو، الخامس عشر: العلي، السادس عشر: العظيم، فهذه عدة الأسماء البينة، وأما الخفي، فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله: حفظهما، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد له من فاعل، وهو: الله، ويظهر عند فك المصدر، فيقول: ولا يؤده أن يحفظهما هو، وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي قد رام الزيادة على هذا العدد، لما أخبرت به عن الجد رحمه الله، فقال: يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة، كل واحد منها باثنين؛ لأن كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة، وكونه مشتقاً، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها اسم، وقد اشتملت على آخر مضمّر، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحدًا وعشرين اسماً، وكنت قد أجريت معه في تعدد الزيادة المذكورة، وجهاً لطيفاً،==

اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من الحبل الوثيق المحكم المأمون انفصامها أي: انقطاعها. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به. وقيل: هو إخبار في معنى النهي، أي: لا تتكروها في الدين، ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله: ﴿جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾⁽⁴⁾ وقيل: هو في أهل الكتاب خاصة لأنهم حصنوا أنفسهم بآداء الجزية. وروي: أنه كان لانصاري من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ. فقال الانصاري: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر⁽⁵⁾. فنزلت، فخلاهما.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطْلُغُهُم يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٧﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أي: أرادوا أن يؤمنوا، يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأبيده من الكفر إلى الإيمان، ﴿والذين كفروا﴾ أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس تلك. أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقه لهم من حلها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين: ﴿والذين كفروا أولياؤهم﴾ الشياطين ﴿يخرجونهم﴾ من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّيِّئِينَ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِمَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧٨﴾

﴿الم تر﴾ تحجيب من محاجة نمرود في الله وكفره به⁽⁷⁾ ﴿إن آتاه الله الملك﴾ متعلق بحاج على وجهين:

ما ورد، منه قوله ﷺ: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها»⁽⁸⁾. وعن علي رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر، وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد. ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره، والآيات حوله»⁽⁹⁾. وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما في القرآن، فقال لهم علي رضي الله عنه: أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا علي، سيد البشر أئم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي»⁽¹⁰⁾. قلت: لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتغالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأنكار، وبهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد، ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه.

فإن العرانيين تلقاها محسدة ولا ترى للناس جساداً

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَعْلِمُ ﴿٢٨١﴾

﴿لا إكراه في الدين﴾ أي: لم يجز الله أمر الإيمان على الإيجاب والقسر، ولكن على التمكين والاختيار. ونحوه قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾⁽¹⁾ أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل وبني الأمر على الاختيار. ﴿قد تبين الرشd من الغي﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة، ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ فمن

= وهو: أن الاسم المشتق، لا يتحمل الضمير بعد صيورته بالتسمية علماً على الأصح، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى، ثم ولو فرضناها محتملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل، فالمشتق إنما يقع على موصوفه، باعتبار تحمله ضميره، ألا تراك إذا قلت: زيد كريم، وجدت كريماً، إنما يقع على زيد؛ لأن فيه ضميره، حتى لو جرئت النظر إليه لم تجده مختصاً بزيد، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس، ولا تجده مختصاً بزيد، إلا باعتبار اشتغاله على ضميره، فليس المشتق إذاً مستقلاً بوقوعه على موصوفه، إلا بضميمة الضمير إليه، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير، مع الحكم برجوعه إلى معين البتة، فرضي الشيخ المذكور عن هذا البحث، وصوبه، والله الموفق للصواب. قوله تعالى: ﴿الم تر إلى الذي حاج إبراهيم﴾ الآية.

- (1) لم أجده.
- (2) نكره السيوطي في الجامع الكبير. راجع فيض القدير للمناوي.
- (3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن فصل في فضائل السور والآيات الحديث رقم: (2395).
- (4) سورة يونس، الآية: 99.
- (5) سورة التوبة، الآية: 73.
- (6) الواحدي في أسباب النزول ص 48.
- (7) قال أحمد: عفا الله عنه، والوجهان قريبان من حيث المعنى، إلا أن بينهما في الصناعة فرقاً، وهو: إنما استعمل المصدر في الأول مقعولاً من أجله، وفي الثاني ظرفاً، وقد وقعت المصائر ظروفاً في مثل حقوق النجم، ومقمت الحاج وأمثال ذلك، وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتغاله على إتياء الملك الحامل له على البطر، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها، وهذان المعنيان هما =

أبو حيوة: فَبَيَّتَ بوزن قرب. وقيل: كانت هذه المحاجة حين كسر الأصنام، وسجنه نمرود ثم أخرجه من السجن ليحرقه، فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مِثْلَايَكَ وَشِرَايَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ بَشَرَةٌ وَاَنْظُرْ إِلَى جِدارِكَ وَارْجُلِكَ ءَايَةُ لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى آلِطَّيْرِ كَيْفَ تُنْشِئُهَا ثُمَّ تَكْسُوهُمُ أَحْمَامًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٣﴾.

﴿أو كالذي﴾ (4) معناه: أو أرايت مثل الذي مر، فحفز لدلالة ألم تر عليه لأن كلتيهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل: أرايت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية (5)؟ والمار كان كافراً بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: أنى يحيي، وقيل: هو عزيز أو الخضر

أحدهما: حاج؛ لأن آتاه الله الملك على معنى: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبير والعنوّ فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكانت المحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأنني أحسنت إليه، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ (1).

والثاني: حاج وقت أن آتاه الله الملك. فإِنْ قُلْتُ (2): كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والاتباع، وأما التغليب والتسلط فلا. وقيل: ملكه امتحاناً لعباده. و﴿إِنْ قَالَ﴾ نصب بحاج، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى الوقت (3). ﴿إِنَّا أَحْيِي وَآمِيتُ﴾ يريد أعفو عن القتل وأقتل، وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحقق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة. وقرئ: فَبَيَّتَ الذي كفر، أي: فغلب إبراهيم الكافر، وقرأ

حتى تتوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفها في قصة نمرود، فإنه باو التي لا تستعمل إلا مشركة، إذ عطف التحسين اللفظي خاص بالواو، فنقول: إذا انتهت الترجيع إلى هذا التحقيق، فهو معارض بما بين قصة المار، وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي، لأن طليقتهما واحدة إذا المار سال معايته الإحياء، وكذلك طلبة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم التناسب المعنوي، أرجح من التعلق بامور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة، ويؤيد القول بأن المار كان مؤمناً تحربه في قوله تعالى: ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ظاهر الاحتراز من التحريف في القول، حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم، حذراً من إيهام طليته لجملة اليوم، ومثل هذا التحري لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال: إنما صدر منه هذا التحري، بعد أن حيي وأمن. لانا نقول: إنما أمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وأما التحري المنكور، فكان أول القصة قبل الإيمان، وما قدرت هذا السؤال، إلا لنكتة يذكرها الزمخشري، الآن تشعر بالإيهام على الترجيع المنكور. ثم هذه الجراءة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه، من أنه قال: ﴿أو بعض يوم﴾ لما رأى بقية من الشمس، لم يكن رأها أول كلامه، فاستدرك الأمر فيها نظر دقيق، لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره، وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته، وكلام المار المنكور بني أولاً على الجزم بأنه لبث يوماً، ثم جزم آخر أن لبثه، إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول: بل بعض يوم، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثاني، لأن أو، إنما تدخل في الخبر، إذا انبنى أوله على الجزم ثم عرض في آخره شك ولا جزم بالنقيض، فالحكاية المنكورة توجب أن يكون الموضع ليل، لا لاو إذ موضع بل جزم بنقيض الأول، فإذا استقر ذلك، فالظاهر من حال المار أنه كان أولاً جازماً، ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية، وعدولاً عن الحكاية التي تثبت إلا بإسناد قاطع، فيضطر إلى تأويل، فتأمل هذا النظر، فإنه من لطيف النكت، والله الموفق.

= المنكوران في الوجه الأول بعينهما، فلماذا نهيت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي، والله الموفق، لمعاني كلامه.

- (1) سورة الواقعة، الآية: 82.
- (2) قال أحمد: السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرة صلاحاً، أو إصلاح على الله تعالى في أفعاله، وكل ذلك من أسول القدرة التي اجتبتها البرهان القاطع، فما لها من قرار، وأما إيراد السؤال على صيغة: لما آتاه الله الملك وهو كافر؟ أولم يفعل كذا وكذا؟ فجواب رده على الإطلاق في قوله تعالى: ﴿لا يستل عما يفعل وهم يسئلون﴾ لو سمع الصم البكم، والله ولي التوفيق.
- (3) قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء، أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام، ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال، وأما الحجة، فهي: استدلاله على الوهية الله تعالى، بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة، منها: الإحياء، والإماتة، ومنها: الإتيان بالشمس من المشرق، والعنول بعد قيام الحجة، وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال، ليس يبدع عند أهل الجدل، والله أعلم.
- (4) قال أحمد: ومثل هذا النظم يحفز منه فعل الرؤية كثيراً، كقوله: قال لها كلابها أسرعي كالأيوم مطلوباً ولا طالباً يريد: لم أر كالأيوم، فحفز الفعل وحرف النفي، والظاهر حمل الآية على الوجه الأول، لوجود نظيره، والله أعلم.
- (5) قال أحمد: أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمرود في سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره، باقتتران قصته مع قصة نمرود، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول: أن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمرود، عطف تشريك في الفعل، منطوقاً به في الأولى، ومحدوفاً من الثانية ملولاً عليه بذكره أولاً، ولا كذلك عطف قصة إبراهيم، فإنها مصدرية بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك، ولكن لتحسين النظم =

أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة، كما طلبه إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿أَنْتَ يَحْيِي﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقه الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي. والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر، وقيل: هي التي خرج منها الألوف. ﴿وَهِيَ خَالِوِي عَلَى عُرُوشِهَا﴾ تفسيره فيما بعد ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظن. روي أنه مات ضحى، ويعد بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً. ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. وروي: أن طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنى والشراب على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّه﴾ لم يتغير. والهاء أصلية أو هاء سكت، واشتقاقه من السنه على الوجهين؛ لأن لأمها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان، وقيل: أصله يتسنن من الحما المسنون، فقلبت نونه حرف علة كتقضي البازي، ويجوز أن يكون معنى لم يتسنه لم تمر عليه السنون التي مرت عليه. يعني: هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك، وهذا شراك لم يتسن. وقرأ أبي: لم يسنه بإدغام اللاء في السين. ﴿وَلَنُظِرَ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من اعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرابه من التغيير. ﴿وَلَنُجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك، يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب حماره، وقال: أنا عزيز، فكذبوه. فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يهذهها هذا عن ظهر قلبه، وهم ينظرون في الكتاب

(1) قال أحمد: الأولى في هذه الآية أن ينكر فيها المختار في تفسيرها، من المباحث الممتحنة بالفكر المحرر، والنكت المفصحة بالرأي المخمر، فما وافق من كلام المصنف ما ينكره، فالحمد لله وما خالفه، فالحق فيما نكرناه، والله الموفق، فنقول: أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له: كيف تحيي الموتى، فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فلما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سال عن كيفية حكمه، لا ثبوته، ولو كان الهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية، وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم. أي: ونحن لم نشك، فلان لا يشك إبراهيم أخرى وأولى فإن قلت: فلماذا كان السؤال مصوراً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورهما ومشاهدتهما بالإيمان، ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَوْنُمْ﴾ قلت: قد وقعت لبضع الحقائق فيه على لطيفة، وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل في الاستعجاز، مثاله: إن يدعي مدع أنه يحمل ثقلًا من الأثقال، وأنت جازم بعجزه عن حمله،

فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حديثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ هي عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم، ﴿كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ كيف يحييها. وقرأ الحسن: ننشرها من نشر الله الموتى بمعنى: أنشرهم فنشروا. وقرأ: بالزاي بمعنى: تحرّكها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وفاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مضمّر تقديره، فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحنف الأول لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيدا، ويجوز فلما تبين له ما أشكل عليه يعني: أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فلما تبين له، على البناء للمفعول. وقرأ: قال أعلم على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل أعلم.

فإن قلت: فإن كان المار كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟ قلت: كان الكلام بعد البعث، ولم يكن إذ ذاك كافراً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذْنَا مِنْهُ آلَ الْبَيْتِ مُصَافِرِينَ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَلٍ مِنْهُمْ جُزْأً ثُمَّ أَدْعَاهُمْ بِآيَتِكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿أرني﴾ بصرنى.

فإن قلت: (1) كيف قال له ﴿أَوَلَمْ تَوْنُمْ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من

== فتقول له: أرني كيف تحمل هذا، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال، الذي احاط علم الله تعالى، بأن إبراهيم مبرأ منه، أراد بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَوْنُمْ﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: ﴿بلى﴾ أمنت، ليفصح عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً، نص عليه بعبارة يفهما كل من يسمعا، فهما لا يلحقه فيه شك. فإن قلت: قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين، فما موقع قول إبراهيم، ولكن ليطمئن قلبي، وذلك يشعر ظاهراً، بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة. قلت: معناه: ولكن ليبرز عن قلبي الفكر في كيفية الحياة؛ لأنني إذا شاهدتها، سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد، وجاءت الآية مطابقة لسؤاله؛ لأنه شاهد صورة حياة الموتى، تقديره الذي يحيي ويميت، فهذا أحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية، وربك الفتاح العليم، وأما قول الزمخشري: أن علم الاستدلال يطرق إليه التشكيك، بخلاف العلم الضروري، فكلام لم يصدر عن رأي منور، ولا فكر محرز، وذلك أن العلم الموقوف على سبب، لا يتصور فيه تشكيك، ما دام سببه منكرًا في نفس العالم، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً، هو الاعتقاد، وإن كان صحيحاً، وسببه باق في الذكر، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن نزوة العلم، ولكن للقدماء من القدرية، خبط طويل في تمييز العلم عن الاعتقاد حتى غالى أبو هاشم، فقال: العلم

==

ووجهه أنه خفف بطرح همزته، ثم شدد كما تشدد في الوقف إجراءً للوصول مجرى الوقف.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعًا سَكَابِلَ فِي كُلِّ سَبْعٍ مِائَةٍ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٧).

﴿مثل الذين ينفقون﴾ لا بد من حذف مضاف أي مثل نفقتهم، كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبل، وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر.

فإن قلت: كيف صح هذا التمثيل، والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المقلّة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير.

فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة، كما قال: ﴿وسبع سنبلات خضر﴾ (٢) قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ (٣) من وقوع أمثلة الجمع متعادرة مواقعها. والله يضاعف لمن يشاء أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء لا لكل متفق لتفاوت أحوال المنفقين، أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨).

المن: أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتهم صنيعاً فانسوها. ولبعضهم:

ولن أصراً أسدى إلي صنيعاً ونكرنيها مرةً للنسيء وفي (٤) نوابغ الكلام صنوان: من منح سائله ومن

الفائدة الجليلة للسامعين، و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي معناه بلى أمنت. ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الألفة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين؛ ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك.

فإن قلت: بم تعلقت اللام في ﴿ليطمئن﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره ولكن سألتك إرادة طمأنينة القلب. ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قيل: طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة. ﴿فصرهن إليك﴾ بضم الصاد وكسرها، بمعنى فاملهن واضممنهن إليك. قال:

ولكن أطراف الرماح تصورها

وقال:

وفرع يصير الجيد وحف كائنه على الليت فنوان الكرم الدوالح وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه نحو ضره ويضره ويضره، وعنه: فصرهن من التصرية وهي: الجمع أيضاً، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً يريد، ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال، والمعنى على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك. قيل: كانت أربعة أجبل، وعن السدي: سبعة. ثم ادعهن. وقيل لهن: تعالين بإذن الله، ﴿ياتينك سعياء﴾ ساعيات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن على أرجلهن (١).

فإن قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت: ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك، ولذلك قال: ﴿ياتينك سعياء﴾ وروي أنه أمر بأن يذبها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحمها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل ربعا من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن كل جثة إلى رأسها، وقرىء: جزأ بضميتين، وجزأ بالتشديد،

بالشيء، والجهل به مثلاً، وهذا على الحقيقة جهل، حتى لحقيقة الجهل، والزمخشري في قواعد العقائد، يفق آثار هذا لقائل أية سلك فعله، من ثم طرق إلى العلم النظري الشك، حسب تطرقه إلى الاعتقاد، الذي يكون مرة جهلاً ومرة مطاباً، والله الموفق.

قال أحمد: يريد: ولم يقل طيراناً؛ لأنه إذا كانت ساعية، كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة، والله أعلم.

(2) سورة يوسف، الآية: 43.

(3) سورة البقرة، الآية: 228.

(4) قال أحمد: ثم في أصل وضعها، تشعر بتاريخ المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان، وبعد ما بينهم، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب، والتباعد بينهم، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان، لسياق يابى ذلك كهذه الآية. وحاصله =

= أنها استعيرت من تباعد الأزمنة، لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه، دوام وجود الفعل، وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ أي: داموا على الاستقامة دواماً متراخياً، ممداً الأمد، وتلك الاستقامة هي المعبّرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد، إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: ﴿ثم لا يتبعون ما انفقوا ممناً ولا أذى﴾ أي: يدومون على تناسي الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإداية، وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم، وقريب من هذا، أو مثله أن السين =

فَأَنْ قُلْتُ: كَيْفَ قَالَ: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، بعد قوله: ﴿كَالَّذِي يَنْفِقُ﴾؟ قُلْتُ: أَرَادَ بِالَّذِي يَنْفِقُ الْجِنْسَ، أَوِ الْفَرِيقَ الَّذِي يَنْفِقُ؛ وَلَنْ مَنْ وَالَّذِي يَتَعَايَنُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: كَمَنْ يَنْفِقُ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِيَةً مَرْضَاتٍ اللَّهِ وَتَبَيَّنَ مِنْ أَشْيِهِمْ كَمَثَلِ جَمْعٍ يَرْبُؤُهُ أَسَابِهَا وَأَيْلٌ قَاتَتْ أَكْثَلَهَا ضَمْعَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُبَيَّنَّا وَأَيْلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَمَكُّنُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٥﴾.

﴿وتتبيَّن من أنفسهم﴾ وليتَّبوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح وببذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأنَّ النفس إذا رِيضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها نلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تنبيهاً لها على الإيمان واليقين، ويجوز أن يراد وتصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنَّه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله علم أنَّ تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، ومن على التفسير الأول للتبعض مثلها في قولهم: هز من عطفه وحرك من نشاطه. وعلى الثاني لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾ ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنَّها صائفة الإيمان مخلصه فيه. وتعضده قراءة مجاهد: وتبيَّن من أنفسهم. فَإِنْ قُلْتُ: فما معنى التبعض؟ قُلْتُ: أنَّ من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها. وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم⁽⁴⁾ والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله. كمثَّل الجنة. وهي البستان «بربوة» بمكان مرتفع، وخصَّها لأنَّ الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً، «أصابها وأيل» مطر عظيم القطر «فأتت أكلها» ثمرتها «ضعفين» مثلي ما كانت تثمر بسبب الوايل، «فإن لم يصبها وأيل فطل» فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوايل والطل، وكما أنَّ كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده. وقرئ: كمثَّل حبة وبربوة بالحركات الثلاث، واكلها بضمعتين.

أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ

منع نائله وضرب، وفيها طعم الآلاء أحلى من المن، وهي أمر من الآلاء مع المن.

والأذى: أن يتناول عليه بسبب ما أزال إليه، ومعنى ﴿ثم﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وإن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من النحول فيه بقوله، ﴿ثم استقاموا﴾.

فإن قلت: أي فرق بين قوله ﴿لهم أجرهم﴾ وقوله فيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾⁽¹⁾؟ قلت: الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمته ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أنَّ الفاء فيها ذلك على أنَّ الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَّبْتَغِيهَا ذِيُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٦٦).

﴿قول معروف﴾ رد جميل «ومغفرة» وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يشغل على المسؤول، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو وعفو من جهة السائل؛ لأنَّه إذا ردَّه ردّاً جميلاً عذره. «خير من صدقة يتبعها أذى» وصح الإخبار عن المبدأ النكرة لاختصاصه بالصفة، «والله غني» لا حاجة به إلى منق يمين ويؤذي. «حليم» عن معالجته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له، ثم بالغ في ذلك بما أتبعه.

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً أَلَسَ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ رَأْبٌ فَأَصَابَهُ وَأَيْلٌ فَتَرَكَهُ سَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَعْنَى وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾.

﴿كالذي ينفق ماله﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كإبطال المنافق الذي ينفق ماله «رشاء للناس» لا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. «فمثله كمثَّل صفوان» مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان: بحجر أملس عليه تراب، وقرأ سعيد بن المسيب: صَفْوَانٌ بوزن كروان «فأصابه وأيل» مطر عظيم القطر، «فتركه سلدًا» أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، ومنه صلد جبين الأصل إذا برق. ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا﴾ كقوله: «فجعلناه هباءً منثوراً»⁽²⁾، ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال، أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق.

= الوجه، فهو أوجه مما حمل الزمخشري عليه آية البقرة، وهذه الآية أبقى على الحقيقة، وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة، والله الموفق.

(1) سورة البقرة، الآية: 274.

(2) سورة الفرقان، الآية: 23.

(3) سورة البقرة، الآية: 109.

(4) سورة الصف، الآية: 11.

= يصحب الفعل، لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام، إني ذاهب إلى ربي سيهدين، وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية، الذي خلقتني، فهو يهدين، فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له، من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس نوايا الهداية الحاصلة له، وتراخي بقائهما، وتمادي أمدها، ولعلَّ الزمخشري أشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام، فتأمل هذا =

فَإِنْ قُلْتَ: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على ما كسبتم، حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قُلْتَ: معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلا أنه حنف لنكر الطيبات. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ﴾ ولا تقصدوا المال الرديء ﴿هِنَّ تَتَفَقُونَ﴾ تخصصونه بالإففاق، وهو: في محل الحال. وقرأ عبد الله: ولا تأموا، وقرأ ابن عباس: ولا تيمموا بضم التاء، ويَمِّمُه وتيممه وتأيمه سواء في معنى قصده. ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْنِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ﴾ إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غُضَّ بصره، ويقال للبايع: أغمض، أي: لا تستقص كائنك لا تبصر. وقال الطرماح:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيء م رجال يرضون بالإغماض
وقرأ الزهري: تغمضوا وأغمض وأغمض بمعنى: وعنه تغمضوا بضم الميم وكسرهما من غمض يغمض ويغوض، وقرأ قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى: إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه، وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين، وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموه في السوق يباع ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ مَغْفِرَةً
وَنِعْمَ وَفَّاءُ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

أي: يعيدكم في الإففاق ﴿الفقر﴾ ويقول لكم إن عاقبة إنفاقكم أن تففقوا. وقرئ: الفقْر بالضم، والفقْر بفتحتين، والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾^(١) ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الأمر للمأمر، والفاحش عند العرب البخل. ﴿والله يعيدكم﴾ في الإففاق ﴿مغفرة﴾ لذنوبكم وكفارة لها، ﴿وفضلاً﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو وثاباً عليه في الآخرة.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣٨﴾

﴿يؤتي الحكمة﴾ يوفق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله هو العالم العامل. وقرئ: ومن يؤت الحكمة بمعنى: ومن يؤته الله الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش: و﴿خيراً كثيراً﴾ تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي، أي: خير كثير. ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ يريد الحكماء العلام العمال،

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ لَوْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ يُدْرِئْهُ
شُعْلَةً فَأَصَابَهَا إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

الهمزة في ﴿أَبُوذُ﴾ للإنكار. وقرئ: له جنات، وثرية ضعاف، والإغصار الريح التي تستدير في الأرض ثم تسطع نحو السماء كالعمود، وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار، فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم ومنعتشهم، فهلكت بالصاعقة. وعن عمر رضي الله عنه: أنه سأل عنها الصحابة، فقالوا: الله أعلم، فغضب. وقال: قولوا نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك، قال: ضربت مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها^(١). وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثل قل واللَّهُ من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أقفر ما كان إلى جنته، وإن أحبك والله أقفر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف قال: جنة من نخيل وأعناب، ثم قال: له فيها من كل الثمرات؟ قُلْتَ^(٢): النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغلياً لهما على غيرهما، ثم أرفقهما ذكر كل الثمرات، ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها، كقوله: ﴿وكان له ثمر﴾^(٣) بعد قوله: ﴿جناتين من أعناب وحفناهما بنخل﴾^(٤).

فَإِنْ قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وأصابه الكبر﴾؟ قُلْتَ: الواو للحال لا للعطف، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر، وقيل: يقال ودت أن يكون كذا وودت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحكم لو كانت له جنة، وأصابه الكبر.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسُهُمْ مِنْ طَائِفَتِ مَا كَسَبُوا وَمِمَّا أَرْجَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ وَتَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا أَنْ
تَتَّقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

﴿من طيبات ما كسبتم﴾ من جياذ مكسوباتكم، ﴿وما أخرجنا لكم﴾ من الحب والثمر والمعادن وغيرها.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قوله ﴿أيود﴾ أحكم أن تكون له جنة. الحديث رقم: (4538).

(3) سورة الكهف، الآية: 34.

(4) سورة الكهف، الآية: 32.

(5) سورة الحج، الآية: 72.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تشبيه نكر ما يقع الاهتمام به مرتين، عمراً، وخصوصاً، ومثله: فيهما فاكهة ونخل ورمان، إلا أنه في تلك الآية بدا بالتعميم، وفي هذه الآية بدا بالتخصيص، =

والمراد به: الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٣٧).

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، ﴿أو نذرتم من نذر﴾ في طاعة الله، أو في معصيته. ﴿فإن الله يعلمه﴾ لا يخفى عليه وهو مجازيك عليه، ﴿وما للظالمين﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يفون بالنذور، أو يندرون في المعاصي. ﴿من أنصار﴾ ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا بِهِ وَلَنْ تُعَذِّبُوا وَتُؤْتُوا الْمُسْكَرَةَ
بِهِمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَكَفِّرَ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
خَيْرٌ (٣٨).

ما في نعماً نكرة غير موصولة، ولا موصوفة ومعنى ﴿فنعما هي﴾ فنعماً شيئاً إبدائها، وقرئ: بكسر النون وفتحها. ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء، ﴿فهو خير لكم﴾ فالإخفاء خير لكم، والمراد الصدقات المتطوع بها؛ فإن الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقات السر في التطوع تفضل علانياتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانياتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً^(١)، وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل لنفي التهمة حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل. ﴿ونكفر﴾ قرئ: بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نكفر، أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده؛ لأنه جواب الشرط، وقرئ: ويكفر، بالياء مرفوعاً، والفعل لله، أو للإخفاء، وتكفر بالياء مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات. وقرأ الحسن رضي الله عنه: بالياء والنصب بإضمار أن، ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم وإن يكفر عنكم.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ هُمْ عَنْ ثِيَابِهِمْ أَجْرٌ وَاللَّهُ وَجُّهُ اللَّهِ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٣٩).

﴿ليس عليك هداهم﴾^(٢) لا يجب عليك أن تجعلهم

مهيئين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والاذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب، ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ يطف بمن يعلم أن اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه. ﴿وما تنفقوا من خير﴾ من مال ﴿فلا أنفسكم﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنوا به على الناس، ولا تؤنؤهم بالتطاول عليهم. ﴿وما تنفقون﴾ وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله. ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وإن يكون على أحسن الوجوه وأجملها. وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فأتتها أمها تسألها وهي مشركة فابت أن تعطيها، فنزلت، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين، وروي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع، وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم، وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك، واختلف في الواجب، فجوز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل النعمة، وأباه غيره.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَغْنُونَ
مَنْزِلًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْفَقْرِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَتَلَوَّنَا الْأَنْفُسُ إِلَّا كَافًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٤٠).

الجار متعلق بمحذوف، والمعنى: أعمدوا الفقراء، أو اجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: صدقاتكم للفقراء ﴿والذين أحصروا في سبيل الله﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد، ﴿لا يستطيعون﴾ لاشتغالهم به ﴿ضرباً في الأرض﴾ للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد وهي سقيفة يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي من أمتي على النعمة الذي أنتم

= تعالى إضافة الهدى إليه، كما في هذه الآية، فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل، للعبد على أن يخلق هداً، إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزعة من تواب معتقدهم السيئ، في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

(١) أخرجه الخطيب عن ابن عباس، نكره الهندي في كذب العمال 6/ 467 الحديث رقم: (16577).

(٢) قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح، أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداً، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري، أن الهدى ليس خلق الله، وإنما العبد يخلق لنفسه، وإن أطلق الله =

أَشْكَلُنْ مِنْ أَمْسٍ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا أَبْصَحَ بِمِثْلِ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ
أَبْصَحَ وَحَرَّمَ الرِّبَا مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِ اللَّهَ مَا سَلَتْ
وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾

﴿الربوا﴾ كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت
الصلاة والزكاة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع.
﴿لا يقومون﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إلا كما يقوم الذي
يتخبطه الشيطان﴾ (3) أي: المصروع، وتخبط الشيطان من
زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخطب الإنسان فصرع.

والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد
على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس
وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنى يمسسه فيختلط عقله،
وكذلك جن الرجل معناه: ضربته الجن، ورايتهم لهم في
الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار
المشاهدات.

فَأَنْ قُلْتُ: بم يتعلق قوله: ﴿من المس﴾؟ قلت: بـ ﴿لا
يقومون﴾ أي: لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم
المصروع، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يقوم﴾. أي: كما يقوم
المصروع من جنونه، والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة
مخيلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل
الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا
أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم
أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدر
على الإفاض. ﴿ذلك﴾ العقاب بسبب قولهم: ﴿إنما البيع
مثل الربوا﴾.

فَأَنْ قُلْتُ: (4) هلا قيل: إنما الربا مثل البيع؛ لأن الكلام

عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقاتي في الجنة (1).
﴿يحسبهم الجاهل﴾ بحالهم ﴿أغنياء من التعفف﴾
مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ﴿تعرفهم
بسيماهم﴾ من صفرة الوجه وروثاة الحال.

والإلحاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء
يعطاه من قولهم: لحفتي من فضل لحافه، أي: أعطاني من
فضل ما عنده. وعن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْحَيَّ
الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيَّ السَّالِيَ الْمَلْحَفَ» (2). ومعناه:
أنهم إن سألوا سألوا يتلطف ولم يلحوا. وقيل: هو نفي
للسؤال والإلحاف جميعاً. كقوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره
يريد نفي المنار والاهتداء به.

أَلَيْسَ يُنْفِرُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْحِلِّ وَالْكَفَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾

﴿بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾ يعمون الأوقات
والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم
حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يتعللوا
بوقت ولا حال، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله
عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة
بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. وعن ابن
عباس رضي الله عنهما: نزلت في علي رضي الله عنه لم
يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً،
وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية، وقيل: نزلت في علف الخيل
وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه:
كان إذا مرّ بفارس سمين قرأ هذه الآية.

أَلَيْسَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتُومُونَ إِلَّا كَمَا يَتُومُ الَّذِينَ يَخْبِطُ

على خافية من خوفه، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره،
واعتماد السلف، وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة، كما
أخبر الشرع عنها، وإنما القدرية خصماء العلانية، فلا جرم أنهم
ينكرون كثيراً، مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم من ذلك السحر،
وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن، وإن اعترفوا بشيء من
ذلك، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة، وينبئ عنه
ظاهر الشرع في خبط طويل لهم، فأحذرهم قاتلهم الله، أنى
يؤفكون.

(4) قال أحمد: وعندي وجه في الجواب عن السؤال، الذي أورده غير
ما نكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحليين في
ثبوت الحكم، فللقائل أن يسوي بينهما طرده، فيقول مثلاً: الربا
مثل البيع، وغرض من ذلك أن يقول: والبيع حلال، فالربا حلال،
وله أن يسوي بينهما في العكس، فيقول: البيع مثل الربا، فلو كان
الربا حراماً كان البيع حراماً، ضرورة المماثلة، ونتيجته التي دلت
قوة الكلام عليها، أن يقول ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام،
وجب أن يكون الربا مثله، والأول على طريقة قياس الطرد، والثاني
على طريقة قياس العكس، ومالكهما إلى مقصد واحد، فلا حاجة
على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر، لعذر المبالغة أو غيره،
وليس الغرض من هذا كله، إلا بيان هذا الذي تخيلوه، على أنموذج =

(1) كشف الاستار، كتاب: البر والصلة، باب: الضيافة الحديث رقم: (2031).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والاتب، باب: استحباب العفو والتواضع الحديث رقم: (6535).

(3) قال أحمد: قوله وتخبط الشيطان من زعمات العرب، أي: كذباتهم
وزخارفهم، التي لا حقيقة لها كما يقال في الغول والعنقاء، ونحو
ذلك، وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية في
زعماتهم المربودة، بقواطع الشرع، فقد ورد ما من مولود يولد، إلا
يمسه الشيطان، فيستهول صارخاً، وفي بعض الطرق إلا طعن
الشيطان في خاصرته، ومن ذلك يستهل صارخاً، إلا مريم وابنها،
لقول أمها: إني أعيدنها بك ونزيتها من الشيطان الرجيم، وقوله
عليه السلام: «انقلطوا صبيانكم أول العشاء، فإنه وقت انتشار
الشياطين». وفي حديث مكحول أنه مرّ برجل نائم بعد العصر،
فركضه برجله، وقال: لقد دفع عنك الشياطين، أو لقد عوفيت، إنها
ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون، وفيها يكون الخبثة، قال شمر:
كان في لسان مكحول لكنة، وإنما أراد الخبثة من الشيطان، أي:
إصابة مس أو جنون، وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته
الشياطين، وروته في زمته عليه الصلاة والسلام، أنه حدث عن
شانه معهم قال: «فجاني طائر كأنه جمل، فتعزني، فاحتلني =

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. وقرأ الحسن رضي الله عنه: ما بقي، بقلب الياء ألفاً على لغة طيء، وعنه: ما بقي، بياء ساكنة، ومنه قول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكموا ماضي العزيمة ما في حكمه جنف
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنْ صَحَّ إِيمَانُكُمْ يَعْنِي: أَنَّ دَلِيلَ
صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك.

وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا فَاذْكُرُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَكُنتُمْ
رُءُوسًا أَمْرًا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

﴿فَانْظُرُوا﴾ فاعلموا بها، من أنن بالشئ إذا علم به، وقرئ: فأنظروا، فاعلموا بها غيركم، وهو من الآن وهو الاستماع؛ لأنه من طرق العلم. وقرأ الحسن: فأيقنوا، وهو ليل لقراءة العامة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هَلَا قِيلَ: بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟ قُلْتُمْ: كَانَ هَذَا
أَبْلَغُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى فَاذْكُرُوا بِنُوعٍ مِنَ الْحَرْبِ عَظِيمٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ. وَرَوَى: أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قَالَتْ ثَقِيفٌ: لَا يَدَى لَنَا
بِحَرْبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. ﴿وَأَنْ تَبْتَغُوا﴾ مِنَ الْارْتِبَاءِ ﴿فَلَكُمْ
رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ الْمَدِينُونِ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ
عَلَيْهَا، ﴿وَلَا تَظْلِمُونَ﴾ بِالنَّقْصَانِ مِنْهَا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هَذَا حُكْمُهُمْ إِنْ تَابُوا، فَمَا حُكْمُهُمْ لَوْ لَمْ
يَتُوبُوا؟ قُلْتُمْ: قَالُوا: يَكُونُ مَالُهُمْ فَيَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَوَى
الْمُفَضَّلُ عَنْ عَاصِمٍ: لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تَظْلِمُونَ.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَهُ إِنْ مَسَّرَهُ وَأَنْ تَصَدَّقُوا حَتَّى
لَا تَكُونَ مِنْكُمْ كُنُوزٌ تَمْكُوتُ ﴿٧٨﴾

﴿وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وَإِنْ وَقَعَ غَرِيمٌ مِنْ غَرِمَاتِكُمْ ذُو
عُسْرَةٍ أَيْ: ذُو إِعْسَارٍ، وَقَرَأَ عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَا
عُسْرَةٍ، عَلَى: وَإِنْ كَانَ الْغَرِيمُ ذَا عُسْرَةٍ، وَقَرَأَ: وَمَنْ كَانَ ذَا
عُسْرَةٍ، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أَيْ: فَالْحُكْمُ، أَوْ فَالْأَمْرُ نَظَرَةٌ، وَهِيَ

فِي الرِّبَا لَا فِي الْبَيْعِ فَجَبَّ أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُمْ شَبَّهُوا الرِّبَا
بِالْبَيْعِ، فَاسْتَحْلَوْهُ، وَكَانَتْ شَبَهَتْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ اشْتَرَى
الرَّجُلُ مَا لَا يَسَاوِي إِلَّا دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ جَانٍ، فَكُنْكَ
إِذَا بَاعَ دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ. قُلْتُمْ: جِيءَ بِهِ عَلَى طَرِيقِ
الْمُبَالَغَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنْ اعْتِقَادِهِمْ فِي حُلِّ الرِّبَا
أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ أَصْلًا وَقَانُونًا فِي الْحُلِّ حَتَّى شَبَّهُوا بِهِ
الْبَيْعَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَاعَ دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ﴾ إِنْكَارًا
لِتَسْوِيَتِهِمْ بَيْنَهُمَا وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْقِيَاسَ يَهْدِمُهُ النَّصُّ؛
لأنَّه جَعَلَ الدَّلِيلَ عَلَى بَطْلَانِ قِيَاسِهِمْ إِحْلَالَ اللَّهِ
وَتَحْرِيمَهُ. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ فَمَنْ بَلَغَهُ وَعْظٌ مِنْ اللَّهِ
وَزَجَرَ بِالنَّهْيِ عَنِ الرِّبَا ﴿فَانْتَهَى﴾ فَتَبَعَ النَّهْيَ، وَامْتَنَعَ
﴿قُلْ مَا سَلَفَ﴾ فَلَا يَأْخُذُ بِمَا مَضَى مِنْهُ لِأَنَّهُ أَخَذَ
قَبْلَ نَزُولِ التَّحْرِيمِ، ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يَحْكُمُ فِي شَأْنِهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرِهِ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ، فَلَا تَطْلُبُوهُ
بِهِ. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَى الرِّبَا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) وَهَذَا دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى تَخْلِيدِ الْفَسَاقِ
وَذَكَرَ فَعَلَ الْمَوْعِظَةَ؛ لِأَنَّ تَأْنِيثَهَا غَيْرَ حَقِيقِيٍّ؛ وَلأنَّهَا فِي
مَعْنَى الرُّعُظِ. وَقَرَأَ أَبِي، وَالْحَسَنُ: فَمَنْ جَاءَتْهُ.

يَسْمَعُ اللَّهُ أَلْوِيَا وَيَرْبِي أَلْمَدَنَتِي وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَنِيمٍ
﴿٧٧﴾ إِنَّ أَلْوِيَا مَأْمُورًا وَكَلِمَاتُ الْفَكْلِيَّةِ وَأَقَامُوا الْكَلِمَةَ وَأَتَوُوا
أَلْرَكُونَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٧٧﴾

﴿يُحَقِّقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يَذْهَبُ بِبَرَكَتِهِ، وَيَهْلِكُ الْمَالُ الَّذِي
يَدْخُلُ فِيهِ، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ
إِلَى قُلٍّ. ﴿وَيَرْبِي الصَّدَقَاتُ﴾ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ، بَانَ يَضَاعَفُ
عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَيَزِيدُ الْمَالُ الَّذِي أَخْرَجْتَ مِنْهُ الصَّدَقَةَ وَيُبَارِكُ
فِيهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا نَقَصَتْ زَكَاةٌ مِنْ مَالٍ قَطٍ». ﴿كُلُّ
كَفَّارٍ أَنِيمٍ﴾ تَغْلِيظٌ فِي أَمْرِ الرِّبَا وَإِيْذَانٌ بِأَنَّهُ مِنْ فَعْلِ الْكُفَّارِ
لَا مِنْ فَعْلِ الْمُسْلِمِينَ.

يَكَايُهَا أَلْوِيَا مَأْمُورًا أَنْتَعُوا اللَّهَ وَدَرُوا مَا بَيْنَ مِنَ أَلْوِيَا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

نَكَرَهُ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِي سَلَفَ نَكَرَهُ فَعَلَ
الرِّبَا، وَاعْتِقَادُ جَوَازِهِ، وَالْإِجْتِهَادُ عَلَيْهِ بِقِيَاسِهِ عَلَى الْبَيْعِ، وَلَا شَكَّ
عِنْدَنَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَنَّ مِنْ تَعَاطِي مَعَامَلَةِ الرِّبَا، مُسْتَحْلًا لَهَا
مُكَابَرًا فِي تَحْرِيمِهَا مُسْتَدًّا لِإِحْلَالِهَا إِلَى مَعَارِضَةِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، بِمَا
يَتَوَهَّمُ مِنَ الْخِيَالَاتِ، فَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَزْدَادِ كَفَرًا، وَإِنْ ذَاكَ يَكُونُ الْمَوْعُودُ
بِالْخُلُودِ فِي الْآيَةِ مِنْ يَقُولُ إِنَّهُ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، وَهَذَا لَا خِلَافَ
فِيهِ، فَلَا دَلِيلَ لِلزَّمْخَشَرِيِّ إِذَا عَلَى اعْتِرَاضِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ،
وَإِنَّمَا هُوَ مُوَكَّلٌ بِتَحْمِيلِ الْآيَاتِ مِنَ الْمَعْتَقِدَاتِ الْبَاطِلَةِ، مَا لَا تَحْتَمِلُهُ،
وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا
مَنْ خَلَقَهُ تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

النَّظْمُ الصَّحِيحُ، وَإِنْ كَانَ قِيَاسًا فَاسِدَ الْوَضْعِ، لاسْتِعْمَالِهِ عَلَى
مِنَاقِضَةِ الْمَعْلُومِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ أَيْضًا فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا، وَتَحْلِيلِ الْبَيْعِ،
وَقَطْعِ الْقِيَاسِ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنْ إِذَا اسْتَعْمَلْتَ الطَّرِيقَتَيْنِ الْمَنْكُورَتَيْنِ
اسْتِعْمَالًا صَحِيحًا، فَقُلْ فِي الْأُولَى: التَّنْبِيذُ: مِثْلُ الْخَمْرِ فِي عِلَّةِ
التَّحْرِيمِ، وَهُوَ الْإِسْكَارُ، وَالْخَمْرُ حَرَامٌ، فَالْتَّنْبِيذُ حَرَامٌ. وَقُلْ فِي
الثَّانِيَةِ: إِنَّمَا الْخَمْرُ مِثْلُ التَّنْبِيذِ، فَلَوْ كَانَ التَّنْبِيذُ حَلَالًا، لَكَانَ الْخَمْرُ
حَلَالًا، وَلَيْسَتْ حَلَالًا اتِّفَاقًا، فَالْتَّنْبِيذُ كَذَلِكَ ضَرُورَةُ الْمِمَّاثَلَةِ
الْمَذْكُورَةِ، فَهَذَا التَّوْجِيهُ أَوَّلَى أَنْ تَحْمِلَ الْآيَةَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) قَالَ أَحْمَدُ: هُوَ يَبْنِي عَلَى أَنَّ الْمَوْعُودَ عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ الْعُودُ إِلَى فَعْلِ الرِّبَا
خَاصَّةً، وَلَا يَسَاعِدُهُ عَلَى ذَلِكَ الظَّاهِرُ الَّذِي اسْتَدَلَّ بِهِ، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ
الْعُودُ إِلَيْهِ مَسْكُوتٌ عَنْهُ فِي الْآيَةِ، لَا تَرَاهُ قَالَ وَمَنْ عَادَ، فَلَمْ يَذْكَرْ
الْعُودَ إِلَيْهِ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، كَأَنَّهُ قَالَ وَمَنْ عَادَ إِلَى مَا سَلَفَ

تَكُونُ نَجْدَةً حَاصِرَةً تُدْرِكُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُمُوا وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ وَلَا يُعَاذُ كَايِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَعَلَّمُوا لَكُمْ سُوءُ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٨٦).

﴿إِذَا تَدَانَيْتُمْ﴾ إذا دأب بعضكم بعضاً، ويقال: دأبت الرجل عاملته. ﴿بَيْنَ﴾ معطياً، أو أخذاً، كما تقول: بايعته إذا بيعته، أو باعك. قال رؤية:

دأبت أروى والدين تقضى فمطلت بعضاً وأنت بعضاً والمعنى: إذا تعاملتم بين مؤجل فالتكثير.

فَإِنْ قُلْتُمْ: (4) هلا قيل إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأي حاجة إلى نكر الدين، كما قال: دأبت أروى، ولم يقل بين؟ قلت: نكر ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿فالتكثير﴾ إذ لو لم ينكر لوجب أن يقال: فالتكثير الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن؛ ولأنه أبين لتنوع الدين إلى مؤجل وحال.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾؟ قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً، كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الديار، أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية، وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق وأمن من النسيان وأبعد من الجحود والأمر للندب. وعن ابن عباس: أن المراد به السلم، وقال: لما حرم الله الربا أباح السلف، وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية (5)، ﴿بالعدل﴾ متعلق بكتاب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالسوية والاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتدائنين بتخير الكاتب، وإن لا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً. ﴿ولا باب كاتب﴾ ولا يتمتع أحد من الكتاب، وهو معنى تنكير كاتب ﴿إن يكتب كما علمه الله﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير، وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ (6) أي: ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله بتعليمها، وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله يجوز أن يتعلق بأن يكتب ويقول: ﴿فليكتب﴾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أي فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المفيدة، ثم قيل له: فليكتب، يعني: فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها، للتوكيد،

الإنظار. وقرئ: فنظرة بسكون الظاء، وقرأ عطاء: فناظره، بمعنى: فصاحب الحق ناظره، أي: منتظره، أو صاحب نظره على طريقة النسب، كقولهم: مكان عاشب وياقل، أي: ذو عشب، ونو بقل، وعنه فناظره على الأمر بمعنى، فسامحه بالنظرة، وياسره بها. ﴿إلى ميسرة﴾ إلى يسار، وقرئ: بضم السين، كمقبرة ومقبرة، ومشرقة ومشرقة، وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة، كقوله:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

قوله تعالى: ﴿واقام الصلوة﴾ (1) ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ ندب إلى أن يتصدقوا برؤوس أموالهم على من أفسر من غماتهم، أو ببعضها، كقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتعفوى﴾ (2) وقيل: أريد بالتصدق الإنظار؛ لقوله ﷺ: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة» (3) ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أنه خير لكم فتعلموا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه. وقرئ: تصدقوا، بتخفيف الصاد على حذف التاء.

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨٧).

﴿ترجعون﴾ قرئ: على البناء للفاعل والمفعول، وقرئ: يرجعون، بالياء على طريقة الالتفات، وقرأ عبد الله: تردون، وقرأ أبي: تصيرون. وعن ابن عباس أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: وضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة. وعاش رسول الله ﷺ بعدها لحداً وعشرين يوماً، وقيل: لحداً وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بَيْنَ اللَّهِ أَجَلٌ مُسَمًّى فَاصْتَبِرُوا وَلَا تَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَمَرَّ اللَّهُ رِبًّا وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَالًّا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ فَلْيَمْلَأْ وَلْيُلْزِمِ الْإِدْلَ وَأَشْهَدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ بَيْنِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَحْسَبُوا أَنْ تَكْتُمُوا صُورًا أَوْ كِبِيرًا إِنَّ اللَّهَ أَجْلِيهِ دَلِكُمْ أَفْطَسُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِشَهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

(2) سورة البقرة، الآية: 237.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الصدقات، باب: إنظار المعسر الحديث رقم: (2418)، وأحمد في المسند 360/5، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فصل في إنظار المعسر والرفق بالمعسر الحديث رقم: (11261).

(4) قال أحمد: الأجل المسمى، والمعلوم انتهائه، ولعلم الانتهاء طرق، منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر، ومنها التحديد بما =

= يعتاد وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف، كالحصاد ومقدم الحاج، وكيفما علم الأجل صح ضربه، فمن ثم أجاز ملك البيع إلى الحصاد؛ لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها، حتى لو حل زمن قدوم الحاج، فمنعه مانع من القدوم مثلاً لم يكن به عبرة، وحكمنا بحلول أجل الدين، والله أعلم.

(5) الحاكم في المستدرک 2/286.

(6) سورة القصص، الآية: 77.

ومنه الحديث: «لا يقول المؤمن كسلاً»⁽¹⁾، ويجوز أن يراد من كثرت مدانياته فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب. والضمير في «تكتبوه» للدين أو الحق. «صغيراً أو كبيراً» على أي حال كان الحق من صغر أو كبر، ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً ولا يُخلو بكتابته «إلى لجله» إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته، «نلكم» إشارة إلى أن تكتبوه؛ لأنه في معنى: المصدر. أي: نلكم الكتب «أقسط» أعدل من القسط، «واقوم» للشهادة، وأعون على إقامة الشهادة، «وانني ألا ترتابوا» وأقرب من انتفاء الريب.

فإن قلت: مم بنى أقفلا التفضيل، أعني: أقسط وأقوم؟ قلت: يجوز على مذهب سيويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام، وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب، بمعنى: ذي قسط، وأقوم من قويم. وقرئ: ولا يساموا أن يكتبوه بالياء فيهما.

فإن قلت: ما معنى «تجارة حاضرة» وسواء كانت المبيعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة، وما معنى: إدارتها بينهم؟ قلت: أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيهم إياها يدأ بيد، والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يدأ بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، وقرئ: حاضرة بالرفع على كان التامة، وقيل: هي الناقصة على أن الاسم تجارة حاضرة، والخبر تديرونها، وبالنصب على إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب:

بني أسد هل تعلمون بلأنا إذا كان يوماً ذا كوكب أشنعا أي: إذا كان اليوم يوماً. «واشهدوا إذا تبايعتم» أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كالتأ؛ لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف، ويجوز أن يراد، وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كافٍ فيه دون الكتابة، وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد. وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل. «ولا يضار» يحتمل البناء للفاعل والمفعول والليل عليه قراءة عمر رضي الله عنه: ولا يضارُ بالإظهار والكسر، وقراءة ابن عباس رضي الله عنه: ولا يضارُ بالإظهار والفتح. والمعنى: نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرر بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزم، أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد، وقرأ الحسن: ولا يضار بالكسر، «وإن تفعلوا» وإن تضاروا «فإنه» فإن الضرر «فسوق بكم». وقيل: وإن تفعلوا شيئاً ما نهيتم عنه.

وإن علقتة بقوله: فليكتب، فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة. «وليملل الذي عليه الحق» ولا يكن الممللي إلا من وجب عليه الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في نتمه وإقراره به، والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن، فهي تمل عليه. «ولا يبخص منه» من الحق «شيئاً»، والبخص النقص، وقرئ: شيئاً بطرح الهمزة وشيئاً بالتشديد. «سفيهاً» محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف. «أو ضعيفاً» صيباً أو شيئاً مختلاً. «أو لا يستطيع أن يمل هو» أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعي به أو خرس، «فليملل وليه» الذي يلي أمره من وصي إن كان سفيهاً أو صيباً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه، وقوله تعالى: «أن يمل هو» فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه. «واستشهدوا شهيدين» واطلبوا أن يشهد لكم شهيدين على التين «من رجالكم» من رجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن علي رضي الله عنه: لا تجوز شهادة العبد في شيء، وعند شريح، وابن سيرين، وعثمان البتي: أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل. «فإن لم يكونا» فإن لم يكن الشهيدين «رجلين فرجل وامرأتان» فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص «ممن ترضون» ممن تعرفون عدالتهم. «أن تضل إحداهما» أن تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنسأها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنه مفعول له، أي: إرادة أن تضل.

فإن قلت: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ قلت: لما كان الضلال سبباً للإنكار، والإنكار مسبباً عنه وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإنكار إرادة للإنكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، ونظيره قولهم: أعدت الخشبة، أن يميل الحائط فأدعمه، وأعدت السلاح، أن يجيء عدو فأنفعه. وقرئ: «فتذكر» بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان فتذكر، وقرأ حمزة: أن تضل إحداهما على الشرط، فتذكر بالرفع والتشديد، كقوله: «ومن عاد فينتقم الله منه». وقرئ: أن تضل إحداهما على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع التفاسير فتذكر فتجعل إحداهما الأخرى تذكراً يعني: أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر. «إذا ما دعوا» ليقموا الشهادة، وقيل: ليستشهدوا، وقيل لهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن، وعن قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء العظيم فيه القوم، فلا يتبعه منهم أحد فنزلت. كنى بالسام عن الكسل؛ لأن الكسل صفة المنافق،

وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية، وأما⁽³⁾ القبض فلا بد من اعتباره. وعند مالك: يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بنون القبض. **﴿فإن أمن بعضهم بعضاً﴾** فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظنه به، وقرأ أبي: فإن أومن، أي: أمنه الناس ووصفوا المدينين بالأمانة والوفاء، والاستغناء عن الارتهان من مثله، **﴿فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾** حث المدينون على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه وإثمنانه، وإن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه، فلم يرتهن منه، وسمى الدين أمانة، وهو مضمون لإثمنانه عليه بترك الارتهان منه، والقراءة أن تنطق بهزمة ساكنة بعد الدال أو ياء، فتقول: الذي أؤتمن، أو الذي تؤمن وعن عاصم أنه قرأ: الذي أؤتمن بإدغام الياء في التاء قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس بصحيح؛ لأن الياء منقلبة عن الهمزة فهي في حكم الهمزة واتزر عامي، وكذلك رياء في رؤيا **﴿أثم﴾** خبر إن و **﴿قلبه﴾** رفع بأثم على الفاعلية؛ كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء،

﴿وَلَنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سِرٍّ وَلَمْ تَحْذَرُوا كَاتِبًا فَهِنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَنِ بِعَمَلِكُمْ مِّمَّا قَالُوا الَّذِي أَؤْتَيْنَا أَمْنَتُهُ وَلَيْتَنِي اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

﴿على سفر﴾ مسافرين. وقرأ ابن عباس وأبي رضي الله عنهما: كتاباً، وقال ابن عباس: أرايت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة. وقرأ أبو العالية: كتاباً. وقرأ الحسن: كتاباً جمع كاتب. **﴿فرهن﴾** فالذي يستوثق به رهن. وقرئ: فرهن بضم الهاء وسكونها، وهو: جمع رهن كسقف وسقف وفرهان.

﴿فإن قلت﴾⁽¹⁾: لم شرط السفر في الارتهان، ولا يختص به سفر بنو حضر، وقد رهن رسول الله ﷺ درعه في غير سفر⁽²⁾؛ قلت: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد.

= الرهن وجوازه في الحضر والسفر الحديث رقم: (4090)، وحديث أنس أخرجه البخاري في الحديث رقم: (2069).

(3) قال أحمد رحمه الله: ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب، والقبول بنون القبض، ولكنه عند مالك رضي الله عنه يصح بذلك، ويلزم الرهان بالعقد تسليمه للمرتهن، وعند الشافعي لا يلزم بالعقد، ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء، والدوام ولا يشترط الشافعي كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقاررا على القبض، ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعي وامتناع به ولم ينتفع به عند مالك، وكان أسوة الغرماء فيه، حتى ينضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معانية البينة لذلك؛ لأنه يتهمهما بالتواطؤ على إسقاط حق الغرماء، فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعانية، فالقبض من هذا الوجه أدخل في الاعتبار على رأي مالك منه على رأي الشافعي، هذا في الابتداء، وأما في الدوام، فمالك رضي الله عنه يشترط بقاءه في يد المرتهن، حتى لو عاد إلى يد الرهان، بأن أودعه المرتهن إياه، أو أجره منه، أو أعاره إياه إعارة مطلقة، فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الرهان بوجه من الوجوه المذكورة، كان أسوة الغرماء فيه، والشافعي رضي الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل للرهن عند الشافعي أن ينتفع بالرهن، ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكني الدار واستخدام العبد، وله أن يستوفي منافع نفسه، على الصحيح عنده المنصوص عليه في الأم، ولا يؤثر ذلك في الرهن بطلاناً، ولا خلافاً، فقد علمت أن القبض أدخل في الاعتبار على مذهب مالك ابتداء، ودواماً، والآية تعضده؛ فإن الرهن في اللغة هو الدوام، أنشد أبو علي:

فالخبير واللحم لهم رهن وقهوة راووقها ساكب
ولعل القائل باشتراط دوام الرهن في يد المرتهن، تمسك بما في لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله في ذلك تمسك، وما طوأت في حكاية مذهب مالك في القبض، إلا لأن المفهوم من كلام الرمزخشري إطار القبض عند مالك؛ لأنه فهم من قول أصحابه، إن القبض لا يشترط في صحة الرهن، ولا في لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلية، والله أعلم.

(1) قال أحمد رحمه الله: فالتخصيص بالسفر على هذا، جرى على وفق الغالب، فلا مفهوم له، وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضي الله عنه في إقامة الرهن، عند التنازع في قدر الدين مقام الشاهد للمرتهن، إلى تمام قيمته، حتى لو تنازعا، فقال الرهان رهنك بمائة، وقال المرتهن بل الرهن بمائتين، لكان الرهن شاهداً بقيمته خلافاً للشافعي رضي الله عنه، فإنه يرى القول قول الرهان مطلقاً؛ لأنه غارم ووجه الدليل، لمالك رضي الله عنه من الآية، أن الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الإشهاد، والكتابة، وخصه بالسفر لإعوازهما حينئذ، ولو كان القول قول الرهان شرعاً لم يكن قائماً مقام الإشهاد، ولا مفيداً فائدته بوجه، إذ لو لم يكن الرهان لكان القول قول المديان في قدر الدين، فلم يزد وجود الرهن فائدة على عيمه باعتبار نيابته عن الأشهاد، ولا يقال إن فائدته الامتياز به على الغرماء؛ لأن تلك فائدة الإشهاد، حتى يكون نائباً عنه عند تعذره، ولا فائدة إذ ذاك، إلا جعل القول قول المرتهن في قدر الدين عند التخالف، وهو مذهب مالك المتقدم نكره، ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته، لا فيما زاد عليها معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه، إلا الموفي بقيمته، فدعواه أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر، فيما هو أقل، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد، وهو أن المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر، أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زائد، أو نقصت، وإنما يعتبر يوم القضاء ولقائل أن يقول: إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه؛ لأن العادة تقتضي أن الناس إنما يرهنون في الديون المساري قيمته لها، فيبني أن تعبروا القيمة يوم الرهن غير مرجحين على زيادتها، ونقصانها يوم القضاء، وعند ذلك يتجانب أطراف الكلام في أن المقتضى لإقامته مقام الشاهد، هو المعنى المتقدم أو غيره، وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة، وأما تفاصيل المسألة، فذلك من حظ الفقه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة الحديث رقم: (2068)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: =

وأثم خبر مقدم والجملة خبر إن.

فَإِنْ قُلْتَ: هلا اقتصر على قوله: ﴿فَإِنَّهُ أَثَمٌ﴾ وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الأثمة لا القلب وحده؟ **قُلْتَ:** كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناده الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله؛ فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الأثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعن اقترافه، واللسان ترجمان عنه؛ ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تنشعب منها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾⁽¹⁾ وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وقرئ: قلبه بالنصب، كقوله: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾⁽²⁾ وقرأ ابن أبي عتبة: أثم قلبه، أي: جعله أثماً.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوا بِمَا يَسْجُدُ بِهِ اللَّهُ تَبَعٌ لَكُمْ قَدِيرٌ (٧٨).

﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوا﴾ يعني من السوء **﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره، **﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** ممن استوجب العقوبة بالإصرار، ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان الوسواس وحديث النفس؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه تلاها فقال: لئن أخذنا الله بهذا لتهلكن، ثم بكى حتى سمع نشيجه، فنكر لابن عباس، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد⁽³⁾ فنزل **﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ﴾**⁽⁴⁾ وقرئ: فيغفر ويعذب، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يقرأ الجازم؟ **قُلْتَ:** يظهر الراء ويدغم الباء، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشاً،

ورأويه عن أبي عمرو مخطئ مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو. وقرأ الأعمش: يغفر بغير فاء مجزوماً على البديل من يحاسبكم، كقوله:

مَتَى تَأْتَانَا تَلْمِزُنَا فِي دِيَارِنَا طِبَاجِزْ لَأَوْنَارَاتُاجِبَا
ومعنى: هذا البديل التفصيل لجملة الحساب؛ لأن التفصيل أوضح من المفصل فهو جار مجرى بدل البعض من الكل، أو بديل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البديل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

أَمَّا الرُّسُولُ يَمَّا أَتَتْهُمُ الرِّبَا مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمَّا يَأْتِيهِمْ وَمَلَكُهُمْ وَرَسُولُهُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٧٩).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في كل راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم آمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين ووقف عليه، وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين، ووجد ضمير كل في آمن على معنى كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾⁽³⁾. وقرأ⁽⁶⁾ ابن عباس: وكتابه، يريد القرآن أو الجنس، وعنه: الكتاب أكثر من الكتب.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ **قُلْتَ:** لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من المجموع. **﴿لَا تَفْرُقُ﴾** يقولون لا نفرق، عن أبي عمرو: يفرق بالياء، على أن الفعل لكل، وقرأ عبد الله: لا يفرقون. و **﴿أَحَدُ﴾** في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾⁽⁷⁾ ولذلك دخل عليه بين **﴿سَمِعْنَا﴾** **﴿غُفْرَانَكَ﴾** منصوب بإضمار فعله، يقال: غفرانك لا كفرانك، أي: نستغفرك ولا نكفر. وقرئ: وكتبه ورسله بالسكون.

لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئًا أَوْ نَسِيئًا أَوْ نَطْأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ عَلَيْنَا صِرَاحًا

التصور، فإن التمر استرسل على الجنس، لا بصيغة لفظية، والتصور يرد إلى تخيل الواحد، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب، وهذا الكلام من الإمام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا، لأشهر الفرضية في الاستشهادية على صحة مقالته هذه، فلا نعيده.

(7) سورة الحاقة، الآية: 47.

(1) سورة المائدة، الآية: 72.

(2) سورة البقرة، الآية: 130.

(3) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (72/4).

(4) سورة البقرة، الآية: 286.

(5) سورة النمل، الآية: 87.

(6) قال أحمد: وقد قال مالك إن التمر أحرق باستغراق الجنس من

الأنفُس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وغير ذلك. وقرئ: أصاراً على الجمع، وفي قراءة أبي: ولا تحمل علينا بالتشديد.

فَإِنْ قُلْتَ: أي فرق بين هذه التشديدات والتي في ﴿وَلَا تَحْمِلْنَاهَا﴾؟ **قُلْتَ:** هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حملة من مفعول واحد إلى مفعولين، ﴿وَلَا تَحْمِلْنَاهَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها. وقيل: المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطيع من التكليف، وهذا تكرير لقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾. ﴿مَوْلَانَا﴾ سبينا ونحن عبيدك، أو ناصرنا، أو متولي أمورنا. ﴿فَانصُرْنَا﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبيده، أو فإن ذلك عادتك، أو فإن ذلك من أمورنا التي عليك توليها، وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة: قد فعلت⁽⁴⁾، وعنه عليه السلام: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»⁽⁵⁾. وعنه عليه السلام: «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يوتهن نبي قبلي»⁽⁶⁾. وعنه عليه السلام: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل»⁽⁷⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة؟ **قُلْتَ:** لا بأس بذلك، وقد جاء في حديث النبي ﷺ: «من أقرأ سورة البقرة، وخواتيم سورة البقرة»⁽⁸⁾ وخواتيم البقرة، وعن علي رضي الله عنه: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: أنه رمى الجمرة، ثم قال: من ههنا، والذي لا إله غيره رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة⁽⁹⁾، ولا فرق بين هذا، وبين قولك: سورة الزخرف، وسورة الممتحنة، وسورة المجادلة. وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أن المراد سورة البقرة، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾⁽¹⁰⁾

طَائِفَةً لَنَا بِهِ، وَأَعْتَفَ عَنَّا وَأَغْفِرَ لَنَا وَارْتَضَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْوَعْدِ الْكَبِيرِ (٣٨٦).

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يخرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾⁽¹⁾ لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وقرأ ابن أبي عملة: وسعها بالفتح. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها.

فَإِنْ قُلْتَ: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكْتِسَاب؟ **قُلْتَ:** في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتبهه النفس وهي منجذبة إليه وأمرة به كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. أي: لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا.

فَإِنْ قُلْتَ:⁽²⁾ النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ **قُلْتَ:** نكر النسيان والخطأ، والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾⁽³⁾ والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كآثمه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه.

والإصر: العيب الذي ياصر حامله، أي: يحبس مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق من نحو قتل

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(5) ابن عدي في الكامل.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة الحديث رقم: (5008)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الحديث رقم: (1875)، كلهم عن أبي مسعود.

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1165)، وابن خزيمة في كتاب: الوضوء، باب: نكر الدليل على أن ما وقع عليه اسم التراب... الحديث رقم: (264).

(8) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة... الحديث رقم: (1874).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: رمي الجمار من بطن الوادي الحديث رقم: (1747)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: رمي جمره العقبة من بطن الوادي الحديث رقم: (3118).

(10) سورة يوسف، الآية: 82.

(2) قال أحمد:

ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة؛ لأننا نقول إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع، كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». وإذا كان كذلك، فلعل رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة، فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها قد فعلت، وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرية، الناهيين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ، والنسيان عقلاً؛ لأنه من تكليف ما لا يطيق، وهو مستحيل عندهم تقريباً على قاعدة التحسين، والتقبيح، وكلها قواعد باطلة، ومذاهب ماحلة، فإله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويهللنا المعتقد الحق، والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(3) سورة الكهف، الآية: 63.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق الحديث رقم: (326).

بين ساكنين، كما قالوا: أصيم ومنيق، فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين.

فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي بمقولة.

رَكَ عَلَيْكَ الْكَتَبَ بِالْحَقِّ مَصْرُفًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٦﴾.

والتوراة والإنجيل اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وأفعيل إنما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة؛ لأن أفعيل بفتح الهمزة عيم في أوزان العرب.

فإن قلت: لم قيل: نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل (2)؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات جملة. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب.

مِنْ قَبْلِ هَذِهِ قَتَانٍ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّ الْإِنِّ كَرُمًا بِمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ هُؤُلَاءِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾.

«هدى للناس» أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال: نحن متعبدون بشرائع من قبلنا، فسرّه على العموم. فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: (3) جنس الكتب السماوية؛ لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكرها، كأنه قال: بعد نكر الكتب الثلاثة وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما قال: «وأتينا داود زبوراً» (4) وهو ظاهر، أو كرر نكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما نكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله، «بآيات الله» من كتبه المنزلة وغيرها. «نو انتقام» (5) أنه انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾.

وعن بعضهم أنه كره ذلك، وقال: يقال: قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة. عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة، وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة» (1).

سورة آل عمران

مكية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْح ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩

﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ في العالم فعبّر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُكُمْ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّبُّ الْعَلِيمُ (٦).

﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ طائوس: تصوركهم، أي: صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالا، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأنثته إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، كأنه نبّه بكونه مصوراً في الرحم على أنه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَآيَاتِنَا تَأْوِيلُهَا وَمَا يَكُنْ مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِيهَا يُقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧).

﴿محكمات﴾ (١) أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، متشابهات مشتبهات محتملات ﴿هن﴾ أم الكتاب، أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك ﴿لا تتركه الأبصار﴾ ﴿إلى ربها ناظرة﴾ ﴿لا يامر بالفحشاء﴾ ﴿أمرنا مترفياً﴾.

(١) قال أحمد: هذا كما قمته عنه من تكلفه، لتزليل الآي على وفق ما يعتقد، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي، أو ذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية، والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية، كقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه، حتى يردّوه بزعمهم إلى الآية، التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم، والآية، قوله تعالى: ﴿لا تتركه الأبصار﴾ وغرَضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول محمل قوله: ﴿لا تتركه الأبصار﴾ في دار النبيا، ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الأئمة، أو نقول الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم، إلا أن المراد بها الخصوص، أي: لا تتركه أبصار الكفار، كقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، أو نقول: لا تعارض بين الآيتين، فنقد كل واحدة منهما في نصابها، وبيان ذلك أن الأبصار عالم بالآلف واللام الجسديتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم، إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذ يكون في العموم مراقبة لدخول كل: لأن كليهما أعني المعرفة، والجسسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا ثبت ذلك، فالسلب داخل على الكلية، والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئي لغة ومتعقلاً، لا ترى أن القائل، إذا قال لا تتفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإن في إنفاق البعض، والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد، ولو واحداً وحينئذ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار، وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة؛ لأنهم يثبتونها للموحدين، ويسلبونها عن الكفار، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ فقد ثبت أن هذه الآية، إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها دليلاً على =

فإن قلت: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ قلت: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة ماخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمّة ونيل الدرجات عند الله؛ ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه. ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ هم أهل البدع، ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق. ﴿ابتغاء الفتنة﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم، ﴿وابتغاء تأويله﴾ وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه، ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ أي: لا يهتدي (٢) إلا تأويله الحق الذي يجب، أي: يحمل عليه، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من

= ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال، قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس، وبين عدم دخولها إلا ترى أنهم يقولون إن قولنا الإنسان كاتب مهمل في قوة الجزئي، وإن قولنا كل إنسان حيوان كلي لا جزئي. لانا نقول إنما جارتنا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين، لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملًا، بل هذا هو الكلي عندهم، والله الموفق، وأما الآيتان الأخريان، اللتان إحداهما قوله تعالى: ﴿إن الله لا يامر بالفحشاء﴾ والأخرى، التي هي قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفياً ففسقوا فيها﴾ فلا ينازع الرمزخشري في تمثيل المحكم، والمتشابه بهما.

(٢) قال أحمد رحمه الله: وقوله لا يهتدي إليه إلا الله، عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة إيهاماً إذاً، لاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال، جل الله عزّ، حتى أن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه فلان المهتدى، ذلك مقتضى اللغة فيه، فإنه مطارح هدى يقال: هنيته، فاهتدى، الإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه، وكان موهوماً لا يجوز إطلاقه على الله عزّ وجل، ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى، حيث حدّ مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه، فلان ينكر على الرمزخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجبر، وما أراه صدرت منه إلا وهماً حيث أضاف العلم إلى الله تعالى، وإلى الراسخين في العلم، فاطلق الاعتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه نكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور، والله أعلم.

بالتى تقربكم عندنا زلفى»⁽⁴⁾. وقرئ: وقود بالضم، بمعنى: أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا: من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير.

كَذَّابٌ عَالِي فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا لَهُمْ أَنَّهُ يُدْخِلُهُمْ فِي النَّارِ وَأَنَّ اللَّهَ سَوِيدٌ أَلْيَابٌ⁽⁵⁾.

الدَّابُّ: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كذاب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن» تغني أو بالوقود، أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كذاب أبيك، تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإن فلاناً لمحارف كذاب أبيه، تريد كما حورف أبوه «كتبوا بآياتنا» تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم.

قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتُكْفِرُونَ وَتُعْزِزُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُنْزِلُ اللَّهُ السَّيْلَ⁽⁶⁾.

«قل للذين كفروا» هم مشركو مكة «ستغلبون» يعني: يوم بدر، وقيل: هم اليهود، ولما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، وهما باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل: جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنني نبي مرسل». فقالوا: لا يغرك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة لأن قاتلنا علمت أننا نحن الناس⁽⁷⁾. ففزلت. وقرئ: سيغلبون ويحشرون بالياء، كقوله تعالى: «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم»⁽⁸⁾ على قل لهم قولي لك سيغلبون.

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه اللفظ، ومعنى القراءة بالياء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبر به من وعيدهم بلفظه، كأنه قال: إن إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

يقف على قوله «إلا الله» ويبتدئ «والراسخون في العلم يقولون» ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه والأول هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل. «يقولون آمنا به» أي: بالمتشابه «كل من عند ربنا» أي: كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه. «وما يذكر إلا أولو الألباب» مدح للراسخين بإلقاء ذهن وحسن التأمل، ويجوز أن يكون «يقولون» حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلا عند الله. وقرأ أبي: ويقول الراسخون.

رَبَّنَا لَا تُفِضْ قُلُوبَنَا بَدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَفَا⁽⁹⁾.

«لا تزغ قلوبنا»⁽¹⁾ لا تبلىنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا، «بعد إذ هديتنا» وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا الطافك بعد إذ لطف بنا. «من لحنك رحمة» من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرئ: لا تزغ قلوبنا بالتاء والياء، ورفع القلوب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّهِمْ فِيهِ الْإِسْلَامُ لَا يَخْلُفُ أَلِيمًا⁽²⁾.

«جامع الناس ليوم» أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: «يوم يجمعكم ليوم الجمع»⁽³⁾. وقرئ: جامع الناس على الأصل «إن الله لا يخلف الميعاد»، معناه: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله. والميعاد: الموعد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمُ آمَنُكُمْ وَلَا أُولَدُكُمْ مِنْ أَهْوَىٰ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ رُفُودُ النَّارِ⁽⁴⁾.

قرأ علي رضي الله عنه: لن تغني، بسكون الياء، وهذا من الجد في استئغال الحركة على حروف اللين. من في قوله: «من الله» مثله في قوله: «وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً»⁽⁵⁾، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله «شيئاً»، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد». أي: لا ينفعه جدّه، وحظه من الدنيا بذلك. أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عنك، وفي معناه قوله تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم

= نحن، وإقاعلنا منها.

(2) سورة التغابن، الآية: 9.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) سورة سبا، الآية: 37.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفقه، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة الحديث رقم: (3001).

(6) سورة الأنفال، الآية: 38.

(1) قال أحمد: أما أهل السنة، فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرقة؛ لأنهم يوحون حق التوحيد، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزين، مخلوق لله تعالى، وأما القدرية فعندهم أن الزين لا يخلقه الله تعالى، وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرقة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ب، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة، بأن لا يبيتنا، ولا يمنعنا لطفه أمين؛ لأن لكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو، وأفعاله التي

يريهـم الله ذلك بقدرته. وقرئ: فئة تقاتل وأخرى كافرة بالجر على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا. ﴿رَأَى الْعَيْنَ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات، ﴿وَاللهَ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْإِبْسَةِ وَالْحَبْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرِيِّ ذَلِكَ مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقَمَآطِ (٧).

﴿زَيْن للناس﴾ (٨) المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ (٩). ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان والله زينها لهم لأننا لا نعلم أحداً أنم لها من خالقها، ﴿حُبُّ الشهوات﴾ (١٠) جعل الأعيان التي نكرها شهوات مبالغة في كونها مشتتة محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات؛ لأن الشهوة مسترنة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. وقال: ﴿زين للناس حُبُّ الشهوات﴾ ثم جاء بالتفسير ليقرر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وإلّا على ذم من يستعظمها ويتهاك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله.

والقنطار: المال الكثير، قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و ﴿المقنطرة﴾ مبنية

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَوِي الْقَتْلَ فَنُتَقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ يَنْتَهِمُ رَأَى الْمَنِيِّ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣).

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركي قريش، ﴿في فئتين التقتا﴾ يوم بدر. ﴿يرونهم مثليهم﴾ (١١) يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين (١٢) ستمائة وثيلاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله، كما أمدهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم بالتاء، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم.

فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: ﴿وَيَقَالُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ (١٣) قلت: قللوا أولاً في أعينهم حتى اجتروا عليهم، فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ نَبِيِّهِ إِنْ سَئَلَ وَلَا جَانٍ﴾ (١٤) وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (١٥) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ (١٦) بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ (١٧) ولذلك وصف ضعفهم بالقلّة؛ لأنّه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرف: يرونهم على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي:

(١) قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدّمة على رأي أهل السنة.

(٢) قال أحمد: إنما قال ذلك؛ لأنّ الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي: ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين، وقد جاء على لفظ الغيبة، فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة، والالتفات، وإن كان سائفاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين، وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة؛ لأنّ مثليهم مفعول ثانٍ للرؤية، ولو قال القائل ظننك يقوم على لفظ الغيبة بعد الخطاب لم يكن بذاك، فهذا هو الوجه الذي باعد الزمخشري به بين قراءة نافع، وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين أنفاً؛ لأنه قال معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم، أو مثلي فئتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني، يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة، في الجملة بعينها، كما إلزمه هو على ذلك الوجه، والله أعلم.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٧) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٨) قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق، ويراد به خلق حبيها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء من جوهر، ومن عرض قائم بالجواهر حب، أو غيره محمود في الشرع أولاً، ويطلق التزيين، ويراد به الحض على تعاطي الشهوات، والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً، كالنكاح المقترن بقصد التناسل، واتباع السنة فيه، وما يجري مجراه، وأمّا الشهوات المحظورة، فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته، وتحسينه منزلة الأمر بها، والحض على تعاطيها، وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأول، فإنه يحاشا أن ينسب خلق الله إلى غير الله، وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة، تنزيلاً لها على قواعد القدريّة الفاسدة، فتفتن لها وبرئ قائلها من السلف الصالح، عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(٩) قال أحمد: يريد إلحاقها بباب رجل صوم وقطر مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(١٠) سورة الكهف، الآية: ٧.

ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتمييزه بالذكر، أو على المدح.

فَإِنْ قُلْتُ: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة، كقولك: الحمد لله الحميد، إنا معشر الأنبياء لا نورث، إنا بني نeshل لا ندعى لأب! قُلْتُ: قد جاء نكرة، كما جاء معرفة، وأتشد سيويوه فيما جاء منه نكرة قول الهنلي:

ويأوي إلى نسوة عطل وشعساً مراضيع مثل السعالِي

فَإِنْ قُلْتُ: هل يجوز أن يكون صفةً للمنفى، كأنه قيل: لا إله قائمًا بالقسط إلا هو؟ قُلْتُ: لا يبعد فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

فَأَنْ قُلْتُ: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في لا إله إلا هو؟ قلتُ: نعم؛ لأنها حال مؤكدة، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدرج.

فإن قلت: هل نخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الملائكة وأولي العلم، كما نخلت الوجدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفَةً لمنفي، كائنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنه بديل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قيماً بالقسط. ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل، يعني: أنه العزيز للذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في فعله.

فَأَنْ قُلْتُ: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا
 لتعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على
 وحدانيته وعلمه؟ قُلْتُ: هم الذين يثبتون وحدانيته وعلمه
 الحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل
 التوحيد. وقرئ: أَنَّهُ بِالْفَتْحِ، وَإِنَّ الدِّينَ بِالْكَسْرِ عَلَى أَنَّ
 الْفِعْلَ وَقَعَ عَلَى أَنَّهُ مَعْنَى: شَهِدَ اللَّهُ عَلَى أَنَّهُ، أَوْ بَأَنَّهُ.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَمُسْتَضَرُّونَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَلْفُوا أَوْثُومًا لِكَيْتَبَ
لَا مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمْ أُولَئِكَ يَنْهَوْنَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ
فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيمٌ الْحَسَابُ ﴿٨﴾

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للحملة الأولى.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فائدة هذا التوكيد؟ قلْتَ: فائدته أَنْ قوله: **إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**، توحيد وقوله: **﴿عَاقِبَةُ الْأَلْبَابِ﴾** تعجيل، وإذا أرفقه قوله: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾** فقد آذَنَ أَنْ لِلْإِسْلَامِ هُوَ الْعَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ، وَهُوَ الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا عَدَاهُ لَيْسَ عِنْدَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَفِيهِ أَنْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى

من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلف وبيرة مبيرة، و **المسؤومة** المعلمة، من السومة وهي العلامة، أو المطهمة، أو المرعية، من أسام الدابة وسومها. و **الأنعام** الأزواج الثمانية، **فذلك** المذكور **متاع الحياة**.

﴿ قُلْ أَذِنْتُ لَهُمْ بَيْعًا مِّنْ دَالِكُم مَّعْرُوفٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عِندَ رَبِّهِمْ جُنْدٌ
تَبَرَّى مِنْ غَنَمِهِمُ الْمُتَاجِرِينَ فِيهَا وَادٍ مُّطَهَّرٌ وَرِضْوَانٌ
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝۱۵﴾

﴿الَّذِينَ لَقُواْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلك، كما تقول: هل اذ لك على رجل عالم، عندي رجل من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بخير، واختص المتقين لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع ﴿جَنَّاتٍ﴾ على هو جَنَات، وتنصره قراءة من قرأ: جَنَات بِالْجَزِّ على البذل من خير. ﴿وَأَنَّهُ بِبَصِيرِ الْعِبَادِ﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين لاقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَامِتُ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَهِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٧﴾ الصَّادِقِينَ وَالْمُفِيدِينَ وَالْمُغْنِيَةَ وَالْمُسْتَفِيدِينَ
بِالسَّحَابِ ﴿١٨﴾.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع، ويجوز لَجَزْ صِفَةً لِلْمُتَّقِينَ أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها وقد مرّ الكلام في ذلك. وخص الأسحار؛ لأنهم كانوا يَقْدُمُونَ قيام الليل ليحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١). وعن الحسن: كانوا يصلون في قول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء الاستغفار، هذا نهارهم وهذا ليلهم.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٨﴾

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتحديد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة أولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه. ﴿فَأَنشَأْنَا بِالْقَاسِطِ﴾ مقبماً للعدل فيما قسم من الأزواق والأجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به بماده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه، كقوله: ﴿وَهُوَ حَقٌّ مُّصَدِّقٌ﴾.

فَأَنْ قُلْتُ: لَمْ جَاز إِفْرَادَهُ بِنَصَبِ الْحَالِ بِنِ الْمَعْطُوفِينَ عَلَيْهِ، وَلَوْ قُلْتُ جَاعَتِي زَيْدٌ وَعَمَرُو رَكْبًا لَمْ يَجْزْ قُلْتُ: إِنَّمَا جَاز هَذَا لِعَدَمِ الْإِلْيَاسِ، كَمَا جَاز فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَبْنَا لَهُ سَخًى وَيَعْقُوبَ﴾ ⁽²⁾ نَافِلَةً أَنْ تَنْصَبُ نَافِلَةً حَالًا عَنْ يَعْقُوبَ،

الإسلام، وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض، وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعبسى، وقيل: هم اليهود واختلافهم أن موسى عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة، وقيل هم النصارى، واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله.

إِنَّ عَابِدَكَ فَقَدْ أَتَيْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمِنْ أَتَيْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْكَدُوا وَرَبِّ تَوَلَّوْا فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَلَدُ وَاللَّهُ بِبَيْرٍ بِالْمَكَّةِ (١٦).

﴿فإن حاجوك﴾ فإن جادلوك في الدين، ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبد، وأدعوه إلهاً معه. يعني: أن ديني التوحيد، وهو الدين القديم الذي ثبتت عنكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ (٢) فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه، فما معنى المحاجة فيه. ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفواصل، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه. ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى، ﴿والألميين﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿أسلمتم﴾ يعني: أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام، ويقضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها

تشبيهه أو ما يؤدّي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى. وقرئنا مفتوحين على أن الثاني بدل من الأول، كأنه قيل: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً لأن دين الله هو التوحيد والعدل. وقرئ: الأول بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على أن، وما بينهما اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إله إلا هو، وقرأ أبي: إن الدين عند الله الإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرئ: شهداء الله بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله.

فإن قلت: فعلام عطف على هذه القراءة، ﴿والملائكة، وأولو العلم﴾؟ قلت: على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما.

فإن قلت: (١) لم كرر قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾؟ قلت: ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: ﴿العزیز الحكيم﴾ لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل. ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد والعدل. ﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾ أنه الحق الذي لا محيد عنه، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش؛ لأنهم أميون، ونحن أهل كتاب، وهذا تجوير لله ﴿بغياً بينهم﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب هؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة، وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤون أعقابهم لا شبهة في

= الرؤية التي يظهر أن جردهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاؤوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة، ومعاندة له في ملكه، ثم بعد ذلك يستترون بتسمية أنفسهم أهل العدل، والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة، فانا أول المجبرين ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرة، وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة، وظلالها ولخرجت عن مزالق البدع، ومزالها، ولكن كره الله أنيعائهم، ولعلمت، أي: الفريقين أحق بالآمن، وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونيين في التوحيد بالملائكة، المشرفين بعظمتهم على اسم الله عز وجل اللهم، اللهمنا على اقتفاء السنة شرك، ولا تؤمننا شرك، إنه لا يامن من مكر الله، إلا القوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف، والله ولي التوفيق.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قدّمته في نظيره، مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله قائماً بالقسط، وهو التنزيه، فطال الكلام بذلك، فجحد التوحيد تلو التنزيه ليلى قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم، مما أريد إيصاله به، والله أعلم، قال: وفيه أن من ذهب إلى تشبيه الخ، قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربة الإسلام، بل تصريح وما ينقم إلا أن صنفوا، وعد الله عباده المكرميين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته؛ ولأنهم وجدوا الله حق توحيد، فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم، ولافعالهم إلا هو واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدر تقارن فعلهم لا خلق لها، ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية، والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: ﴿يما كسبت أيديكم﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم لا تقوم بغيرون في وجه النصوص، فيجحدون =

لِيَحْكَمْ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٢﴾

﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، ومن إما للتبعض وإم للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم: ﴿يبدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ دخل مدارسهم، فدعاهم، فقال نعيم بن عمر والحرث بن زيد على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة فلموا إليها فأبيا⁽²⁾. وقيل: نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض بينهم، وقرئ: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُورَةً وَعَرَّجُوا فِي بَيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿ذلك﴾ التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، كما طمعت المجبرة والحشوية. ﴿وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كبائرهم.

فَكَفَّ إِذَا جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَوَعَيْتَ كُلَّ شَيْءٍ مَّا كُتِبَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون، فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعطل باطل وتطمع بما لا يكون. وروي إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم

لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿فهل أنتم منتهون﴾⁽¹⁾ بعد ما نكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعادنة وقلة الإنصاف؛ لأنّ المنصف إذا تجلّت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في هل فهمتها: توبيخ بالبلاهة وكلة القريحة، وفي فهل أنتم منتهون بالتقاعد عن الانتهاء، والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد نفخوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور. ﴿وإن تولوا﴾ لم يضروك فإنك رسول منبه عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِحَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾

قرأ الحسن: يقتلون النبيين، وقرأ حمزة: ويقاتلون الذين يأمرون، وقرأ عبد الله: وقاتلوا، وقرأ أبي: يقتلون النبيين والذين يأمرون، وهم أهل الكتاب قتل أولهم الأنبياء، وقتلوا أتباعهم، وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله أي الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»، ثم قرأها، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٦﴾

﴿في الدنيا والآخرة﴾ لأن لهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

فَإِنْ قُلْتَ: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء؛ كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم، بمعنى من يكفر فبشرهم، وإن لا تغير معنى الابتداء، فكان دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعل لا تمتنع بإدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

أَرَأَيْتَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا كِتَابَ اللَّهِ يُعَذِّبُونَ آلَهُمْ كَمَا كَتَبَ اللَّهُ

= يشرك به، ويقفر ما دون ذلك لمن يشاء، وتصديقاً بالشفاعة، لأهل الكبائر، ويقوم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة، وشقاقاً كيف ملا الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن أخذ من أهل البدعة بثار السنة، فاصمى أفتنتهم من قواطع البراهين، بمقومات الآسنة.

(1) سورة المائدة، الآية: 91.

(2) كشف الاستار، كتاب: الفتن، باب: فيمن قتل على ذلك الحديث رقم: (3314)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 56، والطبري في التفسير.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد، إلى مشيئة الله تعالى، وإن مات مصراً عليها إيماناً، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن=

أَلَيْسَ تَتَجَرَّعُ أَلَمَيْتَ مِنَ أَلَمِي وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ مِنْ تَحْتِ حِسَابِ (١٧).

ثم نكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم وينلهم، ويؤتية العرب ويعزهم، وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم.

لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي اللَّهِ عِزًّا لَا أَنْ تَحْفَظُوا مِنْهُ وَتُحِبُّواكُمْ اللَّهُ نَسِيَ رَأْيَ اللَّهِ أَلَمْ يُعْصِرْ (١٨).

وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»⁽³⁾. نهوا أن يولوا الكافرين لقربة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصانق بها ويتعاشروا، وقد كثر ذلك في القرآن: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم لا تتخونوا اليهود والنصارى أولياء لا تجد قوما يؤمنون بالله»⁽⁴⁾ الآية: والمحبة في الله، والبغض في الله، باب عظيم، وأصل من أصول الإيمان. «ومن لول المؤمنين» يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثرهم عليهم. «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء» ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني: أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عبوه متنافيان، قال:

تودّ عديّ ثم تزعم أنسي صدقك ليس النوك عنك بعازب

«إلا أن تتقوا منهم تقاة» إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرئ: تقية، قيل للمتقى: تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه، رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: كن وسطاً وامش جانباً. «ويحذركم الله نفسه» فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن تتقوا معنى: تحنروا وتخافوا، فيعدي بمن، ويتنصب تقاة، أو تقية على المصدر، كقوله تعالى: «اتقوا الله حق تقاته»⁽⁵⁾.

بأمر بهم إلى النار. «وهم لا يظلمون» يرجع إلى كل نفس على المعنى: لأنه في معنى: كل الناس، كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ بِرَبِّكَ الْعَمْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩).

الميم في «اللهم» عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالثناء في القسم، ويدخل حرف النداء عليه وفيه لام التعريف ويقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك. «مالك الملك» أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، «تؤتي الملك من تشاء» تعطي من تشاء النصيب الذي تستمت له واقتضته حكمتك من الملك «وتنزع الملك ممن تشاء» النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأول عام شامل والملكان الآخران خاصان ببعضان من الكل. روي أن رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك⁽¹⁾ وروي: أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين نراعاً، وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر، وكبر المسلمون. وقال: «أضاءت لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام: أن أمتي ظاهرة على كلها فابشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعلمكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا⁽²⁾. فنزلت.

فإن قلت: كيف قال: «بيدك الخير» فنكر الخير بون الشر؟ قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتية أوليائك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه.

قُلْ أَلَيْسَ فِي أَنْهَارِ رَوْحِ الْهَرَاءِ فِي أَلَيْسَ تَتَجَرَّعُ أَلَمِي مِنْ

(3) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 14972)..

(4) سورة المائدة، الآية: 51.

(5) سورة آل عمران، الآية: 102.

(1) ذكره الوليدي في أسباب النزول ص 57.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 57، وأخرجه أحمد في المسند 4/303، وابن أبي شيبة 422/14، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق.

والأمد: المسافة، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ (4) وكَرَّرَ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني: أنَّ تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رافقه بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته مرجو لسعة رحمته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَنُورٌ مُّغْفِرٌ وَهُوَ عَقَابُ الْإِيمِ﴾ (5).

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦).

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته يرض عنكم ويغفر لكم، وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكنبه، وإذا رأيت من ينكر محبة الله ويصفق بيديه مع نكرها ويطرب وينعر ويصعق، فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقته إلا لأنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسمّاها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المني قد ملأ أزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة على حواليه قد ملؤوا أردانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون ويحبكم ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

أحب أبا ثروان من حب تمره وأعلم أن الرفق بالجار أرفق والله لولا تمره ما أحببته ولا كان أنى من عبيد ومشرق

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٧).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وإن يكون مضارعاً، بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مَادَّكُمْ وَنُفُوسَكُمْ بِالدِّينِ وَكَانَ الْعِمْلُ فِي هَٰذَا الشَّيْءِ عَمَلًا (٨).

﴿آل إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحق وأولادهما، و﴿آل عمران﴾ موسى وهرون ابنا عمران بن يصر، وقيل:

قُلْ إِنْ تُحِبُّوْا مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْهُ يَذَرُهُ اللَّهُ وَيَمُلِكْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩).

﴿إِنْ تُحِبُّوْا مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْهُ﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله ﴿بِيعْلَمُهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو الذي ﴿بِيعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سرهم وعلنكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على عقوبتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (1) لأن نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا تختص بمعلوم بون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقبور بون مقبور، فهي قادرة على المقبوريات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره، ويتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاستراتية به، فما بال من علم أنَّ العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترِكَ.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (١٠).

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بـ ﴿تَوَدُّ﴾. والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خیرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أنَّ بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب يوم تجد بمضمر نحو: انكسر، ويقع على ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتود خبره. أي: والذي عملته من سوء تود هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تود. فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله: وُدْتُ؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى؛ لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة، ويجوز أن يعطف وما عملت على ما عملت، ويكون تود حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وادة تباعد ما بينها وبين اليوم، أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿وَوَجِئُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (2) يعني: مكتوباً في صحفهم يقرؤونه. ونحوه: ﴿فَيُنَبِّئُهُمُ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾ (3).

(1) سورة آل عمران، الآية: 28.

(2) سورة الكهف، الآية: 49.

(3) سورة المجادلة، الآية: 6.

(4) سورة الزخرف، الآية: 38.

(5) سورة فصلت، الآية: 43.

(6) قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني، أنَّ السورة تسمى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى ومريم، في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأمّا موسى وهارون، فلم يذكر من قصتهما في هذه السورة، فدل ذلك على أنَّ عمران المذكور ههنا، هو أبو مريم، والله أعلم.

﴿مَحْرُورًا﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه، ولا أستخذه، ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم. وروي أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي: محرراً مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن تترك نكراً.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ أُلْذِرْتُ لِأُنْثَىٰ وَلَئِنْ سَوَّيْتُهَا لِرَبِّ لَأُنْثَىٰ وَلَئِنْ أَوْلَيْتُهَا نَارًا لَّأُنْثَىٰ وَلَئِنْ أَوْلَيْتُهَا سِوَىٰ النَّارِ لَأُنْثَىٰ (٣١).

﴿فلما وضعتها﴾ (2) الضمير لما في بطني وإنما أنت على المعنى؛ لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحيلة أو النفس أو النسمة.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف جاز انتصاب ﴿أنثى﴾ حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل وضعت أنثى، وإنما أنت لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في ﴿ما كانت أمك﴾ لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ (3) وأما على تأويل الحيلة أو النسمة، فهو ظاهر، كأنه قيل: إني وضعت الحيلة أو النسمة أنثى.

فَإِنْ قُلْتُ (4): فلم قالت: ﴿إني وضعتها أنثى﴾ وما أرايت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأيت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد نكراً ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها يقرر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس: والله أعلم بما وضعت، على خطاب الله تعالى لها أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره. وقرئ: وضعت، بمعنى: ولعل الله تعالى فيه سرّاً وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر تسلياً لنفسها.

فَإِنْ قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾؟ قلت: هو بيان لما في قوله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ من

عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة.

ذُرِّيَّتَهُ بِمِثْلِهَا رَأَىٰ يَسْرُورًا وَاللَّهُ يَسِّرُ عَلَىٰ (٣٢).

﴿ذرية﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بعضها من بعض﴾ يعني: أن الألبين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، موسى وهرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ (1) ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

إِذْ قَالَتْ أَمْرًا يُعْزِمُ رَبِّي أَنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٣).

﴿إذ﴾ منصوب به، وقيل: بإضمار انكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان أم مريم البتول جدة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذ، وقوله: ﴿إذ قالت امرأت عمران﴾ على أثر قوله ﴿وآل عمران﴾ مما يرجع أن عمران هو عمران بن ماثان جد عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر.

فَإِنْ قُلْتُ: كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول بون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول؛ لأن زكريا بن آمن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوج زكريا بنته إيشاع أخت مريم، فكان يحيى وعيسى ابني خالة.

روي: أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن اتصنق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل.

(1) سورة التوبة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: الضمير في قوله وضعتها يتناول، إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة، وتلك الجهة كونها شيئاً وضع، لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها، وقد من هذا البحث بعينه، عند قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾.

(3) سورة النساء، الآية: 176.

(4) قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى، لا حكاية عنها، وقد نكر أهل التفسير تأويل آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاة الله تعالى عنها، أعني قوله وليس الذكر كالأنثى، ويرشد إليه =

= عطف كلامها عليه، وهو قوله: ﴿وإني سميتها مريم﴾، إلخ، ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون، وليست الأنثى بالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل، لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لستن كاحد من النساء﴾، فنفي عن الكامل شبه الناقص مع أن الكامل، لازواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم، ومنه أيضاً ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

في الكعبة، فقالت لهم: بونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنتو مائتان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر، فالتقوا فيها أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها. والثاني أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذني قبول حسن، أي: بامر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى فتقبلها: فاستقبلها. كقولك: تعجله بمعنى: استعجله، وتقصد بمعنى: استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه. قال القطن:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعاً

ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»، أي: فاخذه في أول امرها حين ولدت بقبول حسن. «وانبتتها نباتاً حسناً» مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرئ: وكفلها زكرياء، بوزن وعملها «وكفلها زكرياء» بتشديد الفاء ونصب زكرياء الفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصلحتها، ويؤيده قراءة أبي: وكفلها من قوله تعالى: «فقال اكفلنيها»⁽³⁾. وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها وانبتتها، وكفلها على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ندعوا بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها؛ كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحارب، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. «وجد عندها رزقاً» كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. «إني لك هذا» من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للدخل به إليك. «قالت هو من عند الله» فلا تستبعد، قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهمل، وعن النبي ﷺ: أنه جاع في زمن قحط، فاهنت له فاطمة

التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للبعد.

فإن قلت: علام عطف قوله: «وإني سميتها مريم»؟ قلت: هو عطف على «إني وضعتها أنثى» وما بينهما جملة من معترضتان، كقوله تعالى: «ورأته لقسم لو تعلمون عظيم»⁽¹⁾.

فإن قلت⁽²⁾: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصلق فيها ظننا بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعادة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»⁽³⁾. فاشأ أعلم بصحته، فإن صح، فمعناه أن كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتيهما، كقوله تعالى: «لأغوينهم أجمعين» * إلا عبادك منهم المخلصين⁽⁴⁾. واستهلاله صارخاً من مسه تخيل وتصوير لطمعة فيه، كأنه يمسّه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن اغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد وأما حقيقة المس والنخس، كما يتوهم أهل الحشو، فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صارخاً وعياطاً مما يبلولنا به من نخسه.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّلُ أَنَّ لِي بِهَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِمَّا يَشَاءُ بِمِثْرِ حِسَابٍ^(٧).

«فتقبلها ربها» فرضي بها في النذر مكان الذكر، «بقبول حسن» فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء، كالسقوط والدود لما يسقط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس، كالحجبة

(1) سورة الواقعة، الآية: 76.

(2) قال أحمد: أمّا الحديث، فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام، بتحمله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إحداه ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قنمت عند قوله تعالى: «لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»، ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان، إلا طعن في خواصر القنرية، حتى يقرها، وكرر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري، وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى، وكلام رسوله عليه السلام، بما يتخيل كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة، وسوء =

= أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراح غير واقع من المولود، لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، وما هو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الوهمي، وارتكاب الهوى الويليل.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: «وانذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» الحديث رقم: (3431)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام الحديث رقم: (6086).

(4) سورة الحجر، الآية: 39، 40.

(5) سورة ص، الآية: 23.

سيئة قط، ويا لها من سيادة.

والحصور: الذي لا يقرب الناس حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل: هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأختل:

وشارب مريح بالكاس نالمني لا بالحصور ولا فيها بسار
فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنه خلقت. **﴿من الصالحين﴾** ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** (3).

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (4).

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غلام﴾ استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم **﴿وقد بلغني الكبر﴾**، كقولهم: أدركته السن العالية، والمعنى: أثر في الكبر فاضعفني وكانت له تسع وتسعون سنة ولأمراته ثمان وتسعون، **﴿كذلك﴾** أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل تلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء ببيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَازًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْشَارِ (5).

﴿آية﴾ علامة أعرف الحبل لالتقى النعمة إذا جاءت بالشكر، **﴿قال آيتك أن لا﴾** تقدر على تكليم الناس **﴿ثلاثة أيام﴾**، وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قبرته على التكلم بنكر الله، ولذلك قال: **﴿وانكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾** يعني في أيام عزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة.

فإِن قُلْتُ: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال ومنزجاً منه. **﴿إلا رمزاً﴾** إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك. يقال: ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للمبحر: الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب: إلا رمزاً، بضميتين جمع رموز كرسول ورسول. وقرئ: رمزاً بفتحيتين جمع رامز كخادم وخدم،

رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم أكرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت، وعلمت أنها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنتي لك هذا؟» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل». ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها (1). **﴿إن الله يرزق﴾** من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، **﴿بغير حساب﴾** بغير تقدير لكثرة، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (6).

﴿هناك﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت (2)، فقد يستعار هنا وحث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفلكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر **﴿ذرية﴾** ولداً، والذرية يقع على الواحد والجمع. **﴿سميع الدعاء﴾** مجيبه.

فَدَّأَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُسَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ بُيِّرَ لَكَ يَحْيَى مُبَشَّرًا بِكِبَرٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (7).

قرئ: فناداه الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركب الخيل. **﴿إن الله يبشرك﴾** بالفتح على بان الله، وبالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع من القول. وقرئ: يبشرك وببشرك من بشره وأبشره، وببشرك بفتح الباء من بشره. ويحيى إن كان أعجمياً، وهو الظاهر، فمع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كي عمر. **﴿مصنقاً بكلمة من الله﴾** مصنقاً بعيسى مؤمناً به. قيل: هو أول من آمن به، وسمى عيسى كلمة؛ لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصنقاً بكلمة من الله مؤمناً بكتاب منه، وسمى الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويردة لقصيدته.

والسيد: الذي يسود قومه أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يرتكب

= شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم، امتد أمه إلى حادث يناسبه كرامة له، والله اعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 130.

(1) أبو يعلى.

(2) قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر، على مشاهدة مثله، فإن العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى، وإن لم يقع نظيره، وأحسن من هذه العبارة، وأسلم أن يقال لما =

وهو حال منه ومن الناس دفعةً، كقوله:

متى ما تلقني فربين ترجف روائف البيتك وتستطارا
بمعنى: إلا متراً مزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة
ويكلمهم. والعشي: من حين تزلو الشمس إلى أن تغيب،
و﴿الإيكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرئ:
والإيكار بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وإسحار، يقال: أثبتة
بكرًا بفتححتين.

فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى
منه؟ قلت: لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه
سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً.

وَلَوْ قَالَتْ أَلَيْسَ لِيَنَّيَ إِذَ اللَّهُ أَتَمَّنَكَ وَلَهَرَكِ وَأَمَّنَكَ عَلَى
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (١٧).

﴿يا مريم﴾ روي: أنهم كلموها شفاهاً معجزةً لذكراها،
أو إرهاباً لنبوة عيسى. ﴿إصطفاك﴾ أولاً حين تقبلت من
أمك وربك واختصك بالكرامة السنية، ﴿وطهرتك﴾ مما
يستفذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿وإصطفاك﴾
آخرًا ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من
غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

يَمْرِيءُ أَقْبَى لِرَبِّكَ وَأَسْجَرَى وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيِّ (١٨).

أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيأت
الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿واركعي مع الرَّاكِعِينَ﴾
بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو
انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم
ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها
من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع، وفيه من يركع،
فأمرت بأن تركع مع الرَّاكِعِينَ ولا تكون مع من لا يركع.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ آتِيَّتِ تُرْجِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمُ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (١٩).

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبا زكريا ويحيى
ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني: أن ذلك من الغيوب
التي لم تعرفها إلا بالوحي.

فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير
شبهة، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟
قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل
السماع والقراءة، وكانوا منكبين للوحي، فلم يبق إلا

المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة فنفيت على
سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له
ولا قراءة، ونحوه: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ (١) ﴿وما
كنت بجانب الطور﴾ (٢) ﴿وما كنت لبيهم إذ أجمعوا
أمرهم﴾ ﴿أقلامهم﴾ أزلهم، وهي قداهم التي طرحوها
في النهر مقترعين، وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون
بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها. ﴿إذ يختصمون﴾
في شأنها تنافساً في التكفل بها.

فإن قلت: ﴿أنهم يكفل﴾، بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دل
عليه ﴿يلقون أقلامهم﴾ كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم
يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ بِكَلِمَةٍ إِنَّهُ أَسَمَهُ الْمَرْيَمُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفْرِينَ (٢٠).

﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق
والفارق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك، كقوله:
﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ (٣) وكذلك ﴿عيسى﴾ معرب
من أيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في
الماء.

فإن قلت: ﴿إذ قالت﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو بدل من
﴿وإذ قالت الملائكة﴾، ويجوز أن يبدل من ﴿إذ
يختصمون﴾ على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان
واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

فإن قلت (٤): لم قيل ﴿عيسى ابن مريم﴾ والخطاب
لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات
فاعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا
إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين.

فإن قلت: لم نكر ضمير الكلمة؟ قلت: لأن المسمى بها
منكر.

فإن قلت (٥): لم قيل: ﴿اسمه المسيح عيسى ابن
مريم﴾ وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح
والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها
ويتميز من غيره، فكانه قيل: الذي يعر به ويتميز ممن
سواه مجموع هذه الثلاثة. ﴿وجيهاً﴾ حال من كلمة،
وكذلك قوله: ﴿ومن المقرَّبين﴾ ﴿ويكلم﴾ ﴿ومن
الصالحين﴾ أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح
انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجهة في
الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو

= المسيح في الآية إن أريد به التسمية، وهو الظاهر فما موقع قوله
عيسى ابن مريم، والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح
المسمى بهذه التسمية لم يلتزم مع قوله اسمه، ويجاب عن
الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه والمراد التسمية، وأما
عيسى ابن مريم، فخبير مبتدأ محذوف تقديره هو عيسى ابن
مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة
منقطعاً عن قوله المسيح، والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه
هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

(1) سورة القصص، الآية: 44.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

(3) سورة مريم، الآية: 31.

(4) قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها، أنى يكون لي ولد، ولم
يمسسنني بشر، فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد، ما يدل على
أنه من غير أب إلا أنه لما نسب إليها دل على أنها فهمت من ذلك،
كونه من غير أب، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه، فيقولون =

الفحما. وقيل: لم يخلق غير الخفاش. ﴿الأكمة﴾ الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمة أكمة غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروى: أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطلق منهم آتاه، ومن لم يطلق آتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿بإذن الله﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروى: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا: هذا سحر، فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرئ: تنخرون، بالذال والتخفيف.

﴿ولأحل﴾ رد على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جنتكم بآية من ربكم ولأحل لكم، ويجوز أن يكون مصدقاً مردوداً عليه أيضاً، أي: جنتكم بآية وجنتكم مصدقاً. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم، والثروب، ولحوم الإبل، والسلك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك، قيل: أحل لهم من السمك والطير ما لا صيغة له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ: حرم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عز وجل، أو موسى عليه السلام؛ لأن نكر التوراة دل عليه؛ ولأنه كان معلوما عندهم. وقرئ: حرم بوزن كرم. ﴿وجنتكم بآية من ربكم﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إن الله ربي وربكم﴾ لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البذل من آية، وقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ اعتراض.

فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت: لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل حيث هداه للنظر في آلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جنتكم بآية من ربكم﴾ أي: جنتكم بآية بعد أخرى مما نكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله: وجنتكم بآيات من ربكم فاتقوا الله لما جنتكم به من الآيات وأطيعوني فيما أَدْعُوكُم إِلَيْهِ، ثم ابتداء، فقال: إن الله ربي وربكم. ومعنى قراءة من فتح: ولأن الله ربي وربكم فاعبوه كقوله: ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾ (١) ويجوز أن يكون المعنى: وجنتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَصَابَكُمْ مِنْ عَذَابِي﴾
قَالَ الْغَارِبُونَ مَنْ أَصَابَكَ اللَّهُ عَذَابًا بِأَلَمٍ وَأَشَدَّ بِأَنَّا
سُئِلُوا (٥٦).

﴿فلما أحس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و ﴿إلى الله﴾ من صلة انتصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرنني، أو

الدرجة في الجنة. وكونه ﴿من المقرين﴾ رفعه إلى السماء، وصحبه للملائكة.

وَيَكُفُّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ (٥٦).

والمهد: ما يمهّد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر، و﴿في المهد﴾ في محل نصب على الحال، و﴿وكهلاً﴾ عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء.

قَالَتْ رَبِّي أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا مَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٧).

ومن بدع التفسير أن قولها: ﴿رب﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى: يا سيدي.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالزُّرْنَ وَالْإِنجِيلَ (٥٨).

﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجيهاً، أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع: ويعلمه بالياء.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّدُ الْآكَمَةَ وَالْأُنْثَى وَأُنْثِي الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتِخِبُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَنْخَرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْمَدُ لَكُمْ بِعَسَى الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١).

فإن قلت: علام تحمل ﴿ورسولاً﴾ و﴿مصدقاً﴾ من المنصوبات المتقدمة وقوله: ﴿إني قد جئتكم﴾ و﴿لما بين يدي﴾ يأبى حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق وفيه وجهان.

أحدهما: أن يضمن له وأرسلت على إرادة القول تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً باني قد جئتكم، ومصدقاً لما بين يدي، والثاني: أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق، فكانه قيل: وناطقاً باني قد جئتكم، وناطقاً باني أصدق ما بين يدي. وقرأ البيهقي: ورسول، عطفاً على كلمة ﴿إني قد جئتكم﴾ أصله أرسلت باني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل. و﴿إني لخلق﴾ نصب بدل من إني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي إني لخلق لكم. وقرئ: إني بالكسر على الاستئناف أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فأنفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فيكون طيراً﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: فأنفخها. قال: كالهبرقي تنحى ينفخ

لَمَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاتبه، فما معنى: ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلان كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وريماً فداهم الرجل بنفسه وحارب نونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لثمنهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بانهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يرو واحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَبِشَاطَرَةٍ لَّهُوَ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾

﴿إن هذا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسى ﴿لهو القصص الحق﴾ قرئ: بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون؛ لأن اللام تنزل من هو منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر إن.

فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ومن في قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾ بمنزلة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد الرد على النصارى في تثليثهم.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿١٣﴾

﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زيناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (١).

قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَكَاثَرُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْجُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَخَظَّ بِعَفْوَ رَبَّنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة. ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة

﴿فمن حاجك﴾ من النصارى ﴿فيه﴾ في عيسى ﴿من﴾ بعد ما جاءك من العلم ﴿أي﴾ من البينات الموجبة للعلم. ﴿تعالوا﴾ لهموا والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة، ﴿ندع لبناءنا ولبناءكم﴾ أي: يدع كل مني ومنكم ابناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة، ﴿ثم نتباهل﴾ ثم نتباهل، بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم.

والبهلة: بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، من قولك: أبهله إذا أهمله، وناقاة باهل لا صرار عليها، وأصل الابتاهل هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وروي: أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعقاب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نترك على دينك ونثبت على ديننا. قال: «فإذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم للمسلمين وعليكم ما عليهم». فأبوا. قال: «فلاني أناجزكم». فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزوننا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، على أن تؤدي إلينا كل عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستاصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» (١). وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأنخله، ثم جاء الحسين فأنخله، ثم فاطمة ثم علي ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» (٢) (٣).

فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في أخذ الجزية الحديث رقم: (3041).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل = (٤) سورة النحل، الآية: ٨٨.

= أهل البيت الحديث رقم: (6211).

يَنْ أُولَى الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٧﴾

ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا **«حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»** كما لم يكن منكم، أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح.

إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِذْنِهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

«إن أولى الناس بإبراهيم» إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب **«لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ»** في زمانه وبعده **«وهذا النبي»** خصوصاً **«والذين آمنوا»** من أمته. وقرئ: وهذا النبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفاً على إبراهيم.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُسْلِمُونَ وَمَا يَفْقَهُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٩﴾

«ودت طائفة» هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاداً إلى اليهودية. **«وما يضلون إلا أنفسهم»** وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، أو وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تُكَذِّبُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٠﴾

«بآيات الله» بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها وشهادتهم اعترافهم بأنها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول. **«وانتم تشهدون»** نعتة في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً، وانتم تعلمون أنها حق.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْفُتُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ سَلَمُونَ ﴿٨١﴾

قرئ: تلبسون بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتآزرا

وَوَلَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَأْيُتًا وَالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ مَأْمُورًا وَجَهَ الْأَنفَارِ وَالْقُرْآنَ أَخْرَجَهُ لَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٢﴾

«وجه للنهار» أوله قال:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليكن نسوتنا بوجه نهار والمعنى: اظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار **«واخفروا»** به في آخره، لعلهم يشكون في

والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: **«إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله»** يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بعض بشر مثلاً، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: **«اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً»** (١)، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: ليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرئ: كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن: سواء بالنصب بمعنى: استوت استواء. **«فإن تولوا»** عن التوحيد **«فقولوا لشهدوا بنا مسلمون»** أي: لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف باني أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تُكَذِّبُونَ فِي إِذْنِهِمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَيِّنَةٍ قَلِيلٍ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٨٣﴾

زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم وجابوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه، فقليل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بآزمنة متطالة. **«أفلا تعقلون»** حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

هَآتَيْنَكُم مَّا كُنْتُمْ تُبْغُونَ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ أَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٤﴾

«ها انتم هؤلاء» ها للتعنيد، وانتم مبتدأ، وهؤلاء خبره. و **«حاججتم»** جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعني: انتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم انكم جالتم **«فيما لكم به علم»** مما نطق به التوراة والإنجيل، **«فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم»** ولا نكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها انتم، هو آ انتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاء، ومعنى الاستفهام: التعجب من حماقتهم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلتها، **«والله يعلم»** علم ما حاججتم فيه **«وانتم»** جاهلون به.

مَا كَانَ إِذْنُهُمْ يَهْدِيكُمْ وَلَا نَصْرَانِيَّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَيَاةٌ مُّسْلِيًّا وَمَا كَانَ

والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: **أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ**، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى قوله: ﴿وَأَوْ يَحْجُوكُمْ﴾ على هذا؟ **قُلْتُمْ:** معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون هدى الله بدلاً من الهدى، وأن يؤتى أحد خبر إن على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ﴿وَأَوْ يَحْجُوكُمْ﴾ حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حججتكم، وقرئ: أن يؤتى أحد، على إن النافية وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع نبينا، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، حتى يحاجوكم عند ربكم. يعني: ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿وَلَا تُمْنُوا إِلَّا مَنْ تَبَعَ نَبِيِّكُمْ﴾ كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأن قولهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع نبينا. إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغُلَامٍ يَدُّوهُ إِلَيْكَ وَيَهْتُمُّ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِدِينَارٍ لَا يَدُّوهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥).

عن ابن عباس ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغُلَامٍ﴾ هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فآذاه إليه، و﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِدِينَارٍ﴾ فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجدده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم. ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البيئة عليه. وقرئ: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرهما بغير وصل، ويسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تتأمنه بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دل عليه لم يؤده أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا،

دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم، إلا لامر قد تبين لهم فيرجعون برجعوكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرننا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أول النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة لعلهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ رِسَالَتِي قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضِلُّ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٦) يَعْنِي رِجْعِيهِمْ مَنْ يَكْفُرُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْكَبِيرِ (٧٧).

﴿وَلَا تُمْنُوا﴾ متعلق بقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ وما بينهما اعتراض أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرباباً: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تقشوه إلا إلى أشياكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوههم إلى الإسلام^(١). ﴿وَأَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾^(٢) والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنه في معنى الجمع بمعنى: ولا تؤمنوا لغير اتباعكم، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحنة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى: الاعتراض؟ **قُلْتُمْ:** معناه أن الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كيحكم وحيلكم، وزيك تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضِلُّ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق، أو يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَبَعَ نَبِيِّكُمْ﴾ على معنى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع نبينا، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغبط لهم. وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد

= الاستفهام، وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه، والله أعلم.

(2) قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

(1) قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب؛ لأن الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله، أنه أنكر عليهم، وبوخهم على ما وقع منهم، وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بني إسرائيل، لأجل العليتين المنكورتين، فهو إثبات محقق، ويمكن أن يقال: روعيت صيغة=

وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجلاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم. وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»^(١). وعن ابن عباس: أنه سأل رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال: فنقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل إنهم إذا أدوا الجزية لم يحل لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم **«ويقولون على الله الكذب»** بادعائهم أن ذلك في كتابهم **«وهم يعلمون»** أنهم كانوا يبيعون.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِ الْمُتَّقِينَ (٧٦).

«بلى» إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: **«من أوفى بعهده»** جملة مستأنفة مقرزة للجملة التي سنت بلى مسدها، والضمير في بعده راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه.

فإن قلت: فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل لأنهم إذا وفوا بالعهد وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لأتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، وينحل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقائه من الكفر وأعمال السوء.

فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمًّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا تَخْلَقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْرِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُكْفَمُ وَلَا يُرَكَّبُ وَهُمْ وَعَذَابُ آلِهِمْ (٧٧).

«يشترون» يستبدلون **«بعهد الله»** بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم، **«وإيمانهم»** وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمن به ولننصرنه، **«ثمناً قليلاً»** متاع الدنيا من التروس والارتشاء، ونحو ذلك. وقيل: نزلت في أبي رافع ولبلابة ابن أبي الحقيق وحبي بن

أخطب حرفوا التوراة وبيلوا صفة رسول الله ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعث الذي نعت لنا. ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس: نزلت في، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر فاخصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهدك أو يمينه»، فقلت: إنني يحلف ولا يبالي. فقال: «من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»⁽²⁾. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: **«بعهد الله»**، بقوي رجوع الضمير في بعده إلى الله. **«ولا ينظر إليهم»** مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتدائه به وإحسانه إليه. **«ولا يزكهم»** ولا ينثي عليهم.

فإن قلت: أي فرق بين استعمله فيمن يجوز عليه النظر، وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثم نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر.

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرِيقًا يُلوِّنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُ وَمُمْ يَمْلِكُونَ (٧٨).

«لفریقاً» هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحبي بن أخطب وغيرهم. **«يلوون السنتهم بالكتاب»** يفتلون بقرآته عن الصحيح إلى المحرف. وقرأ أهل المدينة يلوون بالتشديد، كقوله: **«لوا رؤسهم»**⁽³⁾. وعن مجاهد وابن كثير: يلوون، ووجه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة ثم خففوها بحنفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في **«لتحسبوه»**؟ قلت: إلى ما دل عليه يلوون السنتهم بالكتاب وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون السنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب. وقرئ: ليحسبوه بالياء بمعنى يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، **«ويقولون هو من عند الله»** تأكيد لقوله: **«هو من الكتاب»** وزيادة تشنيع عليهم وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم

(2) عبد الرزاق في مصنفه 91/6، الحديث رقم: (10102).

(3) سورة المنافقون، الآية: 5.

(1) ذكره الطبري في تفسيره، (227/3)، وذكره السيوطي في الدر

المنثور (44/2)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (51/2).

وقرىء: ولا يامرکم، بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾ وفيه وجهان: أحدهما أن تجعل لا مزيداً لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾⁽³⁾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الانداز ثم يامر الناس بأن يكونوا عبداً له ويامرکم ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ كما نقول ما كان بد أن اكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة، والمعنى أن رسول الله ﷺ كان ينهي قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذ رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يامر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله: ولن يامرکم، والضمير في ولا يامرکم وأيامرکم لبشر، وقيل لله، والهمزة في أيامرکم للإنكار. ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأنوه أن يسجدوا له.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول ميثاق الله وعهد الله كائنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم. والثالث أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبي وابن مسعود: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب. واللام في ﴿لما آتيتكم﴾ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي لتؤمنن لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن ساء مسد جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى الذي آتيتكموه لتؤمنن به وقرىء: لما آتيناكم، وقرأ حمزة: لما آتيتكم بكسر اللام، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، على أن ما مصدرية والفعلان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخله للتعليل على معنى أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه لأجل

لا يعرضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك، لفرط جراتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَظَّهَرَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلُ وَالنَّبِيُّ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى، وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»⁽¹⁾ فنزلت. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله»⁽²⁾. ﴿والحكم﴾ والحكمة هي السنة، ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ ولكن يقول: كونوا، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة. وعن الحسن: ربانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني العالم العامل المعلم. ﴿بما كنتم﴾ بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكثر روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء توفقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقرىء: تعلمون من التعليم وتعلمون من التعلم. ﴿تدرسون﴾ تقرأون، وقرىء: تدرسون من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم وأنزل ونزل، وتدرسون من التدريس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس، كقوله: لتقرأه على الناس، فيكون معناها معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع حيث لم تثبت النسبة إليه إلا للتمسكين بطاعته.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٣﴾

= الضمير، وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً، ورسول خبر الموصول، ولم يرد الزمخشري إلا الأول، وهو ظاهر الآية.

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(3) سورة آل عمران، الآية: 79.

(4) قال أحمد: يزيد على أن قوله رسول فاعل جاء؛ لأنه لا يخلو من

﴿وكرها﴾ بالسيف، أو بمعانيته ما يلجئ إلى الإسلام كفتن الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت. فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال بمعنى طائعين ومكرهين.

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا نُبَأٌ يُصَدِّقُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا قَوْلَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٦﴾

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان، فلذلك وحّد الضمير في ﴿قل﴾، وجمع في ﴿آمننا﴾. ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبه.

فإن قلت: لم عدّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين وأخرى بالآخر. ومن قال: إنما قيل: علينا لقوله قل، ولينا لقوله قولوا، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف ألا ترى إلى قوله: ﴿يما أنزل إليك﴾⁽³⁾ ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾⁽⁴⁾، وإلى قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾⁽⁵⁾، و﴿ونحن له مسلمون﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١٦٧﴾

ثم قال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ يعني: التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿دينًا فلن يقبل منه... من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقيد للشباع، وقرئ: ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام. ﴿كيف يهدي الله قوماً﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودلّ على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرسول حق، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة وهم اليهود، كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم: طعمة بن أبيرق ووحوح بن الأسلت والحرث بن سويد بن الصامت.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْكِتَابُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰلِغِينَ ﴿١٦٨﴾

أنى آتيتكم الحكمة، وإن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرتهم موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون ما موصولة.

فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: ﴿ثم جاءكم﴾ لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة لأنك لا تقول للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت⁽¹⁾: بلى لأن ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتاكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرتة. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به. وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إصري﴾ عهدي، وقرئ: أصري بالضم، وسمي إصرأً لأنه مما يؤصر أي: يشد ويعد، ومنه الإصرار الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصرار. ﴿فأشهدوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. ﴿ولنا على نلكم﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿من الشاهدين﴾ وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة.

مَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿ومن تولى بعد نلك﴾ الميثاق والتوكيد ﴿فالولئك هم الفاسقون﴾ أي: المتمردون من الكفار.

أَمَّا رِبِّينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ ﴿١٧٠﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملةً على جملة، والمعنى: فالولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغيون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿إله﴾ يتولون، ﴿فغير دين الله يبغيون﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروي: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك⁽²⁾، فنزلت. وقرئ: يبغيون بالياء وترجعون بالياء، وهي قراءة أبي عمرو، لأن الباغيين هم المتولون والراجعون جميع الناس. وقرأنا: بالياء معاً وبالياء معاً. ﴿طوعاً﴾ بالنظر في الألة والإنصاف من نفسه،

(3) سورة النساء، الآية: 166.

(4) سورة المائدة، الآية: 48.

(5) سورة آل عمران، الآية: 72.

(1) قال أحمد: يريد أن الكلام، وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد، فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

(2) (الواحد في أسباب النزول ص 65 - 66).

مقبول التوبة إذا تاب فما معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ؟﴾
قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل
توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن
اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتوتن على الكفر،
داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين لن تقبل بغير فاء،
وفي الأخرى فلن يقبل؟ قلت: قد أودن بالفاء أن الكلام بني
على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو
الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا
ليل فيه على التسيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم.
لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك:
فله درهم.

فإن قلت: فحين كان معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾
بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر
مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من
قساوة القلوب وركوب الرين وجره إلى الموت على الكفر؟
قلت: لأنه كم من مرتد مزاد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا
يموت على الكفر.

فإن قلت: فاي فائدة في هذه الكناية، أعني إن كني عن
الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة. قلت: الفائدة فيها
جلية وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز
حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ
الأحوال واشدها، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف
من أجل اليأس من الرحمة.

إن الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَوَّابُوا وَهُمْ كَافَرٌ فَكَانَ يُقْبَلُ مِنْ أَجْلِهِمْ تَبَرُّهُ
الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَخَرْنَا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَجْوَى (١١).

﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: ذهب بالرفع
رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال.
فإن قلت⁽²⁾: كيف موقع قوله: ﴿ولو افترى به﴾؟ قلت:
هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل: فلن تقبل من

جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَسَنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَلِيلِينَ
فِيهَا لَا يَنْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨).

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وشهدوا﴾؟ قلت: فيه
وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأن
معناه بعد أن آمنوا كقوله تعالى: ﴿فأصنقوا﴾^(١) وقول
الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا
وقد شهدوا أن الرسول حق. ﴿والله لا يهدي﴾ لا يلطف
بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩).

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم
والارتداد، ﴿وأصلحوا﴾ ما أقسدا أو وبخلوا في الصلاح.
قيل: نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على رذته
وأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة؟ فأرسل إليه
أخوه الجلاس بالآية، فاقبل إلى المدينة فتاب، وقبل
رسول الله ﷺ توبته.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ (٩٠).

﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ هم اليهود كفروا بعبسئ والإنجيل
بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم
بمحمد والقرآن، أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به
مؤمنين قبل بيعته، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك
وطعنهم فيه في كل وقت وعداوتهم له ونقضهم ميثاقه
وفتنتهم للمؤمنين وصددهم عن الإيمان به وسخريتهم بكل
آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة.
ازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نترصب بمحمد ريب
المنون وإن أردنا الرجعة نافتقنا بإظهار التوبة.

فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب
إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن
ظاهره، ثم نقرر وجهاً يطابق الآية، وذلك أن هذه الواو المصاحبة
للشرط تستدعي شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به
ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على
المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً، ولو أساء،
فهذه الواو عطف المذکور على محذوف تقديره أكرم زيداً، لو
أحسن ولو أساء، إلا أنك نيهت بإيجاب إكرامه إن أساء، على أن
إكرامه إن أحسن بطريق الأولى، ومنه كونوا قوامين بالقسط
شهداء لله، ولو على أنفسكم معناه، والله أعلم لو كان الحق على
غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم، فأوجبه
تنبيهاً على ما هو أسهل، وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو
في مثل هذه المواضع، وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا
التمط ظاهراً؛ لأن قوله، ولو افترى به يقتضي شرطاً آخر.

= محذوفاً، يكون هذا المذکور منبهاً عليه بطريق الأولى، وهذه الحال
المذكورة، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً، هي حالة أجد
الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى
بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى لن يقبل من أحد منهم
فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون
الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً، هو أولى بالقبول منها، فإذا
انتفى حيث كان أولى فلان ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا
كله بيان للباغت له على التقدير المذكور، وأما تنزيل الآية عليه،
ففسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل
وجه، وأقرب مأخذ إن شاء الله، فنقول قبول الفدية التي هي ملء
الأرض ذهباً، يكون على أحوال منها أن يؤخذ منه على وجه القهر
فدية عن نفسه، كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول،
ومنها أن يقول المقتدي في التقدير، أقدي نفسي بكذا، وقد لا
يفعل، ومنها أن يقول هذا القول، وينجز المقدار الذي يفدي به
نفسه، ويجعله حاضراً عتيقاً، وقد يسلمه مثلاً لمن يامن منه قبول =

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ فَاَعْتَقَهَا^(٦). ونزل بابي نَزْرٍ ضِيف فَقَالَ لِلْمَرَاي: اثْنَتَيْ بَخِيرِ إِلَيَّ، فَجَاءَ بِنَاقَةٍ مَهْزُولَةٍ، فَقَالَ: خَنَنْتَنِي، قَالَ: وَجَدْتُ خَيْرَ الْإِبِلِ فَحَلَّهَا، فَكَرَرْتُ يَوْمَ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ. فَقَالَ: إِنَّ يَوْمَ حَاجَتِي إِلَيْهِ لِيَوْمَ أَوْضَعُ فِي حَفْرَتِي. وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: حَتَّى تُنْفِقُوا بَعْضَ مَا تَحِبُّونَ^(٧)، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ فِي مِمَّا تَحِبُّونَ لِلتَّبَعِيضِ، وَنَحْوِهِ: أَخَذْتُ مِنَ الْمَالِ. وَمَنْ فِي ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لِتَبْيِينِ مَا تُنْفِقُوا أَيَّ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ طَيِّبًا تَحِبُّونَهُ أَوْ خَبِيثًا تَكْرَهُونَهُ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ تُنْفِقُونَهُ فَمَجَازِيكُمْ بِحَسَبِهِ.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّهِ إِذْ أُنْزِلَ إِلَّا مَا هَرَمَ لِأَرْكَوَيْلَ عَلَى نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ قَائِلِينَ إِنَّا كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٨).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر، يقال: حل الشيء حلاً، كقولك: نلت الدابة ذلاً، وعزَّ الرجل عزراً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيبه لحله وحرمة^(٩)، ولذلك استوى في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لَا هَنْ حَلَّ لَهُمْ﴾^(٩). والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل والبانها، وقيل: العرو، كان به عرق النسا فنذر إن شفي أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداءً، والمعنى: أَنَّ المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم، لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوه إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه. وهو ردٌّ على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة سلاحتهم بما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَبُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ﴾^(١٠) إلى قوله

أَحَدُهُمْ فَنِيَّةٌ وَلَوْ افْتَدَى بِمِلَّةِ الْأَرْضِ ذَهَبًا^(١١)، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ وَلَوْ افْتَدَى بِمِثْلِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾^(١٢) والمثل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة، تريد مثله: ولا هيثم الليلة للمطبخ، وقضية ولا أبا حسن لها، تريد ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن. كما أنه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا تريد أنت، وذلك أَنَّ المثلين يسد أحدهما مسد الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدَّق به ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرئ: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً، على البناء للفاعل وهو الله عزَّ وعلا، ونصب ملء ومل لرض بتخفيف الهمزتين.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَالِمٌ

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا برَّ الله وهو ثوابه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها، كقوله: ﴿انْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(١٣) وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إِنَّ أحب أموالي إليَّ بريحاً فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رباح، أو مال رائج، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أقبل يا رسول الله. فقمسها في أقاربه^(١٤). وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله. فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فكان زيدا وجد في نفسه وقال: إِنَّمَا أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: «أما إِنَّ الله تعالى قد قبلها منك»^(١٥). وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبت، فقال:

= لأنه نَبِهَ بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً وعلى عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى.

(2) سورة الزمر، الآية: 47.

(3) سورة البقرة، الآية: 267.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: استعذاب الماء الحديث رقم: (5611)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين... الحديث رقم: (2312).

(5) الطبري وعبد الرزاق في تفسيرهما.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) راجع الدر المنثور.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطيب عند الإحرام الحديث رقم: (1539)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام الحديث رقم: (2818).

(9) سورة الممتحنة، الآية: 10.

(10) سورة النساء، الآية: 160.

= فديته، وإذا تعددت الأحوال، فالمراد في الآية إبلج الأحوال، واجبرها بالقبول، وهو أن يفدي بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم، ويسلمه وينجزه اختياراً ومع ذلك لا يقبل منه، فمجرد قوله أبذل المال، وأقدر عليه، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون دخول الواو، والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثم أحوالاً آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة، وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾، والله أعلم، وهذا كله تسجيل بانه لا محيص، ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلاس في ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار، ولو سلمتها إلي في يدي هذه، فتأمل هذا النظر، فإنه من السهل الممتنع، والله ولي التوفيق.

(1) قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التاويل المتقدم؛

وهو الله، ومعنى وضع الله بيتاً للناس أنه جعله متعبداً لهم، فكانه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أول مسجد وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس». وسئل: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم، فبنته العمالة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أول بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بالفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فنحيت الأرض تحته. وقيل: هو أول بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بالفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات. **﴿الذي ببكة﴾** البيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام.

ومكة وبكة: لغتان فيه، نحو قولهم: النبط والنبيط في اسم موضع بالهدناء، ونحوه من الاعتقاب أمر راتب وراتم، وحمل مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكة إذا زحمة لازدحام الناس فيها. وعن قتادة: بيك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذا الشريب أخنته الأكه فخله حتى يبك بكة
وقيل: تلك أعناق الجابرة أي: تنقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. **﴿مباركاً﴾** كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار. **﴿وهدى للعالمين﴾** لأنه قبلتهم ومتعبدتهم.

يُذِيعُ آيَاتِ يَسْتَمِعُ مَعَامُ إِزْهِي وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى
النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنِ الْعَالَمِينَ **﴿٤٧﴾**

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان لقوله: **﴿آيات بينات﴾**. **﴿فإن قلت﴾**⁽⁶⁾: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت: فيه

تعالى: **﴿عذاباً أليماً﴾**⁽¹⁾ وفي قوله: **﴿وعلى الذين هادونا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾**⁽²⁾ إلى قوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾**⁽³⁾ وجود ما غاظهم واشمازوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم. فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرا إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدت من مساوئهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم. **﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾** أمر بأن يحاجهم بكتابتهم ويكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعون. فروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة ويهتوا وانتقلوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

فَمَنْ أَفَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ **﴿٤٨﴾**

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا رِيسًا حَسِبًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **﴿٤٩﴾**
﴿قل صدق الله﴾ تعريض يكذبهم، كقوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾**⁽⁴⁾ أي: ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾** وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم وبنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم والزمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ **﴿٥٠﴾**
﴿وضع للناس﴾ صفة لبیت، والواضع هو الله عز وجل، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل

= المساجد، ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1161).

(1) سورة النساء، الآية: 161.

(2) سورة الأنعام، الآية: 146.

(3) سورة الأنعام، الآية: 146.

(4) سورة الأنعام، الآية: 146.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى:

﴿وهدينا لداود سليمان﴾ الحديث رقم: (3425)، ومسلم في كتاب: =

(6) قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى: **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾** تلك أمانتهم. والوجه الثاني اشتماله على آيات: لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية وغرضه فيها إلى الكعبين آية، والآنة بعض الصخر دون بعض آية، وإيقاظه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع =

وجهان:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (1).

والثاني: اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يراد: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله لأن الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات. كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما. ونحوه في طي النكر قول جرير: كانت حنيفة اثلاثاً فثلثهمو من العبيد وثلث من موالها ومنه قوله عليه السلام: «حبيب إلي من بنيكم ثلاث: الطبيب والنساء وقرة عيني في الصلاة» (2). وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المنني في رواية قتيبة: آية بينة، على التوحيد، وفيها دليل على أن مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان.

فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات، وقوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، جملة مستأنفة، إما ابتدائية وإما شرطية؛ قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى لأن قوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ دل على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات، مقام إبراهيم وأمن داخله، ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بينة من دخله كان آمناً صح، لأنه في معنى قولك: فيه آية بينة أمن من دخله.

فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ قلت: فيه قولان: أحدهما أنه لما ارتفع بنیان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعتة على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه

ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ معنى قوله: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ (3)، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: رب اجعل هذا البلد آمناً. وكان الرجل لو جر كل جريدة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه (4). وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار. وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً» (5). وعنه عليه الصلاة والسلام: «الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة» (6). وعن ابن مسعود: وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر» (7). وعن النبي ﷺ: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام» (8). ﴿من استطاع﴾ يدل من الناس، وروي: أن رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة (9)، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقرته لزمه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة. وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه، بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكنك يجب عليه الحج. والضمير في ﴿إليه﴾ للبيت أو للحج، وكل ما تاتي إلى الشيء فهو سبيل إليه، (10) وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: ﴿وش على الناس حج البيت﴾ يعني: أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده، ومنها

(7) نكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 34960).

(8) قال الزيلعي غريب 201/1.

(9) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (2998) عن ابن عمر. وكذلك ابن ماجه عن ابن عمر في كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2896)، والحاكم عن أنس في المستدرک 442/1، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2897)، والدارقطني في كتاب: الحج 215/2.

(10) في هذا الكلام أنواع من التوحيد، منها قوله: ﴿وش على الناس﴾ أي: في رقابهم لا ينفكون عنه إلخ.

= كثرة عدوه من المشركين، وأهل الكتاب، والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

(1) سورة النحل، الآية: 120.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (128/3، 285).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 67.

(4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 153/5 الحديث رقم: (9228).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك، فضل الحج والعمرة الحديث رقم: (4158)، وعبد الرزاق في المصنف 267/9 الحديث رقم: (17166)، والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (193)، والطبري في الصغير ص 304 الحديث رقم: (814).

(6) نكره المجولني في «كشف الخفاء» (419/1).

تَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿والله شهيد﴾ الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي نلتكم على صلح محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته⁽⁹⁾.

قُلْ يَكْفُرُ الْكَذِّبُ لِمَ صَدَّقْتَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَعُوذًا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَكْمُلُونَ ﴿١٩﴾ يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطَيَّعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِرُؤُوسِهِمْ بَدَ إِتْنَيْكُمْ كَفَرِينَ ﴿٢٠﴾

قرأ الحسن: تصدق من أصدّه، ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين حق، علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد اللخول فيه بجهدهم. وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فنكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله. ﴿تبغونها عوجاً﴾⁽¹⁰⁾ تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُوَ مُحَالٌ؟ قُلْتُ: فِيهِ مَعْنَانِ:

أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وإتفاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. ﴿وأنتم شهداء﴾ أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضالّ مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظام أمورهم،

أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، والثاني، أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ومنها قوله: ﴿ومن كفر﴾⁽¹⁾ مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»⁽²⁾. ونحوه من التغليظ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»⁽³⁾، ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عن العالمين﴾ وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب. وروي: أنه لما نزل قوله: ﴿والله على الناس حج البيت﴾، جمع رسول الله ﷺ أهل الألبان كلهم فخطبهم فقال: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فأمنت به ملة واحدة وهو المسلمون وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه. فنزل: ومن كفر⁽⁴⁾. وعن النبي ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»⁽⁵⁾. وروي: «حجوا قبل أن لا تحجوا. حجوا قبل أن يمنع البر جانب»⁽⁶⁾. وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تثبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت⁽⁷⁾. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا⁽⁸⁾. وقرئ: حج البيت، بالكسر.

قُلْ يَكْفُرُ الْكَذِّبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا

= الصلاة الحديث رقم: (1079)، والحاكم في المستدرک 1/ 6-7. الترمذي في کتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2622).

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک عن علي 1/ 448. وابن أبي شعبة 15/ 49، كتاب: الفتن، باب: من كره الخروج...

(6) أخرجه الدارقطني في کتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (294).

(7) قال الزيلعي غريب 1/ 207.

(8) عبد الرزاق في مصنفه 13/ 5، الحديث رقم: (8827).

(9) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 67. والطبري في تفسيره.

(10) قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول، حيث قال تطلبون لها اعوجاجاً تنقيص من المعنى، وأنتم من إعرابه، معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به، وعوجاً حال وقع فيها المصدر، الذي هو عوجاً موقع الاسم، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في نهم وتوبيخهم، والله أعلم.

(1) قال أحمد: قوله إن المراد بمن كفر من ترك الحج، وغير عنه بالكفر تغليظاً عليه فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج، جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد، لا إلى مجرد الترك، وأما الزمخشري فيستحل ذلك، لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من رتبة الإيمان، ومن اسمه ومن حكمه؛ لأنه عنده غير مؤمن، ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما نكرناه هذا، إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج، ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، الحديث رقم: (812)، وأخرجه الدارمي عن أبي أمامة، كتاب: المناسك، باب: من مات ولم يحج الحديث رقم: (1785)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في المناسك الحديث رقم: (3978)، وعن أبي أمامة 3979.

(3) أخرجه أحمد في المسند 346/ 5، والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2621)، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة الحديث رقم: (463) وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن ترك =

مرفوعاً⁽¹⁾. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، والتقاة: من اتقى كالتؤدة من أئاد. **﴿وَلَا تَمُوتُونَ﴾** معناه: ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تاتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَأَذْكُرُوا يَمَنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِنَّ كُفْرَ أَهْدَاءَ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَنَذَرُكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(١٧).

قولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهد إلى عبادته وهو الإيمان والطاعة، أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»⁽²⁾. **﴿وَلَا تَفَرُّقُوا﴾** ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما ياباه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فالف الله بين قلوبهم بالإسلام وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا **﴿إِخْوَانًا﴾** متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله. وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم فوَقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفا الله تلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله ﷺ. **﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾** وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، **﴿فَنَذَرُكُمْ مِنْهَا﴾** بالإسلام⁽³⁾، والضمير للحفرة

وهو الأحبار. **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾** وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

قيل: مرشاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاضه ذلك، حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فامر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم وينكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل، فقتلوا القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح: فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «اتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فالتقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١٨).

﴿وكيف تكفرون﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز **﴿تتلى عليكم﴾** على لسان الرسول غضة طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم. **﴿ومن يعتصم بالله﴾** ومن يتمسك ببينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. **﴿فقد هدى﴾** فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول إذا جئت فلاناً: فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل، فهو يخبر عنه حاصل، ومعنى التوقع في قد ظاهر لأن المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١٩).

﴿حق تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، وينكر فلا ينسى. وروي

(1) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/101).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن، الحديث رقم: (2906)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، والحاكم في المستدرک 1/555، وأخرجه ابن أبي شيبة 482/10، كتاب: فضائل القرآن، باب: في التمسك بالقرآن.

(3) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة، فلا يحتاج إلى تأويله المنكور، كما تقول أكرمت غلام هند، وأحسن إليها، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا، فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة، التي يتوقع الهوى فيها، فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون =

«أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم الله وأوصلهم»⁽⁴⁾ وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شئني الفاسقين وغضب الله غضب الله له⁽⁶⁾. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه، فاعلم أنه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للماور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقيح.

فإن قلت: ما طريق الوجوب؟ قلت: قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل، وعند أبي هاشم السمع وحده.

فإن قلت: ما شرائط النهي؟ قلت: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأن الواقع لا يحسن النهي عنه وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث.

فإن قلت: فما شروط الوجوب؟ قلت: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة.

فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت: يبتدئ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر، قال الله

أو للنار أو للشفا، وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة وهو منها، كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وشفا الحفرة وشفتها، حرفها بالتذكير والتانيث، ولأما واو، إلا أنها في المنكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبية.

فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقيحود على حرفها مشفين على الوقوع فيها. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك البيان البليغ، ﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تزدادوا هدى.

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤﴾

﴿ولتكن منكم أمة﴾⁽¹⁾ من للتبعيض،⁽²⁾ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر. فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلف في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المأصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون﴾⁽³⁾ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ هم الإخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي ﷺ أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال:

= لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله من كان عبداً لله، وملانكته، ورسله، وجبريل، وميكال، وكقوله: ﴿فيهما فاكهة ونخل وزمان﴾ وكقوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وشبه ذلك؛ لأن الإقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر، يفيد تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناول، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهى لا يعنو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال، فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً، وفي تنبيه أن الذكر على وجهين، ما لا يخفى من العناية، والله أعلم، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المكر ببعض أنواع الخير، فإذا ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

(4) أخرجه أحمد في المسند 432/1.

(5) ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (2104/6) وكذب العمال (5564).

(6) أبو نعيم في الحلية 74/1.

= ابلغ وأوقع، مع أن اكتساب التانيث من المضاف إليه قد عدّه أبو علي في التعليل، من ضرورة الشعر خلاف رايه في الإيضاح نقله ابن يسعون، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا، إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «المرتج حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، وإلى قوله تعالى: ﴿أئن أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنين على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله ﴿هار﴾، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا التبعيض، وتذكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخطب به إلا الخواص، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد﴾، فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: ﴿وتعيها أنن واعية﴾، حتى ورد في التفسير أن المراد أنن واحدة مخصوصة، وهي أنن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص، =

تعالى: ﴿فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾⁽¹⁾ قال: فقالتوا.

فَإِنْ قُلْتُ: فمن يبشره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائعه وقد أجمعوا أنّ من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنه معلوم قبجه لكل أحد، وأما الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عنتها.

فَإِنْ قُلْتُ: فمن يؤمر وينهى؟ قلت: كل مكلف وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوبوها كما يؤخّون بالصلاة ليمرنوا عليها.

فَإِنْ قُلْتُ: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ قلت: نعم يجب عليه لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا؛ وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل. فقال: وأينا يفعل ما يقول، وذّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف قيل: يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ قلت: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجاء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضل، كقوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾⁽²⁾.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ⁽³⁾.

«كالذين تفرقوا واختلفوا» وهم اليهود والنصارى، «من بعد ما جاءهم البينات» الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية وأشباههم⁽³⁾.

يَوْمَ يَنْصُرُهُمُ رَبُّهُمْ وَيَسُدُّ لَهُمُ الْبَابَ فَأُولَئِكَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ⁽⁴⁾.

«يوم تبيض وجوه» نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار انكر. وقرئ: تبيض وتسود وتسود بكسر حرف المضارعة، وتبياض وتسود، والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق، وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته، وأشرق وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل، وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته، وأسودت صحيفته، وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة

رحمته من ظلمات الباطل وأهله. «أكفرتم» فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء. وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق لمعت عيناه، ثم قال: «كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء» فقال له أبو غالب: شيء تقول براك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بل سمعت من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عينك! قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده، فقال: إن بارضك منهم كثيراً فأعانك الله منهم⁽⁴⁾. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم «ألمست بربكم قالوا بلى».

وَأَمَّا الَّذِينَ آيَنَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا فِيهَا خَالِدُونَ⁽⁵⁾.
«ففي رحمة الله» ففي نعمته وهي الثواب المخلد. **فَإِنْ قُلْتُ:** كيف موقع قوله: «هم فيها خالدون» بعد قوله: «ففي رحمة الله»؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ⁽⁶⁾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ⁽⁷⁾.

«تلك آيات الله» الواردة في الوعد والوعيد، «تنتلوها عليك» ملتبسة «بالحق» والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه. «وما الله يريد ظلماً» فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن، ونكر ظلماً. وقال: «للعالمين» على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم بمن يصفه بإرادة القباح والرضا بها⁽⁸⁾.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُكِّرْتُمْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِمَّنْهُمْ الْيَهُودُ وَكَأَكْرَمُ الْفَرِيسُونَ⁽⁹⁾.

كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع

= في المستدرک 149/2.

(4) إن أراد بهم: أهل السنة ومن وافقهم، كعائته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة.

(5) يريد: أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف.

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) سورة البقرة، الآية: 238.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، الحديث رقم: (3000)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في نكر الخوارج الحديث رقم: (176)، وأحمد في المسند 253/5، والحاكم =

أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فَأَنْ قُلْتُ: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ **قُلْتُ:** جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوك ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فَأَنْ قُلْتُ: فما معنى التراخي في ثم؟ **قُلْتُ:** التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولييتهم الأدبار.

فَأَنْ قُلْتُ: ما موقع الجملتين، أعني: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿وَلَنْ يَضُرَّوْكُمْ﴾؟ **قُلْتُ:** هما كلامان واردان على طرق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى نكر فلان فلان من شأنه كيت وكيت. ولذلك جاء من غير عاطف.

ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّهُ إِنْ مَا يُفْعَلُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَبِحَبْلِ مِنَ الْآثَارِ وَبِأَمْرِ يُغْفَرُ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ السَّكَنَةَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١٧).

﴿بحبل من الله﴾ في محل النصب على الحال بتقدير إلا معتمدين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عالم الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس. يعني: ذمة الله وذمة المسلمين. أي: لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ استوجبه، و﴿ضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. ثم قال: ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه: ﴿مما خطيأتهم أغرقوا﴾، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وكلهم أموال الناس بالباطل.

لَسَوْا سَرَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهَ الْآخِرَ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١٨) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآمُرُوا بِالْعُرْوَةِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاسْتُرِعُوا فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٩).

= مطلقاً، ويزيد هذا الترتي بدخول ﴿ثم﴾ دون الواو، فإنها تستعار معنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كانه قال: ثم مهنا ما هو أعلى في الامتنان، واسمع في رتب الإحسان، وهو: أن هؤلاء قوم لا ينصرون﴾ البتة، والله أعلم.

طارئ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١) ومنه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، كأنه قيل: وجدتم خير أمة. وقيل: كنتم في علم الله خير أمة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم منكرين بأنكم خير أمة موصوفين به. و﴿أخرجت﴾ أظهرت، وقوله: ﴿تَامُرُونَ﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله. ويقولون: تؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين تلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ إيمانهم بالله﴾ لكان خيراً لهم. لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعده على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين. ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، و﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر.

لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَضُرُّوكُمْ يَضُرُّوكم الْآذَانُ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكم (٢٠).

﴿لن يضرركم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتصرأ على أذى، يقول من طعن في الدين أو تهديداً ونحو ذلك. ﴿وإن يقاتلوك يولوكم الأنبار﴾ منهزمين ولا يضرركم بقتل أو أسر. ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلوي بهم وتوبيخهم وتضليلهم، وتهديدهم بأنهم لا يقدر أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالي به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وإن عاقبة أمرهم الخذلان والذل.

﴿فإن قلت﴾ (٢) هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ **قلت:** عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. **فإن قلت:** فاي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ **قلت:** لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية إنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما

(1) سورة النساء، الآية: 96.

(2) قال أحمد: وهذا من الترتي في الوعد، عما هو أدنى، إلى ما هو أعلى؛ لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار، عند المقابلة، ثم ترتي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح، من أن هؤلاء لا ينصرون. =

الضمير في ﴿لَيْسُوا﴾ لأهل الكتاب أي: ليس أهل الكتاب مستويين. وقوله: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كما وقع قوله: ﴿تَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾⁽¹⁾ ببيان لقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾⁽²⁾ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام. وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما يفعلون وأدل على حسن صورة أمرهم. وقيل: عنى صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم»⁽³⁾. وقرأ هذه الآية. وقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أُمَّةٌ قَائِمَةٌ. تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً وكفروهم بيع الكتب والرسل نون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا مدهنيين، ومن المسارعة في الخيرات لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها.

والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وأثر الفور على التراخي. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مَنْ﴾ جملة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثنائه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين.

وَمَا يَتَعَمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَكِبِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا أَنْ تَنْتَهِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾⁽⁴⁾ في معنى توفية الثواب، نفى عنه نقيض ذلك.

فَإِنْ قُلْتَ: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان

إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفروها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قليل: فلن تحرموه، بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ: يفعلوا ويكفروه بالياء والتاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ ظُلُمًا أُنْفُسَهُمْ فَاتَّلَسَتْ وَفَاظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أُنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾.

الصر⁽⁵⁾: الريح الباردة، نحو الصرصر. قال: لا تملعن آتا وبين تضربهم نكباء صرباصحاب المحلات كما قالت ليلى الاخيلية: ولم تغلب الخصم الالذ وتملأ الجفان سديفاً يوم نكباء صرصر.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ؟﴾ قلت: فيه أوجه:

أحدهما: أن الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرّة صر، كما تقول برد بارد على المبالغة.

والثاني: أن يكون الصر مصدرأ في الأصل بمعنى البرد، فجيء به على أصله.

والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽⁶⁾ ومن قولك: إن ضعيفي فلان ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاجر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عدواة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث ﴿قَوْمَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فاهلك عقوبة لهم على معاصيهم لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ.

فَإِنْ قُلْتَ⁽⁷⁾: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح! قلت: هو من

== ذلك المطلق المجرد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلق، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبيه لهذه النكتة، فإنها لطيفة، والله الموفق.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(7) قال أحمد: أما إيراد السؤال، فلا ترتضى صيغته، لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل، المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى، أن يذكر بصيغته الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة، والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإن أحداً لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر، برأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

(3) أخرجه أحمد في المسند 396/1، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب: مواقيت الصلاة، الحديث رقم: (1530).

(4) سورة التغابن، الآية: 17.

(5) قال أحمد: كلها أوجه وجيبة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها، فنقول: إذا قلت مثلاً، إن ضعيفي زيد، ففي عمر، وبعد الله كاف، فقولك: كاف، أثبت منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فشخصت ==

الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين لكم فعملتم به.

فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة؟ قلت: يجوز أن يكون لا يالوكم صفة للبطانة، وكذلك قد بدت البغضاء، كأنه قيل: بظانة غير أليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما قد بينا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بظانة.

هَاتَمْتُ أَوْلَاكَ حُبُّوهُمْ وَلَا حُبُّوكُمْ وَتَوَمَّنُوا بِالْكِسْبِ كُؤُ. وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَرًا عَلَيْنَا الْآثَامُ مِنَ الْفَعْلِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ (١٨).

﴿ها﴾ للتنبية، و ﴿انتم﴾ مبتدأ، و ﴿أولاء﴾ خبره: أي: انتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبنلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: أولاء موصول تحبونهم صلته. والواو في ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم. أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم! وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه فإنهم يالمون كما تالمون، وترجون من الله ما لا يرجون. ويوصف المغتاط والنادم بعض الأنامل والبنان والإيهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواماً لشأماً أذلَّ يعضون من غيظ رؤوس الأباهم
﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من النذل والخزي والتبار. ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها.

فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان دخلاً في جملة المقول فمعناه أخبرهم بما يسرونه من

التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله: ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾، ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثال إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثال مهلك ربح وهو الحرث. وقرئ: تنفقون بالياء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمتقين، على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقاً للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم. أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ: ولكن بالتشديد، بمعنى: ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَاطِلًا مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُوكُمُ خَبَالًا وَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ بَدَتْ الْبَصَائِرُ مِن أَوْرِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ مُعْلِمُونَ (١٨).

بطانة الرجل ووليجه: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الانصار شعار، والناس نثار» (١). ﴿من دونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بلا تتخذا وببطانة على الوصف، أي: بظانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم. ﴿لا يالوكم خبالاً﴾ يقال: ألا في الأمر يالو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدي إلى مفعولين في قولهم: لا ألوك نصحاً ولا ألوك جهداً، على التضمن. والمعنى: لا أمتعك نصحاً ولا أنقصك، والخبال الفساد. ﴿وذرُوا ما عنكم﴾ وذرُوا عنكم، على أن ما مصدريه، والعنت شدة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره. أي: تمنا أن يضروكم في دينكم وديناكم أشد الضرر وأبلغه. ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من السننهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لأطلاع بعضهم بعضاً على ذلك. وفي قراءة عبد الله: قد بدأ البغضاء. ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب

= هذا النظم في المثل المنكور، لفائدة جلية، وهو تقديم ما هو أهم؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب، نكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقمت عناية بنكرها، واعتماداً على أن الافهام الصحيحة تستخرج المطابقة، برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ الآية ومثله أيضاً: أعدت هذه الخشية أن يعيل الحائط فادعمه، والأصل أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وإن أدم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف الحديث رقم: (4330)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... الحديث رقم: (2443).

= في إيراده، ويعد عن أمثاله هذه العبارة، ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً، لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع، على علم بأنه كلام لا ياتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد، وأن يتأدب في الإيراد، ثم تعود إلى جواب الرمزخشري الثاني، وهو قوله: أن المراد: مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب، عن المطابقة المسئول عنها، والسؤال باقي، وذلك أن الريح المشبه بها، ليست: الإهلاك، وإنما هي: المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول أصل الكلام، والله أعلم مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثال حرث قوم ظلموا أنفسهم، فإصابته ربح فيها صر، فأهلكته ولكن خولف=

عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إِنَّ الله عليم مما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أَنَّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بالسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثُمَّ قول وأن يكون قوله: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾ أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس. وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَّةٌ تَرُؤْمُوهُمْ وَإِنْ نُفِصَكُمْ سِنَّةٌ يَتَرَحُّوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٧).

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع.

والسيئة: ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسبونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة.

فَإِنْ قُلْتُمْ (١): كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ قلْتُ: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكَ مَصِيبَةٌ (٢)﴾ «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» (٣) «إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً» (٤). ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ على عداوتهم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نهيت عنه من موالاتهم، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتَتَّقُوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضرركم كيدهم. وقرئ: لا يضرركم، من ضاره يضره ويضرركم، على أَنَّ ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد، كقولك: مد يا هذا. وروى المفضل عن عاصم: لا يضرركم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أرابت أن تكبت من يحسبك فازد فضلاً في نفسك. ﴿إِنْ الله بما تعملون﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما «محيط» ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء، بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَهْلِكَ بُيُوتُ الْمُؤْمِنِينَ مَكِيدَةً لِلْكَفَالِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨).

(١) قال أحمد: يمكن أن يقال المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكان الكلام، والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى تسؤهم، ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها، إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها، فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم، ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

﴿وَإِذْ غَبَوْتُ مِنْ أَهْلِكَ﴾ بالمدينة، وهو غبوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي أَنَّ المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الانصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عنق قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورامهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يروننا قد جبننا عنهم. فقال ﷺ: «إني قد رأيت في منامي بقرأ منبحةً حولي فأولتها خيراً، ورأيت في نياي سفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كاني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوه». فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزلوا به حتى نخل، فلبس لأمته، فلما رآه قد لبس لأمته ندسوا وقالوا: بشما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه. وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بها القدح، إن رأى صدرأ خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عذوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا». ﴿تَبَوُّؤُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم، وقرأ عبد الله للمؤمنين بمعنى تسوي لهم وتهيئ. «مقاعد للقتال» مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ «قبل أن تقوم من مقامك» من مجلسك وموضع حكمك. «والله سميع» لأقوالكم «عليم» بنياتكم وضمائرهم.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٩).

﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ بدل من إذ غبوت، أو عمل فيه معنى سميع عليم. والطائفتان: حيان من الانصار بنو سلمة من

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٢٠، ٢١.

ينعم الله عليكم نعمةً أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ يَلْتَفِتُوا مَلَأَ الْوَيْبَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَزِيلِينَ ﴿١٢١﴾

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثانٍ من إذ غنوت على أن يقوله لهم يوم أحد. فَإِنْ قُلْتَ: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلْتَ: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإِنَّمَا قَدِمَ لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقوا بنصر الله. ومعنى ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإِنَّمَا جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر.

يَلَنْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَيْبَكُمْ يَحْسَدُ مَلَأَ الْوَيْبَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَسْمُومِينَ ﴿١٢٢﴾

و ﴿يَلَنْ﴾ إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسؤمين للقتال، ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ يعني: المشركين، ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة. ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول من ساعته لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمددكم ويكم﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد أن الله يجعل نصرته وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم. وقروى منزلين بالتشديد، ومنزلين بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر. ومسومين بفتح الواو وكسرها، بمعنى معلمين ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على اكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأنسابها، وعن مجاهد: مجرورة أناب خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تَسَوُّمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ» (3).

وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُعْثَ لَكُمْ وَلِيْمَيْنَ فُؤَبِكُمْ بِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا

الخرزج وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين. والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فأنزل عبد الله ابن أبي بن ثلث الناس، وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا، فقتبهم عمرو بن حزم الأنصار فقال: تشبكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو علم قتلاً لاتبعناكم، فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ (1). وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمرنا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردا صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه. كما قال عمرو بن الأظابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كنت أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأظابة: ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية. والله تعالى يقول: ﴿وَاللهَ وَلِيَهُمَا﴾ ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله.

فإِنْ قُلْتَ: فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا؟ قلْتَ: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة، بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لنزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم، كقوله: ﴿وَأَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (2). أمرهم بالآي يتوكلوا إلا عليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه.

وَلَقَدْ نَعَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِفَاتُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

ثم نكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة وذلة.

والأنلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على نلتهم كانوا قليلاً. ونلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضع يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقتلهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة.

وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به. ﴿فَاتَقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته، أو لعلكم

(3) ابن أبي شيبة 358/14، كتاب: المغازي، باب: غزوة بدر الكبرى.

(1) السير والمغازي لابن إسحاق ص 324.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْفَرِيزَ الْحَكِيمَ (١٣٦).

﴿وما جعله الله﴾ الهاء لأن يملككم، أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشاراً لكم بأنكم تنصرون. ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشاراً بالنصر وطمأنينة لقلوبهم. ﴿وما للنصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله وجاء النصره والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين. ﴿العزیز﴾ الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الحكيم﴾ الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُوا خَيْرِينَ (١٣٧).

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم. ﴿أو يكتسبهم﴾ أو يخزيهم ويغنيهم بالهزيمة، ﴿فحينقلبوا خائبين﴾ غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ (١).

ويقال: كتبه، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه. وقيل: في قول أبي الطيب:

لا كبت حاسداً وأرى عدواً

هو من الكبد والرثة واللام متعلقة بقوله: ولقد نصركم الله، أو بقوله: وما النصر إلا من عند الله.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ غُلَامٌ (١٣٨).

﴿أو يتوب﴾ عطف على ما قبله. ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض. والمعنى: أن الله مالك أمرهم فيما يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن يتوب، منصوب بإضمار أن، وأن يتوب في حكم اسم معطوف بـ «أو» على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل: أو بمعنى إلا أن، كقولك: لألزمك أو تعطيني حق، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرج بحالهم، أو يعذبهم

١٣٦

١٣٧

١٣٨

١٣٩

١٤٠

١٤١

١٤٢

١٤٣

١٤٤

١٤٥

١٤٦

١٤٧

١٤٨

١٤٩

١٥٠

١٥١

١٥٢

١٥٣

١٥٤

١٥٥

١٥٦

١٥٧

١٥٨

١٥٩

١٦٠

١٦١

١٦٢

١٦٣

١٦٤

١٦٥

١٦٦

١٦٧

١٦٨

١٦٩

١٧٠

١٧١

١٧٢

١٧٣

١٧٤

١٧٥

١٧٦

١٧٧

١٧٨

١٧٩

١٨٠

١٨١

١٨٢

١٨٣

١٨٤

١٨٥

١٨٦

١٨٧

١٨٨

١٨٩

١٩٠

١٩١

١٩٢

١٩٣

١٩٤

١٩٥

١٩٦

١٩٧

١٩٨

١٩٩

٢٠٠

٢٠١

٢٠٢

٢٠٣

٢٠٤

٢٠٥

٢٠٦

٢٠٧

٢٠٨

٢٠٩

٢١٠

٢١١

٢١٢

٢١٣

٢١٤

٢١٥

٢١٦

٢١٧

٢١٨

٢١٩

٢٢٠

٢٢١

٢٢٢

٢٢٣

٢٢٤

٢٢٥

٢٢٦

٢٢٧

٢٢٨

٢٢٩

٢٣٠

٢٣١

٢٣٢

٢٣٣

٢٣٤

٢٣٥

٢٣٦

٢٣٧

٢٣٨

٢٣٩

٢٤٠

٢٤١

٢٤٢

٢٤٣

٢٤٤

٢٤٥

٢٤٦

٢٤٧

٢٤٨

٢٤٩

٢٥٠

٢٥١

٢٥٢

٢٥٣

٢٥٤

٢٥٥

٢٥٦

٢٥٧

٢٥٨

٢٥٩

٢٦٠

٢٦١

٢٦٢

٢٦٣

٢٦٤

٢٦٥

٢٦٦

٢٦٧

٢٦٨

٢٦٩

٢٧٠

٢٧١

٢٧٢

٢٧٣

٢٧٤

٢٧٥

٢٧٦

٢٧٧

٢٧٨

٢٧٩

٢٨٠

٢٨١

٢٨٢

٢٨٣

٢٨٤

٢٨٥

٢٨٦

٢٨٧

٢٨٨

٢٨٩

٢٩٠

٢٩١

٢٩٢

٢٩٣

٢٩٤

٢٩٥

٢٩٦

٢٩٧

٢٩٨

٢٩٩

٣٠٠

٣٠١

٣٠٢

٣٠٣

٣٠٤

٣٠٥

٣٠٦

٣٠٧

٣٠٨

٣٠٩

٣١٠

٣١١

٣١٢

٣١٣

٣١٤

٣١٥

٣١٦

٣١٧

٣١٨

٣١٩

٣٢٠

٣٢١

٣٢٢

٣٢٣

٣٢٤

٣٢٥

٣٢٦

٣٢٧

٣٢٨

٣٢٩

٣٣٠

٣٣١

٣٣٢

٣٣٣

٣٣٤

٣٣٥

٣٣٦

٣٣٧

٣٣٨

٣٣٩

٣٤٠

٣٤١

٣٤٢

٣٤٣

٣٤٤

٣٤٥

٣٤٦

٣٤٧

٣٤٨

٣٤٩

٣٥٠

٣٥١

٣٥٢

٣٥٣

٣٥٤

٣٥٥

٣٥٦

٣٥٧

٣٥٨

٣٥٩

٣٦٠

٣٦١

٣٦٢

٣٦٣

٣٦٤

٣٦٥

٣٦٦

٣٦٧

٣٦٨

٣٦٩

٣٧٠

٣٧١

٣٧٢

٣٧٣

٣٧٤

٣٧٥

٣٧٦

٣٧٧

٣٧٨

٣٧٩

٣٨٠

٣٨١

٣٨٢

٣٨٣

٣٨٤

٣٨٥

٣٨٦

٣٨٧

أَمْتِي قَلِيلٌ إِلَّا مِنْ عَصَمِ اللَّهِ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا فِي الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ»⁽⁵⁾. ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ^(١٢٥).

﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على المتقين أي: أَعْتَبَتِ لِلْمُتَّقِينَ وَلِلْمُتَائِبِينَ. وقوله: أولئك، إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك. ﴿فَاحْشَ﴾ فعله متزايدة القبح، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أو آذَنُوا أي نَنَّبَ كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما بونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة. ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيهِ أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين⁽⁶⁾. ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ننب له، وإنَّه لا مفرج للمُنْذِبِينَ إلا فضله وكرمه، وإنَّ عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأنَّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتخلص بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو⁽⁷⁾ والتجاوز، وفيه تطيب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط، وإنَّ الذنوب وإن جلت فإنَّ عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أَنَّهُ وحده معه مصحات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»⁽⁸⁾. وروى: «لَا كَبِيرَةَ مَعَ الْاسْتِغْفَارِ وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ»⁽⁹⁾. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من فعل الإصرار، وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها؛ لأنَّه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أنَّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرّون، وإنَّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرّين⁽¹⁰⁾، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربّه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٢٦).

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو، وقرأ الباقر بالواو، وتنصره قراءة أبي وعبد الله: وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يستحقان به. ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخصَّ العرض لأنَّه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: بطاننها من إستبرق. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض.

الَّذِينَ يُبْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ وَالْكُفْرِ وَالْعَمَلِ وَالْمَوَازِينِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(١٢٧).

﴿فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ﴾ في حال الرخاء واليسر، وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف أَنَّهُ رُبَّمَا تَصَدَّقَ بِبَصْلَةٍ. وعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّهُا تَصَدَّقَتْ بِحَبَّةِ عَنَبٍ⁽¹⁾، أو في جميع الأحوال لأنَّها لا تخلو من حال مسرة ومضرة لا تمنعهم حال فرح وسرور ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنَّه لا يدع الإحسان. واقتنع بذكر الإنفاق لأنَّه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنَّه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا مَلَأَهَا وَشَدَّ فَاهَا، وكظم البعير إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً. وعن النبي ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاقِهِ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّنَّ خَادِمًا لَهَا غَاضَهَا فَقَالَتْ: اللَّهُ دَرِ التَّقْوَى مَا تَرَكْتُ لَذِي غَيْظٍ شِفَاءً⁽³⁾. ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروى: ينادي مناوٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا⁽⁴⁾. وعن ابن عيينة: أَنَّهُ رَوَاهُ لِلرَّشِيدِ وَقَدْ غَضِبَ عَلَى رَجُلٍ فَخَلَاهُ. وعن النبي ﷺ: «إِنْ هَؤُلَاءِ فِي

(1) قال الزيلعي أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن رنجويه في كتابه: الأموال، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب: الآنية.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً الحديث رقم: (4777)، وأحمد في المسند 3/438.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8313).

(4) الديلمي في مسند الفردوس. والثعالبي في تفسيره.

(5) لم يخرج الزيلعي.

(6) لعله: عازمين على عدم العود.

(7) أما سمعاً، فياتفاق، وأما عقلاً، فعند المعتزلة فقط.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار الحديث رقم: (1514)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (107) الحديث رقم: (3559).

(9) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 10238).

(10) يعني: أنَّ الإصرار كبيرة، وفاعل الكبيرة يخلد في النار، لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة؛ لأنه مؤمن عندهم، والمؤمن لا يخلد فيها، وتحقيقه في علم التوحيد.

أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾

قال: ﴿أجر العاملين﴾ بعد قوله: جزاؤهم، لأنهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون^(١). وروي: أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: ما أقل حياء من يطعم في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ننب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاع الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة: «جوزوا الصراط بعفوي واسخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم». وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تتشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنٌّ قَبِرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعه كقوله: ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾ سنة الله في الذين خلوا من قبل^(٢) ﴿ثم لا يجنون ولياً ولا نصيراً﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل^(٣).

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعني: أنه مع كونه بيانا وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قد خلت﴾ جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين. ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾، إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصريين.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي:

لا يورثكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح. ﴿وانتم الاعلون﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وانتم الاعلون شأناً لأن قتالكم الله وإعلاء كلمته وقاتلهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتالكم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وانتم الاعلون في العاقبة ﴿وان جندنا لهم الغالبون﴾^(٤) ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهاي، بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

إِنْ يَسْأَلُكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ يَسْأَلُ وَتِلْكَ الْأَنَامُ نَدَّوْا لَهَا بَيْنَ الْأَنْبَاءِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الْآيَاتِ ؕ آمَنُوا وَتَجِدُوا مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ؕ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٠﴾

وقرىء: قرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم المهما. وقرا أبو السمال: قرح بفتححتين، وقيل: القرخ والقرح كالطرد والطرد، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتهم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: ﴿فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾^(٥) وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿قرح مثله﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾^(٦). ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ، والأيام صفته، ﴿نداولها﴾ خبره. ويجوز أن يكون تلك الأيام مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها نصرناها بين الناس. ندبل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا فيوماً نساء ويوماً نأسر ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة، ثم قال: أين ابن أبي كيشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام نول والحرب سجال. فقال عمر

(4) سورة الصفات، الآية: 173.

(5) سورة النساء، الآية: 104.

(6) سورة آل عمران، الآية: 152.

(1) يريد بهم: أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء.

(2) سورة الاحزاب، الآيات: 61 - 62.

(3) سورة الفتح، الآيات: 22 - 23.

بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه، لأنه منتفٍ بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع، فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعني أن يفعل كذا، ولما تريد ولم يفعل وأنا أتوقع فعله. وقرئ: ولما يعلم الله بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها. ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: ويعلم بالرفع، على أنَّ الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ نَظُرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ خطب به الذين لم يشهدوا بديراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رايه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته وصعوبة مقاساته، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم، وشارفت أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيه الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بالحاحم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده.

فإن قلت: كيف يجوز تمنى الشهادة وفي تمنيتها تمني غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أنَّ من يشرب نواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أنَّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عبّو الله وتنقيفاً لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له: ربكم الله:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جنبتي أرشدك الله من غاز وقد رشدا

رضي الله عنه: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار. فقال: إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا والمداولة مثل المعاودة^(١). وقال:

يبرد الميأه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثّل وسماع
يقال: داوت بينهم الشيء فتداولوه. ﴿وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محنوقاً، معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فاش عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثابت.

والثاني: أن تكون العلة محنوقة وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله؛ وأنما حذف للإيذان بأنّ المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أنَّ العبد يسوء ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أنَّ الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه. ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبطل به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٢) ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعترض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يجب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله المحمّصين، من الذنوب.

وَيُحْصِصْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾

والتحصيص: التطهير والتصفية. ﴿وَيُمَحِّقُ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم، يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز، والاستشهاد والتحصيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

أَرَأَيْتُمْ أَن تُلَاحِظُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسِرَّ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَمْلَأَنَّ الْقُلُوبَ الْغَيْبَ ﴿٣٩﴾

﴿لَمْ﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ بمعنى^(٣): ولما تجاهدوا لأنّ العلم متعلق

= مطلقاً، ويعتقد الملازمة المنكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أنه عبر عن نفي المعلوم، بنفي العلم؛ لأنه من لوازمه، وسيأتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم، وإنما عبر فرعون بذلك تليساً على ملئه، وتتميماً لدعوى الوهيته الكاذبة، بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواء على دعواه، لتعلق علمه به، وهذا يعد من حماقات فرعون، ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/297.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، خاص بعلم الله تعالى؛ لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء، ما عدم ذلك الشيء ضرورة، أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء، بنفي تعلق العلم القديم، بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق، والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير =

البصيرة، ألا ترى أَنَّهُم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أَنَّهُ يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعداء: الإيباء عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد وما ارتد أحد من المعلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، يجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والاكتشاف عن رسول الله ﷺ وإسلامه. ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع. ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ الذين لم يتقبلوا، كانس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحدًا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني نكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهضة للمختلس من الحفظ والكلاء وتأخير الأجل، ﴿كتاباً﴾ مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿موجلاً﴾ موقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾ تعريض بالذين شغلته الغنائم يوم أحد ﴿نؤته منها﴾ أي من ثوابها، ﴿وسنجزي﴾ الجزء المبهمة الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرئ: يؤته وسيجزي بآلاء فيهما.

قرئ: قاتل وقتل بالتشديد، والفاعل ربيون أو ضمير النبي، و﴿معه ربيون﴾ حال عنه بمعنى: كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول. وعن سعيد بن جببر رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحركات الثلاث: فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرئ: فما وهنوا بكسر الهاء، والمعنى: ﴿فما وهنوا﴾ غند قتل النبي، ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد بعده، ﴿وما استكانوا﴾ للعدو وهذا تعريض مما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان.

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا دُونَنَا وَإِسْرَافًا فِي أَمْرِنَا وَكَثِرتْ أَدْمَانَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْرِ الْكَافِرِينَ (٧٧).

﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاءً، والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله، فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أَنَّهُ رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: ألا أن محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان. ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: إلي عباد الله، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بأبائنا وأمهاتنا، أئانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت. وروي أَنَّهُ لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال انس بن النضر عم انس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فلن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين أَنَّهُ مرَّ بآنصاري يتشطح في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (٧٨) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا بَعْدَ مَا هُتِفَ لَهُمْ أَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَكَفَرُوا بِالَّذِي نَذَرُوا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا وَفَوْا لِمَا أَمَّاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا شُئُوا وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الصَّابِرِينَ (٧٩).

والمعنى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه (١)؛ لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿أفإن مات﴾ الفاء معلقة للحجة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإن قلت: لم نذكر القتل وقد علم أَنَّهُ لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوراً عند المخاطبين.

فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿والله يعصمكم من الناس﴾ (٢). قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم نوي

الرعب في قلوبهم فامسكوا. ﴿بِمَا اشركوا﴾ بسبب إشراكهم أي: كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به. ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة.

فَإِنْ قُلْتَ (١): كَانَ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى يَنْزِلَ اللَّهُ فَيُصِحِّحَ لَهُمُ الْإِشْرَاقَ! قُلْتُ: لَمْ يَعْزَمْ أَنْ هُنَاكَ حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تَنْزِلْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُ الْحُجَّةِ وَنَزُولُهَا جَمِيعاً، كَقَوْلِهِ: وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْحَجِرُ.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَوَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِغَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٧٦).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْسِكُكُمْ﴾ (٢) ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: ﴿سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ (٣) فلما فشلوا وتنازعا لم يرعبيهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت. وذلك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ أَحْداً خَلْفَ ظَهْرِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِينَةَ، وَأَقَامَ الرَّمَاةَ عِنْدَ الْجَبَلِ وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا فِي مَكَانِهِمْ وَلَا يَبْرَحُوا كَانَتْ الدَّوْلَةُ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ جَعَلَ الرَّمَاةَ يَرِشِقُونَ خَيْلَهُمْ وَالْبَاقُونَ يَضْرِبُونَهُمْ بِالسِّيفِ حَتَّى انْهَزَمُوا وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى أَثَرِهِمْ.

يَحْسُونَهُمْ أَي: يَقْتُلُونَهُمْ قِتْلًا ذَرِيعاً حَتَّى إِذَا فَشَلُوا، وَالْفُشْلُ: الْجَبْنُ وَضَعْفُ الرَّأْيِ، وَتَنَازَعُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ فَمَا مَوْقِفُنَا هَهُنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَخَافُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ ثَبَتَ مَكَانَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَبْرِ أَمِيرُ الرَّمَاةِ فِي نَفَرِ بَنِي الْعَشِيرَةِ، وَهُمْ الْمَعْنِيُّونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وَنَفَرُ أَعْقَابِهِمْ يَنْهَبُونَ وَهُمْ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا. فَفَكَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الرَّمَاةِ، وَقَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَبْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَالَاتِ الرِّيحُ دُبُوراً وَكَانَتْ صَبَا حَتَّى هَزَمُوهُمْ وَقَتَلُوا مِنْ قَتْلَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِغَكُمْ﴾ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَكُمْ عَلَى الْمَصَائِبِ وَثَبَاتِكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَهَا. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لِمَا عَلِمَ مِنْ نَدَمِكُمْ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنْ عَصْيَانِ أَمْرٍ

ثَبَّتِ الْأَقْدَامَ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ وَالنَّصْرَةَ عَلَى الْعَدُوِّ لِيَكُونَ لِمَلِكِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَنْ زُكَاةٍ وَطَهَارَةٍ وَخُضُوعٍ وَأَقْرَبَ إِلَى لَاسْتِجَابَةٍ.

فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَتَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٧٨).

﴿فَقَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصرة والغنمة والعز طيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله يُقَدِّمُهُ وَأَنَّهُ هُوَ الْمُعْتَدُّ بِهِ عِنْدَهُ، تَرِيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ بَرِيدُ الْآخِرَةِ.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَلَا تَكْفُرُوا بِرُءُوسِكُمْ عَلَّ أَفْعَكُكُمْ فَتَنَلَّيُوا خَسِرِينَ (٧٩).

﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال علي رضي الله عنه: زلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: أرجعوا إلى خوانكم وادخلوا في دينهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إِنْ سَتَنَصَحُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَتَقَبَّلُوا مِنْهُمْ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَغْوُونَهُمْ وَيُوقِعُونَ لَهُمُ الشُّبْهَةَ فِي الدِّينِ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانِ نَبِيًّا حَقًّا لَمَا غَلَبَ وَلِمَا أَصَابَهُ وَأَصْحَابُهُ مَا أَصَابَهُمْ؛ إِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ يَوْمًا لَهُ وَيَوْمًا عَلَيْهِ. وَعَنِ السَّيِّدِ: إِنْ تَسْتَكِينُوا لِأَبِي سَفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ تَسْتَأْمِنُوهُمْ ﴿يُرْثَوُكُمْ﴾ إِلَى دِينِهِمْ، وَقِيلَ: هُوَ عَامٌ فِي بَعْضِ الْكُفَّارِ وَإِنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجَانِبُوهُمْ وَلَا يَطِيعُوهُمْ فِي شَيْءٍ، وَلَا يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِمْ وَلَا عَلَى مَشُورَتِهِمْ حَتَّى يَسْتَجِزُوهُمْ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ.

بَلِ اللَّهُ يَمْلِكُ وَلَهُ عَزِيزُ النَّاصِرِينَ (٨٠).

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: ناصركم لا تحتاجون معه إلى صرة أحد وولايته. وقرئ بالنصب على بل أطيعوا الله ولاكم.

سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ النَّفَّاثِينَ (٨١).

﴿سَنَلْقِي﴾ قرئ بالنون والياء. ﴿وَالرَّعْبُ﴾ بسكون عين وضمها، قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف وم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة الغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق الواو: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن اهرؤن أرجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله

= حملة على معنى لا منار فيه، فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: على لاحب لا يهتدي فيه بمنار مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 125.

(3) سورة آل عمران، الآية: 151.

(١) قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال، لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة، وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما اشركوا بالله، ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما اشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكن كقول القائل:

على لاحب لا يهتدي بمناره

فإنه بإضافة المنار إليه، يوم أن فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى =

رسول الله ﷺ، «والله نوافضل على المؤمنين» يتفضل عليهم بالعفو، أو هو مفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أنيل لهم أو أنيل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة.

فإن قلت: أين متعلق حتى إذا قلت: محذوف تقديره حتى إذا فسلمت منكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

﴿إِذْ صَبَرْتُمْ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ آسَافٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَنِ النَّارِ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٧).

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ نصب بصرفكم، أو بقوله: ﴿ليبتليكم﴾^(١) أو بإضمار انكر.

والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني: في الجبل. وتعصد الأولى قراءة أبي: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون بفتح التاء وتشديد العين من تصعد في السلم. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون بواو واحدة، وقد نكرنا وجهها. وقرأ: يصعدون ويلون بالياء. ﴿والرسول يدعوكم﴾ كان يقول: إلي عباد الله إلي عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. ﴿في اخراجكم﴾ في ساقطكم وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى. ﴿فإنابكم﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غما﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاككم ﴿ببسبب غم﴾ انقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أرفج به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، ﴿لكيلا تحزنوا﴾، لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في فإنابكم من رسول أي: فأساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم فإنابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله. ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِن بَدِّ أَمْرِ أَمَنَةٍ مُّطَافَةًً مِّنْكُمْ﴾

وَمُطَافَةًً قَدْ أَمَنْتُمْ أَنْفُسَهُمْ يَطْفُوتُ بِاللَّهِ عَنِ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلَ هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥٨).

وأُنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبيهم النوم. وعن أبي طلحة رضي الله عنه: غشينا النعاس ونحن في مصافنا فكار السيف يسقط من يد أحدها فيأخذه ثم يسقط فيأخذه، وم أحد إلا ويميل تحت جحفته^(٢) وعن ابن الزبير رضي الله عنه: لقد رأيته مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم، والله إني لسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا^(٣).

والأمنة: الأمن، وقرئ: أمنة بسكون الميم، كأنها المرأ من الأمن. ﴿نعاساً﴾ بدل من أمنة، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى: نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى نوي أمنة، أو على أنه جمع أمر كبار وبررة. ﴿يفغشي﴾ قرئ: بالياء والتاء، رداً على النعاس أو على الأمنة. ﴿وطائفة منكم﴾ هم أهل الصدوق واليقين، ﴿وطائفة﴾ هم المنافقون ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم من الهم، والأشجان فهم في التشاكي والتباب. ﴿غير الحق﴾ فم حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يظن به، و﴿ظن الجاهلية﴾ بدل منه. ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية وغير الحق تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك، و﴿ظن الجاهلية﴾ كقولك: حاتم الجود ورجل صدق يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرا الجاهلون بالله. ﴿يقولون﴾ لرسول الله ﷺ يسألونه ﴿ها لنا من الأمر من شيء﴾ معناه: هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ ولأوليائه المؤمنين، وهو النص والغلبة ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾^(٤) وإن جندنا له الغالبون^(٥). ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من

= والبرزاز في مستدبرهما، والزليعي 233/1.

(4) سورة المجادلة، الآية: 21.

(5) سورة الصافات، الآية: 173.

(1) سورة آل عمران، الآية: 152.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿أمنة نعاساً﴾ الحديث رقم: (4562).

(3) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وإسحاق بن راهويه =

﴿استزلبهم﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه. **﴿ببعض ما كسبوا﴾** من ذنوبهم، ومعناه: إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنباً، فلذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وقيل: استزال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم لأن الذنب يجر إلى الذنب كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: استزلبهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه، فجرهم ذلك إلى الهزيمة. وقيل: نكرهم تلك الخطايا فكروها لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية.

﴿فإن قلت: لم قيل «ببعض ما كسبوا»؟ قلت: هو كقوله تعالى: «ويغفوا عن كثير»⁽²⁾ «ولقد عفا الله عنهم» لتوبتهم واعتذارهم. «إن الله غفور» للذنوب «حليم» لا يعاجل بالعقوبة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ وَأَلِيمٌ يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً⁽¹⁾.

﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾**⁽³⁾ ومعنى الأخوة: اتفاق الجنس أو النسب. **﴿إذا ضربوا في الأرض﴾** إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، **﴿ولو كانوا غُرَى﴾** جمع غَرٍّ كعافٍ وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون. وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة.

﴿فإن قلت: كيف قيل: إذا «ضربوا» مع «قالوا»؟ قلت: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض.

﴿فإن قلت: ما متعلق «ليجعل»؟ قلت: قالوا، أي قالوا ذلك واعتقوه، ليكون «حسرة» في قلوبهم﴾ على أن اللام مثلها في **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾** أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليحمله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. **﴿فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق**

شيء؟ سؤال المؤمنين المسترشدين، وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكبين قولاك لهم: أن الأمر كله لله. **﴿ولو كان لنا من الأمر شيء﴾** أي: لو كان الأمر كما قال محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. **﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾** يعني: من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم **﴿لبرز﴾** من بينكم **﴿الذين﴾** علم الله أنهم يقتلون **﴿إلى مضاجعهم﴾** وهي مصارعهم، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وإن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وإن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة وحرصهم على الشهادة مما يحرصهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه: هل لنا من التدبير من شيء، يعنون: لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبي وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة. قل: إن التدبير كله لله، يريد أن الله عز وجل قد ببر الأمر كما جرى ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم وقرئ: كتب عليهم القتال وكتب عليهم القتل على البناء للفاعل، ولبرز بالتشديد وضم الباء، **﴿وليبتلي الله﴾** وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وسوس الشيطان، فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة للابتلاء والتمحيص.

﴿فإن قلت: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله: «وطائفة»؟ قلت: قد أهمتهم صفة لطائفة، ويظنون صفة أخرى أو حال بمعنى قد أهمتهم أنفسهم ظانين، أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، ويقولون بدل من يظنون.

﴿فإن قلت⁽¹⁾: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟ قلت: كانت مسألتهم صادرة عن الظن فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، وقل إن الأمر كله لله اعترض بين الحال ونوي الحال، ويقولون بدل من يخفون، والأجود أن يكون استئنافاً.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ⁽¹⁰⁰⁾.

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: **﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** الآية، فإن هذا السؤال استقحام والاستقحام لا يتصف بما يتصف به الخير من الصنق، ونقيضه ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، يعني في قولكم اتجعل فيها من

= يفسد فيها، فاجرى استقحامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار، بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد، وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

(2) سورة السائدة، الآية: 15.

(3) سورة الاحقاف، الآية: 11.

خالفوه وعصوا أمره وانهمزوا وتركوه. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ جافياً ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه، ﴿لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: قد علم الله أنّ ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده. وعن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»⁽⁵⁾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول ﷺ⁽⁶⁾. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يتقل عليهم استبداده بالرأي نونهم. وقرئ: وشاورهم في بعض الأمر، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الارشاد الأصلح؛ فإنّ ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت ولا من تشاور. وقرئ: فإذا عزمتم بضم التاء بمعنى: فإذا عزمتم لك على شيء وأرشدتكم إليه فتوكل عليّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر، فلا أحد يغلبكم. ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد، ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ﴾. فهذا تنبيه على أنّ الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مَرْسَلٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾⁽⁷⁾ ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ من بعد خذلانه، أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان، تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذله إذا جعله مخذولاً. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وليخص المؤمنين ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦٨﴾

الصدور فعل الله عز وجل، كقوله: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضائتهم مما يغمهم ويغیظهم. ﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رد لقولهم، أي: الأمر بيده قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنّه قال عند موته: ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وما أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء⁽²⁾. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني: الذين كفروا.

وَلَنْ يُفْلِتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتًّا لَمَعْفَةِ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿المعفرة﴾ جواب القسم وهو ساد مسدّ جواب الشرط، وكذلك ﴿إِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾⁽³⁾، كذب الكافرين أولاً في زعمهم أنّ من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنّه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: لنن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء، وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار.

وَلَنْ تُفْلِتَ أَوْ تُفْلِتَ لِيَلَى اللَّهُ تَحْشَرُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿إِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ إلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون، ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه. وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. وقرئ: متم بضم الميم وكسرها، من مات يموت، ومات يمات.

فَمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٧١﴾

ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله، ونحوه: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ﴾⁽⁴⁾. ومعنى الرحمة: ربطه على جاشه وتوفيقه الموفق والتلطّف بهم، حتى اثابهم غماً بغم، وأساهم بالمبالغة بعد ما

(6) = أخرجه عبد الرزاق في المصنف 331/5 الحديث رقم: (9720)،

والترمذي تعليقا، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في المشورة، وابن حبان في كتاب: السير، باب: المواعدة والمهادنة الحديث رقم: (4872).

(7) = سورة فاطر، الآية: 2.

(1) سورة الأنعام، الآية: 125.

(2) [راجع البداية والنهاية لابن كثير 126/7].

(3) سورة آل عمران، الآية: 158.

(4) سورة المائدة، الآية: 13.

(5) [قال الزبلي غريب، لم أجده إلا من قول الحسن 234/1].

كَمْ بَاءٌ يَسْحَطُونَ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَشَيْءٌ كَثِيرٌ ﴿١٧٢﴾ .

يقال: غُلَّ شيئاً من المغنم غلواً، وأغلَّ إغلالاً إذا أخذه في خفية، يقال: أغلَّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغُلُّ الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلَّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»^(١). وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول»^(٢)، وعنه: «ليس على المستعير غير الغل ضمان»^(٣)، وعنه: «لا إغلال ولا إسلال»^(٤). ويقال: أغله إذا وجدته غالاً، كقولك: أبخلته وأفحمته، ومعنى: «وما كان لنبي أن يغفل» وما صحَّ له ذلك، يعني: أنَّ النبوة تنافي الغلول. وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأول، لأنَّ معناه: وما صحَّ له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان^(٥):

أحدهما: أن يبرأ رسول الله ﷺ من ذلك وينزهه وينبهه على عصمته بأنَّ النبوة والغلول متنافيان لثلاثين به ظان شيئاً منه وأن لا يستريب به أحد، كما روي: أنَّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها^(٦). وروي: أنها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، وأنَّ لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر. فقال لهم النبي ﷺ: «الم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقرفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أننا نغل ولا نقسم لكم».

والثاني: أن يكون مبالغة في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنه بعث ثلاث غنيمات غنائم، فقسمها ولم يقسم للطلائع^(٧). فنزلت: يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غلواً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر. ولو قرئ: أن يغل من أغل، بمعنى: غل، لجاز: «يات بما غل يوم القيامة» يات بالشئ الذي غله بعينه يحمله، كما جاء

في الحديث: جاء يوم القيامة يحمله على عنقه^(٨). وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي بيعة له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء، فينادي: يا محمد يا محمد، فاقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغت»^(٩). وعن بعض جفاة الأعراب: أنه سرق ناقة مسك فتليت عليه الآية، فقال: إذا أحملها طيبة الريح خفيفة الحمل. ويجوز أن يراد: يأت بما احتمل من وباله وتبعته وأثمه.

فإن قلت: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به! قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت لأنَّه إذا علم الغال أنَّ كل كاسب خير أو شراً مجزى فموفى جزاءه علم أنه غير متخلص من بينهم من عظم ما اكتسب. «وهم لا يظلمون» أي: يعدل بينهم في الجزاء كل جزاءه على قدر كسبه.

هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾ .

«هم درجات» أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، كقوله:

انصب للمنية تعزيرهم رجالاً أم همودرج السيول وقيل: نوار درجات، والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. «والله بصير بما يعملون» عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرَزَقَهُمْ وَيُخْرِجُهُمُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلُّوا سُبُلًا ﴿١٧٤﴾ .

«لقد مَنَّ الله على المؤمنين» على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه. «هم أنفسهم» من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده.

= أن تكون له أسرى «ما كان لنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ إلى غير ذلك على أنَّ الرمز مشري حاف في العبارة، إذ يقول عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً، وتقبيحاً، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله ﷺ في التاديب أن يكون ممزجاً بغاية التخفيف، والتعطف، ألا ترى إلى قوله تعالى: «عفا الله عنك لم أذنت لهم» قال بعض العلماء: بداه بالعفو قبل العتب، ولو لم يبداه بالعفو لانتظر قلبه ﷺ.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (3009)، والواحد في أسباب النزول ص 73.

(7) أخرجه الواحد في أسباب النزول، ص 73-74. وابن أبي شيبه في 413/12، كتاب: الجهاد، باب: ليس له شيء إذا قدم بعد الوقعة.

(8) ذكره السيوطي في الدر المنثور (92/2) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (135/2).

(9) أخرجه الطبري في تفسيره، وأبو يعلى الموصلي.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في عمال الصدقة الحديث رقم: (1810)، والحديث عن أبي حميد الساعدي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة، باب: من لم يقبل الهبة لعة الحديث رقم: (2597) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال الحديث رقم: (4715).

(2) كشف الاستار، كتاب: الإمارة، باب: في هدايا العمال الحديث رقم: (1599)، وحديث جابر، أخرجه عبد الرزاق في المصنف 147/8 الحديث رقم: (14665).

(3) أخرجه البيهقي في سننه في كتاب: العارية.

(4) أخرجه الدارمي في السنن 303/2، كتاب: السير، باب: في الغال إذا جاء بما غل به، حديث رقم: (2491)، وأحمد في المسند 325/4، وأبو داود في السنن، كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو، الحديث رقم: (2766).

(5) قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له، ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي، في أمثال قوله تعالى: «ما كان لنبي

أَتَى لَكَ هَذَا؟ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم عن المركز. وعن علي رضي الله عنه: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيبكم تارة ويصيب منكم أخرى.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾

﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين. ﴿فَقَدْ هُمُ كَانُوا﴾ ياذن الله، أي: بتخليته استعثار الإنان لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعه منهم ليبتليهم لأن الآن محل بين المأثور له ومراده

وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ تَمَكَّمُ النَّالُ لَا تَبْنِيَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وليعلم﴾ وهو كائن لتمييز المؤمنين والمنافقين ويظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. ﴿وقيل لهم﴾ من جملة الصلة عطف على نافقوا؛ وإنما لم يقل: فقالوا، لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال. كأنه قيل: فماذا قالوا لهم؟ فقيل: قالوا لو نعم. ويجوز أن تقتصر الصلة على نافقوا، ويكون ﴿وقيل لهم﴾ لهم كلاماً مبتدأ. قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للأخرة كما يقاتل المؤمنون وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة دفعا عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فابوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم. وذلك ما روي: أن عبد الله بن أبي انخزل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين، وإن لم تقاتلوا لأن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره: لو أمكنني لبعث داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصره؟ قال: لقوله: أو ادفعوا، أراد: كثروا سوادهم. ووجه آخر: وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لو نعم قاتلوا﴾، لو نعم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿لا تتبعناكم﴾، يعنون: أن ما أنتم فيه خطأ رأيكم وزلكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأن رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج. ﴿هم﴾ للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان. يعني: أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة تؤذن بكفرهم، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن

فَأَنْ قُلْتُ: فما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم! قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وإنه لنذكر لك ولقومك﴾^(١). وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة رضي الله عنها من أنفسهم، أي: من أشرفهم. لأن عنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخنن ذروة مضر، ومدركة ذروة خنن، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد ﷺ. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكماء على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يؤزن به فتى من قريش إلا رجع به وهو والله بعد هذا له نبا عظيم وخطر جليل. وقرئ: لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم، وفيه وجهان: أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم فحنف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه. ﴿يتلو عليهم آياته﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿ويذكهم﴾ ويظهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملازمة المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم. ﴿وإن كانوا من قبل﴾ من قبل بعثة الرسول ﴿لفي ضلال﴾، إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال ﴿مبين﴾ ظاهر لا شبهة فيه.

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبَكُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٨﴾

﴿أصابكم مصيبة﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. ولما نصب بـ ﴿قلتم﴾ و﴿أصابكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقتلتم حين أصابكم و﴿أنى هذا﴾ نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقرير.

فَأَنْ قُلْتُ: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: ولقد صدقكم الله وعده، ويجوز أن تكون معطوفة على محنوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا وقتلتم حينئذ كذا، أنى هذا؟ من أين هذا؟ كقوله تعالى:

في مقاتلتكم وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. وجه آخر: إن كنتم صانقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني: أنهم لو أطاعوك وقعدوا لقتلوا قاعين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: فادعوا عن أنفسكم الموت: استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً فدعائهم لأسباب الموت فادعوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦﴾

﴿ولا تحسبن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرئ: بالياء على ولا يحسبن رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبن حاسب، ويجوز أن يكون ﴿الذين قتلوا﴾ فاعلاً ويكون التقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً.

فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ فحذف كما حذف المبتدأ في قوله: ﴿أحياء﴾، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرئ: ولا تحسبن بفتح السين، وقتلوا بالتشديد، وأحياء بالنصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، ﴿عند ربهم﴾ مرفعون عنده نوء زلفي، كقوله: ﴿فالذين عند ربك﴾⁽²⁾ ﴿يرزقون﴾ مثل ما يريزق سائر الأحياء ياكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التمتع برزق الله.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَكَسْبُورُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مرفعين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها وتأتي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»⁽³⁾ ﴿ويستبشرون به﴾ إخوانهم المجاهدين ﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾ أي: لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿من خلفهم﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم

تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين. ﴿يقولون بأقواهم﴾ لا يتجاوز إيمانهم أقواهم ومخارج الحروف منهم، ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، ونكر الأقواء مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أقواهم. معذوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأقواهم: ﴿وإله أعلم بما يكتمون﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفيةاته.

الَّذِينَ قَالُوا لِيُخْرِجُوهُمْ وَمَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

﴿الذين قالوا﴾ في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذم أو على الرد على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجزوراً بدلاً من الضمير في بأقواهم أو قلوبهم، كقوله: على جوده لضم بالماء حاتم. ﴿إخوانهم﴾ لأجل إخوانهم، من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار. ﴿وقعدوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل. ﴿قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجبتكم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني: أن ذلك الدفع غير مغني عنكم لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبتوثة ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

فإن قلت⁽¹⁾: فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يديركم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون

(1) قال أحمد: السؤال المذكور إنما يرد على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأن المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أن الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل، بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور، وأما أهل السنة فمعتددهم أن كل ميت بأجله يموت، ويقولون أن الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأن ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل إيماناً، بقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. وخلافاً للمنافقين، وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا، ولعمري إنهم في هذا =

= المعتقد مقلدون لعمرو، في قوله: أنا أحيي وأميت، فإن الأحق ظن أنه يقتل إن شاء، فيكون ذلك إماتة ويعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياء، وغاب عنه أن الذي عفا عن قتله، إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأن الذي قتله إنما مات؛ لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، الحديث رقم: (2520)، والحاكم في المستدرک 88/2، ومسلم عن ابن مسعود في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون الحديث رقم: (4862).

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ رُوي: أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ نَادَى عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ أَحَدٍ: يَا مُحَمَّدُ مَوْعِدُنَا مَوْسِمٌ بَدْرٌ لِقَابِلٍ إِنْ شِئْتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ».. فَلَمَّا كَانَ الْقَابِلُ خَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى نَزَلَ مِنَ الظُّهْرَانِ، فَالْقَى اللَّهَ الرَّعْبَ فِي قَلْبِهِ فَبَدَأَ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ، فَلَقِيَ نَعِيمَ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيَّ وَقَدْ قَدِمَ مَعْتَرِماً، فَقَالَ: يَا نَعِيمُ إِنِّي وَاعِدْتُ مُحَمَّدًا أَنْ نَلْتَقِيَ بِمَوْسِمٍ بَدْرٍ وَإِنْ هَذَا عَامٌ جَبَّ وَلَا يَصِلُحُنَا إِلَّا عَامٌ نَرَعَى فِيهِ الشَّجَرِ وَنَشْرَبُ فِيهِ اللَّبَنَ وَقَدْ بَدَأَ لِي، وَلَكِنْ إِنْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَلَمْ

أَخْرَجَ زَادَهُ تِلْكَ جَرَاءً، فَالْحَقَّ بِالْمَدِينَةِ فُطِبْهُمْ وَلَكَ عِنْدِي عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ. فَخَرَجَ نَعِيمٌ فَوَجَدَ الْمُسْلِمِينَ يَتَجَهَّزُونَ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا بِالرَّأْيِ، أَتُوكُمُ فِي دِيَارِكُمْ وَقَرَارِكُمْ فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا شَرِيدٌ أَفْتَرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا وَقَدْ جَمَعُوا لَكُمْ عِنْدَ الْمَوْسِمِ فَوَاللَّهِ لَا يَفْلِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ⁽⁵⁾. وَقِيلَ: مَرَّ بِأَبِي سَفْيَانَ رَكَبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ يَرِيدُونَ الْمَدِينَةَ لِلْمِيرَةِ، فَجَعَلَ لَهُمْ حَمْلَ بَعِيرٍ مِنْ زَبِيبٍ إِنْ ثَبُطُوهُمْ، فَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الْخُرُوجَ. فَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرُجَنَّ وَلَوْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِيَ أَحَدٌ». فَخَرَجَ فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا وَهُمْ يَقُولُونَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ. وَقِيلَ: هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. حَتَّى وَافَقُوا بَدْرًا وَأَقَامُوا بِهَا ثَمَانِيَةَ لَيَالٍ وَكَانَتْ مَعَهُمْ تِجَارَاتٌ فَبَاعَوْهَا وَأَصَابُوا خَيْرًا ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ غَانِمِينَ، وَرَجَعَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ، فَسَمَى أَهْلَ مَكَّةَ جَيْشَهُ جَيْشَ السُّوَيْقِ. قَالُوا: إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لِتَشْرَبُوا السُّوَيْقَ، فَالْنَّاسُ الْأَوَّلُونَ الْمُثَبِّطُونَ وَالْآخِرُونَ أَبُو سَفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ⁽⁶⁾.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ قِيلَ لِلنَّاسِ إِنْ كَانَ نَعِيمٌ هُوَ الْمُثَبِّطُ وَحَدَهُ؟ قُلْتُ: قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ جَنْسِ النَّاسِ، كَمَا يَقَالُ: فَلَانِ يَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيَلْبَسُ الْبُرُودَ، وَمَالَهُ إِلَّا فَرَسٌ وَاحِدٌ وَبِرْدٌ وَاحِدٌ، أَوْ لِأَنَّهُ حِينَ قَالَ ذَلِكَ لَمْ يَخْلُ مِنْ نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَضَامُونَهُ وَيَصْلُونَ جَنَاحَ كَلَامِهِ وَيَثَبِّطُونَ مِثْلَ تَثَبِّطِهِ.

فَإِنْ قُلْتُ: لِأَمٍّ يَرْجِعُ الْمُسْتَكْنُ فِي «فَزَادَهُمْ»؟ قُلْتُ: لَمَّا إِلَى الْمَقُولِ الَّذِي هُوَ «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ» كَانَهُ قِيلَ: قَالُوا لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا، أَوْ إِلَى مُصَدَّرِ قَالُوا، كَقَوْلِكَ: مَنْ صَدَّقَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، أَوْ إِلَى النَّاسِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ نَعِيمٌ وَحَدَهُ.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ زَادَهُمْ نَعِيمٌ أَوْ قَوْلُهُ إِيْمَانًا؟ قُلْتُ: لَمَّا لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ، وَأَخْلَصُوا عِنْدَهُ النِّيَّةَ وَالْعَزْمَ عَلَى الْجِهَادِ، وَأَظْهَرُوا حِمِيَّةَ الْإِسْلَامِ، كَانَ تِلْكَ أَثْبَتَ لِيَقِينَهُمْ وَأَقْوَى لِعَقْدَانِهِمْ كَمَا يَزِدَادُ الْإِيْقَانُ بِنَتَاصِرِ الْحُجْجِ، وَلَئِنْ خَرُجَهُمْ عَلَى أَثَرِ تَثَبِّطِهِ إِلَى وَجْهَةِ الْعَدُوِّ طَاعَةَ عَظِيمَةً،

وَمَنْزِلَتَهُمْ. ﴿إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بَدَلَ مِنَ الَّذِينَ، وَالْمَعْنَى: وَيَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حَالٍ مِنْ تَرَكُوا خَلْفَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ آمَنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشْرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ فَهُمْ مُسْتَبْشِرُونَ بِهِ. وَفِي تَكْرَرِ حَالِ الشَّهَدَاءِ وَاسْتَبْشَارِهِمْ بِمَنْ خَلْفَهُمْ بَعَثَ لِلْبَاقِينَ بَعْدَهُمْ عَلَى إِزْدِيَادِ الطَّاعَةِ وَالْجِدِّ فِي الْجِهَادِ وَالرَّغْبَةِ فِي نَيْلِ مَنَازِلِ الشَّهَدَاءِ وَإِصَابَةِ فَضْلِهِمْ وَإِحْمَادِ لِحَالٍ مِنْ يَرَى نَفْسَهُ فِي خَيْرٍ فَيَتَمَنَّى مِثْلَهُ لِإِخْوَانِهِ فِي اللَّهِ، وَبِشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْفَوْزِ فِي الْمَآبِ.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧).

وكرر ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لِيَعْلَقَ بِهِ مَا هُوَ بَيَانُ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)، مِنْ تَكْرِ النَّعْمَةِ وَالْفَضْلِ وَأَنَّ تِلْكَ أَجْرَ لَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ يَجِبُ فِي عَدْلِ اللَّهِ وَحُكْمَتِهِ أَنْ يَحْصَلَ لَهُمْ وَلَا يُضِيعُ. وَقُرِئَ: وَأَنَّ اللَّهَ بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى النَّعْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَبِالْكَسْرِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَعَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ اعْتِرَاضٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ الْكِسَائِي، وَتَعَضُّدُهَا قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (٧٧).

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ مَبْتَدَأُ خَبَرِهِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا، أَوْ صِفَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَوْ نَصَبٌ عَلَى الْمَدْحِ. رُوي: أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ أَحَدٍ فَبَلَّغُوا الرُّوحَاءَ نَدْمُوا وَهَمُّوا بِالرَّجُوعِ، فَبَلَّغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارَادَ أَنْ يَرْهِبَهُمْ وَيُرِيَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ قُوَّةً، فَغَدَبَ أَصْحَابَهُ لِلْخُرُوجِ فِي طَلَبِ أَبِي سَفْيَانَ، وَقَالَ: لَا يَخْرُجَنَّ مَعَنَا أَحَدٌ إِلَّا مَنْ حَضَرَ يَوْمَنَا بِالْأَمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ جَمَاعَةٍ حَتَّى بَلَّغُوا حِمْرَاءَ الْأَسَدِ وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَكَانَ بِأَصْحَابِهِ الْقَرْحُ فَتَحَامَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى لَا يَفُوتَهُمُ الْأَجْرُ، وَالْقَى اللَّهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ فَذَهَبُوا فَنَزَلَتْ⁽²⁾. ﴿وَمَنْ فِي﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ ﴿لِلتَّابِينَ﴾ مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾⁽³⁾؛ لِأَنَّ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ قَدْ أَحْسَنُوا كُلَّهُمْ وَاتَّقُوا لَا بَعْضُهُمْ. وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنْ أَبُوبِكَ لَمَنْ الذِّينِ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، تَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ وَالزُّبَيْرِ⁽⁴⁾.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٧٨).

= استجابوا لله ورسوله، الحديث رقم: (4077)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير الحديث رقم: (6199).

(5) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(6) أخرجه ابن سعد في الطبقات. زيلعي 246/1.

(1) سورة آل عمران، الآية: 170.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وابن إسحاق والزيلعي 244/1، ونكره ابن هشام في السيرة 121/2.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: «الذين» =

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿يسارعون في الكفر﴾ يعنون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشد رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ولا يحزنك﴾، ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً﴾ يعني: إنهم لا يضررون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وبال تلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي: نصيباً من الثواب، ﴿ولهم﴾ بدل الثواب ﴿عذاب عظيم﴾، وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه.

فإن قلت: هلا قيل لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وإني فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتغذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تملذهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه حتى أن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم.

إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَا يُبْنِي لَكُمْ إِيمَانُهُمْ وَلَهُمُ اللَّهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿إن الذين اشتركوا الكفر بالإيمان﴾ إما أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإما أن يكون عاماً للكفار والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الإسلام أو على العكس. و﴿شيئاً﴾ نصب على المصدر، لأن المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر.

وَلَا يَحْسَبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تَبْلِيَّكُمْ إِنَّمَا تَبْلِي لَكُمْ لِيَدَّادُوا إِنَّمَا وَكُمُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٧٨﴾

﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالباء نصب، و﴿إنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل منه، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم، وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أم تحسبن أن أكثرهم يسمعون﴾ (5) وما مصدريه بمعنى: ولا تحسبن أن إملأنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في خط الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف.

فإن قلت: كيف صح مجيء البديل ولم يذكر إلا أحد

والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (1). وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزيد إيماناً (2). وعنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به (3). ﴿حسبنا الله﴾ محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه، والدليل على أنه بمعنى المحسب، أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة. ﴿ونعم اللوكيل﴾ ونعم الموكل إليه هو.

فَأَتَّبِعُوا بِعَمْرِ بْنِ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَسْتَسْهِمْ سَوْءَ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بنعمة من الله﴾ وهي السلامة وحذر العدو منهم، و﴿وفضل﴾ هو الربح في التجارة، كقوله: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» (4) ﴿لم يمسسهم سوء﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ بجرأتهم وخروجهم. ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروي: أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً فاعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الْمَلَائِكَةُ خَرُّوا أُولَئِكَ فَلَا تَخَافُوهُمْ رَکَاوُونَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾

﴿الشیطان﴾ خير نلکم بمعنى إنما نلکم المبط هو الشيطان، ويخوف أوليائه: جملة مستأنفة بيان لشیطنته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوف الخبر، والمراد بالشیطان نعيم أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى: إنما نلکم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله. ﴿يخوف أوليائه﴾ يخوفكم أوليائه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوفكم أوليائه، وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوف أوليائه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ.

فإن قلت: فإلام رجع الضمير في ﴿فلا تخافوهم﴾ على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس في قوله: إن الناس قد جمعوا لكم فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجنبوا. ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحداً إلا الله.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب 1/69، الحديث رقم: (36).

(4) سورة البقرة، الآية: 198.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

(1) الثعلبي في تفسيره [الزيلي 2471].

(2) البيهقي في شعب الإيمان، باب: القول في زيادة الإيمان ونقصانه... الحديث رقم: (38).

من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أمان بمعنى ميز.

فَإِنْ قُلْتَ: لمن الخطاب في انتم؟ قلت: للمصنفين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله لينز المخلصين منكم على الحال التي انتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر إنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ الرَّسُولَ فَيُوحِي إِلَيْهِ وَيُخْبِرُهُ بَأَنَّ فِي الْغَيْبِ كَذَا وَأَنَّ فَلَانًا فِي قَلْبِهِ النِّفَاقَ وَفَلَانًا فِي قَلْبِهِ الْإِخْلَاصَ، فَيَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ إِنْخَبَأَ اللَّهُ لَا مِنْ جِهَةٍ يُطْلَعُ عَلَيْهَا عَلَى الْمَغْيِبَاتِ.

ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكالييف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله قلوبهم، كبذل الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائلكم وشاهدًا بضمائركم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والإطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها. ولكن الله

﴿يُجِيبُنِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخبره ببعض المغيبات، ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن تقدره حق قدره وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

وَلَا يَحِصُّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لِمُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لِمُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ رَبُّهُمُ وَمِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

﴿ولا تحسبن﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء. وجل فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأول عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ والذي سوغ حذفه دلالة ببخلون عليه وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو. ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ تفسير

المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صخ ذلك من حيث إن التعويل على البذل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدر مضاف محذوف على ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع والفعل متعلق بأن وما في حيزه.

والإملاء لهم: تخليتهم وشأنهم مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبن أن الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم. ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ﴾ ما هذه حقها أن تكتب متصلة لأنها كافة لون الأولى، وهذه جملة مستأنفة لتعليل للجملة قبلها. كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم؟ فقيل: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

فَإِنْ قُلْتَ^(١): كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم؟ قلت: هو علة للإملاء وما كل علة بغرض، ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك وإنما هي علل وأسباب، فكنك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء كما كان العجز علة للنعوذ عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزدانون إثمًا فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية: ولا يحسبن بالياء على معنى: ولا يحسبن الذين كفروا أن إملائنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ عَنِ الْفِعْلِ وَمَعْمُولِهِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ إملائنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتقسيح المدة وترك المعالجة بالعقوبة.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ على هذه القراءة؟ قلت: معناه ولا تحسبوا أن إملائنا لازدياد الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزدادوا إثمًا معداً لهم عذاب مهين.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الْقَبِيلِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ يَرْسُلُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَائْتُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَرُسُلِهِمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَتَعَفَّا عَنْكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾

اللام لتأكيد النفي على ﴿ما انتم عليه﴾ من اختلاط المؤمنين الخالص والمنافقين، ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرئ: يميز

= ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل اخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً، لإتمام الفاسد، وضرباً في حديد بار، فجعل ازدياد الإثم سبباً، وليس بغرض.

(١) قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على ﴿شفا جرف هار﴾؛ لأن معتقده أن الإثم الواقع منهم، ليس مراداً لله تعالى، بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما ورت الآية مشعرة بأن =

رضي الله عنه: نَقَّ عَقَقُ⁽⁶⁾. وقرأ حمزة: سيكتب بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال نوقوا.

ذَلِكَ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْمُتَعِدِّ^(٧٩).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم. وذكر الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاوّل بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التخليب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فلم عطف قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ على ما ﴿قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب! قلتم: معنى كونه غير ظلام للعبيد: أنه عادل عليهم، ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا تَوْرٰتٍ رَّسُولِ حَتَّىٰ يَأْتِيَٰنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّا قَلَّمْ تَقَاتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ^(٨٠).

﴿عهد إلينا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل ناراً من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم كان يقرب بالقرآن فيقوم النبي فيدعو فتنتزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة واقتراء على الله لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء، فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاءوا بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق وجاؤهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلهم إن كانوا صالحين إن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرئ: بقرآن بضمين، ونظيره السلطان.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما معنى قوله: ﴿وبالذي قلتم﴾؟ قلتم: معناه وبمعنى الذي قلتموه من قولكم قربان تأكله النار، ومؤداه كقوله: ﴿ثم يعنون لما قالوا﴾ أي: لمعنى ما قالوا.

إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنٰتِ وَالذِّكْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ^(٨١).

في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي: الصحف، ﴿والكتاب المنير﴾ التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. وقرأ اليزيدي: ذائقة الموت، على الأصل. وقرأ الأعمش: ذائقة الموت، بطرح التنوين على النصب، كقوله: ولا ذاكر الله إلا قليلاً

لقوله: ﴿هو شر لهم﴾، أي: سيلزمون وبأل ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتتقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي ﷺ في مانع لزكاة: «يطوق بشجاع أقرع»^(١). وروي: «بشجاع أسود». وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار. ﴿ووه ميراث السموات والأرض﴾ أي: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾⁽²⁾ وقرئ: بما تعملون بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَوَّيٌّ وَخَنَّ أَصْنِيَةٌ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَفَتَنَّهُمُ الْآلِهِيَّةُ يُنْزِرُ حَتَّىٰ وَنَقُولُ دُؤُوتُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^(٨٢).

قال تلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾⁽³⁾ فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وإيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر عن متبردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه وأنه أعد له كفاءه من العقاب. ﴿سنكتب ما قالوا﴾ في صحائف الحفظه أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف قال: ﴿لقد سمع الله﴾ ثم قال: ﴿سنكتب﴾ وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلتم: ذكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهما في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول. وروي: أن رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوههم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حين سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وجحد ما قاله، فنزلت⁽⁴⁾. ونحوه قولهم: ﴿يد الله مغلوله﴾⁽⁵⁾. ﴿ونقول﴾ لهم: ﴿نوقوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: نوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ كما أنقمت المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحسن وثق. وقال أبو سفيان لحمزة

(3) سورة البقرة، الآية: 245.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 77.

(5) سورة المائدة، الآية: 64.

(6) ابن هشام في سيرته: 93/2.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (1403)، ومسلم بنحوه في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (2293).

(2) سورة الحديد، الآية: 7.

الحنيف، وصد من أراد الإيمان وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من عجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فنحاص ومن بني قريظة والنضير: ﴿فَإِنْ نَفَاكَ﴾ فَإِنَّ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني: إنَّ ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلا تَكُونُنَّ فَسَادًا فِي دِينِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَتًُّا قَلِيلًا فَنَسُوا مَا بَيَّنَّنَا ﴿٧٧﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ وانكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ الضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانته كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه. وقيل له: الله لتفعلن ﴿فَنُبَيِّزُهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبيزوا الميثاق، وتأكده عليهم يعني: لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه.

والنبيذ وراء الظهر: مثل في الطرح وترك الاعتدال، ونقيضه: جعله نصب عينيه وإلقاء بين عينيه، وكفى به ليلياً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة؛ وتطبيب لنفوسهم، استجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه، ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله أجم بلجام من نار»⁽⁴⁾. وعن طلوس أنه قال لوهب: إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك. وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه، ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجاهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا⁽⁵⁾. وقرىء: لبيئته ولا يكتمون به الباء لأنهم غيب، وبالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقُضِيَنا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ﴾⁽⁶⁾.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونُ بَسًا أَوْ أَوَّلًا وَآخِرًا أَن يُحْسَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَكِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحَّجَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخِلَ الْحِجَّةَ فَعَدَّ قَاذٍ وَمَا الْحِجَةُ إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٧٩﴾

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ لْجُورِكُمْ﴾ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور.

فإن قلت: فهذا يومهم نفى ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار⁽¹⁾! قلت: كلمة التوفية تنزيل هذا الوهم⁽²⁾، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور.

الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاض به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتتركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»⁽³⁾. وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالممتاع الذي يلبس به على المستام ويغز حتى يشتريه ثم يتبين له فسادته وردائه، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة، فاماً من طلب الآخرة بها فإنها متاع، بلاغا خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعنون لا يرهقهم ما يرهق من تصبیه الشدة بغتة فيكرها وتشمئز منها نفسه.

﴿لَتُؤْتِيَنَّكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَتَسْمَعُونَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٧٩).

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال الإنفاق في سبيل الخير وما يقع فيها من الأفات. وما يسمعون من أهل الكتاب: المطاعن في الدين

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (26) الحديث رقم: (2460).
(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).
(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث =

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (26) الحديث رقم: (2460).

(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث =

(5) سند الفردوس - الثعالبي.
(6) سورة الإسراء، الآية: 4.

وباهر حكمته ﴿أولاي الباب﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار أملاً عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكرًا في قدرة مقدرها، متدبرًا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رايت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: «يا عائشة هل لك أن تأتني لي الليلة في عبادة ربي». فقلت: يا رسول الله إني لأحب قريبك وأحب هواك، قد أدنت لك، فقام إلى قربتي من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رايت سموعه قد بليت الأرض، فاتاه بلال يؤننه بصلاة الغداة فرأه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبدًا شكورًا» ثم قال: «ومالي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾». ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»⁽⁴⁾. وروي: «ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتأملها»⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: «إن في خلق السموات والأرض»⁽⁶⁾ وحكي: أنَّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبدتها فتى من فتيتان فلم تظله، فقالت له أمه: لعل فرطت فرطت منك في منك. فقال: ما أنكر. قالت: لعل نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعل، قالت: فما أتيت إلا من ذاك.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وُكُمَا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ رَبُّكَ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَبْلًا عَذَابَ آثَارِ ﴿٣١﴾

﴿الذين يذكرون الله﴾ نكرًا دائبًا، على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة، أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾. فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي ﷺ: «من أحب

﴿لا تحسبن﴾ خطاب لرسول الله ﷺ وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾، والثاني بمفازة، وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ: لا تحسبن فلا تحسبنهم بضم الباء على خطاب المؤمنين، ولا يحسبن فلا يحسبنهم بالياء وفتح الياء فيهما على أنَّ الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني على أنَّ الفعل للذين يفرحون والمفعول الأول محذوف على لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، فلا يحسبنهم تأكيد ومعنى ﴿بما أتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾⁽¹⁾، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾⁽²⁾ ويدل عليه قراءة أبي: يفرحون بما فعلوا. وقرئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدا إليه وفرحوا بما فعلوا، فاطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم⁽³⁾، أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب. ومعنى: يفرحون بما أتوا، بما أتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا: أنَّ إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدا إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم ووصلهم بذلك إلى أغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب يحب أن يحمد الناس، ويثنوا عليه بالديانة والزهد، وبما ليس فيه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٢﴾

﴿وَالله ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير فهو يقدر على عقابهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣٣﴾

﴿آيات﴾ لآلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته

(5) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب: التفسير، باب: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحديث رقم: (4569)،

ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه الحديث رقم: (1785).

(6) أخرجه ابن أبي شيبة 302/10، كتاب: الدعاء، باب: في ثواب ذكر الله.

(1) سورة مريم، الآية: 61.

(2) سورة مريم، الآية: 27.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الحديث رقم: (4568)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (620).

(4) ابن سريويه في تفسيره.

فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق، على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم، كقوله: «إن هذا القرآن يهدي للتي هي

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تقدير نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل الحديث رقم: (4647).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 264/1.

(5) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (237/1) ونكره الزبيدي في إتحاف المتقين (105/2).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

﴿من عند الله﴾ لَأَنْ قَوْلُهُ: ﴿لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ﴾^(٨) وَلَا لَخْلَلْنَاهُمْ فِي مَعْنَى لَا يُبَيِّنُهُمْ. وَعِنْدَهُ مِثْلُ أَيِّ يَخْتَصُّ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ لَا يَثْبِيهِ غَيْرُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ: عِنْدِي مَا تَرِيدُ، يَرِيدُ اخْتِصَاصَهُ بِهِ وَبِمُلْكِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِحُضْرَتِهِ. وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنْ اللَّهِ كَيْفَ يَدْعِي وَكَيْفَ يَبْتَهِلُ إِلَيْهِ وَيَتَضَرَّعُ. وَتَكَرَّرَ رَبَّنَا مِنْ بَابِ الْابْتِهَالِ وَإِعْلَامٌ بِمَا يُوْجِبُ حَسَنَ الْإِجَابَةِ، وَحَسَنَ الْإِثَابَةِ مِنْ اِحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ فِي دِينِ اللَّهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى صَعُوبَةِ تَكَالِيفِهِ، وَقَطْعُ لَاطْمَاعِ الْكَسَالِيِّ الْمُتَمَنِّينَ عَلَيْهِ، وَتَسْجِيلُ عَلَى مَنْ لَا يَرَى الثَّوَابَ مُرْصُولًا إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ بِالْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ. وَرَوَى عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَقَالَ خُمْسَ مَرَاتٍ: رَبَّنَا، أَنْجَاهُ اللَّهُ مِمَّا يَخَافُ وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَعَنْ الْحَسَنِ: حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا خُمْسَ مَرَاتٍ: رَبَّنَا، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لَهُمْ. إِلَّا أَنَّهُ اتَّبَعَ ذَلِكَ رَافِعُ الدَّعَاءِ وَمَا يَسْتَجَابُ بِهِ فَلَا يَدُّ مِنْ تَقْدِيمِهِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّعَاءِ.

لَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُ الْوَيْلِ كَثَرُوا فِي الْوَيْلِ (١٧).

﴿لَا يَغْرُكَ﴾ الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ. أَيُّ لَا تَنْتَظِرُ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَالْمُضْطَرَبِّ وَدُرُكِ الْعَاجِلِ وَإِصَابَةِ حَظوظِ الدُّنْيَا، وَلَا تَغْتَرَّرُ بِظَاهِرِ مَا تَرَى مِنْ تَبْسِطِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي الْبِلَادِ يَتَكَسَّبُونَ وَيَتَجَرَّوْنَ وَيَتَهَفَّنُونَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ. وَقِيلَ: هُمُ الْيَهُودُ. وَرَوَى: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَرَوْنَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْخَصْبِ وَالرِّخَاءِ وَلَبِنِ الْعَيْشِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِيمَا نَرَى مِنَ الْخَيْرِ، وَقَدْ هَلَكْنَا مِنَ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يَغْتَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ حَتَّى يَنْهَى عَنِ الْاِغْتِرَارِ بِهِ؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ مَدْرَهُ الْقَوْمِ وَمَتَقَدِّمُهُمْ يَخَاطَبُ بِشَيْءٍ فَيَقُومُ خُطَابُهُ مَقَامَ خُطَابِهِمْ جَمِيعًا، فَكَانَهُ قِيلَ: لَا يَغْرُكُمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ غَيْرَ مُغْرَرٍ بِحَالِهِمْ فَكَانَ عَلَيْهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ وَثَبَتَ عَلَى التَّزَامَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)، ﴿وَلَا تَطْعِ الْمَكْذِبِينَ﴾^(٤)، وَهَذَا فِي النِّهْيِ نَظِيرُ قَوْلِهِ فِي الْأَمْرِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾^(٦)، وَقَدْ جَعَلَ النِّهْيَ فِي الظَّاهِرِ لِلتَّقْلِبِ وَهُوَ فِي الْمَعْنَى لِلْمُخَاطَبِ وَهَذَا مِنْ تَنْزِيلِ السَّبَبِ مِثْلَ الْمَسْبَبِ لِأَنَّ التَّقْلِبَ لَوْ غَرَّهَ لَافْتَرَّ بِهِ فَمَنْعَ السَّبَبِ لِيَمْتَنَعَ الْمَسْبَبُ. وَقُرِئَ: لَا يَغْرُكَ بِالْوَيْلِ الْخَفِيفَةِ.

مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَارَبَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَشَى الْإِهَادُ (١٧).

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحْذُوفٌ، أَيُّ: ذَلِكَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ

وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْمَعْنَى: مَا وَعَدْتُنَا عَلَى تَصْدِيقِ رِسَالِكَ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ اتَّبَعَ ذِكْرَ الْمُنَادِي لِلْإِيمَانِ وَهُوَ الرِّسُولُ، وَقَوْلُهُ: آمَنَّا وَهُوَ التَّصْدِيقُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمُحْذُوفٍ، أَيُّ: مَا وَعَدْتُنَا مِثْلَ رِسَالِكَ أَوْ مَحْضًا عَلَى رِسَالِكَ لِأَنَّ الرِّسَالَ مَحْمُولُونَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِلَ. وَقِيلَ: عَلَى السَّنَةِ رِسَالِكَ، وَالْمَوْعُودُ هُوَ الثَّوَابُ. وَقِيلَ: النَّصْرَةُ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ دَعَا اللَّهُ بِإِنْجَازِ مَا وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ طَلَبُ التَّوْفِيقِ فِيمَا يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَسْبَابُ إِنْجَازِ الْمِيعَادِ، أَوْ هُوَ بَابٌ مِنَ اللُّجَا إِلَى اللَّهِ، وَالْخُضُوعُ لَهُ كَمَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَغْفِرُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ، يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ التَّنَلُّلَ لِرَبِّهِمْ، وَالتَّضَرُّعَ إِلَيْهِ، وَاللُّجَا الَّذِي هُوَ سِيمَا الْعُبُودِيَّةِ.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عِبِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ مِنْ بَعْضِ قَالَتَيْنِ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَفَعَلُوا وَقِيلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٨).

يقال:

اسْتَجَابَ لَهُ وَاسْتَجَابَهُ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ ﴿إِنِّي لَا أُضِيعُ﴾ قُرِئَ: بِالْفَتْحِ عَلَى حَذْفِ الْيَاءِ، وَبِالْكَسْرِ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ. وَقُرِئَ: لَا أُضِيعُ بِالتَّشْدِيدِ. ﴿مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْتِ﴾ بَيَانٌ لِعَامِلٍ ﴿بِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، أَيُّ: يَجْمَعُ ذِكْرَكُمْ وَإِنَّا كُمْ أَصْلٌ وَاحِدٌ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنَ الْآخِرِ، أَيُّ: مِنْ أَصْلِهِ أَوْ كَأَنَّهُ مِنْهُ لَفَرَطُ اتِّصَالِكُمْ وَاتِّحَاكِكُمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ وَصْلَةُ الْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْطَرِضَةٌ بَيْنَتْ بَهَا شَرَكَةَ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فِيمَا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْعَامِلِينَ.

وَرَوَى أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَا يَذْكُرُ النِّسَاءَ^(١) فَتَزَلْتُ. ﴿قَالَتَيْنِ هَاجَرُوا﴾ تَفْصِيلُ لِعَمَلِ الْعَامِلِ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّفْخِيمِ. كَأَنَّهُ قَالَ: فَالَّذِينَ عَمِلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالَ السَّنِيَّةَ الْفَائِقَةَ وَهِيَ الْمَهَاجِرَةُ عَنْ أَوْطَانِهِمْ فَارِينَ إِلَى اللَّهِ بَدِينِهِمْ مِنْ دَارِ الْفِتْنَةِ، وَاضْطَرُّوا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ الَّتِي وَلَبُوا فِيهَا وَنَشَوْوا بِمَا سَامَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ الْخُسْفِ. ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ مِنْ أَجْلِهِ وَبِسَبَبِهِ، يَرِيدُ سَبِيلَ الدِّينِ. ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وَغَزَا الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَشْهَدُوا وَقُرِئَ وَقُتِلُوا بِالتَّشْدِيدِ، وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا عَلَى التَّقْدِيمِ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا عَلَى بِنَاءِ الْأَوَّلِ لِلْفَاعِلِ وَالثَّانِي لِلْمَفْعُولِ، وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا عَلَى بِنَائِهِمَا لِلْفَاعِلِ. ﴿ثَوَابًا﴾ فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَكَّدِ بِمَعْنَى إِثَابَةٍ أَوْ تَنْوِيْبًا.

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ الْحَدِيثِ رَقْمُ: (3023).

(٢) سُورَةُ هُودٍ، الْآيَةُ: 42.

(٣) سُورَةُ الْأَنْعَامِ، الْآيَةُ: 14.

(4) سُورَةُ الْقَلَمِ، الْآيَةُ: 8.

(5) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، الْآيَةُ: 6.

(6) سُورَةُ النَّسَاءِ، الْآيَةُ: 136.

يؤمن في معنى الجمع. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعده في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُوْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾⁽⁴⁾، ﴿يُوْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾⁽⁵⁾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ عمله في كل شيء فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توقعون لآت قريب بعد نكر الموعود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿اصبروا﴾ على الدين وتكاليفه، ﴿وصابروا﴾ أعداء الله في الجهاد. أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة باب من الصبر نكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشئته وصعوبته. ﴿ورابطوا﴾ واقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ رِبَاطَ الْخَيْلِ تَرْهِيْبُونَ بِهِ عَدُوَّ وَعُلُوْكُمْ﴾⁽⁶⁾. وعن النبي ﷺ: «من رباط يوماً ولبيلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا يتفطر عن صلاته إلا لحاجة»⁽⁷⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي ينكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»⁽⁸⁾.

سورة النساء

مدنية وهي مائة وستة وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبَّكُمْ رَوْحَهَا رَبَّكُمْ مِنْهَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا بني آدم، ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم.

وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»⁽¹⁾. ﴿وبئس المهلاد﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُزَلُّوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٢٨﴾.

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي: وكنا إذا الجبار ضافنا جعلنا القنا والمرفقات له نزل وانتصابه إما على الحال من جنات لتخصيصها بالوصف، والعامل اللام: ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً أو عطاءً ﴿من عند الله وما عند الله﴾ من الكثير الدائم. ﴿خير للأبرار﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش: نزل بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكن الذين اتقوا بالتشديد.

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَيْرٌ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾.

﴿وأن من أهل الكتاب﴾ عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل نجران، وأثنين وثلاثين، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فابصر سرير النجاشي وصلى الله واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط وليس على دينه⁽²⁾. فنزلت. وبخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كقوله: ﴿وأن منكم لمن ليبطئن﴾⁽³⁾ ﴿وما أنزل إليكم﴾ من القرآن، ﴿وما أنزل إليهم﴾ من الكتابين، ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل يؤمن لأن من

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة الحديث رقم: (7126).

(2) الدارمي في أسباب النزول ص 81.

(3) سورة النساء، الآية: 72.

(4) سورة القصص، الآية: 54.

(5) سورة الحديد، الآية: 28.

(6) سورة الأنفال، الآية: 60.

(7) أحمد في المسند 440/5، ولفظه «أو ليلة» ولم يذكر وقيامه»، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل الحديث رقم: (4915) وأخرجه ابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، الحديث رقم: (4623).

(8) ابن الجوزي في الموضوعات - ابن مردويه - الواحد في تفسيره. [زيلي 1/268].

شديدي الاتصال فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة فلم يجز ووجب تكرير العامل كقولك: مررت به وبزيد، وهذا غلامه وغلالم زيد. ألا ترى إلى صحة قولك: رايتك وزيداً، ومررت بزيد وعمر، ولما لم يقو الاتصال لانه لم يتكرر. وقد تحمل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها:

فما بك والأيام من عجب

والرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف كأنه قيل: والارحام، كذلك على معنى: والارحام مما يتقي، أو الارحام مما يتساءل به، والمعنى أنهم كانوا يقولون بأن لهم خالقاً وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم، فقيل لهم: اتقوا الله الذي خلقكم واتقوا الذي تتناشدون به واتقوا الارحام فلا تقطعوا، أو واتقوا الله الذي تتعاطفون بذكره وبإنكار الرحم. وقد آذن عز وجل إذ قرن الارحام باسمه أن صلتها منه يمكن كما قال ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وعن الحسن: إذا سالك بالله فاعطه، وإذا سالك بالرحم فاعطه. وللرحم حجة عند العرش. ومعناه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاه الواصل بشت به وكلمته، وإذا أتاه القاطع احتجبت منه. وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام: «تخبروا لنطفكم»⁽²⁾. فقال: يقول لاولادكم، وذلك أن يضع ولده في الحلال، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾⁽³⁾. وأول صلتها أن يختار له الموضع الحلال فلا يقطع رحمه ولا نسبه؛ فإنما للعاهر الحجر. ثم يختار الصحة ويجتنب الدعوة ولا يضعه موضع سوء يتبعه شهوته وهواه بغير هدى من الله.

وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَكُمْ وَلَا تَبْدُلُوا لَهَا بِإِلَهِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي

أَمْوَالَكُمْ إِلَهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٦٧

اليتامى: الذين مات أبأؤهم فانفردوا عنهم، واليتيم الانفراد ومنه الرملة اليتيمة والذرة اليتيمة. وقيل: اليتم في الاناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات.

فإن قلت: كيف جمع اليتيم وهو فعيل كمرريض على يتامى؟

قلت: فيه وجهان: أن يجمع على يتامى كاسرى لأن اليتم من وادي الأقات والأوجاع ثم يجمع فعلى على فعالى كاسارى، ويجوز أن يجمع على فعائل لجري اليتيم مجرى

فإن قلت⁽¹⁾: علام عطف قوله: ﴿وخلق منها زوجها؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها؛ وإنما حذف لدلالة المعنى عليه. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها. ﴿وبث منها﴾ نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها. والثاني: أن يعطف على خلقكم، ويكون الخطاب في يا أيها الناس للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، والمعنى: خلقكم من نفس آدم لأنهم من جملة الجنس المفرع منه وخلف منها أمكم حواء، ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ غيركم من الامم الفائتة للحصر.

فإن قلت: الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزأته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة كأن قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة.

وقرىء: وخالق منها زوجها وبث منها بلفظ اسم الفاعل وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره وهو خالق. ﴿تساءلون به﴾ تتساءلون به، فادغمت التاء في السين. وقرىء: تساءلون بطرح التاء الثانية، أي: يسأل بعضهم بعضاً بالله وبالرحم فيقول: بالله وبالرحم أفعل كذا، على سبيل الاستعطاف، وأنشدك الله والرحم، أو تسألون غيركم بالله والرحم. فقيل: تفاعلون موضع تفعلون للجمع، كقولك: رأيت الهلال وتراءى، وتنصره قراءة من قرأ تسألون به مهموز أو غير مهموز. وقرىء: والارحام بالحركات الثلاث، فالنصب على وجهين: إما على واتقوا الله والارحام، أو أن يعطف على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمرأ. وينصره قراءة ابن مسعود: تسألون به وبالأرحام، والجر على عطف الظاهر على المضممر وليس بسديد لأن الضمير المتصل متصل كاسمه والجار والمجرور كشيء واحد فكانا في قولك: مررت به وزيد، وهذا غلامه وزيد،

= والسلام، وقوله: ﴿وبث منها﴾ واقع على من عدا المبعوث إليهم من الامم، فلا حاجة للتقدير المذكور في الوجه الثاني، والله أعلم.

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الأكفاء الحديث رقم: (1968)، والحاكم في المستدرک 163/2، والدارقطني في كتاب: النكاح، باب: المهر الحديث رقم: (198).

(3) سورة الإسراء، الآية: 23.

(1) قال أحمد: وإنما قدر المحذوف في الوجه الأول، حيث جعل الخطاب عاماً في الجنس؛ لأنه لولا التقدير، لكان قوله وبث منها تكراراً لقوله: خلقكم إذ مؤداهما واحد، وليس على سبيل بيان الأول؛ لأنه معطوف عليه حينئذ، وأما هو معطوف على المقتر، فذاك المقتر واقع صفة مبنية، والمعطوف عليه داخل في حكم البيان، فاستقام، وأما الوجه الثاني: فالتكرار فيه ليس بلازم، إذ المخاطب بقوله: ﴿خلقكم﴾ الذين بعث إليهم النبي عليه الصلاة =

فترافعا إلى النبي ﷺ، فنزلت. فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع ماله إليه، فقال النبي ﷺ: «ومن يوق شح نفسه يطع ربه هكذا فإنه يحل داره»، يعني: جنته. فلما قبض الغوا ماله أنفق في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر ثبت الأجر وبقي الوزر». قالوا: يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر كيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: «ثبت أجر الغلام، وبقي الوزر على والده»⁽³⁾. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم، وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبتوث في الأرض فتلكوه مكانه، أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع منها. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز منه التعجل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستئثار، قال ذو الرمة:

فياكرم السكن الذين تحملوا عن الدار والمستخلف المتبدل
أراد: ويا لؤم ما استخلفته الدار واستبدلته. وقيل: هو أن يعطي ربيثاً ويأخذ جيداً. وعن السدي: أن يجعل شاة مهزولة مكان سميئة، وهذا ليس بتبدل وإنما هو تبديل إلا أن يكرم صديقاً له فيأخذ منه عجفاء مكان سميئة من مال الصبي. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تنفقوها معها، وحقيقتها⁽⁴⁾ ولا تضموها إليها في الإنفاق حتى

الأسماء نحو صاحب وفارس، فيقال: يتأثم ثم يتأثم على القلب، وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء إلا أنه قد غلب أن يسمو به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم زال عنهم هذا الاسم. وكانت قریش تقول لرسول الله ﷺ: يتيم أبي طالب، إما على القياس وإما حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضعاً له. وأما قوله عليه السلام: «لا يتم بعد الحلم»⁽¹⁾، فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة، يعني: أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ؟﴾ قلت⁽²⁾: إما أن يراد باليتامى الصغار، وبإيتائهم الأموال أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاية السوء وقضاته ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة حتى نأتي اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محنوفة، وإما أن يراد الكبار تسمية لهم يتامى على القياس، أو لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر كما تسمى الناقة عسراء بعد وضعها، على أن فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ ولا يملطوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار. وقيل: هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ المال فمته عمه

(1) نكره الهيئتي في «مجمع الزوائد» (226/4).

(2) قال أحمد: والوجه الأول قوي بقوله بعد آيات، وأبطلوا اليتامى، حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستهم منهم رشداً فأنفخوا إليهم أموالهم، دل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم، والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ، والرشد، ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، فهذا كله تائب للوصي ما دام المال بيده، واليتيم في حجره، وإما على الوجه الآخر، فيكون مؤدى الآيتين واحداً، وهو الأمر بالإيتاء حقيقة، ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالمجملة، والثانية كالمبينة، لشرط الإيتاء من البلوغ، وإيناس الرشد، والله أعلم.

(3) أخرجه الحكيم الترمذي في نوارى الأصول وإسحاق بن راهويه [الزليعي 273/1].

(4) قال أحمد: أهل البيان يقولون المنهي متى كان درجات، فطريق البلاغة النهي عن أنشائها تنبيهاً على الأعلى، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّهَآ أَفٍّ﴾، وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية، وجته ببادئ الرأي مخالفاً لها، إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهي أن يأكله، وهو غني عنه، وأنشأها أن يأكله وهو فقير إليه، فكان مقتضى القانون المنكود، أن ينهي عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه، حتى يلزم نهى الغني عنه من طريق الأولى، وحينئذٍ فلا بد من تهديد أمر، يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهي في هذه الآية، فنقول أبلغ الكلام ما تعدت وجه إفادته، ولا شك أن النهي عن الأدنى، وإن أفاد النهي عن الأعلى، إلا أن النهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى خلية لا تؤخذ من النهي عن الأدنى، وذلك أن المنهي كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر،

= والداعية إليه أبعد، ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغني عنه، أقبح صور الأكل، فخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة التشنيع، داعاه ذلك إلى الإجماع من أكل ماله مطلقاً، ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل، لو خصص النهي بأكمله مع الفقر، إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الاجتناب، كإعانتها عليه في الصورة الأولى، ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل، مع أن تناول مال اليتيم على أي وجه كان منهى عنه كان ذلك بالإخبار، أو بالتباس، أو ببينه في لذة النكاح مثلاً، أو غير ذلك، إلا أن حكمة تخصيص النهي بالأكل، أن العرب كانت تتنعم بالإكثار من الأكل، وتعد البطنة من البهيمية، وتعيب على من اتخذها دينه، ولا كذلك سائر الملأ، فإنهم ربما يتفاحرون بالإكثار من النكاح، ويعتونه من زينة الدنيا، فلما كان الأكل عندهم أقبح الملأ، خص النهي به حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبيعتها المألوف، جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملأ، أو غيرها أكلاً، أو غيره، ومثل هذه الآية في تخصيص النهي، بما هو أعلى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾، فخص هذه الصورة؛ لأن الطبع على الانتهاء عنها أعون، ويقابل هذا النظر في النهي نظر آخر في الأمر، وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى، وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب، ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة، وإذا حضر القسمة ﴿أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين، فَارْزُقُوهُمْ﴾ الآية، كيف خص صورة حضورهم، وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم، وذلك أن الله تعالى علم شح النفس الأموال، =

فَقِيلَ: إِنَّ خَفْتُمُ الْجورَ فِي حقِّ الْيَتَامَى فَخَافُوا الزَّنا، فَانْكَحُوا مَا حَلَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا تَحُمُوا حَوْلَ الْمُحَرَّمَاتِ. وَقِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ يَجِدُ الْيَتِيمَةَ لَهَا مَالٌ وَجَمَالٌ أَوْ يَكُونُ وَلِيهَا فَيَتَزَوَّجُهَا ضَرْبًا بَهَا عَنْ غَيْرِهِ، فَرِيضًا اجْتَمَعَتْ عِنْدَهُ عَشْرُ مَنْهَنَ فَيَخَافُ لَضَعْفَهُنَّ وَفَقْدَ مَنْ يَغْضَبُ لَهُنَّ أَنْ يَظْلِمَهُنَّ حَقُوقَهُنَّ، وَيَفْرُطُ فِيمَا يَجِبُ لَهُنَّ. فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ خَفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي يَتَامَى النِّسَاءِ فَانْكَحُوا مِنْ غَيْرِهِنَّ مَا طَابَ لَكُمْ. وَيُقَالُ لِلْإِنَاثِ: الْيَتَامَى، كَمَا يُقَالُ لِلذَّكَورِ، وَهُوَ جَمْعُ يَتِيمَةٍ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قِيلَ: أَيَامِي وَالْأَصْلُ أَيَاتِمٌ وَيَتَائِمٌ. وَقُرَأَ النُّخَعِي: تَقْسُطُوا بِفَتْحِ التَّاءِ، عَلَى أَنْ لَا مَزِيدَةَ مِثْلُهَا فِي لُغَلَا يَعْلَمُ، يَرِيدُ: وَإِنْ خَفْتُمْ أَنْ تَجُورُوا ﴿مَا طَابَ﴾ مَا حَلَ ﴿لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ لِأَنَّ مِنْهُنَّ مَا حَرَّمَ كَاللَّاتِي فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ. وَقِيلَ: مَا ذَهَابَ إِلَى الصِّفَةِ، وَلِأَنَّ الْإِنَاثَ مِنَ الْعُقَلَاءِ يَجْرِي مَجْرَى غَيْرِ الْعُقَلَاءِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾⁽⁴⁾ ﴿مَنْفَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ﴾ مُعْدُولَةٌ عَنْ أَعْدَادٍ مُكَرَّرَةٍ؛ وَإِنَّمَا مَنَعْتَ الصَّرْفَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعَبْلِينَ. عَدْلُهَا عَنْ صِفَتِهَا، وَعَدْلُهَا عَنْ تَكَرُّرِهَا. وَهِيَ نَكَرَاتُ يَعْرِفْنَ بِلَاغِ التَّعْرِيفِ، تَقُولُ: فَلَانِ يَنْكَحُ الْمَثْنَى وَالثَّلَاثَ وَالرَّبَاعَ، وَمَحَلُّهُنَّ النِّصْبُ عَلَى الْحَالِ. مِمَّا طَابَ تَقْدِيرُهُ فَانْكَحُوا الطَّيِّبَاتِ لَكُمْ مَعْدُودَاتُ هَذَا الْعَدَدِ ثَنَتَيْنِ ثَلَاثَتَيْنِ وَثَلَاثًا ثَلَاثًا وَارْبَعًا أَرْبَعًا.

فَإِنْ قُلْتُ: الَّذِي أَطْلَقَ لِلنَّكَاحِ فِي الْجَمْعِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ ثَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ فَمَا مَعْنَى التَّكْرِيرِ فِي مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ؟ قُلْتُ: الْخُطَابُ لِلْجَمْعِ فَوَجِبَ التَّكْرِيرُ لِيَصِيبَ كُلَّ نَاكِحٍ يَرِيدُ الْجَمْعَ مَا أَرَادَ مِنَ الْعَدَدِ الَّذِي أَطْلَقَ لَهُ، كَمَا نَقُولُ لِلْجَمَاعَةِ: اقْتَسِمُوا هَذَا الْمَالُ وَهُوَ أَلْفُ دِرْهَمٍ، دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ وَثَلَاثَةً ثَلَاثَةً وَارْبَعَةً أَرْبَعَةً وَلَوْ أَفْرَدْتَ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنَى.

لَا تَفَرَّقُوا بَيْنَ أَمْوَالِكُمْ وَأَمْوَالِهِمْ قَلَّةً مِبَالَةً بِمَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ وَتَسْوِيَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَلَالِ.

فَإِنْ قُلْتُ: قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ مَالِ الْيَتَامَى وَحْدَهُ وَمَعَ أَمْوَالِهِمْ فَلَمْ يَرُدَّ النَّهْيُ عَنْ أَكْلِهِ مَعَهَا؟ قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ مَالٍ حَلَالٍ وَهُمْ عَلَى نَظَرٍ يَطْمَعُونَ فِيهَا كَانَ الْقَبِيحُ أَبْلَغَ وَالذَّمُّ أَثْقَى، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ، فَنَعَى عَلَيْهِمْ فَعْلَهُمْ وَسَمِعَ بِهِمْ لِيَكُونَ أَزْجَرُ لَهُمْ.

وَالْحَوْبُ: الذَّنْبُ الْعَظِيمُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ طَلَّقَ أُمُّ أَيُّوبَ لِحَوْبٍ»⁽¹⁾، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ ذَنْبًا عَظِيمًا كَبِيرًا. وَقُرَأَ الْحَسَنُ: حَوْبًا بِفَتْحِ الْحَاءِ، وَهُوَ مُصْدَرُ حَابٍ حَوْبًا. وَقُرِئَ: حَابًا، وَنَظِيرُ الْحَوْبِ وَالْحَابِ الْقَوْلُ وَالْقَالَ، وَالطَّرْدُ وَالطَّرْدُ.

وَإِنْ قُلْتُ: أَلَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثَلَاثَ وَرَبْعَ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَيْدَهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقَ أَلَّا تَمْلِكُوا⁽²⁾.

وَلَمَّا نَزَلَتْ⁽²⁾ الْآيَةُ فِي الْيَتَامَى وَمَا فِي أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيرِ خَافَ الْأَوْلِيَاءُ أَنْ يُلْحَقَهُمُ الْحَوْبُ بِتَرْكِ الْإِقْسَاطِ فِي حَقُوقِ الْيَتَامَى، وَأَخَذُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ وَلَايَتِهِمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ رِيْمًا كَانَ تَحْتَهُ الْعَشْرُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْثَمَانِ وَالسَّتِ فَلَا يَقُومُ بِحَقُوقَهُنَّ وَلَا يَعْدِلُ بَيْنَهُنَّ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ خَفْتُمْ تَرَكَ الْعَدْلَ فِي حَقُوقِ الْيَتَامَى فَتَحَرَّجْتُمْ مِنْهَا فَخَافُوا أَيْضًا تَرَكَ الْعَدْلَ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَقَلَّلُوا عَدَدَ الْمُنْكَوْحَاتِ لِأَنَّ مَنْ تَحَرَّجَ مِنْ ذَنْبٍ أَوْ تَابَ عَنْهُ وَهُوَ مَرْتَكِبٌ مِثْلَهُ فَهُوَ غَيْرُ مُتَحَرِّجٍ وَلَا تَائِبٍ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَجِبَ أَنْ يَتَحَرَّجَ مِنَ الذَّنْبِ وَيَتَابَ عَنْهُ لِقَبِيحِهِ، وَالْقَبِيحُ قَائِمٌ فِي كُلِّ ذَنْبٍ. وَقِيلَ⁽³⁾: كَانُوا لَا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الزَّنا وَهُمْ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ وَايَةِ الْيَتَامَى.

فَمَنْ كَمْ يَقُولُونَ لَا تَقِيدُ التَّوْبَةَ عَنْ بَعْضِ الذَّنُوبِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى بَعْضِهَا؛ لِأَنَّهُ بَوَاحِدَةٍ مِنَ الْكِبَائِرِ سَاوِيُ الْكَافِرِ فِي الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ، وَلَا يَقِيدُ تَوْحِيدَهُ، وَلَا شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذَا هُوَ مَعْتَقَدُهُمُ الْفَاسِدُ، الَّذِي يَرُومُ الزَّمْخَشَرِي تَفْسِيرَ الْآيَةِ عَلَيْهِ فَاحْذَرَهُ أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ، فَيَقُولُونَ إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ بَعْضِ الذَّنُوبِ، كَانَ الْخُطَابُ بِوُجُودِ التَّوْبَةِ مِنْ بَاقِيهَا مُتَوَجِّهًا عَلَيْهِ، وَكَانَهُ قَامَ بِبَعْضِ الْوُاجِبَاتِ، وَتَرَكَ الْقِيَامَ بِبَعْضِهَا، فَافَادَتُهُ التَّوْبَةُ مَحُوَ الْمُتَوَبِّ عَنْهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَدَهُ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، فِيمَا لَمْ يَتَبَّ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمْ خُوطِبُوا بِالتَّحَرُّجِ فِي حَقُوقِ النِّسَاءِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الْجُورِ عَلَيْهِنَّ، كَمَا تَابُوا عَنْ الْحَيْفِ عَلَى الْيَتَامَى، فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ مَنْزِلٌ عَلَى مَا بَيَّنَّا مِنْ قَوَاعِدِ السُّنَّةِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

(3) قَالَ أَحْمَدُ: وَهَذَا التَّوَالِيلُ الَّذِي أَخْرَجَهُ جَدِيرٌ بِالتَّقَدُّمِ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَتَكُونُ الْآيَةُ مَعَ لَبْيَانِ حُكْمِ الْيَتَامَى، وَتَحْدِيرًا مِنَ التَّوَلُّطِ فِي الْجُورِ عَلَيْهِنَّ، وَأَمْرًا بِالْإِحْتِيَاظِ وَفِي غَيْرِهِنَّ مُتَسَعٍ إِلَى الْأَرْبَعِ، وَأَصْبَحَ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمَرَادُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَوَاتَى النِّسَاءَ صِدْقَاتُهُنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

(4) سُورَةُ النِّسَاءِ، آيَةُ: 3.

== فُلُو أَمْرٌ بِإِسْعَافِ الْأَقْرَابِ، وَالْيَتَامَى مِنَ الْمَالِ الْمُورِثِ، وَلَمْ يَذْكُرْ حَالَةَ حَضُورِهِمُ الْقِسْمَةَ لَمْ تَكُنِ الْإِنْفُسُ بِالْمُنْبَعِثَةِ إِلَى هَذَا الْمَعْرُوفِ، كَانِبَاتِهَا مَعَ حَضُورِهِمْ بِخِلَافِ مَا إِذَا حَضُرُوا، فَإِنْ النَّفْسُ يَرِيقُ طَبْعُهَا، وَتَنْفَرُ مِنْ أَنْ تَأْخُذَ الْمَالَ الْجَزْلَ، وَنَوَ الرَّحِمَ حَاضِرَ مَحْرُومٍ، وَلَا يَسْعَفُ، وَلَا يَسَاعِدُ، فَإِذَا أَمَرْتُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِالْإِسْعَافِ هَانَ عَلَيْهَا امْتِنَالُ الْأَمْرِ، وَاتِّلَافُهَا عَلَى امْتِنَالِ الطَّبْعِ، ثُمَّ تَدْرِبَتْ بِذَلِكَ عَلَى إِسْعَافِ ذِي الرَّحِمِ مُطْلَقًا حَاضِرٍ أَوْ غَائِبٍ، فَمِرَاعَةُ هَذَا وَامْتِثَالُهُ مِنَ الْفَوَائِدِ لَا يَكَادُ يَلْفِي، إِلَّا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَلَا يَعْثُرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاقِقُ الْفَطَنُ الْمُؤَيَّدُ بِالتَّوْفِيقِ، نَسَّالَ اللَّهُ أَنْ يَسْلِكَ بَنَّا فِي هَذَا النَّمْطِ، فَخِذْ هَذَا الْقَانُونَ عَمْدَةً، وَهُوَ أَنَّ النَّهْيَ إِنْ خَصَّ الْأَدْنَى، فَلِقَائِدَةُ التَّنْبِيهِ عَلَى الْأَعْلَى، وَإِنْ خَصَّ الْأَعْلَى، فَلِقَائِدَةُ التَّنْذِيرِ عَلَى الْإِنْكَافِافِ عَنِ الْقَبِيحِ مُطْلَقًا مِنَ الْإِنْكَافِافِ عَنِ الْأَقْبَحِ، وَمِثْلُ هَذَا النَّظَرِ فِي جَانِبِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

(1) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمُرَاسِيلِ، بَابُ: فِي الطَّلَاقِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (233)، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ 302/2.

(2) قَالَ أَحْمَدُ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ قَاعِدَةَ الْقَدْرِيةِ، وَعَقِيدَتَهُمْ أَنَّ الْكَبِيرَةَ الْوَاحِدَةَ تَوْجِبُ خُلُودَ الْعَبْدِ فِي الْعَذَابِ، وَإِنْ كَانَ مُوَحَّدًا مَا لَمْ يَتَبَّ عَنْهَا، ==

كلام الشافعي» شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب فسلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

فإن قلت: كيف يقل: عيال من تسري وفي السراي نحو ما في المهاثر! قلت: ليس كذلك لأن الغرض بالزواج التوالد والتناسل بخلاف التسري، ولذلك جاز العزل عن السراي بغير إنهن، فكان التسري مظنة لقلة الولد بالإضافة إلى الزواج كزواج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع. وقرأ طاوس: أن لا تعيلوا، من أعال الرجل إذا كثر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي رحمه الله من حيث المعنى الذي قصده.

وَأَمَّا الْبَنَاتُ صَدَقَتَيْنِ عِلَّةٌ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَسَاءَ كَلْمُكُمْ مِثْلًا مَرِيئًا (١).

«صدقاتهن» مهورهن، وفي حديث شريح: قضى ابن عباس لها بالصدقة. وقرئ: صدقاتهن بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهن؛ وصدقاتهن بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة. وقرئ: صدقاتهن بضم الصاد والدال على التوحيد، وهو تثقيل صدقة كقولك: في ظلمة ظلمة. «نحلة» من نحله كذا، إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلاً، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: إني كنت نحلتك جدار عشرين وسقاً بالعالية^(٢). وانتصابها على المصبر لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء^(٣)، فكأنه قيل: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم، أو على الحال من المخاطبين، أي: آتوهن صدقاتهن ناحلين، طيببي النفوس بالإعطاء، أو من الصدقات أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس وقيل: النحلة الملة ونحلة الإسلام خير النحل، وفلان ينتحل كذا أي: يدين به. والمعنى: آتوهن مهورهن ديانة على أنها مفعول لها، ويجوز أن يكون حالاً من الصدقات، أي: ديناً من الله شرعه وفرضه، والخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وكانوا يقولون: هنيئاً لك النافجة، لمن تولد له بنت، يعنون تأخذ مهرها فتنتفج به مالك، أي: تعظمه. الضمير في منه جار مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: عن شيء من ذلك، كما قال الله تعالى:

فَإِنْ قُلْتُمْ: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع. وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرلوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا مختلفين في تلك الأعداد، وإن شاءوا متفقين فيها محظوراً عليهم ما وراء ذلك. وقرأ إبراهيم: وثلاث وربيع، على القصر من ثلاث ورباع. «فإن خفتن ألا تعيلوا» بين هذه الأعداد كما خفتن ترك العدل فيما فوقها «فولحدة» فالزمو أو فاختراروا واحدة ونرو الجمع راساً فإن الأمر كله يدور مع العدل، فإينما وجدتم العدل فعليكم به. وقرئ: فواحدة بالرفع على فالمقنع واحدة، أو فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة. «أو ما ملكت إيمانكم» سوى في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد. ولعمري إنهن أقل تبعاً وأقصر شغباً وأخف مؤنة من المهاثر لا عليك أكثرت منهن أم أقلت عبلت بينهن في القسم أم لم تعدل عزلت عنهن أم لم تعزل. وقرأ ابن أبي عبله: من ملكت. «ذلك» إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري «أبني ألا تعيلوا» أقرب من أن لا تميلوا، من قولهم: عال الميزان عولا إذا مال، وميزان فلان عائل، وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروي: أن أعرابياً حكم عليه حاكم، فقال له: أتعمل علي. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «أن لا تعيلوا، أن لا تجوروا». والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنه فسر: أن لا تعيلوا، أن لا تكثر عيالكم، فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم: مانهم يمونهم، إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحال والرزق الطيب، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا. فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من فم أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً^(١). وكفى بكتابتنا المترجم بكتاب «شافعي العي» من

== كذلك إفراد الصداق المقدر، فإنه ليس بأصل الكلام بل الأصل الجمع، وأما الأفراد، فقد يأتي في مثله على سبيل الاختصار استغناء عن الجمع بالإضافة، ولا يرد أنهم قد راعوا ما ليس بأصل في قوله:

بدالي أي لست متروك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً لأن دخول الباء، وإن لم يكن أصلاً إلا أنها قد توطنت بهذا الموضوع، وكثر حلولها فيه، فصارت كان الأصل دخولها في الخبر، والله أعلم، والأم في ذلك القريب.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (٨٣٤٥).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل الحديث رقم: (٤٠).

(٣) قال أحمد: هذا الفصل بجملته حسن جداً غير أن في حمله تنكير الضمير في منه على الصداق، ثم تنظيره ذلك بقوله، فاصبق نظراً، وذلك أن المرامي، ثم الأصل، وهو: عدم دخول الفاء والجزم، وتقدير ما هو الأصل، وإعطاؤه حكم الموجود ليس ببدع، ولا =

الواحد فيكون متناولاً بعضه ولو أنث لتناول ظاهره هبة الصادق كله لأن بعض الصدقات واحدة منها فصاعداً.

الهنيء والمريء: صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنقيص فيه. وقيل: الهنيء ما يلذه الأكل، والمريء ما يحمّد عاقبته. وقيل: هو ما ينسأغ في مجراه. وقيل لمدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة: المريء، لمرؤ الطعام فيه وهو انسياغه وهما وصف للمصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير أي: كلوه وهو هنيء مريء. وقد يوقف على فكلوه ويبتدأ هنيئاً مريئاً على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين، كأنه قيل: هنا مرء، وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ صِيغَةً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْفُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾.

﴿السفهاء﴾ المبدرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا يدي لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها، والخطاب للأولياء. (4) وأضاف الأموال إليهم لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشيهم، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (5) ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (6) والدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامي قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ ﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي: تقومون بها وتتعتشون ولو ضيعتموها لضعتم، فكأنها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرئ: قياماً بمعنى قياماً، كما جاء عوداً بمعنى عياداً. وقرأ عبد الله بن عمر: قواماً بالواو، وقوام الشيء ما يقام به، كقولك: هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالا يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان وكانت له بضاعة يقيها: لولاها لتمنل بي بنو العباس. وعن غيره: وقيل له: إنها تدنيك من الدنيا، لئن انتنتي من الدنيا لقد صابتني عنها. وكانوا يقولون: اتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما ياكل دينه. وربما راوا رجلاً في جنازة فقالوا له: اذهب إلى بكانك. ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتترجوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يكلها الإنفاق. وقيل: هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء قريب أو أجنبي رجل أو امرأة يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده. ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن جريج: عدة جميلة إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وعن عطاء: إذا ربحت أعطيتك، وإن

﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ (1) بعد نكر الشهوات أو من الحجج المسموعة من أقواه العرب ما روي عن رؤبة أنه قيل له: في قوله:

كأنه في الجلد توليع البهق

فقال: أردت كأن ذلك، أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق لأنك لو قلت: وأتوا النساء صداقهن، لم تخل بالمعنى فهو نحو قوله: ﴿فَأَصْلَقَ وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. كأنه قيل: أصْلَقَ. و ﴿نَفْسًا﴾ تمييز، وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه، والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجاقت عنه نفوسهن طيبات غير مخبئات مما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فَكُلُوهُ﴾ فانفقوه. قالوا: فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة علم أنها لم تطب عنه نفساً. وعن الشعبي أن رجلاً أتى مع امرأته شريحاً في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع، فقال شريح: رد عليها. فقال الرجل: ليس قد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ﴾ قال: لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه. وعنه: أقيها فيما وهبت ولا أقيله لأنهن يخدعن.

وحكي: أن رجلاً من آل أبي معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقاً كان لها عليه، فلبث شهراً ثم طلقها، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان. فقال الرجل: أعطتني طيبة بها نفسها. فقال عبد الملك: فأين الآية التي بعدها، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، اردد عليها. وعن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى قضاته: إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأیما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها (2). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: إذا جادت لزوجها بالعطية طائعة غير مكرهة لا يقضي به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله به في الآخرة (3). وروي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يرجع أحد منهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فقال الله تعالى: إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خبيعة، فكلوه سائغاً هنيئاً، في الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بني الشرط على طيب النفس. فقيل: فإن طبن، ولم يقل فإن وهبن أو سمحن، إعلاماً بأن المراعى هو تجاقي نفسها عن الموهوب طيبة. وقيل: فإن طبن لكم عن شيء منه، ولم يقل فإن طبن لكم عنها، بعثاً لهن على تقليل الموهوب. وعن الليث بن سعد: لا يجوز تبرعها إلا باليسير، وعن الأوزاعي: لا يجوز تبرعها ما لم تلد أو تقم في بيت زوجها سنة. ويجوز أن يكون تنكير الضمير لينصرف إلى الصداق

(1) سورة آل عمران، الآية: 15.

(4) قال أحمد: ويؤيد هذا المعنى أنه لما أمر بإسعاف نوي القربى، على سبيل الموساة قال: وارزقوهم منه؛ لأن المدفوع إليهم من صلب المال، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 29.

(6) سورة النساء، الآية: 25.

(2) عبد الرزاق في المصنف، 115/9 الحديث رقم: (16562)، وابن أبي شيبه 191/6، كتاب: البيوع والأقضية، باب: في المرأة تعطي زوجها.

(3) الثعلبي والواحدي.

لأنَّ الفسق مفسدة للمال.

فإن قلت: فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانين سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغيير أحوال الإنسان؛ لقوله عليه السلام: «مروهم بالصلاة لسبع»⁽²⁾. دفع إليه ماله لو نس منه الرشد أو لم يؤنس. وعند أصحابه لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد.

فإن قلت: ما معنى تنكير الرشد؟ قلت: معناه نوعاً من الرشد وهو الرشد في التصرف والتجارة أو طرفاً من الرشد ومخيلة من مخيله حتى لا ينتظر به تمام الرشد. فإن قلت⁽³⁾: كيف نظم هذا الكلام؟ قلت: ما بعد حتى إلى فادفعوا إليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهي حتى التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

ما زالت القتلى تمج بساءها بجلة حتى ماء بجلة أشكل والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأن إذا متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح، وقوله: «فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم» جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأول الذي هو إذا بلغوا النكاح، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وقرأ ابن مسعود: فإن أحسيتهم، بمعنى أحسستم. قال:

أحس به فهن إليه شوس

وقرئ رشداً بفتحيتين ورشداً بضميتين. «إسرافاً

غنمت في غزاتي جعلت لك حظاً. وقيل: إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته قتل: عافانا الله وإياك بارك الله فيك. وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل فهو معروف، وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكراً.

وَأَبْتَلُوا الِيتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِمْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِإِلَهِكُمْ حَبِيبًا⁽¹⁾.

«وابتلاوا اليتامى»⁽¹⁾ واختبروا عقولهم ونوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ حتى إذا تبينتم منهم رشداً أي: هدايةً نفعتهم أموالهم من غير تأخير عن حد البلوغ.

وبلوغ النكاح: أن يحتلم لأنه يصلح للنكاح عنده ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد والتناسل.

والإيناس: الاستيضاح فاستعير للتبيين. واختلف في الابتلاء والرشد، فالابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه: أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه، والرشد التهذيب إلى وجوه التصرف، وعن ابن عباس: الصلاح في العقل والحفظ للمال. وعند مالك والشافعي: الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والإعطاء ويتبصر مخيله وميله إلى الدين، والرشد الصلاح في الدين

= فإن فارقوا فإن الله غفور رحيم» فجند به عهداً يتضح لك تناسب النظريتين، والله أعلم، وأما اقتصاره رضي الله عنه بالرشد على المال، فإن كان المولى عليه فاسق الحال، فوجه استخراج من الآية أنه علق إيناس الرشد فيها بالابتلاء، يدفع مال إليهم ينظر تصرفهم فيه، ولو كان المراد صلاح الدين فقط لم يفت الاختيار في ذلك، على دفع المال إليهم، إذ الظاهر من المصلح لدينه أنه لا يتفاوت حاله في حالتي، عدمه ويسره، ولو كان المراد صلاح الدين، والمال معاً، كما يقول الشافعي رضي الله عنه، لم يكن صلاح الدين موقوفاً على الاختيار، كما مر أنفاً وإيضاً، فالرشد في الدين والمال جميعاً، هو: الغاية في الرشد، وليس الجمع بينهما بقيد، وتنكير الرشد في الآية يابى ذلك إذ الظاهر: فإن أنستم منهم رشداً ما، فبادروا بتسليم المال إليهم غير منتظرين بلوغ الغاية فيه، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة الحديث رقم: (494)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده الحديث رقم: (495)، والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الصبي بالصلاة الحديث رقم: (407)، والدارقطني في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها.

(3) قال أحمد رحمه الله: هو يروم بهذا التقدير تنزيل مذهب أبي حنيفة في سبق الابتلاء، على البلوغ على مقتضى الآية، وقد أسلفنا وجه تنزيل مذهب مالك عليها باظهر وجه، واقرره، والحاصل أن مقتضى النظر إلى المجموع من حيث هو، ومقتضى مذهب أبي حنيفة النظر إلى المفردين، والظاهر اعتبار المجموع، فإن العطف بالفاء يقتضيه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: الابتلاء على هذا الوجه مذهب مالك رضي الله عنه، غير أنه لا يكون عنده إلا بعد البلوغ، ولا يدفع إليه من ماله شيء قبله، وكذلك أحد قولي الشافعي رضي الله عنه، وقوله الآخر كمذهب أبي حنيفة غير أن عنه خلافاً في صورته، قبل البلوغ على وجهين، أحدهما: أن يسلم إليه المال، ويباشر العقود بنفسه، كالبالغ، والآخر أن يكون وظيفته أن يساوم، وتقدير الثمن، إذا بلغ الأمر إلى العقد باشره الولي بونه وسلم الصبي الثمن، فأما الرشد، فالمعتبر عند مالك رضي الله عنه فيه، هو أن يحرز ماله وينمي، وإن كان فاسقاً في حاله، وعند الشافعي المعتبر صلاح الدين، والمال جميعاً، وغرضنا الآن أن نبين وجه تنزيل مذهب مالك في هذه الآية، والله المستعان، فأما منعه من الإيتاء قبل البلوغ، وإن كان ظاهر الآية، أن الإيتاء قبله من حيث جعل البلوغ، وإيناس الرشد غاية للإيتاء، والغاية متأخرة عن المعنى ضرورة، فيتبين وقوع الإيتاء قبل، ولهذا النكتة أثبت أبو حنيفة قبل البلوغ، والله أعلم، فعلى جعل المجموع من البلوغ، وإيناس الرشد هو الغاية حينئذ يلزم وقوع الابتلاء قبلهما أعني المجموع، وإن وقع بعد أحدهما، وهو البلوغ؛ لأن المجموع من اثنين، فصاعداً لا يتحقق إلا بوجود كل واحد من مفرديه، ويحقق هذا التنزيل أنك لو قلت، وابتلوا اليتامى بعد البلوغ، حتى إذا اجتمع الأمران، وتضاماً البلوغ والرشد، فادفعوا إليهم أموالهم، لاستقام الكلام، ولكان البلوغ قبل الابتلاء، وإن كان الابتلاء مغيياً بالأمرين، وأقماً قبل مجموعهما، ونظير هذا النظر توجيه مذهب أبي حنيفة في قوله، إن فية المولى إنما تعتبر في أجل الإيتاء، لا بعده، وتنزله على قوله تعالى: «لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، =

الْأَوْلَادِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾.

﴿الاقربون﴾ هم المتوارثون من نوي القربان دون غيرهم. ﴿مما قل منه أو كثر﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل، و ﴿نصيباً مفروضاً﴾ نصب على الاختصاص بمعنى: أعني نصيباً مفروضاً مقطوعاً واجباً لا بد لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد، كقوله: ﴿فريضة من الله﴾. كأنه قيل: قسمة مفروضة. روي: أن أوس بن الصامت الأنصاري ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابناً عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيف فشكت إليه، فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله». فنزلت فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين» فنزلت: «يؤصيك الله»⁽³⁾. فاعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم⁽⁴⁾.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾.

﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة التركة ﴿أولوا القربى﴾ ممن لا يرث ﴿فارزقوهم منه﴾ الضمير لما ترك الولدان والاقربون وهو أمر على النذب. قال الحسن: كان المؤمنون يفعلون ذلك، إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع، فحضرهم الله على ذلك تائيداً من غير أن يكون فريضة. قالوا: ولو كان فريضة لضرب له حد ومقدار كما لغیره من الحقوق. وروي: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قسم ميراث أبيه وعاشة رضي الله عنها حية، فلم يدع في الدار أحد إلا أعطاه، وتلا هذه الآية. وقيل: هو على الوجوب. وقيل: هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية. وعن سعيد بن جبیر أن ناساً يقولون نسخت، ووالله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس.

والقول المعروف: أن يلطفوا لهم القول ويقولوا: خنوا برك الله عليكم، ويعتذروا إليهم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يستكثروه ولا يمتنوا عليهم. وعن الحسن والنخعي: أدركنا الناس وهم يقسمون على القربان والمساكين واليتامى من العين - يعنيان الورق والذهب - فإذا قسم الورق والذهب

ويدارهم مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع ويقتنع بما رزقه الله من الغني إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله، والفقير يأكل قوتاً مقدراً محتاطاً في تقديره على وجه الأجرة أو استقراضاً على ما في ذلك من الاختلاف، ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها. وعن النبي ﷺ: أن رجلاً قال له: إن في حجر يتيماً، فأفكلك من ماله؟ قال: «بالمعروف غير مثاقل مالا ولا واق مالك بماله». فقال: فأضربه؟ قال: «مما كنت ضارباً منه ولدك»⁽¹⁾. وعن ابن عباس: أن ولي اليتيم قال له: أفأشرب من لبن إبله؟ قال: إن كنت تبغي ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم وريها، فأشرب غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب⁽²⁾. وعنه: يضرب بيده مع أيديهم فليأكل بالمعروف ولا يلبس عمامة فما فوقها. وعن إبراهيم: لا يلبس الكتان والحلل ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة. وعن محمد بن كعب: يتقرم تقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه. وعن الشعبي: يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه. وعنه: كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضي. وعن مجاهد: يستسلف فإذا أيسر أدى. وعن سعيد بن جبیر: إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر وليس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه، فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو في حل. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم إن استغنيت استعفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت⁽³⁾. واستعف⁽⁴⁾ أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. ﴿فأشهدوا عليهم﴾ بأنهم تسلموا وقبضوها وبرثت عنها ذممكم، وذلك أبعد من التخاصم والتجاد، وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنه إذا لم يشهد فادعى عليه صق مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعي، لا يصق إلا بالبيعة. فكان في الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضي إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة. ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي: كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض أو محاسباً، فعليكم بالتصديق وإياكم والتكاذب.

لِيَرْجَلَ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلْيَتَامَى نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ

(3) ابن أبي شيبة 324/12، كتاب الجهاد، باب: عدل الوالي..

(4) قال أحمد: في هذا إشارة إلى أنه من استعمل بمعنى الطلب، وليس كذلك، فإن استعمل الطلبية متعينة، وهذه قاصرة، والظاهر أنه مما جاء فيه فعل، واستعمل بمعنى، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 11.

(6) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 83.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء فيما لولي اليتيم... الحديث رقم: (2872)، والنسائي في كتاب الوصايا، باب: ما للوصي من مال اليتيم الحديث رقم: (3668)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً...﴾ الحديث رقم: (2718)، وأحمد في المسند 290/6، وأخرجه ابن حبان في كتاب الرضاع، باب: النفقة الحديث رقم: (4244).

(2) الموطأ برواية محمد بن الحسن ص 331، الحديث رقم: (938).

الناس»⁽²⁾. وكان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث، وأن الخمس أفضل من الربع، والربع من الثلث، ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٦﴾

﴿ظَلَمَاءُ﴾⁽³⁾ ظالمين، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته. ﴿فِي بَطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه. قال:

كلوا في بعض بطنكم وتغفوا

ومعنى ياكلون ناراً: ما يجر إلى النار فكأنه نار في الحقيقة. وروي: أنه يبعث أكل مال اليتيم يوم القيامة، والبخان يخرج من قبره ومن فيه وأنثه وإنيته وعينيه، فيعرف الناس أنه كان ياكل مال اليتيم في الدنيا⁽⁴⁾ وقرئ: وسيصلون بضم الياء وتخفيف اللام وتشديدها. **﴿سَعْرًا﴾** ناراً من الترنان مبهمة الوصف.

يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَرْبَابِكُمْ لِلَّذِي فِي يَدِ حَظِّ الْأَنْشِينَ فَإِنْ كُنْ
سَبَاةً قَوْقِ أَفْتَنِينَ فَلَهُنَّ ثَلَاثَا مَرَّةً وَإِنْ كَانَتْ وَجِدَهُ فَلَهَا الْإِصْفُ
وَلَا يُؤَيِّدُ لِكُلِّ وَجْهِ مَبْنِي السُّدُسِ مَرَّةً إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ
يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلَا يُؤَيِّدُ ثَلَاثًا فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَا يُؤَيِّدُ
السُّدُسَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُؤَيِّدُ بِهَا أَوْ دَيْنًا مَا بَالَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا
تَذَرُونَ أَهْلَهُمْ أَقْرَبَ لَكُمْ نَعْمًا فَرِصَتُهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١١﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يعهد إليكم ويأمركم ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾
 في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة، وهذا إجمال
 تفصيله ﴿لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ حِفْظِ الْأَنْثَرَيْنِ﴾.

فَإِنْ قُلْتُ⁽⁵⁾: هَلَا قِيلَ لِلأُنثِيِّينَ مِثْلَ حِظِّ الذَّكَرِ أَوْ لِلأُنثِيِّ نِصْفَ حِظِّ الذَّكَرِ؟ قُلْتُ: لِيُبَيِّنَ حِظَّ الذَّكَرِ لِفَضْلِهِ كَمَا ضَوَّعَ حِظَّهُ لِلذَّكَاءِ، وَلَئِنْ قَوْلُهُ: ﴿الذَّكَرُ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ قَصِدَ إِلَى بَيَانِ فَضْلِ الذَّكَرِ، وَقَوْلُكَ: لِلأُنثِيِّينَ مِثْلَ حِظِّ الذَّكَرِ قَصِدَ إِلَى بَيَانِ نَقْصِ الْأُنْثَى، وَمَا كَانَ قَصْدَ

وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولاً معروفاً. كانوا يقولون لهم: يورك فيكم.

وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا عَاقَبُوا عَلَيْهِمْ
فَلْيَسْئَلُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

﴿لَوْ﴾ مع ما في حيزه صلة للذين^(١)، والمراد بهم الأوصياء، أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم خوفاً على نريتهم لو تركوهم ضعافاً وشققتهم عليهم، وأن يقرؤوا نك في أنفسهم ويصوِّروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة. ويجوز أن يكون المعنى: وليخشوا على اليتامى من الضياع. وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون: إن نريتك لا يغنونك من الله شيئاً فقدم مالك فيستغرقه بالوصايا. فأمروا بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شققتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا، ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين، وأن يتصوِّروا أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة.

فَأَنْ قُلْتُ: ما معنى وقوع لو تركوا وجوابه صلّة للذين؟
قُلْتُ: معناه: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنّهم لو شاركوا
 أن يتركوا خلفهم نرية ضعافاً وبذلك عند احتضارهم خافوا
 عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم. كما قال
 القائل:

لقد زاد الحياة إلي حباً بناتي انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي وإن يشربن رنقاً بعد صافي
وقريء: ضعفاء وضعافى وضعافى نحو سكرارى
وسكرارى. والقول للسيد من الأوصياء أن لا يؤثروا اليتامى
ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالألب الحسن والترحيب
ويدعوهم بيا بني وبيا ولدي، ومن الجالسين إلى المريض
أن يقولوا له إذا أراد الوصية: لا تسرف في وصيتك
فتجحف بأولائك، مثل قول رسول الله ﷺ لسعد: «إنك إن
تترك وملك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون

= أغنياء خير... الحديث رقم: (2742)، ومسلم في كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث الحديث رقم: (4191).

(3) قال أحمد: ومثله قد بنت البغضاء من أقوامهم: أي: شبقوا بها، وقالوها بملء أقوامهم، أو يكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير، ولأجل توكيد التشنيع على الظالم للفتيم في ماله خص الأكل؛ لأنه أشبع الأحوال التي يتناول مال المتيم فيه، والله أعلم.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب الحظر والإباحة، الحديث رقم: (5566).

(5) قال أحمد: لأنّ الأفضلية حينئذٍ مدلول عليها بواسطة الاستلزام، لا منطوق بها، وأمّا على نظم الآية، فالأفضلية منطوق بها غير محتاجة إلى ذلك.

(1) قال أحمد: وإنما الجاه إلى تقدير تركوا بقوله شارقوا أن يتركوا؛ لأن جوابه قوله خافوا عليهم، والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم، وذلك في دار الدنيا، فقد دل على أن المراد بالترك، الإشراف عليه ضرورة، ولا لزم وقوع الجواب قبل الشرط، وهو باطل ونظيره، فإذا بلغن أجلهن، فامسكوهن بمعروف، أو سرحوهن بمعروف، أي: شارفن بلوغ الأجل، ولهذا المجاز في التعبير عن المشاركة على الترك بالترك سرٌ بديع، وهو التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطعم في الحياة، ولا في الذنب عن التوبة الضعاف، وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا، إلا أنها لقربها من الآخرة، ولصوتها بالفاعلة صارت من حيثها، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاری فی صحیحہ، کتاب: الوصایا، باب: أن یترو ورثتہ =

نساء.

فَإِنْ قُلْتَ: هل يصح أن يكون الضميران في كن وكانت مبهمين ويكون نساء واحدة تفسيراً لهما على أن كان تامة! قلت: لا أبعد ذلك.

فَإِنْ قُلْتَ: (2): لم قيل: فإن كن نساء، ولم يقل: وإن كانت امرأة! قلت: لأن الغرض ثمة خلوصهن إناثاً لا نكر فيهن ليميز بين ما نكر من اجتماعهن مع الذكور في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وبين انفرادهن، وأريد ههنا أن يميز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لا قرينة لها.

فَإِنْ قُلْتَ: قد نكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد، فما حكمهما وما باله لم يذكر! قلت: (3): أما حكمهما فمختلف فيه، فابن عباس أبى تنزيلهما منزلة الجماعة لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾، فاعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف، وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة، والذي يعطى به قولهم: إن قوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ قد دل على أن حكم الأنثيين حكم الذكر، وذلك أن النكر كما يحوز الثلثين مع الواحدة فالأنثيان كذلك يحوزان الثلثين، فلما ذكر ما دل على حكم الأنثيين قيل: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ﴾ على معنى: فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرتهم ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت. وقيل: إن الثنتين أمس رحماً بالميت من الأخنتين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحماً منهما. وقيل: إن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها ويكون لأختها معها

إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى النكر أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من مع إلاتهن من القرابة بمثل ما يلون به.

فَإِنْ قُلْتَ: (1): فإن حظ الأنثيين الثلثان فكأنه قيل: للذكر الثلثان! قلت: أريد حال الاجتماع لا الانفراد، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان كما أن لهما سهمين، وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبناتان يأخذان الثلثين، والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع أنه أتبعه حكم الانفراد وهو قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ﴾ والمعنى النكر منهم أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه لأنه مفهوم كقولهم: السمن منوان بدرهم. ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ فإن كانت البنات أو المولودات نساء خلصاً ليس معهن رجل، يعني: بنات ليس معهن ابن. ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين. ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ وإن كانت البنت أو المولودة منفردة فذة ليس معها أخرى ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وقرئ: واحدة بالرفع على كان التامة والقراءة بالنصب أوفق لقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وقرأ زيد بن ثابت: النصف بالضم. والضمير في ترك للميت؛ لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت.

فَإِنْ قُلْتَ: قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد لا لبيان حظ الأنثيين، فكيف صح أن يربف قوله ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وهو لبيان حظ الإناث؟ قلت: وإن كان مسوقاً لبيان حظ الذكر إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للأميرين جميعاً، فلذلك صح أن يقال ﴿فَإِنْ كُنَّ

(1) قال أحمد: وعلى مقتضى هذا لا يكون حكم الابن، إذا انفرد منكر في الآية؛ لأنه حيث نكره، فإنما عنى حالة الاجتماع مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المذكور أولاً ميراث النكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المذكور أولاً ميراث النكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، ومنفرداً، أما وجه تلقي حكمه حالة الاجتماع، فقد قرره الزمخشري، وأما وجه تلقيه حالة الانفراد، فمن حيث أن الله تعالى جعل له مثل حظ الأنثيين، فإن كانت معه فذلك، وإن كانت منفردة عنه، فقد جعل لها في حال انفرادها النصف، فانتضى ذلك أن للنكر عند انفرداته مثلي نصيبها عند انفرداتها، وذلك الكامل، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومجرد النظر أن ابن عباس أجرى التقيد بالصفة، وهي قوله فوق اثنتين على ظاهره من مفهوم المخالفة، غير أنه ما كان يقتضي اللفظ أن يقتصر لهما على النصف، لأجل تعارض المفهومين إذ مفهوم فلهن ثلثاً ما ترك أن تكون الأنثى أقل من الثلثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين مزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً فيما بين النصف =

= والثلاثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين مزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً، فيما بين النصف والثلاثين بقدر مجمل، وأما غيره، فظاهر للتقيد فائدة سوى المخالفة، وتلك الفائدة رفع الفرق المتوهم بين الأنثيين، وما فوقهما، ومتى ظهرت للتخصيص فائدة جلية سوى المخالفة، وجب المصير إليها وسقط التعلق بالمفهوم، وكانه على القول المشهور لما علم أن الأنثيين يستوجبان الثلثين بالطرق المذكورة، وكان الوهم قد يسبق إلى أن الزائد على الأنثيين يستوجب أكثر من فرض الأنثيين؛ لأن ذلك مقتضى القياس رفع هذا الوهم بإيجاب الثلثين، لما فوق الأنثيين كوجوبه لهما، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يريد أن حكم البنتين حال اجتماعهما مع الابن، مذكور في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، وأن حكم البنات منفردة مذكور في قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾، وأن حكم البنت منفردة منكرة في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، وبقي عليه أن نكر الابن في حال الانفراد مستفاد من قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، إذا ضمت إلى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ على التقرير الذي قدمته.

يسهم له بحق العقد لا بالقرابة فأشبه الوصية في قسمة ما وراءه، والثاني أنَّ الأب أقوى في الإرث من الأم بلليل أنه يضعف عليها إذا خلاصا ويكون صاحب فرض وعصبة وجامعاً بين الأمرين، فلو ضرب لها الثلث كمالاً لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها الا ترى أن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين فصار للزوج النصف، وللأم الثلث، والباقي للأب حازت الأم سهمين، والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنتى مثل حظ الذكركين. ﴿فإن كان له إخوة فلامه السدس﴾ الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب فيكون لها السدس وللأب خمسة الاسداس، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعداً، إلا عند ابن عباس. وعنه: أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم.

فإن قلت⁽³⁾: فكيف صح أن يتناول الإخوة الأخوين والجمع خلاف التثنية؟ قلت: الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق فدل بالإخوة عليه. وقرئ: فلامه بكسر الهمزة اتباعاً للجر، ألا تراها لا تكسر في قوله: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾⁽⁴⁾ ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها لا بما يليه وحده، كأنه قيل: قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصي بها. وقرئ: يوصي بها بالتخفيف والتشديد، ويوصي بها على البناء للمفعول مخففاً.

فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: معناها الإباحة وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما قدم على قسمة الميراث كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.

فإن قلت⁽⁵⁾: لم قُسمت الوصية على الدين، والدين مقدّم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث

مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه فوجب لهما الثلثان. ﴿ولأبويه﴾ الضمير للميت⁽¹⁾ و﴿ولكل واحد منهما﴾ بدل من أبويه بتكرير العامل وفائدة هذا البديل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه، ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها.

فإن قلت: فهلا قيل: ولكل واحد من أبويه السدس، وأي فائدة في ذكر الأبوين أولاً ثم في الإبدال منهما؟ قلت: لأن الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير، والسدس مبتدأ وخبره لأبويه والبديل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة: السدس بالتخفيف، وكذلك الثلث والربع والثلثين.

والولد يقع على الذكر والأنثى ويختلف حكم الأب في ذلك، فإن كان نكراً اقتصر بالأب على السدس وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس.

فإن قلت⁽²⁾: قد بين حكم الأبوين في الإرث مع الولد ثم حكمهما مع عمه فهلا قيل: فإن لم يكن له ولد فلامه الثلث، وأي فائدة في قوله: ﴿وورثه أبواه﴾. قلت: معناه فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب، فلامه الثلث مما ترك، كما قال: ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للام ثلث ما بقي بعد إخراج نصيب الزوج لا ثلث ما ترك، إلا عند ابن عباس. والمعنى: أن الأبوين إذا خلاصا تقاسما الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قلت: ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي بون ثلث المال؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أنَّ الزوج إنما استحق ما

(1) قال أحمد: وفي إعرابه بدلاً نظر، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء، وهما كمين واحدة، ويكون أصل الكلام والسدس لأبويه، لكل واحد منهما، ومقتضى الاقتصار على المبدل منه التشريك بينهما في السدس، كما قال: ﴿فإن كنَّ نساء فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك﴾، فافتضى اشتراكهنَّ فيه، فيقتضي البديل لو قدر إهدار الأول إفراد كل واحد منهما بالسدس، وعدم التشريك، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البديل: لأنه يلزم في هذا النوع أن يكون مؤدَّى المبدل والبديل واحداً، وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لا غير بلا زيادة معنى، فإذا تحقق ما بينهما من التباين تعذر التبيلية المذكورة، وليس من بدل التقسيم أيضاً على هذا الإعراب، وإلا لزم زيادة معنى في البديل، فالوجه، والله أعلم أن يقرر مبتدأ محذوف، كله واحد منهما السدس، ثم لما ذكر نصيبهما مجعلاً لصله بقوله لكل واحد منهما السدس، وساغ حذف المبتدأ لدلالة التفصيل عليه ضرورة، إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما للسدس استحقاقهما معاً للثلث، والله أعلم، ولا يستقيم على هذا الوجه أيضاً جعله من بدل التقسيم، ألا ترك لو قلت الدار كلها لثلاثة، لزيد، ولعمرو، ولخالد كان هذا بدلاً، وتقسيماً صحيحاً؛ لأنك لو حذفت المبدل منه، فقلت الدار، لزيد، ولعمرو، ولخالد، ولم ترد في البديل زيادة استقام، فلو قلت الدار

= لثلاثة، لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها لم يستقيم بدل تقسيم، إذ لو حذفت المبدل منه لصار الكلام الدار لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها، فهذا كلام مستأنف؛ لأنك زنت فيه معنى تمييز ما لكل واحد منهم، وذلك لا يعطيه المبدل، ولا سبيل في بدل الشيء من الشيء، إلى زيادة معنى.

(2) قال أحمد: ومذهب ابن عباس أنَّ الإخوة يأخذون السدس، الذي حجبوا الأم عنه مع وجود الأب، فعلى هذا يكون فائدة قوله: ﴿وورثه أبواه﴾، ولم يكن ثم إخوة، فلامه الثلث، فإن كان له إخوة، فلامه السدس ولا يمكن جعله على مذهب ابن عباس مقيداً بعدم الزوجين؛ لأنَّ ثلث الأم عنده لا يتغير بوجود واحد منهما، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ولقد أحسن في هذا التقرير ما لم يحسن كثير من حذاق الأصوليين، يريد متلقي في تغاير صفي الجمع، والتثنية إذ الجمع يتناول الاثنين، ويتناول لزيد منهما، ولك هذا وأما التثنية، فقاصرة على الاثنين، فيبينها على هذا العموم، والخصوص، فكل تثنية جمع، وليس كل جمع تثنية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

(5) قال أحمد: الوصية على ضربين لغير معين، فلا يطالب بها إلا الإمام إن عثر عليها، ولمعين فله المطالبة، ولكن يتباينان في القوة =

مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج، كما جعلت كذلك بحق النسب واحدة، والجماعة سواء في الربع والثلث. ﴿وَأَنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني: الميت، و﴿يُورِثُ﴾ من ورث أي يورث منه وهو صفة لرجل، و﴿كَلَالَةً﴾ خبر كان. أي: وإن كان رجل موروث منه كلالاً، أو يجعل يورث خبر كان وكلالاً حالاً من الضمير في يورث. وقرئ: يورث ويورث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل وكلالاً حال أو مفعول به.

فَإِنْ قُلْتَ: ما الكلال؟ قلت: ينطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً ولا والدًا، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلاله. كما تقول: ما صمت عن عي وما كف عن جبن. والكلاله في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء. قال الأعشى:

فأليت لا أرضي لها من كلاله

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كالة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فيمعي ذى كلاله. كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقافة للأحقق.

فَإِنْ قُلْتَ: فإن جعلتها اسماً للقرابة في الآية فعلام تنصيها؟ قلت: على أنها مفعول له، أي: يورث لأجل الكلاله أو يورث غيره لأجلها.

فَإِنْ قُلْتَ: فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث فما وجهه؟ قلت: الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث. فَإِنْ قُلْتَ: فالضمير في قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ إلى من يرجع حينئذ؟ قلت: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته وعلى الأول إليهما.

فَإِنْ قُلْتَ: إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر الأنثى فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قلت: نعم لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه سئل عن الكلاله فقال: أقول فيه برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء، الكلاله ما خلا الولد والوالد⁽¹⁾. وعن عطاء والضحاك إن الكلاله هو الموروث. وعن سعيد بن جبير: هو الوارث.

في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاملهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أدائها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثاً على وجوبها والمصارعة إلى إخراجها مع الدين. ولذلك جاء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجوب، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ أي: لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتون آمن أوصى منهم آمن لم يوصَ يعني: أن من أوصى ببعض ماله فعرضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعاً وأحضر جدوى ممن ترك الوصية فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا ذهاباً إلى حقيقة الأمر، لأن عرض الدنيا وإن كان عاجلاً قريباً في الصورة إلا أنه فإن فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى وثواب الآخرة وإن كان أجلاً إلا أنه باقي فهو في الحقيقة الأقرب الأنسى. وقيل: إن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه، فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه سأل أن يرفع إليه ابنه. فانتقم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعاً. وقيل: قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة، وقيل: الأب يجب عليه النفقة على الابن إذا احتاج وكذلك الابن إذا كان محتاجاً فهما في النفع بالنفقة لا يدرى أيهما أقرب نفعاً، وليس شيء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجاوب له لأن هذه الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراضي أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه والقول ما تقدم. ﴿فَرِيضَةً﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بمصالح خلقه ﴿حَكِيماً﴾ في كل ما فرض وقسم من الموارد وغيرها.

وَلَكُمْ يَصْطُ مَا تَرَكَ آوَالُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ بُوَيْبِكٍ يَهَّأُ أَوْ دَرَبٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ نَوُصَرٍ يَهَّأُ أَوْ دَرَبٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ بُوَيْبِكٍ يَهَّأُ أَوْ دَرَبٍ غَيْرَ مُضَاكَرٍ وَصِيَّةَ

= ما يبداً به إخراج الدين، ثم الوصية، ثم اقتسام ذوي الميراث، فانظر كيف جاء إخراج الميراث آخرًا تلو إخراج الوصية تلو الدين، فوافق قولنا قسمة الموارث بعد الوصية، والدين صورة الواقع شرعاً، ولو سقط نكر بعد، وكان الكلام أخرجوا الميراث والوصية والدين، لما أمكن ورود السؤال المنكور، والله أعلم.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 416/11، كتاب الفرائض، باب: الكلاله من هم.

= بين مطالبة رب الدين بدينه، والموصى له بوصيته؛ لأن رب الدين يطلب بحق مستقر في النعمة سبق له به الفضل، على ميانه، والموصى له إنما يطلب صدقة تفضل بها عليه الميت، لا عن استحقاق سابق، فالكفتي بما لرب الدين من القوة عن تقديمه في الذكر، وعضد ضعف الموصى له، بتقديمه في الذكر عوناً له على حصول رفق الوصية، ويمكن في دفعه طريق آخر، فاقول لم يخالف ترتيب الآية الواقع شرعاً، فلا يرد السؤال، وذلك أن أول

مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

﴿التوبة﴾ من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له^(١)، يعني: إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء، **﴿بجهالة﴾** في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. **﴿من قريب﴾** من زمان قريب، والزمان القريب ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: **﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾**^(٢) فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا يقبل فيه التوبة فيبقى ما وراء ذلك في حكم القريب. وعن ابن عباس: قبل أن ينزل به سلطان الموت. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن النخعي: ما لم يؤخذ بكظمه. وروى أبو أيوب عن النبي ﷺ: **﴿إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر﴾**^(٣). وعن عطاء: ولو قبل موته بفوق ناقة. وعن الحسن: أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض: وعزتك لا أقارق ابن آدم ما دام روحه في جسده. فقال تعالى: **﴿وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر﴾**^(٤).

فإن قلت: ما معنى من في قوله: **﴿من قريب﴾**؟ **قلت:** معناه التبعية، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً، ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد.

فإن قلت: ما فائدة قوله: **﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾** بعد قوله: **﴿إنما التوبة على الله﴾**؟ **قلت:** قوله: **﴿إنما التوبة على الله﴾** إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات، وقوله: **﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾** عدة

بأنه يفي بما وجب عليه، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب.

وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَذِبٌ أُولَئِكَ أَخَذْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

﴿ولا الذين يموتون﴾ عطف على الذين يعملون السيئات سوى بين الذين سوفوا نوبتهم إلى حضرة الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم، لأن حضرة الموت أول أحوال الآخرة فكما أن المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين فكذلك المسوف إلى حضرة الموت، لمجاورة كل واحد منهما أوان التكليف والاختيار، **﴿أولئك اعتدنا لهم﴾** في الوعيد نظير. وقوله: **﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾**^(٥) في الوعد، ليتبين أن الأمرين كائنان لا محالة.

فإن قلت: من المراد بالذين يعملون السيئات أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ **قلت:** فيه وجهان: أحدهما أن يراد الكفار لظاهر قوله: **﴿وهم كفار﴾** وأن يراد الفساق لأن الكلام إنما وقع في الزانيين والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا ويكون قوله: **﴿وهم كفار﴾** وارداً على سبيل التغليظ، كقوله: **﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**^(٦) وقوله: **﴿فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً﴾**^(٧). «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»؛ لأن من كان مصدقاً ومات وهو لا يحدث نفسه بالتوبة حاله قريبة من حال الكافر؛ لأنه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت. كانوا يبيلون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم فزجروا عن ذلك.

= فيها مستروحاً، فإننا نقول معاشر أهل السنة: قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة، ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر، فهما ورد من صيغ الوجوب، فمُنْزَل على وجوب صدق الوعد، ومعنى قولنا: صدق الخبر واجب، كمعنى قولنا: وجود الله واجب؛ لأن أحداً لا يستوجب على الله شيئاً، اللهمنا الله الألب في حق جلالة، وعصمنا من زيغ القول وضلاله.

(2) سورة النساء، الآية: 18.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة، الحديث رقم: (3538)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، الحديث رقم: (2449)، وأحمد في المسند 2/132، والحاكم في المستدرک 4/257، كشف الاستار، كتاب: التوبة، باب: إلى متى يقبل التوبة، الحديث رقم: (3243)، بلطف «لا يزال الله تبارك وتعالى يقبل التوبة...» وأخرجه أيضاً عن أبي ذر بلطف: «إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة...» الحديث رقم: (3241).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(5) سورة النساء، الآية: 17.

(6) سورة آل عمران، الآية: 97.

(7) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (10/3).

(1) قال أحمد: وقد تقدّم في مواضع أن إطلاق مثل هذا من قول القائل، يجب على الله كذا مما نعوذ بالله منه تعالى، عن الإلزام والإيجاب ربّ الأرباب، وقاعدة أهل السنة أن الله تعالى مهما تفضل، فهو لا عن استحقاق سابق؛ لأنهم يقولون: إن الأفعال التي يتوهم القدرة أن العبد يستحق بها على الله شيئاً، كلها خلق الله، فهو الذي خلق لعبد الطاعة، وأثابه عليها، وخلق له التوبة، وقبلها منه، فهو المحسن أولاً وآخرها، ويطأن، وظاهره، لا كالتقديرية الذين يزعمون أن العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله ليستوجب على ربه المغفرة، بمقتضى حكمته التي توجب عليه على زعمهم المجازاة على الأعمال إيجاباً عقلياً؛ فلذلك يطلقون بلسان الجراءة هذا الإطلاق، وما أبشع ما أكد الزمخشري هذا المعتقد الفاسد، بقوله يجب على الله قبول التوبة، كما يجب على البعد بعض الطاعات، فنظر المعبود بالمعبد وقاس الخالق على الخلق، وأنه لإطلاق يتقيد عنه لسان العاقل، ويقشعر جلده استبشاعاً لسماعه، ويتعثر القلم عند تسطيره على أن من لطف الله تعالى، أن لم يجعل حاكمي الكفر كافراً، ولا حاكمي البدعة لضرورة ردها، والتحذير منها مبتدعاً، وما بلغ الزمخشري في هذا الإطلاق، إلا اغتناماً لفرصة التمسك على صحته بصيغة على المشعرة بالوجوب، فجعلها ذريعة لاستباحة هذا الإطلاق، ولم يجعل الله له =

وكان الرجل إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة بهت التي تحته ورمائها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها، فقيل: «وإن أريدتم استبدال زوج» الآية. والقنطار المال العظيم من قنطرت الشيء إذا رفعت، منه القنطرة لأنها بناء مشيد. قال:

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنغن حتى تشاد بقمر
وعن عمر رضي الله عنه أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس لا تغالوا بصدائق النساء، فلو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثني عشر أوقية. فقامت إليه امرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقاً جعله الله لنا والله يقول: «وَأَتَيْنَا إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا» فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، ثم قال لأصحابه: تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تذكرونه علي حتى ترد علي امرأة ليست من أعلم النساء⁽²⁾. والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذف به وهو بريء منه، لأنه يبهت عند ذلك أي: يتحير. وانتصب «بهتاناً» على الحال، أي: باهتين وأكمن، أو على أنه مفعول له وإن لم يكن غرضاً، كقولك: قعد عن القتال جيناً.

رَكَبَتْ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا^(٣).

والميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً، أي: بإفشاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه. فقد قالوا: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج. وقيل: هو قول الولي عند العقد: أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وعن النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»⁽⁴⁾.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفُ
إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجَحَةً وَمَثَلًا لِّلْعَالَمِينَ^(٥).

وكانوا⁽⁴⁾ ينكحون رواهبهم، وناس منهم يعقونونه من نوي

يَنَاقِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْلِكُنَّ أَنْ يَنْكِحُوا يُعْطِينَ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا^(٦).

كان الرجل⁽¹⁾ إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحق بها من كل أحد، فقيل: «لا يحل لكم أن تراثوا النساء كرهاً» أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز المواريث وهن كاهرات لذلك، أو مكرهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى تراثوا منهن وهن غير راضيات بإمساكنكم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته، حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: «ولا تعضلوهن لتهبوا ببعض ما آتيتوهن» والعضل الحبس والتضييق، ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» وهي النشوز وشكسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبداء والسلطة، أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرت في طلب الخلع. ويدل عليه قراءة أبي: إلا أن يفحشن عليكم. وعن الحسن: الفاحشة: الزنا، فإن فعلت حل لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل: كانوا إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها. وعن أبي قلابة ومحمد بن سيرين: لا يحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة: لا يحل له أن يحبسها ضراراً حتى تفتدي منه، يعني: وإن زنت. وقيل: نسخ ذلك بالحدود وكنوا يسيرون معاشره النساء، فقيل لهم: «وعاشروهن بالمعروف» وهو النصفة في البيت والنفقة والإجمال في القول: «فإن كرهتموهن» فلا تفارقوهن لكرامة الأنفس وحدها فربما كرهت النفس ما هو أصح في الدين وأحمد وأدنى إلى الخير وأحب ما هو بضد ذلك ولكن للنظر في أساليب الصلاح.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مِّمَّا كَزَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِنَا وَإِنَّمَا هِيَ كَقَنْطَارٍ^(٦).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها الحديث رقم: (1163)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: حق المرأة على الزوج الحديث رقم: (1851)، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الوصاة بالنساء الحديث رقم: (5186)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء الحديث رقم: (3632)، وأخرجه أيضاً في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث رقم: (2941).

(4) قال أحمد: وعندي في هذا الاستثناء سر آخر، وهو: أن هذا المنهي عنه، لفظاته وبشاعته عند أكثر الخلق، حتى كان مقفوتاً قبل ورود الشرع، جدير أن يمثل للنهي فيه فيجتنب، فكانه قد امتثل للنهي عنه، حتى صار مضرباً عن عدم وقوعه، وكأنه قيل: ما يقع نكاح الأبناء المنكوحات للأباء، ولا يؤخذ منه شيء، إلا ما

(1) قال أحمد: وخص تعالى نكر من أتى قنطاراً من المال بالنهي، تنبيهاً بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان هذا على كثرة ما ينزل لامرأته من الأموال، منهيها عن استعادة شيء يسير حقير منها على هذا الوجه، كان من لم يبدل إلا الحقير منهيها عن استعادته بطريق الأولى.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: الصداق الحديث رقم: (2106)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: سفة (22) الحديث رقم: (1114)، والنسائي في كتاب: النكاح، باب: القسط في الأصفة، الحديث رقم: (3349)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: صداق النساء الحديث رقم: (1887)، والدارمي في كتاب: النكاح، باب: كم كانت مهر أزواج النبي ﷺ وبناته الحديث رقم: (2199)، والمحکم في المستدرک 172/2.

يُحَرِّمُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَمَلَكَ أَيْبَاكُمْ الَّذِينَ مِنْ
أَيْبَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخَوَاتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ
أَلَّهُ كَانَ عَاقِبَةُ الرَّجِيمَةِ (١٧).

معنى (١٧): «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ» تحريم نكاحهن،
لقلوله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» (١٩)، ولأنَّ
تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن، كما يفهم من
تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير
تحريم أكله. وقرئ: وبنات الأخ، بتخفيف الهمزة. وقد
نزل الله الرضاة منزلة النسب حتى سمي المرضعة أمًّا
للرضيع والمرضاة اختًا، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه
جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل
الرضاع ويعدده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة
جنته وأختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم
إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم
إخوته وأخواته لأمه. ومنه قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما
يحرم من النسب» (٢٠). وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم
النسب، إلا في مسألتين:

إحداهما: أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من
النسب، ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع؛ لأنَّ المانع
في النسب وطؤه أمها وهذا المعنى غير موجود في
الرضاع.

والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب ويجوز
في الرضاع؛ لأنَّ المانع في النسب وطء الأب إياها وهذا
المعنى غير موجود في الرضاع. «مَنْ نَسَأْتُمْ» متعلق
بربائبتكم، ومعناه أنَّ الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة
على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

فإنَّ قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله: «وَأُمَّهَاتُكُمْ
نَسَأْتُمْ»؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهنَّ وبالربائب
فتكون حرمتهم وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً، وإما
أن يتعلق بهنَّ دون الربائب فتكون حرمتهم غير مبهمة
وحرمة الربائب مبهمة، فلا يجوز الأول لأنَّ معنى من مع
أحد المتعلقين خلاف معناه مع الآخر، ألا تراك أنك إذا
قلت: وأمّهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنَّ، فقد
جعلت من لبيان النساء وتمييز المدخول بهنَّ من غير
المدخول بهنَّ، وإذا قلت: وربائبكم من نسائكم اللاتي دخلتم
بهنَّ، فإنك جاعل من الابتداء الغاية كما تقول: بنات

مروآتهم، ويسمونه نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له:
المقتي، ومن ثم قيل: «وَمَقْتًا» كأنه قيل: هو فاحشة في
دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد
على ما يجمع القبحين.

وقرئ: لا يحل لكم بالتاء، على أن تروثوا بمعنى الوراثة،
وكرها بالفتح والضم من الكراهة والإكراه. وقرئ: بفاحشة
مبينة، من أبانت بمعنى تبينت أو بينت. كما قرئ: مبينة
بكسر الياء وفتحها، ويجعل الله بالرفع على أنه في موضع
الحال، وآتيتم إحداهنَّ بوصل همزة إحداهنَّ، كما قرئ: فلا
إثم عليه.

فإنَّ قلت: «تَعْضَلُوهُنَّ» ما وجه إعرابه؟ قلت: النصب
عطفاً على أن تروثوا، ولا لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن
تروثوا النساء ولا أن تعضلووهنَّ.

فإنَّ قلت: أي فرق بين تعدية ذهب بالباء وبينها
بالهمزة؟ قلت: إذا عدى بالباء فمعناه الأخذ والاستصحاب،
كقوله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ» (١) وأما الإذهاب فكالإزالة.

فإنَّ قلت: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ» ما هذا الاستثناء؟ قلت: هو
استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل:
ولا تعضلووهنَّ في جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين
بفاحشة، أو ولا تعضلووهنَّ لعله من العلل إلا لأن يأتين
بفاحشة.

فإنَّ قلت: من أي وجه صح قوله: «فَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا» (٢) جزءاً للشرط؟ قلت: من حيث إنَّ المعنى «فَإِنْ
كَرِهْتُمُوهُنَّ» (٣) فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة، فلعلم لكم فيما
تكروهه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

فإنَّ قلت: كيف استثنى «مَا قَدْ سَلَفَ»، مما نكح
أبائكم؟ قلت: كما استثنى غير أنَّ سيوفهم من قوله: ولا
عيب فيهم، يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف
فانكحوه فلا يحل لكم غيره. وذلك غير ممكن والغرض
المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق
بالمحال في التآبيد في نحو قولهم: حتى يبيض القار
وحتى يلج الجمل في سم الخياط.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَوَّاتُكُمْ
وَعَمَلَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِي وَأَهْلُكُمُ الَّذِينَ أَرْضَعْتُمُ
وَأَخَوَاتُكُمْ بَنَاتُ الْأَخِ وَأَهْلُكُمْ رِبَائِبُكُمْ أَلَّتِي فِي
حُبْرِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ

(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٤) قال أحمد: وهذا تفريع على القول بعموم المشترك في معانيه،
فاستقام تعليق الجار المنكوح بهما، والله أعلم.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٢.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: «وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي
حُبْرِكُمْ» الحديث رقم: (5099)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب:
يحرم من الرضاة... الحديث رقم: (3554).

قد سلف، وأمّا في المستقبل بعد النهي، فلا يقع منه شيء البتة،
ومثل هذا النظر جار في مثل قوله تعالى: «وَإِذَا لَخْنَا مِثْلًا بَنِي
إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» فالجاء مرفوعاً على أنه خير، وإن
كان المراد: نهيه عن عبادة غير الله، ولكن لما كان هذا المنهي
جديراً بالاجتناب، وكأنه اجتناب، عبر عن النهي فيه بصيغة الخير،
ورفع الفعل، وقد مضى هذا للتقدير بعينه، ثم لم يجر مثله في
هذه الآية، والله أعلم.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

بأَمَهاَتَهِنَّ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبتت الخلط والالفة وجعل الله بينكم المودة والرحمة وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرى أولادكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم. وعن علي رضي الله عنه أنه شرط ذلك في التحريم وبه أخذ داود.

فَأَنْ قُلْتُ: ما معنى **«يُخْلَتُمُ بِهِنَّ»**؟ **قُلْتُ:** هي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب يعني: أخلصموهن الستر، والباء للتعدي واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول عند أبي حنيفة وعن عمر رضي الله عنه أنه خلا بجارية فجزدها فاستوهبها ابن له فقال: **إِنِّهَا لَا تَحِلُّ لَكَ.** وعن مسروق: أنه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال: أما أني لم أصب منها إلا ما يحرمها على ولدي من اللمس والنظر. وعن الحسن في الرجل يملك الأمة فيغمرها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها: **أَنِّهَا لَا تَحِلُّ لَوْلَدِهِ بِحَالٍ.** وعن عطاء وحامد بن أبي سليمان: إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح **أَمَّهَا** ولا ابنتها. وعن الأوزاعي: إذا نخل بالأَمِّ فعرأها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر فلا يحل له نكاح ابنتها. وعن ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار: **أَنَّ التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده.** **«الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ»** دون من تبنيتم. وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أمة بنت عبد المطلب حين فارقتها زيد بن حارثة⁽⁵⁾ وقال عز وجل: **«لَكَي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ»**⁽⁶⁾ **«وَأَنْ تَجْمَعُوا»**⁽⁷⁾ في موضع الرفع عطف على المحرّمات، أي: وحرم عليكم الجمع بين الأخنتين، والمراد حرمة النكاح لأن التحريم في الآية تحريم النكاح، وأما الجمع بينهما في ملك اليمين، فعن عثمان وعلي

رسول الله ﷺ من خديجة، وليس بصحيح أن يعني بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيين مختلفين⁽¹⁾، ولا يجوز الثاني، لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به ما لم يعترض أمر لا يرد إلا أن تقول أعلقه بالنساء والربائب واجعل من للاتصال كقوله تعالى: **«الْمَنَافِقُونَ وَالْمَنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»**⁽²⁾ فإني لست منك ولست مني، ما أنا من دد ولا البد مني، وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهن أمهاتهن كما أن الربائب متصلات بأمهاتهن لأنهن بناتهن. هذا وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى وقد روي عن النبي ﷺ في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها، أنه قال: **«لَا بَأْسَ أَنْ يَتَزَوَّجَ ابْنَتَهَا، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمَّهَا»**⁽³⁾. وعن عمر وعمران بن الحصين رضي الله عنهما: **أَنَّ الْأُمَّ تَحْرِمُ بِنَفْسِ الْعَقْدِ.** وعن مسروق: هي مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله. وعن ابن عباس: أبهما ما أبهم الله. إلا ما روي عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير أنهم قرؤوا: **«وَأُمّهَاتُ نَسَائِكُمُ اللَّاتِي يَخْلَتُمُ بِهِنَّ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا نَزَلَ إِلَّا هَكَذَا.** وعن جابر روايتان، وعن سعيد بن المسيب عن زيد: إذا ماتت عنده فاخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت مقام الدخول في ذلك كما قام مقامه في باب المهر، وسمي ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيباً لأنه يربهما كما يرب ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسميا بذلك وإن لم يربهما.

فَأَنْ قُلْتُ⁽⁴⁾: ما فائدة قوله: **«فِي حُجُورِكُمْ»**؟ **قُلْتُ:** فائدته التعليل للتحريم، وأنهن لا احتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم وفي حكم القلب في حجوركم إذا نخلتم

= جميع الصور، سواء كانت في حجر الزوج، أو بائنة عنه في البلاد القاصية، ولكن نكاحها لها، وهي في حجر، أقبح الصور، والطبع عنها أنفر، فصخت بالنهي، لتساعد الجيلة على الانقياد لأحكام الملة، ثم يكون ذلك تدريجاً وتدرجاً إلى استقباح المحرم في جميع صورته، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في حديث أنس رضي الله عنه، عن زواج الرسول ﷺ عن زينب في كتاب: التفسير، باب: **«لَا تَدْخُلُوا بِيُوتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...»** الحديث رقم: (4791)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب... الحديث رقم: (3488).

(6) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(7) قال أحمد: موقع هذا الاستثناء، كموقع نظيره المقدم ذكره عند قوله: **«وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ»** على الوجه الذي بينت وهو أن هذا النهي، لكونه جديراً بأن يمتثل، أجرى مجرى الإخبار عن امتثاله، حتى كأنه قيل، لا يقع شيء من هذه المحرمات، إلا السالف منها لا غير، أو على الوجه الذي بينه الرمزخشري فيما تقدم، وهو أن يكون المراد: إلا ما قد سلف، فإنه غير محرم، فتطاوله إن كان معكناً من باب التعليق على المحال بنا للتحريم، إلا أن الرمزخشري لم يسلك هذا المسلك ههنا؛ لأن قوله: **«إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً»** يرشد إلى أن المراد: إلا ما قد

(1) قال أحمد: يعني: أن لهذا الإعراب وجهاً في الصحة، وتكون من على هذا مستعملة في معنى واحد من معانيها، وهو: الاتصال، فيستقيم تعلّقها بهما، وقد نقل ذلك عن ابن عباس مذهباً، ونقل أيضاً قراءة علي، وابن عباس، وزيد، وابن عمر، وابن الزبير، وأمّهات نسايتكم اللاتي يخلتم بهن، وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل إلا هكذا، انتهى. نقل الرمزخشري، والقول المشهور عن الجمهور: إبهام تحريم المرأة، ويقيد تحريم الربيبة بدخول الأم، كما هو ظاهر الآية، ولهذا الفرق سر وحكمة، وذلك لأن المتزوج بآبنة المرأة لا يخلو، بعد العقد وقبل الدخول، من محاورة بينه وبين أمها، ومخاطبات، ومساررات، فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم، ليقطع شوقه من الأم، فإنه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول كذلك العاقد على الأم، فإنه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول بالأَمِّ، فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة، وأما إذا وقع الدخول بالأَمِّ، فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة، فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 67.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء فيمن يتزوج امرأة ثم يطلقها... الحديث رقم: (1117).

(4) قال أحمد: وهذا مما قسّمته، من تخصيص أعلى صور المنهي عنه، بالمنهي، فإن النهي عن نكاح الربيبة المدخول بأَمِّها، عام في =

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ مَفْعُولَ ﴿تَبْتَغُوا﴾؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَقْدَرًا وَهُوَ النِّسَاءُ، وَالْأَجُودُ أَنْ لَا يَقْدِرَ. وَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ تَخْرُجُوا أَمْوَالَكُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنْ تَبْتَغُوا بَدَلًا مِنْ وِرَاءِ نَلَّكُمْ. وَالْمَسَافِحُ الزَّانِي، مِنَ السَّفْحِ وَهُوَ صَبَّ الْمَنِيِّ، وَكَانَ الْفَاجِرُ يَقُولُ لِلْفَاجِرَةِ: سَافِحِيْنِي وَمَازِنِي، مِنَ الْمَذْيِ. ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنَ الْمُنْكَحَاتِ مِنْ جَمَاعٍ أَوْ خُلُوةٍ صَحِيحَةٍ أَوْ عَقْدٍ عَلَيْهِنَّ، ﴿فَاتَّوْهُنَّ لِجَوْرِهِنَّ﴾ عَلَيْهِ. فَاسْقُطِ الرَّاجِعُ إِلَى مَا لَأَنَّهُ لَا يَلْبَسُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾⁽³⁾ بِإِسْقَاطِ مِنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا فِي مَعْنَى النِّسَاءِ، وَمِنْ اللَّتَبْعِيضِ أَوْ الْبَيَانِ، وَيَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ عَلَى اللَّفْظِ فِي بِهِ وَعَلَى الْمَعْنَى فِي فَاتَّوْهُنَّ وَأَجُورَهُنَّ مَهْوَْرَهُنَّ، لِأَنَّ الْمَهْرَ ثَوَابٌ عَلَى الْبَيْعِ. ﴿فَرِيضَةٌ﴾ حَالٌ مِنَ الْأَجُورِ، بِمَعْنَى مَفْرُوضَةٍ أَوْ وَضَعَتْ مَوْضِعَ إِيْتَاءٍ، لِأَنَّ الْإِيْتَاءَ مَفْرُوضٌ، أَوْ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، أَيْ: فَرَضَ نَلَّكَ فَرِيضَةً ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فِيمَا تَحَطَّ عَنْهُ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ تَهَبَ لَهُ مِنْ كُلِّهِ أَوْ يَزِيدُ لَهَا عَلَى مَقْدَارِهِ، وَقِيلَ: فِيمَا تَرَاضِيَاهُ بِهِ مِنْ مَقَامٍ أَوْ فِرَاقٍ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمَتْعَةِ الَّتِي كَانَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حِينَ فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ نَسَخَتْ. كَانَ الرَّجُلُ يَنْكِحُ الْمَرْأَةَ وَقَتًا مَعْلُومًا لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ أَسْبُوعًا بِثَوْبٍ أَوْ غَيْرِ نَلَّكَ وَيَقْضِي مِنْهَا وَطَرَهُ ثُمَّ يَسْرَحُهَا، سَمِيَتْ مَتْعَةً لِاسْتِمَاعِهَا بِهَا أَوْ لِمَتَمَتِّعِهَا بِهَا بِمَا يَعْطِيهَا. وَعَنْ عَمْرِ: لَا أُوتَى بِرَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا رَجَمْتُمَا بِالْحَجَارَةِ⁽⁴⁾ وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَبَاحَهَا، ثُمَّ أَصْبَحَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَمْرَكُمْ بِالْإِسْتِمَاعِ مِنْ هَذِهِ النِّسَاءِ، إِلَّا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ نَلَّكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»⁽⁵⁾. وَقِيلَ: أَيْبَحَ مَرَّتَيْنِ وَحَرَّمَ مَرَّتَيْنِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ مُحْكَمَةٌ⁽⁶⁾، يَعْنِي: لَمْ تَنْسَخْ، وَكَانَ يَقْرَأُ: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ. وَيُرْوَى: أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ نَلَّكَ عِنْدَ مَوْتِهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ قَوْلِي بِالْمَتْعَةِ وَقَوْلِي فِي الصَّرْفِ⁽⁷⁾.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ النُّصَبَةَ الْمُؤْمِنَةَ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآمَنُوا بِأُجُورَهُنَّ

بُضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَا: أَحْلَيْتُمَا آيَةً وَحَرَّمْتُمَا آيَةً⁽¹⁾. عَنِانِ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فَرَجَحَ لَبِّي التَّحْرِيمَ، وَعُثْمَانُ التَّحْلِيلَ⁽²⁾. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وَلَكِنْ مَا مَضَى مَغْفُورٌ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَالنُّصَبَةُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحْلَلَ لَكُمْ مَا وَرَّاهُ ذَلِكَ أَنْ تَتَّعُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِيحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٣).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ الْقِرَاءَةُ بِفَتْحِ الصَّادِ، وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ مَصْرُفٍ أَنَّهُ قَرَأَ بِكسْرِ الصَّادِ. وَهِنَّ نَوَاتِ الْأَزْوَاجِ لِأَنَّهُنَّ أَحْصَنَ فُرُوجَهُنَّ بِالتَّزْوِيجِ فَهِنَّ مُحْصَنَاتٌ وَمُحْصَنَاتٌ. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يَرِيدُ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ اللَّاتِي سَبِينَ وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْكُفْرِ فَهِنَّ حَلَالٌ لِفُرَاغِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كُنَّ مُحْصَنَاتٍ. وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

وَذَاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحْتَهَا رَمَحَانَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تَطْلُقْ عَلَيْكَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، أَيْ: كَتَبَ اللَّهُ نَلَّكَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا وَفَرَضَهُ فَرَضًا وَهُوَ تَحْرِيمٌ مَا حَرَّمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَحْلَلَ لَكُمْ﴾ قُلْتَ: عَلَى الْفِعْلِ الْمُضْمَرِ الَّذِي نَصَبَ كِتَابُ اللَّهِ، أَيْ: كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ تَحْرِيمَ نَلَّكَ وَأَحْلَلَ لَكُمْ مَا وَرَّاهُ ذَلِكَ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ الْيَمَانِي: كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحْلَلَ لَكُمْ. وَرَوَى عَنْ الْيَمَانِي: كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، عَلَى الْجَمْعِ وَالرَّفْعِ، أَيْ: هَذِهِ فَرَائِضُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ قَرَأَ: وَأَحْلَلَ لَكُمْ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، فَقَدْ عَطَفَهُ عَلَى حَرَمَتِهِ. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، بِمَعْنَى: بَيْنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ مِمَّا يَحْرَمُ، إِرَادَةً أَنْ يَكُونَ ابْتِغَاؤُكُمْ. ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا فِي حَالِ كُونِكُمْ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ لِئَلَّا تُضَاعِفُوا أَمْوَالَكُمْ وَتُفْقِرُوا أَنْفُسَكُمْ فِيمَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ فَتَخْسَرُوا دِيْنَكُمْ وَدِينَكُمْ، وَلَا مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِمَّا يَجْمَعُ بَيْنَ الْخُسْرَانَيْنِ. وَالْإِحْصَانُ الْعِفَّةُ وَتَحْصِينُ النَّفْسِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، وَالْأَمْوَالُ الْمَهْوَْرُ وَمَا يَخْرُجُ فِي الْمُنَآكِحِ.

= سَلَفَ، فَإِنَّهُ مَغْفُورٌ لِاسْتِثْنَائِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ عَقِبَهُ ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً، وَمَقْتًا، وَسَاءَ سَبِيلًا، فَقَدَّرَ فِي كُلِّ آيَةٍ مَا يَنْسَبُ سَبَاقُهَا، وَاهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

(1) حَدِيثُ عُثْمَانَ، أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ، كِتَابُ: النِّكَاحِ، بَابُ: مَا جَاءَ فِي كِرَاهِيَةِ إِصَابَةِ الْأَخْتَيْنِ بِمَلَكَ الْيَمِينِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (34) وَحَدِيثٌ عَلِيٍّ أَخْرَجَهُ فِي كَشْفِ الْأَسْتَارِ، كِتَابُ: النِّكَاحِ، بَابُ: فِي الْأَخْتَيْنِ الْمَمْلُوكَتَيْنِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (1438).

(2) الْمَوْطَأُ الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

(3) سُورَةُ لَقْمَانَ، آيَةُ: 17.

(4) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ: النِّكَاحِ، بَابُ: نِكَاحِ الْمَتْعَةِ... الْحَدِيثُ رَقْمُ: (3408)، عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ الْجَهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ، وَلَيْسَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ.

(5) مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ: النِّكَاحِ، بَابُ: نِكَاحِ الْمَتْعَةِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (3409)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي كِتَابِ: الْحَجِّ، بَابُ: ذِكْرِ الْعَلَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَنْهَى عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، الْحَدِيثُ رَقْمُ: (3940).

(6) قَالَ الزَّيْلَعِيُّ: غَرِيبٌ 302/1.

(7) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ: النِّكَاحِ، بَابُ: مَا جَاءَ فِي تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمَتْعَةِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (1122)، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ التِّجَارَاتِ، بَابُ: مَنْ قَالَ لَا رَبَّ إِلَّا فِي النِّسْبَةِ الْحَدِيثُ رَقْمُ: (2258)، وَالتَّطْبَرَانِيُّ، وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الْمَصْنَفِ 118/8 الْحَدِيثُ رَقْمُ: (14548).

الرجل، وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الأفضل بالإيمان لأفضل الإحسان والأنساب، وهذا تأنيس بنكاح الإمام وترك الاستكفاف منه. «بعضكم من بعض» أي: أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لاشتراككم في الإيمان لا يفضل حرّ عبد إلا برجحان فيه. «بإذن أهلهم» (2) اشتراط لإذن المولي في نكاحهن، ويحتج به لقول أبي حنيفة أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن لأنه اعتبر إذن المولي لا عقدهم. «وأتوهن لجورهن بالمعروف» وأتوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز.

فإن قلت: المولي هم ملاك مهورهن لا هن، والواجب أدائها إليهم لا إليهن، فلم قيل: وأتوهن؟ قلت: لانهن وما في أيديهن مال المولي فكان أدائها إليهن أداء إلى المولي، أو على أن أصله فاتوا مواليهن فحنف المضاف. «محصنات» عفائف. والاختدان: الأخلاء في السر، كأنه قيل: غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرات له. «فإن أحصن» بالتزويج، وقرئ: أحصن. «نصف ما على المحصنات» أي: الحرائر. «من العذاب» من الحد، كقوله: «وليشهد عذابهما ويدرا عنها العذاب»، ولا رجم عليهن لأن الرجم لا يتنصف. «نلك» إشارة إلى نكاح الإمام «لمن خشي العنت» لمن خاف الإثم الذي يؤدي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من واقعة المأثم. وقيل: أريد به الحد لأنه إذا هويها خشي أن يواقعها فيحد فيتزوجها. «وإن تصبروا» في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإمام متعفيين «خير لكم» وعن النبي ﷺ: «الحرائر صلاح البيت، والإماء هلاك البيت» (3).

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَرَهْئَكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦).

«يريد الله لييسن لكم» أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزيت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت في لا أبا لك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى: يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهينكم من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتنتقوا بهم. «ويتوب عليكم»

والمعروف محصنات غير مسكوبات ولا منجذبات أقداناً فإذا أحرص فإن أتيت بنحوه فليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله عفو رحيم (١٥).

الطول: الفضل، يقال: فلان على فلان طول، أي: زيادة وفضل، وقد طاله طولاً فهو طائل. قال:

لقد زانني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل ومنه قولهم: ما حلا منه بطائل، أي بشيء يعتد به مما له فضل وخطر، ومنه الطول في الجسم لأنه زيادة فيه كما أن القصر قصور فيه ونقصان (٦). والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرّة فليتكح أمة. قال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرّم عليه نكاح الإمام، وهو الظاهر وعليه مذهب الشافعي رحمه الله. وأما أبو حنيفة رحمه الله فيقول: الغني والفقر سواء في جواز نكاح الأمة، ويفسر الآية بأن من لم يملك فراش الحرّة، على أن النكاح هو الوطء، فله أن يتكح أمة. وفي رواية عن ابن عباس أنه قال: وما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية، وإن كان موسراً، وكذلك قوله: «من فتياتكم للمؤمنات» الظاهر أن لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وهو مذهب أهل الحجاز، وعند أهل العراق يجوز نكاحها ونكاح الأمة المؤمنة أفضل فحملوه على الفضل لا على الوجوب، واستشهدوا على أن الإيمان ليس بشرط بوصف الحرائر به مع علمنا أنه ليس بشرط فيهن على الاتفاق ولكنه أفضل.

فإن قلت: لم كان نكاح الأمة منقطعاً عن نكاح الحرّة؟ قلت: لما فيه من اتباع الولد الأم في البرق، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها، ولأنها ممنهنة مبتلة خراجه ولا حاجة وذلك كله نقصان راجع إلى النكاح ومهانة، والعزة من صفات المؤمنين. وقوله: «من فتياتكم» أي: من فتيات المسلمين لا من فتيات غيركم وهم المخالفون في الدين.

فإن قلت: فما معنى قوله: «والله أعلم بإيمانكم»؟ قلت: معناه أن الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيمكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرّة، والمرأة أفضل في الإيمان من

(1) قال أحمد: وعلى هذا يكون الطول عند أبي حنيفة وجود الحرّة تحته، وهو أحد القولين لمالك رضي الله عنه، لكن يبعد هذا المعنى: لأن الطول عند مالك في أحد قوليه: القدرة بالمال على نكاح الحرّة خاصة، حتى لو كانت الحرّة تحته، فإراد نكاح الأمة عجزاً عن حرّة أخرى، جاز له ذلك، وفي القول الآخر، الطول لحد الأمرين، إما القدرة بالمال على نكاح الحرّة، وإما وجود الحرّة تحته، حتى لا يجوز له نكاح أمة على حرّة، إن كان عاجزاً عن حرّة أخرى، ومقتضى ما نقله المصنف عن أبي حنيفة، أنه لا يجوز لمن تحته حرّة نكاح أمة، وأنه يجوز لمن ليست تحته حرّة، أن ينكح الأمة، ولو كان غنياً، وهو قول لا يساعده ظاهر =

(2) الآية: لأن الاستطاعة تثبت، وإن لم يفعل بمقتضاها، فالمستطيع لنكاح الحرّة نو الطول، وإن لم يكن تحته الحرّة، وتفسير الاستطاعة على مذهب أبي حنيفة، بعيد جداً.

(3) قال أحمد: وليس في الآية اشتراط إذن المولي، لمن يتولى عقد نكاح أمته، ومتولى العقد ومباشرته، مسكوت عنه في الآية، فيحمل على إنّه لو كيله في العقد على أمته، ولا يلزم أن تكون الأمة في المباشرة، ولا دليل في الآية على ذلك، والله أعلم.

(3) نكره الهندي في «كذذ العمال» (الحديث: 44543).

تجارة ﴿إلا أن تقع تجارة، وقرئ: تجارة على إلا أن تكون التجارة تجارة.﴾ **عن تراض منكم** ﴿والاستثناء منقطع معناه: ولكن اقصدا كون تجارة عن تراض منكم، أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وقوله: عن تراض صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض، وخص التجارة بالذكر لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها والتراضي رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وعند الشافعي رحمه الله تعالى: تفرقهما عن مجلس العقد متراضين ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ من كان من جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن: لا تقتلوا إخوانكم، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة. وعن عمرو بن العاص أنه تأوله في التيمم لخوف البرد، فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم⁽⁹⁾. وقرأ علي رضي الله عنه: ولا تقتلوا بالتشديد. ﴿إن الله كان بكم رحيمًا﴾ ما نهاكم عما يضركم إلا لرحمته عليكم، وقيل: معناه أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا⁽¹⁰⁾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى القتل، أي: ومن يقدم على قتل النفس ﴿عدواناً وظلماً﴾ لا خطأ ولا اقتصاصاً، وقرئ: عدواناً بالكسر. ونصليه بتخفيف اللام وتشديدها، ونصليه بفتح النون من صلاه يصليه، ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك لكونه سبباً للصلي. ﴿ناراً﴾ أي: ناراً مخصوصة شديدة العذاب. ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ لأن الحكمة تدعو إليه ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه.

إِنْ تَحِبَّاتُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَرُدَّكُمْ مَدْحًا كَرِيمًا⁽¹¹⁾.

﴿كبار ما تنهون عنه﴾ وقرئ: كبير ما تنهون عنه، أي: ما كبر من المعاصي التي ينهاكم الله عنها والرسول ﴿تكفر عنكم سيئاتكم﴾ نमित ما تستحقونه من العقاب في كل وقت على صفاتكم، ونجعلها كان لم تكن لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها على

ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّتُوا مِثْلًا عَظِيمًا⁽¹²⁾.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم، ﴿ويريد﴾ الفجرة ﴿الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقهم على اتباع الشهوات، وقيل: هم اليهود. وقيل: المجوس كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرمهن الله، قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ والأخت. فنزلت يقول تعالى: يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا⁽¹³⁾.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص، ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات، وعن سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بني آدم قط إلا آتاهم من قبل النساء، فقد أتى علي ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء. وقرئ: أن يميلوا بالياء، والضمير للنذين يتبعون الشهوات. وقرأ ابن عباس: وخلق الإنسان على البناء للفاعل، ونصب الإنسان. وعنه رضي الله عنه: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. ﴿يريد الله ليبين لكم﴾⁽¹⁴⁾ ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾⁽¹⁵⁾ ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾⁽¹⁶⁾ ﴿أن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه﴾⁽¹⁷⁾ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾⁽¹⁸⁾ ﴿إن الله لا يظلم مثقال نرة﴾⁽¹⁹⁾ ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾⁽²⁰⁾ ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾⁽²¹⁾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا⁽²²⁾.

﴿بالباطل﴾ بما لم تبيحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا. ﴿إلا أن تكون

(9) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: إذا خاف الجنب البرد، إتيتم الحديث رقم: (334)، والبخاري تعليقاً، كتاب: التيمم، باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش، تيمم، وأحمد في المسند 4/203، والحاكم في المستدرک 1/177، والدارقطني في كتاب: الطهارة، باب: التيمم، الحديث رقم: 12 و(13).

(10) الطبري في تفسيره.

(1) سورة النساء، الآية: 26.
(2) سورة النساء، الآية: 27.
(3) سورة النساء، الآية: 28.
(4) سورة النساء، الآية: 31.
(5) سورة النساء، الآية: 116.
(6) سورة النساء، الآية: 40.
(7) سورة النساء، الآية: 110.
(8) سورة النساء، الآية: 147.

عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنَّما وصفتا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلها.

والتكفير: إمطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة، والإحباط: نقيضه، وهو إمطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بدم على الطاعة. وعن علي رضي الله عنه الكبائر سبع: الشرك، والقتل، والقذف، والزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة⁽¹⁾. وزاد ابن عمر: السحر، واستحلال البيت الحرام⁽²⁾. وعن ابن عباس: أنَّ رجلاً قال له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبعمئة أقرب؛ لأنَّه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وروي: إلى سبعين⁽³⁾. وقرئ: يكفر بالياء. ومبطلاً بضم الميم وفتحها، بمعنى المكان، والمصدر فيهما.

وَلَا تَتَنَمَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَرَسُولُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢).

﴿ولا تتمنوا﴾ نهوا عن التحاسد وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأنَّ ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتبدير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض، **﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾** فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له، علماً بأنَّ ما قسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، ولا يحسد أخاه على حظه. **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾** جعل ما قسم لكل من الرجال والنساء على حسب ما عرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له. **﴿واستلوا الله من فضله﴾** ولا تتمنوا أنصبا غيركم من الفضل ولكن سلوا الله من خزائنه التي لا تنفذ، وقيل: كان الرجال قالوا: إنَّ الله فضلنا على النساء في الدنيا لنا سهمان ولهنَّ سهم واحد، فنرجو أن يكون لنا أجران في الآخرة على الأعمال ولهنَّ أجر واحد. فقالت أم سلمة ونسوة معها: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم فنزلت.

وَلِكُلِّ جَنَّاتٍ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَدَدَتْ أَيْتُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣).

﴿مما ترك﴾ تبين **﴿لكل﴾**، أي: ولكل شيء **﴿مما ترك للوالدان والأقربون﴾** من المال جعلنا موالى وراثاً يلوونه ويحزرونه، أو ولكل قوم جعلناهم موالى نصيب مما ترك

الولدان والأقربون، على أن جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع إلى كل محنوف والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول لكل من خلقه الله إنساناً. من رزق الله أي: حظ من رزق الله، أو ولكل أحد جعلنا موالى مما ترك، أي: وراثاً مما ترك، على أن من صلة موالى لأنهم في معنى الوراث، وفي ترك ضمير كل، ثم فسّر الموالى بقوله: **﴿الوالدان والأقربون﴾** كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون **﴿والذين عاقدت إيمانكم﴾** مبتدأ ضمن معنى الشره فوقع خبره مع الفاء، وهو قوله: **﴿فتأوتوهم نصيبهم﴾** ويجوز أن يكون منصوباً على قولك: زيدا فاضربه، ويجوز أن يعطف على الوالدان ويكون المضمرة في فتأوتهم للموالى، والمراد بالذين عاقدت إيمانكم موالى الموالاة. كان الرجل يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك وثاري ثارك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك. فيكون الحليف السمس من ميراث الحليف، ففسخ. وعن النبي ﷺ أنه خطب يوم الفتح فقال: «ما كان من حلف في الجاهلياً فتمسكوا به فإنه لم يزد الإسلام إلا شدة، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»⁽⁴⁾. وعند أبي حنيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة، خلافاً للشافعي. وقيل: المعاقدة التبني ومعنى عاقدت إيمانكم، عاقدتهم أيديكم وماسحتوهم وقرئ: عقدت بالتشديد والتخفيف، بمعنى عقدت عوده إيمانكم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَذَبْتُ لِلْعَذَابِ بِمَا كُفُّوا اللَّهُ وَأَلَّيْ غَاوُونَ تَزَوَّجُوا يُطَوَّرُونَ وَأَعْبُرُوا فِي الْمَصَارِعِ وَأَمْرُهُمْ إِنْ أَنْفَكْتُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤).

﴿قوامون على النساء﴾ يقومون عليهن أمرين ناهين كما يقوم الولاية على الرعاية، وسما قوماً لذلك، والضمير في **﴿بعضهم﴾** للرجال والنساء جميعاً. يعني: إنَّما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال على بعض وهم النساء، وفيه دليل على أنَّ الولاية إنَّما تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر، وقد ذكرنا في فضل الرجال العقل والحزم والعزم والقوة والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وإنَّ منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة والشهادة في الحدود والقصاص وزيادة السهم والتعصيب في الميراث والحماية والقسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة

(3) الطبري في تفسيره. وقال الزليعي: غريب بهذا اللفظ 320/1.

(4) أبو داود في المراسيل، باب: في القسامة الحديث رقم: (274).

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم الحديث رقم: (2875).

(2) عبد الرزاق في المصنف 460/10 الحديث رقم: (19702).

المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعد والهجران⁽⁴⁾. وقيل: معناه اكروهوهن على الجماع، واربطوهن من هجر البعير إذا شده بالهजार، وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا: يجب أن يكون ضرباً غير مبرح لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه. وعن النبي ﷺ: «علق سوطك حيث يراه أهلك»⁽⁶⁾. وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحداها ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها⁽⁷⁾، ويروى عن الزبير أبيات منها:

ولولا بنوها حولها لخبطتها

﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ فأنزلوا عنهن التعرض بالاذى والتوبيخ والتجني، وتوبوا عليهن، واجعلوا ما كان منهن كان لم يكن بعد رجوعهن إلى الطاعة والانقياد، وترك النشوز: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحزروه واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم. ويروى أن أبا مسعود الأنصاري رفع سوطه ليضرب غلاماً له فيصبر به رسول الله ﷺ، فصاح به: «أبا مسعود الله أقدر عليك منك عليه». فرمى بالسوط وأعتق الغلام⁽⁸⁾ أو إن الله كان عليماً كبيراً وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عن من يجني عليكم إذا رجع.

وإن جفرت شقاق بيننا فابعدوا حكماً من أهله. وحكماً من أهله إن يريداً إصلاحاً يوفى الله يئهم إن الله كان عليماً خبيراً^(٢٥).

﴿شقاق بينهما﴾ أصله شقاقاً بينهما، فاضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع، كقوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، وأصله بل مكر في الليل والنهار، أو على أن جعل البين مشاقاً والليل والنهار مكرين، على قولهم: نهارك صائم، والضمير للزوجين، ولم يجر نكرهما لجري نكر ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء، ﴿حكماً من أهله﴾ رجلاً مقنعاً راضياً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما، وإنما كان بعث الحكمين من أهلها لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصالح، وإنما تسكن إليهم

وعدد الأزواج واليههم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم. ﴿ومما أنفقوا﴾ وبسبب ما أخرجوا في نكاحهن من أموالهم في المهور والنفقات، وروي: أن سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشرزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فطمعها، فأنطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ، وقال: أفرشته كريمتي فطمعها. فقال: «لنقتص منه»⁽¹⁾. فنزلت. فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير». ورفع القصاص واختلف في ذلك فقيل: لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها ولكن يجب العقل. وقيل: لا قصاص إلا في الجرح والقتل، وأما اللطمة ونحوها فلا. ﴿حافظات للغيب﴾ مطيعات قائمات بما عليهن للأزواج. ﴿حافظات للغيب﴾ الغيب خلاف الشهادة، أي: حافظات لمواجب الغيب، إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي ﷺ: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظت في مالها ونفسها»⁽²⁾. وتلا الآية. وقيل: للغيب لأسرارهم. ﴿بما حفظ الله﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج في كتابه، وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً»⁽³⁾. أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب، أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب العظيم على حفظ الغيب وأوعدهن بالعذاب الشديد على الخيانة، وما مصدرية، وقرئ: بما حفظ الله بالنصب، على أن ما موصولة، أي: حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله وهو: التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم. وقرأ ابن مسعود: فالصالح قوائم حوافظ للغيب بما حفظ الله فاصلحوا إليهن.

نشوزها ونشوصها: أن تعصى زوجها ولا تطمئن إليه، وأصله الانزعاج. ﴿في المضاجع﴾ في المراقدة، أي: لا تداخلوهن تحت اللحف، أو هي كناية عن الجماع. وقيل: هو أن يوليها ظهره في المضجع، وقيل: في المضاجع في بيوتهن التي يبتن فيها، أي: لا تبايتوهن. وقرئ: في المضجع وفي المضجع، وذلك لتعرف أحوالهن وتحقق أمرهن في النشوز⁽⁴⁾. أمر بوعظهن أولاً، ثم هجرانهن في

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال الحديث رقم: (1664)، والحاكم في المستدرک 333/2، وأخرجه النسائي في السنن، كتاب: النكاح، باب: أي النساء خير الحديث رقم: (3231)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: أفضل النساء الحديث رقم: (1857).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (الحديث: 276/5).

(3) قال أحمد: وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة، غير متلقي من صيغة لفظية، إذ العطف بالواو، وهي مسلوية الدلالة على الترتيب، متمحضة الإشعار بالجمعية فقط، وإنما يتلقى للترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ، مفهومة من مقصود الكلام وسياقه.

(4) قال أحمد: ولعل هذا المفسر يتأيد بقوله: ﴿فإن أطعنكم﴾ فإنه يدل على تقدم إكراه على أمر ما، وقرينة المضاجع ترشد إلى أنه الجماع، وإطلاق الرمزشري لما أطلقه في حق هذا المفسر، من الإفراط.

(5) البخاري في الأدب المفرد 632/2، باب: تعليق السوط في البيت الحديث رقم: (1229)، وأبو نعيم في الحلية 250/7.

(6) ابن عدي في الكامل.

(7) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الأيمان، باب: صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده الحديث رقم: (4284).

(8) سورة الأنفال، الآية: 63.

وقرئ: والجار ذا القربى نصباً على الاختصاص، كما قرئ: حافظوا على الصلوات، والصلوة الوسطى، تنبيهاً على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقربى. **﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنْبِ﴾** هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقاً في سفر وإما جاراً ملاصقاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك من أئني صحبة التامت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وقيل: صاحب بالجانب المرأة. **﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾** المسافر المنقطع به، وقيل: الضيف. والمختال التياه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقرابه وأصحابه ومماليكه فلا يتحفى بهم ولا يلتفت إليهم. وقرئ: والجار الجنب بفتح الجيم وسكون النون.

الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْنُزُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَسْلِهِ وَأَعْزَتُوا الْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٧٧).

﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ بدل من قوله: **﴿مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فُخْرًا﴾** (٢) ونصب على الذم ويجوز أن يكون رفعاً عليه وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، كأنه قيل: الذين يخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة. وقرئ: بالبخل بضم الباء وفتحها، ويفتحين ويضممتين، أي: يخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد. وفي أمثال العرب: أبخل من الضنين بنائل غيره، قال:

وإن امرأ ضنت يداه على امرئ بنيل يد من غيره لبخيل
ولقد رأينا ممن بلي بداء البخل من إذا طرق سمعه أن
أحدأ جاد على أحد، شخص به وحل حبوته واضطرب
ودارت عيناه في رأسه كأنما نهب رحله وكسرت خزائنه
ضجراً من تلك وحسرة على وجوده. وقيل: هم اليهود، كانوا يأتون رجلاً من الأنصار يتنصحوهم لهم، ويقولون: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون. وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضل الغنى والتفاقر إلى الناس. وعن النبي ﷺ: «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده» (٣). وبنى عامل للرشيد قصراً أحذاء قصره، فتم به عنده، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فاحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك، فاعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله ﷺ.

وَالَّذِينَ يُبَيِّتُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَةً أَتَيْنَ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا

نفوس الزوجين ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصلحة والفرقة وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا عليه.

﴿فَإِنْ قُلْتُمْ﴾ فهل يليان الجمع بينهما والتفريق إن رأيا ذلك؟ قلت: قد اختلف فيه، فقيل: ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين، وقيل: ذلك إليهما وما جعلاً حكماً إلا إليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما. وعن عبيدة السلماني: شهدت علياً رضي الله عنه وقد جاءته امرأة زوجها ومع كل واحد منهما فقام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً، وهؤلاء حكماً. فقال علي رضي الله عنه للحكمين: اتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تفرقا ففرقتم، وإن رأيتم أن تجمعاً جمعتم، فقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك وعليك. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي. وعن الحسن: يجمعان ولا يفرقان. وعن الشعبي: ما قضى الحكمان جاز. والألف في **﴿إِنْ يريدا إصلاحاً﴾** للحكمين، وفي **﴿يُوقِ الله بينهما﴾** للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله بورك في وساطتهما وأوقع الله بطيب نفسيهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة، وقيل: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما فيتفقا على الكلمة الواحدة ويتساندان في طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد. وقيل: الضميران للزوجين، أي: إن يريدا إصلاح ما بينهما وطلبا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الألفة وأبدلها بالشقاق وفاقاً وبالبغضاء مودة. **﴿إِنَّ الله كان عليمًا خبيرًا﴾** يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المفترقين **﴿ولو أنفقنا ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾** (١).

وَأَعِزُّوا لِلَّهِ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّاتِ وَالْعِزَّىٰ
الْمَشْرَقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَتَّىٰ لَا تَفْخَرُوا (٧٨).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ واحسنوا بهما إحساناً **﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾** وبكل من بينكم وبينه قربي من أخ أو عم أو غيرهما، **﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾** الذي قرب جواره، **﴿وَالْجَارِ الْجَنْبِ﴾** الذي جواره بعيد، وقيل: الجار القريب النسب، والجار الجنب الأجنبي، وأنشد لبلعاء بن قيس:
لا يجتويننا مجاور أبداً نورحم أو مجاور جنب

(1) سورة النساء، الآية: 36.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک، 4/135. وأخرجه الترمذی في کتاب الألب، باب: ما جاء إن الله تعالى يجب أن يرى أثر نعمته على عبده الحديث رقم: (2819)، وابن حبان في کتاب اللباس وأدابه =

= الحديث رقم: (5417)، وأحمد في المسند 2/403، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الملابس والأواني، فصل فيمن لبس ليرى أثر نعمة الله عليه الحديث رقم: (6201).

(3) قال أحمد: وقد تقدم له مثل ذلك في قوله: **﴿وَوَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ﴾**

كَفَيْتَ إِذَا جُنْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَجُنَّا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (١١).

﴿فكيف﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم. ﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم، كقوله: ﴿وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم﴾ (3) ﴿وجئنا بك على هؤلاء المكذبين﴾ ﴿شهداء﴾، وعن ابن مسعود: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهداء﴾ فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حسبنا» (4).

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ سَوَّىٰ لَهُمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيَاتًا (١٢).

﴿لو تسوَّى بهم الأرض﴾ لو يدفنون فتسوَّى بهم الأرض كما تسوَّى بالموتى، وقيل: يوتون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء. وقيل: نصير البهائم تراباً فيوتون حالها. ﴿ولا يكتُمون الله حياً﴾ ولا يقدرون على كتمانها لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل: الواو للحال، أي: يوتون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتُمون الله حياً ولا يكتُمون في قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، لأنهم إذا قالوا ذلك وجدوا شركهم ختم الله على أفواههم عند ذلك وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك، فلشدَّة الأمر عليهم يتمنون أن تسوَّى بهم الأرض. وقرئ: تسوَّى بحذف التاء من تسوَّى، يقال: سويته فتسوَّى، نحو: لويته فتلوَّى، وتسوَّى بإدغام التاء في السين، كقوله: ﴿يسمعون﴾ (5) وماضيه أسوى كازكى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْرَةً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَبَسَ مِنْ الِئْسَاءِ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَيَمَّمْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (١٣).

وروي: أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ حين كانت الخمر مباحة فاكلوا وشربوا فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم ليصلي بهم، فقرا: أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد. فنزلت فكانوا لا يشربون في أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحوا إلا وقد

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَانصَبْ (١٤).

﴿رشاء الناس﴾ للنفار، وليقال: ما أسخاهم وما أجودهم، لا ابتغاء وجه الله. وقيل: نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿ففساء قريناً﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم في النار. وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (١٥).

﴿وماذا عليهم﴾ وإي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله، والمراد الذم والتوبيخ وإلا فكل منفعة ومفلة في ذلك، وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت، وللعاق: ما كن يرزؤك لو كنت باراً. وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزاة في العفو والبر، ولكنه ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ وعيد.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٦) وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُحْيِيهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (١٧).

النزة: النملة الصغيرة. وفي قراءة عبد الله: مثقال نملة. وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء نزة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة نزة. وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أنى في شيء وأصغره أو زاده في العقاب لكان ظلاماً، وأنه لا يفعله لاستحالة في الحكمة لا لاستحالة في القدرة. ﴿وإن تك حسنة﴾ وإن يكن مثقال نزة حسنة (18)، وإنما أنت ضمير المتقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. وقرئ: بالرفع على كان التامة. ﴿يضاعفها﴾ يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب في كل وقت من الاوقات المستقبلية غير المتناهية. وعن أبي عثمان النهدي أنه قال لأبي هريرة: بلغني عنك أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يعطي عبده للمؤمن الحسنة ألف ألف حسنة». قال أبو هريرة: لا بل سمعته يقول: «إن الله تعالى يعطيه ألفي ألف حسنة». ثم تلا هذه الآية (2)، والمراد الكثرة لا التحديد. ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاءً عظيماً، وسماء أجراً لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وقرئ: يضعفها بالتشديد والتخفيف، من أضعف وضعف. وقرأ ابن هرمز: نضاعفها بالنون.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، من سورة النساء، باب: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾... الحديث رقم: (4582)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل لستم القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع الحديث رقم: (1864).

(4) سورة الصفات، الآية: 8.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: في تحريم الخمر الحديث

= من النار فانقنكم منها﴾ وقد بينا ثم أن عوده إلى الحفرة جائز، بل أولى، وكذلك عوده ههنا إلى النزة، ولا يمنع ذلك كون المضاف إليه غير مخبر عنه؛ لأن عود الضمير، لا يستلزم الإخبار عنه الكلام الأول، ويجوز كانت دأبتك، وكل ذلك أسهل من اكتساب المضاف للتأنيث، من المضاف إليه، فقد نص أبو علي في التعليقات، على أنه شاذ.

(1) أخرجه أحمد في المسند 521/2.

(2) سورة المائدة، الآية: 117.

ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها⁽¹⁾، ومعنى: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها، كقوله: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾⁽²⁾ ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾⁽³⁾ وقيل: معناه ولا تقربوا مواضعها وهي المساجد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»⁽⁴⁾. وقيل: هو سكر النعاس وغلبة النوم، كقوله:

ورناوا بسكر سناتهم كل الريعون

وقرئ: سكارى بفتح السين، وسكرى على أن يكون جمعاً نحو هلكى وجوعى، لأن السكر علة تلحق العقل، أو مفرداً بمعنى: وأنتم جماعة سكرى، كقوله: امرأة سكرى وسكر بضم السين كحبلى، وإن تكون صفةً للجماعة. وحكى جناح بن حبيش: كسلى وكسلى بالفتح والضم. ﴿ولا جنباً﴾ عطف على قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجنب. ﴿إلا عابري سبيل﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين وانتصابه على الحال.

فإن قلت: كيف جمع بين هذه الحال، والحال التي قبلها؟ قلت: كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعزرون فيها وهي حال السفر، وعبور السبيل عبارة عنه، ويجوز أن لا يكون حالاً ولكن صفة لقوله: ﴿جنباً﴾ أي: ولا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير معزورين.

فإن قلت: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلت: أريد بالجنب الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين حتى تغتسلوا، لا أن تكونوا مسافرين. وقال من فسر الصلاة بالمسجد: معناه لا تقربوا المسجد جنباً إلا مجتازين فيه إذا كان الطريق فيه إلى الماء أو كان الماء فيه أو احتملتم فيه. وقيل إن رجلاً من الانصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا في المسجد فرخص لهم.

وروي: أن رسول الله ﷺ لم يأنز لأحد أن يجلس في المسجد أو يمر فيه وهو جنب، إلا لعلي رضي الله عنه؛ لأن بيته كان في المسجد⁽⁵⁾.

فإن قلت: أدخل في حكم الشرط أربعة وهم: المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة، فيمن تعلق الجزاء الذي هو الأمر بالتيمم عند عدم الماء منهم؟ قلت: الظاهر أنه تعلق بهم جميعاً، وأن المرضى إذا عدوا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتموا، وكذلك السفر إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج⁽⁶⁾: الصعيد وجه الأرض تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب التيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه.

فإن قلت: فما يصنع بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾⁽⁷⁾ أي: بعضه، وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه؟ قلت: قالوا إن من لا ابتداء الغاية.

فإن قلت: قولهم: إنها لا ابتداء الغاية قول متعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب إلا معنى التبويض؛ قلت: هو كما تقول والإذعان للحق أحق من المراء. ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ كناية عن الترخيص والتيسير، لأن من كانت عاقبته أن يعفو عن الخطئين ويغفر لهم أثر أن يكون ميسراً غير معسر.

فإن قلت⁽⁸⁾: كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين، وبين المحدثين والمجنبيين، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحدث سبب لوجوب الوضوء، والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلت: أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عالمون الماء في التيمم بالتراب، فخص أول من بينهم مرضاهم وسفرهم لأنهم المتقدمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوذ الماء

قال أحمد: هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الصعيد، وثم وجه آخر، وهو: عود الضمير على الحدث المملول عليه، بقوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ إلى آخرها، فإن المفهوم منه: وإن كنتم على حدث حال من هذه الأحوال: سفر، أو مرض، أو مجيء من الغائط، أو ملامسة النساء، فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث، فتيمموا منه، يقال: تيممت من الجنابة، وموع من على هذا مستعمل متداول، وهي على هذا الإعراب، إما للتعليل، أو لا ابتداء الغاية، وكلاهما فيها متمكن، والله أعلم.

سورة المائدة، الآية: 6.

قال أحمد: وهذا من ذكر المعتني به خاصاً ومندرجاً في العموم، تنبيهاً يذكره على وجهين مختلفين: لأن المرض والسفر مندرجان في عموم المحدثين والمجنبيين، والله أعلم.

قال أحمد: مراده، بذلك، أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء، وهو:

(3671)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة النساء الحديث (3026)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 307/2. تقدم تخريجه.

(1) سورة الإسراء، الآية: 32.

(2) سورة الانعام، الآية: 151.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد الحديث رقم: (750)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف عن مكحول 442/1 الحديث رقم: (1727)، وعن أبي هريرة (1728).

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: (21) الحديث رقم: (3727)، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع من محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغربه.

(5) قال أحمد: مراده، بذلك، أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء، وهو:

أن **«يُحَرِّفُونَ»** صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون، كقوله:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما موت وأخرى ابتغي العيش أكدح

أي: فمنها تارة أموت فيها، **«يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»** يميلونه عنها ويزيلونه لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلاً غيرَه فقد أَمَلُوهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ التي وضعه الله فيها وأزالوه عنها، وذلك نحو تحريفهم: أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم: الحد بدلَه.

فَأَنْ قُلْتُ^(١): كيف قيل ههنا: **«عَنْ مَوَاضِعِهِ»**، وفي المائدة: **«مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ»**؟ قُلْتُ: أمّا عَنْ مَوَاضِعِهِ فعلى ما فسرنا من إزالته عَنْ مَوَاضِعِهِ التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهادتهم من إبدال غيره مكانه، وأمّا مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ: فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قَمَنَ بَأَنَ يَكُونُ فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارره، والمعنيان متقاربان. وقرئ: **«يُحَرِّفُونَ الكلام والكلم بكسر الكاف وسكون اللام، جمع كلمة تخفيف كلمة»** قولهم: **«غَيْرَ مَسْمُوعٍ»** حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو وجهين يحتمل النّم أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، لأنه لو أُجِيبَتْ دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلك اتكالا على أَن قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكانك لم تسمع شيئاً، أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه فسمعت عنه ناب، ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع، أي: اسمع كلاماً غير مسمع إياك لأنّ أذك لا تعبه نبواً عنه، ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً إذا سبه. وكذلك قولهم: **«رَاعِنَا»** يحتمل راعنا نكلمك، أي: ارقبنا وانتظرنا، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فكانوا سخريةً بالدين وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام **«لِنَا»** بالسنتهم **«فَلَا بُهَا وَتَحْرِيفاً»** أي: يقتلون بالسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا، وغير مسمع

لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاب في مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر، وقرئ: مَنْ غِيطٌ، قيل: هو تخفيف غيط، كهين في هين، والغيط: بمعنى الغائط.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَكْفُرُونَ بِاللَّكَلَةِ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَبْلُغُوا الْكَيْدَ^(٢).

«الم تر» من رؤية القلب، وعدى إلى معنى ألم ينته علمك إليهم، أو بمعنى ألم تنظر إليهم. **«أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ»** خطأ من علم التوراة، وهم أحبار اليهود. **«يَكْفُرُونَ بِاللَّكَلَةِ»** يستبدلون بالهدى، وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل. **«وَيُرِيدُونَ أَنْ تَبْلُغُوا»** أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه وتخرطوا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ: أَنْ يَضِلُوا بِالْيَأْ بفتح الضاد وكسرهما.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا^(٣) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآتَمَمَّ غَيْرُ سَمْعٍ وَزَعَا لِيَا إِلَهِنَاهُمْ وَطَعْنَا فِي الْأُذُنِ وَآلُو أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَآتَمَمَّ وَانظُرْ لَكَ غَيْرَ كَلِمَةٍ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمَنْهُمْ اللَّهُ يَكْفِرُهَا فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا^(٤).

«والله أعلم» منكم **«بأعدائكم»** وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم. **«وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً»** فتقوا بولايته ونصرته دونهم، أو لا تبالوا بهم فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

«من الذين هادوا» بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب لأنهم يهود ونصارى، وقوله: **«والله أعلم»** **«وكفى بالله»** وكفى بالله جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض، أو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض أو صلة لنصير، أي: ينصركم من الذين هادوا، كقوله: **«ونصرناه من القوم الذي كذبوا»**، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ على

= الاختلاف المراد بالكلم في السورتين، قيل في سورة المائدة: **«يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ»** أي: ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع، فبقي كالغريب المتأسف عليه، الذي يقال فيه: هذا غريب، من بعد مواضعه ومقارره، ولا يوجد هذا المعنى في مثله: **«رَاعِنَا»** و **«غَيْرَ مَسْمُوعٍ»** وإن وجد على بعد، فليس الوضع اللغوي مما يعبا بانتقاله عن موضعه، كالوضع الشرعي، ولولا اشتمال هذا النقل على الهزة والسخرية، لما عظم أمره، فلذلك جاء هنا: **«يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»** غير مقرون بما قرن به الأول من صورة التأسف، والله أعلم.

= إنشاء وطلب، وقد أوقعه حالاً، والحال: خبر، أراد أن يبين أوجه صحة التعبير عن الخبر بالإنشاء، بواسطة أن هؤلاء كانوا يظنون دعاءهم مستجابة، مخبراً بوقوع الدعوة فيه، ونظيره ورود الأمر بصيغة الخبر، تنبيهاً على تحقق وقوعه. وقال أحمد: والظاهر أن الكلام المحرف إنما أريد في هذه السورة، مثل: **«غَيْرَ مَسْمُوعٍ»** و **«رَاعِنَا»** ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام وتوسطها بين الكلمتين، وبين قوله: **«يُحَرِّفُونَ»** وبين قوله: **«لِنَا»** بالسنتهم **«والمراد أيضاً: تحريف مشاهد بين، على أَنَّ المحرّف هما واماثلهم، واما في سورة المائدة، فالظاهر، والله أعلم أن المراد فيها بالكلم: الأحكام وتحريفها، تبديلها كتبيلهم الرجم بالجلد، ألا تراه عقبه بقوله: «يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا»**

لوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه، لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات ﴿أو نلغئهم﴾ أو نجزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت.

فإن قلت: فأين وقوع الوعيد؟ قلت: هو مشروط بالإيمان، وقد آمن منهم ناس، وقيل: هو منتظر ولا بد من طمس ومسح لليهود قبل يوم القيامة؛ ولأن الله عز وجل أوعدهم بأحد الأمرين: بطمس وجوه منهم، أو بلعنهم، فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم أو إجلالهم إلى الشام، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾⁽¹⁾ وكان أمر الله مفعولاً، فلا بد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَن يَشْرِكْ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾.

فإن قلت⁽²⁾: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة، فما وجه قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾؟ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجّهين إلى قوله تعالى: ﴿لمن يشاء﴾ كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك، على أن المراد بالأول: من لم يتب، وبالثاني: من تاب. ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. ﴿فقد افترى إثماً﴾، أي: ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْعُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴿١٧﴾.

﴿الذين يزكون أنفسهم﴾ اليهود والنصارى، قالوا:

موضع لا أسمعت مكروهاً، أو يقتلون بالسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرهونه من التوقير نفاقاً.

فإن قلت: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا: سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء، ويجوز أن يقولوه فيما بينهم، ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. وقرأ أنبي: وأنظرنا، من الإنظار وهو الإمهال.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿لكن خيراً لهم﴾؟ قلت: إلى أنهم قالوا، لأن المعنى: ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا لكان قولهم: ذلك خيراً لهم، ﴿واقوم﴾ وأعدل وأسد. ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أي خذلهم بسبب كفرهم وأبعدهم عن الطافه. ﴿فلا يؤمنون إلا﴾ إيماناً ﴿قليلاً﴾، أي: ضعيفاً ركيكاً لا يعبا به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره، أو أراد بالقلة العدم، كقوله:

قليل التشكي للمهم يصيبه

أي: عديم التشكي، أو إلا قليلاً منهم قد آمنوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْزَمُوا بَاطِلَ الزَّالِمَاتِ لَمَّا مَعَكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَيَّ آدَابُهَا أَوْ تَلْفِتَنَّهُمْ لَمَّا نَحْنَبُ الثَّغَبِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾.

﴿أن نطمس وجوهاً﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم. ﴿فردّها على آبارها﴾ فنجعلها على هيئة آبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها، والفاء للتسبيح، وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعدوا بعقابين: أحدهما عقيب الآخر ردّها على آبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكسها الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام، وجه آخر وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير كما طمس أموال القبط قلبهما حجارة، وبالوجوه رؤوسهم وجهاؤهم، أي: من قبل أن نغير أحوال وجهاؤهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ونكسهم صغارهم وإبارهم، أو نردّهم إلى حيث جاؤوا منه، وهي أنزعاع الشام، يريد إجلاء بني النضير.

فإن قلت: لمن الراجع في قوله: ﴿أو نلغئهم﴾؟ قلت:

(1) سورة المائدة، الآية: 60.

(2) قال أحمد رحمه الله: عقيدة أهل السنة: أن الشرك غير مغفور البتة، وما بونه من الكبائر مغفور، لمن يشاء الله أن يغفر له، هذا مع عدم التوبة، وأما مع التوبة، فكلاهما مغفور، الآية إنما ورنيت فيمن لم يتب، ولم ينكر فيها توبة كما ترى، فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة للشرك، وأثبت مغفرة ما بونه، مقرونة بالمشيئة، فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما، بتعليق المغفرة في أحدهما بالمشيئة، وتعليقها بالآخر مطلقاً، إذ هما سيّان في استحالة المغفرة، وإما أن يكون المراد فيهما: التائب، فقد قال في الشرك: إنه لا يغفر، والتائب من الشرك مغفور له، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما عن الآخر، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة، ومع الكبائر التوبة، حتى تنزل الآية=

على وفق معتقده، فيجعلها أمرين، لا تحمل واحداً منهما. أحدهما: إضافة التوبة إلى المشيئة، وهي غير منكورة، ولا دليل عليها فيما نكر، وأيضاً لو كانت مرادة، لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلاً، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل، فكيف يليق السكوت عن نكر ما هو العمد والموجب ونكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الرديء. الثاني: أنه بعد تقريره التوبة، لحكم فقرها على أحد القسمين بون الآخر، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأي، نعوذ بالله من ذلك، وأما القدرية، فهم بهذا المعتقد، يقع عليهم المثل السائر: السيد يعطي، والعبد يمنع؛ لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة، للمصر على الكبائر إن شاء، وهم يدفعون في وجه هذا التصريح، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح، والأصلاح التي هي بالفساد أجبر وأحق.

يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم، فقال: ﴿إِنَّمَا لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ على أن أم منقطعة⁽³⁾، ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك. ثم قال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ﴾، أي: لو كان لهم نصيب من الملك، فإذا لا يؤتون أحدا مقدار نقيير لفرط بخلهم.

والنقيير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل والقطمير، والمراد بالملك: إمام ملك أهل الدنيا، وإمام ملك الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾⁽⁴⁾ وهذا أوصف لهم بالشح وأحسن لطباقة نظيره من القرآن، ويجوز أن يكون معنى الهمزة في ﴿إِنَّمَا﴾ لإنكار أنهم قد أوتوا نصيباً من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة، كما تكون أحوال الملوك، وأنهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئاً. وقرأ ابن مسعود: فإذا لا يؤتوا، على إعمال إذا عملها الذي هو النصب، وهي ملغاة في قراءة العامة. كأنه قيل: فلا يؤتون الناس نقيراً إذا.

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مَّا كَانُوا يُرِيدُونَ⁽⁵⁾.

﴿إِنَّمَا يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل أحسدون ورسول الله ﷺ والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه، وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة. ﴿آل إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتاه الله مثل ما آتى أسلافه. وعن ابن عباس: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان. وقيل: استكثرنا نساءه. فقيل لهم: كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلثمائة مهيرة وسبعمائة سرية.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ يَدْعُونَ⁽⁶⁾.

﴿فمنهم﴾ فمن اليهود ﴿من آمن به﴾، أي: بما نكر من حديث آل إبراهيم. ﴿ومنهم من صد عنه﴾، وأنكره مع علمه بصحته، أو من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر. كقوله: ﴿فمنهم مهتو وكثير منهم فاسقون﴾⁽⁷⁾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَلَّتْ جُلُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا حَكِيمًا⁽⁸⁾.

﴿بصلناهم جلوداً غيرها﴾ أبصلناهم إياها.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ يَدْعُونَ⁽⁹⁾.

﴿نحن أبناء الله وأحببوه﴾، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقيل: جاء رجال من اليهود إلى رسول الله ﷺ باطفاً عليهم، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: لا، قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار⁽¹⁾. فنزلت. ويبدل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ يَدْعُونَ⁽²⁾. ﴿وَاللَّهُ أَنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فِي الْأَرْضِ﴾. قُلْتُ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ حِينَ قَالَ لَهُ الْمَنَافِقُونَ: أَعَدَلْ فِي الْقِسْمَةِ، إِكْدَاباً لَهُمْ إِذْ وَصَفُوهُ بِخِلَافِ مَا وَصَفَهُ بِهِ رَبُّهُ، وَشَتَانِ مِنْ شَهِدِ اللَّهِ لَهُ بِالْتَّزْكِيَةِ وَمِنْ شَهِدِ لِنَفْسِهِ أَوْ شَهِدَ لَهُ مِنْ لَا يَعْلَمُ. ﴿بِئْسَ اللَّهُ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتد بها لا تزكية غيره، لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية، ومعنى يزكي من يشاء، يزكي المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به. ﴿وَلَا يَظْلِمُونَ فِتْيَاناً﴾ أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم، ونحوه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾.

أَنْظُرْ كَيْفَ يَمَرُّونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبَرِ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا ضَيْبًا⁽³⁾.

﴿كيف يفترون على الله بالكذب﴾ في زعمهم أنهم عند الله أذكيا، ﴿وكفى﴾ بزعمهم هذا ﴿إثماً مبيناً﴾ من بين سائر آثامهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالْطُّفُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا⁽⁴⁾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْمِزْهُمُ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُم مِّنْ تَوْبَةٍ⁽⁵⁾.

الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطافوت الشيطان. وذلك أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم فأسجدوا لألهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. فهذه إيمانكم ﴿بِالْجَبَتِ وَالطُّافُوتِ﴾ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت ونسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني، ونكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلاً.

أَلَمْ تَرَ تَوْبَةَ اللَّهِ إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ تَوْبَةً⁽⁶⁾.

وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شر خصلتين،

(4) سورة الإسراء، الآية: 100.

(5) سورة الحديد، الآية: 26.

(1) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(2) قال الزيلعي غريب، 327/1.

(3) أي: تفسر ببل والهمزة.

الامانات والعدل في الحكم. وقرئ: نعماً بفتح النون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٨٦).

لما أمر الولاة بإداء الامانات إلى أهلها وإن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضايهم، والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق لأن أمراء الجور: الله ورسوله بريثان منهم. فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل، واختيار الحق والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان، وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: أستم أرمتم بطاعتنا في قوله: «وأولي الأمر منكم» قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتكم الحق، بقوله: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميراً فقد أطاعني، ومن يعص أميراً فقد عصاني» (3). وقيل: هم العلماء الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. «فإن تنازعتم في شيء» فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين «فردوه إلى الله والرسول» أي: أرجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جرح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك وهو أن أمرهم أولاً بإداء الامانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخر بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل. وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل ولا يربون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهب بهم، فهم متسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم للصوص المتغلبة. «نلك» إشارة إلى الرد، أي: الرد إلى الكتاب والسنة. «خير» لكم وأصلح، «وأحسن تأويلاً» وأحسن عاقبة. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَفَعُوا أَنْفَهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَمَكَّنُوا إِلَى الْكَلْبِ وَقَدْ أُفْرِجُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعيدًا (٨٧).

روي: أن بشرًا المنافق خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، ففضلى لليهودي فلم

تعص؟ قلت: العذاب للجملته الحساسة وهي التي عصت لا الجلد. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج. وعن رسول الله ﷺ: «تبدل جلودهم كل يوم سبع مرّات» (1). وعن الحسن: سبعين مرّة يبدلون جلوداً بيضاء كالقراطيس. «ليذوقوا العذاب» ليذوق لهم ذوقه ولا ينقطع، كقولك للعزير: أعزك الله، أي: أدامك على عزك وذاك فيه. «عزير» لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، «حكيم» لا يعنب إلا بعدل من يستحقه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجِلُّهُمْ فَتَجَرَ مِنْ حَتْمِ الْآخِرِ الْآخِرِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَرْجُ مُطَهَّرٌ وَنَجِلُّهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا (٨٧).

«ظليل» صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل ويوم يوم وما أشبه ذلك. وهو ما كان فينا نأ لا جوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس وسجساً لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة رزقنا الله بتوقيفه لما يزلف إليه التفتيد تحت ذلك الظل. وفي قراءة عبد الله: سيذخلهم بالياء.

إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَنْثَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ أَنْثَىٰ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأٌ بَيِّنٌ يَدْعُ إِلَىٰ شَيْءٍ بَصِيرًا (٨٨).

«أن تؤدوا الامانات» الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة. وقيل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة، وذلك أن رسول الله ﷺ حين نخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يفتح المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمتعه. فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، ولخذه منه، وفتح، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سلكه العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت. فامر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه. فقال عثمان لعلي: أكرهت وأتيت ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله في شأنك قرآنًا. وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فهبط جبريل وأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبداً (2). وقيل: هو خطاب للولاة بإداء الامانات. والحكم بالعدل. وقرئ: الامانة على التوحيد. «نعماً يعظكم به» ما إما أن تكون منصوبة موصوفة ببعظكم به، وإما أن تكون مرفوعة موصولة به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح محنوف، أي: نعماً يعظكم به ذاك وهو المأمور به من أداء

(1) قال الزبيعي غريب 328/1.

(2) أخرجه الواحد في أسباب النزول ص: 90.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: يقاتل من وراء =

= الإمام الحديث رقم: (2957)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب:

وجوب طاعة الأمراء... الحديث رقم: (4726).

عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون دمه وقد أهدره الله، فقالوا: ما أربنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالتا أنه يحكم له بما حكم به.

أَوَلَيْكَ الْبُرْءُ بِعَلَمِ اللَّهِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾.

﴿فاعرض عنهم﴾ لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم ولا تزد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه. ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار.

فَإِنْ قُلْتَ^(٢): بِمَ تَعْلَقُ قَوْلُهُ: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؟ قُلْتُ: بقوله: ﴿بَلِيغاً﴾ أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً؛ وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، وأطلع قرنه وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف. أو يتعلق بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ أي: قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً، وإن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغني عنكم إبطانه فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم ودابوها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشر من انتقامه وشرأ من ذلك وأغلظ، أو قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم مسازراً لهم بالنصيحة؛ لأنها في السر أئجع وفي الإمحاض أئحل ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِنُظَاهِرَ بِهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ وَرَآبِاً رَحِيماً ﴿١٤﴾.

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ وما أرسلنا رسولا قط ﴿إلا ليظاير بإذن الله﴾ بسبب إذن الله في طاعته وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عن الله فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في

يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه، فقال للمنافق: كذلك. قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت. وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل. فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق».

والطاغوت: كعب بن الأشرف سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم﴾. وقرئ: بما أنزل وما أنزل على الباء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل: أن يكفروا بها ذهاباً بالطاغوت إلى الجمع كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم﴾^(١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٥﴾.

وقرأ الحسن: تعالوا بضم اللام على أنه حنف اللام من تعاليت تخفيفاً، كما قالوا: ما باليت به بالة، وأصلها بالية كعافية. وكما قال الكسائي: في آية إن أصلها آية فاعلة فحنفت اللام فلما حنفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت فصار تعالوا نحو تقدموا. ومنه قول أهل مكة: تعالي بكسر اللام للمرأة. وفي شعر الحمдاني:

تعالي أقاسمك الهموم تعالي والوجه فتح اللام.

كَفَيْتَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ كَمَا قَدَّسَتْ آيَاتِهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يُخْلِفُونَ يَأْهُوَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا لِإِحْسَانٍ وَتَوْفِيقًا ﴿١٦﴾.

﴿فكيف﴾ يكون حالهم وكيف يصنعون، يعني: أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه. ﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم. ﴿ثم جاءوك﴾ حين يصابون فيتعذرون إليك، ﴿ويحلفون﴾ ما أربنا بتحاكمنا إلى غيرك. ﴿إلا إحساناً﴾ لا إساءة ﴿وتوفيقاً﴾ بين الخصمين، ولم يرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك، ففرج عنا بدعائك. وهذا وعيد لهم على فعلهم وأنهم سيندمون

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

= لا تكون مؤاخنتهم بها، مانعة من نصيحهم وعظهم، ثم جاء قله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ كالشرح للوعظ، ولذكر أهم ما يعظم فيه، وتلك نفوسهم التي علم الله ما انطوت عليه من المذام، وعلى هذا يكون المراد: الوعظ وما يتعلق به، وأما الثالث، فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام، لتخصيصه إياه بالإطلاع على أعيانهم، وتسميتهم له بأسمائهم، وأخبره في هذا المعنى كثيرة.

(2) قال أحمد: ولكل من هذه التاويلات شاهد على الصحة، إما الأول، فلأن حاصله أمره بتهديدهم، على وجه مبلغ صميم قلوبهم، وسياق التهديد في قوله: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك﴾ يشهد له، فإنه أخبر بما سيق لهم على سبيل التهديد، وأما الثاني، فيلائمه من السياق قوله: ﴿ولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني ما انطوت عليه من الخبيث، والمكر، والحيل، ثم أمره بوعظهم، والإعراض عن جرائمهم، حتى =

خالصةً. و «تسليماً» تأكيد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظواهرهم وباطنهم. قيل: نزلت في شأن المنافق واليهودي⁽⁶⁾. وقيل: في شأن الزبير وحاطب بن أبي بلتعة، وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة كانا يسقيان بها النخل، فقال: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك». فغضب حاطب وقال: لأن كان ابن عمّتك. فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقه ثم أرسله إلى جارك»⁽⁷⁾. كان قد أشار على الزبير برأي فيه السعة له ولخصمه، فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد، فقال له: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصاري: قضى لابن عمّته، ولوى شقه. ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل الله هؤلاء يشبهون أنه رسول الله ﷺ ثم يتهمونهم في قضاء يقضي بينهم، وأيم الله لقد أنذبتنا نذراً مرةً في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا، فبلغ قتلنا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شمس: أما والله إن الله ليعلم مني الصق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها. وروي أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»⁽⁸⁾. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: والله لو أمرنا ربنا لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك، فنزلت الآية في شأن

طاعته. «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم» بالتحاكم إلى الطاغوت «جاءوك» تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا، «فاستغفروا الله» من ذلك بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيدائك برّد قضائك حتى انتصبت شفيماً لهم إلى الله ومستغفراً. «ولوجدوا الله توباً» لعلموه توباً، أي: لتاب عليهم ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه⁽¹⁾ إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُؤْمِرُوكَ يُخْرَجَ مِنْهُمْ لَاحِدًا وَيَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿فلا وربك﴾ معناه: فوربك، كقوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم﴾⁽²⁾. ولا مزيدة لتأكيد⁽³⁾. معنى القسم كما زيت في «لئلا يعلم»⁽⁴⁾ لتأكيد وجوب العلم، و «لا يؤمنون» جواب القسم.

فإن قلت: ملا زعمت أنها زيت لتظاهر لا في «لا يؤمنون» قلت: يابى ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لاقول رسول كريم﴾⁽⁵⁾ «فيما شجر بينهم» فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه. «حرجاً» ضيقاً، أي: لا تضيق صدورهم من حكمك. وقيل: شكاً لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين. «ويسلموا» وينقادوا ويذعنوا لما تأتي به من قضائك لا يعارضوه بشيء، من قولك: سلم لأمر الله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها إذا جعلها سالمة له

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع من الالتفات خصوصية، وهي لشماله على نكر صفة مناسبة لما أضيف إليه، وذلك زائد على الالتفات، ينكر الاعلام الجامدة، والله الموفق.

(2) سورة الحجر، الآية: 92.

(3) قال أحمد: يشير إلى أن لا لما زيت مع القسم، وإن لم يكن المقسم به، دل ذلك على أنها إنما تدخل فيه، لتأكيد القسم، فإذا دخلت حيث يكون المقسم عليه نفيًا، تعين جعلها لتأكيد القسم طرداً للباب، والظاهر عندي، والله أعلم، أنها هنا لتوطئة النفي المقسم عليه، والزمخشري لم ينكر مانعاً من ذلك، وحاصل ما نكره: مجيئها لغیر هذا المعنى في الإثبات، وذلك لا يابى مجيئها في النفي على الوجه الآخر من التوطئة، على أن في دخولها على القسم المثبت نظراً، وذلك أنها لم ترد في الكتاب العزيز، إلا مع القسم، حيث يكون بالفعل مثل: «لا أقسم بهذا البلد» «فلا أقسم بالخنس» «فلا أقسم بمواقع النجوم» «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون» ولم تدخل أيضاً إلا على القسم بغير الله تعالى، ولذلك سر يابى كونها في آية النساء لتأكيد القسم، ويعين كونها للتوطئة، وذلك أن المراد بها في جميع الآيات التي عديناها. تأكيد تعظيم المقسم به، إذ لا يقسم بالشئ، إلا إعظاماً له، فكانه يدخلها يقول: إن إعظامي لهذه الأشياء بالقسم بها كلا إعظام، يعني: أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك، وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعا، لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم وللإقسام بها، فيزاح هذا الوهم بالتأكيد في إبراز فعل القسم، مؤكداً بالنفي =

= المنكور، وقد قرّر الزمخشري هذا المعنى في دخول «لا» عند قوله: «لا أقسم بيوم القيامة» على وجه مجمل هذا بسطه وإيضاحه، فإذا بين ذلك، فهذا الوهم الذي يراد إزاحته في القسم بغير الله، مندفع في الإقسام بالله، فلا يحتاج إلى دخول «لا» مؤكدة للقسم، فيتعين حملها على الموطئة، ولا تكاد تجدها في غير الكتاب العزيز داخلية على قسم مثبت، وأما دخولها في القسم وجوابه نفي، فكثير مثل:

فلا وأبيك ابنة العامر ي لا يدعي القوم أنني أقر وكقوله:

ألا نانت أمانة باحتمال لتحزنني فلا بك ما أبالي وقوله:

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل ولا أقاما وقوله:

حلف فلا والله تهبط تلعة من الأرض إلا أنت للئل عارف وهو أكثر من أن يحصى، فتأمل هذا الفصل، فإنه حقيق بالتأمل.

(4) سورة الحديد، الآية: 29.

(5) سورة الحاقة، الآيات: 38 - 40

(6) الولحي في لسياب النزول ص 93.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: المساقاة، باب: سكر الانهار الحديث (2359)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب اتباعه ﷺ، الحديث (6065).

(8) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

حاطب ونزلت في شأن هؤلاء.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْتُلُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ قَرَّبُوا إِلَهُ الْغَيْبِ فَقُلْنَا أَوْ بَرُّوا فَلْيُكْفِرُوا بِهِ لَغَوِيٍّ مِمَّا كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ قَدِ افْتَرَيْنَاهُمْ قَوْلًا مَّا يَكُنْ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدُّ تَنَبُّهًا (١١).

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم﴾ أي: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿ما فعلوه إلا﴾ ناس ﴿قليل منهم﴾ وهذا توبيخ عظيم، والرفع على البذل من الواو وفي فعلوه. وقرئ: إلا قليلاً بالنصب على أصل الاستثناء، أو على إلا فعلاً قليلاً ﴿ما يوعظون به﴾ من اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. ﴿لكن خيراً لهم﴾ في عاجلهم وأجلهم. ﴿وأشد تنبهاً﴾ لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه.

وَإِذَا لَاتْتَنَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (١٧).

﴿وإذا﴾ جواب السؤال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت، فقيل: وإذا لو ثبتوا ﴿لآتيناهم﴾ لأن إذا جواب وجزاء. ﴿من لنا أجراً عظيماً﴾ كقوله: ﴿ويؤت من لئله أجراً عظيماً﴾ (١) في أن المراد العطاء المتفضل به من عنده، وتسميته أجراً لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٨).

﴿ولهديناهم﴾ وللفظنا بهم ووقفناهم لازدياد الخيرات. وَمَنْ يُجِبِ اللَّهُ وَأَرْسُولَ فَاُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنَّامَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالَّذِينَ وَالشَّاهِدِينَ وَالْمُشَاقِّينَ وَكَانَ أَوْلَئِكَ رِيفًا (٢١).

الصديقون: أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا في تصديقهم كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم. وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة حيث وعدوا مراقبة

أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده. ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ فيه معنى المتعجب، كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقاً، ولا استقلاله بمعنى التعجب قرئ: وحسن يسكون السين. يقول المتعجب حسن الوجه وجهك، وحسن الوجه وجهك بالفتح والضم مع التسكين، والرفيق كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه. ويجوز أن يكون مفرداً بين به الجنس في باب التمييز. وروي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: يا رسول الله ما بي من وجع غير أنني إذا لم أراك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، فنكرت الآخرة فختت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإن انخلت الجنة كنت في منزل دون منزل، وإن لم أنخل فذاك حين لا أراك أبداً. فنزلت: فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين» (٢). وحكي ذلك عن جماعة من الصحابة.

ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا (٧).

﴿ذلك﴾ مبتدأ و﴿الفضل﴾ صفة، و﴿من الله﴾ الخبر، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ والفضل من الله خبره، والمعنى: أن ما أعطي المطيعون من الأجر (٣) العظيم ومراقبة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم. ﴿وكفى بالله عليمًا﴾ بجزء من اطاعه، أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه، وكفى بالله عليمًا بعباده فهو يوفقه على حسب أحوالهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتَّقُوا ثَابِتًا أَوْ انفِرُوا جَوِيًّا (٧).

﴿خذوا حذرکم﴾ الحذر والحذر بمعنى كالآثر والآثر، يقال: أخذ حذره إذا يتقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آتة التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه، والمعنى:

المطيعين في طاعتهم، وتمييزهم بأعمالهم، وجعل معنى كونها فضلاً من الله أنه وفقهم لاكتسابها، ومكنهم من ذلك لا غير، يعني: أما إحدائهم فيقدرهم، وهذا من الطراز الأول، والحق أن الكل أيضاً فضل من الله بكل اعتبار؛ لأن معتقدا معاشر أهل السنة، أن الطاعات والأعمال التي يتميز هؤلاء الخواص، خلق الله تعالى وفعله، وأن قدرهم لا تأثير لها في أعمالهم، بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات، ويثيبهم عليها، فالطاعة إذا من فضله، وثوابها من فضله، فله الفضل على كل حال، والمنة في الفاتحة والمآل، وكفى بقول سيد البشر في تلك حجة وقوة، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته». قيل: ولا أنت يا رسول الله! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة، قل بفضل الله وبرحمته». فبذلك فليفرحوا، اللهم اختم لنا باقتناء السنة، وأدخلنا بفضلك المحض الجنة.

(1) سورة النساء، الآية: 40.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ الحديث (1380)، وأخرجه الطبراني في الصغير الحديث (52).

(3) قال أحمد: عقيدة أهل السنة، وأن المطيع لا يستحق على الله بطاعته شيئاً، وأنه مهما أثيب به من دخول الجنة والنجاة من النار، فذاك فضل من الله لا عن استحقاق ثابت، فهم يقرّون هذه الآية في رجائها، وأما القدرية، فيزعمون أن المطيع يستوجب على الله ثواب الطاعة، وأن المقابل لطاعة من الثواب أجر مستحق، كالأجرة على العمل في الشاهد، ليس بفضل، وإنما الفضل ما يزيده العبد على حقه من أنواع الثواب، وصنوف الكرامة، فلما وردت هذه الآية، ناطقة بأن جملة ما يناله عباد الله فضل من الله، اضطر الزمخشري إلى ردّها إلى معتقده، فجعل الفضل المشار إليه، هو الزيادة التابعة للثواب، يعني: المستحق، ثم اتسع في التأويل، فنكر وجهاً آخر، وهو: أن يكون المشار إليه مزاياء هؤلاء =

بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقْتَلْ أَوْ يَمُوتْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧١).

﴿يشرون﴾ بمعنى يشترون ويبيعون، قال ابن مفرغ: وشريت بربدا ليتني من بعد بربد كنت هامة فالذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطلون، وعطوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد، والذين يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الأجلة على العاجلة، ويستبدلون بها، والمعنى أن صد الذين مرضت قلوبهم، وضعت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون. ووعد المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَعْمَالُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٢).

﴿والمستضعفين﴾ فيه وجهان: أن يكون مجروراً عطفاً على سبيل الله، أي: في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين. ومنصوباً^(٣) على الاختصاص، يعني: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين، لأن سبيل الله عام في كل خير وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصنهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسّر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لئنه خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فراوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس: كان ينصر الضعيف من القوي حتى كانوا أعز بها من الظلمة.

فإن قلت: لم ذكر الولدان؟ قلت: تسجيلاً بإفراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لأبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذبوا، كما فعل قوم يونس وكما ورت السنة بإخراجهم في الاستسقاء. وعن ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ويجوز أن

احزنوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسهم. ﴿فانفروا﴾ إذا نفرتم إلى العدو إما ﴿ثبات﴾ جماعات متفرقة سرية بعد سرية، وإما ﴿جميعاً﴾ أي: مجتمعين كوكبة واحدة، ولا تتخاذلوا فتلحقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ: فانفروا بضم الفاء.

وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يُبْتَغَىٰ قَاتِلًا فَإِنْ أَصْبَحَكُمْ مُّسِيْبَةً قَالِ قَدْ أَنْهَىٰ اللَّهُ عَنْكَ إِذْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ شَهِيدًا (٧٣).

اللام في ﴿لمن﴾ للابتداء بمنزلتها في قوله: ﴿إن الله لغفور﴾^(١) وفي ﴿ليبطن﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطن، والقسم وجوابه صلة من، والضمير الرجاع منها إليه ما استكن في ليبطن، والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، والمبطلون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقاً. ومعنى: ليبطن ليتناقلن وليتخلفن عن الجهاد، وبطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم إذا أبطأ. وقرئ: ليبطن بالتخفيف، يقال: بطأ على فلان وأبطأ على، ويطؤ نحو ثقل. ويقال: ما بطأ بك، فيعدي بالباء، ويجوز أن يكون منقولاً من بطؤ نحو ثقل من ثقل، فيراد ليبطن غيره وليبطنه عن الغزو، وكان هذا دين المنافق عبد الله بن أبي وهو الذي ثبت الناس يوم أحد. ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾^(٢) من قتل أو هزيمة.

وَإِنْ أَصَابَكُمْ ضَرْبٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لَكُمْ فَأَوْزَ قَوْزًا عَظِيمًا (٧٤).

﴿فضل من الله﴾ من فتح أو غنيمة. ﴿ليقولن﴾، وقرأ الحسن: ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من لأن قوله: لمن ليبطن في معنى الجماعة، وقوله: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ اعتراض بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله وهو ﴿يا ليتني﴾، والمعنى: كأن لم تتقدم له معكم مودة لأن المنافقين كانوا يوائمون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر وإن كانوا يبيعون لهم الغوائل في الباطن، والظاهر أنه تهكم لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم. وقرئ: فاقوز بالرفع، عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم، والفوز معنى التمني فيكونا متمنيين جميعاً، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: فانا أقوز في ذلك الوقت.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

= بيان شاف إن شاء الله تعالى.

(3) قال أحمد: وفيه على هذا، مبالغة في الحث على خلاصهم من جهتين، إحداها: التخصيص بعد التعميم، فإنه يقتضي إضمار الناصب الذي هو: اختص، ولولا النصب، لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذكر، ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم، بأن أخرجه إلى النطق.

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وفي هذه القراءة نكتة غريبة، وهي: الإعادة إلى لفظ، من بعد الإعادة إلى معناها، وهو مستغرب، أنكر بعضهم وجوده في الكتاب العزيز، لما يلزم من الإجمال بعد البيان، وهو خلاف قانون البلاغة، إذ الإعادة إلى لفظها، ليس بمفصع عن معناها، بل تناوله للمعنى محمل مبهم، فوقوعه بعد البيان عسر، ومنهم من أثبت، وعد موضعين، وهذه الآية على هذه القراءة ثالث، وسياتي =

القتال. بالمدينة كم فريق منهم لا شكاً في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفاً من الموت. **﴿خشية الله﴾** من إضافة المصدر إلى المفعول.

فإن قلت⁽²⁾: ما محل **﴿خشية الله﴾** من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في يخشون، أي: يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله. **﴿أو أشد خشية﴾**، بمعنى: أو أشد خشية من أهل خشية الله، وأشد معطوف على الحال.

فإن قلت: لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر، ولم تقدّر يخشون خشيةً مثل خشية الله، بمعنى: مثل ما يخشى الله؟ قلت: أبى ذلك قوله: **﴿أو أشد خشية﴾** لأنه وما عطف عليه في حكم واحد، ولو قلت: أيخشون الناس أشد خشية لم يكن إلا حالاً عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر؛ لأنك لا تقول: خشي فلان أشد خشية فتنصب خشيةً وأنت تريد المصدر، وإنما تقول: أشد خشية فتجرها، وإذا نصبها لم يكن أشد خشية إلا عبارة عن الفاعل حالاً منه، اللهم إلا أن تجعل الخشية خاشية وذات خشية، على قولهم: جدّ جدّه، فتزعم أن معناه: يخشون الناس خشيةً مثل خشية الله، أو خشية أشد خشية من خشية الله، ويجوز على هذا أن يكون محل أشد مجروراً عطفاً على خشية الله، تريد: خشية الله، أو خشية أشد خشية منها. **﴿لولا أخرجتنا إلى أجل قريب﴾** استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر، كقوله: **﴿لولا أخرجتنا إلى أجل قريب فاصلق﴾**⁽³⁾ **﴿ولا تظلمون فتبلا﴾** ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه. وقرئ: ولا يظلمون بالياء.

أَيَّنَا تَكُونُوا بِدَرْكِكُمْ أَمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بَرْجٍ شِيدُو وَإِنْ تُسَيِّمُ حَسَنَةً يَقُولُوا هَؤُلَاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُسَيِّمُ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَؤُلَاءِ مِنْ

يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرث، وبالولدان العبيد والإماء، لأنّ العبد والأمة يقال لهما: الوليد والوليدة. وقيل للولدان والولائد: الولدان، لتغليب الذكور على الإناث، كما يقال الآباء والإخوة.

فإن قلت⁽¹⁾: لم نكر الظالم وموصوفه مؤنث؟ قلت: هو وصف للقرية إلا أنّه مسند إلى أهلها، فاعطي إعراب القرية لأنه صفتها، ونكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها؟ ولو أنت فقيل: الظالمة أهلها لجان، لا لتأنيث الموصوف، ولكن لأنّ الأهل ينكر ويؤنث.

فإن قلت: هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها؟ قلت: نعم كما تقول: التي ظلموا أهلها، على لغة من يقول: اكلوني البراغيث. ومنه: **﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾**.

الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَلَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقِيلُوا أُولَئِكَ أَشْطَرُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧).

رغب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنّهم إنّما يقاتلون في سبيل الله فهو وليهم وانصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَفَّ عَنْهُمْ وَلَاحِظُوا إِلَهُكُمْ إِنَّا إِذَا رُفِقَ مِنْهُمْ يَحْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ اللَّهُ قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى وَلَا تُظْلَمُونَ قَلِيلًا (٧).

﴿كفوا أيديكم﴾ أي: كفوها عن القتال، وذلك أنّ المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه. **﴿فلما كتب عليهم**

(1) قال أحمد: ووقفت على نكتة في هذه الآية حسنة، وهي: أنّ كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز، فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز، كقوله: **﴿وضرب الله مثلاً قرية آمنة مطمئنة﴾** إلى قوله: **﴿وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها﴾** وأما هذه القرية في سورة النساء، فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة؛ لأنّ المراد بها مكة، فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريعاً لها، شرفها الله تعالى: **﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾**.

(2) قال أحمد: وقد مرّ نظير هذه الآية في الإعراب، وهو قوله تعالى: **﴿فانكروا الله كنكركم آباءكم وأشدّ نكراً﴾** وقد قرأ الزمخشري، ثمّ ما أذن له هنا، وهو الجرّ عطفاً على الذكر وبينه، ثم جوازه بالتأويل الذي ذكره الزمخشري هنا، وهو إلحاقه بباب جدّ جدّه، وأصل هذا الإعراب لأبي الفتح، وقد بينت جواز الجرّ عطفاً على الذكر، من غير احتياج إلى التأويل المنكور، وأجرى مثله هنا، وهو وجه حسن، استنبطته من كتاب سيبويه، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمنني، والله الموفق. الذي نكر سيبويه: فرجل واقع على القائل: زيد أشجع الناس رجلاً، ثم قال سيبويه: فرجل واقع على المبتدأ، ولك أنّ تجره فقول: زيد أشجع رجلي، وهو الأصل، انتهى المقصود من كلام سيبويه. وإذا بنيت عليه، جاز أن تقول: خشي فلان أشد خشية، فتنصب الخشية، أنت تريد المصدر، كانك قلت: =

= خشي فلان خشية أشد خشية، فتوقع خشية الثانية على الأولى، وإن نصبتها، فهو كما قلت: زيد أشجع رجلاً، فأوقعت رجلاً على زيد، وإن كنت نصبتها، فهو على الأصل أن تقول: أشد خشية، فتجرها، كما كان الأصل أن تقول: زيد أشجع رجل فتجره، وما منع الزمخشري من النصب مع وقوعه على المصدر، إلا أنّ مقتضى النصب في مثله، خروج المنصوب عن الأول، بخلاف المجرور، ألا تراك تقول: زيد أكرم أباً، فيكون زيد من الأبناء، وأنت تفضل أباه، وتقول: زيد أكرم أب، فيكون من الآباء، وأنت تفضله، فلو ذهبت توقع أشدّ على الخشية الأولى، وقد نصبت مميزها، لزم خروج الثاني عن الأول، وهو محال، لا تكون الخشية خشية، ففحتاج إلى التأويل المنكور، وهو: جعل الخشية الأولى خاشية، حتى تخرجها عن المصدر المميز لها، وقد بينا في كلام سيبويه جواز النصب، مع وقوع الثاني على الأول، كما لو جررت، فمثله يجوز في الآية من غير تأويل، والله أعلم. وقد مضت وجوه من الإعراب في آية البقرة، يتعنّز بعضها هنا، لمنافرة المعنى، والله الموفق. ومثل هذه الأنواع من الإعراب، منزل من العربية، منزلة اللب الخالص، فلا يوصل إليها، إلا بعد تجاوز جملة القشور، وربك الفتاح العليم.

(3) سورة المنافقون، الآية: 10.

ثم قال: ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ يا إنسان؟ خطاباً عاماً ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾، أي: من نعمة وإحسان. ﴿فَمَنْ اللَّهُ﴾ تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أي: من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما اكتسبت يدك، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتَ إِيَّاكُمْ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (5). وعن عائشة رضي الله عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها حتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: رسولاً للناس جميعاً، لست برسول العرب وحدهم أنت رسول العرب والعجم، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾. ﴿وَوَكَّفِي بِاللهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك، فما ينبغي إليكم جميعاً. ﴿وَوَكَّفِي بِاللهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا (٨٠).

﴿مَنْ يطع الرسول فقد اطاع الله﴾ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، فكانت طاعته في امتثال ما أمر به والانتفاء عما نهى عنه طاعة لله. وروي أنه قال: من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله. فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله، ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذة رباً كما اتخذت النصراني عيسى. فنزلت ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن الطاعة فأعرض عنه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا نَذِيرًا﴾ (6)، لا حفيظاً ومهيماً عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم، كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (7).

وَيَتَوَلَّوْكَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنِيسُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَلَّى عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١).

﴿ويقولون﴾ إذا أمرتهم بشيء ﴿طاعة﴾ بالرفع، أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز النصب بمعنى: أطعناك طاعة، وهذا من قول المرتسم: سمعاً وطاعة، وسمع وطاعة، ونحوه قول سيبويه، وسمعنا بعض العرب الموشوق بهم

عِنْدَكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَرْفِيًّا (٨٢).

قرئ (١): يدرِّكم بالرفع. وقيل: هو على حذف الفاء، كأنه قيل: فيدرِّكم الموت، وشبهه بقول القائل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

ويجوز أن يقال: حمل على ما يقع موقع أينما تكونوا وهو أينما كنتم كما حمل ولا ناعب على ما يقع موقع ليسوا مصلحين وهو ليسوا بمصلحين، فرفع كما رفع زهير:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

وهو قول نحوي سيبوي، ويجوز أن يتصل بقوله: ﴿وَلَا تَظْلُمُونَ فِتْيَانًا﴾، أي: ولا تنقصون شيئاً مما كتب من أجالكم. أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها. ثم ابتدا قوله: ﴿يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ والوقف على الوجه على أينما تكونوا. والبروج: الحصون. مشيدة: مرفعة. وقرئ: مشيدة، من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص، وقرأ نعيم بن ميسرة: مشيدة بكسر الباء، وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً، كما قالوا قصيدة شاعرة، وإنما الشاعر فارضها. السيئة تقع على البلية والمعصية. والحسنة على النعمة والطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَهُمْ يُرْجَعُونَ﴾ (2)، وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (3)، والمعنى: وإن تصيبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله، وإن تصيبهم بلية من قحط وشدة أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك وما كانت إلا بشؤمك، كما حكى الله عن قوم موسى: ﴿وَأَن تَصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾. وعن قوم صالح قالوا: ﴿طَائِرُنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ (4). وروي عن اليهود لعنت أنها تشامت برسول الله ﷺ، فقالوا: منذ نخل المدينة نقصت ثمارها وغلّت أسعارها، فرد الله عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح. ﴿لَا يَكُونُونَ يَفْقَهُونَ حَرْفِيًّا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨٣).

= يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع فليس من قبيل، ولا ناعب، والله الموفق، وفي الوجه الأخير الذي أبداه الزمخشري حجة واضحة، على أن القتل في المعارك والملاحم، لا يعترض على الأجل المقدر بنقص، وإن كل مقتول، فباجله مات، لا كما يزعمه القدرية، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 168.

(3) سورة هود، الآية: 114.

(4) سورة النمل، الآية: 47.

(5) سورة الشورى، الآية: 30.

(6) سورة سباء، الآية: 28.

(7) سورة الأنعام، الآية: 107.

(1) قال أحمد: أما الوجه الذي الحق به بتوجيه سيبويه في الشعرين المذكورين، ففيه نظر، أما قوله: ولا ناعب، فمختار، فإن دخول الباء في خبر، ليس أم مطرد غالب، والخبر وطن معروف لها، فإذا قدرت فيه حيث تسقط، روعي هذا التقدير في المعطوف، لما نكرناه من الغلبة، التي تقتضي إلحاق دخولها بالأصل الواجب الذي يعتبر نطق به أو سكت عنه، وأما تقدير: ﴿إَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ في معنى كلام آخر يرتفع معه قوله: ﴿يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾، فذلك تقدير لم يعهد له نظير، ولم يغلب هذا المقتر، فليتحقق بغلبة دخول الباء في الخبر، فلا يلزم من مراعاة ما يقتضيه غالب الاستعمال، ومعهوده مراعاة ما لم يسبق به عهد، وأما البيت الآخر لزهير، فالمعقول عن سيبويه حمله، أو حمل مثله على التقديم والتأخير، كقوله:

فَإِنْ قُلْتُ: أليس نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُبِينٌ﴾⁽²⁾ ﴿كَانَهَا جَانٌ﴾⁽³⁾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَافَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾⁽⁴⁾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَلِ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾⁽⁵⁾ من الاختلاف! قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين. هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال⁽⁶⁾ ولا استبطان للأمور، كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة ولو رثوا ذلك الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر منهم وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمرون منهم ﴿لَعَلَّهُمْ لَعَلَّمْتُمْ تَبِيرَ مَا أَخْبَرُوا بِهِ﴾. ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ الذين يستخرجون تبيره بظنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن وثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيزيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة، ولو رثوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كان لم يسمعوهم لعلم الذين يستنبطون تبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه. وقيل: كانوا يسمعون من أقواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً غير معلوم الصحة فيزيعونه فيعود ذلك وبالأمر على المؤمنين، ولو رثوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وقالوا: نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع، هؤلاء المنيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر، أي: يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم، يقال: أذاع السر وأذاع به. قال:

أذاع به في الناس حتى كأنه عليه نار أوقست بثقوب ويجوز أن يكون المعنى: فعلوا به الإذاعة، وهو أبلغ من أذاعوه. وقرئ: لعلمه بإسكان اللام كقوله: فإن أمجه يضجر كما ضجر بازل من الأم نبرت صفحته وغاربه والنبط: الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، وإنباطه واستنباطه إخراج واستخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يعضل ويهم. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾⁽⁷⁾ وهو إرسال الرسول وإنزال الكتاب والتوفيق ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾

يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمد الله وثناء عليه. كأنه قال: أمري وشأني حمد الله، ولو نصب حمد الله وثناء عليه كان من الفعل، والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها. ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ﴾ زورت طائفة وسوت، ﴿غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت وما أمرت به، أو خلاف ما قالت وما ضمننت من الطاعة؛ لأنهم أبطلوا الرد لا القبول والعصيان لا الطاعة وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون.

والتببيت: إما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتبديره بالليل، يقال: هذا أمر بيت لليل، وإما من أبيات الشعر لأن الشاعر يديرها ويسويها. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبت في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد، أو يكتبه في جملة ما يوحى إليك فيطلعك على أسرارهم، فلا يحسبوا أن إبطانهم يغني عنهم ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحث نفسك بالانتقام منهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم فإن الله يكفيك معرفتهم⁽¹⁾ وينتقم لك منهم إذا قوي أمر الإسلام وعز أنصاره. وقرئ: بيت طائفة، بالإدغام وتكثير الفعل، لأن تأنيث الطائفة غير حقيقي، ولأنها في معنى الفريق والفوج.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢).

تدبر الأمر: تأمله والنظر في إنباره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه. ﴿لَوْ جِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالغا حد الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيث قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتزم فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء وتناصر صحة معاني وصدق إخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره عالم بما لا يعلمه أحد سواه.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣).

(1) قوله: معرفتهم، أي: إثمهم، وبعبارة النسفي: مضرته، فحذر.

(2) سورة الأعراف، الآية: 107 وسورة الشعراء، الآية: 32.

(3) سورة النمل، الآية: 10 وسورة القصص، الآية: 31

(4) سورة الحجر، الآية: 92.

(5) سورة الرحمن، الآية: 39.

(6) قال أحمد: وفي اجتماع الهزمة والياء على التعدينية نظر؛ لأنهما متعاقبتان، وهو الذي اقتضى عند الزمخشري، قوله في الوجه الثاني: فعلوا الإذاعة، ليخرجها عن الباء المعاقبة للهزمة، ثم في هذه الآية تأنيب لمن يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذبا، وخصوصاً عن مثل السرايا، والمناصبين الأعداء، والمقيمين في

= نحر العدو، وما أعظم المفسدة في لهج العامة، بكل ما يسمعون من أخبارهم خيراً أو غيره، ولقد جربنا ذلك في زماننا هذا، منذ طرق العدو المخنول البلاد، طهرها الله من دنسه، وصانها عن رجسه ونجسه، وعجل للمسلمين الفتح، وأنزل عليهم السكينة والنصر.

(7) قال أحمد: وفي تفسير الزمخشري هذا نظر، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة، التي وليها بناء على ظاهر الإعراب، وأغفل المعنى، وذلك أنه يلزم على ذلك، جواز أن ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه، وليس الله عليه في ذلك فضل، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك، وبيان لزومه، أن لولا=

لبقيتم على الكفر. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم أو إلا اتباعاً قليلاً.

فَقَبِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِيصٌ الْوَحْيِ عَنِ اللَّهِ
أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾.

لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن أفردوك وتركوك وحك. ﴿لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإن الله هو ناصرك لا الجنود فإن شاء نصرك وحك كما ينصرك وحولك الألف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان وأعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها فكره بعض الناس أن يخرجوا. فنزلت. فخرج وما معه إلا سبعون لم يلوا على أحد ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده. وقرئ: لا تكلف بالجزم على النهي، ولا تكلف بالنون وكسر اللام، أي: لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها. ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم قريش وقد كف بأسهم، فقد بدأ لأبي سفيان وقال: هذا عام مجذب، وما كان معهم زاد إلا السويق ولا يلقون إلا عام مخضب فرجع بهم. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً.

مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَمْ يُصِيبْ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيلاً ﴿٨٥﴾.

الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وأبتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله، ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق: أنه شفع شفاعة فاهدى إليه المشفوع جارية، فغضب وردّها، وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها. وقيل:

الشفاعة الحسنة هي الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله. وعن النبي ﷺ: «من دعا أخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك»^(١). فذلك النصيب، والدعوة على المسلم بضد ذلك ﴿مَقِيَّتًا﴾ شهيداً حفيظاً. وقيل: مقتدرأ وأقَات على الشيء. قال الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن نفيت السوء عنه وكنت على إساءته مقيتاً
وقال السموال:

إلى الفضل أم علي إذا حو سبت إنني على الحساب مقيت
واشتقاقه من القوت؛ لأنه يمسك النفس ويحفظها.

وَإِذَا جُيِّمَ بِرَجِيحٍ فَحَيًّا يَأْخُذُ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾.

الأحسن منها: أن تقول: وعليكم السلام ورحمة الله. إذا قال: السلام عليكم، وأن تزيد: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. وروي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله؟ وتلا الآية. فقال: «إنك لم تترك لي فضلاً فردت عليك مثله»^(٢). ﴿أَوْ رُدُّهَا﴾ أو أجيبوها بمثلها. وردّ السلام ورجعه جوابه بمثله لأن المجيب يردّ قول المسلم ويكرره، وجواب التسليمة واجب والتخير إنما وقع بين الزيادة وتركها. وعن أبي يوسف رحمه الله: من قال لآخر: أقرئ فلاناً السلام وجب عليه أن يفعل، وعن النخعي: السلام سنة، والردّ فريضة. وعن ابن عباس: الردّ واجب، وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردّون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة، ولا يردّ السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم والأذان والإقامة. وعن أبي يوسف: لا يسلم على

= الاستثناء من الجملة الأخيرة، على تفسير الزمخشري، وما أراه إلا واهماً مسترسلاً على المألو في الإعراب، وهو إعادة الاستثناء إلى ما يليه من الجمل، مهملاً للنظر في المعنى، ومن ثم اتخذ القاضي أبو بكر رضي الله عنه، الاستثناء في هذه الآية إلى ما قبل الجملة الأخيرة فطنة منه ويقة، ولأنه إمام مؤيد في نظره، مسدّد في فكره، ثم اتخذ القاضي رضي الله عنه هذه الآية، وزره في الردّ على من زعم الجزم بعود الاستثناء المتعقب للجمل إلى الأخيرة، ظناً منه أن ذلك واجب يسوغ سواء، ثم يقف في عوده إلى ما تقدّم، خاصة وقد بينت عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيده﴾ أن الاستثناء في هذه الآية أيضاً، يتعين عوده إلى الأولى، ويتعزّز رده إلى الأخيرة؛ لأنّ المعنى إياها، وهي موازنة للقاضي في الرد على من حتم عود الاستثناء إلى الأخيرة، والله الموفق.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فصل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، الحديث (٨٦ - ٢٧٣٢).

(٢) أخرجه الطبراني والطبري.

= حرف امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان، فإذا جعل الاستثناء من الجملة الأخيرة، فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان، وعصيان الشيطان الداعي إلى الكفر، بأنفسهم لا بفضل الله، إلا ترك إذا قلت، لمن تذكره بحق عليه: لولا مساعدتي لك، لسلبت أموالك إلا قليلاً، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً في بقاء القليل للمخاطب، وإنما منت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله، لا في كله، ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم، أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان، إلا بفضل الله تعالى عليه، أمّا قواعد أهل السنة، فواضح أن كل ما يعدّ به العبد عاصياً للشيطان من إيمان وعمل وخير، مخلوق لله تعالى، وواقع بقدرته، ومنعم على العبد به، وأمّا المعتزلة، فهم وإن ظنوا أن العبد يخلق لنفسه، إيمانه، وطاعته، إلا أنهم لا يخالفون، في أن فضل الله منسحب عليه في ذلك؛ لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد، ذلك على زعمهم، ووفقه لإرادة الخير، فقد وضع لك تعذر

كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق. وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال: لو غرغرت لهواتك به ما فارقته، وقيل لكذاب: هل صدقت قط؟ فقال: لولا أنني صادق في قلبي لا لقلتها. فكان الحكيم الغني الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم منزهاً عنه كما هو منزّه عن سائر القبائح.

﴿مَا لَكُمْ فِي التَّنْذِيرِ فِتْنَةً وَأَلَلَّ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٧).

﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً؟ روي أن قوماً من المنافقين استأنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البهو معتلين باجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلةً مرحلةً حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار. وقال بعضهم: هم مسلمون، وقيل: كانوا قوماً هاجروا من مكة ثم بدا لهم فرجعوا، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنا على دينك، وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد ثم رجعوا. وقيل: هم العربيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا يساراً. وقيل: هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفرقتم فيه فرقتين، وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم. ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أي: ردهم في حكم المشركين كما كانوا. ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله ﷺ، أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه لما علم مرض قلوبهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ من جعله (٥) من جملة الضلال وحكم عليه بذلك، أو خذله حتى ضل. وقرئ: ركسهم وركسوا فيها.

﴿وَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله إِنْ تَوَلَّوْا فَذُرُّهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ زُليلاً وَلَا صَبِيحًا﴾ (٨٨).

﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على تكفرون، ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى: ودوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة

لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري من غير عذر في حمام أو غيره. وذكر الطحاوي أن المستحب رد السلام (١). قالوا: ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، ولا يسلم على أجنبية. ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر، وإذا التقيا ابتدرا. وعن أبي حنيفة: لا تجهز بالرد، يعني: الجهر الكثير. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم. أي: وعليكم ما قلتم» (٢). لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وروي: «لا تبتدئ اليهودي بالسلام» (٣) وإن بدأك فقل: وعليك». وعن الحسن: يجوز أن تقول للكافر: وعليك السلام، ولا تقل ورحمة الله فإنها استغفار. وعن الشعبي أنه قال لنصراني سلم عليه: وعليك السلام ورحمة الله. فقيل له في ذلك. فقال: ليس في رحمة الله يعيش. وقد رخص بعض العلماء في أن يبدأ أهل النمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم. وروي ذلك عن النخعي وعن أبي حنيفة: لا تبداه بسلام في كتاب ولا غيره. وعن أبي يوسف: لا تسلم عليهم ولا تصافحهم، وإذا دخلت فقل: السلام على من اتبع الهدى، ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه في دنياه. ﴿على كل شيء حسيباً﴾ أي: يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إما خبر للمبتدأ وإما اعتراض والخبر ليجمعكم، ومعناه: الله والله ليجمعكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ليجشركم إليه، والقيامة والقيام كالطالبة والطلاب وهي قيامهم من القبور، أو قيامهم للحساب، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لأنه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب، وذلك أن الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه، ووجه قبحه الذي هو كونه كذباً وإخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليجز منفعة أو يدفع مضرة، أو هو غني عنه إلا أنه يجهل غناه، أو هو جاهل بقبحه، أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالي بأيهما نطق، وربما

== بالسلام، الحديث (5626).

(4) سورة المطففين، الآية: 6.

(5) قال أحمد: هو بهذين الوجهين يفر من الحق والحقيقة، أما الحق، فلأن الله هو الذي خلق الضلال لمن ضل، إذ لا خالق إلا الله، وأما الحقيقة، فلأنها، أعني: الآية، اقتضت نسبة الأصل إلى فعل الله تعالى، فالتخيل في تحريف الفاعلية إلى التسبب، عدول عن الحقيقة إلى المجاز، وقد علمت الباعث له على هذا المعتقد، فلا نعيده.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء الحديث (337)، ومسلم في كتاب: الحيض، باب: التيمم الحديث (820)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: التيمم في الحضر الحديث (330).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: كيف الرد على أهل النمة بالسلام الحديث رقم: (6258)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام الحديث (5617).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب ==

صحيحة هي لله ورسوله لا لغرض من أغراض الدنيا مستقيمة ليس بعدها بدء ولا تعرب. ﴿فإن تولوا﴾ عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحل والحرم، وجانبوهم مجانية كلية وإن بنلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرٌ صُدُّهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ النَّسَمَ فَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (١٧).

﴿إلا الذين يصلون﴾ استثناء من قوله: ﴿فخنوهم واقتلوهم﴾، ومعنى: يصلون إلى قوم، ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبي عبيدة: هو من الانتساب، وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتمت إليه. وقيل: إن الانتساب لا أثر له في منع القتال، فقد قاتل رسول الله ﷺ بمن معه من هو من أنسابهم.

والقوم: هم المسلمون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وذلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح. ﴿أو جاءوكم﴾ لا يخلوا من أن يكون معطوفاً على صفة قوم، كأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم، أو على صلة الذين، كأنه قيل: إلا الذين يتصلون بالمعاهدين، أو الذين لا يقتلونكم، والوجه العطف على الصلة، لقوله: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقتلواكم واقتلواكم﴾، فخنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم. (١٧) فقرر أن كفهم عن القتال أحد سببي استحقاقهم لنفي التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم.

فإن قلت: كل واحد من الاتصاليين له تأثير في صحة الاستثناء واستحقاق إزالة التعرض، الاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين، لأن الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم فهلا جوزت أن يكون العطف على صفة قوم ويكون قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ تقريراً لحكم اتصالهم بالمكافين واختلاطهم بهم وجريهم على سننهم! قلت: هو جائز ولكن الأول أظهر وأجزى على أسلوب الكلام، وفي قراءة أبي: بينكم وبينهم ميثاق جاءوكم حصرت صدورهم، بغير أو، وجهه أن يكون جاءوكم بيئاً ليصلون، أو بدلاً، أو استثناءً، أو صفة بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم، في موضع الحل بإضمار قد، وللبليل عليه قراءة من قرأ: حصرة صدورهم، وحصرات صدورهم، وحصرات

صدورهم، وجعله المبرد صفة لموصوف محذوف على أو جاءوكم قوماً حصرت صدورهم. وقيل: هو بيان لجأوكم، وهم بنو مدلج، جاءوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين، والحصر الضيق والانتقباض. ﴿أن يقتلواكم﴾ عن أن يقتلواكم، أو كراهة أن يقتلواكم.

فإن قلت: كيف يجوز أن يسلم الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا لقتل الله الرعب في قلوبهم، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقنعه، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين، فذلك معنى التسليط. وقرئ: فليقتلواكم بالتخفيف والتشديد. ﴿فإن اعتزلوكم﴾ فإن لم يتعرضوا لكم، ﴿واقتلوا إليكم السلام﴾، أي: الانقياد والاستسلام. وقرئ: بسكون اللام مع فتح السين، ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ فما أنن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَجَدُونَ كَأَن يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمُرُوكُمْ وَأَمَّا قَوْمُهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى النَّبِيِّ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَتَّخِذُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَكَفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأَقْبَلُواكُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٨).

﴿سجدون آخرين﴾ هم قوم من بني أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليامنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم. ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عدو. ﴿حيث تقفتموهم﴾ حيث تمكنت منهم ﴿سلطاناً مبيناً﴾ حجة واضحة، لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والخدر، وإضرارهم بأهل الإسلام، أو تسلطاً ظاهراً حيث أننا لكم في قتلهم.

وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَمْكُدُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ مِمَّنْ لَمْ يَجِدْ نَفْسِيَّامَ شَهْرَيْنِ مُسْتَكْبِئِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٩).

﴿وما كان لمؤمن﴾ وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ (٢٠) ﴿وما يكون لنا أن نعوذ فيها﴾ (٢١). ﴿أن يقتل مؤمناً﴾ ابتداء غير قصاص، ﴿إلا خطأ﴾ إلا على وجه الخطأ.

فإن قلت: بم انتصب ﴿خطأ﴾؟ قلت: بآنه مفعول له، أي: ما ينبغي له أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده،

(1) سورة النساء، الآية: 89.

(2) سورة آل عمران، الآية: 161.

(3) سورة الاعراف، الآية: 89.

الورثة. كما قال رسول الله ﷺ: «أنا وارث من لا وارث له»⁽²⁾. وعن عمر رضي الله عنه: أنه قضى بدية المقتول فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله، فقال: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه. فقام الضحاک بن سفيان الكلابي فقال: كتب إلي رسول الله ﷺ يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم، فورثها عمر⁽³⁾، وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل. وعن شريك: لا يقضى من الدية دين ولا تنفذ وصية. وعن ربيعة: الغرة لأم الجنين وحدها وذلك خلاف قول الجماعة.

فإن قلت: على من تجب الرقبة والدية؟ قلت: على القاتل، إلا أن الرقبة في ماله، والدية تتحملها عنه العاقلة، فإن لم تكن له عاقلة، فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. **﴿إلا أن يصدقوا﴾** إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، ومعناه العفو، كقوله: **﴿إلا أن يعفون﴾**⁽⁴⁾ ونحوه: **﴿وإن تصدقوا خير لكم﴾** وعن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»⁽⁵⁾ وقرأ أي: إلا أن يتصدقوا.

فإن قلت: بم تعلق **﴿أن يصدقوا﴾** وما محله! قلت: تعلق بعليه، أو بمسلمة، كأنه قيل: وتجب عليه الدية أو يسلمها إلا حين يتصدقون عليه، ومحلهما النصب على الظرف بتقدير حنف الزمان، كقولهم: اجلس ما دام زيد جالساً، ويجوز أن يكون حالاً من أهله بمعنى إلا متصدقين. **﴿من قوم عدو لكم﴾** من قوم كفار أهل حرب، وذلك نحو: رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء لأنهم كفار محاربون، وقيل: كان الرجل يسلم ثم يأتي قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنونهم كافراً مثلهم. **﴿وإن كان من قوم﴾** كفره لهم نمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل النمة من الكتابيين، فحكمه حكم مسلم من مسلمين. **﴿فمن لم يجد﴾** رقبة بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها، **﴿ففي﴾** عليه **﴿صيام شهرين متتابعين توبة﴾** من الله قبولاً من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه.

هذه⁽⁶⁾ الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثم روي عن ابن عباس ما

ويجوز أن يكون حالاً بمعنى لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، وأن يكون صفة للمصدر إلا قتلاً خطأ، والمعنى: أن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمي كافراً فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم.

وقرئ: خطأ بالمد، وخطأ بوزن عوى بتخفيف الهمزة. وروي أن عياش بن أبي ربيعة وكان أخاً أبي جهل لأمه أسلم وهاجر خوفاً من قومه إلى المدينة وذلك قبل هجرة رسول الله ﷺ، فاقسمت أمه لا تاكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فاتياه وهو في أطم فقتل منه أبو جهل في الثروة والغارب، وقال: ليس محمد يحثك على صلة الرحم، انصرف وبر أمك وأنت على دينك، حتى نزل وذهب معها فلما فسحا عن المدينة كتفاه وجلده كل واحد مائة جلدة. فقال للحرث: هذا أخي، فمن أنت يا حارث؟ لله علي إن وجبتك خالياً أن أقتلك، وقديما به على أمه فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد، ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم. وأسلم الحرث وهاجر فلقية عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فأنحى عليه فقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فقال: قتلتك ولم أشعر بإسلامه فنزلت⁽¹⁾ **﴿فتحرير رقبة﴾** فعليه تحرير رقبة، ولتحرير الإعتاق، والحر والعتيق الكريم لأن الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد ومنه: عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها، وحر الوجه أكرم موضع منه، وقولهم للثيم: عبد. وقلان عبد الفعل، أي: لثيم الفعل. والرقبة عبارة عن النسمة، كما عبر عنها بالراس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق. والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء. وعن الحسن: لا تجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت، ولا تجزئ الصغيرة. وقاس عليها الشافعي كفارة الظهار فاشتراط الإيمان. وقيل: لما أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار. **﴿مسلمة إلى إلهه﴾** مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يقضى منها الدين وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثاً فهي لبيت المال لأن المسلمين يقومون مقام

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(1) أخرجه قولاحدي في أسباب النزول ص 97.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأب، باب: كل معروف صدقة الحديث (6021)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيل أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف الحديث (2325).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في ميراث نوي الأرحام الحديث (2899)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفرائض، باب: نوي الأرحام الحديث (2738).

(6) قال احمد: وكفى بقوله تعالى في هذه السورة إن الله لا يفرق أن يشرك به، ويفرق ما بين ذلك لمن يشاء، بليلاً أبلغ على أن القاتل الموحد، وإن لم يتب في المشيئة، وأمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء غفر له، وقد مر الكلام على الآية، وما بالعهد من قدم وأما =

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في المرأة ترث من دية زوجها الحديث (2927)، والترمذي في كتاب: الفرائض، باب: ما جاء في ميراث المرأة من دية زوجها الحديث (2110)، وأخرجه ابن ملجه في كتاب: الديات، باب: للميراث من الدية، الحديث (2642).

لا تؤمنك، وأصله أن مرداس بن نهيك رجلاً من أهل فديك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ كان عليها غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقي مرداس لثقتة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا، كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه. فآخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة. فقال: يا رسول الله استغفر لي. قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ قال أسامة: فما زال يعيدها حتى ودت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لي وقال: اعتق رقبة (6). **﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاذ فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونهم **﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةٌ﴾** يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعذر به من التعرض له لتأخذوا ماله **﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾** أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أقوامكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لالسننكم. **﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾** بالاستقامة والاشتغال بالإيمان والتقدم، وإن صرتم أعلاماً فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة، ولا تقولوا إن تهليل هذا لالتقاء القتل لا لصيق النية فتجعلهو سلماً إلى استباحة دمه وماله وقد حرّمهما الله. وقوله: **﴿فَتَبَيَّنُوا﴾** تكرير للامر بالتبين ليؤكد عليهم **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** فلا تتهاقوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك.

لَا يَسْتَوِ الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوَّ أَوَّلِي الْأَرْصِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَلَا عَدُوَّ اللَّهِ الْخَسَى وَقَضَى اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَقَرٍّ وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٦).

﴿غير أولي الضرر﴾ قرئ بالحركات الثلاث: فالرفع صفة للقاعون، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم، والجَرُّ صفة للمؤمنين. والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها. وعن زيد بن ثابت: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ أفغشيتة السكينة، فوقعت فخذة على فخذتي، حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه، فقال:

روي: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة (1). وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له. وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك بليلاً. وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم» (2). وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» (3). وفيه: «أن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه». وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله» (4). والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية أو يرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعتهم الفارغة، واتباعهم هوامهم، وما يخيّل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِا﴾** (5).

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ حَبْلًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (١٣).

ثم نكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ لما عسى يقع من نوع تقريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطعام، وأي حسم ولكن لا حياة لمن تنادي. **﴿فَأَنْ قُلْتُ﴾** هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر! قلت: ما أبين الليل وهو تناول قوله: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ﴾** أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليات بليل مثله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَاسَؤُوا إِذَا صَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيِّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلَفَ إِلَيْكُمْ ءَلَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانُكُمْ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٤).

﴿فتبينوا﴾ وقرئ: فتثبتوا، وهما من التفعّل بمعنى الاستفعال، أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تنهوكوا فيه من غير روية. وقرئ: السلم والسلام، وهما الاستسلام. وقيل: الإسلام. وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام. **﴿لست مؤمناً﴾**. وقرئ: مؤمناً بفتح الميم من آمنه، أي:

= نسبة أهل السنة إلى الشعبية، فذلك لا يضيرهم؛ لأنهم إنما تطلّوا على لطف أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ولم يقنطوا من رحمة الله إنه لا يقنط من رحمة الله، إلا القوم الظالمون.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الفرقان، باب: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر» الحديث رقم: (4764)، وأخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: الحديث (7461).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الديات، باب: في تشديد قتل المؤمن الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم الحديث (3998)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم

= (3) قال الزيلعي غريب جداً 346/1.

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل المسلم ظلماً الحديث (2620).

(5) سورة محمد، الآية: 24.

(6) الطبري في تفسيره.

التي هي درجات مقدمة عليها، وانتصب مغفرةً ورحمةً بإضمار فعلهما؛ بمعنى: وغفر لهم ورحمهم مغفرةً ورحمةً.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَارَئَهُمْ جَهَنَّمَ رِسَالَتٌ مِيسِرًا ﴿١٧﴾.

﴿توفاهم﴾ يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ توفتهم، ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم. كقراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت، بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظالمهم﴾ في حال ظلمهم أنفسهم. ﴿قَالُوا﴾ قال الملائكة للمتوفين، ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم، وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة.

فإن قلت: كيف صح وقوع قوله: ﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾ جواباً عن قولهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم تكن في شيء؟ قلت: معنى فِيمَ كنتم التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا. فقالوا: كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به واعتلالاً بالاستضعاف، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء فيكنتم الملائكة بقولهم: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ أرأوا أنكم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة، وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأنوم على العبادة حقت عليه الهجرة، وعن النبي ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة». «وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام» (4). اللهم إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بديني، فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك بعكوفي عند بيتك بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة.

إِلَّا السَّعْيَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾.

ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلةً في الخروج لفقركم وعجزهم ولا معرفة

«الكتب» فكتبت في كتف ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين﴾ فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى: يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فغشيتة السكينة كذلك، ثم قال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾. قال زيد: أنزلها الله وحدها فالحققتها، والذي نفسي بيده لكأنني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكتف (1). وعن ابن عباس: لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون إليها. وعن مقاتل: إلى تبوك.

فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد، لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإنكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد ليانف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (2)، أريد به التحريك من حمية الجاهل وانفته ليهاب به إلى التعلم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل: إن لي شرف العلم. ﴿فضل الله المجاهدين﴾ جملة موضحة لما نفي من استواء القاعدين والمجاهدين. كأنه قيل: ما لهم لا يستوون؟ فأجيب بذلك. والمعنى: على القاعدين غير أولي الضرر، لكون الجملة بياناً للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف. ﴿وكلا﴾ وكل فريق من القاعدين والمجاهدين. ﴿وعد الله الحسنی﴾ أي: المثوبة الحسنی وهي الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة. وعن النبي ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» (3). وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوي إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره.

فإن قلت: قد ذكر الله تعالى مفضلين درجةً ومفضلين درجات فمن هم؟ قلت: أما المفضلون درجةً واحدةً فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضرأ، وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أنن لهم في التخلف اكتفاءً بغيرهم لأن الغزو فرض كفاية.

فإن قلت: لم نصب ﴿درجةً﴾ و﴿أجرًا﴾ و﴿درجاتٍ﴾؟ قلت: نصب قوله: درجةً لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: فضلهم تفضيلاً واحدةً، ونظيره قولك: ضربه سوطاً، بمعنى: ضربه ضربةً. وأما أجراءً فقد انتصب بفضل لأنه في معنى أجرهم أجراءً. ودرجاتٍ ومغفرةً ورحمةً بدل من أجر، أو يجوز أن ينتصب درجاتٍ نصب درجة كما تقول: ضربه أسواطاً، بمعنى ضرباتٍ. كأنه قيل: وفضله تفضيلاتٍ، ونصب أجراءً عظيماً على أنه حال عن النكرة

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: (81) الحديث (4423)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الرخصة في القعود من العذر الحديث (2508).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النساء، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله الحديث (4592)، وأحمد في المسند 191/5، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الرخصة في القعود من العذر الحديث (2507).

(2) سورة الزمر، الآية: 9.

فَأَنْ قُلْتُ⁽²⁾ كيف أدخل الولدان في جملة المستثنين من أهل الوعيد كأنهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء لو استطاعوا حيلةً واهتدوا سبيلاً! قُلْتُ: الرجال والنساء قد يكونون مستطيعين مهتدين وقد لا يكونون كذلك، وإما الولدان فلا يكونون إلا عاجزين عن ذلك فلا يتوجه عليهم وعيد لأن سبب خروج الرجال والنساء من جملة أهل الوعيد إنما هو كونهم عاجزين، فإذا كان العجز متمكناً في الولدان لا ينفكون عنه كانوا خارجين من جملتهم ضرورة. هذا إذا أريد بالولدان الأطفال، ويجوز أن يراد المراهقون منهم الذين عقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقوا بهم في التكليف وإن أريد بهم العبيد والإماء البالغون فلا سؤال.

فَأَنْ قُلْتُ: الجملة التي هي ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ما موقعها؟ قُلْتُ: هي صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان، وإنما جاز ذلك والجمال نكرات لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس لشيء يعينه كقوله: ولقد أمر على اللثيم يسبني

فَأَتَاكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَوَّادًا غَوَّارًا⁽³⁾.

فَأَنْ قُلْتُ: لم قيل: ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ بكلمة الإطماع؟ قُلْتُ: للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه حتى أن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عني فكيف بغيره.

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ رَفَعَ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَوَّارًا رَحِيمًا⁽⁴⁾.

﴿مرغماً﴾ مهاجراً وطريقاً يراغم بسلوكه قومه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم.

طَائِفَةٌ أُخْرِجَتْ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيُخْلَعُوا جُذُرَهُمْ
وَأَسْلِحَتْهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُوا عَنْ آسِلِحَتِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ
يَسِيرُونَ عَلَيْكُمْ مَنَافَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى
مِنْ مَلْطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا جُذُرَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ أََعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١١٧).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ يتعلق بظاهره
من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله ﷺ حيث شرط
كونه فيهم. وقال: من رآها بعده: إن الأئمة نواب عن
رسول الله ﷺ في كل عصر، قولهم بما كان يقوم به. فكان
الخطاب له متناولاً لكل إمام يكون حاضر الجماعة في حال
الخوف عليه أن يؤمهم، كما أم رسول الله ﷺ للجماعات
التي كان يحضرها، والضمير في فيهم للخاصين. ﴿فَلْتَقُمْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك
فصل بهم، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (٧) الضمير إما
للمصلين وإما لغيرهم، فإن كان للمصلين فقالوا: يأخذون
من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيوف والخناجر
وتحوها، وإن كان لغيرهم فلا كلام فيه. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا
فَلْيَكُونُوا﴾ (٨) يعني غير المصلين ﴿مَنْ وَرَائِكُمْ﴾
بحرسونكم، وصفة صلاة الخوف عند أبي حنيفة أن يصلي
الإمام بإحدى الطائفتين ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين،
والأخرى بإزاء العدو ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو
وتأتي الأخرى فيصلّي بها ركعةً ويتم صلاته ثم تقف
بإزاء العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة ويتم
صلاتها ثم تحرس، وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة
وتتم صلاتها، والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة، وعند

الإمام أفضل، وإلى التخيير، ذهب الشافعي، وروي عن
النبي ﷺ: أنه أتم في السفر (١). وعن عائشة رضي الله
عنها. اعتمدت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى
إذا قعمت مكة قلت: يا رسول الله ﷺ بابي أنت وأمي
قصرت وأتممت وصمت وأطرت، فقال: «لحسن يا عائشة.
وما عاب علي» (٢). وكان عثمان رضي الله عنه يتم
ويقصر (٣). وعند أبي حنيفة رحمه الله: القصر في السفر
عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره. وعن عمر رضي الله
عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان
نبيكم (٤). وعن عائشة رضي الله عنها: أول ما فرضت
الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت
في الحضر (٥).

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن
تقصروا﴾؟ قلت: كأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن
يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر فنفي عنهم
الجناح لطيب أنفسهم بالقصر وطمئنوناً إليه. وقرئ:
تقصروا من أقصر، وجاء في الحديث: أنصار الخطبة،
بمعنى تقصيرها (٦). وقرأ الزهري: تقصروا بالتشديد.
والقصر ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصة وهو
قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وإما في حال
الأمن فبالسنة، وفي قراءة عبد الله: من الصلاة أن يفتنكم،
ليس فيها إن خفتهم، على أنه مفعول له بمعنى كراهة أن
يفتنكم، والمراد بالفتنه القتال والتعرض بما يكره.

وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ
وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ

= وتنبههم عليه، وهم إما أخروا الصلاة لذلك أمّا المصلون، فهم في
مظنة طرح الأسلحة: لأنهم لم يتناولوا حملها في الصلاة، فنبهوا
على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة، وإن كانوا في الصلاة
لضرورة الخوف، وخشية الفتنة، وأيضاً فصنيع الآية يعطي ذلك؛
لأنه قال: فلتنقم طائفة منهم معك، وعقب ذلك بقوله وليأخذوا
أسلحتهم، فالظاهر رجوع الضمير إليهم، وحيث يعاد إلى غير
المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة المعود إليهم، بدلالة قوة
الكلام عليهم، وإن لم ينكروا.

(٨) قال أحمد: والظاهر أن معنى السجود هنا، الصلاة وقد عبر عنها
بالسجود كثيراً، والمراد: فإذا صلت الطائفة، أي: أتممت صلاتها،
فليكونوا من ورائكم، وفيه دليل لمشهور مذهب مالك من أن
الطائفة الأولى، تتم صلاتها، والإمام ينتظر للطائفة الأخرى،
وقوله: ولتأت طائفة أخرى يعني إذا أتممت الأولى صلاتها، ووقفت
من ورائكم، فتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل بعد شيئاً،
فليصلوا معك وفيه دليل بين أيضاً، لأحد القولين في مذهب مالك
من أن الإمام ينتظر الثانية، حتى تتم صلاتها ويسلم بهم؛ لأن
ظاهر المعية المطلقة يوجب ذلك، إذ لو كانوا يقضون بعد سلامه،
لم يكونوا مصلين معه على الإطلاق، والله أعلم. فهذه الآية منطقية
على أكثر مشهور مذهبه في تفصيل صلاة الخوف، والله الموفق
للصواب.

(١) كشف الاستار، كتاب: الصلاة، باب: الإتمام في السفر الحديث
(682)، والدارقطني في كتاب: الصيام، باب: القليلة للصائم الحديث
(44).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: التقصير، باب: المقام الذي يقصر بمثل
الصلاة، الحديث (1451).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: الصلاة
بمنى الحديث (1082)، وعن عبد الرحمن الحديث (1084)، وأخرجه
مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: قصر الصلاة
بمنى الحديث رقم: (1588) وحديث عبد الرحمن أخرجه، الحديث
(1594).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: تقصير الصلاة بالسفر الحديث
(1439)، وأخرجه ابن ملج في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها
الحديث (1063)، والطريق الثاني أخرجه في الحديث (1064).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: يقصر
إذا خرج من موضعه الحديث (1090)، ومسلم في كتاب: صلاة
المسافرين، باب: صلاة المسافرين وقصرها الحديث (1570).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إقصار الخطب، الحديث
(1106)، والحاكم في المستدرک 1/289، وابن حبان في كتاب:
الصلاة، باب: صلاة الخوف الحديث (2882).

(٧) قال أحمد: والظاهر أن المخاطب يأخذ الأسلحة المصلون، إذ من
لم يصل إنما أمّد للحرس، فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك، =

بذكر الله ودعائه واللجأ إليه. ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ فإذا أقمتُم، فاقبموا الصلاة فأنتموها.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْلِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمَنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ كَمَا تَأْمَنُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٤)

﴿ولا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا ﴿في ابتغاء القوم﴾ في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمَنُونَ﴾ أي: ليس ما تكابون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى منهم بالصبر، لأنكم تترجون من الله ما لا يرجون ﴿من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب العظيم في الآخرة. وقرأ الأعرج: ان تكونوا تأمنون بفتح الهزة، بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تأمنون. وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْمَنُونَ كَمَا تَأْمَنُونَ﴾ تعليل. وقرئ: فإنهم يئلمون كما تئلمون وروي: أن هذا في بدر الصغرى كان بهم جراح فتواكلوا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يكلفكم شيئاً ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْمُفْسِدِينَ وَصِيماً (١٥)

روي: أن طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جابر له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخباها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فآخذوها. فقال: دفعها إلي طعمة. وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك واقتضح وبرئ اليهودي. فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي، وقيل: هم أن يقطع يده فنزلت (١٤). وروي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله. ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرفك وأوحى به إليك. وعن عمر رضي الله عنه: لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً لأن الله كان يريه إياه وهو منا الظن والتكلف. ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ولا تكن لأجل الخائنين مخلصاً للبراء، يعني: لا تخاصم

مالك بمعنى الصلاة، لأن الإمام يصلي عنده بطائفة ركعة ويقف قائماً حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب، ثم يصلي بالثانية ركعة ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها ويسلم بهم، ويعضده. ﴿ولتات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾. وقرئ: وأمتاعتكم.

فَإِنْ قُلْتَ (١): كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ؟ قلت: جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ وجعل مأخوذتين، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ (٢) جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبواً لتمكنهم فيه، فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوؤ. ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة، ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهم عليهم العدو.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف طابق الأمر بالحذر قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾؟ قلت: الأمر بالحذر من العدو يوم توقع غلبته واعتزازه، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم: أن الله يهين عدوهم ويخنله وينصرهم عليه، لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لنلك وإنما هو تعبد من الله. كما قال: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (٣).

وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيكُمْ وَاعْبُدُوهُ وَعَلَىٰ جُوبِئِكُمْ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٦)

﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال، ﴿فادكروا الله﴾ فصلوها ﴿قياماً﴾ مسايقين ومقارعين، ﴿ووقعوا﴾ جاثين على الركب مرامين، ﴿وعلى جنوبكم﴾ متخنيين بالجراح. ﴿فإذا أطمأننتم﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم ﴿فاقيموا الصلاة﴾ فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ محبوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كنتم خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حال المسايقة والمشى والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها، فإذا أطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن، وقيل: معناه فإذا قضيت صلاة الخوف فاقبموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاع، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير

(3) سورة البقرة، الآية: 195.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث (3036).

(1) قال أحمد: وحسن هذا المجاز وبلغ به نزوة الفصاحة، عطف الحقيقة عليه.

(2) سورة الحشر، الآية: 9.

اليهود لأجل بني ظفر.

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفْوَكَ رَحِيمًا (١٦).

﴿وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ مما هممت به من عقاب اليهودي.

وَلَا تُجْدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَلِيمًا (١٧).

﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية، كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (١). جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلماً لها لأن الضرر راجع إليهم.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل للخائنين: ويختانون أنفسهم، وكان السارق طعمة وحده؟ قلت: لوجهين: أحدهما أَنَّ بني ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم. والثاني أَنَّهُ جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانة، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل: ﴿خَوَانًا أَلِيمًا﴾ على المبالغة قلت: كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المأثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أَنَّ لها أخوات. وعن عمر رضي الله عنه: أَنَّهُ أمر بقطع يد سارق، فجاءته أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت إِنَّ اللَّهَ لَا يُوَاخِذُ عَبْدَهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ مُحِيطًا (١٨).

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياةً منهم وخوفاً من ضررهم. ﴿وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خاف من سرهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أَنَّهُمْ في حضرته لا ستر ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح. ﴿يُبَيِّنُونَ﴾ يبررون ويذودون، وأصله أن يكون بالليل ﴿مَا لَا يَرَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تبدير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد ليسرق لونه ويحلف ببراءته.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف سمي التبدير قولاً وإنما هو معنى في النفس! قلت: لما حدث بذلك نفسه سمي قولاً على المجاز، ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته، وتوريبه الذنب على اليهودي.

هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجْدِلْ اللَّهَ عَنْهُمْ يُوزَعْ أَمْ هُمْ لَيْسُوا بِعَالِمِينَ (١٩).

﴿هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ ها للتبني في أنتم وأولاء وهما مبتدا وخبر. و﴿جَدَلْتُمْ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً، كما

تقول لبعض الأسخياء أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك، ويجوز أن يكون أولاء اسماً موصولاً بمعنى: الذين، وجادلتم صلتة. والمعنى: هبوا أنكم خاضتم عن طعمة وقومه في الدنيا فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرأ عبد الله: عنه، أي: عن طعمة. و﴿وَكَيْلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله وانتقامه.

وَمَنْ يَمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفْوَكَ رَحِيمًا (٢٠).

﴿وَمَنْ يَمَلْ سُوْءًا﴾ قبيحاً متعلياً يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب، وقيل: ومن يعمل سوءاً من ذنب دون الشرك أو يظلم نفسه بالشرك، وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة مع العلم بما يكون منه أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذنب عنه.

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢١).

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، أي: لا يتعداه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ أَحْمَلْ مَثَلًا وَإِنَّمَا بُنِيَ (٢٢).

﴿خَطِيئَةً﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا﴾ كما رمى طعمة زيدا ﴿فَقَدْ أَحْمَلْ مَثَلًا وَإِنَّمَا﴾ لأنه بكسب الإثم آثم وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: ومن يكسب بكسر الكاف والسين المشددة، وأصله يكتسب.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمَكَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (٢٣).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: عصمته والطفه وما أوحى إليك من الإطلاع على سرهم ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من بني ظفر ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل مع علمهم بأنَّ الجاني هو صاحبهم. فقد روي أن ناساً منهم كانوا يعلمون كنه القصة ﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنَّ وباله عليهم، ﴿وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنَّك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أنَّ الحقيقة على خلاف ذلك، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور وضمائر القلوب، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير في منهم إلى الناس. وقيل: الآية في

المنافقين.

وقيل: هي في طعمة وارتداده وخروجه إلى مكة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٧).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ تكرير للتأكيد. وقيل:
كرد لقصة طعمة، وروي: أنه مات مشركاً. وقيل: جاء شيخ
من العرب إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني شيخ منهمك في
الذنوب إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وأمنت به،
ولم آخذ من لونه ولية، ولم أوقع للمعاصي جرأة على الله
ولا مكبرة له، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً،
وأنني لنأثم نائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله؟
فنزلت (١٨). وهذا الحديث ينصر قول من فسر من يشاء
بالتائب من ذنبه.

إِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُوا إِلَّا سَعْيُكَ
مَرِيدًا (١٧).

﴿إلا إننا﴾ هي اللات والعزى ومناة. وعن الحسن: لم
يكن حي من إحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه
أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هن
بنات الله. وقيل: المراد الملائكة، لقولهم: الملائكة بنات الله.
وقرئ: أنثى جمع أنثى أو أنثى، ووثنا وأنثا بالتخفيف
والتثقيب جمع وثن، كقولك: أسد وأسد وأسد، وقلب الواو
لفاً نحو أجوه في وجوه. وقرأت عائشة رضي الله عنها:
لوثناً. ﴿وإن يدعون﴾ وإن يعبدون بعبادة الأصنام ﴿إلا
شيطاناً﴾ لأنه هو الذي اغرامهم على عبادتها فاطاعوه
فجعلت طاعتهم له عبادة.

لَعْنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا (١٨).

﴿لعنه الله وقال لاتخذن﴾ صفتان، بمعنى شيطاناً
مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿نصيباً
مفروضاً﴾ مقطوعاً واجباً فرضته لنفسه من قولهم: فرض
له في العطاء وقرض الجند رزقه. قال الحسن: من كل ألف
تسعمائة وتسعين إلى النار.

وَالْأَشْهُمَ فَلْيُعْزِزْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١٩) يَدْعُهُمْ وَيُعْزِمُهُمْ
وَمَا يَدْعُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٢٠) أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا
يُخْرَجُونَ عَنْهَا حَبِصًا (٢١).

﴿ولامنيهم﴾ (٢٤) الاماني الباطلة من طول الأعمار،

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ
مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّبِعْنَا مَرْغَبَاتِ
اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٧).﴾

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ من تناجي الناس.
﴿إلا من أمر بصدقة﴾ إلا: نجوى من أمر، على أنه
مجرور بدل من كثير، كما تقول لا خير في قيامهم إلا قيلم
زيد، ويجوز أن يكون منصوباً على الانقطاع، بمعنى: ولكن
من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. وقيل: المعروف للقرض،
وقيل: إغلة الملهوف. وقيل: هو عام في كل جميل، ويجوز
أن يراد بالصدقة الواجب والمعروف ما يتصدق به على
سبيل التطوع. وعن النبي ﷺ: كلام ابن آدم كله عليه
لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو
ذكر الله (١). وسمع سفيان رجلاً يقول: ما أشد هذا
للحديث. فقال: ألم تسمع الله يقول: ﴿لا خير في كثير من
نجواهم﴾ فهو هذا بعينه، أو ما سمعته يقول: ﴿والعصر *
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ (٢) فهو هذا بعينه. وشرط في
استيجاب الأجر العظيم أن ينوي فاعل الخير عبادة الله
وللتقرب به إليه وأن يبتغي به وجهه خالصاً لأن الأعمال
بالتنيات.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف قال ﴿إلا من أمر﴾، ثم قال: ﴿ومن
يفعل ذلك؟ قلت: قد نكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله
لأنه إذا نحل الأمر به في زمرة الخيرين كل الفاعل فيهم
أشغل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فنكر الفاعل وقرن به
للوعد بالأجر العظيم، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبر
عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال. وقرئ:
يؤتيه بالياء.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١٥).

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وهو السبيل الذي هم
عليه من الدين الحنيفي القيم، وهو دليل على أن الإجماع
حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب
والسنة؛ لأن الله عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير
المؤمنين وبين مشاقة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه
الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كمواالة الرسول عليه
الصلاة والسلام. قوله: ﴿توليه ما تولى﴾ نجعله والياً لما
تولى من الضلال بأن نخنله ونخلي بينه وبين ما اختاره.
﴿ونصله جهنم﴾ وقرئ: ونصله بفتح النون، من صلاة.

(١) قال أحمد: هو تعريض بأهل السنة الذين يعتقدون، أن الموحدين
الكثير، غير التائب أمره يرجأ إلى الله تعالى، والعفو عنه موكول
إلى مشيئته، إيماناً وتصديقاً بقوله في الآية المعتمدة في هذا،
أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والمعجب
أن هذه الآية تكررت في هذه السورة مرتين، على أن =

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: (62) منه الحديث (2412)،
وأخرجه ابن ملج في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة
الحديث (3974)، والحكم في المستترك 2/513.

(2) سورة العصر، الأيتان: 1 - 2.

(3) نكره القرطبي في تفسيره (385/5).

وبلوغ الآمال، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاععة ونحو ذلك.

وتبتيكهم الآن: فلعلم بالبحر، كانوا يشقون أنن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس نكراً، وجرموا على أنفسهم الانتفاع بها.

وتغييرهم خلق الله: فقء عين الحامي وإعفاؤه عن الركوب. وقيل: الخصاء، وهو في قول عامة العلماء مباح في البهائم، وأما في بني آدم فمحظور. وعند أبي حنيفة: يكره شراء الخصيان وإمساكهم واستخدامهم؛ لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. وقيل: فطرة الله التي هي دين الإسلام. وقيل للحسن: إن عكرمة يقول هو الخصاء. فقال: كذب عكرمة، هو دين الله. وعن ابن مسعود: هو الوشم، وعنه: لعن الله الواشرات والمتمنصات والمستوشمات المغيرات خلق الله⁽¹⁾. وقيل: التخنث.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَنِيهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا⁽²⁾.

«وعد الله حقاً» مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره. «ومن أصدق من الله قيبلاً» تأكيد ثالث بليغ. فإن قلت: ما فائدة هذه التوكيدات؟ قلت: معارضة مواعيد الشيطان للكتابة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعده الله الصالح لأوليائه، ترغيباً للعباد في إثبات ما يستحقون به تنجز وعد الله على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف. مواعيد الشيطان.

لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا آمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يُصِيرَ⁽³⁾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيهَا⁽⁴⁾.

في «ليس» ضمير وعد الله، أي: ليس يقال ما وعد الله من الثواب «بإيمانكم ولا» ب «إيماني أهل الكتاب» والخطاب للمسلمين؛ لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به، وكذلك نكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعده الله. وعن مسروق والسدي: هي في المسلمين. وعن

الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. إن قوماً ألهمهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له. وقيل: إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابتنا قبل كتابكم. وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابتنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فنزلت. ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً لأوتيتن ما لا ولداً إن لي عنده للحسنى. وكان أهل الكتاب يقولون: نحن أبناء الله وأحباءه لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، ويعضده تقدم ذكر أهل الشرك قبله. وعن مجاهد: إن الخطاب للمشركين. قوله: «من يعمل سوءاً يجز به»، وقوله: «ومن يعمل من الصالحات»، بعد نكر تمنى أهل الكتاب، نحو من قوله: «يولى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته»⁽²⁾. وقوله: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات»⁽³⁾ عقيب قوله: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»⁽⁴⁾ وإذا بطل الله الأمانى وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل وأن من أصلح عمله فهو الفائز، ومن أساء عمله فهو الهالك. تبين الأمر ووضح ووجب قطع الأمانى وحسم المطامع والإقبال على العمل الصالح، ولكنه نصح لا تعيه الأذان ولا تلقى إليه الأذهان.

فإن قلت: ما الفرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، أراد ومن يعمل بعض الصالحات لأن كلاً لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكمن من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكمن من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، والثانية لتبيين الإبهام في من يعمل.

فإن قلت⁽⁵⁾: كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلم في ذلك؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون الراجع في ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً.

(3) سورة البقرة، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 80.

(5) مدار هذا التطويل بالسؤال والجواب، على بث المعتقد الفلسفي، في أن الله تعالى يجب عليه أن يثبت على الطاعات، وأن الثواب منقسم إلى واجب، ليس بفضل، وإلى زيادة على الواجب، وهي الفضل خاصة، وهذا المعتقد هو الذي يصدق عليه أن الشيطان مناه للقدرية، حتى زعموا أن لهم على الله واجباً، تعالى الله عن ذلك، إن الله لغني عن عمل يوجب عليه حقاً، جل الله وعز لقد نفخ الشيطان بهذه الأمانة في آذان القدرية، اللهم لا عمدة لنا إلا فضلك، فاجزل نصيبنا منه يا كريم.

= الزمخشري، وهو مع ذلك يتصام عنها، ويجعل العقيدة المتلقاة منها من جملة الأمانى الشيطانية، نعوذ بالله من إرسال الرسن في اتباع الهوى، وكذلك أيضاً عرض بأهل السنة في اعتقادهم، صنق الوعد الصالح بالشفاعة المحمية، وعد ذلك أيضاً أمانة شيطانية، وما أرى من جحد الشفاععة ينالها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد مكر بهذا الفاضل، فلا يامن بعده عاقل «إله لا يامن مكر الله، إلا القوم الخاسرون».

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الحشر، باب: «وما أتاكم الرسول فخذوه» للحديث (4886)، ومسلم في كتاب: البلباس، باب: «تحريم فعل الواصلة الحديث (5538).

(2) سورة البقرة، الآية: 81.

السماوات والأرض فطاعته واجبة عليهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ فكان عالماً بأعمالهم فمجازيهم على خيرها وشرها، فعليهم أن يختاروا لأنفسهم ما هو أصلح لها.

وَرَسَّوْنَكُمْ فِي الْإِسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَنْصِبُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْإِسَاءِ الَّتِي لَا تُوَفُّنَّهَا مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكُحْنَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لَيْسَ بَالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَرٍْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا (١٧٧).

﴿ما يتلى﴾ في محل الرفع، أي: الله يفتيكم والمتلو ﴿في الكتاب﴾ في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿وَلَنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ (2) وهو من قوله: أعجبني زيد وكرمه، ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره على أنها جملة معترضة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيماً للمتلو عليهم وأن العدل والنصفة في حقوق اليتامى من عظام الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله، ونحوه في تعظيم القرآن ﴿ولأنه في أم الكتاب لبينا لعلي حكيم﴾ (3). ويجوز أن يكون مجروراً على القسم كأنه قيل: قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضاً لمعنى التعظيم وليس بسيد أن يعطف على المجرور في فيهن لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى.

فَإِنْ قُلْتَ: بم تعلق قوله في: ﴿يتامى النساء؟﴾ قلت: في الوجه الأول هو صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناه، ويجوز أن يكون في يتامى النساء بدلاً من فيهن، وأما في الوجهين الآخرين فبدل لا غير.

فَإِنْ قُلْتَ: الإضافة في يتامى النساء ما هي؟ قلت: إضافة بمعنى من كقولك: عندي سحق عمامة. وقرئ: في يتامى النساء بيايين على قلب همزة أيامى ياء. ﴿لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وقرئ: ما كتب الله لهن، أي: ما فرض لهن من الميراث، وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه وماله، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال، وإن كانت دميعة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها. ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكُحُوهُنَّ﴾ يحتمل في أن تنكحوهن لجمالهن، وعن أن تنكحوهن لِمَماتهن. وروي: أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ وَلِي الْيَتِيمَةَ نَظَرَ فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً غَنِيَةً قَالَ: زَوَّجَهَا غَيْرِكُ، وَالتَّمَسَّ لَهَا مِنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيعةً وَلَا مَالَ لَهَا قَالَ: زَوَّجَهَا فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا (4). ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ مجرور معطوف على يتامى النساء، وكانوا في الجاهلية إمّا يورثون الرجال القوام بالأمور دون الأطفال والنساء، ويجوز أن يكون خطاباً للأوصياء، كقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ (5)

والثاني: أن يكون نكره عند أحد الفريقين دالاً على نكره عند الآخر، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأن ظلم المسيء أن يزداد في عقابه وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزداد في عقاب المجرم، فكان نكره مستغنى عنه. وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب، فكان نفي الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل.

وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٧٨).

﴿أسلم وجهه لله﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه. ﴿وهو محسن﴾ وهو عامل للחסنات تارك للسيئات. ﴿حنيفاً﴾ حال من المتبع أو من إبراهيم، كقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾ وما كان من المشركين (1) وهو الذي تحنف، أي: مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ مجاز عن اصطفاؤه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

والخليل: المخال وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلاك أو يسارك في طريقك، من الخل وهو: الطريق في الرمل، أو يسدّ خللك كما تشدّ خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك.

فَإِنْ قُلْتَ: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كنحو ما يجيء في الشعر من قولهم: والحوادث جمة، فأنبتها تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته، ولو جعلتها معطوفة، على الجملة قبلها لم يكن لها معنى، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه، فقال خليله: لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت، ولكنه يريد لها لأضياف. فاجتاز غلماؤه ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياة من الناس، فلما أخبروا إبراهيم عليه السلام ساءه الخبر فحملته عيناه، وعمدت امرأته إلى غرارة منها فأخرجت أحسن حوارى واختبرت، واستنبه إبراهيم عليه السلام فاشتد رائحة الخبز، فقال: من أين لكم؟ فقالت امرأته: من خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل، فسماه الله خليلاً.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٧٩).

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ متصل بنكر العمال الصالحين والطالحين، ومعناه: أن له ملك أهل

(4) لم أجده، كما قال ابن حجر، ولم يخرج الزيلعي.

(5) سورة النساء، الآية: 2.

(1) سورة البقرة، الآية: 135.

(2) سورة النساء، الآية: 3.

(3) سورة الزخرف، الآية: 4.

غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاةً لحق الصحبة. **﴿وتتقوا﴾** النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة **﴿فإن الله كان بما تعملون﴾** من الإحسان والتقوى **﴿خبيراً﴾** وهو يثيبكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من آدم بني آدم وامراته من أجملهم، فجالت في وجهه نظرها يوماً، ثم تابعت الحمد لله. فقال ملك: قالت: حمدت الله على أنني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ قال: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت. وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين⁽²⁾.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَبِيلُوا
كُلَّ الْمَلِئِ فَتَذَرُوهَا كَالْمَلْفَةِ وَإِنْ شُبِّحُوا وَتَقْتُلُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٣٨).

﴿ولن تستطيعوا﴾ ومحال أن تستطيعوا العدل **﴿بين النساء﴾** والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم وطاقتكم لأن تكليف ما لا يستطاع داخل في حد الظلم **﴿وما ريك بظلام للعبيد﴾**. وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وعن النبي ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك. يعني: المحبة»⁽³⁾، لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحب إليه، وقيل: إن العدل بينهما أمر صعب بالغ من الصعوبة حداً يوهم أنه غير مستطاع، لأنه يجب أن يسوي بينهما في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمالحة والمفاكة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتي من ورائه، فهو كالخارج من حد الاستطاعة، هذا إذا كن محبوبات كلهن، فكيف إذا مال القلب مع بعضهن. **﴿فلا تميلوا كل الميل﴾** فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضی منها. يعني: أن اجتنب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله، وفيه ضرب من التوبيخ. **﴿فتذروها كالمعلقة﴾** وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة. قال:

هل هي لحظة أو تطليق أو صلف أو بين ذاك تعليل

وفي قراءة أبي: فتذروها كالمسجونة. وفي الحديث: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداها جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»⁽⁴⁾. وروي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله ﷺ بقال. فقالت عائشة رضي الله

﴿وأن تقوموا﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى يفتيكهم في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا، ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: ويامركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ولا يخلوا أحداً يهتضمهم.

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَیْلِهَا نُشُوراً أَوْ إِعْرَاصاً فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهَا أَنْ یُصْلِحَا بَیْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْزِرْتُ الْأَنْفُسُ الشَّعْ وَإِنْ شَحِصُوا وَتَقْتُلُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِراً (١٣٩).

﴿خافت من بعلها﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأماراته.

والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقتها والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة وأن يؤذيها بسب أو ضرب.

والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن أو دمامة أو شيء في خلق أو خلق أو ملال أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك، فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما. وقرئ: يصلحا ويصلحا بمعنى يتصالحا ويصطلحا، ونحو أصلح أصبر في اصطبر. **﴿صلحاً﴾** في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة، ومعنى الصلح أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقتها رسول الله ﷺ، وعرفت مكان عائشة من قلبه فوهبت لها يومها⁽¹⁾. وكما روي: أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي، وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها، أو تهب له بعض المهر أو كله أو النفقة، فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها. **﴿والصلح خير﴾** من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة، أو هو خير من الخصومة في كل شيء، أو الصلح خير من الخيور كما أن الخصومة شر من الشرور، وهذه الجملة اعتراض، وكذلك قوله: **﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾** ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها. **﴿وإن تحسنوا﴾** بالإقامة على نساكنكم، وإن كرهتموهن وأحببت

= التسوية بين الضرائر الحديث (1140)، والنسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه الحديث (3953)، وأخرجه ابن ماجه في السنن في كتاب: النكاح، باب: القسمة بين النساء الحديث (1971)، والحاكم في المستدرک 187/2.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2133)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في =

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 60/2 وفي الصحيحين، البخاري في كتاب: النكاح، باب: المرأة تهب يومها... الحديث (5212)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها الحديث (37 - 1463).

(2) لم أجده، ولم يخرجہ الزیلعی. 363/1.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2134)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في =

إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ أَتَمَّ النَّاسِ وَيَأْتِ بِأَخْرَجَ كَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ
قَوِيًّا (١٢٢).

﴿إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ﴾ يفنكم ويعلمكم كما أوجنكم
وأنشاكم، ﴿وَيَأْتِ بِأَخْرَجَ﴾ ويوجد إنسا آخرين مكانكم،
أو خلقاً آخرين غير الإنس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ من
الإعدام والإيجاد ﴿قَوِيًّا﴾ بليغ القدرة، لا يمتنع عليه شيء
أراد، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره. وقيل:
هو خطاب لمن كان يعادي رسول الله ﷺ من العرب، أي:
لَنْ يَشَأْ يَمْنَحَكُمْ وَيَأْتِ بِإِنْسَ آخَرِينَ يُوَالُونَهُ. ويروى: أَنَّهُ لَمَّا
نُزِلَتْ ضَرْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى ظَهْرِ سُلَيْمَانَ، وَقَالَ:
«إِنَّهُمْ قَوْمٌ هَذَا يُرِيدُ ابْنَاءَ فَارَسَ».

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَالْآخِرَةِ وَكَانَ
اللَّهُ سَمِيحًا بَصِيرًا (١٢٣).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده
الغنيمة، ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب
أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه أحدهما؛ لَأَنَّ مَنْ جَاهَدَ اللَّهَ
خَالِصًا لَمْ تَخْطِئْهُ الْغَنِيمَةُ وَلَهُ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ مَا الْغَنِيمَةُ
إِلَى جَنْبِهِ كَلَا شَيْءٍ، والمعنى: فعند الله ثواب الدنيا والآخرة
له إِنْ أَرَادَهُ، حتى يتعلق الجزء بالشرط.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى
أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمْلِكُوا وَلَوْ لَوَالِدُكُمْ أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ حَكِيمًا (١٢٤).

﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى
لا تجوروا. ﴿شُهَدَاءَ﴾ تقيمون شهادتكم لوجه الله كما
أمرتم بإقامتها ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة
على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الشَّهَادَةُ عَلَى الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ أَنْ تَقُولُوا:
أَشْهَدُ أَنَّ لِفُلَانٍ عَلَى الْوَالِدِ كَذَا أَوْ عَلَى أَقْرَبِي، فَمَا مَعْنَى
الشَّهَادَةِ عَلَى نَفْسِهِ؟ قُلْتُ: هِيَ الْإِقْرَارُ عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ فِي
مَعْنَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهَا بِالْإِزَامِ الْحَقُّ لَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى: وَإِنْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ وَبِالْأَلَى أَنْفُسَكُمْ أَوْ عَلَى
أَبَائِكُمْ وَأَقْرَابِكُمْ، وَنَكَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مَنْ يَتَوَقَّعُ ضَرَرَهُ مِنْ
سُلْطَانٍ ظَالِمٍ أَوْ غَيْرِهِ. ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إِنْ يَكُنِ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ
﴿غَنِيًّا﴾ فَلَا تَمْنَعُ الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ لِغَنَاهُ طَلِبًا لِرِضَاهُ، ﴿أَوْ
فَقِيرًا﴾ فَلَا تَمْنَعُهَا تَرْحَمًا عَلَيْهِ. ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بِالْغَنِيِّ
وَالْفَقِيرِ، أَي: بِالنَّظَرِ لِهَمَا وَإِرَادَةِ مَصْلَحَتِهِمَا، وَلَوْلَا أَنْ

عنها: إِلَى كُلِّ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ بَعَثَ عَمْرٌ مِثْلَ هَذَا؟ قَالُوا:
لَا بَعَثَ إِلَى الْقُرَشِيِّاتِ بِمِثْلِ هَذَا وَإِلَى غَيْرِهِنَّ بِغَيْرِهِ. فَقَالَتْ:
أَرْفَعُ رَأْسِي، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْدِلُ بَيْنَنَا فِي الْقِسْمَةِ
بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ. فَرَجَعَ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَهُ، فَاتَمَّ لَهُنَّ جَمِيعًا (١).
وَكَانَ لِمُعَاذِ امْرَأَتَيْنِ إِذَا كَانَ عِنْدَ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَتَوَضَّأْ فِي
بَيْتِ الْآخَرَى، فَمَلَّتَا فِي الطَّاعُونِ فِدْفِنَهُمَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ (٢).
﴿وَإِنْ تَصَلُّوا﴾ مَا مَضَى مِنْ مِيلِكُمْ وَتَتَذَكَّرُوهُ بِالتَّوْبَةِ،
﴿وَتَتَّقُوا﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ غُفْرَ اللَّهِ لَكُمْ.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَتَّبِعْ كُلٌّ مَن سَعَىٰ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا
حَكِيمًا (١٢٥).

وقرئ: وَإِنْ يَتَفَرَّقَا، بِمَعْنَى وَإِنْ يَفَارِقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
صَاحِبَهُ. ﴿يَتَّبِعْ كُلٌّ مَن سَعَىٰ﴾ يَرْزُقُهُ زَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ،
وَعِيشًا أَمْنًا مِنْ عِيشِهِ، وَالسَّعَى: الْغَنَى وَالْمَقْدَرَةُ، وَالْوَاسِعُ:
الْغَنَى الْمُقْتَدِرُ.

وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا (١٢٦).

﴿مَنْ قَبْلَكُمْ﴾ متعلق بوصينا أو بأوتوا، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾
عطف على الذين أوتوا. الكتاب اسم للجنس يتناول الكتب
السموية. ﴿إِنْ تَقُوا﴾ بَلَّانِ اتَّقُوا، أَوْ تَكُونِ لَنْ الْمَفْسَرَةِ لَأَنَّ
التَّوَصِيَةَ فِي مَعْنَى الْقَوْلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ﴾
عطف على اتقوا، لَأَنَّ الْمَعْنَى: أَمْرُنَاهُمْ وَأَمْرُنَاكُمْ بِالْتَّقْوَى،
وَقُلْنَا لَهُمْ وَلَكُمْ: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ، وَالْمَعْنَى: لِيَنَّ لِلَّهِ الْخَلْقُ
كُلُّهُ وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَمَالِكُهُمْ وَالْمَنْعَمُ عَلَيْهِمْ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ
كُلِّهَا، فَحَقُّهُ أَنْ يَكُونَ مُطَاعًا فِي خَلْقِهِ غَيْرِ مَعْصِي، يَتَّقُونَ
عَقْلِيهِ وَيَرْجُونَ ثَوَابَهُ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَوَصَّيْنَاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ يَعْنِي: أَنَّهُا وَصِيَّةٌ
قَدِيمَةٌ مَا زَالَ يُوصِي اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ لَسْتُمْ بِهَا مَخْصُوصِينَ؛
لَأَنَّهُمْ بِالْتَّقْوَى يَسْعَوْنَ عِنْدَهُ وَبِهَا يَنَالُونَ النِّجَاةَ فِي
الْعَاقِبَةِ، وَقُلْنَا لَهُمْ وَلَكُمْ: وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ فِي سَمَوَاتِهِ
وَأَرْضِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ مَنْ يُوحِدُهُ وَيَعْبُدُهُ وَيَتَّقِيهِ.
﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿غَنِيًّا﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ
جَمِيعًا، مُسْتَحَقًّا لِأَنَّهُ يَحْمَدُ لِكَثْرَةِ نِعَمِهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْمَدْهُ أَحَدٌ
مِنْهُمْ.

وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٢٧).

وتكرير قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
تقرير لما هو موجب تقواه ليقوته فيطيعوه ولا يعصوه؛
لَأَنَّ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى أَصْلُ الْخَيْرِ كُلِّهِ.

(1) أخرجه أحمد في المسند 3/475.

(2) قال الزيلعي غريب ويقرب منه ما رواه أحمد في المسند، وساق
الحديث 363/1.

= التسوية بين الضرائر الحديث (1141)، والنسائي في كتاب: عشرة
النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نساؤه... الحديث (3952)، وابن
ماجه في كتاب: الفكاك، باب: للقسم بين النساء الحديث (1969)،
والحاكم في المستدرک 2/186. وأخرجه ابن حبان في كتاب:
النكاح، باب: للقسم، الحديث (4207).

مؤمنين بهما فحسب وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب فأمروا أن يؤمنوا بالجنس كله لأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيماناً به لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة فلم يكن إيمانهم إيماناً، وهذا الذي أراد عز وجل في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يُتَخَذَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (2).

فإن قلت: لم قيل: ﴿نزل على رسوله﴾ و﴿وانزل من قبل﴾؟ قلت: لأن القرآن نزل مفزاً منجماً في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله، ومعنى قوله: ﴿ومن يكفر بالله﴾ الآية: ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿فقد ضل﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بكله، ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعاً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّنَّ يَكُنِيَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا لِهَيْبِهِمْ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ (3) نفي للغفران والهداية وهي اللطف على سبيل المبالغة التي تطيها اللام والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيها وهو الإيمان الخالص الثابت، والمعنى: أن الذين تكرروا منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة، ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله؛ لأن قلوب أولئك الذين هذا بينهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وألونه حيث يبدو لهم فيه كزفة بعد أخرى. وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجع منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبيعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ.

يَسِّرَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ

الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها لأنه انظر لعباده من كل ناظر.

فإن قلت: لم نرى الضمير في ﴿أولى بهما﴾ وكان حقه أن يوحد لأن قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ في معنى: إن يكن أحد هذين! قلت: قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ إلا إلى المنكور فلذلك نرى ولم يفرد وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنه قيل: فاشأ أولى بجنس الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء. وفي قراءة أبي: فاشأ أولى بهم، وهي شاهدة على ذلك. وقرأ عبد الله: إن يكن غني أو فقير، على كان التامة. ﴿إن تعملوا﴾ يحتمل العدل والعدل، كأنه قيل: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعملوا بين الناس، أو إرادة أن تعملوا عن الحق. ﴿وإن تلوا أو تعرضوا﴾ وإن تلوا السننكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أو تعرضوا عن الشهادة بما عنكم وتمنعوها. وقرئ: وإن تلوا أو تعرضوا بمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة أو عرضتم عن إقامتها، ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ويمجازتكم عليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعيدًا ﴿٣٩﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمسلمين، ومعنى: ﴿آمنوا﴾ اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه. ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، والليل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾ وقرئ: وكتبه، على إرادة الجنس. وقرئ: نزل وأنزل، على البناء للفاعل. وقيل: الخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض. وروي: أنه لعبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال عليه السلام: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله». فقالوا: لا نفعل. فنزلت فآمنوا كلهم (1). وقيل: هو للمنافقين، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً.

فإن قلت: كيف قيل لأهل الكتاب ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلت: كانوا

= توبتهم وأولئك هم الضالون، وقد ظهر الآن في الجمع بين هذه الآية، والقاعدة وجه آخر، سوى ما تقدم في آل عمران، وهو أن يكون المراد أن يصدر منهم توبة، فإن يكون قبول من باب:

على لاحب لا يهتدي بمناره

وعلى هذا يكون خبراً لا حكماً، والمخير عنهم من سبق في علم الله أنه لا يتوب من المرتتين، والله أعلم، وفي قول الزمخشري إن الناكث للتوبة العائد إليها يغلب من حاله، أنه يموت بشر حال نظر، فقد ورد في الحديث المؤمن مقتن تواب.

(1) الطبري في تفسيره.

(2) سورة النساء، الآيتان: 150، 151.

(3) قال أحمد: وليس في هذه الآية ما يخالف ظاهر القاعدة المستقرة، على أن التوبة مقبولة على الإطلاق؛ لأن آخر ما ذكر من حال هؤلاء ازدياد الكفر، ولو كان المنكور في آخر أحوالهم التوبة، والإيمان لاحتج إلى الجمع بين الآية والقاعدة إذاً، وإنما يقع هذا الفصل، الذي أورده الزمخشري موقعه في آية آل عمران، وهو قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل

فكان ترك الإنكار لرضاهم.

الَّذِينَ يَرْتَضُونَ فِيكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَتَّبِعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بِحُكْمِ يَوْمِ الْيَوْمِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (٧١).

﴿الذين يرتضون﴾ إما بدل من الذين يتخذون، وإما صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم. ﴿يرتضون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق. ﴿الم نحن معكم﴾ مظاهرين فأسهموا لنا في الغنيمة. ﴿الم نستحوذ عليكم﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسرهم فابقينا عليكم. ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم. وقرئ: ونمنعكم بالنصب بإضمار أن. قال الحطية:

الم الجاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء فإن قلت: لم سمى ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً! قلت: (3) تعظيماً لشأن المسلمين وتخصيماً لحظ الكافرين، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه، وأما ظفر الكافرين فما هو إلا حظ دني ولمطة من الدنيا يصيبونها.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْلَعُونَ اللَّهُ وَهُوَ خَالِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُنُفًا يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٢).

﴿يخادعون الله﴾ يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر. ﴿وهو خادعهم﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس وبنقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنّت لخدع منه، وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون، فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينابون ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾. ﴿كسالى﴾ قرئ: بضم الكاف وفتحها، جمع كسلان كسارى في سكران، أي: يقومون متثاقلين متقاعسين كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة. ﴿يراءون الناس﴾ يقصون بصلاتهم الرياء والسمعة. ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ (4) ولا يصلون إلا

أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٧٣).

﴿الذين﴾ نصب على الذم أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو هم الذين، وكانوا يميلون الكفرة ويوالونهم، ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم. وقال: وله العزة ولرسوله وللمؤمنين (1).

﴿بشر المنافقين﴾ وضع بشر مكان، أخبر تهكماً بهم.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا فِي حَوْبِ عَيْبِهِمْ إِلَهُ إِذَا نَالَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (٧٤).

﴿أن إذا سمعتم﴾ هي أن المخففة من الثقيلة، والمعنى: أنه إذا سمعتم، أي: نزل عليكم أن الشأن كذا، والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها، وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع ينزل، أو في موضع النصب ينزل فيمن قرأ به والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة، من قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ (2) وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في نكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وكان أخبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة، وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأخبار هم المنافقون. فقيل لهم: إنكم إذا مثل الأخبار في الكفر. ﴿إن الله جامع للمنافقين والكافرين﴾ يعني: القاعدين والمقعود معهم.

فإن قلت: الضمير في قوله: ﴿فلا تقعدوا معهم﴾ إلى من يرجع؟ قلت: إلى من دل عليه ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ كأنه قيل: فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستهزئين بها.

فإن قلت: لم يكونون مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟ قلت: لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين والراضي بالكفر كافر.

فإن قلت: فهلا كان المسلمون بمكة حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين منافقين؟ قلت: لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم، وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم،

= بينهم مطابق أيضاً للواقع، والله أعلم.

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة الانعام، الآية: 68.

(3) قال أحمد: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن، فإن الذي كان يتفق للمسلمين فيه استئصال لشفاعة الكفار، واستيلاء أرضهم، وبيارهم، وأموالهم، وأرض لن يطوها، وأما ما كان يتفق للكفار، فمثل الغلبة، والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً، فالتفريق =

(4) وإنما منع من أن يرد بها العدم؛ لأنه خبر، فيجب صدقه، وقد كانوا يذكرون الله في بعض الأحيان، فلا يمكن أن يسلب نكر الله مطلقاً، وإذا بنيينا على أن المراد بالذكر الصلاة، وهو الظاهر، فالمراد أيضاً الصلاة المعتبرة التي يذكر بها الإنسان حق الله عليه، فينتهي عن الفحشاء والمنكر، والصلاة في هذه الوجه

خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وأنه يحق عليك أن تخلص المؤمن.

إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾.

﴿الدرك الأسفل﴾: الطبقة الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك؛ لأنها متدركة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرئ: بسكون الراء، والوجه التحريك لقولهم: أدرك جهنم.

فإن قلت: لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت: لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجماتهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا بِهِمْ رَبَّهُمْ اللَّهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٦﴾.

﴿وأصلحو﴾: ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق، ﴿واعتصموا بالله﴾: ووثقوا به كما يثق المؤمنون بالخلص، ﴿وأخلصوا بينهم﴾: لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه، ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾: فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين. ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾: فيشاركونهم فيه ويساهمونهم.

فإن قلت: من المنافق؟ قلت: هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فللتغليظ، كقوله: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»⁽¹⁾. وقيل لحقيقة رضي الله عنه: من المنافق؟ فقال: الذي يصف بالإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر: نخل على السلطان وتكلم بكلام، فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه. فقال: كنا نعهده من النفاق. وعن الحسن: أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفاً، يعني: الحجاج.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٤٧﴾.

﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾: أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعاً، أم يستنفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغني الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك؛ وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء فإن قمت بشكر نعمته وأمنت به فقد أبغمت عن نفسك استحقاق العذاب. ﴿وكان الله شاكراً﴾: مثباً موفياً أجوركم ﴿عليماً﴾: بحق شكركم وإيمانكم.

فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل

قليلاً؛ لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه، أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتلهيل إلا ذكراً قليلاً في الندرة. وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلاً ولا تسبيحاً ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه، ولا يجوز أن يراود بالقلة العدم.

فإن قلت: ما معنى المراءاة، وهي مفاعلة من الرؤية؟ قلت: فيها وجهان: أحدهما: أن المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه، والثاني: أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل، فيقال: رأى الناس، يعني: رأيهم. كقولك: نعمة وناعمة وفتنة وفانقة وعيش وفائق. روى أبو زيد: رأت المرأة المرأة الرجل إذا أمسكتها لترى وجهه. ويدل عليه قراءة ابن أبي إسحق. يراؤنهم بهمزة مشددة مثل يراعونهم، أي: يبصرونهم أعمالهم ويرأؤنهم كذلك.

مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا يَحْدِلْ لَهُ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾.

﴿مذبذبين﴾: إما حال نحو قوله: ولا يذكرون عن واو يراؤون، أي: يراؤنهم غير ذاكين مذبذبين، أو منصوب على الذم، ومعنى مذبذبين: ذنبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون.

وحقيقة المذبذب: الذي ينب عن كلا الجانبين، أي: يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان. إلا أن الذنبية فيها تكرير ليس في الذنب، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذنب عنه. وقرأ ابن عباس: مذبذبين بكسر الذاًل بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم، أو بمعنى يتذبذبون كما جاء صلصل وتصلصل بمعنى. وفي مصحف عبد الله: متذبذبين. وعن أبي جعفر: مدبذبين بالدال غير المعجمة، وكان المعنى أخذ بهم تارة في ببة وتارة في ببة فليسوا بماضين على ببة واحدة، والذبة الطريقة ومنها ببة قريش. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان. ﴿ولا إلى هؤلاء﴾: لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين، ﴿ولا إلى هؤلاء﴾: ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُطْعَمُوا مِنْ عِلْقِكُمْ سُلْطَنًا مُبِينًا ﴿٤٩﴾.

﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾: لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء. ﴿سلطاناً﴾: حجة بينة، يعني: أن موالات الكافرين بينة على النفاق وعن صعصعة بن صوحان: أنه قال لابن أخ له:

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق الحديث (210).

= مسلوية عن المنافقين مطلقاً، فيجوز إذا حمل القلة على العدم بهذا التفسير، والله أعلم.

ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا﴾ (٤٨).

﴿إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ (١) إلا جهر من ظلم، استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم وينكره بما فيه من السوء، وقيل: هو أن يبدأ بالشتم فيرد على الشاتم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ (٢). وقيل: ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فأصبح شاكياً فعوتب على الشكاية. فنزلت وقرئ: إلا من ظلم على البناء للفاعل للانقطاع، أي: ولكن الظالم راكب ما لا يحبه فيجهر بالسوء، ويجوز أن يكون من ظلم مرفوعاً، كأنه قيل: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا للظالم، على لغة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو، بمعنى: ما جاءني إلا عمرو. ومنه: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ (٣).

﴿إِنْ يُدْرَأْ حَبْرًا أَوْ تُفَوْرَ أَوْ تُعَفَّرَ عَنْ سُوِّهِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَلِيلًا﴾ (٤٩).

ثم حث على العفو وإن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً حثاً على الأحب إليه، والأفضل عنده، والاندخل في الكرم، والتخضع والعبودية، ونكر إبداء الخير وإخفاءه تشبيهاً للعفو، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته وإن له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بنكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَلِيلًا﴾ أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام. فعليكم أن تقتلوا بسنة الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (٥٠).

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله، أو آمنوا بالله وبيعوا رسله وكفروا ببعض، كافرين بالله ورسله جميعاً

لما ذكرنا من العلة. ومعنى: اتخاذهم بين ذلك سبيلاً: أن يتخذوا ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، كقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ (٤)، أي طريقاً وسطاً في القراءة وهو ما بين الجهر والخافتة. وقد اخطأوا فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْدَانَا لِلْكَافِرِينَ عَدَاً مُبِينًا﴾ (٥١).

ولذلك قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي: هم الكاملون في الكفر، وحقاً تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حق ذلك حقاً، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: هم الذين كفروا كفرة حقاً ثابتاً يقيناً لا شك فيه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَرَرُوا بَيْنَ أَمْرٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوَاءٌ يَأْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٢).

فإن قلت: كيف جاز دخول ﴿بين﴾ على ﴿أحد﴾ وهو يقتضي شيئين فصاعداً؟ قلت: إن أحداً عام في الواحد المنكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما تقول: ما رأيت أحداً، فتقصد العموم، الا تراك تقول: إلا بني فلان وإلا بنات فلان، فالعنى: ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَسْتَ تَكَاذِبُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (٥٣). ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ معناه: أن إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتنبيته لا كونه متأخراً.

﴿يَسْتَكْبِرُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ جَهَنَّمَ نَاخِذْنَهُمْ الصَّاعِقَةُ يَطْلِيهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا بِالْعِمْلِ بِنَايَ مَا جَاءَهُمْ أَلَيْسَتْ تَعْمَقُونَ عَنْ ذَلِكَ وَمَا أَتَيْنَا مُوسَى سَأَلْنَا مِنْكَ﴾ (٥٤).

روي: أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازور أو غيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فاتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى، فنزلت (٥٥). وقيل: كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان بذلك رسول الله. وقيل: كتاباً نعينه حين ينزل. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. قال الحسن: ولو سألوه لكي يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما أتاهم كفاية. ﴿فقد سألوا موسى﴾ (٥٦) جواب الشرط مقدر معناه: إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى.

(٥) سورة الاحزاب، الآية: 32.

(٦) الطبري في تفسيره.

(٧) قال احمد: وهذا من المواضع التي استولى عليه فيها الإغفال، ولوح به اتباع هواه للضلال: لأنه بنى على أن الظلم المضاف إليه لم يكن، إلا لمجرد كونهم طلبوا الرؤية، وهي محال عقلاً نبياً، وأخرة على زعم القرية، لما يلزم عندهم لو قيل بجوازها من اعتقاد التشبيه، فلذلك سمي أهل السنة المعتقدين لجوازها، ووقعوا في الآخرة وفاء بالوعد الصانع مشبهة، وغفل عن كون اليهود اقترحوا على موسى عليه السلام خصوصية علقوا إيمانهم بها، ولم يعتبروا المعجز من حيث هو كما يجب اعتباره، فقالوا:

(١) قال احمد: ووجه التفسير أن الظالم لا يندرج في المستثنى منه، كما أن الله تعالى مقس أن يكون في السموات، أو في الأرض، فاستحال دخوله في المستثنى منه، وكذا لا يندرج المستثنى في المستثنى منه، في قولك ما جاءني زيد إلا عمرو، وكلام الزمخشري في هذا الفصل لا يتحقق لي منه ما يسوغ مجازيته فيه، لإغلاق عبرته، والله أعلم بمراده.

(٢) سورة الشورى، الآية: 41.

(٣) سورة النمل، الآية: 65.

(٤) سورة الإسراء، الآية: 110.

فَمَا نَقْضُهُمْ يُبَيِّنُهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّنَّتْ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِمَرِّ حَيٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ كُلٌّ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٩﴾ وَكَفَرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْبِعٍ بَيَّنَّتْ عَظِيمًا ﴿١٦٠﴾.

﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ﴾ فبنقضهم، وما مزيده للتوكيد.

فَإِنْ قُلْتَ^(١): بِم تعلق الياء، وما معنى التوكيد؟ قلت: إما أن يتعلق بمحذوف، كأنه قيل: فيما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم ما فعلنا، وإما أن يتعلق بقوله: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَنْ قَوْلُهُ: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَانُوا﴾^(٢) وبذل من قوله: ﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، وأما التوكيد فمعناه: تحقيق أَنْ العقاب أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك.

فَإِنْ قُلْتَ^(٣): هَلَا زَعَمْتَ أَنَّ المحذوف الذي تعلق به الياء ما دل عليه قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ فيكون التقدير: فيما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم، بل طبع الله عليها بكفرهم! قلت: لم يصح هذا التقدير: لأنَّ قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ رَدٌّ وَإِنْكَارٌ لِقَوْلِهِمْ: قُلُوبُنَا غُلْفٌ. فَكَانَ مُتَعَلِّقًا بِهِ وَنَكَارًا لَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ: قُلُوبُنَا غُلْفٌ، أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ قُلُوبُنَا غُلْفًا، أَي: فِي أَكْثَةٍ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا شَيْءٌ

﴿أكبر من ذلك﴾، وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آياتهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبيهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعتت ﴿جهره﴾ عياناً بمعنى لرائه نره جهره. ﴿يُظْلَمُهُمْ﴾ بسبب سؤالهم الرؤية، ولو طلبوا أمراً جائزاً لما سمو ظالمين، ولما أخذتهم للصاغة، كما سال إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى فلم يسمه ظالماً ولا رماه بالصاغة فتناً للمشبهة ورمياً بالصواعق. ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ تسلطاً واستيلاءً ظاهراً عليهم، حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتى يتاب عليهم فطاعوه واحتبوا بآفئتهم والسيوف تتساقط عليهم فيا لك من سلطان مبين.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بُيُوتَهُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَعًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَآخِذُوا يَمَّيْنَهُمْ يُشْكِلُ عَلَيْكُمُ ﴿١٦١﴾.

﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم لياخفوا فلا ينقضوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ والطور مظل عليهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَعًا﴾ ﴿وَلَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك. وقولهم: سمعنا وأطعنا، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ثم نقضوه بعد. وقرئ: لا تعتنوا ولا تعنوا، بإدغام التاء في اللال.

﴿لَنْ يُؤْمِنَ لَكَ، حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فهذا الاقتراح والتعتت يكفيهم ظلاماً ألا ترى أنَّ الذين قالوا لن يؤمن لك، حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، أو حتى تفجر الأرض، أو يكون لك بيت من زخرف كيف هم من اظلم الظلمة، وإن كانوا إنما طلبوا أموراً جائزة، ولكنهم اقترحوا في الآيات على الله، وحققهم أن يسندوا إيمانهم إلى أي معجز اختاره الله، بل ذلك دلالة يلجأ على أن ظلمهم مسبق عن اقتراحهم، لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً، والعجب بتنظير هذا السؤال لو كان المسؤول جائزاً، كسؤال إبراهيم عن إحياء الموتى على زعم الزمخشري غفلة منه، عما انطوى عليه سؤال إبراهيم عليه السلام من صريح الإيمان، حيث قال له تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُؤْمِنَ﴾ قال: بلى، وعما انطوى عليه سؤال هؤلاء الملاعين من محض الكفر، والإصرار عليه في قولهم: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ لَكَ﴾، فقصروا كلامهم بالجد، والنفي، وأما دعاء الزمخشري على أهل السنة بالاتب، والصواعق، فإله أعلم أي الفريقين أحق بها، ويكفي هذه الغفلة التي تنادي بها عليه، باتباع الهوى الذي يعمي ويصم، نسال الله العصمة من الضلالة، والغواية.

(١) ولنكر البذل المنكور سر، وهو أن الكلام لما طال بعد قوله فيما نقضتهم حتى بعد عن متعلقه الذي هو حرمانا قوى نكره بقوله، فيظلم من الذين هانوا حتى يلي متعلقه، وجاء للنظم به على وجه من الاختصار في إجمال ما سبق تفصيله: لأنَّ جميع ما تقم من النقص والقتل، وقولهم قلوبنا غلف، وكفرهم، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، ودعواهم قتل المسيح ابن مريم، قد انطوى عليه الإجمال المنكور آخر، لنطواء جامعاً مع التسجيل على أنَّ جميع أفاعيلهم المصادرة منهم ظلم، وقد تقم لهذا التقرير نظائر، والله الموفق.

(٣) قال احمد: هؤلاء قوم زعموا أنَّ لهم على الله حجة بكونه خلق قلوبهم غير قابلة للحق، ولا متمكنة من قبوله، فكذبهم الله في قولهم: لأنه خلق قلوبهم على الفطرة، أي: أنَّ الإيمان وقبول الحق من جنس مقبورهم، كما هو من جنس مقبور المؤمنين، وذلك هو المعبر بالتمكن، ويخلقهم ميسرين للإيمان متأنياً منهم قبول الحق قامت عليهم حجة الله، إذ يجد الإنسان بالضرورة الفرق بين قبول الحق، والندول في الإيمان، وبين طيرانه في الهوى، ومشيه على الماء ويعلم ضرورة أنَّ الإيمان ممكن منه، كما يعلم أنَّ الطيور غير ممكن منه عادة، فقد قامت الحجة وتبلجت، ألا الله للحجة البالغة، فمن هذا الوجه اتجه الرد عليهم، لا كما يزعمه الزمخشري من أنَّ لهم قدرة على الإيمان يلحقونه بها لانفسهم ويقرنوه في قلوبهم، وتلك القدرة موجوبة سواء وجد الفعل أولاً، ككسيف المعد في يد القاتل سواء وجد أو لا، وإنَّ هذه القدرة التي هي كالألة للمخلق على زعمه، يصرفها العبد حيث شاء في إيمان وكفر ووفق ذلك مشيئة الله أو لا، وإنَّ هؤلاء صرخوا قدرتهم إلى خلق الكفر، لانفسهم على خلاف مشيئة الله تعالى، لذلك يعرض الزمخشري بأهل السنة للقاتلين بلأنَّ الله تعالى لو شاء من عبدة الأوثان أن لا يعبدوها لما عبدها، وتسميتهم لذلك مجبرة، ويجعل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ رداً على الأشعرية كما هو رد على الوثنية، ويغفل عن النكتة التي نبهنا عليها، وهي أن الرد على الوثنية بذلك لم يكن إلا: لأنهم ظنوا أنَّ هذا المقدار يقيم لهم الحجة على الله، ولذلك قال تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، فلو شاء لهداكم لجميعين، فأوضح الله تعالى أنَّ الرد عليهم لم يكن لقولهم أنَّ الله لو شاء لهداكم لجميعين، ولكن إنما كان الرد لظنهم أنَّ ذلك حجة على الله بقوله، فلله الحجة البالغة، فهذا التقرير هو الإيمان المحض، ولتوحيد الصرف، وما عداه من الإشراك الصراح فخرى، نعوذ بالله منه.

بأنه يرفعه إلى السماء ويظهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبيه فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقال رجل منهم: أنا. فلقى الله عليه شبهه، فقتل وصلب. وقيل: كان رجلاً ينافق عيسى فلما أرادوا قتله قال: أنا أنلكم عليه. فدخل بيت عيسى فرفع عيسى، والقي شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى، ثم اختلفوا. فقال بعضهم: إنه إله لا يصح قتله، وقال بعضهم: إنه قد قتل وصلب. وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ وقال بعضهم: رفع إلى السماء. وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

فإن قلت: «شبه» مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له نكر؟ قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو «لهم» كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله: «إننا قتلنا» يدل عليه، كأنه قيل: ولكن شبه لهم من قتلوه. «إلا اتباع الظن» استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن.

فإن قلت⁽⁴⁾: قد وصفوا بالشك، والشك: أن لا يترجح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن، والظن: أن يترجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن إن لاحت لهم أمانة فظنوا فذاك. «وما قتلوه يقيناً» وما قتلوه قتلاً يقيناً، أو ما قتلوه متيقنين كما ادّعوا ذلك في قولهم: «إننا قتلنا المسيح، أو يجعل يقيناً تأكيداً لقوله: وما قتلوه، كقولك: ما قتلوه حقاً، أي: حق انتفاء قتله حقاً. وقيل: هو من قولهم: قتلت الشيء علماً ونحرته علماً، إذا تباع فيه علمك، وفيه تهكم لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستعراق، ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكماً بهم.

وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويؤمننّ يكون عليهم شهيداً⁽⁵⁾.

«ليؤمننّ به» جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محنوف تقديره: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ به، ونحوه «وما منا إلا له مقام معلوم»⁽⁶⁾ «وإن منكم إلا واردها»⁽⁷⁾ والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله،⁽⁷⁾ يعني:

من النكر والموعظة. كما حكى الله عن المشركين: «وقالوا لو شاء الرحمن ما عذبناهم»⁽¹⁾. وكذهب المجبرة أخزاهم الله فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها اللطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة للنكر ولا متمكنة من قبوله.

فإن قلت: علام عطف قوله: «وبكفرهم» قلت: الوجه أن يعطف على فيما نقضهم، ويجعل قوله: «بل طبع الله عليها بكفرهم»، كلاماً تبع قوله: «وقولهم قلوبنا غلف» على وجه الاستطراد يجوز عطفه على ما يليه من قوله: «بكفرهم».

فإن قلت: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه نكره سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله: «وبكفرهم بآيات الله» وقوله: «بكفرهم»! قلت: قد تكرر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم، واقتزارهم بقتل عيسى عاقبتهم، أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم: هو التزنية.

وقولهم: «إننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهه»⁽²⁾ وإن الذين أختلأوا فيه لى شك منه ما هم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً⁽³⁾ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا⁽⁴⁾.

فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر بن الساحرة والفاعل بن الفاعلة، فكيف قالوا: «إننا قتلنا لمسيح عيسى ابن مريم رسول الله»؟ قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون»⁽⁵⁾، ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان نكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا ينكرونه به وتعظيماً لما أراوا بمثله، كقوله: «ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم» الذي جعل لكم الأرض مهدياً⁽⁶⁾ روي: أن رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني اللهم العن من سبني وسب والنتي. فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير، فاجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله

(1) سورة الزخرف، الآية: 20.

(2) سورة الشعراء، الآية: 27.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 9 - 10.

(4) قال أحمد: وليس في هذا الجواب شفاء للقليل، والظاهر، والله أعلم أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك في أمره، والتردد فجاءت العبارة الأولى على ما يغلب من حالهم، ثم كانوا لا يخلون من ظن في بعض الأحوال، وعنده يقفون لا يرفعون إلى العلم فيه البتة، وكيف

= يعلم الشيء على خلاف ما هو به، فجاءت العبارة الثانية على حالهم الناصرة في الظن نافية عنهم ما يترقى عن الظن البتة، والله أعلم.

(5) سورة الصافات، الآية: 164.

(6) سورة مريم، الآية: 71.

(7) قال أحمد: كقول فرعون لما عين الهلاك: «أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل».

تعالى. وقيل: إلى محمد ﷺ.

فَيُظَلِّمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا فَبَايَ ظَلَمَ مِنْهُمْ. والمعنى: ما حَرَمْنَا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه، وهو ما عَدَدَ لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حَرَمْتُ عليهم، ما نكَّره في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ (5) حَرَمْتُ عليهم الألبان وكلما أَتَنَبَّأُوا ذَنْبًا صَغِيرًا أو كَبِيرًا حَرَمَ عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿وَيُصَدِّمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ نَاسًا كَثِيرًا أو صَدًّا كَثِيرًا.

وَأَعْدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (11). والمعنى: ما حَرَمْنَا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه، وهو ما عَدَدَ لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حَرَمْتُ عليهم، ما نكَّره في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ (5) حَرَمْتُ عليهم الألبان وكلما أَتَنَبَّأُوا ذَنْبًا صَغِيرًا أو كَبِيرًا حَرَمَ عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿وَيُصَدِّمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ نَاسًا كَثِيرًا أو صَدًّا كَثِيرًا.

وَأَعْدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (11). والمعنى: ما حَرَمْنَا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه، وهو ما عَدَدَ لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حَرَمْتُ عليهم، ما نكَّره في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ (5) حَرَمْتُ عليهم الألبان وكلما أَتَنَبَّأُوا ذَنْبًا صَغِيرًا أو كَبِيرًا حَرَمَ عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿وَيُصَدِّمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ نَاسًا كَثِيرًا أو صَدًّا كَثِيرًا.

﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب.

لَنَكُونَنَّ الْأَرْسُخُونَ فِي الْآلِ وَهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ تِلْكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (12).

﴿لكن الراسخون﴾ يريد من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، والراسخون في العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون، ﴿والمؤمنون﴾ يعني: المؤمنين منهم أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء، و﴿يؤمنون﴾ خبره، و﴿المقيمين﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع وقد كسره سيوبه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الاقتنائ، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام ونَبَّ المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقيل: هو عطف على ﴿بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفي مصحف عبد الله: والمقيمون بالواو. وهي قراءة مالك بن دينار والجحدري وعيسى الثقفي.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْإِسْرَافِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾

إذا عاين قبل أن تزهد روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأتها إلا تخالف في نفسي شيء منها، يعني: هذه الآية. وقال إني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فاضرب عنقه، فلا اسمع منه ذلك. فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه، وقالوا: يا عدو الله أتاك موسى نبياً فكذب به. فيقول: آمنت أنه عبد نبي. وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله. فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً، فنظر إليّ، وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن عليّ ابن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه، ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية، أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدثني محمد بن عليّ ابن الحنفية؟ قال: أردت أن أغبطه، يعني: بزيادة اسم علي؛ لأنه مشهور بابن الحنفية (1). وعن ابن عباس: أنه فسره كذلك، فقال له عكرمة: فإن اتاه رجل فضرب عنقه؟ قال: لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه. قال: وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به (2). وتدل عليه قراءة أبي: إلا ليؤمنن به قبل موتهم، بضم النون، على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم، لأن أحداً يصلح للجمع.

فَإِنْ قُلْتَ (3): ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت: فائدتها الوعيد وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعايعة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله، وقيل: الضميران لعيسى، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روي: أنه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة، وهي: ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون وينفنوناه (4). ويجوز أن يراد: أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم في قبورهم في تلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل: الضمير في به يرجع إلى الله

= الآية، ويكون الرسول عليكم شهيداً، والله أعلم.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التفسير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الحديث (4675). ولم ينكر النزول.

(5) سورة الأنعام، الآية: 146.

(1) لم أجده. ولم يخرج الزليعي، 368/10.

(2) نسبه الزليعي إلى الطبراني، ونسبه ابن حجر إلى الطبري.

(3) قال أحمد: ويبعد هذا التاويل قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ فإن ظاهره التهديد، ولكن ما أريد بقوله في حق هذه

من سنة الغفلة وينبئنا لما وجب الانتباه له.

لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَىٰ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُكْمِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٨﴾

قرأ السلمي: لكن الله يشهد بالتشديد.

فإن قلت⁽³⁾: الاستدراك لا بد له من مستدرك، فما هو في قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾ قلت: لما سأل أهل الكتاب إنزال الكتاب من السماء وتعنقوا بذلك واحتج عليهم بقوله: ﴿إننا أوحينا إليك﴾. قال: لكن الله يشهد، بمعنى: أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وقيل: لما نزل: ﴿إننا أوحينا إليك﴾ قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل: لكن الله يشهد. ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالبينات. وشهادة الملائكة شهادتهم بأنه حق وصق.

فإن قلت: بم يجابون لو قالوا: بم يعلم أن الملائكة يشهدون بذلك؟ قلت: يجابون بأنه يعلم بشهادة الله لأنه لما علم بإظهار المعجزات أنه شاهد بصحته علم أن الملائكة يشهدون بصحة ما شهد بصحته لأن شهادتهم تبع لشهادته.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، وما موقعه من الجملة التي قبله؟ قلت: معناه: أنزله ملتبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة، وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز الفاتحة للقدرة. وقيل: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنت مبلغه، وقيل: أنزله بما علم من مصالح العباد مشتملاً عليه، ويحتمل أنه أنزله وهو

وَعِيسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ وَهَارُونَ وَصَلَوْنَ عَلَيْهِمْ وَأَسَلْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٧٩﴾

﴿إننا أوحينا إليك﴾ جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا، وقرئ: زبوراً بضم الزاي، جمع زبر وهو الكتاب.

وَرَسُولًا قَدْ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْضِ لَهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٨٠﴾

﴿ورسلاً﴾ نصب بمضمر في معنى: أوحينا إليك، وهو أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسرهُ ﴿قصاصناهم﴾. وفي قراءة أبي: ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم. وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنهما قرأ وكلم الله بالانصب⁽¹⁾، ومن بدع التفسير أنه من الكلم وأن معناه: وجَّح الله موسى بإظهار المحن ومخالب الفتنة.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ إِنَّا لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٨١﴾

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، ويجوز انتصابه على التكرير.

فإن قلت⁽²⁾: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الآلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الآلة ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟ قلت: الرسل منبهون عن الغفلة ويأعثن على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة لليلة وتنميماً لإلزام الحجة لثلاث يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسلاً فيوقظنا

= مبشرين ومنذرين لثلاث يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقيل لهم: ما هذه الآية تناديكم يا معشر القدرية أن الحجة إنما قُتِمت على الخلق بالأحكام الشرعية المؤدية إلى الجزاء بإرسال الرسل، لا بمجرد العقل، فما يقولون فيها صمت حينئذ قاداتهم، وغبروا في وجه هذا النص، وغيره عما هو موضوع له، فقالوا: المراد أن الرسل تتم حجة الله، وتنبيه على ما وجب قبل بعثها بالنقل، كما أجاب به الرزمخشري، وقرئاً من هذا التعسف يقولون: إذا ورد عليهم قوله تعالى: ﴿وما كنا معنيين حتى تبع رسولاً﴾ وربما يلبس على ضعفة المطالعين لهذا الفصل، من كلام الرزمخشري قوله: إن آلة التوحيد والمعرفة منصوبة قبل إرسال الرسل، وبذلك تقوم الحجة، فتظن أن ذلك جار على سنن الصحة، إذ المعرفة باتفاق والتوحيد بإجماع، إنما طريقه العقل لا النقل الذي يلبس عليه أن النظر في آلة التوحيد، هو فعل المكلف، ليس بالحكم الشرعي، بل الحكم وجوب النظر والمعرفة متعلقة من العقل المحض، والوجوب متعلق من النقل الصريح وبه تقوم الحجة، وعليه يرتب الجزاء، والله سبحانه ولي التوفيق والمعونة.

(3) قال أحمد: ورود هذا الفصل في كلامه، مما يقتبط به.

(1) قال أحمد: وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لإنكارهم الكلام القديم الذي هو صفة الذات، إذ لا يثبتون إلا الحروف، والأصوات قائمة بالأجسام، لا بذات الله تعالى، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام في التكليم، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً، وأصواتاً قائمة ببعض الأجزاء، وذلك مشترك بين موسى، وبين كل سماع لهذه الحروف حتى للمعرك الذي قال الله فيه، حتى يسمع كلام الله، فيضطر المعتزلي إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم على التجريح، وصق الرزمخشري، وأنصف إنه لمن بدع التفسير لتي ينبو عنها الفهم، ولا يبين بها إلا الوهم، والله الموفق.

(2) قال أحمد: قاعدة المعتزلة في التحسين والتقيح العقلين تجربهم، وتجربهم إلى إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل، وإن لم يبعث رسلاً، فيوجبون بقولهم ويحرمون، ويبيحون على وفق زعمهم، ومما يوجبونه قبل ورود الشرع النظر في آلة المعرفة، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب، فمن ثم يلزمون بعد خبط وتطويل أن من ترك النظر في الآلة قبل ورود الشرع، فقد ترك واجباً استحق به التعنيب، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب، وإن لم يكن شرع، وإذا تليت عليهم هذه الآية، وهي قوله: ﴿رسلاً =

جعفر بن محمد: إنَّما المسيح بوزن السكيت. وقيل لعيسى: كلمة الله، وكلمة منه، لأنَّه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير، واسطة أب ولا نطفة. وقيل له: روح الله وروح منه لذلك لأنَّه ذو روح وجد من غير جزء، من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي؛ وإنَّما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة، ومعنى «ألقاها إلى مريم» أوصلها إليها وحصلها فيها. «ثلاثة» خبر مبتدأ محذوف، فإنَّ صحت الحكاية عنهم أنَّهم يقولون: هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم: اقنوم الأب واقنوم الابن واقنوم روح القدس، وأنَّهم يريدون باقنوم الأب الذات، وباقنوم الابن العلم، وباقنوم روح القدس الحياة، فتقديره: الله ثلاثة، وإلا فتقديره الأكلية ثلاثة. والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأنَّ الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأنَّ المسيح ولد الله من مريم، ألا ترى إلى قوله: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» (4) وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنَّهم يقولون: في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم. ويدل عليه قوله: «إنَّما المسيح عيسى ابن مريم». فأثبت أنَّه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها وإنَّ اتصاله بالله تعالى من حيث إنَّه رسوله، وإنَّه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب، فنفي أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء، وقوله: «سبحانه أن يكون له ولد» وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى: «سبحانه أن يكون له ولد» سبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن: إن يكون بكسر الهمزة ورفع النون، أي: سبحانه ما يكون له ولد، على أنَّ الكلام جملةتان. «له ما في السموات وما في الأرض» بيان لتنزهه عما نسب إليه، يعني: أنَّ كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه على أنَّ الجزء إنَّما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض. «وكفى بالله كيداً» يكل إليه الخلق كلهم أمورهم فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ مَبْخَرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا (٧٧)

«لن يستنكف المسيح» (5) لن يأنف ولن يذهب بنفسه

عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة، والملائكة يشهدون بذلك، كما قال في آخر سورة الجن: ألا ترى إلى قوله تعالى: «ولاحظ بما لبيهم» (1) والإحاطة بمعنى العلم. «وكفى بالله شهيداً» وإن لم يشهد غيره؛ لأنَّ التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً «قل أي شيء لكبر شهادة قل الله» (2).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْشَ فِئْتِمَهُمْ وَلَا يُدَبِّبُهُمْ طَرِيقًا (٧٨)

«كفروا وظلموا» (3) جمعوا بين الكفر والمعاصي، أو كان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين أصحاب كبائر؛ لأنَّه لا فرق بين الفريقين في أنَّه لا يغفر لهما إلا بالتوبة. «ولا يهديهم طريقاً» لا يلطف بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم، أو لا يهديهم يوم القيامة طريقاً إلا طريقها.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٧٩)

«يسيراً» أي: لا صارف له عنه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا (٨٠)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ الْقَهْقَرَاءُ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَمَّْا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

«فآمنوا خيراً لكم» وكذلك «انتهوا خيراً لكم» انتصابه بمضمر، وذلك أنَّه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنَّه يحملهم على أمر، فقال: خيراً لكم، أي: أقصدوا أو انتروا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الإيمان والتوحيد.

«لا تغلوا في دينكم» غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته حيث جعلته مولوداً لغير رشفة، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهاً. «ولا تقولوا على الله إلا الحق» وهو تنزيهه عن الشريك والولد. قرأ

(1) سورة الجن، الآية: 28.

(2) سورة الانعام، الآية: 19.

(3) قال أحمد: يعمل من الظاهر لعله يتروح إلى بث طرف من العقيدة الفاسدة في وجوب وعيد العصاة، وأنهم مخلدون تخليد الكفار، وقد تكرر ذلك منه، وهذه الآية تنبؤ عن هذا المعتقد، فإنه جعل الفعلين: أعني الكفر والظلم كليهما صلة للموصول المجموع، فيلزم وقوع الفعلين جميعاً من كل واحد من أحاده، ألا تراك إذا قلت الزيمون قاموا، فقد أسندت القيام إلى كل واحد من أحاده الجمع، فتكلك لو عطلت عليه فعلاً آخر لزم فيه ذلك ضرورة، والله الموفق.

(4) سورة المائدة، الآية: 116.

(5) قال أحمد: وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة، فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء، وذهب القاضي أبو بكر منا، والعليني وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة، واتخذ المعتزلة هذه الآية عمنهم في تفضيل الملائكة من حيث الوجه الذي استدل به الرزمخشري، ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية، فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة: أحدها: إن سبينا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح أن تكون أفضل من محمد عليه =

الآية: لأنك إذا نهيتهم عن إيذاء المسلم، فقد يقال ذاك من خواص احترامه للإسلام، فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوب عنه هذه الخصوصية، فإذا قلت: ولا نَمِيًا، فقد جُذِبَتْ فائدة لم تكن في الأول، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى إلى النهي عن أكثر منه، ولو رتب هذا المثال، كترتيب الآية، فقلت: لا تؤذ نَمِيًا، فهم المنهي أنْ أذى المسلم أسفل في النهي، إذ يساوي الذمي في سبب الاحترام، وهو الإنسانية مثلاً، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم، وهو الإسلام، فيقتنع هذا النهي عن تجسيد نهْي آخر عن أذى المسلم، فإن قلت: ولا مسلماً لم تجدد له فائدة، ولم تعلمه غير ما علمه أولاً، فقد علمت أنها نكتة واحدة توجب أحياناً تقديم الأعلى، وأحياناً تأخيرها، ولا يميز لك ذلك إلا السياق، وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى، وتأخير الأعلى ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة، قوله تعالى: ﴿فَإِن تَقُلْ لِّهَآ أَفْ﴾ استفتاء عن نهيه عن ضربيهما، فما فوقه بتقديم الأدنى، ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التاكيف، والإنهاف؛ لأنه مستغنى عنه وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿فَإِن قُرْطَنَ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية، لتفضيل الملائكة، وكانت الآية على تفضيل الأنبياء عتيبة عند المعتقد، لذلك جمع بين الآية، وتلك الآية بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف، وذلك أن تفضيل الملائكة في القوة، وشدة البشاش وسعة التمكن، والاقتدار قال، وهذا النوع من التفضيلة هو المناسب لسياق الآية؛ لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم الوهية عيسى عليه السلام مستندين إلى كونه أحيا الموتى، وأبأ الأكمه والأبرص، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة، فناسب ذلك أن يقال هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق لا يستنكف عن عبادة الله تعالى بل من هو أكثر خوارق، وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين الذين من جعلتهم جبريل عليه السلام، وقد بلغ من قوته، وإقدار الله له أن اقتلع السدائن، واحتملها على ريشة من جناحه، فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة إذا بهذا الاعتبار لا خلاف أنهم أقوى وأبطش، وإنْ خوارقهم أكثر وإنما الخلاف في التفضيل، باعتبار مزيد الثواب والكرامات، ورفع الدرجات في دار الجزاء، وليس في الآية عليه دليل ولما كان أكثر ما ليس على النصارى الوهية عيسى كونه مخلوقاً، أي: موجوداً من غير أب أنبأنا الله تعالى، أنْ هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله بل، ولا الملائكة المخلوقين من غير أب، ولا أم، فيكون تأخير نكرهم؛ لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى، ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بأدم عليهما السلام، فنظر الغريب بالأغرب، وشبه العجيب من قدرته بالعجيب، إذ عيسى مخلوق من أم وأدم من غير أم، ولا أب، ولذلك قال: ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ﴾، ثم قال له كُنْ فيكون ﴿ومدار هذا البحث على النكتة التي نبهت عليها، فمضى استقام اشتغال المنكور أياً ما على فائدة لم يشتمل عليها الأول، بأي طريق كان من تفضيل، أو غيره من الفوائد، فقد أسند النظر وطابق صيغة الآية، والله أعلم، وعلى الجملة فالمسألة سمعية، والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلًا، ووجوده عسر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما أحسن تأكيد الزمخشري لاستدلاله ببعد الملائكة المعنيتين بأنهم المقربون، ومن ثم ينشئ ظهور من فصل القول في الملائكة، والأنبياء فلم يععم التفضيل في الملائكة، ولا في الأنبياء بل فضل ثم فصل، وليس الغرض إلا ذكر محامل الآية لا البحث في اختلاف المذاهب، والله الموفق.

= الصلاة والسلام، وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من أحاد الأنبياء، أفضل من كل واحد من أحاد الملائكة، وبين طائفتنا في هذا الطرف خلاف. السؤال الثاني، أن قوله ولا الملائكة المقربون صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح، ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح، وفي هذا السؤال أيضاً نظر؛ لأنْ مورده إذا بنى على أنْ المسيح أفضل من كل واحد من أحاد الملائكة، فقد يقال يلزم القول بأنه أفضل من الكل، كما أنْ النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أفضل من كل واحد من أحاد الأنبياء، كان أفضل من كلهم، ولم يفرق بين التفضيل على التفضيل، والتفضيل على الجملة أحد ممن صنف في هذا المعنى، وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين، وادعى أنه لا يلزم منه على التفصيل تفضيل على الجملة، ولم يثبت عنه هذا القول، ولو قاله أحد، فهو مردود بوجه لطيف، وهو أنْ التفضيل المراد جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة، والاحسان متوافرة بذلك، وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحدة من المفضلين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم، أولاً: ترفع درجة أحد منهم عليه لا سبيل إلى الأول؛ لأنه يلزم منه رفع المفضل على الأفضل، فتعيين الثاني: وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع ضرورة، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم قطعاً. الثالث: أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً، وأما الاستشهاد بالمثال المنكور على أنْ الثاني أبداً يكون أعلى رتبة، فمعارض بامثلة لا تقتضي ذلك، كقول القائل ما عابني على هذا الأمر زيد، ولا عمرو. قلت: وكقولك: لا تؤذ مسلماً ولا نَمِيًا، فإن هذا الترتيب وجه الكلام، والثاني أني وأخفض درجة، ولو ذهبت تعكس هذا فقلت لا تؤذ نَمِيًا، ولا مسلماً ليجمع الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الكلام، وقانون البلاغة، وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرر، ولكن الحق أولى من المراء، وليس بين المثاليين تعارض، ونحن نهمد تمهيداً يرفع اللبس، ويكشف الغطاء، فنقول: النكتة في الترتيب في المثاليين الموهوم تعارضهما واحدة، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيرها، وتلك النكتة مقتضى البلاغة الثاني عن التكرار والسلامة عن النزول، فإذا اعتمدت ذلك، فهمما أدنى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول قد أقاده، وانت مستغنى عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستثنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول مثاله الآية المنكورة، فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة، وأعلى رتبة لكان نكر الملائكة بعده، كالمستغنى عنه؛ لأنه إذا كان الأفضل، وهو المسيح على هذا التقدير عبداً لله غير مستنكف من العبودية لزم من ذلك أنْ من بونه في الفضيلة، أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله، وهم الملائكة على هذا التقدير، فلم يتجدد إذا بقوله، ولا الملائكة المقربون إلا ما سلف أول الكلام، وإذا قرئت المسيح مقضولاً بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى، بأن المفضل لا يستنكف عن كونه عبداً له إلى أنْ الأفضل لا يستنكف عن ذلك، وليس يلزم من عدم استنكاف المفضل عدم استنكاف الأفضل، فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة إذ لم يستلزم الأول الآخر، فصار للكلام على هذا التقدير تجديد فوائده، وتزايد وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز؛ لأنه الغاية في البلاغة وبهذه النكتة يجب أن تقول لا تؤذ مسلماً، ولا نَمِيًا، فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في =

(4) الثعلبي في تفسيره. وقال الزيلعي غريب 369/1.

وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم.

سورة المائدة

مدنية إلا آية 3 فنزلت في حجة الوداع

وهي مائة وعشرون آية

نزلت بعد الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَمْثَرِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ عَلَى الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرٌّ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

يقال (١): وفى بالعهد وأوفى به، ومنه: والموفون بعهدهم. والعقد: العهد الموثق، شبه بعقد الخيل، ونحوه قال الخطيب:

قوم إذا عقدوا عقداً جازهم شئوا العناج وشئوا فوقه الكربا
وهي عقود الله التي عقدها على عباده والزمها إياهم من
موجب التكليف، وقيل: هي ما يعقدون بينهم من عقود
الامانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبايعات
ونحوها، والظاهر أنها عقود الله عليهم في بيته من تحليل
حلاله وتحريم حرامه، وأنه كلام قدم مجملاً ثم عقب
بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ وما بعده.

البهيمة: كل ذات أربع في البر والبحر، وإضافتها إلى
الأنعام للبيان، وهي الإضافة التي بمعنى من خاتم قضة
ومعناه البهيمة من الأنعام. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا
محرم ما يتلى عليكم من القرآن، من نحو قوله: ﴿حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ اللَّمِيَّةُ﴾ وإلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام
الأزواج الثمانية، وقيل: بهيمة الأنعام الطباء وبقر الوحش
ونحوها، كلهم أرانب ما يماثل الأنعام ويدانيتها من جنس
البهائم في الاجترار وعدم الأنياب، فاضيفت إلى الأنعام
لملابسة الشبه. ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصِّدِّ﴾ نصب على الحال
من الضمير في لكم، أي: أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين
الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله: ﴿أَوْفُوا

أصنع في مالي؟ فنزلت (١): ﴿إِنْ أَمْرُو هَلَكْ﴾ ارتفع امرؤ
بمضمير يفسره الظاهر ومحل وليس له ولده الرفع على
الصفة لا التنصب على الحال، أي: إن هلك امرؤ غير ذي
ولد، والمراد بالولد الابن، وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه
على الذكر وعلى الأنثى، لأن الابن يسقط الأخت
ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس. وبالأخت التي
هي لأب وأم دون التي لأب لأن الله تعالى فرض لها
النصف وجعل أخاها عصبة، وقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَى﴾ وأما الأخت للأب فلها السدس في آية المواريث
مسوى بينها وبين أخيها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ وأخوها يرثها إن
قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها ﴿إِنْ لَمْ
يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابن لأن الابن يسقط الأخ دون البنت.

فإن قلت: الابن يسقط الأخ وحده فإن الأب نظيره في
الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: بين حكم انتفاء
الولد ووكل حكم انتفاء الولد إلى بيان السنة وهو قوله
عليه السلام: «الحقوا للفرائض بأهلها فما بقي فلاولى
عصبة نكره» (٢). والأب أولى من الأخ، وليس بأول حكمين
بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة، ويجوز أن يدل بحكم
انتفاء الولد، على حكم انتفاء الولد لأن الولد أقرب إلى
الميت من الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب فالولى
أن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأن الكلاله تتناول انتفاء الولد
والمولد جميعاً فكان نكر انتفاء أحدهما دالاً على انتفاء
الأخر.

فإن قلت (٣): إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في
قوله: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾، وإن كانوا إخوة؟ قلت:
أصله فإن كانا من يرث بالأخوة اثنتين وإن كانا من
يرث بالأخوة نكراً وإنثاء، وإنما قيل: فإن كانا، وإن كانوا
كما قيل: من كانت أمك، فكما أنت ضمير من لمكان تانيث
الخبر، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث في كلتا وكانوا
لمكان تثنية الخبر وجمعه. والمراد بالإخوة الإخوة
والأخوات تغلياً لحكم النكورة، ﴿أَنْ تَضْلُوا﴾ مفعول له
ومعناه: كراهة أن تضلوا. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة
النساء فكأنما تصبّق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثاً،
وأعطى من الأجر كمن اشترى محرراً وبرئ من الشرك،

= مثل بقول القائل: حصان كانت دابتك، لكان أسلم إذ في لفظ
دابة من الإبهام ما يسوغ وقوعها على الأصناف المختلفة من
منكر، ومؤنث، وتثنية، وجمع، ومثل الآية سواء، قوله تعالى:
﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو﴾ فيمن جعل الجملة
مفعولاً ثانياً للحسبان، فإن أصل الكلام هي: العدو إذ الضمير
على هذا الإعراب للصيحة، ولكنه نكره، وجمعه لمكان الخبر،
والله أعلم.

(4) قال أحمد: ورد في الكتاب العزيز، وفي بالتضعيف في قوله تعالى:
﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وورد أوفى كثير، ومنه: ﴿أَوْفُوا
بِالعُقُودِ﴾، وأما وفي ثلاثياً، فلم يرد، إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ
أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأنه بنى أفعّل من التفضيل، وفي إذ لا ييني،
إلا من ثلاثي.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المرضي، باب: وضوء العائد للمريض
الحديث (5676)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث
الكلالة، الحديث (4121)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض،
باب: في الكلالة، الحديث (2886)، أخرجه الترمذي في كتاب:
الفرائض، باب: ميراث الأخوات، الحديث (2097)، وأخرجه ابن
ماجة في كتاب: الفرائض، باب: الكلالة، الحديث (2726).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الجد مع الأب...
الحديث (6737)، ومسلم في كتاب: الفرائض، باب: الحقوا للفرائض
بأهلها الحديث (4117)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفرائض، باب:
في ميراث العصبة، الحديث (2098)، وأخرجه الحاكم في
المستدرک 338/4، وأبو يعلى في المسند 2371/4.

(3) قال أحمد: وقد سبق له هذا التمثيل في مثل هذا الموضوع، ولو =

أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله: ﴿لَا تَحْلُوا﴾. ثم نزل بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا الْمَشْرُوكُونَ نجس﴾ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾. وقال مجاهد والشعبي: نسخ بقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾⁽²⁾. وفسر ابتغاء الفضل بالتجارة. وابتغاء الرضوان، بأن المشركين كانوا يظنون في أنفسهم أنهم على سداد من بينهم وأن الحج يقربهم إلى الله فوصفهم الله بظنهم. وقرأ عبد الله: ولا آمي البيت الحرام على الإضافة. وقرأ حميد بن قيس والأعرج: تبتغون بالتاء على خطاب المؤمنين. ﴿فَاصْطَلُوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم. كأنه قيل: وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطلوا. وقرئ بكسر الفاء، وقيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء. وقرئ: وإذا أحللتهم، يقال: حل المحرم وأحل. جرم يجري مجرى كسب في تعديه إلى مفعول واحد واثنين، تقول جرم ننبأ نحو كسبه، وجرمته ننبأ نحو كسبته إياه. ويقال: أجرمته ننبأ على نقل المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين، كقولهم: أكسبته ننبأ، وعليه قراءة عبد الله: ولا يجرمنكم بضم الياء، وأول المفعولين على القراءتين ضمير المخاطبين، والثاني أن تعتوا. و﴿أن صدوكم﴾ بفتح الهمزة متعلق بالشأن بمعنى العلة والشأن شدة البغض. وقرئ بسكون النون، والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء ولا يحملنكم عليه. وقرئ: إن صدوكم على إن الشرطية. وفي قراءة عبد الله: إن يصدوكم، ومعنى صدهم إياهم عن المسجد الحرام: منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة، ومعنى الاعتداء الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ على العفو والإغضاء، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشفي، ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى وكل إثم وعدوان فيتناول بعمومه العفو والانتصار.

حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَةَ وَاللَّهُ رَئِيمٌ الْفَاحِشَةُ وَمَا أَكَلَ السَّجَّ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكَ فِسْقٌ آلِ يَوْمٍ يَمُوتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْهُمْ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَضْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ⁽³⁾.

كان أهل الجاهلية ياكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في المباغر يشوونها ويقولون لم يحرم من فزد له. ﴿وَمَا أَهْلُ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه. ﴿وَالْمُنْحَنَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بسبب. ﴿وَالْمُوقُودَةُ﴾ التي أخنقوها ضرباً بعضاً أو حجر حتى ماتت. ﴿وَالْمُتَرَبِّدَةُ﴾ التي

بالعقود وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ حَرَمٌ﴾ حال عن محلي الصيد، كأنه قيل: أحللتنا لكم بغض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون لئلا تخرج عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام ويعلم أنه حكمة ومصلحة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَةَ اللَّهِ وَلَا النَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحَةَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُكُمْ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَمْتَدُّوا وَمَاؤُهُمْ عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ⁽⁴⁾.

والحرم: جمع حرام وهو للمحرم.

الشعائر: جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر، أي جعل شعاراً وعلماً للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى. والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر. والشهر الحرام: شهر الحج.

والهدي: ما أهدي إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك، وهو جمع هدية، كما يقال: جدي، في جمع جدية السرج.

والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلّد به الهدى من نعل أو عروة مزادة أو لحاء شجر أو غيره. وآموا المسجد الحرام: قاصدوه وهم الحاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وإن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وإن يتعرض للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله، وأما القلائد ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد بها نوات القلائد من الهدى وهي البدن، وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى، كقوله: وجبريل وميكال، كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً.

والثاني: أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، على معنى: ولا تحلوا قلائدكم فضلاً أن تحلوا، كما قال: ﴿وَلَا يَبِينُ زِينَتُهُمْ﴾ فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها. ﴿وَلَا آمِينَ﴾ ولا تحلوا قوماً قاصدين المسجد الحرام يبتغون فضلاً من ربهم، وهو الثواب ﴿وَرِضْوَاناً﴾ وإن يرضى عنهم، أي: لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم واستنكاراً أن يتعرض لمثلهم. قيل: هي محكمة. وعن النبي ﷺ: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها»⁽¹⁾. وقال الحسن: ليس فيها منسوخ. وعن أبي ميسرة: فيها ثمانى عشرة فريضة، وليس فيها منسوخ. وقيل: هي منسوخة. وعن ابن عباس: كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً فنهى الله المسلمين

غالبين، **﴿واخشوني﴾** وأخلصوا لي الخشية **﴿أكملت لكم دينكم﴾** كفيتمكم أمر عبوكم وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك اليوم: كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد. **﴿وأتملت عليكم نعمتي﴾** بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان، أو أتملت نعمتي عليكم بأكمل أمر الدين والشرائع، كأنه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام. **﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** يعني: اخترته لكم من بين الأديان وآتنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** **﴿إن هذه أمكم أمّة واحدة﴾**.

﴿فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿فمن اضطر﴾؟ قلت: بنكر المحرمات، وقوله: ﴿نلكم فسق﴾ اعترض أكد به معنى التحريم، وكذلك ما بعده، لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل، ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها **﴿في مخصصة﴾ في مجاعة **﴿غير متجاف لإثم﴾** غير منحرف إليه، كقوله: **﴿غير باغ ولا عاد﴾** **﴿فإن الله غفور﴾** لا يؤاخذ به بذلك.**

بَسَلْتُمْ مَادَّةَ أَجَلٍ لَمْ تَلْ أَحِلَّ لَكُمْ الْفَيْسُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُؤَمِّرُونَ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا بِمَا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا لِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْحِسَابِ (١).

في السؤال معنى القول فلذلك وقع بعده **﴿ماذا أحل لهم﴾**، كأنه قيل: يقولون لك: ماذا أحل لهم؟ وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا حكاية ما قالوه؛ لأن يسألونك بلفظ الغيبة، كما تقول: أقسم زيد ليفعلن، ولو قيل: لأفعلن وأحل لنا لكان صواباً. وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم، ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم، كأنهم حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبثات المأكّل سألوا عما أحل لهم منها، فقيل: **﴿أحل لكم الطيبات﴾**، أي: ما ليس بخبيث منها، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد. **﴿وما علمتم من الجوارح﴾** (١) عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف، أو تجعل ما شرطية وجوابها فكلوا، والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب مؤنّب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها ورائضها لذلك بما

تردت من جبل أو في بئر فماتت. **﴿والنطيحة﴾** التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح **﴿وما أكل السبع﴾** بعضه **﴿إلا ما نكيتم﴾** إلا ما أدركتم نكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتخشب أوداجه. وقرأ عبد الله: والمنطوحة، وفي رواية عن أبي عمرو: والسبع بسكون الباء. وقرأ ابن عباس: ولكيل السبع. **﴿وما نبيح على النصب﴾** كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت ينبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها تسمى الانصاب، والنصب واحد. قال الأعشى:

وذا النصب المنسوب لا تعبده لعاقبة والله ربك فاعبدا
وقيل: هو جمع والواحد نصاب. وقرئ: النصب بسكون الصاد. **﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾** وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، أي: بالقدر. كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معالظ الأمور ضرب بالقدر، وهي مكتوب على بعضها نهائي ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غفل، فإن خرج الأمر مضى لطيته، وإن خرج النهائي أمسك، وإن خرج الغفل أجلها عوداً. فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام، وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الانصبة المعلومة. **﴿نلكم فسق﴾** الإشارة إلى الاستقسام أو إلى تناول ما حرم عليهم، لأن المعنى: حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا.

﴿فإن قلت: لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً؟ قلت: لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، وقال: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾. واعتقاد أن إليه طريقاً، وإلى استنباطه وقوله: أمرني ربي ونهاني ربي، اقتراء على الله وما يديره أنه أمره أو نهاه، والكهنة والمنجمون بهذه المثابة، وإن كان أراد بالرب الصنم، فقد روي: أنهم كانوا يجلبونها عند أصنامهم فأمره ظاهر. **﴿اليوم﴾ لم يرد به يوماً يعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك، ونحوه الآن في قوله:**

الآن لما أبيض مسرّبتني وعضضت من نابي على جذم
وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع. **﴿ينس الذين كفروا من دينكم﴾** يشسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ما حرمت عليكم، وقيل: يشسوا من دينكم أن يغلبوه لأن الله عز وجل وفي بوعده من إظهاره على الدين كله. **﴿فلا تخشوهم﴾** بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا

(١) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي، غير أن الحال بأصلاتها منتقلة غير لازمة، ومقتضى هذا التقرير جعلها من الصفات اللازمة لمعلم الجوارح الثابتة له.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَيْسُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ تَكْرُ
وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَكُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِيحِينَ وَلَا
مُخْذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ الْكَافِرِينَ (٥).

﴿طعام الذين اتوا الكتاب﴾ قيل: هو نباتهم، وقيل: هو جميع مطاعهم، ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن علي رضي الله عنه: أنه استثنى نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية، لم يأخذوا منها إلا شرب الخمر^(٦)، وبه أخذ الشافعي، وعن ابن عباس: أنه سئل عن نبات نصارى العرب، فقال: لا بأس^(٧) وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة، وقال أصحابه: هم صنفان: صنف يقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة، وصنف لا يقرؤون كتاباً ويعبدون النجوم، فهو لا بأس. ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوس فقد سئل بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم لئن أكل نباتهم ونكاح نسائهم. وقد روي عن ابن المسيب أنه قال: إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسي أن يذكر اسم الله ويذبح فلا بأس. وقال أبو ثور: وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء. ﴿وطعامكم حل لهم﴾^(٨) فلا عليكم أن تطعموهم لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساء لهم إطعامهم. ﴿المحصنات﴾ الحرائر أو العفاف وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم، والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق، وكذلك نكاح غير العفاف منهن، وأما الإماء الكتابيات فعند أبي حنيفة هن كالمسلمات، وخالفه الشافعي، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات، ويحتج بقوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾^(٩)، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها إن ربها عيسى. وعن عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ ﴿محصنين﴾ إعفاء ﴿ولا متخذي أخدان﴾ صدائق، والخن: يقع على الذكر والانثى. ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾

علم من الحيل وطرق التأديب والتتقيف، واشتقاقه من الكلب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرت في جنسه، أو لأن السبع يسمى كلباً. ومنه قوله عليه السلام: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله الأسد»^(١). أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة، يقال: هو كلب بكذا إذا كان ضارياً به، وانتصاب ﴿مكلبين﴾ على الحال من ﴿علمتم﴾.

فإن قلت: ما فائدة هذه الحال، وقد استغني عنها بـ ﴿علمتم﴾؟ قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريراً في علمه مديراً فيه موصوفاً بالتكليب، و ﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جلية^(٢)، وهي: أن على كل أحد علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم برأية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه. وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من أخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعرض عند لقاء النحارير أنامله. ﴿مما علمكم الله﴾ من التكليب لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وإنزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمسك الصيد عليه وإن لا ياكل منه. وقرئ: مكلبين بالتخفيف، وأفعل وفعل يشتركان كثيراً. والإمسك على صاحبه أن لا ياكل منه؛ لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم: «وإن أكل منه فلا تاكل، إنما أمسك على نفسه»^(٣). وعن علي رضي الله عنه: إذا أكل البازي فلا تاكل^(٤). وفرق العلماء فاشتروا في سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدب بالضرب ولم يشترطوه في سباع الطير، ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلاً ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة رضي الله عنهم: إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه، وذكر اسم الله عليه فكل^(٥).

فإن قلت: إلام رجع الضمير في قوله: ﴿وأنكروا لسم الله عليه﴾؟ قلت: إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم نكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح، أي: سموا عليه عند إرساله.

= النكاح، باب: في الرجل يتزوج امرأة إلخ.
(٨) قال أحمد: وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة؛ لأن التحليل حكم، وقد علقه بهم في قوله: ﴿وطعامكم حل لهم﴾ كما علق الحكم المؤمنين، وهذه الآية إبتين في الاستدلال بها، من قوله: ﴿ولا حل لهم﴾، ولا هم يحلون لهن، فإن لقاتل أن يقول في تلك الآية نفى الحكم، ليس بحكم ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه؛ لأن الحكم فيها مثبت، والله أعلم، ولما استشعر الزمخشري دلالتها على ذلك، وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين، أي: لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب كما رأيته في كلامه أيضاً.

(٩) سورة البقرة، الآية: 221.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک 539/2.
(٢) قال أحمد: وفي الآية دليل على أن البهائم لها علم؛ لأن تعليمها معناه لغة تحصيلي العلم لها، بطرقه خلافاً لمنكري ذلك.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الصيد والنبات، باب: إذا أكل الكلب الحديث (5483)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والنبات، باب: الصيد بالكلاب المعلمة الحديث (4958).
(٤) لم أجده ولم يخرج الزيلعي 379/1.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة 358/5، في كتاب: الصيد، باب: من رخص في أكله 358/5.
(٦) ابن أبي شيبة 161/4، في كتاب: النكاح، باب: في الرجل يتزوج المرأة إلخ.
(٧) أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب: النبات، باب: ما جاء في التسمية على النبیحة الحديث (5)، وابن أبي شيبة 161/4، كتاب: =

بشرائع الإسلام وما أحل الله وحرم.

يَتَأَيَّأُ الْآيَاتِ مَأْمُوتًا إِذَا مُتُّهُ إِلَى الْمَكَلَّةِ فَأَغْلَبُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَاقِي وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْبُوعَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْفِئُوا إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ إِذَا نَسِيتُمْ الْإِنْسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صِيدَا طَيْنًا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لِمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ (١) كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (٢) وكقولك: إِذَا ضَرَبْتَ غَلَامَكَ فَهَوِّنْ عَلَيْهِ، فِي أَنْ الْمَرَادُ إِرَادَةُ الْفَعْلِ.

فَإِنْ قُلْتُ: لَمْ جَاز أَنْ يُعْبَرُ عَنْ إِرَادَةِ الْفَعْلِ بِالْفَعْلِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْفَعْلَ يُوْجَدُ بِقَدْرَةِ الْفَاعِلِ عَلَيْهِ وَإِرَادَتِهِ لَهُ وَهُوَ قَصْدُهُ إِلَيْهِ وَمِيلُهُ وَخُلُوصُ دَاعِيهِ، فَكَمَا عُبِّرَ عَنِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفَعْلِ بِالْفَعْلِ فِي قَوْلِهِم: الْإِنْسَانُ لَا يَطِيرُ وَالْأَعْمَى لَا يَبْصُرُ، أَيْ: لَا يَقْدِرَانِ عَلَى الطَّيْرَانِ وَالْإِبْصَارِ. وَمَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٣) يَعْنِي: إِنَّا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى الْإِعَادَةِ كُنْتُكَ عُبِّرَ عَنْ إِرَادَةِ الْفَعْلِ بِالْفَعْلِ وَنَدَّكَ لِأَنَّ الْفَعْلَ مُسَبَّبٌ عَنِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ فَاتَّقِيبُ الْمُسَبَّبِ مَقَامَ السَّبَبِ لِلْمَلَابَسَةِ بَيْنَهُمَا، وَإِيجَازُ الْكَلَامِ وَنَحْوُهُ مِنْ إِقَامَةِ الْمُسَبَّبِ مَقَامَ السَّبَبِ قَوْلِهِم: كَمَا تَدِينُ تَدَانِ، عُبِّرَ عَنِ الْفَعْلِ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْجَزَاءِ بِلَفْظِ الْجَزَاءِ الَّذِي هُوَ مُسَبَّبٌ عَنْهُ. وَقِيلَ: مَعْنَى قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ: قَصْدْتُمُوهَا، لِأَنَّ مِنْ تَوَجُّعِهِ إِلَى شَيْءٍ وَقَامَ إِلَيْهِ كَانَ قَاصِدًا لَهُ لَا مُحَالَةً فَعُبِّرَ عَنِ الْقَصْدِ لَهُ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتُ (٤): ظَاهَرُ الْآيَةِ يُوْجِبُ الْوُضُوءَ عَلَى كُلِّ قَائِمٍ إِلَى الصَّلَاةِ مُحَدَّثٌ وَغَيْرَ مُحَدَّثٍ، فَمَا وَجْهُهُ؟ قُلْتُ: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ فَيَكُونُ الْخُطَابُ لِلْمُحْدِثِينَ خَاصَّةً، وَأَنْ يَكُونَ لِلذَّنْبِ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ أَنَّهُمْ

كَانُوا يَتَوَضَّؤْنَ لِكُلِّ صَلَاةٍ (٥)، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طَهْرٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ» (٦). وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ كَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلَاةٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ مَسَحَ عَلَى خَفِيهِ فَصَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ بَوَضُوءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: صَنَعْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ. فَقَالَ: «عَدَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ» (٧)؛ يَعْنِي: بَيَانًا لِلْجَوَابِ.

فَإِنْ قُلْتُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ شَامِلًا لِلْمُحْدِثِينَ وَغَيْرِهِمْ، لَهُؤْلَاءَ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَابِ وَلَهُؤْلَاءَ عَلَى وَجْهِ الذَّنْبِ؟ قُلْتُ: لَا لِأَنَّ تَنَاوُلَ الْكَلِمَةِ لِمَعْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنْ بَابِ الْإِلْفَازِ وَالتَّعْمِيَةِ، وَقِيلَ: كَانَ الْوُضُوءُ لِكُلِّ صَلَاةٍ وَاجِبًا أَوَّلَ مَا فَضَرَ ثُمَّ نَسَخَ. «إِلَى» تَقْدِيدُ مَعْنَى الْغَايَةِ مُطْلَقًا فَأَمَّا بِخَوْلِهَا فِي الْحُكْمِ وَخُرُوجِهَا فَاثِمٌ يَدُورُ مَعَ الدَّلِيلِ قَمَمًا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْخُرُوجِ قَوْلُهُ: «فَنَظَرْتُ إِلَى مَيْسِرَةٍ» (٨)؛ لِأَنَّ الْإِعْسَارَ عِلَّةُ الْإِنْتَظَارِ وَبُيُوجُودِ الْمَيْسِرَةِ تَزُولُ الْعِلَّةُ وَلَوْ لَخَلَّتِ الْمَيْسِرَةُ فِيهِ لَكَانَ مُنْتَظَرًا فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ مَعْسَرًا وَمُوسَرًا، وَكَذَلِكَ «ثُمَّ أَتَمَّوُا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» (٩)، لَوْ دَخَلَ اللَّيْلُ لَوَجِبَ الْوُضُوءُ، وَمِمَّا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الدِّخُولِ قَوْلُهُ: حَفِظْتُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَسْقُوقًا لِحِفْظِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَنْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» (١٠) لَوُقُوعُ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا يَسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ، وَقَوْلُهُ: «إِلَى الْمَرَاقِقِ» وَ«إِلَى الْكَعْبَيْنِ» لَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَاتَّخَذَ كَافَةً الْعُلَمَاءُ بِالِاحْتِيَاظِ فَحَكَمُوا بِدُخُولِهَا فِي الْفَسْلِ، وَأَخَذَ زُفَرٌ وَدَاوُدُ بِالْمُتَقِينِ، فَلَمْ يَدْخُلَاهَا، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَدِيرُ الْمَاءَ عَلَى مَرْفَقَيْهِ (١١). «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» الْمَرَادُ إِصْطَاقُ الْمَسْحِ بِالرَّأْسِ وَمَسْحُ بَعْضِهِ وَمُسْتَوْعِبُهُ بِالْمَسْحِ كِلَاهُمَا مُلْصَقٌ لِلْمَسْحِ بِرَأْسِهِ، وَقَدْ أَخَذَ مَالِكٌ بِالِاحْتِيَاظِ فَالْوَجِبُ الْاسْتِيعَابُ أَوْ أَكْثَرُهُ عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَةِ، وَأَخَذَ الشَّافِعِيُّ بِالْيَقِينِ فَالْوَجِبُ أَقَلُّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَسْحِ. وَأَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ بِبَيَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَا رَوَى أَنَّهُ مَسَحَ عَلَى نَاصِيَتِهِ (١٢)، وَقَدَّرَ النَّاصِيَةَ بِرَبْعِ الرَّأْسِ. (١٣) قَرَأَ

(٦) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ: الطَّهَارَةِ، بَابِ: الرَّجُلُ يَجِدُ الْوُضُوءَ مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ الْحَدِيثِ (٦٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ: الطَّهَارَةِ، بَابِ: الْوُضُوءُ لِكُلِّ صَلَاةٍ الْحَدِيثِ (٥٩)، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي كِتَابِ: الطَّهَارَةِ، بَابِ: الْوُضُوءُ عَلَى الطَّهَارَةِ الْحَدِيثِ (٥١٢).

(٧) مُسْلِمٌ ذَكَرَ الْمَسْحَ فِي الْحَدِيثِ، رَاجَعَ الْحَدِيثَ (٤٣٤): (٣).

(٨) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ: ٢٨٠.

(٩) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ: ١٨٧.

(١٠) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ، آيَةُ: ١.

(١١) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي كِتَابِ: الطَّهَارَةِ، بَابِ: وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَدِيثِ (١٥).

(١٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ: الطَّهَارَةِ، بَابِ: الْمَسْحِ عَلَى النَّاصِيَةِ وَالْعِمَامَةِ الْحَدِيثِ (٦٣٢).

(١٣) قَالَ أَحْمَدُ: وَلَمْ يُوْجِبْ الْجَرُّ بِمَا يَشْفِي الْغُلِيلَ، وَالْوَجْهُ فِيهِ: لَنْ الْغُسْلَ وَالْمَسْحَ مُتَقَارِبَانِ، مِنْ حَيْثُ لَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِمْسَاسٌ بِالْعَضْوِ، فَيَسُولُ عَطْفُ الْمَغْسُولِ عَلَى الْمَسْحُوحِ، مِنْ ثَمَّ كَقَوْلِهِ: مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرِمَحًا وَعَلَقْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

(١) قَالَ أَحْمَدُ: هَذَا الْكَلَامُ يَسْتَقِيمُ وَرُودُهُ مِنَ السَّنَنِ، كَمَا يَسْتَقِيمُ مِنَ الْمُعْتَزَلِيِّ؛ لِأَنَّا نَقُولُ الْفَعْلَ يُوْجَدُ بِقَدْرَةِ الْعَبْدِ مُلْتَبَسًا بِهَا، وَمَقْلَرْنَا لَهَا، وَالْمُعْتَزَلِيُّ يَقُولُهُ، وَيَعْنِي: مَخْلُوقًا بِهَا، وَنَاشِئًا عَنْ تَأْثِيرِهَا، فَالْعِبَارَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمَذْهَبَيْنِ، وَلَكِنْ بِاخْتِلَافٍ لِمَعْنَى، وَالْهُ مُوْفَّقٌ.

(٢) سُورَةُ النَّحْلِ، آيَةُ: ٩٨.

(٣) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ، آيَةُ: ١٠٤.

(٤) قَالَ أَحْمَدُ: الرَّمَحْضَرِيُّ اشْتَرَكَا أَنْ يَرَادَ بِالْمَشْرُوكِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مَعَانِيهِ عَلَى الْجَمْعِ، وَقَدْ سَبَقَ لَهُ إِنْكَارُ ذَلِكَ، وَمِنْ جَوِّزِ إِرَادَةِ جَمِيعِ الْمَحَامِلِ إِجَازَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ، وَمِنْ الْمَجْزُوزِينَ لِذَلِكَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَنَاهَاكَ بِإِمَامِ الْفَنِّ وَقَبُوتِهِ، هَذَا إِذَا وَقَعَ الْبِنَاءُ عَلَى أَنْ صِيغَةُ أَفْعَلٍ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْوُجُوبِ وَالذَّنْبِ، صَحَّ تَنَاوُلُهَا فِي الْآيَةِ لِلْفَرِيقَيْنِ الْمُحْدِثِينَ، وَالْمُتَطَهِّرِينَ وَتَنَاوُلُهَا لِلْمُتَطَهِّرِينَ مِنْ حَيْثُ الذَّنْبِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٥) ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٢٩/١، كِتَابُ: الطَّهَارَاتِ، بَابِ: مَنْ كَانَ يَتَوَضَّأُ إِذَا صَلَّى...

﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ أي: عاقبتكم به عقداً وثيقاً، وهو الميثاق الذي أخذته على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره. فقالوا: وقالوا سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَدْلُوا أَعْدَاءَهُمْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨).

عَدَى ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم، ويجوز أن يكون قوله: أن تعتنوا، بمعنى على أن تعتنوا، فحذف مع أن. ونحوه قوله عليه السلام: «من اتبع على مليء فليتبّع» (٦) لأنه بمعنى أحيل. وقرئ: شَتَانُ بالسكون، ونظيره في المصادر لِيَان، والمعنى: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتنوا عليهم، بأن تنتصروا منهم، وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن، بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قنف أو قتل أولاد أو نساء، أو نقض عهد، أو ما أشبه ذلك. ﴿اعملوا هو اقرب للتقوى﴾ نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالامر بالعدل تأكيداً وتشديداً ثم استأنف فنكر لهم وجه الامر بالعدل، وهو قوله: ﴿هو اقرب للتقوى﴾: أي: العدل اقرب إلى التقوى وأدخل في مناسبتها، أو اقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها، وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحبائه.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩).

﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنه قال: قَدْ لهم وعداً فقيل: أي شيء وعده لهم؟ فقيل: لهم مغفرة وأجر عظيم، أو يكون على إرادة

جماعة: وأرجلكم بالنصب، فدل على أن الأرجل مغسولة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما تصنع بقراءة الجرح وبخولها في حكم المسح! قلنا: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنموم المنهي عنه فغطت على الثالث الممسوح لا لتمسح ولكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: ﴿إلى الكعبيين﴾ فجاء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن علي رضي الله عنه أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً، فقال: «ويل للأعقاب من النار». فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلًا ويملكونها لذلك. وعن ابن عمر: كنا مع رسول الله ﷺ فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح، فقال: «ويل للأعقاب من النار» (١). وفي رواية جابر: «ويل للعراقيب» (٢). وعن عمر: أنه رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه فأمره أن يعيد الوضوء وذلك للتغليظ عليه (٣)، وعن عائشة رضي الله عنها: لأن تقطعا أحب إلي من أن أمسح على القدمين بغير خفين (٤)، وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين (٥)، وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح، وعن الحسن أنه جمع بين الأمرين، وعن الشعبي: نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن: وأرجلكم بالرفع، بمعنى: وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبيين. وقرئ: فاطهروا، أي: فطهروا أبدانكم، وكذلك ليظهركم. وفي قراءة عبد الله: فَأَمُوا صعيداً. ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ في باب الطهارة حتى لا يرخص لكم في التيمم، ﴿ولكن يريد ليظهركم﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء. ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فيتيحكم.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٠).

﴿وانذكروا نعمة الله عليكم﴾ وهي نعمة الإسلام

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب: غسل العراقيب الحديث (453)، وأحمد في المسند 369/3، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (573)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطهارة، باب: إيجاب غسل الرجلين الحديث (111)، وأبو يعلى عن عائشة الحديث (4426).

(3) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 36/1، الحديث (118).

(4) قال الزيلعي: رواية غريبة 387/1، وقال ابن الجوزي: مرفوع على عائشة رضي الله عنها [العلل المتناهية].

(5) لم أجده ولم يخرج الزيلعي 387/1.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة الحديث (2287)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني... الحديث (3978).

= ونظائره كثيرة، وبهذا وجه الحناق، ثم يقال: ما فائدة هذا التشريك بيلة التقارب، وهذا أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة، فيقال: فائتته الإيجاز والاختصار، وتوكيد الفائدة بما نكره الزمخشري، وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلاً: وأغسلوا أرجلكم غسلًا خفيفًا، لا إسراف فيه كما هو المعتاد، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح، وبه بهذا التشريك الذي لا يكون، إلا في الفعل الواحد، أو الفعلين المتقاربين جداً على أن الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب المسح، وحسن إدراجها معه تحت صيغة واحدة، وهذا تقرير كامل لهذا المقصود، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري بنحوه في كتاب: العلم، باب: من رفع صوته بالعلم الحديث (60)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (569).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستغلال بالشجر الحديث (2913)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: توكله على الله تعالى وعصمه الله تعالى من الناس الحديث (5909).

مِمَّا كُنْتُمْ تُفْعُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥).

﴿يا أهل الكتاب﴾ خطاب لليهود والنصارى. ﴿مما كنتم تفعلون﴾ من صفة رسول الله ﷺ ومن نحو الرجم. ﴿ويعفوا عن كثير﴾ مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته مما لا بد من بيانه، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن: ويعفوا عن كثير منكم، لا يؤاخذ. ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك وإبائته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز.

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦).

﴿من اتبع رضوانه﴾ من آمن به. ﴿سبل السلام﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو سبل الله.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ مَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَكَانَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ الشَّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧).

قولهم: ﴿إن الله هو المسيح﴾ معناه: بت القول على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير، قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، وقيل: ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدير أمر العالم. ﴿فمن يملك من الله شيئاً﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيطته شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك﴾ من دعوه إلهاً من المسيح وأمه، دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وأراد بعطف من في الأرض على المسيح وأمه أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي: يخلق من نكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير نكر وأنثى كما خلق آدم، أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجري على يده.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ

والمغشوش فيه يبس وصلابة، والقاسي والقاسح بالحاء أخوان في الدلالة على اليبس والصلابة. وقرئ: قسية بكسر القاف للإتباع. ﴿يحرقون الكلم﴾ بيان لقسوة قلوبهم لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير حيه. ﴿ونسوا حظاً﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً وقسطاً وأحياناً ﴿مما نذكروا به﴾ من التوراة. يعني: أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو قست قلوبهم وفسدت فحرقوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية^(١)، وتلا هذه الآية، وقيل: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته، ﴿ولا تزال تطلع﴾ أي: هذه عانيتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك ينكثون عهدك ويظاهرون المشركين على حريك ويهمون بالفتك بك وإن يسموك. ﴿على خائنة﴾ على خيانة، أو على فعلة ذات خيانة، أو على نفس أو فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل رواية للشعر، للمبالغة. قال:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للخدر خائنة مغل الأصبع وقرئ: على خيانة منهم إلا قليلاً منهم وهم الذين آمنوا منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ بعث على مخالفتهم، وقيل: هو منسوخ بآية السيف. وقيل: فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم. ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ أخذنا من النصارى ميثاق من نكر قبلهم من قوم موسى، أي: مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسل وإفعال الخير، أو أخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك.

فَإِنْ قُلْتَ^(٢): فها قيل: من النصارى؟ قلْتَ: لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاءً لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصاراً للشيطان.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَكْثَرًا مِّمَّنْهُمْ فَسَوَاهَا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْاُفْئِكَةِ وَسَوْفَ يُنْفِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٨).

﴿فاغرينا﴾ فالقصنا والزمننا، من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغراء الذي يلصق به. ﴿بينهم﴾ بين فرق النصارى المختلفين، وقيل: بينهم وبين اليهود ونحوه. ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾^(٣)، ﴿أو يلبسكم شيعاً وينيق بعضهم بأس بعض﴾^(٤).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

(1) أخرجه الدارمي في السنن 1/117 الحديث (376).

(2) قال أحمد: وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضع، بإسناد النصرانية إلى دعواهم، ولم يتفق ذلك في غيره إلا ترى إلى قوله تعالى، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، فالوجه في ذلك، والله أعلم، أنه لما كان المقصود في هذه الآية منهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرة الله تعالى، ناسب ذلك أن يصدر =

= الكلام، بما يدل على أنهم لم ينصروا الله، ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوة النصرة، وقولها بون فعلها، والله أعلم.

(3) سورة الانعام، الآية: 129.

(4) سورة الانعام، الآية: 65.

وَلَيْلَ مَلِكِ السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَلِإِلَهِ السَّمِيرِ (٨).

﴿ابناء الله﴾ أشياع ابني الله عزيز^(١) والمسيح، كما قيل لأشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير: الخبيبون، وكما كان يقول رهط مسيلمة نحن أنبياء الله، ويقول أقرباء الملك ونووه وحشمه: نحن الملوك، ولذلك قال مؤمن آل فرعون ﴿لكم الملك اليوم﴾. ﴿فلم يعذبكم بنوبيكم﴾ فإن صَحَّ أنكم أبناء الله وأحبائهم فلم تنبئون وتعذبون بنوبيكم فتمسخون وتمسك النار أياماً معدودات على زعمكم، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب، ولو كنتم أحبباء لما عصيتموه ولما عاقبكم ﴿بل أنتم بشر﴾ من جملة من خلق من البشر. ﴿يغفر لمن يشاء﴾^(٢) وهم أهل الطاعة، ﴿ويعذب من يشاء﴾ وهم العصاة.

يَأْمُرُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولًا يَنْبَغِي لَكُمْ عَلَى قَوْلِهِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩).

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ إما أن يَقَرَّ المبين وهو الدين والشرائع وحفنه لظهور ما ورد الرسول لتبيينه، أو يَقْدَرُ ما كنتم تخفون وحفنه لتقدم نكره، أو لا يَقَرَّ ويكون المعنى: يبذل لكم البيان، ومحلّه النصب على الحال، أي: مبيناً لكم و ﴿على فترة﴾ متعلق بجاءكم، أي: جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا. ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتزوا فقد جاءكم. وقيل: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة، وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة وثلاثون. وعن الكلبي: كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء ثلاث من بني إسرائيل وواحد من العرب: خالد بن سنان العباسي. والمعنى: الامتنان عليهم وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه

(١) قال أحمد: ومنه قول الملائكة: لأنهم خواص عباد الله ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم﴾، إلى قوله: ﴿إلا أمراته قُتِلَتْ﴾ إنا لمن الغابرين ﴿فأضاقوا التقدير إليهم، وفي الحقيقة المقر الله، وكذلك قول الدابة: لأنها من خواص آيات الله: ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَیُؤْتُونَ﴾ فيمن جعله من قول الدابة، والله أعلم.

(٢) قال أحمد رحمه الله: بل مشيئة الله تعالى تسع للثائب المنيب، والعاصي العصر، إذا كان موحداً، والمُخْشَرِي أخرج هذا التفسير على قاعته المتكررة في غير ما موضع، وهي: القطع بوعيد العصاة المصيرين الموحدين، وأن لهم المغفرة محال.

(٣) قال أحمد والحامل على تفسير الملك بهذه التفسير أن الله تعالى أنبأ في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكاً بقوله، وجعلكم ملوكاً، ولم يقل وجعل فيكم ملوكاً، كما قال جعل فيكم أنبياء، فلما عمم الملك فيهم، ولا شك أن الملك المعهود هو الاستيلاء العام، لم

ويعنوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتلزمهم الحجة، فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبهم عن غفلتهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ (١٠).

﴿جعل فيكم أنبياء﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وجعلكم ملوكاً﴾^(٣) لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه وبعد الجبابة ملكهم، لأن الملوك كثأروا فيهم كثأر الأنبياء، وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله فسمى إناذهم ملكاً. وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل: من له بيت وخدم. وقيل: من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق. ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ من فلق البحر وإغراق العنق وتظليل القمام وإنزال المَنَّ والسلى وغير ذلك من الأمور العظام. وقيل: أراد علمي زمانهم.

يُغَوِّرُ أَهْلُوا الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَزِدُوا عَلَيْهَا ذِكْرًا فَلْيَقْبَلُوا خَيْرِينَ (١١).

﴿الأرض المقدسة﴾ يعني: أرض بيت المقدس. وقيل: للطور وما حوله. وقيل: الشام. وقيل: فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثاً لولده حين رفع على الجبل، فقيل له: انظر فلك ما أترك بصرى. وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿كتب الله لكم﴾ قسمها لكم وسماها، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم. ﴿ولا تزدوا على أنباركم﴾ ولا تنكصوا على أعقابكم منبرين من خوف الجبابة جبناً وهلعاً. وقيل: لما حدثهم النقياء بحال الجبابة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ويجوز أن يراد: لا تزدوا على أنباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم، فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

= يثبت لكل أحد منهم، فباعتين حمل الملك على ما كان ثابتاً لجميعهم، أو لأكثرهم من الأيعاض المنكورة هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك، والله أعلم، وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم، إلا أنه كان ثابتاً لملوكهم وهم منهم إذ إسرائيل الأب الأقرب يجمعهم، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم جاز الامتنان عليهم بهذه الصنيعة، والمعنى مفهوم، وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفاً في قول لليهود، والنصارى نحن أبناء الله وأحبائهم، وما بالعهد من قدم، فإن قلت: فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء؛ لأن الأنبياء منهم كما قلت في الملوك. قلت: النبوة مزية غير الملك، وأحد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكاً، ولا كذلك النبوة، فإن درجتها أرفع من أن يشارك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها، وخصوصيتها، ونعتها، فهذا هو سبب تمييز الأنبياء وتعميم الملوك، والله أعلم.

ذهلها حقيقةً بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرةً، والدليل عليه مقابلة ذهلها بقعودهم. ويحكى: أنَّ موسى وهرون عليهما السلام خزا لوجوههما قدامهم؛ لشدة ما ورد عليهما فهموا برجمهما، ولامر ما قرن الله اليهود بالمشركين، وقدمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (2) لما عصوه وتمردوا عليه وخلفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي تَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥﴾

﴿قال رب إني لا أملك﴾ (3) لنصرة دينك ﴿إلا نفسي وأخي﴾ وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي يمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة. ونحوه قول يعقوب عليه السلام: ﴿إنما أشكوا بشي وحزني إلى الله﴾ وعن علي رضي الله عنه: أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة فما لجابه إلا رجلاً، فتنفس الصعداء ودعا لهما، وقال: أين تقعان مما أريد؟ ونكر في إعراب أخي وجوه أن يكون منصوباً عطفاً على نفسي، أو على الضمير في إني بمعنى ولا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، ومرفوعاً عطفاً على محل إن واسمها، كأنه قيل: أنا لا أملك إلا نفسي وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه، أو على الضمير في لا أملك، وجاز للفصل، ومجروراً عطفاً على الضمير في نفسي، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور إلا بتكرير الجار.

فإن قلت: أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ناق على طول الزمان واتصال الصحبة من لحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم ينكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره، ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منه تقليلاً لمن يوافقه، ويجوز أن يريد: ومن يؤلخيني على ديني. ﴿فأفرق﴾ فافصل ﴿بيننا﴾ وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم ولذلك وصل به قوله: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ على وجه التسييب، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿ونجني من القوم

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّى يَبْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٦﴾

الجبار: فعال من جبره على الأمر بمعنى: لجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا آذَلُوا عَلَيْهِمُ الْكِبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَكُلَّ اللَّهِ فَنَزَّلْنَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿قال رجلان﴾ هما كالب ويوشع، ﴿من الذين يخافون﴾ من الذين يخافون الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلان من المتقين، ويجوز أن تكون الواو لبني إسرائيل والراجع إلى الموصول مخوف تقديره من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون وهما رجلان منهم. ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإيمان فأمننا، قالا لهم: إن العملاقة أجسام لا قلوب فيها فلا تخافوهم وازحقوا إليهم فإنكم غالبوهم يشجعانهم على قتالهم. وقراءة من قرأ يخافون بالضم شاهدة له، وكذلك أنعم الله عليهما، كأنه قيل: من المخوفين. وقيل: هو من الإخافة، ومعناه: من الذين يخوفون من الله بالتنكرة والموعظة، أو يخوفهم وعيد الله بالعقاب.

فإن قلت: ما محل ﴿أنعم الله عليهما﴾ قلت: إن انتظم مع قوله: ﴿من الذين يخافون﴾ في حكم الوصف لرجلان مرفوع، وإن جعل كلاماً معترضاً فلا محل له. فإن قلت: من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك، وقوله تعالى: ﴿كتب الله لكم﴾. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرته رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبارة والياب باب قريتهم.

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنذُرُكَ إِنْ دَاوَرْنَا فِيهَا فَادْعِ أَنتَ وَرَبَّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَائِدُونَ ﴿١٨﴾

﴿لن نذللها﴾ نفى للخلولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس، و﴿أبدأ﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاوول، و﴿دأوا فيها﴾ بيان للأبد. ﴿فأذهب أنت وربك﴾ (1) يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب، ولكن كما نقول: كلمته فذهب، يجيبني: تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنهم قالوا: أريدنا قتالهم، والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانةً بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا

= وتكريره هذا القول مراراً مصداق، لما ذكره الزمخشري، وأما إن كان المراد بالرجلين غير يوشع، وكالب، وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل، ويكون معنى يخافون، أي: يخافهم بنو إسرائيل، فالضمير على هذا يرجع إلى بني إسرائيل، والعائد مخوف، وهو المفعول، فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بني إسرائيل المكتوب عليهم قتال العملاقة، وإنما عن موسى عليه السلام، إني لا أملك من بني إسرائيل، المفروض عليهم القتال أمر أحد، إلا نفسي وأخي، والله أعلم.

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد الزمخشري سألوا رؤية الله جهرة، وهي محال عقلاً تمتناً منهم، وقد مر له ذلك وبيننا أن تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الإيمان به على التعمين اقتراحاً، وتقاعساً عن الحق في قوله: ﴿لن نؤمن لك﴾، حتى نرى الله جهرةً.

(2) سورة المائدة، الآية: 82.

(3) قال أحمد: وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء لتبيننا عليه الصلاة والسلام: إني جرّيت بني إسرائيل، وخبرتهم فارجع إلى ريبك، فأسأله التخفيف، فلن أملك لا تطبيق ذلك، =

الظالمين^(١).

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوَرِ الْفَتِيرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿فإنها﴾ ﴿فإن الأرض المقدسة﴾ ﴿محرمة عليهم﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها.

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله: ﴿التي كتب الله لكم﴾^(٢)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم. والثاني: أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب. فقد روي: أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء، وأقام فيها ما شاء الله، ثم قبض صلوات الله عليه، وقيل: لما مات موسى بعث يوشع نبياً فأخبرهم بأنه نبي الله، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فصنعوه وبايعوه، وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم، وصار الشام كله لبني إسرائيل. وقيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال: إننا لن ندخلها وهلكوا في التيه. ونشأت نواشئ من نرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها. والعامل في الظرف إما محرمة وإما يتيهون، ومعنى ﴿يتيهون في الأرض﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً، والتهيه المفازة التي يتاه فيها. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرين كل يوم جادين حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله.

فإن قلت: فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون! قلت: كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركاً لهم وعليهم مع تلك النعمة متظاهرة، ومثل ذلك مثل الولد المشفق بضرب ولده ويؤذيه ليتأنب ويتقف ولا يقطع عنه معروفة وإحسانه.

فإن قلت: هل كان معهم في التيه موسى وهرون عليهما السلام؟ قلت: اختلف في ذلك، فقيل: لم يكونا معهم لأنه كان عقاباً، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم، وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وسلامة لا عقوبة كالنار لإبراهيم وملائكة العذاب. وروي: أن هرون مات في التيه، ومات موسى بعده فيه بسنة، ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر، ومات النقيب في التيه بغتة، إلا كaleb ويوشع. ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن عليهم لأنه ندب على الدعاء عليهم، فقيل: إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب فلا تحزن ولا تندم.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَكَمْ يَسْتَعِجِلُ مِنَ الْآخِرِ قَالِ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مَنْ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

هما ابن آدم لصلبه قابيل وهابيل أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما تومة الآخر، وكانت تومة قابيل أجمل واسمها إقليما، فحسد عليها أخاه وسخط، فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما تقبل زوجا. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فاكلته، فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل. وقيل: هما رجلان من بني إسرائيل. ﴿بالحق﴾ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة، واتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد؛ لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ويبغون عليه، أو اتل عليهم وأنت محق صادق. ﴿وإذ قربا﴾ نصب بالنبأ أي: قصتهم وحديثهم في تلك الوقت، ويجوز أن يكون بدلاً من النبأ، أي: اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت على تقدير المضاف، والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيسة أو صدقة كما أن الحلوان اسم ما يحلى، أي: يعطى، يقال: قرب صدقةً وتقرب بها لأن تقرب مطاوع قرب. قال الأصمعي: تقربوا قرب القمع، فبعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب.

فإن قلت: كيف كان قوله: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ جواباً لقوله: ﴿لاقتلنك﴾؟ قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل، قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول. فاجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما انعاه على أكثر العاملين أعمالهم. وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

لَبَنَ بَسَطَ إِلَهُ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْمَلَكِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفاً من الله؛ لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره.

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبَارَكُ إِلَهُي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٩﴾.

﴿إني أريد أن تنبأ بإثمي وإثمك﴾ أن تحتمل إثم قتلي لك لو قتلتك وإثم قتلك لي.

(2) سورة المائدة، الآية: 21.

(1) سورة التحريم، الآية: 11.

تمتع وله لزيادة الربط كقولك: حفظت لزيد ماله، وقيل: قتل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء، وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتَىٰ بِكَ أَعْجَزُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فبعث الله غراباً﴾ روي أنه أول قتيل قتل على وجه الأرض من بني آدم، ولما قتله تركه بالعراء لا يديري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين فاقترنلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألماه في الحفرة، ﴿قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ ويروي: أنه لما قتله أسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته، ولذلك أسود جسك. وروي: أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. ﴿ليريه﴾ ليريه الله أو ليريه الغراب، أي: ليعلمه، لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز. ﴿سواء أخيه﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، والسواء: الفضيحة لقبها. قال:

يا القوم للسواء السواء

أي: للفضيحة العظيمة، فكنتي بها عنها. ﴿فاواري﴾ بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ: بالسكون على فانا أواري، أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف. ﴿من النادمين﴾ على قتله لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره، وتبين له من عجزه وتلمذه للغراب وأسوداد لونه وسخط أبيه. ولم ينم ندم التائبين.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ مَن قَتَلَ نَفْسًا

فَأَنْ قُلْتُ: كيف يحمل إثم قتله له ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾؟ قلت: المراد بمثل إثمى على الاتساع في الكلام، كما تقول: قرأت قراءة فلان وكتبت كتابته تريد المثل، وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره. ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «المستبان ما قالاً فعلى البادي ما لم يعتد المظلوم»^(١). على أن البادي عليه إثم سبه ومثل إثم سب صاحبه لأنه كان سبباً فيه، إلا أن الإثم محطوط عن صاحبه معفو عنه لأنه مكافئ مدافع عن عرضه، ألا ترى إلى قوله: ما لم يعتد المظلوم، لأنه إذا خرج من حد المكافاة واعتدى لم يسلم.

فَأَنْ قُلْتُ: فحين كفر هابيل قتل أخيه واستسلم وتخرج عما كان محظوراً في شريعته من الدفع، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثم؟ قلت: هو مقدر فهو يتحمل مثل الإثم المقدر، كأنه قال: إني أريد أن تبوء بمثل إثمى لو بسطت يدي إليك، وقيل: بإثمى، بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك.

فَأَنْ قُلْتُ^(٢): فكيف جاز أن يرد شقاوة أخيه وتعذيبه بالنار؟ قلت: كان ظالماً وجزاء الظالم حسن، جائز أن يرد ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ وإذا جاز أن يريده الله جاز أن يريده العبد لأنه لا يريد إلا ما هو حسن، والمراد بالإثم وبإل القتل وما يجره من استحقاق العقاب.

فَأَنْ قُلْتُ^(٣): لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله: ﴿لئن بسطت... ما أنا بباسط﴾^(٤). قلت: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ولذلك اكده بالباء المؤكدة للنفي.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه﴾ فوسعته له ويسرته، من طاع له المرتع إذا اتسع. وقرأ الحسن: فطاوعت، وفيه وجهان: أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل، وأن يرد أن قتل أخيه، كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوَعته ولم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن السباب الحديث (6534).

(2) قال أحمد: وهذا من دسه للمعتقد الفاسد في بيان كلامه، والفاسد من هذا، اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مراداً الله تعالى، وتلك القبائح بجملتها، فإنها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية، وهذا هو الشرك الخفي، فليكن أن تحوم حول شركه، والعباد بالله، فاما إراتته لإثم أخيه وعقوبته، فعننا: إني لا أريد أن أقتلك، فأعاقب ولما يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه، فيقتل أخاه، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم، وكان غير مرید للاول اضطُر إلى الثاني، فلم يرد إذا إثم أخيه لعينه، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤنية إلى القتل، ولم تكن حينئذ مشروعة، فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه، وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة، ومعناها أن يبوء الكافر بقتله، وبما عليه في ذلك من الإثم، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله، ضمناً، وتبعاً، والذي

يدل على ذلك أنه لا فرق في حصول درجة الشهادة، وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر، وبين أن يختم له بالإيمان، فيحبط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيداً، أعني نفي الإثم على قاتله، أو حبط عنه إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته، ولا يزيدها ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً، لاختلف التمني باعتبار بقاءه، وإحباطه، فدل على أنه أمر لازم تبع لا مقصود، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل، لا تعطي سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير، أما اتصاف الذات به، فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل، ومن ثم يقولون: قام زيد، فهو قائم، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئاً عن صوره منه. ولهذا المعنى، قوله تعالى: ﴿لنكونن من المرجومين﴾ عولاً عن الفعل الذي هو لنرجمك إلى الاسم تغليظاً، يعنون: أنهم يجعلون هذه لشئوتها، ووقعها به، كالكسمة والعلامة الثابتة، ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به.

(4) سورة المائدة، الآية: 28.

يَتَرَى نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذُوا الْقَتْلَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٣٦)

﴿من أجل ذلك﴾ بسبب ذلك وبعلته. وقيل: أصله من أجل شراً إذا جناه باجلاً أجلاً. ومنه قوله:

وأهل خباء صالح ذات بينهم قد لحثروا في عجل أنا لجله
كأنك إذا قلت: من أجلك فعلت كذا، أريت من أن جنيت فعله وأوجبت، ويبدل عليه قولهم: من جراك فعلته، أي: من أن جررته بمعنى جنيت، وذلك إشارة إلى القتل المكنون، أي: من أن جنى ذلك القتل والكتب وجره. ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ ومن لا ابتداء للغاية، أي: ابتداء، والكتب نشأ من أجل ذلك. ويقال: فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال: لجل كذا بحذف الجار وإيصال الفعل. قال:

لجل أن الله قد فضلكم

وقرئ: من أجل ذلك بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر: من أجل ذلك بكسر الهمزة، وهي لغة، فإذا خفف كسر النون ملقياً لكسرة الهمزة عليها. ﴿بغير نفس﴾ بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاد، ﴿أو فساد﴾ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد ﴿في الأرض﴾ وهو الشرك. وقيل: قطع الطريق، ﴿ومن أحيائها﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك.

فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يبلي بما يبلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمة، وعلى العكس فلا فرق إذا بين الواحد والجميع في ذلك.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها، لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد: قاتل النفس جزاؤه جهنم وغضب الله والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن: يا ابن آدم أريت لو قتلنا الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي ذلك فيغفر لك به، كلا إنه شيء سولته لك نفسك والشيطان فكذلك إذا قتلنا واحداً. ﴿وبعد ذلك﴾ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿لمسرفون﴾ يعني: في القتل لا يبالون بعظمته.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة، 281/12، في كتاب الجهاد، بلب: فيمن

عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٧)

﴿يحاربون الله ورسوله﴾ يحاربون رسول الله ﷺ، ومحاربة المسلمين في حكم محاربته، ويسعون في الأرض فساداً، مفلسين، أو لأن سعيهم في الأرض كان على طريق الفساد نزل منزله ويفسدون في الأرض فلتنصب فساداً على المعنى، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. نزلت في قوم هلال بن عويم وكان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، وقد مر بهم قوم يريون رسول الله ﷺ فقطعوا عليهم، وقيل: في العرنيين، فلوحي إليه أن من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب، ومن أقر القتل قتل، ومن أقر أخذ المال قطعت يده لأخذ المال ورجله لإخافة السبيل، ومن أقر الإخافة نفي من الأرض. وقيل: هذا حكم كل قاطع طريق كافراً أو مسلماً. ومعناه ﴿أن يقتلوا﴾ من غير صلب وإن أقرروا القتل، ﴿أو يصلبوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: يصلب حياً ويطعن حتى يموت. ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ إن أخنوا المال، ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ إذا لم يزيلوا على الإخافة، وعن جماعة منهم الحسن والنخعي: أن الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والثفي: الحبس عند أبي حنيفة. وعند الشافعي: النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب فرعاً. وقيل: ينفي من بلده، وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد في أقصى تهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة. ﴿خزي﴾ ذل وفضيحة.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ (٣٨)

﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة، وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فإلى الأولياء إن شاؤوا عفا وإن شاؤوا استوفوا. وعن علي رضي الله عنه: أنه الحرث بن بدر جاءه تائباً بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة⁽¹⁾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٩)

الوسيلة: كل ما يتوسل به، أي: يتقرب، من قرابة أو صنعية أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي. وأنشد للبيد:
أرى الناس لا يدرون ما قدر لهم
الأكل ذي لب إلى الله واسل

قرأ أبو واقد: أن يخرجوا بضم الباء من أخرج، ويشهد لقراءة العامة قوله: ﴿بِخَارِجِينَ﴾⁽²⁾. وما يروى عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال: ويحك اقرأ ما فوقها هذا للكفار⁽³⁾، فمما لفقته المجبرة وليس بأول تكانيبهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله ﷺ وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنصاه من بني عبد المطلب وهو حبر الأمة وبحرها ومفسرها بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا ويرفعه إلى عكرمة ليليين ناصين أن الحديث: قرية ما فيها مرية.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨).

﴿والسارق والسارقة﴾⁽⁴⁾ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه، كأنه قيل: وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، أي: حكمهما، وجه آخر وهو أن يرتقعا بالابتداء والخبر. ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط لأن المعنى: والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَبَشَرًا مَكْرَهُ لَيَقْتُلُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا لَقِيلَ مِنْهُمْ وَكَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٩).

﴿ليقتلوا به﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم، وهذا تمثيل لزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه. وعن النبي ﷺ: يقال للكافر يوم القيامة: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكننت تقتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك⁽¹⁾، ولو مع ما في حيزه خبر أن. فَإِنْ قُلْتَ: لم وحد الراجع في قوله: ﴿ليقتلوا به﴾ وقد ذكر شيثان؟ قلت: هو نحو قوله:

فإنني وقياربها الغريب

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: ليقتلوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في ومثله بمعنى مع فيتوحد المرجوع إليه.

فإن قلت: قيم ينصب المفعول معه؟ قلت: بما يستدعيه لو من الفعل لأن التقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض.

يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ (٤٠).

= فهو محمول على هذا الإضمار، والله أعلم، وكذلك الزانية والزاني، لما قال جل ثناؤه: ﴿سورة أنزلناها، وفرضناها﴾ قال في جملة الفرائض الزانية، والزاني، ثم جاء، فاجلجوا بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه، لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المنكور بعد بل بني على محذوف متقدم، وجاء الفعل طارئة، قال: كما جاء. وقائلة حolan، فأنكح فتاتهم. فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمهر وكذلك والسارق والسارقة، وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، فإنما نخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث، وقد قرأ ناس السارق والسارقة بالنصب، وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة، ولكن أبت العامة إلا الرفع يريد سيبويه: أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدم، فكان النصب قوياً بالنسبة إلى الرفع، حيث يبنى الاسم على الفعل، لا على متقدم، وليس يعني أنه قوي بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم، فإنه قد بين أن ذلك يخرج من الباب الذي يختار فيه النصب، فكيف يفهم عنه ترجيعه عليه، والباب مع القراءتين مختلف، وإنما يقع الترجيع بعد التساوي في الباب، فالنصب أرجح من الرفع حيث يبنين الاسم على الفعل، والرفع متعين لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم، ثم حقق سيبويه هذا المقدّر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ولو كان كما ظنه الزمخشري لم يحتج سيبويه إلى تقدير، بل كان يرفعه على الابتداء، ويجعل الأمر خبره، كما أعربه الزمخشري، فالملخص على هذا أن النصب على وجه واحد، وهو: بناء الاسم على فعل الأمر، والرفع على وجهين أحدهما: ضعيف، وهو الابتداء، وبناء الكلام على الفعل، والآخر: قوي، بالغ، كوجه النصب، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف، دل عليه السياق، وحيثما تعارض لنا وجهان في الرفع، وأحدهما: قوي، والآخر: ضعيف، تعين حمل القراءة على القوي، كما أعربه سيبويه رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب الحديث (2538) وأخره: قد سئلت ما هو أيسر من ذلك، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً الحديث (7016).

(2) قال أحمد: في هذا الفصل من كلامه، وتمشقه بالسفامة على أهل السنة، ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكتب، والتخليق، والافتراء، ما يحصى الكذب المملوء بحب السنة، وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية، ولا وقف الله صحة العقيدة على صحتها.

(3) لم أجده. وقد أنكره الزيلعي 1/394.

(4) قال أحمد: المستقراً من وجوه القراءات، أن العامة لا تتفق فيها أبداً على العنول عن الأفصح، وجدير بالقرآن أن يجري على أقصص الوجوه، وأن لا يخلو من الأفصح، وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى نزوة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها وسببويه يحاشي من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح واشتماله على الشاذ الذي لا يعد من القرآن، ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية، ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل، قال سيبويه: في ترجمة باب الأمر والنهي، بعد أن ذكر المواضع التي يختار فيها النصب، وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر، فذاك موضع اختيار النصب، ثم قال كالواضح لامتياز هذه الآية، عما اختار فيها النصب، وأما قوله عز وجل: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا﴾ الآية، وقوله: ﴿الزانية والزاني، فاجلجوا﴾ فإن هذا لم يبين على الفعل، ولكنه جاء على مثال قوله مثل الجنة التي وعد المتقون، ثم قال بعد: فيها أنهار فيها كذا يريد سيبويه: تمييز هذه الآية عن المواضع التي بين اختيار النصب فيها، ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنياً على الفعل، وأما في هذه الآية، فليس بمبنين عليه، فلا يلزم فيه اختيار النصب وقال: وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصاً، فكانه قال: ومن القصص مثل الجنة، =

(١) قال أحمد: هو مبني على أن المراد بالمغفور لهم التائبون، وبالمعذنين السراق، ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة، إلا بقيد التوبة؛ لأن غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم ذكره، ونحن نعتقد أن المغفرة هي حق غير التائب من الموحدين تنبئ =

يذهبون إلى أنهم قد صولحوا على شركهم، وهو أعظم الحدود. ويقولون: إن النبي ﷺ رجم اليهوديين قبل نزول الجزية. «فلن يضروك شيئاً» لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم كالجلد مكان الرجم، فإذا عرض عنهم وأبى الحكومة لهم شق عليهم وتكروهوا إعراضه عنهم، وكانوا خلقاء بأن يعاونه ويضاروه فأمّن الله سره. «بالقسط» بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم.

كَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (١٧).

«وكيف يحكمونك» تعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابهم، مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به. «ثم يتولون من بعد ذلك» ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به. «وما أولئك بالمؤمنين» بكتابهم كما يدعون، أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم.

فَإِنْ قُلْتَ: فيها حكم الله، ما موضعه من الإعراب؟ قلت: إما أن ينتصب حالاً من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم، وإما أن يرتفع خبراً عنها، كقولك: وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله، وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم، كما تقول: عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع بغيره.

فَإِنْ قُلْتَ: لم أنتت التوراة؟ قلت: لكونها نظيرة لموامة وبدواة ونحوها في كلام العرب.

فَإِنْ قُلْتَ: علام عطف «ثم يتولون»؟ قلت: على «يحكمونك».

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوُوا اللَّهَ وَتَتَّقُوا يَأْتِيَنَّكُمْ تَنَابُؤٌ كَلِيمٌ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٨).

«فيها هدى» يهدي للحق والعدل «ونور» يبين ما استبهم من الأحكام «الذين أسلموا» صفة (١٨) أجريت على

كذبه أن ينزل علينا العذاب. ثم سأل رسول الله ﷺ عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون. وأمر رسول الله ﷺ الزانيين فرجما عند باب مسجده (١). «ومن» (٢) يرد الله فقتله تركه مفتوناً وخذلانه «فلن تملك له من الله شيئاً» فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً. «أولئك الذين لم يرد الله أن يمنهم من الطافه ما يطهر به قلوبهم؛ لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجح، إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم» (٣).

سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصْرُوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١٩).

«السحت» كل ما لا يحل كسبه، وهو من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة، كما قال تعالى: «يحق الربوا» (٤) والربا باب منه. وقرئ: السحت بالتخفيف والتثقيل، والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته، والسحت بفتحتين، والسحت بكسر السين، وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وعن الحسن: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا اتاه أحدهم برشوة جعلها في كفه. فأراها إياه وتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فياكل الرشوة ويسمع الكذب. وحكي أن عاملاً قدم من عمله فجاءه قومه فقدم إليهم العراضة وجعل يحتثم بما جرى له في عمله، فقال أعرابي من القوم: نحن كما قال الله تعالى: «سماعون للكذب أكالون للسحت» وعن النبي ﷺ: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به». قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وعن عطاء والنخعي والشعبي: أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين فإن شاوروا حكموا وإن شاوروا أعرضوا. وقيل: وهو منسوخ بقوله: «وان احكم بينهم بما أنزل الله» (٥) وعند أبي حنيفة رحمه الله: إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئاً أقيم عليه الحد، وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم،

(1) ابن إسحاق في المغازي [زيلي 1/396].

(2) قال أحمد رحمه الله: كم يتلجج، والحق أبلج، هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة، في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة، ووضر الكفر لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى، ما أراد الفتنة من أحد وأراد من كل أحد الإيمان، وطهارة القلب، وإن الواقع من الفتنة على خلاف إرادته، وإن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع فحسبهم هذه الآية، وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع، «فألا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»، وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها، بقوله: لم يرد الله =

= أن يمنهم الطافه، لعلمه أن الطافه لا تنجح فيهم، ولا تنفع تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وإذا لم تنجح الطاف الله تعالى، ولم تنفع، لطف من ينفع، وإرادة من تنجح، وليس وراء الله للمرء مطعم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 86.

(4) سورة البقرة، الآية: 276.

(5) سورة المائدة، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وإنما بعثه على حمل هذه الصفة، على المدح دون التفصّل والتوضيح أن الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها، فنذكر النبوة يستلزم ذكرها، فمن ثم حملها على المدح، وفيه نظر، فإن =

ظلموا آيات الله بالاستهانة وتمزّبوا بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الكافرين والظالمين والفساقين أهل الكتاب. وعنه: نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم، وما كان من مرّ فهو لأهل الكتاب، من جحدكم حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي: هذه في أهل الإسلام، والظالمون في اليهود، والفساقون في النصارى. وعن ابن مسعود: هو عام في اليهود وغيرهم. وعن حنيفة: أنتم أشبه الأمم سمّاً ببني إسرائيل، لتركيّن طريقهم حنو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، غير أنّي لا أدري أتعبون العجل أم لا.

وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١٥).

في مصحف أبي: وإنزل الله على بني إسرائيل فيها وفيه، وإنّ الجروح قصاص، والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة، والرفع للعطف على محل أنّ النفس، لأنّ المعنى: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا، وإما لأنّ معنى الجملة التي هي قولك: النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله، وقرأت: سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج: لو قرئ إنّ النفس بالنفس بالكسر لكان صحيحاً أو للاستثنا والمعنى: فرضنا عليهم فيها «أنّ النفس» مأخوذة «بالنفس» مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق «و» كذلك «العين» مفقوعة «بالعين والأنف» مجذوع «بالأنف والأذن» مصلومة «بالأذن والسّن» مقلوعة «بالسن والجروح قصاص» ذات قصاص وهو المقاصة، ومعناه ما يمكن فيه القصاص وتعترف المساواة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة

النبیین علی سبیل المدح کالصفات جاریة علی القديم سبحانه لا للتفصّل والتوضیح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الانبياء كلهم في القديم والحديث، وأنّ اليهودية بمعزل منها. وقوله: «الذين أسلموا للذين هادوا» مناد على ذلك «والريانيون والأحبار» والزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا بين اليهود. «بما استحفظوا من كتاب الله» بما سألهم أنبيأؤهم حفظه من التوراة، أي: بسبب سؤال أنبيأئهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل «ومن» في «من كتاب الله» للنبيين. «وكانوا عليه شهداء» رقباء لئلا يبدل، والمعنى: يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى، وكان بينهما ألف نبي وعيسى للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة: لا يتركونهم أن يعبدوا عنها، كما فعل رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم، وإرغام أنوفهم وإبائهم عليهم ما اشتهروه من الجلد، وكذلك حكم الريانيين والأحبار المسلمون بسبب ما استحفظهم أنبيأؤهم من كتاب الله، والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في استحفظوا للأنبياء والريانيين والأحبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من الله، أي: كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء. «فلا تخشوا للناس» نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإداناتهم فيها وإمضائهم على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أنية أحد من القرباء والأصقاء، «ولا تشترُوا» ولا تستبدلوا ولا تستعوضوا «بآيات الله» وأحكامه «ثمنًا قليلاً» وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرّف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة فهلكوا، «ومن لم يحكم بما أنزل الله» مستهيناً به «فأولئك هم الكافرون» والظالمون والفساقون، وصف لهم بالعقوب في كفرهم حين

= أعلم جرى وصف الأنبياء في هذه الآية، بالإسلام تنويهاً به، ولقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف، والنظام في منحه عليه الصلاة والسلام:

فلئن منحت محمداً بقصديتي فلقد منحت قصديتي بمحمد والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له، ويستحيل عليه ويجوز في حقه، إلا أنّ النبوة أشرف وأجل، لاشتغالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة، فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في نكر الإسلام بعد النبوة، في سياق المدح، لخرجنا عن قانون البلاغة المؤلف في الكتاب العزيز، وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترقى من الأدنى إلى الأعلى، لا النزول على العكس، ألا ترى أبا الطيب كيف ترحّج عن هذا البهع في قوله:

شمس ضحاها هلال ليلتها در تقاصيرها زبرجدها فنزل عن الشمس إلى الهلال، وعن الدر إلى الزبرجد في سياق المدح، فعضفت الأسن غرض بلاغته، ومزّت أديم صيغته، فعلياً أن تنبئ آيات المعجزات، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها في البلاغة.

= المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة، التي يتميز بها الممدوح، وعن دونه، والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء، ومتبعيهم كما يتناولهم ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي، أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً، فإن أقل متبعيه كذلك، فالوجه والله أعلم أنّ الصفة قد تنكر للعظم في نفسها، وليتوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويهاً بقدر موصوفها، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصالح، في قوله تعالى: «وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وأمثلة» تنويهاً بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء، وبعثاً لأحد الناس على الدأب في تحصيل صفته، وكذلك قيل في قوله تعالى: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا» فآخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيماً لقدر الإيمان، وبعثاً للبشر على الدخول فيه، ليساوا الملائكة المقربين في هذه الصفة، وإلا فمن المعلوم أنّ الملائكة مؤمنين ليس إلا، ولهذا قال: ويستغفرون للذين آمنوا يعني من البشر، لثبوت حق الإخوة في الإيمان بين الطائفتين، فنكلك والله =

وَمَهِيئًا عَلَيْهِمُ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِمَا نَشَاءُ أَمْوَءُهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَكَّنْكُمْ أَنَّهُ وَجَدَهُ وَلَكِنْ لِيَنْبَؤَكُمْ فِي مَا أَنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْظِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾

فإن قلت: أي فرق بين التعريفيين في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾! قلت: الأول: تعريف العهد لأنه عني به القرآن، والثاني: تعريف الجنس؛ لأنه عني به جنس الكتب المنزلة، ويجوز أن يقال: هو للعهد؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق وإنما أريد نوع معلوم منه وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن. ومهيئاً: ورفياً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات وقرئ: ومهيئاً عليه بفتح الميم، أي هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، كما قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽⁴⁾، والذي هيمن عليه الله عز وجل أو الحفاظ في كل بلد لو حرف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ولاشمازوا رائين ومنكرين. ضمن: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ معنى ولا تنحرف فلذلك عدى بـ «عن»، كأنه قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم. ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة. وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَا جَا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه. وقيل: هذا دليل على أنا غير متعبدین بشرائع من قبلنا. ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو نوي أمة واحدة، أي: بين واحد لا اختلاف فيه. ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِيمَا أَلَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها مدعين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة، أم تتبعون الشبه وتفترطون في العمل. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها وتسابقوا نحوها. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات. ﴿فَيُنْظِرُكُمْ﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محكمكم وعاملكم ومفرطكم في العمل.

وَأَن أَمْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَمْوَءَهُمْ وَأَسَدَرُهُمْ أَن يَفْتُرُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا نَزَّلَ اللَّهُ إِلَيْكَ إِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّا رُبُّدُ اللَّهِ أَن يُبَيِّنَ لَهُمْ بِمَعْنَى دُؤُوبِهِمْ وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْآلِسِ لَفَيُفُونَ ﴿١٩﴾

فإن قلت: ﴿وَأَن أَمْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ معطوف على ماذا؟ قلت: على الكتاب في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾⁽⁵⁾ كأنه قيل: وأنزلنا إليك أن احكم، على أن أن وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، ويجوز أن يكون معطوفاً على بالحق

فنزلت. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقْ﴾ من أصحاب الحق ﴿به﴾ بالقصاص وعفا عنه ﴿فهو كفارة له﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وعن عبد الله وابن عمر: ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وقيل: فهو كفارة للجاني إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه. وفي قراءة أبي: فهو كفارة له، يعني: فالتصدق بكفارته له، أي: الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها، وهو تعظيم لما فعل، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾⁽¹⁾ وترغب في العفو.

وَقَفَّيْنَا عَلَى مَآثِرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا فِيهِ هُدًى وَبُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِكَمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّا يُحْكَمْ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢١﴾

قفيته: مثل عقبته إذا اتبعت ثم يقال: قفيته بفلان وعقبته به فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء.

فإن قلت: فإين المفعول الأول في الآية؟ قلت: هو محنوف والظرف الذي هو ﴿على آثارهم﴾ كالسائر مسددة، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبیین في قوله: ﴿يُحْكَمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾⁽²⁾. وقرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهمزة، فإن صح عنه فلانه أعجمي خرج لعجمته عن زناة العربية كما خرج هابيل وأجر. ﴿ومصدقاً﴾ عطف على محل فيه هدى ومحل النصب على الحال. ﴿وهدى وموعظة﴾ يجوز أن ينتصبا على الحال كقوله ﴿مصدقاً﴾ وأن ينتصبا مفعولاً لهما، كقوله ﴿وليحكم﴾ كأنه قيل: وللهدى والموعظة آتيانه الإنجيل، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام.

فإن قلت: فإن نظمت هدى وموعظة في سلك مصدقاً، فما صنعت بقوله ﴿وليحكم﴾؟ قلت: أصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتها مفعولاً لهما فاقدراً: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيانه إياه.

وقرئ: وليحكم على لفظ الأمر بمعنى: وقلنا ليحكم، وروي في قراءة أبي: وأن ليحكم، بزيادة أن مع الأمر على أن، أن موصولة بالأمر كقولك: أمرته بأن قم، كأنه قيل: وآتيانه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل: إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام؛ لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة، وظاهر قوله: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، يرد ذلك، وكذلك قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾⁽³⁾ وإن ساغ لقاتل أن يقول معناه: وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

(4) سورة فصلت، الآية: 42.

(5) سورة المائدة، الآية: 48.

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة المائدة، الآية: 44.

(3) سورة المائدة، الآية: 48.

أَنْ هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي يَبْغُونَهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بِهِ أَقْبَىٰ نَجْرَانٍ أَوْ نَظِيرِهِ مِنْ حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَرَادُوا بِسَفْهَمِهِمْ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ حُكْمًا كَأَوْلَئِكَ الْحُكْمِ. اللّٰمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِقَوْمٍ يُوَفِّقُونَ﴾ لِلْبَيَانِ كَاللّٰمِ فِي ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أَي: هَذَا الْخُطَابُ وَهَذَا الْاسْتِفْهَامُ لِقَوْمٍ يُوَفِّقُونَ، فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَنْ لَا أَعْدِلَ مِنْ اللَّهِ وَلَا أَحْسَنَ حُكْمًا مِنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ آيَةً﴾ (٥٤).

لَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ تَنْصُرُونَهُمْ وَتَسْتَنْصِرُونَهُمْ وَتُؤَاخِزُونَهُمْ وَتَصَافُونَهُمْ وَتَعَارِشُونَهُمْ مَعَاشِرَةَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ عَلَّلَ النَّبِيَّ بِقَوْلِهِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَي: إِنَّمَا يُوَالِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِاتِّحَادِ مِلَّتِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي الْكُفْرِ، فَمَا لِمَنْ دِينُهُ خِلَافَ بَيْنِهِمْ وَلِمَوَالِيَّتِهِمْ. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْ جَمَلَتِهِمْ وَحُكْمِهِمْ﴾. وَهَذَا تَغْلِيظٌ مِنَ اللَّهِ وَتَشْدِيدٌ فِي وَجوبِ مَجَانِبَةِ الْمُخَالَفَةِ فِي الدِّينِ وَاعْتِزَالِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَرَأَىٰ نَارَهُمَا» (٢). وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَأَبِي مُوسَىٰ فِي كَاتِبِهِ النَّصْرَانِيِّ: لَا تَكْرُمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَأْمَنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَدْنُوهُمْ إِذْ اقْصَاهُمُ اللَّهُ. وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُ أَبُو مُوسَىٰ: لَا قَوَامَ لِلْبَصْرَةِ إِلَّا بِهِ، فَقَالَ: مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ (٣). يَعْنِي: هَبْ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ فَمَا كُنْتَ تَكُونُ صَانِعًا حَيْنَتُكَ فَاصْنَعِ السَّاعَةَ وَاسْتَغْنِ عَنْهُ بَغْيِيرِهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَوَالِيَّةِ الْكُفْرِ يَمْنَعُهُمُ اللَّهُ الطَّافَةَ وَيُخْلِضُهُمْ مَقْتًا لَهُمْ.

﴿ذَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَيِّرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ زَاهِدُونَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ لَمْ يَمُوتُوا﴾ (٥٥).

﴿يَسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يَنْكَمِشُونَ فِي مَوَالِيَّتِهِمْ وَيَرْغَبُونَ فِيهَا وَيَعْتَذِرُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ أَنْ تُصِيبَهُمْ دَائِرَةٌ مِنْ بَوَائِطِ الزَّمَانِ، أَي: صَرْفٌ مِنْ صَرْفِهِ وَبَوَلَةٌ مِنْ بَوَلِهِ فَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ، وَعَنْ عِبَادَةِ بَنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِي مَوَالِيٍّ مِنْ يَهُودٍ كَثِيرًا عِنْدَهُمْ وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَتِهِمْ وَأُوَالِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَايَةِ مَوَالِيٍّ، وَهُمْ يَهُودُ بَنِي قَيْنَقَاعَ (٤). ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ﴾ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ وَإِظْهَارِ الْمُسْلِمِينَ ﴿أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يَقْطَعُ شَاكَةَ الْيَهُودِ وَيُجْلِيهِمْ عَنْ بِلَادِهِمْ فَيَصْبِحُ الْمُنَافِقُونَ نَادِمِينَ عَلَى

أَي: انْزِلْنَاهُ بِالْحَقِّ وَبِأَنِّ أَحْكَمَ. ﴿أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَنْ يَضْلُوكَ عَنْهُ وَيَسْتَزِلُّوكَ، وَذَلِكَ أَنَّ كَعْبَ بْنَ أَسِيدٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ صُورِيَا وَشَاسَ بْنَ قَيْسٍ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ قَالُوا: أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَابُ الْيَهُودِ وَأَنَا إِنْ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا الْيَهُودَ كُلَّهُمْ وَلَمْ يَخَالِفُونَا، إِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةٌ فَتَنَّاكَ إِلَيْكَ فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِكَ وَنُصَلِّقُكَ، فَأَبَىٰ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَنَزَلَتْ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَأَرَادُوا غَيْرَهُ. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ نَجْوَاهُمْ﴾ يَعْنِي: بِذَنْبِ التَّوَلَّيَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَإِرَادَةِ خِلَافِهِ، فَوَضَعَ بِبَعْضِ نَجْوَاهُمْ مَوْضِعَ ذَلِكَ، وَأَرَادَ أَنَّ لَهُمْ نَجْوَىٰ جَمْعَ كَثِيرَةِ الْعَدُوِّ وَأَنَّ هَذَا الذَّنْبَ مَعَ عَظَمَةِ بَعْضِهَا وَوَاحِدِهَا، وَهَذَا الْإِيهَامُ لِتَعْظِيمِ التَّوَلَّيَ وَاسْتِشْرَافِهِمْ فِي ارْتِكَابِهِ، وَنَحْوِ الْبَعْضِ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا فِي قَوْلِ لَبِيدٍ:

أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفْسِ حَمَاسُهَا

أَرَادَ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا قَصِدَ تَقْخِيمَ شَأْنِهَا بِهَذَا الْإِيهَامِ كَأَنَّهُ قَالَ: نَفْسًا كَبِيرَةً وَنَفْسًا أَي نَفْسٍ. فَكَمَا أَنَّ التَّكْبِيرَ يُعْطَىٰ مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَهُوَ مَعْنَى الْبَعْضِيَّةِ، فَكَذَلِكَ إِذَا صَرَحَ بِالْبَعْضِ. ﴿لِفَاسِقُونَ﴾ لِمَتَمَرِّضُونَ فِي الْكُفْرِ مَعْتَدُونَ فِيهِ. يَعْنِي: أَنَّ التَّوَلَّيَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ مِنَ التَّمَرُّدِ الْعَظِيمِ وَالْإِعْتِدَاءِ فِي الْكُفْرِ.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقْرَءُ يُوقِنُونَ﴾ (٥٦).

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ قَرِيبَةَ وَالتَّخْصِيرَ طَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا كَانَ يَحْكُمُ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْقَتْلِ، وَرَوَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «الْقَتْلَىٰ بَوَاءُ». فَقَالَ بَنُو النَّضِيرِ: نَحْنُ لَا نَرْضَىٰ بِذَلِكَ (١). نَزَلَتْ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرًا لِلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَعِلْمٌ وَهُمْ يَبْغُونَ حُكْمَ الْمِلَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي هِيَ هَوَىٰ وَجْهَلٌ لَا تَصْدُرُ عَنْ كِتَابٍ وَلَا تَرْجِعُ إِلَىٰ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ. وَعَنْ الْحَسَنِ: هُوَ عَامٌ فِي كُلِّ مَنْ يَبْغِي غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ، وَالْحُكْمُ حُكْمَانِ: حُكْمٌ يَعْلَمُ فَهُوَ حُكْمُ اللَّهِ، وَحُكْمٌ بِجَهْلٍ فَهُوَ حُكْمُ الشَّيْطَانِ. وَسُئِلَ طَاوُسٌ عَنْ الرَّجُلِ يُفْضِلُ بَعْضَ وَلَدِهِ عَلَى بَعْضٍ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَقَرَأَ: تَبْغُونَ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ. وَقَرَأَ السَّلْمِيُّ: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، بَرَفَعَ الْحُكْمَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَإِقْقَاعَ يَبْغُونَ خَبْرًا، وَإِسْقَاطَ الرَّاجِعِ عَنْهُ كِلْسِقَاطُهُ عَنْ الصَّلَةِ فِي: ﴿هَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وَعَنْ الصَّفَةِ فِي: النَّاسِ رَجُلَانِ رَجُلٌ أَهْنَتْ وَرَجُلٌ أَكْرَمَتْ، وَعَنْ الْحَالِ فِي: مَرَرْتُ بِبَهْدٍ يُضْرَبُ زَيْدٌ. وَقَرَأَ قَتَادَةُ: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ، عَلَى

(١) ابن أبي شيبة 434/9، كتاب: الديات، باب: إن المسلمين تتكافأ بماؤهم.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود الحديث (2645)، والترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين الحديث (1604)، والنسائي =

= في كتاب: القسامة، باب: القعود بغير حديدة الحديث: (4780).

(3) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب: ابن القاضي.

(4) أخرجه ابن أبي شيبة 137/12، كتاب: الفضائل، باب: عبادة بن الصامت.

العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال رسول الله ﷺ فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فاهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلة قتل فسرّ المسلمون، وقبض رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول، وبنو حنيفة قوم مسيلمة محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة. وكان يقول: قتل خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام، أراد في جاهليتي وإسلامي. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فانهزم بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فزاره قوم عبيدة بن حصن، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر الممتنبة التي زوجت نفسها مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعري في كتاب استغفر واستغفري:

أنت سجاح والاهـا مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب (1)
وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه. «فسوف يأتي الله بقوم» قيل: لما نزلت أشار رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري، فقال: قوم هذا (2)، وقيل: هم الغان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أقبان الناس جاهدا يوم القادسية. وقيل: هم الأنصار. وقيل: سئل رسول الله ﷺ عنهم، فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه». ثم قال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لئله رجال من أبناء فارس» (3). «يحبهم ويحبونه» (4) محبة العباد لربهم

سأحدثوا به أنفسهم، وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول الله ﷺ ويقولون: ما نظن أن يتم له أمر، وبالحرى أن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء، وقيل: «أو أمر من عنده»، وأن يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم يندموا على نفاقهم. وقيل: أو أمر من عند الله لا يكون فيه للناس فعل، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب أعطوا بأيديهم من غير أن يوجب عليهم بخيل ولا ركاب. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤْا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاتَّبَعُوا أَحْسَنِ أَمْرٍ (5).

«ويقول الذين آمنوا» قرئ: بالنصب عطفاً على أن يأتي، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ، أي: ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت، وقرئ: يقول بغير واو، وهي في مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك، على أنه جواب قائل يقول: لماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا: هؤلاء الذين أقسموا؟

فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتياباً بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص «أهؤلاء الذين أقسموا» كم بإغلاظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدكم على الكفار، إما أن يقولوه لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة النصره كما حكى الله عنهم، «ولن قوتلتهم لننصرنكم» «حبطت أعمالهم» من جملة قول المؤمنين، أي: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين الناس، وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم! أو من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجيباً من سوء حالهم.

يَكُنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِكُمْ مَنْ يَقُولُ بِإِلَهِ اللَّهِ يَقُولُ يُمْهِمْ يُعْمِلُونَ أُولَئِكَ عَلَى الْوَعْدِ أَعْرَضَ عَنْ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَأْفَاقُونَ لَوَمَةً لَاهُمْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عِلْمُهُ (6).

وقرئ: «من يرتد» ومن يرتدد، وهو في الإمام بدالين، هو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها، قيل: بل كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة، ثلاث في عهد رسول الله ﷺ، بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود

(1) قصة الردة صنف فيها ابن إسحاق والواقدي وأصحاب المغازي، وغيرهم.

(2) حديث هم قومك يا أبا موسى، أخرجه الحاكم في المستدرک 2/313، وابن أبي شيبة 12/123، كتاب: الفضائل، باب: أبو موسى الأشعري.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجمعة، باب: (1) الحديث (4897)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، الحديث (6445).

(4) قال أحمد: لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب، والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرهما، فليمتحن

= حقيقة المحبة لغة بالقواعد، لينظر أي ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا؛ إذا المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر ملا، والذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس كذلة الذوق في المطعوم، ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة، ولذة الشم في الروائح العطرة، ولذة السمع في النغمات الحسنة، وإلى لذة تدرك بالعقل، كذلة البهاء والرياسة والعلوم، وما يجري مجراها، فقد ثبت أن في الذات الباعثة على المحبة، ما لا يدركه إلا العقل بون الحس، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها، فليس اللذة برأسة الإنسان على أهل قرية، كذلة بالرياسة على أقاليم معتبرة، وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث، فلهذا العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات، فليس معلوم =

المشركين خاصةً والدليل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. وقرئ: والكفار بالنصب والجر، وتعضد قراءة الجر قراءة أبي: ومن الكفار. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالاة الكفار وغيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً، لَأَنَّ الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاجْتَمِعُوا هُنَا وَهِيَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾

﴿اتخذوها﴾ الضمير للصلاة أو للمناداة، قيل: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكائب. فدخلت خادمة بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطارت منها شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو وأهله⁽³⁾. وقيل: فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالتمام وحده. ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لَأَنَّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِثْلَ مَا أَنَا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾

قرأ الحسن: هل تنقمون بفتح القاف، والفصح كسرهما. والمعنى: هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها. ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾؟ قلت: فيه وجوه: منها: أن يعطف على ﴿أَنْ آمَنَّا﴾، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: واعتقاد أنكم فاسقون، ومنها: أن يعطف على المجرور، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف، كأنه قيل: كما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن: بفسقكم نقمتم ذلك علينا.

وروي: أنه أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلينا، إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽⁴⁾ فقالوا حين سمعوا نكر عيسى عليه السلام: ما نعلم أهل دين أقل خطأً في الدنيا والآخرة منكم، ولا نبينا شراً من دينكم. فنزلت⁽⁵⁾، وعن نعيم بن مسيرة: وإن أكثركم بالكسر، ويحتمل أن ينتصب

فإن قلت: قد ذكرت جماعة، فهلا قيل: إنما أولياؤكم؟ قلت: أصل الكلام إنما وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الاصلية، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع. وفي قراءة عبد الله: إنما مولاكم.

فإن قلت: ﴿الذين يقيمون﴾ ما محله؟ قلت: الرفع على البديل من الذين آمنوا أو على هم الذين يقيمون، أو النصب على المدح، وفيه تمييز للخلص من الذين آمنوا نفاقاً أو واطأت قلوبهم السننهم إلا أنهم مفطرون في العمل. ﴿وَهُمْ رَاقِعُونَ﴾ الواو فيه للحال، أي: يعملون تلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل: هو حال من يؤتون الزكاة بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة، وإنها نزلت في علي كرم الله وجهه حين سألوه وهو راکع في صلاته فطرح له خاتمه، كأنه كان مرجأ في خنصره فلم يتكلف خلعه كثير عمل تقسّد بمثله صلاته⁽¹⁾.

فإن قلت: كيف صرح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة! قلت: جاء به على لفظ الجمع، وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ليرغب الناس في مثل فعله، فينالوا مثل ثوابه، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان، وتفقد الفقراء، حتى إن لزم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

وَمَنْ يَرْزُقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَكَافِرًا مِّمَّا آتَا اللَّهُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿فإن حزب الله﴾⁽²⁾ من إقامة الظاهر مقام المضمر، ومعناه: فإنهم هم الغالبون ولكنهم بذلك جعلوا علامة لكونهم حزب الله، وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم، ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرسول والمؤمنين، ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب.

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَزْوَاجًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾

روي: أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرنا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يواؤنهما. فنزلت. يعني: أن اتخاذهما بينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة. وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار؛ إطلاقاً للكفار على

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في تفسيره والثعلبي.

(2) قال أحمد: ومقابله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في تفسيره والثعلبي.
(2) قال أحمد: ومقابله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

(3) سورة آل عمران، الآية: 84.

أنفسهم وأهلهم يوم القيامة إلا أن الظالمين في عذاب مقيم
فوضع الظالمين موضع ضمير الأول، ليزيدهم سمة الظلم إلى

الخسران.

وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، وحذف الراجع بمعنى
وعبد الطاغوت فيهم أو بينهم، وعبد الطاغوت بمعنى صا
الطاغوت معبوداً من دون الله، كقولك: أمر إذا صار أمير
وعبد الطاغوت بالجر عطفاً على من لعنه الله.

فإن قلت: كيف جاز أن يجعل الله منهم عباد الطاغوت
قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنه خذلهم حتى عبدوها.

والثاني: أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به، كقول
تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾⁽⁴⁾

وقيل: الطاغوت العجل لأنه معبود من دون الله، ولأن
عبادتهم للعجل مما زين لهم الشيطان، فكانت عبادتهم لـ
عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضي الله
تعالى عنه: أطاعوا الكهنة وكل من أطاع أحداً في معصية الله
فقد عبده. وقرأ الحسن: الطواغيت. وقيل: وجعل منهم
القردة أصحاب السبب، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى
وقيل: كلا المسخين من أصحاب السبب، فشبانهم مسخو
قردة، ومشايخهم مسخو خنازير، وروي أنها لما نزلت كان
المسلمون يعيرون اليهود ويقولون: يا إخوة القردة
والخنازير فينكسون رؤوسهم. ﴿أولئك﴾ الملعونون
الممسوخون. ﴿شر مكاناً﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي
لأهله وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل
لدخوله في باب الكناية التي أخت المجاز.

وَأَذَاءُكُمْ قَالُوا أَمَّا زِدْنَا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِئِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٦﴾

نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على
رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً، فأخبره الله تعالى
بشانهم، وأنهم يخرجون من مجلسك كما نخلوا لم يتعلق
بهم شيء مما سمعوا به من تنكيرك بآيات الله ومواعظك.
وقوله: ﴿بالكفر﴾⁽⁵⁾ وبه حالان، أي: دخلوا كافرين وخرجوا
كافرين، وتقديره ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله: ﴿وقد
نخلوا... وهم قد خرجوا﴾ ولذلك دخلت «قد» تقريباً
للماضي من الحال، والمعنى آخر وهو أن أمارات النفاق
كانت لا تحجب عنهم وكان رسول الله ﷺ متوقفاً لإظهار الله
ما كتموه، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله: ﴿قالوا

وإن أكثركم بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون، أي: ولا
تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو يرتفع على الابتداء والخبر
محذوف، أي: وفسقكم ثابت معلوم عنكم لأنكم علمتم أننا
على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وكسب
الأموال لا يدعم فتتصفوا.

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَى
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَفْرِدَةً وَلِخَنَازِيرٍ وَعِندَ الْطَّاغُوتِ أَزْلِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ
عَن سَوَاءِ النَّبِيلِ ﴿٦٧﴾

﴿لذلك﴾ إشارة إلى المنقوم ولا بد من حذف مضاف
قبله أو قبل من تقديره بشر من أهل ذلك أو بين ﴿مَن
لعنه الله﴾. و﴿مَن لعنه الله﴾ في محل الرفع على قولك:
هو من لعنه الله، كقوله تعالى: ﴿قل أقاتبكم بشر من ذلكم
النار﴾⁽¹⁾ أو في محل الجر على البديل من شر. وقرئ:
مثوبة ومثوبة، ومثالهما مشورة ومشورة.

فإن قلت: المثوبة مختصة بالإحسان فكيف جاءت في
الإساءة؟ قلت: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة
قوله: تحية بينهم ضرب وجيع. ومنه: ﴿فبشّرهم بعذاب
اليم﴾⁽²⁾.

فإن قلت: المعاقبون من الفريقين هم اليهود فلم شورك
بينهم في العقوبة؟ قلت: كان اليهود - لعنا - يزعمون أن
المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب، ف قيل لهم: من
لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام
في زعمكم ودعواكم⁽³⁾. ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على
صلة من، كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت. وفي قراءة أبي:
وعبدوا الطاغوت، على المعنى: وعن ابن مسعود: ومن
عبدوا، وقرئ: وعابد الطاغوت عطفاً على القردة. وعابدي
وعباد وأعبد وعبد ومعناه: القلّو في العبودية، كقولهم: رجل
حذر وفطن، للبلغ في الحذر والفطنة، قال:

ابني لبيني إن أكرم أمة وإن أباكمو عبد

وعبد: بوزن حطم، وعبيد وعبد بضميتين جمع عبيد
وعبدة بوزن كفرة، وعبد وأصله عبدة فحذفت التاء
للإضافة، أو هو كخدم في جمع خادم، وعبد وعباد وأعبد

= رجوع القنري في تحقيق الخذلان، أو الحكم الذي يستروح إلى
التأويل به لم يقدر منه على حقيقة، ولم يفسره بغير الخلق إن
اعترف بالحق، وترك ارتكاب المراء، والتذبذب مع الأهواء، والله
ولي التوفيق.

(4) سورة الزخرف، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وفي تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد
حالهم في الكفر، أي: وقد نخلوا بالكفر وخرجوا، وهم أولئك على
حالهم في الكفر، كما تقول: لقيت زيداً بعد عوده من سفره، وهو
هو، أي: على حاله، وفي المثل وعبد الحميد عبد الحميد، أي:
حالته باقية، والله أعلم.

(1) سورة الحج، الآية: 72.

(2) سورة آل عمران، الآية: 21.

(3) قال أحمد رحمه الله: السؤال يلزم للقرنية: لأنهم يزعمون أن الله
تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وإن
عبادتهم للطاغوت قبحة، والله تعالى لا يريد القبائح، بل تقع في
الوجود على خلاف مشيئته، فلذلك يضطر الزمخشري إلى تأويل
الجملة بالخذلان، أو بالحكم، وكذلك أول. قوله تعالى: ﴿وجعلناهم
أئمة يدعون إلى النار﴾ بمعنى حكمنا عليهم بذلك هذا مقتضى
قاعدة القرنية، وأما على عقيدة أهل السنة الموحدين حقاً، فالآية
على ظاهرها، والله تعالى هو الذي إشقامهم، وخلق في قلوبهم
طاعة الطاغوت، وعبادته ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا =

بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاءً جزئياً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداءه تلاعه وهاده
ولقد جعل لبيل للشمال يداً في قوله:
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محبة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبث به.

فإن قلت⁽⁵⁾: قد صح أن قولهم: ﴿بَدَّ اللهُ مَغْلُولَةً﴾ عبارة عن البخل فما تصنع بقوله: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ومن حقه أن يطابق ما تقممه وإلا تنافر الكلام وزل عنه سننه؟ قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم. ونحوه بيت الأشر: بقيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس

ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدي، حقيقة يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم. والطابق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقول: سبني سب الله دابره، أي: قطعه، لأن السب أصله القطع.

فإن قلت: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزيبون بخلًا إلى بخلهم ونكدًا إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الاحوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم. فإن قلت⁽⁶⁾: لم ثنيت اليد في قوله تعالى: ﴿بَدَّ يَدَاهُ

أَمَّا أَي: قالوا ذلك وهذه حالهم⁽¹⁾.

وَرَوَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْتَغْرِقُونَ فِي الْآثِمِ وَالْمُدْرِي وَأَكْبِلُهُمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁽¹¹⁾.

الإثم: الكذب بدليل قوله تعالى: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ﴾ والظلم. وقيل: الإثم كلمة الشرك، وقولهم: عزيز ابن الله، وقيل: الإثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم. والمسارة في الشيء الشروع فيه بسرعة.

لَوْلَا يَهْتَمُّمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِثْمُ وَأَكْبِلُهُمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁽¹²⁾.

﴿لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾⁽²⁾ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير؛ لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرّب وينسب إليه. وكان المعنى في ذلك: أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهيه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشدّ حالاً من المواقع. ولعمري أنّ هذه الآية مما يغذ السامع وينعي على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشدّ آية في القرآن. وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها⁽³⁾.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَرْغُولَةٌ عَنَّا آلِيهِمْ وَلَكِنَّا نَمْلِكُ مَا نَشَاءُ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَيْفَ نَشَاءُ وَلَنَزِدَنَّ إِلَيْكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْعَالًا وَكَفَرْنَا وَكَفَرْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةُ وَالْبَغِيَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِحَرْبٍ أُلْفَاهَا اللَّهُ وَسِعَمُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ⁽¹³⁾.

غل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾⁽⁴⁾ ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا

(5) قال أحمد: لقد نقص فضيلته التي أوردتها في هذا الفصل، بما ضمنه هذا السؤال، والجواب من القاعدة الفاسدة في أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئاً، مانعاً عليهم، وبني على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل؛ لأنه لم يرده منهم ويستحيل أن يريده منهم، فوجه هذا النص بالتأويل، والتمسك بالباطيل، والحق أنّ الله يدعو عليهم بالبخل، ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح في قلوبهم، والقبض في أيديهم، فهو الداعي والخالق، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل، ويتقدس عنه، ﴿لَا يُسَالُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَالُونَ﴾، فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن، إلا من حيث علم البيان، فإنه فيه أقرس الفرسان لا يجاري في ميدانه، ولا يماري في بيانه.

(6) قال أحمد: ولما كان المعهود في العطاء أن يكون بإحدى اليدين، وهي اليمين، في نسبة البخل، وفي إضافته إلى الواحدة تنزيلاً منهم، على اعتقاد الجسمية بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط، وبأن إضافة اليمين جميعاً؛ لأنّ كلنا يديه يمين، كما ورد في الحديث تنبيهاً على نفي الجسمية، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها، لكانت إحدى اليدين يميناً، والأخرى شمالاً ضرورة، =

(1) قال أحمد: وقوله عن قولهم الإثم، يدل على أنّ الإثم الأوّل مقول، فيحتمل أن يكون المراد: الكذب مطلقاً، ويحتمل أن يراد كلمة الشرك، واستدلال الزمخشري على أنّ المراد: الكذب لا يتم، وإنما يدل على أنه مقول، فيحتمل الأمرين، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني أنه لما عبر عن الواقع المنموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله، لبئس ما كانوا يعملون، وعبر عن ترك الإنكار عليهم، حيث نّمّه بالصناعة في قوله: ﴿لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ كان هذا اللم أشدّ؛ لأنه جعل المنموم عليه صناعة لهم، وللرؤساء وحرقة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم هذا مراده، والله أعلم.

(3) قال أحمد: والنكتة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالباً، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن، فلما كان الجود، والبخل معنيين لا يدركان بالحس، ويلازمهما صورتان تدركان بالحس، وهو بسط اليد للجود، وقبضها للبخل عبر عنهما بلازمهما، لفائدة الإيضاح، والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات، والله أعلم.

(4) سورة الإسراء: الآية: 29.

عنهم﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها، ﴿وَلَا بَخْلَاهُمْ﴾ مع المسلمين الجنة، وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتح باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى^(١)، وأن الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشغوفاً بالتقوى. كما قال الحسن: هذا العمود، فإين الأطناب؟

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْبَرُوا مِنْ تَقْوَاهُ وَفِي غَيْبِ آيَاتِهِمْ أَتَمَّ مَقْصِدُهُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أقاموا أحكامها وحنودها وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من سائر كتب الله لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم. وقيل: هو القرآن، لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا، وقوله: ﴿لَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ عبارة عن التسعة، وفيه ثلاثة أوجه: أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض، وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة، وأن يرزقهم الجنان البانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أمم في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى. ﴿وَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه معنى التعجب كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَئِنْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْعَلُكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْدِيَ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿بلغ ما أنزل إليك﴾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء

مبسوطتان، وهي مفردة في ﴿يد الله مغلولة﴾؟ قلت: ليكون رد قولهم وإنكاره وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه ببنيه جميعاً، فبني المجاز على ذلك. وقرئ: ولعنوا بسكون العين، وفي مصحف عبد الله: بل يده بسطان. يقال: يده بسط بالمعروف، ونحوه مشية شح وناقة صرح. ﴿يَنْفَقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روي أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذبوه، كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون فاشركوا فيه ﴿وَلِيُزِيدَنَ﴾ يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفروا بآيات الله. ﴿وَلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ فكلهم أبداً مختلف وقلوبهم شتى لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد ﴿كَلِمَا أَوْقَدُوا نَارًا﴾ كلما أراونا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، وقد اتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل: خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أقسوا فسلط الله عليهم فطرس الرومي، ثم أقسوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أقسوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. وعن قتادة رضي الله عنه: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس ﴿وَيَسْعُونَ﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو نكر رسول الله ﷺ من كتبهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَخِيمَةً وَلَا نُكَلِّمَهُمْ فَتُنَّ النَّارِ ﴿١٨﴾

﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ مع ما عدلنا من سيئاتهم ﴿آمنوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريعة في الفوز بالإيمان ﴿لكنفرن﴾

غرض، وما هذا إلا إلحاح في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى، أو سرق، كُـرِّها النبي ﷺ مراراً، ثم قال: وإن رغم أنف أبي نره. لما راجعه رضي الله عنه في ذلك، ونحن نقول وإن رغم أنف القدرية.

قال أحمد: وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر؛ لأنَّ حاصله إن لم تبلغ الرسالة، لم تبلغ الرسالة باتحاد المبتدأ والخبر، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئاً في الظاهر، كقوله:

أنا أبو التجم وشعري شعري

فجعل الخبر عن المبتدأ، بلا مزيد في اللفظ، وأراد: وشعري شعري المشهور بلاغته، والمستفيض فصاحته، ولكنه أقسم بالسكوت عن هذه الصفات، التي بها تحصل الفائدة من لوازم شعره في إقحام الناس، السامعين لاشتهاره بها، وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وذيعاها، وكذلك أريد في الآية: لأنَّ عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس، مستقر في الأنهم أنه عظيم شنيع

فلما أثبت أن كليهما يمين في الجسيمة، وأضاف الكرم إليهما، لا كما يضاف في الشاهد إلى اليد اليمنى، خاصة إذ الأخرى شمال، وليست محلاً للكرم، والله أعلم.

قال أحمد: وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية، فيجعله دليلاً على قاعدته في أن مجرد الإيمان، لا ينجي من الخلود في النار، حتى يضاف إلى التقوى؛ لأنَّ الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطاً للتكفير، ولإدخال الجنة، وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير، ولا دخول الجنة، وأني له ذلك، والإجماع، والاتفاق من الفريقين أهل السنة، والمعزلة عن أن مجرد الإيمان يجب ما قبله، ويمحوه كما ورد النص، فلو فرضنا موت الداخل في الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه، باتفاق مكفر الخطايا محكوماً له بالجنة، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين، ليس بشرط هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال، وإن كانت التقوى على أصل وضعها الخوف من الله عز وجل، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن، وإن قارب الكبائر، وحينئذ لا يتم الزمخشري منه

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ومعناه: أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس».

قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِيْدِكُمْ كِتَابٌ مِّن مَّاءٍ نَّزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكَ طَعَيْنًا ذُكِّرُوا لَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْكَافِرِينَ (١٨).

﴿لستم على شيء﴾ أي: على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً فساداً وبطلاناً، كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم: أقل من لا شيء. ﴿فلا تأس﴾ فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر تلك راجع إليهم لا إليك وفي المؤمنين غنى عنهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقَاتُ مِّنَ ءَنَاسٍ يَّأْتِيهِمُ الْبَأْسُ أَجْرُهُمْ سَعِيْدٌ لِّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٩).

﴿والصابئون﴾ (١) رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك، وأنشد سيبويه شاهداً له:

ولا فاعلهم أنا وإنتم بفاة ما بقينا في شقاق
أي: فاعلموا أنا بفاة وأنتم كذلك.

فإن قلت: هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها؟ قلت: لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر، لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان.

فإن قلت: لم لا يصح والنية به التأخير، فكأنك قلت: إن زيداً منطلق وعمرو؟ قلت: لأنني إذا رفعت رفعت عطفاً على محل إن واسمها والعامل في محلها هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في

أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه. ﴿وإن لم تفعل﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فما بلغت رسالته﴾ وقرئ: رسالاته، فلم تبلغ إذا ما كلفت من أداء الرسالات ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لإدلاء كل منها بما يدل به غيرها، وكونها كذلك في حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ مؤمناً به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كتمت آية لم تبلغ رسالتي، وروي عن رسول الله ﷺ: «يعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله إلي: إن لم تبلغ رسالتي عذبتك، وضمن لي العصمة فقيوت».

فإن قلت: وقوع قوله: ﴿فما بلغت رسالاته﴾ جزاء للشرط ما وجه صحته! قلت: فيه وجهان: أحدهما: أنه إذا لم يمثل أمر الله في تبليغ الرسالات وكتمها كلها كأنه لم يبعث رسولاً كان أمراً شنيعاً لا خفاء بشناعته، فقيل: إن لم تبلغ منها شيء وإن كان كلمة واحدة فانت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها كما عظم قتل النفس بقوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾. والثاني: أن يراد فإن لم تفعل فلك ما يوجب كتمان الوحي كله من العقاب، فوضع السبب موضع المسبب. ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام: فأوحى الله إلي: إن لم تبلغ رسالتي عذبتك. ﴿والله يعصمك﴾ عدة من الله بالحفظ والكلاءة، والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟

فإن قلت: أين ضمان العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد، وكسرت رباعيته صلوات الله عليه؟ قلت: المراد أنه يعصمه من القتل، وفيه أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل: نزلت بعد يوم أحد، والناس الكفار بليل

ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع، فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول، فاستغنى عن ذكر الزيادات، التي متفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء في الأفهام، وأن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد، والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز، بنكر الشرط عاماً، بقوله: وإن تفعل، ولم يقل، وإن لم تبلغ الرسالة، فما بلغت الرسالة حتى يكون اللفظ متغيراً، وهذه اللفظية، وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بنكر المبتدأ، بلفظ الخبر وحق له أن تتضام فصاحته عند فصاحة المعجز، فلا يعاب عليه في ذلك، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان، والله الموفق.

(١) قال أحمد: صدق لا ورود للسؤال بهذا التوجيه، ولكن ثم سؤال متوجه، وهو أن يقال: لو عطف الصابئين، ونصبه، كما قرأ ابن كثير، لآذا أيضاً بخلوهم في جملة المنوب عليهم، ولغهم من تقديم نكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع، من أن هؤلاء الصابئين، وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم، فما الظن =

= بالنصارى، ولكن الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب، والعطف الإفرادي، ويجب عن هذا السؤال، بأنه لو نصب وعطف لم يكن فيه إقحام خصوصية لهذا الصنف؛ لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنها واحد، وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي، وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل، تقديره مثلاً، والصابئون كذلك. فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف، وملحق بها، وهو بهذه المثابة؛ لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة، فكانوا أحقاء يجعلهم تبعاً وفرعاً، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر، وفائدة التقديم على الخبر، أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر، بين الجزئين، أدل على الخبر المحذوف من نكره، بعد تقضي الكلام وتماهه، والله أعلم.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا
يَقْتُلُونَ (٧).

﴿لقد أخذنا﴾ ميثاقهم بالتوحيد ﴿وارسلنا إليهم﴾
رسلاً ﴿ليبقوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم﴾
﴿كلما جاءهم رسول﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً،
والراجع محنوف، أي: رسول منهم. ﴿بما لا تهوى﴾
أنفسهم. ﴿بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق
التكليف والعمل بالشرائع﴾.

فَإِنْ قُلْتَ (١): أين جواب الشرط؟ فَإِنْ قَوْلُهُ: ﴿فَرِيقًا
كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ناب عن الجواب، لأنَّ الرسول
الواحد لا يكون فريقين ولأنَّه لا يحسن أن تقول: إن أكرمت
أخي إضاحك أكرمت؟ قُلْتَ: هو محنوف يدل عليه قوله:
﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنَّه قيل: كلما جاءهم
رسول منهم ناصبوه. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ جواب
مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسولهم.

فَإِنْ قُلْتَ (٢): لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالأخر
مضارعاً؟ قُلْتَ: جيء ﴿يَقْتُلُونَ﴾ على حكاية الحال
الماضية استقظاعاً للقتل، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة
للتعجيب منها.

وَحَيَّوْا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَمَنُوءُوا وَمَمَّا نَزَّ نَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَبِيرَ بُهْمٍ وَأَلَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧).

قُرئ: أن لا يكون بالنصب على الظاهر وبالرفع على أن
أن هي المخففة من الثقيلة، أصله أنه لا يكون فتنة فخففت
أن وحذف ضمير الشأن.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف دخل فعل الحسابان على أن التي
للتحقيق؟ قُلْتَ: نزل حسابانهم لقوته في صيغتهم منزلة
العلم.

فَإِنْ قُلْتَ: فإين مفعولاً حسب؟ قُلْتَ: سداً ما يشتمل
عليه صلة أن وإنَّ من المسند والمسنود إليه مسد
المفعولين، والمعنى: وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم
من الله فتنة، أي: بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿فعموا﴾
عن الدين ﴿وصموا﴾ حين عبدوا العجل ثم تابوا عن
عبادة العجل ﴿ناب الله عليهم ثم عموا وصموا﴾ كرهة
ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو

عمله كما تنتظمها إن في عملها، فلو رفعت الصابئون
المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بلن لاعملت
فيهما رافعين مختلفين.

فَإِنْ قُلْتَ: فقوله ﴿والصابئون﴾ معطوف لا بد له من
معطوف عليه فما هو؟ قُلْتَ: هو مع خبره المحنوف جملة
معطوفة على جملة قوله: ﴿إن الذين آمنوا...﴾ إلخ
ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليها.

فَإِنْ قُلْتَ: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا
التقديم؟ قُلْتَ: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم
إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم،
وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعنودين ضلالاً واشدَّهم
غياً، وما سمو صابئين إلا لأنهم صببوا عن الأيمان كلها،
أي: خرجوا. كما أن الشاعر قدم قوله: وأنتم تنبيهاً على أن
المخاطبين أوغل في الوصف بالبغيعة من قومه حيث عاجل
به قبل الخبر الذي هو بغاة لئلا يدخل قومه في البغي
قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قسماً.

فَإِنْ قُلْتَ: فلو قيل: والصابئين وإياكم، لكان التقديم
حاصلاً؟ قُلْتَ: لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء
لأنَّه لا إزالة فيه عن موضعه، وإنما يقال مقدّم ومؤخر
للمزال لا للقرار في مكانه. ومجرى هذه الجملة مجرى
الاعتراض في الكلام.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف قال الذين آمنوا ثم قال: ﴿من آمن؟﴾
قُلْتَ: فيه وجهان: أحدهما أن يراد بالذين آمنوا الذين آمنوا
بالسننهم وهم المنافقون، وأن يراد بمن آمن من ثبت على
الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه.

فَإِنْ قُلْتَ: ما محل: ﴿من آمن؟﴾ قُلْتَ: إما الرفع على
الابتداء وخبره ﴿فلا خوف عليهم﴾ والفاء لتضمن المبتدأ
معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن، وإما النصب على
البديل من اسم إن وما عطف عليه أو من المعطوف عليه.

فَإِنْ قُلْتَ: فإين الراجع إلى اسم إن؟ قُلْتَ: هو محنوف
تقديره: من آمن منهم، كما جاء في موضع آخر. وقُرئ:
والصابئون بياء صريحة وهو من تخفيف الهمزة، قراءة
من قرأ: يستهزئون، والصابئون وهو من صبوت لأنهم
صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا
أئمة العقل والسمع. وفي قراءة أبي رضي الله عنه:
والصابئين بالنصب، وبها قرأ ابن كثير، وقرأ عبد الله: يا
أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه
الآية في البقرة، وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع،
لاستحضاره بون الماضي، وتمثيله بقوله تعالى: ﴿إلم تر أن الله
أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ فعدل عن
﴿فأصبحت﴾ إلى ﴿فتصبح﴾ تصويراً للحال، واستحضاراً لها في
ذهن السامع، ومنه:

بأنني قد لقيت الغول تسعى بسبب كالصحيفة صحصاح
فأخذها فاضرب بها فخرت صريعاً للبين وللجران
وأمثاله كثيرة، والله أعلم.

(١) قال أحمد: ومما يدل على حذف الجواب، أنه جاء ظاهراً في الآية
الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إنكم جاءكم رسول بما
لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرقاً كنبتهم وفريقاً يقتلون﴾ فلو
قوله: ﴿استكبرتم﴾ جواباً، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم
بالأنبياء، بقتل البعض وتكذيب البعض، ولو قدر لزمخشري ههنا
الجواب المحنوف، مثل لمنطوق به في أخت الآية، فقال: وأرسلنا
إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا،
لكان أولى، لدلالة على مثله عليه.

(٢) قال أحمد: لو يكون حالاً على حقيقته، لأنهم داروا حول قتل محمد

من النصرانية.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَشْرَ رَجِيمٍ (٧٤).

﴿أفلا يتوبون﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكثرة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه وفيه تعجب من إصرارهم. ﴿والله غفور رحيم﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم.

مَا التَّسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأِنَّهُ صِدْقَةٌ مِمَّا بَآءَكُمُ أَنْ تَنْظُرُوا أَنَّى يُرْسِلُ إِلَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرُوا أَنَّ يُذْكَرُوا (٧٥).

﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، إن أبرأ الله الأرض وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وخلق بها البحر وطمس على يد موسى. وإن خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. ﴿وإنه صديق﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا صديقة كـ بعض النساء المصنقات للأنبياء المؤمنين بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشري أحدهما نبي والآخر صحابي. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتوهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم، مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه، ثم صرح بعدهما عما نسب إليهما في قوله: ﴿كانا ياكلان الطعام﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وإخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام. ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ أي: الإعلام من الآلة الظاهرة على بطلان قولهم: ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتامله.

فَإِنْ قُلْتَ^(٢): مَا مَعْنَى التَّرَاخِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا؟﴾ قُلْتَ: معناه: ما بين العجيبين، يعني: أنه بين لهم الآيات بيانا عجيباً وإن إعراضهم عنها أعجب منه.

قُلْ أَتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ أَسْمِعُ الْكَلِمَ (٧٦).

﴿ما لا يملك﴾ هو عيسى، أي شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلياء والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فيبقادر الله وتمكينه فكانه لا يملك منه شيئاً، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرراً ولا نفعاً، وصفة الرب

الرؤية. وقرئ: عموا وصموا بالضم على تقدير عما هم الله وصممهم، أي: رماهم وضربهم بالعمى والصمم. كما يقال: نزكته إذا ضربته بالنيزك، وربكته إذا ضربته بركبتك. ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير أو على قولهم: أكلوني البراغيت، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَكَنًا لِيَأْتِيَنِي اللَّهُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكٍ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٧).

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مريبوب كمثلهم، وهو احتجاج على النصارى.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ في عبادته أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله. ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمة دخولها ومنعه منه كما يمنع المحرم من المحرم عليه. ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ من كلام الله على أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم وردّه وأنكره، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره، أو من قول عيسى عليه السلام، على معنى: ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدهم عليه لاستحلالته وبعده عن المعقول، أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَيَسْخَرَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٨).

من في قوله: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ للاستغراق وهي المقترنة مع لا التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله، والمعنى: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له وهو الله وحده لا شريك له. ومن في قوله: ﴿ليمسن الذين كفروا منهم﴾ للبيان كالتي في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾^(١).

فإن قلت: فهلا قيل: ليمسنهم عذاب اليم؟ قلت: في إقامة الظاهر مقام المضمرة فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا﴾ وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير والذين كفروا منهم أنهم بمكان من الكفر، والمعنى: ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿عذاب اليم﴾ أي: نوع شديد الألم من العذاب، كما تقول: أعطني عشرين من الثياب، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون. ويجوز أن تكون للتبعيض على معنى: ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم، لأن كثيراً منهم تابوا

= كيف قدر ثم قتل كيف قدر، وهي في سائر هذه المواضع

(1) سورة الحج، الآية: 30.

(2) قال أحمد: ومنه: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وقوله: ﴿فقتل﴾ =

منقولة من التراخي الزماني، إلى التراخي المعنوي في المراتب.

والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فاصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي. ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ إلا لأجل المعصية والاعتداء لا شيء آخر. ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله:

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٨).

لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عن منكر فعلوه﴾. ثم قال: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ للتعجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير وقلة عبثهم به كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب.

فإن قلت^(٢): كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء لأن في التناهي حسماً للفساد فكان تركه على عكسه.

فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهي بعد الفعل؟ قلت: معناه: لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أربوا فعله، كما ترى إشارات الخوض في الفسق وآلاته تسوئ وتها فتنتك، ويجوز أن يراى: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه بل يصبرون عليه ويدومون على فعله. يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه، إذا امتنع منه وتركه.

كَرِهَ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خِلْدُونَ (٧٩).

﴿ترى كثيراً منهم﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم. ﴿أن سخط الله عليهم﴾ هو المخصوص بالذم ومحل الرفع، كأنه قيل: لبئس زادهم

أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقبور عن قدرته. ﴿والله هو السميع العليم﴾ متعلق بـ ﴿التعبدون﴾، أي: أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون، أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر.

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِبِّكُمْ عِنْدَ الْوَعْدِ وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرًا قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَسْأَلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٨٠).

﴿غير الحق﴾ صفة للمصدر، أي^(١): لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي: غلواً باطلاً، لأن الغلو في الدين غلوان: غلو حق وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد في تحصيل حجه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم، وغلوا باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع. ﴿قد ضلوا من قبل﴾ هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ. ﴿واضلوا كثيراً﴾ ممن شايعهم على التثليث. ﴿واضلوا﴾ لما بعث رسول الله ﷺ ﴿عن سواء السبيل﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

لَمَنْ آتَيْنَا كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٨١).

نزل الله لعنهم في الزبور ﴿على لسان داود﴾، وفي الإنجيل على لسان عيسى، وقيل: إن أهل آيلة لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين

بأنهم كانوا يفعلون المنكر، والآخر أنهم كانوا تاركين للنهي عنها، أي: عن أمثالها في المستقبل، ولولا زيادة فعلوه، لما صرح بوقوعها منهم، ولكن المصرح به ترك النهي عن المنكر عند استحقاق النهي، وذلك حين الإشراف على تعاطيه، وظهور الامارات الدالة عليه، فانتظم ثبوت الأمرين جميعاً على إخصر وجه وأبلغه، وقد دلت هذه الآية، على المذهب الصحيح الأشعري، من أن متعلق النهي فعل، وهو: الترك، خلافاً لأبي هاشم المعتزلي في قوله: إن متعلقه نفي محض، وعدم صرف، ووجه دالة الآية على أن متعلقه فعل، أنه عبر عن ترك التناهي، الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل، حيث قال ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي: لبئس الترك للتناهي فعلاً، كما تقول: زيد بش الرجل، فتجعل الرجل واقعاً على زيد، وقد سمي تركهم للنهي عن المنكر، في الآية السالفة قبل هذه صنعاً، فقال: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ إلى قوله: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وذلك أبلغ في الدلالة على أن متعلق النهي أمر ثابت، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات، وقد مر هذا التقرير، والله الموفق.

(١) قال أحمد: يعني: بأهل العدل والتوحيد المعتزلة، ويعني بفعلوه: الذي هو حق عنده، أنهم غلوا في التوحيد، فجحدوا الصفات الإلهية، وغلوا في التعديل، فنفوا أكثر الأفعال، بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى، لانطوائها في مفاسد، ولأن الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه، فهذا غلوهم في التعديل، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد؛ لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً، فالنصارى غالوا فأشركوا ثلاثة، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير الآميين في الخلق، الذي هو خاص بالرب، ويعني الزمخشري بأهل البدع والأهواء: من عدا الطائفة المذكورة، ويعين بغلوهم الباطل: إثبات الصفات لله تعالى، وتوحيده على الحق، حتى لا خالق سواء، ولا مخلوق إلا بقدرته، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه، وسكت عن ذكر ما عداهم، ونحن نقول: اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برضاك، وهذه دعوة أيضاً بلا خلاف، والله الموفق.

(٢) قال أحمد: وفي هذا التوبيخ الإخبار بأمرين قبيحين، أحدهما: =

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾

ووصفهم الله بركة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن. وذلك نحو ما يحكى عن النجاشي رضي الله عنه: أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون - لعنوا - وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنقه: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها. فقرأها إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (4) وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (5) فيبكي النجاشي (6) وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس فيكفوا (7).

فإن قلت: بم تعلقت اللام في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ قلت: بعداوة ومودة على أن عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشد العداوات وأظهرها، وإن مودة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودات وأدناها وجوداً وأسهلها حصولاً. ووصف اليهود بالعداوة، والنصارى بالمودة مما يؤذن بالتفاوت، ثم وصف العداوة والمودة بالأشد والأقرب.

فإن قلت (8): ما معنى قوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾؟ قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمت عينه دمعاً.

فإن قلت: أي فرق بين ﴿مَنْ﴾ و﴿مَنْ﴾ ومن في قوله: ﴿مَنْ﴾ عرفوا من الحق؟ قلت: الأولى: لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتداء ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، وتحتمل معنى التبعية على أنهم عرفوا بعض الحق

إلى الآخرة. ﴿سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى: موجب سخط الله.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِآلِهِ وَآلِيَّتِهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَّةَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ولو كانوا يؤمنون﴾ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركون ﴿أولياء﴾ يعني: أن موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم وأن إيمانهم ليس بإيمان ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ متعمدون في كفرهم ونفاقهم. وقيل: معناه: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ يَٰمُنَّاهُ مِنْهُم مَّيِّمِينَ وَرُفِعْنَاكَ وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٤﴾

(1) وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولين عريكة النصارى وسهولة أرواثهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قراء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل في قوله: ﴿لَتَجَنَّبَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (2) ومن الذين أشركوا ولعمري إنهم لذلك وأشد. وعن النبي ﷺ: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما يقتله» (3). وعلل سهولة ماخذ النصارى وقرب موتهم للمؤمنين. ﴿بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء وعباداً. ﴿وأنهم﴾ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل بين على أن التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأثله على الفوز حتى علم القسيسين، وكذلك غم الآخرة والتحدث بالعاقبة وإن كان في راهب، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

(1) قال أحمد: وإنما قال ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل النصارى تعريضاً بصلاية اليهود في الكفر، والامتناع عن الامتنال للأمر؛ لأن اليهود قيل لهم: ﴿انخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أبارككم﴾ فقابلوا ذلك بأن قالوا: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعين﴾ والنصارى قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ لكنه ههنا ذكر تنبيهها، على أنهم لم يثبتوا على الميثاق، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله، وفي الآية الثانية نكر تنبيهها على أنهم أقرب حالا من اليهود، لأنهم لما ورد عليهم الأمر، لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود، بل قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ واليهود قالت: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعين﴾ فهذا سره، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 96.

(3) أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والثعالبي في تفسيره.

(4) سورة مريم، الآية: 34.

(5) سورة طه، الآية: 9.

(6) قال الزيلعي غريب، 415/1.

(7) ابن مرويّه والطبري، الزيلعي، 416/1.

(8) قال أحمد: وهذه العبارة من أبلغ العبارات وإنهاها، وهي ثلاث مراتب، فالأولى قاض دمع عينه، وهذا هو الأصل، والثانية محوكة من هذه، وهي قول القائل: قاضت عينه دمعاً، حوكت الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة، ثم نهبت على الأصل والحقيقة، بنصب ما كان فاعلاً على التمييز، والثالثة فيها هذا التحويل المذكور، وهي الواردة في الآية، إلا أنها أبلغ من الثانية بإطراح المنبهة على الأصل، وعدم نصب التمييز، وإبرازه في صورة التعليل، والله أعلم، وإنما كان الكلام مع التعليل، أبعد عن الأصل منه مع التمييز؛ لأن التمييز في مثله قد استقر، كونه فاعلاً في الأصل، في مثل: تصيب زيد عرقاً، وتنفق عمرو شحماً، واشتعل الرأس شيباً، وتقرت الأرض عيوناً، فإذا قلت: قاضت عينه دمعاً، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله، وأما التعليل، فلم يعهد فيه ذلك، إلا تراك تقول: قاضت عينه عن ذكر الله، كما تقول: قاضت عينه من الدمع، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز، والله الموفق.

أو لا تقولوا حرمانها على أنفسنا مبالغاً منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً. وروي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ وأشنع الكلام في الإنذار، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش، ولا يكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح، ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أؤمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا واقطروا وقوموا وناموا، فإنني أقوم وإنما وأصوم وأقطر وأكل اللحم والسم وأتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁽¹⁾.

ونزلت. وروي: أن رسول الله ﷺ كان ياكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلوة»⁽²⁾. وعن ابن مسعود: أن رجلاً قال له: إني حرمت الفرش، فتلا هذه الآية وقال: نم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن: أنه دعي إلى طعام ومعه فرقد السنجي وأصحابه فقعوا على المائدة وعليها الألوان من النجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية. فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان. فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه أنه قيل له: فلان لا ياكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد، قالوا: نعم. قال: إنه جاهل إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه: إن الله تعالى أنب عباده فأحسن إليهم. قال الله تعالى: ﴿لِيَنْفِقَ نَوْ سَعَةً مِنْ سَعَتِهِ﴾⁽³⁾ ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عنز قوماً رواها عنهم فعصوه. ﴿ولا تعتدوا﴾ ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً فنهى عن الاعتداء لئلا تحتل النهي عن تحريمها دخولاً أولاً لوروده على عقبه، أو أراد ولا تعتدوا بذلك.

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقاً. ﴿حلالاً﴾ حال مما رزقكم الله. ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد للتوصية بما أمر به وزاده تأكيداً بقوله: ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء

فأبكاكم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة. وقرئ: ترى أعينهم على البناء للمفعول. ﴿ربنا آمنا﴾ المراد به إنشاء الإيمان وال دخول فيه. ﴿ففاكتبنا مع الشاهدين﴾ مع أمة محمد ﷺ، الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة. ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾. وقالوا ذلك لأنهم وجدوا نكرهم في الإنجيل كذلك.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾

﴿وما لنا لا نؤمن بالله﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجب وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فاجابوهم بذلك، أو أراوا: وما لنا لا نؤمن بالله وحده؛ لأنهم كانوا مثلثين وذلك ليس بإيمان بالله، ومحل لا نؤمن بالنصب على الحال بمعنى: غير مؤمنين، كقولك: ما لك قائماً، والواو في ﴿ونطمع﴾ واو الحال.

فإن قلت: ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ قلت: العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل، كأنه قيل: أي شيء حصل لنا غير مؤمنين، وفي الثانية معنى هذا الفعل ولكن مقيداً بالحال الأولى لأنك لو أزلتها وقلت: ﴿وما لنا﴾ و﴿ونطمع﴾ لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ونطمع حالاً من لا نؤمن على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحسون الله ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين، وأن يكون معطوفاً على لا نؤمن على معنى: وما لنا نجتمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين، أو على معنى: وما لنا لا نجتمع بينهما بالدخول في الإسلام لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين.

فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ بَعْرَى مِنْ نَجْمَاتِ الْأُنْهَارِ خَلِيلِينَ ﴿٨٩﴾ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ ﴿٩١﴾

قرأ الحسن: فأتاهم الله ﴿بما قالوا﴾ بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص، من قولك: هذا قول فلان، أي اعتقاده وما يذهب إليه.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا عَنْ اللَّهِ لَكُمْ لِيُخْبرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

﴿طيبات ما أحل الله لكم﴾ ما طاب ولذ من الحلال، ومعنى ﴿لا تحرموا﴾: لا تمنعوا أنفسكم كمنع التحريم،

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الزبائح والصيد، باب: لحم البجاجة الحديث (5518)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ندب من حلف يميناً... الحديث (4241)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل الحديث (5614)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرّم امرأته ولم ينو طلاق الحديث (3664).

(3) سورة الطلاق، الآية: 7.

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص: 116-117، وأخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح الحديث (5063)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3389)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتل... الحديث (5073)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3390)، والبخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: لزوج عليك... الحديث (5199).

إلى ما أمر به وعما نهى عنه.

والكسوة ثوب يغطي العورة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت العبادة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء، وعن مجاهد: ثوب جامع، وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني: أو كاسوتهم، بمعنى أو مثل ما تطعمون أهلכם إسراراً كان أو تقثيراً لا تنقصونهم عن مقدار نفقتهم ولكن تواسون بينهم وبينهم.

فإن قلت: ما محل الكاف؟ قلت: الرفع تقديره ﴿أو﴾ طعامهم كاسوتهم بمعنى: كمثل طعامهم، إن لم يطعموهم الأوسط، ﴿أو تحرير رغبة﴾ شرط الشافعي رحمه الله الإيمان قياساً على كفاة القتل، وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفاة سوى كفاة القتل.

فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق بايتها أخذ المكفر فقد أصاب. ﴿فمن لم يجد﴾ إحداها ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ متتابعات عند أبي حنيفة رحمه الله تمسكاً بقراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما. فصيام ثلاثة أيام متتابعات، وعن مجاهد: كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان، ويخير في كفاة اليمين. ﴿ذلك﴾ المذكور ﴿كفاة إيمانكم﴾ ولو قيل: تلك كفاة إيمانكم لكان صحيحاً بمعنى تلك الأشياء، أو لتأنيث الكفاة، والمعنى: ﴿إذا حلقتكم﴾ وحنثتم، فترك نكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفاة إنما تجب بالحنث في الحلف لا بنفس الحلف. والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه. ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث⁽³⁾. ﴿واحفظوا إيمانكم﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا، أراد الإيمان التي الحنث فيها معصية لأن الإيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله، وقيل: أحفظوها بأن تكفروها. وقيل: أحفظوها كيف حلقتكم بها ولا تنسوها تهانوا بها. ﴿وذلك﴾ مثل ذلك البيان ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه⁽⁴⁾.

لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكثرتهم إطماع عشرة مسكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كثره أيمانكم إذا حلقتهم واحفظوا أيمانكم كذلك بين الله لكم ما ينبغي لعلكم تشكرون⁽⁵⁾.

اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم واختلف فيه. فعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عنه فقالت: هو قول الرجل: لا والله بلى والله⁽¹⁾. وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ﴿بما عقدتم الأيمان﴾ بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية، وروي أن الحسن رضي الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزق فقال: يا أبا سعيد دعني أجب عنك فقال:

ولست بماخوذ بلغوت قوله إذا لم تعدم عاقدات العزائم وقرئ: عقدتم بالتخفيف وعاهدتم، والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم. فحنف وقت المواخذة لأنه كان معلوماً عندهم، أو بنكت ما عقدتم فحنف المضاف: ﴿فكفارتهم﴾ فكفارة نكته، والكفارة الفعل التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها. ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ من أقصده لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتير. وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغنيهم ويعشيمهم. وعند الشافعي رحمه الله مد لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم بسكون الياء، والأهالي اسم جمع لأهل كليلالي في جمع ليلة والأراضي في جمع أرض. وقولهم: أهلون كقولهم: أرضون بسكون الراء، وأما تسكين الياء في حال النصب فالتخفيف، كما قالوا: رأيت معد يركب، تشبيهاً للياء بالالف. ﴿أو كسوتهم﴾ عطف على محل من أوسط، وقرئ بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في أسوة،

= اليمين على بر، والأقوال الثلاثة في مذهب مالك، إلا أن القول المنصور هو المشهور.

(3) قال أحمد: وفي هذه التاويل إشعار، بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها، يشدد عليه، ويؤاخذ بالأحوط، فأرشده الله إلى حفظ اليمين، لئلا يفرض أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر، على وجه الاحتياط، ما لم يصدر منه في علم الله تعالى، كالذي يحلف بالطلاق، وينسى هل قتيده بالثلاث مثلاً، أو أطلقه، فيلزمه الثلاث على المذهب للمشهور، ويحتمل أن يكون في علم الله تعالى، أنه إنما حلف بالطلاق مطلقاً، فأرشد إلى الحفظ، لئلا يجزئه النسيان إلى هذا التشديد، والمزاد بالإيمان: كل ما ينطلق عليه يمين، سواء كان حلفاً بالله، أو بغيره، مما يلزم في الشرع حكماً، والله أعلم.

(4) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الرجس، الذي انطوى على سائر ما ذكر، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، باب: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ الحديث (6663)، ومالك في الموطأ، كتاب: النذور والإيمان، باب: اللغو في اليمين، الحديث (9)، وأبو داود في السنن، كتاب الإيمان، باب: لغو اليمين الحديث رقم (3254).

(2) قال أحمد: بل في هذه الآية وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفاة بعد اليمين وقبل الحنث، وهو المشهور من مذهب مالك، وبيان الاستدلال بها، إنه جعل ما بعد الحلف ظرقاً لوقوع الكفاة المعتبرة شرعاً، حيث أضاف إذا إلى مجرد الحلف، وليس في الآية إيجاب الكفاة، حتى يقال: قد اتفق، على أنها إنما تجب بالحنث، فتعين تقديره مضافاً إلى الحلف، بل إنما نطقت بشرعية الكفاة، ووقوعها على وجه الاعتبار، إذ لا يعطى قوله ذلك كفاة إيمانكم إيجاباً، إنما يعطى صحة واعتباراً، والله أعلم، وهذا انتصار على من منع التكفير، قبل الحنث مطلقاً، وإن كانت

دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة، ويجوز أن يراد: واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر أو في ترك طاعة الله والرسول. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأن الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَيَّانَ (١٣).

رفع الجناح عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ما حرم عليهم منها، ﴿وَأَمَنُوا﴾ وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا﴾ ثم ثبتوا على التقوى والإيمان، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم أو أحسنوا إلى الناس واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات، وقيل: لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر (4). فنزلت، يعني: إن المؤمنين لا جناح عليهم في أي شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ثم اتقوا وأمنوا ثم اتقوا وأحسنوا على معنى: أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان ومثاله أن يقال لك: هل على زيد فيما فعل جناح؟ فتقول وقد علمت أن ذلك أمر مباح: ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً تريد أن زيداً تقي مؤمناً محسناً وأنه غير مؤاخذ بما فعل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا إِلَى الْقَيْدِ تَنَالَهُ آيَاتُكُمْ وَرِمَاكُمْ يَسَّرَ اللَّهُ لَكُمْ يَخَافُ بِالْأَيْمِ فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٤).

نزلت عام الحديبية، ابتلاه الله بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقي الصيد ممن لا يخافه فيقدم عليه. ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ فساد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء فالوعيد لا حق به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا فَعَرْنَا السَّبِيحَ وَالْأَصْبَحَ وَالْأَزْهَرُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَكُمْ تَلْعُونَ (١٥) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَادَةَ وَالْبَعْضَةَ فِي الْغَيْرِ وَالْيَبْسِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (١٦).

أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد: منها: تصدير الجملة بآمنوا، ومنها: أنه قرنها بعبادة الأصنام، ومنه: قوله عليه الصلاة والسلام: «شارب الخمر كعابد الوثن» (1)؛ ومنها: أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ (2) من الأوثان، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان والشیطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها: أنه أمر بالاجتناب، ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ومحقة، ومنها: أنه نكر ما ينتج منهما من الويال وهو: وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤنيان إليه من الصد عن نكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كان لم توقعظوا ولم تزجروا.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيها أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾.

فإن قلت (3): لم جمع الخمر والميسر مع الانصاب والأزلام أولاً ثم أفردهما آخر؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ونكر الانصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره وكأنه لا مبالغة بين من عبد صنماً واشرك بالله في علم الغيب وبين من شرب خمرأً أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله: ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ اختصاص للصلاة من بين النكر، كأنه قيل: وعن الصلاة خصوصاً.

وَأَيُّهَا اللَّهُ وَأَيُّهَا الرُّسُلُ وَاحْذَرُوا إِنَّا تَرَيْنَاهُ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَ رُسُلُنَا الْبَلَّغُ الْكَلِيمُ (١٧).

﴿واحذروا﴾ وكونوا حذرين خاشعين، لأنهم إذا حذروا

= من نفعهما ﴿فخصهما بالذكر، ولم يثبت النهي عنهما، فلذلك ورد أن قوماً تركوهما لما فيهما من الإثم، وقوماً على تعاطيها لما فيهما من المنافع، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهي، والله أعلم.

(4) أخرجه أحمد في المسند 351/2، وأخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة المائدة، باب: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...» الحديث (4620)، ومسلم في كتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر الحديث (5102).

(1) كشف الاستار، كتاب: الأشربة، باب: في شارب الخمر الحديث رقم: (1925)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأشربة، باب: مدمن الخمر الحديث (3375).

(2) سورة الحج، الآية: 30.

(3) قال أحمد: ويرشد إلى أن المقصود: الخمر والميسر خاصة؛ لأنهم إنما كانوا يتعاطونها خاصة، الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر

وعند محمد والشافعي رحمهما الله: مثله نظيره من النعم، فإن يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبي حنيفة رحمه الله.

فإن قلت: فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله: ﴿من النعم﴾ وهو تفسير للمثل وبقوله: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾! قلت: قد خير من أوجب القيمة بين أن يشتري بها هدياً أو طعاماً أو يصوم، كما خير الله تعالى في الآية، فكان قوله: ﴿من النعم﴾ بياناً للهدى المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فاهداه فقد جزي بمثل ما قتل من النعم، على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أي الثلاثة يختار، فاما إذا عمد إلى النظر وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قوم حينئذ ثم يخير بين الإطعام والصوم ففيه نبؤ عما في الآية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أكفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ كيف خير بين الأشياء الثلاثة ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله: فجزأه مثل ما قتل. وقرئ: فجزاء مثل ما قتل على الإضافة، وأصله فجزاء مثل ما قتل بنصب مثل بمعنى فعلية أن يجزي مثل ما قتل ثم أضيف، كما تقول: عجب من ضرب زيداً، ثم من ضرب زيد. وقرأ السلمي على الأصل. وقرأ محمد بن مقاتل: فجزاء مثل ما قتل بنصبيهما، بمعنى: فليجز جزءاً مثل ما قتل. وقرأ الحسن: من النعم بسكون العين، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه ﴿يحكم به﴾ بمثل ما قتل ﴿نوا عدل منكم﴾ حكمان علان من المسلمين. قالوا: وفيه دليل على أن المثل القيمة لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد بون الأشياء المشاهدة، وعن قبيصة أنه أصاب ظلياً وهو محرم فسأل عمر فشاور عبد الرحمن بن عوف ثم أمره ببيع شاة، فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سال غيره فأقبل عليه ضرباً بالدره، وقال: اتغصص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم، قال الله تعالى: ﴿يحكم به نوا عدل منكم﴾ فانا عمر وهذا عبد الرحمن⁽²⁾. وقرأ محمد بن جعفر: نو عدل، أراد يحكم به من يعدل

فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بشيء من الصيد﴾؟ قلت: قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تحض عندها أقدام الثابتين كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو شبيه بما ابتلي به أهل أيلة من صيد السمك، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه. وقرأ إبراهيم: يناله بالياء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَرْجَاءً مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكَمْ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا يَبْلَغُ الْكُفْرَ أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَهُمْ اللَّهُ يَنْفَعْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (١٥).

﴿حرم﴾ محرمون، جمع حرام كروح في جمع راح. والتعمد أن يقتله وهو ذاك لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله، فإن قتله وهو ناس لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو قصد برمي غير صيد فعلى السهم عن رميته فاصاب صيداً فهو مخطئ.

فإن قلت: فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلت: لأن مورد الآية فيمن تعمد فقد روي أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم. فنزلت، ولأن الأصل فعل التعمد والخطأ لاحق به للتغليظ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره... ومن عاد فينتقم الله منه﴾ وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالخطأ. وعن سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط العمد في الآية، وعن الحسن روايتان ﴿فجزاء مثل ما قتل من الصيد وهو عند أبي حنيفة قيمة المصيد يقوم حيث صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدي تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد وبين أن يشتري بقيمته طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً، فإن فضل مالا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدق به.

(1) قال أحمد: وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة، في قوله تعالى: ﴿ولنبلوكم بيشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ويشر الصابرين﴾ فلا خفاء في عظم هذه البلياء والمحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر؛ لأنه صبر على عظيم، فقول الزمخشري: إن: إنه قلل وصغر، تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام، منقوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها، والظاهر والله أعلم، أن المراد بما يشعر به اللفظ، من التقليل والتصغير: التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلياء، بعض من كل، بالنسبة إلى مقبور الله تعالى، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك، أعظم ما يقع وأهول، وأنه مهما اندفع عنهم، مما هو أعظم في المقدور، =

= فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل، لطفاً بهم ورحمة، ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملاً على الاحتمال، والذي يرشد إلى أن هذا مراد، أن سبق التوعد بذلك لم يكن، إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه، فيكون أيضاً باعثاً على تحمله، لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب، والإنذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه، وحاصل ذلك لطف في القضاء، فسبحان اللطيف بعباده، وإذا فكر العاقل فيما يبطل به من أنواع البلياء، وجد المنفعة عنه منها أكثر، إلى ما لا يقف عند غاية، فنسأل الله العفو، والعافية، واللفظ في المقدور.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 4/406 الحديث (8239).

الكفارة.

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَى لَكُمْ وَلَسِيَّارَةٌ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿صيد البحر﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل. و﴿وطعامه﴾ وما يطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة، وعند ابن أبي ليلى جميع ما يصاد منه، على أن تفسير الآية عنده: أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه. ﴿ومتاعاً لكم﴾ مفعول له أي: أحل لكم تمتعاً لكم، وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾⁽³⁾ في باب الحال لأن قوله: ﴿ومتاعاً لكم﴾ مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب، يعني: أحل لكم طعامه تمتعاً لتتناكم ياكلون طرياً ولسيارتكم يتزودونه قبيداً كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليها السلام. وقرئ: وطعمه.

وصيد البر⁽⁴⁾: ما صيد فيه، وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطيور الماء عند أبي حنيفة، واختلف فيه فمنهم من حرم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد وهو قول عمر وابن عباس، وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير: أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يدل ولم يشتر، وكذلك ما نبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله لا يباح له ما صيد لأجله.

فإن قلنا: ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله: ﴿صيد البر﴾! قلنا: قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمت حراماً﴾ لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم لأنهم هم المخاطبون، فكأنه قيل: وحرم عليكم ما صدتم في البر، فيخرج منه مصيد غيرهم ومصيدهم حين كانوا غير محرمين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾⁽⁵⁾. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: وحرم عليكم صيد البر، أي: الله عز وجل؛ وقرئ: ما دمت بكسر الدال، فيمن يقول دام يدام.

﴿جَمَلَ اللَّهُ الْكَبْكَبَةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ يَمَّا لَنَا وَإِلَيْهِ الْحَرَامُ وَالْمَدَى وَالْقَلْبَةَ ذَلِكَ لِمَلَكُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمُ مَا فِي السَّكَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ﴾^(٦).

منكم ولم يرد الوحدة، وقيل: أراد الإمام هدياً، حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل لأن الصفة خصصته فقرَّبته من المعرفة، أو بدل عن مثل فيمن نصبه، أو عن محل فيمن جزه، ويجوز أن ينتصب حالاً عن الضمير في به. ووصف هدياً بـ ﴿بالغ الكعبة﴾ لأن إضافته غير حقيقية ومعنى بلوغه الكعبة أن ينبح بالحرم فأما التصديق به فحيث شئت عند أبي حنيفة وعند الشافعي في الحرم.

فإن قلنا: بم يرفع ﴿كفارة﴾ من ينصب جزاء؟ قلنا: يجعلها خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: أو الواجب عليه كفارة، أو يقدر فعلية أن يجزي جزاء أو كفارة فيعطفها على أن يجزي. وقرئ: أو كفارة طعام مساكين على الإضافة، وهذه الإضافة مبينة كأنه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة بمعنى خاتم من فضة. وقرأ الأعرج: أو كفارة طعام مسكين، وإنما وحّد لأنه واقع موقع التبيين فاكتفى بالواحد الدال على الجنس. وقرئ: أو عدل ذلك بكسر العين، والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عايله من غير جنسه كالصوم والإطعام، وعله ما عدل به في المقدار ومنه: عدلا الحمل، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا، كان المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول به كالنبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل. و ﴿تلك﴾ إشارة إلى الطعام، و﴿وصياماً﴾ تمييز للعدل، كقولك: لي مثله رجلاً، والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف، وعند محمد إلى الحكمين. ﴿لينوق﴾ متعلق بقوله: ﴿فجزاء﴾ أي: فعلية أن يجازي أو يكفر لينوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام.

والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، كقوله تعالى: ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾⁽¹⁾ ثقیلاً والطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا يستمر، ﴿عفى الله عما سلف﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله ﷺ وتسالوه عن جواز، وقيل: عما سلف لكم في الجاهلية منه، لأنهم كانوا متعبدین بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً، ﴿ومن عاد﴾ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد نزول النهي ﴿فينتقم الله منه﴾ ينتقم خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت الفاء، ونحوه: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف﴾⁽²⁾، يعني: ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن وجوبها، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح: أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر وأنه لم يذكر

= العموم المخصوص غاية، ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبي حنيفة، تكون أكثر منها على مذهب مالك؛ لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم، كما نقله عنه، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة، والله أعلم.

(5) سورة المائدة، الآية: 95.

(1) سورة المزمل، الآية: 16.

(2) سورة الجن، الآية: 13.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 72.

(4) قال أحمد: وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين؛ لأن مالكا رضي الله عنه، يجيز أكل المحرم لصيد البر، إذا صاده حلال لنفسه، أو لحلال، فلا بد إذا على مذهب من تخصيص =

اللَّهُ يَتَأَوَّلُ الْآلِيبَ لَمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٣٠) البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى وإن كان قريباً عنكم، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثره لكثرتهم على القليل الطيب، فإن ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان في الخبيث وفوات الطيب وهو عام في حلال المال وحرامه وصالح العمل وطالحه وصحيح المذهب وفاسدها وجيد الناس ورديهم. **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** وآثروا الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر، ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة إذا افتخروا بالكثرة، كما قيل:

وكثير بسعد إن سعداً كثيرة لا ترج من سعد وفاء ولا نصراً وكما قيل:

لا يدهمك من دهمائهم عدد فإن جلهم بل كلهم بقر وقيل: نزلت في حجاج اليمامة حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين.

يَتَأَوَّلُ الْآلِيبَ مَا مَوَّلَا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا مِنْ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ يُدِّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَمَّا وَاللَّهُ عَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٣٢﴾

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها اعني قوله: **﴿إِنْ تَبَدُّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدُّ لَكُمْ﴾** صفة للأشياء، والمعنى، لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسأله عن تكاليف شاقة عليكم، إن افتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على

﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء الصفة كذلك. **﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾** (١) انتعاشاً لهم في أمر دينهم وبنياهم ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم لما يتم لهم من أمر حجبهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم. وعن عطاء بن أبي رباح: لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا. **﴿والشهر الحرام﴾** الشهر الذي يؤدي فيه الحج وهو ذو الحجة، لأن اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأنه قد عرفه الله تعالى، وقيل: عنى به جنس الأشهر الحرم. **﴿والهدي والقلائد﴾** والمقلد منه خصوصاً وهو البدين لأن الثواب فيه أكثر وبهاء الحج معه أظهر، **﴿فذلك﴾** إشارة إلى جعل الكعبة قِيَاماً للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره. **﴿تَتَعَلَّمُوا﴾** أن الله يعلم كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينشكم مما أمركم به وكلفكم.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٣﴾

﴿شديد العقاب﴾ لمن انتهك محارمه **﴿غفور رحيم﴾** لمن حافظ عليها.

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَسَ وَاللَّهُ يَسْلَمُ مَا يَدْرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به، وإن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفریط.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالْكَافِرُ وَلَوْ أَحْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا

= سياق الامتنان أيضاً ذلك، وهو تكرير المنة به مندرجاً في العموم، ومخصوصاً بالنكر، وإيضاً فيليب في الامتنان الترقى من الأدنى إلى الأعلى، بخلاف النهي، والله أعلم.

(٢) قال أحمد رحمه الله: وقد ثبت شرعاً أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة، وقد اعترف القدرية أنهم قليل فيها، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف، والأمر بهذه المثابة، وهم أيضاً يعتقدون: أنهم الفرقة الناجية، الموعودون بالجنة، لا غيرهم، إذ كل من عداهم، على طمعهم الفاسد، مخلد في النار مع الكفار، فعلى هذا، تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة، أكثر أهل الجنة، وحاشا أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل مطلع، على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب، ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحد، وهذا الاستنباط الذي استنبطه الزمخشري، من أن المراد بالطيب هذا: النفر المعتزلي، من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى: **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** أهل الحديث وأصحاب الرأي، يعني: الحقيقة، وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع، وما هو قد ابتدع قريباً منه في حمله الطيب في هذه الآية، على الفريق المعتزلي، بل والله شراً من تلك المقالة: لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية، نموذجاً بالله من ذلك، ونبراً من تجريه على السلف والخلف. قوله: ليس بزمانها، أنها اليوم مقبولة.

(١) قال أحمد: وفي هذه الآية ما يبعد تاويلين من التاويلات الثلاثة المنكورة في قوله أول هذه السورة: **﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾** فإن حمل القلائد ثم على ظاهرها، وتاويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد، كقوله: **﴿ولا يبين زينتاً إلا ما ظهر منها﴾** يريد مواقع الزينة، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه، كانه قال: لا تحلوا قلائدها، فضلاً عنها متعذر في هذه الآية؛ لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله الله **﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾** من هذه الأمور الموعودة، وقد خص المنة بالبدين في قوله: **﴿والبدين جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾** الآية، ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى، حتى يقع الامتنان بالمقلد، بل تلك لا تقع في سياق النهي، أن يخرج من النهي عن الأعلى، إلى التشديد بالنهي عن الأدنى، وأما التاويل الآخر، وهو: بقاء القلائد على حقيقتها، وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة، أي: لا تتعرضوا للقلائد، ولا تنتفعوا بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: **﴿اللقلائد﴾** في دماء، وخل بين الناس وبينها. فمتعذر أيضاً بما يعد به الذي قبله، وأما التاويل الثالث، وهو: حملها على نوات القلائد، فلا تقع بالاثنتين، فيتعين المصير إليه، ومن ثم لم ينكر الزمخشري في هذه الآية سواء، ووجه صلاحيته وظهوره فيها، أن الغرض في سياق النهي، إفراده بالنكر وتخصيصه بالنهي، بعد أن اندرج مع غيره في النهي، فكانه نهى عنه لخصوصيته مرتين، والغرض في =

ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ مَاؤُهُمْ لَا يَتْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٤).

الوار في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار وتقديره أحسبهم ذلك ولو كان آبَاؤُهُمْ ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدي وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن مَّلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥).

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها في طرق الهدى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (٢) وكذلك من يتأسف على ما فيه السقة من الفجور والمعاصي ولا يزال ينكر معاصيهم ومناكيرهم فهو مخاطب به، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه. وعن ابن مسعود أنها قرئت عنده فقال: إن هذا ليس (٣) بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم، فهي على هذا تسلية لمن يامر وينهى فلا يقبل منه ويسقط لعنره. وعنه: ليس هذا زمان تأويلها، قيل: فمتى؟ قال: إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن. وعن أبي ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل: سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «اتصمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا ما رأيتم شأماً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام، وإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ كقبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» (٤). وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، ولاموه. فنزلت: ﴿عليكم أنفسكم﴾ عليكم من أسماء الفعل بمعنى: الزموا صلاح أنفسكم، ولذلك جزم جوابه، وعن نافع: عليكم أنفسكم بالرفع. وقرئ: لا يضرركم (٥)، وفيه وجهان: أن يكون خبراً مرفوعاً وتنصره

السؤال عنها، وذلك نحو ما روي أن سراقاً بن مالك أو عكاشة بن محصن قال: يا رسول الله، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد مسألته ثلاث مرات، فقال ﷺ: «ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» (١).

﴿وإن تسالوا عنها حين ينزل القرآن﴾ وإن تسالوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه: ﴿تبد لكم﴾ تلك التكاليف الصعبة التي تسوكم وتؤمروا بتحملها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها. ﴿وعفى الله عنها﴾ عفا الله عما سلف من مساللتكم فلا تعوبوا إلى مثلهما، ﴿والله غفور حلِيم﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته.

فإن قلت: كيف قال: ﴿لا تسالوا عن أشياء﴾، ثم قال: ﴿قد سألها﴾، ولم يقل: قد سأل عنها؟ قلت: الضمير في سألها ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعليلته بـ «عن»، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها لا تسالوا، يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أي: بمرجعها أو بسببها ﴿كافرين﴾. وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فلهكذا.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا سَیِّئَةٍ وَلَا دَیْسٍ وَلَا حَاسٍ وَلَكِنَّ الْإِنِّ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَكَثُرَ لَمْ يَقُولُوا (١٦).

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أنها، أي: شقوها وحرموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي لم يركبها، واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقني سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما ولا ميراث، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت نكراً فهو لألتهن، فإن ولدت نكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم ينبحو الذكر لألتهن، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمي ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى ﴿ما جعل﴾ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك. ولكنهم بتحريمهم ما حرموا ويفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون، فلا

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي الحديث (4341)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة المائدة الحديث (3058)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الحديث (4014).

(5) يعني: بالرفع، وهو يفيد أن القراءة الأصلية: بالنصب.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: صحبة النبي ﷺ الحديث (147 - 1218)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: التمتع بالعمرة إلى الحج الحديث (2977).

(2) سورة فاطر، الآية: 8.

(3) لعل هذا الضمير، للنصيحة المفهومة من السياق قوله: ﴿لا يضرركم﴾ وفي وجهان.

العصر لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت ﷺ صلاة العصر ودعا بعدي وتميم فاستحلفهما عند المنبر فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة، فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي، وقيل: هي صلاة أهل النمة وهم يعظمون صلاة العصر. **﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾** اعتراض بين القسم والمقسم عليه، والمعنى: إن ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما، وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن علي رضي الله عنه: أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما⁽³⁾، والضمير في **﴿بِهِ﴾** للقسم، وفي **﴿كَانَ﴾** للمقسم له، يعني: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا، أي: لا تحلف بالله كائنين لأجل المال ولو كان من قسم له قريباً منا، على معنى أن هذه عابثهم في صدقهم وأمانتهم أبداً، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى: **﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾**⁽⁴⁾ **﴿شهادة الله﴾** أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنه وقف على شهادة، ثم ابتداءً بالله المد على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروي عنه بغير مد على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوّض منه همزة الاستفهام، فيقول: الله لقد كان كذا. وقرئ: لملأين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها، كقوله: عاد لولي.

فَأَنْ قُلْتَ: ما موقع تحبسونهما؟ قلت: هو استئناف كلام، كأنه قيل: بعد اشتراط العدالة فيهما، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما؟ فقيل: **﴿تحبسونهما﴾**.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلت: لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها أغنى ذلك عن التقييد، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر، ويجوز أن تكون اللام للجنس وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصق وناهية عن الكذب والزور **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**⁽⁵⁾.

فَإِنْ عَزَّ عَنْ أَهْلِهِمَا اسْتَحَقَّ إِفْئَا فَتَأَخَّرَ يُؤَوِّانَ مَقَامَهُمَا مِنْ أَلَيْزٍ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهْدَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا

قراءة أبي حيوة: لا يضيركم، وأن يكون جواباً للامر مجزوماً. وإنما ضمت الراء إتياعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل: لا يضركم، ويجوز أن يكون نهياً، ولا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره.

يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ بَيْنَكُمُ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ عَشْرُهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْأَى بِهِ شَيْئاً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةً أَلَوْ إِنَّا إِذًا لَكِنَ الْأَوَّلَيْنِ ^(٦).

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدأ الذي هو **﴿شهادة بينكم﴾** على تقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. وقرأ الشعبي: شهادة بينكم بالتثوين. وقرأ الحسن: شهادة بالنصب والتثوين على ليقم شهادة اثنان، وإذا حضر ظرف للشهادة، وحين الوصية بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية ولأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل **﴿منكم﴾** من أقاربكم و **﴿من غيركم﴾** من الأجانب، **﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** يعني: إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم فاستشهدوا أجنيين على الوصية، وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح وهم له أنصح. وقيل: منكم من المسلمين ومن غيركم من أهل النمة. وقيل: هو منسوخ، لا تجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أول الإسلام لقلّة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول: نسخها قوله تعالى: **﴿وَأَشْهَدُوا نَوْيَ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾**^(١) وروي أنه خرج بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين مع عدي بن زيد وتميم بن أوس وكانا نصرانيين تجاراً إلى الشام، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه وأمرهما أن يدفعوا متاعه إلى أهله ومات، ففتشوا متاعه فأخذوا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فاصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإثناء فجدوا، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ⁽²⁾، فنزلت **﴿تحبسونهما﴾** تفقونهما وتصبرونهما للحلف **﴿من بعد الصلاة﴾** من بعد صلاة

(1) سورة الطلاق، الآية: 2.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة المائدة الحديث (3059)، وأخرجه مختصراً أبو داود في كتاب: الأقضية، باب: شهادة أهل النمة، وفي الوصية في السفر الحديث (3606)، والبخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: قول الله عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ...﴾** الحديث (2780).

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار =

= الحديث (1521)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة آل عمران الحديث (3006)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة الحديث (419).

(4) سورة النساء، الآية: 135.

(5) سورة المائدة، الآية: 45.

وَمَا أَتَدْرِيٓ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْفَلَّاحِينَ ﴿١٧﴾.

﴿فإن عثر﴾ فإن طلع ﴿على لثهما استحقا لثماً﴾ أي: فعلاً ما أوجب لثماً واستوجباً أن يقال: إنهما لمن الأثمين. ﴿فأخران﴾ فشاهاذان أخران ﴿يقومان مقامهما من اللذين استحق عليهم﴾ أي: من اللذين استحق عليهم الإثم، ومعناه: من اللذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما وأن شهادتهما أحق من شهادتهما. ﴿الأوليان﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وارتفاعهما على هما الأوليان، وقيل: هما بديل من الضمير في يقومان، أو من أخران، ويجوز أن يرتفعاً باستحق، أي: من اللذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ: الأولين على أنه وصف للذين استحق عليهم مجرور أو منصوب على المدح، ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ: الأوليين على التثنية وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن: الأولان ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعي. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك فوجهه عندهم: أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما، فانكر الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ ﴿استحق عليهم الأوليان﴾ على البناء للفاعل وهم علي وأبي وابن عباس؟ قلت: معناه من الورثة اللذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجزئوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكائنين.

ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالْبَهْءَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرَدَّ أَيْتُنْ بَعْدَ أَيْتِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمُوهُا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾.

﴿ذلك﴾ الذي تقدم من بيان الحكم ﴿أنى﴾ أن يأتي الشهود على نحو تلك الحالة ﴿بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد إيمان﴾ أن تكرر إيمان شهود آخرين بعد إيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل. ﴿ولسمعوا﴾ سمع إجابة وقبول.

﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيبتن﴾ قالوا لا علم لنا إنك أنت أعلم الشهود ﴿١٨﴾.

﴿يوم يجمع﴾ ^(١) بدل من المنصوب في قوله:

﴿واتقوا الله﴾ وهو من بدل الاشتمال، كأنه قيل: واتقوا الله يوم جمعه ^(٢)، أو ظرف لقوله: لا يهدي أي: لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم، أو ينصب على إضمار انكر أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت. و ^(٣) ﴿ماذا﴾ منتصب بأجبتن انتصاب مصدره على معنى أي إجابة أجبتن، ولو أريد الجواب لقيل: بماذا أجبتن؟

فإن قلت: ما معنى سؤالهم؟ قلت: توبيخ قومهم كما كان سؤال الموعودة توبيخاً للواند.

فإن قلت: كيف يقولون: ﴿لا علم لنا﴾ وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجاباتهم، إظهاراً للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة، وأقن في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي أنبيائه عليهم، ومثاله: أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجي! وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه واتكالاً عليه، وإظهاراً للشكاية، وتعظيماً لما حل به منه ^(٤). وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمهم، وقيل: معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا وإنما الحكم للخاتمة وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين ^(٥). وقرئ: ﴿علام الغيوب﴾ ^(٦) بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إنك أنت﴾ أي: إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره، ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم أن.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰٓيُوسَىٰٓ إِنَّ مَرَّةَٓ أَنْكَرَ يَحْمَىٰ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ذٰلِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَمْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيِّتَةِ الطَّيْرِ يَازِيدُ فَتَنْشَعُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَتَّبِعُ الْأَكْثَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ خُلِّيَ الْمَوَدَّ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ

= والله أعلم.

(5) قال أحمد: ويكون هذا من باب:

أنا أبو النجم وشعري وشعري

وقد مر قبل بآيات، وإنما نكرت هذه الثلاثة من الإعراب، لالتباسها إلا على الحذوق، وقليل ما هم.

(6) سورة المائدة، الآية: 109.

(1) قال أحمد: ويكون انتصابه إزاء انتصاب المفعول به، لا الظرف على حكم المبدل منه.

(2) قال أحمد: وهو على هذا أيضاً: مفعول به.

(3) قال أحمد: والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة، في مثل ما حصل، إلا بعد التي واللتيا.

(4) قال أحمد: وأيضاً، فالمسؤول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى الله، لا ما حدث بعد ذلك، مما لا يتعلق به علم الرسل، =

﴿مُسلمون﴾ مخلصون، من أسلم وجهه لله.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مَوْفِقِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿عيسى﴾ في محل النصب على اتباع حركة الـ (ين)، كقولك: يا زيد بن عمرو وهي اللغة الفاشية، ويجوز أن يكون مضموماً كقولك: يا زيد بن عمرو والدليل عليه قوله: أحارب بن عمرو كائني خمر ويبو على المرء ما ياتمر لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم.

فإن قلت: كيف قالوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: (١) ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم اتبعه قوله: إذ قالوا، فإن إن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين، وقوله: هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم. وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم: معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقتربوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتهم بعدها. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ: هل تستطيع ربك أي: هل تستطيع سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، وهي من مائه إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه.

قَالُوا يُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنَّا وَنَقَطِعَ قُلُوبَنَا وَنَقْلَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا كُوْنُ لَهُ فِي شَيْءٍ ﴿١٣٨﴾

﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة عاكفين عليها، على أن عليها في موضع الحال، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الإيمان والإخلاص، وإنما سال عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ: ويعلم بالياء على البناء للمفعول وتعلم وتكون بالياء والضمير للقلوب.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرَاقًا وَآتَ خَيْرَ الْأَرْزَاقِ ﴿١٣٩﴾

حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة، وجود الحرّة في العصمة وعدمه إن لا يملك عصمة الحرّة، وإن كان قادراً على ذلك، فتباح له حينئذ الأمة، وحمل قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ على معنى: ومن لم يملك منكم، وحمل النكاح على الوطء، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك، كما ترى حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده، فينكح الأمة، وقد مضى نكر مذهبه، وكنت أستبعد إنهاضه، لأن يكون تأويلاً يحتمله اللفظ، ويساعده الاستعمال، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا، والله أعلم.

عَلَيْكَ إِذْ جَنَّهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٤٠﴾

﴿إذ قال الله﴾ بدل ﴿من يوم يجمع﴾ والمعنى أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم، وبتعديدهما أظهر على أيديهم من الآيات العظام فكذبهم وسموهم سحرة، أو جاوزوا حد التصديق إلى أن اتخوهم آلهة كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البينات والمعجزات: هذا سحر مبين، واتخذ بعضهم وأمه إلهين. ﴿أينك﴾ قويتك وقرئ: أينك على أفعلتك ﴿بروح القدس﴾ بالكلام الذي يحيا به الدين وإضافة إلى القدس لأنه سبب الطهر من أضرار الآثام، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿تكلم الناس﴾ و ﴿في المهد﴾ في موضع الحال لأن المعنى تكلمهم طفلاً ﴿وكهلاً﴾ إلا أن في المهد فيه دليل على حد من الطفولة. وقيل: روح القدس جبريل عليه السلام أيد به لتثبيت الحجة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿في المهد وكهلاً﴾؟ قلت: معناه تكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء. ﴿والتوراة والإنجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل: الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿كهنة الطير﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بإنني﴾ بتسهيلي، ﴿فتنفخ فيها﴾ الضمير للكاف لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء، وكذلك الضمير في ﴿فتكون﴾، ﴿تخرج للموتى﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم، قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وإن كفت بني إسرائيل عنك﴾ يعني: اليهود حين هموا بقتله، وقيل: لما قال الله تعالى لعيسى ﴿انكر نعمتي عليك﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يخر شيئاً لغو يقول: مع كل يوم رزقه. لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ يَقُولُوا يَٰرَسُولُ قَالُوا مَامَنَا وَاشْهَدْ بَأَنَّكَ مُبِينٌ ﴿١٤١﴾

﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أمرتهم على السنة الرسل

(١) قال أحمد: وقيل: إن معنى هل يستطيع: هل يفعل، كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم بمبالغة في التقاضي، ونقل هذا القول عن الحسن، فعلى هذا يكون إيمانهم سالماً، عن قدح الشك، في القدرة، فإن استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة، فذاك، والله أعلم، من باب التعبير عن المسبب بالسبب إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد، وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل، تسمية للسبب الذي هو الإرادة، باسم المسبب الذي هو الفعل، في مثل قوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ وقد مضى أول السورة، وفي هذا التأويل الحسن تعضيد، لتأويل أبي حنيفة.

فقال: يا سمكة احياي بإذن الله، فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت فعانت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير، وروي: أنهم لما سمعوا بالشرية وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَا لَبِثَ فِي الْإِيمَانِ﴾ قالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن: والله ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة لقوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾^(١) والصحيح أنها نزلت.

وَرَأَى قَالَ اللَّهُ يَعْجَسُ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأُتِيَ الْوَلَدَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ

﴿سبحانك﴾ من أن يكون لك شريك ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي ﴿أن أقول﴾ قولاً لا يحق لي أن أقوله: ﴿في نفسي﴾ في قلبي والمعنى تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه فقيل ﴿في نفسك﴾ لقوله: ﴿في نفسي﴾ ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تقرير للجملتين معاً لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد^(٢).

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

﴿إن﴾ في قوله: ﴿أن أعبدوا الله﴾ إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر، والمفسر إما فعل القول، وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له، أما فعل القول فيحكي بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن أعبدوا الله، ولكن ما قلت لهم إلا أعبدوا الله^(٣)، وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله عز وجل فلو فسرته بأعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم؛ لأن الله تعالى لا يقول أعبدوا الله ربي وربكم^(٤)، وإن

﴿اللهم﴾ أصله يا الله فحذف حرف النداء وعوضت منه الميم. و﴿ربنا﴾ نداء ثانٍ ﴿تكون لنا عيداً﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد، ومن ثم اتخذه النصراني عيداً. وقيل: العيد السرور العائد ولذلك يقال: يوم عيد، فكان معناه تكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ عبد الله: تكن على جواب الأمر، ونظيرهما يرثني ويرثني. ﴿ولولنا وأخرنا﴾ بدل من لنا بتكرير العامل أي لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعننا. وقيل: ياكل منها آخر الناس كما ياكل أولهم ويجوز للمقمتين منا والاتباع. وفي قراءة زيد: لاولانا وأخرنا وللتانيث بمعنى الأمة والجماعة ﴿عذاباً﴾ بمعنى تعذيباً.

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْنَا عَلَيْكَ مَنَّانًا يَكْفُرُ بَدِّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ

والضمير في ﴿لا أعنبه﴾ للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء. وروي: أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً ثم قال: اللهم أنزل علينا، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلاً وعقوبة. وقال لهم: ليقيم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها وياكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك. فقال عيسى فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل. وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل سماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدره العالية، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزينكم من فضله. فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟

= موسى، وموسى لا يقول: فأخرجنا، ولكن: فأخرج الله، فلما حكا الله تعالى عن موسى، رد الكلام إليه تعالى، وأضاف الإخراج إلى ذاته، على طريقة المتكلم لا الحاكي، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ خَلَقْنَاهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَاشَرْنَاهُ بِهْ بِلَدِهِ﴾ ونظائره كثيرة، وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات، المناقبة لاعتقادهم فيه.

(4) قال أحمد: أي، فلا يقرر بالعبادة، ولكن بالأمر بها، كأنه قيل: ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة لله، والأمر مقول لقلت، على أن جعل العبادة مقولة، ليس بيبعد على طريقة، ثم يعون لما قالوا، أي: للوطء الذي قالوا قولاً يتعلق به، وكقوله تعالى: ﴿يُؤَنِّثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وسيتأتى له تصحيح هذا الاستعمال، لوروده كثيراً في القرآن الكريم.

(1) سورة المائدة، الآية: 114.

(2) قال أحمد: وقد أجاز بعضهم وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول، ولم يقتصر بها على ما في معناه، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول، وقد أبى الزمخشري في مفسله وقوعها، إلا بعد فعل في معنى القول، كمنهبه ههنا.

(3) قال أحمد: ويجوز أيضاً هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى، كأنه حكى معنى قول الله عز وجل له، بعبارة أخرى، وكان الله تعالى قال له: مرهم بجعباتي، أو قال لهم على لسان عيسى: أعبدوا الله رب عيسى وربكم، فلما حكا عيسى عليه السلام، قال: أعبدوا الله ربي وربكم، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره، كما قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلكت لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، فأنظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول =

﴿إِنْ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القوي القادر على الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

فَأَنْ قُلْتُ⁽⁴⁾: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ؟﴾ قُلْتُ: ما قال إِنَّكَ تَغْفِرْ لَهُمْ وَلَكِنَّهُ بَنَى الْكَلَامَ عَلَى أَنْ غَفَرْتَ فَقَالَ: إِنْ عَذِّبْتَهُمْ عُلْتُ لَأَنَّهُمْ أَحْقَاءُ بِالْعَذَابِ وَإِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ لَمْ تَعْدَمْ فِي الْمَغْفِرَةِ وَجْهَ حِكْمَةٍ لَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ حَسَنَةٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ فِي الْمَعْقُولِ، بَلْ مَتَى كَانَ الْجَرَمُ أَعْظَمَ جَرِماً كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ أَحْسَنَ.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ عَثَمَاءِ الْأَثَرِ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٨﴾.

قري: هذا يوم ينفع بالرفع والإضافة وبالنصب إما على أنه ظرف لقال وإما على أن هذا مبتدأ والظرف خبر، ومعناه هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع ولا يجوز أن يكون فتحاً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾⁽⁵⁾ لأنه مضاف إلى متمكن، وقرأ الأعمش يوم ينفع بالتثنية

جعلتها موصولة بالفعل لم تخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به، وكلاهما غير مستقيم لأن البديل هو الذي يقوم مقام المبدل منه، ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال⁽¹⁾، وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت أن اعبدوا الله مقام الهاء فقلت: إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته.

فَأَنْ قُلْتُ⁽²⁾: فكيف يصنع؟ قُلْتُ: يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ﴿وَمَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم⁽³⁾، ويجوز أن تكون أن موصولة عطف بيان للهاء لا بدلاً ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتبينوا به ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم من الرسل.

إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾.

المعرف بالالف واللام، إلى العلم، ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال، ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول، وأما الثاني فلتوضيح، والمعتمد في البديل الثاني، وأما الأول فبسبب لنكره، لا على أنه مطرح مهمل.

(4) قال أحمد رحمه الله: تذبذب الزمخشري في هذا الموضع، فلا إلى أهل السنة، ولا إلى القدرية، أما أهل السنة، فالمغفرة للكفار جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلاً، بل عقاب المقتي المخلص، كذلك غير ممتنع عقلاً من الله تعالى، وإذا كان كذلك، فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار، وعدم الغفران لهم، إلا أن ورود السمع بذلك، لا يرفع الجواز العقلي، وأما القدرية، فيؤمنون أن المغفرة للكفار ممتنعة عقلاً، لا تجوز على الله تعالى، لمناقضتها الحكمة، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد، إذ لو كان الأمر كزعمهم، لما دخلت كلمة: ﴿إِنْ﴾ المستعملة عند الشك، في وقوع الفعل بعدها لغة، في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلاً، ولكن ذلك من باب التعليق بالمحال، كأن يبيض القار وأشباهه، وليس هذا مكانه، فقول الزمخشري: إذا: إن يغفر لهم، لم يعد وجهاً من الحكمة في المغفرة: لأن العفو عن المجرم حسن عقلاً، لا يتألف بقواعد السنة، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي، ولا يتألف أيضاً بنزغات القدرية: لأنهم يجوزون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر، ويقطعون بمناقضتها الحكمة، فكيف يخاطب الله تعالى به، فلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق، ومما اشتعل عليه من سوء الأدب، فإن قول القائل لمن يخطبه: ما فعل كذا، فلن يقدم غيراً ووجهاً من المصلحة، كلام مبني، وعبرة نازلة عن أوفي مراتب الأدب، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة، فنسأل الله إلهام الأدب، وتجنب ما في إساءته من مزال العطب.

(5) سورة الانقطار، الآية: 19.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً غير مانع من البديل، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره، فقد قال في مقصده ما هذا نصه، وقولهم: إن البديل في حكم تنحية الأول، إيدان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته التأكيد، والصفة في كونها اسمين لما يتبعانه، لا أن يعنوا إمدار الأول وإطراحه، ألا تراك تقول: زيداً رأيت غلامه رجلاً صالحاً، فلو ذهبت إلى إمدار الأول، لم يسند كلامك، فانظر كيف يرد كلامه في المفصل، وهو الحق ما ارتكبه من رد البديل في هذه الآية، للزوم طرح الأول، فتخلو الصلة من الضمير، ولم يجعل هذا القدر مانعاً في المثال المذكور، مع أنك لو طرحت الأول، لخلا الخبر من الضمير العائد، ولم يسند الكلام، فهذه وجوه أربعة، منعها في إعراب أن وكلها مسندة حسبما بينا، وهذه المساجلة في هذا الإعراب من الغرر والحجول في صناعة الإعراب وعلم البيان، وفرسان هذا المضمار قليل.

(2) قال أحمد: هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول، وليس قولاً صريحاً، وحمل القول على الأمر، مما يصحح المذهب الآخر في إجازة وقوعها بعد القول، فإنه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي، لما جاز إطلاق أحدهما وإرادة الأخرى، والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول وما بينهما، إلا عموم وخصوص، وليس في هذا التأويل الذي سلكه، إلا كلفة لا طائل وراءه، ولو كانت العرب تأتي وقوع المفسرة بعد القول، لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول، ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول: لأن ذلك كالعود إلى ما وقع القرار منه، وهم بعداء من ذلك.

(3) قال أحمد: يريد بجعله عطف بيان: أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البديل، وخلو الصلة حينئذ من العائد، وقد بينا أن ذلك غير لازم في البديل، والعجب أنه أيضاً في مقصده، لم يفصل بين عطف البيان والبديل، إلا في مثل قول المراز:

أنا ابن لتارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلاً للزم، تكرير العامل، وإضافة اسم الفاعل=

كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ (1).

فإن قلت (2): ما معنى قوله: ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قلت: معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم، وعن قتادة: متكلمان تكلماً يوم القيامة أما إبليس فقال: إن الله وعدهم وعد الحق، فصديق يومئذٍ وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

لَهُ تِلْكَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (3).

فإن قلت: في السموات والأرض والعلاء وغيرهم فهلا غلب العلاء فقيل: ومن فيهن؟ قلت: ما يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد ما هو قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره؟ فكان أولى بإرادة العموم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1).

جعل: يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى: أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى: صير، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ (3)، والفرق بين الخلق والجعل، أن الخلق فيه معنى التقدير (4)، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك: ﴿وجعل منها زوجها﴾ (5) ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، «ثم جعلكم أزواجاً» (6) ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ (7).

فإن قلت (8): لم أقرء النور؟ قلت: للقصد إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ (9)، أو، لأن الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار.

فإن قلت (10): علام عطف قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾؟ قلت: إما على قوله: ﴿الحمد لله﴾ على

= الزمخشري: إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه، وهو النار لكان أولى، والله أعلم.

(9) سورة الحاقة، الآية: 17.

(10) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخولَه في حكمها، ولو قال الحمد لله الذي الذين كفروا بربهم يعدلون لم يسند لخلو الجملة من العائد، ويمكن أن يقال: وضع الظاهر الذي هو ربهم موضع المضمر تفخيماً وتعظيماً، وأصل الكلام الذي يعدل به الذين كفروا، أو الذي الذين كفروا يعدلون به باتساع وقوعها صلة رعاية لهذا الأصل، فهذا نظر من حيث الإعراب ونظيره، قوله تعالى: ﴿ولما أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، فبين جعل ما موصولة لا شرطية، فإن دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعي ضميراً عائداً إلى الموصول، وهو: مفقود لفظاً؛ لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمر، والأصل: ثم جاءكم رسول مصدق له، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور، وهو: أن يصير التقدير الحمد لله الذي الذين كفروا يعدلون، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى، فالوجه والله أعلم، عطفه على أول الكلام لا على الصلة، والله الموفق.

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ولو أجاز بحمل الصادقين على الدنيا، وصدقهم على الآخرة، حتى يكون التقدير هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لكان أوضح طباقاً لتفسير قتادة، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم، فإن إبليس، وإن صدق في الآخرة، إلا أنه يكن من الصادقين في الدنيا، فلم ينفعه صدقه في الآخرة، والوجهان متقاربان.

(3) سورة الزخرف، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وقد وردت جعل وخلق مورداً واحداً، فورد وخلق منها زوجها، وورد وجعل منها زوجها وذلك ظاهر في الترايف، إلا أن للخطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن جعل لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما خلق وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للتمييز بينهما. والله أعلم.

(5) سورة الأعراف، الآية: 189.

(6) سورة فاطر، الآية: 11.

(7) سورة ص، الآية: 5.

(8) قال أحمد: وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الأفراد، وقد قدمنا ما في ذلك من النظر، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة كتابه أكثر من كتبه على خلاف ذلك، وهو رأي الإمام أبي المعالي، ولو قال =

ذاته فيهما⁽⁵⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مَوْجِعُ قَوْلِهِ: «يَعْلَمُ سِرَكُمْ وَجْهَكُمْ»
قُلْتُ: إن أُرِيتَ المَتحِدَ بالإلهية كان تقريراً له؛ لأنَّ الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبيراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ، بمعنى: هو يعلم سركم وجهكم، أو خبر ثالث. **«وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ»** من الخير والشر، ويثيب عليه ويعاقب.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾

من في **«من آية»** للاستغراق وفي **«من آيات ربهم»** للتبعض يعني: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين، تاركين للنظر لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأساً، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾

«فقد كذبوا» مربوط على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وكبرها وهو الحق **«لما جاءهم»** يعني: القرآن الذي تحنوا به على تبالغهم في الفصاحة، فعجزوا عنه **«فسوف يأتيهم أنباء»** الشيء الذي **«كانوا به يستهزئون»** وهو: القرآن أي أخباره وأحواله بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزؤا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَأْسًا أَلَسَمَّا عَلَيْهِمْ يَذَرِكَا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٨﴾

مَكَّنْ لَهُ فِي الْأَرْضِ: جعل له مكاناً فيها ونحوه: أرض له، ومنه قوله: **«إنا مكنا له في الأرض»**⁽⁶⁾ **«أولم نمكن لهم»**⁽⁷⁾ وأما مكنته في الأرض: فأنشأته فيها ومنه قوله: **«ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه»**⁽⁸⁾ ولتقارب المعنيين

معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، **«ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»** فيكفرون نعمته، وإما على قوله: **«خلق السموات»** على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى «ثم»؟ قُلْتُ: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك «ثم أنتم تمترون» استبعاد لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَ رَبِّكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ تُمَرُّونَ ﴿٩﴾

«ثم قضى أجلاً» أجل الموت **«ولجل مسمى عنده»** أجل القيامة، وقيل: الأجل الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ، وقيل: الأول النوم، والثاني: الموت.

فَإِنْ قُلْتَ: (١): المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيرها، فلم جاز تقديمه في قوله: **«ولجل مسمى عنده»؟ قُلْتُ: لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: «ولعبد مؤمن خير من مشرك»**⁽²⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كئيب، وما أشبه ذلك، فما أوجب التقديم؟ قُلْتُ: أوجبه أن المعنى وأي أجل مسمى عنده، تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى، وجب التقديم.

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِرَبِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَمُنُّ مَا تُكْسِبُونَ ﴿١٠﴾

«في السموات» متعلق بمعنى اسم الله،⁽³⁾ كأنه قيل: وهو المعبود فيها، ومنه قوله: **«وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله»**⁽⁴⁾ وهو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها، أو هو الذي يقال له الله فيها لا يشرك به في هذا الاسم، ويجوز أن يكون الله في السموات خبيراً بعد خبر، على معنى: أنه الله، وأنه في السموات والأرض، بمعنى: أنه عالم بما فيهما، لا يخفى عليه منه شيء، كان

= المعبود في السموات، والأرض.

(4) سورة الزخرف، الآية: 84.

(5) قال أحمد: وهذه الوجوه كلها كان التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به، كما وقع ذلك في قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي: المعروف المشهور؛ لأنه بنى على أنه متى نكر شعره، فهم السامع عند نكره خواصه من الجودة، والبلاغة، وسلامة النسيج، لاشتهاره بذلك، فاقصر على قوله شعري ابتكالا على فهم السامع.

(6) سورة الكهف، الآية: 84.

(7) سورة القصص، الآية: 57.

(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.

(1) قال أحمد: وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم، وقد ورد عنده علم الساعة في سياق التعظيم لها، وهو مع ذلك: مؤخر عن الخبر في قوله: **«تبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وعنده علم الساعة، وإليه ترجعون»** فالظاهر والله أعلم: أن التقديم إنما كان؛ لأنَّ الكلام منقول من كلام آخر، وكان الأصل والله أعلم، ثم قضى أجلاً وأجلاً مسمى عنده، إذ كلاهما مقضى، فلما عدل بالكلام عن العطف الإفرادي تمييزاً بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء، وأقر بمكانه من التقديم، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

(3) قال أحمد: وما الآيتان الكريمتان، إلا توأمتان، فإنَّ التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به، ههنا من القدرة على الإعادة، والاستثثار بعلم الساعة، والتوحد في الألوهية، وفي كونه تعالى =

أشدَّ من قضاء الأمر؛ لأنَّ مفاجأة الشدَّة أشدَّ من نفس الشدَّة.

وَلَوْ جَعَلْتُهُ مَلَكًا لَجَعَلْتَهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (١٦).

﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ (٨) و ﴿لو شاء ربنا لآنزل ملائكة﴾ (٩)، ﴿لجعلناه رجلاً﴾ لارسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة نحية (١٠)؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وللبسنا عليهم﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق باني ملك لا بشر، كنبوه كما كنبوا محمداً ﷺ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن فهو لبس الله عليهم، ويجوز أن يراد وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة، وقرأ ابن محيصن: ولبسنا عليهم بلام واحدة وقرأ الزهري: وللبسنا عليهم ما يلبسون بالتشديد.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَؤْا بِرُسُلِ بْنِ بَلَكٍ نَحَاكَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٧).

﴿ولقد استهزؤا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقي من قومه ﴿فحاق﴾ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

جمع بينهما في قوله: ﴿مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمَكِّنْ لَكُمْ﴾ والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثموداً وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا، والسماء المظلة؛ لأنَّ الماء ينزل منها إلى السحاب والسحاب أو المطر. والمدرا: المغزار.

فإن قلت: أي فائدة في نكر إنشاء قرن آخرين بعدهم قلت: الدلالة على أنه لا يتعاضمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده كقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقابها﴾ (١١).

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّيْنِ كُفِّرُوا بِنِازٍ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧).

﴿كتاباً﴾ مكتوباً ﴿في قرطاس﴾ في ورق ﴿فلمسوه﴾ بابيهم (٢) ولم يقتصر بهم على الرؤية؛ لثلاثاً يقولوا: سكرت أبصارنا ولا تبقى لهم علة لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ نعتاً، وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ (٨).

﴿لقضي الأمر﴾ لقضي أمر إهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾ (٣) بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا علموا الملك قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته (٤) وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ (٥) لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة، فيجب إهلاكهم (٦) وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون (٧)، ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار، جعل عدم الإنظار

(1) سورة الشمس، الآية: 15.

(2) قال أحمد: والظاهر أن فائدة زيادة لمسوه له بابيهم تحقيق القراءة على قرب، أي فقرؤه وهو في أيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يترك باللمس، حتى يجعل فائدة زياته إصراكه بوجهين كما يفهم من كلام الزمخشري.

(3) قال أحمد: لا يحسن أن يجعل سبب مناجرتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك، فإنه ربما يفهم هذا الكلام، أن الآيات التي لزهم الإيمان بها دون نزول الملك في الموضوع، وليس الأمر كذلك، فالوجه والله أعلم: أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز، من حيث كونه معجزاً، لا المعجز الخاص، فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم، فلم ينجع فيهم كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب، لعدم النظرة، والله أعلم. عاد كلامه قال: وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك، فيجب إهلاكهم، وإما: لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته، زهقت أرواحهم من

= هول ما يشاهدون.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1) (الحديث رقم: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 438).

(5) سورة الأنعام، الآية: 111.

(6) قال أحمد: ويقوي هذا الوجه قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً﴾ قال ابن عباس: لئلا يمكنوا من رؤيته، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(7) قال أحمد: وهذه النكته من محاسن تنبيهاته.

(8) سورة المؤمنون، الآية: 23 و 24.

(9) سورة فصلت، الآية: 14.

(10) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: «فضائل القرآن»، باب: كيف نزل الوحي، (الحديث رقم: 4980) عن أسامة بن زيد، ومسلم في صحيحه كتاب: «فضائل الصحابة»، باب: من فضائل أم سلمة (الحديث رقم: 6265).

مما يشتمل عليه الملوان.

الْمُكْذِبِينَ ﴿١٦﴾

فَإِنْ قُلْتَ: (١) أي فرق بين قوله ﴿فانظروا﴾ وبين قوله: ﴿ثم انظروا﴾؟ **قُلْتُ:** جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: ﴿فانظروا﴾ (٢) فكانه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: ﴿سيروا في الأرض ثم انظروا﴾ فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة، وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بتم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْزِيََكُمْ إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

لِمَنْ ما في السموات والأرض سؤال تبكيت و **قُلْ لله** تقرير لها أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** أي: أوجيها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده، بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض. ثم أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: **﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾** فيجازيكم على إشراككم وقوله: **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** نصب على الذم أو رفع أي: أريد الذين خسروا أنفسهم أو أنتم الذين خسروا أنفسهم.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسارتهم والأمر على العكس؟ **قُلْتُ:** معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله لا اختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالْأَنْهَارِ وَهُوَ أَسْمِعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾

﴿وله﴾ عطف على الله **﴿ما سكن في الليل والنهار﴾** من السكنى وتعديه بقي كما في قوله: **﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾** (٣) **﴿وهو السميع العليم﴾** يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء

(١) قال أحمد: وأظهر من هذا التاويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً، ليكون ذلك سبباً في النظر، فحيث دخلت الفاء، فلاظهار السببية وحيث دخلت، ثم قللتبني على أن النظر، هو: المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود، والوسيلة والله أعلم. قوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ، فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾.

(٢) سورة آل عمران، الآية: 137.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: 45.

(٤) سورة الزمر، الآية: 64.

(٥) سورة يونس، الآية: 69.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2/ 258 كتاب: في طلب العلم =

قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ إِلَهُ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُعْلِمُ وَلَا يُلْمُ قُلْ لِيْ أَزْرَتْ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُتَشَكِّينَ ﴿١٩﴾ قُلْ لِيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾

أولي غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو اتخذ؛ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم ونحوه: **﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾** (٤) **﴿الله أنن لكم﴾** (٥) وقرئ: فاطر السموات بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري: فطر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدعتها (٦) **﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾** وهو يرزق ولا يرزق كقوله: **﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾** (٧) والمعنى: أن المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع وقرئ: ولا يطعم بفتح الياء وروى ابن المأمون، عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: وهو يطعم ولا يطعم على بنائهما للفاعل، وفسر بان معناه: وهو يطعم ولا يستطيع، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعمت ونحوه أقدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقولك: هو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر، **﴿أول من أسلم﴾** لأن النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام كقوله: **﴿وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** (٨) وكقول موسى: **﴿سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾** (٩) **﴿ولا تكونن﴾** وقيل لي: لا تكونن **﴿من المشركين﴾** ومعناه: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الشرك.

مَنْ يُؤْمَرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَذَرْنَهُ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾

﴿ومن يصرف عنه﴾ العذاب **﴿يومئذ فقد رحمه﴾** الله الرحمة العظمى (١٠) وهي النجاة كقولك: إن أطعمت زيدا من جوعه فقد أحسنت إليه، تريد: فقد أتممت الإحسان إليه، أو

= (الحديث رقم: 1682).

(٧) سورة الذاريات، الآية: 57.

(٨) سورة الأنعام، الآية: 163.

(٩) سورة الأعراف، الآية: 143.

(١٠) قال أحمد: وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة، إما بكونها العظمى، وإما برحمة الثواب، أنه لو بقيت على إطلاقها، لما زاد الجزاء على الشرط من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما، والعجب أن الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب، ولابد وغيره يصحح هذا التخصيص، أنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب لجواز أن يصرف عنه العذاب، ولا يثاب، فإلحاق الجزاء، إذا فائدة لم تفهم من الشرط هكذا صححه القنوني، ولعمري وإن قاعدة المعتملة تلجئ إلى ما ذهب إليه الزمخشري، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة، فالعذاب قطعاً، ويستندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع.

﴿انتم لتشهدون﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد، ﴿قل لا أشهد﴾ شهادتهم.

الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَرْوُونَهُ كَمَا يَرْوُونَ آيَاتِهِمُ الَّذِينَ حَرَبُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) وَمَنْ أَكْثَرُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَذِبُهُمْ (١١).

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بحلام ونعوتهم لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم، وهذا استشهاد

لاهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوته، ثم قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ به جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما

ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ (٣) وقالوا: ﴿والله أمرنا بها﴾ (٤)، وقالوا: الملائكة بنات الله، و﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (٥) ونسبوا إليه تحريم البحائر والسواحب، وذهبوا

فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها: سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرِقْنَاكُمْ أَلَيْسَ كُنتُمْ زَعَمُونَ (١٢).

﴿ويوم نحشرهم﴾ ناصبه محنوف تقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف ﴿إين شركاؤكم﴾ أي ألهنكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾

معناه: تزعمونهم شركاء، فحنف المفعولان. وقرئ: يحشرهم، ثم يقول: بالياء فيهما، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة، فكانهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم.

ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (١٣).

﴿فتنتهم﴾ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقتلوا عليه، وافتخروا به وقالوا: دين آبائنا، إلا جوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من

مكان خزيهم وحسرتهم.

ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (١٣).

﴿فتنتهم﴾ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقتلوا عليه، وافتخروا به وقالوا: دين آبائنا، إلا جوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من

مكان خزيهم وحسرتهم.

فقد أدخله الجنة؛ لأن من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب، وقرئ: من يصرف عنه على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم أي: فقد رحمه بمعنى: من يرفع الله عنه ويحفظه، وقد علم من المصنوع عنه، وترك ذكر المصروف لكونه معلوماً أو منكوراً قبله وهو العذاب ويجوز أن ينتصب يومئذ انتصابها المفعول به أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم أي: هوله فقد رحمه، وينصر هذه القراءة قراءة أبي رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

وَلَنْ يَسْأَلَكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلَكَ بِشَيْءٍ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤).

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من غنى أو صحة ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ فكان قادراً على إدامته، أو إزالته (١).

وَهُوَ أَقْدَرُ نَزَّ عِبَادُوهُ وَهُوَ أَلَكُمُ النَّزِيرُ (١٥).

﴿فوق عباده﴾ تصوير للقر، والعلو بالغلبة والقدرة كقوله: ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ (٢).

قُلْ أَنتُمْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ اللَّهَ شَهِدَ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي نَذِيرٌ لِمَنْ تَشْرَكُونَ (١٦).

الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح جسم لا كالأجسام. وأراد أي شهيد ﴿أكبر شهادة﴾

فوضع شيئاً مقام شهيد؛ ليبالغ في التعميم ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: قل الله بمعنى: الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ شهيد بيني وبينكم أي: هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون الله شهيد بيني وبينكم هو الجواب لدلالته على أن الله عز وجل إذا

كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له ﴿ومن بلغ﴾ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة أي: لأنذرهم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب

والعجم وقيل: من الثقلين وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكانما رأى محمداً ﷺ

قال أحمد: وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا، والمعتزلة فإنهم قالوا: والمعلوم الذي يصح وجوده، فاتفقوا على خروج المستحيل، وعلى الجملة، فهذه المسألة معبودة من علم الكلام باعتبار ما، وأما هذا البحث، فلغوي، والتحكم فيه، لاهل اللغة وظاهر قولهم غضبت من لا شيء، ولذا رأى غير شيء ظنه رجلاً أن الشيء لا ينطق إلا على

الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عما كان، أو=

= وجوداً أو ممكناً، أو مستحيلاً لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء، والأمر في ذلك قريب.

(2) سورة الاعراف، الآية: 127.

(3) سورة الانعام، الآية: 148.

(4) سورة الاعراف، الآية: 28.

(5) سورة يونس، الآية: 18.

(1) قال أحمد: وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا، والمعتزلة فإنهم قالوا: والمعلوم الذي يصح وجوده، فاتفقوا على خروج المستحيل، وعلى الجملة، فهذه المسألة معبودة من علم الكلام باعتبار ما، وأما هذا البحث، فلغوي، والتحكم فيه، لاهل اللغة وظاهر قولهم غضبت من لا شيء، ولذا رأى غير شيء ظنه رجلاً أن الشيء لا ينطق إلا على

الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عما كان، أو=

الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عما كان، أو=

كلا، فنزلت⁽⁶⁾. والأكنة على القلوب والوقر في الأذان مثل في نبؤ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: «وجعلنا» للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم «وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب»⁽⁷⁾، وقرأ طلحة وقرأ بكسر الواو «حتى إذا جاؤك يجادلونك» هي: حتى التي تقع بعدها الجمل، والجملته قوله: «إذا جاؤك»؛ «يقول الذين كفروا» ويجادلونك في موضع الحال، ويجوز أن تكون الجارة، ويكون إذا جاؤك في محل الجر بمعنى: حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: «يقول الذين كفروا» تفسير له، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك وينكرونك، وفسر مجادلهم بأنهم يقولون «إن هذا إلا أساطير الأولين» فيجعلون كلام الله وأصق الحديث خرافات وأكاذيب وهي الغاية في التكذيب.

وَمَنْ يَهْزَأْ بِرَبِّهِمْ يَهُزَّوْا عَنْهُ وَيَنْوَرُوا عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
(٦٧)

«وهم يهزون» الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ويثبطونهم عن الإيمان به «ويناون عنه» بأنفسهم، فيضلون ويضلون «وإن يهلكون» بذلك «إلا أنفسهم» ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ﷺ، وقيل: هو أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأى عنه ولا يؤمن به، وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله ﷺ سوء⁽⁸⁾ فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسدني التراب دفينا فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وابشر بذاك وقرئنه عيوناً ودعوتني وزعمت أنك ناصح ولقد صدقت وكنت ثم أميناً
وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية ديناً لولا الملامة أو حذاري سببه لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً
فنزلت.

وَلَوْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ نَشِئَةً وَقَدْ عَلِمْتُنَا أَنَّ رَبَّهُ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

(6) قال أحمد رحمه الله: وهذه الآية حسينا في رد معتقد، القدرية الذي يزعمون أن الله تعالى، أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن، ويفقهوه، وأنه لم يمنعه من ذلك، ومحال على زعمهم أن يمنعه من ذلك، ويريد أن لا يفقهوه؛ لأن ذلك عندهم قبيح، فانتظر كيف تكافحهم هذه الآية بالرّد وتنادي عليهم بالخطأ، إذ قوله أن يفقهوه معناه: كراهة أن يفقهوه، وبين الإرادة على زعمهم، والكراهة على ما أثبتت عنه الآية بون بعيد، والله الموفق.

(7) سورة فصلت، الآية: 5.

(8) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

لثنين به ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، نسمي فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: تكن بالتاء، وفتنتهم بالنصب، وإنما أنت أن قالوا لوقوع الخبر مؤنثاً كقولك: من كانت أمك، وقرئ: بالياء ونصب الفتنة، وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ: ربنا بالنصب على النداء⁽¹⁾.

أَنظَرُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَمَلَائِكُهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٤)

«وَضَلَّ عَنْهُمْ» وغاب عنهم «ما كانوا يفترون» أي: يفترون إليهته وشفاعته.

فإن قلّت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن الكذب والجحد لا وجه لمنفعة؟ قلّت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً، ألا تراهم يقولون: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون»⁽²⁾، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك»⁽³⁾ وقد علموا أنه لا يقضى عليهم، وأما قول من يقول معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وما علمنا أنا على خطأ في معتقنا، وحمل قوله: «انظر كيف كذبوا على أنفسهم» يعني: في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عي وإفحام؛ لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشدّ النبؤ، وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون»⁽⁴⁾ بعد قوله: «ويحلفون على الكذب وهم يعلمون»⁽⁵⁾ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

وَمَنْ يَسْعَ إِلَى إِلَهِكَ وَجَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَّا لَا يُؤْمِنُ بِهَا سَاءَ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٧٥)

«ومنهم من يستمع إليك» حين تتلوا القرآن، روي أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا فتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته - يعني: الكعبة - ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول: أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنني لأراه حقاً، فقال أبو جهل:

(1) قال أحمد: وفي الآية دليل بين على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره، إلا تراه جعل إخبارهم، وتبريهم كذباً مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون، أي: سلبوا علمه حينئذ دهشاً وخبره، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 107.

(3) سورة الزخرف، الآية: 77.

(4) سورة المجادلة، الآية: 18.

(5) سورة المجادلة، الآية: 14.

وَيَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾.

معاناة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: ﴿وإنهم لكانيون﴾ على معنى: وإنهم ليقوم كاذبون في كل شيء وهم الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ وكفى به ليلاً على كذبهم⁽²⁾.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقَالُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ الْإِنْسُ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّ قَالْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿وقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم، وقيل: عرفوه حق التعريف. ﴿قال﴾ مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ قيل: قال: ﴿اليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحق، وما هو إلا باطل. ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفرهم بقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حَقَّقَ الكلام فيه في مواضع آخر.

فَدَحَّرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلَهِ اللَّهِ فَتَىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا لَا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَمِمَّنْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿حتى﴾ غاية لكتبوا لا لخسر؛ لأن خسارهم لا غاية له، أي: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.

فَإِنْ قُلْتَ: أما يتحسرون عند موتهم؟ قُلْتُ: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»⁽⁴⁾. أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ فجأة، وانتصابها على الحال بمعنى باغته، أو على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة، ﴿فرطنا فيها﴾ الضمير للحياة الدنيا، جاء بضميرها وإن لم يجر لها نكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرطت في فلان ومنه ﴿فرطت في جنب الله﴾⁽⁵⁾ ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ كقوله: ﴿بما كسبت أيديكم﴾⁽⁶⁾ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور كما ألف الكسب بالأيدي، ﴿سواء ما يوزون﴾ بشس شيئاً يوزون وزرهم كقوله: ﴿سواء مثلاً القوم﴾⁽⁷⁾.

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

﴿ولو ترى﴾ جوابه محنوف تقديره ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً ﴿وقفوا على النار﴾ أروها حتى يعاينوها، أو اطلعوا عليها اطلاعاً هي تحتهم، أو ادخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته. وقرئ: وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقرأ ﴿يا ليتنا نرد﴾ ثم تمنيههم ثم ابتدؤا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ واعدن الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات، وشبهه سبويه بقولهم: دعني ولا أعود بمعنى: دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني، ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حلاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمني.

فَإِنْ قُلْتَ: يدفع ذلك قوله: ﴿وإنهم لكانيون﴾⁽¹⁾ لأن التمني لا يكون كاذباً قُلْتُ: هذا تمن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكذيب كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وكافك على صنيعك، فهذا ممن في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان⁽²⁾، وقرئ: ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَأَدَاُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم، وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا سَجَرًا، إلا أنهم عازمون على أنهم لو رباو لأمنوا، وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله ﷺ ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعبادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وإنهم لكانيون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٨١﴾.

﴿وقالوا﴾ عطف على ﴿لعبادوا﴾⁽³⁾ أي: ولو رباو الكفر ولقالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل

(1) سورة الانعام، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وكثيراً ما تتناوب صيغة التمني، والخبر: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ في قوله: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ إلى قوله: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنياً بصيغة الخبر، والله أعلم، وأبين من ذلك، قوله تعالى: في آية أخرى: ﴿وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ =

= فهذا هو التمني بعينه، ولكن بصيغة الوعد، والخبر الصريحة، والله الموفق.

(3) سورة الانعام، الآية: 28.

(4) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(5) سورة الزمر، الآية: 56.

(6) سورة الشورى، الآية: 30.

(7) سورة الاعراف، الآية: 177.

أَفَلَا تَمَيَّلُونَ ﴿٣٧﴾

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وقوله للذين يتقون﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ولدان الآخرة. وقرئ تعقلون بالتاء والياء.

لَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ لِحَزْنِكَ الْغَلِيظِ يُؤَلِّفُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبَايِعُ اللَّهُ يَحْمَدُونَ ﴿٣٨﴾

قد في ﴿قد نعلم﴾^(١) بمعنى: ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله:

اخافه لا نهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله والهاء في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن ﴿ليحزنك﴾ قرئ بفتح الياء وضمها و ﴿الذي يقولون﴾ هو قولهم ساحر كذاب^(٢) ﴿لا يكتبونك﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذباً في زعمه، وكذبه إذا وجده كاذباً والمعنى: أن تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصدق بالمعجزات، فهم لا يكتبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فإله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليس غشك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه، ونحوه قول السيد لغلامه إذا أهانه بعض الناس إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني، وفي هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾^(٣) وقيل: فإنهم لا يكتبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بالسنتهم، وقيل: فإنهم لا يكتبونك؛ لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين، فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون^(٤)، وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به، وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني

عن محمد أصابق هو أم كاتب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصابق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجاجة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت. وقوله: ﴿ولكن الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر للدلالة على أنهم ظلموا في وجودهم^(٥).

وَلَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنزَلْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ولقد كذبت﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكتبونك﴾^(٦) ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني، ﴿على ما كتبوا وأودوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ إنهم لهم المنصورون^(٧) ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ بعض أنبيائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

وَأَن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَكَوَسَّ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَلَا تُكُونُ مِنَ الْخَالِينَ ﴿٤٠﴾

كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل ﴿لعلك باخع نفسك﴾^(٨) ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾^(٩) ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع له آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم﴾ منها ﴿بآية﴾ فافعل يعني: أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم آية من تحت الأرض أو من فوق السماء لآتى بها رجاء إيمانهم، وقيل:

= الطبقات من حديث يعلى بن أمية (437/1).

(5) قال أحمد: ولا دلالة فيه؛ لأنه مؤلف مع نفي التكذيب أيضاً، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين أي: هؤلاء لم يكذبوك، فحق أن تصبر عليهم، ولا يحزنك أمرهم، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم، فصبروا عليهم، فإنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر، فقد اختلف، كما ترى بالتفسيرين جميعاً، ولكنه من غير الوجه الذي استدل به، فيه تقريب لما اختاره، وذلك أن مثل هذه التسليية قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله، وإن يكذبوك، ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فسلا عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم، لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر، والله أعلم.

(6) سورة الأنعام، الآية: 33.

(7) سورة الصفات، الآيتان: 171، 172.

(8) سورة الكهف، الآية: 6.

(9) سورة القصص، الآية: 56.

(1) قال أحمد: ومثلها في قوله، وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم، فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكد ظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين أنيته ورسوخ علمهم برسالته، والله أعلم، ومنه أيضاً قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

والغرض: التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه تنبيهاً على أنه بلغ الآية، التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد وذلك من لطائف لغة العرب، وغرائبها. (قال: وقرئ يكذبونك بالتشديد، والتخفيف من كذبه إلى قوله، ولكن الظالمين إلخ).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من إقامة الظاهر، مقام المضمر فنان من نكت البيان إحداهما الإسهاب في ذمهم، وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً، حتى لو كان لقباً جامعاً، والآخرى: زيادة منه تؤكد ذمهم تفهم من اشتقاق الظاهر.

(3) سورة الفتح، الآية: 10.

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث ابن عباس ورواه ابن سعد في =

صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَلِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْلٍ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَشْرُوتٌ (٢٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ دِينِهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَكِلُ اللَّهُ شَيْئاً يَجْعَلُهُ عَلَى مِزَانٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٧).

﴿أمم أمثالكم﴾ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ﴿ما فرطنا﴾ ما تركنا وما أغفلنا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ ﴿من شيء﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما يجب أن يثبت مما يختص به ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعني: الأمم كلها من النواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي أنه: يأخذ للجماة من القرناء.

فإن قلّت: كيف قيل: ﴿إلا أمم﴾ مع أفراد ﴿الدابة﴾ و ﴿الطائر﴾؟ قلّت: لما كان قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر﴾ دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقال: وما من نواب ولا طير، حمل قوله: ﴿إلا أمم﴾ على المعنى.

فإن قلّت: (٣): هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم وما معنى زيادة قوله: ﴿في الأرض﴾ و﴿ويطير بجناحيه﴾؟ قلّت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهملة أمرها.

فإن قلّت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلّت: الدلالة على عظم قدرته ولفظ علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لمالها وما عليها مهيم على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبله ولا طائر بالرفع على المحل كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: ما فرطنا بالتخفيف.

فإن قلّت: كيف أتبعه قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ قلّت: لما ذكر من خلائفه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال: والمكذبون ﴿صم﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿بكم﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات

كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتماذي حرصه على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله، حتى يأتيتهم بما اقتروحو من الآيات لعلهم يؤمنون، ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو: الإتيان بالآيات كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها، وحذف جواب أن كما تقول: إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان تزوره ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ (١) بأن يأتيتهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.

﴿إِنَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَسْمَعُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾ (٢٧).

﴿إنما يستجيب للذين يسمعون﴾ يعني: أن الذين تحرص على أن يصنقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع كقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ (٢) و﴿الموتى يبعثهم الله﴾ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء، فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت لا تقدر على ذلك، وقيل معناه: وهؤلاء الموتى يعني: الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم، وقرئ: يرجعون بفتح الياء.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٧).

﴿لولا نزل عليه آية﴾ نزل بمعنى: أنزل. وقرئ: أن ينزل بالتشديد والتخفيف ونكر الفعل والفاعل مؤنث؛ لأن تأنيث آية غير حقيقي وحسن للفصل، وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ لتركههم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ تضطرهم إلى الإيمان كنقث الجبل على بني إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن

(2) سورة النمل، الآية: 80.

(3) قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم، ولقائل أن يقول: يلزم من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجوّ، في العموم، وإن لم ينكر في الجو، وكذلك يلزم من عموم النواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين، وإن لم ينكر في الأرض، فلا بد من بيان وجه الزيادة، فنقول: وقع قوله في الأرض، ويطير بجناحيه موقع الوصف العام، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة، فكانه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وهذه الآية أيضاً، كافلة بالرّد على القدرية في زعمهم، أن الله تعالى شاء جميع الناس كلهم على الهدى، فلم يمكن إلا ترى أن الجملة مصدرة بلو، ومقتضاها امتناع جوابها، لامتناع الواقع بعدها، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً، إنما كان لامتناع المشيئة، فمن ثم ترى الرّمخشري يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى، بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختياراً، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها، وهذه من خباياه ومكامنه، فاحذرها، والله الموفق.

الرسول فكذبوهم فأخذناهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يتنزلون ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا سَأُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٣٤﴾

﴿فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه: نفي التضرع كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذا جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع، إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ من البأساء والضراء أي: تركوا الاعتاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزرهم ﴿فتحننا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلطفه أخرى طلباً للصلاحة ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الخير والنعم لم يزينوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار ﴿أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ واجمون متحسرون آيسون.

فَقَطَّعَ دَابِرَ الْآلِ الْآلِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾

﴿فقطع دابر القوم﴾ آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استوصلت شافتهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ (5) إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم. وقرئ: فتحننا بالتشديد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَجَعَلَ خَلْقَكُمْ مِنْ لَئْلٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ نَظَّرَ كَيْفَ نُفِثَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ ﴿٣٦﴾

﴿إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن يصممكم ويعميككم ﴿ووختم على قلوبكم﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم ﴿ياتيكم به﴾ أي: يأتيكم بذاك، إجراء

الكفر فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه، ثم قال: إيداناً بأنهم من أهل الطبع ﴿من يشأ الله يضلله﴾ (1) أي: يخله ويضلله وضلاله لم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أي: يلطف به؛ لأن اللطف يجدي عليه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ فَيَكْثِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْهُمْ بِآلِهَائِهِمْ وَتُفَاهِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿أرايتكم﴾ أخبروني والضمير الثاني لا محل له من الإعراب؛ لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكانت كائناً تقول: أرايت نفسك زيداً ما شأنه، وهو خلف من القول (2)، ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره إن اتاكم عذاب الله ﴿أو انتكم الساعة﴾ من تدعون، ثم بكتهم بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ بمعنى: اتخصون ألهتكم بالدعوة فيما هو عانتكم إذا أصابكم ضرر أم تدعون الله دونها! ﴿بل إياه تدعون﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إن شاء﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة (3)، وتنسون ما تشركون وتتركون ألهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت؛ لأن أنهانكم في تلك الوقت مغمورة بنكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره (4)، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كأنه قيل: أغير الله تدعون إن اتاكم عذاب الله.

فإِنْ قُلْتُ: إِنْ عَلِقْتُ بِالْشَرْطِ بِهِ، فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ إِلَيْهِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾؟ وَقَوَارِعُ السَّاعَةِ لَا تَكْشِفُ عَنِ الْمَشْرُكِينَ قُلْتُ: قَدْ اشْتَرَطَ فِي الْكُشْفِ الْمَشِيشَةَ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إِيذَانًا بِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ كَانَ لَهُ وَجْهٌ مِنَ الْحِكْمَةِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ لَوْجُهُ آخَرٌ مِنَ الْحِكْمَةِ أَرْجَحُ مِنْهُ. الْبِاسَاءُ وَالضَّرَاءُ الْيُؤْسُ وَالضَّرُّ، وَقِيلَ: الْبِاسَاءُ الْقَحْطُ وَالْجُوعُ، وَالضَّرَاءُ الْمَرَضُ وَنَقْصَانُ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، وَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ

= مراعاة المصالح، وإن مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة، وقد تقدم أنفاً، فاحذره عليك بما سواه، فإنه من بيع النظر، والله الموفق.

(5) قال أحمد: ونظيرها، قوله تعالى: ﴿وأمرنا عليهم مطراً فساء مطر المنزئين﴾ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، فيمن وقف ههنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين ومنهم من وقف على المنزئين، وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأول يكون الحمد حتماً وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعاً، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحاً لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه حتماً إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للهداية، والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أن الله تعالى، لا يخلق الهدى ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة، فيروم أن يرفعها، وقد اتسع الخرق على الراقع، والله الموفق.

(2) قال أحمد: هو لا يدع أن يحجر واسعاً، فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة المصالح، والإصلاح، قال: ﴿وتنسون ما تشركون﴾، أي: وتتركون ألهتكم الخ.

(3) قال أحمد: وإنما يلقي الاختصاص حيث يقول معناه: اتخصون ألهتكم، ثم قال: بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدم المفعول على الفعل في قوله: أغير الله تدعون، وقوله: بل إياه تدعون، وتقيم المفعول عنده يفيد الاختصاص، والحصص.

(4) قال أحمد: ولقد سدد النظر لولا أنه نقص ذلك بما يفهم وجوب =

للمضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه
﴿يصدقون﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَنَتْ أَوْ جَهَرَهُ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾.

لما كانت البغته أن يقع الأمر من غير أن يشعر به
وتظهر أماراته قيل ﴿بغته أو جهرة﴾ وعن الحسن ليلاً
أو نهاراً وقرئ: بغته أو جهرة ﴿هل يهلك﴾ أي: ما يهلك
هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: يهلك بفتح الياء.

وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسِلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ فَلَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمُّهُمْ الْمَدَابِ
يَمَّا كَانُوا يَسْتَوْفُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴿٢٠﴾.

﴿مبشرين ومنذرين﴾ من آمن بهم وبما جاؤوا به
وأطاعهم ومن كذبهم وعصاهم، ولم يرسلهم ليلتهى بهم
ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة
﴿وأصلح﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف. جعل العذاب
ماساً كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام ومنه قولهم:
لقيت منه الأمرين والأقورين حيث جمعوا جمع العقلاء،
وقوله: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيغاً
وزفيراً﴾^(١) أي: لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون

لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه،
وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس
خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه أي: لم أدع الهية
ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة
الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستكبرونها، وإنما أدعي
ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة^(٢) ﴿هل يستوي
الاعمى والبصير﴾^(٣) مثل للمضال والمهتدي، ويجوز أن
يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحي إليه ومن لم يتبع، أو لمن
ادعى المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية والملكة
﴿أفلا تتفكرون﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو
فعلتموا أنني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فعلتموا أن
اتباع ما يوحي إلي مما لا بد لي منه.

فإن قلت: ﴿أعلم الغيب﴾ ما محله من الإعراب؟ قلت:
النصب عطفًا على قوله ﴿عندي خزائن الله﴾؛ لأنه من
جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا
القول.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
رَبٌّ وَلَا شَيْعٌ لَّهُمْ يَقُولُونَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَطْرُقُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَتَمَةِ يُرِيدُونَ وَجَهَةً مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ
حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَرَّدَ لَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿وانذر به﴾ المضمير راجع إلى قوله: ﴿ما يوحي
إلي﴾^(٤) ﴿والذين يخافون أن يحشروا﴾^(٥) إما قوم
داخلون في الإسلام مقررون بالبعث إلا أنهم مفروطون في

(1) سورة الفرقان، الآية: 12.

(2) قال أحمد رحمه الله: هو ينبني على القاعدة المتقدمة له في
تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري أن ظاهر هذه الآية يؤيده،
فلذلك انتهن الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفة أن يقول إنما
وردت الآية ردًا على الكفار في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول ياكل
الطعام، ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك، فيكون معه
نذير، أو يلقي إليه كنز﴾ الآية، فرد قولهم ما لهذا الرسول ياكل
الطعام بأنه بشر وذلك شأن البشر، ولم يدع أنه ملك، حتى
يتعجب من أكله للطعام وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على
الأنبياء؛ لأنه لا خلاف أن الأنبياء ياكلون الطعام، وإن الملائكة
ليسوا كذلك، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها، ولا يوجب ذلك
اتفاقاً على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وكذلك رد قولهم: أو
يلقى إليه كنز بأنه لا يملك خزائن الله تعالى، حتى يأتيهم بكنز
منها على وفق مقترحهم، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة
به، وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله أن يستنكف
المسيح، أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقرَّبون قال الزمخشري:
لأنهم أعلى من الأنبياء، وقد أخرجهم دعوى الملكية عن دعوى
الإلهية إذ الإلهية أجل، وأعلى الملكية أنى، ولا محل لذلك، إلا
التمهيد الذي أسلفته، وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعاً
للسياق، فقد تقتضي البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في
الآخر ولم يحسن الزمخشري في قوله ليس بعد الإلهية منزلة
أرفع من منزلة الملائكة، فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل،
كالملكية ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ والمنزلة عبارة عن المحل =

= الذي ينزل الله فيه العبد من علو، وغيره، فإطلاقها على الإلهية
تحريف، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: قوله وادعى المحال يعني: المستحيل ولذلك قابله
بالمستقيم يريد الممكن وذلك مسيب عن دعوى الإلهية إذا ادَّعَاهَا
لا يجوز أن يجعل البشر أنبياء، ويدل على هذا الجواز قوله، ولو
جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً هذا، مع أن العقل يجيزه في قدرة الله
تعالى؛ لأن الجواهر متماثلة، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن
تقوم بأكملها، فالمعاني التي بها كان الملك ملكاً يجوز أن يخلقها الله
تعالى، للبشر وبالعكس، وعدم وقوعه لا يابى استقامته، وإمكانه
والله الموفق.

(4) سورة الانعام، الآية: 50.

(5) قال أحمد: وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل: أنذر به الذين
يحشرون؛ لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار كل أحد، والمقصود:
تخصيصه بالبعث، وأما وقد قيل: وأنذر به الذين يخافون أن
يحشروا إلى ربهم، فهذا الكلام مستقل برأسه، ومضمونه
تخصيص الإنذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث، إما لأنهم
مقرون به، وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم، فيحملهم الخوف على
النظر المقضي إلى اليقين دون العتاة المصممين على الجحد،
وليس كل خائف من البعث، لا شفع له، فإن الموحدين أجمعين
خائفون، وهم مشغوف لهم، وإن غنى باللازمة التي لا ينفك ذو
الحال عنها، كالتي في قوله، وهو الحق مصدقاً، فإنما هو حينئذ
يبني على قاعته في إنكار الشفاعة، فكل خائف عنده لا شفع له
إذا لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل =

كان الأمر على ما يقولون عند الله فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين. وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله: ﴿لَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (4).

فإن قلت: أما كفى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى ضم إليه ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِهِمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى وفي قوله: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل: لا نؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه، وقيل: الضمير للمشركين والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهكم إيمانهم ويحرك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النفي، ويجوز أن يكون عطفاً على فطردهم على وجه التسبب؛ لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم. وقرئ: بالغفوة والعشي.

كَذَلِكَ نَتَّبِعُ لَهُمْ بَعْضَ لِقَوْلِهِمْ أَهْلُوا مَكَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (57).

﴿وَكُنْكَ فِتْنًا﴾ ومثل ذلك الفتنة العظيم فتناً بعض الناس ببعض أي: ابتليناهم بهم، وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿أَهْلُوا﴾ الذين ﴿مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا﴾ أي: انعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من نوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير ونحوه ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَا﴾ (5) ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (6) ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا حتى كان افتتانهم سبباً لهذا القول؛ لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان، وبمن يصمم على كفره فيخله ويمنعه التوفيق.

وَإِذْ جَاءَكَ الْآيَاتُ يُوْفَوْنَ بِوَاعِدِنَا فَذَلَّ سَلَمٌ عَلَيْكَ كُنْكَ رَبُّكَمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةِ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَحْكُمَنَّكُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غُفُورٌ رَحِيمٌ (68) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَدُنَّ

العمل فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقررون بالبعث، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون لمتبردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من ﴿يَحْشُرُوا﴾ بمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور، فالْمَخُوفُ إنما هو الحشر على هذه الحال. نكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا، ثم أرففهم نكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي: عبادته ويواصلون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام وقيل: معناه يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته روي أن رؤوساً من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: لو طرأت عنا هؤلاء الأعداء يعنون: فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال وخباب، وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم، وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف، جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأعدهم معك إن شئت، فقال: نعم طمعاً في إيمانهم (1)، وروي أن عمر رضي الله عنه قاله: لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون؟ قال: فاكذب بذلك كتاباً، فدعا بصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا وينو منا حتى تمس ركبنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ (2) فترك القيام عنا إلى أن تقوم عنه. وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات. ﴿وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ (3) وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ما عليك من حسابهم من شيء بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن

عنده سواء لا شفيع لهم، إذ لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار ولكل عنده سواء لا شفيع لهم، وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه، فهذا عنده لا يخاف من البعث؛ لأنه يستوجب الجنة، فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان غير حائف، فلا تتناول الآية، وخائف فذاك إنما خاف؛ لأنه استوجب العقاب، فلا شفاعة تناله، وهذه من دفتائه الخفية، ومكانته المزوية، فتفطن لها والله الموفق برحمته.

- (1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10491).
- (2) سورة الكهف، الآية: 28.
- (3) سورة الشعراء، الآية: 113.
- (4) سورة الأنعام، الآية: 164.
- (5) سورة القمر، الآية: 25.
- (6) سورة الأحقاف، الآية: 11.

سَبِيلَ الْمُتَزَمِّينَ ﴿٥٥﴾.

إني على بينة من ربي» ومعنى قوله: «إني على بينة من ربي وكذبتكم به» إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صلق «وكذبتكم به» أنتم حيث أشركتم به غيره، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتاً عندك بلبيل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا بالعذاب المستأصل فقال «ما عندي ما تستعجلون به» يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: «فأمطر علينا حجارة من السماء»^(١) «إن الحكم إلا لله» في تأخير عذابكم «يقض الحق» أي: القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه «وهو خير الفاصلين» أي: القاضين، وقرئ: يقص الحق أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِبْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ، لَفُغِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَّ أَعْلَمَ بِالْغَيْبِ ﴿٥٦﴾.

«لو أن عندي» أي: في قدرتي وإمكانتي «ما تستعجلون به» من العذاب «لقضي الأمر بيني وبينكم» لاهلككم عاجلاً غضباً لربي، وامتعضاً من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعاً «والله أعلم بالظالمين» وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم، وقيل: «على بينة من ربي» على حجة من جهة ربي وهي القرآن وكذبتكم به أي: بالبين، وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن.

فإن قلْتُ: بم انتصب الحق؟ قلْتُ: بأنه صفة لمصدر يقضي أي: يقضي القضاء الحق، ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها أي: يصنع الحق ويديره، وفي قراءة عبد الله يقضي بالحق. فإن قلْتُ: لم أسقط الياء في الخط؟ قلْتُ: اتباعاً للخط اللفظ وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

وَعِنْدُ مَنَافِعِ الْعَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَزَقٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا وَلَا حَبْرٌ فِي طُلُوعِ الْكَوْكَبِ وَلَا رِطَبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٧﴾.

جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال، ومن علم مفاتيحها وكيف تفتح تتوصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتيح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلى ما في المخازن^(٢)، والمفاتيح جمع مفتاح وهو:

«فقل سلام عليكم» إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبداهم بالسلام إكراماً لهم وتطميناً لقلوبهم، وكذلك قوله «كتب ربكم على نفسه الرحمة» من جملة ما يقول لهم ليسرهم وييسرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ: إنه فإنه بالكسر على الاستثناء كان الرحمة استفسرت فقليل «أنه من عمل منكم» وبالفتح على الإبدال من الرحمة «بجهالة» في موضع الحال أي: عمله وهو جاهل وفيه معنيان: أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفة والجهل لا من أهل الحكمة والتبشير ومنه قول الشاعر: على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلاً والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته، وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابه الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. وقرئ: «ولتستبين» بالتاء والياء مع رفع السبيل؛ لأنها تنكر وتوثق، وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل يقال: استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين تفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع نكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم، فنعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

قُلْ إِنِّي نُبِّئُكُمْ أَنَّ عَبْدَ الْكَرِيمِ دَعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ فَذَكَّرْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَهِنِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ إِنْ أَلَمْتُمْ إِلَّا إِلَهُ يَخُصُّ أَحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَضِيلِينَ ﴿٥٩﴾.

«نهيت» صرفت وزجرت بما ركب في من أدلة العقل وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبارة ما تعبدون «من دون الله» وفيه استجهال لهم ووصف بالافتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة «قل لا تتبع أهواءكم» أي: لا أجري في طريقنكم التي سلكنوها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل «قد ضللت إذا» أي: إن اتبعت أهواءكم فانا ضال، وما أنا من الهدى في شيء، يعني: أنكم كذلك، ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: «قل

= كالحاضر في علمه والعلم بالكائن: هو العلم بما سيكون لا يتغير، ولا يختلف، وليس لنا أن نطلق مثل هذا الإطلاق، إلا عن ثبت، والله الموفق.

(1) سورة الأنفال، الآية: 32.

(2) قال أحمد: إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سبباً، فإنه يوهم تجدد وصول بعد تباعد، إذ قول القائل تتوصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد، والله تعالى مقدس عن ذلك والغائب، =

أو كراهة لمساءتهم، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون أي: يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها، وروي أن المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخص لهم.

فإن قلت: ما محل ﴿نكرو﴾؟ قلت: يجوز أن يكون نصباً على ولكن يذكرونهم نكرو أي: تنكيراً ورفعاً على ولكن عليهم نكرو، ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل من شيء كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد؛ لأن قوله من حسابهم يأتي ذلك.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُغُماً وَلَهُمْ عِزٌّ مِنَ اللَّهِ
وَدَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَكَيْلٌ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّى كُلُّ عَدْلٍ لَا يُوَحِّدُ مِنْهَا أَهْلَكَ الَّذِينَ
أُتُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ (٧).

﴿اتخذوا دينهم لعباً ولهوا﴾ أي: دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً، وذلك أن عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب، وغير ذلك من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل دون الجدد، واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً حيث سخروا به واستهزؤا، وقيل: جعل الله لكل قوم عياداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله، والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرع الله. ومعنى نهرهم: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تشغل قلبك بهم ﴿ونكر به﴾ أي: بالقرآن ﴿أن تبسل نفسك﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الإيسال المنع؛ لأن المسلم إليه يمنع المسلم قال:

وابسالي بني بغير جرم بعونه ولا بدم مراق ومنه: هذا عليك بسل أي حرام محظور، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه أو لأنه شديد البسور، يقال: بسر الرجل إذا اشتد عبوسه فإذا زاد قالوا: بسل، والعباس: منقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ (3) وإن تعد كل فداء، والعدل الفدية؛ لأن الفادي يعدل

عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمي بالسيف، وعن جابر بن عبد الله لما نزل ﴿ومن فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، فلما نزل ﴿أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾ قال: هاتان أهون (1). ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة.

وَكَذَبَ يَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١١).

والضمير في قوله: ﴿وكذب به﴾ راجع إلى العذاب ﴿هو الحق﴾ أي: لا بد أن ينزل بهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم أمنكم من التكنيب إجباراً إنما أنا منذر.

لِكُلِّ بَرٍّ تُسَبِّحُ وَتُسَافِرُ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٧).

﴿لكل نبا﴾ لكل شيء ينبا به يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به ﴿مستقر﴾ وقت استقرار وحصول لا بد منه، وقيل الضمير في به للقرآن.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي بَيْنَيْنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْدَ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٨).

﴿يخوضون في آياتنا﴾ في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فاعرض عنهم﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ ﴿وإما ينسبك الشيطان﴾ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم ﴿فلا تقعد معهم﴾ بعد الذكرى ﴿بعد أن تذكر النهي﴾. وقرئ: ينسبك بالتشديد، ويجوز أن يراء، وإن كان الشيطان ينسبك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين؛ لأنها مما تنكره العقول، فلا تقعد بعد الذكرى، بعد أن تذكرناك قبحها ونهيكك عليه معهم (2).

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦).

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من تنويبهم ﴿ولكن﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿نكرو﴾ إذا سمعهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ﴿لعلهم يتقون﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء

= فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية، على أن الآية تنبو عنه فإنه لو كان النسيان المراد ههنا: نسيان الحكم الذي يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهي، لما عبر بالمستقبل في قوله: ﴿وإما ينسبك﴾ فأما وقد ورد بصيغة الاستقبال، فلا وجه لحمله على الماضي، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من عيون إعرابه، ونكت إغرابه التي ظالما ذهل عنها غيره، وهو من جنس تنقيقه في منع عود الضمير من =

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الانعام باب: «قل هو القادر على أن يبعث...» (الحديث رقم: 4628).

(2) قال أحمد: وهذا التأويل الثاني يروى تنزيهه على قاعدة التحسين، والتقيح بالعقل، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم، وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل، كمجالسته المستهزئين، فإن قبحها بين بالعقل، فهو مستقل بتحريمها وحيث ورد الشرع بذلك، فهو كاشف لحكمها ومبين على لا منشى فيها حكماً، وقد علمت =

كقوله: ﴿كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (3) فشبّه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعون له فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالْإِسْلَامِ﴾ وهو الهدى ﴿وَجِدْهُ مَا وَرَاءَهُ ضَلَالٌ وَغِيٌّ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ بَيِّنًا﴾ (4) فماذا بعد الحق إلا الضلال.

فإن قُلْتُ: فما محل الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾؟ قُلْتُ: للنصب على الحال من الضمير في ﴿وَنُرِدُّ عَلَىٰ أَقْبَانِهِ﴾ أي: أتنكس مشبهين من استهوته الشياطين.

فإن قُلْتُ: ما معنى استهوته؟ قُلْتُ: هو: استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كان معناه: طلبت هويه وحرصت عليه.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿أمرنا﴾؟ قُلْتُ: للنصب عطفاً على محل قوله: ﴿إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ على أنهما مقولان، كانه قيل قل هذا القول وقل ﴿أمرنا لنسلم﴾.

فإن قُلْتُ: ما معنى اللام في ﴿لنسلم﴾؟ قُلْتُ: هي: تعليل للأمر بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم.

فإن قُلْتُ (5): فإذا كان هذا وارداً في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ اتَّبِعُوا﴾؟ قُلْتُ: للاتحاد الذي كان بين رسول الله ﷺ والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

فإن قُلْتُ (6): علام عطف قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾؟ قُلْتُ:

المفدي بمثله، وكل عدل: نصب على المصدر وفاعل يؤخذ قوله منها لا ضمير العدل؛ لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ، وأما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُوْخِذُ مِنْهَا عِلْدٌ﴾ (1) فمعنى المفدي به فصَحَّ إسنادُه إليه ﴿وَلَوْ لَكَ﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهوّاً. (2) قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

قُلْ أَتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ انْتَظِرْ قُلْ لَكُمْ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا يُسْلِمُ رَبِّكَ الْمَالِيكَ (٧) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَكُونُوا مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمْ سَيْرٌ (٧٦).

﴿قُلْ اتَّبِعُوا﴾ أنعبد ﴿من دون الله﴾ الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا ﴿ونرد على أعقابنا﴾ راجعين إلى الشرك يعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ كالذي ذهب به مرده الجن والغيلان ﴿في الأرض﴾ المهمة ﴿حيران﴾ تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع ﴿له﴾ أي: لهذا المستهوي ﴿أصحاب﴾ رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستوي، أو سمي الطريق المستقيم بالهدى. يقولون له ﴿انتظروا﴾ وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقد أن الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه

قوله، فنفع فيها إلى الهيئة، من قوله كهيئة الطير مع أنه السابق إلى الذهن، وإنما حملة على القول بأن العدل ههنا: مصدران الفعل تعدى إليه بغير واسطة، ولو كان المراد: المفدي، لكان مفعولاً به، فلم يتعد إليه الفعل، إلا بالباء، وكان وجه الكلام، وإن تعدل بكل عدل، فلما عدل عنه علم أنه مصدر، والله أعلم.

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ومن أنكر الجن، واستيلاءها على بعض الأناسي بقرة الله تعالى، حتى يحدث من ذلك الخبطة، والصرع، ونحوهما، فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي حيران له أصحاب من الموحدين، يدعونه إلى الهدى الشرعي انتظروا، وهو راكب في ضلالة التعاسيف، لا يلوي عليهم ولا يلتفت إليهم، فمرة يقول: إن الوارد في الشرع من ذلك تخييل كما تقدم في سورة البقرة، ومرة يعده من زعمات العرب، وزخارفها، وقد أسلفنا ذلك في البقرة، وآل عمران قولاً شافياً بليغاً، فجذب به عهداً، والله موفق.

(3) سورة البقرة، الآية: 275.

(4) سورة آل عمران، الآية: 85.

(5) قال أحمد: هو مبني على أن الأمر هو: الإرادة، أو من لوازمه إرادة المأمور به، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا، وأما أهل السنة، فكما علمت أن الأمر عندهم غير الإرادة، ولا يستلزمها وقولهم في هذه اللام، كقولهم في وما خلقت الجن والإنس، إلا ليعبوس من نفي كونها تعليلًا، والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات، وأزيحت عنهم اللل، وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر، جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً، لحضهم على =

= الامتنال، ولقطع أذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك، ومن شأن المرید للشيء، إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل، ويرفع الموانع، وكذلك فعل مع المكلفين، وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر، كما يقول الزجاجة تقديره الأمر للإسلام، وكذلك يقول في قوله تعالى: يريد الله، ليبين لكم الإرادة للبيان، وهي: اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك، لزيد ضربت فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل، وقد قيل إنها بمعنى: أن كانه قيل، وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل، وكى، ولأم كي في أمرت، وأربت خاصة، بمعنى: أن لا على بابها من التعليل والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوفق، وأبلغ إذ لا يتعلق هذان المعنيان أعني الأمر، والإرادة، إذ بمستقبل، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكى وأن في قوله أربت لكما أن يطير «البيت»، وهذا الوجه أيضاً سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري، والمحافظة على العقيدة، وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متينة، والله موفق.

(6) قال أحمد: وهذا مصداق للقول بأن لنسلم، معناه: أن تسلم وأن اللام فيه رديفة أن لا يراد عطفها عليها، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله، وفي ورود أقيموا الصلاة محكياً بصيغته، وورود نسلم محكياً بمعناه، إذ الأصل المطابق، لأقيموا أسلموا مصداق لما قيمته عند قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا﴾ (7) ربهم وربكم، ويثبت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ (8) عيسى، بمعناه، فقال اعبدوا الله ربى وربكم، فهذا مثله في حكاية =

المحدثين.

ادعى بأسماء نبزا في قبائلها كان أسماء أضحت بعد أسمائهم

أو أريد عابد أزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليها مقامه. وقرئ: أزر تتخذ أصناماً آلهة، بفتح الهمزة وكسره. بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة وهو اسم صنم ومعناه: اتعبد أزر على الإنكار، ثم قال تتخذ أصناماً آلهة تشبيهاً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له⁽²⁾ ﴿فلما جن عليه الليل﴾ عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾ وقوله: ﴿وكنك نرى إبراهيم﴾ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ يعني: الربوبية والإلهية، ونوفقه لمعرفتها ونرشده، بما شرحنا صدره وسدنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. ﴿وليكون من الموقنين﴾ فعلنا ذلك، ونرى حكاية حال ماضية،⁽³⁾ وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فاراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحسوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدير نبر طلوعها وأقولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

﴿هذا ربي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكمي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك ادعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿لا أحب الأقلين﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين على حال إلى حال، المتقلبين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام ﴿بازغاً﴾ مبتدأ في الطلوع ﴿لئن لم يهديني ربي﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هذا أكبر﴾ من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومه ﴿إني بريء مما تشركون﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ أي: الذي بليت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبدعها، وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاها الله، والأول أظهر لقوله: ﴿لئن لم يهديني

على موضع لنسلم كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا أن نسلم ولأن أقيموا أي: للإسلام وإقامة الصلاة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣).

﴿قوله الحق﴾ مبتدأ ويوم يقول خبره مقدماً عليه وانتصابه بمعنى: الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال، واليوم بمعنى: الحين، والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون تلك الشيء قوله الحق والحكمة أي: لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب و﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون قوله الحق فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه الحق كن فيكون قوله الحق، وانتصاب اليوم لمحنوف دل عليه قوله بالحق كأنه قيل وحين يكون ويقدر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَنْتَ تَجِدُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَأَيْتَ وَتَوَكَّلْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى النُّجُومَ بَارِئَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْثَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَتَوَكَّلُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩).

﴿أزر﴾ اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وفي كتب التواريخ أن اسمه: بالسريانية تارح، والأقرب أن يكون وزن أزر: فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالغ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه، وقرئ: أزر بالضم على النداء، وقيل: أزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عيانته، كما نبز ابن قيس بالرققيات اللاتي كان يشبب بهن فقيلاً ابن قيس الرقيات، وفي شعر بعض

= الاستدلال الأول حجة، فانسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول، فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره، والدليل على ذلك: أنه ترقى في التوبة الثالثة إلى التصريح، بالبراءة منهم، والتقريع، بأنهم على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبليج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود، والله أعلم.

= المعنى دون اللفظ، والله أعلم.

(1) سورة غافر، الآية: ١٦.

(2) قال أحمد: وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه، بما سيأتي من استدلال إبراهيم عليه السلام، وأنه تبصير له من الله تعالى، وتسديد.

(3) قال أحمد: والتعريض بضلالهم ثانياً لأصرح، وأقوى من قوله أولاً، لا أحب الأقلين، وإنما ترقى إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد أقامت عليه =

ربي كل شيء علماً أي: ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاقد والقادر والعاجز.

وَكَيْفَ أَخَا مَا أَسْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٧).

﴿وكيف أخاف﴾ لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه ﴿و﴾ أنتم ﴿لا تخافون﴾ ما يتعلق به كل مخوف، وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه ﴿سلطاناً﴾ أي: حجة؛ لأن الإشراف لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: (٨٦) وما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل فإينا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازاً من تزكيته نفسه فعدل عنه إلى قوله: ﴿فأي الفريقين﴾ يعني: فريقي المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله (٨٦): ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعضية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس.

وَلَكُمْ حُجَّتًا مَّا تَبَيَّنَّا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ رَفَعَ دَرَجَتَيْنِ مِّنْ شَأْنِهِ إِنَّ رَبَّكَ بِحِكْمٍ عَلِيمٌ (٨٧).

﴿وتلك﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ ومعنى ﴿آتيناهم﴾ أرشدها إليها ووفقناه لها ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني: في العلم

ربي ﴿وقوله﴾: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ (١). فإن قلت (٢): لم احتج عليهم بالأقول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأقول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله ﴿هذا ربي﴾ والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك؟ ومن كانت أمك؟ و ﴿لم تكن فتنهم إلا أن قالوا﴾ (٣) وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التانيث، إلا تراهم قالوا في صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازاً من علامة التانيث. وقرئ: نري إبراهيم ملكون السموات والأرض بالتاء، ورفع الملكوت ومعناه: نبصره دلائل الربوبية.

وَمَجَّاءُ قَوْمِهِ قَالَ اتَّخَذْتُمُونِي فِي اللَّهِ وَدَّ هَدَيْنِي وَلَا آخِئُ مَا تَشْكُرُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُنَادِيَ رَبِّي سَمِعْتُ رَبِّي كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ عَلَمٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٨).

﴿وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله﴾ وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك ﴿وقد هذان﴾ يعني: إلى التوحيد ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ وقد خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء (٤) ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف، فحنف الوقت يعني: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ننبأ استوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي ﴿وسع

(١) قال أحمد: وصدق الزمخشري، بل ذلك متعين، وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام، فيلتسون منه الشفاعة، فيقول نفسي نفسي، لا أسأل أحداً غيري، ويذكر كنياته الثلاث، ويقول لست لها يريد قوله، لسارة هي أختي وإنما عني في الإسلام، وقوله: إنه سقيم، وإنما عني هم بقومه، ويشركهم، والمؤمن يسقمه ذلك وقوله بل فعله كبيرهم، وقد تكررت فيه وجوه من التعريض، فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام محكى عنه، على أنه نظر لنفسه، لكان أولى أن بعده، وأعظم مما نكرناه؛ لأن حينئذ يكون شكاً بل جزماً على أن الصحيح، أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك.

(٢) قال أحمد: وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٤) قال أحمد: هو بمعنى يجعلها قادرة على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة، لمن يريد بناء على قاعدته، وقد علمت أن عقيدة أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلاً، أن يخلق غير الله، ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقدور، إلا هو وإن كان الزمخشري لم

= يصرح هنا من عقيدته، فإنما يعني حيث يصرح، أو يكفى ما يلائمها ويتنزل عليها وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله، لذلك خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى، لا بها وكأنه في الحقيقة لم يخف، إلا من الله؛ لأن الخوف الذي أثبتته منها معلق بمشيئة الله، وقدرته، وهو كلا خوف منها، والله أعلم.

(٥) قال أحمد: ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك، ليعم بالأمن كل موحد بالخوف كل مشرك، ويندرج هو في حكم الموحدين، وقومه في حكم المشركين، وأحسن الجواب ما أقاد وزاد (قال: والمراد بقوله ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعضية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس).

(٦) قال أحمد: وقد ورد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما هو الظلم في قول لقمان، إن الشر لك لظلم عظيم، وإنما هو يوم بذلك تنزله على معتقده في وجوب وعيد العصاة، وأنهم لا حظ لهم في الأمن، كالكفار ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجامعين الأمرين الإيمان، والبراءة من المعاصي، ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة، هو الخوف اللاحق للكفار؛ لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت، وهم آمنون من الخلود، وأما الكفار، فغير آمنين بوجه ما، والله الموفق.

والحكمة، وقرى*: بالتنوين.

﴿وما قدروا الله حقَّ قدره﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللفظ بهم حين أنكروا بعدُ الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجل نعمته ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾⁽²⁾ أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم، ولما يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة. والقائلون: هم اليهود بليليل قراءة من قرأ: تجعلوا بالئات وكذلك: تبوتونها وتخفون، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فالزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام⁽³⁾، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل: ﴿جاء به موسى﴾ وهو نور وهدي للناس حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفردة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء، وروي أن مالك بن النصف من أعيان اليهود رؤسائهم قال له رسول الله ﷺ أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يبيغض الحبر السمين، فانت الحبر السمين، قد سمعت من مالك الذي يطعمك اليهود، فضحك القوم، فغضب ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، ففزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف⁽⁴⁾، وقيل: القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة نكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون: لو أننا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ الخطاب لليهود أي: علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم، إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وقيل: الخطاب لمن آمن من قريش كقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم﴾⁽⁵⁾ ﴿قل الله﴾ أي: أنزله الله، فإنهم لا يقدر أن ينكروا ﴿ثم نرهم في خوضهم﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب ولا يلعبون حال من نرهم أو من خوضهم، ويجوز أن يكون في خوضهم حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو نرهم.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ مِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا فِي الْحَقِّ وَبِشْرَى وَإِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَنُوحًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَمِن آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ وَأَخِصِّيَّتُهُمْ وَعَدْنَاهُمْ إِن صِرُّوا مُشْرِكِينَ ﴿٨٦﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا بِكْفِيرِينَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آمَنَتْهُ قُلُوبُهُمْ فَآتَيْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذَكِّرُوا لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ومن ذرّيته﴾ الضمير لنوح أو إبراهيم و ﴿داود﴾ عطف على ﴿نوحاً﴾ أي: وهبنا داود ﴿ومن آبائهم﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿كلاً﴾ بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم ﴿ولو أشركوا﴾ مع فضلهم وتقمّمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حيوط أعمالهم كما قال تعالى وتقدس ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ ^(١) ﴿آتيناهم الكتاب﴾ يريد الجنس ﴿فإن يكفر بها﴾ بالكتاب والحكمة والنبوة أو بالنبوة ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة ﴿قوماً﴾ هم: الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بلبيل قوله: ﴿أولئك للذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ ولبيل وصل قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ بما قبله، وقيل: هم أصحاب النبي ﷺ وكل من آمن به، وقيل: كل مؤمن من بني آدم، وقيل: الملائكة وادّعى الأنصار أنها لهم، وعن مجاهد: هم الفرس، ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهد ويحافظ عليه. والباء في بها صلة كافرين. وفي بكافرين تأكيد النفي. ﴿فبهداهم اقتده﴾ فاختص هداهم بالاعتداء، ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهم: طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة وهي هدى ما لم تنسخ فإذا سخط لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً، والهاء في اقتده للوقف تسقط في الدرج واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف.

وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مَصَدُّقٌ إِلَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ
وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
مُحَافِظُونَ ﴿٥٧﴾

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلْبَنِي إِسْرَءِيلَ يَجْعَلُ لَہُمْ فَرَاسًا يَّبُودُہَا وَتُغْفَوْنَ کَثِيرًا وَعِصْمًا مَّا لَوْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ وَلَا عَابَارٌ لَّہُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْہُمْ فِی حُوزِہُمْ یَعْمُونَ ﴿١١﴾

﴿مبارك﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿ولتنذر﴾ معطوف

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

= آثار معانہ، واپراز محاسنہ.

(2) سورة الانبياء، الآية: 107.

(4) ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص 125.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في = (5) سورة نَسْ، الآية: 6.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في =

الماء فاستعيرت للشدة الغالبة ﴿بَاسْطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ يبسطون⁽⁵⁾ إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح والتشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمهال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له: اخرج إلي مالي عليك الساعة ولا أريم مكانتي حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ خلصوها من أيدينا أي: لا تقدرون على الخلاص ﴿اليوم تجزون﴾ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزاع وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاوّل الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. و ﴿الهنون﴾ الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه ﴿عن آياته تستكبرون﴾ فلا تؤمنون بها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزَكَّمْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَأَيْتُمْ ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَاكُمْ شُعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَرَضَلْ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ⁽¹⁴⁾.

﴿فرادى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم، وما حرصتم عليه وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاءكم شركاء لله ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ على الهيئة التي ولّمت عليها في الانفراد ﴿وتركتم ما خولناكم﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فשغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ لم ينفعكم، ولم تحتملوا منه نفيًا، ولا قدمتموه لأنفسكم ﴿فيكم شركاء﴾ في استعبادكم؛ لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوها شركاء فيهم وفي استعبادهم. وقرئ: فرادى بالتنوين، وفرداء مثل ثلاث، وفردى نحو سكرى.

فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم ﴿نقطع بينكم﴾ وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل، ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول: قاتل خلفكم وأمامكم، وفي قراءة عبد الله: لقد قطع ما بينكم.

﴿فإن الله فارق آلِهَتِهِ وَالتَّوْتِ يُخْرِجُ الْخَلْقَ مِنَ الْيَمِّ وَيُخْرِجُ الْيَمِّ مِنَ الْيَمِّ﴾⁽¹⁵⁾.

﴿فإن الله فارق آلِهَتِهِ وَالتَّوْتِ يُخْرِجُ الْخَلْقَ مِنَ الْيَمِّ وَيُخْرِجُ الْيَمِّ مِنَ الْيَمِّ﴾⁽¹⁶⁾ بالنبات والشجر، وعن

على ما دلّ عليه صفة الكتاب كانه قيل: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدّمه من الكتب والإنذار، وقرئ: ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة ﴿أم القرى﴾ لأنها مكان أول بيت وضع للناس؛ ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم؛ ولأنها أعظم القرى شأنًا، ولبعض المجاورين.

فمن يلق في بعض القرى رحله فأم القرى ملقى رحالي ومناطبي ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصنقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون﴾ بهذا الكتاب وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخص الصلاة، لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا نَزَّلَ اللَّهُ وَلَوْ تَوَدَّ إِذِ الْفَالِغُونَ فِي غَمَرَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّبِيِّاتِ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ أَيُّكُمْ يُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ⁽¹⁷⁾.

﴿افتري على الله كذبًا﴾ فزعم أن الله بعثه نبيًا ﴿وقال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء﴾ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي، وعن النبي ﷺ: رأيت فيما يرى النائم كان في يدي سوارين من ذهب، فكبيرا علي وأهماني، فأوحى الله إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي⁽¹⁾ ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فكان إذا أملى عليه سمعًا عليمًا، كتب هو: عليمًا حكيمًا، وإذا قال: عليمًا حكيمًا، كتب: غفورًا رحيمًا، فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾⁽²⁾ إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فكذاك نزلت، فشك عبد الله، وقال: لئن كان محمدًا صادقًا لقد أوحى إلي مثل ما أوحى إليه، ولئن كان كاذبًا فلقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بمكة ثم رجع مسلمًا⁽³⁾ قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤن ﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف أي: لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إذ الظالمون﴾ يريد الذين نكروهم من اليهود والمثنية فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. و ﴿غمرات الموت﴾ شدائده وسكراته، وأصل⁽⁴⁾ الغمرة ما يغمر من

(4) قال أحمد: هو يجعله من مجاز التمثيل، ولا حاجة إلى ذلك والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية، وإن أمكن البقاء على الحقيقة، فلا معدل عنها.

(5) قال أحمد: ومثله ويبسطوا إليكم أيديهم، والسننهم بالسوء.

(6) قال أحمد رحمه الله: وقد ورد جميعًا بصيغة الفعل كثيرًا في قوله ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض﴾

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: النفخ في العناب، (الحديث رقم: 7027) وفي كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ (الحديث رقم: 2274).

(2) سورة المؤمنون، الآية: 12.

(3) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأنعام، (الحديث رقم: 2210).

الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا: انشق عمود
الفجر، وانصدع الفجر، وسموا الفجر فلماً بمعنى: مفلوق،
وقال الطائي:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقرى: فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً، بالنصب على
المحذ، وقرأ النخعي: فلق الإصباح وجعل الليل. السكن: ما
يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه من
زوج أو حبيب، ومنه قيل للنار: سكن لأنه يستأنس بها، إلا
تراهم سموها: المؤمنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار
لاستراحته فيه وجماهه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل
مسكوناً فيه من قوله: ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾⁽¹⁾ ﴿وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ﴾ قرناً بالحركات الثلاث، فالتنصب على إضمار فعل
دل عليه جاعل الليل أي: وجعل الشمس والقمر حساباً، أو
يعطفان على محل الليل.

فإن قلّت: كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية؛ لأن
اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضى ولا تقول: زيد
ضارب عمراً أمس؟ قلّت: ما هو في معنى المضى وإنما
هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة، وكذلك
فالق الحب وفالق الإصباح، كما تقول: الله قابر عالم فلا
تقصد زماناً نون زمان، والجر عطف على لفظ الليل،
والرفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره والشمس
والقمر مجعولان حساباً أو محسوبان حساباً، ومعنى
جعل الشمس والقمر حساباً جعلهما علمي حسابان؛ لأن
حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما، والحسبان بالضم
مصدر حسب، كما أن الحسبان: الكسر مصدر حسب،
ونظيره الكفران والشكران ﴿لنك﴾ إشارة إلى جعلهما
حساباً أي: تلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تقدير
العزیز﴾ الذي قهرهما وسخرهما ﴿العليم﴾ بتدبيرهما
وتوثيرهما ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ في ظلمات الليل
بالبر والبحر، وأضافها إليهما لملاستها لهما، أو شبه

مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة ﴿يخرج
الحي من الميت﴾ أي: الحيوان والنامي من النطف والبيض
والحب والنوى ﴿ومخرج﴾ هذه الأشياء الميتة من الحيوان
والنامي.

فإن قلّت: كيف قال: ﴿مخرج الميت من الحي﴾ بلفظ
اسم الفاعل بعد قوله: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ قلّت:
عطفه على فائق الحب والنوى لا على الفعل، و ﴿يخرج
الحي من الميت﴾ موقعه موقع الجملة المبينة لقوله:
﴿فالق الحب والنوى﴾ لأن فلق الحب والنوى بالنبات
والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأن
النامي في حكم الحيوان؛ ألا ترى إلى قوله ﴿يحيي الأرض
بعد موتها﴾⁽¹⁾ ﴿نلكم الله﴾ أي: نلكم المحيي والمميت هو:
الله الذي تحقق له الربوبية ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف
تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

فَالْيَاقُوتُ الْإِسْبَاحُ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَاً وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَاناً ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْمَرْبِ الْعَلِيِّ ^(١٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَتَدَوَّ بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^(١٧) وَهُوَ الَّذِي
أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ وَتُسْتَوَى قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَفْقَهُونَ ^(١٨).

﴿الإصباح﴾ مصدر سمي به الصبح، وقرأ الحسن
بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله:
أقننى رياحاً وربني رياح تناسخ الإسماء والإصباح
بالكسر والفتح مصدرين وجمع مساء وصبح.
فإن قلّت⁽²⁾: فما معنى فلق الصبح والظلمة هي التي
تنفلق عن الصبح؟ كما قال:

تردت به ثم انفرى عن أنيمها تفري ليل عن بياض نهار
فإن قلّت: فيه وجهان: أحدهما: بأن يراد فائق ظلمة
الإصباح وهي الغيش في آخر الليل ومنقضاء الذي يلي
الصبح، والثاني: أن يراد فائق الإصباح الذي هو عمود

= بعد موتها، وكذلك تخرجون، وقوله: ﴿أمن يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾، فعطف أحد
القسمين على الآخر كثيراً لئلا على أنها توأمان مقترنان، ونلك
يبعد قطعه عنه في أية الانعام هذه ويروده إلى فائق الحب، والنوى،
فالوجه، والله أعلم أن يقال: كان الأصل ويروده بصيغة اسم الفاعل
أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله: ﴿فالق
الحب وفالق الإصباح وجاعل الليل ومخرج الحي من الميت﴾ إلا
أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف
وحده وهو قوله: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ إرادة لتصوير إخراج
الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وهذا التصوير
والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع نون اسم
الفاعل، والماضي، وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى: ﴿ألم تر
أن الله أنزل من السماء ماء، فنصب الأرض مخضرة، فعدل عن
الماضي المطابق، لقوله أنزل لهذا المعنى، ومنه ما في قوله:
إني قد أقيمت الغول تسعى بسبب كالحصيفة صححان
فأخذته فأضربه فخرت صريعاً لليبدين وللجرجان

= فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن
السامع، ومنه إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي، والإشراق،
والطير محشورة، فعدل عن مسبحات، وإن كان مطابقاً لمحشورة
بهذا السبب، والله أعلم، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون
العناية به أقوى، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في
القدرة من عكسه، وهو أيضاً أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه
ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه، فكان
الأول جديراً بالتصدير والتأكيد في النفس، ولذلك هو مقدم أبداً
على القسم الآخر في الذكر على حسب ترتيبيهما في الواقع وسهل
عطف الاسم على الفعل، وحسنه أن اسم الفاعل في معنى الفعل
المضارع، فكل واحد منهما يقدر بالآخر، فلا جناح في عطفه
عليه، والله أعلم.

(1) سورة الحديد، الآية: 17.

(2) قال أحمد: وقيل الخالق والفالق بمعنى، فيكون المراد: خالق
الإصباح، والأظهر ما فسره عليه المصنف، والله أعلم.

(3) = سورة يونس، الآية: 67.

النخل قنوان، ومن قرأ: يخرج منه حب متراكب، كان قنوان عنده معطوفاً على حب، والقنوان جمع قنور، ونظيره صنو وصنوان، وقرئ: بضم القاف وبفتحها على أنه اسم جمع كركب؛ لأنّ فعلان ليس من زيادة التفسير «دانية» سهلة المجتنى معرضة للمقاطف كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول، وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض وقيل: ذكر القرية وترك ذكر البعيدة لأنّ النعمة فيها أظهر، وأبدل بذكر القرية على نكر البعيدة كقوله «سراييل تقيكم الحر»⁽³⁾ وقوله: «وجنات من أعناب» فيه وجهان: أحدهما: أي يرد وثم جنات من أعناب أي: مع النخل، والثاني: أن يعطف على قنوان معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب أي: من نبات أعناب، وقرئ: وجنات بالنصب عطفاً على نبات كل شيء، أي: وأخرجنا به جنات من أعناب وكذلك قوله «والزيتون والرمان» والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص كقوله: «والمقيمين الصلاة»⁽⁴⁾ لفضل هذين الصنفين «مشتبهاً وغير متشابه» يقال: اشتبه الشيطان وتشابها كقولك: استويا وتساوليا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً، وقرئ: متشابهاً وغير متشابه وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه والرمان كذلك، كقوله: كنت منه ووالدي برياً، والمعنى: بعضه متشابهاً وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم وذلك ليل على التعمد نون الإهمال «انظروا إلى ثمره إذا أثمر» إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدرة ومبيرة ونقله من حال إلى حال، وقرئ: وينعه بالضم يقال: ينعت الثمرة ينعاً

مشتبهات الطرق بالظلمات. من فتح قاف المستقر كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدر، ومن كسرهما كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول، والمعنى: فلکم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها، أو فمكم مستقر ومكم مستودع.

فإن قلت⁽¹⁾: لم قيل «يعلمون» مع ذكر النجوم و«يفقهون» مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنسان من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة اللفظ وادق صنعة وتبديراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له.

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ يَنْ طَلْعُهَا تَرْوَاهُ وَأَنْبَتَ مِنْ أَغْنَبٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَهُ إِذَا فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾

«فأخرجنا به» بالماء «نبات كل شيء» نبت كل صنف من أصناف النامي يعني: أن السبب واحد وهو: الماء، والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: «تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل»⁽²⁾ «فأخرجنا منه» من النبات «خضراً» شيئاً غصاً أخضر، يقال: أخضر وخضر كأعور وعور وهو: ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة «نخرج منه» من الخضر «حباً متراكباً» وهو: السنبيل و«قنوان» رفع بالابتداء «ومن النخل» خبره، و«من طلوعها» بدل منه، كانه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه تقديره: ومخرجة من طلع

تلك درجة خالية ومعناه صار فقيهاً قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم، وفي حديث سلمان أنه قال، وقد سأله امرأة جاءتته ففهمت، أي: فهمت، كالمتعجب من فهم المرأة عنه، وإذا قيل: فلان لا يفقه شيئاً كان أتم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئاً وكان معنى قولك لا يفقه شيئاً: ليست له أهلية الفهم، وإن فهم، وأما قولك لا يعلم شيئاً، فغايته نفي حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم، والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل، وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غير قوله تعالى: «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أثلاثا تبصرون» فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات، وأتكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً، وقولنا في إدراج الكلام أنه نفي العلم عن أحد الفريقين، ونفي الفقه عن الآخر يعني بطريق التعريض حيث خص العلم بالآيات المفصلة، والتفقه فيها بوقوم، فأشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ولا فقه، والله الموفق، فقاتل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول، فالنظر في الحسن غير ملول.

(2) سورة الرعد، الآية: 4.

(3) سورة النحل، الآية: 81.

(4) سورة النساء، الآية: 162.

(1) قال أحمد: لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة، وما هذا الجواب إلا صناعي، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفاصلتين متساويتين، في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسناً للنظم، واتساقاً في البلاغة، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله، ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار، ومنافية لها إذ النجوم والنظر فيها، وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها، أمر خارج عن نفس الناظر، لا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقليباتهم في أطوار مختلفة، وأحوال متغايرة، فإنه نظر لا يدعو نفس الناظر، ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك، فجعل الإنسان بنفسه، وبأحواله، وعدم النظر فيها والتفكير أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه، كالنجوم والأفلاك، ومقادير سيرها، وتقليبها، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلاً، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالاً، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف، إذا فهمه، ولو أدنى فهم وليس من فقه بضم القاف: لأنّ =

وينعاً، وقرأ ابن محيصن: ويانع، وقرئ: وثمره بالضم.

وَجْعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ الْغَيْنِ وَسَلَطَهُمْ^{۱۱۰} وَخَرَقُوا لَمْ يَنْبِ وَيَنْبِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١٠﴾

أَن جَعَلْتُ ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ مفعولي جعلوا نصبت الجِرَّ
بَدَلًا مِّن شُرَكَاءِ، وَأَن جَعَلْتُ لِلَّهِ لَغَوًا كَانَ شُرَكَاءَ الْجِرِّ
مفعولين قَدَمَ ثَانِيهِمَا عَلَى الْأَوَّلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فما فائدة التقديم؟ قُلْتَ: فائدة استعظام أَنْ يتخذَ اللهُ شريكاً مِنْ كَانْ مَلَكًا أَوْ جَنِيًّا أَوْ إِنْسِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ اسْمَ اللهِ عَلَى الشُّرَكَاءِ. وَقُرِئَ: الْجَنُّ بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ فَقِيلَ: الْجَنُّ، وَبِالْجَرِّ عَلَى الْإِضَافَةِ الَّتِي لِلتَّبْيِينِ، وَالْمَعْنَى: أَشْرَكُوهُمْ فِي عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ كَمَا يَطَاعُ اللهُ، وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ اللهَ خَالِقُ الْخَيْرِ وَكُلِّ نَافِعٍ، وَلِبَلِيسَ خَالِقُ الشَّرِّ وَكُلِّ ضَارٍّ ﴿وَوَخَّلَقَهُمْ﴾ وَخَلَقَ الْجَاعِلِينَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَمَعْنَاهُ: وَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ بَنُو الْجَنِّ، وَلَمْ يَمْنَعِهِمْ عِلْمُهُمْ أَنْ يَتَخَذُوا مِنْ لَا يَخْلُقُ شَرِيكًا لِلْخَالِقِ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلْجَنِّ، وَقُرِئَ: وَخَلَقَهُمْ أَيَّ: اخْتَلَقَهُمْ الْإِفْكَ يَعْني: وَجَعَلُوا لِلَّهِ خَلْقَهُمْ حَيْثُ نَسَبُوا قِبَاقِبَهُمْ إِلَى اللهِ فِي قَوْلِهِمْ ﴿وَاللهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾ ^(١) ﴿وَوَخَّرَقُوا لَهُ﴾ وَخَلَقُوا لَهُ أَيَّ: افْتَعَلُوا لَهُ ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِينَ فِي الْمَسِيحِ وَعَزِيرٍ، وَقَوْلُ قَرِيشٍ فِي الْمَلَائِكَةِ. يَقَالُ: خَلَقَ الْإِفْكَ وَخَرَقَهُ وَاخْتَلَقَهُ وَاخْتَرَقَهُ بِمَعْنَى، وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَنْهُ فَقَالَ: كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُهَا، كَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَتَبَ كِتَابَةً فِي نَادِي الْقَوْمِ يَقُولُ لَهُ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَقَهَا وَاللهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَرَقِ الثُّوبِ إِذَا شَقَّه أَيَّ: اشْتَقَّوْا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، وَقُرِئَ: وَخَرَقُوا بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ لِقَوْلِهِ ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ وَقُرَأَ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَحَرَقُوا لَهُ بِمَعْنَى: وَزَوَّوْا لَهُ أَوْلَادًا؛ لِأَنَّ الْمَزْوَدَ مُحَرَّفٌ مَغِيرٌ لِلْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿بَغِيرِ عِلْمٍ﴾ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ مَا قَالُوهُ مِنْ خَطَا أَوْ صَوَابٍ، وَلَكِنْ رَمِيًا بِقَوْلِ عَمِّي وَجِهَالَةٍ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ وَرُوبَةٍ.

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

﴿بيدع السموات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها كقولك: فلان بيدع الشعر أي بيدع شعره، أو هو بيدع في السموات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر أي:

ثابت فيه، والمعنى: أنه عديم التظير والمثل فيها، وقيل
 الببيع بمعنى: المبدع وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف،
 أو هو مبتدأ وخبره ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أو فاعل تعالى،
 وقرئ: بالجر رداً على قوله: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ﴾ أو على
 ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وبالنصب على المدح وفيه إبطال الولد من
 ثلاثة أوجه أحدها: أن مبتدع السموات والأرض وهي
 أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة؛ لأن الولادة
 من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً
 حتى يكون والدًا، والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين
 زوجين من جنس واحد، وهو متعال عن مجانس، فلم يصح
 أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث أنه ما من
 شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان
 غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ: ولم
 يكن له صاحبة بالياء، وإنما جاز للفصل بكوله: لقد ولد
 الأخیطل لم سوء.

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

﴿نَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي ﴿الله ريكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أي: نلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فاعبدوه﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه، ثم قال ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني: وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأزواق والآجال رقيب على الأعمال.

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

البصر⁽²⁾ هو الجوهر اللطيف الذي ركبهُ الله في حاسة النظر به تدرك المبصرات فالمعنى: أنَّ الأبصار لا تتعلق به ولا تتركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصرًا في ذاته؛ لأنَّ الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلًا أو تابعًا كالأجسام والهيآت ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ وهو اللطيف إدراكه للمركبات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ﴿وهو اللطيف﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الخبير﴾ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار لا تلطف عن

بجذرها حاصلة لكل مؤمن، فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للحس، وما نون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي ولم ينكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلاً وليلاً، ولا شبهة فيحتاج إلى الدقح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود، لا في جهة إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعاً، والافتقار إلى العقل يبطل هذا الوهم، ويجبزهما معاً، وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع، والله الموفق.

(1) سورة الاعراف، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها؛ لأنَّ المصنّف تجلّ الكلام عليها قبل والذي يريده الآن أنَّ الإدراك عبارة عن الإحاطة ومنه فلما أدركه الفرق، أي: أحاط به **هو** إدراكه لمبركوت **هـ**، أي: محاط بنا، فالمنفي إذاً عن الإبصار إحاطتها به عز، وعلا لا مجرد الرؤية ثم إِمّا أن تقتصر على أنَّ الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيـد، فنقول يدل لنا أنَّ تخصيص الإحاطة بالنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك، وأقله مجرد الرؤية كما أنا نقول: لا تحيط به الإقحام وإن كانت المعرفة =

من الإعراب، ويجوز أن يكون حالاً من ربك وهي حال مؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾⁽²⁾.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ مَرَّجَهُمْ فَيَنْتَهُرُ بِمَا كَانُوا يَمْعُونَ⁽¹⁸⁾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ الآية ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فیسبوا الله﴾ وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾⁽³⁾ لئن هين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى.

فإن قُلْتُ: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ قُلْتُ: رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها؛ لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي كما يجب النهي عن المنكر.

فإن قُلْتُ: فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة، فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع نلك في ديننا؟ قُلْتُ: ليس هذا ممن نحن بصدد؛ لأن حضور الرجال الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء؛ فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن ﴿عَدُوا﴾ ظملاً وعدواناً، وقرئ: عدواً بضم العين وتشديد الواو بمعناه: يقال عدا فلان عدواً وعدواً وعداء، وعن ابن كثير: عدواً بفتح العين بمعنى: أعداء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة باله وبما يجب أن ينكر به ﴿كَذَلِكَ زِينًا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مثل تلك التزيين زينا لكل أمة من الأمم الكفار سوء عملهم أي: خليانهم وشانهم ولم تكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زينه في زعمهم، وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا ﴿فَيَنْتَهُرُهُمْ﴾ فيؤيخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

وَأَنسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ لِيَنْ جَاءَهُمْ يَالَيْلٍ يُزَيِّنُ يَأْ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ⁽¹⁹⁾ وَنَقُلُوكَ أَتَدْرِكُهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَدْرِكُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَسْمُونُ⁽²⁰⁾.

﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم ﴿لِيؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله﴾ وهو⁽⁴⁾ قادر عليها ولكنه لا ينزلها

إدراكه، وهذا من باب اللطف.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ⁽¹⁴⁾.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله: وما أنا عليكم بحفيظ. والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر، أي: جاءكم من الوحي والتبني على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالْبصائر ﴿فمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق وأمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر وإياها نفع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضرر بالعَمى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

وَكَذَلِكَ نُنْزِلُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ⁽¹⁵⁾ أَلَيْسَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَأَنَّهُ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْثَوَّابِينَ⁽¹⁶⁾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِكَارٍ⁽¹⁷⁾.

﴿وليقولوا﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست تصرفها ومعنى ﴿درست﴾ قرأت وتعلمت، وقرئ: دارست أي: دارست العلماء ودرست بمعنى: قَدِمْتُ هذه الآيات وعفت، كما قالوا: أساطير الأولين، ودرست بضم الراء مبالغة في درست أي: اشتد دروسها، ودرست على البناء للمفعول بمعنى: قرئت أو عفيت، ودارست وفسروها بدارست لليهود محمداً ﷺ، وجاز الإضمار؛ لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لاهلها أي: دارس أهل الآيات وحملتها محمداً وهم أهل الكتاب، ودرس أي: درس محمد ودارسات علي هي دارسات أي: قديمات أو ذات دروس كـ ﴿عيشة راضية﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين اللامين في ﴿ليقولوا﴾ و﴿لنبينه﴾؟ قُلْتُ: الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصرف الآيات كما حصل النبيين شبه به فسيق مساقه، وقيل ليقولوا كما قيل لنبيته.

فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿ولنبينه﴾ قُلْتُ: إلى ﴿الآيات﴾ لأنها في معنى القرآن، كانه قيل: وكذلك نصرف القرآن، أو إلى القرآن وإن لم يجر له نكر لكونه معلوماً إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل كقولهم: ضربته زيدا، ويجوز أن يراد فيمن قرأ: درست ودارست درست الكتاب ودرسته فيرجع إلى الكتاب المقدر ﴿لا إله إلا هو﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي لا محل له

(4) قال أحمد: ومحز النظر في الآية يتضح بمثال، فنقول إذا قال لك

القاتل أكرم، فلأننا فإنه يكافئك وكنت أنت تعلم منه عدم المكافاة،

فإذا أشكرت على المشير بإكرامه قلت: وما يدريك اني إذا أكرمته =

(1) سورة القارة، الآية: 7.

(2) سورة البقرة، الآية: 91.

(3) سورة الانبياء، الآية: 98.

إننا نذرهم في طغيانهم أي: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه، وقرئ: ويقلب وينذرهم بالياء أي: الله عز وجل، وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم على البناء للمفعول.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْنُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَانَهُمُ النَّوْءُ وَحْشًا عَلَيْنُمْ لَكُنَّا قَوْمًا كَاذِبًا يُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (٣١).

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ (١) ﴿وكلهم الموتى﴾ كما قالوا: ﴿فأتوا بآبائنا﴾ (٢) ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ كما قالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ (٣) ﴿قبلاً﴾ كفاء بصحة ما بشرنا به وإنزرا، أو جماعات، وقيل ﴿قبلاً﴾ مقابلة، وقرئ: قبلاً أي: عياناً ﴿إلا أن يشاء الله﴾ مشيئة (٤) إكراه واضطرار ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ نَذَرُهُمْ وَمَا يَنْتَرُونَ﴾ (٣٢).

﴿وكنك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ وكما خيلنا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم

إلا على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي، فكيف أجيبكم إليها وأتيكم بها؟ ﴿وما يشعركم﴾ وما يديركم ﴿أنها﴾ أن الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال عز وجل: وما يديركم أنهم لا يؤمنون على معنى: انكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به، إلا ترى إلى قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقيل: أنها بمعنى: لعلها، من قول العرب انت السوق أنك تشتري لحماً وقال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبيكي الليار كما بكى ابن خنم وتقويها قراءة أبي: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وقرئ: بالكسر على أن الكلام قد تم قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة، ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح، وقرئ: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أي: يحلفون بانهم يؤمنون عند مجيئها وما يشعركم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعاً عليها فلا يؤمنوا بها ﴿ونقلب أفئدتهم﴾ ونذرهم عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم أي: نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، وما يشعركم

= يكافئني، فأنكرت عليه إثباته المكافاة، وأنت تعلم نفيها، فإن انعكس الأمر، فقال لك: لا تكرمه، فإنه لا يكافئك، وكنت تعلم منه المكافاة، فأنكرت على المشير بحرمانه قلت، وما يديرك أنه لا يكافئني تريد، وأنا أعلم منه المكافاة، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندن، فاعتقوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال: وما يديركم أنها إذا جاءت يؤمنون، ما تقول في المثال منكراً على من أثبت المكافاة، وأنت تعلم خلافها، وما يديرك أنه يكافئني بأسقاط، لا وإن أثبتنا انعكس المعنى إلى أن المعلوم لك الثبوت، وأنت تنكر على من نفى، فلما جاءت الآية تفهم ببديء الرأي، أن الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له، والواقع على خلاف ذلك اختلف العلماء، فحمل بعضهم لا على الزيادة، وبعضهم أول أن بلعل وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محنوف، وقد فتحت أن بعد القسم، فقال التفسير والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأما الزمخشري، فنظن لبقاء الآية على ظاهرها وقرأها في نصابها من غير حذف، ولا تأويل، فقال قوله السالف، ونحن نوضح أطرافه في المثال المذكور، ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول إذا حرمت زيداً لملك بعدم مكافاته، فاشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير بظن المكافاة، فلك معه حالتان حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً، فإن أنكرت عليه قلت، وما يديرك أنه يكافئ، وإن عذرت في عدم علمه بأنه لا يكافئ، قلت وما يديرك أنه لا يكافئ يعني: ومن =

- أين تعلم أنت ما علمت أنا من عدم مكافاته، وأنت لم تخبر أمره خيري، فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى، وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول لا، وتعين، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعداء، والله الموفق للصواب.
- (1) سورة الفرقان، الآية: 21.
 - (2) سورة النحل، الآية: 36.
 - (3) سورة الإسراء، الآية: 92.
 - (4) قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الإيمان، فإنه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للإيمان، لاختاروه وأمنوا حتماً ما شاء الله كان، والزمخشري بني على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أن الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً، فلم يؤمنوا إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلعون القول، كما أطلقه سلف هذه الأمة وحمله شريعتها من قولهم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن بل يقولون إن أكثر ما شاءه لم يقع، إذ شاء الإيمان، والصالح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح، إلا القليل، وقليل ما هم وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا في المداغة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر، والاضطرار وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء، وأما وهو القدرة، والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه، فإلى النار وما بعد الحق، إلا الضلال، والله الموفق للصواب.

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُجُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَصِلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي: تمَّ كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئًا من ذلك بما هو أصبق عدل، و ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ نصب على الحال، وقرئ: كلمة ربك أي: ما تكلم به، وقيل: هي القرآن.

﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الناس أضلوك؛ لأنَّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال: ﴿وَأَنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أنَّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقدرون أنهم على شيء أو يكتنون في أنَّ الله حرم كذا وأحل كذا. وقرئ: من يضل بضم الياء أي: يضلله الله.

فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَدَفَعَلْ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالِينَ بِأَهْوَايِهِمْ يَغَيِّرْ عَلَيْهِ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٢٠﴾ وَذَرُوا ظِلَافَ الْإِنَّمِ وَرَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنَّمِ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَايَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِرُكُمْ إِلَى الْآيَاتِهِمْ لِيُخْلِيَكُمْ مِنْكُمْ لَعَنَ اللَّهُ الْفُكْرَاءَ ﴿٢٢﴾

﴿فَكُلُوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تاكلوا مما قتلتم أنتم؟ فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ﴿مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصة بون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو: المنكى ببسم الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ وأي: غرض لكم في أن لا تاكلوا ﴿وقد فصل لكم﴾ وقد بين لكم ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ﴾ (3) وقرئ: فصل لكم ما حرم عليكم على تسمية الفاعل وهو: الله عز وجل ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ لَيَّالِينَ لِيُضِلُّوكُمْ﴾ قرئ: بفتح الباء وضمها أي: يضلون فيحرمون ويحللون ﴿بِأَهْوَايِهِمْ﴾ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

﴿ظَاهِرِ الْإِنَّمِ وَبَاطِنِهِ﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتم، وقيل: ما عملتم وما نويتهم، وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر ﴿وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي نخل عليه حرف النهي يعني: وأن الأكل منه لفسق، أو إلى الموصول على وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم ينكر اسم الله عليه في

منهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شَیْطَانِينَ﴾ على البد من عدواً أو على أنهما مفعولان كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (1) ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار: إنَّ شيطان الإنس أشدَّ عليَّ من شيطان الجن؛ لأنني إذا تعوَّنت بالله ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً. ﴿زَخْرَفَ الْقَوْلَ﴾ ما يزيه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموهه ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذاً على غرة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ذلك أي: ما عايناه أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

وَلَمَّا تَخَوَّاهُ بِإِيمَانِهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَهُوَ مُتَوَكِّلٌ ﴿٢٣﴾

﴿ولتصغي﴾ جوابه محذوف تقديره وليكون ذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً على أنَّ اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما نكر والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي: ولتميل إلى ما نكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أَفْئِدَةُ﴾ الكفار ﴿وَلِيَرَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

أَفْتَرَى اللَّهُ آتِنِي حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ وَإِلَيْهِ لَا تُكُونُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾

﴿أفغير الله ابتغي حكماً﴾ على إرادة القول أي: قل يا محمد أغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل وهو الذي أنزل إليكم الكتاب المعجز ﴿مفصلاً﴾ مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصلق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أنَّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقه له ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ من باب التهيج والإلهاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ (2) أو ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ في أنَّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به، ويجوز أن يكون فلا تكونن خطاباً لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فما ينبغي أن يمتري فيه أحد، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ خطاباً لأمته.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ تَطَلَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(3) سورة المائدة: الآية: 3.

(1) سورة الأنعام: الآية: 100.

(2) سورة الأنعام: الآية: 14.

نفسه فسقاً.

أي زينه الشيطان أو الله عزّ وعلا على قوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾⁽⁴⁾ ويدل عليه قوله:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿وكنكك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ يعني: وكما جعلنا في مكة صنائديها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك، ومعناه خليئانهم ليمكروا وما كفناهم عن المكر، وخص الأكابر؛ لأنهم هم حاملون على الضلال والماكرون بالناس كقوله: ﴿أمرنا مترفيها﴾⁽⁵⁾ وقرئ: أكبر مجرميها على قولك: هم أكبر قومهم وأكابر قومهم ﴿وما يعمرون إلا بأنفسهم﴾ لأنّ مكرمهم يحق بهم، وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي أنّ الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأنني أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً. وروي أنّ أبا جهل قال: زاحمتنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرنسي رهان قالوا: منا نبيّ يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتية، فزلزلت، ونحوها قوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتي صحفاً منسرة﴾⁽⁶⁾.

وَإِذَا جَاءَهُمْ مَّاءٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفي للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم

فإن قلّت⁽¹⁾: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد؛ قلّت: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه كقوله: ﴿وفسقا أهل لغير الله به﴾⁽²⁾ ﴿ليوحون﴾ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾ من المشركين ﴿ليجلبولكم﴾ بقولهم ولا تاكلون مما قتلته الله، وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنّ من أتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصاً في النسيان في العمد ومالك والشافعي رحمهما الله فيها.

أَوْ مَن كَانَ مِيّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿١٣٤﴾

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به الحق والمبطل والمهتد والضال بمن كان ميّتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به فيميز بعضهم من بعض ويفصل بين حلالهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ كمن صفته هذه وهي قوله: في الظلمات ليس بخارج منها بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها كقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾⁽³⁾ أي: صفتها هذه وهي قوله: فيها أنهار ﴿زين للكافرين﴾

يُفَعِّلُ الْمَكْلَفَ فِيهَا فَعَلًا يُسَمَّى: فسقاً سوى الأكل، والمنسي تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقاً، لأجل النسيان، فيتعين صرفه إلى الأكل، ومن ثم قوي عند الزمخشري تعميم التحريم، حتى في المنسي؛ لأنه يرى أنّ الميتة مرادة من الآية، ولا بد إذ هي سبب نزول الآية، والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصّاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره، فيما عداه، وإذا ثبت اندراج الميتة لزوم اندراج المنسي، كما تقدّم وحينئذ يضطر مبيع المنسي إلى مخصص، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام نكح الله على قلب كل مؤمن من سمي، أو لم يسم وكان الناسي ذاكراً حكماً، وإن لم يكن ذاكراً وجوداً، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص، ولكن منع، لاندراج الناسي في العموم، وسنده الحديث المذكور، ويؤيد بأنّ العام الوارد على سبب خاص، وإن قوي تناوله للسبب، حتى ينهض الظاهرة فيه نصّاً، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه، حتى ينحط عن أمالي الظواهر فيه، ويكتفي من معارضته، بما لا يكتفي به منه، لولا السبب، وهذا البحث متطوع بفنون.

(2) سورة الأنعام، الآية: 145.

(3) سورة محمد، الآية: 15.

(4) سورة النمل، الآية: 4.

(5) سورة الإسراء، الآية: 16.

(6) سورة الم نشر، الآية: 52.

(1) قال أحمد: مذهب مالك، وأبي حنيفة سواء في أنّ متروك التسمية عمداً لا يؤكل، سواء كان تهاوناً، أو غير تهاون، ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعدة بينة، فإنه ذكر عقيب غير المسمى عليه قوله، وأنه لفسق وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف، وهو: إهمال التسمية، أو تسمية غير الله، فلا يدخل النسيان؛ لأنّ الناسي غير مكلف، فلا يكون فعله فسقاً، ولا هو فاسق، وإن كان نفس الفسق الذبيحة، التي لم يسم عليها، ولم يكن مصدراً، فإنما تسمى الذبيحة: فسقاً نقلاً لهذا الاسم من المصدر إلى الذات، فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسياناً، لا يصح أن تسمى فسقاً إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق، فإذا تمهد ذلك، فلما أن يقول لا دليل في الآية على تحريم منسي التسمية، فبقي على أصل الإباحة، أو يقول فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهي، بما هو فسق، فما ليس بفسق ليس بحرام وهذا، النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية، وأما إذا ثبت أنها مرادة تعين صرف الفسق إلى الأكل، والمأكول، وكان الضمير من قوله، وأنه عائد إلى المصدر المنهي عنه، أو إلى الموصول وحينئذ يندرج المنسي في النهي، ولا يستقيم على أنّ الميتة مندرجة، كاندراج المنسي؛ لأنّ الوجه الذي به تندرج الميتة هو: الوجه الذي به يندرج المنسي، إذ يكون الفسق إما للأكل، وإما للمأكول نقلاً من الأكل، ولا ينصرف إلى غير ذلك؛ لأنّ الميتة لم

كل أفة وكدر **﴿عند ربهم﴾** في ضمانه، كما تقول لفلان: عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون عنها كقوله: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** (2) **﴿وهو وليهم﴾** مواليتهم ومحبيهم أو ناصرهم على أعدائهم **﴿بما كانوا يعملون﴾** بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَوَلَّيْنَاكَ الْآلِهَةَ أَبْتَلَتْ لَنَا قَالُوكَ النَّارُ مَوْتُنَامْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٦٨)

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف أي: وانكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم قلنا **﴿يا معشر الجن﴾** أو ويوم نحشرهم وقلنا: يا معشر الجن، كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم، والجن هم: الشياطين **﴿قد استكبرتم من الإنس﴾** أضلتم منهم كثيرًا أو جعلتموهم أتباعكم، فحشر معكم منهم الجم الفقير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياء **﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾** الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث لولهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجن ما في قوله: **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعونون برجال من الجن﴾** (3) وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال: أعوذ برب هذا الوادي يعني به: كبير الجن، واستمتاع الجن بالإنس اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم **﴿وبلغنا نجسنا الذي أجلت لنا﴾** يعنون: يوم البعث، وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، واستسلام لربهم وتحسر على حالهم **﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾** أي: (4) يخلون في عذاب النار الأبدي كله، إلا ما شاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها

بالمكان الذي يضعها فيه منهم **﴿سيصيب الذين لجروا﴾** من أكابرها **﴿صغار﴾** وقماعة بعد كبرهم وعظمتهم **﴿وعذاب شديد﴾** في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِتَسْلُبِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِيًّا كَأَنَّا بِتَضَعُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٦٩)

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يطف به ولا يريد أن يطف إلا بمن له لطف **﴿يشرح صدره للإسلام﴾** يطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه **﴿ومن يرد أن يضله﴾** أن يخله ويخليه وشانه وهو الذي لا لطف له **﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾** يمنعه الطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان، وقرئ: ضيقاً بالتخفيف والتشديد، حرجاً بالكسر وحرجاً بالفتح وصفاً بالمصدر **﴿كانما يصعد في السماء﴾** كانما يزاول أمراً غير ممكن؛ لأن صعود السماء مثل فيما يتمتع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة، وقرئ: يصعد وأصله يتصعد، وقرأ عبد الله يتصعد ويصاعد وأصله يتصاعد ويصعد من صعد ويصعد من أصد **﴿يجعل الله الرجس﴾** يعني: الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أن أراد الفعل المؤدي إلى الرجس وهو: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب.

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا تَدْفَعْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ (١٧٠)

﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان **﴿مستقيماً﴾** عادلاً مطرداً، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: **﴿وهو الحق مصدقاً﴾** (1).

لَمْ دَارَ السَّكْرِ عَذَابُهُمْ وَهُمْ وَجَّهُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧١)

﴿لهم﴾ لقوم يذكرون **﴿دار السلام﴾** دار الله يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة السجدة، الآية: 17.

(3) سورة الجن، الآية: 6.

(4) قال أحمد: قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعياً، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية، وفي أختها في سورة هود، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين، وللنصارى والمجوس، لأنهم لا يخلون، وهذا تأويل أهل السنة، وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود، وتناهى إلى ما نعوذ بالله منه، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، راوي الحديث الشاهد لهذا التأويل، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله، وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم، وفقهائهم وزهادهم، وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيتة رفع العذاب، أي: مخلون إلا أن يشاء الله لو شاء

= وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأن خلودهم إنما كان؛ لأن الله تعالى قد شاءه وكان من الجائز العقلي في مشيتة أن لا يعذبهم، ولو عذبهم لا يخلدهم، وأن ذلك ليس بامر واجب عليه، وإنما هو مقتضى مشيتة وإرادته عز وجل، وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة، الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك، وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر باليسر، فقال المراد، والله أعلم إلا ما شاء من زيادة العذاب، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء والمستثنى على هذا التأويل، لم يغير المستثنى منه في الحكم ونحن نبينه، فتقول العذاب والعياذ بالله على درجات متفاوتة، فكان المراد أنهم مخلون في حبس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية، حتى تكاد لبلوغها الغاية، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة تعد =

بعضها ويجحدون في بعضها، أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أقوالهم.

فإن قلْتُ: لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلْتُ: الأولى: حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون، والثانية: ذم لهم وتخطئة لرايهم ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرّتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه، وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم.

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿٣١﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك و ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة على معنى: لأنّ الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، ولك أن تجعله بدلًا من ذلك كقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع﴾⁽⁴⁾ ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قدموا عليه، أو ظالمًا على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينهبوا برسول وكتاب لكان ظلمًا، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿مما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساه عنه، يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنْ أَعْمَالِهِمْ مَّا رُبُّكَ يَكْفِيهِمْ عَمَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴿٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْقَوِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءْ يُدْخِلْكُمْ فِيهِمْ وَلَيَخْلُفُنَّ فِي بَيْتِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمًا وَآخَرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ مَا تُوعِدُونَ لَأَتِيَنَّ وَمَا أَنتَ بِمُتَجِدِّينَ ﴿٣٤﴾

﴿وربك الغني﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إن يشاء يذهبكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ من الخلق المطيع ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

قُلْ يَتَوَدَّ أَعْمَالُكُمْ إِنِّي عَايِلٌ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عِقَابَةُ الذَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْغَالِيُونَ ﴿٣٥﴾

من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي: أنهم يدخلون وأنيافهم من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعالون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقته: أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئًا إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِمَعْ أَتَّالِيَيْنَ بَعَثًا يَمَّا كَانُوا يَكْشِبُونَ ﴿٣٦﴾ يَتَمَتَّعُونَ الْحَيَاةَ وَالْآلِثَ ثُمَّ يَأْتِيَهُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ يُرِيدُونَكَ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا قَالُوا هَذَا مَا عَلَّمْنَا نَفْسِنَا وَرَبَّنَا لَمَّا كُنَّا فِي الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَسْتَعِذُّ بِكَ مِنْكُمْ

﴿تولي بعض الظالمين بعضًا﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضًا كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿الم يأتكم رسل منكم﴾ واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم؟ فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم؛ لأنهم به آنس ولو ألف، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة وإنما قيل: رسل منكم؛ لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحّ ذلك وإن كان من أحدهما كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾⁽¹⁾ وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم كقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾⁽²⁾ وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس، ورسول الله ﷺ بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهننا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: ﴿الم يأتكم﴾ لأنّ الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريرًا لهم وقولهم: ﴿شهننا على أنفسنا﴾ إقرار منهم بأنّ حجة الله لازمة لهم وأنهم محجوجون بها.

فإن قلْتُ: ما لهم مقيرين في هذه الآية جاحدين في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾⁽³⁾؟ قلْتُ: تتفاوت الأحوال والمواطن في تلك اليوم المتطاوّل، فيقرون في

= معاملته في التعبير، بمعاملة المغاير وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج، إلا بعد هذا البسط وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه ما يؤيده والله الموفق.

(1) سورة الرحمن، الآية: 22.

(2) سورة الاحقاف، الآية: 29.

(3) سورة الانعام، الآية: 23.

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

= ليس من جنس العذاب وخارجة عنه، والشئ إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد، كما تقدّم في التعبير عن كثرة الفعل، برب، وقبوهما موضوعان لضرب الكثرة من القلة، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب، وقد حام أبو الطيب حوله، فقال:

لقد جبت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة، فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق، حتى يسوغ =

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٧).

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زكاً نياماً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكاً ما جعلوه للأصنام تركوه لها، واعتلوا بأن الله غني، وإنما ذك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها وقوله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذراه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذره ولا تزكية ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ وقرئ بالضم أي: قد زعموا أنه الله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك؛ لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القرية ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصلق على المساكين ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاق عليها بنبج نساءك عندهما والإجراء على سدننتها ونحو ذلك ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

وَكَذَلِكَ زَكَّيْكَ لِكَيْبَرِ رَبِّكَ الْمُتَكَبِّرِ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَسْلُبُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَعَلَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ (١٣٨).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين وهو: تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو: علم من الشياطين والمعنى (٢): أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم

﴿المكانة تكون مصدراً يقال: مَكَّن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان: يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ يحتمل عملوا على تمككنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو عملوا على جهتكم وحالككم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: أثبت على ما أنت عليه لا تتحرف عنه ﴿إني عامل﴾ أي: عامل على مكانتي التي أنا عليها والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فأني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي: تكون له العاقبة المحمودة وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ (١) وهي التخلي والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكانه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصى عنه ويعمل بخلافه.

فَإِنْ قُلْتُ: ما موضع ﴿مَنْ﴾ قُلْتُ: الرفع إذا كان بمعنى: أي وعلق عنه فعل العلم، أو النصب إذا كان بمعنى: الذي و ﴿عاقبة الدار﴾ العاقبة الحسنی التي خلق الله تعالى هذه الدار لها، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَآ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

= المنكر ليس من أهل الشائين أعني علم القراءة، وعلم الأصول، ولا يعد من ذوي الفنين المنكوريين لخيف عليه الخروج من رتبة الدين، وأنه على هذا العذر لفي عبدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً، فإن هذا القائل لم يشبها بغير النقل، وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر، وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأي غير موقوفة على النقل، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين وما حمله على هذا الخيال، لا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وإن كان عسراً إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله، فهو مقدر بالفعل وبهذا التقدير عمل، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة، حتى قال بعض النحاة: إن إضافته ليست بمحضة لذلك، فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس لجنباً عنه، وكأنه بالتقدير فكه بالفعل، ثم قُدم المفعول على الفاعل، وأضافه إلى الفاعل، وبقي المفعول مكانه حين الفك، ويسهل ذلك أيضاً بتغيير حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول، وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل، لوقوعه في =

(2) قال أحمد رحمه الله: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظه كلامه، مما رماه به، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهداً، لا نقلاً وسماحاً، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته للياء ثابتة في شركائهم، فاستدل بذلك على أنه مجرور وتعين عنده نصب أولاهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً، فقراه منصوباً قال المصنف: وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جرّه بالإضافة وإبدال الشركاء منه وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعني: ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه، الذي يسمح في الشعر فضلاً عن النثر، فضلاً عن المعجز، فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري، أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكان الصواب خلافه، والفصح سواء، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قراها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك، ثم تلاها النبي ﷺ على عبد التواتر من الأئمة، ولم يزل عبد التواتر يتناقلونها، ويقرون بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقراها أيضاً كما سمعها، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتقليلاً عن أقصص من نطق بالضاد ﷺ، فإذا علمت العقيدة الصحيحة، فلا ميالة بعدها بقول الزمخشري، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة ولولا عذر أن =

أَفَرَأَيْتَ عَلَيْهِ سَبْرَهُمْ يَكَا كَانُوا يَنْتَوُونَ (٣٢٨)

﴿حجر﴾ فعل بمعنى: مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع؛ لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وقرأ الحسن وقتادة: حجر بضم الحاء، وقرأ ابن عباس: حرج وهو: من التضيق، وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لأكلهم قالوا: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ وهي: البحائر والسوائب والحوامي ﴿وأنعام لا يذكر اسم الله عليها﴾ في الذبح، وإنما يذكر اسمها الأضنام، وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها، والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر اسم الله فجعلوها أجناساً بهوامهم ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله ﴿افتراء عليه﴾ أي: فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد؛ لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَؤُلَاءِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَعَهُمْ عَلَىٰ آُرُوحًا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَبْرَهُمْ وَصَنَّهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلَيْهِ (٣٢٩)

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حياً: فهو خالص للذكور لا تاكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث^(١)، وأنت ﴿خالصة﴾ للحمل على المعنى؛ لأن ﴿ما﴾ في معنى الأجنة وذكر ﴿محرم﴾ للحمل على اللفظ ونظيره ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾^(٢) ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن تكون مصدرًا وقع

بالواد أو بنحرمهم للأكله، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب. وقرئ: زين على البناء للفاعل الذي هو: شركاؤهم، ونصب قتل أولادهم وزين على البناء للمفعول الذي هو: القتل، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينهم فقول: زينهم لهم شركاؤهم، وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمحاً مربوذاً كما سمح ورد زج القلوص أبي مزاده.

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمهم وجزالته؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء؛ لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك منبوحة عن هذا الارتكاب ﴿ليردوهم﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوه عليهم ويشبهوه، وبينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك، وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: معناه وليوقعوهم في دين ملتبس.

فإن قلّت: ما معنى اللام؟ قلّت: إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السنة فعلى معنى الصيرورة ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة قسر ﴿ما فعلوه﴾ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل، أو لما فعل الشياطين أو السنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الإشارة ﴿وما يفترون﴾ وما يفترونه من الإفك أو افتراؤهم.

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رَعِيهِمْ وَأَنعَمَ حَرَمَتَ ظُهُورَهُمْ وَأَمَّا لَا يَذْكُرُونَ أَسَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا

= تمحضها لا يسوغ فيها الفصل، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: ليسا سواء؛ لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى، وفيه إجمال، وبينهما بون يقتضي أن أنكر جماعة من متأخري الفن وقوعه في الكتاب العزيز، وادعوا أن جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ، وقد التزم غيرهم بإجازة ذلك وعدوا في الكتاب العزيز، منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصوف، وعلى الجملة، فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل، وبغيره أولى ما وجد إليه سبيل، وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك، فقال ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن يكون مصدرًا وقع موقع الخالص، كالعافية، أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب، على أن قوله لنذكرنا هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقنمة؛ لأن المجبور لا يتقدم عليه حاله، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجبور، حتى يتعين المصدر.

(2) سورة محمد، الآية: 16.

= غير مرتبته، إذ ينوي به التأخير، فكانه لم يفصل كما جاز تقدم المضمهر على الظاهر إذا حل في غير رتبته، لأن النية به التأخير وأنشد أبو عبيدة:

فداسهم نوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً:

يفر كن حب السنبل الكفافج بالقاء فرك القطن المحالج
فصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول، ومما يقوي عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظر، بشواهد من أقيسة العربية، تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة، وهذا القدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما، والله الموفق، وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه، التي يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته، ولا مستبعد من القياس، ولم نفرده في الدلالة المذكورة، إذ المتفق على عدم

بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر، وقيل: منية. والحق هو الزكاة المفروضة، ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقتصدوه واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ في الصدقة، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله ﴿ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾⁽⁴⁾.

وَمِنَ الْأَمْوَالِ حِمْلَةٌ وَفَرَشًا كُتُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٧٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اسْتَحْلَكَ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْأَنْثَيْنِ يَتَوْنِ يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اسْتَحْلَكَ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْأَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ يَهْدَىٰ مِمَّا أَطْعَمَ وَمِمَّنْ آفَرْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُفْسِدُ النَّاسَ يَخِرُّ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾

﴿حمولة وفرشاً﴾ عطف على جنات أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش، وقيل: الحمولة الكبار التي تصلح للحمل، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحریم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية.

﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشاً﴾ ﴿اثنتين﴾ زوجين اثنتين يريد: الذكر والأنثى كالجمال والناقة والنور والبقرة والكبش والنعجة والكتيس والعنز، والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجاً وهما زوجان بدليل قوله ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾⁽⁵⁾ الدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ ثم فسرها بقوله: من الضأن اثنتين ومن المعز اثنتين ومن الإبل اثنتين ومن البقر اثنتين، ونحو تسميتهم الفرد بالزوج بشرط أن يكون معه آخر من جنسه تسميتهم الزجاجة كاشاً بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر، وقرئ: بفتح العين، وقرأ أبي: ومن المعزى. وقرئ: اثنان على الابتداء. الهمة في ﴿الذكرين﴾ للإنكار، والمراد بالذكر من الضأن والذكر من المعز. وبالأثنتين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز على طريق الجنسية، والمعنى: إنكار أن يحرم الله تعالى من جنسي الغنم ضائها ومعزها

موقع الخالص كالعاقبة أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على أن قوله ﴿الذكورنا﴾ هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدماً؛ لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله، وقرأ ابن عباس: خالصة على الإضافة، وفي مصحف عبد الله: خالص ﴿وإن يكن ميتة﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة، وقرئ: إن تكن بالتانيث على وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ أهل مكة: وإن تكن ميتة بالتانيث والرفع على كان التامة، وتذكير الضمير في قوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى فكانه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: جزاء وصفهم الكتب على الله في التحليل والتحریم من قوله تعالى: ﴿وتوصف السنتهم الكتب﴾⁽¹⁾ ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾⁽²⁾ نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يثنون بناتهم مخافة السبي والفقر.

قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَهْلاً يَخِرُّ عَلَيْهِمْ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ آفَرَةً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٧٥﴾

﴿سَهْلاً بغير علم﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم لا هم. وقرئ: قتلوا بالتشديد ﴿ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب وغيرها.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوسَاتٍ بِغَيْرِ مَعْرُوسَةٍ وَأَنزَلَ الْزَّيْتِ مَغْلِيًّا أَكُلُوا وَالزَّيْتُونَ وَالزُّرْعَاتِ مَثَلًا وَمِمَّا مَثَلًا كُتُوا مِنْ شَرِّهِ إِذَا أَمَرَ وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا إِنَّكُمْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٦﴾

﴿أنشأ جنات﴾ من الكروم ﴿معروشات﴾ مسموكات و﴿بغير معروشات﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش، وقيل: المعروشات ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه، وغير معروشات مما أنبته الله وحشياً في البراري والجبال فهو غير معروش، يقال: عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان، وسقف البيت عرشه ﴿مختلفاً أكله﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة، وقرئ: أكله بالضم والسكون، وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزروع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه ومختلفاً حال مقبرة؛ لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ وقرئ: ثمره بضميتين.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ ﴿إِذَا أَمَرَ﴾ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَشْرَ لَمْ يُوَكَّلْ مِنْهُ؟ قُلْتُمْ: لَمَّا أُبِيحَ لَهُمُ الْأَكْلُ مِنْ ثَمَرِهِ، قِيلَ: إِذَا أَمَرَ لِيَعْلَمَ أَنَّ أَوَّلَ وَقْتِ الْإِبَاحَةِ وَقْتُ إِطْلَاعِ الشَّجَرِ الثَّمَرِ، لِثَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا يَبَاحُ إِلَّا إِذَا أُدْرِكَ وَأُبْنِعَ ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ الْآيَةُ مَكِيَّةٌ، وَالزَّكَاةُ إِنَّمَا فَرَضَتْ

(4) سورة الإسراء، الآية: 29.

(5) سورة النجم، الآية: 45.

(1) سورة النحل، الآية: 62.

(2) سورة النحل، الآية: 116.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

أهلٍ لغير الله به فسقاً.

فإن قُلْتَ: فعلام تعطف ﴿أهل﴾ والام يرجع الضمير في ﴿به﴾ على هذا القول؟ قُلْتَ: يعطف على يكون ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكن في يكون ﴿فمن اضطر﴾ فمن دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿غير باغ﴾ على مضطر مثله تارك لمواساته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذ.

وَعَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَبَنَى الْبَقَرِ وَالْفَتْرَ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَوْهَمًا إِلَّا مَا حَكَّتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُلْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغِيهِمْ وَإِنَّا لَمَصِيرُونَ (٧٦).

نو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرم ذلك عليهم، فعم التحريم كل ذي ظفر ببليق قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ (٢). وقوله: ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها﴾ كقولك: من زيد أخذت ماله تزيد بالإضافة زيادة الربط والمعنى: أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة وهي الثروب وشحوم الكلى، وقوله: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعني: إلا ما اشتمل على الظهر والجنوب من السحفة ﴿أو للحوايا﴾ أو اشتمل على الأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الألية، وقيل: الحوايا عطف على شحومها وأو بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهاهم﴾ وهو: تحريم الطيبات ﴿ببغيتهم﴾ بسبب ظلمهم ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما أوعينا به العصاة لا نخلفه كما لا نخلف ما وعيناه أهل الطاعة، فلما عصوا وبغوا الحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب (٣).

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (٧٧).

﴿فإن كذبوك﴾ في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لأهل طاعته ﴿ولا يرد بأسه﴾ مع سعة رحمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا

شيئاً من نوعي نكورها وإنائها ولا مما تحمل إناث الجنسين، وكذلك النكران من جنسي الإبل والبقر والأنثيان منهما وما تحمل إنائهما، وذلك أنهم كانوا يحرمون نكورة الأنعام تارة، وإنائها تارة، وأولادهما كيفما كانت نكوراً وإنائاً أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرمها الله، فأنكر ذلك عليهم.

﴿نبئوني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن الله حرمه ﴿أم كنتم شهداء﴾ بل كنتم شهداء ومعنى الهمزة: الإنكار يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم، وذكر المشاهدة على مذهبهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرم هذا الذي تحرمه، فتهكم بهم في قوله: أم كنتم شهداء على معنى: أعرستم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالسل ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿ليضل الناس﴾ وهو: عمرو بن لحي ابن قعدة الذي بحر الباحثر وسبب السواحب.

فإن قُلْتَ: كيف فصل بين بعض المعبود وبعضه؟ ولم يوال بينه قُلْتَ: قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبي من المعبود، وذلك أن الله عز وجل من على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم، فاعترض بالاحتجاج على من حرمها، والاحتجاج على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ عَرَمًا عَلَى طَاعِرٍ يَلْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُمْ رِجْسٌ أَوْ نِسَاءٌ أُجِلَّ لِهِنَّ إِلَهُ يَوْمٍ فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاطِلٍ وَلَا عَادِلَ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٨).

﴿فيما أوحى إلي﴾ تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحى الله تعالى وشرعه لا بهوى الأنفس ﴿محرمات﴾ طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ أي: مصبوحاً سائلاً كالدم في العروق لا كالكدب والطحال، وقد رخص في دم العروق بعد الذبح ﴿أو فسقاً﴾ عطف على المنصوب قبله سمي ما أهل به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ (١) و﴿أهل﴾ صفة له منصوبة المحل، ويجوز أن يكون مفعولاً له من أهل أي:

(1) سورة الأنعام، الآية: 121.

(2) سورة النساء، الآية: 160.

(3) قال أحمد: هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على الله، ووعيد الكافر باتفاق واقع به غيره مريد عنه، وأهل السنة وإن قالوا: يجوز العفو عن العاصي الموحده، فلا يقولون إن ذلك حتم ولا يلزمهم ذلك؛ لأن الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة علق =

= حلول الوعيد بهم بالمشيئة، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم، فمن ثم اعتقدنا أن كل موجد عاص في المشيئة، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر، فهو محمول على المقيد، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر والزمخشري، إنما يندن حول إلزامهم ذلك، وإنه له.

عليكم على قود مذهبيكم ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ منكم ومن مخالفبيكم في الدين، فإن تعليقكم بدينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته فتوالوهم ولا تعابوهم وتوافقوهم ولا تخالفوهم؛ لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

قُلْ هَلَمْ شَهِدَاكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَكُنْ مِنْهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿هلم﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين، وبنو تميم تؤنث وتجمع، والمعنى: هاتوا شهادكم وقربوهم.

فإن قلت: كيف أمره باستحضار شهادتهم الذين يشهدون أن الله جرح ما زعموه محرماً ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهادتهم أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به، وقوله: ﴿فلا تشهد معهم﴾ يعني: فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم ﴿ولا يتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع لهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله تعالى.

فإن قلت (4): هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أن الله

حَرَّمَ مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَلْبِهِمْ حَتَّى دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمُ صُورٍ ﴿١٧٧﴾

﴿سيقول الذين أشركوا﴾ (1) إخبار بما سوف يقولونه ولما قاله قال: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبنا من بونه من شيء﴾ (2) يعنون بكفرهم (3) وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته، ولو لا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمنهبد المجبرة بعينه ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي: جاؤا بالكذب المطلق؛ لأن الله عز وجل ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبرأته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب الكذب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ﴿قل هل عندكم من علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فتخرجوه لنا﴾ وهذا من التهمك والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ في قولكم هذا ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف.

قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبِيرَةُ قُلْ شَاءَ لَهْدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٨﴾

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ يعني: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فلله الحجة البالغة

(1) قال أحمد: فأنثته توطئتين النفس على الجواب، ومكافحتهم بالرّد، وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال سيقول السفهاء من الناس.

(2) سورة النحل، الآية: 35.

(3) قال أحمد رحمه الله: قد تقدّم أيضاً الكلام على هذه الآية، وأوضحنا أن الرّد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشرافهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا: أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فردّ الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار، لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قلبهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، وأشرك بالله، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأن الحجة البالغة له، لا لهم بقوله لا اله إلا الله الحجة البالغة، ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وأنه لو شاء منهم الهداية، لاهتدوا أجمعوا بقوله، قُلْ شَاءَ لَهْدَكُمْ أجمعين، والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرّد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرّد، وينصرف الرّد إلى دعواهم بسلب الاختيار، لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة، وإذا تبيّرت هذه وجبتها كافيّة في الرّد على من زعم من أهل القبلة: أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتّة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفة بالمجبرة، والمصنّف يغالط في=

= الحقائق، فيسمى أهل السنة مجبرة، وإن اثبتوا للعبد اختياراً وقدره؛ لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة، لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة، وجماع الرّد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا إلى قوله قل: فلله الحجة البالغة﴾ وتنتمى الآية، ردّ صراح على طائفة الاعتزال القائلين، بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم وجه الرّد أن لو إذا دخلت على فعل مثبت نفعته، فيقتضي ذلك أن الله تعالى لما قال، قُلْ شَاءَ لَمْ يَكُنْ الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءوا لوقعت فهذا تصريح بطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتغال الآية، على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أولها، والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فإن أولها كما بينا ثبت للعبد اختياراً، وقدره على وجه يقطع حجته، وعذره في المخالفة والعصيان، وأخرها ثبت نفوذ مشيئة الله أيضاً، وقدرته في أفعال عبادهم فهم كما رايت تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت، وينفون ما نفى، مؤيدون بالعقل والنقل، والله الموفق.

(4) قال أحمد رحمه الله: ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل، وهو قوله هلم بشهداء يشهدون، يفهم أن الطالب للشهداء =

بما حرم ربكم، وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي، فما تصنع بالأوامر؟ قُلْتُ: لما وردت هذه الأوامر مع النواهي، وتقدمهن جميعاً فعل التحريم، واشتركن في الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى إضدادها وهي: الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله ﴿من إملاق﴾ من أجل فقر ومن خشيته كقوله تعالى: ﴿خشية إملاق﴾⁽²⁾ ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ مثل قوله: ﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾⁽³⁾ ﴿إلا بالحق﴾ كالقصاص والقتل على الردة والرجم.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَفِيلِ وَالْيَتِيمَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْلَوْا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفُؤًا ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَمَّا لَكُمْ تَذَكُّرٌ ﴿٥٦﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ نَفَقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم وهي حفظه وتثميته، والمعنى أحفظوه عليه حتى يبلغ أشده فاندفعوه إليه ﴿بالقسط﴾ بالسوية والعدل ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ إلا ما يسعها ولا تجز عنه وإنما اتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان، ذلك لأن مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه ﴿ولو كان ذا قرى﴾ ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل فما ينبغي أن يزيد في القول أن ينقص كقوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾⁽⁴⁾. وقرئ: وإن هذا صراطي مستقيماً بتخفيف أن، وأصله وأنه هذا صراطي على أن الهاء ضمير الشأن والحديث، وقرأ الأعمش، وهذا صراطي، وفي مصحف عبد الله: وهذا صراط ربكم، وفي مصحف أبي: وهذا صراط ربك ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿فتفرق بكم﴾ فتفرقكم أيادي سبأ ﴿عن سبيله﴾ عن صراط الله المستقيم وهو: دين الإسلام. وقرئ: فتفرق بإدغام التاء، وروى أبو وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: أنه خط خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً، ثم قال: هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذه

حرم هذا، وأي فرق بينه وبين المنزل؟ قُلْتُ: المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقللونهم ويثقلون بهم ويعتضدون بشهائرتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبطل الباطل، فاضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناها: هاتوا أناساً بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغرض، ويناقضه قوله تعالى: ﴿وإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾.

قُلْ تَسَاءَلُوا أَتِلَ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّيْلِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِبْنَتِي عَنْ نَزْئِكُمْ وَإِذَا هُمْ لَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَمَا يُكَذِّبُ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ نَفَقُونَ ﴿٥٨﴾

تعال من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله: من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم و ﴿ما حرم﴾ منصوب بفعل التلاوة أي: أتله الذي حرمة ربكم، أو يحرم بمعنى: أقل أي شيء حرم ربكم؛ لأن التلاوة من القول وأن في ﴿ألا تشركوا﴾ مفسرة ولا للنهي.

فإن قُلْتُ: هلا قلت هي التي تنصب الفعل وجعلت أن لا تشركوا بدلاً من ما حرم؟ قُلْتُ: وجب أن يكون لا تشركوا ولا تقربوا ولا تقتلوا ولا تتبعوا السبل نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ لأن التقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وأوفوا، وإذا قلتم فاعملوا، وبعهد الله أوفوا.

فإن قُلْتُ: فما تصنع بقوله: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل حتى يكون المعنى أتله عليكم نفى الإشراك والتوحيد، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيماً؟ قُلْتُ: أجعل قوله: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً﴾ علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى: ﴿وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾⁽¹⁾ بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل: واتبعوه صراطي، لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم.

فإن قُلْتُ: إذا جعلت أن مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) سورة الإسراء، الآية: 31.

(3) سورة الانعام، الآية: 120.

(4) سورة النساء، الآية: 135.

= ليس على تحقيق من أن ثم شهداء كما يقول الحاكم للمدعي، هات بيته تشهد لذلك، فهو لا يتحقق أن للمدعي بيته ثم يكون قوله، فإن شهدوا تحقيقاً؛ لأن ثم شهداء، فالجمع بينهما متناقض، كما ترى، والله موفق.

والأصل وأنه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن **﴿عن دراستهم﴾** عن قراءتهم أي: لم نعرف مثل دراستهم.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ مِنْ أَطْلَمَ وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنَّا سَجَرَ الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ (٧٧).

﴿لكننا أهدى منهم﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغازرة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها على أنا أميون. وقرئ: أن يقولوا أو يقولوا بالياء **﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾** تبكيت لهم وهو على قراءة من قرأ: يقولوا على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات، والمعنى إن صدقكم فيما كنتم تعتون من انفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم فحفظ الشرط وهو من أحسن الحذوف **﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾** بعدما عرف صحتها وصدقها أو تمكن من معرفة ذلك **﴿وصدف عنها﴾** الناس فضل وأصل **﴿سنجزى الذين يصدقون عن آياتنا سوء العذاب﴾** كقوله: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب﴾** (٣) **﴿البلائكة﴾** ملائكة الموت أو العذاب.

مَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْشٌ مَائِكَ رَبُّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْشٌ مَائِكَ رَبُّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنِّي مُنظَرُونَ (٧٨).

﴿أو ياتي ربك﴾ أو ياتي كل آيات ربك بلبيل قوله **﴿أو ياتي بعض آيات ربك﴾** يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراف الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك، وعن البراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ اشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة، قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بجزيرة العرب، والسجال، وطلوع الشمس من مغربها، وياجوج وماجوج، ونزول عيسى، ونارا تخرج من عدن» (٤) **﴿لم تكن آمنت من قبل﴾** صفة لقوله:

﴿نففساً﴾ وقوله: **﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾** عطف على **﴿آمنت﴾** والمعنى: أن أشراف الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أو ان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق (٥) كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت

الآية **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾** وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وقيل: إنهن أم الكتاب، من عمل بهن نخل الجنة، ومن تركهن دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، أن هذه الآيات لأول شيء في التوراة.

﴿فإن قلنت: علام عطف قوله: ﴿ثم آتينا موسى للكتاب﴾؟ قلنت: على ﴿وصاكم به﴾.

﴿فإن قلنت: كيف صخ عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلنت: هذه التوصية قديمة لم تزل توصاهم كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، فكانه قيل: نلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِّأُمَّةٍ يُدْعَوْنَ رَبَّهُمْ يُدْعُونَ (٧٩) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٨٠).

﴿ثم﴾ أعظم من نلك أنا **﴿آتينا موسى الكتاب﴾** وإنزلنا هذا الكتاب المبارك، وقيل: هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله تعالى: **﴿وهبنا له إسحق ويعقوب﴾** (١) **﴿تماماً على الذي أحسن﴾** تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن على من كان محسناً صالحاً، يريد: جنس المحسنين وتدل عليه قراءة عبد الله: على الذين أحسنوا، أو أراد به موسى عليه السلام، أي: تمتة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي: زيادة على علمه على وجه التتميم، وقرأ يحيى بن يعمر على الذي أحسن بالرفع أي: على الذي هو أحسن بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ **﴿مثلاً ما بعوضة﴾** (٢) بالرفع أي: على الدين الذي هو أحسن بين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماماً أي: تماماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب أي: على الوجه والطريق الذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبي: أتم له الكتاب على أحسنه.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ (٨١).

﴿أن تقولوا﴾ كرامة أن تقولوا **﴿على طائفتين﴾** يريون أهل التوراة وأهل الإنجيل **﴿وأن كنا﴾** هي أن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية،

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراف الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة (الحديث رقم: 7214).

(5) قال أحمد رحمه الله: هو يوم الاستدلال على صحة عقيدته، في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية، إذ سوى بينهما في =

(1) سورة الأنعام، الآية: 84.

(2) سورة البقرة، الآية: 26.

(3) سورة النحل، الآية: 88.

﴿دِينًا﴾ نصب على البذل من محل إلى صراط؛ لأن معناه: هدائي صراطًا بليلى قوله: ﴿ويهديكم صراطًا مستقيماً﴾⁽³⁾ والقيم فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم، وقرئ: قِيمًا، والقيم مصدر بمعنى: القيام وصف به ﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان و﴿حنيفًا﴾ حال من إبراهيم.

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ يَذَلِكْ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٣﴾

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وعبادتي وتقربي كله، وقيل: وذبحي، وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾⁽⁴⁾ وقيل: صلاتي وحجي من مناسك الحج و﴿ومحياي ومماتي﴾ وما آتية في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لله رب العالمين﴾ خالصة لوجهه و﴿وبنذك﴾ من الإخلاص و﴿أمرت وأنا أول المسلمين﴾؛ لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته.

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدْ دَارَهُ وَتَزِدْ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنْ رَجَعْتَ فَيَنْقُرْ بِمَا كُنتُمْ فِيمَ تَغْلِبُونَ ﴿١١٤﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهزمة للإنكار أي: منكر أن أبغي ربًا غيره ﴿وهو رب كل شيء﴾ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبِدُ﴾⁽⁵⁾ ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾⁽⁶⁾.

وَمَوْ أَلْزَمَ جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ رَفَعَ بِعَصَمِكُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ يَسُبُّوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿جعلكم خلائف الأرض﴾؛ لأن محمدًا ﷺ خاتم

الإيمان وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرًا ليعلم أن قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾⁽¹⁾ جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداها عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد والا فالشقوة والهلاك ﴿قل انظروا إنا منقظون﴾ وعيد. وقرئ: أن يأتيهم الملائكة بالباء والتاء. وقرأ ابن سيرين: لا تنفع البلاء، لكون الإيمان مضافًا إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهبت بعض أصابعه.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنْ أَمَرْتُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ يَتَّبِعُهُمُ بَآئِلًا كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ ﴿١١٦﴾

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى، وفي الحديث: اختلفت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، واختلفت النصارى ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة⁽²⁾، وقيل: فرقوا دينهم فأمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرئ: فارقوا دينهم، أي: تركوه و﴿كانوا شيعًا﴾ فرقًا كل فرقة تشيع إمامًا لها و﴿لست منهم في شيء﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرقهم، وقيل: من عقابهم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْكَفَرَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُم لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿عشر أمثالها﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف تقديره: عشر حسنات أمثالها، وقرئ: عشر أمثالها برفعها جميعًا على الوصف، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثوابًا بغير حساب، ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل و﴿هم لا يظلمون﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزداد على عقابهم.

قُلْ إِنِّي مِثْلُ مَثَلِ رَبِّي إِنْ مَرَّ بِمُسْتَضِيرٍ دِينًا فِيمَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾

عدم الانتفاع بما يستدركه بعد ظهور الآيات، ولا يتم له ذلك، فإن هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف، وأصل الكلام يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفسًا لم تكسب في إيمانها خيرًا قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لف الكلامين، فجعلهما كلامًا واحدًا بلاغة واختصارًا، وإعجازًا أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل، فهو غير مخالف لقواعد السنة، فإننا نقول لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير، وإن نفع الإيمان المتقدم في السلامة من الخلود، فهذا بان يدل على رد الاعتزال أجدر من أن يدل له، والله الموفق.

(1) وردت الآية في خمسين موضعًا في القرآن، منها: سورة البقرة، الآية: 25.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (الحديث رقم: 4596)، والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (الحديث رقم: 2640)، والحاكم في المستدرک 6/1 و128 وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6247) وأخرجه أبو داود عن معاوية (الحديث رقم 4597).

(3) سورة الفتح، الآية: 20.

(4) سورة الكوثر، الآية: 2.

(5) سورة الزمر، الآية: 64.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 12.

أنزل إليك إنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتُ: فما محل ﴿نَكَرَى﴾؟ قُلْتُ: يحتمل الحركات الثلاث: النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتندر به وتذكر تنكيراً؛ لأن النكرى اسم بمعنى: التنكير، والرفع عطفًا على كتاب أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تندر أي: للإنذار وللنكر.

فإن قُلْتُ (5): النهي في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قُلْتُ: هو: من قولهم لا أرىك ههنا.

أَتَيْمُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦).

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ من نون الله ﴿أُولِيَاءَ﴾ أي: ولا تتولوا من نونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم قيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تتبعوا من الابتغاء ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ (6) ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من نون دين الله دين أولياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ: تذكرون يحذف التاء ويتذكرون: بالياء، وقليلاً نصب بتذكرون أي: تذكرون تذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَمَنْ يَرْجُ أَفْلَكُهَا فَمَا بَأْسًا بَيَّأَ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٧).
﴿فَجَاءَهَا﴾ فجاء أهلها ﴿بَيَّأَهَا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: باثتين، يقال: بات بيئاتاً حسناً وبيئة حسنة، وقوله (7) ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على بيئاتاً، كأنه قيل:

النبیین فخلفت أمته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الشرف والدرج ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحر بالعبد، والغني بالفقير ﴿إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر نعمته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو أت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف مكية

الْحَمْدُ (١) كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَتُذَكِّرَ لِلْمُذَّبِينَ (٢).

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ (2) وسمى الشك: حرجاً (3)؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشراح الصدر بنفسه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تخرج من تبليغه (4)؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأتمته الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿لَتُنْذِرَ﴾؟ قُلْتُ: بأنزل أي:

(1) الثعلبي في تفسيره: وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكونن من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط الفكر بمعتقد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتبليج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد ميبأناً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتماد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى ذلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعلم الماخوذ من العلمة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي نكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منه في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأما الزجاج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأما قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها، وأو الحال كراهية لاجتماعها، وهي وأو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أن وأو الحال لا بد أن تمتاز عن وأو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قببحاً، فالأفصح خلافه، فلما =

فجاءهم باسنا بائتين أو قائلين.

فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو: الأهل قبل قرية، أو قبل الضمير في أهلكتها؟ قلت: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في فجاءها لقوله: ﴿أو هم قائلون﴾.

فإن قلت: لا يقال جاءني زيد هو فارس بغير واو، فما بال قوله ﴿هم قائلون﴾؟ قلت: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح أنها إذا عطف على حال قبلها حذفت الواو استقلالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن وار الحال هي واو العطف استعيرت للوصل فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده، وأما جاءني زيد هو فارس فخبث.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿أهلكتها فجاءها باسنا﴾ والإهلاك: إنما هو بعد مجيء البأس؟ قلت: معناه: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾^(١) وإنما خص هذان الوقتان وقت البيات ووقت القبولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد واقطع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القبولة.

فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَنَّكَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

﴿٥﴾

﴿فما كان دعواهم﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانهم وفسادهم وقولهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ فيما كنا عليه، ويجوز فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم دعواهم بالكعب، ويجوز فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم وإن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، ودعواهم نصب خبر لكان، وإن قالوا: رفع اسم له، ويجوز العكس.

= على المقسم به، فتدخله في حكم القسم من غير، واو موقعة في مثل ﴿والليل إذا يشئ﴾، والنهار إذا تجلى﴾ وفي مثل، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، ولو قلت في غير التلاوة، وبالليل إذا عسعس، لجاز ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم، لنباية العاطف منا به، فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال، عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستئفال، بل أقمت تأكيداً، وإن لم تتب بها فذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 109.

= رأيتها تتوسط بينهما، والكلام حينئذ هو الأفصح، أو المتعين علمت أنها مختارة بمعنى، وخاصة عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصة، فأمّا أن تسلبه حينئذ لا غناء للعاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو، ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستتراك في مثل قوله، ولكن لا يشعرون فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف، بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد، لكان فصيحاً، لا خبث فيه، ولا كراهة فالتحقيق، والله أعلم، في الجملة المعطوفة على الحال، أن المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية، لما عطف عليه في الحال، فيستغنى عن واو الحال، كما أنك تعطف =

بها^(١).

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً لَّيْلًا مَا تَشْكُرُونَ
(١٧)

﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصل به إلى ذلك، والوجه تصريح الياء، وعن ابن عامر أنه همز على التشبيه بصحائف.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَا يَكُونُ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خُلِقْتُ مِنْ نَارٍ وَخُلِقْتُمْ مِنْ طِينٍ ﴿١٩﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية ﴿مَنْ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم ﴿إِلَّا تَسْجُدَ﴾ لا في أن لا تسجد صلة بلبيل قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ لما خلقت بيدي^(٢) ومثلها ﴿لَنَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾^(٣) بمعنى: ليعلم. فإن قُلْتُ: ما فائدة زيادتها؟ قُلْتُ: تأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: لأن أمري لك بالسجود أوجب عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتماً لا بد لك منه.

فإن قُلْتُ: لم سألهم عن المانع من السجود وقد علم ما منعه؟ قُلْتُ: للتوبيخ وإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدراءه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

فإن قُلْتُ: كيف يكون قوله ﴿إِنَّا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول منعني كذا؟ قُلْتُ: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وبعلة فضله عليه وهو: أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمور بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أمر به.

قَالَ فَأَهْلَيْتُمْ يَا كُفْرًا لَكُمْ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ أَتَطْرُقُ إِلَى بَيْتِ رَبِّكَ بِمُؤَمَّرٍ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقر العصاة المتكبرين من الثقلين ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً إذا أهنته وفي ضده: قم راشداً، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار البس الصغار، وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض^(٤).

فإن قُلْتُ^(٥): لم أجيء إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عبادته ويغويهم؟ قُلْتُ: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتنح بها عبادته.

قَالَ يَمَّا آتَيْنِي لِأَمْرَةٍ لَمْ يَرْطَلْكَ الْبَشَرُ ﴿٢٣﴾

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾^(٦) فبسبب إغوائك إياي ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفساً

= رجليل، وأشار إلى سلة فيها أخبصة، واللوان مختلفة رأها عند المسجون، أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك، فعلى هذا يروى حمل هذه الآية يعني: بما كلفتنني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي، لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى، فمجاز هذه إحدى النزعتين. والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم: أن كلام الله تعالى أحدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(6) قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده، ويلتزم الجواب عنه القدرية، الذين يوجبون على الله تعالى، رعاية المصالح في أفعاله، وأما أهل السنة، فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال، ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

(1) سورة الأعراف، الآية: 103.

(2) سورة ص، الآية: 75.

(3) سورة الحديد، الآية: 29.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل: في التواضع، (الحديث رقم: 8139) وابن أبي شيبة 270/13 كتاب: الزهد، باب: كلام عمر رضي الله عنه.

(5) قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزعتان من الاعتزال خفيتان. أحدهما تحريفه الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يفوه، أي: لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين، والتقبيح، والصالح، والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سبباً في غيه، وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأن الفعل له ملاسبات بالفاعل، والمفعول، والزمان، والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار، رجل رآه مقيداً محبوباً في مال عليه هذه وضعت القيود في =

في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه كقوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾⁽³⁾.

فإن قلنا: كيف قيل ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ بحرف الابتداء ﴿وعن إيمانهم وعن شمائلهم﴾ بحرف المجاوزة؟ قلنا: المفعول فيه عدى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذلك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما نكرنا في تعال ونحوه من المفعول به، قولهم: رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويتبدى الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل ﴿ومن بين يديه ومن خلفه﴾⁽⁴⁾ لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول: جنته من الليل تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراسد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾⁽⁵⁾ وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾⁽⁶⁾ وأما من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿والعاقبة للمتقين﴾⁽⁷⁾ وأما من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾⁽⁸⁾ ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال تظنيئاً بليل قوله: ﴿ولقد صنق عليهم إبليس ظنه﴾⁽⁹⁾ وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

قَالَ أَنزَجَ رَبِّيَ مَذْمُومًا مَّتَحَوْرًا لَمْ يَمَكْ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (٧٠)

﴿مذموماً﴾ من ذامه إذا ذمه. وقرأ الزهري مذموماً بالتخفيف مثل مسول في مسؤل. واللام في ﴿لمن تبعك﴾

ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الألف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببيهم.

فإن قلنا: بم تعلقت الباء فإن تعلقها بالأقعدن يصد عنه لام القسم، لا تقول والله بزيد لأمرن؟ قلنا: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره فيما أغويتني أقسم بالله لأقعدن أي فبسبب إغوائك أقسم، ويجوز أن تكون الباء للقسم أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضاً لسعادة الأبد فكان جديراً بأن يقسم به. ومن تكانيب المجبرة⁽¹⁾ ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إيليس أفتقه منه قال: رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين، وقيل: ما للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتداء لأقعدن وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية قليل شاذ، وأصل الغي الفساد ومنه: غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد في المعدة ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بآطرقه قعد له بطريق الإسلام، فقال له: تدع دين آبائك! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتنغرب! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك! فعصاه فقاتل»⁽²⁾.

ثُمَّ لَا تَبْتَهِرُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (٧١)

﴿ثم لا تبتهرهم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو

(2) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، (الحديث رقم: 3134)، وأحمد في المسند 483/3، وابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد (الحديث رقم: 4593).

(3) سورة الإسراء، الآية: 64.

(4) سورة الجن، الآية: 27.

(5) سورة طه، الآية: 82.

(6) سورة هود، الآية: 6.

(7) سورة القصص، الآية: 83.

(8) سورة سبأ، الآية: 54.

(9) سورة سبأ، الآية: 20.

(1) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة، لتبليج الحجة في وجوب الرد عليه، وتعيينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهاكئون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصنقوا قوله تعالى متمحاً لله خالق كل شيء، لا كالتقديرية الذين هم يتهاكئون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيقولون الفاعل بالمسبب، فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

﴿من الخالدين﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: من سواتهما بالتوحيد، وسواتهما: بالواو المشددة.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَ النَّصِيرِ ﴿١١﴾

﴿وقاسمهما﴾ وأقسم لهما ﴿إني لكم لمن الناصحين﴾.

فإن قُلْتُ (4): المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ (5) قُلْتُ: كانه قال لهما: أقسم لكما أنني لمن الناصحين، وقالاً له: أتقسم بالله أنك لمن الناصحين، فجعل تلك مقاسمة بينهم (6)، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسم له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس عن زنة المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم.

فَدَلَّهَا بِمُرْدٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سَوَآتُهُمَا وَطِفَّتَا يُتَخَفَيَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ زَوَاجِ الْجِنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ يَتْلُمَا الشَّجَرَةَ وَأَفَلَا تَكُونَا إِنَّا أَسْبَغَلْنَا لَكُمَا عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَأْكُلَ مِنْهَا فَتَغَيَّرْنَا وَرَجَعْنَا لَكَ وَتَوَحَّيْنَا لَكَ وَتَوَحَّيْنَا مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَذَابٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ وَإِنِّي جِنٌّ ﴿١٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٥﴾

﴿فدلها﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخرع المؤمن بالله، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعقبه، فكان عبده يفعلون ذلك طلباً للعق، ففعل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له (7) ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: الشجرة هي السنبلة، وقيل: شجرة الكرم ﴿بهدت لهما سواتهما﴾ أي: تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما

موطئة للقسم و﴿لاملان﴾ جوابه وهو ساد مسد جواب الشرط ﴿منكم﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ (1) روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك بكسر اللام بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لاملان جهنم منكم اجمعين﴾ على أن لاملان في محل الابتداء ولمن تبعك خبره.

وَبَكَدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٦﴾

﴿ويا آدم﴾ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذي الشجرة والأصل الياء والهاء بدل منها.

فَوَسَّسَ لِمَا أَلْبَسْنَاهُ لِيُؤْيِي لَهَا مَا وَرَى عَنْهَا مِنْ سَوَاهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٧﴾

ويقال وسوس: إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره، ومنه: وسوس الحلي وهو: فعل غير متعد كولت المرأة وووعوع النثب، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو: الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه ألقاهما إليه ﴿ليبيدي﴾ جعل تلك غرضاً له ليسوءهما إذا رآيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً، وفيه (2) دليل على أن كشف العورة من عظامم الأمور، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطبائع مستقبلاً في العقول.

فإن قُلْتُ: ما للواو المضمومة في ﴿وري﴾ لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قُلْتُ: لأن الثانية مدة كالكف وارى وقد جاء في قراءة عبد الله: أوري بالقلب ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرئ: ملكين بكسر اللام كقوله: ﴿وملك لا يبلى﴾ (3)

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبلاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أن التقبيح والتحسين بالعقل، وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد ظاهره، إذ التحسين، والتقبيح إنما يدركان بالشرع، والسمع، لا بالعقل ومعنى هذا الإطلاق، ولو صدر من سني، أن العقل يدرك المعنى، الذي لأجله حسن الشرع الستر، وقبح الكشف، الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة، وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء، أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك وسوسته، بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى، ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة، حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا =

= تصديقه فيه بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما، وغرهما إذ قال الله تعالى عنه، فدلهما بغرور، فلعن تفضيله للملائكة على النبوة من جملة غروره، والله أعلم.

(3) سورة طه، الآية: 120.

(4) قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلطف المتكلم، ولكن بالخاطب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً، مضافاً لإبليس.

(5) سورة النمل، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وهذا التاويل يتم لوجود المقاسمة عن نكر المقسم عليه، وإما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التاويل المنكور، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة: نصيحة للمشكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى﴾ أنه سمي: التزام موسى، للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

(7) رواه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية.

والريش لباس الزينة أسترير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سواكم، ولباساً يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح كما قال: «لتركبوا وزينة»⁽⁴⁾ «ولكم فيها جمال»⁽⁵⁾ وقرأ عثمان رضي الله عنه: ريشاً جمع ريش كشعب وشعاب «ولباس التقوى» ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إما الجملة التي هي «ذلك خير» كانه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأما المفرد الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كانه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسواة؛ لأن مواراة السواة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبي: ولباس التقوى خير، وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرأ: ولباس التقوى بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً «ذلك من آيات الله» الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني: إنزال اللباس «لعلهم يذكرون» فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب نكر بدو السوات وخصف الورق عليها، إظهاراً للنمة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

يَنْبَغِي مَا دَمَ لَا يَفْتَنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّكُم مِّنْهُمْ هُوَ وَقِيلَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيَاطِينَ أُولَئِكَ لِيُزَيِّنَ لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧)

«لا يفتننكم الشيطان» لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة. كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها «ينزع عنهما لباسهما» حال أي: أخرجهما نازعاً لباسهما بأن كان سبباً في أن نزع عنهما «إنه يراكم هو» تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجي يكييكم ويفتلكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله «وقيله» وجنوده من الشياطين⁽⁶⁾، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا

ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني⁽¹⁾، وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الظفار، وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا بمعنى، جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح «يخصفان» ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها كما يخصف النعل بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: يخصفان من أخصف وهو منقول من خصف أي: يخصفان أنفسهما، وقرأ: يخصفان من خصف بالتشديد «من ورق الجنة» قيل: كان ورق التين «إلهم انهكما» عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ حيث لم يتحزرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنه قال لأدم: ألم يكن لك فيما منحك من شجر الجنة منبوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاتباً، قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كذا، فاهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس ونزى وطحن وعجن وخبز. وسمياً⁽²⁾ ننبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً لأنفسهما وقالوا «لنكونن من الخاسرين» على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات واستصغارهم العظيم من الحسنات «اهبطوا» الخطاب لأدم وحواء وإبليس و«بعضكم لبعض عدو» في موضع الحال أي: متعادين يعاديهما إبليس ويعاديهما «مستقر» استقرار أو موضع استقرار «ومناع إلى حين» وانتفاع بعيش إلى انقضاء أجالكم. وعن ثابت البناني: لما اهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له، ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنية: هذه سنتكم بعده.

يَنْبَغِي مَا دَمَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ لِبَاسًا يُرَى سَوَاتِيكُمْ وَرِيثًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٨)

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى، ثم وكتب، ومنه «وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج»⁽³⁾

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

(4) سورة النحل، الآية: 8.

(5) سورة النحل، الآية: 6.

(6) قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم النبي ﷺ يوم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه، فأخذ عليه الصلاة والسلام، فدعته وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد، يلعب به الصبيان، حتى نكر دعوة سليمان عليه السلام، فتركه وإذا جازنك للنبى عليه الصلاة والسلام، كان جائزاً لأولياء الله، والمتبعين

(1) أخرجه ابن ماجه، في كتاب: الطهارة وسننها، باب: النهي أن يرى عورة أخيه (الحديث رقم: 662).

(2) قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي؛ لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبار يجب تكفير الصفات، وإن لم يتب العبد منها، فهذا معنى قول الزمخشري، وإن كان صغيراً مغفوراً، وإنما سمت هذا الاعتزال بالخفاء؛ لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم ينعون بكونه مغفوراً أن الله تعالى تفضل بغيرانه، ولو شاء لأخذ به، وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرتهم، والله الموفق.

يعينكم، احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى: أنه يعينكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

وَرِيقًا هَكَذَا وَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فريقًا هدى﴾ وهم الذين أسلموا أي: وفقهم للإيمان
﴿وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾ أي: كلمة الضلالة،
وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله: وفريقًا
بفعل مضمر يفسره ما بعده، كانه قيل: وخذل فريقًا حق
عليهم الضلالة ﴿إنهم﴾ إن الفريق الذي حق عليهم
الضلالة ﴿اتخذوا للشياطين أولياء﴾ أي: تولوهم بالطاعة
فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في
ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين
دون الله.

يَبْتَغِي مَادَّةً غَدُوا زَيْنَكُزَّ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿خذوا زينتكم﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿عند كل
مسجد﴾ كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن
طائفة: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم
يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي
عليه ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعيد الله في ثياب
أذنبتنا فيها، وقيل: تفقلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من
الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ
الرجل أحسن هيئته للصلاة. وكان بنو عامر في أيام
حجهم لا يلبسون الطعام إلا قوتاً ولا يلبسون سماً يعظمون
بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنما أحق أن نفعل، فقبل لهم:
﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وعن ابن عباس رضي الله
عنه: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان:
سرف ومخيلة⁽²⁾، ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني
حائق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من
علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان،
فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه،
قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا
تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في
الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة،
قال: وما هي؟ قال: قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس

يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة ﴿إننا
جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي: خلينا
بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما
سولوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من
الاول.

فإن قلت: علام عطف وقبيله؟ قلت: على الضمير في
يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشأن والحديث، وقرأ
اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم
إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن
وهو الضمير في أنه كان راجعاً إلى إبليس.

وَإِذَا قُلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْكَ مَكَانَهُ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِن
اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

الفاحشة ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها
اعتذروا بأن آبائهم كانوا يفعلونها فاقتنوا بهم، وبأن الله
تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما⁽¹⁾ باطل من العذر؛ لأن
أحدهما: تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني: افتراء
على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون لو كره الله منا ما
نفعله لنقلنا عنه، عن الحسن: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ
إلى العرب وهم قذرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله
وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا
وجئنا عليها آبائنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر
بالفحشاء﴾ لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي
وجود الصارف فكيف يأمر بفعله؟ ﴿اتقولون على الله ما
لا تعلمون﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن
مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة
طوائف بالبيت عراة.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا دُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾

﴿بالقسط﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم
حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد ﴿واقموا دجوهكم﴾
وقل أقيموا وجوهكم أي: اقصوا عبادته مستقيمين إليها
غير عائلين إلى غيرها ﴿عند كل مسجد﴾ في كل وقت
سجد أو في كل مكان سجد وهو: الصلاة ﴿وادعوه﴾
واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة مبتغيين بها
وجه الله خالصاً ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما أنشأكم ابتداء

= دعواهم أن الله تعالى، أمرهم بالفحشاء وهم كانبون في هذه
الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة؛ لأن الله تعالى يأمر بما
لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(2) رواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة،
(الحديث رقم: 2559)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: البس ما
شئت... (الحديث رقم: 3605)، ولحمد في مسنده 181/20، والحكم
في المستدرک 135/4.

= لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصدّه عن ذلك
جحد كرامة الأولياء؛ لأنه عقيدة إخوانه إذا الكرامة إنما يؤتاها
الوحي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر
من جحدوا، والتكذيب بها رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم تكن
لها أهلاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يهد قاعدة
التحسين والتقيح، ومراعاة الصلاة، والأصلح، واستحالة مخالفة
نلك على الله تعالى، ولا يتم من نلك غرض؛ لأن المنكر عليهم =

الدواء، وأعط كل بدن ما عودته^(١)، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِكَ نَفَصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣).

«زينة الله» من الثياب وكل ما يتجمل به **«والطيبات** من الرزق» المستلذات من المأكول والمشارب، ومعنى الاستفهام في **«من»** إنكار تحريم هذه الأشياء، قيل: كانوا إذا أحرصوا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها **«قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا»** غير خالصة لهم؛ لأن المشركين شركاءهم فيها **«خالصة»** لهم **«يوم القيامة»** لا يشركهم فيها أحد.

فإن قلت: هلا قيل هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وإن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: **«ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار»**^(٢) وقرئ: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خير بعد خير.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّيْئَ وَالْبَغْيَ وَأَن تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَرْزُقْ بِهِ، سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٤).

«الفواحش» ما تفاحش قبحه أي: تزايد وقيل: هي ما يتعلق بالفروج **«والإثم»** عام لكل نيب، وقيل: شرب الخمر **«والبغي»** الظلم والكبر افرده بالنكر كما قال: **«وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي»**^(٣) **«ما لم ينزل به سلطاناً»**^(٤) فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره **«وأن تقولوا على الله»** وأن تقولوا عليه وتفتروا الكتب من التحريم وغيره.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (٢٥).

«ولكل أمة أجل» وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم. وقرئ: فإذا جاء آجالهم، وقال: **«ساعة»**؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة يريد أقصر وقت وأقربه.

يَبْقَى مَادَّةٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا فِي بَنِينَ وَأَصْلَحَ فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجِئُونَ (٢٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا يَكُونُونَ

وَأَسْتَكْبَرُوا عَنَّا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦).

«إمّا يأتينكم» هي: إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط قلت: الغاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم، وقرئ: تأتينكم بالتاء.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَئِكَ يَمَكِّنُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهَا حَافِظُونَ (٢٧).

«فمن أظلم» فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله **«أولئك يبالغهم نصيبهم من الكتاب»** أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار **«حتى إذا جاءتهم رسلنا»** حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له أي: إلى وقت وفاتهم وهي: حتى التي يبتدا بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية وهي: إذا جاءتهم رسلنا قالوا **«ويتوفونهم»** حال من الرسل أي: متوفينهم، والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بآين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الأكلة الذين تدعون **«ضلوا عنا»** غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

قَالَ أَهْلُوا فِي أَسْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتَ أَخْبَتًا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جِئَا قَالَتْ أَخْبَتُهُمْ لَأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحْنَا فَخَبَتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لَأَخْبَتُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَيْنًا مِنْ فَضْلِ فَذَرُّوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٩).

«قال اخلوا» أي: يقول الله تعالى يوم القيامة: لأولئك الذين قال فيهم **«فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته»**^(٥) وهم كفار العرب **«في أمم»** في موضع الحال أي: كائنين في جملة أمم وفي غمارهم مصاحبين له أي: اخلوا في النار مع أمم **«قد خلت من قبلكم»** وتقدم زمانهم زمانكم **«لعبنت أختها»** التي ضلت بالافتداء بها **«حتى إذا آداركوا فيها»** أي: تداركوا بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار **«قالت أخراهم»** منزلة وهي الاتباع والسفلة **«لأولاهم»** منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى: لأولاهم لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم

= ينف أن يكون به سلطان، وكان أصل الكلام، وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به، فينزل، فيكون على طريقة. على لا حاب، لا يهتدي بمناره.

(٥) سورة الانعام، الآية: ٣٧.

(١) قال الزيلعي، غريب جداً 460/1.

(٢) سورة البقرة، الآية: 126.

(٣) سورة النحل، الآية: 90.

(٤) قال احمد: وإنما يعني: التهكم منه؛ لأن الكلام جرى مجرى ما له سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به، ولم =

لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ: في سم بالحرركات الثلاث. وقرأ عبد الله: في سم المخيط والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم ما يخط به وهو الإبرة ﴿وَكُنْكَ﴾ ومثل ذلك الجزء الفظيع ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ليؤذن أن الإجمام هو السبب الموصل إلى العقاب وإن كل من أجرم عوقب وقد كرره فقال و ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأن كل مجرم ظالم لنفسه ﴿مَهَاد﴾ فراش ﴿غَوَاشٍ﴾ أغطية وقرئ: غواش بالرفع كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ (4).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمُوا الصَّالِحِينَ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وَهُمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (10) وَرَبَّنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِن بَلَاءٍ يُجْزَىٰ مِنْ تَحْمِيهِمْ أَذَنًا وَلَا أَتَقَرُّ أَعْيُنُكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ لَمَّا كُنَّا هُنَا أُولَئِكَ لَئِيَّا أَن هَٰؤُلَاءِ اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ وَوُودُوا أَن تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَمَكُونُ (11).

في قراءة عبد الله ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتننه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: لا تكلف نفس. من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف، وعن علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (5) ﴿هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ اللام (6) لتوكيد النفي يعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِرَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً واعتباطاً بما نالوا وتلذذاً بالتكلم به، لا تقرباً وتعبداً كما نرى من

﴿عَذَابًا ضَعِيفًا﴾ مضاعفاً ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ﴾ لأن كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ قرئ: بالياء والتاء.

﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ﴾ أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَنُذِقُوا الْعَذَابَ﴾ من قول القادة أو من قول الله لهم جميعاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحَظَ فِي سَبِيلِهِمُ الْقَبْلُ وَكَذَٰلِكَ يُجْزَى الْمُجْرِمِينَ (12) هُمْ يَن جَهَنَّمَ يَهَادُ وَيَن فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ يُجْزَى الظَّالِمِينَ (13).

﴿لَا تَفْتَحْ لَهُم أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ (1) ﴿وَكَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ﴾ (2) وقيل: إن الجنة في السماء فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ﴿فَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ (3) وقرئ: لا تفتح بالتشديد ولا يفتح بالياء، ولا تفتح بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات، وبالياء على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل بوزن القمل، وسعيد بن جببر: الجمل بوزن النغر، وقرئ: الجمل بوزن القفل، والجمل بوزن النصب، والجمل بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغليظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع؛ لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للليل الماهر: خربت للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، والجمل مثل في عظم الجرم قال:

جسم الجمال وأحلام العصافير

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام، فقل:

- (1) سورة فاطر، الآية: 10.
- (2) سورة المطففين، الآية: 18.
- (3) سورة القمر، الآية: 11.
- (4) سورة الرحمن، الآية: 24.
- (5) رواه ابن شيبه في مصنفه 15/282، كتاب: الجمل، باب: سير عائشة.
- (6) قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالرذ، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية، فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذا مهتد، وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفي زعمهم: أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا =

= يتوقف ذلك على خلقه تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشري ذلك جرى على عاتقه في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي يسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسه وأعرض القائل المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهتدي الله، أي: يخلق له الهدى على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق، وما كنا لنهتدي، لولا أن هدانا الله، وانظر تباين هذين القولين، أعني: قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة، «في مقعد صدق»، واختر لنفسك، أي: الفريقين تقتدي به، وما أراك، والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا لقول المحكي عن أولياء الله في دار السلام، منوهاً به في الكتاب العزيز قول قدرى ضال تذبذب مع هواه، وتعصبه في دار الغرور، والزوال نسال الله حسن المكاب، والمال.

كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾ أَمْ تُولَآءِ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آلَهُمْ لَا يَشْكُرُوا اللَّهَ رَحْمَةً أَذْهَبُوا الْحَيَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَعَزَّيْبُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وبينهما حجاب﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين وهو: السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فصرب بينهم بسور﴾⁽³⁾ ﴿وعلى الأعراف﴾ وعلى أعراف الحجاب وهو: السور المضروب بين الجنة والنار وهي: أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿رجال﴾ من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يائن الله لهم في دخول الجنة ﴿يعرفون كلاً﴾ من زمر السعداء والأشقياء ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة. إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نابوهم بالتسليم عليهم ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعانوا بالله وفرغوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماهم التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً، وقوله: ﴿إذا صرفت أبصارهم﴾ فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعينوا ويوبخوا. وقرأ

رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقرية ﴿إن تلکم الجنة﴾ أن مخففة من الثقيلة تقديره ونودوا بأنه تلکم الجنة ﴿اورثتموها﴾ والضمير ضمير الشأن والحديث، أو تكون بمعنى أي: لأن المناداة من القول كأنه قيل⁽¹⁾: وقيل لهم أي تلکم الجنة اورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطله.

وَكَادَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٠﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩١﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٢﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٣﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٤﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٥﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٦﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٧﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٨﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٩﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿١٠٠﴾

أن في ﴿أن قد وجبنا﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك ﴿إن لعنة الله على الظالمين﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وزيادة في غمهم، ولتكون حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤمن بينهم ﴿لعنة الله على الظالمين﴾ وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار، وقرئ: أن لعنة الله بالتشديد والنصب، وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء أنن مجرى قال.

فإن قلت⁽²⁾: هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ﴿ما وعدنا ربنا﴾؟ قلت: حنف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فاطلق لذلك.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَكَادَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٠﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩١﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٢﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٣﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٤﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٥﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٦﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٧﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٨﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿٩٩﴾ وَكَادَ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَكُونُونَ ﴿١٠٠﴾

= بوجودها، ولا يتضرر بتركها تعالى، وتقصد عن ذلك ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها، أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من ميثانه، وانظر أي: الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطله والسلام.

(2) قال احمد: ولقائل أن يقول، ولو ذكر المفعول حسب ما ذكره في الأول، فقيل فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، لكان الفعل مطلقاً أيضاً، باعتبار الموعود به؛ لأنه لم ينكر، فكان يتناول كل موعود من البعث والحساب، والعقاب الذي هو أنواع من جملتها، التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أنه إيجاز وتحققت، واستغناء عنه بالأول، والله أعلم.

(3) سورة الحديد، الآية: 13.

(1) قال احمد: يعني بالمبطله قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته»، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»، فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة، قيل لهم فما معنى قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة وجوب الدين، التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق، دليل العقل الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فأنظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطله، وحاكم نفسك إليها، ثم إذا وضع لك أنهم براء في هذا البر، فأعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم، التي لا ينتفع =

عليها و **هَدَى وَرَحِمَهُ** حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ هَلْ لَنَا مِنْ شُعَاعٍ فَتَنْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَيْرُوا أَنْتَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾

﴿إلا تأويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد **﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾** أي تبين وصح أنهم جاؤوا بالحق **﴿نرد﴾** جملة معطوفة على الجملة التي قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: هل لنا من شفاعة أو هل نرد، ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد، وقرأ ابن أبي إسحق: أو نرد بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى: حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن: ينصب نرد ورفع فنعمل بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُ حَيْثُ تَكُونُ السَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ وقرئ: يغشى بالتشديد أي: يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحملهما جميعاً، والدليل على الثاني: قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثاً حسن الملامة لقراءة حميد **﴿بأمره﴾** بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أي: خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها، سمي ذلك أمراً على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع. ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** أي: هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

أَدْعَاؤُكُمْ رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾

﴿تضرعاً وخفية﴾ نصب على الحال أي: ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً، والتضرع ^(١) تفعل من الضراعة

الاعمش: وإذا قلبت أبصارهم. وقرئ: ادخلوا الجنة على البناء للمفعول، وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قلنت: كيف لأم هاتين القراءتين؟ قل: **﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾** قلنت: تأويله ادخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فإن قلنت: ما محل قوله: **﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾**؟ قلنت: لا محل له لأنه استئناف، كان سائلاً سال عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أن دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكنهم محبوسين وهم يطمعون لم يياسوا، ويجوز أن يكون له محل بأن يقع صفة لرجال. ما أغنى عنكم جمعكم المال أو كثرتكم واجتماعكم. وما كنتم تستكبرون، واستكباركم عن الحق وعلى الناس وقرئ: تستكثرون من الكثرة.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿أفيضوا علينا﴾ فيه دليل على أن الجنة فوق النار **﴿أو مما رزقكم الله﴾** من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد أو القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله:

علفتها تبناً وماءً بارداً

ولما يطلبون ذلك مع ياسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن **﴿حرمهما على الكافرين﴾** منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلُغْيًا وَعَرَّفَتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَأَلْوِمُوا تَسْلَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ هَذَا كَمَا كَانُوا يُبَايِعُنَا بِحَدِيثٍ ﴿٦١﴾

﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا ينكرونهم به **﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾** كما فعلوا بلقاءه فعل الناسين فلم يخطروه بباليهم ولم يهتموا به.

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ يَشَاءُ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف فصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيماً قيماً غير ذي عوج، وقرأ ابن محيصن: فصلناه بالضاد المعجمة بمعنى: فصلناه على جميع الكتب عالمين أنه أهل للتمييز

(١) قال أحمد: وحسبك في تعيين الأسرار في الدعاء، اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال به، كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجبوي، فكذلك دعاء لا خفية =

= ولا وقار يصحبه، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتملون الصراخ، والصياح في الدعاء خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشد، وتستند المسامع، وتستك، وتهتز الداعي بالناس، ولا يعلم =

وهو: الذي أي: تنزلاً وتملقاً. وقرئ: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إن الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أتركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقربون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾⁽¹⁾ وقد أثنى على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾⁽²⁾ وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ﴿إنه لا يحب المعتنين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتنون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسالك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل⁽³⁾، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتنين﴾ ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾⁽⁴⁾ وإنما نكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محنوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبه ذلك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضعيف، أو لأن تأنيت الرحمة غير حقيقي.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سَفَنَةً يَلِكُلُ مَيِّتٍ قَاتَلْنَا بِهِ الْكَلْبَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الْأَرْضِ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁽⁵⁾

قرئ: نشرًا وهو: مصدر نشر وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرًا، وإما على الحال بمعنى: منتشرات، ونشرًا جمع نشور، ونشرًا تخفيف نشر كرسل ورسل، وقرأ مسروق: نشرًا بمعنى: منشورات فعل بمعنى: مفعول كتنقض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرًا جميع بشير وبشرًا بتخفيفه، وبشرًا بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى: بشره أي: بأشراط وبشرى

﴿بين يدي رحمته﴾ أمام رحمته وهي الغيث الذي هو من أتم النعم وأجلها وأحسنها أثرًا ﴿أثَلَّتْ﴾ حملت ورفعت واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلًا ﴿سَحَابًا ثَقَالًا﴾ سحاب ثقالًا بالماء جمع سحابة ﴿سَقَنَاهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لآث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقليل ثقیلاً ﴿للبلد ميت﴾ لاجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه، وقرئ: ميت ﴿فأنزلنا به﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق وكذلك ﴿فأخرجنا به﴾ كذلك، مثل ذلك الإخراج وهو: إخراج الثمرات ﴿ونخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ فيؤتيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

وَالَّذِي أَنْطَبَعَ نَجْوَاهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرُكَ الْكَافِرِينَ لِيُؤْمَرَ تَشْكُرُونَ⁽⁶⁾

﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذاة الكريمة التربة ﴿والذي خبث﴾ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿بإذن ربه﴾ بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وأفياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نكدًا﴾ والنكد الذي لا خير فيه، وقرئ: يخرج نباته أي: يخرج البلد وينبته، وقوله: ﴿والذي خبث﴾ صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا، فحفن المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه: إلا أنه كان مجروراً بارزاً فانتقل مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر وبنات الذي خبث، وقرئ: نكدًا بفتح الكف على المصدر أي: ذا نكد ونكدًا بإسكانها للتخفيف كقوله: نزه عن الريب بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبية من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم ونزيتهم منهم خبيث وطيب، وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به كالأرض الطيبة أصابها الغيث فانبثت، والكافر بخلاف ذلك وهذا التمثيل واقع على أثر نكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نرديها ونكررها ﴿للقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها، وقرئ: يصرف بالياء أي: يصرفها الله.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَوَرَّعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ

أنه جميع بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للمعومات حينئذ رقة لا تحصل خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة الآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقعة العارضة للنساء، والأطفال ليست خارجة عن صميم القواد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر، وأوفى، وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه.

(1) سورة الأعراف، الآية: 55.

(2) سورة مريم، الآية: 3.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، (الحديث رقم: 1480) عن سعد، وأخرجه ابن ملج عن عبد الله بن مغفل في كتاب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء بالدعاء (الحديث رقم: 3864) وأحمد في مسنده 87/4، والحاكم في المستدرک (540/1).

(4) سورة طه، الآية: 82.

أبلغكم بالتخفيف.

فإن قُلْتُ (2): كيف موقع قوله ﴿أبلغكم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة لرسول.

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قُلْتُ: جاز ذلك؛ لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه كما قال:

أنا الذي سمعتن أمي حينئذ

﴿رسالات ربي﴾ ما أوحى إلي في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة. ﴿وانصح لكم﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبها لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: من صفات الله وأحواله يعني: قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين، وقيل: لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد، وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلي بها.

أَوْ عَجَبْتُ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكَرُ إِسْذِكْرَكَ وَلَنْتَقَرَّ وَلَمْكَرَ تَرْحَمُونَ (13).

﴿أوعجبتهم﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: اكنبتم وعجبتم ﴿إن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم كقوله: ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾ (3) وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ (4) يعنون: إرسال البشر و﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ (5) ﴿لينذرهم ولنتقوا﴾ لينذرهم عقابة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلمكم ترحمون﴾ ولترحموا

غَيْرُهُ إِلَىٰ آخَاكَ عَلَيْكَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (9).

﴿لقد أرسلنا نوحاً﴾ جواب قسم محذوف. فإن قُلْتُ: ما لهم لا يكانون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقل عنهم نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجرلناموا

قُلْتُ: إما كان ذلك؛ لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو: معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة وكان نجاراً وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجر على اللفظ، والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيداً وغير زيد.

فإن قُلْتُ: فما موقع الجملتين بعد قوله: ﴿اعبدوا الله﴾؟ قُلْتُ: الأولى: بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه نون ما كانوا يعبدون من نون الله. واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو: الطوفان.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَلَائِلٍ مُّبِينٍ (10) قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِسَلَائِلٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ (11) أَتُفَكِّمُ رَسُولَ رَبِّي وَأَصْحَ لَكُمْ وَأَعْمُرُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (12).

﴿الملاء﴾ الأشراف والسادة وقيل: الرجال ليس معهم نساء ﴿في ضلال﴾ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قُلْتُ (1): لم قال ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قُلْتُ: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت مالي تمر.

فإن قُلْتُ: كيف وقع قوله ﴿ولكني رسول﴾ استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟ قُلْتُ: كونه رسولاً من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصح لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن الضلالة. وقرئ:

(1) قال أحمد: لتعليقه كون نفيها أبلغ من نفي الضلال، بأننا أخص منه غير مستقيم، والله أعلم، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص بخلاف العكس، ألا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً، ولو قلت: هذا ليس بحيوان لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، والتحقيق في الجواب أن يقال الضلالة أنى من الضلال، وأقل؛ لانا لا تطلق إلا على الفعل الواحد منه، وأما الضلال فينتقل على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التبيين بالأنى على الأعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وقد استترك ابن جنى قوله أبي الطيب: أنا الذي نظر الأعمى إلى أبيي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أبيه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلاً بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب، (قال: فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه، قال: يا قوم ولم يقل، فقال قلت؛ لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل فما قال هود حينئذ قيل قال يا قوم، وكذلك قال الملام).

(3) سورة آل عمران، الآية: 194.

(4) سورة القصص، الآية: 36.

(5) سورة فصلت، الآية: 14.

بالتقوى إن وجدت منكم.

كَذَّبُوهُ فَأَعْيَنَتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرِقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا ﴿١٤﴾

﴿والذين معه﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافت، وستة ممن آمن به. فإن قلت: ﴿في الفلك﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بمعه كانه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان ﴿عممين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين، وقرئ: عامين، والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث، ونحوه قوله ﴿وضائق به صدوركم﴾ (١).

﴿وَلَا يَدْرِي عَادُ نَاحِمٌ هُوَذَا قَالِ يَتَقَرَّبُ أَغْدَرًا اللَّهُ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ أَمَّا نَتَقَرَّبُ ﴿١٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَكُنَّ الْأَوَّلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾

﴿لخاهم﴾ واحداً منهم من قولك: يا اخا العرب للواحد منهم وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم أقام عن رجل منهم وأعرف بحاله في صفة وأمانته وهو: هود بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و ﴿لخاهم﴾ عطف على ﴿نوحاً﴾ و ﴿هوذا﴾ عطف بيان له.

فإن قلت (٢): لم حذف العاطف من قوله ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؛ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقول: قال يا قوم اعبوا الله، وكذلك ﴿قال للملأ﴾.

فإن قلت: لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ بون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾ (٣) ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير.

قَالَ يَتَقَرَّبُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٧﴾

في ﴿سفاهة﴾ في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة

الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قال لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل تلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أنيالهم على ما يكون منهم.

أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّ وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

﴿ناصر أمين﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما خفي أن اتهم، أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا اكذب فيه.

أَوْ عَجَبْتَ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرًا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَدَى قَوْمٍ نُّوحٌ وَآدَامُ فِي الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ خُلَفَاءُ لِّلْآخَرِ اللَّهُ لَمَّا لَمَّا تَلَوْنَ ﴿١٩﴾

﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: خلقتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿في الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجزامكم ذهاباً في الطول والبدانة، قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً وأطولهم مائة ذراعاً ﴿فأنكروا آلاء الله﴾ في استخلافكم وبسطة أجزامكم وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء إلا، نحو أني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعنا.

فإن قلت: إذ في قوله: ﴿إذ جعلكم خلفاء﴾ ما وجه انتصابه؟ قلت: هو مفعول به وليس بظرف أي: أنكروا وقت استخلافكم.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرَهُ لَنُحَذِّرَ مَا كَانَ يَحْذَرُ مَا أَجِئْنَا قَائِلِينَ بِمَا نَبْذَرُ إِن كُنْتُمْ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿اجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه وآلماً لما صادفوا آباءهم يتبنون به.

فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: ﴿اجئتنا﴾؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنن فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إلي جاء قومه يدعوه (٤)، وإن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة فكانهم قالوا: اجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وإن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرض بذلك

(3) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(1) سورة هود، الآية: 12.

(2) قال أحمد: وحذف العاطف من المقالة لا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تقاليد موسى عليه السلام، وفرعون كيف أسقط نكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعدة فيها، والسر في ذلك، والله أعلم أن العاطف ينتظم الجمل، حتى يصيرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناها، والله أعلم.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الوحي، باب (3) (الحديث رقم: 3)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 401).

نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال: قيل اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحاباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها و «قالوا هذا عارض ممطرنا» (2) فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فاتوا مكة فعبوا الله فيها حتى ماتوا.

فَإِنْ قُلْتَ: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله «وما كانوا مؤمنين» مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام، كانه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خصّ المكذبين ونجى الله المؤمنين.

وَلَا تُمَدُّ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْعُوهُمُ أَغْبَرُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَزِيزٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْمَوْا يُرْوُ بِأَعْيُنِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٢).

قري: وإلى ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة، إلى ثمود بالصرف بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل: لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت ثمود: لقلة ماؤها من الثمد وهو: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى «قد جاءكم بينة» آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتها. وكانه قيل: ما هذه البينة؟ فقال «هذه نافذة الله لكم آية» وآية: نصب على الحال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كانه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كانه قال لكم خصوصاً وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فعل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله، وروي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمرؤا أعماراً طوالاً حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم

والقصد كما يقال: ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب، كانهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك «فاتنا بما تعدنا» استعجال منهم للعذاب.

قَالَ قَدْ رَفَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَيِّئَةٍ أَمْ أَنْتُمْ رِءَايَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٧٣) فَأَجَبَتْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رَجَعُوا إِلَيْنَا وَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٤).

«قد وقع عليكم» أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونحوه: قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان: أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء يبكي فقال له: يا بني ما لك؟ قال: لسعني طوير كانه ملتف في بردي حيرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر والرجس: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب «في أسماء سميتموها» في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الآلهة فيها معدوم محال وجوده وهذا كقوله تعالى: «وما يدعون من لونه من شيء» (1) ومعنى سميتموها: سميت بها من سميت زيدا، وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن عاد قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها، صداء وصمود والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً، فكذبوه وأزدلوا عتوا وتجبروا، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهنوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشركمهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سالم بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجاراتان - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فنكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهبهم لعل الله يسقينا غمما فيسقي أرض عاد إن عاداً قد أسوسا ما يبينون الكلاما فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثن من البلاء الذي

ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»^(١)، وقال ﷺ: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك»^(٢)، وقرأ أبو جعفر في رواية: تاكل في أرض الله، وهو في موضع الحال بمعنى: آكلة.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَاكِ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَنْبِذُكُمْ مِنْ سَهْلَيْهَا فَصُرُوا وَتَجْتَوْنَ الْجِبَالَ يَتَوَّأُونَ فَادْكُرُوا
عَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَتَوَّأُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٦).

﴿وبوأكم﴾ ونزلكم والمباة المنزل ﴿في الأرض﴾ في أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿من سهولها قصورا﴾ أي: تبنيونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنتحون بفتح الحاء، وتنتحون بإشباع الفتحة كقوله:

ينباع من نفري أسيل حزة

فإن قلنت: علام انتصب ﴿بيوتاً﴾؟ قلنت: على الحال كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً وأبر هذه القصة قلماً، وهي من الحال المقفلة: لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ولا الثوب ولا القصة قميصاً وقلماً في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

قَالَ أَلَمْ لَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَفْتَوْهُ لِمَنْ
ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمْلُكُونَ أَنْ صَلَاحًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ
أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَاسِئُمْ
بِهِ كَافِرُونَ (٧٦).

﴿الذين استضعفوا﴾ الذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم و ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الذين استضعفوا.

فإن قلنت^(٣): الضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ماذا؟ قلنت: إلى ﴿قومه﴾ أو إلى ﴿الذين استضعفوا﴾.

فإن قلنت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قلنت: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل من آمن مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعفهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ودل أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿اتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية كما تقول للجسملة: أعلمون أن الله فوق العرش.

نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال: آية آية تريبون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيونا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهم وتدعوا آلهمنا فإن استجب لك اتبعنا وإن استجب لنا اتبعنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أولادهم وسألوا الاستجابة فلم تجيبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شالكت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجبناك، فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النعوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبها إلا الله تعالى، وعظماءهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم، فأمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفجح فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فنزعت مصدر الناقة فوجئته ستين ذراعاً، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتبهط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيه إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي، ففعلوهما واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: ادركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم حمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالانطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿تاكل في أرض الله﴾ أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فنزوها تاكل في أرض ربه، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أتبناكم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله، ويروى أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يخلن أحد منكم القرية،

(2) رواه الحاكم في المستدرک 141/3.

(3) قال أحمد: فقلوه لمن على الأول بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وعلى الثاني بدل بعض من كل.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر

(الحديث رقم: 4419) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب:

لا تدخلوا مسلكن الذين ظلموا... (الحديث رقم: 7389).

قومه»⁽⁶⁾. وروي أنَّ صالحًا كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه عليه السلام مرَّ بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فنكر قصة أبي رغال وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بسيافهم فاستخرجوا الغصن»⁽⁷⁾.

تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَافُورُ لَقَدْ أَنتَحْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٦﴾

﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهدًا لما جرى عليهم وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولى مغتم متحسر على ما فاتته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول «يا قوم لقد» بنلت فيكم وسعي ولم آل جهدًا في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم «لا تحبون الناصحين» ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي: أنَّ عقيرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعًا فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسمائة دار، وروي: أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قلت: كيف صحَّ خطاب الموتى وقوله: «ولكن لا تحبون الناصحين»؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حيًّا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني، وقوله: «ولكن لا تحبون الناصحين» حكاية حال ماضية.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ النَّحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْسَنِ نَذِيرٍ أَلَمْ تَعْلَمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ولوطًا﴾ وأرسلنا لوطًا و «إذ» ظرف لأرسلنا، أو وانكر لوطًا وإذ يدل منه بمعنى وانكر وقت «قال لقومه أتأتون الفاحشة» اتفعلون السيئة المتعدية في القبح «ما سبقكم بها» ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله، ومنه قوله عليه السلام: سبقك بها عكاشة «من أحد من العالمين» من الأولى

فإن قلت⁽¹⁾: كيف صحَّ قولهم «إنا بما أرسل به مؤمنون» جوابًا عنه؟ قلت: سألهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرًا معلومًا مكشوفًا مسلمًا لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة⁽²⁾ «إنا بالذي آمنتم به كافرون» فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردًا لما جعله المؤمنون معلومًا وإخوانه مسلمًا.

فَعَرَّوْا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ أَخِيْنَا يَمَا نِيَدُنَا إِن كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فعرَّروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم «وعتوا عن أمر ربهم» وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله «فذروها تاكل في أرض الله»⁽³⁾ وشأن ربهم وهو: دينه، ويجوز أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم، ونحو عن هذه ما في قوله: «وما فعلته عن أمري»⁽⁴⁾ «أنتنا بما تعبننا» أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلومًا، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علّقه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَّةً ﴿٧٨﴾

﴿الرجفة﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها «في دارهم» في بلادهم أو في مساكنهم «جاثمين» هامدين لا يتحركون موتى يقال: الناس جثم أي: قعود لا حراك بهم ولا ينسبون نسبة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها⁽⁵⁾ وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي، وعن جابر أنَّ النبي ﷺ لما مرَّ بالحجر قال: «لا تسالوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة» فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله، قالوا: من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب

(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

(4) سورة الكهف، الآية: 82.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: الشراب من في السقاء (الحديث رقم: 3719) والترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل لحوم الجلالة والبيانها (الحديث رقم: 1825)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: النهي عن لبن الجلالة، (الحديث رقم: 3421).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/320، وأحمد في المسند 3/296.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال (الحديث رقم: 3088).

(1) قال أحمد: وقولهم إنابة مؤمنون ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(2) قال أحمد: ولو طالبوا بين الكلامين، لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فأنشأت إرساله تهكماً، ليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلينها خلس الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وعلواً في الإصرار.

عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ السُّعْيِ مِثْلَ (٨٤).

﴿واهلك﴾ ومن يختص به من نبيه أو من المؤمنين ﴿من الغابرين﴾ من الذين غيروا في ديارهم أي بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي: أنها التفتت فاصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مداين، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذائهم، وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجرًا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين مطر وأمطر قُلْتُ: يقال (٢) مطرتهم السماء وواد مطور، وفي نوابغ الكلم حري غير مطور حري أن يكون غير مطور، ومعنى: مطرتهم أصابتهم بالمطر كقولهم غانتهم ووبلتهم وجانتهم ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (٣) ﴿وأمطرننا عليهم حجارة من سجيل﴾ (٤) ومعنى ﴿وأمطرننا عليهم مطرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا يعني: الحجارة، ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾ (٥).

وَأَنَّ مَذِيكَ أَنَاهُمْ شَيْبًا نَالَ يَفْقَرُ أَتَبَدُّوا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥).

كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتفاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

فإن قُلْتُ: ما كانت معجزته؟ قُلْتُ: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ ولأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقها وإلا لم تصح دعواه وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبيينا ﷺ فيه، ومن معجزات شعيب عليه السلام ما روى من محاربة

زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض.

فإن قُلْتُ: ما موقع هذه الجملة؟ قُلْتُ: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولًا بقوله: أتأتون الفاحشة، ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها، أو على أنه جواب السؤال مقدر كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

إِن كُنْتُمْ تَأْتُونِ الْجِبَالَ شُهُورًا مِنْ دُونِ الْإِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨٦).

﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ والهمزة مثلها في أتأتون للإنكار والعظيم، وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له أي: للاستهواء، لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر. ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه، أو حال بمعنى مشتبهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو: أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ونحوه ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ (١).

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْلِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهُرُونَ (٨٧).

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جازوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرًا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم وقولهم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبطهرهم من الفواحش واقتحارًا بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهّد.

فَأَجَبْنَاهُ وَأَعْلَاهُ إِلَّا أَرَأَيْتُمْ كَذِبَ الْفَارِسِيِّ (٨٨) وَأَمْطَرْنَا

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٦٦.

(٢) قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من يقول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهم أنها تفرقه وضعية، فبين أن أمطرت، معناه: أرسلت شيئًا على نحو المطر، وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله من السماء أنواعًا من الخيرات، والإرزاق مثلاً، كالمن والسلوى لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي: أرسلتها إرسال المطر، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة =

= الرباعية، ولكن اتفق أن المساء لم ترسل شيئًا سوى المطر، إلا وكان عذاباً، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع، فنبه على تحقيق الأمر فيه، وأحسن، وأجمل.

(٣) سورة الانفال، الآية: ٨٢.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٧٣.

ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحدًا يشرع في شيء منها أوعده وصلوه.

فإن قُلْتُ: لِمَ يرجع الضمير في ﴿أَمِنْ بِهِ﴾ قُلْتُ: إلى كل صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم ودلالة على عظم ما يصدون عنه، وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مرَّ بهم: أَنْ شَعِيْبًا كَذَابٌ فَلَا يَفْتَنُكُمْ عَنْ بَيْنِكُمْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَرِيْشٌ بِمَكَّةَ، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجًا أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصنّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكمًا بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأنَّ طريق الحق لا يعوج ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ إذ مفعول به غير ظرف، أي: وانكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلًا عددكم ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ الله ووفر عددكم قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم قليلين فقراء فكثركم فجعلكم كثيرين موسرين، أو كنتم أقلّة أكلة فاعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أقصد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفة.

وَلَمَّا كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِيْ أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِرُوا فَاْتَصِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَلَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قُرْبِي لَتَخِرَّجَنَّكَ يَتِيمًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قُرْبِيَنَا أَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي يَتِيمَتِهِمْ كَالْأُولَىٰ قُلْ كَلِمَاتٍ لِّتُذَكَّرُوا ﴿٨٨﴾ قُلْ أَتَمَنَّا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي يَدَيْكُمْ بِئْسَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنبَأَ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نُّؤَدِّيَ فِيهَا إِلَّا أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ رَبَّنَا وَبِعِ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَلِيمًا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْهَرَقِ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿فاصبروا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للمكافرين بانتقام الله منهم كقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ (4) وهو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطابًا للفريقين أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنَّ حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الحيف. أي: ليكون أحد الأمرين إما إخراجكم وإما عودكم في الكفر.

عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصي آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنَّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات شعيب.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿الكيل والميزان﴾ وهلا قيل المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام؟ قُلْتُ: أريد بالكيل آلة الكيل وهو: المكيال أو سمي: ما يكال به بالكيل، كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسنها حمقاء وهي باخس، وقيل: ﴿أشياءهم﴾ لأنهم كانوا يخسون الناس كل شيء في مبيعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئًا إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي بأنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف، فقطعوها قطاعًا ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفًا ﴿بعد إصلاحها﴾ بعد الإصلاح فيها أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ (1) بمعنى: بل مكرهم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿لنكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحدثنة وما تطلبونه من التكسب والتربح؛ لأنَّ الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي لنكم خير لكم.

وَلَا تَعْدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُعِدُّونَ وَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿ولا تعبدوا بكل صراط﴾ ولا تقتنوا بالشيطان في قوله ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (2) فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين، والدليل على أن المراد بالصراط: سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصابرين عن سبيل الله وباغها عوجًا.

فإن قُلْتُ: صراط الحق واحد ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (3) فكيف قيل بكل صراط قُلْتُ: صراط الحق ولحد

(3) سورة الأنعام، الآية: 153.

(4) سورة التوبة، الآية: 52.

(1) سورة سباء، الآية: 33.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

يكون لنا وما ينبغي لنا وما يصح لنا ﴿ربنا افتح بيننا﴾ احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا ﴿وبين قومنا﴾ وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ كقوله: ﴿وهو خير الحاكمين﴾⁽⁴⁾.

فإن قلّنت: كيف أسلوب قوله: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾؟ قلّنت: هو إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب كأنهم قالوا: اكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأن الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أن الله ندأ ولا ند له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، والثاني: أن يكون قسمًا على تقدير حنف اللام بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

وَلَا لَلَّاءِ الَّذِينَ كَرَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شِعْبًا لِنَكُرَنَّ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿١٠﴾ فَأَعْلَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿١١﴾

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: أشرافهم للذين بونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿لئن أتيتكم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾⁽⁵⁾ وقيل: تخسرون باتباعه فوائده البخس والطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قلّنت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن أتيتكم شعيباً﴾ وجواب الشرط؟ قلّنت: قوله: ﴿إنكم إذا

فإن قلّنت⁽¹⁾: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾؟ وكيف أجابهم بقوله ﴿إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والانبيااء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصفات إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبار، فضلاً عن الكفر؟ قلّنت: لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عاثين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب.

فإن قلّنت: فما معنى قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ والله⁽²⁾ تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قلّنت: معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا اللطف لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباديه كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلب وكيف تقسو بعد الرقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لا زياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾⁽³⁾ حسماً لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿أولو كنا كارهين﴾ الهمزة للاستفهام، والواو والحال تقديره: اتعبدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين، وما

== بالهدى﴾ وهو: من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذا الموضع تحقيق التمكن، والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح، والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية، هو المعمول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله، وأمّا الاستدلال الزمخشري على صحة تأويله، بقوله: وسع ربنا كل شيء علماً، فمن احتمالاته في التأويلات الباطلة يعضدها ويتبع الشبه، ويلفقا وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علماً، الاعتراف بالقصور عن علم العقاب، والاطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع العبد ولو وقع بقدرته الله ومشيبته المغيبة عن خلقه، فالحدز قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة، والإيمان السالم، والله الموفق، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء، علماً لما رُد الأمر إلى المشيئة، وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول، فالحق به وسحقاً سحاً.

(4) سورة الأعراف، الآية: 87.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

(1) قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، والتحقيق في الجواب عن السؤال المنكسر مع اقتضاء العود لذلك، أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار، وحينئذ يجوز أن يكون أخاً لكان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو: الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل صار، وكانهم قالوا والله أعلم: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرن كفاراً مثلاً، وحينئذ يندفع السؤال أو يسلم استعمال العود، بمعنى: الرجوع إلى أمر سابق، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً، فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان، لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو اراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عودله عن الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له، ولطفاً به، وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة

وقال:

ولكننا نعص السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم
﴿وقالوا قد مس أبائنا الضراء والسراء﴾ يعني:
أبترتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في
الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آبائنا نحو ذلك، وما
هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات
والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب ﴿فاخذنناهم﴾ أشد
الأخذ وأقطعوه وهو: أخذهم فجأة من غير شعور منهم.
اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله:
﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ (2) كانه قال: ولو أن أهل
تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ
أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْيًا وَهُمْ يُلَٰعِبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿أمِنُوا﴾ بدل كفرهم ﴿وأتقوا﴾ المعاصي مكان
ارتكابها ﴿افتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾
لأتيناهاهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات
﴿ولكن كذبوا فاخذناهم﴾ بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون
اللام في القرى للجنس.

فإن قلنا: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلنا: تيسيرها
عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه
قولهم: فتحت على القارىء إذا تعذرت عليه القراءة فيسرته
عليه بالتقنين. البيات يكون بمعنى: البيوتة، يقال: بات بيأتا
ومنه قوله تعالى: ﴿فجاءها بأسنا بيأتا أو هم قائلون﴾ (3)
وقد يكون بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم يقال:
بيته العدو بيأتا، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بآتتين، أو
وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، أو يكون بمعنى: تبييتاً، كانه
قيل: أن يبيتهم بأسنا بيأتا و﴿ضحى﴾ نصب على الظرف
يقال: إنا ضحى وضحياً وضحاء، والضحى في الأصل:
اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.
والفاء والواو في أقامن واو آمن حرفاً عطف دخلت
عليهما همزة الإنكار.

فإن قلنا: ما المعطوف عليه ولم عطف الأولى بالفاء
والثانية بالواو؟ قلنا: المعطوف عليه قوله: فاخذناهم بغتة،
وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ وقع
اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطف بالفاء؛
لأن المعنى فعلوا وصنعوا فاخذناهم بغتة أبعد ذلك من
أهل القرى أن ياتيهم بأسنا بيأتا وأمناً أن ياتيهم بأسنا
ضحى. وقرئ: أو آمن على العطف بأو ﴿وهم يلعبون﴾

لخاسرون﴾ ساء مسد الجوابين.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا يَمْنُونَ إِلَيْهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا
فَمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ مبتدأ خبره ﴿كان لم يغنوا
فيها﴾ وكذلك ﴿كانوا هم الخاسرون﴾ وفي هذا الابتداء
معنى: الاختصاص كانه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم
المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كان لم يقيموا في
دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا
شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه
فإنهم الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير
مبالغة في رد مقالة الملأ لاشياعهم وتسفيه لرايهم
واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

فَنُؤَلِّهِمْ هَهُمُ فَقَالَ يَقَوْمٌ لَقَدْ أَبْغَضَكُمْ رُسُلِي رَبِّي وَصَحَّ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٢١﴾

الأسى: شدة الحزن قال العجاج:

وانجلبت عيناه من فطر الأسى

اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف
يشد حزني على قوم ليسوا باهل للحنن عليهم لكفرهم
واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أغرت إليكم
في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا
قولي ولم تصدقوني فكيف أسى عليكم؟ يعني: أنه لا يأسى
عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب:
فكيف إيسي بكسر الهمزة.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ
لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٢٢﴾

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر
﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم
وتعززهم عليه ﴿لعلهم يضرعون﴾ ليتضرعوا ويتنلوا
ويحطوا أودية الكبر والعزة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة
الحسنة﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء
والمحنة الرخاء والصحة والسعة كقوله: ﴿وبلوناهم
بالحسنات والسيئات﴾ (4)

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا
الضَّرَّةَ وَالْكَرَّةَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿حتى عموا﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من
قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت، ومنه
قوله ﷺ: «واعفوا للحي» وقال الحطية:
بمستاسد القرين عاف نباته

(3) سورة الأعراف، الآية: 4.

(1) سورة الأعراف، الآية: 168.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

قُلُوبَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾.

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلي شيخاً﴾⁽²⁾ في أنه مبتدأ وخبر وحال، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً، وأن يكون القرى نقص خبراً بعد خبر.

فإن قلّنا: ما معنى ﴿تلك القرى﴾ حتى يكون كلاماً مفيداً؟ قلّنا: هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قوله: هو الرجل الكريم.

فإن قلّنا: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلّنا: معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد هو كقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾⁽³⁾ ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الشديد تطبع على قلوب الكافرين.

وَمَا جَعَلْنَا لَآكْفَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَعَلْنَاهُمْ لِنُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿وما جعدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق أي: وما جعدنا لأكثر الناس من عهد يعني: أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى ﴿وإن جعدنا﴾ وإن الشأن والحديث وجعدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين، والآية اعتراض، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المنكوبين وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومخافة ﴿لئن أنجيتنا لنؤمنن﴾⁽⁴⁾ ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾⁽⁵⁾ إلى قوله: ﴿إذا هم يكتنون﴾⁽⁶⁾ والوجود بمعنى العلم من قوله: وجعدت زياداً ذا

يشغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

فإن قلّنا: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿اقامنا مكر الله؟﴾ قلّنا: هو تكرير لقوله: ﴿اقامنا أهل القرى﴾ ومكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستراحه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة، وعن الربيع بن خثيم أن ابنه قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه إن أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾.

أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَ الْاَرْضِ مِنْ بَدِ اٰهْلِكُمْ اَنْ لَوْ نَشَاءُ اٰصْبَنَهُمْ يَذُنِبُهُمْ وَنَطْعُ عَلٰى قُلُوْبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُوْنَ ﴿١٣٨﴾.

إذا قرئ: ﴿أولم يهد﴾ بالياء كان ﴿أن لو نشاء﴾ مرفوعاً بأنه فاعله بمعنى: أولم يهد للذين يخلقون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو: إنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، وإذا قرئ: بالنون فهو منصوب كأنه قيل: أولم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أولم نبين لهم أنا ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قلّنا⁽¹⁾: بم تعلق قوله تعالى: ﴿ونطبع على قلوبهم؟﴾ قلّنا: فيه أوجه: أن يكون معطوفاً على ما دل عليه معنى ﴿أولم يهد﴾ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على ﴿يرثون الأرض﴾ أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن تطبع على قلوبهم.

فإن قلّنا: هل يجوز أن يكون ونطبع بمعنى وطبعنا، كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قلّنا: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوه من هذه الصفة وإن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

يَاۤلَيْكَ اَلْقُرْۤاٰنُ نَفْسٌ عَلٰىكَ مِنْ اٰتٰٓيَہَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلٌ مِّنْ اٰلِهٰٓتِهِمْ فَمَا كَانُوْا يٰۤتُوْنٰمُۢمَّا كَذَبُوْۤا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْعُ اَللّٰهُ عَلٰٓى

= زيادة التصميم عليه، والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فزانهم رجساً إلى رجسهم، كما زانت المؤمنین إيماناً إلى إيمانهم﴾ وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه جزاء عليه، فثواب الإيمان إيمان، وثواب الكفر كفر، وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى، وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنده متعال، وأني يتم الفرار من الحق، وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله فضلاً عن تعلق المشيئة به.

(2) سورة هود، الآية: 72.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) سورة الأعراف، الآية: 134.

(6) سورة الأعراف، الآية: 135.

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنوب، ولا بد إذ الطبع هو التماذي على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة بل إن الكافر يهد من تماثيه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هدبتهم بامرین، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً: نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنوب بالإيقاع في ذنب أكبر منه، وعلى الكفر =

وهو: الأوجه إلا نخل في نكت القرآن أن يعرق موسى في وصف نفسه بالصلوق في ذلك المقام لا سيما وقد روي أن عدو الله فرعون قال له: لما قال: ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ كذبت، فيقول: أنا حقيق علي قول الحق أي: واجب علي قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدتهم، فانقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

فإن قُلْتُ: كيف قال له ﴿فأت بها﴾؟ بعد قوله: إن كنت جئت بأية؟ قُلْتُ: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بأية فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صلتك.

فَأَنزَلَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ شُجَارٌ تُنِي ۚ ﴿١٧٧﴾ وَرَجَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْتَافَةٌ لِلنَّطِيرِ ۚ ﴿١٧٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا أَزِيَّةٌ وَأَخَاهُ وَأَزِيلٌ فِي الْمَدَائِنِ خَيْرِينَ ﴿١٨١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٨٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٨٣﴾ قَالَ نَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ ﴿١٨٤﴾

﴿ثعبان مبین﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعباناً نكراً أشعر فاغراً فاه بين لحييه وثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذ هـ وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

الحفاظ، بليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

فإن قُلْتُ:

ثُمَّ بَنَيْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسًى وَنَارَيْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٦﴾ وَقَالَ مُوسَى يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧٤﴾ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾

﴿من بعدهم﴾ الضمير المرسل في قوله ﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾^(١) أو للآدم ﴿فظلّموا بها﴾ فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واحد ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٢) أو فظلّموا الناس بسببها حين أوعبهم وصدّوهم عنها وآثروا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً فلذلك قيل ﴿فظلّموا بها﴾ أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان.

يقال للملوك مصر: الفراعنة كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة فكانه قال: يا ملك مصر وكان اسمه: قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ فيه^(٣) أربع قرأت: المشهورة وحقيق علي أن لا أقول وهي: قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي: قراءة عبد الله، وحقيق بأن لا أقول وهي: قراءة أبي، وفي المشهورة إشكال ولا تخلو من وجوه أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لا من الإلباس كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، وحقيق علي أن لا أقول وهي قراءة نافع، والثاني: أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق أي: لازماً له، والثالث: أن يضمن حقيق معنى: حريض كما ضمن هيجني معنى نكرني في بيت الكتاب، والرابع

= والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرح بذلك في قوله:

طوال الرينيات يقصفها نمي وبيض السرجيات يقطعها الحمى
الوجه الثاني: قلب معزى عن هذا المعنى البلخي، ولذلك لا يستفصح، كقولهم خرق الثوب المسمار وأشباهه وعلى الوجه الأول الأنصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نهت عليه، وأما الوجه الثاني، وهو أن ما لزمك فقد لزمته، ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه لقول الحق من هذا النمط وأما الوجه الثالث: فلا يلائم بين القراءتين، وقد نكر لها وجه خامس، وهو أن يكون علي بمعنى الباء، ونقل رمية على القوس بمعنى: رميت بالقوس، وهو وجه حسن يلائم، والله أعلم، ويشهده قراءة أبي حقيق بأن لا أقول.

(1) سورة الأعراف، الآية: 101.

(2) سورة لقمان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقوله:

قد صرح فسر عن ثكنان وابتنلت وضع المحاجن بالمهربية للثكن فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح، والمهربية تبتذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنقص، وتنقص في أجوافهم، فعبّر عن ذلك بالشقاء، وأن المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهربية، وربما تمزقت عن ذلك، فجعل ذلك ابتذالاً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله:

والسيف يشقى كما تشقى لفلووع به وللسيوف كما للناس أجال =

وانكم لمن المقربين: أراد إني لا اقتصر بكم على الثواب وحده وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو: التقريب والتعظيم: لأن المثاب إنما يتهدأ بما يصل إليه ويغتنب به إذا نال معه للكرامة والرفعة، وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل، وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون لا تغالب موسى إلا بما هو منه يعني السحر. تخييرهم إياه أنب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدل، والمتصارعين قبل أن يتأخضوا للصراع.

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا أَنْتَلَيْكَ وَإِنَّا أَنْتَلُوكَ عَنْ آتَمَلَيْكَ ﴿١٧﴾ قَالَ آتَمَلُوا فَلَمَّا آَلَفُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾

وقولهم: ﴿وَإِنَّا أَنْتَلُوكَ﴾ أي: وإننا نكون نحن الملقين، فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإحكام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراعبوا فيه ازدياد لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي وأن المعجزة لمن يغلبها سحر أبداً ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: أروها^(١) بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه كقوله تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَهُهُنَّ سَحَرَهُمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾^(٢) روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طويلاً فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: واهبهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر. روي أنهم لوتوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيهم ما يوهم الحركة قيل: جعلوا فيها الزئبق.

﴿وَأُحْضِرْنَا إِلَى مُوسَى أَنَّ آتَمَلَيْكَ وَإِنَّا أَنْتَلُوكَ مَا يَأْكُفُّونَ﴾^(١٧)

﴿مَا يَأْكُفُّونَ﴾ ما موصولة أو مصدرية بمعنى: ما يأكفونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوِّرونه، أو

فإن قُلْتُ: بم يتعلق ﴿للمناظرين﴾؟ قُلْتُ: يتعلق ببيضاء والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروي أنه أرى فرعون يده وقال: وما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الألفة ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصي حية والآدم أبيض.

فإن قُلْتُ: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم قُلْتُ: قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فنلفته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبليغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وقرئ: سحار أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾ من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمر من كلام فرعون قاله للملأ: لما قالوا له ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يريد أن يخرجكم. كأنه قيل: فماذا تأمر؟ قالوا: أرجئه وأخاه معنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رايك فيهما وتبهر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرئ: أرجئه بالهمزة وأرجه من أرجاه وأرجاه.

فإن قُلْتُ: هلا قيل وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قُلْتُ: هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إن جاءه؟ فأجيب بقوله ﴿قَالُوا أَتُتْلَى لَنَا لِأَجْرٍ﴾ أي: جعلنا على الغلبة، وقرئ: إن لنا لأجراً على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتذكير للتعظيم كقول العرب: إن له لإيلاً وإن له لغنماً يقصدون الكثرة.

فإن قُلْتُ: ﴿وَأَنْتُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ما الذي عطف عليه؟ قُلْتُ: هو معطوف على محذوف سد مسدده حرف الإيجاب كأنه قال إيجاباً لقولهم ﴿إِنَّ لَنَا لِأَجْرٍ﴾ نعم إن لكم لأجراً،

التصريح بالنفاء، وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس، عما في نفوسهم، فيسميه شعوة وحيلة، وبالقسط يعلم أن الشعوة والحيلة لا تعلم في يد ابن عمر رضي الله عنه، حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر، حتى يخيل إليها أنه يأتي نساءه، وهو لا يأتيهن، وقد ورد ذلك وأمثاله مستقيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع، فيقدرة الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء، والله الموفق.

(١) قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها لظواهر على ما هي عليه؛ لأن العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستيق، فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر، ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرته الله تعالى عند إرشاد الساحر هذا، هو الحق، والمعتقد الصدق، وإنما أجريت هذا الفصل؛ لأن كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن =

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أزالوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ومنه قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

﴿افزع علينا صبراً﴾ هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحبك ليفزع على أخيه دنوباً ثم يقول: قد مازحتك أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أضرار الآثام وهو الصبر على ما توعنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَلُ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَنبَاءَهُمْ وَتَسْتَعْتَبُونَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَإِنَّا نَتُوقُهُمْ فَتَهَيَّؤُوا لَهُمْ جَهَنَّمَ (١٧٧)

﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤدياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته فكانه تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجب بالفاء نحو قول الحطبية:

الم لك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء والنصب بإضمار أن تقديره أكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك، وقرئ: ويذرك وآلهتك بالرفع عطفاً على أتذر موسى بمعنى أتذره وأبترك يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفاً، أو حالاً على معنى: أتذره وهو يترك وآلهتك، وقرأ الحسن: ويذرك بالجزم كأنه قيل يفسدوا، كما قرئ: ﴿واكن من الصالحين﴾^(١) كأنه قيل اصق، وقرأ: انس رضي الله عنه: ونذرك بالنون والنصب أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرنا، وقرئ: ويذرك وإلهتك أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقريباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾^(٢) ولذلك قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾^(٣) سنقتل أبناءهم، يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مهجرون تحت أيدينا كما كانوا، وإن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلاننا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وأنه منتظر بعد.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ

إفكمهم تسمية للمافوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصيانا.

وَقَعِ الْحَقُّ وَطَلَّ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ (١٧٨) فَتَلَبَّوْا هَذَا كَمَا أَقْبَلُوا صَغِيرِينَ (١٧٩) وَالْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ (١٨٠) قَالُوا أَمَّا رَبِّي الْمَلَكَيْنِ (١٨١) رَبِّي مُوسَى وَهَارُونَ (١٨٢) قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَسْمَاءُ بِهِ قِيلَ أَنَّ مَادَّةَ لَكَ إِذَا هَذَا لَسَكَّرَ تَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنَّا أَهْلَهَا سَوَفَ تَكُونُ (١٨٣) لَأَقْبِلَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْبِلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨٤)

﴿فوقع الحق﴾ فصل وثبت، ومن بدع التفسير فوق قلوبهم أي: فآثر فيها من قلوبهم: فاس وقيع ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ وصاروا أدلاء مبهورتين ﴿والقي السحرة﴾ وخرها سجداً كأنها القاهم ملق لشدة خروهم، وقيل: لم يتملكوا مما راوا فكانهم أقوا، عن قتادة: كانوا أول النهار كفافاً سحرة، وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤا في الكفر بذلوا أنفسهم لله.

﴿أمنتم به﴾ على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخاً لهم وتقريعاً، وقرئ: أمنتم بحرف الاستفهام ومعناه: الإنكار والاستبعاد ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أن صنعكم هذه الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد توأطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو: أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك، قال: لأتبع بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتي لأؤمن بك، وفرعون يسمع فلذلك قال ما قال ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله ﴿لاقطعن﴾ وقرئ: لاقطعن بالتخفيف وكذلك ثم لأصلبكم ﴿من خلاف﴾ من كل شق طرفاً، وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنا مُتَّبِعُونَ (١٨٥)

﴿إننا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه أن يريدوا إننا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقاءك، أو ننتقل إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شذائذ القطع والصلب، وإننا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننتقل إلى الله فيحكم بيننا، أو أنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه.

وَمَا نُنْفِ بِمَا إِلَّا أَتَ أَمَّا بِكَاتِبَتِ رَبِّنا لَمَّا جَاءَتْنا رَبِّنا أَنْفِ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَقًا مُسْلِمِينَ (١٨٦)

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) سورة الزمر، الآية: 3.

(3) سورة التازعات، الآية: 24.

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمَنْفَعَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك حين قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾^(١) فجزعوا منه وتضجرُوا يسكنهم ويسليهم ويعدمهم النصرة عليهم وينكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الوار وأدخلت على التي قبلها؟ قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة وأما ﴿وقال للملأ﴾ فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾^(٢) وقوله: ﴿إن الأرض لله﴾ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة كقوله: ﴿ووأورثنا الأرض﴾^(٣) وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس وغرضه أن يتناول تناولاً أولياً ﴿والعاقبة للمتقين﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأوا: العاقبة للمتقين بالنصب، أبي وابن مسعود عطفًا على الأرض.

قَالُوا أُرِيدُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِزُّكُمْ يُسْتَظْلَمُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿أوتينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ يعنون: قتل أبائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبى وأعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسسون به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عيوكم﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلاقهم بعده في أرض مصر ﴿فلينظر كيف تعملون﴾ فيري الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد رحمه الله: أنه نخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائنته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم نخل عليه بعدما استخلف فنكر له ذلك وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئَاتِ وَقَدْ عَلِمْتُنَّ أَنَّكَ تُكْتَبُ ﴿١٣٠﴾

﴿بالسنيين﴾ بسني القحط، والسنة من الأسماء الغالبة، كالذابة، والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أقطوا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون، فكانت لبائيتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة ﴿لعلهم يذكرون﴾^(٤) فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله؛ ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدودًا والين أعطافًا وأرق أقدمة، وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة ولم ير مكروهًا في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية^(٥).

إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّا طَرَفُ اللَّهِ وَكَانَ أَكْثَرُهم لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجبل للفرس ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ من ضيقة وجذب ﴿يطيئروا بموسى ومن معه﴾ يطيئروا بهم ويتشاءمو ويقولوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ﷺ: هذه من عندك.

فإن قلت: كيف قيل؟ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ بإن وتنكير السيئة قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرة واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: قد عدت أيام البلاء فهل عدت أيام الرخاء ﴿طائرهم عند الله﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيتته والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾^(٦) ويجوز أن يكون معناه إلا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿النار يعرضون عليها﴾^(٧) الآية ولا طائر أشأم من هذا، وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله وهو اسم لجمع طائر غير تكسيره، ونظيره التجر والركب، وعند أبي الحسن هو: تكسير.

(5) قال أحمد: وقد ورد وإن تصيبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصيبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، فلم يراع فرق ما بينهما، ولعل بين سياق الآيتين اختلافًا أوجب في كل واحد منهما ما نكر فيه.

(6) سورة النساء، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 46.

(1) سورة الاعراف، الآية: 127.

(2) سورة الاعراف، الآية: 109.

(3) سورة الزمر، الآية: 74.

(4) قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة، وأما دعوى اختصاصها بهم، حتى لا يشركهم فيها أحد، فدل عليه تقديم الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناد الخبر من تقديم ما حقه أن يؤخر، كالمفعول والخبر ونحوه.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَمَوْهَا آيَةٌ ثُمَّ قَالُوا: ﴿لَتَحْسُرُنَا بِهَا﴾؟
قُلْتَ: مَا سَمَوْهَا آيَةٌ لَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا آيَةٌ، وَإِنَّمَا سَمَوْهَا اعْتِبَارًا
لِتَسْمِيَةِ مُوسَى، وَقَصَدُوا بِذَلِكَ الِاسْتِهْزَاءَ وَالتَّهْلِيءَ.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَاعَ وَالْآلَمَ مَائِدَةً مُنْصَلَكَةً
فَأَسْكَنُوا وَأَكَلُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣٧٢﴾

﴿الطوفان﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل،
قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية
أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يقدر
أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء
حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط
مشتبكة، فامتلات بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى
تراقيعهم فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل
قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من
الحرق والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي
قلاية: الطوفان الجديري وهو أول عذاب وقع فيهم بقي في
الأرض، وقيل: هو: الموتان، وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى:
ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم
فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلا والزرع ما لم
يعهد بمثله، فاقاموا شهرًا، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت
عامّة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب
وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل
منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعده التوبة فكشف
عنهم، بعد سبعة أيام، خرج موسى عليه السلام إلى

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَا بِدِينٍ مِنْ مَائِدَةٍ لَنَسْحَرَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
﴿٣٧٣﴾

﴿مهما﴾^(١) هي ما المضمنة معنى الجزء ضمت إليها
ما المزيدة المؤكدة للجزء في قولك: متى تخرج أخرج
﴿أينما تكونوا يدركم الموت﴾^(٢) ﴿فإنما نذهبن بك﴾^(٣) إلا
أن الألف قلبت هاء استنفالًا لتكرير المتجانسين وهو
المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم: أن ما هي
الصوت الذي يصوت به الكاف، وما للجزء، كانه قيل: كف
ما تاتنا به ﴿من آية لتسحرنا بها فما نحن لك
بمؤمنين﴾.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿مهما﴾؟ قُلْتَ: الرفع بمعنى أيما
شيء تاتنا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحضرنا تاتنا
به، ومن آية تبين لهما والضميران في به وبها راجعان إلى
مهما إلا أن أحدهما: ذكر على اللفظ، والثاني: أنث على
المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له
في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما
بمعنى: متى ما ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من
وضعه وليس من كلام واضح العربية في شيء، ثم يذهب
فيفسر ﴿مهما تاتنا به من آية﴾ بمعنى: الوقت فيلحد في
آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين
يدي الناظر في كتاب سيبويه.

بشاذ والمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه
إلى غيره، وأظهر ما قوى به مذهب الخليل، والله أعلم أن هذه
الكلمة استعملت في الاستهزام، حسب استعمالها في الجزء
وأنشدوا:

مهما لي الليلة مهماليه أودى بنعلي وسرباليه
أراد: ما لي الليلة ولا إشكال ههنا، أنها ما الاستهزامية كررت
تأكيدًا كما يقولون لا لا ونعم نعم ثم استكره تكرار اللفظ بعينه،
فقلبت ألف الأولى هاء، وقد جاء قلب الاستهزامية، وإن لم يكن
تكرار، فهو معه أجدر، وإذا وضع أن مهما الواقعة في الاستهزام
أصلها، ما مكورة كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في
الجزء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله
أعلم، وأما رد المخشري على من زعم أنها بمعنى: متى ما فرد
صحيح، والآية أصدق شاهد على رده، فإن الضمير المجرور
فيها عائد إلى مهما حتمًا، وقد اتصل به مفسرًا له قوله من آية
دل على أن الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع مهما عليها
ضرورة اتحاد المرجع في المضمر، ومظهره، فذهاب هذا القائل
إلى إيقاع مهما على الوقت زاعمًا، أنها بمعنى: متى ما ذهب عن
الصواب وعذر المخشري واضح في الرد على تسجيله،
وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه، فتأمل هذا
الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للخليل، والله الموفق.

(2) سورة النساء: الآية: 78.

(3) سورة الزخرف: الآية: 41.

(1) قال أحمد: والذي عدّه أولًا من كلام سيبويه، وسنذكره قال
سيبويه وسالت الخليل عن مهما، فقال هي ما أدخلت معها ما
بلغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت متى ما تأتي حدثك انتهى
كلام سيبويه وكان هذا القائل، والله أعلم اغترّ بتشبيه الخليل لها
بمتى ما فلحنها في معانها، وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما
في لحاقها زائدة، مؤكدة للأولى، بما اللاحقة لمتى عاد كلام
سيبويه، قال: ولكنهم استجبوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء
من الألف، التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل، قال سيبويه:
ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد:
ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما، أن الجزء بجمله الكلمة، لا
بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل، والذي
يصدق ذلك أن سيبويه قال: أول هذا الباب، وأما حيث، وإن فلا
يجازي بهما، حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما،
وكانما وليست ما فيهما بلغوا، ولكن كل واحدة منهما مع ما
بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله وليست ما فيهما بلغو يعني:
ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزء، حتى لا
يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة، ويبقى وراء ذلك نظر في أن
سيبويه هل أراد أن ما ضمت إلى ما التي هي الصوت، أو إلى
ما الجزائية، والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت؛ لأنها
لو كانت منضمة إلى الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزء قبل
انضمام ما إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث ولا يكون تنظير
سيبويه مطابقًا، وهذا الذي فهمه ابن طاهر، وتبعه فيه تلميذه
ابن خروف وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد
قول ابن بشاذ، أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد توافق ابن

ألم ينكون إلزامًا للحجة عليهم.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٢٦).

﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية والمعنى: بعهدك، وهو: النبوة، والباء إما أن تتعلق بقوله ﴿ادع لنا ربك﴾ على وجهين أحدهما: أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهدك عندك. وإما أن يكون: قسمًا مجابًا بلؤمنن أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلَيْسُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٢٧) فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٢٨).

﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعتبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حوله ﴿إذا هم ينكتون﴾ جواب لما يعني ﴿فلما كشفناه عنهم﴾ فأجابوا النكت وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكتوا ﴿فأنتقمنا منهم﴾ فأرانا الانتقام منهم ﴿فأغرقناهم﴾ واليم: البحر الذي لا يترك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأن المستنقعين به يقصدونه ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْمَرُونَ مَسَرَّتْهُمُ الْأَرْضُ وَمَكْرُهَا أَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ وَتَمَتَّ كَمَتَّ رَبِّكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ (١٢٩).

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم: بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية ﴿بما كنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كلمت ربك الحسنی﴾ قوله: ﴿ونزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ (١) إلى قوله: ﴿ما كانوا يحذرون﴾ (٢) والحسنى تأنيت الإحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تمت على الأمر إذا مضى عليه ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر ودالًا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر

القضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا: ما نحن بتاركي بيئنا فاقاموا شهرًا، فسلط الله عليهم القمل وهو: الحمنان، في قول أبي عبيدة: كبار القردان، وقيل: الدبا وهو: أولاد الجراد قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس فاكل ما أبقاها الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان ياكل أحدهم طعامًا فيمتلئ قملًا، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيرًا، وعن سعيد بن جبير: أنه كان إلى جنبهم كتيب أغفر فضربه موسى بعصاه فصار قملًا، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدي، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا تصدق أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلات منها أنيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيء من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقف بأنفسها في القبور وهي تغلي وفي التنانير وهي تغور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دمًا، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دمًا، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في في فيصير الماء في فيها دمًا، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحًا أجابًا، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دمًا، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي: أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، روي أنه لما أراههم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب إن عيبك هذا قد علا في الأرض فخذ بعقوبة تجعلها له ولقومه نعمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد القمل المعروف ﴿آيات مفصلات﴾ نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبيّنات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونعمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيتقون على ما وعدوا من أنفسهم

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمر مكسر ما هم فيه من قولهم: إناء متبر إذا كان فضاضاً، ويقال لكسار الذهب: التبر أي: يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه، ويتركها رضاضاً ﴿ويباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقريباً إلى الله كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾⁽⁴⁾ وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

قَالَ آخِرُ اللَّهِ أَنِّي كُنتُمْ لَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهَةِ (٧٧).

﴿أغير الله أبغيكم إليها﴾ أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً وهو فعل بكم ما فعل نون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغموين في نعمة الله عبادة غير الله.

وَأَنِّي كُنتُمْ لَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهَةِ (٧٧).

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ييغونكم شدة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فَأَن قُلْتُ: ما محل يسومونكم؟ قلت: هو استئناف لا محل له، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، أو من آل فرعون ﴿ونلكم﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. وللبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

وَأَنِّي كُنتُمْ لَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهَةِ (٧٧).

وروي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سال موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو: شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك، فقلت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف قم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك، وقيل: أمره الله أن

وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، عن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله: وتلا الآية ومعنى خف: طاش جزعاً وقلة صبر ولم يزن رزاة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسن ونظيره ﴿من آيات ربه الكبرى﴾⁽¹⁾ ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ ما كانوا يعملون ويسبون من العمارات وبناء القصور ﴿ما كانوا يعرشون﴾ من الجنات وهو الذي أنشأ جنات معروشات⁽²⁾ أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وقرئ: يعرشون بالكسر والضم، ونكر اليزيدي أن الكسر أقصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يغرسون من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

وهذا آخر ما اختص الله من نبأ فرعون والقبض وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده ومعابنتهم الآيات العظام ومجازتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلم كفار جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾⁽³⁾ وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله تعالى.

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَى أَصْنَابٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى أَجْمَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا هُمْ إِلَٰهَةٌ قَالِ لَكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ (٧٨).

﴿فاتوا على قوم﴾ فمروا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر ونلك أول شأن العجل، وقيل: كانوا قوماً من لحم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم. وقرئ: وجوزنا بمعنى: أجزنا يقال: أجاز المكان وجوزّه وجاوزّه بمعنى: جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه، وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرهما ﴿لجعل لنا إليها﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها، وما كافة للكاف ولنلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي رضي الله عنه: أن يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه، فقال: قلت اجعل لنا إليها قبل أن تجف أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيُظَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧٩).

(3) سورة سبأ، الآية: 13.

(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

(1) سورة النجم، الآية: 18.

(2) سورة الانعام، الآية: 141.

ليلة وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين **﴿أرني انظر إليك﴾** ⁽²⁾ ثاني مفعول أرني محذوف، أي: أرني نفسك انظر إليك.

فإن قلْت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: **﴿أرني انظر إليك﴾**؟ قلْت: معنى أرني نفسك اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تنجلي لي فانظر إليك وأراك.

فإن قلْت: فكيف قال **﴿لن تراني﴾** ولم يقل لن تنظر إليّ لقوله: **﴿انظر إليك﴾**؟ قلْت: لما قال: أرني بمعنى: اجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل: لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ.

فإن قلْت: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعالیه عن الرؤية التي هي: إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبيه؟ وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا: **﴿أرنا الله جبهة﴾** ⁽³⁾ **﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾** ⁽⁴⁾ إلى قوله: **﴿تضل بها من تشاء﴾** ⁽⁵⁾ فتراها من فعلهم وندعاهم سفهاء

يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل نكر الأربعين في سورة البقرة وفصلها ههنا و**﴿ميقات ربه﴾** ما وقته له من الوقت وضربه له و**﴿أربعين ليلة﴾** نصب على الحال أي: تمّ بالغا هذا العدد و**﴿هرون﴾** عطف بيان لأخيه، وقرئ: بالضم على النداء **﴿اخلفني في قومي﴾** كن خليفتي فيهم و**﴿واصلح﴾** وكن مصلحاً أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل. ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِنَّكَ بَالِغٌ لَّنِ رَبِّنِي وَلَكِنَّ أَفْطَرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ سَوَّوْا رَبَّنَا فَلَمَّا جَعَلَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوًّا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٦٧).

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحدنا، ومعنى اللام: الاختصاص، فكانه قيل: واختصّ مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيتك لعشر خلون من الشهر **﴿وكلمه ربه﴾** ⁽¹⁾ من غير واسطة كما تكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطاً في اللوح، وروي: أن موسى عليه السلام كان يسمع تلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يوماً وأربعين

(1) قال احمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه، أنها سيقّت مساق الامتنان على موسى، بالصطفاء الله له، وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها **﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** فخذ ما أتيتك وكن من الشاكركين **﴿قلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف، والأصوات في بعض الأجرام، واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان أحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أتر بهذه المزية، وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام، وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيّتهم أظهر، وخصوصيتهم أوفر، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يجمّل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى، بلا واسطة لئلا يظن عليه من حروف، ولا غيرها، وكما أجزأنا من المعقول أن ترى ذات الجباري سبحانه وتعالى، وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه، وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً، والكلام في هذه العقيدة طويل والشروط بطين، وهذه الفتنة في الخاصة، بهذه الآية، والله الموفق.**

(2) قال احمد: ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية؛ لأن غرضه أن يبيح الحق بالفضالة، ويشين بكفه الغزالة مبهات قد تبين الصبح، لذي عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى، فوطيفة علم الكلام وأخصر وجه في إجابة ذلك، أن الوجود مصحح الرؤية بليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً، وقد شمل للجواز الجوهري، والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح، فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده،

= وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة، فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة، فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال، وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي، لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى لا في جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع، ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذ إلا ممن آتوا موسى، فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأما قوله عليه السلام **﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا تريباً من أفاعيلهم وتسفيهاً لهم وتضليلاً لأريهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإن الذي كان الإهلاك بسببه، إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين، ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس لأنها غير جائزة على الله ولكن؛ لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا، والخبر صق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية، فلما سألوا، وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكنيباً للذهن، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها، حيث قالوا: لن نؤمن لك، حتى نرى الله جبهة، ألا ترى أن قولهم لن نؤمن لك حتى تقجر لنا من الأرض ينبوعاً، إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرعوا به، لاقتراحهم على الله، ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الرمزخشري بعين الهوى، وغنايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.**

(3) سورة النساء، الآية: 158.

(4) سورة الأعراف، الآية: 155.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

والنظام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين؟

فَإِنْ قُلْتَ (3): ما معنى ﴿لَنْ﴾؟ قُلْتُ: تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً والمعنى: أن فعله ينافي حالي كقوله: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (4) فقوله: ﴿لَا تَدْرِكُ الْإِبْصَارُ﴾ (5) نفي للرؤية فيما يستقبل، و ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجِبَلِ﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصل به على معنى أَنَّ النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر، وهو: أن تنظر إلى الجبل الذي يرفع بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله نكاً بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه (6) عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا * أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِذَا﴾ (7) **فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ** (8) كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته **﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾** تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يبكك نكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وأرد على أسلوب عجيب ونمط بديع، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكملة الاستدراك، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب

وضلالاً قُلْتُ: ما كان طلب الرؤية إلا ليبتك هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتملأوا في لجاجهم، وقالوا: لا بد ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾؛ ليتيقنوا وينزاح عنهم ما لخلهم من الشبهة فلذلك قال: ﴿رَبِّ ارْنِي انْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ (1): فهلا قال أرهم ينظروا إليك؟ قُلْتُ: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أروا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمع كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى: ﴿ارْنِي انْظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار؛ ولأن الرسول إمام أُمته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم، وقوله (2): **﴿انْظُرْ إِلَيْكَ﴾** وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد

= كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، فَذَلِكَ لَا يَحِيلُ خُرُوجَهُمْ عَقْلًا، وَلَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ لَنْ تَتَّبِعُونَا، فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(4) سورة الحج، الآية: 73.

(5) سورة الانعام، الآية: 103.

(6) قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري، كنسبة الولد إليه، وهذا مفرغ على المعتقد السالف بجلالته، وليس له في هذا الفصل وظيفة، إلا تتبع الشبه لامتناع تلقفها من كل فج، والحق أن لك الجبل إنما كان، لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء، ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء، وهذا هو الماثور عن السلف في هذه الآية، ومعناه: عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إمّا؛ لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإمّا؛ لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا، وإمّا؛ لأنهم كفروا بالاعتراح، أو بالجموع.

(7) سورة مريم، الآيتان: 90 و91.

(8) قال أحمد: وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون، قد علقها الله على شرط محال، وهو استقرار الجبل حال نكته، والعلق على المحال محال، وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم، ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع، ولا العكس وحيد يتوجه لئلا، لأهل السنة، فنقول استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أَنَّ خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقبوراً، ونحن نقول مقبور، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده وقلنا أقعد بالأدب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(1) قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم، حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد، لهذا الغرض؛ لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إمّا أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى، ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود، من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يرد ذاته، على علم بأن ذلك محال، وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام، فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك، فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازه على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا، وإن كان جائزاً.

(2) قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها، وأمّا تنزيه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استجالة الرؤية إليه، فهو غني عنه، وأمّا إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته، على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام، وأبي الهذيل، والشيخين، فهو نقص عن منصبه العلي وأقل العوام المقلدين، لأهل السنة راجع عند الله على أصحاب البدع، والأهواء، ولأن ملأوا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(3) قال أحمد: لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز تأكيد، وأمّا استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي عقلاً مردود كثيراً بكثير من الآي، =

﴿سأصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله ﷺ: «إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي»⁽⁴⁾ وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل، ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم، وفيه إنذارًا للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى: يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كل آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشاد والرشد والرشاد كقولهم السقم والسقم والسقام، وما أسفه من ركب المفازة فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه، وإن رأى معسفاً مردياً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ﴿ذلك﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى تلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبَلَتْ أَبْصَارُهُمْ هَلْ يُعْزَرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَدُونِهِمْ حَتِيمَةً عَجَلًا جَسَدًا لَمْ خَوَّزْهُمُ إِلَّا بَرَزُوا أَنَّهُمْ لَا يُكْفَرُونَ وَلَا يُهْدَوْنَ سَبِيلًا فَخَذُّوا عَنْهُمْ وَكَانُوا عَلَيْهِمْ ﴿٧٨﴾

﴿ولقاء الآخرة﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة ﴿من بعدهم﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قلنا: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلًا والمتخذ هو السامري؟ قلنا: فيه وجهان أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذهم راضين به فكانهم أجمعوا عليه، والثاني: أن يراد واتخذوه إلهاً وعبدوه. وقرئ: من حليهم بضم الحاء والتشديد جمع حلى كثندي، وثدي، ومن حليهم بالكسر للاتباع كئلي، ومن حليهم على التوحيد، والحلي اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

نكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينهاله فقطعها بيده وشققها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كتبنا و ﴿موعظة﴾ وتفصيلاً بدل منه، والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي: سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيهه، ولا تقتلوا، ولا تزنا، ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها عطفًا على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فخذ ما آتيتك﴾⁽¹⁾ والضمير في خذها للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء أو للرسالات أو للتوراة ومعنى: ﴿بقوة﴾ جِدْ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿ياخذوا بأحسنها﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو ادخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾⁽²⁾ وقيل: ياخذوا بما هو واجب أو نبي؛ لأنه أحسن من المباح ويجوز أن يراد: ياخذوا بما أمروا به دون ما نهوا عنه على قولك: الصيف أحمر من الشتاء ﴿ساريكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي: مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلهم الله لفسقهم في ممرزم عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم، وقرأ الحسن: ساوريكم وهي: لغة فاشية بالحجاز يقال: أورني كذا، وأوريت، ووجه أن تكون من أوريت الزند كان المعنى بينه لي وأنره لاستبينه، وقرئ: ساورثكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وإورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾⁽³⁾.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمِثَرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يَأْمُرُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آرْشِدٍ لَا يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ اللَّهِ يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٧٩﴾

(4) قال الزيلعي: لم أجده، عن الفضيل بن عياض، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول 473/1.

(1) سورة الأعراف، الآية: 144.

(2) سورة الزمر، الآية: 55.

(3) سورة الأعراف، الآية: 137.

فَمَلَأْنِي مَعَ الْقَوْرِ أَطْلِيلِينَ ﴿٥٦﴾

﴿خلفتومني﴾ قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم: فُرون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخلفني في قومي﴾ (٥) والمعنى: بشس ما خلفتومني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قُلْتُ: أين ما تقتضيه بشس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قُلْتُ: الفاعل مضمَر يفسره ما خلفتومني والمخصوص بالذم محذوف تقديره بشس خلافة خلفتومنيها من بعد خلافتكم.

فإن قُلْتُ: أي معنى لقوله: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله: ﴿خلفتومني﴾؟ قُلْتُ: معناه من بعد ما رأيتم من توحيد الله ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ (٦) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه ونحوه ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ (٧) أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة. يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته فيقال: عجلت الأمر والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو: انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به فبينتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ (٨) إن موسى لن يرجع وأنه قد مات، وروي أنهم عدوا عشرين يوماً لبلياليها ففعلوها أربعين، ثم أحثوا ما أحثوا ﴿والقى الألواح﴾ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل غضباً لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديثاً شديداً الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي: أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقي الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿ولنخذ براس أخيه﴾ أي: بشمر رأسه ﴿يجره إليه﴾ بنؤابته وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته وظناً بأخيه أنه فرط في الكف ﴿ابن أم﴾ قرى: بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، وابن أمي بالياء، وابن أم بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لآبيه

فإن قُلْتُ: لم قال: ﴿من حليهم﴾ ولم يكن الحلي لهم، وإنما كانت عوارى في أيديهم؟ قُلْتُ: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، إلا ترى إلى قوله عزّ وعلا ﴿فاخرجنهم من جنات وعبون * وكنوز ومقام كريم﴾ (١) ﴿كنكك وأورثناها بني إسرائيل﴾ (٢) ﴿جسداً﴾ بدءاً ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار صوت البقر. قال الحسن: إن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقفزه في العجل، فكان عجلاً له خوار، وقرأ علي رضي الله عنه: جوار بالجيء والهمزة من جار إذا صاح، وانتصاب جسداً على البذل من عجلاً ﴿فلم يروا﴾ حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الآلة وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدا فقال ﴿اتخذوه﴾ أي: اقدموا على ما اقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وكانوا ظالمين﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدءاً منهم ولا أول مناكيرهم.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرتة أن يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها لأنّ فاه قد وقع فيها، وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية، وقرأ أبو السميغ: سقط في أيديهم على تسمية الفاعل أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج معناه: سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: حصل في يده مكروه وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبييناً كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرى: لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا بالتاء وربنا بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام ﴿ولن لم تغفر لنا وترحمنا﴾ (٣) الأسف الشديد الغضب ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم﴾ (٤) وقيل: هو الحزين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْمًا قَالَ لِسَاسَةِ عَلَنِيَّوِي مِنْ بَدِيئِ أَصْحَابِي أَنِّي رَأَيْتُكُمْ وَآلَيْهِ الْأَلْوَحُ وَأَعَدَّ رَأْسَ أَخِيهِ يَجْرُدُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْا وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي فَلَا تُخَبِّرْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا

(1) سورة الشعراء، الآيةان: 57 و58.

(2) سورة الشعراء، الآية: 59.

(3) سورة الأعراف، الآية: 23.

(4) سورة الزخرف، الآية: 55.

(5) سورة الأعراف، الآية: 142.

(6) سورة الأعراف، الآية: 138.

(7) سورة الأعراف، الآية: 169.

(8) سورة طه، الآية: 88.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي كلها ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ثم رجعوا ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿وَأَمَّنُوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك العظائم ﴿بِغُفُورٍ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رَحِيمٍ﴾ منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم (3) عام يدخل تحته متخو العجل ومن عداهم عظم جنائتهم أولاً، ثم أرفها تعظيم رحمته ليعلم أنَّ الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بد من حفظ الشريعة وهي: وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُحُبٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَمُونَ ﴿١٤١﴾

﴿ولما سكوت عن موسى الغضب﴾ (4) هذا مثل كان الغضب كان يغيره على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحا كل ذي طبع سليم ونوق صحيح إلا لذلك، و؛ لأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة، وقرئ: ولما سكوت وأسكت أي: أسكته الله أو أخوه باعذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفى غضبه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي القاها ﴿وَفِي نَسْخَتِهَا﴾ وفيما نسخ منها أي كتب والنسخة فعلة بمعنى: مفعول كالخطبة ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً ونحو ﴿لِلرُّؤْيَا يَعْشَرُونَ﴾ (5) وتقول لك ضربت.

وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا يُقِينًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَاسْتَأْذَنَّاكَ بِمَا فَعَلْتُ أَشْهَكَهُ يَأْ إِنِّي إِنِّي لَا فَنَنْتَكَ تُضِلُّ بِنَا مِنْ شَأْنِهِ وَتَهْدِي بِنَا شَأْنَهُ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَاعْفُ بِنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿واختار موسى قومه﴾ أي: من قومه فحنف الجار وأوصل الفعل كقوله:

منا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة

وأمه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد وذلك ادعى إلى العطف والرقعة وأعظم للحق الواجب، و؛ لأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها، و؛ لأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعِفُونِي﴾ يعني: أنه لم يال جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار وبما بلغت طاقته من بذل القوة في مضائتهم حتى قهره واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءُ﴾ فلا تفعل بي ما هو أمْنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إلي، وقرئ: فلا يشمت بي الأعداء على نهى الأعداء عن الشماتة، والمراد: أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولا تجعلني في موجدتك علي وعقوبتك لي قريباً لهم وصاحباً، أو ولا تعتقد أنني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْنِنَا فِي رَحْمَتِكَ رَأَيْتُ أَنْزَحُمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٤٣﴾

لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ ليرضي أخاه ويظهر لاهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه إن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَيْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿غضب من ربهم وذلة﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم والذلة: خروجهم من ديارهم؛ لأن ذل الغربية مثل مضروب، وقيل: وهو: ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية ﴿لِلْمُفْتَرِينَ﴾ المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُهُ مُوسَى﴾ (1) ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، ووضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله. (2)

وَالَّذِينَ عَلِمُوا الْأَمْنَاتِ ثَرَّ تَابُوا مِنْ بَيْنِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَيْنِهِمَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

(1) سورة الاعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساد، وإن مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عند ذلك من الأهواء، والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة غير متمتعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(4) قال أحمد: وهو من النمط الذي قلمته من قلب الحقيقة، إلى المجاز، وكان الأصل، ولما سكوت موسى عن الغضب، ولذلك عذبه بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب =

= المسمار، والتحقيق أنه ليس منه، وإن هذا القلب أشرف، وأفصح؛ لأنه بما له على معنى بليغ، وهو: أن الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صائر، حتى كأنه هو الذي أمره به، ومثل هذه النكتة الحسنة لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى حقيق على أن لا أقول على الله، إلا الحق على خلاف قراءة نافع، وقد تقدم ذلك آنفاً، والله الموفق.

(5) سورة يوسف، الآية: 43.

للفاعل والمفعول بمعنى: حركنا إليك أنفسنا وأملناها، أو حركنا إليك وأملنا على تقدير فعلنا كقولك: عدت يا مريض بكسر العين فعلت من العيادة، ويجوز عدت بالإشمام، وعدت بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون هدنا بالضم فعلنا من هداه يهيده ﴿عذابي﴾ من حاله وصفته إني ﴿أصيب به من إ شاء﴾ أي: من وجب علي في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساع لكونه مفسدة. وأما رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة. فساكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل اللذين يكونون في آخر الزمان من أمة محمد ﷺ الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون لا يكفرون بشيء منها.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَوْدَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو: القرآن ﴿النبي﴾ صاحب المعجزات ﴿الذي يجدونه﴾ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. ويحل لهم الطيبات﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من النبايح، وما خلى كسبه من السحت ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبت في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. الاصر الثقل الذي ياصر صاحبه أي: يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرأ: أصارهم: على الجمع ﴿وعزروه﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، وقرأ: بالتخفيف، وأصل العز: المنع،

حتى تتأمو اثنين وسبعين فقال: ليتخلف منكم رجلان فنشاحوا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاخترهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبأ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما بنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغطى الجبل كله وبنا موسى وبخل فيه وقال للقوم: اننوا فننوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه أفعلا ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية، فوعظهم وزجرهم وأكر عليهم فقالوا: ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ (1) فقال: ﴿رب أرني انظر إليك﴾ (2) يريد أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ وهذا تمن منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا ﴿أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعني: أهلكنا جميعاً يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء وهم طلبوها سفهاً وجهلاً ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً حتى افتتنوا وضلوا ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ تضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدي منه؛ لأن محنته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا، فكانه أضلهم بها وهادهم على الاتساع في الكلام ﴿أنت ولينا﴾ مولانا القائم بأمورنا.

وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الْكِتَابِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِنَّكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَهُمْ يَكِيدُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿واكتب لنا﴾ واثبت لنا واقسم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة ﴿وفي الآخرة الجنة﴾ ههنا إليك تبا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، واليهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم:

ياراكب الذنوب ههنا واسجد كنالك ههنا وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حركه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة أن تهتدوا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا قِيلَ: فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَبِي بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾؟ قُلْتَ: عدل عن المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقه الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو: هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري إظهارًا للنصفة وتفانيًا من العصبية لنفسه.

وَمَنْ قَرَّرَ مُوسَى أَنَّهُ يَهْدُوكَ الْخَلْقَ وَيَهْدُوكَ الْخَلْقَ (١٥٨).

﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ هم: المؤمنون الثابتون من بني إسرائيل لما نكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمنتين: عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى، نكرًا من أمة موقنين ثابتين يهودون الناس بكلمة الحق ويلبسونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعملون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وأمن به من أعقابهم، وقيل: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطًا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتدروا وسألو الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه سنة ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبيلتنا، ونكر عن النبي ﷺ: «إن جبريل ذهب ليلة الإسراء نحوهم فكلهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا؛ قال: هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام، فرد محمد على موسى عليهما السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت»، وعن مسروق قرئ: بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله - يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين - وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئًا؟ من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخير بشريعة محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملا به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أَمَّا وَأَوْجَعًا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ صَرْبٍ فَمَسَاكُ الْفَجَرِ فَأَلْبَسَتْ رِيَّةُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِيًّا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَطَلَّنَا عَلَيْهِمْ

ومنه التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح، ألا ترى إلى تسمية الحد والحد هو المنع و﴿النور﴾ القرآن.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ قُلْتَ: معناه أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قُلْتَ: لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل لاجيب بما هو منطوق على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى وعرض بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُمْنونَ﴾ (١) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وما جاء به، كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وفي أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۚ لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكَوْنُ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ إِنِّي إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ يُؤْتِي الْحَيَاةَ وَيُؤْتِي الْمَوْتَ وَتَحِيَّوْهُ لَكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨).

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من إليكم.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما محله؟ قُلْتَ: الأحسن أن يكون منتصبًا بإضمار أعني وهو الذي يسمى النصب على المدح، ويجوز أن يكون جرًا على الوصف وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض وكذلك ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وفي لا إله إلا هو بيان للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والأماتة غيره ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه، وقرئ: وكلمته على الأفراد وهي: القرآن أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم، وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: كن، وإنما قيل: إن عيسى كلمه الله فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمني

قُلْتُ: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ وبين قوله: ﴿فَكُلُوا﴾⁽²⁾ لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنائها والأكل منها، وسواء قَدِمُوا الحطة على دخول الباب أو آخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَاكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ موعِد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخلُ بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزيد المحسنين. وكذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فَارْسَلْنَا﴾ وانزلنا و﴿يُظْلَمُونَ﴾ ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطيאתكم ونغفر لكم خطاياكم وخطيאתكم وخطيبتكم على البناء للمفعول.

وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَمْدُوتُ فِي الْكَيْبِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سُبَيْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلْوَهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْقُونَ⁽³⁾.

﴿وسلهم﴾ وسل اليهود، وقرئ: واسألهم، وهذا السؤال معناه: التقرير والتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي، ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك أعدوتم في السبت. والقرية أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج. يعني: رجلين من أهل المين ﴿حاضرة البحر﴾ قرية منه رابكة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو: اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ: يعدون بمعنى: يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعنون من الإعداد وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت مصدر، سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعب، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه قوله ﴿ويوم لا يسبئون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم أسبائهم، وقرئ: لا يسبتون بضم الباء، وقرأ علي: لا يسبتون بضم الباء من أسبتوا، وعن الحسن: لا يسبتون على البناء للمفعول أي: لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن قُلْتُ: ﴿إذ يعدون﴾ و﴿إذ تاتيهم﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: أما الأول: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها كانه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوبًا بكانت أو بحاضرة، وأما الثاني: فمنصوب

أَلْعَمَّ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ النَّارَ وَالسَّلَوَى كُتُوبًا مِنْ مَلَكٍ مَّا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ⁽⁴⁾.

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعًا أي: فرقًا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم، وقرئ: وقطعناهم بالتخفيف ﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة؛ والأسباط أولاد جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا من ولد يعقوب عليه السلام.

فإن قُلْتُ: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعًا، وهلا قيل اثني عشر سبطًا؟ قُلْتُ: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطا موضع قبيلة ونظيره.

بين رماحي مالك ونهشل

و﴿أمما﴾ بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أمما؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تاتلف. وقرئ: اثنتي عشرة بكسر الشين ﴿فانبجست﴾ فانفجرت والمعنى واحد وهو: الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وكيف غربي دالج تبجسًا

فإن قُلْتُ: فهلا قيل: فضرِب فانبجست؟ قُلْتُ: لعلم الإلباس وليجعل الإنبجاس مسببًا على الإيحاء بضرِب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، وقوله ﴿كل أناس﴾ نظير قوله: ﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾⁽¹⁾ يريد كل أمة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والآناس اسم جمع غير تكسير نحو رخال وتناء وتوام وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير والضمه بدل من الكسرة كما أبليت في نحو سكارى وغيارى من الفتحة ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ وجعلنا ظليلاً عليهم في التيه و﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وما ظلمونا﴾ وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم. ولكن كانوا يضررون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَذَلُّوا حِطَّةً وَادْعُوا أَبَابَ سَجْدًا تَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ⁽²⁾ بَدَلُ الْوَيْتِ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ⁽³⁾.

﴿وإذ قيل لهم﴾ وانكر إذ قيل لهم: والقرية بيت المقدس.

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟

﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم وقوله: ﴿ألمست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ من باب التمثيل⁽³⁾ والتخييل ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم: ألمست بربكم؟ وكانهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا أقررنا بوحانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾⁽⁴⁾ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين⁽⁵⁾ وقوله:

إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصب قرقر

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ﴿أن تقولوا﴾ مفعول له أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لم ننبه عليه ﴿أو﴾ كراهة أن ﴿تقولوا﴾ إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴿فاقتدينا بهم﴾ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتراء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن قُلْتُ⁽⁶⁾: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قُلْتُ: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيزاً ابن الله، وذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله: ﴿أو تقولوا﴾ إنما أشرك آبائنا من قبل والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطف عليها والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾⁽⁷⁾ وإذا قالت أمة منهم لم تعظون⁽⁸⁾ وإذا تائن ربك⁽⁹⁾ وإذا نتقنا الجبل فوقهم⁽¹⁰⁾ وأتل عليهم نبا الذي أتيناها آياتنا⁽¹¹⁾ أفقتلنا بما فعل المبطلون أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقديمهم فيه وتركه سنة لنا.

إقامة الصلاة فكيف أفردت؟ قُلْتُ: إظهاراً لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿والذين استمسكوا بالكتاب﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا يَوْمَ لَمَلَكْتُمْ نَفْثُونَ﴾⁽¹²⁾.

﴿وإذا نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾⁽¹³⁾ ومنه نتق السقاء إذا نفذه ليقتل الزبدة منه، والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحب، وقرئ: بالطاء من أطل عليه إذا أشرف ﴿وظنوا﴾ أنه واقع بهم ﴿وعلموا﴾ أنه ساقط عليهم وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خز كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً قرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ على إرادة القول أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بقوة﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وانكروا ما فيه﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه أو وانكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه كقوله: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾⁽²⁾ ﴿وانكروا ما فيه﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار ﴿لعلكم تتقون﴾ ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: ﴿وتذكروا﴾، وقرئ: ﴿وانكروا﴾ بمعنى: وتذكروا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽¹⁴⁾ ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَيْنِهِمْ أَفَتَبْلُغُنَا بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ الْبُاطِلُونَ﴾⁽¹⁵⁾.

(6) قال أحمد والظاهر أنها شاملة لجملة بني آدم، فتدخل اليهود في عمومها؛ لأن كل واحد من بني آدم يصلق عليه الأمان جميعاً، أنه ابن آدم، وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا، إلا آدم عليه السلام، وإنما لم ينكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة، باللف اختصاراً، وإيجازاً.

(7) سورة الأعراف، الآية: 163.

(8) سورة الأعراف، الآية: 164.

(9) سورة الأعراف، الآية: 167.

(10) سورة الأعراف، الآية: 171.

(11) سورة الأعراف، الآية: 175.

(1) سورة النساء، الآية: 154.

(2) سورة الرحمن، الآية: 33.

(3) قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى، فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف لمعقول، ويجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثلاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فالله أعلم بذلك.

(4) سورة النحل، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 11.

وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَهُمْ رِجْعُورٌ (١٧٦).

«وكنلك» ومثل ذلك التفصيل البالغ «نفصل الآيات» لهم «ولعلمهم يرجعون» وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفسها. وقرئ: نريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء.

وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْآلِئَةِ مَائِنَتَهُ مَائِنَتَنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٧).

«واتل عليهم» على اليهود «نبا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل: من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله «فانسلخ منها» من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره «فاتبعه الشيطان» فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته وقرئ: فاتبعه بمعنى: فتبعه «فكان من الغاوين» فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟ فالحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ لَّهُمْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٨) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَالْأَكْأَمُونَ (١٧٩) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاطِئُونَ (١٨٠).

«ولو شئنا لرفعناه بها» لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات «ولكنه أخلد إلى الأرض» مال إلى الدنيا ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قلنا: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلنا: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فنكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله: «ولكنه أخلد إلى الأرض» فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو: فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ «فمثله كمثل الكلب» فصفته التي هي مثل في الخسة والضعفة كصفة الكلب في أخس أحواله وأهله. وهي حال نوا الملهث به واتصاله سواء حمل عليه أي: شد عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه الملهث إلا إذا هيج منه وحرك وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهته في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع

قوله «فمثله كمثل الكلب» موضع حططناه أبلغ حط: لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأهله في معنى ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه^(١)، وقيل معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

فإن قلنا: ما محل الجملة الشرطية؟ قلنا: النصب على الحال كأنه قيل: كمثل الكلب نليلاً دائماً النلة لاهتاً في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب «ذلك» مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا» من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، ونكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحن به، «فاقصص» قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم «لعلمهم يتفكرون» فيحذرون مثل عاقبته إذ ساروا نحو سيرته وزاغوا شبه زيفه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم «سواء مثلاً القوم» أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري ساء مثل القوم «وانفسهم كانوا يظلمون» إما أن يكون معطوفاً على كذبوا فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصو انفسهم بالظلم لم يتعدا إلى غيرها «فهو المهتدي» حمل على اللفظ و«فأولئك هم الخاسرون» حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ثُمَّ قَلَّوٓا۟ لَا يَتَّقُونَ بِهَا وَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ وَكَمْ ءَاثَافٌ لَّآ يَتَذَكَّرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَشْمِ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٨١).

«كثيراً من الجن والإنس» هم: المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الأذان، وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلبهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار، ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوفاً عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة ذرة النار^(٢)، ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا، والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ﷺ مع علمهم أنه النبي الموعود وأنهم

(2) أبو عبيدة في كتاب: غريب الحديث، الزيلعي 1/473.

(1) لم يخرج الزيلعي 1/473.

الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ (١٧٦)

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى:

فلو كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء يسلم
ليستدرجك القول حتى تهزه وتعلم أني عنكم غير مفحم
ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى «سنستدرجهم» سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع أنهم لم يغيروا في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجذلاً معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبديد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه.

وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ يَكِيدُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَكِيدُونَ (١٧٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَلْزَمُ غِيْبُهَا (١٧٨)

«وأملى لهم» عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السين «أن يكيدوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَكِيدُونَ» سماء كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان «وما يصاحبهم» بمحمد ﷺ «من جنّة» من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون، وعن قتادة: أن النبي ﷺ: «علا الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله»، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح.

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً إِلَيْهِمْ قَائِلٌ حَاشِيَ بَدَنِهِ يُؤْمِنُونَ (١٧٩) يُضِلُّ اللَّهُ فَعَلَا مَا دَرَى لَمْ يَذَرُوهُمْ فِي مَقَاتِلِهِمْ يَمْعُونَ (١٨٠)

«أولم ينظروا» نظر استدلال «في ملكوت السموات والأرض» في ملكوت السموات والأرض، فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت الملك العظيم (١٧٩) «وما خلق الله من شيء» وفيما خلق الله مما

من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم خلقوا للنار «أولئك كالأنعام» في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبير «بل هم أضل» من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبير «أولئك هم الغافلون» الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨١)

«ولله الأسماء الحسنى» (١) التي هي أحسن الأسماء؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك «فادعوه بها» فسموه بتلك الأسماء «وذروا الذين يلحدون في أسمائهم» واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم (٢): يا أبا الكارم يا أبيض الوجه يا نخي، أو أن يأتوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن وقد قال الله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» (٣) ويجوز أن يراد (٤): والله الأوصاف الحسنى وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصقوه بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشينة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالروية ونحوها، وقيل (٥): الحادهم في أسمائهم تسميتهم الأصنام ألقه، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزير.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٢)

لما قال «ولقد نرانا لهم كثيرًا» (٦) فأخبر أن كثيراً من الثقيلين عاملون بأعمال أهل النار أتبعه قوله «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق» وعن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلاً ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق» (٧) وعنه ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام» (٨) وعن

(1) قال أحمد: أي، مما يجوز عليه، وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالسيف والعارف، ونحو ذلك.

(2) قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد؛ لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا يدل على الحرمان منه على مثل أبيض الوجه، ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(3) سورة الإسراء: الآية: 110.

(4) قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة، والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعاله، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وإن كل قضائه =

= عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وإن وعده الصق، وقوله الحق، وقد وعد رؤيته، فوجب وقوعها إلى غير ذلك من أوصافه الجلية، وذروا الذين يلحدون في أوصافه، فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا يشمل قدرته المخلوقات، بل هي مقوسمة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويجحدون واسعاً من مغفرته، وعقوده، وكرمه على الخاطئين، من موحديه إلى غير ذلك من الإلحاد، المعروف بالطائفة المتلقين عليه المركزين، لأنفسهم، وهو أعلم بمن اتقى.

(5) قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(6) سورة الأعراف، الآية: 179.

(7) الثعلبي في تفسيره.

(8) رواه أحمد في مسنده 4/429.

(9) رواه الطبراني في تفسيره.

متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت وأيّ فعل من أويت إليه؛ لأنّ البعض أو إلى الكل متساند إليه قاله ابن جني وأبى أن يكون من أين لأنه زمان وأين مكان، وقرأ: السلمي إيان بكسر الهمزة «مرساها» إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره، ومنه رسي الجبل وأرسي السفينة والمرسي الأنجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة بدليل قوله: «ثقلت في السموات والأرض» والمعنى: متى يرسيها الله؟ «إنما علمهما» أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه ليكون ذلك ادعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو: وقت الموت لك «لا يجليها لوقتها إلا هو» أي: لا تزال خفية لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها «ثقلت في السموات والأرض» أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهله شأن الساعة وبوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها؛ لأنّ أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدنا وأموالنا أو؛ لأنّ كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها «إلا بغتة» إلا فجأة على غفلة منكم، وعن النبي ﷺ: إنّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه⁽¹⁾ «كانك حفي عنها» كانك عالم بها، وحقيقته كانك بليغ⁽²⁾ في السؤال عنها؛ لأنّ من بالغ في المسألة عن الشيء والتفتير عنه استحكم علمه فيه ورصن، وهذا التركيب معناه: المبالغة، ومنه إحقاق الشارب، واحتفاء البقل استتصاله، وأحفى في

يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف «وأن عسى» أن مخففة من الثقيلة والأصل وأنه عسى على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى «أن يكون قد اقترب أجلهم» ولعلمهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب؛ ويجوز أن يراد باقترب الأجل اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن.

فإن قلّت: بم يتعلق؟ قوله: «فبأي حديث بعده يؤمنون» قلّت: بقوله: «عسى أن يكون قد اقترب أجلهم» كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأي حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا. قرئ: وينذرهم بالياء والنون والرفع على الاستئناف، وينذرهم بالياء والجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد وينذرهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ نُفَخُّ فِي السَّكَاتِ وَالْأَنبُيَاءُ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَنَّةٌ يُسْأَلُونَكَ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

«يسئلونك» قيل: إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فلنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّ الله تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قریش. والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق «أيان» بمعنى:

= بسطه، ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير، لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله: «عجل» لنا هذا، والحقنا بذا ال الشحم إننا قد مللناه بجل، أي: فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى نكرها، وأبقى الأولى في مكانها، ومن ثم استدل ابن جني على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن قال: ولو كان بيتاً ولحداً لم يكن عهد الأولى متباعدًا، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، ألا ترى أن عبيدًا لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأول آل لم يعدها أول المصراع الثاني؛ لأنه بيت واحد، فلم ير بعدها بعيداً، وذلك قوله:

يا خليلي أربعاً ولست تجرا آل منزل الدراس من أهل الحلال
مثل سحق البرد عفى بعدك آل قطر مغتاء وتاويب الشمال
ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فأنظر هذه النكتة كيف بلغت العرب في رعايتها، حتى عدت القريب بعيداً، والمتقاصر مبدئاً، فتأملها، فإنها تحفة إنما عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية، والبيان، والله المستعان.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: (40) الحديث رقم: 6506) ومسلم في كتاب: الفتن وأشراف الساعة، باب: قرب الساعة، (الحديث رقم: 7339).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى، إلا في هذا الكتاب العزيز، وهو لجل من أن يشارك فيها، وذلك أنّ المعهود في أمثال هذا التكرير، أنّ الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في أثناءه عارض، فآريد الرجوع لتتيمم المقصد الأول، وقد بعد عهده طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببديته، وقد تقدّم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: «يسئلونك عن الساعة أيان مرساها» ثم اعترض نكر الجواب المضمن في قوله: «قل إنما علمها عند ربي»، إلى قوله «بغتة» أريد تميم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كانك حفي عنها، وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى نكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى، إلا بنوع من الإجمال، كالنكتة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدّم، فمن ثم قيل يسألونك، ولم يذكر المسؤول عنه، وهو الساعة اكتفاء بما تقدّم، فلما كثر السؤال لهذه الفائدة كثر الجواب أيضاً مجعلاً، فقال قل إنما علمها عند الله، ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد =

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ حَامِلٌ قَامَتْ بِهِ. فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاكَ اللَّهُ رَبَّهَا أَنْ مَاتَيْنَا ذَلِكُمْ فَكَوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا مَاتَهُمَا صَبَّاهُمَا كَهَنًا كَرِهَ اللَّهُ عَنِ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾^(١) ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفّر؛ لأنّ الجنس إلى الجنس أميل وبه أنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكن والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وقال: ﴿ليسكن﴾ فذكر بعد ما أتت في قوله واحدة منها زوجها ذهباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم؛ لأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى. والتغشي كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ خف عليها ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته ﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إحداج ولا إزلاق، وقيل: ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ يعني: النطفة فمرت به فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به بالتخفيف، وقرأ غيره: فماتت به من المربة كقوله: ﴿اقتمارونه﴾^(٢) واقتمارونه، ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل فارتابت به ﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت، وقرئ: أثقلت على البناء للمفعول أي: أثقلها الحمل دعوا الله ربهما دعا آدم وحواء ربهما وملك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحاً﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولداً نكراً؛ لأنّ الذكورة من الصلاح والجودة والضمير^(٣) في آتيتنا و ﴿لنكونن﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ﴿فلما آتاهما﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلاً له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فيما آتاهما﴾ أي: أتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك بقوله:

المسألة إذا الحف، وحفي بفلان وتحفى به بالغ في البر به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت، وقرأ ابن مسعود: كأنك حفي بها أي: عالم بها بليغ في العلم بها، وقيل: عنها متعلق بيسئلكون أي: يسئلكونك عنها كأنك حفي أي: عالم بها، وقيل: إن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلكونك عنها كأنك حفي تنحفي بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به لكنك مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص كسائر ما أوحى إليك، وقيل: كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحد من خلقه.

فإن قلت: لم كرر ﴿يسئلكونك﴾ وإنما علمها عند الله؟ قلت: للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه العالم بها وأنه المختص بالعلم بها.

قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْمِدْ صُرَاتِي لِيَسْخَرَنَّ مِنْ أَلَمِيَّ وَمَا سَخَّرَ اللَّهُ لِي أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَمِنْ لَدُونِ يَدَيْهِ يُفْرِغُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿قل لا أملك لنفسي﴾ هو: إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما المماليك والعبيد ﴿إلا ما شاء﴾ ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغفار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسي شيء منها، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ورايحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً ومخطئاً في التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد أرسلت نذيراً وبشيراً وما من شائي أني أعلم الغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً؛ لأنّ النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً أي: إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

= اكفره إن الإنسان لفي خسر﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبه، والمراد البعض، فهذا السؤال، وارد على التاويلات الثلاثة، وجوابه واحد، ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التاويل الأول، ومما ينصرف إلى التاويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه، وكون المراد بذلك أن يسكن إليها، لأنّ ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) سورة النجم، الآية: 12.

(3) قال أحمد: وأسلم من هذين التفسيرين، وأقرب، والله أعلم أن يكون المراد: جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المغني، والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس، الذي هو الذكر الجنس الآخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسيتين كيت، وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون؛ لأنّ المشركين منهم إذا ما مت لسوف أخرج حياً، ﴿وقتل الإنسان ما

فقيل: إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحدائكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

إِنَّ الَّذِينَ نَدُّوا مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ فَقَدْ دُعُوا فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصِيرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دُونِ الله ﴿عِبَادُ أُنثَالِكُمْ﴾ وقوله: عباد أمثالكم استهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ﴾ بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم والمعنى: ما الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُوا﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم ﴿فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خُوفوه ألَهِتَهُمْ فأمروا أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (4) قال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (5).

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ إِلَهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ نَدُّوا مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُصِيرُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿إِنْ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ أي: ناصرني عليكم الله ﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي أوحى إلي كتابه وأعزني برسالته ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ ومن عاتته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صَوَّروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وهم لا يبصرون﴾ وهم لا يدركون المرنئي.

خُذِ الزُّلْفَىٰ وَاشْرِي بِالْفَرْقِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿الْعَفْوُ﴾ ضد الجهد أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تدأقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» وقال: خذي العفو مني تستدلمي مودتي ولا تنطقي في سورتني أغضب

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ حيث جمع الضمير وأدم وحواء بريثان من الشرك ومعنى: إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم، ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم: آل قصي، ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد (1).

فيالقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يباري وسود ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ: شركاً أي: نوي شرك وهم: الشركاء، أو أحدثا لله شركاً في الولد.

أَشْرِكُوا مَا لَا خَلْقَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿٨١﴾.

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله ﴿وهم يخلقون﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يخلقون؛ لأن الله عز وجل خالقهم أو لا يقدر على اختلاق شيء لانه جماد وهم يخلقون لأن عببتهم يخلقونهم فهم أعجز من عببتهم ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ لعببتهم ﴿نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾ فينفعون عنها ما يعترئها من الحوائث، بل عببتهم هم الذين ينفعون عنهم ويحامون عليهم.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لَا يَسْمَعُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَاغِرُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وإن تدعوهم﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إلى الهدى﴾ أي: إلى ما هو هدى ورشاداً وإلى أن يهدوكم، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى لا يتبعوكم إلى مراتبكم وطلبكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ويدل عليه قوله: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صائقين﴾ (2) ﴿سواء عليكم ادعوتهم أم صمت عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم﴾.

فإن قلت: هلا قيل أم صمتهم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبه أمر دعوا الله دون أصنامهم كقوله: ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ (3) فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم،

(4) سورة هود، الآية: 54.

(5) سورة هود، الآيتان: 54 و55.

(1) رواه الحاكم في المستدرک 9/3.

(2) سورة الاعراف، الآية: 194.

(3) سورة الروم، الآية: 33.

فإن قلْتُ: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قلْتُ: المراد به الجنس كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾⁽⁴⁾.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَتَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِنِّي أَنذَرُكُمْ بَأْسَ رَبِّكُمْ فَآخَرُونَ^(١٣٧).

اجتنبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه أي: جمعه، كقولك: اجتمعوا، أو جبي إليه فاجتباها أي: أخذه، كقولك: جلبت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى ﴿لولا اجتبيتها﴾ هلا اجتمعتها افتعلاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا فك مفترى أو هلا أختتها منزلة عليك مقترحة ﴿قل إنما اتبع ما يوحى إلي من ربي﴾. ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها ﴿هذا بصائر﴾ هذا القرآن بصائر ﴿من ربكم﴾ أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(١٣٨).

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له، وقيل معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَسِيكَ تَنْزِعًا وَحِيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ^(١٣٩).

﴿وانكسر ربك في نفسك﴾ هو: عام في الأنكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل وغير ذلك ﴿تنزعاً وخيفة﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿ودون الجهر﴾ ومتكلاً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكير ﴿بالغدو والأصال﴾ لفضل هذين الوقتين، أو أراد الدوام ومعنى بالغدو: بأوقات الغدو وهي الغدوات، وقرئ: والإيصال من أصل إذا دخل في الأصل كاقصر وأعتم وهو مطابق للغدو ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ من الذين يغفلون عن نكر الله ويلهون عنه.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْكَرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ^(١٤٠).

﴿إن الذين عند ربك﴾ هم: الملائكة صلوات الله عليهم، ومعنى: عند دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ﴿وله يسجدون﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل نزول آية الزكاة فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ ولا تكافيه السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم، وقيل: لما نزلت الآية سال جبريل فقال: لا أنري حتى أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك^(١)، وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَبِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١٤١) إِنَّ الْكَاذِبَ أَتَقَرُّ إِذَا سَمِعَ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ^(١٤٢) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّرُهُمْ فِي الْغَى ثُدَّ لَا يُفْصِرُونَ^(١٤٣).

﴿وإما ينزغك من الشيطان نزغ﴾ وإما ينخسك منه نخس بأن يحمك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فاستعذ بالله﴾ ولا تطعه النزغ والنسغ الغرز والنخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لم تنزل قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب»⁽²⁾ فنزل و ﴿إما ينزغك من الشيطان نزغ﴾ ويجوز أن يراد بنزع الشيطان: اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه: إن لي شيطاناً يعتريني⁽³⁾ ﴿طيف من الشيطان﴾ لمة منه مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً قال:

أنني لم أبك الخيال بطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل من طاف يطيف كلين، أو من طاف يطوف كهين، وقرئ: طائف وهو يحتمل الأمرين أيضاً، وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عابثهم إذا أصابهم أننى نزغ من الشيطان والإمام بوسوسته ﴿تذكروا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد، وادفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإن الشياطين يمدونهم في الغي أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم وقرئ: يمدونهم من الإمداد ويمدونهم بمعنى: يعاونونهم ﴿ثم لا يقصرون﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أن الخبر جار على غير ما هو له، ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هو له، والأول أوجه؛ لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

(3) أخرجه الزيلعي في مسنده 481/1.

(4) سورة البقرة، الآية: 257.

(1) رواه الطبراني في تفسيره.

(2) رواه الطبراني في تفسيره.

المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اطرحة في القبض، فطرحتة وبني ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال: «فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذ»⁽³⁾، وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسّمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين⁽⁴⁾، وقرأ ابن محيصن: يسألونك علفنال يحنّف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام، وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال، أي: يسالك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال.

فإن قلّت: ما معنى الجمع بين نكر الله والرسول في قوله ﴿قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؟ قلّت: معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمثّل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، والمراد أن الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم بالتنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متآخين في الله ﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسّموا غنائمكم بالعدل فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض.

فإن قلّت: ما حقيقة قوله ذات بينكم؟ قلّت: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق كقوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾⁽⁵⁾ وهي مضمراتها لما كانت الأحوال ملاسمة للبين قيل لها: ذات البين كقولهم: أسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب، وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ومعنى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم كاملي الإيمان، واللام في قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إليهم أي: إنما الكاملون الإيمان من صفتهم كيت وكيت والليل عليه قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ «وجعلت قلوبهم»

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شافعياً له يوم القيامة»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال مدنية

يَسْتَوُونَ عَنِ الْإِنْفَالِ قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

النفل الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال البيد:

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرَ نَفْلٍ

والنفل ما ينفله الغازي أي: يعطاه زائداً على سهمه من المغنم، وهو: أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه، أو ربعه، ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه، وعند الشافعي رحمه الله في أحد قولي: لا يلزم، ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ ف قيل له: قل لهم: هي لرسول الله ﷺ، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداً لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم⁽²⁾، وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك، فنزلت، وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن الله قد شفى صدري من

(4) رواه أحمد في مسنده (322/5).

(5) شطر آية ورد في اثني عشر موضعاً منها: سورة آل عمران، الآية: 119.

(1) نكره ابن الجوزي في الموضوعات والتعلبي والبيلمي، الزيلعي / 483.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في التفل، (الحديث رقم: 2737)، والحاكم في المستدرک 326/2.

(3) رواه أحمد في مسنده (181/1) وأبو عبيدة في الأموال (الحديث رقم 756).

فقال له: هلا اقتديت به في قوله: ﴿أولم تؤمن قال بلى﴾ (4) **﴿درجات﴾** شرف وكرامة وعلو منزلة **﴿ومغفرة﴾** وتجاوز لسيئاتهم **﴿ورزق كريم﴾** نعيم الجنة، يعني: لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم وهذا معنى الثواب.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۖ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْآثَوَاتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِلَّا يَذُكُّهُمُ اللَّهُ إِحْدَى الظَّالِمَاتِ إِنَّهَا لَكُم مَّوَدُّونَ ۚ إِنَّ عَذْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَرَثَةً إِنَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مَنَةٍ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّلُكُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شَرِيفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلَظَمِينَ بِكُمْ قُلُوبَكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يَنْفِيكُمُ الْمَلَائِكَةُ أَمَّا مَنْ بَدَّلَ اللَّهُ عَنْكُمْ مِنَ التَّنَكُّوْءِ مَا يُطِيعُكُمْ بِهِ ۖ وَرَبُّهُمُ عِنْدَ رَجْرِ الشَّيْطَانِ لَرِيبًا عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَرَيْبٌ مِنَ الْآفَاقِ ۖ ﴿١١﴾

﴿كما أخرجك ربك﴾ (5) فيه وجهان: أحدهما: أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك يعني: أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: **﴿الأنفال لله والرسول﴾** (6) أي: الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون و **﴿من بيتك﴾** يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجرة ومسكنه فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه **﴿بالحق﴾** أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه **﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾** في موضع الحال أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون ركاباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم،

فزعت، وعن أم الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإن الدعاء يذهب، يعني فزعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ويطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** (1)؛ لأن ذلك ذكر رحمته ورافقه وثوابه، وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهجم بمعضية فيقال له: اتق الله فينزع، وقرئ: وجلت بالفتح وهي لغة نحو وبق في وبق، وفي قراءة عبد الله: فرقت **﴿زانلهم إيماناً﴾** ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة نفس؛ لأن تظاهر الأدلة أقوى للملول عليه وثابت لقدمه وقد حمل على زيادة العمل، وعن أبي هريرة رضي الله عنه الإيمان سبع وسبعون شعباً أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وإبناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعب من الإيمان (2)، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه، جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

﴿حقاً﴾ صفة للمصدر المحذوف أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي: أولئك هم المؤمنون كقولك: هو عبد الله حقاً أي: حق ذلك حقاً، وعن الحسن: أن رجلاً سأل أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان: فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والجنة، والنار، والبعث، والحساب فإنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: **﴿إنما المؤمنون﴾** فوالله لا أدرى أمنهم أنا أم لا؟ وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه يعني: كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً، وبهذا تعلق من يستثنى في الإيمان، وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ممن لا يستثنى فيه، وحكي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثنى في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: **﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾** (3)

= ينكر في معنى الآية وجهاً أوجه من هذين، وهو أن المراد: تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة، والجزاء بإخراجها من بيته مطيعاً لله تعالى سامعاً لأمره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة، فشبّه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية، فكما بلغت طاعة الغاية في نوع الطاعات، فكذلك بلغت إثابة الله له، الغاية في جنس المثوبات، وجماع هذا المعنى هو: المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام الأجر، على قدر النصب، ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة، ومنصوبة على حسب التقدير، والله الموفق.

(6) سورة الأنفال، الآية: 1.

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: عدد شعب الإيمان (الحديث رقم: 151) وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في رد الإرجاء (الحديث رقم: 4676)، والترمذي في كتاب: الإيمان باب: ما جاء في استكمال الإيمان وزينته ونقصانه (الحديث رقم: 2614)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائطه، باب: شعب الإيمان (الحديث رقم: 5004)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: في الإيمان (الحديث رقم: 57).

(3) سورة الشعراء، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 265.

(5) قال أحمد: وكان جدي أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله،

منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسرنا على بركة الله، ففرح رسول الله ﷺ وبسطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكائي الآن انظر إلى مصارع القوم»، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس بونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه، لا يصلح فقال له النبي ﷺ: «لم؟» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك⁽²⁾، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: «وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون» والحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير.

﴿بعد ما تبين﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للغير، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب، وذلك لكرهتهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فرغهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها، وقيل: كان خوفهم لقلة العدد وأنهم كانوا رجالة، وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان ﴿إن﴾ منصوب بإضمار انكر. ﴿أنها لكم﴾ بدل من إحدى الطائفتين والطائفتان العير والنفير ﴿غير ذات الشوك﴾ العير؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوك كانت في النفير لعدهم وعنتهم، والشوك الحدة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال: شوك القنا لشباهاء، ومنها قولهم: شائك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير؛ لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة ولا تريون الطائفة الأخرى ﴿أن يحق الحق﴾ أن يثبت ويعلية ﴿بكلماته﴾ بآياته المنزل في محاربة ذات الشوك، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، والدابر الآخر فاعل من دبر إذا أوبر، ومنه دابرة الطائر، وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال⁽³⁾ يعني: أنكم تريون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور وإن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرابين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوك وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلبتكم وأعزكم وأنلهم، وحصل لكم ما لا تعارض أنناه العير وما فيها. وقرئ بكلمته على التوحيد.

فنادى أبو جهل فوق الكعبة، يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب ونلول، غيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تغفلوا بعدها أبداً. وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة، فحث بها العباس، فقال أبو جهل: ما يرضي رجالهم أن يتنبؤوا حتى تنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير، فليل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر ونقيم القينات والمعارف ببدر فيتسمع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يصب العير وإننا قد أعضضناه، فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله وعيدكم إحدى الطائفتين إنا العير وإنا قريشاً، فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب ونلول فالعير أحب إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم رند عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله عليك بالغير ودع العدو، فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فإننا معك حيث لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾⁽¹⁾ ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار»؛ لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا براء من نمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع آبائنا ونساءنا، فكان النبي ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عود دمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريتنا يا رسول الله؟ قال: أجل قال: قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أرتبت، فولذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف

(1) سورة المائدة، الآية: 24.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الأنفال، (الحديث رقم: 3080) وأحمد في مسنده 1/229، والحاكم في المستدرک 2/327.

(3) قال أحمد: والتحقيق في التمييز بين الكلامين، أن الأول ذكرت الإراءة فيه مطلقاً، غير مقيدة بالواقعة الخاصة، كأنه قيل وتوئون =

= أن غير ذات الشوك تكون لكم، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق، وتحقيق الكفر على الإطلاق، وإلزامه أن يحق الحق، ويبطل الباطل خصكم بذات الشوك، فبين الكلامين عموم، وخصوص، وإطلاق، وتقييد، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى، بنكره على وجهين إطلاق، وتقييد، والله أعلم.

السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة، وقرئ: مرففين بكسر الدال وفتحها من قولك ردفه إذا تبعه ومنه قوله تعالى: ﴿ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾⁽⁴⁾ بمعنى: ردفكم وأردفته إياه إذا اتبعته، ويقال: أردفته كقولك: اتبعته إذا جثت بعده فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى: متبعين أو متبعين، فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو من أن يكون بمعنى متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى متبعين إياهم المؤمنين أي: يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقاتهم ليكونوا على أعينهم وحفظهم، أو بمعنى: متبعين أنفسهم ملائكة آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾⁽⁵⁾ ﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾⁽⁶⁾ ومن قرأ مرففين بالفتح فهو بمعنى: متبعين أو متبعين. وقرئ: مرففين بكسر الراء وضمتها وتشديد الدال وأصله مرتدفين أي: متردفين أو متبعين من ارتدغه فاندغمت تاء الافتعال في الدال فالتقى ساكنان فحزكت الراء بالكسر على الأصل، أو على اتباع الدال، وبالضم على اتباع الميم، وعن السدي: بألف من الملائكة على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران.

فإن قلَّت: فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المرففين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين والمرففين بارتدافهم غيرهم؟ قلَّت: بأن المراد بالألف من قاتل منهم أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم.

فإن قلَّت: إلام يرجع الضمير في ﴿وما جعله﴾؟ قلَّت: إلى قوله: ﴿إني ممدكم﴾ لأن المعنى: فاستجاب لكم بإمدادكم.

فإن قلَّت: ففيم قرأ بالكسر؟ قلَّت: إلى قوله: ﴿إني ممدكم﴾ لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر كالكسبة لبني إسرائيل يعني: أنكم استغنتم وتضرعتم لقلتمكم ونلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً منكم وربطاً على قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله ﴿إذ يغشاكم﴾ بدل ثان من ﴿إذ

فإن قلَّت: بم يتعلق قوله ﴿ليحق الحق﴾؟ قلَّت: بمحذوف تقديره ليحق الحق، ويبطل الباطل فعل ذلك ما فعله إلا لهما وهو: إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قلَّت: ليس هذا تكريراً قلَّت: لا، لأن المعنيين متباينان وذلك أن الأول تمييز بين الإراتين، وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو: سيد الأغراض، ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينتطبق عليه المعنى، وقيل: قد تعلق بيقطع.

فإن قلَّت: بم يتعلق ﴿إذ تستغيثون﴾ قلَّت: هو بدل من ﴿إذ يعيدكم﴾ وقيل: بقوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾، واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله ويقولون أي ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا، وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعنتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فآخذه أبو بكر رضي الله عنه فآلقاه على منكبيه والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك⁽¹⁾ ﴿إني ممدكم﴾ أصله باني ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله، وعن أبي عمرو: أنه قرأ إني ممدكم بالكسر على إرادة القول أو على إجراء استجاب مجرى قال: لأن الاستجابة من القول.

فإن قلَّت: هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قلَّت: اختلف فيه فقيل: نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب، في صور الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخو أئناها بين أكتافهم فقاتلت، وقيل: قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروي أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خرّ مستلقياً وشق وجهه، فحث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذاك من مدد السماء⁽²⁾، وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضره يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي⁽³⁾، وقيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكترون

(4) سورة النمل، الآية: 72.

(5) سورة آل عمران، الآية: 124.

(6) سورة آل عمران، الآية: 125.

(1) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (الحديث رقم: 4563).

(2) نفس الحديث السابق.

(3) ذكره ابن هشام في السيرة 1/633.

وناموا فاحتلم أكثرهم، فقال لهم: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنباء وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهلكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة، فحزنوا حزناً شديداً واشفقوا، فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، واتخذ رسول الله ﷺ وأصحابه الحياض على عدوة الوادي وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبّد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس⁽⁴⁾، والضمير في به للماء، ويجوز أن يكون للربط؛ لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة ثبتت القدم في مواطن القتال.

إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَيْ مَعَكُمْ فَيَنْتَوِي الْأَيْتِ أَمْثَلُ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الْأَيْتِ كَمْثَرَا أَرْعَبَ فَاضْرِبُوا قَوْقُ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِثْمَ كَلَّ بَنَانٍ (١٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُنَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَلِمَاتٍ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٧).

﴿إِنْ يُوحَى﴾ يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من ﴿إِنْ يَعْبُدُكُمْ﴾ وأن ينتصب بيبثت ﴿إِنِّي معكم﴾ مفعول يوحى وقرئ: إني بالكسر على إرادة القول أو على إجراء يوحى مجرى يقول، كقوله: ﴿إِنِّي معكم﴾⁽⁵⁾ والمعنى: إني معيكم على التثبيت فثبتوهم وقوله ﴿سألي... فاضربوا﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: ﴿إِنِّي معكم﴾ فثبتوا، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النصر، ويجوز أن يكون غير تفسير وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة، وقيل: كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، ويمشي بين الصفيين فيقول: أبشروا فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ: الرعب بالتحقيق ﴿فوق الأعناق﴾ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها

يعبدكم﴾ أو منصوب بالنصر، أو بما في ﴿من عند الله﴾ من معنى الفعل، أو بما جعله الله، أو بإضمار انكر⁽¹⁾، وقرئ: يغشيكم بالتخفيف والتشديد ونصب النعاس والضمير لله عز وجل و ﴿أمنة﴾ مفعول له.

فإن قلّ: إما يجب أن يكون فاعل الفعل المعلن والعلّة واحداً؟ قلّ: بلى ولكن لما كان معنى: يغشاكم النعاس تنعسون انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم، والمعنى: إذ تنعسون أمنة بمعنى: أمناً أي: لأنكم و ﴿منه﴾ صفة لها أي: أمنة حاصلة لكم من الله عز وجل.

فإن قلّ⁽²⁾: فعلى غير هذه القراءة قلّ: يجوز أن تكون الأمنة بمعنى: الإيمان أي: ينعسكم إيماناً منه، أو على يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً.

فإن قلّ: هل يجوز أن ينتصب على أن الأمنة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم أي: يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو: لأصحاب النعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل تلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم، وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلّ: لا نبعد فصاحة القرآن عن احتماله وله فيه نظائر وقد ألم به من قال:

يهاب النوم أن يغشي عيونا تهابك فهو نفاشرود وقرئ: أمنة بسكون الميم ونظير أمن أمنة حيي حياة، ونحو: أمن أمنة رحم رحمة والمعنى: أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقبوا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان⁽³⁾ ﴿وينزل﴾ قرئ: بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الشعبي: ما ليظهركم به، قال ابن جني: ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره فكانه قال: ما للظهور، و ﴿رجز الشيطان﴾ وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش وقيل: الجنباء؛ لأنها من تخييله، وقرئ: رجس الشيطان، وذلك أن إبليس تمثل لهم وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء ونزل المسلمون في كثيب أعر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء

= السؤال أن يقول المعتبر أن يكون فاعل الفعل متصفاً بالعلّة، كما هو متصف بالفعل والباري عز وجل، وإن كان خالق الأمنة للبعد، وكان بها أمناً، فالعبد هو الفاعل اللغوي، وإن كان الله تعالى هو الفاعل حقيقة، عقيدة وحينئذ يفتقر السؤال إلى الجواب السالف، والله الموفق.

(2) قال أحمد: وجه حسن بشرط الأدب في إسقاط لفظة التخييل، وقد تقدمت له أمثاله.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 499/2 (الحديث رقم: 4219).

(4) ذكره الثعلبي والطبري في تفسيرهما، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

(5) سورة الانفال، الآية: 9.

(1) قال أحمد: ومثل هذا النظر يجري عند قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، لأن فاعل الإرادة، هو: الله عز وجل، وفاعل الخوف، والطمع هم، وقد انتصبا مفعولاً لهما، فالجواب أنه لما كان الله تعالى إذا أراهم البرق راوه كانوا فاعلين في المعنى، وكان المعنى، وهو الذي يريكم البرق، فتروته خوفاً وطمعاً، فهذا مثل آية الانفال، فإن المفعول في المعنى فاعل، وسيأتي مزيد بحث في هذه النكتة، وقد جرى القلم بتعجيلها ههنا، وذلك أن لقاتل أن يقول فاعل يغشى النعاس إياهم هو الله تعالى، وهو فاعل الأمنة أيضاً، وخالفها، وحينئذ يتحد فاعل الفعل، والعلّة، فيرتفع السؤال، ويؤول الإشكال على قواعد السنة، التي تقتضي نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى، على أنه خالقها ومبدعها، ولمورد

الصبي إذا دبَّ على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا فضلاً أن تذاونهم في العدد أو تساوهم، أو حال من الفريقين أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً، وتقدمه نهى لهم عن الفرار يومئذ.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَمَرَةٌ عَلَيْهِ﴾ إلا متحرِّفاً للقتال هو: الكرّ بعد الفرّ يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو: باب من خدع الحرب ومكابدها ﴿أو متحيزاً﴾ أو منحازاً ﴿إلى فئة﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها، وعن ابن عمر رضي الله عنه: خرجت سرية وأنا فيهم ففروا، فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت يا رسول الله: نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فتتكم⁽¹⁾، وإنهزم رجل من القاسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلك، فدرت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فتتكم⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

فإن قلّت: بم انتصب ﴿إلا متحرِّفاً﴾؟ قلّت: على الحال وإلا لغو، أو على الاستثناء من المولين أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرِّفاً أو متحيزاً. وقرأ الحسن بديره بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز.

لَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَئِنْ لِّلْزَوَّارِ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٧)

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وأقبلوا على التفاوض فكان القاتل يقول: قتلتم، وأسرت⁽³⁾، ولما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك، اللهم إني أسالك ما وعدتني، فأنه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شأهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فأنهزموا، ورفههم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم⁽⁴⁾ فقبل لهم ﴿فلم

مفصل، فكان إيقاع الضرب فيها حرّاً وتطبيراً للرؤوس، وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني: ضرب الهام قال:

وأضرب هامة البطل المشيح وغشيته وهو في جأوه بأسلة عصباً أصاب سواء الرأس فانفلقا

والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى؛ لأن الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً، ويجوز أن يكون قوله: ﴿سألقي﴾ إلى قوله: ﴿كل بنان﴾ عقيب قوله: ﴿فقتبوا الذين آمنوا﴾ تلقيناً للملائكة ما يثبتونهم به، كانه قال: قولوا لهم قلبي ﴿سألقي﴾ في قلوب الذين كفروا للربيب، أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم فقيل: قولوا لهم قلبي ﴿سألقي﴾ فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

نلك إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ومحل الرفع على الابتداء ﴿وبأنهم﴾ خبره أي: نلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم، والمشاقة مشتقة من الشق؛ لأن كلا المتعابدين في شق خلاف شق صاحبه، وستلت في المنام عن اشتقاق المعادة فقلت: لأن هذا في عدوة وذلك في عدوة كما قيل: المخاصمة والمشاقة؛ لأن هذا في خصم أي في جانب وذلك في خصم، وهذا في شق وذلك في شق، والكاف في نلك لخطاب الرسول عليه السلام أو لخطاب كل واحد وفي:

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوا وَعَذَابَ ٱلْكَافِرِينَ ۖ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨)

﴿نلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات ومحل نلكم الرفع على نلكم العقاب أو العقاب نلكم ﴿فذوقوه﴾ ويجوز أن يكون نصباً على عليكم نلكم فذوقوه كقولك: زيداً فاضربه ﴿وأن للكافرين﴾ عطف على نلكم في وجهيه، أو نصب على أن الواو بمعنى: مع، والمعنى: نوقوا هذا العذاب العاجل مع الأجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقرأ الحسن: وإن للكافرين بالكسر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَاً فَلَا تُولُوهُمْ أَدْبَاراً (٩) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤْخِذْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزاً إِلَىٰ إِكْ وَفَرٍ فَقَدْ بَكَتْ يَخْضِبُ مِنْهُ ٱللَّهُ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَلَئِنْ لِّلْخَبِيرِ (١٠)

﴿زحفاً﴾ حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الدهم الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف أي: يدبّ بديباً من زحف

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (الحديث رقم: 1716) وأحمد في مسنده (86/2).

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 538/12 كتاب الجهاد باب الفرار من الزحف.

(3) قال أحمد رحمه الله: أوضح مصداق في التمييز بين الحقيقة، والمجاز ألا تراك تقول للبليد ليس بحمار، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجاوز إنه حمار، فإذا ثبت لك أن من ميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة، فافهم أن هذه الآية تكف =

= وجوه القدرية بالرّد، وذلك أن الله تعالى أثبت الفعل للخلق، ونفاه عنهم، ولا حمل لذلك، إلا أن ثبوته لهم مجاز، والفاعل، والخالق حقيقة، هو: الله تعالى، فأثبتته لهم مجازاً، ونفاه عنهم، حقيقة، وإياك أن تعرج على تعكيس الزمخشري في تأويل الآية، فإنه نظر أعوج، وباطل مخلق، والحق أبلج، والله الموفق بكرمه.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (الحديث رقم: 4595).

تستفتحوا خطاب للمؤمنين ﴿وإن تنتهوا﴾ خطاب للكافرين يعني: وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فهو خير لكم﴾ وأسلم ﴿وإن تعودوا﴾ لمحاربته ﴿نعد﴾ لنصرته عليكم ﴿وإن الله﴾ قرئ بالفتح على ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك، وقرئ: بالكسر وهذه أوجه، ويعضدها قراءة ابن مسعود والله مع المؤمنين. وقرئ: ولن يغني عنكم بالياء للفصل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ولا تولوا﴾ قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها، والضمير في ﴿عنه﴾ لرسول الله ﷺ؛ لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله ﷺ كقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ (١) ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٢) فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع فلا فلان، ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامتناله وأنتم تسمعون، أو ولا تتولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي: تصنفون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ أي: ادعوا السماع ﴿وهو لا يسمعون﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين فكانهم غير سامعين، والمعنى: أنكم تصنفون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كلاً تصديق، وأشبهه سماعكم سماع من لا يؤمن.

إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالزَّبْحُ لَا يُعْقِلُون ﴿٦٩﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُرْضُونَ ﴿٧٠﴾

ثم قال: ﴿إن شر الدواب﴾ أي: إن شر من يدب على وجه الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها ﴿ولو علم الله﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿خيراً﴾ أي: انتفاعاً باللفظ ﴿لأسمعهم﴾ للطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ عنه يعني: ولو لطف بهم (٣) لما نفع فيهم اللطف فلذلك منعهم

تقتلهم، والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلهم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر، وقوى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿وما رميت﴾ أنت يا محمد ﴿إذ رميت ولكن الله رمى﴾ يعني: أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكانها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً، وقرئ: ﴿ولكن الله قتلهم﴾ ﴿ولكن الله رمى﴾ بتخفيف لكن ورفع ما بعده ﴿وليبيلى المؤمنين﴾ وليعطيههم ﴿بلاء حسناً﴾ عطاء جميلاً. قال زهير:

فابلاهما خير البلاء الذي يبلى

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك ﴿إن الله سميع﴾ لدعائهم ﴿عليم﴾ بأحوالهم.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿نلكم﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي: الغرض نلكم ﴿وإن الله موهن﴾ معطوف على نلكم يعني: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقرئ: موهن بالتشديد، وقرئ: على الإضافة وعلى الأصل الذي هو التتوين والإعمال.

إِنْ تَسْتَفِخُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ وَكُنْ تَعْدَ عَتَرُ يَفْتَكُمُ شَيْئًا وَلَوْ كَذَّبْتَ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم وذلك أنهم حين أراوا أن ينفروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقراناً للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره وإن كنا على حق فانصرنا، وروي أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدي الفتنتين، وأكرم الحزبين، وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أهر وأقطع للرحم فألحقه اليوم أي: فاهلكه، وقيل: ﴿إن

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة النساء، الآية: 80.

(3) قال أحمد رحمه الله: إطلاق القول، بأن الله تعالى يلفظ بالعبد، فلا ينفع لطف مرنود، فإن اللطف هو إسداء الجميل، والإلطف به واسمه اللطيف من ذلك، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماعاً لطيفاً به، فذلك غاية المرجوة، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق، وحسن الإصغاء إليه، والاهتداء به، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال، والراي الفاسد في خلق

= الأفعال: لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق، والهداية، وحسن الاستماع، والإصغاء، وإن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق، ولا يلزم حصول مراده على العموم تعالى الله عما يقولون، ثم ولو تنزل منتزلاً على هذه القاعدة، لما استقام تأويل الرمز شري أيضاً، فإن حاصله، ولو علم الله فيهم خيراً، للطف بهم، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللفظ، فيلزم عدم انتفاعهم باللفظ على تقدير علم الله الخير فيهم، وهذا غير مستقيم لما =

ويبيله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالنكر نسياناً وبالنسيان نكراً وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى، فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر، وبين الكفر إذا آمن، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وقيل: معناه: أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباليه لا يخفى عليه شيء من ضمائر فكائه بينه وبين قلبه. وقرئ: المرء بتشديد الراء، وجهه أنه قد حنف الهمزة والقي حركتها على الراء كالخب ثم نوى الوقف على لغة من يقول مرتت بعمر.

وَأَتَوْا فَتَنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٦٥).

﴿فتنة﴾ نبتاً قيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم، وقيل: افتراق الكلمة، وقيل: فتنة عذاباً، وقوله: ﴿لا تصيبين﴾ لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر، أو صفة لفتنة، فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً فعمهم الله بالعذاب، وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا نبتاً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب وبإياه من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كانه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبين ونظيره قوله:

حتى إذا جنّ الظلام واختلف جاؤا بمنق هل رأيت الذنب قط أي: بمنق مقول فيه هذا القول؛ لأنه سمار فيه لون الورقة التي هي لون الذنب، ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود: لتصيبين على جواب القسم المحنوف، وعن الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة، قال الزبير: نزلت فينا وقرانها زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وعن السدي: نزلت في أهل بدر، فاقتتلوا يوم الجمل، وروي أن الزبير كان يسائر النبي ﷺ يوماً إذا أقبل علي رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «كيف حبك لعلني؟ فقال: يا

الطافه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتبوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا، وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء، وعن ابن جريج: هم المنافقون، وعن الحسن: أهل الكتاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٦٦).

﴿إذا دعاكم﴾ وخد الضمير كما وحده فيما قبله؛ لأن استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته وإنما ينكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال، وبالدعوة البحث والتحريض، وروى أبو هريرة: أن النبي ﷺ مر على باب أبي ابن كعب فناده وهو في الصلاة فعجل في صلاته، ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أرحي إلي ﴿استجبوا لله وللرسول﴾ قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك^(١)، وفيه قولان: أحدهما: أن هذا مما اختص به رسول الله ﷺ، والثاني: أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته ﴿لما يحييكم﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة كما أن الجهل موت، ولبعضهم:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن وقيل: لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبهم وقتلهم كقوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾^(٢) وقيل: للشهادة لقوله: ﴿بل أحياء عند ربهم﴾^(٣) و﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾^(٤) يعني: إنه يميتة فتفوت الفرصة التي هو واجدها وهي: التمكن من إخلاص القلب ومعالجة انوائه وعمله ورده سليماً كما يريده الله، فاعتنوا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله و﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة، وقيل: معناه: إن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده

(الحديث رقم: 913) وأخرجه البخاري في كتاب: «تفسير القرآن من سورة الأنفال، باب: يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول...» (الحديث رقم: 20430).

(2) سورة البقرة، الآية: 179.

(3) سورة آل عمران، الآية: 169.

(4) قال أحمد رحمه الله: نعم هذا قد أهل السنة الذي استعار لهم لقب المجبرة، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى، وتقويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق، فإن كان ذلك ظلماً، فانا بريء من الطائفة المتسمية بالعلوية إصراراً على هذا الرأي الباطل، والمعتقد الماحل، والله الموفق.

= يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى، وبذلك محال عقلاً، فلا يرتفع الإشكال، إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً، كيلا يتكرر الوسط، فيلزم المحال المذكور، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين، أن يراد بالأول، ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم إسماعاً يخلق لهم به الهداية والقول، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الاهتداء، بل إسماعاً مجرداً من ذلك لتولو وهم معرضون، فهذا هو الوجه في تأويل الآية، والله الموفق.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (الحديث رقم: 2875) والنسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولقد آتيناك سيعاً من المثاني﴾ =

رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحبه كحبي لوالدي أو أشد حباً. قال: «فكيف أنت إذا سرت إليه تقائله»⁽¹⁾.

فإن قلت: كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب
الاسم؟ قلت: لأن فيه معنى النفي، إذا قلت: انزل عن الدابة
لا تطرحك، فلذلك جاز لا تطرحك ولا تصيبك ولا
يخطئك⁽²⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَمَا مَعْنَى مَنْ فِي قَوْلِهِ: «الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ»؟ قُلْتُمْ: التَّبَعِضُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَالتَّبَيُّنُ عَلَى الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى لَا تَصْيِيْنَكُمْ خَاصَّةً عَلَى ظَلْمِكُمْ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ أَقْبَحَ مِنْكُمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ.

وَأَكْثَرُوا إِذَا أَنَّهُ قِيلَ سَتَمَعُونَ فِي الْأَرْضِ خَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ
الْأَنَاسُ فَنَاقَوْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِضُرِهِ. وَرَدَّكُمْ مِنَ الظَّبْيَةِ لِمَا كُنْتُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

﴿إِذْ أَنتَمُ﴾ نصبه على أنه مفعول به منكر لا ظرف أي: أنكم وقت كونكم أقلّة أنلة مستضعفين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخْطِفَكُمْ لِلنَّاسِ﴾ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا جَمِيعًا لَهُمْ أَعْدَاءُ مُنَافِينَ مُضَادِينَ ﴿فَقَالُوا﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿وَلِيَكُم بِنَصْرِهِ﴾ بِمُظَاهَرَةِ الْأَنْصَارِ وَبِمَادَادِ الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَيُورِثُكُمْ مِنَ اللَّطِيبَاتِ﴾ مِنَ الْغَنَائِمِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إِرَادَةُ أَنْ تَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعَمَ، وَعَنْ قِتَادَةِ: كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ أَنْزَلَ النَّاسَ وَأَشْقَاهُمْ عِيشًا وَأَعْرَاهُمْ جَلَدًا وَأَبْيَنَهُمْ ضَلَالًا يُؤْكَلُونَ وَلَا يَكُلُونَ، فَمَكَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَوَسَّعَ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ وَالْغَنَائِمِ وَجَعَلَهُمْ مُلُوكًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

معنى الخون: النقص كما أن معنى الوفاء: التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير ف قيل: خان الدلو الكرب وخان المشتار السبب؛ لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يقف له ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ والمعنى: لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنوا به، و﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك ووباله، وقيل: وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني: أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو، وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن، وروي أن نبي الله ﷺ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسالوا الصلح كما صالح إخوانهم بنى النضير على أن يسبوا

إلى أنزعات وإريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصكاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه أنه النبي، قال أبو لبابة: فما زالت قدمي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت، فشد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أنوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، فقال: إن من تمام توبتي أن أهرج دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال ﷺ: «يجزيك الثلث أن تتصدق⁽³⁾ به»، وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: أماناتكم ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحلوه.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَتُخَوِّنُوا﴾ جزم هو أم نصب؟ قُلْتَ: يحتمل أن يكون جزمًا داخلًا في حكم النهي، وإن يكون نصبًا بإضمار أن كقوله: ﴿وَتُكْتَمُوا الْحَقَّ﴾⁽⁴⁾ وقرأ مجاهد: وتُخَوِّنُوا أمانتكم على التوحيد.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَازْلَنَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

جعل الأموال والأولاد فتنة؛ لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي: الإثم أو العذاب أو محنة من الله لئيلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، والله عنده أجر عظيم فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤذي إليه همكم، وتزهوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما كقوله: ﴿المال والبنون﴾ ⁽⁵⁾ الآية. وقيل: هي من جملة من نزل في أبي لبابة، وما فرط منه لاجل ماله ولده.

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾

﴿فرقان﴾ نصرًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بالذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله ومته قوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾⁽⁶⁾ وبيانًا وظهورًا يشهر أمركم ويثبت صينكم وآثاركم في أقطار الأرض من قولهم: بئ أفعال كذا حتى سطع الفرقان أي: طلع الفجر، أو مخرجًا من الشبهات وتوفيقًا وشرحًا للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الألبان وفضلًا ومزية في الدنيا والآخرة.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 241/11 (الحديث رقم: 20430).

(2) سورة النمل، الآية: 18.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 5/406 (الحديث رقم: 9745).

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة الكهف، الآية: 46.

(6) سورة الأنفال، الآية: 41.

يَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزَّ وَكَبَّرَ (٣٠).

الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤا غلبة من تحادهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلى لونه، مع فرط انفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يمانتهم واحد فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس من حرصهم على أن يقهروا رسول الله ﷺ وتهالكهم على أن يغمروه، وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون لو شئت لقلت مثل هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الغيل، أو بعذاب آخر، ومراده نفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة، وقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق، وقرأ الأعمش: هو الحق بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال: أمطرت السماء كقولك: أنجمت وأسبلت ومطرت كقولك: هتنت وهتلت وقد كثر الإمطار في معنى العذاب.

فَإِنْ قُلْتَ: ما فائدة قوله: ﴿هُنَّ السَّمَاءُ﴾ والأمطار لا تكون إلا منها؟ قُلْتَ: كانه أريد أن يقال فأمطر علينا السجيل وهي: الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد تريد برعاً ﴿بِعَذَابِ الْإِيمِ﴾ أي: بنوع آخر من جنس العذاب الآليم يعني: أن أمطار السجيل بعض العذاب الآليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه، وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً﴾ ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهمنا له. اللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة؛ لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال ما دام بنبيهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بانهم مرصون بالعذاب إذا هاجر عنهم واللبليل على هذا الإشعار قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب كانه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم إذا فارقتهم وما لهم أن لا يعذبهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في موضع الحال ومعناه: نفي الاستغفار عنهم أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما

لما فتح الله عليه نكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكهم واستيلائه عليهم، وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: وإنكر إذ يمحرون بك، وذلك أن قريشاً لما أسلمت الانصار وبإيعوه فروا أن يتفاهم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فنخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة، دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فاريت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البخثري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشلوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس: بش الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرركم ما صنع واسترحتم، فقال إبليس: بش الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا، فقال الشيخ - لعنه الله - صدق هذا الفتى هو أجولكم رأياً، فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: «اتشح ببردي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وياتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا علياً فيهموا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكهم^(١) ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجماً، وقرئ: ليثبتوك بالتشديد، وقرأ النخعي: ليبثوك من البيات، وعن ابن عباس: ليقيدوك وهو دليل لمن فسر به بالإيثاق ﴿وَيُمَكِّرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيُمَكِّرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل، ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَانَسْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا أَلَّهِمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِدَادَ الْإِيمِ (٣٢) وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣).

﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نفاجة منهم وصلف تحت

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه 384/5 (الحديث رقم: 9743).

نَسِيئَتُنَّ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَيْهِنَّ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر، وقيل: قالوا لكل من كان له تجارة في العير اعينوا بهذا المال على حرب محمد لعنا ندرك منه ثارنا بما أصيب منا ببدر، وقيل: نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد الغنم من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنا وأربعون مثقالاً ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو: سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: تكون عاقبة إنفاقها دنماً وحسرة، فكان ذاتها تصير دنماً وتقلب حسرة ﴿ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجلاً قبل ذلك فيرجعون طلقاء ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَإِبْلِغِ أَنا ورسلي﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ يَرَىٰكُمْ جَمِيعًا يَجْمَعُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخٰشِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿وَمِنْ﴾ الفريق ﴿الطَّيِّبِ﴾ من المؤمنين. فيجعل الفريق ﴿الْخَبِيثَ﴾ بعضه على بعض فيركمه جميعاً عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكبوا كقوله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (٤) يعني: لفرط ازحامهم ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث، وقيل: ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كابي بكر وعثمان في نصرته ﴿فِيْرِكْمَهُ﴾ فيجعل في جهنم في جملة ما يعذبون به كقوله: ﴿فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ (٥) الآية، واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وعلى الأول يبحشرون، وأولئك إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ: ليميز على التخفيف.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَمُوتُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أبي سفيان وأصحابه أي: قل لاجلهم هذا القول وهو ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به ل قيل: إِنْ تَنْتَهُوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود ونحو: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ (٦) خاطبوا به غيرهم لاجلهم ليسمعوه أي:

عنهم كقوله: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (١) ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم، وقيل: معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين، وما لهم أن لا يعذبهم الله وأي شيء لهم في انتقاء العذاب عنهم يعني: لا حظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة.

وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ رَفَعَهُمْ بِمَدُونٍ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَئِكَ إِلَّا الْغٰفِلُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصلون عن المسجد الحرام كما صنعوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله ﷺ والمؤمنين من الصد، وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿وما كانوا أولياءه﴾ وما استحقوا مع إشرافهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاية أمره وأربابه ﴿إِنْ أَوْلِيَاءُهِ إِلَّا الْمُنَاقِقُونَ﴾ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً فكيف بالكفرة عبدة الأصنام ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كانه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة، أو أراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلّة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾

المكاء فعال بوزن الثغاء والرقاء من مكاء يمكو إذا اصفر، ومنه: المكاء كانه سمي بذلك لكثرة مكائه، وأصله الصفة نحو الوضاء والقراء، وقرئ: مكاء بالقصر ونظيرهما البكي والبكاء. والتصدية: التصفيق تفعلة من الصدى أو من صد يصد ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصْنُون﴾ (٢). وقرأ الأعمش: وما كان صلاتهم بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه.

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجه هذا الكلام قُلْتَ: هو نحو من قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه إذا هم سوداً أو محرجة سمرأ والمعنى: أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون عليه ﴿فَنُفِقُوا﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر بسبب كفرهم وأفعالهم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

إِنَّ الْكَلْبَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ لِمُذَّوِّعٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٧.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٤) سورة الجن، الآية: ١٩.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٥.

(٦) سورة الاحقاف، الآية: ١١.

يَنْتَهَوْا عَنْ حَرْبٍ عَنْ يَمِينِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿انما غنمتم﴾ ما موصولة و ﴿من شيء﴾ بيانه قيل: من شيء حتى الخيط والمخييط ﴿فإن الله﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره فحق أو فواجب أن الله خمسته، وروى الجعفي عن أبي عمرو: فإن الله بالكسر، وتقويه قراءة النخعي فله خمسته، والمشهورة أكد وأثبت للإيجاب، كانه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث إنه إذا حنف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ: خمسته بالسكون.

فإن قلْتُ: كيف قسمة الخمس؟ قلْتُ: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ، وسهم لنوي قرياه من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقره حينئذ بالنصرة والمظاهرة لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرايت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال ﷺ: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبني المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه⁽²⁾، وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم نوي القريى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطي أغنيائهم فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من السلاح والكرار ونحو ذلك، وسهم لنوي القريى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم⁽³⁾، للذكر مثل حظ الأنثيين⁽⁴⁾ والباقي للفرق الثلاث.

وعند مالك بن انس رحمه الله: الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم.

فإن قلْتُ⁽⁴⁾: ما معنى نكر الله عز وجل وعطف الرسول

إن ينتهوا عما هم عليه من عدواة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام «يغفر لهم ما قد سلف» لهم من العدواة «وإن يعوبدوا» لقتاله «فقد مضت سنة الأولين» منهم الذين حاق بهم مكربهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم فدمروا فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا، وقيل: معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي وخرجوا منها كما تنسل الشعرة من العجين، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يجب ما قبله»⁽¹⁾ وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط، وأما الذمي: فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الأسميين، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله: في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة وقبلها، وفسر «وإن يعوبدوا» بالارتداد، وقرئ: يغفر لهم على أن الضمير لله عز وجل.

وَقَالُوا لَهُمْ حَقٌّ لَا تُكَونُ فَتَنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَ اللَّهُ فَاِنْ أَنْتَهُوا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَيَسْمَعُونَ بَصِيرًا ﴿٤٣﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَقْمُ الْمَوَلَىٰ بِمَا أَحْسَنَ الْخَوَاصِرِ ﴿٤٤﴾

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط «ويكون للدين كله لله» ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يثيبهم على توبتهم وإسلامهم، وقرئ: تعملون بالباء، فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بصير يجازيكم عليه أحسن الجزاء «وإن تولوا» ولم ينتهوا ﴿فإن الله مولاكم﴾ أي: ناصركم ومعيبكم فنقروا بولايته ونصرته.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَافُ فَإِنَّ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ إِذْ أَتَمَّ بِالْمَدُونِ الَّذِينَ هُمْ بِالْمَدُونِ الْقُصُورِ وَالرَّكْبِ أَتَمَّ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْلَفْتُمْ فِي الْبَيْعِ وَلَكِنْ لَقَضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَأَنَّ مَقُولًا إِلَيْهِمْ مِنْ هَلَاكٍ عَنْ

(3) سورة النساء، الآية: 11.

(4) قال أحمد: لأن مالكا رضي الله عنه، لا يرى نكر الوجوه المذكورة، لبيان أنه لا يصرف فيما سواها، ليس؛ لأن يتملكها، ولا على التحديد، حتى لا يجوز الاقتصاد على بعض الوجوه دون بعض، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الإمام، فيصرف الخمس في مصالح المسلمين، ومن جعلتها قرابته عليه الصلاة والسلام، ولا تحديد عنده في ذلك البتة، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهبه، وبيان ذلك أن المراد حينئذ بذكر الله تعالى، بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقربات لله تعالى، غير مقيد، ثم تخصيص =

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تكون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (الحديث رقم: 317)، وأحمد في مسنده 4/ 199.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفقه، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، (الحديث رقم: 2980)، وابن ماجه في كتاب: الجهاد باب: قسمة الخمس (الحديث رقم: 2881)، والنسائي في كتاب: قسم الفقه (الحديث رقم: 4136)، والبخاري في كتاب: الخمس باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام الخ... (الحديث رقم: 3140).

وبالمنزل ﴿على عبدنا﴾ وقرئ: عبدنا كقوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾⁽⁵⁾ بضميتين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر و ﴿الجمعان﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿وإنه على كل شيء قدير﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والنليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿إنه بدل من يوم الفرقان. والعدوة شط الوادي بالكسر والضم والفتح، وقرئ: بهن وبالعديّة على قلب الواو ياء؛ لأنّ بينهما وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية. والدنيا والقصوى تانيث الأنثى والأقصى.

فإن قلّت: كلتاها فعلى من بنات الواو فلم جاءت إحداها بالياء والثانية بالواو؛ قلّت: القياس هو: قلب الواو ياء كالعليا، وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل وقد جاء القصيا إلا أنّ استعمال القصوى أكثر، كما أكثر استعمال استصوب مع مجيء استصاب وأغليت مع أغالت، والعدوة الدنيا مما يلي المدينة والقصوى مما يلي مكة ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني: الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل، وأسفل نصب على الظرف معناه: مكاناً أسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل؛ لأنه خبر للمبتدأ.

فإن قلّت⁽⁶⁾: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وإنّ العير كانت أسفل منهم؟ قلّت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم وإنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنفاً من الله سبحانه ودليلاً على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أنّ العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العين وراء ظهور العدو مع كثرة علوهم فكانت الحماية بونها تضاعف حميتهم وتشدّ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليعبتهم الذّب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم في القتال وإن لا يتركوا وراءهم ما يحثّون أنفسهم بالانحياز إليه فيجمع تلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر

وغيره عليه؟ قلّت: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾⁽¹⁾ وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب، وأن يراد بقوله ﴿فإن الله خمسه﴾ أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه لا غير، ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة تفضيلاً لها على غيرها كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾⁽²⁾ فعلى الاحتمال الأوّل: مذهب الإمامين.

وعلى الثاني: ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة، وعنه: كان رسول الله ﷺ يأخذ الخمس، فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجلبها للكعبة وهو سهم الله تعالى، ثم يقسم ما بقي على خمسة⁽³⁾، وقيل: إن سهم الله تعالى لبنت المال.

وعلى الثالث: مذهب مالك بن أنس، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان على ستة أسهم: لله وللرسول سهمان وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة، وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء، وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم الخمس وقال: إنما لكم أن يعطي فقيركم ويوزج أيمكم يخدم من لا خالم له منكم، فاما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل، غني لا يعطي من الصلقة شيئاً، ولا يتيم موسر، وعن زيد بن علي رضي الله عنه كذلك قال: ليس لنا أن نبني منه قصوراً ولا أن نركب منه البرانين، وقيل: الخمس كله للقراية، وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له: إنّ الله تعالى قال: ﴿واليتامى والمساكين﴾⁽⁴⁾ فقال: أيتامنا ومساكيننا، وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله ﷺ: أنه لولي الأمر من بعده، وعن الكلبي رضي الله عنه أنّ الآية نزلت ببدر، وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

فإن قلّت: بم تعلق قوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله؟ قلّت: بمحذوف يدل عليه ﴿واعلموا﴾ المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد ولكنه العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله تعالى؛ لأنّ العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر ﴿وما أنزلنا﴾ معطوف على ﴿بالله﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله،

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في قسمة الخمس (الحديث رقم: 374).

(4) سورة البقرة، الآية: 83.

(5) سورة المائدة، الآية: 60.

(6) قال أحمد: وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز.

= الوجود المذكورة بعد، ليس تحديداً، ولك تنبيهاً على فضلها، والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأوّل، بل هو قار على حاله، كما أن العموم ثابت للملائكة، وإن خص جبريل وميكال بعده، والله تعالى أعلم.

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة البقرة، الآية: 98.

الإقدام ﴿وَلِتَنَازَعْتُمْ﴾ في الرأي وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم وترجعتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَمٌ﴾ أي: عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَقِلًّا كَذِبًا أَفَعَيْنَهُمْ يَتَّقِي اللَّهُ أَشْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٤﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان يعني: وإذ يبصركم إياهم و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الحال وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزيدك يقينهم ويجدوا ويثبتوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أترأهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال ألفاً^(١). ﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور.

فإن قُلْتُ: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قُلْتُ: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجتروا عليهم قلة بمالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ونلك قوله: ﴿يُرُونَهُمْ مَثَلِهِمْ رَأَى الْعَيْنَ﴾^(٢) ولئلا يستعدوا لهم وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قتلهم أولاً وكثرتهم آخرًا.

فإن قُلْتُ^(٣): بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قُلْتُ: بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، قيل لبعضهم: إن الأحوال يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال: ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة.

يَأْتِيهَا الْزَيْتُ مَأْمُومًا إِذَا لَيْسَتْ فِيهِ فَاتَتْهُ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾.

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك أن يصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار ولللقاء اسم للقتال غالب ﴿فَقَاتِلُوا﴾ لقتالهم ولا تفروا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له عنوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم

ليقضي أمراً كان مفعولاً من إغزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا لياخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعنوة الدنيا وهؤلاء بالعنوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً، فثبطكم قتلتم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله وسبب له ﴿ليقضي﴾ متعلق بمحذوف أي: ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل، وهو: نصر أوليائه وقهر أعدائه ببر نلك.

إِيَّاكَ مَنْ هَلَكَ عَنَ يَدَيْهِ وَيَعْمَىٰ مَنَ حَوْلَ عَنَ يَدَيْهِ وَإِلَى اللَّهِ لَسَعِيدٌ عَلَيْهِ ﴿١٦﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَكَثِيرًا أُنْزِلَتْكُمْ كَثِيرًا لِّفِتْنَتِهِمْ وَلِتُنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنَ إِيَّاهُمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾.

وقوله: ﴿ليهلك﴾ بدل منه واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينه لا عن مخالفة شبهة حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به، وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها. وقرئ: ليهلك بفتح اللام وحيي بإظهار التضعيف ﴿لسميع عليهم﴾ يعلم كيف دبّر أموركم ويسوي مصالحكم، أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه وبإيمان من آمن وثوابه.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ﴾ نصبه بإضمار انكر، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بقوله: ﴿لسميع عليهم﴾ أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك ﴿في منامك﴾ في رؤياك، وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان تنبيهاً لهم وتشجيعاً على عنوهم، وعن الحسن: في منامك في عينك؛ لأنها مكان النوم، كما قيل للقليفة: المنامة لأنه ينام فيها، وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته. ﴿لفشلتم﴾ لجبنتم وهبتم

= مع اجتماعها، فلا ربط إذ بين الرؤية، ونفيها في مقدرة الله تعالى، وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً، وأنها تستلزم الجسمية إذ المقابلة، والقرب، وارتفاع الحجب، إنما تتأتى في جسم، فهذه الآية حسبيهم في إبطال زعمهم، ولكنهم يعمرون عليها، وهم عنها معرضون، والله الموفق.

(1) إسحاق بن راهويه وابن مروي، الزيلعي 32/2.

(2) سورة آل عمران، الآية: 13.

(3) قال أحمد: وفي هذا دليل بين على أن الله تعالى، هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة، غير موقوف على سبب من مقابلة، أو قرب، أو ارتفاع حجب، أو غير ذلك إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً، لما أمكن أن يستر عنهم البعض، وقد أدركوا البعض، والسبب الموجب مشترك، فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك =

سَوِّدُ أَلْوَابٍ (٤٦).

﴿و﴾ انكر ﴿إذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم. فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم أي: بطل كيدته حين نزلت جنود الله، وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم، وقيل: لما اجتمعت قریش على السير نكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب فكاد ذلك يشنهم فتمثل لهم إبليس في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرافهم في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة نكص، وقيل: كانت يده في يد الحرث بن هشام، فلما نكص قال له الحرث: إلى أين؟ اتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، وبفع في صدر الحرث وانطلق وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقاة، فبلغ ذلك سراقاة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان، وفي الحديث: وما رؤى إبليس يوماً أصغر ولا أحر ولا أغيب من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤى يوم بدر (3).

فإن قلنا: هلا قيل: لا غالباً لكم كما يقال: لا ضارباً زيداً عنينا قلنا: لو كان لكم مفعولاً لغالب بمعنى: لا غالباً إياكم، لكان الأمر كما قلت، لكنه خبر تقديره لا غالب كائن لكم.

إِذ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ وَبَنَّهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٧).

﴿إذ يقول المنافقون﴾ بالمدينة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام، وعن الحسن: هم المشركون ﴿عَرَّ هؤلاء دينهم﴾ يعني أن المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جواباً لهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿ولو ترى﴾ ولو عاينت وشاهدت: لأن لو ترد المضارع إلى معنى الماضي كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكُ يَتَرَبَّصْ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَدُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٤٨).

﴿إذ﴾ نصب على الظرف. وقرئ: يتوفى بالياء والتاء

﴿لعلكم تفلحون﴾ لعلكم تظفرون بمراسمكم من النصرة والمثوبة، وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن نكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همًا، وأن تكون نفسه مجمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره، وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهدته مع البغاة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعاني وبلغات المواعظ والنصائح دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن نكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ رَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُكُمْ وَتَذَهَبَ رِجَالُكُمْ وَأَمْرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ (٤٩).

﴿ولا تنازعوا﴾ قرئ: بتشديد التاء ﴿فتفشلوا﴾ منصوب بإضمار أن، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي، وتدل على التفسيرين قراءة من قرأ: ﴿وتذهب ريحكم﴾ (١) بالتاء والنصب، وقراءة من قرأ: ويذهب ريحكم بالياء والجزم. والريح البولة شبيهة في نفوذ أمرها وتمشيها بالريح وهبوبها فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له البولة ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبني ألا لحي بالوادي إلا عبيد قعود بين أنواد
انتظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدون فلن الرياح المعادي

وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى، وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدينور» (2). حذرهم بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله ﷺ من فشلهم وذهاب ريحهم.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيشَةً غَنَاسٍ وَيُخَادِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمَعُونَ مُحِيطٌ (٥٠).

﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ هم: أهل مكة حين خرجوا لحماية العير فاتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن أرجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمر وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فذلك بطهرهم ورثاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرثين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكأبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم لله.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْبَشَرِئَ نَكَمَ عَلَى عَيْتِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَكْرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ «نصرت بالصبا» (الحديث رقم: 1035) ومسلم في كتاب: الاستسقاء، باب: في ريح الصبا (الحديث رقم: 2084).

(3) أخرجه مالك في الموطأ كتاب: الحج، باب: جامع الحج (الحديث رقم: 245)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك فضل الوقوف بعرفات، (الحديث رقم: 4069).

وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد وفي قوله ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجود الحق. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ﴿وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين انفسهم بالكفر والمعاصي.

إِنَّ سَرَ أَلْوَابٍ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
عَهَدَتْ مِنْهُمْ لَمَّا يَنْفَرُ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ لَمْ يَنْفَرُوا ﴿٥٦﴾.

﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي: أصروا على الكفر ولجوا فيه فلا يتوقع منهم إيمان وهم: بنو قريظة، عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطانا، ثم عاهدتهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فخالفهم ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الذين كفروا أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا، وجعلهم شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصيرين الناكثون للعهود ﴿وهم لا يتقون﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار.

فَلَمَّا تَخَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّ بِهَمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهٗمْ يَدْعُرُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿فما تخففتهم في الحرب﴾ فإما تصادفهم وتظفرن بهم ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والأكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم لحد اعتباراً بهم واعتاظاً بحالهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: فشرذ بالذال المعجمة بمعنى: ففرق وكأنه مقلوب شذر من قولهم: ذهبوا شذر مذر، ومنه: الشذر المتلقط من المعن لتفرقه، وقرأ أبو حيوة: من خلفهم، ومعناه: فافعل التشريد من وراءهم؛ لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الورا وأوقعه فيه؛ لأن الورا جهة المشريين فإذا جعل الورا ظرفاً للتشريد فقد دل على تشريد من فيه فلم يبق فرق بين القراءتين ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعل المشريين من وراءهم يتعظون.

وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِائِنَةٍ فَلَا يَصِحُّ عَنْ سِوَاهِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ الْفَائِزِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْؤًا إِذِمْ لَا يَجْرُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وإما تخافن من قوم﴾ معامدين ﴿خيانة﴾ ونكثاً بأمارات تلوح لك ﴿فإنبذ إليهم﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم

﴿والملائكة﴾ رفعها بالفعل ﴿ويضربون﴾ حال منهم ويجوز أن يكون في يتوفى ضمير الله عز وجل والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر. وعن مجاهد: ﴿وأبصارهم﴾ استأهمهم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوصهما بالضرب؛ لأن الخزي والنكال في ضربيهما أشد، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطي الرجل القوي البطش شيئاً عمل من حديد كهينة الطبق فيه رزانة وله مقبض فيضربه على بصره ضربة واحدة بقوته فيجمد في مكانه، وقيل: يضربون ما أقبل منهم وما أدير ﴿ونوقوا﴾ معطوف على يضربون على إرادة القول أي: ويقولون نوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ أي: مقدمة عذاب النار، أو نوقوا عذاب الآخرة بشاره لهم به، وقيل: كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا بها التهب النار، أو ويقال لهم يوم القيامة نوقوا وجواب لو محذوف أي: لرأيت أمراً فظيلاً منكراً.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾.

﴿ذلك بما قدمت إليهم﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره ﴿وأن الله﴾ عطف عليه أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفرهم ومعاصيهم، وبأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين، وقيل^(١): ظلام للتكثير لأجل العبيد، أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثل ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه.

كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا لِمَقْعَدِ تَرْكَائِهِمْ خَلَفَهُ مَا بِأَفْئِسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَاثِبٍ طَلِيلٍ ﴿٦٢﴾.

الكاف في محل الرفع أي: داب هؤلاء مثل داب آل فرعون، ودابهم عاندتهم وعملهم الذي دابوا فيه أي: نوموا عليه وواظبوا و ﴿كفروا﴾ تفسير لداب آل فرعون ﴿وذلك﴾ إشارة إلى ما حل بهم يعني: ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم ﴿حتى يغيروا ما﴾ بهم من الحال.

فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة؟ قلت: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى اسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعالوه

= جدير بالمبالغة، فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال.

(١) قال أحمد: بهذه النكتة يجاب عن قول القائل: نفي الألف، أبلغ من نفي الأعلى، فلم عدل عن الأبلغ، والمراد تنزيه الله تعالى، وهو =

﴿ومن رباط الخيل﴾ تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به كقوله: ﴿وجبريل وميكال﴾⁽⁴⁾ وعن ابن سيرين رحمه الله: أنه سئل عن أوصى بثلاث ماله في الحصون فقال: يشتري به الخيل فترابط في سبيل الله ويفرز عليها، فقيل له: إنما أوصى في الحصون؟ فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

إن الحصون الخيل لا مدر القرى

﴿ترهبون﴾ قرئ: بالتخفيف والتشديد وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: تخرون والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى ما استطعتم ﴿عدو الله وعدوكم﴾ هم أهل مكة ﴿وأخريين من دونهم﴾ هم: اليهود، وقيل: المنافقون، وعن السدي هم: أهل فارس، وقيل: كفرة الجن، وجاء في الحديث: إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق⁽⁵⁾، وروي أن سهيل الخيل يرهب الجن. جنح له وإليه إذا مال.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ أَلْعِينُ﴾^(٦) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي إِذْكَ يَتَرَصَّوهُ وَالْمُؤْمِنِينَ^(٧).

والسلم تؤثنت تأنيث نقيضها وهي الحرب قال:

السلم تأخذ منها ما رزيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع وقرئ: يفتح السين وكسرها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾⁽⁸⁾ وعن مجاهد بقوله: ﴿فقاتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾⁽⁹⁾ والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً ويجابوا إلى الهدنة أبداً، وقرأ الأشهب العقيلي: فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكدهم وخديعتهم، قال مجاهد: يريد قريظة ﴿فإن حسبك الله﴾ فإن محسبك الله. قال جرير:

إني وجئت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
رَأَيْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنَّكَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَفَّتْ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّكَ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١٠).

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة: لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد ياتلف منهم

نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بيئاً أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تتأجرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ الله لا يحب الخائنين﴾ فلا يكن منك إخفاء نكت العهد والخداع، وقيل: على استواء في العلم بنقض العهد، وقيل: على استواء في العداوة، والجار والمجرور في موضع الحال كأنه قيل: فانبذ إليهم ثابئاً على طريق قصد سوي، أو حاصلين على استواء في العلم، أو العداوة على أنها حال من النابذ والمنبذ إليهم معاً ﴿سبقوا﴾ أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم ﴿إنهم لا يعجزون﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجنون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وقرئ: أنهم بالفتح بمعنى: لأنهم، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، إلا أن المكسورة على طريقة الاستثنا والمفتوحة تعليل صريح، وقرئ: يعجزون بالتشديد، وقرأ ابن محيصن: يعجزون بكسر النون. وقرأ الأعمش: ولا تحسب الذين كفروا بكسر الباء ويفتحها على حذف النون الخفيفة، وقرأ حمزة: ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا، وقيل فيه: أصله أن سبقوا فحذفت أن كقوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾⁽¹⁾ واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: أنهم سبقوا، وقيل: وقع الفعل على أنهم لا يعجزون على أن لا صلة وسبقوا في محل الحال بمعنى: سابقين أي: مفلتين هاربيين، وقيل معناه: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهوماً، وقيل: ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا، وهذه الأقاويل كلها متمحلة وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة، وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أقلت من قل المشركين.

وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُذْهُ لَكُمْ وَرَأْسَهُ لَا تَأْخُذُكُمْ^(٢).

﴿من قوّة﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب من عدهاء وعن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «إلا إن القوّة الرمي»⁽²⁾ قالها ثلاثاً ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله⁽³⁾، وعن عكرمة هي: الحصون، والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى: المراقبة، ويجوز أن يكون جمع رباط كفصيل وفصال، وقرأ الحسن: ومن ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط، ويجوز أن يكون قوله

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

(5) قال الزيلعي: غريب 34/2، وأخرجه ابن عدي في الكامل وابن سعد نحوه.

(6) سورة التوبة، الآية: 29.

(7) سورة التوبة، الآية: 5.

(1) سورة الروم، الآية: 24.

(2) قال أحمد: والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدراً والله أعلم، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه... (الحديث رقم: 4923).

لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَنْسَرِ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٦).

﴿في أيديكم﴾ في ملكتكم كان أيديكم قابضة عليهم. وقرئ: من الأسرى ﴿في قلوبكم خيراً﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثبكم في الآخرة، وفي قراءة الأعمش: يثبكم خيراً، وعن العباس رضي الله عنه أنه قال: كنت مسلماً لكنهم استكروني، فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن ما تذكره حقاً فإله يجزيك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا». وكان أحد النين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك، وروي أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «أقد ابني أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث»، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال له: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها لا أنري ما يصيبني في وجهي هذا؟ فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل». فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» قال العباس: فأتنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس رضي الله عنه: فأبلغني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً إن أناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي (2)، وروي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً فتوضاً لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فاخذ ما قدر على حمله وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة، وقرأ الحسن وشيبة: مما أخذ منكم على البناء للفاعل.

وَأَنْ يُبَدِّلُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنَّكُمْ مِنْهُمْ وَأَنَّكُمْ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٧٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَرُوا وَصَرَرُوا أُولَئِكَ بِمَعْصِيَةِ أُولَئِكَ يَقُولُ اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَرْسَلَكُمْ فِي الَّذِينَ مَلَائِكُمْ الْأَصْرَ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِيتُكُمْ وَيَنْتَهِي إِلَيْكُمْ بِمَا تَمَلَّوْنَ بِهِمْ (٧٨).

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ نكت ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستعجاب دين آبائهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم

الفداء، فاستشهدوا بأحد، وكان فداء الأسارى عشرين أوقية، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً وستة دنانير، وروي: أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله، أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أني من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه» وروي أنه قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ رضي الله عنهما لقوله: «كان الإثخان في القتل أحب إلي» (1) ﴿عرض الدنيا﴾ حطامها سمي بذلك لأنه حدث قليل اللبث يريد الفداء ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعني: ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل. وقرئ: يرينون بالياء، وقرأ بعضهم: والله يريد الآخرة بجز الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله كقوله:

أكل امرئ تحسبين امرأً ونارتوقد بالليل ناراً ومعناه: والله يريد عرض الآخرة على التقابل يعني: ثوابها ﴿والله عزيز﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء ولكنه ﴿حكيم﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون.

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَسَخَّمْ فِيمَا أُتِّمْتُ عَنْكَ عَظِيمٌ (٧٨).

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو: أنه لا يعاقب أحداً بخطأ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد؛ لأنهم نظروا في أن استبقاهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم، وقيل: كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها، وقيل: إن أهل بدر مغفور لهم، وقيل: أنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقدير النهي، ولم يتقدم نهى عن ذلك.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا وَحَلَالًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٩).

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت، وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم ﴿واتقوا الله﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

فإن قلنت: ما معنى الفاء؟ قلت: التسبيب والسبب معنوف معناه: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالاً نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي: أكلاً حلالاً، وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ معناه: أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن

إلى الهجرة كقوله: ﴿والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ (2) الحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أولو القرباب أولى بالتوارث، وهو: نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ تعالى في حكمه وقسمته وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن وهو: آية الموارث، وقد استدلل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة»، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا» (3).

سورة التوبة مدنية

لها عدة أسماء: التوبة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة، سورة العذاب لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي: تبرئ منه، وتبعر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلمهم وتشردهم بهم وتخزيهم وتدمم عليهم، وعن حذيفة رضي الله عنه: أنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه.

فإن قُلْتُ: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قُلْتُ: سأل عن ذلك ابن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا (4)، وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين، وعن أبي بن كعب: إنما توهما ذلك؛ لأن في الأنفال نكر العهد، وفي براءة نذر العهد، وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النذر والمحاربة قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (5) قيل: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب بسم الله الرحمن الرحيم (6) قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى، فمن دعي إلى الله عز وجل فاجاب، ودعي إلى الجزية فاجاب، فقد اتبع الهدى، وأما النذر فإنما هو: البراءة واللجنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس ولا بأس هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة

إن أعادوا الخيانة، وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الغداء، الذين هاجروا أي: فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله، ورسوله هم المهاجرون. والذين آوهم إلى بيادرهم ونصروهم على أعدائهم هم الانصار ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرباب حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (1). وقرئ: من ولايتهم بالفتح والكسر أي: من توليهم في الميراث، ووجه الكسر: أن تولي بعضهم بعضاً شبه بالعمل والصناعة كأنه يتوليه صاحبه يزاوِل أمراً ويباشر عملاً ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ مِنْهُمْ بَيْنُكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ عهد فإن لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتلون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ إِلَّا تَعْمَلُوا تَكُنْ وَتَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَنَسَاءٌ كَثِيرٌ (٧٦)

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعثتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وإن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قربابهم كلا قرابة، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً. وقرئ: كثير بالثاء.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٧)

﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين وليس بتكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ لَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٨)

﴿والذين آمنوا من بعد﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين

(1) سورة الأنفال، الآية: 75.

(2) سورة الحشر، الآية: 10.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: من جهر بهذا (الحديث رقم: 786)، وقرئ في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة =

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6) (الحديث رقم: 7)

ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: بدء الوحي.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6) (الحديث رقم: 7)

واحدة كلتاها نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول، وهي سبع وما بعدها المائون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

بِرَّاءَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْجُودُوا لِي فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِلْمُوا أَنَّكَ عِزٌّ مُّجْتَرِيٌّ إِلَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَجْرَى الْأَكْفَرِينَ ﴿٢﴾.

﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هذه براءة و ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله **﴿إلى الذين عاهدتم﴾** كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر إلى الذين عاهدتم كما تقول: رجل من بني تميم في الدار. وقرئ: براءة بالنصب على اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران من الله بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته، والمعنى: أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبؤ إليهم.

فإن قلنت: لم عقلت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلنت: قد أئن الله في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النذ إليهم، فخطوب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم: اعلموا^(١) أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين. روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناساً منهم وهم: بنو ضمرة وبنو كنانة، فنابذ العهد إلى الناكثين وأمرؤ أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر آمينين أين شاؤا لا يتعرض لهم وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فإنذا انسلك الأشهر الحرم﴾^(٢) وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب ابن أسيد، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقراها على أهل الموسم، فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

(١) قال أحمد: ورواه ما نكره سر آخر، هو المرعي، والله أعلم، وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النذ من المشركين، لا تحسن شراً إلا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ، لأمر السرايا حيث يقول لهم، وإذا نزلت بحسن، فطلبوا النزول على حكم الله، فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصانفت حكم الله فيهم أولاً، وإن طلبوا نمة الله، فأنزلهم عن نمتك، فلان تخفر نمتك خير من أن تخفر نمة الله، فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام، بتوقيف نمة الله مخافة أن تخفر، وإن كان لم

لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما لنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال: مأمور^(٣). وروي أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً، فرجع أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله شيء نزل من السماء قال: نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالأي فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، وعن مجاهد رضي الله عنه: ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا عند ذلك: يا علي أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرمح وضرب بالسيوف، وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؛ لأن العرب عاداتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا في نقض العهود، فازيحت عنهم بتولية ذلك علياً رضي الله عنه.

فإن قلنت: الأشهر الأربعة ما هي؟ قلنت: عن الزهري رضي الله عنه: أن براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر وكانت حراماً؛ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتلهم أو على التغليب؛ لأن ذا الحجة والمحرم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول؛ لأن الحج في تلك السنة كان في تلك الوقت للنسائي الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة.

فإن قلنت: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك قلنت: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأببح قتال المشركين فيها **﴿غير معجزي الله﴾** لا تفوتونه وإن أمهلكم. وهو مخزيكم أي: منكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

= يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقيف عهد الله، وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبؤ إلى الله أخرى، وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين بون البراءة منه، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 5.

(3) قال الزيلعي: غريب. ونكر حديث قريب منه، أخرجه الحاكم، وقال الذهبي: عنه موضوع 50/2.

قبله ولا بعده، فعظم في قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً، وقرئ: **إِنَّ اللَّهَ بِالْكَسْرِ؛** لِأَنَّ الأذان في معنى القول **﴿ورسوله﴾** عطف على المنوي في بريء، أو على محل إن المكسورة واسمها، وقرئ: بالنصب عطفًا على اسم إن، أو لِأَنَّ الواو بمعنى: مع أي: بريء معه منهم، وبالجاء على الجوار، وقيل: على القسم كقوله: لعمرك، ويحكى أَنَّ إعرابياً سمع رجلاً يقرأها فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأننا منه بريء، فليبه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته: فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية⁽³⁾ **﴿فإن تبتم﴾** من الكفر والغدر **﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾** عن التوبة أو تبتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

فإن قُلْتَ: مِمَّ اسْتثنى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ؟ قُلْتَ﴾⁽⁴⁾: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: **﴿فسيحوا في الأرض﴾**: لِأَنَّ الكلام خطاب للمسلمين ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتوا إليهم عهدهم⁽⁵⁾، والاستثناء بمعنى: الاستتراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: ولكن الذين لم ينكثوا فأتوا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر. إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ يعني: أَنَّ قضية التقوى أن لا يسوي بين القبيلتين فاتقوا الله في ذلك **﴿لم ينقضوكم شيئاً﴾** لم يقتلوا منكم أحداً **﴿ولم يضروكم قط﴾** **﴿ولم يظاهروا﴾** ولم يعاونوا **﴿عليكم﴾** عداً كما علت بنو بكر على خزاعة عبيد رسول الله ﷺ وظاهرتهم قريش بالسلاح، حتى وفد عمرو بن سلم الخزاعي على رسول الله ﷺ فأنشد:

لاهم أني ناشداً محمداً حلف أبينا وأبيك الأتلا
إن قريشاً أخلفوك الموعداً ونقضوا ناصك المؤكدا
هم بيتونا بالحطيم هجياً وقتلونا ركباً وسجداً
فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نصرت إن لم أنصركم».

وقرئ: لم ينقضوكم بالضاد معجمة أي: لم ينقضوا

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ إِنَّا بُنِيتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّجْزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَابِ آيِهِ ۖ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّتُ الْمُتَيْنِ ۝٤١

﴿وَأَذَانٌ﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال عمر ومعطوف على زيد في قولك: زيد قائم وعمرو قاعد والأذان بمعنى: الإيذان وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قُلْتَ: تلك إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فإن قُلْتَ: لم علفت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ قُلْتَ: لِأَنَّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث **﴿يوم الحج الأكبر﴾** يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لِأَنَّ فِيهِ تَمَامُ الْحَجِّ ومعظم أفعاله من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن علي رضي الله عنه: أَنَّ رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: وما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا خل عن دابتي⁽¹⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رسول الله ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر⁽²⁾، يوصف الحج بالأكبر لِأَنَّ الْعِمْرَةَ تسمى: الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو: الحج الأكبر لأنه معظم وأجابه؛ لِأَنَّهُ إِذَا فَاتَ فَاتَ الْحَجِّ، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لِأَنَّ مَا يَفْعَلُ فِيهِ مَعْظَمُ أَقْعَالِ الْحَجِّ فَهُوَ الْحَجُّ الْكَبِيرُ، وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك

= الذين عاهدتم إلى خطاب المشركين في قوله، فسيحوا ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله واعلموا أنكم غير معجزي الله، وإن الله وأصله، واعلموا أنكم غير معجزي، وإنني وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتتان في أساليب البلاغة، وتفنيم اللسان، وتعظيم للأمر، ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله إلا الذين عاهدتم، ثم لم ينقضوكم، فأتوا وكل هذا من حسنات الفصاحة، وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قيل: فسيحوا مراعاة أن يطابق قوله، فأتوا إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولاً وثانياً، ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل، الذي نكرناه، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة، وطرف من الفصاحة، والله أعلم.

(5) نكره ابن هشام في السيرة 388/2.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني.
(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: يوم الحج الأكبر (الحديث رقم: 1945)، والحاكم في المستدرک 331/2 وأبو نعيم في الحلية 274/10.

(3) قال الزيلعي: نكر القرطبي الفقه في كتابه: التتکار، ولم يعزوه 2/53.

(4) قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله: **﴿فسيحوا﴾** خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمّر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين، لا الباقيين على العهد، فأتوا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله إلى =

استجاركم ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ﴾ فأتوه إليهم تاماً كاملاً قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فاتم إليهم عهدهم. انسلخ الشهر كقولك: انجرد الشهر وستة جرءاء.

إِذَا انْسلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمُفْسِقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْثُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْثِرُكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

وَالْأَشْهُرُ الْحُرُمُ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا فاقتلوا المشركين يعني: الذين نقضوكم وظاهروا عليكم حيث وجبتهم من حل أو حرم وخنوهم وأسروهم، والاختيد الأسير وواحصروهم وقبضوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصروهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام كل مرصد كل ممر^(١) ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف كقوله: لا تقعن لهم صراطك المستقيم^(٢) فخلوا سبيلهم فاطلقوا عنهم بعد الأسر والحصار أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم كقوله: خل السبيل لمن بيني المنار به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَرٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَكُونُونَ ﴿٦﴾

﴿كيف﴾ استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله ﷺ وهم أضداد وغرة صدورهم يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استترك ذلك بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكت كبنى كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقتلوه ﴿فما استقاموا لكم﴾ على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ على مثله ﴿إن الله يحب المتقين﴾ يعني: أن التربص بهم من أعمال المتقين ﴿كيف﴾ تكرار^(٣) لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأن إن من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن وتبين ما بعثت له فأمته حتى يسمع كلام الله ويتبدره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم ابلغه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله أو يأنبه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن أحد من المشركين

وخبر تمانني إنما الموت بالقرى فكيف وهاتاهضبة وقلبيد يريد فكيف مات أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بعدما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقو عليكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلفاً، وقيل: قرابة وأنشد لحسان رضي الله عنه:

لعمرك إن لك من قريش كال السقب من رال النعال وقيل: إلا الهاء، وقرئ: إيلاً بمعناه وقيل: جبرئيل وجبرئيل من ذلك، وقيل: منه اشتق الال بمعنى: القرابة كم اشتقت الرحم من الرحم، والوجه أن اشتقاق الال بمعنى الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه من الال وهو: الجوار، وله اليل أي: أنين يرفع به صوته، ودعت إليها إذا ولولت، ثم قيل: لكل عهد وميثاق

(1) قال أحمد: ويكون لنتصابه نون جرّه من الاتساع؛ لأن المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نصبه، ويكون مثل قوله في الاتساع. كما عسل الطريق الثعلب. ويحتمل، والله أعلم أن يكون مرصد مصدر؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان، والمصدر من فعله واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً، لأن أفعوا في معنى أرسدوا؛ كانه قيل: وأرسدوهم كل مرصد؛ إلا أن الظرفية يوجبها قوله حيث وجبتهم، فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي المكان، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة التوبة، الآية: 5.

(4) قال أحمد: السر في تكرار كيف، والله أعلم أنه لما نكره أو، لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله، ولم يذكر إذ ذاك سبب اليع للغاية، باستثناء الباقيين على العهد، وطال الكلام أعينيت كية تطرية للذكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجر التكرار، بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، وأ الموفق.

إيمانهم﴾ ثم نقاهما عنهم؟ قُلْتُ: أراد إيمانهم التي اظهروها، ثم قال: لا إيمان لهم على الحقيقة وإيمانهم ليست بإيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها بليل أنه وصفها بالكنك ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله: فقاتلوا أئمة الكفر أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظام أن تكون المقاتلة سبباً في انتهايتهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه وفصله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قُلْتُ: كيف لفظ أئمة؟ قُلْتُ: همزة بعدها همزة بين أي: بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين، وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاجن محرف.

أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَكَفُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بِذَوْرِكُمْ أُولَئِكَ تَحْشَرُونَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَرُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿الذين تقاتلون﴾ دخلت الهمزة على لا تقاتلون تقريراً بانتفاء المقاتلة ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نكثوا إيمانهم﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وهووا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار النبوة حتى أن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه ﴿وهوهم بدؤكم أول مرة﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداية بالمقاتلة؛ لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتال والباديء أعظم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم، ويخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدة بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصاصمته وأن يوبخ من فرط فيها ﴿اتخشونهم﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فأله أحق أن تخشوه﴾ فقاتلوا أعداءه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (2).

تَتَذَكَّرُونَ بِذَوْرِكُمْ قَالَهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيَحْزَنُكُمْ وَيَسْرَمُكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَشِيفُ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

لما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم ليثبت قلوبهم ويصح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً ويخزيهم أسراً ويوليهم النصر والغلبة

إل، وسميت به القرابة؛ لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق ﴿يرضونكم﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الاضغان لما يجرونه على السنن من الكلام الجميل ﴿واكثرهم فاسقون﴾ متمردون خلعاء لا مروءة تزعمهم ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عن الكذب والنكث والتعفف عما يثلم العرض ويجر أحذوثه السوء.

أَشْرَوْا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ تَكُنَا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ لَا يَقُولُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَلِغَوْكُمْ فِي الَّذِينَ وَالَّذِينَ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

﴿اشترؤا﴾ استقبلوا ﴿بآيات الله﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ثمنا قليلاً﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فصدوا عن سبيله﴾ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة ﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر ونقض العهد ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوانكم على حنف المبتدأ كقوله تعالى: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم﴾ (1) ﴿ونفصل الآيات﴾ ونبينها وهذا اعتراض كأنه، قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعفاً وتحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

وَأَنْ تَكُونُوا أَيْمَانَهُمْ بِنَا بَدَّ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِهِمْ فَتَلَبَّوْا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُتَنَبَّهُونَ ﴿١٧﴾

﴿وطعنوا في دينكم﴾ وتلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرذاً وطغياناً وطرحاً لعانت الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهد وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون: ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر ونور الرياسة والتقدير فيه لا يشق كافر غبارهم، وقالوا إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهراً جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة ﴿إنهم لا إيمان لهم﴾ جمع يمين، وقرئ: لا إيمان لهم أي: لا إسلام لهم، أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث ولا سبيل إليه.

فإن قُلْتُ: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله ﴿وإن نكثوا

لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولأن كل بقعة منه مسجد، والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمرها جنسها نخل تحت ذلك أن لا يعمرها المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو أكد؛ لأن طريقته طريقة الكناية كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك و«شاهدين» حال من الواو في يعمرها والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متناقضين: عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون عراة ويقولون لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها، وقيل هو: قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أساري بدر فعيروهم بالشرك، ففطق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم وأغلظ في القول، فقال العباس: تنكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني فنزلت «حبطت أعمالهم» التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العانة، وإذا هدم الكفر⁽²⁾ أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبا فما ظنك بالمقارن؟ وإلى ذلك أشار في قوله: «شاهدين» حيث جعله حالاً عنهم، ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة وذلك محال غير مستقيم.

إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ مَنَعَ يَأْتِيهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٧).

«إنما يعمر مساجد الله» وقرئ: بالتوحيد أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر ومن النكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبين له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعون فيها حلقات، نكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس الله بهم حاجة»⁽³⁾ وفي الحديث: «الحديث في المسجد ياكل الحسنات كما تاكل البهيمة الحشيش»⁽⁴⁾ وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن

عليهم «ويشرف صدور» طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمى وسبا قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتُؤْتِيَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

«ويذهب غيظ» قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها فكان ذلك ليلياً على صلح رسول الله ﷺ وصحة نبوته «ويؤتوب الله على من يشاء» ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: ويتوب بالنصب بإضمار أن ويحول التوبة في جملة ما أحيب به الأمر من طريق المعنى «والله عليم» يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان «حكيم» لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَلِلَّهِ مَا تَعْمَلُونَ (٩).

«أم منقطعة» ومعنى الهمة فيها: التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخلف منكم وهم: الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ولم يتخذوا وليجة أي: بطانة من الذين يضاهون رسول الله ﷺ والمؤمنين رضوان الله عليهم «ولمما» معناها: التوقع وقد دلت على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا بينهم الله يميز بينهم وبين المخلصين وقوله: «ولم يتخذوا» معطوف على جاهدوا داخل في حيز الصلة كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والوليجة فعيلة من ولج كالنخيلة من نخل، والمراد بنفي العلم، نفي المعلوم كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل في يريد ما وجد ذلك مني.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآلِ هُمْ فِي خِلَالٍ (١٠).

«ما كان للمشركين» ما صح لهم وما استقام «أن يعمروا مسجد الله» يعني: المسجد الحرام لقوله: «وعمارة المسجد الحرام»⁽¹⁾ وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان: أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد

= إخباره ﷺ عما يكون في أمته (الحديث رقم: 6761)، والحاكم في المستدرک 4/423.

(4) الحديث لم يخرج الزيلعي ولا ابن حجر لا هنا ولا في لقمان.

(1) سورة التوبة، الآية: 19.

(2) قال أحمد: كلام صحيح إلا قوله إن الكبيرة تهدم الأعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه 162/15، كتاب: التاريخ، باب: =

حتى يحب في الله ويبغض في الله، حتى يحب في الله أبعد الناس ويبغض في الله أقرب الناس إليه⁽¹⁾. وقرئ: عشيرتكم وعشيرאתكم، وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وعيد. عن ابن عباس هو: فتح مكة، وعن الحسن هي: عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين، فليُنصف أروع الناس وأثاقهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله، أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يبري أي طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه نباب فطيره.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْزُكُمْ فَلَمْ تُحْنِي عَنْكُمْ كَيْفًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ مِمَّا رَجَبْتَ ثُمَّ وُلِّيتُمْ مَدْيَنَ ﴿١٥﴾

مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها⁽²⁾ قال:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرهما من قلة النيق⁽³⁾ منهوى وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة وقعات بدر وقریظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة.

فإن قلنا: كيف عطف الزمان على المكان وهو «يوم حنين» على المواطن؟ قلنا: معناه: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالمواطن: الوقت ك مقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أن قوله ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بدل من «يوم حنين» فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به إلا إن نصبنا إذا بإضمار انكر، وحنين: واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة منضماً إليه ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامهم من إمداد سائر العرب فكانوا الجَمَّ الغفير، فلما التقوا قال

(1) قال الزبيدي: غريب، وأخرج الطبراني في معجمه نحوه [61/2].

(2) قال أحمد: لا مانع، والله أعلم من عطف الظرفين المكاني والزمني، أحدهما على الآخر، كعطف أحد المفعولين على الآخر، والفعل واحد إذ يجوز أن تقول: ضرب زيد عمراً في المسجد، ويوم الجمعة كما تقول ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد، وغير الأول هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعيين بالمفعولين، في الحقيقة فإنك إذا قلت أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً، لم يشك في أن الضربين متغايران، بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة، فعلى هذا يجوز في الآية، والله أعلم، بقاء كل واحد من الظرفين على حاله، غير مؤثر إلى الآخر على =

رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله ﷺ، وقيل: قائلها رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه⁽⁴⁾، وذلك قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فاقتتلوا قتالاً شديداً وادركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلل ليس معه إلا عمه العباس رضي الله عنه أخذاً بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه ﷺ وما هي إلا من آيات النبوة، وقال: يا رب اثنتي بما وعدتني، وقال ﷺ للعباس وكان صبيّاً «صبح بالناس» فنادى الانصار فخذاً فخذاً، ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب البقرة فكروا عنقاً واحداً وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين، فقال هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفّاً من تراب، فرماه به، ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. قال العباس: لكنني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته «بما رحبت» ما مصرية والباء بمعنى: مع، أي: مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك: دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبساً بها لم أحلها تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب فكانها ضاقت عليكم «ثم وليتم مبيرين» ثم انهزمتم.

ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ سَيِّدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَكَفَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَوْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الْاِثْرَ كَثُوراً وَكَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

«سكينة» رحمته التي سكنوا بها وأمنوا «وعلى المؤمنين» الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حين وقع الهرب «وأنزل جنوداً» يعني: الملائكة وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً «وعذب الذين كفروا» بالقتل والأسر وسبي النساء والزاري «ثم يتوب الله» أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي: أن ناساً منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر

= أن الزمخشري أوجب تعدد الفعل، وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأول، وإن كانا عنده جميعاً زمانين، لعله أن كثرتهم لم تكن ثابتة في جميعا المواطن يريد ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب، للزم ذلك، وهذا غير لازم إلا تراك لو قلت أضرب زيداً حين يقوم، وحين يقعد، لكان الناصب للظرفين واحداً، وهما متغايران، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين، عند عدم تعطف المتوسط بينهما، والله أعلم.

(3) التيق: أرفع موضع في الجبل.

(4) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (الحديث رقم: 4588).

الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل: سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إِنَّ عِنْدِي مَا تَرَوْنَ، إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ أَسَدُّهُ، اخْتَارُوا إِمَّا نَرَارِيكُمْ وَنَسَاءَكُمْ، وَإِمَّا أَمْوَالَكُمْ». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ هَؤُلَاءِ جَاؤُا مُسْلِمِينَ، وَإِنَّا خَيْرُنَاهُمْ بَيْنَ الذَّرَارِيِّ وَالْأَمْوَالِ فَلَمْ يَعْلَمُوا بِالْأَحْسَابِ شَيْئاً، فَمَنْ كَانَ بِيَدِهِ شَيْءٌ وَطَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَرِدَهُ فَشَانَهُ، وَمَنْ لَا فَلْيُعْطِنَا وَلِيَكُن قَرْضاً عَلَيْنَا حَتَّى نَصِيبَ شَيْئاً فَنُعْطِيَهُ مَكَانَهُ» قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إِنِّي لَا أُرِي لَعْلَ فَيْكُمْ مِنْ لَا يَرْضَى، فَمَرُوا عِرْفَاءَكُمْ فَلْيَرْفَعُوا ذَلِكَ إِلَيْنَا» فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا⁽¹⁾.

يَتَابِعُهَا الْآيَاتُ ءَامَنُوا إِنَّمَا الشِّرْكُوتُ بَحْسٌ فَلَا يَفْرَوُا السَّجِدَ الْحَرَامَ بَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خَفَّتْ عَلَيْهِ سَوْفَ يُعْزِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁽²⁾.

﴿النَّجَسُ﴾ مصدر يقال: نجس نجساً وقذر قذراً ومعناه: نوى نجس، لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركاً تَوْضَأَ، وأهل المذاهب: على خلاف هذين القولين، وقرئ: نجس بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابِعاً لرجس وهو: تخفيف نجس نحو كبِدَ ﴿فِي كَبِدٍ﴾⁽²⁾ ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يحجوا ولا يعتَمِرُوا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ بعد حج عامهم هذا وهو: عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو: مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي - كرم الله وجهه - حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمتنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي يمتنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك، يمتنعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء رضي الله عنه: أنَّ المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأنَّ على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه⁽³⁾ راجع إلى نهي

المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمتنعوا من توالي المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك ﴿وَأَنْ خَفْتُمْ عِيْلَةً﴾ أي: فقرًا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيْكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فإرسل السماء عليهم مدرارًا فأنزرت بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعالم وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تاكلون، فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغنامهم بالجزية، وقيل: يفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة بمعنى المصدر: كالعافية أو حالاً عائلة ومعنى قوله ﴿إِنْ شَاءَ﴾ الله إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ﴾ لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة ووصاب.

قِيلُوا الْآيَاتُ لَا يَوْمُوتُ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيهِ الْآخِرُ وَلَا يُحْزِنُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدْعُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الْآيَاتِ أَوْثَرًا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ⁽⁴⁾.

﴿مَنْ الذِّينَ اتَّوَا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأنَّ اليهود مثنية، والنصارى مثثلة، وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذ دينه ومعتقده، سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿عَنْ يَدٍ﴾ إما أن يراد يد المعطي⁽⁴⁾ أو الآخذ⁽⁵⁾ فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأنَّ من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد ولذلك قالوا: أعطى بيده إذا انقاد وأصبح ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة كما يقال: خلع ربة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة لا مبعوثًا على يد أحد ولكن عن يد

= المسلمين تصدير الكلام بخطابهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتضمنته نصاً بخطابهم بقوله، وإن خفتكم عيلة وكثيراً ما يتوجه النفي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت، ثم ملازمه كقوله لا أرينك ههنا، ولا تموتن إلا، وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(4) قال أحمد: فيكون كاليدي في قوله عليه السلام: «لا تتبعوا الذهب»، إلى قوله: «لا يدا بيده».

(5) قال أحمد: وهذا الوجه أملا بالفائدة، والله أعلم.

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس.. (الحديث رقم: 3131).

(2) سورة البلاء، الآية: 4.

(3) قال أحمد: وقد يستدل به من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد؛ لأنَّ المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود، إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أنَّ المخاطب في الحقيقة =

مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قُلْتُ: كل قول يقال بالفم، فما معنى قوله ﴿نَلِك قولهم باقواهم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحت كالألفاظ المهمة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، ونلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير، والثاني: أن يراد بالقول المذهب كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: نلك مذهبهم ودينهم باقواهم لا بقولهم؛ لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، ونلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم يبق شبهة في انتفاء الولد ﴿يضاهون﴾ لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني: أنه كفر قديم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عنه، وقيل: الضمير للنصارى أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم، وقرئ: يضاهون بالهمز من قولهم: امرأة ضهياً على فعل وهي التي ضاهات الرجال في أنها لا تحيض، وهمزتها مزيدة كما في غرقى ﴿قاتلهم الله﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجباً من شناعة قولهم كما يقول لقوم ركبوا شناعة: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحق.

أَتَعَدُّوا أَحِبَّائَهُمْ وَرُفَقَتَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٦).

اتخاذهم أرباباً أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم الله وتحريم ما حله كما تطاع الأرباب في أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده ﴿بيل كانوا يعبدون الجن﴾ (٣) ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ (٤) وعن عدني بن حاتم رضي الله عنه انتهيت إلى رسول الله ﷺ وفي عتقي صليب من ذهب فقال: «اليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرمه الله فتحلونه». قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» (٥) وعن فضيل رضي الله عنه: ما أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة، وأما المسيح فحين جعلوه ابناً لله فقد أهله للعبادة ألا ترى إلى قوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين﴾ (٦) ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا

المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه: حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والنذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، وأن يتلث ثلثة ويؤخذ بتليبيه، ويقال له: أد الجزية، وإن كان يؤديها ويخز في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابئ وحزبي إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري: أن رسول الله ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب (١)، وقال لاهل مكة: هل لكم في كلمة إذا قلتوها دانت لكم بها العرب وادت إليكم العجم الجزية (٢). وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أول كل سنة: من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهماً، ومن المتوسط في الغني ضعفها، ومن المكثر ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيراً كان أو غنياً كان له كسب أو لم يكن.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ (٣٧).

﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾ وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نون فقد جعله عربياً، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: أحد الله أو لأن الأين وقع وصفاً والخبر محذوف وهو: معيونا، فتحمل عنه مندوحة، وهو: قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك ابن الصيف فقالوا ذلك، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاهما من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيع في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كتبوا

(١) رواء عبد الرزاق في مصنفه 326/10 (الحديث رقم: 19259).

(٢) لم يخرجهم ابن حجر ولا الزيلعي.

(٣) سورة سبأ، الآية: 41.

(٤) سورة مريم، الآية: 44.

(٥) رواء الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3095).

(٦) سورة الزخرف، الآية: 81.

أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأبحار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل وكنز الأموال والضرب بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكنازون غير المنفقين، ويقرب بينهم وبين المرتشدين من اليهود والنصارى تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي ﷺ: «ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً»⁽²⁾ أو عن عمر رضي الله عنه أن رجلاً سأل عن أرض له باعها فقال: احرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: اليس بكنز؟ قال: ما أدى زكاته فليس بكنز⁽³⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنه «كل ما أثبت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤد زكاته فهو الذي نكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض»⁽⁴⁾.

فإن قلنا: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضي الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «تباً للذهب تباً للفضة قالها ثلاثاً» فقالوا له: أي مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحنكم على دينه»⁽⁵⁾ ويقول عليه الصلاة والسلام: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»⁽⁶⁾، وتوفي رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كبة» وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال: «كيتان»⁽⁷⁾ قلنا: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ويؤذي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن عرض عن القنية؛ لأن الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا والافتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ولكل شيء حد، وما روي عن علي رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما زاد فهو

إلها واحداً أمرتهم بذلك أئمة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن الإشراك به واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في وما أمروا للمتخذين أرباباً أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحده، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم. مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الأفق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٦) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَ عَلَى الْدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٧).

فإن قلنا: كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال: كرهت وأبغضت إلا زياداً قلنا: قد أجرى أبي مجرى لم يرد، ألا ترى كيف قبل ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ بقوله: ﴿ويأبى الله﴾ وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتم نوره.

﴿ليظهره﴾ ليظهر الرسول عليه السلام ﴿على الدين كله﴾ على أهل الأديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين.

يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّقَبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْفَاسِقِينَ بِالْبَاطِلِ يُسْلُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ لَهُم مَّعْدَابُ أَلَيْسَ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٨).

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإما على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل، ومنه قوله:

إن لنا أحمره عجافاً ياكلن كل ليلة إكافاً
يريد علفاً يشتري بثمان إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل:

= النساء، (الحديث رقم: 1856)، وأحمد في المسند 282/5، وأبو نعيم في الحلية 1/ 182-183.

(6) رواه البخاري في تاريخه، والطبري وابن مردويه، الزيلعي [2/ 72].

(7) رواه أحمد في مسنده 252/5، وابن أبي شيبه في مصنفه في الكتاب (9)، باب: (177) (الحديث رقم: 2)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 4997)، وأخرجه ابن جبان عن ابن مسعود في كتاب: الزكاة، (الحديث رقم: 3263).

(1) قال أحمد: ولا يقال على هذا، إن الإيابة عدم الإفادة، فكما صح الإيجاب بعد نفي الإفادة، فينبغي أن يصح بعدما هو في معناها مطلقاً؛ لانا نقول لوجود حرف النفي، أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد، فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلبي (الحديث رقم: 1564).

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/ 157، (الحديث رقم: 7141).

(4) الحديث تقدم.

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3094) وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: أفضل =

كنز⁽¹⁾. كلام في الأفضل.

فإن قُلْتُ: لم قيل: ﴿ولا ينفقونها﴾ وقد نكر شيئان؟ قُلْتُ: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة وبنانير ودرهم فهو كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾⁽²⁾ وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله:

فإنني وقياربها الغريب

وقيار كذلك.

فإن قُلْتُ: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قُلْتُ: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ولا يكنزهما إلا من فضلاً عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعد سائر أجناس المال، فكان نكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿يحمي عليها﴾⁽³⁾ وهلا قيل تحمي من قولك: حمى الميسم وأحميته، ولا تقول أحميت على الحديد؟ قُلْتُ: معناه: أن النار تحمي عليها أي: توقد ذات حمى وحز شديد من قوله ﴿نار حامية﴾⁽⁴⁾ ولو قيل: يوم تحمي لم يعط هذا المعنى.

فإن قُلْتُ: فإذا كان الإحماء للنار فلم نكر الفعل؟ قُلْتُ: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله يوم تحمي النار عليها، فلما حذفت النار قيل: يحمى عليها لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: تحمي بالياء. وقرأ أبو حيو: فيكوى بالياء.

فإن قُلْتُ: لم خصت هذه الأعضاء قُلْتُ: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوهم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ﷺ: «ذهب أهل النور بالأجور»⁽⁵⁾، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمه وإياه مجلس أزوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكونون على الجهات الأربع مقابليهم ومآخيريهم وجنوبيهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول وقوله: ﴿لأنفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفع به

نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعب، هو توبيخ لهم ﴿فنفقوا ما كنتم تكنزون﴾ وقرئ: تكنزون بضم النون أي: وبالمال الذي كنتم تكنزونه، أو وبالمال كونكم كائنين.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّتِي كَتَبَ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهَا أَنْفُسُكُمْ وَتَلْزِمُوا الشُّرَكَاءَ كَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَكُمْ كَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٧).

﴿في كتاب الله﴾ فيما أثبتته وأوجبه من حكمه ورأه حكمة وصواباً وقيل: في اللوح ﴿أربعة حرم﴾ ثلاثة سرد نو القعدة ونو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب، ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «إلا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات نو القعدة ونو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه وعاد الحج في ذي الحجة وبطل النسب الذي كان في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الأربعة هو: الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثت النسب فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ في الحرم ﴿أنفسكم﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تأله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا وما نسخت. وعن عطاء الخراساني - رضي الله عنه - أحلت القتال في الأشهر الحرم «براءة من الله ورسوله»⁽⁶⁾ وقيل: معناه لا تأثموا فيهن بياناً لعظم حرمتهم كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق»⁽⁷⁾ الآية، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم حثهم على التقوى بضممان النصر لأهلها.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُخِوْنَةٌ عَامًا رِعَاسًا إِذَا طُغِيَ عِدَّةُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجُولُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُرْتُ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، (الحديث رقم: 843)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة (الحديث رقم: 1346).

(2) سورة التوبة، الآية: 1.

(3) سورة البقرة، الآية: 197.

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 109/4 (الحديث رقم: 7150).

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) قال أحمد: وفي هذا الفصل نقائق إعراب يشوب حسنها إغراب، والله الموفق.

(4) سورة القارة، الآية: 11.

﴿إِثْقَلْتُمْ﴾ تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش أي: تباطأتم وتقاستم وضمن معنى الميل والاخلاد فعدي بـإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ونحوه. ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾⁽³⁾ وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، وقرئ: أثقلتم على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فَإِنْ قُلْتَ: فما العامل في إذا وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ قُلْتُ: ما دل عليه قوله: ﴿إِثْقَلْتُمْ﴾ أو ما في ﴿مَالِكُمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم، كما تعمل في الحال إذا قلت: مالك قائماً؟ وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة⁽⁴⁾ ﴿مِنْ الْأَخْرَةِ﴾ أي: بدل الأخرة كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لِبَاسَةً﴾⁽⁵⁾ ﴿فِي الْأَخْرَةِ﴾ في جنب الآخرة.

إِلَّا نُنْفِرُوا بِؤُوبَكُمْ عَذَابًا آلِيسًا وَنَسْتَدِلُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾ إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَائِكَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَ الْفَائِزِ اللَّهُ سَكِنَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمْ تَرَوْهُمَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّنْثَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٠﴾

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾⁽⁶⁾ سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب اليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً، وقيل: الضمير للرسول أي: ولا تضروه؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يكون قوله: ﴿فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾ جواباً للشرط؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: إلا تنصروه فسينصر من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد فدل بقوله: ﴿فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده.

والنسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: ﴿لِيُؤَاوِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليؤافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو: أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ولذلك قال عز وعلا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾⁽¹⁾ يعني من غير زيادة زالوها.

والضمير في يحلونه ويحرمونه للنسيء أي: إذا حلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرموه في العام القابل. يروى: أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء محاييج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إن ألهتكم قد أحلت لكم المحرم فاحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول إن ألهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه.

جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً فزادتهم رجساً إلى رجسهم كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾⁽²⁾ وقرئ: يضل على البناء للمفعول ويضل بفتح الياء والضاد ويضل على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ الزهري: ليوطئوا بالتشديد.

والنسيء مصدر نساء إذا أخره يقال: نساءه نساء ونساء ونسياً كقولك: مسه مساً ومساساً ومسيساً، وقرئ: بهن جميعاً، وقرئ: النسي بوزن الندى والنسي بوزن النهى وهما تخفيف النسيء والنساء.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟ قُلْتُ: معناه: فيحلوا بمواطاة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ خبلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يلفظ بهم بل يخذلهم وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم على البناء للمفاعل وهو الله عز وجل.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَنَبَّأُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧١﴾

= كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6949).

(5) سورة الزخرف، الآية: 60.

(6) قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول، أن الضمير في قوله إلا تنصروه غيب، ذلك عائذ إليه اتفاقاً، والله أعلم.

(1) سورة التوبة، الآية: 36.

(2) سورة التوبة، الآية: 124.

(3) سورة الاعراف، الآية: 176.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب من أراد غزوة نووي بغيرها، (الحديث رقم: 2948) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة=

خفافاً وثقالاً إلا أنه من يحبه الله يبثله. وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع **«وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم»**، إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعْتُكَ وَلَكِنْ بَعَثَ عَلَيْكُمْ الشُّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِأَلَلِهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٧).

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أي: لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال **«وسفراً قاصداً»** وسطاً مقارباً **«الشققة»** المسافة الشاقة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: بعثت عليهم الشققة بكسر العين والشين ومنه قوله:

يقولون لا تبعدوهم ينفنونهم ولا بعد إلا ما توارى الصفائح **«بأش»** متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين. أي: سيحلفون يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله **«لو استطعنا لخرجنا معكم»** أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: **«لخرجنا»** سد مسد جوابي القسم، ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القبول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا، وقرئ: لو استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: **«فتمنوا الموت»** (١٨) **«يهلكون أنفسهم»** إما أن يكون بدلاً من سيحلفون أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: **«لخرجنا»** أي لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا والقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشققة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم، ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلن ولأفعلن فالغيبية على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية.

عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ إِمَّا أَوْتَ كَهْرًا حَقَّ يَبَيِّنُ لَكَ الْآيَاتِ صَدُوقًا وَتَمَلَّرَ الْكَذِبِينَ (١٩).

«عفا الله عنك» (٢٠) كناية عن الجناية؛ لأن العفو رائف

وأُسند الإخراج إلى الكفار كما أُسند إليه في قوله: **«ومن قريتكم التي أخرجتكم»** (١) لأنهم حين هموا بإخراجه أنن الله له في الخروج فكانهم أخرجوه **«ثاني اثنين»** أحد اثنين كقوله: **«ثالث ثلاثة»** (٢) وهما: رسول الله ﷺ، وإبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى أن جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر (٣). وانتصابه على الحال، وقرئ: ثاني اثنين بالسكون و **«إذ هما»** بدل من إذ أخرجه. والغار ثقب في أعلى ثور وهو: جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة مكثاً فيه ثلاثاً **«إذ يقول»** بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فاشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» (٤). وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه (٥) وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعلوا يتردبون حول الغار ولا يظنونون قد أخذ الله بأبصارهم عنه (٦)، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر لإنكار كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة **«سكنته»** ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه. والجنود والملائكة يوم بدر والأحزاب وحنيين. وكلمة الذين كفروا دعوتهم إلى الكفر **«وكلمة الله»** دعوته إلى الإسلام وقرئ: كلمة الله بالنصب والرفع أوجه و **«هي»** فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

انْزُرُوا خِفَاتًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢١).

«خفافاً وثقالاً» خفافاً في النفور لنشاطكم له وثقالاً عنه لمشاقته عليكم، أو خفافاً لقلّة عيالكم وأنمالك وثقالاً لكثرتها، أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه، أو ركبائاً ومشاء، أو شباباً وشيوخاً، أو مهازيل وسمائاً، أو صحاحاً ومراضاً، وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ: علي أن انفر؟ قال: «نعم» حتى نزل قوله (٧): **«ليس على الأعمى حرج»** (٨) وعن ابن عباس: نسخت بقوله: **«ليس على الضعفاء ولا على المرضى»** (٩) وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يابن أخي استنفرنا الله

(1) سورة محمد، الآية: 13.

(2) سورة المائدة، الآية: 73.

(3) لم يخرج ابن حجر والزليعي أيضاً.

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير من سورة براءة، باب: قوله عز وجل: **«ثاني اثنين إذ هما في الغار»** (الحديث رقم: 4663).

(5) أخرجه البزار في كشف الاستار، كتاب: الهجرة والمغازي، باب: الهجرة إلى المدينة، (الحديث رقم: 1741).

(6) قال الزليعي: لم أجده [77/2].

(7) (لم يخرج الزليعي، أو ابن حجر).

(8) سورة النور، الآية: 61.

(9) سورة التوبة، الآية: 91.

(10) سورة البقرة، الآية: 94.

(11) قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد امرين، إما أن لا يكون هو المراد، وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، =

وقرى: عَدَّة بكسر العين بغير إضافة وعَدَّة بإضافة.

فإن قُلْتُ: كيف موقع حرف الاستدراك قُلْتُ: لما كان قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ كانه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكرهه انبعاثهم كما تقول: ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إلي ﴿فثبطهم﴾ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ﴿وقيل اقعُدوا﴾ جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالسوسوسة، وقيل: هو قولهم لانفسهم، وقيل: هو إن رسول الله ﷺ لهم في القعود.

فإن قُلْتُ (2): كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة؟ وتعالى الله عن الإهام القبيح، قُلْتُ: خروجهم كان مفسدة لقلوبهم: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة.

فإن قُلْتُ: فلم خطأ رسول الله ﷺ في الإنان لهم فيما هو مصلحة؟ قُلْتُ: لأن إن رسول الله ﷺ لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القبول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأنونه في ذلك واعتذروا إليه فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوز في قبولها فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله ﷺ الإنان لهم مع تثبیط الله إياهم مصلحة أخرى فبإنانه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إنان من رسول الله ﷺ قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قُلْتُ (3): ما معنى قوله: ﴿مع القاعدين﴾؟ قُلْتُ: هو ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين

لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت و ﴿لم أننت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أننت لهم في القعود عن الغزو حين استأنوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإن؟ ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شأن فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إنه للمنافقين، وأخذ من الأسارى، فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٤٤).

﴿لا يستأنفك﴾ (1) ليس من عادة المؤمنين أن يستأنفوك في أن يجاهدوا، وكان الخلف من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأنف النبي أبداً ولنجاهد أبداً معه بأموالنا وأنفسنا ومعنى ﴿أن يجاهدوا﴾ في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانظام في زمرة المتقين وعدة لهم بأجل الثواب.

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا بَدَّوْنَكَ (٤٥).

﴿إنما يستأنفك﴾ يعني: المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿يترددون﴾ عبارة عن التحير: لأن التردد بين المتحير كما أن الثبات والاستقرار بين المستبصر.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدة ولكن كره الله أليكانهم فثبطهم وقيل اقعُدوا مع القرآنين﴾ (٤٦) لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأرسلوا خلفكم بغيركم أليكانهم وسعوا لكم والله عليم بالظالمين (٤٧).

قرى: عَدَّة بمعنى: عدته فعل بالعدَّة ما فعل بالعدَّة من قال:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعوا

من حنف تاء التانيث وتعويض المضاف إليه منها،

= كالاستئذان له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة، وأولوا الفتوة، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد، ونصرة الدين، والتثاقل عن المبادرة إليه بعد الحضر عليه، والمناداة بأسوأ أحوال المتثاقل، وقد دعى الناس إلى الغزاة أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرض لسخطه.

(2) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاستبين إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين، والتقيح، وقد تكرر بطلان ذلك، فاحذره، واعلم أن معتقد السنة أن الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم: لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى تلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم، إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ الشيئة، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً، فنقول لو قيل اقعُدوا مقتصر على لم يقد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالخلف، والتقاعد الموسومين بهذه

= وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل، عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، ولقد أحسن من قال في هذه الآية، أن من لطف الله تعالى بنبيه، أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أننت لهم لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(1) قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتفي مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأنف أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأنف ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً، فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمانة التكلف، والتكره، وصلوات الله على خليله، وسلامه لقد بلغ من كرمه وأنبه مع ضيفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك منحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلعة الجميلة، والآداب الجليل، فقال تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾، أي: ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهمتهم يأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد،

وَرَأَى جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ﴿٨﴾

﴿إِذْنٌ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتَنِي﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأنن لي، فإنني إن تخلفت بغير إنك أئمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة فإنني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي، وقيل: قال الجد بن قيس: قد علمت الانصار أنني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببينات الأصفر يعني: نساء الروم، ولكني أعينك بمالي فاتركني، وقرئ: ولا تفتني من أفتنه ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي: فتنة التخلف، وفي مصحف أبي رضي الله عنه سقط: لأن من موحد اللفظ مجموع المعنى ﴿للمحيطه بالكافرين﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطه بهم الآن: لأن أسباب الإحاطة معهم فكانهم في وسطها.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَغْنَىٰ أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْخَرُوا مِنْكَ وَهُمْ قَرِيبُونَ ﴿٩﴾

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك و﴿يَقُولُوا قَدْ أَغْنَىٰ أَمْرًا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متمسكون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع، وتولوا عن مقام التحذير بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون، وقيل: تولوا عرضوا عن رسول الله ﷺ.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

قرأ: ابن مسعود رضي الله عنه: قل هل يصيبنا، وقرأ طلحة رضي الله عنه: هل يصيبنا بتشديد الياء وجهه أن يكون يفعل لا يفعل لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب وصاب السهم يصوب ومصاب في جمع مصيبة فحق يفعل منه يصوب، ألا ترى إلى قولهم صوب رايه إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة، ألا ترى إلى قوله: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: الذي يتولانا ونتولاه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكافرين لا مولى لهم⁽³⁾ ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله فليقلعوا ما هو حقهم.

شانهم القعود والجنوم في البيوت وهم: القاعدون والخالفون والخوالف ويبينه قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾⁽¹⁾.

﴿إِلَّا خِبَالًا﴾ ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون: لأن الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك: ما زالوكم خيرًا إلا خيبالًا، والمستثنى منه في هذا الكلام غير منكور وإذا لم ينكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء فكان استثناء متصلًا: لأن الخيال بعض أعم العام كأنه قيل: ما زالوكم شيئًا إلا خيبالًا، والخيال: الفساد والشر ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البيعر وضعًا إذا أسرع وأوضعت أئنا، والمعنى: ولا وضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنائم، لأن الركاب أسرع من الماشي، وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: ولا رقصوا من رقصت الناقة رقصًا إذا أسرع وأرفصتها قال:

والراقصات إلى منى فالغيب

وقرئ: ولا وفضوا.

فإن قلنت: كيف خط في المصحف ولا أوضعوا بزيادة ألف؟ قلت: كانت الفتحة تكتب ألفًا قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريبًا من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهززة ألفًا وفتحها ألفًا أخرى ونحو: ﴿أَوْ لَا تَلْبَحْنَهُ﴾⁽²⁾ ﴿يُيَغْوَنُكُمُ الْفِتْنَةُ﴾ يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نيאתكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم.

لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلِمَاتُ لَكَ الْأُمُورُ حَقٌّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَثَرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿١١﴾

﴿لَقَدْ لَبِغُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله ابن أبي يوم أحد حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله ﷺ على الثانية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلًا ليفتكوا به ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلْبُوا لَكَ أُمُورٌ﴾ وبنوا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك، وقرئ: وقلبوا بالتخفيف ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه وعلا شرعه.

وَمِنْهُمْ مَن يَكُولُ أُثْدَنَ لِي وَلَا يُقْنِيْ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا

(1) سورة التوبة، الآية: 93.

(2) سورة النمل، الآية: 21.

(3) سورة محمد، الآية: 11.

= السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله لاجعلنك من المسجونين، ولم يقل لاجعلنك مسجونًا لمثل هذه النكته من المبالغة.

وسمى الإلزام إكراهه لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكربين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجذ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعينك به فاتركني **﴿إنيكم﴾** لتعليق لرد إنفاقهم، والمراد بالفسق التمرد والعنوت.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ **﴿٥٦﴾**

﴿أنهم﴾ فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: أن تقبل بالتاء، والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم ونفقتهم على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي أن يقبل منهم نفقاتهم على أن الفعل لله عز وجل **﴿كسالى﴾** بالضم والفتح جمع كسلان نحو سكارى وغيارى في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: **﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾** (3) وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ كره للمؤمن أن يقول كسلت كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإن الكسل من صفات المنافقين فما ينبغي أن يسند المؤمن إلى نفسه.

فإن قلنا: الكراهية خلاف الطوعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله: **﴿طوعاً﴾** ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون قلنا: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار لا عن رغبة واختيار.

فَلَا تُحِبُّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَرِهَ لَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ **﴿٥٧﴾** وَيَحْلِلُونَ آلَهُمْ لِيَنْعَمَ وَهُمْ يَنْكُرُ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَتْرَكُونَ **﴿٥٨﴾**

الإعجاب بالشيء أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله تعالى: **﴿ولا تمنن بينكم﴾** (4) فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرضه للتغنى والسبي وبلاهم فيه بالأفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وإذا فهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

فإن قلنا: إن صح تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى فما بال زهق أنفسهم **﴿وهم كارهون﴾**؟ قلنا: المراد الاستدراج بالنعم كقوله تعالى: **﴿إنما نملي لهم ليزدانوا﴾**

قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِهْدَى الْحُسَيْنِيُّ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِإِذْنِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ **﴿٥٩﴾**

﴿إلا إهدى الحسينيين﴾ إلا إهدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما: النصرة والشهادة **﴿ونحن نرتبص بكم﴾** إهدى السوائين من العواقب إما **﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾** وهو: قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود **﴿أو﴾** بذاب **﴿بأبدينا﴾** وهو: القتل على الكفر **﴿فتربصوا﴾** بنا ما نكرنا من عواقبنا **﴿إننا معكم متربصون﴾** ما هو عاقبتكم فلا بد أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزته،

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ **﴿٦٠﴾**

﴿انفقوا﴾ يعني: في سبيل الله ووجوه البر **﴿طوعاً أو كرهاً﴾** نصب على الحال أي طائعين أو مكربين.

فإن قلنا: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: **﴿لن يتقبل منكم﴾**؟ قلنا: هو أمر في معنى الخير كقوله تبارك وتعالى **﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً﴾** (1) ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوه قوله تعالى: **﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾** (2) وقوله:

أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةَ
أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا تلومك أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قلنا: متى يجوز نحو هذا؟ قلنا: إذا دل الكلام عليه كما جاز عكسه في قوله: رحم الله زيداً وغفر له.

فإن قلنا: لم فعل ذلك؟ قلنا: لنكتة فيه وهي: أن كثيراً كانه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل يتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة وفي معناه قول القائل:

أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً
لتضربه لم يستغشك في الود
وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه.

فإن قلنا: ما الغرض في نفي التقبل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم ورده عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قلنا: يحتمل الأمرين جميعاً وقوله: **﴿طوعاً أو كرهاً﴾** معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين،

(3) سورة البقرة، الآية: 45.

(4) سورة طه، الآية: 131.

(1) سورة مريم، الآية: 75.

(2) سورة التوبة، الآية: 80.

أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط. جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَغْنَمْنَا وَيَحُولِنَا فَضْلَهُ لِرَاغِبِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْمَكِيلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ فُلُوسَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَسِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْكَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧).

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ (١٧) قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم ونحوه قولك: إنما الخلافة لقریش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وعن حنيفة، وابن عباس، وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك، وعن سعيد بن جبیر رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبّرتهم بها كان أحب إليّ، وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة رضي الله عنه: أنها تفرّق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز: تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية ﴿والعاملين عليها﴾ السعاة الذين يقضونها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أشرف من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة. و ﴿الرقاب﴾ المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق ﴿والغارمين﴾ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل: الذين تحملوا الحملات فتدينوا فيها وغرموا ﴿وفي سبيل الله﴾ فقراء الغزاة والحجاج المنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع عن ماله، فهو فقير حيث هو، غني حيث ماله ﴿فريضة من الله﴾ في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرئ: فريضة بالرفع على تلك فريضة.

إنشأ^(١) كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة، ﴿للمنكم﴾ لمن جملة المسلمين ﴿يفرقون﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشرّكين فينظّاهرون بالإسلام تقية.

لَوْ يَخْرُجُكَ مَلَجًا أَوْ مَنَزَرًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَهِهِ وَهَمَّ يَجْمَحُونَ (٢٧).

﴿ملجاً﴾ مكاناً يلجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أو مغارات﴾ أو غيراناً، وقرئ: بضم الميم من أغار الرجل وغار إذا نخل الغور، وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى: مهاب ومفاز ﴿أو مدخلاً﴾ أو نفقاً يندسون فيه وينحجرون وهو مفتعل من الدخول. وقرئ: مدخلاً من نخل ومدخلاً من أدخل مكاناً يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: متدخلاً، وقرئ: لو ألوا إليه لالتجؤا إليه ﴿يجمchon﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء من الفرس الجموح وهو: الذي إذا حمل لم يرده اللجام، وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمزون، فسئل فقال: يجمchon ويجمزون ويشتون واحد.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا بِهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا بِهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْشِرُونَ (٢٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا مَنَّاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٢٩).

﴿يلمّزك﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفة قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: وويلك إن لم أعدل فمن يعدل^(٢) وقيل: هو أبو الجواز من المنافقين قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل فقال رسول الله ﷺ: «لا أبا لك أما كان موسى راعياً؟ أما كان داود راعياً؟ فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»^(٣) وقرئ: يلّمزك بالضم ويلمزك ويلازمك التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللزم. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأنّ رسول الله ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة

= صرفها إلى جميع الأصناف، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتمليك، كما ذهب إليه الشافعي لا يسعده السياق، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً، فهذا هو الغرض الذي سيقّت له، فلا اقتضاء فيها لما سواه، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 178.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، (الحديث رقم: 3610)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (الحديث رقم: 2453).

(3) قال الزيلعي: غريب 2/ 78-79.

(4) قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب =

يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة، ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار، وهو: رحمة لمن آمن منكم أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركون، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أن كما قلتم إلا أنه أن خير لكم لا أن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة، وقيل: إن جماعة منهم ذموا صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأنن ونحن ناتيه ونعتذر إليه فيسمع عذر أيضاً فيرضى، فقيل: هو أن خير لكم، وقرئ: أن خير لكم على أن أن خبر مبتدأ محذوف وخير كذلك أي: هو أن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء سخطكم، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قُلْتُ: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ قُلْتُ: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدق له كونه صائحين عنده فعدي باللام إلا ترى إلى قوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صائقين﴾⁽³⁾ ما أنباه عن الباء ونحوه: ﴿فما آمن لموسى إلا نرية من قومه﴾⁽⁴⁾ ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾⁽⁵⁾ ﴿أمنتهم له قبل أن أنن لكم﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة ابن أبي عتبة ورحمة بالنصب؟ قُلْتُ: هي علة معللها محذوف تقديره ورحمة لكم يأنن لكم فحذف؛ لأن قوله أنن خير لكم يدل عليه.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: لم عدل عن اللام إلى في الأربعة الأخيرة؟ قُلْتُ: للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق نكره؛ لأن في اللوعاء، فنيه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة، أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قُلْتُ: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف نكر المنافقين ومكايدهم؟ قُلْتُ: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة نون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان وأنهم بدهاء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلّم فيها ولمن قاسمها صلوات الله عليه وسلامه.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مَكْرٌ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

الأنن الرجل⁽²⁾ الذي يصلق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي: آلة السماع كان جملته أن سامعة، ونظيره قولهم: للربينة عين. وإيدأؤهم له هو قولهم فيه ﴿هو أنن﴾ و ﴿أنن خير﴾ كقولك: رجل صديق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أنن ولكن نعم الآنن، ويجوز أن يريد هو أنن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأنن في غير ذلك، يدل عليه قراءة حمزة: ورحمة بالجر عطفاً عليه أي: هو أنن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أنن خير بأنه

= التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك، أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي لكن الأول متعين؛ لأنه تقدير يكتفي به في الحفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول هذا الشيء مصروف في كذا، ولكذا بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتزم مع اللام، وعند الانتهاء إلى في يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتزم بها، فتقديره من اللام عام التعلق شامل الصحة متعين، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لا شيء أبليغ من الرد عليهم بهذا الوجه؛ لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقسه بالياس منه، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء القول بالموجب؛ لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتاً للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع، ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(3) سورة يوسف، الآية: 17.

(4) سورة يونس، الآية: 83.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة طه، الآية: 71.

(1) قال أحمد: وثم سر آخر هو أظهر، وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملك، لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام، لا نقاً بهم، وأما الأربعة الأواخر، فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالملك الذي يصرف في الرقاب إنما يتناول السادة المكاتبين، والبايعين، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيبيهم، حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف، والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب بيوتهم تخليصاً لأنهم، لا لهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل، فكانه كان منرجاً في سبيل الله، وإنما أقر بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجبور باللام ممكن، ولكنه على التقريب منه أقرب، والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال، لملك على أن الغرض بيان المصروف، واللام لذلك لام الملك، فيقول متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فيما أن يكون =

يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فاطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فاتاهم فقال: قلت كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر⁽¹⁾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَأَيَّاتَهُ وَرَسُولَهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لم يعبا باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كائنين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا باخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزاء به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.

لَا تَعْدُوا فَمَا كُنْتُمْ بِدِينِكُمْ إِن تَعْتَدُوا عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ
شَرَّ طَائِفَةٍ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

﴿لا تعتدوا﴾ لا تستغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرهم ﴿قد كفرتم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بعد إيمانكم﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعت عن طائفة منكم﴾ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو إن نعت عن طائفة منكم لم يؤنوا رسول الله ﷺ ولم يستهزؤا فلم نعتهم في العاجل نعت في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذنين لرسول الله ﷺ مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن نعت عن طائفة على البناء للمفعول مع التانيث، والوجه التنكير؛ لأن المسند إليه الظرف كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن نعت طائفة فأنث لذلك وهو غريب والجيد قراءة العامة؛ إن يعف عن طائفة بالتنكير وتعذب طائفة بالتانيث. وقرئ: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة على البناء للفعل وهو: الله عز وجل.

الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَتَذَكَّرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَتَذَكَّرُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ سَوْا اللَّهُ فَتَسْمِعُهُمْ
الْمُتَّقِينَ هُمْ الْأَعْيُنُونَ ﴿١٧﴾

﴿بعضهم من بعض﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾⁽²⁾ وتقرير قوله: ﴿وما هم منكم﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين ﴿يامرون بالمنكر﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وينهون عن المعروف﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿ويقبضون أيديهم﴾ شحاً بالمبار والصديقات والإنفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله﴾ أغفلوا ذكره ﴿فنسيتهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿هم الفاسقون﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْسَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْسُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿لكنم ليرضوكم﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معانيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فاحق من أَرْضَيْتُمْ الله ورسوله بالطاعة والوفاء. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضى واحد كقولك: إحسان زيد وإجماله نعتني وجبر مني، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتُمْ تَأْتِرُ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٨﴾

المحادة مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق ﴿فإن له﴾ على حذف الخبر أي: فحق أن له ﴿نار جهنم﴾ وقيل معناه: فله وأن تكرير لأن في قوله: أنه تاكيداً، ويجوز أن يكون فإن له معطوفاً على أنه على أن جواب من محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم، وقرئ: ألم تعلموا بالتاء.

يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِلَهَ اللَّهِ تَخِرْ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٩﴾

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله لوددت أنني قمت فجلبت مائة جلدة وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبيههم للمؤمنين وفي قلوبهم للمنافقين وصح ذلك؛ لأن المعنى يقول إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معانهم فهي نازلة عليهم، ومعنى: تنبيههم بما في قلوبهم كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكانها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر الأمر بالحذر أي: ليحذر المنافقون.

فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله: ﴿مخرج ما تحذرون﴾؟ قلت: معناه: محصل مبرز إنزال السورة أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُسُ وَلَقَدْ قُلْنَا لِلَّهِ
وَأَنبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٠﴾

بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل

الراضي به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله، وأما ﴿وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستداده إليه عن تلك التقدمة ﴿حُبِّطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ نقيض قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (2).

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحُوا وَعَادُوا وَنُوحُوا وَنُوحُوا لِرَبِّهِمْ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ كَانُوا يُسْأَلُونَ عَنِ الْخَيْرِ فَمَا كَانُوا يَنْصَرِفُونَ إِلَّا طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَصْطَلِبُونَ (٧٦).

﴿وأصحاب مدنين﴾ وأهل مدنين وهم: قوم شعيب ﴿والمؤتفكات﴾ مدائن قوم لوط، وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح، واشتفاكهن: انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ فما صح منه أن يظلمهم، وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح، وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَارِكُونَ لِيَفْجُرُوا فِيهَا وَنَسُوا آلَ اللَّهِ أَن يَكُونُوا لَهُمْ عَالِينَ وَأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عِندَ تَقَاتُلِهِمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ الظُّلُمُ الْبُخْسُ وَأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عِندَ تَقَاتُلِهِمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ الظُّلُمُ الْبُخْسُ وَأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عِندَ تَقَاتُلِهِمْ (٧٧).

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في مقابلة قوله في المنافقين: ﴿بعضهم من بعض﴾ (3) ﴿يسيرهم الله﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك: سانتقم منك يومًا تعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ (4) ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (5) ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ (6) ﴿عزيز﴾ غالب على كل شيء قاهر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حكيم﴾ واضح كلاً موضعاً على حسب الاستحقاق.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَارِكُونَ لِيَفْجُرُوا فِيهَا وَنَسُوا آلَ اللَّهِ أَن يَكُونُوا لَهُمْ عَالِينَ وَأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عِندَ تَقَاتُلِهِمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ الظُّلُمُ الْبُخْسُ (٧٨).

﴿ومساكن طيبة﴾ عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و ﴿عدن﴾ علم ببليد قوله: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن﴾ (7) ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها

حين بالغ في ذنبهم، وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول كسل؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: ﴿كسالى﴾ (1) فما ظنك بالفسق.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَارِكُونَ لِيَفْجُرُوا فِيهَا وَنَسُوا آلَ اللَّهِ أَن يَكُونُوا لَهُمْ عَالِينَ وَأَن يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عِندَ تَقَاتُلِهِمْ (٧٩).

﴿خالدين فيها﴾ مقدرين الخلود ﴿هي حسبهم﴾ دلالة على عظم عذابها وأنه لا شيء أبلغ منه وأنه بحيث لا يزداد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ولعنهم الله﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملائع، كما عظم أهل الجنة والحقهم بالملائكة المكرمين ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن، خوفاً من المسلمين وما يحزنونه ابتداءً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَغْنَوْا فَكَانُوا يَخْلَعُونَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ لِيَبْغُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٨٠).

الكاف محلها رفع على أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو: أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا ونحوه قول النمر:

كاليوم مطلوباً ولا طالباً

بإضمار لم أر، وقوله: ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ تفسير بتشبيهم بهم وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب وهو: ما خلق للإنسان أي: قدر من خير. كما قيل له: قسم؛ لأنه قسم ونصب؛ لأنه نصب أي أثبت. والخوض: الدخول في الباطل واللهو ﴿كالذي خاضوا﴾ كالفوج الذي خاضوا وكالخوض الذي خاضوه.

فَإِنْ قُلْتَ: أي فائدة في قوله: ﴿فاستمتعوا بخلاقهم؟ وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم؟ مغن عنه كما أغنى قوله: ﴿كالذي خاضوا﴾ عن أن يقال وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قلْتُ: فائدته أن ينم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وإن يخس أمر الاستمتاع ويهجن أمر

(5) سورة الضحى، الآية: 5.

(6) سورة النساء، الآية: 152.

(7) سورة مريم، الآية: 61.

(1) سورة التوبة، الآية: 54.

(2) سورة النعكوت، الآية: 27.

(3) سورة التوبة، الآية: 67.

(4) سورة مريم، الآية: 96.

الأنصاري للجلال: أجل والله إنَّ محمدًا لصديق وأنت شر من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونيك تصديق الكاتب وتكنيب الصديق⁽⁵⁾ فنزلت ﴿يُحْلِفُونَ بالله ما قالوا﴾ فقال الجللاس: يا رسول الله لقد عرض الله علي التوبة، والله لقد قلتة وصلى عامر، فتاب الجللاس وحسنت توبته ﴿وَكُفِّرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهو: الفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك تواتر خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ اتسم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحنيقة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حنيقة بوقع أخفاف الإبل وبقعقة السلاح، فالتفت فلذا قوم مثلثون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا⁽⁶⁾، وقيل: هم المنافقون يقتل عامر لردّه على الجللاس، وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إِلَّا أَنْ اغْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجللاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفًا فاستغنى ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ هي الآية التي تاب عندها الجللاس ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل والنار.

﴿رَمَتْهُمْ مَنْ عَهْدَ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ لَتَفْشَرَنَّ وَلَكُمْ كُفْرٌ يَنْفَعُكُمْ﴾ (٧٥) ﴿لَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَطَلُوا دِيَارَهُمْ وَتَرَوْا وَهُمْ مُضِرٌّ﴾ (٧٦).

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، «فدعا له» فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي اللود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل والياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومراً بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: أرجعا حتى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه، «يا ويح ثعلبة» مرتين، فنزلت فجاءه ثعلبة بالصدقة فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك»، فجعل التراب على رأسه، فقال: «هذا

غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن نكلك»⁽¹⁾ وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جنته على حافته ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأنَّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأنَّ العبد إذا علم أنَّ مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المردة من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة كما تطمح وتنزع إلى رضاه عني وإن أحشر في زمرة المهنيين المرضيين عنده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وعد الله أو إلى الرضوان أي: ﴿الْفَوْزَ الْعَظِيمَ﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً، وروي أنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً⁽²⁾.

يَأْتِيَا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكَفَّارِ وَالْمُنَوِّينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْأَشْوَرِ (٧٧).

﴿جاهد الكفار﴾⁽³⁾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة ﴿وأغلظ عليهم﴾ في الجهادين جميعاً ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه اللفظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكنه في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه⁽⁴⁾، يريد: الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين: على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كِبَرةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِدِينِهِمْ وَمَا تَبَايَعُوا بِهَا لَمَّا نَحَلْنَا آلَ أَنْعَنْهُمْ اللَّهُ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ. فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ عَزًّا كُفْرًا وَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا كُفْرًا فِي الْأَرْضِ مِنْ رَوْحٍ وَلَا نَصِيرٍ (٧٨).

أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجللاس بن سويد فقال الجللاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس

(3) قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحياناً، والله الموفق.

(4) ذكره الطبري في تفسيره.

(5) رواه عبد الرزاق في مصنفه 46/10 (الحديث رقم: 18303).

(6) رواه أحمد في مسنده 453/5.

(1) كشف الاستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في الجنة ما لا عين رأت ولا (الحديث رقم: 3516).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6540) ومسلم في كتاب: الجنة، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً (الحديث رقم: 7070).

فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت». فبارك الله له حتى صولحت تماضر امراته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً⁽²⁾. وتصنق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بت ليلتي أجز بالجريد على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن ينكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿إِلَّا جَهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم، قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله: ﴿الله يستهزي بهم﴾⁽³⁾ في أنه خبر غير دعاء، ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب اليم﴾ سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ وكان رجلاً صالحاً: أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فنزلت، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين، فنزلت ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾⁽⁴⁾. وقد نكرنا⁽⁵⁾ أن هذا الأمر في معنى الخير كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، ونكرنا النكته في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فإن قلت⁽⁶⁾: كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أقصص العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيالاته والذي يفهم من نكر هذا العدد كثرة الاستغفار؟ كيف وقد تلاه بقوله: ﴿نلك بأنهم كفروا﴾ الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورافته على من بعث إليه كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾⁽⁷⁾ وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقبض رسول الله ﷺ فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه⁽¹⁾. وقرئ: ﴿لَتَصُدَّقْنَ وَلتَكُونَنَّ﴾ بالنون الخفيفة فيهما ﴿من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحج.

فَأَعْبَهُمْ يَنَاقَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ ﴿٧٨﴾.

﴿فأعقبهم﴾ عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما أن الضمير للبخل يعني: فأورثهم البخل ﴿يناقا﴾ متمكنا ﴿في قلوبهم﴾؛ لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه، والظاهر أن الضمير لله عز وجل والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصديق والصلاح وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ: يكتبون بالتشديد ولم تعلموا بالتاء عن علي رضي الله عنه. ﴿سِرَّهُمْ ونجواهم﴾ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعده وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية، وتبدير منعها.

الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿الذين يلمزون﴾ محله النصب أو الرفع على الذم ويجوز أن يكون في محل الجر بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ: يلمزون بالضم ﴿المطووعين﴾ المتطوعين المتبرعين. روي أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف باريبعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف

= محسنة، وكذلك معنى الآية ﴿استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار، وتركه، وهل يتفاوت الحالان أولاً، قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سواء عليهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم.

(6) قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار، ولم يصححه، وتغالي قم في قبوله، حتى أنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وينوه على أنه عليه السلام، فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

(7) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(1) راجع الزيلعي 85/2.

(2) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة براءة (الحديث رقم: 3625).

(3) سورة البقرة، الآية: 15.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف (الحديث رقم: 1269) ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 6958).

(5) قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا، وأمثاله من محنوف هو المقصود بالأمر، وهذا واقع موقعه، كقول كثير غرة:

اسيئي بنا أو احسنني لا ملومة

كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي، وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالتي معك مسيئة، أو =

من المرات؟ قُلْتُ: أكثر اللغتين هند أكبر النساء وهي أكبرهن، ثم إن قولك هي كبرى امرأة لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة، وعن قتادة نكر لنا: أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ فَتَسْقُوتُ (٨٤) وَلَا تُجِيبُكَ أَرْوَاهُ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)

روي أن رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم، فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبي بعث إليه لياثيه، فلما دخل عليه قال: «أهلك حب اليهود» فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته فسأله عن اسمه فقال: «أنت عبد الله بن عبد الله، الحباب اسم شيطان» فلما هم بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلي على عدو الله؟^(١) فنزلت، وقيل: أراد أن يصلي عليه فجنبه جبريل^(٢).

فإن قُلْتُ: كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قُلْتُ: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له، وذلك أن العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ لما أخذ أسيراً بيد لم يجدوا له قميصاً، وكان رجلاً طويلاً، فكساه عبد الله قميصه^(٣) وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأمن بمحمد ولكننا نأمن بك، فقال: لا إن لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فشكر رسول الله ﷺ له ذلك^(٤)، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على نواعي المروءة، ويعمل بعبادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره لا يشمت به الأعداء^(٥)، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الكافران، وليكون إلباسه إياه لطفًا لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإنني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب»، فيروي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رآه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ^(٦)، وكذلك ترحمه واستغفاره، كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رآه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتمًا عليه.

فإن قُلْتُ: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قُلْتُ: لم يتقدم نهي

فَرَحَ الْمُشَافِقُونَ بِمَعَادِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَرْوَاهُ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٦) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِكُسُوبِهِمْ (٨٧) فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى مَالِكِهِ مِنْهُمْ فَأَسْتَأْذِنُكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجًا مَعَكُمْ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعَكُمْ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَبْرِ أَوْلَ مَرَوْ فَأَقْدَمُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٨)

«المخلفون» الذين استأنذوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأنزلهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان «بمقعدهم» بقعودهم عن الغزو «خلاف رسول الله» خلفه يقال: أقام خلاف الحي بمعنى: بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حنيفة خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له، أو حال أي قعدوا لمخالفته، أو مخالفتين له «أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم» تعريض بالمؤمنين وبتملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقين، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان «قل نار جهنم أشد حرًا» استجهال لهم؛ لأن من تصون من مشقة ساعة فوق بسبب تلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل، ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدما مساة يوم إربها شب الصاب فكيف بان تلقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساة أحقاب معناه فسيضحكون قليلاً ويبيكون كثيراً «جزاء» إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يكون في النار عمر الدنيا لا يرقا لهم دمع ولا يكتحلون بنوم. وإنما قال «إلى طائفة منهم»؛ لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلي أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين فأراد بالطائفة المنافقين منهم «فاستأنذوك للخروج» يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك و «أول مرة» هي: الخرجة إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعمه إليه إلا النفاق بخلاف غيرهم من المتخلفين «مع الخالفين» قد مر تفسيره، وقرا مالك بن دينار رحمه الله مع الخلفين على قصر الخالفين.

فإن قُلْتُ: مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم نكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة

- (4) الواقدي في المغازي.
- (5) نكره الطبري في تفسيره.
- (6) نكره ابن مريويه في تفسيره.

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) رواه أبو يعلى.

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى (الصحيح رقم: 3008).

عن الصلاة عليهم وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم لما في تلك من المصلحة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة إلا أنني أعلم أن رسول الله ﷺ لا يخادع ﴿مات﴾ صفة لأحد وإنما قيل: مات وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة ﴿إنهم كفروا﴾ تعليل للنهي وقد أعيد قوله ﴿ولا تعجبك﴾: لأن تجديد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيد وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم فيفتقر إلى فضل عناية به لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بَأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَظِيمِ ﴿٨٩﴾

يجوز أن يرد السورة بتمامها وإن يرد بعضها في قوله: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل: هي براءة، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿أن آمنوا﴾ هي أن المفسرة ﴿أولوا الطول﴾ نور الفضل والسعة من طال عليه طولاً ﴿مع الكافرين﴾ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك ﴿لكن الرسول﴾ أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً كقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً﴾ (١) ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك﴾ (٢) ﴿والخيرات﴾ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور لقوله: ﴿ففيهن خيرات﴾ (٣).

وَبَلَاةٍ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُذَنِّبَهُمْ وَيَمَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُمْ سَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِنْهُمُ غَدَابًا أَلِيمًا ﴿٩٠﴾

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يومه أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له، أو المعذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لاتباع الميم ولكن لم تثبت بهما قراءة وهم الذين يعتذرون بالباطل كقوله: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ (٤) وقرئ: المعذرون بالتحقيق وهو الذي يجتهد

في العذر ويحتشد فيه قيل: هم: أسد وغطفان قالوا: إن لنا عيلاً وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهلينا ومواشينا فقال ﷺ: سيغنييني الله عنكم، وعن مجاهد: نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرئ: المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهذا غير صحيح؛ لأن التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد في المطويعين وأزكى وأصق، وقيل: أريد المعذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون على قراءة ابن عباس رضي الله عنه: الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد النين كذبوا الله ورسوله﴾ هم: منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبي: كذبوا بالتشديد ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ من الأعراب ﴿عذاب أليم﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾

﴿الضعفاء﴾ الهرمى والزمني، و ﴿الذين لا يجدون﴾ الفقراء قيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله الإيمان بهما وطاعتها في السر والعلن، وتوليهاما والحب والبغض فيهما كل يفعل الموالى الناصح بصاحبه ﴿على المحسنين﴾ على المعنورين الناصحين، ومعنى لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم.

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٩٣﴾ يَمْتَدِّحُونَ إِلَيْكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا مَعْتَدُوا لَنْ تَوْنُوا لَكُمْ قَدْ تَبَايَأَ اللَّهُ مِنْ أُنْيَاكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَمْتَلِكُونَ ﴿٩٤﴾

﴿قلت لا أجد﴾ حال من الكاف في أتوك وقد قبله مضمرة كما قيل في قوله: ﴿أو جاؤكم حصرت صدورهم﴾ (٥) أي: إذا ما أتوك قاتلاً لا أجد ﴿وتولوا﴾ ولقد حصرت الله المعنورين في التخلف الذين ليس لهم في أيدانهم استطاعة، والذين عدوا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجلبوها، وقيل: المستحملون أبو موسى

(4) سورة التوبة، الآية: 94.

(5) سورة النساء، الآية: 90.

(1) سورة الأنعام، الآية: 89.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) سورة الرحمن، الآية: 70.

ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً منافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»، وقيل: جاء عبد الله بن أبي حلف أن لا يتخلف عنه أبداً.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا دُورَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾.

﴿الأعراب﴾ أهل البدو ﴿أشد كُفْرًا وبغاً﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام منه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفذائين» (١) ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم مخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَنْفِقُ يَكُورًا يُدَوِّرُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾.

﴿مغرمًا﴾ غرامة وخسراناً والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقيّة من المسلمين ورياء لا لوجه الله عز وجل وإبتغاء الثموبة عنده ﴿ويترى﴾ يكم الدوائر (٢) دوائر الزمان بوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض دعي عليهم بنحو ما دعوا به كقوله عز وجل: ﴿قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾ (٣) وقرئ: السوء بالضم، وهو: العذاب، كما قيل: له سيئة، والسوء بالفتح وهو: ذم الدائرة كقولك: رجل سوء في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأن من دارت عليه ذم لها ﴿والله سميع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم.

وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَخَذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَبْعَ مِائَةِ نَفْسٍ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿قربات﴾ مفعول ثانٍ ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر

الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤن وهم ستة نفر من الأنصار ﴿تفيض من الدمع﴾ كقولك: تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأن العين جعلت كأن كلها مع فائض، ومن للبيان كقولك: أفيك من رجل، ومحل الجار والمجرور والنصب على التمييز ﴿إلا يجنوا﴾ لئلا يجد واو محله نصب على أنه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو حزنًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟ قلت: هو استئذان كانه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالب ﴿وطبوع الله على قلوبهم﴾ يعني: أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فَإِنْ قُلْتَ: فهل يجوز أن يكون قوله: ﴿قلت لا أجد﴾ استئذاناً مثله كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل: ما لهم تولوا ياكين؟ فقيل: ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاقتراض؟ قلت: نعم، ويحسن ﴿لن نؤمن لكم﴾ علة للنهي عن الاعتذار؛ لأن غرض المعتذر أن يصنق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكتب وجب عليه الإخلال، وقوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ علة لانتفاء تصديقهم؛ لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وأحوالهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معانيرهم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ اتنبهون أم تثبتون على كفركم ﴿ثم تردون﴾ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية فيجازيكم على حسب ذلك.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا رَهْمُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾.

﴿لترضوا عنهم﴾ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معابرتهم يعني: أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم إنما يعاتب الأديم نو البشرية والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فارجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وماواهم جهنم﴾ يعني: وكفنتهم النار عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا عتابهم ﴿لترضوا عنهم﴾ أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفهم ذلك في نياهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فإن رضاكم وحكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها، وقيل: إنما قيل

= عليهم، ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تريض الدوائر مطلقاً، والذي دعي عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوا الدوائر، لا على الإطلاق، والله الموفق.

(3) سورة المائدة، الآية: 64.

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قنوم الأشعريين، الحديث رقم: (4387)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه. (الحديث رقم: 179).

(2) قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء، لحال المدعو =

وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ سَنَعْلِمُهُمْ سَاعَهُمُ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١١).

﴿وممن حولكم﴾ يعني: حول بلدكم وهي المدينة ﴿منافقون﴾ وهم: جبهة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿وممن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو: ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت، ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أن مردوا صفة لموصوف محنوف كقوله: أنا ابن جلاء، وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه من مرن فلان عمله ومرد عليه إذا درب به وضري حتى لأن عليه ومهر فيه، يدل على مراتبهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾ أي: يخفون (٨) عليك مع فطنتك وشهامتك وصق فراستك لفرط تنوعهم في تحامي ما يشك في أمرهم، ثم قال: ﴿نحن نعلمهم﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبيتون الكفر في سويداوات قلوبهم إيطاناً، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلمهم فيه اليد الطولى ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل: هما القتل وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة وعذاب القبر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم اختلفوا في هاتين المراتين، فقال: قام رسول (٩) الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان فإنك منافق، أخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناساً وفصحهم». فهذا العذاب الأول، والثاني: عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿إلى عذاب عظيم﴾ إلى عذاب النار.

وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَهْلَ عِلَاقٍ صَاحِبًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْجِعَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَجِيمٌ (١٢) حَذَّ مِنْ أَمْرِهِمْ صَدَقَ تَعْلِيمُهُمْ وَرَجَّيَهُمْ بِمَا وَصَلَ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَواتَكَ سَكُنَ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٣).

﴿اعترفوا بنوبتهم﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بشس ما فعلوا متذممين ناعمين وكانوا ثلاثة، أبو لبابة

لهم كقوله: «اللهم صلي على آل أبي أوفى» (١) وقال تعالى: ﴿وصل عليهم﴾ (٢) فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات ﴿إلا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سيخلمهم﴾ وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة (٣) منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: قربة بضم الراء، وقيل: هم عبد الله ونو البجادين ورهطه.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ وَالَّذِينَ سَبَقُوا بِالْحَسَنَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٤).

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهبوا بداراً، وعن الشعبي: من بايع بالحبيبية، وهي: بيعة الرضوان ما بين الهجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أو زرارة منصوب بن عمير فلمهم القرآن، وقرأ عمر رضي الله عنه: والآنصار بالرفع عطفاً على ﴿السابقون﴾. وعن عمر أنه كان يرى أن قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بغير أو: صفة للأنصار حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: اثنتوني بأبي، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة ﴿وآخرين منهم﴾ (٤) وأوسط الحشر ﴿والذين جاؤا من بعدهم﴾ (٥) وآخر الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعده﴾ (٦) وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: أقرانيه رسول الله ﷺ وإنك لتبجع القرط بالبيع. قال: صدقت وإن شئت قلت: شهدنا وغبت، ونصرنا وخلنتم، وأوينا وطردتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء (٧)، وخبره ﴿رضي الله عنهم﴾ ومعناه رضي عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية. وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي: قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف تحتها بغير من.

(١) سورة الجمعة، الآية: 3.

(٢) سورة الحشر، الآية: 10.

(٣) سورة الأنفال، الآية: 75.

(٤) رواه الطبري وابن مروي الزيلعي 96/2.

(٥) قال أحمد: وكان قوله تعالى: ﴿مردوا على النفاق﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام، لما لهم من الخبرة في النفاق، والضراوة به، والله أعلم.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط، والطبري والثعلبي، الزيلعي 96/2.

(١) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (الحديث رقم: 1497)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (الحديث رقم: 2489).

(٢) سورة التوبة، الآية: 103.

(٣) قال أحمد: وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن، ولا كافر، وأنه مخلص في النار، وإن كان موحداً، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي رسم به المنافق، هو الذي يوسم به الموحّد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً، فأحذرهم، والله أعلم.

مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم، بلغهم ما نزل في المتخلفين فابقوا بالهلاك فاثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته ﷺ كلما قدم من سفر، فرأهم موثقين فسأل عنهم فنذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أؤمر فيهم» فنزلت، فاطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «ما أمرت أن أأخذ من أموالكم شيئاً»⁽¹⁾ فنزلت: «خذ من أموالهم عملاً صالحاً» خروجاً إلى الجهاد «وأخر شيئاً» تخلفاً عنه، عن الحسن، وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به؟ قُلْتُ: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأن المعنى خلط كل واحد منهم بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو: جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً بمعنى شاة بدرهم.

فإن قُلْتُ: كيف قيل: «أن يتوب عليهم» وما ذكرت توبتهم؟ قُلْتُ: إذا نكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة فقد ذكرت توبتهم «تطهرهم» صفة لصدقة وقرى تطهرهم من أظهره بمعنى: طهره، وتطهرهم بالجزم جواباً للامر. ولم يقرأ: وتزكيتهم إلا بإثبات الباء والتاء في تطهرهم للخطاب، أو لغيبة المؤنث، والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الأنماء والبركة في الماء «وصل عليهم» واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصلق لصاحب الصدقة إذا أخذها، وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت وجعله طهوراً وبارك لك فيما أبقيت. وقرى: إن صلاتك على التوحيد «سكن لهم» يسكنون إلي وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم «والله سميع» يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعائهم «عليهم» بما في ضمائرهم والغم من الندم لما فرط منهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١٤) وَقُلِ اعْمَلُوا سَبِيحَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(١٥)

وقرى: «الم يعلموا» بالياء والتاء وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد المتوب عليهم يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم «إن الله هو يقبل التوبة» إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو: للتخصيص والتأكيد وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين، وقيل: معنى التخصيص في «هو» أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

«وقل» لهؤلاء التائبين «اعملوا» فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أم شراً - على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: «ويأخذ الصدقات»؟ قُلْتُ: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل⁽³⁾، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: «فيسرى الله» وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

وَأَكْثَرُونَ مُرْجُونَ لِإِثْمِهِمْ إِنَّهُ يَعْلَمُ غُيُوبَهُمْ وَإِنَّا نَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١٦)

قرى: مرجون ومرجون من أرجيته وأرجاته إذا أخرته ومنه المرجة يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم «إنما يعنبنهم» إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا «وإنما يتوب عليهم» إن تابوا وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فؤضوا أمرهم إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم ونصحت

= واللبن، يفيد ما يفيد مع الباء، وزيادة ليس كذلك، فالظاهر في الآية، والله أعلم أن العدول عن الباء، إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل عملوا عملاً صالحاً، وآخر شيئاً ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط، فبعر عنهما معب، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب (الحديث رقم: 1410) ومسلم في صحيحه كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من كسب الطيب وترتيبها (الحديث رقم: 2339).

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(2) قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن، فالمصرح به في هذا الكلام، أن الماء المخلوط، واللبن مخلط به، والمنلول عليه لزوماً لا تصريحاً، كون الماء مخلوطاً به، واللبن مخلوطاً، وإذا قلت خلطت الماء، واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً، وأما ما خلط به كل واحد منهما، فغير مصرح به بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به، ويحتمل أن يكون قرينة، أو غيره، فقول الرمخشري إن قولك خلطت للماء

فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضاراً، وعن عطاء، لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

فإن قلت: «والذين اتخذوا» ما محله من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الاختصاص كقوله: «والمقيمون الصلاة»⁽³⁾ وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله: «والسارق والسارقة»⁽⁴⁾.

فإن قلت: بم يتصل قوله «من قبل»؟ قلت: باتخذوا أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافي هؤلاء بالتخلف «إن أردنا» ما أردنا ببناء هذا المسجد «إلا» الخصلة «الحسنى» أو الإرادة الحسنى وهي: الصلاة ونكر الله والتوسعة على المصلين.

لَا تَعُدُّ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَعُدَّ فِيهِ رِجَالٌ يُحْزَنُونَ أَنْ يَضِلُُّوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ (١٨).

«لمسجد أسس على التقوى» قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي: يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة وهو أولى، لأن الموازنة بين مسجد قباء أوقع، وقيل: هو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»⁽⁵⁾ «ومن أول يوم» من أول يوم من أيام وجوده «فيه رجال يحبون أن يتطهروا» قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: «أؤمنون أنتم؟» فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «تشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار»، إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا النبي ﷺ⁽⁶⁾ «رجال يحبون أن يتطهروا» وقرئ: أن يطهروا بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون

توبتهم فرحمهم الله⁽¹⁾ «والله عليم حكيم» وفي قراءة عبد الله: غفور رحيم، «وإياهم للعباد أي: خافوا عليهم العذاب، وأرجو لهم الرحمة».

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرُّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَرِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلُنَّ إِنَّ آرَدْنَا إِلَّا الْخُسْفَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٩).

في مصاحف أهل المدينة والشام «الذين اتخذوا» بغير وأو: لأنها قصة على حياها وفي سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ياتيهم فاتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوانهم، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ «الفاسق»، وقال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعملوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر، وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً بجانب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ: بني لنا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال ﷺ: «إني على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن النخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن وحشي قاتل حمزة فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا «وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الحيف والقمامة» ومات أبو عامر بالشام بقنسرين⁽²⁾ «ضاران» مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة «وكفرا» وتقوية للنفاق «وتفريقاً بين المؤمنين»: لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم «وإرصاداً» وإعداداً «لهم أجل» من حارب الله ورسوله ﷺ وهو: الراهب أعوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ، وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق: أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني

(3) سورة النساء، الآية: 162.

(4) سورة المائدة، الآية: 38.

(5) رواه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى (الحديث رقم: 3373).

(6) رواه الطبراني في الأوسط الزيلعي 104/2.

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 2769 53).

(2) نكره الواحد في أسباب النزول ص 147، ونكره ابن هشام في السيرة 2/ 529 530.

اليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أنني لا أعلم ما أضمرُوا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه.

لَا يَزَالُ بَيْنَهُمُ الَّذِي بَنُوا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿ريبة﴾ شكاً في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عز وجل: ﴿ضَارِبُوا كُفْرًا﴾^(١) فلما هدمه رسول الله ﷺ ازدادوا لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم تصميمًا على النفاق ومقتلاً للإسلام فمعنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بَيْنَهُمُ الَّذِي بَنُوا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ولا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً وتفرق أجزاء فحينئذ يسلمون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون نكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم، أو في القبور أو في النار، وقرئ: يقطع بالياء، وتقطع بالتخفيف، وتقطع بفتح اللاء بمعنى: تتقطع وتقطع قلوبهم على أن الخطاب للرسول أي: إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم، وقرأ الحسن: إلى أن، وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم، وعن طلحة: لو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندمًا وأسفًا على تقريطهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُونَ وَيُتْلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ بَإِعْمَلِمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١١٨﴾

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشورى، وروى تاجرهم فأغلى لهم الثمن، وعن عمر رضي الله عنه: فجعل لهم الصفقتين جميعاً، وعن الحسن: أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها، وروي: أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: «اشترط لربي أن تعبوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني بما تمنعون منه أنفسكم»، قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: اربح البيع لا نقيل ولا نستقيل^(٢)، ومر برسول الله ﷺ أعرابي وهو يقرأها فقال: كلام من؟ قال:

الماء بأثر البول، وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم.

فإن قلْتُ: ما معنى المحبتين؟ قلْتُ: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتبه له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

أَقَمَّنْ أَسَسَ بَيْنَكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بَيْنَكُمْ عَلَى شَكٍّ جُرْبٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٩﴾

قرئ: أسس بنيانه وأسس بنيانه على البناء للفاعل والمفعول، وأسس بنيانه جمع أساس على الإضافة، وأساس بنيانه بالفتح والكسر جمع أس، وأساس بنيانه على أفعال جمع أس أيضاً وأسس بنيانه، والمعنى: أقمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي: الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم من﴾ أسسه هلى قاعدة هي أضعف القواعد وأرخابها وأقلها بقاء، وهو: الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شفا جرف هار﴾ في قلة الثبات والاستمسك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى.

فإن قلْتُ: فما معنى قوله: ﴿فانهار به في نار جهنم﴾؟ قلْتُ: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور أن المبطل كانه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به وذلك الجرف فهو في قعرها، والشفا: الحرف، والشفير وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً، والهار الهائر وهو: المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه: فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف، ونظيره شاك وصات في شائك وصائت، ولفه ليست بفاعل إنما هي عينة، وأصله هور وشوك وصوت، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف بسكون الراء.

فإن قلْتُ: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر ﴿على تقوى من الله﴾ بالتونين؟ قلْتُ: قد جعل الألف للإلحاق لا للتانيث كتنرى فيمن نون الحقها بجعفر، وفي مصحف أبي فانهارت به قواعده، وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فروى اللخان يخرج منه، وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأتين لمجمع فيؤمهم في مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين،

ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يمنعا أن نستغفر لأبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه.

مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالْآلِ الْأَيْمَنِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَدَى مَا بَيَّنَّ فَهَيْمَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٣٧) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١٣٨).

﴿ما كان للنبي﴾ ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ماتوا على الشرك.

قرأ طلحة: وما استغفر إبراهيم لأبيه وعنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه وهو قوله: ﴿لاستغفرن لك﴾ (١٣٨) ويدل عليه قراءة الحسن، وحماد الرواية: وعدها أباه.

فإن قلنا: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلنا: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ألا ترى إلا قوله عليه السلام لعمه: ﴿لاستغفرن لك ما لم أنه﴾ وعن الحسن: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يستغفر لأبيه المشركين؟ فقال: «نحن نستغفر لهم» (١٣٨) فنزلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبيه وهما مشركان، فقلت له فقال: ليس قد استغفر إبراهيم (١٣٨).

فإن قلنا: فما معنى قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾؟ قلنا: معناه فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أواه فعال من أوه كلال من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: ﴿لأرجمنك﴾ (١٣٨) يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركون وغيره مما نهى عنه وبين (١٣٩) أنه محظور لا يؤخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالاً، ولا

«كلام الله» قال: بيع والله مريب لا ثقيله ولا نستقله، فخرج إلى الغزو فاستشهد (١) «يقاتلون» فيه معنى: الأمر كقوله «تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» (٢) وقرئ: فيقتلون ويقتلون على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس «وعدها» مصدر مؤكد أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته «في التوراة والإنجيل» كما أثبتته في القرآن ثم قال: «ومن أوفى بعهده من الله»؛ لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلف مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

التَّائِبُونَ الْعَمَلُونَ الْحُقُولُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَلَمْ يَنْجُوا مِنْ عَمَلِهِمْ وَشَرِّهِمْ وَأَلَمْ يَخْلُكُوا مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (١٣٩).

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي: هم التائبون يعني: المؤمنين المذكورين ويدل عليه قراءة عبد الله وأبي رضي الله عنهما: التائبين بلياء إلى والحافظين نصاً على المدح، ويجوز أن يكون جرّاً صفة للمؤمنين، وجوز الزجاج: أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله: «وكلاً وعد الله الحسنى» (٣) وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون: مبتدأ وخبره العابدون وما بعده خبر بعد خبر أي: التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن هم: الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق و﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها و﴿السائحون﴾ الصائمون شبهوا بنوي السباحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه. قيل: قال ﷺ لعمه أبي طالب: «أنت أعظم الناس عليّ حقاً وأحسنهم عندي يداً، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي». فأبى فقال: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه» (٤) فنزلت، وقيل: لما افتتح مكة: «سال أي أبويه أحدث به عهداً» فقيل: أمك أمانة فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأن لي» فنزلت. وهذا أصح؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة وهذا آخر

= 106.

(7) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، (الحديث رقم: 3101) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب: النهي عن الاستغناء للمشركون (الحديث رقم: 2036).

(8) سورة مريم، الآية: 46.

(9) قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين، والتقبيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه تابع لمقتضاه، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/ 105.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

(3) سورة الحديد، الآية: 10.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، (الحديث رقم: 1360)، ومسلم في صحيحه كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (الحديث رقم: 131).

(5) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(6) قال الزيلعي: غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن 2/ =

الضمير للفريق تاب عليهم لكيهم وديتهم.

وَعَلَّ الْفَلَنَةَ الْيَزِيدَ خَلْفًا حَتَّى إِذَا سَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَسَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ
تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوًّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْكَرُّبُ الرَّجِيءُ (١٧).

﴿الثلاثة﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ومعنى ﴿خلفوا﴾ خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم، وقرئ: خلفوا أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلفوهم، وقرأ جعفر الصائغ رضي الله عنه: خلفوا وقرأ الأعمش: وعلى الثلاثة المخلفين ﴿بما رحبت﴾ برحبها أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانًا يقرّون فيه قلقًا وجزعًا مما هم فيه ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وظنوا﴾ وعلموا ﴿أن لا ملجأ من﴾ سخط ﴿الله إلا﴾ إلى استغفاره ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرامة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضًا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علمًا منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناسًا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيرًا من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه ما خلفني إلا ذلك وانتظار شرك اذهب فانت في سبيل الله ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطاني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم والله لا أكابن المفاوز حتى الحق برسول الله ﷺ فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلى نفسه لا أهل ولا مال فقال: يا نفسي ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لا أكابن الشدائد حتى الحق برسول الله ﷺ فتأبط زاد ولحق به، قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصير عليها، وعن أبي نذر الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره وأتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، فقال رسول الله ﷺ: لما رأى سواده: «كن أبا نذر» فقال الناس: هو ذلك، فقال: «رحم الله أبا نذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»⁽⁴⁾، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحى والريح! ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومز كالريح، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكانه، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له، ومنهم من بقي لم يلحق به منهم الثلاثة. قال كعب: لما قفل رسول الله ﷺ

يخلفهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤخرون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم، وهذا بيان لعذر من خاف المواخذه بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي أن المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال.

وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعِصِلُ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسِيرَ لَهَا يَنْقُورُ إِنْ اللَّهُ يَكُلِّي شَيْءًا عَلَيْهِ (١٨) إِنْ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ نَجْمِي وَرَبِّي وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٩) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُكَلِّبِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ زَوُفٌ رَجِيمٌ (٢٠).

والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي فاما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوبيعة فغير موقوف على التوقيف ﴿تاب الله على النبي﴾ كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿واستغفر لذنوبك﴾⁽²⁾ وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل معناه: تاب الله عليه من إنته للمنافقين في التخلف عنه كقوله: ﴿عفا الله عنك﴾⁽³⁾ ﴿في ساعة العسرة﴾ في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق كما استعملت الغداة والعشية واليوم. غداة طفت علماء بكر بن وائل.

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرًا إذا جاء يومًا واثري يبتغي الفنى يجمع كف غير ملأ ولا صفرا والعسرة حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد، تزودا التمر الملوذ والشعير المسوس والأهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجنب والقحط والضيق الشديدة ﴿كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي كاد ضمير الشأن وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرئ: يزيغ بالياء، وفي قراءة عبد الله: من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يريد المتخلفين من المؤمنين كابي لبابة وأمثلة ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون

(3) سورة التوبة، الآية: 43.

(1) سورة الفتح، الآية: 2.

(4) رواه الحاكم في المستدرک 3/50.

(2) سورة غافر، الآية: 55.

تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربثوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهيج لمتابعته بأنفة وحمية ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته كانه قيل: ذلك الوجوب ﴿بب﴾ سبب ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ شيء من عطش ولا تعب ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدرسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيظهم ويضيق صدورهم ﴿ولا ينالون من عدوهم نيلاً﴾ ولا يرزؤنهم شيئاً يقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالوطء: الإيقاع والإبادة لا الوطء بالأقدام والحوافر كقوله عليه السلام: «آخر وطاة وطئها الله بوج»⁽³⁾ والموطئ إما مصدر كال مورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطؤه، والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدرًا مؤكِّدًا وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزاه نقصه، وهو عام في كل ما يسوءهم وينكبهم ويلحق بهم ضرراً، وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً، من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأن وطء يبارهم مما يغيظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر وقد قُتِلَ بعد تقضي الحرب⁽⁴⁾، وأمد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المهاجرين أبي أمية وزيد بن أبي ليبي بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس فلحقوا بعلما فتحوا فأسهم لهم⁽⁵⁾، وعند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد بن عمير: ظماء بالمد يقال: ظمى ظماء وظماء.

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَحِزَّهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾

﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة﴾ ولو تمرة ولو علاقة سوط ﴿ولا كبيرة﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي: أرضاً في

سلمت عليه فرد علي كالمغضب بعدما نكرني وقال: «ليت شعري ما خلف كعباً؟» فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفه، فقال: «معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً»⁽¹⁾ ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقتربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا ببدء من نزوة سلح: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربي ﴿وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم﴾ وتتابع البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، قلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». ثم تلا علينا الآية، وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾

﴿مع الصادقين﴾ وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾⁽²⁾ وقيل: هم الثلاثة أي: كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار ووافقوهم وانتظموا في جملتهم وأصدقوا مثل صدقهم، وقيل: لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا أن يعد أحلكم صبيه ثم لا ينجزه، أقرؤا إن شئتم ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فهل فيها من رخصة؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ تَقِيَتِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْصُونَ الْأَمْرَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن أنفسهم﴾ امرؤ بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وإن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وإن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما

(4) رواه أبو داود نحوه في كتاب: الجهاد، باب: فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له (الحديث رقم: 2725) والترمذي مختصراً، وأخرج البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب: غزوة خيبر (الحديث رقم: 4223).

(5) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 115/12.

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6947).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) رواه أحمد في مسنده 409/6.

للفرق الباقية بعد الطواف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتعفة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلزُّيِّنِ يَكُونُ مِنكُم مِّنَ الضَّالِّينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ هُمْ غُلَظَّةٌ وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم⁽³⁾، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ونظيره: ﴿وانذر عشيرتک الأقربين﴾⁽⁴⁾ وقد حارب رسول الله ﷺ قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال البيلم فقال: عليك بالروم. وقرئ: غلظة بالحركات الثلاث فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة ونحو: ﴿واغلظ عليهم﴾⁽⁵⁾ ﴿ولا تهنوا﴾⁽⁶⁾ وهو يجمع الجراة أو الصبر على القتال وشدة العداوة والعنف في القتل والأسر ومنه: ﴿ولا تأخذنكم بهما رافة في دين الله﴾⁽⁷⁾ ﴿مع المتقين﴾ ينصر من اتقاه فلم يتراف على عدوه.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَزَادُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ مِّنْ بَيْنَهُمْ أُولَٰئِكَ ﴿١٣٨﴾

﴿فمنهم من يقول﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿إيماناً﴾ إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به وأيكم مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: أيكم بالفتح على إضمار فعل يفسره زانته تقديره أيكم زانته هذه إيماناً ﴿فزادتهم إيماناً﴾؛ لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر، أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَرٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَا أُوذُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣٩﴾

(3) قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين، أما من نزل بهم عنوة، وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم، حتى يكتفوا، وأما من عينهم الإمام لذلك، وإن بعثت بهم الدار، وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال، وإزعاج العدو من دياره، وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر.

(4) سورة الشعراء، الآية: 214.

(5) سورة التوبة، الآية: 73.

(6) سورة آل عمران، الآية: 139.

(7) سورة النور، الآية: 2.

ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفجراً للسيل وهو في الأصل فاعل من ودي إذا سال، ومنه الوادي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون: لا تصل في وادي غيرك ﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك من الأنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله ﴿ليجزئهم﴾ متعلق بكتب أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَّحَرٌ مِنْ كُلِّ رَفَقَةٍ يَّتَمَحَّيْطُ بِهَا الَّذِينَ يَلْمِزُونَ وَإِنَّمَا هُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَنَهُمْ يَجْزُوكَ ﴿١٤٠﴾

اللام لتأكيد النفي⁽¹⁾ ومعناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن ولم يؤد إلى مفسدة لوجب، لوجب النفقة على الكافة، ولأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿قلولا نفر﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة طائفة﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة يكفونهم النفير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليتكلموا الفقهاء فيه ويتجشمو المشاق في أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرمى همته في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمونه من المقاصد الركيكة، من التصرُّ والتروُّس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسه ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرمدة جثوا بين يديه، وتهالكة على أن يكون موطن العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل: ﴿لا يريسون علواً في الأرض ولا فساداً﴾⁽²⁾ ﴿ليعلمهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً، وجه آخر وهو: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعضاً بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف، وقوله: ﴿ليتفقهوا﴾ الضمير فيه

(1) قال أحمد: قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، على التفسير الأول أمر لا نهى، وعلى الثاني خبر، المراد به النهي؛ لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتعفة، وهذا لو أمكن الجميع فعله، لكان جائزاً، أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية، وأما في الثاني، فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين، وكان ذلك ممكناً، بل واقعاً، فنهوا عن إطراح النفقة بالكلية، وأمرؤ به أمر كفاية، والله أعلم.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصربك، فاستعن وفوض إليه فهو كافيك معرتهم ولا يضررك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: العظيم بالرفع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: أخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ عن رسول الله ﷺ: «ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة، براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» (2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الرَّيَّاكَ أَيُّنَ الْكِتَابِ الْكَبِيرِ ﴿١﴾.

﴿الرَّ﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي و﴿تلك آيات الكتاب﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة و﴿الحكيم﴾ نو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثه قال الأعشى:

وغريبه تأتي الملوك حكيمة قد قلنتها ليقال من ذا قالها
أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنْ أُوحِيََا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَيِّنَ
الْآيَاتِ مَآثِرًا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾.

الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه و﴿أن أوحينا﴾ اسم كان وعجباً خبرها وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسماً وهو نكرة وأن أوحينا خبراً وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون كان تامة وإن أوحينا بدلاً من عجب.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى اللام في قوله: ﴿إِذَا كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ﴾ وما الفرق بينه وبين قولك إَكَانَ عَجَبٌ؟ قُلْتُ: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ رجساً إلى رجسهم ﴿كفراً مضموماً إلى كفرهم﴾ لأنهم كلما جدوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً أزال كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَآرٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾.

قرئ: أو لا يرون بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والخط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا ينكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهد مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْكُمْ وَتَوَلَّى تَوَلَّى مَوَلَّى مَرْفُوعاً مَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾.

﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لئنصرف فإننا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتصاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلا لواءً يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه وإذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾ (1) دعاء عليهم بالخذلان ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾.

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبيكم عربي قرشي مثلكم، ثم نكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتكم﴾ أي: شديد عليه شاق لكونه بعضاً منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بين الحق الذي جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾. وقرئ: من أنفسكم أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما، وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

= تعير عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة للفعل الصابر منهم، وهو الانصراف، كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾، وكقوله: ﴿ويترى بكم النواثر عليهم دائرة السوء﴾.

(2) نكره الثعلبي في تفسيره.

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبراً؛ لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الإصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤول الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مر له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حد سواء =

ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو: ربيكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فإن أننى التفكير والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّكُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَّاتٌ مِّنْ حِسَابٍ وَذَابُ آبٍ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ و﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وعد الله﴾ إنه يبدو الخلق ثم يعيده استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: ﴿أنه يبدو الخلق﴾ بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بئسه. وقرئ: وعد الله على لفظ الفعل ويبدئ من أبداً، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً أي: حق حقاً بدأ الخلق كقوله: أحقاً عباد الله أن لست جائئاً ولا ذاهباً إلا على رقيب وقرئ: حق أنه يبدو الخلق، كقوله: حق أن زيدا منطلق ﴿بالقسط﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزي والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيه أجورهم أو بقسطهم وبما أقتسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأن الشرك ظلم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظْلُمٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) والعصاة ظلام انفسهم وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿بما كانوا يكفرون﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَسْلَمُوا عَدَى الْبَحْرَيْنِ وَأَلْجَبَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي تَخْلُفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾

الياء في ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: ضياء بهمزتين بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل: في عاق عقا والضياء أقوى من النور ﴿وقدره﴾ وقدر القمر والمعنى وقدر مسيره ﴿ومنازل﴾ أو قدره ذا منازل كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾^(٦) و﴿الحساب﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ﴿تلك﴾ إشارة إلى المذكور أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ: يفصل بالياء.

البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾^(١) وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً؛ لأن الله تعالى إنما يختار من استحسن الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾^(٢) والبعث للجزاء على الخير والشر هو: الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً؛ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿إن أنذر الناس﴾ أن هي المفسرة؛ لأن الإحياء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقلية، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشان قولنا: أنذر الناس و ﴿إن لهم﴾ الباء معه محذوف ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة.

فَإِنْ قُلْتَ^(٣): لم سميت السابقة قدماً؟ قُلْتُ: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وبأعاً لأن صاحبها يبيع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لسحر﴾ ومن قرأ لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبي: ما هذا إلا سحر.

إِنَّ رَبَّكُمْ أَلَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَهْدِي ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

﴿يعبد﴾ يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أibar الأمور وعواقبها لئلا يلقاه ما يكره آخرًا و ﴿الامر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فَإِنْ قُلْتَ: ما موقع هذه الجملة؟ قُلْتُ: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض مع بسلطتها واتساعها في وقت يسير وبالإستواء على العرش، وتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿ما من شئفيع إلا من بعد إننه﴾ دليل على العزة والكبرياء كقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾^(٤) و ﴿تلكم﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي:

= كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(4) سورة النبأ، الآية: 38.

(5) سورة لقمان، الآية: 13.

(6) سورة يس، الآية: 39.

(1) سورة الإسراء، الآية: 95.

(2) سورة سبأ، الآية: 37.

(3) قال أحمد: لم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً، ولكن غلب العرف على قصرها، =

الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟ قُلْتُ: الأمر كذلك، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل كأنه قال: إِنَّ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ثم قال: بِإِيمَانِهِمْ أَي: بِإِيمَانِهِمْ هَذَا المضموم إليه العمل الصالح وهو بين واضح لا شبهة فيه.

دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِرِّغْنَاهُمْ مِنْهَا سَكَنًا وَاجْزِ دَعَوْنَهُمْ أَيْنَ لَقَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

﴿دعواهم﴾ دعاؤهم؛ لأنَّ اللهم نداء الله ومعناه: اللهم إنا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادات: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾⁽⁵⁾ على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمده، وذلك ليس بعبادة إنما يلهمونه فينطقون به تلقذاً بلا كلفة كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾⁽⁶⁾ ﴿وآخر دعواهم﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح ﴿أَن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ومعنى: وتحيتهم فيها سلام أَن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل هي: تحية الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، وأن هي المخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله على أن الضمير للشأن كقوله: أن هالك كل من يحفي وينتعل. وقرئ: أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد.

﴿وَلَوْ يَسْئَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَشَرَّ مَا سَبَّحُوا بِالْحَمْدِ لَفَرَّقَنَّا أَلَيْسَ لِمَنْ يَرْجُوا لِقَاءَنَا فِي طَائِفَتِهِمْ يُغْمَرُ﴾^(١١)

أصله ﴿ولو يجعل الله للناس الشر﴾ تعجيله⁽⁷⁾ لهم الخير فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبته حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة﴾⁽⁸⁾ من السماء يعني: ولو

خَصَّ الْمُتَّقِينَ؛ لأنهم يحذرون العقابة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

إِنَّ الْآيَةَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالْآيَةُ هُمُ عَنَّا مِثْلَ آبَائِنَا غُفُلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرונה ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا ياملون حسن لقاءنا كما يامله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ورؤوا بالحياة الدنيا﴾ من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾⁽¹⁾ ﴿واطمأننوا بها﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأملوا بعيداً.

إِنَّ الْآيَةَ مَأْمُورًا وَنَحْمِلُوا الصَّلَاةَ بِجَهَنَّمَ رَبِّهِمْ بِإِسْمِهِمْ تَجَرُّوفٍ مِنَ تَحْمِيهِمُ الْكَافِرِينَ فِي جَنَّتِ الْآيَةِ ﴿٦﴾

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يسددهم⁽²⁾ بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب ولذلك جعل ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ بيانا له وتفسيرا؛ لأنَّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة كقوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾⁽³⁾ ومنه الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صَوَّرَ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّا عَمَلُكَ فَيَكُونُ لَهُ نُورًا وَقَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صَوَّرَ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّا عَمَلُكَ فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّى يُلْخَلَ النَّارَ»⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: فلقد دلت هذه الآية على أَنَّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو: إيمان مقيد، وهو: الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) قال أحمد: هو يقرَّر بذلك زعمه في أَنَّ شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأنَّ من لم يعمل مخلصاً في النار، كالكافر، وإني له ذلك، وقد جعلنا الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال يهديهم ربهم بإيمانهم، وقول الزمخشري أَنَّ المراد إضافة العمل لا ينتهز عن حيز الدعوى، فإنَّ الله لم يعمل بغير الإيمان، وإن جرى لغيره نكر أولاً، فلا يلزم إجراؤه ثانياً، ولا محوج إليه، وشبهته أَنَّ الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيدا في التسبب، وهو ممنوع، فإنَّ الضمير إنما يعود على النوات، لا باعتبار الصفات، وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال، وأشكال، والله الموفق.

(3) سورة الحديد، الآية: 12.

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الزهد، باب: كلام ابن عمر 324/13.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

(6) سورة الأنفال، الآية: 35.

(7) قال أحمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على نقة نظره شاهدة وبيّنة، ولا يكاد يضع المصدر مؤكداً، أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز، يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة، والنحاة غايته أن يقولوا في قوله تعالى، والله أنبتكم من الأرض نباتاً أَنَّهُ أجرى المصدر على الفعل مقدرأ عدم الزيادة، أو هذا المصدر لفعل دل عليه المنكر تقديره نبت نباتاً، ولا يزيديون على ذلك، وإذا رجع القطن قريحته، ونأجى فكرته هل قرن المصدر في كتاب بغير فعله لفائدة، أو لا تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة، والله أعلم في اقتران قوله نباتاً، بقوله أنبتكم التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدر، وسرعة إفضاء حكمها، حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم، أي: إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً، فكان أحد الأمرين عين الآخر، فقرن به، والله أعلم.

(8) سورة الأنفال، الآية: 32.

تأكيداً لنفي إيمانهم وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إيمانهم بعد أن الرزوا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل تلك الجزاء يعني: الإهلاك ﴿نَجْزِي﴾ كل مجرم وهو: وعيد لاهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ وقرئ: يجزي بالياء.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ عَشِيرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكتنا ﴿لننظر﴾ لتعلمون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم و﴿كيف﴾ في محل النصب بتعلمون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يجب أن يتقدم عليه عامله.

فَإِنْ قُلْتَ: (١) كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قُلْتُ: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبه بنظر الناظر وعيان المعاني في تحققه.

وَإِذَا نُنَاقِشُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الْآيَاتُ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِشُرَائِنَا غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ تِلْكَ آيَاتِي تَقِيًّا إِنْ أُتِيتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ إِنِّي أَتَأْتِ بِآيَاتٍ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٨﴾

غاضهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا: ﴿أنت بقرآن﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من تلك نتبعك ﴿أو بدله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط نكر الآلهة وذم عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو: أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط نكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقصور عليه للإنسان ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ (٢) ﴿أن قبله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي، وقرئ: بفتح التاء، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ لا أتى ولا أدر شيئاً من نحو ذلك إلا متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بطلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس إلي تبديل ولا نسخ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أنت بقرآن غير هذا؟﴾ قُلْتُ: بلى

عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لنقضي إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا، وقرئ: لنقضى إليهم أجلهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لنقضينا إليهم أجلهم.

فَإِنْ قُلْتَ: فكيف اتصل به قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه؟ قُلْتُ: قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فنهملهم ونغفص عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَلَمْ نَرْدَعْهُ لِنَجْزِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَنَّا كُنُفًا عَنْهُ ضُرًّا مَرًّا كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى شَرٍّ مِثْلَ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَدِّينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحاليين عليه أي: دعانا مضطجاً ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: فما فائدة نكر هذه الأحوال؟ قُلْتُ: معناه: أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها: كان منبطحاً عاجز النهوض متخاذل النوم، أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي، والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف، وهو: القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستنفاذ البلاء؛ لأن الإنسان للجنس ﴿مر﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد، أو مر عن موقف الإبتهاال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ﴿كان لم يدعنا﴾ كأنه لم يدعنا فحفف وحذف ضمير الشأن قال: كان ثدياه حقان. ﴿كذلك﴾ مثل تلك التزيين ﴿زين للمسرفين﴾ زين الشيطان بوسوسته، أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن النكر واتباع الشهوات.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَوُا آيَاتِنَا وَمِنْهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجْتَنِبُوا وَمَا كَانُوا يَنْصُرُونَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال أي: ظلّموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحقبيح والشواهد على صلتهم وهي: المعجزات وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ﴿ظلّموا﴾ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً،

(١) دعواهم أن النظر يسلمتزم المقابلة، والجسمية، فلا نعيده، والله الموفق.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(١) قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزغتين، عقيدة طائفة من القدرية، يقولون إن الله لا يرى، ولا يرى تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدم إبطال =

عمرًا ﴿وقرى: عمرًا بالسكون يعني: فقد اقمتم فيما بينكم يافعًا وكهلاً فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: ﴿أثبت بقرآن غير هذا﴾ من إضافة الافتراء إليه.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُبْرِمُونَ ﴿٧﴾

﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافه إليه من الافتراء.

وَيَسْتَدْرِكُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَسْمَعُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الاوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرر، وقيل: إن عبودها لم تنفعهم وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثبياً على الطاعة معاقباً على المعصية، وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافاً ونائلة والنضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ﴿اتنبئون الله بما لا يعلم﴾ اتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلْت: كيف أنبؤا الله بذلك؟ قلْت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبؤا به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكانهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه، وقرى: اتنبئون بالتخفيف، وقوله: ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معبوم ﴿تشركون﴾ قرى: بالثناء والياء وما موصولة أو مصرية أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً رَجَعَهُ فَاَتَّخَذَتْهُمْ دُولًا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَعْنَىٰ عَلَيْهِمْ يَوْمَ فَيُؤْتَوْنَ ﴿٩﴾

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ حفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل وهابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾

ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ (١) ويقولون: ﴿افترى على الله كذباً﴾ (٢) فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلْت: لعلمهم أراوا أثبت بقرآن غير هذا أو بله من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته؟ وأراد بقوله: ﴿ما يكون لي﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن ابله قلْت: يرده قوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾.

فإن قلْت: فما كان غرضهم وهم ادهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح قلْت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله فابدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع واختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فيما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخرها منه ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحیحاً لافتراءه على الله.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات وهو: أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ينهر كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ولا يخفي عليكم شيء من أسرارها، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه والصقهم به ﴿ولا أدراكم به﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: ولا أدراكم به على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته في معنى: أعطيته وأرضيته، وتعضده قراءة ابن عباس ﴿ولا أنذرتكم به﴾، ورواه الفراء: ولا أدراكم به بالهمز وفيه وجهان: أحدهما: أن تقلب الألف همزة كما قيل: وليات بالحج، ورثات الميت، وحلات السويق، وذلك لأن الألف والهمزة من واد واحد، ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة، والثاني: أن يكون من دراته إذا نفعته وأدراته إذا جعلته دارتاً، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤني بالجدال وتكذبوني، وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الإبراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لساني غيري، ولكنه يمن علي من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورأني لها أهلاً نون سائر الناس ﴿فقد لبثت فيكم﴾

تعالى نبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تبصروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ﴾ إعلام بأن ما تظنونونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكنون بالتاء والياء وقيل: مكرهم قوله: سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا⁽¹⁾. قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: ﴿فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾⁽²⁾ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون⁽³⁾.

هُوَ الَّذِي يُبْرِكُ فِي الْكَلِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْتُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا سَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَكَانُوا فِيهَا يَاطِرِينَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ آيَةٌ قَطُّ حَتَّى قَالُوا: لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ وَاحِدَةً مِنْ رَبِّهِ وَكَانَ لِفِرْطِ عُنَادِهِمْ وَتَمَانِيهِمْ فِي التَّمَرُّدِ وَانْهَمَاكِهِمْ فِي الْغِيِّ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أَنْ الصَّارِفُ عَنْ أَنْزَالِ الْآيَاتِ الْمَقْتَرَحَةِ أَمْرٌ مَغِيبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعناكم وجوبكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كانوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعلمون رسول الله ﷺ ويكيونوه.

فإن قلُّت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلُّت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كانه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء⁽⁴⁾.

فإن قلُّت: ما جواب إذا؟ قلُّت: جاءتها.

فإن قلُّت: فدعوا؟ قلُّت: بدل من ظنوا؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به.

فإن قلُّت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلُّت: المبالغة، كانه ينكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.

فإن قلُّت: ما وجه قراءة أم الدرداء: في الفلكي بزيادة يائي النسب؟ قلُّت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جبرين﴾ للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد في فعل أخي فعل، وفي قراءة أم الدرداء

وهو: تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجب أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ^(١٠).

وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يعتدونها بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، بقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتمانيهم في التمرّد وانهماكهم في الغي ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أَنْ الصَّارِفُ عَنْ أَنْزَالِ الْآيَاتِ الْمَقْتَرَحَةِ أَمْرٌ مَغِيبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعناكم وجوبكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كانوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعلمون رسول الله ﷺ ويكيونوه.

وَإِذَا أَتَقَاتُ آتَاكَ رَحْمَةٌ مِنْ بَعْدِ مَرَّةٍ سَمَنَتْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا نَكُرُّونَ^(١١).

وإذا الأولى للشرط والآخرة جوابها وهي للمفاجأة والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مستنهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلُّت: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا؟ قلُّت: بلى قلت على ذلك كلمة المفاجأة كانه قال: وإذا رحمتهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم والمعنى: أَنَّ الله

= البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيباً، واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف، بأنَّ المجمعول غاية هو حمله ما في حيز، حتى من البلوغ مقرونًا بلياناس الرشد، وهذا المجمعول هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مقربي بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل، والآخر بعد فلا يحصل المجمعول إلا بعد الابتلاء، ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها مضافاً إلى ما ذكر معه، ونحن نعلم أن كونهم في الفلك، وذلك أحد ما جعل غاية متقدّم على التسيير، وإن كان المجمعول واقعاً، كوقوع الحادثة بجملة ما بعد الكون في الفلك، والله أعلم، وإنما بسطت القول ههنا لغواته، ثم فجئد بما مضى عهداً.

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرفاً بالنوء (الحديث رقم: 229).

(2) سورة الجمعة، الآية: 10.

(3) سورة الروم، الآية: 20.

(4) قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسننها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ فإن أنستم منهم رشداً، فانبغوا إليهم أموالهم. وقد استدل الزمخشري بها، لابي حنيفة في أن الصغير يبتلي قبل البلوغ أن يسلم إليه قبر من المال يمتحن فيه، خلافاً لما لك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ، قال الزمخشري وجه الاستدلال أَنَّ الله تعالى، جعل =

الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أُتْرَاقًا فَزَلَّهَا أَوْ هَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التفت وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ كلام فصيح، جعلت الأرض أخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكستتها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل أزيئت تزينت فادغم وبالأصل قرا عبد الله، وقرى: وازيئت على أفعلت من غير إعلال الفعل كأغليت أي: صارت ذات زينة، وازيانت بوزن ابياضت ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿أَتَاهَا أُتْرَاقًا﴾ وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعدًا منهم واستيقانهم انه قد سلم ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ﴾ كأن لم يغن زرعها أي: لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه ولا لم يستقم المعنى، وقرا الحسن: كان لم يغن بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرا على المنبر: كان لم تتغن بالأمس من قول الأعشى:

طويل الثواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كان لم تغن آنفاً.

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ الْآخِرَةِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿دار السلام﴾ الجنة أضافها إلى اسمه تعظيماً لها، وقيل: السلام السلامة؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٥) ﴿ويهدي﴾ ويوفق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم الذين علم أن اللطف يجدي عليهم؛ لأن مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يخلها إلا المهديون.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ ذُرِّيَّتِهِمْ وَلَا يَرْجِعُ وَجُوهُهُمْ قَدْرًا وَلَا ذُلًّا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَنَةٍ يَبْتَغِلَّهَا وَيَرْفَعُهُمْ ذُلًّا مَّا لَمْ يَنْ أَلَّهِ مِنْ عَاصِرٍ

للفلك أيضاً؛ لأن الفلكي يدل عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الريح الطيبة أي تلقتها، وقيل: الضمير للفلك من كل مكان من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أي: أهلكوا، جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿ولئن أنجيتنَّاهُ﴾ على إرادة القول، ولأن دعوا من جملة القول.

فَلَمَّا أَجَلْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ۖ نَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ۖ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿يبغون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في تلك ممعنين فيه من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قلَّت: فما معنى قوله: ﴿بغير الحق﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قلَّت: بلى وهو: استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب.

فإن قلَّت: ما الفرق بين القراءتين؟ قلَّت: إذا رفعت كان المتاع خيراً للمبتدأ الذي هو بغيكم، وعلى أنفسكم صلته كقوله: بغيي عليهم، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني: بغي على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت فعلى أنفسكم خبر غير صلة معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم ومتاع الحياة الدنيا في موضع المصدر المؤكد كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكر ولا تعن ماكراً، ولا تبغ ولا تغن باغياً، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً، وكان يتلوها» (١). وعنه عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة» (٢). وروي «ثنتان يجعلهما الله تعالى في الدنيا البغي، وعقوق الوالدين» (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغي جبل على جبل لك الباغى (٤)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه.

يا صاحب البغي إن البغي مصرفة فاربع فخير فعال المرء أعدله فلو بغي جبل يوماً على جبل لانتك منه أعاليه وأسفله وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَلَاءُ أَرْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

(١) رواه الحاكم في المستدرک 338/2.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 4512).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد 48/2 باب: البغي (الحديث رقم: 591).

(٤) رواه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم اعراض الناس (الحديث رقم: 6693).

(٥) سورة الواقعة، الآية: 26.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَزَقْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنُمْ إِنَّا نَصَبُدُونَ (١٨).

﴿مكانكم﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم و ﴿انتم﴾ أكد به الضمير في مكانكم لشد مسدّ قوله الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه، وقرئ: وشركاءكم على أنّ الواو بمعنى: مع والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿فزيلنا بينهم﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون، ومن بون الله قالوا ضلوا عنا﴾ (١٩) وقرئ: ﴿فزيلنا بينهم كقولك: صاعر خده وصعره وكلمته وكلمته﴾ ما كنتم إيانا تعبدون ﴿إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث امرؤكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعنتموهم.

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادِكُمْ لِغَفِيرِينَ (٢٠).

﴿إن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وهم: الملائكة والمسيح ومن عبده من بون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عز وجل فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطعاهم.

هَٰذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢١).

﴿هناك﴾ في تلك المقام وفي تلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلوا كل نفس﴾ تختبر وتذوق ﴿ما أسلفت﴾ من العمل فتعرف كيف هو؟ أقبيح أم حسن، أنافع أم ضار، أمقبول أم مربود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويعرفه ليكتنه حاله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (٢٢) وعن عاصم: تبلو كل نفس بالنون ونصب كل أي: نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل فتعرف حالها بمعرفة حال عملها إن كان حسناً فهي سعيدة وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى نفعل بها كما فعل الخابر كقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (٢٣) ويجوز أن يراد نصب بالبلاء وهو: العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: تتلو أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر ﴿مولاهم الحق﴾ ربهم الصانع ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرئ: الحق بالفتح على

كأنما أغشيت وجوههم قطماً من أليل مظلماً أولئك أصعب النار هم فيها عذبون (٢٤).

﴿الحسن﴾ المثوبة الحسنی ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ (٢٥) وعن علي رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسن الحسن والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريون أن أمطرکم؟ فلا تريون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة: أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا نخل أهل الجنة الجنة نوبوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فواه ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه» (٢٦) ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاهما ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا نلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إنكاراً بما ينقذهم منه برحمته لا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وترهقهم نلة﴾ (٢٧).

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ وكيف يتلأم؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿والذين كسبوا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿الذين أحسنوا﴾ كانه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وإما أن يقدّر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها وهذا أوجه من الأول؛ لأن في الأول عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عمله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: يرهقهم نلة بالياء، ﴿من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿مظلمًا﴾ حال من الليل، ومن قرأ قطعاً بالسكون من قوله: ﴿يقطع من الليل﴾ (٢٨) جعله صفة له وتعضده قراءة أبي بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم.

فَإِنْ قُلْتَ: إذا جعلت مظلمًا حالاً من الليل فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون أغشيت من قبل إن من الليل صفة لقوله: ﴿قطعاً﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإما أن يكون معنى الفعل في من الليل.

(4) سورة هود، الآية: 81.

(5) سورة غافر، الآيات: 73 و74.

(6) سورة الطارق، الآية: 9.

(7) سورة هود، الآية: 7.

(1) سورة النساء، الآية: 173.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (الحديث رقم: 448).

(3) سورة عبس، الآية: 41.

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن نفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب يعني: أنه لا يدعهم لجأهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلهم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى ومنه قوله: ﴿أمن لا يهدي﴾ وقرئ: لا يهدي بفتح الهاء وكسرهما مع تشديد الدال والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهذا للمبالغة ومنه قولهم: يتهدى ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الآلة التي نصبها لهم وبما لطف بهم ووقفهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً له أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أقمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي: لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدي﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهبه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله.

وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ في إقرارهم بالله ﴿إلا ظناً﴾؛ لانه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إن الظن﴾ في معرفة الله ﴿لا يغني من الحق﴾ وهو: العلم ﴿شَيْئاً﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إن الله عليهم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون بالياء.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَتَّبِعَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ مَصْدِقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فَوْقَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكن﴾ كان تصديق الذي بين يديه وهو: ما تقدمه من الكتب المنزلة؛ لانه معجز دونها فهو عبارة عليها وشاهد لصحتها

تأكيد قوله: ﴿ردوا إلى الله﴾ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح كقولك: الحمد لله أهل الحمد ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلفون من الكذب وشفاعة الآلهة.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ فَعَلْ أَكَلًا لَنَنْفَرُوا ﴿٣٣﴾

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي: ^(١) يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿من يملك السمع والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سوياً عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميها ويحصنها من الأفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤثيها أدنى شيء بكلايته وحفظه ﴿ومن يدير الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدد من الضلال.

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ رَبُّكُمْ غَيْرُ الَّذِي إِذَا سَأَلْتُمُوهُ فَكَانَ فَجْوَثًا ﴿٣٤﴾

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ربكم الحق﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخلى الحق وقع في الضلال ﴿فأني تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا مِثْلَ مَا يَدْعُوهُمُ اللَّهُ بِسَدْرٍ مُخْلَقٍ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَيِّ قُلْ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَيِّ أَمَّنْ يَدْعُو إِلَى الْحَيِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَدْعُو إِلَّا أَنْ يَدْعُوَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الحق ﴿حققت كلمت ربك﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وإن إيمانهم غير كائن، أو أراد لكلمة العدة بالعذاب و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تحليل بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

= العبد لنفسه، وهو: الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا، أقانت تسمع الصم، ولو كانوا لا يعقلون.

(١) قال أحمد: وهذه الآية كافية لوجوه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه

كقوله تعالى: ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾⁽¹⁾ وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على ﴿ولكن هو تصديق... وتفصيل﴾ ومعنى: وما كان أن يفترى، وما صح وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾⁽²⁾.

فإن قلنا: بم اتصل قوله: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؟ قلنا: هو: داخل في حيز الاستبرك وأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتقياً عنه الريب كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضاً كما تقول: زيد لا شك فيه كريم.

أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُمْ ثَلَاثُونَ يَسُورَ نَبِيِّهِمْ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْخَطْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ بل يقولون اختلقه على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فأتوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ومعنى: بسورة مثله أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: بسورة مثله على الإضافة أي: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من نون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره فلا تستعينوه وحده ثم استعينوا بكل من بونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَزَقٌ ﴿٢٩﴾

﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وآله وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أول وهلة واشماز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا بصحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قلنا: ما معنى التوقع في قوله: ﴿ولما ياتهم تأويله﴾؟ قلنا: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليداً للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحذير ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ولكن قلوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى ﴿ولما ياتهم تأويله﴾ ولم ياتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز، ونظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمعجزات وصدقه وكذبه.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُنِيبِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيسر ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندنين، أو المصريين.

وَلَا كَذَّبُكَ قُلُّ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ رَبِّتُونِمْ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك ويثست من إجابتهم فتبرأ منهم وخلصهم فقد أعذرت كقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء﴾⁽⁴⁾ وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْمَوْتِ وَكَانُوا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: اتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في

= للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه، حتى تنحس أعدائهم، ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(1) سورة فاطر، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 24.

(3) قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يومه عذراً ما = (4) سورة الشعراء، الآية: 216.

فإن قُلْتُ: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم؟ قُلْتُ: نكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبلة ثم: بالفتح أي: هنالك، ويجوز أن يراد أن الله مؤدِّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُتِبَ عَلَيْهِمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨).

﴿ولكل أمة رسول﴾ يبعث إليهم لينبئهم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضي بينهم﴾ أي بين النبي ومكذبيه ﴿بالقسط﴾ بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبون كقوله: ﴿وما كنا معنيين حتى نبعث رسولا﴾ (١) ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق﴾ (٢) ﴿متى هذا الوعد﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له.

قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَ اللَّهِ لِكُلِّ أُمَّةٍ فَإِذَا جَاءَ لِبَنِيهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ (١٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ بَيْنَا أَوْ نَحَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُونَ (٢٠) أَنَّهُ إِذَا مَا رَفَعَ مَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ كُتِبَ لَهُمْ سَعَتُهُمْ (٢١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلُقِ هَلْ تَجُزُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٢)

﴿لا أملك لنفسي ضراً﴾ من مرض أو فقر ﴿ولا نفعا﴾ من صحة أو غنى ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟ ﴿لكل أمة أجل﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحد محدود من الزمان ﴿إذا جاء﴾ تلك الوقت أنجز وعيدكم لا محالة فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم ﴿بياتاً﴾ نصب على الظرف بمعنى: وقت بيات.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ليلاً أو نهاراً؟ قُلْتُ: لأنه أريد أن اتاكم عذابه وقت بيات فبياتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نهاراً﴾ معناه في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش والكسب

ونحوه: ﴿بياتاً وهم نائمون﴾ (٣) ﴿ضحى وهم يلعبون﴾ (٤) الضمير في ﴿منه﴾ للعذاب والمعنى: أن العذاب كله مكروه مَرِّ المذاق موجب للنقار، فاي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه:

صماخه ذوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر. وأتخسب أنك تقدر على هداية العمى؟ ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحس ويتظن، وأما العمى مع الحق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول وقوله ﴿أفأنت﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حسيدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٢٣) ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب. ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه. وَيَوْمَ يُخْرَجُ كُلُّ لَبِيسٍ لَّهِ لَبِيسًا إِنَّ السَّاعَةَ مِنَ الْآثَارِ يُتَعَارَفُونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَعْتَبَرِينَ (٢٤).

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم.

فإن قُلْتُ: كان لم يلبثوا؟ و﴿يتعارفون﴾ كيف موقعهما؟ قُلْتُ: أما الأولى: فحال من هم أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة لقوله: ﴿كان لم يلبثوا إلا ساعة﴾ لأن التعارف لا يبق مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قد خسر﴾ على إرادة القول أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ للتجارة عارفين بها، وهو: استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أخسرهم.

وَأَمَّا رَبُّكَ بِبَعْضِ الْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ تَرَى النَّاسَ يُرْجَوْنَ إِلَى اللَّهِ عِوَاذًا وَتُؤْتَى بِكُلِّ كَافٍ مِّنْ عَمَلِهِ جُزْءًا وَأَن تَصْطَلِبَ فِي سَمَاءٍ مِّنْ لَّبِيسٍ لَّهِ لَبِيسًا إِنَّ السَّاعَةَ مِنَ الْآثَارِ يُتَعَارَفُونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَعْتَبَرِينَ (٢٥).

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾ وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعددهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

(3) سورة الاعراف، الآية: 97.

(4) سورة الاعراف، الآية: 98.

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.

(2) سورة الزمر، الآية: 69.

وأموالها جميع منافعتها على كثرتها ﴿لأفقدت به﴾ لجعلته فنية لها يقال: فداه فافقدت، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾: لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعابوا من شدة الأمر وتفاقمهم ما سلبهم قواهم، وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامداً مبهوتا، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلّوهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم سر الشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة أظهروها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد ﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين دل على نك نكر الظلم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

ثم أتبع ذلك ذكر الإعلام بأن له الملك كله، وأنه المتيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك فيخاف ويرجى ولا يفترقه المغترون.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَلِقَاءٌ يَوْمَئِذٍ ﴿٥٧﴾

﴿قد جاءكم موعظة﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد ﴿هو﴾ هو ﴿شفاء﴾ أي: نواء ﴿لما في﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق ﴿ورحمته﴾ لمن آمن به منكم.

قُلْ يَسْمَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أُنزِلَ لَكُمْ مِنْ رَبِّي فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُ كَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ عَلَىٰ مَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٥٩﴾

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقريب وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداها من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كانه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك فبمجئها

التعجب كانه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من اللبيان في هذا الوجه وقيل: الضمير في منه لله تعالى.

فإن قلّ: بم تعلق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قلّ: تعلق بارأيتم؛ لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

فإن قلّ: (١) فهلا قيل ماذا تستعجلون منه؟ قلّ: أريد الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو: الإجماع؛ لأن من حق المجرم أن يخاف التعنيب على إجرامه ويهلك فرعاً من مجيئه وإن أبداً فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون جواباً للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، ثم تعلق الجملة بارأيتم وأن يكون ﴿أنتم إذا ما وقع أمنتم به﴾ جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضاً والمعنى: إن أتاكم عذابي أمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أفانم أهل القرى﴾ ﴿أوأمّن أهل القرى﴾ (٢) ﴿آلآن﴾ على إرادة القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن أمنتم به ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني: وقد كنتم به تكنبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكنيب والإنكار، وقرئ: ﴿آلآن﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام والفاء حركتها على اللام. ثم قيل للذين ظلموا عطف على قيل المضر قبل ﴿آلآن﴾.

﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ هُوَ قُلُوبُ إِيَّاهُ لَقَوْلُ وَمَا أَشَدُّ يَمْعِزِينَ ﴿٥٩﴾

﴿ويستنبئونك﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أحق هو﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: ألحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل وذلك أن اللام للجنس فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو هو الذي سميتهم الحق والضمير للعذاب الموعود و﴿أي﴾ بمعنى: نعم في القسم خاصة كما كان هل بمعنى: قد في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: أو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ تَفْهِيمًا مَّا فِي الْأَرْضِ لَآتَدَّتْ بِهٖ وَأَسْرُوا أَتَدَامَةً لِّمَا رَأَوْا مِنَ الْعَذَابِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْوَسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ظلمتم﴾ صفة لنفس على ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ما في الأرض﴾ أي: ما في الدنيا اليوم من خزائنها

(2) سورة الاعراف، الآية: 98.

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمّر، والآخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة، والمبالغة، والله أعلم.

والشأن الأمر وأصله الهمز بمعنى: القصد من شأنه شأنه إذا قصدت قصده والضمير في «منه» للشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل النكر تفخيم له أو لله عز وجل وما «تعملون» أنتم جميعاً «من عمل» أي عمل كان «إلا كنا عليكم شهوداً» شاهدين رقباء نحصي عليكم «إذا تفيضون فيه» من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه «وما يعزب» قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب، ومنه: الروض العازب «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر» القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل من مثقال ذرة أو على لفظ مثقال ذرة فتحاً في موضع الجر لامتناع الصرف إشكالاً؛ لأن قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل.

فإن قلّت: لم قدّمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبا: «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض»⁽⁵⁾ قلّت: حق السماء أن تقدّم على الأرض ولكنه لما نكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: لا يعزب عنه، لاعم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم الثنية.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا حَوَافَّ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ لَهُمُ الْبُتْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلَالًا هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٩﴾

«أولياء الله» الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وقد فسر ذلك في قوله: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فهو توليهم إياه «لهم البُتْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبیر: أن رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين يذكر الله برؤيتهم»⁽⁶⁾ يعني: السمات والهيئات، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من عباد الله عبداً ما هم بانياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم، فلعلنا نجيبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور

فليفرحوا، وقرئ: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روي، وعنه: «لتأخذا مصافكم»⁽¹⁾ قالها في بعض الغزوات وفي قراءة أبي: فافرحوا «وهو» راجع إلى ذلك. وقرئ: مما تجمعون بالياء والتاء وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ تلا: «قل بفضل الله وبرحمته» فقال: «بكتاب الله والإسلام»⁽²⁾ وقيل: فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه «أرايتم» أخبروني و «ما أنزل الله» ما في موضع النصب بانزل أو بأرايتم في معنى أخبروني «فجعلتم منه حراماً وحلالاً» أي: أنزله الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه وقتلتم: هذا حلال، وهذا حرام كقولهم: «هذه أنعام وحرث حجر»⁽³⁾ «ما في بطون هذه الأنعام خالصة لنكورونا ومحرم على أزواجنا»⁽⁴⁾ «الله أن لكم» متعلق بأرايتم، وقل تكرير للتوكيد والمعنى: أخبروني الله أن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بأنهم؟ أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار ولم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريراً للافتراء وكفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغاً عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾

«يوم القيامة» منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: وما ظن على لفظ الفعل ومعناه: وأي ظن ظننا يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكان قد كان «إن الله لنؤا فضل على الناس» حيث انعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام «ولكن أكثرهم لا يشكرون» هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُخِصُّونَ فِيهِ وَمَا يُعْمَلُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي دَرَجَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾

«وما تكون في شأن» ما نافية والخطاب لرسول الله ﷺ

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص، (الحديث رقم: 3235).

(2) رواه ابن أبي شيبة 501/1 كتاب: فضائل القرآن، باب: في الفضل.

(3) سورة الأنعام، الآية: 138.

(4) سورة الأنعام، الآية: 139.

(5) سورة سبا، الآية: 3.

(6) رواه ابن أبي شيبة.

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَبْعُوثُ إِلَّا الظَّنَّ
وَأَن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾

﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان وإنما خصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم وهو سبحانه وتعالى ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له نداً وشريكاً، وليلد على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى وما يتبعون شركاء أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأن شركة الله في الربوبية محال ﴿إن يتبعون إلا﴾ ظنهم أنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يحزون ويقدرُونَ أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً، ويجوز أن يكون وما يتبع في معنى الاستفهام يعني: وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب يبدعون وعلى الأول بيتبع، وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقصر على أحدهما للدلالة، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من كانه قيل: ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تدعون بالباء ووجهه أن يحمل وما يتبع على الاستفهام أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبیین يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ (8) ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبیین من الحق.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِنَسْكُوتُوا فِيهِ وَالتَّهَارُ مَبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحده بالعبادة بانه جعل لهم الليل مظلاً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش، والنهار مضياً يبصرون فيه مطلب أرزاقهم ومكاسبهم ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع معتبر مذكر.

وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس^(١). ثم قرأ الآية ﴿الذين آمنوا﴾ نصب أو رفع على المدح أو على الوصف الأولياء أو على الابتداء والخبر ﴿لهم البشرى﴾ والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»⁽²⁾ وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي نر: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽³⁾ وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾⁽⁴⁾ وأما البشرى في الآخرة: فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بإيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده كقوله تعالى: ﴿ما يبدل القول لدي﴾⁽⁵⁾ و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ جَئِيمٌ هُوَ السَّيِّئُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ولا يحزنك﴾ وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه ﴿قولهم﴾ تكتبيهم لك وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إن العزة لله﴾ استثناف بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي لا أحزن فقيل: إن العزة لله جميعاً أي: إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرهم عليهم ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾⁽⁶⁾ ﴿إننا لننصر رسلنا﴾⁽⁷⁾ وقرأ أبو حيوة: أن العزة لله بالفتح بمعنى لأن العزة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره فالمنكر هو يخرجها لا ما أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمِن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْجُ

= 315/5

(3) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على الصالح ففيه بشرى ولا تصره (الحديث رقم: 6663).

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة ق، الآية: 29.

(6) سورة المجادلة، الآية: 21.

(7) سورة غافر، الآية: 51.

(8) سورة الإسراء، الآية: 57.

(1) رواه أبو نعيم في الحلية 5/1، والبيهقي في الشعب، باب: في مقاربة ومودة أهل الدين فصل في المصافحة والمعانقة عند الالتقاء، (الحديث رقم: 8998)، رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: المحبة والمجالسة، (الحديث رقم: 573)، والحاكم في المستدرک 4/420.

(2) رواه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: «لهم البشرى في الحياة الدنيا» (الحديث رقم: 2275)، وابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (الحديث رقم: 3898)، والحاكم في المستدرک 4/391 والإمام أحمد في المسند =

والواو بمعنى: مع يعني فاجمعوا أمركم مع شركائكم وقرأوا الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفاً على الضمير المتصل وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام كما تقول: اضرب زيداً وعمرو وقرئ: فاجمعوا من الجمع وشركاءكم نصف للعطف على المفعول، أو لأن الواو بمعنى: مع، وفي قراءة أبي: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم كقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾ (٣).

فإن قلت: ما معنى الأمرين أمرهم الذي يجمعونه وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعني: فاجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيد، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً، وأما الثاني: ففيه وجهان أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم يعني: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي: غماً وهمًا والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمة إذا ستره ومنها قوله عليه السلام: «ولا غمة في فرائض الله» (٤)، أي: لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصصكم إلا إهلاكه مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به «ثم اقضوا إلي» ذلك الأمر الذي تريدون بي أي: أدوا إلي قطعته وتصحيحه كقوله تعالى: «وقضينا إليه ذلك الأمر» (٥) أو أدوا إلي ما هو حق عليكم عنكم من هلاكه كما يقضي الرجل غريمه «ولا تنظرون» ولا تمهلوني وقرئ: ثم افضوا إلي بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلي بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى القضاء أي: اصحروا به إلي وأبرزوه لي.

فإن توليتم فما سألتم من أجرٍ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن تكون من الشاكرين (٦).

﴿فإن توليتم﴾ فإن اعرضتم عن تذكيري ونصيحتي ﴿فما سألتم من أجر﴾ فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذين لا يأخنون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا، يريد أن نلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به،

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨).

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغني﴾ علة لنفي الولد؛ لأن ما يطلب به الولد من ولد وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتلق بقوله: إن عندكم على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك: ما عندكم بارضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿اتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٩) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجُهُمْ ثُمَّ يَنْفِئُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠).

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه ﴿متاع في الدنيا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناسبة النبي ﷺ بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ نَبَأًا تَوَحُّشَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِكَائِبِ اللَّهِ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكُّكْتُ فَأَجْمَعُوا أَنْزَلْنَا وَشَرَكَاكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ غَنَةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظَرُونَ (١١).

﴿كبر عليكم﴾ عظم عليكم شق وثقل ومنه قوله تعالى: ﴿ولأنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (١) ويقال: تعاضمه الأمر ﴿مقامي﴾ مكاني يعني: نفسه كما تقول فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقیل الظل، ومنه: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ (٢) بمعنى: خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم مديداً طوياً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو مقامي وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بيتاً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ من أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يوماً وأمرى مجمع

(4) ذكره القاضي عياض في الباب الأول من كتاب الشفاء في فصل فصاحت (الزيلي 2/136).

(5) سورة الحجر، الآية: 66.

(1) سورة البقرة، الآية: 45.

(2) سورة الرحمن، الآية: 46.

(3) سورة الاعراف، الآية: 195.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً.

فإن قلت^(١): هم قطعوا بقولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ على أنه سحر. فكيف قيل لهم: اتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿اتقولون للحق﴾ اتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تدعنوا له وتعظموه من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول. إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونحو القول الذكر في قوله: ﴿سمعنا فتى ينكرهم﴾^(٢) ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول اتقولون وهو ما دل عليه قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كأنه قيل: اتقولون ما تقولون يعني: قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ ثم قيل: أسحر هذا وإن يكون جملة قوله: ﴿أسحر هذا﴾ ولا يفلح الساحرون. حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: اجثمتا بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ولا يفلح للساحرون﴾ كما قال موسى للسحرة: ﴿ما جئتم به لسحر إن الله سيطلعكم﴾^(٣).

قالوا أحيئنا لنألفنك عاً وجئنا عليه آباءنا وكون لنا الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴿٧٨﴾ وقال فرعون أتتوني بكل سحر عليم ﴿٧٩﴾ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم تفلحون ﴿٨٠﴾.

﴿لنلقننا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل اخوان ومطاوعهما الالتفات والانفتال ﴿عما وجئنا عليه آباءنا﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿وتكون لكما كبرياء﴾ أي: الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر، ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

ملكه ملك رافة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبراً وتكبيراً كما قال القبطي لموسى عليه السلام: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾^(٤) ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: مصنفين لكما فيما جئتما به. وقرئ: يطبع ويكون لكما بالياء.

فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به أسحر إن الله سيطلعكم إن الله لا يضل عمل المتقين ﴿٨١﴾.

والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير.

فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَّمَّ فِي الْفُلْكِ وَجَمَلَتَهُمْ حَلَّتْهُمُ رَافِقَاتُ الْزَيْنِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان ﴿وجعلناهم خلأث﴾ يخلفون الهالكين بالفرق ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسليته له.

ثُمَّ بَشَّارْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ رَسُولًا إِنَّ قَوْمَهُمْ لَأَلْبَسْتَنِي فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿من بعده﴾ من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ يعني: هوذا، وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ﴿فجاؤهم بالبينات﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كتبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث إليهم أحد ﴿كنك نطبع﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ﴿على قلوب المعتدين﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

ثُمَّ بَشَّارْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل ﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ كفاراً نوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَهُنَّ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا وَلَا بُدَّ لِلشَّارِقُونَ ﴿٧٦﴾.

(1) قال أحمد: في الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً، وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 60.

(3) سورة يونس، الآية: 81.

(4) سورة القصص، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً، وإنما =

= يستفاد ذلك بما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريم التكبير، لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإننا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه، فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء، وأما القراءة الثانية، ففيها، والله أعلم إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولاً اتقولون للحق لما جاءكم أسحر من هذا حكاية لقولهم، ويكون أسحر هذا هو الذي قالوه، ولا يناقض =

وَقَالَ مُوسَى يَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ تَسْلُبُونَ ﴿٨٤﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام وهو: أَنْ يَسْلَمُوا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لِأَنَّ التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إِنْ ضَرَبَكَ زيد فاضربه إِنْ كَانَتْ بك قُوَّة.

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَبِّكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لِأَنَّ الْقَوْم كانوا مخلصين لا جرم أَنَّ الله سبحانه قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أَنْ يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة لهم أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن بيننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

وَأَرْجَاكَ إِلَىٰ مَوْثِقٍ وَأَمْرِهِ أَنْ نَبُورَ لِّقَوْمِكَ بِمَصْرَ يَوْمًا وَأَجْعَلُوا يَرْجِعُكُمْ قِبَلَهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَزَيِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

تَبَوَّأَ الْمَكَانَ اتَّخَذَهُ مَبَادِعَ كَقَوْلِكَ: تَوَطَّنَهُ إِذَا اتَّخَذَهُ وَطْنًا والمعنى: اجعلنا بمصر بيوتًا من بيوته مبادِعَ لقومكما ومرجعًا يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿وَأَجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ﴾ تلك ﴿قِبَلَهُ﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أَوَّلِ أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤنَّوهم ويفتنوهم عن بينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أَوَّلِ الإسلام بمكة. فَإِنْ قُلْتُ: كيف نوع الخطاب فتني أولًا، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟ قُلْتُ: خطوب موسى وهرون عليهما السلام أَنْ يَتَبَوَّأَ

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ ما ^(١) موصولة واقعة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله وقرئ: السحر على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي: أي شيء جئتم به أهو السحر. وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحر، وقرأ أبي: ما أتيتم به سحر والمعنى: لا ما أتيت به إِنْ الله سيبطله سيمحقه ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمَفْسِدِينَ﴾ لا يثبت ولا يديمه ولكن يسلب عليه الدمار.

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ شَيْءٍ وَكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٨﴾

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبت به بكلماته ﴿بِأوامره وقضاياه وقرئ: بكلمته بأمره ومشيتيه.

فَمَا مَأْمَنَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَكَانَ يُعَذِّبُهُ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَاوِلُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمَصْرِفِينَ ﴿٨٩﴾

﴿فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى﴾ في أَوَّلِ أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، ولجأته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون والذرية، مؤمن آل فرعون، وأسية امراته، وخازنه، وامرأة خازنه، وما شطته.

فَإِنْ قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وَمِلَّتْهُمْ؟﴾ قُلْتُ: إلى فرعون بمعنى: آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه نزل أصحاب ياتمرون له، ويجوز أَنْ يرجع إلى الذرية أي: على خوف من فرعون وخوف من أشرف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ويدل عليه قوله ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ يريد: أَنْ يعذبهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لَغَالِبٌ فيها قاهر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمَصْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية.

المترافة المتساوية المعاني، وحاصل هذا البحث، أن قول موسى عليه السلام اتقوا للحق لما جاءكم أسحر هذا إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالته مستفهمًا، فقال: ما جئتم به كسحر على قراءة الاستفهام قرصًا بوفاء على السواء، والذي يحق لك أَنْ الاستفهام الإخبار في مثل هذا المعنى، مؤداهما واحد، أَنَّ الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جئتم به هو السحر على الوجهين الخبر، والاستفهام على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أَنَّ مؤدي الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر، وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعريب، أو إضمار مفعول تقولون استشكل وقوع الاستفهام محكيًا بالقول، والمحكي أولًا عنهم الخبر، وقد أوضحنا أنه لا تناقض، ولا تنافي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل على التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

== ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا: إن هذا لسحر مبين، وذلك، إما لأنهم قالوا الأمرين جميعًا بنوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق، والاستهتار بكونه حقًا، والاستهتار بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن آيت من الإخبار، لا ترى أنهم يقولون في قوله: أَلَمْ تَأْتِ أَمْ سَلَام، أبلغ في البت من قوله مخبرًا: أنت أَمْ سَلَام، ثم نلوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا إِنَّ هَذَا لَسَحْرٌ مَبِينٌ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، وويخهم موسى على قولهم الأول، ومعنى العبارتين ومثلها واحد، وإما إن لا يكونوا قالوا سوى أسحر هذا على سبيل الإنكار حسماً تقدم، فحكاه الله تعالى عنهم بماله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبت القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام: قولهم بلفظه، ولم يؤدِّه بعبارة أخرى، وحكاية القصص المتولة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ ==

نعمة الله سبباً في الضلال، فكانهم أوتوها ليضلوا وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أَتَيْتَ عَلَى الاستقهام واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُجِيبْتَ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩).

قرئ: دعواتكما قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إن دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما انتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢) وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرهما لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية وبخفيف التاء من تبع.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُوْدُهُ بَيْنَا وَعَدْرًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا كُنْتُ أَتَمُّ لَكَ إِلَهًا إِلَّا الَّذِي كُنْتُ بِهٖ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾.

قرا الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه وليس من جوز من الذي في بيت الأعشى:

ولإنا يجوزها جبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: وجوزنا بني إسرائيل في البحر كما قال، كما جوز السكي في الباب فيق. ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: وعدوا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الباء التي هي صلة الإيمان وأنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من أمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف (٣).

لقومهما بيوتاً ويختاراهما للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها والمبشر بها.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَنَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالَهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨).

الزينة ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

فإن قلنا: ما معنى قوله ﴿رَبَّنَا ليضلوا عن سبيلك﴾؟ قلنا (١): هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: ﴿رَبَّنَا اطمس... واشدده﴾ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيّناته عرضاً مكرراً، وردت عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنزهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورأهم لا يزينون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة إلا نبواً، ولم يبق له مطعم فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحى من الله، اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقتته وكرهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستاهلون إلا أن يخلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه كأنه قال: ليثبثوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا، وما عليّ منهم هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر: إذا ما لم يقبل منه حسرة على ما فاتته من قبول نصيحته وحرماً عليه لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدده﴾ أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل على أنهم جعلوا

= يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها، وروها إلى معتقده، وجعلها تبعاً له، كما تقدم له تأويل قوله: ﴿ليزدادوا إثمًا﴾ وكان من آية غراء رام أن يستر غرتها، ويغطي نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً، وعقداً ويأبى إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله، وكان عند الله وجيهاً.

(2) سورة هود، الآية: 46.

(3) قال أحمد: ولقد انكر منكراً، وغضب الله ولملائكته، كما يجب لهم، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو ألق من ديبب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً، ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل، والباطن أن اللام للتعليل، وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استدرجاً ليزدادوا إثمًا وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملئ لهم ليزدادوا إثمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجوار أن يملئ لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما

مَا كُنَّا وَكَدَّ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾.

وكان مطرحة كان على ممز من بني إسرائيل حتى قيل: ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ﴾ وقيل ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته ومهانيته وإن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل فما الظن بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلفك بالقاف أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته ويجوز أن يراد ليكون طرحك على الساحل وحيدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة إن مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإمطة الشبهة في أمرك.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَوْأً صَدِيقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَيْلُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ فَإِنَّ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿مبوا صدق﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو: مصر والشام ﴿فما اختلفوا﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة وعلما أن الاختلاف فيه تفرق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب اختلفوا في صفته ونعته وأنه هو، أم ليس به بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (3).

فإن قلت (4): كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله: في الكفرة ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ (5) قلت: فرق عظيم بين قوله: ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كانه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه فتقديراً ﴿فاسئل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى: أن الله عز وجل قدم نكر بني إسرائيل وهم قراءة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ

﴿الآن﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدرك الغرق وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى: أنه حين قال: آمنت، أخذ جبريل من حال البحر ففسده في فيه المغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات الباهتئين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (1) روي أن جبريل عليه السلام أتاه بفتياً: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وأدعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماء أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه (2).

تَالْيَوْمِ نَبِّئِكَ بِيَذِّكَ لِكَوْنٍ لِّمَن عَظَّمَ مَا لَيْكَ إِذْ إِكْرًا وَنَ النَّاسِ عَنَّا يَنِيبُوا لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف نبعك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: ننجيك بالحاء نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كانه ثور ﴿ببذذك﴾ في موضع الحال أي: في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت ببن، أو ببذذك كاملاً سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك، قال عمرو بن معد يكرب:

أعاذل شكنتي ببني وسيفي وكل مقلص سلس القياد وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بأبدانك وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني ببذذك كله واقياً بأجزائه، أو يريد بدروعك كانه كان مظاهراً بينها ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ آية﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم: بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبداً، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فآلقاه الله على الساحل حتى علينوه

= ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله﴾، فامر بالسؤال، والجواب جميعاً، لكان أقوم وأسلم والله أعلم.

(5) سورة هود، الآية: 110.

(1) سورة النحل، الآية: 88.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره 241/8.

(3) سورة البقرة، الآية: 146.

(4) قال أحمد: ولو قال هذا المفسر إن نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام، توطئة لأمره بالسؤال، لتقوم حجته على المسؤولين، لا =

التي أهلكتها ثابتة عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعايبة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه لم **«فنفقها إيمانها»** بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبي وعبد الله: فهذا كانت **«إلا قوم يونس»** استثناء من القرى؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ: بالرفع على البدل هكذا روي عن الجرمي والكسائي: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إن أجليكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً اسود هائلاً يبدخ بخائناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسألتهم وصبيانهم وبوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين النواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترائوا المظالم حتى إن الرجل كان يقطع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فبرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لاحي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً فَأَنَّ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مَوْبِقَةً (١٧).

«ولو شاء ربك مشيئة» (١٧) القسر والإلجاء **«لأمن من في الأرض كلها»** على وجه الإحاطة والشمول **«جميعاً»** مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، إلا ترى إلى قوله: **«فأفانت تكره الناس»** يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور

مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإمطتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته، وإما بمقابلة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: **«لقد جاءك الحق من ربك»** أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للريبة **«فلا تكون من الممترين»** ولا تكون من الذين كذبوا بآيات الله **«أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء الريبة عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهيج والإلهاب كقوله: «فلا تكون ظهيراً للكافرين»** (١) **«ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك»** (٢) ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق» (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفه عين ولا سال أحداً منهم، وقيل: خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله: **«وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً»** (٤) وقيل: الخطاب للمسمع ممن يجوز عليه الشك كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: إن للنفي أي: فما كنت في شك فاسأل يعني: لا نامرك بالسؤال؛ لأنك شك ولكن لتزداد يقيناً كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: فاسأل الذين يقرؤون الكتب.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَكَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٧).

«حققت عليهم كلمة ربك» ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة: أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيرهم، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَّنتْ فَتَمَّهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ بُرْسَ لَمَّا أَمَّنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرِيزِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُ إِلَيْكَ حَيَاتِي (١٨).

«قلولا كانت» فهذا كانت **«قرية»** واحدة من القرى

= أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر، والإلجاء ليمت له أن المشيئة المرادة في الآية، لم تقع إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق، ولا سلب اختيارهم بل أمرهم بالإيمان، وخلق لهم اختياراً له، وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التاويل، بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده، وإقرار الظاهر على حاله نعوذ بالله من زيغ الشيطان، وإضلاله، والله الموفق.

(1) سورة القصص، الآية: 86.

(2) سورة القصص، الآية: 87.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 6/126، (الحديث رقم: 10211).

(4) سورة النساء، الآية: 174.

(5) قال أحمد: وهذا من سبه الاعتزال مخلصاً، وخط الباطل بالحق مدلساً، ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى، لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لولا امتناع، وكان ذلك راد لمعتقد الفاسد، إذ يزعمون =

التي تعبونها من دون من هو إلهكم وخالفكم ﴿وَلَكِنْ أُعِيدَ اللَّهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وإنما وصفه بالتوفي ليريهام أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي فيعبدون ما لا يقدر على شيء ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل وبما أوحى إلي في كتابه، وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني وما أنا عليه أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحذثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني اطعامكم واعلموا أنني لا أعبد الذين تعبون من دون الله ولا اختار الضلالة على الهدى كقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أُعْبِدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (2) أمرت أن أكون أصله بأن أكون، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع إن وإن، وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمن.

فإن قلنت: عطف قوله ﴿وَأَنْ أَقِمَّ﴾ على أن أكون فيه إشكال: لأن أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأن عطفها على الموصولة يابى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى لا يساعد عليه لفظ الأمر وهو أقم؛ لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصديق والكذب قلنت: قد سوغ سببويه أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً و﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو من الوجه.

وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٦)

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (3).

وَأَنْ يَسْتَسْكَ اللَّهُ بِضُرِّكَ فَلَا كَافِيَ لَكَ إِلَّا هُوَ وَإِلَهِكَ يَرْكَ بِضُرِّكَ فَلَا رَادَّ لِقَيْلِهِمْ يُصِيبُ يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٧)

اتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أن الله عز وجل هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أراك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان فهو

عليه وإنما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَتْ لَيْتَيْنِ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٨)

﴿وما كان لنفس﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بتسهيله وهو منح اللطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإنن بالرجس وهو الخذلان والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر كقوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (1) وهي الخذلان رجساً وهو العذاب، لأنه سببه، وقرئ: ونجعل بالنون.

قُلْ أَظْهَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِ الْأَيْتُ وَالذُّرَّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٩)

﴿ماذا في السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر ﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: وما يغني بالياء وما نافية أو استفهامية.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِمَّنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٠)

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها.

ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ (٢١)

﴿ثم نجي رسلنا﴾ معطوف على كلام محنوف يدل عليه قوله: إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، كأنه قيل: نهلك الأمم ثم نجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم. كذلك نجي المؤمنين مثل ذلك الإتياء نجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و﴿حقاً علينا﴾ اعترض يعني: حق ذلك علينا حقاً، وقرئ: ننج بالتشديد.

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمُرُّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢) وَأَنْ أَقَرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢٣)

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه وأعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أنني لا أعبد الحجارة

(3) سورة لقمان، الآية: 13.

(1) سورة البقرة، الآية: 171.

(2) سورة الكافرون، الآيتان: 1 - 2.

الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعد من غرق مع فرعون⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الرَّ كُتِبَ أُكْرِتَ ۖ إِنَّا نُنْزِلُ الْكِتَابَ عَلَى قَوْمٍ لَّا يَشْكُرُونَ (١).

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظاماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾⁽⁵⁾ وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

ابني حنيفة أحكموا سفاهاكم
إني أخاف عليكم أن اغضبا
وعن قتادة: أحكمت من الباطل ﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصاص، أو جعلت فصلاً، سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قلنا: ما معنى ثم؟ قلنا: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خير مبتداً محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده أحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢).

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لثلاث تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَن تَسْتَوُوا رِزْقًا ۖ إِنِّي بِبَاطِلِكُمْ شَهِيدٌ ۖ إِنَّا نُنْزِلُ الْكِتَابَ عَلَى قَوْمٍ لَّا يَشْكُرُونَ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤).

الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إن أردني الله بضر هل هن كاشفات ضرره أو أردني برحمته هل هن ممسكات رحمته﴾⁽¹⁾.

فإن قلنا: لم نذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلنا: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن نذكر المس وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما نذكر على ما ترك على أنه قد نكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْكَلِمَةُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَحِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٥).

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن أثر الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضرر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكل إلي أمركم وحملكم علي ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاسْمِعْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ الْكَاذِبِينَ (٦).

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال آثامهم وإعراضهم ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني»، يعني: أني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين التواضع؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

إلا أبلغ معاوية بن حرب أمير الظالمين لثأكلامي
بأننا صابرون فمعتظروكم إلى يوم التغابن والخصام⁽²⁾
عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة يونس أعطي من

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792)

ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف 60/11، (الحديث رقم: 19909).

(4) نكرو ابن الجوزي في الموضوعات، والتعلبي الزيلعي 142/2.

(5) سورة يونس، الآية: 1.

كقول نوح عليه السلام: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾⁽⁶⁾ قال: يعلم ﴿مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافق عنده، روي: أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطق حلو وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله ﷺ مجالسته ومحادثته وهو يضرر خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين. وقرئ: تثنونى صدورهم وأثنونى أقوعل من الثني كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة، قرئ: بالثاء والياء، وعن ابن عباس لأثنونى، وقرئ: تثنونى وأصله تثنونى تفوعل من الثن وهو: ما هش وضعف من الكلال يريد مطاوعة صدورهم للثني كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: تثننن من اثنان أفعال منه ثم همز كما قيل: أباياضت وادهامت، وقرئ: تثنوى بوزن ترعوى.

فإن قلّت: كيف قال⁽⁷⁾: ﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل قلّت: هو: تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضل واجباً كندور العباد. والمستقر مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ﴿كل﴾ كل واحد من الدواب ورزقها، ومستقرها، ومستودعها في اللوح، يعني: نكرها مكتوب فيه مبين.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ سَعَيْتُمُورُوتَ مِنْ بَعْدِ التَّوْبَةِ لَيَكُونَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(٧).

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض وارتفاعه فوقها إلا الماء وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء على متن الريح والله أعلم بذلك، وكيفما كان فانه ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بخلق أي: خلقهن لحكمة بالغة وهي: أن يجعلها مساكن لعباده وينعم عليهم فيها بفنون النعم ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر

﴿وأن استغفروا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة ويدل عليه قوله: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ كانه قال: ترك عبادة غير الله إنني لكم منه نذير كقوله تعالى: ﴿فضرِب الرقاب﴾⁽¹⁾ والضمير في منه لله عز وجل أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته كقوله: ﴿رسول من الله﴾⁽²⁾ أو هي صلة للنذير أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم وابتشركم بثوابه إن أمتم.

فإن قلّت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾؟ قلّت: معناه: استغفروا من الشرك ثم أرجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها كقوله: ﴿ثم استقاموا﴾⁽³⁾ ﴿يمتعكم﴾ يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن يتوفاكم كقوله: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾⁽⁴⁾ ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وإن تولوا﴾ وإن تتولوا ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: وإن تولوا من ولي.

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ رَبَّهُمْ قَلِيلٌ مَّا يَشُورُونَ وَمَا يُشِيرُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ السُّرُورِ ^(٥) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْكَرُ مُتَّفِقًا وَسُودَّعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ^(٦).

﴿يتنون صدورهم﴾ يزورون عن الحق وينصرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشمه ﴿ليستخفوا منه﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على أزوارهم، ونظير إضمار: يريدون لقود المعنى: إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى: ﴿أضرب بعصاك البحر فانفلق﴾⁽⁵⁾ معناه: فضرِب فانفلق ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضاً كرامة لاستماع كلام الله تعالى

= الدنيا، أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل، ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة، فمحمول على أن الله عز وجل لما وعدهم فضله، وعده خبر، وخبره صدق وجب وقوع الموعود، أي: يستحيل في العقل أن لا يقع للزوم الخلف في خبر الصادق، فغير من ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور، هذه قاعدة أهل الحق، وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى، إنما التوبة على الله، والله الموفق.

(1) سورة محمد، الآية: 4.
(2) سورة البينة، الآية: 2.
(3) وسورة الأحقاف، الآية: 13.
(4) سورة النحل، الآية: 97.
(5) سورة الشعراء، الآية: 63.
(6) سورة نوح، الآية: 7.
(7) قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبيمه، أو مكلف في =

وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليلوكم يريد ليفعل بكم ما يفعل المبتي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قُلْتُ: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قُلْتُ: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهًا وأسمع أيهم أحسن صوتًا؛ لأن النظر والاستماع من طرق العلم.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿إيكم أحسن عملاً﴾ وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قُلْتُ: الذين هم أحسن عملاً هم: المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عبادته، فخصهم بالذكر وأطرح ذكر من وراءهم تشريعاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفًا للسامعين وترغيباً في حياة فضلهم، وعن النبي ﷺ: «ليلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورد عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»^(١) وقرئ: «ولئن قلت أنكم مبعوثون» بفتح الهمزة ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشتري لنا لحماً وأنت تشتري بمعنى: علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه ولا تبتوا القول بإنكاره لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن قلت معنى نكرت، ومعنى قولهم: إن هذا إلا سحر مبين، أن السحر أمر باطل وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به، أو أشاروا بهذا القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: إن هذا إلا ساحر يزيون: الرسول، والساحر كاتب مبطل.

وَلَيْنَ أَذَقْنَا النَّاسَ عَذَابَ الْآخِرَةِ قَلِيلًا لَّيُؤْمِنُوا مَا يَكْفُرُونَ
يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
(٨)

﴿العذاب﴾ عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين ﴿إلى أمه﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿ما يحبسهم﴾ ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء و ﴿يوم يأتيهم﴾ منصوب بخبر ليس ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها كان ذلك ليلياً على جواز تقديم خبرها إن المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع العامل ﴿وحاق بهم﴾ وأحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء والمعنى: ويحقيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في إخباره.

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ

كَفُورٌ ①

﴿الإنسان﴾ للجنس ﴿رحمة﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة ﴿ثم نزعناها منه﴾ ثم سلبناه تلك النعمة ﴿إنه ليؤس﴾ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع ﴿كفور﴾ عظيم الكفران لما سلف له من الثقل في نعمة الله نساء له.

وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّهَا لَيُفْلِتَنَّ فَيَقُولَ ذَهَبَ النَّيِّتَاتُ
عَنِّي إِنَّهُ لَنَجْزٍ فُجُورٌ ② إِلَّا الَّذِينَ سَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ③ فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَصَيَّاكَ بِهِ صَدَرُكَ أَن يَقُولَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيَّ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ④

﴿ذهب السيئات عني﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إنه لفرح﴾ أشر بطر ﴿فخور﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

﴿إلا الذين﴾ آمنوا فإن عانيتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا. كانوا يقترحون عليه آيات تمنعنا لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يعتنون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيف صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرَّك الله منه وهيجه لآداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به ﴿وضائق به صدرك﴾ بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: فلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ثم قال: ﴿إنما أنت نذير﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ربوا أو تهاونوا أو اقترحوا ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفهمهم واستهزائهم.

فإن قُلْتُ: لم عدل من ضيق إلى ضائق؟ قُلْتُ: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجد الثابتين المستقرين فإذا أريت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه: كانوا قومًا عامين في بعض القراءات، وقول

(١) ذكره ابن مردويه، والثعلبي وداود بن المجر في كتاب العقل،

السمهري العكلي:

بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس بادشحبوها
أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلُوفَاتُوا بَشَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا
مَنْ اسْتَفْتَحْتُمْ مِنَ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
كُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ يُنْزِلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ إِنَّ إِلَهَكُمْ فُجُورٌ
مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿إم﴾ منقطعة. والضمير في «افتراه» لما يوحى إليك.
تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول
المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما
اكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت
منك على سطر واحد، «مثله» بمعنى أمثاله، ذهاباً إلى
مماثلة كل واحدة منها له «مفتريات» صفة لعشر سور
لما قالوا: افتريت القرآن واختلقتك من عند نفسك وليس من
عند الله، قاودهم على دعواهم، وأرخص معهم العنان، وقال:
هبوا أني اختلقتك من عند نفسي، ولم يوح إلي، وإن الأمر
كما قلتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند
أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما
أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، مفتري، وهذا
غير مفتري؟ قلت: معناه: مثله في حسن البيان، والنظم، وإن
كان مفتري.

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله:
«لحكم فاعلموا» بعد قوله قل؟ قلت: معناه: فإن لم
يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين
كانوا يتحذرونهم، وقد قال في موضع آخر: «فإن لم
يستجيبوا لك فاعلم» (١) ويجوز أن يكون الجمع؛ لتعظيم
رسول الله ﷺ، كقوله:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين،
والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم، يعني: فإن لم
يستجب لكم من تدعونه من نون الله، إلى المظاهرة على
معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن
تبلغه «فاعلموا إنما أنزل بعلم الله» أي: أنزل ملتبساً
بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار
بغيب لا سبيل لهم إليه «و» اعلموا عند ذلك «أن»
لا إله إلا الله وحده، وأن توحيد واجب، والإشراك به
ظلم عظيم «فهل أنتم مسلمون» مبايعون بالإسلام بعد
هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل
الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم
عليه، وازدادوا يقيناً، وثبات قدم، على أنه منزل من
عند الله، وعلى التوحيد، ومعنى فهل أنتم مسلمون: فهل

أنتم مخلصون.

مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ
فِيهَا لَا يَخْسِرُونَ ﴿١٥﴾

﴿نوف إليهم﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة،
من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة
والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقرءاء منهم: أردت أن
يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدق
فعلت، حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل، قاتلت حتى يقال
فلان جريء فقد قيل، وعن أنس بن مالك: هم اليهود
والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً عجل لهم
جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم
الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، فأسهم لهم
في الغنائم، وقرئ: يوف بالياء، على أن الفعل لله عز وجل،
وتوف إليهم أعمالهم بالتاء على البناء للمفعول، وفي قراءة
الحسن: نوفي بالتخفيف وإثبات الياء؛ لأن الشرط وقع
ماضياً، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا
وَكَبُورٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وحبط في الآخرة ما
صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم
يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما
أرادوا «وباطل ما كانوا يعملون» أي: كان عملهم في
نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل
لا ثواب له، وقرئ: وبطل على الفعل، وعن عاصم: وباطلاً،
بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب
بيعملون، ومعناه: باطلاً أي باطل كانوا يعملون، وأن تكون
بمعنى المصدر: على وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

أَفَنَنْتُمْ أَنْ تَتْلُوا شَهِيداً مُنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كُتِبَ مُنْهُ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ
الْأَحْزَابِ فَإِنَّهُ فِى مَرْحَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿أفمن كان على بينة﴾ معناه: أمن كان يريد الدنيا،
فمن كان على بينة، أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا
يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً،
وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره
كان على بينة «من ربه» أي: على برهان من الله وبيان
أن دين الإسلام حق وهو: لبيل العقل «ويقتلوه» ويتبع
ذلك البرهان «شاهد منه» أي: شاهد يشهد بصحته وهو:
القرآن «منه» من الله أو شاهد من القرآن فقد تقدم ذكره

أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** وقرئ: يضعف **﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾** أراد ⁽⁴⁾ أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع، ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوع به على أهل العدل كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمع، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: وما كان لهم من أولياء أنهم جعلوا آلهم أولياء من دون الله، وولايته ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾** فكيف يصلحون للولاية وقوله: **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** اعتراض بوعيد.

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسارتهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه وهو أنهم خسروا أنفسهم **﴿وصلَّ عنهم﴾** وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو **﴿ما كانوا يفترون﴾** من الآلهة وشفاعتها **﴿لا جرم﴾** فسر في مكان آخر **﴿هم الأخسرون﴾** لا ترى أحداً بين خساراً منهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَرَبُّوهُمُ الْمُحْلِلُونَ وَأَخْبَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْصِ وَالْأَبْصِيرِ وَالَّذِينَ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَلَّا نَذْكُرَنَّهُ ﴿١٤﴾.

﴿ولمخبتوا إلى ربهم﴾ واطمانوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبث وهي الأرض المطمئنة ومنه قولهم للشئء الذي الخبيث قال:

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيث وقيل: التاء فيه بدل من التاء. شبه ⁽⁵⁾ فريق الكافرين بالاعمى والاصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو

أنفاً **﴿ومن قبله﴾** ومن قبل القرآن **﴿كتاب موسى﴾** وهو: التوراة أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: كتاب موسى بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه وهو: الدليل على أن القرآن حق ويتلوه ويقرأ القرآن شاهد منه، شاهد ممن كان على بينة كقوله: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾** ⁽¹⁾ **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾** ⁽²⁾ **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾** ⁽³⁾ ويتلو من قبل القرآن التوراة **﴿إماماً﴾** كتاباً مؤتمماً به في الدين قدوة فيه **﴿ورحمة﴾** ونعمة عظيمة على المنزل إليهم **﴿أولئك﴾** يعني: من كان على بينة **﴿يؤمنون به﴾** يؤمنون بالقرآن **﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾** يعني: أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ **﴿فالنار موعده فلا تك في مرية﴾** وقرئ: مرية بالضم وهما الشك **﴿منه﴾** من القرآن، أو من الموعد.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْزَبُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَيُقَالُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم **﴿الأشهاد﴾** من الملائكة والنبیین بأنهم الكذابين على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً ويقال **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** فواخزيه ووافضيحاته، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد كأصحاب أو أشرف.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ يَضْمَنُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَظِيلُونَ أَلَسَمَعَ وَمَا كَانُوا يَجِيرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبقون أهلها أن يعوجوا بالارتداد. وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا

= معتقده الباطل به، وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الأدب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس، أو الحارث بن حلزة، وأما أدب القرآن، فيضيق عن أسهل من ذلك والله الموفق.

(5) قال أحمد: بخلافه على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف، وأما نظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين، ففيه نظر فإن امرأ القيس، شبه كل واحد من الربط واليأس بتشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن، بتشبيهين وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه، أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولك في صفتين متعدتين والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(2) سورة الرعد، الآية: 43.

(3) سورة هود، الآية: 17.

(4) قال أحمد: أهل الحق، وإن نقوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدره الخالق عز وجل، فلا ينفون استطاعة العبد نفسها، ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة، هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة والحق مع الزمخشري في هذا الموضوع، إلا في غفلته حيث يقول، فيوع بها على أهل العدل، يعني: الآية المنكورة، وهذه سقطه عظيمة وهب أن المجرر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إرادته الآية وعوة، وإنما تلا كتاب الله تعالى، غير أن خطاه في تصحيح =

ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله والتشرف بما هو ضعة عند الله ﴿من فضل﴾ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة ﴿هل نظنكم كانبين﴾ فيما تدعون.

قَالَ يَقُولُ رَبِّيَ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن رَّوْيٍ وَإِنِّي رَحِمَةٌ مِّن عِندِ رَبِّي
فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ الْأَنبُؤَاتُ وَأَشْرَرْنَا لَكُمْ كَرْهُونَ ﴿٢٨﴾

﴿أرايتم﴾ أخبروني ﴿إن كنتم على بيعة﴾ على برهان ﴿من ربي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وأتأتاني رحمة من عنده﴾ بإيتاء البيعة على أن البيعة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبيعة المعجزة وبالرحمة النبوّة.

فإن قلّنا: فقلوه: ﴿فعميت﴾ ظاهر على الوجه الأول فما وجهه على الوجه الثاني وحقه أن يقال فعميتاً؛ قلّنا: الوجه أن يقدر فعميت بعد البيعة وأن يكون حذفه للاقتصار على نكره مرة، ومعنى عميت خفيت، وقرئ: فعميت بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعماها عليكم.

فإن قلّنا: فما حقيقته؟ قلّنا: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البيعة فلم تهتدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلّنا: فما معنى قراءة أبي؟ قلّنا: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم فجعلت تلك التخيلة تعمية منه، والدليل عليه قوله ﴿أنزلنكموها واتم لها كارهون﴾ يعني أنكرهم على قبولها ونقصرهم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين، وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً، كقوله: أنزلنكم إياها، ونحوه: ﴿فسيكفيكم الله﴾⁽³⁾ ويجوز فسيكفيكم إياهم،

من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعباب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في والأصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله:

الصباح فالغانم فالأيب

﴿هل يستويان﴾ يعني: الفريقين ﴿مثلاً﴾ تشبيهاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٣٠﴾

أي: أرسلنا نوحاً بأنّي لكم نذير ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ بالكسر فلما اتصل به الجارّ فتح كما فتح في كان والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيدا كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول ﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من إني لكم نذير أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. وصف اليوم بالأيمن من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قلّنا: فإذا وصف به العذاب قلّنا: مجازي مثله؛ لأنّ الأليم في الحقيقة هو: المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

قَالَ أَلَمْ أَكُن مِّن قَوْمِهِ مَا رَبَّنَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا رَبُّكَ إِلَّا إِلَهٌ مَّنْ أَوَّلْنَا بِأَوَّلِ الرَّايِ وَمَا رَبُّكَ إِلَّا إِلَهٌ مِّن قَبْلِ بَلْ تَقُولُونَ كَذِبٌ ﴿٣١﴾

﴿الملاء﴾ الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا إذا كان مطيقاً له وقد ملأ بالامر؛ لأنهم ملأوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها ويتدبرها، أو لأنهم يتمالون أي: يتظاهرون ويتساننون، أو لأنهم يملأون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما ترك إلا بشراً مثلاً﴾ تعريض⁽¹⁾ بأنهم أحق منه بالنبوّة، وإن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملاء ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قلهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً. والأراذل جمع الأراذل كقوله: ﴿أكابر مجرميها﴾⁽²⁾ أحاسنكم أخلاقاً، قرئ: بادي الرأي بالهمز وغير الهمز بمعنى اتبعوك أول الرأي، أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف

(1) قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي، ولكنه ترك الهمز استقلالاً، إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء، أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أرادوا ليسوا قنوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه، ولا

(2) سورة الأنعام، الآية: 123.

(3) سورة البقرة، الآية: 137.

أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة، ولا روية، وغرض هؤلاء، أن لا يقوم عليهم حجة، بأن منهم من صدقه وأمن به، والله أعلم.

لي ما أنت إلا بشر مثلاً. ولا أحكم على من استرزلتم من المؤمنين لفقهم أن الله ﴿لن يؤتيهم خيراً﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿إني إذا لمن الظالمين﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء افتعال من زري عليه إذا عابه وأزرى به قصر به يقال: ازدرته عينه واقتحمته عينه.

قَالُوا يَشْعُرُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَنَّا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٢٦﴾

﴿جادلنا فاكثرت جدالنا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فاكثرت كقولك: جاد فلان فاكثرت وأطاب ﴿فأنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَنْفَعُكَ نَصِيحَةٌ إِن أَرَدْتَ أَن أَصْحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُؤَيِّدَكُمُ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

﴿إنما ياتيكم به الله﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إلي إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إن شاء﴾ يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاكثرت جدلنا.

فَإِن قُلْتَ: ﴿٢٤﴾ ما وجه ترانيف هذين الشرطين؟ قُلْتُ: قوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ جزاؤه ما دل عليه قوله: ﴿لا ينفعكم نصحي﴾ وهذا الدال في حكم ما دل عليه فوصل بشرط كما وصل الجزء بالشرط في قولك: إن أحسنت إلي أحسنت إليك إن أمكنتني.

فَإِن قُلْتَ: فما معنى قوله: إن كان الله يريد أن يغويكم؟ قُلْتُ: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشانه ولم يلجئه سمي ذلك: إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلفظ به سمي: إرشاداً وهداية، وقيل: أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر الطافه كيف ينفعكم نصحي؟

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيكَ قُلْ إِنِ انْتَرَيْتُمْ فَمَلَكُ بِرِئَاسِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿فعلي إجرامي﴾ وإجرامي بلفظ المصدر والجمع كقوله: ﴿والله يعلم أسرارهم﴾^(١) وإسراهم ونحو جرم وإجرام قفل وإقفال وينصر الجمع أن فسرته الأولون بأثامي

وحكي عن أبي عمرو: إسكان الميم، ووجهه: أن الحركة لم تكن إلا خلصة خفيفة فظنها الراوي سكوناً وإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

وَيَقُولُ لَا أُنَاسِكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِن أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ يَجْهَلُونَ ﴿٢٦﴾

والضمير في قوله: ﴿لا أنسلكم عليه﴾ راجع إلى قوله لهم: ﴿إني لكم نذير مبين أن لا تعبوا إلا الله﴾^(١) وقرئ: وما أنا بطارد الذين آمنوا بالتونين على الأصل.

فَإِن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿إنهم ملأوا ربهم﴾؟ قُلْتُ: معناه أنهم يملأون الله فيعاقب من طردهم، أو يملأونه فيجزيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾^(٢) الآية، أهم مصدقون بقاء ربهم موثقون به عالمون أنهم ملأوه لا محالة ﴿جهلون﴾ يتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل من قوله:

أَلَا يَجْهَلُونَ أَحَدًا عَلَيْنَا

أو تجهلون لقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم.

وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِن مَّرَدُّهُمْ إِلَّا نَذَكْرٌ ﴿٢٧﴾

﴿من ينصرنني من الله﴾ من يمنعني من انتقامه ﴿إن طرقتهم﴾ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على سواء.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِجُ آيَاتِهِمْ لَن يُزَيِّدَهُمُ اللَّهُ شَيْئًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّيِّنٌ الْقَلِيلِينَ ﴿٢٨﴾

﴿أعلم الغيب﴾ معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله فادعي فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾^(٣) ولا ادعي علم الغيب حتى تنسبونني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس اتباعي وضماير قلوبهم ﴿ولا أقول إني ملك﴾ حتى تقولوا

(١) سورة هود، الآيتان: ٢٥ و ٢٦.

(٢) سورة الانعام، الآية: ٥٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٢٧.

(٤) قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء، قول القائل: أنت طالع إن شربت إن أكلت، وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط، والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت، لم =

= يحنث وإن أكلت ثم شربت حنث، وهذا الفرق مبناه على جعل الجزء للشرط الآخر، أي: للذي يليه ثم جعلهما معاً جزءاً للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا تطول بذكره، وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية، كما رأيت، والله أعلم.

(٥) سورة محمد، الآية: ٢٦.

وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي: أَنَّ نوحًا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط النواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة، وقيل: إنَّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة يحدثنا عنها؟ فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فآخذ كفاً من نك التراب، فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: هذا كعب بن حام قال: فضرب الكتيب بعصاه، فقال: قم بلأن الله، فإذا هو قائم ينفخ التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: هكذا اهلك؟ قال: لا مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شئت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للنواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بلأن الله كما كنت فعاد ترابًا.

سَوِّفَ تَمْلِكُونَ مَن بَأْسُهُ عَذَابٌ مُّجْزٍ وَمَنْ عَذَابٌ مُّصِيفٌ ﴿٢٩﴾

﴿من يأتية﴾ في محل النصب بـ «تعلمون» أي: فسوف تعلمون الذي يأتية عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكك له عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنَ الْأُنثَىٰ وَهَلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ آتِكُوا فِيهَا بُسْرَ اللَّهِ بِحَبْلِهَا وَتَرْتَبَّهَا إِذْ رَبَّىٰ لَنفُورٌ رَّجِيمٌ ﴿٣١﴾ وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَؤُكَ أَتَكْبَرُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَوَاءٌ لَّكَ جَبَلٌ يَمْشِي مِنَ الْلَّهِّ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجَعَهُ وَإِنَّمَا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ فَمَن كَانَ مِنَ الْمُتَرَفِّقِينَ ﴿٣٣﴾

﴿حتى﴾ هي التي يبتدا بعدها الكلام دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قُلْتُ: وقعت غاية لماذا؟ قُلْتُ: لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾ (٢) أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قُلْتُ: فإذا اتصلت حتى بـ «يصنع» فما تصنع بـ «ما»

والمعنى: إن صح وثبت باني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي: افتراضي وكان حقي حينئذ أن تقرضوا عني وتتألبوا علي ﴿وإننا بريء﴾ يعني: ولم يثبت نك وأنا بريء منه، ومعنى ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

وَأَوْحَىٰ إِلَيْ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا يَبْتَهِشْ فَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

﴿لن يؤمن﴾ إقناط من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن باس مستكين قال:

ما يقسم الله غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعم البال والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيًا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الْآيِينَ ظَلَمُوا لَهُمْ مُّعْرِفُونَ ﴿٣٥﴾

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: أصنعها محفوظًا، وحقيقته ملتبسًا بأعيننا كان الله معه أعينًا تكلوه أن يزيغ في صنعة عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحينا﴾ وإننا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرورون﴾ إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب نك وقضي به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مبرود﴾ (١).

وَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالِ إِن سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية ﴿سخرؤا منه﴾ ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية يهماء في أبعاد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضحكون ويقولون له: يا نوح صرت نجارًا بعد ما كنت نبياً ﴿فإننا نسخر منكم﴾ يعني: في المستقبل ﴿كما تسخرون﴾ منا الساعة أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلوننا فيما نصنع فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو إن تستجهلوننا فإننا نستجهلكم في استجهالككم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر

وجاءنا بهم سكر علينا

فلا تكون كلاماً برأسه ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك كأنه قيل: اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير كقوله تعالى: ﴿ادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

فإن قلْتُ: بم اتصل قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾؟ قلْتُ: بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون بسم الله، وهي تجري بهم أي: تجري وهم فيها ﴿في موج كالجبال﴾ يريد موج الطوفان شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلْتُ: الموج ما يرتفع فوق الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة فما معنى جريها في الموج؟ قلْتُ: كان ذلك قبل التطبيق وقبل أن يغمر الطوفان الجبال ألا ترى إلى قول ابنه: ﴿ساوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ قيل: كان اسم ابنه كنعان وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي، وعروة بن الزبير: ابنه بفتح الهاء يريد أن ابنها فاكتميا بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه ﴿إن ابني من أهلي﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب واستدل بقوله: ﴿ومن أهلي﴾ ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان: أحدهما: أن يكون ربياً له كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام، وقرأ السدي: ونادى نوح ابنه على النذبة والترشي أي: قال: يا ابنه، والمعزل مفعول من عزله عنه إذا نجاه وأبعد يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل: كان في معزل عن دين أبيه ﴿يا بني﴾ قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء بالإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبيلة من ياء بالإضافة في قولك يا بني، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ الرأ بعدهما ساكنة ﴿إلا من رحم﴾⁽⁴⁾ إلا الراحم وهو: الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل

بينهما من الكلام؟ قلْتُ: هو حال من يصنع كأنه قال: يصنعها والجال أنه كلما مرَّ عليه ملا من قومه سخروا منه.

فإن قلْتُ: فما جواب كلما؟ قلْتُ: أنت بين أمرين إما أن تجعل سخروا جواباً وقال استثناءً على تقدير سؤال سائل، أو تجعل سخروا بدلاً من مرَّ أو صفة لملا وقال جواباً ﴿وأهلك﴾ عطف على اثنين وكذلك ﴿ومن آمن﴾ يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك.

قال الضحاك: أراد ابنه وامراته ﴿إلا قليل﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونسأؤهم»⁽¹⁾ وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامراً وأولاد نوح: سام وحام وياث ونسأؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل بسم الله بـ «اركبوا» حالاً من اللوا بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجري والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون بسم الله مجراها ومرسأها جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أي: بسم الله إجرائها وإرسأها.

يروي: أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقم الاسم⁽²⁾ كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجرائها وإرسأها أي: بقدرته وأمره وقرئ: مجراها ومرسأها بفتح الميم من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين. وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله.

فإن قلْتُ: ما معنى قولك جملة مقتضبة؟ قلْتُ: معناه: أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرسأها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال كقوله:

= فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس، وزاد الزمخشري خامساً، وهو: لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم، والمراد باللفظي: التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالثبوت التعريض بعصمة السفينة، والكل جائز وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

(1) قال الزبيدي: غريب، ورواه الطبري في تفسيره موقوفاً على قتادة، الزبيدي 146/2.

(2) قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو: المسمى، ولو اعتقد ذلك لما جملة مقصداً، والله أعلم.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

(4) قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم، =

بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر، وإن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي تلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما نكرنا من المعاني والنكت استقصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما قوله: ﴿ابلي﴾ و﴿أقلعي﴾ وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي: أنها مرت بالبيت طافت به سبعاً وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ لَاحِقٌ
وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْمَوْدِينِ ﴿١٥﴾

ندأؤه ربه ندأؤه له وهو قوله: رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فَإِنْ قُلْتَ: فإذا كان النداء هو قوله: رب، فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء قُلْتَ: أريد بالنداء إرادة النداء ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: ﴿إِنْ نادى ربه نداء خفياً﴾ (5) قال رب بغير فاء ﴿إِنْ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه وكان ربيباً له فهو بعض أهله ﴿وَإِنْ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي: ﴿وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (6) أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في

ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني: السفينة، وقيل: لا عاصم بمعنى: لا ذا عصمة إلا من رحمه الله كقوله: ﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾ (1) و﴿عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ﴾ (2) وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ استثناء منقطع كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (3) وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ على البناء للمفعول.

وَقِيلَ يٰأَرْضُ اأْبِلِي مَآءَكَ وَيَسَّاهُ أَقْلِي وَيَسَّاهُ الْآمُرُ
وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَبِئْسَ بَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾ و﴿يَا سَمَاءُ﴾ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابلي ماءك﴾ و﴿أقلعي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير متمتعة عليه كأنها عقلاء (4) مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدر، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف بون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلغ عبارة عن: النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: ألق المطر وألقت الحمى ووغيض الماء من غاضه إذا نقضه ووقضي الأمر وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه وواستوت واستقرت السفينة ﴿على الجودي﴾ وهو جبل بالموصل ووقيل بعداً يقال: بعد بعداً وإذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا

(6) قال أحمد: ثم حث بعد الزمخشري ترفع عن اقتضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى، أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة، لأعضاهم في الوصف، وإن يزداد عليهم، فترفعوا أن يشاركهم أحد في وصفهم من بونهم في المنصب، فعملوا عما يشاركون فيه إلى ما ليس كذلك، فافقروا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة، أي: هو الذي يقضي بين القضاة، ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة اقتضى القضاة، إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه، أو إقليمه، وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، اقتضى قضاة الصحابة في زمانه، كما أطلق عليه النبي ﷺ حيث قال: «أقضاكم علي»، فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان، أو الإقليم وأعلمهم قاضي القضاة، واقتضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده وكل قرن ناجم في زمن، فهو: شبيه زمن فيه بدأ هذا القلب.

(1) سورة الطارق، الآية: 6.
(2) سورة الحاقة، الآية: 21.
(3) سورة النساء، الآية: 157.
(4) قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن نكر الموصوف اكتفاء يصفاته لانفراد به، السكوت عن نكر الأوصاف أحياناً اكتفاء بنكر الموصوف، لتبينه بها وتوحده فيها، وإنه متى نكر مكانها بنكره في مثل قوله: ﴿وهو الله في السموات، وفي الأرض﴾ الآية، والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين، ومنه:

أنا أبو النجم، وشعري شعري
ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأنيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب: يمدح عضد الدولة:

لا تحمنها واحمن هماماً إذ لم يسم حامد سواها
يعني: لا تمدح نفسك، فإنك المنفرد بالمعادح، حتى إذا نكرت، ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك، لتفرك بها.

(5) سورة مريم، الآية: 3.

تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤالاً ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة ووعظة أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فَإِنْ قُلْتُ (3): قد وعده أن ينجي أهله وما كان عنده أن ابنه ليس منهم ديناً فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر؛ لأن البعد قد سبق له وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد فطلب إمطة الشبهة، وطلب إمطة الشبهة واجب فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟ قلْتُ: إن الله عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه **﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾** من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأديباً بأدبك واتعاضاً بموعظتك **﴿وَأَلَّا تَغْفِرَ لِي﴾** ما فرط مني من ذلك **﴿وترحمني﴾** بالتوبة علي **﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** أعمالاً.

قِيلَ يَتُوحُّ أَقِطْ سَلَوِي مَنَّا وَزَكَّيْ عَيْكَ وَعَلَى أَمْرِ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّ سَمِيْعَهُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُ مَنَّا عَذَابَ آيَةٍ (4).

وقرى: يا نوح اهبط بضم الباء **﴿يسلام منا﴾** مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً **﴿وبركات عليك﴾** ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرى: وبركة على التوحيد **﴿وعلى أمم ممن معك﴾** يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم: لأن الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لابتداء الغاية أي: على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: **﴿وأمم﴾** رفع بالابتداء **﴿وسنمتهم﴾** صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتهم، وإنما حذف لأن قوله: ممن معك يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك،

= مطلعاً على باطن أمره، بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضها بقين في كفر ابنه، حتى يخرج من الأمل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، ففتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بان يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتياً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً، وأما قوله: **﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾** فالمراد منه: النهي عن وقوع السؤال في المستقبل، بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين، والغرض من ذلك تقديم ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها، أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه، والله أعلم.

زمانك قد لقب أفضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة، كما قيل: دارع من الدرع وحائض وطالق على مذهب الخليل.

قَالَ يَتُوحُّ إِنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنْهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (5) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (6).

﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسبك في نبيك ومعتقدك من الأبعاد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في نومه كقولها:

فإنما هي إقبال وإدبار

وقيل: الضمير لنداء نوح أي إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فَإِنْ قُلْتُ (1): فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قلْتُ: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي وأثن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصالحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفي عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله: **﴿كانتا تحت عبيد من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ (2)** وقرى: عمل غير صالح أي: عملاً غير صالح. وقرى: فلا تسألن بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء يعني: فلا تلتمس مني ملتصاً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه، ونكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فَإِنْ قُلْتُ: لم سمي نداءه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قلْتُ: قد

(1) قال أحمد: ولهذا المعنى، والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام: **﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾**، وإن كان مأموراً بالإنذار عن العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال، والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم، ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: **﴿إني لا أملك لكم من الله شيئاً﴾** أو قال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه.

(2) سورة التحريم، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه، ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها، مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه، فنقول لما وعد نوح أولاً تنجية أهله، إلا من سبق عليه القول منهم، ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المنكور، ولا =

والإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنَّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات حراساً عليها أشدَّ الحرص فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مليونين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مستحززين بها من العدو مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوة في المال، وقيل: القوة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حبابه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فلعلمي شيئاً لعل الله يرزقني ولداً فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية، فقال: هلا سألته لِمَ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل. فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام: ﴿يُزَكِّمُ قُوَّةَ إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ وقول نوح عليه السلام: ﴿رِيمِدْكُمْ بِأَمْوَالِ وَبَنِينَ﴾⁽²⁾ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عني وعا ادعوكم إليه وأرغبكم فيه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم وآثامكم.

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ⁽³⁾

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾⁽³⁾ مع فوت آياته الحصر ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ حال من الضمير في تاركي آلهتنا كانه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوههم إليه إقناطاً له من الإجابة.

إِنْ تَنَزَّلُ إِلَّا اتَّعَتَكَ بِعُصَى آلِهَتِنَا يُسَبِّحُونَ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآتِهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁽⁴⁾ مِنْ دُونِهِ فَكِدِّبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ⁽⁵⁾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِذَاتِهَا إِنِّي رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁽⁶⁾

﴿اعتراك﴾ مفعول نقول وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا: ﴿اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: خيلك ومسك بحنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين، وليس يعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خيلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك، وإنما العجب من قوم من المظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً والمنيب إلى ربه مخيلاً، ولم نجد معهم على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من المودة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة، وعن محمد بن كعب القرظي: بخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راضين، ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم، ومنهم من عنب. وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

يَلِكُ مِنْ آيَاتِهِ آتَيْنِ تُوْجِيحًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ⁽⁷⁾

﴿تلك﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلهما الرفع على الابتداء والجميل بعدها أخبار أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ من قبل إحيائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فاصبر﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كنكب نحو ما قبض لنوح ولقومه ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ معناه: إِنَّ قَوْمَكَ الَّذِينَ أَنْتَ مِنْهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه فكيف برجل منهم، كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

وَلِكُلِّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُغَوِّرُ أَغْوَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَفْرُوتُونَ⁽⁸⁾ يُغَوِّرُ لَا أَشْكُرَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى آلِي فَأَنْذِرْ أَفْكَارًا تَقُولُونَ⁽⁹⁾

﴿أخاهم﴾ واحداً منهم وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا نوحاً﴾⁽¹⁾ و﴿هوداً﴾ عطف بيان و﴿غيره﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجور، وقرئ: غيره بالجر صفة على اللفظ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَفْرُوتُونَ﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنَّ شأنهم النصيحة والنصيحة لا يحصها ولا يحصها إلا حسم المطابع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿أَفْكَارًا تَقُولُونَ﴾ إذ ترون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو: ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للهمة من ذلك.

وَيُغَوِّرُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً مِنْ قُوَّتِهِمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ⁽¹⁰⁾

قيل: ﴿استغفروا ربكم﴾ آمنوا به. ﴿ثم توبوا إليه﴾ من عبادة غيره؛ لأنَّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان. والمدرار: الكثير الدور كالغزار، وإنما قصد استمالتهم إلى

(3) سورة يونس، الآية: 20.

(1) سورة هود، الآية: 25.

(2) سورة نوح، الآية: 12.

للشرط؟ قُلْتُ: معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعدارة الرسول ﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف يريد ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئاً﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: ويستخلف بالجزم وكذلك ولا تضرونه عطفًا على محل فقد أبلغتكم، والمعنى: إن تتولوا يعزرنى ويستخلف قومًا غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿على كل شيء حفيظ﴾ أي رقيب عليه مهيمن فما تخفي عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار لم يضر مثله مثلكم.

وَلَمَّا جَاءَ أَهْلَنَا بِنَجَاتٍ هَذَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٨٤).

﴿والذين آمنوا معه﴾ قيل: كلنا أربعة آلاف.

فإن قُلْتُ: ما معنى تكرير التنجية؟ قُلْتُ: نكر أولاً أنه حين أهلك عوهم نجاهم ثم قال ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أنبارهم فتقطعهم عضواً، وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب اغاظ منه وأشد. وقوله: ﴿برحمة منا﴾ يريد بسبب الإيمان الذي انعمنا عليهم بالتوفيق له.

وَلَمَّا جَاءَ جَمْعُهُمْ بِنَجَاتٍ رَحِيمَةٍ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيرٍ (٨٥) وَأَمْرُهُمْ فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ لَشَنَةٌ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَةٌ لِمَنْ كَفَرُوا بِهِمْ إِلَّا بَعْدَ إِعْمَادٍ قَوِيٍّ قَوِيٍّ (٨٦).

﴿وتلك عاد﴾ إشارة إلى قبورهم وأثارهم كانه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿ولا نفرق بين أحد من رسله﴾ (٣) قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده ﴿كل جبار عنيد﴾ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم ولما كانوا تابعين لهم نون الرسل جعلت اللغة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله ﴿والا﴾ وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم

أن يطلع رأسه، وقد نلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصع ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عفاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقتهم بربه وأنه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبتهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ (١) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد فيقول الرجل: الله شهيد على أنني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنني لا أفعله.

فإن قُلْتُ: (٢) هلا قيل إنني أشهد الله وأشهدكم؟ قُلْتُ: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهدهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد على لني لا أحبك تهكماً به واستهانة بحاله ﴿مما تشركون من دونه﴾ من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركون من آلهة من دونه أي: أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء ولم ينزل بملك سلطاناً.

﴿فكيدوني جميعاً﴾ أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون من غير إنظار فإنني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معزركم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرنى آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي. ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلامته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم. من كون كل دابة في قبضته وملكته تحت قهره وسلطانه والأخذ بنواصيها تمثيل لذلك ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معصم به.

إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسَخْتُ رِيقَ قَوْمٍ قَبْلِكُمْ وَلَا تَمْنُونَهُمْ شَيْئاً إِنَّ رِيقَ كُلِّ نَجْوٍ خَوِيظٌ (٨٧).

﴿فإن تولوا﴾ فإن تتولوا.

فإن قُلْتُ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء

(1) سورة يونس، الآية: 71.

(2) قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر؛ لأنه إشهد صحيح ثابت وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم، وقلة المبالاة به، وهو في مراده هذا المقام معهم، ويحتمل أن يكون إشهداه لهم =

= حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتمييز بين خطابي الله تعالى، وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

(3) سورة البقرة، الآية: 285.

القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً تقدمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه **﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾** حكاية حال ماضية **﴿مُرِيبٌ﴾** من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

قَالَ يَكْفُرُ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْ رَحْمَةِ فَمَنْ يَمُرُّكِ إِنَّ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُمْ مَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَغْيِيرٍ **﴿١٣﴾**.

قيل: **﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾** بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة؛ لأن خطاباً للجاحدين فكانه قال: قدروا أنني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتمكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعي من عذاب الله **﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾**، إن حينئذٍ **﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾** يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها، أو فما تزيديني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخسركم أي: أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم خاسرون.

وَيَكْفُرُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْا سِوَهُ فَإِنَّكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ **﴿١٤﴾**.

﴿آيَةٌ﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فَإِنْ قُلْتُ: فبِم يتعلق **﴿لَكُمْ﴾**؟ قُلْتُ: بآياته حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال **﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾** عاجل لا يستأخر عن مسك لها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم.

فَمَرَوْهَا فَقَالَ تَسْتَمِرُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ **﴿١٥﴾**.

﴿تَسْتَمِرُّوا﴾ استمتعوا بالعيش **﴿فِي دَارِكُمْ﴾** في بلدكم وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها أي: يتصرف يقال: ديار بكر لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار يريدون من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلوكوا يوم السبت **﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾** غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به كقولك: يوم مشهود من قوله: ويوم شهيدناه، أو على المجاز كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكن، أو وعد غير كذب، على أن المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول وكالمصدوقة بمعنى الصق.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَيِّنَةً سَلِيلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَهُ رَبُّكَ

تهويل لأمرهم وتفضيح له ويحث على الاعتبار بهم والحدز من مثل حالهم.

فَإِنْ قُلْتُ: **﴿يَعْبُدُ﴾** دعاء بالهلاك فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قُلْتُ: معناه: الدلالة على أنهم كانوا يتساهلون له ألا ترى إلى قوله:

إِخْوَتِي لَا تَتَّبِعُوا أَبَدًا وَيَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَدَعُوا **﴿قَوْمُ هُودٍ﴾** عطف بيان لعاد.

فَإِنْ قُلْتُ **﴿١﴾**: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه؟ قُلْتُ: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأن عاداً عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ أَهْلَهُمْ سَلِيلًا قَالَ يَكْفُرُ أَتَدَّبَّرُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْرِفُوا لَهُ نُورًا إِيَّاهُ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ **﴿١٦﴾**.

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشأوهم منها خلق آدم من التراب **﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾** وأمركم بالعمارة والعمارة متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان: أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

ليس الفتى يفتى لا يستضاء به ولا تكون له في الأرض آثار وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى وفيه وجهان: أن يكون استعمر في معنى: أعمار كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أعماركم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم، والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكانما أعمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره **﴿قَرِيبٌ﴾** داني الرحمة سهل المطلب **﴿مُجِيبٌ﴾** لمن دعاه وسأله.

قَالُوا يَصْلِحْ ذَنْبُكَ فَإِنَّا مُرْجُونَ قُلْ هَذَا أَتَنْهَانِي أَنْ أَتُوبَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لِي فِي شَيْءِ مَا تَذَكَّرُونَ إِيَّاهُ مُرِيبٌ **﴿١٧﴾**.

﴿فِينَا﴾ فيما بيننا **﴿مُرْجُونَ﴾** كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجو لك لنتنفع بك وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا

(1) قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى: تناسب الآي بذلك، فإن =

= قبلها واتباعوا أمر كل جبار عنيد، وقيل ذلك حفيظ، وغلطيظ، وغير ذلك مما هو على وزن فعييل المناسب، لفعلول في القوافي، والله أعلم.

لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ .

يقال: نكره وأنكره واستنكره ومنكور قليل في كلامهم،
وكذلك أنا أنكرك ولكن منكروهم مستنكرو وأنكروك، قال
الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوائث إلا الشيب والصلع

قيل⁽³⁾: كان ينزل في طرف من الأرض خفاف أن يريدها به مكروها، وقيل: كانت عابثهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ولا خافوه، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾، وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا ﴿فأوجس﴾⁽⁴⁾ فأضمر. وإنما قالوا لا تخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علما أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب.

وَأَمْرًا لَهُ، فَأَيَّمَهُ^{٦١} فَضَحِكْتَ^{٦٢} فَبَسَّرْنَاهَا^{٦٣} بِإِسْحَاقَ^{٦٤} وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ^{٦٥} يُعْقَبُ^{٦٦} ﴿٦١﴾.

﴿وامراته قائمة﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد الله: وامراته قائمة وهو قاعد ﴿فضحكت﴾ (٥) سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث، أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: فضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: فضحكت بفتح الحاء ﴿يعقوب﴾ رفع بالابتداء كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود أي: من بعده، وقيل: الورا ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم من الورا وكان ولد ولده. وقرئ: يعقوب بالنصب كأنه قيل: ووهبنا لها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله:

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَصَبَحُوا فِي رَبِّهِمْ جُلُودًا ﴿١٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ سَعْدًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُؤَدَّيْهِمْ ﴿١٨﴾

﴿ومن خزي يومئذ﴾ قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ وهو غير متمكن كقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فَإِنْ قُلْتُ: علام عطف؟ قُلْتُ: على نجينا؛ لأن تقديره ونجينا هم من خزي يومئذ كما قال: ﴿وَنَجِّنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(١) على وكانت النتيجة من خزي يومئذ أي: من فله ومهانتة وفضيحته ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة. وقرئ: إلا إن ثمود ولثمود كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَعْصِي خَازِنٌ ﴿١٩﴾

﴿رسلنا﴾ يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملاك معه، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر ﴿بالبشرى﴾ هي: البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد ﴿سلاماً﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿سلام﴾ أمركم سلام، وقرئ: فقالوا سلماً قال سلم بمعنى: السلام، وقيل: سلم وسلام كحرم وحرم وأنشد:

مررنا فقلنا إيه سَلَم فسَلمت كما اکتل بالبِرَق الغمام للوائح

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة ويسمى الحسيل والخشب بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر ﴿حَنِيزٌ﴾ مشوي بالرضف في أخدود، وقيل: حنيز يقطر دمه من حنئت الفرس إذا أقيت عليه الجل حتى تقطر عرقاً ويدل عليه ﴿بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾⁽²⁾.

فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا

- (1) سورة هود، الآية: 58.

- (2) سورة الذاريات، الآية: 26.

- (3) قال أحمد: وقد رويت في قصة إبراهيم هذه ثلاثة مواضع، هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة، وعدم علمه جاءوا الثاني في الحجر قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم إلى قومه لا توجل إنا نبشرك، فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بانهم مبشرون له، فدل على استشارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه الثالث في الذاريات، ﴿فأرجس منهم خيفة قالوا لا تخف، وبشروه﴾، فهو أيضاً كذلك، وأما لوط، فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾، فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفريق بين هذه الآية، وبين أي إبراهيم

ومجالسته إياهم أنهم قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال: أرايتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين اتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فاربعمون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ العشرة، قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم اتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك **﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾** ⁽²⁾ لننجينه وأهله، **﴿في قوم لوط﴾** في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان ⁽³⁾.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِمٍ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ^(٧٦).

﴿إنا إبراهيم لحليم﴾ غير عجول على كل من أساء إليه **﴿أواه﴾** كثير التأوه من الذنوب **﴿منيب﴾** تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرفقة والرحمة، فبين أن ذلك مما حملة على المجاملة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحشون التوبة والإنابة كما حملة على الاستغفار لآبيه.

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لِبَاتِهِمْ وَعَذَابٌ عَزِيزٌ ^(٧٧).

﴿يا إبراهيم﴾ على إرادة القول أي: قالت له الملائكة: **﴿أعرض عن هذا﴾** الجدل وإن كانت الرحمة بدينك فلا فائدة فيه **﴿إنه﴾** قد جاء أمر ربك وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة والعذاب نازل بالقوم لا محالة لا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَعَصَى إِبْرَاهِيمُ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ^(٧٨).

كانت مساء لوط وضيق نزع؛ لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم حيث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، وروي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلوكهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لنشر قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها. يقال يوم عصيب وعصوصب: إذا كان شديداً من قولك: عصبه إذا شده.

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَرُوا هَؤُلَاءِ بِأَنِّي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي مَنَاقِبِهِ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ زَانِيَةٌ ^(٧٩) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَرْجٍ

قَالَتْ يَنْهَوْنَهُنَّ أَلَيْسَ لَنَا عَجُوزٌ وَمَعِيَ سَبْعُ نِسَاءٍ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ^(٨٠) قَالُوا أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حِيدٌ شَدِيدٌ ^(٨١).

الألف في **﴿يا ويلتنا﴾** مبدلة من ياء الإضافة وكذلك في **﴿يا لهفا﴾** ويا عجباً، وقرأ الحسن: يا ويلتي بالياء على الأصل و**﴿شيخاً﴾** نصب بما دل عليه اسم الإشارة، وقرأ: شيخ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر، أو يكونان معاً خبرين. قيل: ولها ثمان وتسعون سنة وإبراهيم مائة وعشرون سنة **﴿إن هذا لشيء عجيب﴾** أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها **﴿فقالوا اتعجبين من أمر الله﴾** لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوفر ولا يزددها ما يذهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾** أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب. وأمر الله قدرته وحكمته، وقوله: **﴿رحمت الله وبركاته عليكم﴾** كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم **﴿حميد﴾** فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده **﴿مجيد﴾** كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت نصب على النداء، أو على الاختصاص؛ لأن أهل البيت مدح لهم، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّيْعَ وَجَاءَتْهُ الْبَنَاتُ بِجُنُودٍ فِي قَوْرِ لُوطٍ ^(٨٢).

﴿الريوع﴾ ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملى سروراً بسبب البشري بدل الغم فرغ للمجالة.

فإن قلنت: أين جواب لما؟ قلنت: هو محذوف كما حذف في قوله: **﴿فلما ذهبوا به واجمعوا﴾** ⁽¹⁾ وقوله: **﴿يجالسلنا﴾** كلام مستأنف دال على الجواب وتقديره اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجالستنا، أو قال: كيت وكيت. ثم ابتداء فقال: يجالسلنا في قوم لوط، قيل في يجالسلنا: هو جواب لما وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن لما ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل معناه: أخذ يجالسلنا وأقبل يجالسلنا والمعنى: يجادل رسلنا،

(3) رواه الطبراني في معجمه والبيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في

دلائل النبوة، (الزليعي 2/ 146 - 147).

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 32.

وَلَنْكَ لَنَعْلَمَ مَا نُريدُ ﴿٧٦﴾.

وجه الخلاعة والغرض نفي الشهوة ﴿لَتَعْلَمَ مَا نُريدُ﴾
عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلْبُطُ
إِنَّا رَمَلْنَا بِكَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا إِلَيْكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَوِيَتْ
بَيْنَكُمْ أَعْدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِتْمُ مُصِيبَتِهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ خَلْقِهَا سُلُوكَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجَالٍ مَّنْشُورٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ اللَّغْلِيلِ بِقَرِيبٍ ﴿٨٣﴾.

جواب لو محذوف كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال﴾^(٢) يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت، يقال: ما لي به قوة، وما لي به طاقة ونحوه: لا قبل لهم بها، وما لي به يدان: لأنه في معنى لا اضطلع به ولا استفل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوتي استند إليهم واتمعت به فيحمني منكم، فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد»^(٣). وقرئ: أو أوي بالنصب بإضمار أن، كانه قيل: لو أن لي بكم قوة أو أويًا كقولها:

لبس عباءة وتقر عيني

وقرئ: إلى ركن بضمين، وروي: أنه أغلق بابَه حين جاؤوا وجعل برأهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأنزل له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من رز منظوم وهو براق الثنايا، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى: ﴿فطمسنا أعينهم﴾^(٤) فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قومًا سحرة. ﴿لن يصلوا إليك﴾: جملة موضحة للتي قبلها: لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. قرئ: فأسر بالقطع والوصل وإلا أمرتك بالرفع والنصب، وروي: أنه قال لهم: متى وعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟ وقرئ: الصبح بضمين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ إلا أمرتك بالنصب؟

﴿يهرعون﴾ يسرعون كأنما يدفعون دفعًا ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل تلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ففرضوا بها ورمزوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل معناه: وقد عرف لوط عانيتهم في عمل الفواحش قبل تلك ﴿هؤلاء بناتي﴾ أراد أن يقي أضيافه ببنااته وذلك غاية الكرم، وأراد هؤلاء بناتي: فتزوجوهن، وكان تزويج المسلمين من الكفار جائزًا، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص ابن وائل قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه. وقرأ ابن مروان: هن أظهر لكم بالنصب، وضعفه سيبويه وقال: أحتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: هن أظهر بالنصب فقد تربع في لحنه وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل كقوله: ﴿هذا بعلي شيخاً﴾^(١) أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر كأنه قيل: خنوا هؤلاء وبناتي بدل ويعمل هذا المضمر في الحال وهن فصل وهذا لا يجوز؛ لأن الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة ولا يقع بين الحال وذو الحال، وقد خرج له وجه لا يكون هن فيه فصلاً وذلك أن يكون هؤلاء مبتداً وبناتي هن جملة في موضع خبر المبتدأ كقولك: هذا أخي هو، ويكون أظهر حالاً ﴿فاتقوا الله﴾ بإيثارهم عليهم ﴿ولا تخزوني﴾ ولا تهنوني ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزية وهي: الحياء ﴿في ضيقي﴾ في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل والكف عن السوء. وقرئ: ولا تخزون بطرح الإياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة امتناعه مما أوردوا عليه، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ومن ثم ﴿قالوا لقد علمت﴾ مستشهدين بعلمه ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ لأنك لا ترى مناكحتنا وما هو إلا عرض سابري، وقيل: لما اتخذوا إتيان النكران مذهباً وديناً لنواطئهم عليه كان عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على

١ إبراهيم الخليل ﷺ (الحديث رقم: 6094).

(4) سورة القمر، الآية: 37.

(1) سورة هود، الآية: 72.

(2) سورة الزعد، الآية: 31.

(3) رواه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله ﴿ولو لمّا إن قال لقومه...﴾ (الحديث رقم: 3375) ومسلم كتاب: الفضائل، باب: من فضائل =

التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْم لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (4) ﴿يَوْمَ مُحِيطٌ﴾ مهلك من قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ (5) وأصله من إحاطة العدو.

فإن قُلْتُ: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟ قُلْتُ: بل وصف اليوم بها؛ لأنَّ اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.

فإن قُلْتُ (6): النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا؟﴾ قُلْتُ: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنَّ في التصريح بالقبيح نعيماً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيداً بالقسط أي: ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هو الواجب؛ لأنَّ ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنَّ الموفي عليه أن ينوي بالوفاء القسط؛ لأنَّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد. البخس: الهضم والنقص ويقال للمكس: البخس. قال زهير:

وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم
وروي مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض.

يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ (٨١).

﴿بقيت الله﴾ (7) ما بقي لكم من الجلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا، وإنما خطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قُلْتُ (8): بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف فلم شرط الإيمان؟ قُلْتُ: لظهور

قُلْتُ: استثنائهما من قوله: ﴿فأسر باهلك﴾ والدليل عليه قراءة عبد الله فأسر باهلك يقطع من الليل إلا امرأتك، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت على أصل الاستثناء. وإن كان الفصح هو البذل أعني: قراءة من قرأ: بالرفع فأبطلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي: أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هذه العذاب التفتت وقالت: يا قوماه: فأدركها حجر فقتلها. وروي: أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروائتين ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ جعل جبريل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم واتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿من سجيل﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنكل بليل قوله: ﴿حجارة من طين﴾ (1) وقيل: هي من أسجله إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين ويدل عليه قوله: ﴿لنرسل عليهم حجارة﴾ (2) وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل وسجل لفلان ﴿منضود﴾ نضد في السماء نضداً معداً للعذاب وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب، وعن الحسن رضي الله عنه: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿وما هي﴾ من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «فقال: يعني ظالمي أمك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» (3) وقيل: الضمير للقرى أي: هي قريبة من ظالمي مكة يرمون بها في مسايرهم ﴿ببعيد﴾ بشيء بعيد، ويجوز أن يراد وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى فكانها بمكان قريب منه.

وَإِلَّا مَنَينَ أَنَاهُمْ شَعِيًّا قَالَ يَقَوُّوْا أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُصُوا إِلَهَكُمْ وَالْمِيرَانُ إِلَيَّ أَرْسَلَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ (٨٢) وَيَقَوُّوْا أَرْوَا إِلَهَكُمْ وَالْمِيرَانُ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُسْتَبِينَ (٨٣).

﴿إني أراكم بخير﴾ يريد بشروة وسعة تغنيكم عن

= مأخوذ من قوله ومتروك، إلا المعصوم، وأما قوله: إنَّ الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وقد سبق بطلانها، وبيننا أنَّ التحسين والتقبيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

(7) قال أحمد: المنقول عن المعتزلة، أنَّ الكفار غير مخاطبين بغرور الشريعة، لا نهياً، ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي، وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر، بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(8) قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، =

(1) سورة الذاريات، الآية: 33.

(2) سورة الذاريات، الآية: 33.

(3) قال: الزيلعي: غريب، وأخرجه الثعلبي من غير سند 148/2.

(4) سورة غافر، الآية: 29.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

(6) قال أحمد: ولمن قال: إنَّ الأمر بالشئ ليس نهياً عن ضده، إن يستدل بهذه الآية؛ فإنَّ الأمر لو كان عين النهي. عن الضد، لكان وروده عقيب تكراراً، وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أنَّ النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل =

بفعل غيره. وقرئ: أصلاتك بالتوحيد. وقرأ ابن أبي عبيدة: أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التططيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حنف الدراهم والدنانير وتططيفها، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغبي فعكسوا ليتهمكوا به كما يتهمك بالشحيح الذي لا يبيض حجره فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تامر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

قَالَ يَنْفَرُ لَكُفْرًا إِنَّ كُتُوبَ رَبِّكَ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَعْتُ وَمَا تَوَبَّيْتُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨).

﴿ورزقني منه﴾ أي من لئله ﴿ورزقا حسنا﴾ وهو ما رزقه من النبوة والحكمة وقيل: رزقا حسنا حلالا طيبا من غير بخس ولا تططيف.

فإن قلْت: أين جواب أرايتم؟ وما له لم يثبت كما اثبت في قصة نوح ولوط؟ قلْت: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبيا على الحقيقة، يصح لي أن لا أمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك. يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وأرادا وأنا ذاهب عنه صادرا، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهوراتكم التي نهيتكم عنها لا استبد بها نونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمرني بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿وما استطعت﴾ (٥) ظرف أي: مدة استطاعتي

فأثبتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائتها مع فقدته لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان وتنبيه على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إليكم (١)، ويجوز أن يراد ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم كقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾ (٢) وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأما الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقا، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله وقرئ: تقية الله بالتاء، وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغا ومنبها على الخير وناصحا، وقد أعذرت حين أنذرت.

قَالُوا يَسْئَلُكَ أَمْرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْذُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْثَلِكُمْ مَا تَشْكُرُ إِنَّكَ لَآتٍ عَلَيْنَا أَلَيْسَ لِزَيْدٍ (٨٧).

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه إذا رآه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصوا بقولهم ﴿صلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزاء، والصلوة وإن جاز أن تكون أمرة على طريق المجاز كما كانت ناهية في قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (٣) وإن يقال: إن الصلاة تامر بالجميل والمعروف كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه، إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطعن وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهمك بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تامر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداول عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال (٤). ومعنى تأمرك ﴿أن تترك﴾ تأمرك بتكليف أن تترك ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ فحنف المضاف الذي هو التكليف لأن الإنسان لا يؤمر

(3) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(4) قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون: أن نفعل، معطوفاً على أن نترك، وعلى المشهور لا يجوز ذلك، والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتمين العطف فيها على ما يعبد، كأنهم قالوا: أصلوكت تأمر أن تترك عبادة آبائنا، أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي: أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنية لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره تأمرك بتكليف أن تترك، واحتجابه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذا، والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله، فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المنكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(5) قال أحمد: والظاهر أنه ظرف، كهو في قوله: فاتقوا الله ما استطعتم، وأما جملة مفعولاً للمصدر، وقد عرف بالالف واللام

= ومعنى السؤال: أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتنب المنهيات في الدار الآخرة: لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك، فلا معنى لاشتراط الإيمان، والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتنال سواء، ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتنال، إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر، فهم مخلون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مآمن العذاب، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وقد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾، وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً أو حقيقة، وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد، راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(2) سورة الكهف، الآية: 46.

وَأَسْتَفِيرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُؤْتُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٤٧﴾ قَالُوا
بَشَعِيبٌ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٤٨﴾ قَالَ يَقْتُوهُ أَرْحَطِي أَعَزُّ
عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَعَزُّنَاكُمْ وَرَأَى كُفْرَهُمْ ظُهُورًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٤٩﴾

﴿رحيم ودود﴾ عظيم الرحمة للتائبين فاعل بهم ما
يفعل البليغ. والمودة بمن يؤده من الإحسان والإجمال ﴿ما
نفاقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً مما تقول﴾ لأنهم كانوا لا يلقون
إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له كقوله: ﴿وجعلنا على
قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾⁽¹⁾ أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم
يقبلوه فكانهم لم يفقهوه، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة
به كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبا بحديثه: ما أدري
ما تقول، أو جعلوا كلامه هنيئاً وتخليطاً لا ينفعهم كثير
منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل:
كان الشغ⁽²⁾ ﴿فينا ضعيفاً﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا
فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً، وعن
الحسن: ضعيفاً مهيناً، وقيل: ضعيفاً أعمى، وحميز تسمى
المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريباً، وليس بسديد لأن
فينا ياباه ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى لم يكن
كلاماً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ولذلك قللوا
قومه حيث جعلوهم رهطاً. والرهط من الثلاثة إلى العشرة،
وقيل: إلى السبعة، وإنما قالوا: ولولا هم احتراماً لهم
واعتدائاً بهم لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم
وعزتهم ﴿لرحمتنا﴾ لقتلتك شر قتلة ﴿وما أنت علينا
بعزيز﴾ أي: لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل
ونرفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل
ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء
ضميره حرف النفي أنّ الكلام واقع في الفعل لا في الفعل؛
كانه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا،
ولذلك قال في جوابهم: ﴿أرھطي أعز عليكم من الله﴾ ولو
قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب.

فإن قللت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة
عليهم بونه، فكيف صح قوله: ﴿أرھطي أعز عليكم
من الله﴾؟ قللت: تهاونهم به وهو نبي الله، فحين عز عليهم
رهطه بونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله
تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽³⁾ ﴿واتخذنتموه
وراءكم ظهيراً﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء
الظهر لا يعبا به، والظھري منسوب إلى الظھر والكسر من
تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي

للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً، أو بدل من
الإصلاح أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون
على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح
ما استطعت، أو مفعول له كقوله:

ضعيف النكاية أعداءه

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من
فاسلكم ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وما كوني موفقاً لإصابة
الحق فيما أتى وأثر ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته
وتأييده، والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على
سننه وطلب منه التأييد والإظهار على عنوه، وفي ضمنه
تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

وَيَقْتُوهُ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ
قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْجِزُ ﴿٤٨﴾

جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى
مفعولين، تقول: جرم ننبأ وكسبه، وجرمته ننبأ وكسبته
إياه، قال:

جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

ومنه قوله تعالى: ﴿لا يجرمكم شقاقني أن يصيبكم﴾
أي: لا يكسبنكم شقائي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير:
بضم الياء من أجرمته ننبأ إذا جعلته جارماً له أي: كاسباً،
وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد كما نقل:
أكسبه المال من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً
وأكسبته إياه، فكنك لا فرق بين جرمته ننبأ وأجرمته إياه،
والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن
المشهورة أقصح لفظاً كما إن كسبته مالاً أقصح من
أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على السنة الفصحاء من
العرب الموثوق بعربيتهم أنورهم له أكثر استعمالاً. وقرأ
أبو حيوة: ورويت عن نافع: مثل ما أصاب بالفتح لإضافته
إلى غير متمكن كقوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يعني: أنهم أهلكوا في
عهد قريب من عهدكم فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا
يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك.

فإن قللت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله
على لفظه أو معناه؟ قللت: إما أن يراد وما إهلاكهم ببعيد، أو
ما هم بشيء بعيد أو بزمان، أو مكان بعيد ويجوز أن يسوى
في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المنكر والمؤثث لورودها
على زنة المصادر التي هي الصهيل والبهيق ونحوهما.

= قعيد؛ لأن إعمال المصدر المعروف في المفعول الصريح ليس
بذاك، قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح، ولا في
غيره، إلا في قوله: لا يجب الله الجهر بالسوء، فاعمله في الجار
والعنول عن إلقاء الإعراب إلى وجوهه، وهي ممكنة عديدة متعين،
خصوصاً في أقصح الكلام، والله أعلم.

(1) سورة الأنعام، الآية: 25.

(2) قال أحمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحقافة
في علم البيان، والله المستعان.

(3) سورة النساء، الآية: 80.

﴿بَمَا تَعْمَلُونَ مَحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها.

وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَعِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْسِلْنَا إِلَىٰ مَعْكُمْ رَسُولًا لِّنُحْيِي النَّاسَ حَسْبَ عَمَلِهِمْ وَنُخَوِّدَهُم لِّلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِئَاسَةً وَنَضَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْأَثِمَةَ قَالُوا لَا يَنْصُرُنَا اللَّهُ بَعْدَ الْمَوْتِ قَالُوا لَا تَعْلَمُونَ كَمَا يَعْلَمُ الْمَلَكُ الَّذِي فِي صُورِكُمْ فَاصْبِرُوا فِي دِينِكُمْ جَنَّتِمْ ﴿٤٤﴾ كَأَن لَّكُمْ بَنَاتٌ فِيهَا لَا مَعَادٌ لِّمَن كَفَرَ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿٤٥﴾

﴿على مكانتكم﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارين على جهنم التي أنتم عليها من الشرك والشنان لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها ﴿إني عامل﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿من يأتيه﴾ يجوز أن تكون من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل سوف تعلمون أين يأتيه عذاب يخزيه، وأين هو كاذب. وإن تكون موصولة قد عمل فيها كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إخال الفاء ونزعها في ﴿سوف تعلمون﴾؟ قلت: إخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديره بالاستئذان الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئذان للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئذان وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى: الضارب والصارم، أو بمعنى: المراقب كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى: المفقر والمرفق.

فإن قلت⁽¹⁾: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ثم اتبعه نكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس

أن يقول من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قلت: القياس ما نكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: من هو كاذب يعني: في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ونلك قوله: ﴿إن موعدهم الصبح﴾⁽²⁾ ﴿نلك وعد غير مكنوب﴾⁽³⁾ فجاء بالفاء الذي هو للتسبب كما تقول: وعنته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة وإنما وقعنا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطف بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم كاللاد يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا ﴿كان لم يغنوا﴾ كان لم يقيموا في نبارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد بمعنى: البعد وهو: الهلاك كالرشد بمعنى: الرشدا لا ترى إلى قوله: ﴿كما بعدت﴾ وقرأ السلمي: بعدت بضم العين والمعنى: في البناءين واحد وهو نقيض العرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضمانتي الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي: جاءت على الأصل اعتبارًا لمعنى البعد من غير تخصيص كما يقال: ذهب فلان ومضى في معنى الموت، وقيل: معناه بعدًا لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِأَيُّكُنَا وَشَاطِنِ ثَيْنِ ﴿٤٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ يَكْفُرُ بِآيَاتِنَا وَأَرْسَلْنَا هَارُونَ بِرِشِيدٍ ﴿٤٧﴾ بِقَوْمِهِ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَرْسَلْنَا هَارُونَ بِرِشِيدٍ الْوَرْدِ الْمَرْوَدِ ﴿٤٨﴾ وَأَرْسَلْنَا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُنُ الْوَرْدُ الْمَرْوَدُ ﴿٤٩﴾

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صلق نبوته، وأن يراد: بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره

= منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ ألا تراه كيف لكتفي بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الانعام: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ فنكر هناك أيضًا إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك، كقوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ واستغنى عن ذكر مقابلهما، والله أعلم. فنأمل هذا الفصل، فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(2) سورة هود، الآية: 81.

(3) سورة هود، الآية: 65.

(1) قال أحمد: والظاهر والله أعلم أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله: ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ مضمن نكر جرهم الذي يجازون به، وهو: الكذب. ويكون من باب عطف الصفة على الصفة، والموصوف واحد، كما تقول لمن تهده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم، لم يخل نك من دلالة على نكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً، فالآخر هو المحق قطعاً، فنكره لإحدى العاقبتين صريحاً، يفهم نكر الأخرى تعريضاً، والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما، وإن عاقبة أمر شعيب لم تذكر استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيانه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر =

فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله **﴿يدعون﴾** يعبون، وهي حكاية حال ماضية و **﴿لما﴾** منصوب بما أغنت **﴿أمر ربك﴾** عذابه ونقمته **﴿تنبيب﴾** تخسير يقال: تبَّ إذا خسر، وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٧)

محل الكاف الرفع تقديره ومثل ذلك الأخذ **﴿أخذ ربك﴾** والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك بلفظ الفعل. وقرئ: إذا أخذ القرى **﴿وهي ظالمة﴾** حال من القرى **﴿اليم شديد﴾** وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بنب يقتتره، فعلى كل من أئنب أن يحذر أخذ ربه الاليم الشديد فيبائر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ عَدَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ نَحْمُوهُ لُؤْلُؤًا وَكَذَلِكَ يَوْمَ مَسْهُودٌ (١٧)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بنذوبهم **﴿آية لمن خالف﴾** لبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشذته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفًا في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى ونحوه: **﴿إن في ذلك لبرة لمن يخشى﴾** (١) **﴿ذلك﴾** إشارة إلى يوم القيامة؛ لأن عذاب الآخرة دل عليه و **﴿الناس﴾** رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لاي فائدة أوتر اسم المفعول على فعله (2)؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾** (3) تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب، **﴿يوم مشهود﴾** (4) مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويوم شهدنا سليماً وعامراً

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود الذي كثر شاهده، ومن قولهم: لفلان

وهو ضلال مبين لا يخفي على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالعسف والظلم والبشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا، فاتبعوه وسلموا له دعواه وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام وعلموا أن معه الرشيد والحق ثم عللوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط **﴿يقدم قومه﴾** أي: كما كان قوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله: **﴿يقدم قومه﴾** تفسيراً لذلك وإيضاحاً أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: قائمة الرجل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: مقدمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدم، ومنه: مقدم العين.

فإن قلت: هلا قيل يقدم قومه فيوردهم ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكانه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة و **﴿الورد﴾** و **﴿المورود﴾** الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه اتباعه بالواردة، ثم قيل: بشس الورد الذي يردونه للنار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضده **﴿ولتبعوا في هذه﴾** في هذه الدنيا **﴿للعنة﴾** أي: يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة **﴿بشس الرفد المرفود﴾** رفدهم أي: بشس العون المعان، وذلك أن اللعنة في الدنيا رعد للعذاب ومدد له وقد رعدت باللعنة في الآخرة وقيل: بشس العطاء المعطى.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٨) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيءٍ (١٨)

﴿ذلك﴾ مبتدأ **﴿من أنباء القرى﴾** نقصه عليك خبر بعد خبر أي: ذلك النبا بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك **﴿منها﴾** الضمير للقرى أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزروع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها **﴿وما ظلمناهم﴾** بإهلاكنا إياهم **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بارتكاب ما به أهلكوا **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾**

(1) سورة النازعات، الآية: 26.

(2) قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى: **﴿إننا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة﴾** فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً إلخ.

(3) سورة التغابن، الآية: 9.

(4) قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به، مسكوتاً عنه، مبهماً، ومن الإبهام ما يكون، وتقخيماً، وهذا مكانه.

مجلس مشهود وطعام محضور، قال:

في محفل من نواصي الناس مشهود

فإن قُلْتُ: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه؟ كما قال الله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾⁽¹⁾ قُلْتُ: للغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدا كل من يشهده، وكذلك قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾⁽²⁾ الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في فليصمه والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطئه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر لا يشهده المقيم ويغيب عنه المسافر.

وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها فيقولون: انتهى الأجل وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، فإذا جاء أجلهم يراخ: آخر مدة التأجيل والعد إنما هو: للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وما يؤخره إلا لأجل معدود﴾ إلا لانتها مدة معدودة بحذف المضاف وقرئ: وما يؤخره بالياء قرئ: يوم يات بغير ياء ونحوه قولهم: لا أثر حكاة الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاحتراز عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قُلْتُ: فاعل يأتي ما هو؟ قُلْتُ: الله عز وجل كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾⁽³⁾ ﴿ويأتي ربك﴾⁽⁴⁾ ﴿وجاء ربك﴾⁽⁵⁾ وتعضده قراءة من قرأ: وما يؤخره بالياء، وقوله: ﴿يبلّغنه﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم كقوله تعالى: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: بما انتصب الطرف؟ قُلْتُ: إما أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار أنكر، وإما بالانتها المحنوف في قوله: ﴿إلا لأجل معدود﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قُلْتُ: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم فقد جعلت

اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدت الشيء بنفسه؟ قُلْتُ: المراد إتيان هوله وشدائده ﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم وهو نظير قوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن﴾⁽⁷⁾.

فإن قُلْتُ: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾⁽⁸⁾ وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون؟⁽⁹⁾ قُلْتُ: ذلك يوم طويل له مواقف ومواقف ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿فمنهم﴾ الضمير لاهل الموقف ولم ينكروا لأن ذلك معلوم ولأن قوله: ﴿لا تكلم نفس﴾ يدل عليه وقد مر نكر الناس في قوله: ﴿مجموع له الناس﴾⁽¹⁰⁾ والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦﴾

قراءة العامة بفتح الشين، وعن الحسن: شقوا بالضم، كما قرئ: سعدوا. والزفير إخراج النفس. والشهيق رده قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير وينلوه شهيق محشرج خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتْ أَسْمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ نَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُيِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ أَسْمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْدُورٍ ﴿١٨﴾

﴿ما دامت السموات والأرض﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تتراد سموات الآخرة وأرضها هي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾⁽¹¹⁾ وقوله: ﴿وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾⁽¹²⁾ ولأنه لا بد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء، والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام تبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قُلْتُ: فما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قُلْتُ: هو: استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالمزهرير وبأنواع من العذاب

(7) سورة النبا، الآية: 38.

(8) سورة النحل، الآية: 111.

(9) سورة المرسلات، الآيتان: 35 و36.

(10) سورة هود، الآية: 103.

(11) سورة إبراهيم، الآية: 48.

(12) سورة الزمر، الآية: 74.

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) سورة البقرة، الآية: 185.

(3) سورة البقرة، الآية: 210.

(4) سورة الأنعام، الآية: 158.

(5) سورة الفجر، الآية: 22.

(6) سورة يوسف، الآية: 107.

وكما يجوز أن تكون: مصدرية وموصولة أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ (6) أي: حظهم من العذاب كما وفيها آباؤهم أنصأهم.

فإن قلت: كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالاً عن النصيب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل، ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وثلاث حقه وحقه كاملاً وناقصاً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مَرْسِيَّ الْكَذِبِ فَاتَخَلَّفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَيْدُ سَيْفَتٍ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ يَنْتَهُمُ وَرَأَيْتُمْ لَوَيْ سَكَّ مِنْهُ رَبِّبٌ ﴿١١﴾ وَإِنَّ كَلًّا لَنَا لَيُؤْتِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾.

﴿فاتخلف فيه﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن ﴿ولولا كلمة﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لنقض بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية أيضاً ﴿وإن كلاً﴾ التنوين عوض من المضاف إليه يعني وإن كلهم وإن جميع المختلفين فيه ﴿ليؤفنيهم﴾ جواب قسم محذوف. واللام في لما موطئة للقسم وما مزيدة والمعنى: وإن جميعهم والله ليؤفنيهم ﴿ربك أعملهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلاً بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبي: وإن كل لما ليؤفنيهم على أن إن نافية ولما بمعنى: إلا وقراءة عبد الله مفسرة لها؛ وإن كل إلا ليؤفنيهم، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرقم: وإن كلاً لما ليؤفنيهم بالتنوين كقوله: ﴿أكلاً لماً﴾ (7) والمعنى: وإن كلاً ملمومين بمعنى: مجموعين، كانه قيل: وإن كلاً جميعاً كقوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ (8).

فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣﴾.

﴿فاستقم كما أمرت﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق غير عادل عنها ﴿ومن تاب معك﴾ معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ عالم فهو مجازيك به فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد

سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم وهو رضوان الله كما قال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾ (1) ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو فهو المراد بالاستثناء والليل عليه قوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ (2) ومعنى قوله في مقابلته ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخدعك عنه قول المجبرة (3): إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل باقترائهم، وما ظنك بقوم نبؤا كتاب الله لما روي لهم بعض النوايت عن عبد الله بن عمرو بن العاص: لياتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (4) وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً. وقد بلغني أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زائدنا الله هداية إلى الحق ومعرفة كتابه وتنبئها على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص فمعناه: أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير، فنك خلو جهنم وصفق أبوابها، وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث ﴿غير مجذوذ﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ (5).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُؤُا هَؤُلَاءِ مَا يَحْكُمُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُؤُا آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مُتَوَرِّطٍ ﴿١٤﴾.

لما قص قصص عبدة الأوثان ونكر ما أحل به من نعمة وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: فلا تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آباؤهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استثناء معناه: لتعليل النهي عن المرية وما في ﴿مما﴾

= الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه، والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي الأخذ، ومن قال: أعطيت فلاناً حقه، كان جديراً أن يؤكد بقوله غير منقوص، والله أعلم.

(7) سورة الفجر، الآية: 19.

(8) سورة ص، الآية: 73.

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة هود، الآية: 108.

(3) يريد: أهل السنة، أما المعتزلة، فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد.

(4) أخرجه البيهقي.

(5) سورة التين، الآية: 6.

(6) قال أحمد: وهم، والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان =

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوق يلقون غياً﴾⁽⁴⁾ فإنك تعامل من لا يجهد ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو بينك فقد دخله سقم، وهبى زالك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم وإي لا يسكنه إلا القرءاء الزاثرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»⁽⁵⁾ ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة هل يسقي شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت، فقال: دعه يموت ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ حال من قوله: فتمسك أي: فتمسك النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثم لا تنصرون﴾ ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلنا: فما معنى ثم؟ قلنا: معناها الاستبعاد؛ لأن النصره من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

وَأَمِيرَ الْمَلَكَةِ طَرْفِي الْهَارِ وَزَلْفًا مِّنَ الْبَيْتِ إِنَّ الْحَسَنَةَ بَيِّنِينَ
الْحَسَنَاتِ ذَلِكَ دَرَكٌ لِلْمَكْرُوبِ⁽⁶⁾

﴿طرفي النهار﴾ غدوة وعشية ﴿وزلفاً من الليل﴾ وساعات من الليل، وهي ساعات القربة من آخر النهار من أزلفه إذا قربته وأزلف إليه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف: المغرب والعشاء، وانتصاب طرفي النهار على الطرفين؛ لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك: أقمته عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ونحوه ﴿وأطراف النهار﴾⁽⁶⁾ وقرئ: وزلفاً بضميتين، وزلفاً بسكون اللام، وزلفى بوزن قربى، فالزلف: جمع زلفة كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون نحو: بسرة وبسر، والزلف بضميتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة كما أن القربى بمعنى: القربة، وهو: ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: وزلفاً من الليل وقرباً من الليل، وحققها على هذا التفسير أن تحذف على الصلاة أي: أقم الصلاة طرفي النهار وأقم زلفاً من الليل على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل ﴿إن الحسنات

ولا أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال: «شيبنتني هود والواقعة وأخواتهما». وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب فقال: «شيبنتني هود»⁽¹⁾، وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبنتني هود؟ فقال: «نعم» فقلت: ما الذي شيبك منها، أقصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ قال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت»، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال: أفنقر إلى الله بصحة العزم.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِّنْ أَوْلِيَائِهِ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ⁽¹¹⁷⁾

قرئ: ﴿ولا تركنوا﴾ بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الباء في كل ما كان من باب علم يعلم، ونحوه: قراءة من قرأ: فتمسك النار بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: ولا تركنوا على البناء للمفعول من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداونتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم ونكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله: ﴿ولا تركنوا﴾ فإن الركوب هو: الميل اليسير وقوله: ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم ولم يقل إلى الظالمين. وحكي: أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم؟ وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاثين ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾ ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتنة فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾⁽²⁾ وإعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك أنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقتابون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك⁽³⁾، وما أكثر ما أئخؤا منك في جنب ما أقسوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم؟

(4) سورة مريم، الآية: 59.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في مساعدة الكفار والمفسدين فصل في مجانبة الظلم (الحديث رقم: 9423).

(6) سورة طه، الآية: 130.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3297).

(2) سورة آل عمران، الآية: 187.

(3) لعل هنا سقطاً تقديره في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحو لك في جنب ما أقسوا إلخ.

والجودة بقية؛ لأنَّ الرجل يستبقي مما يخرجُه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم أي: من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

ان تذببوا ثم ياتيني بقيتكم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى كاللقيقة بمعنى التقوى أي: فهلا كان منهم نوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية بوزن لقية من بقاءه يبقيه إذا راقبه وانتظره، ومنه «بقينا رسول الله ﷺ» (7)، والبقية المزة من مصدره، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلاً﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً مما أُنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ومن في ﴿ممن أنجينا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة إنما هي للناهيين وحدهم بليل قوله تعالى: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾ (8).

فإن قلت: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟ قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً الأولى البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد: استثناء الصالحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفية عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً. كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأقصح أن يرفع على البديل ﴿واتبع للذين ظلموا ما اتفقوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبنوه وراء ظهورهم وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: واتبع الذين ظلموا يعني: واتبعوا جزء ما اتفقوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزءاً إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾؟

يذهبن السيئات فيه وجهان: أحدهما أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات بأن يكن لطفاً في تركها كقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (1) وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري كان يبيع التمر، فأتته امرأة فأعجبته فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «انتظر أمر ربي» فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال: «نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت»، وروي: أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: هذا له خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة» (2)، وروي أن رسول الله ﷺ قال له: «توضاً وضوءاً حسناً، وصل ركعتين، إن الحسنات يذهبن السيئات» ﴿ذلك﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فاستقم﴾ (3) فما بعده ﴿تذكرى للذاكرين﴾ عظة للمتعتلين.

وَأَمِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾

ثم كرر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا التكرار لفضل خصوصية ومزية وتنبية على مكان الصبر ومحلله كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالوصية وهو: الصبر على امتثال ما أمرت به والانتفاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتفاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن بَنِيكُمْ أُولُو بَرِّينَ يَهْتَدُونَ عَنِ السَّوَاءِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنَّهُمْ وَأَتَّحِ الْأُورِثَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَافَرُوا بِحُرْمِ الْإِثْمِ ﴿١٦﴾

﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات. وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء﴾ (4) ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ (5) ﴿ولولا أن ثبتنك لقد كنت تركن إليهم﴾ (6) ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير، وسمي الفضل

(4) سورة القلم، الآية: 49.

(5) سورة الفتح، الآية: 25.

(6) سورة الإسراء، الآية: 74.

(7) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «في وقت العشاء الآخرة» (الحديث رقم: 421).

(8) سورة الأعراف، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: «ومن سورة هود» (الحديث رقم: 3115) والبخاري في كتاب التفسير ومن سورة هود، باب: «أقم الصلاة طرفي...» (الحديث رقم: 4687) ومسلم في كتاب التوبة باب: قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (الحديث رقم: 6932).

(3) سورة هود، الآية: 112.

﴿وَكَلَّا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ ﴿نَقَصَّ عَلَيْكَ﴾ و ﴿مَنْ أَنْبَأَ الرِّسْلَ﴾ بيان لكل و ﴿مَا نَثَبْتَ بِهِ قَوْلَكَ﴾ بدل من كلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقص عليك معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبيت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعْمَلُوا﴾ على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ رِجْعُ الْأَمْرِ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾.

﴿وش غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيها فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿والإله يرجع الأمر كله﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وكفاك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صلق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك» (2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الرَّيَّةَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُ الْيَتِيمَ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب المبين﴾ السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سالت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمراً؛ لأن المعنى إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجبنا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قُلْتُ: فقلوه: ﴿وكانوا مجرمين؟﴾ قُلْتُ: على أتراف أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُخْلِكَ الْقُرَىٰ يَطْلُبُ وَأَهْلُهَا مُغْتَابُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿كان﴾ بمعنى: صح واستقام. واللام لتأكيد النفي و ﴿يظلم﴾ حال من الفاعل والمعنى: استحالة في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها ﴿وأهلها﴾ قوم ﴿مصلحون﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيضاحاً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَتَمَّةً وَحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾.

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكون أهل أمة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (1) وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختر بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلوا فلذلك قال: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مخلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه يعني: ولذلك من التمكن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، لينيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمَّتْ كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٣٨﴾.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنين، الآية: 52.

(2) ذكره ابن مروييه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزليعي 157/2.

سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾

﴿انزلناه﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ وسمي بعض القرآن قرآنًا؛ لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لعلكم تعقلون﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾^(١).

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

﴿القصص﴾ على وجهين يكون مصدراً بمعنى: الاقتصاص تقول: قصّ الحديث بقصه قصصاً كقولك: شله يشله شلاً إذا طرده، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنقص والحسب ونحوه: النبا والخبر في معنى: المنبا به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بإيحاءنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر لإضافته إليه ويكون المقصود محذوفاً؛ لأنّ قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحاءنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتص على أبداع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص المقصود فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه^(٢) أحسن ما يقتص في بابيه كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم يراد في فنه.

فَإِنْ قُلْتَ: مِمَّ اشْتَقَاقُ الْقَصَصِ؟ قُلْتُ: مِنْ قِصِّ آثَرِهِ إِذَا تَبِعَهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَقْصُ الْحَدِيثَ يَتَّبِعُ مَا حَفِظَ مِنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً كَمَا يُقَالُ: تَلَا الْقُرْآنَ إِذَا قَرَأَهُ؛ لِأَنَّهُ يَتْلُو أَيُّ يَتَّبِعُ مَا حَفِظَ مِنْهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ ﴿وَإِنْ كُنْتَ﴾ إِنْ مَخْفَفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. وَاللَّامُ هِيَ الَّتِي تَفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّافِيَةِ. وَالضَّمِيرُ فِي قَبْلِهِ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ وَالْمَعْنَى: وَلِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ إِيحَائِنَا إِلَيْكَ مِنَ الْغَافِلِينَ عَنْهُ أَيُّ: مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ، مَا كَانَ لَكَ فِيهِ عِلْمٌ قَطُّ، وَلَا طَرُقَ سَمْعَكَ طَرَفٍ مِنْهُ.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيُّوبَ يَتَّخِذْ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كُوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَايْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَيَّ لِنُفُوسِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾

﴿إذ قال يوسف﴾ بدل من أحسن القصص وهو من بدل الاشتمال؛ لأنّ الوقت مشتمل على القصص، وهو: المقصود، فإذا قصّ وقته فقد قصّ، أو بإضمار انكر، ويوسف اسم عبراني وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربيًّا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف.

فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ قَرَأَ يُوسُفَ بِكسر السين أو يوسف بفتحها؟ هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من آسف، وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؛ قُلْتُ: لَا لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ الْمَشْهُورَةَ قَامَتْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ أَعْجَمِيَّةٌ، فَلَا تَكُونُ عَرَبِيَّةً تَارَةً وَأَعْجَمِيَّةً أُخْرَى. وَنَحْوُ يُوسُفَ يُونُسَ رُوِيَ فِيهِ هَذِهِ اللُّغَاتُ الثَّلَاثُ، وَلَا يُقَالُ: هُوَ عَرَبِيٌّ؛ لِأَنَّهُ فِي لَفْظَيْنِ مِنْهَا يَوْزَنُ الْمُضَارِعُ مِنْ أَنَسَ وَأُونُسَ، وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا قِيلَ مِنَ الْكَرِيمِ؟ فَقُولُوا: الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»^(٣) يَا ابْنَ الْكَرِيمِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، يَبْتَئِ بِحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ.

فَإِنْ قُلْتُ: مَا هَذِهِ التَّاءُ؟ قُلْتُ: تَاءُ تَانِيثٍ وَقَعَتْ عَوْضًا مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَاللَّيْلُ عَلَى أَنَّهَا تَاءُ تَانِيثٍ قَلْبُهَا هَاءٌ فِي الْوَقْفِ.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ جَازَ الْإِلْحَاقَ تَاءَ التَّانِيثِ بِالْمَذْكَرِ؟ قُلْتُ: كَمَا جَازَ نَحْوُ قَوْلِكَ: حَمَامَةٌ ذَكَرٌ وَشَاةٌ ذَكَرٌ وَرَجُلٌ رُبْعَةٌ وَغِلَامٌ يَفْعَةٌ.

فَإِنْ قُلْتُ: فَلِمَ سَاحَ تَعْوِضُ تَاءَ التَّانِيثِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ التَّانِيثَ وَالْإِضَافَةَ يَتَنَاسَبَانِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زِيَادَةٌ مَضْمُومَةٌ إِلَى الْاسْمِ فِي آخِرِهِ.

فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْكُسْرَةُ؟ قُلْتُ: هِيَ الْكُسْرَةُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْيَاءِ فِي قَوْلِكَ: يَا أَبِي قَدْ زَلَقْتُ إِلَى التَّاءِ لِقَاتِضَاءِ تَاءِ التَّانِيثِ أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهَا مَفْتُوحًا.

فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا بِالِ الْكُسْرَةِ لِمَ تَسْقُطُ بِالْفَتْحَةِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا التَّاءُ وَتَبْقَى التَّاءُ سَاكِنَةً؟ قُلْتُ: امْتَنَعَ ذَلِكَ فِيهَا لِأَنَّهَا اسْمٌ، وَالْأَسْمَاءُ حَقُّهَا التَّحْرِيكُ لِأَصَالَتِهَا فِي الْإِعْرَابِ، وَإِنَّمَا جَازَ تَسْكِينَ الْيَاءِ وَأَصْلُهَا أَنْ تَحْرَكَ تَخْفِيفًا، لِأَنَّهَا حَرْفٌ لِينٌ، وَأَمَّا التَّاءُ فَحَرْفٌ صَحِيحٌ نَحْوُ كَافِ الضَّمِيرِ فَلَزِمَ تَحْرِيكُهَا.

فَإِنْ قُلْتُ: يَشْبِهُ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّاءِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْكُسْرَةِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعَوْضِ وَالْمَعْوِضِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا فِي حَكْمِ الْيَاءِ إِذَا

= كتاب: الأنبياء باب: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت» (الحديث رقم: 3382) ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام (الحديث رقم: 6111).

(1) سورة فصلت، الآية: 44.

(2) لعله في غيره، كعبارة التفسير.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة يوسف (الحديث رقم: 3116) والحاكم في المستدرک 570/2، والبخاري في =

أربعون سنة وقيل: ثمانون.

فإن قُلْتُ: لم أُرِ الشمس والقمر؟ **قُلْتُ:** أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بياناً لفضلهما واستبدادهما بالزمية على غيرهما من الطوالع، كما أُرِ جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قُلْتُ: (2) ما معنى تكرار «رأيت»؟ **قُلْتُ:** ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: «إني رأيت أحد عشر كوكباً» كيف رأيته؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: «رأيتهم لي ساجدين».

فإن قُلْتُ: فلم أجريت مجرى العقلاء في «رأيتهم لي ساجدين»؟ **قُلْتُ:** لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة. عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بأبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم. والرؤيا بمعنى: الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينها بحرفي التانيث كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: رويك بقلب الهمزة واو، وسمع الكسائي: ريك وريك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة؛ لأن الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: اتزر من الإزار واتجر من الأجر «فيكيديوا» منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كانوا.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: فيكيديوك كما قيل: «فيكيديوني» (3) **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون أكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر «عدو مبين» ظاهر العداوة لما فعل بأدم وحواء ولقوله: «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» (4) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله.

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِثَرٍ لَكِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَتْكَ عَلَىٰ أَيُّوبَ مِنْ قَبْلُ بِرُحْمٍ وَأَخْرَجَ مِنْ رَبِّكَ عَلَيْكَ حَكِيمٌ (٦).

«وكنلك» ومثل ذلك الاجتناء «يجتبيك ربك» يعني:

قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتى لا يجوز يا أبت؟ **قُلْتُ:** الياء والكسرة قبلها شيئان، والتاء عوض من أحد الشئين وهو الياء، والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعووض منه إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من الياء كيف جاز الجمع بينهما وبين التاء ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعووض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قُلْتُ: فقد نلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيققتها فإن نلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو وجودها كعدمها **قُلْتُ:** بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت: يا أبي.

فإن قُلْتُ: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ **قُلْتُ:** أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الياء المعوض منها في قولك: يا أبي، وأما من ضم فقد رأى أسماً في آخره تاء تانيث فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول: ياتبة من غير اعتبار لكونها عوضاً من غير ياء الإضافة. وقرئ: «إني رأيت بتحريك الياء، وأحد عشر بسكون العين تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد وكذا إلى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية؛ لأن ما نكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قُلْتُ: ما أسماء تلك الكواكب؟ **قُلْتُ:** روى جابر أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم؟» قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيل وقابس وعمودان والفليق والمصباح والضروح والفرغ وثواب ونو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال اليهودي: أي والله إنها لأسمائها (1)، وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته، وعن وهب: أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طولاً كانت مركزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تنكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيلغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه

(1) رواه الحاكم في المستدرک 396/4.

= السجود كانت، والله أعلم.

(3) سورة هود، الآية: 55.

(4) سورة الاعراف، الآية: 16.

(2) قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال، فطري نكر الفعل لمناسبة الحال، وهي المقصودة، إذ الآية في =

بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَيْكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحق له الاجتناب ﴿حَكَمٌ﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلُيُؤُسَ آيَاتٍ لِّلَّذِينَ عَلِمُوا﴾ (٧).

﴿في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آيَاتٍ﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿لِلْمَسْأَلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميه: يهوذا وروبيلا وشمعون ولاوى وريالون ويشجر وبينة ودان ونفتالي وجاد، وأشر، السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨).

﴿ليوسف﴾ (٣) اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أراونا: أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿وأخوه﴾ هو: بنيامين وإنما قالوا: أخوه وهم جميعاً إخوته؛ لأن أمهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أحب﴾ في الاثنين؛ لأن أقبل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه من، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والراو في ﴿ونحن عصبه﴾ أو الحال يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كثافة نقوم بمرافقة، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النواثب، وروى النزال بن سبرة عن علي

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام وقوله: ﴿ويعلمكم﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمكم ويتم نعمته عليكم، والاجتناب الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، والأحاديث الرؤيا؛ لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويبدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ (١) الله نزل أحسن الحديث (٢) وهو: اسم جمع للحديث وليس بجمع أحوثه. ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن نبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح وفدائه بنبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال: وعلى آل يعقوب، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمع الله لك بعد دهر طويل. و﴿آل يعقوب﴾ أهله وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلها. وأراد بالابوين الجد وأبا الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصالة ومن كم يقولون: ابن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدة و﴿إبراهيم وإسحاق﴾ عطف

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) قال أحمد: هذه تؤيد قراءة ابن مروان: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، بالنصب، وقد قال سيوييه فيها: لحتبي ابن مروان في لحنه، أي: تمكن، وحيث تأييد بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه، فلا بد من التماس المجمع الصحيح لها، وليس ذلك ببعيد إن شاء الله، فنقول: لو قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن نحن على طريقة:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو أنا أنا، وأنت أنت، لم يكن في فصاحته مقال، وقد علمت أن معنى: أنا أنا، أي: أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى =

= عن نكرها، فلا بعد، والحالة هذه في حذف الخبر لمساواته المبتدأ، وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحذوف، وإذا كان كذلك، فقول القائلين: ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾، ونحن معنا، ونحن نحن، ولكن استغفوا عن الخبر للسز الذي نكرناه، فقولهم: ونحن، كلام تام بالتقدير المنكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقوله: هن، في حكم الكلام التام، والمراد: هؤلاء بناتي هن المشهورات، بالأوصاف الحميدة الظاهرة، وأصل الكلام: هن هن، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

ومنه: ذهب بعض أصابعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَحْصُلُ بِهِ غَرْضُكُمْ فَهَذَا هُوَ الرَّاي. قَالُوا يَا بَنِيَّ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُ نَخْشَوْهُ ۖ

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ قرئ: بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، وتيمناً بكسر التاء مع الإدغام والمعنى: لَمْ تَخَافْنَا عَلَيْهِ وَنَحْنُ نُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ وَنَحْبَهُ وَنَشْفُقُ عَلَيْهِ وَمَا وَجَدْنَا فِي بَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ النَّصِيحَةِ وَالْمَقَّةِ، وَأَرَادُوا بِنَلِكْ لَمَّا عَزَمُوا عَلَى كَيْدِ يُوسُفَ اسْتِئْزَالَهُ عَلَى رَأْيِهِ وَعَادَتِهِ فِي حِفْظِهِ مِنْهُمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْهُمْ بِمَا أَوْجَبَ أَنْ لَا يَأْمَنَهُمْ عَلَيْهِ.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَكَلِّبْ وَرِئًا لِمُ لَحَيَطُونَ ۖ

﴿يَرْتَع﴾ نتسع في اكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، وقرئ: يرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع من ارتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سبيابة: يرتع بكسر العين، ويلعب بالرفع على الابتداء.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَجَازَ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْعَبِّ؟ قُلْتُ: كَانَ لِعَبِهِمُ اسْتِثْبَاقُ الْإِنْتِزَالِ لِيُضْرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِقَاتِلِ الْعَنُوقِ لَا لَلْهُوَ بَلِيلٌ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ (6) وَإِنَّمَا سَمَوْهُ لَعِبًا؛ لِأَنَّهُ فِي صُورَتِهِ ﴿يَلْحِزْنِي﴾ وَاللَّامُ الْإِبْتِدَاءُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (7) وَدَخَلُوهَا أَحَدٌ مَا نَكَرَهُ سَبِيوِيهِ مِنْ سَبَبِي الْمَصَارَعَةِ.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَكُّرُوا بِهِ، وَأَعَاذُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۖ

اعتذر إليهم بشيئين (8) أحدهما: أَنَّ ذَمَائِهِمْ بِهِ وَمَفَارِقَتَهُ إِيَّاهُ مِمَّا يَحْزُنُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَصِيرُ عَنْهُ سَاعَةٌ وَالثَّانِي: خَوْفُهُ عَلَيْهِ مِنْ عَوَةِ الذُّنْبِ إِذَا غَفَلُوا عَنْهُ بِرَعِيهِمْ وَلَعِبِهِمْ وَأَقْلَبَ بِهِ اِهْتِمَامَهُمْ وَلَمْ تَصْنَقْ بِحِفْظِهِ عَنَابَتَهُمْ، وَقِيلَ: رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّ الذُّنْبَ قَدْ شَدَّ عَلَى يُوسُفَ فَكَانَ يَحْزَنُهُ فَمَنْ ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ فَلَقْنَهُمُ الْعِلَّةَ، وَفِي امْتِثَالِهِمُ: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمُنْطِقِ. وَقَرَأَ: الذُّنْبُ بِالْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ وَالتَّخْفِيفِ، وَقِيلَ: اسْتِثْقَاةٌ مِنْ تَذَاعَبَتِ الرِّيحُ إِذَا أَتَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَتَعَزَّ عُسْبُهُ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ ۖ

القسم محذوف تقديره والله ﴿لَشُنْ أَكَلَهُ الذُّنْبُ﴾ وَاللَّامُ مُوطَّئَةٌ لِلْقِسْمِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ جَوَابٌ لِلْقِسْمِ مُجْزِئٌ عَنْ جِزَاءِ الشَّرْطِ. وَالْوَاوُ فِي وَنَحْنُ عَصْبَةٌ وَأَوْ الْحَالِ، حَلْفُوا لَهُ لَشُنْ كَانَ مَا خَافَهُ مِنْ خَطْفِهِ الذُّنْبُ أَخَاهُمْ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَنَحْنُ عَصْبَةٌ بِالنَّصْبِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَنَحْنُ نَجْتَمِعُ عَصْبَةً، وَعَنْ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ: هَذَا كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: إِنَّمَا الْعَامَرِيُّ عَمَتُهُ أَيُّ: يَتَعَهَّدُ عَمَتَهُ.

أَقْنَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَمْلَحُوهُ أَرْضًا يَحِلَّ لَكُمْ مِنْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۖ

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكى بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ (1) كَانَهُمْ أَطْبَقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قَالٍ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ (2) وَقِيلَ: الْأَمْرُ بِالْقَتْلِ شَمْعُونَ، وَقِيلَ: بَانَ وَالْبَاقُونَ كَانُوا رَاضِينَ فَجَعَلُوا أَمْرِينَ ﴿أَرْضًا﴾ أَرْضًا مَنْكُورَةً مَجْهُولَةٌ بَعِيدَةٌ مِنَ الْعِمْرَانِ وَهُوَ مَعْنَى تَنْكِيرِهَا وَإِخْلَاطِهَا مِنَ الْوَصْفِ، وَإِبْهَامُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ نَصَبَتْ نَصْبَ الظُّرُوفِ الْمُبْهَمَةِ ﴿يَخِلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ يَقْبَلُ عَلَيْكُمْ إِقْبَالَةً وَاحِدَةً لَا يَلْتَفِتُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمُرَادُ سَلَامَةُ مَحَبَّتِهِ لَهُمْ مِمَّنْ يَشَارِكُهُمْ فِيهَا وَيَنَازِعُهُمْ إِيَّاهُ، فَكَانَ نَكَرَ الْوَجْهَ لِتَصْوِيرِ مَعْنَى إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ أَقْبَلَ بَوَاجِهُهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالْوَجْهِ: الذَّاتُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ (3) وَقِيلَ يَخِلْ لَكُمْ يَفْرَغْ لَكُمْ مِنَ الشَّغْلِ بِيُوسُفَ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ أَيُّ: مِنْ بَعْدِ كِفَايَتِهِ بِالْقَتْلِ أَوْ التَّغْرِيبِ، أَوْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى مُصَدِّرِ اقْتُلُوا أَوْ اطْرَحُوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا جَنَيْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يَصْلُحُ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَبِيكُمْ بَعْدَ تَمْهُونِهِ، أَوْ تَصْلُحُ نِيَاكُمُ وَتَنْتَظِمُ أُمُورَكُمْ بَعْدَهُ بَخْلٍ وَجْهَ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا إِمَّا مُجْزِئًا عَطْفًا عَلَى يَخِلْ لَكُمْ أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ أَنْ، وَالْوَاوُ بِمَعْنَى: مَعَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ (4).

قَالَ قَائِلٌ يَنْتَهُ لَمْ نَقْتُلْهُ يُوسُفَ وَأَلْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ مَعْشَرٌ أُسَيَّرُونَ إِنْ كُنْتُمْ قَائِلِينَ ۖ

﴿قائل منهم﴾ هو: يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيًا وهو: الَّذِي قَالَ: ﴿فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ﴾ (5). قَالَ لَهُمْ: لِلْقَتْلِ عَظِيمٌ ﴿أَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾ وَهِيَ غُورُهُ وَمَا غَابَ مِنْهُ عَنْ عَيْنِ النَّظَرِ وَأَظْلَمَ مَنْ أَسْفَلَهُ قَالَ الْمُنْخَلُ:

إِنْ أَنَا يَوْمًا غَيْبْتُ غِيَابَتِي فَسَيَرُوا سِيرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ أَرَادَ غِيَابَةَ حَفَرَتِهِ الَّتِي يَدْفَنُ فِيهَا، وَقَرَأَ: غِيَابَاتٍ عَلَى الْجَمْعِ، وَغِيَابَاتٍ بِالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِي: غَيْبَةً، وَالْجَبُّ الْبُئْرُ لَمْ تَطُوَ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَجِبُ جَبًّا لَا غَيْرَ ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ يَأْخُذُهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ: بَعْضُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَقَرَأَ: تَلْتَقِطُهُ بِالتَّاءِ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ بَعْضَ السَّيَارَةِ سَيَارَةُ كَقَوْلِهِ:

كما شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

(7) سورة النحل، الآية: 124.

(8) قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذنب عليه؛ لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقتهم ريثما يرتع، ويلعب، ويعود سالماً إليه عما قاتل، فأمر سهل، فكانهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه، وتطمينه من أشد الأمرين عليه، والله أعلم.

(1) سورة يوسف، الآية: 8.

(2) سورة يوسف، الآية: 10.

(3) سورة الرحمن، الآية: 27.

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة يوسف، الآية: 80.

(6) سورة يوسف، الآية: 17.

يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المبدل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين نخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان يدينه بونكم، وأنكم انطلقتم به وأقيتموه في غيابة الجب وقتلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعمتوه بثمان بخص. ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بقوله: وأوحينا على أنا أنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك وبحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، وقرئ: لنتنبهنم بالنون على أنه وعيد لهم، وقوله: وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير.

وَعَادُوا أَبَاهُمْ عِشَاهُ يَكُونُ (١١)

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لقيته عشيًا وعشيانًا وأصيلًا وأصيلانًا، ورواه ابن جني: عشي بضم العين والقصر، وقال عشوا: من البكاء، وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف بيبكون وهم مظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي^(١): أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما لكم؟ وأين يوسف؟

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٢)

«قالوا يا أبانا إننا ذهبنا نستبق» أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان، كالانتضال والتناضل، والارتقاء والتراخي، وغير ذلك والمعنى: نتسابق في العدو، أو في الرمي وجاء في التفسير نتنضل «بمؤمن لنا» بمصلق لنا «ولو كنا صادقين» ولو كنا عنك من أهل الصلق والثقة لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سبي الظن بنا غير واثق بقولنا.

وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍّ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٣)

«بدم كذب» ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته، ونحوه.

فهنّ به جود وأنتم به بخل

وقرئ: كذبًا نصًا على الحال بمعنى: جاؤا به كاذبين ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة رضي الله عنها: كذب بالдал غير المعجزة أي: كدر، وقيل: طرى، وقال ابن

من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنه غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال: خسرهم الله ولمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها.

فَإِنْ قُلْتَ: قد اعتذر إليهم بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قُلْتَ: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه أذنًا صمًا ولم يعبوا به.

قُلْنَا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْمَعُوا فِي عَيْنَيْ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّيَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٤)

«أن يجعلوه» مفعول أجمعوا من قولك: أجمع الأمر وأزمعه فأجمعوا أمركم. وقرئ: في غيابات الجب قيل: هو بئر ببيت المقدس، وقيل: بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما محنوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العدواة وأخنوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغيثه إلا بالإهانة والضرب حتى كانوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء! فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوانه رثوا علي قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكباً تؤنسك، وبلوه في البئر فلما بلغ نصفها اقنوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبيكي فنالوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فاجابهم، فارادوا أن يرضخوه ليقتلوه، فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروي: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فالبسه إياه، فنفقه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيمية علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه والبسه إياه «وأوحينا إليه» قيل: أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ كان ذاك مدرّكاً، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة «لنتنبهنهم بأمرهم هذا» وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدثن إخوانك بما فعلوا بك «وهم لا يشعرون» إنك

= الذئب وكثيراً ما تتلف الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

(١) قال أحمد: وقواه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولاً، وهو: أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم: «وأخاف أن يكله»

ليستقي للقوم ﴿يا بشري﴾ نادى البشرى كأنه يقول: تعالى فهذا من أوتك، وقرى: يا بشراي على إضافتها إلى نفسه وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للغرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولي، وعن نافع: يا بشراي بالسكون وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده إلا أن يقصد الوقف. قيل: لما أتلى بلوه أي: أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بـغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي ﴿هذا غلام﴾ وقيل: ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿وأسروه﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجد أنهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لتبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه و﴿بضاعة﴾ نصب على الحال أي: أخفوه متاعاً للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي: قطع ﴿والله عليم بما يعملون﴾ لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم، والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَسَرُّهُ سِرٌّ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَدُونَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (١٧).

﴿وشروه﴾ وباعوه ﴿ببئس بخرس﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ لا دنانير ﴿معدودة﴾ (٣) قليلة تعد عدداً ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ويعنون ما دونها، وقيل للقليلة: معدودة؛ لأن الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً، وعن السدي: اثنين وعشرين ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء منتهلون به لا يبالي بم بابه؛ لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى وشروه: واشتروه يعني الرفقة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنهم اعتقدوا أنه أبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه، ويروى: أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأتق، وقوله: ﴿فيه﴾ ليس من صلة الزاهدين؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زياداً من

جني: أصله من الكذب وهو: الفوف البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه. روي: أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه، وروي: أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رايت كالسيوم نثباً لحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان ليلياً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، وليلياً على براءة يوسف حين قد من ببر.

فإن قلّت: ﴿على قميصه﴾ ما محله؟ قلّت: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلّت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ قلّت: لا؛ لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿وسئلت﴾ سهلت من السؤل وهو: الاسترخاء أي سهلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استئل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحى إليه بأنهم قصدوه ﴿فصبر جميل﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبي: فصبراً جميلاً، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع أنه الذي لا شكوى فيه^(١)، ومعناه: لا شكوى فيه إلى الخلق ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾^(٢) وقيل: لا أعيشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصا، فقال له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها لي ﴿والله المستعان﴾ أي: أستعينه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

وَمَاءَت سَيَّارَةً فَأَسْرَأُوا وَارِدَهُمْ فَأَذَلَّ نَوْمٌ قَالَ يَبَتَرْنِي هَذَا عِلْمٌ وَأَسْرَأُ بِضَعَةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَمْشُرُونَ (١٨).

﴿وجاءت سياره﴾ رفقة تسير من قبل منين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطاوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في غفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملكاً فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿فأسرأوا﴾ رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء. والوارد الذي يرد الماء

(١) نكره الطبري في تفسيره.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

(٣) قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد، الدعوة الماثورة على الكثرة: اللهم أحصهم عدداً، واستأصلهم بديلاً، ولا تبق منهم أحداً، فالمدعو به، وإن كان إحصائهم عدداً في الظاهر، إلا أن هذا ليس =

= مراداً، لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك، وهو لازم العدد، وذلك القلة فلما كان كل قليل معدوداً، وكل كثير غير معدود، دعى عليهم بالقلة، وعبر عنها بلازمها، وهو: الإحصاء، والله أعلم.

علم وعمل ﴿وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يديره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله وديره ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيد الله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مَاتَ وَتَرَاهُ حَكَمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

قيل في الأشد: ثماني عشر سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿حَكَمًا﴾ حكمة وهو: العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكمًا بين الناس وفقها ﴿وَكذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه كان محسنًا في عمله منقياً في عنفوان أمره، وأن الله أتاه الحكم والعلم جزاءً على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شببته أتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَوَدَتْهُ الْآيَةُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَطَلَبَتْ الْأَيُّوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾

المراود: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب كان المعنى: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحصل لمواقفته إياها ﴿وَوُغِلَّتِ الْأَبْوَابُ﴾ قيل: كانت سبعة. قرئ: هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء ابن وعيط، وهيت كجير، وهيت كحيث، وهيت بمعنى: تهيأت يقال: هاء يهيء كجاء يجيء، إذا تهيأ وهيئت لك، واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فلبين كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذًا ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن والحديث ﴿رَبِّي﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بِرَبِّهِ رَيْبًا كَذَلِكَ لَصِرَفَتْ عَنْهُ أَسْرُهُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَحَسِّينَ ﴿١٤﴾

هم بالامر إذا قصده وعزم عليه قال: هممت ولم أفعل وكنت وليتني تركت على عثمان تيكي حلالته ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدًا ولا همًا أي: ولا أكاد أن أفعله كيدًا، ولا أهم بفعله همًا حكاة سيبويه، ومنه: الهمام وهو: الذي إذا هم بامر أمضاه ولم يتكل عليه،

الضاربين، وإنما هو: بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَبْعُنَا أَوْ نَتَّخِذَ لَدُنْكَ مَكَانًا يُوَسِّفُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَعْلَمَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾

﴿الذي اشتراه﴾ قيل: هو قطفير، أو اطفير، وهو: العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بليليل قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾^(١). وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أسخلاه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا وورقًا وحريرًا فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريمًا أي: حسنًا مرضيًا بليليل قوله: ﴿إنه ربي أحسن مَثْوَايَ﴾^(٢) والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهدية بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده؟ وهل يراعي حق نزولك به؟ واللام في لامرته متعلقة بقال لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته، أو نتبناه ونقيم مقام الولد، وكان قطفير عقيمًا لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾ والمرأة: التي أتت موسى وقالت لابيها: ﴿يا أبت استأجره﴾^(٣) وأبو بكر: حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأل عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وَكذلك﴾ الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب بتقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَانًا﴾ له، أي: كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكانا له في أرض مصر وجعلناه ملكًا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنَعْلَمَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنَّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وهم بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحذف: لأن قوله: وهم بها يدل عليه كقولك: هممت بقتله لولا أنني خفت الله؛ معناه: لو أنني خفت الله لقتلته.

فإن قُلْتُ: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قُلْتُ: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممنوعًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما منح الله بانه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله وهم بها: وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله يريد: مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أم هو خارج عنه؟ قُلْتُ: الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قرأ خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ويبتديء قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قُلْتُ: لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقتضاً؟ قُلْتُ: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيز من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قُلْتُ: فلم جعلت لولا متعلقة بهم بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً فكانه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قُلْتُ: نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله إغفاء له، فوجب أن يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهواتها منه وتوصله إلى ما هو حظها من قضاء شهوته منها، لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظها من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهم بها وحده، وقد فسر هم يوسف بانه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاهها، وفسر البرهان بانه سمع

صوتاً: إياك وإياها، فلم يكثر له فسمعه ثانياً فلم يعمل به فسمع ثالثاً اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أناملته، وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل: صبح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها، وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين فلم ينصرف، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته، ثم رأى فيها، وانتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فيه فقال الله لجبريل عليه السلام: أترك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل، وهو يقول: يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: استحي منه أن يرانا، فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بنوات الصنور. وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أننى زلة لنعيت عليه ونكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون ونكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام المحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ناظرًا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتيدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حل نكته للوقوع عليها، وفي أن ينهأ ربه ثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاء وهو جاثم في مريضه لا يتحلل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وإبجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشرطهم وأحذهم حققة وأجلحهم وجهًا لقي بآبني ما لقي به نبي الله مماذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فبما له من مذهب ما أقحشه ومن ضلال ما أبينه ﴿هَكَذَا﴾ الكاف منصوب المحل أي: مثل ذلك التثبيت ثبتنا، أو مرفوعة أي: الأمر مثل ذلك ﴿لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ من خيانة السيد ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ من الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفصح الذين

يفعل ما أمره ليسجنن⁽⁴⁾ وما أنا فيه أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف وإنه أراد بها سوءاً؟ **قلت:**⁽⁵⁾ قصدت العموم وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأنك أبلغ فيما قصصته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الاليم الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه النفع عن نفسه فقال: «هي راوتنتي عن نفسي» ولولا ذلك لكتّم عليها «وشهد شاهد من أهلها» قيل: كان ابن عم لها، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشير، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فيصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيّاً في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعة وهم صفار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى»⁽⁶⁾.

فإن قلت:⁽⁷⁾ لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ **قلت:** لما أدى مؤدى الشهادة في «إن» ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ **قلت:** لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كانه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قلت: إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقته، فمن أين دل قده من قبل على أنها صائفة وأنه كان تابعها؟ **قلت:** من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعه عن نفسها قدت قميصه من قدامه باللفع، والثاني⁽⁸⁾: أن يسرع خلفها

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء مقدمات الفاحشة من القبلية والنظر بشهوة ونحو ذلك وقوله: «من عبائنا» معناه: بعض عبائنا أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من نزية إبراهيم الذين قال فيهم: «إنا أخلصناهم بخالصة»⁽¹⁾.

وأستيقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم⁽²⁾ قال هي راوتنتي عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من دبر فصدقته وهو من الكذابين⁽³⁾ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصديقين⁽⁴⁾ فلما رآ قميصه قد من دبر قال إنه من كذابين إن كذبت عظيم⁽⁵⁾.

واستيقا الباب وتسابقا إلى الباب على حنف الجار وإيصال الفعل كقوله: «اختار موسى قومه»⁽²⁾ على تضمين استيقا معنى: ابتدرا، نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرت وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قلت: كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله: «وغلقت الأبواب»⁽³⁾؟ **قلت:** أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب: أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب «وقدت قميصه من دبر» اجتذبت من خلفه فانقد أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه «والقيا سيدها» وصانفا بعلها وهو قطفير؛ تقول المرأة لبعلها سيدي، وقيل: إنما لم يقل سيدهما؛ لأن ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداً له على الحقيقة قيل: ألقيا مقبلاً يريد أن يدخل، وقيل: جالساً مع ابن عم للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتظة على يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يؤاتها خيفة منها ومن مكرها وكرهاً لما أيسر من مؤاتاته طوعاً، ألا ترى إلى قولها: «لئن لم

(1) سورة ص، الآية: 46.

(2) سورة الاعراف، الآية: 155.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة يوسف، الآية: 32.

(6) رواه الحاكم في المستدرک (497/2)، وابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (الحديث رقم: 2904)، وأحمد في مسنده 310/1، والبيهقي في «شعب الإيمان» (الحديث رقم: 1636).

(7) قال أحمد: مهما قرره من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقد قميصه من قبل، بتقدير أن يكون اجتذبتها، حتى صارا متقابلين، فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل، إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبتها، حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجنب، لا النفع.

(8) قال أحمد: وهذا بعينه محتمل، لو كانت هي التابعة، وهو فار منها، فانقد قميصه في إسرعه للقرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذلك، والحق والله ولي التوفيق: أن الشاهد المذكور إن كان صبيّاً في المهد، كما ورد في بعض

(5) قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها: هذا أراد بي سوءاً، ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرت من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاداً للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة، وعلى الضد من مقصودها، وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال، قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها، قالت: «إحدهما يا أبت استاجر، إن خير من استاجرت القوي الأمين»، ولم تقل إنه قوي أمين حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء، وأمرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال، لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

(3) سورة النساء، الآية: 76.

وقرى شعفها بالعين من شعف البعير إذا هناء فأحرقه بالقطران قال:

كما شعف المهنوء الرجل الطالبي

و﴿حبنا﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَمَتَتْ كُلَّ وَجْهٍ وَنَهْنَهُنَّ بِكِتَابِكَا وَفَالَتْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦٦﴾

﴿بمكرهن﴾ باغتيالهن، وسوء قائلتهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتيال مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكنتمهن سرها فاقشينه عليها ﴿أرسلت إليهن﴾ دعتهن، قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿واعتدت لهن متكا﴾ ما يتكنن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي: قعودهن متكات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكى إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهن فتضع الحناجر في أيديهن ليقطعن أيديهن فتبكتهن بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر توهمه أنهن يثبن عليه، وقيل: متكا مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى «أن ياكل الرجل متكًا»^(١)، وأنتهن السكاكين ليعالجن بها ما ياكلن، وقيل: متكا طعامًا من قولك: اتكنا عند فلان طعمنا على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكاة يتكى عليها. قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد: متكا طعامًا يحز حراً كان المعنى: يعتمد بالسكين؛ لأن القاطع يتكى على المقطوع بالسكين. وقرى: متكا بغير همز، وعن الحسن: متكا بالمد كأنه مفتعال وذلك لإشباع فتحة الكاف كقوله: بمنتزاح بمعنى: بمنتزح، ونحوه ينباع بمعنى: ينبع وقرى: متكا وهو: الأترج وأنشد:

فأهدت متكة لبني أبيها تخب بها العثمثة^(٢) اللواح وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي نكرها أبو داود في سننه: أنها شقت بنصفين، وحملها كالعليلين على جمل وقيل: الزماورد، وعن وهب أترجًا ومورًا وبطيخًا وقيل: أعتدت لهن ما يقطع من متك الشيء معنى: بتكه إذا

قطعه وقرأ الأعرج: متكا مفعلاً من تكى يتكا إذا اتكا ﴿أكبرنه﴾ أعظمته وهبن تلك الحسن الرائع والجمال الفائق قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف. فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر»^(٣)، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجيوان كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل: كان يشبه أم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء للسكت. يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته نخلت في الكبر؛ لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واسترذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخور العواقر
﴿قطعن أيديهن﴾ جرحنها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد: جرحتها. حاشا كلمة تقيد معنى: التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساء القوم حاشا زيد قال:

حاشا أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتم
وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى: حاشا الله براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: حاشا لله فنحو قولك سقيًا لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله لبيان من يبرأ وينزه، والليل على تنزيل حاشا منزلة المصدر قراءة أبي السمال: حاشا لله بالتونين، وقراءة أبي عمرو: حاش لله بحذف الألف الأخيرة، وقراءة الأعمش: حاشا لله بحذف الألف الأولى، وقرى: حاش لله بسكون الشين على أن الفتحة تبعث الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حد، وقرى: حاشا الإله.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى براءة لله؟ قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله، وعلى في قوله: غدت من عليه، منقلب الألف إلى الياء مع الضمير والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾^(٤) فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ نفين عنه البشرية^(٥) لغرابته جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

(٥) قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد، أن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق، فينسب إليهم الإيجاب، والخسار، والمكبرة في الضروريات، وجدد الحقائق تعكيساً، وهذا كله هم براء منه، وحسبه من العقابلة بذلك، خطؤه في اعتقاد تفضيل =

(١) روي في كشف الاستار، كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن الأكل متكاً (الحديث رقم: 2870).

(٢) العثمثة: الشديدة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/606.

(٤) سورة يوسف، الآية: 52.

ألفاً على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

قَالَ رَبِّ السَّيِّئِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِنِينَ ﴿٣٣﴾.

وقرئ: السجن بالفتح على المصدر وقال: ﴿يَدْعُونَنِي﴾ على إسناد الدعوة إليهن جميعاً؛ لأنهن تتصحن له وزين له مطاوعتها وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: رَبِّ نَزِّلِ السَّجْنَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رُكُوبِ الْمَعْصِيَةِ.

فإن قُلْتُ: نزول السجن مشقة على النفس شديدة وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة؟ قُلْتُ: كانت أحب إليه وأكثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهاها ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فزع منه إلى الطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجماع على التعفف والإلجاء إليه ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهن، والصبوة: الميل إلى الهوى ومنها الصبا؛ لأن النفوس تصبوا إليها لطيب نسيهما وروحها، وقرئ: أصب إليهن من الصلبة ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأن الحكيم لا يفعل القبيح.

فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾.

وإنما نكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء؛ لأن قوله: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللفظ ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنَهُنَّ حَتَّىٰ يَجِيءَ ﴿٣٥﴾.

﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾ فاعله مضمّر لدلالة ما يفسره عليه وهو ﴿لِيَسْجُنَهُنَّ﴾ والمعنى: بدأ لهم بدءاً أي: ظهر لهم رأي ليسجنهن والضمير في لهم للعزیز وأهله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا﴾ وهي: الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها وقتلها منه في الذروة والغراب وكان مطاوعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق

الصور وثابتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق وجحودهم للعلوم الضرورية ومكابرتهم في كل باب وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القنمى الحجازية، وبها ورد القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ^(١) ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشر بالرفع وهي: في قراءة ابن مسعود، وقرئ: ما هذا بشري أي: ما هو بعبد مملوك لثيم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ تقول: هذا بشري أي: حاصل بشري بمعنى: هذا مشرى، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك.

فَأَلَّتْ فَذَالِكُنَّ الذِّى لُتُنَنَّى يَدِيَّ وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَمَعَمَّ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿قَالَتْ فَذَالِكُنَّ﴾ ^(٢) ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ورباً بحاله واستبعاداً لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه؛ تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صوّرتن بما عاينتن لعنرتنني في الافتتان به. الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الففق واستجمع الرأي واستفحل الخطب، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أبرر منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان.

فإن قُلْتُ: الإضمير في ﴿أمره﴾ راجع إلى الموصول أم إلى يوسف؟ قُلْتُ: بل إلى الموصول والمعنى: ما أمر به فحذف الجار في قولك: أمرتك الخير ويجوز أن تجعل ما مصدرية فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ: وليكونا بالتشديد، والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأن النون كتبت في المصحف

= الملك عند قائله ليس ضرورياً، ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة، بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً، وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما ركز فيها حب الشهوات، وإيثار العاجلة، وجميع أهوات الذنوب مركوز في الطباع، أفيمكن ذلك حقاً، إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى؟ والله ولي التوفيق.

(1) سورة المجادلة، الآية: 2.

(2) قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أوّل البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ إِذَا جَاءَكَ الْحَرْفُ الْمَكْنُونُ﴾ فقال: إن قلت: كيف أشار إليها وهي قريبة، كما يشار إلى البعيد؟ وأجاب: هو بأن كل متقضى بعيد، وأجبت: أن بان الإشارة بذلك، إلى بعد منزلة هذا الكتاب، بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿نَبئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؟ قُلْتُ: إلى ما قصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَيْنِي رِزْقِي إِلَى تَرْكُوتِ مِلَّةٍ قَوِيٍّ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَذِبُونَ (٣٧) وَأَتَيْنَتْ مِلَّةَ آبَائِهِ ابْتِهَاسًا وَاسْتِخْفَافًا وَيَعْقُوبُ مَا كَانَتْ لَأَنْ تَشْرَكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨).

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن ينكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أنَّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ﴿بتأويله﴾ ببيان ماهيته وكيفية؛ لأنَّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿تلكما﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وأوحى به إلي ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿إني تركت﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إلي، لأنني رفضت ملة أولئك واتبع ملة الأنبياء المذكورين وهي: الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة وأنَّ غيرهم كانوا قومًا مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهًا على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأنَّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، ونكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما نكر من إخباره بالغيب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: ﴿ما كان لنا﴾ ما صحَّ لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشارك بالله﴾ أي شيء كان من ملك، أو جني، أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ثم قال: ﴿تلك﴾ التوحيد ﴿من فضل الله علينا

الصغار به كما أوعده به، وذلك لما أيسر من طاعته لها أو لطمعها في أن ينزله السجن ويسخره لها، وفي قراءة الحسن: لتسجنه بالتاء على الخطاب خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان كأنها افترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود: عني حين وهي لغة هنيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ عني حين فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فافقروا الناس بلغة قريش، ولا تقرنهم بلغة هنيل. والسلام.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الْعِلَاقُ مِنْهُ ثَيْثًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٩).

مع: يدل على معنى الصحبة واستحدثها تقول: خرجت مع الأمير تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك خبازه وشرابيه، رقي إليه أنهما يسمانه فامر بهما إلى السجن فأنخلا السجن ساعة أخذ يوسف عليه السلام ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمراً﴾ يعني: عنياً تسمية للعنب بما يؤل إليه، وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنباً ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أي: يجيدونها، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له فقالا له ذلك، أو من العلماء لأنهما سمعاه ينكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فاحسن إلينا: بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم، وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا اصبروا تؤجروا إن لهذا لأجراً فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن زبيب الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خلعت سبيك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيتين قالاه: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: انشكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء. لقد أحببني عمتي فدخل علي من حبها بلاء، ثم أحبني أبي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل علي من حبها بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما. وعن الشعبي: أنهما تحالما ليمتحناه، فقال الشرابي: إني أراني في بستان فإذا بأصل حبله عليها ثلاثة عناقيد من عنب قطفها وعصرتها في كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي

﴿أَمَا أَحَدُكُمْ﴾ يريد الشرابي ﴿فيسقي ربه﴾ سيده، وقرأ عكرمة: فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حاله عنده، أما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضي الأمر﴾ قطع وتم ما ﴿تستفتيان﴾ فيه من أمركما وشأنكما.

فإن قلْتُ: ما استفتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ قلْتُ: المراد بالأمر ما اتفهما به من سم الملك وما سجننا من أجله وظنا أن ما راياه في معنى ما نزل بهما، فكانهما كأنما يستفتيان في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك؟ فقال لهما: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: ما يجر إليه من العقوبة وهي: هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جددا وقالوا: ما رأينا شيئا على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كأن صفتما أو كذبتما.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَذَّبَ رَّبَّهُ فَكَانَ فِي النَّارِ يَضَعُ سِنِينَ (١٧).

﴿ظن أنه ناج﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، أو يكون الظن بمعنى اليقين ﴿انكرني عند ربك﴾ صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ﴿فأنساه الشيطان﴾ فأنسى الشرابي ﴿نكر ربه﴾ أن ينكره لربه، وقيل: فأنسى يوسف نكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿يضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

فإن قلْتُ: كيف يقدر الشيطان على الإنساء؟ قلْتُ: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه نكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ (٢).

فإن قلْتُ: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك، وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قلْتُ: قد لابس في قولك: فأنساه الشيطان نكره لربه أو عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأن الإضافة تكون أنى ملابسة، أو على تقدير فأنساه الشيطان نكر إخبار ربه فحذف المضاف الذي هو الإخبار.

فإن قلْتُ: لم انكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ (٣) وقال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿من

وعلى الناس﴾ أي: على الرسل، وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبههم عليه وأرشدهم إليه ﴿ولكن أكثر الناس المبغوث إليهم﴾ لا يشكرون فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إن ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأمانة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل تلك الأمانة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعا لأهوائهم فيبغون كافرين غير شاكرين.

يَمْصَحِي السِّجْنَ أَزْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ حَزْرٌ أَوْ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ (٢١).

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد: يا صاحبي في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو: يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصلح فتضيفهما إلى الصلح ولا تريد أنهما صحبا الصلح ولكن كما تقول رجلا صليق وسميتهما صاحبين؛ لأنهم صحبك ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ (١) ﴿أزباب متفرقون﴾ يريد للفرق في العدد والتكاثر يقول: أن تكون لكما أزباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية بل هو ﴿القهار﴾ الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢).

﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على بينهما من أهل مصر ﴿إلا أسماء﴾ يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية ألها ثم طففت تعبدونها فكانكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها يقال: سميته بزيد وسميته زيدا ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتسميتها ﴿من سلطان﴾ من حجة ﴿إن للحكم﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إلا الله﴾ ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ الثابت الذي ثبت عليه البراهين.

يَمْصَحِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الْفَلَكُ مِنْ رَأْسِهِ فَيُوقَ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٢١).

مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجوز في غيرها، إلا ترك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قُلْتُ: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ قُلْتُ: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء، وأفعل وفعلاء، لا يجمعان على فعال حملة على سمان لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

فإن قُلْتُ: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسات كانت سبغاً كالخضر؟ قُلْتُ: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنبال الخضر، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ويكون قوله: وآخر يابسات بمعنى: وسبغاً آخر.

فإن قُلْتُ: هل يجوز أن يعطف قوله: «وآخر يابسات» على «سنبلات خضر» فيكون مجرور المحل؟ قُلْتُ: يؤدي إلى تدافع وهو: أن عطفاً على سنبلات خضر يقتضي أن ندخل في حكمها فتكون معها مميّزاً للسبع المذكورة، ولفظ الآخر يقتضي أن تكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد «بها أيها المملأ» كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله: «للمرؤيا» إما أن تكون للبيان كقوله: «وكانوا فيه من الزاهدين»⁽⁴⁾ وإما أن تدخل؛ لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت هو عابر للمرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للمرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه «وتعبرون» خبر آخر أو حال وأن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا، وحقيقة عبرت الرؤيا: نكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول: عبرت النهر إذا قطعتة حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه: أولت الرؤيا. إذا نكرت مألها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا بالتخفيف: هو الذي اعتمده الاثبات، ورأيتهم يتكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض

أنصاري إلى الله⁽¹⁾ وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». «ومن فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت عطيطه⁽³⁾، وهل ذلك إلا مثل التدوي بالأسوية، والتقوي بالاشربة والأطعمة، وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ قُلْتُ: كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليفته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاهها، والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ولا يعتضد إلا به خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً لثلاث يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قراها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

وَقَالَ أَمْلِكْ إِنَّكَ أَرَأَى سَعَى بَكَرَتْ سَكَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَعَى عِمَاءٍ وَسَعَى سُبُلَيْتِ خَضِرٍ وَآخِرَ يَابِسَتْ يَتَأَيَّأُ الْكَلَّا أَتَوَى فِي رُبَيْتِ
إِنْ كَثُرَ لِلرُّؤْيَا تَعَرُّوْنَ (١٧).

لما لنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبه حالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبغاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها «سمان» جمع سمين وسمينة وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للميز وهو بقرات تون المميز وهو سبع وأن يقال: سبع بقرات سمان؟ قُلْتُ: إذا أوقعها صفة لبقرات فقد قصت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قُلْتُ: هلا قيل سبع عجاف على الإضافة؟ قُلْتُ: التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع للبيان به وحده.

فإن قُلْتُ: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ قُلْتُ: الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت

(1) الحديث رقم: (2885) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد، (الحديث رقم: 6181).

(4) سورة يوسف، الآية: 20.

(1) سورة آل عمران، الآية: 52، وسورة الصف، الآية: 14.

(2) رواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (الحديث رقم: 6793).

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في الغزو...

الأعراب:

رايت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارة
قَالَ أَسَنَتُ أَهْلِي وَمَا عَنْ تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِإِيَابِ (١٤).

﴿اضغات أحلام﴾ تخاليطها وإباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الاضغات ما جمع من اخلاط النبات وحزم، الواحد ضغت، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي: اضغات من أحلام، والمعنى هي اضغات أحلام.

فإن قلت: ما هي إلا حلم واحد فلم قالوا: ﴿اضغات أحلام﴾ فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمامة الخزل لمن لا يركب إلا فرساً واحداً، وما له إلا عمامة فردة تزيدها في الوصف، فهو لا يضاً تزيدها في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه اضغات أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة^(١) فيقولوا ليس لها عندنا تأويل فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (١٥).

قرئ: ﴿واذكر﴾ بالمدال وهو الفصحیح، وعن الحسن: واذكر بالذال المعجمة والأصل تذكر أي: تذكر الذي نجا من الفتيتين من القتل يوسف وما شاهد منه ﴿بعد أمة﴾ بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملائة تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: بعد إمة بكسر الهمزة والأمة: النعمة قال عدي: ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة وقرئ: بعد أمة بعد نسيان يقال: أمة يأمة أمها إذا نسي، ومن قرأ: بسكون الميم فقد خطئ. ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا أتیکم بتأويله ﴿فارسلون﴾ فابعثوني إليه لأسأله ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَتَيْنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَمْشِيْنَ بِأَكْلِهِنَّ سَبْعَ عَجَائٍ وَسَبْعِ سُكُكٍ خُصْرِ وَأَخْرَجَ بِإِسْنِ لَعْنٍ أَرْجَعَهُ إِلَى النَّاسِ لَعْلَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٦).

المعنى فأرسلوه إلى يوسف فاتاه فقال: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أيها البالغ في الصديق وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كلمه كلام محترز فقال ﴿لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما اخترم نونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى لعلهم يعلمون: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محتك.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاكًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (١٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ (١٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ (١٩) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهَا نَارٌ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا يَكُنتَ فِي ذَلِكَ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قُطِعَ لِي مِنْهَا إِنِّي لَرَئِي كَيْدٌ مِنْكَ عَلَيْهِمْ (٢٠).

﴿تزرعون﴾ خبر في معنى الأمر كقوله: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾^(٢) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، والليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فذرؤه في سنبله﴾ ﴿دأباً﴾ بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدران دأب في العمل وهو: حال من المأمورين أي: دائبين، إما على تدابون دأباً، وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى: ذوي دأب ﴿فذرؤه في سنبله﴾ لئلا يتسوس و ﴿يأكلن﴾ من الإسناد المجازي جعل أكل أهلهم مسند إليهم ﴿تحصنون﴾ تحززون وتخبطون ﴿يغاث الناس﴾ من الغوث أو من الغيث يقال: غيث البلاد إذا مطرت ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا ﴿يعصرون﴾ بالياء والتاء يعصرون العنب والزيتون والسمسم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ: يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو مطابق للإغاثه، ويجوز أن يكون المعنى للفاعل بمعنى: ينجون كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغاثون أنفسهم أي: يغاثهم الله ويغاث بعضهم بعضاً. وقيل: يعصرون يمحطون من أعصرت السحابة وفيه وجهان: إما: أن يضمن أعصرت معنى: مطرت فيعدي تعديته، وإما: أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعفاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

= أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا، أو لا، وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله، إلى قوله لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

(1) قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل للكلام على الأول يصيره من وادي، على لا حب يهتدى بمناره، كأنهم قالوا: لا تأويل للأحلام الباطلة، فنكون عالمين، وقول الملك لهم أولاً: إن كنتم للرؤيا تعبرون، دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها؛ لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور، مطابقاً لشك الملك، الذي =

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ خَشِيَ إِلَهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوِّ قَالَتْ أَمَرْتُكَ الْعَزِيزُ أَنْ تَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِينَ ﴿٩١﴾.

﴿ما خطبك﴾ ما شانك ﴿إذ راودتن يوسف﴾ هل وجدت منه ميلا إليك ﴿قلن حاش لله﴾ تعجبا من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي ثبت واستقر، وقرئ حصحص على البناء للمفعول وهو من حصص البعير إذا ألقى ثقله للإناخة قال:

فحصص في صم الصفا ثقلته (٩) وناء بسلامى نوء ثم صمما ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة (١٠) واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفته به لأنهن خصومه، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، وقالت المجبرة والحشوية: نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ننق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ آتَى تَمَّ أَخْنَهُ بِالْأَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْكَافِرِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿ذلك ليعلم﴾ (٧) من كلام يوسف أي: ذل التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿أنى لم أخنه﴾ بظهر الغيب في حرمة. ومحل ﴿بالغيب﴾ الحال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه خفي عن عينه، أو وهو غائب عني خفي عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفا أي: بمكان الغيب وهو: الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿و﴾ ليعلم ﴿أن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ لا ينفذه ولا يسدده وكأنه تعرض بأمراته في خيانتها أمانة زوجها وبه في خيانتها أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيدا لأمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله كيده ولا سدده.

وَمَا أَرْبَى نَفْسٌ إِذَا نَفَسَ لِأَمَارَةٍ بِأَلْسِنَةٍ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي أَنَّى رَجِي غَوْرَ رَجِمَ ﴿٩٣﴾.

فإن قلت: معلوم أن السنين المجدة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب وإلا لم توصف بالانتهاه، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علما مطلقا لا مفصلا وقوله: ﴿فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ تفصيل لحال العام وذلك لا يعلم إلا بالوحي. إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك (١)، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم» (٢) ومنه قال رسول الله ﷺ للمازين به في معتكفه وعنده بعض نسائه «هي فلانة» (٣) اتقاء للتهمة. وعن النبي ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسमान، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: أرجع إلى ربك ولو كنت مكانه وليثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر» (٤) إن كان لحليما ذا أناة وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفاتيش عن حقيقة القصة وقص الحديث حتى يتبين له براءته بيانا مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: النسوة بضم النون، ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيئته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على نكر المقطعات أيدهن ﴿إن ربي﴾ إن الله تعالى ﴿يكيدهن عليم﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهن كنهه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن أي: هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه.

(١) قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: «ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف، لأجبت الداعي»، وكان في طي هذه المسحة بالأناة والتثبت، تنزيهه، وتبرئته، مما لعله يسبق إلى الوهم، من أنه هم بزليخا هماً يؤاخذ به؛ لأنه إذا صبر، وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أن السواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهمة، أولى وأجبر، والله أعلم.

(٢) يأتي في سورة الاحزاب.

(٣) رواه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، (الحديث رقم: 2038) ومسلم في كتاب: السلام باب: بيان أنه يستحب لمن روي خالياً بأمارة. (الحديث رقم: 5643).

(٤) الطبري، وإسحاق بن راهويه وعبد الرزاق في تفسيره (الزيلعي) 168/2.

(٥) ثقلته: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلط كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح.

(٦) قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة، تنزيه أهل الأنبياء عن الكيثر والصغائر جميعاً، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل، وذهب منهم طائفة مع القدرية، إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفردة، والصحيح عندها في قصة يوسف عليه السلام، أنه مبرا عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله: همت به، ثم يبتدأ وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه، كما تقول: قتلت زيداً، لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهمة واقعاً لوجود المانع معه، وهو: رؤية البرهان، فإن كان الزمخشري يعرض بأهل السنة، فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشانه وإياهم.

(٧) قال أحمد: وإرانبته لعموم الأحوال، أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه، من التبري من تركية النفس، فهو أدل على هذا المعنى، من حمله على الحادثة الخاصة، والله أعلم.

تقديم القرآن وتأخيره ذهب إلى أن ذلك ليعلم متصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾⁽⁸⁾ ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة⁽⁹⁾ فزعموا أن يوسف حين قال: إني لم أخنه بالغيب، وقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حلت تكة سراويلك يا يوسف؟ وذلك لتهاكهم على بهت الله ورسله.

وَقَالَ أَلَمْ يَكُنْ أَتُوبُ بِهِ أَسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾

يقال: استخلصه واستخصه: إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ نو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء، روي: أَنَّ الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخيار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الوقائع، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصفياء، ثم اغتسل وتنظف من ترس السجن ولبس ثياباً جديداً، فلما نخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيريه، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه جميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حَقَّ أن تجمع الطعام في الأهرار، فيأتيك الخلق من النواحي، يمتارون منك، ويجمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

قَالَ أَجَبْتَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْكَ ﴿٤٥﴾

﴿جعلني على خزائن الأرض﴾ ولني خزائن أرضك ﴿إني حفيظ عليهم﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لثلاث يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخره»⁽¹⁾ وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزيها، ولا يخلو إما أن يريد في هذه الحادثة لما نكرنا من الهم الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم، وإما أن يريد عموم الأحوال ﴿إن النفس لامارة بالسوء﴾ أراد الجنس أي: لئن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني: أنها أماراة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿ولا هم ينقدون﴾ إلا رحمة⁽²⁾ وقيل معناه: ذلك ليعلم أنني لم أخنه؛ لأن المعصية خيانة، وقيل⁽³⁾: هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصلق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإنني قد خنته حين فرقة وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾⁽⁴⁾ وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، لئن كل نفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ استغفرت ربها واسترحمت مما ارتكبت.

فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلاً قاتلاً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: ﴿قال الملا من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾⁽⁵⁾ ويريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره⁽⁶⁾ ثم قال: ﴿فماذا تأمرون﴾⁽⁷⁾ وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من

= بقولها، بعث يخرج من السجن، فذلك قوله: ﴿وقال الملك اثنتونى به استخلصه لنفسى﴾.

(4) سورة يوسف، الآية: 25.

(5) سورة الاعراف، الآية: 109.

(6) سورة الشعراء، الآية: 35.

(7) سورة الاعراف، الآية: 11.

(8) سورة يوسف، الآية: 50.

(9) قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على ما نقله هذه الزبائيات بالبهت، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة، كما لفقت القدرية على قصة موسى، حين طلب الرؤية وخرّ صعقاً، أنَّ الملائكة جعلت تلكزه بارجلها، وتقول: يا ابن النساء الحيض، طمعت في رؤية ربِّ العزة، كل ذلك لينت لهم غرضهم، في أنه طلب لهم محالاً في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته، ويبطل الباطل والله الموفق.

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (الحديث رقم: 5899) وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6242) والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (الحديث رقم: 3615).

(2) سورة يَس، الآيتان: 43، 44.

(3) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا الجأ إليه محوج، كقوله: فمأذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف التضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصابقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل التضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته =

من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنبيه ليمتاروا واحتبس بنيامين ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ بعتائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿مِنْ نَشْأَةٍ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أن نأجرهم في الدنيا ﴿وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَرَفَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَحْكُرُوا (٥٨).

لم يعرفوه (٥٨) لطول العهد ومفارقتهم إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريقاً في البئر مشرباً بدارهم معبودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكنبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبذل الرزي ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رآوه على رزي فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رآوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيهماً قريباً من زيهماً إذ ذاك؛ ولأن همتهم كانت معقودة بهم وبمعرفتهم فكان يتأمل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِمَّنْ أَيْبِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) إِنْ لَرَأَوْا تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَعْمَلُونَ (٦١).

﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرين وأوقر ركائبهم بما جاؤا من الميرة، وقرئ: ﴿بجهازهم بكسر الجيم﴾ قال اتئونني بأخ لكم من أبيكم ﴿لأبذ من مقنمة سبقت له معهم حتى اجتر القول هذه المسألة، وروي: أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: جئتم عيوناً تنتظرون عورة بلاد؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فإن الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وإن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاذ لا يعرفنا

طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل أجعلني على خزانة الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة» (١).

فإن قلّت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاقته؟ قلّت: روى مجاهد: أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بامر الله وبعث الظلم إلا بتمكن الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

وَكَذَلِكَ مَكَانَ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ نُسَبِّحُ بِرَحْمَتِكَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٦٢) وَلَا نُجْزِ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣).

﴿وكنك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿ممكنا ليوسف﴾ في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين ﴿يتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ﴾ قرئ: بالنون والياء أي: كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبواً له لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ولخوله تحت ملكته وسلطانه، وروي أن الملك توجه وختمه بخاتمة ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، وروي أنه قال له: أما السرير فاشد به ملكك، وأما الخاتم فادبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعت إجلالاً لك وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قنظير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما نخل عليها قال: ليس هذا خيراً مما طلبت؛ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحظ الطعام بالدينارين والدرهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم براقبهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله ما رأينا كالأيوم ملكاً أجمل ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولتني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنني اعتقت أهل مصر عن آخرهم، وردت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد

= ذلك تدل على أن مجرد دخولهم عليه، استعقبته المعرفة بلا مهلة،

والله أعلم.

(1) أخرجه الثعلابي والواحدي في تفسيره.

(2) قال أحمد: وتوارد القاسمين في دخولهم عليه، ومعرفته لهم، عند =

بحفظه ولا بجمع علي مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَكَابُكَ مَا نَبَّيْ هَذِهِ يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدُكَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾

وقرى: ردت إلينا بالكسر على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع، وحكي قطرب: ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنفي أي: في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، انزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا، وفي قراءة ابن مسعود: ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صلتنا، وقيل معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى وقوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى إن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿ونمير أهلها﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فاي شيء نبغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا. وإنما قالوا: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ لما نكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قلنت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فاما إذا فسرتها بالكذب والتزيد في القول كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ بيانياً لصيقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم فما تصنع بالجمال البواقي؟ قلنت: أعطهم على قوله ﴿ما نبغي﴾ على معنى لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا وتفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتداً كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا كما تقول: سمعت في حاجة فلان واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى وينبغي لي أن لا أقصر، ويجوز أن يراد ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع بيانياً لأنهم لا يبيغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه وهو وجه حسن واضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفيننا يعنون ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاطمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير

فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة واثنوني بأخيك من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترحوا بينهم فاصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون دخلاً في حكم الجزاء مجزوماً عطفاً على محل قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾ كانه قيل: فإن لم تاتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن: يكون بمعنى النهي ﴿سنراود عنه إياه﴾ سنخادعه عنه وسنجهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإننا لفاعلون﴾ وإننا لقادرون على ذلك لا نتعيا به، أو وإننا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

وَقَالَ لِيَتَكَبِّرُوا أَنَحْلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَمْ أَهْلُكُمْ بِعَرَفُونَهَا إِذَا أَتَاكُمْ إِلَهُ أَهْلَهُمْ لَمْ أَهْلُكُمْ بِرَجُومٍ ﴿١٦﴾

﴿الفتيته﴾ قرى: لفتيناه وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ، وفعلة للفتة وفعلان للكثرة، أي: لغلماننا الكياليين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردنا وحق التكرم بإعطاء البديلين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: خوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعلهم يردونها.

لَمَّا رَجَعُوا إِلَهُ آبَائِهِمْ قَالُوا يَكَابُكَ مَنَ الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ نَحْفَظُونَ ﴿١٧﴾

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا اندردوا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرى: يكتل بمعنى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قَالَ هَلْ أَمْنَكُم عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنَّا هُمْ حَفِظُوا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿هل أمنتكم عليه﴾ يريد أنكم قلتم في يوسف ﴿وإننا له لحافظون﴾^(١) كما تقولونه في أخيه خنتم بضمانكم، فما يؤمني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فأش خير حافظاً﴾ فتوكل على الله فيه وبقعه إليهم، وحافظاً تمييز كقوله: هو خيرهم رجلاً، والله دَرَه فارساً، ويجوز أن يكون حالاً وقرى: حفظاً، وقرأ الأعمش: فأش خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن ينعم علي

ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الواقفين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانون لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكزة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قُلْتُ: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟ قُلْتُ: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده ليميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، فيقول الحشوي: هو أثر العين كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁴⁾ الآية. وعن النبي ﷺ: «إنه كان يعود الحسن والحسين فيقول: أعينكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة»⁽⁵⁾. ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة ﴿إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ثم قال ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: متفرقين ﴿مَا كَانَ يَغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأى يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهما بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهي شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿وَإِنَّهُ لَدُوْهُ عَلِيمٌ﴾ يعني قوله: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٦).

﴿أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال

= مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدهما، والله أعلم، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَكُلَهُ الذِّبْءُ﴾ فابتلي من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

(4) سورة المدثر، الآية: 31.

(5) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: (10) (الحديث رقم: 3371) وأبو داود في كتاب: السنة، باب: في القرآن (الحديث رقم: 3737).

لا يخاطر لمثله بالولد كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾⁽¹⁾.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَأَتَيْنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يَحِطَّ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ^(٢).

﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾⁽²⁾ مناف لحالي وقد رايت منكم ما رايت إرساله معكم ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما اتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه ﴿لَتَأْتَيْنَنِي بِهِ﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتينني به ﴿إِلَّا أَنْ يَحِطَّ بِكُمْ﴾⁽³⁾ إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به أو إلا أن تهلكوا.

فإن قُلْتُ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ قُلْتُ: ﴿أَنْ يَحِطَّ بِكُمْ﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتَيْنَنِي بِهِ﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعله من العلل إلا لعله واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلا بد من تأويله بالنفي، وتظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

وَقَالَ يَبْنَئِي لَآ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ رَاجِعٍ وَادْخُلُوا مِنْ أُبوابٍ مُفْرَقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رَبُّ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٣) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوْهُ عَلِيمٌ لِّمَا عَمَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٤).

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا نوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك التكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح لأبصار إليهم من بين الوفود وأن يشار إليهم بالأصابع

(1) سورة يوسف، الآية: 52.

(2) قال أحمد: لن للنفي المؤكد، وأما قول الزمخشري في المناقاة له، فله وراء ذلك غرض، إنما يطلع عليه من قل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذا المناقاة من مقتضى لن، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرّن الأذهان على أن هذا مقتضى لن، وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(3) قال أحمد: وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي؛ لأن المستثنى منه، مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان مثلاً: نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكانه لعمومه =

كفيل أؤيبه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ يُجِدْ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿تالله﴾ فسم فيه معنى التعجب مما اضيف إليهم، وإنما قالوا: ﴿لقد علمتم﴾ فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل بينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومدخلتهم للملك؛ ولأنهم دخلوا أفواه رواحهم مكومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق؛ ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجبها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقة ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في حجبكم وإعائكم البراءة منه ﴿فقالوا﴾ جزاؤه من وجد في رحله ﴿أي: جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم أي: فاخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير كقولك: حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك حقه أي: فهو حقه لتقرر ما نكرته من استحاقه وتلزمه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمرة، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأوّل إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه مقيماً للمظهر مقام المضمرة، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه ثم اقتوا بقولهم: ﴿ومن وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ فجزاء مثل ما قتل من النعم^(١).

بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِبُيُوتِكُمْ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ شَاءَ وَنُفِذُ كَلِمَ ذِي الْعَرْشِ عَلَيْهِ ﴿٧٩﴾

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم: من وكل بهم: لابد من تفتيش أوعيتكم، فلنصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير: إعا أخيه بقلب الواو همزة.

يوسف: بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: اتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يملك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمك. وعن ابن عباس: تعرف إليه. وعن وهب: إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: فأننا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أنس صاعى في رحلك ثم أنادي عليك بأنك قد سرقتك ليهيأ لي ربك بعد تسريحك معهم، قال: أقبل.

فَلَمَّا جَزَّاهُمْ بِحَبْرِهِمْ جَعَلَ أَبْنَاءَهُ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٨٢﴾

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إثناء مستطيلاً يشبه الموك، وقيل: هي الموك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال أنه أعلمه، وأن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فانركوا وحبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حنف جواب لما كانه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أنن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أفتقته إذا وجبته فقيداً. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير

وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة فقيل: كان أخذ في صباه صنماً لجدّه أبي أمّه فكسره وإفقا بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فبقنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو سحابة فأعطاهما السائل، وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقئت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها، فوجئوا محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أعلم به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿فأسرها﴾ إضمار على شريطة التفسير تفسيره ﴿أنتم شر مكاناً﴾ وإنما أنت؛ لأنّ قوله: أنتم شر مكاناً جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة كانه قيل: فاسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: أنتم شر مكاناً، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً، لأنّ قوله: قال أنتم شر مكاناً بدل من أسرها، وفي قراءة ابن مسعود: فاسرّه على التذكير يريد القول أو الكلام، ومعنى: أنتم شر مكاناً أنتم شر منزلة في السرقة؛ لأنكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخاكم من أبيكم ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة وليس الأمر كما تصفون.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ لَأَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٧﴾

فاستعطفوه بإنكارهم إياه حق أبيهم يعقوب وإنه شيخ كبير السن أو كبير القدر وإن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستأسر بأخيه ﴿فخذ أحداً مكانه﴾ فخذ به بئله على وجه الاستهزاء أو الاستعبداء ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ إلينا فأتهم إحسانك، أو من عانتك الإحسان فاجر على عانتك ولا تغيرها.

قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُ ﴿٧٨﴾

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ظاهره أنه وجب على قضية فنواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبيكم، فلم تطالبوا ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه إن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمّة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعملاً على خلاف الوحي، ومعنى: معاذ الله ﴿إن ناخذ﴾ نعوذ بالله معاذًا من أن ناخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به

فإن قلّت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنه؟ قلّت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية أو أثث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل به منه صواعًا ﴿كنكك كدنا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ليوسف﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿وما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في بين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق: أن يغرم مثلي ما أخذ لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإنه فيه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: يرفع بالياء ودرجات بالتثنية ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فوّه أرفع درجة منه في علمه، أو وفوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عزّ وعلا.

فإن قلّت: ما أن الله فيه يجب أن يكون حسنًا، فمن أي وجه حسن هذا الكيد، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق وتكذيب لمن لم يكتب وهو قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾؟ قلّت: هو في صورة البهتان وليس بهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤنن لا من يوسف، وقوله: ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فرض لانتفاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكذيبًا، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ ^(١) هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وخذ بيك صغثًا﴾ ^(٢) يتخلص من جلدها ولا يحث وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلمًا ونريفة إليها فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما نكرنا.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَحُوا
يُوشَعَ فِي نَسِيهِ وَلَمْ يَدْعُهُمْ لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أخ له﴾ أرأوا يوسف، روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤسهم حيّاه وأقبلوا عليه وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منك بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ذهبتم بأخي فاهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي

وحذف من، و﴿إِنَّا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا ببله ظلمنا.

فَلَمَّا أَنْتَفَضُوا مِنْهُ خَلَصُوا مِنْهَا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى أَتَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَظِعًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آيَةٌ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٦).

﴿استياسوا﴾ يشسوا وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مر في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى: المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقربناه نجياً﴾ (١) وبمعنى المصدر الذي هو: التناجى كما قيل النجوى بمعنى، ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل: ﴿وإن هم نجوى﴾ (٢) تنزيلاً المصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى، كما قيل: هم صنيق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع انجية، قال:

إنى إذا ما القوم كانوا انجية

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفربوا عن الناس خالسين لا يخالطهم سواهم ﴿نجياً﴾ نجي نجوى، أو فوجاً نجياً أي: مناجياً لمنجاة بعضهم بعضاً، وأحسن منه أنهم تمحصوا تناجياً لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه يجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقتها، وكان تناجيهم في تبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيههم؟ كقوم تعابوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى التشاور ﴿كبيرهم﴾ في السن وهو: روبيل، وقيل: رئيسهم وهو: شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو: يهوذا ﴿ما فرطتم في يوسف﴾ فيه وجوه: أن تكون ما صلة أي: ومن قبل هذا قصر تم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصيرية: على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل، ومعناه: ووقع. من قبل تفريطكم في

يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول: ألم تعلموا وهو أن أبائكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة: بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أي: قدمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ومحل الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى ياذن لي لي﴾ في الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

أَرْجُوا لَكُمْ آيَكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨٧).

وقرى: سرق أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهننا﴾ (٣) عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقة وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ (٤) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، ومن قرأ سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التشريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي، حافظين: أسرق بالصحة أم نس الصاع في رحله ولم يشعر.

رَسَلْنَا الْقُرَيْبَةَ آلَى كُنَّا فِيهَا وَالْأَيْمَنَ آلَى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٧) قَالَ بَلْ سَوَّكْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِنَّمَا قَصَصْتُمْ حِيلَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ حِمْيَرٌ إِنَّمَا هُوَ أَعْلَمُ الْحَكِيمُ (٨٧).

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، وقبل: من أهل صنعاء. معناه فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أصراً﴾ (٥) أردتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق

= علماء، ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

(٥) قال أحمد: وهذا الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الوقعة الأولى، سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سواء ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر، إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بد من زيد يسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لم أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من بين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس، ولا من عانتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لياخذ أخاه في دين الملك﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً، ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل

(١) سورة مريم، الآية: 52.

(٢) سورة الإسراء، الآية: 47.

(٣) قال أحمد: إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ، أن مجرد وجود الشيء بيد المذمى عليه بعد إنكاره، يوجب له أحكام السارق، فيكون العلم على ظاهره إذا، وإما أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله، لا يوجب علم كونه سارقاً، وغايته أن يفيد ظناً بيناً، فيكون المراد بالعلم ههنا: الظن، وقد ورد مثله، ويكون قولهم: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال، وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم، فليسوا يصنعونه عليه.

(٤) قال أحمد: وإنما تلتمم القراءتان على التاويل الذي نكرته، وهو: أنهم إنما أضافوا إليه السرقة، ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحتجوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة، فقالوا: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فالقراءتان على التاويل المنكسر، يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه، وأما على غيره من التاويلات المنكورة، فلا تنتظم القراءتان؛ لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة =

تلكى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط»⁽⁷⁾.

فإن قُلْتُ: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ. قُلْتُ: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنما عليك يا إبراهيم لمحزونون»⁽⁸⁾. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصباح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ: أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يوجد بنفسه فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمرقن: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»⁽⁹⁾. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك: فقال: «ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب» فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم، فقيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم: من كظم السقاء إذا شدة على ملته والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بالكظمه.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ⁽¹⁰⁾.

«تفتؤ» أراد لا تفتؤ فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدمن اللام والنون، ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

ومعنى لا تفتؤ: لا تزال، وعن مجاهد: لا نفتر من حبه كأنه جعل الفتؤ والفتور أخوين، يقال ما فتى يفعل، قال أوس:

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع
«حرضاً» مشفياً على الهالك مرضاً، وأحرضته

يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم «بهم جميعاً» بيوسف وأخيه ودوبيل أو غيره «إنه هو العليم» بحالي في الحزن والأسف «الحكيم» الذي لم يبتلى بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تَكْسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْخُرْنِ فَهُوَ كَلِيمٌ⁽¹¹⁾.

«وتولى عنهم» وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به «يا أسفى» أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإصابة والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه: «أناقلتم إلى الأرض أرضيتكم»⁽¹⁾ «وهم ينهون عنه وينأون عنه»⁽²⁾ «يحسبون أنهم يحسنون»⁽³⁾ «من سبنا نبينا»⁽⁴⁾ وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون»⁽⁵⁾ عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال «يا أسفى»⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: كيف تأسف على يوسف بن أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً؟ قُلْتُ: هو دليل على تماهي أسفه على يوسف وأنه لم يقع فائت عنده موقعه. وإن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً ولم تنسني أو في المصيبات بعده، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به «وابيضت عيناه» إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبيته إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً، قرئ: من الحزن ومن الحزن، حدث من الحزن، سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكانه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين

= أن يدعى عليهم السرقة، فنكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا، وإتهام من هو، بحيث تنطبق التهمة إليه، لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل، والله أعلم، أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك، ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراساً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم، وقوله: «بل سألتم لكم أنفسكم أمراً» واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول، والله المستعان.

(2) سورة الأنعام، الآية: 26.

(3) سورة الكهف، الآية: 104.

(4) سورة النمل، الآية: 22.

(5) سورة البقرة، الآية: 156.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب (الحديث رقم: 9691).

(7) لم يروه الطبري إلا من قول الحسن 174/2.

(8) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» (الحديث رقم: 1303) ومسلم في صحيحه كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ بالصبيان (الحديث رقم: 5979).

(9) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (الحديث رقم: 1284)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (الحديث رقم: 2132).

المرض ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه مصدر، والصفة حرض بكسر الراء ونحوهما: دنف وبنف، جاءت القراءة بهما جميعاً، وقرأ الحسن: حرضاً بضمين ونحوه في الصفات رجل جنب وغرب.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦).

البيت أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيثبه إلى الناس أي: ينشره، ومنه: بائه أمره وأبته إياه ومعنى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو﴾ إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً وملتجئاً إليه فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يعقوب قد تهشمت وفنيت من السن ما بلغ أبوك فقال: هشمتني وإفانني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أشكوني إلى خلقي؟ قال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وروي: أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه ياتيني بالفرج من حيث لا احتسب، وروي: أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحين، وحزني بضمين قتادة.

يَكُنْ أَذْهَبًا مَّعْسُورًا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْبَسُوا مِنْ رَجَعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَجَعِ اللَّهِ إِلَّا الْفُتُورُ (٨٧).

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو: المعرفة ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾^(١)، ومن الجس وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان الحواس والجواس ﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقاتدة: من روح الله: بالضم أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.

(2) قال أحمد: ومن تطفه بهم قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ كالاعتذار عنهم: لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار، لم يلفوا غمراً كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر نفسه، لم يزد على أن قال: فعلتها إذًا، وأنا من الضالين، وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه، أرفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أنوا إليه كتاباً من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر: أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي، فشئت يداه ورجلاه، ورمى إلى النار ليحرق، =

فَلَمَّا دَعَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَبَتِ الْأَعْرَبِ مَسَنَا وَالْأَمْرُ غَشَاَنَا يَعْزِمُ مَرْجِعُهُ فَاذْبَحْ لَنَا الْكَبْشَ وَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨).

﴿الضر﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيتها إذا نفعت وطربته، والريح تزجي السحاب. قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحب الخضر، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضعية ﴿فاوف لنا الكيل﴾ الذي هو حقنا ﴿وتصدق علينا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداء البضاعة، أوزنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لاتلزمه صدقة: لأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع ﴿وتصدق علينا﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ومن ثم رق لهم وملكتهم الرحمة عليهم فلم يملك أن عرفهم نفسه وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ شاهد لذلك لنكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق علي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَصَدَّقُ، إِنَّمَا يَتَصَدَّقُ الَّذِي يَبْتَغِي الثَّوَابَ، قُلْ: اللَّهُمَّ اعْطِنِي أَوْ تَفْضِلْ عَلَيَّ أَوْ ارْحَمْنِي.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُ مَا نَلَمْتُ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩).

﴿قال هل علمتم﴾⁽²⁾ اتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ لا تعلمون قبحه فلذلك أقنمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين لا معاتبة وتوبيخاً، إيثاراً لحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ويدرك ثاره الموتور، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم

= فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي، فوضعت المدينة في قفاه لينبيح، ففداه الله، وأما أنا، فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إلي، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله النذب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وتكت اتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا فقالوا إنه سرق، وإنك حبست لذلك، وإننا أهل بيت، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي، وإلا دعوت عليك دعوة، تبلغ السابيع من ولدك، والسلام. فلما قرأ الكتاب، بكى، وكتب الجواب: أصبر كما صبروا، تطفر كما ظفروا.

أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ من يخف الله وعقابه ﴿وَيُصْبِرِ﴾ على المعاصي وعلى الطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتراكه على المتقين والصابرين.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِلِينَ ﴿٩١﴾

﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وَإِنْ شَأْنُنَا وَحَالُنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِلِينَ متعمدين للإثم لم ننتق ولم نصبر، لا جرم أَنَّ الله أعزك بالملك وأثلنا بالتمسك بين يديك.

قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب من الثرب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غلية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه.

فَإِنْ قُلْتَ^(٢): بم تعلق ﴿اليوم﴾ قُلْتُ: بالترتيب، أما بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار، أو بيفقر والمعنى: لا أثريبكم اليوم، وهو: اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتداء فقال: ﴿يعفو الله لكم﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويعفو الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم، واليوم يغفر الله لكم بشارة بعجل غفران الله لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضائني باب الكعبة يوم الفتح لقريش: «ما ترونني فاعلأ بكم؟» قالوا: نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾^(٣) وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه ﴿قال لا تثريب عليكم﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك»^(٤). ويروى: أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: لئن أهل مصر وإن ملكك فيهم فإنهم ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنك إخوتي وأنا من حفدة إبراهيم.

جاهلين، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزانة روي: أنهم لما قالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ﴾^(١) وتضرعوا إليه أرفضت عيناه ثم قال: هذا القول، وقيل: ادوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عينا من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنيت اتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وإنك حبسته لذلك، وإننا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابح من ولدك، والسلام، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي: أنه لما قرأ الكتاب بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تنظرو كما ظفروا.

فَإِنْ قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوا لَوْنُكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتْيَ وَصَبْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

قري: اثنتك على الاستفهام، وأنتك على الإيجاب، وفي قراءة أبي: اثنتك أو أنت يوسف على معنى: اثنتك يوسف، أو أنت يوسف، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستبتاب.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف عرفوه؟ قُلْتُ: رأوا في رواته وشمالته حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه، فنظروا إلى علامة بقرته كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء.

فَإِنْ قُلْتُ: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه على أن أخاه كان معلوماً لهم؟ قُلْتُ: لأنه كان في نكر

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

= يفران ذنبهم، حينئذ بإخبار النبي الصديق، ويحتمل أن يقال: إنما أراد: مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم. (قوله: كانت أمه تحي، وقيل: هما أبوه وأخته).

(3) رواه أبو عبيد في كتاب: الأموال ص 51 (الحديث رقم: 298).

(4) قال الزيلعي: غريب جداً 2/179.

(2) قال أحمد: وهذا المعنى: إنما يتوجه على الإعراب الأول، وهو الوجه، ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِلِينَ﴾ وقوله: ﴿يوسف استغفر لكم ربي﴾ دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بيفقر الزم، أن يقطعوا =

بالمملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾.

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليعتمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال: اللَّهُمَّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إِنَّ اللَّهَ قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا فغفوكما إن لم يعف عنا ربنا؛ فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قوت لنا عين أبداً، فاستقبل الشيخ القبله قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إِنَّ اللَّهَ قد أجاب دعوتك في أولئك وعقد موآثيقهم بعنك على النبوة، وقد اختلف في استنبأهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأَيُّهَا هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّبْحِ وَكَذَلِكَ يُكَمِّنُ مِنَ اللَّيْلِ بِكُمْ مِّنَ الدَّوَىٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَبُوا السَّيْطَلِ فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ لَعَلَّيْكُمْ لَا تَلْفُتُمْ إِنِّي رَأَيْتُكُمْ فِي الْوَيْلِ مِنَ الْيَوْمِ ﴿١٢﴾

﴿فلما نخلوا على يوسف﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر باجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال ببني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب ولده دخلوا مصرهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى النرية والهرمي، وكانت النرية ألف ومائتي ألف وآوى إليه أيوبه، ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحق: كانت أمه تحيي وقيل: هما أبوه وخالته ماتت أمه فترجّحها وجعلها أحد الأبوين، لأنّ الرابة تدعى أمّاً لقيامها مقام الأم، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب ومنه قوله:

أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْزِلَ
بِأَفْئِلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قيل: هو القميص المتوراث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فَإِنَّ فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي ﴿يَا بَصِيرَا﴾ يصر بصيرًا كقولك جاء البناء محكمًا بمعنى: صار، ويشهد له ﴿فَارْتَدِ بِصِيرَا﴾⁽¹⁾ أو بات إليّ وهو بصير وينصره قوله: ﴿وَاتُونِي بَاهِلِكُمْ لَجْمَعِينَ﴾ أي يأتني أبي ويأتني أله جميعًا وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخًا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن
تَقْدُرِينَ ﴿٩٤﴾ .

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير ﴿قال﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد النسبة إلى الأُفند وهو: الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيكم إياي لصدقتموني.

قَالُوا تَاللّٰهِ اِنَّكَ لَفِي ضَلٰلٍكٍ اَلْقَدِيْمِ ﴿٩٥﴾ .

﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً
في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بنكره ورجائك للقائه،
وكان عندهم أنه قد مات.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَعِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ إِنِّي أَكَلُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَكْمُلُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَبْنَؤُنَا اسْتَفْزِرْنَا
دُونَنَا إِنَّا كُنَّا خُطِيعِينَ ﴿٦٢﴾.

﴿اللقاء﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو لقاها يعقوب ﴿فارتد بصيرا﴾ فرجع بصيرا، يقال: رده فارتد وارتده إذا ارتجعه ﴿الم أقل لكم﴾ يعني: قوله: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ ⁽²⁾ أو قوله: ﴿ولا تياسوا من روح الله﴾ ⁽³⁾ وقوله: ﴿إني أعلم﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ⁽⁴⁾ وروي أنه سال البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، ما أصنع

(3) سورة يوسف، الآية: 87.

(4) سورة يوسف، الآية: 86.

(1) سورة يوسف، الآية: 96.

(2) سورة يوسف، الآية: 94.

﴿وَالَهُ أَبَانُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾⁽¹⁾.

يأكله الذئب﴾⁽³⁾ قال: فهلا خفتني. وروي: أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يوم له طلبت نفسه الملك الدائم الخالد فتأقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهرًا، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه، كل يحب أن يدفن في محلته حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً، وولد له إفرائيم وميشاء، وولد لإفرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت القراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وأبائه إلى أن بعث الله موسى ﷺ.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الْآخِرَةِ تُوَفِّي سُلَيْمًا وَالْحَقَنِي بِالْمَمْلُوحِينَ﴾⁽¹⁴⁾.

من في ﴿من الملك﴾ و ﴿من تاويل الأحاديث﴾ للتبويض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التاويل ﴿أنت وليي﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿توفني مسلماً﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾⁽⁴⁾ ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل ﴿والحقني بالصالحين﴾ من آيائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده فراه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له: صنع الله على يديك خيراً كثيراً، أحبيت سنناً وأمت بدعاً، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿توفني مسلماً والحقني بالصالحين﴾.

فإن قلَّت: علام انتصب ﴿فاطر السموات﴾؟ قلَّت: على أنه وصف لقوله: ﴿رَبِّ كَقَوْلِكَ: أَخَا زَيْدٍ حَسَنٍ، أَوْ عَلَى النَّدَاءِ.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْكُتُبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَرْحَمَ وَهَمَّ يَتَّبِعُونَ﴾⁽¹⁵⁾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء وقوله: ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إن، ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، ومن أنباء الغيب صلته وتوحيه الخبر

فإن قلَّت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلَّت: كانه حين استقبالهم نزل لهم في مضرب أو بيت، ثم فدخلوا عليه وضم إليه أبويه. ثم قال لهم: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرقعهما على السرير ﴿وخرَّوا له﴾ يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجداً﴾ ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فامر أن يرفع إليه أبواه فدخلوا عليه القبة فأواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر.

فإن قلَّت: ثم تعلقت المشيئة قلَّت: بالدخول مكيفاً بالامن؛ لأنَّ القصد إلى اتصافهم بالامن في دخولهم، فكانه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة مكيفاً بهما، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال، ومن بدع التفسير أن قوله: إن شاء الله من باب التقديم والتأخير وإن موضعها ما بعد قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾⁽²⁾ في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قلَّت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلَّت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهوت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تغيير الجباه وخرورهم سجداً ياباً، وقيل معناه: وخرَّوا لأجل يوسف سجداً لله شكراً وهذا أيضاً فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة

﴿من البدو﴾ من البداية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجم ﴿نزغ﴾ أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه ﴿لطيف لما يشاء﴾ لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي: أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فانخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحلبي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزنة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وأخاف أن

(3) سورة يوسف، الآية: 13.

(4) سورة آل عمران، الآية: 102.

(1) سورة البقرة، الآية: 133.

(2) سورة يوسف، الآية: 98.

أَدَّيْنَا أَنْ تَأْتِيَهُمْ عَذَابُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾

﴿غاشية﴾ نعمة تغشاهم، وقيل: ما يفرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَيُضِلْ اللَّهُ مَنْ أَتَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق ينكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿ادعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: ادعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء و ﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر في ادعو ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، يريد ادعو إليها أنا ويدعو إليها من اتبعني، ويجوز أن يكون أنا مبتداً وعلى بصيرة خبراً مقدماً ومن اتبعني عطفاً على أنا إخباراً مبتداً بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى؛ ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من ادعو عاملة الرفع في أنا ومن اتبعني ﴿وسبحان الله﴾ وأنزهه من الشركاء.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾

﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لآنزل ملائكة﴾^(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل في سجاح المتنبئة؛ ولم تزل أنبياء الله نكراناً

وقرى: نوحى إليهم بالنون ﴿من أهل القرى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلّم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ولدار الساعة أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرى: أقلا تعقلون بالتاء والياء.

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَكَرِهُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَمِنْ أَهْلِ الْبُيُوتِ الَّذِينَ قَالُوا لَا نَبِيَّ إِلَّا اللَّهُ فَجَاءَهُمُ الْغُلَامُ سَوِيًّا ﴿٢٠﴾

﴿حتى﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استياسوا عن النصر^(٢) ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبتم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو رجأؤهم لقولهم: رجاء صائق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكنيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأمليه قد تطاولت عليهم وتمانت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة

والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر كقوله: ﴿واجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب﴾^(١) وهذا تهكم بقریش وبمن كنبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكره تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم بالمكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية ونحوه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾^(٢) ﴿وهم يمحرون﴾ بيوسف ويبنون له الغوائل.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم كقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾^(٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه: أراد أهل مكة أي: وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿وما نسألهم﴾ على ما تحدثهم به وتذكهم أن ينبلوك منفعة وجلوى كما يعطي حملة الأحابيث والأخبار ﴿إن هو إلا نكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

وَكَايْنِ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَرَوْنَ عَلَيْهَا نَصْرَ اللَّهِ وَالْآخِرَةَ مِنَ الْآخِرَةِ ﴿٢٣﴾

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرى: والأرض بالرفع على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي: والأرض بالنصب على ويطؤون الأرض يمرن عليها، وفي مصحف عبد الله، والأرض يمشون عليها برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير تلك من العبر.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ في إقراره بالله وبيانه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٥) قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه، لا عن إخبار وحي.

عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلمًا⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

الرَّحْمَنُ يَلِكُ أَمْنُ الْكَتِبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ من القرآن كله هو ﴿الحق﴾ الذي لا مزيد عليه لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الانمارية: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها تريد الكلمة.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ⁽²⁾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا وَآثَرًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآيِلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁽³⁾.

﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿والذي﴾ خبره ببليل قوله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يدير الأمر﴾ يفصل الآيات خبر بعد خبر وينصره ما تقيمه من نكر الآيات ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ كلام مستأنف استشهد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد ويعضده قراءة أبي: ترونها، وقرئ: عمد بضميتين ﴿يدير الأمر﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل﴾ آياته في كتبه المنزلة ﴿لعلكم توقنون﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا يد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: ندبر بالنون ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿يغشى الليل والنهار﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً، وقرئ: يغشى بالتشديد.

وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَبَعَاتٌ وَجَعَتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْعٌ وَنَخْلٌ مُّسَوًّى وَغَيْرُ مُسَوًّى يُغْشَى بِمَاءٍ وَجَرٍ وَتُفَصِّلُ بَعْثَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَشْكَالِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ⁽⁴⁾.

﴿قطع متجاورات﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

من غير احتساب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا⁽¹⁾ حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشراً وتلا قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾⁽²⁾ فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجع أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزّه عن كل قبيح، وقيل: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي: أخلفوا أو وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقهم فيه، وقرئ: كذبوا بالتشديد علي وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: كذبوا بالتخفيف على البناء للفاعل هي وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصر، إما على تأويل ابن عباس، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتُمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، وقرئ: بهذا مشدداً: لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبهم في موعدهم. قرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد من أنجاه ونجاه وفننجي على لفظ الماضي المبني للمفعل، وقرأ ابن محيصن: فنجا. والمراد: ﴿من نشاء﴾ المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم وقد بين ذلك بقوله: ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁽³⁾.

الضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسل وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قلت: فلأمر يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي: قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد ألة العقل، وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان، وقرئ: ذلك بالرفع علي ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أياها مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هو الله

(2) سورة البقرة، الآية: 214.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً تأويل حسن، ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمن كتب رسلهم، تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا، والمثلة العقوبة بوزن الصمرة، والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾⁽²⁾ ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه، والمثال: القصاص، وقرئ: المثالات بضمين لاتباع الفاء العين، والمثالات: بفتح الميم وسكون اللام كما يقال: السمرة، والمثالات: بضم الميم وسكون اللام تخفيف المثالات بضمين، والمثالات: جمع مثلة مركبة وركبات ﴿لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي: مع ظلمهم انفسهم بالذنوب ومحلها الحال بمعنى: ظالمين لانفسهم⁽³⁾، وفيه أوجه: أن يريد السينات المكفرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة السر والإمهال، وروي: أنها لما نزلت قال النبي عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزته ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»⁽⁴⁾.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَوِّدٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧).

﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ لم يعتدوا بالآية المنزلة على رسول الله ﷺ عنادًا، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا، وإحياء الموتى. ف قيل لرسول الله ﷺ: إنما أنت رجل أرسلت منذرًا ومخوفًا لهم من سوء العقوبة وناصحًا كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بآية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها ﴿ولكل قوم هاد﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعًا واحدًا في آيات مخصوصة ﴿ووجه آخر﴾ وهو أن يكون المعنى: أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعانون فلا يهمنك ذلك إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلحاء وهو الله تعالى، ولقد دل بما أرفده من نكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضايا حكمته، إن إعطاء كل منذر آيات خلاف آيات غيره، أمر مدبر بالعلم النافذ مقدر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابته إلى مقترحهم خيرًا ومصلة لأجابهم إليه، وأما على الوجه الثاني: فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه هو القادر وحده على هدايتهم العالم بأي طريق يهديهم ولا

متلاصقة طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها مع انتظامها جميعًا في جنس الأرضية، وذلك ليل على قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقي بماء واحد وترها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم الروائح متفاضلة فيها، وفي بعض المصاحف قطعًا متجاورات على وجعل. وقرئ: وجنات بالنصب للعطف على زوجين، أو بالجر على كل الثمرات. وقرئ: وزرع ونخيل بالجر عطفًا على أعناب أو جنات. والصنوان جمع صنو وهي: النخلة لها رأسان وأصلهما واحد، وقرئ: بالضم والكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة بني تميم، وقيس ﴿تسقي﴾ بالتاء والياء ﴿ونفضل﴾ بالنون وبالياء على البنا للفاعل والمفعول جميعًا ﴿في الأكل﴾ بضم الكاف وسكونها.

وَإِن تَجَبَّحْتَ جَبَّحَ قَوْلُهُمْ أَوَدًا كَمَا تَرَىٰ أَوْنَا لَنِي عَلَيَّ جَدِيدٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥).

﴿وإن تعجب﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي يخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿أنذا كنا﴾ إلى آخر قولهم، يجوز أن يكون في محل الرفع بدلًا من قولهم، وأن يكون منصوبًا بالقول، وإذا نصب بما دل عليه قوله: اثنا لفي خلق جديد ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أولئك الكاملون المتمسكون في كفرهم ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ وصف بالإصرار كقوله: ﴿إننا جعلنا في أعناقهم أغلالًا﴾⁽¹⁾ ونحوه:

لهم عن الرشدا أغلال وأقياد

أو هو من جملة الوعيد.

وَيَسْتَبِشِرُونَكَ بِالْكَذِبِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَلْبِهِمُ الْحَسَنَةُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّئَلَّا عَلَيَّ ظَنِّيهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦).

﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ بالنقمة قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال، وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿وقد خلت من قبلهم المثالات﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم

= عقيبته التي وضع فسادها، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر، وإن كان كوحداً، إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسماً، والله الموفق.

(4) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره والثعلبي والواحدي في تفسيره (الزليعي 2/183).

(1) سورة يس، الآية: 8.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) قال أحمد: والوجه الحق، بقاء الوعد على إطلاقه، إلا حيث دل اللبيل على التقيد في غير الموحد، فإن ظلمه، أعين شركه، لا يغفر، وما عاد الشرك، فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبيِّن =

سبيل إلى ذلك لغيره.

اللَّهُ يَلْمُ مَا عَمِلَ كُلُّ نَفْسٍ وَمَا يَنْصِفُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨).

«الله يعلم» يحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا وإن يكون
المعنى: هو الله تفسيرًا لهاد على الوجه الأخير ثم ابتدئ
فقيل **«يعلم ما تحمل كل أنثى»** وما في ما تحمل وما
تغيض وما تزداد؛ إما: موصولة، وإما: مصدرية، فإن كانت
موصولة فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي
حال هو من نكورة وأنوثة وتمازج وخداج وحسن وقبح
وطول وقصر وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقية،
ويعلم ما تغيضه الأرحام أي: تنقصه، يقال: غاض الماء
وغضته إنا، ومنه قوله تعالى: **«وغيض الماء»** (١) وما
تزداده أي: تأخذه زائدًا تقول: أخذت منه حقي وازيدت منه
كذا، ومنه قوله تعالى: **«وازدانوا تسعًا»** (٢) ويقال: زبته
فزاد بنفسه وازداد، وما تنقصه الرحم وتزداده: عدد الولد،
فإنها تشتمل على واحد وقد تشتمل على اثنين وثلاثة
وأربعة، ويرى أن شريكًا كان رابع أربعة في بطن أمه،
ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًا ومخفًا، ومنه مدة ولانته
فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وازيد عليها إلى سنتين
عند أبي حنيفة وإلى أربع عند الشافعي وإلى خمس عند
مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حبان بقي
في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي: هرمًا، ومنه الدم فإنه
يقبل ويكثر، وإن كانت مصدرية فالمعنى: أنه يعلم حمل كل
أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء
من ذلك ومن أوقاته وأحواله، ويجوز: أن يراد غيوض ما
في الأرحام وزاياته فأسند الفعل إلى الأرحام، وهو لما
فيها على أن الفاعلين غير متعديين، ويخضه قول الحسن:
الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك،
والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر، وعنه: الغيض الذي
يكون سقطًا لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام **«بمقدار»**
بقدر وحد لا يجاوز ولا ينقص عنه كقوله: **«إننا كل شيء
خلقناه بقدر»** (٣).

عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالْغُفْوَةِ الْكَبِيرِ الْمَعَالِ (٩).

«الكبير» العظيم الشأن الذي كل شيء لونه

«المتعال» المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر
عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ
بِالْأَيْلِ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ (١٠).

«سارب» ذاهب في سربه بالفتح أي: في طريقه
ووجهه يقال: سرب في الأرض سروبًا والمعنى: سواء عنده
من استخفى أي: طلب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته،
ومن يضطرب في الطرقات ظاهرًا بالنهار يبصره كل أحد.

فإن قلت (٤): كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف
بالليل، ومن هو سارب بالنهار حتى يتناول معنى: الاستواء
المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحدًا هو مستخف
وسارب؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن قوله: وسارب عطف
على من هو مستخف لا على مستخف، والثاني: أنه عطف
على مستخف إلا أن من في معنى: الاثنين، كقوله:

تكن مثل من يائئب يصطحبان
كانه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب
بالنهار.

لَمْ يُؤَيِّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا
مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ (١١).

والضمير في **«له»** مرئود على من كانه قيل: لمن أسر
ومن جهر ومن استخفى ومن سرب **«معقبات»** جماعات
من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل معتقبات
فادغمت التاء في القاف كقوله: **«وجاء المعذرون»** (٥)
بمعنى: المعتذرون، ويجوز معقبات بكسر العين ولم يقرأ
به، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه كما يقال:
قفاء لأن بعضهم يعقب بعضًا، أو لأنهم يعقبون ما يتكلم
به فيكتبونه **«يحفظونه من أمر الله»** هما صفتان جميعًا،
وليس من أمر الله بصلة للحفظ كانه قيل له: معقبات من
أمر الله، أو يحفظونه من أجل أمر الله (٦) أي: من أجل أن الله
أمرهم بحفظه، والليل عليه قراءة علي رضي الله عنه،
وابن عباس، وزيد بن علي، وجعفر ابن محمد، وعكرمة:
يحفظونه بأمر الله، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا
أنذبت بدعائهم له ومسألتهم بهم أن يمهله رجاء أن يتوب

= لو قدرت دخلة في صلة الأول بواسطة العاطف، لم يكن للمنهى
موقع، وإنما صحب في الأول الموصول، لا الصلة ومنه.

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي: ومن يمدحه وينصره، والله أعلم.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

(٦) قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم الله
أنه يدفعه عنه، بسبب دعائهم، ولولا هذا السبب، لكان في علم الله
أن النعمة تحل عليه؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون، لو كان،
كيف كان يكون، وسع ربنا كل شيء علما.

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٥.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري، أن تكون
الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به،
أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجهًا آخر،
وهو أن يكون الموصول المعطوف، وبقاء صلته شائع،
وخصوصًا وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثًا، ومنه قوله
تعالى: **«وما أدري ما يفعل بي ولا بكم»** والأصل: ولا ما يفعل
بكم، وإلا كان حرف النفي بخلاف غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية، =

وعن ابن عباس: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوف بها السحاب»⁽⁵⁾. وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك، ومن بدع المتصوفة، الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكأؤهم **«والملائكة من خيفته»** ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله. نكر علمه النافذ في كل شيء، واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيتها ثم قال **«وهم»** يعني: الذين كفروا وكتبوا رسول الله وأنكروا آياته **«يجاللون في الله»** حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم:

«من يحيي العظام وهي رميم»⁽⁶⁾ ويرتدون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم: الملائكة بنات الله، فهذا جدالهم بالباطل كقوله: **«وجدلوا بالباطل ليدحضوا به الحق»**⁽⁷⁾ وقيل: الواو للحال أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك إن أريد أبا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية، وأرسل على أريد صاعقة فقتلته: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد⁽⁸⁾ **«المحال»** المماثلة وهي: شدة المماكرة والمكيدة، ومنه: تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعي به إلى السلطان، ومنه الحديث: ولا تجعله علينا ماحلاً مصنعاً⁽⁹⁾، وقال الأعشى:

فرع نبع يهش في غصن المجـ د غزير الندى شديد المحال والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وقرأ الأعرج: بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول محالاً، إذا احتال، ومنه أحول من ذئب أي: أشد حيلة، ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقر، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشد وموساه أحد؛ لأن الحيوان إذا اشتد محاله كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر، وذلك أن الفقار: عمود الظهر وقوامه.

لَمْ دَعَوْهُ لَنُفٍّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِيطٍ كَثِيرٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَنْجُو فَاؤُ وَهُوَ يَكْفِيهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٧).

وينيب كقوله: **«قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن»**⁽¹⁾ وقيل: المعقبات الحرس والجلالوة حول السلطان يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي: من قضاياه وتوازله، أو على التهكم به، وقرئ: له معاقيب جمع معقب أو معقبة والياء عوض من حذف إحدى القافيتين في التكسير **«إن الله لا يغير ما بقوم»** من العافية والنعمة **«حتى يغيروا ما بأنفسهم»** من الحال الجميلة بكثرة المعاصي **«ومن وال»** ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْفَاظَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٣).

«خَوْفًا وَطَمَعًا»⁽²⁾ لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعطل إلا على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماناً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف، وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطماعين، ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فتى كالسحاب الجون نخشى وترتجى يرجى لحيانها ويخشى للصواعق وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومن في جريته التمر والزبيب، ومن له بيت يكف، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كاهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع ويحيا به **«السحاب»** اسم الجنس والواحدة سحابة و**«الثقال»** جمع ثقيلة لأنك تقول: سحابة ثقيلة وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهي الثقال بالماء.

وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ يَسْبِغُ فِيهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ (١٤).

«ويسبغ الرعد بحمده» ويسبغ سامع الرعد من العباد الراجلين للمطر حامنين له أي: يضحجون بسبحان الله، والحمد لله، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سبحان من يسبغ الرعد بحمده»⁽³⁾. وعن علي رضي الله عنه: سبان من سبحت له، وإذا اشتد الرعد قال رسول الله ﷺ: **«اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»**⁽⁴⁾.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 42.

(2) قال أحمد: ومفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل، فاعل في المعنى؛ لأنه إذا أراهم، فقد راوا، والأصل: وهو الذي يريكم البرق، فترونه خوفاً وطمعاً، أي: ترقبونه وتترامونه، تارة لأجل الخوف، وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 2/185، باب: «إذا سمع الرجل...» (الحديث رقم: 723).

(4) رواه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا سمع الرعد =

= (الحديث رقم: 3450) والنسائي في عمل اليوم والليلة باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق (الحديث رقم: 933).

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرعد (الحديث رقم: 3117)، رواه أحمد في مسنده (2/274).

(6) سورة يس، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 5.

(8) رواه أبو يعلى في مسنده 6/88.

(9) رواه ابن حبان في كتاب: العلم (الحديث رقم: 124).

وَالْأَمْثَالُ ﴿١٥﴾

﴿والله يسجد﴾ أي: ينقادون لإحداث ما أَرَادَهُ فيهم من أفعاله شاقوا أو أبوا لا يقدرُونَ أَنْ يمتنعوا عليه، وتنقاد له ﴿ظلالهم﴾ أيضاً حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال. وقرئ: بالغزو والإيصال من أصلوا إذا نخلوا في الأصل.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَكُونُ لِأَوْلِيَاءِ نَصْرًا وَلَا صَرْفًا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا خَلْقَهُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَرُّبُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَاءَتْ أَرْضُهُ يَذْرُؤُهَا حَافِلًا السَّبِيلَ زَيْدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلَدٍ أَرْمَاحٌ مَتَّعَ زَيْدٌ نِسْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ مَاذَا الزَّيْدُ يَذْهَبُ جَفَاءً وَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَنْفَعُكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿قل الله﴾ حكاية لاعترافيهم وتأكيد له عليهم؛ لأنه إذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله، كقوله: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ سيقولون ﴿الله﴾ (3) وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قوك؟ فإذا قال: هذا قلبي، هذا قوك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقيناً أي: إن كعوا عن الجواب فلنقنهم فإنهم يتلقنونه ولا يقدرُونَ أن ينكروه ﴿فأتأخذنكم من دونه أولياء﴾ أبعاد أن علمتموه رب السموات والأرض أتخذنكم من دونه أولياء؟ فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضررا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ وقد أثروهم على الخالق الرانق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم ﴿أم جعلوا﴾ (4) بل اجعلوا، ومعنى الهمزة: الإنكار ﴿وخلقوا﴾ صفة

﴿دعوة الحق﴾ (1) فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق للدلالة على أن الدعوة ملازمة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى: أن الله سبحانه يدعى فيستجب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملازمة للحق لكونه حقيقة بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه، والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكل دعاء إليه دعوة الحق.

فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله؟ قلت: أما على قصة أريد فظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكرهه من حيث لم يشعر، وقد دعا رسول الله ﷺ وعلى صاحبه بقوله: «اللهم أخسفهما بما شئت» (2). فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على الأول، فوعيد للكفرة على مجالبتهم رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ أن دعا عليهم فيهم ﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعومهم الكفار ﴿من﴾ نون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ من طلباتهم ﴿إلا كيباسط كفيه﴾ إلا استجابة كاستجابة بلسط كفيه أي: كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا يعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب بدعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم، وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لألهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه. وقرئ: تدعون بالثناء كيباسط كفيه بالتثنية ﴿إلا في ضلال﴾ إلا في ضياع لا منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجيبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

وَلِلَّهِ يَسُجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَرَعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَاتٍ خَالِفَةً

(1) قال أحمد: سن تحت تأويل الأول، نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال، فمجرد وسعاً من لطف الله، واستجابته أدعية عباده، وحتم رعاية المصالح، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق: التباسها بالمصلحة، وقد انكشف الغطاء، وتبين أن الله تعالى لا تتعل أفعاله، ولا تقف استجابته على الشرط المذكور، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع، من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة، والله الموفق.

(2) نكره الواحد في أسباب النزول ص 154.

(3) سورة المؤمنون، الآيتان: 86 و 87.

(4) قال أحمد: وفي قوله تعالى: ﴿خلقوا خلقه﴾ في سياق الإنكار، تهكم بهم؛ لأن غير الله، لا يخلق خلقاً البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة، لا تقس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم، أن الشركاء التي اتخونها، لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿خلقه﴾ تهكم، يزيد =

= الإنكار تأكيداً، والمخشعي لا يطبق التنبيه على هذه السكنة، مع كونه أقطن من أن تستتر عنه؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق، وهم العبيد، يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم، لا غير، وفي قوله عز من قائل: ﴿الله خالق كل شيء﴾ إلقاء لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة، كالتقديرة؛ فإن الله تعالى بت هذه البتة، أن كل شيء يصنق عليه، أنه مخلوق جوهرًا كان أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فانه خلقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك، إلا عند كل أئيم أفاك، يسمع آيات الله تنلى عليه، ثم يصير مستكبراً، كان لم يسمعه، كان في أنثيه وقرأ، قبشره بعذاب اليم، فلأمر ما تقاصر لسان الرمزخشري عند هذه الآية، وقرن شفاشقه، والله الموفق.

واجفل، وفي قراءة رؤية بن العجاج: جفالاً، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقرأة رؤية لأنه كان ياكل الفار. وقرئ: يوقدون بالياء أي: يوقد الناس.

لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَقِّقُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعْمُ لَأَنْتَدَرُوا يَدَوْهُ أُولَئِكَ هُمُ السَّوءُ لِكِسَابٍ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَنَسَّ لِلَّهِادُ (٨).

﴿للذين استجابوا﴾ اللام متعلقة بيضرب أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا للكافرين الذين لم يستجيبوا أي: هما مثلاً الفريقين و ﴿الحسنى﴾ صفة لمصدر استجابوا أي: استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله: ﴿لو أن لهم﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين، وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (٢) وما بعده كلام مستأنف، والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا، والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه و ﴿سوء الحساب﴾ المتناقضة فيه، وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنْتَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَرِهَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَزْوَاجَ الْأَنْبِيَاءِ (٩).

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله: ﴿أفمن يعلم﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم ﴿إنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا.

الَّذِينَ يُؤْمِنُ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ (١٠).

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ مبتدأ وأولئك لهم عقبي الدار خبره كقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله... أولئك لهم اللعنة﴾ (٣) ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب والأول أوجه. وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ (٤) ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلُفُونَ سَوَاءً لِكِسَابٍ (١١).

﴿ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام والقربايات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرباية المؤمنين الثابتة

لشركاء يعني: أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿فتشابه﴾ عليهم خلق الله وخلقهم حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فتتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالربوبية ﴿القهار﴾ لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور. هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيجيبون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه الباس الشديد لكفى به، وأن ذلك ملكث في الأرض باق بقاء ظاهراً ثبتت الماء في منافعهم وتبقى آثاره في العيون والبنار والحبوب والثمار التي تنبت به مما يتخّر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطولة، وشبهه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أنيب.

فَإِنْ قُلْتَ: لم نكرت الأوبية؟ قُلْتُ: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله ﴿يقدرها﴾؟ قُلْتُ: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للمطور عليهم غير ضار، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾: لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف.

فَإِنْ قُلْتَ: فما فائدة قوله: ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾؟ قُلْتُ: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: ﴿يقدرها﴾ لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾: لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فنكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب وهو الحلية والمتاع، وقوله: ﴿وَمَا يَوْقُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ ابتغاء حلية أو متاع عبارة جامعة لأنواع الفلز مع إظهار الكبرياء في نكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك نحو ما جاء في نكره الأجر: ﴿أوقد لي يا هامان على الطين﴾ (١) ومن لا ابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبداً رابياً منتخفاً مرتفعاً على وجه السيل ﴿جفأه﴾ يجفؤه السيل أي: يرمي به، وجفأت القدر بزبدتها، وجفأ السيل

(3) سورة الرعد، الآية: 25.

(4) سورة الأعراف، الآية: 172.

(1) سورة القصص، الآية: 38.

(2) سورة الرعد، الآية: 17.

إذا أنبوا تابوا، وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ﴿عقبي الدار﴾ (3) عاقبة الدنيا وهي الجنة؛ لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها و﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبي الدار. وقرئ: فنعم فتح النون والأصل نعم، فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل. وقرئ: يدخلونها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبي عبلة: صلح بضم اللام والفتح أفصح، علم أن الأنساب لا تنفع إذا تجربت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم فكانه قتل من آباؤهم وأمهاتهم.

سَلَّمَ عَلَيْكَ بِمَا صَرَّيْتَ فِيمَ عُنَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ يَشْفَعُونَ عِندَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِثْلِهِمْ يَقْبَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفِيدُونَ فِي الْآخِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمُ الْكُفَّةُ وَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ ﴿١٧﴾.

﴿سلام عليكم﴾ في موضع الحال؛ لأن المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين.

فإن قلت: بم تعلق قوله ﴿بما صبرتم﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم يعنون: هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم، والمعنى: لأن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة كقوله:

بما قدرى فيها أو أنس بننا

وعن النبي ﷺ: أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار» (4) ويجوز أن يتعلق بسلام أي: نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوا به من الاعتراف والقبول ﴿سوء الدار﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبي الدار ويجوز أن يراد بالدار جهنم ويسوئها عذابها.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَبِوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَبِوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتْنَعٌ ﴿٢١﴾.

﴿الله يبسط الرزق﴾ أي: الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم ﴿وفرحوا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر

بسبب الإيمان ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (1) بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعبادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه: مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر وكل ما تعلق منهم بسبب حتى الهرة والبجاجة، وعن الفضيل بن عياض: أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين وويخشون ربهم، أي: يخشون وعيده كله ﴿ويخافون﴾ خصوصاً ﴿سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ وَالسَّاعَةِ أَنذَرْتُكَ لَمْ عُنَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ حَتَّىٰ عَذِبِ يَطْلُبَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَاللَّيْلُ كَيْفَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾.

﴿صبروا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف ﴿ابتغاء وجه﴾ الله لا ليقال ما أصبره وأحملة للنوازل وأوقره عند الزلازل، ولا لثلا يعاب بالجزع ولثلا يشمت به الأعداء كقوله:

وتجلدي للشامتين أريهم

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مرد فيه للفئات كقوله: ما إن جرعت ولا هلع ت ولا يرد بكاي زندا وكل عمل له وجوه يعمل عليها فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً وكان فعلاً كلاً فعل ﴿مما رزقاهم﴾ (2) من الحلال، لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله ﴿سراً وعلانية﴾ يتناول النوافل لأنها في السر أفضل، والفرائض لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة ﴿ويدرون بالحسنة السيئة﴾ ويدفعونها، عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم، وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، عن ابن كيسان

(1) سورة الحجرات، الآية: 10.

(2) قال أحمد: الحق إن لا رازق إلا الله، إن الله هو الرازق، نو القوة المتين، كما أنه لا خالق إلا الله، هل من خالق غير الله؟ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله، فاي مقال بعد ذلك يبقى للقدري؟ الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم؛ لأن الغالب الحرام، وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه، ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية وتردعه، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

(3) قال أحمد: قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة، مثل: ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار﴾ ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ و﴿العاقبة للمتقين﴾ والمراد في جميع تلك: عقبي الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة، والمراد =

= عاقبة الخير، أنها هي التي أرادها الله، فهي الأصل، والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة، بل عارضة على خلاف المراد، والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها، إلا بتقيد يفهمها، كقوله: ﴿وعقبي الكافرين على النار﴾ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع، ومشبهة ما لم يكن مصادمة لما انطق الله به السنة حملة الشريعة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق، ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدي إلى حمد العاقبة، مأمور به، والمؤدي إلى سؤئها، منهي عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(4) رواه عبد الرزاق في مصنفه 573/3 (الحديث رقم: 6716).

أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء لتتلو عليهم ﴿الذي أوحينا إليك﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذين أوحينا إليك ﴿وهم يكفرون﴾ وخال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بالرحمن﴾ بالبالغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء وما بهم من نعمة فمنه فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم ﴿قل هو ربي﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء ﴿عليه توكلت﴾ في نصرتي عليكم ﴿وإليه متاب﴾ فيثبيني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ خُمِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ (٢١)

﴿ولو أن قرآنًا﴾ جوابه محذوف كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك وتترك الجواب، والمعنى: ولو أن قرآنًا ﴿سُيِّرَتْ به الجبال﴾ عن مقامها وزعزعت عن مضاجعها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ حتى تتصدع وتتزايد قطعاً ﴿أو كُلم به الموتى﴾ فتسمع وتجب: لكان هذا القرآن لكونه غاية في التنكير ونهاية في الإنذار والتخويف كما قال: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (٢) هذا يعضد ما فسرته به قوله: ﴿لتتلاوا﴾ عليهم الذي أوحينا إليك من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من القرآن، وقيل: معناه: ولو أن قرآنًا وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيههم، لما آمنوا به، ولما تنبهوا عليه، كقوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ (٣) الآية: وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فننخذ فيها البساتين والقطائع كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم؟ فلست بأهون على الله من داود، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام، أو أبعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا منهم قصي بن كلاب (٤)، فنزلت. ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاورتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال وما بينهما اعترض وليس ببعيد من السداد، وقيل: قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ على معنيين:

لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرًا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو: ما يتعجله من تيميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّكَ إِنَّمَا تُبَيِّنُ لِمَن يَشَاءُ رَحْمَتِي إِلَيْهِ مَن أَتَابَ (٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨).

فإن قلت: كيف طابق قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ قوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ قلت: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جعلوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كان آية لم تنزل عليه قط كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكانه قيل لهم: ما أعظم عنايتكم وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ويهدي إليه من﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿أناب﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته بخل في توبة الخير و ﴿الذين آمنوا﴾ بدل من أناب ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى نكر الله﴾ (١) وتطمئن بنكر دلائله الدالة على واحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَاعْتَمَلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجَبَ (٢٨)

﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ و ﴿طوبى لهم﴾ خبره، ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب على تقدير حذف المضاف أي تطمئن القلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب كبشري وزلفى ومعنى طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً، ومحلها النصب أو الرفع كقولك: طيباً لك وطيب لك وسلاماً لك وسلام لك. والقراءة في قوله: وحسن مأب بالرفع والنصب تلك على محيلها، واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى متقلبة عن ياء لضمه ما قبلها كموقن وموسر، وقرأ مكوزة الأعرابي: طيبي لهم فكسر الطاء لتسلم الياء كما قيل: بيض ومعيشة.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ مَّدَّ عِلَّتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّيْسَتْ لَهُمْ لِحَاظُكَ إِلَيْنَا وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ (٢٩)

﴿كذلك أرسلناك﴾ مثل تلك الإرسال أرسلناك يعني:

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) سورة الانعام، الآية: ١١١.

(٤) رواه أبو يعلى في المسند ٢/ ٤٠ - ٤١.

كَيْفَ كَانَ عَقَابُ (٣٢).

الإملاء: الإهمال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملئ لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسليته له.

أَفَنُورُ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْطِئُكَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رُتِيبٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ النَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣).

﴿أفمن هو قائم﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني: أفتا الله الذي هو قائم رقيب ﴿على كل نفس﴾ صالحة أو طالحة ﴿بما كسبت﴾ يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك، ويجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا، وتمثله أفمن هو بهذه الصفة لم يوحوه ﴿وجعلوا﴾ له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده ﴿شركاء قل سموهم﴾ أي: جعلتم له شركاء، فسموهم له من هم ونبؤهم باسمائهم ثم قال: ﴿أم تنبؤونه﴾ على أم المنقطعة كقولك للرجل: قل لي من زيد؟ أم هو قل من أن يعرف، ومعناه: بل أنتنبؤونه⁽²⁾ بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد: نفى أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قل أنتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾⁽³⁾ ﴿أم بظاهر من القول﴾ بل أسمىهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله: ﴿ذلك قولهم بأقوالهم﴾⁽⁴⁾ ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾⁽⁵⁾ وهذا الاحتجاج وأساليبه⁽⁶⁾ العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾⁽⁷⁾ وقرئ: أنتنبؤنه بالتخفيف ﴿مكرهم﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وصدوا﴾ قرئ: بالحركات الثلاث، وقرأ ابن أبي إسحاق: وصد بالتنوين ﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخله لعلمه أنه لا يهتدي ﴿فما له من هادٍ﴾ فما له من أحد يقدر على هدايته.

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه، والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار ويعضده قوله: ﴿أفلم يبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله﴾ يعني: مشيئة الإلجاء والقسر ﴿لهدى الناس جميعاً﴾ ومعنى أفلم يبين: أفلم يعلم قيل: هي لغة قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل الياس بمعنى: العلم لتضمنه معناه؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك؛ لتضمن ذلك. قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ ييسروني ألم تياسوا اني ابن فارس زهد ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يتبين، وهو تفسير ﴿أفلم يبين﴾ وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات، وهذا ونحوه مما لا يصق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين نفتي الإمام وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمين عليه، لا يغفلون عن جلائله وبقائعه خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية، ويجوز أن يتعلق أن لو يشاء بآمنوا على أولم يقطن عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريباً﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطايروا إليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو القيامة، وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأن رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواليهم⁽¹⁾ أو تحل أنت يا محمد قريباً من براهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ رِئِيلَ بْنِ فَيْكٍ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ

(1) نكره الزيلعي عند السرايا في تخريجه (الحديث رقم: 191/2 - 195).

(2) قال أحمد: وحقيقة هذا النفي، أنهم ليسوا بشركاء، وإن الله لا يعلمهم كذلك؛ لأنهم ليسوا كذلك، وإن كانت لهم نوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربية حادثة، لا آلهة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع، لا تكنه بلاغته وبراعته، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان ﴿وجعلوا شركاء﴾ وما هم بشركاء، فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة.

(3) سورة يونس، الآية: 18.

(4) سورة التوبة، الآية: 30.

(5) سورة يوسف، الآية: 40.

(6) قال أحمد: هذه الخاتمة كلمة حق، أراد بها بطلاً؛ لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ، والله أعلم.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 14.

ولا نشرك به شيئاً⁽²⁾ وقرأ نافع في رواية أبي خليف: ولا أشرك بالرفع على الاستئناف، كأنه قال: وأنا لا أشرك به، ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى أمرت أن أعبد الله غير مشرك به ﴿إليه أدع﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم.

وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكُمْ عَرَبًا وَكُنْ أَوَّاهَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ^(٣٧).

﴿وذلك أنزلناه﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿حكمنا عربياً﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال.

كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلي إلى قبيلتهم بعد ما حوله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتبويض والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه وإن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحنة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْزُلًا وَمِثْرَةً وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ يَقُولُوا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ^(٣٨).

كانوا يعيبنه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾⁽³⁾ وكانوا يفترون عليه الآيات وينكرون النسخ فقيل: كان الرسل قبله بشرًا مثله نبي وأنواع ونزية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلكل وقت حكم يكتب على العباد أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم.

يَحْرَأُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُتَبِّعُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٣٩).

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت بطله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظ ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ﴿ويثبت﴾ غيره، وقيل: يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ويثبت إيمانهم وطاعتهم، وقيل: يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضها من الأناسي وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أصل كل كتاب، وهو: اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه. وقرئ: ويثبت.

لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ^(٤٠).

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وهو: ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ولذلك سماه: عذاباً ﴿وما لهم من الله من واق﴾ وما لهم من حافظ من عذابه، أو ما لهم من جهته واق من رحمته.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ^(٤١).

﴿مثل الجنة﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالبداية والخير محذوف على مذهب سيبويه. أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة وقال غيره: الخبز ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد، وقرأ علي رضي الله عنه: أمثال الجنة على الجمع أي: صفاتها ﴿أكلها دائم﴾ كقوله: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾⁽¹⁾ ﴿وظلها﴾ دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِفَرَحٍ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُخْبِرْتُ أَنَّ أَتْبَدُ اللَّهُ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَلَا إِلَهَ مَعَهُ^(٤٢).

﴿والذين آتيناهم للكتاب﴾ يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام، وكعب، وأصحابهما، ومن أسلم من النصراني، وهم: ثمانون رجلاً أربعون بنجران، وأثنان وثلاثون بارض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن هؤلاء ﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ يعني: ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيد، والعاقب أسقفي بنجران وأشياعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام، ونعت رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما حرقوه وبلوه من الشرائع.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ بما قبله؟ قلْتُ: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وإن لا يشرك به، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله

(3) سورة الفرقان، الآية: 7.

(1) سورة الواقعة، الآية: 33.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

وَأَن مَّا تَرَيْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَرَفَيْنَاكَ فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَاقُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (١٠).

﴿وإن ما نرينك﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعبادهم.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١١).

﴿اولم يروا أنا ناتي الأرض﴾ أرض الكفر ﴿تنقصها من أطرافها﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصر والغلبة، ونحوه: ﴿أفلا يرون أنا ناتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ (١) ﴿سنزيم آياتنا في الآفاق﴾ (٢) والمعنى عليك بالبلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيك ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره فإن لك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها، ثم طيب نفسه ونفس عنها بما نكر من طلوع تباشير الظفر، وقرئ: ننقصها بالتشديد ﴿لا معقب لحكمه﴾ لا راد لحكمه، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يعقبه أي: يقفيه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب قال لبيد:

طلب المعقب حقه المظلوم

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإبصار والانتكاس ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

فإن قللت: ما محل قوله: ﴿لا معقب لحكمه﴾؟ قلت: هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد: حاسراً.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا بِمَاءٍ مَا نَكْبِثُ كُلُّ نَفْسٍ وَمِنْهُ الْخُفْرُ لِمَنْ عَفَى الدَّارَ (١٢).

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ وصفهم بالمكر ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال: ﴿قلله المكر جميعاً﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة مما يراد بهم، وقرئ: الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر أي: أهله، والمراد بالكافر: الجنس، وقرأ جناح بن حبيش: وسيعلم الكافر من أعلمه أي: سيخبر.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ سَعِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُو عِلْمِ الْكِتَابِ (١٣).

﴿كفى بالله شهيداً﴾ لما أظهر من الأدلة على رسالتي ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ (٣) والذي عنده علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز الفائق لقوى البشر، وقيل (٤): ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، وقيل (٥): هو الله عز وعلا، والكتاب: اللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارة أي: من لدنه علم الكتاب؛ لأن علم من علمه من فضله ولطفه، وقرئ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارة، وعلم على البناء للمفعول، وقرئ: وبمن عنده علم الكتاب.

فإن قللت: بم ارتفع ﴿علم الكتاب﴾؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقتر في الظرف فيكون فاعلاً؛ لأن الظرف إذا وقع صلة أو غل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول فعمل عمل الفعل، كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقر في الدار أخوه، وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، ويغث يوم القيامة من الموفين بعهد الله» (٦).

(٥) قال أحمد: وإنما قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله بالذي يستحق العبادة، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديرًا، وإنما أخذ الحصر حيث يقول: ومن لا يعلم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه، وشأن الزمخشري لأخذ الحصر من التقديم، والله الموفق للصواب.

(٦) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن مريويه، (الزليعي 2/196).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٣) قال أحمد: فيكون المراد حينئذ: جنس المؤمنين.

(٤) قال أحمد: فالكتاب على التأويل الأول مراد به: القرآن خاصة، وعلى الثاني: جنس الكتب المتقدمة عليه. (قال محمود: وقيل: هو الله عز وجل، والكتاب، واللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، بالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ، إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ، ومن عنده علم الكتاب على من الجارة.) =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①.

﴿كتاب﴾ هو كتاب يعني: السورة. وقرئ: ليخرج الناس والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى ﴿بإذن ربهم﴾ بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو: تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله: إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿الذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ ① ويجوز أن يكون على وجه الاستثناء كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل إلى صراط العزيز الحميد.

اللَّهُ أَلْهَىٰ لَمَّا فَا السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَرَبُّ لَكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ②.

وقوله: ﴿الله﴾ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الاعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا، وقرئ: بالرفع على هو الله. الويل نقيض الوال وهو: النجاة، اسم معنى كالهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال: ويلاً له فينصب نصب المصاب ثم يرفع رفعها لإقادة معنى الثبات فيقال: ويل له كقوله: سلام عليك، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجه اتصال قوله: ﴿من عذاب شديد بالويل؟﴾ قُلْتَ: لأن المعنى: أنهم يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون: يا ويلاه كقوله: ﴿دعوا هنالك ثبورا﴾ ②.

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَاً فَأُولَٰئِكَ فِي صُلًىٰ بِمِيزٍ ③.

﴿الذين يستحبون﴾ مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على النّم، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون، أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو:

استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدون بضم الياء وكسر الصاد يقال: صدّه عن كذا وأصدّه قال:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً لتنقله من غير التعدي إلى التعدي، وأما صدّه فموضوع على التعدية كمنعه وليست بفصيحة كلوقفه؛ لأن الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ ويطلبون لسبيل الله زيفاً واعوجاجاً وأن يلبوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق ووقفوا بونه بمراحل.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتَ: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضلال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأن الضال قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. إِيَّاكَ لَمْ يُفْضَلْ اللَّهُ مِنْ نِسَاءٍ وَيَهْدَىٰ مَنْ نِسَاءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④.

﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ ③ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾ ④.

فَإِنْ قُلْتَ: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ⑤ إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً. قُلْتَ: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نياية التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد

(1) سورة الاعراف، الآية: 75.

(2) سورة الفرقان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: جميع الفصل مرضى، لكن في هذه الخاتمة نظر؛ لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة، يتقاصر عن إعجازه لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى أنه لو ينزل بجميع اللغات، لبلغ من الوضوح إلى حدّ يكاد أن يكون إلهاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد =

= العلم بصنق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم، لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، وهذا هو التحقيق، والله أعلم، والزمخشري يبيّن في كثير من كلامه، على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظنّ ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(4) سورة فصلت، الآية: 44.

(5) سورة الاعراف، الآية: 158.

نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو أفاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الشكر والصبر من سجايهم تنبيهاً عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ أَلٍ يَرْغَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَلْعَنُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسَاءُكُمْ فِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ①.

﴿إذ أنجاكم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلنا: هل يجوز أن ينتصب بعليكم، قلنا: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى: الإنعام، أو غير صلة إذا أربت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: انكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين: أنك إذا قلت نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول: فائضة أو نحوها وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون إذ بدلاً من نعمة الله أي: انكروا وقت إنجائكم وهو من بدل الاشتمال.

فإن قلنا: في سورة البقرة ﴿يذبحون﴾ (2) وفي الاعراف ﴿يقتلون﴾ (3) وههنا ﴿وينبجون﴾ مع الواو فما الفرق؟ قلنا: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبيانا له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلنا: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلنا: تمكينهم وإمالةهم حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله، ووجه آخر: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنباء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً قال تعالى: ﴿وينبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (4) وقال زهير:

فابلاهما خير البلاء الذي يبلى

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦.

﴿وإذا تأذن ربكم﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نعمة الله عليكم﴾ كأنه قيل: وإذا قال موسى لقومه: انكروا نعمة الله عليكم، وانكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أنن ربكم، ونظير تأذن وأذن، توعده وأوعده، تفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل: وإذا أنن ربكم إيداناً بليغاً تنتقى عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذا تأذن ربكم فقال ﴿لئن شكرتم﴾ أو أجرى تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: وإذا قال ربكم

المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكذا القرائح، فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوهم عليهم معجزاً، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى بلسان قومه: بلغة قومه، وقرئ: بلسن قومه، واللسن واللسان كالريش والرياش بمعنى: اللغة، وقرئ: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة وهو: جمع لسان كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاک، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أداها كل نبي بلغة قومه وليس بصحيح؛ لأن قوله: ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤذي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب وهذا معنى فاسد ﴿فيضل الله من يشاء﴾ كقوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (1) لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخليه ومنع الألفاظ، وبالهداية التوفيق واللفظ، فكان ذلك كتابة عن الكفر والإيمان ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الحكيم﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلفظ إلا بأهل اللطف.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤.

﴿أن اخرج﴾ بمعنى أي: اخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: اخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تاويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل قولهم: أوعز إليه بأن أفعل، فادخلوا عليها حرف الجر، وكذلك التقدير بأن اخرج قومك ﴿ونذركهم بأيام الله﴾ وأنذرهم بوقائعهم التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نعمائهم وبلاؤهم، فأما نعمائهم: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر، وأما بلاؤهم، فإهلاك القرون ﴿لكن صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله، ويشكر

(3) سورة الاعراف، الآية: 141.

(4) سورة الانبياء، الآية: 35.

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 49.

رَبُّوَا نَعْمَ الْآنَبِيَاءَ الَّتِي هِيَ أَجَلُ النِّعَمِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَنَصَائِحِهِمْ وَمَا أَوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْآيَاتِ فِي أَقْوَاهُمْ: لَأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوهَا فَكَانَهُمْ رَدُّوَاهَا فِي أَقْوَاهُمْ وَرَجَعُوهَا إِلَى حَيْثُ جَاءَتْ مِنْهُ عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَقَرَى: تَدْعُونَا بِإِدْغَامِ النَّوْنِ ﴿مَرِيبٌ﴾ مَوْقِعٌ فِي الرَّبِّيَّةِ، أَوْ ذَوِي رَبِّيَّةٍ مِنْ أَرَابِهِ وَأَرَابُ الرَّجُلِ وَهِيَ: قَلَقُ النَّفْسِ وَأَنْ لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى الْأَمْرِ.

﴿فَإِنَّ رُسُلَهُمْ آتَى اللَّهُ سَلَكًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّعَكُمْ إِنَّ أَجَلَ مَسِيٍّ قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْتُمْ سَاطِنُونَ مِثْلِهِ﴾ (١١).

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أَخْلَعَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَى الظُّفْرِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ فِي الشَّكِّ إِنَّمَا هُوَ فِي الْمَشْكُوكِ فِيهِ، وَانْه لَا يَحْتَمِلُ الشَّكَّ لظُهُورِ الْإِلَهَةِ وَشَهَادَتِهَا عَلَيْهِ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَي: يَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لِيَغْفِرَ لَكُمْ، أَوْ يَدْعُوكُمْ لِأَجْلِ الْمَغْفِرَةِ كَقَوْلِهِ: دَعْوَتُهُ لِيَنْصُرَنِي، وَدَعْوَتُهُ لِيَأْكُلَ مَعِي، وَقَالَ:

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مَسُورًا فَلَبِىَ فَلَبِىَ يَدِي مَسُورًا
فَإِنْ قُلْتُ: مَا مَعْنَى التَّبَعِضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾؟
قُلْتُ: مَا عَلِمْتَهُ جَاءَ هَكَذَا إِلَّا فِي خُطَابِ الْكَافِرِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ * يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (٣) ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (٤) وَقَالَ فِي خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿هَلْ أَلِمْكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ﴾ (٥) إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (٦) وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَقِفُ عَلَيْهِ الْإِسْتِقْرَاءُ، وَكَانَ ذَلِكَ لِلتَّفَرُّقَةِ بَيْنَ الْخَطَائِبِينَ وَلِثَلَاثِ سُبُوحٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْمِعَادِ، وَقِيلَ: أَرِيدُ أَنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ بِخِلَافِ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الْمَظَالِمِ وَنَحْوِهَا: ﴿وَيُؤْخِرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إِلَى وَقْتٍ قَدْ سَمَاهُ اللَّهُ وَبَيْنَ مَقْدَارِهِ يَبْلُغُكُمْ هُوَ إِنْ آمَنْتُمْ وَلَا عَاجِلُكُمْ بِالْهَلَاكِ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ (٧) مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا لَا فَضْلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَلَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْنَا، فَلَمْ تَخْصُنِ بِالنُّبُوَّةِ دُونَنَا، وَلَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَى الْبَشَرِ رِسَالًا لَجَعَلَهُمْ مِنْ جِنْسٍ أَفْضَلَ مِنْهُمْ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ،

لَنْ شُكِرْتُمْ أَي: لَنْ شُكِرْتُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا خَوْلَتْكُمْ مِنْ نِعْمَةِ الْإِنْجَاءِ وَغَيْرِهَا مِنَ النِّعَمِ بِالْإِيمَانِ الْخَالِصِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نِعْمَةً إِلَى نِعْمَةٍ، وَلِإِضَاعِفِ لَكُمْ مَا آتَيْتَكُمْ ﴿وَلَنْ كُفِّرْتُمْ﴾ وَغَمَطْتُمْ مَا أَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لِمَنْ كَفَرَ نِعْمَتِي.

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفَرُوا أَنْتُمْ وَفِي الْأَرْضِ جَيْمًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنُفِّجَنَّكُمْ (٨).

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفَرُوا أَنْتُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ فَإِنَّمَا ضَرَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَحَرَمْتُمُوهَا الْخَيْرَ الَّذِي لَا بَدَ لَكُمْ مِنْهُ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ مُحَاوِجُونَ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِكُمْ ﴿حَمِيدٌ﴾ مُسْتَوْجِبٌ لِلْحَمْدِ بِكَثْرَةِ أَنْعَمِهِ وَأَيَالِيهِ وَلَنْ لَمْ يَحْمَدِهِ الْحَامِدُونَ.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩).

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جُمْلَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ وَقَعْتَ اعْتِرَاضًا، أَوْ عَطَفَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ اعْتِرَاضًا، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ مِنَ الْكَثْرَةِ بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ عَدَدُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَ عَنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ ثَلَاثُونَ أَبًا لَا يَعْرِفُونَ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: كَذَبَ النَّسَابُونَ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ عِلْمَ الْأَنْسَابِ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ عِلْمَهَا عَنْ الْعِبَادِ ﴿فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ (١) فَعَضُّوْهَا غِظًا وَضَجْرًا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كَقَوْلِهِ: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِظِ﴾ (٢) أَوْ ضَحَكًا وَاسْتَهْزَاءً كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحْكُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، أَوْ أَشَارُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَسْنَنَتِهِمْ وَمَا نَطَقَتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أَي: هَذَا جَوَابُنَا لَكُمْ لَيْسَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ إِقْنَانًا لَهُمْ مِنَ التَّصْدِيقِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَهَذَا قَوْلٌ قَوِيٌّ، أَوْ وَضَعُوهَا عَلَى أَقْوَاهُمْ يَقُولُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ: أَطْبِقُوا أَقْوَاهُمْ وَاسْكُتُوا، أَوْ رَدُّوْهَا فِي أَقْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ يَشِيرُونَ لَهُمْ إِلَى السَّكُوتِ، أَوْ وَضَعُوهَا عَلَى أَقْوَاهُمْ يَسْكُتُونَهُمْ وَلَا يَذَرُونَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ، وَقِيلَ: الْأَيْدِي جَمْعٌ يَدٌ وَهِيَ: النِّعْمَةُ بِمَعْنَى: الْإِيَادِي أَي:

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.

(3) سورة نوح، الآيات: 3 و4.

(4) سورة الأحقاف، الآية: 31.

(5) سورة الصف، الآية: 10.

(6) سورة الصف، الآية: 12.

(7) قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار، لا اعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون، كمتعقد القدرية، في تفضيل الملك على الرسول؛ لأنه يدعي ذلك أمراً مركزاً في الطباع، معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه، هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك؛ لأنَّ إقنابهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً، بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضماير الخطاب، وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد، وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ، ولا لتصميم الرسل كما سبته لإقنابهم من القبول، ألا ترى أنهم لما أعانوا للرسل القول، ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دلَّ على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولَنَّ
فِي يَدِنَا نَارًا وَنُحْمَ إِلَهُكُمْ لَكُلِّكُمْ أَتْلِيلِينَ ﴿١٧﴾ وَلَسَخْنَكُمْ الْأَرْضَ
مِنْ بَدَنِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَتَأَتَّى وَعِيدِ ﴿١٨﴾

والمراد بالارض ارض الظالمين وديارهم ونحوه:
«وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْفِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا» (2) «وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ» (3) وعن
النبي ﷺ: «من أذى جاره ورثه الله داره» (4) ولقد عاينت
هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي انا
منها ويؤذني فيه، فمات ذلك العظيم وملكتي الله ضيعته،
فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في
بورها ويخرجون ويأمرون وينهون، فنكرت قول
رسول الله ﷺ وحنثتهم به وسجدنا شكرًا لله ﴿ذلك﴾
إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وأسكان
المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر حق ﴿لمن خاف مقامي﴾
موقفي وهو: موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه
عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قياسي
عليه وحفظي لأعماله والمعنى: أن ذلك حق للمتين كقوله:
﴿والعاقبة للمتقين﴾ (5).

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٩﴾

﴿واستفتحوا﴾ واستنصروا على أعدائهم: ﴿إن﴾
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح (6) أو استحكموا الله وسألوهم
القضاء بينهم من الفتاحة وهي: الحكومة كقوله تعالى:
﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ (7) وهو معطوف على
أوحى إليهم، وقرئ: واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على
لنهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكن، وقال لهم:
استفتحوا ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ معناه: فنصروا
وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل:
واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم على الحق والرسول
على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح
باستفتاحه.

بَيْنَ رِجْلَيْهِ جَهَنَّمَ وَتُفَىٰ مِنْ مَّاءٍ سَكِينٍ ﴿٢٠﴾ يَنْزَجُرُهُمْ وَلَا
يَكَادُ يُسِيمُهُمْ وَيَأْتِيهِ الْكُورُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ
وَرَبِّ رِجْلَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢١﴾

﴿من ورائه﴾ من بين يديه قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم
فكانها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في
الآخرة حيث يبعث ويوقف.

وإنما أراوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُوكُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ
وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا مَآذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُوكُمُ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم لقولهم وأنهم بشر
مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فاما وراء
ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم ينكروا فضلهم تواضعاً
منهم واقتصروا على قولهم ﴿ولكن الله يامن على من
يشاء من عبيده﴾ بالنبوة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم
بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها لخصائص
فيهم قد استاثروا بها على أبناء جنسهم ﴿إلا بإذن الله﴾
أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في
استطاعتنا وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله ﴿وعلى الله﴾
فليتوكل المؤمنون ﴿أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل،
وقصدوا به أنفسهم قصد أولياء وأمروها به كأنهم قالوا:
ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معانئكم
ومعاداتكم وما يجري علينا منكم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما
لنا أن لا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأي عذر لنا في أن
لا نتوكل عليه ﴿وقد هدانا﴾ وقد فعل بنا ما يوجب تولكنا
عليه وهو: التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب
عليه سلوكه في الدين.

فَإِنْ قُلْتَ (1): كيف كَرَّرَ الأمر بالتوكل؟ قُلْتُ: الأول
لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ معناه:
فليتثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدتهم
إلى انفسهم على ما تقدم ﴿لنخرجنكم... أو لتعودن﴾
ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم
حالفين على ذلك.

فَإِنْ قُلْتَ: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها؟
قُلْتُ: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة وهو كثير في
كلام العرب كثرة فاشية، لا تكاد تسمعهم يستعملون صار
ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو
خاطبوا به كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب
الجماعة على الواحد ﴿لنهلكن الظالمين﴾ حكاية تقتضي
إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه،
وقرأ أبو حيوة: لنهلكن وليسكننكم بالياء اعتباراً لاوحي وإن
لفظه لفظ الغيبة ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولاخرجن.

(1) قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي من قتل قتيلًا، فله سلبه، والله أعلم.

(2) سورة الاعراف، الآية: 137.

(3) سورة الاحزاب، الآية: 27.

(4) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (303/2).

(5) سورة الاعراف، الآية: 128.

(6) سورة الانفال، الآية: 19.

(7) سورة الاعراف، الآية: 89.

المهلوفين، والإجارة وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجه برماد طيرته الريح العاصف ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْيَقِينُ إِنْ يَشَأْ يُدْجِبْكُمْ وَيَأْتِ بِحَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٨﴾.

﴿بالحق﴾ (2) بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة. وقرئ: خالق السموات والأرض ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْجِبْكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاماً باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدم يقدر على الشيء وجنس ضده.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٩﴾.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ (3) بمتعذر بل هو هين عليه يسير؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقنور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتهى الصارف تكون من غير توقف كتحرريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض لونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جِئِمًا فَقَالَ السَّمْعَوِيُّ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْشُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ هَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴿١٠﴾.

﴿ويرزقوا الله﴾ ويرزقون يوم القيامة، وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (4) ونادى أصحاب النار، ونظائر له، ومعنى: يبرؤهم الله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له، أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا الله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلْت: علام عطف ﴿ويسقى﴾؟ قلْت: على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾.

فإن قلْت: ما وجه قوله تعالى ﴿من ماء صديد﴾؟ قلْت: صديد عطف ببيان لماء قال: ويسقى من ماء فأبهمه إيهاماً ثم بينه بقوله: صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يتجرعه﴾ يتكلف جرعه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ دخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسبغه فكيف تكون الإسافة كقوله: ﴿لم يكاد يراها﴾ (1) أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ كان أسباب الموت وأصنافه كلها قد تآكلت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تظليماً لما يصيبه من الآلام وقيل: من كل مكان من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة ﴿ومن ورائه﴾ ومن بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوها أي: استمطروا، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا، فنكر سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوها على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأمهم.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ ﴿١١﴾.

وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سببويه تقديره: وفيما يقص عليك ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أعمالهم كرماد﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبدول، أو يكون أعمالهم بدلاً من مثل الذين كفروا على تقدير مثل أعمالهم وكرماد الخبر. وقرئ: ﴿الرياح في يوم عاصف﴾ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح، أو الرياح كقولك: يوم ماطر، وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها، وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة

(1) سورة النور، الآية: 40.

(2) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي، وقد تقدمت أمثاله.

(3) قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه =

= عن سمع المحققين العارفين بأدب الله تعالى، وبما يجب في حق جلاله وقد تقدم ما فيه كفاية.

(4) سورة الأعراف، الآية: 44.

النجاة كما سلكتنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية ونحوه: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾⁽⁶⁾ وروي: أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون سواء علينا.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله: ﴿سواء علينا﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصاله به من حيث أن عتابهم لهم كان جزءاً مما هم فيه فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم، أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنيا عنكم وأنجيناكم أتبعوه الإقنات من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أي: منجي ومهرب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً كانه قيل: قالوا جميعاً: سواء علينا كقوله: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه﴾⁽⁷⁾، والمحيص يكون مصدراً: كالمغيب، والشيب، ومكاناً كالمبيت، والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض بمعنى واحد.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَدَّكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ وَوَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْوَموني وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِغِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧).

﴿لما قضى الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه وهو الحساب، وتصادر الفريقين وبخول أحدهما الجنة وبخول الآخر النار، وروي: أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في

فإن قُلْتُ: لم كتب ﴿الضعفاء﴾ بواو قبل الهمزة؟ قُلْتُ: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿علموا بني إسرائيل﴾⁽¹⁾ والضعفاء: الاتباع والعوام. والذين استكبروا ساداتهم وكبرائهم الذين استتبعوهم واستغفروهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم ﴿تبعاً﴾ تابعين جمع تابع على تبع كقولهم: خادم وخدم، وغائب وغيب، أو نوي تبع، والتبع الاتباع يقال: تبعه تبعاً.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين من في ﴿عذاب الله﴾ وبينه في ﴿من شيء؟﴾ قُلْتُ: الأولى: للتبيين والثانية: للتبويض كانه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبويض معاً بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله أي: بعض بعض عذاب الله.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ قُلْتُ: (2) الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم وقولهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ من باب التبيكيت: لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرين على الإغناء عنهم فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم، بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آبأنا﴾⁽³⁾ ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾⁽⁴⁾ يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يوم يبيعهم الله جميعات فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾⁽⁵⁾ وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان، وقيل معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي: لأغنيا عنكم وسلكتنا بكم طريق

(1) سورة الأعراف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتعلة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتوا، وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق، حين حقت لهم الحقائق، وانكشف الغطاء، والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة، إذا حق عليهم العذاب، واعترفوا بالحق، وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما قطن الزمخشري لذلك، شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة، كما خطاهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشأ ما لا يكون، ويكون ما لا يشأه، ومن ذلك هداية الكفار، فإن الله تعالى يشأها في الدنيا، لكنها لم تكن، وأنه في الآخرة، وسيأتي الآية يصوب الكلام المذكور، وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويحذر إلى هذه الحسرة إذ لا ينفع كما ورد كلام الشيطان عقيب ذلك، حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه الندم إيمانه، فيقول: ﴿إن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الخ. وإنما سبق تحذيراً وإنذاراً إتفاقاً، والله =

= الموفق.

(3) سورة الانعام، الآية: 148.
(4) سورة النحل، الآية: 35.
(5) سورة المجادلة، الآية: 18.
(6) سورة الطور، الآية: 16.
(7) سورة يوسف، الآية: 52.

(8) قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى، على إبطال الانتحال؛ لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع، ولا متعذر، بقوله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه، وإن كان قاتله الشيطان، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه، وأية سلك، ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة، نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راى له، ولا مخطيء فيه للشيطان، كما اقتضى كلام الكفار في الآية الأولى كذلك، ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف، وأما الله تعالى، فمقدس عن ذلك، وحجته البالغة، وقضاه الحق، وذلك أننا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد، من الاختيار الذي يجده من نفسه عن تجانب طرفي الأفعال الإرادية =

بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرَكُمْ﴾⁽²⁾ ومعنى كفره بإشراككم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾⁽³⁾ وقيل: من قبل يتعلق بكفرت وما موصولة أي: كفرت من قبل حين أتيت السجود لأنم بالذي أشركتموني وهو: الله عز وجل، تقول: شركت زيداً فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركني فلان أي: جعلني له شريكاً ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخرن لنا، ومعنى: إشراكهم الشيطان بالله. طاعتهم له فيما كان يزيهه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وجل ما سيقله في ذلك الوقت ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات كقوله تعالى: ﴿وَحَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾⁽⁴⁾.

وَأَدْخَلَ الْأَيْتَانَ مَأْمُورًا وَعَمِلُوا الْمَلَائِكَةَ حَتَّى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا يَأْذَنُ رَبُّهُمْ فَيُخَوِّضُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٣٢﴾

وقرأ⁽⁵⁾ الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل الذين آمنوا: على فعل المتكلم بمعنى: وأدخل أنا، وهذا دليل على أنه من قول الله لا من قول إبليس ﴿يَأْذَنُ رَبُّهُمْ﴾ متعلق بأدخل أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتزم قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم بما بعده أي ﴿تَحْيِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَلَكًا كَيْفَهُ طَبِيبَةً كَشَجَرَةٍ طَبِيبَةٍ أَمْلَهَا نَائِبٌ وَرَعَاهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٦﴾ تَوَقَّ أَكْلَهَا كُلَّ يَوْمٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾

قرئ: ألم تر ساكنة الرء كما قرئ: من يتق، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضعوه و﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر أي: جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة

الاشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو: البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدْتُمْ﴾ خلاف ذلك ﴿فَاخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من تسلط وقهر فاقسركم على الكفر والمعاصي والجنح إليهما ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني وليس الدعاء من جنس السلطان ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب ﴿فَلَا تُلْومُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث اغتررت بي وأطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؟ قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُمْ فَاخْلَفْتُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾⁽¹⁾ ﴿وَمَا أَنَا بِمَصْرُوحٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمَصْرُوحٍ﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصرار الإغاثه. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قال لها هل لك يا تافئي قالت له مانت بالمرضي وكأنه قدر ياء الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ولكنه غير صحيح؛ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكانها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحزكت بالكسر على الأصل؟ قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي﴾ مصدرية و﴿مَنْ قَبْلُ﴾ متعلقة بأشركتموني يعني: كفرت اليوم

= كانت له في ذلك منبوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل: تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر أدخل بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن، يشعر بإضافة النحول إلى الوساطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

= ضرورة، وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلينا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذا بين عقيدة السنة، وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

- (1) سورة الحجر، الآية: 42.
- (2) سورة فاطر، الآية: 14.
- (3) سورة المعنعة، الآية: 4.
- (4) سورة يونس، الآية: 22.
- (5) قال أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والجاه إلى تعليقه بما بعده، وقد

قرار أي: استقرار، يقال: قر الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه من قولهم الباطل لجلج، وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُعْطِي اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيُعْطَى اللَّهُ مَا بَشَأَهُ (٧).

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأن إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل معناه: الثابت عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي» (٢)، فذلك قوله: **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** **ويضلل الله الظالمين** الذين لم يتمسكوا بحجة دينهم، وإنما اقتصرصوا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: **«إنا وجدنا آبائنا على أمة»** (٣) وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل **«ويفعل الله ما يشاء»** أي: ما توجه به الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخيلة بينهم وبين شانهم عند زلهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَارِ (٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَهَا الْقَرَارُ (٩).

بدلوا نعمة الله أي: شكر نعمة الله **كفرًا**؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر وبلوه تبديلًا، ونحوه: **«وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»** (٤) أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة

طيبة وهو: تفسير لقوله: ضرب الله مثلاً كقولك: شرف الأمير زيناً كسائه حلة وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب مثلاً وكلمة بضرب أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدا محذوف بمعنى هي: كشجرة طيبة **«أصلها ثابت»** يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها **«وفرعها»** وأعلاها ورأسها **«في السماء»** ويجوز أن يريد وفرعها على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها.

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس اجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالنسيحة، والتحميدة، والاستغفار والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والزمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمَنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «الا إنها النخلة» (١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة، وقوله: في السماء، معناه: في جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد: ارتفاعه وشموخه.

«تؤتي أكلها كل حين» تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لأثمارها **«بإذن ربها»** بتيسير خالقها وتكوينه **«لعلهم يتذكرون»** لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتنكير وتصوير للمعاني.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَنْجَرٍ خَيْبَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (١٠).

كشجرة خبيثة كمثل شجرة خبيثة أي: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب عطفًا على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل، والكشوث، ونحو ذلك، وقوله: **«اجتنت من فوق الأرض»** في مقابلة قوله: أصلها ثابت، ومعنى اجتنت: استوقضت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها **«ما لها من**

(١) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأحمد في مسنده 287/4 - 288.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: 22 و23.

(٣) سورة الواقعة، الآية: 82.

(١) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. (الحديث رقم: 4698)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: «مثل المؤمن مثل النخلة» (الحديث رقم: 7029).

ليقيموا، وليتفقوا ويكون هذا هو المقول. قالوا: وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة ويتفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز.

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟ قُلْتُ: على الحال أي: نوي سر وعلانية بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى: إخفاء المتطوع به من الصلوات والإعلان بالواجب. والخلال المخالة.

فإن قُلْتُ: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾؟ قُلْتُ: من قيل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلًا لياخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرًا منها، وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصًا كقوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى⁽³⁾ فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فيعتوا عليه لياخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالاة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: لا بيع فيه ولا خلال بالرفع.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٦) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٧) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُوا عَذَابَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهُمَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفُورٌ كَفَّارٌ (٣٨).

﴿الله﴾ مبتدا و﴿الذي خلق﴾ خبره و﴿من الثمرات﴾ بيان للرزق أي: أخرج به رزقا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج و﴿ورزقا﴾ حالا من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق ﴿بأمره﴾ بقوله: كن ﴿دالينين﴾ يدبان في سيرهما وإنارتاهما، ودرثهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات و﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفا لمعاشكم وسباتكم و﴿وآتاكم من كل ما

كفرا، على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبين النعمة موصوفين بالكفر حاصلا لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمة وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقا في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه، هم: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فاما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا حتى حين، وقيل هم: منتصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه و﴿واحلوا قومهم﴾ مما تابعهم على الكفر و﴿دار البوار﴾ دار الهلاك. وعطف ﴿جهنم﴾ على دار البوار عطف بيان.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٩).

قرئ: ليضلوا بفتح الياء وضمها.

فإن قُلْتُ: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ قُلْتُ: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد كما كان الإكرام في قولك: جثثك لتكرمني نتيجة المجيء، نخلته اللام وإن لم يكن غرضا، على طريق التشبيه والتقريب و﴿تمتعوا﴾ إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورين به قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرا لونه وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن تمتع على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة و﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه: ﴿قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾⁽¹⁾.

قُلْ لِيَبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُبَيِّرُوا الْآيَةَ وَيُتَّفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٤٠).

المقول محذوف؛ لأن جواب قل يدل عليه وتقديره ﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾⁽²⁾ اقيموا الصلاة وأنفقوا وقيموا الصلاة وينفقوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى:

(1) سورة الزمر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر؛ لأن الجواب حينئذ يكون خبرا من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول، امتثلوا مقتضاه، فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم، فلم يمثل كثير منهم، وخبر الله تعالى بجبل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين، على العلول عن هذا الوجه من الإعراب، مع تبادره فيما نكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب، لا على الاستفراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق، المنوّه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية، وكقوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ و﴿قل للمؤمنين

= يفخضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ و﴿قل للمؤمنات يفضضن من أبصارهم﴾ الثاني: تكرر مجيئه للموصوفين، بأنهم عباد الله المشرفون بإصافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا: إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز، إلا مدحه للمؤمنين، وخصوصا إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآية، هو من يصعد الامتثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصق، أما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(3) سورة الليل، الآيتان: 19 - 20

«من غشنا فليس منا»⁽²⁾ أي: ليس بعض المؤمنين على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم «ومن عصاني فإنك غفور رحيم» تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه ومن عصاني فيما بون الشرك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾

«من ذريتي» بعض أولادي وهم: إسماعيل ومن ولد منه «إبراهيم» هو: وادي مكة «غير ذي زرع» لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله: «قرأنا عربيا غير ذي عوج»⁽³⁾ بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم: لأن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه، أو لأنه لم يزل ممتعا عزيزا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أي: منع منه، كما سمي: عتيقا لأنه اعتق منه فلم يستول عليه «ليقيموا الصلاة» اللام متعلقة بأسكنت أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفع ومرتق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمره بترك وعبادتك، وما تعمر به مساجدك ومعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به، والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك «أفئدة من الناس» أفئدة من أئمة الناس، ومن للتبعيض ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل من لازحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون من للابتداء كقولك: القلب مني سقيم تريد: قلبي، فكانه قيل: أفئدة ناس وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتكثير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة وقرئ: أفئدة بوزن عافدة وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: أكر في أدور، والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفئدة الرحلة إذا عجلت أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: أفئدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفئدة «تهوي إليهم» تسرع إليهم وتهوي إليهم شوقا ونزاعا من قوله:

يهوي مزارعها هوي الأجل

وقرئ: تهوي إليهم على البناء للمفعول من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوي إليهم من هوى يهوي إذا أحب ضمن

سألتموه من للتبعيض أي: أتاكم بعض جميع ما سألتموه نظرا في مصالحكم، وقرئ: من كل بالتونين، وما سألتموه نفى ومحل نصب على الحال أي: أتاكم من جميع ذلك غير سائلي، ويجوز أن تكون ما موصولة على وأتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به، فكانكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال «لا تحصوها» لا تحصروها ولا تطيقوها عددا وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله «لظلم» يظلم النعمة بإغفال شكرها «كفار» شديد الكفران لها، وقيل: ظلم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس فيتناول الإخبال بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٨﴾

«هذا البلد» يعني: البلد الحرام زاده الله آمنا وكفاه كل باغ وظالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام «آمنا» ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: «اجعل هذا بلدا آمنا»⁽¹⁾ وبين قوله: «اجعل هذا البلد آمنا»؟ قلت: قد سال في الأول: أن يجعله من جملة البلاد التي يامن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كانه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنا «واجنبني» وقرئ: واجنبني وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، واجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبني واجنبني والمعنى: ثبتنا وأدنا على اجتناب عبادتها «وبني» أراد بني من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبثت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنما واحتج بقوله: «واجنبني وبني» «أن نعبد الأصنام» إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا: البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت، فكانوا يديرون بذلك الحجر ويسمونه: الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال: دار بالبيت.

رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْآثَارِ فَتَمَيِّ فَائْتِنِي مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

«إنهن أضللن كثيرا من الناس» فاعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات لأن الناس ضلوا بسببهن فكانهن أضللنهم كما تقول: ففتنتهم الدنيا وغرتهم أي: افتتنوا بها واغرتوا بسببها «فمن تبعني» على ملتي وكان حنيفا مسلما مثلي «فإنه مني» أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله:

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

= فليس منا (الحديث رقم: 279).

(2) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا» = (3) سورة الزمر، الآية: 28.

وَنَقَّالَ دَعَا ①.

على قوله: ﴿على الكبير﴾ بمعنى: مع كقوله.

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف وهو في موضع الحال معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبير. روي: أَنَّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما نكر حال الكبير لِأَنَّ المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلامها في نفس الظافر، ولأنَّ الولادة في تلك السنَّ العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال ﴿وبه هب لي من الصالحين﴾ (2) فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

فإن قلَّت: الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه؟ قلَّت: هو من قولك: سمع لك كلام فلان إذا اعتد به قبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كإنَّه لنبي يتغنَّى بالقرآن» (3).

فإن قلَّت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلَّت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء وقد نكر سيبويه فعيلًا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك: هذا ضروب زياد، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أمورًا، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعًا على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله ﴿ومن ذريتي﴾ وبعض ذريتي عطفًا على المنصوب في أجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أن يكون في ذريته كفرًا وذلك قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ (4) ﴿وتقبل دعائي﴾ أي: عبائتي ﴿واعترف لكم ما تدعون من دون الله﴾ (5).

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ①.

في قراءة أبي: ولأبوي، وقرأ سعيد بن جبير: ولوالدي على الأفراد يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولدي يعني: إسماعيل إسحاق، وقرئ: لولدي بضم الواو، والولد بمعنى: الولد كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد كاسد في أسد، وفي بعض المصاحف: ولذريتي.

فإن قلَّت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلَّت: هو من مجوزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط

معنى تنزع فعدتي تعديته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع سكانهم وأديًا ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذي زرع وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته عجيب، متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، وورزقنا طرقًا من سلامة ذلك القلب السليم.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ②.

النداء المكرر ليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إِنَّكَ تعلم ما تخفي وما نعلن﴾ تعلم السر كما تعلم العلن علمًا لا تفاوت فيه؛ لِأَنَّ غَيْبًا من الغيوب لا يحتجب عنك، والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك، وتخشعًا لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقارًا إلى ما عنك، واستعجالًا لنيل أياديك، وولها إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفة مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح فأراد أن يذكره، فقال: مثلك لا ينكر استقصارًا ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم قالت: أله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إنن لا نخشى تركتنا إلى كاف. ﴿وما يخفى على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وكنك يفلون﴾ (1) أو من كلام إبراهيم يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ومن للاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

أَلْحَدُ إِلَهُ الْأَلْهِ وَهَبْ لِي عَلَى الْكَفْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ③ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

(1) سورة النمل، الآية: 34.

(2) سورة الصافات، الآية: 100.

(3) رواه البخاري في كتاب: «فحائل القرآن» باب: «من لم يتغن» بالقرآن (الحديث رقم 5023) ومسلم في كتاب: «صلاة المسافرين»

= وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث رقم: 1842).

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

تقبل ببصرك على المرثي تديم النظر إليه لا تطرف
﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعيها ﴿لا يترد إليهم طرفهم﴾
لا يرجع إليهم أن يطوفوا بعيونهم أي: لا يطوفون ولكن
عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان، أو
لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء
الذي لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء
إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة، ويقال للأحمق
أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلم أن جؤجؤه هواء

لأن النعام مثل في الجبن والحق، وقال حسان:

فأنت مجوف تخب هواء

وعن ابن جريج: أقتلتهم هواء صفر من الخير خاوية
منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا
إِلَّا أَجَلَ قَرِيبٍ تُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَتَقَرَّبُ
مِن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ. (١١)

﴿يوم ياتيهم العذاب﴾ مفعول ثانٍ لأنذر وهو: يوم
القيامة ومعنى ﴿أخرنا إلى أجل قريب﴾: ردنا إلى الدنيا
وأهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه
من إجابة دعوتك واتباع رسلك، أو أريد باليوم يوم هلاكهم
بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات
ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم
ربهم إلى أجل قريب كقوله: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب
فاصق﴾ (٨) ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول
وفيه وجهان: أن يقولوا: نلك بطراً وأشرّاً ولما استولى
عليهم من عادة الجهل والفسف، وأن يقولوه بلسان الحال
حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً و﴿ما لكم﴾ جواب القسم
وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم، ولو حكى لفظ
المقسمين لقل: ما لنا ﴿من زوال﴾ والمعنى: أقسمتم أنكم
باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون
إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث كقوله: ﴿واقسموا بالله
جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ (٩).

وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ
كَيْفَ مَعَكُمُ يَوْمَ تَصْرَفُونَ لَكُمْ الْأَمْثَالُ. (١٢)

يقال: سكن الدار وسكن فيها ومنه قوله تعالى:
﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأن
السكنى من السكون الذي هو: اللبث، والأصل تعذيبه بفي
كقولك: قر في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل

الإسلام ويأباه قوله: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن
لك﴾ (١) لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال
فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى
فيه بإبراهيم؟ ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي: يثبت وهو
مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قوله: قامت
الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا
أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل، ويجوز أن
يسند إلى الحساب قيام أهله إنساناً مجازياً، أو يكون مثل:
﴿واسئل القرية﴾ (٢) وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما
سأل فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد
أمناً، وورق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في نريته
من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين
فلما قال إبراهيم: ﴿ربنا انني أسكنت﴾ (٣) الآية رفعها الله
فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم.

وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفَلًا عَمَّا يَفْعَلُ الْغَافِلُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَزِيدَ
تَنَجُّصَ فِيهِ الْأَبْصَرُ. (١٣)

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه
رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل ﴿ولا
تحسبن الله غافلاً﴾؟ قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ
ففيه وجهان: أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه
لا يحسب الله غافلاً كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ (٤)
﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ (٥) كما جاء في الأمر ﴿يا أيها
الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ (٦) والثاني: أن المراد
بالنهي عن حسبانته غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل
الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله
وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿والله بما
تعملون عليم﴾ (٧) يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه
يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب
عليهم المحاسب على التنقير والقطمير، وإن كان خطاباً
لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته فلا
سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم،
فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه.
وقرى: يؤخرهم بالنون والياء ﴿تشخص فيه الأبصار﴾
أي: أبصارهم لا تعرفي أماكنها من هول ما ترى.

مُطَهِّعِينَ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. (١٤)

﴿مطهعين﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإطعام أن

(٦) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(٨) سورة المنافقين، الآية: ١٠.

(٩) سورة النحل، الآية: ٣٨.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الانعام، الآية: ١٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٨٨.

لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٥) ثم قال: أرسله ليؤنن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلال المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرئ: مخلف وعده رسله بجرّ الرسل ونصب الوعد وهذه في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم ﴿عزیز﴾ غالب لا يماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَتَسْمَوَاتٌ وَيَرَوُّوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٨)

﴿يوم تبدل الأرض﴾ انتصابه على البديل من ﴿يوم ياتيهم﴾ (٦)، أو على الظرف للانتقام، والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السموات، والتبديل التغيير، وقد يكون في النوات كقولك: بئلت الدراهم ننانير، ومنه: ﴿بئلناهم جلوداً غيرها﴾ (٧) ﴿وبئلناهم بجنتيهم جنتين﴾ (٨) وفي الأوصاف كقولك: بئلت الحلقة خاتماً إذا انتبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى: ﴿فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسناً﴾ (٩) واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها، فتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير وأنشد:

وما للناس بالناس للذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم وتبدل السماء بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بلها أرض وسموات أخرى، وعن ابن مسعود، وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصاحف، وقرئ: يوم تبدل الأرض بالنون.

فإن قلّت: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قلّت: هو كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (١٠) لأن الملك إذا كان لواحد غلب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة.

وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١٩)

﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين، أو

إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي: قرؤا فيها وأطمأنوا طيبي النفوس سائرین سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحتثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فاعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: ونبين لكم بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٢١)

﴿وقد مكرؤا مكرهم﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استقرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لا يخلو إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه ياتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة فضررب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشنته، أي: وإن كان مكرهم مسوئ لإزالة الجبال معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (١) والمعنى: ومجال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثابتاً وتمكناً وتنصره قراءة ابن مسعود: وما كان مكرهم، وقرئ: لتزول بلام الابتداء على وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها، وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِلًا فِي دِينِهِ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٢٧)

﴿مخلف وعده رسله﴾ يعني: قوله: ﴿إنا لننصر رسلاً﴾ (٢) ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (٣).

فإن قلّت (٤): هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ قلّت: قدم الوعد ليعلم أنه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٤) قال أحمد: وفيما قاله نظر: لأن الفعل تقيد بمفعول، انقطع طلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل، باعتبار الموعود، حتى يكون نكر الرسل بائناً كالأجنبي، من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي نكره، بين تقديم نكر الرسل وتأخيرها، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني، إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية؛ لأنها وريت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به على

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩، سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٧) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٨) سورة سبأ، الآية: ١٦.

(٩) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(١٠) سورة غافر، الآية: ١٦.

= السنة الرسل، فالمهم في التهديد نكر الوعيد، وأما كونه على السنة الرسل، فنلك أمر لا يفت التخويف عليه، ولا بد حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكن الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ معطوف على محذوف أي: لينصحا و لينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ: و لينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعمله ﴿وليعلّموا﴾ إنما هو إله واحد لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أم الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر مكية

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝١

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة، وتذكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وآي قرآن مبين، كانه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢

قرئ: ربما وربتما بالتشديد وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فإن قلّت: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؛ قلّت: لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقيقه فكانه قيل: ربما ودّ.

فإن قلّت: متى تكون ودايتهم؟ قلّت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضاً باب من الودادة.

فإن قلّت⁽⁵⁾: فما معنى التقليل؟ قلّت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تنديمه ولا يقصصون

قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلليين وقوله: ﴿في الأصفاذ﴾ إمّا أن: يتعلق بمقرنين أي: يقرنون في الأصفاذ، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاذ: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخيل قد لاقى صفاداً يعضّ بساعده ويعظم ساق

سرايلهم من فطران ونفث وجوههم أنشأ ۝٥

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وقطران، بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأيهل فيطبخ فتحنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرارته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ومنتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندها منه إلا الاسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما نجيئنا من عذابه، وقرئ: من قطران والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآتي المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقى بوجهه سوء العذاب﴾⁽¹⁾ ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾⁽²⁾ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفئدة﴾⁽³⁾ وقرئ: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ۝٥

﴿ليجزى الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطبيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَذَا بَلَدٌ لَّنَّا بِيٍّ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّا هُوَ إِلَهُهُ وَيَذْكُرُوا لَوْلَا أَلَّا بِيٍّ ۝٦

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التذكير والموعظة يعني:

= نكره الزمخشري أنفأ من التنبيه بالابنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك: الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايتيه، أن يعود إلى عكسه، وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجنت حتى كنت تبخل حائلاً للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر بظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بأن المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

(1) سورة الزمر، الآية: 24.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) سورة الهزعة، الآية: 7.

(4) نكره ابن مريويه والواحدي نكره (الزليعي 2/205).

(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقدر المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أنني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على أناهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما =

وَقَالُوا يَكُونُ الْآلِيُّ نَزْلٌ عَلَيْهِ الْإِذْرُ إِنَّكَ لَمَعْمُورٌ ①.

قرأ الأعمش يا أيها الذي القى عليه الذكر، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾⁽²⁾ وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهمك مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها، ﴿فبشرهم بعذاب الأليم﴾⁽³⁾ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽⁴⁾ وقد يوجد كثيراً في كلام العجم والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذكر.

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ②.

لو ركبت مع لا وما لمعنيين، معنى: امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى: التخصيص، وأما هل فلم تتركب إلا مع لا وحدهما للتخصيص. قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما للدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصديق ويعضونك على إنذارك كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾⁽⁵⁾ أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كنت تأتي الأمم المكذبة برسلاها.

مَا نَزَّلَ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا تُنظِرِينَ ③.

قرئ: تنزل بمعنى: تنزل وتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ونزل الملائكة بالنون ونصب الملائكة ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصديق النبي ﷺ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾⁽⁶⁾ وقيل: الحق الوحي أو العذاب و ﴿إِذَا﴾ جواب وجزاء، لأنه جواب لهم، وجزاء لشروط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما آخر عذابهم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ④.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾⁽⁷⁾ رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾⁽⁸⁾ ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والباتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظ في كل وقت من كل زيادة ونقصان

تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل؛ لأن العقلاء يتحذرون من التعرض للغم المظنون كما يتحذرون من المتيقن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودانهم، وإنما جاء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك: حلف بالله ليفعلن، ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنا مسلمين لكان حسناً سيئاً، وقيل: تدهشهم أهوال تلك اليوم فيبقون مبهورين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلذلك قل.

ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُهْمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُرُونَ ⑤.

﴿ذرهم﴾ يعني: اقطع طمعك من أرواثهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتنكرة والنصيحة وخلصهم ﴿يأكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيراً ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم عن أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاناة ما ينذرون به حين لا ينفهم الوعد، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك، فامر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعيم وما يؤدي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كَكَاَبٍ مَعْلُومٍ ⑥ مَا تَسْقُ مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ ⑦.

﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مَنذُورٌ﴾⁽¹⁾ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب كتاب ﴿معلوم﴾ مكتوب معلوم، وهو: أجلها الذي كتب في اللوح وبين، ألا ترى إلى قوله ﴿وما تسبق من أمة أجلها﴾ في موضع كتابها وإنث الأمة أولاً ثم نكرها آخرًا حملاً على اللفظ والمعنى، وقال: ﴿وما يستأخرون﴾ بحذف عنه؛ لأنه معلوم.

(7) قال أحمد: ويحتمل أن يراد: حفظه مما يشينه، من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى، وذلك أيضاً من الدليل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

(8) سورة الحجر، الآية: 6.

(1) سورة الشعراء، الآية: 208.

(2) سورة الشعراء، الآية: 27.

(3) سورة آل عمران، الآية: 21.

(4) سورة هود، الآية: 87.

(5) سورة الفرقان، الآية: 7.

(6) سورة الحجر، الآية: 85.

إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارَنَا بَلْ عَن قَوْمٍ مُّسْكِرُونَ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿٦﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٧﴾

قرئ: يعرجون بالضم والكسر و «سكرت» حيرت أو حبست من الأبصار من السكر، أو السكر، وقرئ: سكرت بالتخفيف أي: حبست كما يحسب النهر من الجري، وقرئ: سكرت من السكر أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوههم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها وراوا من العيان ما راوا لقالوا: هو شيء نتخيله لا حقيقة له، ولقالوا: قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك، وذكر الظلول لجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَفَ اسْتَعَفَّ فَإِنَّهُمْ يَبْأُتُونَ ﴿٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا زُرًى وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونَ ﴿٩﴾

«من استرق» في محل نصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها «شهاب مبین» ظاهر للمبصرين «موزون» وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أوله وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.

وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ ﴿١٠﴾

«معاش» بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح البياء فيها خطأ، والصواب الهمزة أو إخراج البياء بين بين، وقد قرئ: معاش بالهمز على التشبيه «ومن لستم له برازقين» عطف على معاش أو على محل لكم كانه قيل: وجعلنا لكم فيها معاش وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو وجعلنا لكم معاش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرزاق

وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأخبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

فإن قلت: فحين كان قوله: «إنا نحن نزلنا الذكر» رداً لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قوله: «وإنا له لحافظون»؟ قلت: قد جعل ذلك ليلياً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواء، وقيل: الضمير فيه له لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: «والله يعصمك» (١).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾

«في شيخ الأولين» في فرقهم وطوائفهم، والشبهة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم.

«وما ياتيهم» حكاية حال ماضية؛ لأن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾

يقال: سلك الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: نسلكه والضمير للذكر أي: مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر في «قلوب المجرمين» (٢) على معنى: أنه يلقيه في قلوبهم مكتباً مستهزأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلثيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللاثام تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مربودة غير مقضية، ومحل قوله: «لا يؤمنون به» نصب على الحال أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: «كذلك لنسلكه» «سنة الأولين» طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسولهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ بِهَرَجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا

= وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم وقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاهما إلى الإيمان، بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء، ويخرج بهم إليهم، حتى يدخلوا منه نهاراً، وإلى ذلك أشار بقوله: «فظلوا» لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: «إنما سكرت أبصارنا» وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فاسجل عليهم بذلك أنهم لا عثر لهم في التكتيب من عدم سماع، ووعي، ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين؛ لأن ذلك كله حاصل لهم، وإنما بهم فعناد، واللد، والإصرار لا غير، والله أعلم.

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين، بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائهم، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين، فكتب به هؤلاء، وصنق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة، بأنهم فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فاعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة، وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين، باغين، غير معترفين، والله أعلم، ولذلك عقبه الله تعالى بقوله: «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» أي: هؤلاء فهموا القرآن، =

الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدًا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجعياً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا انتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصور من سنة الوجه، وقيل: المصوب المفرغ أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها، وقيل: المنتن من سنتت الحجر على الحجر إذا حكته به فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتناً ﴿من حمأ﴾ صفة لصلصال أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ، وحق ﴿مسنون﴾ بمعنى: مصور أن يكون صفة لصلصال كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف فيبس، حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا مِنْ نَارِ الْآسْفُورِ (٧).

﴿والجان﴾ للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمر بن عبيد: والجان بالهمز ﴿من نار السموم﴾ من نار الحر الشديد النافذ من المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجان.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (٨) إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعَا لَهُ سَجِيدٌ (٩) نَسَجَ الْإِنْسَانُ كَلْبًا (١٠) إِلَّا إِلِيلِسَ أَفَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ (١١).

﴿إذ قال ربك﴾ وانكر وقت قوله: ﴿سويته﴾ عدلت خلقته واكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها، ومعنى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغلب كقولك: رأيتهم إلا هذا و ﴿أبى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه ولكن إبليس أبى. قَالَ يَكْبُلُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ (١٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَاسْجِدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَنِي مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (١٣).

حرف الجر مع أن محذوف وتقديره ﴿ما لك﴾ في ألا تكون مع الساجدين بمعنى أي غرض لك في إياك السجود وأي داع لك إليه؟ اللام في ﴿لا تسجد﴾ لتأكيد التثني ومعناه: لا يصح مني وينافي حالي ويستحيل أن أسجد لبشر.

يرزقهم وإياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة مما الله رزقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرارقون، ولا يجوز أن يكون مجزواً عطفاً على الضمير المجزور في لكم؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجزور.

وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِإِذْنِ مَلَكُوتٍ (١٤). نكر الخزائن تمثيل والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيهِ إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلح له، فضرِبَ الخَزَائِنُ مثلاً لاقتداره على كل مقهور.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِعَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالْتَمَثَ كُفُوًا وَمَا أَنشُرْ لَهُ يَحْدِرِينَ (١٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَبُيُوتُ رَعَى الْوَارِثُونَ (١٦).

﴿لواقيح﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الرِّيحَ لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحب ماطر كما قيل: للتي لا تأتي بخير ربح عقيم، والثاني: أن اللواقيح بمعنى الملاقح كما قال: ومختبب مما تطيح الطوايح

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: وأرسلنا الرِّيحَ على تأويل الجنس ﴿فاسقيناكموه﴾ فجعلنا لكم سقياً ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم ما أثبت لنفسه في قوله: ﴿ولأن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (١) كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم ﴿ونحن الوارثون﴾ أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فئانه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «واجعله الوارث مناء» (٢).

وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْتَنَزِّيِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْتَنَزِّيِينَ (١٧) وَإِنَّ رَبَّكَ مُرَبِّ السَّمَوَاتِ الْأَرْوَاحِ (١٨) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْتَنَزِّيِينَ (١٩) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْتَنَزِّيِينَ (٢٠).

﴿ولقد علمنا﴾ من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي: أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ فكان بعض القوم يستقدم لثلاً ينظر إليها وبعض يستأخر ليحصرها (٣) فنزلت ﴿هو يحشرهم﴾ أي: هو وحده القادر على حشرهم والعالم بحصرهم مع إقراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (٢١).

(1) سورة الحجر، الآية: 21.

(2) رواه الترمذي في كتاب: «الدعوات» باب (80) (الحديث رقم: 3502)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (الحديث رقم: 404) والحاكم في المستدرک 528/1.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (الحديث رقم: 3122)، والنسائي في كتاب: الإمامة، باب المنفرد خلف الصف، (الحديث رقم: 870).

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعلم فيهم ولا يقبلون منه. أي «هذا» طريق حق «علي» أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ: علي؛ وهو: من علو الشرف والفضل.

وَلَا جَهَنَّمَ لَكُمْ مِنْكُمْ أَمْيَنَ ﴿٤٦﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ ﴿٤٧﴾

﴿لموعدهم﴾ الضمير للغاوين، وقيل: أبواب النار أطاقها وأراكمها، فاعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين والخامس للمجوس، والسادس للمشرىكين، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولطى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام، وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: جزء بالتخفيف والتثقيل، وقرأ الزهري: جَزَّ بالتشديد كأنه حنف الهمة واللقى حركتها على الزاي، كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَثَنُونَ ﴿٤٨﴾ اتَّخَذُوا ذِينَهُمْ مَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَبْتًا ﴿٤٩﴾ لَا يَرْزَعْنَ مَا فِي بُحُورِهِمْ مِن شَيْءٍ إِذْ يَخِرُّونَ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٠﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ مَّا هُمْ فِيهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥١﴾

المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم نوب تكفرها الصلوات وغيرها ﴿اتخلوها﴾ على إرادة القول، وقرأ الحسن: اتخلوها ﴿بسلام﴾ سالمين أو مسلمًا عليكم، تسلم عليكم الملائكة. الغل الحقد الكامن في القلب من أنغل في جوفه وتغلغل أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر، نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحرث الأعور: كنت جالسًا عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علي: مرحبًا بك يا ابن أخي أما والله إنني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ فقال له قائل: كلا الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أم لك، وقيل معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسنوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غل، والقى فيها التواء والتحاب و﴿إخوانًا﴾ نصب على الحال و﴿على سرر متقابلين﴾ كذلك، وعن مجاهد: تنور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

قَالَ فَاتَّخِذْ مِنْهَا مَا يَكَدُ رَجِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِذَا يَوْمَ الْآزِينِ ﴿٥٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ ﴿٥٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ النَّظَرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذَا يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٥٦﴾

﴿رجيم﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرحم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في منها راجع إلى الجنة، أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حدًا للعنة إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم كقوله: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾^(١) في التأييد، وإما أن يراد أنك منموم مدعو عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه. ويوم الدين، ويوم يبعثون، ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنتظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لثلا يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك وأنظر إلى آخر أيام التلكيف.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيَّ الْوَقْتُ مَطَرًا ﴿٥٧﴾ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيَّ الْوَقْتُ مَطَرًا ﴿٥٨﴾ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيَّ الْوَقْتُ مَطَرًا ﴿٥٩﴾

﴿بما أغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدريه وجواب القسم ﴿لأزوين﴾ المعنى: أقسم بإغواذك إياي لأزوين لهم، ومعنى إغواك إياه: تسببه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام فأقضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به ونحو قوله: ﴿بما أغويتني لأزوين﴾ لهم قوله: ﴿فبعزتكم لأغوينهم أجمعين﴾^(٢) في أنه إقسام إلا أن أحدهما: إقسام بصفته والثاني: إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز أن لا يكون قسمًا يقدر قسم محنوف ويكون المعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأقعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسبب لإغوائهم بأن أزين لهم المعاصي، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿في الأرض﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى: ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾^(٣) وأراد أنني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأننا علي التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد لأجعل مكان التزيين عندهم الأرض، ولأقنع تزييني فيها، أي لأزينها في أعينهم، ولأحسنتهم بأن الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحيوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها، ونحوه: يجرح في عراقبها نصلي،

كقوله: ﴿لَا يَبِشُّسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) يعني: لم استنكر تلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أَنْبِئُكَ بِشَيْءٍ عَظِيمٍ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَا لَوْ لَوْ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾

فإن قُلْتُ: (٢) قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا لَوْ لَوْ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ استثناء متصل أم منقطع؟ قُلْتُ: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعاً؛ لأنَّ القوم موصوفون بالإجراء فاختلف لذلك الجنس، وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين فيكون متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجمعوا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

فإن قُلْتُ: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قُلْتُ: نعم وذلك أنَّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأمّا في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أنَّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول.

فإن قُلْتُ: فقوله: ﴿إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ﴾ بم يتعلق على الوجهين قُلْتُ: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط؛ لأنَّ المعنى لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: إنا لمنجوه.

إِلَّا أَمْرَانَهُ مَذَرْنَا إِنَّمَا لَيْسَ الْفَتِيرُ ﴿٦٠﴾

فإن قُلْتُ: فقوله: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾ مم استثنى؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ قُلْتُ: استثنى من الضمير المجزور في قوله: لمنجوه، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأنَّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا أمراته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً إلا اثنين إلا واحدة، وفي قول المقر لفلان: علي عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا برهماً، فأما في الآية فقد اختلف الحكماء؛ لأنَّ آل لوط متعلق بآرسلنا أو بمجرمين، وإلا أمراته قد تعلق بمنجوه، فإني يكون

﴿يَنْفَعُ عِبَادَهُ أَيُّ أَنَا الْفَقِيرُ الرَّحِيمُ﴾^(٤) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَكَادِبُ الْأَكْبَرُ ﴿٥١﴾ وَتَبِعْتَهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِزْهَمَ ﴿٥٢﴾

لما أتم نكر الوعد والوعيد اتبعه ﴿نَبِيَّ عِبَادِي﴾ تقرير لما نكر وتمكيناً له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب وعذابه لمن لم يتب وعطف ﴿وَنَبِيَّهُمْ﴾ على ﴿نَبِيَّ عِبَادِي﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنَّ عذابه هو العذاب الاليم.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ رِجَالٌ ﴿٥٣﴾

﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الاكل، وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن: لا توجل بضم التاء من أوجله يوجلّه إذا أخافه، وقرئ: لا تاجل، ولا توجل من واجله بمعنى: أوجلّه.

قَالُوا لَا تَزَلْ إِنَّا نَشْرُكَ بِشَرِّكَ بِشَرِّ عِلْمٍ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَنْتُمْ كُفَرَاءٌ أَنْ سَأَى الْكَبِيرَ لَيْمَ تَبْشُرُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا بَشْرُكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِئِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٧﴾

وقرئ: نبشرك بفتح النون والتخفيف ﴿إِنَّا نبشرك﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعني ﴿ببشروني﴾ مع مس الكبير بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبير ﴿فبم تبشرون﴾ هي: ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشرونني! أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنَّ البشارة بمثل هذا بشاراة بغير شيء، ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد والبشارة به لا طريقة لها في العادة.

وقوله: ﴿ببشرك بالحق﴾ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة أي: ببشرك باليقين الذي لا لبس فيه، أو ببشرك بطريقة هي حق وهو: قول الله، ووعده، وأنه قاهر على أن يوجد ولداً من غير أبوين، فكيف من شيخ قان وعجوز عاقر؟ وقرئ: تبشرون بفتح النون وبكسرهما على حذف نون الجمع، والأصل تبشرون وتبشرون بإدغام نون الجمع في نون العماد. وقرئ: من القنطين من قنط يقنط. وقرئ: ومن يقنط بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون

(١) سورة يوسف، الآية: 87.

(٢) قال أحمد: وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أنَّ في استثناءهم من الضمير العائد على قوم منكبين بعداً، من حيث أنَّ موقع الاستثناء إخراجاً ما لولاء، لنخل المستثنى في حكم الأول، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى =

= منها، إلا في سياق نفي؛ لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زبداً، وحسن ما رأيت أحد إلا زبداً، والله أعلم.

(٣) سورة الذاريات، الآية: 36.

استثناء من استثناء؛ وقرئ: لمنجوهم بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: لَمْ جاز تعليق فعل التقدير في قوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ إنها لمن الغابرين⁽²⁾، والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قُلْتُ: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم.

فإن قُلْتُ: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله؟ قُلْتُ: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: ببرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدير والأمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه، وقرئ: قدرنا بالتخفيف.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ تَوْمٌ شَكُرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا لَا يَجْنُكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿متمكرون﴾ أي: تتكرم نفسي وتنفّر منكم، فأخاف أن تطرّقوني بشر بلبيل قوله: ﴿بَلْ جَنَّاتِكُمْ بَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ما جنّاتكم بما تتكرّمنا لأجله بل جنّاتكم بما فيه فركح وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه ويكذبونك.

وَأَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَرَأَيْنَا الْمَآثِرَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٦٩﴾ فَطَعْنُوا فِي الْأُخُلِ وَأَنْجَحُوا آبَاءَهُمْ وَلَا يُؤْنَسُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْشَوْا فِي مَعْمَرُونَ ﴿٧٠﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفَصَّحِينَ ﴿٧١﴾.

﴿بالحق﴾ باليقين من عذابهم ﴿وإننا لصادقون﴾ في الإخبار بنزوله بهم. وقرئ: فأسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى، وروي صاحب الإقليد: فسر من السير. والقطع في آخر الليل قال:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهم
وقيل: هو بعدما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قُلْتُ: ما معنى أمره باتباع آدابهم⁽²⁾ ونهيه عن الالتفات؟ قُلْتُ: قد بعث الله الهلاك على قومه ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من

الاجتهاد في شكر الله وإدماة نكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لثلاث يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحنورة، ولثلاث يتخلف منهم أحد لغرض له فيصبيه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به⁽³⁾، ونهوا عن الالتفات لثلاث يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أخادعه كما قال:

تلفت نحو الحي حتى وجبتني وجعت من الإصغاء ليئناً وأخذنا
أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأنّ من يلفت لا بدّ له في ذلك من أننى وقفة ﴿حيث تؤمرون﴾ قيل: هو مصر، وعدي، وأمضوا إلى حيث، تعديته إلى الطرف المبهم؛ لأن حيث مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في تؤمرون وعدي قضينا بالي؛ لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً وفسر ﴿ذلك الأمر﴾ بقوله: ﴿إن دابر هؤلاء مقطوع﴾ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: إن بالكسر على الاستثناف كأن قائلًا قال: أخبرنا عن ذلك الأمر؟ فقال: إن دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إن دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعني: يستاصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

وَبَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِيرُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا عَنْ نَجْمِ رَبِّهِمْ وَكَأَنَّ اللَّهَ وَآلَهُ عَنِ النَّجْمِ ﴿٧٣﴾ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا قَبْلَ هَؤُلَاءِ لَا نَعْلَمُ لَكَ بِيَوْمِئِذٍ سُلَيْمٌ ﴿٧٤﴾.

﴿أهل المدينة﴾ أهل سدوم التي ضرب بقاضيهام المثل في الجور مستبشرين بالملائكة ﴿لا تقضحون﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أسى إلى ضيفه أو جاره فقد أسى إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم ﴿ولا تخزون﴾ ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي وهو: الهوان، أو ولا

= غير محكى عن الملائكة، وهو الظاهر، فإن الذي يجعله من قول الملائكة، يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك ببرنا كذا، وإنما يعنون ببر الملك وأمر وبذلك أوله الزمخشري، وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل؛ لأنه إذا جعل ﴿قدرنا﴾ بمعنى علمنا ﴿إنها لمن الغابرين﴾ فلا غرور في علم الملائكة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ول بعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، حيث تقدم قومه، فقال: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ والله أعلم.

(3) قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها، آداب المسافرين لهم ديني أو دنيوي من الأمر والمأمور، والتابع والمتبوع، ما فرطنا في الكتاب من شيء.

(1) قال أحمد: وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أنّ الأمر أنف؛ لأنهم لا يعتقدون أنّ الله تعالى مرید لأكثر أفعال عبده، من معصية ومباح ونحوهما، ولا مقتر لها على العبد بمعنى أنه مرید، ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدلل على أنّ التقدير هو العلم، بتعليق فعله على العلم، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره، وبقه فطنته في ابتغاء السنة بلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلفقها، وفي كلامه شاهد على رده، فإنّ التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر، أن يبقى على معناه الأصلي مضافاً إليه المعنى الطارىء، فنفيد بها جميعاً، فالتقدير إذاً كما أقاد العلم الطاريء، بفيد الإرادة أصلاً ووضعاً، والله أعلم على أنّ من الناس من جعل قوله تعالى: ﴿قدرنا﴾ منها من الغابرين، من كلامه تعالى =

وَلَا كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَأَعْلَيْنَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتَضْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَكِيَامُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أصحاب الأيكة﴾ قوم شعيب ﴿وإنهما﴾ يعني: قرى قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة، ومبين؛ لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما، فلما نكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما ﴿لبإمام مبين﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق، ومطمّر البناء، واللوح الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجِزِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا كَاذِبُونَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَتَّبِعُونَ مِنَ الْقِبَالِ يَبُوتًا مَّارِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

﴿أصحاب الحجر﴾ ثمود والحجر واليهيم، وهو بين المدينة والشام ﴿المرسلين﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حنناً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء، ثم زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها⁽⁴⁾. ﴿أمنين﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء، وحوادث الدهر، أو أمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميمهم منه ﴿وما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

وَمَا عَلَّمْنَا السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَرَبِّ السَّاعَةِ لَآيَةً فَاصِّحْ فَاصْغِ الصَّخَرُ الْجَبِلُ ﴿٨٥﴾

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثاً، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وإن الساعة لآتية﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فاصصح﴾ فاعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعرافاً جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف، ويجوز أن يراد به المخالفة فلا يكون منسوخاً.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ الذي خلقك وخلقهم وهو ﴿العليم﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينهم، وهو يحكم بينكم، أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أن الصبح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح، وفي مصحف أبي، وعثمان: إن ربك هو

تشوروا بي من الخزاية وهي الحياء ﴿عن العالمين﴾ عن أن تجبر منهم أحداً أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرض له فأوعده وقالوا: ﴿لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾⁽¹⁾ وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط ﴿هؤلاء بناتي﴾ إشارة إلى النساء؛ لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونسأؤهم بناته فكانه قال لهم: هؤلاء بناتي فأنكحوهن واخلو ابني فلا تتعرضوا لهم ﴿إن كنتم فاعلمين﴾ شك في قبولهم لقوله كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله لهن ما حرم.

لَمَّا تَرَكَ إِبْرَاهِيمُ لِنِى سَكْرَتِهِمْ يَسْمُرُونَ ﴿٧٦﴾

﴿لعمرك﴾ على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط عليه السلام لعمرك ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم، وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يعمهمون﴾ يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على السننهم ولذلك حنفوا الخبر، وتقديره لعمرك مما أقسم به، كما حنفوا الفعل في قولك: باله، وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم.

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سُلَاطِينَ وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأَشْرَافِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا لَنَسِيطِلُ مُبِينٍ ﴿٨٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿مشرقين﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿من سجيل﴾ قيل: من طين عليه كتاب من السجل ولبيله قوله تعالى: ﴿حجارة من طين﴾ مسومة عند ربك⁽²⁾ أي: معلمة بكتاب ﴿للمتوسمين﴾ للمتفرسين المتأملين، وحقيقة المتوسمين النظار المتنبئون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي: عرفت وسمه فيه. والضمير في ﴿عليها سافلها﴾ لقرى قوم لوط ﴿وإنها﴾ وإن هذه القرى يعني: آثارها ﴿لبسبيل مقيم﴾ ثابت يسلكه الناس لم ينرس بعوهم ييصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقرئش كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾⁽³⁾.

(4) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: نزول النبي ﷺ الحجر

(المحدث رقم: 4419).

(1) سورة الشعراء، الآية: 167.

(2) سورة الذاريات، الآيتان: 33 - 34.

(3) سورة الصافات، الآية: 137.

الخالق، وهو يصلح للقليل والكثير، والخالق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب وقطع الثوب والثياب.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَائِدِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

﴿سَبْعًا﴾ سبع آيات وهي: الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنها في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي: الأسباع و﴿المثاني﴾ من التثنية وهي التكرير؛ لأنَّ الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لاشتمالها أعلى ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية، وأما السور أو الأسباع: فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء كانها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى، وصفاته الحسنى، و﴿من﴾ إمّا: للبيان، أو للتبعيض: إذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال، والبيان: إذا أردت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني لأنها تثني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها.

فإن قُلْتُ: كيف صحَّ عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على السبع؟ وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قُلْتُ: إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءه ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾^(١) يعني: سورة يوسف، وإذا عني الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني، والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النوعين وهو: الثناء، أو التثنية، والعظم. أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له.

لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُم وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَارْتَضِ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أصنافاً من الكفار.

فإن قُلْتُ^(٢): كيف وصل هذا بما قبله؟ قُلْتُ: يقول لرسوله ﷺ قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي: القرآن العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تملنَّ عينيك إلى متاع الدنيا، ومنه الحديث: ليس منا من لم يتغن بالقرآن^(٣). وحديث أبي بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما

أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا^(٤). وقيل: وافت من بصرى وأنزعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البن والطيب والجوهر وسائر الامتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولانفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم إنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتفع بهم المؤمنون. وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُتْنِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَاءُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

﴿وقل﴾ لهم ﴿إني أنا النذير المبين﴾ أنذركم ببيان وبرهان: أن عذاب الله نازل بكم.

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿كما أنزلنا﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾^(٥) أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ حيث قالوا بعنادهم وعنوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاققسموه إلى حق وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم: سحر وشعر وأساطير بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: وأنذر قريباً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود وهو: ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو: من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير أي: أنذر المعصيين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم: الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعقوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ،

= والله الموفق.

(3) رواه البخاري في كتاب: «التوحيد» باب: قول الله تعالى: «واسرودا قولكم» (الحديث رقم: 7527).

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، ورواه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عدي في الكامل عن ابن مسعود 218/2.

(5) سورة الحجر، الآية: 87.

(1) سورة يوسف، الآية: 3.

(2) قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حملة كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن تغني إمّا يبنى من الغناء المملود، لا من الغنى المقصور، وإن فعله استغني خاصة، وقد وجدت بناء تغني من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخيل، وأما التي هي ستر، فربطها تغنياً وتغفلاً، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعاً واتفاقاً، وهو مصدر تغني، فدل على ذلك على أنه مستعمل من البنامين جميعاً، على خلاف دعوى المخالفين =

بدر، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبة فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف الحرث بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (4).

وَلَقَدْ مَلَأْنَاكَ نَبِيُّكَ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ سَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعِذْ بِرَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾.

﴿بما يقولون﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن ﴿فسبح﴾ فافزع فيما نابك إلى الله، والفرع إلى الله هو: الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك ﴿حتى ياتيك اليقين﴾ أي: الموت أي: ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (5).

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ» (6).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل مكية

أَنَّا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كانوا يستعجلون ما وعوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكديباً بالوعد فقيل لهم: ﴿أتى أمر الله﴾ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ﴿فلا تستعجلوه﴾ روي: أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فامسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ (7) فاشفقوا وانتظروا قريباً فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به. فنزلت: ﴿أتى أمر الله﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾ فاطمأنوا، وقرئ: تستعجلوه بالتاء والياء ﴿سبحانه وتعالى عما

يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فاهلكهم الله يوم بدر، وقبله بأفات كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا إلى الرهط الذين تقاسموا على أن يبينوا صالحاً عليه السلام، والاقتسام بمعنى: التقاسم.

فإن قلت: إذا عقلت قوله: ﴿كما أنزلنا﴾ بقوله: ﴿ولقد أتيناك﴾ (1) فما معنى توسط ﴿لا تمدن﴾ (2) إلى آخره بينهما؟ قلت: لما كان ذلك تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية، من النهي عن الالتفات إلى نبياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين. عشرين: أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضى

وقيل: هي فعلة من غضهته إذا بهته، وعن عكرمة: العضة السحر بلغة قريش يقولون للساحر: عاضة، ولعن النبي ﷺ: «العاضة والمستعضة» (3) نقصانها عن الأول واو وعلى الثاني هاء.

وَرَبِّكَ لَنَسْتَأْذِنَهُ أَجْمِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾.

﴿لنستأذنه﴾ عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

فَأَصْدَعَ بِمَا تَأْمُرُ وَأَعْرَضَ عَنِ التَّشْرِكِينَ ﴿١٤﴾.

﴿فأصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحة إذا تكلم بها جهاراً كقولك: صرح بها من الصديق وهو: الفجر، والصدع في الزجاجة الإبانة، وقيل: فأصدع فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

إِنَّا كُنَّاكَ السَّهْرَيْنِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر نوء أسنان، وشرف الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلائة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل

(5) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «وقت قيام النبي ﷺ من الليل» (الحديث رقم: 1319).

(6) نكره الثعلبي والواحدي في تفسيره وابن مروي الزليعي 221/2.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 1.

(1) سورة الحجر، الآية: 87.

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 141/3 (الحديث رقم: 5090).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

الإنسان والأنعام ثم قال: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والنفاء اسم ما ينفى به كما أن الماء اسم ما يملأ به وهو: النفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: دف بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿وَمَنَافِعَ﴾ هي: نسلها ودرهما وغير ذلك.

فإن قُلْتُ: تقديم الظرف في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مؤنن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها؟ قُلْتُ⁽⁴⁾: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكثير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحب والشمار التي تأكلونها منها، وتكتسبون بأكراء الإبل وتبيعون نتاجها والبانها وجلودها.

وَلَكُمْ فِيهَا جَبَالٌ حِينَ تَرْحَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ⁽⁵⁾.

من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاشها؛ لأن الرعيان إذا رَوَّحُوا بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإزاحتها وتسريحها الألفية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ﴿يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: لم قدمت الإراحة على التسريح قُلْتُ: لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حيناً تريحون وحيناً تسرحون على أن تريحون وتسرحون وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه كقوله تعالى: يوم لا يجزى والد.

وَيَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ إِلَىٰ يَئِسَ لَكُمْ بِلَيْفِهِ إِلَّا يَشِقُ الْأَنْفُسُ⁽⁷⁾ إِنَّ زَكَّامَكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ⁽⁸⁾.

قرئ: يشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى: المشقة، وبينهما فرق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقاً وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ﴾ كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم؟ قُلْتُ: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغية في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم

يشركون، تبرأ عن أن يكون له شريك وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أن ما موصولة أو مصدرية.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قُلْتُ: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ⁽⁹⁾.

قرئ: ينزل بالتخفيف والتشديد وقرئ: تنزل الملائكة أي: تنزل ﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد و﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وتقديره بأنه أنذروا أي: بأن الشأن أقول لكم: أنذروا، أو تكون أن مفسرة لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى ﴿أنذروا أنه لا إله إلا أنا﴾ أعلموا بأن الأمر نك من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولِي ﴿لا إله إلا أنا فاتقون﴾.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ⁽¹⁰⁾.

ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما نكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائفه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُفُثَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ⁽¹¹⁾.

﴿إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فيه معنيان: أحدهما: فإذا هو منطق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من مني، جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته، والثاني: فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾⁽¹²⁾ وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أتري الله يحيي هذا بعد ما قد رم⁽²⁾.

وَالْأَنْثَرُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ⁽¹³⁾.

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية وأكثر ما تقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قنرناه﴾⁽³⁾ ويجوز أن يعطف على الإنسان أي: خلق

(4) قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل، يوجب حصره فيه فكانه قال: وإنما تأكلون منها.

(5) سورة الأعراف، الآية: 26.

(1) سورة يس، الآية: 78.

(2) يأتي في سورة يس.

(3) سورة يس، الآية: 39.

يكونوا بالغيه في الحقيقة.

وَعَلَّ اللَّهُ فَصَدُّ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ فَدَسَّكُمْ أَهْوِيْتُمْ
(١) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ
فِيهِ ثَمَرَاتٌ (٢).

المراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد وقال: ﴿ومنها جائر﴾ والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد أي: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أن هداية (٣) الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾ (٤).

فإن قلنا: لم غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿ومنها جائر﴾؟ قلنا: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرهما، أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره والله بريء منه ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ قسراً والهاء ﴿لكم﴾ متعلق بانزل، أو بشراب خيراً له والشراب ما يشرب ﴿شجر﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تكلوا ثمن الشجر فإنه سحت (٥)، يعني: الكلا ﴿تسيمون﴾ من سامت المشاة إذا راعت فهي سائمة، وأسماها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

يُنَبِّئُ لَكُمْ فِي الزَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦).

قري: ينبئ بلباء والنون.

فإن قلنا: لم قيل: ﴿ومن كل الثمرات﴾؟ قلنا: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للثكرة ﴿يتفكرون﴾ ينظرون فيستلنون

فإن قلنا (١): كيف طابق قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ قوله: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهما قيل: لم تكونوا حاملها إليه؟ قلنا: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجزامكم، وعن عكرمة: البلد مكة ﴿لروؤف رحيم﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

وَالنَّخِيلَ وَالْأَيْلَ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبِهِمْ رِيْنٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَحْسِبُونَ (٢).

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ عطف على الأنعام أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة وقد احتج على حرمة لكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ولم ينكر الأكل بعد ما نكره في الأنعام.

فإن قلنا: لم انتصب ﴿وزينة﴾؟ قلنا: لأنه مفعول له وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قلنا (٢): فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قلنا: لأن الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو: الخالق، وقرئ: لتركبوها زينة بغير أو أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفصيله ويمن علينا بنكره كما من بالاشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيننا دلالة على اقتداره بالأخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

= ويفكرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإكفاء، فما كانتهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام إقامة حجة الله تعالى على الخلق، بانه بين السبيل القاصد والجائر، وهدي قوماً اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم، وقد تقدم في غير ما موضع، أن كل فعل صدر على يد العبد، فله اعتباران هو من حيث كونه موجوباً مخلوق لله تعالى، ومضاف إليه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له، وبالتالي له، وتيسره عليه، يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد، إضافة الهداية إلى الله تعالى، باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد، باعتبار اختياره له، والحاصل أنه نكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المنكورة في الآخر، ليناسب ذلك إقامة الحجة، إلا أن الله الحجة البالغة، والله الموفق للصواب.

(4) سورة الليل، الآية: 12.

(5) رواه أبو عبيد في كتاب الأموال ص 126 (الحديث رقم: 747).

(1) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد: تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها، إلا بشق الأنفس، واستغنى بنكر البلوغ عن نكر حملها؛ لأن العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها، والمعنى الأول أعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني: فجاز أن ينصب مجرداً من لام للتعليل؛ لأنه فعل فاعل الفعل الأول، ويعينه اقتران الركوب باللام؛ لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تميز لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقائل أن يقول كان من الممكن مجيئهما معاً باللام، فيأتيان على سنن واحد، ولا غرو في ذلك، فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف، هو الركوب، وأما التزين بها، فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة، للتعليل تنبيهاً على أنه أهم الغرضين، وأقوى السببين، وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته، أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

(3) قال أحمد: أين يذهب به عن تنمة الآية وذلك: قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية، لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين، وما كانتهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب، =

بالإنكار، ومثاله أن الله تعالى سمي الكافر: دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (2) فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث ﴿حلية﴾ (3) هي: اللؤلؤ والمرجان، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم، فكانما زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو: صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل التجارة.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَايَا أَنْ يَحْيِيَنَّكُمْ وَاتِّخِذُوا الْفَلَاحُ فَرَأَى النَّاسَ يَتَخَفَتُونَ (١٥)

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، والمائد الذي يدار به إذا ركب البحر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وانهارا﴾ وجعل فيها انهاراً؛ لأن ألقى فيه معنى جعل ألا ترى إلى قوله: ﴿الم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً﴾ (4).

وَعَلَّمَنَّاكُمْ رَبِّ الْأَنْجَامِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)

﴿وعلامات﴾ هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي هو: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمين، وبضمة وسكون، وهو: جمع نجم كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حنف الواو من النجوم تخفيفاً.

فإن قللت: قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشاً، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار أكرم لهم، فخصصوا.

أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (١٧)

فإن قلت (5): من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جاء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولي العلم، ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم

بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية الدلالة الواضحة وعن بعضهم: ينبت بالتشديد، وقرأ أبي بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُم مِّنْ دُونِهَا الرِّيحَ وَابْتِغَاءَ مَتَاعِكُمْ لَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَابْتِغَاءَ مَتَاعِكُمْ لَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَابْتِغَاءَ مَتَاعِكُمْ لَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ (١٨)

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات، أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكانه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمرة، ويجوز أن يكون المعنى أنه سخرها أنوعاً من التسخير جمع مسخر بمعنى تسخير من قولك: سخره الله مسخرًا كقولك: سرحه مسرحًا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمرة، وقرئ: بنصب الليل والنهار وحدهما ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: والنجوم مسخرات بالرفع وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فجمع الآية ونكر العقل؛ لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ﴿وما ذرا لكم﴾ معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيات والمناظر.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَكُنْ مِّنْهُ رَحِمًا طَرِيقًا وَتَسْخَرُوا مِنْهُ لَعْنَةُ اللَّهِ لِيَكُنَ مَوَاقِرَ لِلنَّاسِ بَهِيمَاتٍ فِيهِ يَتَوَفَّوْنَ مِنْ فَضْلِهِ. وَلَكُم مِّنْ شَأْنِكُمْ (١٩)

﴿رحمًا طريقاً﴾ (1) هو السمك، ووصفه بالطراءة لأن الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا ياكل لحمًا فاكل سمكاً لم يحنث، والله تعالى سماه: لحمًا كما ترى؟ قلت: مبني الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا نكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقاً

(1) قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته، أضر شيء يكون، والله أعلم.

(2) سورة الأنفال، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والله بر مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظه يواء مؤيداً=

بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(4) سورة النبا، الآيتان: 6 و7.

(5) قال أحمد: هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم، ومن لا يخلق، كالعاجزين والزمني حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم، وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع، حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتزييه الآية على هذا التاويل، ويتمنى لو تم له ذلك:

وما كل ما يتمنى المرء يدركه

أعجز من عببتهم أموات جمادات لا حياة فيها غير أحياء يعني: أنَّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، تهكمًا بحالها لأنَّ شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحي القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات أي: لا بدَّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: إيان بكسر الهمزة.

إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَبَدَّ الْقَالِبُ لَا يَوْمُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكَيَّرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿الهللك إله واحد﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره وإنها له وحده لا شريك له فيها. فكان من نتيجة ثبات الوجدانية ووضوح دليلها استمرارهم على شركهم، وأن قلوبهم منكرة للوجدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها ﴿لا جرم﴾ حقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعُلَانِيَتِهِمْ﴾ فيجازيهم، وهو وعيد ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعمَّ كلَّ مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومهم.

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُؤْتِيكُمْ إِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى السَّاعِطِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ لَكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ماذا﴾ منصوب بانزله بمعنى: أي شيء ﴿أنزل ربكم﴾، أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أي شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى ﴿أساطير الأولين﴾ ما يدعون نزوله أساطير الأولين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأولين كقوله: ﴿ماذا ينفقون قل العفو﴾⁽⁴⁾ فيمن رفع.

فإن قلّنت: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل بهم وأساطير؟ قلّنت: هو على السخرية كقوله: ﴿إِنْ رَسُولَكُمْ﴾⁽⁵⁾ هو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأولين وإباطيلهم.

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٣٠﴾

يخلقون⁽¹⁾ والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق، والثالث: أن يكون المعنى أنَّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: ﴿الهم أرجل يمشون بها﴾⁽²⁾ يعني: أنَّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأذان وقلوب؛ لأنَّ هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحَّ أن يعبدوا.

فإن قلّنت⁽³⁾: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: اقمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلّنت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فانكر عليهم ذلك بقوله: ﴿اقمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

وَأَن تَدْعُوا نِعْمَةً أَلَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُؤْتِيكُمْ ﴿٣٢﴾

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطبقوا القيام بحقها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنَّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ من أعمالكم، وهو وعيد.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٣٣﴾ أَمَرْتُ غَيْرَ عِلْمٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٣٤﴾

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوه الكفار ﴿من دون الله﴾ وقرئ: بالتاء، وقرئ: يدعون على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى ﴿أموات غير أحياء﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي: غير جائز عليها الموت كالحي الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في يبعثون للداعين أي: لا يشعرون متى تبعث عببتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأنَّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث أنه من لوازم التكليف، ووجه آخر وهو: أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنبحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم

(1) سورة النحل، الآية: 20. = كالانثى، فجنّد بها عبداً.

(2) سورة الأعراف، الآية: 195. (4) سورة البقرة، الآية: 219.

(3) قال أحمد: وقد تقدّم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وليس الذكر﴾ = (5) سورة الشعراء، الآية: 27.

خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَتَكَبَّرُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ يَتَّبِعُونَ سَبِيلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْرُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى السَّمَاءَ كَمَا تَبْغِي السَّحَابُ دُخَانٌ مُبِينٌ يَلْقَاهُ السَّيْرُ الْفَرَسَ كَمَا يَلْقَاهُ الْبَنُوتُ الْكَمِيلَ ﴿٣١﴾ كَثُرَتْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قري: تتوفاهم بالتاء والياء، وقرئ: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء ﴿فالقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعُدوان، فرد عليهم أولوا العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة، وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم... خيبراً﴾ أنزل خيبراً.

فإن قلْتُ: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلْتُ: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعضوا وأطبَقوا الجواب على السؤال بيتاً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيبراً، أي: أنزل خيبراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبيعون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمره بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيبراً لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصيقه وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيبراً، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وما بعده، بدل من خيبراً حكاية لقوله: الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيبراً ثم حكاها، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحموا عليه ﴿حسنة﴾ مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ (2) ﴿ولنعلم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره، و﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي انفسهم﴾، ويقولون سلام عليكم ﴿قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة﴾.

مَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّهُمْ أَنَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَصَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصداً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأن المضل والضال شريكان هذا يضلّه وهذا يطاوعه على إضلاله فيتحملان الوزر، ومعنى اللام: للتعليل من غير أن يكون غرضاً كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآلَفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ بَيْنَ الْقَوَائِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوَائِدِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٤﴾

القواعد أساطين البناء التي تعمدده وقيل: الأساس، وهذا تمثيل يعني: أنهم سَوَّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنياناً وعمده بالأساطين فاتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وهلكوا، ونحوه: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، وقيل: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فاهب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فاتى الله بيتهم فخرّ عليهم السقف بضميتين.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا آيَاتَهُ إِنَّ الْخَيْرَ بِاللَّهِمَّ وَالشَّيْءِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾

﴿يجزيهم﴾ بنلهم بعذاب الخزي: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت﴾ (1) يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائي﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعاون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: تشاقون بكسر التون بمعنى: تشاقوني؛ لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة.

الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ أَفَلَا أَسَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ قَدْ أَفْلَحَ الْوَسِيُّ إِذْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِسْلَامَ سَبِيلُ اللَّهِ وَلِيَّ اللَّهِ

من أهل اللطف ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير ﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾ ما فعلت بالمكذبين، حتى لا يبقى لكم شبهة في أنني لا أقدر الشر ولا أشاؤه حيث أفعل ما أفعل بالأشعار.

إِنْ تَحَرَّضَ عَنْ مُدْبِئِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٧٧﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة وأنه لا يهدي من يضل ﴿أي: لا يلفظ بمن يخذل لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث لأنه من قبيل القبايح التي لا تجوز عليه، وقرئ: لا يهدي أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان الذي هو: نقيض النصرة، ويجوز أن يكون لا يهدي بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدي، وفي قراءة أبي فإن الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضل، وهي معاضدة لمن قرأ لا يهدي على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله يهدي بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ: يضل بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرض بفتح الراء وهي لغية.

وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَذَا عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُحْذَرُونَ بِهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾

﴿واقسموا بالله﴾ معطوف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ (3) إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان حقيقتان بأن تحكما وتبونا توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم. ووعد الله مصدر مؤكد لما دل عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ قُلْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدَ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ ﴿٨٠﴾

﴿تاتيه الملائكة﴾ قرئ: بالتاء والياء يعني: أن تاتيهم لقبض الأرواح و ﴿أمر ربك﴾ العذاب المستاصل، أو القيامة ﴿عذلك﴾ أي: مثل تلك الفعل من الشر والتكذيب ﴿فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير ﴿سيئات ما عملوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (1) هذا من جملة ما عُدَّ من أصناف كفرهم وعنادهم من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث واستعجاله استهزاء منهم به، وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه ﴿عذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: أشركوا وحرّموا حلال الله، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم ﴿فهل على الرسل﴾ إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه، وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموقفهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَيَنْبَهُمْ مِنْ هَذِهِ اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَيَسُورُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨١﴾

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشية الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو: الإيمان وعبادة الله، واجتناب الشر الذي هو: طاعة الطاغوت ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أي: لطف به؛ لأنه عرفه

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) قال أحمد: قد تكرّر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المقّمة في سورة الأنعام، وقد قُسمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على ما زعمه بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ووجه تمسكه به أن الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين، مأمور به ومنهى عنه، والأمر والنهي عند المصنف، راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس، وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التهمة أن الله شاء عبادة الخلق له، وشاء اجتنباهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم، فجاءت التهمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها، هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أن مبناه على إنكار =

= كلام النفس الثابت قطعاً فهو باطل جزماً، والعجب أن الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً، أن الذي أشركه من القائلين لو شاء الله ما أشركنا، إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها مع ما خلق لهم من الاختيار، بقوله ههنا ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ ويقول في آخر آية الأنعام: ﴿فإن الله بالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة ولو شاء هدايتهم أجمعين، لاهتدوا عن آخرهم، وحصل من هذا البيان صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أن حجّتهم في تلك داحضة، وث على عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(3) سورة النحل، الآية: 35.

يعلمون ﴿الضمير للكفار أي: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزانوا في اجتهادهم وصبرهم.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦﴾

﴿الذين صبروا﴾ على هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي: صبروا على العذاب، وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّحْيِي الْإِنَّمَن تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ على السنة الملائكة ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً.

فإن قلنا: بم تعلق قوله: ﴿بالبينات﴾؟ قلنا: له متعلقات شتى، فلما إن يتعلق بما أرسلنا داخل تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيداً بالسوط، وإما برجالاً صفة له أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بأرسلنا مضمراً كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأول على كلام واحد، وإما بيوحي أي: يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فاعطني حقِّي، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة، وأهل الذكر أهل الكتاب، وقيل للكتاب: الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ما نزل إليهم﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾ وإرادة أن يصفوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْأَمْدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾

﴿مكروا السيئات﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿في تقليبهم﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿على تخوف﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخوتته

لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل، ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دل عليه بلى، أي: يبينهم لبيّن لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كذبوا في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ ﴿١٦﴾ وفي قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ ﴿٢١﴾ أي: بعثناه لبيّن لهم ما اختلفوا فيه وإنهم كانوا على الضلالة قبله مفتقرين على الله الكتب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٢﴾

﴿قولنا﴾ مبتدأ ﴿وإن نقول﴾ خبره ﴿وكن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: حدث فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل: لأن مراداً لا يمتنع عليه وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثم والمعنى: أن إيجاد كل مقبور على الله تعالى بهذه السورة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: فيكون عطفًا على نقول.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿والذين هاجروا﴾ هم: رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، وقيل هم: الذين كانوا محبوسين معنيين بعد هجرة رسول الله ﷺ، وكلما خرجوا تبعوهم فربوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه، فكيف ﴿في الله﴾ في حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر أي: لبنيانهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي رضي الله عنه: لننؤينهم، ومعناه: أثواة حسنة، وقيل: لننزلهم في الدنيا منزلة حسنة وهي: الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعد ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لبنيانهم مباءة حسنة وهي: المدينة حيث أوامهم أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا﴾

إذًا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن
أي: بأخذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شيء في
أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه
قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من
هنيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف
العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا، وأنشد
البيت. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا:
وما بديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم
﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم، ولا
يعاجلكم مع استحقاقكم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْوٍ يَنْفَيْزُ ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ
وَالْشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قري: أولم يروا ويتفيا بالياء والتاء. وما موصولة
بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفيا ظلاله﴾
واليمين بمعنى: الإيمان و ﴿سجدا﴾ حال من الظلال
﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير في ظلاله لأنه في
معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع
بالواو لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة
ذلك من يعقل فغل، والمعنى: أولم يروا إلى ما خلق الله
من الأجرام التي لها ظلال متقية عن إيمانها وشمائلها أي:
عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين
الإنسان وشماله لجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب
إلى جانب منقادة لله غير ممتعة عليه فيما سخرها له من
التفيا، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة
لأفعال الله فيها لا تمتنع.

وَلِلَّهِ سَجْدٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ
وَهُمْ لَا يَسْكَرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿من دابة﴾ ويجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما
في الأرض جميعاً، على أن في السموات خلقاً لله يديون
فيها كما يذب الاناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في
الأرض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له
الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده ويراد بما في

السموات الملائكة، وكَرَّرَ نكرهم على معنى: والملائكة
خصوصاً من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعيدهم،
ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهم ويقولوه:
والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قُلْتُ: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام
خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟
قُلْتُ: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وسجود
غيرهم انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا
السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن
يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قُلْتُ: فهلا جيء بمن دون ما تغليباً للعقلاء من
الدواب على غيرهم؟ قُلْتُ: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه
دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجاء بما هو
صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم.

﴿يخافون﴾ (2) يجوز أن يكون حالاً من الضمير في
لا يستكبرون أي: لا يستكبرون خائفين وإن يكون بياناً
لنفي الاستكبار وتأكيداً له؛ لأن من خاف الله لم يستكبر
عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون فمعناه:
يخافونه إن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته
بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عالياً قاهراً كقوله:
﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ (3) ﴿وإنما فوقهم قاهرون﴾ (4)
وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر
والنهي، والوعد والوعيد، كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف
والرجاء.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلْهَيْبَةِ أَنْتُمْ إِنَّمَا هُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَإِنِّي
فَارْهُبُوهُ ﴿٥١﴾

فإن قُلْتُ: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء
الواحد والاثنين فقالوا: عندي رجال ثلاثة، وأفراس أربعة؛
لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل
ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد،
فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد، ورجلان اثنان، فما وجه
قوله (5): ﴿الهيبتين اثنين﴾؟ قُلْتُ: الاسم الحامل لمعنى الأفراد
والثنائية دال على شيئين: على الجنسية؛ والعدد المخصوص.
فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي يساق إليه

= المنكور فيها منسوباً للمكلفين، وهو الفعل الخاص المتعارف
شرعاً، الذي يكون نكره سبباً لفعله سببية معتادة في عزائم
السجود، لا القدر الأم المشترك، والله أعلم.

(2) قال أحمد: هذا هو الوجه الثاني ليس الأول، وأما الحال فيعطي
انتقالاً، ويوهم تقيد العلم استكبارهم، مع أن الواقع أن عدم
استكبارهم مطلق، غير مقيد بحال، والله موفق.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 18 و 61.

(4) سورة الأعراف، الآية: 127.

(5) قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله
الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد
لحقيقته، ومجازه شمولاً، ولم ير ذلك متناقضاً، فإن السجود
يتناول فعل المكلف حقيقة، ويتناول حال غير المكلف بطريق
مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، ولزم مخشري ينكر ذلك
في مواضع مرت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أن
السجود عيارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف، وحال غير
المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرة، وبغرضه من ذلك أن يكون
اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة
والمجاز؛ لأنه يابى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية، والله
أعلم، لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود =

تَفَرَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿لَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لألهتهم ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها، وقيل الضمير في لا يعلمون للآلهة أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزرعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم نلك تقرباً إليهم ﴿لَتَسْتَلْنَ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَحْمِلُونَ إِلَهُ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُمْ وَلَهُمْ مَا يَشْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَافٍ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْغَيْرِ مِنْ سَوْءِ مَا يَبْسُرُ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هَوْنٍ أَمْ يَدْسُرُ فِي الْغُرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشترون﴾ يعني: البنين، ويجوز في ما يشترون الرفع على الابتداء والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشترون من الذكور و﴿ظل﴾^(٢) بمعنى: صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرة، ويجوز أن يجيء ظل لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتماً مريد الوجه من الكآبة والحياة من الناس ﴿وهو كظيم﴾ ملوء حقاً على المرأة ﴿يتوارى من القوم﴾ يستخفي منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ومن أجل تعبيرهم وبحث نفسه وينظر أيمسك ما بَشَّرَ به ﴿على هون﴾ على هوان وذل ﴿أم يدسه في الغراب﴾ أم يثده. وقرئ: أيمسكها على هون، أم يدسه على التائب، وقرئ: على هوان ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْمَرُورُ الْمَكِيدُ ﴿٦٠﴾

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث وأودهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ووش المثل الأعلى﴾ وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.

وَلَوْ يُرَاجِعُ اللَّهُ النَّاسَ لَظَلَّوْهُمَا تَرَكَ عَلَيْنَا مِنْ ذَنْبِهِمْ وَلَكِنَّ يَوْمَهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْبِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ما ترك عليها﴾ أي:

الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية ﴿فإياي فارهبون﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلّم وجاز لأن الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْيَتِيمَ الرَّسِيَّةُ الْغَنِيُّ أَفَنَزَغُ اللَّهُ إِلَهُكُمْ ﴿٥٧﴾

﴿الذين﴾ الطاعة ﴿وواصباً﴾ حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت، لأن كل نعمة منه، فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفاً، أو وله الجزء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول. يعني: والثواب العقاب.

وَمَا يَكُم مِّن يَّمَعٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِيَّاهُ تُحَدِّثُونَ ﴿٥٨﴾

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ﴿فإياي تجارون﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهباً:

يرأح من صلوات الملبس كطوراً سجداً وطوراً اجزراً وقرئ: تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم.

ثُمَّ إِذَا كَفَّ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

وقرأ قتادة: كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو: أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشرّكين ومنكم للبيان لا للتبويض، كأنه قال: فإذا فريق كافروهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾^(١).

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا سَوَوْ قَلَمُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد، وقرئ: فيمتعوا بالياء مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، ويجوز أن يكون ليكفروا فيمتعوا من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

وَيَحْمِلُونَ لَنَا لَا يَعْلَمُونَ نَبِيًّا مِّمَّا رَفَعْنَاهُ اللَّهُ لَنُتَلَّكَ عَمَّا كُنْتُمْ

(1) سورة لقمان، الآية: 32.

(2) قال أحمد: وجاز أن يراد: الظلول نهاراً، لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي يتغابى =

= على البصر شيء إلى السماء، لتمانوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا إِشْرَافَ مَنْ لَدَىٰ أَخْلَافُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبيين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. وبخل اللام على لتبيين؛ لأنه فعل المخاطب لأفعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلن. والذي اختلفوا فيه البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار. ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأن من يسمع بقلبه فكله أصم لا يسمع.

وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْفُسِ لَآيَةً تُنذِرُ لِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْيَةٍ وَدَرٍ لَنَا خَالِصًا سَاءَ مَا لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾.

نكر سبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكباش، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وأما ﴿في بطونها﴾ (5) في سورة المؤمنين فلائ معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكثير نعم كاجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم فإذا نكر فكما ينكر نعم في قوله:

في كل عام نعم تحسونه يلقحه قوم وتنتجونه وإذا أنث فقيه، وجهان: أنه تكسير نعم وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم وهو استئناف كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم ﴿من بين قرث ودم﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين القرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع وتبقى القرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته والطف حكمته لمن تفكر وتأمل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين قرث ودم ﴿سائغاً﴾ سهل المرور في الحلق ويقال: لم يخص أحد باللبن قط، وقرئ: سيقاً بالتشديد وسيغاً بالتخفيف كهين ولين.

على الأرض ﴿من دابة﴾ قط، ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضُرُّ إلا نفسه، فقال: بلى والله حتى أن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم (1)، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في حجره بذنوب ابن آدم أو من دابة ظالمة (2)، وعن ابن عباس: من دابة: من مشرك يب عليها، وقيل: لو أهلك الأبياء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيُحْمَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ إِنَّ لَهُمْ لَلْأَنفُسَ لَا جَرَمَ لَهُمُ الْقَارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ (3) لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلمهم، والتهاون برسالاتهم ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي لن لي عنده للحسنى﴾ (4) وعن بعضهم أنه قال لرجل من نوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم؟ فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال: هاتوا ما دفع إلي؟ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: ﴿أن لهم للحسنى﴾ هو قول قريش: لنا البنون وإن لهم الحسنى بدل من الكذب. وقرئ: الكذب جمع كنوب صفة للآلئة ﴿مفراطون﴾ قرئ: مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً، فالمفتوح بمعنى: مقدمون إلى النار معجلون إليها من أقرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون من أقرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي، والمشدد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

ثُمَّ لَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَأَوْهُمُ اتَّخَذُوا آلَهُمُ الْإِلَهِمْ كَذِبًا عَادًا آلِهَةً ﴿٦٨﴾.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى وليهم: قرينهم وبئس القرين، أو يجعل ﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية للحال الآتية وهي: حال كونهم معذبين في النار أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف

= كابين عمر ونظرائه، ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون، اللهم إن لم نثل رتبة أوليائك، فإنا لن محبتهم، فمن أحب قوماً حشر معهم.

(4) سورة فصلت، الآية: 50.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 21.

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طاعة أولي الأمر، فصل: في نكر ما ورد من التشديد في الظلم (الحديث رقم: 7479).

(2) رواه ابن أبي شيبة 301/1، كتاب الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(3) قال أحمد: ونقيض هؤلاء، من إذا أعجبه شيء من ماله، جعله لله، بل إذا أحب أمة له، اعتقها، وإذا اشتبه طمعاً قدم إليه، تصدق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، =

روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به؟ فأبى، فقيل له: فقد صنعت في تحليله فقال: تناولته الدعارة فسمح في المروءة، وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي: تنقلت بأعراضهم، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابتكر في أعراض الناس فكانه تخمر بها. والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا كانه قيل: تتخون منه ما هو سكر ودرق حسن.

وَأَرْجَى رَيْكُ إِلَى الْغَلِّ أَوْ أَجْزَى مِنْ لَيْلَالٍ بَيُّوتًا وَمَنْ أَشَجَرٍ وَمَنْ يَعْشُرُونَ ﴿١٧﴾

الإيحاء إلى النحل إلهامها والقنف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنقيتها في صنعتها ولطفها في تبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل بيّنة شاهدة على أن الله أودعها علمًا بذلك وفطنها كما أولى أولى العقول عقولهم. وقرا يحيى بن وثاب: إلى النحل بفتحيتين وهو منكر كالنخل وتأتيه على المعنى «أن اتخذني» هي: أن المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول. قرئ: بيوتًا بكسر الباء لأجل الياء، ويعرشون بكسر الراء وضمها يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنيون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تنفصل فيها، والضمير في يعرشون للناس.

فإن قُلْتُ: ما معنى من في قوله: «أن اتخذني من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون» وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ قُلْتُ⁽³⁾: أريد معنى: البعضية، وإن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ بَطْنِهَا ذُرَاةً تُكَثِّلُ أَرْثَهُمْ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

«من كل الثمرات» إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهيها فإذا أكلتها «فاسلكي سبيل ربك» أي: الطريق، متى ألهمك وأقهمك في عمل العسل، أو فاسلكي ما أكلت في سبيل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور

فإن قُلْتُ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتُ: الأولى: للتبعيض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبًا، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأن بين الفرث، والدم مكان الإسقاء الذي منه يبدأ فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالًا من قوله: لبنًا مقدّمًا عليه فيتعلق بمحذوف أي: كائنًا من بين فرث ودم، إلا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبنًا من بين فرث ودم كان صفة له وإنما قُدِّمَ، لأنه موضع العبارة فهو قمن بالتقديم، وقد احتج بعض من يرى أن المعني طاهر على من جعله نجسًا لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول، وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرًا.

وَمَنْ تَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

فإن قُلْتُ: يرمي تعلق قوله: «ومن ثمرات النخيل والأعناب»؟ قُلْتُ: بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي: من عصيرها وحنف لدالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: «تتخذون منه سكرًا» بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف كقوله: بكفي كان من أرمي البشر، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا وورزقًا حسنًا؛ لأنهم ياكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قُلْتُ: فالإلام يرجع الضمير في «منه» إذا جعلته ظرفًا مكرّرًا قُلْتُ: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجح في قوله تعالى: «أو هم قائلون»⁽¹⁾ إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصبر من سكر سكرًا وسكرًا نحو رشد رشدًا ورشدًا قال:

وجأؤنا بهم سكر علينا فاجلى اليوم والسكران صاحي وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل السكر: النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر، ويحتج بهذه الآية، وبقوله ﷺ: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»⁽²⁾. وبأخبار جمة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قس الله

(1) سورة الأعراف، الآية: 4.

(2) العقيلي في الضعفاء والنسائي في السنن الكبرى.

(3) قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري، في تبعيض من المتعلقة باتخاذ البيوت، بإطلاق الأكل، كانه تعالى، وكل الأكل إلى شهورها، واختيارها، لم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ =

= لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه، وأما البيوت، فلا تحصل مصلحتها في كل موضع، ولهذا المعنى دخلت، ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تملكه، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط، ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساوا في الملبس والطعم، كما يحكى عن أبي نر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون»⁽⁴⁾. فما روي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت⁽⁵⁾.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كَفَرَ فَأُتِيَ رِزْقَهُ وَرَزَقَهُ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَدْوِ اللَّهِ يُخْفَوْنَ^(٧١).

«أفبينعمة الله يجحدون» فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ وقيل: المعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ: يجحدون بالتاء والياء.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَزْكُونَ وَبَيْنَكُمْ بَينَ رَحْمَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبَيْنَكُمْ أَنْتُمْ يَكْفُرُونَ^(٧٢) وَيُخْفَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَلِيمُونَ^(٧٣).

«ومن أنفسكم» من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي: يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت. وإليك نسعى ونحفد

وقال:

حفد الولاة بينهم وأسلمت باكفهن أزمة الأجمال واختلف فيهم فقيل: هم الاختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: «سكراً ورزقاً حسناً»⁽⁶⁾ كانه قيل: وجعل لكم منهم أولاداً هم بنون وهم حافدون أي: جامعون بين الأمرين «من الطبيبات» يريد بعضها؛ لأن كل الطبيبات في الجنة، وما طبيبات الدنيا إلا أنموذج منها «أقبالباطل يؤمنون» وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه ببليل ولا أمانة، فليس لهم

المز عسلاً من أجوافك ومنافذ مأكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فأسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجذب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: ثم كلي: ثم أقصدي أكل الثمرات فأسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك «نللاً» جمع نلول وهي حال من السبل؛ لأن الله نللها لها ووطأها وسهلها كقوله: «هو الذي جعل لكم الأرض نللاً»^(١) أو من الضمير في فأسلكي أي: وأنت نلل منقاداً لما أمرت به غير ممتنعة «شراباً» يريد العسل؛ لأنه مما يشرب «مختلف لوانه» منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر «فيه شفاء للناس» لأنه من جملة الأشفية والألوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لمن ينكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل نواء كذلك، وتنكيره إما بتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ: «أن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكى بطنه فقال: اذهب واسقه العسل. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفغ؟ فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ كأنما أنشط من عقال»⁽²⁾، وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل⁽³⁾، ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: علي وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضحايكم.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَسِّعُكُمْ وَيَمْدُدْ مِنْ رِزْقِكُمْ إِلَهُ أَرْزَلِ الْمُرِّ لَيْكَ لَا يَمَلُّ بَعْدَ عَمَلٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ قَرِيرٌ^(٧٤).

«إلى أرذل العمر» إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، وعن علي رضي الله عنه: وتسعون سنة، وعن قتادة لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم «لكيلاً يعلم بعد علم شيئاً» ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه أي: جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مما ليحكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تربوا

(1) سورة الملك، الآية: 15.

(2) رواه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (الحديث رقم: 5684).

(3) رواه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (الحديث رقم: 3452) والحكم في المستدرک 200/4.

(4) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: قول النبي ﷺ «المعبد»

= إخوانكم فاطعموهم ما تاكلون» (الحديث رقم: 2545)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: إطعام المملوك مما ياكل (الحديث رقم: 4289).

(5) قال الزيلعي: ليس في الحديث وإنما هو من كلام المصنف 2/ 229.

(6) سورة النحل، الآية: 67.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَكُونُونَ ﴿٧٥﴾ وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْسَرُ بِهِ لَا يَأْتِ بِخَبَرٍ هَلْ يَسْتَزِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾⁽¹⁾ تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال وقصة بقصة ﴿إن الله يعلم﴾ كنه ما تفعلون وعظمه وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأن العقاب على مقدار الإثم ﴿وانتم لا تعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجراكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وانتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثنان من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حراً لك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلْت: لم قال ﴿مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف قلْت: أما نكر المملوك فليميز من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مائون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصح له.

فإن قلْت: من في قوله: ﴿ومن رزقناه﴾ ما هي؟ قلْت: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قلْت: لم قيل ﴿يستون﴾ على الجمع؟ قلْت: معناه:

إيمان لا به كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله: المشاهدة المعينة التي لا شبهة فيها لذي عقل، وتمييزهم كافرين بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقل، وقيل: الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم الرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أريت المصدر نصبت به ﴿شيئاً﴾ كقوله: أو إطعام يتيماً على لا يملك أن يرزق شيئاً، وإن أريت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك شيئاً من الملك. ومن السموات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرًا بمعنى لا يرزق من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً، أو صفة إن كان اسماً لما يرزق والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قيل: لا يملك على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو الباب من ذلك شيئاً فكيف بالجماد الذي لا حس به.

فإن قلْت: ما معنى قوله: ﴿ولا يستطيعون﴾؟ بعد قوله: ﴿لا يملك﴾ وهل هما إلا شيء واحد؟ قلْت: ليس في لا يستطيعون تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ رَأْسَهُ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ رِزْقًا وَجْهَرًا هَلْ يَسْزُوكَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

= فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة: عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المائون له مالاً عند هذا القائل، وهذا بعيد عن مطابقة قوله: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فإنها توجب إن يكون المراد بقوله لا يقدر على شيء: لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي: لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه، فنلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول هذه الصفة لازمة، كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفة اللازمه له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء، أي: لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة، لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ فقلته: ﴿لا برهان له به﴾ لا يقصد به تمييز له سوى الله من إله لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى لا برهان له، وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد، ولنا أن نقول في نفعه، أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد، وأما الوارد من ذلك لازماً، فنأثر على خلاف الأصل، والله الموفق.

(1) قال أحمد: فعلى تفسيره الأول يكون قوله لا متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله، ولا تشبهوه، وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل، إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم، وانتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وفي هذه الآية له معتمد؛ لأن الله تعالى مثل بالمملوك؛ لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أقصع عن المعنى المقصود، وهو: أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده، فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في الممالك، عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى لا يقدر على شيء، كالتركاز لما فهم من قوله عبداً مملوكاً، وقول القائل، يقول: إنه احتراز من المكاتب بعيد من فصاحة القرآن، فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البيت، إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن، واستيلانه على صنوف البلاغة، ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيا امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتب، لبعد القصد إليها على شؤنها، وأما الاحتراز به عن المائون له، =

هل يستوي الأحرار والعبيد.

الأبكم الذي ولد أحرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿لئنما يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لا ينفع ولم يات بنجح ﴿هل يستوي هو ومن﴾ هو سليم الحراس نفاعاً نو كفايات مع رشد وديانة فهو ﴿يامر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته والطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: أينما يوجهه بمعنى: أينما يتوجه من قولهم: أينما أوجه الق سعداء، وقرأ ابن مسعود: أينما يوجهه على البناء للمفعول.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُنْشِرَ الْأَسَاغَةُ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧).

﴿وش غيب السموات والأرض﴾ أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر﴾ أو هو أقرب ﴿أي﴾ هو عند الله وإن تراخى كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقربه، ونحوه قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿١﴾ أي: هو عنده دان وهو عنكم بعيد، وقيل المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات، ثم دل على قدرته بما بعده.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرِينَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩).

قرئ: أمهاتكم بضم الهمزة وكسرهما والهاء مزيدة في أمات كما زبيت في أراق فقيل: أهرق وشدت زياتها في الواحدة قال:

أمهتي خندف وإلياس أبي

﴿لا تعلمون شيئاً﴾ في موضع الحال، ومعناه: غير

عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وجعل لكم﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولتكم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعكم. والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرت ذلك المجرى.

قرئ: ألم يروا بالتاء والياء ﴿مسخرات﴾ مثللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المتواتية لذلك، والجو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو، والسكاك أبعد منه، واللوح مثله ﴿ما يمسكهن﴾ في قبضهن وبسطهن وقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْفِئَةِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَأَوْسَادًا كَالْعِصِيَّاتِ وَنَعْمًا إِنَّكُم بِآيَاتِنَا لَافْتِنُونَ (٨٠).

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن فعل بمعنى: مفعول، وهو: ما يسكن إليه وينقطع من بيت أو ألف ﴿بيوتاً﴾ هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾ (٢) أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون، وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً على أن اليوم بمعنى: الوقت ﴿ومتاعاً﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطارك، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: يوم ظعنكم بالسكون.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَّا خَلْقٌ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرًا يُقَعِّمُ الْخَرَ وَسُرِيرًا يُقَيِّمُكُمْ بِأَسْمِكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ فَيْتَنَةً عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨١).

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكناناً﴾ جمع كن، وهو: ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال، والغيران، والكهوف ﴿سرايل﴾ هي القمصان (٣) والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ لم ينكر البرد؛ لأن الوقاية من الحر أهم عندهم، ولما يهيم البرد لكونه يسيراً محتملاً، وقيل (٤): ما بقي من الحر بقي من البرد، فدل نكر الحر على البرد

(١) سورة الحج، الآية: ٤٧.

(٣) قال أحمد: يعني عند العرب، وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(٤) قال أحمد: والأول أظهر، ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر، فامتن الله عليهم بأعظم

(٢) قال أحمد: والتفسير الأول أولى؛ لأن ظهور المنة في خفتها، إنما يتحقق في حال السفر، وأما المستوطن؛ فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم، إن المراد: خفة ضربها، وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ كقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهمهم﴾ (١) الآية.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦).

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين؛ فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي و ﴿ندعوا﴾ بمعنى: نعبد.

فإن قلْتُ: لم قالوا ﴿إنكم لكانبون﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ قلْتُ: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة واللبليل عليه قوله الملائكة: ﴿كانوا يعبدون الجن﴾ يعني: أن الجن راضيين بعبادتهم لا نحن فهم المعبدون بوننا، أو كنبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهاً لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء الشياطين جاز أن يكون كاذبين في قولهم: إنكم لكانبون كما يقول الشيطان: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾ (٢).

وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلََّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧).

﴿والقوا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كنبوهم وتبرؤا منهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨).

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم. وحملوا غيرهم على الكفر. يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تسع إحداهن للسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريقاً، وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبارون من شدة برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين الناس بصددهم عن سبيل الله.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ رَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩).

﴿شهاداً عليهم من أنفسهم﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد

﴿وسراييل تقيكم باسكم﴾ يريد الدروع والجواشن، والسريال عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه الفاضلة فتؤمنون به وتتقانون له، وقرئ: تسلمون من السلامة أي: تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْكَبِيرُ (٩٠) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُكْفِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٩١).

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عذرك بعد ما أنبت ما وجب عليك من التبليغ، فنكر سبب العذر وهو: البلاغ ليدل على السبب.

﴿يعرفون نعمت الله﴾ التي عبدناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم: ورنناها من آياتنا، وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله، وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها ﴿واكثرهم الكافرون﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: نعمة الله نبوة محمد عليه السلام كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم.

فإن قلْتُ: ما معنى ﴿ثم﴾؟ قلْتُ: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٩٢) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٩٣).

﴿شهاداً﴾ نبياً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإنن على أن لا حجة لهم ولا عذر وكذا عن الحسن ﴿ولا هم يستعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قلْتُ: فما معنى ﴿ثم﴾؟ قلْتُ: معناها: أنهم يمتنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها وهو: أنهم يمتنعون الكلام فلا يؤنون لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره وانكر يوم تبعث، أو يوم تبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب

(1) سورة الانبياء، الآية: 40.

(2) سورة سبأ، الآية: 41.

= نعمه موقعاً عندهم، وقول القائل: إنَّ ما بقي الحرَّ بقي البرد، مشهود عليه بالعرف، فإن الذي يتقي به الحرَّ من القمصان، رقيقها ورقيقها، وليس نلك من لبوس البرد؛ بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين، القبط والبرد، لباس الآخر، يعدُّ من التقلُّد.

من النوافل. والفواحش⁽¹⁰⁾ ما جاوز حدود الله **﴿والمنكر﴾** ما تنكره العقول **﴿والبغى﴾** طلب التطاول بالظلم. وحين⁽¹²⁾ أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري أنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكلاً ومخزياً إجابة لدعوة نبيه وعادي من عاداه⁽¹³⁾، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بِمَا تَوْكِيدَهَا وَفَدَّ حِمْلُهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْفَ لَا اللَّهُ يَعْلَمَ مَا تَعْمَلُونَ **﴿١١﴾** وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَفْضَحُ غَزْلَهَا مِنْ بَدَنٍ قَوَى أَنْ كُنَّا نَنْجِدُونَ إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا يَبِينُكُمْ أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَكِنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَحْتَلِفُونَ **﴿١٢﴾**.

عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام: **﴿إِنْ الَّذِينَ يَبِيعُونَكُمْ إِنَّمَا يَبِيعُونَ اللَّهَ﴾**⁽¹⁴⁾ **﴿ولا تنقضوا﴾** أيمان البيعة **﴿بعد توكيدها﴾** أي بعد توثيقها باسم الله، وأكد وأكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل **﴿كفيل﴾** شاهداً ورقياً: **﴿لأنَّ الكفيل مراعى لحال المكفول به مهيم عليه﴾** **﴿ولا تكونوا﴾** في نقض الأيمان كالمرأة التي انحلت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته **﴿انكاثاً﴾** جمع نكث وهو ما ينكث قتله قيل: هي ربيعة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلاً قدر نزع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجوارها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن **﴿تتخذون﴾** حال و **﴿دخلاً﴾** أحد مفعولي اتخذ يعني: ولا

﴿شهيداً على هؤلاء﴾ على أمتك **﴿تبييناً﴾** بياناً بليغاً، ونظير تبیان تلقاء في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قلنا: كيف كان القرآن تبيناً **﴿لكل شيء﴾**؟ قلنا: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: **﴿وما ينطق عن الهوى﴾**⁽¹⁾ وحناً على الإجماع في قوله: **﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾**⁽²⁾ وقد رضي رسول الله ﷺ لأمة اتباع أصحابه والافتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»⁽³⁾. وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبين الكتاب، فمن ثم كان تبيناً لكل شيء⁽⁴⁾.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْأَرْثِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظُمُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ **﴿١٣﴾**.

العدل⁽⁵⁾ هو الواجب: **﴿لأنَّ الله تعالى عدل فيه على عباده﴾**⁽⁶⁾ فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاعتهم **﴿والإحسان﴾** النذب، وإنما علق أمره بهما جميعاً: **﴿لأنَّ الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره النذب﴾**⁽⁷⁾، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **﴿لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت: «أفلق إن صدق»﴾**⁽⁸⁾ فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»⁽⁹⁾. فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط

= المحكوم بفلاحه لاجله، إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

(8) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان (الحديث رقم: 1891) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (الحديث رقم: 100).

(9) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسنتها باب المحافظة على الوضوء (الحديث رقم: 277) وأحمد في مسنده 277/5، والحاكم في المستدرک 1/130.

(10) قال أحمد: وهذه أيضاً لفظة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع، لوافق الحق، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقيق بالعقل، والله الموفق.

(11) قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومنه ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقاً خاصاً بطلب الظلم عرفاً.

(12) قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة لاحظ التطبيق بين نكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلي باغ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: «تتلك الفئة الباغية»، والله أعلم، فقتل مع علي يوم صفين.

(13) رواه الحاكم في المستدرک 3/190 وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 653).

(14) سورة الفتح، الآية: 10.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) سورة النجم، الآية: 3.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) رواه البيهقي في المنخل والدارقطني في غرائب مالك وفي المؤلف والمختلف (الزيلي 2/229 - 231).

(5) قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر، ما يدل لمن قال: إن صيغة الأمر، أعني هذه المبنية من الهمزة، والميم، والراء، لا صيغة أفعل تتناول القيلين بطريق التواطؤ، وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب، والله أعلم.

(6) قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال، ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق: **﴿لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال، والحق السنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه، وعدل منه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرته الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض، وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحقته البالغة قائمة لى الكلف بما خلقه له من الثاني والتيسر في الأفعال الاختيارية، التي هي محال التكاليف، والله الموفق.**

(7) قال أحمد: وهذه نكتة حسنة، يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام، بفلاح المصّر على ترك السنن، فيقال: =

﴿وَتَذُقُوا لِسُوءٍ فِي الدُّنْيَا بِصُدُوكُمْ﴾ «عن سبيل الله» وخروجكم من الدين، أو بصلتكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وأرتبوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعنونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبيلوا ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ نَأْخُذْكُمْ بِقِلْبِئِلَافٍ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا يَسِيرًا﴾ وهو: ما كانت قريش يعنونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من إظهاركم وتغنيكم ومن ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ لَكُمْ... مَا عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنْفَعُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بِاقٍ﴾ لا ينفد. وقرئ: ليجزئ بالذنون والياء ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام.

فإن قلَّ: لم وحث القدم ونكرت؟ قلَّ: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قلَّ: ﴿مَنْ﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟ قلَّ: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا نكر كان الظاهر تناوله الذكور فقيل ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى﴾ على التبيين ليعم الموعد النوعين جميعًا ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر لقوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ (4) وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره وإن كان موسرًا فالحرص لا بدعه أن يتهنأ بعيشه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلالة الطاعة والتوفيق في قلبه.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (١٥).

تنقضوا إيمانكم متخذيها خلًا ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: مفسدة ودغلًا ﴿وَأَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أمة يعني: جماعة قريش ﴿هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي: أزيد عددًا وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير لقوله: ﴿وَأَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ لأنه في معنى: المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أنتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من إيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقيرهم وضعفهم ﴿وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَأْذِنَ عَنَّا كَثَرٌ مِمَّنْ يُعْمَلُونَ (١٦).

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ (1) حنيقة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قاصر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضل ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو أن يضل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ﴿ويهدي من يشاء﴾ (2) وهو أن يطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبينه على الإيجاب الذي لا يستحق به شيء من ذلك وحققه بقوله: ﴿وَلَتَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولو كان هو المضطر إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملاً يستلون عنه.

وَلَا تَخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ عَنكُمْ بَدٌّ بُرْهًا وَتَذَرُوهَا شَوْهًا بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧) وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا لَئِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٨) مَا عِنْدَكُمْ يَفْزَعُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ هُوَ مُؤَيَّنٌ لَّنَجْزِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠).

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان خلًا بينهم تأكيدًا عليهم وإظهارًا لعظم ما يركب منه ﴿فَتَزَلْ قَدَمُ بَعْد ثَبُوتِهَا﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها

= وهم مع ذلك يوحون الله حق توحيد، فيجعلون قدرته تعالى هي الموجد والمؤثرة، وقدره العبد مقارنة فحسب تمييزًا بين الاختياري والقسري، وتقوم به حجة الله على عبده، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل، إفاتته له في قوله تعالى: ﴿وَتُعِيْبَاهَا أَنْ أَعِيبَ﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْتَبِذَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ ففكر الإذن والنفس تقليلًا للواعي من الناس، لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

(1) قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أن مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النص، ويقول: قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيقة مسلمة، ولكن لم يقع مراده، فإذا قبل له، فعلام تحمل المشيئة في الآية، قال: على مشيئة إيمانهم، ففسر لا اختيارًا، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقًا.

(2) قال أحمد: أما أهل السنة، يسميهم المصنف مجبرة، فهم من الإيجاب بمعزل؛ لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختيارًا وأفعالا، =

نسخ القرآن بها. في ينزل ونزله وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح، إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة ﴿وَرُوحَ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقتس، وحاتم الجود، وزيد الخير، والمقتس: المطهر من المآثم، وقرئ: بضم الدال وسكونها ﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال أي: نزله ملتبساً بالحكمة يعني: أن النسخ من جملة الحق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليلبثهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا، والحكمة حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمانينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وَهْدَىٰ وَبَشَّرَ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبیتاً لهم وإرشاداً وبشارة فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ: ليثبت بالتخفيف.

وَلَقَدْ سَمِعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِثَ (١٣٠)

أرادوا بالبشر غلاماً كان لخويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مر وقف عليهما ما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان اللغة. ويقال: الحد القبر ولحده وهو ملحد ملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا: الحد فلان في قوله، والحد في بيته، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿أَعْجَمِيٍّ﴾ غير بين قولهم ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَّبِينٌ﴾ نو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وقرئ: يلحدون بفتح الياء والحاء وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلئت: الجملة التي هي قوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٍّ﴾ ما محلها؟ قلئت: لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم، ومثله قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٣) بعد قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ﴾ (٤).

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ كَذَّبَتْ آلَهُ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

لما نكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أُرِيت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (١) وكقولك: إذا أكلت قسم الله.

فإن قلئت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلئت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قوي وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن لَمَّ عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» (٢).

إِنَّمَا لَيْسَ لَمْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٣١)
إِنَّمَا سُلْطَنُهُمُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٣٢)

﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان على معنى بسببه وغوره ووسوسته.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالُوا إِنَّمَا آتَتْ مُغْتَرًى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣٣) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٣٤)

تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله: ﴿والله أعلم بما يزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ وجبوا مدخلا للطن قطعوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افترؤا، فقد كان ينسخ الأشق بالاهون والاهون بالأشق والاهون بالاهون والأشق بالأشق؛ لأن الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

فإن قلئت: هل في نكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قلئت: فيه إن قرأنا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح

(3) سورة الانعام، الآية: 124.

(4) سورة الانعام، الآية: 124.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، الواحدي في الوسيط (الزليعي 2/245).

أَلَيْسَ (١٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآياتِ اللَّهِ﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لا يُلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة لا من أهل اللطف والثواب.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٦).

﴿إنما يفتري الكذب﴾ رد لقولهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾ (١) يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى قريش ﴿هَمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عانتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قلوبهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾ (٢) ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بدل من: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآياتِ اللَّهِ﴾ على أن يجعل ﴿وَأُولَئِكَ هَمُ الْكَافِرُونَ﴾ اعتراضاً بين اللبيل والمبديل منه والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طالب به نفساً واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: أولئك على ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو: الكاذبون على وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوزوا أن يكون من كفر بالله شرطاً مبتدأ ويحذف جوابه؛ لأن جواب من شرح دال عليه، كانه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب. وروي أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره، فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم عنبوا، فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة قالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر وهما: أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً فقتل: يا رسول الله إن عماراً كفر، فقال: «كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان

بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعلهم بما قلت» (٣). ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

فإن قُلْتُ: أي: الأمرين أفضل أفعَل عمار أم فعل أبويه؟ قُلْتُ: بل فعل أبويه؛ لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام. وقد روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأول: فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني: فقد صدق بالحق فهنيئاً له» (٤).

وَالَّذِينَ آمَنُوا سَخِرَ الْجِنَّةُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَصْرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٨) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩).

﴿ولئك﴾ إشارة إلى الوعيد وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأن الغفلة عن تدبير العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاهها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَرَسُوا ثَمَرَ أَهْلَكُوا وَكَانُوا فِي رُكْبَةٍ مِنْ بَعْدِهَا لَشُعُورٌ رَجِيمٌ (٢٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٢١).

﴿ثم إن ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك وهم عمار وأصحابه، ومعنى إن ربك لهم: أنه لهم لا عليهم بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عنيهم وخائنهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محمياً منقوعاً غير مضرور ﴿مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنُوا﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: فتنوا على البناء للفاعل أي: بعد ما عنبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه ﴿مَنْ بَعْدَهَا﴾ من بعد هذه الأفعال وهي: الهجرة والجهاد والصبر ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منصوب بريحيم أو بإضمار انكر.

فإن قُلْتُ: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ قُلْتُ: يقال لعين الشيء وأنته نفسه وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها

(١) سورة النحل، الآية: ١٥١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٥١.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک ٢٨٤/٣.

(٤) رواه ابن أبي شيبة ٣٥٧/١٢ كتاب الجهاد، باب: المشركون يدعون

المسلمين.

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه
صون الرداء لما يلقي عليه، ووصفه بالغمر الذي هو
وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظر إلى المستعار
له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله:
ينازعني رداي عبد عمر رويك يا أخا عمر بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني وبنوك فاعتجر منه بشطر
أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر فنظر إلى
المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه
لقليل: فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافي
الرداء إذا تبسم ضاحكاً ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ في حال
التباسهم بالظلم كقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
أَنْفُسِهِمْ﴾⁽⁵⁾ نعوذ بالله من مفاجأة النعمة والموت على
الغفلة. وقرئ: والخوف عطفاً على اللباس، أو على تقدير
حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله ولباس
الخوف وقرئ: لباس الخوف والجوع.

فَكَلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا يَمَّتَ اللَّهُ إِنْ
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِزْيِ وَمَا أُولَئِكَ لِلْعَبِثِ وَالْفَحِشَةِ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ بَدَّلَ بَاطِلًا مَّا بَدَّلَ
اللَّهُ عَفْوَ رَجَبٍ ﴿١١٥﴾.

لما وعظهم بما نكر من حال القرية وما أوتيت به من
كفرها وسوء صنيعها وصل بذلك بالفاء في قوله:
﴿فَكَلُوا﴾ صدهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة
التي كانوا عليها، بأن أمرهم بكل ما رزقهم الله من الحلال
الطيب وشكر إنعامه بذلك وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾
يعني: تطيعون، أو إن صحَّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة
الآلهة لأنها شفعائكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله،
ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون
اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَمِنَّا حَرَامٌ
لَقَدْ قُلْنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ
الْكَذِبَ ﴿١١٦﴾.

وانتصاب ﴿الْكَذِبَ﴾ بلا تقولوا على ولا تقولوا الكذب
لما تصفه السنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم:

وذاتنا فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهيمه
شان غيره كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها:
الاعتذار عنها كقوله: ﴿هَؤُلَاءِ أَضْلُونَا﴾⁽¹⁾ ﴿وما كنا
مشركين﴾⁽²⁾ ونحو ذلك.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي: جعل القرية التي هذه
حالتها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة
فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قدريّة
مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية
كانت هذه حالها فضرّ بها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل
عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمانينة مع
الامن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغداً﴾ واسعاً.
والانعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدع والرع،
أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث: «نادى منادي
النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا
تصوموا»⁽³⁾.

فَإِنْ قُلْتَ⁽⁴⁾: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه
صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار
فما وجه صحة إيقاعها عليه قُلْتُ: أما الإذاقة فقد جرت
عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما
يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وإذاقه
العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من
طعم المرّ والبشع، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على
اللباس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث،
وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقع
عبارة عما يغشي منهما ويلبس فكانه قيل: فإذاقهم ما
غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: لا بد
من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما.

أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نظر إليه
ههنا، ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

(1) سورة الاعراف، الآية: 38.

(2) سورة الانعام، الآية: 23.

(3) قال الزيلعي: غريب جداً.

(4) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه، يستحق على علماء البيان أن
يكتبوه ينوب التبر، لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ فما ربحت تجارتهم
وما كانوا مهتدين؟ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على
الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً
لشراء المستعار قوله: ﴿فَمَا ربحت تجارتهم﴾ فاستعمل التجارة =

= والريح، ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة
الأصلية المستعار لها قوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فإنه مجرد عن
الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا، وما كانوا مهتدين، لكان
الكلام حقيقة معرّى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في
بابه، كترشيع المجاز في بابيه ومنه. إذا الشيطان قصع في قفاها.
تنقفاها بالحبل التّؤام. فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً، ثم نافقاً،
ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثنى، كما يستخرج الحيوان
من جحره، والشرط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق.

(5) سورة النحل، الآية: 28.

بالله وبعقابه، أو غير متبهرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ﴿مَنْ بَعْدَهَا﴾ من بعد التوبة ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ (3) فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم لكمالها في جميع صفات الخير كقوله:

وليس بمستنكر أن يجمع العالم في واحد وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمة بمعنى مأموم أي يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتم به كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (4) وروى الشعبي، عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن ابن مسعود أنه قال: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك (5). وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حين قيل له: ألا نستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، ولو كان معاذ حياً لاستخلفته، ولو كان سالم حياً لاستخلفته، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه» (6). وهو ذلك المعنى أي: كان إماماً في الدين؛ لأن الأئمة معلومو الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكنيئاً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿شَاكِرًا لَّأَنعَمَهُ﴾ روي: أنه كان لا يتغذى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخّر غذاءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخلوا له أن بهم جذاماً فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكرًا لله على أنه عافاني وابتلاككم ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حَسَنَةً﴾ عن قتادة هي: تنويه الله بذكره حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم ﴿لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ لمن أهل الجنة.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْبِئْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (137)

﴿ثم أوحينا إليك﴾ (7) في ثم هذه ما فيها من تعظيم

﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ (1) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله، أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثله في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل من الكذب ويجوز أن يتعلق بتصفه السننكم فتقول: هذا حلال أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه السننكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بتصفه وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف السننكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به السننكم ويجوز في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن قلّت: ما معنى وصف السننهم الكذب؟ قلّت: هو من فصيح الكلام بليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به السننهم فقد حلت الكذب بحيلته وصورته بصورته كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: الكذب بالجرّ صفة لما المصدرية كأنه قيل: لوصفها الكذب بمعنى: الكاذب كقوله تعالى: ﴿يهدم كذب﴾ (2) والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ: الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذاباً نكره ابن جني. واللام في ﴿لتفتروا﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَمْ يَدَأْ أَلَمٌ (138) وَعَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَمَحَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَنَنَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (139) ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لَذِي فَتْنٍ عَمِلُوا الشُّرَاءَ بِحَبْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهِمْ لَعَفُوفٌ رَحِيمٌ (140) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (141) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجَنَّهُ وَهَدَنَّا إِيَّكَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (142) وَمَا يَنْتَهَى فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّ الْقَالِينَ (143)

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعه قليلة وعقابها عظيم ﴿ما قصصنا عليك﴾ يعني: في سورة الأنعام ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين

(1) سورة الأنعام، الآية: 139.

(2) سورة يوسف، الآية: 18.

(3) قال أحمد: ويقوي هذا الثاني قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: كان أمة تؤمّه الناس، ليقتبسوا منه الخيرات، ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أتت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته، ووافق سيرته، والله أعلم.

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) رواه الحاكم في المستدرک 271/3.

(6) لم يخرج الزيلعي.

(7) قال أحمد: وإنما تفيد ذلك، ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخي عنه في علو المرتبة، بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة، وأشخص محلاً مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدّ مناقب الخليل عليه السلام، قال تعالى: وهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد رفعة، وهو: أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر، متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم، أوفر وأكبر على ما مهبناه، والله الموفق للصواب.

طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظاة ولا تعنيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وَلَا عَابَتُكَ فَمَا بُدِيَ بِمِثْلِ مَا عُودِيَتْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾

سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيبوا عليه. وقرئ: وإن عقبتكم فعقبوا أي: وإن قفيتكم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحداً غير ممثل به إلا حنظلة بن الرابح، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرأه مبفور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك»^(١). فنزلت، فكفر عن يمينه وكف عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار «بالنهي عنها»^(٢) حتى بالكلب العقور. إما أن يرجع الضمير في «لهو» إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم ويراد بالصابرين المخاطبون أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير أثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم كأنهم قيل: وللصبر خير الصابرين ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣) «وأن تغفوا أقرب للتقوى»^(٤) ثم قال لرسوله ﷺ: «وإصبر» أنت، فعزم عليه بالصبر «وما صبرك إلا بالله» أي: بتوفيقه وتثبيتته وربطه على قلبك «ولا تحزن عليهم» أي: على الكافرين، كقوله: «فلا تأس على القوم الكافرين»^(٥) وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكافرون «ولا تك في ضيق» وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيقت صبرك من مكرهم، والضيقة تخفيف الضيق أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيقة مصدرين كالقيل والقول «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا» أي: هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي «وولي» «الذين هم محسنون» في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله

منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجل ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُمِلَ أَلْتَبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو: المسخ ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما ختم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في نكر تلك نحو والمعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما نكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالفين ربة طاعته.

فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت: معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر وهو أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرنمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت: لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فاطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصيروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجب. ومعنى ﴿جعل السبت﴾ فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بَأَنِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْذِبِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام ﴿بالحكمة﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة «والموعظة الحسنة» وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة «وجادلهم بالتي هي أحسن» بالطريقة التي هي أحسن

(3) سورة الشورى، الآية: 40.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة المائدة، الآية: 68.

(1) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ ونكره الثعلبي هكذا من غير سند 250/2

(2) قال الزيلعي: إنها مستوفاة في الهداية.

بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلتة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ اللَّيْلِ مِنَ الْكَافِرِينَ إِلَى الْكَافِرِينَ، الَّذِي يَرْفَعُ الْوُجُوهَ لِرَبِّهِمْ، إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ، الْأَبْصَارُ⁽¹⁾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمير متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدده ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و﴿أسرى﴾ وسرى لغتان و﴿ليلاً﴾ نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ⁽²⁾ الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى نكر الليل؟ قُلْتَ: أراد بقوله ليلاً بلفظ التكرير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التكرير فيه قد دل على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحقيقة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: ﴿ومن الليل فتهدج به نافلة﴾⁽³⁾ يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بيننا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق⁽⁴⁾، وقيل: أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب⁽⁵⁾، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم» وقام ليخرج إلى المسجد فتشبهت أم هانئ بثوبه فقال: «مالك؟» قالت: أخشى أن يكنك قومك إن أخبرتهم، قال: «ولن

كنبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: اتصقه على نلك؟ قال: إني لأصنقه على أبعاد من نلك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثم، فاستنعتوه المسجد، فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن غيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون نلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أروق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه⁽⁶⁾. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رأها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿باركنا حوله﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة ﴿إنه هو السميع﴾ لأقوال محمد ﴿البصير﴾ بأفعاله العالم بتهنئتها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب نلك.

وَأَنبَأْنَا مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا⁽¹⁾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا

= الثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأن الوجدانية هي المقصودة في قوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ولو اقتصر على قوله: ﴿إنما هو إله﴾ لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوجدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلي 2/259).

(1) رواه الثعلبي وابن مرونه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله بأمك بقطع من الليل: ﴿فأسر﴾، كقوله تعالى: ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ فالظاهر، والله أعلم، أن الغرض من نكر الليل، وإن كان الإسراء يفيد، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسراء لما دل على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالنكر، تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبهياً على أنه مقصور بالنكر، وتظهيره في إفراد لحد ما دل عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾ فالاسم الحامل للثنية دل عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه؛ لأن أحد المعنيين، وهو:

شكورا (٢).

للمفعول، ولنفسدن بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عباداً لنا﴾ وقرئ: عبيداً لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخرّبوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً.

فإن قلّت (٢): كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه؟ قلّت: معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم تمنعهم، على أن الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى: ﴿وَكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ (٣) وكقول الداعي: وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس: وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء، وقرئ: فجوسوا وخلل الديار.

فإن قلّت: ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾؟ قلّت: معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَمَعْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦).

﴿ثم ردنا لكم الكرة﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وقيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، فقيل: هي قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيراً﴾ مما كنتم، والتنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جميع نفر كالعبيد والمعين.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا فِيْهِمْ وَلِيَتُخَلَّوْا السَّجْدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا نَفِيرًا (٧).

أي: الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم ﴿ليسؤروا وجوهكم﴾ حنف لدلالة نكره أولاً عليه، ومعنى ليسؤروا وجوهكم: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ (٤) وقرئ: ليسوم، والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، ولنسوء بالنون، وفي قراءة علي:

﴿لا تتخذوا﴾ قرئ: بالياء على لثلا يتخذوا، وبالتاء على أي: لا تتخذوا كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا ﴿وكيلاً﴾ رباً تكون إليه أموركم ﴿نزية من حملنا﴾ نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا نزية من حملنا ﴿مع نوح﴾ وقد يجعل وكيلاً نزية من حملنا مفعولي تتخذوا أي: لا تجعلوهم أرباباً كقوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ (١) ومن نزية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام، وقرئ: نزية من حملنا بالرفع بدلاً من واو تتخذوا، وقرأ زيد بن ثابت: نزية بكسر الذال، وروي عنه: أنه قد فسرها بولد الولد نكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق ﴿إنه﴾ إن نوحاً كان عبداً شكوراً قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظماني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني إذاه في عافية ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجاً أثره به.

فإن قلّت: قوله: ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ ما وجه ملامته لما قبله؟ قلّت: كانه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي، لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً وأنتم نزية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آبائكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند نكره على سبيل الاستطراد.

وَقَفَيْنَا إِلَىٰ بَيْتِ إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفَيْدُ فِي الْأَرْضِ مَرْبِّيًّا وَلِنُفَعِّلَنَّ عَلَاقًا كَبِيرًا (٨) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٩).

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسلون في الأرض لا محالة ويعلون أي: يتعظمون ويبنون ﴿في الكتاب﴾ في التوراة ﴿ولنفسدن﴾ جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لنفسد جواباً له كانه قال: وأقسمنا لنفسدن، وقرئ: لنفسدن على البناء

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

(2) قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدر يوجب على الله تعالى، بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، ولما السني إذا سئل هذا السؤال، أجاب عنه بقوله: لا يسأل عما يفعل، والله الموفق.

زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم **﴿ففسقوا﴾** أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا والأمر مجاز⁽²⁾؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها نعمة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكانهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إثارة الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو: كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قلَّت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ **قلَّت:** لأن حذف ما لا ليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام، وأمرته فقراً، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم أمرته فعصاني، أو فلم يتمثل أمري؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

فإن قلَّت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ **قلَّت:** لا يصح ذلك؛ لأن قوله: **﴿ففسقوا﴾** يدافعه، فكانت أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضرع خلاف ما أظهرت وقلت: قد نلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان، أو من أهل الإساءة، فأتيت الظاهر المنطوق به وأضمر ما نلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد، وقد قسر بعضهم **﴿أمرنا﴾** بكثرتنا وجعل أمرته فأمر

على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب كتاباً على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنياً للمفعول و **﴿يلقاه منشوراً﴾** صفتان للكتاب، أو يلقاه صفة، ومنشوراً حال من يلقاه.

أَفَرَأَى كَيْفَ كُنَّ يَتَفَكَّرُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا ﴿٧﴾ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّا يَهْتَدِي لِنُفْسِهِ. وَمَنْ سَلَ فَإِنَّا بِيَدِهِ عَذَابٌ وَلَا نَزْرَ وَارِزَةٌ وَزَرَّ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُدْبِرِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٨﴾.

﴿اقرأ﴾ على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم ما لم يكن في الدنيا قارئاً و **﴿بنفسك﴾** فاعل كفى و **﴿حسبياً﴾** تمييز وهو بمعنى: حاسب، كضرب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم، نكرهما سيوي. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدي بعلي؛ لأن الشاهد يكفي المدعي ما أهله.

فإن قلَّت: لم نكر **﴿حسبياً﴾**؟ **قلَّت:** لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال فكانه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسبياً، ويجوز أن يتأول النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك. أي: كل نفس حاملة وزراً فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى **﴿وما كنا معنيين﴾**⁽¹⁾ وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً إلا بعد أن **﴿نبعث﴾** إليهم **﴿رسولاً﴾** فنلزمهم الحجة.

فإن قلَّت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم آلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان؟ **قلَّت:** بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في آلة العقل.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُبْلِكَ قَرْنَةً أَرَأَيْتَ مَتَرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١١﴾.

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من

(1) قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرتي، يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر، وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول، فيكلفه بعقله، ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة، بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتفقيح العقليين، وأما السني، فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإن العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع، وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم، وتقوم الحجة، كما أنبت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها، فتعنتص=

(2) قال أحمد: نص حسن، إلا قوله أنهم خلوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة، والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا، على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفع عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. وشكر الله الثواب على الطاعة.

كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِكُمْ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُورًا ﴿٧٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٧١﴾

﴿كَلَّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه ﴿نُبَدِّلُ﴾ هم نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا بقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ وفضله ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً لا يمنعه من عاص لعصيانه ﴿أَنْظِرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ﴾ جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، وروي: أن قوماً من الأشراف فممن بونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإنن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني: إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسنتهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلاً، وعن بعضهم: أنها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل.

لَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا أَخَّرَ فَتَمَعَهُ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٧٢﴾

﴿فَتَقَعْدُ﴾ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعنت كأنها حرة بمعنى: صارت يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَلْفَنَ
عِنْدَكَ الْكَبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنِي وَلَا تَهْرُفْ
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿إلا تعبدوا﴾ أن مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا ﴿والوالدين﴾ إحساناً، وإحسناً بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. وقرئ: وأوصى، وعن ابن عباس

من باب فعلته ففعل كثيرته فثير، وفي الحديث: «خير المال سكة ماثورة، ومهرة مأمورة» أي: كثيرة النتائج. وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أملك هذا حقيراً، فقال ﷺ: «إنه سيامر»⁽¹⁾ أي سيكثر وسيكبر. وقرئ: أمرنا من أمر وأمره غيره، وأمرنا بمعنى امرنا، أو من أمر أماره، وأمره الله أي: جعلناهم أمراء وسلطانهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا
بِيبْرًا ﴿٧٤﴾

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهْلَكْنَا﴾ و ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس يعني: عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً ونَبَّهَ بقوله ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلًا لَمْ يَفِضْهَا مَا شَاءَ لَمْ يَرُبْ ثَرٌ جَمَلًا لَمْ
جَهَّمَ يَمْلِكُهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ﴿٧٥﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا
سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿٧٦﴾

من كانت⁽²⁾ العجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقيدبين أحدهما: تقيد المعجل بمشيئته، والثاني: تقيد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو: غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظاً من الدنيا أو لم يأت، فإن أوتي فيها وإلا قريباً كان الفقر خيراً له وأعون على مراده وقوله: ﴿لمن نريد﴾ بدل من له وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ: يشاء، وقيل: الضمير لله تعالى فلا فرق إذا بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد على أن للعبد ما يشاء من الدنيا وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهدة للغنمية، والذكر كما قال ﷺ: «ممن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»⁽³⁾. ﴿مدحوراً﴾ مطروداً من رحمة الله ﴿سعيها﴾ حقها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (الحديث رقم: 4904).

(1) قال الزيلعي: غريب جداً 262/2.

(2) قال أحمد: ومثل ذلك التقيد ورد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ فانخل من المبعضة على حَرْثِ الدُّنْيَا، ونحل الطالب حَرْثَ الْآخِرَةِ مراده، وزاد عليه.

قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر⁽¹⁾ كذا. وقرئ: جناح الذل والذل بالضم والكسر.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿جناح الذل﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾⁽²⁾ فاضافه إلى الذل أو الذل، كما اضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك للذليل أو النلول، والثاني: أن تجعل لنله أو لنله لهما جناحاً خفيفاً، كما جعل لبيد للشمال: يداً، وللقوة: زماماً مبالغة في التثلل.

وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَبِيْرًا ﴿٣٨﴾

والتواضع لهما ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، واقتقارهما اليوم إلى من كان أقدر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لهما، وادع الله بأن يرحمهما الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليك في صغرك وتربيتكما لك.

فإن قُلْتُ: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين قُلْتُ: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبي ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»⁽³⁾ وروي: يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة⁽⁴⁾، وروي سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أن أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»⁽⁵⁾. وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف، وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله فبكي رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»، وشكا إليه آخر⁽⁶⁾ سوء خلق أمه فقال: «لم تكن سيرة الخلق حين حملتك تسعة

رضي الله عنهما: ووصى، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته ﴿إما﴾ هي إن الشرطية زينت عليها ما تكاد لها ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أقررت إن لم يصح دخولها لا تقول: إن تكرم زيدا يكرمك، ولكن إما تكرمته و ﴿أحدهما﴾ فاعل يبلغن، وهو: فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الزايع إلى الوالدين و ﴿كلاهما﴾ عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قُلْتُ: لو قيل: إما يبلغان كلاهما. كان كلاهما توكيداً لا بدلاً فمالك زعمت أنه بدل؟ قُلْتُ: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنتين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله.

فإن قُلْتُ: ما ضررك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ قُلْتُ: لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما علم أن التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول ﴿اقف﴾ صوت يدل على تضجر، وقرئ: أف بالحرركات الثلاث منوناً وغير منون، الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة، والتشديد كتم، والضم اتباع كمنذ.

فإن قُلْتُ: ما معنى عندك؟ قُلْتُ: هو أن يكبرا ويعجزا وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما تولي منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق، ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول - لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما أف فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ﴿ولا تنهرهما﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيان مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم أخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التاقيف والنهر ﴿قولاً كريماً﴾ جميلاً كما يقتضيه حسن الالب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت مع كفره، ولا يدعوهم بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الألب، وعادة الدعار، قالوا: ولا بأس به في غير وجهه كما

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب: الاقضية، باب: ما لا يجوز من النحل،

(الحديث رقم: 40).

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه الترمذي في كتاب: «البر والصلة»، باب ما جاء في الفضل في رضا الوالدين (الحديث رقم: 1899)، والحاكم في المستدرک 4/ =

(= 152).

(4) رواه أبو نعيم في الحلية 216/10.

(5) لم يخرج الزيلعي.

(6) أخرج نحوه الطبراني في معجمه الصغير ص 339 (الحديث رقم: 927).

﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤثوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين، والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسراً أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا ميسير، أو لم يكونوا محارم كابناء العم فحقهم صلتهم بالمودة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاوضة ونحو ذلك ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي نوي القرابة من الحق هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذوي القربى: أقرباء رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ الْبِزْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٧).

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتيأسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسعة وتذكر ذلك في أشعارها فامر الله بالنفقة في وجوها مما يقرب منه ويلزم، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فلكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟» قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جاره» (٨) ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المنمة؛ لأنه لا شر من الشيطان، أوهم إخوانهم واصدقائهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أوهم قرنائهم في النار على سبيل الوعيد ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

﴿وَمَا تَرْضَ عَنْهُمْ إِيَّاهُ رَحِمَ مِنْ رَبِّكَ رَجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ مَوَلَّةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الَبْسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (١٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِمَا يَفْعَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١).

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، حياء من الرد ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء (٧) قوله: ﴿أَبْتِغَاءَ﴾

أشهره قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليها، وأظلمات بهارها» قال: لقد جازيتها: قال: «ما فعلت؟» قال: حجبت بها على عاتقي. قال: «ما جزيته ولو طلقة» (١) وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول:

إني لها مطية لا تذعر إذا الركاب نفرت لا تنفر ما جمعت وأرضعتني أكثر الله ربي نوال الجلال الأكبر تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة (٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإن الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إذا رده خيلاء، إن الكبرياء لله رب العالمين» (٣)، وقال الفقهاء: لا يذهب بآبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحملة فعل، ولا ينأوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أو قد. وعن حنيفة: أنه استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين فقال: «دعه يليه غيرك» (٤). وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزراً إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما، فعن النبي ﷺ: «إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودايه» (٥).

﴿رَبِّكَ أَغْلَرَ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (١٥) ﴿وَمَا ذَا الْقَرْيَةِ كَفَرَتْ وَلَيْسَتِ مِنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْزُرُ تَبْزِيرًا﴾ (١٦).

﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائرهم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر، وما لا يخلو منه البشر، أو لحماية الإسلام، هته تؤدي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله واستغفرتن منها فإن الله غفور ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ للتوابين، وعن سعيد بن جبير: هي في البائرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأواب الرجل كلما أنذب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبيه التائب من جنايته لوروده على أثره.

(١) لم يخرج الزيلعي.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في بر الوالدين فضل في حفظ حق الوالدين بعد موتهما، (الحديث رقم: 7976)، والبخاري في الأدب المفرد 1/62 باب جزاء الوالدين (الحديث رقم: 11).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل.

(٤) لم يخرج الزيلعي.

(٥) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم (الحديث رقم: 6460).

(٦) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدد فيه (الحديث رقم: 425) وأحمد في المسند (2/226).

(٧) رواه الحاكم في المستدرک 3/130.

فإنه يراعي أوسط الحالين لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه فاستنوا بسنته.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِذْهُ كَانَ فَحْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢).

قتلهم أولادهم هو وادهم بناتهم كانوا يشكونهن خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ: خشية بكسر الخاء. وقرئ: خطأ وهو الإثم يقال: خطئ خطأ كإثم إثماً، وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطأ كالحذر والحذر، وخطأ بالكسر والمد، وخطأ بالفتح والمد وخطأ بالفتح والسكون، وعن الحسن: خطأ بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رضاء: بكسر الخاء غير مهموز ﴿فاحشة﴾ قبيحة زائدة على حد القبح ﴿وساء سبيلاً﴾ وبشس طريقاً طريقه وهو أن تغضب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَضْرُورًا (٣٣).

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث إلا بان تكفر، أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان ﴿مظلوماً﴾ غير راكب واحدة منهم ﴿لأوليه﴾ الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه ﴿سلطاناً﴾ تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يشب بها عليه ﴿فلا يسرف﴾ الضمير للولي أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحرث بن عباد: وبشسع نعل كلب وقال:

كل قاتل في كليب غرة حتى ينال القاتل آل مرة
وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل:
الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد أن الضمير للقاتل الأول، وقرئ: فلا تسرف على خطاب الولي، أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبي: فلا تسرفوا رده علي ولا تقتلوا ﴿إنه كان منصوراً﴾ الضمير إما للولي يعني: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبيع ما وراء حقه، وإما للمظلوم: لأن الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة؟ الثواب وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور

رحمة من ربك ﴿إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً، وعدهم وعداً جميلاً رحمة لهم وتطيباً لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك قسمي الرزق رحمة، فردهم رداً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وإما تعرضن عنهم﴾ وإن لم تتفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل نحس فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كان معناه: قولاً ذا ميسور وهو: اليسر أي: دعاء فيه يسر.

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فتقصد ملوماً﴾ فتصير ملوماً عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول المحتاج: أعطي فلاناً وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تبخير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ منقطعاً بك لا شيء عنك من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً فقال: «من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا، فذهب إلى أمه فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك «فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريائناً، وأثن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة^(١)، وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد دبين عينيه والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان جدي في مجمع
وما كنت بوزن امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال: «يا أبا بكر أقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل»^(٢) فنزلت. ثم سلا رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأن تلك ليس لهوان منك عليه ولا ليخل به عليك، ولكن لأن مشيئته في بسط الرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، فاما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض

(١) لم يخرج الزليعي.

(٢) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام.. (الحديث رقم: 2440).

بالعمل به ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام

و ﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمستؤول فاعل إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾⁽⁴⁾. يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: والفؤاد بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واوًا بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتحة.

وَلَا تَنْسَ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٧﴾

﴿مرحًا﴾ حال أي: ذا مرح وقرئ: مرحًا، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد ﴿لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لَنْ تجعل فيها خرقًا⁽⁵⁾ بدوسك لها وشدة وطاقتك، وقرئ: لَنْ تخرق بضم الراء ﴿ولَنْ تبلغ الجبال طولًا﴾ بطاوتك وهو تهكم بالمختال.

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾

قرئ: سيئة وسيئته على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيا في بعض المصاحف، وسيات وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان شأنه.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿سيئته﴾ مع قوله: ﴿مكروهًا﴾؟ قُلْتُ: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم، زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيته ولا فرق بين من قرأ: سيئة وسيا، ألا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى منكرو ومثنت.

فإن قُلْتُ: فما نكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، وإنك قرأ من قرأ سيئته بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئته؟ قُلْتُ: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعبودة.

ذَلِكَ مِنَّا آوَحَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ فَلَتَلَقَّ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٩﴾

(4) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(5) قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع، لمن يعتاد هذه المشيئة، كفاية في الانزعاج عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشيئة، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسيئتين، أو اجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بياقوته عنان السماء، كأنهم يمرّون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيد أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه، عن تديره على مراحل، والله ولي التوفيق.

بإيجاب القصاص على المسرف.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى لَّكُمُ ﴿٣٠﴾

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه عليه وتثميته ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى لَّكُمُ﴾⁽¹⁾ أي: مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخيلاً كأنه يقال للعهد: لم نكتسبته وهلا وفي بك تبكيتاً للناكت، كما يقال للمؤدة: ﴿بأي ذنب قتلت﴾⁽²⁾ ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنتُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ الْأَنْصَحَ إِلَيْكُمْ سَوَاءٌ أُنذِرَ تَأْوِيلًا ﴿٣١﴾

قرئ: ﴿بالقسطاس﴾ بالضم والكسر وهو: القرسطون وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها ﴿وأحسن تأويلًا﴾ وأحسن عاقبة وهو: تفعليل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٢﴾

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع وقرئ: ولا تقف يقال: قفا اثره وقافه، ومنه الفاقة يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول، أو فعل كمن يتبع مسلماً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو: ضال، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وإن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد بخلاً ظاهراً لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيتك يفعل، وسمعتك، ولم تر ولم تسمع، وقل: القفو شبيه بالعضية ومنه الحديث: «من قفى مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردة الخبال حتى يأتي بالمرج»⁽³⁾ وأنشد:

ومثل الدمي شم الفرانين ساكن بهن الحياء لا يشعن التفانيا أي: التفانف، وقال الكميت:

ولا أرمي البري بغير نذب ولا أقفوا الحواصن إن قفينا وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر

(1) قال أحمد: كلام حسن، إلا لفظة التخييل، فقد تقدم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل، والظاهر التأويل الأول، ويكون المجرور الذي هو عنه حنف تخفيفاً، وقد نكر في بقية الآي: ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ والله أعلم، ويحصد تأويل سؤال العهد نفسه، على وجه التمثيل، وقوف الرحم بين يدي الله، وسؤالها فيمن وصلها وقطعها، وقنود تلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(2) سورة التكويد، الآية: 9.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 82/2 وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: فيمن يغبن على خصومة.

عليهم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقلة طمانينة إليه، وعن سفيان كان إذا قرأها قال: زانني لك خضوعاً ما زاد أعداك نفوراً.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَرُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

قرئ: كما تقولون بالثناء والياء و ﴿إِذَا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو: لابتغوا جواب عن مقاتلة المشركين وجزاء للو ومعنى ﴿لَابْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١٤) وقيل لتقربوا إليه كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (١٥).

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٦﴾

﴿عُلُوًّا﴾ في معنى: تعالياً، والمراد: البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلو بالكبر: المبالغة في معنى البراءة، والبعد مما وصفوه به.

سُبْحَٰهُ لَهٗ الْفَتْحُ النَّجَّىٰ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ شِئْنَا لَنَسِفَنَّ يَمِينَهُ وَلَكِنْ لَا نَقْهَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّمَا كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِذِكْرِهِ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ يَوْمَ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَحْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الْمَغْلُوبُونَ إِنَّا نَرَاهُ فِي الْقُرْآنِ مُسْحُورًا ﴿١٩﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ صَرِيحًا لَكَ الْإِتْمَالُ فَصَلُّوا فَلَا يَسْمَعُونَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

والمراد (٦): أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكانها تتعلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فَإِنْ قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلْتُ: الخطاب للمشركين وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض، قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم،

﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (١) إلى هذه الغاية، وسماه حكمة؛ لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح أولها ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (٢) قال الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ موعظة﴾ (٣) وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء وحك بياقوخته السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن بين الله أضل من النعم.

أَفَأَنْصَرُّكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَتَأْخُذُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾

﴿أفانصركم﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم: البنون ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذوا دونهم وهي: البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعابتمكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاهم من الشوب ويكون أربابها والبنات للسادات ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بانكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بان تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أبون خلق الله وهم: الإنثاء.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٢﴾

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ يجوز يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكثر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكاناً للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد ولقد صرفنا يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ قرئ: مشدداً ومخففاً أي: كثرناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به

(1) سورة الإسراء، الآية: 22.

(2) سورة الإسراء، الآية: 22.

(3) سورة الأعراف، الآية: 145.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 22.

(5) سورة الإسراء، الآية: 57.

(6) قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله: ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وهو لا يغفر للمشركين، ولا يتجاوز عن جهلهم، وكفرهم، وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنين، والظاهر أن المخاطب المؤمنين، وأما عدم فقهننا للتسبيح الصابر من الجمادات، فكانه والله أعلم، من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من =

= نرات الكون تسبح الله، وتنزهه، وتشهد بحلاله، وكبريائه، وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكاد ذلك يشغله عن القوت، فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها، إن كل ذرة وجوهر من نرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه مشغولة، مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكاد أن لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم، أن الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين، وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذي كان حلماً غفوراً.

فَسَيَقُولُونَ مِنْ يَشْتَرِكُ أَلَيْسَ الَّذِي فَنَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُقْضَىٰ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ فَيَكُونُوا لَكَ أَوْفَاءً ۚ قُلْ هُوَ قُلٌّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

لما قالوا: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ قيل لهم ﴿كُونُوا حَجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ فردّ قوله: كونوا على قولهم كُنَّا كانه قيل: كونوا حجارة أَوْ حديدًا وَلَا تكونوا عظامًا فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وعضاضته بعد ما كنتم عظامًا يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائرته، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو: أن تكونوا حجارة يابسة أَوْ حديدًا، مع أن طباعها الجسولة والصلابة، لكان قادرًا على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ عَنْ قَبُولِ الْحَيَاةِ وَيَعْظُمُ فِي زَمْعِكُمْ عَلَى الْخَالِقِ إِحْيَاؤُهُ فَإِنَّهُ يَحْيِيهِ، وقيل: ما يَكْبُرُ فِي صُدُورِهِمُ الْمَوْتُ، وقيل: السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ ﴿فَسَيَنْفِغُضُونَ﴾ فسحَرَكُونَهَا نَحْوَكُمْ تَعْجِبًا وَاسْتَهْزَاءً.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّا لَنَعْتَدُ لَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتتبعثون مطاوعين منقادين لَا تَمْتَنِعُونَ وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حال منهم أي: حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع: ستركه وأنت حامد شاكر يعني: أنك تحمل عليه وتفسر قسرًا، حتى أنك تلين لين المسمح الراغب الحامد عليه، وعن سعيد بن جبیر: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وَتُظَنُّونَ﴾ وترون الهول، فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسونها يومًا أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

وَقُلْ لِمَا كَادَ يَقُولُوا تِلْكَ آيَةٌ الْبَاطِلِ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ زَكَّرَ أَفْعَلَ بِكَزٍّ إِنْ يَشَأْ يُرْجِمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

﴿وقل لعبادي﴾ وقل للمؤمنين ﴿يقولوا﴾ للمشركين الكلمة ﴿التي هي أحسن﴾ والين ولا يخاشنهم كقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾^(١) وفسر التي هي أحسن بقوله: ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما

فكانهم لم ينظروا ولم يقرؤا؛ لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قُلْتُ^(١): من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم: الملائكة والثقلان وقد عطفوا على السموات والأرض فما وجهه؟ قُلْتُ: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حين لَا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشركم.

﴿حجائبًا مستورًا﴾ ذا ستر كقولهم: سيل مغمم نور إفعام، وقيل: هو حجاب لَا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد: أنه حجاب من لونه حجاب، أَوْ حجب، فهو مستور بغيره، أَوْ حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾^(٢) كانه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، أَوْ لَأَنْ قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة فيه معنى: المنع من الفقه فكانه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدًا وحدة نحو وعد يعد وعدًا وعدة ﴿وحدته﴾ من باب رجع عوده على بنائه وافعله جهلك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسدّ الحال أصله يحد وحده بمعنى: واحدًا أَوْ حده. والنفور مصدر بمعنى التولية، أَوْ جمع نافر كقاع وقعود أي: يحبون أن تذكر معه آلهته لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا ﴿بِمَا يَسْتَمْعُونَ بِهِ﴾ من الهزؤ بك وبالقرآن ومن اللغو، كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و﴿بِهِ﴾ في موضع الحال كما نقول: يستمعون بالهزؤ أي: هازئين و﴿إِنْ يَسْتَمْعُونَ﴾ نصب بأعلم أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِنْ هُمْ نَجْوَى﴾ وبما يتناجون به إذ هم نون نجوى ﴿إِنْ يَقُولُ﴾ بدل من إذ هم ﴿مُسْحَرًا﴾ سحر فجئ، وقيل: هو من السحر وهو الرثة أي: هو بشر مثلكم.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿ففضلوا﴾ في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لَا يدري ما يصنع.

وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا أَوْآدَا كَبُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿٥٥﴾ قُلْ كُونُوا حَجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٦﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

(١) قال أحمد: وقد تقدّم نقلي عنه، أنه يابى حمل اللفظ على حقيقته،

ومجازه نفعه واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه، ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد، وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متنا، ولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، =

= وقد يكون أراد: ثم المجاز، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 5.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

يبتغون، وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معني يحرصون، فكانه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح **﴿ويرجون﴾** ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة **﴿إن عذاب ربك كان﴾** حقيقةً بأن يحذر كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم.

وَلَنْ يَنْفَرِيَنَّ إِلَّا عَنْ مُهْلَكٍ قَدْ يَوْمَ الْيَوْمِ أَوْ مُعَذِّبًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٨٤).

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال **﴿أو معذبوها﴾** بالقتل وأنواع العذاب وقيل: الهلاك للصالحية والعذاب للطاعة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواحف، وأما خراسان فعذابها ضرب، ثم نكرها بلداً بلداً **﴿في الكتاب﴾** في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا نُنَزِّلُهَا نَافَاةً مُبْمَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٨٥).

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكتيب الأولين، والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فاجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكنبوا بها تكذيب أولئك وقالوا: **﴿هذا سحر مبين﴾** (٣) كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستاصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم نكر من تلك الآيات التي اقترحتها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فاهلكوا واحدة وهي ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صابريهم وورادهم **﴿مبصرة﴾** بنية، وقرئ: مبصرة بفتح الميم **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بها **﴿وما نرسل بالآيات﴾** إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها **﴿إلا تخويفاً﴾** من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

وَلَا تَلَّا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَمَّا طَائِفَاتٍ إِنَّهُمْ لَأَعْيُنُكَ أَرْسَلْنَا بِهَا

يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: **﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾** اعترض يعني: يلقي بينهم الفساد ويفري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة **﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾** أي: رباً موكلاً إليك أمرهم تقصرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم ومر أصحابك بالمدارة والاحتمال وترك المحاقاة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل، فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ بالكسر، وهما لغتان: نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآيَاتِنَا دَاوُدَ زُيُورًا (٨٦).

هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن تكون العراة الجوع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم نون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقائيرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾** إشارة إلى تفصيل رسول الله ﷺ، وقوله: **﴿وآتيناه داود زبوراً﴾** دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود، وقال الله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** (٧) وهم محمد وأمه.

فإن قلنا: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله: **﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾** (٢) قلنا: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل، وأن يريد وآتيناه داود بعض الزبور وهي الكتب، وأن يريد ما نكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً.

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَتْفَ النَّارِ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٨٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ عَذَابًا (٨٨).

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن عبيدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أي: ادعوه فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبطلوه **﴿وأولئك﴾** مبتداً **﴿الذين يدعون﴾** صفته **﴿يبتغون﴾** خبره يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي: القرية إلى الله تعالى **﴿إليهم﴾** بدل من واو

(3) بعض آية ورد في سبعة مواضع من القرآن منها: سورة المائدة،

(1) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(2) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

إِلَّا يَنْتَ لِلنَّارِ وَالشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ وَتُؤْفِكُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وانكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾^(١) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾^(٢) وغير ذلك، فجعله كان قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عاتبه في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبى ﷺ في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك عنك وعنك»، ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان»، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء^(٣)، وحين سمعوا بقوله^(٤): ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ * طَعَامَ الْإِثْمِ﴾^(٥) جعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر! وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا وأن يجعل الله الشجرة من جنس لا تاكله النار، فهذا وير السمندل وهو نوبية ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار، وترى النعمة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فمن أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى: أن الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر. فما كان ما «أرأيته» منه في منامك بعد الوحي إليك «إلا فتنه» لهم حيث اتخذوه سخرياً، وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الرقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم «ونخوفهم» أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة «فما يزيدهم» التخويف «إلا طغياناً كبيراً» فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات^(٦)، وقيل الرؤيا هي: الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما

سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رايتها وخيال خيل إليك استبعاداً منهم، كما سمي أشياء باسميها عند الكفرة نحو قوله: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾^(٧) «أين شركائي»^(٨) «نق إنك أنت العزيز الكريم»^(٩) وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

فإن قُلْتُ: أين لعنت شجرة الرقوم في القرآن؟ قُلْتُ: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة. وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن والإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه: ضار ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم، الطعام الملعون القشب المحقوق، وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: هي الشيطان، قيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

وَلَا تَلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدًا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُمْ إِلَّا بَوْرٌ آلِيْنَدَةِ لَأَخْنِيَنَّكُمْ دُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

﴿طِينًا﴾ حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد على أسجد له وهو طين أي: أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أسجد لمن كان في وقت خلقه طيناً «أرأيته» الكاف للخطاب و «هذا» مفعول به والمعنى: أخبرني عن هذا «الذي كرمته» أي: «علي» أي: فضله لم كرمته علي وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتداء فقال «لئن أخرتني» واللام موطئة للقسم المحذوف «لأحتنكن ذريته» لاستأصلهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذ جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: احنك الشاتين أي: اكلمها.

فإن قُلْتُ: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قُلْتُ: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها»^(١٠) أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.

(3) قال أحمد: والعمدة في ذلك، أن النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة، أنه خلق الحرق عند ملاقة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار، قلله تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في ورد النبي ﷺ (الحديث رقم: 2915).

(5) سورة البخان، الآيتان: 43 و44.

(6) قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» وقوله: «فإنهم لأكلون منها» والله أعلم.

(7) سورة الصافات، الآية: 91.

(8) بعض آية ورد في أربعة مواضع من القرآن منها: سورة النحل، الآية: 27.

(9) سورة البخان، الآية: 49.

(10) سورة البقرة، الآية: 30.

والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة وغير ذلك **﴿وعدهم﴾** (3) المواعيد الكاذبة من شفاعاة الآلهة، والكرامة على الله بالانساب الشريفة، وتسويق التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً، وإيثار العاجل على الأجل **﴿إِنْ عِيَادِي﴾** يريد الصالحين **﴿ليس لك عليهم سلطان﴾** أي: لا تقدر أن تغويهم **﴿وكفى بربك وكيلًا﴾** لهم يتوكلون به في الاستعانة منك ونحوه قوله: **﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾** (4).

فإن قلنا: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغوياً مضلاً داعياً إلى الضر صاداً عن الخير؟ قلنا: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية كما قال للعصاة **﴿اعملوا ما شئتم﴾** (5).

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا (١٧) وَإِنَّا مَسْكُومُ الْفَرْ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَا تَحْشُرُوا إِلَى اللَّهِ أَعْمَتَكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (١٨).

﴿يزجي﴾ يجري ويسير. والضر خوف الغرق **﴿ضل﴾** من تدعون إلا إياه ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوائثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في تلك الوقت، ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالك من غير يقدركم على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين، ويجوز أن يراد: ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه، وحده على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْبِفَ بِكُمْ جَلَبُ الْبَرْقِ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (١٩) أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا يَذَرُكُمْ (٢٠).

﴿أفامسرتم﴾ الهمة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فامسرتم فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قلنا: بم انتصب **﴿جانب البر﴾**؟ قلنا: بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله: **﴿فخسفنا به وبداره**

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَكُّ يَمُوتُ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُؤْتَرًا (٢١).

﴿أذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء إنما معناه: لبعض لشانك الذي أخذته خذلاناً وتخلية وعقبة بنكر ما جزه سوء اختياره في قوله **﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾** كما قال موسى عليه السلام للسامري: **﴿فأذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾** (1).

فإن قلنا: أما كان من حق الضمير في الجزء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى **﴿فمن تبعك﴾**؟ قلنا: بلى ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب ف قيل جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب **﴿جزاء موفورا﴾** بما في فإن جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون، أو على الحال: لأن الجزء موصوف بالموفور والموفور الموفر يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَفَتِ بَيْنَهُمْ بِصَرْفِكَ وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَمْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٢٢) إِنْ عِيَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٢٣).

استفزه استخفه والفز الخفيف **﴿ولجلب﴾** من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله أركبي» (2). والرجل اسم جمع للرجال ونظيره الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أن فعلا بمعنى: فاعل نحو تعب وتاعب، معناه: وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضاً فيكون مثل حدث وحدث، ونس ونس، وأخوات لهما يقال: رجل رجل، وقرئ: ورجالك ورجالك.

فإن قلنا: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلنا: هو كلام ورد مورد التمثيل مثلث حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصول بهم صوتاً يستفزهم من أملكهم ويقلقهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كل راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة

= الرحمن، وكذلك الشفاعاة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة، التي وعد بها الصالح المصدق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة، وأمانيه الماحلة، اللهم ارزقنا الشفاعاة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(4) سورة الحجر، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 40.

(1) سورة طه، الآية: 97.

(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند النفير يا خيل الله أركبي (الحديث رقم: 2560).

(3) قال أحمد: وهذا من تجزئ المصنف على السنة ومتبعيها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بانها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من

أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيرهم لهم، وقيل: كل شيء ياكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد أنه أحضر طعماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: جاء في تفسير جندك ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع ياكلون بها فأحضرت الملاعق، فردّها وأكل بأصابعه ﴿وعلى كثير ممن خلقنا﴾ هو ما سوى الملائكة⁽⁴⁾، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعدما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم نكرهم، وعلموا أين أسكنهم وأنى قرّبهم وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أمهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منها قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا ياكلون منها ويتمتعون، ولم تعطنا ذلك؟ فأعطاه في الآخرة فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل نزيّة من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان⁽⁵⁾، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده⁽⁶⁾، ومن ارتكابهم أنهم فسروا كثيراً بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوها حتى سلبوا النوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ جَمِيعٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ على أن معنى قولهم على جميع ممن خلقنا أشجى لحلولهم واقتضى لعيونهم ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تحملهم وتشبّثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملائكة الأعلى، كان جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، ففلك السخيمة لا تتحل عن قلوبهم.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ مِّنْ أَوْفَىٰ كِتَابٍ يَسِيمُوهُ
فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُوهُ كِتَابَهُمْ وَلَا يَخْلَعُونَ قَبِيلًا (٧١) وَمَن كَانَتْ فِي
هُدَاهُ أَعْيُنٌ مَّرَّةً فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلَّ سَبِيلًا (٧٢).

قري: يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: يدعو كل أناس على قلب الآلاف وأوّا في لغة من يقول أفعوا. والظرف نصب بإضمار انكر،

الأرض⁽¹⁾ وبكم حال والمعنى: أن يخسف جانب البر أي: يقبله وأنتم عليه.

فإن قلّت: فما معنى نكر الجانب؟ قلّت: معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برّا كان أو بحرًا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو: الخسف، لأنه تغيب تحت التراب كما أن الغرق وتغيب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سيات، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ﴿أو يرسل عليكم حاصبًا﴾ وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر ﴿وكيلاً﴾ من يتوكل يصرف ذلك عنكم ﴿ومن أمّنتم﴾ أن يقوّي بواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبو البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل ﴿عليكم قاصفاً﴾ وهي الريح التي لها فصيف وهو: الصوت الشديد كأنها تنقص أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته ﴿فيغرقكم﴾ وقرئ: بالتاء أي: الريح. وبالنون، وكذلك نخسف، ونرسل، ونعيذك قرئت بالياء والنون. التبع المطالب من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾⁽²⁾ أي: مطالبة، قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبع

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي: مصيطر عليه مطالب له بحقه، والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحد يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا وبركاً للنار من جهتنا، وهذا نحو قوله: ﴿ولا يخاف عقابها﴾⁽³⁾ ﴿بما كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة يريد: إعراضهم حين نجاهم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ رَفَقَهُمْ وَبَنَىٰ آلَ نُوحٍ مِّنْ لَّحْظٍ مِّنْ خَشْيَةٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَوَّاكَ قَوْمًا لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قيل في تكرمة ابن آدم: كرمه الله بالعقل والنطق والتميز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير

(1) سورة القصص، الآية: 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 178.

(3) سورة الشمس، الآية: 15.

(4) قال أحمد: وقد بلغ إلى حدٍّ من السفة، يوجب الحد، ولستالمساجلته، إلا من حيث العلم، لا من حيث السفة، والقدر الذي تختص به هذه الآية، أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر، إلا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم، والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى: ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ وأشابهه كثير، وقد لمح الشاعر بذلك في قوله: قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي: لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إن المخلوق قسمان بنو آدم أحدهما، وغيرهم من جميع المخلوقين =

= القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم، وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مرأ، وتلك مرافق لقولك: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ جَمِيعٍ مِّنْ عَدَاهُمْ مِّنْ خَلْقِنَا﴾، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشّق في سبهم، وشقشّق العبارات في ثلبهم، وما يلغظ من قول، إلا لديه رقيب عتيد، والله وليّ التوفيق والتسديد.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (الحديث رقم: 152) وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: المسلمون في نمة الله تعالى (الحديث رقم: 3946).

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الحديث رقم: 153).

وَأَنْ كَادُوا لَيَتَنَوَّنَكَ فِي الْوَيْلِ أَوْحِيًا إِلَيْكَ لِنَفَرٍ عَلَيْنَا
عَذْرًا وَإِذَا لَا تَعْدُوكَ خَلِيلًا (٧٢).

روي: أَنْ ثَقِيفًا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَا نَدْخُلُ فِي أَمْرِكَ حَتَّى
تَعْطِينَا خَصَالًا نَفْتَخِرَ بِهَا عَلَى الْعَرَبِ، لَا نَعْشُرُ، وَلَا
نَحْشُرُ، وَلَا نَجْبِي فِي صَلَاتِنَا، وَكُلُّ رَبٍّ لَنَا فَهُوَ لَنَا، وَكُلُّ
رَبٍّ عَلَيْنَا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنَّا، وَإِنْ تَمَتَّعْنَا بِأَلَاتِ سَنَةٍ، وَلَا
نَكْشُرُهَا بِأَيْدِينَا عِنْدَ رَأْسِ الْحَوْلِ، وَإِنْ تَمَنَعَ مِنْ قَصْدِ
وَالِنَاوِجِ فَعَضُدُ شَجَرِهِ، فِإِذَا سَأَلْتُكَ الْعَرَبُ لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ
فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِهِ، وَجَآؤًا بِكُتَابِهِمْ، فَكُتِبَ: بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِثَقِيفٍ:
لَا يَعْشُرُونَ، وَلَا يَحْشُرُونَ فَقَالُوا: وَلَا يَجْبُونَ، فَسَكَتَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالُوا لِلْكَاتِبِ: اكْتُبْ وَلَا يَجْبُونَ، وَالْكَاتِبُ
يَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
فَسَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ: أَسَعَرْتُمْ قَلْبَ نَبِينَا يَا مَعْشَرَ ثَقِيفٍ
أَسَعَرَ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ نَارًا، فَقَالُوا: لَسْنَا نَكْلِمُ إِيَّاكَ إِنَّمَا نَكْلِمُ
مُحَمَّدًا (٧٣)، فَزَلَّتْ. وَرَوَى أَنْ قَرِيشًا قَالُوا لَهُ: اجْعَلْ آيَةَ رَحْمَةِ
آيَةِ عَذَابٍ، وَآيَةَ عَذَابٍ آيَةَ رَحْمَةٍ، حَتَّى نُوْثِنَ بِكَ، فَزَلَّتْ
﴿وَأَنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ﴾ إِنْ مَخْفَقَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاللَّامِ هِيَ:
الْفَارَقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْخَافَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ الشَّانَ قَارِبُوا أَنْ
يَفْتَنُوكَ، أَيْ: يَخْدَعُوكَ قَانَتَيْنِ ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
مِنْ أَوَامِرِنَا وَنَوَاهِينَا وَوَعْدِنَا وَوَعِيدِنَا ﴿لِنَفْتَرِي عَلَيْكَ﴾
لِنَقُولَ عَلَيْكَ مَا لَمْ نَقُلْ بِعَيْنِي: مَا أَدَارُوهُ عَلَيْهِ مِنْ تَبْدِيلِ
الْوَعْدِ وَعِيدًا وَالْوَعِيدِ وَعَدًا، وَمَا اقْتَرَحَتْهُ ثَقِيفٌ مِنْ أَنْ
يَضِيفَ إِلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْهُ عَلَيْهِ ﴿وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ﴾ أَيْ:
وَلَوْ اتَّبَعْتَ مُرَادَهُمْ لَا تَخْذُوكَ ﴿خَلِيلًا﴾ وَلَكِنَّتَ لَهُمْ وَلِيًّا
وَخَرَجْتَ مِنْ وَلَايَتِي.

وَأَوَّلًا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا
لَاذَنْتَكَ ضِمَفَ الْخِيَرَةِ وَضِمَفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَحْدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا
(٧٥).

﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ﴾ وَلَوْلَا تَبْتَئْنَا لَكَ وَعَصَمْتْنَا ﴿لَقَدْ
كَدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ﴾ لِقَارِبَتْ أَنْ تَمِيلَ إِلَى خُدْعِهِمْ وَمَكْرِهِمْ،
وَهَذَا تَهْيِيجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَفَضْلٌ تَثْبِيتٌ وَفِي ذَلِكَ لُطْفٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِذَا﴾ لَوْ قَارِبَتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ أُنْشَى رَكْنَةً
﴿لَا تَنْفَكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أَيْ: لَا تَنْفَكَ

وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: إِنَّهَا عَلَامَةُ الْجَمْعِ كَمَا فِي ﴿وَاسْرُوا
النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (١) وَالرَّفْعُ مُقَدَّرٌ كَمَا فِي ﴿يَدْعِي﴾ (٢)
وَلَمْ يُوْثَ بِالنَّوْنِ قَلَّةً مَبَالَاً بِهَا؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ضَمِيرٍ لَيْسَتْ إِلَّا
عَلَامَةً. ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ (٣) يَمُنُّ اتَّمَعُوا بِهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ مُقَدَّمٍ فِي
الدِّينِ أَوْ كِتَابٍ أَوْ دِينٍ، فَيَقَالُ: يَا أَتْبَاعُ فُلَانٍ، يَا أَهْلَ دِينٍ
كَذَا وَكِتَابٍ كَذَا، وَقِيلَ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ، فَيَقَالُ: يَا أَصْحَابَ
كِتَابِ الْخَيْرِ، وَيَا أَصْحَابَ كِتَابِ الشَّرِّ، وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ:
بِكُتَابِهِمْ. وَمَنْ يَدْعُ التَّفَاسِيرَ أَنْ الْإِمَامَ جَمَعَ أَمْ، وَأَنْ النَّاسُ
يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْعَالِهِمْ، وَأَنْ الْحِكْمَةَ فِي الدَّعَاءِ
بِالْأَمْعَالِ نَوْنُ الْأَبَاءِ رَعِيَّةٌ حَقَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِظْهَارُ
شَرَفِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَأَنْ لَا يَفْتَضَحَ أَوْلَادُ الزَّنا، وَلَيْتَ
شُعْرِي إِيَّاهُمْ أَبَدُ أَصْحَةِ لَفْظُهُ أَمْ بِهَاءِ حِكْمَتِهِ ﴿فَمَنْ
أُوتِيَ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَدْعُوعِينَ ﴿كِتَابَهُ بِمِثْنِهِ فَاوْلُكَ
يَقْرَأُونَ كُتَابَهُمْ﴾ قِيلَ: أَوْلُكَ؛ لِأَنَّ مِنْ أُوتِيَ فِي مَعْنَى
الْجَمْعِ.

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ خَصَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ بِقِرَاءَةِ كُتَابِهِمْ كَانَ
أَصْحَابُ الشَّامِ لَا يَقْرَأُونَ كُتَابَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى وَلَكِنْ إِذَا اطَّلَعُوا
عَلَى مَا فِي كُتَابِهِمْ أَخَذَهُمْ مَا يَأْخُذُ الْمُطَالِبَ بِالنَّدَاءِ عَلَى
جَنَائِيهِ وَالْاعْتِرَافُ بِمَسَاوِيهِ أَمَامَ التَّنْكِيلِ بِهِ وَالْإِنْتِقَامُ مِنْهُ مِنْ
الْحَيَاةِ وَالْخَجَلُ وَالْإِنْخِزَالُ وَحِبْسَةُ اللِّسَانِ وَالتَّوَضُّعُ وَالْعِزْ
عَنْ إِقَامَةِ حُرُوفِ الْكَلَامِ وَالذَّهَابُ عَنْ تَسْوِيَةِ الْقَوْلِ فَكَانَ
قِرَاءَتُهُمْ كَلَامًا قِرَاءَةً، وَأَمَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فَامْرَهُمْ عَلَى عَكْسِ
ذَلِكَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ كُتَابَهُمْ أَحْسَنَ قِرَاءَةٍ وَأَبِينَهَا وَلَا
يَقْنَعُونَ بِقِرَاءَتِهِمْ وَحَدَّهُمْ حَتَّى يَقُولَ الْقَارِئُ لَاهِلَ الْمَحْشَرِ:
﴿هَؤُلَاءِ اقْرَأُوا كُتَابِيهِ﴾ (٤) ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتِيلًا﴾ وَلَا
يَنْقُصُونَ مِنْ ثَوَابِهِمْ أَنْشَى كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ
شَيْئًا﴾ (٥) ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (٦) مَعْنَاهُ: وَمَنْ كَانَ
فِي الدُّنْيَا أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى كُنْكَلِكَ ﴿وَأُضِلَّ
سَبِيلًا﴾ مِنَ الْأَعْمَى، وَالْأَعْمَى مُسْتَعَارٌ مِمَّنْ لَا يَدْرِكُ
الْمُبْصِرَاتِ لِفَسَادِ حَاسَتِهِ لِمَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ،
أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلِفَقْدِ النُّظَرِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلِلَّانَةِ لَا يَنْفَعُهُ
الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهِ، وَقَدْ جُوزُوا (٧) أَنْ يَكُونَ الثَّانِي بِمَعْنَى: التَّفْضِيلِ،
وَمِنْ ثَمَّ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو الْأَوَّلَ (٨): مَمَالًا، وَالثَّانِي: مَفْخَمًا؛ لِأَنَّ
أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ تَمَامُهُ بِمَنْ، فَكَانَتْ أَلْفُهُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعَةِ فِي
وَسَطِ الْكَلَامِ كَقَوْلِكَ: أَعْمَالُكُمْ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ
فَكَانَتْ أَلْفُهُ وَاقِعَةً فِي الطَّرَفِ مَعْرُضَةً لِلْإِمَالَةِ.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.

(2) سورة الصف، الآية: 7.

(3) قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأَمْ المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلاق، لينكر بأمته، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب، غميمة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإن خلقه من غير أب، كان له آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(4) سورة الحاقة، الآية: 19.

(5) سورة مريم، الآية: 60.

(6) سورة طه، الآية: 112.

(7) قال أحمد: أي: لأنه من عمى القلب، لأعمى البصر، فجاز أن ينبني منه أقبل.

(8) قال أحمد: ويحتمل أن تكون هذه الآية قسمية الأولى، أي: فمن أوتي كتابه بيمينه، فهو الذي يبصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه بل أعمى عنه، أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التواويلين، والله أعلم.

(9) لم يخرج الزيلعي.

عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين⁽¹⁾.

لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقنسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لأمننا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فإله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذى الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله⁽⁴⁾، فنزلت فرجع. وقرئ: لا يلبثون، وفي قراءة أبي: لا يلبثوا على إعمال إذا.

فإن قلْت: ما وجه القراءتين؟ قلْتُ: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوع خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي: ففيها الجملة برأسها التي هي ﴿إِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ عطف على جملة قوله ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفْزَنُوكَ﴾ وقرئ: خلافك. قال:

عفت الديار خلافهم فكانما بسط الشواطب بينهم حصيرا أي: بعدهم، «سنة من قد أرسلنا» يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي: سن الله ذلك سنة.

أَمَرَ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ النَّسَسِ إِلَى عَسَى آتِلَ وَقَرَّمَ أَنْ أَفْجَرَ إِنَّ قَرَّمَ أَنْ النَّجْرَ كَانَتْ مَشْهُودًا (٧٨).

لعلك الشمس غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «ثاني جبريل عليه السلام ليلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر»⁽⁵⁾، واشتقاقه من الملك؛ لأن الإنسان يملك عينه عند النظر إليها، فإن كان اللوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة وهو: وقت صلاة العشاء «وقرآن الفجر» صلاة الفجر سميت قرآناً وهو القراءة: لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً وهي: حجة على ابن علي عليه والأصم في زعمهما أن القراءة

فإن قلْت: كيف حقيقة هذا الكلام قلْتُ: أصله لأنقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان عذاب في الممات وهو: عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو: عذاب النار، والضعف يوصف به نحو قوله: ﴿فَأَتَمَّ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ﴾⁽²⁾ بمعنى: مضاعفاً، فكان أصل الكلام لأنقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو: الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأنقناك اليم الحياة واليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، ويضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما تؤخره لما بعد الموت. وفي نكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القباح إلى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وفيه دليل على أن أدنى مدامة للغواية مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجتو عندها ويتبرها فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكنني إلى نفسي طرفه عين»⁽³⁾.

وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفْزَنُوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلَقَكَ إِلَّا قِيلًا (٧٩) سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَلِيلًا مِّن رُّسُلِنَا وَلَا جِدِّ لِسُنَّةِنَا غَوِيلًا (٨٠).

«وإن كادوا» وإن كاد أهل مكة «ليستفزونك» ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم «من الأرض» من أرض مكة «وإذا لا يلبثون» لا يبقون بعد إخراجك «إلا» زماناً «قليلاً» فإن الله مهلكهم، وكان كما قال: فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجهم بقليل، وقيل معناه: ولو أخرجوك

= من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان لله تعالى أن يفعله وهو حسن بالنسبة إليه، لا يستل عما يفعل وهم يسألون، ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل، ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك عن استعظام غيره، مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم، فراه حسناً، والله الموفق.

(2) سورة الاعراف: الآية: 38.

(3) قال الزيلعي ذكره التلعي 2/ 279.

(4) لم يخرج الزيلعي.

(5) رواه البيهقي في كتاب المعرفة الزيلعي 2/ 280.

(1) قال أحمد: أما تقليل الكيدودة، فالذي ينبغي أن يحمل عليه، كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن، لو كان، كيف كان يكون، فعلم تعالى أن الركوب الذي كاد يحصل منه عليه السلام، وإن كان ما حصل أمر قليل، وخطب يسير، فلذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتشبيه، فإن ذلك لا يكون في الإخبار، ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركن كثير، لكن تقليله خلقاً في الخير، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله، على ما ورد حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفظه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبح، فلزمهم على ذلك كل فعل استقبح من المعبود، استقبح =

بالكرامة آمناً من السخط، يدل عليه نكره على اثر نكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالمًا، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوة، وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلاسه من أمر ومكان ﴿سلطاناً﴾ حجة تنصرنى على من خالفني، أو ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهرًا له عليه. فاجيبت دعوته بقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾⁽³⁾ ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾⁽⁴⁾ ليظهره على الدين كله⁽⁵⁾ ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾⁽⁶⁾ ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له، وعنه ﴿أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتكم على أهل الله﴾⁽⁷⁾ فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن، وقال: لا والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديدًا حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْإِطْلُ إِنَّ الْإِطْلُ كَانَ زَهُوًّا ﴿٨١﴾

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي بونك، فأوحى الله إلى البيت إني سأحدث لك نوبة جديدة، فاملاك خدوداً سجداً يدفون إليك نفيف النسور يحنون إليك حين الطير إلى بيضها لهم عجاج حولك بالتلبية، ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم القها، فجعل يأتي صنماً صنماً وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» فينكب الصنم لوجهه حتى القها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: «يا علي أرم به» فحملة رسول الله ﷺ حتى سعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ⁽⁸⁾، وشكايه البيت والوحي إليه تمثيل

ليست بركن ﴿مشهوداً﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون ﴿وقرآن الفجر﴾ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثوراً عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

وَمِنْ آيَاتِ فَتْحِهِ يَوْمَ نَافِلَةٍ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٦﴾

﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتتهد به﴾ والتتهد ترك الجهود للصلاة ونحوه: التائم والتخرج، ويقال أيضاً في النوم بتتهد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تتهد؛ لأن التتهد عبادة زائدة فكان التتهد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التتهد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة بون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿مقاماً محموداً﴾ نصب على الظرف أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسال فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ هو: «المقام الذي أشفع فيه لأمتي»⁽¹⁾ وعن حنيفة: يجمع الناس في سعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبيك بين يديك وبك، وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانه رب البيت⁽²⁾. قال: فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٢﴾

قري: مدخل ومخرج بالضم والفتح بمعنى المصدر، ومعنى الفتح أنخلي فأنخل مدخل صدق أي: أنخلي القبر مدخل صدق إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى

(5) سورة التوبة، الآية: 33.

(6) سورة النور، الآية: 55.

(7) رواه الثعلبي وابن مردويه (الزليعي 286/2).

(8) قال الزليعي: غريب ورواه النسائي في السنن الكبرى مختصراً

287/2

(1) رواه أحمد في مسنده 478/2، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3137).

(2) رواه الحاكم في المستدرک 363/2 وأبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 2899).

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

(4) سورة المائدة، الآية: 56.

جزاؤهم إلى قوله: ﴿إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (١٩).

فإن قلنا: علام عطف قوله: ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ قلنا: على قوله: ﴿أولم يروا﴾ لأن المعنى: قد علموا ببليلى العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم كما قال: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ (٢٥) ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت، أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً.

قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكَنْتُمْ خَبِيَةَ الْإِنَّمَاءِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتَرًا (٣٠).

لو حقا أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها في ﴿لو أنتم تملكون﴾ وتقديره لو تملكون تملكون فاضمر تلك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضممر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشع المتبالم ونحوه قول حاتم: لو نأت سوار لطممتني

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أراونا نقيصتي

ونلك لأن الفعل الأول لما سقط الأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشع الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لاهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من البنوبع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿قتورا﴾ ضيقاً بخيلاً.

فإن قلنا: هل يقدر لأمسكتكم مفعول قلنا: لا؛ لأن معناه: لبخلتم من قولك للبخل ممسك.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مَوْسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّي إِلَهُ جَاهَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُسُومِي سَحُورًا (٣١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُزَيِّرُكَ مَسُورًا (٣٢).

وما أنكره فخالفه هو المنكر عند الله؛ لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون﴾ (١) على أقدامهم كما يمشي الإنس، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه

﴿مطمئنين﴾ ساكنين في الأرض قادرين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المارشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قلنا: هل يجوز أن يكون ﴿بشراً﴾ و﴿ملكاً﴾ منصوبين على الحال من رسولاً قلنا: وجه حسن، والمعنى له أجوب ﴿شهيداً بيني وبينكم﴾ على أنني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كنتم وعاندتم ﴿إنه كان بعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيراً﴾ عالماً بأحوالهم فهو مجازيهم، وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيداً تمييز أو حال.

وَمَنْ يَبْتَغِ اللَّهَ فَهُوَ الْهَمِيمُ وَمَنْ يَبْتَغِ الْفَنَاءَ فَلَنْ يَبْقَى وَكَمْ آيَاتٍ يَنْزِلُ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عَمَاءً وَبُكْرًا وَسَوَاءٌ مَا أُوتِيَهُمْ جَهَنَّمَ كَلِمًا حَتَّى زَنَّهُمْ سَمِيرًا (٣٣) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا لَوَدَّ أَنَّكُمْ لَأَمْلَأْتُمْ خَلْقًا جَدِيدًا (٣٤).

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو للمهتد﴾ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضلل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصاراً ﴿على وجوههم﴾ كقوله: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ (٢) وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، ﴿وعمياً وبكراً وصماً﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم، ولا يتلقون بما يقبل منهم ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ (٤) ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأقنتها فسكن لبيها وبللوا غيرها، فرجعت ملتبهة مستعرة كأنهم لما كتبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تاكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرنهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دل على ذلك بقوله: ﴿ذلك﴾

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3142).

(4) سورة الإسراء، الآية: 72.

(5) سورة النازعات، الآية: 27.

(1) قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر، وهو قول القائل، إن مجرد وجود الملائكة في الأرض، يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة، فيكون جوابه ما تقدم، والله الموفق.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

قلبك، من قولهم: ما شبرك عن هذا أي: ما منعك وصرفك، وقرأ أبي بن كعب: وإن أخالك يا فرعون لمثبوراً على إن المخففة واللام الفارقة.

فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَضَهُ وَمِنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣٦﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٣٧﴾.

﴿فاراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو يفهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استغفزه الله بإغراقه مع قبضه ﴿اسكنوا الأرض﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني: قيام الساعة ﴿جئنا بكم لفيفا﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٣٨﴾.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما نزل القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخطيط الشياطين ﴿وما أرسلناك﴾ إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقَرَأْنَاكَ فَرَقَنَاهُ لِقَرَامٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّ وَزَلَّاهُ نَزِيلًا ﴿١٣٩﴾.

﴿وقرأنا﴾ منصوب بفعل يفعله يفسره ﴿فرقناه﴾ وقرأ أبي: فرقناه بالتشديد أي: جعلنا نزوله مفرقاً منجماً، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأه مشدداً وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب ﴿على مكث﴾ بالفتح والضم على مهل وتؤدة وتثبت ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ على حسب الحوادث.

قُلْ إِنَّمَا أَمْرٌ أَتَى لَّيْسَ إِلَهِ إِلَّا الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَإِذَا يُنْزِلُ فَنُفِثَ فِي السَّحَابِ ﴿١٤٠﴾ وَيُخَوِّذُ الْغُلَامَ سَجْدًا ﴿١٤١﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٤٢﴾ وَيُخَوِّذُ الْغُلَامَ سَجْدًا ﴿١٤٣﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٤٤﴾.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكثر بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز: إنه سأل محمد بن كعب فنذكر: اللسان، والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا. أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وجمص وعسد كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال أن بعض اليهود سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقنقوا محصنة، ولا تغفروا من الزحف؛ وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت»^(١). ﴿فاسئل بني إسرائيل﴾ فقلنا له: سل بني إسرائيل أي: سلهم من فرعون؟ وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم، وعن حال بينهم، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك، وتدل عليه قراءة رسول الله ﷺ: ﴿فسال بني إسرائيل﴾ على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، عن الآيات ليزدادوا يقيناً وطمانينة قلب؛ لأن الآلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت كقول إبراهيم: ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾^(٢).

فإن قلت: بم تعلق ﴿إذ جاءهم﴾؟ قلت: أما على الوجه الأول: فبالقول المحذوف أي: فقلنا له سلهم حين جاءهم، أو بسال في القراءة الثانية، وأما على الأخير: فبأتينا، أو بإضمار أنكر، أو يخبروك ومعنى: إذ جاءهم إذ جاء آباهم ﴿مسحوراً﴾ سحرت فخلوط عقلك.

﴿لقد علمت﴾ يا فرعون ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات إلا الله عز وجل ﴿بصائر﴾ بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر ونحوه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾^(٣) وقرئ: علمت بالضم على معنى: إني لست بمسحور كما وصفني بل أنا عالم بصحة الأمر. وأن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه كأنه قال إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك ﴿مبشوراً﴾ هالكا، وظني أصح من ظنك؛ لأن له إمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري ﴿إني لأظنك مسحوراً﴾ قول كذاب، وقال الفرءاء مبشوراً: مصروفاً عن الخير مطبوعاً على

(2) سورة البقرة، الآية: 260.

(3) سورة النمل، الآية: 14.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة بني

إسرائيل، (الحديث رقم: 3144).

المؤكد لما في أي: أي هذين الاسمين سميتم ونكرتم ﴿فله الأسماء الحسنی﴾ والضمير في فله ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأن التسمية للذات لا للاسم، والمعنى: أيًا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنی؛ لأنه إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم ﴿بصلاتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وإنكار، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغواً وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين الجهر والمخافتة﴾ سبيلاً، وسطاً، وروي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أنلجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان، ولوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً⁽¹⁾، وقيل معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، وقيل: بصلاتك بدعائك، وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾⁽²⁾ وابتغاء السبيل مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

قُلْ أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لَنَا رَبًّا وَكَانَ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾

﴿ولي من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بمولاته.

فإن قلنا⁽³⁾: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد قلنا: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية⁽⁴⁾.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا الله بفضله العليم وإحسانه الجسيم.

يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك. فإن خيراً منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلى عليهم خرواً سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره وإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشّر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويزيدهم خشوعاً﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قلنا: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ تعليل لماذا؟ قلنا: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، وتطبيب نفسه كأنه قيل: تسلم عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم.

فإن قلنا: ما معنى الخور للذنن؟ قلنا: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذنن وهو مجتمع للحيين؛ لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذنن.

فإن قلنا: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خَرَّ على وجهه وعلى نقتنه، فما معنى اللام في خَرَّ لنقتنه ولوجهه؟ قال: فخر صريعاً للبيدين وللنق. قلنا: معناه: جعل نقتنه ووجهه للخور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص.

فإن قلنا: لم كَرَّ يَخْرُونَ للأنقان؟ قلنا: لاختلاف الحاليين وهما: خروهم في حال كونهم ساجدين، وخروهم في حال كونهم بالكين.

قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَر بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن، فقال: إنه يتهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت. والدعاء بمعنى: التسمية لا بمعنى: النداء وهو يتعدى إلى مفعولين تقول: دعوت زيدا، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيدا، والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى، وأو للتخيير فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ سماوا بهذا الاسم أو بهذا، والذكر وإما هذا وإما هذا. والتنوين في ﴿أيًا﴾ عوض من المضاف إليه و﴿ما﴾ صلة للإبهام

= الذين كفروا ببرهم يعلون، وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد، ولا تناسبها، فإنك لو قلت: ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 348/1 كتاب الصلوات.

(1) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (الحديث رقم: 1329) والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (الحديث رقم: 447).

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَزِيمًا ۖ قِيمًا
يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُغْلِبُوا مِن لَّدُنْهُ وَيُنشِرَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ
الصَّلَاحِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ حَسَنًا ۖ تَكْفِيكَتِ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُذَكِّرُ
الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ فَلَمَّا كَـ
تَبَعَ نَعْسُكَ عَلَىٰ عَثَائِهِمْ ۚ إِنَّ لَهُمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ١.

لقد أنزل الله عبادته وفقههم كيف يتنون عليه ويحملونه على
أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على
عبد محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم
﴿ولم يجعل له عوجًا﴾ ولم يجعل له شيئاً من العوج
قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي
الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من
الحكمة والإصابة فيه.

فإن قلنا: بم انتصب ﴿قيماً﴾؟ قلنا: الأحسن أن
ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأن قوله: ولم
يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله
حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة،
وتقديره: ولم يجعل له عوجاً جعله قيماً؛ لأنه إذا نفى عنه
العوج فقد أثبت له الاستقامة.

فإن قلنا: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات
الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قلنا: فائدته التأكيد،
قرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ابني عوج
عند السبر والتصفح، وقيل: قيماً على سائر الكتب مصدقاً
لها شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد وما لا بد
لهم منه من الشرائع، وقرئ: قيماً. انذر متعدد إلى مفعولين
كقوله: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ (١) فاقصر على أحدهما
وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بأساً شديداً﴾ والباس من
قوله: ﴿بِعذاب بئيس﴾ (٢) وقد يؤس العذاب وبؤس الرجل
بأساً وبأسه ﴿ومن لئنه﴾ صادراً من عنده، وقرئ: من لئنه
يسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾
بالتخفيف والتثقل.

فإن قلنا: لم اقتصر على أحد مفعولي انذر؟ قلنا: قد

جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه فوجب الاختصار
عليه، والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وينذر الذين
قالوا اتخذ الله ولداً﴾ متعلقاً بالمنذرين من غير تكر المنذر
به كما نكر المبشر به في قوله: ﴿إن لهم أجراً حسناً﴾
استغناء بتقدم نكره. والأجر الحسن الجنة ﴿ما لهم به من
علم﴾ أي: بالولد أو باتخاذها يعني: أن قولهم هذا لم يصدر
عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للأباء، وقد اشتملته
آبائهم من الشيطان وتسويله.

فإن قلنا: (٣) اتخذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل:
﴿ما لهم به من علم﴾؟ قلنا: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه
ليس مما يعلم لاستحالة وانتفاء العلم بالشيء، إما للجهل
بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم
تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز
والرفع إلى الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى:
التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة و﴿تخرج من أفواههم﴾
صفة للكلمة تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها
وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في
قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون
أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوُّراً
من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: كبرت بسكون
الباء مع إشمام الضمة.

فإن قلنا: إلام يرجع الضمير في ﴿كبرت﴾؟ قلنا: إلى
قولهم: ﴿اتخذ الله ولداً﴾ وسميت كلمة كما يسمون القصيدة
بها.

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما
تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته
وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، وينزع نفسه
وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم. وقرئ: باخع نفسك على
الأصل وعلى الإضافة أي: قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال
فيمن قرأ إن لم يؤمنوا، أو للمضي فيمن قرأ إن لم
يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن
﴿أسفاً﴾ مفعول له أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون
حالاً، والأسف المبالغة في الحزن والغضب يقال: رجل
أسف وأسيء.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْتَبْهَرُ ۚ أَنَّهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ٧
وَرِثًا لِّجَمِيلِينَ ۚ مَا عَلَيْنَا صَيْدًا جُرْأًا ۚ ٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ۙ ٩.

﴿ما على الأرض﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها

ولا ترى الضب بها ينحجر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام، وارد على سبيل الحقيقة والأصل،
وأن نفي إنزال السلطان، تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده،
وتارة يكون، لأنه لم يقع، وإن كان ممكناً، والله أعلم.

(١) سورة النبا، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٦٥.

(٣) قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى: ﴿وإن تشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطاناً﴾ أن ذلك وارد على سبيل التهمك، وإلا فلا سلطان
على الشريك، حتى يغلظ ونظيره.

وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِمَنَافِعٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِمُ النَّفْسَ الْكَلِيمَةَ ﴿١٨﴾

أي: يتضمن معنى: الاستفهام فعلق عنه لنعلم فلم يعمل فيه. وقرئ: ليعلم وهو معلق عنه أيضاً؛ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد يعلم إليه، وفاعل يعلم مضمون الجملة كما أنه مفعول تعلم ﴿أي الحزبين﴾ المختلفين منهم في مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾⁽²⁾ وكان الذين قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم هم: الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم و ﴿أحصى﴾⁽³⁾ فعل ماض أي: أيهم ضبط ﴿أمداء﴾ لأوقات لبثهم.

فإن قلنا: فما تقول فيمن جعله من أفعال التفضيل؟ قلنا: ليس بالوجه السديد وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، ونحو: أعدى من الجرب، وأفلس من ابن مذاق، وشاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به؟ ولأن أمداء⁽⁴⁾ لا يخلو إما أن ينتصب بفاعل، فافعل لا يعمل، وإما أن ينصب بليثوا فلا يسد عليه المعنى، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى كما أضمر في قوله:

واضرب منا بالسيوف القوانسا

على تضرب القوانس فقد أبعدت المتناول وهو قريب حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره.

فإن قلنا: كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدة غرضاً في الضرب على آذانهم؟ قلنا: الله عز وجل لم يزل عالماً بذلك، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم ﴿ووزناهم هدى﴾ بالتوفيق والتثبيت.

وَرَبَّنَا عَلِّمْنَا لَدُنْهِمْ ذِكْرَهُمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَتْ قُلُوبُنَا إِذَا سَطَطْنَا ﴿١٩﴾

﴿وربنا على قلوبهم﴾ وقويها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم والفرار بالبدن إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿إذ قاموا﴾ بين يدي الجبار وهو: بقائوس من غير ميالة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿فقالوا ربنا رب

ولامها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿لنبلوهم﴾ أيهم أحسن عملاً وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿إنا لجاعلون ما عليها﴾ من هذه الزينة ﴿صعيداً جرزاً﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته، وإمالة حسنة، وإبطال ما به، كان زينة من إماتة الحيوان، وتجفيف النباتات والأشجار ونحو ذلك، نكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كان لم يكن ثم قال: ﴿وأم حسبت﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة. والكهف الغار الواسع في الجبل ﴿والرقيم﴾ اسم كلبهم، قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همد وقيل: هو لوح من رصاص رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف، وقيل: إن الناس رقبوا حديثهم نقرأ في الجبل، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجبل، وقيل: قريبتهم، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة نون فلسطين ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبا﴾ من آياتنا وصفاً بالمصدر أو على ذات عجب.

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٢٠﴾

﴿من لدنك رحمة﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك وهي: المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وهيئ لنا من أمرنا﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رشداً﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله كقولك: رأيت منك سداً.

فَصَرَّفْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدًا ﴿٢١﴾

﴿فصربنا على آذانهم﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع يعني: أنماهم إمامة ثقيلة لا تنبهم فيها الأصوات كما نرى المستقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو: الحجاب كما يقال: بنى على أمراته يريون بنى عليها القبة ﴿سنتين عدداً﴾ نوات عدد فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده كقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾⁽¹⁾ وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عنده فلم يحتج أن يعد،

= في قوله تعالى: ﴿واحصى كل شيء عدداً﴾ ويعضد حمله على أفعال التفضيل، وروده في نظير الواقعة، واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث، وذلك في قوله تعالى: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ فأمثلهم طريقة، هو: وأحصاهم لما لبثوا عدداً، وكلا الوجهين جائز، والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(2) سورة الكهف، الآية: 19.

(3) قال أحمد: وقد جعل بعض النحاة بناء أفعّل، من المزيد فيه الهمز قياساً، وادعى ذلك مذهباً لسببويه، ولعله بأن بناء منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تمويض همزة بهمة.

(4) قال أحمد: ولقائل أن ينصبه على التمييز، كالتنصيص العدد تمييزاً =

معروض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: في متفحس من غارهم ينالهم فيه روح الهواء ويرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازوار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته يعني: أن ما كان في تلك السمات تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبداً، ومعنى ذلك من آيات الله: أن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلفظ بهم وأعانهم وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة، ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

وَعَسَيْتُمْ أَفْكَاسًا وَقَدْ رُفِدُوا وَتَلَّيْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَّيْتُمْ بَسِيطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ نَعْبًا ﴿٨﴾

﴿وتحسبهم﴾ بكسر السين وفتحها خطاب لكل أحد، والأيقظ جمع يقظ كالكاد في نكد، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقيل لهم: تقلبتان في السنة، وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ: ويقلبهم بالياء والضمير لله تعالى، وقرئ: وتقلبهم على المصدر منصوباً وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه وتحسبهم أيقاظاً، كانه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصادق: وكالبهم أي: وصاحب كلبهم ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى الماضي، وإضافته إذا أضيف حقيقة معرفة كغلام زيداً، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة، وقيل: الباب وأشد:

بارض فضاء لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكرو

وقرئ: ولملئت بتشديد اللام للمبالغة، وقرئ: بتخفيف الهمزة وقبلها ياء، و﴿وعباً﴾ بالتخفيف، والتثقيل وهو: الخوف الذي يرغب الصدر أي: يملؤه، وذلك لما البسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجزامهم، وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية: أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك، فقال: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم⁽¹⁾، وقرئ: لو اطلعت بضم الواو.

السموات والأرض... شططاً، قولاً ذا شطط وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط إذا بعد، ومنه: أشط في السوم وفي غيره.

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٩﴾

﴿هؤلاء﴾ مبتدا و﴿قومنا﴾ عطف بيان و﴿واتخذوا﴾ خبر وهو إخبار في معنى إنكار ﴿لولا يأتون عليهم﴾ هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف ﴿بسلطان بين﴾ وهو تبيكيت؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت ﴿افتري على الله كتباً﴾ بنسبة الشريك إليه.

وَإِذِ اعْتَظَمْتُمُوهُمْ وَنَادَيْتُمْ بِمُذُنٍ إِلَّا اللَّهَ فَأَنزَلْنَا إِلَى الْكُفَّهِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرٍكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٠﴾

﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بينهم ﴿وما يعبدون﴾ نصب عطف على الضمير يعني: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم ﴿إلا الله﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً على ما روي أنهم كانوا يقرنون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة، وأن يكون منقطعاً، وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿مرفقاً﴾ قرئ: بفتح الميم وكسرهما وهو ما يرتفق به أي: ينتفع إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقيينهم، وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً.

وَرَأَى النَّاسَ إِذَا طَلَعَتْ نَزَارُ عَنْ كَهْنِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّ الْبَشَرَ يَنْشُرُونَ ﴿١١﴾

﴿نزار﴾ أي: تمايل أصله تنزاور فحذف بإدغام التاء في الزاي، أو حذفها وقد قرئ بهما، وقرئ: تنزور وتنزاور بوزن تحمر وتحمار وكلها من النزور وهو: الميل، ومنه: زاره إذا مال إليه، والنزور: الميل عن الصديق ﴿ذات اليمين﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمينين ﴿تقرضهم﴾ تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم قال نو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أفواز مشرف شمالاً وعن إيمانهم الفلوارس

﴿وهم في فجوة منه﴾ وهم في متسع من الكهف والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح

وَأَرْحَصَ ﴿وَلِيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف والنيقة⁽⁴⁾ فيما يبشره من أمر المبيعة حتى لا يغبن، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يعني: ولا يفعل ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه.

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُيَذِّبُوكَ فِي مَلَأْتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَكَدَّا⁽⁵⁾.

الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأهل المقدر في أيها ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة وهي: الرجم، وكانت عابثهم ﴿أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ﴾ أو يدخلوكم ﴿فِي مَلَأْتِهِمْ﴾ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها، والعود في معنى: الصيرورة أكثر شيء في كلامهم يقولون: ما عدت أفعل كذا يريدون ابتداء الفعل ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَكَدَّا﴾ إن دخلتم في دينهم.

رَكَذَلِكَ أَتَيْنَا عَلَيْكُمْ لِعَلَّمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا آمَنُوا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا⁽⁶⁾.

﴿وَكُنْكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما اتهمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة اطلعنا عليهم، ليعلم الذين اطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو: البعث؛ لأنَّ حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث و ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ متعلق بأعثرنا أي: اعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف وليتبين أنَّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فَقَالُوا﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿أَبْنَاوْا عَلَيْهِمْ بَنِيَانًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرق إليه الناس، ضناً بتربيتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالببناء عليهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ على باب الكهف ﴿مَسْجِدًا﴾ يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم، وقيل: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ بينهم أمرهم أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ويتكلمون في قصتهم، وما أظهر الله من الآية فيهم، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا كيف يخفون مكانهم وكيف يسئون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بانياناً. روي: أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكروهوا على عبادتها،

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّخِذُوا مِنْهُمْ قَالٍ قَالٍ مِنْهُمْ كَمَ لَيْتَنَّا قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتَنَّا قَابَتْهُمَا أَحَالُكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ إِنَّمَا أَزْكَ طَعَامًا قَالِيكُمْ يَرْزُقُ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا⁽⁷⁾.

﴿وَكُنْكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وكما اتهمناهم تلك النوم، كذلك بعثناهم إنكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً، ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فاعتبروا، ويستلوا على عظم قدرة الله تعالى، ويزدانوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وإنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ ﴿قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتَنَّا﴾ إنكار عليهم من بعضهم، وإنَّ الله أعلم بمدة لبثهم، كأنَّ هؤلاء قد علموا بالآلة أو بلهام من الله أنَّ المدة متطاولة وإنَّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروي: أنهم دخلوا الكهف غفوة، وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول انقفارهم أشعراهم قالوا ذلك.

فإن قلت: كيف وصلوا قولهم ﴿فَابْعَثُوا﴾ بتذاكر حديث المدة؟ قلت: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه، فخنوا في شيء آخر مما يهمكم. والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث: «إنَّ عرفة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفاً من ورق فانتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب⁽¹⁾»، وقرئ: بورقكم بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة، وقرأ ابن كثير: بورقكم بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حذو. وقيل: المدينة طرسوس، قالوا: وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم بليل على أنَّ حمل النفقة وما يصلح المسافرين هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلمين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات، ومنه قول عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن محرم يشدُّ عليه هميانه: أوثق عليك نفقتك⁽²⁾، وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله وتعلم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبئلو له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعثر إليهم ويحمد إليهم بنهم فإذا انقضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيان شدَّ الهيمان والتوكل على الرحمن ﴿إِيَّاهُ﴾ أي: أهلها، فحنف أهل كما في قوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾⁽³⁾ ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ أحل وأطيب وأكثر

= للمحرم.

(3) سورة يوسف، الآية: 82.

(4) أي: الإتيان.

(1) رواه أبو داود في كتاب: الخاتم، باب: ما جاء في ربط الاسنان بالذهب (الحديث رقم: 4232) والترمذي في كتاب: اللبس، باب: ما جاء في شد الاسنان بالذهب (الحديث رقم: 1770).

(2) رواه ابن أبي شيبة: 50/4 في كتاب: الحج، باب: في الهيمان =

عندهم، وأن المصيب منهم من يقول: «سبعة وثامنهم كلبهم». قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من أولئك القليل، وروي: أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا «ثلاثة رابعهم كلبهم»، وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا «خمسة سادسهم كلبهم»، وقال المسلمون: كانوا «سبعة وثامنهم كلبهم»، فحقق الله قول المسلمين، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل عليه السلام، وعن علي رضي الله عنه: هم سبعة نفر، أسماؤهم: بملخا ومكشليشيا ومشليشيا هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره مرنوش ووبرنوش وشانوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم نقيانوس، واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير.

فإن قُلْتُ: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين كما تقول: قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعاً وأن تريد بفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له «رجعاً بالغيب» رمياً بالخبر الخفي وإتياناً به كقوله: «ويقذفون بالغيب»⁽¹⁾ أي: يأتون به، أو ووضع الرجم موضع الظن فكله قيل: ظناً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظن مكان قولهم: ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قول زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجع

أي: المظنون. وقرئ: ثلاث رابعهم بإدغام التاء في تاء التانيث، وثلاثة خبر مبتدا محذوف أي: هم ثلاثة، وكذلك خمسة، وسبعة و «رابعهم كلبهم» جملة من مبتدا وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك «سادسهم كلبهم» «وثامنهم كلبهم».

فإن قُلْتُ⁽²⁾: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأولين؟ قُلْتُ: هي الواو التي تدخل الجملة الواقعة صفة للثلاثة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل معه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: «وما أهلكنا من

ومن شدد في ذلك نقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكل فتية فتيبهم فطروه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني أنا أحب أحبائي الله فناموا وأنا أحرسكم، وقيل: مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وبخلوا الكهف، فكانوا يعبدون الله فيه ثم ضرب الله على أذانهم وقيل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فالتقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف ليتخذة حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثه لابتياح الطعام، وأخرج الورق وكان من ضرب نقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فالتقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرأهم في المنام كارهين الذهب فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً. «ربهم أعلم بهم» من كلام المتنازعين، كأنهم تذكروا أمرهم وتناقضوا الكلام في أنسابهم ومدى لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: «ربهم أعلم بهم» أو هو من كلام الله عز وجل رد لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْنَاهُ كَلْبُهُمْ وَبِئْسَ مَا جَاءَهُمْ مِنْهُمْ وَجَحًا بِآلِغَيْبٍ وَبِئْسَ مَا كَانَتْ مِنْهُمْ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ إِنَّمَا تَعْلَمُهُمْ إِلَّا لِقِيلٍ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا⁽³⁾.

«سيقولون» الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخبر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في

(1) سورة سبا، الآية: 53.

(2) قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها لو للثمانية؛ فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبتة قديم، ويعنون من هذه الواو في قوله في الجنة: «وفتحت أبوابها» بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها: «وفتحت أبوابها» قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة وأوأ تصحب للثمانية، فتختص بها، فإين ذكر العدد في أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة وأوأ تصحب للثمانية، فتختص بها، فإين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن، فتصحب الواو، وربما عنوا من ذلك، والناهون عن المنكر، وهو الثامن من قوله: «التائبون»، وهذا =

= أيضاً مردود، بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لترتبط بينها وبين الأولى، التي هي الأمرون بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط، ألا ترى اقترانهما في جميع مصابريهما ومواردهما، كقوله: «يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وكقوله: «وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر» وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: «ثيبات وإيكار»؛ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه الواو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول: ثيبات إيكار، لم يستدل الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعنوية واردة، لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

تقوله بأن يائن لك فيه، والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون إن شاء الله في معنى كلمة تأييد كانه قيل: ولا تقولنه أبداً، ونحوه قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾⁽⁴⁾ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله، وهذا نهى تأنيب من الله لتنبه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين، فسألوهم فقال: «أتتوني غداً أخبركم» ولم يستثن، فابطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبت قريش ﴿واذكر ربك﴾⁽⁵⁾ أي: مشيئة ربك وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم تحنن، وعن سعيد بن جبيرة: ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، وعن طاوس: هو على ثنيه ما دام في مجلسه، وعن الحسن: نحوه، وعن عطاء: يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة، وعند عامة الفقهاء: أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصلاً، ويحكى: أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالإيمان اقتضى أن يخرجوا من عنك فيستثنوا فيخرجوا عليك، فاستحسن كلامه ورضى عنه⁽⁶⁾، ويجوز أن يكون المعنى: وأنكر ربك بالتسبيح⁽⁷⁾ والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديداً في البعث على الاهتمام بها، وقيل: وأنكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به، وقيل: وأنكره إذا اعتراك النسيان لينكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند نكراه، و«هذا» إشارة إلى نيا أصحاب الكهف، ومعناه: لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أنني نبي صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نيا أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم عن ذلك وأدل، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فأنكر ربك، ونكر ربك عند نسيانه أن تقول

قربة إلا ولها كتاب معلوم⁽¹⁾ وفائيتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصاله بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ قالوه: عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجعوا بالظن كما غيرهم، والليل عليه أن سبحانه أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رجعاً بالغيب﴾ وأتبع القول الثالث قوله: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدة أي: لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب، والضمير في سيقولون على هذا لأهل الكتاب خاصة أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين ﴿فلا تمار فيهم﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه وهو: أن نقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم كما قال: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾⁽²⁾ ﴿ولا تستفت﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيغ ما عنده، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداواة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

وَلَا تَقُولْ لِمَنْ أَشَافَكَ إِنِّي فَأَعَلَ ذَلِكَ غَدًا (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٣٤) وَلِكُلٍّ فِي كُفْرِهِمْ تَلَكُفٌ يَأْتُوا رَبَّهُمْ وَآذَرَادُوا سَمَكًا (٣٥).

﴿ولا تقولن لشيء﴾ ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه ﴿إني فاعل ذلك﴾ الشيء ﴿غداً﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل؛ لأنه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله⁽³⁾ كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله بون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين: أحدهما: ولا تقولن ذلك القول: إلا أن يشاء الله أن

= لا يشاؤه علي زعمهم الفاسد، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع، فسحقاً سحقاً.

(4) سورة الأعراف، الآية: 89.

(5) قال أحمد: أما ظاهر الآية، فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى نكرت، ولو بعد الطول، وأما حلها لليمين حينئذ، فلا دليل عليه منها، والله أعلم (قال: ويجوز أن يكون المعنى: وأنكر ربك بالتسبيح إلخ).

(6) حديث ابن عباس أخرجه الحاكم في المستدرک 303/4.

(7) قال أحمد: ويؤيد هذا التاويل بقوله تعالى أول القصة: ﴿ثم حسبنا أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها، وإنكار عده من عجائب آيات الله، ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد، وأدخل في الآية، والله أعلم.

(1) سورة الحجر، الآية: 4.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) قال أحمد: ولا بد من حمل الكلام على أحد الوجهين المنكوبين، ولولا ذلك، لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأي، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول، إلا مقروناً بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كان المعنى إلا أن تعترض المشيئة بونه، معتقداً أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال ففعلت، وكف شاء من التروك ففعلت، على زعم القدرية، فلا معنى على أصلهم الفاسد، لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً، وهو غير متعلق بها وقوعاً، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا، إلا أن يشاء الله أن أفعله، كنسب، وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح؛ لأن الله تعالى =

ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

وَأَصْبَرَ نَفْسَهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَغْلَقْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَنَسَحَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْعًا ﴿٢٨﴾

قال قوم من رؤساء الكفرة رسول الله ﷺ: نح هؤلاء الموالى الذين كان ريحهم الضأن وهم: صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح: «أنؤمن لك واتبعك الأرذلون»^(٥) فنزلت «واصبر نفسك» واحسبها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب:

فصبرت عارقة لئلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
«بالغداة والعشي» داثبين على الدعاء في كل وقت، وقيل: المراد صلاة الفجر والعصر، وقري: «بالغدوة، وبالغداة أجود» لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال وإدخال اللام على تاويل التكبير، كما قال: والزيد زيد المعارك، ونحوه قليل في كلامهم. يقال: غداه إذا جاوزته، ومنه قولهم: عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيد، وإنما عدى بعن لتضمين عدا معنى: نبا، وعلا في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قلّت: أي غرض في هذا التضمين، وهلا قيل: ولا تعدهم عينك، أو لا تعل عينك عنهم؟ قلّت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم، ونحوه قوله تعالى: «ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم»^(٦) أي: ولا تضموها إليهم أكلين لها، وقري: ولا تعد عينك، ولا تعد عينك: من أعداه وعدها نقلاً بالهزمة، وتثقل الحشو، ومنه قوله:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له

لأن معناه: فعد همك عما ترى، نهي رسول الله ﷺ أن يزلزلي بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثائه زيهم طموحاً إلى زِي الأغنياء وحسن شارتهم «تريد زينة الحياة الدنيا» في موضع الحال^(٧) «من أغفلنا قلبه» من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان، أو وجدناه غافلاً عنه كقولك: أجبته أقحمته وأبخلته إذا وجدته كذلك^(٨)، ومن أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي: لم نسمه بالذكر، ولم

عسى ربي أن يهديني لشئ آخر بدل هذا المنسي أقرب منه «رشدًا» وإني خيرًا ومنفعة، ولعل النسيان كان خيرة كقوله: «أو ننسها نات بخير منها»^(١) «ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين» يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على أذانهم هذه المدة، وهو بيان لما أجمل في قوله: «فضرينا على أذانهم في الكهف سنين عدداً»^(٢).

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ بَنَیْزَ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٩﴾

ومعنى قوله: «قل الله أعلم بما لبثوا» أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك الله به، وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب «وقل الله أعلم» رد عليهم، وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا، وسنين عطف بيان لثلاثمائة، وقري: «ثلاثمائة سنين بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: «بالأخسرين أعمالاً»^(٣) وفي قراءة أبي: ثلاثمائة سنة. «تسعا» تسع سنين: لأن ما قبله يدل عليه، وقرأ الحسن: تسعاً بالفتح. ثم نكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها، وأنه هو وحده العالم به.

وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين: لأنه يدرك الطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجماً وكثافتها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر «ما لهم» الضمير لاهل السموات والأرض «من ولي» من متول لأمورهم «ولا يشرك في حكمه» في قضائه «أحدًا» منهم، وقرأ الحسن: ولا تشرك بالتاء والجزم على النهي.

وَأَنَّا لَمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِمًا ﴿٣٠﴾

كانوا يقولون له: اثت بقرآن غير هذا أو ببله، فقيل له: «وأنل ما أوحى إليك» من القرآن، ولا تسمع لما يهنون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده «وإذا بلبنا آية مكان آية»^(٤) «ولن تجد من بونه ملتحمًا»

(1) سورة البقرة، الآية: 106.

(2) سورة الكهف، الآية: 11.

(3) سورة الكهف، الآية: 103.

(4) سورة النحل، الآية: 101.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة النساء، الآية: 2.

(7) قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد: خلقنا له، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه، فإن حمل أغفل على يابه صرفه إلى الخذلان، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل =

= للمصانفة، ولا يتجرا على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصانفة، إلى تفهيم وجدان الشيء بفته، عن جهل سابق، وعدم علم.

(8) قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية، ولطافة معنى، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه: لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة في القلب، فلا يابى عدم كتب الإيمان، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر، وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.

مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَمْشُونَ فِي الْأَنْوَاعِ وَحَسَنَتْ مَرْفَقًا ﴿٣١﴾

من الأولى للابتداء، والثانية للتبيين. وتنكير أساور لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس وهو: مارق من الديباج، وبين الإستبرق وهو: الغليظ منه، جمعاً بين النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرته.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَّفْنَاهُ بِثَمَلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَاءً أَكْثَمًا وَلَهُ تَطْلِيلٌ بَيْنَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي: ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه: قطروس والآخر مؤمن اسمه: يهوذا، وقيل: هما المذكوران في سورة والصافات في قوله: ﴿قال قاتل منهم إني كان لي قرين﴾^(٤) ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرهما، فاشتري الكافر أرضاً بألف فقال المؤمن: اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار وأنا اشترى منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق به، ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني اشترى منك داراً في الجنة بألف، فتصدق به. ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحرور، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدق به، ثم أصابته حاجة فجلس لآخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ، وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد ﴿جنتين من أعناب﴾ بستانين من كروم ﴿وجففناهما بنخل﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه إذا أطاقوا به وحففته بهم أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد فتزیده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشيه وغشيته به ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابهة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتها بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومائته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها،

نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان^(١)، وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: ﴿ولتباع هواه﴾ وقرئ: أغفلنا قلبه بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه، غافلين من أغفلته إذا وجدته غافلاً ﴿فرطاً﴾ متقدماً للحق والصواب نابذاً له وراء ظهره من قولهم: فرس فرط متقدماً للخيل.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا يَخْلُتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَتَوَلَّى السَّوْءَ يَسْكَ الْأَشْرَابُ وَسَاءَتْ مَرْفَقًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وقل الحق من ربكم﴾ الحق خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: جاء الحق وزاغت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك، وجيء بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكانه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين.

شبه ما يحيط بهم من النار بالسرايق وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط، وبيت مسربق ذو سرايق، وقيل هو: دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من نار يطيف بهم ﴿يخاؤون بماء كالمهل﴾ كقوله: فاعتبوا بالصيلم، وفيه تهكم، والمهل ما انثب من جواهر الأرض، وقيل: دردي الزيت ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب تشوي الوجه من حرارته. عن النبي ﷺ: «هو كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه»^(٢). ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت النار﴾ مرتفقا ﴿متكا من المرفق وهذا لمشكلة قوله: وجسنت مرتفقا﴾^(٣) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء إلا أن يكون من قوله:

إني أرتقت فبت الليل مرتفقا كان عيني فيها الصاب مذبوح
إِنَّ الْآلِينَ أَسْرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ آجَرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٥﴾

﴿أولئك﴾ خبر إن ﴿وإننا لا نضيع﴾ اعتراض، ولك أن تجعل إننا لا نضيع وأولئك خبرين معاً، أو تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلئت: إذا جعلت إننا لا نضيع خبراً، فإين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلئت: من أحسن عملاً، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، ينتظمهما معنى واحد، فقام من أحسن مقام الضمير، أو أريت من أحسن عملاً منهم فكان كقولك: السمن منوان بدرهم.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتٌ عَنْ يَمِينِهِمْ وَلَا شَرْعٌ لَهُمْ وَلَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ آسَافٍ

(2) رواه الترمذي في السنن، كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (الحديث رقم: 2584).

(3) سورة الكهف، الآية: 31.

(4) سورة الصافات، الآية: 51.

(1) قال أحمد: قد تقدم في غير ما موضع، أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى، من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره، ولا تنافي بين الإضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك، وأية توجه، فلا محيص له عنها بوجه.

جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافراً ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة والقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فكان الإدغام، ونحوه قول القائل:

وترمينني بالطرف أي أنت منذب وتقليبنني لكن إياك لا أقلي أي: لكن أنا لا أقليك، وهو ضمير الشأن، والشأن لله ربي، والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير، وقرأ ابن عامر: بإثبات الف أنا في الوصل والوقف جميعاً وحسن ذلك وقوع الالف عوضاً من حذف الهمزة وغيره لا يثبتها إلا في الوقف، وعن أبي عمر: وأنه وقف بالهاء لكنه، وقرأ: لكن هو الله ربي بسكون النون وطرح أنا، وقرأ أبي بن كعب: لكن أنا على الأصل، وفي قراءة عبد الله: لكن أنا لا إله إلا هو ربي.

فإن قلت: هو استدراك لماذا؟ قلت: لقوله: ﴿أكفرت﴾ قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد كما تقول: زيد غائب لكن عمرًا حاضر.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَرَبِّكَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ما شاء الله يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها: خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ما شاء الله، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى: أي شيء شاء الله كان، ونظيرها في حذف الجواب لو في قوله: ﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾⁽³⁾ والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ما شاء الله، اعترافاً بانها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها، وقلت: ﴿لا قوة إلا بالله﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتبدير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوي أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى. وعن عروة بن الزبير: أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ: أقل بالنصب فقد جعل أنا فصلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقل خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لترني، وفي قوله: ﴿وولدا﴾ نصرة لمن قسر النفر بالأولاد في قوله: ﴿واعز﴾ نفرًا والمعنى: إن ترني أفقر منك فانا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة ﴿خيرًا من جنتك﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك.

والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى: الحساب

والأكل الثمر وقرئ: بضم الكاف ﴿ولم تظلم﴾ ولم تنقص، وآتت حمل على اللفظ: لأن كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل: آتتا على المعنى لجاز. وقرئ: وفجرنا على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنيتين أتى أكله برد الضمير على كل.

وَكَانَ لَمْ تَرَ فَقَالَ لِمَ جِئْتَهُ وَهُوَ بِحَاوِرِهِ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَاعْزُ نَفَرًا ﴿٤٢﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٤٣﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤٤﴾ قَالَ لَمْ صَاحِبْهُ وَهُوَ بِحَاوِرِهِ أَكْثَرَتْ بِالَّذِي خَلَقَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ يَنْتَفِعُونَ مِنْ سَوَاكَ رَجُلًا ﴿٤٥﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرَكَ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٦﴾

﴿وكان له ثمر﴾ أي: أنواع من المال، من ثمر ماله إذا كثره، وعن مجاهد: الذهب والفضة أي: كانت له إلى الجنيتين الموصوفتين الأموال الدائرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه متمكنًا من عمارة الأرض كيف شاء ﴿واعز نفرًا﴾ يعني: انصارًا وحشماً، وقيل: أولادًا نكراً؛ لأنهم ينفرون معه دون الإثان. يحاوره: يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع، وسالته فما أثار كلمة يعني: قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنيتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما، ويفاخره بما ملك من المال بونه.

فإن قلت: فلم أقرء الجنة بعد التثنية قلت: معناه: ودخل جنته ماله جنة غيرها يعني: أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنيتين ولا واحدة منهما ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في ببيودة جنته لطول أمله واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا السنتهم فإن السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ إقسام منه على أنه إن ردد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه، ليجدن في الآخرة خيرًا من جنته في الدنيا تظمناً وتمنياً على الله وأدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنيتين إلا لاستحقاقه واستثنائه، وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله: ﴿إن لي عنده للحسنى﴾⁽¹⁾ ﴿لاوتين مالا وولدا﴾⁽²⁾ وقرئ: خيرًا منهما رداً على الجنيتين ﴿منقلبًا﴾ مرجعاً وعاقبة، وانتصابه على التمييز أي: منقلب تلك خير من منقلب هذه؛ لأنها فانية وتلك باقية ﴿خلقك من تراب﴾ أي: خلق أصلك؛ لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له ﴿سواك﴾ عدلك وملكك إنساناً نكراً بالغاً مبلغ الرجال.

(3) سورة الزعد، الآية: 31.

(1) سورة فصلت، الآية: 50.

(2) سورة مريم، الآية: 77.

أحد سواه تقريراً لقوله: ﴿ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ أو هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه، أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطّر يعني: أنّ قوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾⁽³⁾ كلمة الجحى إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أوليائه المؤمنين على الكفرة، وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله: ﴿عسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليهما حساباً من السماء﴾⁽⁴⁾ ويعضده قوله: ﴿خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: لأوليائه، وقيل: ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾⁽⁵⁾ وقرئ: ﴿الحق بالرفع والجرح صفة للولاية والله، وقرأ عمرو بن عبيد: بالنصب على التأكيد كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أقصَح الناس وأنصحهم. وقرئ: عقباً بضم القاف وسكونها، وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة.

وَأَضْرَبَ لِمِثْلِ الْمَثُورَةِ آدَمًا كَلَّمَ أَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ شَيْئاً تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٥﴾ الدَّالُّ وَالْبَرْزَاقُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿١٦﴾

﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ فالنبت بسببه وتكاثره حتى خالط بعضه بعضاً، وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روي ورف رقيقاً، وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض، ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه. والهشيم ما تهشم وتحطم الواحدة هشيمة. وقرئ: تذروه الريح، وعن ابن عباس: تذرية الرياح من أذرى، شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كان لم يكن ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مقتدراً... الباقيات الصالحات﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتقني عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا، وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله ﴿خير... ثواباً﴾ أي: ما يتعلق بها

أي: مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها، وقال الزجاج: عذاب حسابان، وذلك الحسابان حساب ما كسبت يدك، وقيل: حساباً مرامى الواحدة حسابانة، وهي: الصواعق ﴿صعيداً زلقاً﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقاً، ﴿غزراً﴾ كلاهما وصف بالمصدر.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُبَلِّغُ كَثِيرٌ عَلَى مَا آتَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَمْلاً ﴿١٧﴾

﴿وأحيط﴾ به عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله تعالى: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾⁽¹⁾ ومثله قولهم: أتى عليه إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم.

وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر؛ لأنَّ الندام يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد؛ ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلی كانه قيل: فأصبح بدم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: أنفق في عمارتها ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ يعني: أن كرومها المعروشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم، قيل: أرسل الله عليها ناراً فاكلتها ﴿يا ليتني﴾ تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وتندماً على ما كان منه وبخولاً في الإيمان.

وَلَمْ تَكُنْ لِمِثْلِ مَصْرُورٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴿١٨﴾

وقرئ: ولم يكن بالياء والتاء، وحمل ينصرونه على المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كفرة يرونهم﴾⁽²⁾.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ينصرونه من دون الله﴾؟ قلت: معناه يقدرون على نصرته من دون الله أي: هو وحده القادر على نصر، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل ﴿وما كان منتصراً﴾ وما كان ممتنعاً بقوة عن انتقام الله.

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١٩﴾

﴿الولاية﴾ بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك. وقد قرئ بهما، والمعنى: هنالك أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها

= الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع، والحق أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه، فوعاه، متصلاً بلفظ فيه ﴿منزلاً﴾ كذلك من السماء، فلا وقع لفصاحة الفصيح، وإنما هو ناقل كغيره، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة، ومعين الفتنة، فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر، ولم جراً إلى سائر البدع الاعتزالية، فمن ثم أثنى عليه.

(1) سورة يوسف، الآية: 66.

(2) سورة آل عمران، الآية: 13.

(3) سورة الكهف، الآية: 42.

(4) سورة الكهف، الآية: 40.

(5) سورة غافر، الآية: 16.

(6) قال أحمد: وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول، فإنه يومه أن القراءات موكولة إلى رأي الفصحاء، ولجتهاد البلغاء، فتفاوتت في =

من الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة.

وَيَوْمَ سِيرُ الْأُمَمَ لَا يَأْتِي الْأَرْضَ بِأَرْزَةٍ وَحَرَّتْهُمْ فَلَمْ تَوَارْ وَنُتِمَ أَحَدًا (١٧)

وقرى: تسير من سيرت ونسير من سيرنا وتسير من سارت أي: تسير في الجو، أو يذهب بها بأن تجعل هباءً منبثًا. وقرى: وترى الأرض على البناء للمفعول «بارزة» ليس عليها ما يسترها مما كان عليها «وحشرتها» وجمعناهم إلى الموقف. وقرى: فلم تغادر بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، ومنه: الغدر ترك الوفاء، والغدير ما غادره السيل.

وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَبًا لَقَدْ حِجَّتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْمَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (١٨)

وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان «صفا» مصطفين ظاهرين يرى جماعتهم كما يرى واحد لا يحجب أحد أحدًا «لقد جئتمونا» أي: قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير، ويجوز أن ينصب بإضمار نكر، والمعنى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم «أول مرة» وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولًا كقوله: «ولقد جئتمونا فرادى» (١).

فإن قلت: لم جئ بحشرناهم ماضيًا بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأموال العظام، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك «موعدا» وقتًا لإنجاز ما وعدتم على السنة الأنبياء من البعث والنشور.

وَوَضِعَ الْكِتَابَ تَقَرَّى الْآخِرِينَ مُتَشَفِّينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَزِيدُ سَوِيرَةً وَلَا كِبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَعَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَنْظُرُ رَبُّكَ أَحَدًا (١٩)

«الكتاب» للجنس، وهو: صنف الأعمال «يا ويلتنا» ينانون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات «صغيرة ولا كبيرة» هنة صغيرة ولا كبيرة وهي عبارة عن الإحاطة يعني: لا يترك شيئًا من المعاصي إلا أحصاه أي: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلًا ولا كثيرًا؛ لأن الأشياء إما صغار وإما كبار، ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صفائر وكبائر، وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصفائر وهي المناقشة، وعن ابن عباس: الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس والكبيرة الزنا، وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال:

ضجوا والله من الصفائر قبل الكبار «إلا أحصاها» إلا ضبطها وحصرها «ووجدوا ما عملوا حاصرًا» في الصحف عتيقًا، أو جزء ما عملوا «ولا يظلم ربك أحدًا» فيكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله في تعذيب أطفال المشركين بنزوب آبائهم.

وَلَقَدْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَنْسَجِدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٢٠)

«كان من الجن» كلام (٢) مستأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كان قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن «ففسق عن أمر ربه» والفاء للتسبب أيضًا، جعل كونه من الجن سببًا في فسقه؛ لأنه لو كان ملكًا كسائر من سجد لأدم لم يفسق عن أمر الله؛ لأن الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس كما قال: «لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» (٣) وهذا الكلام المعترض: تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمد الله وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكًا ورئيسًا على الملائكة، فعصى فلعن ومسح شيطانه، ثم وركه على ابن عباس ومعنى فسق عن أمر ربه: خرج عما أمره به ربه من السجود قال:

فواسقًا عن قصد ما جوائرًا

أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر ربه الذي هو قوله: «اسجدوا لأدم» «افتخذونه» الهمزة للإنكار والتعجب كأنه قيل: أعقبت ما وجد منه تتخونه «وذريته أولياء من نوني» وتستبطلونهم بي، بئس البذل من الله إبليس لمن استقبله فاطاعه بدل طاعته.

مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدًا الْمُضِلِّينَ عَصَا (٢١)

«ما أشهنتهم» وقرى: ما أشهدناهم يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: «ما أشهنتهم خلق السموات والأرض» لا اعتضد بهم في خلقها «ولا خلق أنفسهم» أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» (٤) «وما كنت متخذ المضلين» بمعنى: وما كنت متخذهم «عصا» أي: أعوانًا، فوضع المضلين موضع الضمير ثمًا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عصا

= في حق الله تعالى ولجب، والله الموفق.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٢) قال أحمد: والحق معه في هذا الفصل، غير أن قوله تعمد الله تعالى لفظه، لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفًا، من يفعل في بعض الأحيان خطأ، وفي بعضها تعمدًا، فاجتنابها

﴿قَبْلًا﴾ عَيْنًا. وقرئ: قبلًا أنواعًا جمع قبيل وقبلاً بفتحين مستقبلًا ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليزيلوا ويبطلوا من إحاض القدم وهو: إلزاقها وإزالتها عن موطنها ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ يجوز أن تكون ما موصولة ويكون الراجع من الصلة محذوفًا أي: وما أنذروهم من العذاب، أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: هذا بالسكون أي: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم، قولهم للرسول: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (2) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (3) وما أشبه ذلك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدًا إِذَا جَاءَتْهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧).

﴿بَيَّاتٍ رَبِّهِ﴾ بالقرآن ولذلك رجع إليها الضمير منكراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿فَاعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتنكر حين نكر ولم يتبهر ﴿وَنَسِيَ﴾ عاقبة ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي غير مفكر فيها ولا ناظر في أنَّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الأفراد حملاً على لفظ من ومعناه ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة كانه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أَبَدًا﴾ مدة التكليف كلها. وإذا جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى: أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا ادعوهم حرصاً على إسلامهم، فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.

وَرَبِّكَ الْمَغْوَرُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَكُمْ أَلْعَابَ النَّاسِ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا (٥٨).

﴿الْمَغْوَرُ﴾ البليغ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذه أهل مكة عاجلاً من غير إهمال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو: يوم بدر ﴿لَنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ منجى ولا ملجأ. يقال: وال إذا نجا، ووال إليه إذا لجأ إليه.

وَلِلَّاتِ الْقُرَى أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَنَّمُوا رَجَعْنَاهُمْ لَهْلَكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩).

﴿وَلِلَّاتِ الْقُرَى﴾ يريد: قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار لهم إليها ليعتبروا، تلك مبتدأ، والقرى صفة؛ لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبر، ويجوز أن يكون تلك القرى نصباً بإضمار أهْلَكْنَا على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهْلَكْنَاهُمْ ﴿لَمَّا ظَنَّمُوا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لَهْلَكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما

لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة! وقرئ: وما كنت بالفتح، الخطاب لرسول الله ﷺ والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعز بهم، وقرأ علي رضي الله عنه: وما كنت متخذ المضلين بالتونين على الأصل، وقرأ الحسن: عضداً يسكون الضاد ونقل ضممتها إلى العين، وقرئ: عضداً بالفتح وسكون الضاد، وعضداً بضممتين، وعضداً بفتحيتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد. من عضده: إذا قواه وأعانه.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٩).

﴿يَقُولُ﴾ بالياء والنون وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم، وأراد: الجن. والموبق: المهلك من وبق وبوقاً، وبوق يوبق وبقاً إذا هلك وأوبقه غيره، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمورد والموعد يعني: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو: مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، وعن الحسن: موبقاً عداوة والمعنى: عداوة نعي في شنتها هلاك كقوله: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً، وقال الفراء: البين الوصل أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة، ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم، وبالموبق البرزخ البعيد أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الأشواط لفرط بعده؛ لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُونَ بِهَا وَمَا يُجْعَدُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي شَرِّ مَوْعِدٍ (٦٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٦١) وَمَا مَعَ آتَانَا أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَسَتَفْقَهُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْآلِثِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٦٢) وَمَا تَرْجُلُ الْفَرَسَيْنِ إِلَّا مَبِيتَرَيْنِ وَمَنْزِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيْتِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقُرْآنَ وَتُخْذَلُوا بِهِ الْيَوْمَ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا قُرْآنًا (٦٣).

﴿فَظَنُّوا﴾ فآيقنوا ﴿مُوَاعِدُونَ﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿مُصْرًا﴾ معدلاً قال:

أزهير هل عن شبية من مصرف

﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل، وانتصاب جدلاً على التمييز يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء، ونحو: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ﴾ (١) أن الأولى نصب، والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ الإيمان والاستغفار ﴿إِلَّا﴾ انتظار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْآلِثِينَ﴾ وهي الإهلاك ﴿أَوْ﴾ انتظار ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: عذاب الآخرة

أقصى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فاي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تنله على هدى أو ترده عن ردى، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فأبلغني عليه؟ قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهب يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بارضنا السلام، فعزفه نفسه، فقال: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا، فلما ركبا السفينة جاء عصفور، فوقع على حرفها، فنقر في الماء، فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر.

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْهَا حُوتُهُمَا فَأَخَذَ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَاتًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَعَدَ لَيْسًا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٢﴾

﴿نسيا حوتهما﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمانة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، وقيل: كان الحوت سمكة ملوحة، وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلا منها، وقيل: توشاً يوشع من تلك العين فانتضج الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء ﴿سرباً﴾ أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر ﴿فلما جاوزا﴾ الموعد وهو: الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه، ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر، وقيل: سار أبعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه، وقوله: ﴿من سفرنا هذا﴾ إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى لكونه

ضربنا لاهل مكة يوم بدر، والمهلك الإهلاك ووقته، وقرئ: لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة أي: لهلاكهم، أو وقت هلاكهم، والموعد وقت أو مصدر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿١٦﴾

﴿لفتاه﴾ لعبده وفي الحديث: «يلق أحكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي»⁽¹⁾ وقيل: هو يوشع بن نون وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه، وقيل: كان يأخذ منه العلم.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿لا أبرح﴾ إن كان بمعنى: لا أنزل من برج المكان فقد دل على الإقامة لا على السفر، وإن كان بمعنى: لا أزال فلا بد من الخبر قُلْتُ: هو بمعنى: لا أزال وقد حذف الخبر؛ لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ غاية مضمرة تستدعي ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم وهو وجه لطيف، ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح ما أنا عليه بمعنى: الزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفرقه حتى أبلغ. كما تقول: لا أبرح المكان، ومجمع البحرين المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو: ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل: طنجة، وقيل: إفريقية، ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين في العلم، وقرئ: مجمع بكسر الميم وهي في الشنوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل ﴿أو أمضي حقباً﴾ أو أسير زماناً طويلاً، والحقب ثمانون سنة، وروي: أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقرأ بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فنذر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علما هذا فاي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين، وهو: الخضر، وكان الخضر في أيام أفرديون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى، وقيل: إن موسى سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فاي عبادك

(1) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق (الحديث رقم: 2552)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب، باب: حكم إطلاق لفظ العبد (الحديث رقم: 5835).

(2) قال أحمد: وقد ورد في الحديث، أن موسى عليه السلام لم ينصب، ولم يقل: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. إلا منذ جاوز الموضع الذي حذاه الله تعالى له، فلعل الحكمة في إنشاء الله تعالى =

ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافرين في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه، وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات، أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد، وحالة مجاوزته بونا بينا، والله أعلم، وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً

عَلَّمَكَ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَمْ مَوْسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَمْلِكُنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَبُّكَ ﴿٦٦﴾

﴿رحمة من عندنا﴾ هي: الوحي والنبوة ﴿من لنا﴾ مما يختص بنا من العلم وهو: الإخبار عن الغيوب ﴿رشدًا﴾ قرئ: بفتحتين وبضمة وسكون أي: علماً ذا رشد أرشد به في ديني.

فإن قلْتُ: ما نلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه كما قيل: موسى بن ميثا لا موسى بن عمران؛ لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؛ قلْتُ: لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله، وإنما يغض منه أن يأخذه ممن بونه، وعن سعيد بن جبير: أنه قال لابن عباس: إن نوقاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى، وأن موسى هو موسى بن ميثا، فقال: كذب عدو الله^(١).

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ. خَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾

نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، ولعل ذلك بانه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح فكيف إذا كان نبياً لا يتمالك أن يشتمز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار و﴿خبراً﴾ تمييز أي: لم يحط به خبرك، أو لأن لم تحط به بمعنى: لم تخبره فنصبه نصب المصدر ﴿ولا أعصي﴾ في محل النصب عطف على صابراً أي: ستجديني صابراً وغير عاص، أو لا في محل عطفاً على ستجديني. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحماية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه بريء من أن يباشر ما فيه غميرة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمح ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم. قَالَ إِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

قرئ: ﴿فلا تسألني﴾ بالنون الثقيلة يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت وأنكرت في نفسك أن لا تفتاحنني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العلم والمتبوع مع التابع.

أما لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها، ولكونه معجزتين ثنتين. وهما حياة السمكة المملوكة المأكول منها، وقيل: ما كانت إلا شق سمكة، وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق، ونفوذها في مثل السرب منه، ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغدو حتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان، وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب واستانس بإخوانه فأعان الألف على قلة الاهتمام.

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٧١﴾

﴿أرايت﴾ بمعنى: أخبرني.

فإن قلْتُ: ما وجه التثام هذا الكلام، فإن كل واحد من ﴿أرايت﴾ و﴿إذ أويئنا﴾ و﴿فإني نسيت الحوت﴾ لا متعلق له؟ قلْتُ: لما طلب موسى عليه السلام الحوت ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك كأنه قال: أرايت ما دهاني إذ أويئنا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، فحذف ذلك، وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت و﴿أن أنكره﴾ بدل من الهاء في إنسانيه أي: وما إنساني نكره إلا الشيطان، وفي قراءة عبد الله: أن أنكره و﴿عجباً﴾ ثاني مفعولي اتخذ مثل سرياً يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجباً وهو: كونه شبيه السرب، أو قال: عجباً في آخر كلامه تعجباً من حاله في رؤية تلك العجبة ونسيانه لها، أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: ﴿وما إنسانيه إلا الشيطان أن أنكره﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وقيل: إن عجباً حكاية التعجب موسى عليه السلام وليس بذلك.

قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِ ءَاثَارَهُمَا فَمَصَّاهُ ﴿٧٢﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً أي: ذلك الذي كنا نطلب؛ لأنه أماره الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام. وقرئ: بغير ياء في الوصل وإثباتها أحسن وهي قراءة أبي عمرو، وأما الوقف فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لخط المصحف ﴿فارتدا﴾ فرجعا في إراجهما ﴿قصصاً﴾ يقصان قصصاً أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، أو فارتداً مقتصين.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا

(١) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام (الحديث رقم: 3401)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6113).

لذلك، فالمعلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، إذ قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه، ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها، واقتباس أنوارها، ومنافعها عاجلاً وأجلاً، والله أعلم.

حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (2) ﴿نَكَرًا﴾ وقرئ: بضمين وهو: المنكر، وقيل: النكر أقل من الأمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، وقيل معناه: جئت شيئاً أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه.

فإن قُلْتُ: ما معنى زيادة لك؟ قُلْتُ: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلّة الصبر عند الكرة الثانية.

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ مَعْنَى بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا (٧٦).

﴿بعدها﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿فلا تصاحبنني﴾ فلا تقاربني وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، وقرئ: فلا تصحبنني فلا تكن صاحبي، وقرئ: فلا تصحبنني أي: فلا تصحبنني إياك ولا تجعلني صاحبك ﴿من لئني عذراً﴾ قد أعذرت، وقرئ: لئني بتخفيف النون، ولئني بسكون الدال وكسر النون كقولهم في عضد: عضد، وعن رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك» (3). وقال: «رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب».

فَأَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلَمَ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْت عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧).

﴿أهل قرية﴾ هي أنطاكية، وقيل: الأبلّة وهي أبعد أرض الله من السماء ﴿أن يضيّفوهما﴾ وقرئ: يضيّفوهما، يقال: ضافه إذا ان له ضيفاً، وحقيقته: مال إليه من ضاف السهم عن الغرض، ونظيره: زاره من الزورار، وضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية لثاماً» (4)، وقيل: شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه ﴿يريد أن ينقض﴾ استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهم والعزم لذلك. قال الراعي:

في مهمم قلقت به هاماتها قلق القوس إذا أردن نصولا وقال:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعمل عن دماء بني عقيل وقال حسان:

إن دهرًا يلف شملي بجمال لزمان يهم بالإحسان وسمعت من يقول: عزم الشراج أن يطفأ وطلب أن يطفأ، وإذا كان القول والنطق والشكاية والصق والكنف

فَأَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧٨) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٩) قَالَ لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَبِئْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ (٨٠) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَيَآئِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٨١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٨٢).

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركبَا قال أهلها: هما من اللصوص وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة أرى وجوه الأنبياء، وقيل: عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من الواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وقرئ: لنغرق بالتشديد، وليغرق أهلها من غرق وأهلها مرفوع ﴿جئت شيئاً إمراً﴾ أتيت شيئاً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم قال: داهية دهياء، إذا أمراً.

﴿بما نسيت﴾ بالذي نسيت، أو بشيء نسيت، أو بنسياني، أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذه على الناسي، أو إخراج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذه بالنسيان يوهمه أنه قد نسي ليبسط عنده في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كقول إبراهيم: هذه أختي، و ﴿إني سقيم﴾ (1) أو أراد بالنسيان الترك أي: لا تؤاخذنني بما تركت من وصيتك أول مرة.

يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه أي: ولا تغشني ﴿عسرًا﴾ من أمرى وهو اتباعه إياه يعني: ولا تعسر علي متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: عسرًا بضمين. ﴿فقتله﴾ قيل كان قتله قتل عنقه، وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سيعد بن جببر: أضجعه ثم ذبحه بالسكين.

فإن قُلْتُ: لم قيل ﴿حتى إذا ركبَا في السفينة خرقها﴾ بغير فاء و ﴿حتى إذا لقيَا غلامًا فقتله﴾ بالفاء؟ قُلْتُ: جعل خرقها جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء: قال أقتلت.

فإن قُلْتُ: فلم خولف بينهما؟ قُلْتُ: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية وزكية وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بغير نفس﴾ يعني: لم تقتل نفساً فيقتص منها، وعن ابن عباس: أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من

(4) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6115).

(1) سورة الصافات، الآية: 89.

(2) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: النساء الغازيات يرضخ لهن... (الحديث رقم: 4662).

(3) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الادعية (الحديث رقم: 988).

﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾⁽³⁾ فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل هذا فراق بني وبينك، وقد قرأ به ابن أبي عبلة: فاضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

أَمَّا الْكُفِيُّ فَكَانَ لِصَاحِبَيْهِ يَمْلِكُونَ فِي الْبَحْرِ قَارُونَ أَنْ أُعِيبَ وَكَانَ زَكَرَىٰ مَلِكًا أَخَذَ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلُكَ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرَهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾.

﴿لمساكين﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة خمسة منهم زماني، وخمسة يعملون في البحر ﴿وراءهم﴾ أمامهم كقوله تعالى: ﴿ومن وراءهم برزخ﴾⁽⁴⁾ وقيل: خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو: جلندي.

فَإِنْ قُلْتَ⁽⁵⁾: قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه؛ قُلْتُ: النية به التأخير وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل: في قراءة أبي عبد الله: كل سفينة صالحة. وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن كان فيه ضمير الشأن، ﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا﴾ فخشنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانًا عليهما وكفرًا لنعمتها يعقوبه وسوء صنيعه ويلحق بهما شر أو بلاء، أو يقرن بإلحاحهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بدائيه ويضلها بضلاله فيرتد بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعته على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاختراعه لمفسدة عرفها في حياته، وفي قراءة أبي: فخاف ربك والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فخشينا﴾ حكاية لقول الله تعالى بمعنى: فكرهنا كقوله: ﴿لا هب لك﴾⁽⁶⁾.

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَرَىٰ وَأَقْرَبَ ﴿٨١﴾.

والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل فما بال الإرادة! قال:

إذا قالت الانساع للبطن الحق تقول سني للأنواء طني لا ينطق للهو حتى ينطق العود

وشكا إلي بعبرة وتحمم فإن يك ظني صادقًا وهو صلقي:

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾⁽¹⁾

تمرد مارذوعر الأبلق ولبعضهم يابى على إغفائه إغفائه هم إذا انقاد الهموم تمردًا

أبت الرواف والشدي لقصمها مس البطون وإن تمس ظهورًا

قالتا ﴿أتينا طائعين﴾⁽²⁾ ولقد بلغني بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم أراه أعلى الكلام طبقة أنباه منزلة، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده: أن ما كان أبعد من المجاز كان أنحل في الإعجاز، وانقض إذا أسرع سقوطه من انقضاء الطائر وهو يفعل مطروح قضضته، وقيل: افعل من النقص كاحمر من الحمرة، وقرئ: أن ينقض من النقص، وأن ينقص من انقاصت السن إذا انشقت طولًا. قال نو الرمة: منقاص ومنكتب بالصاد غير معجمة ﴿فأقامه﴾ قيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيد فقام واستوى، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطراب وإفتقار إلى المطعم، وقد لزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا مواسيًا، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومسلس الحاجة أن ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا﴾ وطلبت على علك جعلًا حتى نتعش، ونستدفع به الضرورة، وقرئ: لاتخذت والتاء في تخذ أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَيَسَّكَ سَائِيكَ يَأْرِبِل مَا لَر تَسْلِعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿هذا﴾ إشارة إلى ماذا؛ قُلْتُ: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام:

= ضمير الجماعة والمعظم نفسه، في قوله: ﴿فأردنا أن يبدلها ربهما﴾ و ﴿خشينا أن يرهقهما﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة، من باب الالب مع الله تعالى؛ لأن المراد: ثم عيب، فتأنيب بأن نسب الإغابة إلى نفسه، وأما إسناد الثاني إلى الضمير المنكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو بئرا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة: ﴿أراد ربك أن يبدلنا إلهدما﴾ فانظر كيف تباينت هذه الأساليب، ولم تات على نمط واحد مكرر، بمجها السمع، وينبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المنكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

(6) سورة مريم، الآية: 19.

(1) سورة الأعراف، الآية: 154.

(2) سورة فصلت، الآية: 11.

(3) سورة الكهف، الآية: 76.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 100.

(5) قال أحمد: وكأنه جعل السبب في إعابتها، كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب، بذكر عادة الملك في غضب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل، أن يرتب الحكم على السبب، ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدمًا، والنية تأخيرها، والله أعلم، ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي، والمخالفة بينها في الأسلوب عجيبًا، ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة، بقوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وأسندته في الثانية إلى

الملائكة، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرًا ما رضى أن تتسموا باسماء الانبياء حتى تسميتكم باسماء الملائكة، وعن علي رضي الله عنه: سخر له السحاب، ومُنّت له الأسباب، وبسط له النور، وسئل عنه فقال: أحب الله فأحبه. وسأله ابن الكوا: ما ذو القرنين؟ أمك أم نبي؟ فقال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبدًا صالحًا ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين، وفيكم مثله، وقيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتولونه، فيحييه الله تعالى، وعن النبي ﷺ: «سمى ذا القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا»⁽⁵⁾ يعني: جانبيها شرقها وغربها، وقيل: كان له قرنان أي: ضفيران، وقيل: انقرض في وقته قرنان من الناس، وعن وهب: لأنه ملك الروم وفارس، وروي: الروم والترك، وعنه: كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: كان لتاجه قرنان، وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشًا؛ لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره. والسائلون: هم اليهود سألوه على جهة الامتحان؟ وقيل: سأله أبو جهل وأشباعه والخطاب في «عليكم» لأحد الفريقين «من كل شيء» أي: من أسباب كل شيء أراد من أغراضه ومقاصده في ملكه «سببًا» طريقًا موصلًا إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة. فاراد بلوغ المغرب «فاتبع سببًا» يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق فاتبع سببًا، وأراد بلوغ السنين فاتبع سببًا، وقرئ: فابتع.

حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ السَّيِّئِ وَجَدَا نَفَرًا فِي عَيْنِ حِمَّةٍ وَجَدَا عِدْمًا نَوْمًا فَلَمَّا يَدَا الْقَرْيَيْنِ إِذَا أَنْ تَمَذَّبَ وَإِلَّا أَنْ تَنَجَّدَ فِيهِمْ حُسْنًا ^(٨٦).

قرئ: «حمئة» من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة، وحماية بمعنى: حارة، وعن أبي نر: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت فقال: «يا أبا نر أتدري أين تغرب هذه؟» فقلت: الله ورسوله أعلم! قال: «فإنها تغرب في عين حماية»⁽⁶⁾. وهي: قراءة ابن مسعود، وطلحة، وابن عمر، وابن عمرو، والحسن، وقرأ ابن عباس: حمئة وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: حماية، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطن، كذلك نجده في التوراة. وروي: في شاطئ فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل فانشد قول تبع:

وقرى: يبذلها بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف، وروي: أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبيًا هدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبيًا، وقيل: أبذلها ابنًا مؤمنًا مثلها.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا كُنْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ^(٨٧).

قيل: اسما الغلامين أصرم وصريم، والغلام المقتول اسمه: الحسين، واختلف في الكنز فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة⁽¹⁾، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب! وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله⁽²⁾، وقيل: صحف فيها علم، والظاهر لإطلاقه أنه مال، وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة وأحلّت لنا، أراد قوله تعالى: «والذين يكتزون الذهب والفضة»⁽³⁾ «وكان أبوهما صالحًا» اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما، وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء، وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما قال: فابني وجدني خير منه، فقال: قد نبأنا الله أنكم قوم خصمون «رحمة» مفعول له أو مصدر منصوب باراد ربك؛ لأنه في معنى رحمهما «وما فعلت ما رأيت» عن أمري عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بامر الله.

وَتَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٨٨) وَإِنَّا مَكِّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ وَءَايَاتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ^(٨٩) فَأَنْجِ سَبَبًا ^(٩٠).

نو القرنين هو: الإسكندر الذي ملك الدنيا قيل: ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان، وكافران نمرود وبختنصر⁽⁴⁾ وكان بعد نمرود، واختلف فيه فقيل: كان عبدًا صالحًا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة والبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل: نبيًا، وقيل: ملكًا من

= والزليعي 309/2.

(6) رواه الحاكم في المستدرک 2/244، والإمام أحمد في مسنده 5/165، والبخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر، (الحديث رقم: 3199)، ومسلم في كتاب: الإيمان باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان الحديث رقم: (398).

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف، (الحديث رقم: 3152) والحاكم في المستدرک 2/369.

(2) رواه البزار عن أبي نر مرفوعًا.

(3) سورة التوبة، الآية: 34.

(4) رواه ابن أبي شيبة 11/564 كتاب: الفضائل، باب: في ذي القرنين.

(5) قال الزليعي: غريب، ورواه الدارقطني في المؤتلف والمختلف =

الأرض.

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿١١﴾ ثُمَّ أُنْزِلَتْ سَبَّحًا ﴿١٢﴾.

﴿كذلك﴾ أي: أمر ذي القرنين كذلك أي: كما وصفناه تعظيمًا لأمره ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خبرًا﴾ تكثريرًا لذلك، وقيل: ﴿لم نجعل لهم من دونها سترا﴾ مثل تلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية، والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف، وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي: كما بلغ مغربها، وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم يعني: أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم.

حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّائِيَيْنِ رَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٣﴾.

﴿بين السائين﴾ بين الجبلين، وهما جبلان سدّ نو القرنين وما بينهما. قرئ: بالضم والفتح وقيل: ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأنّ السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي: هو مما فعله الله تعالى وخلقه، والسد بالفتح مصدر حدث حدثه الناس. وانتصب ﴿بين﴾ على أنه مفعول به مبلوغ كما انجز على الإضافة في قوله: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ (2) وكما ارتفع في قوله: ﴿لقد قطع بينكم﴾ (3) لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿من دونهما قوما﴾ هم الترك ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾ لا يكادون يفهمونه إلا بجد ومشفقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم، وقرئ: يفقهون أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأن لغتهم غريبة مجهولة.

قَالُوا يَكُونُ الثَّانِيَانِ إِذَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُتَيَدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَحْمِلُ لَكَ حَرَمًا عَلَيْكَ أَنْ يَحْمَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٤﴾.

﴿ياجوج وماجوج﴾ اسمان أعجميان بلليل منع الصرف وقرئنا: مهموزين، وقرأ رؤية: أجوج وماجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: ياجوج من الترك وماجوج من الجبل والديلم ﴿مفسدون في الأرض﴾ قيل: كانوا ياكلون الناس وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً واذى شديداً. وعن النبي ﷺ في صفتهم: «لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف نكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» (4). وقيل: هم على صنفين، طوال: مفرطو الطول، وقصار: مفرطو القصر، وقرئ: خرجاً وخراباً أي: جعلاً

فراى مغيب الشمس عند مآبها في عين ذي خلب وثلاث حرمه أي: في عين ماء ذي طين وحمل أسود، ولا تنافي بين الحمّة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً.

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَكْرًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى وَسَقَوُا لَهُ مِنْ أَمْرًا يُسْرًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ أُنْزِلَتْ سَبَّحًا ﴿١٧﴾.

كانوا كفرة فخير الله بين أن يعذبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختر الدعوة والاجتهاد في استمالتهم. فقال أمّا من دعوته فابى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك فذلك هو المعذب في الدارين ﴿وأمّا من آمن وعمل﴾ ما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى﴾ وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه: إحساناً في مقابلة القتل، فله جزاء الحسنى فله أن يجازي المثوبة الحسنى، أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة، وقرئ: فله جزاء الحسنى أي: فله الفعلة الحسنى جزاء. وعن قتادة كان يطبخ من كفر في القنود وهو العذاب النكر، ومن آمن أعطاه وكساه ﴿من أمرنا يسراً﴾ أي: لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك. وتقديره: ذا يسر كقوله: ﴿قولا﴾ ميسوراً (1) وقرئ: يسراً بضمين.

حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّشْئِ وَجَدَهَا ظُلُمًا عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَحْمِلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا يَسْرًا ﴿١٨﴾.

وقرئ: مطلع بفتح اللام وهو مصدر. والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس قوله:

كان مجرّ الرامسات نيولها

يريد كأن آثار الرامسات ﴿على قوم﴾ قيل: هم الزنج. والستر: الأبنية، وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النار خرجوا إلى معاشيهم، وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسالت: عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة قبلتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى، ومعني صاحب يعرف لسانهم فقالوا له: جئتنا ننظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فبيننا نحن كذلك إذ سمعنا كهينة الصلصلة فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهينة الزيت، فأنخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم، وقيل: الستر اللباس، وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث (الحديث رقم: 6828).

(1) سورة الإسراء، الآية: 28.

(2) سورة الكهف، الآية: 78.

(3) سورة الأنعام، الآية: 94.

أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَعَلْنَاهُمْ جَمًّا﴾ (٤٩).

﴿وتركنا﴾ وجعلنا ﴿بعضهم﴾ بعض الخلق ﴿يموج في بعض﴾ أي: يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير لياجوج وماجوج وأنهم يمججون حين يخرجون مما وراء السد مزحمة في البلاد، وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون ثوبه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً في أقبائهم، فيدخل في آذانهم فيموتون.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَفَرِ عَرَضًا﴾ (٥٠).

﴿وعرضنا جهنم﴾ وبرزناها لهم فأروها وشاهدوها.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (٥١) ﴿فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَسْجُدُوا عِبَادِي مِن دُونِي أُولَئِكَ إِنَّا أَعَدْنَا لَهُمْ لَٰكُفْرِينَ نَزَلًا﴾ (٥٢).

﴿عن ذكري﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فانكر بالتعظيم، أو عن القرآن وتامل معانيه وتبصرها، ونحوه: ﴿حسم بكم عمي﴾ (٥٣) ﴿وكانوا لا يستطيعون سماعاً﴾ يعني: وكانوا صماً عنه إلا أنه أبلغ؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به، وهؤلاء كانوا أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿عبادي من دوني أولياء﴾ هم الملائكة يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكى عنهم: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ (٥٤) وقرأ ابن مسعود: أظن الذين كفروا، وقراءة علي رضي الله عنه: فحسب الذين كفروا أي: إفكاً فيهم ومحسبهم أن يتخونهم أولياء على الابتداء والخير، أو على الفعل والفاعل؛ لأن الاسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك: أقائم الزيدان، والمعنى: أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا، وهي قراءة محكمة جيدة. النزول ما يقام للتزليل وهو: الضيف ونحوه ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾ (٥٥).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَكْبِرُونَ بِالْآخِرِينَ أَهْلًا﴾ (٥٦) ﴿الَّذِينَ صَلَّ سَمِيحًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْيُونَ سَمًا﴾ (٥٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَكِيدَ رَبُّهُمْ لَوَلَاءَهُمْ فَيَقْطَعُ أَعْيُنَهُمْ فَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٥٨) ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأَىٰ﴾ (٥٩) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ﴾ (٦٠) ﴿جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَلَاؤُهُمْ﴾ (٦١) ﴿وَرُسُلُهُمْ هَرُؤًا﴾ (٦٢).

يخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال. وقرئ: سداً وسداً بالفتح والضم.

﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقَوْلٍ أَجْمَلَ يُنْكِرُ بَيْنَهُم رَدْمًا﴾ (٦٣) ﴿مَأْتُونِي مُبِذِينَ حَقًّا﴾ (٦٤) ﴿إِنَّا سَأَلْنَا بَيْنَ الصَّدِيقِينَ قَالُوا أَنْفَعُوا حَقًّا إِذَا جُمِلُوا نَارًا﴾ (٦٥) ﴿قَالَ مَأْتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ (٦٦) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَبْأَ﴾ (٦٧).

﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ ما جعلني فيه مكيئاً من كثرة المال واليسار خير مما تبدلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه كما قال سليمان صلوات الله عليه ﴿فما آتاني الله خيراً مما آتاكم﴾ (٦٨) قرئ: بالإدغام وبفكه ﴿فأعطينوني بقوة﴾ بفعله وصناعتهم يحسنون البناء والعمل، وبالإلالت ﴿ردماً﴾ حاجزاً حصيناً موثقاً، والردم أكبر من السد من قولهم: ثوب مردم رقاع فوق رقاع. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب والفحم، حتى سد ما بين الجبلين إلا أعلاه، ثم وضع المناقيش حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمي، فاختلف والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلباً. وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ: سوى وسوي، وعن رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ رَجُلًا أَخْبِرَهُ بِهِ فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتُهُ؟ قَالَ: كَالْبُرْدِ الْمَحْبَرِ طَرِيقَةً سُودَاءَ وَطَرِيقَةً حُمْرَاءَ﴾ (٦٩) قال: قد رأيت، (٧٠) والصدفان بفتحيتين: جانبا الجبلين لأنهما يتصانفان أي يتقابلان، وقرئ: الصدفين بضميتين، والصدفان: بضمة وسكون، والصدفان: بفتحة وضمة. والقطر النحاس المذاب؛ لأنه يقطر و ﴿قطراً﴾ منصوب بأفقرغ وتقديره: أتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ: قال اثنتوني أي: جيتوني ﴿فما استطاعوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: فما استطاعوا بقلب السين صاداً، وأما من قرأ: بإدغام التاء في الطاء فملاق بين ساكنين على غير الحد ﴿أن يظهره﴾ أي: يعلوه أي: لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلاته وخناته.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمْلًا دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٧١).

﴿هذا﴾ إشارة إلى السد أي: هذا السد نعمة من الله ﴿رحمة﴾ على عباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ يعني فإذا لنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي. جعل السد ﴿دكاً﴾ أي: منكوكاً مبسوطة مسوى بالارض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد انكس، ومنه الجمل الالك المنبسط السنام، وقرئ: بكاء بالمد،

(4) سورة سبا، الآية: 41.

(5) بعض آية ورد في ثلاثة مواضع منها: سورة آل عمران، الآية: 21.

(1) سورة النمل، الآية: 36.

(2) رواه الطبري في تفسيره وابن مروي، (الزليعي 312/2).

(3) سورة البقرة، الآيات: 171 و18.

لَقَدْ رِئِيْهِ فَلَئِمَّتَ عَلَيْهِ سَلِيْمًا وَلَا يَتْرُكُ عِبَادُوْهُ رِيْبَةً اَمَدًا ﴿١٦﴾

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو أقم من كان يخاف سوء لقائه.

والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة أن لا يرأى بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره، وقيل: نزلت في جندب بن زهير، قال للنبي ﷺ: إني أعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرتني فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه»⁽⁴⁾. وروى أنه قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»⁽⁵⁾. وذلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»⁽⁶⁾.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»⁽⁷⁾. وعنه ﷺ: «من قرأ عند مضجعه ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ كان له من مضجعه نوراً يتلألا إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألا من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»⁽⁸⁾، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم مكية

كَهَيِّصَ ﴿١﴾ وَكَرَّ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُوْهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَاؤُهُ حَوِيًّا ﴿٣﴾

﴿كهيص﴾ قرأ بفتح الهاء وكسر الياء حمزة، وبكسرهما عاصم. وبضمهما الحسن، وقرأ الحسن: نكر رحمة ربك أي: هذا المتلو من القرآن نكر رحمة ربك، وقرئ: نكر على الأمر. راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، وأخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرية والشيخوخة، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعته تارات، واختلف في سن زكريا عليه السلام،

﴿ضل سعيهم﴾ ضاع وبطل وهم: الرهبان، عن علي رضي الله عنه كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾⁽¹⁾ وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي رضي الله عنه: أن ابن الكوا سألهم عنهم فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ فيزدرى بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحين، وقرئ: فلا يقيم بالياء.

فإن قلْتُ: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟ قلْتُ: الأوجه أن يكون في محل الرفع على هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصباً على الذم أو جرّاً على البذل ﴿جهنم﴾ عطف ببيان لقوله جزاؤهم.

إِنَّ إِلَهِيْنَ أَمَرُوْا رَعِيْلُوْا الصَّالِحِيْنَ كَانَتْ لَمْ جَنَّتْ الْفَرِيْسِيْنَ نَزْلًا ﴿١٧﴾ خَلِيْقِيْنَ فِيْهَا لَا يَبْغُوْنَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ يَدَاؤًا لِّكَلِمَتِي رُبِّيْ لَفِيْدَ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ نَقْدَ كَلِمَتِي رُبِّيْ وَلَوْ جَنَّا بِبَيْتِلِهِ مَدَدًا ﴿١٩﴾

الحول: التحول. يقال: التحول: حال من مكانه حولاً كقولك: عانني حبها عوداً يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامع الطرف إلى أرفع منه؛ ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود.

المداد: اسم ما تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السمد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر: الجنس ﴿لنغد البحر قبل أن تنفد﴾ الكلمات ﴿ولو جئنا﴾ بمثل البحر مداداً لنغد أيضاً والكلمات غير نافذة و ﴿مداداً﴾ تمييز كقولك: لي مثله رجلاً، والمدد مثل المدد وهو: ما يمد به، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مداداً وقرأ الأعرج: مدداً بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ: ينغد بالياء، وقيل: قال حيي بن أخطب في كتابكم: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾⁽²⁾ ثم تقرئ: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾⁽³⁾ فنزلت يعني: أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَبَدَّ قَدْ كَانَ يَرْجُوا

= السر (الحديث رقم: 2384).

(6) رواه أحمد في مسنده 428/5، والبيهقي في الشعب، باب: في إخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء (الحديث رقم: 6831).

(7) رواه أحمد في مسنده 439/3.

(8) كشف الاستار، كتاب: الإنكار، باب ما يقرأ في الليل، (الحديث رقم: 3108).

(1) سورة الغاشية، الآية: 3.

(2) سورة البقرة، الآية: 269.

(3) سورة الإسراء، الآية: 85.

(4) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 170.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (الحديث رقم: 375) والترمذي في كتاب: الزهد، باب: عمل =

تعالى وصادراً من عنده، وإلا فهب لي ولياً يرثني كاف، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأنني وامراتي لا نصلح للولادة.

يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأُجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

﴿يرثني ويرث﴾ الجزم جواب الدعاء والرفع صفة ونحوه ﴿ردءاً يصلقني﴾⁽¹⁾. وعن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجحدري، أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب أي: يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان. والمراد بالإرث: أرث الشرع والعلم، لأنَّ الأنبياء لا تورث المال، وقيل: يرثني الحبرة وكان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك. ويقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: من للتبعيض لا للتعدي؛ لأنَّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق. وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

يَنْزِكُنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ
سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله، وهذا شاهد على أن الاسامي السنع جذيرة بالآخرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وإنوه وأنزه عن النبر، حتى قال القائل في مدح قوم:

سَمِعَ الْأَسَاسِيَّ مُسْبِلِي أَنْزَرَ حَمْرَتُمْسَ الْأَرْضَ بِالْهَيْدِ
وَقَالَ رُؤْيَا لِلنَّسَابَةِ الْبَكْرِيَّ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ: إِنَّا ابْنُ
الْعَجَاجِ. فَقَالَ: قَصُرْتُ وَعَرَفْتُ. وَقِيلَ: مَثَلًا وَشَبِيهًا عَنْ
مُجَاهِدٍ كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾⁽²⁾. وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمَثَلِ
سَمِيًّا؛ لِأَنَّ كُلَّ مُتَشَاكِلَيْنِ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِاسْمِ
الْمَثَلِ وَالشَّبِيهِ وَالشَّكْلِ وَالنَّظِيرِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَمِيٌّ
لِصَاحِبِهِ. وَنَحْوُ يَحْيَى فِي أَسْمَائِهِمْ بِعَمْرِ وَيَعِيشُ إِنْ كَانَتْ
التَّسْمِيَةُ عَرَبِيَّةً، وَقَدْ سَمَوْا بِيَمُوتَ أَيْضًا وَهُوَ: يَمُوتُ ابْنُ
الْمَزْرَعِ قَالَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ مَثَلٌ فِي أَنَّهُ لَمْ يَعْصَ وَلَمْ يَهَمْ
بِمَعْصِيَةِ قَطٍّ، وَأَنَّهُ وَلَدَ بَيْنَ شَيْخٍ فَانٍ وَعَجُوزٍ عَاقِرٍ، وَأَنَّهُ
كَانَ حَصُورًا أَيَّ: كَانَتْ عَلَيْهِ صِفَةُ الْعَقْرِ حِينَ أَنَا شَابٌ
وَكَهْلٌ، فَمَا رَزَقْتُ الْوَلَدَ لِاخْتِلَالِ أَحَدِ السَّبْبِيِّينَ. أَقْحِنِ اخْتَلِ
السَّبْبَانِ جَمِيعًا أَرْزُقْهُ!

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ
مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

فَإِنْ قُلْتَ: ⁽³⁾ لم طلب أولاً وهو وامراته على صفة العتي

فَقِيلَ: سِتُّونَ، وَخَمْسَ وَسِتُّونَ، وَسَبْعُونَ وَخَمْسَ وَسَبْعُونَ، وَخَمْسَ وَثَمَانُونَ.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
 بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

قرى: ﴿وهن﴾ بالحركات الثلاث وإنما نكر العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين في الشين عن أبي عمرو. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو: الرأس وأخرج الشيب مميّزاً، ولم يضاف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة. وعن بعضهم: أن محتاجاً سألَه وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا، فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

وَأِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

كان مواليه وهم عصيته: إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿من ورائي﴾ بعد موتي، وقرأ ابن كثير: من وراي بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ولكن بمحذوف، أو بمعنى الولاية في الموالى أي: خفت فعل الموالى وهو: تبديلهم وسوى خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي، وقرأ عثمان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم: خفت الموالى من ورائي، وهذا على معنيين: أحدهما يكون ورائي بمعنى: خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالى أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى: قدامي فيتعلق بخفت، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ﴿من لندك﴾ تأكيد لكونه وليا مرضيا بكونه مضافا إلى الله

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة مريم، الآية: 65.

(3) قال أحمد: وفيما أجاب به نظر؛ لانه التزم أن ذكرى استبعاد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز للنبى النطق بما لا يسوغ، لمثل هذه القائدة التى عنها التزمخسرى، ويمكن حصولها بكونه =

يَبْحَثُ فِي الْكِتَابِ بِرُوحٍ وَأَنبَأَهُ الْمَلَكُ مِيمًا ﴿١٧﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٩﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٠﴾

أي: خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد **﴿الحكم﴾** الحكمة ومنه: واحكم كحكم فتاة الحي، يقال: حكم حكماً حكماً، وهو: الفهم للتوراة والفقه في الدين. عن ابن عباس، وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا. عن الضحاك، وعن معمر: العقل، وقيل: النبوة؛ لأن الله أحكم عقله في صباه، وأوحى إليه **﴿حناناً﴾** رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة. انشد سيبويه:

وقالت حنان ما أتى بك ههنا
أنوسب لم أنت بالحي عارف
وقيل: حناناً من الله عليه، وحنّ في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرافة. وقيل: لله حنان كما قيل: رحيم على سبيل الاستعارة. والزكاة: الطهارة، وقيل: الصدقة أي: يتعطف على الناس ويتصدق عليهم. سلم الله عليه في هذه الأحوال، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن. وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَمْلَاحِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿٢١﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢٢﴾

﴿إن﴾ بدل من مريم بدل الاشتمال؛ لأن الإحياء مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم: نكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباز: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط، أو بشيء يستورها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاه الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سيء الخلق لم ينتقص من الصورة الأدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستانس بكلامه ولا تنفر منه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِأَرْحَمَنِ رَبِّكَ إِن كُنْتُ نَوِيًّا ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٤﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ نَوِيًّا ﴿٢٥﴾

والعقر فلما أسعف بطلته استبعد واستعجب؟ قلْتُ: ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وأخراً كان على منهاج واحد في أن الله غني عن الأسباب. أي بلغت عتياً وهو: اليبس والجساسة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال: عتتا العود وعسا من أجل الكبر والظعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً. وقرأ ابن وثاب، وحمزة، والكسائي: بكسر العين وكذلك **﴿صلياً﴾** ^(١) وابن مسعود: بفتحهما فيهما. وقرأ أبي ومجاهد: عسياً.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٢٦﴾

﴿كنك﴾ الكاف رفع أي: الأمر كنك تصديق له، ثم ابتداء **﴿قال ربك﴾** أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره **﴿هو علي هين﴾** ونحوه: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾** ^(٢). وقرأ الحسن: وهو علي هين. ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول أي: الأمر كما قلت، وهو على ذلك يهون علي، ووجه آخر وهو: أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكريا، وقال محذوف في كلتا القراءتين أي: قل هو علي هين، قال وهو علي هين، وإن شئت لم تنوه؛ لأن الله هو المخاطب والمعنى: أنه قال ذلك ووعدوه وقوله الحق **﴿شيئاً﴾** ^(٣) لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئاً يعتد به كقولهم: عجبت من لا شيء وقوله:

إذا رأى غير شيء ظننه رجلاً
وقرأ الأعمش، والكسائي، وابن وثاب: خلقناك.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢٧﴾

أي: جعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ما بك خرس ولا بك. دل نكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام وليالهن.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْإِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٢٨﴾

أوحى: أشار، عن مجاهد: ويشهد له: **﴿إلا رمزاً﴾** ^(٤) وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض **﴿سبحوا﴾** صلوا، أو على لظاهر وأن هي المفسرة.

= المعدوم ليس شيئاً قطعاً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن المعدوم الممكن شيء، ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأول إلى الثاني، بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة، فجعل المنفي شيئاً للمعتد به، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم، والحق بقاء الظاهر في نصابه.

= العاقر، فاستبعد الولد منهما، وهما بحالهما، فاستخبر أن يكون وهما كذلك، فقيل: كذلك، أي: يكون الوالد وانتما كذلك، فقد انصرف الإبعاد إلى عين الموعود، فزال الإشكال، والله أعلم.

(1) سورة مريم، الآية: 70.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) قال أحمد: فسر أولاً على ظاهر النفي الصرف، وهو الحق؛ لأن = (4) سورة آل عمران، الآية: 41.

وبالرحمة: الشرائع والألطف، وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكويين. عن ابن عباس: فاطمات إلى قوله فبنا منها فننفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، وقيل: كانت مدة الحمل ستة أشهر، وعن عطاء، وأبي العالية، والضحاك: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعيش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: حملته في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وقالوا: ما من مولود إلا يستهل غيره ﴿فانتبذت به﴾ أي: اعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تدوس بنا الجمامج والترييا

أي: تدوس الجمامج ونحن على ظهورها. ونحوه قوله تعالى: ﴿تنبذت بالدهن﴾ (7) أي: تنبت ودهنها فيها، الجار والمجرور في موضع الحال ﴿قصياً﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها، فاتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها.

فَأَعَاثَ الْمَخَاشِ إِلَى جَنَحِ النَّخْلِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ بَقْلِ هَذَا وَكُنْتُ سَيِّئاً نَسِيئاً (٢٢).

﴿فاجاءها﴾ أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءني زيد، كما نقول: بلغته وأبلغني، ونظيره: أتى حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وأتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر يقال: مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو: تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو: إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة، كتعريف النجم والصعق، كان تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل: جذع النخلة فهم منه تلك نون غيره من جنوع النخل. وإما: أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها؛ ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد،

ودل على عفافها وورعها أنها تعونت باه من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسيراً لعفتها. وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فأنفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فاتاها الملك، وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه: يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل: إن النصراني اتخذت المشرق قبلة لانتباز مريم مكاناً شرقياً. الروح جبريل؛ لأنَّ اللين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك: أنت روحي، وقرأ أبو حيوة: روحنا بالفتح؛ لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان﴾ (1) أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي: مقربنا وذا روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى: ﴿يقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (2). أي: إنما أنا رسول من استعنت به ﴿لا هب لك﴾ لاكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك، أو هي حكاية لقول الله تعالى: جعل المس عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ (3) ﴿أو لمستم النساء﴾ (4) والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والأدب، والبغي الفاجرة التي تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرد: بغوي فادغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً ل قيل بغو، كما قيل: فلان نهو عن المنكر ﴿ولنجعله﴾ آية تحليل معللة محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تحليل مضمهر أي: لنبين به قدرتنا ولنجعله آية، ونحوه: ﴿وخلف الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾ (5) وقوله: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ (6) ولنعلمه.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّهُ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْمِكُمَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢٣) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢).

﴿مقضيًّا﴾ مقدرًا مسطورًا في اللوح لابد لك من جريه عليك، أو كان أمرًا حقيقاً بأن يكون ويقضي لكونه آية رحمة، والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله،

(5) سورة الجاثية، الآية: 22.

(6) سورة يوسف، الآية: 56.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

(1) سورة الواقعة، الآيتان: 88 و 89.

(2) سورة هود، الآية: 86.

(3) سورة البقرة، الآية: 237.

(4) سورة النساء، الآية: 43.

قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فعل ليس ببدع من شأنها.

وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّخْلَةَ تَنْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّدًا ﴿١٥﴾ فَكَلَّمِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الشَّيْرِ أَمَّا فَعُولٌ إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦﴾

﴿تساقط﴾ فيه تسع قرآت: تساقط بإدغام التاء، وتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط، التاء للنخلة والياء للجدع، ورطباً تمييز، أو مفعول على حسب القراءة، وعن المبرد: جواز انتصابه بهزي وليس بذلك، والياء في جدع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (4) أو على معنى: افعلي الهز به كقوله: يحرج في عراقها نصلي، قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جَنَّبًا﴾ بكسر الجيم للاتباع أي: جمعنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية: سلوة الصدر لكونهما معجزتين وهو معنى قوله: ﴿فَكَلَّمِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: وطببي نفساً ولا تغتمي، وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك. وقري: ﴿وَقَرِّي﴾ بالكسر لغة نجد ﴿فَإِمَّا تَرِينِ﴾ بالهمز، ابن الرومي. عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج: وحلات السويق، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صَوْمًا﴾ صمماً، وفي مصحف عبد الله: صمماً، وعن أنس بن مالك مثله، وقيل: صياماً، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت (5)؛ لأنه نسخ في أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم لثلاث تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام المعنيين أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبري به ساحتها، والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، وفيه أن السكوت عن السفه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً، قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل: سوغ لها بالنطق ﴿إِنْسِيًّا﴾ أي: اكلم الملائكة دون الإنسان.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلًا قَالُوا يَبْرَيْتُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيًّا ﴿١٧﴾ يَتَّخَذَتْ هَـرُونَ مَا كَانَ أَبُوُّكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَكَانَتْ أُمُّكَ بَوِيًّا ﴿١٨﴾

الفري: البديع وهو من فرى الجلد ﴿يَا أُخْتُ هُرُونَ﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل وقيل: هو أخوه

وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وأجأها إليها. قري: ﴿مَت﴾ بالضم والكسر، يقال: مات يموت ومات يمات.

النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: ﴿وَقَدِينَاهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا﴾ (1) وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدر والشظاظ، تمت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشور من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام يحض قلماً تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، وقرا: ابن وثاب، والأعمش، وحمة، وحفص: نسيًا بالفتح. قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل، وقرا محمد بن كعب القرظي: نسا بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته. وقرا الأعمش: منسيًا بالكسر على الاتباع كالمغيرة والمنخر.

فَأَدْبَاهَا مِنْ حَمِيٍّ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَمَلَ رَبُّكِ تَحَمُّكِي سَرِيًّا ﴿١٩﴾

﴿من تحتها﴾ هو: جبريل عليه السلام قيل: كان يقبل الولد كالقابلة، وقيل: هو عيسى وهي: قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل: تحتها أسفل من مكانها كقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (2) وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها: لا تحزني وقرا نافع، وحمة، والكسائي؛ وحفص؛ من تحتها وفي نادها ضمير الملك أو عيسى، وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة، وقرا زر وعلقمة: فخطبها من تحتها. سئل النبي ﷺ عن السري فقال: «هو الجبول» (3). وقال لبيد:

فتوسطا عرض السري فصدا مسجورة متجاوزاً قلامها
وقيل: هو من السرور والمراد عيسى، وعن الحسن: كان والله عبداً سرياً.

فَإِنْ قُلْتَ: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب؛ قُلْتَ: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) تقدم عن أبي داود في سورة النساء.

(1) سورة الصافات، الآية: 107.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) رواه الحاكم في المستدرک 2/ 273.

بالصلاة وكلفتها واحد ﴿والسلام علي﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك: جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا، والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي، والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ (3) يعني: أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام منكرة وعاد فهو مثله لنحو هذا من التعريض.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَيِّ الَّذِي فِيهِ يَتَرُونَ ﴿٢١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٢﴾

قرأ عاصم وابن عامر ﴿قول الحق﴾ بالنصب، وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله، وعن الحسن: قول الحق بضم القاف وكذلك في الانعام ﴿قوله الحق﴾ (4) والقول والقال والقول بمعنى واحد: كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك: هو عبد الله حقاً والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى: كلمة الله و﴿قول الحق﴾ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: كن من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء، والشحم والشحم بالذئ، ويحتمل: إن أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عز وجل، وأن يكون بمعنى: الثبات والصدق ويعضده قوله: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿يمترون﴾ يشكون والمروية: الشك، أو يمارون: يتلاحون، قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمترون على الخطاب، وعن أبي بن كعب: قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى. وبكثرت بالدلالة على إنتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول ولي بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذا من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده: يكن، كان منزهاً من شبه الحيوان والولد. والقول هنا مجاز ومعناه، أن إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبهه ذلك بأمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل.

لَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ رَبِّيَ رَيْبًا فَأَعْبُدُهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٣﴾

موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «إنما عنوا هرون النبي، وكانت من أعقابها في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثره». وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل: يا أخت هرون (1) كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحداً منهم، وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب. نكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هرون تبركاً به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجا التيمي: ﴿ما كان ليأك امرؤ سوء﴾ وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها، ثم جاءت تحمله فكلما عيسى في الطريق، فقال: يا أمه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما نخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكروا وقالوا ذلك، وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَهْلِ صَبِيًّا ﴿٢٤﴾

﴿فأشارت إليه﴾ أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. وروي: أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وأتكا على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿كان﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو هنا: لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر: أن يكون نكلم حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيّاً في المهد فيما سلف من الزمان حتى تكلم هذا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَرَعَىٰ نَبِيًّا ﴿٢٥﴾ وَرَجَعَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْأَمَلِ وَالزُّكُورِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٦﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَكَمْ يَخِفَّيْ جَارًا صَبِيًّا ﴿٢٧﴾ وَأَتْلَمُ عَلَىٰ يَوْمٍ أُودِثُ وَيَوْمَ أُمَوِّثُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٨﴾

انطقه الله أولاً بأنه عبد الله ردّاً لقول النصارى و﴿الكتاب﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوته، فقيل: أعطيا في طفوليته، أكمل الله عقله واستنبا طفلاً نظراً في ظاهر الآية، وقيل معناه: إن ذلك سبق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿مباركاً أينما كنت﴾ عن رسول الله ﷺ: «نفاعاً حيث كنت» (2). وقيل: معلماً للخير. وقرئ: ﴿ويزراً﴾ عن أبي نهيك: جعل ذاته براً لفرط بره، أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني؛ لأن أوصاني

(2) رواه أبو نعيم في الحلية: 25/3.

(3) سورة طه، الآية: 47.

(4) سورة الانعام، الآية: 73.

(1) رواه مسلم في كتاب: الآداب باب: النهي التكني بابي القاسم وبيان

ما يستحب من الاسماء (الحديث رقم: 5563) والترمذي في كتاب:

تفسير القرآن باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3155).

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾

الصديق: من أبنية المبالغة، ونظيره: الضحيك، والنطيق، والمراد: فرط صلفه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي: كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبياً في نفسه كقوله تعالى: ﴿يَبْلُغُ الْحَقَّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) وكان بليغاً في الصدق. لأن ملاك أمر النبوة الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبطله أعني: إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ نحو قولك، رأيت زيداً، ونعم الرجل أخاك، ويجوز أن يتعلق إذ بكان، أو بصديقاً نبياً أي: كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات، والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤) وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله. التاء في ﴿يَا أَبَتِي﴾ عوض من ياء الإضافة، ولا يقال يا ابني لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه. وقيل: يا أبنا لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه: باينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة. انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه، من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والألب الجميل والخلق الحسن، منتصباً في تلك بنصيحة ربه عز وجل، حث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه، أظله تحت عرشي، وأسكنه حظيرة القدس، وأدنيه من جوازي» (٥). وذلك أنه طلب منه أولاً: العلة في خطئه طلب منه على تمايه موقظ لإفراطه وتناهيه: لأن المعبود لو كان حياً مميّزاً سمياً بصيراً مقتدرًا على الثواب والعقاب نافعا ضاراً إلا أنه بعض الخلق، لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلامهم منزلة كالملائكة والنبيين قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّخِذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكَ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتَ مُسْلِمُونَ﴾ (٦) وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق

وقرأ المدنيون، وأبو عمرو: بفتح أن ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: ﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١) والاستار، وأبو عبيد: بالكسر على الابتداء، وفي حرف أبي: إن الله بالكسر بغير واو، وبأن الله أي: بسبب ذلك فاعبدوه.

فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوِيلٌ لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿الاحزاب﴾ اليهود والنصارى. عن الكلبي، وقيل: النصارى لتحزبهم ثلاث فرق، نسطورية ويعقوبية وملكانية، وعن الحسن الذين تحزبوا على الانبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ﴿مَنْ مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو من وقت الشهود، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء والسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من مكان الشهادة، أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدا به في عيسى وأمه.

أَنجَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِ الْغَالِيُونَ أَيَّامٌ فِي صَلَواتٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنذَرُ يَوْمَ الْأَسْرِ إِذْ فَتِنَا آلَ قَحْطَانٍ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا رُجُوعٌ ﴿٤٠﴾

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد: أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صماً وعمياً في الدنيا، وقيل معناه: التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم. أوقع الظاهر أعني: الظالمين موقع الضمير إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد: بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع.

﴿قضى الأمر﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار. وعن النبي ﷺ أنه سئل عنه أي: عن قضاء الأمر فقال: «حين ينبح الكلب والفريقان ينظران» (٢). وإذا بدل من يوم الحسرة، أو منصوب بالحسرة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، عن الحسن ﴿وَأَنذَرُهُمْ﴾ اعتراض، أو هو متعلق بأنذرهم أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميّتهم ويخرّب ديارهم وأنه يفتني أجسادهم، ويفني الأرض ويذهب بها.

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «وأنذرهم يوم الحسرة» (الحديث رقم: 4730) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (الحديث رقم: 40 - 2849).

(3) سورة الصافات، الآية: 37.

(4) سورة الشعراء، الآية: 69.

(5) رواه الطبراني في الأوسط، والحكيم الترمذي في نوارد الأصول، (الزيلي 326/2).

(6) سورة آل عمران، الآية: 80.

العظيم⁽¹⁾ فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله:

يا أبت توسلاً إليه واستعطافاً

﴿ما في﴾ ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿ما لم يأتك﴾ يجوز أن تكون: موصولة وموصوفة والمفعول في لا يسمع ولا يبصر منسي غير منوي كقولك:

ليس به استماع ولا إبصار

﴿شيئاً﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون في موضع المصدر أي: شيئاً من الغناء، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين، والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم:

اغنى عني وجهك

﴿إني قد جائني من العلم ما لم يأتك﴾ فيه تجديد العلم عنده. لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات. أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناده باسمه، ولم يقابل يا أبت بيا بني: وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعني وفيه ضرب من التّعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه ﴿لأرجمنك﴾ لأرمينك بلساني يريد الشتم والذم، ومنه الرجيم المرمي باللعن، أو لاقتلنك من رجم الزاني، أو لأطربنك رمياً بالحجارة، وأصل الرجم الرمي بالرجام ﴿ملياً﴾ زماناً طويلاً من الملاوة أو ملياً بالذهاب عني والهجران قبل أن أئخذك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال: فلان ملي بكذا إذا كان مطيقاً له مضطجاً به.

فإن قلت: علام عطف ﴿واهجرني﴾؟ قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع.

قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَجْعَ إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَقِّكَ ^(١٧)

﴿قال سلام عليك﴾ سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾⁽³⁾ وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وإن يعده ذلك؟ قلت: قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط

إلا لمن له غاية الإنعام وهو: الخالق الرائق المحيي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلى غيره وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره لم يكن إلا ظلاماً وعتوّاً وغياً وكفراً وجحوداً وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جمد ليس به حس ولا شعور: فلا يسمع يا عابده نكرك له وثناؤه عليه، ولا يرى هيات خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيفدعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيها.

يَأْتِيَنِي إِني قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْوَلِيِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْلَكَ حَرَمًا سَوِيًّا ^(١٨)

ثم ثنى: بدعوته إلى الحق مترقفاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم و شيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندني معرفة بالهداية لئلا فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه.

يَأْتِيَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ^(١٩)

ثم ثلث: بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو: عبوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال، وعدو أبوك آدم وأبناء جنسك كلهم. هو: الذي ورطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فانت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الاخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم ينكر من جنائتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى نكر معاداته لآدم وذريته، كان النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه.

يَأْتِيَنِي إِني أَخَافُ أَنْ يَسْأَلَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ^(٢٠) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَكْفُرُهُمْ كَيْنَ لَوْ تَنَزَّوْا أَزْجَمًا وَأَهْجُرَنِي مَيْتًا ^(٢١)

ثم رابع: بتخويفه سوء العقابة وبما يجزّه ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال: ﴿أخاف أن يمسك عذاب﴾ فنكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماء الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: ﴿ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز

(3) سورة الفرقان، الآية: 63.

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

دعوته ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صَلِقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (6) فصيروه قنوة حتى ادَّعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: ﴿مَلَأْنَا إِبْرَاهِيمَ إِبراهيم﴾ (7) و﴿مَلَأْنَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (8) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (9) وأعطى تلك نزيته فأعلى نكرهم وأثنى عليهم كما أعلى نكره وأثنى عليه.

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٩١﴾ وَنَذَرْنَاهُ فِي غَرَابٍ طَرِيدٍ وَفَرَّغْنَاهُ إِحْيَا ﴿٩٢﴾ وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَثَاءً هُورُونَ نَبِيًّا ﴿٩٣﴾.

المخلص: بالكسر الذي أخلص العبد عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفصح الذي أخلصه الله. الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبئ عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع. الأيمن من اليمين أي: من ناحيته اليمنى، أو من اليمن صفة للطور أو للجانب، شبهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك. وعن أبي العالية: قرَّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة ﴿مَنْ رَحِمْتَنَا﴾ من أجل رحمتنا وترافنا عليه وهبنا له هُورون، أو بعض رحمتنا كما في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ (10) وأخاه على هذا الوجه بدل، وهُورون عطف بيان، كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيداً، أو كان هُورون أكبر من موسى، فوقع الهبة على معاصده وموازته. كذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٩٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٩٥﴾.

نكر إسماعيل عليه السلام بصديق الوعد وإن كان ذلك موجوداً في غيره من الأنبياء تشريعاً له وإكراماً كالتلقيب بنحو الحليم، والأواه، والصديق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، ونأهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (11) كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قوة لمن وراءهم ولأنهم أولى من سائر الناس ﴿وَأَنْذَرْتُ عَشِيرَتَكَ الْاقْرَبِينَ﴾ (12) ﴿وَأَمْرُ

الوضوء والنصاب، وقالوا: إنما استغفر له بقوله: ﴿وَإِذَا غَفَرَ لِأَبِي إِنْ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (1) لانه وعده أن يؤمن، واستشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ﴾ (2) ولقائل (3) أن يقول: إن الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأما القضية العقلية فلا تأباه، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل، والذي يدل على صحته قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ (4) فلو كان شرطاً للإيمان لم يكن مستنكراً أو مستثنى عما وجبت فيه الأسوة، وأما عن موعده وعدها إياه، قالوا: عد هو إبراهيم لا أزر أي: ما قال: واغفر لأبي إلا عن قوله: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وتشهد له قراءة حماد الراوية وعدها أباه والله أعلم ﴿حَقِيقًا﴾ الحفي البليغ في البر والإلطف حفي به وتحفى به.

وَأَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا نَدَّعَوْكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشِيَ آلَ أَكْرُونَ يُدْعَا رَبِّي سُبْحًا ﴿٩٦﴾ فَلَمَّا أَعَزَّكَ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٩٧﴾.

﴿وَأَعَزَّلْنَاهُمْ﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام. المراد بالدعاء: العبادة؛ لأنه منها ومن وسايطها، ومنه قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (5). ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء، عرَّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: ﴿عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ مع التواضع لله بكلمة عسى وما فيه من هضم النفس ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء.

وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا رَجَعْنَا لَهُ لِسَانَ حِنْدٍ عَلِيًّا ﴿٩٨﴾.

﴿مَنْ رَحِمْتَنَا﴾ هي النبوة. عن الحسن، وعن الكلبي: المال والولد وتكون عامة في كل خير نبني وبنوي أوتوه. لسان الصديق: الثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال:

إني أنتنني لسان لا أسر بها

يريد الرسالة، ولسان العرب لغتهم وكلامهم. استجاب الله

= (890) وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (الحديث رقم: 3247) وابن ماجه في كتاب: الدعاء باب فضل الدعاء.

(6) سورة الشعراء، الآية: 84.

(7) سورة الحج، الآية: 78.

(8) سورة النساء، الآية: 125.

(9) سورة النحل، الآية: 50.

(10) سورة مريم، الآية: 50.

(11) سورة الصافات، الآية: 102.

(12) سورة الشعراء، الآية: 214.

(1) سورة الشعراء، الآية: 86.

(2) سورة التوبة، الآية: 114.

(3) قال أحمد: وهذه لمظ من الاعتزال، مستطيرة من شرر شرقاً قاعدة التحسين والتقييد، والحق أن العقل لا مدخل له، في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به، ثم لم يوف الزمخشري بها، فإنه جعل العقل يسوغ الاستغفار، وجعل الشرع مانعاً منه، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه، وأما ما يظهر العقل خلافه، فلا.

(4) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: =

نوح، وإسماعيل من نرية إبراهيم وموسى وهارون وزكريا ويحيى من نرية إسرائيل، وكذلك عيسى لأن مريم من نريته ﴿وممن هدينا﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية.

إن جعلت الذين خبراً لأولئك كان ﴿إذا تتلى﴾ كلاماً مستأنفاً، وإن جعلته صفة له كان خبراً. قرأ شبل بن عباد المكي: يتلى بالتنكير؛ لأن التانيث غير حقيقي مع وجود الفاصل. البكي جمع بك كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»⁽⁷⁾. وعن صالح المري رضي الله عنه: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال في: «هذه القراءة يا صالح فأين البكاء؟»⁽⁸⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأت سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحلكم فليبك قلبه، وعن رسول الله ﷺ: «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحزنوا». وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وإن قرأ: سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

﴿خَلَفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا﴾⁽⁹⁾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلَاقُونَ فِيهَا بَأْسًا.

خلفه إذا عقبه، ثم قيل: في عقب الخير خلف بالفتح، وفي عقب السوء خلف بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير، ووعد في ضمان الشر. عن ابن عباس رضي الله عنه: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وعن إبراهيم، ومجاهد رضي الله عنهما: أضاعوها بالتأخير وينصر الأول، وقوله: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ يعني: الكفار. وعن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من بني الشديد، وركب المنظور. وليس المشهور، وعن قتادة رضي الله عنه: هو في هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والضحاك رضي الله عنهم: الصلوات بالجمع. كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد قال المرقش:

فمن يلق خيراً تحمد الناس أمره ومن يفول لا يعلم على الغي لاثماً وعن الزجاج: جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يلق اثماً﴾⁽⁹⁾

أهلك بالصلاة⁽¹⁾ ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾⁽²⁾ ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم فالإحسان الديني أولى، وقيل: أهله أمته كلهم من القرابة، وغيرهم لأن أمم النبيين في عداد أهاليهم، وفيه أن من حق الصالح أن لا يالوا نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به، وإن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٢﴾

قيل: سمي إبريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو: العلمية فكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاب كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسراء، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى: إبريس في تلك اللغة قريباً من ذلك فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس. المكان العلي: شرف النبوة والزلفى: عند الله. وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم، والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون الجلود. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: إنه رفع إلى السماء الرابعة⁽³⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى السماء السادسة⁽⁴⁾. وعن الحسن رضي الله عنه: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة، وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد عند رسول الله ﷺ الشعر الذي آخره:

بلغنا السماء مجننا وسناؤنا وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا
قال رسول الله ﷺ: «إلى أين يا أبا ليلى». قال: إلى الجنة⁽⁵⁾.

أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَاجَرُوا وَابْتِغَيْنَا إِنَّا نَعْلَمُ عَلَيْهِمْ مَا يَكُنُ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إبريس عليه السلام. ومن في ﴿من النبيين﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾⁽⁶⁾ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم، ومن الثانية للتبعيض، وكان إبريس من نرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم عليه السلام من نرية من حمل مع نوح؛ لأنه من نرية سام بن

(1) سورة طه، الآية: 132.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3157).

(4) رواه الطبري في تفسيره وابن مريويه، (الزليعي 328/2).

(5) رواه أبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة، (الزليعي 329/2).

(6) سورة الفتح، الآية: 29.

(7) رواه أبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 689).

(8) رواه أبو نعيم في الحلية 6/196.

(9) سورة الفرقان، الآية: 68.

الوسطى المحمودة، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير؛ لأن المتنعم عن العرب من وجد غداء وعشاء، وقيل: أراد دوام الرزق ودروره كما تقول: أنا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرة وعشيّاً يريد: الليمومة، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

﴿نورث﴾ وقرئ: نورث استعارة أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث، ولأن الاتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية، وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى، وقيل: أورثوا من الجنة المساكين التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْعًا ﴿١٤﴾

﴿وما ننزل﴾ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطاه رسول الله ﷺ، وروي: أنه احتبس أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة، وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «أبطلت حتى ساء ظني، واشتقت إليك». قال: «إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست». وأنزل الله سبحانه هذه الآية، وسورة الضحى^(٥)، والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق كقوله:

فلمست لأنسى ولكن لملاك تنزل من جو السماء يصوب لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى: أنزل وبمعنى: التدريج، واللائق بهذا الموضع هو: النزول على مهل، والمراد: أن نزلنا في الأحايين وقتاغب وقت ليس إلا بأمر الله وعلى ما يراه صواباً وحكمة وله ما قدأمانا **﴿وما خلفنا﴾** من الجهات والأماكن **﴿وما بين ذلك﴾** وما نحن فيها، فلا نتمالك أن نتنقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيتته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فإني لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى تلك مصلحة وحكمة وأطلق لنا الإنن فيه، وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة **﴿وما بين ذلك﴾** ما بين النفتختين، وهو أربعون سنة، وقيل: ما

أي: مجازاة آثام، أو غيّا عن طريق الجنة، وقيل: غي واد في جهنم تستعيز منه أوبيتها. وقرأ الأخفش: يلقون. قرئ: يدخلون ويدخلون أي: لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ولا يمنعونهم بل يضاعف لهم بيئاتاً؛ لأن تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، ما منعك، أو لا يظلمون البتة أي: شيئاً من الظلم.

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَقِبِ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١٥﴾

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبليت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي. وعدن معرفة علم بمعنى: العدن، وهو: الإقامة، كما جعلوا فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفه أعمالاً لمعاني الفينة والسحر والأمس فجرى مجرى العدن لذلك، أو هو علم الأرض الجنة لكونها مكان إقامة، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال؛ لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصولة ولما ساغ وصفها بالتني. وقرئ: جنات عدن وجنة عدن بالرفع على الابتداء. أي: وعدما وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أوهم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب والإيمان به. قيل في **﴿ماتياً﴾** مفعول بمعنى: فاعل؛ والوجه: أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها، أو هو من قولك أتى إليه إحساناً أي: كان وعده مفعولاً منجراً.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلُوفًا لَّهُمْ فِيهَا بَكَرٌ وَعَشِيًّا ﴿١٦﴾

اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقانه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها وما أحسن قوله سبحانه: **﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾**^(١) **﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾**^(٢) نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنيننا. أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً^(٣) إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسمعون فيه من العيب والنقيصة على الاستثناء المنقطع، أو لأن معنى: السلام^(٤) هو: الدعاء بالسلامة، ودار السلام هي: دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام. من الناس من يأكل الوجبة، ومنهم من يأكل متى وجد وهي عادة المنهزمين، ومنهم من يتغدى ويتعشى وهي العادة

(1) سورة الفرقان، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والفرق بين الوجهين، أنه جعل الفلول عيباً على سبيل التجوّز بتأ، لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان فلول السيوف من القراع عيباً، فإنهم نرو عيب، معناه: وإن لم يكن عيباً، فليس فيهم عيب البتة: لأنه لا شيء سوء هذا، فهو بعد هذا التجوّز =

= والفرض، استثناء متصل.

(4) قال أحمد: وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة، لا كأول الناشئ عن المجاز، وفي هذا الباب بعد؛ لأنه يقتضي البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول، وحاش لله، فلا غول فيها، ولا لغو.

(5) رواه ابن إسحاق في سيرته وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي. والواحد في أسباب النزول ص 170.

وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزى إله، وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى أحد الرحمن غيره، ووجه آخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق بون الباطل؛ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلاً تسمية، وقيل: مثلاً وشبهها أي: إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَّكَ لَتَحْتَرَبُنَّ وَالْكَافِرِينَ ثُمَّ لَنُخَوِّضَنَّهُمْ خَوْلاً جَهَنَّمَ حَيْثُ ﴿١٨﴾

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قُلْتُ: لم جازت إرادة الانساني كلهم وكلهم غير قائلين ذلك؟ قُلْتُ: لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل رجل منهم، قال الفرزدق:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا ببيدي ورقاء عن رأس خالد
فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: نبا ببيدي
ورقاء، وهو: ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قُلْتُ: بم انتصب إذا وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام، لا تقول اليوم لزيد قائم؟ قُلْتُ: بفعل مضمير يدل عليه المنكور.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جمعت حرف الاستقبال؟ قُلْتُ: لم تجامعها إلا مخلصاً للتوكيد كما اخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحلاً عنها معنى التعريف، وما في إذا ما للتوكيد أيضاً فكانهم قالوا: أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد، والمراد: الخروج من الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم خرج فلان عالماً وخرج شجاعاً، إذا كان نادراً في ذلك يريد: سأخرج حياً نادراً على سبيل الهزء، وقرأ الحسن وأبو حيوة: لسوف أخرج، وعن طلحة بن مصرف رضي الله عنه: لسأخرج، كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ولسيعطيك وتقدير الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكراً، ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك: للمسيء إلى المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه. الواو عطفت لا ينكر على يقول ووسطت همزة

مضى من أعمارنا وما غير منها والحال التي نحن فيها، وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فئتنا، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال نرة، فكيف نقدم على فعل نحده إلا صادراً عما توجهه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل: معنى ﴿وما كان ربك نسياً﴾ وما كان تاركاً لك كقوله تعالى: ﴿ما ودَّع ربك وما قلى﴾⁽¹⁾ أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، وأما احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوبيعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة، وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي: وما ننزل الجنة إلا بأن من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمتروكة والحاضرة، اللطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها، ثم قال الله تعالى تقريراً لقولهم: ما كان ربك نسياً لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما.

ثم قال لرسوله ﷺ: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل وأعبده يثب كما أتاب غيرك من المتقين، وقرأ الأعرج رضي الله عنه: وما يتنزل بالياء: على الحكاية عن جبريل عليه السلام، والضمير للوحي، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي. وعلى هذا الوجه، يجوز أن يكون ﴿وما كان ربك نسياً﴾ من كلام المتقين، وما بعده من كلام رب العزة.

رَبِّ أَسْتَوِي وَالْأَرْضُ وَمَا يَنْتَهِا فَعْبُدْهُ وَاسْطَرِجْ لِيَبَدِّلْهُ هَلْ تَمُنُّ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٩﴾

﴿رب السموات والأرض﴾ بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو رب السموات والأرض ﴿فأعبده﴾ كقوله:

وقائلة خلوان فانكح فتاتهم

فإن قُلْتُ: هلا عدى ﴿اصطبر﴾ بعلی التي هي صلته كقوله تعالى: ﴿واسطبر عليها﴾ قُلْتُ⁽²⁾: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شنته، أريد: أن العبادة تورث عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضيق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحي عليك مدة وشماتة المشركين بك. أي: لم يسم شيء بالله قط،

(1) سورة الضحى، الآية: 3.

(2) سورة طه، الآية: 132.

(3) قال أحمد: والاعتقاد تناقض الحرفين منع الكوفيين اجتماعهما، وإنما جرّبت اللام من معناها، لتلائم سوف نون أن تجرّد سوف،

= لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا، للغت سوف، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأما اللام إذا جرّبت من الحال، بقي لها التوكيد، فلم تلغ فتعين، والله أعلم.

الكفرة مقرونين بالشرطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فَإِنْ قُلْتَ: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ **قُلْتُ:** لم يفرق بينهم وبينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة وسروراً إلى سرور ويشتموا بأعداء الله وأعدائهم، فتزداد مساعتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشمانتهم بهم.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى إحضارهم جثياً؟ **قُلْتُ:** أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى: أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم علأ على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ (5) على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والناقلات من تجائي أهلها على الركب لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة، أو لما يداهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم حبواً، وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم على أن جثياً حال مقدراً كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التوافق للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب.

ثُمَّ لَنَزَعَهُمْ مِنْ كُلِّ فِرْعَوْنٍ أَهْلَهُمْ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلُوا ﴿٢٠﴾

والمراد بالشيعية: وهي فعلة كفرقة وفتية، الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاويًا من الغواة. قال الله تعالى: ﴿إِنْ

الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني (1): أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى، فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التاليف مشحوناً بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها من غير حذر على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودفقت حكمته، وأما الثانية: فقد تقبّمت نظيرتها وعابت لها كالمثال المحتذى عليه، وليس فيها إلا تاليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ دليل على هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (2) على أن رب العزة سواء عليه النشاطان لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذا على مثال ولا استعانة بحكيم ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعاً في بحر معانته وكشفاً عن صفحة جهله. القراء كلهم على لا ينكر بالتشديد إلا نافعاً، وابن عامر، وعاصماً رضي الله عنهم، فقد خففوا، في حرف أبي يتنكر ﴿هَمِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الحالة التي هو فيها وهي: حالة بقائه في إقسام الله تعالى باسمه تقدّست أسماؤه مضافاً إلى رسول الله ﷺ تفخم لشان رسول الله ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (3) والواو في ﴿وَالشَّيَاطِينِ﴾ يجوز أن تكون للعطف وبمعنى: مع وهي بمعنى: مع أوقع، والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين اغوهم، قرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فَإِنْ قُلْتَ: (4): هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ **قُلْتُ:** إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم

(1) قال أحمد: مذهب أهل السنة أن إعادة المعلوم جائزة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك، إلا أنها تزعم: أن المعلوم له ذات ثابتة في العدم، يقضي عليها بانها شيء، فليس عندهم عدم صرف، ونفي محض قبل الوجود، ولا بعده، فكانهم لولا تلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم، ولا نكروا إعادة المعلوم، كما أنكروه القمام، وعقيدة أهل السنة هي: المطابقة للآية؛ لأن النشأة الأولى لم يتقنمها وجود، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك، وأما النشأة الثانية، فقد تقنمها وجود، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده، ثم عدم وبطلت شيئته، فظهر فرق ما بين النشاطين، كما نطق به القرآن، وأما المعتزلة، فإن قالوا: إن الأجسام يعدمها الله، ثم يوجد، فقد قالوا الحق، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشاطين؛ لأن المعلوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة، فإن قالوا: لا تنعدم الأجسام، وإنما تتفرق ثم تجمع، كما صرح به الزمخشري؛ لأنه فطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم، ثم يوجد الله تعالى، مع القول بأن المعلوم شيء يبطل الفرق بين النشاطين، ولم يطق ذلك، وقد نطق به القرآن، فالتزم أن الأجسام لا تنعدم، ليتم له الفرق بين النشأة الثانية، وإنما هي على هذا التقرير جمع وتاليف لموجود، وبين

= النشأة الأولى التي هي إيجاد معدم، فتنبه لبعده غوره، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار، والله ولي التوفيق. ومعنى تفريق الله تعالى بين النشاطين، أن الجاحد متهافت؛ لأنه اعترف بالأولى، وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل، وأنكر الثانية، وهي أسهل وأهون؛ لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى، فإن الكل، لدى قدرة الله تعالى، هين على سواء.

(2) سورة الروم، الآية: 27.

(3) سورة الذاريات، الآية: 23.

(4) قال أحمد: التبتست عليه إرادة العموم، وبينهما بون، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون، فصرح بأن الله تعالى أراد بالإنسان: العموم، ومعنى إرادة العموم: أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر، إلى كل فرد من أفراد الإنسان، ومعاذ الله، وقد صرح الزمخشري بأن النطق بكلمة الشك بعض الجنس، ففي العبارة خلل كما ترى، والعبارة الصحيحة أن يقال: يحتمل أن يكون التعريف جنسياً، فيكون عهدياً، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصاً، والله أعلم.

(5) سورة الجاثية، الآية: 28.

فيقال لهم: قد وبتموها وهي جامدة»⁽⁶⁾ وعنه رضي الله عنه أنه سئل: عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود النخل لا يبقى بر ولا فاجر إلا نخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إنَّ للنار ضجيجاً من بردها»⁽⁷⁾. وأما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾⁽⁸⁾ فالمراد: عن عذابها. وعن ابن مسعود، والحسن، وقادة، هو: الجواز على الصراط؛ لأنَّ الصراط ممدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء ولا يدخله، كقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾⁽⁹⁾ ووردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو: مس الحمى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه السلام: «الحمى من فيح جهنم»⁽¹⁰⁾. وفي الحديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»⁽¹¹⁾. ويجوز أن يراد بالورود: جثوهم حولها، وإن أريد بالكفار خاصة فالمعنى بين: الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب، كقولهم: خلق الله، وضرب الأمير أي: كان ورودهم واجباً على الله أوجبه على نفسه، وقضى به، وعزم على أن لا يكون غيره.

ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَزَّلُ الْمُطْلِقِينَ فِيهَا جَنَّةٌ (٧٧).

قري: «ننجي» وننجي وينجي وينجي على ما لم يسم فاعله: إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى: ثم ننجي «الذين اتقوا» إنَّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يواربونهم ثم يتخلصون، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، والجحدي، وابن أبي ليلى: ثم ننجي بفتح الناء أي: وقوله «ونزّل الظالمين فيها جثيًا» دليل على أن المراد بالورود: الجثو حوالها، وأن المؤمنين يفرقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

وَإِذَا نَزَّلُ عَلَيْهِمْ أَنبَاءُنَا يَنْتَوِي سَوَاءً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا (٧٨).

«بينات» مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني مبينات المقاصد إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان

الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً»⁽¹⁾ يريد نمتاز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فاولاهم، أو أراد «بالذين هم أولى بها صلياً» المنتزعين كما هم كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي هن بين سائر الصالين ودرجاتهم أسفل وعذابهم أشد، ويجوز أن يريد: بأشدّهم عتياً رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً ومضلين قال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصنّوا عن سبيل الله زناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾⁽²⁾ «وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم»⁽³⁾ واختلف في إعراب «إيهم أشدّ» فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقدير: لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد، وسيبويه: على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته حتى لو جيء به لأعرب، وقيل: إيهم هو أشد، ويجوز أن يكون النزع واقعاً على من كل شيعه، كقوله سبحانه: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾⁽⁴⁾ أي: لتنزعن بعض كل شيعه، فكان قائلاً قال: من هم؟ فقيل: إيهم أشد عتياً، وإيهم أشد النصب. عن طلحة بن مصرف، وعن معاذ ابن مسلم الهراء أستاذ الفراء.

فإن قلّت: بم يتعلق على والباء فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟ قلّت: هما: للبيان لا للصلة، أو يتعلقان بالفعل أي: عتوهم أشد على الرحمن، وصليهم أولى بالنار، كقولهم: هو أشد على خصمه، وهو: أولى بكذا.

وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَأَرْحَامُهُ كَانَ عَلَى رَيْكِ حَتّاً مَقْصِيّاً (٧٩).

«وإن منكم»⁽⁵⁾ التفتات إلى الإنسان يعضده قراءة ابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهما: وإن منكم، أو خطاب للناس من غير التفتات إلى المذكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنه يرونها كأنها إهالة، وروي: دواية: وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ عن تلك فقال: «إذا نخل أهل الجنة الجنة، قال بعضهم لبعض: اليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟

= في أن دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار، (الحديث رقم: 370) والحاكم في المستدرک 587/4.

(8) سورة الأنبياء، الآية: 101.

(9) سورة القصص، الآية: 23.

(10) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب صفة النار (الحديث رقم: 3263) ومسلم في كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء (الحديث رقم: 5769).

(11) كشف الاستار، كتاب: الجنائز، باب: حظ ذنوب المريض، (الحديث رقم: 760) وابن ماجه: في كتاب: الطب، باب: الحمى (الحديث رقم: 3470) والحاكم في المستدرک 345/1، وأحمد في مسنده 252/5.

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.

(2) سورة النحل، الآية: 88.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 13.

(4) سورة مريم، الآية: 50.

(5) قال أحمد: احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبون أولاً هم المخاطبين ثانياً، إلا أنَّ الخطاب الأوّل بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بنينا على أنَّ الأوّل، إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً، فالثاني ليس التفتات، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص، لقوم معينين، والله أعلم.

(6) قال الزليعي: غريب ولم أجده إلا من قول خالد بن معدان 332/2.

(7) رواه أحمد في مسنده 429/3، والبيهقي في شعب الإيمان، باب=

بالمحكمات، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها، أو حججاً وبراهين، والوجه: أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ (١) لَأَنَّ آيَاتِ اللَّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا وَاضِحَةً وَحَجًّا **لِلَّذِينَ آمَنُوا**، يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به وأنهم يفهمون به لأجلهم وفي معنائهم كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (٢). قرأ ابن كثير **﴿مَقَامًا﴾** بالضم وهو: موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو: موضع القيام، والمراد المكان والموضع، والندى: المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتبئون والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أي الفريقتين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا، حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعف. ويرى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَرَّ أَمَلُكَ قَبْلَهُمْ يَنْ قَرِينَهُمْ أَحْسَنُ أَتُكَا وَيَرِيكَ (٧٤).

﴿كَمْ﴾ مفعول **﴿أَهْلَكْنَا﴾** و**﴿مَنْ﴾** تبين لإيهامها أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم و**﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾** في محل نصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية. الأثاث متاع البيت، وقيل: هو ماجد من الفرش، والخرشي: ما لبس منها، وأنشد الحسن بن علي الطوسي:

تقام العهد من أم الوليد بنا دهرًا وصار أثاث البيت خرشياً
قري: على خمسة أوجه **﴿رثياً﴾** وهو: المنظر والهيئة فعل بمعنى: مفعول من رأيت، ورثياً: على القلب كقولهم: راء في رأي، ورثياً: على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفة من قولهم: ريان من النعيم، ورثياً: على حذف الهمزة رأساً ووجهه: أن يخفف المقلوب وهو: ريثاً بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وزياً: واشتقاقه من الزّي وهو الجمع؛ لأن الزّي محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنْآ أَنْتَآبَ وَإِنآ السَّاعَةُ سَيَّعَلُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَآكَ وَأَصْفَ جُنْدَا (٧٥).

أي مد له الرحمن يعني: أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا

فإن قُلْتُ: **﴿حتى﴾** هذه ما هي؟ قُلْتُ: هي التي تحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: **﴿إِذَا أَرَادُوا مَا يُوعَدُونَ﴾** **﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾** في مقابلة **﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾** (٦) لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والندى المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم، وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُذًى وَأَلَيَّيْتُ الصَّلَاحَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦).

﴿ويزيد﴾ معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مد، أو يمد له الرحمن ويزيد أي: يزيد في ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه **﴿والباقيات الصالحات﴾** أعمال الآخرة كلها، وقيل: الصلوات وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أي: **﴿خير ثواباً﴾** من مفازرات الكفار **﴿وخير مرداً﴾** أي: مرجعاً وعاقبة، أو منفعة من قولهم:

ليس لهذا الأمر مردٌ وهل يرد بكاي زندياً
فإن قُلْتُ: كيف قيل: خير ثواباً كان لمفازراتهم ثواباً

(٤) سورة آل عمران، الآية: 178.

(٥) سورة مريم، الآية: 72.

(٦) سورة مريم، الآية: 72.

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة الاحقاف، الآية: 11.

(3) سورة فاطر، الآية: 37.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية على الخطأ أي: هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليردع عنه.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بسين التسويف، وهو كما قال. كتب من غير تأخير، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (2) قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قوله: سنظهر له ونعلمه

إذا ما انتسبنا تلدني لثيمة

أي: تبين وعلم بالانتساب أنني لست بابن لثيمة. والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف انتقم منك يعني: أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأجر، فجرد ههنا لمعنى الوعيد ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نطوّل له من العذاب ما يستأمله، ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزؤون، أو نزيده من العذاب، ونضاعف له من المدد. يقال: مدّه وأمدّه بمعنى، وتدل عليه قراءة عليّ بن أبي طالب: ونمّد له بالضم، وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه.

وَرَبُّهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا (٨) وَأَعْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكُفِّرُوا كُفْرًا (٩).

﴿ورثته ما يقول﴾ أي: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة، ونعطينه من يستحقه، والمعنى: مسمى ما يقول ومعنى ما يقول: وهو المال والولد. يقول الرجل: أنا أملك كذا، فنقول له: ولي فوق ما تقول. ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتیه الله في الدنيا مالاً وولداً وبلغت به أشعبيته أن تألى على نكاح في قوله: ﴿لَا وَتَيْنَ﴾ (3) لأنه جواب قسم مضمّر ومن يتأل على الله يكتبه، فيقول الله عز وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه إما نرثه منه في العاقبة ﴿وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ غداً بلا مال ولا ولد كقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادًى﴾ (4) الآية فما يجدي عليه تمنيه وتأليه، ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حياً فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه غير قائل له، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيّره به ﴿وَيَأْتِنَا﴾ على فقره ومسكنه ﴿فردًا﴾ من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته تمناه، فيجتمع عليه الخطبان تبعه قوله ووباله. وفقد المطموع فيه ﴿فردًا﴾ على الوجه الأول حال مقدرة نحو: ﴿فَانْخَلَوْهَا خَالِدِينَ﴾ (5) لأنه وغيره سواء في إتيانه فرداً حين يأتي، ثم يتفاوتون بعد ذلك أي: ليتعنزوا بألّهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب.

حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ﴿قُلْتُ﴾ كأنه قيل: ثوابهم النار على طريقة قوله: فاعتبوا بالصليب، وقوله: شجعاء جرّتها الزميل تلوكه اصلاً إذا راح المطي غرائاً وقوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

ثم بنى عليه خير ثواباً وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغبط للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قُلْتُ: فما وجه التفضيل في الخير كان لمفاخرهم شركاً فيه؟ قُلْتُ: هذا من وجيز كلامهم يقولون: الصيف أحر من الشتاء أي: أبلغ في حره من الشتاء في برده.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا (٧) أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ أَفْلَحَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨).

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً وصحة الخبر عنها، استعملوا رأييت في معنى: أخبر، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو: التعقيب كأنه قال: أيضاً بقصة هذا الكافر والكر حديثه عقيب حديث أولئك ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ﴾ من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه واطلع الثنية. قال جرير:

لاقيت مطلع الجبال وعوراً

ويقولون: مر مطلعاً لذلك الأمر أي: مالكا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن يقول، أو قد بلغ من عظمت شأنه أن ارتقى إلى غيب الذي توحد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: وإما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائي: ولذا وهو: جمع ولد كاسد في أسد، أو بمعنى: الولد كالعرب في العرب، وعن يحيى بن يعمر: ولذا بالكسر، وقيل في العهد: كلمة الشهادة، وعن قتادة: هل له عمل صالح قنمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتیه ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها في العاصي بن وائل. قال خباب بن الأثر: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد، قُلْتُ: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث. قال: فإني إذا مت تبعث؟ قلت: ثم، قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك، وقيل: صاغ له خباب حلياً فاقتضاه الأجر، فقال: أنكم تزعمون تبعثون، وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا اقتضيك، ثم فإني أوتى مالاً وولداً حينئذ (1).

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧).

(2) سورة ق، الآية: 18.

(3) سورة مريم، الآية: 77.

(4) سورة الأنعام، الآية: 94.

(5) سورة الزمر، الآية: 73.

(1) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «أفرايت الذي كفر بآياتنا...» (الحديث رقم: 4732) وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (الحديث رقم: 6993).

وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسول لهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٦﴾

عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويببوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شروهم وتطهر الأرض بقطع دابرهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معودة، كأنها في سرعة نقضها الساعة التي تعد فيها لوعدت، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ (٨٦) وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، وعن ابن السماك: أنه كان عند المأمون فقراها: فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفذ.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٧﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٨﴾

نصب ﴿يَوْمَ﴾ بمضمر أي: يوم ﴿نَحْشُرُ﴾ ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف، أو أنكروا يوم نحشر، ويجوز أن ينتصب بلا يملكون. نكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجتمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاة على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن علي رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رجالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت (٨٧). ونكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورد لعطاش؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، وحقيقة الورد المسير إلى الماء قال:

ردي ردي ورد قطاة صما كدرية أعجبها برأ لما
فسمى به الواردين، وقرأ الحسن: يحشر المتقون ويساق المجرمون.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ أَقْبَلَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَنْهَا ﴿٨٩﴾

الواو (٨٩) في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إن جعل ضميراً فهو للعباد

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَاعَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٩٠﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: كَلَّا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِبِعَابَتِهِمْ﴾ أن سيحجسون كَلَّا سيكفرون ببعبانتهم كقولك: زيدا مررت بغلامه، وفي محتسب ابن جني: كَلَّا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه: كل هذا الرأي والاعتقاد كَلَّا، ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي كَلَّا التي هي للردع قلب الواقع عليها ألفها نوناً كما في ﴿قوارير﴾ (٩٠) والضمير في سيكفرون للآلهة أي: سيحجسون عبانتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبثتمونا، وأنتم كاذبون. قال الله تعالى: ﴿وَلِإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا ندعوا من دُونِكُمْ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٢) أو المشركين أي: ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تَفْتَنُهم إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٩٣) ﴿عليهم ضِدًّا﴾ في مقابلة ﴿لَهُمْ عَزَاءٌ﴾ (٩٤) والمراد: ضد العز وهو الذل والهوان أي: يكونون عليهم ضداً لما قصده وراىوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً لا لهم عزاً، أو يكونون عليهم عوناً، وال ضد العون يقال: من أضداكم أي: أعوانكم، وكان العون سمي: ضداً؛ لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانتته لك عليه.

فَإِنْ قُلْتَ: لم وحد؟ قُلْتُ: وحد توحيد قوله عليه السلام: «هم يد على من سواهم» (٩٥). لاتفاق كلمتهم وأنهم كشىء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم؛ ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها، وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فإن المعنى: ويكونون عليهم أي: أعداءهم ضداً أي: كفره بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَثَّا ﴿٩٦﴾

الاز والهز والاستقزاز أخوات، ومعناها: التهيج وشدة الإزعاج أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس والتسويلات والمعنى، خلينا بينهم وبينهم ولم تمنعهم ولو شاء لمنعهم قسراً. والمراد: تعجيب رسول الله ﷺ بعد الآيات التي نكر فيها العناة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحتهم ومعاندتهم للرسول واستهزاؤهم بالدين، من تمايلهم في الغي وإفراطهم في العناد

= (الحديث رقم: 153) وهو في المسند 1/155.

(٨) قال أحمد: وفي هذا الوجه تعسف، من حيث أنه إذا جعله علامة، لمن فقد كشف معناه، وأصح بانها متناولة جمعا، ثم أعاد على لفظها بالإفراد، ضمير اتخذ، فقيه الإعادة على معناه بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم؛ لأنه إجمال بعد إيضاح، وذلك تعكيس في طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة: الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه، وإن لم تكن عائدة على من، إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له، فتنبيه لهذا العقد، فإنه أروج من النقد. وفي علق الحسان، يستحسن العقد.

(1) سورة الإنسان، الآية: 15 و16.

(2) سورة النحل، الآية: 86.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) سورة مريم، الآية: 81.

(5) رواه أحمد في مسنده 1/122، وأبو داود في كتاب: الديات، باب: إيقاد المسلم (الحديث رقم: 4530) والنسائي في كتاب: القسامة، باب: سقوط اللود من المسلم للكافر، (الحديث رقم: 4745).

(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(7) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على المسند ص 359=

تهد هذا أو مهودة أو مفعول له أي، لأنها تهد.

فَإِنْ قُلْتُ (5): ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أَنَّ الله سبحانه يقول: كنت أقفل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري، وإني لا عجل بالعقوبة كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (6) والثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً من قضاعتها وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانها وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخز، وفي قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرض لسطخه وتنبية على عظم ما قالوا.

أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا (١١) وَمَا يَبْنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْخَذَ وَلَكَا (١٢).

في «أن دعوا» ثلاثة أوجه: أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه كقوله:

على حالة لو أن في القوم حاتمًا على وجوده لضرَّ بالماء حاتم ومنصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفشاء الفعل أي: هذا لأن دعوا، علل الخور بالهد والهد بدعاء الولد الرحمن، ومرفوعًا بأنه فاعل هذا أي: هدَّ دعاء الولد للرحمن، وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أن أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم، كما قال بعضهم: فليتكشف عن بصرك غطاؤه فأنث وجميع ما عنك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن. هو من دعا بمعنى: سمى المتعدي إلى مفعولين فاقترصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل ما دعي له ولدًا، أو من دعا بمعنى: نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام: «من ادعي إلى غير مواليه» (7) وقول الشاعر:

إنابني نهشل لا ندعي لأب

ودل عليه نكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث والفاعل من اتخذ؛ لأنه في معنى الجمع، ومحل من اتخذ رفع على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف أي: إلا شفاعته من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم.

وَقَالُوا أَتُخَذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (١٣).

واتخاذ العهد الاستظهار بالإيمان والعمل، وعن ابن مسعود أَنَّ النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحك لا شريك لك، وأنَّ محمدًا عبك ورسولك، وأنت إن تكلمي إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدي من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا توفيته يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة» (1)، وقيل: كلمة الشهادة، أويكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر به أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأثور له فيها وتعضده مواضع في التنزيل: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (2) ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ﴾ (3) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ الرَّحْمَنَ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (4).

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١٤).

قرئ: «إذا» بالكسر والفتح. قال ابن خالويه: الإِدَّة والأد: العجب، وقيل: العظيم المنكر، والإدة: الشدة، وإدني الأمر وأدني أثقلني وعظم علي إذا.

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْصُرُنَّ بِهِ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَرُؤُا لِلْبَلَاءِ هَذَا (١٥).

«يكاد» قراءة الكسائي، ونافع بالياء. وقرئ: «ينفطرن» الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شقه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: ينصدعن أي:

(1) رواه الحاكم في المستدرک 377/2.

(2) سورة النجم، الآية: 26.

(3) سورة سبا، الآية: 23.

(4) سورة طه، الآية: 109.

(5) قال أحمد: ويظهر لي وراءها معنى آخر، والله أعلم، وذلك أن الله تعالى قد استعار، لدلالاتها على وجوده عز وجل، موصوفًا بصفات الكمال الواجبة له، أن جعلها تسبح بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَمِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ بَلْ كُلُّ نَفْثَةٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهَا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُقَدَّسٌ عَنْ نَسَبِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ =

= له آية تدل على أنه واحد، فالعقود نسبة الولد إلى الله تعالى، قد عطل دلالة هذه الموجودات، على تنزيه الله وتقديسه، فاستعير بإبطال ما فيها من روح الدلالة، التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد، والانفطار، والانشقاق، فسبحان من قسم عباده، فجعل العبادة تستلذ، فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق، مطرود مردود.

(6) سورة فاطر، الآية: 41.

(7) رواه مسلم في صحيحه، بلفظ من «ادعي» كتاب الحج، باب: فضل المنيعة... (الحديث 3314).

المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يجبهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم. وروي أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «يا علي قل اللهم اجعل لي عنك عهداً، واجعل لي في صلور المؤمنين مودة»⁽²⁾. فأنزل الله هذه الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه، وعن رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: «يا جبريل قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبه»، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»⁽³⁾. وعن قتادة: ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئَلَّيْسَ بِهِ التَّنَبُّهُ تَذَرِيهِمْ قَوْلًا لِّدُنَا ﴿١٧﴾ رَكَمَ أَهْلِكَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قُرْآنٍ هَلْ تَخَسُّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رَكْرَكًا ﴿١٨﴾.

هذه خاتمة السورة ومقطعها فكانه قال: بلغ هذا المنزل، أو بشره، وأنذر فإنما أنزلناه «بلسانك» أي: بلغتك وهو: اللسان العربي المبين وسهلهناه وفصلناه «لتبشر به» وتتنر.

واللد: الشداد الخصومة بالباطل الآخون في كل لنيد أي: في كل شق من المراء والجدال لفرط لجأهم يريد: أهل مكة. وقوله «وكم أهلكنا» تخويف لهم. وإنذار. وقريء «تحس» من حسه إذا شعر به، ومنه: الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة «تسمع» مضارع أسمعت. والركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المنفون.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وهرون، وإسماعيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا، وبعدد من لم يدع الله»⁽⁴⁾.

أي: لا ننتسب إليه. أنبغي مطاوع بغي: إذا طلب أي: ما يتأني له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها، وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني وليس للقديم سبحانه جنس تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ الرَّحْمَنِ عِيدًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٨﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْكَيْفَةِ قَرِينًا ﴿١٩﴾.

«من» موصوفة؛ لأنها وقعت بعد كل نكرة ووقعها بعد رب في قوله:

رب من انضجت غيظاً صدره

وقرأ ابن مسعود وأبو حيو «آت الرحمن» على أصله قبل الإضافة. الإحصاء الحصر والضيظ يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم «وعدهم عداً» الذين اعتقلوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله كانوا بين كفرين: أحدهم: القول بأن الرحمن يصح أن يكون والدًا، والثاني: إشراك الذين زعموه الله أولاداً في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لأبائهم، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ثم عقبه بهدم الكفر الآخر، والمعنى: ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي بالرحمن أي: تأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم، لا يدعي لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال، ونحوه قوله تعالى: «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه»⁽¹⁾ وكلهم منقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيم عليهم محيط بهم، ويجمال أمورهم وتفصيلها وكيفيتهم وكميتهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم. قرأ جناح بن حبيش.

إِنَّ إِلَيْنَا أُمُومًا وَعَعْلَمًا الْفَضْلِيَّةَ سَجَّلَ قَدْ أَرَحْنَاهُ وَدَّ

«وداً» بالكسر والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير توند منهم ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة أعظماً لهم وإجلالاً لمكانهم. والسين إما لأن السورة مكية وكان

(1) سورة الإسراء، الآية: 57.

(2) نكره الثعلبي في تفسيره. (الزليعي 2/341).

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة (الحديث) = (4) نكره الثعلبي في تفسيره (الزليعي 2/343).

= (رقم: 3209) ومسلم في كتاب: البر والصلة باب: إذا أحب الله عبداً، (الحديث رقم: 6647).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه مكية

طه ١.

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء، وفخهما ابن كثير، وابن عامر على الأصل، والباقيون أما لوهما، وعن الحسن رضي الله عنه: طه وفسر بأنه أمر بالوطء وأن النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقبميه. معاً، وأن الأصل طأ فقلبت همزته هاء^(١)، أو قلبت ألفاً في يطأ فيمن قال: لا هناك المرتع، ثم بني عليه الأمر، والهاء للسكت، ويجوز أن يكتفي بشطري الأسمين، وهما الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن طاهاً في لغة عك في معنى: يا رجل، ولعل عك تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قالبون الباء طاء فقالوا في ياطا واختصروا هذا فاقصروا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طاهاً في خلائكم لا تنس الله لأخلاق الملاعين
والأقوال الثلاثة في الفواتح أعني التي قيمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعمل عليها الألباء المتقنون.

مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا نَذِيرٌ لِّمَنْ يَخْشَى ٣

﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت طه تعديد الأسماء الحروف على الوجه السابق نكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ و﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن، وإن يكون جواباً لها وهي قسم، وقرئ: ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا بكقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك﴾^(٢) والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من راض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن

الحرث قالوا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك، فأريد رد ذلك: بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في ترك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغنت قدماء، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً^(٣)، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفاحشة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفعل الفعل المعلل ففاته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشروط.

فإن قللت: أما يجوز أن تقول ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله تعالى: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾^(٤) قللت: بلى ولكنها نصبه طارئة كالنصبه في: ﴿واختار موسى قومه﴾^(٥) وأما النصبه في تذكرة فهي كالتي في: ضربت زيداً؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قللت: هل يجوز أن يكون ﴿تذكرة﴾ بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾؟ قللت: لا لاختلاف الجنسيتين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى: لكن، ويحتمل أن يكون المعنى^(٦): إنا أنزلناه عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقابلتهم، وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة على هذا الوجه، يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبذل بالكفر إيماناً وبالقسوة خشية.

تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَأَنزَلْنَا الْمُلَى ١٤

في نصب ﴿تنزيلاً﴾ وجوه أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له؛ لأن الشيء لا يعمل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمرًا، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة، أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف، ما بعد تنزيلًا إلى قوله: ﴿له الأسماء الحسنى﴾^(٧) تعظيم

(1) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة طه (الحديث رقم: 2232)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ، فصل في برامته ﷺ في النبوة (الحديث رقم: 1497).

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

(3) رواه البيهقي في كتاب: الدعوات الكبير، (الزليعي 348/2).

(4) سورة الحجرات، الآية: 2.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

(6) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد، فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله، عكس الأول، وإن لم تكن اللام سببية، فكانت =

= للصيرورة مثلاً، ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ، من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم، وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وأمثاله كثيرة، فالظاهر، والله أعلم، هو التاويل الأول.

(7) سورة طه، الآية: 8.

الثرى وما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب، وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة. أي: يعلم ما أسرته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو: ما أخطرتك ببالك، أو ما أسرته في نفسك **﴿وَأَخْفَى﴾** (3) منه وهو ما ستره فيها، وعن بعضهم: إن أخفى فعل يعني: أنه يعلم أسرار العباد، وأخفى عنهم ما يعلمه هو كقوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** (4) وليس بذاك.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف طابق الجزاء الشرط؟ **قُلْتَ**: معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهيًا عن الجهر كقوله تعالى: **﴿وَأَنْكُرْ رِيكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** (5) وإما تعليمًا للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨).

﴿الحسنى﴾ تانيث الاحسن وصفت بها الاسماء؛ لأن حكمها حكم المؤنث، كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: **﴿مَارَبْ أُخْرَى﴾** (6) **﴿وَمِنْ آيَاتِنَا الْكِبْرَى﴾** (7) والذي فصلت به أسمائه في الحسن سائر الاسماء دلالتها على معاني التقديس، والتمجيد، والتعظيم، والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّيْلٍ مُبِينٍ وَرَأَى الْقَارُونَ عَلَى الْآثَارِ هَدًى (١٠).

فقاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود. يجوز أن ينتصب **﴿إِذْ﴾** ظرفًا للحديث لأنه حدث، أو لمضمر أي: حين **﴿رَأَى نَارًا﴾** كان كيت وكيت، أو مفعولًا لا نكر، استأنن موسى شعبيًا عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج باهله فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده وقدح، فوصلد زنده، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة **﴿امْكُثُوا﴾** اقيموا في مكانكم. الإناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه: إنسان العين لأنه يتبين به الشيء، والإنس لظهورهم كما قيل: الجن لا يستتارهم، وقيل:

وتخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذا أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تنزيلاً نفسه فيقع صلة له، وإما محذوفًا فيقع صلة له.

فَإِنْ قُلْتَ: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب **قُلْتَ**: غير واحدة منها عادة الافتتان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه. وصف السموات بالعلی دلالة على عظمة قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧).

قرى: **﴿الرحمن﴾** مجرورًا صفة لمن خلق، والرفع أحسن لأنه: إما أن يكون رفعًا على المدح على تقدير: هو الرحمن، وإما أن يكون مبتدأً مشارًا بلامه إلى من خلق.

فَإِنْ قُلْتَ: الجملة التي هي **﴿على العرش استوى﴾** ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟ **قُلْتَ**: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يربون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضًا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوط، ويد فلان مغلوله بمعنى: أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطه لمساواته عندهم قولهم: هو جواد، ومنه قول الله عز وجل: **﴿وَقَالَ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** (1) أي: هو يخيل **﴿يد يده﴾** مبسوطتان (2) أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتحل للثنية من ضيق العطن والمساقرة عن علم البيان مسيرة أعوام **﴿وما تحت﴾**

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

(2) سورة المائدة، الآية: 64.

(3) قال أحمد: لا يخفى أن جملة فعلاً قاصر لفظاً، ومعنى: إما لفظاً، فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية، إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع، إن كان المعطوف عليه الصغرى، وكلاهما بون الأحسن، وأما معنى: فإن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته، من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل، مناسب لترك الجهر، وإما =

= إذا جعل فعلاً، فيخرج عن مقصود السياق، وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** لأن بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) سورة طه، الآية: 110.

(5) سورة الاعراف، الآية: 205.

(6) سورة طه، الآية: 18.

(7) سورة طه، الآية: 23.

وقيل: لأن الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا نذر منه الدخول منتعلاً تصنق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها، وروي: أنه خلع نعليه وأقامها من وراء الوادي **طوى** بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرتين نحو ثني أي: نودي نداءين، أو قدس الوادي كرة بعد كرة.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٧﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٨﴾

«وانا اخترتك» اصطفيك للنبوّة، وقرأ حمزة: وإنّا اخترتك **«لما يوحى»** للذي يوحى، أو الموحى، تعلق اللام باستمع أو باخترتك **«الذكرى»** لتذكرك، فإن ذكرى أن عبد ويصلي لي، أو لتذكرك فيها لاشتغال الصلاة على الانكار. عن مجاهد: أو لاني نكرتها في الكتب وأمرت بها، ولأن انكرت بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق، أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيري، أو لإخلاص ذكرى وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم نكر ربه على بال منهم وتوكيل همهم وأفكارهم به كما قال: **«لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»** (2) ولأوقات ذكرى وهي: مواقيت الصلاة، كقوله تعالى: **«إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً»** (3) واللام مثلها في قوله: **«جئتكم لوقت كذا»**، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: **«يا ليتني قدمت لحياتي»** (4) وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا نكرها» (5) وكان حق العبارة أن يقال: **«لذكرها»** كما قال رسول الله ﷺ **«إذا نكرها»** ومن يتحمل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله، أو بتقدير حذف المضاف أي: لذكر صلاتي، أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل في الحقيقة، وقرأ رسول الله ﷺ: **«الذكرى»**.

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٩﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنَ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٢٠﴾

أي (6): أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من

هو إحصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإناس فكان مقطوعاً متيقناً حقيقه لهم بكلمة أن ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال **«لعلني»** ولم يقطع فيقول إني **«أتيتكم»** لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما، ومنه قيل: المقتبسة لما يقتبس فيه من سعة أو نحوها، **«هدى»** أي: قومًا يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد، وقتادة: وذلك لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: نودي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى: الاستعلاء في على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزبد: أنه لصوق يقرب من زيد، أو لأن المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها، ومنه قول الأعشى:

وبات على النار الندى والملحق

فَلَمَّا أَنَّهُمَا نُورِي يَمْشُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّنِي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَعْلَىٰ طَوًى ﴿٢٢﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير **«إني»** بالفتح أي: نودي باني **«إنا ربك»** وكسر الباقون أي: نودي فقيل: يا موسى، أو لأن النداء ضرب من القول فعول معاملة. تكرير الضمير في إني أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمطة الشبهة، روي: أنه لما نودي يا موسى قال: من المتكلم؟ فقال له الله عز وجل: إني أنا ربك، وإن إيليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله باني أسمع من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي، وروي: أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، فخاف وبهت، فالحق عليه السكينة، ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت، وعن ابن اسحق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم. قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ (1)، عن السدي وقتادة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به،

(6) قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهو بنا، فإنه بين الفساد، وذلك أن إخفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع، وأحسن ما في محامل الآية، ما نكره الأستاذ أبو علي، حيث قال: المراد: أكاد أزيل إخفاءها، أي: أظهرها، إذا إخفاء الغطاء، وهو أيضاً ما يجعله المرأة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيت، إذا أزلت إخفاءها، كما تقول: أشكيتها وأعبيت، إذا أزلت شكايته وعبته، وحينئذ يلتزم القراءتان، أعني: فتح الهمة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) رواه الحاكم في المستدرک 28/1 والترمذي في كتاب: اللباس باب: ما جاء في لبس الصوف (الحديث رقم: 1734).

(2) سورة النور، الآية: 37.

(3) سورة النساء، الآية: 103.

(4) سورة الفجر، الآية: 24.

(5) رواه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذا نكرها (الحديث رقم: 597) ومسلم في كتاب: المساجد، باب: قضاء الصلاة الفائتة (الحديث رقم: 1566).

لك هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجب الصنعة
وأنيق السرد، وقرى ابن أبي إسحق: عصى على لغة هذيل،
ومثله: ﴿يا بشري﴾⁽³⁾ أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم
يقدروا عليه فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن:
﴿عصاي﴾ بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة
حمزة ﴿بمصرخي﴾⁽⁴⁾ وعن ابن أبي إسحق سكنون الياء
﴿أتوكا عليها﴾ أعتمد عليها إذا أعيب، أو وقفت على رأس
القطيع، وعند الظفرة. هش الورق: خبطه أي: أخبطه على
رؤس غنمي تاكله، وعن لقمان بن عاد: أكلت حقاً وابن
لبون وجذع وهشة نخب وسيلاً نفع والحمد لله من غير
شعب سمعته من غير واحد من العرب، ونخب واد قريب
من الطائف كثير السرد، وفي قراءة النخعي: أهش وكلاهما
من مش الخبز يهش إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة
أهس بالسين أي أنحى عليها زاجراً لها، والهس: زجر
الغنم، ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة
بالعصا، كانه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم
يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع
بنات جنسها وكما تنفع العبدان ليكون جوابه مطابقاً
للغرض الذي فهمه من فحوى كلام به، ويجوز أن يريد عزَّ
وجلَّ أن يعبد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا
ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية
العظيمة كانه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى
والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كتبت
تعتد بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما سأل ليبيسط منه
ويقلل هيئته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك
المأرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة
فاجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المأرب: كانت
ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن،
وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على
عائقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها،
وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبيتها
والقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصله بها،
وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من
العجرات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير
شعبتها لؤلؤاً، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عنق
حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت،
وكان يحمل عليها زاده وسقاه فجعلت تماشيه، ويركزها
فينبع الماء فإذا رفعها نضب، وكانت تقية الهوام.

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَئِئِدَهَا
سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١١﴾

السعي المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قُلْتُ: كيف نكرت بالفاظ مختلفة بالحية والجان

اللطيف لما أخبرت به، وقيل معناه: أكاد أخفيها من نفسي
ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل
عليه مطروح، والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: أكاد
أخفيها من نفسي، وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من
نفسي فكيف أظهركم عليها، وعن أبي الدرداء، وسعيد بن
جبير: أخفيها بالفتح من خفاه إذا أظهره أي: قرب إظهارها
كقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾⁽¹⁾ وقد جاء في بعض
اللغات أخفاه بمعنى: خفاه وبه فسر بيت امرئ القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نعد
فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين ﴿لتجزي﴾ متعلق بآية
﴿يما تسعى﴾ بسعيها، أي: لا يصدك عن تصديقها، أو
الضمير للقيامة ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قُلْتُ: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صد موسى،
والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث، أو أمره
بالتصديق، فكيف صلت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟
قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها
سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب، والثاني أن
صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين
شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم: لا أرينك
ههنا المراد: نهيه عن مشاهدته والكون بحضورته وذلك
سبب رؤيته إياه فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب كانه
قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم حتى لا يتلوح
منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه
يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير، إذ لا شيء
أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث، فلا
يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة
مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة ففقتهم فيما
هم فيه هو الهوى وأتباعه لا البرهان وتدبره، وفي هذا
حج عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد،
وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتَمَسِكُ ﴿١٢﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ
عَلَيْهَا وَأَهْمُ بِهَا عَلَى عَنِي وَإِنِّي مَارِبٌ آخَرُ ﴿١٣﴾ قَالَ أَلَيْسَ
بِتَمَسِكُ ﴿١٤﴾

﴿وما تلك يمينك يا موسى﴾ كقوله تعالى: ﴿وهذا
بعلي شيخاً﴾⁽²⁾ في انتصاب الحال بمعنى: الإشارة، ويجوز
أن تكون تلك اسماً موصولاً لا صلته بيمينك، إنما سأل
ليريه عظم ما اخترعه عزَّ وعلا في الخشبة اليابسة من
قلبها حية نضاضة، وليقرر في نفسه الميمنة البعيدة بين
المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهي على قدرته الباهرة،
ونظيره: أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟
فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرناً فيقول

(3) سورة يوسف، الآية: 19.

(4) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(1) سورة القمر، الآية: 12.

(2) سورة هود، الآية: 72.

بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا الطف ولا أحر
المفاصل من كنايات القرآن وأدابه. يروى: أنه كان آدم
فاخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس
يعشي البصر. **«بيضاء»** و**«آية»** حالان معاً ومن غير
سوء من صلة البيضاء، كما تقول آيت من غير سوء، وفي
نصب آية وجه آخر، وهو أن يكون باضمار نحو: خذ بونك
وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا
المحذوف **«لنريك»** أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب
العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى
ولنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى
فعلنا ذلك.

أَذَهَبَ لَكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَلِقَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٦﴾
وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٧﴾ وَأَخْلَصْ عَقْدَهُ رَبِّي لِإِسَاءِي ﴿١٨﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿١٩﴾ وَأَجْعَلْ
لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَمْلِي ﴿٢٠﴾ فَهَرُونَ أَخِي ﴿٢١﴾ أَتَدْعُوهُ أَزْرَى ﴿٢٢﴾ وَأَشْرِكْ فِي
أَمْرِي ﴿٢٣﴾ كَيْ سَيَعْبَدَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٥﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِمَا يَصْبِرُكَ

لما امره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه
كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال
ملا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب
ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً
يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها
صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل
عليه في الجملة أمره الذي هو: خلافة الله في أرضه وما
يصحبها من مزاولة معازم الشؤون ومقاساة جلائل
الخطوب.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: لي في قوله **«اشرح لي صدري ويسر لي
أمرى»** ما جواه والكلام ببنوته مستتب؟ قُلْتُ: قد أبهم
الكلام أولاً ففيل اشرح لي ويسر لي ففعل أن ثم مشروكاً
وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان أكد لطلب
الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح صدري
ويسر أمري على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى
الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل. عن ابن عباس: كان
في لسانه رتة لما روي من حديث الجمرة، ويروى أن يده
احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرا، ولما دعاه
قال: إلى أي رب تدعونني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد
عجزت عنها⁽³⁾، وعن بعضهم: إنما لم تبرا يده لثلا يخلها
مع فرعون في قصعة واحدة فتعتقد بينهما حرمة المواكلة،
واختلاف في زوال العقدة بكاملها ففيل: ذهب بعضها وبقي
بعضها لقوله تعالى: **«وأخي هرون هو أقصص مني**

والشعبان؟ قُلْتُ: أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر
والأنثى والصغير والكبير، وأما الثعبان والجبان فيبينهما تناف؛
لأن الثعبان العظيم من الحيات، والجبان الدقيق، وفي ذلك
وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية
صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً،
فأريد بالجبان أول حالها وبالثعبان مآلها، والثاني: أنها كانت
في شخص الثعبان وسرعة حركة الجبان والليل عليه قوله
تعالى: **«فلما رأها تهتز كأنها جان»**⁽¹⁾ وقيل: كان لها عرف
كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً. لما رأى
ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الغرغرة والغفار ما يملك
البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً
نكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف
ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها،
وقيل: لما قال له ربه: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمانينة
نفسه أن انخل يده في فمها وأخذ بلحيها.

السيرة من السير، كالركبة من الركوب. يقال: سار فلان
سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب
والطريقة، وقيل: سير الأولين، فيجوز أن ينتصب على
الطرف أي: سنعيدها في طريقته الأولى أي: في حال ما
كانت عصا. وإن يكون أعاد منقولاً من عادة بمعنى عاد
إليه، ومنه بيت زهير:

وعالكة أن تلاقبها عداة

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وأن يكون
سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى: أنها
أنشئت أول ما أنشئت عصاً ثم ذهبت وبطلت بالقلب،
فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأها أولاً، ونصب سيرتها
بفعل مضمّر أي: تسير سيرتها الأولى يعني: سنعيدها
سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها
المأرب التي عرفتها.

وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ إِلَى جَانِبِكَ مَخْرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٦﴾
لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٧﴾.

قيل: لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لمجنبيته،
وجناحا الإنسان جنباه، والأصل المستعار منه جناحا
الطائر، سمياً جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد:
إلى جنبك تحت العضد، على ذلك قوله: **«مخرج»**. السوء
الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص، كما كنى
عن العورة بالسوءة، وكان جنيمة صاحب الزباء أبرص
فكنوا عنه بالابْرَص، والبرص أبيض شيء إلى العرب وبهم
عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديراً

(1) سورة النمل، الآية: 10.

(2) قال أحمد: ويحتمل عندي، والله أعلم، أن تكون فائنتها: الاعتراف
بأن نفعه شرح الصدر راحة إليه، وعائده إليه، فإن الله عز وجل
لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره تعالى وتقدس، على
خلاف رسول الملك، إذا طلب منه أن يريح عليه، فإنما يطلب منه =

= ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله
أعلم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/575.

أَنْ أَتَذِيرُ فِي النَّارِ أَتَذِيرُ فِي النَّارِ فَلْيَذَرِهُنَّ أَوْ لْيَخْلَ بَلِّغْهُنَّ أُولَئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعَذَابِ ۖ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعَذَابِ ۖ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعَذَابِ ۖ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ۖ (٢٧)

﴿إِنْ﴾ هي المفسرة؛ لأن الوحي بمعنى: القول. القذف مستعمل في معنى: الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبُ﴾ (٢٦) وكذلك الرمي قال: غلام رماه الله بالحسن يافعاً

أي: حصل فيه الحسن، ووضعه فيه، والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجته، لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فَإِنْ قُلْتَ: المقنوف في البحر هو: التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل؟ قُلْتُ: ما ضرك لو قالت: المقنوف والملقى هو: موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر. لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وإلقاه إليه، سلك في ذلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمثل رسمه فقيل: ﴿فَلْيَلْقَهُ الْيَمُ بِالسَّاحِلِ﴾ روي: أنها جعلت في التابوت قطعاً ملحوظاً فوضعت فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينما هو جالس على رأس بركة مع أسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبه عبد الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ: أَنَّ البحر إلقاه بساحله وهو: شاطئه؛ لأنَّ الماء يسحله أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد إلقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة ﴿مَنْيَ﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بالقيت فيكون المعنى على إني أحببتك، ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحنوف هو: صفة لمحبة أي: محبة حاصلة، أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك. وروي: أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحاة لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ لتربى ويحسن إليك، وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني انظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيثي، ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وترام ونحوه، أو حذف معله أي: ولتصنع فعلت ذلك، وقرئ: ولتصنع ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر، وقرئ: ولتصنع بفتح التاء والنصب أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

لساناً^(١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكادُ بَيِّنُ﴾ (٢) وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رثة فقال رسول الله ﷺ: «ورثها من عمه موسى»^(٣). وقيل: زالت بكاملها لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَا مُوسَى﴾ وفي تنكير العقدة وإن لم يقل عقدة لسانني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة و﴿مَنْ لِسَانِي﴾ صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانني. الوزير من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر لأن الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره، أو من الموازنة وهي المعاونة. عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيراً فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أن فعلاً جاء في معنى: مفاعلاً مجياً صالحاً كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ونظر إلى يوازر وإخوته وإلى الموازنة. وزيراً وهرون مفعولاً قوله: اجعل، قدم ثانيهما على أولهما عناية بامر الوزارة، أولي وزيراً مفعولاً، وهرون عطف بيان للوزير و﴿لُحْيِي﴾ في الوجهين بدل من هرون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن. قرؤا جميعاً أشدد وأشركه على الدعاء، وابن عامر وحده: أشدد وأشركه على الجواب، وفي مصحف ابن مسعود: أخي وأشدد، وعن أبي بن كعب: أشركه في أمري وأشدد به أزي، ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل أخي مرفوعاً على الابتداء، وأشدد به خبره، ويوقف على هرون. الأزر: القوة وأزره قواه أي: اجعله شريكاً في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك ونكر، فإنَّ التعاون لأنه مهيب الرغبات يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: عالماً بأحوالنا وبيان التعاضد مما يصلحنا، وأن هرون نعم المعين والشاهد لمعضدي بأنه أكبر مني سنأ وأقصح لساناً.

قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمْشُونَ (٣١) وَلَقَدْ مَنَّاْ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٢٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَا مَا يُوحَى (٢٨).

السؤال الطلبة فعل بمعنى مفعول كقولك: خبز بمعنى: مخبوز واكل بمعنى: مأكول. الوحي إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبي في وقتها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُوْحِيتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ (٤) ويبعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم، أو يريها ذلك في المنام فتنبه عليه، أو يلهمها كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (٥) أي: أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه، ولا إلى العلم به إلا بالوحي، وفيه مصلحة لبنية، فوجب أن يوحى ولا يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة، وهو أمر عظيم مثله يحق بأن يوحى.

(4) سورة القصص، الآية: 34.

(5) سورة النحل، الآية: 68.

(6) سورة الاحزاب، الآية: 26.

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة الزخرف، الآية: 52.

(3) قال الزيلعي: غريب جداً 352/2.

خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوا مع خصال فيه وخصائص أهلاً لثلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا الطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والاثرة ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر، ولا يسمع إلا بعينه وأثنه، ولا ياتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره.

أَذْهَبَ أَتْ وَلَوْكَ يَأْتِيكَ وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي (١٦) أَذْهَبَا إِلَيَّ فَرَعُونَ
إِنَّهُ طَعْنٌ (١٧).

الوحي: الفتور والتقصير وقرئ: تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع أي لا تنسياني ولا أزال منكما على نكر حيثما تقلبتما، واتخذاً نكري جناحاً تصير أن به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بنكري، ويجوز أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر. روي: أن الله تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك. فَعَوْلَا لَهُ قَوْلًا نِيَا لَمَلَمَ يَذْكُرُ أَوْ يَحْشَى (١٨).

قرئ: ﴿لَيْسَا﴾ بالتخفيف والقول اللين نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكِيَ. وَاهْدِكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَحْشَى﴾ (١٩)؛ لأن ظاهرة الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عاده شيباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرّب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجباه بما يكره، والطفاً له القول لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة، وقيل: كنياه وهو من نوي الكنى الثلاث أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مزة. والترجي لهما أي: أذهباً على رجائكما وطمعكما بإشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه، وجنوى إرساليهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن، إلزام الحجة وقطع المَعْدَرَة: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ (٢٠) أي: يتنكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أَوْ يَحْشَى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَمُرَّ عَيْنًا أَوْ أَنْ يَطْلُعَ (٢١) قَالَ لَا نَخَافُ
إِنَّهُ مَكْشَا سَمِعَ وَارَى (٢٢).

فرط: سبق وتقدم، ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة،

إِذْ نَشِئْتَ أَهْلَكَ فَقَوْلُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ رَجَعْتَكَ إِلَيَّ
أَيْكَ كَيْ نَمُرَّ عَيْنًا وَلَا نَعْرَضَ وَقُلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَنَفْسًا فَنُورًا
فَلَيْتَ سَيِّئًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوِي (٢٣).

العامل (١) في ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ القيت أو تصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من إذ أوحينا.

فإن قُلْتَ: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعداً قُلْتَ: كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعداً طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا، فتقول: وأنا لقيتك إذ ذاك وربما لقيه هو في أولها، وأنت في آخرها. يروى: أن أخته واسمها: مريم جاءت متعرفة خبره، فصافقتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: ﴿هَلْ أَنْلَكُمْ﴾ فجاءت بالأم فقبل ثديها. ويروى: أن آسية استوهبت من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة، اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون فغفر الله باستغفاره حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (٢٤) ونجاه من فرعون أن ينسب فيه اظفاره حين هاجر إلى مدين ﴿فَقُونَا﴾ يجوز أن يكون مصدرًا على فاعول في المتعدي كالثبور، والشكور، والكفور، وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداء بقاء التأنيث كحجوز وبنور في حجة وبيرة أي: فتناك ضرورياً من الفتن. سال سعيد بن جبيرة ابن عباس رضي الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة. ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبيرة، وألقته أمه في البحر، وهم فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجر نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة، فهذه فتنة يا ابن جبيرة، والفتنة المحنة وكل ما يشق على الإنسان وكل ما يبطل الله به عباده فتنة قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٢٥) ﴿مَبْلِينَ﴾ على ثمانين مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة منها مهر ابنته، وقضى أو في الأجلين.

وَأَصْطَفَيْتُكَ لِتُكَلِّمَ (٢٦).

أي سبق في قضائي وقدرتي أن اكلمك واستنبتك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقيم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء وهو: رأس أربعين سنة. هذا تمثيل لما

(٢) سورة القصص، الآية: ١٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ١٨ - ١٩.

(٥) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(١) قال أحمد: والمعنى يوجب عمل، ولتصنع فيه؛ لأن معنى صنيعة على عين الله عز وجل تربيته مكلوفاً بكلامته، مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة، هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنونة، وأما إلقاء المحبة عليه، ففيل ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخيه لما عرف من فصاحة هرون والرنة في لسان موسى ويدل عليه قوله: ﴿أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ (7).

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَمَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٦).

﴿خلق﴾ أول مفعولي أعطى أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به أو ثانيهما أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجر زوجين، والبعير والناقة والرجل والمرأة فلم يزوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: خلقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أي: عرف كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل إليه، والله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

قَالَ مَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥٧).

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه: بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه.

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي كَيْتَبٌ لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٨).

يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ: يضل من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم فتعنت وقال: ما تقول في سؤالي القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم، فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز أن يكون عليك أيها العبد النليل والبشر الضئيل أي: لا يضل كما تضل أنت ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة.

وفرس فرط يسبق الخيل، أي: تخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ: ﴿يقرط﴾ من أقرطه غيره إذا حمه على العجلة، خافاً أن يحمله حامل على المعالجة بالعقاب من شيطان، أو من جبروته واستكباره وأدعائه الربوبية، أو من به الرئاسة، أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة ﴿قال الملأ من قومه﴾ (1) ﴿وقال الملأ من قومه﴾ (2) وقرئ: (3): يقرط من الإفراط في الأنية أي: تخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعالجة، أو يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل بنا على ما عرفنا وجرباً من شرارته وعتوه ﴿أو أن يطغى﴾ بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراته عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأب وتحاش عن التفوه بالعظيمة ﴿معكما﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿تسمع وأرى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فافعل ما يوجب حفظي ونصرتي لكما، فجاؤن أن يقرئ أقوالكم وأفعالكم وجاهز أن لا يقرئ شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة وذهبت المبالاة بالعنوة.

فَأَنبَأَهُ قَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبِهِمْ قَدْ جُنَّكَ بِبَأْسِهِ مِنْ رَبِّكَ وَأَسْلَمَ عَلَى مَنْ أَتَيْتَ الْمَلَائِكَةُ (٤٧) إِنَّا قَدْ أَرْسَلْنَا أَنْعَابَ عَلَمٍ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨).

كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء ﴿قد جُنَّكَ بآية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولاً ربك مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية إنما وحد قوله، بآية ولم يثن ومعه آيتان؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكانه قال: قد جُنَّكَ بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيته من الرسالة، وكذلك: ﴿قد جُنَّكُمْ ببينة من ربكم﴾ (4) ﴿فات بآية إن كنت من الصادقين﴾ (5) ﴿أولو جُنَّكُمْ بشيء مبين﴾ (6) يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُنْزِلُ (٤٩).

خاطب الإثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو: موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى بون كلام

= قَدَّمَتْهَ آتِفًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(4) سورة الأعراف، الآية: 105.

(5) سورة الشعراء، الآية: 154.

(6) سورة الشعراء، الآية: 30.

(7) سورة الزخرف، الآية: 52.

(1) سورة الأعراف، الآية: 60.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(3) قال أحمد: وإذا روعي في الالب، إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الالب بالاعتراف، بتقلد منه الله عز وجل زيادة المجرور في قوله: ﴿أشرح لي صدري﴾ كما =

أراد: بخلقهم من الأرض خلق أصلهم وهو: آدم عليه السلام منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً. وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلط بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً﴾⁽⁸⁾ عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترنّبون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها اقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأهم التي منها ولدوا، ثم هي كفايتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «تمسحوا بالأرض فلإنها بكم برة»⁽⁹⁾.

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنْ

﴿أريناه﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها وإنما كذب لظلمه كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾⁽¹⁰⁾ وقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل لهؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾⁽¹¹⁾ وفي قوله تعالى: ﴿آيأتنا كلها﴾ وجهان: أحدهما: أن يحذي بهذا التعريف الإضافي حنو التعريف باللام لو قيل: الآيات كلها أعني أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل، والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به فكذبها جميعاً ﴿وإلى﴾ أن يقبل شيئاً منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

قَالَ أَجَعْتَنَا لَتْخَرَجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى

يلوح من جيب قوله: ﴿لجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ أن فرائضه كانت ترعد خوفاً مما جاء به موسى

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٧﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنَّكُمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٨﴾

﴿الذي جعل﴾ مرفوع صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وهذا من مظاهره ومجازه مهبذاً قراءة أهل الكوفة أي: مهداً مهداً، أو يتمهونها فهي لهم كال مهد وهو: ما يمهّد للصبي ﴿وسلك﴾ من قوله تعالى: ﴿ما سلككم في سقر﴾⁽¹⁾ ﴿سلكناه﴾⁽²⁾ ﴿نسلكه﴾ في قلوب المجرمين⁽³⁾ أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري ﴿فأخرجنا﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما نكرت من الاقتتان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتدعّن الأجناس متفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته، ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾⁽⁴⁾ ﴿إلم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها﴾⁽⁵⁾ ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾⁽⁶⁾ وفيه تخصيص أيضاً بأننا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد ﴿أزولجاً﴾ أصنافاً سميت بذلك: لأنها مزبوجة ومقترنة بعضها مع بعض ﴿شتى﴾⁽⁷⁾ صفة للزواج جمع شتيت كمريض، ومرضى، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النبات كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم قالوا: من نعمته عزّ وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرّون على أكله أي: قائلين ﴿كلوا وارعوا﴾ حال من الضمير في فأخرجنا المعنى: أخرجنا أصناف النبات أنبتين في الانتفاع بها مبيحين أن تاكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

وَمَا خَلَقْنَاهُ مِنَّا شَيْئًا وَإِنَّا لَخَرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾

= هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة، عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ليستقر بانتباه الحكاية ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء﴾ فأخرج به ﴿أزولجاً﴾ من نبات شتى، فلما حكاها الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأنّ الحاكم هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن نقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.

- (8) سورة المعارج، الآية: 43.
(9) رواه ابن أبي شيبة، (الحديث رقم: 6) والطبراني في الصغير (الحديث رقم: 408).
(10) سورة النمل، الآية: 14.
(11) سورة الإسراء، الآية: 102.

- (1) سورة المدثر، الآية: 42.
(2) سورة الشعراء، الآية: 200.
(3) سورة الحجر، الآية: 12.
(4) سورة الأنعام، الآية: 99.
(5) سورة فاطر، الآية: 27.
(6) سورة النمل، الآية: 60.
(7) قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجهه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك، فإنّ الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ ثم قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزولجاً من نبات شتى﴾ إما أن يجعل من قول موسى، فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريون الملك، وليس هذا بالالتفات، وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس الالتفات أيضاً، وإنما =

وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون موعدكم مبتداً بمعنى الوقت، وضحي خبره على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحي ذلك اليوم بعينه، وقيل في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيرة، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخنون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم. قرئ: ﴿نُخْلِفُهُ﴾ بالرفع على الوصف الموعود، وبالجزم على جواب الأمر وقرئ: ﴿سَوَى﴾ بالكسر والضم ومنوناً وغير منون، ومعناه: منصفاً بيننا وبينك، عن مجاهد: وهو من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم يتون فوجهه: أن يجري الوصل مجرى الوقف. قرئ: ﴿وَأَنْ تَحْشُرَ النَّاسَ﴾ بالتاء والياء، يريد وأن تحشر يا فرعون وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون نكرة بلفظ الغيبة أما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿مُوعِدْكُمْ﴾ وجعل ﴿يَحْشُرُ﴾ لفرعون، ومحل أن يحشر الرفع أو الجر عطفاً على اليوم أو الزينة، وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور بينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الخاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياءهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُفْسِدُكُمْ يَعَذِّبُكَ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿١١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَنفُسَهُمْ يَهْتَهِمُ وَاسْرُؤُا تَنَجَّوْا ﴿١٢﴾ قَالُوا إِن هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمْ وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمْ التَّنْزِيلُ ﴿١٣﴾

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً. قرئ: ﴿فَيَسْحَتُكُمْ﴾ والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ومنه قول الفرزدق: إلا مسحاً أو مجلف في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه؛ عن ابن عباس: إن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب: لما قال:

عليه السلام لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وإن المحق لو أراد قود الجبال لانقاشت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

فَلَمَّا يَنْتَهِ سِحْرُهُ يَنْتَابِلُ فَاَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ عَنْ وَلَا أَنْتَ مَكَا سَوَى ﴿١٤﴾ قَالَ مُوعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ سُحْرَى ﴿١٥﴾ فَتَوَكَّلْ فَرَعُونَ فَجَمَعَ كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَى ﴿١٦﴾

لا يخلو الموعد^(١) في قوله: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدرًا فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله تعالى: ﴿مُوعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ مطابق له لزمك شيئاً أن تجعل الزمان مخلفاً، وأن يعضل عليك ناصب مكاناً، وإن جعلته مكاناً لقوله تعالى: ﴿مَكَا سَوَى﴾ لزمك أيضاً أن توقع الأخلاف على المكان، وأن لا يطابق قوله: ﴿مُوعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، وقراءة الحسن: غير مطابقة له مكاناً وزماناً جميعاً؛ لأنه قرأ: يوم الزينة بالنصب فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى: الوعد ويقدر مضاف محذوف أي: مكان موعداً، ويجعل الضمير في تخلفه للموعداً، ومكاناً بدل من المكان المحذوف.

فإن قُلْتُ: فكيف طابقه قوله: ﴿مُوعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟ قُلْتُ: هو: مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فنكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعيدكم يوم الزينة، وطابق هذا أيضاً من طريق المعنى، ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه.

فإن قُلْتُ: فبم ينتصب ﴿مَكَا سَوَى﴾ قُلْتُ: بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قُلْتُ: فكيف طابقه الجواب؟ قُلْتُ: أما على قراءة الحسن: فظاهر، وأما على قراءة العامة: فعلى تقدير: وعيدكم

= الضمير على المصدر، وقدره منطوقاً به للنطق، بالفعل الذي هو مشتق منه، وإذا أوضح ذلك، فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره، والله أعلم، وعلى هذين التاويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً، فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فاسلف الجواب عنه، وضمنها جواباً مفرداً، ولقائل أن يقول: إن كان المسؤول منه المواعدة على المكان، فلم أجاب بالزمان الذي لم يسأل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. (وجوابه) والله أعلم أن يقال: اكتفى بقرينة السؤال، عن صريح الجواب، وأما ما لم يسئل عنه، فلو ضمنه، لم يفهم قصده إليه، إذ لا قرينة تدل عليه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي إعماله، وقد وصف بقوله: ﴿لَا نخلفه﴾ بعد، إلا أن تجعل الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة، بحيزها الشأن أن تكون صفة، والله أعلم، ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم، وهو: أن يجعل موعد اسم مكان، فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره، ويبقى عود الضمير، فنقول: هو والحالة هذه، عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان؛ لأن حرفه فيه، والموعد إذا كان اسم مكان، فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان، فحاصله زمان وعد، وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه، وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى، ومما يحق ذلك أنهم قالوا: من صدق كان خيراً له، يعنون: كان الصديق خيراً له، فاعاوبوا

أن مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمَر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه⁽⁴⁾: اختر أحد الأمرين: أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفهم، وكان الله عزَّ وعلا الهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب باب، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر، ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل قدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في إذا هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: فإذا حبّالهم وعصيمهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبّالهم وعصيمهم وهذا تمثيل والمعنى: على مفاجئته حبّالهم وعصيمهم مخيلة إليه السعي وقرئ: ﴿عصيمهم﴾ بالضم وهو الأصل والكسر اتباع ونحوه: دلى ودلى وقسى وقسى، وقرئ: ﴿تخيل﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال قوله ﴿أنها تسعي﴾ من الضمير بدل الاشتمال كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصى مخيلة سعيها وتخيل بمعنى: تتخيل وطريقة طريق تخيل وتخيل على أن الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى: أنهم لطحوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهترت فخلت ذلك.

فَأَرْسَلَ فِي تَقْوِيهِ جِيحَةَ مَوْسَى ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا لَا تَحَفَّ إِلَيْكَ أَتَتْ الْأَعْلَى ﴿٧٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ لَتَفَتَّ مَا سَنَوْنَا إِنَّمَا سَنَوْنَا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُطْلَعُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿٧٩﴾

إيجاس الخوف إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت تسمع نباه يسيرة منه، وكان ذلك لطبع الجيلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبيه وقهره، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وتكرير الضمير وبلاد التعريف ولفظ العلو وهو: الغلبة الظاهرة وبالفضل، وقوله⁽⁵⁾: ﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك

﴿ويلكم﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجانبوا أهداب القول، ثم قالوا: ﴿إن هذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس عن اتباعهما. قرأ أبو عمرو: ﴿إن هذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير، وحفص: إن هذان لساحران على قولك إن زيد لمنطلق، واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبي: إن ذان إلا ساحران، وقرأ ابن مسعود: إن هذان ساحران بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى، وقيل في القراءة المشهورة: إن هذان لساحران هي: لغة للحرث بن كعب جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف كعصا وسعدى فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب، وقال بعضهم: أن بمعنى: نعم وساحران خير مبتدأ محذوف واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق. سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾⁽¹⁾ وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى وهم: بنو إسرائيل، لقول موسى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾⁽²⁾ وقيل: الطريقة اسم لوجه الناس وإشرافهم الذين هم قوة لغيرهم يقال: هم طريقة قومهم، ويقال للواحد أيضاً، هو طريقة قومه.

فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٨٠﴾

﴿فاجمعوا كيدكم﴾ بعضده قوله: ﴿فجمع كيده﴾⁽³⁾ وقرئ: فاجمعوا كيدكم أي: أجمعوه واجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلطوا ولا يخلف عن واحد منكم كالمسئلة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفًّا أهيب في صدور الرائين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف: بالمصلى؛ لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفىين. ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: أتوا مصلى من المصليات ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض يعني: وقد فاز من غلب.

قَالُوا يُؤْمِنُ بِإِذَا أَنْ تَلْفَى وَلَيْمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٨١﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِنَّا جَاهِلٌ وَعَصِيهِمْ يَحِلُّ لِيَوْمٍ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّا نَعَى ﴿٨٢﴾

= حرهم، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيروها في جنب القدرة، تحقيق كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منه، وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم، وقد تلتفت هذه الحقيرة الضئيلة، ولأصحاب البلاغة طريق في علو المرح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح، وقد قهره، واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

(1) سورة الروم، الآية: 32.

(2) سورة طه، الآية: 47.

(3) سورة طه، الآية: 60.

(4) قال أحمد: وقيل لك تابؤا معه، بقولهم: فاجعل بينا وبينك موعداً لا نخلفه، ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما لهم الله عزَّ وجلَّ موسى ههنا، أن يجعلهم مبتثين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفه بالحق على الباطل، فميدغه، فإذا هو زاهق كذلك، ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أقصَح لكيدهم، واهتك لستر =

وعصبيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين، وروي: أنهم لم يعرفوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خرّوا سجداً أراهم الله في سجدتهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْبَحْرَ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْيَدُكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَقَدْ مَنَّأْنَا أَشَدَّ مَنًّا وَأَقْبَرُ. (٧١).

﴿الكبيركم﴾ لعظيمكم يريد: أنه أسحرهم وأعلامهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبير، وقال لي كبير كذا، يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. قرئ: ﴿فلا قطعن﴾ ولأصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأن كل واحد من العضو من خالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال، ومن لا ابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو لا من وفاقه إياه، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف. شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه فلذلك قيل: في جنوع النخل ﴿أيما﴾ يريد نفسه لعنة الله وموسى صلوات الله عليه بلبيل قوله: ﴿آمستم له﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ (٥) وفيه نفاضة باقتداره وقهره وما ألقاه وضري به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزة به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

قَالُوا لَنْ نُّؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَكَ

جائز أن يكون تصغيراً لها أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصبيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدره الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمتها، وجائز (١) أن يكون تعظيماً لها أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فالله يتلقفها بإن الله يحققها، وقرئ: ﴿تلقف﴾ بالرفع على الاستئناف أو على الحال أي: ألقها متلفة وقرئ: تلقف بالتخفيف ﴿صنعوا﴾ ههنا بمعنى: زوروا وافعلوا كقوله تعالى: ﴿تلقف ما يافكون﴾ (٢) قرئ: ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع والنصب. فمن رفع فعلى أن ما موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: كيد سحر بمعنى: ذي سحر، أو نوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخليل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قلت: فلم نكر أولاً وعرف ثانياً؟ قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج:

في سعي دنيا طالما قد مدت

وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة (٣) المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري وفي سعي دنيا وأمر دنيا وأخرى. ﴿حيث ألقى﴾ كقولهم: حيث سير وأية سلك وأينما كان.

فَأَلْقَى السِّرََّهُمْ فِيهَا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَؤُلَاءِ وَمَوْسَى (٧٣).

سبحان (٤) الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم

= يناسب التائيس والتثيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة الاعراف، الآية: 117.

(3) قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل، فسجد السحرة إيقاظ السامع للأطاف الله تعالى، في نقله عبادته من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد، إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدمته آنفاً، في إيجاز الخطاب في قوله: ﴿والق ما يمينك﴾ و ﴿وما تلك بيمينك﴾ فتأمل، فإن الحق حسن متناسب، والله الموفق.

(4) سورة التوبة، الآية: 61.

(5) قال أحمد: ووجه آخر، وهو: أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق، طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة؛ لأنها كانت اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وههنا لطيفة، وهو أنه تلقى من هذا النظم أولاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين، وتلك، والله أعلم، هي إرادة المنكسر مبهماً؛ لأن ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإيهام، والإجمال تسلكة مرة، لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به، أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه، وليؤثر أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يعني فيه الزمر والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً، وعندني في الآية، وجه سوى قصد التعظيم والتحقير، والله أعلم، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى، عندما سأل عنها بقوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿والق ما في يمينك﴾ ليتبين بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وما تلك بيمينك﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتائيساً، حيث خاطب بما عهد أن يخاطب به، وقت ظهور آيتها، وذلك مقام =

﴿فأفضلونا السبيل﴾⁽²⁾ ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾⁽³⁾ وأن يكون مثل قوله:

كان لم ترى قلبي أسيراً يمانياً

فَأَتَيْهِمْ فَرَعُونَ بِحُيُوتِهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشِيَهُمْ^(٧٨) وَأَضَلَّ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى^(٧٩).

﴿ما غشيهم﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم والتخشية: التغطية وقاعل غشاهم إما الله سبحانه، أو غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله ﴿وما هدى﴾ تهكم⁽⁴⁾ به في قوله: ﴿وما أهديك﴾ إلا سبيل الرشاد⁽⁵⁾.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَمِنْتَكَ مِنْ مَدُونِكَ وَرَضَّكَ جَانِبَ الْوُدِّ الْأَيْمَنِ وَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالْكَسُولَ^(٨٠) كُلًّا مِنْ سَيِّئَاتِ مَا رَزَقْنَاكَ وَلَا تَفْعَلُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكَ عَذَابِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ عَذَابِي فَقَدْ هَوَى^(٨١).

﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ﷺ من الله عليهم بما فعل آبائهم، والوجه هو: الأول أي: قلنا يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن وقرئ: ﴿أنجيتكم﴾ إلى رزقتكم وعلى لفظ الوعد والمواعدة وقرئ: ﴿الأيمن﴾ بالجر على الجوار نحو: حجر ضب خرب. نكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح، وإنما عدي المواعدة إليهم لأنها لا يستهم واتصلت بهم، حيث كانت لتبنيهم ونقائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاطن عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروا، ويشغلهم اللهو والتنعيم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يزورا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويكتبروا، قرئ: ﴿فيحل﴾ وعند عبد الله: لا يحلن ﴿ومن يحل﴾ المكسور في معنى: الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أدائه ومنه قوله تعالى: ﴿حتى يبلغ الهدى محله﴾⁽⁶⁾ والمضموم في معنى: النزول⁽⁷⁾.

خَلَيْنَا وَمَا أَكْرَفْتْنَا عَلَيْهِ مِنَ النَّحْرِ وَاللَّهُ عَزَّ وَآلَهُ^(٧٦).

﴿والذي فطرنا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ: ﴿تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ وجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الطرف، فانتسج في الطرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك في صمت يوم الجمعة: صيم يوم الجمعة، وروي: أن السحرة يعني: رؤوسهم كانوا اثنين وسبعين الإثنان من القطب، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرهمهم على تعلم السحر، وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل فوجده تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فلبى إلا أن يعارضوه.

إِنَّكَ مِنْ يَأْتِ رَبِّكَ مُحَرَّماً إِنَّكَ لَمْ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا يَحْيَى^(٧٧) وَمَنْ يَأْتِيَهُ مَوْتٌ قَدْ غَلَ الْغَلَاظَ فَأُولَئِكَ هُمُ الدَّارِعَةُ^(٧٨) جَنَّتْ عَنْهُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَيْنَا فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَلَّى^(٧٩).

﴿تزكى﴾ تطهر من انفس الذنوب، وعن ابن عباس قال: لا إله إلا الله قيل: في هذه الآيات الثلاث هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله لا على وجه الحكاية.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَسْرِبْهُمْ ثُمَّ طَرِيقًا فِي الْأَنْهَارِ بَيْتًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا عَقْبًا^(٧٦).

﴿فأضرب لهم طريقاً﴾ فاجعل⁽¹⁾ لهم من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب اللبن عمله اليبس مصدر وصف به يقال: ييبس ييبساً وييبساً، ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا ييبس، وناقطنا ييبس إذا جف لبنها، وقرئ: ييبساً ويابساً، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يابس كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيداً كقوله: ومعني جيباً، جعله لفرط جوعه كجماعة جيباء ﴿لا تخاف﴾ حال من الضمير في فاضرب وقرئ: لا تخف على الجواب وقرأ أبو حية ﴿دركاً﴾ بالسكون، والدرك والدرك اسمان من الإدراك أي: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك، في ﴿ولا تخشى﴾ إذا قرئ: لا تخف ثلاثة أوجه: أن يستأنف كأنه قيل: وأنت لا تخشى أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الباء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله:

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(3) قال أحمد:

فإن قلت التهكم: أن يأتي بعبارة، والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: ﴿إنك لانت الحليم الرشيد﴾ وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين، وأما قوله تعالى: ﴿وما هدى﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه، قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل: ما هدى زيد عمراً ثبت كون زيد عالمًا بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمراً، وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، وتحقيق ذلك أن قوله تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ كاف في

= الإخبار بعدم هدايته لهم، مع مزيد إضلاله إياه، فإن من لا يهدي، قد لا يضل، فيكون كفافاً، وإذا تحقق غناء الأول في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواء، وهو: التهكم، والله أعلم.

(4) قوله تعالى: ﴿ومن يحل عليه غضبي فقد هوى﴾ (قال: الغضب، عقوبة الله تعالى لهم إلخ).

(5) سورة غافر، الآية: 29.

(6) سورة البقرة، الآية: 196.

(7) قال أحمد: لا يسعه أن يحمل للغضب، إلا على العقوبة؛ لأنه ينبغي صفة الإرادة، في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأما على قاعدة السنة، فيجوز أن يكون المراد من الغضب: إرادة العقوبة =

انكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عتبة بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله فاذم له ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ النَّارُ (٨٥).

أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً.

فإن قلّنت: في القصة انهم أقاموا بعد مفارقتهم عشرين ليلة وحسبوا أربعين مع أيامها، وقالوا: قد اكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمة: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾؟ قلّنت: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة الكائنة على عاتقه. أو افترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غيب انطلاقه، وأخذ في تدبير تلك فكان بدء الفتنة موجوداً. قرئ: ﴿واضللهم السامري﴾ أي: وهو أشدهم ضلالاً، لأنه ضال مضل وهو منسوب إلى قبلية من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجاً من كرمان واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا مَبْدُوءَ لَكُمْ بِرَبِّكُمْ وَعَدَا هَسَاتَى أَفْطَالٍ عَلَيْكُمْ هَٰذَا أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَعْلَفْتُم مَوَاطِيئَ (٨٦).

الأسف الشديد الغضب ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة: «راحة للمؤمن وأخذة أسف للمكافر»⁽³⁾ وقيل: الحزين.

فإن قلّنت: متى رجع إلى قومه قلّنت: بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وعدهم الله سبحانه أن

وغضب الله: عقوباته ولذلك وصف بالنزول ﴿هوى﴾ هلك واصله أن يسقط من جبل فيهلك قالت:

هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده ويقولون: هوت أمه، أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده.

وَلِيَّ لَفْظٍ لِيْن تَابَ وَمَأْنٍ وَحِلٍّ صَلَاحًا ثُمَّ أَهْدَى (٨٧).

الاهتداء هو: الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو: التوبة والإيمان والعمل الصالح ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾⁽¹⁾ وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالة على تباين الوقتين في جاني زيد، ثم عمر، وأعني أن منزلة الاستقامة على الخير مביانة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

﴿وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَكُونُ﴾ (٨٧) قَالَ هُمْ أُولَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٦).

﴿وما أعجلك﴾⁽²⁾ أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أن عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء وليس لقول: من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ياباه قوله ﴿وهم أولاء على أثري﴾ وعن أبي عمرو ويعقوب: إثري بالكسر، وعن عيسى بن عمر: أثري بالضم، وعنه أيضاً: أولي بالقصر. والأثر أقصص من الأثر أما الأثر فمسموع في فرند السيف مدون في الأصول يقال: أثر السيف وأثره وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قلّنت: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هم أولاء على أثري﴾ كما ترى غير منطبق عليه؟ قلّنت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين: أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما

= أن يعلم موسى ألب السفر، وهو: أن ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفتهم، ونافذاً قبيهم، ومهيئاً عليهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدّمه عليهم، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الألب لوطاً، فقال: ﴿واتبع أنبارهم﴾ فامرهم أن يكون أخيرهم، على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر، مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 598/3 (الحديث رقم: 6781)، وأبو داود في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجأة (الحديث رقم: 3110).

= فيكون من أوصاف الذات، ويحتمل أن يراد به: معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال، وأما وصفه بالحلول، فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام: «يُنْزَلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»، على التأويل المعروف، أو عبر عن حلول أثر الإرادة، بحلولها تعبيراً عن الأثر بالموثر، كما يقول الناظر إلى عجيب مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله، يعني: أثر القدرة، لا نفسها، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ (قال فيه: إن قلت: سئل عن سبب العجلة إلخ).

(1) سورة فصلت، الآية: 30، وسورة الأحقاف، الآية: 13.

(2) قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم =

الرَّسُولِ فَبَدَّلَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٤٦﴾

قرئ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بالكسر والمعنى: علمت ما لم تعلموه وقطنت ما لم تفتنوا له. قرأ الحسن ﴿قَبْضَةً﴾ بضم القاف وهي: اسم المقبوض كالغرفة والمضغة، وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرأ أيضاً: فقبضت قبضة بالصاد المهملة، الضاد بجميع الكف، والصاد باطراف الأصابع، ونحوهما: الخضم والقضم، الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه. قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قلت: لم سماه الرسول نون جبريل وروح القدس؟ قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل ركب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأنًا فقبض قبضة من تربة موطنه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ولعله لم يعرف أنه جبريل.

كَأَلْ فَاذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُغْلَمَ وَاسْتَظِرَّ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَيَّامٍ نَسْنَأُ ﴿٤٧﴾

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعًا كليًا، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضًا، وإذا اتفق أن يماس أحدًا رجلاً أو امرأة حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرام، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لا مساس﴾ بوزن فجار، ونحوه قولهم في الأطباء إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا آباب، وهي أعلام للمسة والعبه والآية وهي المرة من الأب وهو: الطلب ﴿لَنْ تَخْلَفَهُ﴾ أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعده على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فانت ممن خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: لن تخرلفه وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفًا قال الأعشى:

أثوي واقصر ليله ليزودا فمضى وأخلف من قتيلة موعدا وعن ابن مسعود: نخرلفه بالنون أي: لن يخلفه الله كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في: ﴿لا هب لك﴾ ^(١) ﴿ظلمت﴾ وظلمت وظلمت والأصل ظلمت فحنفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه. ولنحرقنه وفي حرف ابن مسعود: لننبحنه

ولنحرقنه ولنحرقنه القراءتان من الإحراق، ونكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه: أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد وعليه القراءة الثالثة وهي: قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿لننفسفه﴾ بكسر السين وضمها وهذه عقوبة ثالثة وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه وهدم مكره ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ ^(٢).

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٤٨﴾

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرب ﴿وسع كل شيء علماً﴾ وعن مجاهد، وقتادة: وسع، وجهه أن وسع متعد إلى مفعول واحد وهو كل شيء، وأما علماً فانصباه على التمييز وهو في المعنى فاعل، فلما نقل إلى التعدي إلى مفعولين فنصبهما معاً على المفعولية؛ لأن المميز فاعل في المعنى: كما تقول في خاف زيد عمرًا: خوفت زيداً عمرًا فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٤٩﴾

الكاف في ﴿كنك﴾ منصوب المحل وهذا موعد من الله عز وجل لرسوله ﷺ أي: مثل ذلك الاقتصاص، ونحو ما اقتصاصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقص عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثرًا لبياناتك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعني: القرآن مشتتملاً على هذه الاقتصاص والأخبار الحقيقية بالتفكر والاعتبار، لذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ومن أعرض عنه فقال هلك وشقي.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٥٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٥٢﴾

يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحمل وينقض ظهره ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزء الوزر وهو: الإثم، وقرئ: يحمل.

جمع ﴿خالدين﴾ على المعنى: لأن ﴿من﴾ مطلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ، ونحوه قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فلأن له نار جهنم خالدين فيها﴾ ^(٣) ﴿فيه﴾ أي:

(3) سورة الجن، الآية: 23.

(1) سورة مريم، الآية: 19.

(2) سورة آل عمران، الآية: 54.

يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقاولاً منهم في قوله تعالى ﴿إِنْ يَقُولُ أَثْلُكُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدِّدْسِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَاسْتُلِّ الْعَالِينَ﴾ (5) وقيل: المراد لبثهم في القبور ويعضده قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ آتَوْا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ (6).

وَتَتْلُوهُ عَنِ اللَّيْلِ وَقَدْ يَلْبِثُهَا رَبِّي سَمًّا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾.

﴿ينسفها﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيذر مقارها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها نكر كقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (7).

فَإِنْ قُلْتُمْ: قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قُلْتُمْ: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عملت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقت على أنه لم يبق فيها أعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفي الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرقه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر. الأمت التتو اليسير يقال: مدَّ حبله حتى ما فيه أمت.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَفَعَهُ لَمْ قَوْلًا ﴿١٩﴾ يَتَلَخَّطُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا عَلَّمَهُمْ ﴿٢٠﴾.

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة. والمراد الداعي إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائماً على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعلنون ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾

في ذلك الوزر، أو في احتماله ﴿سَاءَ﴾ في حكم بشس، والضمير فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره ﴿حَمَلًا﴾ والمخصوص بالذم محنوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (1) أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (2) أي: وساءت مصيراً جهنم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: اللام في ﴿لَهُمْ﴾ ما هي وبم تتعلق؟ قُلْتُمْ: هي للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (3).

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما انكرت أن يكون في ﴿سَاءَ﴾ ضمير الوزر؟ قُلْتُمْ: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بشس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بشس وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ النَّارِ كَقُرُوءِ﴾ (4) بمعنى أهم وأحزن؟ قُلْتُمْ: كفك صاداً عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذه اللام وعهدة هذا المنصوب، أسند النفخ إلى الأمر به فيمن قرأ: نفخ بالنون، أو لأن الملائكة المقربين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ: ينفخ بلفظ ما لم يسم فاعله، وينفخ ويحشر بالياء المفتوحة على الغيبة، والضمير لله عز وجل، أو لإسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ: في الصور بفتح الواو جمع صورته، وفي الصور قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الصور وهذه القراءة تدل عليه، والثاني إنه القرن. قيل في الزرق قولان: أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى الغرب؛ لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، والثاني: أن المراد العمى؛ لأن حقيقة من يذهب نور بصره تزدق.

يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَقَلَّمُوا بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَثْلُكُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٢٢﴾.

تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفون بالقصر لأن أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقصت والذاهب وإن طالبت مدته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت أطلال الله بقاءك: كفى بالانتهاء قصراً، وإما لاستطالتهم الآخرة وإنها أبد سر مد

(5) سورة المؤمنون، الآيةان: 112 و113.

(6) سورة الروم، الآيةان: 55 و56.

(7) سورة فاطر، الآية: 45.

(1) سورة ص، الآية: 30.

(2) سورة النساء، الآية: 97.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

فَمَلَأَ اللَّهُ أَلْفَ الْآلِ الْآخِ وَلَا تَجَلِّ بِالْفَرْعَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفَضِّلَ
إِلَيْكَ وَحْيَهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٤﴾.

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعدته ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته. ولما نكر القرآن وإنزاله قال: على سبيل الاستطراد، وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبِلْ عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مسلوقة لقراءته، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لنعجل به﴾ (٥) وقيل: معناه لا تبغ ما كان منه مجملًا حتى يأتيك البيان. وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رب زدني علمًا﴾ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأنبأ جميلًا ما كان عندي، فزدني علمًا إلى علم فإن لك في كل شيء حكمة وعلمًا، وقيل: ما أمر الله ورسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَكَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَبِيِّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٥﴾.

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقم الملك إلى فلان وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون﴾ (٦) والمعنى وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلنت: ما المراد بالنسيان؟ قلنت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العنانية الصائقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: فنسي أي: نساه الشيطان. العزم التصميم والمضي على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلبًا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: له عزمًا، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

أي: لا يوجب له مدعوى بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أي: خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفت ﴿فلا تسمع إلا همسًا﴾ وهو: الركن الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو: صوت أخفائها إذا مشت أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ﴿من﴾ يصلح أن يكون مرفوعًا ومنصوبًا، فالرفع على البذل من الشفاعة بتقدير حنف المضاف أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿أذن له الرحمن﴾ والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له ﴿ورضي له﴾ لأجله أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾ (١). أي: يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ولا يحيطون بمعلوماته علمًا.

وَوَعَدَ الْوُجُوهَ لِلَّيِّ الْقَوِيِّ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَلَّ ظُلُمًا ﴿١٦﴾
وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْمَلِيحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَاطُ ظُلُمًا وَلَا مَضْمًا ﴿١٧﴾.

المراد بالوجوه: وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشفقة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي: نليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم: الأسارى، ونحوه قوله تعالى: ﴿فلما رآوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ (٢) ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ وما بعده اعتراض كقولك: خابوا وخسروا، وكل من ظلم فهو: خائب خاسر. الظلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. والهضم أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجعون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم وقرئ: فلا يخف على النهي.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٨﴾.

﴿وكنلك﴾ عطف على كنلك نقص أي: ومثل ذلك الإنزال (٤) وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكررين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي، أو فعل الخير والطاعة. والذكر كما نكرنا يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ: نحدث وتحدث بالنون والتاء أي: تحدث أنت وسكن بعضهم التاء للتخفيف كما في: فاليرم أشرب غير مستحب إثمًا من الله ولا وأغل

= السورة عند قوله تعالى: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أن معناه: كونه على رجائكم، ثم رجع عن ذلك هنا؛ لأنَّ المعتقد الفاسد، يحثوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.

(5) سورة القيامة، الآية: 16.

(6) سورة طه، الآية: 113.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(2) سورة الملك، الآية: 27.

(3) سورة القيامة، الآية: 24.

(4) قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى، لوقت، وقد تقدمت أمثالها، والمعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير: لعل أول هذه

إلى آدم ثور أحمر فكان يحرق عليه ويمسح العرق من جبينه، قرئ: ﴿وَأَكْرَهَكَ﴾ بالكسر والفتح ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع.

فإن قللت: أن لا تدخل على إن فلا يقال: إن أن زيداً مطلق والواو نائية عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قلت: الواو لم توضع لتكون أبداً نائية عن إن، إنما هي نائية عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن⁽²⁾ وأن. الشبغ والري والكسوة والكن هي: الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فنكره اجتماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى تلك أهل الدنيا، ونكرها بلفظ النفي لنفاضاها التي هي الجوع والعري والظما والضحو ليطلق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حرره منها حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها.

فإن قلت: كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله: فوسوس ﴿للهما الشيطان﴾ وأحرى بإيلى؟ قلت: وسوسة الشيطان كولوثة الثكلي ووعوة الذنب ووقوفة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق

فلذا قلت: وسوس له فمعناه: لأجله كقوله:

أجرس لها يا ابن أبي كباش

ومعنى وسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة كقولك: حدث إليه، وأسر إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس الحياة لأن من باشر أثره حي ﴿وملك لا يبلى﴾ دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم: إلا أن تكونا ملكين بالكسر.

فَأَكَلَا رَبَّنَا فَدَّتْ لَهَا سَوَاءُ نَهْمَا وَطَفَقَا يَتَحَفَّانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوِّ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَابْتِغَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٣٢﴾

وَرَدْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَتْمَدُوا لَأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿٣٣﴾

﴿إن﴾ منصوب بمضمر أي: وانكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيدته حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قلت: إبليس كان جنياً بليل قوله تعالى: ﴿كان من الجن فسق عن أمر ربه﴾⁽¹⁾ فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ قلت: كان في صحبتهم وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لأدم والتواضع له كرامة له، كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام المقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم كان القيام على واحديهم هو بونهم في المنزلة أوجب حتى عن لم يقيم عنف وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام.

فإن قلت: فكيف صح استنناؤه وهو جنى عن الملائكة؟ قلت: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال ﴿إبي﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو: السجود المنلول عليه بقوله: فسجدوا، وأن يكون معناه: أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

فَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَبِّكَ فَلَا يَمْرَحُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَنَّتْ ﴿٣٤﴾ إِنَّ لَكَ الْأَجْمَعُ فِيهَا وَلَا تَمَرُّ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿٣٦﴾ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلَكَ لَا يَبُلُ ﴿٣٧﴾

﴿فلا يخرجنكما﴾ فلا يكون سبباً لإخراجكما. وإنما أسند إليه آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكها في الخروج؛ لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن في ضمن سعائته سعائتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه بونها مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء التخب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي: أنه أهبط

(1) سورة الكهف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سرٌ ببيع من البلاغة يسمى: قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظما عن الجوع، والضحو عن الكسوة ما مع بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعنويات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكندي الأول:

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعياً ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الردي ولم أقل لخيلى كزي كرة بعد أجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيلى كزي كرة، وقطع تبطن =

= الكاعب عن ترشف الكاس مع التناسب، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردي وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وتغرر باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته، قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سرّاً، لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظما بالجوع، فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رؤوس الآي، واحسن به منتظماً، والله أعلم.

في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتنثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ ءَاتَيْنَا نَبِيَّيْنَاهُا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنشِئُ ﴿١٧٦﴾

الضنك مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. وقرئ: ﴿ضَنْكِي﴾ على فلي، بمعنى نلك: إن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشاً رافقاً كما قال عز وجل: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾⁽²⁾ والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الزيادة من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق فيعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتوصفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا اظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره، قال الله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله تلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾⁽³⁾ وقال: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً﴾⁽⁶⁾ وقال: ﴿وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾⁽⁷⁾ وعن الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري: عذاب القبر. وقرئ: ﴿ونحشره﴾ بالجزم عطفًا على محل فإن له معيشة ضنكاً لأنه جواب الشرط، وقرئ: ونحشره بسكون الهاء على لفظ الوقف وهذا مثل قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾⁽⁸⁾ وكما فسر الزرق بالعمى ﴿كنلك﴾ أي: مثل نلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أنتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعترف ولم تتبصر وتركتها وعميت عنها، فكنلك اليوم تتركك على عماك ولا تنزل غطاءه عن عينيك.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِرْ بِإِيَابَتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٧٧﴾

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في الآخرة حتم آيات الوعيد بقوله: ﴿وللعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ كانه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركتنا إياه في العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا.

طلق يفعل كذا مثل: جعل يفعل وأخذ وإنشاءً، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أول الأمر، وكاد لمشارفته والدنو منه. قرئ: ﴿بخصفان﴾ للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخفاف أي: يلزقان الورق بسواتهما للتستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدوراً فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس: لا شبهة في أن آدم لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة وذلك العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً فكان غياً لا محالة؛ لأن الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه نلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافية، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعت علي النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر، وعن بعضهم: فغوى فبشم من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في فني وبقي فناً وبقاؤهم: بنوطي، تفسير خبيث.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثم اجتباه ربه﴾؟ قلت: ثم قبله بعد التوبة وقربه إليه من جبي إلي كذا فاجتبيته، ونظيره، جلست على العروس فاجتليتها، ومنه قوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾⁽¹⁾ أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة الجمع ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار و﴿هدى﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

قَالَ أَهْلًا بِهَا جَمِئًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقَ ﴿١٧٨﴾

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منهما نشأوا وتفرعوا جعلاً كأنهما البشر في أنفسهما فخطوبا مخاطبتهم فقول: ﴿فإمّا يأتينكم﴾ على لفظ الجماعة، ونظيره أسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للسبب ﴿هدى﴾ كتاب وشرية. وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل

(5) سورة الاعراف، الآية: 96.

(6) سورة نوح، الآيتان: 10 و 11.

(7) سورة الجن، الآية: 16.

(8) سورة الإسراء، الآية: 97.

(1) سورة الاحراف، الآية: 203.

(2) سورة النحل، الآية: 97.

(3) سورة البقرة، الآية: 61.

(4) سورة المائدة، الآية: 66.

المفسرين.

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله: ﴿وَاطْرَافَ النَّهَارِ﴾ على الجمع وإنما هما طرفان كما قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ فِي طَرَفِي النَّهَارِ﴾⁽⁵⁾ قُلْتُ: الوجه أمن الإلباس، وفي التنثية زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين مجيئهما في قوله: ظهرهما مثل ظهور الترسين، وقرئ: ﴿وَاطْرَافَ النَّهَارِ عَطَا عَلَى آتَاءَ اللَّيْلِ. وَلَعَلَّ لِلْمَخَاطَبِ أَي: أَنْكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ طَمَعًا وَرَجَاءً أَنْ تَنَالَ عِنْدَ اللَّهِ مَا بِهِ تَرْضَى نَفْسُكَ وَيَسِرْ قَلْبُكَ، وَقرئ: تَرْضَى أَي: يَرْضِيكَ رَبُّكَ.

وَلَا تَدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَعَنَا بِهِ أَرْوَاهُ مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ رِزْقٌ رِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابِقٌ⁽¹³⁾.

﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنَكَ﴾ أي: نظر عينيك، ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يريده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنيًا أن يكون له كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَنَرَى عَظِيمٌ﴾⁽⁶⁾ حتى واجههم أولوا العلم والإيمان: ﴿يَهْدِيكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرَ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾⁽⁷⁾ وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نظر من بادى الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملاً منه عينيه قيل: ﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنَكَ﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه، ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها ﴿وَزُلْجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم؛ كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم.

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿زَهْرَةَ﴾ قُلْتُ: على أحد أربعة أوجه: على الذم وهو النصب على الاختصاص، وعلى تضمين متعنا معنى أعطينا وخولنا وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجاً على تقدير ذوي زهرة.

فإن قُلْتُ: ما معنى الزهرة فيمن حرك؟ قُلْتُ: معنى الزهرة بعينه وهو: الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة الجهرة وقرئ: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾⁽⁸⁾ وأن تكون جمع زاهر

أَلَمْ يَدِّ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ⁽¹³⁾.

فاعل. لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾ أي: تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ويدل عليه القراءة بالنون. وقرئ: ﴿يَمْشُونَ﴾ يريد أن قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون ﴿فِي مَسَاجِدِهِمْ﴾ ويعاينون آثار هلاكهم.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامٍ وَأَمَلٍ مُّسَمًّى⁽¹³⁾.

الكلمة السابقة هي: العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة. وللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى مفعول أي: ملزم كأنه آلة اللزوم لغرض لزومه كما قالوا: لزاز خصم ﴿وَأَجَلَ مَسْمًى﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفاً على كلمة، أو على الضمير في كان أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى بون الأخذ العاجل.

فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبَّحَ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَمَّا كَانَ الْمَلَأَ لِرَبِّهِمْ⁽¹³⁾.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أولاً، والأوقات على الفعل آخرًا، فكانه قال: صل الله قبل طلوع الشمس يعني: الفجر، وقبل غروبها يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصاً لهما بصلاتك، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهندو الرجل والخلو بالرب، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَوْقَوْقِلًا﴾⁽²⁾ وقال: ﴿وَأَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾⁽³⁾ ولأن الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق وللبطن آتعب وأنصب فكانت أنخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾⁽⁴⁾ عند بعض

(7) سورة النساء، الآية: 153.

(8) قال أحمد: لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رائق غير الله تعالى، كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى، لكان البحث لفظياً، فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البيئة رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه

(1) سورة الصافات، الآيتان: 78 و79.

(2) سورة المزمل، الآية: 6.

(3) سورة الزمر، الآية: 238.

(4) سورة البقرة، الآية: 238.

(5) سورة هود، الآية: 114.

(6) سورة القصص، الآية: 79.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلَّأُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْرُجَ ﴿٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْسِلٍ فَرِيسٌ سَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصَّرِيطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٥﴾

قرى: ﴿نزل ونخرى﴾ على لفظ ما لم يسم فاعله ﴿كل﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤل إليه أمرنا وأمركم. وقرى: السواء بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي، والسوى والسواى والسوء تصغير السوء، وقرى: فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ. «عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار» (3) وقال: لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه، ويس (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء مكية

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾

هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة «لاقترب» أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم كقولك: أَرَفَ للحي رحيلهم، الأصل أَرَفَ رحيل الحي، ثم أَرَفَ للحي الرحيل، ثم أَرَفَ للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقر، تأكيداً عليك زيد حريص عليك وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم: لا أباً لك، لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأول، والمراد: اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب، وغير ذلك ونحوه واقتراب الوعد الحق.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف وصف بالاقتراب وقد عدت بون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟ قُلْتُ: هو مقترب عند الله والليل عليه قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (5) ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلُونَ﴾ (6) ولأن كل أت وإن طالأت أوقات استقباله وترقبه قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأن ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين

وصفاً لهم بأنهم زاهر، وهذه الدنيا لصفاء الوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتكشف في الثياب ﴿لنفقتهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه (1) ﴿ورزق ربك﴾ هو ما أنخرله من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأبوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال ﴿خير ولبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب بون ما حرم وخبت. والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً، وعن عبد الله بن قسيط، عن رافع قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى يهودي وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب». فقال: وا الله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله: «إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض أحمل إليه درعي الحديد» (2) فنزلت ﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنُكَ﴾

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا عَنْ رِزْقِكَ وَالْغَنِيُّ لِلْفَقْرِ ﴿٣٦﴾

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بامر الرزق والمعيشة فإن رزقك مكفي من عندنا ونحن رازقوك ولا نسالك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين. قرأ: ﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنُكَ﴾ الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٣٧﴾

اقترحوا على عابثهم في التعنن آية على النبوة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن. من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ولبيل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرى: الصحف بالتخفيف. نكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى: البرهان والدليل.

(3) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي (356/2).

(4) نكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي (356/2).

(5) سورة الحج، الآية: 47.

(6) سورة الحج، الآية: 47.

= ما أباح له تناوله وما لا، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله الموفق للصواب.

(1) سورة القصص، الآية: 80.

(2) كشف الاستار كتاب، البيوع، باب: القرض والبيع إلى أجل (الحديث رقم: 1304).

خفية، فما معنى قوله: وأسروا؟ قُلْتُ: معناه وبالفوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث لا يظن أحد لتناجيهن ولا يعلم أنهم متناجون. أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو ﴿وَأَسْرُوا﴾ إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به، أو جاء على لغة من قال: اكلوني البراغيش، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسْرُوا النجوى﴾ قَدِمَ عليه، والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمّر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم افتتتون للسرّ وانتم تبصرون﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى. أي: وأسروا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً. اعتقدوا أنّ رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر فلذلك قالوا: على سبيل الإنكار اقتضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قُلْتُ: لِمَ أسروا هذا الحديث وبالفوا في إخفائه؟ قُلْتُ: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعمل المنصوبة في التثبيط عنه، وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراها ويتجاهلوا في طي سرهم عنهم ما يمكن وأستطيع، ومنه قول الناس: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان»⁽²⁾، ويرفع إلى رسول الله ﷺ يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقاً فاخبرونا بما أسرنا؟

فإن قُلْتُ: هلا قيل: يعلم السر لقوله: ﴿وَأَسْرُوا النجوى﴾! قُلْتُ: القول عام يشمل السرّ والجهر فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة، فكان أكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ كما أنّ قوله يعلم السرّ أكد من أن يقول يعلم سرهم. ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته، فكيف تخفى عليه خافية⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: فلم ترك هذا الأكّد في سورة الفرقان في قوله: ﴿هل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض﴾؟ قُلْتُ: ليس بواجب أن يجيء بالأكّد في كل موضع، ولكن يجيء

الموعود مبعثه في آخر الزمان. وقال عليه السلام: «بعثت في نسمة الساعة»⁽¹⁾. وفي خطبة بعض المتقدمين: ولت الدنيا حذاء ولم تبق إلا صباية كصباية الإناء، وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المراد بالناس: المشركون، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه: للليل القاتم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر اعرضوا، وسنوا أسماهم ونفروا.

وقرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه، وإيقاظ الموقظ بأن الله يجند لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرّز على أسماهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجدد إلا لعباً وتلهياً واستسحاراً. والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن. وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿محدث﴾ بالرفع صفة على المحل.

لَا إِلَهَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٦﴾ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾

قوله: ﴿وهم يلعبون﴾، ﴿لاهية قلوبهم﴾ حالان مترادفتان أو متداخلتان، ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة؛ لأنّ لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم، واللاهية من لها عنه إذا زهل وغفل، يعني: أنهم وإن فطنوا، فهم في قلة جدوى فطنتهم كانهم لم يفتنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم. فإن قُلْتُ: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا

= العليم وهو لا يشعر، وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشف من غوائل البعد ليتجنبها الناظر، ولما الألبّة الكلامية فمن فيها تتلقى، وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزعات مختلف، فمرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته، حتى لا يحتمل ما يدّعيه بوجه ما، وقد يلجئنا الإنصاف إلى تسليم الظهور له، فنذكر وجه التاويل الذي يرشد إليه دليل العقل، ومرة يورده نبدأ من هذا الرأي عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه، وغرضه التعسف حتى لا يخلو شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل، فقتبته على ذلك أيضاً، وما نكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه وقد أوضحناه.

(4) سورة الفرقان، الآية: 6.

(1) كشف الاستار كتاب: المواعظ، باب: اقتراب الساعة (حديث رقم 3215)، ورواه أبو نعيم في الحلية 161/4، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة (حديث رقم 2213)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (حديث رقم 14، 2967).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الحث على ترك الغل والحسد (حديث رقم 6655).

(3) قال أحمد: وهذا من اتباع القرآن للرأي نعوذ بالله من ذلك، لا سيما رأي ينفي صفات الكمال عن الله تعالى، وما الذي دل عليه السميع العليم من نفي صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع، ولا عليم إلا بعلم، فإنها صفات مشتقتان من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أولاً، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم، فقد سارع إلى إنكار السميع

الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: نوي ضرب من الأجساد، وهذا ردّ لقولهم: ما لهذا الرسول ياكل الطعام؟

فَإِنْ قُلْتَ: نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشراً ياكل ويشرب بما نكرت فماذا ردّ من قولهم بقوله: **﴿وَمَا كَانُوا خَالِئِينَ﴾**؟ **قُلْتَ:** يحتمل أن يقولوا: إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت، أو يقولوا: هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين حياتهم المتطولة وبقاءهم الممتد خلوداً.

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَمْلَكْنَا الْأَسْرَفِينَ ①.

﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ مثل: واختار موسى قومه، والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال، وصدقني سن بكره **﴿وَمِنْ نَشَاءٍ﴾** هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَتْلُونَ ②.

﴿ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم وصيحتكم كما قال: وإنه لنذكر لك ولقومك، أو موعظتكم أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطالبون بها النشأ، أو حسن الذكر كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة والسخاء، وما أشبه ذلك.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ③.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ﴾ واردة عن غضب شديد ومنابية على سخط عظيم: لأن القصر أقطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصر، وأراد بالقبرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم، وقال: **﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾** لأن المعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين. وعن ابن عباس أنها: «حضور». وهي «سحول» قريتان باليمن تنسب إليهما الثياب، وفي الحديث: «كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين» ④. وروي: حضوريين. بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم، وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناو من السماء: يا لثارات الأنبياء. ندموا واعترفوا بالخطأ وذلك حين لم ينفعهم الندم؛ وظاهر الآية على الكثرة. ولعل ابن عباس نكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ⑤.

فلما علموا شدة عذابنا وبطشتنا علم حس ومشاهدة، لم

بالوكيد تارة وبالأكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره، ليفتن الكلام اقتنائاً وتجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى، فكانه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، وثم قصد وصف ذاته، بأن إنزاله الذي يعلم السر في السموات والأرض فهو كقوله: **﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾** ①. **﴿عَالَمُ الْغُيُوبِ﴾** ②. **﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾** ③. وقرئ: **﴿قَالَ رَبِّي﴾** حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم: «أضربوا» عن قولهم: هو يسخر إلى أنه تخالط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجليج، والمبطل متحير رجاء غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أقصد من الأول والثالث أقصد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث.

بَلْ قَالُوا أَتُحَدِّثُ أَخْلَامَ بَلَى أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قُلَيْنَا مَا يَكُونُ مِنْهُ لَأَرْسِلَ أَرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ④.

صحة التشبيه في قوله: **﴿كَمَا أَرْسَلِ الْأَوَّلُونَ﴾** من حيث أنه في معنى كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد ﷺ وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة؟

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْرٍ أَهَلُكُنْهَا أَهْلُكُمْ يُؤْمِنُونَ ⑤.

﴿أَهْلُكُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه أنهم أعني من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا فاهلكهم الله، فلو أعطيتهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِنُؤْمِنَ إِلَيْهِمْ فَأَنْتَ أَهْلُ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَكْفُرُونَ ⑥.

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر، وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: **﴿وَلَتَسْمَعُنَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾** ④. فلا يكدبونهم فيما هم فيه ردة لرسول الله ﷺ.

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِيِينَ ⑤.

﴿لَا يَكُونُونَ لَطْعَامَ﴾ صفة لجسداً، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله نوي جسد غير طاعمين، ووحد

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الثياب البيض للكنف (حديث رقم 1264) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: في كفن الميت (حديث رقم 456 - 941).

(1) سورة التوبة، الآية: 78.

(2) سورة الرعد، الآية: 9.

(3) سورة سبأ، الآية: 3.

(4) سورة آل عمران، الآية: 186.

يشكوا فيها ركضوا من ديارهم.

والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ارْكضْ بِرَجْلِكَ﴾^(١) فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب؛ ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم.

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَسَكِّنْكُمْ لَمَّا تَكُونُوا تَلَاوًا يَتْلَوْنَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾

فقل لهم: ﴿لا تركضوا﴾ والقول محذوف.

فإن قلنا: من القائل؟ قلنا: يحتمل أن يكون بعض الملائكة، أو من ثم من المؤمنين، أو يجعلوا خلفه بأن يقال لهم ذلك، وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفهمهم في دينهم، أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿وارجعوا إلى ما أتتكم فيه﴾ من العيش الرفاه، والحال الناعمة والإتراف إبطار النعمة، وهي الترفه ﴿لعلكم تستلثون﴾ تهكم بهم وتوبيخ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تستلثون غدا عما جرى عليكم. ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتبوا في مراتبكم حتى يسالكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره، وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي وننزل كعادة المنعمين المخدمين؟ أو يسالكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بأرائكم، ويسالكم الوافدون عليكم والطعام ويستمتطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأبيادكم، إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رثاء الناس، وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ.

فَمَا زَالَتْ دَعْوَانَهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِثِينَ ﴿١٨﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى ﴿دعواهم﴾، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى: ﴿وآخر دعواهم إن الحمد لله رب العالمين﴾^(٢).

فإن قلنا: لم سميت دعوى؟ قلنا: لأن المولود كأنه يدعو الويل فيقول: تعالى يا ويل فهذا وقتك، وتلك مرفوع أو منصوب اسماً أو خبراً وكذلك دعواهم. الحصيد: الزرع المحصود أي: جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول: جعلناهم رماداً أي: مثل الرماد والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قلنا: كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل؟ قلنا: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد، لأن معنى قولك: جعلته حلواً حامضاً جعلته جامعاً للطعمين، وكذلك معنى: تلك جعلناهم جامعين لمائة الحصيد والخمود.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿١٩﴾

أي: وما سويها هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوي الجبابة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب؛ وإنما سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربانية لتكون مطارح افتكار، واعتبار، واستدلال، ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد، والمرافق التي لا تحصى.

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ فَوْقَ السَّمَاءِ مِنْ دُونِهَا كُفَّةً لَفَعَلَيْنَا ﴿٢٠﴾

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي، هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فإنا قادر على اتخاذها إن كنت فاعلاً لأنني على كل شيء قدير. وقوله: ﴿لاتخذه من لنا﴾ كقوله: ﴿رزقاً من لنا﴾ أي: من جهة قدرتنا، وقيل: اللهو: الولد بلفظ اليمين، وقيل: المرأة، وقيل: من لنا أي: من الملائكة لا من الإنس، رداً لولادة المسيح وعزير.

بَلْ نَقْذِرُ الْبَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ وَلَكُمْ أُتُوبُ مِمَّا قُتِلْتُمْ ﴿٢١﴾

﴿بل﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال^(٣): سبحانه أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عابتنا

== ذلك من لا نسفيه من أهل الملة عفا الله عنه إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو، فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة، وإن له أن يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فيقدرته وجده، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على اتقى قلب رجل منكم، لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على أقجر قلب رجل منكم، لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. اللهم الهمن الحق واستعملنا به.

(١) سورة ص، الآية: 42.

(٢) سورة يونس، الآية: 10.

(٣) قال أحمد: وله تحت قوله: واستغفنا عن القبيح نغين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحصى عليها في نار جهنم، وذلك أن القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح، وفعل ما يتوهمونه حسناً بقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فإن الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فإلى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى لكان بخلاً ينافي الجود، أو عجزاً ينافي القدرة حتى اتبعهم في

اتخاذهم ﴿أَلِهَةٌ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يَنْشُرُونَ﴾ الموتى، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قُلْتُ: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لألهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى⁽³⁾؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض، ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ: الله. وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر، كثنائي القديم فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً! قُلْتُ: الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشاء لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشاء من جملة المقدورات، وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ، والتجهيل، وإشعار بأن ما استبعده من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صحَّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة، ونحو قوله: ﴿مَنْ الْأَرْضُ﴾ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد مكي أو مدني، ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيدان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض، لأن الآلهة على ضربين: أرضية وسمائية، ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين ربك؟» فأشارت إلى السماء فقال: «إنها مؤمنة»⁽⁴⁾ لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكاناً لله عز وجل، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إما أن تحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

فإن قُلْتُ: لا بد من نكته في قوله⁽⁵⁾: ﴿هَمَّ﴾! قُلْتُ: النكته فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر

وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ونحض الباطل بالحق⁽¹⁾، واستعارة لذلك القذف واللمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه؛ فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف قدمغه. ثم قال: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته، وقرئ: فيمغه بالنصب وهو في ضعف قوله:

سأترك منزلي لبني تميم والحق بالحجاز فاستريحاً وقرئ: فيمغه.

وَلَمْ يَنْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿٨﴾.

﴿ومن عنده﴾ هم الملائكة والمراد أنهم مكرمون منزلون لكرامتهم عليه منزلة المقرين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: الاستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أنى الحسور! قُلْتُ: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور، وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

يَسْخَرُونَ إِلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٩﴾.

أي: تسيبهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ، أو شغل آخر.

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿١٠﴾.

هذه ﴿أم﴾ المنقطعة الكائنة بمعنى: بل، والهمزة قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو

= بأنهم لم يدعوا لها الإنشاء، وإن قوله: هم ينشرون استئناف إزام لهم، ولكنه قال اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة، ثم لما انتظم من دعوهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى نظم في إبطال هذه الدعوى، وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وأزيد هذا التقرير وضوحاً، فاقول: إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية المقتبس من نورها يورده المتكلمون على صورة التقسيم، فيقولون: لو وجد مع الله إله آخر، وربما قالوا: لو فرضنا وجود إلهين، فإما أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتيني يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشاءهم وغير ذلك من الممكنات، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر، ثم يحلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف، وأبق الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال، وما عداه قبيد الرأي يبطل، فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساداً في أخصر أسلوب وأجزءه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه، وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله: ﴿هم ينشرون﴾ إلزامهم أسماء صفات الألوهية لألهتهم حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم الذي إبطله الله تعالى، ووكل إبطال ما

(1) قال أحمد: وفي مثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوث «إن الحسنات يذهبن السيئات»، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ويمتثل أجيب عن قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فأنظره قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾.

(3) قال أحمد: فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها، وهو أبلغ في الإنكار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة (حديث رقم 33 - 537)، ورواه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: في الرقبة المؤمنة (حديث رقم 3282).

(5) قال أحمد: وفيه هذه النكته نظر؛ لأن آيات الحصر مفقودة، وليس ذلك من قبيل صديقي زيد، فإن المبتدأ في الآية أخص شيء؛ لأنه ضمير، وإيضاً فلا ينبغي على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم، وتخصيص الإنشاء بهم، ونفيه عن الله تعالى إذ هذا لا يناسب السياق، فإنه قال عقبها: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ومعناه: لو كان فيهما إله غير الله شريكاً له لفسدتا، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال: لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا، وإما المتلو على خلاف ذلك فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندني: أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله: هم الإيدان =

على الإنشراح إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن: ﴿يُنشرون﴾
وهما لغتان؛ أنشر الله الموتى ونشرها.
لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

وصفت آلهة بـإلا كما توصف بغير لو قيل: آلهة غير الله.
فإن قلْت: ما منعك من الرفع على البذل؟ قلْت: لأن لو
بمنزلة إن في أن الكلام معه موجب، والبذل لا يسوغ إلا في
الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿لا تلتفت منكم أحد إلا
امرائك﴾ (١) وذلك لأن أعم العام يصح نفيه ولا يصح إيجابه،
والمعنى: لو كان يتولاهما ويدير أمرهما آلهة شتى غير
الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، وفيه دلالة على أمرين:
أحدهما: وجوب أن لا يكون مديبرهما إلا واحداً. والثاني: أن
لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده، لقوله: ﴿إلا الله﴾.
فإن قلْت: لم وجب الأمران؟ قلْت: لعلنا أن الرعية تفسد
بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر
والاختلاف. وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن
سعيد الأشدق كان والله أعز علي من دم ناظري، ولكن
لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع
فللمتكملمين فيها تجاول وطرا، ولأن هذه الأفعال محتاجة
إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر.
لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَمَنْ يَسْتَلْهُنَّ ﴿٢٣﴾

إذا كانت عادة الملوك والجبابة أن لا يسألهم من في
ملكته عن أفعالهم، وعما يوردون ويصدرون من تدبير
ملكهم تهيئاً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد
عليهم كان ملك الملوك، ورب الأرباب خلقهم ورازقهم لولى
بأن لا يستل عن أفعاله مع ما علم، واستقر في العقول من
أن ما يفعله كله مفعول ببواعي الحكمة، ولا يجوز عليه
الخطأ ولا فعل القبيائح (٢) وههم يستلونها، أي: هم
مملوكون مستعبدون خطاؤون فما اخلقهم بأن يقال لهم: لم
فعلتم في كل شيء فعلوه؟

أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ يَنْوِي
وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

كَرَّرَ ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ استفظاعاً لشأنهم
واستعظاماً لكفرهم أي: وصفتهم الله تعالى بأن له شريكاً
فهاوتوا برهانكم على ذلك، إما من جهة العقل وإما من جهة
الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا
وتوحيد الله وتنزيهه عن الانداد مدعو إليه، والإشراك به
منهي عنه متوعد عليه. أي: ﴿هذا﴾ الوحي الوارد في
معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، كما ورد علي فقد ورد
على جميع الأنبياء فهو نكر أي: عظة للذين معي يعني:
أمته ونكر للذين من قبلي يريد أمم الأنبياء عليهم السلام
وقري: ﴿ونكر من معي وذكر من قبلي﴾ بالتثنية ومن
مفعول منصوب بالنكر كقوله: ﴿وأطعام في يوم ذي
مسغبة يتيماً﴾ (٣) هو الأصل، والإضافة من إضافة المصدر
إلى المفعول كقوله: ﴿غلبت الروم في أنى الأرض وهم
من بعد غلبهم سيفليون﴾ (٤) وقري: من معي ومن قبلي
على من الإضافة في هذه القراءة وإدخال الجار على مع
غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد وعند
وإن وما أشبه ذلك، فنخل عليه من كما يدخل على أخواته
وقري: نكر معي ونكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو
أصا الشر والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم وعدم
التمييز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض ومن
هناك ورد هذا الإنكار. وقري: ﴿الحق﴾ بالرفع على تأكيد
بين السبب والمسبب، والمعنى: أن إعراضهم بسبب الجهل
هو الحق لا الباطل، ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على
هذا المعنى كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

﴿يُوحى﴾ و ﴿نوحى﴾ مشهورتان، وهذه الآية مقررة
لما سبقها من أي التوحيد.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٢٦﴾

نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته
عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية - نافي الولادة
إلا أنهم ﴿مكرمون﴾ مكرمون عندي مفضلون على سائر
العباد (٥) لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم،

= أحد شريك الله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها
قبيائح، فتنتفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته، وما الفرق بين من
يشرك الله ملكاً من الملائكة، وبين من يشرك نفسه بربه حتى
يقول: إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشاء، تعالى الله عما
يقول الظالمون علواً كبيراً. والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك؛
لأن غيرهم اشرك بالملائكة، وهم اشركوا بنفوسهم وبالشياطين
والجن، وجميع الجيوانات. نعوذ بملك الملك من مسالك الهلك.

(3) سورة البلد، الآية: 14.

(4) سورة الروم، الآيات: 2 - 3.

(5) قال أحمد: وهذا تفسير من جعل للقرآن تبعاً للرأي، فإنه لما كان
يعتقد تفصيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس
غرضنا إلا ببيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما =

= عداه من الأقسام إلى ما ركب في عباده من العقول، وكل خطب
بعد بطلان هذا القسم جل والله الموفق، فتأمل هذا الفصل بعين
الإنصاف تجده انفس الانصاف والله المستعان.

(1) سورة هود، الآية: 81.

(2) قال أحمد: سحقاً لها من لفظة ما أسوا لبها مع الله تعالى أعني
قوله: بواعي الحكمة، فإن البواعي والصورف إنما تستعمل في
حق المحمدين، كقولك: هو مما توفر بواعي الناس إليه، أو
صورفهم عنه، وقوله: لا يجوز عليه فعل القبيائح، قلت: وهذا من
الطراز الأول، ولو أنه في الذيل

فقد نسيت وما بالمعهد من قدم
ويعمد لتقصي دليل التوحيد، وإبطال الشرك من سمعك إليها
للمخبري، وقله، وطبق بتقريره، فلم نكسب وانتكست تقول: أن =

أَوَّلَ رِءُوسٍ كَرِيمٍ ۚ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۚ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَاقًا فَفَنَقْنَا ۚ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قرئ: ﴿الم ير﴾ بغير واو و﴿رتقا﴾ بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي: كانتا مرتوقيتين.

فإن قلنا: الرق صالح أن يقع موقع مرتوقيتين؛ لأنه مصدر فما بال الرق؟ قلنا: هو على تقدير موصوف أي: كانتا شيئاً رتقا، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السموات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: ﴿ففتقناهما﴾ بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة وإنما قيل: كانتا دون كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ونحوه. قولهم: لقاحان سوداوان أي: جماعتان فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قلنا: متى راوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: فيه وجهان. أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرثي المشاهد. والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص، وهو القديم سبحانه ﴿وجعلنا﴾ لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾^(١) وكانما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾^(٢) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام «ما أنا من د ولا الد مني»^(٣)، وقرئ: حيا، وهو المفعول الثاني والظرف لغو. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا لِّمَنَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

أي: كرامة ﴿أن تميد بهم﴾ وتضطرب أو لثلا تميد بهم^(٤)، فحذف لا واللام وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس،

فذلك هو الذي غر منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علوا كبيرا، وقرئ: ﴿مكرمون﴾.

لَا يَسْقُوتُ بِالْقُورِ ۚ وَمَنْ يَأْمُرْ بِمَعْلُوكٍ ﴿٢٢﴾

ولا يسقونه بالضم من سابقته، فسبقته أسبقه والمعنى أنهم يتبعون قوله: ﴿ولا يقولون شيئا حتى يقوله﴾ فلا يسبق قولهم قوله! والمراد بقولهم: فأنيب. اللام مناب الإضافة أي: لا يتقدمون قوله بقولهم كما تقول: سبقت بفرسي فرسه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَمَنْ خَلْفَهُمْ مَّشُوقُونَ ﴿٢٣﴾

وكما أن قولهم تابع لقوله: فعملهم أيضا كذلك مبني على أمره لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه فلا يحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأمله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿مشفقون﴾، أي: متوقعون من أمارة ضعيفة كلثون على حذر. ورقبة لا يأمنون مكر الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله^(١).

وَمَنْ يَبْدُلْ مَنَّهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ ۚ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليه وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية، فأجاب بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتعميل مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾^(٢) قصد بذلك تفضيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

لا تعطيعه؛ لأنه أنسى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة وبليله مطلق، والله الموفق.

(1) كشف الاستار كتاب: الإيمان، باب: منه في الإسرار (حديث رقم 58)، ودواء البهقي في الشعب، باب: في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (حديث رقم: 155).

(2) سورة الأنعام، الآية: 88.

(3) سورة النور، الآية: 45.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(5) أخرجه في كشف الاستار كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته (حديث رقم: 2402)، ودواء البخاري في الأدب المفرد 2/256 باب: الغناء واللهو (حديث رقم 785).

(6) وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم أعدت هذه الخشبة أن تميل الحائط قائمه. قال سيبويه: ومعناه أن ادعم الحائط إذا مال، وإنما قدم ذكر الميل اهتماما بشانه؛ ولأنه

= أيضاً هو السبب في الإعدام، والإدعاء سبب في إعداد الخشبة فعامل سبب السبب معاملة السبب، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، كذلك ما نحن فيه يكون الأصل، وجعلنا في الأرض رواسي لعل أن تثبتها إذا ماتت بهم، فجعل الميّد هو السبب كما جعل الميل في المثل المذكور سببا، وصار الكلام، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد فنثبتها، ثم حذف قوله فنثبتها لامن الإلباس إيجازاً واختصاراً، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشري الآية عليه، فلن مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأن الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع كما أن مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك فكم من زلزلة مات لها الأرض، وكانت تقلب عاليها سافلها وأما على تقريره، فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مات وهذا لا يأتي وقوع الميّد، كما أن قوله أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى لا يأتي وقوع الضلال والنسيان من =

كما تزداد لذلك في نحو قوله: ﴿إِثْلَا يَعْلَمُ﴾ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج: الطريق الواسع.

فإن قُلْتُ: في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل، ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (١) قُلْتُ: لم تقدم وهي صفة ولكن جعلت حالاً كقوله:

لعزة موحشا طلل قديم

فإن قُلْتُ: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قُلْتُ: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظاً حفظه بالإمسك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكنه من الملائكة.

وَجَعَلْنَا أَسْمَاءَ سَقًّا عَمُوطًا وَهُمْ عَنْ آلِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢).

﴿عن آياتها﴾ أي: عما وضع الله فيها من الألة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومساييرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصب، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه، وقرئ: عن آيتها على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمرها والامتداء بكواكبها وحياء الأرض والحيوان بأمطارها. وهم عن كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ آيَاتٍ وَآثَارًا وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣).

﴿كل﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي: كلهم ﴿في فلک يسبحون﴾ والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها، وهو السبب في جمعهما بالشمس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير واو

العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قُلْتُ: الجملة ما محلها؟ قُلْتُ: فمحلها النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قُلْتُ: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قُلْتُ: كما نقول: رأيت زيداً وهذا متبرجة ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل؛ ومنه قوله تعالى في هذه السورة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ (٢) أو لا محل لها لاستئنافها.

فإن قُلْتُ: لكل واحد من القمرين فلک على حدة فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلک؟ قُلْتُ: هذا كقولهم: كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً؛ أي: كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس.

وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ آخِلًا أَحْيَاءَ يَتَّخِذُونَ (٣٤).

كانوا يقدرون أنه سيموت فيسمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا؛ أي: قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أنيقوا سيلقى الشامتين كما لقينا كل نفس ذائقة الموت وتلكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥).

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلاء وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. وإنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختيار و﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظة الذكر يكون بخير، وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكر. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم (٣). ومنه قوله تعالى: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ (٤).

وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُوا لَكُمْ حُزُونا أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْذُرُ الْحَبَّ حَيْثُ يَشَاءُ وَأَنَّ اللَّهَ يَصْخَرُ لِمَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْذُرُ الْحَبَّ حَيْثُ يَشَاءُ وَأَنَّ اللَّهَ يَصْخَرُ لِمَا يَشَاءُ (٣٦).

وقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ والمعنى: أنهم

= قولهم أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ ولم يقولوا: هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سواء؛ لأنهم استغفلوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم رميةً بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وحاشوها من نقل منها مفصلاً، فأومأ إليه بالإشارة المذكورة كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر، فيؤمئ إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض، فسبحان من أضلهم حتى تادبوا مع الأوثان، وأسأوا الألب على الرحمن.

(4) سورة الانبياء، الآية: 60.

= إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللحم.

(1) سورة نوح، الآية: 20.

(2) سورة الانبياء، الآية: 72.

(3) قال أحمد: وكذلك القول، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿اتقولون للحق لما جاءكم﴾ معناه: اتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتداء، فقال: أسحر هذا؟ وإنما لم يجعله معمولاً للقول ومحكياً به؛ لأنهم كفوا القول بأنه سحر، فقالوا: إن هذا لسحر مبين، ولم يشككوا أنفسهم، ولا استغفموا، وقد مضى فيه غير هذا، وإنما أطلقوا في =

وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٦﴾

ويجوز أن يكون **«يعلم»** متروكاً بلا تعدية بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين، وحين منصوب بمضمر أي: حين **«لا يكفون عن وجوههم النار»** يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أي: لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم.

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْهُتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٧﴾

يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه: **«فبهِت الذي كفر»** أي: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش: يأتيتهم فيبتهتهم على التذكير، والضمير للوعد أو للحين.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة! قُلْتُ: إلى النار أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها، أو على تأويل العدة أو الموعدة أو إلى الحين؛ لأنه في معنى الساعة، أو إلى البغته. وقيل: في القراءة الأولى الضمير للساعة وقرأ الأعمش: بغته بفتح الغين **«ولا هم ينظرون»** تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله وتفسيح وقت التذكر عليهم؛ أي: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٨﴾

سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به، بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة، وأن ما يفعلونه به يحق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالَّذِينَ وَالْتَهَارُ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ زَكْرٍ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٩﴾

«من الرحمن» أي: من بأسه وعذابه **«ببل هم»** معرضون عن نكره لا يخطرونه بباليهم فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاء منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه؛ والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالئ، ثم بيّن أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن نكر من يكفؤهم.

أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَلَكْتُ عَنْ دُونِهَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٤٠﴾

ثم اضرب عن ذلك بما في **«أم»** من معنى بل. وقال: **«أم لهم آلهة تمنعهم»** من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره. ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاء

عاكفون على نكر آلهتهم بهمهمهم وما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء ويسوءهم أن ينكرها ذاكراً بخلاف ذلك؛ وأما نكر الله وما يجب أن ينكر به من الوجدانية فهم به كافرون لا يصنفون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزواً منك فإنك محق وهم مبطلون. وقيل: معنى بنكر الرحمن قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيئمة. وقولهم: وما الرحمن؟ انسجد لما تأمرنا! وقيل: بنكر الرحمن بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أي: يتخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزة والسخرية وهي الكفر بالله.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ سَاطِرٍ كَيْفَ لَا تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٤١﴾

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾

«ويقولون متى هذا الوعد» فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولاً ذم الإنسان على إقراط العجلة وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم؛ كانه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروي: أنه لما نخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما نخل جوفه اشتبه الطعم. وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه النضر بن الحرث؛ والظاهر أن المراد الجنس. وقيل: العجل: الطين، بلغة حمير. وقال شاعرهم: والنخل ينبت بين الماء والعجل، والله أعلم بصحته.

فَإِنْ قُلْتَ: لم نهاهم عن الاستعجال؟ مع قوله: **«خلق الإنسان من عجل»** (١) وقوله: **«وكان الإنسان عجولاً»** (٢) أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ قُلْتُ: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبيها أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقرئ **«خلق الإنسان»** (٣) جواب لو محذوف، وحين مفعول به ليعلم أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: **«متى هذا الوعد»** (٤) وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدم فلا يقدرون على نفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجنون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هوته عندهم.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٤) سورة يونس، الآية: ٤٨.

إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ مَلَكَ عَلَيْهِمُ الظُّمَرُ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنفَعُهَا مَنْ أَرْضَواها أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٤﴾

وما كلاتناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم ﴿حتى طال عليهم﴾ الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمانينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغيلون، ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ وأمد كائب ﴿أفلا يرون أننا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام.

فإن قلّت: أي فائدة في قوله: ﴿نأتي الأرض﴾! قلّت: الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبية عليها ناقصة من أطرافها.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٥٥﴾

قري ﴿ولا يسمع الصم﴾: ولا تسمع الصم بالثناء والياء أي: لا تسمع أنت الصم ولا يسمع رسول الله ﷺ ولا يسمع الصم من أسمع.

فإن قلّت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر، كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل: ﴿إذا ما ينذرون﴾؟ قلّت: اللام في الضم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والأصل، ولا يسمعون إذ ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمّر للدلالة على تصامهم وسددهم أسمعهم إذا نذروا أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجراسة على التصام من آيات الإنذار.

وَلَكِنْ سَتَنُنَزِّلُ لَكَ نَوْحًا مِنْ عَدَابٍ رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَكَ مَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ولكن مستهم﴾ من هذا الذي ينذرون به الدنيا شيء لا دعوا ونلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفي المس والنحة ثلاث مبالغات لأن النفع في معنى: القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه بغطية رضحته ولبناء المرة.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ شَيْئًا وَلَٰكِنْ كُنَّا نَقْصَالُ حَكْمًا مِنْ حَزْمٍ لِّأَنَّهَا رَفَعْنَا حَسْبَهُمْ ﴿٥٧﴾

وصفت ﴿الموازنين﴾ بالقسط وهو: العدل مبالغة كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف أي: نوات القسط واللام في ﴿ليوم القيامة﴾ مثلاً في قولك: جئت لأخمس

ليال خلون من الشهر ومنه بيت النابغة:

ترسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
وقيل: لاهل يوم القيامة أي: لأجلهم.

فإن قلّت: ما المراد بوضع الموازين؟ قلّت: فيه قولان: أحدهما: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة من غير أن يظلم عباده مثقال ذرة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويوزن بها الأعمال عن الحسن. هو ميزان له كفتان ولسان. ويروى: أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا إلهي من ذا الذي يقدر أن يمثلاً كفته حسنات؟ فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأته بتمرة.

فإن قلّت: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض! قلّت: فيه قولان: أحدهما: توزن صحائف الأعمال. والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة؛ وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. وقرئ ﴿مثقال حبة﴾ على كان التامة كقوله تعالى: ﴿وإن كان نو عسرة﴾^(١) وقرأ ابن عباس ومجاهد ﴿أتينا بها﴾، وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى: المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب. وفي حرف أبي جثنا بها وأثت ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكُمُ اللَّيْلِينَ ﴿٥٨﴾

أي: آتيناهما ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة ﴿و﴾ آتيناه به ﴿ضيء﴾ ونكرًا للمتقين. والمعنى: أنه في نفسه ضياء ونكرًا، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء ونكرًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الفرقان والفتح كقوله: ﴿يوم الفرقان﴾^(٢). وعن الضحاك: ﴿فلق البحر﴾ وعن محمد بن كعب: المخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس ضياءً بغير ولو وهو حال عن الفرقان. والنكر: الموعظة، ونكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، أو الشرف.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْخِيفَةِ وَهُمْ مِنْ آثَارِهِ شُكُورٌ ﴿٥٩﴾

محل ﴿الذين﴾ جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه.

وَمَنْ ذَكَرْ مِثْرًا نَزَّلْنَاهُ أَفَانًا لَّمْ يَسْكُرُوا ﴿٦٠﴾

﴿وهذا نكر مبارك﴾ هو القرآن وبركته كثرة منافعه وغزارة خيره.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴿٦١﴾

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح. قال الله تعالى: ﴿فإن أنستهم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾^(٣) وقرئ: رشده

(١) سورة النساء، الآية: 6.

(٢) سورة البقرة، الآية: 280.

(٣) سورة الأنفال، الآية: 41.

عليه كما تبين الدعاوى بالبينات لأنني لست مثلكم فأقول: ما لا أقدر على إثباته بالحجة كما لم تقدرُوا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيلوا على أنكم وحيتم عليه آباءكم. وَتَالَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾.

قرأ معاذ بن جبل: بالله. وقرئ: ﴿تولوا﴾ بمعنى: تتولوا. ويقولها قوله: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾⁽³⁾. فَإِنْ قُلْتَ: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قُلْتُ: إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه. لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره، ولعمري أن مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصاً في زمن نمرود مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرته دينه.

ولكن إذا الله سنى عقد شيء تيسرا روي: أن أزر خرج به في يوم عيد لهم فببوا ببنت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا: إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعمانا، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنماً مصطفة وشم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرهما كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه. عن قتادة قال: ذلك سراً من قومه. وروي سمعه رجل واحد.

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿جذذاً﴾ قطعاً عن الجذ وهو القطع، وقرئ: بالكسر والفتح، وقرئ: جذذاً جمع جذيد وجذذاً جمع جذة، وإنما استبقى الكبير؛ لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم، فيبكتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوههم﴾⁽⁴⁾، وعن الكلبي ﴿إليه﴾ إلى كبيرهم، ومعنى هذا: لعلمهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحاً والفأس على عاتقك؟ قال: هذا بناءً على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها، أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم واستجهالاً، وإن قياس حال من يسجد له ويؤمله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل.

فإن قُلْتَ: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم، فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضاً؟ قُلْتُ: إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

قَالُوا مَنْ عَمَلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْهَاءً إِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾.

والرشد، والرشد كالعدم والعدم، ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن ﴿من قبل﴾ أي: من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعة وأساراً عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدتها حتى أهله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك: في خير من الناس أنا عالم بفلان، فكلارك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل.

إِذْ قَالَ لِأَيُّوهُمُ مَا كَذَبُوا أَتَأْتِلُ إِلَهِ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا وَمِمَّا يَنْتَهِنَا لَهَا عَيْرِينَ ﴿٦١﴾.

﴿إذ﴾ إما أن يتعلق بآتيناً أو برشده أو بمجنوف، أي: أنكر من أوقات رشده هذا الوقت قوله: ﴿وما هذه للتمائيل؟﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها. لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى، كقولك: فاعلون العكوف لها، أو واقفون لها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: عليها عاكفون! كقوله تعالى: ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾⁽¹⁾ قُلْتُ: لو قصد التعنية لعداه بصلته التي هي على ما أقيح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قتلوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء وجابون في نصرته مذهبهم، ومجاللون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم.

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْوَءَ أَبَاؤَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِمَلِكٍ أَوْ أَنْتَ مِنْ آلِ الْعَمِينِ ﴿٦٣﴾.

﴿انتقم﴾ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به؛ لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع، ونحوه ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾⁽²⁾ أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أبنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير ليل، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل؟!.

قَالَ بَلْ رَكَّبُوا رَبَّ تَوَاسُوًى وَأَلْزَمُوا الْغِيَاثَ وَنَجَّوْا عَنْ دَارِكٍ مِنْ الشَّهِيدِ ﴿٦٤﴾.

الضمير في ﴿فطرهن﴾ للسّموات والأرض أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أسهل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها كما تصح الدعوى بالشهادة كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن

(3) سورة الصافات، الآية: 90.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 63.

(1) سورة الاعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 35.

ويدعى إليها أن يقدر على هذا، وأشد منه. ويحكي: أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها.

وقرأ محمد بن السميع: فعله كبيرهم. يعني: فعله أي: فعل الفاعل كبيرهم.

نَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿أنتم الظالمون﴾ على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلدتم من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين.

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَصِفُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة مضارة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أचारوا جواباً إلا ما هو حجة عليهم وقرى: نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما سمي فاعله، أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم، قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

أَفِ لَكُمْ رَيْبًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

﴿أف﴾ صوت إذا صوّت به عليم أن صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عنهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم، واللام لبيان المتأفف به أي: لكم ولألهتكم هذا التأفف.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَادَّعُوا إِلَهُتَكُمْ إِن كُنْهُمْ فَعَلَيْكَ ﴿١٨﴾ فَنَارُ الْكَافِرِينَ هَكَذَا قَالَ أُولَٰئِكَ خَلْقُكُمْ فَادَّعُوا إِلَهُتَكُمْ ﴿١٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٠﴾

أجمعوا رأيهم لما غلبوا بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافترض لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفرع إلا مناصبته كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة، والذي أشار بإحراقه نمرود. وعن ابن عمر رضي الله عنهما رجل من أعراب العجم يريد الأكراد، وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثا، وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم عليه السلام ثم أشعلوا ناراً عظيمة كانت الطير تحترق في الجو من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فرموا به فيها فناداها جبريل عليه السلام ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً﴾، ويحكي ما أحرقت منه إلا وثاقه وقال له جبريل

أي: أن من فعل هذا الكسر والحطم لتشديد الظلم معبود في الظلمة، إما لجرائته على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام، وإما لأنهم رأوا إفراطاً في حطهم وتماديًا في الاستهانة بها.

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢١﴾

فإن قلنا: ما حكم الفعلين بعد ﴿سمعنا فتى﴾، وأي: فرق بينهما؟ قلنا: هما صفتان لفتى، إلا أن الأول وهو ﴿يذكرهم﴾ لا بد منه لسمع، لأنك لا تقول: سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع، وإما الثاني: فليس كذلك.

فإن قلنا: ﴿إبراهيم﴾ ما هو؟ قلنا: قيل: هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى، والصحيح أنه فاعل ﴿يقال﴾ لأن المراد: الاسم لا المسمى.

قَالُوا فَاتَّبَعُوهُ بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا أَأَتَتْكَ مُلَكٌ هَٰذَا إِنَّمَا يُكَذِّبُوكُمُ ﴿٢٣﴾

﴿على أعين الناس﴾ في محل الحال بمعنى معانين مشاهداً، أي: بمرأى منهم ومنظر.

فإن قلنا: فما معنى الاستعلاء في علي؟ قلنا: هو وارد على طريق المثل أي: يثبت إثباته في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه. ﴿لعلهم يشهدون﴾ عليه بما سمع منه وبما فعله، أو يحضرون عقوبتنا له.

روي: أن الخبر بلغ نمرود وأشراف قومه فأمروا بإحضاره.

قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ هَٰذَا تَتَكَلَّمُونَ إِنَّكُمْ كَانُوا بِطُغْيَانٍ ﴿٢٤﴾

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضية من علماء المعاني، والقول فيه: إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيته، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كأن قصصك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك، وإثباته للآمي أو المخرمش؛ لأن إثباته والأمرد دائر بينكما للعجز منكما استهزاء به، وإثباته للقادر ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو الذي تسبب لاستهانة بها وحطه لها، والفعل كما يسند إلي مباشرة يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبيهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد

وَقَامَ الصَّالِحُ وَرِثَهُ الزُّكُورُ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ﴿٧٦﴾

﴿يهودون بامرنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتناقل عنها، وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل **﴿فعل الخيرات﴾** أصله أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وَلَوْ مَا آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِّنَهُ مِنَ الزَّكَاةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَفَتَحَتْ لَهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوِيَّةُونَ ﴿٧٧﴾

﴿حكمنا﴾ حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم وقيل: هو النبوة، والقرية: سنوم.

وَأَذَلَّنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾

أي: في أهل رحمتنا أو في الجنة ومنه الحديث: «هذه رحمتي أرحم بها من أشياء».

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوِيَّةٌ فَاعْرِضْهُمْ آبَعِينَ ﴿٨٠﴾

﴿من قبل﴾ من قبل هؤلاء المنكوريين.

هو نصر الذي مطاوعه انتصر، وسمعت هنلينا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي: اجعلهم منتصرين منه، والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

وَدَاوُدَ وَبَلَغْنَاهُ إِذْ يَخْصِمُكَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ عَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾

أي: وانكرهما **﴿إذ﴾** بدل منهما، والنفث: الانتشار بالليل. وجمع الضمير: لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما وقرئ: لحكمهما.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا دَاوُدَ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٢﴾

والضمير في **﴿فقهمناهها﴾** للحكومة أو الفتوى وقرئ: فافهمناها، حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكم فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بابلانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أقسد ثم يترادان، فقال: القضاء ما قضيت وامضى الحكم بذلك.

﴿فإن قلنت﴾ احكما بوحى أم باجتهاد؟ قلنت: حكما جميعاً بالوحي إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان عليهما

عليه السلام حين رمي به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. وأطل عليه نمرود من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال: إني مقرب إلى إلهك فنبح أربعة آلاف بقرة؛ وكف عن إبراهيم وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه، ولذلك جاء: «لا يعذب بالنار إلا خالقها»^(١) ومن ثم قالوا: **﴿إن كنتم فاعلين﴾** أي: إن كنتم ناصرين ألهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات، وهي الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها، ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهداً في ذلك جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كما مأمور أمر بشيء فامتثلته، والمعنى: ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كان ذاتها برد وسلام، والمراد إبرؤي فيسلم منك إبراهيم أو إبرؤي برداً غير ضار، وعن ابن عباس رضي الله عنه لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

﴿فإن قلنت﴾ كيف بردت النار وهي نار؟ قلنت: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم ويدل عليه قوله: **﴿على إبراهيم﴾** وأرادوا أن يكونه ويمكروا به فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين؛ غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه.

وَبَجِّنَاهُ وَلَوْ مَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا لَفَعَلْنَا بَنِي

نجيا من العراق إلى الشام وبركاته الواصلة إلى العالمين إن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وأثارهم اللينة وهي البركات الحقيقية وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغني والفقير، وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم وقيل: «ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بببيت المقدس»^(٢). وروي: أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٨٣﴾

النافلة: ولد الولد وقيل: سال إسحق فاعطيه وأعطى يعقوب نافلة أي: زيادة وفصلاً من غير سؤال.

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ

(2) لم يورد الزيلعي هذا.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب الله (حديث رقم 3016)، ورواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار (حديث رقم 2673).

والياء والتاء وتخفيف اللصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل، والتاء للصنعة أو للبوس على التأويل الدرر والياء لدادود أو للبوس.

وَلَمَّا تَنَزَّلَتِ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ (٨٦).

قرئ: الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء، والنصب على العطف على الجبال.

فإن قلئت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة، وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما! قلئت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم^(١)، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال: «غدوها شهر ورواحها شهر»^(٢) فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكمكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة، وقيل: كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفاً لهبوبها على حكم إرادته، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُؤْصِرُ لَمْ يَعْصِرْ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكَأَنَّ لَهُمْ حَنَظِيمًا (٨٧).

أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون تلك إلى الأعمال والمهن وبناء المداين والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبللوا، أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

وَأَوْرَثَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِسَيِّئَ الْعَثَرِ وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٨) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَنزَلْنَا أَهْلَهُ مِنْهَا بِرَحْمَةٍ مِّنْ عِزِّكَ وَإِذْ كُنَّا لِّلْعَالَمِينَ (٨٩).

أي: ناداه باني مسني الضر، وقرئ: إني بالكسر على إضمار القول، أو لتضمن التداء معناه والضر بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض، وهزال فرق بين البناءين، لافتراق المعنيين لطف في السؤال حيث نكر نفسه بما يوجب الرحمة، ونكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب، ويحكى: أن عجزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشيت جردان بيتي على العصي، فقال لها: اللفت في السؤال لا جرم لأرندتها تثب وثب الفهود، وملا بيتها حباً.

كان أيوب عليه السلام روميّاً من ولد إسحق بن يعقوب عليهم السلام وقد استنبأه الله، وبسط عليه الدنيا وكثر أهله

السلام وقيل: اجتهدا جميعاً فجاء اجتهد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب.

فإن قلئت: ما وجه كل واحدة من الحكومتين! قلئت: أما وجه حكومة داود عليه السلام فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه في العبد إذا جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك، أو يفديه، وعند الشافعي رضي الله عنه يبيعه في ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه حكومة سليمان عليه السلام: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً، فأبق من يده: أنه يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر تراء.

فإن قلئت: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها؟ قلئت: أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيه ضماناً بالليل، أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد والشافعي رضي الله عنه يوجب الضمان بالليل وفي قوله: «فقهمناهما سليمان» ليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام، وفي قوله: «وَكَلَّا تَيْنَا حَكَمًا وَعِلْمًا» ليل على أنهما جميعاً كانا على الصواب «يسبحن» حال بمعنى: مسبحات أو استئناف كان قائلاً قال كيف سخرهن فقال: يسبحن «والطير» إما معطوف على الجبال، أو مفعول معه.

فإن قلئت: لم قدمت الجبال على الطير! قلئت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأل على القبرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق روي: أنه كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قلئت: كيف تنطق الجبال وتسبح؟ قلئت: بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى، وجواب آخر وهو أن يسبح من رآها تسير بتسير الله، فلما حملت على التسبيح وصفت به «وَكُنَّا فَاعِلِينَ» أي: قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم وقيل: وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

وَعَلَّمْنَاهُ صِنَاةَ بُرْسٍ لَّكُم لِّتُحْصِنَ كُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٩٠).

اللبوس: اللباس، قال: البس لكل حالة لبوسها. والمراد الدرر. قال قتادة: كانت صفائح فأول من حها داود فجمعت الخفة والتحصين، «لتحصنكم» نون

(١) قال أحمد: وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان، وتارة بأنها ثعبان، والجبان الرقيق من الحيات، والثعبان العظيم الجاني منها، ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ففي =

(٢) كل واحد من الريح والرياح والعصا على هذا التقرير معجزتان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٢.

يفسر بالقدره على معنى: أن لن نعمل فيها قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى، فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان، وما يوسوس إليه في كل وقت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُظَنُّونَ بِأَشْأَاءِ الظُّنُونِ﴾⁽¹⁾ والخطاب للمؤمنين ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾⁽³⁾ وقيل: ظلمات بطن الحوت وقيل: ظلمات البحر والليل وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر. ﴿أَنْ﴾ أي: بأنه ﴿إِلَّا إِلَهُ إِلَّا أَنْتَ﴾ أن بمعنى: أي، عن النبي ﷺ: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»⁽⁴⁾، وعن الحسن: ما نجاه الله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ شَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿ننجي﴾ وننجي ونجي والنون لا تدغم في الجيم، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال: نجي النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسندته إلى مصدره، ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد للتعسف.

وَرَكَّبْنَا إِيَّاهُ ثَوَدًا رَكَّبَ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾

سأل ربه أن يرزقه ولدًا يرثه ولا يدعه وحيدًا بلا وارث، ثم رد أمره إلى الله مستسلمًا فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.

فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَا لَهُ نَجْوَاهُ وَأَرْسَلْنَا لَهُ رُوحَنَا إِتْمَمَ كَأَنَّهُ بُعِثُوا فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَاً وَهَبْنَا وَكَأَنَّهُ لَنَا خَلِيعُونَ ﴿٩٠﴾

إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق. الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبايعة أبواب الخير، ومساعدتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجاؤون، وقرئ ﴿رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ بالإسكان وهو كقوله تعالى: ﴿يُحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ﴿خَاشِعِينَ﴾ قال الحسن: نللا لأمر الله، وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم في القلب، وقيل: متواضعين، وسئل الأعمش، فقال:

وماله كان له سبعة بنين وسبع بنات، وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده انهدم عليه البيت فهلكوا، وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثمانين عشر سنة، وعن قتادة: ثلاث عشر سنة، وعن مقاتل: سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات، وقالت له امراته يوماً: لو دعوت الله فقال لها: كم كانت مدة الرخاء فقالت: ثمانين سنة فقال: أنا أستحي من الله أن ادعوه وما بلغت مدة بلاني مدة رخائي، فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم، وروي: أن امراته ولدت بعد ستة وعشرين ابناً ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَنُكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي: لرحمتنا العابدين، وأن ننكرهم بالإحسان لا ننسأهم، أو رحمة منا لأيوّب وتذكّره لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

وَأَسْكِنِي وَأَيُّسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الْغَدِيرِينَ ﴿٩١﴾ وَأَعْنَتْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٢﴾

قيل: في ذي الكفل هو إلياس وقيل: زكريا وقيل: يوشع بن نون، وكأنه سمي بذلك؛ لأنه نو الحظ من الله والمجود على الحقيقة، وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم وقيل: خمسة من الأنبياء نؤو اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس ونو الكفل، عيسى والمسيح، يونس ونو النون، محمد وأحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَذَا الْنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرِبًا فَلَمْ يَأْنِ أَنْ يُنْقَذَ عَلَيْهِ فُكَاةٌ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾

﴿النون﴾ الحوت فاضيف إليه برم بقومه لطول ما ذكرهم، فلم ينكروا واقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وأنفة لبيته، وبغضاً للكفر، وأهله، وكان عليه أن يصابر ويبتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف مغضباً.

قرئ: نقدر ونقدر مخففاً ومثقلاً، ويقدر بالياء بالتخفيف، ويقدر ويقدر على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، وفسرت بالتضييق عليه، ويتقدير الله عليه عقوبة، وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة ففرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك قال: وما هي يا معاوية فقرا هذه الآية، وقال: ﴿أَوْ يَظُنُّ نَبِيَّ اللَّهِ أَنْ لَا يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال: هذا من القدر لا من القنرة. والمخفف يصح أن

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 1/ 505 و2/ 382، وأخرجه البيهقي

في الشعب، باب: في محبة الله عز وجل، فصل في آدامة نكر الله عز وجل (حديث رقم 620).

(1) سورة الاحزاب، الآية: 10.

(2) سورة البقرة، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 257.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١٠٤)

الكفران: مثل في حرمان الثواب كما أنَّ الشكر مثل في إعطائه إذا قيل: الله شكور، وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا تكفر سعيه ﴿وإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: نحن كاتبوا ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

وَحَرَامٌ عَلَىٰ ذُرِّيَةٍ أَنْ كُنْتُمُ الْكَاثِبِينَ (١٠٥)

استعير الحرام للممتنع وجوده ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٣) أي: منعها منهم وأبى أن يكونا لهم، وقرئ حَرَّمَ وَحَرَّمَ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَحَرَّمَ وَحَرَّمَ ومعنى ﴿أَهْلِكُنَاهَا﴾: عزمنا على إهلاكها أو قدرنا إهلاكها، ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أنَّ قومًا عزم الله على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة، فحينئذ يرجعون ويقولون: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم، ويموتون عليه حتى يروا العذاب، وقرئ إنهم بالكسر وحق هذا أن يتم الكلام قبله، فلا بد من تقدير محنوف، كانه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذلك وهو المنكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور، ثم علل فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا أي: لأنهم لا يرجعون، ولا صلة على الوجه الأول.

حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (١١) وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ أَلَقًا وَإِذَا هِيَ تَنْقَضُ فَأَنْصَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَتُوبُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (١٢)

فَإِنْ قُلْتَ: بم تعلق ﴿حتى﴾ واقعة غاية له وآية الثلاث هي: أَلَقْتُ: هي متعلقة بحرام وهي غالة لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكي الجملة من الشرط، والجزاء أعني: إذا، وما في خبرها حذف المضاف إلى ﴿يأجوج ومأجوج﴾، وهو سدّهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها وقيل: فتحت كما قيل: أهلكناها وقرئ أجوج وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال: الناس عشرة

أما إني سألت إبراهيم، فقال: ألا تدري؟ قلت: أفندي، قال: بينه وبين الله إذا أرحى ستره وأغلق باب، فليبر الله منه خيرًا لعلك ترى أنه إن ياكل خشنًا ويلبس خشنًا ويطاطئ رأسه.

وَأَلْقَى أَحْمَصَتَ فَرَجَهَا فَفَنَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (١٣)

﴿أحصنت فرجها﴾ إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿ولم يمسنني بشر ولم أك بغيًا﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سُوِّبَتْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (١) أي: أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم أَلْقَتْ: معناه: نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها (٢) ونحو ذلك أن يقول: الزمار نفخت في بيت فلان أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا، وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

فَإِنْ قُلْتَ: هلا قيل: آيتين كما قال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أَلْقَتْ: لأنَّ حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل.

إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (١٤)

الامة: الملة، وهذه إشارة إلى ملة الإسلام أي: أنَّ ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿وإِنَّا﴾ إلهكم إله واحد، ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ونصب الحسن أُمَّتُكُمْ على البذل من هذه ورفع أُمَّة خبرًا، وعنه رفعهما جميعًا خبرين لهذه، أو نوى للثاني مبتدأ والخطاب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ (١٥)

والأصل وتقطعتم إلا أنَّ الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كانه يعني عليهم ما أقسوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلًا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم.

= المراد: التابوت، وأما موسى فلم يقذف في اليم، الزمخشري نزل قذف التابوت في اليم، وموسى فيه منزلة قذفه في اليم، وفي هذه الآية مصداق لما اختاره، فإنَّ الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

(3) سورة الاعراف، الآية: 50.

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) قال لجمد: وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل: ﴿إِذْ لَوْحُنَا إِلَىٰ أُمِّكَ أَنْ اقْنِصْ فِي التَّابُوتِ فَأَقْنِصْ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى، أما الأول فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى في اليم، وكذلك الثالث واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله: ﴿فَأَقْنِصْ فِي الْيَمِّ﴾ أنَّ

الأحسن إما السعادة، وإما البشري بالثواب وإما التوفيق للطاعة.

لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧٢﴾

يرى: أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه قرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف، ثم أقيمت الصلاة فقام بجزء رداءه وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾، والحسيين: الصوت يحس، والشهوة طلب النفس اللذة.

لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْجُ الْأَكْبَرُ وَتَلْفَنُهُمُ التَّلَاحُكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٧٣﴾

وقرئ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ﴾ من أحزن و﴿الفرج الأكبر﴾ قيل: النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (2) وعن الحسن الانصراف إلى النار، وعن الضحاک حين يطبق على النار، وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح أي: تستقبلهم ﴿الملائكة﴾ مهنيين على أبواب الجنة ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعىكم ربكم.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَتَبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧٤﴾

قد حلَّ العامل في ﴿يَوْمَ نَطْوِي﴾، لا يحزنهم أو الفرع أو تتلقاهم وقرئ تطوى السماء على البناء المفعول، و﴿السجل﴾ تزن العتل والسجل بلفظ الدلو وروي فيه الكسر وهو الصحيفة، أي: كما يطوى الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه أو لما يكتب فيه؛ لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وقيل: السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعول، نعيد الذي يفسره ﴿نُعِيدُهُ﴾ والكاف مكفوفة بما والمعنى: نعيد أَوَّلَ الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.

فَإِنْ قُلْتُ: وما أَوَّلَ الخلق حتى يعيده كما بدأه! قُلْتُ: أَوَّلُهُ إيجاده عن العدم فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم.

فَإِنْ قُلْتُ: ما بال خلق منكراً! قُلْتُ: هو كقولك: هو أَوَّلَ رجل جاءني تريد أَوَّلَ الرجال، ولكنك وحشته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكنك معنى أَوَّلَ خلق: أَوَّلَ الخلق بمعنى: أَوَّلَ الخلائق؛ لأن الخلق مصدر لا يجمع، ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمّر يفسره نعيده، وما موصولة أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده وأَوَّلَ خلق

أجزاء تسعة منها ياجوج وماجوج ﴿وهم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم ياجوج وماجوج يخرجون حين يفتح السدّ الحب: النشر من الأرض، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: من كل جند وهو القبر الناء حجازية، والفاء تميمية، وقرئ ﴿يَنْسَلُونَ﴾ بضم السين، ونسل وعسل أسرع.

إِنَّا كُنَّا وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٧٥﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً مَا وَدَّعَهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٦﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وما تعبدون من دون الله﴾ يحتمل الأصنام، وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم، ويصدق ما روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أقحمه ثم تلا عليهم: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية فاقبل عبد الله بن الزبير فرأهم يتهامون، فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبير: آثنت قلت ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتهك رب الكعبة ليس اليهود عبدوا عزيزاً، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة، فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَى﴾ الآية (1) يعني: عزيزاً والمسيح والملائكة عليهم السلام.

فَإِنْ قُلْتُ: لم قرنوا بآلهم! قُلْتُ: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستشفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فَإِنْ قُلْتُ: إذا عنيت بما تعبدون الأصنام فما معنى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾ قُلْتُ: إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن واحد جاز أن يقال لهم: زفير، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس.

والحصب: المحسوب به أي: بحصب بهم في النار والحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد وصفاً بالمصدر، وقرئ حطب وحضب بالضاد متحرّكاً وساكناً.

وعن ابن مسعود يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون، ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

إِنَّ الْأَوَّلَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿١٧٨﴾

﴿الحسنى﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تانيث

ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحى إلي فتكون ما موصولة.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ مَدَّيْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَبْتُمْ أَوْبَهُنَّ أَرَبَيْدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّكُمْ يَعْلَمُ السَّجَّارُ مِنْ أَلْفَوْا وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥﴾.

أَنَّنْ منقول من أَنَّنْ إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْزِلُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (2) وقول ابن حنزة: أَنَّنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءَ

والمعنى: أَنِّي بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله، وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هنة فاحس منهم بغيرة فنبت إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وأنهم جميعاً بذلك ﴿على سواء﴾ أي: مستويين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم، وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه ﴿وما توعدون﴾ ه من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من أن يلحقكم بذلك النلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك لأن الله لم يعلمني علمه، ولم يطلعني عليه والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، ﴿وما تكتُمون﴾ ه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه.

وَلَا أَدْرِي أَلَمَلَكُمْ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَّعْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾.

وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم ﴿إلى حين﴾ ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ لِلَّذِينَ هَمَزُوا لَكُمْ كِتَابَ الْفَتْحِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ وَلَا أُنْتَبِئُونَ ﴿١٧﴾.

قرئ: ﴿قل﴾ وقال: على حكاية قول: رسول الله ﷺ ﴿وَرَبِّ احْكُم﴾ على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم، وربِّي احكم على أفعال التفضيل، وربِّي احكم من الأحكام أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر، ومعنى ﴿بالحق﴾: لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال: «أشد وطأتك على مضر» (3)، قرئ: ﴿تصفون﴾ بالطاء والياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين وخذلهم، عن رسول الله وآله ﷺ: «من قرأ: اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن» (4).

ظرف لبداناه أي: أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى ﴿وعداء﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿نعيد﴾ عدة للإعادة ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي: قادرين على أن نفعل ذلك عن الشعبي رحمة الله عليه. وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٨﴾.

زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعني: اللوح أي: يرثها المؤمنون بعد إجلال الكفار كقوله تعالى: ﴿وإورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ (1) قال موسى لقومه: استعينوا بالله، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي أرض الجنة وقيل: الأرض المقدسة ترثها أمة محمد ﷺ الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد والمواظ.

إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاءِ لَعُوقًا ﴿١٩﴾ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٠﴾.

البالغة والبالغ الكفاية، وما تبلغ به البغية أرسل ﷺ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾.

﴿رحمة للعالمين﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها، ومثاله أن يفجر الله عيناً غديقة فيسقي ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفرقيين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرما ما ينفعها وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢﴾.

إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأن ﴿إنما يوحى إلي﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و﴿إنما إلهكم إله واحد﴾ بمنزلة إنما زيد، قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية، وفي قوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع،

(1) سورة الأعراف، الآية: 137.

(2) سورة البقرة، الآية: 279.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (حديث رقم 804)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع =

= الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة حديث رقم (294 675).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره، ورواه الزيلعي 2/372.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج مكية

غير ست آيات وهي هذان خصمان إلى قوله: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾^(١) وهي ثمان وسبعون آية.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ

(١)

الزَّلزلة شدة التحريك والإزعاج، وإن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها، ولا تخلو «الساعة» من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف، وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهِيَ الزَّلْزَلَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^(٢) واختلف في وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهل صفه لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدايد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يترنوا به، وروي أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقراهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا بالسروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرًا وكانوا من بين حزين، وبك ومفكر^(٣).

يَوْمَ تَرْوِيهَا تَدْمَلُهُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَرَى النَّاسُ سُكْرِيًّا وَرَأَاهُمْ سُكْرِيًّا وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٤).

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بـ ﴿تدمل﴾ والضمير للزلزلة. وقرئ: ﴿تدمل كل مرضعة﴾ على البناء للمفعول وتدمل

كل مرضعة أي: تدملها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل «مرضعة» دون مرضع؟ قُلْتُ: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تبشر الإرضاع في حال وصفها به^(٥) فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألفت الرضيع ثديها نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشة «عما أرضعت» عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن تدمل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ «وقري» بالضم من أريتك قائمًا، أو رؤيتك قائمًا و«النفس» منصوب ومرفوع والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنته على تأويل الجماعة، وقرئ سكرى وبسكرى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان وسكارى وبكسارى، نحو كسالى وعجالي وعن الأعمش سكرى وبسكرى بالضم، وهو غريب والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله. وتمييزه وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى^(٦) من الشراب.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل أَوَّلًا ترون، ثم قيل: ترى على الإفراة؟ قُلْتُ: لأن الرؤية أَوَّلًا علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا راثين لها وهي معلقة أخيرًا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم راثيًا لسائرهم. وَرَى النَّاسُ مَنْ يَمْشِي فِي اللَّهِ يَغْمِرُ عَلَيْهِ وَيَخْفِى كُلُّ شَيْءٍ مِّنْهُ

(٢)

قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، والله غير قاهر على إحياء من بلي وصار ترابًا، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعرض فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق

بحمار فتدني عنه الحقيقة، فكنك الآية بعد أن أثبت السكر المجازي نفى الحقيقي أبلغ نفى مؤكد بالياء، والسر في تأكيد التنبية على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: «ولكن عذاب الله شديد» راجع إلى قوله: «وما هم بسكارى» وكأنه تعليق لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب؟ وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب الله تعالى. ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقل كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه: نفسي نفسي.

(١) سورة الحج، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ١.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج،

(الحديث: 3169)، وأخرجه الحاكم في المستدرک، 4/567.

(٤) قال لعمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، لكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل، و خروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله: «عما أرضعت» فلخرج الصفة على الفعل والحقه التاء.

(٥) قال لعمد: والعلماء يقولون: إن من ألة المجاز صدق نقيضه كقوله: زيد حمار إذا وصفته بالبلادة، ثم يصق أن تقول وما هو =

وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً قدر على إعادة ما أبداه بل هذا أنخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس ورود الفعل غير معدى إلى المبين إلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته، وعلمه ما لا يكتننه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبيدة ليبين لكم ويقر بالياء، وقرئ ونقر وخرجكم بالنون والنصب، ويقر ويخرجكم ويقر ويخرجكم بالنصب والرفع، وعن يعقوب نقر بالنون وضم القاف من قر الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر ﴿في الأرحام ما يشاء﴾ أن يقره من ذلك ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر أو تسعة أو سنتين أو أربع أو كما شاء وقدر وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام، أو أسقطته والقراءة بالنصب لتعليل معطوف على تعليل ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدرج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا، والناس: أن نقر في الأرحام من نقر حتى يوللوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم، ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثم لتبلغوا نضجكم﴾ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من الفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة، والقتود والاباطيل وغير ذلك وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ ومنكم من يتوفى أي: يتوفاه الله ﴿أرذل العمر﴾ الهرم والخرف حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته ضعيف البنية سخييف العقل قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقبه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي: ليصير نساء بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه، وبزل عنه علمه حتى يسأل عنه من سألته يقول لك: من هذا فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سألته عنه، وقرأ أبو عمر والعمر بسكون الميم الهامدة الميتة اليابسة وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معينة كررها الله في كتابه ﴿اهتزت وربت﴾ تحركت بالنبات وانتفخت، وقرئ ربأت أي: ارتفعت، البهيج الحسن السائر للناظر إليه، أي: ذلك الذي نكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم، واللطائف حاصل بهذا، وهو السبب في حصوله، ولولا لم يتصور كونه وهو ﴿إن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى، وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد.

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾

عن ابن عباس أنه أبو جهل ابن هشام، وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص وقيل: الأول في المقلدين وهذا في المقلدين. والمراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير الوحي أي:

والباطل، ﴿ويتبع﴾ في تلك خطوات ﴿كل شيطان﴾ عات علم من حاله وظهر، وتبين أنه من جعله ولياً له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء البدع والحشوة المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أولياً بل هم أشد الشياطين إضلالاً، واقطعهم لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدويناً ولقنوه أشياعهم تلقيناً، وكانهم ساطوه بلحومهم وبماثهم وإياهم عني من قال:

ويارب مقفر الخطابين قومه طريق نجاة عندهم مستونهج ولو قرأ في اللوح ما خط فيه من بيان اعوجاج في طريقته عجوا اللهم ثبنتا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك، وأنبيائك في أرضك وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُسَلَّمُ وَيَهْدَى إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٩﴾

والكتابة عليه مثل أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

وقرئ ﴿أنه﴾ و﴿فأنه﴾ بالفتح والكسر فمن فتح فلان الأول فاعل كتب، والثاني: عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما تقول: كتبت إن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل أو على أن كتب فيه معنى القول.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ آلِهَةِ فَلَا تَخْلَقُوكُمْ مِّنْ رَّبِّ ثُمَّ مِنْ تُلْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لَكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَى أَرْذَلِ الْأُمُورِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَرَبِّ الْأَرْضِ هَادِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَانْتَبَتْ مِنْ كُلِّ رِجٍّ وَجِيحٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ مَوْلَاهُ وَجَّيَ الْمَوْتِ وَآتَاهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُ مَائِنَةً لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الجلب، والطرذ في الجلب، والطرذ كانه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ربيكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلق قطعة الدم الجامدة والمضغة اللحمية الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة المسواة للمساء من النقصان والعيوب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه، وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساة كأن الله تعالى يخلق المضع متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع تلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم وتماهم، ونقصانهم وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقه إلى خلقه ﴿لنبيين لكم﴾ بهذا التدرج قدرتنا، وحكمنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين الماء والتراب

يجادل بظن وتخمين لا بأحد هذه الثلاثة.

ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَبِذِقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْآلَمِينَ (٩).

وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصغير الخذ وليي الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر. وعن الحسن: ثاني عطفه بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿ليضل﴾ تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا كَانَ غَرَضُهُ مِنْ جَدَالِهِ الضَّلَالِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فكيف علل به، وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال! قُلْتُمْ: لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه، وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال وخزيه ما أصابه يوم بدر من الصغار، والقتل والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يظْلِمَ لِلْعَبِيدِ (١٠).

هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار، وإثابتة الصالحين.

وَمَنْ آتَاكَ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ آمَنَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْهُ عَلَى رَجْوِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْآمِنُ (١١).

﴿على حرف﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون، وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنمة قر واطمان وإلا فر وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أغارب قمنوا المدينة وكان أحدهم: إذا صح بدنه، ونتجت فرسه مهراً سريعاً وولدت امرأته غلاماً سوياً، وكثرت ماله ومشايته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً، واطمان وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب. وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم، فأصابته مصائب فتشامم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: «إن الإسلام لا يقال» فنزلت (١)، المصاب بالحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله جامع على نفسه محتتين إحداهما ذهاب ما أصيب به، والثانية ذهاب ثواب الصابرين فهو خسران الدارين، وقرئ: خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢).

استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعد في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض! قُلْتُمْ: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرراً، ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول: هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاهها لها.

يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْغَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤).

﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرر يدعو كأنه قال: يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شقيقاً لبئس المولى وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام، المولى الناصر، والعشير: صاحب كقوله: ﴿غفيس القرين﴾.

مَنْ كَانَتْ يَدُّهُ أَوْ لَنْ يَصْرُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥).

هذا كلام قد دخله اختصار والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن من حاسديه، وأعادييه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيبه أنه يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيبه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته، فاختنق فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيبه، وسمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل: للبهز القطع، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكذب به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيبه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحققهم على المشركين يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت.

وقد فسر النصر بالرزق وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام فليبلغ غاية الجزع، وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً، أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١١).

آيات بينات و ١- **إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي** به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيناً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِنَهْمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ (١٧).

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: الأليان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن جعل الصابون مع النصاري لأنهم نوع منهم، وقيل: يفصل بينهم يقضي بينهم أي: بين المؤمنين والكافرين وأدخلت أن على كل واحد من جزائي الجملة لزيادة التوكيد ونحوه قول جرير:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ أَنْ اللَّهَ سَرِبَ لَهُ سَرِبَالُ مَلِكٍ بِهِ تَرْجَى الْخَوَاتِيمِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ
وَالنَّعْمُ وَالْجِبَالُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَكثيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكثيرٌ
حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ (١٧).

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها سجوداً له، تشبيهاً لمطاوعتها بإسخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد، وهو السجود الذي كل خضوع بونه.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: **وكثير من الناس**، وبما فيه من الاعتراضين أحدهما: أن السجود على المعنى الذي فسرت به لا يسجده بعض الناس دون بعض والثاني أن السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجنّ أو لا فإسناده إلى كثير منهم آخر مناقضة؛ **قلت:** لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل، وإنما أرفعه بفعل مضمّر يدل عليه قوله: يسجد أي: ويسجد كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة، والعبادة في حق هؤلاء؛ لأنّ اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب لأنّ خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: **حق عليه العذاب** ويجوز أن يجعل من الناس خبراً له أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتقون ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب، كانه قيل:

وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب، وقرئ: حق بالضم، وقرئ: حقاً أي: حق عليهم العذاب حقاً، ومن أهانه الله بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره، أو فسقه فقد بقي مهاناً لن تجد له مكرماً، وقرئ: مكرم بفتح الراء بمعنى: الإكرام إنه **يفعل ما يشاء** من الإكرام والإهانة ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين، واعتقاد المعتقدين.

هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّا يَنْبَغِيَ لَهُمْ
ثَبَاتٌ مِنْ نَارٍ يُسَبِّحُ مِنْ قَبْلِ رُؤُوسِهِمْ الْحَمِيمُ (١٨) يُصْهِرُ يَوْمَ مَا فِي
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠).

الخصم صفة وصف بها الفوج، أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان، أو فريقان مختصمان، وقوله: هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا ولو قيل: هؤلاء خصمان أو اختصما جاز يراد المؤمنون، والكافرون قال: ابن عباس رجع إلى أهل الأديان الستة **في ربهم** أي: في دينه وصفاته، وروي أن أهل الكتاب قالوا: للمؤمنين نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم وقال: المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتكم به حسداً فهذه خصومتهم في ربهم **فألان كفروا** هو فصل الخصومة المعنى بقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** وفي رواية عن الكسائي خصمان بالكسر.

وقرئ: قطعت بالتخفيف كأن الله تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جنثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض، ونحوه سراويلهم من قطران **الحميم** الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

يُصْهِرُ يَوْمَ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠).

يُصْهِرُ يذاب وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة أي: إذا صبّ الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أحشائهم، وأمعاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: **يوسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** (١).

وَلَمْ يَخْلُجْ مِنْ حَبِيرٍ (٢١).

والمقامع: «السياط» في الحديث: لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقتلوا» (٢).

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٢) أحمد في المسند 29/3، وأبو يعلى في المسند، (الحديث رقم: 1388).

﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترافقتان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كانه قال: ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالمًا، ﴿نُنَقِّهِ مِنْ عَذَابٍ قَلِيلٍ﴾ يعني: أنَّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده وقيل: الإلحاد في الحرم منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير الاحتكار، وعن عطاء قول: الرجل في المبايع لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل، والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقليل له: فقال: كنا نحدث أنَّ من الإلحاد فيه أن يقول: الرجل لا والله وبلى والله⁽²⁾ وقرئ: يرد بفتح الياء من الورد ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالمًا، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم أراد إلحادًا فيه فاضافه على الاتساع في الظرف كمكر الليل، ومعناه أن يرد أن يلحد فيه ظالمًا وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إن الذين كفروا ويصنون عن المسجد الحرام ننقيهم من عذاب اليم، وكل من ارتكب فيه ذنبًا فهو كذلك عن ابن مسعود الهمة في الحرم تكتب ذنبًا.

وَأَنَّا لَنَبْغِ بِكَ أَهْلَ الْبَيْتِ أَن لَا تُدْرِكُوا فِي شَيْءٍ وَلَوْ أَنَّ بَنِي اللَّحْيَةِ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ⁽³⁾

وانكر حين جعلنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مباءة أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال: لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على إسه القديم، وإن هي المفسرة.

فإن قُلْتَ: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوة؟ قُلْتَ: كانت التبوة مقصودة من أجل العبادة، فكانه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأصنام والأوثان والأقدار أن تطرح حوله، وقرئ: يشرك بالياء على الغيبة.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ⁽⁴⁾

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ ناد فيهم وقرأ ابن محيصن وأذن والنداء بالحج أن يقول: حجوا وعليكم بالحج وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم⁽³⁾ وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع⁽⁴⁾ ﴿رِجَالًا﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام وقرئ: رجالاً بضم الراء مخفف الجيم، ومثقله ورجالي كعجالي عن ابن عباس ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوفة على حال كانه قال: رجالا وركبنا ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع وقرئ: يأتون صفة

كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ عَمْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ⁽⁵⁾

وقرأ الأعمش رنوا فيها والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنَّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفًا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ⁽⁶⁾

﴿يحلون﴾ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال ﴿لُؤْلُؤًا﴾ بالنصب على ويؤتون لؤلؤًا كقوله: وجورًا عينا، ولؤلؤًا بقلب الهمزة الثانية وأوًا ولؤلؤًا بقلبها واوين، ثم تقلب الثانية ياء كادل ولؤل كادل فيمن جز ولؤلؤ وليليا بقلبها يامين عن ابن عباس.

وَهُدًى إِلَى الْكَافَّةِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَهُدًى إِلَى سَبِيلِ الْغَيْدِ⁽⁷⁾

وهدهم الله والهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهدهم إلى طريق الجنة يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين لا يرد حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمته وأوقاته، ومنه قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَمَلُ فِيهِ وَالْبَاطِلُ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْعَمَلِ يَطْلُوعُ نُفْقُهُ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ⁽⁸⁾

﴿ويصنون عن سبيل الله﴾ أي: الصدود منهم مستمر دائم ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانى وطارئ ومكي وأفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين إنَّ المراد بالمسجد الحرام: مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي لا يتمتع ذلك وقد حاور إسحق بن راهويه فاحتج بقوله: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾⁽¹⁾ قال: انسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها واشترى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه، أو غير مالكيه ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب قراءة حفص والباقيون على الرفع ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه أي: جعلناه مستويا ﴿وَالْعَمَلُ فِيهِ وَالْبَاطِلُ﴾، وفي القراءة بالرفع الجملة مفعول ثان الإلحاد العدول عن القصد، وأصله إلحاد الحافر وقوله:

(1) سورة الحج، الآية: 40.

(2) رواه الطبري في تفسيره، وأبو الوليد الأزرق في تاريخ مكة،

زيلعي 381/2.

(3) الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 381/2.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي 381/2.

فإن قلَّت: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع! قلَّت: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهه فعل به ما فعل.

ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَثَمَ إِلَّا مَا يَثُلُ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا أَلَيْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٢٠).

﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن تلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل منك، وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمت خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلو لا يستثنى من الأنعام ولكن المعنى ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ آية تحريمه وذلك قوله: في سورة المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ والمعنى أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البخيرة والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك، لما حث على تعظيم حرماته واحمد من يعظمها اتبعه الأمر باجتنب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطواً وجمع الشرك، وقول الزور في قرآن واحد وذلك أن الشرك من باب الزور لأن المشرک زاعم أن الوثن تحق له العبادة، فكانه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتمايه في القبح، والسماجة وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله: ﴿رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ (٣) جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب ﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس وتمييز له كقولك: عندي عشرون من الدراهم لأن الرجس منهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والزور من الزور والازورار وهو كما أن الإفك من إفكه إذا صرفه، وقيل: قول

للرجال والزكبان والعميق البعيد، وقرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

لِيَسْهَدُوا مَنَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ تَعَلُّوْنِي عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَتَمَّةِ فَكَلُوا مِنْهَا وَلَطَعُمُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ (٢١).

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حجّ فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بنكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن نكر اسمه إذا نحرّوا، أو نبجوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى أن ينكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً أن جمع بين قوله: ﴿ليذكروا اسم الله﴾ وقوله: ﴿على ما رزقهم﴾ ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من تلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات أيام العشر عند أبي حنيفة وهو قول: الحسن وقتادة وعند صاحبيه أيام النحر البهيمية مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالاكل منها أمر بإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا ياكلون من نساكهم، ويجوز أن يكون نبأ لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحباب الفقهاء أن ياكل الموسع من أضحيتة مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث يهدي وقال: فيه إذا نحرته فكل وتصنق، وأبعث منه إلى عتبة^(١) يعني: ابنه وفي الحديث كلوا وأنحروا، واتنحروا^(٢) ﴿البائس﴾ الذي أصابه بؤس أي: شدة. و﴿الفاقر﴾ الذي أضعفه الإعسار.

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَكَنُّهُمْ وَلِيُوفُوا نُذْرَهُمْ وَلِيَقْطَرُوا يَاسِينَ الْغَرِيْبَ (٢٢).

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث الوسخ فالمراد قضاء إزالة التفث، وقرئ: وليوفوا بتشديد الفاء ﴿نذورهم﴾ مواجب حجهم أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم ﴿وليوطؤوا﴾ طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع ﴿العتيق﴾ اللقيم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن وعن قتادة اعتق من الجبابة كم من جبار سار إليه ليهدمه، فمنعه الله وعن مجاهد لم يملك قط وعنه اعتق من الغرق وقيل: بيت كريم من قولهم: عتاق الخيل والطيور.

= في حبس لحوم الاضاحي، (الحديث رقم: 2812)، والنسائي في الضحايا، باب: الاخير من الاضاحي، (حديث: 4443).

(3) سورة المائدة، الآية: 90.

(1) الطبراني في معجمه.

(2) أخرجه مسلم في الاضاحي، باب: ما كان من النهي عن اكل لحوم الاضاحي، (حديث رقم: 28)، وأبو داود في كتاب: الاضاحي، باب: =

المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكروهون المكاس فيهنّ الهدى والأضحية والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعهها ويشترى بثمنها ديناً، فنهاه عن ذلك وقال: بل أهدها⁽³⁾ وأهدى رسول الله ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب⁽⁴⁾، وكان ابن عمر يسوق البدن مجلّة بالقباطي، فيتصدق بلحومها وبجلالها⁽⁵⁾ ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها، وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به، ويسارع فيه ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال نوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزء إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن تنحر، ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و ﴿ثم﴾ التراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنما يعتقد الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: ﴿تربون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾⁽⁶⁾ وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع ﴿محلها إلى البيت﴾ أي: وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هياً بالغ الكعبة﴾⁽⁷⁾ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت، ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتموه، واتصل مسيركم بحوده وقيل: المراد بالشعائر المناسك كلها ومحلها إلى البيت العتيق بإياه.

الزور قولهم: هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افتراءهم وقيل: شهادة الزور عن النبي ﷺ أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً، واستقبل الناس بوجهه وقال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، وتلا هذه الآية⁽¹⁾ وقيل الكذب والبهتان وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

حُفَّتْ لَهُ عَيْنُ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَوِيٍّ⁽³¹⁾.

يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهاً مركباً فكانه قال: من أشرك بالله فقد اهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء، فاختطفته الطير ففترق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفروقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهالوي المتلفة⁽²⁾، وقرئ: فتخطفه وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تخطفه، وقرئ: الرياح.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شُكْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ⁽³²⁾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى آبَتٍ الْعَتِيقِ⁽³³⁾.

تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حسناً سماناً غالبية الأثمان، ويترك

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/321، وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: في شهادة الزور، (الحديث رقم: 3599)، والترمذي في كتاب: الشهادات، باب: ما جاء في شهادة الزور، (الحديث رقم: 2300).

(2) قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفروقاً، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك باللهوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين، إما أن يكون الإشراك المراد ربه، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بليمانه، ثم هبط بارتداده، وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به، ثم عدوله عنه اختياراً بمنزلة من علا إلى السماء، ثم هبط كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ فعدم مخرجين من النور وما نخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه، وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا، وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكفار بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويع الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق نظر، لأن الأمرين نكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزع الشيطان، فقد جعلهما شيئاً واحداً؛ لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء مضاف إلى نزع الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود، والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما الأول منهما المتذبذب، =

= والمتماذي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفه الطير، وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه، إلا انتهت منه آخر، وذلك حال المنذبذ لا يلوح له خيال، إلا اتبعه ونزل عما كان عليه، والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل، فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخياء عن السماء. وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ ﴿وضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي: صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين والله أعلم.

(3) تقدم تخريجه سابقاً.

(4) كشف الاستار، كتاب: الحج، باب: ما جاء في الهدى، (الحديث رقم: 1104).

وأخرجه نحوه أبو داود في سننه، كتاب: الحج.

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: العمل في الهدى، حيث يساق (الحديث رقم: 146).

(6) سورة الأنفال، الآية: 67.

(7) سورة المائدة، الآية: 95.

يديها، فتقوم على ثلاث، وقرى: صوافي أي: خوالص لوجه الله وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتثنية عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صواف نحو مثل العرب أعط القوس باريها بسكون الياء وجوب الجنوب، وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة غربت والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها حل لكم الأكل منها والإطعام **«القانع»** للسائل من قنعت إليه، وكنعت إذا خضعت له وسألته قنوعاً **«والمعتر»** المعترض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده، وبما يعطي من غير سؤال من قنعت قنعة وقناعة والمعتر المعترض بسؤال، وقرأ الحسن والمعترى وعمره وعراه واعتراه واعتبه بمعنى، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقنec.

من الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البين مثل التسخير الذي راوا، وعلموا ياخذونها منقاداً للآخذ طيبة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لبانها ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً، وأقل قوة وكفى بما يتبادل من الإبل شاهداً وعبرة.

لَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا يَمْلَأُهَا وَلَكِنْ يَأْتِيهِ النَّفَرُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْثِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٢٧).

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهرقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى: لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثرت تلك منهم، وقرى: لن تنال الله ولكن تناله بالثناء والياء وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البين نضحوا له ماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أربابوا مثل ذلك فنزلت، كَرَّرَ تذكير النعمة بالتسخير، ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لإعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعنيته.

إِنَّ اللَّهَ يُدْعِي عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَاذِبٍ (٢٨).

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرتهم لهم كما قال: **«إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا»** (٢٩) وقال: **«إنهم لهم**

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٠).

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أي: ينبجوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسمائه على النساءك، وقرى: **«منسكاً»** بفتح السين وكسرهما وهو مصدر بمعنى: النسك والمكسور يكون بمعنى: الموضع **«قله تسلموا»** أي: أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً، أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك. المحيئون المتواضعون الخاشعون من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَتْ فَلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَّبِعِينَ السُّلُوكَ وَكَأَنَّ رَزَقَهُمْ يُفْقَرُونَ (٣١).

وقرأ الحسن **«والمقيمي الصلاة»** بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعْمِكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِنَّا وَجَّعْتُ جُؤُنُهَا فُكْرًا مِنَّا وَلَطَوْنَا أَلْقَانِجَ وَالْمَعْرُ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَمْلِكُمْ تُشْكُرُونَ (٣٢).

«البدن» جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة (١) فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة، وأصحابه وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن والبدن بضمين كثر في جمع ثمرة وابن أبي إسحق بالضمين، وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرى: بالنصب والرفع كقوله: **«والقمر قدرناه»** (٢) **«من شعاعش الله»** أي: من إعلام الشريعة التي شرعها الله وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها **«لكم فيها خير»** كقوله: **«لكم فيها منافع»** (٣) ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير، ومنافع بشهادة الله عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنائير، فاشتري بها بدنة فقيل له: في ذلك فقال: سمعت ربي يقول: **«لكم فيها خير»** وعن ابن عباس دنيا وأخرة وعن إبراهيم من احتاج إلى ظهرها ركب ومن احتاج إلى لبنيها شرب، ونكر اسم الله أن يقول: عند النحر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك، **«صواف»** قائمات قد صففن أيبيهن وأرجلهن، وقرى: صوافن من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبله لأن البدنة تعقل إحدى

= رقم: 904، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: ما تجزى عنه البقرة في الضحايا، (الحديث رقم: 4394).

(2) سورة يس، الآية: 39.

(3) سورة الحج، الآية: 33.

(4) سورة غافر، الآية: 51.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: الإشراف في الهدى، (الحديث رقم: 350 - 1318)، وأبو داود في السنن، كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزير عن كم تجزى، (الحديث رقم: 2809)، وأخرج الحديث: «الجزير عن سبعة» (الحديث رقم: 2808)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الإشراف في البدنة والبقرة، (الحديث

وأولياؤه.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عِقَابُ الْأُمُورِ ^(١١) وَلَنْ
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَرَمُودٌ ^(١٢).

هو اخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم ان مكنتهم في الارض، وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله قد اثنى عليهم قبل ان يحسنوا من الخير ما احسنوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لان الله لم يعط التمكن، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ في ذلك للانصار والطلاقا وعن الحسن هم أمة محمد ﷺ، وقيل: الذين منصوب بدل من قوله: من ينصره والظاهر انه مجرور تابع للذين اخرجوا ﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من اظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

يقول لرسول الله ﷺ: تسليية له لست بأوحدى في التكنيب فقد كذب الرسل قبلك اقوامهم، وكفك بهم أسوة.

وَقَوْمٌ لَزِبُوا قَوْمَ لُوطٍ ^(١٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ مُؤَيِّنًا قَالَتْ لَأَكْفِرَنَّ لَكَ أَمْ أَتَاكَ بُرْهَانٌ مِّنَ رَبِّكَ ^(١٤)

فإن قلنا: لم قيل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ ولم يقل وقوم موسى! قلنا: لأن موسى ما كذب قومه بنو إسرائيل وإنما كذب غير قومه، وهم القبط وفيه شيء آخر كانه قيل: بعد ما نكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته ^(١٥) وعظم معجزاته فما ظنك بغيره، النكير بمعنى: الإنكار والتغيير حيث أبطلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعامة خرابا.

فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ هَارِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُطْمَئِنَّةٌ وَفَصَّيْنَا فِيهَا دُمُوءًا مِّنْ دُمُوءِ قَوْمِ نَوَافٍ ^(١٦)

كل مرتفع اظلك من سقف بيت، أو خيمة، أو ظلة، أو كرم فهو عرش، والهاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل وقوله: ﴿على عروشها﴾ لا يخلو من ان يتعلق بخاوية، فيكون المعنى: انها ساقطة على سقفها أي حرت سقفها على الارض، ثم تهتت حيطانها فسقطت فوق السقف، أو انها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإما ان يكون خبرا بعد خبر كانه قيل: هي

المنصورون ^(١١) وقال: ﴿وآخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ ^(١٢) وجعل العلة في ذلك انه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغشونها، ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

أَوَلَمْ يَلِيزُوا لِيَوْمٍ يَكُونُ فِيهِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ذِئْبٌ وَنُفَرٌ ^(١٣)

﴿أَنَّن﴾ و﴿يَقَاتِلُونَ﴾ قرنا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعا والمعنى: أنن لهم في القتال فحذف المانون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿بِلَانِهِمْ ظُلُمُوا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤنونهم أذى شديدا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإنني لم أومر بالقتال حتى هاجر ^(١٤) فانزلت هذه الآية وهي أول آية أنن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأنن لهم في مقاتلتهم، والاخبار بكونه قادرا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجابرة.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِمَا رَزَقُوا مِنَ اللَّهِ وَلَوِىَ دَفْعُ اللَّهِ الدُّنْيَا عَنْ الْقَوْمِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(١٥) وَلَقَدْ جَاءَ إِسْرَافِيلُ فَطَافَ بِالنَّفْسِ وَلَقَدْ حَفِظْتُ لَهُمْ فَتًى فَمَآ تَلَوْتُمُوهَا عَلَيْهِمْ غَوِیَاتٍ لَّا يَحْصَوْنَ السَّعْيَاتِ وَلَا يُلَاحِظُونَ يُدْعَىٰ لَهُمُ الْحِسَابُ ^(١٦)

وما مر من دفعه عن الذين آمنوا مؤنن يمثل هذه العدة أيضا ﴿أَن يَقُولُوا﴾ في محل الجر على الإبدال من حق أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار، والتمكن لا موجب الإخراج والتسيير ومثله ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله﴾ ^(١٧) دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمئتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لربانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في نمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقرئ: دفاع ولهدمت بالتخفيف وسميت الكنيسة صلاة لانه يصلي فيها، وقيل: هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا ﴿مَنْ يَنْصُرْهُ﴾ أي: ينصر دينه

= تكنيهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فَأَمَلِيتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيتصل المسبب بالسبب كما قال في آية ق بعد تعديدهم ﴿كَلَّا كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰ﴾ كذب الرسل فحق وعيد فربط العقاب والوعيد وصلهما بالتكنيب بعد أن جدد نكره والله أعلم.

(1) سورة الصافات، الآية: 172.
(2) سورة الصف، الآية: 13.
(3) قال الزيلعي غريب جداً. زيلعي 388/2.
(4) سورة المائدة، الآية: 59.
(5) قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أنه لما صدر الكلام بحكاية

مكان العمى هو القلوب لا الأيصار كما تقول: ليس المضاء للسيف؛ ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيتك للسانك، وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف، وأثبتته للسانك فقلت ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدًا.

رَسَّيْلُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (١٧).

انكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل كأنه قال: ولم يستعجلون به كأنهم يجوزون الفوت، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبينهم، ولو بعد حين^(١). وهو سبحانه حلیم لا يعجل ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أن يومًا واحدًا عنده كآلف سنة عنكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيتكم لأن أيام الشدائد مستطالة، أو كان ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كأنه سنة من سني العذاب وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ: تعدون بالتاء والياء.

وَكَأَنِّ مِنَ قَرِيبٍ أُنْذِرُكُمْ هَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَكُمْ لَذِكْرِكُمْ وَإِنْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨) قُلْ يَتُوبُ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَلَكِنْ أَنتُم مِّنْ قَوْمٍ تُهْمُونَ (١٩) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ وَالْأَهْلَ الْأَخْيَارَ وَالْأَهْلَ الْأَخْيَارَ وَالْأَهْلَ الْأَخْيَارَ (٢٠) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ وَالْأَهْلَ الْأَخْيَارَ وَالْأَهْلَ الْأَخْيَارَ (٢١).

ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد انظرتهم حينًا، ثم اخذتهم بالعذاب والمرجع إلي وإلى حكمي. فإن قلت: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء وهذه بالواو؟ قلت: الأولى وقعت بدلًا عن قوله: ﴿فكيف كان نكير﴾ وأما هذه فحكمها حكم ما تقتضها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله: ﴿ولن يخلف الله وعده وإن يومًا عند ربك كآلف سنة﴾ يقال: سعت في أمر فلان إذا أصلحه، أو أفسده بسعيه وعاجزه سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرًا وشعراً وأساطير ومن تثبیط الناس عنها سابقين، أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم.

فإن قلت: كان القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير لنكر الفريقين بعده! قلت: الحديث مسوق إلى المشركين وهما أيها الناس، نداء لهم، وهم الذين قيل: فيهم ﴿أقلّم﴾

خالية وهي على عروشها أي: قائمة مطلة على عروشها على معنى: أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان، وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قلت: ما محل الجملتين من الإعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية؟ قلت: الأولى في محل النصب على الحال والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على أهلكتناها، وهذا الفعل ليس له محل قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكتنا وكم بشر عطلنا عن سقاتها وقصر مشيدًا خليئها عن ساكنيه، فترك ذلك لدلالة معطلة عليه وفي هذا دليل على أن على عروشها بمعنى: مع أوجه روي أن هذه بشر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت وإنما سميت بذلك لأن صالحًا حين حضرها مات وثمة بلدة عند البئر اسمها حضوراء بناها قوم صالح، وأمروا عليهم جلهس بن جلاس وإقاموا بها زمانًا ثم كفروا، وعبدوا صنمًا وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًا، فقتلوه فاهلكهم الله وعطل بثرهم وخرب قصورهم يحتمل أنهم لم يسافروا.

أَفَلَمْ يَبْهَرُوا فِي الْأَرْضِ فَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَمَّا لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٢٢).

فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وإن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كان لم يسافروا ولم يروا وقرئ: ﴿فيكون لهم قلوب﴾ بالياء أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي ﴿فإنها﴾ الضمير ضمير الشأن، والقصة يجيء منكراً ومؤنثاً وفي قراءة ابن مسعود، فإنه ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره ﴿الأبصار﴾ وفي تعمي ضمير راجع إليه والمعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم أو لا يعتد بعمى الأبصار، فكانه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قلت: أي: فائدة في نكر الصدور؟ قلت: الذي قد تورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحقيقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين، وفضل تعريف ليتقرر أن

= لا ترجون الله وقاراً فقد فسر بالعظمة، فليس من هذا، وعلى الجملة، فهو موقوف على ثبت في النقل.

(١) قال أحمد: الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة السكون، وطمانينة الأعضاء عند المزعجات، والأناة والثؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف، وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿وما لكم﴾

قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الْفَاطِمِينَ لِيُشْفِيَ بِعِيْرِ ﴿٥٢﴾

والذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ المنافقون والشاكون ﴿والقاسية قلوبهم﴾ المشركون المكذبون ﴿وإن الظالمين﴾ يريد إن هؤلاء المنافقين والمشركين وأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم.

وَلَعَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخَفَّ لَكُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

﴿إنه الحق من ربك﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق من ربك والحكمة ﴿وإن الله لهادٍ للنبيين آمنوا إلى﴾ أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعثرهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ ﴿لهادٍ الذين آمنوا﴾ بالتثنية.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيزَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٥٥﴾

الضمير في ﴿مرية منه﴾ للقرآن أو للرسول ﷺ، اليوم العقيم يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ربح عقيم إذا لم تنشئ مطراً ولم تلحق شجراً وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه وعن الضحاك أنه يوم القيامة، وإن المراد بالساعة مقدماته ويجوز أن يراد بالساعة ويوم عقيم يوم القيامة وكأنه قيل: حتى تأتيتهم الساعة، أو تأتيتهم عذابها فوضع يوم عقيم موضع الضمير.

أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

فإن قلنا: التثنية في ﴿يومئذٍ﴾ عن أي: جملة ينوب! قلنا: تقديره الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مریتهم، لقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة﴾.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَزَائِرٌ غَيْرَةٌ ﴿٥٨﴾

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوى بينهم في

يسيروا في الأرض ﴿١﴾ ووصفوا بالاستعجال وإنما أقحم المؤمنون وثوبهم ليغافروا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفِتْنُ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَمْرَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿من رسول ولا نبي﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبي وعن النبي ﷺ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل: فكم الرسل منهم قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً»^(٢) والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه، وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم، واستنزلهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة والنجم وهو في نادى قومه وذلك التمنى في نفسه فاخذ يقرأها فلما بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾^(٣) ﴿اللقى الشيطان في أمنيته﴾ التي تمناه أي: وسوس إليه بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجي»^(٤)، وروى الغرانيقة ولم يفتن له حتى أدركته العصمة فتنه عليه وقيل: نبهه جبريل عليه السلام، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وإبتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت مكن الله الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيك إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين، ويزيد في عقاب المنبذين وقيل: تمنى قرأ وأنشد:

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل وأمنيته قراءته وقيل: تلك الغرائق إشارة إلى الملائكة أي: هم الشفعاء لا الأصنام ﴿فينسخ الله ما يلقي للشيطان﴾ أي: يذهب به ويبطله ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أي: يثبتها.

لِيَحْكُمَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: «فاجعلوا لله واعبدوا» (الحديث: 4862).

(٢) سورة فاطر، الآية: 26.

(٣) سورة الحج، الآية: 20.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، 178/5.

الموعِدَ وَأَنْ يُعْطِيَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا يُعْطَى مَنْ قُتِلَ تَفْضِيلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا.

لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخِلًا يُرِضُونَهُ ۚ وَلِئِنْ أَسْأَلَهُ لَعَلِّمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حليم﴾ عن تفريط المفرط منهم بفضله، وكرمه روى أن طوائف من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك، فأنزل الله هاتين الآيتين.

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

تسمية الابتداء بالجزاء لملاسته له من حيث أنه سبب
وذلك مسبب عنه كما يحملون النظر على النظر والنقيض
علم، النقيض للملاسة.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف طابق نكر العفو الغفور هذا الموضع؟
قُلْتَ: المعاقب مبعوث من جهة الله عزَّ وجلَّ على الإخلال
بالمعاقب، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم
ومنسوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن أثر ما ندب إليه
وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر نكرك وانتصر وعاقب
ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ﴾ ^(١) ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ^(٢) ﴿وَمَنْ صَبَرَ
وَعَفَا إِنَّ نَازِلَ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ^(٣)، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُو غَفُورٌ
أَي: لَا يُلَوِّمُهُ عَلَى تَرْكِ مَا بَعَثَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ ضَامِنٌ لِنَصْرِهِ
فِي كَرْتِهِ الثَّانِيَةِ مِنْ إِخْلَالِهِ بِالْعَفْوِ وَانْتِقَامِهِ مِنَ الْبَاغِي عَلَيْهِ،
وَيَجُوزُ أَنْ يُضْمَنَ لَهُ النَّصْرُ عَلَى الْبَاغِي وَيَعْرَضُ مَعَ ذَلِكَ
بِمَا كَانَ أَوَّلَى بِهِ مِنَ الْعَفْوِ وَيُلَوِّحُ بِهِ بِنَكَرِ هَاتَيْنِ الصَّفَتَيْنِ
أَوْ دَلَّ بِنَكَرِ الْعَفْوِ، وَالْمَغْفِرَةِ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْعُقُوبَةِ لِأَنَّهُ
لَا يُوصَفُ بِالْعَفْوِ إِلَّا الْقَادِرُ عَلَى ضَدِّهِ ﴿نَكَرُكَ﴾ أَي: ذَلِكَ
النَّصْرُ بِسَبَبِ أَنَّهُ قَادِرٌ.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيمٌ بَصِيرٌ ﴿٦٦﴾

ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أو يسبب أنه خلق لليل والنهار ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر واليغي والإنصاف وأنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَعْنَى إِيلَاجِ أَحَدِ الْمُلُوكِ فِي الْآخِرِ؟ قُلْتُمْ: تَحْصِيلُ ظِلْمَةٍ هَذَا فِي مَكَانِ ضِيَاءِ ذَلِكَ بِغَيْبِيَّةِ الشَّمْسِ وَضِيَاءِ ذَلِكَ فِي مَكَانِ ظِلْمَةِ هَذَا بِطُلُوعِهَا كَمَا يُضِيءُ السَّرْبُ بِالسَّرَاجِ وَيُظْلَمُ بِفَقْدِهِ وَقِيلَ: هُوَ زِيَانَتُهُ فِي أَحَدِهِمَا مَا يَنْقُصُ مِنَ الْآخِرِ مِنَ السَّاعَاتِ.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ. هُوَ
الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٦﴾

وَقَرَأَ ﴿تَدْعُونَ﴾ بِالْتَّاءِ وَالْيَاءِ وَقَرَأَ الْيَمَانِي: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بِلَفْظِ لَمَبْنِي لِلْمَفْعُولِ وَالْوَاوِ رَاجِعَةً إِلَى مَا لَأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْاَلَهَةِ أَي: نَلْكَ الْوَصْفُ يَخْلُقُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالْإِحَاطَةَ بِمَا يَجْرِي فِيهِمَا وَإِسْرَافَ كُلِّ قَوْلٍ: وَفَعَلَ بِسَبَبِ أَنَّهُ اَللَّهُ اَلْحَقُّ الثَّابِتُ اَلْإِلَهِيَّةُ وَإِنْ كُلُّ مَا يَدْعَى إِلَهًا بُونَهُ بَاطِلُ الدَّعْوَةِ وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ شَأْنًا وَأكْبَرُ سُلْطَانًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَفْجَأَ اللَّهُ أَرْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصَيِّحُ الْأَرْضُ
مُخَضَّرَةٌ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَلَهُ اللَّهُ لَهْرُ الْقَوْمِ الْكَافِرِ ﴿١٤﴾

قرئ ﴿مخضرة﴾ أي: ذات خضر على مفعلة كمفعلة
ومسبعة.

فإن قُلْتُ: هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع! قُلْتُ: لنتكه فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان.

كما تقول: أنعم على فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكراً
له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع نك الموضع.

فَإِنْ قُلْتَ: فما له رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام! **قُلْتَ:** لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأنَّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول: لصاحبك ألم تر أنني أنعمت عليك، فتشكر إن نصبت فانت ناف لشكره شك تقيطه فيه وإن رفعته فانت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من التسم بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله ﴿لطيف﴾ وأصل علمه أو فضله إلى كل شيء.

﴿خبير﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَak يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَبِمَسْكِ السَّكَّةِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

﴿ما في الأرض﴾ من البهائم مذلة للركوب في البحر ومن المراكب جارية في البحر وغير ذلك من سائر المسخرات، وقرئ **﴿والفلك﴾** بالرفع على الابتداء **﴿إن تقع كراهة إن تقع﴾** **﴿إلا﴾** بمشيئته.

وَهُوَ الَّذِي أَنْعَاكُمْ ثُمَّ يُثَبِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْحِكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

﴿إِحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جمادًا ترابًا ونطفةً وعلقةً ومضغةً ﴿الْكُفُور﴾ لاجود لما أقض عليه من ضروب النعم، هو نهي لرسول الله ﷺ أي: لا تثقت إلى قولهم ولا

بمعلوم.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ بِهِم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ (٧١).

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان
سماوي من جهة الوحي، والسمع ولا الجأهم إليها علم
ضروري ولا حملهم عليها دليل عقلي ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا
مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

وَلَا تَنفِلْ عَلَيْهِمْ إِلَهَنا بِخَبَرٍ تَعْرِفُ فِي دُجُوبِ اللَّيْلِ كَفَرُوا الْمُشْكِرُ
بِكَاذِبٍ يَشْكُرُ بِاللَّيْلِ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ إِلَهَنا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ
ذِكْرِ النَّارِ وَعْدَ اللَّهِ لَيْتَ كَفَرُوا وَشَرُّ الْمَصِيرِ (٧٢).

﴿المشكر﴾ الفظيع من التجهم والبسور، أو الإنكار
كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ يعرف والمنكر، والسطو
الوثب والبطش، قرئ ﴿الفار﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ
محذوف كأن قائلًا قال: ما هو فقيل: النار أي: هو النار
وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البذل من شر من
نلكم من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم أو مما
أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلى عليكم
﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ
ووعدها خبرًا وإن يكون حالا عنها إذا نصبته أو جررتها
بإضمار قد.

فإن قُلْتَ: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً؟
قُلْتَ: قد سميت الصفة، أو القصة الرائعة الملتقاة
بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال
المسيرة لكونها مستحسنة مستقرية عندهم.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ حُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعْمَرُوا لَهُ إِنَّ اللَّيْلَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالطَّلُوبُ (٧٣).

قرئ ﴿تدعون﴾ بالياء والياء ﴿يدعون﴾ مبنياً للمفعول
﴿لن﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلا أن لن تنفيه نفياً
مؤكدًا وتأكيد ههنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم
مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ولو اجتمعوا له﴾؟ قُلْتَ: النصب
على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً
عليهم اجتماعهم جميعاً خلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ
ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركك عقولهم والشهادة
على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالأكهية
التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة
بالمعلومات عن آخرها صوراً وتمائيل يستحيل منها أن
تقدر على أقل ما خلقه، وإنه وأصغره وأحقره ولو

تمكنهم من أن ينافعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض
لرسول الله ﷺ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم
عندهم وهم كفار خزاعة روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن
سفيان الخزاعيين وغيرهما، قالوا: للمسلمين مالكم تاكلون
ما قتلتم ولا تاكلون ما قتله الله يعنون الميتة وقال: الزجاج
هو نهى له ﷺ عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربك فلان
أي: لا تضاربه وهذا جائز في الفعلي الذي لا يكون إلا بين
اثنين.

لِكُلِّ أَمَةٍ جَعَلْنَا مَناسِكَ لَهُمْ تَحَكُّوهُ فَلَا يَمِزُّعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ
وَأَمْرٌ إِلَ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هَذِهِ سُنَّتِي (٧٤).

﴿في الأمر﴾ في أمر الدين وقيل: في أمر النساءك،
وقرئ: ﴿فلا يمزعك﴾ أي: أثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون
أن يجنبوك ليزيلوك عنه، والمراد زيادة التثبيت للنبي ﷺ
بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه ومنه قوله:
﴿ولا يصدك عن آيات الله ولا تكونن من المشركين﴾ (١)
﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ (٢) وهيأت أن ترتع همة
رسول الله ﷺ حول تلك الحمى، ولكنه وارد على ما قلت:
لك من إرادة التهيج والإلهاب وقال الزجاج: هو من نازعته
فنزعت أنزع أي: غلبته أي: لا يغلبك في المنازعة.

فإن قُلْتَ: لم جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالوار وقد
نزعت عن هذه؟ قُلْتَ: لأن تلك وقعت مع ما يدانها
ويناسبها من الآي الواردة في أمر النساءك، فعطفت على
أخواتها وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد
معطفاً.

وَلَنْ جَدُّكَ قُلَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٧٥).

أي: ولن أبوا للجأهم إلا المجالبة بعد اجتهاك أن
لا يكون بينك وبينهم تنازع، فانفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم
وبقيحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم
به (٣) وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كَثُرَ فِيهِ تَخَلُّفُونَ (٧٦).

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين، والكافرين
أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلة للنبي ﷺ مما
كان يلقي منهم.

أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٧).

وكيف يخفى عليه ما يعملون ومعلوم عند العلماء بالله
أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض، وقد كتبه في
اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه
﴿يسير﴾ لأن العالم الذات لا يتعنر عليه، ولا يمتنع تعلق

(١) سورة القصص، الآية: ٨٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٦.

(٣) قال أحمد: وقد تقدم مثله، وإنكرنا عليه تحميلة القرآن ما لا يحتمله، =

= فإن الأعم في اللغة هو العلم الزائد المفضل على علم غيره،
فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة، هب أن الأئمة العقلية
لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

بسجدين، وبذلك احتج الشافعي رضي الله عنه، فرأى سجدتين في سورة الحج وأبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمْ لِزُرَيْمٍ هُوَ سَتَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨).

﴿وجاهدوا﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر عن النبي ﷺ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»⁽²⁾. ﴿في الله﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم وجد عالم أي: عالم حقاً وجداً ومنه ﴿حق جهاده﴾.

فإن قلنا: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وجاهدوا في الله﴾ قلنا: الإضافة تكون بانني ملايسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله: ويوم شهدناه سليماً وعامراً ﴿لجنتكم﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فتح باب النوبة للمجرمين وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش ونحوه قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾⁽³⁾ وأمة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، نصب الملة بمضمون ما تقدمها كانه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه أو على الاختصاص أي: أعني بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قلنا: لم يكن ﴿إبراهيم﴾ أباً للأمة كلها قلنا: هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أباً لأمة لأن أمة الرسول في حكم أولاده ﴿هو﴾ يرجع إلى الله تعالى وقيل: إلى إبراهيم ويشهد للقول الأول قراءة أبي بن كعب: الله سماكم ﴿من قبل وفي هذا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أنه قد بلغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسول قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والاثرة فاعبوه وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه فهو خير مولى، وناصر عن رسول الله ﷺ.

اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حقت وجبت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان، وهو جماد وهو غالب وذلك مغلوب وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيكله.

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَزِيزٌ (٧٩) يَمْطُرُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَوِيلاً وَمِمَّا يَنْزِلُ مِنْ أَسْفَلٍ سَخِيبٌ رِجٌّ (٨٠).

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموه باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة ولا يتخونه شريكاً له إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟

هذا رد لما اتكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملائكة وبشر.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٨١).

ثم نكر أنه تعالى يدرك للمبركات عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها، وما غير لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها والذي هو. بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدبيره واختيار رسله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُوا الْخَبَرَ لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ (٨٢).

للنكر شأن ليس لغيره من الطاعات وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي نكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل: كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فامروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وقيل: معنى ﴿واعبدوا ربكم﴾ اقصدا بركوعكم، وسجودكم وجه الله. وعن ابن عباس في قوله: ﴿واقبلوا الخير﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين، ولا تتكلموا على أعمالكم وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان قال: «نعم إن لم تسجدكما، فلا تقرهما»⁽¹⁾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فضلت سورة الحج

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريح أبواب السجود

(2) قال الزيلعي غريب جداً وذكره الثعلبي هكذا من غير سند، 395/2.

(3) سورة البقرة، الآية: 185.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في السجدة في الحج، (الحديث: 578)، =

(5) قال الزيلعي غريب جداً وذكره الثعلبي هكذا من غير سند، 395/2.

والتشبيك والاختصار وتقليب الحصار. روي عن النبي ﷺ أنه أبصر رجلاً يعيب بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»⁽⁴⁾ ونظر الحسن إلى رجل يعيب بالحصار وهو يقول: اللهم زَوِّجني الحور العين، فقال: بشس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبت.

فإن قُلْتُ: لم أضيف الصلاة إليهم؟ قُلْتُ: لأن الصلاة دأثره بين المصلي والمصلي له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عبته ونخيرته، فهي صلاته وأما المصلي له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

﴿الغلو﴾ ما لا يعين من قول: أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه يعني: أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقلين على الانفس للذين هما قاعدتا بناء التكليف.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرج الزكاة من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزمى الذي هو التزكية وهو الذي أراد الله فجعل المزمين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال: لمحدثه فاعل تقول: للضارب فاعل الضرب، وللقاتل فاعل القتل وللمزمى فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول: في جميع الحوادث من فاعل هذا، فيقال: لك فاعله الله أو بعض الخلق⁽⁵⁾ ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صفة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها وقد أنشد لأمية ابن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة إلا زمة والفاعلون للزكوات ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محنوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصح لأنها فيه مجموعة.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْزَاقِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْزَاقِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾

من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون مكية

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿قد﴾ نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، الفلاح الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير و﴿أفلح﴾ دخل في الفلاح كابشر دخل في البشارة ويقال: أفلحه أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على أكلوني البراغيث أو على الإبهام، والتفسير وعنه أفلح بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: فلو أن الأطباء كان حولي.

فإن قُلْتُ: ما المؤمن؟ قُلْتُ: هو في اللغة المصنق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين: أحدهما أن كل من نطق بالشهادتين موافقاً قلبه لسانه، فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البر التقيّ دون الفاسق الشقي⁽²⁾.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾

الخشوع في الصلاة خشية القلب والباد البصر عن قتادة، وهو إلزامه موضع السجود وعن النبي ﷺ أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجد⁽³⁾ وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعيب بجسده، وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقة

(1) الثعلبي وابن مرونه والواحد في الوسيط زيلعي... 396/2.

(2) قال أحمد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر، ولو لم يكن بين المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً، ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده، وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خطباً طويلاً، فنقل عن قدامتهم كعمرو بن عبيد وطبقته: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً، ونقل عن أبي الهذيل العلاف: أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله، ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك =

= شرعاً عملاً بقوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل؛ لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل لأن النقل إما أحاد، أو تواتر إلى آخر مائته.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في القراءة، (الحديث: 45).

(4) الترمذي في نوابر الأصول.

(5) قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم من القاعد، أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له كزيد وعمرو.

والخسوف وصلاة الضحى والتهجّد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل.

أُولَئِكَ هُمُ الزَّوْرُونَ ﴿١٦﴾

أي: «أولئك» الجامعون لهذه الأوصاف «هم» «الوارثون» الأحقاء بأن يسموا ورثاً لأن من عداهم ثم يرحم الوارثين بقوله:

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَرَبُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

بقوله: «الذين يرثون الفريوس»، فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفريوس على تأويل الجنة وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر روي أن الله عز وجل بنى جنة الفريوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأنفر وفي رواية ولبنة من مسك منرى وغرس فيها من جيد الفلكة وجيد الريحان.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَافٍ يَاسِينِ ﴿١٨﴾

السلالة الخلاصة لأنها تسلّ من بين الكدر وفعالة بناء للقلّة كالقلامة والقمامة وعن الحسن ماء بين ظهرائي الطين.

فإن قلّت: ما الفرق بين من ومن؟ قلّت: الأول للابتداء والثاني للبيان كقوله من الأوثان.

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٩﴾

فإن قلّت: ما معنى «جعلناه» الإنسان «نطفة»؟ قلّت: معناه أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد تلك نطفة، القرار المستقر والمراد الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك: طريق سائر أو بمكانتها في نفسها لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت.

وَمَا خَلَقْنَا ظِلْفَكَ فَلَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا قَدَرْنَا مِثْقَالَ عَرَسٍ ﴿٢٠﴾

قرئ عظماً فكسونا العظم وعظاماً، فكسونا العظم وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس لأن الإنسان ذو عظام كثيرة، «خلقاً آخر» أي: خلقاً مبيّناً للخلق الأول مبيّنة ما بعدهما حيث جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً، وكان أبكم وسميماً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه وأودع بطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تترك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتجّ به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فافترخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة، «فتبارك الله» فتعالى

«على أزواجهم» في موضع الحال أي: الأولين على أزواجهم أو قوامين عليهنّ من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلّف عليها فلان ونظيره كان زياد على البصرة أي: والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسريحهم، أو تعلق على بمحنوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ عليّ عنان فرسى على تضمينه معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك.

فإن قلّت: هلا قيل من ملكك! قلّت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإنث.

فَمَنْ أَتَىٰ ذَكَرَ فَإِنَّهُ يُسَاقُ إِلَىٰ جَنَّةٍ مَّا دُورٍ ﴿٢١﴾

جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته، واتساعه وهو إباحة أربع من الحرائر ومن الإماء ما شئت «فأولئك هم» الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلّت: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ قلّت: لا لأن المنكوحه نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٢٢﴾

وقرئ «لأمانتهم» سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ومنه قوله تعالى: «إن الله يامركم أن تؤنّوا الأمانات إلى أهلها»^(١) وقال: وتخونوا أماناتكم وإنما تؤدّي العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه لا الأمانة في نفسها، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء أي: متوليه وصاحبه ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٣﴾

وقرئ «على صلاتهم» وإن قلّت: كيف كرّر ذكر الصلاة أولاً وآخرًا؟ قلّت: هما نكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك لأن لا يسهوا عنها ويؤنّوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها وإيضاً، فقد وجدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي: صلاة كانت وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنة المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء والكسوف

أمره في قدرته وعلمه ﴿إحسن الخالقين﴾ أي: أحسن المقدرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه ونحوه طرح المأمون فيه في قوله: ﴿إنن للذين يقاتلون﴾ (1) لدلالة الصلة وروي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ قوله: ﴿خلقًا آخر﴾ قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (2) وروي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ، فنطق بذلك قبل إملائه فقال له النبي ﷺ: اكتب هكذا نزلت فقال: عبد الله إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فانا نبي يوحى إليّ فلحق بمكة كافرًا ثم أسلم يوم الفتح (3).

ثُمَّ لَكُمْ بِذَلِكَ لَئِتُونَ ﴿٥﴾

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت أن الميت كالحى صفة ثابتة، وأمّا المائت فيدل على الحوث تقول: زيد مائت الآن ومائت غدًا كقولك: يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله تعالى: ﴿وضائق به صدرك﴾ (4) جعل الإمامة التي هي إعدام الحياة.

فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتَيْنِ مِنَ النَّجْلِ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكِهُ كَثِيرَةً وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾

خصّ هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع ووصف النخل والعنب بأنّ شرهما جامع بين أمرين بأنّه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطبًا، ويابسًا رطبًا وعنبًا وتمرًا وزبيبًا والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح، والاصطباغ جميعًا ويجوز أن يكون قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ (7) من قولهم: ياكل فلان من حرفة يحترفها ومن ضيعة يغلثها ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم منها ترتزقون وتتعيشون.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَمِنْهَا لَأَكْلِينَ ﴿٧﴾

﴿وشجرة﴾ عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشئ لكم شجرة ﴿طور سيناء﴾ وطور سينين، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإما أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كأمري القيس، وكعبلك فيمن أضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة، أو التانيث لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتانيث كعبلباء وحرباء ومن فتح فلم يصرف لأنّ الألف للتانيث كصحرء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة ومنه نوذي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش سيناء على القصر ﴿بالدهن﴾ في موضع الحال أي: تنبت وفيها الدهن وقرئ تنبت وفيه وجهان أحدهما أن أنبت بمعنى نبت وأنشبر لزهير رأيت نوي الحاجات حول بيوتهم، قطيئًا لهم حتى

والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعممه ليليين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا لَا حَيَاةَ إِلَّا حَيَاةُ الْإِنْسَاءِ وَحَيَاةُ الْبُعْثِ! قُلْتُ: ليس في ذكر الحياتين نفى الثلاثة وهي حياة القبر كما لو نكرت ثلثي ما عندك، وطويت نكر ثلثه لم يكن ليلًا على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض نكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوى نكرها من جنس الإعادة.

ثُمَّ لَكُمْ بِذَلِكَ لَئِتُونَ ﴿٥﴾

وَالْبُعْثُ الَّذِي هُوَ إِعَادَةُ مَا يَفْنِيهِ وَيَعْمَمُهُ لِيلِيَيْنِ أَيْضًا عَلَى اقْتِدَارٍ عَظِيمٍ بَعْدَ الْإِنْسَاءِ وَالْإِخْتِرَاعِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا لَا حَيَاةَ إِلَّا حَيَاةُ الْإِنْسَاءِ وَحَيَاةُ الْبُعْثِ! قُلْتُ: ليس في ذكر الحياتين نفى الثلاثة وهي حياة القبر كما لو نكرت ثلثي ما عندك، وطويت نكر ثلثه لم يكن ليلًا على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض نكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوى نكرها من جنس الإعادة.

ثُمَّ لَكُمْ بِذَلِكَ لَئِتُونَ ﴿٥﴾

وَالْبُعْثُ الَّذِي هُوَ إِعَادَةُ مَا يَفْنِيهِ وَيَعْمَمُهُ لِيلِيَيْنِ أَيْضًا عَلَى اقْتِدَارٍ عَظِيمٍ بَعْدَ الْإِنْسَاءِ وَالْإِخْتِرَاعِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا لَا حَيَاةَ إِلَّا حَيَاةُ الْإِنْسَاءِ وَحَيَاةُ الْبُعْثِ! قُلْتُ: ليس في ذكر الحياتين نفى الثلاثة وهي حياة القبر كما لو نكرت ثلثي ما عندك، وطويت نكر ثلثه لم يكن ليلًا على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض نكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوى نكرها من جنس الإعادة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْمَلَائِكَةِ غَافِلِينَ ﴿٨﴾

الطرائق السموات لأنه طروق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة أن لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم. وقيل: الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها، أراد بالخلق السموات كأنه قال: خلقناها فوقهم ﴿وما كنا﴾ عنها ﴿غافلين﴾ وعن حفظها وإمسакها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلًا عنهم وما يصلحهم.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا فِي الْأَرْضِ نَبَاتًا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَنُؤْتِيَهُمْ ﴿٩﴾

﴿بقدر﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم،

(4) سورة هود، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 21.

(6) سورة الملك، الآية: 30.

(7) سورة النحل، الآية: 5.

(1) سورة الحج، الآية: 39.

(2) الواحد في أسباب النزول، من: 176.

(3) قال الزيلعي غريب وقد ذكره الواحد في أسباب النزول 401/2. ولم آلف عليه عند الواحد.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ جَنَّةً فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٥﴾

والجَنَّةُ الجنون أو الجن أي: به جن يخلبونه ﴿حتى حين﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

قَالَ رَبِّ أَنصُرِي يَمَّا كَذَّبُونِ ﴿٦٦﴾

في نصرته إهلاكهم فكانه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي أو انصُرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصره عليهم، أو انصُرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا فَإِذَا جَاءَ ثَمَرُهَا وَقَرَأَ النَّفُورُ فَاكْتَسَبَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخِيطُ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٦٧﴾

﴿بأعيننا﴾ بحفظنا وكلاءنا كان معه من الله حفاظاً يكلونه بعيونهم لئلا يتعرض له، ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿ووحينا﴾ أي: نامرك كيف تصنع، ونعلمك. روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جوجو الطائر، روي أنه قيل: لنوح عليه السلام إذا رايت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل: كان تنور آدم عليه السلام وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه. فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند. وعن ابن عباس رضي الله عنه التنور وجه الأرض، وعن قتادة أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه. وعن علي رضي الله عنه فار التنور طلع الفجر وقيل: معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل كقولهم: حمى الوطيس والقول: هو الأول، يقال: سلك فيه دخله وسلك غيره وأسلكه قال: حتى إذا سلكهم في قنائة ﴿من كل زوجين﴾ من كل أمّتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرمك، ﴿الثنين﴾ واحد من زوجين كالجمال والناقة والحصان والرمكة روي أنه لم يحمل إلا ما يلد وببيض، وقرئ من كل بالثنوين أي: من كل أمة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان.

فَإِذَا اسْتَرَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلَيْنِ فَقُلِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفُلَيْنِ جَنَّتَا مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٨﴾

جاء بعلى مع سبق الضار كما جاء باللام مع سبق

إذا أنبت البقل والثاني أن مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ تنبت بضم التاء وفتح الباء وحكمه حكم تنبت، وقرأ ابن مسعود تخرج الدهن وصبغ الأكلين وغيره تخرج بالدهن وفي حرف أبي ثمر بالدهن وعن بعضهم تنبت بالدهان، وقرأ الأعمش وصبغاً وقرئ وصباغ ونحوهما دبغ ودباغ والصيغ الغمس للاندغام وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: توقد من شجرة مباركة.

وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْشُمِ لَعْنَةً شَيْكُرًا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٩﴾

قرئ ﴿تسقيكم﴾ بناء مفتوحة أي: تسقيكم الانعام ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير وفيها منفعة زائدة وهي الاكل الذي هو انتفاع بنواتها.

وَمَلَأَ الْفُلَيْنِ تَحْمِلُونَ ﴿٧٠﴾

والقصد بالانعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة وقرنها بالفلك، التي هي السفائن لأنها سفائن البر قال: ذو الرمة، سفينة بر تحت خدى زمامها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧١﴾

يريد صديحه ﴿غيره﴾ بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للامر بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم وشكر نعمته التي لا تحصىونها، واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ نَتَلَكَّرُ بَعْدَ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَيْحًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَا سَأَلَ اللَّهُ لَأَزَلَّ عَلَيْكُمْ مَا سَمِعْتُمْ هَذَا فِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٢﴾

﴿أن يفضّل عليكم﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويراسكم كقوله تعالى: ﴿وتكون لكما كبرياء في الأرض﴾ (١) ﴿بهذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يدل على أنهم وأباؤهم كانوا في فترة متطاولة أو تكنبوا في ذلك لأنهم لم يكن في الغي وتشمرهم لأن ينفوا الحق بما أمكنهم، وبما عن لهم من غير تمييز منهم بين صلق وكذب إلا تراهم كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

فإن قُلْتُ: حق أرسل أن يعبدى بإلى كأخواته التي هي وجه وأنفذ وبعث فما باله عدي في القرآن بإلى تارة وبفي أخرى كقوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ (٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ (١٠).

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ أي: في عاد وفي موضع آخر وإلى عاد أخاهم هوداً قُلْتُ: لم يعد بفي كما عدى بإلى ولم يجعل صلةً مثله، ولكن الأُمَّة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤية: أرسلت فيها مصعباً ذا إقحام وقد جاء بعث على ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ (١١) ﴿أَن﴾ مفسرة لأرسلنا أي: قلنا لهم: على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾.

فإن قُلْتُ: نذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَرْفَعْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٤﴾

قال: ﴿الملا الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ (١٢) ﴿قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة﴾ (١٣) وههنا مع الواو فاي: فرق بينهما؟ قُلْتُ: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال: قومه فقيل له: كيت وكيت وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله: ومعناه أنه اجتمع في الحصول هذا الحق، وهذا الباطل وشتان ما هما ﴿بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب كقولك: يا حبيذا جوار مكة أي: جوار الله في مكة. حنف الضمير والمعنى، من مشروبكم أو حنف منه لدلالة ما قبله عليه.

وَلَمَّا أَطَاعَتْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِذْ أَخْبِرْتُمْ ﴿٢٥﴾

﴿إذا﴾ واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قالوهم من قومهم أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

أَيُّدْرُكُمْ أَكْثَرُ إِذَا يَتَّبِعُونَ زُبَّانًا وَعِظْنَاكُمْ أَنْكُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٦﴾

ثنى ﴿أنكم﴾ للتوكيد وحسن ذلك لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف و﴿مخرجون﴾ خبر عن الأول أو جعل ﴿أنكم مخرجون﴾ مبتدأ وإذا متم خبراً على معنى إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن ﴿أنكم﴾ أو رفع

النافع قال الله تعالى: ﴿إِن الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَى﴾ (١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) ونحوه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٣) وقول: عمر رضي الله عنه ليتها كانت كفافاً لا علي ولا لي. فإن قُلْتُ: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة! قُلْتُ: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يفرقوا إلا محالة لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاوّل، فلم يزيديا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم كقوله: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِثْلَ مَا بَكَرَ وَأَتَتْ غَيْرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾

ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له وهو طلب أن ينزله في السفينة، أو في الأرض عند خروجه منها ﴿منزلاً﴾ يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسلته وهو قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزَلِينَ﴾

فإن قُلْتُ: هلا قيل: فقولوا لقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾ (٥) لانه في معنى: فإذا استويتما قُلْتُ: لانه نبههم وإمامهم فكان قوله قولهم: مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية وإن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي، وقرئ: ﴿منزلاً﴾ بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ﴿ليدخلنهم مَخْلًا يرضونه﴾ (٦).

إِنِّي فِي ذَٰلِكَ لَآئِبٌ وَإِن كُنَّا لَلْغَيْبِ ﴿٢٨﴾

﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى. وإن الشان والقصة ﴿كنّا لميتلين﴾ أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، ومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَّكْرٍ﴾ (٧).

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا مَّاخِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿قرناً آخرين﴾ هم عاد قوم هود عن ابن عباس رضي الله عنهما وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: ﴿وإنكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ (٨) ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

(8) سورة الأعراف، الآية: 69.

(9) سورة الرعد، الآية: 30.

(10) سورة سبأ، الآية: 34.

(11) سورة الفرقان، الآية: 51.

(12) سورة الأعراف، الآية: 66.

(13) سورة هود، الآية: 53.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 101.

(2) سورة الصافات، الآية: 171.

(3) سورة البقرة، الآية: 286.

(4) سورة الأنعام، الآية: 45.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 28.

(6) سورة الحج، الآية: 59.

(7) سورة القمر، الآية: 15.

امرى القيس:

من السيل والغناء فلكة مغزل

بعداً وسحقاً ودفراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى: بعداً، بعدوا، أي: هلكوا يقال: بعد بعداً وبعداً نحو رشد رشدًا ورشدًا و **للقوم الظالمين** بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك ولما توعدون.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ قُرُونًا يَتْخَلُفُونَ (١١).

﴿قُرُونًا﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بني إسرائيل.

مَا تَتَّبِعُونَ مِنْ أُمَّةٍ أَلْبَاهَا وَمَا يَسْتَعْتَبُونَ (١٢).

﴿أَلْبَاهَا﴾ الوقت الذي حد لهلاكها وكتب.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَهُ أُمَّةٌ رُسُلًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَرَعَلْنَاهُمْ أَعْيَادًا فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٣).

﴿تتري﴾ فعلى الألف للتانيث لأن الرسل جماعة، وقرئ: تتري بالتثنية والتاء بدل من الواو كما في تولج وتيقود أي: متواترين واحدًا بعد واحد من الوتر وهو الغرد أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أمهم، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات لأن الإضافة تكون بالملابسة والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً **﴿فاتبعنا﴾** الأمم أو القرون **﴿بعضهم بعضاً﴾** في الإهلاك **﴿وجعلناهم﴾** أخباراً يسمربها ويتعجب منها الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ وتكون جمعاً للأحاديث التي هي مثل الأضحوكة والألعبية والأعجوبة، وهي مما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً وهو المراد هنا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٤).

فإن قلنا: ما المراد بالسلطان المبين! قلنا: يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أم آيات موسى وأولاه، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر يضرهما بها، وكونها حارساً وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ولبوا ورشاء جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى: **﴿وجبريل وميكال﴾** (٣) ويجوز أن تراد الآيات أنفسها أي: هي آيات وحجة بيّنة.

إِنَّ فِرْعَوْنَ رَعَى الْكِبْرِيَاءَ فَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٥).

﴿عالين﴾ متكبرين **﴿إن فرعون علا في الأرض﴾** (٤)

﴿أنكم مخرجون﴾ بفعل هو جزاء للشرط كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن **﴿أنكم﴾**، وفي قراءة ابن مسعود أيعكم إذا متم.

هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (١٦).

قرئ: **﴿هيهات﴾** بالفتح والكسر والضم كلها بتثنية وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قلنا: ما **﴿توعدون﴾** هو المستبعد ومن حقه أن يرتفع بهيات كما ارتفع في قوله: **﴿هيهات هيهات﴾** العقيق وأمله فما هذه اللام؟ قلنا: قال: الزجاج في تفسير البعد **﴿لما توعدون﴾**، أو بعد **﴿لما توعدون﴾** فيمن نون فنزله منزلة المصدر وفيه وجه آخر، وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد للتصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في **﴿هيت لك﴾** (١) لبيان المهيت به هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (١٧).

﴿إلا حياتنا الدنيا﴾، ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها وبيّنها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت وهي العرب، تقول: ما شاعت والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة لأن **﴿إن﴾** النافية دخلت على **﴿هي﴾** التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس، **﴿نموت ونحيا﴾** أي: يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن ويأتي قرن آخر.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِرِينَ (١٨). قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ (١٩).

ثم قالوا: ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنابته له، وفيما يعندا من البعث وما نحن بمصدقين.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَارِينَ (٢٠).

﴿قليل﴾ صفة للزمان كقديم وحديث في قولك: ما رأيته قديماً ولا حديثاً وفي معناه عن قريب وما تؤكد قلة المدة وقصرها.

لَا تَخْذَنْهُمْ لِعَبْوَتِهِمْ إِنَّهَا كَعَبْوَةِ الْفُتُورِ الظَّالِمِينَ (٢١).

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام صاح عليهم فدمروهم **﴿بالحق﴾** بالوجوب لأنهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه شبههم في دمارهم بالغناء، وهو حميل السيل مما يلي واسود من العيدان والورق ومنه قوله تعالى: **﴿فجعله غثاء أحوى﴾** (٢) وقد جاء مشدداً في قول

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤.

أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض وقد اختلف في زيادة ميمه وأصلاته فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه نحو ركبته إذا ضربه بركبته، وجه من جعله فعلاً أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّ مِنَ الْفَلَيْتَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسول إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك⁽³⁾ ووصي به ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات ما حل وطاب وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذي لا يعصي الله فيه والصافي الذي لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المأكّل والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رُبُوبَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾⁽⁴⁾ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فنذكر على سبيل الحكاية أي: آريناهما وقلنا: لهما هذا أي: أعلمناهما أن الرسل كلهم خاطبوا بهذا فكلا مما رزقناكما وأعمالاً صالحاً اقتداء بالرسول.

وَلَا تَدْعُوا مَنْ أَشْكُرَ أَمَةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

قرئ: ﴿وَأَنْ﴾ بالكسر على الاستئناف وأن بمعنى: ولأن وإن مخففة من الثقيلة و ﴿أمّكم﴾ مرفوعة معها.

تَتَقَرَّبُوا إِلَهُكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ كُلَّ حَبِيبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

وقرئ: ﴿زُيِّرُوا﴾ جمع زبور أي: كتباً مختلفة يعني: جعلوا بينهم أنبياء وزبراً قطعاً استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبراً مخففة الباء كرسول في رسل أي: كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين بينهم فرح بباطله مطمئن النفس معتقد أنه على الحق.

فَذَرُّهُمْ فِي غَرَّتَيْنِهِمَا حَتَّىٰ جِئَ الْغَمْرَةَ ﴿٥٤﴾

الغمرة الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جلهم وعمائيتهم، أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل قال: كانني ضارب في غمرة لعب وعن علي رضي الله عنه في غمراتهم.

﴿لَا يَرِيدُونَ عَلَوًا فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

فَقَالُوا أَتُؤْنِسُ لِحُسْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٥٥﴾ تَكْذِبُهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٦﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً. ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾. لبشرين ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ﴾. ومثل وغير بوصف بهما الاثنان والجمع والمنكر والمؤنث ﴿إِنكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾. ومن الأرض مثلهن. ويقال: أيضاً هما مثلاه وهم أمثاله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾. وقومهمما يعني: بني إسرائيل كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذللاً أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَمَّا هَمَّ يَهْدُونَ ﴿٥٧﴾

﴿موسى للكتاب﴾ أي: قوم موسى التوراة ﴿لعلهم﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال: على خوف من فرعون وملئهم يريد آل فرعون وكما يقولون: هاشم وتقيف وتميم ويراد قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه لأن التوراة إنما أوتيتها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾⁽²⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ قِيلَ: آيَتَيْنِ هَلْ كَانَ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ لِأَنَّ مَرْيَمَ وَلِدَتْ مِنْ غَيْرِ مَسِيَسٍ وَعِيسَى رُوحٌ مِنَ اللَّهِ أُلْقِيَ إِلَيْهَا، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ وَكَانَ يَحْيَى الْمَوْتَى مَعَ مَعْجَزَاتٍ أُخْرٍ فَكَانَ آيَةً مِنْ غَيْرِ وَجْهِ وَالْفَلْظُ مُحْتَمِلٌ لِلتَّثْنِيَةِ عَلَى تَقْيِيرٍ.

وَحَمَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأَتَيْنَاهُ مَائِدَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٨﴾

﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وآتيناه﴾ ثم حنفت الأولى لدلالة الثانية عليها، الربوة والربوة والربوة في رانها الحركات، وقرئ: ربوة وربوة بالضم وربوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس وأنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً عن كعب وقيل: دمشق وغولتها وعن الحسن فلسطين والرملة وعن أبي هريرة الزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربوة التي نكرها الله وقيل: مصر. والقرار المستقر من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء يعني:

(1) سورة القصص، الآية: 83.

(2) سورة القصص، الآية: 43.

(3) قال أحمد: هذه نفحة اعتزالية، فإن مذهب أهل السنة: إن الله تعالى متكلم أمرناه أن لا يشرط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كَلِمَاتٍ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، هو ثابت أزلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال متفرقين، كما في هذا الخطاب أو =

= مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبوت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر، وما بال الزمخشري خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804).

وقحطان، وعن النبي ﷺ لا تسبوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قساً فإنه كان مسلماً ولا تسبوا الحرث بن كعب ولا أسد بن خزيمه ولا تميم بن مر، فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتهم فيه من شيء فلا تشكروا في أن تبعاً كان مسلماً⁽²⁾ وروي في أن ضبة كان مسلماً وكان على شرطة سليمان بن داود.

أَرَأَيْتُمْ لِرَسُولِهِمْ فَمَهُمْ لَمْ يُكْرَمُوا⁽¹⁸⁾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا﴾ محمداً، وصحة نسبه وحلوله في وسطه هاشم وأمانته وصنقه وشهامته وعقله واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد كفى برغائها منادياً⁽³⁾، الجنة الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً واثقهم ذهنًا ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشؤوا عليه وسيط بلحومهم ودمائهم من اتباع الباطل ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا لأنه الحق الأبلج، والصراط المستقيم فأخلدوا إلى البهت وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

أَرَأَيْتُمْ لِرَسُولِهِمْ فَمَهُمْ لَمْ يُكْرَمُوا⁽¹⁹⁾.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿وَكَأَثَرَهُمْ﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق! قُلْتُ: كان فيهم من يترك الإيمان به إنفة واستنكافًا من توبيخ قومه وأن يقولوا: صبا وترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صَحَّ إسلامه! قُلْتُ: يا سبحان الله كان أبا طالب كان أحمل أعمام رسول الله ﷺ حتى يشتهر إسلام حمزة، والعباس رضي الله عنهما ويخفي إسلام أبي طالب، دل بهذا على عظم شأن الحق وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به.

وَلَوْ أَتَّبَعَ الْآخِرُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ

نافع لكم ﴿منا لا تنصرون﴾ لا تغاثون، ولا تمنعون منا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثه قالوا: الضمير في ﴿به﴾ للبيت العتيق أو للحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم والذي سوَّغ هذا الإضرار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته القاثون به.

فَدَّ كَانَتْ مَائِنِي تَنْتَلِ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُ عَلَى أَغْفِيكُمْ نَكْهَرُونَ⁽¹¹⁾.

ويجوز أن يرجع إلى آياتي إلا أنه نكر لأنها في معنى: كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكبارًا.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَرِيرًا تَهْجُرُونَ⁽¹⁷⁾.

ضمن مستكبرين معنى مكابرين، فعدى تعديته أو يحدث لكم استماعه استكبارًا وعتوًا، فانتهم مستكبرون بسببه أو تتعلق الباء بسمارًا أي: تسمرون بنكر القرآن، وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم نكر القرآن وتسميته سحرًا وشعرًا وسب رسول الله ﷺ، أو يتهجرون والسمار نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ: سمرًا وسمارًا وتهجرون ونهجرون من أهرج في منطق إذا أقحش، والهجر بالضم الفحش ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى والهجر بالفتح الهينان.

أَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَرَجَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ مَائِنَهُمْ الْأَوَّلِينَ⁽¹⁶⁾.

﴿القول﴾ القرآن يقول: أقلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فصذقوا به بمن جاء به بل إجماعهم ما لم يات آباءهم، فلذلك أنكروه واستبدعوه كقوله: ﴿لَتَنْتَرِ قَوْمًا مَا أَنْذَرِ آبَاؤُهُمْ فَهُوَ غَافِلُونَ﴾⁽¹⁾ أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكينين أم جاءهم من الأمن ما لم يات آباءهم حين خافوا الله، فأمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه وآباؤهم إسْمُعِيلَ وأعاقبه من عدنان

وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (الحديث: 1540).

وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلوات (الحديث: 1442).

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) الحاكم في المستدرک 2/ 450.

(3) لم ينكر لها مخرج.

(4) قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: وكأثرهم على الجنس للناس كافة، ولما نكر هذه الطائفة من الجنس بني الكلام في قوله: وكأثرهم على الجنس بجملة، كقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وكقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ والنبي ﷺ جاء إلى الناس كلهم، وبعث إلى كافة، ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم، وأما قول الزمخشري: إن من تهادى على الكفر، وأثر البقاء عليه تقليدًا لأبائه ليس كارهاً للحق فمربود، فإن من أحب =

= شيئاً كره ضده، فإذا أحبوا البقاء على الكفر، فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب، وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه كما اشتهر إسلام العباس، وحمزة وأجدر؛ لأنه أشهر وللقتال بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته، بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها، كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام هذا، والظاهر أنه لم يسلم وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأن كثيراً من عصاة الموحدين يعذب باكثر من ذلك، قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الحقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتل من المعاصي ما يوجب ذلك والله أعلم.

بَلْ أَلِيتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام أو أراد أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام لو اتبع أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم، ولم يؤخر وعن قتادة أن الحق هو الله ومعناه: ولو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي لما كان إلهاً، ولكن شيطاناً ولما قدر أن يمسك السموات والأرض، ﴿بَنَكْرِهِمْ﴾ أي: بالكتاب الذي هو نكرهم أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم أو بالنكر الذي كانوا يمتنون به ويقولون: لو أن عندنا نكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين، وقرئ: بنكرهم.

أَرْتَكِبْتُمْ مَعَآ فَرَاحَ رِيكٍ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الْزَّرِينِ ﴿٧٧﴾

قرئ: خراجاً فخراج وخرجا فخرج وخرجا فخراج وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أدائه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك: خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ خراجاً فخراج ريك يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير.

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معانيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره، وحاله مخبور سره وعلته خليك بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من نبيهم، واستعطاء أموالهم.

وَلَيْكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ لِنُصْرِطَ مَسْجِدَهُمْ ﴿٧٨﴾

ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أنوائهم، وهو إخلالهم بالتبصر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر يحتمل أن هؤلاء وصفقهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وَلَئِنْ أَرَاكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ

﴿لَنُكَوِّنَنَّ﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المنكور وهو قوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ولحق باليامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهن.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَفْنَا مَا بَيْنَهُمْ مِن شَرِّ لَلْجَأِ فِي مُصِيبِهِمْ يَمْعَهُونَ﴾ (٧٥).

جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: انشكك الله والرحم الست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقال: بلى فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها ولذهب عنهم هذا الإبلال وهذا التملق بين يديه يسترحمونه واستشهد على ذلك بأننا أخذناهم أولاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسروهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل وهو أطم العذاب فابلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاء اعتامهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما روى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا غلبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَبْلِسُ الْمَجْرُمُونَ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾. والإبلال اليأس من كل خير وقيل: السكوت مع التحير.

وَلَعَدَّ أَخَذْنَاهُمْ بِالْأَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُونَهُمْ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ ثَلِيذٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٦﴾

فإن قللت: ما وزن استكان؟ قللت: استغفل من الكون أي: انتقل من كون إلى كون كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه كما جاء بمنزاح.

فإن قللت: هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكينون؟ قللت: لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد (٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٢) قال أحمد: هذا التاويل أسلم وأحق من تاويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله: ينياع من نفر غضوب جسرة فإن هذا الإشباع ليس بغصيح، وهو من ضرورات الشعر فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه لكن تنظير الزمخشري له باستحالة، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استغفل الذي معناه التحول كقولهم استحجر الطين واستنوق الجم، وأما استحال فتلاثيه حال حول إذا انتقل من حال إلى حال وإذا كان الثلاثين يفيد معنى =

= التحول لم يبق لصيغة استغفل فيها أثر فليس استحالة من استغفل للتحول، ولكنه من استغفل بمعنى: فعل وهو أحد أقسامه إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى والله أعلم، ثم نعود إلى تأويله فتقول المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر، والتجبر والاعتياض إلى كون الخضوع والضرعة إلى الله تعالى، ولقاتل أن يقول استكان يفيد على التاويل المنكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حملة على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقاليين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت جملة محتملة للانتقاليين =

يجهلوا مثل هذا الظاهر البين.

سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

وقرى: ﴿تذكرون﴾ بحذف التاء الثانية ومعناه أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّامِعِ رَبِّبُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

قرئ: الأول باللام لا غير، والآخران باللام وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى لأن قولك: من ربه ولمن هو في معنى واحد وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأول بغير لام ولكنها لم تثبت في الرواية.

﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعبصوا رسله.

قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يَجْأَرُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنْهٌ تَعْمُرُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

أجرت فلاناً على فلان إذا أغتته منه ومنعته يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحداً ﴿تسحرون﴾.

تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى.
بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

وقرى: أتيتهم وأتيتهم بالفتح والضم ﴿بالحق﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وإنهم لكانبون﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرايتهم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضاً كما

وقرى: ﴿فتحننا﴾ إنما خصّ السمع والأبصار، والافتدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عاصمها كما قال تعالى: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفتدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ (١).

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ فَلَا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩٨﴾

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها وأن لا يجعل له ند ولا شريك أي: تشكرون شكراً قليلاً ﴿وما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى: حقاً.

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٩﴾

﴿ذرأكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿والإليه﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا مَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي: هو مختص به وهو متولى ولا يقدر على تصريفهما غيره.

وقرى: ﴿يعقلون﴾ بالياء عن أبي عمرو.

بَلْ قَالُوا يَمَثَلُ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿١٠١﴾

أي: قال أهل مكة قال: الكفار قبلهم.

قَالُوا أَوَآدَا مَنَّا وَكُنَّا رَبُّكَ وَمَعْلَمًا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ قَوْمًا وَلَدْنَا مَحْنَنًا وَآمَّاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٢﴾

الأساطير جمع أسطار جمع سطر قال: رؤية، إني وأسطارسطون سطرأ.

وهي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له. وجمع أسطورة أوفق.

قُلْ لَّيِّنَ الْأَرْضُ وَنَفَسٌ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُرُونَ ﴿١٠٣﴾

أي: أجيبي عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالبدائيات أن

= بعضهم يوماً لم لا تجعله على هذا التاويل من استعمل المبني للمبالغة مثل استحسن واستعصم من حسر وعصم، فقلت لا يسعني ذلك لأن المعنى يلباه وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها نفي هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقض المبالغة لأن نفي الأبلغ أننى من نفي الأننى، وكانهم على ذلك نكروا بنفي الخضوع الكثير وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها وليس الواقع، فإنهم ما اتسموا بالضراعة لا بلزمة منها فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 26.

= جميعاً، والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال للخصا كما غلب في غيرها والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه أظهر من جملة كراماته له أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد، وعقد بهم محفلاً للمناظرة وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال هو مشتق من قول العرب كنت لك إذا خضعت، هي لغة هنالية فاستحسن منه ذلك، قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد المروى وهو أحسن محامل الآية وأسلمها والله أعلم، وعلى هذا يكون من استعمل بمعنى: فعل كقولهم استقر واستعلى وحال واستحال على ما مر، وقد قال لي =

ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك.

وَأَنَا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَدِيَهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٤٥﴾

فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتكم فما وجه هذا الإنكار.

أَدْعُ يَا أَيُّهَا أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٤٦﴾

هو ابلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال: انفع بالحسنى السيئة والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة وهذه قضية قوله: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي شهادة أن لا إله إلا الله والسيئة الشرك وعن مجاهد السلام يسلم عليه إذا لقيه وعن الحسن الإغضاء والصفح وقيل: هي منسوخة بأية السيف وقيل: محكمة لأن المدارة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما ينكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء نكرهم والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٤٧﴾

الهمز النخس والهمزات جمع المرة منه ومنه مهماز الرائض والمعنى: أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويفرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشي ونحو الهمز الألف في قوله تعالى: ﴿تَوَذَّرْهُمْ أَذَاهُ﴾^(٢). وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا ﴿٤٨﴾

أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لبدائيه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً، ويحوموا حوله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند تلاوة القرآن وعن عكرمة عند النزاع.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٤٩﴾

﴿حتى﴾ يتعلق بيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان أن

تروى حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة، وهم متغالبون وحين لم تروا أثر التمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا كَانَتْ مِنْهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٥١﴾

فإن قلت: إن لا تدخل إلا على كلام هو جزء وجواب فكيف وقع قوله: ﴿لَذَهَبَ﴾ جزء وجواباً ولم يتقدم شرط ولا سؤال سائلاً! قلت: الشرط محنوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حنف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد والأولاد.

عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾

﴿عالم الغيب﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محنوف ما والنون مؤكدتان.

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا نُرِي بِمَا يُوعَدُونَ ﴿٥٣﴾

أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿فلا تجعلني﴾ قريباً لهم ولا تعذبني بعذابهم عن الحسن أخبره الله أن له في أمته نعمة، ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه وإخباراً له واستغفاره ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة، أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: وليتكم ولست بخيركم، كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: إما ترثنهم بالهمز مكان تريني كما قرئ: فلما ترثن ولترثن الجحيم وهي ضعيفة وقوله: ﴿رب﴾ مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع، وجوار كانوا ينكرون الموعد بالعذاب

= العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه. ونعود إلى الآية، فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناً، وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تنفع بها السيئة، فإنها قد تنفع بالصفح والإغضاء، ويقع في دفعها بذلك، وقد يزداد على الصفح الإكرام، وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها نفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة لاشتغالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بالحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل والله أعلم. فتأمل فإنه حسن جداً.

(2) سورة مريم، الآية: 83.

(1) قال أحمد: ما نكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتمييز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة، فإنهما ضدان متقابلان فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد: أن الحسنات من باب الحسنات تزيد من السيئة من باب السيئات، فتجوز المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة، وهذه سيئة، وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل يعنيون: أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة، وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعوب الماجن: أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوتينا. بمعنى: أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية، أشعوب بلغ الغاية على السفلة، والأعمش بلغ الغاية على =

﴿يتعارفون بينهم﴾⁽⁴⁾ فكيف التوفيق بينهما؟ قُلْتُ: فيه جوابان أحدهما أن يوم القيامة⁽⁵⁾ مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمان وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها وفي بعضها لا يفتنون لذلك لشدة الهول والفرع، والثاني أن التناكر يكون عند النفخة الأولى فإذا كانت الثانية قاموا، فتعارفوا وتساءلوا.

مَنْ تَعَلَّتْ مَرْزِيئُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ ﴿١٧﴾

عن ابن عباس الموزنين جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾⁽⁶⁾.

وَمَنْ خَفَّتْ مَرْزِيئُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٨﴾

﴿في جهنم خالدون﴾ بدل من خسروا أنفسهم ولا محل للبدل والمبدل منه لأن الصلة لا محل لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف.

تَلَفَّحَ رُجُومُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ نَارَ عَلَيَّكَ فَمَكَثَ فِيهَا نَكْبَاتٍ ﴿٢٠﴾

﴿تلفح﴾ تسفع وقال: الزجاج اللفح والنفح واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً والكلوح أن تنقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤس المشوية، وعن مالك بن دينار كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مر في السوق برأس أخرج من التنور، فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهن وروى عن النبي ﷺ أنه قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته⁽⁷⁾، وقرئ كلحون.

أَلَاؤُا رَبَّنَا عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢١﴾ أَعْرَجْنَا بِهَا فَإِنْ عَذَابًا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿علبت علينا﴾ ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك واملكه، والشقاوة سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم قرئ ﴿شقوتنا﴾ وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما.

قَالَ أَخْسَرْنَا فِيهَا وَلَا تَكُونُونَ ﴿٢٣﴾

يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: ﴿وزانهم لكانبون﴾⁽¹⁾ خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فلان شئت حرمت النساء سواكم وقوله: ألا فارحموني يا إله محمد إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه.

لَمَلَّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٤﴾

فسأل ربه الرجعة وقال:

﴿لعلني أعمل صالحاً﴾ في الإيمان الذي تركته والمعنى: لعلني، أتى بما تركته من الإيمان وأعمل فيه صالحاً كما تقول: لعلني أبني على أس تريد الأسس أساساً وأبني عليه وقيل: فيما تركته من المال وعن النبي ﷺ إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله، وأما الكافر فيقول: رب ارجعون ﴿كلاً﴾ ردع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهي قوله: ﴿لعلني أعمل صالحاً فيما تركت﴾⁽²⁾ ﴿هو قائلها﴾ لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلب الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن وراءهم برزخ﴾ والضمير للجماعة: أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة. فَإِذَا فُتِحَ فِي الْأَمْرِ فَلَا آسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا بَسَاءٌ لَّوَنَ ﴿٢٥﴾

﴿الصور﴾ بفتح الواو عن الحسن والصور بالكسر والفتح عن أبي رزين وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة ونفي الانساب يحتمل أن التقاطع يقع بينهم حيث يتفرقون معاقبين، ومثابين ولا يكون التواصل بينهم والتالف إلا بالأعمال، فتلغوا الانساب وتبطل وأنه لا يعتد بالانساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب إذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود ولا يسألون بإدغام التاء في السين.

فإن قُلْتُ: قد ناقض هذا ونحو قوله: ولا يسئل حميماً حميماً قوله: وإقبل بعضهم على بعض يتساءلون⁽³⁾، وقوله:

(1) سورة المؤمنون، الآية: 90.

(2) سورة المعارج، الآية: 10.

(3) قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسؤال الأب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه، ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالندرة.

(4) سورة يونس، الآية: 45.

(5) قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة، ويشمر ذيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ولا تنفعها شفاعة، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة، وبين ما ظاهره ثبوتها بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة والله الموفق.

(6) سورة الكهف، الآية: 105.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3176)، وأخرجه أحمد في المسند 88/3.

﴿اُخْسُوا فِيهَا﴾ نلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال: خَسَا الكلب وخَسَا بنفسه ﴿وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل: إِنَّكُمْ كَانُمْ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾.

هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس إن لهم ست دعوات إذا دخلوا النار قالوا: ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا، فيجابون حق القول: مني فيناون ألفاً ربنا أمتنا اثنتين فيجابون نلکم بانه إذا دعى الله وحده كفرتم فيناون ألفاً يا مالك ليقض علينا ربك، فيجابون إنكم ماكنون فيناون ألفاً ربنا أخرنا فيجابون أو لم تكونوا فيناون ألفاً ربنا أخرجنا نعمل صالحاً فيجابون، أو لم نعملكم فيناون ألفاً رب أرجعون فيجابون اُخْسُوا فِيهَا، في حرف أبي أنه كان فريق بالفتح بمعنى: لانه.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرَاجًا حَتَّىٰ أَسْرَكْتُمْ وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ مَّنْجُوعًا ﴿١٥﴾.

السخرى بالضم والكسر مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والغراء أن المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أي: تسخروهم واستعبدوهم والأول مذهب الخليل وسيبويه قيل: هم الصحابة وقيل: أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزواً وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى لنسوكم﴾ بتشاكلهم بهم على تلك الصفة ﴿نكروى﴾، فتركتموه أي: تركتم أن تنكروني فتخافوني في أوليائي.

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿أنهم﴾ بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء والفتح على أنه مفعول جزيتهم كقولك: جزيتهم فوزهم ﴿قال﴾ في مصاحف أهل الكوفة وقل: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ففي قال: ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وفي قل: ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها أو لأنهم كانوا

في سرور وأيام السرور قصاراً ولأن المنقضى في حكم ما لم يكن وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها.

قَالُوا لَيْتَنَا يُوَدَّ أَنْ بَصُرَ بِشَيْءٍ مِّنَ الْأَيَّامِ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿فسل العالين﴾ والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله نحسبه يوماً أو بعض يوم، لما نحن فيه من العذاب وما فينا أن نعدّها فسل من فيه أن يعد ومن يقدر أن يلقى إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعنون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ العالين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون: كما نقول.

قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أَوْ أَنتُمْ كَثُرْتُمْ فَتَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿العابيين﴾ أي: القنماء المعمرين فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن نونهم وعن ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفتين.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ فَتَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿عبثاً﴾ حال أي: عابثين كقوله: لاعبين أو مفعول له أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وأنكم إلبنا لا ترجعون﴾ معطوف على أنما خلقناكم، ويجوز أن يكون معطوفاً على عبثاً أي: للعبث ولترككم غير مرجوعين، وقرئ ترجعون بفتح التاء.

تَعْلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٢٠﴾.

﴿الحق﴾ الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كراماً، وقرئ: ﴿الكريم﴾ بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد.

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٢١﴾.

﴿لا برهان له به﴾ كقوله: ما لم ينزل به سلطاناً وهي صفة لازمة نحو قوله: يطير بجناحيه جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان^(١)، ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه فالله مثيبه، وقرئ أنه لا يفلح

= لا نخلفه نحن ولا أنت ﴿حيث أعرب الزمخشري موعداً مصدراً نصاباً لمكاناً سوى﴾ واعترضه بان المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام والله أعلم.

(١) قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعى إله مع الله، كقوله: ﴿يُجِبْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ فنفى إنزال السلطان به، وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزل، ولا غير منزل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها ما قدمه عند قوله تعالى: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾

دونك سورة أو اتل سورة وانزلناها صفة ومعنى **﴿وفرضناها﴾** فرضنا أحكامها التي فيها، وأصل الفرض القطع أي: جعلناها واجبة مقطوعاً بها والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده، أو لأن فيها فرائض شتى وأنت تقول: فرضت الفريضة وفرضت الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم **﴿تذكرون﴾** بتشديد الدال، وتخفيفها رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل، وسيبويه.

أَزَايَةَ وَالزَّانِيَ فَاتَّيَدُوا كُلٌّ وَجَبَرَتْهَا يَأْتِي جَلْدٌ وَلَا تَأْخُذُكُ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ وَلَشَهِدٌ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (١).

على معنى فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي: جلدتهما ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي وتضمنيه معنى الشرط⁽⁴⁾ تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه، وكقوله: **﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم﴾**⁽⁵⁾ وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر، وقرئ والزان بلا ياء والجلد ضرب الجلد يقال: جلده كقولك: ظهره وبطنه ورأسه.

فَإِنْ قُلْتَ: أهذا حكم جميع الزناة والزواني أم حكم بعضهم؟ قُلْتُ: بل هو حكم من ليس بمحصن منهم فإن المحصن حكمه الرجم وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والتزوج بنكاح صحيح والنحول إذا فقت واحدة منها فلا إحصان وعند الشافعي الإسلام ليس بشرط لما روي أن النبي ﷺ رجم يهوديين زنياً⁽⁶⁾، وحجة أبي حنيفة قوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن»⁽⁷⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة

بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح، والأصل حسابه أنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأن من يدع في معنى الجمع، وكذلك حسابه أنه لا يفلح في معنى حسابهم أنهم لا يفلحون جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون.

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (٢).

وأورد في خاتمتها أنه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت⁽¹⁾، ويروي أن أول سورة قد أفلح وأخراها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح⁽²⁾، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده نوي كدوي النحل، فمكثنا فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: اللهم زنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وأثربنا ولا تؤثر علينا وارضى عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن نخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النور مدنية

سُورَةُ النُّورِ مَكِّيَّةٌ وَأَنْزَلَهَا فِيهَا مَائَتِي بَيِّنَةٍ لِّمَنْ لَّمْ يَكُنْ يَذْكُرُونَ (١).

﴿سورة﴾ خبر مبتدأ محذوف **﴿انزلناها﴾** صفة أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقرئ بالنصب على زيدا ضربته ولا محل لأنزلناها لأنها مفسرة للمضمّر، فكانت في حكمه أو على

(1) نكره الثعلبي في تفسيره، وابن مريويه، والواحدي في الوسيط (408/2).

(2) قال الزيلعي غريب جداً، 409/2.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3173)، وأخرجه أحمد في المسند 34/1، ورواه عبد الرزاق، 383/3، الحديث: 6038.

(4) قال أحمد: وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين لفظي ومعنوي، أما اللفظي فلأن الكلام أمر، وهو يخیل اختيار النصب، ومع ذلك قراءة العامة، فلو جعل فعل الأمر خبراً وبني المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجا إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من مخالفة الاختيار، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾** والآية ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله: **﴿مثل الجنة﴾** ولا يستقيم جزءاً أن يكون قوله: فيها أنهار خبره، فنعين تقدير خبره محذوفاً، وأصله فيما نقص عليكم مثل الجنة، ثم لما كان هذا إجمالاً لنكر المثل فصل المجمع بقوله: =

= فيها أنهار إلى آخرها، فكل ذلك مهنا كأنه قيل: وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني، ثم فصل هذا المجمع بما نكره من أحكام الجلد، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون: مثلاً الصلاة الزكاة السرقة، ثم يذكرون في كل باب أحكامه يربطون مما يصنف فيه ويوجب عليه الصلاة، وكذلك غيرها فهذا بيان المقتضى عند سيبويه لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية، وأما من حيث المعنى فهو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر؛ لأنه يكون قد نكر حكم الزانية والزاني مجعلاً، حيث قال: الزانية والزاني وأراد وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمع نكر حكمهما مفصلاً، فهو أوقع في النفس من نكره أول وهلة والله أعلم.

(5) سورة النور، الآية: 4.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: أحكام أهل النعمة، (الحديث: 6841)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود، الحديث: (26 - 1699).

(7) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحدود والديات وغيره، الحديث: (199).

عذاباً لأنه يمنع من المعاودة كما سمي نكالاً الطائفة الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبية كانها الجماعة الحافة حول الشيء، وعن ابن عباس في تفسيرها أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله وعن الحسن عشرة، وعن قتادة ثلاثة فصاعداً وعن عكرمة رجلان فصاعداً، وعن مجاهد الواحد فما فوقه وفضل قول: ابن عباس لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحد، والصحيح أن هذه الكبيرة من أمهات الكبائر ولهذا قرنها الله بالشرك، وقتل النفس في قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾⁽⁸⁾ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾⁽⁹⁾ وعن النبي ﷺ: يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فاما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر، واما اللاتي في الآخرة فيوجب للسخط وسوء الحساب والخلود في النار⁽¹⁰⁾ ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكامله بخلاف حد القنف، وشرب الخمر وشرع فيه القتل الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرفقة على المجلود فيه، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أقصع، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله.

الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَوانِيَهُ أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٢).

الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله، أو في مشركة والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين ونكاح المؤمن الممنوع عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه محذور لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور موقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاصد ومجالسة الخطائين كم

والزواني لأن قوله: الزانية والزاني عام في الجميع يتناول المحصن وغير المحصن؛ قلّت: الزانية والزاني يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مطلقاً والجنسية قائماً في الكل والبعض جميعاً، فإيهما قصد المتكلم فلا عليه كما يفعل بالاسم المشترك، وقرئ ولا يأخذكم البلاء ورافة بفتح الهمزة ورافة على فعالة والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في بين الله ويستعملوا الجد والمتانة فيه ولا يأخذهم اللين والهواة في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك حيث قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»⁽¹⁾ وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهيج وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل: لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود، أو حتى لا توجعوهما ضرباً وفي الحديث يؤتى بوال نقص من الحد سوطاً، فيقول: رحمة لعبالك فيقال له: آئت أرحم بهم مني فيؤمر به إلى النار ويؤتى بمن زاد سوطاً، فيقول: لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار⁽²⁾، وعن أبي هريرة إقامة حد بأرض خبر لاهلها من مطر أربعين ليلة⁽³⁾، وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب، والرجل يجلد قائماً على مجزده ليس عليه إلا إزاره ضرباً وسطاً لا مبرحاً ولا هيئاً مفرقاً على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة الوجه والراس والفرج، وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم والمرأة تجلد قاعدة ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حد غير المحصن بلا تعريب، وما احتج به الشافعي على وجوب التعريب من قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة، وتعريب عام»⁽⁴⁾ وما يروى عن الصحابة أنهم جلدوا ونفوا⁽⁵⁾ منسوخ عنده، وعند أصحابه بالآية أو محمول على وجه التعزير والتأنيب من غير وجوب وقول الشافعي: في تعريب الحر واحد، وله في العبد ثلاثة أقاويل يغرب سنة كالحر، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة، ولا يغرب كما قال: أبو حنيفة وبهذه الآية نسخ الحبس والاذى في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنزِلُكُمْ﴾⁽⁷⁾ قيل: تسميته عذاباً ليل على أنه عقوبة ويجوز أن يسمى

(1) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: نكر أسامة بن زيد (الحديث: 3733)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، الحديث: (1688. 8).

(2) قال الزيلعي غريب وروى أبو يعلى نحوه، 414/2.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحدود، (الحديث: 4397)، وأخرجه النسائي في كتاب: قطع السارق، باب: الترغيب في إقامة الحد، وأخرجه أحمد في المسند 402/2. وابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود، (الحديث: 2538).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنا، الحديث: (12. 1690)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: في الرجم،

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في تحقيق الرجم، الحديث: 1431.

(6) سورة النساء، الآية: 15.

(7) سورة النساء، الآية: 16.

(8) سورة الفرقان، الآية: 68.

(9) سورة الإسراء، الآية: 32.

(10) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم الفروج، الحديث: 5475.

ليرحمكم، ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى أن عانتهم جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها، وقرئ وحرم بفتح الحاء.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَعَلَاؤُهُنَّ مَثْنَىٰ جَلَدٌ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾

القذف يكون بالزنا وبغيره والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنا شيان: أحدهما: نكر المحصنات عقيب الزواني. والثاني اشتراط أربعة شهداء لأن القذف بغير الزنا يكفي فيه شاهدان، والقذف بالزنا أن يقول: الحر العاقل البالغ لمحصنة يا زانية أو لمحصن يا زاني يا ابن الزاني يا ابن الزانية يا ولد الزنا لست لأبيك لست لرشدك، والقذف بغير الزنا أن يقول: يا أكل الربا يا شارب الخمر يا يهودي يا مجوسي يا فاسق يا خبيث يا ملص بظر أمه فعلية التعزير، ولا يبلغ به أدنى حد العيب وهو أربعون بل ينقص منه وقال: أبو يوسف يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون، وقال: للإمام أن يعزr إلى المائة وشروط إحصان القذف خمسة الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة، وقرئ بأربعة شهداء بالتثنية وشهداء صفة.

فإن قُلْتُ: كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين؟ قُلْتُ: الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد، وإن جاؤا متفرقين كانوا قذفة وعند الشافعي رضي الله عنه يجوز أن يحضروا متفرقين.

فإن قُلْتُ: هل يجوز أن يكون زوج المقتذوفة واحداً منهم؟ قُلْتُ: يجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي.

فإن قُلْتُ: كيف يجلد القانف؟ قُلْتُ: كما جلد الزاني إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو والقانفة أيضاً كالزانية وأشد الضرب ضرب التعزير، ثم ضرب الزنا، ثم ضرب شرب الخمر، ثم ضرب القانف قالوا: لأن سبب عقوبته محتمل للصدق

فيها من التعرض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب وقد نبه على ذلك بقوله: «وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم»^(١) وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهن فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت وعن عائشة رضي الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية وإذا باشرها كان زانياً، وقد أجازها ابن عباس رضي الله عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة، ثم اشتراه وعن النبي ﷺ أنه سئل عن نكاح سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال، وقيل: المراد بالنكاح الوطء وليس يقول: لأمرين أحدهما أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد، والثاني فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني بها إلا زان، وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ والناسخ قوله: وانكحوا الأيامي منكم. وقيل: الإجماع وروي ذلك عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قُلْتُ: معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفاف ولكن في الفواجر، ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان^(٢).

فإن قُلْتُ: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانياً؟ قُلْتُ: سبقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنى والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجنابة لأنها لو لم تلمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدء بنكرها، وأما الثانية فمبسوقة لنكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخطاب ومنه يبدأ الطلب، وعن عمرو بن عبيد رضي الله عنه لا ينكح بالجزم على النهي والمرفوع فيه أيضاً معنى النهي، ولكن أبلغ وأكد كما أن رحمك الله ويرحمك أبلغ من

== منه ثم بيّنه في إسناد النكاح في هذين القسمين للذكور دون الإناث بخلاف قوله: «الزانية والزاني» فإنه جعل لكل واحد منهما، ثم استقلاً وقدم الزانية على الزاني، والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنا، والأصل فيه المرأة لما يبيو منها من الإيماض والاطماع، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة، والأصل في النكاح الذكور، وهم المبتدئون بالخطية، فلم يسند إلا لهم لهذا، وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من النكاح والإناث منكرة الزناة نكحاً وإنثاءً زجراً لهم عن الفاحشة، ولأن ذنوب الزنا والشرك، ومن ثم كره مالك رحمه الله مناقحة المشهورين بالفاحشة، وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة، أو لمن قام من أوليائها ففسخ نكاح الفاسق، ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة، إلا في الدين، وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى، فاستعظمه وتلا: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم».

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

(٢) قال أحمد: وليس فيما نكره إيضاح إطباق الجملتين، ونحن نوضحه، فنقول الأقسام أربعة: الزاني لا يرغب إلا في زانية، الزانية لا ترغب إلا في زان، العفيف لا يرغب إلا في عفيفة، العفيفة لا ترغب إلا في عفيف. وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعاني، وحاصرة للقسم، فنقول: اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين، واقتصرت على قسمين أخرى من المسكوت عنهما، فجاءت مختصرة جامعة، فالقسم الأول صريح في القسم الأول ويفهم الثالث، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم في الرابع، والقسم الثالث والرابع متلازمان من حيث أن المتقضى لانحصار رغبة العفيف في العفيفة، هو اجتماعهما في الصفة، وذلك بعينه مقتضى لانحصار رغبتهما فيه، ثم يقتصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن نكر الزناة وجوداً وسلباً، فإن معنى الأول: الزانية لا ينكحها عفيف، ومعنى الثاني: العفيفة لا ينكحها زان، والسر في ذلك أن الكلام في أحكامهم، فنكر الأعفاء بسلب نقائصهم حتى لا يخرج بالكلام كما هو المقصود =

الشافعي رضي الله عنه يورث وإذا تاب القائف قبل أن يثبت الحد سقط وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ لِرَبِّهِمْ كَذِبًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنَّهُمْ فَهَضَمُوا حَيْثُ رَأَوْا
شَهَادَتَهُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَالْحَنَافِئَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ
كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ وَيَزْمُونَ عَنَّا الْمَذَابَ أَنْ فَهَضَمُوا حَيْثُ رَأَوْا شَهَادَتَهُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ
لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ وَالْحَنَافِئَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّانِقِينَ ﴿٩﴾.

قائف امراته إذا كان مسلماً حراً بالغاً عاقلاً غير محبوس في القذف والمرأة بهذه الصفة مع العفة صح اللعان بينهما إذا قذفها بصريح الزنا وهو أن يقول لها: يا زانية أو زنيته أو رايتك تزنين، وإذا كان الزوج عبداً أو محبوساً في قف والمراة محصنة حد كما في قنف الاجنبيات، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب لللعان واللعان أن يبدأ الرجل، فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصائقين فيما رماها به من الزنا، ويقول في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، وتقول: المرأة أربع مرات أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا ثم تقول: في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصائقين فيما رماني به من الزنا، وعند الشافعي رضي الله عنه يقام الرجل قائماً حتى يشهد والمرأة قاعداً، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له: إن أخاف إن لم تكن صانقاً أن تبوء بلعنة الله، وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت وبالمدينة على المنبر وبيت المقدس في مسجده ولعان المشرك في الكنيسة، وحيث يعظم وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام، ثم يفرق القاضي بينهما ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم إلا عند زفر، فإن الفرقة تقع باللعان وعن عثمان البتي لا فرقة أصلاً وعند الشافعي رضي الله عنه تقع بلعان الزوج، وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رضي الله عنهما ولا يتأبد حكمها فإذا كذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه، وروي أن آية القنف لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ على المنبر، فقام عاصم بن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال: جعلني الله فداك إن وجد رجل مع امراته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته أبداً وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد

والكذب إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعا عن هتكها. **فإن قلنت:** فإذا لم يكن المقنوف محصناً قلنت: يعزز القائف ولا يحد إلا أن يكون المقنوف معروفاً بما قنف به فلا حد ولا تعزير، رد شهادة القائف معلق عند أبي حنيفة رضي الله عنه باستيفاء الحد فإذا شهد قبل الحد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب وكان من الأبرار الاتقياء، وعند الشافعي رضي الله عنه يتعلق رد شهادته بنفس القنف فإذا تاب عن القنف بأن رجع عنه عاد مقبول الشهادة، وكلاهما متمسك بالآية فابو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي الجلد ورد الشهادة عقيب الجلد على التأييد، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم وجعل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلاماً مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط كانه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾.

وإلا الذين تابوا استثناء من الفاسقين، ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قانفاً وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القنف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية وحق المستثنى عنده أن يكون مجزواً بدلاً من هم في لهم وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوباً لأنه عن موجب والذي يقتضيه ظاهر الآية، ونظما أن تكون الجملة الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كانه قبل ومن قنف المحصنات فاجلوهوم وردوا شهادتهم وفسقوهوم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق إلا الذين تابوا عن القنف وأصلحوا، فإن الله يغفر لهم فيقبلون غير مجلدين ولا مردوين ولا مفسقين.

فإن قلنت: الكافر يقنف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع والقائف من المسلمين يتوب عن القنف، فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه كان القنف مع الكفر أهون من القنف مع الإسلام قلنت: المسلمين لا يعبؤون بسب الكفار لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل، فلا يلحق المقنوف بقنف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقنف مسلم مثله فشد على القائف من المسلمين ردعاً وكفاً عن إلحاق الشنار.

فإن قلنت: هل للمقنوف أو للإمام أن يعفو عن حد القائف قلنت: لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحد والمقنوف منسوب إلى أن لا يرافع القائف ولا يطالبه بالحد، ويحسن من الإمام أن يحمل المقنوف على كظم الغيظ ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحد، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ولهذا لم يصح أن يصلح عنه بمال.

فإن قلنت: هل يورث الحد قلنت: عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث لقوله ﷺ الحد لا يورث. وعند

البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الأفك، وهو القلب لأنه قول: مافوك عن وجهه والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها، والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصاة واعصوبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبي راس النفاق وزيد بن رفاعه وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم، وقرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه والذي تولاه عبد الله لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ وانتهازه الفرص وطلبه سبيلاً إلى الغمزة أي: يصيب كل خائن في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه، والعذاب العظيم لعبد الله ﷺ لأن معظم الشركان منه يحكى أن صفوان رضي الله عنه مر بهوبجها عليه وهو في ملا من قومه فقال: من هذه فقالوا: عائشة رضي الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، والخطاب في قوله: ﴿هو خير لكم﴾ لمن ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهم، ومعنى كونه خيراً لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم لأنه كان بلاء مبيئاً ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسليية له وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لال البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم تمجئه إننا وعدة الطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنَّهُم بِهَا كَافِرُونَ هَٰذَا إِنَّكَ مَعَهُمْ

﴿بأنفسهم﴾ أي: بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾⁽¹⁾ وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال: لأم أيوب ألا ترين ما يقال فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً، قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني وصفوان خير منك⁽³⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا قِيلَ: لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَنْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ

قضى الرجل حاجته، ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال: ما وراءك قال: شر وجدت على بطن امرأتي خولة وهي بنت عاصم شريك بن سحماء فقال: هذا والله سؤالي ما أسرع ما ابتليت به فرجعاً فأخبر عاصم رسول الله ﷺ فكلّم خولة فقالت: لا أدري الغيرة أدركته أم بخلاً على الطعام وكان شريك نزليهم وقال هلال: لقد رأيته على بطنها فنزلت ولاعن بينهما، وقال رسول الله ﷺ عند قوله وقولها: أن لعنة الله عليه إن غضب الله عليها أمين، وقال القوم: أمين وقال لها: إن كنت ألممت بذنب فاعترفي به، فالرجم أهون عليك من غضب الله إن غضبه هو النار وقال: تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيب أثيب يضرب إلى السواد، فهو لشريك وإن جاءت به أورك جعداً جمالياً خلد الساقين فهو لغير الذي رميت به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك، فقال ﷺ: لولا الأيمان لكان لي ولها شأن، وقرئ ولم تكن التاء لأن الشهداء جماعة، أو لأنهم في معنى الأنفس التي هي بدل ووجه من قرأ أربع أن ينتصب لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو فشادة أحدهم وهي مبتدأ محذوف الخبر تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله، وقرئ أن لعنة الله وأن غضب الله على تخفيف أن ورفع ما بعده، وقرئ أن غضب الله على فعل الغضب، وقرئ بنصب الخامسة على معنى وتشهد الخامسة.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّتِ الْمَلَاعِنَةُ بَانَ تَحْمَسَ بِغَضَبِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: تَغْلِيظاً عَلَيْهَا لِأَنَّهَا هِيَ أَصْلُ الْفَجْرِ وَمَتَبَعُهُ بِخَلَابَتِهَا وَإِطْمَاعِهَا وَلِذَلِكَ كَانَتْ مَقْدَمَةً فِي آيَةِ الْجُلْدِ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ لَخَوْلَةُ، فَالْجَرَمُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ.

وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ رَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ^(١٠).

الفضل التفضل وجواب لولا متروك وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه رب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ لَّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَظِيمِ^(١١).

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل: هو

(1) سورة الحجرات، الآية: 11.

(2) قال أحمد: والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه، وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقنف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك والله أعلم. عاد كلامه (قال: ونقل أن أبا أيوب الأنصاري، قال لامرأته: ألا ترين مقالة الناس، قالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تخون في حرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته، وصفوان خير منك، وعائشة خير مني).

(3) قال أحمد: ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان، ونفسها منزلة عائشة، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضي الله عنها، ويحتمل والله أعلم خلاف ما قاله الزمخشري، وهو أن يكون التعبير بالانفس حقيقة، والمقصود إلزام سيء الظن بنفسه؛ لأنه لم يعتد بوازع الإيمان في حق غيره والغا، واعتبره في حق نفسه، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى والله أعلم.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاحِهِمْ﴾ والقول: لا يكون إلا بالضم! قُلْتُ: معناه أن الشيء المعلوم يكون وعلمه في القلب، فيترجم عنه اللسان^(٣٦) وهذا الإفك ليس إلا قولاً: يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله تعالى: يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة، وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له: فقال: أخاف ننبأ لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم؛ وفي كلام بعضهم لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نكير وصفهم بارتكاب ثلاثة أثام وعلق مس العذاب العظيم بها أحدها تلقى الإفك السننهم ونلك أن الرجل كان يلقي الرجل، فيقول له: ما وراءك فيحسبه حديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه والثاني التكلم بما لا علم لهم، والثالث استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم.

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ (١٧).

فإن قُلْتُ: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قُلْتُ: للظروف شأن وهو تنزيلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها وإنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

فإن قُلْتُ: فأي: فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ قُلْتُ: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفانوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

فإن قُلْتُ: فما معنى يكون والكلام بدونه مثلب لو قيل: مالنا أن نتكلم بهذا! قُلْتُ: معناه: معنى ينبغي ويصح أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴿وسبحانك﴾ للتعجب من عظم الأمر.

فإن قُلْتُ: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح! قُلْتُ: الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة؟

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامراً نوح، ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة؟ قُلْتُ: لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم، ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم ولم يكن الكفر عندهم مما

خيراً وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر! قُلْتُ: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصنق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على اختها قول: عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله: في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، وأن يقول: بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هذا إفك مبين﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول: المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الأدب الحسن الذي، قال: القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمح فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ (١٨).

جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بيعة على قولهم، فقامت عليهم الحجة وكانوا ﴿عند الله﴾ أي: في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك، فلم يجنوا في دفعه وإنكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القائف بغير بيعة والتكليف به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، حرمة رسول الله ﷺ وحبية حبيب الله.

وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ رِبِّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكَّرَ فِي مَا أَفْتَرْتُمْ بِهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٩) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّيِّئَةِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاحِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (٢٠).

لولا الأولى للتحضيض وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره والمعنى: ولولا أنني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة وإن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك.

يقال: أفاض في الحديث واندفع وهضب وخاض ﴿إن﴾ ظرف لمسكم، أو لأفضتم ﴿تلقونه﴾ يأخذه بعضكم من بعض يقال: تلقى القول: وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾^(١) وقرئ على الأصل تتلقونه وإذ تلقونه بإدغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى: لقفه وتلقونه من إلقائه بعضهم على بعض وتلقونه وتالقونه من الولق والالاق، وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة رضي الله عنها وعن سفيان سمعت أمي تقرأ إذ تتلقونه، وكان أبوها يقرأ بحرف

(1) سورة البقرة، الآية: 37.

= السر الذي أنبا عنه قوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ والله أعلم.

(2) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد المبالغة، أو تعريضاً بأنه ربما يتمسق، ويقضي تمسق جازم عالم، وهذا أشد وأقطع، وهو =

ينفروا، وأما الكشخنة⁽¹⁾ فمن أعظم المنفرات.

يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَمُودُوا لِيُتْلَمَ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُجِيبٌ ﴿١٨﴾

أي: كراهة ﴿أَنْ تَعُودُوا﴾ أو في أن تعودوا من قولك، وعظمت فلاناً في كذا فتركه وأيدهم ما داموا أحياء مكلفين، ﴿وإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه تهيج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو اتصافهم بالإيمان الصادق عن كل مقبح.

وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب الجميلة ويعظكم به من المواعظ الشافية، والله عالم بكل شيء فاعل لما يفعله بنواعي الحكمة.

إِنَّ الَّذِينَ يُخَيِّرُونَ أَنْ تَجْعَلَ الْفَرْجَةَ فِي الْإِيمَانِ مَأْمُورًا مِمَّنْ عَذَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

المعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها وعذاب الدنيا الحد ولقد ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي وحساناً ومسطحاً وقعد صفوان لحسان، فضربه ضربة بالسيف وكف بصره وقيل: هو المراد بقوله: والذي تولى كبره منهم ﴿والله يعلم﴾ ما في القلوب من الأسرار والضمائر ﴿وانتم لا تعلمون﴾ يعني: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو معاقبه عليها.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ﴿٢٠﴾

وكرر المنة بترك المعالجة بالعقاب حائفاً جواب لولا كما حذفه ثمة وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة، وكذلك في التوب والوقوف والرحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْتِرْ بِالْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

الفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه قال أبو نؤيب:

ضرائر حرمي تفاحش غارها

أي: أفرطت غيرتها والمنكر ما تنكره النفوس فتتفر عنه ولا ترتضيه. وقرئ: ﴿خطوات﴾ بفتح الطاء وسكونها وزكى بالتشديد والضمير لله تعالى ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة المحصنة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها وهو ﴿سميع﴾ لقولهم: ﴿عليم﴾ بضم الميم وإخلاصهم.

وَلَا يَأْتِي أَوْلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّوَةِ أَنْ يُؤْتَى أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّكِينِ

(1) قال أحمد: وما أورد عليه إبرد من هذا السؤال، كان أحداً يشكك عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة مما ينكره كل عاقل، ويتعجب منه كل لبيب والله الموفق.

وَالَّذِينَ جَاءُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْمَلُوا وَلَيَصْحَوْنَ أَلَا يُحِشُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُجِيبٌ ﴿٢٢﴾

وهو من اثتلى إذا حلف افتتال من الآلية وقيل: من قولهم: ما أوت جهذا إذا لم تدخر منه شيئاً ويشهد للأول قراءة الحسن ولا يتال والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم، ونوبهم نزلت في شأن مسطح، وكان ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وكان فقيراً من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط منه ما فرط آلى أن لا ينفق عليه وكفى به داعياً إلى المجاملة، وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء، ويروى أن رسول الله ﷺ قراها على أبي بكر فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبداً، وقرا أبو حيوة وابن قطيب أن توتوا بالتاء على الالتفات ويعضده قوله: ألا تحبون أن يغفر الله لكم.

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُنْفَكَاتِ مَأْمُورًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿الغافلات﴾ السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال، فلا يظن لما تظن له المجربات العرافات قال:

ولقد لهُوت بطفلة مiale بلهاء تطلعنني على أسرارها

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثر أهل الجنة البله».

يَوْمَ تَهْدِيهِمْ عَلَيْهِمُ السُّبُلَ وَالَّذِينَ هُمْ بِأَرْجَاهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

وقرئ: ﴿يشهد﴾ بالياء والحق بالنصب صفة للبين، وهو الجزاء وبالرفع صفة لله ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه عن طرق مختلفة وأساليب مفتنة كل واحد منها كاف في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن السنتهم وأيديهم وأرجلهم

(3) قال أحمد: إن كان الأمر على التأويل الثاني فهذه الآية تفصيل لما أجمعه. قوله تعالى: ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ وقد مبنا أنها =

وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾

الحديث من سبقت عينه استثنائه فقد دمر⁽³⁾ وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أستانن على أمي، قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيري أستانن عليها كلما دخلت قال: «أتحب أن تراها عريانة». قال: الرجل: لا، قال: «فاستانن»⁽⁴⁾ **﴿لعلكم تذكرون﴾** أي: أنزل عليكم، أو قيل: لكم هذا إرادة أن تنكروا وتنعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوا حَتَّى يَأْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَمْلِكُونَ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾

يَحْتَمَلُ **﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾** مِنَ الْآذِنِينَ **﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾** وَاصْبَرُوا حَتَّى تَجِدُوا مِنْ بَازِنٍ لَكُمْ وَيَحْتَمَلُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا وَلَكُمْ فِيهَا حَاجَةٌ، فَلَا تَدْخُلُوهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ لَمْ يَشْرَعْ لِثَلَاثِ طُلُوعِ الدَّامِرِ عَلَى عِوْزَةٍ، وَلَا تَسْبِقُ عَيْنُهُ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ فَقَطْ وَإِنَّمَا شَرَعَ لِثَلَاثِ يَوْفَقُ عَلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي يَطْوِيهَا النَّاسُ فِي الْعَادَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَيَتَحَفَّظُونَ مِنْ إِظْلَاعِ أَحَدٍ عَلَيْهَا وَلِأَنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مَلِكٍ غَيْرِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِرِضَاهُ وَإِلَّا أَشْبَهَ الْغَضَبَ وَالتَّغْلِبَ، **﴿فَارْجِعُوا﴾** أَي: لَا تَلْحُوا فِي إِطْلَاقِ الْإِذْنِ وَلَا تَلْجُوا فِي تَسْهِيلِ الْحِجَابِ، وَلَا تَقْفُوا عَلَى الْأَبْوَابِ مُنْتَظِرِينَ لِأَنَّ هَذَا مِمَّا يَجْلِبُ الْكَرَاهَةَ وَيَقْدَحُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ خُصُوصًا إِذَا كَانُوا نَوِي مَرْوَةٍ وَمُرْتَاضِينَ بِالْأَدَابِ الْحَسَنَةِ وَإِذَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ لِأَدَاتِهِ إِلَى الْكَرَاهَةِ وَجِبَ الْإِنْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ مَا يُوْدِي إِلَيْهَا مِنْ قَرَعِ الْبَابِ بَعْنَفٍ، وَالتَّصْيِيحِ بِصَاحِبِ الدَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عَادَاتِ مَنْ لَمْ يَتَهَبَّزْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ مَا قَرَعَتْ بَابًا عَلَى عَالَمٍ قَطْ وَكَفَى بِقِصَّةِ بَنِي أَسَدٍ زَاجِرَةً وَمَا نَزَلَ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾**.

فَإِنْ قُلْتُ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِنْ لَمْ يَوْزَنْ لَكُمْ وَأَمَرْتُمْ بِالرَّجُوعِ، فَامْتَنُوا وَلَا تَدْخُلُوا مَعَ كَرَاهَتِهِمْ؟ قُلْتُ: بَعْدَ أَنْ جُزِمَ النَّهْيُ عَنِ الدَّخُولِ مَعَ فَقْدِ الْإِذْنِ وَحْدَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ حَاضِرِينَ، وَغَائِبِينَ لَمْ تَبَقْ شَبْهَةٌ فِي كَوْنِهِ مِنْهَا عَنْهُ مَعَ انْضِمَامِ الْأَمْرِ بِالرَّجُوعِ إِلَى فَقْدِ الْإِذْنِ.

فَإِنْ قُلْتُ: فَلِذَا عَرَضَ أَمْرٌ فِي دَارٍ مِنْ حَرِيقٍ أَوْ هُجُومٍ سَارِقٍ أَوْ ظُهُورٍ مِنْكَرٍ يَجِبُ إِتْكَارُهُ؟ قُلْتُ: ذَلِكَ مُسْتَثْنَى بِاللَّيْلِ، أَي: الرَّجُوعُ أَطِيبُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِمَا فِيهِ مِنْ سَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالبَعْدِ مِنَ الرِّيبَةِ أَوْ أَنْفَعُ وَأَنْمَى خَيْرًا، ثُمَّ أَوْعَدَ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ عَالَمٌ بِمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذْرُونَ مِمَّا خُوطِبُوا

﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ الظَّاهِرِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْإِسْتِحْشَاءِ لِأَنَّ الَّذِي يَطْرُقُ بَابَ غَيْرِهِ لَا يَدْرِي أَيُّؤْنَنُ لَهُ أَمْ لَا، فَهُوَ كَالْمُسْتَوْحِشِ مِنْ خِفَاءِ الْحَالِ عَلَيْهِ، فَإِذَا أُنْذِنَ لَهُ اسْتَأْنَسَ فَالْمَعْنَى: حَتَّى يَوْزَنْ لَكُمْ كَقَوْلِهِ: **﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾**⁽¹⁾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكُنْيَةِ وَالْإِرْدَافِ لِأَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ يَرِدُ الْإِذْنَ، فَوْضِعَ مَوْضِعَ الْإِذْنِ وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ الَّذِي هُوَ الْاسْتِعْلَامُ، وَالْإِسْتِثْنَاءُ اسْتِفْعَالٌ مِنْ أَنْسَ الشَّيْءِ إِذَا أَبْصَرَهُ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا، وَالْمَعْنَى: حَتَّى تَسْتَعْمِلُوا وَتَسْتَكْشِفُوا الْحَالَ هَلْ يَرَادُ دُخُولُكُمْ أَمْ لَا وَمَنْهُ قَوْلُهُ: اسْتَأْنَسَ هَلْ تَرَى أَحَدًا وَاسْتَأْنَسْتَ، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا أَي: تَعَرَّفْتُ وَاسْتَعْلَمْتُ وَمَنْهُ بَيْتُ النَّابِغَةِ. عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَاحِدٍ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِنْسِ وَهُوَ أَنْ يَتَعَرَّفَ هَلْ ثَمَّةُ إِنْسَانٍ؟⁽²⁾ وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتِثْنَاءُ قَالَ: يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بِالتَّسْبِيحَةِ وَالتَّكْبِيرَةِ وَالتَّحْمِيدَةِ، وَيَتَنَحَّنُ يَوْزَنْ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَالتَّسْلِيمِ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامَ عَلَيْكُمْ الدُّخُلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ أُنْذِنَ لَهُ وَإِلَّا رَجَعَ وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ أَتَى بِابٍ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: السَّلَامَ عَلَيْكُمْ الدُّخُلُ قَالَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ الْإِسْتِثْنَاءَ ثَلَاثًا وَاسْتَأْنَسَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَيْحَ فَقَالَ ﷺ لِامْرَأَةٍ يَقَالَ لَهَا: رَوْضَةٌ قَوْمِي إِلَى هَذَا فَعَلِمِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ أَنْ يَسْتَأْنَسَ قَوْلِي لَهُ يَقُولُ: السَّلَامَ عَلَيْكُمْ الدُّخُلُ فَسَمِعَهَا الرَّجُلُ فَقَالَهَا فَقَالَ: الدُّخُلُ وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ: الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِهِ حَبِيبَتِمْ صَبَاحًا وَحَبِيبَتِمْ مَسَاءً، ثُمَّ يَدْخُلُ فَرُبَّمَا أَصَابَ الرَّجُلَ مَعَ امْرَأَتِهِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ فَصَدَّ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَلِمَ الْأَحْسَنُ وَالْأَجْمَلُ وَكَمْ مِنْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الدِّينِ هُوَ عِنْدَ النَّاسِ كَالشَّرِيعَةِ الْمُنْسُوخَةِ قَدْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَبَابُ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْ ذَلِكَ بَيْنَا أَنْتَ فِي بَيْتِكَ إِذَا رَعَفَ عَلَيْكَ الْبَابُ بِوَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ وَلَا تَحِيَّةٍ مِنْ تَحَايَا إِسْلَامٍ وَلَا جَاهِلِيَّةٍ، وَهُوَ مِمَّنْ سَمِعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَا قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنْ أَيْنَ الْأَذْنُ الْوَاعِيَّةُ، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ حَتَّى تَسْلِمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَتَسْتَأْنِسُوا، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ إِنَّمَا هُوَ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا فَاطْأُ الْكَاتِبِ، وَلَا يَعُولُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا **﴿نَلِكُمْ﴾** الْإِسْتِثْنَاءُ وَالتَّسْلِيمُ **﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾** مِنْ تَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالدُّمُورِ وَهُوَ الدُّخُولُ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الدَّمَارِ وَهُوَ الْهَلَاكُ كَانَ صَاحِبُهُ دَامِرٌ لِعَظَمِ مَا ارْتَكَبَ، وَفِي

(1) سورة الأحزاب، الآية: 53.

(2) قال أحمد: فيكون على هذا الأخير بني من الإنس استعمل، والوجه الأول هو البين، وسر التجوز فيه، والعمول إليه عن الحقيقة ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة نكر، فإن له فائدة وثمرة تميل النفوس إليها، وتنفر من ضدها، وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان، ففيه تنهيز للنوع =

= على سلوك هذا الأنس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(3) رواه الطبراني.

(4) أخرجه أبو داود في المراسيل، كتاب: ما جاء في الاستئذان، (الحديث رقم: 488) وأخرجه مالك في الموطأ، وكتاب: الاستئذان، باب: الاستئذان، (الحديث رقم: 1).

به فموف جزاءه عليه.

لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٨).

وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلَيْهِ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ رَيْبَتِهِمْ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٩).

النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته وإن اشتبهت غضت بصرها رأساً، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل تلك وغضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن منه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن مكتوم وذلك بعد أن امرنا بالحجاب، فدخل علينا فقال: احتجبا فقلنا: يا رسول الله اليس أعمى لا يبصرنا قال: أفعميوان أنتما الستما تبصرانه (٢).

فإن قلَّت: لم قدَّم غُضُّ الأبصار على حفظ الفروج؟ قلَّت: لأنَّ النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشدَّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، الزينة ما تزينت به المرأة من حلِّي، أو كحل، أو خضاب فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتحة والكحل والخضاب فلا بأس بإيدائه للأجانب وما خفي منها كالسوار والخلخال والدمليج والقلادة والإكليل والشاح والقرط فلا تبديه، إلا لهؤلاء المذكورين وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر لأنَّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي الذراع والساق والعضد والعنق والراس والصدر والأنف، فنهى عن إبداء الزين نفسها ليعلم أنَّ النظر إذا لم يحل إليها لملا جستها تلك المواقع بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله كان النظر إلى المواقع أنفسها (٣) متمكناً في الحظر ثابت القدم في الحرمة شاهداً على أنَّ النساء حقهن أن يحتطن في سترها، ويتقين الله في الكشف عنها.

فإن قلَّت: ما تقول في القراميل هل يحل نظر هؤلاء إليها؟ قلَّت: نعم.

فإن قلَّت: ليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها ويطننها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذي ما تحت السرة؟ قلَّت: الأمر كما قلت: ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلى لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء إلا إذا كان يصف لرقته، فلا يحل النظر إليه فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه.

فإن قلَّت: ما المراد بموقع الزينة ذلك العضو كله أم المقدار الذي تلبسه الزينة منه؟ قلَّت: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة الوجه موقع الكحل في عينيه والخضاب بالوسمة

واستثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على دخولها ما ليس بمسكون منها وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين، المتاع المنفعة كالاستكنان من الحرِّ والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع، ويروي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنَّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان وإنَّا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن، فنزلت (١) وقيل: الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز «والله يعلم ما تبذرون وما تكتُمون» وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الرية.

قُلْ لِلْمُزْنِيرِكِ بَشِيرًا مِمَّنْ أَبْصَرَهُمْ وَخَفَوْهُمُ فَرُجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لِمُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠).

من للتبعيض والمراد غُضُّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون مزيدة وأباه سيويه.

فإن قلَّت: كيف دخلت في غُضُّ البصر دون حفظ الفروج؟ قلَّت: دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهم وصورهم وثديهم وأعضائهم وأسوقهم وأقدامهم وكذلك الجوارى المستعرضات والأجنبية بنظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين وأما أمر الفرج فمضيق وكفاك فرقاً أن أبيع النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ويجوز أن يراد مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء، وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، ثم أخبر أنه «خبير» بأفعالهم وأحوالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

وَقُلْ لِلزَّوْنِيَّتِ يَمُضُّصَنَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَخَفَوْهُمُ فَرُجَهُمْ وَلَا يُبْرِكُ رَيْبَتُهُمْ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَيَصْرِيحُ بِمُجَرِّمٍ عَلَى جُوبٍ وَلَا يُبْرِكُ رَيْبَتُهُمْ إِلَّا لِمَوْلَاهُ أَوْ مَالِيهِمْ أَوْ مَالِيَهُ أَوْ بَنِيهِمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ مَالِكْتِ أَيْمَنَهُمْ أَوْ النَّصِيبِ غَيْرِ أُولَى الْإِزْيَةِ مِنَ الْإِجَالِ أَوْ الْإِطْلَافِ الْإِزْيَةِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْنِ الْإِسَاءِ

(١) لم يخرج عند الزليعي.

(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، (الحديث رقم: 5576).

(٣) قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك «ولا يضرين بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصود بالنهي؛ =

= لأنه قد نهى عما هو نزيعة إليه خاصة إذ الضرب بالارجل لم يعمل النهي عنه، إلا يعلم أن المرأة ذات زينة، وإن لم تظهر فضلاً عن مواضعها والله أعلم.

فإن قُلْتُ: روي انه «أُفِيَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَصِي قَبْلَهُ»⁽⁶⁾! قُلْتُ: لا يقبل فيما نعم به البلوى إلا حديث مكشوف، فإنَّ صحَّ فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الأسباب **الإربية** الحاجة قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنهم به لا يعرفون شيئاً من أمرهن، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم أو بهم عنانة، وقرئ: غير بالنصب على الاستثناء أو الحال والجر على الوصفية، وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أن المراد به الجمع ونحوه نخرجكم طفلاً **﴿لم يظهرها﴾** إما من ظهر على الشيء إذا أطلع عليه أي: لا يعرفون ما العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها وإما من ظهر على فلان إذا قوي عليه وظهر على القرآن أخذه وإطاقه أي: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء، وقرئ: عورات وهي لغة هنيل.

فإن قُلْتُ: لم لم ينكر الله الأعمام والأخوال؟ قُلْتُ: سئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه: أن سائر القربايات يشرك الأب والابن في المحرمية إلا العم والخال وإبناءهما فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فبيداني تصوّره لها بالوصف نظره إليها وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر، كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى ليعلم أنها ذات خلخالين وإذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ، أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتماميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعون في الدنيا والآخرة.

فإن قُلْتُ: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟ قُلْتُ: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أئنب ننباً، ثم تاب عنه يلزمه كلما ينكره أن يجدد عنه التوبة لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقي ربه، وقرئ: آية المؤمنون بضم الهاء ووجه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف للقاء الساكنين أتبع حركتها حركة ما قبلها.

وَأَنكِحُوا الْأَيَّامَ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَّائِكُمْ

في حاجبيه وشاربيه والغمرة في خديه والكف، والقدم موقعاً الخاتم، والفتحة والخضاب بالحناء.

فإن قُلْتُ: لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قُلْتُ: لأن سترها فيه حرج فإن المرأة لا تجد بداً من مزاوله الأشياء بيدها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة، والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قديمها وخاصة الفقيرات منهن وهذا معنى قوله: **﴿إلا ما ظهر منها﴾** يعني: إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور وإنما سومح في الزينة الخفية أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب واحتجاج المرأة إلى صحتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك، كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدرهن وما حولها ولكن يسئلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرئ بأن يسئلها من قدامهن حتى يغطيها، ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية بما يليها ويلابسها ومنه قولهم: ناصح الجيب وقولك: ضربت بخمارها على جيبها كقولك: ضربت بيدي على الحائط إذا وضعتها عليه، «وعن عائشة رضي الله عنها ما رايت نساء خيراً من نساء الأنصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها المرحل فصعدت منه صدعة، فاختمن فأصبحن كان على رؤوسهن الغريان»⁽¹⁾، وقرئ: جيوبهن بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك بيوتاً غير بيوتكم قيل: في نسائهن هن المؤمنات لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة، أو كتابية عن ابن عباس رضي الله عنهما والظاهر أنه عزي بنسائهن وما ملكت إيمانهن من في صحتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض وقيل: ما ملكت إيمانهن هم الذكور والإناث جميعاً «وعن عائشة رضي الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فانت حرة»⁽²⁾ وعن سعيد بن المسيب مثله⁽³⁾، «ثم رجع وقال: لا تغرنكم آية النور فإن المراد بها الإمام»⁽⁴⁾، وهذا هو الصحيح لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبية منها خصياً كان، أو فحلاً «وعن ميسون بنت بحدل الكلابية أن معاوية دخل عليها ومعه خصي فتقنعت منه، فقال: هو خصي فقالت: يا معاوية أتري أن المثلة به تحلل ما حرم الله»⁽⁵⁾ وعند أبي حنيفة لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشرأؤهم ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 269/4 كتاب: النكاح، باب: في قوله تعالى: «والمحصنات من النساء».

(5) لم يخرج الزيلعي.

(6) قال الزيلعي نكر في عيون الأثر لأبي الفتح اليعمرى وفي الروض الأنف للسهيلى وابن سعد في الطبقات قصة اهداء المقوقس الخصي لرسول الله ﷺ، الزيلعي 434/2.

(1) أخرجه البخاري بلفظ «يرحم الله النساء المهاجرات...» كتاب: التفسير ومن سورة النور، باب: «وليضربن بخمرهن...» (الحديث رقم: 4758).

(2) أخرجه البخاري تعليقاً كتاب: المكاتب، باب: بيع المكاتب إذا رضي. ورواه عبد الرزاق في كتابه المصنف 394/2 (الحديث رقم: 3824).

(3) ولم يخرج الزيلعي.

فَرَّاهُ مِنْهُمْ اللَّهُ مِنْ فَتْلِهِمْ وَاللَّهُ رَمِيعٌ عَلَيْهِ (٣٦).

والأحاديث فيه عن النبي ﷺ، والآثار كثيرة وربما كان واجب الترك إذا أدى إلى مصيبة أو مفسدة وعن النبي ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال» (٧) وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة» (٨).

فإن قلْتُ: لِمَ خَصَّ الصالحين؟ قلْتُ: ليحصن بينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ولأنَّ الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليتهم يشفقون عليهم، وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودة، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأما المفسدون منهم، فحالهم عند مواليتهم على عكس ذلك أو أريد بالصلاح القيام بحقوق النكاح. ينبغي أن تكون شريعة الله غير منسية في هذا الموعد، ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة ونحوه ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقد جاءت الشريعة منصوصة في قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ (٩) إنَّ الله عليهم

﴿الأيامي﴾ واليتامى أصلهما أيامهم ويتامم فقلبا والأيام للرجل والمرأة وقدام وأمت وتأياما إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين قال:

فإن تنكحني أنكح وإن تتأيمي وإن كنت اقتسى منكمتك أتأيم وعن رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزيم والقرم» (١)، والمراد أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريتكم، وقرئ: من عيبكم وهذا الأمر للندب لما علم من أنَّ النكاح أمر مندوب إليه، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك وعند أصحاب الظواهر النكاح واجب، ومما يدل على كونه مندوباً إليه قوله ﷺ: «من أحب فطرني فليستن بسنني وهي النكاح» (٢) وعنه عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به، فلم يتزوج فليس منا» (٣) وعنه (٤) عليه الصلاة والسلام: «إذا تزوج أحكم عج شيطانه يا ويله عصم ابن آدم مني ثلثي بيته» (٥)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يا عياض لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً فلأني مكاشر» (٦)

= مع أنا نشاهد كثيراً ممن استمر به الفقر بعد النكاح، بل زاد للزم خلف الوعد تقسَّس الله وتعالى عن ذلك فقد ثبت الاضطراب إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع، فالقدرية يقولون المراد إن اقتضت الحكمة ذلك فكل من لم يغنه الله باثر التزويج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناؤه، وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر وحتمنا أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر في الآية الأخرى وحينئذ فكل من لم يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناؤه، فلقاتل أن يقول إذا كانت المشيئة هي المعبرة في غي المتزوج فهي أيضاً المعبرة في غنى الأعر، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة، فمن منقسم به ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم وليس هذا كإضرار شرط المشيئة في الغفران للموحد العاصي فإن الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد، وإن ارتبط بالمشيئة أيضاً من حيث أن غير الموحد لا يغفر الله له حتماً، ولا تستطيع أن تقول وغير الناكح لا يغنيه الله حتماً لأن الواقع يباهه، فالجواب وبالله التوفيق أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح أنه قد ركن في الطبائع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها، والغفلة عن المسبب جل وعلا حتى غلب الوهم على العقل فخيّل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به، فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالإيمان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينمي مع كثرة العيال التي هي سبب في الأروام لنفاد الأوهام والواقع يشهد لذلك بلا مرأ، فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطاً لا ينفك ليست على ما يزعمونه، وإنما يقر الغنى والفقر مسبب الأسباب غير موقوف تقدير ذلك إلا على مشيئة خاصة وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح لأنه قد استقرَّ عنده أن لا أثر له في الإقتار وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير لأنه قد استقرَّ عنده أن لا أثر له

(١) نكره ابن قتيبة في غريب الحديث، الزيلعي 35/2.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف 169/6 (الحديث رقم: 10378).

ورواه أبو يعلى (الحديث رقم: 2748).

(٣) قال أحمد: وهذا بأن يدل على الوجوب أولى، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً، وكان المراد من لم يستغن بسننتنا على أنه قد ورد في الواجب، كقوله: «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة، ومن شهر السلاح في فتنة فليس منا، ومثله كثير. عاد كلامه، قوله: «إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله» قال: فيه ينبغي أن تكون شريعة الحكمة والمصلحة غير منسية واستشهد على ذلك بقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾.

(٤) رواه أبو داود في المراسيل كتاب: في النكاح (الحديث رقم: 202). ورواه الدارمي في كتاب: النكاح، باب: الحث على التزويج (الحديث رقم: 2164).

ورواه عبد الرزاق 168/6. (الحديث رقم: 10376).

(٥) رواه أبو يعلى.

(٦) رواه الحاكم في المستدرک 290/3.

(٧) قال للزيلعي رواه ابن الجوزي في الموضوعات 441/2.

(٨) قال الزيلعي رواه الخطابي في كتاب: العزلة ورواه علي بن سعيد في كتاب: الطاعة والمعصية 442/2.

(٩) قال أحمد: جنوحه للمعتقد الفاسد يمتنع عليه بالصواب، فإنَّ معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة مجزراً وأساساً من فضل الله تعالى ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له، فإنَّ قوله تعالى في الآية الأخرى إن شاء يقتضى أنَّ وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة وهذا معتقد أهل الحق فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، لكن ينبغي التنبيه لنكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليه ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله، وذلك أنا إذا بينا على أن ثَمَّ شرطاً محنوفاً لا بد من تقديره ضرورة صدق الخبر إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يغني كل متزوج على الإطلاق =

ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت عليّ العتق، ويجوز عند أبي حنيفة رضي الله عنه جالاً ومؤجلاً ومنجماً وغير منجم لأن الله تعالى لم ينكر التنجيم، وقياساً على سائر العقود وعند الشافعي رضي الله عنه لا يجوز إلا مؤجلاً منجماً، ولا يجوز عنده بنجم واحد لأن العبد لا يملك شيئاً فعقده حالاً منع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البذل عاجلاً، ويجوز عقده على مال قليل وكثير وعلى خدمة في مدة معلومة وعلى عمل معلوم مؤقت مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول، والعرض وبناء دار قد أراه أجراها وجصها وما يبني به وإن كاتبه على قيمته لم يجز فإن أداها عتق، وإن كاتبه على وصيف جاز لقلة الجهالة وجوب الوسط، وليس له أن يطا المكاتبه وإذا أدى عتق وكان ولاؤه لمولاه لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء وعن الحسن رضي الله عنه ليس ذلك بعزم إن شاء كاتب، وإن شاء لم يكاتب وعن عمر رضي الله عنه هي عزمة من عزومات الله وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود **«خَيْرًا»** قدرة على أداء ما يفارقون عليه، وقيل: أمانة وتكسباً وعن سلمان رضي الله عنه أن مملوكاً له ابتغى أن يكاتبه، فقال: أعندك مال، قال: لا، قال: اقتأمرني أن أكل غسالة أيدي الناس **«وَأَتَوْهُمْ»** أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله تعالى: **«وفي الرقاب»** (4) عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم.

فَإِنْ قُلْتُ: هل يحل لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ ما تصبق به عليه؟ **قُلْتُ:** نعم، وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البذل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة، ولكن بسبب عقد المكاتبه كمن اشترى الصدقة من الفقير، أو ورثها أو وهب له ومنه قوله **«فِي»** «في حديث بريرة هو لها صدقة، ولنا هدية» (5) وعند الشافعي رضي الله عنه هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة، وإن لم يفعلوا أجبروا وعن علي رضي الله عنه يحط له الربع، وعن ابن عباس رضي الله

حكيم» (1) ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فافقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء فقني وأصبح مسكيناً «وعن النبي **«التمسوا الرزق بالنكاح»** (2) «وشكا إليه رجل الحاجة فقال: عليك بالباءة» (3) وعن عمر رضي الله عنه عجب لمن لا يطلب الغنى بالباءة، ولقد كان عندنا رجل رازح الحال، ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته، فقال: كنت في أول أمري على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولداً فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر فلما ولد لي الثاني زنت خيراً فلما تتاموا ثلاثة صبَّ الله عليّ الخير صباً فأصبحت إلى ما ترى **«والله واسع»** أي: غني نو سعة لا يرزؤه إغناء الخلاق ولكنه **«عليهم»** يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْفِرَ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَايَرُهُمْ إِنَّ عَلَيْنَا فِيهِمْ خَيْرًا وَمَا نُوْهُمُ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا فَيَذَرُكُمْ عَلَى الْعَيْلَةِ إِنْ أَرَدْتُمْ عَصَا رَبِّكُمْ فَكُلٌّ مِنَ الْغَيْرِ الْأَثَرِ وَإِنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ لِلَّهِ مِنْ بَعْدِ إَكْرِهِهِنَّ غُورٌ رَجِيمٌ ﴿٣٧﴾

«وليستعفف»، وليجتهد في العفة وظلف النفس كان المستعف طالب من نفسه العفاف، وحاملها عليه **«لا يجدون نكاحاً»** أي: استطاعة تزوج، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال **«حتى يغنيهم الله»** ترجية للمستعفين وتقمنة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ليكون انتظار ذلك، وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم وربطاً على قلوبهم وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء، وإنني من الصلحاء وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد من موقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلل عن الحرام ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه **«والذين يبتغون»** مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك: زيداً فاضربه وبخلت الفاء لتضمن معنى الشرط والكتاب والمكاتبه كالعتاب والمعاتبة، وهو أن يقول: الرجل لمملوكه كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق

= بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم، فتأمل هذا الفصل واتخذة عضداً حيث الحاجة إليه.

- (1) سورة التوبة، الآية: 28.
- (2) رواه أبو داود في المراسيل، باب: في النكاح، (الحديث رقم: 203).
- (3) نكر الثعلبي في تفسيره، زيلعي 2/ 444.
- (4) سورة التوبة، الآية: 60.
- (5) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: لا يكون بيع الأمة طلاقاً، (الحديث رقم: 5279)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، (الحديث رقم: 14 - 1504).

= فيه وإن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتدر عليه وإن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس، فمعنى قوله: حديثاً إن يكونوا فقراء الآية أن النكاح لا يمنعه الغنى من فضل الله فعبر عن نفي كونه مانعاً من الغنى بوجوده معه ولا تبطل المانعية إلا بوجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى: **«فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض»** فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة وليس ذلك بمراد حقيقة، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة وبيان أن الصلاة متى قضيت، فلا مانع فعبر عن نفي المانع بالانتشار =

رضي الله عنها ﴿وموعظة﴾ ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله: ولا تآخذنكم بهما رافة في دين الله لولا إذ سمعتموه. ولولا إذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً، نظير قوله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوهَا فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكِلُ حَقَّهُ عَلَى مَنْ حَرَدَ﴾ (٢٥).

﴿الله نور السموات والأرض﴾ مع قوله: مثل نوره. ويهدي الله لنوره: قولك زيد كرم وجود ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات وصاحب نور السموات ونور السموات والأرض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبإيانه كقوله تعالى: الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور: أي: من الباطل إلى الحق وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين إما للدلالة على سعة إشرافه، وفشوق إضاءته حتى تضئ له السموات والأرض وإما أن يراد أهل السموات، والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مثل نوره﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كمشكاة﴾ كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ﴿فيها مصباح﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿في زجاجة﴾ أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر، شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها ﴿يوقد﴾ هذا المصباح ﴿من شجرة﴾ أي: ابتداء ثقبه من شجرة الزيتون يعني: رويت نبالته بزيتها ﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع، أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين وقيل: بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام وعن النبي ﷺ عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون، فتداولوا به فإنه مصحة من الباسور⁽⁵⁾ ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي: منبتها الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل: لا في مضحى ولا مقناة، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها، وأصفى لدهنها قال رسول الله ﷺ: لا خير في شجرة في مقناة ولا نبات في مقناة، ولا خير فيهما في مضحى⁽⁶⁾ وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشى جميعاً فهي شرقية وغربية، ثم

عنهما يرضخ له من كتابته شيئاً، «وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، وهو أول عبد كوتب في الإسلام فاتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال: استعن به على مكاتبك، فقال: «لو أخرته إلى آخر نجم فقال: أخاف أن لا أدرك ذلك»⁽¹⁾ وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه التنبؤ، وقال: إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل: معنى وآتوهم: أسلفوهم وقيل: انفقوا عليهم بعد أن يؤنوا، ويعتقوا وهذا كله مستحب وروي أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له: الصبيح سال مولاه أن يكاتبه، فأبى فنزلت، كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على موالينهم وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار معاذة، ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وفتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب، فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت⁽²⁾، ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة وفي الحديث ليقل أحكم فتاتي وفتاتي ولا يقل عهدي وأمتي⁽³⁾، والبغاء مصدر البغي.

فإن قلنا: لم أقحم قوله: ﴿إن أردن تحصناً﴾! قلنا: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن، وأمر الطبيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرهاً ولا أمره إكراهاً وكلمة إن وإيثارها على إذا إيذان بأن المساعي كن يفعلن تلك برغبة، وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر⁽⁴⁾ ﴿غفور رحيم﴾ لهم أولهن أو لهم ولهن إن تابوا، وأصلحوا وفي قراءة ابن عباس لهن غفور رحيم.

فإن قلنا: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن لأن المكروه على الزنا بخلاف المكروه عليه في أنها غير آثمة! قلنا: لعل الإكراه كان بون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِيينَ (٢٦).

﴿مبينات﴾ هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود، ويجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها فأتسع في الظرف وقرئ بالكسر أي: بينت في الأحكام والحدود جعل الفعل لها على المجاز أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين ﴿ومثلاً من﴾ أمثال من ﴿قبلكم﴾ أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني: قصة عائشة

= من هذه الرثيلة، وإن لم يكن زاجر شرعي، ووجه التبشيع عليه أن مضمون الآية النداء عليه، بأن أمته خير منه؛ لأنها أثرت التحصن عن الفاحشة، وهي يابى إلا إكراهها عليها، ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية فكيف بالنفوس العربية والله الموفق.

(5) رواه الطبراني في معجمه.

(6) قال الزيلعي غريب جداً، 447/2.

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف 139/14، كتاب: الأوائل، باب: أول ساقفل.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿ولا تكروها فتياكم على البغاء﴾، (الحديث رقم: 3029، 26).

(3) راجع (الحديث رقم: 318)، الجزء الثاني.

(4) وعند العبد الفقير إلى الله تعالى أن فائدة ذلك والله أعلم: أن يبيشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يئانف =

الباء وتجعل الأوقات مسبحة والمراد ربها كصيد عليه يومان والمراد وحشهما، والأصل جمع أصل وهو العشي والمعنى: بأوقات الغنم أي: بالغنات، وقرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل يقال: أصيل كاظهر وأتم.

يَجَالُ لَا تُلْهِيمُ غِنًى وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارِهِ صَلَوةً وَإِنَّا الزَّكُّوَةُ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧).

التجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشترى للربح فلما أن يريد لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته الهمة ما لا يليه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني لأن هذا يقين وذاك مظنون وأما أن يسمى الشراء تجارة إطلاقاً لاسم الجنس على النوع كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح، أو شراء وقيل: التجارة لأهل الجلب اتجر فلان في كذا إذا جلبه، التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل إقوام، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فاسقطت ونحوه، وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا، وتقلب القلوب والأبصار إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها وهو أن تضطرب من الهول والفرع وتشخص كقوله: «وإن زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر» (٣) وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر.

يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨).

«أحسن ما عملوا» أي: أحسن جزاء أعمالهم كقوله: «للذين أحسنوا الحسنى» (٤) والمعنى يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلاً وكذلك معنى قوله: الحسنى وزيادة المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل، وعطاء الله تعالى إما تفضل وإما ثواب وإما عوض «والله يرزق» ما يتفضل به «بغير حساب» فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَامٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَافً إِذَا
جَاءَهُمْ لَوْ يَخَذُوهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْنَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ (٣٩).

السراب ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة بمعنى: القاع أو جمع قاع وهو المنبسطة المستوى من الأرض كجيرة في جار، وقرئ بقيعات بتاء مملوطة

وصف الزيت بالصفاء والوبيص وأنه لتلالته «يكاد» يضئ من غير نار «نور على نور» أي: هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة، والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقاً ويمد بإضاءة بقية وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضواؤه له واجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإن الأضواء ينبت فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاءه «يهدي الله» لهذا النور الثاقب «من يشاء» من عباده أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً، ومن لم يتدبر فهو كالاعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحو النهار الشامس، وعن علي رضي الله عنه الله نور السموات والأرض أي: نشر فيها الحق وبثه فاضات بنوره، أو نور قلوب أهلها به، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه مثل نور من آمن به، وقرئ زجاجة الزجاج بالفتح والكسر ودرى منسوب إلى الدر أي أبيض متلألئ ودرى وزن سكيت يدرى الظلام بضوئه ودرى كمرق ودرى كالسكينة عن أبي زيد، وتوقد بمعنى: تتوقد والفعل للزجاجة ويوقد وتوقد بالتخفيف ويوقد بالتشديد ويوقد بحلف التاء وفتح الياء لاجتماع حرفين زائدين، وهو غريب ويمسه بالياء لأن التانيث ليس بحقيقي والضمير فاضل.

فِي يُورِثُ أَذْنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُنْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْقُدُّوَةِ وَالْأَصَالِ (٤٠).

«في بيوت» يتعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو بما بعده وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت وفيها تكرير كقولك: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف كقوله: في تسع آيات أي: سبحوا في بيوت، والمراد بالإذن الأمر ورفعها بناؤها كقوله: «بناها.. رفع سمكها فسواها» (١) «وإن يرفع إبراهيم القواعد» (٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى أو تعظيمها والرفع من قدرها، وعن الحسن رضي الله عنه ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم «ويذكر فيها اسمه» أوفق له وهو عام في كل ذكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما وأن يتلى فيها كتابه، وقرئ: «يسبح» على البناء للمفعول ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغنم، ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح وهو يسبح له وتسبح بالتاء وكسر الباء وعن أبي جعفر رضي الله عنه بالتاء وفتح الباء ووجهها أن يسند إلى أوقات الغنم، والأصل على زيادة

(3) سورة الاحزاب، الآية: 10.

(4) سورة يونس، الآية: 26.

(1) سورة النازعات، الآية: 27 - 28.

(2) سورة البقرة، الآية: 127.

كديمات وقيمات في ديمة وقيمة وقد جعل بعضهم بقيةا بتاء مدورة كرجل عزهاء شبه ما عمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيهِ من عذابه، ثم تخب في العاقبة امله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيأتيهِ فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والفساق وهم الذين قال الله فيهم: عاملة ناصية، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وقمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية قد كان تعبد، ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية في كفر في الإسلام.

أَوْ كَطَلُوتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَتَشَكُّهُ مَوْجٌ مِنْ قَوْوِهِ، مَوْجٌ مِنْ قَوْوِهِ. حَبَابٌ طَلُوتٌ بَصُطًا قَوْقٌ بَصُطٌ إِذَا أَخْرَجَ بَكَدَهُ لَمْ يَكَدْ بَرَهُأً وَنَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (١٤).

اللجى العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر، وفي «الخرج» ضمير الواقع فيه «لم يكدر يراها» مبالغة في لم يراها أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها ومثله قول ذي الرمة:

إذا غير الناي المحبين لم يكدر رسيس الهوى من حمية يبرح أي: لم يقرب من البراح فما باله يبرح شبه أعمالهم؛ أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق لظلمات متراكمة من لج البحر، والأمواج والسحاب، ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأن الإلطف إنما تردف الإيمان والعمل، أو كونهما مترقبين ألا ترى إلى قوله: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (١) وقوله: «ويضل الله الظالمين» (٢)، وقرئ سحاب ظلمات على الإضافة وسحاب ظلمات برفع سحاب وتنوينه وجر ظلمات بدلاً من ظلمات الأولى.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسْخِرُ لَمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (١) وَلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ اللَّهُ الصِّبِيرُ (١٢).

«صفات» يصفن أجنحتهن في الهواء، والضمير في «علم» لكل أو لله وكذلك في «صلاته وتسبيحه» والصلوة الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه، وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتنون إليها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ (١٣).

«يزجي» يسوق ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد لا يرضاها، والسحاب يكون واحداً كالعماء وجمعاً كالرباب ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون فرعاً فيضم بعضه إلى بعض وجاز بينه وهو واحد لأن المعنى بين أجزائه كما قيل: في قوله: بين الدخول، فحومل والركام المتراكم بعضه فوق بعض والودق المطر «من خلاله» من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من خلله «وينزل» بالتشديد ويكاد سنا على الإدغام وبرقة جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة واللقمة، وبرقة بضمينين للاتباع كما قيل: في جمع فعلة فعلات كظلمات، وسناء برقه على المد المقصور بمعنى: الضوء، والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك: سنى للمرتفع ويذهب بالابصار» على زيادة الباء كقوله: ولا تلقوا بأيديكم عن أبي جعفر المدني وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره حيث نكر تسبيح من في السموات والأرض، وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاهم له وابتاهلهم إليه وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته ويريهام البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ليعتبروا، ويحذروا.

يَعْلَمُ اللَّهُ الْغَيْبَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (١٤).

ويعاقب بين الليل والنهار ويخالف بينهما بالطول والقصر وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته ودلائل منافية على صفاته لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر.

فإن قلت: متى رأى رسول الله ﷺ تسبيح من في السموات ودعاهم وتسبيح الطير ودعاه وتنزيل المطر من جبال برد في السماء حتى قيل له ألم ترا قلت: علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طرق الوحي.

فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله: من السماء من جبال من برد؟ قلت: الأولى لا ابتداء الغاية والثانية للتبويض والثالثة للبيان أو الأوليان لا ابتداء والآخرة للتبويض ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الأول مفعول ينزل من جبال.

فإن قلت: ما معنى من جبال فيها من برد؟ قلت: فيه معنيان أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر، والثاني أن يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال: فلان يملك جبلاً من ذهب.

سبق لهم من الإيمان إيماناً إنما كان ادعاءً باللسان من غير مواطاة القلب لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمانينة نفس، لم يتعقبه التولي والإعراض والتعريف في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا﴾⁽⁵⁾.

وَلَا دَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِحُكْمٍ يَنْهَىٰ إِذَا فَرِقَ مِنْهُمْ مَرْحُومُونَ ﴿١٨﴾.

معنى ﴿إلى الله ورسوله﴾ إلى رسول الله كقولك: اعجبني زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله: غلسته قبل القطا وفطره، أراد قبل فطر القطا روي أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله والمنافق يجره إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا وروي أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فقال: المغيرة أما محمد فلست آتية ولا أحاكم إليه، فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي.

وَلَا يَكُنْ لَهُمْ لَقْوٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿١٩﴾.

﴿إليه﴾ صلة يأتوا لأن أتى وجاء قد جاءا معنيين بإلى أو يتصل بمذعبين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص، والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت يزورون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لثلا تنتزعهم من أحقادهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما ذاب لهم في نمة الخصم.

أَيُّ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْبَابُهُمْ أَمْ يَحِيفُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾.

ثم قسم الامر في صبودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل خوفهم حيفة بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جوده وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمة يابون المحاكمة إليه.

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾.

وقرئ خالق كل دابة ولما كان اسم الدابة موقفاً على المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كان الدواب كلهم مميزون، فمن ثمة قيل: فمنهم وقيل: من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم. فإن قلت: لم نكر الماء في قوله: ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾؛ قلت: لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس ونحوه قوله تعالى: ﴿يَسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾⁽¹⁾. فإن قلت: فما باله معرفاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾⁽²⁾!

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابَ الْفُرْقَانِ وَاللَّهُ بِشَيْءِهِ لَئِنْ مَرِطَ مُسْتَفِيرٌ ﴿٢٢﴾.

قلت: قصد ثمة معنى آخر: وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس⁽³⁾ الذي هو جنس الماء، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط قالوا: خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء والجَنِّ من نار خلقها منه، وأدم من تراب خلقه منه.

فإن قلت: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت: قدم ما هو اعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

فإن قلت: لم سمي الزحف على البطن مشياً؟ قلت: على سبيل الاستعارة كما قالوا: في الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال: فلان لا يتمشى له امر ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفة والمشفّر مكان الشفة، ونحو ذلك أو على طريق المشاكلة لنكر الزاحف مع الماشين.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَآلِ رَسُولٍ وَلَٰكِنَّا نَسْتَكْفِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَمْدِدْ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾.

﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا أو إلى الفريق المتولي، فمعناه على الأول: إعلام من الله بأن جميعهم منتفون عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده، وعلى الثاني إعلام بأن الفريق المتولى لم يكن ما

= يشمل أنواعه المختلفة فالآية في الأول لإخراج المختلف من المتفق والله أعلم.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(4) سورة النور، الآية: 47.

(5) سورة الحجرات، الآية: 15.

(1) سورة الرعد، الآية: 4.

(2) قال أحمد: وتحرير الفرق أن المقصد في الأولى إظهار الآية بأن شيئاً واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة، نكر تفصيلها في آية النور والرعد، والمقصود في آية اقتراب أنه خلق الأشياء المنفكة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع، فنذكر معرفاً =

عليه شيء من سرائركم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُنِيرُ (٥٤).

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيته، يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله، وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقى بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن اطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم وما الرسول إلا ناصح وهاج وما عليه إلا أن يبلغ ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى: التبليغ كالإداء بمعنى الثانية، ومعنى المبين كونه مقروناً بالآيات والمعجزات.

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْجُنَّ لَهُمْ فِيهِمُ الْآلِفُ أَرْضِي لَهُمْ وَلَيَبْذِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدُ حَقْوَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥).

الخطاب لرسول الله ﷺ، ولمن معه ومنكم للبيان كالتي في آخر سورة الفتح وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل بني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام وتمكينه تثبيتته وتوطيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح، فقال ﷺ: لا تغيبون إلا سيرة حتى يجلس الرجل منكم الملاء العظيم محتبياً ليس معه حديدة^(٣)، فأنجز الله وعدهم وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم، وفسقوا وذلك قوله ﷺ: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكاً، ثم تصير بزيدي قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها^(٤)، وقرئ كما استخلف على

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٥٦).

وعن الحسن قول: ﴿المؤمنين﴾ بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان، أو غلها في التعريف وأن يقولوا أوغل لأنه لا سبيل عليه للتكثير بخلاف قول: المؤمنين وكان هذا من قبيل كان في قوله: ﴿وما كان لله أن يتخذ من ولد﴾^(١) ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، وقرئ: ﴿ليحكم﴾ على البناء للمفعول.

فإن قلت: إلام أسند يحكم ولا بد له من فاعل! قلت: هو مسند إلى مصدره لأن معناه ليفعل الحكم بينهم، ومثله جمع بينهما والف بينهما ومثله لقد تقطع بينكم، فمن قرأ بينكم منصوباً أي: وقع التقطع بينكم وهذه القراءة مجاورة لقوله: دعوا، قرئ ويثقه بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل وبسكون الهاء وبسكون القاف وكسر الهاء شبه ثقه بكتف، فخفف كقوله: قالت سليمي: اشتر لنا سويقاً ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز وعن ابن عباس في تفسيرها.

وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٧).

﴿ومن يطع الله﴾ في فرائضه ﴿ورسوله﴾ في سننه ﴿ويخش الله﴾ على ما مضى من نذوبه ﴿ويثقه﴾ فيما يستقبل وعن بعض الملوك أنه سال عن آية كافية، فقلت له هذه الآية.

﴿وَأَسْرَأُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَبْلُغَهُمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَتَزَيَّعْنَ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٨)﴾.

جهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شنتها ووكدتها، وعن ابن عباس رضي الله عنه من قال: بالله جهد يمينه وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله: ﴿فغضب الرقاب﴾^(٢) وحكم هذا المنسوب حكم الحال كانه قال: جاهدين أيمانهم و﴿طاعة معروفة﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلف من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره لا أيمان تقسمون بها بأقواهم، وقلوبكم على خلافها أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها بالقول: دون الفعل أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة، وقرأ اليزيدي طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ﴿إن الله خبير﴾ يعلم ما في ضمائرهم، ولا يخفى

(1) سورة مريم، الآية: 35.

(2) سورة محمد، الآية: 4.

(3) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 186.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخلفاء، (الحديث) =

= (4646)، والترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الخلافة، (الحديث: 2226)، والحاكم في المستدرک 145/3. وأحمد في المسند 220/5.

البناء المفعول وليبدلنهم بالتشديد.

فإن قُلْتُ: أين القسم المتلقى باللام والنون في «ليستخلفنهم»؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو نزل وعد الله في تحقيقه منزلة القسم، فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم.

فإن قُلْتُ: ما محل «يعبدونني»؟ قُلْتُ: إن جعلته استثناءً لم يكن له محل كأن قائلًا قال: ما لهم يستخلفون ويؤمنون فقل: يعبدونني، وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم، وإخلاصهم فمحلها النصب «ومن كفر» يريد كفران النعمة كقوله: فكفرت بأنعم الله «فأولئك هم الفاسقون» أي: هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على عملها.

فإن قُلْتُ: هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين؟ قُلْتُ: أوضح دليل وأبينه لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

وَأُطِيعُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٢٤) لَا حَسْرَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا كَانُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا فِي
الْمَسِيرِ (٢٥).

«وأقيموا الصلاة» معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، وكثرت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها، وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطعموا هم في مثل ذلك وهذا معنى قوي جيد وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم نكره في قوله: وأطيعوا الرسول.

وأن يكون الأصل لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حنف الضمير الذي هو المفعول الأول وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد اقتنع بنكر اثنين عن نكر الثالث، وعطف قوله: «وماوهم النار» على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله وماوهم النار، والمراك بهم المقسمون جهد إيمانهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَنْبِذَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ يُنْكِرُ تِلْكَ مَرْئِي مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ نَفْثَتَيْنِ مِنْ
الظُّهْرِ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦).

أمر بأن يستأنن العبيد وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار «ثلاث مرات» في اليوم واللييلة قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة وبالظهيرة لأنها وقت وضع الثياب للقائلة، وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والإلتحاف بثياب النوم وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم، وتحفظهم فيها والعورة الخلل ومنها أعور الفارس وأعور المكان والأعور المختل العين، ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله: «طوافون عليكم» يعني: أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدى إلى الحرج، وروي أن ملج بن عمرو وكان غلاماً أنصاريًا أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهر إلى عمر ليدعوه فدخل عليه، وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر: لودبت أن الله عز وجل نهى أباءنا وأبنائنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده^(١) وقد أنزلت عليه هذه الآية، وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله تعالى عنه وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلما منا يدخلون علينا في حال نكرها^(٢)، وعن أبي عمرو الحلم بالسكون، وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلاً عن ثلاث مرات أي: أوقات ثلاث عورات وعن الأعمش عورات على لغة هذيل.

فإن قُلْتُ: ما محل ليس عليكم؟ قُلْتُ: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان وإذا نصبت لم يكن له محل، وكان كلاماً مقزراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة.

فإن قُلْتُ: بم ارتفع «بعضكم» قُلْتُ: بالابتداء وخبره «على بعض» على معنى طائف على بعض وحذف لأن طوافون يدل عليه، ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمراً لتلك الدلالة.

وَلَا يَحِلُّ الْاُتْفَلُ بِكُمْ الْحُلْمُ فَلْيَسْتَنْبِذُوا كَمَا اسْتَنْبَذَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٧).

«الأطفال منكم» أي: من الأحرار دون المماليك «الذين من قبلهم» يريد الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال أو الذين نكروا من قبلهم في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا

(2) نكره الواحد في أسباب النزول، ص 187.

(1) نكره الواحد في أسباب النزول، ص 186.

وتبلج كذلك.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ أُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِهْنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَىكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَكْلَانِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَكَايِدُهُ أَوْ مَدِينَتُكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَوْعًا أَوْ شَبَاحًا فَإِذَا دَعَلْتُمْ يُدْعَا فَاسْلُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَحَنَّةٌ مِمَّنْ دَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾.

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء ونزوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصقائهم، فيطعمونهم منها فخالج قلوب المطعومين والمطعمين رغبة في تلك وخافوا أن يلحقهم فيه حرج وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (٢) فقلل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في تلك، وعن عكرمة كانت الانصرار في أنفسها قرارة فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا، وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكرامة من قبلهم ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكله إليه، وهو لا يشعر والأعرج يتفلسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه، فيضيق على جلسيه والمريض لا يخلو من راحة تؤذى أو جرح يبيض أو أنف يذن ونحو ذلك وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأمنون لهم أن ياكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون. حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازياً، وخلف مالك بن زيد في بيته وماله فلما رجع رآه مجهوداً فقال: ما أصابك قال: لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أن أكل من مالك فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت وهذا كلام صحيح وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفى عنها الحرج، ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر، فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر.

فإن قلت: هلا نكر الأولاد! قلت: نخل ذكرهم تحت قوله: ﴿مِمَّنْ بِيُوتِكُمْ﴾ لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه وفي الحديث: «إن أطيب ما ياكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه». (٣) ومعنى من بيوتكم من البيوت التي فيها

الآية، والمعنى أن الأطفال مانون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ وجب أن يقطعوا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن، وهذا مما الناس منه في غفلة وهو عندهم كالشرعية المنسوخة وعن ابن عباس آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإنني لأمر جارتني أن تستأن عليّ وسأله عطاء أستاذان على أختي قال: نعم، وإن كانت في حرك تمنونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جدهنّ الناس الإذن كله وقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (١) فقال: ناس أعظمكم بيتاً وقوله: وإذا حضر القسمة، وعن ابن مسعود عليكم أن تستأنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم، وعن الشعبي ليست منسوخة فقلل له: إن الناس لا يعملون بها، فقال: الله المستعان وعن سعيد بن جبير يقولون: هي منسوخة ولا والله ما هي منسوخة، ولكن الناس تهملونها بها.

فإن قلت: ما السن التي يحكم فيها بالبلوغ؟ قلت: قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام وسبع عشرة في الجارية وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما، وعن علي رضي الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزقي في قوله:

ما زال مذعقت يده إزاره فسما فإبارك خمسة الأشبار واعتبر غيره الإنبات وعن عثمان رضي الله عنه أنه سئل عن غلام فقال: هل إخصر إزاره.

وَالْقَوْلُ مِنَ الْكِسَاءِ الَّذِي لَا يَرُوحُ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ يَدَهُنَّ عَلَى سُرْحَانِهِنَّ بِرِسَةٍ وَأَنْ يَسْتَمِفْنَ خَيْرَ لَهْرٍ وَاللَّهُ سَعِيدٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

القاعد التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه، والمراد بالثياب، الثياب الظاهرة كالملحفة، والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غير متبرجات بزينة﴾ غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية التي أرادها في قوله: ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه والاستعفاف من الوضع خير لهنّ لما نكر الجائز عقبه بالمستحب بعداً منه على اختيار أفضل الأعمال، وأحسنها كقوله: وأن تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم.

فإن قلت: ما حقيقة التبرج؟ قلت: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارح لا غطاء عليها والبرج سعة العين يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها وبدا وبرز بمعنى: ظهر من أخوات تبرج

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) سورة البقرة، الآية: 188.

(3) وأخرجه ابن حبان، في كتاب: الرضاع، باب: النفقة، (الحديث):

والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، وروي تسع سنين فما قال لي: شيء فعلته لم فعلته ولا قال لي: شيء كسرت لم كسرت وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه، فرفع رأسه فقال: ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت: بلى يا بني وأمي يا رسول الله قال: متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم أكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوليين⁽³⁾ وقالوا: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت، ورحمة الله وعن ابن عباس إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله، وانتصب تحية بسلاموا لأنها في معنى تسليماً كقولك: قعدت جلوساً.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِيَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَخْرُجُوا مِنْكَ فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ لَكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦).

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبسط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بأنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده تركيزاً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَهُمْ ضَمَنَهُ شَيْئاً آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالصداق لصحة الإيمانين، وعرض بحال المنافقين وتسليمهم لوأذا، ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته، وإنه لمن استصوب أن يأذن له، والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم أو تضام لإرهاب مخالف أو

أزواجكم، وعيالكم ولأن الولد أقرب ممن عدد من القربان فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولي.

فإن قلنا: ما معنى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ﴾؟ قُلْنَا: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له أن يأكل من ثمر بستانه، ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتيح كونها في يده وحفظه وقيل: بيوت الممالك لأن مال العبد لمولاه، وقرئ مفتاحه.

فإن قلنا⁽¹⁾: فما معنى ﴿أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾؟ قُلْنَا: معناه أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحداً وجمعاً وكذلك الخليط والقطين والعدو. يحكى عن الحسن أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها ياكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك، وقال: هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدرين رضي الله عنهم، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسال جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء فإذا حضر مولاه فآخبرته أعتقها سروراً بذلك، وعن جعفر بن محمد الصانق رضي الله عنهما من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس، والثقة والانتساب وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والآخر والأبن، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكبر من الولدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام نك مقام الإذن الصريح، وربما سمح الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه ﴿جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: مجتمعين أو متفرقين نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يواكله أكل ضرورة وقيل: في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا ياكلون إلا مع ضيفهم. وقيل: تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبئسوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة⁽²⁾ ﴿تَحِيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله، ووصفها بالبركة

= ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلاً عن أن يكون صديقاً، ويحتمل في الآيتين والله أعلم: أن يكون المراد به الجمع، فلا كلام ويحتمل أن يزداد الأفراد فيكون سره ذلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعودة، وإن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة، فليطب نفساً بالبسط فيها والله أعلم.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة ومواداة أهل الدين، (الحديث: 8758).

= أخرجه أبو داود في كتاب: البيوع، باب: الرجل ياكل من مال ولده، (الحديث: 3528)، والترمذي في الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (الحديث: 1358)، وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (الحديث: 2290)، والنسائي في كتاب: البيوع، باب: الحث على الكتب. وأحمد في المسند، 6/162، والحاكم في المستدرک 46/2.

(1) قال أحمد: وقد قال الزمخشري: إن سر إنفراده في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ بون الشافعين التنبيه على قلة الأصفاء، ولا كذلك الشافعون، فإن الإنسان قد يجمي له

﴿فتنة﴾ محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب اليم﴾ في الآخرة وعن ابن عباس رضي الله عنهما فتنة قتل وعن عطاء زلازل وأهوال عن جعفر بن محمد يسلم عليهم سلطان جائر.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَسْلَمُ مَا أُنْتَرِ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعَتِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَمَّا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١٤﴾

أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التأكيد في نحو قوله:

فلن تمس مهجور الفناء فرميا أقام به بعد السوفود وفود ونحوه قول زهير:

أخي ثقة لا تهلك الحمرمالة ولكنه قد يهلك المال نائلة والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقة وملكا وعلما، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون سترها عن العيون وإخفاؤها، وسينبتهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم والخطاب والغيبة، في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان مكية

بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيُكُونَ لَعَلَّكُمْ تَزْكُرُونَ ﴿١﴾

البركة كثرة الخير وزيادته ومنها تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، والفرقان مصدر فرق بين الشيتين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصلا بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله وقرأنا فرقناه (٢) لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا وقد جاء الفرق بمعناه قال: ومشركي كافر بالفرق، وعن ابن الزبير رضي الله عنه على عبادته وهم رسول الله ﷺ وأمثته كما قال: لقد أنزلنا إليكم قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا،

تسامح في حلف، وغير ذلك أو الأمر الذي يعم بضمره أو بنفعه، وقرئ أمر جميع وفي قوله: إذا كانوا معه على أمر جامع أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من نوي رأي وقوة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بأرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رايه فمن غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط الحاجة إليه واعتراض ما يهيمهم ويعينهم وذلك قوله: ﴿لبعض شأنهم﴾، وذكر الاستغفار للمستأننين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا انفسهم بالذهاب ولا يستأننوا فيه وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إنن وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع ائمتهم ومقدمهم في الدين والعام يظاهرونهم ولا يخلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم والأمر في الإنن مفوض إلى الإمام إن شاء أنن وإن شاء لم يأنن على حسب ما اقتضاه رايه.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونِ بَيْنَكُمْ لِيُذْخِرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ أَن تَهْجَرَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا، ورجوعكم عن المجمع بغير إنن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ودعاه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا وينابيه باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، والتواضع ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فرميا أجابه وربما رده قال: دعوات رسول الله ﷺ مسموعة مستجابة ﴿يتسللون﴾ ينسلون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذلك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض ﴿لواذا﴾ حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأنن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه، وقرئ: ﴿لواذا﴾ بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه بونه ومنه قوله تعالى: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وخالفه عن الأمر إذا صدعته بونه ومعنى ﴿الذين يخالفون عن أمره﴾ الذين يصنون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول لأن الغرض نكر المخالف والمخالف عنه، الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول ﷺ والمعنى: عن طاعته ودينه

(١) نكره الثعلبي وابن مريويه، والواحدي، زيلعي 2/ 453.

(٢) قال أحمد: والأظهر هنا هو المعنى الثاني: لأن في أثناء السورة بعد آيات، وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، قال الله تعالى =

= كذلك أي: أنزلناه مفروقا، كذلك لنثبت به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة، والله أعلم، كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد.

﴿لِيَكُونَ﴾ لعبد أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَنْذِرُ﴾ مننذرا أي: مخوفا أو إنذارا كالنكير بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾^(١).

أَلَيْسَ لَكَ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ لَكَ وَالْمَ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَمَلَكٌ كُلُّ شَيْءٍ فَفَعَلَهُ نَذِيرًا^(٢).

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قلنت: كيف جاز الفصل بين البذل والمبدل منه؟ قلنت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به.

فإن قلنت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره! قلنت: المعنى: أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهياه لما يصلح له مثله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجيلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما، ومصلحة مطابقة لما قدر له غير متجاف عنه أو سمى إحداث الله خلقا لأنه لا يحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكانه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتا وقيل: فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى امد معلوم.

فإن قلنت: كيف قيل: اكتبها ﴿فهي تملئ عليه﴾، وإنما يقال: أملت عليه فهو يكتبها! قلنت: فيه وجهان أحدهما أراد اكتبها، أو طلبه فهي تملئ عليه أو كتبت له وهو أمي فهي تملئ عليه أي: تلقي عليه من كتابه يتحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب، وعن الحسن أنه قول الله سبحانه: يكتبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار ووجهه أن يكون نحو قوله:

أفصح أن أرى الكرام وأن أورد نودا شصائصا نبلا
وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بكرة وأصيل﴾.

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا^(٣).

أي: دائما أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس، وحين ياءون إلى مساكنهم أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ، وبرأته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

فإن قلنت: كيف طابق قوله: ﴿إنه كان غفورا رحيمًا﴾ هذا المعنى؟ قلنت: لما كان ما تقدمه في معنى: الوعيد عقبه

والضمير في ﴿لِيَكُونَ﴾ لعبد أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَنْذِرُ﴾ مننذرا أي: مخوفا أو إنذارا كالنكير بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾^(١).

أَلَيْسَ لَكَ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ لَكَ وَالْمَ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَمَلَكٌ كُلُّ شَيْءٍ فَفَعَلَهُ نَذِيرًا^(٢).

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قلنت: كيف جاز الفصل بين البذل والمبدل منه؟ قلنت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به.

فإن قلنت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره! قلنت: المعنى: أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهياه لما يصلح له مثله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجيلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما، ومصلحة مطابقة لما قدر له غير متجاف عنه أو سمى إحداث الله خلقا لأنه لا يحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكانه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتا وقيل: فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى امد معلوم.

وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ^(٣).

الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى: ﴿إنما تعبون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكًا﴾^(٢) والمعنى: أنهم أشروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدر على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئا وهم يفتعلون لأن عبثهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ولا يملكون﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله اعجز.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْكُهُ وَآفَاةٌ عَلَيْهِ قَوْمٌ
أَخْرَجُوا فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُجْرًا^(٤).

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ أي: قالوا: فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوة مشتركة بين إنسان وملك والقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضللاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه أو يفضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٦﴾.

تكاثر خير ﴿الذي إن شاء﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خيرًا﴾ مما قالوا: وهو أن يجعل لك مثل ما عندك في الآخرة من الجنات والقصور، وقرئ ويجعل بالرفع عطفاً على جعل لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسئلة يقول: لا غائب مالي ولا حرم ويجوز في ويجعل لك إذا ادغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً، وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط بالولو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٧﴾.

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ويجوز أن يتصل بما يليه كانه قال: بل كذبوا بالساعة كيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما عندك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة، السعير النار الشديدة الاستمرار وعن الحسن رضي الله عنه أنه اسم من أسماء جهنم.

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا مَاءً ظَنُّوا أَنَّهُ زَيْفَرٌ ﴿١٨﴾.

﴿راهمهم﴾ من قولهم: نورههم تترأ، أي: وتتناظر ومن قوله ﷺ: لا ترا أي: نارهما كان بعضها يرى بعضاً^(١) على سبيل المجاز^(٢)، والمعنى: إذا كانت منهم برأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، ويجوز أن يراد إذا رأته زبانيته تغيطوا وزفروا غضباً على الكفار، وشهوة للانتقام منهم الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنات كذا وكذا.

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَعِيفًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٩﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا رَادِعُوا ثُبُورًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾.

ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق،

بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل.

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَهِى فِي الْأَنْشَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَزَكِيًّا ﴿٧﴾.

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه، وتسميته بالرسول سخرية منهم، وظن كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول، ونحوه قول: فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون أي: إن صح أنه رسول الله، فما باله حاله مثل حالنا ﴿ياكل الطعام﴾ كما ناكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش؛ ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساند في الإنذار والتخويف.

أَوْ يُفَلِّحْ إِلَيْنَا كَفَرًا أَوْ تُكَذِّبُوا لَمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا سَاحِرًا ﴿٨﴾.

ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوعاً بملك فليكن مرفوعاً بكنز يلقي إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فافقتنوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتق كما الدهاقين والمياسير أو يأكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في نعيمهم ومعاشهم، وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا: وقرئ فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء وناكل بالنون.

فإن قلنت: ما وجهها الرفع والنصب في فيكون؟ قلنت: النصب لأنه جواب لولا بمعنى: فلا وحكمه حكم الاستفهام والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحل الرفع ألا تراك تقول لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه يلقي وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعاً، والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحوراً﴾ سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرثة عوا أنه بشر لا ملك.

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيحًا ﴿٩﴾.

(1) تقدم في المائدة، الحديث: 457.

(2) قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدره الله تعالى سالحة، وقد تضافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حسياً وعقلياً، ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى

= قولها: هل من مزيد، وإلى اشتكاها إلى ربها، فأنن لها في نفسين إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا مخرج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متمبون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم.

يَعَاذِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧﴾.

يحشرهم فيقول: كلاهما بالنون والياء، وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريد المعبدون من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبي الأصنام ينطقها الله، ويجوز أن يكون عاماً لهم جميعاً.

فإن قُلْتُ: كيف صحَّ استعمال ما في العقلاء؟ قُلْتُ: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ببليلى قولك: إذا رأيت شيئاً من بعيد ما هو فإذا قيل: لك إنسان قلت: حينئذٍ من هو ويدلك قولهم: من لما يعقل أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبودهم ألا تراك تقول: إذا أدركت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني: أطويل أم قصير اقصيه أم طيب.

فإن قُلْتُ: ما فائدة أنتم وهم وهلا قبل أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل! قُلْتُ: ليس السؤال عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلا بد من نكره وإبلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

فإن قُلْتُ: فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ قُلْتُ: فائدة أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبيك عبتهم بتكذيبهم إياهم فيبتهوا وينخلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعاً مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغضب المؤمنين ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفًا للمكفين وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبدون من بونه: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤون من إضلالهم ويستعينون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وأبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان النكر وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسول أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعانوا منه فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتع بها، وأسندوا نسيان النكر والتسبب به للبوارج إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله: ﴿يضل من يشاء﴾^(١) ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم^(٢) والمعنى: أنتم أوقعتموهم في الضلال

حيث ألغاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع، وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقال: وأثبوره أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أي: يقال لهم: ذلك أو هم أحق بأن يقال لهم: وإن لم يكن ثمة قول ومعنى:

﴿وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع واللوان كل نوع منها ثبور لشنته وقطاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم ببلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم الرجوع إلى الموصولين محذوف يعني: وعددها المتقون وما يشاؤنه وإنما قيل: كانت لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان أو كان مكتوباً في اللوح قبل أن يراههم بازمنة متطاوله أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله:

قُلْ أَتَدْرِكُونَ حَبْرَ أَمْ جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي رُغِدَ الْمُتَفَرِّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿٨﴾.

﴿كانت لهم جزاء ومصير﴾؟ قُلْتُ: هو كقوله: نعم، الثواب وحسنت مرتفعاً فمدح الثواب ومكانه كما قال: بئس الشراب وساءت مرتفعاً فذم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتنع إلا بطيب المكان وسعته وموافقة للمراد والشهوة وإن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثائه الموضع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكرامة، فلذلك نكر المصير مع نكر الجزاء والضمير في:

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ رِيبٌ وَعَذَابٌ مُّشْتَرِكٌ ﴿٩﴾.

﴿كان﴾ لما يشاؤون والوعد الموعد أي: كان ذلك موعوداً واجباً على ربك إنجازاً حقيقاً أن يستل، ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد سأل الناس والملائكة في دعواتهم ربنا وأتانا ما وعدتنا على رسلك ربنا أتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

وَيَوْمَ يُحْشَرُوكُمْ وَمَا يَسْتَأْذِنُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ: أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) قال أحمد: قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى التزامهم للتوحيد المصحف، والإيمان بالصرف الذي دل على صحته بعد الأدلة العقلية. قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والضلال شيء فوجب كونه خالقه هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فأمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي﴾ والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام: إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء، فلو كان الإضلال مستحيلاً على الله تعالى

لما جاز أن يخاطبه التكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يستلوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضل هؤلاء؟ وإنما قيل لهم: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتم، ولو كان معتقدهم أن الله هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتم؟ مجازة لمحن السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم: من أضل عبادي هؤلاء فقد وضع أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وأن عرولهم عنه

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القبول فقد جئنا خراسانا وقرئ يقولون: بالتاء والياء فمعنى من قرأ بالتاء.

فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ سَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا يَنْفِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (٨).

فقد كذبكم بقولكم: إنهم آلهة ومعنى من قرأ بالياء فقد كذبكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

فإن قلنت: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قلنت: إي: والله هي مع التاء كقوله: بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم، وقرئ يستطيعون بالتاء والياء أيضاً يعني فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم وقيل: الصرف التوبة وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال، أو فما يستطيع ألتهكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم، الخطاب على العموم للمكلفين، والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم والكافر ظالم لقوله: إن الشرك لظلم عظيم، والفاسق ظالم لقوله: ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وقرئ ينفق بالياء وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْفُلُكِ مَوَاقِدَ فَتَقْتُلُونَ وَنَحْنُ نَعْتَدُكُمْ عَذَابًا كَبِيرًا (٩).

الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا أكلين ومشين وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ (٣) على معنى: وما منا أحد، وقرئ ويمشون على البناء للمفعول أي: تمشيهم حواشيهم، أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية وقيل: هو احتجاج على من قال: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿فتنة﴾ أي: محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عانتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض، والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة

عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وضل مطاوع أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق، والأصل إلى الطريق وللطريق وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي: ضائعاً لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه قيل: أضله سواء كان منه فعل، أو لم يكن.

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ زِينَةً مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠).

﴿سبحانك﴾ تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص ببإليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليلوا على أنهم المسبحون المتقسون الموسومون بذلك، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصصوا به تنزيهه عن الانداد، وإن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما ندأ، ثم قالوا: ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار قال الله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ (١) يريد الكفرة والذين كفروا أولياءهم الطاغوت، وقال أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ ولياً وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلاناً ولياً قال الله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض وقال: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من أولياء والأصل أن نتخذ أولياء فزيت من لتأكيد معنى النفى، والثانية من المتعدى إلى مفعولين فالأول ما بني له الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي: لا نتخذ بعض أولياء وتتكبر أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر نكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع، والبور الهلاك يوصف به الواحد والجمع ويجوز أن يكون جمع بائر كعائد وعوذ، هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ (٢) وقول القائل:

نسيان الذكر إليهم أي: الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه التيسان؛ لأنهم اختاروا ه أنفسهم فصدمت نسبت إليهم، ونسيوا السبب الذي اقتضى نسيانهم، وإنهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم فيها ضلوا، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذ، بل هما متواطئان على أمر واحد، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 76.

(2) سورة المائدة، الآية: 19.

(3) سورة الصفات، الآية: 164.

ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وقد بقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق؛ لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى، وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها، وقد قدمنا في مواضع أن كل فعل اختياري له نسبتان: إن نظر إلى كونه مخلوقاً فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد، فهو منسوب إلى العبد، وبذلك قطعت الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا

التعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم وما أغلى نابا بواؤها كليب.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِمَزِيدٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَرْجُونَ جَزَاءَ كَفَرٍ ﴿٢٢﴾

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين إما بما دل عليه ﴿لا بشرى﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو بعدمونها ويومئذ للتكرير وإما بإضمار انكر أي: انكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وقوله: للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنه عام فقدتنا ولهم بعمومه ﴿حجراً محجوراً﴾ نكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها نحو معاذ الله، وقعلك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتوراً وهجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل: اتفعل كذا وكذا فيقول: حجراً وهي من حجره إذا منعه لأنَّ المستعبد طالب من الله أن يمنع المكروه، فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ومجيئه على فعل، أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قعلك وعمرك كذلك وأشدت لبعض الرجا:

قالت وفيها حيدة وذعر - عوذ بربي منكم وحجر فإن قُلْتُ: فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى وصفه بمحجور؟ قُلْتُ: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: نيل ذائل والنيل الهوان وموت مائت والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة النازلة وقيل: هو من قول الملائكة: ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم.

وَقَدِمْنَا إِنَّا مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَلَجْنَاهُ مَكَاةً مَّنْثُورًا ﴿٢٣﴾

ليس ههنا قنوم ولا ما يشبه القنوم ولكن مثلث حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف، وقرئ ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فافسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثراً ولا عثراً، والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار وفي أمثالهم أقل من الهباء ﴿منثوراً﴾ صفة للهباء شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته

وأقاولهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ وموقع ﴿لتصبرون﴾ بعد نكر الفتنة موقع أيك بعد الابتلاء في قوله: ليليلوكم أيك أحسن عملاً ﴿بصيراً﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره، فلا يضيغن صدرك ولا يستخفك أقاولهم فإن في صبرك عليها سعائتك وفوزك في الدارين وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو يلقي إليه كنز، أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل يصبرون وأنها حكمت ومشيتته يغني من يشاء ويفقر من يشاء وقيل: جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا، أو مزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع نديوي وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إلا لآل بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تِلْكَ أَلْوَارٍ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ ذُرًى رَّيًّا رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْ أَصْهَابِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٤﴾

أي: لا ياملون لقاءنا بالخبر لأنهم كفرة أو لا يخافون لقاءنا بالشر والرجاء في لغة تهامة الخوف وبه فسر قوله تعالى: ﴿لا ترجون شى وقاراً﴾^(١) جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقياً، اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه، أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه ولا يخلو إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما أرادوا التعتن باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

فإن قُلْتُ: ما معنى ﴿في أنفسهم﴾؟ قُلْتُ: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال: إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴿ووعتو﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير فيبالغ في إفراطه يعني: أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، واللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل: وجارة جساس أبانا بنابها - كليباً غلت ناب كليب بواؤها وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ

الريح رأيته قد تنائر وذهب كل مذهب ونحوه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾⁽¹⁾ لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفاً بالأكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً، أو مفعول ثالث لجعلناه أي: فجعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾⁽²⁾ أي: جامعين للمسوخ والخسء ولام الهباء واو بليل الهبوة.

أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٤﴾

المستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحاثون، والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهم وملامستهم كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي معناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِينَ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾⁽³⁾ قيل: في تفسير الشغل افتضااض الأيكار ولا نوم في الجنة وإنما سمي مكان دعوتهم واسترواحهم إلى الحور مقبلاً على طريق التشبيه وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه، وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالسَّمِّ وَرَأَى الْمَلَائِكَةُ قَتِيلًا ﴿١٥﴾

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل تشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أدغمها ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِكَ: انْشَقَّتِ الْأَرْضُ بِالْنبَاتِ وَانْشَقَّتِ عَنِ النَّبَاتِ؟ قُلْتُ: مَعْنَى انْشَقَّتْ بِهِ: أَنَّ اللَّهَ شَقَّهَا بِطُلُوعِهِ فَانْشَقَّتْ بِهِ وَمَعْنَى انْشَقَّتْ عَنْهُ: أَنَّ التُّرْبَةَ ارْتَفَعَتْ عَنْهُ عِنْدَ طُلُوعِهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّمَاءَ تَنْفُتِحُ بِغَمَامٍ يَخْرُجُ مِنْهَا فِي الْغَمَامِ الْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ فِي أَيْدِيهِمْ صَحَافٌ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، وَيُورِي تَنْشِقُ سَمَاءَ سَمَاءٍ وَتَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْأَرْضِ وَقِيلَ: هُوَ غَمَامٌ أَبْيَضٌ رَقِيقٌ مِثْلُ الضَّبَابَةِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا لِابْنِي إِسْرَائِيلَ فِي تِيهِمْ، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾⁽⁵⁾، وقرئ ونزل والملائكة ونزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة على حنف النون الذي هو فاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة.

أَلَمْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ الْهَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿١٦﴾

﴿الحق﴾ الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه، عض اليبدين والأنامل والسقوط في اليد واكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايةات عن الغيظ والحسرة لأنها من روايفها، فينكر الرافقة ويدل بها على المربوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ، وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن ياكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: صبات يا عقبة قال لا، ولكن ألي أن لا ياكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبرق في وجهه وتطم عينه، فوجده ساجداً في دار النوبة ففعل ذلك فقال النبي ﷺ: لا الفاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر علياً رضي الله عنه بقتله وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري، وقال: يا محمد إلي من الصبية قال: إلى النار وطعن رسول الله ﷺ أبياً بأحد فرجع إلى مكة فمات⁽⁶⁾.

وَيَوْمَ يَصُورُ الْأَفْئَالُ عَلَى يَدَيْهِمْ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْدًا ﴿١٧﴾

واللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره، تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والبهوى أو أراد أنني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتني حصلت بنفسى في صحبة الرسول سبيلاً.

يَوْمَئِذٍ لَنَبِيٍّ لَّا رَأْيَ أَتَخَذُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿١٨﴾

وقرئ: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى: فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحارى ومدارى، فلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم اتخذ ألياً خليلاً فكفى عن اسمه وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.

لَقَدْ أَصْلَحْنَا مِنَ الْإِنْسَانِ بَدَأَ إِذْ جَاءُنِي وَكَانَ الْكَافِرُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا ﴿١٩﴾

﴿عن الذكر﴾ عن نكر الله أو القرآن، أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام،

(4) سورة المزمل، الآية: 18.

(5) سورة البقرة، الآية: 210.

(6) نكره الواحدى في اسباب النزول، ص: 189.

(1) سورة الفيل، الآية: 5.

(2) سورة البقرة، الآية: 65.

(3) سورة يس، الآية: 55 - 56.

واحدة أو مفرقًا، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرقًا، والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعث به وتعبا بحفظه، والرسول ﷺ فارتقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة وقيل: في ثلاث وعشرين وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقًا.

فإن قلْتَ: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرتة بكذلك أنزلناه مفرقًا؟ قلْتَ: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة معناه لم أنزل مفرقًا واللليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحلوا بسورة واحدة من أصغر السور فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لانوا بالمناصبية، وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة كانهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة ﴿ورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كانه قال: كذلك فرقناه ورتلناه، ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية ووقفه عقيب وقفه، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾⁽⁴⁾ أي: اقرأه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته ﷺ لا كسرركم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها⁽⁵⁾، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تغليجها يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تغليجه، وقيل: هو أنزله مع كونه متفرقاً على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ولم يفرقه في مدة متقاربة.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ سَبِيلًا^(٦)

﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كانه مثل في البطلان إلا آتينك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو التكتشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق

والشيطان إشارة إلى خليفه سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالطة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطان من الجن والإنس، ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله، واتخذت يقرأ على الإذغام والإظهار، والإذغام أكثر.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا^(٧)

الرسول محمد ﷺ وقومه قریش حكى الله عنه شكواه قومه إليه وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجؤا إليه وشكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا.

وَكَذَلِكَ جِئْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا^(٨)

ثم أقبل عليه مسلماً ومواسياً وواعداً النصرة عليهم فقال: ﴿وكذلك﴾ كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفك بي هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرًا لك عليهم، مهجوراً تركوه وصنّوا عنه وعن الإيمان به وعن النبي ﷺ من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب العالمين عيبك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه⁽¹⁾، وقيل هو من هجر إذا هذى أي: جعلوه مهجوراً فيه فحذف الجار وهو على وجهين أحدهما زعمهم أنه هنيان وباطل وأساطير الأولين، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾⁽²⁾ ويجوز أن يكون المهجور بمعنى: الهجر كالمجلود والمعقول والمعنى اتخذوه هجراً، والعبري يجوز أن يكون واحداً وجمعاً كقوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾⁽³⁾ وقيل: المعنى وقال الرسول يوم القيامة.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً^(٩)

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعاً وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه قالوا: هلا أنزل عليه بقعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق والقائلون قریش وقيل: اليهود وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، الحديث:

3568. ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبو

هريرة رضي الله عنه، الحديث: (160-2493)، والترمذي في

كتاب: المناقب، باب: في كلام النبي ﷺ (الحديث: 3639).

(1) نكره الثعلبي في تفسيره.

(2) سورة فصلت، الآية: 26.

(3) سورة الشعراء، الآية: 77.

(4) سورة المزمل، الآية: 4.

عطف عادًا على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأنّ المعنى: وعدنا الظالمين، وقرئ وثمود على تأويله القليلة وأما المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر قيل: في أصحاب الرس كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواس فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس، وهو البثر غير المطوية عن أبي عبيدة، انهارت بهم فحسف بهم وبيدارهم وقيل: الرس قرية فبلغ اليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا وهم بقية ثمود قوم صالح وقيل هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالنعناء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تنقض على صبيانهم، فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابها الصاعقة، ثم أنهم قتلوا حنظلة فاهلكوا وقيل هم: أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل: الرس بإنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: رسوه فيها ﴿بين ذلك﴾ أي: بين ذلك المذكور وقد ينكر للذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب، أو المعداد.

وَكَلَّا مَرَاتًا لَّهٗ الْأَمْتَلُ وَكَلَّا نَرَا نَبِيرًا تَنِيرًا ﴿٣٦﴾

﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء، وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره، والتفتير: التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج، وكلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا، وحزنا والثاني بتبرنا لأنه فارغ له.

وَلَقَدْ أَنَا عَلَىٰ أَرْبَعَةِ آلِيٍّ أَطْلَرْتُ مَطَرَ السَّوِّ أَكَلَمَ يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْكَ ﴿٣٧﴾

أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعاً بأهلها وبقيت واحدة، ومطر السوء الحجارة يعني: أن قريشًا مرّوا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أفلم يكونوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون ﴿بل كانوا﴾ قومًا كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نشورًا﴾ وعاقبة فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا ومرّوا بها كما مرّت ركابهم أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية إن الأولى نافية

لك في حكمتنا ومشيتنا أن تعطاء، وما هو أحسن تكشفًا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أن تنزيهه مفرقًا وتحنيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أسخّل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحقرون مكانه ومنزلته.

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَسْلُ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾

ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أفضل من سبيله وفي طريقته قوله قل: ﴿هل أنبتكم بشر من تلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾ الآية، ويجوز أن يراد بالمكان الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾^(١) وصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي، وعن النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة ألاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلًا^(٢).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مَوْسَىٰ الْكَتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا

﴿٣٩﴾ نَقَلْنَا أَهْبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٤٠﴾

الوزارة تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضًا، والمعنى: فذهب إليهم فكتبوهم فدمرناهم كقوله: ﴿اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾^(٣) أي: فاضرب فانفلق أراد اختصار القصة فنذكر حاشيتها أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثه الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم وعن علي رضي الله عنه، فدمرتهم وعنه فدمرناهم، وقرئ: ﴿فدمرناهم﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

وَقَدْ نُوْحَ لَمَّا كَذَبُوا أَرْسَلْنَا نُوحًا وَأَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِنَارٍ مَّآبَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾

كانهم كذبوا نوحًا ومن قبله من الرسل صريحًا وكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع، ولم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة ﴿وجعلناهم﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿للظالمين﴾ إما أن يعني بهم: قوم نوح واصله واعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليمهم، فظاهر وإما أن يتناولهم بعمومه.

وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيِّ وَفُودًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٤٢﴾

= باب: ما جاء في شأن المشي، (الحديث: 2424).

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

(1) سورة مريم، الآية: 73.
(2) 1 - أخرجه أحمد في المسند، 164/5.

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، =

تدبره عقلاً ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها.

فإن قُلْتُ: لم أخرج هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهاً! قُلْتُ: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيداً لفضل عنايتك بالمنطق⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: ما معنى نكر الأكثر؟ قُلْتُ: كان فيهم من لم يصد عن الإسلام الأداء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً.

فإن قُلْتُ: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قُلْتُ: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها، وتتبعها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينجأون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهلك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

أَشْشَمَ عَلَيْهِ دِرَاسًا⁽⁴⁾.

«ألم ترى إلى ربك؟ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس «ولو شاء لجعله ساكناً» أي: لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط، فلم ينتفع به أحد سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوتاً ومعنى كون الشمس دليلاً أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ومتساعاً ومتقلصاً، فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِذَا بَصَا يُسِيرًا⁽⁵⁾.

وقبضه إليه أنه ينسخه يضح الشمس «يسيراً» أي: على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً. فإن قُلْتُ: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قُلْتُ: موقعها للبيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ووجه آخر وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، وبها الأرض تحتها فالأفق القبة ظلها على الأرض فيناً ناماً في أيمنه جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكناً مستقرّاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي:

والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما.

وَإِذَا رَأَوْهُ تَتَّخِذُوهُ إِلَٰهًا هُزُوا أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَسُولًا⁽⁶⁾.

واتخذ هزواً في معنى استهزأ به والأصل اتخذ موضع هزواً ومهزواً به «ههنا» محكي بعد القول المضممر وهذا استصغار «وبعث الله رسولا»، وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا.

لَنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَٰهِنَا لَوْلَا أَنَّ مَرْبَّنَا عَلَيْهَا وَرَوَّكَ يَعْلَمُونَ⁽⁷⁾ بَرُونَ الْمَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا⁽⁸⁾.

وقولهم: «إن كاد ليضلنا» دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وبثله قصارى الوسع والطاقة في استعفافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شافوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاحهم واستسلاكهم بعبادة آلهتهم و«لولا» في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى، لا من حيث الصنعة مجرى التقيد للحكم المطلق «وسوف يعلمون» وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالبت مدة الإمهال ولا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير وقوله: «من أضلُّ سبيلاً» كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا⁽⁹⁾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا⁽¹⁰⁾.

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويتر لا يتبصر لدليل ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفئتوكل عليه، وتجبره على الإسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله: «وما أنت عليهم بجبار»⁽¹⁾ «لست عليهم بمصيطر»⁽²⁾ ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي أم هذه منقطعة معناه: بل اتحسب كان هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبى الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أنثا ولا إلى

= دخول أرايت متبداً وخبر المبتدأ: هواه، والخبر: إليه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكانه قال: أرايت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في نمه وتوبيخه والله أعلم.

(1) سورة ق، الآية: 45.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) قال أحمد: وفيه نكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل =

ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور.

فإن قُلْتُ: فما تقول في قوله ﷺ: حين سئل عن بئر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه^(١)؛ قُلْتُ: قال الواقدي: كان بئر بضاعة طريقاً للماء إلى البساتين.

لَنَحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُحْيِيَهُ مَيِّتًا خَلَقْنَا أُنْمَاً وَأَنَابِيَّ كَثِيرًا (٤٩)

وإنما قال: ﴿مَيِّتًا﴾ لأن البلدة في معنى البلد في قوله: فسقناه إلى بلد ميت وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعول ومفعيل، وقرئ نسقيه بالفتح وسقى وأسقى لغتان وقيل: أسقاه جعل له سقياً، الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين، وقرئ بالتخفيف بحذف باء أقاعيل كقولك: أناعم في أناعيم.

فإن قُلْتُ: إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليه بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش! قُلْتُ: لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم وتتميماً للمنة عليهم وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم وأن يربوا بأنفسهم عن مخالطة القانورات كلها كما ربا بهم ربهم.

فإن قُلْتُ: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قُلْتُ: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قُلْتُ: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قُلْتُ: معنى ذلك: أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشفهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله: ﴿لَنَحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قُلْتُ: لم قدم أحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قُلْتُ: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم

سلطها عليه ونصبها ليللاً متبوعاً له كما يتبع الليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد نكر إعدامه بإعدام أسبابه كما نكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله: ﴿قَبْضُنَاهُ إِلَيْنَا﴾ يدل عليه وكذلك قوله: ﴿يَسِيرًا﴾ كما قال: ذلك حشر علينا يسير.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَلِلنَّوْمِ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٥٠)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾^(١).

فإن قُلْتُ: فلا فسرته بالراحة! قُلْتُ: النشور في مقابلته ياباه أباء العيوف الورد وهو مرنق وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن الاحتجاب يستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية وبنوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أي عبرة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنتشر.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٥١)

قرئ الريح والرياح نشرًا إحياء ونشرًا جمع نشور وهي المحيية ونشرًا تخفيف نشر وبشرًا تخفيف بشر جمع بشور وبشرى و﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ استعارة مليحة أي: قدام المطر ﴿طَهُورًا﴾ بليغاً في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سيدياً ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك: لما يتطهر به طهور كالوضوء، والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار وقولهم: تطهروا طهوراً حسناً كقولك: وضوا حسناً نكره سببويه ومنه قوله ﷺ: لا صلاة إلا بطهور^(٢) أي: طهارة.

فإن قُلْتُ: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قُلْتُ: تبين مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير، أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أنس رضي الله عنهما

= (الحديث: 66) والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: أن الماء لا ينجسه شيء، (الحديث: 66)، والنسائي في كتاب: المياه، باب: نكر بئر بضاعة، (الحديث: 326)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الحياض، (الحديث: 519).

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في لا تقبل صلاة بغير طهور، (الحديث: 1)، ومسلم عن ابن عمر في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة الحديث: (224).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة، =

ومواشيئهم لم يعدموا أسقياهم.

وَلَقَدْ صَرَّفَ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٦﴾

بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهادًا كبيرًا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يِلْحٌ أَحْمَاجٌ وَجَمَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَجَنًّا تَبْجُورًا﴾ ﴿٥٧﴾

سمى المائين الكثيرون الواسعين بحرين والفرات البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الصلاوة والأجاج نقيضه، ومرجعهما خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم، وبحران أحدهما مع الآخر ممزوج وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج ﴿برزخًا﴾ حائلًا من قدرته كقوله تعالى: ﴿بغير عمد ترونها﴾ يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته، وقري: ﴿ملح﴾ على فعل وقيل: كأنه حذف من مالح تخفيفًا كما قال: وصليانًا بردًا يريد باردًا.

فإن قلنا: ﴿وحجرًا محجورًا﴾ ما معناه؟ قلنا: هي الكلمة التي يقولها: المتعوز وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كان كل واحد من البحرين يتعوز من صاحبه ويقول له: حجرًا محجورًا كما قال: لا يبغيان أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوز ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوز منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَمَعْلَمٌ سَبًا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٨﴾

أراد فقسم البشر قسمين نوي نسب أي نكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي: إناثًا يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ (2) ﴿وكان ربك قديرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشرًا نوعين نكرا وأنثى.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٠﴾

الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون وفعل بمعنى: مفاعل غير عزيز، والمعنى: أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ (3) كما جاء الصديق والخليط يريد بالكافر الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله، وقيل: معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هيئًا مهينًا من قولهم: ظهرت به إذا خلفته خلف ظهره لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله: ﴿أولئك لا خلاق لهم في

يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، وهو نكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا ﴿فأبى﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها، وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ورهام، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا ينكروا صنع الله ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام أقل مطرًا من عام، ولكن الله قسم تلك بين عباده على ما شاء (1) وتلا هذه الآية وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد، وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كأنه قال لنحیی به بعض البلاد الميتة ونسقيه بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير.

فإن قلنا: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلنا: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله فهو كافر وإن كان يرى أن الله خالقها، وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها لم يكفر.

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٦١﴾

يقول لرسوله ﷺ: ﴿ولو شئنا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، و﴿لبعثنا في كل قرية﴾ نبيًا ينذرنا وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمتك به وأجللتك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل تلك بالتشديد والتصبر.

فَلَا تُلَاحِظْ الْكَافِرِينَ وَيَهْذِهِمْ بِمِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٦٢﴾

﴿فلا تلعظ الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهيجهم وتهيج المؤمنين، وتحريكهم والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه فلا تلعظ والمراد أن الكفار يجنون ويجهلون في توهين أمرهم، فقابلهم من جنك واجتهالك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به، وتعلمهم وجعله جهادًا كبيرًا لما يحتمل فيه من المشاق العظام ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دل عليه، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وجاهدهم﴾

(3) سورة التحريم، الآية: 4.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 403/2.

(2) سورة القيامة، الآية: 39.

الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم^(١).

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنَا سَبِيلًا
(٥٧).

مثال ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول: ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما اطلب منك ثواباً على ما سعت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صورته هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فافاد فائدتين إحداهما قلع شهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني اطلب الثواب والثانية إظهار الشفقة البالغة وأئك إن حفظت مالك اعتد بحفظك ثواباً ورضي به كما يرضي المثاب بالثواب، ولعمري أن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة وقيل: المراد التقرب بالصدقة والتفقه في سبيل الله.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَكُنْ مِنْ الْمُخَلَّفِينَ وَكَفَى بِهِ يَتُوبُ
عِبَادِهِ خَيْرًا^(٥٨).

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء ضرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميدته وعرفه أن الحي الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده، ولا يتكل عليه غيره من الأحياء الذين يموتون، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عبادته شيء آمنوا أم كفروا، وأنه خيرير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

اللَّذِي عَلَّقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَّا بِهِ خَيْرًا^(٥٩) لَوْلَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْجَدُ لِمَا نَأْمُرُكَ وَدَاهَمَهُمْ نُفُورًا^(٦٠).

﴿في ستة أيام﴾ يعني: في مدة مقدارها هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة والظاهر أنها من أيام الدنيا، وعن مجاهد أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقترنة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة نون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة لعلنا أنه لا يقدر تقديراً إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلا معرفته، ومن ذلك تقدير لملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر وحمة العرش

ثمانية والشهور اثني عشر والسماوات سبعاً والأرض كذلك والصلوات خمساً وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان، وقد نص عليه في قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً^(٦١)﴾، ثم قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو وهو الجواب أيضاً في إن لم يخلقها في لحظة وهو قاهر على ذلك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلق الرقي والتثبت وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين، الذي خلق مبتداً محذوف، أو بدل عن المستتر للحي والرحمن خبر مبتداً محذوف، أو بدل عن المستتر في استوى وقرئ الرحمن بالجر صفة للحي، وقرئ فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع^(٦٢)﴾ كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم^(٦٣)﴾ فسأل به كقوله: اهتم به واعتنى به واشتغل به وسأل عنه كقولك: بحث عنه وفتش عنه ونقر عنه أو صلة خيرير أو تجعل خيريراً مفعول سل يريد، فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خيريراً به وبرحمته أو فسل بسؤاله خيريراً كقولك: رأيت به أسداً أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجنته خيريراً أو تجعله حالاً عن الهاء تريد فسل عنه عالماً بكل شيء، وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله منكر في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلاً وكان يقال له: رحمن اليمامة ﴿وما للرحمن﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم، والرحوم، والراحم، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى.

﴿لما تأمرنا﴾ أي: للذي تأمرناه بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير، أو لأمرك لنا، وقرئ بالياء كأن بعضهم قال لبعض: انسجد لما يأمرنا محمد ﷺ أو يأمرنا المسمى بالرحمن، ولا تعرف ما هو وفي ﴿زادهم﴾ ضمير اسجدوا للرحمن لأنه هو المقول.

نَارَكَ اللَّهُ جَمَلٌ فِي أَسْمَاءٍ مُرِيَّةٍ وَجَمَلٌ فِيهَا سِرٌّ وَمَكْرٌ مُبِيرٌ
(٦١).

البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور

(3) سورة المعارج، الآية: 1.

(4) سورة التكاثر، الآية: 8.

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.

(2) سورة المنثر، الآية: 31.

والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحب حبيبك هوناً ما
وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل: إذا عَزَّ أخوك فهن⁽³⁾
ومعناه إذا عاسر قياسر والمعنى: أنهم يمشون بسكينة
وقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم
إشراً وبطراً، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق
ولقوله: ويمشون في الأسواق ﴿سَلَامًا﴾ تسليماً منكم
لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي يتسلم منكم
تسليماً فاقم السلام مقام التسلم وقيل قالوا: سداً من
القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والمراد بالجهل السفه
وقلة الأدب وسوء الرعة من قوله:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجَهِلُ نَوْقَ جَهِلِ الْجَاهِلِينَ
وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك
لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في
الأدب والمروءة والشرعية وأسلم للعرض والورع.

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿١٤﴾

البيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدرك الليل تمت أو لم
تم وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد
بات ساجداً وقائماً وقيل: هما الركعتان بعد المغرب
والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل
أو بأكثره يقال: فلان يظل صائماً ويبيت قائماً.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ﴿١٥﴾

﴿غَرَامًا﴾ هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً قال:
يوم النسيار ويوم الجفا ركانا عذاباً وكانا غراماً
وقال:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعط طجزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم لإلحاحه ولزامه، وصفهم بإحياء الليل
ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم
مع اجتهداهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب
عنهم كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُوْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجَلَةٌ﴾⁽⁴⁾

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾

﴿سَاءَتْ﴾ في حكم بشست وفيها ضمير مبهم يفسره
مستقراً والمخصوص بالدم محذوف معناه ساءت مستقراً
ومقاماً هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن
وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى: أحرزت
وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز والتعليان
يصح أن يكونا متداخلين ومترافين وأن يكونا من كلام الله

والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب
والقوس والجدي والدلو والحوث سميت بالبروج التي هي
القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها
واشتقاق البرج من التبرج لظهوره والسراج الشمس كقوله
تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾⁽¹⁾ وقرئ مسرجاً وهي
الشمس والكواكب الكبار معها، وقرأ الحسن والأعمش
وقمرًا منيرًا وهي جمع ليلة قمرًا كأنه قال: وذا قمرًا منيرًا
لأن الليالي تكون قمرًا بالقمر، فأضافه إليها ونظيره في
بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه
قول حسان:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

يريد ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى: القمر
كالرشد والرشد والعرب والعرب.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكْرًا ﴿١٧﴾

الخلفة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي
يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر، والمعنى:
جعلهما نوي خلفه أي: نوي عقبه أي: يعقب هذا ذلك وذلك
هذا ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعتقبان ومنه
قوله: واختلاف الليل والنهار ويقال: بفلان خلفه واختلاف
إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه، وقرئ ينكر وينكر وعن
أبي بن كعب رضي الله عنه يتنكر، والمعنى: لينظر في
اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى
حال وتغيرهما من ناقل، ومغير ويستدل بذلك على عظم
قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل
والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا: ﴿وَمِنۢ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ
لَكُمۡ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنۢ فَضْلِهِ﴾⁽²⁾ أو
ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما
ورده من العبادة قام به في الآخر وعن الحسن رضي الله
عنه من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في
الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَذْكُرُونَ أَهْلًا وَآلًا وَمَا رَزَقَهُمُ
الْبَدْعُ ثُمَّ يَقُولُوا سَلَامًا ﴿١٨﴾

﴿وعباد الرحمن﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه
قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون
الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وأضافهم إلى
الرحمن تخصيصاً وتفصيلاً، وقرئ وعباد الرحمن، وقرئ
يمشون ﴿هوناً﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين أو
مشياً هيناً إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة

= باب: في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، (الحديث: 8129).

(1) سورة نوح، الآية: 16.

(2) سورة القصص، الآية: 73.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الاقتصاد
في الحب والبغض (الحديث: 1997)، والبيهقي في شعب الإيمان، =

(4) سورة المؤمنون، الآية: 60.

وحكاية لقولهم.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٧٧).

قارئ: ﴿يقترُوا﴾ بكسر التاء وضمها، ويقترُوا بتخفيف التاء وتشديدها والقتر والإقتار والتقتير التضيق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾^(١)، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت رجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام نخل عليه الابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بني هذا أيضاً مما أعدّه وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا ياكلون طعاماً للتعلم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا ياكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكفونهم من الحر والقر، وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرفاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله^(٢) والقوام العدل بين الشئتين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرئ قواماً بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى: ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص المنصوبان أعني بين تلك قواماً جائز أن يكونا خبرين معاً وأن يجعل بين تلك لغواً، وقواماً مستقراً وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالاً مؤكدة وإجاز القراء أن يكون بين ذلك اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: (لم يمنع الشرب منها غير إن نطقت) وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٧٨).

﴿حرم الله﴾ أي: حرمها والمعنى: حرم قتلها و﴿بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحنوف أو بلا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك خلال العظيمة.

في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه والقتل بغير الحق يدخل فيه الواد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت: ثم أي قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حيلة جارك.^(٣) فانزل الله تصديقه، وقرئ يلق فيه أثاماً، وقرئ يلقى بأثبات الألف وقد مر مثله والأثام جزء الإثم بوزن الويال والنكال ومعناه ما قال:

جزئ الله بن عروة حيث أمسى عفوئاً والعقوب له أثم وقيل: هو الإثم ومعناه يلق جزء أثم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أياماً أي: شداًد يقال: يوم نو أيام لليوم العصيب.

يُضْلِفَ لَهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَكَّاءً (٧٩).

﴿يضاعف﴾ بدل من يلق لأنهما في معنى واحد كقوله: متى تأتينا تلمم بنافي يبارنا نجد حطباً جزلاً وناراً تاججا وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد، وقرئ ويخلد على البناء للمفعول مخففاً ومتقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرئ ويخلد بالتاء على الالتفات.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٨٠).

﴿يبديل﴾ مخفف ومثل وكذلك سيئاتهم. فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وإبدال السيئات حسنات أنه يحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، والتقوى وقيل: يبديلهم بالشرك إيماناً ويقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصاناً.

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٨١).

يريد ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿متاباً﴾ مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي كلام بعض العرب الله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد والظمان الوارد والعقيم الولد أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأي مرجع.

(1) سورة الإسراء، الآية: 29.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 46/5، (الحديث: 5721).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة الفرقان، باب: =

= «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر». (الحديث: 4761)، ومسلم في

كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقيع الذنوب، وبيان أعظمها بعده،

الحديث: (141 - 86).

لهم سرورهم أراد أئمة فلكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعلم اللبس كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ وأرادوا جعل كل واحد منا إماماً أو أراد جمع أم كصائمه وصيام أو أرادوا جعلنا إماماً واحداً لاتحائنا واتفاق كلمتنا، وعن بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

فإن قُلْتُ: من في قوله: من أزواجنا ما هي؟ قُلْتُ: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين ثم بينت القرّة وفسرت بقوله: من أزواجنا ونرياتنا ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين وهو من قولهم: رأيت منك أسداً أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جتهتم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح.

فإن قُلْتُ: لم قال: قرّة أعين فتنكر وقلل؟ قُلْتُ: أما التنكير فلأجل تنكير القرّة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً وإنما قيل: أعين بون عيون لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾⁽²⁾ ويجوز أن يقال: في تنكير أعين أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين.

أُولَئِكَ يَجْزُونَ أَثْرَتَهُ يَأْكُمُونَ فِيهَا حَبَّةً وَكَسَلًا ﴿٧٥﴾ خَلَّيْنِ فِيهَا حُنَّتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

المراد يجزون الغرفات وهي العلال في الجنة فوجد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس والليل على ذلك قوله وهم في الغرفات آمنون، وقراءة من قرأ في الغرفة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك وإطلاقه لأجل الشيعاء في كل مصبور عليه، وقرئ يلقون كقوله تعالى: ولقاهم نضرة وسروراً ويلقون كقوله تعالى: يلق أئاماً، والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة يعني: أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

قُلْ مَا يَمْزُكُم بِرَبِّ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَكَاةٍ ﴿٧٧﴾

لما وصف عبادة العباد وعدد صالحاتهم وحسناتهم وأثنى عليهم من أجلها ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة أتبع ذلك بيان أنه إنما اكثر لاولئك وعياً بهم وأعلى

وَأَلَّيْنِ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٦﴾

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لأن مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل: في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأن حضورهم ونظرهم ليليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأن الذي سلب على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام إياكم ومجالسة الخطائين، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية للهو والغناء وعن مجاهد أعيايد المشركين. ﴿اللغو﴾ كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم، والخوض معهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا لِلغو عَرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾⁽¹⁾ وعن الحسن رضي الله عنه لم تسفهم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى عارضوا وصفوا، وقيل: إذا نكروا النكاح كنوا عنه.

وَأَلَّيْنِ إِذَا ذُكِّرُوا بِتِائِبٍ رَبِّهِمْ لَمْ يُخَذَّلُوا عَلَيْهَا سُلًّا وَعُمِيَانًا ﴿٧٦﴾

﴿لم يخروا عليها﴾ ليس بنفي للخرور وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً هو للسلام لا للقاء والمعنى: أنهم إذا نكروا بها اكبوا عليها حرصاً على استماعها وأقبلوا على المنكر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بأذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين ينكرون بها، فتراهم مكبين عليها مقبلين على من ينكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

وَأَلَّيْنِ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَزَوْرَيْنَا قَرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِقَائَكَ ﴿٧٦﴾

قرئ نريتنا ونرياتنا وقرّة أعين وقرّات أعين سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله يسرون بمكانهم وتقرّ بهم عيونهم وعن محمد بن كعب ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم ونريتهم في الجنة ليتم

= أعين، وهذا أسلم من تأويله، فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلاً، إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد، والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالنسبة والإضافة، والله أعلم.

(1) سورة القصص، الآية: 55.

(2) سورة سبأ، الآية: 13.

(3) قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكانه قال: يقول كل واحد منهم: لجعل لنا من أزواجنا ونرياتنا قرّة

المؤلف من الحروف المبسطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَمَّا كَبُرَ بَيْعُكَ نَسَاكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

البخع أن يبلغ بالبئح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حد الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولا متناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿بأخع﴾ نفسك على الإضافة.

إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنْ آتَمَاءٍ فَإِنَّكَ نَفَلْتَ عَنْهُمْ لَمَّا خَضِبِينَ ﴿٤﴾

أراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ﴿نزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحاً ونظيره فاصلق ولكن كأنه قيل: أصلق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فظلت أعناقهم.

فإن قُلْتُ: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟ قُلْتُ: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة كان الأهل غير منكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿ولي ساجدين﴾ (٢) وقيل: أعناق الناس رؤسائهم ومقدمهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لبولة فتدل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرِّمَزِ فَمُنَ بَعْثِ آلَا كَاوُوا عَنْهُ مُرْسِيْنَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾

أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتنكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به.

فإن قُلْتُ: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء! قُلْتُ: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين إعرضوا عن النكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقاً لا محالة ولم يظن به التكذيب، ومن كان مصدقاً به كان موقراً له ﴿فسياتيتهم﴾ وعيد لهم وإنذار بانهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ما﴾ الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسياتيتهم أنبأوه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَرَأَيْتُمْ يَوْمَ إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَتَيْنَا بِهَا مِنْ كُلِّ نَجٍّ كَرِيمٍ ﴿٧﴾

ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكثر لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به، والدعاء للعبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبا بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبات به ما اعتدت به من فوارح همومي ومما يكون عباً على كما تقول: ما اكترت له أي: ما اعتدت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبا بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أنني لا أعتد بعبادي إلا لعبابتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عاتني أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن قُلْتُ: إلى من يتوجه هذا الخطاب قُلْتُ: إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابون ومكذبون عاصون فخطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لزماً وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتل لزاماً، وقرئ لزاماً بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبوت والثبوت والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتننه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

طسّر ﴿١﴾

﴿طسم﴾ بتفخيم الالف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

بِأَنَّكَ أَكْبَرُ الْكُتُبِ آتَيْنِ ﴿٢﴾

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا

(2) سورة يوسف، الآية: 4.

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، ونكره الواحدي في التفسير، زيلعي

بالكسرة.

قَوْمَ زَعُونَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

فَإِنْ قُلْتُ: بِمَ تعلق قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾! قُلْتُ: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجباً لموسى من حالهم التي شنت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون لا يتقون حالاً من الضمير في الظالمين أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فاندخلت همزة الإنكار على الحال وأما من قرأ ألا يتقون على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جنائية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه وحمي غضبه قطع مائة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله ألم تستع من الناس.

فَإِنْ قُلْتُ: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملفت إليهم غيب لا يشعرون! قُلْتُ: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم، وإلقائه إلى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها، وفي ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون كقوله: ألا يا أسجدوا.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِيَاسِي فَارْتَبِعْ لِيْ هَٰذَا مَثُورًا ﴿١٣﴾

﴿ويضيّق﴾ و﴿ينطلق﴾ بالرفع لأنهما معطوفان على خبر أنّ وبالنصب لعطفهما على صلة أنّ والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل خوف التكنيب، وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة.

فَإِنْ قُلْتُ: في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة وفي جعلتها نفي انطلاق اللسان وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع وذلك كان واقعاً فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قُلْتُ: قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته وقيل: بقيت منها بقية يسيرة.

فَإِنْ قُلْتُ: اعتذارك هذا يردّه الرفع لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد في بابه يقال: وجه كريم إذا رضي في حسنه وجماله وكتاب كريم مرضي في معانيه وقوائده وقال: حتى يشق الصفوف من كرمه أي: من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه والنبات الكريم المرضي فيما يتعلق به من المنافع.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿إِنْ فِي﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لآية﴾ على أن منبئها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن ﴿أكثرهم﴾ مطبوع على قلوبهم غير مرجو إيمانهم.

وَلَوْ رَكَّبَكَ لَهَا الذَّنْزِيرَ الرَّجِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِنَا لَمَنَظَرَ ﴿١٠﴾

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرحيم﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

فَإِنْ قُلْتُ: ما معنى الجمع بين كم وكل ولو قيل: كم أنبئتنا فيها من زوج كريم؟ قُلْتُ: قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة^(١) فهذا معنى الجمع بينهما وبه نبه على كمال قدرته.

فَإِنْ قُلْتُ: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قُلْتُ: يحتمل معنيين أحدهما أن النبات على نوعين نافع، وضار فنكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلى نكر الضار والثاني أن يعم جميع النبات ناعفه وضاره ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون.

فَإِنْ قُلْتُ: فحين نكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيث كيف قال إن في نكك لآية؟ وهلا قال آيات! قُلْتُ: فيه وجهان أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبئتنا فكانه قال: إن في الإنبات لآية أو آية وأن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية، وقد سبقت لهذا الوجه نظائر سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وكأنهما عبارتان تعقبان على مؤدى واحد إن شاء ذكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين وإن شاء عبر بقوم فرعون وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، وشرارتهم ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم قرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى: ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء

= الصنف الفلاني، لكن مكنياً عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أخذت كلا فقد أبيت بتكريره آحاد كل صنف، لا آحاد صنف معين، والله أعلم.

(١) قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير الأنواع، والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنه لو أسقطت كل، فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من =

حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه فآظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه، ويجوز أن يكونا خبرين لأن أو يكون مستمعون مستقرًا ومعكم لغواً.

فإن قلت: لم جعلت مستمعون قرينة معكم في كونه من باب المجاز والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسماع! قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (٣) ويقال: استمع إلى حديثه وسمع حديثه أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله ﷺ: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبَّ في آذنيه البرم (٤).

فَإِنَّا فَرَعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ أَلْمَلَكَيْنِ (١٦).

فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: إنا رسولا ربك! قلت: الرسول يكون بمعنى: المرسل وبمعنى: الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعل ههنا بمعنى: الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور قال:

الكنى إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنولحي الخبر فجعله للجماعة والشاهد في الرسول بمعنى: الرسالة قوله:

لقد كذب الواشون ما فهمت عندهم بسرولا أرسلتهم برسول ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً فكانهما رسول واحد أو أريد أن كل واحد منا.

أَن أَرْسِلَ مَكَائِيلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٧).

﴿إن أرسل﴾ بمعنى أي: أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال، وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا لما في الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة، ونحو ذلك ومعنى هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما ويروى أنهم انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: أثنى له لعلنا نضحك منه فأتيا إليه الرسالة فعرف موسى.

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرٍ سَبِيلٍ (١٨).

فقال له: ﴿ألم نربك﴾ حذف فأتيا فرعون فقولا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل الوليد الصبي لقرب عهده من الولادة وفي رواية عن أبي عمرو: ﴿من عمرك﴾ بسكون الميم ﴿سنتين﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي

اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلطة الألسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لساناً﴾ (١) ومعنى ﴿فأرسل إلى هرون﴾: أرسل إليه جبرائيل وأجعله نبياً وأزرنى به واشدد به عضدي وهذا كلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال: فأرسل إلى هرون فجاء بما يتضمن معنى: الاستنباء ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدعناهم تديماً﴾ (٢) حيث اقتصر على نكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ودل بنكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكتبوهما فاهلكهم.

فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر، فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلم وقد علم أن الله من وراءه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونوا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عنده فيما التمس، ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

وَلَمْ يَكُنْ عَلَى دَعْبٍ فَأَخَذُوا أَن يَقْتُلُوهُ (١٩).

أراد بالذنب قتله القبطي وقيل: كان خباز فرعون واسمه: فاتون، يعني: ولهم علي تبعة نذب، وهي قود تلك القتل، فأخاف أن يقتلوني به فحنف المضاف، أو سمي تبعة الذنب نذباً كما سمي جزاء السيئة سيئة.

فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللاً وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمس فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استنفاع للبلية المتوقعة وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة فكيف يكون تعللاً والدليل عليه ما جاء بعده من كلمة الردع والموعد بالكلاءة والدفع.

قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (٢٠).

جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله: ﴿كلا فاذهبا﴾ لأنه استنفعه بلاءهم فوعده الدفع برده عن الخوف والتمس منه الموازنة بأخيه، فأجابه بقوله: اذهبا أي: اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون.

فإن قلت: علام عطف قوله: فاذهبا! قلت: على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهبا أنت وهرون وقوله: ﴿معكم مستمعون﴾ من مجاز الكلام نريد أنا لكما ولعوبكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة الفرقان، الآية: 36.

(3) سورة الجن، الآية: 1.

(4) قال الزيلعي: غريب جداً، 473/2.

موسى: نعم فعلتها، مجازياً لك تسليماً لقوله لَأَنْ نَعْمَتَهُ كانت عنده جديرة بأن تجازي بنحو ذلك الجزاء.

فَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خِزْيَتَكُمْ فَوَيْلٌ لِي رَبِّىَ حُكْمًا وَبِعَمَلِي مِنَ التَّرْسِيلِ ۖ
(١١) وَتِلْكَ أَمْرُهُ فَفَتْحًا عَلَى أَنْ عَدَّتْ بَنَى إِسْرَءِيلَ (١٢).

فَإِنْ قُلْتُ: لم جمع الضمير في «مِنْكُمْ» و«خِزْيَتَكُمْ» مع إفراده في «تَمْنَاهَا» و«عَبِدَتْ»! قُلْتُ: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه، ومن ملئه المؤتمرين بقتله بلبيل قوله: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ وَأَمَّا الْإِثْمَانُ فَمَنْهُ وحده وكذلك التعبيد.

فَإِنْ قُلْتُ: تلك إشارة إلى ماذا و«إِنْ عَبِدَتْ» ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ومحل أن عبثت الرفع عطف بيان لتلك ونظيره قوله تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ» (٢) والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج: ويجوز أن يكون «إِنْ» في موضع نصب المعنى إنما صارت نعمة علي لأن عبثت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي، ولم يلقوني في اليوم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْمَلَائِكَةِ (١٣).

لما قال له: بوابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له: عند دخوله «وما رب العالمين» يريد أي شيء رب العالمين؟ وهذا السؤال لا يخلو إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهت، وعرفت أجناسها فاجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهه، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء مما شوهه، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء هو على الإطلاق تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي، فاجابه بأن الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه والسائل عنه متعنت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما جاب موسى بما أجاب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله: جئنّه إلى قومه وطنز به (٣) حيث سماه رسولهم فلما ثلث بتقرير آخر احتدّ واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهاً غيري.

عشرة سنة وفرّ منهم على أثرها والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي فعلتك بالكسر وهي قتلة القبطي لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل وأما الفعلة فلأنها كانت وكزة واحدة عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك وقطعه.

وَقُلْتُ نَعْلَمُكَ إِلَهًى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٤).

بقوله (١): «وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك» التي فعلت «وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» يجوز أن يكون حالاً أي: قتلتها وأنت لذلك من الكافرين بنعمتي أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افتقرى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعيشهم بالنقية فإن الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة، ومن بعض الصغائر فما بال الكفر ويجوز أن يكون قوله: وأنت من الكافرين حكماً عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعاً منه أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم يشهد لذلك قوله تعالى: وَيَذَرُ آلِهَتَكَ وَوَرَى إِلَهَتِكَ فاجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو.

قَالَ مَثَلُهَا إِذَا رَأَى مِنْكَ مَلَائِكَةً (١٥).

«من المصاليين» أي: الجاهلين وقراءة ابن مسعود من الجاهلين مفسرة والمعنى من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفسه كما قال: يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل أو الذاهبين عن الصواب، أو الناسين من قوله: أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكتب فرعون ونفع الوصف بالكفر عن نفسه وبرأ ساحته بأن وضع المصاليين موضع الكافرين ربا بمحل من رشح للنوبة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمى نعمته إلا نعمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بنبح ابنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكانه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم تنليلهم واتخاذهم عبداً يقال عبثت الرجل وأعبثته إذا اتخذته عبداً قال:

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباغراما شاؤا وعبدان
فَإِنْ قُلْتُ: إذا جواب وجزاء معاً والكلام وقع جواباً لفرعون، فكيف وقع جزاء؟ قُلْتُ: قول فرعون: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك» فيه معنى إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له

(١) سورة الحجر، الآية: 66.

(٢) طنز به: أي سخر به.

(١) قال أحمد: ووجه التفتيح عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملأ مبهماً إينافاً بأنه لفظاته مما لا ينطق به، إلا مكنياً عنه، ونظيره في التفتيح المستفاد من الإيهام، قوله تعالى: «فَفَغْشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ إِنْ يَغْشَى السُّدُورَ مَا يَغْشَى فَاوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى». ومثله كثير. والله أعلم.

وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

قَالَ رَبُّ الْمَسْمُومَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤).

فَإِنْ قُلْتُ: كيف قيل: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ على التثنية والمرجوع إليه مجموع! قُلْتُ: أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال: في الهيجا جمالين.

فَإِنْ قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قُلْتُ: معناه إِنْ كَانَ يَرْجَى مِنْكُمْ الإِيْقَانُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَيْهِ النَّظَرُ الصَّحِيحُ نَفْعُكُمْ هَذَا الْجَوَابُ، وَإِلَّا لَمْ يَنْفَعْ أَوْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِشَيْءٍ قَطْ فَهَذَا أَوَّلَى مَا تَوَقُّونَ بِهِ لظهوره وإنارة ليله.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (١٥) قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَجَنُودٌ (١٧).

فَإِنْ قُلْتُ: ومن كان حوله! قُلْتُ: أشراف قومه قبل كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة.

فَإِنْ قُلْتُ: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلاق كلها فما معنى نكرهم ونكر آياتهم بعد ذلك ونكر المشرق والمغرب؟ قُلْتُ: قد عمم أَوَّلًا ثُمَّ خَصَّصَ مِنَ الْعَامِ لِلْبَيَانِ أَنْفُسَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ لِأَنَّ أَقْرَبَ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْعَاقِلِ نَفْسُهُ وَمَنْ وَلَدَ مِنْهُ، وَمَا شَاهِدٌ وَعَايِنَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى الصَّانِعِ وَالنَّاقِلِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ وَحَالَ إِلَى حَالٍ مِنْ وَقْتٍ مِيلَادِهِ إِلَى وَقْتِ وَفَاتِهِ، ثُمَّ خَصَّصَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ لِأَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ أَحَدِ الْخَافِقِينَ وَغُرُوبِهَا فِي الْآخَرِ عَلَى تَقْدِيرِ مُسْتَقِيمٍ فِي فَصُولِ السَّنَةِ وَحِسَابِ مُسْتَوٍ مِنْ أَظْهَرَ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ وَلِظُهُورِهِ انْتِقَالٌ إِلَى الْاِحْتِجَاجِ بِهِ خَلِيلُ اللَّهِ عَنِ الْاِحْتِجَاجِ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى نَمُودِ بْنِ كَنْعَانَ فَبِهِتَ الَّذِي كَفَرَ.

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨).

وقرئ: ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف قال: أَوَّلًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وآخرًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ قُلْتُ: لأين أَوَّلًا فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض إِنْ رَسُولُكُمْ لَمَجْنُونٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قَالَ لِمَنْ أَتَعَذَّتْ إِلَيْهَا غَيْرِي لِأَجْمَلِكَ مِنَ الْمَسْمُومِينَ (١٩).

فَإِنْ قُلْتُ: ألم يكن لاسجنتك أخصر من ﴿لَا جَعْلَ لَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ومؤيدًا مؤداه! قُلْتُ: أما أخصر فنعم وأما مؤد مؤداه فلا لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَأَجْعَلَنَّكَ وَاحِدًا مِمَّنْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ فِي سَجُونِي، وَكَانَ مِنْ عَائِلَتِهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ يَرِيدِ سَجْنِهِ فَيَطْرَحُهُ فِي هَوَّةٍ ذَاهِبَةٍ فِي الْأَرْضِ بَعِيدَةٍ الْعَمَقِ فَرْدًا لَا يَبْصُرُ فِيهَا، وَلَا يَسْمَعُ فَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ وَأَشَدَّ.

قَالَ أَوَّلُو جِثَّتِكَ يَتَوَوَّئُونَ (٢٠).

الواو في قوله (١): ﴿أَوَّلُو جِثَّتِكَ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك، ولو جِثَّتِكَ بشيء مبين أي: جاثيًا بالمعجزة.

قَالَ فَأَيُّ بَرٍّ إِنْ كُنْتُ مِنَ الْمَرْبُورِينَ (٢١) فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَبَاتٌ يُبَيِّنُ (٢٢).

وفي قوله (٢): ﴿إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه لأن المعجزة تصديق من الله لمُدْعِي النُّبُوَّةِ وَالْحَكِيمِ لَا يَصْدُقُ الْكَاذِبُ، وَمَنْ الْعَجَبُ أَنْ مِثْلَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ هَذَا وَخَفِيَ عَلَى نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْقُبْلَةِ حَيْثُ جُوزُوا الْقَبِيحَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُ الْكَانِبِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَتَقْدِيرُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي دَعْوَاكَ أَتَيْتَ بِهِ فَحَنَفَ الْجَزَاءُ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِيتِيَانِ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

﴿ثُعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ ظاهر الثُعْبَانِيَّةِ لَا شَيْءَ يَشْبَهُ الثُعْبَانَ كَمَا تَكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمَزُورَةُ بِالشَّعْوَذَةِ وَالسَّحَرِ وَرَوَى أَنَّهَا انْقَلَبَتْ حَيَةً ارْتَفَعَتْ فِي السَّمَاءِ قَدْرَ مِيلٍ، ثُمَّ انْحَطَّتْ مَقْبِلَةً

= حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء، قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء أمانة بحصول العلم لها من وقوع ما جَوَّزَهُ الْعَقْلُ، وَلَوْ قَدَحَ الْإِمْكَانُ الْعَقْلِيَّ فِي عِلْمٍ حَاصِلٍ يَقْنِينِي لِلزَّمَنِ الْآنَ الشُّكَّ فِي أَنَّ جِبَالَ الْأَرْضِ قَدْ عَانَتْ تَبَرُّاً أَحْمَرَ، وَتَرَابَهَا مَسْكاً أَثَرُ، وَانْقَلَبَتْ الْبَحَارُ دُمًا عَبِيطًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ فِي الْعَقْلِ بِلَا خِلَافٍ، وَلَا يَشْكُكُ نَفْسُهُ فِي هَذَا الْإِمْكَانِ، إِلَّا نُوْ خَبِلَ وَعَتَى وَعَمِي وَعَمَّ، وَأَيْنَ الزَّمْخَشَرِيُّ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الشَّابِّ الَّذِي يَكْتَبُ الْجِبَالَ؛ فَيُقَسِّمُهُ بِالسَّيْفِ جَزَلَتَيْنِ فَيَمِشِي بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: عُدْ فَيَعُودُ حَيًّا، فَيَقُولُ لَهُ: مَا أَزْدَدْتَ فَيَكُ إِلَّا بَصِيرَةً أَنْتَ الْجَبَالُ الَّذِي وَصَفَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقِيهِمْ بِهِ ثَانِي مَرَّةً فَلَا يَسْلُطُ عَلَيْهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَوْهُ حَيْثُ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَوْ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَقْرَأَيْتَ هَذَا الْمُؤْمِنَ لِمَا نَظَرَ انْخِرَاقَ الْعَادَةِ عَلَى يَدِ أَكْثَرِ الْكَانِبِينَ حَتَّى شَاهَدَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ لَمْ يَشْكُكْهُ ذَلِكَ فِي مَعْلُومِهِ، فَلَمْ يَتَلَكَّا فِي مَعَاوَدَةِ تَكْنِيْبِهِ، وَلَكِنْ يَثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ».

(١) قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيفه من تأليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيدِه لأهل السنة، وإن كيدِه لفي تضليل بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة، وإن كلاً منهم إذا قُتِلَ نفسه وجد فيها نصيباً من فرعونته، حيث يقول: أنا ربكم الأعلى؛ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقيهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلاً إنهم لهم المبتدعون المختلقون؛ لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد، فمن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون، ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وإن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الألفية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبتلي الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإن توهّم ناظر بعين الهوى والغرض معنون عما في قلبه من مرض، أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء =

وقرأ الأعمش: ﴿بكل ساحر﴾.

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِيَقْنَتَ بِوَيْرٍ تَعْلُومٍ (٣٨).

اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿ومعكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ (٢) والميقات ما وقت به أي: حدد من زمان أو مكان منه مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩).

﴿هل أنتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحاثاتهم كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول: تابط شرا:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخاعون بن مخراق

لَمَّا نَبَّحَ السَّحَرَةُ إِنَّ كَاثِرًا مِمَّ الْقَتْلِينَ (٤٠).

يريد ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطئ به ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ أي: في بينهم إن غلبوا موسى، ولا تتبع موسى في دينه وليس غرضهم باتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوه لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام. وقرئ نعم بالكسر وهما لغتان.

لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِيُزْعَوْنَ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْقَتْلِينَ (٤١)
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَيْنَ الْمُتْرَبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْتُمْ تُفْعَلُونَ (٤٣).

ولما كان قوله: ﴿إن لنا لأجراً﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله: ﴿وإنكم إذا لمن المقتربين﴾ معطوفاً عليه ومسلخاً في حكمه دخلت إذا قارة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى القربة عنده والزلفى.

قَالُوا جَاءَكُمْ رُسُلُهُمْ رَبَّنَا بِمَا يَفْعَلُونَ إِنَّا لَأَنصِفُ الْفَلَاحَةَ (٤٤).

اقسموا بعزة فرعون وهي من إيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته كقولك: بالله والرحمن وربّي ورب العرش وعزة الله وقدره الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم

إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت ويقول: فرعون أسالك بالذي أرسلك ألا أخذتها، فأخذها فعانت عصا.

وَرَجَّ بِدَمٍ فَإِذَا هِيَ بِيَضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٤٥).

﴿لنناظرين﴾ دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نورياً روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها فأخرج يده، فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

قَالَ لِلْمَلِكِ حَرْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِرٌّ عَلَيْكَ (٤٦).

فإن قلْتُ: ما العامل في حوله! قلْتُ: هو منصوب نصيبين نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي، وهو النصب على الحال قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول حتى زل عنه ذكر دعوى الإلهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتفعت فرائضه وانتفخ سحره خوفاً ورفقاً، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم يزعمه عبده وهو إلههم أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه، وتوقعه وأحسن به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه وقوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ قول: باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٤٧).

﴿تأمرون﴾ من المؤامرة وهي المشاورة، أو من الأمر الذي هو ضد النهي جعل العبيد أمريين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة، و«ماذا» منصوب إما لكونه في معنى المصدر وإما لأنه مفعول به من قوله أمرتك الخير.

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَيْتَ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ (٤٨) بِأَتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ (٤٩).

قرئ: ﴿أرجئه﴾ و﴿أرجه﴾ بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته ومنه المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون هم مرجئون لأمر الله (١) والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل: أحبسه ﴿حاشيرين﴾ شرطاً يحشرون السحرة وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر﴾ بقولهم: ﴿بكل ساحر﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطمأنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه.

= بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يفرغ أن يشرك به ويفقر ما دون تلك لمن يشاء﴾ اللهم فاشهد أنا مرجئة.

(2) سورة طه، الآية: 59.

(1) قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الإرجاء حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لاهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون أمرهم إلى الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء غفر لهم، فإن كانت المرجئة هم المؤمنون =

الكثيرة أو لا ضير علينا فيما تتوعنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطعم في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف، والمعنى: لا ضير في ذلك أو علينا.

إِنَّا نَطْعُ أَنْ يَفْعَرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾.

﴿إن كنا﴾ معناه لأن كنا وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم أو من رعية فرعون أو من أهل المشهد، وقرئ: ﴿إن كنا﴾ بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل بامر به المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم ﴿أول المؤمنين﴾ ونظيره قول: العامل لمن يؤخر جعله إن كنت علمت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ (٢) مع علمه أنهم لا يخرجوا إلا لذلك.

وَلَا حِجَابَ لَنَا مَوْعِدَ أَنْ أَتَى بِمَا يَدَّيْ إِكْرَامُ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَهُ ﴿٥٣﴾.

قرئ: ﴿أسر﴾ بقطع الهمزة ووصلها وسر ﴿إنكم متبعون﴾ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون، وجنوده آثارهم والمعنى أتى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقمموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فاطبقه عليهم فاهلكهم وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت، ثم انبأوا الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فلاني سأمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابهم دم وسأمرهم بقتل أباك القبط واخبروا خبيراً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فرعون في ألف حصان سوى الإنثا فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً وسماهم شزيمة قليلين.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِيزَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَهُمْ لَا يُلَاقُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿إن هؤلاء﴾ محكى بعد قول: مضمهر والشرزمة الطائفة القليلة ومنها قولهم: توب شرانم للذي بلى وقطع قطعاً نكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً

صديقون^(١)، ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى، وذلك أن الواحد منهم لو أقسم باسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فقتل عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْلِكُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿ما يافكون﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون في حبالهم وعصيمهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين، أو إفكهم سمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة، روي أنهم قالوا: إن بك ما جاء به موسى سحرًا فلن يغلب وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من الله، فأمنوا وعن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

فَأَتَى السَّعْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْمَلَكَيْنِ ﴿٥٨﴾.

وإنما عبر عن الحرور بالإلقاء لأنه نكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشكلة وفيه أيضاً مع مراعاة المشكلة أنهم حين راوا ما راوا لم يتملكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرْحًا.

فإن قلْتُ: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلْتُ: هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما علينا من المعجزات الباهرة ولك أن لا تقدر فاعلاً لأن القوا بمعنى خروا وسقطوا.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون لعنه الله كان يدعي الربوبية، فارادوا أن يعزلوه ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي يدعو إليه هذان والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

قَالَ مَسْتَكِرٌّ لَمْ يَنْبَلْ أَنْ مَادَّنَ لَكُمْ إِنَّمَا لَكُمْ إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَالَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ فَلَئِنْ تَكَرَّرُوا لِاتِّخَاذِنَا إِلَٰهِيكُمْ وَأَرْحِلُكُمْ مِنْ خِلَافِ وَلَا مَصْرَفَ لَكُمْ أَبَدًا ﴿٦٠﴾.

﴿فلسوف تعلمون﴾ أي: وبال ما فعلتم.

قَالُوا لَا مَبْرَأَ لَنَا إِنْ رَجَعْنَا مُنَافِقِينَ ﴿٦١﴾.

الضر والضير والضرور واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، والثواب العظيم مع الأعواض

(١) بآياتكم، (الحديث: 7401)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: النهي من الحلف بغير الله تعالى، الحديث: (3 1646).

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان والنذور، باب: الحلف بالامهات، (الحديث: 3769).

2 - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، باب: لا تحلفوا = (2) سورة الممتحنة، الآية: 1.

لا يبقى منا أحد، الفرق الجزء المتفرق منه.

﴿سهيدين﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم.

فَأَرْحَبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْيَمْرُوتَ فَتَكُنَ كَأَشَدِّ قِرْقٍ
كَالْقُرْظِ الْأَمَّطِيِّ ﴿١٣﴾

وقرئ: ﴿كل فلق﴾ والمعنى واحد والطود الجبل العظيم
المنطاد في السماء.

وَأَرْسَلْنَا نَمُ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَخْبَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾

﴿وأللفنا ثم﴾ حيث انفلق البحر.

ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾

﴿الآخرين﴾ قوم فرعون أي: قربانهم من بني إسرائيل
أو أنبينا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم
أحداً وقدمناهم إلى البحر، وقرئ: ﴿وأللفنا﴾ بالقاف أي:
أزلنا أقدامهم والمعنى: أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها ونبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما
جعله لبني إسرائيل يبساً فيزلقهم فيه، عن عطاء بن
السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين
آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم
ويستقبل القبط، فيقول: روبيكم يلحق آخركم فلما انتهى
موسى إلى البحر، قال له مؤمن آل فرعون، وكان بين يدي
موسى: أين أمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون
قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله
تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فصار فيه اثنا
عشر طريقاً لكل سبط طريق، وروي أن يوشع قال: يا
كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال
موسى: ههنا فحاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه
البحر فدخلوا، وروي أن موسى قال عند ذلك: يا مَنْ كان
قبل كل شيء والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء.
ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم وقيل: هو بحر من وراء
مصر يقال له: أساف.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿إن في ذلك لآية﴾ آية آية وآية لا توصف وقد عاينها
الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم ولا آمن
بالله وينو إسرائيل الذين كانوا أصحاب موسى
المخصوصين بالإنقاذ قد سالوه بكرة يعبدونها، واتخذوا
العجل وطلبوا رؤية الله جهرة.

واختار جمع السلامة الذي هو للقلّة^(١)، وقد يجمع القليل
على قلة وقلل ويجوز أن يريد بالقلّة الثلّة والقماء ولا يريد
قلة العدد والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع
غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق
صدورنا ونحن قوم من عابتنا التيقظ والحذر واستعمال
الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم
فساده وهذه معانير اعتذر بها إلى أهل المدائن لثلاث يظن
به ما يكسر من قهره وسلطانه.

وَأَنَّا لَجَبَّحُ حَذِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَوَيْحِينَ ﴿١٩﴾

وقرئ: ﴿حذرون﴾ وحائرون وحائرون بالبدال غير
المعجمة، فالحذر اليقظ والحائر الذي يجتد حذره وقيل:
المؤدى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه
والحائر السمين القوي قال:

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبغضه من بغضها وهو حائر
أراد أنهم أقوىاء أشداء وقيل: مدججون في السلاح قد
كسبهم تلك حذارة في أجسامهم.

وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾

وعن مجاهد سماها: كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في
طاعة الله، والمقام المكان يريد المنازل الحسنة، والمجالس
البهية وعن الضحاك: المنابر وقيل: السر في الحجال.

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢١﴾

﴿كذلك﴾ يحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم
مثل ذلك الإخراج الذي، وصفناه والجر على أنه وصف
لمقام أي: ﴿مقام كريم﴾ مثل ذلك المقام الذي كان لهم
والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك.

فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ ﴿٢٢﴾

﴿فاتبعوهم﴾ فلتحقوهم، وقرئ: فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾
داخليين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقاً إذا
طلعت.

فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَرُوكُمْ فِي غَمٍّ
مِّمِّي رَبِّي سَبِّحِينَ ﴿٢٣﴾

وقرئ فلما تراءت الفتتان إنا لمدركون بتشديد الدال
وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى ومنه قوله
تعالى: ﴿هل أدراك علمهم في الآخرة﴾^(٢) قال: الحسن
جهلوا علم الآخرة وفي معناه بيت الحماسة:
أبعد بني أمي الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت أجزع
والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى

= كما أفرد في قوله: ﴿كم من فئة قليلة﴾ ليدل بجمعه على تناهيهم
في القلة، لكن يبقى النظر في أن هذا السر يبقى الوجوه المذكورة
على ما هي عليه، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه فتأمل، والله
الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 66.

(1) قال أحمد: وجه آخر في تقليدهم يكون خامساً، وهو أن جمع
الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغة في لصوق ذلك
الوصف بالموصوف، وتنأيه فيه بالنسبة إلى غيره من
الموصوفين به، كقولهم معاً: زيد جياع مبالغة في وصفه بالجوع،
فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشردمة قليلة،

الصحة والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (4) ولأن المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان. **وَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** (v).

وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ تصويراً للمسألة في نفسه على معنى أنني فكرت في أمري فرائيت عبادتي لها عبادة للعنوة، فاجتنبتها وأثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً وبني عليها تدبير أمره لينظروا، فيقولوا: ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه ولو قال: فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه نخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى القبول ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً واجهه بشيء، فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أئب وسمع رجلاً ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. والعنوة والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة قال:

وقوم على نوي مئرة أراهم عدواً وكانوا صديقا ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (5) شبهاً بالمصار للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال: ولكن رب العالمين.

الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ وَالَّذِي هُوَ يُمَيِّتُهُ وَيُحْيِيهِ (v). **﴿فهو يهدين﴾** يريد أنه حين أتم خلقه، ونفخ فيه الروح عقب تلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداة إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصاً، ومن هداة إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ومن هداة لكيفية الارتضاع إلى غير ذلك من هدايات المعاش، والمعاد.

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (8) **وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثَرًا يَجْنِيهِ** (8). وإنما قال: ﴿مرضت﴾ بكون مرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه (6) وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل: لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا: التخم.

= وهي أشد من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه، كذلك الموت للناسي عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه إلى الله تعالى، ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب، بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محكوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض فكم من معافي منه قد بفته الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته =

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (v).

﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه **﴿الرحيم﴾** بأوليائه.

وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ تِبْنَ إِزْهِيمَ (v).

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليربهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر: ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال. **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ** (v).

فَإِنْ قُلْتُمْ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا: أصناماً كقوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾** (1) **﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾** (2) **﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾** (3) **قُلْتُ: هَؤُلَاءِ قَدْ جَاؤَا بِقِصَّةِ أَمْرِهِمْ كَامِلَةً كَالْمُبْتَهِجِينَ** بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصده من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم **﴿نُعْبُدُ﴾**.

قَالُوا تَبَدُّدًا مُضَاعَفًا فَظَلُّوا عَلَى عَيْنِكِ (v).

﴿فَنظَّلْ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، ولم يقتصر على زيادة نعب وحده، ومثاله أن تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك، فيقول: ألبس البرد الاتحامي فأجز ذيله بين جوارى الحي وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار نون الليل.

قَالَ هَلْ يُسْمِعُكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (v) **أَوْ يَبْصُرُكُمْ أَوْ يُصَرِّوْهُ** (v) **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** (v) **قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ** (v) **أَنْتُمْ وَمَا كَانُوكُمْ آلَهُكُمْ مِنَ الْأَقْنَمُونَ** (v).

لا بد في **﴿يسمعونكم﴾** من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة: **﴿يسمعونكم﴾** أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية، ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا: هل سمعوا أو اسمعوا قط وهذا أبلغ في التبكيت، لما أجابوه بجواب المقلدين لأبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم، فإن التقدم والأولية لا يكون برهاناً على

(1) سورة البقرة، الآية: 219.

(2) سورة سبأ، الآية: 23.

(3) سورة النمل، الآية: 30.

(4) سورة مريم، الآية: 82.

(5) سورة الكهف، الآية: 50.

(6) قال أحمد: والذي نكره غير الزمخشري: أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأنيب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا؛ لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإمامة إلى الله تعالى =

وَالَّذِي أَلَمَعَ أَن يَغْفِرَ لِي خَلِيتِي يَوْمَ الْوَيْتِ (٨٦).

وقرئ: ﴿خطاياي﴾ والمراد ما يندر منه من بعض الصغائر لأن الأنبياء معصومون مختارون على العالمين وقيل هي قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ وقوله لسارة: ﴿هي أختي﴾ وما هي إلا معارضة كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار.

فإن قلنا: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة فماله أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له! قلنا: الجواب ما سبق لي أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم، ويدل عليه قوله: أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة، وفيه تعليم لأمرهم وليكون لطفاً لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم.

فإن قلنا: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا! قلنا: لأن أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْهِمْنِي فِي الْكَلَامِ (٨٧) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٨) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّبِيِّينَ (٨٩) وَأَغْفِرْ لِأَيِّئَاتِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّابِرِينَ (٩٠).

الحكم الحكمة أو الحكم بين الناس بالحق وقيل: النبوة لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله، والإحاط بالصالحين أن يوافقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ولقد أجابه حيث قال: وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

وَلَا تُخْزِنِ يَوْمَ يُنْمَوْنَ (٩١).

والإخزاء من الخزي وهو الهوان ومن الخزية وهي الحياة وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي ﴿يبعثون﴾ ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه يعني: ولا تخزني يوم يبعث الضالون، وأبي فيهم.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٩٢) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٩٣).

﴿إلا من أتى الله﴾ إلا حال من أتى الله ﴿بقلب سليم﴾ وهو من قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع، وما ثوابه إلا السيف وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى: الغنى كأنه قيل:

يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه، ولك أن تجعل الاستثناء منقطعاً ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال والمراد بها سلامة القلب وليست هي من جنس المال، والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى، وقد جعل من مفعولاً لينفع أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبيه على جلالة محله في الإخلاص أن حكى استثناء هذا حكاية راض بإصابتها فيه، ثم جعله صفة له في قوله: وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ومن بدع التفسير تفسير بعضهم السليم بالليغ من خشية الله وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بانها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى نكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعند نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليها ابتهاال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

وَأَزَلَّتْ أَعْيُنُ الْمُؤْمِنِينَ (٩٤).

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغيبون بأنهم المحشورون إليها.

وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٥).

والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ (٩٦) وقال: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ (٩٧)، يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات فتجعل النار بمرأى منهم فيهلكون غماً في

= يتفق وقد لا أوردته مقروناً بشرط: إذا فقال: وإذا مرضت، وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة الماثورة إلا لذلك، والله أعلم.

(1) سورة ق، الآية: 31.

(2) سورة الملك، الآية: 27.

= إلى الله تعالى، وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاه محققاً، فاقترضى العلو في الالب مع الله تعالى أن ينسب الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخير عن وقوعه بتأ وجزماً: لأنه أمر لا بد منه، وأما المرض فلما كان قد

كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم.

وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٦﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَبْسِرُونَهُ؟ ﴿٩٧﴾

فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار.

كُنْزِكُمْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٨﴾

وهو قوله: ﴿فكذبوا فيها هم﴾ أي: الآلهة والغالوون وعبتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها. اللهم أجرنا منها يا خير مستجار.

وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٩﴾

وجنود إبليس شياطينه أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٠﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَافِكُ ثِينٍ إِذْ شَرِينَا رَبَّ الْمَلَكَيْنِ ﴿١٠١﴾ وَمَا أَمَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم، ويجوز أن يجري نكاح بين العصاة والشياطين والمراد بالمجرمين الذين أضلّوهم رؤسائهم وكبرائهم كقوله: ﴿ربنا إنا أطعنا سائتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلاً﴾^(١) وعن السدي: الأولون الذين اقتدينا بهم وعن ابن جريج: إبليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي.

فَمَا لَنَا مِن شَفِيئَةٍ ﴿١٠٣﴾

﴿فما لنا من شافعين﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبیین.

وَلَا صَافِيَةٍ خَيْرٍ ﴿١٠٤﴾

﴿ولا صديق﴾ كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصالح في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال الله تعالى: ﴿الآخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾^(٢) أو ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعائهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون

عنهم فقصّدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعلوم. ﴿والحميم﴾ من الاحتمال وهو الاهتمام وهو الذي يهيم ما يهيم أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص.

فإن قلّنا: لم جمع الشافع ووجد الصديق؟ قلّنا: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق^(٣) إلا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدة لشفاعته رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بإكثارهم معرفة، وأما الصديق وهو الصالح في وداك الذي يهيم ما أمك، فاعز من بيض الأنوق وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق، فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع.

قَالُوا أَن لَّا كَرَّةَ فَكُنْونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْزَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَئِن رَّبَّكَ لَمَّا الْغَرِيْبُ الرَّحِيْمُ ﴿١٠٧﴾

الكرة الرجعة إلى الدنيا.

﴿ولو﴾ في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت.

كَذَّبَتْ قَوْمُ بُسْجَ الْمُزْنِينِ ﴿١٠٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَعْبُدُ

القوم مؤنثة وتصغيرها قويمه، ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب، ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرد^(٤) قيل: أخوهم لأنه كان منهم من قول العرب: يا أخا بني تميم؛ يريدون يا واحداً منهم ومنه، بيت الحماسة.

لا يسألون أخاهم حين ينلّهم في النائيات على من قال برهانا

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٩﴾

كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

﴿وأطيعون﴾ في نصحي لكم وفي ما أدعوكم إليه من الحق.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ﴿١١٠﴾

﴿عليه﴾ على هذا الأمر وعلى ما أنا فيه يعني: دعاءه، ونصحه.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(4) قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد وهنا مع القطع، بأن كل من كتب رسواً واحداً فقد كتب جميع الرسل؛ لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصديق، فقد كتبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل، والله أعلم.

(1) سورة الأعراف، الآية: 67.

(2) سورة الزخرف، الآية: 67.

(3) قال أحمد: العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد، ثم لو كان المراد الإفراد، لكان أعم لأنه في سياق النفي فينفي الواحد، فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له، والله أعلم.

اتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعاً في إيمانكم.

إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَبْنُوحَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْرُوقِينَ ﴿١١٦﴾.

وما علي إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشانكم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدْ كَذَّبْتُ ﴿١١٧﴾.

ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلهم أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني، وأنوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم.

فَاتَّبَعَ بَنِي وَهْبَهُمْ فَمَا وَجَدُوا مِنِّي مِنَ الْفُتُورِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿بيني وبينهم﴾ والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً لانه يفصل بين الخصومات.

فَأَتَيْنَهُ وَنَّ مَعَهُ فِي أَثْقَالِ الشَّعْوِرِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَهْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الثَّرَثَيْنِ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَتْ لِمَ أَهْرَقُمْ مَرُءٌ آلَا نُنْفِقُونَ
﴿١٢٤﴾ إِنَّا لَكُرُشٌّ أَوْ بَنِي آدَمَ ﴿١٢٥﴾ فَأَنْفَقُوا اللَّهَ وَالْيَحْيُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ
مِنْ آيَةٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿الفلك﴾ السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾^(١) فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل كما كسروا فعلاً على فعل لانهما أخوان في قولك: العرب والرشد والرشد فقالوا: أسد وأسد وفلك وفلك ونظيره بعير هجان وإبل هجان ودرع دلاص ودرع دلاص، فالواحد بوزن كزاز والجمع بوزن كرام، والمشحون: المملوء يقال: شحنتها عليهم خيلاً ورجالاً.

أَتَيْنُونِ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً صَبْرُونَ ﴿١٢٨﴾.

قوى: ﴿بكل ريع﴾ بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع قال: المسيب بن علس:

في الأكل يرفعها ويخفضها ريع يلسوح كانه سحر ومنه قولهم: كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم، وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طرقهم أملاً طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنيين عنها بالنجوم وعن مجاهد بنوا بكل ريع بروج الحمام^(٤).

ومعنى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾. فاتقوا الله في طاعتي وكرره ليؤكد عليه ويقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحدة منهما بعلّة جعل علّة الأوّل كونه أميناً فيما بينهم، وفي الثاني حسم طعمه عنهم، وقريء وأتباعك جمع تابع كشاهدوا شهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحققا أن يضرر بعدها قد في وأتبعك.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَعَبُ الْآزْدَلُونَ﴾.

وقد جمع الأزدل على الصحة وعلى التكثير في قوله: ﴿الذين هم أراذلنا﴾^(١) والردالة والنذالة الخس والنداء وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياسة والحجامة والصناعة لا تزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول: في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت اتباع الانبياء كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن اتباع رسول الله ﷺ فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت اتباع الانبياء كذلك^(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم اللغاة. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَمَلُوكَ ﴿١٢٩﴾.

﴿وما علمي﴾، وأي شيء علمي والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله وإطلاعه على سر أمرهم وباطنه وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبهيبة كما حكى الله عنهم في قوله الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ويجوز أن يتغابي لهم نوح عليه السلام فيفسر قولهم الأراذلين بما هو الردالة عنده من سوء الأعمال، وفساد العقائد ولا يلتفت إلى ما هو الردالة عندهم ثم بيّني جوابه على ذلك فيقول: ما علي إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم وإن كان لهم عمل سيء فانه محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز.

إِنْ جِئْتَهُمْ إِلَّا عَلَى رِبٍّ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٣٠﴾.

﴿لو تشعرون﴾ ذلك ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم وقصد بذلك رد اعتقادهم، وإنكار من يسمى المؤمن ردلاً وإن كان أفقر الناس، وأضعفهم نسباً فإن الغني غنى الدين والنسب نسب التقوى.

وَمَا أَنَا إِلَّا بِمُذَرِّعٍ الْفُتُورِينَ ﴿١٣١﴾.

﴿وما أنا بطارد للمؤمنين﴾ يريد ليس من شائي أن

(1) سورة هود، الآية: 27.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6)، (الحديث: 7).

(3) سورة فاطر، الآية: 12.

(4) قال أحمد: وتاوليها على القصور أظهر، وقد ورد ثم ذلك على =

= لسان نبينا ﷺ حيث وصف الكافرين آخر الزمان، بأنهم يتناولون

في البنيان، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالدكاك تكون مرتفعة في

المصرب ارتفاعاً كبيراً لأنهم يعبثون، فعبر عن ثلغهم إلى =

وَتَعْبُدُونَ مَسَاجِدَ لَكُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٣٨﴾

والمصانع: مأخذ الماء وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لعلكم تخلصون﴾ ترجون الخلود في الدنيا أو تشبه حالكم حال من يخلد، وفي حرف أبي: كأنكم، وقرئ: تخلصون بضم التاء مخففاً ومشدداً.

وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٩﴾ فَأَنْتُمْ لِلَّهِ وَالْيَوْمِئَاتِ ﴿١٤٠﴾

﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط، أو سيف كان ذلك ظمًا وعلوًا، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب لا تثبتون متفكرين في العواقب بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال:

وَأَنْتُمْ الَّذِينَ أَمَذَكُم بِمَا تَمَلُّونَ ﴿١٤١﴾

﴿أمذككم بما تعلمون﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعبيد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة فهو قاهر على الثواب والعقاب فاتقوه ونحوه قوله تعالى: ﴿ويحزنكم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ (١).

أَمَذَكُم بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ ﴿١٤٢﴾ وَحَلَّتْ رَعُوبٌ ﴿١٤٣﴾ إِلَى آخَاتٍ عَلَيْكُمْ عَذَابِ بَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٤﴾

فإن قلنا: كيف قرن البنين بالانعام؟ قلنا: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٥﴾

فإن قلنا: لو قيل ﴿أوعظت﴾ أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد! قلنا: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشره فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُذَّبِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْرِضُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٩﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٢﴾ فَاقْنُصُوا اللَّهَ وَالْيَوْمِئَاتِ ﴿١٥٣﴾ وَمَا اسْتَكْبَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ جَبَرٍ إِنْ أَعْرَجَ إِلَّا عَلَى رَيْبٍ أَلَمَلِيَةٍ ﴿١٥٤﴾

من قرأ: ﴿خلق الأولين﴾ بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخصرهم كما قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾ (٢).

أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمين وبواحدة، فمعناه: ما هذا الذي نحن عليه من الدين ﴿إلا خلق الأولين﴾ وعادتهم كانوا يدينونه ويعتقدونه ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة، والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلغون مثله ويسطرونه.

أَنْتَرَكُونُ فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿انتتركون﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه، وإن يكون تنكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة ﴿في ما ههنا﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم.

فِي جَنَّتٍ رَعُوبٍ ﴿١٥٦﴾

ثم فسرته بقوله: ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل.

وَرَزَقَ وَنَحَلَ ظِلَّهَا هَضِيرٌ ﴿١٥٧﴾

فإن قلنا: لم قال ﴿ونخل﴾ بعد قوله: ﴿في جنات﴾ والجنة تتناول البخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى أنهم لينكرونها الجنة، ولا يقصون إلا النخل كما يذكر النعم ولا يريدون إلا الإبل، قال زهير: تسقى جنة سحفاً! قلنا: فيه وجهان أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضلها عليها وأن يريد بالجنات غيرها من الشجر لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، الطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شمراخ القنو، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشمراخه والهضيم اللطيف الضامر من قولهم كشح هضيم وطلع إناث النخل فيه لطف وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني اللطف من طلع اللون فنكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه لأن الإنث، ولادة التمر والبرني أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير وإذا كثر الحمل هضم وإذا قل جاء فاخراً وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

قرأ الحسن ﴿وتفتحون﴾ بفتح الحاء.

= مطبق، وما يجري مجراه ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثاً، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 30.

(2) سورة المطففين، الآية: 13.

= المحراب على سبيل التكبر ومطلوئتهم المامومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البيئات بالعبث، وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات، وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ففيه بعد من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم

تَعْمَرُوا فَاَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَاحْذَرُوا الْعَذَابَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوُ اللَّعِيزِ أَجْرِمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لَوْطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَالْيَعْقُوبِينَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا اسْتَلْكُم عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي الْمَكَلِيمَ ﴿١٦٤﴾

فَإِنْ قُلْتُ: لم اخذهم العذاب وقد ندموا؟ قُلْتُ: لم يكن ندمهم ندم تائبين، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقرب عقاباً عاجلاً كمن يرى في بعض الأمور آيًّا فاسداً ويبني عليه ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعي أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة وذلك عند معاينة العذاب وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١) الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم أراد بالعالمين الناس.

اتَّاتَوْا الزُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾

أي: أتاتون من بين أولاد آدم عليه السلام على فرط كثرتهم، وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على نكورتهم في الكثرة نكر أنهم كان الإناث قد أعوزتكم، أو أتاتون أنتم من بين عداكم من العالمين الذكر أن يعني: أنكم يا قوم لوط وحكم مختصون بهذه الفاحشة والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان.

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

﴿من أزواجكم﴾ يصلح أن يكون تبييناً لما خلق، وأن يكون للتبويض ويراد بما خلق العضو المباح منه وفي قراءة ابن مسعود ﴿ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم﴾ وكانهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم^(٢)، العادي المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد ومعناه ارتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعادون حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

قَالُوا لَيْنَ لَوْ تَنَزَّيْنَا بِلُوطَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾

﴿لئن لم تنته﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكونن﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا ولعلمهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من

وَتَجْتَنُّونَ مِنَ الْجَحَالِ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا نَدِيمِينَ ﴿١٦٨﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَالْيَعْقُوبِينَ ﴿١٦٩﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ الشَّرِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٠﴾

وقرئ: ﴿فرهين﴾ وفارهين والفرهة الكيس والنشاط ومنه خيل فرهة استعير لامثال الأمر وارتسامه طاعة الأمر المطاع أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي، والمراد الأمر ومنه قولهم: لك علي إمرة مطاعة. وقوله تعالى: ﴿وطاعوا أمري﴾.

الَّذِينَ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٧٢﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِغِ يَأْتِيهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٣﴾

فَإِنْ قُلْتُ: ما فائدة قوله: ﴿ولا يصلحون﴾؟ قُلْتُ: فائدته أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح المسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله وقيل: هو من السحر الرثة، وأنه بشر.

قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ ﴿١٧٤﴾

الشرب النصيب من الماء نحو السقي والقيت للحظ من السقي والقوت، وقرئ: بالضم. روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقياً فبعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وتنتجت سقياً مثلاً في العظم. وعن أبي موسى: رايت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً. وعن قتادة: وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء.

وَلَا تَسْمُوا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾

﴿بسوء﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد، وروي أن مسطحاً الجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فإصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار، وروي أن عاقرها قال لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم.

(1) سورة النساء، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأتي، وبيانه أن من لو كانت بيانا لكان المعنى حينئذ على نهم بترك الأزواج، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الزكوان، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الزكوان، لا أن ترك الأزواج وحده منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصيب في الثاني متوجهاً على الجمع، وكان إنما الأفصح أو المتعين، وقد اجتمعت العامة على

= القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مداخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً، فلما وضع ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد، فيتعين حمل من على البعضية فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما إتيان الزكوان، والثاني مجانبية إتيان النساء في المأتي رغبة في إتيانهن في غيره، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظمتين بالنكير، والله الموفق.

وَلَا رَيْكَ لَوْ أَمَرْتُ الرَّجِيمَ ﴿٧٥﴾.

والمراد بتدميرهم الائتلاف بينهم وأما الإمطار، فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فاهلكهم وعن ابن زيد لم يرض بالائتلاف حتى أتبعه مطراً من حجارة.

وَأَمَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٦﴾.

وفاعل ﴿سَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم إنما هو للجنس والمخصوص بالذم محنوف وهو: مطرهم.

كَذَّبَ أَصْحَابُ آلِكَ الْأَرْسِلِينَ ﴿٧٧﴾.

قريئ: ﴿أصحاب الأيكة﴾ بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد فترهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ كما يكتب أصحاب النحو؛ لأن ولولا على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وكان شجرهم اللوم.

إِذْ قَالَ لَمُ شُعَيْبٌ يَا سَمُوعُ ﴿٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٨٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَالِينَ ﴿٨١﴾.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع قُلْتُ: قالوا إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة وفي الحديث إن شعيباً أخاً مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿الكيل﴾ على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر

تعنيف به واحتباس لأملاكه^(١) وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿٨٣﴾.

و﴿من القالين﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معلوماً في زميرهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم، ويجوز أن يريد من الكاملين في قلائم والقلبي البغض الشديد كأنه بغض ويقلى الفؤاد والكبد، وفي هذا دليل على عظم المعصية والمراد القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين في بين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية.

رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَمُنُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿مما يعملون﴾ من عقوبة عملهم، وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالنتيجة العصمة.

فَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمِينَ ﴿٨٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِينَ ﴿٨٦﴾.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿فنجينه وأهله لجمعين إِلَّا عَجُوزًا﴾ قُلْتُ: معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إِلَّا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه لكونها راضية به ومعينة عليه ومحترشة والراضي بالمعصية في حكم العاصي.

فإن قُلْتُ: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ قُلْتُ: الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.

فإن قُلْتُ: ﴿في الغابرين﴾ صفة لها كأنه قيل: إِلَّا عَجُوزًا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم! قُلْتُ: معناه إِلَّا عَجُوزًا مقدراً غبورها ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك^(٢) غير الناجين قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة.

ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

= واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير، وانظر إلى المساق وهو قوله: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كيف الحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف حتى صارت له لقباً لاصقاً به، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمله وأقنعه قدره، والله الموفق للصواب.

(2) قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفاً، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً، إِلَّا عَجُوزًا غابرة إلى ما نكر في المتلوه، هو أن المذكور في التلاوة يقتضي الإسهال عليها، بأنها من أمة موسمين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذا الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع كقول فرعون: لأجعلنك من المسجونين، وقولهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ وقولهم: ﴿لنكونن من المرجومين﴾ وقوله: ﴿إني لعلمكم من القالين﴾ وقوله تعالى في غيرها: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وكذلك: ﴿نرنا نكن مع القاعيين﴾ وأمثاله كثيرة والسر في ذلك والله أعلم أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلق به كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة، =

قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

﴿ربّي أعلم بما تعملون﴾ يريد: أن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشية.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ بَوْرٌ أَلْطَلُّ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ
أَلِيمٌ ﴿٨١﴾

﴿فأخذهم﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم، يروى أنه حبس عنهم الريح سبباً وسلط عليهم الومد فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلمت سحابة وجدا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نازاً فاحترقوا، وروى أن شعيباً بعث إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلك مدين بصيحة جبريل وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

فإن قلنا: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر؟ قلنا: كل قصة منها كتنازل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تقتنع بما افتتحت به صاحبته، وأن تختتم بما اختتمت به ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنًا أو يفتح ذهنًا أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدا.

وَلَهُ نَزِيلٌ رَبِّ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٢﴾

﴿وانه﴾ وإن هذا التنزيل يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات والمراد: ﴿بالتنزيل﴾ المنزل.

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٨٣﴾

والباء في ﴿نزل به الروح﴾ ونزل به الروح على القراءتين للتعديدية ومعنى: ﴿نزل به الروح﴾: جعل الله الروح نازلاً ﴿به﴾ على قلبك أي: حفظه وفهمك إياه وأثبتته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ (١).

عَلَّ قَلْبَكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾

بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد وكان تركه عن الأمر والنهي ليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه.

وَرَبُّوهُ بِالْفِتْنَةِ أَسْتَفْتِمُ ﴿٨٦﴾

قري: ﴿بالقسطاس﴾ مضمومًا ومكسورًا وهو الميزان وقيل: القرسطون فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكسرة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي وقيل: وهو بالرومية العدل.

وَلَا تَحْسُرُوا أَنْفُسَكُمْ فِي أَشْيَاءٍ مُّسْتَقَرَّتْ فِي الْأَرْضِ مُبَيِّنِينَ ﴿٨٧﴾

يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه ومنه قيل للمكس: البخس وهو عام في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً، يقال: عثا في الأرض وعثى وعثت وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك.

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٩﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ ﴿٩٠﴾

قري: ﴿الجبلة﴾ بوزن الأبله والجبلة بوزن الخلقة ومعناها واحد أي: نوي الجبلة وهو كقولك: والخلق الأولين.

فإن قلنا: هل اختلف المعنى بإخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلنا: إذا اخلت الواو فقد قصد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسخير والبشرية، وإن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد: وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم.

فإن قلنا: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقنا على فعل الظن وثاني مفعوليه؟ قلنا: أصلهما إن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك: إن زيد لمنطلق فلما كان البابان أعني باب كان وباب ظننت من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقاً وإن ظننته لمنطلقاً.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩١﴾

قري: ﴿كسفا﴾ بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة نحو قطع وسدر وقيل: الكسف والكسفة كالربيع والريفة وهي القطعة وكسفه قطعه والسماء السحاب أو المظلة، وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، ولو كان فيهم أننى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببألهم فضلاً أن يطلبوه، والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء.

الالف؟ قُلْتُ: خط على لغة من يميل الالف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٨٨﴾

الأعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجاف والأعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد، وقرأ الحسن: ﴿الأعجميين﴾ ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له: أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا: لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها أعجم. قال حميد: ولا عربياً شاقه صوت أعجماً، سلكناه: ادخلناه ومكناه، والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانظم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله.

فَرَأَوْهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾

﴿فقرأه عليهم﴾ هكذا فصيحاً معجزاً متحدى به لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذراً ولسموه سحراً.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ ﴿٩٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْفَلَكَ الْأَعْلَىٰ ﴿٩١﴾

ثم قال: ﴿كذلك سلكناه﴾ أي: مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وعلى هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعنا فيها فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فإن قُلْتُ⁽⁴⁾: كيف اسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قُلْتُ: أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشدّ التمكن وثابته، فجعله بمنزلة أمر قد جبوا عليه وفطروا ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح يريدون تمكن الشح فيه: لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه

﴿بلسان عربي﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين انثروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتندر به؛ لأنه لو نزل باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً، وقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه⁽¹⁾ فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه أن تنزله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه وتفهمه قومك ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفتن للالفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة، وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في الفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين.

وَإِنَّ لِيَ زُبُرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٩٢﴾

﴿وإنه﴾ وإن القرآن يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية وقيل: إن معانيه فيها وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ لكون معانيه فيها وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وكذلك في أن يعلمه وليس بواضح.

أَوَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَأْتِ أَنْ يَعْلَمَ مَلَكُوتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٩٣﴾

وقرئ: ﴿يكن﴾ بالتنكير وآية بالنصب على أنها خبره، ﴿وأن يعلمه﴾ هو الاسم، وقرئ: ﴿تكن﴾ بالتثنية وجعلت آية اسماً وأن يعلمه خبراً وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل في ﴿تكن﴾: ضمير القصة وآية أن يعلمه: جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز على هذا أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلاً عن آية ويجوز مع نصب الآية تانيث ﴿تكن﴾ كقوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾⁽²⁾ إلا أن قالوا: ومنه بيت لبيد. فمضى وقدمها وكانت عادة. منه إذا هي عردت أقدامها، وقرئ: ﴿تعلمه﴾ بالتاء و﴿علماء بني إسرائيل﴾ عبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: كيف خط في المصحف ﴿علماء﴾ بواو قبل

(3) سورة القصص، الآية: 53.

(4) قال أحمد: وما ينقم من بقاءه على ظاهره، إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق، والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) قال أحمد: يعني بقوله: قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون؛ لأنّ التقدير عنده العلم، والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون، وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجيب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(2) سورة الانعام، الآية: 23.

مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظمي فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

مَا أَفْقَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٨﴾ ذَكَرْنَاهُمْ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾

وقرئ: ﴿يَمْتَعُونَ﴾ بالتخفيف ﴿منذرون﴾ ﴿منذرون﴾ يرثونهم ﴿ذكرى﴾ منصوبة بمعنى تنكرة إما لأن أنذر ونكر متقاربان فكأنه قيل: منكرتون تنكرة وإما لأنها حال من الضمير في منذرون أي: ينذرونهم نوي تنكرة وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة، والتنكرة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه نكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى: منذرون نوي نكرى، أو جعلوا نكرى لإمعانهم في التنكرة وإطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون نكرى متعلقة بأهلكتنا مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكتنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمتهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تنكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول.

فإن قُلْتُ كَيْفَ عَزَلْتَ الْوَاوَ عَنِ الْجُمْلَةِ بَعْدَ إِلَّا، وَلَمْ تَعَزَلْ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (١)؟ قُلْتُ: الْأَصْلُ عَزَلَ الْوَاوُ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ صِفَةً لِقَرْيَةٍ وَإِذَا زِيدَتْ فَلْتَاكِيدٍ وَصَلَ الصِّفَةُ بِالْمَوْصُوفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَبْعَةٌ وَثَمَانُهُمْ كُلِّهِمْ﴾.

وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَلْقَىٰ لَهُمْ وَمَا يَسْتَوِيُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَزُولُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُكْرَبُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٣٣﴾

كانوا يقولون: إن محمداً كاهن وما ينتزل عليه من جنس ما ينتزل به الشياطين على الكهنة فكذبوا بأن ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه لأنهم مرجومون بالشبه معزولون عن استماع كلام أهل السماء، وقرأ الحسن: الشياطين ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخير بين أن يجرى الإعراب على النون وبين أن يجرى على ما قبله فيقول: الشياطين والشياطين كما تخيرت العرب بين أن يقولوا: هذه يبرون، ويبرين وفلسطين وفلسطين وحقه أن تشتقه من الشيطونة وهي: الهلاك كما قيل له: الباطل وعن الفراء: غلط الشيخ في قراءته الشياطين ظن أنها النون التي على هجائين، فقال النضر بن شميل إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه يريد: محمد بن السميع مع أنا نعلم أنهم لم يقرأ به إلا وقد سمعنا فيه.

أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه. وهو قوله: لا يؤمنون به. فإن قُلْتُ ما موقع ﴿لا يؤمنون به﴾ من قوله: ﴿سلكتناه في قلوب المجرمين﴾ قُلْتُ موقعه منه موقع المرضح والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحولاً في قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز أن يكون حالاً أي: سلكتناه فيها غير مؤمن به.

فَأَيُّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٤﴾ يَقُولُوا هَلْ عَنَّا مُنْظَرُونَ ﴿٣٥﴾

وقرأ الحسن ﴿فتاتيههم﴾ بالتاء يعني: الساعة و ﴿بغتة﴾ بالتحريك وفي حرف أبي: ويروه بغتة.

فإن قُلْتُ ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فتاتيههم بغتة﴾ فيقولوا! قُلْتُ ليس المعنى: ترانف رؤية العذاب ومفاجاته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى: ترتبها في الشدة كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصصك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله وترى، ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه.

أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿أعذبنا يستعجلون﴾ تكبكت لهم بإنكار وتهكم ومعناه كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجاب إليها ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يويخون به عند استنظارهم يومئذ، ويستعجلون على هذا الوجه حكاية حال ماضية ووجه آخر متصل بما بعده وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال تعالى: ﴿أعذبنا يستعجلون﴾ أشراً ويطراً واستهزاءً واتكالا على الأمل الطويل.

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٨﴾

ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتمعيمهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معاليشهم، وعن ميمون بن

الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين: المصنفين بالسنتهم وهم صنفان: صنف صنف وأتبع رسول الله فيما جاء به وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٧﴾

﴿وتوكل﴾ على الله يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقالوا: المتوكل من إن دمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج من حد التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله، وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل وبه قرأ نافع وابن عامر وله محملان في العطف أن يعطف على فقل، أو فلا تدع ﴿على العزيز الرحيم﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٨﴾ وَقَفَّيْكَ فِي الْمُنَجِّينَ ﴿٦٩﴾

ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو نكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المهتجرين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لأخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من بدنتهم بنكر الله والتلاوة والمراد بالساجدين: المصلون.

وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم، وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني فتلا له هذه الآية، ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين.

إِنَّهُ هُوَ السَّيِّئُ الْمُرِيدُ ﴿٧٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٧١﴾

قد علم أن ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرك منه لازدياد الإخلاص والتقوى وفيه لطف لسائر المكلفين كما قال، ولو تقول علينا بعض الأقاويل.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَ ﴿٧٢﴾

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فيه وجهان أحدهما: أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداة ثم بمن يليه، وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه السلام أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول ما أضعه ربا العباس»^(١)، والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرافة، ولا يحاييهم في الإنذار والتخويف وروي أنه صعد الصفا لما نزلت فنادى: الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً وقال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمه رسول الله إنني لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم^(٢)، وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس على رجل شاة وقعب من لبن، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفع هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي» قالوا: نعم، قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(٣) وروي أنه قال: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف اقتنوا أنفسكم من النار فإنني لا أغني عنكم شيئاً» ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمه محمد اشتريتن أنفسكن من النار فإنني لا أغني عنكن شيئاً».

وَأَخْفِصْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَبْعَدَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَمْكُونُ ﴿٧٤﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ومنه قول بعضهم: وأنت الشهير بخفض الجناح، فلا تك في رفعه أجداً ينهيه عن التكبر بعد التواضع.

فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله: ﴿لمن أتبعك من المؤمنين﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث (١٤٧) - (١٢١٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: تبليغه ﷺ وما لقي من قومه، (الحديث: ٦٥٥١)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشعراء، باب: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الحديث: ٤٧٧٠) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الحديث: ٣٥٥) - (٢٠٨).

يحكى عن الجنى، وأكثرهم مفتر عليه.

فإن قُلْتُ: وإنه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل أنبئكم على من تنزل الشياطين لم فرق بينهن وهن أخوات! قُلْتُ: أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معنانهن ليرجع إلى المعنى بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرامة بعد كرامة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزل فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه بعيد نكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿٣٦﴾

والشعراء: مبتدأ و«يتبعهم الفاؤون» خبره، ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراس والقح في الأنساب، والنسب بالخرم والغزل والابتهاج ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم: إلا الفاؤون والسفهاء والشطار وقيل: الفاؤون الراؤون وقيل: الشياطين وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبيري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونهم ويجمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وقرأ عيسى بن عمر والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب، قرأ: «حماله الحطب» و«السارق والسارقة» و«سورة أنزلناها» وقرأ: «يتبعهم» على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيهاً لتبعه بعضه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾

نكر الوادي والهيم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره وأشجعهم على حاتم وأن يبهتوا البري ويفسقوا التقى وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

بتن بجانيبي مصرعات وبست أفضر اغلاق الختنام فقال: قد وجب عليك الحدّ فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدّ بقوله: «وأنهم يقولون ما لا يفعلون».

«إنه هو السميع» لما تقوله: «العليم» بما تنويه وتعمله وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فوالله إنني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم»^(١)، وقرأ: ويقلبك.

نَزَلَ عَنْ كُلِّ أَقَاوِيلٍ ﴿٣٩﴾

«كل أفاك أئيم» هم الكهنة والمتنبئة كشقّ وسطيح ومسيلمة وطليحة.

يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَآذَنَهُمْ كِذْبًا ﴿٤٠﴾

«يلقون السمع» هم: الشياطين كانوا قبل أن يجربوا بالرجم يسمعون إلى الملا الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك «وأكثرهم كاذبون» فيما يوحون به إليهم: لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي: المسموع من الملائكة، وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً وفي الحديث الكلمة يتخطفها الجنى فيقرها في أنن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة^(٢) والقر: الصب.

فإن قُلْتُ: كيف نخل حرف الجرّ على من المتضمنة لمعنى الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت ولا تقول: على أزيد مررت! قُلْتُ: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً: معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه: أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل، والأصل أهل قال، أهل راونا بسفح القاع ذي الأكمل فإذا أدخلت حرف الجرّ على من فقدت الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت.

فإن قُلْتُ: «يلقون» ما محله! قُلْتُ: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي: تنزل ملقين السمع وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلًا قال: لم تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت.

فإن قُلْتُ: كيف قيل: «وأكثرهم كاذبون» بعد ما قضى عليهم أن كل واحد سنهم أفاك؟ قُلْتُ: الأفاكون: هم الذين يكثرون الإفك ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فاراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصلق منهم فيما

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق... (الحديث: 7561)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، الحديث: (١٢٢ - ٢٢٢٨).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، (الحديث: 6644)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، الحديث: (١١٢ - ٤٢٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل مكية

لَمَسَ نَلَّكَ مَا بَكَتَ أَفْرَاقُكَ وَكَتَابَ مُبِينٍ ①.

﴿طس﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: إما اللوح وإبانتة أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة وإما السورة، وإما القرآن وإبانتتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأن إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأن المضاف إلى العظيم يعظم؛ بالإضافة إليه.

فإن قلَّت: لم نكر الكتاب المبين؟ قلَّت: ليبيهم بالتنكير فيكون أقخم له كقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ ⑦.

فإن قلَّت: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قلَّت: كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم؛ لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكانه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك أي كتاب مبين وقرأ ابن أبي عبيدة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قلَّت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿آل تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ ⑧؟ قلَّت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح فالأول نحو قوله تعالى: وقولوا حطة وانخلوا الباب سجداً ومنه ما نحن بصده والثاني نحو قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ ⑨.

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ⑩.

﴿هدى وبشرى﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه: على هي هدى

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعَهُمُ اللَّهُ ذِكْرَهُمْ وَأَيُّ مُتَقَلِّبٍ يَتَقَلَّبُونَ ⑪.

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون نكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطفون فيها بنذب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاءهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ ①، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ ②، وعن عمر بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صديري لي جيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن ربيعة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجة قريش، وعن كعب بن مالك: أن النبي ﷺ قال له: «أهجم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل» ③ وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك ④، ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأملين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله: ﴿وسيعلم﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الذين ظلموا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه ⑤ وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناثرون شئنها وتفسير الظلم بالكفر تحليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو: النجاة. اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكتب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعده من كتب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام» ⑥.

(1) سورة النساء، الآية: 148.

(2) سورة البقرة، الآية: 194.

(3) أخرجه عبد الرزاق 11/263، (الحديث: 20500)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الألب، باب: ما جاء في إنشاء الشعر، (الحديث: 2847).

(4) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة، الحديث: (3212 و3213)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، الحديث: (151 - 2485).

(5) أبو حاتم وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 2/481 - 482.

(6) نكرة التعليلي وابن مربيوه والواحد في التفسير، الزيلعي 2/483.

(7) سورة القمر، الآية: 55.

(8) سورة الحجر، الآية: 1.

(9) سورة آل عمران، الآية: 18.

عليهم في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه؛ لأن المجاز الحكمي يصححه بعض الملبسات، وقيل: هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا⁽⁴⁾ ويعزى إلى الحسن، والعمه: التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق وعن بعض الأعراب أنه دخل السوق وما أبصرها قط، فقال: رأيت الناس عمهين أراد: متردئين في أعمالهم وأشغالهم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَعْتَابَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ⁽⁵⁾.

﴿سوء العذاب﴾ القتل والأسر يوم بدر، و﴿الآخسرون﴾ أشد الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

وَلِلَّهِ كُفَى الْقُرْآنِ بِنَ الذَّنْ حَكِيمٍ عَزِيزٍ⁽⁶⁾.

﴿لتلقى القرآن﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿من﴾ عند أي ﴿حكيم﴾ وأي ﴿عليم﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقايص وما في ذلك من لطائف حكمته وديقائق علمه.

إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مِّنْ دُونِهَا يُخَرِّجُ أَوْ يُدْخِلُكُمْ فِيهَا بِنَ قَبْرِ لَأَكُونَنَّ مِّنْكُمْ⁽⁷⁾.

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر وهو: انكر كانه قال على اثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم، وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كُتِيَ الله عنها بالأمل فتبع ذلك أو ورد الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: امكنوا، الشهاب: الشعلة

وبشرى وعلى البذل من الآيات وعلى أن يكون خيراً بعد خبر أي: جمعت أنها آيات وأنها هدى وبشرى والمعنى في كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾⁽¹⁾.

الَّذِينَ يُبَشِّرُونَ الصَّالِحِينَ وَيَأْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَمْشُونَ فِي الْمَسَاجِدِ وَهُمْ يُوقِنُونَ⁽²⁾.

فإن قلنا: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قلنا: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية.

كانه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهو الوجه ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق⁽²⁾.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ⁽³⁾.

فإن قلنا: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾⁽³⁾ قلنا: بين الإنسانيين فرق وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عز وجل مجاز وله طريقان في علم البيان أحدهما: أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة والثاني أن يكون من المجاز الحكمي، فالطريق الأول: أنه لما متعتهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إيتاء الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم، وبطهرهم وإيثارهم الروح والترفه ونفاههم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكانه زين لهم بذلك أعمالهم وإليه أشارت الملائكة صلوات الله

(1) سورة التوبة، الآية: 124.

(2) قال أحمد: قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هم ينشرون﴾ أن معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس بيبين، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر، وأما وجه تكراره ههنا والله أعلم، فهو أنه لما كان أصل الكلام وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجبور على عامله عنابة به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فإريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجبور بينهما فطري نكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجور حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعدما يوجب للتطرية، فاقرب منها أن الشاعر قال:

سق نو عجل ذا وألحفنا بذا الشحم إنا قد مللنا بخل والأصل والحقنا بهذا الشحم فوق منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبني الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقفة ما، فقد بكت الوقفة بعد أن بين المعرف وأكة التعريف فطراماً ثانياً، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكز، ولا كلمة واحدة سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمل هذا الفصل، فإنه جدير =

= بالتأمل، والله أعلم.

(3) سورة النكوت، الآية: 38.

(4) قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وامتناع أن يخلق الله تعالى للبعد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناده للتزيين إلى الله تعالى مجازاً وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لغاز بالصواب، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر من أن المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وإنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ على أن غالب وروده في غير البر كقوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ زين للذين كفروا الحياة الدنيا، وكذلك زين لكثير من المشركين، ومما يبعد حمله على أعمال البر إضافة الأعمال إليهم في قوله: أعمالهم، وأعمال البر ليست مضافة إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وقوله: ﴿قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ فإطلاق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم؛ لأنه صدر منهم، والله أعلم.

صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأموالاً.

يُؤْمِنُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١).

فإن قلْتُ: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلْتُ: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ تعجب لموسى عليه السلام من ذلك وإيدان بأن تلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظام الشئون، الهاء في ﴿إنه﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن والشأن ﴿أنا الله﴾ مبتداً وخبر ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان للخبر وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله يعني: أن مكلّمك أنا والله بيان؛ وأنا ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان للمبين، وهذا تهديد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القويّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتبدير.

وَأَنِّي عَصَاكَ لَأُنَازِلُ بِهَا مَاءً جَدًّا وَلِي مَذْرَأٌ يَمْشِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاسْمِعْ لَكُمْ آيَاتِي الَّتِي كُنْتُ أَفْعَلُ (٢).

فإن قلْتُ: علام عطف قوله: ﴿والق عصاك﴾! قلْتُ: على ﴿بورك﴾؛ لأنّ المعنى ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ ﴿وأن الق عصاك﴾ كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له: بورك من في النار وقيل له: الق عصاك والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وأن الق عصاك﴾ (٣) بعد قوله ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾ (٤) على تكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليك أن حج وإن اعتمر وإن شئت أن أحج واعتمر، وقرأ الحسن: ﴿جان﴾ على لغة من يجد في الهرب من التقاء الساكنين فيقول: شابة ودابة ومنها قراءة عمرو بن عبدي ولا الضالين ﴿ولم يعقب﴾ لم يرجع يقال: عقب المقاتل إذا كرّ بعد الفرار قال:

فما عقبا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به ويدل عليه ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾، و﴿إلا﴾ بمعنى لكن؛ لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل كان ذلك مظنة لطرو الشبهة فاستدرك ذلك.

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَنْقُرُ رَجِيمٍ (٥) وَأَنزِلْ بِكَ فِي سُبْحِكَ تَمْزِجُ بَيِّنَاتٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شَيْءٍ آتَيْنَا إِلَىٰ رَعْنٍ وَقُرْآنٍ مُّوَسَّعٍ (٦).

والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي: فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من آدم ويونس ودأود

والقبس: النار المقبوسة وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبساً وغير قبس ومن قرأ بالتونين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس، والخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضله.

فإن قلْتُ: ﴿سأتیکم منها بخبر﴾، و﴿لعلی آتیکم منها بخبر﴾ (١) كالمتدافعين؛ لأنّ أحدهما ترج والآخر تيقن! قلْتُ: قد يقول الراجي إذا قوي رجاءه: سافعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قلْتُ: كيف جاء بسين التسوييف؟ قلْتُ: عدة لأهله أنه يأتهم به وإن أبداً أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قلْتُ: فلم جاء ب﴿ار﴾ دون الواو؟ قلْتُ: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعبادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرماتين على عبده، وما اندراه حين قال: ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة.

فَلَمَّا جَاءَهُ نُورٌ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَ اللَّهُ رَبِّيَ الْعَلِيِّنَ (٨).

﴿أن﴾ هي المفسرة؛ لأنّ النداء فيه، معنى القول: والمعنى قيل: له بورك.

فإن قلْتُ: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره ﴿نودي﴾ بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن! قلْتُ: لا لأنه لا بد من قد.

فإن قلْتُ: فعلى إضمارها! قلْتُ: لا يصح لأنها علامة لا تحذف، ومعنى ﴿بورك من في النار ومن حولها﴾ بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾ (٢) وتدل عليه قراءة أبي تباركت الأرض ومن حولها، وعنه بورك النار والذي بورك له البقعة وبورك من فيها وحولها حدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه وربّ خير يتجدد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويثبت آثار يمنه في أبعاده، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون، والظاهر أنه عالم في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحوليهما من أرض الشام ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ (٣) وحققت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء

(4) سورة القصص، الآية: 31.

(5) سورة القصص، الآية: 30.

(1) سورة القصص، الآية: 29.

(2) سورة القصص، الآية: 30.

(3) سورة القصص، الآية: 71.

والكسر كما قرئ: عُتِيَا وَعِتِيَا، وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بالسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضماثرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أقحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرًا بيّنًا مكشوفًا لا شبهة فيه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

﴿عُلَمَاءٌ طائفة من العلم أو علمًا سنيا غزيرًا﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: ليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبأ! قُلْتُ: بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إتياء العلم وشيء من مواجهه، فاضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال: ولقد آتيناهما علمًا فعملًا به وعلمًا وعزًا حق النعمة فيه، والفضيلة ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ والكثير المفضل عليه من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلًا على كثير وفضل عليهما كثير وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم وأن من أوتيته فقد أوتي فضلًا على كثير من عباد الله كما قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بَرَجَاتٍ﴾⁽⁴⁾ وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء⁽⁵⁾ إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم منها أن يحمداوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر كل الناس أقره من عمر⁽⁵⁾.

وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا إِنَّا شِئْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾

ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيهِ وكانوا تسعة عشر وكان داود أكثر تعبدًا وسليمان أفضى وأشكر لنعمة الله ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ تشهيرًا لنعمة الله وتنويهاً بها واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيته من عظام الأمور والمنطق كل ما يصوت به من

وسليمان، وإخوة يوسف ومن موسى بوكزة القبطي ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها وسماه ظلمًا كما قال موسى: رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي. والحسن والسوء حسن التوبة وقبح الذنب وقرئ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ بحرف التنبيه، وعن أبي عمر وفي رواية عصمة حسنًا ﴿وَفِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ونحوه:

فقلت إلى الطعام فقال: منهم فريق يحسد الإنس الطعاما ويجوز أن يكون المعنى ﴿وَالِقِ عَصَاكَ﴾ و﴿أَنْخِلْ بِكَ﴾ في تسع آيات أي: في جملة تسع آيات وعدادهن ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب في بوابيهم والنقصان في مزارعهم المبصرة الظاهرة البينة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأملها لأنهم لا يسوها، وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار كل ناظر فيها من كافة أولى العقل وإن يراد إحصار فرعون وملئه لقوله: ﴿وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنفُسُهُمْ﴾، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى لأن العمى لا تقدر على الاهتداء فضلًا أن تهدى غيرها ومنه قولهم: كلمة عيناء وكلمة عوراء لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى ونحوه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَىٰ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ﴾⁽¹⁾.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ إِبْرَاهِيمَ بَشِيرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾

والأرض بصائر فوصفها بالبصارة كما وصفها بالإبصار وقرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما وقتادة مبصرة وهي نحو مجبنة ومبجلة ومجفرة أي مكانًا يكثر فيه التبصر.

وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾

الواو في ﴿وَاسْتَيْقَنْتَهَا﴾ أو الحال وقد يعدها مضمرة والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون⁽²⁾ وقرئ: عَلِيًّا وَعُلِيًّا بالضم

= سورة الإسراء، الآية: 102.
علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل، والله أعلم.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 46 - 47.

(2) سورة المجادلة، الآية: 11.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، (الحديث: 3641)، والترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، (حديث: 2683)، وابن ماجه في المقدمة، (حديث: 223)، وابن حبان في كتاب: العلم، (حديث: 88).

(4) راجع حديث رقم 334، سورة النساء.

(3) قال أحمد: التبعض والتقليل من التذكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر فكذلك يرد للتعظيم من شأنه، كما مر آنفاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْغُوا الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ولم يقل: الحكيم العليم، والغرض من التذكير التعظيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه، كأنه قال: علمًا، أي: علم وهو كذلك، فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومن ذلك علم =

المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح النطق، وما أصلح فيه إلا مفردات التكلم وقالت العرب: نطقت الحمامة وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل نذبه فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول قالوا: الله ونبيه أعلم قال: يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاخنة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طلوس فقال: يقول: كما تدن تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوى فقال: يقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجبوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والبيغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: انكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القنوس. وأراد بقوله: ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتي كما تقول: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه ومثله قوله: وأوتيت من كل شيء ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ لِلْمُبِينِ﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»⁽¹⁾ أي: أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخرًا.

فإن قلنا: كيف قال: ﴿علمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ وهو من كلام المتكبرين؟ قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أن يريد نفسه وأباه والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع وكان ملكاً مطاعاً فكلم أهل طاعته على صفته، وحاله التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك وقد يتعلق بتجمل الملك وتقضيه وإظهار آيئته وسياسته مصالح فيعود تكلف ذلك واجباً وقد كان رسول الله ﷺ يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجع في عين علو لا ترى كيف أمر العباس رضي الله عنه بأن يحبس أباً سفيان حتى تمر عليه الكتائب⁽²⁾.

رُحِمَ رَحِمَتُكَ جُودُكَ مِنْ أَلَمٍ وَأَلَمٍ وَأَلَمٍ فَهُمْ يَرْعَوْنَ⁽³⁾.

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجند وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف

بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوبة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب، وإبريسم فرسخاً في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعده عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب، وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويرى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أنني قد زنت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فالقته الريح في أذنه فنزل، ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي: توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة.

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ مُنْتَهَى قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا أَكْثَلُ أَهْلُهَا سَكَنُكُمْ لَا يَحُولُكُمْ سَكَنُكُمْ وَجُودُكُمْ وَمِنْ لَا يَمُرُّونَ⁽⁴⁾.

قيل: هو واد بالشام كثير النمل.

فإن قلنا: لم عدى ﴿أتوا﴾ بـ﴿على﴾؟ قلنا: يتوجه على معنيين: أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء كما قال أبو الطيب:

ولشدة ما قربت عليك الأنجم

لما كان قريباً من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطهم، وقرئ: ﴿نملة﴾ يا أيها النمل ﴿بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه كقولهم: السبع في السبع قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تنكاس فنانا: ﴿يا أيها النمل﴾ الآية فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وقيل: كان اسمها طاخية وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً، وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت نكراً أم أنثى فسالوه فأنهم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كانت نكراً لقال قال: نملة⁽⁵⁾ وذلك أن النملة مثل الحمامة

(1) تقدم في سورة يوسف، الحديث رقم 212.

(2) أخرجه البخاري في المغازي، في كتاب: أين ركن النبي ﷺ (الحديث: 4280).

(3) قال أحمد: لا أبري العجب منه أم من أبي حنيفة أن ثبت ذلك عنه، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى؛ =

= لانه اسم جنس يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث، ومعناه محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصحح المستعمل لا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحي بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج =

على الوالدين خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك، وروي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوقف لتلا يذعرن حتى يخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة⁽³⁾. ومعنى «وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين» واجعلي من أهل الجنة.

وَتَعَمَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٧٦﴾

أم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدد فلم يبصره فقال: «مالي لا أرى» على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ونحو قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدد أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء⁽⁴⁾، وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يوم سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسنة أعجبت خضرتها، فنزل ليتغذى ويصلي فلم يجدا الماء وكان الهدد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاج⁽⁵⁾، فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلم الإهاب ويستخرجون الماء فتفقدته لذلك وحين نزل سليمان خلق الهدد فرأى هدهداً واقفاً فانط إلى، فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس⁽⁶⁾، وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: علي به فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقليل فقصدته فناشدها الله وقال: بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا رحمتي، فتركته وقالت: ثكلتك

والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي. وقرئ: مسكنكم، ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ: «لا يحطمنكم» بفتح الحاء وكسرهما وأصله يحطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولى العقل أجرى خطابهم مجرى خطابهم.

فإن قلت: «لا يحطمنكم» ما هو! قلت: يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر، والذي جواز أن يكون بدلاً منه أنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم على طريقة لا أرىك ههنا أراد «لا يحطمنكم» جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ، ونحوه عجت من نفسي ومن إشفاقها.

فَتَبَسَّرَ مَاجِئًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِمَنِّكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الْمَلَكِينَ ﴿٧٨﴾

ومعنى «فتبسم ضاحكاً»: تبسم ضارعاً في الضحك وأخذاً فيه يعني: أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام وأما ما روي أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه⁽¹⁾ فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي وإلا فببؤ النواجز على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب وقرأ ابن السمين: ضحكا.

فإن قلت: ما أضحك من قولها! قلت: شيان: إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله، وحالهم في باب التقوى وذلك قولها: «وهم لا يشعرون» تعني: أنهم لو شعروا لم يفعلوا وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من إبراك بسمعه ما همس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر، والقلة ومن إحاطته بمعناه ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفائه لزيادة العمل الصالح والتقوى⁽²⁾، وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وكافه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرًا لك وإنما أدرج نكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة

(1) (الحديث رقم: 657)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: آخر أهل النار خروجاً، (الحديث رقم: 308 - 186).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله... (الحديث رقم: 6520).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأتك لا يكون طلاقاً... (الحديث رقم: 29 - 1478).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، (الحديث رقم: 132 - 1807).

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من قال بالقردة إذا تنازعا في الولد (الحديث رقم: 2269)، والحاكم في المستدرک 2/ 207.

هذه الصفات على اللفظ مؤنثة، ولا يعني الإناث من الانعام خاصة، فحينئذ قوله تعالى: «فقال نملة» روعي فيه تانيث اللفظ وأما المعنى، فيحتمل على حد سواء، وإنما أطلت في هذا، وإن كان لا يتمشى عليه حكم؛ لأنه نسبته إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذا الجواب معجباً لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له فيأله العجب العجائب، والله الموفق للصواب.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة الزمر، باب: «وما قلدوا الله حق قدره» (الحديث رقم: 4811)، أخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وإحكامهم، باب: صفة القيامة، والجنة والنار، (الحديث رقم: 20 - 2786).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار،

لا يخفى منه معلوم قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبأ بالالف كقولهم: ذهبوا أيدي سبأ وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر صرف قال:

من سبأ الحاضرين مارب إذ يبنون من نون سيله العرما وقال:

الوارثون وتيم في نرى سبأ قد عض اغناقهم جلد الجواميس
ثم سميت مدينة مارب سبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أة، ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبا الخبر الذي له شان. وقوله: ﴿من سبأ بنياً﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحذون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً، ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنياً بخبر لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح لما في النبا من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

إني وجدت امرأة تليكنهم وأوتيت من كل شيء ولما عرث عظيم (١٣).

المرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها وقد ولده أربعون ملكاً ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس والضمير في ﴿تملكهم﴾ راجع إلى سبأ فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها، وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين نراعاً في ثمانين وسمكه ثمانين وقيل: ثلاثين مكان ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللها بأنواع الجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم، ويستخدمهم ومن نوكرى القصاص من يقف على قوله: ولها عرش ثم يبتدىء عظيم.

وجدتها وقومها يسجدون للشيء من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل فهم لا يهتدون (١٤).

﴿وجنتها﴾: يريد أمر عظيم أن وجدتها وقومها

أمك إن نبي الله قد حلف ليعذبك قال: وما استثنى قالت: بلى قال: وليأتيني بعذر مبين^(١)، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه فقال: يا نبي الله انكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأل.

لَعَنَسَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَنْجَبَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥).

تعذيبه أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه، وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل: أن يطلي بالقطران ويشمس وقيل: أن يلقى للنمل تاكله وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين أهله وقيل: لألزمته صحبة الأضداد، وعن بعضهم: أضيق السجون معايشة الأضداد، وقيل: لألزمته خدمة أقرانه.

فإن قلت: من أين حلّ له تعذيب الهدد؟ قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأليب والسياسة جاز أن تباح له ما يستصلح به، وقرئ: ليأتيني وليأتيني. والسلطان الحجة والعذر.

فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعله لا مقال فيه ولكن كيف صحّ حلفه على فعل الهدد، ومن أين دري أنه يأتي بسلطان حتى يقول: ﴿أو ليأتيني بسلطان﴾؟ قلت: لما نظم الثلاثة باو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قولك ليكون أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء براءة على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحى من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فقلت: بقوله: ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ عن براءة وإيقان.

فمَكَتْ عَرِّيَ بِعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتٌ يَغِيثُ (١٦).

﴿فمكت﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿غير بعيد﴾ غير زمان بعيد كقوله: عن قريب ووصف مكته بقصر المدة للدلالة على إسراره خوفاً من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى ﴿أحطت﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق إلهم الله الهدد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاد علماء بما لم يحط به لتحقاق إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته

وقيل: كلام رب العزة وفي إخراج الخبء أمانة على أنه من كلام الهدد لهندسته ومعرفته الماء. تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفي على ذي الفراسة النظر بنور الله مخاض كل مختص بصناعة أو فن من العلم في روايته ومنطقه وشمائله ولهذا ورد ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

فإن قُلْتُ: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً؛ أم في إحداهما؟ قُلْتُ: هي واجبة فيهما جميعاً لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمراً بالسجود والآخرى ذم للترك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أن سجدة القرآن أربع عشر وإنما اختلفا في سجدة ص فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة، وعند الشافعي سجدة شكر وفي سجدي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه.

فإن قُلْتُ: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قُلْتُ: نعم إذا خفف وقف على فهم لا يهتدون، ثم ابتدأوا لا يسجدوا، وإن شاء وقف على ألا يأتهم ابتداءً أسجدوا وإذا شدد لم يقف إلا على العرش العظيم.

فإن قُلْتُ: كيف سوى الهدد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قُلْتُ: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم، تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾

ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وقرئ: ﴿العظيم﴾ بالرفع.

﴿قَالَ سَتَرْتُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٧).

﴿سننظر﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كنت من الكاذبين﴾ (١) أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به.

أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا قَالَتْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْتَمُونَ

(٦٨)

﴿تول عنهم﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يرجعون﴾ من قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض﴾ (٢) القول فيقال: دخل عليها من كوة فالتقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة.

يسجدون للشمس، فر من استعظام الهدد عرشها فوق ع في عظمة وهي مسخ كتاب الله.

فإن قُلْتُ: كيف قال ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مع قول سليمان، وأوتيتنا من كل شيء كأنه سوى بينهما؟ قُلْتُ: بينهما فرق بين؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله: على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير فرجع أولاً إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا وعطفه الهدد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد.

فإن قُلْتُ: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قُلْتُ: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

فإن قُلْتُ: من أين للهدد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قُلْتُ: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما الهمه، وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي يكاد العقلاء الرجاء العقول يهتدون لها ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصاً في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل تلك معجزة له، من قرأ بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحلف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ومن قرأ بالتخفيف فهو ألا يسجدوا إلا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال:

أيا أسلمي يادارمي على البلى

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى: ألا تسجدون على الخطاب.

أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي الْأَسْوَدِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾

وفي قراءة أبي: ﴿ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سرهم وما تعلنون﴾ وسمى المخبوء بالمصدر وهو النبات، والمطر وغيرهما مما خباه عز وعلا من غيوبه وقرئ: الخبء على تخفيف الهمزة بالحذف والخبء على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار ووجهها أن تخرج على لغة من يقول في الوقف هذا الخبء ورأيت الخبا ومررت بالخبى، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف لا على لغة من يقول: الكمأة والحماة لأنها ضعيفة مسترنة وقرئ: يخفون ويعلمون بالياء والتاء وقيل: من أحطت إلى العظيم هو كلام الهدد

(2) سورة سبا، الآية: 31.

(1) قال أحمد: وهذا مما نُبّهت عليه في سورة الشعراء من العنول عن الفعل الذي هو أم كذبت، وعن مجرد صفة في قوله: أم كنت كاذباً إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد، والله أعلم.

الاستعارة من الفتا في السن والمراد بالفتوى ههنا الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتبدير وقصدت بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم استعطافهم وتطبيب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها **﴿قاطعة أمراً﴾** فاصلة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: قاضية أي: لايت أمراً إلا بمحضركم وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف.

قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا فُزُوءَ وَأَوْلَا بَأْسَ شَيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ **﴿٣٦﴾**

أرأنا بالقوة: قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب **﴿والأمر إليك﴾** أي: هو موكل إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك، كأنهم أشاروا عليها بالقتال أو أرأنا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتبدير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك، لما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ورتبت الجواب فزيغت أولاً ما نكروه وارتهم الخطأ فيه.

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ **﴿٣٧﴾**

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ عنوة وقهراً **﴿أفسدوها﴾** أي: خربوها ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة، وأنلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فنكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت: **﴿وكنكلك يفعلون﴾** أرأيت وهذه عانتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت ثم نكرت بعد ذلك حديث الهبة وما رأت من الرأي السديد وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حراماً فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

وَلِإِي مَرْسَلَةٍ إِلَيْهِمْ بِهَدْيَةٍ فَنَظَرُوا بِهَا رَجَعَ الْمُرْسَلُونَ **﴿٣٨﴾**

﴿مرسلة إليهم بهدية﴾ أي: مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي **﴿فناظرة﴾** ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغطاة بالديباج محلاة للجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وقضة وتاجاً مكللاً بالدر

فإن قلت: لم قال: **﴿فألقه إليهم﴾** على لفظ الجمع قلت: لأنه قال: وجدها وقومها يسجون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم اهتماماً منه بأمر الدين واشتغلاً به عن غيره وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَيْنَا إِيكُمُ كَرِيْمٌ **﴿٣٩﴾**

﴿كريم﴾ حسن مضمونه، وما فيه أو وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم قال **﴿كريم﴾**: «كرم الكتاب ختمه»^(١)، وكان **﴿كريم﴾** يكتب إلى العجم فقيل له أنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاصطنع خاتماً^(٢)، وعن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به.

إِنَّ مِنْ شَيْئَيْنِ وَلَئِنْ سَمِعَ اللَّهُ أَلْحَمْدِي الرَّحِيمِ **﴿٤٠﴾**

وقيل: مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم هو استئناف، وتبين لما ألقى إليها كأنها لما قالت: **﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾** قيل لها: ممن هو وما هو فقالت: إنه من سليمان وأنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله: وأنه من سليمان وأنه عطفاً على إني وقرئ: إنه من سليمان وأنه بالفتح على أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقى إلى أنه من سليمان، ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله وقرأ أبي: أن من سليمان، وأن بسم الله على أن المفسرة.

أَلَا تَعْلَمُوْنَ أَنَّ رَأْيِي مُسْلِيْمٌ **﴿٤١﴾**

وأن في **﴿ألا تعلموا﴾** مفسرة أيضاً، لا تعلموا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالعين معجمة من الغلو وهو: مجاوزة الحد يروى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلموا علي واتتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً لا يطيلون ولا يكثررون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمارب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبعت فزعة وقيل: أتاها والقادة والجنود حولها ففرغ ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة كتابه عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت، **﴿مسلمين﴾** منقادين أو مؤمنين.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتَرِيْ فِيْ أَمْرِيْ مَا كُنْتُ قَاطِمَةً أُنْرَ حَتَّى تَشْهَدُوْا **﴿٤٢﴾**

الفتوى: الجواب في الحادثة اشتقت على طريق

= وعلى ما يقاتلون عليه (الحديث رقم: 2938)، ومسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: اتخاذا النبي ﷺ خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم.

(١) ذكره الواحدي في تفسيره والتعلبي والقضاعي والطبراني في الأوسط، زيلعي 16/3.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى=

أقول له: أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه وعليه ورد قوله فما أتاني الله.

فَإِنْ قُلْتَ: فما وجه الإضراب؟ **قُلْتُ:** لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو: أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك بأنكم قدرتم على إهداء مثلها، ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

أَتَجِدُ إِلَيْهِمْ لَنَّا أَنِمْهُمْ بِمُحْوَرٍ لَا يَدُلُّ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ سَائِرُونَ (١٧).

«ارجع» خطاب للرسول وقيل: للهدد محملاً كتاباً آخر **«لا قبل»** لا طاقة وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة أي: لا يقدر أن يقابلهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: لا قبل لهم بهم، الضمير في منها لسيا. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقاً بعد أن كانوا ملوكاً.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَيْمَنُ يَرْفَعُ قَوْلَ أَنْ يَأْتِيَ مُسْلِمُونَ (١٨).

يروي أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة آيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها وغلفت الأبواب وولكت به حرساً يحفظونه، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويربها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها، وعن قتادة: أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أثبته أم تنكره اختباراً لعقلها.

قَالَ عَفَرْتُ مِنْ لَمَنِ أَنَا أَلَيْكَ بِهِ قَوْلَ أَنْ تَقْرَأَ مِنْ تَقَارِيكُ وَإِنِّي عَفِي لَقَوْلِي أَمِينَ (١٩).

وقرى: عفرية والعفر والعفريت والعفرية والعفارة والعفارية من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد وقالوا: كان اسمه نكوان **«لقوي»** على حمله **«أمين»** أتى به كما هو لا اختزل منه شيئاً ولا أبله.

قَالَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ عِلْمِهِ مِنَ الْكَذِبِ أَنَا أَلَيْكَ بِهِ قَوْلَ أَنْ تَرَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَرْعِزاً عِنْدَهُ قَالَ مَدَا مِنْ قَبْلِ رَبِّي يَسْلُوكُ مَا شَكَرَ أَمْ أَكْفَرُ وَمِنْ شَكَرَ فَلَمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمِنْ كَفَرُ فَإِنَّ رَبِّي غَفُورٌ كَرِيمٌ (٢٠).

«الذي عنده علم من الكتاب» رجل كان عنده اسم الله

والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقاً فيه درة عنراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو وآخر ذا رأي وعقل وقال: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرّة ثقباً مستويّاً وسلك في الخريزة خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولك وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي فاقبل الهدد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن اللواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير، فاقموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والإنس صفوفاً فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا اللواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم وقال: أين الحق وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفقت فيها، فجعل رزقها في الشجرة وأخذت بودة بيضاء الخيط بفمها ونفقت فيها فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها، فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبي وما لنا به طاقة فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل الوف.

قَالَ جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَيْدُونِي بِمَالٍ فَتَأْتِيَنِّي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا مَاتَكُمُ بَلْ أَنتُمْ بِمَرْيَكُورٍ تَقْرَوْنَ (٢١).

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: فلما جاؤوا **«اتمدونني»** وقرى: بحنف البياء والاكْتَفَاء بالكسرة وبالانغام كقوله: اتحاجوني وبنون واحدة اتمدوني، الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدي إليه تقول هذه هدية فلان تريد: هي التي أهداها أو أهبت إليه والمضاف إليه هنا هو المهدي إليه والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله أتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وأتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمد بمال ويصانع به **«بل أنتم»** قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك **«تفرحون»** بما تزاوون ويهدي إليكم؛ لأن ذلك مبلغ همكم وحالي خلاف حالكم وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

فإن قلت: ما الفرق بين قولك اتمدني بمال وأنا أغني منك وبين أن تقول له بالفاء؟ **قلت:** إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كاني

مقدمه مؤخره واعلاه أسفله. وقرئ: ﴿نَنْظُرُ﴾ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف ﴿اتَهْتَدِي﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة من تقدم عرشها، وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس، هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة.

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا آلِهَةً مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُتَّبِعِينَ ﴿١٦﴾

لم يقل: أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا ف ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، ولم نقل هو هو ولا ليس به وذلك من راحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل^(١).

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ من كلام سليمان وملئه.

فَإِنْ قُلْتُ: علام عطف هذا الكلام وبم اتصل! قُلْتُ: لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابته بما أجابته به مقاماً أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ نحو أن يقولوا عند قولها ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾: قد أصابت في جوابها، وطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكر الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها.

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿وصدّها﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرائي الكفرة ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: كأنه هو والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة تعني: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر وبخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: ﴿صَدَّهَا﴾ قبل ذلك عما نخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل وقيل: وصدّها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: إنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صد أو بمعنى: لأنها.

يَلْ لَمَّا أَذِلَّ الصَّرْحُ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَابِقِهَا قَالَتْ إِنَّكَ صَرِحٌ مُثَرَّةٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ

الاعظم وهو: يا حي يا قيوم وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت وقيل: يا ذا الجلال والإكرام وعن الحسن رضي الله عنه: والرحمن، وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقاً عالمًا وقيل: اسمه أسطوم وقيل: هو جبريل وقيل: ملك أيد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول عن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام، ﴿علم من الكتاب﴾ من الكتاب المنزل وهو: علم الوحي والشرائع وقيل: هو اللوح والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام، ﴿وَأَتَيْكَ﴾ في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريك أجفانك إذا نظرت فوضع موضع النظر ولما كان الناظر موصوفاً بارسالي الطرف في نحو قوله:

وَكُنْتُ إِذَا أَرَسَلْتُ طَرَفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعْبِكَ الْمَنَازِرُ

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد، ومعنى قوله: ﴿قَبْلِ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك، ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمين، ودعا آصف فغار العرش في مكانه يمارب ثم نبغ عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله قبل أن يردّ طرفه، ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدة المجيء به كما تقول لصاحبك: أقبل كذا في لحظة، وفي ردّة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران وترتبط به النعمة ويستمد المزيد، وقيل: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفي كلام بعض المتقدمين أن كفران النعمة بوار وقلما أفضت نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاربها بالشكر واستمد راهنها بكرم الجوار واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج الله وقاراً ﴿غَنِي﴾ عن الشكر ﴿كريم﴾ بالإعلاء على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرًا لربه جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بجسن الشكر كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

قَالَ نَكَّرُوا لَمَّا عَرَسَهَا نَظَرُ أَهْلَيْهِ أَرَأَيْتَ لَئِنْ لَا يَهْدُونَ ﴿١٨﴾

﴿نكروا﴾ أجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، قالوا: وسعوه وجعلوا

= فنقول: حكمته، والله أعلم. أن كأنه هو عبارة عن قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلماذا عدلت إلى العبارة المنكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها، والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال أحمد: وفي قولها: كأنه هو عنولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول هكذا هو نكتة حسنة، ولعل قائلًا يقول: كلا العبارتين تشبيه إذ كاف التشبيه فيها جميعاً، وإن كانت في إحداها داخلية على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلية على المضمر، وكلاهما أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقتها للسؤال، فلا بد في اختيار كأنه هو من حكمة =

قولهم واعتقادهم. ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ﴿لعلكم ترحمون﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

قَالُوا أَكُفِّرْنَا بِكَ وَيَمُنُ مَعَكَ قَالِ طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُشْتَرُونَ (١٧).

وكان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره فإن مر سائحاً تيمن وإن مر بارحاً تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ومنا قالوا: طائر الله لا طائر لك أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائر لك الذي تشاءم به وتتمين فلما قالوا: اطيرنا بكم أي: تشاءمنا، وكانوا قد قحطوا ﴿قال طائرکم عند الله﴾ أي: سببکم الذي یجیئ منه خیرکم وشرکم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقکم وإن شاء حرکم، ويجوز أن يريد: عملکم مكتوب عند الله فمنه نزل بکم ما نزل عقوبة لکم وفتنة ومنه قوله: ﴿طائرکم معکم﴾^(١) وكل إنسان الزمناه طائرہ في عنقه، وقرئ: تطيرنا بکم على الأصل ومعنى تطير به: تشاءم به، وتطير منه: نفر منه ﴿تفتنون﴾ تختبرون أو تعذبون، أو يفتنکم الشيطان بوسوسته إليکم الطيرة.

وَكَاكَ فِي اللَّيْلِ سَمِعَهُ رَهْطٌ يُبْشِرُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُبْشِرُونَ (١٨).

﴿المدينة﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة فكأنه قيل: تسعة أنفس والفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماءهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم رباب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخزومة سبيط بن صدقة سمعان بن صفي قدار بن سالف وهم الذين سعووا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام وكانوا من أبناء أشrafهم ﴿ولا يصلحون﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٩).

﴿تقاسموا﴾ يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد أي: قالوا متقاسمين وقرئ: تقسموا، وقرئ: لتبيتنه بالتاء والياء والنون فتقاسموا مع النون والتاء يصح فيه الوجهان ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً والتقاسم والتقسم كالتظاهر والتظهر التحالف والبيات

مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٠).

﴿الصرح﴾ القصر وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: ساقبها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤفاً، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من نواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يترؤجها، فنفضي إليه بأسرارهم: لأنها كانت بنت جنية وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأقطع فقالوا له: إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافرا الحمار فاختر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداه ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة أمر بها الشياطين، فاتخذوها واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زويدة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميراً حتى مات سليمان ﴿ظلمت نفسي﴾ تريد: بكفرها فيما تقدم، وقيل: حسبت أن سليمان عليه السلام يفرقها في اللغة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَّا نُرْؤُا أَعْيُنُهُمْ صَلَاحًا أَوْ أَغْيُورًا فَلَوْ أَنَّهُمْ فَخَصُوا فَلْيُفَصِّحُوا (٢١).

وقرئ: ﴿أن اعبدوا﴾ بالضم على اتباع الذنوب البياء ﴿فريقان﴾ فريق مؤمن وفريق كافر وقيل: أريد بالفريقين صالح عليه السلام، وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يختصمون﴾ يقول كل فريق: الحق معي.

قَالَ يَقُولُونَ لِرَبِّهِمْ قَوْلًا لَّيْسَ بِالْحَقِّ إِلَّا قَوْلُ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ (٢٢).

﴿السينة﴾ العقوبة و﴿الحسنة﴾ التوبة. فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسينة قبل الحسنة، وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا مقربين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت، وإن لم تقع فنحن على ما نحن عليه فخطبهم صالح عليه السلام على حسب

وحكمه وعلمكم بذلك أعظم لنزولكم وأدخل في القبح والسماجة وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عبادته؛ لأنه أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين أو تبصرونها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في باديتهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلافة ومجانة، وإنهما كما في المعصية، وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله:

وبع باسم ماتني ونزني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما تزل بهم.
فإن قلْت: فسرت ﴿تُبصرون﴾ بالعلم وبعده.

أَيْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٠﴾

﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ قلْت: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.

فإن قلْت: ﴿تجهلون﴾ صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طبقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء وكذلك بل أنتم قوم تفتنون: قلْت: اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة؛ لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَرْيَةٍ إِلَّا أَنْ كَانُوا أَخْرَجُوا مَا لَوْ طُرِئَ قَرْيَتَكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْهَوْنَ ﴿٥١﴾

وقرأ الأعمش جواب قومه بالرفع والمشهورة أحسن. ﴿ينتهرون﴾ ينتهزون عن القانورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو استهزاء.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَمْلَأْنَا مِنْ قَدْرَتِنَا رِمَافًا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٢﴾

﴿قَدْرَتِنَا﴾ قَدْرَتِنَا كونه ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ كقوله: قَدْرْنَا إنها لمن الغابرين فالقدير واقع على الغبور في المعنى.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الَّذِينَ ﴿٥٣﴾ قُلْ لَقَدْ كَانَ لِلَّهِ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ أَمْلَأَ اللَّهُ خَيْرَ مَا يَشْرُونَ ﴿٥٤﴾

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عبادته وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيقن بالذكورين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين وإصفاثهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزل التي يبيغيها المسمع ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ، كابرًا عن كابر. هذا الألب الأب فحموا الله عز وجل وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة وتبعهم المترسلون فاجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن وقيل: هو متصل بما

مباغطة العو ليلًا وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات، فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقرئ: ﴿مهلك﴾ بفتح الميم واللام وكسرهما من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والزمان والمكان.

فإن قلْت: كيف يكونون صائقين وقد جحدوا ما فعلوا فاتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قلْت: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحًا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ فنكروا أحدهما كانوا صائقين لأنهم فعلوا البياتين جميعًا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهي ولا يخطر ببالهم ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سؤوا للصنق في خبرهم حيلة يتقصون بها عن الكذب.

وَمَكْرًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا ﴿٥٥﴾

مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم في مكانه ونجى صالحًا ومن معه وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيفوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا.

فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَنُفِثْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾

﴿إننا دمرناهم﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلًا من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على أنه خبر كان أي: كان عاقبة مكرهم الدمار.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَعْيَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْشُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿خاوية﴾ حال عمل فيها ما دل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر: ﴿خاوية﴾ بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرْهَنُوا أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ وَأَنَّ نَبِيِّنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ﴿٥٩﴾

﴿و﴾ انكر ﴿لو طًا﴾ أو أرسلنا لو طًا لدلالة ولقد أرسلنا عليه، و﴿إن﴾ بدل على الأوّل ظرف على الثاني و﴿وانتم تبصرون﴾ من بصر القلب أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وإن الله إنما خلق الانثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الانثى للانثى فهي مضادة لله في حكمته

شجرها» ومعنى الكينونة: الانبغاء أراد: أن تأتي ذلك محال من غيره وكذلك قوله: بل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم، والحقيقة: البستان عليه حائط من الإحداق وهو: الإحاطة وقيل: ذات لأن المعنى: جماعة حداثق ذات بهجة كما يقال: النساء ذهبت والبهجة الحسن لأن الناظر يبتهج به «إله مع الله» أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له، وقرئ إلهاً مع الله بمعنى اتدعون أو أتشركون ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدة وتخرج الثانية بين بين «يعبدون» به غيره، أو يعبدون عن الحق الذي هو التوحيد.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

(١١)

﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من ﴿أمن خلق﴾ فكان حكمهما حكمه ﴿قراوا﴾ نحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿حاجزاً﴾ كقوله: برزخاً.

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ الْخُلُفَاءَ
الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (١٢).

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجا والاضطرار: افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر: الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجا والتضرع إلى الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو المجهود، وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة وقيل: المذنب إذا استغفر.

فإن قلنا: قد عم المضطرين بقوله: يجيب المضطر إذا دعاه وكما من مضطر يدعو فلا يجاب؟ قلنا: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة (٣) وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً يصلح لكه ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا ببليلى وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة فبطل تناول على العموم «خلفاء الأرض» خلفاء فيها وذلك توارثهم سكنائها، والتصرف فيها قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ يذكرهم بالياء مع الإدغام، وبالتاء مع الإدغام والحنف وما مزيدة أي: ينكرون تذكرًا قليلاً والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا

قبله وأمر بالتحديد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام، وأشياءهم الناجين وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكة، وإنما هو إلزام لهم وتبكي (١) وتهكم بحالهم وذلك أنهم أنشروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقليل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما أنشروه وإنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى، وعيلاً لينبوه على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول ولينعلموا إن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد، ونحوه ما حكاه عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته.

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي تعي آثار رحمته وفضله كما عندها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء، وقرئ يشركون بالياء والتاء، وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قراها يقول: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم (٢).

فإن قلنا: ما الفرق بين أم وأم في أم ما تشركون وأمن خلق؟ قلنا: تلك متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله تعالى: ﴿الله خير أم الآلهة﴾.

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ وَأَرْزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَ بِهِ حَدَائِقَ دَارِكَ بِهِمْ مَاءً كَذَلِكَ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ (١٣).

قال: بل أمن خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء، وقرأ الأعمش: ﴿أمن﴾ بالتخفيف ووجه أن يجعل بدلاً من الله كانه قال: أمن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون.

فإن قلنا: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلنا: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأن إنبات الحداثق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسناتها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا

(١) قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع خالق كل شيء مكان قوله: خالق كل خير، فإنه تخصيص قدي أو إشراك خفي، والتوحيد الأبلغ ما قلناه والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في استحباب التكبير عند الختم، (حديث: 2082).

(٣) قال أحمد: الصواب أن الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، =

= وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرة لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة فاسد، فإن المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت.

الغيب إلا الله⁽²⁾، وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً لئلا يامن أحد من عبده مكره، وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة **﴿إِيَّانَ﴾** بمعنى متى ولو سمي به لكان فعالاً من أن يثين، ولا يصرف وقرئ إيان بكسر الهمزة.

بَلِ ادْرَاكِ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَرُونَ^(١٦).

وقرئ بل أدرك بل إدراك بل إدراك بل تدارك بل الأثر كبهمتين بل الأثر كبالف بينهما بل أدرك بالتخفيف، والنقل بل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى الأثر أم، تدارك أم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة وإدراك أصله تدارك فادغمت التاء في الدال وأدرك افتعل ومعنى **﴿أدرك علمهم﴾** انتهى، وتكامل وأدرك تتابع واستحكم وهو على وجهين أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وهو قوله: بل هم في شك منها بل هم منها عمون يريد: المشركين ممن في السموات والأرض: لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم.

فإن قلنا: إن الآية سبقت لاختصاص الله بعلم الغيب وأن العباد لا علم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف لاعم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ قلنا: لما نكر أن العباد لا يعلمون الغيب ولا يشعرون بالبعث الكائن، ووقته الذي يكون فيه وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم وصل به أن عندهم عجزاً أبلى منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد أن يكون وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم كما تقول: لأجل الناس ما أعلمك على سبيل الهز، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوب فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته وفي أدرك علمهم وإدراك علمهم وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تعدم، وقد فسره الحسن رضي الله عنه: باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك.

فإن قلنا: فما وجه قراءة مَنْ قرا: بل أدرك على الاستفهام! قلنا: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك

بَلِ ادْرَاكِ عِلْمُهُمْ أَنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَكُنَى اللَّهُ عَمَّا يُنْزَكُونَ^(١٦).

﴿يهديكم﴾ بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْفَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَنَّ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ مَا كَانُوا بِرُءُوسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مَسْكِوِينَ^(١٧).

فإن قلنا: كيف قيل لهم:

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة! قلنا: قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة، والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار **﴿من السماء﴾** الماء **﴿و﴾** من **﴿الأرض﴾** النبات **﴿إن كنتم صابقين﴾** أن مع الله إلهاً فإين ليلكم عليه.

فإن قلنا: لم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قلنا: جاء على لغة بني تميم حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار يريدون: ما فيها إلا حمار وكان أحداً لم ينكر ومنه قوله:

عشية ما تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانته إخوانكم إلا إخوانه.

فإن قلنا: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟

قُلْ لَا يَمْلِكُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّبِيُّ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَمْوِلُ إِلَّا يُبْسَوْنَ^(١٨).

قلنا: دعت إليه نكتة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير بعد قوله: ليس بها أنيس ليؤل المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب يعني: أن علمهم الغيب في استحالاته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما في البيت إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس بآ للقول بخلوها عن الأنيس.

فإن قلنا: هلا زعمت أن الله ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها فكان ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم! قلنا: يابى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً، غير صحيحة على أن قولك من في السموات والأرض وجمعه بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد فيه إيهام تسوية والإيهامات مزلة عنه وعن صفاته تعالى ألا ترى كيف قال ﷺ لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: بئس خطيب القوم أنت^(١) وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض﴾**

= (الحديث: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ولقد رآه نزلة أخرى... الحديث: (287 - 177).

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (الحديث: 48 - 870).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1) =

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم، وأراد بالمجرمين الكافرين وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجماع ليكون لطفًا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها ألا ترى إلى قوله: ﴿فقدمم عليهم ربهم بنبيهم﴾^(١) وقوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾^(٢).

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

﴿ولا تحزن عليهم﴾ لأنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قریش كقوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾^(٣) ﴿في ضيق﴾ في حرج صدر من مكروهم وكيدهم لك ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما والضيق أيضًا تخفيف الضيق قال الله تعالى: ﴿ضيقًا حرجًا﴾^(٤) قرئ مخففاً ومثقلاً، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكروهم.

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعَثَ اللَّهُ الَّذِينَ تَتَّبِعُونَ ﴿١٩﴾

استعجلوا العذاب الموعود ف قيل لهم: ﴿عسى أن يكون﴾ ردف لكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو لنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقد عدى بمن قال: فلما ردفنا من عمير وصحبه، تولوا سراعاً والمنية تعنى يعني: دنونا من عمير وقرأ الأعرج: ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعدهم يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعملون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

وَلَنْ يَكُنَّ لَكَ فِتْنَةٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾

الفضل والفاضلة: الإفضال ولفلان فواضل في قومه وفضول، ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة وأنه لا يعاجلهم بها وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب وهم قریش.

وَلَنْ يَكُنَّ لَكَ فِتْنَةٌ مَا تَكُفُّ سُدُورُهُمْ وَمَا يُعَلِّتُونَ ﴿٢١﴾

قرئ: نكن يقال: كننت الشيء واكننته: إذا سترته

علمهم وكذلك من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة.

فإن قلت: فمن قرأ بلى أدرك وبلى أدرك! قلت: لما جاء ببل بعد قوله: ﴿وما يشعرون﴾ كان معناه بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكانه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أدرك على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿في الآخرة﴾ في شأن الآخرة ومعناها.

فإن قلت: هذه الاضطرابات الثلاث ما معناها! قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخطئون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة إلا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشاه فلذلك عداه بمن دون عن لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا كُنْهَرُونَ ﴿٢٢﴾

العامل في إذا ما دل عليه ﴿إننا لمخرجون﴾ وهو نخرج؛ لأن بين يدي عمل اسم الفاعل فيه عقاباً وهي همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء واحدة منها كافية فكيف إذا اجتمعن، والمراد: الإخراج من الأرض أو من حال الفناء إلى الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإسخاله على إذا وإن جميعاً إنكار على إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير في إننا لهم ولآبائهم؛ لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآبائهم.

لَقَدْ وَعَدْنَا مَا كُنَّا نَبْتَأُكَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾

فإن قلت: قدم في هذه الآية ﴿هذا﴾ على ﴿نحن وآبائنا﴾ وفي آية أخرى قدم ﴿نحن وآبائنا﴾ على ﴿هذا﴾؛ قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سيق لأجله ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تمعد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصد.

(3) سورة الكهف، الآية: 6.

(4) سورة الانعام، الآية: 125.

(1) سورة الشمس، الآية: 14.

(2) سورة نوح، الآية: 25.

اتباعهم أمر قد يشس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم وشبهوا بالموتى، وهم أحياء صحاح الحواس: لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول لا تعيه أذانهم، وكان سماعهم كلا سماع كانت حالهم لانتفاء جنوى السماع كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينقع بهم فلا يسمعون وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وإن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل.

فإن قلْتُ: ما معنى قوله ﴿إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾! قلْتُ: هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبراً، كان أبعد عن إدراك صوته.

وَمَا أَنتَ بِجَدِي أَمْنِي عَن صَلَاتِهِمْ إِنْ تُشِيعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١).

وقرئ ولا يسمع الصم وما أنت بهادي العمي على الأصل وتهدي العمي وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمي، وهاده عن الضلال كقولك: سقاه عن العيمة أي: أبعد عنها بالسقي وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إِنْ تَسْمَعُ﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي: يصنعون بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون من قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: جعله سالماً لله خالصاً له سمي معنى القول.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢).

ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه: حصوله والمراد: مشاركة الساعة وظهور أشراتها وحين لا تنفع التوبة ودابة الأرض الجساسة جاء في الحديث أن طولها ستون ذراعاً لا يدرکها طالب ولا يفوتها هارب (١) وروي لها أربع قوائم وزغب وریش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأنثى فيل وقرن إبل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخالصة هر ونذب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام، وروي لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون، فلا يخرج إلا ثلثها وعن النبي ﷺ أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني: المسجد الحرام، وروي أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج باقصي اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرًا طويلاً فبينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها

وأخفيته يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكائدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

وَمَا مِنْ عَلَافٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ (٨٣).

سمى الشيء الذي يغيب ويخفي غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلة في العافية والعاقبة ونظائرهما النطيجة والرمية والذبيحة في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتأوهُما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبتته في اللوح المبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ لِمَن يَشَاءُ لِمَن يَشَاءُ أَكْثَرَ الَّذِي تَمَّ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٨٤).

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذاً به وأسلموا يريد: اليهود والنصارى.

وَإِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٥).

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم وآمن أي: من بني إسرائيل، أو منهم ومن غيرهم.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٨٦).

﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلْتُ: ما معنى: يقضي بحكمه ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قلْتُ: معناه بما يحكم به وهو عنه؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به: حكماً أو أراد بحكمته وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه: جمع حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿لِّلْعَلِيمِ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحققين.

فَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٨٧).

أمره بالتوكل على الله، وقلة المبالاة بأعداء الدين وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وببصيرته وأن مثله لا يخذل.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ (٨٨).

فإن قلْتُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلْتُ: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يغيب رسول الله ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب من ترك اتباعه وتشجيع ذلك بالأذى والعداوة فلام ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله بأن

﴿يَخْلُون فِي بَيْنِ اللَّهِ أَقْوَابًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة الأمم بين أيديهم إلى النار.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتُ: الأولى للتبعض والثانية للتبيين كقوله: ﴿مِنَ الْأَوَّانِ﴾⁽²⁾.

حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَنَاذًا كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾.

الوالم للحال كانه قال: اكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب أو للعطف أي: اجحدمتموها ومع جحوبكم لم تلقوا انذاركم لتحققها، وتبصرها فإن المكتوب إليه قد يجد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بها للتبكيك لا غير وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا: قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب ومثاله أن تقول: لراعيك وقد عرفته رويي سوء: أتكلم نعمي أم ماذا تعمل بها فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحَّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك أم ماذا تعمل بها مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبته وتعلمه علمك بأنه لا يجئ منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك أو أراد أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر، والتكذيب بآيات الله أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك يعني: أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكون فيها وذلك قوله:

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يريد: أن العذاب الموعود يفشاهم بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾⁽³⁾.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَمَكُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾.

جعل الإبصار للنهار وهو لاهله.

فإن قُلْتُ: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿لَيْسَكُنُوا﴾ و﴿مُبْصِرًا﴾ حيث كان أحدهما علة، والآخر حالا؟ قُلْتُ: هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصرًا: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرَىٰ مَن فِي السَّمَكَةِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن

على الله⁽¹⁾، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون، وقوم يقفون نظارة وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان نلق فتقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات وتقول: إلا لعنة الله على الظالمين، وعن السدي تكلمهم ببطلان الألبان كلها سوى دين الإسلام وعن ابن عمر رضي الله عنه تستقبل المغرب، فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروي: تخرج من أجيداء، وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا فما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنتك نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضئ لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنتك الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة يا فلان أنت من أهل النار وقرئ: تكلمهم من الكلم، وهو: الجرح والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضًا على معنى التكاثير يقال: فلان مكلم أي: مجرح ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أن المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر لنحرقة بقراءة علي رضي الله عنه: لنحرقة، وأن يستدل بقراءة أبي: تنبئهم، وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأن الناس على أنه من الكلام، والقراءة بلن مكسورة حكاية لقول الدابة، إما لأن الكلام بمعنى القول، أو بإضمار القول أي: تقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك.

فإن قُلْتُ: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا؟ قُلْتُ: قولها حكاية لقول الله تعالى، وعلى معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده وأنها من خواص خلقه أضافت آيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك: خليلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي: تكلمهم بأن.

وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ قَوْمًا مِّنْ يُّكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿فهم يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكذبوا في النار وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وكذلك قوله: ﴿فَوْجًا﴾ فإن الفوج: الجماعة الكثيرة ومنه قوله تعالى:

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/484.

(3) سورة المرسلات، الآية: 35.

(2) سورة الحج، الآية: 22.

سَكَّةَ اللَّهِ وَلَمْ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ (٨٧).

قد كان ألا ترى إلى قوله: صنع الله وصيغة الله ووعد الله وفطرة الله بعدما وسماها بإضافتها إليه بسملة التعظيم كيف تلاها بقوله: ﴿الذي اتقن كل شيء﴾ ومن أحسن من الله صيغة لا يخلف الله الميعاد لا تبديل لخلق الله، وقرئ ﴿تفعلون﴾ على الخطاب ﴿فله خير منها﴾ يريد: الإضعاف وأن العمل ينقضي والثواب يدمم وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد وقيل: فله خير منها أي: له خير حاصل من جهتها وهو: الجنة، وعن ابن عباس: الحسنه كلمة الشهادة، وقرئ: ﴿يومئذ﴾ مفتوحاً مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن قوله وأخرس الشقاشق في الصحاح شقشق الفحل شقشقة هنر وإذا قالوا للخطيب: نو شقشقة فإنما يشبهه بالفحل ومنصوباً مع تنوين فزع.

فإن قلّت: ما الفرق بين الفزعين؟ قلّت: الفزع الأول: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهو لفظاً من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به كما يدخل الرجل على الملك بصدر هيب وقلب وجاب وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية، وأما الثاني: فالخوف من العذاب.

فإن قلّت: فمن قرأ: ﴿من فزع﴾ بالتونين ما معناها! قلّت: يحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأما ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظام فلا يخلون منه؛ لأن البشرية تقتضي ذلك، وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتننه الوصف وهو: خوف النار، أمّن يعدى بالجارّ وب نفسه كقوله تعالى: ﴿أنا منكم﴾ (١).

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُ رُجُومُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠).

وقيل: السيئة: الإشراك، يعبر عن الجملة بالوجه والراس والرقبة فكانه قيل: فكبوا في النار كقوله تعالى: ﴿فككبوا فيها﴾ (٢) ويجوز أن يكون نكر الوجوه إيذاناً بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هل تجزون﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكذب بإضمار القول.

إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةِ أَلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ نَفْسٍ وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١).

أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكاً كما فعلت قريش وإن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام.

وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ مَن أَمَّنَّا إِنَّهُ يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢).

﴿وان تلو القرآن﴾ من التلاوة أو التلو كقوله: ﴿واتبع

فإن قلّت: لم قيل: ﴿ففزع﴾ دون فيفزع؟ قلّت: لنكتة وهي: الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إلا من شاء الله﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: الشهداء، وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر منهم موسى عليه السلام؛ لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وقرئ: أتوه وآتاه وبخريين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والبخري: الصاغر وقيل: معنى الإتيان: حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد: رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَرَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادٍ وَهِيَ ثَمَرٌ مِّمَّنْ أَنْشَأَ اللَّهُ الْأَرْضَ ثَلَاثَ أَكْوَافٍ لِّأَكْوَافٍ خَيْرٌ لِّمَا تَعْمَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالٍ وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ يُؤْمِنُونَ (٨٩).

﴿جامدة﴾ من جمد في مكانه: إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الرياح السحاب فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وهي تمر﴾ مرّاً حثيثاً كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة في صفة جيش:

بارعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

﴿صنع الله﴾ من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وعد الله﴾ و﴿صبغة الله﴾ إلا أن مؤكده محنوف، وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: ﴿صنع الله﴾ يريد به: الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي اتقنها، وآتى بها على الحكمة والصواب حيث قال: ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ يعني: أن مقابلته الحسنه بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك، ثم لخص ذلك بقوله:

﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخر الآيتين فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماره وريصانه تفسيره وأخذ بعضه بحجة بعض، كأنما أقرغ إفرافاً واحداً ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداذه، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما

له من الأجر عشر حسنات بعدد من صنق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص مكية

طسَّ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ ﴿٢﴾ تَنَزَّلَتْ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مَوْسَىٰ وَفَارُوقَ ﴿٣﴾ بِالْحَقِّ يَقُولُ يُؤْمِرُ بِفَعْلِهِ ﴿٤﴾

﴿من نبا موسى وفرعون﴾ مفعول ﴿تتلو﴾ أي: تتلو عليك بعض خبرهما ﴿بالحق﴾ محققين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾⁽⁷⁾ ﴿للقوم يؤمنون﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

إِنَّ يَرْفَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَكَلْ أَلَمَهَا شَيْئًا يَسْتَصِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْرِكُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي شِبَاءَهُمْ إِنَّكَ كَانتَ مِنَ الْمُنْقَرِبِينَ ﴿٥﴾

﴿إن فرعون﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل كان قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما، فقال: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ يعني: أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحد في الظلم والعسف ﴿شيعاً﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه قال الأعشى: وبلدة يرهب الجواب بلجتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يتسخر صنفاً في بناء وصنفاً في حرث وصنفاً في حفر ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل، وسبب ذبح الأبناء: أن كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل ﴿ويستضعف﴾ حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف ﴿وينبج﴾ بدل من يستضعف، وقوله: ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بيان أن

ما يوحى إليك⁽¹⁾، والبلدة: مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها: لأنها أحب بلادها إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجرة فلما بلغ الحزوة استقبلها بوجهه الكريم فقال: إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت⁽²⁾ وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يلأجئ إليها آمن، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء⁽³⁾. اللهم بارك لنا في سكنائها وأمانها فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك وقرئ: التي حرمها واتل عليهم هذا القرآن عن أبي وأن اتل عن ابن مسعود ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصده من توحيد الله ونفي الانداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل علي من الوحي فممنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلي ﴿ومن ضل﴾ ولم يتبعني فلا علي وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ.

وَقُلْ لِّعَلِّكُمْ إِلَهَ سَرِيعٌ عَائِدٌ فَرَقُوهُمْ وَأَمَّا رَبُّكَ بِمَقَالٍ عَمَّا سَلَوْنَ ﴿٦﴾

ثم أمره أن يحمد الله على ما حوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة، وأن يهتد أعداءه بما سيرهم الله من آياته التي تلجهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله وذلك حين لا تنفعهم المعرفة يعني: في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: البخان وانشقاق القمر وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا، وقيل: هو كقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ الآية. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه؛ لأن الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات⁽⁵⁾، وهو من وراء جزاء العاملين قرئ: ﴿تعملون﴾ بالياء. عن رسول الله ﷺ: من قرأ طس سليمان كان

(4) سورة فصلت، الآية: 53.

(5) قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى؛ لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى؛ لأن علمه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عامّ يتعلق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(6) نكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في التفسير، زيلي 23/2.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

(1) سورة يونس، الآية: 109.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: فضل مكة، (الحديث: 3708)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة، (الحديث: 3925)، وابن ماجه في المناسك، باب: فضل مكة، (الحديث: 3108). وأحمد في المسند 4/305. والحاكم في المستدرک 3/431.

(3) قال أحمد: وتحت قوله: وله كل شيء، فائدة أخرى سوى ذلك وهي: أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها اتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

وسرورًا وهو رده إليها وجعله من المرسلين، وروي أنه نبج في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد وروي أنها حين أقربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالي بني إسرائيل مصافية لها فقالت لها: لينفعني حبك اليوم فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة، ووضعت في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئًا فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فالفته في اليم وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى مطلي بالقر من داخله.

فَالْقَلْبُ مَالٌ رَمَزَتْ بِكَ كُنْ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ رَمَزَتْ وَكُنْ رَمَزَتْ كَانُوا خَطِيئِينَ (٨) وَقَاتِ أَمْرَاتِ رَمَزَتْ قَرْنٌ عَيْنِ لِي وَلَكَ لَا تَقُولُوا عَنِّي أَنْ نَبْنِئَ أَوْ نَنْخِذَ وَلَكِنْ هُمْ لَا يَنْفَعُونَ (٩).

اللام في «ليكون» هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: جئتكم لتكرمني سواء بسواء، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز بون الحقيقة؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكن المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وشرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتائب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتائب، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد، وقرئ: «وَحَزَنًا» وهما لغتان كالعدم والعدم «كَانُوا خَاطِئِينَ» في كل شيء فليس خطوهم في تربية عدوهم ببدع منهم، أو كانوا منبئين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ: «خَاطِئِينَ» تخفيف «خَاطِئِينَ» أو «خَاطِئِينَ» الصواب إلى الخطأ، روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فاعياهم فندنت أسية فرأت في جوف التابوت نورًا، فعالجته ففتحته فإذا بصبي نوره بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنًا فأحبوه وكانت نغرون بنت برصاء وقالت له الأطباء: لا تبرا إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه إنسان بواؤها ريقه فلطغت البرصاء برصها بريقه فبرأت، وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت: إن هذه لنسمة مباركة فهذا أحد ما عطفهم عليه فقال: الغواة من قومه: هو الصبي الذي تحذر منه. فأتوا لنا في قتله، فهم بذلك فقالت أسية:

«قَرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» فقال فرعون: لك لا لي وروي في حديث: لو قال: هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله

القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب؛ لأنه فعل لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب.

وَرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى آلَيْكَ اسْتَعِيذُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلَهُمْ آيَةً وَجَمَلَهُمُ الْآيَاتِ (٥).

فإن قلت: علام عطف قوله:

«وَنريد أن نمن» وعطفه على «ونتلو» ويستضعف غير سديد! قلت: هي جملة معطوفة على قوله: «إن فرعون علا في الأرض» لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبا موسى وفرعون واقتصاصا له ونريد حكاية حال ماضية، ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم.

فإن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ قلت: لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم «لئمة» مقدمين في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قادة يقتدي بهم في الخير وعن مجاهد رضي الله عنه: دعاة إلى الخير، وعن قتادة رضي الله عنه وفاة كقوله تعالى: «وجعلكم ملوكًا» «لوارثين» يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

وَكُنْ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَرَى رَمَزَتْ وَكُنْ رَمَزَتْ كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦).

مكن له: إذا جعل له مكانًا يقعد عليه أو يرقد فوطاه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ولا تغث عليهم كما كانت في أيام الجبابرة وينفذ أمرهم ويطلق أيديهم ويسلطهم، وقرئ: ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي: يرون «منهم ما» حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧).

اليم: البحر قيل: هو نيل مصر.

فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر! قلت: أما الأول: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه وأما الثاني: فالخوف عليه من الفرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبتوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف.

فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعًا وأومت بالوحي إليها ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة

الضمة في جارة الواو وهي الميم كأنها فيها فهمزت كما تهمز واو وجوه.

وَقَالَتْ لِأَتْخِيهِ قُصِيصِي بَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

﴿قصصه﴾ اتبعني أثره وتتبعني خبره وقرئ: فبصرت بالكسر يقال: بصرت به عن جنب وعن جنباً بمعنى: عن بعد، وقرئ: عن جانب وعن جنب والجانب الجانب يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخالطة، وهم لا يحسون بأنها أخته وكان اسمها: مريم.

وَمَرْمَنَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ مِنْ قَبْلِ فَكَانَتْ هَلْ أَتَكَرَّرَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْتُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَا يَصِفُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدَتْهُ إِلَيْهِ أُمُّهُ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَوْلَا أَنْكَرَ اللَّهُ حَقَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

و﴿المرضع﴾ جمع مرضع وهي: المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو: موضع الرضاع يعني: الثدي أو الرضاع ﴿من قبل﴾ من قبل قصصها أثره، روي أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قال همام: إنها لتعرفه وتعرف أهله فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون والنصح إخلاص العمل⁽⁴⁾ من شائب الفساد فانطلقت إلى أمها بامرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استانس والتقم ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبي كل ثدي إلا ثديك قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فنفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في علمها أن سيكون نبياً وذلك قوله: ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ يريد: وليثبت علمها ويتمكن.

فإن قُلْتُ: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها! فإن قُلْتُ: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على وجه الاستباحة وقوله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ داخل تحت علمها المعنى لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجذعت وأصبح فؤادها فارغاً يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدو، فنسيت وعد الله ويجوز أن يتعلق ﴿ولكن﴾ بقوله: ﴿ولتعلم﴾ ومعناه: أن الرد إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصديق وعد الله ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له من قرّة العين

كما هداها⁽¹⁾، وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كأسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت، هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل قرّة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و﴿لا تقتلوه﴾ خبراً ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه دليل على أنه خبر قرأ: لا تقتلوه قرّة عين لي ولك بتقويم لا تقتلوه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فإن فيه مخايل اليمين ودلائل النفع لأهله وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرد البرصاء ولعلها توسمت في سيماء النجاة المؤنثة بكونه نفاعاً، أو تنبأه فإنه أهل للتبني ولأن يكون ولذا لبعض الملوك.

فإن قُلْتُ: ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال فما نو حالها! قُلْتُ: ذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيّه، وقوله: إن فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لِتَبْذُرَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَّاكَ عَلَى قَلْبِهَا بِأَنَّكَ مِنْ الْغَائِبِينَ ﴿١٤﴾

﴿فارغاً﴾ صفرًا من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى: ﴿واقفئتهم هواء﴾⁽²⁾ أي: جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان: ألا أبلغ أبا سفيان عني، فانت مجوف نخب هواء وذلك أن القلوب مراكز العقول ألا ترى إلى قوله: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾⁽³⁾ ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغاً، وقرئ: قرعاً أي: خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإثناء وقرع الفناء، وفرغاً من قولهم: نماؤهم بينهم فرغ أي: هدر يعني: بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها ﴿لتبدي به﴾ لتصح به، والضمير لموسى والمراد: بأمه وقصته وأنه ولدها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ﴿لنكون من المؤمنين﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله: إنا رانوه إليك، ويجوز وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كانت لتبدي بانه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أننا طامنا قلبها وسكننا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الوثائقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه، وقرئ: مؤسى بالهمز جعلت

(4) قال أحمد: أوردت هذه التورية استحساناً لفظتها، ولكنها من بيت

النبوة وأخت النبي، فحقيق لها ذلك.

(1) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، زيلعي 27/3.

(2) سورة الحج، الآية: 46.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 43.

وزهاب الحزن.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(٧)

﴿واستوى﴾: واعتدل وتمَّ استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزداد عليه كما قال لقيط:

واستحملوا امركم شروا المبررة لا حملاً ولا ضرعاً

وذلك أربعون سنة ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة^(١)، العلم: التوراة والحكم: السنة وحكمة الأنبياء سنتهم قال الله تعالى: ﴿وانكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾^(٢) وقيل معناه: آتيانه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْآخَرِ مَنَاسِكَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَكَرَّوهُمُؤَيْنَ فَفَضَّ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ

(٨)

المدينة: مصر وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وحين غفلتهم ما بين العشاءين وقيل: وقت القائلة وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل: لما شبَّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل، وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿من شيعته﴾ ممن شايه على بيته من بني إسرائيل وقيل: هو السامري ﴿من عذوه﴾ من مخالفيه من القبط، وهو: فاتون وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، والوكز: الدفع باطراف الأصابع وقيل: بجمع الكف وقرأ ابن مسعود: فلكزه باللام ﴿ففضى عليه﴾ فقتله.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

(٩)

فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماء ظلاً لنفسه واستغفر منه.

قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل فكان ننبأ يستغفر منه وعن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل مالم يؤمر.

قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنُكِّمْتُ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

(١٠)

﴿بما أنعمت علي﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأنوين ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن

عصمتني ظهيراً للمجرمين، وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين إما صفة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون وإما مظاهرة من أتت مظاهرة إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له، وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى يعني: لم يقل فلن أكون إن شاء الله وهذا نحو قوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾^(٣) وعن عطاء: أن رجلاً قال له: إن أخي يضرب بقلعه ولا يعدو رزقه قال: فمن الرأس يعني: من يكتب له قال: خالد بن عبد الله القسري قال: فأين قول موسى: وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم نواة، أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمي به في جهنم وقيل^(٤): معناه بما أنعمت علي من القوة لن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ولا أدع قبطياً يغلب أحداً من بني إسرائيل.

فَأَصْحَبَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُتُّصِرَ بِالْأَمْسِ يَصْرِفُهُ قَالُ لَمْ مَوْجِبُ إِنَّكَ لَتَوَيْتُ شَيْئًا

(١١)

﴿يترقب﴾ المكروه، وهو: الاستقادة منه أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغبي؛ لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر.

فَلَمَّا أَنَّ ارَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوْتُكَ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ كَمَا قُتِلْتَ نَسَا بِالْأَمْسِ إِنَّ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُغْلَبِينَ

(١٢)

وقرئ: ﴿يبطش﴾ بالضم، والذي هو عدو لهما القبطي؛ لأنه ليس على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، والجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتالي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ولما قال هذا أفضى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون وهما يقتله.

وَمَا رَجَا مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ يَتَّقِ قَالَ يَمْوْتُكَ إِنَّكَ أَمَلًا بِأَتَمُّوَنَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ مِنَ الْمَدِينَةِ

(١٣)

قيل: الرجل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون و﴿يسعى﴾ يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بان وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾ وإذا جعل صلة لجاء لم يجز في يسعى إلى الوصف، والائتمار: التشاور يقال: الرجلان يتأمران

= هم بصده، ويروى أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فيؤتى بهم حتى يمن لاق لهم ليفة، أو برى لهم قلماً، فيجعلون في تابوت من حديد، ويلقى بهم في النار.

(١) قال الزيلعي غريب، 27/3.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: 34.

(٣) سورة هود، الآية: 113.

(٤) قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما =

للملحوف والمعنى: أنه وصل إلى تلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتي لفراغهم فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب، وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورياسة الجيلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره، وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم.

فإن قُلْتُ: لم ترك المفعول غير منكور في قوله: ﴿يَسْقُونَ﴾ و﴿تَذُودَان﴾، ولا نسقي! قُلْتُ: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على النيانوهم على السقي، ولم يرحمهما لأن منودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً وكذلك قولهما: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ﴾ المقصود فيه: السقي لا المسقي.

فإن قُلْتُ: كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قُلْتُ: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به أبلتا إليه عنهما في توليها السقي بأنفسهما.

فإن قُلْتُ: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قُلْتُ: الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا ياباه وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضرة خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إني﴾ أي شيء ﴿انزلت إلي﴾ قليل أو كثير غث أو سمين لـ ﴿فقير﴾ وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب قيل: نكر لك، وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ما سال الله إلا أكلة ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين: لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال: نلك رضا بالبدل السنوي وفرحاً به، وشكراً له وكان الظل ظل سمرة.

فَأَنَّهُ إِذْهَبَا تَتَنَّى عَلَىٰ اسْتِحْيَاوُا قَالَتْ لِأَيِّ يَدْعُوكَ لِجَعَلَكُمَا جَزَاءً مَا سَفَعْتُمَا لَنَا فَلَئِمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوَمِ الْفَظِيلِينَ ﴿١٥﴾

﴿على استحياء﴾ في موضع الحال أي: مستحياً متخفراً وقيل: قد استترت بكم درعها، روي أنها لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حقل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحدهما: اذهب فادع لي فتبعها موسى فالزقت

ويأتوران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لك﴾ بيان وليس بصلة الناصحين.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾

﴿يترقب﴾ التعرض له في الطريق أو أن يلحق.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذْيَبٌ قَالَ عَمَّا رَبِّ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾

﴿تلقاه مدين﴾ قصدها ونحوها، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه و﴿سواء السبيل﴾ وسطه ومعظم نهجه وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزا فانطلق به إلى مدين.

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأَنْكَاثِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبْرَأَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٨﴾

﴿ماء مدين﴾ ماءهم الذي يستقون منه وكان بئراً فيما روى، ووروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وجد عليه﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أمة﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿من الناس﴾ من أناس مختلفين ﴿من دونهم﴾ في مكان أسفل من مكانهم، والذود: الطرد والبقع وإنما كانتا تذودان لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وقيل: لئلا تختلط أغنامهما وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿ما خطبكما﴾ ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الزيادة فسمى المخطوب خطباً كما سمي المشؤن شأناً في قولك ما شأنك يقال: شانت شأنه أي: قصدت قصده، وقرئ ﴿لا نسقي﴾ و﴿يصدر﴾ و﴿الرعاء﴾ بضم النون والياء والراء والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء، وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام و﴿كبير﴾ كبير السن.

سَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الْبَيْتِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿فسقى لهما﴾ فسقى غنيمتهما لأجلهما، وروي أن الرعاء كان يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال وقيل: عشرة وقيل: أربعون، وقيل: مائة فأقله وحده وروي أنه سألهم لولاً من ماء فاعطوه لولهم وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروى غنيمتها وأصدرهما وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما وقيل: كانت بئراً أخرى عليها الصخرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة

وأمانته^(١).

فإن قُلْتُ: كيف جعل خير من استأجرت اسماً؛ لأنَّ القوى الأمين خيراً؟ قُلْتُ: هو مثل قوله: ألا إن خير الناس حياً ومالاً، أسير ثقيف عندهم في السلاسل في أن العناية هي سبب التقديم وقد صنعت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خيراً اسماً وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف ومنه قولهم: أهون ما عملت لسان ممخ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أقرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله: عسى أن ينفعنا أبو بكر في عمر.

قَالَ إِنَّ أُرِيدَ أَنْ تُكْرِمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي مِثْلِي حَيْثُ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَمِعْتُ إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧).

روي أنه أنكحه صفراء وقوله: ﴿هاتين﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿تأجرتني﴾ من أجرتة إذا كنت له أجيراً كقولك: أبوته إذا كنت له أباً و ﴿ثماني حجج﴾ ظرفه، أو من أجرتة كذا إذا أثبتته إياه ومنه تعزية رسول الله ﷺ: «أجركم الله ورحمكم»^(٢) وثمانى حجج مفعول به ومعناه: رعية ثمانى حجج.

فإن قُلْتُ: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قُلْتُ: لم يكن ذلك عقداً للزواج، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقداً لقال قد أنكحتك ولم يقل إنني أريد أن أنكحك.

فإن قُلْتُ: فكيف صح أن يمرها إجارة نفسه في رعية الغم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنة؛ لأنه في الأول مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار؟ قُلْتُ: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما نكرت وأما الشافعي، فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال الخدمة إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً^(٣) ولعل ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة، ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدة وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى إنني أفعل هذا إذا فعلت

الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا.

فإن قُلْتُ: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وإن يمشي معها وهي أجنبية؟ قُلْتُ: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً، نكراً كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعو له ليجزيه وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع تلك الاحتياط والتورع.

فإن قُلْتُ: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف وقيل إطعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب ومثله حقيق بأن يضيف، ويكرم خصوصاً في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلباً للأجر، وقد روي ما يعضد كلا القولين، روي أنها لما قالت: ﴿ليجزيك﴾ كره ذلك ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع بيننا بطلاع الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب: هذه عالتنا مع كل من ينزل بنا، وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه لسمعهم فلذلك قيل له: ﴿ليجزيك لجر ما سقيت﴾ أي: جزاء سقيك، ﴿والقصص﴾ مصدر كالعلل سمي به المقصوص.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبِي اسْتَجِرْهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ النَّوَى الْأَمِينُ (٨).

كبراهما كانت تسمى: صفراء والصفرى: صفيراء وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها، وعن ابن عباس أن شعيباً أحفظته الغيرة فقال: وما علمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر ونزع اللؤلؤ وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه وقولها: ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ كلام حكيم جامع لا يزداد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمره، فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته

(١) حيث قالت لسيدها: ما جزاء ما أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم، وهي تعني: ما جزاء يوسف بما أرايتني من السوء، إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها لخفا إيدانها، بأن هذا الحياء منها الذي يمنحها أن تنطق بهذا الأمر يمنحها من مراودة يوسف بطريق الأخرى والأولى، والله أعلم.

(٢) قال الزيلعي غريب، ورواه الديلمي 28/3.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 385/3، كتاب: الجنائز، باب: الرجل يعثر.

(١) قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للشمعة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى، فقال: أشكر إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان يصده رضي الله عنه، وهذا الإيهام من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول، والمستعمل ليس التكحل في العينين كالكحل =

تفاوت بينهما في القضاء وأما التهمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها، وقيل: معناه فلا أكون متعدياً وهو في نفي العنوان عن نفسه كقولك: لا إثم علي ولا تبعة علي، وفي قراءة ابن مسعود أي الأجلين ما قضيت وقرئ أياً يسكون الياء كقوله:

تنظرت نصراً والسماكين إيهما
وعن ابن قطيب عنوان بالكسر.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين موقعي ما المزيدة في القراءتين؟ قُلْتُ: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإيهام أي: زائدة في شياعها وفي الشاذة تأكيداً للقضاء كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجربت عزيمتي له، الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيم، والمقيت عدي بعلي لذلك روي: أن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى: بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسخها، وكان مكفوفاً فضنَّ بها فقال: غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أن له شأنًا وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً وقيل: أودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعضاً فاتته بها فردّها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها فدفّعها إليه ثم ندم؛ لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فاتهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطبقها ورفعها موسى وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعترضاً وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلا، وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنبيهاً أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلتها وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب من الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى، ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنًا وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء، فأوحى إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى فقال: «لبعدهما وابطأهما» (2)

ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانين سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قوله: على أن تأجرني ثمانين حجج عبارة عما جرى بينهما «فإن اتهمت» عمل عشر حجج «فمن عندك» فإتمامه من عندك ومعناه فهو من عندك لا من عندي يعني: لا ألزمك ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع وإلا فلا عليك «وما أريد أن أشق عليك» بللزام أتم الأجلين وإيجابه.

فإن قُلْتُ: ما حقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمر! قُلْتُ: حقيقته أن الأمر إذا تعاطفك فكانه شق عليك ظنك باثنين تقول: تارة أطيقه وتارة لا أطيقه، أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات والمدافة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالإسراع في معاملات الناس ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ شريكاً فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري (1) وقوله: «ستجبنني إن شاء الله من الصالحين» يدل على ذلك يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب، ويجوز أن يريد الصلاح على العموم وينخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه، ومعونته لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله وإن شاء استعمل خلافه.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨).

«ذلك» مبتداً و«بيني وبينك» خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك، ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان «فلا عدوان علي» أي: لا يعتدي علي في طلب الزيادة عليه.

فإن قُلْتُ: تصور العنوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العنوان بهما جميعاً! قُلْتُ: معناه كما أنني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير

(1) قال أحمد: ومذهب مالك عل ثلاثة أقوال: المنع والكراهة والجواز، والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج، ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه =

= الزمخشري، أو تفريعاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا أو غير ذلك والله أعلم.
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأنبياء، باب: في كراهية المراء (الحديث: 4836) وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الشركة والمضاربة =

وروى أنه قال: قضى أوفاهما وتزوج صغراهما⁽¹⁾ وهذا خلاف الرواية التي سبقت.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُم بِمِنْهَا خَبَرٍ أَوْ بَحُورَةٍ مِنْ أَنْتَارٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٨﴾.

الجنوة باللغات الثلاث، وقرئ بهن جميعاً العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن قال كثير: باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا نعر وقال:

الغى على قبس من النار جنوة شديداً عليه حرها والتهابها
فَلَمَّا آنَسَهَا تَوَدَّى مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونَتْ إِبْرَأَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ٢٩ وَأَنْ آتَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَالْهَاجِرِ جَاءَ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكُونُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآيِينَ ٣٠.

من الأولى والثانية لابتداء الغاية أي اتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، و﴿من الشجرة﴾ بدل من قوله: من شاطئ الوادي بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله تعالى: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم﴾⁽²⁾ وقرئ البقعة بالضم والفتح والرهب بفتححتين وضممتين وفتح وسكون وضم وسكون وهو الخوف.

آنَسَ يَدْلُ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَصَّاءَ مِنْ غَيْرِ سُرُو وَأَضْمَ إِلَيْكَ جَانِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ فَلَمَّا نَكَحَ بَرَهَانًا مِنْ رَيْكَ إِكْ رُغَوَاتٍ وَمَلَأِيَهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ ٣١ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَنَأْتُوا أَنْ يَقْتُلُونِ ٣٢.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: واضمم إليك جناحك من الرهب قُلْتُ: فيه معنيان أحدهما: أن موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية فزع، واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إن اتقاءك بيك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا القيبتها فكما تنقلب حية فادخل يدك تحت عضدك مكان اتقاك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمر أن اجتنب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه، والثاني أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يهرب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما وإلا فجنحاه

مضمومان إليه مشمران ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتباً له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخلج وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإنني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي، ومعنى قوله: من الرهب من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى واضمم إليك جناحك وقوله أسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب.

فإن قُلْتُ: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه وذلك قوله: واضمم إليك جناحك وقوله: واضمم يدك إلى جناحك فما التوفيق بينهما! قُلْتُ: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ومن بدع التفسير أن الرهب الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زر مانقة من صوف لا كمي لها ﴿فذلك﴾، قرئ مخففاً ومشدداً فالمخفف مثني ذاك والمشدّد مثني ذلك ﴿برهانان﴾ حجتان بينتان نيرتان.

فإن قُلْتُ: لم سميت الحجة برهاناً! قُلْتُ: لبياضها وإنارتها من قولهم: للمرأة البيضاء برهمة بتكرير العين واللام معاً، والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم إياها سلطاناً من السليط، وهو الزيت لإنارتها.

وَأَخَى كُرُوتُ مَوْ أَفْصَحَ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ رَبِّي بِرَدِّهِ بِصُرُوفٍ إِلَىٰ آخَاتٍ أَنْ يَكْذُوبَ ٣٣.

يقال: ردّاه أعنته والردء اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به قال سلامة بن جندل:

وربني كل أبيض مشرفني شحيد الحدّ غضب ذي فلول
وقرئ: ردأ على التخفيف كما قرئ: الخب ﴿ردأ يصتقني﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب نحو ولياً برثني سواء.

فإن قُلْتُ: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قُلْتُ: ليس

= (الحديث: 2287).

(2) سورة الزخرف، الآية: 33.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 407/2. وفي كشف الاستار، كتاب: التفسير باب: سورة القصص (الحديث: 2244).

وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ (٣٦)

﴿سحر مفترى﴾ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله أو سحر ظاهر افترأوه أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿في آياتنا﴾ حال منصوبة عن هذا أي: كائنًا في زمانهم وآياتهم يريد ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلوا من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا وعلموا بنحوه، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا وما وجنوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم: هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثله يقول:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَهْدِي مِنْ عَذَابٍ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ (٣٧)

﴿ربي أعلم﴾ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيًا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى ويعني: نفسه، ولو كان كما تزعمون كاذبًا ساحرًا مفتريًا لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينسب الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون و ﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ (١) وقوله: وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها وعقبها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت.

فإن قلنا: العاقبة المحمودة والمذمومة كلثامها يصح أن تسمى عاقبة الدار لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلنا: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازًا إلى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصق ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء، فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار (٢) وقرأ ابن كثير قال موسى: بغير واو

الغضب بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول: للناس صدق موسى وإنما هو يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه: ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطيق ذو الغارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصق القول بالبرهان إلا نرى إلى قوله: ﴿واخي هارون هو أفصح مني لسانًا﴾ فإرساله معي، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك لا لقوله: صدقت فإن سحبان وبقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسنادًا مجازيًا ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق، فإسناده حقيقة وليس في السبب تصديق ولكن استعير له الإسناد؛ لأنه لا بس التصديق بالتسبب كما لا بسه الفاعل بالمباشرة والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إني أخاف أن يكتبون﴾ وقرءة من قرأ: ﴿ردًا يصدقوني﴾ وفيها تقوية للقرءة بجزم ﴿يصدقني﴾.

قَالَ سَتَدُعُّ عَصَدَكَ يَا بَنِيكَ وَجَعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنَا وَنَحْنُ أَتَمُّكُمْ (٣٨)

العصد قوام اليد وبشنتها تشتد قال طرفه: ابني لببني لستموبيد إلا يدأ ليست لها عضد ويقال: في دعاء الخير شد الله عضدك وفي ضده فت الله في عضدك، ومعنى ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ سنقويك به ونعينك فلما أن يكون ذلك، لأن اليد تشتد بشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاوله الأمور، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشددة بعضد شديد ﴿سلطانًا﴾ غلبة وتسلط، أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي: اذهب بآياتنا أو بنجعل لكما سلطانًا أي: نسلطكما بآياتنا، أو بلا يصلون أي: تمتنعون منهم بآياتنا أو هو بيان للخالبون لا صلة لامتناع تقدم الصلة على الموصول ولو تأخر لم يكن إلا صلة له، ويجوز أن يكون قسما جوابه لا يصلون مقدمًا عليه أو من لغو القسم.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا يَحْمِلْ مُعْزَىٰ

(1) سورة الرعد، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها، بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معارض بأمثاله في آئلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿ولقد نرانا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس﴾ الآية والمراد والله أعلم. ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقًا كثيرًا من الثقلين، ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضي الله عنه، أنه قال: وإنكم آل المغيرة نرا النار أي: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثوباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الاعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين، لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم، وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم

= آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإن المراد ما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبائتي جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة الله تعالى، هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً، وإرادة الخير بها أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدتهم إلى عاقبة الخير، ومكنهم منها، وأراح عليهم، ووفر دعائهم، فكان من حقهم أن لا يعملوا عن عاقبة الخير، ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخونها نصب أعينهم فاطلقت العاقبة، والمراد بها الخير تقريباً على ذلك والله أعلم. والحاصل أنها لما كانت هي المأمور بها، والمحضوض عليها عوملت معاملة ما هو مراد، وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم

تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم⁽¹⁾ بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وإن إلهاً غيره غير معلوم عنده ولكنه مظنون بليل قوله: ﴿وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَافِبِينَ﴾ وإذا ظنَّ موسى عليه السلام كانباً في إثباته إلهاً غيره ولم يعلمه كاذباً فقد ظنَّ أن في الوجود إلهاً غيره ولو لم يكن المخدول ظاناً ظناً كاليقين بل عالمًا بصحة قول موسى عليه السلام لقوله موسى له: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر لما تكلف ذلك البنيان العظيم ولما تعب في بنائه ما تعب لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض⁽²⁾ ولا ترى بيعة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه وليت شعري أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم حيث صافهم أغبى الناس وأخلاه من الفطن واشبههم بالبهائم بذلك أم كان في نفسه بتلك الصفة وإن صحَّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم فتهمك به بالفعل كما جاء التهكم بالقول: في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين كقوله:

فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين

على ما في مصاحف أهل مكة وهي قراءة حسنة؛ لأنَّ الموضوع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة سحرًا مفترى ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى عليه السلام: هذا ليوافق الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر وبضدهما تتبين الأشياء.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوهَا أَلَمَّا مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ فَأَوْفِدَ لِي يَهْنَسُنَ عَلَى الظُّلَمِ فَاجْمَلْ لِي صَرِيحًا لَمْ يَكُنْ أَلِمْ لِي إِلَهِ غَيْرِ مُؤَيَّدَ وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَافِبِينَ (٢٨).

وقرى: ﴿تكون﴾ بالتاء والياء روى: أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والأجراء وأمر بطبخ الأجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشبده حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه يبني فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتل ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك ويروى في هذه القصة: أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة من السماء فاراد الله أن يفتنهم فرت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجود معناه ما لكم من إله غيري كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَدِينُونَ اللَّهَ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ معناه: بما ليس فيهن وذلك؛ لأنَّ العلم

كان يدعي الإلهية، ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم تنليسا على ملئه، وتلبيسا على عقولهم السخيفة والله أعلم ويناسب تعاضله هذا قوله: ﴿فاود لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل فاطبخ لي أجراً، وذلك من التعاطف كما قال تعالى: ﴿وله العظمة والكبرياء﴾ ومن ارتدى بردائهما قصمه، ومما يوقنون عليه في النار ابتغاء حلية، فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاونا بها، وذلك من تجبر الملوك جل الله وعز، ومن تعاطف فرعون أيضاً ندائوه لوزيره باسمه، ويحرف النداء، وتوسيط ندائه خلال الأمر، وينأؤه الصرح، ورجاؤه الاطلاع بليل على أنه لم يكن مصصماً على الجحود، قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ فإما أن يخفي هذا التناقض على قوله لغباوتهم وكآبة أذهانهم، وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا.

(2) قال أحمد: ولقاتل والله أعلم أن يحمل قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ على الشك ونفي علمه خاصة وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر لجواز أن يكون موجوداً عازياً عن علمه، وحينئذ لا يكون تناقضاً ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا، أو يرفع التناقض عن كلامه؛ لأنه أحقر من ذلك.

= كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى نوبها باللام في الآي المذكورة، كقوله: ﴿من تكون له عاقبة الدار وسيعلم الكافر لمن عاقبى الدار والعاقبة للمتقين﴾ فاقهمت اللام أنها عاقبة الخير إذ هي لهم، وعاقبة السوء عليهم لا لهم كما يقولون الدائرة لفلان يعنون: دائرة الظفر والنصر، والدائرة على فلان يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ولم يقل عليهم فاستعمل اللام مكان على ليل على إيقاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير والله أعلم.

(1) قال أحمد: لشدة ما بلغ منه الوهم لم يتأمل كيف سقوط السهم، وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: ﴿قُلْ أَتَدِينُونَ اللَّهَ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض﴾ فلما اطر ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم، وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء، ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أن فرعون=

قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً إذا دعاه⁽⁵⁾ وقال: إنه بخيل وفاسق ويقول: أهل اللغة في تفسير فسقه، وبخله جعله بخيلاً وفاسقاً ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾⁽⁶⁾، ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة، ويجوز خذلانهم حتى كانوا أئمة الكفر ومعنى الخذلان منع اللطف وإنما يمنعونها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغنى عنه الآيات والنذر ومجره مجرى الكناية لأن منع اللطف يردف التصميم، والغرض بنكره التصميم نفسه فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته.

فإن قُلْتُ: فاي فائدة في ترك المربوف إلى الرادفة؟ قُلْتُ: نكر الرادفة يدل على وجود المربوف فيعلم وجود المربوف مع اللبيل الشاهد بوجوده فيكون أقوى لإثباته من نكره ألا ترى أنك تقول لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبت حكيم لما منعت منه اللطف فبنكر منع اللطف يحصل العلم بوجوده التصميم على الكفر وزيادة وهو قيام الحجة على وجوده وينصر هذا الوجه قوله ويوم القيامة لا ينصرون كأنه قيل وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون كما قال:

وَأَتَّبَعْتَهُمْ فِي هَٰذَا الدُّنْيَا لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنْ
الْمَقْبُوحِينَ⁽⁷⁾

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المطرودين المبعدين.

وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحًا الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِ مَا أَمْلَكْنَا النَّفُوسَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁽⁸⁾

﴿بصائر﴾ نصب على الحال والبصيرة نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناها التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل وإرشاداً لأنهم كانوا يخطئون في ضلال ﴿ورحمة﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ إرادة أن يتذكروا شبهت الإرادة بالترجي، فاستعير لها ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام⁽⁷⁾ لتذكركم كقوله تعالى: ﴿لعله

وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإنما قال: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل أطيخ لي الأجر واتخذ لأنه أول من عمل الأجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقة وأشبه بكلام الجبارة وأمر هامان وهو وزيره ورفيقه بالإيقاد على الطين منادي باسمه بباقي وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالأجر فقال: ما علمت أن أحداً بني بالأجر غير فرعون، والطلوع والإطلاع الصعود يقال: طلع الجبل وأطلع بمعنى.

وَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا فِي الْأَرْضِ يَكْفِرُونَ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا
لَهُمْ دُونَهُمْ⁽⁹⁾

الاستكبار بالحق إنما هو الله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي: المتبالم في كبرياء الشأن قال رسول الله ﷺ: فيما حكى عن ربه الكبرياء رداً والعلامة إزارى فمن نازعني واحداً منهما لقيته في النار⁽¹⁾ وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يرجعون﴾ بالضم والفتح.

فَأَعَدُّهُمْ وَجُودَهُمْ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ
عَذَابُهُ الْفَالِيلُونَ⁽¹⁰⁾

﴿فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقاقاً لهم واستقلالاً بعددهم وإن كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهم أخذ في كفه فطرحهم في البحر ونحو ذلك قوله: ﴿وجعلنا فيها روسي شامخات﴾⁽²⁾ ﴿وجعلنا الأرض والجبال فمكتنا نكة واحدة﴾⁽³⁾ ﴿وما قنروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾⁽⁴⁾ وما هي إلا تصورات وتمثيلات لاقتداره وأن كل مقبور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله:

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْفُلْكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ⁽¹¹⁾

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ قُلْتُ: معناه ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة، وهو من

= حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه قراراً من اعتقاد أن دعاهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى، ونفي كل مخلوق نعوذ بالله من ذلك.

(6) سورة الزخرف، الآية: 19.

(7) قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب واحذر الأول فإنه قبح.

(1) أخرجه مسلم بمعناه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكبر (الحديث رقم: 136 - 2620).

(2) سورة المرسلات، الآية: 27.

(3) سورة الحاقة، الآية: 14.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وجعل

يتنكر⁽¹⁾.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ⁽²⁾.

﴿الغربي﴾ المكان الواقع في شق الغرب وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح، والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه والخطاب لرسول الله ﷺ يقول وما كنت حاضراً المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ولا كنت **﴿من﴾** جملة **﴿الشاهدين﴾** للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم نقبأوه الذين اختارهم للميقات حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته وكتبه التوراة له في الألواح وغير ذلك.

فإن قللت: كيف يتصل قوله.

وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ⁽³⁾.

﴿ولكننا أنشأنا قروناً﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكاً له؟ قللت: اتصاله به وكونه استدراكاً له من حيث أن معناه ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة **﴿فتطاول﴾** على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم **﴿العمر﴾** أي: أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم فارسلناك وكسبك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى، وما جرى عليه ولكننا أوحينا إليك فنذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده **﴿وما كنت ثاوياً﴾** أي: مقيماً **﴿في أهل مدين﴾** وهم شعيب والمؤمنون به **﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾** تقرؤها عليهم تعلمنا منهم يريد الآيات التي

=

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة النساء، الآية: 165.

(3) قال أحمد: وذلك مثل قوله تعالى: **﴿إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾** والسر في جعل سبب السبب سبباً، وعطف السبب الأصلي عليه أمران أحدهما أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيوبه، الثاني أن في هذا النظم تنبيهاً على سببية كل واحد منهما، أما الأول فلاقتراه بحرف التعليل، وهو أن، وأما الثاني فلاقتراه بفاء السبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك: إن تضل إحداهما، فتذكر لا من قول القائل إن تنكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالاً على النحاة، وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: لولا عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً، وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع، وهو عدم الإرسال؛ لأنه ممتنع بالأولى ومتم لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعاً ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة =

=

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

(10)

(11)

(12)

(13)

(14)

(15)

(16)

(17)

(18)

(19)

(20)

(21)

(22)

(23)

(24)

(25)

(26)

(27)

(28)

(29)

(30)

(31)

(32)

(33)

(34)

(35)

(36)

(37)

(38)

(39)

(40)

(41)

(42)

(43)

(44)

(45)

(46)

(47)

(48)

(49)

(50)

(51)

(52)

(53)

(54)

(55)

(56)

(57)

(58)

(59)

(60)

(61)

(62)

(63)

(64)

(65)

(66)

(67)

(68)

(69)

(70)

(71)

(72)

(73)

(74)

(75)

(76)

(77)

(78)

(79)

(80)

(81)

(82)

(83)

(84)

(85)

(86)

(87)

(88)

(89)

(90)

(91)

(92)

(93)

(94)

(95)

(96)

(97)

(98)

(99)

(100)

(101)

(102)

(103)

(104)

(105)

(106)

(107)

(108)

(109)

(110)

(111)

(112)

(113)

(114)

(115)

(116)

(117)

(118)

(119)

(120)

(121)

(122)

(123)

(124)

(125)

(126)

(127)

(128)

(129)

(130)

(131)

(132)

(133)

(134)

(135)

(136)

(137)

(138)

(139)

(140)

(141)

(142)

(143)

(144)

(145)

(146)

(147)

(148)

(149)

(150)

(151)

(152)

(153)

(154)

(155)

(156)

(157)

(158)

(159)

(160)

(161)

(162)

(163)

(164)

(165)

(166)

(167)

(168)

(169)

(170)

(171)

(172)

(173)

(174)

(175)

(176)

(177)

(178)

(179)

(180)

(181)

(182)

(183)

(184)

(185)

(186)

(187)

(188)

(189)

(190)

(191)

(192)

(193)

(194)

(195)

(196)

(197)

(198)

(199)

(200)

(201)

(202)

(203)

(204)

(205)

(206)

(207)

(208)

(209)

(210)

(211)

(212)

(213)

(214)

(215)

(216)

(217)

(218)

(219)

(220)

(221)

(222)

(223)

(224)

(225)

(226)

(227)

(228)

(229)

(230)

(231)

(232)

(233)

(234)

(235)

(236)

(237)

(238)

(239)

(240)

(241)

(242)

(243)

(244)

(245)

(246)

(247)

(248)

(249)

(250)

(251)

(252)

(253)

(254)

(255)

(256)

(257)

(258)

(259)

(260)

(261)

(262)

(263)

(264)

(265)

(266)

(267)

(268)

(269)

(270)

(271)

(272)

(273)

(274)

(275)

(276)

(277)

(278)

(279)

(280)

(281)

(282)

(283)

(284)

(285)

(286)

(287)

(288)

(289)

(290)

(291)

(292)

(293)

(294)

(295)

(296)

(297)

(298)

(299)

(300)

(301)

(302)

(303)

(304)

(305)

(306)

(307)

(308)

(309)

(310)

(311)

أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهمك بهم.

فإن قلت: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية وبينه في قوله: فلم يستجبه عند ذلك مجيب، حيث عدى بغير اللام؛ قلت: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحنف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه وأما البيت، فمعناه فلم يستجب دعاءه على حذف المضاف.

فإن قلت: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا؛ قلت: قوله: ﴿فأتوا بكتاب﴾ أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه فكانه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلا الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد الزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ثم قال:

فَإِنْ لَرَّ سَاجِدُونَ لَكَ فَأَعْلَمْ أَنَّكُمْ بِمَعْرِفَةِ أَوْلَادِهِمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوِيَّهَ يَغْتَرِ هُدًى رَبِّكَ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٥٦﴾

﴿ومن أضل ممن﴾ لا يتبع في بيته إلا ﴿هواه﴾ بغير هدى من الله؛ أي: مطبوعاً على قلبه ممنوع الألفاظ ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي: لا يطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللطف بهم عابث، وقوله بغير هدى في موضع الحال يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَنُؤْذِنَهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

قرئ: ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف، والمعنى: إن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً وعداً ووعداً وقصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح إرادة أن يتذكروا، فيفلحوا أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض كقوله: ﴿وما يأتيهم من نكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ (١).

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكَنْبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من أرض الحبشة وثمانية من الشام، والضمير في من قبله للقرآن.

فإن قلت: أي فرق بين الاستثنائيين أنه وأنا؟ قلت: الأول تحليل للإيمان به؛ لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به والثاني بيان لقوله: ﴿آمننا به﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقدم لأن آباءهم القدماء قرؤا في الكتب الأول نكروه وأبناءهم من بعدهم ﴿ومن قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله.

وَلَا يَخْلُ عَلَيْهِمْ قَوْلًا مَأْمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٩﴾

اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عابنوا ما الجنوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسلاً، وإنما السبب في قولهم: هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم، ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تزاو بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعاً للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى بِمَا أَوْفَى مُوسَى أَوْفَى بِمَا أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فلما جاءهم الحق﴾، وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معانيهم وسد طريق احتجاجهم ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات فجاءوا بالافتراءات المبنية على التعنت، والعناد كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك ﴿أولم يكفروا﴾ يعني: أبناء جنسهم، ومن مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿يما أوتي موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آبائهم ﴿قالوا﴾ في موسى وهارون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أي: تعاوناً، وقرئ: إظهاراً على الإدغام وسحران بمعنى نوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر أو أراوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما.

فإن قلت: بم علقت قوله: من قبل في هذا التفسير؛ قلت: بأول لم يكفروا ولي أن اعلقه بأوتي فيقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا: هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة وقالوا: في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ساحران تظاهرا، أو في الكتابين سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أنه نعتة وصفته، وأنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا: عند ذلك ساحران تظاهرا.

قُلْ قَالُوا يَكْفُرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَعْدَىٰ إِلَهُكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مُكِيدِينَ ﴿٦١﴾

﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل علي. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأن امتناع الإتيان بكتاب

قالت قريش وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك، وإنما نحن أكلة رأس أي: قليلون أن يتخطفونا من أرضنا⁽¹⁾ فالقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغافرون، ويتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمرات، والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها، وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز **﴿يجبى إليه﴾** تجلب وتجمع قرىً بالياء والتاء، وقرىً تجنى بالنون من الجنى وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة. وثمرات بضميتين وبضمة وسكون، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: **﴿وأوتيت من كل شيء﴾**⁽²⁾ **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** متعلق بقوله: **﴿ومن لنا﴾** أي: قليل منهم يقررون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفتنون له ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أئداده.

﴿فإن قلت: بم انتصب رزقاً! قلت: إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد أن يكون مفعولاً له وإن جعلته بمعنى: مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة، هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالآشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم.

﴿وَكَمْ أَفْلَكًا مِنْ قَرِينٍ يَطُورُ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكُومُهُمْ لَرَّ شَكْرًا مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا عَنْ الْوَرِثَةِ﴾⁽³⁾.

وانتصب **﴿معيشتها﴾** إما بحذف الجار، وإيصال الفعل كقوله تعالى: **﴿واختار موسى قومه﴾**⁽³⁾ إما على الظرف بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم أو بتقدير حذف الزمان المضاف أصله بطرت أيام معيشتها كحقوق النجم ومقدم الحاج وإما بتضمين بطرت معنى كفرت وغمطت وقيل: البطر سوء احتمال الغنى، وهو أن لا يحفظ حق الله فيه **﴿إلا قليلاً﴾** من السكنى قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر وماز الطريق يوماً، أو ساعة يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من

﴿مسلمين﴾ كاثنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصنق للوحي.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾⁽⁴⁾.

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب، ونحوه يؤتكم كفلين من رحمته **﴿بالحسنة السيئة﴾** بالطاعة المعصية المتقدمة أو بالحلم الأذى.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَأَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾⁽⁵⁾.

﴿سلام عليكم﴾ توبيع ومتاركة وعن الحسن رضي الله عنه كلمة حلم من المؤمنين **﴿لا نبتغي الجاهلين﴾** لا نريد مخالطتهم وصحبته.

﴿فإن قلت: من خاطبوا بقولهم ولكم أعمالكم! قلت: اللاغين الذين دل عليهم قوله: ﴿وإذا سمعوا للغو﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽⁶⁾.

﴿لا تهدي من أحببت﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره **﴿ولكن الله﴾** يدخل في الإسلام **﴿من يشاء﴾** وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه وأن اللطاف تنفع فيه، فيقرن به الطافه حتى تدعوه إلى القبول **﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾** بالقابلين من الذين لا يقبلون قال: الزجاج اجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال: عند موته يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصبقوه تفلحوا وترشدوا، فقال النبي ﷺ: يا عم تامرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصديق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجحك ونصيحتك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَكَ تَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾.

(1) قال الزيلعي غريب جداً بهذا اللفظ، زيلعي 3/31.

(3) سورة الاعراف، الآية: 155.

(2) سورة النمل، الآية: 23.

وسروراً وعكسه، فسوف يلقون غياً ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا النار ونحوه لكنك من المحضرين فكذبوه فإنهم لمحضرون قيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل وقيل: في علي وحمة وأبي جهل وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة.

فإن قلّت: فسر لي الفاعين وثم أخبرني عن مواقعها! قلّت: قد نكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله، وتفاوتها ثم عقبه بقوله: ﴿أفمن وعدناه﴾ على معنى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها وأما الثانية فللتسبب لأن لقاء الموعد مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير، وأما، ثم فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتع لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ: ثم هو بسكون الهاء كما قيل: عضد في عضد تشبيهاً للمنفصل بالمتصل، وسكون الهاء في فهو وهو ولهو أحسن لأن الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالم متصل.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾

﴿شركائهم﴾ مبني على زعمهم وفيه تهكم.

فإن قلّت: زعم يطلب مفعولين كقوله: ولم أزعك عن ذاك معزلاً، فإن عماً قلّت: محذوفان تقديره الذين كنتم تزعمونهم شركائهم ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كُنَّا غُورًا يُرَاتُوا لِيَأْخُذُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿الذين حق عليهم القول﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورؤوسه ومعنى ﴿حق عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (3) و﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و﴿والذين أغوينا﴾ صفة والراجع إلى الموصول محذوف و﴿أغويناهم﴾ الخبر، والكاف صفة مصدر محذوف تقديره ﴿أغويناهم﴾ فغروا غياً مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغوا إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوينا بقسر منهم وإلجاء أودعونا إلى الغي وسؤلوه لنا، فهؤلاء كذلك غروا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء فلا فرق إذا بين غينا ونغيهم وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من آلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ونهايك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان، وهذا

سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وكنا نحن اللوارثين﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد وخزيناها وسويناها بالارض.

تختلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع وَمَا كَانَ رِئَاؤُكَ مَهْلِكًا أَفَرَأَيْتَ حَقَّ بَيْعَتٍ فِيْ أَهْلِهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفُرُوسِ إِلَّا وَأَهْلُهَا عَلِيلُونَ ﴿١٩﴾

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حتى يبعث في﴾ القرية التي هي أمها أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رسولاً﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعززة مع علمه أنهم لا يؤمنون أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني: مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وقرئ: ﴿أمها﴾ بضم الهمزة وكسرهما لاتباع الجر وهذا بيان لعيله وتقديسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة، والإلزام ببعثه الرسل (1) ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين كما قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (2) فنص في قوله: ﴿بظلم﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه وإن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم دل على ذلك بحرف النفي مع لاه كما قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وَمَا أَوْفَوْهُم مِّنْ شَيْءٍ فَتَنَّا الْحَبْرَ الَّذِي وُزِّنَتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة المتقضية ﴿وما عند الله﴾ وهو ثوابه ﴿خير﴾ في نفسه من ذلك ﴿والبقي﴾ لأن بقاءه دائم سرمدي. وقرئ: يعقلون بالياء وهو أبلغ في الموعظة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين والكافر

أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ كُنَّا نَمُنُّهُ مَنَّا الْحَبْرَ الَّذِي نَّمْ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢١﴾

يتمتع هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها والوعد الحسن الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم، والاستحقاق وأي شيء أحسن منها ولذلك سمي الله الجنة بالحسنى و﴿لأقيه﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقاهم نضرة

= يجنون للخلاص من هذا السؤال سبيلاً.

(2) سورة هود، الآية: 117.

(3) سورة هود، الآية: 119.

(1) قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال، وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ينشأ السؤال في هذه الآية، فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف لقامت الحجة على الناس، وإن لم يكن بعث رسل إذ العقل حاكم، فلا =

وَمَكَانَ عَمَّا يُشْكِرُونَ ﴿٦٨﴾

الخيرة من التخير كالطيرة من التطير تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَيُخْتَارُ﴾ لَأَنَّ معناه ويختار ما يشاء ولهذا لم يدخل العاطف والمعنى أَن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أَن يختار عليه قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم في الأمرين ليس فيهما خيرة لمختار.

فإِن قُلْتُ: فإين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة أقُلْتُ: أصل الكلام ما كان لهم فيه الخيرة فحذف فيه كما حذف منه في قوله: ﴿إِن ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) لأنه مفهوم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَكُنْ حُدُودَهُمْ وَمَا يَبْتَلُونُ ﴿٦٩﴾

﴿مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة.

وَمَنْ لَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك كقولك: الكعبة القبلة لا قبله إلا هي.

فإِن قُلْتُ: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ قُلْتُ: هو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صلقنا وعده وقيل: الحمد لله رب العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتكديس^(٢) ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء بين عبادهم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِنَّكُمْ لَأَبْدَانُ مِّنْ لَّهِ عَذْرُ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ بَعْثًا أَلَّا تَسْمُرُوا ﴿٧١﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وقرئ: ﴿أَرَيْتُمْ﴾ بحذف الهمزة وليس بحذف قياسي ومعناه أخبروني من يقدر على هذا. والسرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص.

معنى ما حكاه الله عن الشيطان إن الله وعدكم وعد الحق ووعدكم فأخلفتم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم والله تعالى قدَّم هذا المعنى أوَّل شيء حيث قال لإبليس: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم هو مناهيهم للباطل ومقتنا للحق لا بقوة منا على استكراههم ولا سلطان ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم وإخلاء الجملة من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

وَقِيلَ أَذْهَبُوا شُرَكَاءُكُمْ فَذَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٣﴾

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رآه أو تمنوا لو كانوا مهتدين، أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقاً حكى أوَّلاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين: أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الأكلة اعتنوا بأن الشياطين هم الذين استغفوههم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماعة بهم من استغاثتهم ألهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة الليل.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدي إليهم ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات؛ لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب، وقرئ: فعميت والمراد بالنبا الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله ونلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ فيقول: ماذا أجبتهم قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب فما ظنك بالضلال من أمهم.

فَأَنَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَآمَنَ صُلَيْمًا فَسَوْىَ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِسِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰ أَنْ﴾ يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق ويجوز أن يراد ترجي الثائب وطمعه كانه قال: فليطمع أن يفلح.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في صفات =

أخيه، وكان يسمى: المنور لحسن صورته وكان أقرباً بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال: إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام والمنبيح والقربان إلى هارون فما لي وروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرب القربان ويكون رأساً فيهم وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه وجد قارون في نفسه، وحسدهما فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله قال: والله لا أصنعك حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمتها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فاصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فبغى عليهم﴾ من البغي وهو الظلم قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده وقيل: زاد عليهم في الثياب شبراً. المفاتيح جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يفتح به وقيل: هي الخزائن وقياس واحدتها مفتاح بالفتح ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها واعصوبوا اجتمعوا وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود قال: أبو رزين يكفي الكرفة مفتاح وقد بولغ في نكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة وأولى القوة وقرأ بديل بن ميسرة لينوء بالياء ووجهه أن يفسر المفاتيح بالخزائن، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك: ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لا تفرح﴾ كقوله: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾^(١) وقول القائل:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

ونلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح وما أحسن ما قال القائل:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿ولتبع فيما آتاك الله﴾ من الغنى والثروة ﴿الدار الآخرة﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمنسوب إليه وتجعله زانك إلى الآخرة ﴿ولا تنس نصيبك﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن بشرك وطاعتك الله كما أحسن إليك، والفساد في

فإن قُلْتَ: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل: بليل تسكنون فيها قُلْتَ: نكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِنْ يَوْمَ الْآخِرَةِ مَنْ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ تَائِبِكُمْ بِلِيلٍ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٨﴾

﴿أفلا تبصرون﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره وانت من السكون ونحوه.

وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلَ لَكَ آيَلًا وَالنَّهَارَ لِتُشْكُرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِكُلِّ شُكْرٍ ﴿٧٩﴾

﴿ومن رحمته﴾ زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكرهم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٨٠﴾

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء إيدان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراف به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيدده اللهم فكما أدخلنا في أهل توحيدك فإدخلنا في الناجين من وعيدك.

وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلْوا أَنْ أَلْحَقَ اللَّهُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا ﴿من كل أمة شهيداً﴾ وهو نبينهم لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فقلنا﴾ للأمة ﴿هاتوا برهانكم﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق لله﴾ ولرسوله لا لهم ولشياطينهم ﴿وضل عنهم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والباطل.

إِنْ قَرَرْتُمْ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مِنْ أَكْثَرِهِمْ مَا إِنَّ مَفَاسِدَهُمْ لَشَرًّا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٨٢﴾

﴿قارون﴾ اسم أعجمي مثل هارون ولم ينصرف للجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرن لانصرف، وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم موسى هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل: كان موسى بن

الأرض ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن القائل موسى عليه السلام.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنِّي عِنْدَ أَنْ يَمْلَأَ اللَّهُ قَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا وَلَا يُثَنِّلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ (٧٨).

وقرىء واتبع ﴿على علم﴾ أي: على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذي فضلت به الناس وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: هو علم الكيمياء عن سعيد بن المسيب كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فإفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدفقة وسائر المكاسب وقيل: ﴿عندي﴾ معناه في ظني كما تقول: الأمر عندي كذا كأنه قال: إنما أوتيته على علم كقوله تعالى: ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾^(١) ثم زاد عندي أي: هو في ظني ورأيي هكذا، ويجوز أن يكون اثباتاً لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل: ﴿أولم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله، وقوته ويجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك لأنه لما قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ فتفتج بالعلم وتعظم به قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي أدعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى بقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وأكثر جمعاً﴾ للمال أو أكثر جماعة وعبدًا.

فإن قلئت: ما وجه اتصال قوله: ﴿ولا يسأل عن نذوبهم المجرمون﴾ بما قبله: قلئت: لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كنوا أقوى منه وأغنى قال: على سبيل التهديد له والله مطلع على نذوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾^(٢) ﴿والله بما تعملون عليم﴾^(٣) وما أشبه ذلك.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩).

﴿في زينته﴾ قال: الحسن في الحمرة والصفرة وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من

ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل: في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وهو أول يوم روى فيه المعصفر، كان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر، وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبيل الخير وقيل: كانوا قوماً كفاراً، الغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له بونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾، ومن الحسد قوله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقيل لرسول الله ﷺ هل يضر الغبط فقال: لا إلا كما يضر العضاء الخيط^(٤)، والحظ الجد وهو البخت والدولة وصفوه بأنه رجل مجنود مبخوت يقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ وجود.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْفَكِرُونَ (٨٠).

ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى كما استعمل لا أبا لك وأصله الدعاء على الرجل بالأقرف في الحث على الفعل، والراجع في ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب؛ لأنه في معنى المثوبة أو الجنة أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير، كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى أراكم على كل شيء وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار وقيل: طستا من ذهب وقيل: طستا من ذهب مطلوعة ذهباً وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون وإن كنت أنت قال: وإن كنت أنا قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك لنفسي فخز موسى ساجداً

(١) سورة الزمر، الآية: 49.

(٢) سورة آل عمران، الآية: 153.

(٣) سورة النور، الآية: 28.

(٤) رواه الطبراني في معجمه، زيلعي 32/3.

أقدم وأنه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول: أو لأنه ﴿لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ كان ذلك، وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويتبدى كأنه ومنهم من يقف على ويك، وقرأ الأعمش لولا من الله علينا وقرى: ﴿لَخَسَفَ بَنَاهُ﴾ وفيه ضمير الله ولا تخسف بنا كقولك: انقطع بنا كقولك: انقطع به ولتخسف بنا.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالَّذِينَ هُمْ لِلْمُتَّقِينَ (٨٧).

﴿تلك﴾ تعظيم لها وتقدير لشأنها يعني: تلك التي سمعت بنكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرانتها وميل القلوب إليهما كما قال: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون، وعن علي رضي الله عنه: أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (٨٢) وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأمانى ههنا وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردنها حتى قبض ومن الطعام من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٨٣) ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٨٤) ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره علي والفضيل وعمر (٨٥).

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٦).

معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكر أفضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمئة وهو معنى قوله: ﴿فله خير منها﴾.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَا أَطَمَ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٧).

﴿فرض عليك القرآن﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه والعمل بما فيه يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف

يبكي وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال: يا أرض خذي بهم فاختتتهم إلى الركب ثم قال: خذي بهم، فاختتتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فاختتتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت عليهم وأوحى الله إلى موسى ما أوقفك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجنوني قريباً مجيئاً (٨٨).

خَسَفْنَا بِهِ يَدَايِرَ الْأَرْضِ فَمَا كَانُوا مِنْ قِتْوَةٍ يُصْرُوفُونَ دُونَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ (٨٩).

فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام أو من الممتنعين من عذاب الله يقال: نصره من عدوه، فانتصر أي: منعه منه فامتنع.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسَطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانُ لَافِلِحِ الْكَافِرُونَ (٩٠).

قد ينكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مكانه﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كان وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيههم وقولهم: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون وتندموا ثم قالوا: ﴿كانه لا يفلح الكافرون﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال: وي كان من يكن له نشب يحب ومن يفتقر يعيش عيش ضر وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك فقال: وي كأنه وراء البيت وعند الكوفيين أن ويك بمعنى ويك وأن المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: ويك عنتر

(4) سورة القصص، الآية: 77.

(5) قال أحمد: هو تعرض لغص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل حقق طمعهم في رحمته، حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله نخل الجنة، وإن زنا، وإن سرق ثلاثاً، وفي الثالثة وإن رغم أنف أبي نره اللهم أقسم لنا من رجا رحمتك ما تعصمنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، زيلعي 3/ 33. أخرجه الحاكم في المستدرک 2/ 408.

(2) حديث أنس أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6565) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة، (الحديث رقم: 322 - 193)، وحديث أبو هريرة أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ (الحديث رقم: 3340)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة (الحديث رقم: 194 327).

(3) سورة القصص، الآية: 4.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت مكية

الْعَنْكَبُوتُ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

﴿٢﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيذا وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيذا عالماً، وظننت الفرس جواداً لأن قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فارتدت الإخبار عن تلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بداً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من نكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قلت: فآين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! قلت: هو في قوله: ﴿أَنْ يَبْرُكُوا﴾ يقولوا آمناً وهم لا يفتنون، وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمناً هو الخبر وأما غير مفتونين فتمتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصبير كقوله، فتركته جزر السباع ينشئه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام.

فإن قلت: إن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتابيب وقد كان التابيب والمخافة في قوله: خرجت مخافة الشر، وضربته تاليفاً تعليلين وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأبيب فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على السنتهم وظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير محتنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبيلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم لتمييز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿يَتَلَبَّطُونَ

لمثبيك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف و﴿لربك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتذكير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد رده يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معاداً له شأن ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذو الشرك وحزبه والسورة مكية فكان الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: اشتاق إلى مكة قال: نعم فارحها إليه.

فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ﴾ بما قبله! قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربِّي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنْ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونْ ظَهِيراً لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٤﴾

فإن قلت: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ملجاء الاستثناء فيه قلت: هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ عَبْدٌ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾

وقرئ: ﴿يصدنك﴾ من أصده بمعنى صده وهي في لغة كلب وقال:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم
صود السواقي عن أنوف الحوائم
﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذ وليلتئذ ويومئذ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦﴾

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهيب الذي سبق نكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صبق موسى، وكتب به ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً إن كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون^(١).

(١) ذكره الثعلبي وابن مريويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/36.

الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ مَفْعُولًا حَسِبَ قُلْتُ: اشْتِمَالُ صَلَاةٍ أَنْ عَلَى مَسْنَدٍ وَمَسْنَدٌ إِلَيْهِ سَدٌّ مَسَدُ الْمَفْعُولَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يُضْمَنَ حَسَبَ مَعْنَى قَدَرٍ وَأَمْ مُنْقَطِعَةٌ، وَمَعْنَى الْإِضْرَابِ فِيهَا: أَنَّ هَذَا الْحَسْبَانَ أَبْطَلَ مِنَ الْحَسْبَانِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ ذَاكَ يَقْدَرُ أَنَّهُ لَا يَمْتَحِنُ لِإِيمَانِهِ وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَجَازِي بِمَسَاوِيهِ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بِشَسِّ الَّذِي يَحْكُمُونَهُ حَكْمَهُمْ هَذَا أَوْ بِشَسِّ حَكْمِهِ يَحْكُمُونَهُ حَكْمَهُمْ هَذَا فَحُذِفَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّكِينُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾

لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فإما أن يلقيه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ مَنْ كَانَ يَأْمَلُ تِلْكَ الْحَالَ وَأَنْ يَلْقَى فِيهَا الْكَرَامَةَ مِنَ اللَّهِ، وَالبشر ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وَهُوَ الْمَوْتُ ﴿لَآتٍ﴾ لَا مُحَالَةَ فَلْيَبَادِرِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَصْنُقُ رَجَاءَهُ وَيَحَقِّقُ أَمَلَهُ، وَيَكْتَسِبُ بِهِ الْقُرْبَةَ عِنْدَ اللَّهِ وَالزَّلْفَى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَقُولُهُ عِبَادُهُ وَمِمَّا يَفْعَلُونَهُ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالتَّقْوَى وَالْخَشْيَةِ وَقِيلَ: يَرْجُو يَخَافُ مِنْ قَوْلِ الْهَنْدَلِيِّ فِي صِفَةِ عَسَالٍ، إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبِيرُ لَمْ يَرْجُ لِسْعَاهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ كَيْفَ وَقَعَ جَوَابًا لِلشَّرْطِ؟ قُلْتُ: إِذَا عَلِمَ أَنَّ لِقَاءَ اللَّهِ غَنِيَّةٌ بِهِ تِلْكَ الْحَالَ الْمُمَثَّلَةَ وَالْوَقْتَ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ تِلْكَ الْحَالَ هُوَ الْأَجَلُ الْمَضْرُوبُ لِلْمَوْتِ فَكَانَهُ قَالَ: مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ لِأَنَّ الْأَجَلَ وَقَعَ فِيهِ اللَّقَاءُ كَمَا تَقُولُ: مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الْمَلِكِ، فَإِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرِيبٌ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعُ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ نَفْسَهُ فِي مَنَعِهَا مَا تَأْمُرُ بِهِ وَحُمَلَهَا عَلَى مَا تَنْهَى عَنْهُ ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ﴾ لَهَا لِأَنَّ مُنْفَعَةَ ذَلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَنَهَى رَحْمَةً لِعِبَادِهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْهُمْ وَعَنْ طَاعَتِهِمْ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَلَمُوا الصَّالِحِينَ فَكَبَّرُوا عَنْهُمْ سَخِرْنَاهُمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

== بالكائن غير العلم بأن سيكون، والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبلة وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم هنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم والله أعلم.

أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَلِتَسْمَعْنَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١﴾ وَرَوَى أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَزَعُوا مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَقِيلَ: فِي عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَكَانَ يَعْنِبُ فِي اللَّهِ وَقِيلَ: فِي نَاسٍ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ فَكَتَبَ إِلَيْهِمُ الْمُهَاجِرُونَ ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ حَتَّى تَهَاجِرُوا﴾ فَخَرَجُوا فَتَبِعَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَرَبُّوهُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ كَتَبُوا بِهَا إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا فَاتَّبَعَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَقَاتَلُوهُمْ فَمَنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ مَنْ نَجَا وَقِيلَ: فِي مَهْجَعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَوَّلُ قَتِيلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ رَمَاهُ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ مَهْجَعٌ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْعَى إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَجَزَعُ عَلَيْهِ أَبَوَاهُ وَأَمْرَاتُهُ ﴿٢﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ مَوْصُولٌ بِأَحْسَبٍ أَوْ بِلَا يَفْتَنُونَ كَقَوْلِكَ: أَلَا يَمْتَحِنُ فَلَانٍ وَقَدْ أَمْتَحَنَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ يَعْنِي: أَنْ اتَّبَعَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَبْلَهُمْ قَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمَحَنِ نَحْوُ مَا أَصَابَهُمْ، أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ فَصَبَرُوا كَمَا قَالَ: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا الْآيَةَ وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ فَيُوضَعُ الْمُنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُفَرَّقُ فَرَقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمِشُّ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا تَوْنُ عَظْمُهُ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ﴿٣﴾ ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ بِالْإِمْتِحَانِ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ؟ قُلْتُ: لَمْ يَزَلْ يَعْلَمُهُ مَعْبُومًا وَلَا يَعْلَمُهُ مَوْجُودًا إِلَّا إِذَا وَجَدَ ﴿٤﴾ وَالْمَعْنَى وَلِيَتَمَيَّزَنَّ الصَّالِقُ مِنْهُمْ مِنَ الْكَافِرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَعْدًا وَوَعِيدًا كَأَنَّهُ قَالَ: وَلِيُثَبِّتَنَّ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيُعَاقِبَنَّ الْكَافِرِينَ وَقَرَأَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالزَّهْرِيُّ، وَلِيَعْمَلَنَّ مِنَ الْإِعْلَامِ أَيُّ: وَلِيَعْرِفَنَّهُمُ اللَّهُ النَّاسَ مِنْ هُمْ أَوْ لِيَسْمَنَّهُمْ بَعْلَامَةً يَعْرِفُونَ بِهَا مِنْ بَيَاضِ الْوُجُوهِ وَسَوَادِهَا وَكَحْلِ الْعَيُونِ وَزُرْقَتِهَا.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاحَ أَنْ يُسَوِّغُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أَنْ يَفُوتُونَا يَعْنِي: أَنَّ الْجَزَاءَ يُلْحَقُهُمْ لَا مُحَالَةَ وَهُمْ لَمْ يَطْمَعُوا فِي الْمَوْتِ وَلَمْ يَحْنُثُوا بِهِ نَفُوسَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَغَفَلَتُهُمْ وَقِلَّةُ فِكْرِهِمْ فِي الْعَاقِبَةِ وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي فِي صُورَةٍ مِنْ يَقْدَرُ ذَلِكَ وَيَطْمَعُ فِيهِ وَنَظِيرُهُ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَحْسَبَنَّ

(1) سورة آل عمران، الآية: 186.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/39، وحديث ابن أبي شيبة 77/14، كتاب: الأوائل باب: أول ما فعل الخ...

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3612).

(4) قال أحمد: فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم =

والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك قد صبت، فوالله لا بظلي سقف بيت من الضحّ والريح وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحد ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك ففجأ سعد إلى رسول الله ﷺ

وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويتراضاها بالإحسان⁽³⁾ وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخزومة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالوا له:

إن من دين محمد صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تاري بيتاً حتى تراك وهي أشدّ حباً لك منا فأخرج معنا وقتلاً منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه، فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي ببني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصي عمر فقال له: عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتي قد كلت فاحملني معك قال: نعم، فنزل ليوطى لنفسه وله فأخذاه وشدها وثاقاً وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت⁽⁴⁾.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ^(٥).

﴿في الصالحين﴾ في جملتهم والصالح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني أنبياء الله قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾⁽⁶⁾ وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾⁽⁷⁾ أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى:

وَمَنْ الْكَافِرِينَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ جَفَلًا فَوَسَّهَ الْكَافِرِينَ
كَذَابٍ اللَّهُ وَلَيْسَ جَاهٌ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُكَذِبِينَ^(٨) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ^(٩).

إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساؤا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم أي: يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون أي: أحسن جزاء أعمالهم وإما قوماً مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام⁽¹⁾.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْحَمَةٍ مَّا كُنْتُمْ تَمْلُكُونَ^(٢).

وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول: أمرته بأن يفعل ومنه بيت الإصلاح:

ونبيناية وصت بنيتها بأن كذب القراطيف والقرف

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها ومنه قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه﴾⁽²⁾ أي: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه وصيته بتعهده عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وصيانه بليتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً أي: فعلاً ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقرئ: حسناً وإحساناً، ويجوز أن تجعل حسناً من باب قولك: زيداً بإضمار اضرب إذا رأيته متعباً للضرب فتصبه بإضمار أولهما أو أفل بهما لأن التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا: أولهما معروفاً وفلا تطعهما في الشرك إذا حملك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه، وأبدأ حسناً حسن الوقف وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهدك أيها الإنسان ما ليس لك به علم أي: لا علم لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نهى عن طاعتهم إذا أراداه على ما ذكر على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال إلي: مرجع من آمن منكم ومن أشرك فلجازيكم حق جزائكم، وفيه شيان أحدهما أن الجزاء إلي فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي والثاني التحذير من متابعتهم على الشرك والحث على الثبات

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، والقصة عند مسلم، كتاب: الفضائل 40/3 ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 193 - 194.

(4) راجع الحديث 381، سورة النساء.

(5) سورة النمل، الآية: 19.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(1) قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبار، إلا بالتوبة، وأطلق تفسير الصغار، وإن لم تكن توبة إذا غمرت الحسنات، وكلا الأصلين قنري مجتنب والله الموفق.

(2) سورة البقرة، الآية: 132.

أَنْ مَا ضَمْنُوهُ لَا طَرِيقَ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَفُوا بِهِ فَكَانَ ضَمَانَهُمْ عِنْدَهُ لَا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْمَضْمُونُ بِالْكَانِبِينَ الَّذِينَ خَبَرَهُمْ لَا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْمَخْبِرُ عَنْهُ وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُمْ كَانِبُونَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى خِلَافِهِ كَالْكَانِبِينَ الَّذِينَ يَعْدُونَ الشَّيْءَ وَفِي قُلُوبِهِمْ نِيَّةُ الْخَلْفِ.

وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَالَهُمْ وَأَقْلَالَهُمْ وَلِيَسْتَأْذِنَ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال أنفسهم ﴿وَأَقْلَالَهُ﴾ يعني: أثقالاً آخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿وَلِيَسْتَأْذِنَ﴾ سؤال تقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يخلقون من الأكايب والباطيل. وقرئ: من خطيئاتهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٨﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة. فإن قللت: هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة! قلت: ما أوردته الله أحكم لأنه لو قيل: كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك (3) وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملاً بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي: أن القصة مسوقة لنكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وما كابدته من طول المصابرة تسلياً لرسول الله ﷺ وتثبيتاً له فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع، وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره.

فإن قللت: فلم جاء المميز أولاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد تحقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم، أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك و﴿الطوفان﴾ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج، وغم طوفان الظلام الأثابا.

فَأَجْنَحَتْ وَاصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾

﴿أَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفساً

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ (1) الآية هم ناس كانوا يؤمنون بالسننهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إننا كنا معكم﴾ أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فاعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما في صدور العالمين﴾ من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ: ليقولن بفتح اللام.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطْيَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطْيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٠﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقته التي كانوا عليها في دينهم أمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرأوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم والمعنى: تطبيق الحمل بالاتباع وهذا قول: صنائيد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم، ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه: إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم أفعل هذا وإثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلته ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال: وما هي قال: شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمّن (2).

فإن قللت: كيف سماهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز؛ لأنه في الحالين لا ينخل تحت حد الكاذب، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه! قلت: شبه الله حالهم حيث علم

(1) سورة النساء: الآية: 69.

(3) قال أحمد: لأن الاستثناء استدراك رجوع على الجملة بالتنقيص تحريراً للعدد فلا يحتمل المبالغة؛ لأنها لا يجوز معها العدد. عاد كلامه قال: وفيه نكتة أخرى، وهي: أن القصة مسوقة لنكر ما ابتلى به نوح، وكابده من طول المصابرة تسلياً له عليه السلام، فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين، فذكر في الأولى السنة، وفي الثاني العام تجنباً للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم. قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

(2) قال أحمد: عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست إلا آية مطابقة للحكاية، ولكن الرمز مخشري يبني على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ نكتة حسنة يستدل به على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر، فإن من الناس من انكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية؛ لأن الله تعالى أرفق قولهم ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله: ﴿إنهم لكاذبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الإخبار.

الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كتبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصق ولا يكتب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: فما كان جواب قومه محتمة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه: وإن تكون آياتنا وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وأخراها.

فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم: فما المراد بالأمم قبله! قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جمة مكذبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وآمن به ألف إنسان منهم علي عند سنه وأعقابهم على التكذيب.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: «قل سيروا في الأرض»! قلت: هي حكاية كلام حكاة إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكي رسولنا ﷺ كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن.

فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش فما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة، أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله: «وإن تكنبوا» على معنى أنكم يا معشر قريش إن تكنبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمة نبيها لأن قوله: «فقد كذب أمم من قبلكم» لا بد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أنبيائها وتوابعها لكونها ناطقة بالتحديد دلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

وَأَمَّا بَرَاءَ كَيْفَ يَدْعُو اللَّهَ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعْبَدُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٨﴾

قرئ يروا بالياء والتاء «ويبدى» ويبدأ وقوله: «ثم يعيده» ليس بمعطوف على يبدى وليست الروية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى: «فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة»^(١) على البدء دون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوتر فلاناً واستخلفه على من أخلفه^(٢).

نصفهم نكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح عليه السلام سام وحام ويافت ونسأوهم وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقد روي عن النبي ﷺ كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة والضمير في «وجعلناها» للسفينة أو للحادثة والقصة، نصب.

وَأَرْسِلْ إِنْ شَاءَ رَبِّي الْمُنَادِيْنَ ﴿٩﴾

«وإبراهيم» بإضمار انكر وإبدل عنه «إذ» بدل الاشتغال لأن الأحيان تشتمل: على ما فيها أو هو معطوف على نوحاً وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم «إن كنتم تعلمون» يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم أو إن نظرتكم بعين الدراية المبصرة بون عين الجهل العمياء علمتم أنه خير لكم.

إِنَّا تَبَدَّلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْثًا وَخَلْتُمْ بِكُمْ آيَاتِنَا إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مَعْرِضِينَ ﴿١٠﴾

وقرى: «تخلقون» من خلق بمعنى التكثير في خلق وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرص.

وقرى: «إفكاً» فيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكنب واللعب من أصلهما أن يكون صفة على فعل أي: خلقاً إفكاً أي ذا إفك وباطل واختلاهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه أو سمى الأصنام «إفكاً» عملهم ولها ونحتهم خلقاً للإفك.

فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوك شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره «إليه ترجعون».

وَأَن تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَنْ رَبِّكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَسَ الْحَبِيرَ ﴿١١﴾

وقرى بفتح التاء فاستعبوا للقاءه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكنبونني فلا تضرونني بتكذيبهم فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضرهم وإنما ضرروا أنفسهم حيث حل بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل وأما

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

(٢) قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: «أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده» أنه معطوف، وصحح العطف، وإن كانوا ينكرون الإعادة؛ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى منها جملة معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه مهنا لو عطف الإعادة على البداية لنخلت في الروية =

= الماضية، وهي لم تقع بعد ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعولت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح والله أعلم.

الأرض وإعماقها أو علوتم في البروج والقلاع الذاهب في السماء كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْجٍ مَشِيدَةٍ﴾ (4) أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿بَيَّاتِ اللَّهِ﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي﴾ وعيد أي ييأسون يوم القيامة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (5). أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن إنما يكون راجياً خاشعاً فاما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يش من الرحمة وعن قتادة رضي الله عنه أن الله ثم قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي﴾، وقال: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يامن عذابه وعقابه صفة المؤمن أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾

قريء ﴿جواب قومه﴾ بالنصب والرفع ﴿قالوا﴾ قال: بعضهم لبعض، أو قاله: واحد منهم وكان الباقيون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين، وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار نعني: يوم القيامة إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَكِنَّ بَعْضَكُمْ بَعْضٌ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿١٥﴾

قريء على النصب بغير إضافة وإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين على التعليل أي: لتتوانوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وإتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصانقهم وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَٰهُهُمُ هَوَاهُ﴾ (6) أي: اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم بمعنى مودة بينكم كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (7) وفي الرفع وجهان أن يكون خبراً لأن على أن ما موصولة وإن يكون خبر

فإن قلَّت: هو معطوف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلَّت: هو جملة قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْجٍ مَشِيدَةٍ﴾، وكذلك واستخلفه معطوف على جملة قوله ما زلت أوتّر فلاناً ﴿وَلَكِنْ﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: وهو آمون عليه من معنى يعيد دل بقوله:

قُلْ يَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ اللَّهُ يُسِّرُ الْخَلْقَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿النشأة الآخرة﴾ على انهما نشأتان، وإن كل واحد منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، وقريء ﴿النشأة﴾ والنشأة كالرافة والرافة.

فإن قلَّت: ما معنى الإنصاح باسمه مع إيقاعه مبتداً في قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُسِّرُ الْخَلْقَ الْآخِرَةَ﴾ (1) بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياسي أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلَّت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة فكانه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى (2) هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتداً.

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾

﴿يعذب من يشاء﴾ تعنيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوباً ومن المعصوم والثائب ﴿تُقْلَبُونَ﴾ ترون وترجعون.

وَمَا أَشْرَ بِمُجْرِمٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفِذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفِذُوا﴾ (3) وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه:

أمن يهجر رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء ويحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفما هبطم في مهاري

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة الروم، الآية: 12.

(6) سورة الفرقان، الآية: 43.

(7) سورة البقرة، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: والأصل الإظهار، ثم الإضمار، ويليه لقصد التفتيح الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أقبح الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية والله أعلم.

(3) سورة الرحمن، الآية: 33.

الثاني بحرفين الياء والنون.

أَيْتَكُمْ لَأَتُونَكَ بِأَنْعَامٍ غَيْرِهَا وَنَافِلَةٍ وَأَتُونَكَ فِي كَادِيكُمْ
الْمُتَكَبِّرِ مَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٣).

وقطع السبيل عمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ
الأموال وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة وعن الحسن
قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث و (المتكبر) عن ابن
عباس رضي الله عنهما هو الخنزير بالحصى والرمي
بالبنائق والفرقة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل
الأزوار والسباب والفحش في المزاح، وعن عائشة رضي الله
عنها كانوا يتحاققون وقيل: السخرية بمن مر بهم وقيل:
المجاهرة في نانيهم بذلك العمل وكل معصية، فلظهارها
أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياة فلا غيبة
له ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا
عنه لم يبق نادياً (إن كنت من الصادقين) فيما تعدناه
من نزول العذاب.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٢٤).

كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من
المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة
وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى: (الذين كفروا
وصنّوا عن سبيل الله) (٢) زيناها عذاباً فوق العذاب بما
كانوا يفسدون، فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله
عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَ عَادِلِينَ (٢٥).

(بالبشرى) هي البشارة بالولد والنافلة هما إسحق
يعقوب، وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى
لاستقبال القرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي
سدوم (كانوا ظالمين) معناه: أن الظلم قد استمر منهم
إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرّون وظلمهم
كفرهم واللان معاصيهم.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِيهَا فَتَنَجَّهْ وَاهْلُكْ
إِلَّا أَمَرْنَاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٢٦).

(إن فيها لوطاً) ليس إخباراً لهم بكونه فيها وإنما هو
جدال في شأنه لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم
اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم، وأراد
بالجدال إظهار الشفقة عليهم وما يجب للمؤمن من التحزن
لأخيه والتشمر في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسّه
أذى، أو يلحقه ضرر قال: قتادة لا يرى المؤمن إلا يحوط
المؤمن إلا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه (بمن فيها)

مبتدأ محذوف والمعنى: أن الأوثان مودة بينكم أي: موبودة
أو سبب مودة وعن عاصم مودة بينكم بفتح بينكم مع
الإضافة، كما قرئ لقد تقطع بينكم ففتح وهو فاعل وقرأ
ابن مسعود رضي الله عنه أوثاناً إنما مودة بينكم في
الحياة الدنيا أي: إنما تتواون عليها أو توبونها في الحياة
الدنيا (ثم يوم القيامة) يقوم بينكم التلاعن والتباغض
والتعادي يتلاعن العبدية ويتلاعن العبدية، والأصنام كقوله
تعالى: (ويكونون عليهم ضداً) (١).

فَإِن لَّمْ يَلُوطْ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٢٧).

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهم السلام وهو أول من
أمن له حين رأى النار لم تحرقه (وقال) يعني: إبراهيم
(إني مهاجر) من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى حران
ثم منها إلى فلسطين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة
ولإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته لوط وامراته
سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (إلى ربي)
إلى حيث أمرني بالهجرة إليه (إنه هو العزيز) الذي
يمعني من أعدائي (الحكيم) الذي لا يأمري إلا بما هو
مصلحتي.

وَوَقَّعْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَتَيْنَاهُ إِجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٢٨).

(لجرحه) الثناء الحسن والصلاة عليه آخر الدهر
والزنية الطيبة والنبوة وأن أهل الملل كلهم يتولونه.
فإن قلنا: ما بال إسماعيل عليه السلام لم ينكر وذلك
إسحق وعقبة! قلنا: قد دلّ عليه في قوله: (وجعلنا في
ذريته النبوة والكتاب) وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو
قدره.

فإن قلنا: ما المراد بالكتاب! قلنا: قصد به جنس الكتاب
حتى يخل تحته ما نزل على نبيته من الكتب الأربعة التي
هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَأْتُونَ النَّجْصَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ (٢٩).

(ولوطاً) معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه
(والفاحشة) الفعل البالغة في القبح و (ما سبقكم بها
من أحد من العالمين) جملة مستأنفة مقررة لفاحشة تلك
الفعل كان قاتلاً قال: لم كانت فاحشة، فقليل له لأن أحداً
قبلهم لم يقدم عليها أشمئزاً منها في طباعهم لإفراط
قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طبيعتهم وقذر
طبائعهم قالوا: لم ينزل نكر على نكر قبل قوم لوط قط.
وقرئ (إنكم) بغير استفهام في الأول دون الثاني قال:
أبو عبيد وجنته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ورأيت

الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ الْمَشْأَمِ ۚ فَسَدَّ اللَّهُ عَنْهُمْ السَّبِيلَ وَكَانُوا مُشْجَبِينَ ۚ (٣٨)

﴿وعاداً﴾ منصوب بإضمار أهلكنا لأن قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾^(١) يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك ﴿وقد تبين لكم﴾ ذلك يعني: ما وصفه من إهلاكهم ﴿من﴾ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرت إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرّون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وكانوا مستبصرين﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ولكنهم لم يفعلوا، أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على السنة الرسل عليهم السلام ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

وَنَزَّلْنَا سَحَابًا مَّتَطَيَّرًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّؤْمِنٌ بِالْآيَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ۚ (٣٩)

﴿سافقين﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

﴿كَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَزَّلْنَا الْغَاسِقَ الَّذِي يَبْسُطُ السُّجُودَ﴾^(٤٠) أَخَذْنَا الصَّيْحَةَ وَيَنْهَرُ مَنْ خَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ وَيَنْهَرُ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الحاصب لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة لمدین وشمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون، الغرض تشبيهه ما اتخذه متكلًا ومعتمدًا في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الرهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت الا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله:

مَثَلُ الْآيَةِ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَذَلِ الْأَكْبَرِ أَخَذْتُ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْأَكْبَرِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ (٤١)

﴿وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت﴾.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت: معناه: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وإن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الرهن ووجه آخر وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكانه قال: ﴿وإن أوهن﴾ ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون ولقاتل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتًا بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا بأجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتًا بيتًا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينًا

يعنون نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحال قومه وامتيازهم منهم الامتياز البين وأنه لا يستأهل ما يستأهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب، وقرئ لنجيتهم بالتشديد والتخفيف وكذلك منجوك ﴿أن﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه.

وَلَقَدْ أَنَا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا عَزَّزْنَا إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ (٤٢)

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ وضاق بشانهم ويتدبير امرهم ذرعه أي: طاقته وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رجب الذراع بكذا إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرِبَ ذلك مثلاً في العجز والقدرة. إِنَّا مَنُورُوكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْرًا مِنْ أَسْمَاءٍ يَمَّا كَانُوا يَسْقُوكَ ۚ (٤٣)

الرجز والرجس العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿منزلون﴾ مخففاً ومشدداً.

وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً يَسْتَكْفِرُونَ بِمَقْتُلِهِمْ ۚ (٤٤)

﴿منها﴾ من القرية ﴿آية بيّنة﴾ هي آثار منازلهم الخربة وقيل: بقية الحجارة وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو ببيبة.

وَلِكُلِّ مَذْهَبٍ أَهْلُهُمْ شَعْبًا فَقَالَ بَنُو إِدْرِيسَ عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُشْرِكِينَ ۚ (٤٥)

﴿وارجوا﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة فاقم المسبب مقام السبب أو امروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا ۚ (٤٦)

﴿والرجفة﴾ الزلزلة الشديدة وعن الضحاح صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت لها ﴿في دارهم﴾ في بلدهم وأرضهم أو في بيارهم فاكتمت بالواحد لأنه لا يليس ﴿جاثمين﴾ باركين على الركب ميتين.

وَعَادًا وَنُوحًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّنْ مَّسْكُونَةٍ ۚ وَذَكَرْنَا لَهُمُ

دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾

والجوارح فقد روى عن حاتم كان رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقني وأصلي بين الخوف والرجاء ثم يحوطها بعد أن يصلّيها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً⁽⁵⁾، وعن الحسن رحمه الله: من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه، وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلى أنه ينتهي عن السيئات يومًا ما، فقد روي أنه قيل: لرسول الله ﷺ إن فلانًا يصلّي بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إن صلاته لتردعه» وروى: أن فتى من الأنصار كان يصلّي معه الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركبهُ فوصف له فقال: إن صلاته ستتهاه فلم يلبث أن تاب⁽⁶⁾ وعلى كل حال إن المراعي للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضًا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول: إن زيدًا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أن هذه الخلصة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم «ولذكر الله أكبر» يريد للصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال: «فاسعوا إلى ذكر الله»⁽⁷⁾ وإنما قال: ولذكر الله ليستقلّ بالتعليل كانه قال: وللصلاة أكبر لأنها نكر الله أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر ونكر نهييه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من نكركم إياه بطاعته «والله يعلم ما تصنعون» من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يُلَاقِيكُمْ فِي الْحَسَنِ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٨﴾

«بالتي هي أحسن» بالخلصة التي هي أحسن وهو مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسورة بالأناسة كما قال: «ادفع بالتّي هي أحسن» «إلا الذين ظلموا» فافرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرّفق، فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين أدّوا رسول الله ﷺ وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة

قرئ: «تدعون» بالتاء والياء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئًا «وهو العزيز الحكيم» فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جمد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلًا وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وتدبير. كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال:

وَلَكُمْ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلَّائِينَ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْمَكِيدُونَ ﴿١٩﴾

«وما يعقلها إلا العالمون» أي: لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الاستار حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصوّرها للأفهام كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحّد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»^(١).

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

«بالحق» أي: بالغرض الصحيح⁽²⁾ الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكين عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ألا ترى إلى قوله: «إن في ذلك آية للمؤمنين» ونحوه قوله تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا»⁽³⁾ ثم قال: تلك ظنّ الذين كفروا.

أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِصَلَاةِ الْمَكْرُورَةِ تَنَحَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٢١﴾

الصلاة تكون لطفًا في ترك المعاصي فكانها ناهية عنها.

فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهيه صلاته؟ قلت: الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدّمًا للتوبة النصوح متقيًا لقوله تعالى: «إنما يتقبل الله من المتقين»⁽⁴⁾ ويصلّيها خاشعًا بالقلب

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات، فصل في تحسين الصلاة، والإكثار منها، (حديث: 3262).

(6) قال الزيلعي غريب، 46/3.

(7) سورة الجمعة، الآية: 9.

(1) نكره الثعلبي والواحدي في التفسير وابن الجوزي في الموضوعات، 43/3.

(2) قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد ردي.

(3) سورة ص، الآية: 27.

(4) سورة المائدة، الآية: 27.

ليس بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي.

فإن قُلْتُ: ما فائدة قوله: ﴿بِإِيمَانِكُمْ؟﴾ قُلْتُ: نكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتباً الا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبه.

بَلْ هُمْ مَائِدَتُ يَسْتَفْتُونَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوَّلُوا أَلَمَهُ وَمَا يَحْكُمُونَ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (١٩).

فكذلك النفي ﴿بِإِيمَانِكُمْ﴾ القرآن. ﴿آيات بينات في صدور﴾ العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة صيورهم أناجيلهم (٢٠) ﴿وما يجحد﴾ بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَبِّتٌ (٢٠).

قريء آية وآيات أراها هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل أيتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقتبحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانتها بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أتخير على الله آياته فاقول أنزل علي آية كذا نون آية كذا مع علمي أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال:

أَوَلَمْ يَكُنْهُمْ أَتَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢١).

﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبيين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تبوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في كل مكان نون مكان، إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمه عظيمة لا تشكر، وتنكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل: ﴿أولم يكفهم﴾ يعني: اليهود أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعمتك ونعت دينك وقيل: إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكفف قد كتبوا فيها بعض ما

المؤدين للجزية ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فنبهوا الذمة، ومنعوا الجزية فإن أولئك مجالبتهم بالسيف وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ (١) ولا مجادلة أشد من السيف، وقوله: ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: «ما حلتكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم» (٢)، ومثل ذلك الإنزال.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ يَوْمُوتُ بِهِمْ وَفِي هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَحْكُمُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَاثِرُونَ (٢٢).

﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصنفًا لسائر الكتب السماوية تحقيقاً لقوله: ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ (٣) وقيل: وكما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم للكتاب﴾ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنْتُمْ تَلُوتُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّ بِسِينَتِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٢٣).

وأنت أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إذا﴾ لو كان شيء من ذلك أي: من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو ﴿لارتاب﴾ مشركوا مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

فإن قُلْتُ: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صابقين محققين ولكن أهل مكة أيضاً على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب! قُلْتُ: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الرب فكأنه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمياً لارتابوا أشد الرب، فعين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتابهم وشيء آخر وهو أن سائر الانبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به لكونهم مصنفين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزلين

= البخاري في كتاب التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها، (الحديث: 7542).
(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.
(4) الطبراني في معجمه.

(1) سورة التوبة، الآية: 29.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (حديث: 6257)، أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في رواية حديث أهل الكتاب، (الحديث: 3644)، وأحمد في المسند 4/136، وأخرجه =

تعملون ﴿أي: جزاءه.

يَعْبُدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾.

معنى الآية أَنَّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً ولعمري أَنَّ البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، وقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما درنا وداروا أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت، وأضمر للهم المنتشر وأحس على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فَلله الحمد على ما سهل من تلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر وعن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد^(٥) وقيل: هي في المستضعفين بنكة الذين نزل فيهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وإنما كان ذلك لِأَنَّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهرائي الكفرة ﴿فإياي فاعبدون﴾ في المتكلم نحو إياه ضربته في الغائب وإياك عضت في المخاطب والتقدير إياي فاعبدوا فاعبدون.

فإن قُلْتُ: ما معنى الفاء في ﴿فاعبدون﴾ وتقديم المفعول! قُلْتُ: الفاء جواب شرط محذوف لِأَنَّ المعنى: إِنَّ أَرْضِي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصبق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد، وإن شسعت اتبعه قوله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعُهُمْ ﴿٥٧﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المنوق، ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِن الْجَنَّةِ غُرًّا نَّجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ الْمَلَائِكَةِ ﴿٥٨﴾.

﴿لنؤتيَنَّهُم من الجنة غُرًّا نَّجْرَى﴾ علالِي، وقرئ لنؤتيَنَّهُم من الثواء وهو النزول للإقامة يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً نحو ذهب، وأذهبته والوجه في تعييته إلى ضمير المؤمنين وإلى

يقول: اليهود فلما أن نظر إليها القامها وقال: «كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم»^(١) فنزلت والوجه ما ذكرناه.

قُلْ كَفَىٰ لِلَّهِ بَنِيَّ وَسَيِّدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ اني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾، فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ منكم وهو ما تعبدون من بون الله ﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿ولنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾^(٢) كقول حسان، فشر كما لخير كما الفداء، وروي أَنَّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

وَسَيُجَازِيكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعَثَةٌ مِن بَعَثِهِمْ لَا تَبْخَرُهُمْ ﴿٦٠﴾.

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيباً والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء كما قال: أصحاب الأيكة فاسقط علينا كسفاً من السماء ﴿ولولا أجل﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيرهم إلى ذلك أجل المسمى ﴿لجاءهم للعذاب﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة لما روي أَنَّ الله تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه ولا يستاصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة^(٣) وقيل: يوم بدر وقيل: وقت فنائهم بأجلهم.

يَسْمَعُونَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾.

﴿لمحيطه﴾ أي: ستحيط بهم.

يَوْمَ يَشْفَعُ لَهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُرُّوهُنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿يوم يغشاهم العذاب﴾، أو هي محيطه بهم في الدنيا لِأَنَّ المعاصي التي توجبها محيطه بهم أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكانها الساعة محيطه بهم ويوم يغشاهم على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت و﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾^(٤) ﴿ونقول﴾ قرئ بالنون والياء ﴿ما كنتم

(4) سورة الزمر، الآية: 16.

(5) ذكره الثعلبي في التفسير، وتقدم في النساء.

(1) أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في العلم (الحديث: 454).

(2) سورة سبأ، الآية: 24.

(3) قال الزيلعي غريب، 49/3.

مَوْتَهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فِي الْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾

استحمد رسول الله ﷺ على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الانداد والشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقولون: وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد، أو لا يعقلون ما تريد بقولك: الحمد لله ولا يفتنون لم حمدت الله عند مقالته.

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

﴿هذه﴾ فيها ازدياد للدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، يريد ما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يفترقون ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكانها في ذاتها حياة^(١) والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية وأوَّ كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمي ما فيه حياة حيواناً قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتري من الحيوان وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلا من معنى الحركة، والاضطراب كالنزوان والنقصان واللهيان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجئته على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة ﴿ولو كانوا يعلمون﴾، فلم يؤثرها الحياة الدنيا عليها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله:

﴿إِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا جَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿فإذا ركبوا﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ دعاوا الله مخلصين له الدين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا ينكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهاً آخر وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهكم ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وأمنوا عادوا إلى حال الشرك.

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمِعُوا فَسَوْفَ يَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾

واللام في ﴿ليكفروا﴾ محتملة أن تكون لام كي وكذلك في ﴿وليستمعوا﴾ فيمن قراها بالكسر والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين

الغرف إما إجراؤه مجرى لنزولهم ونبوئتهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم، وقرأ يحيى ابن وثاب فنعم بزيادة الفاء.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَلَمْ يُنْكِرُوا ﴿١٧﴾

﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، لما أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت، والدابة كل نفس ببت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل.

وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا لَشَعِيعٌ أَلَعَلِّمْ ﴿١٨﴾

﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله وعن ابن عيينة ليس شيء يخبا إلا الإنسان والنملة والفارة وعن بعضهم رأيت البلبيل يحتكر في حضيته ويقال: للعققر مخابئ إلا أنه ينساها ﴿وهو السميع﴾ لقولكم نخشى الفقر والضيعة ﴿العليم﴾ بما في ضمائركم.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّ يَوْمَئِذٍ لَّيَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

الضمير في ﴿سألتهم﴾ لأهل مكة ﴿فأنى يوفكون﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وإن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَعْدِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾

فإن قُلْتَ: الذي رجع إليه الضمير في قوله ﴿ويقدر له﴾ هو من يشاء فكان بسط الرزق وقدره جعلاً لوأحد! قُلْتُ: يحتمل الوجهين جميعاً أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَآخَا بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ

(١) قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان والحيوان من ذلك والله أعلم.

التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجتروا مثل هذه الجرة.

وَالَّذِينَ جَهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨﴾.

أطلق المجاهدة ولم يقيدوها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فينا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خلاصاً ﴿لنهديهم سبلنا﴾ لنزيينهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٢) وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع المحسنين﴾ لتأصرهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم مكية

الرَّ (١).

القراءة المشهور الكثيرة.

عَلَيْهِ الرُّومُ (٢).

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيغلبون بفتح الباء والارض أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

فَ أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ سَبِيلَهُ (٣).

والمعنى: غلبوا في أبنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أبنى أرضهم إلى عبودهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أبنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أترعات وبصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشتموا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة نريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ وأن تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (١).

فإن قلنا: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلنا: هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن لك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حررت عليه وقلت: أنت وشانك، وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والأمر بالشيء مرید له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كائن تقول له: فإذا قد أبیت قبول النصيحة فانت أهل ليقال: لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ النَّاسَ مِنْ حَوَالِهِمْ أَفَلَا يَبْطِلُونَ يُؤْمِنُونَ وَيَسْمَعُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ (٧).

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضاً ويتغابرون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فنكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذباً زعمهم إن الله شريكا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٨).

وتكذيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستمعون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يضح لهم صدقه أو كذبه ﴿اليس﴾ تقرير لثوابهم في جهنم كقوله: أستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهمة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثبون في جهنم وألا يستوجبوا الثواب فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكنبوا بالحق هذا

(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) سورة محمد، الآية: 17.

وقل هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوة للإسلام وعن أبي سعيد الخدري وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ بنصر عليكم تارة، وينصركم أخرى.

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
(٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَهُ الْآخِرَةُ هُمْ يَنْفَلِحُونَ (٧).

﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد كقولك لك على ألف درهم عرفاً لأن معناه اعترف لك بها اعترافاً ووعد الله ذلك وعداً لأن ما سبقه في معنى وعد.

نمهم الله عز وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا بله في أمر الدين وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب وعن الحسن بلغ من حنق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أردئ هو أم جيد وقوله: ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله: ﴿لا يعلمون﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبطله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسد ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا وقوله: ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملأها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر^(٢)، وهم الثانية يجوز أن يكون مبتداً و﴿غافلون﴾ خبره والجملة خبرهم الأولى وأن يكون تكريراً للأولى وغافلون خبر الأولى وأية كانت فنكرها مناد على أنهم معين الغفلة عن الآخرة ومقرها ومعلمها، وأنها منهم تتبّع واليهم ترجع.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَدَّدٍ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لَكُفْرُونِ (٨).

﴿في أنفسهم﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أو لم يفتكروا في أنفسهم أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكير لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكير كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره و﴿ما خلق﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه، ﴿أولم يتفكروا﴾ فيقولوا: هذا القول وقيل: معناه فيعلموا لأن في الكلام دلالة عليه ﴿إلا بالحق وأجل مسمى﴾ أي: ما خلقهما باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه

اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه والمناحبة المرهنة فنأحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلنا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال:

فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٩) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن بَشَاءَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠).

البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلها مائة قلووس إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين^(١) وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين فأخذ أبو بكر الخطر من نرية أبي وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وقرئ غلبهم بسكون اللام والقلب والقلب مصدران كالجلب والجلب والحلب والحلب وقرئ ﴿غلبت الروم﴾ بالفتح وسيغلبون بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين فهي في إحداها إضافة المصدر إلى المفعول وفي الثانية إضافته إلى الفاعل ومثالهما محرم عليكم إخراجهم ولن يخلف الله وعده.

فإن قلت: كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار؟ قلت: عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتج على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي: في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبيين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبيين يعني: أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبيين آخرًا ليس إلا بامر الله وقضائه وتلك الأيام ندلو لها بين الناس، وقرئ: ﴿من قبل ومن بعد﴾ علي الجز من غير تفسير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل: قبلاً وبعداً بمعنى: أولاً وآخرًا و﴿ويومئذٍ﴾ يوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عز وجل من غلبتهم.

﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له وغیظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به المشركين من غلبة الروم وقيل: نصر الله أنه ولي بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمهم حتى تفاقوا وتناقصوا

= حتى يطابق المبدل منه، وروي عن الحسن أنه قال: في تلاوته هذه الآية بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه، فيعلم أجيد هو أم رديء.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة الروم، (الحديث: 3193).

(٢) قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله بقربه من النفي =

قرئ: ﴿عاقبة﴾ بالنصب والرفع و﴿السواى﴾ تانيث الاسوا وهو الأقبح كما أنَّ الحسنى تانيث الاحسن والمعنى: انهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السواى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمّر أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعنت للكافرين و﴿ان كذبوا﴾ بمعنى لأن كذبوا ويجوز أن يكون بمعنى أي: لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكنيب والاستهزاء كانت في معنى القول نحو نادي وكتب وما أشبه ذلك ووجه آخر وهو أن يكون أساؤا السواى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا وأن كذبوا عطف بيان لها وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإيهام.

اللَّهُ يَذُرُّ اللَّحَقَ ثُمَّ يُبَدِّلُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى ثوابه وعقابه، وقرئ بالياء والياء الإبلّاس أي: يبقى بائساً ساكناً متحيزاً يقال: ناظرته فابلس إذا لم ينبس ويثس من أن يحتجّ ومنه الناقة المبلّاس التي لا ترغو.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ لَنَجْمُورُونَ ﴿١٢﴾

وقرئ: ﴿يبليس﴾ بفتح اللام من إبلسه إذا أسكته.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا يُشْرِكُونَ كَثِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿من شركائهم﴾ من الذين عبدوهم من دون الله و﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي: يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتبوا شفعاؤا في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علموا بني إسرائيل وكذلك كتبت السواى بالفاء قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ بَقَرُورُونَ ﴿١٤﴾

الضمير في ﴿يتفرقون﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه وعن الحسن رضي الله عنه هو تفرّق المسلمين والكافرين هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل السافلين، وعن قتادة رضي الله عنه فرقة لا اجتماع بعدها.

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا السَّالِحِينَ فَهُمْ فِي رَوْحٍ يُخَبَّرُونَ ﴿١٥﴾

﴿في روضة﴾ في بستان وهي الجنة والتذكير لإيهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء وفي أمثالهم أحسن من بيضة في روضة يريون بيضة النعامة ﴿يخبرون﴾ يسرون يقال خبره: إذا سرّه سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن مجاهد

وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فاحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾^(١) كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً، والباء في قوله: ﴿إلا بالحق﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد اشتراه وهو ملتبس بالسرّج، واللجام غير منفك عنهما وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلّت: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟ قلّت: معناه: أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتنبهوا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير بون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذي بجر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى تلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

أَوَلَمْ يَرَوْا فِي الْأَرْضِ فَنُظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَمَاءَتُمْ رُبُّهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ مَتَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَفْسَهْمَ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿أولم يسيروا﴾ تقرير لسيروهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم ﴿كانوا أشدّ منهم قوةً وأناروا الأرض﴾ وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لا تلول تثير الأرض﴾^(٢) وقيل: لبقّر الحرث المثيرة وقالوا: سمى ثوراً لإثارته الأرض وبقرة لأنها تبقرها أي: تشقها و﴿وعمروها﴾ يعني أولئك المدمرون ﴿أكثر مما عمروها﴾ من عمارة أهل مكة أهل وادي غير ذي زرع مالهم إشارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها رأساً فما هو إلا تهكم بهم وبضعف حالهم في دنياهم لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة وهم أيضاً ضعاف القوى فقوله: ﴿كانوا أشدّ منهم قوةً﴾ أي: عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل كقوله: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوةً﴾^(٣) وإن كان هذا أبلغ لأنه خالق القوى والقدر، فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم لأنّ حاله منافية للظلم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأَوْا أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٧﴾

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٥.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ .

يكونا حالين أى: خائفين وطامعين. وقرئ ينزل بالتشديد.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٧٥﴾

ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد **﴿بإمره﴾** أي بقوله: كونا قائمتين والمراد بإقامته لهما: إرابطته لكونهما على صفة القيام دون الزوال وقوله **﴿إذا دعاكم﴾** بمنزلة قوله: يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجيب الداعي المطاع مدعوه كما قال القائل:

دعوت کلیباً دعوة فکانما دعوت به ابن الطود او هو اسرع
یرید بأن الطود الصدی، أو الحجر إذا تهدى وإنما
عطف هذا على قیام السموات والأرض بثم بیاناً لعظم ما
یکون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن یقول: یا
أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولین والأخرین إلا
قامت تنتظر كما قال تعالى: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قیام
ینظرون، قولك: دعوته من مکان کذا كما یجوز أن یمکن
مکانک یجوز أن یمکن مکان صاحبک تقول: دعوت زیداً من
أعلى الجبل فنزل علیّ ودعوته من أسفل الوادی فطلع علیّ.
فإن قلّت: یم تعلق ﴿من الأرض﴾ بألف الفعل أم بالمصدر!
قلّت: مهابت إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين ﴿إِذَا﴾ و﴿إِذَاكَ﴾؟ قُلْتُ: الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط، وقريّ تخرجون بضم التاء وفتحتها.

وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿قانتون﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

وَهُوَ الَّذِي يَدْرَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٧﴾

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على
أصولكم ويقتضيه معقولكم لأنَّ من أعاد منكم صنعة شيء
كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا
خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أَوَّلُ الْغَزْوِ أُخْرَقَ
وَيَسْمُونَ الْمَاهِرَ فِي صِنَاعَتِهِ مُعَاوِدًا تَعْنُونَ أَنَّهُ عَاوِدُهَا كَرَّةً
بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى مَرَّنَ عَلَيْهَا وَهَانَتْ عَلَيْهِ.

اللسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله خالف عز
وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقتين متقنين
في همس واحد ولا جهازة ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة
ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير تلك من صفات
النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنويعها
ولا اختلاف تلك وقع التعارف وإلا فلو انفقت، وتشاكلت
وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت
مصالح كثيرة وربما رايت توأمين يشتبهان في الحلية
فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في
المخالفة بين الحلي وفي تلك آية بينة حيث ولدوا من أب
واحد وفرعوا من أصل فنوهم على الكثرة التي لا يعلمها
إلا الله مختلفون متفاوتون، وقرئ للعالمين بفتح اللام
وكسرها ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا
العالمون﴾، هذا من باب اللف وترتبه.

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ وَأَبْغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْمُونَ ﴿٢٣﴾

ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه بشيء واحد مع إعانة اللفظ على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاءكم فيهما والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن بسموعه بالأذان الواعية.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْفَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

في ﴿يُرِيكُمْ﴾ وجهان إضمار أن وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقول القائل: وقالوا: ما تشاء فقلت الله، إلى الإصباح أثر ذي أثير ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وطمعًا﴾ في الغيث وقيل: خوفًا للمسافر وطمعًا لل حاضر وبهما منصوبان على المفعول له.

فإن قُلْتُ ^(١): من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفعل الفعل المعلل والخوف والطمع ليسا كذلك! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن المفعولين فاعلون في المعنى لأنهم راؤون، فكانه قيل: يجعلكم راثين البرق خوفاً وطمعاً والثاني أن يكون على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وإرادة طمع فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن

(1) قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما، وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بد من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول معنى قول النحاة في المفعول له لا بد وإن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بد أن =

يكون الفاعل متصفاً به مثاله، إذا قلت: جئتكم إكراماً لك، فقد وصفت نفسك بالإكرام، فقلت: في المعنى جئتكم مكرماً لك، والله تعالى وإن خلق الخوف والطمع لعباده، إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعاً. والله أعلم.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: القاهر لكل مقدور الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن مجاهد المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله ومعناه وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ فَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، وقال: الزواج وله المثل الأعلى في السموات والأرض أي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل يريد التفسير الأول.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أي فرق بين ﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ﴾؟ قُلْتُ: الأولى للابتداء كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعية والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه: هل ترضون لأنفسكم وعبيبتكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء من غير تفصلة بين حرّ وعبد⁽³⁾، تهابون أن تستبدوا بتصرف بونهم وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضهم بعضاً من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير، والتشكيل لها ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَأَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِّنْ يَّهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٩﴾

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: اشرکوا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم أشرت الصلة في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلِيٌّ هَيْنَ﴾ هناك قصد الاختصاص وهو مجزؤه فقيل: هو عليّ هين وإن كان مستصعباً عنكم أن يولد بين هم وعافر وأما ههنا، فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى⁽¹⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره، ثم هونت بعد ذلك! قُلْتُ: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالمقياس إلى الإنشاء⁽²⁾ وقيل: الضمير في عليه للخلق ومعناه: أن البعث أهون على الخلق من الإنشاء؛ لأن تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبداً من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ تلك الحد وقيل: الأهون بمعنى الهين ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وإن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبح وهو رفيف المحال لأنّ الصارف يمنع وجوه الفعل كما تمنعه الإحالة وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله، وأن لا يفعله وإما واجب لا بدّ من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعداً من الامتناع كانت أدخلها في التآتي والتسهيل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به، ووصف في السموات والأرض على السنة الخلائق والسنة الدلائل وهو أنه القاهر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى:

(1) قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بنوب التبر لا بالجر، وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك. قال: في تقرير معنى قوله: وهو أهون عليه الأفعال، إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله، وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وإن لا، وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل، أما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل، وكانت أهون من الإنشاء.

(2) قال أحمد: إنما يلقي السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بثم إنذاراً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها، وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإن الإعادة نكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره وقيامهما ابتداء، وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن

= الإنشاء، ويعود الإشكال، والمخلص والله أعلم جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، وإن سلم أنها لتراخي المراتب فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه والله أعلم.

(3) قال أحمد: لقد ضل وصد عن السبيل فلا نوافقه ولا نرافقه، والحق أن لا واجب على الله تعالى، وكل ما نكره في هذا الفصل نزغات قلبية على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتنة، فإن مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضع أن المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في حضيض الاعتزال بقي فله العصمة.

لظلم عظيم^(١) «يغير علم» أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كاليهيم لا يفقه شيء «من أضل الله» من خذله ولم يلطف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله «وما لهم من ناصرين» دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَفَرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْقَتِيلُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٢)

الضرر الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك، والرحمة الخلاص من الشدة واللام في.

لِكُفْرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا وَسَوَافَ تَمْلِكُونَ^(٣)

«ليكفروا» مجاز مثلها في ليكون لهم عدوا «فتتمتوا» نظير اعملوا ما شئتم «فسوف تعلمون» وبإل تمتعكم وقرا ابن مسعود وليتمتوا.

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْتَكُم بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ^(٤)

السلطان الحجة وتكلمه مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة كانه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته، وما في «بما كانوا» مصيرية أي بكونهم بالله يشركون، ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها ومعناه: فهو يتكلم بالامر الذي بسببه يشركون ويحتمل أن يكون المعنى أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي: ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ^(٥)

«وإذا أنقنا الناس رحمة» أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة «فرحوا بها وإن تصيبهم سيئة» أي: بلاء من جرب أو ضيق أو مرض والسبب فيها شؤم معاصيهم قنطوا من الرحمة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٦)

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته.

فَتَابَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَمَ وَالْيَسِيرَ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ سَبِيلٌ لِلَّذِينَ يُبِذُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَوَلَّيْكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ^(٧)

حق ذي القربى صلة الرحم، وحق المسكين وابن

«يغير علم» أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كاليهيم لا يفقه شيء «من أضل الله» من خذله ولم يلطف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله «وما لهم من ناصرين» دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَفَرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْقَتِيلُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٢)

«فأفر وجهك للدين» فقوم وجهك له وعمله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسند إليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه «حنيفا» حال من المأمور أو من الدين «فطرت الله» أي: الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله.

مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٣)

«متتبعين إليه» ومتبیین حال من الضمير في الزموا وقوله: «واتقوه وأقيموا» «ولا تكونوا» معطوف على هذا المضمرة والفطرة الخلقة ألا ترى إلى قوله: «لا تبديل لخلق الله» والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير ناثين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوزا للعقل مساوفا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينًا آخر ومن غوى منهم فبلغوا شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم وأمرهم أن يشركوا بي غيري»^(٢) وقوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»^(٣) «لا تبديل لخلق الله» أي: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير.

فإن قلت: لم وجد الخطاب أولا ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله ﷺ أولا وخُطب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

مِنَ الَّذِينَ قَرَأُوا كِتَابَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(٤)

«من الذين» بدل من المشركين «فرحوا دينهم» تركوا دين الإسلام، وقرأ «فرحوا دينهم» بالتشديد أي: جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم «وكانوا شيعا»

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (حديث: 1358)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (الحديث: 22 - 2658).

(1) سورة لقمان، الآية: 13.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (الحديث: 63 - 2865).

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره ﴿الذي خلقكم﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال ﴿هل من شركائكم﴾ الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها ﴿من يفعل﴾ شيئاً قط من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبت إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم ويجوز أن يكون الذي خلقكم صفة للمبتدأ والخبر هل من شركائكم، وقوله ﴿من نلحكم﴾ هو الذي ربط الحملة بالمبتدأ؛ لأن معناه من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتجيز شركائهم وتجهيل عبتهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَأَنَّهُمْ رَجِعُونَ ﴿٤١﴾

﴿الفساد في البر والبحر﴾ نحو الجذب والقحط وقلة الربيع في الزراعات والرياح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار، وعن ابن عباس أجذبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا: إذا انقطع القطر عميت نواب البحر وعن الحسن أن المارد بالبحر مدن البحر وقراه التي على شاطئه وعن عكرمة العرب تسمى الأمصار البحار، وقرئ في البر والبحر ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾، وعن ابن عباس ظهر الفساد في البر يقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بان جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً، وعن قتادة كان ذلك قبل البعث فلما بعث رسول الله ﷺ رجع راجعون عن الضلال والظلم، ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ لعلهم يرجعون؟! قلت: أما على التفسير الأول فظاهر وهو أن الله قد أقسد أسباب دنياهم ومحققاً ليعاقبهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، وأما على الثاني فاللام مجاز على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكانهم إنما أقسدوا وتسببوا لفساد المعاصي في الأرض لأجل ذلك، وقرئ لنذيقهم بالنون.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأنذاهم سوء العاقبة لمعاصيهم ودل بقوله: ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم،

السبيل نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رحمه الله لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين قاس سائر القرابات على ابن العم لأنه لا ولد بينهم.

فإن قلت: كيف تعلق قوله ﴿فإن ذا لقربي﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء قلت: لما نكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم اتبعه نكر ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يترك ﴿يريدون وجه الله﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه أي: يقصدون بمعرفهم إياه خالصاً وحقه كقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾، أو يقصدون جهة التقرب إلى الله لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة.

وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن كَرْوَةٍ يُثْرِكُوا بِهِ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴿٤٣﴾

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات سواء بسواء﴾^(١) يريد وما أعطيتكم أكلة الربا ﴿من ربا ليربوا في﴾ أموالهم ليزيد ويزكو في أموالهم، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي صدقة تبتغون به وجهه خالصاً لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ نور الإضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار، وقرئ: بفتح العين وقيل: نزلت في ثقيف وكانوا يربون وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل، أو يهدي له ليعوضه أكثر مما وهب، أو أهدى فليست تلك الزيادة بحرام ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة وقالوا: الربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه، أو يجر منفعة والذي ليس بحرام أن يستدعي بهيته أو بهيته أكثر منها وفي الحديث المستغزر يثاب من هبته، وقرئ: وما آتيتم من ربا بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا وقرئ: لتربوا أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يزيدها وقوله تعالى: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه، فأولئك الذين يريدون وجه الله بصنقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون والمعنى المضعفون به لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ماء ووجه آخر وهو أن يكون تقديره، فمؤتوه أولئك هم المضعفون والحنف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذاً والأول أملاً بالفائدة.

أَلَمْ يَلْبِسْ خَلْقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُيَسِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَقُولُ مِن ذَالِكُمْ مَن نُّنِي سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾

وَأَنْ مَا بُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي يَكُونُ سَبَبًا لِّلْكَ.

قَالَ رَجُلٌ لِّلَّذِينَ الْفَقِيرُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ (١٣).

القيم البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج **«مَنْ اللَّهِ»** إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِبَيِّنَاتٍ فَيَكُونُ الْمَعْنَى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ لَا يَرُدُّهُ أَحَدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **«فَلَا يَسْتَطِيعُونَ»** رَدُّهَا أَوْ بَمَرَدٍّ عَلَى مَعْنَى، لَا يَرُدُّهُ هُوَ بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ بِهِ وَلَا رَدُّ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ، وَالْمَرَدُّ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى: الرَّدُّ **«يُصْعَقُونَ»** يَتَصَدَّعُونَ أَيْ يَتَفَرَّقُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **«وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ»** (١).

مَنْ كَثُرَ فَعَلَيْهِ كَثُرَتْ وَنَّ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ يَهْدُونَ (١٤).

«فَعَلَيْهِ كَفَرَهُ» كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ ضَارَهُ كَفَرَهُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ كُلُّ مُضَرَّةٍ **«فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ»** أَيْ: يَسُوُونَ لِنَفْسِهِمْ مَا يَسُوِيهِ لِنَفْسِهِ الَّذِي يَمْهَدُ فَرَّاشَهُ، وَيُوْطِنُهُ لِنَلَا يَصِيبُهُ فِي مُضْجِعِهِ مَا يَنْبِيهِ عَلَيْهِ وَيَنْقُصُ عَلَيْهِ مَرْقَدَهُ مِنْ نَتْوٍ أَوْ قَضَضٍ أَوْ بَعْضٍ مَا يُؤْذِي الرَّاقِدَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ، فَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَشْفِقُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْمَشْفِقِ أَمْ فَرَشَتْ فَنَامَتْ وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ضَرَرَ الْكَفْرِ لَا يَعُودُ إِلَّا عَلَى الْكَافِرِ لَا يَتَعَدَّاهُ وَمَنْعَةُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ تَرْجِعُ إِلَى الْمُؤْمِنِ لَا تَتَجَاوَزُهُ.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَعْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (١٥).

«لِيَجْزِيَ» متعلق بـ **«يَمْهَدُونَ»** تعليل له **«مَنْ فَضْلُهُ»** مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب وهذا يشبه الكناية لِأَنَّ الْفَضْلَ تَبِعَ لِلثَّوَابِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ حَصُولِ مَا هُوَ تَبِعُ لَهُ أَوْ أَرَادَ مِنْ عَطَائِهِ وَهُوَ ثَوَابُهُ؛ لِأَنَّ الْفَضُولَ وَالْفَوَاضِلَ هِيَ الْأَعْلَى عِنْدَ الْعَرَبِ، وَتَكَرَّرَ **«الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»** وَتَرَكَ الضَّمِيرَ إِلَى الصَّرِيحِ لِتَقْرِيرِ أَنَّهُ لَا يَفْلَحُ عِنْدَهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُ وَالصَّالِحُ، وَقَوْلُهُ: **«إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»** تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس.

وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْتَزَّةً وَيَذْبُكُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ أَفْئُلُكُمْ بِأَمْرِهِ وَلِتَنْتَفِرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِكُلِّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٦).

«الرِّيحَ» هي الجنوب والشمال والصبأ وهي رياح الرحمة، وَأَمَّا الدُّبُورُ فَرِيحُ الْعَذَابِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا» (٢)، وَقَدْ عُنِدَ الْأَغْرَاضِ فِي إِرْسَالِهَا وَأَنَّهُ أُرْسِلَتْ لِلْبَشَارَةِ بِالْغَيْثِ وَالْإِذَاقَةِ بِالرَّحْمَةِ وَهِيَ

نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الرياح وزكاء الأرض قال رسول الله ﷺ: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض (٣) وإزالة العفونة من الهواء وتنرية الحبوب وغير ذلك، **«وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ»** في البحر عند هبوبها. وإنما زاد **«بِأَمْرِهِ»** لِأَنَّ الرِّيحَ قَدْ تَهَبَ، وَلَا تَكُونُ مُؤَاتِيَةً فَلَا يَدُّ مِنْ إِرْسَاءِ السَّفِينِ وَالْإِحْتِيَالِ لِحَبْسِهَا وَرَبِمَا عَصَفَتْ فَأَغْرَقَتْهَا **«وَلِتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ»** يريد تجارة البحر، ولتشكروا نعمة الله فيها.

فَإِنْ قُلْتُ: بِمَ يَتَعَلَّقُ وَلِيُنْقِصَكُمْ؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى مَبْشَرَاتٍ عَلَى الْمَعْنَى كَأَنَّهُ قِيلَ: لِيُبَشِّرَكُمْ وَلِيُنْقِصَكُمْ، وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحْنُوفٍ تَقْدِيرُهُ وَلِيُنْقِصَكُمْ وَلِيَكُونَ كَذَا وَكَذَا أُرْسَلَتْهَا اخْتَصَرَ الطَّرِيقَ إِلَى الْغَرَضِ بِأَنْ أُدْرَجَ تَحْتَ نَكْرُ الْإِنْتِصَارِ وَالنَّصْرِ نَكْرُ الْفَرِيقَيْنِ، وَقَدْ أَخْلَى الْكَلَامُ أَوَّلًا عَنْ نَكْرِهِمَا وَقَوْلِهِ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا لِكُلِّ قَوْمٍ فَأَخَذْتُمْ فَأَخَذْتُمْ فَأَخَذْتُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١٧).

«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» تعظيم للمؤمنين ورفع من شأنهم وتأهيل لكرامة سننية وإظهار لفضل سابقة ومزية حيث جعلهم مستحقين على الله أَنْ يَنْصُرَهُمْ مُسْتَوْجِبِينَ عَلَيْهِ أَنْ يَظْهَرَهُمْ وَيُظْفِرَهُمْ، وَقَدْ يَوْقِفُ عَلَى حَقًّا وَمَعْنَاهُ وَكَانَ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ حَقًّا ثُمَّ يَبْتَدَأُ عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عَرَضٍ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤) ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: **«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ»**.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تَنْفِثُ سَحَابًا يَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ شَيْءٍ نَقْرًا أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْوَدَّ يَخْرُجُ مِنْ غُلَّتِهِ فَإِذَا أَصَابَ يَدَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٨).

«فَيَسْطُرُهُ» متصلًا تارة **«وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا»** أي قطعًا تارة **«فَيُفْثِرُ الْوَدَّ»** يخرج من خلاله، في التارتين جميعًا والمراد بالسما سم السماء وشقها كقوله تعالى: **«وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ»**، وبإصابة العباد إصابة بلادهم وأراضيهم.

وَلَنْ كَاثُرًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُلُوكٌ (١٩).

«مِنْ قَبْلِهِ» من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: **«فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا»** (٥).

ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم ياسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتنامهم بذلك.

(١) سورة الروم، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه أبو يعلى، (الحديث رقم: 2456).

(٣) قال الزيلعي غريب، 60/3.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٧.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذنب عن عرض المسلم (الحديث رقم: 1931)، وأحمد في المسند 449/6.

ضعافاً وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة وتلك حال القوة إلى الاكتهال وبلوغ الأشد، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم وقيل: من ضعف من النطف كقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ﴾⁽²⁾ وهذا التردد في الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخَسِّرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ⁽³⁾.

﴿السَّاعَةُ﴾ القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة كما تقول: في ساعة لمن تستعجله وجرت علماً لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة، وأرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث وفي الحديث ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون قالوا: لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة⁽³⁾ وذلك وقت يقنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقدرُونَ وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم أو ينسون أو يكدبون أو يخمنون ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي مثل ذلك الصنف كانوا يصرفون عن الصلوة والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبينون أمرهم على خلاف الحق، أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

وَقَالَ الَّذِينَ أُرُواْ أَوَّلَ مَا لَآلِئَهُمْ فِي كَيْفِ أَنَّى إِلَهِ الْيَوْمِ
الْبَعِثْ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁽⁴⁾.

القائلون هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ﴿وفي كتاب الله﴾ في اللوح أو في علم الله وقضائه أو فيما كتبه أي أوجبه بحكمته ربوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق وتباعه.

فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَدْرَدُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَرُونَ⁽⁵⁾.

فإن قللت: ما هذه الفاء وما حقيقتها قللت: هي التي في قوله، فقد جئنا خراساناً، وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وأن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث، فهذا يوم البعث أي: فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث بالتحريك ﴿لا ينفع﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يستعبرون﴾ من قولك: استعبرني فلان فأعنته أي: استرضاني فأرضيته وذلك إذا

فَانْظُرْ إِلَى مَائِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُتَّقِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽⁶⁾.

قرئ: أثر وأثار على الوحدة والجمع وقرأ أبو حيوه وغيره كيف يحيي أي الرحمة ﴿إن ذلك﴾ يعني: أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من المقدرات قادر وهذا من جملة المقدرات بلبيل الإنشاء ﴿فراوه﴾ فراوا أثر رحمة الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّاهُ مُضْغَرًّا لَّطَلُواْ مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ⁽⁷⁾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ إِذَا لَوَّاْ مَائِرِينَ⁽⁸⁾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْمُتَنَبِّهِينَ إِنْ سَمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمَعُونَ⁽⁹⁾.

ولئن هي اللام الموطئة للقسم بخلت على حرف الشرط و﴿لظلوا﴾ جواب القسم سد مسد الجوابين أعني جواب القسم وجواب الشرط ومعناه: ليظللنهم الله تعالى بانه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أنقانهم على صنوبرهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فاضرب زروعهم بالصغار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، ففطنوا وأن يشكروا نعمته ويحمدهوا عليها فلم يزيوا على الفرح والاستبشار وأن يصبروا على بلائه، فكفروا والريح التي اصفرت لها النبات يجوز أن تكون حروفاً وحرَجفاً، فكلتاها مما يصوح له النبات ويصبح هشيماً وقال مصفراً؛ لأن تلك صفرة حادثة وقيل: فراوا السحاب مصفراً لأنه إذا كان كذلك لم يمطر. قرئ: بفتح الضاد وضمها وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قرأتها على رسول الله ﷺ من ضعف فاقتراني من ضعف⁽¹⁾.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخَافُ مَا يُنَادُّهُ أَلْمِيزُ الْفَقِيرُ⁽¹⁰⁾.

وقوله: ﴿خلقكم من ضعف﴾ كقوله: خلق الإنسان من عجل يعني: أن أساس أمركم وما عليه جبلتم وبنيتكم الضعف وخلق الإنسان ضعيفاً أي: ابتدأنكم في أول الأمر

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزمر، باب: «ونفتح في الصور قصصاً»، (الحديث رقم: 4814)، ومسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفتين (الحديث رقم: 141 - 1955).

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الروم (الحديث رقم: 2936) وأبو داود في كتاب: الحروف والقراءات (الحديث رقم: 3978).

(2) سورة السجدة، الآية: 8.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان مكية

الزَّ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذي الحكمة أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد. هَذِي وَرَحْمَةً لِّلْمُتَّصِينَ ٣ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥.

﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ﴿للمحسنين﴾ للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الاعمي: الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعاً حكى عن الاعمي أنه سئل عن الاعمي فأنشده ولم يزد أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها، اللهم كل باطل الهوى عن الخير وعما يعني.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦.

﴿ولهو الحديث﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وقصص الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتعلم الموسيقى وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فانا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وإن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن»^(٢) وعنه ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر

كنت جانيًا عليه، وحقيقة اعتبته أثلت عتبه ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فاعتبروا بالصيلم كيف جعلهم غضاباً، ثم قال فاعتبوا أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب، والمعنى لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى: ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله أي يسأله إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته ﴿ولقد﴾ وصفنا لهم كل صفة كانها مثل في غرابتها.

وَلَقَدْ صَرَّتْ لِالنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّقَالُوا آلَيْنَ كَفَرُوا إِنَّ أَشْرَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٨.

وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومع أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨.

ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة ومعنى طبع الله منع الإطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه، ولا تغني عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو، ولا تنجح فيه فوق ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها فكانه قال: كذلك تقسو وتصدا قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

فَأَسْرِ إِنَّ رَعَدَ اللَّهُ صَوًى وَلَا يَسْمَعَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠.

﴿فأصبر﴾ على عدائهم ﴿إن وعد الله﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله ﴿حق﴾ لا بد من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك وقرئ: بتخفيف النون، ﴿قرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب ولا يستحقنك أي: لا يفتنك فيملوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبى الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»^(١).

(١) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 63/3. = المغنيات (الحديث رقم: 1282)، وأحمد في المسند 5/264.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع=

الاولى حال من ﴿مستكبراً﴾ والثانية من ﴿لم يسمعها﴾ ويجوز أن تكونا استثنافين والأصل في كان المخففة كانه والضمير ضمير الشأن.

خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران مؤكدان الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره لأن قوله لهم: جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقاً فدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعاً قوله لهم: جنات النعيم ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه يقنر على الشيء وضده فيعطي النعيم من شاء واليؤس من شاء وهو ﴿الحكيم﴾ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَمَرُّ عَمَرٍ زَوْنًا وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَيْسَ أَنْ تَوَيْدَ يَكْمُ وَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾.

﴿ترونها﴾ الضمير فيه للسّموات، وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾ كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف ولا رمح تراني.

فإن قلّت: ما محلها من الإعراب؟ قلّت: لا محل لها لأنها مستأنفة أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي بغير عمد مرثية يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته.

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ مَا رَأَوْفَ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾.

والخلق بمعنى المخلوق و ﴿الذين من دونه﴾ آلهتهم بكتّهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه فاروني ماذا خلّفته آلهتهم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم اضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٩﴾.

هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل: كان من أولاد أزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل: مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقبل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان راعياً أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا

على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بارجلهما حتى يكون هو الذي يسكت^(١) وقيل: الغناء منغدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب.

فإن قلّت: ما معنى إضافة الله إلى الحديث! قلّت: معناه التبيين وهي الإضافة بمعنى من وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقولك: صفة خز وباب ساج والمعنى من يشتري الله من الحديث؛ لأن الله يكون من الحديث، ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش^(٢)، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعية كانه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو الله منه، وقوله: يشتري إما من الشراء على ما روي عن النضر من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان وأما من قوله: اشتروا الكفر بالإيمان أي: استبدلوه منه واختاروه عليه وعن قتادة اشتراؤه استحبابه يختار حديث الباطل على حديث الحق وقرئ: ﴿ليضل﴾ بضم الياء وفتحها و﴿سبيل الله﴾ دين الإسلام أو القرآن.

فإن قلّت: القراءة بالضم بيّنة لأن النضر كان غرضه باشتراء الله أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح؟ قلّت: فيه معنيان: أحدهما لبثت على ضلاله الذي كان عليه ولا يصلف عنه ويزيد فيه ويمده فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه والثاني: أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة فدل بالربيف على المردوف.

فإن قلّت: ما معنى قوله ﴿بغير علم﴾؟ قلّت: لما جعله مشترياً لله الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتئين﴾ أي: وما كانوا مهتئين للتجارة بصراء بها، وقرئ: ﴿ويتخذها﴾ بالنصب والرفع عطفاً على يشتري أو ليضل والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة كقوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾.

وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِمْ أَيْبَاؤُهُمْ أَنْ تَسْمَعُوا كَمَا يَتْلَى فِي آذَانِهِمْ وَقَدْ قَرَّبُوا بَعْثًا أَلَيْسَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ جَنَّتْ أَلَيْسَ ﴿١٠﴾.

﴿ولئى مستكبراً﴾ زاماً لا يعبا بها ولا يرفع بها رأساً. تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كان في آذنيه وقرأ﴾ أي ثقلاً ولا قر فيهما وقرئ: بسكون الذال.

فإن قلّت: ما محل الجملتين المصدرتين بكان! قلّت:

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(1) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما لا يحل بيعه (الحديث رقم: 2168)، رواه الطبراني وأبو يعلى.

وَأَتَيْتُ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

أي ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهنا على وهن﴾ كقولك: رجع عودًا على بدء بمعنى يعود عودًا على بدء وهو في موضع الحال، والمعنى: أنها تضعف ضعفًا فوق ضعف أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلًا وضعفًا، وقرئ: ﴿وهنا على وهن﴾ بالتحريك عن أبي عمر ويقال: وهن يوهن ووهن يهن وقرئ: ﴿وفصله﴾ ﴿وان اشكر﴾ تفسير لوصينا.

﴿ما ليس لك به علم﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء⁽²⁾ يريد الأصنام كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من بونه من شيء﴾⁽³⁾ ﴿معروفًا﴾ صاحبًا أو مصاحبًا معروفًا حسنًا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ يريد واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهم في الدنيا، ثم إلي مرجعك ومرجعهم فاجازيك على إيمانك وأجازيهم على كفرهم علم بذلك حكم الدنيا، وما يجب على الإنسان في صحبتهم ومعاشرتهم من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه وما لهما من الموابج التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة وروي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه وفي القصة أنها مكثت ثلاثًا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاما بعور وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفسًا فخرجت لما ارتدت إلى الكفر.

فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قلت: فقوله: ﴿حملته أمه وهنا على وهن وفصله في عامين﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين نكر ما تكابده الأم وتعانين من المشاق والمتاعب في حمله وفصله هذه المدة المتطاوله إيجابًا للتوصية بالوالدة خصوصًا وتنكيرًا بحققها العظيم مفردًا⁽⁴⁾ ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟ أمك، ثم أمك ثم أمك، ثم قال: بعد ذلك ثم: «أباك»⁽⁵⁾ وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في

بوصيته وقال عكرمة والشعبي: كان نبيًا وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة⁽¹⁾ وعن ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطًا وعن مجاهد كان عبدًا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين، وقيل: كان نجارًا وقيل: كان راعيًا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة وعنه أنه قال: لرجل ينظر إليه إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض، وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألسنت الذي ترى ترعى معي في مكان كذا قال: بلى قال: ما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني وروي أنه نخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأنكرته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها، وقال: نعم، لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود: بحق ما سميت حكيمًا وروي أن مولاه أمره بنبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين، فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما: أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان ﴿إن﴾ هي المفسرة لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله، والشكر له حيث فسّر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غنى﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حميد﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

وَلَوْ قَالَ لَقَدْ لَاتِيَهُ وَهُوَ بِعَظْمٍ يَبْنَىٰ لَا شَرِكَ لِلَّهِ إِنَّكَ أَتَرَكُ لَظْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

قيل كان اسم ابنه اتعم وقال الكلبي: اشكم وقيل: كان ابنه وامراته كافرين فما زال بهما حتى أسلما ﴿الظلم عظيم﴾ لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أُمًّا وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا

= البر والصلة، (الحديث رقم: 5971)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، والأب، باب: بر الوالدين، (الحديث رقم: 3548/1).

(4) قال أحمد: هو من باب قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي ما ليس بالله فيكون لك علم بالإلهية، وليس كما نكره في قول فرعون: ما علمت لكم من إله غيري، وقد من معناه فيما تقدم.

(5) قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: أن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جله، وهو مما يفيد تأكيد حقها والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا بعد بين وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة وقطرة من بحرهما، وأعلى درجات الحكمة تنحط عن أنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره، وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، (الحديث رقم: 5139)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في بر الوالدين، (الحديث: 1897)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: =

حدائه بنفسه:

أحمل أمي وهي الحماله ترضعني الدرة والعلاله
ولا يجازي والدفعاله

فإن قلْتُ: ما معنى توقيت الفصال بالعامين! قلْتُ: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهد الأم إن علمت أنه يقوي على الطعام فلها أن تطفمه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾⁽¹⁾ وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه فمدة الرضاع ثلاثون شهراً وعن أبي حنيفة إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام، ثم أرضعته لم يكن رضاعاً وإن أكل أكلاً ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته فهو رضاع محرم.

يَبْنِيْ اِيَّاهُ اِنْ تَلَكَ شَقَالٌ حَرَمٌ مِّنْ حَرَمٍ فَتَكُنْ فِيْ سَخَرَةٍ اَوْ فِيْ اَلْسَمَكُوْنِ اَوْ فِيْ اَلْاَرْضِ يَبْنِيْ بِهَا اَللّٰهُ اِنْ اَللّٰهُ لَیْلِيْ خَيْرٌ ﴿١٧﴾

قري: ﴿منقال حبة﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر والقماء كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة⁽²⁾، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يات بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خبير﴾ عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها، ومن قرأ بالرفع كان ضمير القصة وإنما أنت المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال. كما شرقت صدر القناة من الدم، وروي أن ابن لقمان قال له: أرايت الحبة تكون في مقل البحر أي في مغاصه يعلمها الله فقال: إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض وهي السَّجِّين يكتب فيها أعمال الكفار، وقري: فتكن بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر في وكنته وهي مقره ليلاً.

يَبْنِيْ اَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَاَمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنْ ذٰلِكَ مِنْ عِزِّ الْاُمُوْر ﴿١٨﴾

﴿واصبر على ما أصابك﴾، يجوز أن يكون عاماً في

كل ما يصيبه من المحن وإن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أُمر به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أذى من يبعثهم إلى الخير وينكر عليهم الشر ﴿إن ذلك﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»⁽³⁾ أي لم يقطعه بالنية إلا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام»⁽⁴⁾ ومنه: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» وقولهم: عزمة من عزومات ربنا ومنه عزومات الملوك، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده عزمت عليك إلا فعلت كذا إذا قال: ذلك لم يكن للعزم عليه بد من فعله، ولا مندوحة في تركه وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من عزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ويجوز أن يكون مصدرًا في معنى الفاعل أصله من عزومات الأمور من قوله تعالى: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ كقولك: جد الأمر وصَلِّ القتال وناهيك بهذه الآية مؤننة يقدم هذه الطاعات وأنها كانت مأموراً بها في سائر الأمم وإن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موصى بها في الأديان كلها.

وَلَا تُصِرَّ عَلٰىكَ النَّاسُ وَلَا تَمِشْ فِيْ اَلْاَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اَللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٩﴾

تصاعر وتصعر بالتشديد والتخفيف يقال: أصعر خده وصعره وصاعره كقولك: أعلاه وعلاه وعلاه بمعنى والصعر والصيد داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون. أراد ﴿ولا تمش﴾ تمرح ﴿ومرحاً﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحاً، ويجوز أن يريد ولا تمش لأجل المرح والأشر أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك لا لكفاية مُهم يعني، أو دنوي ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورءاء الناس﴾⁽⁵⁾ والمختال مقابل للماشي مرحاً وكذلك الفخور للمصعر خده كبيراً.

وَأَقْصِدْ فِيْ مَشِيْكَ وَأَعْصُصْ مِنْ سَوِيْكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ لَقِيْرِ ﴿٢٠﴾

﴿واقصد في مشيك﴾، وأعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين لا تدب بيبب المتماوتين ولا تثب وثيب الشطار قال رسول الله ﷺ: سرعة المشي تذهب بها المؤمن⁽⁶⁾

= لمن لم يعزم من الليل (الحديث: 730) وأخرجه النسائي في كتاب: الصيام، باب: نكر اختلاف الناقلين (الحديث: 2330) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: ما جاء في فرض الصوم (الحديث: 1700).

(5) سورة الانفال، الآية: 47.

(6) رواه أبو نعيم في الحلية 290/10.

(1) سورة البقرة، الآية: 233.

(2) قال أحمد: يعني: أنه تم خفائها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من ود قولها كأنه علم في رأسه نار.

(3) نكره الزيلعي في «نصب الراية» (433/2).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: النية في الصيام (الحديث: 2454) وأخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء لا صيام

ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه.

فإن قلَّت: فما معنى الظاهرة والباطنة قلَّت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها وقد أكثروا في ذلك فعن مجاهد الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة وعن الحسن رضي الله عنه الظاهرة الإسلام والباطنة الستر، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروي في دعاء موسى عليه السلام إلهي بلني على أخفى نعمتك على عيالك، فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس ويروي أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس⁽²⁾.

وإذا قيل لم أتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا على آبائنا أولر كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير^(٣).

معناه (أ) يتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ^(٤).

قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ومن يسلم» بالتشديد يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله.

فإن قلَّت: ماله عدي بلى وقد عدى باللام في قوله بلى من أسلم وجهه لله قلَّت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله أي خالصاً له ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه «فقد استمسك بالعروة الوثقى» من باب التمثيل مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتبلى من شاقق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه «والى الله عاقبة الأمور» أي هي صائرة إليه.

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُوهٖ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُعَذِّبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنْ أَنَا إِلَهُمُ يَئَاتِ السُّدُورِ^(٥).

قري يحزنك ويحزنك من حزن وأحزن والذي عليه الاستعمال المستفيض أحزنه ويحزنه، والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيدته للإسلام فإن الله عز وجل دافع كيدته في نحره ومنقته منه ومعاقبه على عمله «إن الله» يعلم

وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع^(١) فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن بيب المتماوت، وقرئ: «واقصد» بقطع الهمزة أي: سدد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية «واقضض من صوتك» وانقص منه واقتصر من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه «انكر الأصوات» أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل في الذم والبلغ والشتيمة وكذلك نهائه ومن استفحاشهم لنكره مجرداً وتفايهم من اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأنين كما يكنى عن الأشياء المستقنرة وقد عد في مساوي الأدب أن يجري نكر الحمارة في مجلس قوم من أولى المروءة، ومن العرب لا يركب الحمارة استنكافاً، وإن بلغت منه الرحلة فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقاً مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التشبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه وتنبيهه على أنه من كراهة الله بمكان.

فإن قلَّت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؛ قلَّت: ليس المراد أن ينكر صوت كل واحد من أحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وانكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ^(٦).

«وما في السموات» الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك «وما في الأرض» البحار والأنهار والمعادن والنبات، وما لا يحصى «واسبغ» وقرئ: بالسين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول: في سلخ سلخ وفي سقر سقر وفي سالخ سالخ وقرئ: نعمه ونعمة ونعمته.

فإن قلَّت: ما النعمة؛ قلَّت: كل نفع قصد به الإحسان والله تعالى خالق العالم كله نعمة؛ لأنه إما حيوان وإما غير حيوان فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان من حيث أن إيجاده حياً نعمة عليه لأنه لولا إيجاده حياً لما صح منه الانتفاع وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة.

فإن قلَّت: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان؛ قلَّت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض وإلا كان عبثاً والعبث لا يجوز عليه،

(2) قال الزيلعي غريب جداً 77/3.

(1) قال الزيلعي غريب، وفي النهاية لابن الأثير، عن عائشة: كان عمر

إذا مشى أسرع... وعن ابن سعد عن الشفاء بنت عبد الله 76/30.

ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه.

نُفِثَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَظَرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

﴿نُفِثَهُمْ﴾ زمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ بنيناهم ﴿ثُمَّ نَضَظَرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطراب المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه^(١) والغلط مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذب.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ألزم لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنَّ تلك يلزمهم وإذا نهبوا عليه لم ينتهبوا.

لَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد وإن لم يحمده.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَذَبَتْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

قري: ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفًا على اسم إن وبالرفع عطفًا على محل إن ومعمولها على ولو ثبت كون الأشجار أقلامًا وثبت البحر ممدودًا بسبعة أبحر، أو على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودًا وفي قراءة ابن مسعود وبحر يمدّه على التكرير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول. وقرئ يمدّه ويمدّه وبالتاء والياء.

فإن قلَّت: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد قلَّت: أغنى عن نكر المداد قوله: يمدّه لأنه من قولك مدّ الدواة وأمدّها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادًا فهي تصب فيه مدادها أبدًا صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾^(٢).

فإن قلَّت: زعمت أن قوله والبحر يمدّه حال في أحد

وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال قلَّت: هو كقوله: وقد اغتدى والطير في وكناتها، وجئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف ويجوز أن يكون المعنى وبحرها والضمير للأرض.

فإن قلَّت: لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلَّت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا قد بريث أقلامًا.

فإن قلَّت: الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثرير لا التقليل، فهلا قيل كلم الله! قلَّت: معناه: إن كلماته لا تفي بكتبته البحار فكيف بكلمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت جوابًا لليهود لما قالوا قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة وقيل: إن المشركين قالوا: إن هذا يعنون الوحي كلام سينفذ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ وهذه الآية عند بعضهم مندية وأنها نزلت بعد الهجرة وقيل: هي مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله ﷺ ألسنت تتلوا فيما أنزل عليك إنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء ومثله لا تنفذ كلماته وحكمه.

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيِيكُمْ إِلَّا ذِكْرُ نَارٍ وَاجِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

﴿إلا كنفس واحدة﴾ إلا كخلقها وبعثها أي سواء في قدرته القليل والكثير. الواحد والجمع لا يتفاوت وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفس الكثيرة العدد أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل وقد تعالى عن ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل صوت، ويبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذاك الخلق والبعث.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر وعن الحسن الأجل المسمى يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ دل أيضًا بالليل والنهار وتعاقيهما وزياتهما ونقصانهما، وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع

= إخبار عن اضطراب وبازيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول: يرون الموت قداما وخلفا فيختارون الموت اضطراب

(2) سورة الكهف، الآية: 109.

(1) قال أحمد: وتفسير هذا الاضطراب في الحديث في أنهم لشدة ما يكابنون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير، فيكون عليهم كشدة الالهب، فيتمنون عود الالهب اضطراباً، فهو =

أعمال الخلق على عظم قدرته وحكمته.

فإن قلْت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى
أهو من تعاقب الحرفين! قلْت: كلا ولا يسلك هذه الطريقة
إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء
والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن
قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه،
وقولك: يجري لأجل مسمى تريد يجري لإدراك أجل
مسمى تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى ألا ترى
أن جري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص
بآخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذلك﴾
الذي وصف من عجائب قدرته، وحكمته التي يعجز عنها
الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي تدعونه من
دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأن من
نونه باطل الإلهية.

ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمَلِكُ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

﴿وأن الله هو العلي﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان أو
ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو
الحق وأن لها غيره باطل وأن الله هو العلي الكبير عن أن
يشرك به.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ أَتْلَكَ تَجْرِي فِي الْخَبَرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قرئ: ﴿الفلك﴾ بضم اللام، وكل فُعل يجوز فيه فُعل
كما يجوز في كل فعل فعل على مذهب التعويض،
وبنعمات الله بسكون العين وعين فعلات يجوز فيها الفتح
والكسر والسكون ﴿بنعمة الله﴾ بإحسانه ورحمته
﴿صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا
المؤمن فكأنه قال: إن في تلك آيات لكل مؤمن.

وَلَمَّا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَاطِلٌ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ
إِلَ الْبَرِّ فَبِهِمْ مُقْسِدٌ وَمَا يَجِدُ بَيْنَهُمْ وَإِلَهُهُ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفِيرٍ
﴿٣٢﴾ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ أَثْوَى رِيحِهِمْ وَأَخْفَى بَوَا لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا
مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئاً إِنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ
الْحَيَوَاتُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظل والظلة كل ما
أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، وقرئ كالظلال جمع
ظلة كقطة وقلال ﴿فمنهم مقتصد﴾ متوسط في الكفر

والظلم خفض من غلوائه وانزجر بعض الانزجار أو مقتصد
في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني: أن ذلك
الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد
قليل نادر، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في
البحر والختر أشد الغرر ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً
من غدر إلا مددنا لك بأعما من ختر قال:

وانك لو رأيت أبا عمير ملأت يسبك من غدر وختر
﴿لا يجزى﴾ لا يقضي عنه شيئاً ومنه قيل: للمتقاضي
المتجازي وفي الحديث في جذاعة بن نيار تجزى عنك
ولا تجزى عن أحد بعك^(١).

وقرئ لا يجزئ لا يغنى يقال: أجزاء عنك مجزأ فلان
والمعنى: لا يجزى فيه، فحنف ﴿الغرور﴾ الشيطان وقيل
الدنيا وقيل تمنيكم في المعصية المغفرة وعن سعيد بن
جبير رضي الله عنه الغرة بالله أن يتمادى الرجل في
المعصية، ويتمنى على الله المغفرة وقيل: نكرت لحسناتك
ونسياك لسيئاتك غره وقرئ بضم الغين وهو مصدر غره
غروراً وجعل الغرور غاراً كما قيل: جدّ جدّه أو أريد زينة
الدنيا لأنها غرور.

فإن قلْت: قوله: ﴿ولا مولود هو جاز عن والده
شيئاً﴾، وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو
معطوف عليه؟ قلْت: الأمر كذلك لأن الجملة الإسمية أكد
من الفعلية وقد انضم إلى تلك قوله هو وقوله مولود
والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين^(٢)
وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر، وعلى الدين الجاهلي
فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن يتفوقوا آباءهم
في الآخرة وأن يشفعوا لهم، وأن يغفوا عنهم من الله شيئاً
فلذلك جيء به على الطريق الأكّد ومعنى التوكيد في لفظ
المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأبنى الذي ولد منه
لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده؛ لأن
الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن
ولد منك.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا
تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

روى أن رجلاً من محارب، وهو الحرث بن عمرو بن
حارثة أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أخبرني عن
الساعة متى قيامها، وإني قد أقيت حباتي في الأرض وقد
أبطأت عنا السماء فمتى تمطر وأخبرني عن امرأتي فقد
اشتعلت ما في بطنها أنكر أم أنثى وإني علمت ما

(2) نكره الوليدي في أسباب النزول ص: 196.

(1) تقدم في البقرة رقم (49).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة مكية

التر ١.

﴿لَمَّا﴾ على أنها اسم السورة مبتدا خبره.

تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢.

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتدا محذوف، أو هو مبتدا خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلا من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنِ تَذَكَّرُونَ مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣.

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق﴾ من ربك، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهزمة إنكارا لقولهم وتعجيبا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلة صحيحة جامعة قد احتترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احتترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قلنا: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم افتراه! قلنا: معنى لا ريب فيه أن لا مسخ للريب في أنه تنزيل الله! لأن نافي الريب ومميطة معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزا للبشر

علمت أمس فما عمل غدا وهذا مولدي قد عرفته فاين أموت^(١)، فنزلت وعن النبي ﷺ مفاتيح الغيب خمس وتلا هذه الآية^(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأمله في النار وعن المنصور أنه أهمة معرفة مدة عمره فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمس أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساها ﴿ويُنزل الغيث﴾ في إبانته من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوز به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أنكر أم أنثى أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غدا﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيرا ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حشنتها به ظنونها وروى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان نوام نظري إليه تعجبا منه لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عنك^(٣) وجعل العلم لله والدرية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن عملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عدهما أبعد، وقرئ بآية أرض وشبهه سبويه تانيث أي بتانيث كل في قولهم كلتهن عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا عشرا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر^(٤).

= الوقوع: لأن الله حضه عليه في الدنيا كان جديرا بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس فهذا جواب كاف شاف للعليل إن شاء الله تعالى.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: «إن الله عنده علم الساعة...» (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن أبي شيبة 205/13، كتاب: الزهد، باب: كلام سليمان.

(4) نكره الثعلبي والواحدي وأبن مريويه في التفسير 79/3.

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصا بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الولد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الولد منظون =

وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة، وقرأ ابن أبي عبلة يعرج على البناء للمفعول.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ (٧).

وقرئ: ﴿يعدون﴾ بالتاء والياء ﴿أحسن كل شيء﴾ حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي: يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان، وقرئ خلقه على البذل أي أحسن فقد خلق كل شيء وخلقه على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسنه.

ثُمَّ جَعَلْنَا مِن مَّلَكٍ مِن مَّاوًى مَّهِينٍ (٨).

سميت الذرية نسلًا لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل.

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِي وَجَعَلْنَا لَكُمُ الْبَصَرَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩).

﴿وسواه﴾ قومه كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾ (٣)، ودلّ بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ (٤) الآية كانه. قال ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

وَقَالُوا أَوَآدَا صَلَّيْنَا فِي الْأَرْضِ أَمَّا لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفُورُونَ (١٠).

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله اسند إليهم جميعًا، وقرئ أئنا وأنا على الاستفهام وتركه. ﴿ضللتنا﴾ صرنا ترابًا وزهبننا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿في الأرض﴾ باللفظ فيها من قوله، وأب مضلوه بعين جلية،

ومثله أبعد شيء من الريب وأما قولهم افتراه فلما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل بقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما اتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله: ﴿ما أنذر أبائهم﴾ (١) وذلك أن قريشًا لم يبعث الله إليهم رسولًا قبل محمد ﷺ.

فإن قلّت: فإذا لم ياتهم نذير لم تقم عليهم حجة قلّت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا وأما قيامها بمعرفة الله وترحيده وحكمته، فنعم لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان (٢) ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان أن يكون على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

فإن قلّت: ما معنى قوله.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يَذِيرُ الْأَمْرَ مَنَ أَسْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَلَامُ الْكُتُبِ وَاللَّهْدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦).

﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ قلّت: هو على معنيين أحدهما: انكم إذا جاوزتم رضاه لم تجلوا لأنفسكم وليًا أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم، والثاني: أن الله وليكم التي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي: ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ فإذا خنلكم لم يبق لكم ولي ولا نصير ﴿الأمر﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مبسرًا ﴿من السماء إلى الأرض﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه تلك المأمور به خالصًا كما يريد ويرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره قليلًا ما تشكرون أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال: وإن يومًا عند ربك كآلف سنة مما تعدون ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر، ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضًا ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع، وما نكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل، وقد مجها السمع فلم يبيح بها القلم فاعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره، وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم، كآبيهم إسماعيل

= وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿ما اتاهم من نذير﴾ يعني: ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلفظ الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولًا منهم.

(3) سورة التين، الآية: 4.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

الموجود المقطوع به في تحقيقه ولا يقدر لترى ما يتناولوه كانه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذا ظرف له، يستغيثون بقولهم ﴿ربنا ابصرنا وسمعنا﴾.

فلا يغاثون يعني ابصرنا صدق وعك وويعيك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عمياً وصماً فابصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا.

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستجابوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله:

فَذُوقُوا يَمَا كَيْسَتْ لِقَاءَ رِيبِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ ذُوقُوا عَذَابَ الْخَالِدِ يَمَا كَثُرَتْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل نوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العقابة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها والمراد بالنسيان خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات اذهلكم والهالك من تذكر العقابة وسلط عليكم نسيانها ثم قال: ﴿إننا نسيناكم﴾ على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم وقيل هو، بمعنى: الترك أي تركتم الفكر في العقابة فتركناكم من الرحمة وفي استئناف قوله: ﴿إننا نسيناكم﴾ وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى: فنوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرأس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة⁽²⁾.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا سجدوا تواضعا لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ ونزهوا الله من نسبة القبايح إليه وأثنوا عليه حامدين له ﴿وهم لا يستكبرون﴾ كما يفعل من بصر مستكبراً كان لم يسمعها ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾⁽³⁾ إذا يتلى عليهم يخرون للانقياد سجداً ويقولون سبحان ربنا.

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾.

وقرأ على وابن عباس رضي الله عنهما ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضل ويضل ويضل وقرأ الحسن رضي الله عنه ضللنا من صل اللحم وأصل إذا انتن وقيل ضلنا من جنس الصلة وهي الأرض.

فإن قلنا: بم انتصب الظرف في إذا أضللنا قلنا: بما يدل عليه إننا لفي خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا، لقاء ربهم هو الوصول إلى العقابة من تلقى ملك الموت، وما وراءه فلما ذكر كفرهم بالإنشاء أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العقابة لا بالإنشاء وحده ألا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد تلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما نكرنا.

قُلْ بِئْسَ مَا لَكُمْ مَوْتٌ أَلَدَىٰ كُلِّ نَفْسٍ مِّنْكُمْ نَدْرِكُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا ﴿١٧﴾.

والتوفى استيفاء النفس وهي الروح قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس، وقال أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء من قولك توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وأفياً كاملاً من غير نقصان والتفعل والاستفعال يلتقيان في مواضع منها تقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته، وعن مجاهد رضي الله عنه حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وعن قتادة يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ﷺ وفيه وجهان أن يراد به التمني كانه قال وليتك ترى كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليهما»⁽¹⁾ والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلمهم يهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشتت بهم وأن تكون لو الامتناعية، قد حذف جوابها وهو لرايت أمراً فظيلاً أو لرايت أسوأ حال ترى ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما يقول فلان لثيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطباً بعينه فكانك قلت إن أكرم وإن أحسن إليه ولو وإذ كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة

(2) قال أحمد: قد تمهد عن مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة، وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً، والمسألة سمعية وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية خلافاً للقيصرية.

(3) سورة الإسراء، الآية: 107 - 108.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، (الحديث: 4043)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة، (الحديث: 1087)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، (الحديث: 1865)، وأحمد في المسند 226/4. والحكم في المستدرک، 165/2.

ولا أنن سمعت ولا خطر على قلب بشر به⁽⁵⁾ ما أطلعتهم عليه أقرؤا إن شئتم، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن الحسن رضي الله عنه أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله له ما لا عين رأت ولا أنن سمعت.

أَقْنَمَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٨﴾

﴿كَانَ مُؤْمِنًا﴾ و﴿كَانَ فَاسِقًا﴾ محمولان على لفظ من و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ محمول على المعنى بلبيل قوله تعالى:

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَتَنَّا فَإِنَّهُمْ أَتَّارٌ كُلَّمَا آتَاوُا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٠﴾

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمَّا الَّذِينَ فَتَنَّا﴾ ونحوه قوله تعالى: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك و﴿جَنَّاتِ الْمَأْوَىٰ﴾ نوع من الجنان قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تأوي إليها أرواح الشهداء وقيل: هي عن يمين العرش، وقرئ: ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ على التوحيد ﴿نَزْلًا﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً. ﴿فَمَا وَاهُمْ النَّارُ﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم، ويجوز أن يراد فجئة ماواههم النار أي: النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين كقوله فبشرهم بعذاب اليم.

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفَهُنَّ لِيَجْزِيَوهُنَّ ﴿١١﴾

﴿الْعَذَابِ الْأَسْفَىٰ﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين وعن مجاهد رضي الله عنهما عذاب القبر و﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ

﴿تَتَجَافَى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ عن الغرش ومواضع النوم داعين ربه عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتجهدون وعن رسول الله ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل⁽¹⁾ وعن الحسن رضي الله عنه أنه التهجد، وعن رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقيم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقيم الذين كانوا يحمدون الله في البساء والضراء فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقيم الذين كانوا يحمدون الله في البساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس⁽²⁾ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة⁽³⁾ فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم الثلاثة للمتكم وهو الله سبحانه وما بمعنى الذي أو بمعنى أي، وقرئ: ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقرأت أعين والمعنى لا تعلم النفوس كلهن ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب أسخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فحسم أطماع المتمنين⁽⁴⁾، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت

= جنته، ووعده يجب أن يكون حقاً وصديقاً تعالى وتقدس صارت الأعمال بالوعد، كانت أسباب موجبات فعملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو: أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أنن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أقرؤا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المنكور بسكون الياء من أخفى ورده إلى المتكم، وهي من القراءات المستفيضة، والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث، وهو أعدت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أنن سمعت ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً والله الموفق.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (الحديث: 3244)، ومسلم في كتاب: الجنة، الحديث: 2 (2824).

- (1) أخرجه أحمد في المسند، 237/5. والحاكم في المستدرک 413/2.
- (2) أخرجه الحاكم في المستدرک، 363/2.
- (3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (الحديث: 1322).
- (4) قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصالح، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اغتتم الفرصة في الاستدهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا لبيل في ذلك لمعتقدم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة. فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة، فإنه على حسب الأعمال وليس بذلك، فإن المنكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها، وإما أن تحمل وهو الظاهر والله أعلم. على أن الله تعالى لما وعد المؤمن =

واطلع على شئتها.

فإن قُلْتُ: هلا قيل لنا منه منتقمون! قُلْتُ: لما جعله
أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد
دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله
بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ
هَذَى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢﴾

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير في ﴿لِقَائِهِ﴾ له ومعناه
إننا آتيناه موسى عليه السلام مثل ما آتيناه من الكتاب
ولقيناه مثل ما لقيناه من الوحي فلا تكن في شك من أنك
لقيته مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك
مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ (٥)
ونحو قوله من لقائه قوله: ﴿ولنك لتلقى القرآن من لدن
حكيم عليم﴾ (٧) وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه
منشوراً﴾ (٨) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه
السلام ﴿هدى﴾ لقومه.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ يَأْمُرًا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يُرْوُونُ ﴿١٣﴾

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما
في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات
وكنك لتجعل الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً وتجعل من
أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من
نصرة الدين، وثبتوا عليه من اليقين وقيل: من لقاء موسى
عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء
موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقيه له بالرضا
والقبول، وقرئ: ﴿لما صبروا﴾ ولما صبروا أي: لصبرهم
وعن الحسن رضي الله عنه صبروا عن الدنيا، وقيل: إنما
جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما
فيها ولد إسماعيل عليه السلام.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٤﴾

﴿يفصل بينهم﴾ يقضي فيميز المحق في دينه من
المبطل، الواف في.

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

يرجعون﴾ أي: يتوبون عن الكفر أو لعلمهم يربون الرجوع
ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فارجعنا لعمل صالحين﴾ (١) وسميت
إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله
تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ (٢) ويدل عليه قراءة من قرأ
يرجعون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتُ: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل
من الله إرادة وإذا أراد الله شيئاً كان، ولم يمتنع وتوبتهم
مما لا يكون ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا
ذائقين العذاب الأكبر قُلْتُ: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال
عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع للاقتدار،
وخلوص الداعي وأما أفعال عباده فلما أن يريدوها وهم
مختارون لها أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه فإن أرادها
وقد قسرها عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن
يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في
اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك
طاعتك، وهو لا يختارها؛ لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا
لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك (٣) وروى
في نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه
والوليد ابن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له
الوليد: أسكت فإنك صبي أنا أشب منك شاباً وأجلد منك
جلداً وأزرب منك لساناً وأحد منك سنناً وأشجع منك جنناً
وأملأ منك حشواً في الكتبية فقال له علي رضي الله عنه:
أسكت فإنك فاسق (٤) فنزلت عامة للمؤمنين والفاستقين
فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما، وعن الحسن بن
علي رضي الله عنهما، أنه قال للوليد كيف تشتم علياً وقد
سماه الله مؤمناً في عشر آيات وسمك فاسقاً (٥).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْتَقِمُونَ ﴿١٥﴾

ثم في قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد والمعنى: إن
الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها
وإرشادها إلى سواء السبيل وال فوز بالسعادة العظمى بعد
التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك
وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه
الانتهاز ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا
على الإشراك الخفي، فاعتصم بليل الوجدانية على رده واجتنبه
من أصله والله المستعان، وإنما جرّه في تفسير لعل إلى الإرادة
والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله
تعالى، كذا فسرها سيوييه فيما تقدم والله أعلم.

(٤) نكرو الواحدي في أسباب النزول ص: ١٩٨.

(٥) قال أحمد: نكر للسبب المحقق لأن المراد بالفاسق وبالنين فسقوا
الذين كفروا؛ لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أدرج فيه
المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق
الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفاسدة ولقد اتسع الخرق
على الرقاق.

(٦) سورة يونس، الآية: ٩٤.

(٧) سورة النمل، الآية: ٦.

(٨) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

مَنْكِبِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَلَّا يَسْمَعُوا ﴿٣٦﴾

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَنْ فسرهُ بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر! قُلْتُ: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وانتظر﴾ النصره عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ (2) وقرأ ابن السميع رحمه الله منتظرون بفتح الظاء ومعناه وانتظر هلاكهم، فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني: أنهم هالكون لا محالة أو وانتظر نكح فإن الملائكة في السماء ينتظرونه. عن رسول الله ﷺ: من قرأ آلم تنزّل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر (3) وقال: من قرأ آلم تنزّل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب مدنية

عن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب رضي الله عنه: كم تعنون سورة الأحزاب قلت: ثلاثاً وسبعين آية قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة (5)، أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبي رضي الله عنه أن تلك من جملة ما نسخ من القرآن، وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فالكلتها الداجن فمن تاليفات الملاحدة والروافض (6) جعل نداه بالنبّي والرسول في قوله:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١﴾

﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ يا أيها النبي لم تحرم، يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك، وترك نداه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً ورباً بمحله وتبويهاً بفضله.

فَإِنْ قُلْتَ: إن لم يوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله محمد رسول الله وما محمد إلا رسول.

﴿أولم يهد﴾ للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف والضمير في ﴿لهم﴾ لاهل مكة، وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دلّ عليه ﴿كم اهلكنا﴾ لأن كم لا تقع فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون أو هذا الكلام كما هو بمضمونه، ومعناه كقولك يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون ﴿والقرون﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يمشون في مساكنهم﴾ يعني: أهل مكة يمشون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم وقرئ يمشون بالتشديد.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرَيْرَ فَخَرَجَ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿الجرز﴾ الأرض التي جرز نباتها أي: قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جزر ويدل عليه قوله.

﴿فخرج به زرعاً﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن وعن مجاهد رضي الله عنه: هي أبين، به بالماء ﴿تاكل﴾ من الزرع ﴿إنعامهم﴾ من عصفه ﴿وأنفسهم﴾ من حبه وقرئ ياكل بالياء.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَكِئَةِ أَلَمْ يُجِبْ إِلَى مَا يَدْعُونَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٨﴾

الفتح النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿ربنا افتح بيننا﴾ (1) وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا ﴿متى هذا الفتح﴾ أي في أي وقت يكون ﴿إن كنتم صائقين﴾ في إنه كائن.

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيسَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يوم الفتح﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم، وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما يوم فتح مكة.

فَإِنْ قُلْتَ: قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم؟ قُلْتُ: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكنيب والاستهزاء فاجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكاني بكم وقد حصلت في ذلك اليوم وأمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم في إدراك العذاب فلم تنظروا.

(1) سورة يوسف، الآية: 89.

(2) سورة التوبة، الآية: 52.

(3) بكرة الثعلبي وابن مريويه، وبكرة الواحدي في التفسير، الزيلعي 88/3.

(4) قال الزيلعي غريب جداً، الزيلعي 89/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک 415/2، وابن حبان في كتاب: الحدود، باب: الزنى وحده (حديث: 4428).

(6) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب: الرضاع (الحديث: 22)، 4/ 179.

أي: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم.

وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣).

﴿وتوكل على الله﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره
﴿ووكيلاً﴾ حافظاً موكلاً إليه كل امر.

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤).

ما جمع الله قلبين في جوف ولا زوجية وامومة في
امراة ولا بنوة ودعوة في رجل، والمعنى: أن الله سبحانه
كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو
إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال
القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا
غير ما يفعل بذلك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه
مريداً كارهياً عالماً ظاناً موقناً شاكاً في حالة واحدة لم ير
أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجاً له؛ لأن الأم
مخدومة مخفوض لها جناح الذل والزوجة مستخدمة
متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة، وهما حالتان
متنافيتان وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وإبناً له لأن
النبوة أصالة في النسب وعراقة فيه والدعوة إلصاق عارض
بالتسمية لا غير لا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون
أصلاً غير أصيل وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة،
وهو رجل من كلب سبى صغيراً وكانت العرب في
جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام
لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له وطلبه
أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ، فأعتقه (٣) وكانوا
يقولون زيد بن محمد فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقوله:
﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾، وقيل: كان أبو معمر
رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم فقيل له ذو القلبين (٤) وقيل:
هو جميل بن أسد الفهري، وكان يقول إن لي قلبين أقهم
بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فروي: أنه أنهزم يوم بدر
فمَرَّ بابي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى
في رجله فقال له: ما فعل الناس فقال هم ما بين مقتول
وهارب فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك، والأخرى
في يدك فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي فأكذب الله قوله
وقولهم وضربه مثلاً في الظهار والتبني، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما: كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان

قُلْتُ: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أن
يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار إلا
تري إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الإخبار كيف
نكره بنحو ما نكره في النداء لقد جاءكم رسول من
أنفسكم وقال الرسول: يا رب، لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة. والله ورسوله أحق أن يرضوه، النبي أولى
بالمؤمنين من أنفسهم. إن الله وملائكته يصلون على النبي،
ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي، اتق الله واطب على ما أنت
عليه من التقوى واثبت عليه وازد منه وذلك لأن التقوى
باب لا يبلغ آخره ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾
لا تساعدهم على شيء ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة
وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين
لا يريون إلا المضارة والمضارة وروى أن النبي ﷺ لما
هاجر إلى المدينة، وكان يحب إسلام اليهود قريظة
والنضير وبني قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق
فكان يلين لهم جانبهم ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى
منهم قبيح تجاوز وزعنه وكان يسمع منهم (١) فنزلت وروى
أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور
السلمي قدموا عليه في المودعة التي كانت بينه، وبينهم
وقام معهم عبد الله بن أبي معتب بن قشير والجد بن
قيس فقالوا للنبي ﷺ: أرفض ذكر آلهمنا وقل إنها تشفع
وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على رسول الله ﷺ وعلى
المؤمنين وهموا بقتلهم (٢)، فنزلت أي اتق الله في نقض
العهد ونبد المودعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة
والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك، وروي أن أهل
مكة دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن بينه ويعطوه
شطر أموالهم وأن يزوجه شبيبة بن ربيعة بنته وخوفه
منافقو المدينة أنهم يقتلونهم إن لم يرجع فنزلت ﴿إن الله
كان عليماً﴾ بالصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة
﴿حكيماً﴾ لا يفعل شيئاً ولا يامر به إلا بداعي الحكمة.

وَأَتَيْنَا مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

(٥).

﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ في ترك طاعة الكافرين
والمنافقين، وغير ذلك ﴿إن الله﴾ الذي يوحى إليك خبير
﴿بما تعملون﴾ فموح إليك ما يصلح به أعمالكم فلا
حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة، وقرئ: يعملون بالياء

= المتناقضة كجعل الأعداء أبناء، والزوجات أمهات. قال: وهذه
الأمور الثلاثة متناقضة: أما الأول فلأنه يلزم من اجتماع القلبين
قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر، وذلك كالعلم
والجهل، والأمن والخوف، وغير ذلك، وأما الثاني فلأن الزوجة في
مقام الامتهان، والألم في محل الإكرام، فناقض أن تكون الزوجة أمًا،
وأما الثالث فلأن النبوة أصالة وعراقة، والدعوة لاصقة عارضة
فهما متنافيان وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه
حتى يبارره السامع بالإنكار.

(١) قال الزيلعي غريب، 95/3.

(٢) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 198.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الاحزاب، باب: ادعوه
لأبائهم هو أقسط عند الله. (الحديث: 4782).

ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل زيد بن حارثة
واسامة بن زيد، الحديث: (62 - 2425).

(٤) قال أحمد: ما نكر فيه من التاويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل
قلبين فنفى الله صحة ذلك، وقرنه بما كانوا يقولونه من الاقويل =

وسمى. قُلْتُ: إن شئودنه عن القياس كشئود قتلاء وأسراء، والطريق في مثل تلك التشبيه اللفظي ﴿لَكُمْ﴾ النسب هو ﴿قُولُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً، والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ولا يهدي إلا سبيل الحق، ثم قال: ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله:

أَعْرِضْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاغْرُوكُمْ فِي آلِ بْنِ رَسُولِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ يَمَّا أَخْطَأْتُمْ بِهِ. وَلَكِنْ مَا تَمَدَّدْتُمْ وَلَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥).

﴿ادعوههم لأبائهم﴾ وبين أن دعاءهم لأبائهم هو انخل الأمرين في القسط والعدل وفي فصل هذه الجمل بوصفها من الحسن والفصاحة ما لا يغيب على عالم بطرق النظم، وقرأ قتادة وهو الذي يهدي السبيل وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال فلان ابن فلان ﴿فإن لم تعلموا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فهم إخوانكم في الدين﴾ وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي يريد الأخوة في الدين والولاية فيه ﴿ما تعمدت﴾ في محل الجر عطفاً على ما أخطأتم، ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء والخبر محذوف تقديره ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من تلك مخطئين جاهلين قبل ورد النهي ولكن الإثم فيما تعمدتوه بعد النهي أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بني على سبيل الخطأ وسبق اللسان ولكن إذا قلتموه متعمدين ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ بون العمد على طريق العموم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد»^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه»^(٢)، ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده.

فإن قُلْتُ: فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قُلْتُ: إذا كان المتبني مجهول النسب وأصغر سناً من المتبني ثبت نسبه منه وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت النسب، وإن كان لا يولد مثله لمثلته لم يثبت النسب ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند صاحبيه لا يعتق، وأما المعروف بالنسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبداً عتق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد.

الَّذِي أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَلَهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ

فانكبههم الله وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع أصحابه وقلب معكم، وعن الحسن نزلت في أن الواحد يقول نفس تامرني ونفس تنهاني، والتكثير في رجل وإنخال من الاستغراقية على قلبين تأكيداً لما قصد من المعنى كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه.

فإن قُلْتُ: أي فائدة في نكر الجوف؟ قُلْتُ: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: القلوب التي في الصدور وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمبلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار وقرئ اللائي بياء وهمة مكسورتين واللادي بياء ساكنة بعد الهمة. وتظاهرون من ظاهر وتظاهرون من أظهار بمعنى: تظهرون من ظهر بمعنى: ظاهر كعقد بمعنى: عاقد وتظهرون من ظهر بلفظ فعل من الظهور ومعنى ظاهر من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، ونحوه في العبارة عن اللفظ لبى المحرم إذا قال: لبيك وأقف الرجل إذا قال: أف وأخوات لهن.

فإن قُلْتُ: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قُلْتُ: كان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها: تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها تحرز منها وظاهر منها حازن منها وظهر منها وحش منها وظهر منها خلص منها ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدى بمن، وإلا فالأى في أصله الذي هو بمعنى حلف واقسم ليس هذا بحكمه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قولهم أنت علي كظهر أمي! قُلْتُ: أرادوا أن يقولوا أنت علي حرام كبطن أمي فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكر البطن الذي ذكره يقارب نكر الفرج وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن، ومنه حديث عمر رضي الله عنه: يجيء به أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره ووجه آخر وهو: أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً، وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول فلقصص المطلق منهم إلى التغليب في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمه فلم يترك.

فإن قُلْتُ: الدعي فعيل بمعنى: مفعول، وهو الذي يدعى ولذا فما له جمع على أفعلاء وبابه ما كان منه بمعنى فاعل كتنقى واتقيا وشقي وأشقياء ولا يكون ذلك في نحو رمى

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: فضل الأمة (الحديث: 7219)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي (الحديث: 2043).

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 534/2، والبيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل (الحديث: 10314)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: جمع المال من حله (حديث: 3222).

بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٦﴾

﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾ في كل شيء من أمور الدين، والدنيا **﴿من أنفسهم﴾** ولهذا أطلق ولم يقيد فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه أثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوا بونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ووقاهه إذا لقت حرب وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه؛ لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لثلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، أو هو أولى بهم على معنى: أنه أرفق بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله تعالى: **﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾** (١) وعن النبي ﷺ «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة أقرؤا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك بيتاً أو ضياعاً، فإلي» (٢) وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال: مجاهد كل نبي فهو أبو أمته ولذلك صار المؤمنين إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين **﴿وأنزوجه أمهاتهم﴾** تشبيهه لهم بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن قال الله تعالى: **﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾** (٣) وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبية، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنن أمهات النساء (٤) تعني: أنهن إنما كن أمهات الرجال لكونهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم والليل على ذلك أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمهات كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين، وبالهجرة لا بالقرابة كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات، ثم نسخ ذلك لما بدا الإسلام وعز أهله وجعل التوارث بحق القرابة **﴿في كتاب الله﴾** في اللوح أو فيما أوحى الله إلى نبيه، وهو هذه الآية أو في آية الموارث أو فيما فرض الله كقوله: كتاب الله عليكم **﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾** يجوز أن يكون بياناً لأولى الأرحام أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ويجوز أن يكون لابتداء الغلية أي أولي الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في

الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة.

فإن قلّت: مم استثنى **﴿أن تفعلوا﴾** قلّت: من أعم العلم في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية تريد أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة، وهدية وصلة وغير ذلك إلا في الوصية والمراد بفعل المعروف: التوصية: لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى؛ لأنه في معنى تسدوا وتزلوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما نكر في الآيتين جميعاً وتفسير الكتاب ما مر آنفاً والجملة مستأنفة كالخاتمة لما نكر من الأحكام. **﴿و﴾** انكر حين.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ يَسْتَكْبِرُ الضَّالِّينَ عَنْ صِرَاطِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿أخذنا من النبيين﴾ جميعاً **﴿ميثاقهم﴾** بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم **﴿ومثك﴾** خصوصاً **﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾**، وإنما فعلنا ذلك **﴿ليسئل﴾** الله يوم القيامة عند توافف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم، وفوا به من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا: بلى

﴿عن صدقهم﴾ عهدهم وشهادتهم فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم، وكانوا مؤمنين أو ليسال المصدقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصائق صدقت كان صادقاً في قوله، أو ليسال الأنبياء ما الذي أجابتهم به أمهم وتأويل مسألة الرسل تبكي الكافرين بهم كقوله أنت قلت للناس اتخوني وأمي إلهين من دون الله.

فإن قلّت: لم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده؟ قلّت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم ونزاريهم فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم (٥)، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه.

فإن قلّت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية وهي قوله: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ثم قدم على غيره. قلّت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصلي الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء

(٤) أخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 98/3.

(٥) رواه ابن هشام في سيرته، 214/2 - 233.

(١) سورة التوبة، الآية: 128.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، من سورة الأحزاب، باب: (١) (الحديث: 4781).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: 53.

﴿تعملون﴾، قرئ بالتاء والياء.

في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير.

فإن قلْتُ: فماذا أراد بالميثاق الغليظ قلْتُ: أراد به ذلك الميثاق بعينه معناه وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً والغليظ استعارة من وصف الأجرام، والمراد عظم الميثاق وجلاله شأنه في بابه وقيل الميثاق الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوا.

فإن قلْتُ: علام عطف قوله ﴿وواعد للكافرين﴾ قلْتُ: على أخذنا من النبيين لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً اليماً، أو على ما دل عليه ليسال الصابقين كانه قال: فاثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا ثُمَّ تَوَخَّاهُمْ وَقَالَ اللَّهُ يٰ مَعْشَرُ لَا تَعْلَمُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أنكروا﴾ ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق (١) ﴿إذ جاءكم جنود﴾ وهم الأحزاب فارس الله عليهم ريح الصبا قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور» (٢) ﴿وجنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صباً باردة في ليلة شاتية فأخضرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفاة النيران، واكفأت القنود وماجت الخيل بعضها في بعض وقنف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بداكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهمزوا من غير قتال، وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة أشار عليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالزراري والنساء فرفعوا في الآطام واشتد الخوف، وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من المنافقين حتى قال: معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى، وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة ابن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنظير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر

إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَئِنْ أَلْقَيْتُمْ أَكْشَادَكُمْ لَقَدْ رَأَوْا لِلَّهِ الْأُنْثَرُ ﴿١٧﴾

﴿من فوقكم﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو غطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش تحزبوا، وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً ﴿زأغت الأبصار﴾ مالت عن سندها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً وقيل: عقلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عيونها لشدة الروح، الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل: للجان انتفخ سحره، ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبتها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف، والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بالسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكي عنهم وعن الحسن ظنونا ظنوناً مختلفه ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون.

مُنَالِكَ أَتَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ذُكْرُهُمْ وَرَأَوْا لِلَّهِ سَيِّدًا ﴿١٨﴾

وظن المؤمنون أنهم يبتلون، وقرئ الظنون بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس وبزيادة ألف في الوقف زانوها في الفاصلة كما زادها في القافية من قال: ألقى اللوم عاذل والعتاب، وكذلك الرسولا والسبيل، وقرئ بزيابتها في الوصل أيضاً إجراء له مجرى الوقف قال أبو عبيد: وهن كلهن في الإمام بالف. وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا، وقرئ: ﴿زلزالاً﴾ بالفتح والمعنى: أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج.

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٩﴾

﴿إلا غروراً﴾ قيل قائله معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور.

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِلُ الْيَرَبَ لَا مَقَامَ لَكَ فَارْجِعُوا وَرَسَّذِ

(1) قال أحمد: وليس التقديم في الذكر بمقتضى لذلك؛ ألا ترى إلى قوله:

بهبائل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير

فاخر ذكر النبي ﷺ ليختب به تشريفاً له، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازم التقديم فيظهر والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح، ومن بعده في الذكر أنه هو المخاطب =

= من بينهم والمنزل عليه هذا المثل، فكان تقديمه لذلك، ثم لما قدم نكره عليه الصلاة والسلام جرى نكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا والرعب والصبا» (الحديث: 1035) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ريح الصبا والنبور (الحديث: 2084).

وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة والمؤتسى برسول الله ﷺ من كن كذلك.

وَلَمَّا رَمَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (١٣).

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (١) فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وليقنوا بالجنة والنصر وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي: ﷺ لأصحابه إِنَّ الْأَحْزَابَ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ تَسْعًا أَوْ عَشْرًا أَي فِي آخِرِ تِسْعِ لَيَالٍ، أَوْ عَشْرٍ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قَدْ اقْتَبَلُوا لِلْمِيعَادِ قَالُوا ذَلِكَ (٢)، وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿إِيمَانًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ وَنَهَمَ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا (١٤).

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربًا مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير، وغيرهم رضي الله عنهم ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ﴾ يعني: حمزة ومصعبا ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ يعني: عثمان وطلحة وفي الحديث من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة (٣).

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا قِضَاءُ النَّحْبِ! قُلْتُمْ: وَقَعَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَوْتِ لِأَنَّ كُلَّ حَيٍّ لَا يَدُلُّهُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ فَكَانَهُ نَذْرٌ لَازِمٌ فِي رَقَبَتِهِ فَإِذَا مَاتَ فَقَدْ قُضِيَ نَحْبُهُ أَي: نَذْرُهُ وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ﴾ (٤) يحتمل موته شهيدًا ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله ﷺ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِهِ: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قُلْتُمْ: يُقَالُ صَدَقَنِي أَخُوكَ وَكَذَّبَنِي إِذَا قَالَ: لَكَ الصَّقُّ وَالْكَذِبُ وَأَمَّا الْمَثَلُ صَدَقَنِي سَنَ بَكَرِهِ، فَمَعْنَاهُ صَدَقَنِي فِي سَنَ بَكَرِهِ بِطَرَحِ الْجَارِ وَإِصْصَالِ الْفَعْلِ فَلَا يَخْلُو مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ السَّنِّ فِي طَرَحِ الْجَارِ، وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَ الْمَعَاهِدَ عَلَيْهِ مَصْدُوقًا عَلَى الْمَجَازِ كَانَهُمْ قَالُوا: لِلْمَعَاهِدِ عَلَيْهِ سَنَفِي بَكَ وَهُمْ وَاقِفُونَ بِهِ فَقَدْ صَدَّقُوهُ وَلَوْ كَانُوا نَاكُثِينَ لَكُنْبُوهُ، وَلَكِنْ مَكْنُوبًا ﴿وَمَا بَدَلُوا﴾ العهد ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ولقد ثبت طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى

كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورًا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ قُلْتُمْ: مَعْنَاهُ أَنْ أَعْمَالَهُمْ حَقِيقَةٌ بِالْإِحْبَاطِ تَدْعُو إِلَيْهِ الْبَوَاقِي، وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ صَارْفٌ.

يَحْسِبُونَ أَنَّ الْأَحْزَابَ لَمْ يَهْزُبُوا وَلَكِنْ بَآتٍ الْأَحْزَابُ يَوْمَ لَا تُؤْنَسُ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ آبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (١٥).

﴿يَحْسِبُونَ﴾ أَنَّ الْأَحْزَابَ لَمْ يَهْزُبُوا وَقَدْ انْهَزَمُوا فَانْصَرَفُوا عَنِ الْخَنْقِ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاجِعِينَ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ الشَّدِيدِ وَبَخَلَهُمْ مِنَ الْجَبِينِ الْمَفْرُطِ ﴿وَأَنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً ثَانِيَةً تَمْنُوا لَخَوْفِهِمْ مِمَّا مَنُوا بِهِ هَذِهِ الْكَرَّةَ أَنَّهُمْ خَارِجُونَ إِلَى الْبَيْتِ حَاصِلُونَ بَيْنَ الْأَعْرَابِ ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كُلُّ قَائِمٍ مِنْهُمْ مِنْ جَانِبِ الْمَدِينَةِ عَنْ أَخْبَارِكُمْ وَعَمَّا جَرَى عَلَيْكُمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ قِتَالٌ لَمْ يَقَاتِلُوا إِلَّا تَعْلَةً رِيَاءَ وَسَمْعَةً وَقَرَأَ بِدَى عَلَى فَعْلٍ جَمْعُ بَادٍ كَفَازٍ وَغَزَى وَفِي رَوَايَةِ صَاحِبِ الْإِقْلِيدِ بِدَى بَوَزَنٍ عَدِيٍّ وَيَسْأَلُونَ أَيِ يَتَسَاءَلُونَ وَمَعْنَاهُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا سَمِعْتَ مَاذَا بَلَغَكَ، أَوْ يَتَسَاءَلُونَ الْأَعْرَابُ كَمَا تَقُولُ رَأَيْتَ الْهَلَالَ وَتَرَاهُ، كَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَوَاسَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَنْفُسِكُمْ، فَتَوَازَرَوْهُ وَتَثَبَّتُوا مَعَهُ كَمَا أَسَاكُمُ بِنَفْسِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ وَالثَّبَاتِ فِي مَرَحَى الْحَرْبِ حَتَّى كَسَرَتْ رَبَاعِيَتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشَجَّ وَجْهَهُ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِهِ:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وَقَرَأَ: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بِالضَّمِّ قُلْتُمْ: فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أَي: قُدْوَةٌ وَهُوَ الْمُؤْتَسَى أَي: الْمَقْتَدَى بِهِ كَمَا تَقُولُ فِي الْبَيْضَةِ عَشْرُونَ مَنَّا حَدِيدٌ أَيِ هِيَ فِي نَفْسِهَا هَذَا الْمَبْلَغُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَالثَّانِي أَنْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَى بِهَا أَوْ تَتَّبَعَ وَهِيَ الْمَوَاسَاةُ بِنَفْسِهِ ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ بَدَلَ مِنْ لَكُمْ كَقَوْلِهِ لِلَّذِينَ اسْتَزْعَفُوا لِمَنْ أَمِنْ مِنْهُمْ، يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ كَقَوْلِكَ رَجَوْتُ زَيْدًا وَفَضْلَهُ أَي: فَضْلَ زَيْدٍ أَوْ يَرْجُو أَيَّامَ اللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ خُصُوصًا وَالرَّجَاءُ بِمَعْنَى: الْأَمَلُ أَوْ الْخَوْفُ ﴿وَوَكَرَّ اللَّهُ كَثِيرًا﴾،

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

(2) لم يخرج الزيلعي.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (الحديث: 3739)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة =

= باب: في فضائل أصحاب الرسول ﷺ، فضل طلحة بن عبيد رضي الله عنه (الحديث: 125)، والحاكم في المستدرک 3/376.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 23.

وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله ﷺ: تنزلون على حكمي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرفضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم ونسألوهم فكبر النبي ﷺ وقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثم استنزلهم وخلق في سوق المدينة خندقاً وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل: كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير⁽²⁾، وقرئ: ﴿الرعب﴾ بسكون العين وضما وتأسرون بضم السين.

وَأَرْزَكْنَكُمْ أَنْفُسَهُمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (١٧).

وروي أن النبي ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين نون الانصار، فقالت: الانصار في ذلك فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر قال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس قال: رضينا بما صنع الله ورسوله⁽³⁾ ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا﴾ عن الحسن رضي الله عنه فارس والروم، وعن قتادة رضي الله عنه كنا نحدث أنها مكة، وعن مقاتل رضي الله عنه هي خيبر، وعن عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ومن بدع التفسير أنه أراد نساءهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَأَرْزِيَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّنَا إِنَّا أَلَمَّا كُنَّا نَمُوتُ وَأَمْزَجْنَاكَ وَمَا كُنَّا نَمُوتُ إِلَّا كُنَّا نَمُوتُ وَرَبَّنَا إِنَّا أَلَمَّا كُنَّا نَمُوتُ وَأَمْزَجْنَاكَ وَمَا كُنَّا نَمُوتُ إِلَّا كُنَّا نَمُوتُ (١٨) وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قُلْ لَأَرْزِيَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّنَا إِنَّا أَلَمَّا كُنَّا نَمُوتُ وَأَمْزَجْنَاكَ وَمَا كُنَّا نَمُوتُ إِلَّا كُنَّا نَمُوتُ (١٩).

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايير فعم تلك رسول الله ﷺ فنزلت فبدا بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فروي الفرح في وجه رسول الله ﷺ، ثم اختارت جميعهن اختيارها فشكر لهن الله ذلك فأنزل لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج⁽⁴⁾ روي أنه قال لعائشة: إنني ذاكرك أمراً ولا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ عليها القرآن فقالت أفي هذا استأمر أبوي فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة،⁽⁵⁾ وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أنني اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً⁽⁶⁾.

أصيب يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيب يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة⁽¹⁾ وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق، ومرض القلوب جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (٢٠).

كما قصد الصادقون عاقبة الصلح يوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب فكانهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما، ويعذبهم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظَمِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢١).

﴿ورد الله الذين كفروا﴾ الأحزاب ﴿بغضهم﴾ مغضين كقوله: ﴿تنتب بالدهن﴾ ﴿لم ينالوا خيراً﴾ غير ظافرين وهما حالان يتداخل، أو تعاقب ويجوز أن تكون الثانية بيانا للأولى أو استئنافاً ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالريح والملائكة.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٢).

﴿وأنزل الذين﴾ ظاهرهم الأحزاب من أهل الكتاب ﴿من صافيهم﴾ من حصونهم والصيصية ما تحصن به يقال لقرن الثور والطبي: صيصية ولشوكه الديك وهي مخليه التي في ساقه لأنه يتحصن بها. روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انتهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم على فرسه الحيّوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ما هذا يا جبريل قال: من متابعة قريش فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله: إن الملائكة لم تضع السلاح إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة وأنا عاهد إليهم فإن الله داquem بق البيض على الصفاء وإنهم لكم طعمة فأنز في الناس أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله ﷺ: فحاصرهم خمساً

(3) نكره الواحدي في المغازي، الزليعي 104/3.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزليعي 105/3.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: ﴿قُلْ لَأَرْزَاكُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ...﴾ (الحديث: 4785) و(حديث: 4786).

وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، الحديث: (22 - 1475).

(6) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، الحديث: (29 - 1478).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: نكر طلحة بن عبيد الله، (الحديث: 3724).

وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم، (الحديث: 6979).

أخرجه الترمذي في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الدرر، (الحديث: 1692)، وأبو يعلى (الحديث: 670)، والحاكم في المستدرک، 373/3.

(2) رواه ابن هشام في سيرته، 211/2.

(3) قال أحمد: إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام، وبين جماعات النساء لا أحادهن إن يطابق بين المتفاضلين؛ لأن الأول جماعة، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة، ويكون المعنى أبلغ، والتقدير ليست واحدة =

وبتوفيق لعنته ومحبه واختصاصه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفّقك الله فيه فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب بنت جحش رضي الله عنها وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب وذلك أنّ نفسه كانت تجفوا عنها قبل ذلك لا تريد ما ولو أرايتها لاخطبها، وسمعت زينب بالتسيحة فنكرتها لزيد ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أقارق صاحبتي فقال مالك أراك منها شيء قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤنّيني فقال له: ﴿أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ثم طلقها بعد فلما اعتدت قال رسول الله ﷺ: ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك أخطب على زينب قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجبتها فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله ﷺ نكحها فولبتها ظهري وقلت يا زينب أبشري إن رسول الله ﷺ يخطبك ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن زوجناكها، فتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها نبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما أراد بقوله: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾؟ قلت: أراد واتق الله فلا تطلقها وقصد نهى تنزيهه لا تحريم لأن الأولى أن لا يطلق، وقيل: أراد واتق الله فلا تنمها بالنسبة إلى الكبير وأذى الزوج.

فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه! قلت: تعلق قلبه بها، وقيل: مؤدة مفارقة زيد إياها، وقيل: بأن زيدا سيطلقها وسينكحها لأن الله قد أعلمه بذلك، وعن عائشة رضي الله عنها لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية⁽⁵⁾.

فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها وكان من الهجة أن يقول له: أفعل فإني أريد نكاحها. قلت: كان الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك أو يقول له: أنت أعلم بشانك حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن والتصلب في الأمور والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبّة كما جاء في حديث إرادة رسول الله ﷺ قتل

فصلياً جميعاً ركعتين كتباً من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات⁽¹⁾، والمعنى والحافظاتها والذاكراته فحذف لأن الظاهر يدل عليه.

فإن قلت: أي: فرق بين العطفين أعني الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين. قلت: العطف الأول نحو قوله تعالى: ﴿ثِيَابَ وَأَبْكَارًا﴾ في أنهما جنسان مختلفان إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسط العاطف بينهما، وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع فكان معناه أنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة فابت وأبى أخوها عبد الله فنزلت فقال: رضىنا يا رسول الله، فانكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخماراً وملحقة وبرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر⁽²⁾، وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول من هاجر من النساء وهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت وزوجها زيدا فسخطت هي وأخوها وقالوا إنما أربنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده⁽³⁾.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَنَبِئَ اللَّهُ رَسُولَهُ فَقَدِ سَلَ ضَلَالًا شَيْنًا ﴿٣٧﴾.

والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور، أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه واختيارهم تلوا لاختياره.

فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ، وقرئ يكون بالتاء والياء و﴿الخير﴾ ما يتخير.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ لَكَ يَدٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَنْبِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْرُورًا ﴿٣٨﴾.

لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجل النعم

(4) أخرجه البخاري عن نس ما أوّل النبي ﷺ على شيء من نسائه أكثر وأفضل مما أوّل على زينب في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168).

(5) يأتي في حم عسق، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 89 - 1428).

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الحث على قيام الليل، (الحديث رقم: 1451)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، (الحديث رقم: 1335).

(2) أخرجه الدارقطني في سننه 301/3، كتاب: النكاح، (الحديث رقم: 301).

(3) ذكره الطبري في تفسيره.

عليك زوجك واثق الله وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر والثبات في موطن الحق حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرًا.

فإن قُلْتُ: الواو في وتخفى في نفسك وتخشى الناس والله أحق ما هي؟ قُلْتُ: واو الحال أي: تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس حقيقة في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف كأنه قيل: وإن تجمع بين قولك: أمسك وإخفاء خلافه وخشية الناس والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره، والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتناقصت عنها همته وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عندها ﴿زُوجْنَاهَا﴾، وقراءة أهل البيت زُوجَتْهَا وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: أليس تقرا علي غير ذلك فقال: لا والذي لا إله إلا هو ما قرأتها على أبي إلا كذلك ولا قرأها الحسن بن علي على أبيه إلا كذلك ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبي ﷺ إلا كذلك ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ جملة اعتراضية يعني: وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه مفعولاً مكوّنًا لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن ويجوز أن يراد بأمر الله المكوّن لأنه مفعول بكن وهو أمر الله.

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٢٨).

﴿فرض الله له﴾ قسم له وأوجب من قولهم فرض لفلان في الديوان كذا ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر كقولهم ترباً وجندلاً مؤكداً لقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾ كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهارر والسراير وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة وسبعمائة ﴿في الذين خلوا﴾ في الأنبياء الذين مضوا.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهًُا اللَّهُ وَيَكْفُرُونَ بِاللَّهِ حَيْبًا (٢٩).

﴿الذين ييلغون﴾ يحتمل وجوه الإعراب الجرّ على الوصف للأنبياء والرفع والنصب على المدح على هم الذين ييلغون أو على أعني الذين ييلغون، وقرئ: رسالة الله. قدرًا

عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له أن عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك هل تشير إلي فاقته فقال: إن الأنبياء لا تومض ظاهراً وباطنهم واحد^(١).

فإن قُلْتُ: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح ولا يستهجن النبي ﷺ التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالاة؟ قُلْتُ: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه السننهم إلا من أوتي فضلاً وعلماً ونبياً ونظراً في حقائق الأمور ولبوبها لئون قشورها ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله ﷺ بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستانسين بالحديث، وكان رسول الله ﷺ يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم والحياء يصدّه أن يأمهم بالانتشار حتى نزلت ﴿إِنَّ لَكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ ولو أبرز رسول الله ﷺ مكنون ضميره، وأمرهم أن ينتشروا لشق عليهم ولكن بعض المقالة فهذا من ذاك القليل لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته من امرأة، أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئذان زيد عنها ولا طلب إليه، وهو أقرب منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقتها مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء بل كانت تجفوا عنها، ونفس رسول الله ﷺ متعلقة بها ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ولا مستهجنًا إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر قلن المهاجر حين نخلوا المدينة استهجنهم الأنصار بكل شيء حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما ونكحها المهاجر وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح، ولا مفسدة ولا مضرة بزيد ولا بأحد بل كان مستجراً مصالح ناهيك بواحدة منها أن بنت عمه رسول الله ﷺ أمّت الأئمة والضيعة ونالت الشرف وعانت أمًا من أمّهات المسلمين إلى ما نكر الله عز وجل من المصلحة العامة في قوله لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتمه وبالحق في كتمه بقوله أمسك

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه 374/5، (الحديث رقم: 9739)،
وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: الحكم فيمن ارتد،
(الحديث رقم: 4359).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (١١).

﴿انكروا الله﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله وأكثروا ذلك.

وَسَيُجْزَى بَكْرًا وَأَصِيلًا (١٢).

﴿بكرة وأصيل﴾ أي: في كافة الأوقات قال رسول الله ﷺ: نكر الله على فم كل مسلم، وروي في قلب كل مسلم (٣) وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعن مجاهد هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان أعني انكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة، والأصيل كقولك صم وصل يوم الجمعة والتسبيح من جملة النكر وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة لبيان فضله على سائر الأنكار لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال وتبرئته من القبايح ومثال فضله على غيره من الأنكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أناس المعاصي والطهر من أرجاس المآثم على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام والتورع على الطاعات كلها والاشتغال على العلوم والاشتغال بالفضائل، ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والإقبال على العبادات، فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلًا، وهي الصلاة في جميع أوقاتها الفضل الصلاة على غيرها أو صلاة الفجر والعشاءين لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد. لما كان من شأن المصلي أن ينقطع في ركوعه وسجوده استعير لمن ينقطع على غيره حنوًا عليه وتروفاً كعائد المريض في انعطافه عليه والمرأة في حنوها على ولدها. ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والتروف ومنه قولهم صلى الله عليك أي: ترحم عليك وتراف.

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (١٣).

فإن قلت: قوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ إن فسرته بترحم عليكم ويتراف فما تصنع بقوله ﴿وملائكته﴾ وما معنى صلاتهم؟ قلت: هي قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والراقة ونظيره قوله حيّاك الله أي أحياك، وأبقاك وحييتك أي: دعوت لك بأن يحييك الله لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك (٤) كأنك تبقيه على الحقيقة وكذلك عمرك الله وعمرتك،

مقدورًا قضاءً مقضيًا وحكمًا مبتوتًا، ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ (١) ﴿حسيبًا﴾ كافيًا للمخاوف أو محاسبًا على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حق الخشية من مثله.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (١٤).

﴿ما كان محمد أبًا أحد من رجالكم﴾ أي: لم يكن أبًا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسول الله﴾ وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه حكمكم والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾ يعني: أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيًا ولم يكن هو خاتم الأنبياء كما يروى أنه قال: في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيًا (٢).

فإن قلت: أما كان أبًا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم! قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: من رجالكم من وجهين أحدهما أن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال والثاني أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم.

فإن قلت: أما كان أبًا للحسن والحسين! قلت: بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ وهما أيضًا من رجاله لا من رجالهم وشيء آخر، وهو أنه إنما قصد ولده خاصة لا ولد ولده لقوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما على الأربعين والآخر على الخمسين، قرئ ولكن رسول الله ﷺ بالنصب عطفًا على أبًا أحد وبالرفع على، ولكن هو رسول الله ولكن بالتشديد على حذف الخبر تقديره ولكن رسول الله من عرفتموه أي لم يعيش له ولد نكر وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع وبكسرهما بمعنى الطابع وفاعل الختم، وتقوية قراءة ابن مسعود ولكن نبيًا ختم النبيين.

فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان قلت معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبا أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد مصليًا إلى قبلته كأنه بعض أمته.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز: باب: ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ ونكر وفاته، (الحديث رقم: 1511)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأب، باب: من سمي بأسماء الأنبياء (الحديث رقم: 6194).

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ 115/3، ورواه البيهقي والدارقطني =

= نحوه في سننه 295/4، (الحديث رقم: 94).

(4) قال أحمد: كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة، والمجاز معاً بلفظ واحد، وقد التزمه ههنا، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة، ومن الملائكة مجازاً؛ لأنه حملها على الرحمة، وأما غيره فحملها على الدعاء وجعلها من الملائكة حقيقة، ومن الله مجازاً، والله أعلم.

بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار وصفه بالإتارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل: سليله وبقت فتيلته، وفي كلام بعضهم ثلاثة تضئ رسول بطيء وسراج لا يضيء ومائدة ينتظر لها من يجيء وسئل بعضهم عن الموحشين، فقال ظلام سائر وسراج فاتر وقيل: وإذا سراج منير أو وتالياً سراجاً منيراً ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف أرسلناك.

وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَأْنُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾

الفضل ما يتفضل به عليهم زيادة الثواب وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب، ويجوز أن يريد بالفضل الثواب من فوقهم للعطايا فضول وفواضل وأن يريد أن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم وذلك الفضل من جهة الله وأنه آتاهم ما فضلوه به.

وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالنَّافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿ولا تطع الكافرين﴾ معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه، أو التهييج ﴿أذاهم﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول يعني: ودع أن تؤذيه بضرر، أو قتل وخذ بظاهرهم وحسابهم على الله في باطنهم أو ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي منسوخة بأية السيف ﴿وتوكل على الله﴾ فإنه يكفيهم، وكفى به مفوضاً إليه ولقائل أن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾⁽²⁾ لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير، والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو أجل كانوا منذرين به في المستقبل والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتماء به وكيلاً لأن من أناره الله برهائناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحُّهُ الْمُؤْمِنَاتُ ثُمَّ طَلَعْنَهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوْرَهُنَّ مِمَّا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَمُدُّونَهَا فِعْمَهُنَّ وَسِرْجَهُنَّ سِرْكًا بَرِيكًا ﴿٤٩﴾

النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسميتهن الخمر إثمًا لأنها سبب في اقتراف الإثم ونحوه في علم البيان قول الراجز: أسنمة الأبال في سحابه، سمي الماء بأسنمة الأبال لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته ولم يرد لفظ النكاح في

وسقاك الله وسقيتك وعليه قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه﴾ أي: ادعوا الله بأن يصلي عليه، والمعنى هو الذي يترحم عليكم ويتراف حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار النكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿ليخرجكم﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة، ويروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾⁽¹⁾ قال أبو بكر رضي الله عنه: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركتنا فيه فانزلت.

يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿تحياتهم﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أي: يحيون يوم لقائه بسلام، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور وقيل: عند دخول الجنة كما قال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، والأجر الكريم الجنة.

يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥١﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٥٢﴾

﴿شاهداً﴾ على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي: مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم.

فإن قلت: وكيف كان شاهداً وقت الإرسال، وإنما يكون شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها قلت: هي حال مقدرة كمسألة الكتاب مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي مقدراً به الصيد غداً.

فإن قلت: قد فهم من قوله إنا أرسلناك داعياً أنه مانون له في الدعاء، فما فائدة قوله: ﴿بإذنه﴾ قلت: لم يرد به حقيقة الإذن، وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتيسير لأن الدخول في حق المالك متعذر فإذا صوف الإذن تسهل وتيسر فلما كان الإذن تسهياً لما تعذر من ذلك وضع موضعه وذلك إن دعاء أهل الشرك، والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر فقيل: بإذنه للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطيع إلا إذا سهله الله ويسره ومنه قولهم: في الشحيح أنه غير مانون له في الإنفاق أي غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخلاً في حكم التعذر.

جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، أو أمد الله

فإن قُلْتُ: لم قال اللاتي آتيت أجورهنّ ومما أفاء الله عليك واللاتي هاجرن معك وما فائدة هذه التخصيصات؟ قُلْتُ: قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبّه بالأطيب الأزكى كما اختصه بغيرها من الخصائص وآثره بما سواها من الأثر، وذلك أنّ تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية، وإن وقع العقد جائزاً وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن نخل بها، والمتعة إن لم يدخل بها وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل دين السلف وسنتهم وما لا يعرف بينهم غيره، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكاها وخطبه سيفه ورمحه ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شقّ الجلب والسبي على ضربين سبي طيبة وسبي خبيثة فسبي الطيبة ما سبي من أهل الحرب، وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبيثة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مما أفاء الله عليك﴾ لأن في الله لا يطلق إلا على الطيب نون الخبيث كما أنّ رزق الله يجب إطلاقه على الحلال نون الحرام، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله ﷺ من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه، وعن أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعزني⁽²⁾، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لاني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء، وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك، ولذلك نكحها واختلف في اتفاق ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن عند رسول الله ﷺ أحد منهنّ بالهبة وقيل: الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضي الله عنهنّ قرى⁽³⁾، وإن وهبت على الشرط وقرأ الحسن رضي الله عنه أن بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام، ويجوز أن يكون مصدراً محوفاً معه الزمان كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً بمعنى: وقت نومه جالساً ووقت هبتها نفسها وقرأ ابن مسعود بغير أن.

فإن قُلْتُ: ما فائدة ثم في قوله ﴿ثم طلقتموهن﴾ قُلْتُ: فائدته نفي التوهم عن عسى يتوهم تغاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حباله للزواج ثم يطلقها.

فإن قُلْتُ: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها الملامس هل يقوم ذلك مقام المساس قُلْتُ: نعم، عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فما لكم عليهنّ من عدة﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعتدونها﴾ تستوفون عدها من قورك عدت الدراهم فاعتدها كقولك كlette فاكلتا له وزنته فاتزته وقرى⁽⁴⁾ تعتونها مخففاً أي: تعتدون فيها كقوله ويوم شهنائه والمراد بالاعتداء ما في قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتوا﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: ما هذا التمتع أوجب أم منسوب إليه قُلْتُ: إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضا لها فالمتعة مختلف فيها فبعض على النديب والاستحباب ومنهم أبو حنيفة وبعض على الوجوب ﴿سراجاً جميلاً﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

فإن قُلْتُ: ما معنى الشرط الثاني مع الأول! قُلْتُ: هو تقييد له شرط في الإحلال هبتها نفسها وفي الهبة إرادة استنكاح رسول الله ﷺ كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم.

فإن قُلْتُ: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿نفسها للنبي إن أراد النبي﴾ ثم رجع إلى الخطاب قُلْتُ: للإيضاح بأنه مما خص به وأوثر ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكمة له لأجل النبوة وتكريره تفخيم له وتقدير لاستحقاقه الكرامة لنبوته، واستنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقد استشهد به أبو حنيفة على

كتاب الله إلا في معنى العقد لأنه في معنى: الوطاء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ لملامسة والمماسه والقربان والتغشي والإيتان.

فإن قُلْتُ: لم خصّ المؤمنات والحكم الذي نطفت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات قُلْتُ: في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به أن يتخير لنطفته وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة ويتنزه عن مزاجية الفواسق، فما بال الكوافر ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عبوة الله ووليه قالت في سورة المائدة تعليم ما هو جائز غير محرّم من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمن من نكاح المؤمنات.

فإن قُلْتُ: ما فائدة ثم في قوله ﴿ثم طلقتموهن﴾ قُلْتُ: فائدته نفي التوهم عن عسى يتوهم تغاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حباله للزواج ثم يطلقها.

فإن قُلْتُ: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها الملامس هل يقوم ذلك مقام المساس قُلْتُ: نعم، عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فما لكم عليهنّ من عدة﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعتدونها﴾ تستوفون عدها من قورك عدت الدراهم فاعتدها كقولك كlette فاكلتا له وزنته فاتزته وقرى⁽⁴⁾ تعتونها مخففاً أي: تعتدون فيها كقوله ويوم شهنائه والمراد بالاعتداء ما في قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتوا﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: ما هذا التمتع أوجب أم منسوب إليه قُلْتُ: إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضا لها فالمتعة مختلف فيها فبعض على النديب والاستحباب ومنهم أبو حنيفة وبعض على الوجوب ﴿سراجاً جميلاً﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِكَاحَ عَلَيْكَ وَنِكَاحَ خَالَاتِكَ وَنِكَاحَ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

(٥٠)

﴿أجورهنّ﴾ مهورهنّ لأن المهر أجر على البضع ويأتاها إما إعطائها عاجلاً وإما فرضها وتسميتها في العقد.

جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله ﷺ وأُمَّته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل، وقال الشافعي: لا يصح وقد خص رسول الله ﷺ بمعنى الهبة ولفظها جميعاً لأن اللفظ تابع للمعنى والمدعى للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز لقوله تعالى: ﴿اللاتي آتيت أجورهن﴾⁽¹⁾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان ﴿خالصة﴾ مصدر مؤكد كوعد الله، وصبغة الله أي خلص لك إحلال ما أطلنا لك خالصة بمعنى: خلوصاً والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد والعافية والكائبة والدليل على أنها وردت في أثر الإحالات الأربع مخصوصة برسول الله ﷺ على سبيل التوكيد لها، وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ بعد قوله من دون المؤمنين وهي جملة اعتراضية وقوله: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أن الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء، وعلى أي حد وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله ﷺ بما اختص به ففعل، ومعنى: لكيلا يكون عليك حرج لئلا يكون عليك ضيق في دينك حيث اقتصصناك بالتزنية، واختيار ما هو أولى وأفضل وفي نيكاح حيث أحلنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها وقرئ: خالصة بالرفع أي ذاك خلوص لك، وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة فعلى مذهبه هذه المرأة خالصة لك من دونهم ﴿وكان الله غفوراً﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رحيماً﴾ بالتوسعة على عباد.

﴿رَجَىٰ مَن نَّكَاهَ بَيْنَهُنَّ وَتَوَرَّىٰ إِلَيْكَ مَن نَّكَاهَ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَرِضْيَتَ يَمَآءَ أَيْتُهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾⁽²⁾

روي أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغلظ رسول الله ﷺ هجرته شهراً ونزل التخيير، فاشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله اقرض لنا من نفسك ومالك ما شئت⁽³⁾ وروي أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أرى ربك يسارع في هواك ﴿ترجي﴾ بهمز وغير همز تؤخر ﴿وتؤوى﴾ تضم يعني تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء أو تطلق

من تشاء وتمسك من تشاء، أو لا تقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت أو تترك تزوج من شئت من نساء أمك وتزوج من شئت وعن الحسن رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل، فلما أن يخلو المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن أوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضي الله عنهن أرجى خمساً وأوى أربعاً⁽⁴⁾، وروي أنه كان يسوى مع ما أطلق له وخير فيه الأسودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساك⁽⁵⁾ ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتكم ﴿أدنى﴾ إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً لأنه إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء وارتفع التفاضل ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى وعلمن أن هذا التفويض من عند الله بوحيه أطمأنت نفوسهن، وذهب التنافس والتغاير وحصل الرضا وقرت العيون وسلت القلوب ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسول الله ﷺ ويحث على تواطى قلوبهن بتصافي بينهن، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وما فيه طيب نفسه، وقرئ: تقرّ أعينهن بضم التاء ونصب الأعين وتقرّ أعينهن على البناء للمفعول ﴿وكان الله عليماً﴾ بذات الصدور ﴿حليماً﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقي ويحذر. كلهن تأكيد لنون يرضين وقرأ ابن مسعود ويرضين كلهن بما آتيتهن على التقويم وقرأ كلهن تأكيداً لهن في آتيتهن.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَلَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾⁽⁶⁾

﴿لا يحل﴾ وقرئ: بالتنكير لأن تانيث الجمع غير حقيقي وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى: وقال نسوة كان مع الفصل لجوز ﴿من بعد﴾ من بعد التسع لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمته منهن فلا يحل له أن يتجاوز النصاب ولا أن تبدل بهن ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً آخر بكلهن أو بعضهن أراد الله لهن كرامة وجزاء على ما اخترن

(4) ذكره ابن أبي شيبة في 204/4، كتاب: النكاح، باب: في الرجل يكون له...

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء، (الحديث رقم: 3040).

(1) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: وترجي من تشاء منهن... (الحديث رقم: 4788) ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضررتها، (الحديث رقم: 49 - 1464).

﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم و ﴿غَيْرِ نَاطِرِينَ﴾ حال من لا تدخلوا وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا وقت الإن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ومعناه لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إنه وإلا فلر لم يكن لهؤلاء خصوصاً لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إن شاء، وهو الإن إلى الطعام فحسب وعن ابن أبي عتبة أنه قرأ غير ناظرين مجروراً صفة لطعام وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إنه أنتم كقولك هند زيد ضاربه هي، وإنّي الطعام إدراكه يقال: أنّي الطعام أنّي كقولك قلاه قلبي ومنه قوله: ﴿بَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ﴾ بالغ إنه وقيل: إنه وقته أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله وروى أن رسول الله ﷺ أَوَّلَمَ على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنساً أن يدعو بالناس، فترافوا أفواجا ياكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً ادعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فاطلوا فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال السلام عليكم أهل البيت فقالوا عليك السلام يا رسول الله كيف وجدت أهلك وطاف بالحجرات، فسلم عليهن ودعوهن له ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى فلما رآه متولياً خرجوا فرجع ونزلت⁽⁵⁾ ﴿وَلَا مَسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ نهوا عن أن يطيّلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدث به، أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت واستأنسه تسمعه وتوجه وهو مجرور معطوف على ناظرين وقيل: هو منصوب على ولا تدخلوها مستأنسين. لا بد في قوله ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ من تقدير المضاف أي من إخراجكم بدليل قوله والله لا يستحيي من الحق يعني: أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحي منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل: ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ بمعنى: لا يمتنع منه ولا يتركة ترك الحي منكم وهذا ادب أنب الله به الثقلاء وعن عائشة رضي الله عنها حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال:

ورضين، فقصر النبي ﷺ عليهن وهي التسع اللاتي مات عنهن عائشة بنت أبي بكر حفصة بنت عمر أم حبيبة بنت أبي سفيان سودة بنت زمعة أم سلمة بنت أبي أمية صفية بنت حيي الخيرية ميمونة بنت الحارث الهلالية زينب بنت جحش الأسدية جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن⁽¹⁾. من في ﴿مَنْ أَزْوَاجٍ﴾ لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم وقيل معناه: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهن لك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات، أو من الإماء بالنكاح وقيل: في تحريم التبديل هو من البديل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: باللني بامراتك وأبالبك بامراتي فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه ويحكى أن عيينة بن حصن دخل على النبي ﷺ، وعنده عائشة عن غير استئذان فقال رسول الله ﷺ: يا عيينة أين الاستئذان قال يا رسول الله: ما استئذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت، ثم قال من هذه الجميلة إلى جنبك فقال ﷺ: هذه عائشة أم المؤمنين قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال ﷺ: إني الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: من هذا يا رسول الله قال: أحق مطاع وأنه على ما ترين لسيد قومه⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء⁽³⁾ تعني: أن الآية قد نسخت، ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة وإما بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾⁽⁴⁾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في تبديل لا من المفعول الذي هو من أزواج لأنه موغل في التنكير، وتقديره مفروضاً أعجابك بهن وقيل: هي أسماء بنت عيسى الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب والمراد أنها ممن أعجبه حسنهن واستثنى ممن حرم عليه الإماء ﴿رَقِيبًا﴾ حافظاً مهيمناً، وهو تحنير عن مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه.

يَتَأْتِيكَ الْيَتِيمَ إِتْمَانًا لَا نَدْخُلُهُ يَوْمَ تَوَاتَى إِلَيْنَا آتٌ يُؤْذَنُ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طُومِنْتُمْ فَأَنْتُمْ وَمَا الْمُؤْمِنِينَ لِيَدْبُرَ إِلَيْكُمْ كَانَ يُؤْذَى إِلَيْنَا فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَتَلَوْهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٢).

= التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 3216)، والحاكم في المستدرک 437/2.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168 و5169)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 90 1428).

(1) رواه أبو خيثمة في تاريخه، الزيلعي 120/3.

(2) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 2251).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وإخباره (الحديث رقم: 6366)، أخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: ما افترض الله عز وجل على رسول الله ﷺ، والترمذي في كتاب: =

فنزلت.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَلَا آبَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَهُمْ وَلَا إِسْهَابَهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَقْرَبِينَ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

﴿لَا جَنَاحَ عَلَيْهِنَ﴾ أي لا إثم عليهن في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم ينكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى والدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَبَاكَ﴾ إبراهيم وإسماعيل وإسحق⁽⁶⁾ وإسماعيل عم يعقوب، قيل: كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لابنائهما وإبنائهما غير محارم، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد فقيل ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار وأحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن، واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان، وأنتن غير محجبات ليفضل سركن علكن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شَهِيدًا﴾ لا يفتقر في علمه الأحوال.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾.

قريء وملائكته بالرفع عطفًا على محل إن واسمها وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ووجهه عند البصريين أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صلوا عليه وسلموا﴾ أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام ومعناه الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوبة إليها! قُلْتُمْ: بل واجبة وقد اختلفوا في حال وجوبها فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره وفي الحديث من ذكرت عنده فلم يصل عليّ فبخل النار فأبعده الله⁽⁷⁾ ويروى أنه قيل: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فقال ﷺ هذا من العلم المكتون، ولولا أنكم سألتُموني عنه ما أخبرتكم به إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِي مُلْكَيْنِ فَلَا أَتَذَكَّرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَى إِلَّا قَالَ: ذَاكَ الْمَكَانَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ جَوَابًا لِنَبِيِّكَ الْمَلِكَيْنِ آمِينَ⁽⁸⁾ وَلَا أَتَذَكَّرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ، فَلَا يُصَلِّي عَلَى إِلَّا قَالَ ذَاكَ الْمَلِكَانِ لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ لِنَبِيِّكَ الْمَلِكَيْنِ آمِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ تَجِبُ فِي كُلِّ مَجْلَسٍ مَرَّةً إِنْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ

فإذا طعمتم فانتشروا⁽¹⁾ وقرئ: لا يستحي بياء واحدة،
الضمير في ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ للنساء النبي ﷺ ولم يذكرن
لأنَّ الحال ناطقة بذكرهنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ حاجة ﴿فَأَسْأَلُوهُنَّ﴾
المتاع قيل: إنَّ عمر رضي الله عنه كان يحب ضرب
الحجاب عليهنَّ محبة شديدة كان يذكره كثيرًا ويود أن
ينزل فيه وكان يقول: لو أطاع فيكنَّ ما رأكنَّ عيني
وقال: يا رسول الله يدخل عليك البرِّ والفاجر فلو أمرت
أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ بالحجاب⁽²⁾ فنزلت، وروي أنه مرَّ عليهنَّ
وهنَّ مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتنَّ، فلئن
لكنَّ على النساء فضلًا كما أنَّ لزوجكنَّ على الرجال
الفضل، فقالت زينب رضي الله عنها: يا ابن الخطاب إنك
لا تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فلم يلبسوا إلا
يسيرًا حتى⁽³⁾ نزلت، وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ كان يطعم
ومعه بعض أصحابه فأصابته يد رجل منهم يد عائشة
فكره النبي ﷺ ذلك⁽⁴⁾، فنزلت آية الحجاب ونكر أنَّ
بعضهم قال أنه ي أنهي أن تكلم بنات عمنا إلا من وراء
حجاب لأن مات محمد لآتزوجنَّ عائشة، فأعلم الله أنَّ
ذلك محرَّم⁽⁵⁾ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صحَّ لكم إيذاء
رسول الله ﷺ ولا نكاح أزواجه من بعده، وسمى
نكاحهنَّ بعده عظيمًا عنده وهو من أعلام تعظيم الله
لرسوله وإيجاب حرمة حيًّا وميتًا وإعلامه بذلك مما
طيب به نفسه وسرَّ قلبه واستغزر شكره، فإنَّ نحو هذا
مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلو منه فكره ومن
الناس من تفرط غيرته إلى حرمة حتى يتمني لها
الموت لئلا تنكح من بعده، وعن بعض الفتيان أنه كانت
له جارية لا يرى الدنيا بها شغفًا واستهتارًا فنظر إليها
ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلى نحيبه مما ذهب
به فكره هذا المذهب فلم يزل به ذلك حتى قتلها تصوَّرًا
لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره
وعن بعض الفقهاء أنَّ الزوج الثاني في هدم الثلاثي مما
يجري مجرى العقوبة، فصين رسول الله ﷺ عما يلاحظ
ذلك.

إِنْ بُدِّدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ من نكاحهنَّ على السننكم ﴿أَوْ خَفَوْهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عامًا لكل باد وخاف لينخل تحته نكاحهنَّ وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الأبياء والأبناء والأقارب يا رسول الله، أونحن أيضًا نكلمهنَّ من وراء الحجاب

(6) سورة البقرة، الآية: 133.

(7) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: 907)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصيام، فصل: فضائل شهر رمضان، (الحديث رقم: 3622).

(8) رواه الطبرانی فی معجمه.

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 125/3.

(2) قال الزيلعي، رواه النسائي وساق الحديث. وعزاه الواحدي للبخاري في تفسيره 126/3.

(3) ذكره الطبري في تفسيره، وذكره الثعلبي، الزيلعي 127/3.

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) رواه ابن سعد في الطبقات: 162/8.

رسول الله ﷺ قولهم ساحر شاعر كاهن مجنون وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

وَأَمَّا أذى المؤمنين والمؤمنات فمنه ومعنى «بغير» ما اكتسبوا بغير جنابة واستحقاق للأذى وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤنون علياً رضي الله عنه ويسمعونه وقيل: في الذين اتكوا على عائشة رضي الله عنها وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات، وعن الفضيل لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل النمة لما فيه من الروعة عند كز الحول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزْنُوا زَوَاجَكُمْ وَزَوَاجُهُمْ يُزْنُونَ عَنْكُمْ مِنَ الْجَنَابَةِ ذَلِكَ أَذَى بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَكْتُمُونَ وَأَمَّا اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

الجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار وبون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستمر من فوق إلى أسفل وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره قال أبو زيد: مجلبب من سواد الليل جلباباً، ومعنى «يبدنن عليهن من جلبابيهن» يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة أنسى ثوبك على وجهك وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في نزع وخمار فصل بين الحرّة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والعيطان للإماء وربما تعرّضوا للحرّة بعلّة الأمة يقولون حسبناها أمة، فأمروا أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤس والوجوه ليحتشمن، ويهين فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله «ذلك أننى أن يعرفن» أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن.

فإن قلّت: ما معنى من في من جلبابيهن! قلّت: هو للتبعيض إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين: أحدهما أن

كما قيل: في آية السجدة، وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر مرة وكذا قال في إظهار الشهادتين، والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه عند كل نكر لما ورد من الأخبار^(١).

فإن قلّت: فالصلاة عليه في الصلاة هي شرط في جوازها أم لا؟ قلّت: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطاً، وعن إبراهيم النخعي كانوا يكتفون عن ذلك يعني: الصلاة بالشهادة وهو السلام عليك أيها النبي، وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً.

فإن قلّت: فما تقول في الصلاة على غيره قلّت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى «هو الذي يصلي عليكم» وقوله تعالى: «وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»، وقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢) ولكن العلماء تفصيلاً في ذلك، وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك صلى الله على النبي وآله فلا كلام فيها وأما إذا أقرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لنكر رسول الله ﷺ ولأنه يؤدى إلى الالتئام بالرفض، وقال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم^(٣).

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَمَكَّهُنَّ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٦٠﴾

«يؤذون الله ورسوله» فيه وجهان أحدهما أن يعبر بليذائهما عن فعل ما يكرهانه، ولا يرضيانه من الكفر والمعاصي وإنكار النبوة ومخالفة الشريعة وما كانوا يصيبون به رسول الله ﷺ من أنواع المكروه على سبيل المجاز وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ﷺ لثلاث أسباب العبارة الواحدة معطية معنى للمجاز، والحقيقة والثاني أن يراد يؤذون رسول الله ﷺ وقيل في أذى الله هو قول اليهود والنصارى والمشرّكين يد الله مغفولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه وقيل قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته وعن رسول الله ﷺ: فيما حكى عن ربه شتمني ابن آدم، ولم ينبغ له أن يشتمني وأذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني فأما شتمه إياي فقلوه إنني اتخذت ولدًا وأما أذاه^(٤)، فقلوه إن الله لا يعينني بعد أن بداني، وعن عكرمة فعل أصحاب التصاوير الذين يرمون تكوين خلق مثل خلق الله وقيل: في أذى

= ابن ملج في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: الصلاة على النبي ﷺ، (الحديث رقم: 907).

(2) تقدم في براءة.

(3) تقدم في يوسف.

(4) نكره الطبري في تفسيره.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقاق، باب: الأدعية، (الحديث رقم:

908) والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول ﷺ رغم

أنف رجل، (الحديث رقم: 3545)، نكره الطبراني، أخرجه الترمذي

في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول ﷺ رغم أنف رجل، (الحديث

رقم: 3546)، وأخرجه ابن ملج في كتاب: إقامة الصلاة والسنة

فيها، باب: الصلاة على النبي ﷺ، (الحديث رقم: 908)، وأخرجه =

فَإِنْ قُلْتُ: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء وأن يقال لنغرينك بهم، فلا يجاورونك قُلْتُ: لو جعل الثاني مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأول، وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به فترأخت حاله عن حال المعطوف عليه.

سُئِلَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدَ إِسْنَةُ اللَّهِ تَبْدِيلًا (١٧)

﴿سنة الله﴾ في موضع مصدر مؤكد أي سنَّ الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما تقفوا، وعن مقاتل يعني: كما قتل أهل بدر وأسروا.

يَسْتَكْ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (١٨)

كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحاناً، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب فأمر رسول الله ﷺ بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به لم يطلع عليه ملكاً، ولا نبياً، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديداً للمستعجلين وإسكاتاً للممتحنين ﴿قريباً﴾ شيئاً قريباً أو لأن الساعة في معنى اليوم أو في زمان قريب.

إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سِيرًا (١٩) خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٠)

السعير النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

يَوْمَ ثَقُلَتْ رُجُومُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَّغْنَا أَمَنَّا اللَّهُ وَأَطَمْنَا الرَّسُولَ (٢١)

وقرى: ﴿ثقل﴾ على البناء للمفعول وثقلب بمعنى تتقلب وتقلب أي ثقلب نحن وثقلب على أن الفعل للسعير ومعنى ثقلبها تصريفها في الجهات كما نرى البضعة تدور في القدر إذا غلت، فنرامي بها الغليان من جهة إلى جهة أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها، أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة وناسب الطرف يقولون أو محذوف وهو أنكروا وإذا نصب بالمحذوف كان يقولون حالاً.

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا أَصْلَحًا (٢٢)

وقرى: ﴿سادتنا﴾ وساداتنا وهم رؤساء الكفر الذين

يتجلببن ببعض ما لهم من الجلابيب والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في برع، وخمار كالامة والماهنة ولها جلبابان فصاعداً في بيتها والثاني أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الامة، وعن ابن سيرين سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحجاب ثم تديره حتى تضعه على أنفها، وعن السدي أن تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين، وعن الكسائي يتقنعن بملاحفن منضمة عليهن أراد بالانضمام معنى الإناء ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما سلف منهن من التفريط مع التوبة لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

لَنْ لَرَّ بَنَى الْمُتَنَفِّثُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٢٣)

﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان، وقلة ثبات عليه وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ ﴿والمرجفون﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنامرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوهم وتتوهم، ثم بأن تضطهرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لا يسكنوك فيها ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾ ريثما يرحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم^(١) فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز.

لَمُعُونِينَ أَيَّمَا فُتُوًا أُحْذَرُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا (٢٤)

﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال أي لا يجاورونك إلا ملعونين دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً كما مر في قوله: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾^(٢) ولا يصح أن ينتصب عن أخذوا لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.

وقيل: في قليلاً هو منصوب على الحال أيضاً ومعناه لا يجاورونك إلا اقلاء أنلاء ملعونين.

فَإِنْ قُلْتُ: ما موقع لا يجاورونك؟ قُلْتُ: لا يجاورونك عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم ألا ترى إلى صحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 53.

(1) قال أحمد: وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

قيل: إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها سالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنبت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليتراعى عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الأمر الوعد البالغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه، لما قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم أتبعه قوله.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها، وفخم شأنها وفيه وجهان: أحدهما أَنَّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد عقلها وهو ما يتأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته، وإرادته إيجاباً وتكويناً وتسوية على هياكل مختلفة وأشكال متنوعة كما قال ﴿فَلَمَّا آتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أَنَّ الأمانة لازمة الأداء، وعرضها على الجمادات وإبائها وإشفاقها مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن نمته ويخرج عن عهدها لأن الأمانة كانها رابكة للمؤمن عليها وهو حاملها إلا تراهم يقولون ركبته الديون، ولي عليه حق فإذا أداها لم تبق رابكة له ولا هو حاملاً لها ونحوه قولهم لا يملك مولى لمولى نصراً يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخائن ومنه قول القائل:

أخوك الذي لا تملك الحس نفسه وترفض عند المحفظات الكتائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمسك المالك الضنين ما في يده بل يبذل ذلك ويسمح به ومنه قولهم أبغض حق أخيك لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤده وإذا أبغضه أخرجه وأذاه فمعنى، ﴿فَابَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ فابَيْنَ إلا أن يؤديها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لاداء الأمانة وبالجهل لأخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها، والثاني أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحملة ويستقل به فابى حمله والاستقلال به وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه

لقتنهم الكفر وزينوه لهم، يقال: ضلّ السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف، وقرئ: كثيراً تكثيراً لإعداد اللعائن وكثيراً ليليد على أشد اللعن وأعظمه.

رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّنْ أَمْثَلِ الْعَذَابِ وَأَلْعَنَهُمْ لَمَّا كَبُرُوا

﴿ضعفين﴾ ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شيء من ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَبَّرُوا كَالَّذِينَ مَاذَا مَوَّاهُ فَجَرَّهُ اللَّهُ مِنَّا فَأَلُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٧٨﴾

﴿لا تكونوا كالذين أنوا موسى﴾ قيل: نزلت في شان زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس، وقيل: في آذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، وقيل: اتهمهم إياه بقتل هارون وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً، فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول وقيل: أحياء الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام وقيل: قرفوه بعيب في جسده من برص، أو أدرة فأطلعهم الله على أنه بريء منه ﴿وجيهاً﴾ ذا جاه ومنزلة عنده فلذلك كان يميظ عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة كما يفعل الملك بمن له عنده قرية ووجاهة، وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة وكان عبد الله وجيهاً قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان فسمعتة يقرؤها، وقرأه العامة أوجه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ وهذه ليست كذلك.

فإن قُلْتُ: قوله ﴿مما قالوا﴾ معناه من قوله أو من مقولهم، لأن ما: إما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فكيف تصح للبراءة منه؟ قُلْتُ: المراد بالقول أو المقول مؤداه ومضمونه، وهو الأمر المعيب ألا ترى أنهم سمو السببة بالقالة والقالة بمعنى القول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٩﴾

﴿قولاً سديداً﴾ قاصداً إلى الحق والسداد القصد إلى الحق والقول بالعدل يقال: سدد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها كما قالوا: سهم قاصد والمراد نهيم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على أن يسد قولهم في كل باب، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله والمعنى: راقبوا الله في حفظ السننكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها و.

يُطِيعُ لَكُمْ أَعْلَانَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبا مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

ما في السموات والارض كله نعمة من الله وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ولما قال ﴿الحمد لله﴾، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه أنه المحمود على نعم الدنيا كما تقول أحمد أخاك الذي كسلك وحملك تريد أحمدته على كسوته وحملاته ولما قال: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة، وهو الثواب.

فإن قلنا: ما الفرق بين الحمدين؟ قلنا: أما الحمد في الدنيا فواجب لا أنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب وأما الحمد في الآخرة، فليس بواجب لا أنه على نعمة واجبة (2) الإيصال إلى مستحقها إنما هو تنمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتنون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم أمور الدارين وببرها بحكمته ﴿الخبير﴾ بكل كائن يكون.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾.

ثم نكر مما يحيط به علماً ﴿ما يلبج في الأرض﴾ من الغيث كقوله فسلكه ينابيع في الأرض، ومن الكنوز والنفائ والاموات وجميع ما هي له كفات ﴿وما يخرج منها﴾ من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب وغير ذلك ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأزلاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وهو﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿الرحيم الغفور﴾ للمفترطين في أداء مواجب شكرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ننزل بالنون والتشديد.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابُ
الْعَذِيبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا
أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ يَجْزِيكَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من تلك قولهم لو قيل: للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج وكم وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات وتصور مقولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبضه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع وهي به آنس وله آقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محلها والوفاء بها.

فإن قلنا: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد، وإبائه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صبح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول. قلنا: الممثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والارض والجبال لأبين أن يحملنها وأشققن منها.

لِعَذَابِ اللَّهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧﴾.

واللام في لعذب لام التعليل على طريق المجاز، لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التائب في ضربته للتائب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويتوبى ويتوب الله ومعنى قراءة العامة لعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر» (1).

(1) نكره الثعلبي وابن مريويه، الزليعي 3/137.

= كالجلبات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق، والله الموفق.

(2) قال أحمد: والحق في الفرق بين الحمدين أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية =

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ يِّنْ رِّبِّهِمْ ۖ أَلَيْسَ﴾ (٥).

قولهم: ﴿لَا تَاتِينَا السَّاعَةَ﴾ نفى للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لأنَّ عظمة حال المقسم به تؤنن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته، واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وأكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قلَّت: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى قلَّت: نعم، وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأولها مسارعة إلى القلب إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيباً واضحاً.

فإن قلَّت: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فهب أنه حلف لهم باعظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلَّت: هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يتبعها الحجة القاطعة والبيئة الساطعة.

وهي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب والعسيء لا بد له من عقاب وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متصل بقوله ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلاً له، قرئ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالتاء والياء ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم أو يسند إلى عالم الغيب أي لياتيكنكم أمره كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، أو يأتي ريك وقال: ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رِّبْكَ﴾. وقرئ: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ و﴿وَعَالَمُ الْغَيْبِ﴾ بالجر صفة لربي وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ولا يعزب بالضم والكسر في الزاي من العزوب، وهو البعد يقال روض عزيز بعيد من الناس ﴿مُنْقَالِ نَزَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿وَلَكَّ﴾ إشارة إلى مثقال نزة، وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء وبالفتح على نفى الجنس كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بالرفع والنصب وهو كلام منقطع عما قبله.

فإن قلَّت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال نزة كانه قيل: لا يعزب عنه مثقال نزة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي وعطف المفتوح على نزة بأنه فتح في موضع الجر

لامتناع الصرف كانه قيل: لا يعزب عنه مثقال نزة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قلَّت: يابى ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في عنه للغيب وجعلت الغيب اسماً للخفيات قيل أن تكتب في اللوح لأنَّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا يفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح.

﴿الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ يِّنْ رِّبِّهِمْ﴾ وقرئ: معجزين واليم بالرفع والجر، وعن قتادة الرجز سوء العذاب.

وَبَرَىٰ الَّذِينَ أَوَّلُوا الْأَلَمَ الَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ (٦).

﴿وَبَرَى﴾ في موضع الرفع أي ويعلم أولوا العلم يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما، الذي أنزل إليك الحق وهما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع جعله مبتدأ والحق خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني، وقيل: يرى في موضع النصب معطوف على.

ليجزى أي: وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علماً لا يزداد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا، ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق، فيزدلوا حسرة وغماً.

وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُلُّكَ عَلَىٰ رِجْلِ نَبِيِّنَا إِذَا مَرَّكَ عَلَىٰ مَرْجٍ إِنَّكُمْ لَٰئِي حَلْقِي حَكِيدٌ (٧).

﴿الذين كفروا﴾ قريش قال بعضهم لبعض.

﴿هل نذلكم على رجل﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يحشركم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً. يمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد.

أَنْتَنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨).

أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، ثم قال سبحانه: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار فيما يؤذيهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجن الجنون واشده إطباقاً على عقولهم جعل وقوعهم في العذاب رسياً لوقوعهم في الضلال كأنهما كائناتان في وقت واحد، لأنَّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته جعلاً كأنهما في الحقيقة مقترنان، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه ينيبكم.

فإن قلَّت: فقد جعلت الممزق مصدرًا كبيت الكتاب.

بالإدغام وليست بقوية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْخَبِيرُ﴾ (١٦).

﴿يا جبال﴾ إما أن يكون بدلاً من فضلاً وإما من آتيناً بتقدير قولنا: يا جبال أو قلنا يا جبال، وقرئ: آوِي وأوِي من التأويب والأوب أي: رجعي معه في التسبيح أو راجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه، ومعنى تسبيح الجبال أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسيح معجزة لداود وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تساعد على نوحه بأصداثها والطير بأصواتها، وقرئ: والطير رفعاً ونصباً عطفاً على لفظ الجبال ومحلها وجوزوا أن ينتصب مفعولاً معه وأن يعطف على فضلاً بمعنى وسخرنا له الطير.

فإن قُلْتُ: أي: فرق بين النظم وبين أن يقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ تأويب الجبال معه والطير قُلْتُ: كم بينهما ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفي من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا واجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَبِيدُ﴾، وجعلناه له ليئلاً كالطين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة.

أَنْ أَعْلَى سَيِّغَتِ وَفَزَزَ فِي الْتَرَدِّ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَكْمُلُونَ بَصِيرٌ (١٧).

وقرئ: صابغات وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أول من اتخذها وكانت قبل صفائح وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متذكراً فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود، فيثنون عليه فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عاتبه فقال: نَعَمْ الرجل لولا خصلة فيه فريخ داود، فسأله فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع ﴿وَوَقَدَّرُ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتفصم الحلق والسرود نسج الدروع ﴿وَأَعْمَلُوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿وَو﴾ سخرنا.

وَلِسَيْنَ الرِّيحِ غُدُوًّا شَرًّا وَرَوْحًا شَرًّا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الطَّيْرِ وَمَنْ أَلَمِنَ مَنْ يَعْمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنُ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْجَعْ إِلَيْهِمْ عَنْ أَمْرٍ نَزَعَهُ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ (١٨).

﴿لسليمان الريح﴾ فيمن نصب ولسليمان الريح مسخرة فيمن رفع وكذلك فيمن قرأ الرياح بالرفع ﴿غُدُوًّا﴾ شهرٌ جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك،

الم تعلم مسرحي القوافي فلا عيابهن ولا اجتلاباً فهل يجوز أن يكون مكاناً؟ قُلْتُ: نعم ومعناه ما حصل من الاموات في بطون الطير والسباع وما مرت به السيول فذهبت به كل مذهب وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح.

فإن قُلْتُ: ما العامل في إذا؟ قُلْتُ: ما دل عليه إنكم لفي خلق جديد وقد سبق نظيره.

فإن قُلْتُ: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قُلْتُ: هو عند البصريين بمعنى فاعل تقول جد فهو جديد كحد فهو حديد وقل فهو قليل وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جده إذا قطعه وقالوا: هو الذي جد الناسج الساعة في الثوب ثم شاع ويقولون ولهذا قالوا: ملحفة جديد وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ونحو ذلك.

فإن قُلْتُ: لم أسقطت الهمزة في قوله افترى دون قوله السحر وكتاهما همزة وصل؟ قُلْتُ: القياس الطرح ولكن أمراً اضطرهم إلى ترك إسقاطها في نحو السحر وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام.

فإن قُلْتُ: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتُ: هو من الإسناد المجازي لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة وكما ازداد عنها بعداً كان أضل.

فإن قُلْتُ: كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم فما معنى قوله: ﴿هَلْ نَمْلِكُ عَلَى رَجُلٍ نَبْنِئُكُمْ﴾ فنكروهم لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول قُلْتُ: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يحتاج بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَحْنَفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسُطَّ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَذْبٍ مُّثِيرٍ (١٩).

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرن أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لآية﴾ ودلالة ﴿لكل عبد منيب﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى: ﴿افترى على الله كذباً﴾ وبالنون لقوله: ولقد آتينا وكسفاً بفتح السين وسكونه، وقرأ الكسائي يخسف بهم

وقرى غبوتها وروحها وعن الحسن رضي الله عنه كان يغزو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواح به كابل ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان نحن نزلناه وما بنيانه ومبنيها وجنانه غلونا من اصطخر فقلناه ونحن راثون منه فبائنون بالشام إن شاء الله. القطر النحاس المذاب من القطران.

فإن قلنت: ماذا أراد بعين القطر؟ **قلنت:** أراد بها معدن النحاس ولكنه أسأله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما أل إليه كما قال: **﴿إني أراني أعصر خمراً﴾** وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام **﴿بإذن ربه﴾** بأمرة **﴿ومن يزغ منهم﴾** ومن يعدل **﴿عن أمرنا﴾** الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرى يزغ من أزاعه، وعذاب السعير عذاب الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى.

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَبَّةٍ وَنَسِيْلٍ وَهَآئِكَ كَآلُ جَوَابٍ وَفُؤَادٍ رَاسِيَةٍ أَعْمَلُوا مَا أَنَاؤُهُ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِ الشُّكْرِ (١٣)

المحاريب المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها وينب عنها وقيل: هي المساجد، والتمائيل صور الملائكة والنبين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراهم الناس فيعبدوا نحو عبادتهم.

فإن قلنت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير **قلنت:** هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكنب وعن أبي العالية لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً، ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو تصور محذوفة الرؤوس، وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما والجوابي الحياض الكبار قال:

تروح على آل المخلوق جفنة كجابية^(١) السبح العراقي تفهق^(٢) لأن الماء يجيب فيها أي: يجمع جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، وقرى: بحنف الباء اكتفاء بالكسرة كقوله تعالى: **﴿يوم يدع الداع﴾** **﴿وراسيات﴾** ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها **﴿اعملوا آل داود﴾** حكاية ما قيل: لآل داود وانتصب **﴿شكراً﴾** على أنه مفعول له أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه وفيه دليل على أن العبادة

يجب أن تؤدى على طريق الشكر أو على الحال أي: شاكرين أو على تقدير اشكروا شكراً لأن اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث أن العمل للمنع شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به ومعناه أنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة **﴿والشكور﴾** المتوفر على أداء الشكر البازل وسعيه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعتراضاً وكنياً وأكثر أوقاته، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من يشكر على أحواله كلها، وعن السدي من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وعن داود أنه جزاً ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء فقال الرجل: إني سمعت الله يقول **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر^(٣).

فَلَمَّا قُضِيَتْ عَلَيْهِ مَوْتٌ مَا دَعَمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا بِمَلَكُونَ الْغَيْبِ مَا كُنُوا فِي الْمَكَاِبِ الْهَيْبِ (١٤)

قرى: فلما قضى الموت ودابة الأرض الأرضة وهي الدوبية التي يقال لها السرقة والأرض فعلها فاضيفت إليه يقال: أرضت الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرضة، وقرى: بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضاً وهو من باب فعلته ففعل كقولك أكلت القوارج الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً، والمنسأة العصا لأنه ينسأ بها أي يطرد ويؤخر، وقرى: بفتح الميم ويتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس ولكن إخراج الهمزة بين بَيْنَ هو التخفيف القياسي ومنسأته على مفعالة كما يقال: في الميضاء ميضاء ومن سآته أي من طرف عصاه سميت بساة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم قحة وقحة وقرى: أكلت منسأته **﴿تبيئت الجن﴾** من تبين الشيء إذا ظهر وجلى، **﴿وإن﴾** مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك تبين زيد جهله والظهور له في المعنى أي ظهر أن الجن **﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب﴾** أو علم الجن كلهم علماً بيباً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم وتوهمهم أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تنهك بمدعي الباطل إذا نحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل وانت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً، وقرى: **﴿تبيئت الجن﴾** على البناء للمفعول

(١) الجابية: أي الماء الجاري على وجه الأرض.

(٢) وفهق الإناء: أي إذا امتلأ حتى يتصب.

(٣) رواه ابن أبي شيبة 322/10، كتاب الدعاء، باب: ما ذكر عن أبي بكر وعمر والنخ.

في أنفسهما آية وإنما جعل قصتهما وأن أهلها أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرَّبهما وأبدلهم عنهما الخبط والأثل آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، ويجوز أن تجعلهما آية أي علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره.

فإن قلَّت: كيف عظم الله جنتي أهل سبا وجعلهما آية ورب قرية من قرى العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ **قلَّت:** لم يرد بستانيين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم: أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم: لسان الحال أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ولما قال: كلوا من رزق ربكم ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكنل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجرة فيمتلئ المكنل بما يتساقط فيه من الثمر طيبة لم تكن سيخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا نياح ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وقرى بلدة طيبة ورباً غفوراً بالنصب على المدح، وعن ثعلب معناه: أسكن واعبد.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمِ وَيَدْلُكُهُمْ مَجْنَيْتُهُمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلٍ حَظِرَ وَأَثَرِهِمْ نَفَقَةٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾

﴿العرم﴾ الجرد الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقت به ماء العيون والأمطار وتركته فيه خروفاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله، ويذكرونهم نعمته عليهم فكذبوهم وقالوا: ما نعرف الله نعمة سلط الله على سدهم الخلد فنقيه من أسفله ففرقههم وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المرمومة ويقال: للكس من الطعام عرمة والمراد المسناة التي عقبوها سكرًا وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد، وقرئ: **﴿العرم﴾** بسكون الراء، وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ﷺ، وقرئ: **﴿اكل﴾** بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والاكل الثمر، والخبط شجر الأراك وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعمًا من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودًا ووجه من نون أن أصله نواتي اكل خبط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

على أن المتبين في المعنى هو أن مع ما في صلتها لانه بدل، وفي قراءة أبي تبيينت الإنس وعن الضحاك تباينت الإنس بمعنى: تعارفت وتعالمت والضمير في كانوا للجن في قوله: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصنفون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ما لبثوا، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبيينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصحب إلا رأي في محرابه شجرة ثابتة قد أنطقها الله فيسألها لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة فسألها فقالت: نبت لأخرب هذا المسجد فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال اللهم: عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال: لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرخًا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئًا على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان، فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خر ميتًا ففتحو عنه، فإذا العصا قد اكلتها الأرضة فارأوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فاكلت منها في يوم وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك النحو فوجوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيًا، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة، وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب، روى أن أفريلون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه، وكان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وأبداً بناء بيت المقدس لأربع مئين من ملكه.

لَقَدْ كَانَ لِسَـلَمٌ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَن بَيْبِنٍ وَشِمَالِ كُلِّ مِّن رَّزْقِ رَبِّكَ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بِلَدَةٍ طَيِّبَةٍ رَبِّ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١٨﴾

قرئ: ﴿لسبا﴾ بالصرف ومنعه وقلب الهمزة الفاء، ومسكنهم بفتح الكاف وكسرهما وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم، وقرئ مسكنهم و﴿جنتان﴾ بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة من قرأ جنتين بالنصب على المدح.

فإن قلَّت: ما معنى كونهما آية؟ **قلَّت:** لم نجعل الجنتين

قرئ رينا باعد بين أسفارنا وبعد ويا رينا على الدعاء، بطروا النعمة ويشموا من طيب العيش وملوا العاقبة فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسوى وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد كان أجدر أن نشتهي، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مقافز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد فعجل الله لهم الإجابة، وقرئ: ﴿رَبَّنَا﴾ بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفع به كما تقول: سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا.

وقرئ: رينا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع رينا على الابتداء، والمعنى: خلاف الأول وهو استبعاد مسيرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفعهم كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحاذنون عليه ﴿إِحَابِيثُ﴾ يتحادث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقناهم تفريقاً اتخذها الناس مثلاً مضروباً يقولون ذهبوا أيدي سباً وتفرقوا أيادي سباً قال كثير بن أيادي: سباً يا عز ما كنت بعنكم، فلم يجلب بالعينين بعنك منظر لحق غسان بالشام وأمنار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصي ﴿شكور﴾ للنعم.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسَ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قرئ: ﴿صدق﴾ بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدد فعلى حقق عليهم ظنه أو وجده صابقاً، ومن خفف فعلى صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً نحو فعلته جهك وينصب إبليس، ورفع الظن فمن شدد فعلى وجد ظنه صابقاً ومن خفف فعلى قال له: ظنه الصائق حين خيله إغواءهم يقولون صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعهما على صدق عليهم ظن إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إن نزيته أضعف عزماً منه فظن بهم اتباعه وقال: ﴿لاضلنهم لاغوينهم﴾ وقيل: ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها، والضمير في عليهم واتبعوه إما لاهل سبأ أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقاً﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لاحتكن نزيته إلا قليلاً﴾ ولا تجد أكثرهم شاكرين.

وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يَزِينُ بِالْآخِرَةِ مَنْ مَوْئِدًا فِي شَيْءٍ وَرَيْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿١٢١﴾

﴿وما كان له عليهم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه وفعل ومفاعل متأخيان.

أو وصف الأكل بالخط كانه قيل: نواتي أكل بشع ومن أضاف، وهو أبو عمرو وحده فلأن أكل الخط في معنى البرير كانه قيل: نواتي برير والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خبط لأن الأثل لا أكل له وقرئ وأثلاً وشيئاً بالنصب عطفاً على جنتين وتسمية الليل جنتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم وعن الحسن رحمه الله قتل السدر لأنه أكرم ما بلوا.

ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفَرُ ﴿١٢٢﴾

وقرئ: ﴿وهل﴾ يجازي وهل يجازي بالنون وهل يجازي والفاعل الله وحده وهل يجزى والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازي بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر، وهو أن الجزاء عام لكل مكافاة يستعمل تارة في معنى: المعاقبة وأخرى في معنى: الإثابة فلما استعمل في معنى: المعاقبة في قوله جزيناهم بما ﴿كفروا﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم قيل: وهل يجازي إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقائل أن يقول لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه ألا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا هل يجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسد كلاماً فتيين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا أَنْسَارًا سِيرًا فِيهَا لِيَأْتِيَ أَيْمَانًا ﴿١٢٣﴾

﴿القرى التي باركنا فيها﴾، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين أو راحة متن الطريق ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدردنا فيها للسير﴾ قيل: كان الغادي منهم يقبل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عنواً ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾، وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما كانوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأن لهم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ليالي ولياماً﴾ قلت: معناه سيروا فيها إن شتمت بالليل وإن شتمت بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها أمنين لا تخافون وإن تطولت مدة سفركم فيها وامتنعت أيماناً وليالي، أو سيروا فيها ليلالكم وأيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقِئٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٢٤﴾

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَنْصُرُونَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمْ مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَكُمْ بِهِمْ مِنْ
ظَهِيرٍ ﴿١١﴾

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبثتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتهم باسمه كما تدعون الله والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يملكون شيئاً﴾ من خير أو شر أو نفع أو ضرر ﴿في السموات ولا في الأرض ومالهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك كقوله تعالى: ﴿ما أشهبتهم خلق السموات والأرض﴾ (١)، وماله منهم من عوين يعين على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجي.

فإن قلت: أين مفعولاً زعم قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول، وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون الله لا يلتزم كلاماً ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليه وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد، فيبقى أن يكون محذوفاً تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله، فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: أهذا الذي بعث الله رسولا استخفافاً فالطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله، والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً؛ فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين، تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول القيام لزيد.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ
ثُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾

فاتحتم قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه، أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله، وكأنه قيل إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكتيب لقولهم هؤلاء شفعولنا عند الله.

فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولاي شيء وقعت حتى غاية قلت: بما فهم من هذا الكلام من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقفاً وتمهلاً وفزعاً

من الراجين للشفاعة، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التريص ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (٢) كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون ملياً فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبهم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. تابشروا بذلك وسال بعضهم بعضاً ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال: ﴿الحق﴾ أي: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة (٣)، وقرئ أذن له أي أذن له الله وأذن له على البناء للمفعول وقرأ الحسن فزع مخففاً بمعنى فزع، وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده؛ وفرغ أي نفي الوجل عنها وأقنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك نكر الوجل، وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول نفع إلي زيد إذا علم ما المدفوع وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أي انتفي عنه وفي، ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ افرنقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها وعن أبي علقمة أنه حاج به المرار فالتفت عليه الناس فلما أفاق قال: ما لكم تكلمتم علي تكلكم على ذي جنة افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القط مع زيادة الراء، وقرئ الحق بالرفع أي مقوله الحق ﴿وهو العلي الكبير﴾ نو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَلِيُّ الْإِنسَانِ
إِنَّكُمْ لَمَنْ هُنَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾

أمره بأن يقرهم بقوله: ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقررون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد أجم أقواهم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولأنهم إن تقوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا نرى إلى قوله: ﴿قل من يرزقكم السموات والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ حتى قال: ﴿سيقولون الله﴾ ثم قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فكانهم كانوا يقرّون بالسنتهم مرة ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضاراً وحذاراً من إلزام الحجة ونحوه قوله عز وجل: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل افاتخنتم من

(3) قال الزيلعي: غريب: 141/3.

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة النبا، الآيات: 37، 38.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن لَّكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلظهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كانه قال: أين الذين الحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده أو ضمير الشأن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾.

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرساله عامة لهم محيطه بهم لأنها إذا شملتهم، فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعلها حالاً من الكاف وحق التأء على هذا أن تكون للمبالغة كتاة الراوية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكما ترى ممن يرتكب هذا الخطأ، ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوى له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَّوْمٌ لَا تَسْتَحْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿٢٠﴾.

قري: ﴿ميعاد يوم﴾ وميعاد يوم وميعاد يوماً والميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو ههنا الزمان والليليل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فابذل منه اليوم.

فإن قللت: فما تأويل من أضافه إلى يوم أو نصب يوماً! قلت: أما الإضافة فإضافة تبين كما تقول سحق ثوب وبغير سانية وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون الرفع على هذا أعني التعظيم.

فإن قللت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجئ السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَاهُ إِلَّا نَجْمٌ مُّذْتَرِبٌ ۖ سَوَاءٌ مَّا نُنَادِيكَ بِهِ زَيْعٌ أَمْ سَحَابٌ مَّاءٍ ۚ بَعْضُ النَّاسِ يَكْفُرُ بِاللَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَاهُ إِلَّا نَجْمٌ مُّذْتَرِبٌ ۖ سَوَاءٌ مَّا نُنَادِيكَ بِهِ زَيْعٌ أَمْ سَحَابٌ مَّاءٍ ۚ بَعْضُ النَّاسِ يَكْفُرُ بِاللَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَاهُ إِلَّا نَجْمٌ مُّذْتَرِبٌ ۖ سَوَاءٌ مَّا نُنَادِيكَ بِهِ زَيْعٌ أَمْ سَحَابٌ مَّاءٍ ۚ

(2) قال أحمد: فغير عن الهفوات بما يعبر به عن العظام، وعن العظام بما يعبر به عن الهفوات التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه نكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك، والله أعلم.

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، وأمره أن يقول لهم: بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾، ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون الرانق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام لمنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف، قال: لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك وفي درجة بعد تقممه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكتة بالهويونا، ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصابق مني ومنك وإن أحننا لكاتب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفاء فشركما الخيركما الفداء^(١)

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كانه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه وفي قراءة أبيي وإننا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُلْ لَا تَسْتَأْذِنُوا عَمَّا حُرِّمَ وَلَا تَسْتَأْذِنُوا عَمَّا تَمْتَلُونَ ﴿٢١﴾.

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول حيث أسند الإجماع إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإجماع الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعالم الكفر والمعاصي العظام⁽²⁾.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢﴾.

وفتح الله بينهم وهو حكمه وفصله أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ لَّهُمْ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أروني﴾ وكان يراهم ويعرفهم قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به و﴿كلا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال

(1) قال أحمد: وهذا تفسير مهذب، واقتنان مستعجب رديته على سمعي فزاد رونقاً بالتريديد، واستعاده الخاطر كاني بطيه الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاملها متأخر، والفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فتأمل، والله الموفق.

لَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾

الليل والنهار بالتنونين ونصب الظرفين وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أي: تكونون الإغواء مكرًا دائمًا لا تفترون عنه.

فإن قُلْتُ: ما وجه الرفع والنصب؟ قُلْتُ: هو مبتدأ أو خبر على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكركم أو مكركم أو مكركم سبب ذلك والنصب على بل تكونون الإغواء مكرًا الليل والنهار.

فإن قُلْتُ: لم قيل قال: الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال: الذين استضعفوا قُلْتُ: لأن الذين استضعفوا أمر ولا كلامهم فجئ بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جئ بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول.

فإن قُلْتُ: من صاحب الضمير في «وأسروا» قُلْتُ: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله: «إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين «في أعناق النين كفروا» أي: في أعناقهم فجاء بالصریح للتنبؤ بنهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال، وعن قتادة أسروا الكلام بذلك بينهم وقيل أسروا الندامة أظروها وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَكُلَّوْا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿٣٨﴾

هذا تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكنيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أي: الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ: أهل مكة وكانوه بنحو ما كانوا به وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا: «وما نحن بمعنيين» أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق تضيقه قال

الذي بين يديه ما نزل قبل القرآن من كتب الله يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فاضربوهم أنهم يجنون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم فاغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعًا، وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: أو للمخاطب «ولو ترى» في الآخرة موقفهم وهم يتجانبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرايت العجيب فحنف الجواب، والمستضعفون هم الاتباع. والمستكبرون هم الرؤس والمقدمون.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُم أَنَّهُمْ سَكَنَتُنَا مِنَّا الْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُمْ تَجْرِبُونَ ﴿٣٧﴾

أولى الاسم أعني نحن حرف الإنكار، لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصائين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صلوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: نحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين «بعد إذ جاءكم» بعد أن صمتم على الدخول في الإيمان، وصحت نياتكم في اختياره بل أنتم منتم أنفسكم حظها وأثرت الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهي، فكنتم مجرمين كافرين لا اختياركم لا لقولنا وتسويلنا.

فإن قُلْتُ: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافًا إليها؟ قُلْتُ: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فاضيف إليها الزمان كما اضيف إلى الجمل في قولك جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ وكان ذلك أو أن الحجاج أمير وحين خرج زيد لما أنكر المستكبرون بقولهم: نحن صددناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: «بل كنتم مجرمين» أن ذلك بكسبهم واختيارهم.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُم لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ آلَيْهِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَنَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ وَتَعَانَى الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

مكر عليهم المستضعفون بقولهم: «بل مكر الليل والنهار»، فابطلوا إضراهم بإضراهم كأنهم قالوا: ما كان الأجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائمًا ليلاً ونهارًا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ومعنى مكر الليل والنهار: مكرهم في الليل والنهار فأتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ملاكرين على الإسناد المجازي، وقرئ بل مكر

تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾⁽¹⁾، وقرئ يقدر بالتشديد والتخفيف.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْغَنِيِّ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْآفَاقِ مَا يُشَوُّونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾.

أراد وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتقريبكم وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التانيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها أي ليست أموالكم بتلك الموضوععة للتقريب، وقرا الحسن باللاتي تقريبكم لأنها جماعات، وقرئ بالذي يقربكم أي بالشئ الذي يقربكم، والزلفى والزلفة كالكربي والكربة ومحلها النصب أي: تقريبكم قرابة كقوله تعالى: ﴿انبتكم من الأرض نباتاً﴾⁽²⁾ ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من كم في تقريبكم والمعنى أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فالولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً وقرئ جزاء الضعف على فالولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف مرفوعان الضعف بدل من جزاء، قرئ في الغرفات بضم الراء وفتحها وسكونها وفي الغرفة.

قُلْ إِنَّ رِزْقَ رَبِّكَ يَسْهُلُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوضه لا معوض سواء إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما عاجلاً بالثواب الذي كل خلف نونه، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه، فليقتصد فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبق طول عمره في فقر ولا يتاولن وما أنفقت من شيء، فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلام رب العزة بأن كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق، وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدي وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجدو واجد لا يشتهي.

يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُكُمُ أَهْلُكُمْ أَمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَوْمَ تُقَامُونَ ﴿٤١﴾.

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريب للكفار وارد على المثل السائر إياك أعني واسمعي يا جاره ونحوه قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾⁽³⁾ وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهيين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريبهم أشد، وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم وهو أنه الزم ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه وزاجر لمن اقتص عليه والموالة خلاف المعادة ومنها اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أن المعادة من العدواء وهي البعد والولي يقع على الموالي والموالي جميعاً والمعنى: أنت الذي تواليه من نونهم إذ لا موالة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالة الله ومعادة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك.

﴿هل كانوا يعبدون الجن﴾ يريدون الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبت فيعبدون بعبادتها، وقرئ: ﴿نحشروهم﴾ ونقول بالنون والياء، الأمر في تلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والنار فيها مخلّى بينهم يتضارون ويتنافعون والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم نكر معاقبته الظالمين بقوله:

قَالِيمُ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا مُرًا وَقُلْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرُوعًا عَذَابٍ آتٍ أَلَيْكَ كَثِيرٌ مِمَّا تَكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفاً على لا يملك، الإشارة الأولى إلى رسول الله ﷺ والثانية إلى القرآن والثالثة إلى الحق والحق أمر النبوة كله وبين الإسلام كما هو وفي قوله:

وَلَا تُلْنِ عَنْهُمْ ءَايَاتِنَا يَنْتَهِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ تَفْتَنُنَا وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ لَمْ يَأْتِهمْ لَنَا جَاءَهُمْ بِهَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾.

﴿وقال للذين كفروا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا وفي قوله ﴿للحق لما جاءهم﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى

(3) سورة المائدة، الآية: 116.

(1) سورة الطلاق، الآية: 7.

(2) سورة نوح، الآية: 17.

القائلين، والمقول فيه وفي لما من المبادأة بالكفر لئيل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب من أمرهم بليغ كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمربون بجراعتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن ينوقوه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً.

وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٦﴾

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستسكون، فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله:

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَمَشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَذَّبَ كَانَ نَكِيرٌ ﴿٤٧﴾

﴿وكذب الذين﴾ تقدموهم من الأمم والقرون الخالية كما كتبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال فحين كتبوا رسلهم جاءهم إنكارهم بالتنمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ يدرسونها من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب ودرس الكتب ويترسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس والمعشار كالمرباع وهما العشر والرابع.

فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسلي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب واقتدوا عليه جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان نكير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى ذُرَرْتُمْ ثُمَّ تَبْغُضُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جُنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿إن تقوموا﴾ على أنه عطف بيان لها وأراد بقيامهم إما القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثل على القدمين ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما اعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً ﴿ثم تتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصاقلين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينضب لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرهما ويعرض فكره على عقله وذنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم والذي أوجب تفرقهم مثني وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويخلط القول ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب وأراهم بقوله: ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان إما مجنون لا يبالي باقتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب وإما عاقل راجع العقل مرشح للنبوة مختار من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه وإلا فما يجدي على العاقل عدوى شيء لا بينة له عليه وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة بل علمتموه أرجح قریش عقلاً وأرزنهم حلماً وأثبهم ذمناً وأصلهم رأياً وأصدقهم قولاً وأنزههم نفساً واجمعهم لما يحمد عليه الرجال، ويمدحون به فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصديق على الكذب، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن ياتيكم بأية فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين.

فإن قلت: ما بصاحبكم بم يتعلق قلت: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: بعثت في نسم الساعة^(١).

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَفْعَلُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٠﴾

﴿فهو لكم﴾ جزاء الشرط الذي هو قوله ما سألتمكم من أجر تقديره أي شيء سألتمكم من أجر فهو لكم كقوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾^(٢) وفيه معنيان أحدهما نفى مسألة الأجر رأساً كما يقول الرجل لصاحبه:

وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدي لها كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها أو يقال: فإنما أضل بنفسي قلْتُ: هما متقابلان من جهة المعنى لأنَّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعني أن كل ما هو وبها عليها وضارٌ لها فهو بها وبسببها لأنها الأمانة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأنَّ الرسول إذا نخل تحته مع جلالته حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله لا يخفى عليه منها شيء.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٦﴾

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف يعني: لرأيت أمرًا عظيمًا وحالًا هائلًا ولو إذا والأفعال التي هي: فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لأنَّ ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان وجهه لتحقيقه ووقت الفزع وقت البعث وقيام الساعة وقيل: وقت الموت وقيل: يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في خسف البيداء وذلك أنَّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه وقرئ: فلا قوت، والأخذ من مكان قريب من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم.

فإن قلْتُ: علام عطف قوله وأخذوا قلْتُ: فيه وجهان العطف على فزعوا أي: فزعوا وأخذوا فلا قوت لهم أو على لا قوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا وقرئ: وأخذ وهو معطوف على محل لا قوت ومعناه فلا قوت هناك وهناك أخذ.

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّخَاذُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾

﴿آمنّا به﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله ما بصاحبكم من جنة، والتناوش والتناول أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناولوه القوم ويقال تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضًا وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في تلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناولوه الآخر من قيس نراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه، وقرئ: التناوش همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه والور وعن أبي عمرو التناوش بالهمز التناول من بعد

إن أعطيتني شيئاً فخذ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن والثاني أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(١) في قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢) لأنَّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم وكذلك المودة في القرابة لأنَّ القرابة قد انتظمتها وإياهم ﴿على كل شيء شهيد﴾ حفيظ مهيمن يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء، القنف والرمي تزجية السهم، ونحوه يدفع واعتقاد ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَنَفٌ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ أَنْ تَنْفِيهِ فِي التَّابُوتِ، وَمَعْنَى يَقْنَفُ بِالْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿علام للغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكن في يقنف أو هو خبر مبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب صفة لربي أو على المدح وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالببوت والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جدًا.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٥٨﴾

والحي إمّا إن يبدئ فعلاً أو يعيد فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك ومنه قول عبيد:

أتفر من أهله عبيد فالיום لا يبدئ ولا يعيد والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: «جاء الحق وزهق الباطل» وعن ابن مسعود رضي الله عنه نخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد^(٣)، و﴿الحق﴾ القرآن وقيل الإسلام وقيل: السيف وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي ما ينشئ خلقاً ولا يعيده، المنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أي شيء ينشئ إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل: للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان من شاط إذا هلك.

قُلْ إِنْ مَلَكَتْ إِيَّائِي أَصِلْ عَلَيَّ نَفْسِي وَإِنْ أَفْتَدَيْتْ فَمَا يُرِيكَ إِلَٰهِي رُبُّكَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٩﴾

قرئ: ﴿ضللت﴾ أضل بفتح العين مع كسرهما وضللت أضل بكسرهما مع فتحها وهما لغتان نحو ضللت أضل وظللت أظلل، وقرئ أضل بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلْتُ: أين التقابل بين قوله فإنما أضل على نفسي

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) تقدم في سورة الإسراء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

من قولهم ناشت إذا أبطلت وتاخرت ومنه البيت:
تمني نثيشان يكون اطاعني
أي: أخيراً.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَذْفُونَ بِالْمَقِيبِ مِنْ مَّكَانٍ يَبِيدُ

(٥٧)

لَمَعَدَ اللَّهُ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنٍ وَثُلَّةٌ وَرُبُّهُمْ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختلفت إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها (٢) وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ: جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن الفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حانمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفتقر الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعنى أن الملائكة خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلْتُ: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة قُلْتُ: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح (٣). وروي أنه قال جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إنني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فاتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال:

﴿ويذفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به من مكان بعيد وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عابته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ: ويذفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتهم به شياطينهم ويلقونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله، وقالوا أمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم أمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعنيين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قنفهم بالغيب، وهو غيب ومقنوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنفاس على دار التكليف.

وَجِبِلَ يَنْبَهُمْ وَيَنْ مَّا يَنْتَهُونَ كَمَا قِيلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مَرِيبٍ (٥٨).

﴿ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفلوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم أرجعنا نعمل صالحاً ﴿بأشياءهم﴾ بأشبابهم من كفره الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما قريباً وهو أنّ المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً (١).

(٣) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

(١) ذكره الثعلبي، وابن مريويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي

ابن عباس رضي الله عنهما؟ قُلْتُ: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب فمرود لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ من بعد إمساكه كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ (3) فبأي حديث بعد الله أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ أَمْسِكَةٍ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَلْ تَوْفُكُورُ ﴿٣﴾.

ليس المراد بذكر النعمة نكرها باللسان فقط ولكن به القلب وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليتها ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: انكر أيادي عنك؛ يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد يا أهل مكة انكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمة ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم وعنه نعمة الله العافية، وقرئ: غير الله بالحركات الثلاث فالجَزْ والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً والنصب على الاستثناء.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿يرزقكم﴾! قُلْتُ: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق، وإن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له، أو جعلته كلاماً مبتدأ (4) بعد قوله ﴿هل من خالق غير الله﴾.

فإن قُلْتُ: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى! قُلْتُ: نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق (5)، والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر

جبريل فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحاً جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور الصغير (1) وروي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ «هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن» (2) وقيل: الخط الحسن وعن قتادة الملاحة في العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامته واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاوله الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيْلَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾.

استعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ مكان لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعدها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإيهام كأنه قال من أية رحمة كانت سماوية، أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وجبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

فإن قُلْتُ: لم أنت الضمير أولاً ثم نكر آخرًا وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط قُلْتُ: هما لغتان الحمل على المعنى، وعلى اللفظ والمتكلم على الخيرة فيهما فانت على معنى الرحمة ونكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تانيث فيه ولأن الأول فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التنكير، وقرئ: فلا مرسل لها.

فإن قُلْتُ: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره قُلْتُ: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأول ولكنه ترك لدلالته عليه وأن يكون مطلقاً في كل ما يمسه من غضبه ورحمته وإنما فسر الأول بون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فإن قُلْتُ: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى

= والذي يحق الوجه الثالث وأنه هو المراد أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشربون إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض، قالوا: الله فقررروا بذلك، وقرعوا به إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يريزق هؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن ذلك فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية، وأما من حيث النظم اللفظي فلأن الجملتين اللتين هما قوله: يرزقكم، وقوله: لا إله إلا هو سيقتا سياقاً ولحداً، والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدم، فنكلك وزينتها.

(1) نكروه الثعلبي في تفسيره، ورواه ابن المبارك في كتاب: الزهد 3/ 146.

(2) عزاه الإمام القرطبي في تفسيره للإمام القشيري 14/ 320.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

(4) قال أحمد: والوجه المؤخر لوجهها.

(5) قال أحمد: للقرية إذا قرعت هذه الآية إسماعهم قالوا بجرأة على الله تعالى: نعم تم خالق غير الله؛ لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهاذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ووجهها هو الحق والنظام، وأخره في النكر تأسياً له، =

دعة شيعته ومتبعي خطواته هو أن يوردهم مورد الشفوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير، ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الاطماع الفارغة والأمانى الكاذبة فبني الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

لما نكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه:

أَمَنْ زَيْنٌ لَمْ يَسُوءْ عَمَلَهُ، فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿افمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾ يعني: اقمين زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكان رسول الله ﷺ قال لا فقال: ﴿فإنَّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب ذلك خذلان الله تعالى، وتخليته وشأنه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق أمر النهي ويعتق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسنًا، والحسن قبيحًا كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني حسنًا عند القبيح
وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم فإنَّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بإلأ إلى نكرهم ولا يحزن، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم ونكر الزواج أن المعنى: اقمين زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو اقمين زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فإنَّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. عليه حسرات مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبًا ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأنَّ المصدر لا يتقدم عليه صلته ويجوز أن يكون حالاً كان كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهولجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاً كلاً وصوراً
يريد رجعن كلاً كلاً وصوراً أي لم يبق إلا كلاً كلاً
وصورها ومنه قوله:
فعلى أثرهم تساقط نفسي حسرات ونكرهم لي سقام
وقرى: ﴿فلا تذهب نفسك﴾ وإنَّ الله عليم بما يصنعون وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق غير مستقيم لأنَّ قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ﴿فأنى تؤفكون﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

وَلَنْ يَكْذِبَكَ فَعَدَا كَذِبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ رَجْعُ الْأُمُورِ ﴿٩﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم آيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله ﷺ بأنَّ له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه، وقرى: ﴿ترجع﴾ بضم التاء وفتحها.

فإن قلنت: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له قلنت: معناه وإن يكنيوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعني بالتكذيب عن التأسى.

فإن قلنت: ما معنى التذكير في رسل؟ قلنت: معناه، فقد كذبت رسل أي رسل نوء عند كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ آيَاتُ الَّذِينَ لَا يُفْرِكُكُمْ بِاللَّهِ الْفَرْدِ ﴿١٠﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿فلا تغرركم﴾ فلا تخدعنكم ﴿الدنيا﴾ ولا يذهبنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للأخرة وطلب ما عند الله ﴿ولا يغرركم بالله الغرور﴾ لا يقولون لكم اعملوا ما شئتم، فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة^(١) والغرور الشيطان لأنَّ ذلك دينه وقرى: بالضم، وهو مصدر غره كالزوم والنهوك أو جمع غار كقاع قعود.

إِنَّ الْفِتْيَانَ لَكَرَّ عَدُوًّا فَأَعِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين واقتصص علينا قصته وما فعل بابينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فأتخذوه عدوا﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجد منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سرهم وجهركم، ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأنَّ غرضه الذي يؤمّه في

(١) قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد وإن لم يكن توبة وهذا لا يناقض صق وعده تعالى، لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمعصية =

= في مثل قوله لهم: ﴿إن الله لا يفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فهم إذاً مصنفون بوعده الله تعالى موقنون به على حسب ما ورد.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفْرِئُ مَخَابًا فَمُتْنُهُ إِلَى بَلَرٍ مَّتَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْكُتُبُ ۚ (١٦)

وقرى: ﴿أرسل الريح﴾

فإن قلْت: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلْت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تابط شراً.

باني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصان أضربها بلا دمش فخرت صريماً للبين وللجران لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معلولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أنحل في الاختصاص وأنل عليه والكاف في ﴿كذلك﴾ في محل الرفع أي مثل إحياء الموات نشور الموات، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يحيي الله الموتي وما آية ذلك في خلقه فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلاً بم مررت به يهرّ خضراً». قال: نعم قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه»^(١). وقيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْإِزَّةَ فَلِلَّهِ الْإِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُرْوَدُ (١٧)

كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ والذين آمنوا بالسننتهم من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾^(٢) فبين أن لا عزة إلا الله ولأوليائه، وقال: ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله فوضع قوله ﴿قلله العزة جميعاً﴾ موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار،

تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه ومعنى قلله العزة جميعاً أن العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب لا إله إلا الله. عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: أن هذه الكلم لا تقبل ولا تصعد إلى السماء، فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة كما قال عز وجل: إن كتاب الأبرار لفي عِلِّين إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها وقيل: الرفع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد وقيل: الرفع هو الله تعالى والمرفوع العمل وقيل: الكلم الطيب كل نكر من تكبير وتسبيح وتهليل، وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك وعن النبي ﷺ هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء، فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه^(٣)، وفي الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة^(٤)، وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا سم وسحاب بلا مطر وقوس بلا وتر. وقرئ: إليه يصعد الكلم الطيب على البناء للمفعول وإليه يصعد الكلم الطيب على تسمية الفاعل من أصدق والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب، وقرئ: والعمل الصالح يرفعه بنصب العمل والرفع الكلم أو الله عز وجل.

فإن قلْت: مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله فبم نصب ﴿السيئات﴾؟ قلْت: هذه صفة للمصدر أو لما في حكمه كقوله تعالى: ﴿ولا يحق المكر السيء﴾ إلا بأهله^(٥) أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف المكر السيئات وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداولوا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ﷺ إما إتيانته أو قتله أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعني ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي: يكسد ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قلب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٦) وقوله: ﴿ولا يحق المكر السيء إلا بأهله﴾^(٧).

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ

(5) سورة فاطر، الآية: 43.

(6) سورة الانفال، الآية: 30.

(7) سورة فاطر، الآية: 43.

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/11، والحاكم في المستدرک 560/4.

(2) سورة النساء، الآية: 139.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/426.

(4) رواه الخطيب البغدادي في کتاب: الجامع لأدب الراوي والسامع، الزيلعي 3/149.

قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ جُنَّةٌ يُنْزَلُ مِنْهَا السَّمُومُ غَاسِقَةٌ إِذْ نَظَرَتْ مِنْ سُحُبٍ مِنْ غَبَرٍ مِنْ قَبْلِهَا سُمُومٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتُسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حِلْيَةً﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوْاْخِرٍ﴾ شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿مَنْ فَضَّلَهُ﴾ من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه، وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتشكروا، والفراة الذي يكسر العطش. والسائغ المرى السهل الانحدار لعنوبته وقرى: سيخ بوزن سيد وسيخ بالتخفيف وملح على فعل، والأجاج الذي يحرق بملوحته ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (4)، ثم قال: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَى﴾، فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله (5).

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كَيْفَ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَلَذَلِكَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مَا يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِهِ (13).

﴿نُذَكِّرُ﴾ مبتدأ و﴿الله ربكم له الملك﴾ أخبار مترافعة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان وربكم خبراً لولا أن المعنى ياباه والقطمير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَهُمْ يُحْمَلُونَ مِمَّا قَلْبًا ثُمَّ يُدْعَوْنَ إِلَى يَوْمِ الدِّعْوَى فَهُمْ فِيهَا دُعَاؤُكُمْ يُجِيبُونَ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِجًا وَلَا يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ دَعَاءٌ وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ دَعْوَاهُمْ (14).

إِنْ تَدْعُوا الْوُثَانَ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل لـ ﴿هَما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها وقيل: ما نفعوكم ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك بالامر مخبر هو مثل خبير عالم به ويريد أن الخبير بالامر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة نون سائر المخبرين به والمعنى أن هذا الذي

مِنْ أَنْتَ وَلَا تَمَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُفْضِلُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كَيْدٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11).

﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً أو ذكراً وإنثاً كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجَهُمْ نَكَاحًا وَإِنثًا﴾، وعن قتادة رضي الله عنه زوج بعضهم بعضاً ﴿بِعِلْمِهِ﴾ في موضع الحال أي إلا معلومة له.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله: وما يعمر من معمر؟ قُلْتُ: معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرًا بما هو صائر إليه.

فَإِنْ قُلْتَ: الإنسان إما معمر أي: طويل العمر أو منقوص العمر أي: قصيره فإما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ؟﴾ قُلْتُ: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسبيدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق، وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوابي، وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر وإذا أقرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون وإليه أشار رسول الله ﷺ في قوله: «إِنَّ الصَّدَقَةَ وَالصَّلَاةَ تَعْمُرَانِ الدِّيارَ وَتَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» (1).

وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله (2) فقيل لكعب: ليس قد قال الله: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (3) قال: فقد قال الله: وما يعمر من معمر وقد استفاض على الألسنة أطال الله بقاءه وفسح في منك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره وعن قتادة رضي الله عنه المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب اللوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان وقرى: ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِغٌ شَرَابَهُ وَهَذَا يُلَاحَظُ أَمَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ لَبَنًا لَسُوقًا وَرَبَّى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرٌ لِتُنْزَلُ مِنْ فِيْهِ لُحْمٌ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12).

ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم

(4) سورة البقرة، الآية: 74.

(5) سورة البقرة، الآية: 74.

(1) أخرجه أحمد في المسند 6/159.

(2) عزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه 3/151.

(3) سورة النمل، الآية: 61 وسورة الاعراف، الآية: 34.

من خطاياهم من شيء.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين معنى قوله «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وبين معنى «وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء»؟ قُلْتُ: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ننبها والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى أن نفساً قد أثقلت الأوزار وبهظتها لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ.

فإن قُلْتُ: إلام أسند كان في «ولو كان ذا قربي» قُلْتُ: إلى المدعو المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة.

فإن قُلْتُ: فلم ترك نكر المدعو؟ قُلْتُ: ليعم ويشمل كل مدعو.

فإن قُلْتُ: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربي للمثقلة قُلْتُ: هو من العموم الكائن على طريق البذل.

فإن قُلْتُ: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربي على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة قُلْتُ: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربي وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت، ولو وجد ذو قربي لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه على أن ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته «بالغيب» حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربه غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه فكانت عابثتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوا مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم بون متمزنيهم وأهل عنادهم «ومن تزكى» ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي، وقرئ: ومن أذكى فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيته وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي «والى الله المصير» وعد للمتمزكين بالثواب.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ قُلْتُ: لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم اتبعه الإنذار بيوم القيامة ونكر أهوالها، ثم قال: إنما تنذر كان رسول الله ﷺ سمعهم ذلك فلم ينفع فنزل إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٨﴾

أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لاني خبير بما أخبرت به وقرئ: يدعون بالياء والباء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْتُرُوا أَفْئِدَتَكُمْ إِلَى اللَّهِ ۚ وَأَلَلَّهُ هُوَ أَلْفُ الْحَيْدِ﴾
﴿٧﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٨﴾

فإن قُلْتُ: لم عرف الفقراء؟ قُلْتُ: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس، وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وخلق الإنسان ضعيفاً وقال سبحانه وتعالى: «إله الذي خلقكم من ضعف»^(١) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء.

فإن قُلْتُ: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قُلْتُ: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد نكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده الحميد على السنة مؤمنهم.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٩﴾

«بعزيز» بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له انداداً وكفرهم بآياته ومعاصيهم كما قال: وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم وعن ابن عباس رضي الله عنهما يخلق بعلمكم من يعبد لا يشرك به شيئاً.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جُنْدٍهَا لَا يُجْمِلُ مَتْنٌ ۚ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَنَامُوا ۚ الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَلِكُلِّ أَصْحَابِ ﴿٨﴾

الوزر والوقر أخوان ووزر الشيء إذا حمله، والوازية صفة للنفس والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤخذ نفس بنذب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة قُلْتُ: لأن المعنى: أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.

فإن قُلْتُ: كيف توفق بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم قُلْتُ: تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ونلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم إلا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى: «وما هم بحاملين

اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ﷺ.

فإن قُلْتُ: كيف اكتفى بنكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد نكرهما؟ قُلْتُ: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة دل نكرها على نكرها لا سيما قد اشتملت الآية على نكرهما.

وإن يُكْذِبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَتَتْهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٦٦﴾

﴿بالبينات﴾ بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات ﴿وبالزبور﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبور والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٦٧﴾

﴿الوانها﴾ أجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها والجند: الخطط والطرائق قال لبيد: أو مذهب جند على الواح، ويقال جند الحمار للخططة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جنتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وغرابيب﴾ معطوف على بيض أو على جند كانه قيل: ومن الجبال مخطط نو جند، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وعن عكرمة رضي الله عنه هي الجبال الطوال السود.

فإن قُلْتُ: الغريب تأكيد للأسود يقال: أسود غريب وأسود حلكوك وهو الذي أبيض في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك. قُلْتُ: وجهه أن يضم المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمم كقول النابغة والمؤمن العائذات الطير، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد﴾ بمعنى ومن الجبال نو جند بيض وحمرة وسود حتى يؤل إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفا ألوانها.

وَمِنَ النَّاسِ وَالْذُّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٦٨﴾

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه وقرئ: ألوانها وقرأ

﴿الاعمى والبصير﴾ مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عز وجل.

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٦٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٧٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٧١﴾

والظلمات والنور والظل والحرور مثلاً للحق والباطل وما يؤنيان إليه من الثواب والعقاب.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِسَمِيعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٧٢﴾

والأحياء والأموات مثل الذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر. والحرور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقيل: بالليل خاصة.

فإن قُلْتُ: لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قُلْتُ: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قُلْتُ: بعضها ضمت شفعاً إلى شفع وبعضها وترأ إلى وتر ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه وأما أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخنولين ومثلك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين وينذر ذلك ما لا سبيل إليه ثم قال:

إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٧٣﴾

﴿إن أنت إلا نذير﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ويحتمل أن الله يسمع من يشاء أنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٧٤﴾

﴿بالحق﴾ حال من أحد الضميرين يعني: محققاً أو محقين أو صفة للمصير أي: إرسالاً مصحوباً بالحق أو صلة لبشير ونذير على بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعد الحق، والأمة الجماعة الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وجد عليه أمة من الناس﴾^(١) ويقال لأهل كل عصر: أمة وفي حدود المتكلمين الأمة هم المصدقون بالرسول ﷺ دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا أهل العصر.

فإن قُلْتُ: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قُلْتُ: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تدرس وحين

رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرِجُونَ يَخْرُجُ لَنْ تَكُونُ (٣٨).

﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وبينهم وعن مطرف رحمه الله هي آية القراء وعن الكلبي رحمه الله يأخذون بما فيه وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به، وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن والتجارة طلب الثواب بالطاعة. ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٩).

﴿وَلِيُوفِيَهُمْ﴾ متعلق بلن تبور أي تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيههم بنفاقها عنده ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل عن المستحق وإن شئت جعلت يرجون في موضع الحال على وانفقوا راجعين ليوفيههم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ على معنى غفور لهم شكور لأعمالهم والشكر مجاز عن الإثابة.

وَالَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَصْنَعُونَ بَصِيرٌ (٤٠).

﴿الكتاب﴾ القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعض ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿لِخَبِيرٍ بَصِيرٍ﴾ يعني: أنه خبرك وأبصر أحوالك فراك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله:

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي آصَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذَكَرَ اللَّهُ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٤١).

﴿ثم أَوْحَيْنَا الْكِتَابَ﴾ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما إنا أوحينا إليك القرآن ثم أَوْحَيْنَا من بعدك أي حكمنا بتوريثه أو قال أَوْحَيْنَاهُ وهو يريد نوره لما عليه أخبار الله ﴿الذين آصَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أَمَّتُهُ من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاه على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجأ لأمر الله ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وسابق من السابقين والوجه

الزهري جدد بالضم جمع جديدة وهي الجدة يقال جديدة وجدد وجدائد كسفيينة وسفن وسفائن وقد فسر بها قول أبي نؤيب يصف حمار وحش:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه جدد بفتحتين وهو الطريق الواضح المفسر وضعه موضع لطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض، وقرئ: والدواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ ولا الضالين لأن كل واحد منهما فرار من التقاء السالكين فحرك ذاك أولهما وحذف هذا آخرهما وقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال المراد العلماء به الذين علموه بصفاته وعنه وتوحيده وما يجوز عليه، وما لا يجوز فعظموه وقدروه حق قدره وخشوه من خشيته ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل أمن وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشنكم له خشية» (١). وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم فقال: العالم من خشي الله وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

فَإِنْ قُلْتَ: هل يختلف المعنى إذا قَدِمَ المفعول في هذا الكلام أو آخر؟ قُلْتُ: لا بد من ذلك فإنك إذا قيمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (٢) وهما معنيان مختلفان.

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قُلْتُ: لما قال ألم تر بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء وعند آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ كانه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به» (٣).

فَإِنْ قُلْتَ: فما وجه قراءة من قرأ: إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكي عن أبي حنيفة؟ قُلْتُ: الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلبهم ويعظمهم كما يجلب المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المنيب حقه أن يخشى.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» (الحديث رقم: 20) (بمعناه).

(2) سورة الاحزاب، الآية: 39.

(1) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبله للصائم (الحديث رقم: 13).

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبُّنَا لَمَقُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾

وقرئ الحزن والمراد حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾⁽⁵⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن إبليس ووسوسته وقيل هم: المعاش وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأنني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن⁽⁶⁾، وذكر الشكور دليل على أن القوم كثيرو الحسنة.

الَّذِي أَلْهَنَّا ذَاكَ الْمَقَامَ مِنْ قَبْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٥﴾

المقامة بمعنى الإقامة يقال أقمت إقامة ومقاماً ومقامة **﴿من فضله﴾** من عطائه وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع، وقرئ لغوب بالفتح وهو اسم ما يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا أو مصدر كالقبول والولوج أو صفة للمصدر كانه لغوب لغوب كقولك: موت مائت.

فإن قلّت: ما الفرق بين النصب واللغوب قلّت: النصب التقب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَنُّ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِرٍ ﴿٢٦﴾

﴿فيموتوا﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار أن وقرئ فيموتون عطفاً على يقضي وإسحالاً له في حكم النفي أي لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْنَسُ

الثاني أنه قدم إرساله في كل أمة رسولا وأنهم كذبوا برسلمهم، وقد جاؤهم بالبينات والذير والكتاب المنير ثم قال إن الذين يتلون كتاب الله فاتننى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ثم قال: ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا أي من بعد أولئك المنكوبين يريد بالمصطفين من عباده أهل الملة الحنيفية.

فإن قلّت: فكيف جعلت

جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿جنات عدن﴾ بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ قلّت: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كانه هو الثواب فابيلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكون عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»⁽¹⁾ فإن شرط ذلك صحة التوبة لقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْنِيهِمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾⁽³⁾ ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع⁽⁴⁾، وقرئ سباق ومعنى بإذن الله بتيسيره وتوفيقه.

فإن قلّت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلّت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل، وقرئ جنة عدن على الأفراد كأنها جنة مختصة بالسابقين وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أن يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول، ويحلون من حليت المرأة فهي حال **﴿ولؤلؤا﴾** معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب كانه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقيل: إن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ وقرئ ولؤلؤا بتخفيف الهمزة الأولى.

(1) قال الزيلعي رواه البيهقي في كتاب: البعث والنشور: 153/3.

(2) سورة التوبة، الآية: 102.

(3) سورة التوبة، الآية: 106.

(4) قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم، والمقتصد السابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحين في المصطفين، وإنه لمنهم وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفاؤه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في النسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترى، =

= وقوله: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها جنات مبتدأ ويدخلونها الخبر. وقوله: ﴿يدخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولياسهم فيها حريز﴾ إلى آخر الآية خبر بعد خبر، وخير على خير والله المستعان.

(5) سورة الطور، الآية: 26 - 27.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الإيمان بالله عز وجل (الحديث: 100).

لهم فيعتزون^(١) ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزء ﴿يجزي﴾ وقرئ يجازي ونجزي ﴿كل كفور﴾ بالنون.

وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رِثًا أَخْرَجًا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوَّلَ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ التَّذَكُّرُ فَذَوِقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢٧﴾

﴿يصطرخون﴾ يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو الصباح بجهد وشدة قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته.

فإن قلْتُ: هلا اكتفى بصالحًا كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فأرجعنا نعمل صالحًا﴾، وما فائدة زيادة ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه قلْتُ: فائدة زيادة التخصر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال الله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾ فقالوا: أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا ففعله ﴿أو لم نعمركم﴾ توبيخ من الله يعني فنقول لهم، وقرئ ما ينكر فيه من انكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»^(٢). وعن مجاهد بين العشرين إلى الستين وقيل: ثمانين عشر وسبع عشر و﴿النذير﴾ الرسول ﷺ وقيل: الشيب، وقرئ: وجاءكم النذر.

فإن قلْتُ: علام عطف وجاءكم النذير؟ قلْتُ: على معنى أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار كانه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تأنث نو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه نو بطن خارجة جارية^(٣) وقوله لتغني عن ذا إنائك أجمعاً، المعنى ما في بطنها من الحبل وما في إنائك من الشراب لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء ألا ترى إلى قولهم معها حبل وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها ونو موضوع لمعنى الصلبة.

مَنْ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ مَعِيَ كُفِّرْ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٩﴾

يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة جمع خلائف والخليف خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعتها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنينة فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار والمقت أشد البغض ومنه قيل: لمن ينكح امرأة أبيه مقتى لكونه ممقوتاً في كل قلب وهو خطاب الناس وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ﷺ جعلكم أمة خلفت من قبلها ورات وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة كما أن ذلك حكم من قبلكم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي أَسْمَاءِ آبَائِهِمْ كَذِبًا هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ لَيْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٠﴾

﴿أروني﴾ بدل من أرايتم لأن المعنى أرايتم أخبروني كانه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم معهم كتاب من عند الله ينطق بانهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب أو يكون الضمير في آتيانهم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾^(٤) ﴿أم آتيانهم كتاباً من قبله﴾^(٥) بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بعضاً﴾ وهم الاتباع ﴿إلا غروراً﴾ وهو قولهم هؤلاء شفعأونا عند الله وقرئ: ﴿بيئات﴾.

إِنَّ اللَّهَ يَسْلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِي إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا عَفُورًا ﴿٣١﴾

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا أو يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿إنه كان خليفاً عفوراً﴾ غير معالج بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهذا هذا لعظم كلمة الشرك كما قال: تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض، وقرئ ولو زالتا وإن أمسكهما جواب القسم في ولئن زالتا سد مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء، من بعده من بعد إمساكه وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام من لقيت به؟ قال: كعباً قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته

(3) تقدم في الإسراء.

(4) سورة الروم، الآية: 35.

(5) سورة الزخرف، الآية: 21.

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر (الحديث: 6419).

﴿سَنُتِلُّ الْأَوَّلِينَ﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلمهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم وبين أن عاقبته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبيلها ولا يحولها أي لا يغيرها وإن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسابيرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

أَوَّلُ يَبْرَأُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعْجِزُ مِنْ قُوَّتِهِ أَنْ يَأْتِيَ فِي الْأَرْضِ إِذْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ ﴿١٤﴾

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا شَيْءٌ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَتْهُمُ أَنْجَالُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٥﴾

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمه تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كان الجعل يعذب في جحره بنذب ابن آدم^(٦) ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أن الضب ليموت هزلاً في جحره بنذب ابن آدم^(٧) وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيراً﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن يدخل من أي باب شئت^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس مكية

يس ﴿١﴾

قارئ: يس بالفتح كآين وكيف أو بالنصب على اتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحديث وفخمت الألف وأمليت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثرت النداء به على السننهم حتى اقتصرصوا على شطره كما قالوا، في القسم

يقول لئن السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعد! ثم قرأ هذه الآية^(١).

وَأَنصُرُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْتَانِهِمْ لِكَيْتَ جَاهَهُمْ نَزِيرٌ لِّبَكُونِ أَهْدَى مِنْ يَدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَزِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٦﴾

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا برسلمهم فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتهمهم الرسل فكذبهم فوالله لئن أتانا رسول لتكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي إحدى الأمم وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زالوا أنفسهم نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾^(٢).

أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٧﴾

﴿استكبروا﴾ بدل من نفورا أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفاً على نفورا.

فإِنْ قُلْتَ: فما وجه قوله ومكر السيء قُلْتَ: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر للسيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر للسيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر للسيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر للسيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا مأكراً»^(٣)، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر للسيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً﴾^(٤) يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيتكم على أنفسكم﴾^(٥) وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكباً وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستتقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظن سكوتاً أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتداء ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكرماً شيئاً

(١) نكره الطبري في تفسيره.

(٢) سورة التوبة، الآية: 125.

(٣) نكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.

(٤) سورة فاطر، الآية: 43.

(٥) سورة يونس، الآية: 23.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک، وتقدم في يونس.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک وتقدم في النحل.

(٨) نكره الوليدي وابن مروييه والشعلبي في التفسير، الزيلعي /3

م الله أيمن الله.

وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٧﴾

﴿الحكيم﴾ ذي الحكمة أو لأنه ليليل ناطق بالحكمة كالحكي أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

إِنَّكَ لَكِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٩﴾

﴿على صراط مستقيم﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قلنا: أي حاجة إليه خبراً كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لا يكونوا إلا على صراط مستقيم؟ قلنا: ليس الغرض بنكره ما ذهب إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وإيضاً فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه^(١).

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قريئ تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجر على البذل من القرآن.

إِنْزِيلَ قُرْآنًا مَّا أَنْزَلْنَا بِآيَاتِهِمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْنَا أَكْثَرُ مِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿قوماً ما أنذر آبائهم﴾ قوماً غير منذر آبائهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك﴾^(٢) و﴿ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾^(٣) وقد فسر ما أنذر آبائهم على إثبات الإنذار ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتنذر قوماً أنذر آبائهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾^(٤).

فإن قلنا: أي فبق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قلنا: هو على الأول متعلق بالنفي أي لم ينذروا، فهم غافلون على أن عدم نذارهم هو سبب غفلتهم وعلى الثاني بقوله إنك لمن المرسلين لتنذر كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإننا غافل أو فهو غافل.

فإن قلنا: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخرى؟ قلنا: لا مناقضة لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وآبائهم القدماء من ولد إسماعيل، وكانت النذارة فيهم.

فإن قلنا: ففي أحد التفسيرين أن آباهم لم ينذروا وهو

الظاهر فما تصنع به؟ قلنا: أريد آبائهم الأنون دون الأبعاد ﴿القول﴾ قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(٥) يعني: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفِهِمْ غُلَّتًا فَمَهَىٰ إِلَيْنَا الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارجعائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطون رؤسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قلنا: ما معنى قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾! قلنا: معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن فلا تخلية يطأطئ رأسه ويوطئ قذا له فلا يزال مقمحا، والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال: قمح البعير فهو قماح إذا روي فرفع رأسه ومنه شهراً قماح لأن الإبل ترفع رؤسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان، ومنه اقتحمت السوق.

فإن قلنا: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان نكر الأعناق، دالاً على نكر الأيدي! قلنا: الوجه ما نكرت لك والدليل عليه قوله فهم مقمحون ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان، ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج.

فإن قلنا: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيماهم فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قلنا: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت.

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

وقرئ سداً بالفتح والضم وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فأغشيناها﴾ فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن

(3) سورة سبأ، الآية: 44.

(4) سورة النبأ، الآية: 40.

(5) سورة هود، الآية: 119.

(1) قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تقييماً وتعظيماً وهذا منه.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿واضرب لهم مثلاً﴾ ومثل لهم مثلاً من قولهم عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثل وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي انكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثاني بيان للأول، وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية والقرية انطاكية ﴿والمرسلون﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾

أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب التجار صاحب يس فسألهما فأخبراه فقال أمعكما آية فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والابرس وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فأمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقى حديثهما إلى الملك، وقال لهما: إلنا إله سوى آلهتنا؟ قالوا: نعم من أوجك وآلهتك فقال: حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما وقيل: حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا حال الغضب بيني وبينك، فدعاها فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالوا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأجزأ قالوا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال: وما آتيكما؟ قالوا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذاً بنتقتين فوضعاهما في حنقته فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له: شمعون رأييت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت أمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إني أنخلت في سبعة أوبية من النار وأنا أحزركم ما أنتم فيه فأمنا وقال: فتحت أبواب السماء قرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن هم قال شمعون: وهذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن وأمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿فعزيزنا﴾ فقوينا يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها وتعزز لحم الناقة، وقرئ بالتخفيف من

أن تطمع إلى مرثي وعن مجاهد فاعشيناها فالبسنا أبصارهم غشاوة، وقرئ بالعين من العشا وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكه عنها بجهد فرجع إلى قومه، فأخبرهم فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فاعصى الله عينيه^(١).

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾

فإن قلت: قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إنما تنذر وإنما كانت تصح هذه التفتية لو كان الإنذار منفياً قلت: هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفياً للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ بَشِيرٌ مِّنْغَيْرِ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٦﴾

ففي بقوله: إنما تنذر، على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر وهو القرآن أو الوعظ الخاشعون ربهم.

إِنَّا عَنُّ نَحْيِ الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾

﴿نحيي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن إحيائهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿ونكتب ما﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنّفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك أو سبى كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدها فيها تخسيرهم وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من الحان، وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: ﴿يبين الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر﴾^(٢) أي قدم من أعماله وأخر من آثاره وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد وعن جابر أربنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تربيون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية فقال: عليكم دياركم، فإنما تكتب آثاركم قال: فما وبدنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ^(٣) وعن عمر بن عبد العزيز لو كان الله مغفلاً شيئاً لا غفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح والإمام اللوح، وقرئ ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للمفعول وكل شيء بالرفع.

= (حديث: 2042)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: (280 - 665).

(1) نكرة ابن هشام في سيرته: 1/ 290 - 299.

(2) سورة القيامة، الآية: 13.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: الإمامة والجماعة، =

نكرتم بهمة الاستفهام وحرف الشرط وأثن بالف بينهما بمعنى: تطيرون إن نكرتم وقرئ أن نكرتم بهمة الاستفهام وإن الناصبة يعني: تطيرون لأن نكرتم، وقرئ أن وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار أي تطيرون لأن نكرتم أو إن نكرتم تطيرون، وقرئ أين نكرتم على التخفيف أي شؤمكم معكم حيث جرى نكرتم وإذا شئتم المكان بنكرهم كان بحلولهم فيه أشام ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ في العصيان ومن ثم اتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

رَسُولًا مِّنْ أَهْلِ الْيَمِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَكْفُرُوا اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

(١٦)

﴿رجل يسعى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام وهو ممن آمنوا برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل، وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال الكفرة فقالوا: أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل رجموه، وهو يقول اللهم اهد قومي وقبره في سوق انطاكية فلما قتل غضب الله عليهم فاهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام وعن رسول الله ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون»⁽²⁾.

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْتَلْزِمُكُمْ آخِرًا وَهَمَّ مُتَهَدِّونَ (١٧)

﴿من لا يستلزمكم اجراً وهم مهتدون﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي لا تخسرون معهم شيئاً من بنيانكم وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله:

وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٨)

﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ مكان قوله ومالك لا تعبدون الذي فطركم إلا ترى إلى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع.

وَأَلْبَدُ مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهٌ إِن يُرِيدُ أَن يَرْحَمَنَ يَصْرِ لَا تَغْنَى عَنْ شَفَعَتِهِمْ شَيْئًا وَلَا يُفِيدُونَ (١٩) إِنِّي إِذَا لَيْ سَلَكَ سُبُحِي (٢٠) إِذْ أَتَيْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمِعُونِ (٢١)

وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: أمنت بربكم

عزه يعزه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا ﴿بثالث﴾ وهو شمعون.

فإن قلت: لم ترك نكر المفعول به قلت: لأن الغرض نكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التعبير حتى عز الحق وذلل الباطل وإذا كان الكلام منصّباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كان ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه قولك بالحق فلذلك رفضت نكر المحكوم له والمحكوم عليه.

قَالُوا مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِن أَنتَ إِلَّا تَكْذِيبُونَ (٢٢)

إنما رفع بشر ونصب في قوله ما هذا بشراً لأن لا تنقص النفي فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه فلا يبقى له عمل.

فإن قلت: لم قيل إنا إليكم مرسلون أولاً

قَالُوا رَبَّنَا يَمُزُّ إِيَّانَا إِلَهُكُمُ لَمُرْسَلُونَ (٢٣)

و ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخر قلت: لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار^(١)، وقوله ربنا يعلم جار مجرى القسم في التوكيد وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم.

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٢٤)

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته وإلا فلو قال المدعي والله إني لصائق فيما ادعي ولم يحضر البينة كان قبيحاً.

قَالُوا إِنَّا تَطَافُكُنَا بِكُمْ لَيْلًا نَنظُرُ أَتَنْهَوُنَا عَنْ مَّا نَكُفِّرُ بَنَاءً عَذَابُ الْبَلَاءِ (٢٥)

﴿تطيرنا بكم﴾ تتشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم وعادة الجاهل أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا كما حكى الله عن القبط وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه وعن مشركي مكة وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عنك وقيل: حبس عنهم القطر، فقالوا ذلك وعن قتادة إن أصابنا شيء كان من أجلكم.

قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ (٢٦)

﴿طائركم معكم﴾ وقرئ طيركم أي سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفرهم ومعاصيهم وقرا الحسن أطيركم أي تطيركم، وقرئ أئن

(2) رواه الطبراني في معجمه.

(1) قال أحمد: أي فلاق توكيده.

المات هي قُلْتُ: المصدرية أو الموصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصاهرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أن قولك بم غفر لي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً يقال قد علمت بما صنعت هذا أي بأي شيء صنعت وبم صنعت.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨).

المعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنوداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر أو الخندق.

فإن قُلْتُ: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾ قُلْتُ: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنوداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة أوجبه المصلحة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا على حاصبٍ ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾ (٣).

فإن قُلْتُ: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ (٤)، بالفتح من الملائكة مربفين، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين؟ قُلْتُ: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلك مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله: ﴿وما أنزلنا﴾ ﴿وما كنا منزلين﴾: إلى أن أنزل الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا ملك وما كنا نفعله بغيرك.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَائِدُونَ (٢٩).

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة أي ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تنكير الفعل لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وإن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وبيت ذي الرمة، وما بقيت إلا الضلوع الجراشع، وقرأ ابن مسعود الأزقية واحدة من زقا الطائر يزقو ويزقى

فاسمعون يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نهيتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، وإليه مرجعكم وما أنفع العقول وأنكرها لأن تستحيوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحياب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز، وقيل لما نصح قومه أخذوا يرجمونهم فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إني أمنت بربكم فاسمعون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به، وقرئ إن يريني الرحمن بضر بمعنى أن يريني ضرراً أي يجعلني مورداً للضرر، أي لما قتل.

يَلْ أَدْنَى الْجَنَّةِ قَالَتْ فَذِلِّي يَسْمُونَ (٣٠).

﴿قيل﴾ له ﴿أنخل الجنة﴾ وعن قتادة أنخله الله الجنة وهو فيها حي يزرق أراد قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾ (١) وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قُلْتُ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قُلْتُ: مخرجه مخرج الاستئناف لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأن قائله قال كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة بينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل أدخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلوماً وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة، وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً» (٢) وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والتؤلف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عدائهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور والأول أوجه.

يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَلَّتْ مِنَ الشُّكْرِينَ (٣١).

وقرئ: ﴿المكرمين﴾.

فإن قُلْتُ: ما في قوله تعالى: ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 9.

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 - 170.

(2) رواه ابن مريويه في تفسيره، للزبيدي: 163/3.

وقيل: محضرون معذبون.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد؟
قُلْتَ: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد والجميع معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم والجميع فاعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجأؤوا جميعاً⁽²⁾، القراءة بالميتة على الخفة أشيع لسلسها على اللسان.

وَمَا يَكُونُ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْحَاشِيَّةِ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَايْتَهُنَّ بِأَكْثَرِهِنَّ⁽³⁾.

«أحييناها» استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما الجنس من مطلقين لا أرض وليل باعيانهما⁽³⁾ فعمولاً معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه، ولقد أمر على اللثيم يسبني، وقوله **«فمنه ياكلون»** بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْأَعْيُونِ⁽⁴⁾.

قرئ: **«وفجرتنا»** بالتخفيف والتثقيل والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، وقرئ **«ثمره»** بفتحيتين وضميتين وضمة وسكون والضمير لله تعالى.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ⁽⁵⁾.

والمعنى: لياكلوا مما خلقه الله من الثمر **«و»** من **«ما»** عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني: أن الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرتنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤية:

فيها خطوط من بياض وبلقي كأنه في الجلد توليع البهق فقيل له فقال: أردت كان ذلك ولك أن تجعل ما نافية على أن الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرين عليه.

سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ⁽⁶⁾.

إذا صاح ومنه المثل أثقل من الزواقي **«خامدون»** خمدوا كما تخمد النار فتعود رماًداً كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماًداً بعد إذ هو ساطع
يَحْصِرُهُ عَلَى أَلَمٍ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁽³⁾.

«يا حسرة على العباد» نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسول والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلف على حالهم المتلفون أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى: تعظيم ما جنه على أنفسهم ومحنوها به وفطر إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ يا حسرتنا تعضد هذا الوجه لأن المعنى يا حسرتي، وقرئ: يا حسرة العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجهة إليهم ويا حسرة على العباد على إجراء الوصل مجرى الوقف.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ⁽⁴⁾.

«الم يروا» ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في **«حكم»** لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم يروا إن زيذاً لمنطلق وإن لم يعمل في لفظه **«أنهم إليهم لا يرجعون»** بدل من كم أهلكنا على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وعن الحسن كسر إن على الاستئناف وفي قراءة ابن مسعود ألم يروا من أهلكنا والبدل على هذه القراءة بدل اشتغال وهذا مما يرد قول أهل الرجعة ويحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له إن قومًا يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة فقال: بثس القوم نحن إنن نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه⁽¹⁾.

وَأَنْ كُلَّ لَمَّا جُمِعَ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ⁽⁵⁾.

وقرئ: **«لما»** بالتخفيف على أن ما صلة للتاكيد، وإن مخففة من الثقيلة وهي متلقاه باللام لا محالة ولما بالتشديد بمعنى إلا كالتي في مسألة الكتاب نشدتك بالله لما فعلت وإن نافية، والتثوين في كل هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه كقولك مررت بكل قائماً والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة،

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 145/3.

(2) قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه اخص منه وأزيد معنى.

(3) قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع جملة صفة للمعرف، وإن =

= كان جنسياً وليس الغرض منه معيّن، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفي ومنه:

ولقد أمر على اللثيم يسبني

مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهقعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوّ السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الدابح سعد بلغ سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا فإذا كان في آخر منازل بق واستقوس **﴿وعاد كالعرجون القديم﴾** وهو عود العنق ما بين شماليه إلى منبته من النخلة وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، وقرئ **﴿العرجون بوزن الفرجون﴾** وهما لغتان كالبريون والبرزيون والقديم المحول، وإذا قدم بق وانحنى واصفر فشب به من ثلاثة أوجه وقيل: أقل مدة الموصوف بالقدم الحول فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم، فهو حر أو كتب ذلك في وصيته عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

لَا أَلَسَّسُ بَيْنِي لَهَا أَنْ تَذُرَّكَ الْقَمَرُ وَلَا أَلِيلَ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٧﴾

وقرئ: **﴿سابق النهار﴾** على الأصل والمعنى أن الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسماً من الزمان وضرب له حداً معلوماً ودبر أمرهما على التعاقب فلا ينبغي للشمس أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله **﴿أن تدرك القمر﴾** فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليل النهار، يعني: آية الليل آية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويطلع الشمس من مغربها.

﴿فإن قلّت﴾ لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ **﴿قلّت﴾** لأن الشمس لا تقطع فلکها إلا في سنة والقمر يقطع فلکها في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدرا لا لتباطئ سيرها عن سير القمر والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره **﴿وكل﴾** التثنية فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى وكلهم والضمير للشمس، والأقمار على ما سبق ذكره.

وَأَيُّهَا لَمْ تَأْتَا حَتَّىٰ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَسْحُونِ ﴿٤٨﴾

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهملهم حملة وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهن مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذري يعني النساء.

وَعَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٩﴾

﴿من مثله﴾ من مثل الفلك **﴿ما يركبون﴾** من الإبل وهي سفائن البر وقيل: الفلك المشحون سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلاهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل

وقرئ: على الوجه الأول وما علمت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير **﴿الأزواج﴾** الأجناس والأصناف **﴿ومما لا يعلمون﴾** ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم وبنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يسمهم وفي الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعهم عليه فاعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ونحوه فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دل على عظم قدرته واتساع ملكه.

وَأَيُّهَا لَمْ تَأْتَا حَتَّىٰ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٥٠﴾

سلخ جلد الشاة إذا كسخته عنها وأزاله ومنه سلخ الحية لخرسائها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله **﴿مظلمون﴾** داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول أعتمنا وأدجينا.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٥١﴾

﴿لمستقر لها﴾ لحد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلکها في آخر السنة شبه بمستقر المسافرين إذا قطع مسيره أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقصاها مشرقاً ومغرباً ومغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرّها لأنها لا تعدو أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب وقيل: مستقرّها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة، وقرئ: تجري إلى مستقر لها وقرأ ابن مسعود لا مستقر لها أي: لا تزال تجري لا تستقر، وقرئ: لا مستقر لها على أن بمعنى ليس **﴿تلك﴾** الجري عن تلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجها وتحرير الأفهام في استنباطها ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علماً بكل معلوم.

وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَازَالًا حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ ﴿٥٢﴾

قرئ: **﴿والقمر﴾** رفعاً على الابتداء أو عطفاً على الليل يريد من آياته القمر ونصباً بفعل يفسره قدرته ولا بد في **﴿قدرناه مازال﴾** من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل والمعنى قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي

نصيباً فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٤﴾.

قرئ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها واتباع الباء الخاء في الكسر ويختصمون على الأصل، ويخصمون من خصمه والمعنى أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنى خصمون، يخصم بعضهم بعضاً وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَبِيَّةً وَلَا إِلَهًا أَهْلَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾.

﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿نوصية﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

وَيُنَبِّئُ فِي الْأَنْصُورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾.

قرئ: الصور بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحركها بعضهم و ﴿الاجداث﴾ القبور وقرئ: بالفاء ﴿ينسلون﴾ يعدون بكسر السين وضمها وهي النفخة الثانية.

قَالُوا يٰٓأَيُّهَا مَن مَّبْعَثُنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾.

قرئ: يا ويلتنا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وأهيه غيره وقرئ: من هبنا بمعنى أهبنا وعن بعضهم أراد هب بنا فحنف الجار وأوصل الفعل، وقرئ: من بعثنا ومن هبنا على من الجارة والمصدر و ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿وما وعد﴾ خبره وما مصدريه أو موصولة، ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن أي مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد ﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق، وعن مجاهد للكفار هجة يجبنون فيها طعم النوم فإذا صحح بأهل القبور قالوا من بعثنا وأما هذا ما وعد الرحمن فكلام الملائكة، عن ابن عباس وعن الحسن كلام المتقين وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً.

فَإِن قُلْتُمْ: إذا جعلت ما مصدريه كان المعنى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله وصدق المرسلون إذا

أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق.

وَلَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ فَلَاحِشٌ لِّكُمْ وَلَا هُمْ يَبْذَرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿لا صريح﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة يقال اتاهم الصريح ﴿ولا هم ينفقون﴾ لا ينجون من الموت بالغرق.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٩﴾.

﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتع بالحياة ﴿إلى حين﴾ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام (١)

وقرأ الحسن رضي الله عنه نغرقهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى: ﴿أقلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ (٢) وعن مجاهد ما تقدم من نوبيكم وما تأخر وعن قتادة ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكينة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة ﴿العلمكم ترحمون﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا محذوف منلول عليه بقوله:

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِن مَّائِدَةٍ مِّن مَّائِدَةٍ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُرِصِّينَ ﴿٢١﴾.

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ثم قال ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا زَعَرَكُمْ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا نُطْلِمُ مِنْ لَّدُنَّا اللَّهُ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ لَّدُنْهُ قَالُوا بَلَىٰ أَشَدُّ لَعْنًا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾.

كانت الزناقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون لو شاء الله لأغنى فلاناً ولو شاء لأعزّه، ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه: انطعم المقول فيه هذا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زناقة فإذا أمروا بالصنقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قاضياً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله، وجعلوا لله مما نرا من الحرث والانعام

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(1) سلمت من الحمام إلى الحمام؛ لأنه تعالى: أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق، فتلك السلامة متاع إلى حين أي: إلى أجل يموتون فيه ولا بد.

فَمَنْ رَزَقْنَاهُ فِي ظُلُمٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾

﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير في شغل وفي فاكهون على أن أزواجهم يشاركونهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال، وقرئ في ظلال والأزيكة السرير في الحجلة وقيل: الفراش فيها وقرأ ابن مسعود متكئين.

فَمَنْ فِيهَا فَتَكُهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿يدعون﴾ يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واحتمل إذا شوي وجمل لنفسه قال لبيد: فاشتوى ليلة ريح واجتمل. ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه وقيل: يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه على وفلان في خير ما ادعى أي في خير ما تمنى قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿وسلام﴾ بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناه لهم ذلك لا يمنعونهم قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وقيل: ما يدعون مبتدأ وخبره سلام بمعنى لهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه وقولاً مصدر مؤكد لقوله تعالى: ولهم ما يدعون سلام أي عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازة، وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين وعن ابن مسعود سلاماً نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصاً.

وَأَمَّا زُورًا فَانْفِرُوا عَنْ الْمُؤْمِنِينَ وَكُونُوا عَلَى حِدَةٍ

وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ونحوه قوله تعالى: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا^(١) الآية يقال مازة فانماز وامتاز وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى، ولا يرى ومعناه: أن بعضهم يمتاز من بعض.

﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرٌّ عَذْرٌ لِبَنِي﴾ ﴿٦١﴾

العهد الرصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

جعلتها موصولة! قُلْتُ: تقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون بمعنى والذي صدق فيه المرسلون من قولهم صدقوهم الحديث والقتال ومنه صدقني سن بكرة.

فَإِنْ قُلْتُ: مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا سَوَالٍ عَنِ الْبَاعِثِ فَكَيْفَ طَابِقَهُ ذَلِكَ جَوَابًا؟ قُلْتُ: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدهم البعث وأنباكم به الرسل إلا أنه جيء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم ونكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما اندروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر نو الأحوال والأقزاع وهو الذي وعده الله في كتبه المنزل على السنة رسله الصادقين.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة.

فَأَلِيمُ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فأليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾. ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم وقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وذلك بعد الوله والصباة والفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى، والخشية، وتخطي الأحوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط ومعاينة ما لقي العصاة من العذاب، وعن ابن عباس في اقتضاض الأبكار وعنه في ضرب الأوتار وعن ابن كيسان في التزاور وقيل: في ضيافة الله، وعن الحسن شغلهم عما فيه أهل النار التمتع بما هم فيه وعن الكلبي هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهتمهم أمرهم ولا ينكروهم لأن لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم، قرئ في شغل بضميتين وضمة وسكون وفتحيتين وفتحة وسكون، والفاكهة والفاكهة المتنعم والمتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحمة، وقرئ فاكهون وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم رجل حدث وحديث ونطس ونطس وقرئ فاكهين وفكهين على أنه حال والظرف مستقر.

الأعضاء بالكلام والشهادة.

وَلَوْ شَاءَ لَطَمَسْنَا عَنْكُمْ أُفُئُتَهُمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾

الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فاستبقوا الصراط﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى: ابتدروا أو يجعل الصراط مسبوقة لا مسبوقة إليه أو ينتصب على الظرف والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيح الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردوا إليها كثيراً كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا وتعايا عليهم أن يبيصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره أو لو شاء لأعمالهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقيين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعمالهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمساالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا به وضربوا به من المقاصد دون غيرها.

وَلَوْ شَاءَ لَسَخْنَهُمْ عَلَى مَكَاتِحِهِمْ فَمَا اسْتَقْبَلُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾

﴿على مكاتيحهم﴾، وقرئ: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسختهم مسخاً يمحدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إقبال ولا مضى ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس لمسختهم قردة وخنازير، وقيل: حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ: مضياً بالحركات الثلاث فالمضى والمضى كالعتي والمضى كالصبي.

وَمَنْ يُضْمِرْهُ نَتَجَنَّهْ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿ننكسه في الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عز وجل: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ ثم رددناه أسفل سافلين ﴿وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى

وقرى: أعهد بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعة الكسر إلا في الياء وأعهد بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب وأعهد بالحاء واحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: لحا محاً.

وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير:

لئن كان يهدي برد أنيابها العلى لا فخرمني إنني لفقير
أراد إنني لفقير بليغ حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه في وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يريد صراط بليغ في باب بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه، ويجوز أن يراد هذا بعض الصراط المستقيمة توبيخاً لهم على العلل عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة كأنه قيل أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده هذا فيما أظن قول نافع غير ضار توبيخاً له على الإعراض عن نصائحه.

وَلَقَدْ أَهَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ أَهَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾

قرئ: ﴿جبالاً﴾ بضمتين، وضمة وسكون، وضميتين وتشديداً وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديداً، وهذه اللغات في معنى الخلق، وقرئ: ﴿جبالاً﴾ جمع جبلة كقطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: جبلاً واحداً لا جبال.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَنبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾

يروى أنهم يجحدون، ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختتم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجزى عليّ شاهداً إلا من نفسي فيختتم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنك كنت أناضل»^(١)، وقرئ: يختتم على أفواههم وتكلم أيديهم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختتم على أفواههم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (الحديث رقم: 17 - 2969).

يُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ: لتنذر بالياء ولينذر من نذر به إذا علمه ﴿من كان حيًّا﴾ أي: عاقلاً متأملاً لأن الغافل كالعميت أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحيي القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأملون، ولا يتوقع منهم الإيمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ آيَاتٍ أَتَمَكَّمَا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿مما عملت آيدينا﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال: تلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو وعمل الأيدي استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فهم لها مالكون﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكتها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون أو فهم لها ضابطون قاهرون من قوله:

أصبحت لأحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا أي لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تنذيره وتسخيرها لها كما قال القائل: يصرفه الصبي بكل وجه ويحسبه عن الخسف الجريير وتضربه الوليدة بالهراوي فلا غير لسيه ولا نكير

وَلَلَّتْهَا لَهُمْ فَنَجَاتِ رُكُوبَهُمْ وَمَنْ يَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾.

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ: ركوبهم وركوبتهم وهما ما يركب كالطوب والحلوبة وقيل: الركوبة جمع، وقرئ: ركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم.

وَلَمْ يَمَسَّ فِيهَا مِنَّا شَيْءٌ وَأَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومشارب﴾ من اللبن نكرها مجمة وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ (٣) الآية، والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب.

وَأَعْنَدُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّأَلَّهُمْ يُصْرُونَ ﴿٨٠﴾.

اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقوا بهم ويعتصدا بمكانهم والأمر على عكس ما قدرنا حيث هم جند لألهتهم معنون.

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحَرَّرُونَ ﴿٨١﴾.

﴿محضرون﴾ يخدمونهم ويذبن عنهم ويفضون لهم

الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ: بكسر الكاف وتنكسه وتنكسه من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والياء.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٨٢﴾.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فاين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيا الشعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهم إلا أن هذا لفظه عربي كما أن ذاك كذلك ﴿وما ينبغي له﴾ وما يصح له، ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولم يتسهل كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أحمض وعن الخليل كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له.

فإن قلت: فقلوه:

أنا النبي لا كذب (١) أنا ابن عبد المطلب

وقوله:

هل أنت إلا أصبع دمية وفي سبيل الله ما لقيت (٢)

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يعني: ما هو إلا نكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن كما قال: إن هو إلا نكر للعالمين، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين.

(الحديث رقم: 2802)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (الحديث رقم: 812 - 1796).

(3) سورة النمل، الآية: 80.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة (الحديث رقم: 2930)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: في غزوة حنين (الحديث: 78 - 1776).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله =

من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في الزم وصف له والصقه به وهو كونه منشأ من موت وهو ينكر إنشائه من موت وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها. وروي أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي: ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأصيرنَّ إليه ولاخصمنه وأخذ عظمًا باليًا فجعل يفتنه بيده وهو يقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمى قال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»^(٢) وقيل: معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينًا رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبین معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْشَأْ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرٌ مَبِينٌ﴾^(٤).

وَمَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَتَوَقَّيْ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ بَيْنِي أَلْعَلَّمَهُ وَهِيَ رَمِيَتْ

(٧٦)

فإن قلنا: لم سمي قوله ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مثلاً؟ قلنا: لما دلَّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك بما يوصف الله تعالى بكونه قادرًا عليه كان تعجيبًا لله، وتشبيهًا له بخلق في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم اسم لما يلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال لم لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام ويقول: إنَّ عظام الميتة نجسة لأنَّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب، ويؤمنون أنَّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون المراد بإحياء العظام في الآية ردُّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

قُلْ يَحْيَا أَلَّذِي أَنْشَأَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٦)

﴿وهو بكل خلق عليم﴾ يعلم كيف يخلق لا يتعاطفه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلالها ودقاتها.

أَلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ^(٨)

ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر

والأكلة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخذه لهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معنُون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودًا للنار.

فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشُرُونَ وَمَا يُنْذِرُونَ^(٦)

وقرئ: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ﴾ بفتح الياء وضمها من حزنه أو حزنه والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم وإذا هم وجفاؤهم فإنما عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْكَ﴾ وإنا مجاوزوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن.

فإن قلنا: ما تقول فيمن يقول إن قرأ قارئ: إنا نعلم بالفتح انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ قلنا: فيه وجهان أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام، وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء وعليه تلبية رسول الله ﷺ إنَّ الحمد والنعمة لك^(١) كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل والثاني أن يكون بدلًا من قولهم كأنه قيل: فلا يحزنك إنا نعلم ما يسرون، وما يعلنون وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالمًا وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقدير فكيف فصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البطل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسرًا أو فاتحًا على ما عظم فيه الخطب تلك القائل فما فيه إلا نهى رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالمًا بسرهم وعلايتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئًا ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢)، ولا تكونَنَّ من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر.

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّفْلَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ^(٧)

(٧٧)

قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحًا لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة، وتغلغله في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار وشرز صفحته لمجالبته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التلبية (الحديث رقم:

1549)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها

(الحديث رقم: 21 - 1184).

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/429.

(4) سورة الزخرف، الآية: 18.

﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا: ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته، وقرئ: ملكة كل شيء ومملكة كل شيء وملك كل شيء والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله تعالى له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنين وعشرين مرة،⁽¹⁾ وأياما مسلم قرئ» عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون نفيه، وأياما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها، وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال عليه الصلاة والسلام: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات مكية

وَالْمَنْفَتِ مَنَّا^(١)

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾⁽⁵⁾ أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله.

فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا^(٢)

﴿فالزجرات﴾ السحاب سوقاً.

فَاللَّيْلِ ذِكْرًا^(٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوِيدٌ^(٤)

﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وقيل: الصافات الطير من قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ والزجرات: كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله

مع مضادة النار الماء وانطفائها به، وهي الزناد التي توري بها الأعراض وأكثرها من المرخ والغفار وفي أمثالهم في كل شجر نار. واستمجد المرخ والغفار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضرانوا ينقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو نكر على الغفار، وهي أنتى فتنفدح النار بإذن الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب⁽¹⁾ قالوا: ولذلك تتخذ منه كنينقات القصارين، وقرئ: ﴿الأخضر﴾ على اللفظ وقرئ: الخضراء على المعنى ونحوه قوله تعالى: من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ^(٨١).

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾⁽²⁾ وقرئ: يقدر وقوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين أن يخلق مثلهم في الصغر والقماء بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو الخلاق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات وقرئ: الخالق.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٨٢).

﴿إنما أمره﴾ إنما شأنه ﴿إذا أراد شيئاً﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإِنْ قُلْتَ: ما حقيقة قوله أن يقول له كن فيكون؟ قُلْتَ: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع.

فإِنْ قُلْتَ: فما وجه القراءتين في فيكون؟ قُلْتَ: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها، فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن وأما النصب فللعطف على يقول، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه من المباشرة بمحال القدرة واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقنور حتى يعجز عن الإعادة.

فَسَيَحْنُ الَّذِي يَرْبُّوهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٨٣).

= سورة يس (الحديث رقم: 2887).

(4) نكره الثعلبي في تفسيره، الزليعي 171/3.

(5) سورة الصافات، الآية: 165.

(1) لم يخرج الزليعي.

(2) سورة غافر، الآية: 57.

(3) أخرج أوله الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في =

أنفسها وأصله بزينة الكواكب وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب وإن أردت الاسم فلإضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة لأنّ مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به وإن يراد ما زينت به الكواكب وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب، ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء وغير ذلك ومطالعها ومساييرها وقرى على هذا المعنى ﴿بزينة الكواكب﴾ بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة.

وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧).

﴿وحفظاً﴾ مما حمل على المعنى لأنّ المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ويجوز أن يقدر الفعل المعلن كأنه قيل وحفظاً ﴿من كل شيطان﴾ زينها بالكواكب وقيل: وحفظناها حفظاً، والمارد الخارج من الطاعة المتملس منها.

لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَةٍ إِلَّاءَ أَعْلَىٰ وَهُمْ يُدْعَوْنَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨).

الضمير في ﴿لا يسمعون﴾ لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين وقرئ بالتخفيف والتشديد وأصله يتسمعون والتسمع تطلب السماع يقال تسمع فسمع أو فلم يسمع وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم يتسمعون ولا يسمعون وبهذا ينصر التخفيف على التشديد.

فإن قلّ: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلّ: لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان أو استثناءً فلا تصحّ الصفة لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له وكذلك الاستثناء لأنّ سائلاً لو سأل لم تحفظ من الشياطين فأجيب بأنهم لا يسمعون لم يستقم فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدر أن يسمعوا إلى كلام الملائكة أو يتسمعوا وهم مقنوفون بالشبه محوورون عن ذلك، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقاً فعندها تعاجله الهلكة باتّباع الشهاب الثاقب.

فإن قلّ: هل يصح قول من زعم أن أصله لثلاثا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك جثتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهمل عملها كما في قول القائل: ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى؟ قلّ: كل واحد من هذين الحذفين غير مربوط على انفراده فأما اجتماعهما فمفكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب.

فإن قلّ: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدّث وسمعت إليه

والدارسات شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو النكر مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإن قلّ: ما حكم الغاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلّ: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يالهف زياطة للحرث الـ صابح فالغانم فالأيب
كانه قيل: الذي صح فغنم فأب وإما على ترتبها في التفاروت من بعض الوجوه كقولك خذ الأفضل، فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين، فالمقصرين فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الغاء العاطفة في الصفات.

فإن قلّ: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصده؟ قلّ: إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل وإن ثلثت فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه بيان لك أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها فحفظها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل إما أن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة وإن أجريت الصفة الأولى على الطوائف والثانية والثالثة على آخر فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل أعني أن الطوائف الصافات نوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس وكذلك إذا أردت بالصفات الطير وبالزاجرات كل ما يزرع عن معصية وبالتاليات كل نفس تتلو النكر فإن الموصوفات مختلفة، وقرئ ببادغام التاء في الصاد والزاي والذال.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ (٩).

﴿رب السموات﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف و﴿المشارق﴾ ثلثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين.

فإن قلّ: فماذا أراد بقوله ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾^(١)؟ قلّ: أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكُوكِبِ (١٠).

﴿الدنيا﴾ القريبى منكم. والزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به الشيء كالليقة اسم لما تلاق به الهواة ويحتملها قوله ﴿بزينة الكواكب﴾ فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وأصله بزينة الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسها لأنها إنما زينت السماء لحسنها في

يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: أنذا كنا تراباً وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية وليس هذا القول بملائم. وقرئ: لازب ولاتب والمعنى واحد والثاقب الشديد الإضاءة.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ١٧

﴿بل عجبت﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿وهم يسخرون﴾ منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرئ: بضم التاء أي بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي اني عجبت منها فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم عنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه.

فإن قلْتُ: كيف يجوز العجب على الله تعالى وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن مجرد العجب لمعنى الاستعظام والثاني أن يتخيل العجب ويفرض وقد جاء في الحديث عجب ربكم من الكم وقنوطكم وسرعة إجابته إليكم^(١) وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إن الله لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم فقال إبراهيم النخعي: إن شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم يريد عبد الله بن مسعود وكان يقرأ بالضم وقيل: معناه، قل: يا محمد، بل عجبت.

وَإِنَّا نَكْرُهُ لَا يُكْرَهُ ١٨

﴿وإننا نكره﴾ ودأبهم أنهم إذا عظوا بشيء لا يتعظون به.

وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ١٩ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٢٠ أَوَدَا

وَنَنَا رُكَّاءَ نَرَاكَ وَنَحْنُ أَكْبَرُونَ ٢١

﴿وإذا رآوا آية﴾ من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه ﴿يستسخرون﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ٢٢

﴿وأباؤنا﴾ معطوف على محل ﴿إن﴾ واسمها أو على الضمير في مبعوثون والذي جَوَزَ العطف عليه الفصل بهمة الاستفهام والمعنى أيبعث أيضاً أبائنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل وقرئ: أو أبائنا.

يتحدثت وسمعت حديثه وإلى حديثه؟ قلْتُ: المعدى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك والملا الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات والإنس والجن هم الملا الأسفل لأنهم سكان الأرض وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة وعن أشراف الملائكة ﴿من كل جانب﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق.

نُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٢٣

﴿نحوراً﴾ مفعول له أي ويقذفون للنحور وهو الطرد أو محدودين على الحال أو لأن القنف والطرده متقاربان في المعنى فكانته قيل: يدحرون، أو قنفًا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بفتح الدال على قنفًا نحوراً طروداً أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع والواصب الدائم وصب الأمر وصوباً يعني: أنهم في الدنيا مرجومون بالشبه وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع.

إِلَّا مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْقِتْلَةُ فَنُفِخَ فِي سَافِرٍ ٢٤

﴿من﴾ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿خطف الخطفة﴾ وقرئ: ﴿خطف﴾ بكسر الخاء والطاء وتشديدها وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلها اختطف، وقرئ: فاتبعه وفاتبعه. الهمة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها فلذلك قيل: فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ أَمْدُ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ ٢٥

٢٥

﴿فاستفتهم﴾ أي استخبرهم ﴿أهم أشد خلقاً﴾ ولم يقل فقررهم والضمير لمشركي مكة قيل: نزلت في أبي الأشد بن كلداء وكنى بذلك لشدة بطشه وقوته ﴿أم من خلقنا﴾ يريد ما نكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب والشهب الثواقب والشياطين المردة وغلب أولى العقل على غيرهم فقال: من خلقنا والليل عليه قوله بعد عد هذه الأشياء فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا بالفاء المعقبة وقوله أم من خلقنا مطلقاً من غير تقييد بالبيان اكتفاء ببيان ما تقدمه كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدايعه فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم الذي خلقناه من تلك ويقطع به قراءة من قرأ أم من عدنا بالتخفيف والتشديد وأشد خلقاً يحتمل أقوى خلقاً من قولهم شديد الخلق وفي خلقه شدة وأصعب خلقاً وأشق على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى وإن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم ﴿من طين لازب﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما

(١) قال الزيلعي: غريب ونسبه إلى أبي عبيدة في غريب الحديث /3

﴿لَا تَتَنَاصَرُونَ﴾ ﴿وَلَا تَنَاصَرُونَ﴾ بالإدغام.

قُلْ نَمَّ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿قل نعم﴾ وقرئ: ﴿نعم﴾ بكسر العين وهما لغتان وقرئ: قال نعم أي الله تعالى أو الرسول ﷺ والمعنى نعم تبعثون ﴿وانتم داخلون﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿فإنما﴾ جواب شرط مقدر تقديره إذا كان ذلك فما هي إلا زجرة واحدة وهي لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها ويجوز فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية والزجرة الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فريعت لصوته ومنه قوله:

زجر أبي عروة السباع إذا اشفق أن يختلطن بالغنم يريد تصويته بها ﴿فإذا هم﴾ أحياء بصراء ﴿ينظرون﴾ يحتمل أن يكون.

وَقَالُوا يَنْزِلُكَ هَذَا يَوْمَ آيَاتِنَا ﴿٢٠﴾.

﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله احشروا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض وأن يكون من كلام الملائكة لهم وأن يكون يا ويلنا هذا يوم الدين كلام الكفرة.

هَذَا يَوْمَ الْقَمَلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾.

﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم ويوم الدين الذي ندان فيه أي نجازي بأعمالنا ويوم الفصل يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

﴿احشروا﴾ خطاب الله للملائكة أو خطاب بعضهم مع بعض ﴿وازولجهم﴾ وضرباهم عن النبي ﷺ وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة أهل الزنا مع أهل الزنا وأهل السرقة مع أهل السرقة وقيل: قرناؤهم من الشياطين وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم.

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمَّا دُومُ إِلَّا يَرِيبُ الْخَبِيرَ ﴿٢٢﴾ وَقَفُورُهُمْ إِنَّمَا يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿فأهدهم﴾ فعزقهم طريق النار حتى يسلكوها.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٤﴾.

هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين.

بَلْ هُمْ آيَاتٌ مُتَسْتَوُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بَيِّنَاتٌ ﴿٢٦﴾.

﴿بل هم آيات مستسلمون﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً

وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر، وقرئ:

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾.

اليمن لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يقيمون بها فيها يضافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور ويتشاءمون بالشمال ولذلك سموها الشؤمى كما سموا اختها اليمنى وتيمنوا بالسنانح وتطيروا بالبارح وكان الأعسر معيباً عندهم وعضدت الشريعة ذلك فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمن وأراناها بالشمال وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن من كل شيء^(١) وجعلت اليمنى لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء أن يؤتاه بشماله، استعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل آتاه عن اليمن أي من قبل الخير وناحيته فصده عنه وأضله وجاء في بعض التفاسير من آتاه الشيطان من جهة اليمن آتاه من قبل الدين فليس عليه الحق ومن آتاه من جهة الشمال آتاه من قبل الشهوات ومن آتاه من بين يديه آتاه من قبل التكتيب بالقيامة وبالثواب والعقاب ومن آتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة.

فَإِنْ قُلْتَ: قولهم آتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه فكيف جعلت اليمنى مجازاً عن المجاز؟ قُلْتُ: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق وهذا ذاك ولك أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر لأن اليمنى موصوفة بالقوة وبها يقع البطش والمعنى إنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم والغواة لشياطينهم.

قَالُوا بَلْ لَرَّ كُفُورًا مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ بل أبيتم انتم الإيمان وأعرضتهم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين إليه.

وَمَا كَانَ لَأَعْيُكَ مِنْ سُلْطَنٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿وما كان لنا عليكم﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بل كنت قوماً﴾ مختارين الطغيان.

فَقَوْلَ عَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿فحق علينا﴾ فلزمنا ﴿قول ربنا إنا لذائقون﴾ يعني: وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ولو حكى الوعيد كما هو لقال إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: للتيمن في دخول المسجد وغيره (الحديث رقم: 426)، ومسلم في كتاب: الطهارة، التيمن في الطهور وغيره (الحديث رقم: 67 - 268).

عن أنفسهم ونحوه قال القائل:

لقد زعمت هوأزن قلّ مالي

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف
احلف لأخرجن ولتخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء
لإقبال المحلف على المحلف.

فَأَعَزَّتْكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴿٣٢﴾

﴿فأغويناكم﴾ فعدوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغية
لقبولكم لها واستحبابكم الغي على الرشد ﴿إنا كنا
غاوين﴾ فأربنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿فإنهم﴾ فَإِنَّ الْآتِبَاعَ والمتبوعين جميعاً ﴿يومئذ﴾ يوم
القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في
الغواية.

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

﴿إنا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكل مجرم يعني: أن
سبب العقوبة هو الإجماع فمن ارتكبه استوجبها.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إنهم كانوا إذ﴾ سمعوا بكلمة التوحيد نفروا
واستكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأُرْكِيهِ إِلَهُنَا لِئَازِلَنَّهُمْ نَجْمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ.

بَلْ جَاءَهُ الْخُبْرُ وَصَلَتْ إِلَيْهِ الرِّسَالُ ﴿٣٧﴾

﴿بل جاء بالحق﴾ رد على المشركين ﴿وصدق
المرسلين﴾ كقوله مصدقاً لما بين يديه وقرئ لذائقوا
العذاب بالنصب على تقدير النون كقوله:

إِن كُنْتُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾

ولا ذاكر الله إلا قليلاً بتقدير التثنية وقرئ على الأصل
لذائقون العذاب.

وَمَا جَزَاؤُهُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئاً
بعمل سيئ.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

﴿إلا عباد الله﴾ ولكن عباد الله على الاستثناء المنقطع.

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾

فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا
يتقوت لحفظ الصحة يعني: أن رزقهم كله فواكه لأنهم
مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات بأنهم أجسام محكمة
مخلوقة للأبد فكل ما ياكلونه ياكلونه على سبيل التلذذ
ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها
من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل: معلوم

الوقت كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً وعن قتادة
الرزق المعلوم الجنة، وقوله في جنات ياباه وقوله:

فَرَزَقَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وهم مكرمون﴾ هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب
على سبيل المدح والتعظيم وهو من أعظم ما يجب أن
تنفق إليه نفوس ذوي الهمم كما أن من أعظم ما يجب أن
تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم، التقابل أتم
للسرور وأتس وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض يقال
للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر: نفسها كأساً قال:
وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش، كل كأس في القرآن
فهي الخمر وكذا في تفسير ابن عباس.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾

﴿من معين﴾ من شراب معين أو من نهر معين وهو
الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون وصف بما
يوصف به الماء لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري
الماء قال الله تعالى: وأنهار من خمر.

يَبَيِّضُهَا لَدَهُمُ الْخَمْرُ بَارِئٌ ﴿٤٦﴾

﴿بيضاء﴾ صفة للكأس ﴿لذة﴾ إما أن توصف باللذة
كانها نفس اللذة وعينها أو هي تانيث اللذ يقال لذ الشيء
فهو لذ ولذيذ ووزنه فعل كقولك رجل طب قال:

ولذ كطعم الصرخدي تركته بارض العدا من خشية الحدثنان
يريد النوم.

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾

الغول لمن غاله يغوله غولاً إذا اهلكه وأفسده ومنه
الغول الذي في تكذيب العرب وفي أمثالهم الغضب غول
الحلم و ﴿ينزفون﴾ على البناء للمفعول من نزف الشارب
إذا ذهب عقله، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ويقال
للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله ونزحت الركية حتى
نزفتها إذا لم تترك فيها ماء وفي أمثالهم أجبن من
المنزوف ضرطاً وقرئ ينزفون من أنزف الشارب إذا ذهب
عقله أو شربه قال:

لعمري لئن أنزفتموا وصحوتما لبئس الندامى كنتموا آل ابجرا
ومعناه صار ذا نزف ونظيره أقشع السحاب وقشعته
الريح وأكب الرجل وكببته وحقيقتها دخلا في القشع
والكب وفي قراءة طلحة بن مصرف وينزفون بضم الزاي
من نزف ينزف كقرب يقرب إذا سكر والمعنى لا فيها
فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من
مغص أو صداع، أو خمار أو عريضة أو لغو أو تأثيم أو
غير ذلك ولا هم يسكرون وهو أعظم مفسادها فأقرزه
وأقرده بالترك.

وَعَنَدَهُمْ قَاسِرَاتُ الْظُّرُفِ عِزٌّ ﴿٤٨﴾

﴿قاسرات الطرف﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن
لا يمتدن طرفاً إلى غيرهم كقولهم تعالى عرباً، والعين:

النجل العيون.

كَأَنَّهُنَّ يَصْنَعْنَ كُنُوزًا ٥٩.

شبههنّ ببياض النعام المكنون في الاداحي وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ ببيضات الخدور.

فَأَقْصِرْ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَخَسِرَ لَوْ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١.

فإن قلّت: علام عطف قوله:

﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾ قلّت: على يطاق عليهم والمعنى يشربون فيتحاشون على الشرب كعادة الشرب قال:

وما بقيت من اللذات إلا أحابيث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على بعض ﴿يتساعلون﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جيء به ماضيًا على عادة الله في أخباره.

يَقُولُ أَوَلَمْ يَكُن لِّكَ الْوَصِيَّةُ ٥٢.

قرئ: ﴿من المصدقين﴾ من التصديق ومن المصدقين مشدّد الصاد من التصنّق وقيل: نزلت في رجل تصنّق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضنني الله به في الآخرة خيرًا منه فقال: أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو من المصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئًا.

أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ تَرَاكٍ وَغَلَابَةً إِنَّكُمْ تَعْتَدُونَ ٥٣.

﴿لمدينون﴾ لمجزيون من الدين وهو الجزء أو لمسوسون مربوبون يقال دانه ساسه ومنه الحديث: العاقل من دان نفسه ﴿قال﴾ يعني: نك القائل.

قَالَ هَلْ أَنتُمْ مَّطْلُوعُونَ ٥٤ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجَرِ ٥٥.

﴿هل انتم مطلعون﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار وقيل القائل هو الله عز وجل، وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار وقرئ: ﴿مطلعون﴾ فاطلع فاطلع بالتشديد على لفظ الماضي والمضارع المنصوب ومطلعون فاطلع وفاطلع بالتحفيف على لفظ الماضي والمضارع المنصوب يقال: طلع علينا فلان واطلع واطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فاطلع أنا أيضًا أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه فاطلع هو بعد ذلك وإن جعلت الاطلاع من أطلعه غيره فالمعنى أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم، وهو من آداب المجالسة أن لا يستبد بشيء دون جلسائه فكأنهم مطلعوه وقيل: الخطاب على هذا للملائكة وقرئ: ﴿مطلعون﴾ بكسر النون أراد مطلعون إياي فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هم الفاعلون الخير والأمرونة

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتأخّ بينهما كانه

قال: تطلعون وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر ﴿في سواء الجحيم﴾ في وسطها يقال: تعبت حتى انقطع سواي وعن أبي عبيدة قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سواي.

قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَرْوِينَ ٥٦.

﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة وهي تدخل على كاد كما تدخل على كان، ونحوه إن كان ليضلنا واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك، وفي قراءة عبد الله لتغوين.

وَلَوْلَا يَمْنَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ٥٧.

﴿نعمته ربي﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام والبراءة من قرين السوء أو إنعام الله بالثواب وكونه من أهل الجنة ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك الذي عطف عليه الفاء محذوف معناه: أنحن مخلدون منعومون فما نحن بميتين ولا معنين.

أَمَّا عَنْ بَنِيَّ ٥٨ إِلَّا مَوَئِدَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا عَنْهُمْ بِمُعَدِّينَ ٥٩.

وقرئ: ﴿بماتنين﴾ والمعنى: أن هذه حال المؤمنين وصفتهم، وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا ينوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. يقوله المؤمن تحذيرًا بنعمة الله واغتيالًا بحاله وبمسمع من قرينه ليكون توبيخًا له يزيد به تعذّبًا وليحكيه الله فيكون لنا لطفًا وزاجرًا ويجوز أن يكون قولهم جميعًا وكذلك قوله:

إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْفَرَزٍ الْعَظِيمِ ٦٠ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ ٦١.

﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه وقيل هو من قول الله عز وجل تقريرًا لقولهم وتصديقًا له وقرئ: لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة تمت قصة المؤمن وقرينه ثم رجع إلى نكر الرزق المعلوم فقال:

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ٦٢.

﴿أذلك﴾ الرزق ﴿خير نزلاً﴾ أي خير حاصلًا ﴿أم شجرة الزقوم﴾ وأصل النزل الفضل والريع في الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء وحاصل الرزق المعلوم للذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، وانتصاب نزلاً على التمييز ولك أن تجعله حالاً كما تقول أثمر النخلة خير بلحا أم رطباً يعني: أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير في كونه نزلاً والنزل ما يقال للنازل بالمكان من الرزق ومنه إنزال الجند لإزاقهم كما يقال لما يقام لسكان الدار السكن، ومعنى الأول أن للرزق المعلوم نزلاً ولشجر الزقوم نزلاً فأيهما خير نزلاً ومعلوم أنه لا خير في شجر الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما

حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ملي
تعذيباً بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب
المشوب بالحميم والثاني أنه نكر الطعام بتلك الكراهة
والبشاعة، ثم نكر الشراب بما هو أكره وأبشع فجاء بثم
للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة
صفته لصفته في الزيادة عليه، ومعنى الثاني: أنهم يذهب
بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي
أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيلكون إلى أن يمتلؤا ويسقون
بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم ومعنى التراخي في ذلك
يبين.

يَوْمَ أَقَامُوا تَابَعَتِمْ مَكَائِلَ ۖ يَوْمَ هُمْ عَلَىٰ عَرْشِ رَبِّهِمْ ۖ

وقرى: إن منقلبهم ثم إن مصيرهم ثم إن منذهبهم إلى
الجحيم على استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها
بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم على الضلال وترك
اتباع الليل والإهراس الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثاً
وقيل: إسراع فيه شبه بالردة.

وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ۖ

﴿ولقد صل قبلهم﴾ قبل قومك قریش.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ۖ

﴿مُذِيرِينَ﴾ أنبياء حنروهم العواقب.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِيرِينَ ۖ

﴿المتذيرين﴾ الذين أنذروا وحذروا أي أهلكوا جميعاً.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ

﴿إلا عباد الله﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا بينهم لله أو
أخلصهم الله لدينه على القراءتين. لما نكر إرسال المنذرين
في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك نكر نوح
ودعائه إياه حين آيس من قومه واللام الداخلة على نعم
جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف تقديره
فوالله لنعم المحبيون نحن والجمع لئيل العظمة والكبرياء.

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَيْمَ الْمُجِيبُونَ ۖ وَخَيَّنَتْ وَأَهْلُهَا مِنَ الْكَرْبِ

الْعَظِيمِ ۖ

والمعنى: إنا أجبناهم أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده
وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما
يكون.

وَمَعَنَا دُرُودُنَا ۖ هُمُ الْبَاقِينَ ۖ

﴿هم الباقين﴾ هم الذين بقوا وحدهم، وقد فني غيرهم
فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده
أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة قال قتادة
الناس كلهم من ذرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة

أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما أدى إلى
شجرة الزقوم قيل لهم: ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ۖ

﴿فتنة للظالمين﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة أو
إبتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار
شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا وقرئ: نابتة.

إِنَّا سَجَّرَهُ نَخْرَجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ

﴿في أصل الجحيم﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم
وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما.

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّجَرِ ۖ

والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من
حملها إما استعارة لفظية أو معنوية وشبه برؤوس
الشياطين دلالة على تنافيه في الكراهة وقبح المنظر لأن
الشیطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه
شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة
كانه وجه شيطان كأنه رأس شيطان وإذا صورده
المصورون جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله كما
أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فشبها
به الصورة الحسنة قال الله تعالى: ﴿ما هذا بشراً إن هذا
إلا ملك كريم﴾ (١) هذا تشبيه تخيلي وقيل: الشيطان حية
عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جداً وقيل إن شجرة
يقال له الاستن خشناً منتناً مراً منكر الصورة يسمى ثمره
رؤوس الشياطين وما سمت العرب هذا الثمر برؤوس
الشياطين إلا قصداً إلى أحد التشبيهين ولكنه بعد التسمية
بذلك رجع أصلاً ثالثاً يشبه به.

لَا يَتَمَنَّوْنَ لِأَكُونَ مِنَّا فَمَلَكُونِ ۖ إِنَّا نَبِّئُكَ ۖ

﴿منها﴾ من الشجرة أي من طلوعها ﴿فمالمثلون﴾
بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على
أكلها وإن كرهوها ليكون باباً من العذاب فإذا شبعوا غلبهم
العطش فيسقون شراباً من غساق، أو صديد شوبه أي
مزاجه.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۖ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۖ

﴿من حميم﴾ يشوي وجوهم ويقطع أمعاءهم كما قال
في صفة شراب أهل الجنة ومزاجه من تسنيم، وقرئ:
لشوباً بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول تسمية
بالمصر.

فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله ثم إن لهم
عليها لشوباً وفي قوله: ﴿ثم إن مرجعهم﴾؟ قلت: في الأول
وجهان أحدهما أنهم يملأون البطون من شجر الزقوم، وهو

على إفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون إفكاً مفعولاً يعني: اتريبون به إفكاً، ثم فسّر الإفك بقوله آلهة من دون الله على أنها إفك في أنفسها، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى اتريبون آلهة من دون الله آفكين.

فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿فما ظنكم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة لأن من كان رباً للعالمين استحق عليهم أن يعبوه حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام، والمعنى: أنهم لا يقدر في وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته أو فما ظنكم به أي شيء وهو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً، أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عببتم غيره.

فَنَظَرْنَا فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾

﴿في النجوم﴾ في علم النجوم، أو في كتابها أو في أحكامها وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال حبيب انظر إليه ومحتاج انظر له، وكتاب انظر فيه، كان القوم نجامين فاوهمهم أنه استدل بامارة في علم النجوم على أنه يسقم.

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾

﴿فقال إني سقيم﴾ إني مشارف للسقم، وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم.

فَنَزَلْنَا عَنْهُ مُبْرِينَ ﴿٩٠﴾

وكانوا يخافون العنوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل.

فإن قلّت: كيف جاز له أن يكنّب؟ قلّت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرض وورى والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم ومنه المثل كفى بالسلامة داء وقول لبيد:

دعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحبني فإذا السلامة داء
وقد مات رجل فجأة فالتفت عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح فقال أعرابي: أصبح من الموت في عنقه وقيل:
أراد إني سقيم النفس لكفركم.

فَرَأَى إِلَهُ الْإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿٩٢﴾

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ فذهب إليها في خفية من روعة الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم: التي هي في زعمهم آلهة كقوله تعالى: أين شركائي.

﴿ألا تاكلون ما لكم لا تنطقون﴾ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عببتها.

فَرَأَى عَلَيْهِمْ سَمَآءَ بَآلِيَيْنِ ﴿٩٣﴾

﴿فراغ عليهم﴾ فاقبل عليهم مستخفياً كأنه قال

أولاد سام وحام ويافت فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافت أبو الترك وياجوج وماجوج.

وَرَكَّأَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٩٤﴾

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ من الامم هذه الكلمة وهي.

سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْآلَمِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿سلام على نوح﴾ يعني: يسلمون عليه تسليماً ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك قرأت سورة أنزلناها.

فإن قلّت: فما معنى قوله ﴿في العالمين﴾! قلّت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً وإن لا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وإدامه في الملائكة والثققلين يسلمون عليه عن آخرهم، علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنة من تبقية نكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

وَإِنَّ مِنْ شَيْعِلِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٩٩﴾

﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعها أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة.

فإن قلّت: بم تعلق الظرف؟ قلّت: بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم أو بمحنوف وهو أنكر.

إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿بقلب سليم﴾ من جميع آفات القلوب وقيل: من الشرك ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها.

فإن قلّت: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلّت: معناه أنه أخلص له قلبه وعرف تلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك.

أَفْكَأَ إِلَهُهُ دُنَّ اللَّهِ يُرِيدُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿إفكاً﴾ مفعول له تقديره اتريبون آلهة من دون الله إفكاً وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية وقدّم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم

فإن قُلْتُ: فما أنكرت أن تكون ما مصدرية لا موصولة ويكون المعنى والله خلقكم وعملكم كما تقول المجبرة؟ قُلْتُ: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب أن معنى الآية إياه إياه جلياً وبينو عنه نبواً ظاهراً وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله لولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها ولو قلت والله خلقكم وخلق عملكم لم يكن محتجاً عليهم ولا كان لكلامك طباق وشيء آخر، وهو أن قوله ما تعملون ترجمة عن قوله ما تنتحون وما في تحتون موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن اختها إلا متعسف متعصب لمذهبه من غير نظر في علم البيان ولا تبصر لنظم القرآن.

فإن قُلْتُ: أجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت وأريد وما تعملونه من أعمالكم قُلْتُ: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإنعان للحق وذلك أنك وإن جعلتها موصولة فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين كحالك وقد جعلتها مصدرية وأيضاً فإنك قاطع بذلك الوصلة بين ما تعملون وما تحتون حيث تخالف بين المرادين بهما فتريد بما تحتون الأعيان التي هي الأصنام وبما تعملون المعاني التي هي الأعمال وفي ذلك فك النظم وتبتيه كما إذا جعلتها مصدرية.

قَالُوا إِنَّا لَم نَبِينَا قَالُوا فِي الْحَجِيرِ (٧٧)

﴿الحجيم﴾ النار الشديدة الوقود وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر فهي حجيم.

فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَشْقِيَاءَ (٧٨)

والمعنى أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً وأنهم بين يديه أراونا أن يغلبوه بالحجة فلقلنه الله والههم ما ألهمهم به الحجر وقهرهم فمالوا إلى المكر فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأتلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ (٧٩)

أراد بذهابه إلى ربه هجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما قال: إني مهاجر إلى ربي ﴿سبيدين﴾ سيرشني إلى ما فيه صلاح في بيني ويعصمني ويوفقني كما قال موسى عليه السلام: كلا إن معي ربي سيهدين كان الله وعده وقال له: ساهديك فأجرى كلامه على سنن موعد ربه أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ (٨٠)

فضرِبهم ﴿ضرِباً﴾ لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضرِبهم ضريباً أو فراغ عليهم ضريباً بمعنى ضارباً وقرئ: صَفَقاً وسَفَقاً ومعناهما الضرب ومعنى ضريباً ﴿باليمينين﴾ ضرباً شديداً قوياً لأن اليمين أقوى الجارحتين واشدُّهما وقيل: بالقوة والمتانة وقيل: بسبب الحلف وهو قوله تالله لا كين أصنامكم.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ (٨١) قَالَ أَمْتِدُونَ مَا نَمُوتُونَ (٨٢)

﴿يرفون﴾ يسرعون من زفيف النعام ويرفون من أنف إذا بخل في الزفيف أو من أنفه إذا حملة على الزفيف أي يرف بعضهم بعضاً ويرفون على البناء للمفعول أي يحملون على الزفيف ويرفون من زف يرف إذا أسرع ويرفون من زفاه إذا حداه كان بعضهم يرفو بعضاً لتسارعهم إليه.

فإن قُلْتُ: بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿قالوا من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (٨١) كالتناقض حيث نكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متباردين ليكفوه ويوقعه به ونكر، ثم إنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم ينهم فعله هو الكاسر ففي أحدهما أنهم شاهدهو يكسرها وفي الآخر أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرًا منهم نون جمهورهم وكبرائهم فلما رجع الجمهور والعلية من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمازوا من ذلك وسألوا من فعل هذا بها ثم لم ينم عليه أولئك نفر نميمة صريحة، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم سمعنا فتى يذكرهم لبعض الصوارف والثاني أن يكسرها ويذهب، ولا يشعر بذلك أحد ويكون إقبالهم إليه يرفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم: قالوا فاتوا به على أعين الناس.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَسْلُونَ (٨٦)

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يعني: خلقكم وخلق ما تعلمونه من الأصنام كقوله بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن أي فطر الأصنام.

فإن قُلْتُ: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعاً؟ قُلْتُ: هذا كما يقال عمل النجار الباب والكرسي وعمل الصائغ السوار والخلخال والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها نون جواهرها والأصنام جواهر وأشكال فخالق جواهرها الله وعاملوا أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحفهم بعض أجزائها حتى يستوي التشكيل الذي يريونه.

المشاورة، وقرئ: ﴿ماذا ترى﴾ أي ماذا تبصر من رأيك وتبديه وماذا ترى على البناء للمفعول أي ماذا تترك نفسك من الرأي ﴿افعل ما تؤمر﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمرًا وقرئ ما تؤمر به.

فإن قلت: لم شاورة في أمر هو حتم من الله؟ قلت: لم يشاورة ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله ولأن المغافصة بالذبح مما يستسمح وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاورة آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك.

فإن قلت: لم كان ذلك بالمنام نون اليقظة؟ قلت: كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبيه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه وكما وعد رسول الله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام وما سوى ذلك من منامات الأنبياء وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صائقين مصبوقين لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام فإذا تظاهرت الحالتان على الصديق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

قُلْنَا أَتَأْتَاكَ وَتَأْتِيكَ لَيْلِينَ (١٢٣).

يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعاً إذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه وحقيقة معناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلم أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وتله للجبيين﴾ صرعه على شقه فوقع أحد جنبه على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان وروي أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى، وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف تقديره، فلما أسلماً وتله للجبيين.

وَتَدْنِيَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ (١٢٤) تَدْنِيَهُ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَّابٌ مَجْرِي الْمُتَحَسِّينَ (١٢٥).

﴿وتأنيته﴾ أي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واعتباطهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما

﴿ههب لي من الصالحين﴾ هب لي بعض الصالحين يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً﴾ قال عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب ووهبنا له يحيى﴾ وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما حين هنأه بولده علي أبي الأملاك شكرت الوهاب وبورك لك في الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله وبموهوب ووهب وموهب.

فَبَشَّرْنَاهُ بِحُلِيمٍ حَلِيمٍ (١٢٦).

وقد انطوت البشارة على ثلاث على أن الولد غلام نكر وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حلماً وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ستجبنني إن شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾ إن إبراهيم لحليم أواه منيب لأن الحادثة شملت بحلمها جميعاً.

قُلْنَا بَلِّغْ مَعَهُ السَّعْيَ كَالَّذِي يَبُوءُ بِاتِّقَانٍ فِي أَلَمَارٍ إِنَّ دَعْوِكَ فَنَظَرٌ مَّاذَا تَفَعَّلَ مَا تَأْتِي أَفْعَلُ مَا تَوَصَّرَ سَعْيُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٢٧).

﴿فلما بلغ﴾ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه.

فإن قلت: ﴿معه﴾ بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ أو بالسعي أو بمحذوف فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حد السعي ولا بالسعي لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه فيبقى أن يكون بياناً كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل مع من فقال: مع أبيه والمعنى في اختصاص الأب: أنه أرقق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشر سنة والمراد أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حد الطفولة كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم أتى في المنام ف قيل له: أدبج ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة فلهاذا قال: ﴿إني أرى في المنام أنني أنبحك﴾ فنكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن، وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أنني ناج من هذه المحنة وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بنبخ ابنك هذا فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره قسمي اليوم يوم النحر وقيل: إن الملائكة حين بشرته بغلام حلیم قال: هو إذن ذبيح الله، فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له أوف بنذك ﴿فانظر ماذا ترى﴾ من الرأي على وجه

لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر نبح ولده أنه يلزمه نبح شاة.

فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ كَانَ الذَّبِيحَ مِنْ وَلَدَيْهِ؟ قُلْتُ: قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ وَالْحُجَّةُ فِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ⁽⁴⁾ وَقَالَ لَهُ أَعْرَابِي: يَا ابْنَ الذَّبِيحِينَ فَتَبَسَّمَ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ لَمَّا حَفَرَ بئرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ لَئِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُا لِيَنْبُحَنَ أَحَدُ وَلَدِهِ فَخَرَجَ السَّهْمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ أَخُوهُ وَقَالُوا لَهُ: أَقْدَيْنَاكَ بِمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ فَقَدَاهُ بِمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ وَالثَّانِي إِسْمَاعِيلُ⁽⁵⁾، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ قَالَ: كَانَ مُجْتَهِدٌ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ إِذَا دَعَا: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ مَا لِمُجْتَهِدٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا دَعَا قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ فَقَدْ أَسْمَعْتَنِي كَلَامَكَ وَاصْطَفَيْتَنِي بِرِسَالِكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَى لِمَ يُحِبُّنِي أَحَدُ حَبِّ إِبْرَاهِيمَ قَطُّ وَلَا خَيْرَ بَيْنِي وَبَيْنَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَنِي وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ جَادٌ بِدَمِ نَفْسِهِ وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْسُغْ رُوحِي فِي شِدَّةٍ نَزَلَتْ بِهِ قَطُّ يَدِلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَتَمَّ قِصَّةَ الذَّبِيحِ قَالَ: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ مَا كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ وَإِنِّي لَأَرَاهُ كَمَا قُلْتَ ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى يَهُودِيٍّ قَدْ أَسْلَمَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ وَلَكِنَّهُمْ يُحْسِنُونَكَ مَعَشَرَ الْعَرَبِ وَيَدِلُّ عَلَيْهِ أَنَّ قُرْنِي الْكَبِشِ كَانَا مُنَوِّطِينَ فِي الْكَعْبَةِ فِي أَيَّامِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِلَى أَنْ احْتَرَقَ الْبَيْتُ وَعَنْ الْأَصْمَعِيِّ بِمَكَّةَ وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أَبِيهِ وَالْمَنْحَرُ بِمَكَّةَ وَمِمَّا يَدِلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِالصَّبْرِ دُونَ أَخِيهِ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وَهُوَ صَبْرُهُ عَلَى الذَّبْحِ وَوَصَفَهُ بِصَدْقِ الْوَعْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ لِأَنَّهُ وَعَدَ أَبَاهُ الصَّبْرَ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى الذَّبْحِ فَوَفَّى بِهِ وَلَئِنْ اللَّهَ بِشَرِّهِ بِإِسْحَاقَ وَوَلَدَهُ يَعْقُوبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَضَحَكْتَ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ فَلَوْ كَانَ الذَّبِيحُ إِسْحَاقَ لَكَانَ خَلْفًا لِلْمَوْعِدِ فِي يَعْقُوبَ. وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَالْعَبَّاسِ وَعَطَاءٍ وَعُكْرَمَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ وَالْحُجَّةُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ بِأَنَّهُ اسْتَوْهَبَهُ وَلَدًا ثُمَّ اتَّبَعَ ذَلِكَ الْغُلَامَ الْمُبَشِّرَ بِهِ وَيَدِلُّ عَلَيْهِ كِتَابُ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ مِنْ

اكتسبها في تضاعيفه بتوططين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تَعْلِيلٌ لِتَحْوِيلِ مَا خَوَّلَهُمَا مِنَ الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَةِ وَالظَّفَرِ بِالْبَغْيَةِ بَعْدَ الْيَأْسِ.

إِنَّ هَذَا لَمْ يَلْتَمِزْ أَلَّيْنِ⁽¹⁾.

«الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» الْاِخْتِبَارُ الْبَيِّنُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ فِيهِ الْمَخْلُصُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوِ الْمَحَنَةُ الْبَيِّنَةُ الصَّعُوبَةُ الَّتِي لَا مَحَنَةَ أَصْعَبَ مِنْهَا.

وَقَدَّيْنَهُ بَيْنَ عَظِيمٍ⁽²⁾ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ⁽³⁾ سَلَّمَ عَلَى إِزْمِيرَ⁽⁴⁾.

الذَّبْحُ اسْمٌ مَا يَذْبَحُ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الْكَبِشُ الَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيلُ فَقَبِلَ مِنْهُ وَكَانَ يَرْعَى فِي الْجَنَّةِ حَتَّى قَدِيَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ، وَعَنْ الْحَسَنِ: قَدِيَ بِوَعْلٍ أَهْبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبِيرٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَوْ تَمَّتْ تِلْكَ الذَّبِيحَةُ لَكَانَتْ سَنَةً وَنَبِحَ النَّاسُ أَبْنَاءَهُمْ⁽¹⁾ «عَظِيمٌ» ضَخْمُ الْجَنَّةِ سَمِينٌ وَهِيَ السَّنَةُ فِي الْأَضْحَاكِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اسْتَشْرَفُوا ضَحَايَاكُمْ فَإِنَّهَا عَلَى الصِّرَاطِ مَطَايَاكُمْ»⁽²⁾ وَقِيلَ: لِأَنَّهُ وَقَعَ فِدَاءٌ عَنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ. وَرَوَى أَنَّهُ هَرَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى أَخَذَهُ فَبَقِيَتْ سَنَةٌ فِي الرَّمْيِ وَرَوَى أَنَّهُ رَمَى الشَّيْطَانَ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِالْوَسُوسَةِ عِنْدَ ذَبْحِ وَلَدِهِ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا ذَبَحَهُ قَالَ جَبْرِيلُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ فَقَالَ الذَّبِيحُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُ أَكْبَرُ وَاللَّهُ الْحَمْدُ بَقِيَ سَنَةً⁽³⁾ وَحَكَى فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ ذَبْحَهُ وَقَالَ: يَا بَنِي خُذِ الْحَبْلَ وَالْمِدْيَةَ وَانْطَلِقْ بِنَا إِلَى الشَّعْبِ نَحْتَطِبُ فَلَمَّا تَوَسَّطَا شَعْبَ ثَبِيرٍ أَخْبَرَهُ بِمَا أَمَرَ فَقَالَ لَهُ: أَشَدُّ رِبَاطِي لَا أَضْطَرُّ وَكَافَفَ عَنِّي ثِيَابُكَ لَا يَنْتَضِعُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ دَمِي فَيَنْقُصُ أَجْرِي وَتَرَاهُ أُمِّي فَتَحْزَنُ وَاشْجَذْ شَفَرَتَكَ وَأَسْرِعْ إِمْرَارَهَا عَلَى حَلْقِي حَتَّى تَجْهَزَ عَلَيَّ لِيَكُونَ أَهْوَنَ فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ وَأَقْرَأَ عَلَى أُمِّي سَلَامِي وَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَرَدَّدَ قَمِيصِي عَلَى أُمِّي فَافْعَلْ فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَسْهَلَ لَهَا فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا بَنِي عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ وَقَدْ رِبَطَهُ وَهَمَا يَبْكِيَانِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّكِينِ عَلَى حَلْقِهِ فَلَمْ تَعْمَلْ لِأَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ صَفِيحَةً مِنْ نَحَاسٍ عَلَى حَلْقِهِ فَقَالَ لَهُ: كَبِنِي عَلَى وَجْهِي فَإِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ وَجْهِي رَحِمْتَنِي وَارْتَكَبْتَ رَقَّةَ تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ فَفَعَلَ، ثُمَّ وَضَعَ السَّكِينِ عَلَى قَفَاهُ فَانْقَلَبَ السَّكِينِ وَنَوْدِي يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا فَنَظَرُ فَإِذَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ كَبِشٌ أَقْرَنَ أَمْلَحَ فَكَبَّرَ جَبْرِيلُ وَالْكَبِشُ وَإِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ وَاتَى الْمَنْحَرُ مِنْ مَنَى فَذَبَحَهُ وَقِيلَ:

(1) لم يخرج الزليعي.

(3) لم يخرج الزليعي.

(4) قال الزليعي غريب: 177/3.

(2) قال الزليعي غريب، والحديث في الفردوس عن ابن هريرة 177/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک: 554/2.

يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبيح الله بن إبراهيم خليل الله⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن ينبح ولده ولم ينبح، وقيل له: قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صبح منه الذبح ولم يصح قُلْتُ: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام إلا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا بل يسمى مطيعا ومجتهدا كما لو مضت فيه الشفرة، وفرت الأوداج وأنهرت الدم وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فإن قُلْتُ: الله تعالى هو المفتدي منه لأنه الأمر بالذبح فكيف يكون فانيا حتى قال وفديناه؟ قُلْتُ: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله عز وجل وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال: وفديناه إسناد للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهيته.

فإن قُلْتُ: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح فيما معنى الفداء والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببذل؟ قُلْتُ: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم فوهب الله له الكبش ليقيم نبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل، ولكن في نفس الكبش بدلا منه.

فإن قُلْتُ: فاي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قُلْتُ: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في ببله حتى يكمل منه الوفاء بالنور وإيجاد المأمور به من كل وجه.

كَذَلِكَ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾

فإن قُلْتُ: لم قيل ههنا: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ وفي غيرها من القصص إنا كذلك؟ قُلْتُ: قد سبقه في هذه القصة إنا كذلك فكانما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

وَيَزَيِّرُهُمْ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ مِن بَيْنِ أَلْفَيْنِ ﴿١٣٢﴾

﴿نبيأ﴾ حال مقدرة كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: فرق بين هذا وبين قوله فادخلوها خالدين

ونلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيما وليس كذلك المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة لأن الحال حلية والحلية لا تقوم إلا بالمحلى وهذا المبشر به الذي هو إسحق حين وجد لم توجد النبوة أيضا بوجوده بل تراخت عنه مدة متطاولة فكيف يجعل نبيا حالا مقدرة والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة فتقديرها صفتهم لأن المعنى مقدرين الخلود وليس كذلك النبوة فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة، أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحق لعدم إسحق؟ قُلْتُ: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك والذي يحل الإشكال أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف وذلك قولك وبشرناه بوجود إسحق نبيا أي بأن يوجد مقدرة نبوته فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة وبذلك يرجع نظير قوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ ﴿من الصالحين﴾ حال ثاني وورودها على سبيل الثناء والتقريض لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين وعن قتادة بشره الله بنبوة إسحق بعد ما امتحنه بنبحه وهذا جواب من يقول الذبيح إسحق لصاحبه عن تعلقه بقوله وبشرناه بإسحق قالوا، ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معا لأن الامتحان بنبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبيا.

وَنَزَكْنَا عَنْهُ آلَ إِسْحَاقَ وَمِن دُرِّيَّتِهِمَا عَيْنٌ وَطَالِمَ لِنَفْسِهِ مِيراثٌ ﴿١٣٣﴾ وَلَكِنَّ مَتَّكًا عَلَىٰ مُوْتَنَ وَكَرُوتَ ﴿١٣٤﴾

﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾، وقرئ وبركنا أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا كقوله: ﴿وأتينا أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه وقوله ﴿وظالم لنفسه﴾ نظيره قال: ومن نزييتي قال: لا ينال عهدي الظالمين وفيه تنبيه على أن الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعب ولا نقیصة، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجتاحت يده لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

وَيَعِزُّهُمْ وَوَقُّهُمْ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٥﴾

﴿من الكرب العظيم﴾ من الغرق، أو من سلطان فرعون وقومه وغشهم.

وَصَرَّفَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ أَتَلَّيْنِ ﴿١٣٦﴾

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

(1) قال الزيلعي: أخرجه الدارقطني في غرائب مالك، وقال لا أصل له: 180/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 73.

﴿وَنُصْرَانَاهُم﴾ الضمير لهما ولقومهما في قوله ونجيناهما وقومهما.
وَمَا يَنْبَغُ الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾.

﴿الكتاب المستقيم﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (١) وقال: من جواز أن تكون التوراة عربية أن تشتق من وري الزند فوعلة منه على أن التاء مبيلة من واو.

وَعَدَيْنَاهُمَا الْيَتِيمَ وَالْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾ وَرَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ ﴿١٩﴾ سَلَّمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا النَّؤْمِيْنَ ﴿٢٢﴾.

﴿الصراف المستقيم﴾ صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أئتم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وَلَا يَأْتِيَنَّكَ الْيَتِيمَ وَالْمُسْتَقِيمَ ﴿٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِوَلِيِّهِ أَلَا تُنْقُوتُ ﴿٢٤﴾.

قرئ: ﴿إلياس﴾ بكسر الهمزة والياء على لفظ الوصل وقيل: هو إدريس النبي وقرأ ابن مسعود: وأن إدريس في موضع إلياس وقرئ إدراش وقيل: هو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى.
أَنْذَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿أندعون بعلًا﴾ اتعبون بعلًا وهو علم لصنم كان لهم كمنة وهبل وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسندنة يحفظونها، ويعلمونها الناس (٢) وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك وقيل: البعل الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أي: من ربها والمعنى اتعبون بعض البعول، وتتركون عبادة الله.

اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهٗ فَأَتَيْنَهُمُ لُحُورُهُمْ ﴿٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُوعِينَ ﴿٢٨﴾ وَرَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿الله ربكم ورب آبائكم﴾ قرئ بالرفع على الابتداء وبالنصب على البذل وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع، وقرئ على الياسين وإدريسين وإدراسين وإدريسين على أنها لغات في إلياس وإدريس ولعل لزيادة الباء والنون في السريانية معني، وقرئ على الياسين بالوصل على أنه جمع يراد به إلياس وقومه كقولهم الخبييون والمهلبيون.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَا حَمَلَتْ عَلَىٰ هَذَا الْيَاسِينَ عَلَى الْقُطْعِ وَأَخَوَاتِهِ! قُلْتَ: لَوْ كَانَ جَمْعًا لَعَرَفَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ.

سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ لَوْلَا لَيْلَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ وَأَعْلَمَهُ أُجْمَعِينَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدَاةِ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿٣٦﴾.

وأما من قرأ على آل ياسين فعلى أن ياسين اسم أبي الياس أضيف إليه الآل.

وَلَا تُكْرَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ مُصِيبَةٌ ﴿٣٧﴾ وَيَأْتِيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿مصباحين﴾ داخلين في الصباح يعني: تمرؤن على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها.

وَلَوْ يَوَسُّ لَيْلَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ أَلْفِكَ الْمَسْحُورَ ﴿٤٠﴾.

قرئ: ﴿يونس﴾ بضم النون وكسرها.

فَنَامَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٤١﴾.

وسمي هربه من قومه بغير إن ربه إباحاً على طريقة المجاز، والمساهمة: المقارعة، ويقال: استهم القوم: إذا اقترعوا، والمدحض المغلوب المقروع وحقيقته المزلق عن مقام الظفر والغلبة. روي أنه حين ركب في السفينة وقفت فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبق لم تجر، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال أنا الأبق وزج بنفسه في الماء.

فَالْقَمَّةُ لَمُوتٌ وَهُوَ مُيِّمٌ ﴿٤٢﴾.

﴿فالقمة الحوت وهو مليم﴾ داخل في الملامة يقال رب لائم مليم أي: يلوم غيره، وهو أحق منه باللوم، وقرئ مليم بفتح الميم من ليم فهو مليم كما جاء مشيب في مشوب مبنياً على شيب ونحوه مدعي بناء على دعي.

فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ السَّجِينِ ﴿٤٣﴾.

﴿من المسبحين﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس وقيل: هو قوله في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وقيل: من المصلين وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن فهو صلاة (٣) وعن قتادة كان كثير الصلاة في الرخاء قال وكان يقال إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر وإذا صرع وجد متكا وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته وجمع همه لتقيد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد.

لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَّا يَوْمَ يُنْفَخُ ﴿٤٤﴾.

﴿للبيت في بطنه﴾ الظاهر لبثه فيه حياً إلى يوم البعث وعن قتادة لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له

﴿إلى حين﴾ إلى أجل مسمى، وقرئ ويزيون بالواو وحتى حين ﴿فاستفتهم﴾ معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً ببعضه ببعض ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيضية التي قسموها حيث جعلوا لله الإنثى ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهنّ وأدهم واستنكافهم من نكهننّ ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر أحدها التجسيم لأنّ الولادة مختصة بالأجسام والثاني تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم كما قال: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (2) ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ (3) والثالث أنهم استهانوا باكرام خلق الله عليه وأقربهم إليه حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأبناهم: فيك أنثوة أو شكلك شكل النساء للنساء لقاتله جلد النمر ولانقلاب حماليقه وذلك في أهليهم بين مكشوف فكرّر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرّات يدل على فظاعتها في آيات ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ (4) ﴿لقد جئتم شيئاً إنداً تكاد السموات يتفطرن منه﴾ (5) ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ (6) ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض﴾ (7) ﴿بييع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ (8) ﴿إلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله﴾ (9) ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ (10) ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ (11) ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ (12) ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ (13) ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ (14) ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ (15) ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ (16).

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (17) ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ يَنْفَكُ عَنْهُمْ﴾ (18).

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾.

فإن قلّت: لم قال وهم شاهدون فخص علم المشاهدة؟ قلّت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل وكذلك قوله: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ (17) ونحوه قوله: ﴿ما أشهدتهم خلق﴾

سجناً ولم أجعله لك طعاماً. واختلف في مقدار لبثه فعن الكلبي أربعون يوماً وعن الضحاك: عشرون يوماً، وعن عطاء: سبعة، وعن بعضهم: ثلاثة، وعن الحسن: لم يلبث إلا قليلاً ثم أخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقم فيه.

﴿فَبَدَّلَ إِلَى عَصَا وَهُوَ سَاقِطٌ﴾ (19).

وروي أنّ الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا، وروي أنّ الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل، والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿وهو سقيم﴾ اعتلّ مما حلّ به وروي أنه عاد بدنه كبين الصبي حين يولد.

﴿وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ سَحَرَةً مِّنْ يَّعْقِبِينَ﴾ (20).

واليعقطين كل ما ينسحق على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعل من قطن بالمكان إذا أقام به وقيل: هو البباء، فائدة البباء: أنّ النباب لا يجتمع عنده وقيل لرسول الله ﷺ إنك لتحب القرع قال: «أجل هي شجرة أخي يونس» (1) وقيل: هي التين وقيل: شجرة الموز تغطي بورقها واستظلّ بأغصانها وأططر على ثمارها وقيل: كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها وروي أنه مرّ زمان على الشجرة فبيست فبكى جزعاً فأوحى الله إليه بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر.

فإن قلّت: ما معنى وأبنتنا عليه شجرة؟ قلّت: أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنب البيت على الإنسان.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ يَدِينُوا﴾ (21).

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى وقيل هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين أو إلى غيرهم وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى لأنّ النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم وقال لهم: إنّ الله باعث إليكم نبياً ﴿أو يزيدون﴾ في مرأى الناظر أي إذا رآها الرائي، قال هي: مائة ألف أو أكثر والغرض الوصف بالكثرة.

﴿فَأَمَّا مَن تَتَّبَعْتَهُمْ إِلَىٰ يَمِينٍ﴾ (22) ﴿فَأَسْتَفْهِمُ أَرْيَاكَ الْبَسَاطَ وَلَهُمُ الْبُشُورُ﴾ (23).

(10) سورة الزخرف، الآية: 15.

(11) سورة النحل، الآية: 57.

(12) سورة الطور، الآية: 39.

(13) سورة النحل، الآية: 62.

(14) سورة الصافات، الآية: 153.

(15) سورة الزخرف، الآية: 16.

(16) سورة الزخرف، الآية: 19.

(17) سورة الزخرف، الآية: 19.

(1) قال الزيلعي: غريب: 3/ 181.

(2) سورة الزخرف، الآية: 17.

(3) سورة الزخرف، الآية: 18.

(4) سورة مريم، الآية: 88.

(5) سورة مريم، الآية: 89، 90.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 26.

(7) سورة البقرة، الآية: 116.

(8) سورة البقرة، الآية: 117.

(9) سورة الصافات، الآية: 151 - 152.

نسبة بين الله وبينهم وثابتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة.

فَإِنْ قُلْتَ: لم سمي الملائكة جنة؟ **قُلْتُ:** قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرًا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرًا كله فهو ملك فنكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم وإنما نكرهم بهذا الاسم وضاعاً منهم وتقصيراً بهم وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك ومثاله أن تسوي بين الملك وبين بعض خواصه ومقربيه، فيقول لك: اتسوي بيني وبين عبيدي وإذا نكره في غير هذا المقام وقره وكناه، والضمير في **«إنهم لمحضرون»** للكفرة والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون والمراد المبالغة في التكذيب حيث أضيف إلى علم الذين ادعوا لهم تلك النسبة وقيل: قالوا إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة وقيل: قالوا إن الله والشيطان أخوان، وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله، ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين أن يكون الضمير في **«إنهم لمحضرون لهم والمعنى:** أن الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعينهم، ولو كانوا مناسيين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عنيتهم.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٠﴾ فَإِنَّكَ وَمَا تَدْعُونَ ﴿١١١﴾.

«إلا عباد الله المخلصين» استثناء منقطع من المحضرين معناه ولكن المخلصين ناجون وسبحان الله اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون أي يصفه هؤلاء ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ ﴿١١٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ سَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾.

والضمير في **«عليه»** الله عز وجل ومعناه فإنكم ومعبودكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنتين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يفتنونهم على الله؟ **قُلْتُ:** يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أقسدها عليه وخبيها عليه، ويجوز أن يكون الواو وما تعبدون بمعنى مع مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته وإن كل رجل وضيعته جاز أن يسكت على قوله فإنكم وما تعبدون لأن قوله وما تعبدون ساء مسد الخبر لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون والمعنى فإنكم مع ألهتكم أي فإنكم قرناؤهم

السموات والأرض ولا خلق أنفسهم^(١) وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صائق ولا بطريق استدلال ونظر ويجوز أن يكون المعنى أنهم يقولون ذلك كالكائل قولاً عن ثبج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٤﴾.

وقرئ: **«ولد الله»** أي الملائكة ولده والولد فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع والمنكر والمؤنث تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي.

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١١٥﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: **«أصطفى البنات»** بفتح الهمزة استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ **قُلْتُ:** جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم ولد الله وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما وهذه القراءة وإن كان هذا محلها فهي ضعيفة والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها وذلك قوله: وإنهم لكاذبون.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١١٦﴾.

«مالك كيف تحكمون» فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها بخيلة بين نسيبين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١٧﴾.

وقرئ: **«تذكرون»** من نكر.

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾.

«أم لكم سلطان» أي حجة نزلت عليكم تمن السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله.

فَأَنذَرْتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٩﴾.

«فأنتوا بكتابتكم» الذي أنزل عليكم في ذلك كقولهم تعالى: **«أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون»**^(٢) وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديد وما الأساليب التي ورت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً فضلاً أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِنْتِ سَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْأَمْنَةُ إِنْهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٠﴾ سَبَحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾.

«وجعلوا» بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة **«نسباً»** وهو زعمهم أنهم بناته والمعنى وجعلوا بما قالوا:

أن يزل عنه ظفراً خشوعاً لعظمته وتواضعاً لجلاله ونحن الصافون أقدامنا لعبادته واجنحتنا مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين وكما يجب على العباد لربهم وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ يعني وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى: ﴿عسى أن يبيئك ربك مقاماً محموداً﴾، ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

لَوْ أَنَّ عِدْنَا ذَكَرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفِّرُوا بِيَوْمِهِمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

هم مشركو قريش كانوا يقولون ﴿لَوْ أَنَّ عِدْنَا ذَكَرًا﴾ أي كتاباً ﴿مِنْ﴾ كتب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الإنكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب فكفروا به ونحوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً فسوف يعلمون مغية تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام، وإن هي المخففة من الثقلة واللام هي الفارقة وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جالدين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره.

وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كُنُوزَنَا الْمَرْسِيَّةَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ جَدَدْنَا لَهُمُ الْقَلْبُونَ ﴿١٧٣﴾

الكلمة قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنْ جَبَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وقرئ كلماتنا والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يلزم انهزامهم في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم لمن بعدهم في العقبة وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها، وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة، وفي قراءة ابن مسعود: على عبادنا على تضمين سبقت معنى حقت.

نَزَّلَ عَنْهُمْ حَتَّى يَبِينَ ﴿١٧٤﴾

﴿فَقُولَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم وأغض على أذاهم ﴿حَتَّى يَبِينَ﴾ إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال وعن السدي إلى يوم بدر وقيل: الموت وقيل: إلى يوم القيامة.

وَأَبْصَرَهُمْ سَوَّيَ يُمِرُّونَ ﴿١٧٥﴾

﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ وما يقضي عليهم من الأسر والقتل

وأصحابهم لا تبرحون تعبينها، ثم قال: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما تعبدون ﴿بِفَاتِنَتَيْنِ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ ضال مثلكم أو يكون في أسلوب قوله:

فإنك والكتاب إلى على كدابغة وقد حلم الأليم وقرأ الحسن: صال الجحيم بضم اللام وفيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف.

فإن قُلْتُ: كيف استقام الجمع مع قوله من هو؟ قُلْتُ: من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه: في آية واحدة والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شاك في شاك والثالث أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجري الإعراب على عينه كما حذف من قولهم ما باليت به بالة وأصلها بالية من بالي كعافية من عافى ونظيره قراءة من قرأه وجنى الجنيتين دان وله الحوار المنشآت بإجراء الإعراب على العين.

وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَّا مَتْلُومٌ ﴿١٧٦﴾

﴿وَمَا مِنْهُ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا بكفي كان من أرمى البشر ﴿مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ مقام في العبادة والانتهاى إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوز كما روي فمنهم راكم لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه.

وَأَنَا لَنْحَ السَّكَوَةِ ﴿١٧٧﴾

﴿لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ نصف أقدامنا في الصلاة أو اجنحتنا في الهواء منتظرين ما نؤمر وقيل: نصف اجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين وقيل: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا أَصْطَفُوا فِي الصَّلَاةِ مِنْذُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَيْسَ يَصْطَفِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَلِكِ فِي صَلَاتِهِمْ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَنَا لَنْحَ السَّكَوَةِ ﴿١٧٨﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون أو المصلون والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله سبحانه الله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله ولقد علمت الجنة كانه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العز وقالوا سبحانه الله فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤهم منه، وقالوا للكفرة فإذا صحَّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان مثلكم ممن علم الله لكفرهم لا لتقديره وإرادته تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً أنهم من أهل النار وكيف نكون مناسبين لرب العزة وبجمعنا وإياه جنسية واحدة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: ﴿تَعَزَّزْ مِنْ شَرِّهِمْ﴾ (2) اشتملت السورة على نكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزله عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصر عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون.

وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٨١﴾

والتسليم على المرسلين.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قيس لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمينات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد وعن علي رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالكميال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (3). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصفات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين» (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص مكية

ص وَالْفُرْقَانِ ذِي الْاَلْزَكْرِ ﴿١﴾

﴿ص﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة، وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ ص بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعايلة ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة،

والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصر والتأييد والثواب في العاقبة والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وأن يكونتها قريبة كأنها قدام ناظرين وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه وقوله ﴿فسوف يبصرون﴾ للوعيد كما سلف لا للتبديد.

أَفَعَدَابًا يَسْتَوُونَ ﴿٨٣﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصائحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا ببروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى اتاخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي نحس بها ويروق موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود فبش صباح.

إِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَتَاةٌ صَاحَّ الْأُنْثَرِينَ ﴿٨٤﴾

وقرئ: ﴿نزل بصاحبهم﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على ونزل العذاب، والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأن ساء وبش يقتضيان ذلك وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (1)، وإنما نثي.

وَنَزَلَ عَنْهُمْ مِنَ الْجَنِّ غَوِيَّةٌ ﴿٨٥﴾

﴿وتول عنهم﴾ ليكون تسلية على تسلية وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول.

وَأَبْصَرَ سَرَوَى يَبْرِؤُونَ ﴿٨٦﴾

وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به النكر من صنوف المسرة وأنواع المساء وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالأخر عذاب الآخرة.

سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٧﴾

= في تفسيره، ونكره الواحدي في تفسيره، وابن حاتم في تفسيره: 182/3.

(4) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي: 3/ 182.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (الحديث: 4198)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، الحديث: (121 - 1365).

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) نكر الزيلعي أنه أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ونكره الثعلبي =

ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه.

فَإِنْ قُلْتُ: قوله **صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ** كلام ظاهره متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه! **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما أن يكون قد نكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مر في أول الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كما قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز والثاني أن يكون صَ خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة كأنه قال هذه صَ يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بصَ والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز.

بِئِزِّينَ كَفَرُوا فِي عَزِّهِ وَبِقَاتِي (٢).

ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله وإذا جعلتها مقسماً بها وعطفت عليها والقرآن ذي الذكر جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير الرجل والذكر الشرف والشهرة من قولك فلان منكور، وإنه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة، أو نكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها كإقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما، وقرئ: في غرة أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

كُرْ أَهْلَكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ قَرِينٍ فَادَاوَا وَلَا تَنْ جِبْنَ نَاصِي (٣).

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لنوي العزة والشقاق **﴿فناداوا﴾** فدعوا واستغاثوا وعن الحسن فناداوا بالتوبة **﴿ولات﴾** هي المشبهة بليس زينت عليها تاء التانيث كما زينت على رب، وثم للتوكيد وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحياء ولم يبرز إلا أحد مقتضيتها إما الاسم، وإما الخبر وامتنع بزوجهما جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعند الأخفش أنها لا تنافية للجنس زينت عليها التاء وخصت بنفي الأحياء و**﴿حين مناص﴾** منصوب بها كأنه قلت: ولا حين مناص لهم وعنه أن ما ينتصب بعده بفعل مضمّر أي ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء أي ولا حين مناص كائن لهم وعندهما أن النصب على ولات الحين حين مناص أي وليس الحين حين مناص والرفع على ولات حين مناص حاصلًا لهم، وقرئ: حين مناص بالكسر ومثله قول أبي زيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبننا لات حين بقاء
فإن قلت: ما وجه الكسر في أوان؟ قلت: شبه بإذ في قوله وانت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التثوين لأن الأصل ولات أوان صلح.

فَإِنْ قُلْتُ: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قلت: نزل قطع المضاف إليه من مناص لأن أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف إليه وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن، وقرئ: ولات بكسر التاء على البناء كجبر.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف يوقف على لات؟ قلت: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التانيث وأما الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة وأما قول أبي عبيد إن التاء داخلة على حين، فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبه به فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط والمناص والمنا والوقت يقال ناصه ينوصه إذا فاته واستنص طلب المناص قال حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استنص ورام جرى المسحل
وَجَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُذِيرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ (٤).

﴿منذر منهم﴾ رسول من أنفسهم **﴿وقال الكافرون﴾** ولم يقل وقالوا إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم أولئك هم الكافرون حقاً وهل ترى كفرًا أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدقه الله بوحيه كاذباً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحته، روي أن إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً وشق على قريش وبلغ منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني» قالوا أرفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وألهمك فقال عليه السلام: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقالوا: نعم، وعشرًا أي تعطيتكم وعشر كلمات معها فقال: قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا (٥).

أَجْمَلُ الْأَيْمَةِ إِلَهًا وَرَجُوتًا إِنَّ هَذَا لَتَقِيءُ عَجَابٌ (٦).

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون من القتن (الحديث رقم: 3232) وأحمد في المسند 362/1.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ

(٨)

﴿بل هم في شك﴾ من القرآن يقولون في أنفسهم أما وأما وقولهم إن هذا إلا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما ينزلوا عذاب﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ يعني: أنهم لا يصنعون به إلا أن يمسه العذاب مضطرين إلى تصديقه.

أَرِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَعْدِ (٩)

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شأوا ويصرفوها عن شأوا ويتخيروا للنبوة بعض صنابيرهم ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعمله كما قال: أمهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا ثم رشح هذا المعنى فقال:

أَمْ لَكُمْ تِلْكَ الْمَكُونَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)

﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلاق والتصرف في قسمة الرحمة وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بليتة النبوة دون من لا تحق له ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويديروا أمر العالم وملوكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خساهم خساة عن ذلك بقوله:

جُئِدَ مَا مَنَّكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)

﴿جئد ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبون على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون، ولا تكثر لما به يهنون وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره إلا أنه على سبيل الهزء وهناك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست هناك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ دَاوُدَ وَالْأَنْبِيَاءُ (١٢)

﴿لجعل الألهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ أي بليغ في العجب، وقرئ: ﴿عجاب﴾ بالتشديد كقوله تعالى: ﴿مكرًا كبارًا﴾^(١) وهو أبلغ من المخفف ونظيره كريم وكرام وكرام، وقوله أجعل الألهة إلهًا واحدًا مثل قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال اجعل الجماعة واحدًا في قوله لأن ذلك في الفعل محال.

وَأَنطَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْ أَشْرَأَ وَأَصْرَأُ عَلَى الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَكُنْىَ يَرَادُ (١٦)

﴿الملا﴾ أشراف قريش يريدوا انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي يريد الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه، فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكك لنا منه، أو أن بينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، وأن بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلقهم مضمناً معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول وأنهم قالوا امشوا أي أكثروا واجتمعوا من مشيت المرأة إذا كثرت ولانتهى ومنه الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية قال رسول الله ﷺ: ﴿مضموا فواشيكم﴾^(٢)، ومعنى واصبروا على ألهتكم واصبروا على عباتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ: وانطلق الملا منهم امشوا بغير أن على إضمار القول وعن ابن مسعود وانطلق الملا منهم يمشون أن اصبروا.

مَا يَمَنَّا بِهَذَا فِي الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آمَنَاتُ (١٧)

﴿في الملة الآخرة﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأن النصراني يدعونها وهم مثلثة غير موحدة أو في ملة قريش التي أبركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا كائنًا في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين، والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله، ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أي افتعال وكنب، أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الطهارة، باب: الأدعية (الحديث رقم:

1276) وعند مسلم «لا ترسلوا فواشيكم» أخرجه في كتاب:

الأشربة، باب: الأمر بتغطية الأناة... (الحديث رقم: 98 - 2013).

(1) سورة نوح، الآية: 22.

(2) الفواشي: جمع فاشية، وهي كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم وغيرها.

بالعذاب⁽²⁾ وقيل: نكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزة: عجل لنا نصيبنا منها أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٧﴾

فإن قلت: كيف تطابق قوله: «أصبر على ما يقولون» وقوله: «وانكر عبينا داود» حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت: كانه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: أصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه، فاستغفر وأناب ووجد منه ما يحكى من بكانه الدائم وغمه الواصب ونقش جنائته في بطن كفه حتى لا يزال يجند النظر إليها والندم عليها فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قاله ﷺ: أصبر على ما يقولون ومن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل إذا هم وانكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي «هذا الأيد» ذا القوة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأيد كل شيء ما يتقوى به «أواب» تَوَابَ رجاء إلى مرضاع الله.

فإن قلت: ما ذلك على أن الأيد القوة في الدين! قلت: قوله تعالى: «إنه أواب»⁽³⁾ لانه تعليل لذي الأيد.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿٨﴾

«والإشراق» وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق»⁽⁴⁾. وعن طاوس عن ابن عباس قال: هل تجنون نكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا. فقرا: «إننا سخرنا له الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق» وقال: «كانت صلاة يصليها داود عليه السلام وعنه ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية وعنه لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يسبحن بالعشي والإشراق» وكان لا يصلي صلاة الضحى، ثم صلاها بعد وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجك ذلك في

«هو الأوتاد» أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده قال:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاده فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود في ظل ملك ثابت الأوتاد وقيل: كان يشبه المعنّب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه.

وَمَوَدُّهُمْ وَمَوْ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾

«أولئك الأحزاب» قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكنيب، ولقد نكر تكنيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً وفي تكرير التكنيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وإبلغه، ثم قال:

إِنْ كُلُّ لَا كَذَّبَ أُرْسِلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾

«فحق عقاب» أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم.

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

«هؤلاء» أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة النفخة «وما لها من فواق» وقرئ: بالضم ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة»⁽¹⁾ وعن ابن عباس ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة ترجع الدر إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثني ولا ترد.

وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ بِمَا كَفَرْنَا بَعْدَ مَا بَوَّأْتَنَا الْحِسَابَ ﴿١٦﴾

القط القسط من الشيء لانه قطعة منه من قطه إذا قطعه وقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بهما قوله تعالى: «عجل لنا قطناً» أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: «ويستعجلونك

(3) سورة ص، الآية: 44.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/53.

(1) سورة الاعراف، الآية: 34.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 53.

الحق فهو حكمة، الفصل التمييز بين الشيثيين وقيل: للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في تقضيه فصل أي مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله فويل للمصلين إلا موصولاً بما بعده ولا والله يعلم وأنتم حتى يصله بقوله لا تعلمون ونحو ذلك، وكذلك مظان العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو قوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه». وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم هو قوله: أما بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين نكر الله بقوله أما بعد، ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مغل ولا إشباع ممل ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نذر ولا هذر⁽²⁾، كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبتة وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها وقد روي أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فساله النزول له عنها فاستحيا أن يردّه، ففعل فتزوجها وهي أم سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتقاء مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نساءك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هোক، وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فأثرت أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وأما ما يذكر أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلى إبراهيم بنمرود ونبح ولده وإسحاق بنذبه وذهب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة

كتاب الله تعالى يعني: هذه الآية ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: ﴿فأخنتهم الصبحة مشرقين﴾⁽¹⁾ وقول أهل الجاهلية أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق، ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قلّت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات! قلّت: نعم وما اختيار يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يفاع تحرق.

ولو قال: محرقة لم يكن شيئاً

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ ﴿٨﴾

وقوله: ﴿محشورة﴾ في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحلو شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحشر هو الله عز وجل لكان خلفاً لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها، وقرئ: والطير محشورة بالرفع ﴿كل له أواب﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاء لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب، وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من علته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه، وقيل: الضمير لله أي: كل من داود والجبال والطير لله أواب أي: مسبح مرجع للتسبيح.

وَنَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّيْنَاهُ الْجُحْمَ وَصَلَّ لِيَطَّابِ ﴿٩﴾

﴿وشددنا ملكه﴾ قويناها قال تعالى: سنشد عضدك وقرئ: ﴿شددنا﴾ على المبالغة قيل: كان يببب حول محرابه أربعون ألف مستثم يحرسونه وقيل: الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فاعلم الرجل، فقال: إن الله عز وجل لم يأخذني بهذا الذنب ولكن بأني قتلت أباً هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أنذب أحد نذباً أظهره الله عليه فقتله فهاهوه: ﴿الحكمة﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق

(1) سورة الحجر، الآية: 73.

(2) تقدم في الأعراف. أخرجه أبو داود في كتاب: الباب: الهذي في الكلام (الحديث رقم: 4839).

تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف قال الله تعالى: حديث ضيف إبراهيم المكرمين لأنه مصدر في أصله تقول خصمه خصماً كما تقول ضافه ضيفاً.

فإن قُلْتُ: هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام نلك؟ **قُلْتُ:** معنى خصمان فريقان خصمان واللليل عليه قراءة من قرأ خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: ﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمَا فِي رِبِّهِمَا﴾ (2).

فإن قُلْتُ: فما تصنع بقوله إن هذا أخي وهو دليل على اثنين؟ **قُلْتُ:** هذا قول البعض المراد بقوله بعضاً على بعض.

فإن قُلْتُ: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان! **قُلْتُ:** معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصبحهما آخرون.

فإن قُلْتُ: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله نأ الخصم وخصمان؟ **قُلْتُ:** لما كان صعب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

فإن قُلْتُ: بم انتصب ﴿إِنَّ﴾! **قُلْتُ:** لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بالنبا، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبا رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبا لأن النبا الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبا القصة في نفسها لم يكن ناصباً فيبقى أن ينتصب بمحذوف وتقديره، وهل أتاك نبا تحاكم الخصم ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وأما إذ الثانية فببدل من الأولى ﴿تَسَوَّرُوا لِلْمُحْرَابِ﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره في الآية تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته روي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبوا أن يدخلوا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الخرس فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَزَجَّ مِنْهُمْ تَتَاءً فَلَا تَحْتِ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَأَتَاكَ يَتَا وَآخِي وَلَا تَنْطَلُ وَأَقْرَبًا إِلَى سَوَا أَلْوَرِي (١٣).

﴿ففرغ منهم﴾ قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخواص أموره ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجأزه في غير يوم القضاء ففرغ منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتكره من يدخل عليه ﴿خصمان﴾ خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان ﴿ولا تشطط﴾ ولا تجر،

حماسة من ذهب فمد يده لياخذها لابن له صغير فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت في كرة فتبعها فابصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى ببنها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن سوريا وهو صاحب بعث البلقاء، أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أئمة المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلسته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء (1) وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلافها وأعظم بأن يقال غير نلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال: عمر لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قُلْتُ: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض نون التصريح؟ **قُلْتُ:** لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التامل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ من أن يبارره به صريحاً مع مراعاة حُسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكراً أن يعرض لها بإنكارها عليه ولا يصرح، وإن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه ونلك أزجر له لأنه ينصب نلك مثلاً لحاله ومقياساً لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قُلْتُ: فلم كان نلك على وجه التحاكم إليه؟ **قُلْتُ:** ليحكم بما حكم به من قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعتزفاً على نفسه بظلمه.

﴿وَلِأَنَّكَ تَبْزُؤُ الْخَصْمَ إِذْ تَسَوَّرُوا لِلْمُحْرَابِ﴾ (١٤).

﴿وهل أتاك نبا الخصم﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع، ولا

يخبروا عن أنفسهم بما لم يلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قُلْتُ: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي كما تقول في تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمره لو أربعون وأنت تشير إليهما فخطأها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمره سيد ولا لبد وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاة وأربعون فخطأها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعا.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعمة أنثى! قُلْتُ: يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرهما وتثنيها الا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله: فتور القيام قطع الكلام وقوله: تمشي رويداً تكاد تنغرف.

قَالَ لَقَدْ ظَنَنْكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنَّكَ يَمَاجِيْهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَبَنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَفَعَّرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿١٥﴾.

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: من دعاء الخير وقد ضمن معنى الإضافة فعُدَى تعديتها كانه قيل: بإضافة ﴿نَججتك﴾ إلى نعالجه على وجه السؤال والطلب.

فإن قُلْتُ: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟ قُلْتُ: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لانه معلوم ويروى أنه قال: أنا أريد أن أخذها منه وأكمل نعالجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه ﴿الخلطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفخولة مختلطة فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة والخليطة والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين لا شيء

وقرى ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق، وقرى: ﴿ولا تشطط﴾ ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق و﴿سواء للصراط﴾ وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

إِنَّ هَذَا آتَى لَمْ يَنْجُ وَتَمَوَّنَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٍ وَجِدَّةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾.

﴿أخى﴾ بدل من هذا أو خبر لأن المراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾^(١) وكل واحدة من هذه الأخوات تتلى بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقرى: تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطح ونطع ولقوة ولقوة ﴿أكفلنيها﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿وعزني﴾ وغلبني يقال عزه تعززه قال:

قطاة عزها شرك فباتت تجانبه وقد علق الجناح يريد جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرد به وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها بوني، وقرى: وعازني من المعازة وهي المغالبة وقرأ أبو حيوة وعزني بتخفيف الزاي طلباً للخفة وهو تخفيف غريب وكأنه قاسه على نحو ظلت ومست.

فإن قُلْتُ: ما معنى نكر النعاج! قُلْتُ: كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما نكرنا وللمتنبيه على أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمح الإفصاح به وللمستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمة ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوربا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة وخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تنمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراد على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والليل عليه قوله وإن كثيراً من الخلطاء وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بنكر النعجة.

فإن قُلْتُ: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرت به بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم؟ قُلْتُ: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله:

يا شاة ما قنص لمن حلت له فرميت غفلة عينه عن شاته وشبهها بالنعجة من قال كنتاج الملا تعسفن رملأ لولا أن الخلطاء تاباه إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قُلْتُ: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن

عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة ثلاث شياء.

فإن قُلْتُ: فهذه الخلطة ما تقول فيها! قُلْتُ: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النجعة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه.

فإن قُلْتُ: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قُلْتُ: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إثبات عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلّة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأن له في أكثر الخلطاء أسوة وقرئ ليبغي بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحنفها كقوله: اضرب عنك الهموم طارقتها، وهو جواب قسم محذوف وليبغ بحذف الياء اكتفاء منها بالكسرة وما في ﴿وقليل ما هم﴾ للإيهام وفيه تعجب من قلتهم وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحتها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن ﴿إنما فتناه﴾ أنا لبتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرئ فتناه بالتشديد للمبالغة وافتناه من قوله: لئن فتننتني لهي بالامس أفتنت وفتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين، وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود وعن الحسن لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر الله لنزبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راكعاً أي مصلياً لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة.

﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً ولبلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ولا يرقا معه حتى نبت العشب من دمه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه مع وجهه نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له أيشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيف من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها وقيل: إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهاجر والسراي والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فزع لخلولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان نذب داود إلا أنه صلق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته.

بَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ السُّبُورُ (٦).

﴿خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ومنه قولهم خلفاء الله في أرضه أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي بحكم الله تعالى إذا كنت خليفة ﴿ولا تتبع﴾ هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فيضلك﴾ الهوى فيكون سبباً لضلالك ﴿عن سبيل الله﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها ﴿ويوم الحساب﴾ متعلق بنسوا أي بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٧).

﴿باطلاً﴾ خلقاً باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة أو مبطلين عابثين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعبين﴾ (١) ﴿وما خلقناهما إلا بالحق﴾ (٢). وتقديره نوي باطل أو عبثاً فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنياً موضع المصدر وهو صفة أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناهما نفوساً أودعناها العقل والتمييز ومنحناها بالتمكين وأزحنا عليها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعدنا لها عاقبة جزاء على حسب أعمالهم ﴿ونلك﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قُلْتُ: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بليل قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ (٣) فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكم! قُلْتُ: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جحده

لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخالص وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جريها⁽²⁾. وروي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يومًا بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشى وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لمّا فاته فاستردّها وعقرها مقرّبًا لله وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل: لما عقرها أبيله الله خيرًا منها وهي الريح تجري بأمره.

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٧﴾

فإن قلّت: ما معنى: «أحببت حب الخير عن ذكر ربي»! قلّت: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي أو جعلت حب الخير مجزيًا أو مغنيًا عن ذكر ربي ونكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان أن أحببت بمعنى لزمّت من قوله مثل بعير السوء إذا أحبب وليس بذلك والخير المال كقوله إن ترك خيرًا، وقوله: «ولأنه أحب الخير لشديده» والمال الخيل التي شغلته أو سمى الخيل خيرًا كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»⁽³⁾ وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وصف لي رجل فرأيتُه إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير»⁽⁴⁾. وسال رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستقون من السابق، فقال رسول الله ﷺ فقال له الرجل أرتب الخيل فقال وأنا أرتب الخير⁽⁵⁾، والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك أو المخبة بحجابهما والذي دلّ على أن الضمير للشمس مرور نكر العشى ولا بد للمضمر من جري نكر أو دليل نكر وقيل: الضمير للصفان أي حتى توارت بحجاب الليل يعني: الظلام ومن يدع التفسير أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تقرب الشمس من ورائه.

رُودًا عَلَى طَئِفٍ مَسًّا بِالسَّوِي وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٨﴾

فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقًا كلاً إقرار.

أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُتَيَسِّرِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ كَالْمُجَارِ ﴿٣٩﴾

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى: الاستفهام فيها الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيمًا.

كُتِبَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِلَيْكَ مَرْكُوبٌ يَنْبَرُونَ ءَايَةً وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٤٠﴾

وقرئ: «مباركاً» وليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب وتدبر الآيات التفكير فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التاويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا بالوزعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعدنا من القراء المتكبرين.

وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ وَنَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤١﴾

وقرئ: «نعم العبد» على الأصل والمخصوص بالمدح محذوف، وعمل كونه ممدوحاً بكونه أواباً رجاءً إليه بالتوبة أو مسبجاً مؤوباً للتسبيح مرجعاً له لأن كل مؤوب أواب. إذ عَرِضَ عَلَيْهِ الْغَنَى الْأَمْنِيَّةُ لِيُفَادَّ ﴿٤٢﴾

والصافن الذي في قوله ألف الصفون فما يزال كانه، مما يقوم على الثلاث كسيرا وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن، فالذي يجمع بين يديه وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوا مقعده من النار»⁽¹⁾ أي واقفين كما خدم الجبابرة.

فإن قلّت: ما معنى وصفها بالصفون! قلّت: الصفون

= تلك من لوازم الصفون غالباً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير (الحديث: 2849)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الحديث: (96/1871).

(4) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي: 3/190.

(5) قال الزيلعي: أخرجه إبراهيم الحربي في كتابه: 3/191.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).

(2) قال: الصفون أن يقف ثلاث على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمتخيم والصافن الذي يجمع بين يديه. قال: ووصفها بذلك: لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخالص، أو وصفها ليجمع لها للوصفين المحمودين جارية واقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمأنينة: لأن=

وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً وكانت له أم ولد يقال لها: أمينة إذا نخل للظاهرة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاه الشيطان صاحب البحر وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس وأسمه صخر على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فانكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فانكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعت سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وقيل لما اقتنت كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر في يبك فتب إلى الله عز وجل ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عبادته حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ألا ترى إلى قوله من محاريب وتماثيل وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأنس فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه وقوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه تبولاً ظاهراً.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَرَبِّ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَنِيَّ أَنْتَ أَعْلَمُ
الْوَهَّابُ (٢٤).

قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ﴿لَا يَنْبَغِي﴾ لا يتسهل ولا يكون، ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ نوني.

فإن قلنا: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره قلنا: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنسوة ووارثاً

﴿فطفق مسكاً﴾ فجعل يمسح مسكاً أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقيها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في القاب الزحاف في العروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف وقيل مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها.

فإن قلنا: بم اتصل قوله ردوها علي! قلنا: بمحذوف تقديره قال: ردوها علي فاضمر وأضمر ما هو جواب له كان قائلاً قال فماذا قال سليمان لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بامر الدنيا حتى توفته الصلاة عن وقتها، وقرئ بالسوق بهمز الواو لضممتها كما في أنور ونظيره الغور في مصدر غارت الشمس وأما من قرأ بالسوق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل مؤسى ونظير ساق وسوق أسد وأسد، وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لا من الإلباس قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننكح من السخرة فسيبنا أن نقتله أو نخبله فلم نكح ذلك فكان يغنوه في السحابة فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه، وروي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». ولم يقل إن شاء الله قطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهنوا في سبيل الله فرساناً أجمعون^(١). فلنك قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَتَّأْنَا لِلَّيْنِ وَأَتَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٢٤).

ولقد فتننا سليمان وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يرى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته^(٢) حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أتاه بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاه لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقا دمعها حزناً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولادها يسجنن له كعائنتهن في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة

(2) قال الزيلعي: نكره ابن كثير في تفسيره، وقال: إسناده قوي 3/ 192.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَرَوَيْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ...﴾ (الحديث: 3424)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الاستثناء الحديث: (25 - 1654).

غل يدا مطلقها وأرق رقبة معتقها
وقال حبيب: إنَّ العطاء إيسار وتبعية من قال:
ومن وجد الإحسان قيئاً تقيئاً
وفرَّقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه
كوعده وأوعده.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتُمْ أَوْ أَنْتُمْ يَنْتَرِ حِسَابِ ﴿٣٦﴾ رَأَى لَمْ عِنْدَنَا لَكَفًى وَنَحْنُ
نَتَكَبَّرُ ﴿٣٧﴾

أي: ﴿هَذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة
﴿عَطَاؤُنَا﴾ بغير حساب يعني: جمًّا كثيرًا لا يكاد يقدر
على حسبه وحصره ﴿فَامَنْنُ﴾ من المنة وهي العطاء أي
فأعط منه ما شئت ﴿أَوْ أَمْسُكُ﴾ مَفْوضًا إليك التصرف فيه
وفي قراءة ابن مسعود هذا فامنن أو أمسك عطائنا بغير
حساب أو هذا التسخير عطائنا فامنن على من شئت من
الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير
حساب أي لا حساب عليك في ذلك.

وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَوْبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ
﴿٣٨﴾

﴿أيوب﴾ عطف بيان و﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال منه ﴿أَنِّي
مَسَّنِيَ﴾ باني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو
لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ بنصب بضم
النون وفتحها مع سكون الصاد وبفتحهما وضمهما
فالنصب والنصب كالرشد والرشد والنصب على أصل
المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب
والمشقة، والعذاب الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه
من أنواع الوصب وقيل الضر في البدن والعذاب في ذهاب
الأهل والمال.

فَإِنْ قُلْتَ: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله
على أنبيائه ليقضي من اتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر
على ذلك لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرَّر في
القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب! قُلْتُ: لما
كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما
مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى
الألب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه
فاعله ولا يقدر عليه إلا هو وقيل: أراد ما كان يوسوس به
إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء وبغريه على
الكراهة، والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك
بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.
وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم
فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان إنَّ الله لا يبتلي الأنبياء
والصالحين ونكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على
ظالم فلم يغثه وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر
فداهنه ولم يغزه وقيل: أعجب بكثرة ماله.

أَرَكُنَّ بِرِجْلِكَ هَذَا مُثَلَّ بِأَرْدٍ وَرَكْرَكٍ ﴿٣٩﴾

﴿أَرَكُنَّ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب أي اضرب

لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه
ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة باللغة حد
الإعجاز ليكون ذلك دليلًا على نبوته قاهرًا للمبعوث إليهم
وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات فذلك معنى قوله
لا ينبغي لأحد من بعدي وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن
يعطي مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت
الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمك ونقدس لك وقيل: ملكًا لا أسلبه ولا يقوم
غيري فيه مقامي كما سلبته مرة وأقيم مقامي غيري،
ويجوز أن يقال علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك
العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره
وأوجب الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه
فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه
لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجب الحكمة استيهابه فأمره
أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله، الصفة التي
علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده نون سائر عباد
أو أراد أن يقول ملكًا عظيمًا فقال: لا ينبغي لأحد من بعدي
ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما
ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك
ولكنك تريد تعظيم ما عنده وعن الحجاج أنه قيل له: إنك
حسود، فقال: أحسد مني من قال هب لي ملكًا لا ينبغي
لأحد من بعدي وهذا من جراته على الله وشيظنته، كما
حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته
فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وأطلق طاعتنا فقال:
﴿وأولي الأمر منكم﴾.

مَعْرَا لَهَ أَرِيجَ يَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ حَيْثُ أَمَّابَ ﴿٤٠﴾

قريء: الريح والرياح ﴿رِخَاءُ﴾ لينة طيبة لا تزعزع
وقيل طيبة له لا تمتنع عليه ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث قصد
وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ
الجواب وعن رؤية أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه
عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه
طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله بك خيرًا.

وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٤١﴾

﴿والشياطين﴾ عطف على الريح ﴿كل بناء﴾ بدل من
الشياطين.

وَأَخْرَجَ مُخْرَجِينَ فِي الْأَسْفَادِ ﴿٤٢﴾

﴿وأخرجين﴾ عطف على كل داخل في حكم البذل وهو
بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الابنية
ويغوصون له فيستخرجون للؤلؤ وهو أوَّل من استخرج
الدرَّ من البحر وكان يقرن مرده الشياطين بعضهم مع
بعض في القيود والسلاسل للتأنيب والكف عن الفساد
وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغلولين في
الجوامع والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنع
عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك
ومن جفاك فقد أطلقك ومنه قول القائل:

أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان، ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهيني ما ملكت يميني ولم أكل إلا ومعني يتيم ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعني جائع، أو عريان فكشف الله عنه.

وَأَذْكُرُ عِبَادًا إِتْرَاهِمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ (٤٥).

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعبادنا ومن قرأ عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف نزيته على عبدنا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحق، لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جنماً لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ يريد أُولَى الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار نوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزماني الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والمسؤولي العقول الذين لا استبصار بهم وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في عين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما وقرئ أُولَى الأيدي على جمع الجمع، وفي قراءة ابن مسعود أُولَى الأيدى على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيدي من التأييد قلق غير متمكن.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ (٤٦).

﴿أخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرنا بذكرى الدار شهادة لنكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكنورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بما خلص من نكرى الدار على أنهم لا يشوبون نكرى الدار بهم آخر إنما همهم نكرى الدار لا غير ومعنى نكرى الدار نكرام الآخرة دائباً ونسيانهم إليها نكر الدنيا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء وبينهم وقيل: نكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

فإن قُلْتُ: ما معنى أخلصناهم بخالصة! قُلْتُ: معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها وتعاضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم.

وَأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَكَانَ الْأَخْيَارِ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨).

﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم

برجلك الأرض وعن قتادة هي أرض الجابية فضربها فنبتت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهره وتنقلب ما بك قلبه وقيل: نبتت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبتت عين حارّة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبتت باردة فشرّب منها.

وَوَعَدْنَا لَهُمُ اللَّهُمَّ مِنْهُمْ رَحْمَةً وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٩).

﴿رحمة منا وذكرى﴾ مفعول لهما والمعنى أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أُولَى الأبواب لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم.

وَعَدْنَا بِبَيْتِكَ مِنْهَا فَاشْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتِ إِذَا وَجَدْتَهُ صَارِئاً يَمَّ أَبَدَ إِنَّهُ أَوَّلُ (٥٠).

﴿وخذ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وعن ابن عباس قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج قد خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالا فيه مائة شمرخ فاضربوه بها ضربة» (١). ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت نوابتيها برغيفين وكانت متعلق أيوب إذا قام وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأرد عليك مالك وأولانكم فهمت بذلك فادركتها العصمة فذكرت ذلك له فحلف وقيل: أوهما الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجنناه صابراً﴾ علمناه صابراً.

فإن قُلْتُ: كيف وجده صابراً وقد شكاً إليه ما به واسترحمه؟

قُلْتُ: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعاً ولقد قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها، فإذا صح أن يسمى صابراً مع تمنى العافية وطلب الشفاء فليسم صابراً مع اللجا إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ

غواش شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفتشره النائم.
هَذَا فَلْيَذوقُوا حَيْثُ وَعَسَاءُ ﴿٥٧﴾

أي هذا حميم فليذوقوه أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتداء فقال هو: ﴿حميم وغساق﴾، أو هذا فليذوقوه بمنزلة وإياي فارهبون أي ليدوقوا هذا فليذوقوه والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين إذا سال دمعا وقيل: الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وعن الحسن رضي الله عنه الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا الله طاعة فأخفى لهم ثوابا في قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة﴾.

وَأَخَّرَ مِنْ سَكِينَةٍ آتٍ ﴿٥٨﴾

﴿والخر﴾ ومنوقات آخر من شكل هذا المنوق من مثله في الشدة والفظاعة ﴿أزواج﴾ أجناس وقرئ وآخر أي وعذاب آخر أو منوق آخر وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروريا أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير.

هَذَا فَجٍ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ سَأْلًا نَارًا ﴿٥٩﴾

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقترام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مرحبا بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعوه مرحبا أي أتيت مرحبا من البلاد لا ضيفا أو رحبت بلاك رحبا ثم تدخل عليه في دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿إنهم صالوا النار﴾ تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ونحوه قوله تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت آختها﴾ وقيل: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ولا مرحبا بهم إنهم صالوا النار كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.
قَالُوا بَلْ أَشْرَ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا قِيَسَ أَفْكَارُ ﴿٦٠﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الاتباع ﴿بل انتم لا مرحبا بكم﴾ يريدون الدعاء الذي دعوت به علينا انتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم ﴿انتم قدتمتموه لنا﴾ والضمير للعذاب أو لصلبيهم.

فإن قلنا: ما معنى تقديمهم العذاب لهم! قلنا: المقدم هو عمل السوء قال الله تعالى: ﴿نذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم^(١) لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه

و﴿الآخيار﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كالأموات في جمع ميت أو ميت ﴿واليسع﴾ كان حرف التعريف دخل على يسع، وقرئ: ﴿واليسع﴾ كان حرف التعريف دخل على ليسع فيعمل من اللسع، والتنوين في ﴿وكل﴾ عوض من المضاف إليه معناه وكلهم من الآخيار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٦١﴾

﴿هذا نكر﴾ أي هذا نوع من النكر وهو القرآن لما أجرى نكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن ينكر على عقبه بابا آخر وهو نكر الجنة وأهلها قال: هذا نكر، ثم قال ﴿وإن للمتقين﴾ كما يقول: الجاحظ في كتبه فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر هذا وقد كان كيت وكيت والليل عليه أنه لما أتم نكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بنكر أهل النار قال هذا وإن للطاغين وقيل: معناه هذا شرف ونكر جميل ينكرون به أبدا، وعن ابن عباس رضي الله عنه هذا نكر من مضى من الأنبياء.

جَنَّتْ عَنْ مَنَعَةِ اللَّهِ الْآيَاتُ ﴿٦٢﴾ مُكَيِّبِينَ فِيهَا يَتَعَوَّنَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَتَرْكِبٍ ﴿٦٣﴾ وَتَدْمُرُ قِيَرَتُ الْفَرْبِ أَزْبَابُ ﴿٦٤﴾

﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله جنات عدن التي وعد الرحمن وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مأب و﴿مفتحة﴾ حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي ﴿مفتحة﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال وقرئ: ﴿جنات عدن مفتحة﴾ بالرفع على أن ﴿جنات عدن﴾ مبتدا و﴿مفتحة﴾ خبره أو كلاهما خبر مبتدا محذوف أي هو ﴿جنات عدن﴾ هي مفتحة لهم كان اللذان سمين اترابا لأن التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الاقران أثبت وقيل: هن اتراب لأزواجهن أسنانهن كاسنانهم.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٥﴾

قرئ: ﴿يوعدون﴾ بالتاء والياء ﴿ليوم الحساب﴾ لأجل يوم الحساب كما تقول هذا ما تخبرونه ليوم الحساب أي ليوم تجزي كل نفس ما عملت.

إِنَّ هَذَا لَرِيقًا مَا لَكُمْ مِنْ نَّارٍ ﴿٦٦﴾ هَذَا ذِكْرٌ لِلَّاتِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ ﴿٦٧﴾

﴿هذا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما نكر.

جَهَنَّمَ بَصُلَّتْهَا يَتَنَزَّلُ الْهَادُ ﴿٦٨﴾

﴿فبئس المهاد﴾ كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم

قريش كآبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وصهيب وبلال وأشباههم، وقرئ سخرى بالضم والكسر.

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿إن ذلك﴾ أي الذي حكينا عنهم ﴿لحق﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو ﴿تخاصم أهل النار﴾، وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قللت: لم سمى لك تخاصماً؟ قللت: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأن قول الرؤساء لا مرحباً بهم وقول: اتباعهم بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آتَاكَ الْقَهَارَ ﴿١٥﴾

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ما أنا إلا رسول ﴿منذر﴾ أذكركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم إن بين الحق وتوحيد الله وأن يعتقد أن لا إله إلا الله ﴿الواحد﴾ بلا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ لكل شيء.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴿١٦﴾

وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو ﴿العزیز﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك ﴿الغفار﴾ لذنوب من التجأ إليه، أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أذكركم عقوبة من هذه صفته فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له نبأ عظيم.

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾

لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ إِلَّا لِكَلِّ الْأَمْرِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٩﴾

ثم احتج لصحة نبوته بأن ما ينبي به عن الملائكة الأعلى واختصاصهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله.

إِنْ يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا تَزِيرُ يُرِي ﴿٢٠﴾

﴿إن يوحى إلي إلا أنا أنا نذير﴾ أي لأنما أنا نذير، ومعناه ما يوحى إلي إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفشاء الفعل الفعل إليه ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إلي إلا هذا، وهو أن أئذ وأبلغ ولا إفراط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إلي غير ذلك وقرئ إنما بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقول

بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤسائهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فإن قللت: فالذي جعل قوله لا مرحباً بهم من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بل أنتم لا مرحباً بكم والمخاطبون أعني رؤسائهم لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قللت: كأنه قيل هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسبيكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساروى فارتكبوه فليل للمزينين أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم فقال المزين لهم للمزينين بل أنتم ألالى بالخزي منا فلو لا أنتم لم نرتكب ذلك.

قَالُوا رَبَّنَا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَفْعَمُ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٢١﴾

﴿قالوا﴾ هم الاتباع أيضاً ﴿فزده عذاباً ضعفاً﴾ أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونحوه قوله تعالى: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً﴾ وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل: ﴿ربنا آتتهم ضعفين من العذاب﴾ وجاء في التفسير عذاباً ضعفاً حيات واقاعي.

قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَفْعَمُ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٢٢﴾

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين ﴿رجالاً﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم ﴿من الأشرار﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً.

أَتَذُنُّهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٢٣﴾

﴿أتذنبناهم سخرى﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً مثل قوله كنا نعدهم من الأشرار وبهزمة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخرار منهم وقوله ﴿أم زأغت عنهم الأبصار﴾ له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله: ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصار نافلا نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل باتخذناهم سخرى إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخرار منهم أم الازدراء بهم والتحقيق وإن أبصارنا كانت تعلق عنهم وقتتمهم على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرى وزأغت عنهم أبصارهم محقرة لهم وإما أن تكون منقطعة بعد مضي اتخذناهم سخرى على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها لإبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقدر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته لأن أم تدل عليها فلا تفترق القراءتان إثبات همزة الاستفهام وحذفها وقيل الضمير في وقالوا لصناديد

قُلْتُ: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلًا وكان من باب الخصومة **قُلْتُ:** هذا يحقق أن ما تقدم من قوله لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار من قول المتكبرين الكفار وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْكُفْرِ أَتَمَّ يَوْمَهُمْ فَهُمْ لَا يَمُرُّ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) من قول الاتباع فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم خلافاً لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الاتباع فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين الكافرين أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً لأن كان مطلق في جنس الاوقات الماضية، فهو صالح لأياها شئت، ويجوز أن يراد وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي ۚ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أَتَمَّ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي ۖ فَخَنَىٰ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله ﴿خلقت بيدي﴾ **قُلْتُ:** قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليمين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل: في عمل القلب هو مما عملت يداك وحتى قيل: ممن لا يدي له يداك، أو كتنا وفوق نفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك ومنه قوله تعالى: ﴿مما عملت أيدينا﴾ (٢) ﴿ولما خلقت بيدي﴾ (٣).

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ **قُلْتُ:** الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لأنهم واستنكف منه أنه سجد لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعز عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوا قدام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرياً بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو نونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فليل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلخته بيدي لا شك في كونه مخلوقاً امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة، فذكر له ما

لكم إنما أنا نذير مبين ولا أدعي شيئاً آخر وقيل: النبا العظيم قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس القرآن وعن الحسن يوم القيامة.

فإن قُلْتُ: بهم يتعلق إذ يختصمون! **قُلْتُ:** بمحنوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصاصهم و **إذ قال:** بدل من إذ يختصمون.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالملا الأعلى! **قُلْتُ:** أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

فإن قُلْتُ: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم: قالوا له فأنت بين امرين إما أن تقول الملا الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملا الأعلى **قُلْتُ:** كانت مقالة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملا الأعلى، والمراد بالاختصاصم التقاول على ما سبق.

إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلَقْتُ بَشَرًا ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إني خالق بشر﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ **قُلْتُ:** وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاها اقتصر على الاسم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾

فإذا سويته فإذا اتممت خلقه وعملته **ونفخت فيه من روحي** وأحييته وجعلته حساساً متنفساً **فقعوا** فخرؤا كل للإحاطة واجمعون للاجتماع فافادوا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.

فإن قُلْتُ: كيف ساغ السجود لغير الله؟ **قُلْتُ:** الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فاما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يباه العقل إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينبى عنه.

فإن قُلْتُ: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟

سَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

فإن قُلْتُ: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قُلْتُ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

قَالَ فِرْعَوْنُ لَأَعْرِضَنَّهُمْ آجِئِينَ (٨٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٧).

﴿فيعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٨).

قري: ﴿فالحق﴾ الحق منصوبين على أن الأول مقسم به كالثاني في أن عليك الله أن تبايعا وجوابه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَكَ مِنْهُمْ آجِئِينَ (٨٩).

﴿لاملائن﴾ والحق أقول اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق والمراد بالحق إما اسمه عزّ وعلا الذي في قوله إن الله هو الحق المبين أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر كقوله لعمرك أي فالحق قسمي لاملائن والحق أقول أي أقوله كقوله كله لم اصنع، ومجربون على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلن والحق أقول أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه: التوكيد والتشديد وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضاً وهو وجه نقيق حسن، وقرئ برفع الأول وجزه مع نصب الثاني وتخريجه على ما ذكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من نزية آدم.

فإن قُلْتُ: تأكيد لماذا؟ قُلْتُ: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه: لاملائن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً ولأملأنها من أكشايطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٩١).

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً، ولا مدعياً ما ليس عندي حتى أنتحل النبوة واتقول القرآن.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٢).

﴿إن هو إلا ذكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للثقلين أوحى إلي فانا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم» (٢).

تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتباراً لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه يريد هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه أنني خلقتك بيدي، فانا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعائي إليه من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له وقيل: معنى لما خلقت بيدي لما خلقت بغير واسطة، وقرئ بيدي كما قرئ بمصرخي، وقرئ بيدي على التوحيد ﴿من للعالمين﴾ ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالمين حيث.

﴿قال أنا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ومعنى الهمة التقرير وقرئ استكبرت بحذف حرف الاستفهام لأن أم تدل عليه أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو بوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خلقتني من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قَالَ فَاصْرَجْ مِنْهَا كَذَلِكَ رَبِّهِ (٩٣).

﴿منها﴾ من الجنة وقيل: من السموات وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفخر بخلقته فغير الله خلقة فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً، والرجيم المرجوم ومعناه المطرود كما قيل له المسحور والملعون لأن من طرد رمي بالحجارة على أثره والرجم الرمي بالحجارة، أو لأن الشياطين يرمجون بالشهب.

فإن قُلْتُ: قوله:

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَنَعَتَ إِلَى يَوْمِ الْبَإِثْنِ (٩٤).

﴿لنعني إلى يوم الدين﴾ كان لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع قُلْتُ: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فإن مؤن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ (١) ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعة ما ينسى عنده اللعة فكانها انقطعت.

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٩٥) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٩٦) إِلَى يَوْمِ الْوَرْتِ الْمَعْلُومِ (٩٧).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حفظ اللسان، فصل: في فضل السكوت عما لا يعنيه (الحديث: 5064).

وَلَتَعْلَمَنَّ يَوْمَ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

اتخذوا، يحتمل المتخذين، وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في «اتخذوا» على الأول راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر نكرهم لكونه مفهوماً والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأول إما «إن الله يحكم بينهم»، أو ما أضمر من القول قبل قوله: «ما نعبدهم» وعلى الثاني أن الله يحكم بينهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر مكية

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

«تنزيل الكتاب» قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزمر.

فإن قلت: ما المراد بالكتاب قلت: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾

«مخلصاً له الدين» محضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام كقوله تعالى: «وأخلصوا دينهم لله» حتى يطابق قوله:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَىٰ مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

«ألا لله الدين الخالص» والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصاً حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين ألا الله الدين الخالص أي هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص هادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام «والسنيين

فإن قلت: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أن المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبي ما نعبدكم إلا لتقريبنا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به ألهمتهم، وقرئ «نعبدهم» بضم النون اتباعاً للعين كما تتبعها الهزمة في الأمر والتثنية في عذاب أركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في «بينهم» عائذ إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكنوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله:

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سَيِّئَةٌ هُوَ اللَّهُ أَلَّا وَجَدَ الْأَهْقَارُ ﴿٤﴾

«لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء» يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغرکم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

صُرُّونَ ٦.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات^(١) التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيره إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية واجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً، ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس واحدة، ثم شفعها الله بزواج وقيل: أخرج نرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وانزل لكم﴾، وقضى لكم وقسم لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول^(٢) من السماء حيث كتب في اللوح كل كائن يكون، وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكانه أنزلها وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها ﴿ثمانيه أزواج﴾ نكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز والزواج اسم لواحد معه آخر فإذا انفرد فهو فرد ووتر قال الله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾^(٣) ﴿خلقاً من بعد خلق﴾ حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف، والظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن الذي هذه أفعاله هو ﴿الله ربكم﴾ ﴿فأنى تصرفون﴾، فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنكُمۥ وَلَا يَرْحَمُ لِبَآئِهِۦمُ الْكَفْرَ وَإِنْ تَتَّقُوا يَرْحَمَكُمۥ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ يَنْبُئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٧.

﴿فإن الله غني عنكم﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم وفلاحكم، فإن ما ذكره كفرهم ولا رضي شكرهم إلا لكم ولصالحكم لا لأن منفعة ترجع إليه لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة، ولقد

والاعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ثم تمايبتهم في جهلكم وسفهمكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غاليين في الكفر، ثم قال ﴿سبحانه﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، يدل على ذلك بما ينفيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له وإذا لم يأت أن يكون له صاحبة لم يأت أن يكون له ولد وهو معنى قوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وقهار غلاب لكل شيء ومن الأشياء ألهمت فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَرُّ ٨.

ثم دلّ بخلق السموات والأرض وتكوين كل واحد من الملوك على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب، والتكوين اللفظي يقال كار العمامة على رأسه وكورها وفيه أوجه منها أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه البسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب:

تلوى الثنايا بأحقها حواشيه لي الملاء بابواب التفاريح

ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تخييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، ومنها أن هذا يكر على هذا كرواً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿ألا هو العزيز﴾ الغالب القادر على عقاب المصيرين ﴿الفغار﴾ للذنوب التائبين، أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فسمى الحلم عنهم مغفرة.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآزَلَكُمْ بَيْنَ الْأَنْثَرِ نِسَاءً أَرْوَاحٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَدَنٍ خَلَقَ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن

(١) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق النرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدم على النرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق النرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها =

(٢) قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز أسمة الآيال في سحابة.

(٣) سورة القيامة، الآية: 39.

(١) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق النرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدم على النرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق النرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها =

يبحث على عكس ما أمر به هو نظيره في المعنى قوله:
﴿متاع قليل ثم ماواهم جهنم﴾.

أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ مَّاكَ أَتَيْلٌ سَائِلًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً
رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمُنُونَ إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ (١).

قري ﴿أمن هو قانت﴾ بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال أم عليه ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره أمن هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جرى نكر الكافر قبله وقوله: بعده: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقيل: معناه: أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر أو هذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أفضل الصلاة طول القنوت (٢). وهو القيام فيها ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلي قائماً ﴿ساجداً﴾ حال، وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين، وقرئ ويحذر عذاب الآخرة، وأراد بالذين يعلمون العالمين من علماء الديانة كانه جعل من لا يعمل غير عالم وفيه ازراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يقتنون بالدين فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو (٣) فقال: هذا تمن وإنما الرجاء قوله وتلا هذه الآية، قرئ: إنما ينكر بالإدغام.

تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام (١) الذي أريد به الخاص وما أراد إلا عباده الذين عنانهم في قوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان يريد المعصومين كقوله تعالى: ﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ (٢) تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ يرضه بضم الهاء بوصل وبغير وصل ويسكنونها ﴿خوله﴾ أعطاه قال أبو النجم:

أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم النرى من خول المخول
وفي حقيقته وجهان أحدهما جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال، وخال مال إذا كان متهدداً له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة (٣) والثاني جعله يخول من خال يخول إذا اختال واقتخر وفي معناه قول العرب: إن الغني طويل النيل مياس.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِيتًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُوتَهُ نَسْنَهُ
مِنَهُ نَسَى مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَمَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَعْمَحٍ النَّارِ (٤).

﴿ما كان يدعو إليه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه وما بمعنى من كقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ (١)، وقرئ ليضل بفتح الياء وضمها بمعنى: أن نتيجة جعله الله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة قد تكون غرضاً في الفعل وقد تكون غير غرض وقوله ﴿تمتع بكفرك﴾ من باب الخذلان والتخليه كانه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقا لا تؤمر به بعد ذلك وتؤمر بتركه مبالغة في خذلانه وتخليته وشانه لأنه لا مبالغة في الخذلان لأن أشد من أن

(١) قال أحمد: إن المصير على هذا المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين ليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغائر العبارات، وبيع الزمان في صناعة البديع كيف نيا عن جادة الإجابة فهما وأعار منادى الحذافة أننا صمماً اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى سني مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً؟ ليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدة أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزئاً واللازم من ذلك عقلاً تقدم المراد، وهو الشكر على الإرادة وهي الرضا، ولغة تقدم المشروط على الشرط والزمخشري أخص من قال إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل. وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين على أنه لا بد من تاويل يصح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلًا تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من

= الثواب والكرامة فيكون معنى الآية، والله أعلم: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه. ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجري الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً ومثل هذا يقدر في قوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المنغضوب عليه من الكال والعقوبة.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخول لهم بالموعظة والعلم... (الحديث: 68)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: الاقتصاد بالموعظة الحديث: (82 / 2821).

(٤) سورة الليل، الآية: 3.

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 8/3).

ونكره السيوطي في «الدر المنثور» (306/1).

ونكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 19657).

(٦) قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله فإن الحسن أراد أن المتمادي على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاءه خوفه كان متمنياً؛ لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاءه ولم يرد الحسن إقناط هذا

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ بإخلاص الدين.
وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك لأجل ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: مقدمهم وسابقتهم في الدنيا والآخرة والمعنى أَنَّ الإخلاص له السبق في الدين فمن أخلص كان سابقاً.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد؟ قُلْتُ: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أَنَّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجهها الشيء وصفناه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثله في أردت لأن أفعول، ولا تزداد إلا مع أن خاصة بون الاسم الصريح كأنها زيتت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما عوض السين في أسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وأمرت أن أكون من المسلمين وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أكون أول من أسلم وفي معناه أوجه أن أكون أول من أسلم في زماني، ومن قومي لأنه أول من خالف بين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلتي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعول ما أستحق به الأولوية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني أَنَّ الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكل شوب بليل العقل والوحي.

قُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَاثِ إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾.

فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه.
قُلْ اللَّهُ أَغْنَىٰ عَنِّي لَمْ يَبُنْ

فَإِنْ قُلْتُ: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(١) وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْنَىٰ عَنِّي﴾ قُلْتُ: ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص والثاني إخبار بأنه يختص الله وحده بون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ولدلالته على تلك قدم المعبود على فعل العبادة

قُلْ يٰٓيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّا بُرِّئُوا الصَّيْرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٩﴾.

﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة غير مكتنته بالوصف وقد علقه السدي بحسنة ففسر الحسنة بالصحة والعافية.

فَإِنْ قُلْتُ: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر فما معنى تعليقه بحسنة، ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه؟ قُلْتُ: هو صفة لها إذا تأخر فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق وإن لم يكن التعلق وصفاً ومعنى ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز وتحولوا إلى بلاد آخر واقتنوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه كقوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وقيل: هي أرض الجنة ﴿وَالصَّابِرُونَ﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائريهم، وعلى غيرها من تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يحاسبون عليه وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرقاً، وهو تمثيل للتكثير وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يهتدي إليه حساب الحُسَاب ولا يُعْرَف وعن النبي ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا»^(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢) حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢٠﴾.

= كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى لفظاعة خسراتهم. فقال: استأنف الجملة وصبرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتاً وجوهاً ثلاثة من المبالغة أحدها تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان الثاني: بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت وهي الرحمة الواسعة والملكوت، وشبهه الثالث تقديم لاه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

(3) سورة الزمر، الآية: ١١.

= من رحمة الله تعالى وحاشاه. وأما قرينة حال الزمخشري: فإنها تتم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحداً يجب خلوه في نار جهنم. ولا معنى لرجائه ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالترام إلى تنعيم هذه النزعة وعمّا قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

(1) نكره الطبراني في معجمه.

(2) قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية، بقوله:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فَإِنَّ مُقَابَلَتَهُ بِعَدَمِ الْحَصْرِ تَوْجِبُ =

حضور الموت مبشرين وحين يحشرون قال الله تعالى:
﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وِبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكُم الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ۖ﴾ (٢) وأراد بعباد.

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٨).

وأراد بعباده ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه﴾ الذين اجتنبوا وانابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم
أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع
الظاهر موضع الضمير وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين
يميزون بين الحسن والاحسن والفاضل، والافضل فإذا
اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح
والندب حرّاًصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً
ويدخل تحته المذاهب واختيار اثبتتها على السبك وأقراها
عند السبر^(٣) وأبينها دليلاً أو إمامة وأن لا تكون في مذهبه
كما قال القائل: ولا تكن مثل عير قديد فانقادا: يريد المقلد
وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل:
يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو
والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ
تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٤) ﴿وَأَنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (٥) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل
يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو
فيحدث بأحسن ما سمع، وكيف عما سواه ومن الوقفة من
يقف على فبشر عبادي ويبتدئ الذير يستمعون يرفعه على
الابتداء وخبره ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أصل الكلام أمن حق عليه كلمة
العذاب، فانت تنقذه جملة شرطية نخل عليها همزة الإنكار
والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على
محذوف يدل عليه الخطاب تقديره أنت مالك أمرهم.

أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنذِرُ مَنْ فِي النَّارِ (٨).

فمن حق عليه العذاب فانت تنقذه والهمزة الثانية هي
الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من
في النار موضع الضمير فالآية على هذا جملة واحدة
وجه آخر وهو أن تكون الآية جملتين أقمن حق عليه
العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار وإنما جاز
حذف، فأنت تخلصه لأن أفأنت تنقذ يدل عليه نزل
استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة بخولهم النار حتى
نزل اجتهاد رسول الله ﷺ وكده نفسه في دعائهم إلى
الإيمان منزلة إنقاذهم من النار، وقوله أفأنت تنقذ يفيد
لأن الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده
لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ
الداخل في النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه

وأخره في الأوجل فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه
ولإيجاده وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه
قوله:

فَأَنذِرُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ لَّخَيْرًا خَيْرًا أَنفُسِهِمْ
وَأَلَيْهِمْ يَرْتَفِعُونَ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الَّذِينَ (١٥).

﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ والمراد بهذا الأمر
الوارد على وجه التخبير المبالغة في الخذلان والتخلية على
ما حققت فيه القول مرتين قل إن الكاملين في الخسران
الجامعين لوجوه وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم
لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها ﴿و﴾ خسروا ﴿أهلهم﴾
لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا
أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً
لا رجوع بعده إليهم وقبل وخسروهم لأنهم لم يدخلوا
مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة يعني: وخسروا
أهلهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ولقد وصف
خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿ألا ذلك هو للخسران
المبين﴾ حيث استأنف الجمل وصدرها بحرف التنبيه
ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته
بالمبين.

لَمْ يَنْ يَرَوْهُمْ تَلَّالٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ تَلَّالٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّتُ اللَّهُ بِهِ
عِبَادَهُ يَجَادُ فَأَقْرَرُونَ (١٦).

﴿ومن تحتهم﴾ أطباق من النار هي ﴿تلال﴾ آخرين
﴿ذلك﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿بـ﴾ عباده،
ويخوفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يا عباد فاتقون﴾
ولا تعترضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى
ونصيحة بالغة، وقرئ: ﴿يا عباد﴾.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَبْدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ بَشِيرٌ
عَبَّارٌ (١٧).

﴿الطاغوت﴾ فعلت من الطغيان كالملكوت والرحموت
إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين أطلقت على
الشیطان أو الشياطين لكونها مصدرًا وفيها مبالغات وهي
التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء
مبالغة، فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك
المبسوط والقلب وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير
الشیطان والمراد بها ههنا الجمع، وقرئ الطواغيت ﴿أن
يعبدوها﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال ﴿لهم
البشرى﴾ هي البشار بالثواب كقوله تعالى: ﴿لهم البشرى
في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (١) الله عز وجل يبشرهم
بذلك في وحيه على السنة رسله وتلقاهم الملائكة عند

= أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة البقرة، الآية: 271.

(1) سورة يونس، الآية: 64.

(2) سورة الحديد، الآية: 12.

(3) قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من
المذاهب الرينة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا =

من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

لَكَرِيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يَكُفَّ عَنَّا عَرُوفًا مِّنْهُ تَجَرَّى مِنْ حَجَرٍ
الْأَثَرُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحِلُّ اللَّهُ الْيَمَادُ (٣٠).

﴿عُرف من فوقها عُرف﴾ علالي بعضها فوق بعض.

فإن قلنا: ما معنى قوله ﴿مبنية﴾؟ قلنا: معناه والله أعلم أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ كما تجري من تحت المنازل من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿وعُدَّ الله مصدر مؤكد لأنَّ قوله لهم: عُرف في معنى وعدهم الله ذلك﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
يَجْعَلُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَكُونُ مَضْجَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حُطًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٣١).

﴿أنزل من السماء ماء﴾ هو المطر وقيل: كل ماء في الأرض، فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله ﴿فسلكه﴾ فأدخله ونظمه ﴿ينابيع في الأرض﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿مختلفاً لوانه﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها ﴿يهيج﴾ يتم جفافه عن الاصمعي لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن مثابته ويذهب ﴿حطاً﴾ فتاتاً وريئاً ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتنبيير لا عن تعطيل وإهمال ويجوز أن يكون مثلاً للنبيا كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ (١) ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ (٢) وقرئ مصفاً.

أَمَّا سَرَّحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ
لِّقَسِيَّةٍ قُلُوبِهِمْ يَن ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَيْكَ فِي صَكِّ مِثْنِ (٣٢).

﴿افن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله هو لطفه وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقل: يا رسول الله كيف انشرح الصدر قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقل: يا رسول الله فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت (٣) وهو نظير قوله أمن هو قانت في حنف الخبر ﴿من نكر الله﴾ من أجل نكره أي إذا نكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا، وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى: ﴿فزداتهم رجساً إلى رجسهم﴾ وقرئ عن نكر الله.

فإن قلنا: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قلنا: إذا قلت

قسا قلبه من ذكر الله فالمعنى ما ذكرت من أن القسوة من أجل النكر وبسببه وإذا قلت عن ذكر الله فالمعنى غلظ عن قبول النكر وجفا عنه ونظيره سقاء من العيمة أي من أجل عطشه وسقاه من العيمة إذا أرواه حتى أبعدته عن العطش، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له: حدثنا فنزلت. وإيقاع اسم الله مبتداً، وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وإنه من عنده وإن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مبين لسائر الأحاديث.

اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِلدِّينِ كِتَابًا مُّشْتَبِهًا مَّتَّاقِي تَفْشِيرُ مِنْهُ جُلُودُ
الَّذِينَ يَحْتَوُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ
هُدًى لِلَّذِينَ هَدَى بِهِ مِنْ نِّكَائِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣).

و ﴿كتاباً﴾ يدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿ومتشابهاً﴾ مطلق في مشابهة بعضه بعضاً فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق وتناسب اللفاظ وتناسفها في التخيير والإصابة وتجاوب نظمها وتاليها في الإعجاز والتبكيك ويجوز أن يكون ﴿مثاني﴾ بياناً لكونه متشابهاً لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى بمعنى: مررد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبأته وأحكامه وأوامره ونواهيها وعده ووعيده ومواعظه وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد (٤)، ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعول من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثم أرجع البصر كرتين﴾ بمعنى كرتة بعد كرتة وكذلك لبك وسعديك وحنانيك.

فإن قلنا: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلنا: إنما صرح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاسيل الشيء هي جملة لا غير إلا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك برمة أعشار وثوب أخلاق ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منتصباً على التمييز من متشابهاً كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شاملاً والمعنى متشابهة مثانيه.

فإن قلنا: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلنا: النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً عن يده لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک: 311/4.

(4) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود: 405/1.

(1) سورة يونس، الآية: 24.

(2) سورة الكهف، الآية: 45.

فحذف الخبر⁽²⁾ كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدته ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقي في النار يلقي مغلولاً يده إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه وقيل: المراد بالوجه الجملة وقيل: نزلت في أي جهل ﴿وقيل﴾ لهم: خزنة النار ﴿ذوقوا﴾ وبال ﴿ما كنتم تكسبون﴾.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿من حيث لا يشعرون﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمهم.

فَإِذَا نَادَاهُمُ اللَّهُ لِلْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

والخزي: الذل والصغار كالمنسوخ والخسف والقتل والجلاء وما أشبه ذلك من نكال الله.

فَرَأَاهُ عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ أَلَمَهُمْ بِتُفُونٍ ﴿١٨﴾

﴿قرأنا عربياً﴾ حال مؤكدة كقولك جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿غير ذي عوج﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف.

فَإِنْ قُلْتُ: فهلا قيل مستقيماً أو غير معوج؟ قلْتُ: فيه فائدتان إحداهما نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: ولم يجعل له عوجاً والثانية أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان وقيل: المراد بالعوج الشك واللبس وأنشد:

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكثوب

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلَمَدَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

واضرب قومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف، وتنازع كل واحد منهم يدعي أنه عبدهم فهم يتجاذبون، ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سائر قد تشبعت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، وفي آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه فهمه واحد وقلبه مجتمع أي هذين العبدین أحسن حالاً وأجمل

رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبغاً⁽¹⁾ ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم أقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من حروف القشع، وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال أقشعر جلده من الخوف وقف شعره، وهو مثل في شدة الخوف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل تصويراً لإقراط خشيتهم وأن يريد التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا نكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فَإِنْ قُلْتُ: ما وجه تعدية لأن بآلى؟ قلْتُ: ضمن معنى فعل متعد بآلى كأنه قيل: سكنت أو اطمأنت إلى نكر الله لينة غير متقبضة راجية غير خاشية.

فَإِنْ قُلْتُ: فلم اقتصر على نكر الله من غير نكر الرحمة؟ قلْتُ: لأن أصل أمره الرحمة والرافة ورحمته هي سابقة غضبه فلاصالة رحمته إذا نكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤفاً رحيماً.

فَإِنْ قُلْتُ: لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً؟ قلْتُ: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكانه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة فإذا نكروا الله ومبني أمره على الرافة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينة في جلودهم ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الكتاب وهو ﴿هدى الله يهدي به﴾ يوفق به من يشاء يعني عباده المتقين حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء كما قال: ﴿هدى للمتقين﴾ ﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخله من الفساق والفجرة ﴿فما له من هاد﴾ أو تلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله أي أثر هداة وهو لطفه فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى ﴿يهدى به﴾ بهذا الأثر من يشاء من عباده يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم ومن يضل الله ومن لم يؤثر فيه الطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فما له من هاد من مؤثر فيه بشيء قط يقال اتقاء بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاء بيده وتقديره.

أَفَمَنْ يَتَّبِعْ بَوَاحٍ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ كمن آمن العذاب،

= ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، فعبر تلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه (الحديث: 95)، وأحمد في المسند 213/3.

(2) قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله لم يقصد الاتقاء بوجهه، =

لَأَنْ مَا هُوَ كَائِنْ، فَكَانَ قَدْ كَانَ.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْضَعُونَ (٣١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ ثم إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تَخْضَعُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ويعتدرون بما لا طائل تحته تقول الاتباع أطعنا ساداتنا وكبراءنا، وتقول السادات أغوتنا الشياطين وأبائنا الأقدمون وقد حمل على اختصاص الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضاً حتى يقال لهم: لا تختصموا لدي والمؤمنون الكافرين يكتوهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام قال عبد الله بن عمر لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب قلنا كيف نختم ونبيننا واحد وبيننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فيها⁽⁴⁾، وقال أبو سعيد الخدري: كما نقول ربنا واحد ونبيننا واحد وبيننا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيف قلنا: نعم، هو هذا⁽⁵⁾ وعن إبراهيم النخعي: قالت الصحابة: ما خصومتنا، ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا⁽⁶⁾. عن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ آتِينَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لَكُفْرَيْنِ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَهُ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤).

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله ﷺ جاء بالصديق وأمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون، فلذلك قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلا أن هذا في الصفة وذلك في الاسم ويجوز أن يريد والفوج أو الفريق الذي جاء بالصديق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصديق وصحابته الذين صدقوا به وفي قراءة ابن مسعود والذين جاؤا بالصديق وصدقوا به، وقرئ: وصدق به

شأنًا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا كما قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّأَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) ويبقى هو متحيزاً ضائعاً لا يدرى أيهم يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقته فهمه شعاع وقلبه أوزاع وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه، وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله و ﴿فِيهِ﴾ صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه والتشاكس والتشاخص الاختلاف تقول تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه ﴿سَالِمًا لِرَجُلٍ﴾ خالصاً، وقرئ: سَلَمًا بفتح الفاء والعين وفتح الفاء وكسرهما مع سكن العين وهي مصابر سلم والمعنى ذا سلامة لرجل أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة، وقرئ: بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل وإنما جعله رجلاً ليكون أقطن لما شقى به أو سعد فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هل يستويان صفة على التمييز والمعنى: هل يستوي صفاتهما وحالهما وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ: مثلين كقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾⁽²⁾ مع قوله أشد منهم قوة، ويجوز فيمن قرأ مثلين أن يكون الضمير في يستويان للمثلين لأن التقدير مثل رجل ومثل رجل والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الذي لا شريك له نون كل معبود سواه أي يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه وحده، والعبادة فقد ثبت أنه لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعهم فلا معنى للتربص وشماتة الباقي بالفاني وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه ونعي إليكم أنفسكم.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِياهم يَمُوتُونَ (٣٥).

وقرئ: مائت ومائتون والفرق بين الميت والمائت⁽³⁾ أن الميت صفة لازمة كالسيد وأما المائت فصفة حادثة تقول زيد مائت غداً كما تقول سائد غداً أي سيموت وسيسود، وإذا قلت زيد ميت فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت والمعنى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِياهم مَيِّتُونَ﴾ إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فانتهم في عداد الموتى

= حية ويرسل الأخرى، أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک، 572/4.

(5) ذكره الثعلبي تعليقاً، الزيلعي 3/204.

(6) رواه عبد الرزاق في تفسيره والطبري والثعلبي، الزيلعي 3/204.

(7) سورة الزمر، الآية: 32.

(8) سورة الزمر، الآية: 33.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِياهم مَيِّتُونَ﴾، يعني: توفي الموت والتي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين المنام تشبيهاً للنوم بالموت كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردّها في وقتها =

مفاعلة من الكفاية كقولك: يجازي في يجزي، وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة والمبالاة أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة لما تقدم من قوله: ويجزيهم أجرهم ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أراد الأوثنان التي اتخذوها آلهة من دونه.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٦٧﴾

﴿يعزیز﴾ بغالب منيع ﴿ذي انتقام﴾ ينتقم من أعدائه وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَتُهُ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٨﴾

قرئ: ﴿كاشفات﴾ ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف.

فإن قلنا: لم فرض المسألة في نفسه بونهم؟ قلنا: لأنهم خوفوه معزة الأوثنان وتخيلها، فامر بأن يقرروهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم أقررتم به بضر من مرض، أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن كاشفات عني ضره، أو ممسكات رحمته حتى إذا القمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا بنبت شفة قال ﴿حسبي الله﴾ كافياً لمعزة أوثانكم ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ وفيه تهكم ويروى أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا ﴿فنزل قل حسبي الله﴾.

فإن قلنا: لم قيل كاشفات، وممسكات على التانيث بعد قوله تعالى: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ قلنا: انتهن وكن إننا نحن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: ﴿أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لكم الذكر وله الأنثى﴾ (١) ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف، وتعجز عما طال بهم به من كشف الضر وإمسك الرحمة لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن النكورة من باب الشدة والصلابة كأنه قال: الإناث اللاتي هن اللات اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز وفيه تهكم أيضاً.

قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَجِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿على مكانتكم﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنت منكم منها والمكانة بمعنى: المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث الزمان وهما للمكان.

بالتخفيف أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به يعني: أذاه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل: صار صادقاً به أي: بسببه لأن القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ولا يجوز أن يصدق إلا لصادق، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة وقرئ: وصدق به.

﴿كذب على الله﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وكذب بالصدق﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ ﴿إذ جاءه﴾ فاجاه بالكذب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿مثنوى للكافرين﴾ أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في للكافرين إشارة إليهم.

لِيَكْزُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾

فإن قلنا: ما معنى إضافة الأسوأ والاحسن إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيل فيهما؟ قلنا: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعال إلى الجملة التي يفضل عليها ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك الأشج أعدل بني مروان وأما التفضيل، فإيدان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيه فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالاحسن، وقرئ: أسوء الذي عملوا جمع سوء.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ مِنْ هَادٍ ﴿٧١﴾

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقديرها قرئ: بكاف عبده وهو رسول الله ﷺ وبكاف عباده وهم الأنبياء، وذلك أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخيلك آلهتنا وإنا نخشى عليك معرفتها لعبيك إياها ويروى أنه بعث خالداً إلى العزى ليكسرهما فقال له سائنها: أحذركما يا خالد إن لها لشدة لا يقوم لها شيء فعمد خالداً إليها فهشم أنفها، فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويلبغ عنه كل بلاء في مواطن الخوف وفي هذا تهكم بهم لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضرر أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت: أمهم نحو ذلك فكفاهم الله وذلك قول قوم هود إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، ويجوز أن يريد العبد والعباد على الإطلاق لأنه كافيه في الشدائد وكافل مصالحهم، وقرئ: بكافي عباده على الإضافة ويكافي عباده ويكافي يحتمل أن يكون غير مهموز

والموت والمنام جميعاً بالأنفس وما عنوا بنفس الحياة، والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ﴾ إِنْ فِي تَوْفِي الْأَنْفُسِ مَائِثَةٌ وَنَائِمَةٌ وَإِسْكَاحُهَا وَإِرْسَالُهَا إِلَى أَجْلِ آيَاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ لِقَوْمٍ يَجِبُونَ فِيهِ أَفْكَارُهُمْ وَيَعْتَبِرُونَ، وَقُرِئَ قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَسْمَاتُ وَأَلَّا تَرْضَى لَكُمْ آيَاتُهُ تَرْجَعُونَ ﴿١٤﴾.

﴿أَمْ لَتَخْذُوا﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار من دون الله من دون إننه شفعاء حين قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين أن يكون المشفوع له مرتضى وأن يكون الشافع مائتواً له، وههنا الشرطان مفقودان جميعاً ﴿أَوْ لَوْ كَانُوا﴾ معناه ايشفعون ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط حتى يملكو الشفاعة ولا عقل لهم ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَهُ وَالشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكاً لها.

فإن قلْت: بم يتصل قوله ﴿ثم إليه ترجعون﴾! قلْت: بما يليه معناه له ملك السموات والأرض اليوم، ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة مدار المعنى على قوله وحده أي.

وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالْكَهْدَةِ أَنْتَ حَكَمٌ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦﴾.

إذا أقر الله بالذكر ولم ينكر معه ألهمتهم اشمأزوا أي نفروا وانقبضوا ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهم ألهمتهم نكر الله معهم أولم ينكر استبشروا لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هوامهم فيها وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفياً لألهمتهم، وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من نكر ألهمتهم حين قرأ والنجم عند باب الكعبة فسجدوا معه لفرحهم ولقد تقابل الاستبشار، والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابيه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز أن يمتلئ

فإن قلْت: حق الكلام فإني عامل على مكانتي فلم حنف؟ قلْت: للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيدان بأن حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوة وشدة لأن الله ناصرهم ومعينه ومظهره على الدين كله ألا ترى إلى قوله ﴿فسوف تعلمون من يأتيه﴾.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٤﴾.

كيف توعدهم بكونه منصوباً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة لأنهم إذا اتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل قليل من أعدائه ﴿يُخْزِيهِ﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب أي عذاب مخز له وهو يوم بدر وعذاب دائم وهو عذاب النار، وقرئ: مكاناتهم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَا فَتَقَبَّلْهُ مِنِّي وَمَنْ سَلَ فَلِنَا يُصِلْ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٥﴾.

﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينفروا فتقوى بواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ولا حاجة لي إلى ذلك فانا الغني فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها، وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإيجاب.

اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْإِنْسَانُ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّذِي لَمْ تَكُنْ فِي مَنَامِهَا فَيُحْيِيكَ أَتَى فَمَنْ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرْسِلُ الْآخِرَةَ إِلَى أَجَلٍ تُنَسَّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَدْرِي لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾.

﴿الأنفس﴾ الجمل كما هي، وتوفيها إمامتها وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة بركة من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كان ذاتها قد سلبت ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ يريد وتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام تشبيهاً للناثمين بالموتى ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ (١) حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أن الموتى كذلك ﴿فيمسك﴾ الأنفس التي قضى عليها للموت الحقيقي أي لا يردّها في وقتها حية ﴿ويرسل الآخرة﴾ النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت ضربه لموتها وقيل: يتوفى الأنفس يستوفىها، ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز قالوا فالتى تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والناثم يتنفس وروا، عن ابن عباس رضي الله عنهما في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل، والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه (٢) والصحيح ما نكرت أولاً لأن الله عزّ وعلا علق التوفي

فِي مَنْ فَضَّلَ، وَاسْتَحَقَّاقِ أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ اللَّهِ بِي وَبِاسْتَحَقَّاقِي^(١) أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ بَوَاجِهِ الْكَسْبِ كَمَا قَالَ قَارُونُ: عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي.

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ نَكَرَ الضَّمِيرُ فِي أَوْتِيتهِ وَهُوَ لِلنِّعْمَةِ؟ **قُلْتُ:** ذَهَابًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ قَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْ شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ وَقِسْمًا مِنْهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَا فِي إِنْمَا مَوْصُولَةٌ لَا كَافَةٌ فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ عَلَى مَعْنَى أَنَّ الَّذِي أَوْتِيتهِ عَلَى عِلْمٍ **﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾** إِنْكَارَ لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ قَالَ: مَا خَوْلَنَّاكَ مَا خَوْلَنَّاكَ مِنَ النِّعْمَةِ لَمَّا تَقُولُ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ أَيْ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لَكَ أَتَشْكُرُ أَمْ تَكْفُرُ.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ ذَكَرَ الضَّمِيرُ ثُمَّ أَنْتَهُ؟ **قُلْتُ:** حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى أَوَّلًا وَعَلَى اللَّفْظِ آخِرًا وَلَآنَ الْخَبَرُ لَمَّا كَانَ مُؤَنَّثًا أَعْنَى فِتْنَةٌ سَاغَ تَانِيثُ الْمَبْتَدَأِ لِأَجْلِهِ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِمْ مَا جَاءَتْ حَاجَتُكَ، وَقَرَأْ: بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ عَلَى وَفْقِ إِنْمَا أَوْتِيتهِ.

فَإِنْ قُلْتُ: مَا السَّبَبُ فِي عَطْفِ هَذِهِ الْآيَةِ الْفَاءِ وَعَطْفِ مِثْلِهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِالْوَاوِ؟ **قُلْتُ:** السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ وَقَعَتْ مَسْبُوبَةٌ عَنْ قَوْلِهِ وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ^(٢) أَشْمَزَتْ عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُمْ يَشْمُزُونَ عَنْ نَكَرِ اللَّهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِ الْآلِهَةِ فَإِذَا مَسَّ أَحَدَهُمْ ضَرَّ دَعَا مِنْ أَشْمَازَ مِنْ ذِكْرِهِ نُونٌ مِنْ اسْتَبْشَرَ بِذِكْرِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْآيِ اعْتِرَاضٌ.

فَإِنْ قُلْتُ: حَقَّ الِاعْتِرَاضُ أَنْ يُؤَكِّدَ الْمَعْتَرِضُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ **قُلْتُ:** مَا فِي الِاعْتِرَاضِ مِنْ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَبِّهِ بِأَمْرِ مِنْهُ، وَقَوْلِهِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ مَا عَقِبَهُ مِنَ الْوَعِيدِ الْعَظِيمِ تَاكِيدَ لِإِنْكَارِ أَشْمُزَانِهِمْ وَاسْتَبْشَارِهِمْ وَرَجُوعِهِمْ إِلَى اللَّهِ فِي الشَّدَائِدِ نُونُ آلِهَتِهِمْ كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا رَبِّ لَا يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْتَرُونَ عَلَيْكَ مِثْلَ هَذِهِ الْجَرَاءَةِ وَيَرْتَكِبُونَ مِثْلَ هَذَا الْمَنْكَرِ إِلَّا أَنْتَ، وَقَوْلِهِ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِثْلَ مَا لَكَ مِنْ قَبْلِ، وَلَوْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ حِينَ أُحْكِمَ عَلَيْهِمْ بِسُوءِ الْعَذَابِ، وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ وَالنَّكَتُ لَا يَبْرُزُهَا إِلَّا عِلْمُ النِّظْمِ وَالْإِبْقِيَةِ مُحْتَجِبَةٌ فِي أَكْمَامِهَا وَأَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَلَمْ تَقَعْ مَسْبُوبَةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا جُمْلَةٌ نَاسَبَتْ جُمْلَةً قَبْلُهَا فَعَطَفْتُ عَلَيْهَا بِالْوَاوِ، وَكَقَوْلِكَ قَامَ زَيْدٌ وَقَعْدَ عَمَرُو.

فَإِنْ قُلْتُ: مِنْ أَيِّ وَجْهِ، وَقَعَتْ مَسْبُوبَةٌ وَالْأَشْمُزَانُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِمُقْتَضَى لِاتِّجَاهِهِمْ إِلَيْهِ بَلْ هُوَ مُقْتَضٍ لَصُورَتِهِمْ عَنْهُ **قُلْتُ:** فِي هَذَا التَّسْبِيبِ لُطْفٌ وَبَيَانٌ أَنَّكَ تَقُولُ: زَيْدٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ فَإِذَا مَسَّهُ ضَرُّ التَّجَاؤِ إِلَيْهِ فَهَذَا تَسْبِيبُ ظَاهِرِ

غَمًّا وَغِيظًا حَتَّى يَظْهَرَ الْإِنْقِبَاضُ فِي أَدِيمِ وَجْهِهِ.

فَإِنْ قُلْتُ: مَا الْعَامِلُ فِي إِذَا نَكَرْنَا **قُلْتُ:** الْعَامِلُ فِي إِذَا الْمَفْاجِئَةُ تَقْدِيرُهُ وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ نُونٍ فَاجَأُوا وَقَدْ اسْتَبْشَارَ بَعْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، وَبَشَدَةُ شَكِيمَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ فَقِيلَ لَهُ: أَدْعُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْعَظْمَى وَقُلْ أَنْتَ وَحْدَكَ تَقْدِرُ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَلَا حِيلَةَ لَغَيْرِكَ فِيهِمْ، وَفِيهِ وَصْفٌ لِحَالِهِمْ وَإِعْذَارٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ وَوَعِيدٌ لَهُمْ وَعَنْ الرُّبْعِ بْنِ خَثِيمٍ، وَكَانَ قَلِيلُ الْكَلَامِ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَخَطَ عَلَى قَاتِلِهِ وَقَالُوا: الْآنَ يَتَكَلَّمُ فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ: أَيْهَ أَوْ قَدْ فَعَلُوا وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ عَلَى أَثَرِهِ قَتْلَ مَنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُهُ فِي حَجَرِهِ، وَيَضَعُ فَاهُ عَلَى فِيهِ.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مِمَّا لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنُوا يَحْتَسِبُونَ (١٧).

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وَعِيدٌ لَهُمْ لَا كُنْهُ لَفْظَاتِهِ وَشَدَّتْهُ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْوَعْدِ: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا لَخْفَى لَهُمْ﴾**، وَالْمَعْنَى: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي حِسَابِهِمْ وَلَمْ يَحْدُثُوا بِهِ نَفُوسَهُمْ وَقِيلَ: عَمِلُوا أَعْمَالًا حَسَبُوهَا حَسَنَاتٍ، فَإِذَا هِيَ سَيِّئَاتٌ وَعَنْ سَفِيَانِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَرَأَهَا فَقَالَ: وَيْلَ لَاهِلِ الرِّيَاءِ وَيْلَ لَاهِلِ الرِّيَاءِ وَجَزَعُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ فَقَالَ: أَخْشَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَتَلَاهَا، فَانَا أَخْشَى أَنْ يَبُولَ لِي مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ أَحْتَسِبْهُ.

وَبَدَا لَمْ يَكُنْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَنَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٨).

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أَيَّ سَيِّئَاتٍ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَسَبُوهَا أَوْ سَيِّئَاتٍ كَسَبَهُمْ حِينَ تَعَرَّضَ صَحَابَتُهُمْ وَكَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَحْصَاهُ اللَّهُ، وَنَسُوهُ أَوْ أَرَادَ بِالسَّيِّئَاتِ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ الَّتِي يَجَازُونَ بِهَا عَلَى مَا كَسَبُوا فَسَمَاهَا سَيِّئَاتٍ كَمَا قَالَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ جَزَاءُ هَزْنَهُمْ.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَمًّا إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ نِعْمَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٩).

التَّخْوِيلُ مُخْتَصٌّ بِالتَّفَضُّلِ يَقَالُ خَوْلَنِي إِذَا أَعْطَاكَ عَلَى غَيْرِ جَزَاءٍ **﴿عَلَى عِلْمٍ﴾** أَيَّ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنِّي سَاعَطَاهُ لَمَّا

= نَكَرَ قَوْلَ سَيِّدِ الْبَشَرِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ» قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فَمَا أَحَقُّ مِنْهُنَّ نَفْسَهُ، وَرَكِبَ رَأْسَهُ، وَطَمَعَ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ.

(2) قَالَ أَحْمَدُ: كَلَامٌ جَلِيلٌ فَافْهَمْهُ فَضْلًا عَنْ مَشَبِهِ قَلِيلٍ.

(1) قَالَ أَحْمَدُ: كَذَلِكَ يَقُولُ عَلِيٌّ قَدْرِي: تَمْنَى عَلَى اللَّهِ أَنْ يُثَبِّتَهُ فِي الْآخِرَةِ أَنْ الْفَرْقَ بَيْنَ حَمْدِ الدُّنْيَا، وَحَمْدِ الْآخِرَةِ. أَنْ حَمْدَ الدُّنْيَا وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى نِعْمَةٍ مُتَقَضٍّ بِهَا، وَحَمْدُ الْآخِرَةِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى نِعْمَةٍ وَاجِبَةٍ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ: وَهِيَ فِتْنَةٌ إِنْمَا سَلِمَ مِنْهَا أَهْلُ السَّنَةِ إِذْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الثَّوَابَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَا بِاسْتِحْقَاقٍ، وَيَتَبَوَّعُونَ فِي =

وعذبوا، فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً فنزلت فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وعن رسول الله ﷺ ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة، ثم قال: ألا ومن أشرك ثلاث مرّات (١).

وَأَيُّوْنَا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿وانيبوا إلى ربكم﴾ وتوبوا إليه ﴿واسلموا له﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه.

وَأَكْبَرُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿وتعبدوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مثل قوله الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه ﴿وانتم لا تشعرون﴾ أي يفجؤكم وانتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهولكم.

أَنْ تَقُولَ نَحْنُ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيِّنَ التَّائِبِينَ ﴿٥٦﴾

﴿أن تقول نفس﴾ كراهة أن تقول.

فَإِنْ قُلْتَ: لم نكرت؟ قُلْتَ: لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ويجوز أن يراد التفسير كما قال الأعشى:

ورب بقیع لو هتفت بجوه أثاني كريم ينفض الرأس مغضبا وهو يريد أقواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحداً ونظيره رب بلد قطعت ورب بطل قارعت، وقد اختلس الطعنة لا يقصد إلا التفسير، وقرئ: يا حسرتي على الأصل ويا حسرتاي على الجمع بين العوض والمعوّض منه والجنب الجانب يقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجانب والجانب، ثم قالوا فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه قال سابق البربري:

أما تتقين الله في جنب وامق له كبعد حرى عليك تقطع وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبتته فيه ألا ترى إلى قوله:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربة على ابن الحشرج ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون لأجلك وفي الحديث: من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل (٢)، وكذلك فعلت هذا من جهتك فمن حيث لم يبق

لا ليس فيه، ثم تقول زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فتجئ بالفاء مجيئك به ثمة كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجأ المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء فانت تحكي ما عكس فيه الكافر ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام والانكار والتعجب من فعله، الضمير في.

قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾

﴿قَالهَا﴾ راجع إلى قوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة من القول، وقرئ: قد قاله على معنى القول والكلام ونلك والذين من قبلهم هم قارون وقومه حيث قال: إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها فكانهم قالوها، ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلاً ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّئِيهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٨﴾

﴿من هؤلاء﴾ من مشركي قومك ﴿سَيَّيبيهم﴾ مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقبل لهم: ﴿أو لم يعلموا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل.

قُلْ يَمُودِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها ﴿لا تقنطوا﴾، قرئ: بفتح النون وكسرهما وضمها ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ يعني بشرط التوبة، وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن فكان نكره فيما نكر فيه نكراً له فيما لم يذكر فيه لأن القرآن في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، والمراد بمن يشاء من تاب لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعمله لا لملكه وجبروته وقيل: في قراءة النبي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقابها﴾ وقيل قال: أهل مكة يزعم محمد أن من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له فكيف ولم تهاجر؟ وقد عذبنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم الله فنزلت، وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ثم فتنا

(١) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة (الحديث رقم: 7137).

في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين، ونحو ذلك ونحوه لو هدانا الله لهديناكم وقوله:

بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ رد من الله عليه معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وأثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى، وقرئ بكسر التاء على مخاطبة النفس.

فإن قلنا: هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله: لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما بآية! قلنا: لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفريق بينهما وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأول لما فيه من تبذير النظم بالجمع بين القرائن وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفریط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب.

فإن قلنا: كيف صح أن تقع بلى جواباً لغير منفي؟ قلنا: لو أن الله هداني فيه معنى ما هديت.

وَيَوْمَ الْيَمِّمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿كذبوا على الله﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال عنه^(١) فاضافوا إليه الولد والشريك وقالوا هؤلاء شفعائنا، وقالوا لو شاء الرحمن ما عذبناهم وقالوا

فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين نكر المكان وتركه قيل: ﴿فَرُطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ على معنى فرطت في ذات الله.

فإن قلنا: فمرجع كلامك إلى أن نكر الجنب كلا نكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها فكانه قيل: فرطت في الله فما معنى فرطت في الله؟ قلنا: لا بد من تقدير مضاف محذوف سواء نكر الجنب، أو لم يذكر المعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك وفي حرف عبد الله وحفصة في نكر الله، وما في ما فرطت مصدرة مثلها في بما رحبت ﴿وَأَنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخَرِينَ﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل، وإن كنت النصب على الحال كأنه قال: فرطت وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي، وروي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق وآتاه إبليس وقال له: تمتع من الدنيا ثم تب فاطاعه وكان له مال فأنفقه في الفجور فأتاه ملك الموت في ألد ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن.

أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾ أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّكَ إِلىٰ كَرَّةٍ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿لو أن الله هداني﴾ لا يخلو إما أن يريد به الهداية بالإلحاء أو بالإلطاف أو بالوحي فالإلحاء خارج عن الحكمة ولم يكن من أهل الإلطاف، فيلطف به وأما الوحي فقد كان ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدي وإنما يقول هذا تحيراً

(1) أخرجه أحمد في المسند 30/3، والحاكم في المستدرک 329/4.

(2) قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا بواه له إلا التوفيق الذي حرمه ولا يعاقبه منه إلا الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه، وستقيم عليه حد الرد؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولوينا عن الالتفات إليه كشحاً وبالله التوفيق. فنقول: أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبايح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أما الزمخشري وإخوانه القدرية، فيجبرون في وجه هذه الآية، ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأن القبايح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا، وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض فذلك؛ لأن أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفاعل لما يشاء، وعند القدرية ليس فعلاً لما يشاء؛ لأن الفعل إما منطوق على حكمة ومصلحة فيجب عليه أن يفعله عندهم، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فإن أثر المشيئة إذاً؛ وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى فاعتقاد باطل؛ لأن ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق ولازم الحق حق ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه

= تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلاء البهائم والأطفال؟ ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للمقدرية إذ يقولون: لا بد في الآلم من استحقاق سابق، أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بآلة العقل المجوزة لذلك مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل، وأما قوله: إنهم يتسترون باليلكفة فيعني به: قولهم بلا كيف أجل إنها لستر لا تهتك يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء، وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أنداداً لبائتاتهم معه قديماً فنفي لإثباتهم صفات الكمال كلا والله إنما جعل لله أنداداً القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون، ويشتبهون على خلاف مراد ربهم حتى قالوا: إن ما شاؤهم كان وما شاء الله لا يكون، وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن الله تعالى علماً، وقدرة، وإرادة، وسمعاً وبصراً، وكلاماً، وحياة، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للندري إذا سمع قوله تعالى: ﴿ووسع ربنا كل شيء﴾ علماً إلا اعتقاد أن الله تعالى علماً أو جحد

والذين كفروا هم الخاسرون واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يستحقون عليها من الجزاء وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فإله خالقه، وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل: سال عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مُقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: يا عثمان ما سألتني عنها أحد قبلك تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخِر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير⁽²⁾، وتاويله على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات، والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونَ عَبْدَهُ أَنْ يَكْفُرَ⁽¹⁾.

﴿أغفِر الله﴾ منصوب بأعبد و﴿تأمرونني﴾ اعتراض ومعناه: أغفِر الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا، ونؤمن بإلهك أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تأمرونني أعبد لأنه في معنى تعبدوني وتقولون لي: أعبد والأصل تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل كما في قوله: ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى. ألا تراك تقول أغفِر الله تقولون لي أعبد وأغفِر الله تقولون لي أعبد فكنك أغفِر الله تأمرونني أن أعبد وأغفِر الله تأمرونني أن أعبد والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ أعبد بالنصب، وقرئ تأمرونني على الأصل وتأمرونني على إدغام النون أو حذفها.

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ بِحَبِطٍ عَمَلُكَ وَلَنْ كُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁽¹⁰⁾.

قرئ: ﴿ليحبطن﴾ عملك وليحبطن على البناء للمفعول ولنحبطن بالنون والياء أي: ليحبطن الله أو الشرك.

فإن قُلْتُ: الموحى إليهم جماعة فكيف قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد؟ قُلْتُ: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله، وأوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت، كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا.

والله أمرنا بها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجوز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ويجسمونه بكونه مرئياً معاييناً مدرَكًا بالحاسة ويثبتون له يداً وقدمًا وجنباً مستترين بالبلطف، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قداماً. ﴿وجوههم مسودة﴾ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب.

وَيَجِيءُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَسْهُمُ السُّوءَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁽¹¹⁾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ⁽¹²⁾.

وقرئ: ينجي وينجي ﴿بمفازتهم﴾ بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظرف بمراذه منه وتفسيره المفازة قوله ﴿لا يمسه السوء ولا هم يحزنون﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم فقيل: لا يمسه السوء أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾⁽¹⁾ أي: بمنجاة منه لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز بسبب فلاحهم لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها، وقرئ: بمفازاتهم على أن لكل متق مفازة.

فإن قُلْتُ: لا يمسه ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قُلْتُ: أما على التفسير الأول فلا محل له لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

لَمْ يَمَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ⁽¹³⁾.

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزان ومدير أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم فلان أقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح ولا واحد لها من لفظها وقيل: مقاليد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية.

فإن قُلْتُ: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية! قُلْتُ: التعريب أحوالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملًا.

فإن قُلْتُ: بما اتصل قوله: ﴿والذين كفروا﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: ينجي الله المتقين بمفازتهم،

= اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه عن حقيقته، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره، وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ورسوله ﷺ وأهل سنته، فإنه قد أساء عليهم الآب ونسبهم بكتبه إلى الكذب والله الموعد.

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

(2) أخرجه أبو يعلى، وذكره العقيلي.

= آيات الله، وإطفاء نوره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾، وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدمًا ووجهاً فذلك فرية ما فيها مرية ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة، وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدين، والعينان، والوجه ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز على أن غيره من أهل السنة حمل اليمين على القدرة، والنعمة، والوجه على الذات، وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب، فقد =

قال ثم قرأ تصديقاً له ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (2) الآية وإنما ضحك أقصص العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من تلك ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هيئة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبادة في مثل هذه الطريقة من التخيل، ولا ترى باباً في علم البيان أنق ولا أرق ولا اللطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث، والتنفير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما تخفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه، وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المؤربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكلم آية من آيات التنزيل، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير، ولا يعرف قبلاً منه من بدير والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله جميعاً وقوله والسموات، ولأن الموضع موضع تقخير وتعظيم فهو مقتض للمبالغة ومع القصد إلى الجمع وتاكيد بالجميع أتبع الجميع مؤكداً قبل مجيء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن والقبضة المرة من القبض «فقبضت قبضة من أثر الرسول» والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضاً أعطني قبضة من كذا تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر كما روي أنه نهى عن خطفة السبع (3) وكلا المعنيين محتمل والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أي: نوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة يعني: أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول الجزور أكلة لقمان والقلة جرعة أي ذات أكلته وذات جرعة تريد أنهما لا يفيان إلا باكلة فذة من أكلاته وجرعة فردة من جرعاته، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بحملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب؛ قُلْتُ: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم، مطويات من الطي الذي هو ضد النشر كما قال تعالى: ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ (4) وعادة طوي السجل أن يطويه

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين اللامين؟ قُلْتُ: الأولى موطنه للقسم المحذوف والثانية لام الجواب وهذا الجواب ساد مسد الجوابين أعني جوابي القسم والشرط.

فإن قُلْتُ: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قُلْتُ: هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال ألا ترى إلى قوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً يعني: على سبيل الإلجاء ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿ولتكونن من الخاسرين﴾؟ قُلْتُ: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل ويحتمل ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة، ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشد فلا يمهله بعد الردة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذا لانتنك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ (1).

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٧).

﴿بل الله فاعبد﴾ رد لما أمره به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمرك بعبادته بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً منه ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم وجوز الفراء نصبه بفعل مضممر هذا معطوف عليه تقديره بل الله أعبد، فاعبد لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَمَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧).

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، وقرئ بالتشديد على معنى وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نهى عن عظمته وجلاله شأنه على طريقة التخيل فقال: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو وبجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلالة لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما

= (الحديث: 1981).

(4) سورة الانبياء، الآية: 104.

(1) سورة الإسراء، الآية: 75.

(2) راجع الحديث رقم 121/1.

(3) أخرجه الدارمي في كتاب: الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع =

القيامة⁽²⁾. وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم، وقرئ واشترقت على البناء للمفعول من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت واشترقتها الله كما تقول: ملا الأرض عدلاً وطبقها عدلاً و﴿الكتاب﴾ صحائف الأعمال ولكنه اكتفى باسم الجنس وقيل: اللوح المحفوظ ﴿والشهداء﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخبار وقيل: المستشهدون في سبيل الله الزمر الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض، وقد تزمروا قال حتى أحزالت زمر بعد زمر وقيل: في زمر الذين اتقوا هي الطبقات المختلفة الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، وقرئ نذر منكم.

فإن قُلْتُ: لم أضيف إليهم اليوم؟ قُلْتُ: أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستقيماً في أوقات الشدة.

وَيَسِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرّاً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا قُيِّمَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿قالوا بلى﴾ اتونا وتلوا علينا ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأن جهنم لسوء أعمالنا كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين فنكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَافِئِينَ فِيهَا يَنُفِثُ مَوْتَى الْمُنْكَرِينَ ﴿٧٧﴾

اللام في المتكبرين للجنس لأن ﴿مئوى المتكبرين﴾ فاعل بثس وبثس فاعلها اسم معرف بلام الجنس أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبثس مئوى المتكبرين جهنم.

وَيَسِّرَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُرّاً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَافِئِينَ ﴿٧٧﴾

﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف وحق موقعه ما بعد خالدين وقيل: حتى إذا جاءها جازها وفتحت أبوابها أي مع فتح أبوابها وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بليل قوله: جنات عن مفتحة

بيمينه وقيل: قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه بقدرته، وقيل: مطويات بيمينه مفتحات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ومن أشتم رائحة من علمنا هذا، فليعرض عليه هذا التأويل ليلتهى بالتعجب منه ومن قائله ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته وما مني من به أمثاله، وأثقل منه على الروح وأصدع للكبد تنوين العلماء قوله واستحسانهم له وحكايته على فروع المنابر واستجلاب الاهتزاز به من السامعين، وقرئ مطويات على نظم السموات في حكم الأرض وبخولها تحت القبضة ونصب مطويات على الحال ﴿سبحانه وتعالى﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَبْتَظِرُونَ ﴿٧٨﴾

فإن قُلْتُ: ﴿أخرى﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: يحتمل الرفع والنصب أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾⁽¹⁾ وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نفخة واحدة والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه أخرى وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بنكرها في غير مكان وقرئ قياماً ينظرون يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجاه خطب، وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ زُرّاً رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَوُجِّعَ يَالْكُفَرِ وَالشُّهَدَاءُ وَوُضِعَ يَبْتَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴿٧٩﴾ وَوُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأرض﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عمله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترى أزين للبقاء من العدل ولا أعمر لها منه وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجوز فيها غير ربها ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبیین والشهداء، والقضاء بالحق، وهو النور المذكور وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الأفاق بعذك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول: اظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم

(1) سورة الحاقة، الآية: 13.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات (الحديث:

2447)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة...، باب

تحريم الظلم الحديث: (57 2579).

فإن قُلْتُ: قوله ﴿وقيل الحمد لله﴾ من القائل ذلك؟ قُلْتُ: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كآته قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر مكية

حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ الْكَرْبَ مِنَ اللَّهِ الْغَزِيرِ الْكَلِيمِ ۝

قارئ بإمالة الف حاء وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أين، وكيف أو النصب بإضمار اقرا ومنع الصرف للتثنية والتعريف أو للتعريف وإنها على زنه أعجمي نحو قابيل وهابيل التوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة يقال لفلان على فلان طول والإفضال يقال: طال عليه وتطول إذا تقضل.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف؟ قُلْتُ: أما غافر الذنب، وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبؤ ظاهر والوجه أن يقال لما صولف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد أُنْتُت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعل كانت من الكامل ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف، واللام من شديد العقاب ليزواج ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن

لهم الأبواب فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها.

فإن قُلْتُ: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوء؟ قُلْتُ: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراراً بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الواقفين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين ﴿طوبتم﴾ من نَسَس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا ﴿فانخلوها﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل نَسَس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقي أنفسنا من بون الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ﴿خالسين﴾ مقدرين الخلود.

وَكَلَّوْا الْحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْرًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝

﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبوا، وقد أوروها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً.

فإن قُلْتُ: ما معني قوله ﴿حيث نشاء﴾ وهل يتبوا أحدهم مكان غيره؟ قُلْتُ: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوا من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأُثْنِي بِهِمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝

﴿حافين﴾ محققين من حوله: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله تملذنين لا متعبدين. فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿بينهم﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعاً لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 2/434. وأخرجه أحمد في المسند:

68/6. وعند أبي يعلى تنزيل السجدة والزمر (الحديث: 7643)

و(4764).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في ترك المماراة في القرآن (الحديث: 2257)، وعن أبي هريرة (الحديث: 2255).

ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم وأخرجاً منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

فإن قلْتُ: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً، وما نكر إلا الغفران وحده قلْتُ: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك وسبيل الله سبيل الحق التي نهجها لعباده، ودعا إليها.

رَبَّنَا وَأَرْجِلَهُمْ جَنَّتِ عَذْبِ الْآبِي وَوَدَّعْتَهُمْ إِنَّكَ أَلَمْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾

﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الملك الذي لا يغلب وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلا بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تقي بوعدك.

وَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَرْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿وقهم السيئات﴾ أي: العقوبات أو جزاء السيئات فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر، أو الكبائر المتوب عنها والوقاية منها التكفير أو قبول التوبة.

فإن قلْتُ: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد.

فإن قلْتُ: هذا بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكرامة والثواب، وقرئ جنة عدن وصلح بضم اللام والفتح أقصح يقال: صلح فهو صالح وصلح فهو صليح وذريتهم أي ينادون يوم القيامة، فيقال لهم:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ ﴿١٠﴾

﴿لمقت الله أكبر﴾ والتقدير لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بنكرها مرة و ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بالمقت الأول والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء، والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأتون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم، وأنتم في النار إذ أوقعتكم فيها باتباعكم هواهن، وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فتنبهوا لمقت الله، وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى: ﴿يكفر بعضكم ويلعن بعضكم بعضاً﴾، وإذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه.

فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع^(١). وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»^(٢)، وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشماثل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر، وقرأ ابن عباس العرش بضم العين.

فإن قلْتُ: ما فائدة قوله ﴿ويؤمنون به﴾ لا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون! قلْتُ: فائنته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: تم كان من الذين آمنوا فأبان بذلك فضل الإيمان وفائدة أخرى وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معانين، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب قلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزّه عن صفات الأجرام وقد روعي التناسب في قوله ويؤمنون به ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾، كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون ادعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إحاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الإيمان الأماكن فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض قال الله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾^(٣) أي يقولون ﴿ربنا﴾ وهذا المضمّر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله وأن يكون حالاً.

فإن قلْتُ: تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شيء؟ قلْتُ: الرحمة والعلم هما للذات وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك

(١) قال الزبيلي غريب، ونسب إلى تفسير الثعالبي، 218/3.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٢) لم يخرج الزبيلي.

عقاب مثله لا يكون إلا كذلك وهو الذي يطابق كبرياهه ويناسب جبروته، وقيل: كان الحرورية أخذوا قولهم لا حكم إلا لله من هذا.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣).

﴿يريككم آياته﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها، والرزق المطر لأنه سببه ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تنكره واتعاضه، ثم قال للمنيبين:

فَادْعُوا اللَّهَ حُمَلَاءً لَهُ الَّذِينَ وَلَّوْا كِرَهُ الْكَافِرُونَ (١٤).

﴿فادعوا الله﴾ أي اعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥).

﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح﴾ ثلاثة اخبار لقوله هو مرتبة على قوله: ﴿الذي يريككم﴾، أو اخبار مبتدا محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتذكيراً وقرئ: ﴿رفيع الدرجات﴾ بالنصب على المدح ورفيع الدرجات كقوله تعالى: ﴿ذي المعارج﴾ (١) وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش وهي ليليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء العرش فوقهن، ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنة ﴿الروح من أمره﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره يريد الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْيِينَاهُ﴾ (٢) ﴿لينذر﴾ الله أو الملقى عليه وهو الرسول أو الروح، وقرئ: لتنذر أي لتنذر الروح لأنها تؤنث أو على خطاب الرسول، وقرئ: لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ﴿ويوم التلاق﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تلتقي فيه، وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقيل: المعبود والعابد.

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦).

﴿يوم هم بارزون﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل، أو اكمة أو بناء لأن الأرض بارزة قاع صفصف ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلاً (٣) ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم، وعن ابن مسعود

قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ الْآيَاتِ وَأَنبِئَنَا فَعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ (١٧).

﴿الفتنين﴾ إمامتين وإحياءتين، أو موتيتين وحياتيتين وأراد بالإمامتين خلقهم أمواتاً أولاً وإمامتهم عند انقضاء أجالهم وبالإحياءتين الإحياء الأولى وإحياء البعث وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ (١) وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قلنا: كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتاً إماتة؟ قلنا: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وقولك للحفار ضيق فم الركبة ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبير إلى صغر ولا من صغر إلى كبير ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنفله منه ومن جعل الإمامتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات وهو خلاف ما في القرآن إلا أن يتحمل، فيمجل إحداها غير معتد بها أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى: ﴿إلا من شاء الله﴾ (٢).

فإن قلنا: كيف تسبب هذا لقوله تعالى ﴿فاعترفوا بنذوبنا﴾؟ قلنا: قد أنكروا البعث، فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما راوا الإمامة والإحياء قد تكرر عليهم علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بنذوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فهمل إلى خروج﴾ أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿ومن سبيل﴾ قط أم اليأس واقع بون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط وإنما يقولون ذلك تلعلاً وتحيراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله:

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَكُونُوا قَالَتُمْ لِلَّهِ الِّمَنِي الْكِبِيرِ (١٨).

﴿لنلكم﴾ أي لنلكم الذي أنتم فيه وإن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فالحكم لله﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمذ وقوله: ﴿العلي الكبير﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن

(4) سورة الأنعام، الآية: 122.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشر (الحديث رقم: 6527)، ومسلم في كتاب: الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم =

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة الزمر، الآية: 68.

(3) سورة المعارج، الآية: 3.

رضي الله عنه لا يخفى عليه منهم شيء.

وإن القلوب كاظمة على غم وكره فيها مع بلوغها الحناجر وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (4) وقال: ﴿فَظَلْتُ أَعْنَاقَهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (5) وتعضده قراءة من قرأ كاظمون ويجوز أن يكون حالا عن قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ﴾ (6) أي وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: ﴿فَأَسْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾. الحميم المحب المشفق. والمطاع مجاز في المشفع لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فرقك.

فإن قلّت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؟ قلّت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبّيعه ونفيهما جميعاً وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً، ونحوه ولا ترى الضب بها يتجرع يريد نفي الضب وانجباره.

فإن قلّت: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله! قلّت: على نفي الأمرين جميعاً من قبل أن الشفاعة هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه وأن الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم وإذا لم يحبهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل وأهل التفضل وزياته وإنما هم أهل الثواب بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (7) وعن الحسن رضي الله عنه والله ما يكون لهم شفيع البتة.

فإن قلّت: الغرض حاصل بذكر الشفيع، ونفيه فما الفائدة في نكر هذه الصفة ونفيها؟ قلّت: في نكرها فائدة جلية وهي أنها ضمت إليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون نكرك إزالة لتوهم وجود الموصوف ببلانه أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت ما لي فرس أركبه ولا معي سلاح أحارب به فقد جعلت عدم الفرس، وفقد السلاح علة مانعة والركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي فكذلك قوله: ﴿لَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع فكان نكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتیه بعدم التشفيع وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

يَعْلَمُ عَائِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُحْصِي السُّدُورُ (٨).

فإن قلّت: قوله لا يخفى على الله منهم شيء بيان وتقرير لبروزهم والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا فما معناه؟ قلّت: معناه: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (2) وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم وظنهم أن الله لا يبصرهم وهو معنى قوله: وبرزوا لله الواحد القهار ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يستل عنه في ذلك اليوم ولما يجب به، ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾ اليوم فيجيبه أهل المحشر ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بارض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧).

﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ الآية فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب، لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون لأن الله ليس بظالم للعبيد وأن الحساب لا يبطئ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين وعن ابن عباس رضي الله عنهما إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ إِلَاقُ الْقُلُوبِ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ مِنْ حَاجِرٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ (١٨).

﴿الأرزاق﴾: القيامة سميت بذلك لأزوفها أي لقربها ويجوز أن يريد بيوم الأرزاق وقت الخطة الأرزاق وهي مشارفتهم دخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتتنفسوا ويتروحوها ولكنها معترضة كالشجا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (3).

فإن قلّت: ﴿كاظمين﴾ بم انتصب! قلّت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى، لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ويجوز أن يكون حالا عن القلوب

= القيامة (الحديث رقم: 56 - 2859).

(4) سورة يوسف، الآية: 4.

(5) سورة الشعراء، الآية: 4.

(6) سورة مريم، الآية: 39.

(7) سورة النساء، الآية: 173.

(1) سورة فصلت، الآية: 22.

(2) سورة النساء، الآية: 108.

(3) سورة الملك، الآية: 27.

مَعَكُمْ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾

﴿فلما جاءهم بالحق﴾ بالنبوة.

فإن قللت: أما كان قتل الأبناء، واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ وهذا قتل آخر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قالوا اقتلوا﴾ أعيدوا عليهم القتل كالذي كان، أو لا يريد أن هذا قتل غير القتل الأول ﴿في ضلال﴾ في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم يعني: أنهم باسروا قتلهم، أو لا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى، وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهره موسى وما علم أن كيده ضائع في الكرتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾

﴿نروني اقتل موسى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله ويقولون إذا قتلته أسخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضة بالحجة والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتلاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وقوله ﴿وليدع ربه﴾ شاهد صق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه وكان قوله نروني اقتل موسى تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ﴿أن يبدل دينكم﴾ أن يغير ما أنتم عليه وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام بليليل قوله: ﴿ويذكر آلتهك﴾ والفساد في الأرض: التفانن والتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دينكم بما يظهر من الفتن بسببه وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو، ومعناه: إني أخاف فساد دينكم ودينكم معاً. وقرئ: يظهر من أظهر والفساد منصوب أي: يظهر موسى الفساد، وقرئ: يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أي: تتابع وتعاون.

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُكِيدٍ لَا يُوَسِّسُ

الخائنة صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى: المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾^(١) لا يساعد عليه.

فإن قللت: بم اتصل قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾! قلت: هو خير من اخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾^(٢) مثل ﴿يلقي الروح﴾ ولكن يلقي الروح قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾ ثم استطرد نكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾^(٣) فبعد لذلك عن أخواته.

وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾

﴿والله يقضي بالحق﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل لاستغناؤه عن الظلم، وألهمكم لا يقضون بشيء وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ ووعد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: يدعون بالتاء والياء.

﴿أولم يسموا في الأرض فينبطوا كيف كان عيقه الذين كانوا من قبلهم﴾ كانوا هم أشد منهم قوة وإناراً في الأرض فأخذهم الله ينوهم وما كان لهم من الله من وافي ﴿ذلائق بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنهم قوياً شديداً ألقاب﴾^(١٧)

هم في ﴿كانوا هم أشد منهم﴾ فصل.

فإن قللت: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة وهو أشد منهم قلت: قد ضارح المعرفة في أنه لا تخله الألف واللام فاجرى مجراها، وقرئ: منكم وهي في مصاحف أهل الشام ﴿وأناراً﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم وما يوصف بالشدة من آثارهم، أو أرباباً أكثر آثاراً كقوله متقلداً سيفاً ورمحاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنُ وَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٩﴾

﴿وسلطان مبين﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات فقالوا: هو ساحر كذاب فسموا السلطان المبين سحراً وكذاباً.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا

(3) سورة غافر، الآية: 18.

(1) سورة غافر، الآية: 19.

(2) سورة غافر، الآية: 13.

يَوْمَ الْحِسَابِ (٧).

تعرضتم له.

فَإِنْ قُلْتُ: لم قال بعض ﴿الذي يعدكم﴾ وهو نبي صادق لا بد لما يدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قُلْتُ: لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره إلا أن يلاوهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أرفقه يصيبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأحياناً فضلاً أن يتعصب له، أو يرمي بالحصا من ورائه وتقدير الكاتب على الصائق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ.

فَإِنْ قُلْتُ: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت:

لبيد تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قُلْتُ: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وأهلكه ولم يستقم له أمر فيتخلصون منه وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة ولما عضده بالبينات، وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشد من ذلك طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ فاخذوا بمجامع ردايه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا فقال: «أنا ذاك» فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فالتزمه من ورائه وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟» وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان حتى أرسلوه^(١) وعن جعفر الصادق: أَنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ قَالَ نَلِك سراً وأبو بكر قاله ظاهرًا.

يَقُولُ لَكُمْ أَلَيْسَ الْيَوْمَ ظَهَرَنِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنِي بِأَيْسَ اللَّهِ إِنْ جَاءَنِيَ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٨).

﴿ظاهرين في الأرض﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل يعني: أن لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لباس الله وعذابه فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد وقال: ﴿ينصروننا﴾ وجاءنا لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم برأي

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال لقومه: ﴿إني عذت﴾ بالله الذي هو ربي وربكم وقوله: ﴿وربكم﴾ فيه بعث لهم عن أن يقتلوا به، فيعونوا بالله عياده ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه وقال: ﴿من كل متكبر﴾ لتشمل استعانته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإنعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على نناءة صاحبه، ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر، والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها وعذت ولنت أخوان، وقرئ: عت بالإدغام.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٨).

﴿رجل مؤمن﴾ وقرئ: ﴿رجل﴾ بسكون الجيم كما يقال عضد في عضد، وكان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً وقيل: كان إسرائيلياً و ﴿من آل فرعون﴾ صفة لرجل أو صلة ليكتم أي يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب وقيل: خربيل أو حزبييل والظاهر أنه كان من آل فرعون فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلوا، ولم يعزوا والدليل عليه قول فرعون أبناء الذين آمنوا معه وقول المؤمن فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ليليل ظاهر على أنه ينتصع لقومه ﴿أن يقول﴾ لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم وتبكيك شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ربي الله﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم ولك أن تقدر مضافاً محنوفاً أي وقت أن يقول، والمعنى: أتقتلون ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره وقوله: ﴿بالبينات﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ف ﴿إن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ﴿وإن يك صادقاً يصيبكم بعض﴾ ما يعدكم إن

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: عتب النبي ﷺ (الحديث رقم: 6567).

أصحاب الجنة»، ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ: «بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: «يوم يفر المرء من أخيه»، وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار نوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجنوا ملائكة صفوفاً فبينما هم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب.

يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَا لَمْ يَرْجَعْ (٢٢)

«تولون مدبرين» عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار وعن مجاهد فارين عن النار غير معجزين.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٢٣)

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه وقيل: هو فرعون آخر وبخهم بأن يوسف اتاكم بالمعجزات، فشككنتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين «حتى إذا قبض» قبض «قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا» حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، وتقدمه عزم منكم على تكذيب الرسل فإذا جاءكم رسول جحلتكم وكنبتكم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولا بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته، وقرئ: «لن يبعث الله على إخال همزة الاستفهام على حرف النفي كان بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث، ثم قال: «كذلك يضل الله» أي مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه.

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَثِيرًا مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَارٍ (٢٤)

«الذين يجادلون» بدل من من هو مسرف. فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذلك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً فكانه قال: كل مسرف. فإن قلت: فما فاعل «كبر»؟ قلت: ضمير من هو مسرف.

فإن قلت: أما قلت هو جمع ولهذا أبليت منه النون يجادلون! قلت: بلى هو جمع في المعنى، وأما اللفظ فموحد

إلا بما أرى من قتله يعني: لا أستصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب «وما أهديكم» بهذا الرأي «إلا سبيل الرشاد» يريد سبيل الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أئخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني: أن لسانه، وقلبه متواطئان على ما يقول وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: «الرشاد» فعال من رشد بالكسر كعلام، أو من رشد بالفتح كعباد وقيل: وهو من أرشد كجبار من أجبر وليس بذلك لأن فعالاً من أعمل لم يجئ إلا في عدة أحرف نحو دراك وسار وقصار وحبار، ولا يصح القياس على القليل ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد كمواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْقُورُ إِنَّا فَنَاءُ عَلَيْكُمْ يَتْلُو يَوْمَ الْآخِرَةِ (٢٥)

«مثل يوم الأحزاب» مثل أيامهم لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم يمار اقتصر على الواحد من الجمع لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله: «كلوا في بعض بطنكم تغفوا» وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب وداب هؤلاء نؤبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائماً دائماً منهم لا يفترون عنه ولا بد من حنف مضاف يريد مثل جزاء دابهم.

فإن قلت: بم انتصب مثل الثاني! قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ولو قلت أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة.

يَتْلُو دَابُّ قَوْمٍ تُجِيع وَيَكُونُ يَوْمَ الْآخِرَةِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْيَكَادِ (٢٦)

«وما الله يريد ظلماً للعباد» يعني: أن تمييزهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: «وما ربك بظلام للعبيد»^(١) حيث جعل المنفي إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد وحيث نكر الظلم كانه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: «ولا يرضى لعباده الكفر»^(٢) أي لا يريد لهم أن يظلموا يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين.

وَيَقُولُ إِنَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٢٧)

التنادي ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ونادى أصحاب النار

وَقَالَ الَّذِينَ مَاتَ بَقَرُوا أَتَمُوتُوا فَأَمِيرُ أَهْلِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾
يَقُولُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْخَبَرُ الْمُنْعَمُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴿٢٩﴾

قال: ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ فاجمل لهم ثم فسر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاص إليها هو أصل الشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر ونكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يثلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين دعوة إلى دين الله الذي ثمرته التجارة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار وحذروا وأثروا واجتهد في تلك واحتشد لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين وهو قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾⁽²⁾ وفي هذا أيضا دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون والرشاد نقيض الغي، وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَنُ إِلَّا نَجْلًا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَوْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾

﴿فلا يحزن إلا مثلها﴾ لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة لأنها ظلم وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة لأنها فضل، قرئ: يدخلون ويدخلون ﴿بغير حساب﴾ واقع في مقابلة إلا مثلها يعني أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فاما جزاء العمل الصالح، فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿وَقَرُّوا مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾⁽³⁾

فإن قلت: لمكرر نداء قومه، ولم جاء بالواو في النداء الثالث نون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يهتموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصيحهم لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه يا أبت، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول هداه إلى الطريق وهده له.

فحمل البذل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس ببدع أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتا ويحتمل أن يكون الذين يجادلون مبتدا وبغير سلطان اتاهم خبرا وفاعل كبر قوله ﴿كذلك﴾ أي كبر مقتا مثل ذلك الجدال ويطلع الله كلام مستأنف ومن قال: كبر مقتا عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه وفي كبر مقتا ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر، وقرئ: سلطان بضم اللام وقرئ: قلب بالتونين ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنيعهما كما تقول: رأت العين وسمعت الأذن ونحوه قوله عز وجل: ﴿فإنه أثم قلبه﴾⁽¹⁾ وإن كان الأثم هو الجملة، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْدِيَنِّي آيِنِ لِي مَرَجًا لَعَلِّي أُلْمِغُ الْآسَافَ ﴿٢٦﴾

قيل: الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر.

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ كَاشِدًا وَكَذَلِكَ رَزَقْنَا فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾

و ﴿أسباب السموات﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أدرك إلى شيء، فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه.

فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لاجزا؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه فلما أراد تفخيما ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها، ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشرف إليه نفس هامان ثم أوضحه. وقرئ: فأطلع بالنصب على جواب الترجي تشبيها للترجي بالتمني، ومثل تلك التزيين وذلك الصد ﴿زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ والمزين إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾، أو الله تعالى على وجه التسبب لأنه مكن الشيطان وأمهله ومثله: ﴿زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾، وقرئ: وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل دل عليه قوله إلى إله موسى وصد بفتح الصاد وضمها وكسرهما على نقل حركة العين إلى الفاء كما قيل: قيل، والتباب: الحسران والهلاك وصد مصدر معطوف على سوء عمله وصنوا هو وقومه.

﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعده.

قَوْلُهُ اللَّهُ سَيُعَذِّبُ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِقَالَ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ

(١٤)

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَّرُوا﴾ شدائد مكروهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم وقيل: نجا مع موسى ﴿وَحَاقَ بِأَلْ فِرْعَوْنَ﴾ ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم.

النَّارَ يَمْزُجُونَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا وَعَذَابًا وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا أَلْ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (١٥)

﴿النَّارَ﴾ بدل من سوء العذاب أو خير مبتدأ محذوف كان قائلاً قال: ما سوء العذاب، فقيل: هو النار أو مبتدأ خبره. ﴿يَمْزُجُونَ عَلَيْهِمْ﴾ وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها وعرضهم عليها إحراقهم بها يقال عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: ﴿النَّارَ﴾ بالنصب وهي تمخض الوجه الأخير، وتقديره يدخلون النار يعرضون عليها ويجوز أن ينتصب على الاختصاص ﴿عَذَابًا وَعَذَابًا﴾ في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم فإما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب أو بنفس عنهم، ويجوز أن يكون عذاباً وعذاباً عبارة عن الدوام هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ يا آل فرعون أشدَّ عذاب جهنم وقرئ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي يقال لخزنة جهنم ادخلوهم.

فإن قلْتُ: قوله: ﴿وَحَاقَ بِأَلْ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً فإذا قسر سوء العذاب بنار جهنم لم يكن مكروهم راجعاً عليهم لأنهم لا يعذبون بجهنم قلْتُ: يجوز أن يهيم الإنسان بأن يغرق قوماً، فيحرق بالنار ويسمى ذلك حيقاً لأنه هم بسوء فإصابه ما يقع عليه اسم السوء ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهيم فرعون لما سمع إنذار المسلمين بالنار وقول المؤمن وأن المسرفين هم أصحاب النار فيفعل نحو ما فعل نمرود ويعذبهم بالنار فحاق به مثل ما أضمره، وهم بفعله ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، وإنكر وقت يحتاجون.

وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الْأَمْهَقُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْشَرُونَ عَنَّا نَبِيًّا وَكَانَ النَّارُ (١٦)

﴿تَبَعًا﴾ تباعاً كخدم في جمع خادم، أو ذوي تبع أي اتباع أو وصفاً بالمصدر، وقرئ كلاً على التأكيد لاسم إن وهو معرفة والتونين عوض من المضاف إليه يريد إنا كلنا أو كلنا فيها.

تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْغَيْرِ (١٧)

﴿ما ليس لي به علم﴾ أي بربوبيته والمراد بنفي العلم نقي المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بآله وما ليس بآله كيف يصح أن يعلم إلهاً.

لَا جَرَّ أَنَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدًّا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (١٨)

﴿لا جرم﴾ سياقه على مذهب البصريين أن يجعل لا رداً لما دعاه إليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته، أو بمعنى كسب من قوله تعالى: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ (١) أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، ويجوز أن يقال أن لا جرم نظير لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدا فعل من التبييد وهو التفريق فكما أن معنى لا بد أنك تفعل كذا بمعنى: لا بعد لك من فعله فكذلك لا جرم أن لهم النار أي لا قطع لذلك بمعنى: أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً ودوي عن العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل أخوان كرشد ورشد وعدم وليس له دعوة إلى نفسه قط أي من أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط أي من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضج من دعائكم وقوله: ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره وفي الآخرة إذا أنشأه الله حيواناً تبرا من الدعاة إليه ومن عبده وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة، أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم كما تبين تدان قال الله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من نونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾ (٢) ﴿المسرفين﴾ وعن قتادة المشركين وعن مجاهد السفاكين للدماء بغير حلها وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون.

سَنَذَرُكُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْأَعْيَادِ (١٩)

وَقَرَأَ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي فسيذكر بعضكم بعضاً

لأنها باطلة وأنهم لو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْنِسُ لَهُمْ فِيعْتَدُونَ﴾^(١).

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٢).

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها، وقرئ تقوم ولا تنفع بالتاء والياء يريد بالهدى جميع ما أتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزَلْنَا بِقَوْمِ إِسْرَءِيلَ الْكُتُبَ^(٣).
﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ وتركنا على بني إسرائيل من بعده
﴿الكتاب﴾ أي التوراة.

هُدًى وَكَرَّرَ لِأَوَّلَى الْأَلْبَتِ^(٤).
﴿هُدًى وَذِكْرً﴾ إرشاداً وتذكراً وانتصابهما على
المفعول له أو على الحال وأولو الألباب المؤمنون به
العاملون بما فيه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِالْمُتَيِّزِ وَالْإِنْكَارِ^(٥).

﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ يعني أن نصرة الرسل
في ضمان الله وضمان الله لا يخلف واستشهد بموسى،
وما أتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده
وبقاء آثار هدايه في بني إسرائيل والله ناصركم كما نصرهم
ومظهركم على الدين كله ومبلغ ملك أمتك مشارق الأرض
ومغاربها، فاصبر على ما يجرك قومك من الغصص فإن
العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك
حق وأقبل على التقوى واستترك الفطرات بالاستغفار ودم
على عبادة ربك والثناء عليه ﴿بالعشي والإبكار﴾ وقيل:
هما صلاتا العصر والفجر.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْعِرْ مُسْلِمِي أَنْتُمْ إِنْ فِي
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيُوهُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُمْ
السَّكِينُ الْبَصِيرُ^(٦).

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ إلا تكبر وتعظم وهو
إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم ولذلك
عادوك، وبفعلوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك
وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة أو إرادة
أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً ويدل عليه قوله
تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خِيراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(٢) أو إرادة دفع
الآيات بالجدال ﴿ما هم ببالغية﴾ أي ببالغي موجب الكبر
ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو
دفع الآيات، وقيل: المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون
يخرج صاحبنا المسيح بن داود يرينون النجال ويبلغ

فإن قلنت: هل يجوز أن يكون كلاً حالاً قد عمل فيها
فيها؟ قلنت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما
يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول
قائماً في الدار زيد.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ^(٧).

﴿قد حكم بين العباد﴾ قضى بينهم وفصل بأن ادخل
أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ اادْعُوا رَبَّكُمْ يَخَفُّ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ الْعَذَابِ^(٨).

﴿لخزنة جهنم﴾ للقوام بتعذيب أهلها.

فإن قلنت: هلا قيل الذين في النار لخزنتها قلنت: لأن
في نكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعاد
النار قعرًا من قولهم بئر جهنم بعيدة القعر وقولهم في
الناطقة جهنم تسمية بها لزعيمهم أنه يلقي الشعر على
لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر كما
قال أبو نواس في خلف الأحمر: فليذم من العيالي الخسف،
وفيها أعني: الكفار وأطغاهم فعل الملائكة الموكلين بعذاب
أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا
تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم.

قَالُوا أَرْأَيْتُمْ تَكُنْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا
فَادْعُوا وَمَا دَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ^(٩).

﴿أولم تك تأتكم﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا
وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي
يستجيب الله لها الدعوات ﴿قالوا فادعوا﴾ أنتم فإنما
لا نجتري على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين كون المشفوع
له غير ظالم، والإن في الشفاعة مع مراعاة وقتها وذلك
قبل الحكم الفاصل بين الفريقين وليس قولهم فادعوا لرجاء
المنفعة ولكن الدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم
يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ^(١٠).

﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي في الدنيا
والآخرة يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة
والظفر على مخالفتهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض
الاحيائين امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم ويتيح الله من يقتص
من أعدائهم ولو بعد حين والأشهاد جمع شاهد كصاحب
وأصاحب يريد الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من
أمة محمد ﷺ لتكونوا شهداء على الناس واليوم الثاني بدل
من الأول يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة، ولكنها لا تنفع

باب من العبادة ومن أفضل أبوابها يصنقه قول ابن عباس رضي الله عنهما أفضل العبادة الدعاء⁽³⁾ وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً مرسلأ كان يقول: لكل نبي أنت شاهدي على خلقي وقال: لهذه الأمة لتكونوا شهداء على الناس وكان يقول ما عليك من حرج وقال لنا: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج وكان يقول: ادعني استجب لك وقال: لنا ادعوني أستجب لكم، وعن ابن عباس: وحسبني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صاغرين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَاللَّهُ بَصِيرٌ
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ
(١٦).

﴿مُبْصِرًا﴾: من الإسناد المجازي لأنَّ الإبصار في الحقيقة لآهل النهار.

فإن قلَّت: لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأنَّ كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ولو قيل: ساكناً واللَّيل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة الا ترى إلى قولهم ليل ساج وساكن لا ربح فيه لم تتميز الحقيقة من المجاز.

فإن قلَّت: فلو قيل ولكن أكثرهم فلا يتكرر نكر الناس! قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله إن الإنسان لكفور إن الإنسان لربه لكنود إن الإنسان لظلوم كفار ﴿لنلكم﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو.

وَلَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ
تُؤْتُونَ (١٧).

﴿الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء والوحدانية لا ثاني له ﴿فأنتي تؤفكون﴾، فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عيافته إلى عبادة الأوثان.

كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُ اللَّهَ بِحُجُرٍ (١٨).

ثم نكر أن كل من جحد بآيات الله، ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العقابة أفك كما أفكوا، وقرئ خالق كل شيء نصباً على الاختصاص، وتؤفكون بالتاء والياء هذه أيضاً دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة وهي أنه جعل الأرض مستقرأ.

سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله تمنيعهم تلك كبرأ ونفى أن يبلغوا متمناهم ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجئ إليه من كيد من يحسدك، ويبغي عليك ﴿إنه هو السميع﴾ لما تقول ويقولون ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرهم عليهم وعاصمك من شرهم.

لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٩).

فإن قلَّت: كيف اتصل قوله:

﴿لخلق السموات والأرض﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجالتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله ﴿لا يعلمون﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٢٠).

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء، وقرئ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالياء والتاء والتاء أعم.

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٢١).

﴿لا ريب فيها﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة وليس بمرتأب فيها لأنه لا بد من جزاء ﴿لا يؤمنون﴾ لا يصدقون بها.

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٢٢).

﴿ادعوني﴾ اعبدوني والدعاء بمعنى: العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾، والاستجابة الإثابة وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم. وعن الحسن: وقد سئل عنها أعموا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله فقال إن ترك الذنوب هو الدعاء وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١). وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ الدعاء هو العبادة^(٢) وقرأ هذه الآية ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ويريد بعبادتي دعائي لأنَّ الدعاء

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (٤٥) (الحديث):

(٢) تقدم في سورة: مريم.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرج: 491/1.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْلِفُونَ بِالَّذِي نَدْعُوهُ إِلَهُ أَنَّهُ بِمُرْءُونَا

﴿فإذا قضى أمراً فإنما﴾ يكونه من غير كلفة ولا معاناة جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما نكر من أفعاله الدالة على أنَّ مقبوراً لا يمتنع عليه كانه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرع.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَمُوتُونَ ﴿٦٩﴾

﴿بالكتاب﴾ بالقرآن ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من الكتب.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٠﴾

فإن قلت: وهل قوله:

﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ إلى مثل قولك سوف اصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان وجود والمعنى: على الاستقبال، وعن ابن عباس والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الإسمية وعنه والسلاسل يسحبون بحر السلاسل ووجه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إذ الأغلال في أعناقهم لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقبتين حمل قوله والسلاسل على العبارة الأخرى ونظيره:

مشائهم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها كانه قيل: بمصلحين وقرئ وبالسلاسل يسحبون.

فِي اللَّيْمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

﴿في النار يسجرون﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير كانه سجر بالحب أي مليء، ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم ومنه قوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾^(٤) اللهم أجرنا من نارك فإننا عاثن بجوارك.

يُنَادِيهِمْ فِي ذُورِ اللَّهِ قَالُوا هَلْ عَلَّاءُ بَلْ لَأَرْ تَكُنْ نَدْعُوهُ مِنْ قَبْلُ سِحْناً كَذَلِكَ يَصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع

٣٤٤

فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إنكم وما

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾

﴿والسما بناء﴾ أي قبة ومنه أبنية العرب لمضاربهم لأن السماء في منظر العين كقبة مضرورية على وجه الأرض ﴿فأحسن صوركم﴾، وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد قيل لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾^(١).

هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فادعوه﴾ فاعبده ﴿مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء قائلين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين^(٢).

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمُرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْعَلَمِينَ ﴿٧٦﴾

فإن قلت: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان باللة العقل حتى جاءت البيئات من ربه قلت: بلى ولكن البيئات لما كانت مقوية لدالة العقل ومؤكدة لها ومضمنة نكرها نحو قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما ننحتون والله خلقكم وما تعملون﴾^(٣) وأشبهه ذلك من التنبيه على أنلة العقل كان نكر البيئات نكراً لدالة العقل والسمع جميعاً وإنما نكر ما يدل على الأمرين جميعاً لأن نكر تناصر الالة أنلة العقل وأنلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أنلة العقل وحدها كافية.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَفْئَةٍ ثُمَّ مِنْ مَّاءٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوعاً وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ شَأْنٍ وَلِلَّهِ كُتُوبُ السُّعُورِ ﴿٧٧﴾

﴿لتبلغوا أشدكم﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبيحكم لتبلغوا، وكذلك لتكونوا وأما ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى﴾ فمعناه ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت وقيل: يوم القيامة، وقرئ شيوخاً بكسر الشين وشيخاً على التوحيد كقوله طفلاً والمعنى: كل واحد منكم أو اقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس ﴿من قبل﴾ من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً ﴿ولعلكم تعقلون﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

(3) سورة الصافات، الآيات: 95 - 96.

(4) سورة الهمة، الآيات: 6 - 7.

(1) سورة التين، الآية: 4.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک: 2/438.

نرينك الذي وعدناهم فلما عليهم مقتدرون⁽³⁾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُتِنَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْبَاطِلُونَ^(٧٨).

«ومنهم من لم نقصص عليك» قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس وعن علي رضي الله عنه أن الله تعالى بعث نبياً أسود⁽⁴⁾، فهو ممن لم يقصص عليه وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً يعني أنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم «أن يأتي بآية إلا بإذن الله»، فمن لي بأن أتى بآية مما تقتضونه إلا أن يشاء الله ويأتين في الإتيان بها «فإذا جاء أمر الله» وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة «المبطلون» هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد انتهت الآيات فانكروها وسموها سحراً.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْفَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا وَيَنْهَا تَأْكُلُونَ^(٧٩).

الأنعام الإبل خاصة.

فإن قلنا: لم قال «ليركبوا منها» ولتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم! قلنا: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوبة إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم وأما الأكل وإصابة المنافع، فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ومعنى قوله:

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَمْلِكُوا عَلَيْهَا كَلِمَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ^(٨٠).

«وعليها وعلى الفلك تحملون» وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر.

فإن قلنا: هلا قيل وفي الفلك كما قال قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين! قلنا: معنى الإيلاء، ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم لأن الفلك وعاء أن يكون فيها حمولة له يستعملها فلما صح المعنيان صحت العبارتان وأيضاً فليطبق قوله: وعليها وبزواجه.

وَرَبُّكُمْ آيَاتِهِمْ فَاتَى آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ^(٨١).

«فأي آيات الله» جاءت على اللغة المستفيضة، وقولك فاية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في

تعبئون من بون الله حصص جهنم⁽¹⁾ أنهم مقرونون بالهتيم فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلنا: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من بون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكانهم ضالون عنهم «بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً» أي تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خبراً «وكذلك يضل الله الكافرين» مثل ضلال الهتهم عنهم يضلهم عن الهتهم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصانفوا.

ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ يَمْتَرِ لِقَى وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ^(٧٥).

«ولكم» الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح «بغير الحق»، وهو الشرك وعبادة الأوثان.

أَذْعَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ^(٧٦).

«الخلوا لبواب جهنم» السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم»⁽²⁾ «خالدين» مقررين الخلود «فمبثى مثنوى المتكبرين» عن الحق المستخفين به متواك أو جهنم.

فإن قلنا: ليس قياس النظم أن يقال فمبثى مثنوى المتكبرين كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار وصل في المسجد الحرام فنعم المصلي؟ قلنا: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الشواء.

فَأَسْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأَيْنَا يَرْجِعُونَ^(٧٧).

«فأما نرينك» أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون بالفعل لا تترك لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن أما تكرمني أكرمك.

فإن قلنا: لا يخلو إما أن تعطف «أو نتوفينك» على نرينك وتشركهما في جزاء واحد، وهو قوله تعالى «فإلينا يرجعون» فقولك فلما نرينك بعض الذي نعدهم فلينا يرجعون غير صحيح وإن جعلت فلينا يرجعون مختصاً بالمعطوف الذي هو نتوفينك بقي المعطوف عليه بغير جزاء قلنا: فلينا يرجعون متعلق بنتوفينك وجزاء نرينك محنوف تقديره، فلما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فلينا يرجعون يوم القيامة، فتنتم منهم أشد الانتقام ونحوه قوله تعالى: «فأما نذهب بك فلما منهم منتقمون، أو

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(2) سورة الحجر، الآية: 44.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 41 - 42.

(4) أخرجه ابن مريويه، وذكره الطبراني في معجمه الأوسط، وذكره

الثلبي، الزيلعي: 222/3.

واستهزأهم، ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (4) ﴿ذَلِكَ مِبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (5) فلما جاءهم الرسل بعلوم البيانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثتها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَمَّا نَسَىٰ بِإِلَهِهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِ بَئِيسٍ﴾ (6).

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّا اللَّهُ إِلَيْنَا قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾

فإن قلنا: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّا اللَّهُ إِلَيْنَا قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ﴾ (7) والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم.

فإن قلنا: كيف ترانفت هذه الفألت؟ قلنا: أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ (8) فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ﴾ (9) وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (10) فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ (11) كقولك رزق زيد المال فممنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (12) تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ (13) كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا وكذلك فلم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿سَنَّا اللَّهُ﴾ بمنزلة وعد الله وما أشبهه من المصادر المؤكدة و﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مكان مستعار للزمان أي وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وَوَخَسِرَ هَٰؤُلَاءِ الْمُبْتَطِلُونَ﴾ (14) بعد قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ (15) أي وخسروا وقت مجيء أمر الله أو وقت القضاء بالحق، عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».

الاسماء غير الصفات نحو حمار وحماره غريب، وهي في أي أغرب لاتهم.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٦﴾

﴿وَأَثَارًا﴾ قصورهم ومصانعهم وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب والثانية موصولة، أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم كسبهم أو كسبهم فرحوا بما عندهم من العلم فيه وجوه منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَاكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ (1) وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعبث وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجلن خيرًا منها منقلبًا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البيئات وعلم الأنبياء كما قال عز وجل: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (2) ومنها أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان وكانوا إذا سمعوا بوحى الله نفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم، وعن سقراط أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا ومنها أن يوضع قوله: فرحوا بما عندهم من العلم ولا علم عندهم البتة موضع قوله لم يفرحوا بما جاءهم من العلم بمبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرّة مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء ومنها أن يراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال: استهزؤا بالبيئات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين مرحين ويدل عليه قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَكَانَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (3) ومنها أن يجعل الفرح للرسل، ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزأهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزأهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم

(9) سورة غافر، الآية: 82.

(10) سورة غافر، الآية: 83.

(11) سورة الاحقاف، الآية: 26.

(12) سورة غافر، الآية: 84.

(13) سورة غافر، الآية: 83.

(14) سورة غافر، الآية: 78.

(15) سورة غافر، الآية: 78.

(1) سورة النمل، الآية: 66.

(2) سورة الروم، الآية: 32.

(3) سورة الاحقاف، الآية: 26.

(4) سورة الروم، الآية: 7.

(5) سورة النجم، الآية: 30.

(6) سورة الاعراف، الآية: 165.

(7) سورة مريم، الآية: 35.

(8) سورة الاحقاف، الآية: 26.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت مكية

حَمْدٌ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كَتَبْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)

إن جعلت. ﴿حم﴾ إسمًا للسورة كانت في موضع المبتدأ و﴿تنزيل﴾ خبره وإن جعلتها تعديًا للحروف كان تنزيل خبر المبتدأ محنوف و﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل، أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محنوف وجوز الزجاء أن يكون تنزيل مبتدأ، وكتاب خبره وجهه أن تنزيلًا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ ﴿فصلت آياته﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك، وقرئ فصلت أي فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها من قولك فصل من البلد ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ نصب على الاختصاص، والمدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من صفته كيت وكيت وقيل: هو نصب على الحال أي فصلت آياته في حال كونه قرآنًا عربيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قلْتُ: بم يتعلق قوله لقوم يعلمون! قلْتُ: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت أي تنزيل يفرق بين الصلات والصفات.

يَسِيرًا وَيَذِكُرُ فَأَعْرَضَ أَكْرَهُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)

وقرئ بشير ونخبر صفة للكتاب أو خبر مبتدأ محنوف ﴿فهم لا يسمعون﴾ لا يقبلون ولا يطيعون من قولك تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكلمه لم يسمعه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّا لَفَرٌّ وَمِنَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْلُظْ إِنَّا عَمِلُونَ (٥)

والأكنة جمع كنان وهو الغطاء، الوقر بالفتح الثقل وقرئ بالكسر وهذه تمثيلات لنُبُو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها كقوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ (١) ومع أسماعهم له كان بها صمًا عنه ولتباع المذهبين والدينين كان بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابًا ساترًا وحاجزًا منيعًا من جبل، أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَاعْمَلْ﴾ على بينك ﴿إننا عاملون﴾ أي على بيننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، وقرئ

إننا عاملون.

فإن قلْتُ: هل لزيادة من في قوله ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فائدة! قلْتُ: نعم لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى: أن حجابًا حاصل وسط الجهتين وأما بزيادة من فالمعنى أن حجابًا ابتدأ منا، وابتدأ منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قلْتُ: هلا قيل على قلوبنا أكنة كما قيل: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد! قلْتُ: هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في أكنة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إننا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ (٢) ولو قيل: إننا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى وترى المطابع منهم لا يرعون الطباق والملاحظة إلا في: المعاني.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ لِلْمُشْرِكِينَ (٦)

فإن قلْتُ: من أين كان قوله: ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ جوابًا لقولهم: ﴿قلوبنا في أكنة﴾؟ قلْتُ: من حيث أنه قال لهم إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلي بونكم فصحت بالوحي إلي وأنا بشر نبوتي وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إلي أن إلهكم إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾، فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير زاهبين يمينًا ولا شمالًا ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وتوبوا إليه﴾ مما سبق لكم من الشرك ﴿واستغفروا﴾، وقرئ قال: إنما أنا بشر.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)

فإن قلْتُ: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟ قلْتُ: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصديق نيته ونصوع طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم﴾ أي يشبتون أنفسهم ويبدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدها، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة وقيل: كانت قریش يطمعون الحاج ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزياء. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

سواء فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان، ولو قال في يومين وقد يطلق اليومان على أكثرهما لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما.

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٧﴾

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من قولك استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهًا لا يلوي على شيء وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحوه قولهم استقام إليه وامتد إليه ومنه قوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾ (2) والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك قيل: كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء فأخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء وعلا عليه فايس الماء فجعله أرضًا واحدة ثم فتنها فجعلها أرضين ثم خلق السماء من الدخان المرتفع، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنع عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في تلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل، ويجوز أن يكون تخييلًا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: اثبتا شئتما ذلك أو ابيتماه فقالتا: آتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل قال الجدار للوئد لم تشقني قال الوئد: اسأل من يقني فلم يتركني وراثي الحجر الذي وراثي.

فإن قُلْتُ: لم نكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قُلْتُ: قد خلق جرم الأرض أولاً غير محبوة، ثم بحاها بعد خلق السماء كما قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ (3) فالمعنى اثبتا على ما ينبغي أن تاتيا عليه من الشكل والوصف اثنتي يا أرض محبوة قرارًا ومهادًا لاهلك واثتي يا سماء مقببة سقفاً لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع كما نقول أتى عمله مرضياً وجاء مقبولاً، ويجوز أن يكون المعنى لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتبشير من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض، وتنصره قراءة من قرأ آتيا وآتينا من المؤاتاة وهي الموافقة أي لتؤات كل واحدة أختها ولتوافقها قالتا وافقنا وساعدنا ويحتمل وافقاً أمرى ومشيئتي ولا تمتعنا.

وهو الإيمان الممنون المقطوع وقيل لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل، فأما الأجر فحق أدأوه وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كما صح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَنتَ كُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَكُونُ لَهُ أُنْدَادُ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾

﴿أنكم﴾ بهمزتين الثانية بين وبين وأنكم بالف بين همزتين ﴿ذلك﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين هو ﴿رب العالمين﴾.

وَحَلَّ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمَوتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءَ لِلنَّاسِ لَئِيلِينَ ﴿١٩﴾

﴿رواسي﴾ جبلاً ثواب.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿من فوقها﴾ وهل اختصر على قوله وجعل فيها رواسي؟ كقوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ (1) وجعلنا في الأرض رواسي وجعل لها رواسي قُلْتُ: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها أو مركوزة فيها كالمسامير لمنتع من الميدان أيضاً، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون المنافع في الجبال معرض لطالبها حاضرة محصلها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه وهو ممسكها عز وعلا بقدرته ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها وإنماها ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم وفي قراءة ابن مسعود وقسم فيها أقواتها ﴿في أربعة أيام سواء﴾ فنلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الإثنين وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وقال الزجاج: في أربعة أيام في تنمة أربعة أيام يريد بالتنمة اليومين، وقرئ سواء بالحركات الثلاث الجر على الوصف والنصب على استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء.

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿للسائلين﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها أو يقدر أي قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج.

فإن قُلْتُ: هلا قيل في يومين وأي فائدة في هذه الفنلكة؟ قُلْتُ: إذا قال في أربعة أيام وقد نكر أن الأرض خلقت في يومين علم أن ما فيها خلق في يومين فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين، وأن تقول في أربعة أيام

(3) سورة النازعات، الآية: 30.

(1) سورة المرسلات، الآية: 27.

(2) سورة فصلت، الآية: 6.

جانب واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان لأتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم يعني لأتيتهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة وتقول استدرت بقلان من كل جانب فلم يكن لي فيه حيلة وعن الحسن أنزروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة لأنهم إذا حنروهم تلك، فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم، وقيل معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم.

فإن قللت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاؤهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم إنا بما أرسلتم به كافرين؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أي من قبلهم ومنم يجيء من خلفهم أي من بعدهم فكان الرسل جميعاً قد جاؤهم وقولهم إنا بما أرسلتم به كافرين خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم، أن في ﴿أن لا تعبدوا﴾ بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه لا تعبدوا أي بأن بالشان والحديث قولنا لكم لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف أي ﴿لو شاء ربنا﴾ إرسال الرسل ﴿لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرين﴾ معناه فإن أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم أرسلتم به ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. روي أن أبا جهل قال في ملا من قريش، قد التبس علينا أمر محمد فلو التستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبا فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حسبك عنا إلا أنك قد صبات فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ثم قال: والله لقد كلمته أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة، عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم

فإن قللت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل للزيم تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده لنفعلن هذا شئت أو أبیت ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين.

فإن قللت: هلا قيل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون قللت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكراهة قيل طائعتين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين.

فَقَضَيْنَهُنَّ مِمَّا سَكَرْنَ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أُنْزِلَ إِلَيْنَا السَّمَاءَ الْفَتْحَ بِمَصْبُوحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢).

﴿فققضاهن﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: طائعتين ونحوه أعجاز نخل خاوية، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصيبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز قبل خلق الله السموات وما فيها في يومين في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة وفي هذا دليل على ما نكرت من أنه لو قيل في يومين في موضع أربعة أيام سواء لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان.

فإن قللت: فلو قيل خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها اقواتها في يومين كاملين، أو قيل بعد نكر اليومين تلك أربعة سواء قللت: الذي أورد سبجانه أخصر، وأقص وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مخصصة القرائح ومصاك الركب ليمتيز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات ويتضاعف الثواب ﴿أمرها﴾ ما أمر به فيها وديره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك أو شأنها وما يصلحها ﴿وحفظها﴾ وحفظناها حفظاً يعني من المسترقة بالثواب ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى كانه قال: وخلقنا المصباح زينة وحفظاً.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودٍ (١٣).

﴿فإن أعرضوا﴾ بعدما نتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة أي عذاب شديد الوقع كانه صاعقة، وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهي المرة من الصعق، أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً وهو من باب فعلته ففعل.

إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ سَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلُكُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤).

﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي أتوهم من كل

(١) العذاب.

وقرئ: ﴿ثَمُودَ﴾ بالرفع والنصب منصوبًا وغير منصوب بالرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء، وقرئ بضم التاء ﴿فَهَبْنَاهُمْ﴾ فللناهم على طريقي الضلالة والرشد كقولهم تعالى: ﴿وَهَبْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٢) ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشـد.

فإن قلْتُ: ليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية، وحصولها كما نقول ردهته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلْتُ: للدلالة على أنه مكنهم وإزاح عنهم ولم يبق له عذرًا ولا علة فكانه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿الْهَوْنُ﴾ الهوان وصف به العذاب مبالغة، أو أبله منه ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ وكفى به شاهدًا إلا هذه الآية لكفى بها حجة.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾

قرئ: ﴿يُحْشَرُ﴾ على البناء للمفعول ونحشر بالنون وضم الشين وكسرهما، ويحشر على البناء للفاعل أي يحشر الله عز وجل ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ الكفار من الأولين والآخرين ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليتهم وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته.

حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٩﴾

فإن قلْتُ: ما في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ ما هي؟ قلْتُ: مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها ومثله قوله تعالى: اثم إذا ما وقع أمنتهم به أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يقضي إليها من المحرمات.

فإن قلْتُ: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلْتُ: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلامًا، وقيل المراد بالجلود الجوارح وقيل هي كناية عن الفروج أراد بكل شيء كل شيء من الحيوان كما أراد به في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) كل شيء من المقدرات، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة وعلى إعانتكم ورجعكم إلى جزائه.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْسَدُونَ ﴿٢٠﴾

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم، وهو القوة وعظم الأجرام أو استلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا نوي أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده.

فإن قلْتُ: القوة هي الشدة والصلابة في البنية وهي نقيضة الضعف وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية وهي نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة فكيف صحَّ قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وإنما يصح إذا أريد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ قلْتُ: القدرة في الإنسان هي صحة البنية، وحقيقتها زيادة القدرة فكما صحَّ أن يقال الله أقدر منهم جاز أن يقال أقوى منهم على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم ﴿يُجْحَدُونَ﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوبيعة وهو معطوف على فاستكبروا أي كانوا كفرة فسقة.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَّنِذِرَنَّهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْخِزْيِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

المرصرر العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها وقيل الباردة التي تحرق بشدة بردها تكرير لبناء الصر، وهو البرد الذي يصير أي يجمع ويقبض ﴿نَحْسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها ونحس نحسًا نقيض سعد سعدًا وهو نحس وأما نحس فلأما مخفف نحس أو صفة على فعل كالضخم وشبهه أو وصف بمصدر، وقرئ لتذيقهم على أن الإذاقة للريح أو للأيام النحسات، وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب كأنه قال: عذاب خز كما تقول فعل السوء تريد الفعل السيئ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ألا ترى إلى البون بين قوليك هو شاعر وله شعر شاعر.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَعَذْنَاهُمْ مِصْبَةَ الْعَذَابِ أَلَمْ يَرَوْا بِمَا كَانُوا يُكْسِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا آلَ إِيْسَىٰ عَاسِمًا وَكَانُوا يَنْقُرُونَ ﴿٢٣﴾

وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قُلْتُ: معناه انه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين، والدليل عليه ومن يعيش نقيض ﴿وما بين ايديهم وما خلفهم﴾ ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها أوما بين ايديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم من أمر العاقبة، وإن لا يعث ولا حساب ﴿ووحق عليهم القول﴾ يعني كلمة العذاب ﴿في أمم﴾ في جملة أمم ومثل في هذه ما في قوله:

إن تك عن أحسن الصنعة ما فركأفني آخرين قدافكوا
يريد فانت في جملة آخرين وانت في عداد آخرين لست في ذلك باوحد.

فإن قُلْتُ: في أمم ما محله! قُلْتُ: محله النصب على الحال من الضمير في عليهم أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم، وللأمم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ يَوْمَ لَمَّا كُنْتُمْ تَكْلِمُونَ ﴿٦٦﴾

قرئ: ﴿والغوا﴾ فيه بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغي ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته قال من اللغا ورفث التكلم، والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ وتشاغلو عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل، وما أشبه ذلك حتى تخطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته كلت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً.

فَلْيَذِيقُوا آثَرَ الْكُفْرِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئِنْ آتَيْنَا لَآيَةً لَّا يُؤْمِنُوا ﴿٦٧﴾

﴿فلنذيقن الذين كفروا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاعنين والآخرين لهم باللغو خاصة وأن ينكر الذين كفروا عامة لينطوا تحت نكرهم، وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعلانه وعن ابن عباس ﴿عذاباً شديداً﴾ يوم بدر، و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ في الآخرة.

ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَمْ يَأْرَ الْخَلْدَ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الأسوأ ويجب أن يكون التقدير أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة و﴿النار﴾ عطف بيان للجزاء أو خير مبتدأ محذوف.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ قُلْتُ: معناه أن النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾⁽²⁾ والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة وتقول لك في هذه الدار دار السرور وأنت تعني الدار بعينها ﴿جزاء بما كانوا بأيأتنا

وَقَالُوا لِمُؤْمِرِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَفَلَمْ نَكُنْ لَّآلِئًا أَنْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿٦٩﴾

وإنما قالوا لهم: ﴿لم شهيتم علينا﴾ لما تعاضهم من شهادتها وكبر عليهم من الانقضاح على السنة جوارحهم.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَتَّهَدَ عَلَيْكُمْ سَمَكُومٌ وَلَا أُصْنُرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْبَرًا مِمَّا تَكْمُلُونَ ﴿٧٠﴾

المعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما﴾ كنتم ﴿تعملون﴾ وهو الخفيات من أعمالكم وذلك الظن هو الذي أهلككم وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عيناً كالثقة ورقياً مهيمناً حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملأ ولا يتبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا صَبَّحْتُمُ مِنَ الْخَسِيرَةِ ﴿٧١﴾

وقرئ ولكن زعمتم ﴿وذلكم﴾ رفع بالابتداء و﴿ظنكم﴾ و﴿أرداكم﴾ خبران، ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْيِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٧٢﴾

﴿فإن يصبروا﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار ﴿وإن يستعصبوا﴾ وإن يسالوا العتبي وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزءاً مما هم فيه لم يعتبوا لم يعطوا العتبي، ولم يجابوا إليها ونحوه قوله عز وعلا: ﴿أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾، وقرئ ﴿وإن يستعصبوا﴾ فما هم من المعتبين أي إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم إلى ذلك.

وَفَصَّلْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُمْ فَرِيقًا لَّهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ رَحَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَسْمِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ووفصلنا لهم﴾ وقدرنا لهم يعني لمشركي مكة يقال هذان ثوبان قيصان إذا كان متكافئين، والمقايضة المعاوضة ﴿قرناء﴾ أخذائاً من الشياطين جمع قرين كقوله تعالى: ﴿ومن يعيش عن نكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾⁽¹⁾

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين

تَنفَعِي أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾

كما أنَّ الشياطين قراء العصاة وإخوانهم فكنذك الملائكة أولياء المتقين وأحبائهم في الدارين ﴿تدعون﴾ تتمنون.

نَزَّلَا مِنْ غُفُورٍ رَجِيمٍ ﴿٣٢﴾

والنزل رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال. وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

﴿ممن دعا إلى الله﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما هو رسول الله ﷺ عليه وسلم دعا إلى الإسلام ﴿وعمل صالحاً﴾ فيما بينه وبين ربه وجعل الإسلام نحلة له وعنه أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وعن عائشة رضي الله عنها ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤمنين وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث أن يكون موحداً معتقداً الدين الإسلام عاملاً بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العمل والتوحيد الدعاة إلى دين الله وقوله ﴿وقال إني من المسلمين﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقداً كما تقول هذا قول أبي حنيفة تريد مذهبه.

وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

يعني أنَّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فانفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ومثال ذلك رجل إساء إليك إساءة، فالحسنة أن تغفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولبك فتفتدي ولده من يد عدوه فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عوبك المشاقق مثل الولي الحميم مضافة لك، ثم قال: وما يلقي هذه الخليفة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير.

فإِنْ قُلْتَ: فهلا قيل فادفع بالتي هي أحسن! قُلْتُ: هو على تقدير قائل قال فكيف أصنع فقيل ادفع بالتي هي أحسن، وقيل لا مزيدة والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة.

فإِنْ قُلْتَ: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال ادفع بالتي هي حسنة قُلْتُ: أجل ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة لأن من نفع بالحسنة هان عليه الدفع بما هو دونها.

يجحدون﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون فيها فنكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٥﴾

﴿الذين أضلانا﴾ أي الشيطانين اللذين أضلانا ﴿من الجن والإنس﴾ لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ ^(١) وقال تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ ^(٢) وقيل: هما إبليس وقابيل لانهما سنا الكفر والقتل بغير حق، وقرئ أُرنا يسكون الرءا لثقل الكسرة كما قالوا في فخذ فخذ وقيل معناه أعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى بصريه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك ونظيره اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء وأصله الإحضار.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تُحْزِنُوا وَتُبْسِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ثم﴾ لتراضي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله ونحوه وقوله تعالى: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا والمعنى ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً وعنه أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذبوا قال: حملتم الأمر على أشده قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب، وعن عثمان رضي الله عنه أخلصوا العمل وعن علي رضي الله عنه أئوا الفرائض وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قلت يا رسول الله أخبرني بأمر اعتصم به قال: قل ربّي الله، ثم استقم قال فقلت ما أخوف ما تخاف على فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال هذا ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ عند الموت بالبشرى وقيل البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت، وفي القبر وإذا قاموا من قبورهم ﴿ألا تخافوا﴾ إن بمعنى: أي أو مخففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لا تخافوا أي يقولون لا تخافوا والخوف غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضرر والمعنى أنَّ الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تنوقوه أبداً وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ولا تحزنوا على ما خلفتم.

تَحْنُ أُولَئِكَمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأُخْرَى وَلَكُمْ فِيهَا مَا

وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِينَ أَدَّىٰ أَحْيَاهَا لَخَيَّ الْمَوْتَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

الخشوع التذلل والتقصير فاستعير لحال الأرض إذا كانت قطعة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾^(١) وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيته، وهي قبل ذلك كالنليل الكاسف البال في الأثمار الرثة، وقرئ وربات أي ارتفعت لأن النبات إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض.

إِنَّ الَّذِينَ يَلْمُذُنُونَ فِي مَائِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْنَا أَمْ يَلْقَوْنَ فِي الْآثَارِ حَبِيرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَائِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا يَقْتَضِ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾

يقال الحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ يلحدون ويلحدون على اللغتين وقوله ﴿ولا يخفون علينا﴾ وعيد لهم على التحريف.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِي لَمَّا جَاءَهُمْ رَبَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٣١﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾! قلت: هو بدل من قوله إن الذين يلحدون في آياتنا والذكر القرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى.

لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾

﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ مثل كان الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به.

فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوله المبطلون؟ قلت: بلى ولكن الله قد تقم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قبض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم، وإفساد آقاويلهم فلم يخلو طعن طاعن إلا محوفاً ولا قول مبطل إلا مضمحلاً ونحو قوله تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون ما يقال لك﴾ أي ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم من الكلمات المؤنية والمطاعن في الكتب المنزلة إن ربك لنو مغفرة ورحمة لآبائيه.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَ فِيلٌ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ وَدُوٌّ عِقَابٍ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿ودو عقاب﴾ لاعدائهم، ويجوز أن يكون ما يقول لك الله إلا مثل ما قال الرسول من قبلك والمقول هو قوله تعالى: ﴿إن ربك لنو مغفرة ودو عقاب أليم﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته.

وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوٌّ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بالتي هي أحسن الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب، وعن الحسن رحمه الله والله ما عظم حظ دون الجنة وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤنياً لرسول الله ﷺ فصار ولياً مضافاً. وَمَا يَزْعُوكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس والشيطان بنزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي وجعل النزغ نازغاً كما قيل جد جده، أو أريد وإما ينزغك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أو لتسويله والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ من شره وامض على شأنك ولا تطعه الضمير في.

وَمِن مَّائِنِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿خلقهن﴾ لليل والنهار والشمس والقمر لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى أو الإناث يقال الاقلام بريتها وبريتهن، أو لما قال ومن آياته كن في معنى الآيات فقل خلقهن.

فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى ﴿تعبدون﴾ وهي رواية مسروقة عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها وعند أبي حنيفة رحمه الله يسامون لأنها تمام المعنى: وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الوساطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدن غير مشركين.

فَإِنْ أَسْكَنْتُمْ لَهُمْ آلَ الَّذِينَ فِيكُمْ فَصَلُّوا لَهُمْ كَمَا صَلُّوا لَكُمْ بِأَتِلٍ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿فإن استكبروا﴾، ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد وقوله ﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة وقرئ لا يسامون بكسر الباء.

وَمِن مَّائِنِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿٤٨﴾

﴿فاختلف فيه﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك لفضي بينهم في الدنيا قال الله تعالى: ﴿هل الساعة موعدهم﴾ ^(١) ﴿لكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ ^(٢).

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٩﴾

﴿فلنفسه﴾ فنفسه نفع ﴿فعليلها﴾ فنفسه ضرر ﴿وما ربك بظلام﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَكْوِينٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِوَحْيِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا أَذْنَكُ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ ^(٣).

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم أو لا يعلمها إلا الله، وقرئ: من ثمرات من أكمأهم والكم بكسر الكاف وعاء الثمرة كجف الطلعة أي وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به يعلم عند أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والنمط والنكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك ﴿أين شركائي﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم وبيانه في قوله تعالى: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ^(٤) وفيه تهكم وتقريع ﴿أذكرك﴾ أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أي ما منا أحد اليوم وقد أبصرنا وسمعنا يشهد بأنهم شركائك أي ما منا إلا من هو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم ألهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل هو كلام الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشراكة.

وَصَلَّ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٥٠﴾

ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير أنهم لا ينفعونهم فكانهم ضلوا عنهم ﴿وظنوا﴾ وأيقنوا والمحيص المهرب.

فإن قلنا: أذكرك إخبار بليدان كان منهم فإذا قد آذنوا فلم سئلوا قلنا: يجوز أن يعاد عليهم أين شركائي إعادة للتوبيخ وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية دليل على إعادة المحكي ويجوز أن يكون المعنى أنك علمت من قلوبنا وعقائنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكانهم أعلموه ويجوز أن يكون إنشاء للإيدان ولا يكون إخباراً بليدان قد كان كما تقول أعلم الملك أنه كان

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبَ لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُهُ مَا عَجَبْنَاهُ وَعَرِيفٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشُكْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَفَرُّهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَى أَذُنَاتِهِمْ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾

والغرض تخويف العصاة كانوا لتعتنهم يقولون هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعتن وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي بينت ولخصت بلسان نفقهه ﴿أعجمي وعربي﴾ الهمزة همزة الإنكار يعني لأنكروا، وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي، وقرئ: أعجمي والأعجمي الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان والعجمي منسوب إلى أمة العجم، وفي قراءة الحسن أعجمي بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل أو المرسل إليه عربي والمعنى أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً لأن القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم ويجوز في قراءة الحسن هلا فصلت آياته تفصيلاً فجعل بعضها بياناً للعجم وبعضها بياناً للعرب.

فإن قلنا: كيف يصح أن يراء بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلنا: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي، وذلك لأن مبني الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد، أو جماعة فوجب أن يجرد لما سبق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل عرضاً آخر ألا تراك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة؛ اللباس طويل واللباس قصير ولو قلت واللباس قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام لم يقع في نكورة اللباس، وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما ﴿هو﴾ أي القرآن ﴿هدى وشفاء﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لما في الصدور﴾ من الظن والشك.

فإن قلنا: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ منقطع عن نكر القرآن، فما وجه اتصاله به قلنا: لا يخلو إما أن يكون الذين لا يؤمنون في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى للذين آمنوا على معنى قولك هو للذين آمنوا هدى وشفاء وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر إلا أن فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ أو في آذانهم منه وقر، وقرئ: وهو عليهم عم وعمى كقوله تعالى: فعميت عليكم ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يردونه أسماعهم فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطئة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

من الأمر كيت وكيت.

لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْشُ قُنُوطًا ﴿٨٩﴾

﴿من دعاء الخير﴾ من طلب السعة في المال والنعمة، وقرأ ابن مسعود من دعاء بالخير ﴿وإن مسه الشر﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فيؤس قنوط﴾ ولغ فيه من طريقين من طريق بناء فاعول ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضائل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه وهذه صفة الكافر بليل قوله تعالى: ﴿إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (١).

وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاةٍ مَسَّهٖ لَيُفَوِّنَ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتَ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَيَمُنَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَيُدْنِقُنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٩٠﴾

وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال ﴿هذا لي﴾ أي هذا حقي وصل إلي لاني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال بر أو هذا لي لا يزول عني ونحوه قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ (٢) ونحو قوله تعالى: ﴿وما أظنُّ للساعة قائمة﴾ إن نظنُّ إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين يريد وما أظنها تكون فإن كانت على طريق الترهيم ﴿إن لي﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قاشئًا أمر الآخرة على أمر الدنيا وعن بعضهم للكافر أمْنيتان يقول في الدنيا: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ويقول في الآخرة: يا ليتني كنت ترابًا.

وَلَئِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ اقْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ. وَلَئِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَرَّ دُعَاءُ غَرِيبٍ ﴿٩١﴾

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجون عليها كرامة وقربة عند الله وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثورًا وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلبًا للافتخار والاستكبار لا غير وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة وأنهم محققون بذلك هذا أيضًا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة وكأنه لم يلق بؤسًا قط فنفسى المنعم وأعرض عن شكر ﴿ونأى بجانبه﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم، وإن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في البتھال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضًا كما استعير اللفظ بشدة العذاب، وقرئ: ونأى بجانبه بإمالة الألف وكسر النون للاتباع ونأى على القلب كما قالوا راء في رأى.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقَّقْ لِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾. قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ أَنْ يَوْضَعُ جَانِبَهُ مَوْضِعَ نَفْسِهِ كَمَا نَكُنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أَنْ مَكَانَ الشَّيْءِ وَجْهَهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ نَفْسُهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ وَنَفِيتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّنْبِ يَرِيدُ وَنَفِيتُ عَنْهُ الذُّنْبَ وَمِنْهُ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَمِنْهُ قَوْلُ الْكِتَابِ حَضَرَتْ فَلَانٌ وَمَجْلِسُهُ وَكَتَبَتْ إِلَى جِهَتِهِ وَإِلَى جَانِبِهِ الْعَزِيزُ يَرِيدُونَ نَفْسَهُ، وَذَاتَهُ فَكَانَهُ قَالَ: وَنَأَى بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَكْبَرِ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ وَذَهَبَتْ بِهِ الْخِيَلَاءُ كُلُّ مَذْهَبٍ وَعَصَفَتْ بِهِ الْخِيَلَاءُ وَأَنْ يَرَادَ بِجَانِبِهِ عَطْفُهُ، وَيَكُونُ عِبَارَةً عَنِ الانْحِرَافِ وَالْإِزْوَارِ كَمَا قَالُوا: ثَنَى عَطْفَهُ وَتَوَلَّى بَرَكْتَهُ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٩٢﴾

﴿أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إن كان﴾ القرآن ﴿من عند الله﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمير صارر عن حجة قاطعة حصلت من اتباع الليل أمر محتمل الصبور، وإنما هو قبل النظر واتباع الليل أمر محتمل يجوز أن يكون من عند الله وإن لا يكون من عنده وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقًا وقد كُفِرْتُمْ به، فأخبروني من أضل منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فاهلكم أنفسكم وقوله تعالى: ﴿ممن هو في شقاق بعيد﴾ موضوع موضوع منكم بيانًا لحالهم وصفتهم.

سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩٣﴾

﴿سُرِّيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ يعني: ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عمومًا وفي باحة العرب خصوصًا من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ومن الإظهار على الجبابة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم وتسلط ضعافهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورًا خارجة من المعهود خارقة للعادات ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاصيها والاستقرار يطالعك في التواريخ، والكتب المودونة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علمًا من أعلم الله وآية من آياته يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصديق كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور وأن للباطل ربحًا تخفق، ثم تسكن وبولة تظهر، ثم تضمحل ﴿بربك﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى

فإن قُلْتُ: فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون؟ قُلْتُ: يرتفع بالابتداء، والعزیز وما بعده أخبار والعزیز الحكيم صفتان والظرف خير.

كَذَٰلِكَ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْأَرْضُ يُسْتَفْزَعُ مِنْ رَّبِّهَا وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤١).

قرئ: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء والياء وينفطرن ويتفطرن وروى يونس عن أبي عمر، وقراءة غريبة تتفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تشمن ومعناه يكلن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم وقيل من دعائهم له ولذا كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ (٢).

فإن قُلْتُ: لم قال من فوقهن؟ قُلْتُ: لأن أعظم الآيات وألها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقدیس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كانه قيل: يكلن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة وقيل: من فوقهن من فوق الأرضين.

فإن قُلْتُ: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله وقد قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ (٣) فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ قُلْتُ: قوله: ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا قد دل البليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٤) وحكايتهم عنهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ (٥) كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصطفين طمعاً في استغفارهم فكيف للكفرة ويحتمل أن يقصلا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، إلى أن قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ (٧) والمراد

وإنه على كل شيء شهيد بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الأفق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهدونه فيبتبنون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيم يستوي عنده غيبه وشهائته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

أَلَا إِنَّهُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ (٤٢).

وقرئ: ﴿في مربة﴾ بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنة» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى مكية

حَدَّثَنَا (١) عَسَقُ (٢).

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما حم سق.

كَذَٰلِكَ يُرَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الْأَبْنَىٰ مِن بَيْنِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤).

﴿كنلك يوحى إليك﴾ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور وأوحى من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرز هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ والطف العظيم لعباده من الأولين والآخرين ولم يقل أوحى إليك ولكن على لفظ المضارع ليدل على أن إحياء مثله عانته، وقرئ: يوحى إليك على البناء للمفعول.

فإن قُلْتُ: فما رافع اسم الله على هذه القراءة قُلْتُ: ما دل عليه يوحى كان قائلًا قال من الموحى فقيل الله كقراءة السلمي، وكنلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم على معنى زينه لهم شركائهم.

(١) ذكره الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 230/3.

(٢) سورة مريم، الآية: 90.

(٣) سورة البقرة، الآية: 161.

(٤) سورة غافر، الآية: 7.

(٥) سورة غافر، الآية: 7.

(٦) سورة فاطر، الآية: 41.

(٧) سورة الشورى، الآية: 5.

الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاماً.

للقرآن ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة لأن الخلاق تجمع فيه قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾⁽¹⁾ وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله ولا ريب فيه. اعتراض لا محل له، قرئ: فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على أنهم فريق وفريق والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلاق والنصب على الحال منهم أي متفرقين كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾⁽²⁾.

فإن قلنا: كيف يكونون مجموعين متفرقين في حالة واحدة؟ قلنا: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين، وإن أريد بالجمع جمعهم في الموقف فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أَمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ وَالْآخِلِينَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ⁽³⁾.

﴿لجعلهم أمة واحدة﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾⁽⁴⁾ والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿أفأنت تكره﴾⁽⁶⁾ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

أَرَأَيْتُمْ أَفْعَدْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽⁷⁾.

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ الإنكار ﴿فأشاه هو الولي﴾ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: ﴿فأشاه هو الولي﴾ جواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أراؤنا ولياً بحق فأشاه هو الولي بالحق لا ولي سواه ﴿وهو يحيي﴾ أي ومن شأن هذا الولي أنه يحيي ﴿الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ⁽⁸⁾.

فإن قلنا: قد فسرنا قوله تعالى: ﴿تكد السموات يتفطرن﴾ بتفسيرين فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قلنا: أما على أحدهما فكانه قيل تكد السموات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون خضوعاً لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته، وأما على الثاني فكانه قيل يكدن يتفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحنون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامدين له على ما أولاهم من الطافة التي علم أنهم عندها يستعصمون مختارين غير ملجئين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة ومن أهلها أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصاً على نجاة الخلق وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ⁽⁹⁾.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ جعلوا له شركاء وأناداً ﴿الله حفيظ عليهم﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وما أنت﴾ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان إنما أنت منظر فحسب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ⁽¹⁰⁾.

ومثل ذلك ﴿أوحينا إليك﴾، وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أن الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأن هذا المعنى كثره الله في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا و﴿قرآنًا عربياً﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لابس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حد الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي ومثل تلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنًا عربياً بلسانك ﴿لتنذر﴾ يقال: أنذرت كذا وأنذرت بكذا وقد عدى الأول أعني ﴿لتنذر أم القرى﴾ إلى المفعول الأول والثاني، وهو قوله وتذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني ﴿أم القرى﴾ أهل أم القرى كقوله تعالى: ﴿وأسئل القرية﴾ ومن حولها من العرب، وقرئ: لينذر بالياء والفعل

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة يونس، الآية: 99.

(1) سورة التغابن، الآية: 9.

(2) سورة الروم، الآية: 14.

(3) سورة يونس، الآية: 99.

قصودوا المبالغة في ذلك، فسلخوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عن يسد مسدّه وعنن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر النعم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومنه قولهم قد أيفعت لذاته وبلغت أترابه يريدون إيفاعه وبلوغه وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته⁽⁴⁾ والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله: «ليس كمثله شيء»⁽⁵⁾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته.

لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ^(١٢).

ونحوه قوله عز وجل: «بل يدها مبسوطتان»⁽⁶⁾ فإن معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصودون شيئاً آخر حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له فذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد كما كرّرها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال، فاصبحت مثل كعصف مأكول، وقرئ: ويقدر «إنه بكل شيء عليم» فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ^(١٣).

«نشرع لكم من الدين» دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه ويوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً»⁽⁷⁾ ومحل أن أقيموا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هي إقامة الدين ونحوه قوله: تعلق أن هذه أمّتكم أمة واحدة «كبر على المشركين» عظم عليهم وشق عليهم «ما تدعوهم إليه» من إقامة دين الله والتوحيد «يجتبي

وما اختلفتم فيه من شيء» حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلقتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين «ذلك» الحاكم بينكم هو «الله ربي عليه توكلت» في رد كيد أعداء الدين «والإله» أرجع في كفاية شرهم وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الرسول»^(١) وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح قال الله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»⁽²⁾.

فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا، لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَبَاسًا كُنْهِهِمْ سِتْرًا وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(١٤).

«فاطر السموات» قرئ: بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم أو خبر مبتدا محذوف والجر على، فحكمه إلى الله فاطر السموات وذلك إلى أنيب اعتراض بين الصفة والموصوف «جعل لكم» خلق لكم «من أنفسكم» من جنسكم من الناس «أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً» أي وخلق من الأنعام أزواجاً ومعناه وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً «يذروكم» يكثركم يقال نرا الله الخلق بثهم وكثرهم والذرو والذرء أخوات «فيه» في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل والضمير في يذروكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلنين.

فإن قلت: ما معنى يذروكم في هذا التدبير وهلا قيل يذروكم به! قلت: جعل هذا التدبير كالتدبير والمعدن للبيت والتكثير ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: «ولكم في القصاص حياة»⁽³⁾ قالوا: مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته

(5) سورة الشورى، الآية: 11.

(6) سورة المائدة، الآية: 64.

(7) سورة المائدة، الآية: 48.

(1) سورة النساء، الآية: 59.

(2) سورة الإسراء، الآية: 85.

(3) سورة البقرة، الآية: 179.

(4) رواه الطبراني في معجمه.

فإن قُلْتُ: كيف حوِّجوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قُلْتُ: المراد محاربتهم في مواقف المقاتلة لا المقاتلة.

وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ مِنْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٧).

«يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ» يخاضعون في دينه «من بعد» ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرْتَدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا» (٤) كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين كتاباً قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق وقيل من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام «داحضة» باطلة زالة.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْيَمِينَاتُ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧).

«أنزل الكتاب» أي جنس الكتاب «والميزان» والعدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة وقيل الذي يوزن به، بالحق ملتبساً بالحق مقترناً به بعيداً من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك «الساعة» في تأويل البعث فلذلك قيل «قريب» أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قُلْتُ: كيف يوفق نكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قُلْتُ: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكانه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويوزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويظف لمن ظف.

يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفُفُونَ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا لَهَا الْخَوْفُ إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَيُصَلِّينَ (١٨).

المماراة الملاحة لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه «لفي ضلال بعيد» من الحق لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٨).

«لطيف بعباده» برّ بليغ البرّ بهم قد توصل برّه إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

إليه، يجتلب إليه ويجمع والضمير للدين بالتوفيق والتسديد «من يشاء» من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَأَنَّ أَجَلَ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَلَئِنْ الَّذِينَ أُوْرُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْصُرَنَّكَ مِنْهُ مُرْسِ (١٩).

«وما تفرقوا» يعني أهل الكتاب بعد أنبياءهم «إلا من بعد» أن علموا أن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء «ولولا كلمة سبقت من ربك» وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة «لفضي بينهم» حين افترقوا لعظم ما افترقوا «وإن الذين أوروها الكتاب من بعدهم» وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ «لغي شك» من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان وقيل كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغي بينهم وقيل وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالى: «وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة» (١) وإن الذين أوروها الكتاب من بعدهم هم المشركون أوروها القرآن من بعد ما أورت أهل الكتاب التوراة والإنجيل وقرئ، وروثوا وورثوا.

فَلْيَذَكِّرْكَ فَأَنْتَ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا مَنَعْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ لَأَأْتِيَنَّكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٢٠).

«فلنلك» فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً «فادع» إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة «واستقم» عليها على الدعوة إليها كما أمر الله «ولا تتبع أهواءهم» المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب أي كتاب صح أن الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض كقوله تعالى: «ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض» (٢) إلى قوله: «أولئك هم الكافرون حقاً» (٣) «لأعدل بينكم» في الحكم إذا تخاضعتم فتحاكمتم إلي «لا حجة بيننا وبينكم» أي لا خصومة لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته «الله يجمع بيننا» يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

(3) سورة النساء، الآية: 151.

(4) سورة البقرة، الآية: 109.

(1) سورة البينة، الآية: 4.

(2) سورة النساء، الآية: 150.

رَبِّ الْقَالِيلِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ رَافِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (١٧).

﴿ترى الظالمين﴾ في الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات ﴿وهو واقع بهم﴾ يريد ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بد لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا كان روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب بالظرف لا بيشأون.

ذَلِكَ الَّذِي يَنْزَرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُ لَا أَشْكُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقَرَفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (١٨).

قري: ﴿يبشر﴾ من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره والأصل ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده فحذف الجار كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾ (١) ثم حذف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ (٢) أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده، روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: اترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت الآية ﴿إلا المودة في القربى﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تولوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة: لأن قرابته قربانهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ويجوز أن يكون منقطعاً أي: لا أسألكم أجراً قط ولكنني أسألكم أن تولوا قرابتي الذين هم قربانكم ولا تولوهم.

فإن قلنا: هلا قيل إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى، ومعنى قوله: إلا المودة في القربى؛ قلنا: جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك لي: في آل فلان مودة ولي فيهم هوى وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحل، وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت إلا المودة للقربى إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك المال في الكيس، وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها والقربى مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى قرابة، والمراد في أهل القربى وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا موتهم قال: علي وفاطمة وابناهما (٣)، ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي فقال: أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن إيماننا وشمائنا ونزبتنا خلف أزواجنا (٤)، وعن النبي ﷺ حرمت الجنة على من ظلم أهل

فإن قلنا: فما معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ بعد توصل بره إلى جميعهم قلنا: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من بره إلا أن البر أصناف وله أوصاف والقسمه بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتبشير فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ كما يرزق أحد الأخوين ولذا دون الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد ﴿وهو للقوي﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿العزیز﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا كَمَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (١٩).

سمى ما يعمله العامل مما ينبغي به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز، وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة، ولم ينكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ أَكْثَرِيَهُمْ لَهُمُ عَذَابُ أَلِيمٍ (٢٠).

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ التقرير والتقريع، وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإثني فيه، والأمر به وقيل: شركاؤهم أولئانهم، وإنما أضيف إليهم لأنهم متخنوها شركاء لله فتارة تضاف إليهم لهذه الملابس، وتارة إلى الله ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم جعلت شارعة لدين الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: إنهم أضللن كثيراً من الناس ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أي: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم، وقرا مسلم بن جندب وأن الظالمين بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضى بينهم في الدنيا.

= المودة في القربى (الحديث رقم: 4818).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة الانبياء، الآية: 18.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشورى، باب: إلا

المودة تناولاً أولياً كان سائر الحسنات لها توابع. وقرئ: يزد أي يزد الله وزيادة حسناتها من جهة الله مضاعفتها كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾⁽⁵⁾ وقرئ: حسنى وهي مصدر كالإشرى، الشكور في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَنَحْنُ أَتَى لِقَائِكَ يَكْتَلِبُ عَلَيْهِ إِتْمَ عَلَيْهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: يتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾، فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والخلول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبية على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق ﴿بكلماته﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾⁽⁶⁾ يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم إن الله عليم بما في صدوركم وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل: يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك آذاهم.

فإن قلت: إن كان قوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط قلت: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿ويودع الإنسان بالشعر﴾⁽⁷⁾ وقوله تعالى: ﴿سنسند الزبانية﴾⁽⁸⁾ على أنها مثبتة في بعض المصاحف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وإبنته عنه.

بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنعة إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازيه عليها فأتا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة⁽¹⁾ وروى أن الأنصار قالوا فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا آتلة فاعزكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: أفلا تجيبونني قالوا: ما نقول يا رسول الله، قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأويناك أو لم يكنوك فصدقتك أو لم يخذلك فنصرتك قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله⁽²⁾ فنزلت الآية وقال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيداً إلا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً إلا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان إلا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير إلا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة إلا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة إلا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، إلا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله إلا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً إلا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة، وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربي، فلما كذبوه وأبوا أن يبياعوه نزلت⁽³⁾ والمعنى: إلا أن توبوني في القربى أي في حق القربى ومن أجلها كما تقول الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني أنك قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى، ولا تؤنوني ولا تهيجوا علي وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نواب وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت⁽⁴⁾ ورده وقيل: القربى التقرب إلى الله تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ: إلا المودة في القربى ﴿ومن يقترب حسنة﴾ عن السدي أنها المودة في آل رسول الله ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أنها تناولت

(1) نكره الثعلبي في تفسيره.

(2) رواه الطبري في تفسيره، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط، وابن أبي حاتم في تفسيره، الزيلعي 237/3.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 238/3.

(4) قال الزيلعي غريب 239/3، ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 210.

(5) سورة البقرة، الآية: 245.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(7) سورة الإسراء، الآية: 11.

(8) سورة العلق، الآية: 18.

الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى قال خباب بن الارت: فينا نزلت وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنينناها **﴿بقدر﴾** بتقدير يقال: قدره قدرًا وقدرًا **﴿خبير بصير﴾** يعرف ما يؤل إليه أحوالهم فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو افقرهم لهلكوا.

فإن قلّت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم؟ فإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه؟ **قلّت:** لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْنَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨).

قري: **﴿قنطوا﴾** بفتح النون وكسرهما **﴿وينشر رحمته﴾** أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذا⁽²⁾ أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة **﴿الولي﴾** الذي يتولى عبادته بإحسانه **﴿الحميد﴾** المحمود على ذلك يحمد أهل طاعته.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّكُونِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩).

﴿وما بث﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا يحمل على المضاف إليه والمضاف.

فإن قلّت: لم جاز **﴿فيهما من دابة﴾** والدواب في الأرض وحدها **قلّت:** يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المنكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من اقخاذهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم ومنه قوله تعالى: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾** وإنما يخرج من الملح⁽³⁾ ويجوز أن

وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلنَّبِيِّ عَن عِبَادِهِ وَيَعْمَلُونَ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمَ مَا تَفْعَلُونَ (٣٥).

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب، وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أنقبتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته **﴿ويغفو عن السيئات﴾** عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ويعلم ما يفعلون قري بالثناء والياء أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٣٦).

﴿يستجيب الذين آمنوا﴾ أي يستجب لهم فحذف اللام كما حنف في قوله تعالى: **﴿وإذا كالوهم﴾** أي: يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم وقيل الاستجابة فعلهم أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها **﴿ويزيدهم﴾** هو **﴿من فضله﴾** على ثوابهم وعن سعيد بن جبير هذا من فعلهم يجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَرْزُقُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣٧).

﴿لبغوا﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذلك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مباشرة وكفى بحال قارون عبرة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها ولبعض العرب⁽¹⁾ وقد جعل الوسمي ينبت بيننا، وبين بني رومان نبعا وشوحطاً يعني: أنهم أحيوا فحدثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن، أو من البغي وهو البذخ والكبر أي لتكبروا في

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، (الحديث: 1465).

وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، الحديث: (121 - 1052).

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره، ونكره الثعلبي، الزيلعي: 240/3.

(3) قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب والله أعلم هو الوجه الأول. وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾**، ثم قال: **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل﴾**

﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب
﴿من ولي﴾ من متول بالرحمة.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٢﴾

الجوار: السفن، وقرئ: ﴿الجوار﴾ ﴿كأعلام﴾ كالجبال
قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار.

إِنْ يَنْزَأْ بِسُكُنِ الْرِّيحِ يَظْلَنَ رَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٣﴾

وقرئ: ﴿الرياح فيظللن﴾ بفتح اللام وكسرهما من ظل
يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ﴿رواكده﴾ ثوابت
لا تجري ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر^(١) لكل
صبار: على بلاء الله ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا
المؤمن المخلص فجعلهما كناية عنه وهو الذي وكل همته
بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر.

أَوْ يُرِيهِنَّ بِمَا كَسَبُوا رِيئًا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٤﴾

﴿يؤبقهن﴾ يهلكهن، والمعنى أنه: إن يشأ يبتلى
المسافرين في البحر بإحدى بليتين إما أن يسكن الريح
فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعن من الجري وإما
أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقاً، بسبب ما كسبوا
من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها.

فَإِنْ قُلْتَ: علام عطف ﴿يؤبقهن﴾! قُلْتُ: على يسكن
لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها
فيغرقن بعضفها.

فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى إسخال العفو في حكم الإيقاق حيث
جزم جزمه؟ قُلْتُ: معناه، أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً
على طريق العفو عنهم.

فَإِنْ قُلْتَ: فمن قرأ ويعفو قُلْتُ: قد استأنف الكلام.

وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٢٥﴾

فَإِنْ قُلْتَ: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿ويعلم﴾ قُلْتُ:

يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران، فيوصفوا
بالدبيب كما يوصف به الأناسي ولا يبعد أن يخلق في السموات
حيواناً يمشي فيها مشى الأناسي على الأرض سبحانه الذي
خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق، إذا يدخل على
المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿والليل إذا
يغشى﴾ ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وَإِذَا مَا أَشَاءَ أَبْعَثَ مِنْهَا أَخْرَ لِلَّيْلِ نَاشِطًا مَذْعُورًا
وَمَا أَصْبَحَ مِنْ مُصْبِحٍ فِيمَا كَبَتْ أَيُّكَزْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ
﴿٢٦﴾

في مصاحف أهل العراق ﴿فبما كسبت﴾ بإثبات الفاء
على تضمين ما معنى الشرط وفي مصاحف أهل المدينة
بما كسبت بغير فاء على أن ما مبتدأ وبما كسبت خبرها
من غير تضمين معنى الشرط الآية مخصوصة
بالمجرمين^(١)، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب
المجرم ويعفو عن بعض فأما من لا جرم له كالأنبياء
والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو
غيره فللعوض الموفى والمصلحة وعن النبي ﷺ ما من
اختلاج عرق ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بنبذ ولما
يعفو الله عنه أكثر^(٢) وعن بعضهم من لم يعلم أن ما
وصل إليه من الفتن والمصائب بالكسبائه وأن ما عفا عنه
مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه وعنه آخر
العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعته أكثر
من جناياته في معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه
وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته
بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا
عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله
عنه وقد رفعه من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة
ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة^(٣)،
وعنه رضي الله عنه هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن.

وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ فِي الْآلَمِينَ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ مِنْ وَلٍ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾

دابة، فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

(١) قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القدرية، ولا يمكنهم ترويع
حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى:
﴿ويعفو ما دون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب وهو غير ممكن لهم
هنا، فإنه قد أثبت للتبعض في العفو، ومحال عندهم أن يكون
العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعض التوبة أيضاً، وهي
عندهم لا تتبعض، وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس
الاعتزال، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾، فلا محمل لها إلا الحق
الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير
موقوف على التوبة، وقول الزمخشري: إن الآلام التي تصيب
الأطفال والمجانين لها أعواض إنما يريد به وجوب العوض على
الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأن
المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بليجابه في
الأطفال والمجانين، ألا ترى أن القاضي أبا بكر الزمهم قبح إيلام =

= البهائم والأطفال والمجانين، فقال: لا أعراض لها وليس مترتباً
على استحقاق سابق فيحسن، فلإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على
أن لا أعواض لها.

(٢) لم أقف عليه عند البيهقي في الشعب ولا عند عبد الرزاق.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الحد كفارة، (الحديث:
2604).

وأخرجه أحمد في المسند: 214/5.

وأخرجه الحاكم في المستدرک: 445/2.

(٤) قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً
بخلاف الرياح، وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإن الريح المذكورة هنا
نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو
سكنت لركبت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما
نكروه، وأما أطراده فلا. وما ورد في الحديث: اللهم اجعلها رياحاً
ولا تجعلها ريحاً، فجاء الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنزَلُوا سُورَىٰ مِن بَيْنِهِمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وأتموا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فآثروا رسول الله عليهم أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلا هبوا لأمرهم (3)، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: نو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنصَبُوا آبَهُمْ قُمُوا بِصَلَاتِهِمْ ﴿٢٩﴾

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن ينلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

فإن قلت: أهم محمبون على الانتصار قلت: نعم لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه حمامة على عرضه وردعا له فهو مطيع وكل مطيع محمود.

وَحَرَّأَوْ سَيِّئًا سَيِّئًا لَّنَالَهَا فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به قال الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ (4) يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا والمعنى: أنه يجب إذا قولت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة فإذا قال: أخذك الله قال أخذك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (5) ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه (6) تجاوز السيئة والاعتداء خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر، وعن النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال: فيقوم خلق فيقال لهم ما أجزكم على الله، فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله (7).

أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف وأما النصب فللعطف على تعليل محنوف تقديره لينتقم منهم ﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ ونحوه في العطف على التعليل المحنوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ (1) وقوله تعالى: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾ (2) وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأن قبلها جزء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك جزءاً ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه قال: وأعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تاتني أتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله والحق بالحجاز فاستريحا فهذا يجوز، وليس بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كاستفهام، ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه اهـ ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة.

فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم؟ قلت: كأنه قال وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه.

فَأُوتِيتُمْ مِّن مَّوَدِّعِهِمُ الَّذِينَ دِينًا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣١﴾

ما الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطاه الكافرون فنزلت.

وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا مِمَّنْ يَفْعَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿والذين يجتنبون﴾ عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعده ومعنى ﴿كبير الإثم﴾ الكبائر من هذا الجنس، وقرئ كبير الإثم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتداً وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون.

(6) قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل لم نذكر هذا عقب العفو، مع أن الانتصار ليس بظلم فيشفي غليل السائل، ويحصل منه على كل طائل.

(7) رواه أبو نعيم في الحلية: 53/8، وأخرجه البيهقي في الشعب: باب: في حسن الخلق فصل في ترك الغضب، الحديث: 8313.

(1) سورة مريم، الآية: 21.
(2) سورة الجاثية، الآية: 22.
(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: 1/358، باب: المشورة، (حديث: 258).
(4) سورة النساء، الآية: 78.
(5) سورة فصلت، الآية: 34.

وَلَمْ يَأْتِكُمْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (١١).

﴿بعد ظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ما عليهم من سبيل﴾ للمعاقب، ولا للعائب والعائب.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِسَعْيِهِ الْحَقِّ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٢).

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون في الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلمون ويفسدون.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبْرٌ وَغَفَرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٣).

﴿ولم يكن صبر﴾ على الظلم والأذى ﴿وغفر﴾ ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله ﴿إن ذلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الرابع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم، ويحكي أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية فقال: الحسن عقلي والله وفهمي إذ ضيعها الجاهلون، وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاما فلا تنتهي فقال لعائشة: بونك فانتصري (١).

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَزَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا
الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١٤).

﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخذل الله ﴿فما له من ولي بعد﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

وَرَبَّهُمْ يُعْزِزُونَ عَلَيْهِمْ خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ
خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْمُتَعَبِّتِينَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (١٥) وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ
أُولِيَاءَ يُصْرُوتُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (١٦).

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الذل﴾ وقد يعلق من الذل بينظرون ويوقف على خاشعين ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظره من تحريك لأجفانه ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملا عينيه منها كما يفعل في نظره إلى

المحاب، وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفي وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسر أو يكون قول المؤمنين: واقعاً في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم
مِنْ مَلَكٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِنْ نَكِيرٍ (١٧).

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد أي: لا يرده الله بعدما حكم به، أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، والنكير الإنكار أي: مالكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما افترقتموه وبون في صحائف أعمالكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا
إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجِئَ بِهَا وَإِنْ تَوَسَّيْتُمْ سَبِيحَةً بِمَا قَدَّمْتُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (١٨).

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصيبهم سبيحة﴾ ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابه السبيحة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسبيحة البلاء من المرض والفقر والمخاوف، والكفور البليغ الكفران ولم يقل، فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إن الإنسان لظلم كفار﴾ ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ والمعنى أنه ينكر البلاء وينسى النعم (٢) ويغفلها.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ أَزْوَاجًا (١٩).

لما نكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها أتبع ذلك أن له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإنثى وبعضاً بالذكور وبعضاً بالصفين جميعاً ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ قَدَّمَ الْإِنثَى أَوَّلًا عَلَى الذَّكَورِ مَعَ تَقَدُّمِهِمْ
عَلَيْهِمْ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَدَّمَهُمْ وَلَمْ يَعْرِفِ الذَّكَورَ بَعْدَ مَا نَكَرَ
الْإِنثَى؟ قُلْتُ: لَأنَّ نَكَرَ الْبَلَاءِ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُولَى وَكَفَرَانَ
الْإِنثَى بِنَسْيَانِهِ الرَّحْمَةَ السَّابِقَةَ عَنْهُ، ثُمَّ عَقَبَهُ بِنَكَرِ مُلْكِهِ
وَمَشِيئَتِهِ وَنَكَرِ قِسْمَةِ الْأَوْلَادِ، فَقَدَّمَ الْإِنثَى لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ
أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا يَشَاءُ لَا مَا يَشَاءُ الْإِنثَى، فَكَانَ نَكَرَ الْإِنثَى
اللاتِي مِنْ جُمْلَةِ مَا لَا يَشَاءُ الْإِنثَى أَهْمُ وَالْأَهَمُّ وَاجِبٌ
التَّجْدِيدِ وَلِكِبْلَى الْجِنْسِ الَّذِي كَانَتْ الْعَرَبُ تَعُدُّهُ بَلَاءً نَكَرَ

= فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(1) أخرجه أحمد في المسند: 93/6.

(2) قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين آمنوا أن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ =

البلاء وَأَخَّرَ الذِّكْرَ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لَأَنَّ التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الاعلام المذكورين الذين لا يخفون عليهم.

أَوْ يُرْجُوهُمْ ذِكْرًا وَإِنَّا نَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿٥٥﴾.

ثم أعطى بعد ذلك لا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعَرَفَ أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿نُكَرْنَا وَإِنَّا﴾ كما قال: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حيث وهب لشعيب ولوط وإنثاء وإبراهيم نكور ولحمدا نكوراً وإنثاء، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿ذَكِيرٌ﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عِتِيدٍ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿وما كان لبشر﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أن يكلمه الله إلا﴾ على ثلاثة أوجه إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في نبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إلي الله أن قد تأسروا بلبل أبي أوفى فقمتم على رجل أي ألهمني وقذف في قلبي وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾ مثل أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى، ويكلم الملائكة وأما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة، فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى وقيل: وحياً كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولا﴾ أي نبياً كما كلم أمم الأنبياء على السنتهم ووحياً وأن يرسل مصدران واقعان موقع

الحال لَأَنَّ أن يرسل في معنى إرسال ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾ ^(١) والتقدير وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلاً ويجوز أن يكون موحياً موضوعاً موضع كلاماً لَأَنَّ الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا اكلمه إلا جهراً وإلا خفائاً لَأَنَّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة تقول قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكليك أو رسولك، وقوله: أو من وراء حجاب معناه أو إسماعاً من وراء حجاب ومن جعل وحياً في معنى أن يوحى وعطف يرسل عليه على معنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أي: إلا بأن يوحى أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرًا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب، وقرئ أو يرسل رسولا فيوحى بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلاً عطفاً على وحياً في معنى موحياً، وروي أن اليهود قالت للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنتظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فلما لم تؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت ^(٢) وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول فقلت هذه الآية ﴿إنه علي﴾ ^(٣) عن صفات المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة إما إلهاماً وإما خطاباً.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَكْتُبُ وَلَا يُؤْمِنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهَادٍ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾.

﴿روحاً من أمرنا﴾ يريد ما أوحى إليه لَأَنَّ الخلق يحيون به في دينهم كما يحي الجسد بالروح.

فإن قلنا: قد علم أن رسول الله ﷺ ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه ^(٤) فما معنى قوله: ﴿ولا الإيمان﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا، وتمكنوا من النظر

= الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث، وهذا الذي طمع فيه يخسر القتل ولا يبلغ منه ما أراد، وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: أن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد، وإن كان فاسقاً يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.

(2) لم يخرج الزيلعي.

(3) تقدم في سورة الاحزاب.

(4) قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري: أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركاً، حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان، ولا يناله وعد المؤمنين، وتفتن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية عدها فرصة لينتهزها، وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإرادة مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكانه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق، كما تقول أهل السنة للزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقاً، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين، لزم أن لا يكون =

وقرئ لَمْ الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾^(٤) سُمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ نو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتاب هما صفاته وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بمعنى أفنحنى عنكم الذكر وننوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس
والفاء للعطف على محنوف تقديره انهملكم فنضرب
عنكم الذكر إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من
إنزاله الكتاب وخلقه قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجهه،
وصفحاً على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا عرض
منتصب على أنه مفعول له علي معنى: أفننزل عنكم إنزال
القرآن، وإلزام الحجة به إعرافاً عنكم وإما بمعنى: الجانب
من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى
أفننحيه عنكم جانباً فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه
جانباً وامش جانباً وتعضده قراءة من قرأ صفحاً بالضم
وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح
جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين
﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أي لان كنتم وقرئ ان كنتم وإذ كنتم.

فإن قُلْتُ: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا
مُسْرِفِينَ على البيت؟ قُلْتُ: هو من الشرط الذي نكرت أنه
يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول
الاجير: إن كنت عملت لك فوقني حقي وهو عالم بذلك
ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق
فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاً له.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية خال ماضيه مستمرة أي: كانوا
على ذلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَرَحْنًا مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف
الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿وَمَضَى﴾

والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن
يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصفات التي
فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من
الكفر؟ قُلْتُ: الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه
العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعني به ما الطريق إليه
السمع بون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه
بالوحي ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿مَا
كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾^(١) بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله
الإيمان ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من له لطف ومن لا لطف
له فلا هداية تجدي عليه.

يَرْبِطُ اللَّهُ الْبَرَّ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ
نَصِيرُ الْأُمُورِ ﴿٩﴾.

﴿صراف الله﴾ بدل، وقرئ لتهدي أي: يهديك الله وقرئ
لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن
تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.

وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً
للقسم^(٣) وهو من الإيمان الحسنة البينة لتناسب القسم
والمقسم عليه وكونهما من واحد ونظيره قول أبي
تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين أنزل
عليهم لأنه بلغتهم وأساليهم وقيل: الواضح للمتدبرين
وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وإبان
ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ بمعنى:
صيرناه معدى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدى إلى
واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ و﴿قَرَأْنَا
عَرَبِيًّا﴾ حال، ولعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها
ومعنى الترججي أي: خلقناه عربياً غير عجمي إرادة أن
تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَأَنَّهُ فِي زُبْرٍ الْكِتَابِ لَذِينَ لَعَلَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) نكره الثعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 246/3.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن،
وإنما يقسم بعضهم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن
عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى،
فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، =

= وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بآية في غاية الحسن ثم
جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي إغريض،
وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً
للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيتان: 21 - 22.

﴿الزَّوْجِ﴾ الأصناف ﴿ما تركبون﴾ أي تركبونه.

فإن قُلْتُ: يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك (2)، وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبون؟ قُلْتُ: غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة، فقيل: تركبونه.

يَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣).

﴿على ظهوره﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام، ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن ينكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ثم يحموا عليها بالسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ إنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال سبحانه الذي سخر لنا هذا إلى قوله، لمنقلبون وكبر ثلاثاً وهل ثلاثاً (3) وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم (4)، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحانه الذي سخر لنا هذا فقال: ابهذا أمرتم فقال: وبم أمرنا: قال أن تذكروا نعمة ربكم كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه (5)، وهذا من حسن مراعاتهم آداب الله ومحافظتهم على نقيقتها وجليلها

مثل الأولين﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول الله ﷺ ووعيد لهم.

وَلَكِنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (١٤) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥).

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبها إن كان من قولهم (1) فما تصنع بقوله: ﴿فأنشرونا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله فما وجهه؟ قُلْتُ: هو من قول الله لا من قولهم ومعنى قوله: ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي هو من صفته كيت وكيت لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٦).

﴿يقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفاناً.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْفَارِ مَا تَعْكِبُونَ (١٧).

(1) قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم، وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهن وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾، ثم لما قالوا: خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه، وأخذه حذف الموصوف من كلامهم، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن نقول للرجل: من أكرمك من القوم، فيقول: أكرمني زيد، فنقول أنت واصفاً للمتكور الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتتان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة، وأخذه على الانتقال منها إلى التكلم في قوله: فأنشرونا كل تلك الفتان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فجاء أول الكلام حكاية عن موسى إلى قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافاً متصلة بكلام موسى، حتى كأنه كلام واحد وأبتدا في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فأنظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لم يحجر العبارة في هذا الموضع، فإن قوله: غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه يوهم أن بين الفعلين تبايناً وليس كذلك، فإن المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن غاية ما، ثم أن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة، وباعتبار بعضها بالمتعدي بنفسه، والاختلاف =

= بالتعدي والقصور أو باختلاف آلات التعدي، وباختلاف أبعاد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعنون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة: مثل: سكرت وأخواته، ويعنون الأفعال المترافئة بآلات مختلفة مثل: دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى لأنهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعنون بعضها إلى مفعولين ومرافه إلى مفعول واحد كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدي والقصور الاختلاف في المعنى، فالذي يحزر من هذا إن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة الآخر يسقطها، فالصواب لحد الأمرين، أما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والاقرب لتعليه باعتبار التعدي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: ﴿فاجتمعوا امركم وشركاكم﴾ على أحد التاويلين فيه، فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين في حيث المعنى اعني اجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقاربا غلب إحداهما على الآخر، ثم جعل المقلب هو المتعدي بنفسه، والله أعلم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: المسافرين، (الحديث: 2696)، أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر، (الحديث: 2599)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج، وغيره.

(4) قال الزليعي غريب، لكن رواه الطبراني في معجمه من قوله ﷺ لا من فعله إذ لا يعرف أن النبي ﷺ ركب السفينة، الزليعي: 3/ 250.

(5) رواه الطبراني في كتاب: الدعاء، ورواه الطبري، الزليعي: 251/3.

إلا بعد ما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به فكم بين فعل أولئك الركابين وبين ما أمره الله به في هذه الآية وقيل: ينكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿وجعلوا له من عبادته جزءاً﴾ متصل بقوله: ولئن سألتهم أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عبادته جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين ومعنى: من عبادته جزءاً إن قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضنا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له، ومن بدع التفسير تفسير الجزء بالأنثى وإدعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه اجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً.

إن اجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة وقرى جزواً بضميتين ﴿للكفور مبين﴾ لاجود للنعمة ظاهر جحوده لأن نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل لكفران كله.

أَرَأَيْتَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْأَبَيْنَ ﴿١٦﴾

﴿أرأيتكم﴾ بل اتخذوا الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجباً من شأنهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عبادته جزءاً حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين، وهو الإناث دون الذكور على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأوهن^(١) كانه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضاً، وتمثيلاً أما

جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ﴿مقرنين﴾ مطيقين يقال أقرن الشيء إذا أطاقه قال ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصديا وعد والهجر وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم في الضعيف لا يقرن به الصعبة وقرى مقرنين والمعنى واحد.

وَلَنَا إِلَهُ وَرَبَّآ كَلْفَيَوْنَ ﴿١٧﴾

فإن قلت: كيف اتصل بملك قوله: ﴿وإننا إلى ربنا لمنقلبون﴾ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شملت أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب، وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه وأنه هالك لا محالة فمقلب إلى الله غير منقلب من قضائه، ولا يدع نكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستغني بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا تنتزعه على الخيل، أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلائهم، وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرن إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره، وقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر فلم يصح

= تخرصون﴾ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكنيب الرسل، والإشراك بالله اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم لو شاء الله ما أشركنا، قضيه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أولئهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾، ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقاتلتهم حجة على الله أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: ﴿فقلل الحجة البالغة﴾، ثم أوضح في الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك لا لأن المقالة في نفسها كذب، فقال: ﴿قلو شاء لهداكم أجمعين﴾، وهو معنى قولهم: لو شاء ما أشركنا من حيث أن لو مقتضاه امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فقلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم بل شاء ضلالهم ولو شاء هداهم لما ضلوا فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم والنور اللائح والمنهج الواضح، والذي يحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم هو أنه تعالى جعل للعبد تائباً وتيسراً للهداية، وغيرها من الأفعال الكسبية حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينهما وبين العوارض القسرية، فهذه الآية أقامت الحجة ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة، ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الخفية، فلا جرم أن أقامهم تبديد، وأفكارهم تبيلت فقلت طائفة القدرية، واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة

(١) قال أحمد: نحن معاصر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئة الله تعالى حتى الضلالة والهدى اتباعاً لدليل العقل وتصديقاً لنص النقل في أمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً، ولا تفيد إلا تصويباً وتسديداً فنقول، إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً أما كونها كلمة حق فلما مهداه وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهّم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم البنية في ملك ربهم المتموج بالربانية جلّ وعلا، فإذا وضع ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقاتلتهم هذه لأنهم توهّموا أنها حجة على الله فحضر الله حجتهم ولكن أمانيهم، وبين أن مقاتلتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، وإن هم إلا يظنون، وقد أقصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير وبذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى نأقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا =

البراء منك والخلاء منك.

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي (٢٧).

﴿الذي فطرني﴾ فيه غير وجه أن يكون منصوباً على أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين وإن يكون مجروراً بدلاً من المجرور بمن كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني.

فإن قلْتُ: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين أحدهما أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات فكانت مخالفة للذوات ما يعبدون والثاني أن الله تعالى غير معبود بينهم والأولان معبوده؟ قلْتُ: قالوا كانوا يعبدون الله مع أولئانهم، وأن تكون إلا صفة بمعنى: غير، على أن ما في ما تعبدون موصوفة بتقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

فإن قلْتُ: ما معنى قوله: ﴿سيهدين﴾ على التسوية قلْتُ: قال مرة فهو يهدين ومرة فإنه سيهدين فاجمع بينهما وقدر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨).

﴿وجعلها﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ كلمة باقية في عقبه في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعوا إلى توحيده لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ونحوه ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه﴾، وقيل: وجعلها الله وقرى كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك وفي عقبه أي فيمن عقبه أي خلفه.

بَلْ مَنَعَتْ هُؤْلَاءُ ذُرِّيَّتَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩).

﴿بل منعت هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغترتوا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿ورسول مبين﴾ الرسالة واضحا بما معه من الآيات البينة فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم وقرى بل متعنا.

فإن قلْتُ: فما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قلْتُ: كان الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ (٢٩) فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعبيرهم لأنه

ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً.

فإن قلْتُ: ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم: إن الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخوضون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله! قلْتُ: تمحل مبطل وتحريف مكابر ونحوه قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آبأؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ (١).

أَمْ يَتَّبِعُونَ كُتُبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مَسْتَكِبُونَ (٣٠).

الضمير في ﴿من قبله﴾ للقرآن أو الرسول، والمعنى: أنهم الصقروا عبادة غير الله بمشيئة الله قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتاباً قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم.

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ وَأَنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُتَبَدِّلُونَ (٣١).

﴿إننا وجدنا آبائنا على آفة﴾ على دين، وقرى: على ﴿آفة﴾ بالكسر، وكلتاها من الأم وهو القصد فالآفة الطريقة التي تؤم أي: تقصد كالرحلة للمرحول إليه والآمة الخالة التي يكون عليها الأم، وهو القاصد وقيل: على نعمة وحالة حسنة ﴿على آثارهم مهتدون﴾ خبر إن أو الظرف صلة لمهتدون.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ وَأَنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُتَبَدِّلُونَ (٣٢).

﴿مترفوها﴾ الذين أترفهم النعمة أي: ابطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُمْ بِأَعْدَى مِمَّا رَدَّدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٣) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٤).

قرى: ﴿قل﴾ وقال وجئتمك وجئناكم يعني: اتبعون آبائكم ولو جئتمك بدين أهدى من دين آبائكم قالوا: إننا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

وَأَلَّا قَالَ الْإِثْرِيُّ لَأَيُّهُمُ رَفِيقِي إِنِّي بَرَّاهُ مِمَّا سَبَّحُونَ (٣٥).

قرى: ﴿براء﴾ بفتح الباء وضمها، وبرى فبرى وبراء نحو كريم كرام، وبراء مصدر كظماء ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمنكر والمؤنث يقال: نحن

الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً.

أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرِزْقًا بِمَعْنَاهُمْ قَوْلَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِسَخْرِطٍ مَعْشَرٍ مِمَّنْ سَخَرْنَا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾

﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم، وتحكمهم وأن يكونوا هم المدينين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بياهر قدرته وبإلغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فاعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وإن الله عزّ وعلا: هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودير أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسو بينهم، ولكن قاوت بينهم في أسباب العيش وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدماء ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدمهم في مهنتهم، ويتسخرهم في أشغالهم حتى يتعاضوا ويترافلوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم ولولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، وراقته العظمى وهو الطريق إلى حياة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام، ثم قال: ﴿ورحمت ربك﴾ يريد وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

فإن قلّت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع (3) ومنهم من يعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالجرام، فإن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال! قلّت: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته هي مطاعمه ومشاربه وما يصلحهم من المنافع، وأن له في تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً وسماها رزق الله وإذا لم يسلكها تناولها حراماً وليس له أن يسميها رزق الله، فالله تعالى قاسم المعاش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبون صفة

إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان لا أن يشركوا به، ويجعلوا له أنداداً فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله. وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا بَشَرٌ أَوَّارًا يَدْعُو كَثِيرُونَ ﴿٣٧﴾

فإن قلّت (1): قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع، ثم أرففه قوله:

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤاده قلّت: المراد بالتمتع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال عزّ وعلا: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيّل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبيه ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله، وشرائعه والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخيير محمد من أهل زمانه.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾

بقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم قرئ على رجل يسكنون الجيم من القريتين من إحدى القريتين كقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ (2) أي: من أحدهما والقريتان مكة والطائف وقيل: من رجلى القريتين وهما الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وعن قتادة الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول: لو كان حقاً ما يقول: محمد لنزل هذا القرآن علي أو على أبي مسعود الثقفي وأبو مسعود كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاؤا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين وقولهم: هذا القرآن نكر له على وجه الاستهانة به وأرادوا بعظم

= أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار، بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول، كأنهما شيان متناقضان يضرب عن أولهما، ويثبت آخرهما، ومثله كثير وبالله التوفيق.

(2) سورة الرحمن، الآية: 22.

(3) قال أحمد: قد تقدّم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالاً كان أو حراماً، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله وقد تقدّم.

(1) قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا، وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها، كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ آدَارُكُ عَلِمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾، وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها ردّ للاول، بل ثانيها أكد من

الحرمة بسوء تناولهم وهو عدو لهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرِّحْمَنِ لِيُؤْيِيَهُمْ سَقْفًا مِّنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لِيُؤْيِيَهُمْ﴾ بدل اشتغال من قوله لمن يكفر، ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك وهبت له ثوباً لقميصه، وقرئ: سَقْفًا بفتح السين وسكون القاف وبضمها وسكون القاف ويضمها جمع سقف كرهن ورهن، وعن الفراء جمع سقيفة وسَقْفًا بفتحيتين كأنه لغة في سقف وسقوفاً، ومعارج ومعاريح والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهي المصاعد إلى العالائي ﴿عليها يظهرون﴾ أي: على المعارج يظهرون السطوح يعلنونها فما استطاعوا أن يظهروها.

وَلِيُؤْيِيَهُمُ الْوَبْأُ وَرُؤْرًا عَلَيْهِ يَنْكُحُونَ ﴿٢٣﴾

وسرراً بفتح الراء لاستئصال الضميتين مع حرفي التضعيف.

وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْخَلْقَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾

﴿لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ﴾ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية وقرئ: بكسر اللام أي: الذي هو متاع الحياة كقوله تعالى: ﴿مثلاً ما بعوضة﴾^(١) ولما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرئ: إلا وقرئ: وما كل ذلك إلا، لما قال: ﴿خير

مما يجمعون﴾ فقلل أمر الدنيا وصغرها أردفه ما يقرر قلة الدنيا عنده من قوله: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقفاً ومصاعداً وأبواباً وسرراً كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفاً أي زينة من كل شيء^(٢).

والزخرف الزينة والذهب ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفًا على محل من فضة وفي معناه قول رسول الله ﷺ: لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء^(٣).

فَإِنْ قُلْتَ: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهذا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام^(٤)؛ قُلْتَ: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى.

وَمَنْ يَشَأْ عَنِ ذِكْرِ الْرَّحْمَنِ نَفَيْتُ لَمْ يَسْطِطْنَا فَوَهُ لَمْ قَرِينٌ ﴿٢٥﴾

وقرئ: ﴿ومن يعيش﴾ بضم الشين وفتحها والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به^(٥) قيل: عشا ونظيره عرج

== ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾، وأما الثانية: فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه، بقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾.

(٥) قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفانيتها العموم حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول، بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: أن الشرط يعم والنكرة في سياقه تعم، وقد ردّ عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه رداً عنيفاً. وفي هذه الآية للإمام، ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان نكر فيها منكرًا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدًا لوجهين أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانًا، فكيف بالعاشي عن نكر الله، والآخر يؤخذ من الآية وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: وأنهم، فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفانته عموم الضمير لما جاز عود الضمير لجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعيل لمخالف في هذا الرأي سكتة، النكتة الثانية: أن في هذه الآية ردًا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك، واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة، وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا﴾، قد أحسن الله له رزقاً، ونقض غيره بقوله: ﴿ومن الناس من يشترى لهُو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير

(١) سورة البقرة، الآية: 26.

(٢) قال أحمد: لولا هنا أخت لولا في قوله: ﴿ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قُتِمَ أيديهم﴾ الآية، فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة تلك بأن لا تقدر محنوقاً، كما قُتِمَتْ فيكون وجه الكلام هنا: أن إجماعهم للكفر مانع من بسط الدنيا، وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبداً مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لنكنتم من الخاسرين﴾، وهو الأكثر، وقد يكون وجوده تقييداً معه، وعلى ذلك الآية أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً لوجد مانع عندها، وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد، ثم قال: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهذا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان، وأجاب: بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما يؤدي إليه من الدخول في الإسلام، لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين. اهـ كلامه.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (الحديث رقم: 2320)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10465) أخرجه أبو نعيم في الحلية: 3/304 و253.

(٤) قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاستدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والآخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله: ==

الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعباءه وتقسيمهم لشئته وعنايته وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: يا ليت بيني وبينك على معنى، وإن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباحة القرين وقوله: ﴿إنكم في العذاب مشتركون﴾ تعليل أي: لن ينفعكم تمنيتكم لأن حَقِّكم أن تشتركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر وتقوية قراءة من قرأ إنكم بالكسر وقيل: إذا رأى الممنون بشدة من مني يمثلها روحه ذلك ونفس بعض كربه وهو التأسى الذي ذكرته الخنساء.

أعزى النفس عنه بالتأسى

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروِّحهم لعظم ما هم فيه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى إذا ظلمتم؟ قُلْتُ: معناه إذا صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين وذلك يوم القيامة وإذ بدل من اليوم ونظيره. إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة. أي تبين أنني ولد كريمة كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكد روحه في دعاء قومه وهم لا يزيديون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي أَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي سُلَكٍ مُنِيرٍ ﴿١٠﴾

فإنكر عليه بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر كقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (٥).

فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ وَإِنَّا مِنهُمْ مُنْذِرُونَ ﴿١١﴾

ما في قوله: ﴿فإنما نذيرٌ بك﴾ بمنزلة لام القسم في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة والمعنى: فإن قبضناك قبل أن نصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فإنما منهم منتقمون﴾ أشد الانتقام في الآخرة كقوله تعالى: ﴿أو نتوفيك فإلينا يرجعون﴾ (٦) وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعناهم من العذاب النازل بهم، وهو يوم بدر فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتونا وصفهم

لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطية:

مَتَى تَأْتَتْ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ

أي تنظر إليها نظر العشي لما يضعف بصره من عظم الوقود واتساع الضوء وهو بين في قول حاتم:

أَعْشَوْا إِذَا مَا جَارَتْ بَرْزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخَدْرَ

وقرىء يعشوا على أن من موصولة غير مضممة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن كقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾ (١) وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (٢) ﴿نقيض له شيطاناً﴾ نخله ونخل بينه وبين الشياطين كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرءاً﴾ (٣) ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ (٤)، وقرىء يقيض أي يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان.

وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٢﴾

فإن قُلْتُ: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وأنهم ليصدونهم﴾ قُلْتُ: لأن من مبهم في جنس العاشي وقد قبض له شيطان مبهم في جنسه فلما جاز أن يتناول لإبهامهما غير واحد جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً.

حَتَّى إِذَا جَاءَهُمَا قَالَ بَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الشَّرِيقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ ﴿١٣﴾

﴿حتى إذا جاءنا﴾ العاشي، وقرىء جآنا على أن الفعل له ولشيطانه ﴿قال﴾ لشيطانه ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران.

فإن قُلْتُ: فما بعد المشرقين؟ قُلْتُ: تباعدهما والاصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف البعد إليهما.

وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١٤﴾

﴿إنكم﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في

(1) سورة البقرة، الآية: 18.

(2) سورة النمل، الآية: 14.

(3) سورة قصص، الآية: 25.

(4) سورة مريم، الآية: 83.

(5) سورة فاطر، الآية: 22.

(6) سورة غافر، الآية: 77.

= علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه الآية، وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: يعش وله مرتين، ثم على المعنى في قوله: ليصونهم، ثم على اللفظ بقوله: حتى إذا جاءنا، وقد قُسمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعدت الجملة واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك، حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ فإن الجملة واحدة فانظره في موضعه.

بشدّة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدّة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

أَوْ تَرِيكَ الْكُفْرَ وَعَذَابَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّتَدِرُونَ ﴿١٧﴾

وقرى: ﴿تَرِيكَ﴾ بالنون الخفيفة وقرئ بالذي أوحى إليك على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر.

فَأَسْتَبِيكَ بِأَيْدِي أَوْلَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَبِيرٍ ﴿١٨﴾

فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعمل به؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقي وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخير.

رَأَيْتُمْ لِكُرْهِ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تَسْكَنُونَ ﴿١٩﴾

﴿وإنه﴾ وإن الذي أوحى إليك ﴿لنكر﴾ لشرف ﴿لك﴾ ولقومك ﴿و﴾ لسوف ﴿تسئلون﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالاته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن ملهم^(١) هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز المصنق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير منه مساواة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك فإنها إن لم تجبك حواراً أجابك اعتباراً وقيل: إن النبي ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمهم وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل.

وَتَلَّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُّعْبَدُونَ ﴿٢٠﴾

وقيل معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وعن الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَتَالَتْ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ إِذَا مِمَّا مِنَّا يَصْحَكَونَ ﴿٢٢﴾

ما أجابوه به عند قوله: إني رسول رب ﴿العالمين﴾ محنوف دل عليه قوله: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ أي: يسخرون منها ويهزؤون بها، ويسمونها سحراً وإذا للمفاجأة.

فإن قلّت: كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ قلّت: لأن فعل المفاجأة معها مقتر، وهو عامل النصب^(٢) في محلها كانه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم.

وَمَا تُرِيدُهُنَّ مِّنْ مَّيْمَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَآخَذَتْهُنَّ بِالْعَدَابِ لَعَلَّهُنَّ يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾

فإن قلّت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما اختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قلّت: اختها التي هي آية مثلها وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل، والاستقراء واحدة بعد واحدة كما تقول: هو أفضل رجل رأيته تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذ قروتهم رجلاً رجلاً.

فإن قلّت: هو كلام متناقض لأن معناه ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة قلّت: الغرض بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بني الناس كلامهم، فقالوا: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تلق لا قيت سيدهم مثل للنجوم التي يسري بها الساري
وقد فاضلت الانمارية بين الكلمة من بنيتها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلنهم إن كنت أعلم
أنهم أفضل هم كالحلقة المفزعة لا يدرى أين طرفاها
﴿لعلهم يرجعون﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان^(٣).

= بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(3) قال أحمد: تقدم في غير موضع أن لعل حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى، فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق وعليه تأول سيبويه ما ورد، وأما الزمخشري فيحمل لعل على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى من اعتقاد أن الله يريد شيئاً، ويريد العبد خلافاً فيقع مراد العبد، ولا يقع مراد الرب تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فما

(1) قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم فاسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق والله أعلم أن كل واحدة من هذه الآي إذا أقررتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وإن كل آية بونها فإذا نقل الفكرة إلى اختها استوعبت أيضاً فكره بعظمها وذمل عن الأولى، فجزم بأن هذه النهاية، وإن كل آية دونها، والحاصل أنها لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة =

وارزقتها لثلاث تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأوليتها أخس عبيدي قولها الخصب وكان على وضوئه، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ليس لي ملك مصر والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٧﴾

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ أم هذه متصلة لأن المعنى أقلاً تبصرون أم تبصرون إلا أنه، وضع قوله: أنا خير موضع تبصرون لأنه إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب، ويجوز أن تكون منقطعة على بل أنا خير والهمزة للتقرير وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر، وجرى الأنهار تحته ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كانه يقول: أثبت عندكم واستقر اني أنا خير وهذه حالي ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيف حقير وقرئ: أما أنا خير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرتبة يريد أنه ليس معه من العدد والآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسان والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أنبياء بلغاء.

فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَىٰ سُورَةٍ مِّن دَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْرِضِينَ ﴿٥٨﴾

وأراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار، وطوقوه بطوق من ذهب ﴿مَقْرِضِينَ﴾ إما مقترنين به من قولك قرنته فاقترن به وإما من اقترنوا بمعنى: تقارنوا لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه فوصفه بالضعف وقلة الأعضاء اعترض فقال: هلا إن كان صانعاً ملكه ربه وسودّه وسوره وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره، وقرئ: أساور جمع أسورة وأساور جمع أسوار وهو السوار وأسورة على تعويض التاء من ياء أساور، وقرئ: ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ تَتَابَعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَكِيرِينَ ﴿٥٩﴾

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فاستخفهم وحقيقته حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم وكذلك استخف من قولهم للخصيف فز.

فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَفَعْنَا مِنْهُنَّ فَأَعْرَفْنَهُنَّ جَمْعِينَ ﴿٦٠﴾

= مراد العبد يقيم، ومراد الرب لا يقع فبهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض نعوذ بالله من هذه الغواية ﴿هَرَبْنَا لَا تَرْغُ قُلُوبُنَا بَعْدَ إِذْ هَبِيتُنَا﴾.

فَإِنْ قُلْتُ: لو أراد رجوعهم لكان قُلْتُ: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ولا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع؛ لأنَّ الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه. والمراد بالعذاب السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَوْ لَنَا رَيْكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وقرئ: يا أيه الساحر بضم الهاء وقد سبق وجهه.

فإن قُلْتُ: كيف سمّوه بالساحر مع قولهم ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قُلْتُ: قولهم ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكته معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُورُونَ ﴿٦٢﴾

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُفُونَ﴾، فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم إِنَّا لَمُهْتَدُونَ، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر. بما عهد عندك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك وهو النبوة أو بما عهد عندك فوقيت به وهو الإيمان والطاعة، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عن أمتي.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعَثُوا آلِيَّ لِي مَلِكُ يُضَرِّهِمْ هَٰؤُلَاءِ الْكَاذِبُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقفاً له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك فاستند النداء إليه كقولك قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه، ويجوز أن يكون عنده عظامه القبط فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط فكانه نودي به بينهم فقال: ﴿اليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني: أنهار النيل ومعظمهما أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وقيل تحت سريره لارتفاعه، وقيل بين يدي في جناني وبساتيني ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر، وتجري نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر وعجب الناس من مدى عظمتهم وأمر فنودي بها في أسواق مصر،

= أثنعها زلة وأبشعها خلة، ولقد أساء الأدب في هذا الموضع حتى أنه لولا تعيين الرّد عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اهتمدى، وقد جرى على سنن أولئك في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وإضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وإن =

لدا⁽³⁾، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (4) ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم⁽⁵⁾ إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة؛ إلا أن ابن الزبير يخبه وخداعه وخبث نخلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساعاً فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقع في ذلك فتورق رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنِ﴾ فدل به على أن الآية الآية خاصة في الأصنام على أن الظاهر، قوله: وما تعبدون لغير العقلاء

وقيل لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ (6) قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت وقوله: ﴿آلهتنا خير أم هو﴾ على هذا القول تفضيل لآلهتهم على عيسى لأن المراد بهم الملائكة وما ضربه لك إلا جدلاً معناه وما قالوا هذا القول يعني: آلهتنا خير أم هو إلا للجدال، وقرئ آلهتنا خير بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها وفي حرف ابن مسعود خير أم هذا، ويجوز أن يكون جدلاً حالاً أي: جليلين وقيل لما نزلت ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً كما عبت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصنون يضجون ويضجرون والضمير في ﴿أَمَ هُوَ﴾ لمحمد ﷺ وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السخرية به والاستهزاء، ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم الملائكة بنات الله وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا نكراً من الفعل، فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشف منهم قولاً وفعلًا فإننا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقليل لهم مذهب النصارى شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تتصلكم مما أنتم عليه بما، أوردموه إلا قياس باطل بباطل.

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٨).

وما عيسى ﴿إلا عبد﴾ كسائر العبيد ﴿أنعمنا عليه﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَا مِنْكَ كَلِيبًا مِّنْ الْأَرْضِ يَخْلُفُوكَ (٥٩).

﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر.

﴿أسفونا﴾ منقول من أسف أسفا إذا اشتد غضبه ومنه الحديث في موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر⁽¹⁾ ومعناه: إنهم أقرطوا في المعاصي وعنوا طورههم فاستوجبوا أن نجعل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم.

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦).

وقرئ: سلف جمع سالف كخادم وخدم وسلفاً بضمين جمع سليف أي: فريق قد سلف وسلفاً جمع سلفة أي ثلة قد سلفت ومعناه فجعلناهم قنوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل يحدثون به، ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، لما قرأ رسول الله ﷺ على قریش ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال عبد الله بن الزبير: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة الست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثنى عليه خيراً وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا مهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فانزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنِ﴾ ونزلت هذه الآية⁽²⁾، والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبير عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه.

وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧).

﴿إذا قومك﴾ قریش من هذا المثل ﴿يصدون﴾ ترتفع لهم جلبية وضجيج فرحاً وجزلاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجنله كما يرتفع لفظ القوم ولجبيهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم، وأما من قرأ يصدون بالضم فمن الصدود أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصيد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو يعكف ويعكف ونظائر لهما.

وَقَالُوا ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ مِّمَّا ضَرَبْنَاهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨).

﴿وقالوا آلهتنا خير أم هو﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيئاً ﴿ما ضربه﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لك إلا جدلاً﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بل هم قوم خصمون﴾ لدشداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى: ﴿قَوْمًا

(4) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک: 4/478.

(6) سورة آل عمران، الآية: 59.

(1) تقدم في سورة طه.

(2) تقدم في سورة الأنبياء.

(3) سورة مريم، الآية: 97.

أَلَيْسَ (١٥).

﴿الاحزاب﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل اليهود والنصارى ﴿وقيل للذين ظلموا﴾ وعيد للأحزاب.

فإن قُلْتُ: من بينهم إلى من يرجع الضمير فيه قُلْتُ: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قد جئتمكم بالحكمة وهم قومه المبعوث إليهم.

مَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٦).

﴿أن تأتيهم﴾ بدل من الساعة، والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

فإن قُلْتُ: أما أدى قوله ﴿بغته﴾ مؤدى قوله ﴿وهم لا يشعرون﴾ فيستغنى عنه؟ قُلْتُ: لا لأن معنى قوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله تعالى: ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾ (٢) ويجوز أن تأتيهم بغته وهم فطنون.

الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (١٧).

﴿يومئذٍ﴾ منصوب بعدو أي تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالفين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتا إلا خلة المتصافين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا راوا ثواب التحاب في الله تعالى، والتباغض في الله وقيل ﴿إلا المتقين﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء، وقيل نزلت في أبي بن خلف وعقبة ابن أبي معيط.

يَعْبَادُ لَا حَورَ عَلَيْكَ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آتَرُ تُخْرَجُونَ (١٨).

﴿يا عبادي﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذٍ. وقرئ: يا عباد.

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (١٩).

﴿والذين آمنوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادي مضاف أي الذين صدقوا ﴿بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقيل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فيياس الناس منها غير المسلمين.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٢٠).

﴿تحبسون﴾ تسرون سرورًا يظهر حباراه أي أثره على وجوهكم كقوله تعالى: تعرف في وجوههم نضرة النعيم وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْآلُفُ

﴿لجعلنا منكم﴾ لوللنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولانكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلّموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام وذات القديم متعالية عن نلك.

وَإِنَّكُمْ لَوَلِيُمْ لِسَاعَةٍ فَلَا تَمَتُّرْكِ يَهَا وَتَتَّخِذُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٢١).

﴿وإنه﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿للعلم للساعة﴾ أي: شرط من أشرطها تعلم به فسمي الشرط علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة، وقرئ للعلم وقرأ أبي لنكر على تسمية ما ينكر به نكرًا كما سمي ما يعلم به علمًا، وفي الحديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين ويديه حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقمنه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به (١) وعن الحسن أن الضمير للقرآن وأن القرآن به علم الساعة لأن فيه الإعلان بها ﴿فلا تمترن بها﴾ من المرية وهي الشك ﴿واتبعون﴾، واتبعوا هداي وشرعي أو رسولي وقيل هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي ادعوك إليه أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وإنه للقرآن.

وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢).

﴿عدو مبين﴾ قد أبانت عداوته لكم إذ أخرج آياكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَقْرَأَ اللَّهُ رُؤُوسَهُمْ (٢٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٢٤).

﴿بالبينات﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿بالحكمة﴾ يعني: الإنجيل والشرائع.

فإن قُلْتُ: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه قُلْتُ: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتبعوا بمعرفته والسؤال عنه وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعينهم من أمر دينهم.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لَلْذِيكَ طَعَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَبُورُ

(2) سورة يس، الآية: 49.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير (الحديث: 2222). وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا. (الحديث: 242).

وَبَكَدُ الْأَعْيَتْ وَأَسْرَتْ فِيهَا خَلِيدُوتَ (٧٦).

والكوب الكوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ الضمير للجنة، وقرئ تشتبه وتشتبه وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون.

وَبَكَدُ لَجْنَةُ أَلَيْ أُرْثَمُوها بِمَا كَثُرَ تَعْمَلُوتَ (٧٧).

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الجنة المنكورة وهي مبتدا و﴿الجنة﴾ خبر و﴿التي أورثتموها﴾ صفة الجنة أو الجنة صفة للمبتدا الذي هو اسم الإشارة والتي أورثتموها خبر المبتدا، أو التي أورثتموها صفة و﴿بما كنتم تعملون﴾ الخبر والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار، أو في الوجه الأول تتعلق بأورثتموها وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ ورثتموها.

لَكَرَ فِيهَا فَلَكَهَ كَبِيرَةٌ فِيهَا تَأْكُلُونَ (٧٨) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٩).

﴿منها تاكلون﴾ من للتبعيض أي لا تاكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبداً مورقة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وعن النبي ﷺ لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاً (١).

لَا يَنْتَرِ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوُونَ (٨٠) وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ (٨١).

﴿لا يفتر عنهم﴾ لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرها، والمبلس اليأس الساكت سكوت يأس من فرج، وعن الضحاک يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى ﴿هم﴾ فصل عند البصريين عماد عند الكوفيين، وقرئ وهم فيها أي: في النار وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما يا مال بحذف الكاف للترخيم كقول القائل:

والحق يا مال غير ما تصف

وقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ: ونالوا يا مال، فقال: ما شغل أهل النار عن الترخيم (٢)؛ وعن بعضهم حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الإسم لضعفهم وعظم ما هم فيه، وقرأ أبو السرار الغنوي يا مال بالرفع كما يقال يا حار.

وَكَاذِبًا يَكِيدُكَ يُفَيْضُ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَنَّكَوَتَ (٨٢).

﴿ليقض علينا ربك﴾ من قضى عليه إذا أماته فوكزه موسى فقضى عليه والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا.

فَإِنْ قُلْتُ: كيف قال ونالوا يا مال بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قُلْتُ: تلك أزمته متطولة وأحباب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكنون أوقافاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويغوثون أوقافاً لشدة ما بهم ﴿ماكنون﴾ لا يثبون وفيه استهزاء، والمراد خالدون عن ابن عباس رضي الله عنهما إنما يجيبهم بعد ألف سنة (٣)، وعن النبي ﷺ يلقي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون ادعوا مالاً فيدعون يا مال ليقض علينا ربك (٤).

لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَئِي كَرِهُوا (٨٣).

﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل بلبيل قراءة من قرأ لقد جئتمكم، ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل لما سألوا مالاً أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم أجابهم الله بذلك ﴿كاهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشتمون منه لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

أَمْ أَمْرًا أَمَرًا فَإِنَّا مُرْسِلُونَ (٨٤).

﴿أم﴾ إبرم مشركو مكة ﴿أمراً﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فإننا مبرمون﴾ كيننا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: ﴿أم يريون كيداً﴾ (٥) فالذين كفروا هم المكيون وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفِيُونَ (٨٥).

فَإِنْ قُلْتُ: ما المراد بالسر والنجوى؟ قُلْتُ: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بلى﴾ نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿ورسلنا﴾ يريد الحظفة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك، وعن يحيى بن معاذ الرازي من ستر من الناس ننبه وأبداها للذي لا يخفي عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ رَحْمَةٌ قَدْ أَزَلَّ الْأَمِيزِينَ (٨٦).

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح تورونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فإننا أول﴾ من يعظم تلك الولد، وأسبغكم إلى طاعته والانتقاد له (٦) كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على

(5) سورة الطور، الآية: 42.

(1) تقدم في سورة البقرة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزخرف، باب: دونواو يا مال... (الحديث: 4819).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار، (الحديث: 2586).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(6) قال أحمد: لقد اجترأ عظيمًا، واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه علياً إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعنًى عليه، فإننا أول القائلين: إنه شيطان وليس به، فلينقم عليه ذلك بقول القائل قد ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لنلك في القلوب، كما خلق الإيمان وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق =

يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب وإعلام
لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين
لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب ونلول
وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان كقوله تعالى:
﴿اعملوا ما شئتم﴾⁽²⁾ وإبعاد بالشقاء في العقابة ضمن
اسمه تعالى معنى وصف لذلك علق به الظرف في قوله:
في السماء وفي الأرض⁽³⁾ كما تقول: هو حاتم في طي
حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به
كانك قلت هو جواد في طي جواد في تغلب.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيلُ ﴿٤٦﴾
وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْبُتُونُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَالَّذِي يُرْجَمُونَ ﴿٤٧﴾.

وقرئ: ﴿وهو﴾ الذي في السماء الله وفي الأرض الله
ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾
كانه ضمن معنى المعبود، أو المالك أو نحو ذلك والراجع
إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم ما أنا بالذي
قائل لك شيئاً وزاده طويلاً أَنَّ المعطوف داخل في حيز
الصلة ويحتمل أن يكون في السماء صلة الذي وإله خبر
مبتداً محذوف على أَنَّ الجملة بيان للصلة، وَأَنَّ كونه في
السماء على سبيل الإلهية والربوبية لا على معنى
الاستقرار وفيه نفى الألهة التي كانت تعبد في الأرض
﴿ترجعون﴾، قرئ بضم التاء وفتحها ويرجعون بياء
مضمومة وقرئ تحشرون بالتاء.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ مِّنْ يَقُولُ اللَّهُ فَاكُّ يُوَفِّقُونَ ﴿٤٩﴾.

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما
زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شهد بالحق﴾
وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان
وإخلاص هو الذي يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع
ويجوز أن يكون متصلاً، لَأَنَّ في جملة الذين يدعون من
دون الله الملائكة، وقرئ تدعون بالتاء وتدعون بالياء
وتشديد الدال.

وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿وقيله﴾، قرئ بالحركات الثلاث، ونكر في النصب عن

سبيل الغرض والتمثيل لغرض⁽¹⁾، وهو المبالغة في نفى
الولد والإطباب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا
مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب
التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد، وهي محال
في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة
إثبات الكيونة والعبادة، وفي معنى نفيعها على أبلغ الوجوه
واقواها ونظيره أن يقول العلوي للمجير إن كان الله تعالى
خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فانا أول
من يقول هو شيطان وليس بإله، فمعنى: هذا الكلام وما
وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون الله تعالى خالقاً
للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة
فيه من الوجه الذي نكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب
وضلالة الذاهب إليه والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح
عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه،
ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جببر رحمه الله للحجاج
حين قال له: أما والله لأبذلنك بالدنيا نازاً تلظى لو عرفت أن
ذلك إليك ما عبت إليها غيرك، وقد تحمل الناس بما
أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت
والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقل:
إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فانا أول العابدين
الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه وقيل: إن
كان للرحمن ولد في زعمكم فانا أول الأنفين من أن يكون
له ولد من عبد يعبد إذا أشد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ
بعضهم العبيدين وقيل هي إن النافية أي ما كان للرحمن
ولد فانا أول من قال بذلك وعبد ووجد، وروى أن النضر بن
عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت فقال
النضر: ألا ترون أنه قد صدقني فقال له: الوليد بن المغيرة
ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فانا أول
الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وقرئ ولد بضم الواو.

سُبْحَنَ رَبِّكَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٥١﴾.

ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض
والعرش عن اتخاذ الولد ليليد على أنه من صفة الأجسام
ولو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم وتبدير أمره.

نَدْرَهُمْ يُخْرُؤُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم ﴿ويلعبوا﴾ في
دنياههم ﴿حتى يلاقوا يومهم﴾ وهذا ليليل على أن ما

(2) سورة فصلت، الآية: 40.

(3) قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافاً إلى الطول الذي نكره
وقوع الموصول خبراً عن مضمحل لو ظهر الراجع لكان كالتكرار
المستكر، إذ كان أصل الكلام، وهو الذي هو في السماء إله، ولا
ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وإن الراجع
إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد، فإنه لم يرد في الكتاب
المعزى إلا في قوله تماماً على الذي أحسن، ومع أي في موضعين
على رأي.

= إلا الله، وتصديقاً بمضمون قوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله﴾،
وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾، وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلأ
لزمه فرك أننه، وغل عنقه إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبق إليه
لحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مرده الفجرة، ومن
خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ، فقال هذه
المقالة، واقتحم هذه الضلالة بلا محالة، فإنه قد صرح بكلمة
الفكر على أقبح وجوهها وأشنع انحائها، والله المسؤول أن
يعصمنا وهو حسينا ونعم الوكيل.

(1) نكره للعلوي، وابن مردويه، ونكره الوليدي في التفسير: 258/3.

شعبان ولها أربعة أسماء الليلة المباركة و ليلة البراءة و ليلة الصك و ليلة الرحمة، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل في تسميتها ليلة البراءة والصك أن البندار إذا استوفي الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هي مختصة بخمس خصال تفريق كل أمر حكيم، وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ: من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكاييد الشيطان⁽¹⁾، ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: إن الله يرحم، أمّتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب⁽²⁾، وحصول المغفرة قال عليه الصلاة والسلام: إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للموالدين، أو مصرّ على الزنا⁽³⁾ وما أعطى فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير⁽⁴⁾، ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة والقول الأكثر أن المراد بالليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾⁽⁵⁾ ولمطابقة قوله ﴿فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ لقوله: ﴿نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾⁽⁷⁾ وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان.

فإن قلّنا: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلّنا: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا.

فإن قلّنا:

﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟ قلّنا: هما جملتان مستانفتان ملفوفتان فسرهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾⁽⁸⁾ كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة

الأخفش أنه حملة على أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وعنه وقال قيله وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمراً وحمل الجرّ على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده، وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم آمين الله، وإمانة الله ويمين الله ولعمرك ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم كأنه قيل واقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

فَصَحَّحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(٨).

﴿فأصفح عنهم﴾ فأعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم وودعهم وتاركهم ﴿وقل﴾ لهم ﴿سلام﴾ أي تسلم منكم ومتاركه ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسليّة لرسوله ﷺ والضمير في وقيله لرسول الله ﷺ وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجاء إليه: عن النبي ﷺ من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون أدخلوا الجنة بغير حساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان مكية

حَمْدٌ ١ وَالْكِتَابِ الْبَرِّينِ ٢.

الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت حم تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة مرفوعًا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسمًا بها.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٢ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن، والليلة المباركة ليلة القدر وقيل ليلة النصف من

(1) قال الزيلعي: رواه سليم بن أيوب الرازي في كتاب: الترغيب، ورواه محمد بن ناصر السلمي في كتاب: فضائل شعبان، وفي

الغريب، الزيلعي: 261/3.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 739)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 1389).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: ما جاء في=

= التباض والتحاسد، (الحديث: 5665).

(4) قال الزيلعي غريب: 266/3.

(5) سورة القدر، الآية: 1.

(6) سورة القدر، الآية: 4.

(7) سورة البقرة، الآية: 185.

(8) سورة الدخان، الآية: 3.

مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وفي قراءة زيد بن علي أمر من عندنا على هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص، وقرا الحسن رحمة من ربك على تلك رحمة وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته وإنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْأُولَى ﴿٨﴾.

وقرئ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ﴾ بالجر بدلاً من ربك.

فإن قلنا: ما معنى الشرط الذي هو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؟ قلنا: كانوا يقررون بأن للسموات والأرض رباً وخالفوا فقيل لهم إِنَّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقررون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول: إِنَّ هذا إنعام زيد الذي تسمع الناس بكبره واشتهروا سخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته، ثم ردوا أن يكونوا موقنين.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾.

بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وإن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن ولا عن جدٌ وحقيقة بل قول مخلوط بهزل ولعب.

فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ دُخَانًا يُبِينُ ﴿١٠﴾.

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ مفعول به مرتقب يقال رقبته وارتقبته نحو نظرتُه وانتظرتُه، واختلف في الدخان، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبه أخذ الحسن أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيد ويعتري المؤمن منه كهية الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص، وعن رسول الله ﷺ أول الآيات الدخان ونزل عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلا المحشر قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية (2)، وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهية الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخرية وأذنيه ووبره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه خمس قد مضت الروم والدخان والقمر والبطشة واللام (3)، ويروى أنه قيل لابن مسعود إن قاصاً عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بانفاس الخلق

مفرق كل أمر حكيم، والمباركة الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، ومعنى يفرق يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وأجالاتهم وجميع أمورهم منها إلى الأخرى القابلة، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت، وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على السنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقرئ نفرق بالتشديد ويفرق كل على بنائه للفاعل ونصب كل والفارق الله عز وجل، وقرا زيد بن علي رضي الله عنه تفرق بالنون كل أمر حكيم كل شأن ذي حكمة أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة وهو من الإسناد المجازي لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز.

أَمَّا مِنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾.

﴿أَمَّا مِنْ عِندِنَا﴾ نصب على اختصاص جعل كل أمر جزلاً فخما بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا كائنًا من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتبيرانا، ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ثم إما أن يوضع موضع فرقنا الذي هو مصدر يفرق؛ لأن معنى الأمر والفرقان واحد من حيث أنه إذا حكم بالشئ وكتبه، فقد أمر به وأوحى أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه إما من ضمير الفاعل أي أنزلناه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل.

فإن قلنا: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بم يتعلق قلنا: يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ و﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مفعولاً له على معنى: إِنَّا أنزلنا القرآن لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلاً ليفرق أو لقوله: ﴿أَمَّا مِنْ عِندِنَا﴾ ورحمة مفعولاً به وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْسِكُ فَلَا مَرْسَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (1) أي: يفصل في هذه الليلة كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عالتنا أن نرسل رحمتنا، وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا لأن الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع والأصل إِنَّا كُنَّا

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة حم الدخان، باب:

«يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكَبْرَى» (الحديث: 4825).

(1) سورة فاطر، الآية: 2.

(2) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي: 3/266.

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يريد يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ (٢) ﴿إننا منتقمون﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم.

فإن قلْتُ: بم انتصب يوم نبطش قلْتُ: بما دل عليه إننا منتقمون وهو ننتقم ولا يصح أن ينتصب بمننتقمون، لأنَّ إن تحجب عن ذلك وقرئ نبطش بضم الطاء، وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم، وقيل البطشة الكبرى يوم بدر.

وَلَقَدْ فَتَنَّا بَقَائَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾

وقرئ: ﴿ولقد فتنا﴾ بالتشديد للتأكيد أو لوقوعه على القوم، ومعنى الفتنة أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق فكان ذلك سبباً في ارتكابهم المعاصي، واقترافهم الآثام أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا فاخترأوا الكفر على الإيمان أو سلبهم ملكهم وأغرقهم ﴿كريم﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم في نفسه لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم.

أَن أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيَّ لَكُرْ رَسُولُ آيِينَ ﴿١٨﴾

﴿إن أنوا إلي﴾ هي أن المفسرة لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول: لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله أو المخففة من الثقلية، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أنوا إلى ﴿وعباد الله﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول أنوهم إلى وأرسلوهم معي كقوله تعالى: ﴿أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ (٣) ويجوز أن يكون نداء لهم على أنوا إلي يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي وعلل ذلك بأنه ﴿رسول أمين﴾ غير ظنين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

وَأَن لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهَ إِلَٰهٍ كَرِهَ اللَّهُ لَهَا ذِكْرًا وَكَرِهَ اللَّهُ لَهَا ذِكْرًا وَكَرِهَ اللَّهُ لَهَا ذِكْرًا ﴿١٩﴾

﴿وأن لا تقولوا﴾ أن هذه مثل الأولى في وجهيها أي: لا تستكبروا ﴿على الله﴾ بالاستهانة برسوله ووحيه، أو لا تستكبروا على نبي الله ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة.

وَلَا يَكُنْ لَهُ دِينٌ وَلَا يَكُنْ لَهُ دِينٌ وَلَا يَكُنْ لَهُ دِينٌ ﴿٢٠﴾

﴿أن ترجمون﴾ أن تقتلون، وقرئ: ﴿عذت﴾ بالإدغام ومعناه أنه عائد بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن

فقال: من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم؛ فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه الله أعلم ثم قال: ألا، وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف (١)، فاصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض البخان وكان يحتث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من البخان فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وأعوذ به إن دعا لهم، وكشف عنهم أن يؤمنوا فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ﴿ببخان مبين﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه بخان.

يَعْنِي النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ إِلَيْهِ ﴿٢١﴾

﴿يعني الناس﴾ يشملهم ويلبسهم وهو في محل الجر صفة لبخان و﴿هذا عذاب﴾ إلى قوله مؤمنون منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك.

رَبَّنَا كَيْفَ عَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾

﴿إننا مؤمنون﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

أَن لَّمْ يَكُنْ لَّكَ دِينٌ وَلَا يَكُنْ لَّكَ دِينٌ وَلَا يَكُنْ لَّكَ دِينٌ ﴿٢٣﴾

﴿أنلي لهم الذكرى﴾ كيف ينكرون، ويتعظون ويفنون بما وعده من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وقد جاءهم﴾ ما هو أعظم وأشد في وجوب الانكار من كشف البخان وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات، فلم ينكروا.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجُوهُ مُجْرُومٌ ﴿٢٤﴾

وتولوا عنه وبهتوه بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ونسبوه إلى الجنون.

إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٢٥﴾

ثم قال: ﴿إننا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ أي: ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غيب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهاال.

فإن قلْتُ: كيف يستقيم على قول من جعل البخان قبل يوم القيامة قوله: إننا كاشفو العذاب قليلاً قلْتُ: إذا أتت السماء بالبخان تضرع المعذبون به من الكفار، والمنافقين وغوثوا وقالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إننا مؤمنون﴾ منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون.

= أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلاة (الحديث: 804). وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب

(2) سورة الفاتحات، الآية: 34.

= (3) سورة طه، الآية: 47.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804). وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نزلت والعمياء بالله (الحديث: 675/295).

﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أو في موضع الرفع على الأمر كذلك ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم فاهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١٦﴾

إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس وفي حديث رسول الله ﷺ ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض وقال جرير: تبكي عليك نجوم الليل والقمر، وقالت الخارجية:

يا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
ونلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من بكاء مصلى المؤمن وأثارة في الأرض ومساعد عمله ومهايط رزقه في السماء تمثيل، ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض، وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا.

وَلَقَدْ جِئْنَا بِحَبْلِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ السَّافِرِينَ ﴿٢١﴾

﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذاباً موهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم، ويجوز أن يكون المعنى من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون، وقرئ من عذاب المهين، ووجهه أن يكون تقدير قوله من فرعون من عذاب فرعون حتى يكون المهين هو فرعون، وفي قراءة ابن عباس من فرعون لما وصف عذاب فرعون بالشدّة والفظاعة قال من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه وشيظنته؟ ثم عرف حاله في ذلك بقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبيراً رفيع الطبقة ومن بينهم فائقاً لهم بليغاً في إسرافه، أو عليّاً متكبراً كقوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، ومن المسرفين خبر ثان كأنه قيل إنه كان متكبراً مسرفاً الضمير.

وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَٰى الْمَلَكِينَ ﴿٢٢﴾

في ﴿اخترناهم﴾ لبني إسرائيل و ﴿على علم﴾ في موضع الحال أي عالمين بمكان الخيرة وبأنهم أحقاء بأن يختاروا، ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بأنهم يزيغون

كيدهم فهو غير مبال بما كانوا يتوعونه به من الرجم والقتل.

وَأَنْ تَرْجُوا إِلَىٰ مَا نَبُذُوكُمْ ﴿٢٣﴾

﴿فاعتزلون﴾ يريد إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمنوا فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني أي: فخلوني كفاً لا لي ولا علي ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم ذلك.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ بأن هؤلاء أي دعا ربه بذلك قيل: كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم وقيل هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وإنما نكر الله تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك وهو كونهم مجرمين وقرئ: إِنْ هَؤُلَاءِ بالكسر على إضمار القول أي فدعا ربه فقال إِنْ هَؤُلَاءِ.

فَأَنزِلْ بِرَيْدِي لَيْلًا بِكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٥﴾

﴿فأنسر﴾ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ووصلها من سرى وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء، فقال: أسر بعبادي وأن يكون جواب شرط محذوف كأنه قيل قال إن كان الأمر كما تقول فأنسر ﴿بعبادي﴾ يعني: فأنسر ببني إسرائيل، فقد دير الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجي المتقدمين ويغرق التابعين، الرهو فيه وجهان أحدهما أنه الساكن قال الأعشى:

يمشين رهواً فلا الأعجاز خائلة ولا الصبور على الأعجاز تنكل
أي مشياً ساكناً على هيئة أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه، فانطلق فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئة قاراً على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه، ولا يغير منه شيئاً لينخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم والثاني أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجأ، فقال: سبحان الله وهو بين سنامين أي اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً.

وَأَتْرَكَ الْأَجْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّرْجُونَ ﴿٢٦﴾

﴿إنهم جند مغرورون﴾، وقرئ بالفتح بمعنى لأنهم.

وَرَزَّزِعَ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٧﴾

والمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل المنابر.

وَيَسْمَرُ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ﴿٢٨﴾

والنعمة بالفتح من التمتع وبالكسر من الإنعام، وقرئ فأكهين وفكهين.

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٩﴾

ويفرط منهم الفراطات في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ على عالمي زمانهم، وقيل على الناس جميعاً لكثرة الأنبياء منهم.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَبُرُوا كُفْرَهُمْ (٣٢).

﴿من الآيات﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المُنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بلاء مبين﴾ نعمة ظاهرة لأن الله تعالى يبلوا بالنعمة كما يبلو بالمصيبة، أو اختبار ظاهر ننظر كيف تعملون كقوله تعالى: ﴿وفي نلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ (١).

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَوْمٌ (٣٣) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٤).

﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى كفار قريش. فإن قلّت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت (٢) فهذا قيل إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين كما قيل: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ وما معنى قوله:

﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ وما معنى نكر الأولى كانهم وعدوا موته أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؛ قلّت: معناه والله الموفق للصواب أنه قيل لهم: أنكم تموتون موته تعقبها حياة كما تقمتمكم موته قد تعقبها حياة وذلك قوله عز وجل: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم﴾ (٣) فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يربون ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله إن هي إلا حياتنا الدنيا في المعنى، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم.

فَأَنزِلْنَا بَابَانَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٥) أَمْ حَرَىٰ أَمْ قَوْمٌ تُنَجَّى وَالَّذِينَ نَبِّئُهُمْ بِمَا أَنبَأْنَا بَلَّغُوا مَتَّعْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٣٦).

﴿فأتوا بآبائنا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك

حتى يكون قليلاً على أن ما تدعون من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه؛ فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعظم الشؤون، هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك نَمَّ الله قومه ولم يَمْهَ وهو الذي سار بالجيش وحير الحيرة وبني سمرقند وقيل: هدمها وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك بَرّاً وبحراً، وعن النبي ﷺ لا تسبوا تبعاً، فإنه كان قد أسلم (٤) وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبى (٥) وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان نبياً وقيل نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوي وقبر حبي بنت تبع لا تشركان بالله شيئاً وقيل: هو الذي كسا البيت وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل الأقبال لأنهم يتقبلون، وسمى الظل تبعاً لأنه يتبع الشمس.

فإن قلّت: ما معنى قوله تعالى:

﴿أهم خير﴾ ولا خير في الفريقين قلّت: معناه أهم خير في القوة والمتعة كقوله تعالى: ﴿أكفركم خير من أولئكم﴾ (٦) بعد نكر آل فرعون وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أهم أشد أم قوم تبع.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَكَيْتُمْ (٣٧) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨).

﴿وما بينهما﴾ وما بين الجنسين وقرأ عبيد بن عمير وما بينهن.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبِئْشُهُمْ أَجْوِبُ (٣٩).

وقرأ: ﴿ميفقاتهم﴾ بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل.

يَوْمَ لَا يَنْبِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٠).

﴿لا يغني مولى﴾ أي مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عن مولى﴾ عن أي مولى كان ﴿شيئاً﴾ من إغناء أي قليلاً منه ﴿ولا هم ينصرون﴾ الضمير للموالي لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى.

= فإن الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان، والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طراً عليها هذا، مع أن في بقية السورة قوله تعالى: ﴿لا يدقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ وإنما عنى بالموتة الأولى هنا الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط، ففيه إرشاد لما ذكرته والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) أخرجه أحمد في المسند 340/5.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التخيير، بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، (الحديث رقم: 4674).

(6) سورة القمر، الآية: 43.

(1) سورة البقرة، الآية: 49.

(2) قال أحمد: وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين، الأولى: منهما الموت، والأخرى: حياة البعث، أثبتوا الحالة الأولى وهي: الموت، ونفوا ما بعدها وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات، فجعلوها أولى على ما نكرت لهم، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين أحدهما: أن الاقتصاد عليها لا يعتقونه؛ لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة تنكر لا على نفس الموت المشاهد لهم فيه عنول عن الظاهر بلا حاجة، الثاني: أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة، =

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على البذل من اللوا في ينصرون أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله ويجوز أن ينتصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من عصاه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أطاعه.

إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿١٤﴾

قرئ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ بكسر الشين وفيها ثلاث لغات شجرة بفتح الشين وكسرهما وشيرة بالياء، وروي أنه لما نزل تلك خير نزل أم شجرة الزقوم قال ابن الزبيري: إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ يَدْعُونَ أَكْلَ الزَّيْدِ وَالتَّمَرِ التَّزْقُمَ فَدَعَا أَبُو جَهْلٍ بَتْمَرَ وَزَيْدَ فَقَالَ: تَزْقُمُوا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَخُوفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ فَذَنَلْ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْآثِمِينَ﴾ وهو الفاجر الكثير الآثام وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول طعام اليتيم^(١) فقال: قل طعام الفاجر يا هذا وبهذا يستدل على أَنَّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها، ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً قالوا وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لَأَنَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ خُصُوصًا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجَزٌ بِفَصَاحَتِهِ وَغَرَابَةِ نَظْمِهِ وَأَسَالِيْبِهِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَعْنَى وَالْأَغْرَاضِ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِأَدَائِهِ لِسَانُ مَنْ فَارَسِيَّةٌ وَغَيْرَهَا، وَمَا كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْسِنُ الْفَارَسِيَّةَ فَلَمْ يَكُنْ تِلْكَ مِنْهُ عَنِ تَحْقِيقٍ وَتَبَصُّرٍ، وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ مِثْلَ قَوْلِ صَاحِبِيهِ فِي إِنْكَارِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارَسِيَّةِ.

كَأَنَّهُمْ يَبْنِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٥﴾

﴿كأالمهل﴾ قرئ: بضم الميم وفتحها وهو بردى الزيت ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾^(٢) مع قوله فكانت وردة كالدهان وقيل هو ذائب الفضة والنحاس.

كَتَمْنَا الْحَبِيرَ ﴿١٦﴾

والكاف رفع خبر بعد خبر وكذلك ﴿تَغْلَى﴾ وقرئ: بالتاء للشجرة وبالياء للطعام و ﴿الْحَمِيمِ﴾ الماء الحار الذي انتهى غليانه.

خُذْرُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَّا سَوْءَ الْحَبِيرِ ﴿١٧﴾

يقال للزبانية: ﴿خُذْرُهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ فقوبوه بعنف وغلظة وهو أن يأخذ بتلييب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ومنه العتل وهو الغليظ الجافي، وقرئ: بكسر التاء وضمها ﴿إِلَى سِوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٨﴾

فإن قلَّت: هلا قيل صبوا فوق رأسه من الحميم كقوله تعالى: يصب من فوق رؤوسهم الحميم لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه! قلَّت: إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة كقوله: صببت عليه صروف الدهر من صيب. وكقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾^(٣) فذكر العذاب معلقاً به الصب مستعاراً له ليكون أهول وأهيب.

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾

يقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ على سبيل الهزؤ والتهمك بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه وروى أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وقرئ: إِنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قرأ به على المنبر.

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب أو إن هذا الأمر هو ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون، أو تتمارون وتتلاجون.

إِنَّ الْمَتَيْنِ فِي مَفَاكِرِ آيِينَ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّتٍ وَثُيُوبٍ ﴿٢٢﴾

قرئ: ﴿ففي مقام﴾ بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم، وبالضم وهو موضع الإقامة أو الأمان من قولك أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة؛ لَأَنَّ الْمَكَانَ الْمُخِيفَ كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الْكِبَارَةِ قِيلَ السُّنْدُسُ مَارِقٌ مِنَ الدِّيْبَاجِ وَالْإِسْتَبْرَقِ مَا غُلِظَ مِنْهُ، وَهُوَ تَعْرِيبٌ اسْتَبْر.

فإن قلَّت: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي؟ قلَّت: إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه وتغييره عن مناجاه وإجرائه على أوجه الإعراب.

يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَفَلِّلِينَ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿كذلك﴾ الكاف مرفوعة على الأمر كذلك أو منصوب على مثل ذلك اثنيانهم ﴿وَوُزُوجُهُمْ﴾، وقرأ عكرمة بحور عين على الإضافة والمعنى بالبحور من العين لأن العين إما أن تكون حوراً أو غير حور فهو لاء من الحور العين لا من شهلهن مثلاً وفي قراءة عبد الله بعيس عين والعيساء البيضاء تلوها حمرة.

(2) سورة المعارج، الآية: 8.

(3) سورة البقرة، الآية: 250.

(1) قال أحمد: لا دليل فيه لذلك، وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً، على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار، وهو الوجه والله أعلم.

تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب ﴿ومن الله﴾ صلة للتنزيل وإن جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل الكتاب مبتداً، والظرف خبراً.

إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون على ظاهره وإن يكون المعنى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ.

وَرَفِيعَ خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّاءٍ عَلَيْكُمْ يَقُولُ يُوقِنُونَ ﴿٦٨﴾

لِقَوْلِهِ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾.

فإن قلت: علام عطف ﴿وما يبيث﴾ أعلى الخلق المضاف أم على الضمير المضاف إليه قلت: بل على المضاف لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه استقبحوا أن يقال مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو وكذلك إن أكنوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد، وقرئ: آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك إِنَّ زَيْدًا فِي الدَّارِ وَعَمْرًا فِي السُّوقِ أَوْ وَعَمْرُو فِي السُّوقِ.

فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سيد لا مقال فيه وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده قلت: فيه وجهان عنده أحدهما أن يكون على إضمار في والذي حسنه تقدم نكره في الآيتين قبلها ويعضده قراءة ابن مسعود والثاني أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله على التكرير ورفعها بإضمار هي.

وَإِنِّي أَنزِلُ إِلَيْكُمُ الرِّيحَ وَفِيهَا بَرَاقَتٌ وَفِيهَا رُفُوفٌ مِّنَ السَّمَاءِ يَنزِلُ فِيهَا الْمَاءُ فَتَنضِلُ بِهِ السَّحَابُ ﴿٦٩﴾

وأما قوله: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف الليل والنهار والنصب في آيات وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وفي عملت الرفع في آيات والجر في واختلاف، وقرأ ابن مسعود وفي اختلاف الليل والنهار وقرئ: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع، وقرئ: آية وكذلك وما يبيث من دابة آية، وقرئ: وتصريف الريح والمعنى إِنَّ الْمُنْصَفِينَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا نَظَرُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّظَرَ الصَّحِيحَ عَلِمُوا أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَأَنَّهَا لَا بَدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ، وَاقْرَأُوا فَإِذَا نَظَرُوا فِي خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَتَنَقَّلُوا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَهَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ وَفِي خَلْقِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ صَنُوفٍ

لَا يَذُرُّونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ وَوَقَّتَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٠﴾

وقرأ عبيد بن عمير لا يذاقون فيها الموت وقرأ عبد الله لا ينوقون فيها طعم الموت.

فإن قلت: كيف استثنيت الموت الأولى المنوطة قبل دخول الجنة من الموت المنفي نوقه فيها^(١)؟ قلت: أريد أن يقال لا ينوقون فيها الموت البتة فوضع قوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَى﴾ موضع ذلك لأن الموت الماضية محال نوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموت الأولى يستقيم نوقها في المستقبل، فإنهم ينوقونها وقرئ: ووقاهم بالتشديد.

فَمَنَّا يَنُزِّلُكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧١﴾

﴿فضلاً من ربك﴾ عطاء من ربك وثواباً يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار، وقرئ: فضل أي ذلك فضل.

فَمَنَّا يَنُزِّلُكَ إِلَيْنَا لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فنلك للسورة ومعناها نكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه أي: سهلناه حيث أنزلناه عربياً بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا. فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرِّيحَ تَرْفِئُونَ ﴿٧٣﴾

﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿أنهم مرتقبون﴾ ما يحل بك متريصون بك الدوائر عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك^(٢)، وعنه عليه السلام من قرأ حم التي ينكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية مكية

حم ﴿١﴾

﴿حم﴾ إن جعلتها اسماً مبتداً مخبراً عنه.

نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

بـ ﴿تنزيل الكتاب﴾ لم يكن بدّ من حذف مضاف

= الغيب إلا الله أي: إن كان الله ممن في السموات والأرض ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني، فجزم بالثاني، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في المصدر السابق، (الحديث رقم: 2888).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل حم النخان، (الحديث رقم: 2889).

(1) قال أحمد: هذا الذي نكره مبني على أن الموت بدّل على طريقة بني تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس، وأما على طريقة الحجازيين فانتصبت الموت استثناء منقطعاً، وسر اللغة التميمية بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعاً في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحداً لا حمار، على معنى إن كان الحمار من الآخرين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتماً بالنفي، وعليه حمل الزمخشري قل لا يعلم من في السموات والأرض =

﴿وَإِذَا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتخذها﴾ أي: اتخذ الآيات ﴿هزوا﴾ ولم يقل اتخذها للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبه به المعاند ويجدله محملاً يتسلى به على الطعن والغمضة افترضه واتخذ آيات الله هزواً وذلك نحو افتراض ابن الزبيري قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (١) ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله خصمته ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية: نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها حيث أراد عتبة، وقرئ: علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين والوراء اسم للجهة التي يوارى بها الشخص من خلف أو قدام قال:

ليس ورائي أن تراخت منيتي أبمع الولدان أرحف كالنسر
ومنه قوله عز وجل:

يَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اقْتَدُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَفَعَلْنَا عَذَابَ عَظِيمٍ (١٢).

﴿من ورائهم﴾ أي من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا ما اتخذوا من دُون الله﴾ من الأوثان.

هَذَا مُدَّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلَيْسَ (١١).

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لَأَنَّ آيَاتِ رَبِّهِمْ هي القرآن أي: هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل كامل في الرجولية وإيما رجل والرجز أشد العذاب، وقرئ: بحر اليم ورفع.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْفِزَ مِنْكُمْ الْبَلَدَ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٧).

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّكُونِ وَمَا فِي الْأَنْزِلِ جِيئًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٣).

فإن قلنا: ما معنى منه في قوله: ﴿جميعاً منه﴾ وما موقعها من الإعراب؟ قلنا: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنه منه وحاصلة من عنده يعني: أنه مكنونها وموجودها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها خلقه ويجوز أن يكون خبر مبتدا محذوف تقديره

الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت باختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياء الأرض بها بعد موتها ﴿وتصريف الرياح﴾ جنوباً وشمالاً وقبلاً ونبوراً علّقوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم وسمى المطر رزقاً لأنه سبب الرزق.

يَلِكُ مَا كُنْتُ اللَّهُ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ بِأَلْفِ قُرْآنٍ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ (١٦).

﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة أي تلك الآيات آيات الله ﴿وتتلوها﴾ في محل الحال أي متلوة ﴿عليك بالحق﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا بعلي شيئاً، وقرئ: يتلونها بالياء ﴿بعد الله وأبانه﴾ أي بعد آيات الله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه يربون أعجبني كرم زيد، ويجوز أن يراد بعد حديث الله وهو كتابه أو قرآنه كقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾، وقرئ: ﴿يؤمنون﴾ بالتاء والياء.

وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (١٧).

الأفاك الكذاب والأثيم المتبالغ في اقتراف الآثام.

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَانَتْ يَسْمَعُ فَيَصِرُ مَكْدَابٍ
أَلِيمٍ (١٨).

﴿يصر﴾ يقبل على كفره ويقم عليه وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحى عليها صاراً أذنيه ﴿مستكبراً﴾ عن الإيمان بالآيات والإنذاع لما ينطق به من الحق مزبوراً لها معجباً بما عنده قيل نزلت في النضر بن الحرث، وما كان يشتري من أحابيث الأعاجم ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامة في كل ما كان مضاراً للدين الله.

فإن قلنا: ما معنى ثم في قوله ثم يصر مستكبراً؟ قلنا: كمنعاه في قول القائل: يرى غمرات الموت ثم يزورها، وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فامر مستبعد فمعنى ثم الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعابنها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تليت عليه وسمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها ﴿كان﴾ مخففة والأصل كانه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن كما في قوله: كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم، ومحل الجملة النصب على الحال أي يصر مثل غير السامع.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً أَخَذَهَا هُزُوّاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٩).

يَخْلِفُونَ ﴿٧﴾

أتيناهم ﴿بينات﴾ آيات ومعجزات ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إلا من بعد ما جاءهم﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلَفوا لبغي حدث بينهم أو لعداوة وحسد.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿على شريعة﴾ على طريقة ومنهاج ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا ارجع إلى دين آبائك.

إِنَّمَا لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبُغْيُهُمْ آوِيلُهُ بَغْيٌ ۖ وَاللَّهُ وَكَوْنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾

ولا توألهم إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم. وأما المتقون فوليههم الله وهم موالوه وما أبين الفصل بين الولائتين.

هَذَا بَصَرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن وقرئ: هذه بصائر أي هذه الآيات.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الْإِنْسَانَ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّا عَمِلَتْهُمْ وَمَمَاتَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم ﴿أن نجعلهم﴾ أن نصيرهم وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فاولهما الضمير والثاني الكاف والجملة التي هي ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ بدل من الكاف لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد ألا تراك لو قلت أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سيدياً كما تقول ظننت زيذاً أبوه منطلق، ومن قرأ سواء بالنصب أجرى سواء مجرى مستوياً وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أي سواء في محياهم وفي مماتهم، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله

هي جميعاً منه، وإن يكون وسخر لكم تأكيداً لقوله تعالى: ﴿سخر لكم﴾^(١) ثم ابتدئ قوله: ﴿ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ منه وإن يكون ما في الأرض مبتدأ ومنه خبره، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما منه وقرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك، أو هو منه حذف المقول لأن الجواب دال عليه والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا.

قُلْ لِلَّهِ آمَنُوا يُغْفِرُوا لَلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَنَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾

﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يتوقعون وقائع الله باعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب وقيل: لا ياملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها وقيل: نزلها في عمر رضي الله عنه وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به وعن سعيد بن المسيب كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرا: قارئ: هذه الآية فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع.

لنجزي تحليل الأمر بالمغفرة أي إنما أمروا بأن يغفروا لما اراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فَإِن قُلْتُمْ: قوله ﴿قَوْمًا﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلتم: هو مدح لهم وثناء عليهم كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقوماً مخصوصين لصبرهم، وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه، ومعنى قول عمر: ليجزي عمر بما صنع ليجزي بصبره واحتماله وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي وقرئ: ليجزي قوماً أي الله عز وجل، وليجزي قوم وليجزي قوماً على معنى: وليجزي الجزاء قوماً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَلَمَّا نَسُوا مَا يُنْذَرُ فِي الذِّكْرِ وَاتَّبَعُوا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقه أو فصل الخصومات بين الناس لأن الملك كان فيهم والنبوة ﴿من الطيبات﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما.

وَمَا آتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ يَّبَيِّنُ لَكَ يَفْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ومنه قوله عليه السلام: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر⁽¹⁾ أي فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر، وقرئ: حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخير.

وَأَنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مَائِدَاتِنَا يَنْدُبُونَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا بَنَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

فإن قلنا: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلنا: لأنهم ألبوا به كما يلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة أو لأنه في أسلوب قولهم تحية بينهم ضرب وجيع كانه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة.

قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُم مِّم يَسْتَكِرُّونَ بِكُمْ يَوْمَ الْيَمِينِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

فإن قلنا: كيف وقع قوله: ﴿قل الله يجيبكم﴾ جواباً لقولهم اتبوا بآبائنا إن كنتم صادقين؟ قلنا: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسوا أن ما قالوه قول مبكت الزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم، ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه.

وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِنَفْثِهِ الْمُسْطَلُونَ ﴿٢٧﴾

عامل النصب في ﴿ويوم تقوم﴾ يخسر، و﴿يومئذ﴾ بدل من يوم تقوم.

وَرَبِّي كُلُّ أَمْرٍ جَائِزٌ كُلُّ أَمْرٍ دَعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِ الْيَوْمِ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

﴿جاثية﴾ باركة مستوفزة على الركب، وقرئ: جاثية والجنو أشد استيفازاً من الجنو لأن الجاثي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة وهي الجماعة وجمعها جثى وفي الحديث: من جثى جهنم⁽²⁾. وقرئ: ﴿كل أمة﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ﴿إلى كتابها﴾ إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم

ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم، وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستوي محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم كل يموت على حسب ما عاش عليه، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويرد إلى الصباح: ساء ما يحكمون: وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يردد ما يبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت.

وَرَفَعَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ولتجزى﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ لأن فيه معنى التعليل أو على ملعل محذوف تقديره خلق الله السموات والأرض ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ رَّحْمَةً عَلَىٰ سَعْيِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشْوَةً فَهُمْ يَرْيَبُونَ بِرَأْيِهِ أَنَّ اللَّهَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكانه يعبد كما يعبد الرجل إلهه، وقرئ: ﴿آلهة هواء﴾؛ لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه فكانه اتخذ هواء آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها ﴿وأضله الله على علم﴾ وتركه عن الهداية واللفظ وخذله على علم عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه وأنه ممن لا لطف له أو مع علمه بوجه الهداية وإحاطته بأنواع اللطاف المحصلة والمقربة ﴿فمن يهديه من بعد﴾ إضلال ﴿الله﴾، وقرئ: غشوة بالحركات الثلاث وغشوة بالكسر والفتح وقرئ: تتذكرون.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٣١﴾

﴿نموت ونحيا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا أو يموت بعض ويحيا بعض، أو نكون مواتاً لطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمان الموت والحياة يربون الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة، وقرئ: نحيا بضم النون، وقرئ: إلا دهر يمر وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين كانوا يزعمون أن مرور

= رقم: 6233، أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في فضل الصلاة والصيام والصقة، (الحديث رقم: 2863)، وأحمد في المسند 4/130، والحاكم في المستدرک 1/117، وأخرجه البخاري في التفسير، سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 4718).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجاثية، (الحديث رقم: 4827)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الألب، باب: النهي عن سب الدهر، (الحديث رقم: 2246/2).

(2) أخرجه ابن حبان، في كتاب: بدء التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث =

يومكم هذا، وهي الطاعة أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به كما لم تبالوا أنتم بقاء يومكم ولم تخطر ببال كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا.

فإن قلت: ما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (3) أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه.

ذِكْرُ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَغْنَىٰ عَنْكَ الْيَوْمَ الْآخِرُ الْآخِرُ الْآخِرُ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ (٢٥).

وقرى: لا يخرجون بفتح الياء ﴿ولا هم يستعجبون﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

يَلِلُ الْكَافِرُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٦).

﴿فلله الحمد﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم، ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب وكبروه.

وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧).

فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿في السموات والأرض﴾ وحق مثله أن يتكبر ويعظم عن رسول الله ﷺ من قرا حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف مكية

حَمْدٌ ۝ تَبَارَكَ الَّذِي مِّنْ أَمْرِ الْوَعْدِ لَمْ يَكُنْ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ (٢).

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح ﴿و﴾ بتقدير ﴿أجل مسمى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿والذين كفروا عما أُنذروا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿معرضون﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَثْنُونِ يَكْتُمُونَ بَلْدًا هَذَا أَوْ أَثْنُونَ يَنْتَظِرُونَ عَلَيْهِمْ

الجنس كقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ (1) ﴿اليوم تجزون﴾ محمول على القول.

هَذَا كِتَابُنَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ وَإِلَٰهِي إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣).

فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة وقد لا بسهم ولا بسهم أما ملابسته إياهم فلأن أعمالهم مثبتة فيه، وأما ملابسته إياه فلأنه مالكه والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿ينطق عليكم﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿بالحق﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ الملائكة ﴿وما كنتم تعملون﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

فَأَمَّا الْآيَاتُ الْمُبِينَاتُ فَتَدَبَّرْهُمْ رُبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ ۝ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٤).

﴿في رحمته﴾ في جنته.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَآلَهُمْ نَكْرًا ۝ إِنِّي شَأْنُ عَلَيْهِمْ فَانْتَكِرْهُمْ وَكُنْ قَوْمًا تَجْرِمِينَ (٥).

وجواب أما محنوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحنف المعطوف عليه.

وَأَنَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُرُ إِلَّا طَلَأٌ وَهَامٌ عَنْ يَسْتَيْبِينَ (٦).

وقرى: ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفًا على الوعد وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿ما الساعة﴾ أي شيء الساعة.

فإن قلت: ما معنى إن نظن إلا ظنًا؟ قلت: أصله نظن ظنًا ومعناه إثبات الظن فحسب فأنخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدًا بقوله: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾.

وَبَدَا لَهُمْ سَيَئَاتُ مَا عَمِلُوا وَفَآخَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧).

﴿سيئات ما عملوا﴾ أي قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (2).

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسُفُكُمَا نَسْفًا ۝ يَوْمَئِذٍ لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ (٨).

﴿ننساكم﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عذة ﴿لقاء

(1) سورة الكهف، الآية: 49.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) سورة سبا، الآية: 33.

(4) نكره الثعلبي، ونكره الواحدي وابن مربي في التفسير، الزيلعي

كُنْتُمْ مَكِيدِينَ ﴿٤﴾

التهمك بها وبعيدتها، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ﴾ (٢).

وَأَذَانُ نَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَوِي فَالَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سَعْيٌ مَبْنِيٌّ ﴿٧﴾

﴿بينات﴾ جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات مبينات. واللام في ﴿للحق﴾ مثلها في قوله: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا﴾ (٣) أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا (٤) والمراد بالحق الآيات والذين كفروا الممتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق ﴿لما جاءهم﴾ أي بادهوه بالجنود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر ولا إعادة نظر، ومن عنادهم وظلمهم أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

أَرَأَيْتُمْ أَفَرَأَيْتُمْ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِي رَأَى اللَّهُ شَيْئًا هُوَ أَغْفِرَ بِمَا يُفْسِدُونَ فِيهِ كُنْ بِهِ شَيْدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ إضراب عن نكر تسميتهم الآيات سحرا إلى نكر قولهم إن محمداً افتراه، ومعنى الهمزة في أم الإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقول ويفتره على الله ولو قدر عليه بون أمة العرب لكنت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له والحكيم لا يصنق الكاذب، فلا يكون مفتريا والضمير للحق والمراد به الآيات ﴿قل إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه فلا تقربون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون نفع شيء من عقابه عني فكيف افتريه وأتعرض لعقابه يقال: فلان لا يملك إذا غضب، ولا يملك عنائه إذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ومنه قوله عليه السلام: لا املك لكم من الله شيئا (٥)

﴿بكتاب من قبل هذا﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعني أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فاتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أو إثارة من علم﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين من قولهم سمعت النافقة على إثارة من شحم أي على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب، وقرئ: أثره أي من شيء أوترتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم، وقرئ: إثارة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكنون التاء فالإثارة بالكسر بمعنى: الأثرة وأما الأثرة فالهمزة من مصدر أثر الحديث إذا رواه، وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم ما يخطب به.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

﴿ومن أضل﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام (١) حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من بونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة.

وَأَذَانُ خَيْرَ النَّاسِ كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ كَفَرُوا بِمَا دَرَيْتُمْ كَفَرُونَ ﴿٦﴾

وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة وفي الآخرة تعابيهم، وتجحد عبادتهم وإنما قيل من وهم لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوة ويجوز أن يريد كل معبود من بون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها، قرئ: ما لا يستجيب وقرئ: يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(4) قال أحمد: هذا الإضراب في بابيه مثل الغاية التي قدمتها آنفاً في بابها، فإنه انتقل إلى موافق لكنه أزيد من الأول، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين كالنفي والإثبات الذين يضرب عن أحدهما للآخر، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: من انتسب إلى أبيائه في الجاهلية والإسلام (الحديث رقم: 3527)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: وأنذر عشيرتكم (الحديث رقم: 3481 - 204).

(1) قال أحمد: وفي قوله: إلى يوم القيامة نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأن الحاليتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زالت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدم آنفاً في سورة الزخرف في قوله: ﴿ويل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ولنا به كافرين﴾.

أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم أترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورايتها يعني في متامه ذات نخيل وشجر. وعن ابن عباس ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾⁽³⁾ ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة، وقرئ: ﴿وما يفعل﴾ بفتح الياء أي يفعل الله عز وجل.

فإن قلْتُ: إن يفعل مثبت غير منفي فكان وجه الكلام ما يفعل بي وبكم قلْتُ: أجل ولكن النفي في ما أدري لما كان مشتملاً عليه لتناوله ما وما في حيزه صَحَّ ذلك وحسن ألا ترى إلى قوله: ﴿أولم يروا أنَّ الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر﴾⁽⁴⁾ كيف دخلت الباء في حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها⁽⁵⁾، وما في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة وقرئ: يوحى أي الله عز وجل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفِّرَتْ بِهِ وَنُهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ فَأَمَرَ وَأَسْكَبَتْ مِنْهُ لَأَ يَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

جواب الشرط محذوف تقديره إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به أستم ظالمين ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾⁽⁶⁾ والشاهد من بني إسرائيل عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا: نبي ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة، وبإل الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه فقال عليه الصلاة والسلام: «أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء

ثم قال: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى، والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كفى به شهيدًا بيني وبينكم﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى نكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وهو للغفور الرحيم﴾ موعدة بالغفران، والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وأمنوا وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا.

فإن قلْتُ: فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى: ﴿فلا تملكون لي﴾ قلْتُ: كان فيما اتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم⁽¹⁾، فكانه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصيح لكم وصنكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذنني الله بعقوبة الافتراء عليه، البدع بمعنى البديع كالخف بمعنى الخفيف وقرئ: بدعًا بفتح الدال أي ذا بدع، ويجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم دين قيم ولحم زيم كانوا يفترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب فقيل له:

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آتَاكِ بِى بِفَعْلٍ بى وَلَا يَكُرْ إِنْ أُنِجَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾

﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل﴾ فأتاكم بكل ما تقرر حونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات، فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما أتاهم الله من آياته ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون فما بال القرون الأولى بقوله: ﴿علمها عند ربي﴾⁽²⁾ ﴿وما أدري﴾ لأنه لا علم لي بالغيب ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ويقدّر لي ولكم من قضاياه ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ وعن الحسن وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب وعن الكلبي قال له

= واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بري مما تجرمون﴾ وأمثاله كثيرة، والله أعلم.

- (2) سورة طه، الآية: 52.
- (3) سورة الفتح، الآية: 2.
- (4) سورة الاحقاف، الآية: 33.
- (5) قال أحمد: بنى على أنَّ المجبور معطوف على مثله، وإنهما جميعاً في صلة موصول واحد، ولو قيل: إنَّ المجبور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله، حتى يكون التقدير وما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم؟ لكانت لا واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل، وحذف الموصوف المعطوف وتفاصيل كثيرة، ومنه فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء: يريد حسان رضي الله عنه: أقمن يهجو رسول الله ﷺ، ومن يمدحه سواء.
- (6) سورة الانعام، الآية: 144.

(1) قال أحمد: فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضاً وتقديرًا، ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح، فإن النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن، إلا أن يكون مأمورًا به من الله تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعزلة للقاتلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالالتوحيد مثلاً، وقال: إنَّ الله حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول الله إليكم، ولم يكن متعوقًا، فإنه محق في الأمر بالتوحيد؛ لأنَّ العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفتريًا في دعوى كونه رسولاً من الله عز وجل، وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشئ على مقابله بطريق المفهوم، فالعنى إذاً إن كنت مفتريًا فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني، فمفهومه وإن كنت محقًا، وأنتم مفترون فالعقوبة =

نزل مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به
الستم أضل الناس وأظلمهم، وقد جعل الإيمان في قوله فأمّن
مسيباً عن الشهادة على مثله لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على
موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من
كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد علته واعترف كان
الإيمان نتيجة ذلك.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْهِ وَإِنَّهُمْ
لَيَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍ قَدِيرٌ (١١).

﴿للذين آمنوا﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا: عامة
من يتبع محمد السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب،
وابن مسعود فلو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء
وقيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم غفار قالت: بنو
عامر وغطفان وأسد، وأشجع لو كان خيراً ما سبقنا إليه
رعا إلىهم وقيل إن أمة لعمر أسلمت فكان عمر يضربها
حتى يفتّر، ثم يقول لو أنني فترت لزنكت ضرباً وكان كفار
قريش يقولون لو كان ما يدعوا إليه محمد حقاً ما سبقتنا
إليه فلانة، وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن
سلام وأصحابه.

فإن قلّت: لا بدّ من عامل في الظرف في قوله: ﴿وإن لم
يهتدوا به﴾ ومن متعلق لقوله ﴿فسيقولون﴾ وغير
مستقيم أن يكون (٨) فسيقولون هو العامل في الظرف لتدافع
دلالتي الماضي والاستقبال فما وجه هذا الكلام؟ قلّت: العامل
في إذ محذوف لدلالة الكلام عليه كما حذف من قوله فلما
ذهبوا به وقولهم حينئذ الآن وتقديره وإن لم يهتدوا به ظهر
عنادهم، فسيقولون هذا إفك قديم فهذا المضمّر صحّ به
الكلام حيث انتصب به الظرف وكان قوله: فسيقولون مسبباً
عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله حتى يقول الرسول لمصادفة
حتى مجرورها والمضارع ناصبه وقولهم ﴿إفك قديم﴾
كقولهم أساطير الأولين.

الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعتة». فقال أشهد أنك
رسول الله حقاً، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت
وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندي،
فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ أي رجل عبد الله فيكم
فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن
أعلمنا قال: أرايتم إن أسلم عبد الله قالوا: أعاده الله من ذلك
فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد
أنّ محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه
قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله (١) وأحذر قال سعد بن
أبي وقاص ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي
على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام
وفيه نزل ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على
مثله﴾ (٢) الضمير للقرآن أي على مثله في المعنى وهو ما
في التوراة من المعاني المطابقة في القرآن من التوحيد
والوعد والوعيد وغير ذلك ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وإنه
لفي زبر الأولين﴾ (٣) ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأولى﴾ (٤)
كنكك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك، ويجوز أن يكون
المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على
نحو ذلك يعني كونه من عند الله.

فإن قلّت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لاقف على معناه
من جهة النظم (٥) قلّت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل
الشرط كما عطفته، ثم في قوله تعالى: ﴿قل أرايتم إن كان
من عند الله ثم كفرتم به﴾ (٦) وكذلك الواو الآخرة عاطفة
لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو في وشهد شاهد فقد
عطفت جملة قوله شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله
فأمّن واستكبرتم على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم
به﴾ (٧) ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك
وأعرضت عني لم تنفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما
على مثليهما والمعنى قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من
عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على

(7) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الانصار، باب: (51) (الحديث رقم: 3938).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الانصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام (الحديث رقم: 3812)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (الحديث رقم: 2483، 147).

(3) رواه ابن أبي شيبة في كتاب: المقرء، في فضائل القرآن، زيلعي 281/3، راجع برون حاشية.

(4) سورة الشعراء، الآية: 196.

(5) قال أحمد: إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة؛ لأنّ التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما، والآية من هذا النمط ومثلها قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ وقوله: ﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية وقد تقدّم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهداً.

(6) سورة الأعلى، الآية: 18.

(8) قال أحمد: إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف، إلا تنافي دلالتي الماضي والاستقبال، فهذا غير مانع، فإن الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى؛ لأن القوم قد حرموا الهداية، وقالوا: هذا إفك قديم وأساطير الأولين، وغير ذلك، فمعنى الآية: إنّا وقالوا إنّا لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك، وأصروا عليه، فعبر عن وقوعه، ثم دوامه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: إلا الذي فطرنى، فإنه سيهدين، وقد كانت الهداية واقعة وماضية، ولكن أخبر عن وقوعها ثم دوامها، فعبر بصيغة الاستقبال، وهذا طريق الجمع بين قوله: سيهدين، وقوله في الآخرة: فهو يهدين، ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي نكرته هو الوجه، ولكن الفاء المسببة دلت ب دخولها على محذوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم، فوجب تقدير المحذوف عاملاً فيه لينتظم بتقدير عاملاً، أمران لمصادفة الظرف للعامل والفعل الملعل لعلته، فتعين ما ذكره الرزمخشري لأجل الفاء لا لتناهي الداليتين والله أعلم.

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال ووقته، وقرئ: حتى إذا استوى وبلغ أشده وبلغ الأشد أن يكتمل ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله، وتمييزه وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين وعن قتادة ثلاث وثلاثون سنة ووجهه أن يكون نك أول الأشد وغايته الأربعين، وقيل لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها نعمة التوحيد والإسلام وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه لأن النعمة عليها نعمة عليه، وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس.

فإن قلْتُ: ما معنى في قوله: «وإصالح لي في ذريتي» قلْتُ: معناه أن يجعل ذريته⁽²⁾ موقفاً للصالح ومظنة له كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ونحوه، يجرح في عراقيها نصلي «من المسلمين» من المخلصين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَمْرِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ⁽¹¹⁾.

وقرئ: يتقبل ويتجاوز بفتح الياء الضمير فيهما والله عز وجل وقرئاً بالنون.

فإن قلْتُ: ما معنى قوله: «في أصحاب الجنة» قلْتُ: هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم ومحلّه النصب على الحال على معنى كائنين من أصحاب الجنة، ومعدولين فيهم «وعد الصديق» مصدر مؤكد لأن قوله يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل، والتجاوز، وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمّه أم الخير وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم وقيل لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالده وبنوه وبناته غير أبي بكر.

وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَيُّ لَكُمْ أَمِدَانَيْنِ أَنْ أَخْرَجَ فَقَدَ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَمَا يَسْتَيْسِرَانِ إِلَهُكَ وَأَيْنَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ⁽¹²⁾.

«والذي قال لوالديه» مبتدأ خبره أولئك الذين حق عليهم القول، والمراد بالذي قال الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعاً وعن الحسن هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه، وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر⁽³⁾ قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمّه أم رومان

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوَيْتَ إِمَامًا وَرَحِمَهُ وَهَذَا كَتَبَ مُصَدِّقُ إِسَاءَا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنْشِرَ لِلْمُتَّقِينَ⁽¹³⁾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁽¹⁴⁾ أُولَئِكَ أَحْسَنُ الْبَنَاتِ خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁽¹⁵⁾.

«كتاب موسى» مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه وهو ناصب «إماماً» على الحال كقولك في الدار زيد قائماً، وقرئ: ومن قبله كتاب موسى على وأتينا الذين قبله التوراة ومعنى إماماً قنوة يؤتم به في بين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام «ورحمته» لمن آمن به وعمل بما فيه «وهذا» القرآن «كتاب مصدق» لكتاب موسى، أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب وقرئ: مصدقاً لما بين يديه «ولساناً عربياً» حال من ضمير الكتاب في مصدق والعامل فيه مصدق ويجوز أن ينتصب عن كتاب لتخصسه بالصفة⁽¹⁾ ويعمل فيه معنى الإشارة، وجوز أن يكون مفعولاً لمصدق أي يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول، وقرئ: لينذر بالياء والتاء ولينذر من نذر ينذر إذا حذر «وبشري» في محل النصب معطوف على محل لينذر لأنه مفعول له.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ⁽¹⁶⁾.

قرئ: حسناً بضم الحاء وسكون السين وبضمهما وبفتحهما وإحساناً وكرهاً بالفتح والضم وهما لغتان في معنى: المشقة كالفقر والعقر وانتصابه على الحال أي ذات كره أو على أنه صفة للمصدر أي حملاً ذا كره «وحمله وفصاله» ومدة حملة وفصاله «ثلاثون شهراً» وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة بقيت للحمل ستة أشهر، وقرئ: وفصله والفصل والفصال كالقطم والقطام بناء ومعنى.

فإن قلْتُ: المراد بيان مدة الرضاع لا القطام فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلْتُ: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم سمي فصلاً كما سمي المدة بالآمد من قال:

كل حي مستكمل مدة العمد رومود إذا انتهى أمده

= بكر، ولكن لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه، فإن له أن يقول أراد عبد الرحمن وأمته، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا: «إنه من كينكن إن كينكن عظيم» فخاطبها وخاطب أمتها والمقصودة هي، وقد عاد إلى مخاطبها خصوصاً بقوله: «واستغفري لنذنبك إنك كنت من الخاطئين» ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن ما نكره الزمخشري =

(1) قال أحمد: وجهان حسنان أعزهما بثالث، وهو النصب على الاختصاص، وهذه الوجوه في قوله تعالى: «فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا» والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومثله قوله تعالى: «إلا المودة في القربى» عدولاً عن قوله: إلا مودة القربى، أو المودة للقربى، والله أعلم.

(3) قال أحمد: ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي

فإن قُلْتُ: كيف قيل درجات، وقد جاء الجنة درجات والنار دركات؟ قُلْتُ: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب لاشتغال كل على الفريقين ﴿وليوفيهم﴾، وقرئ بالنون تحليل معمله محنوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ناصب الظرف هو القول المضمرة قبل.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أُنْهِيتُمْ لِخَيْبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا فَأَلْوِمُوا يَوْمَئِذٍ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَقْسِرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿أنهيتهم﴾ وعرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم عرض بنو فلان على السيف (2) إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها﴾، ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض يربون عرض الحوض عليها فقلوبوا، ويدل عليها تفسير ابن عباس رضي الله عنه بجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أنهيتهم طيباتكم﴾ أي ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم وقد ذهبت به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها وعن عمر رضي الله عنه لو شئت لدعوت بصلائق وذناب وكرار وأسنمة، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: ﴿أنهيتهم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ (3) وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ولكني استبقي طيباتي (4) وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالآدم ما يجدون لها رقاعاً فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحلكم في حلة، ويروح في أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستريح بينه كما تستريح الكعبة» قالوا: نحن يومئذ خير قال: بل أنتم اليوم خير (5)، وقرئ: أنهيتهم بهمزة الاستفهام وأنهيتهم بالف بين همزتين. الهون والهوان، وقرئ: عذاب الهوان، وقرئ: يفسقون بضم السين وكسرهما الأحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من حقوق الشيء إذا

إلى الإسلام فافق بهما، وقال: ابعثوا إلى جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو وهما من أجداده حتى أسالهما عما يقول محمد ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك وأن قوله الذين حق عليهم القول هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بن يبيع الناس ليزيد قال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية تابعون لأبنائكم فقال مروان يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه: أف لكما فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فانت فضض من لعنة الله (1) وقرئ: أف بالكسر والفتح بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال حس علم منه أنه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ولاجلكما دون غيركما، وقرئ: اتعداني بنونين واتعداني بأحدهما واتعداني بالإدغام وقد قرأ بعضهم اتعداني بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من ادغم ومن اطرح أحدهما ﴿إن أخرج﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض، وقرئ: أخرج ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ يعني ولم يبعث منهم أحد ﴿يستغيثان الله﴾ يقولان الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله ﴿ويلك﴾ دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

أَوَّلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدَ عَنَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ أَلَيْنَ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ ﴿٦١﴾

﴿في أمم﴾ نحو قوله في أصحاب الجنة، وقرئ: أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق.

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا رِبْوَهِمْ عَذَابٌ مُّسْتَوْفٍ وَمَنْ لَا يَطْمَئِنَّ

﴿ولكل﴾ من الجنسين المذكورين ﴿درجات مما عملوا﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير أو الشر ومن أجل ما عملوا منهما.

ثانياً، فقال: إن الذين حق عليهم القول هم المخلدون في النار في علم الله تعالى، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم، ونقل أن معاوية كتب إلى مروان: بأن يبيع الناس ليزيد، فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية أتباعون لأبنائكم، فقال مروان: أيها الناس إن هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه﴾ الآية فسمعت عائشة فغضبت، وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه سميته، ولكن الله لعن أباك، وأنت في صلبه، فانت فضض من لعنة الله أهلامه. قلت: وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعم؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة، ولا في الخبر، فلا يجوز أن تقول الدينار الصفر خير من الدرهم البيض، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنساً جاء على نعت خبر المجموع، كما رأيت، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحقاف، باب: والذي =

= قال لوالديه أف لكما... (الحديث رقم: 4827).

(2) قال أحمد: إن كان قولهم عرضت الناقة على الحوض مقولاً فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقولاً؛ لأنه الملجئ، ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هي المبركة فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مبركة إدراك الحيوانات، بل إدراك أولى العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وأحمد بن حنبل في الزهد، وأبو عبيدة في غريب، للزبيعي 283/3.

(4) رواه أبو نعيم في ترجمة عمر.

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، باب:

(35) (الحديث رقم: 2476).

﴿فلما راوه﴾ في الضمير وجهان أن يرجع إلى تعدنا وأن يكون مبهماً قد وضع أمره بقوله ﴿عارضاً﴾ إما تمييزاً وإما حالاً وهذا الوجه أعرب وأصح والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ومثله الحبي والعنان من حياً وعن إذا عرض وإضافة مستقبل ومطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بل هو﴾ القول قبله مضمرة والقائل هود عليه السلام والدليل عليه قراءة من قرأ قال هود بل هو، وقرئ: قل بل ما استعجلتم به هي ريح.

تُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْتِرُ رَبِّهَا فَاسْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكَنُهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾

أي قال الله تعالى: قل ﴿تدمر كل شيء﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير فعبّر عن الكثرة بالكلية، وقرئ: يدمر كل شيء من دمر دماراً إذا هلك ﴿لا ترى﴾ الخطاب للرائي من كان وقرئ: ﴿لا يرى﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم ومنه بيت ذي الرمة وما بقيت إلا الضلوع الجراش وليست بالقوية، وقرئ: لا ترى إلا مساكنهم ولا يرى إلا مساكنهم، وروي أن الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجو حتى ترى كأنها جرادة، وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحاً فيها كشعب النار، وروي أول ما عرفوا به أنه عذاب أنهم راوا ما كان في الصحراء من رحالهم، ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر وروي أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تتبع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس وأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فيقال له: يا رسول الله ما تخاف، فيقول إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطر^(١).

فإن قلنا: ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قلنا: الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته لأنها من أعاجيب خلقه، وأكابر جنوده ونكر الأمر وكونها مأمورة

أعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن، وقيل بين عمان ومهرة.

﴿وَأَذْكُرْ أَنَا غَادٍ إِذْ أُنْذِرُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَيْتِ الْبُيُوتَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنَ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾

و﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿من بين يديه﴾ من قبله ﴿ومن خلفه﴾ ومن بعده وقرئ: من بين يديه ومن بعده، والمعنى: أن هوداً عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم: لا تعبوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه يعني الرسل الذين بعثوا قبله، والذين بعثوا في زمانه ومعنى ومن خلفه على هذا التفسير ومن بعد إنذاره هذا إذا علققت وقد خلت النذر بقوله أنذر قومه ولك أن تجعل قوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ اعتراضاً بين أنذر قومه وبين ﴿ألا تعبوا﴾ ويكون المعنى وانكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل نك فانكر.

قَالُوا آجِنَا إِنَّا كُنَّا عَنْ مَالِنَا فَأَيْنَا يَمَّا نُنْذِرُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَادِقِينَ ﴿١٧﴾

الإفك الصرف: يقال أفكه عن رأيه ﴿عن آهتنا﴾ عن عباتنا ﴿بما تعدنا﴾ من معالجة العذاب على الشرك ﴿إن كنتم﴾ صادقاً في وعدك.

قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنْ أَزْكُرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٨﴾ لَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَرْسَلْنَاهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ نُنْزِلُ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾

فإن قلنا: من أين طابق قوله تعالى: ﴿إنما العلم عند الله﴾ جواباً لقولهم فأتينا بما تعدنا؟ قلنا: من حيث أن قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعنيكم حكمة وصواباً إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل فتتروحه أنتم ومعنى ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ وقرئ: بالتخفيف أن الذي هو شائي وشرطي أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدي، ولكنكم جاهلون ولا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أنن لهم فيه.

= والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا عصفت الريح، (الحديث رقم: 946).

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم.. (الحديث رقم: 15 - 899)، والترمذي في كتاب:

الدعوات، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، (الحديث رقم: 3449)، =

من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه.

وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِن مَكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٦﴾

﴿إِنْ﴾ نافية أي فيما ما مكناكم فيه إلا أن أحسن في اللفظ لما فيه مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع ومثله مجتنب إلا ترى أن الأصل في مهما ما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ولقد أغث أبو الطيب في قوله:

لعمرك ما ما بان منك لضارب

وما ضره لو اقتدى بعنوبة لفظ التنزيل فقال لعمرك ما أن بان منك لضارب وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشده الاخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه

وتعرض دون أدناه الخطوب. وتؤول بآنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الأول ولقد جاء عليه غير آية في القرآن هم أحسن أثاثاً ورثيا كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاراً وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿من شيء﴾ أي من شيء من الإغناء وهو القليل منه.

فإن قُلْتُ: بم انتصب ﴿إذ كانوا يجحدون﴾ قُلْتُ: بقوله تعالى: فما أغنى.

فإن قُلْتُ: لم جرى مجرى التعليل؟ قُلْتُ: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك ضربته لإساءته وضربته إذا إساء لأنك إذا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه إلا أن إذ وحيث غلبتا دون سائر الظروف في ذلك.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَأَعْلِمَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ما حولكم﴾ يا أهل مكة ﴿من القرى﴾ من نحو حجر ثمود، وقرية سدوم وغيرهما والمراد أهل القرى ولذلك قال ﴿لعلهم يرجعون﴾.

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكَهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٧٨﴾

(1) قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب، ونحن نبينه فنقول: لو كان قرباناً مفعولاً ثانياً، ومعناه: متقرباً بهم لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقرباً به؛ لأن السيد إذا وبخ عبده، وقال: اتخذت فلاناً سيداً لوني، فإنما معناه: اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصد، فإن الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره، فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو =

القربان ما تقرب به إلى الله تعالى أي اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف⁽¹⁾ والثاني إلهة وقرباناً حال، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقرئ: قرباناً بضم الراء والمعنى فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي غابوا عن نصرتهم ﴿وذلك﴾ إشارة إلى امتناع نصره آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أي وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وإفترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء وقرئ: إفكهم والإفك والإفك كالحذر والحذر، وقرئ: وذلك إفكهم أي وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق، وقرئ: إفكهم على التشديد للمبالغة وأفكهم جعلهم أفكين وأفكهم أي قولهم الأفك نو الإفك كما تقول قول كاذب وذلك إفك مما كانوا يفترون أي بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافِثًا مِنْ آلِ بْنِ يَسْمُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَنَا فَنُصِّي إِلَيْنَا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا يَنْفَعُكُمْ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾

﴿صرفنا إليك نفرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك، وقرئ: صرفنا بالتشديد لأنهم جماعة والنفر دون العشرة ويجمع انفاراً وفي حديث أبي نر رضي الله عنه لو كان ههنا أحد من انفارنا⁽²⁾ ﴿فلما حضروه﴾ الضمير للقرآن أي فلما كان بمسمع منهم أو لرسول الله ﷺ، وتعضده قراءة من قرأ فلما قضى أي أتم قراءته وفرغ منها.

﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿انصتوا﴾ اسكتوا مستمعين يقال انصت لكذا واستنصت له روي أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبا حدث فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم انشفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم، فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف⁽³⁾ وعن سعيد بن جبير

= المفعول الثاني لا غير.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي نر (الحديث رقم: 132 - 2473).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر (الحديث رقم: 773)، ومسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (الحديث رقم: 149 - 449)، والحاكم في المستدرک: 456/2.

يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْتِىَ الْمَوْتُ بَلَّكَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾.

﴿بقادر﴾ محله الرفع لأنه خبر أن يدل عليه قراءة عبد الله قادر وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وما في حيزها، وقال الزجاج: لو قلت ما ظننت أن زيداً بقاتم جاز كأنه قيل ليس الله بقادر ألا ترى إلى وقوع بل مقررّة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم، وقرئ: يقدر ويقال عييت بالامر إذا لم تعرف وجهه ومنه أقعينا بالخلق الأول.

وَيَوْمَ يَمْرُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَسَاءً قَالِ قَدَرُوا الْعَذَابَ يَمَا كَثُرَ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿ليس هذا بالحق﴾ محكي بعد قول مضمهر وهذا المضمهر هو ناصب الظرف وهذا إشارة إلى العذاب ببليلى قوله تعالى: ﴿فَنَقُوقُوا الْعَذَابَ﴾ والمعنى: التهكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعنيين.

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الْأَرْسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَ يَبْلُغُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿أولوا العزم﴾ أولو الجد والثبات والصبر و ﴿من﴾ يجوز أن تكون للتبعية ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم على النار ونوح ولده، وإسحاق على النبح ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف على الحب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه: إنا لمدركون قال: كلا إن معي ربي سيهدين ودأود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينة على لينة وقال إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى: في آدم ولم نجد له عزماً وفي يونس، ولا تكن كصاحب الحوت ويجوز أن تكون للبيان فيكون أولوا العزم صفة الرسل كلهم ﴿ولا تستعجل﴾ لكفار قريش بالعذاب أي لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر وإنهم مستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوا ﴿ساعة من نهار بلاغ﴾ أي هذا الذي وعظمت به كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فهل يهلك﴾ إلا الخارجون عن الاعتاض به والعمل بموجبه، ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ بلغ فهل يهلك، وقرئ: ﴿بلاغاً﴾ أي بلغوا بلاغاً وقرئ: يهلك بفتح الياء وكسر

رضي الله عنه ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأه الله باستماعهم⁽¹⁾ وقيل بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرًا منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني قالها ثلاثاً فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لم يحضره ليلة الجن أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطاً وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت ببني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم انقطعوا قطع السحاب فقال لي رسول الله ﷺ هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض، فقال: أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً والسورة التي قراها عليهم اقرأ باسم ربك⁽²⁾.

فإن قلت: كيف قالوا من ﴿بعد موسى﴾؟ قلت: عن عطاء رضي الله عنه أنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجن لم تكن سمعت بامر عيسى عليه السلام فلذلك قالت: من بعد موسى.

يَقَوْمًا آيِبُوا دَائِيَ اللَّهِ وَآيِبُوا بِهِ يَفُوزَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾.

فإن قلت: لم بعض في قوله: ﴿من دنوبكم﴾ قلت: لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم⁽³⁾ ونحوها ونحوه قوله عز وجل: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ وَأَطِيعُوا يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: هل للجن ثواب كما للإنس؟ قلت: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لقوله تعالى: ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ وإلى كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله، والصحيح أنهم في حكم بني آدم لأنهم مكلفون مثلهم.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَائِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سُلَكٍ مُمِينٍ ﴿٣٧﴾.

﴿فليس بمعجز في الأرض﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ونحوه قوله تعالى: ﴿وإننا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾⁽⁵⁾.

أَوَّلُ بَرٍّ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ

(1) راجع الحديث: 403.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 503/2.

(3) قال أحمد: ليس ما أطلقه من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح؛ لأنّ الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه جب الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال، ويقال: إنه ما وعد المغفرة الكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى، إلا =

= مبيعة وهذا منه، فإن لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافر قبض لا بسط، لذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيراً، والله أعلم.

(4) سورة نوح، الآية: 3 - 4.

(5) سورة الاحقاف، الآية: 34.

﴿واصلح بالهم﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا أَتَّيْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٢).

﴿ذلك﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كما نكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوباً على هذا ومرفوعاً على الأول و﴿الباطل﴾ ما لا ينتفع به وعن مجاهد الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كذلك﴾ مثل نك الضرب ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المنكوبين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم.

فإن قلنا: أي ضرب الأمثال؟ قلنا: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

إِذَا لَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا ضَرَبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمْ نُذُورَ الْوَقَاتِ فَإِنَّا مَتَّ بَدَّ وَإِنَّا فَدَا حَتَّى نَصَحَ الْمُزَيَّنَّ أَرْزَأَهُ ذَلِكَ وَلَوْ بَنَاهُ اللَّهُ لَأَنْصَرَّ بِهِمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلْ قَدْ رَزَقَهُمْ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ وَصَلَحَ بَالَهُمْ (٣).

﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرِب الرقاب﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل، وقدم المصدر فأناب منابه مضافاً إلى المفعول وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لأن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة بون غيرها من الأعضاء وذلك أنهم كانوا يقولون ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته وضرب ما فيه عيناه إذا قتله وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبة فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبة من المقاتل كما نكرنا في قوله: بما كسبت أيديكم على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأوجه أعضائه ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله

اللام وفتحها من هلك وهلك بالنون إلا القوم الفاسقين عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١).

وصدوا وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدوا غيرهم عنه قال ابن عباس: رضي الله عنه: هم المطمعون يوم بدر وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصنون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام وقيل: هو عام في كل من كفر وصد ﴿أضل أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها وحقيقتها جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل (٢) التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها، ويعتني بأمرها أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوية بها كما يضل الماء في اللبن وأعمالهم ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله بأن نصره عليه وأظهر دينه على الدين كله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا فَتَاتِلَاتِ وَأَمَّا بِنَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٦).

﴿والذين آمنوا﴾ قال مقاتل هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عام وقوله: ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيماً لشأنه وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾، وقيل معناها أن دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره وقرئ: نزل وأنزل على البناء للمفعول ونزل على البناء للمفاعل ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم

= صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم، ومقابلته في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة، حتى صار سيئهم مكفراً محققاً في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، والله أعلم.

(1) ذكره الثعلبي، والوالحيدي، وابن مروي في التفسير، الزيلعي 3/ 291.

(2) قال أحمد: هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ثم قال: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى =

منهم ﴿لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف﴾ **﴿ولكن﴾** أمركم بالقتال ليلبوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب، وقرئ قتلوا بالتخفيف والتشديد وقتلوا وقاتلوا، وقرئ فلن يضل أعمالهم وتضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضل وعن قتادة: إنها نزلت في يوم أحد.

وَيَعْلَمُهُمُ اللَّهُ مَرَّةً مَّوَدَّةً ۖ

﴿عرفها لهم﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته وبرجته من الجنة قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كانهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستلبون عليها، وعن مقاتل: إنَّ الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، وفي كلام بعضهم عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري أو حدها لهم فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها من عرف الدار وارفها والعرف والأرف: الحدود.

يَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَمُوتُوا اللَّهُ يَسْرِعُ بَأْصَابَكُمْ ۖ وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ ۖ

﴿إن تنصروا﴾ دين **﴿الله﴾** ورسوله **﴿ينصركم﴾** على عدوكم ويفتح لكم **﴿ويثبت أقدامكم﴾** في مواطن الحرب أو على محبة الإسلام.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ ۖ

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره **﴿فتعسا لهم﴾** كانه قال: اتعسا الذين كفروا. **﴿إن قلنت﴾** علام عطف قوله: **﴿واضل أعمالهم﴾** قلنت: على الفعل الذي نصب تعسا لأنَّ المعنى فقال تعسا لهم أو فقضى تعسا لهم وتعسا له نقيض لعا له قال الأعشى:

بالتعسا أولى لها من أن أقول لعا

يريد فالعثر والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردد في النار.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۖ

﴿كروهوا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك. وتعاضمهم، دمره: أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم.

تعالى فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان **﴿أثخنتموهم﴾** أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين، وهو الغليظ أو أثخنتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبت عنهم النهوض **﴿فشدوا الوثاق﴾** فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، منا وفداء منصوبان بفعليهما مضميرين أي فإما تمنون منا وإما تفدون فداء، والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم.

﴿فإن قلنت﴾ كيف حكم أسارى المشركين؟ قلنت: أما عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين إما قتلهم وإما استرقاقهم أيهما رأى الإمام ويقولون في الممن والفداء المنكوريين في الآية نزل تلك في يوم بدر، ثم نسخ وعن مجاهد: ليس اليوم ممن ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يراد بالممن أن يمن عليهم بترك القتل، ويسترقوا أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل النمة وبالفداء أن يفادى بأسارهم أسارى المشركين، فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفة والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعولوا حربا للمسلمين، وأما الشافعي فيقول للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين والممن ويحتج بأن رسول الله ﷺ من على أبي عروة الحجي⁽¹⁾ وعلي بن أثال الحنفي⁽²⁾ وفادى رجلا برجلين من المشركين⁽³⁾ وهذا كله منسوخ عند أصحاب الراي، وقرئ فدى بالقصر مع فتح الفاء أو زار الحرب آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكرع قال الأعشى:

وأعنت للحرب أوزارها رماحاً طاولاً وخيلاً نكوراً
وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكانها تحملها وتستقل بها فإذا انقضت فكانها وضعتها وقيل أوزارها أئامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

﴿فإن قلنت﴾ حتى بم تعلقت قلنت: لا تخلوا إما أن تتعلق بالضرب والشد أو بالممن والفداء، فالمعنى: على كلا المتعلقين عند الشافعي رضي الله عنه أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة وقيل إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام وعند أبي حنيفة رحمه الله إذا علق بالضرب، والشد فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين وإذا علق بالممن، والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتاول الممن والفداء بما نكرنا من التناول **﴿نلك﴾** أي الأمر نلك، أو افعلوا ذلك **﴿لانتصر﴾**

(1) ذكره ابن هشام في سيرته 2/128.

(2) لم أجده.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في قتل الأسارى

والفداء (الحديث رقم: 1568).

فإن قُلْتُ: بم يتصل قوله ﴿فَقَدْ جَاءَ إِشْرَاطُهَا﴾ على القراءتين قُلْتُ: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك: إن أكرمني زيد فانا حقيق بالإكرام أكرمه والأشراط العلامات قال أبو الأسود:

إن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبو وقيل مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها وأنشاق القمر والبخان وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللثام، وقرئ بغثة بوزن جربة وهي غريبة لم ترد في المصابر اختها وهي مروية عن أبي عمرو وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو وأن يكون الصواب بغثة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم، لما نكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما نكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء.

فَاعَلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٦﴾

فأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبك في معاشكم ومتاجرهم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبك في حياتكم ومثواكم في القبور أو متقلبك في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبي فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ إلى قوله: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ وقال: ﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ثم قال بعد ﴿فاحذروهم﴾ وقال: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمس﴾ ثم أمر بالعمل بعد.

وَيُنَزِّلُ الذِّكْرَ فَأَمَّا تِلْكَ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ الْحَكَمَةِ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ السَّعْيَةِ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ فَأَوَّلُ لَهُمْ ﴿١٧﴾

كانوا يدعون الحرص عليه الجهاد ويتمنون به بالسنتهم ويقولون: ﴿لولا نزلت سورة﴾ في معنى الجهاد ﴿فإننا أنزلت﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين وقيل لها محكمة: لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وقيل: هي المحنة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك، أو

مبتدا محنوف هي فيها أنهار وكان قائلاً قال: وما مثلاً فقيل فيها أنهار وأن يكون في موضع الحال أي مستقرة فيها أنهار، وفي قراءة علي رضي الله عنه أمثال الجنة أي ما صفاتها كصفات النار، وقرئ: ﴿أسن﴾ يقال أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه وأنشد ليزيد بن معاوية:

لقد سقتني رضا غير ذي أسن كالمسك فت على ماء لعناقيد
﴿من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير البان الدنيا فلا يعود قارصاً ولا حائزاً ولا ما يكره من الطعوم
﴿لذة﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ أو وصف بمصدر، وقرئ بالحركات الثلاث فالجر على صفة الخمر والرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة أي لأجل لذة الشاربين والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ماء حميماً﴾ قيل إذا بنا منهم شوى وجوههم، وإنما زت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم، هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وقيل كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا: ذلك للعلماء، وقيل قالوه لعبد الله بن مسعود وعن ابن عباس: أنا منهم وقد سميت فيمن سئل.

وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَنَئٌ وَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾

﴿أنفأ﴾ وقرئ أنفاً على فعل نصب على الظرف قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته، والمعنى: ماذا قال في أول وقت يقرب منا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا زَكَاةً وَأَسَدُوا لِمَا كَرِهَتْ نَفْسُهُمْ ﴿١٩﴾

﴿زادهم﴾ الله ﴿هدى﴾ بالتوفيق ﴿وأتاهم تقواهم﴾ أعانهم عليها أو أتاهم جزاء تقواهم وعن السدي: بين لهم ما يتقون، وقرئ: وأعطاهم وقيل: الضمير هم زادهم لقول الرسول أو الاستهزاء بالمنافقين أن تأتيهم بدل اشتغال من الساعة نحو أن تطوهم من قوله رجال مؤمنون ونساء مؤمنات.

فَلْيَنْظُرُوا إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٠﴾

وقرئ: ﴿أن تأتيهم﴾ بالوقف على الساعة واستئناف الشرط وهي في مصاحف أهل مكة كذلك.

فإن قُلْتُ: فما جزاء الشرط؟ قُلْتُ: قوله فأنى لهم ومعناه أن تأتيهم الساعة فكيف لهم نكرهم أي تنكرهم واتعاضهم إذا جاءتهم الساعة يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذ كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتنكر الإنسان وأنى له النكرى﴾.

لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم الطافة وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعظة وعموا عن إبصار طريق الهدى، ويجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخالصين الثابتين وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٦﴾

﴿أفلا يتذكرون القرآن﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ وأم بمعنى بل وهمة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها نكر، وعن قتادة إذا والله يجسروا في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تبصروا، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا.

فإن قُلْتُ: لم نكرت القلوب واضيفت الأقفال إليها؟ قُلْتُ: أما التنكير، ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين وأما إضافة الأقفال فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح وقرئ إقفالها على المصدر.

إِنَّ إِلَهِكُمْ أَرْزَدُوا عَلَى أَنْبَرِهِمْ مِنْ بَدِي مَا بَيْنَ لَهُمْ الْهُدَى
الْشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿٢٧﴾

﴿الشيطان سول لهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لأن كقولك إن زيدا عمرو مر به. سول لهم سهل لهم ركوب العظام من السول وهو الاسترخاء وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً ﴿وأملى لهم﴾ ومد لهم في الآمال والأمانى وقرئ ﴿وأملى لهم﴾ يعني إن الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم﴾ وقرئ: ﴿وأملى لهم﴾ على البناء للمفعول أي: أمهلوا ومد في عمرهم وقرئ سول لهم، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف.

فإن قُلْتُ: من هؤلاء؟ قُلْتُ: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعته في التوراة وقيل هم المنافقون.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّهِ كُرْهُو مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُلَيْمٌ فِي
بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ بَلَّغَ إِنْشَارَهُ ﴿٢٨﴾

الذين قالوا: اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله المنافقون وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير لئن أخرجتم لتخرجن معكم وقيل بعض الأمر التكنيب برسول الله ﷺ أو بلا إله إلا الله أو ترك القتال معه وقيل هو قول أحد الفريقين للمشركين ﴿سنطيعكم﴾ في التظاهر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه ومعنى ﴿في بعض الأمر﴾ في بعض ما تأمرون به أو في بعض الأمر الذي يهكم ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ وقرئ إسرارهم على المصدر قالوا ذلك سرا فيما بينهم فافشاه الله عليهم.

تبقى غير منسوخة وفي قراءة عبد الله سورة محزنة وقرئ فإذا نزلت سورة ونكر فيها القتال على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿ينظر المغشي عليه من الموت﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وعلماً وغيظاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فاولي لهم﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ ﴿٢٩﴾

﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف أي طاعة وقول معروف خير لهم، وقيل: هي حكاية قولهم أي قالوا طاعة وقول معروف بمعنى أمرنا طاعة وقول معروف وتشهد له قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد والعزم الجهد لأصحاب الأمر وإنما يسندان إلى الأمر إسناداً مجازياً ومنه قوله تعالى: إن ذلك لمن عزم الأمور ﴿قلو صدقوا الله﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

فَهَلْ عَصَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفِيدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ
﴿٣٠﴾

عسيت وعسيتم لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا ولا يلحقون الضمائر وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوكيد.

فإن قُلْتُ: ما معنى ﴿فهل عسيتم﴾ ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾؟ قُلْتُ: معناه هل يتوقع منكم الإفساد.

فإن قُلْتُ: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟ قُلْتُ: معناه: أنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريركم، ورخاوة عقيدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتامرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ تناحراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا وقيل: إن أعرستم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً وواد البنات، وقرئ وليتم وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توليتم أي إن تولاكم ولادة غشمة خرجتم معهم ومشيتهم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم، وقرئ وتقطعوا وتقطعوا من التقطيع والتقطيع.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْرَهُمْ ﴿٣١﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لعنهم الله﴾

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضَعُوا رُءُوسَهُمْ وَأَذِنَتْ لِي فِيهِمْ (٧٧).

فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ وقرئ توفاهم ويحتمل أن يكون ماضياً ومضارعاً قد حذفت إحدى تاءيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه وببره (٢).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَوْا مَا آسَخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٧٨).

﴿ذلك﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿أسخط﴾ الله من كتمان نعت رسول الله ﷺ و﴿رضوانه﴾ الإيمان برسول الله.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَلَهُمْ (٧٩).

﴿اضغاثهم﴾ أحقادهم وإخراجها إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم وكانت صدورهم تغلي حقاً عليهم.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُمُ بِسَيْمِهِمْ وَلَتَوَفَّيْتُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٨٠) وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ حَتَّى تَأْتِيَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا لِبَارِكِكُمْ (٨١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَتَآوَأُوا إِلَى رَسُولٍ مِنْ بَيْنِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَلَيْسَ لَئِنَّ يَصُورُوا اللَّهُ شَيْئاً وَسَيُحِطُ أَعْمَالَهُمْ (٨٢).

﴿لأريناكمهم﴾ لعرفناكمهم ولبلناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها وعن أنس رضي الله عنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق (٣).

فَإِنْ قُلْتَ: أَي فَرِيقَ بَيْنَ اللَّامِينَ فِي: فَلَعَرَفْتَهُمْ وَلَتَعْرِفْنَهُمْ؟ قُلْتُ: الْأُولَى هِيَ الْدَاخِلَةُ فِي جَوَابِ لَوْ كَالَّتِي فِي لَارِينَاكُمُ كَرَّرْتُ فِي الْمَعْطُوفِ، وَأَمَّا الْثَانِي فِي لَتَعْرِفْنَهُمْ فَوَاقِعَةٌ مَعَ النَّوْنِ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فِي نَحْوِهِ وَأَسْلُوبِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ قَوْلُهُمْ مَا لَنَا إِنْ أَطْعَمْنَا مِنَ الثَّوَابِ وَلَا يَقُولُونَ مَا عَلَيْنَا إِنْ عَصَيْنَا مِنَ الْعِقَابِ، وَقِيلَ لِلْحَنِّ أَنْ تَلْحَنَ بِكَلَامِكَ أَي تَمِيلُهُ إِلَى نَحْوٍ مِنَ الْإِنْخَاءِ لِيَقُطْنَ لَهُ صَاحِبُكَ كَالْتَعْرِيزِ وَالتَّوْرِيَةِ قَالَ:

ولقد لحنحت لكم لكيما تفقهوا واللحن يعرفه نروا الألباب

وقيل للمخطئ لحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿لخباركم﴾ ما يحكى عنكم، وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسناتها من قبيحتها لِأَنَّ الْخَبَرَ عَلَى حَسَبِ الْمَخْبَرِ عَنْهُ إِنْ حَسَنًا فَحَسَنٌ وَإِنْ قَبِيحًا فَقَبِيحٌ، وَقُرِئَ يَعْقُوبُ وَنَبَلُو بِسُكُونِ الْوَاوِ عَلَى مَعْنَى وَنَحْنُ نَبَلُو أَخْبَارَكُمْ، وَقُرِئَ وَلَيَبْلُونَكُمْ وَيَعْلَمُ وَيَبْلُو بِالْيَاءِ وَعَنِ الْفَضِيلِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا يَكِي وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَبْلِنَا فَإِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا، وَهَتَكَ أَسْتَارَنَا وَعَذَّبْتَنَا.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة وهم قريظة والنضير أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم وقيل هم رؤساء قريش والمطمعون يوم بدر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْلُغُوا أَعْمَالَكُمْ (٨٣).

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر (٤) كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَنْ تَحِطُّ بِأَعْمَالِكُمْ﴾، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرُونَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّهُمُ الْإِيمَانُ نَنْبَ كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرْكِ عَمَلٌ (٥) حَتَّى نَزَلَتْ:

التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ ثَابِتَةً قَطْعًا بِإِدْلَالِ اقْتَضَتْ ذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلَّ مُعْتَبَرٍ فِي الْحَلِّ، وَالْعَدَدُ عَنْ مَخَالَفَتِهَا فَهَمَّا وَرَدَ مِنْ ظَاهِرٍ يَخَالِفُهَا وَجِبَ رَدُّهُ إِلَيْهَا بِوَجْهِ مِنَ التَّوَابِلِ، فَإِنْ كَانَ نَصًّا لَا يَقْبَلُ التَّوَابِلِ، فَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ تَحْسِينُ الظَّنِّ بِالنَّقُولِ عَنْهُ، وَالتَّوْبِيحُ بِالْقَطْعِ عَلَى النِّقْطَةِ عَلَى أَنَّ الْاِثْرَ الْمَذْكُورَ عَنْ ابْنِ عَمْرِو هُوَ أَوَّلَى بَانَ يَدُلُّ ظَاهِرُهُ لَاهِلِ السَّنَةِ، فَتَأَمَّلْهُ وَأَمَّا مَحْمَلُ الْآيَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ فَقِيلَ أَنَّ النِّهْيَ عَنِ الْإِخْلَالِ بِشَرْطٍ مِنْ شُرُوطِ الْعَمَلِ، وَبِرَكْنٍ يَقْتَضِي بَطْلَانَهُ مِنْ أَصْلِهِ؛ لَا أَنَّهُ يَبْطُلُ بَعْدَ اسْتِجْمَاعِهِ شُرَاطِ الصَّحَةِ وَالْقَبُولِ.

(1) سورة النساء، الآية: 97.

(2) ونكر القرطبي نحوه بنون سند 16/165، الزيلعي (298/3).

(3) قال الزيلعي غريب، وهو في الثعلبي هكذا 298/3.

(4) قال أحمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أَنَّ الْكِبَائِرَ مَا دُونَ الشَّرِّ لَا تَحِطُّ حَسَنَةً مَكْتُوبَةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ نَرَّةٍ، وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفُهَا، وَيُؤْتِي مَنْ لِنَهْ أَجْرًا عَظِيمًا نَعَمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا وَعَدَ بِهِ الْكَرِيمُ جَلَّ وَعَلَا، وَقَاعِدَةُ الْمَعْتَزِلَةِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَنَّ كَبِيرَةً وَاحِدَةً تَحِطُّ بِمَا تَقْتَضِيهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ بِخُلُودِ الْفَاسِقِ فِي النَّارِ، وَسَلَبِ سَمَةِ الْإِيمَانِ عَنْهُ، وَمَتَى خَلَدَ فِي النَّارِ لَمْ تَنْفَعِ طَاعَاتُهُ وَلَا إِيْمَانُهُ، فَقِيلَ هَذَا بَنَى الزَّمْخَشَرِيُّ كَلَامَهُ، وَجَلَبَ الْأَثَارَ =

(5) رواه محمد بن نصر المروزي، الزيلعي 298/3.

﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم
﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ﴾ أي ولا يسألكم جميعها إنما يقتصر منكم
على ربع العشر ثم قال:

إِنْ يَنْتَكِبُوا فِيْكُمْ يَبْتَغِ الرَّحْمَنُ مِنْكُمْ

﴿إِنْ يَسْئَلُكُمْ فِيْكُمْ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله
والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه
في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وأحفى شارب
إذا استأصله ﴿يَبْتَغُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي تضطغون
على رسول الله ﷺ وتضيق صدوركم لذلك، وأظهروا
كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم والضمير في
يخرج لله عز وجل أي يضغفكم بطلب أموالكم أو للبخل
لأنه سبب الاضطغان، وقرئ: نخرج بالنون ويخرج بالياء
والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم.

هَآؤُنَّ هَؤُلَاءِ نَدْعُوهُنَّ لِئَنَّهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَنْصَحَ مَنْ يَّحِلُّ
وَمَنْ يَّحِلُّ فَإِنَّمَا يَحِلُّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتُوبُوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ

﴿هَؤُلَاءِ﴾ موصول بمعنى الذين الذين صلته ﴿تَدْعُونَ﴾
أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبين هؤلاء
الموصوفون ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا: وما وصفنا
فقل تدعون ﴿لَتَنْتَفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل هي النفقة
في الغزو وقيل الزكاة كانه قيل الدليل على أنه لو
أحفاكم لبخلتكم وكرهتم العطاء واضطعنتم أنكم تدعون
إلى أداء ربع العشر فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال
﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بالصدقة وإداء الفريضة فلا يتعداه ضرر
بخله وإنما ﴿يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يقال: بخلت عليه وعنه
وكنك ضننت عليه وعنه، ثم أخبر أنه لا يامر بذلك
ولا يدعو إليه لحاجته إليه فهو الغني الذي تستحيل
عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَأَنْ
تَقُولُوا﴾ معطوف على وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يَسْتَبْدِلْ
قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم
راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما كقوله
تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (4) وقيل: هم الملائكة وقيل:
الأنصار، وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن
العجم وعن عكرمة فارس والرم، وسئل رسول الله ﷺ
عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه،
وقال هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان
منوطاً بالثريا لتناولوه رجالاً من فارس (5) وعن

﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فكانوا يخافون الكبائر على
أعمالهم وعن حذيفة، فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم وعن
ابن عمر كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا
حتى نزل، ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا: ما هذا الذي يبطل
أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ
لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
فكفنا عن القول في ذلك فكننا نخاف على من أصاب
الكبائر، ونرجو لمن لم يصبها (1) وعن قتادة رحمه الله
رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ وقيل
لا تبطلوها بمعصيتهما، وعن ابن عباس رضي الله عنهما
لا تبطلوها بالرياء والسمة وعنه بالشك والنفاق، وقيل
بالعجب فإن العجب ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب
وقيل ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قيل هم أصحاب القلب
والظاهر العموم.

فَلَا تَهِنُوا وَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَهْزِقَ
أَعْمَالُكُمْ

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ولا تنلوا للعلو ﴿وَدْعُوا
إِلَى السَّلَِّ﴾ وقرئ: ﴿السَّلَمِ﴾ وهما المسالمة
﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي الأغلبون الأقهرون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾
أي ناصركم وعن قتادة لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت
إلى صاحبتهما بالموادعة، وقرئ: ولا تدعوا من ادعى
القوم وتداعوا إذا دعوا نحو قولك ارتموا الصيد وتراموه
وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي، أو منصوب
لإضمار إن ونحو قوله تعالى: وأنتم الأعلون قوله تعالى:
﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (2) ﴿وَلَنْ يَهْزِقَ﴾ من وترت الرجل
إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته
وحقيقته أقربته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد
فشبه إضاعة عمل العامل، وتعطيل ثوابه بوتر الوتر
وهو من فصيح الكلام ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:
«من فاتته صلاة العصر، فكانما وتر أهله وماله» (3). أي
أفرد عنهما قتلاً ونهباً.

إِنَّمَا لِلدِّينِ أَلْفَاظٌ لَمْ يَكُنْ وَلَهُمْ دِينٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا يُؤَيِّدُكُمْ أَجُورُكُمْ وَلَا
يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ

(4) سورة فاطر، الآية: 16.

(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب:
الحجاز واليمن والشام وفارس وعمان (الحديث رقم: 7308)،
وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الجمعة،
(الحديث رقم: 3310).

(1) المصدر السابق، وذكره ابن مروي في تفسيره، الزيلعي 300/3.

(2) سورة طه، الآية: 68.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته
صلاة العصر (الحديث رقم: 552)، وأخرجه مسلم في كتاب:
المساجد... باب: التغليظ في تقوية صلاة العصر (الحديث رقم:
626 - 200).

جميع من كان معه وقيل فجاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفذ ماؤها بعد⁽³⁾ وقيل: هو فتح خيبر وقيل: فتح الروم، وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه وقيل معناه قضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة.

لِيَقْرَأَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُرِيْكَ بِمَقَرِّكَ مَا تَسْأَلُ (٢).

﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدم في الجاهلية، وما بعدها وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد.

وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَزِيزٍ (٣).

﴿نصرنا عزيزاً﴾ فيه عز ومنعة، أو وصف بصفة المنصور إسناداً مجازياً أو عزيزاً صاحبه.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ جَمَعَهُمُ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَشْهُرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥).

﴿السكينة﴾ السكون كالبهية للبهتان أي انزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والامن ليعرفوا فصل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم، وانزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿ليزدادوا إيماناً﴾ بالشرائع مقروناً إلى إيمانهم، وهو التوحيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ثم الجهاد فازدادوا إيماناً إلى إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عز وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانهم ﴿ووه جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظمهم من ذلك وكروهه.

وَيُذِلُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الطَّاغُوتِ بِاللَّهِ طَوَّعَ الْكُفْرَ عَلَيْهِمْ دَاخِرُهُ الْكُفْرَ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ

رسول الله ﷺ من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح مدنية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١).

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكاتبة الموجودة. وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلْتُ: لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدت من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كانه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصركنا على عبوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والأجل، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث أنه جهاد للعدو سبباً للغفران والثواب والفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحاً بحرب أو بغير حرب لأنه منغلِق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوا في ديارهم، وعن الكلبي ظهوروا عليهم حتى سألوا الصلح.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف يكون فتحاً وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلْتُ: كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها، وتمت كان فتحاً مبيناً وعن موسى بن عقبة أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صرنا عن البيت، وصد هدينا فبلغ النبي ﷺ فقال: بنس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن ينفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا⁽²⁾ وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن يبيع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدي محله وأطعموا نخل خيبر وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مَجَّ فيها فدرت بالماء حتى شرب

(1) نكره للثعلبي وابن مردويه، ونكره الواحدي، الزيلعي 301/3.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب: قصة الحديبية، الزيلعي 3/305.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، (الحديث رقم: 4150)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة

ذي قرد، (الحديث رقم: 132 - 1807).

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾

جَهَنَّمَ وَنَارَاتٍ مُّصِيراً ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا مَّكِينًا ﴿٧﴾

وقع السوء عبارة عن رداء الشيء وفساده والصق عن جويته وصلاحه فقليل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صق وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء ومعنى: ﴿ظن السوء﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحها عنوة وقهراً ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي ما يظنونها ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم والسوء الهلاك والدمار، وقرئ دائرة السوء بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قلْتُ: هل من فرق بين السوء والسوء! قلْتُ: هما كالكره والكره والضعف والضعف من سوء إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد نفيه من كل شيء، وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير يقال أراد به السوء وأراد به الخير، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموماً وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التاويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلان الذي أصابهم مكروه وشدة فصح أن يقع عليه اسم السوء كقوله عز وعلا: ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾ (١).

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا مُّبِينًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾

﴿شاهدًا﴾ تشهد على أمتك كقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (٢).

لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُفِذَهُ وَنُفُوزَهُ وَتَسْجُدُوا بِكُرُّهٍ وَأَمِيرًا ﴿٩﴾

﴿ليؤمنوا﴾ الضمير للناس ﴿وتعزروه﴾ ويقوره بالنصرة ﴿ويوقروه﴾ ويعظموه ﴿ويسبحوه﴾ من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجل، والمراد بتعزير الله تعزيز لينه ورسوله ﷺ ومن فرق الضمائر فقد أبعد، وقرئ: لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بالتاء والخطاب لرسول الله ﷺ ولأئمة، وقرئ: ﴿وتعزروه﴾ بضم الزاي وكسرهما وتعزروه بضم التاء والتخفيف وتعزروه بالزايين وتوقروه من أقره بمعنى: وقره وتسبحوا الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

لما قال: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكد تأكيداً على طريق التخييل (٣) فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلوا يدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٤) والمراد ببيعة الرضوان ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفرّ فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيده ولم يسر مع القوم (٥). وقرئ: إنما يبايعون الله أي لأجل الله ولوجهه، وقرئ: ينكث بضم الكاف وكسرهما وبما عاهد وعهد ﴿فسيؤتيه﴾ بالثون والياء يقال وفيت بالعهد، وأوفيت به وهي لغة تهامة ومنها قوله تعالى: أوفوا بالعقود والموفون بعهدهم هم الذين خلفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل ونلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصنوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حرباً، فتناقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم (٦)، وقرئ: شغلتنا بالتشديد.

سَيَرْكَبُ أَلَكِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَتَتًا آمِنًا وَأَمَلْنَا فَاسْتَفِرَّ لَنَا بِقَوْلِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق وطلبهم للاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة ﴿فمن يملك لكم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (الحديث رقم: 69 - 1856).

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بنقص يسير، باب الحديبية 3/ 308.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدمت أمثاله.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.

تَنبِّئُكُمْ بِبُيُوتِكُمْ أَنْ يُسَدِّدُوا عَلَيْكُمْ اللَّهُ قُلْ لَنْ تَنبِيئُوكُمْ كَذِبًا قَالُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ قَوْلِ فَسَيُؤَلِّقُ بَلْ تَعْدُونَ بَلْ كَاوُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿سيقول المخلفون﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أن يبذلوا كلام الله﴾ وقرئ: كلم الله أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة (3) مغانم خيبر إذا قفلوا مواعدين لا يصيبون منهم شيئاً وقيل هو قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ (4) ﴿تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم قرئ: بضم السين وكسرهما ﴿لا يفقهون﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿قليلًا﴾ وهو فظنتهم لا مود الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا﴾ (5).

فإن قلنا: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلنا: الأول إضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٨﴾

﴿قل للمخلفين﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إلى قوم أولي بأس شديد﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأن مشركي العرب والمرتين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية وعند الشافعي: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب

وقضائه ﴿إن أراد بكم﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أو أراد بكم نفعًا﴾ من ظفر وغنيمة (1) وقرئ: ضرا بالفتح والضم. الأهليون جمع أهل، ويقال أهلات على تقدير تاء التانيث كارض وأرضات وقد جاء أهلة وأما أهال فاسم جمع كليل.

بَلْ طَنَنُمْ أَنْ لَنْ يَغْلِبَ الرُّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَزَيْتُمْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَطَنَنُكُمْ ظَنَّنَا الْكُفْرَ وَكَثُرَ قَوْمًا بَوْرًا ﴿٥٩﴾

وقرئ: ﴿إلى أهلهم﴾ وزين على الباء للفاعل وهو الشيطان أو الله عز وجل وكلاهما جاء في القرآن وزين لهم الشيطان أعمالهم وزينا لهم أعمالهم، والبور من بار كالكلمك من هلك بناء، ومعنى ولئلك وصف به الواحد والجمع والمنكر والمؤنث، ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ والمعنى: وكنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿للكافرين﴾ مقام مقام لهم للإيدان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سعيراً﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر نارا تلظى.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُقُودُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦١﴾

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يدبره تدبير قادر حكيم (2) فيغفر، ويعذب بمشيئته ومشيئته تابعة لحكمته وحكمته المغفرة للثائب وتعذيب المصير ﴿وكان الله غفوراً رحيمًا﴾ رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناّب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَدَائِنٍ لِنَاذِرُوهُمْ ذُرُوعًا

= أراد بكم رحمة، فإن العصمة إنما تكون من سوء لا من الرحمة، فهاتان الآيتان يرأمان في التقرير الذي نكرته، والله أعلم.

(2) قال أحمد: قد تقدمت أمثالها، والقول بأن موجب الحكمة ما نكر تحكم هذا، وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعتقده، فلا تبقى ولا تدر فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد، فيقيّد مطلقاً ويحجر واسعاً والله الموفق.

(3) قال أحمد: فالإضراب الأول إذا هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشد من المنسوب إليهم أولاً؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسداني المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال.

(4) سورة التوبة، الآية: 83.

(5) سورة الروم، الآية: 7.

(1) قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل والله أعلم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرباً كقوله: فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أملك شيئاً»، يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة وسر اختصاصه بنفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، وبفع المضرة نفع يضاف للمدقوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة، فإنه ضرر عائذ عليه لا له، فإذا ظهر ذلك، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لنفع المقتر من خير وشر، فلما تقاربا أنرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو

قَوْلَهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٨﴾.

﴿فَعَمِلَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وقرئ: وَأَتَاهُمْ وهو فتح خيبر غلب انصرافهم من مكة وعن الحسن فتح هجر وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمانًا.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٩﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغنم خيبر وكانت أرضًا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله ﷺ عليهم، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا نَجْعَلْ لَكُمْ هَذِهِ وَيُؤْتِي الْأَنْبِيَاءَ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَجَعَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغنم يعني: مغنم خيبر ﴿وَكُفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم فقتل الله في قلوبهم الرعب فنكسوا وقيل أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتُكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وقيل رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله.

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١١﴾.

﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على هذه أي فعلجل لكم هذه المغنم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغنم هوازن في غزوة حنين، وقال لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها، ويجوز في أخرى النصب بفعل مضممر يفسره قد أحاط الله بها تقديره وقضى الله أخرى قد أحاط بها وأما لم تقدروا عليها فصفة لأخرى والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ والجز بأضمار رب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ مَوْقِعُهُ؟ قُلْتُمْ: هُوَ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ وَمَعْنَاهُ وَلِتُكُونَ الْكُفَّةُ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَعَلْ ذَلِكَ، وَيجوز أن يكون المعنى وعِدكم المغنم ففعل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا لأن صدق الإخبار عن الغيوب

والمجوس نون مشركي العجم، والعرب وهذا ليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ لكن بعد وفاته، وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وقيل هم فارس والروم ومعنى ﴿يَسْلَمُونَ﴾ ينفقون لأن الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: عَنْ قِتَادَةِ أَنْهَمْ ثَقِيفٌ وَهَوَازَنٌ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُمْ: إِنْ صَحَّ ذَلِكَ، فَالْمَعْنَى: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا مَا دُمْتُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضِ الْقُلُوبِ وَالْاضْطِرَابِ فِي الدِّينِ أَوْ عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ كَانَ الْمَوْعِدُ أَنْهَمْ لَا يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مَتَطَوِّعِينَ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْمَغْنَمِ ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد في غزوة الحديبية، أو يسلمون معطوف على تقاتلونهم أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما وفي قراءة أبي أو يسلموا بمعنى إلى أن يسلموا.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَكُفِّرْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾.

نفي الحرج عن هؤلاء من نوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ: ونخله ونعذبه بالنون، هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية وقصتها أن النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جواسس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهدموا به فمئنه الأحابيش فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه لبيعته فقال: إني أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوي يمني، ولكني أنك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم عثمان بن عفان، فبيعته فخيرهم أنه لم يأت بحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمة فوقروه وقالوا: إن شئت أن نطوف بالبيت، فافعل فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها وقيل كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائمًا على رأسه ويدي غصن من الشجرة أدب عنه فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت بونه وعلى أن لا يفروا فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أهل الأرض^(١)، وكان عدد المبايعين ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفًا وأربعمائة وقيل ألفًا وثلاثمائة^(٢).

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

معجزة وآية ويزيدكم بذلك هداية وإيقاناً.

ومصلاته في الحرم⁽⁴⁾.

وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَنَ ثُمَّ لَا يَحْدُوتَ وَإِنَّا لَا نَصِيرُهُ^(١٢).

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة، ولم يصلحوا وقيل من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهمزوا.

سُئِلَ اللَّهُ أَلَيْ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ يُحَدِّثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبْدِيلًا^(١٣).

﴿سئله الله﴾ في موضع المصدر المؤكد أي سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾^(١٤).

وَمَنْ أَلَدَى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا^(١٥).

﴿أيديهم﴾ أيدي أهل مكة أي قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازاة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً وقيل كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وانخله حيطان مكة⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنه أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى انخلوهم البيوت، وقرئ: تعملون بالتاء والياء.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَ مَكَّةَ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِيسَاءٌ مُؤْمِنَةٌ لَمْ تَغْلِبْهُمْ وَأَنْ تَقْرَأَهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ نَعْمَةً يَغِيْرُ عَلَيْكُمْ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ لَوْ تَزِيلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١٦).

قرئ: ﴿والهدي﴾ بتخفيف الياء وتشديد الهاء وهو ما يهdy إلى الكعبة بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صتوكم أي صتوكم وصنوا الهدي وبالجعر عطفًا على المسجد الحرام بمعنى وصتوكم عن نحر الهدي ﴿معكوكا﴾ أن يبلغ محله ﴿محبوساً﴾ عن أن يبلغ وبالرفع على وصد الهدي ومحله ومكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب، وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم.

فإن قلْت: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قلْت: بعض الحديبية من الحرم⁽³⁾ وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل

فإن قلْت: فإن قد نحر في الحرم فلم قيل معكوكاً أن يبلغ محله؟ قلْت: المراد المحل المعهود وهو مني هلم تعلموهم﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً و﴿أن تطوهم﴾ بدل اشتغال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم والمعرفة مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكره ويشق عليه و﴿بغير علم﴾ متعلق بأن تطوهم يعني أن تطوهم غير عالمين بهم والوطء والدوس عبارة عن الإيقاع والإبادة قال:

ورطئتنا ووطأ على حنق⁽⁵⁾ ووطأ المقيد ثابت الهرم وقال رسول الله ﷺ: «وأن آخر وطأة وطينها الله بوج»⁽⁶⁾ والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركون غير متميزين منهم ولا معروفين الأماكن، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائي المشركون وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا⁽⁷⁾ رجال مؤمنون لمرجعتهما إلى معنى واحد، ويكون لعنينا هو الجواب.

فإن قلْت: أي معرفة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ قلْت: يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قاله المشركون أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير.

فإن قلْت: قوله تعالى: ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ تعليل لماذا؟ قلْت: لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع من قتلهم صوتاً لمن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لو تزيلوا﴾ لو تفرقوا، وتميز بعضهم من بعض من زاله يزيله وقرئ لو تزيلوا.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِفُهُمْ^(١٧).

﴿إن﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله أي لعنناهم، أو

= على امتناع لوجود، لو تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهراً؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم، وامتناع عدم الوجود وجود، قالاً إلى أمر واحد من هذا الوجه، وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني، ويسميه نظرية، وأكثر ما تكون إذا تناول الكلام وبعد عهداً وله، واجتيج إلى رد الآخر على الأول فمرة يطري بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه، وقد تقمّنت لها أمثال، والله أعلم وهو الموفق.

(1) سورة المجادلة، الآية: 21.

(2) نكره الطبري، وابن حاتم في تفسيره، الزيلعي 313/3.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المحصر، باب: النحر قبل الحلق في المحصر، (الحديث رقم: 1812).

(4) أخرجه أحمد في المسند 326/4.

(5) الحنق شدة الاغتيال.

(6) راجع الحديث 164، (2).

(7) قال أحمد: وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً، وإن كانت لولا تدل=

الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي صدقه الرؤيا ملتبساً بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام ويجوز أن يكون بالحق قسمًا إماماً بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالذي هو من أسمائه ﴿وَلَنَدْخُلَنَّهُ﴾ جوابه وعلى الأول هو جواب قسم محذوف.

فَإِنْ قُلْتَ: ما وجه دخول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في أخبار الله عن وجل قُلْتَ: فيه وجوه أن يعلق عَنَّهُ بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عاداتهم مثل ذلك متأذبين بأبواب الله، ومقتدين بسنته وأن يريد لتدخل جميعاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ ولم يمت منكم أحد أو كان ذلك على لسان ملك فادخل الملك إِنْ شَاءَ اللَّهُ أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقص عليهم وقيل هو متعلق بآمنين ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فَتَحَا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨).

﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ بدين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام بونه العز والغلبة، وقيل هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر، وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطئ نفوس المؤمنين على أَنَّ الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أَنَّ ما وعده كائن عن الحسن رضي الله عنه شهد على نفسه أنه سيظهر دينك.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَنْتَوُونَ فَقَالًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُونَ سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّطَ بِهِنَّ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

﴿محمد﴾ إما خبر مبتدأ أي هو محمد لنقدم قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ (٢٩) وإما مبتدأ، ورسول الله عطف بيان وعن ابن عامر أنه قرأ رسول الله بالنصب على

صنوعهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت وأن ينتصب بإضمار انكر والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين والحمية الأنفة والسكينة الوقار ما روي أَنَّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأخيف على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا ولكن كتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون فأننا أشهد أنني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهم المسلمون أن يابوا ذلك ويشمئزوا منه (١)، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا و﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم وقيل هي كلمة الشهادة، وعن الحسن رضي الله عنه كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وإساسها وقيل كلمة أهل التقوى، وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله وكانوا أهلها وأحق بها وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّهُ أَلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَايَاتٍ مُخْتَفِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُفَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ قَوْلُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَوْلًا قَرِيبًا (٢٧).

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إِنْ رُؤِيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت ومعنى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ (٢) صدقه في رؤياه ولم يكن به تعالى الله عن الكذب، وعن كل قبيح علواً كبيراً فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٣).

فَإِنْ قُلْتَ: بم تعلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ قُلْتَ: إِمَّا بِصَدَقَ أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من

(3) سورة الاحزاب، الآية: 23.

(4) سورة الصف، الآية: 9.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ونكره الطبري في تفسيره، الزيلعي 316/3.

﴿لذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعاً ثم ابتداء فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾⁽⁴⁾، وقرئ الأنجيل بفتح الهمزة ﴿شطأه﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وقرئ شطأه بفتح الطاء وشطأه بتخفيف الهمزة وشطأه بالمد وشطه بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها وإوا ﴿فأزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أفل وقرئ فأزره بالتخفيف والتشديد أي فشد أزره وقواه ومن جعل أزر أفل فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلط ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبئون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطاه بأبي بكر فأزره بعمر فاستغظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع.

فإن قلت: قوله ﴿ليغيب بهم الكفار﴾ تحليل لماذا قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾⁽⁵⁾ عن رسول الله ﷺ: ﴿من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة﴾⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قِيمَهُ إذا تقدمه في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير نكر

المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أنلة على المؤمنين أعزة على الكافرين واغظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشددهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئاً من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشداء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدّر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سماهم﴾ علامتهم وقرئ سيماءهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجادة من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من لثر السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملأ يقال له نو الثغفات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثغفات البعير، وقرئ من لثر السجود ومن آثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: ﴿لا تعلبوا صوركم﴾⁽¹⁾. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تلعب وجهك ولا تشن صورتك⁽²⁾ قلت: ذلك إذا اعتمد بجبته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجادة الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحداً الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثقلت الأروء أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحاك ليس بالندب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الطهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار⁽³⁾

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) أخرجه عبد الرزاق: 2/173، (الحديث رقم: 2941).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

(5) سورة الحج، الآية: 30.

(6) عزاء الزيلعي لابن مردويه، وللواحدي في تفسيره. زيلعي 3/319.

انفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ، وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقه عسلاً. فقلت: إني صائم. فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت⁽⁴⁾. وعن الحسن أن أناساً نبجوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا نبحاً آخر⁽⁵⁾. وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله إلا أن نزول الشمس وعند الشافعي يجوز النبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضاً: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ. وعن قتادة نكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل فيه كذا لكان كذا فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشی بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقديم المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه. فإن التقى حذر لا يشافه أمراً إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلية وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون. وحق مثله أن يتقي ويراقب إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لثلا يفترتوا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الآيب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يالو عملاً بما يحذره عليه وارتداً عما يصده عنه وانتهاً إلى كل خير.

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا كَجَهْرٍ
لَمْ يَأْمُرْ بِهِ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
(٦)

والمراد بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فليكن أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يببلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث

مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم، والثاني: أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدّموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل. كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ﴾^(١) ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم كوجه وبين ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ لا تقدّموا بحذف إحدى تاءي تتقدّموا إلا أن الأول أملاً بالحسن وأوجه وأشدّ ملاءمة لبلغة القرآن والعلماء له أقبل. وقرئ: لا تَقْدِمُوا من القدوم أي: لا تقدّموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومهما ولا تعجلوا عليهما^(٢). حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً، ولجريها هكذا فائدة جلية ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأمنان فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتنين برسول الله ﷺ وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرتني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص. ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد توطئة لما نغم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته لأن من أحاطه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي كان أنى ما يجب له من التهيّب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما. ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بشما صنعتكم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ^(٣) ونزلت أي: لا تعملوا شيئاً من ذات

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٠.

(٢) قال أحمد: يريد أنه لم ينكر المفعول الذي يتقاضاه تقدّموا بإطراح ذلك المفعول، كقوله: ﴿يَحْيِي وَيَمِيتُ﴾ وحلى الكلام بمجاز التمثيل، في قوله: ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصوّر الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه، مثل: أن يجلس العبد في الجهتين

= المسامتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدّموا على أمر حتى يأتى الله ورسوله فيه، فتكونوا مقتدين فيما تاتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

(٣) قال الزيلعي: غريب ورواه الشعبي بغير سند والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» الزيلعي 3/324.

(٤) عبد الرزاق في تفسيره، الزيلعي 3/325.

(٥) رواه الحاكم في المستدرک 2/462.

الأعلم الهنلي:

فرفعت عيني بالحجا وإلى أناس بالمناقب

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى نهيمهم عما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته. وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت فقد ثابت، فتفقد رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة». وأما ما يروى عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحمله والخطاب للمؤمنين على أن ينهى المؤمنون ليندوح المنافقون تحت النهي ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب أي: لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيم بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها «أن تحبط أعمالكم» منصوب الموضع على أنه مفعول له وفي متعلقه وجهان: أحدهما أن يتعلق بمعنى النهي فيكون المعنى انتهوا عما نهيتهم عنه لحبوط أعمالكم: أي: لخشية حبوطها على تقدير حنق المضاف كقوله تعالى: «يبين الله لكم أن تضلوا»⁽⁴⁾، والثاني: أن يتعلق بنفس للفعل ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جعل كانه فعل لأجله⁽⁵⁾ وكأنه العلة والسبب في إيجاد

يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهه باهراً لجهركم، حتى تكون مزيتة عليكم لائحة وسابقتها واضحة وامتيازها عن جمهوركم كشية الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغظكم وتبهروا منطه بصخبكم، ويقول: «ولا تجهروا له بالقول» إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتهم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه وتعزروه وتوقروه، وقيل معنى: «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار وأخا السرار حتى ألقى الله⁽¹⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه⁽²⁾. وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ، وفد، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ⁽³⁾، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه وردّه إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزيز والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك. ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: أصرخ بالناس. وكان العباس أجهر الناس صوتاً. يروي أن غارة انتهت يوماً فصاح العباس: يا صباحاه: فاسقطت الحوامل لشدة صوته وفيه يقول نابغة بني جعدة:

فزجر أبي عروة والسباع إذا شفق أن يختلطن بالغنم زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه، وفي قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا بأصواتكم، والباء مزيدة محنو بها حنو التشديد في قول

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ.

(2) قال الزليعي: غريب 3/327.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: «لا ترفعوا أصواتكم» (الحديث رقم: 4846).

(4) سورة النساء، الآية: 176.

(5) قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة، إياك ورودها، وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وترجب الخلود في العذاب المقيم وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة العمدة في

= مواضع من هذا المجموع فجدد العهد بها، وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار، وأن الجنة له بوعده الله حتم ولو كانت خطاياها ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك، والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها، فيما يدعيه أن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه لم تستقم الإخافة به، وإنى له أن يبلغ من ذلك آماله ونظم الكلام بإياه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية: النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام، =

احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأن تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكانه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك أنت لهذا الآخر أي: كائن له ومختص به قال:

أنت لها أحمد من بين البشر أعداء من لليعملات على الوجي وهي مع معمولها منصوبة على الحال، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاضطراب عليها. وقيل: أخلصها للتقوى من قولهم: امتحن الذهب وفتنه إذا أذاب به فخلص إبريزه من خبثه ونقاها. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب الشهوات عنها والامتحان افتعال من محنة وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهنته فقد محنته وأنشد:

أنت رذايا باديأكلالها قد محنت واضطربت أطالها قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غرض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبته عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم أسماً لأن المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزأؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهمة أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتدال والارتضاء لما فعل النبين وقرأوا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستجابههم ضد ما استوجب هؤلاء.

والوراء الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ومن لابتداء الغاية وأن المناداة نشأت من ذلك المكان.

فإن قلْت⁽⁵⁾: فرق بين الكلامين بين ما ثبتت فيه وما

على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدواً﴾⁽¹⁾.

فإن قلْت: لخص الفرق بين الوجهين! قلْت: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضموماً إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب النهي عليهما جميعاً صبا. وفي الأول يقدر النهي موجهاً على الفعل على حياله ثم يعال له منهياً عنه.

فإن قلْت: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قلْت: بالثاني عند البصريين مقدراً إضماره عند الأول كقوله تعالى: ﴿أتوني أفرغ عليه قطراً﴾⁽²⁾ وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أدأوه إلى حيوط العمل، وقرأة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصاً بذلك لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطفغان في قوله تعالى: ﴿فيحل عليكم غضبي﴾⁽³⁾ والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فتفتح بطونها وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطاً أو يلم ومن أخواته حبجت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك»⁽⁴⁾. وأحبط عمله مثل أحبطه، وحبط الجرح وجبر إذا غفر وهو نكسه وتراميه إلى الفساد جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به أعاننا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام وما يحبط عمله، والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط. ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويحفظ.

إِنَّ الَّذِينَ يُغُفَّرُونَ عَنْهُمْ عَذَابُهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْرِفَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَ مِنْ دُونَ الْجَبْرِ أَكْثَرُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرّب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وإن عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى أقوياء على

= مقدمتين كلتاهما صحيحة، إحداهما: أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام، المقدمة الأخرى: أن إيذاء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه اثنمتنا، واقتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً، ولا تقبل توبيته، فما أتاه أعظم عند الله وكبر، والله الموفق.

(1) سورة القصص، الآية: 8.

(2) سورة الكهف، الآية: 96.

(3) سورة طه، الآية: 81.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهد الدنيا (الحديث رقم: 121 - 1052).

(5) قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبيكت بني تميم، بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد =

= والقاعدة المختارة أن إيذائه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للترعية وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوف أن يقع فيهما هو محبط للعمل، وهو البالغ حد الإيذاء، إذ لا دليل ظاهر يميزه وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر، وقعت الإشارة بقوله: ﴿إن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾، وإلا فلا كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ موقع إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذٍ فيكون كبيرة محبطة على رايه قطعاً، فعلى كلا حاله الإحباط به محقق، إذ فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الإحباط ثابت مطلقاً والله أعلم. وهذا التقرير الذي نكرته يدور على =

تسقط عنه؛ قُلْتُ: الفرق بينهما أنَّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الراء، وفي الثاني لا يجوز لأنَّ الراء تصير بخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقاً بغير تعيين واختصاص. والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنَّ النداء وقع منهم في أنبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نالوه من البرِّ والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة نون جهة. والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضميتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ: بهنَّ جميعاً. والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ وكانت لكل واحدة منهنَّ حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوا حجرة حجرة فنالوه من ورائها، وأنهم نالوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمة، والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباقيون راضين فكانهم تولوه جميعاً. فقد نكر الأصم أنَّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن جابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة، ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنَّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. ودوي أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد فجعوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، فاستيقظ فخرج ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشدَّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»⁽¹⁾ فورد الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف باللام نون الإضافة، ومنها أن شفع نهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ وتسلياً له وإمطاة لما تداخله من إيحاش

تعجر فهم وسوء انبهم وهلم جرا من أول السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أربف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كان الأول بساط للثاني ووطاء لنكره، ثم نكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنه أتم من الصباح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه. لأنَّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما لبقت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤)

﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية لأنَّ المعنى ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾⁽²⁾ وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس. فلهذا قيل للمحبس على اليمين أو القتل صبر، وفي كلام بعضهم الصبر من لا يتجرعه إلا حر.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين ﴿حتى تخرج﴾ وإلى أن تخرج؟ قُلْتُ: إنَّ حتى مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز. وإلى عامة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أنَّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه.

فإن قُلْتُ: فاي فائدة في قوله: ﴿إليهم﴾؟ قُلْتُ: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولاجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنَّ خروجه إليهم ﴿لكن خيراً لهم﴾ في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم: من كذب كان شراً له ﴿والله غفور رحيم﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنبأوا. بعث رسول الله ﷺ الوليد بن

= سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم»، وعلى الجملة: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوق في حق أمة عظيمة؛ لأنَّ واحداً منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أن المنادى له عليه السلام هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه

= الكتب الصحاح.

(1) نكره الواحد في أسباب النزول، أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيه (الحديث رقم: 198 - 2525).

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

بجهالة ﴿٣﴾ حال كقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾^(٣) يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح بمعنى الصيرورة. والندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها نولم ولزام لأنه كلما تذكر المتندم عليه راجعه من الندام وهو لزام الشريب ودوام صحبته، ومن مقلوباته أومن الأمر أدامه ومن بالمكان أقام به ومنه المدينة، وقد تراهم يجعلون لهم صاحباً ونجباً وسميراً وضجيراً وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه.

الجملة المصدرة بلولا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم^(٤) ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سديد. والمعنى أن فيكم رسول الله ﷺ على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوائث على مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتثيه المحتذى على أمثلته. ولو فعل ذلك ﴿لعنتم﴾ أي: لوقعتم في العنت والهلاك، يقال: فلان يتعنن فلاناً أي: يطلب ما يؤذيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وإن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعمهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ﴾ أي: إلى بعضكم ولكنه أغنت عن نكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يظن لها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أي: أولئك المستنثون هم الراشدون بصدق ما قلته.

فإن قلّنت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلّنت: القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لأرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

عقبة أخا عثمان لأمه وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال: «هل أزيكم». فعزله عثمان مصدقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبليين له فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة: فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم، فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: لتنهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليه خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متجهدين فسلموا إليه الصدقات فرجع^(١). وفي تنكير الفاسق والنبا شياع في الفساق والإنباء كانه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ^(٢) فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه والفسوق الخروج من الشيء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها ومن مقلوبه فقسست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضاً فقسست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكة مغتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤية:

فوسقاً عن قصد ما جاورها

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا، والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرف، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطعم فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُغِيبُوا قُورًا بِمَنَافِقَةٍ فَمُنِجُوا عَنْهَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ وَالْعَلَمُ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ فِي كَثِيرٍ مِّنَ أَلْفَمِ لَيْمَ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ ۚ الْإِيمَانُ وَزَيْنٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ ۚ وَالصِّيَافُ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ۚ (٧)

﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له أي كراهة إصابتكم ﴿قوماً﴾

= سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها: مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها: تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضمنت هذه النبذة التي نكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده، تبين لك من حاله أعني الزمخشري ما لا أطبق التصريح به، لأنه لم يصرح، وإنما سلكتنا معه سبيل الإنصاف، وبجحة الانتصاف نص بنص وتلويح بتلويح، فنسال الله العظيم بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين أن يرضى عن صحابه أجمعين وعنا بهم أمين.

(1) قال أحمد: تسامح بلفظ الشياخ، والمراد الشمول: لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق النفي والله أعلم.

(2) أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيره، نكره في كتاب: الدر المنثور، أخرج الزيلعي 3/332.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(4) قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة تلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعل الشنعاء عوضاً عن =

والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفةً عن المعقول. و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالبحود و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكيثر. و ﴿العصيان﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي العائد، واعتصت النواة اشتدت، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخر. قال أبو الوائز: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات صلبين الضوء من صم الرشد

فَصَلَّى مِنَ اللَّهِ وَبِعَمَّةٍ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفِيئَتُهُمَا عَلَىٰ الْقَدْرِ وَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفِيئَتُهُمَا عَلَىٰ الْقَدْرِ وَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفِيئَتُهُمَا عَلَىٰ الْقَدْرِ وَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفِيئَتُهُمَا عَلَىٰ الْقَدْرِ

و ﴿فضلاً﴾ مفعول له أو مصدر من غير فعله. فإن قُلْتُ: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد (2) فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتخذ الفاعل؟ قُلْتُ: لما وقع الرشد عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندةً إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب. عن الراشدون ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدر كأنه قيل: جرى ذلك أو

فإن قُلْتُ: فلم قيل يطيعكم دون اطاعكم؟ قُلْتُ: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه بليليل قوله: في كثير من الأمر كقولك: فلان يقري الضيف ويحامي الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمراً.

فإن قُلْتُ: كيف موقع لكن وشريبتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً؟ قُلْتُ: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصله من حيث المعنى، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غابرت صفتهم صفة المتقدم نكروهم فوقع لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق (1) وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبي عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فإن قُلْتُ: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مبرور! قُلْتُ: الذي سَوَّع ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمود. ومن ثم قالوا أحسن ما في الدميم وجهه، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره. على أن من محققه الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأهماته الخير وهي الفصاحة

= وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى.

(2) قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن نبينا على ما بينا أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الإشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعيونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل، وسواء كان حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه، كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر ورود على هذا الوجه، فلك في الجواب عنه طريقان، إما جواب الزمخشري، وإما أن الله تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة، وهو عكس قوله: ﴿يريك البرق خوفاً وطمعاً﴾ فإن الإشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون والطمعون والفعل الأول لله تعالى، لأنه مريهم ذلك والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصحت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً، وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية، فتامله والله الموفق.

(1) قال أحمد: تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً وتغلغل باتباع موى معجماً، فجزه لك بل جزأه على تاويل الآية وإبطال ما نكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذا مملوح بما ليس من فعله وهذا عنده محال، فاتباع الآية رايه الفاسد فإذا عرضت عليه الألة العقلية على الوجدانية والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فإنه يتمسك في تاويلها بالبحال المنكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالذي نعتقد ثبثنا الله على الحق أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن، فلا موجود إلا الله، عسافته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بد أن أطارحه القول، فاقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم، هل بمكتسب أم بغير مكتسب؟ فلا يسعه أن يقول، إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبه بل بما وهبه إياهم فأنهوه، وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة فقد خرج عن أهل الملة وانحرف عن أهل القبلة، =

واقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكتلتهما عند أنفسهما محقة. فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مرشد الحق. فإن ركبنا متن اللجاج ولم نعمل على شاكله ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين، وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنمت بعد الفئته ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله. فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجدد أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنه عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد والذي نكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قلنا: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلنا: لأن المراد بالاعتقالات في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتي شبهة. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواظب الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا. فحينئذ تجب المقاتلة وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿واقسطوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط يابس، وأقسطته الرياح. وأما القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي: أزال القسط وهو الجور.

لَمَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةً فَأَمْلِكُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين

كان نلك فضلاً من الله، وأما كونه مصدرًا من غير فعله فإن يوضع موضع رشدًا لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ﴿وإياهم عليم﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم التمايز والتفاضل ﴿حكيم﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ على مجلس الانصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك عبد الله بن أبي بنائفة وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكه»^(١). وروي: «حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكه»^(٢). ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبأ وتجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي، وقيل بالأيدي والنعال والسعف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم ونزل. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي الاستطالة والظلم وإباء الصلح، والفهي الرجوع وقد سمي به الظل والغنمية، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنمية ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وعن أبي عمرو: حتى تقي بغير همز وجهه أن أبا عمر خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلصة فظنه قد طرحها.

فإن قلنا: ما وجه قوله: ﴿اقتتلوا﴾، والقياس اقتتلنا^(٣)؟ كما قرأ ابن أبي عبله، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تاويل الرهطين أو نفرين! قلنا: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله حتى يفيثوا إلى أمر الله، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل. قاله بعد أن اعتزل، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عمل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»^(٤)، ولا تخلو الفتتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب في ذلك أن يمشی بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا

= ﴿اقتتلوا﴾، ثم على اللفظ بقوله: ﴿بينهما﴾، فلا يعتقد أن المقول في من مطرد في هذا؛ لأن المانع لزوم الإجمال والإيهام بعد التفسير وهما لا يلزم ذلك، إذ لا إيهام في الطائفة بل لفظها مفرد أبداً، ومعناها جمع أبداً وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعاً ومرة مفرداً فتأمل، والله الموفق.

(٤) رواه ابن أبي شيبة 389/8 في كتاب: الأدب، باب: النهي عن الوقعة. ورواه الحاكم في المستدرک 155/2.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: في الإصلاح بين الناس (الحديث رقم: 2691)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المناققين (الحديث رقم: 117 - 1799).

(٢) تقدم تخريجه سابقاً.

(٣) قال أحمد: قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ من بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: =

أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقيين ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات⁽⁴⁾ من بعض، وأن تقصد إفادة الشياخ وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً⁽⁵⁾ بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسايتهم على السخرية واستغفطاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر. وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيع ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوماً. وقوله تعالى: ﴿عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه⁽⁶⁾، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بإفاء والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من تلك بمعزل فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته، فلعلة أخلص ضميرًا واتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه، خشيت أن اصنع مثل الذي صنعه». وعن عبد الله بن مسعود «البلاء موكل بالقول: ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»⁽⁷⁾ وفي قراءة عبد الله: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن. فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ وعلى الأولى التي لا خير لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا﴾. واللمز الطعن والضرب باللسان. وقرئ ولا تلمزوا بالضم والمعنى: وخصوا أيها

أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهما في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثا للسفراء بينهما إلى أن يصابف ما وهي من الوفاق من يرقعه وما استثنى من الوصال من يبيله، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشد منه، وعن النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره. ثم قال: احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل»⁽¹⁾.

فإن قلنا: فلم خص الاثنين بالذكر دون الجمع؟ قلنا: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان فإذا لزم المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر الزم، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ بين إخوانكم وإخوانكم والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انتزاحت عنهم شبهات الأجنبية وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فباثروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع وأحسموه. ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحمكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارة إلى إمطة ما يفرط منه. وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رافته عليكم حقيقة بأن تعقوا به رجاءكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنْكُمْ إِنْ حَارَبَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا إِسَاءَةٌ مِّنْ إِسَاءَةِ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَنَازَعُوا بِالْأَرْكَانِ بِشَىْءٍ اَلْفُسُوقَ بَعْدَ اَلْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ اَلطَّاغُوتُ (١١).

القوم الرجال خاصة لأنهم القوام بأمور النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾⁽²⁾ قال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم إلا ما نب عنه»⁽³⁾. والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر عن بعض العرب إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً أي: قياماً. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير:

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 2442)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره... (الحديث رقم: 32 - 2564).

(2) سورة النساء، الآية: 34.

(3) قال الزبلي غريب مرفوعاً، رواه موقراً ابن المبارك على عمر بن الخطاب وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث زبلي 3/ 337.

(4) قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض،

= لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد أن في التنكير فائدة أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(5) قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(6) قال أحمد وهو من الطراز الأول.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 8/ 390 في كتاب: الأدب في النهي عن الوقية.

النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد⁽³⁾ وروي أنها «نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ ليسمع. فأتى يوماً وهو يقول: تقسحوا لي حتى أنتهي إلى رسول الله ﷺ فقال الرجل: تنح. فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد ما كان يعيرها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت. فقال ثابت: لا أقصر على أحد في الحساب بعدها أبداً، «الاسم» ههنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من نكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين⁽⁵⁾ بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: «بعد الإيمان» ثلاثة أوجه: أحدهما استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يباهه الإيمان ويحظره كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرة الصبوة، والثاني أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق، فنهوا عنه. وقيل لهم: بشئ الذكر أن تنكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالذم عن التنازع والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بثئت الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

يقال: جنبه الشر إذا أبعد عنه، وحقيقته جعله منه في جانب فيعدي إلى مفعولين. قال الله عز وجل: «وإني بني أن نعبد الأصنام»⁽⁶⁾ ثم يقال في مطاوعة: اجتنب الشر فتتقص المطاوعة مفعولاً والمأمور باجتنابه هو بعض الظن. وذلك البعض موصوف بالكثرة ألا ترى إلى قوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّبْعَآءَ بَعْضٍ أَعْلَسَتْكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمٌ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٧﴾

«إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ». فَإِنْ قُلْتُ: بين الفصل بين كثير حيث جاء نكرة، وبينه لو جاء معرفة؟ قُلْتُ: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد

المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «انكروا الفاجر بما فيه كي يحذر الناس»⁽¹⁾. وعن الحسن رضي الله عنه في نكر الحاج: أخرج إلي بناتاً قصيرة فلما عرقت فيها الأعتة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال لما مات: اللهم أنت أمته، فاقطع سنته، فإنه أئانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى توفته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي. فوكه الله وتحتة مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، الصلاة أيها الرجل. هيئات بون تلك السيف والسوط، وقيل: معناه لا يجب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به للزم فقد لزم نفسه حقيقة. والتنازع بالألقاب التداعي بها، تفاعل من نبزه وبنو فلان يتنازبون ويتنازبون، ويقال: النبز والنزب لقب السوء والتلقب المنهي عنه. وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقيصيراً به وذنماً له وشيئاً فاما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»⁽²⁾ ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمره بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطبتهم ومكاتبتهم من غير نكير. روي عن الضحاک أن قوماً من بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي نذر وسالم مولى حنيفة فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقوبها بسببة، وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أم سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: «أن صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن

= هو أولها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى، ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك انحرافاً إلى قاعدة يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن، توجماً على أن الاسم التسمية، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى، وأما الوجه الثاني: فالخلة ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحاً، وأما الثالث: فليتيم له أن الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالفات للسنة فاحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدة، إلا إذا أدركها الحق فكلها، والله الحمد.

(6) سورة إبراهيم، الآية: 35.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9667).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة ومودة أهل الدين (الحديث رقم: 8772).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (الحديث رقم: 7211)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ (الحديث رقم: 3892).

(4) قال الزيلعي غريب 342/3 ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 221.

(5) قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملازمة لقاعدة أهل السنة وأولاهما =

فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»⁽⁶⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أحبط أحدكم﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أقطع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب ياكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها إن لم يقتصر على اكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مودودة أن تاكل منها، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ وقرئ ميتاً، ولما قرره عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب اكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ معناه فقد كرهتموه واستقر ذلك وفيه معنى الشرط أي: إن صح هذا فكرهتموه وهي إلقاء الفضيحة أي: فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإبائه البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه. فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين، وقرئ فكرهتموه أي: جبلتم على كراهته.

فإن قلّت: هلا عدى بآلى كما عدى في قوله: وكرهه إليكم الكفر وأيهما القياس: قلّت: القياس تعدي بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تنقيح حشوه تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول، وأما تعدي بآلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض لأن بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغض إليه كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من نذب يقترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه. والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين للتائبين. وعن ابن عباس «أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً وكان إسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك.

على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله بامارة بيئة مع استشعار للثقوى والحذر ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً وما اتصف منه بالقلة مرخصاً في تظننه، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم نمة وعرضه وأن يظن به ظن السوء»⁽¹⁾. وعن الحسن: كنا في زمان الظن بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت وظن بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه أن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»⁽²⁾. والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعقوبته، الإثم فعال منه كالنكال والعذاب والوبال قال:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة أصاب النوى قبل الممات أئامها والهمزة فيه عن الواو كأنه يثم الأعمال أي: يكسرها بإحباطه. وقرئ: ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تحسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجنس كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس، لما في اللمس من التطلب. وقد جاء بمعنى التطلب في قوله تعالى: ﴿وإننا لمسنا السماء﴾⁽³⁾ والتحسس التعرف من الحس والتقاربهما قيل: لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعاليهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد: خنوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ «أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»⁽⁴⁾. وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمراً. فقال ابن مسعود: «إننا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به»⁽⁵⁾. غابه واغتابه كغاله واغتاله، والغيبة من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة

= (1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في السر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9664).

(3) سورة الجن، الآية: 8.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإبالة، باب: الغيبة (الحديث رقم: 5763)، وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (الحديث رقم: 2032)، وأخرجه أبو داود في كتاب:

(5) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة (الحديث رقم: 70 - 2589).

فجاءه وهو في زمائه فتولى غسله وبقفه⁽⁴⁾. فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكَنَّ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٩).

الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمانينة النفس، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حربياً للمؤمنين بإظهار الشهادة التي ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب لللسان فهو إيمان.

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم قُلْتُ⁽⁵⁾: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً ودفع ما انتحلوه، فقيل: قل لم تؤمنوا وروعي في هذا النوع من التكذيب أنب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل: كذبتم ووضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: أولئك هم الصانقون. تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح. واستغنى بالجملة التي هي لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤذاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصترفة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة! قُلْتُ: ليس كذلك فإن فائدة قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ هو تكذيب دعواهم وقوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا،

فعند ذلك قالوا لو بعثناه إلى بشر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا: ما تناولنا لحماً. فقال: إنكما قد اعتبتما⁽¹⁾. فنزلت.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣).

﴿من ذكر وأنثى﴾ من آدم وحواء وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فما منكم أحد إلا وهو يبلي بمثل ما يبلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العائلات، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفضائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ العباس فصيلة وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها. وقرئ: لتتعارفوا ولتعارفوا بالإدغام ولتعارفوا أي: لتعلموا كيف تتناسبون وليتعارفوا والمعنى أن الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير أبيائه، لا أن يتفاخروا بالأبواء والأجداد وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقرئ: أن بالفتح كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم، وعن النبي ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجالان، مؤمن تقى كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية⁽²⁾ وعنه عليه السلام: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»⁽³⁾. وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: «مر رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعي عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقدته يوماً، فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به.

(1) قال الزيلعي: غريب وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب: الترغيب والترهيب. وذكره الثعلبي ثم البغوي بلفظ المصنف من غير سند 349/3.

(2) أخرجه الترمذي في السنن كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الحجرات (الحديث رقم: 3270) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الألب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث رقم: 5116).

(3) رواه الحاكم في المستدرک 270/4.

(4) ذكر الواحدي في أسباب النزول ص 222.

(5) قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة، قوله تعالى: =

= ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ، قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلص من حواش الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة لا أنهم كذبوا في أن رسول الله ﷺ رسول من الله، وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾.

ولم يكنبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات.

قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُ بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

يقال: ما علمت بقدمك أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّعَلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وفيه تجهيل لهم. يقال: من عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلهما إليه، واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعتمد لطلب مثوبة، ثم يقال: من عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعاماً، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاماً ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً. فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إِنْ هَؤُلَاءِ يَعتَبُونَ عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حديثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام، فقل لهم: لا تعتدوا علي إسلامكم أي: حديثكم المسمى إسلاماً عندي لا إيماناً. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووقفتم له إن صحَّ زعمكم وصلقت دعوكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفي على المتأمل وجواب الشرط محنوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان. فله المنة عليكم. وقرئ: إن هداكم بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم.

إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

وقرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. يعني:

أنه عز وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سرهم وعلايتكم لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه» (2).

وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لَا يَلْتَكُمُ﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: آلته السلطان حقه أشد الآلت، وهي لغة غطفان ولغة أسد وأهل الحجاز لاته ليتا، وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات، وقرئ: بالفتين لا يلتكم ولا يالتكم ونحوه في المعنى فلا تظلم نفس شيئاً. ومعنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جبة فآظفروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعنزات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: آتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئتكم بالاثقال والذاري، يريدون الصلقة ويمنون عليه فنزلت.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٩﴾

ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهم لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه.

فإن قلنا: ما معنى ثم هنا وهي للتراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؛ قلنا: الجواب على طريقين: أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلث يقينه، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات ونظيره قوله: ﴿ثم استقاموا﴾ (1) والثاني أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المترخية المتطاولة غصاً جديداً. ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منوياً وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهده. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا

(1) سورة فصلت، الآية: 30.

(2) رواه الثعلبي وابن مريويه والواحدي في التفسير والزليعي / 353.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ق مكية

ق وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا نَحْنُ بِعَبِيدٍ (٢) أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا تِلْكَ الْأَمْثِلُ لِمَنْ رَجَعَ بَعِيدٌ (٣).

الكلام في ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ﴾ بل عجبوا * بل عجبوا نحوه في ص وَالْقُرْآنِ ذي الذكر بل الذين كفروا سواء بسواء لالتقاءهما في أسلوب واحد. والمجيد ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس وهو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته.

قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس يعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وسلطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه مترفعاً عليهم خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه. وإذا علم أن مخوفاً أظلم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه وإقرارهم بالنشأة الأولى ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب إذا متنا﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. وهذا إشارة إلى الرجوع وإذا منصوب بمضمر معناه أحياناً نموت ونبلى نرجع ﴿ذلك رجوع بعيد﴾ مستبعد مستنكر، كقولك هذا قول بعيد وقد أبعد فلان في قوله، ومعناه بعيد من الوهم والعادة، ويجوز أن يكون الرجوع بمعنى المرجوع وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ: إذا متنا على لفظ الخبر ومعناه: إذا متنا بعد أن نرجع والدال عليه ذلك رجوع بعيد.

فإن قلْتُ: فما ناسب الظرف إذا كان الرجوع بمعنى المرجوع؟ قلْتُ: ما دل عليه المنذر من المنذر به وهو البعث.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَشِيطٌ (٤)

﴿قد علمنا﴾ رد لاستبعادهم الرجوع، لأن من لطف

علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتاكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا. عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب»^(١) وعن السدي: ﴿وما تنقص الأرض منهم﴾ ما يموت فيدفن في الأرض منهم ﴿كتاب حفيظ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيير. وهو اللوح المحفوظ أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥).

﴿بل كذبوا﴾ إضراب اتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أقطع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر ﴿فهم في أمر مريج﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه وجرج، فيقولون تارة شاعر وتارة ساحر وتارة كاهن لا يثبتون على شيء واحد. وقرئ: لما جاءهم بكسر اللام وما المصدرية واللام هي التي في قولهم لخمس خلون أي: عند مجيئه إياهم، وقيل: الحق القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

أَنَّهُ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَهَهِمُّ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦).

﴿أفلم ينظروا﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم ﴿ببينها﴾ رفعناها بغير عمد ﴿من فروع﴾ من فتوق يعني: أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل كقوله تعالى: ﴿هل ترى من فطور﴾^(٢).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧).

﴿مددناها﴾ لحوناها ﴿رواسي﴾ جبلاً ثوابت لولا هي لنكفات ﴿من كل زوج﴾ من كل صنف ﴿بهيج﴾ يبتهج به لحسنه.

بَيِّنَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ (٨).

﴿تبصرة وذكرى﴾ لتبصر به وتذكر كل ﴿عبد منيب﴾ راجع إلى ربه مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: تبصرة وذكرى بالرفع أي: خلقها تبصرة.

وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَالْتَبَسْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩).

﴿ماء مبارك﴾ كثير المنافع ﴿وحب الحصيد﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما.

(2) سورة الملك، الآية: 3.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير تفسير سورة الزمر، باب: ﴿ونفخ في الصور﴾ (الحديث رقم: 4814) ومسلم في الفتن، باب: ما بين النفختين.

وَالْخَلَّ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّصِيدٌ ﴿١٠﴾

الإنشاء كان على الإعادة أقدر.

فإن قُلْتُ: لم نكر الخلق الجديد⁽²⁾ وهلا عرف كما عرف الخلق الأول؟ قُلْتُ: قصد في تنكيهه إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ويبعث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ فَكَمُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١١﴾

الوسوسة الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهيجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك صوت بكذا وهمس به، ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان أي: ما تجعله موسوساً وما مصدرية لأنهم يقولون: حدث نفسه بكذا. كما يقولون: حدثته به نفسه. قال: واكذب النفس إذا حدثتها ﴿ونحن أقرب إليه﴾ مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكان ذاته قريبة منه كما يقال:

الله في كل مكان وقد جل عن الامكنة وحبل الوريد مثل في فرط القرب كقولهم:

هو مني مقعد القابلة ومعقد الإزار

وقال ذو الرمة:

والموت أدنى لي من الوريد والحبل العرق شبه بواحد الحبال
الا ترى إلى قوله: كان وريديه رشا أخلب، والوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقيل: سمي وريداً لأن الروح ترده.

فإن قُلْتُ: ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن تكون الإضافة للبيان كقولهم بعير سانية. والثاني أن يراد حبل العائق فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العائق لاجتماعهما في عضو واحد. كما لو قيل حبل العلياء مثلاً.

إِذْ يَنْتَلَى الْمُلْتَمَسِينَ عَنِ الْبَيْتِ وَرَنَ الْجَنَابِلَ يَمِئًا ﴿١٢﴾

وعلى الأول ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وقوله: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم وإن المتقين في جنات ونعيم﴾ وقوله: ﴿بإيمان الحقنا بهم نرياتهم﴾ وهو أكثر من أن يحصى، والثاني: هو الأصل في التنكير، فلا يحتاج إلى تمثيله، فتذكير اللبس من التعظيم والتفخيم، كأنه قال: في لبس، أي: وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول، يحتمل أن يكون للتفخيم، وكأنه أمر أعظم من أن يرضي الإنسان بكونه ملتبساً عليه، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة، فإن يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك، وإلا فالعق العسل ولا تسئل.

﴿باسقات﴾ طوالاً في السماء. وفي قراءة رسول الله ﷺ باصقات بإبدال السين صاداً لأجل القاف ﴿نصيد﴾ منضود بعضه فوق بعض. إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه أو كثرة ما فيه من الثمر.

رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلَ كَذَلِكَ الْخُرُوجِ ﴿١٣﴾

﴿رزقاً﴾ على أنبتناها رزقاً لأن الإنبات في معنى الرزق أو على أنه مفعول له أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿كذلك الخروج﴾ كما حبيت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء. أراد بفروع قوم كقوله تعالى:

كَذَبَ قَبْلَهُ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَشُودُ ﴿١٤﴾ وَعَادُ وَرَعَوُ وَيُحُوتُ لُوطُ ﴿١٥﴾

﴿من فرعون وملثهم﴾⁽¹⁾ لأن المعطوف عليه قوم نوح والمعطوفات جماعات.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوكَ كَذَبَ الْأَوَّلُونَ عَنْ رَيْبٍ ﴿١٦﴾

﴿كل﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم وأن يراد جميعهم. إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ بون المعنى ﴿فحق وعيد﴾ فوجب وحل وعيدي وهو كلمة العذاب وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

أَنبِئْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلَ بَلَّ مَرِّ فِي لَيْسَ مِنْ حَقِّي جَدِيدِ ﴿١٧﴾

عبي بالامر إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة للإنكار والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني. ثم قال: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، واعترفاهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة. ﴿بل هم في لبس﴾ أي: في خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول علي رضي الله عنه: يا حار، إنه لملبوس عليك اعرف الحق تعرف أهله ولبس الشيطان عليهم تسويله إليهم أن أحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك القياس الصحيح أن من قدر على

(1) سورة يونس، الآية: 83.

(2) قال أحمد: هذا كلام كما تراه غير منتظم، والظاهر أنه لفساد في النسخة، والذي يتحرر في الآية وهو مقتضى تفسير الزمخشري، أن فيها أسئلة ثلاثة لم عرف الخلق الأول، ونكر اللبس والخلق الجديد، فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه، ومنه تعريف النكور في قوله: ﴿ويهب لمن يشاء النكور﴾ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول: لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى، إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمتها، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيا به، فهذا سر تعريف الخلق الأول، وأما التنكير فأمره منقسم، فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أقبح من أن يخاطبه معرفة، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه، =

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾⁽²⁾ وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما: سكرة الحق بالموت على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له وأنها حكمة، والباء للتعدي لأنها سبب زهوق الروح لشدتها أو لأن الموت يعقبها فكانها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى جاءت ومعها الموت. وقيل: سكرة الحق سكرة الله أضيفت إليه تفضيلاً لشأنها وتهويلاً. وقرئ: سكرات الموت: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموت والخطاب للإنسان في قوله: ولقد خلقنا الإنسان على طريق الالتفات أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تحديد﴾ تنفر وتهرب. وعن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ فحكاها صالح بن كيسان فقال: والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب هو للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعاً هو للبر والفاجر.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (١٠).

﴿ذلك يوم الوعيد﴾ على تقدير حذف المضاف أي: وقت ذلك يوم الوعيد والإشارة إلى مصدر نفخ.

وَمَدَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مِّنْهَا سَائِقَ وَهَيْدٍ (١١).

﴿سائق وشهيد﴾ ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين كانه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها ومحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا تَكْفُرْنَا عَنْكُمْ غَطَاءَكُمُ بَصَرُكُمْ أَيُّومَ حُرَيْدٍ (١٢).

قرئ: لقد كنت عنك غطاءك فبصرك بالكسر على خطاب النفس أي: يقال لها: لقد كنت. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فبصر ما لم يبصر من الحق. ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديثاً لتيقظه.

وَقَالَ رَبُّنَا هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدٍ (١٣).

﴿وقال قرينه﴾ هو الشيطان الذي قبض له في قوله: نقبض له شيطاناً فهو له قرين يشهد له قوله تعالى: ﴿قال قرينه﴾ ربنا ما أطغيته ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ هذا شيء لدي وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى: أن ملكاً يسوقه وآخر يشهد عليه وشيطاناً مقروناً به يقول: قد اعتدته لجهنم وهيئته لها بإغوائها وإضلالي.

﴿إذ﴾ منصوب بأقرب وساغ ذلك لأن المعاني تعمل في الظرف متقدمة ومتأخرة والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيماناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات. وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك وهي ما في كتبه الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ: «إنَّ معقد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما»⁽¹⁾. ويجوز أن يكون تلقى الملكين بياناً للقرب يعني: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظنا وكتبنا مولكون به والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة. والقعيد القاعد كالجليس بمعنى المجالس، وتقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه كقوله كنت منه والدي بريا.

مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ (١٤).

﴿رقيب﴾ ملك يرقب عمله ﴿عتيد﴾ حاضر. واختلف فيما يكتب الملكان فقيل: يكتبان كل شيء حتى أتبه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه السلام: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل. وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». وقيل: إنَّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعنه جماعة. وقرئ: ما يلفظ على البناء للمفعول. لما نكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أنَّ ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي وهو قوله:

وَبَيَّاتُ سَكْرَةَ اللَّيْلِ بِأَلْحَىٰ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ (١٥).

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ ونفخ في الصور. وسكرة الموت شنته الذاهبة بالعقل، والباء في الحق للتعدي يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله، أو حقيقة الأمر وجليه الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان من أن كل نفس ذائقة الموت ويجوز أن تكون الباء مثلاً في قوله: تنبت بالدهن أي وجاءت ملبسة بالحق أي: بحقيقة الأمر أو بالحكمة. والغرض الصحيح كقوله تعالى:

لا تختصموا لدي علم أن ثم مقالة من الكافر لكنها طرحت لما يدل عليها كأنه قال: رب هو أطغاني فقال قرينه: ربنا ما أطغيته وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين.

وقول قرينه ما قال له: ﴿ما أطغيته﴾ ما جعلته طاغياً وما أوقعته في الطغيان. ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾^(١).

قَالَ لَا تَغْتَبِرُوا لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْبَعِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿قال لا تختصموا﴾ استئناف مثل قوله: قال قرينه: كان قائلاً قال: فماذا قال الله، فقيل: قال: لا تختصموا. والمعنى: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته، وقد أوعدكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى السنة رسلي فما تركت لكم حجة علي. ثم قال: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي فأغفيكم عما أوعدكم به. ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ فاعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في بالوعيد مزيده مثلها في ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، أو معدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم، ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله: ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ويكون بالوعيد حالاً أي: قدمت إليكم هذا ملتبساً بالوعيد مقترناً به، أو قدمته إليكم موعداً لكم به.

فإن قلْت: إن قوله: وقد قدمت إليكم واقع موقع الحال من لا تختصموا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعهما في زمان واحد واجب! قلْت: معناه لا تختصموا وقد صرح عندكم أنني قدمت إليكم بالوعيد وصحة ذلك عندهم في الآخرة.

فإن قلْت: كيف قال بظلام على لفظ المبالغة؟^(٢) قلْت: فيه وجهان: أحدهما أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده، والثاني أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاماً مفرط الظلم فنفي ذلك.

يَوْمَ نَقُولُ لِإِصْمَءَ هَلْ اكْتَلَفْتَ يَوْمَ نَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾

فإن قلْت: كيف إعراب هذا الكلام؟ قلْت: إن جعلت ما موصوفة فعتيد صفة لها، وإن جعلتها موصولة فهو بدل أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف.

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَجِدارٍ مُّعَبَدٍ ﴿٣١﴾

﴿القياء﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد، ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين: أحدهما قول المبردان تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل: ألق الق للتأكيد، والثاني أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان فكثر على السنتهم أن يقولوا خليلي وصاحبني وقفا وأسعدا حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين. عن الحجاج أنه كان يقول: يا حوسى اضربا عنقه. وقرأ الحسن: القين بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في القيا بدلاً من النون إجراءً للوصول مجرى الوقف. ﴿عنتيد﴾ معاند مجانب للحق معاد لاهله.

مَنَاجٍ لِلنَّارِ مُمْرِرٌ مُّرِيبٌ ﴿٣٢﴾

﴿مناجٍ للخير﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، جعل ذلك عادة له لا يذل منه شيئاً قط أو مناجٍ لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت. ﴿معتدٍ﴾ ظالم متخط للحق ﴿مريبٍ﴾ شاكٍ في الله وفي دينه.

أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَعًا فَأَلَيَّاهُ فِي الْمَذَابِ الْثَلَاثِ ﴿٣٣﴾ قَدْ فَهِمَ رَبَّنَا مَا اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٤﴾

﴿الذي جعل﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرط ولذلك أجيب بالفاء. ويجوز أن يكون الذي جعل منصوباً بدلاً من كل كفار ويكون ﴿فالقياهم﴾ تكريراً للتوكيد.

فإن قلْت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلْت: لأنها استأنفت كما تستأنف الجملة الواقعة في حكاية التقاليد كما رأيت في حكاية المقالة بين موسى وفرعون.

فإن قلْت: فإين التقاليد ههنا؟ قلْت: لما قال قرينه هذا ما لدي عتيد، وتبعه قوله: قال قرينه ربنا ما أطغيته. وتلاه

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وذكر فيه وجهان آخران، أحدهما: أن فعلاً قد ورد بمعنى فاعل فهذا منه، الثاني: أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم، إن عظيماً فعظيماً وإن قليلاً فقليل، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه قس ذاته عما يتوهم مخنول، والعياذ بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود، ولقد بدل القدرية فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أَرَادَهُ وبما هو من خلق العبد، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أَرَادَ وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفاً بما لا يطلق، واعتقدوا أن ذلك ظلم =

= في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلاماً، والله تعالى مبرا من الظلم، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلاماً، والله تعالى مبرا من الظلم، ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاماً لعبيده تعالى الله عن ذلك؛ لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين هو عين ما اعتقدوه ظلاماً فنفوه، فلمثلهم ورتب هذه الآية وأشباهها لتبين للناس ما نزل إليهم، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله الموفق للصواب.

بدلاً عن موصوف أوَّاب وحفيظ ولا يجوز أن يكون في حكم أوَّاب وحفيظ لأنَّ مَنْ لا يوصف به ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره يقال لهم: ادخلوها بسلام، لأنَّ من في معنى الجمع، ويجوز أن يكون منادى كقولهم: من لا يزال محسناً أحسن إلي وحذف حرف النداء للتقريب ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول أي: خشية وهو غائب لم يعرفه، وكونه معاقباً لا بطريق الاستدلال أو صفة لمصدر خشى أي: خشية خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب أو خشية بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه. وقيل: في الخلوة حيث لا يراه أحد.

فإن قلَّت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلَّت: (3) قلَّت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاش مع أنَّ المخشي منه غالب ونحوه، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى لأنَّ الاعتبار بما ثبت منها في القلب.

أَدْعُوهُمْ بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٢٤)

يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من العذاب وزوال النعم أو مسلماً عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾ (4) أي: مقدرين الخلود.

لَمْ نَأْتِ بِشَاوَرٍ يَبِئًا وَلَا بِنَا مَرِيدٍ (٢٥)

﴿ولينا مزيد﴾ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيتهم حتى يشاؤه، وقيل: إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فنقول نحن: المزيد الذي قال الله عز وجل: ﴿ولينا مزيد﴾.

وَكَمْ أَمَلَكْنَا بَالَهُم مِّن قَرْنٍ مَّمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْلَبِيدِ

قرئ: نقول بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال وانتصاب اليوم بظلام أو بضمير. نحو أنكر وأنذر ويجوز أن ينتصب بفتح كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ولا يقدر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى (1) في القلب وثنيته وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزداد على امتلائها لقوله تعالى: ﴿لَا مَلَأْنَ جَهَنَّمَ﴾ والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون هل من مزيد استكثاراً للداخلين فيها واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة. والمزيد إما مصدر كالمحيد والمميد وإما اسم مفعول كالمتبع.

وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لَشَيْءٍ غَيْرَ بَرِيدٍ (٢٦)

﴿غير بعيد﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً غير بعيد. أو على الحال وتنكيره لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل والمصادر يستوي في الوصف بها المنكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف أي شيئاً غير بعيد ومعناه: التوكيد. كما تقول: هو قريب غير بعيد وعزيز غير قليل.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٢٧)

وقرئ: توعدون بالتاء والياء وهي جملة اعتراضية و﴿لكل أوَّاب﴾ بدل من قوله: للمتقين بتكرير الجر كقوله تعالى: ﴿الذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ (2) وهذا إشارة إلى الثواب أو إلى مصدر أزلفت. والأوَّاب الرجاء إلى ذكر الله تعالى والحفيظ الحافظ لحدوده تعالى.

مَنْ خَيَّرَ الرَّحْمَنَ وَالْبَرَّ رَجَاءً يَكْسِرُ تَبِيءٍ (٢٨)

﴿ومن خشى﴾ بدل بعد بدل تابع لكل ويجوز أن يكون

= فأن لها في نفسين، وهذه وإن لم تكن نصوصاً فظواهر بحب حملها على حقائقها؛ لانا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع ولا مانع ههنا، فإن القدرة صالحة والعقل يجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما صورته العقل، وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا، كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي ﷺ وفي يد أصحابه، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة، لانتسج الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات، مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق، فاشدد يدك بما فصل في هذا الفصل، مما أرسدته به إلى منهج القرب والوصل، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 75.

(3) قال أحمد: ومن هذا الوادي بالغ رسول الله ﷺ في الثناء على صهيبي، بقوله: نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه..

(4) سورة الزمر، الآية: 73.

(1) قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع، والتنكير ههنا أشد عليه، فإن إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ وفي مثل قوله: ﴿يل يدها مبسوطتان﴾ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز، فمعنى كلامه صحيح؛ لانا نعتقد فيها المجاز وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة، وأي إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل، ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل، في قوله: ﴿يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فلا يشك في وجوب اجتنابه، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه ههنا، فنقول: هو منكر لفظاً ومعنى، أما اللفظ فقد تقدم، وأما المعنى فلانا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإنراك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك، منها هذا ومنها لجأ الجنة والنار، ومنها اشتكاؤها إلى ربها =

هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ (٣٦).

الْغُرُوبِ (٣٧).

﴿فانصبر على ما يقولون﴾ أي: اليهود يأتون به من الكفر والتشبيه، وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال ﴿بحمد ربك﴾ حامداً ربك والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة فالصلاة ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ الظهر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ (٤١).

﴿ومن الليل﴾ العشاءان وقيل: التهجد ﴿وابتار السجود﴾ التسبيح في آثار الصلوات والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل: التوافل بعد المكتوبات. وعن علي رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَتَبَتْ صَلَاتُهُ فِي عِلِّيِّينَ» (١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الوتر بعد العشاء، والابتار جمع دبر. وقرئ: ﴿وابتار﴾ من ابترت الصلاة إذا انقضت تمت ومعناه ووقت انقضاء السجود. كقولهم: أتيت خقوق النجم.

وَأَسْبَحَ يَوْمَ يَدُوكِ الْبُحْرِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤٢).

﴿واسبح﴾ يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدث عنه، كما يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول لك». ثم حدثه بعد ذلك.

فإن قللت: بم انتصب اليوم؟ قللت: بما دل عليه ذلك يوم الخروج أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور. ويوم يسمعون بدل من ﴿يوم ينادي﴾ و﴿المنادي﴾ إسرائيلي ينفخ في الصور وينادي: آيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتمزقة إن الله يأمركم أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرائيلي ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿من كان قريباً﴾ من صخرة بيت المقدس وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: آيتها العظام البالية.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْعَةَ وَالْحَيَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٣) إِنَّا نَحْنُ نَحْيُ رُبِّيَّ وَإِنَّا الْكَمِيرُ (٤٤).

﴿والصيحة﴾ النفخة الثانية ﴿بالحق﴾ متعلق بالصيحة والمراد به: البعث والحشر للجزاء.

﴿فانقبوا﴾ وقرئ: بالتخفيف فخرقوا في البلاد وبوخوا، والتنقيب: التنقيب عن الأمر والبحث والطلب. قال الحرث بن حذلة:

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال وبخلت الفاء للتسبيح عن قوله: هم أشد منهم بطشاً أي: شدة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه، ويجوز أن يراد فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم. والليل على صحته قراءة من قرأ فنقبوا على الأمر كقوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ (١) وقرئ: يكسر القاف مخففة النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال: ما مسها من نقب ولا ببر. والمعنى: فنقبت أخفاف إبلهم أو حفيت أقدامهم ونقبت كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد ﴿هل من محيص﴾ من الله أو من الموت.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ (٤٧).

﴿لمن كان له قلب﴾ أي: قلب واع لأن من لا يعي قلبه فكانه لا قلب له. وإلقاء السمع الإصغاء ﴿وهو شهيد﴾ أي: حاضر بغطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكانه غائب. وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه: ماشئت من زهرمة والفتى بمصفاً ياذللسفي الزروع أو وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحي من الله أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ (٢) وعن قتادة وهو شاهد على صيقه من أهل الكتاب لوجود نعتة عنده وقرأ السدي وجماعة ألقى السمع على البناء للمفعول ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل: ألقى سمعه أو السمع منه اللغوب الإعياء وقرئ: بالفتح بزنة القبول والولوع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ غُروبٍ (٤٨).

قيل: نزلت في اليهود لعنت تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش. وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

= أبي شيبه 198/2 في كتاب: الجمعة، باب: في ثواب الركعتين لم يخرج الزيلعي.

(1) سورة التوبة، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) أخرجه عبد البرزاق في المصنف 70/3 (الحديث رقم: 4833)، وابن =

يَوْمَ نَنفُثُ الرُّسْمَ عَنْهُمْ سِرًّا فَكَانَ ذَلِكَ حَشْرًا عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾

قرئ: تشقق وتشقق بإدغام التاء في الشين وتشقق على البناء للمفعول وتنشق. ﴿سراعا﴾ حال من المجرور ﴿علينا يسير﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن. كما قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾^(١).

عَنْ أَعْمَرَ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعْبُدُ ﴿٤٥﴾

﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿بجبار﴾ كقوله تعالى: ﴿بمسيطر﴾^(٢) حتى تقسره على الإيمان إنما أنت داع وباعث. وقيل: أريد التحمل عنهم وترك الغلظة عليهم ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان، وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم إذا كان واليهم ومالك أمرهم. ﴿من يخاف وعيد﴾ كقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾^(٣) لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر عن رسول الله ﷺ. ﴿من قرأ سورة ق﴾ هو الذي عليه تارات الموت وسكراته^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات مكية

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾

﴿والذاريات﴾ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تذروه الرياح﴾. وقرئ: بإدغام التاء في الذال.

فَالْقَائِلَاتِ وَقَرًا ﴿٢﴾

﴿فالحاملات وقرا﴾ السحاب لأنها تحمل المطر. وقرئ: وقرًا بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر أو على إيقاعه موقع حملًا.

فَالْمُزَيِّنَاتِ بَيْرًا ﴿٣﴾

﴿فالجاريات يسرا﴾ الفلك ومعنى يسرًا: جريًا ذا يسر. أي: ذا سهولة.

فَالْمُغِيرَاتِ آمُرًا ﴿٤﴾

﴿فالمقسمات أمرًا﴾ الملائكة لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد تتولى تقسيم أمر العباد جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملاك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن علي رضي الله عنه أنه قال هو على المنبر: «سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: ما الذاريات ذرؤًا. قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرا. قال: السحاب. قال: فالجاريات يسرا. قال: الفلك. قال: فالمقسمات أمرًا. قال: الملائكة»^(٥). وكذا عن ابن عباس وعن الحسن: «المقسمات السحاب يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة»^(٦). ويجوز أن يراد الرياح لا غير لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جريًا سهلًا، وتقسم الأمطار بتصرف الحساب.

فإن قلنا: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلنا: أمّا على الأول فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجري بها بهيوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه، وأمّا على الثاني فلأنها تبتدىء بالهبوب فتذرو التراب والحصباء، فتثقل السحاب فتجري في الجو بأسطة له، فتقسم المطر.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾

﴿إنما توعدون﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود البعث. ووعد صادق كعيشة راضية.

وَأَنَّ الْآيَةَ لَآتِيَةٌ ﴿٦﴾

والدين الجزاء. الواقع الحاصل.

وَأَسْمَاءُ ذَاتِ لُحُبٍّ ﴿٧﴾

﴿الحبكب﴾: الطرائق مثل حبك الرمل والماء إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره. قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

والدرع محبوكة لأن خلقها مطرق طرائق. ويقال: إن خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي، وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم فرس محبوك المعاقم أي: محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حيكه! وهو جمع حبك كمثال ومثل أو حبيكة كطريقة وطرق. وقرئ: الحبك بوزن القفل، والحبك بوزن السلك، والحبك

(٥) رواه الحاكم في المستدرک 2/466.

(٦) رواه الطبراني في تفسيره.

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٥.

(٤) رواه الثعلبي والواحدي وابن مروي في التفسير وأخرجه الزيلعي

بوزن الجبل، والحبك بوزن البرق، والحبك بوزن النعم، والحبك بوزن الإبل.

إِنْكَرَ لِي قَوْلِي تُخْلِفُ (٨).

﴿إِنكُمْ لفي قول مختلف﴾ قولهم في الرسول ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن ﴿شعر وسحر وأساطير الأولين﴾ وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا إنما هو متناقض مختلف، وعن قتادة: منكم مصلق ومكذب ومقر ومكر.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩).

﴿يؤفك عنه﴾ الضمير للقرآن أو للرسول أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه (١) وأعظم كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله. أي: علم فيما لم يزل أنه مافوك عن الحق لا يروعى. ويجوز أن يكون الضمير لما توعون أو للدين أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق. ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك ومنهم جاحد، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المافوك. ووجه آخر وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف. وعن مثله في قوله: ينهون عن أكل وعن شرب. أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب، وحقيقته يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك على البناء للفاعل أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أن الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ فيقولون له: احذره، فيرجع، فيخبرهم. وعن زيد بن علي: يافك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو مافوك في نفسه. وعنه أيضًا: يافك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو أفك كذاب. وقرئ: يؤفن عنه من أفن أي: يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

قِيلَ الْمَرْصُورُ (١٠).

﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم. كقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ (٢) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح. والخراصون الكذابين المقدرين ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم. كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: قتل الخراصين أي: قتل الله.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهَوَتْ (١١).

﴿في غمرة﴾ في جهل يغمرهم ﴿ساهوت﴾ غافلون عما أمروا به.

يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ (١٢).

﴿يسئلون﴾ فيقولون: ﴿أيان يوم الدين﴾ أي: متى يوم الجزاء. وقرئ: بكسر الهمزة وهي لغة.

فإن قلْتُ: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان! قلْتُ: معناه أيان وقوع يوم الدين.

فإن قلْتُ: فبم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلْتُ: بفعل مضمَر دل عليه السؤال أي: يقع.

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣).

﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة.

فإن قلْتُ: فما محله مفتوحًا؟ قلْتُ: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمَر الذي هو يقع، ورفعًا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عيلة بالرفع. ﴿يفتنون﴾ يحرَقون ويعذبون، ومنه الفتين وهي الحرة لأن حبارتها كأنها محرقة.

دُفُورًا يَنْتَكِرُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَسْتَجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُنَى فِي جَنَّتِ وَعَبُودُ (١٥).

﴿نوقوا فتننكم﴾ في محل الحال. أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿الذي﴾ خبره. أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كنتم به تستعجلون﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلًا من فتننكم أي: نوقوا هذا العذاب.

أَلَيْسَ لَكُمْ رِزْقٌ إِلَيْهِمْ كَانُوا قُلُوكَ حُسَيْنِ (١٦).

﴿أخنين ما آتاهم﴾ ربههم قابلين لكل ما أعطاهم راضين به يعني: أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وياخذ الصدقات﴾ (٣) أي: يقبلها ويرضاها. ﴿محسنين﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿ما﴾ مزيدة.

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ (١٧).

والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. إن

= فكانك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلًا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(2) سورة عيس، الآية: 17.

(3) سورة التوبة، الآية: 104.

(1) قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر، من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف علم السامع أن قولك: يصرف عنه يغني عن قولك: من صرف؛ لأنه بمجرده كال تكرار للأول لولا ما يستشعر فيه من فائدة تآبي جعله تكرارًا، وتلك الفائدة إنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف،

واعتلالهم. وما فيها من العيون المتفجرة والمعان المفضنة والنبوب المنبثة في برها وبحرها، المختلفة الصور والأشكال والأفعال من الوحشي والإنسي والهوام وغير ذلك. ﴿للموقنين﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة. فهم نظارون بعيون باصرة وأقهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فزادوا إيماناً مع إيمانهم وإيقاناً إلى إيقانهم.

وَقَدْ أَنَسِمْ أَقْلًا بُرْهَانَ (٦).

﴿وفي أنفسكم﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبيئات القاطعة على حكمة المدير ودع الأسماح والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني، فإنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى انماخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَقَدْ أَنَسِمْ رَزَقَكَ وَمَا تَعْدُونَ (٧) قَرِيبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ (٨).

﴿وفي السماء رزقكم﴾ هو المطر لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج، وكل عين دائمة منه. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه: والله رزقكم ولكنكم تحرمونه لخطاياكم. ﴿وما توعدون﴾ الجنة هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء.

قري: ﴿مثل ما﴾ بالرفع صفة للحق أي: حق مثل نطقكم، وبالنصب على أنه لحق حقاً مثل نطقكم، ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن، وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما أنك ههنا وهذا الضمير إشارة إلى ما نكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ، أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

جعلت قليلاً ظرفاً ولك أن تجعله صفةً للمصدر. أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. ويجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولة على كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه. وارتقاعه بقليلاً على الفاعلية^(١) وفيه مبالغت. لفظ الهجوع وهو القرار من النوم قال:

قد حصت البيضة رأسي فما اطعم نوماً غير تهجاع وقوله: قليلاً ومن الليل لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ما المؤكدة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متجهدين.

وَلَا تَحَارْمْ بَسْتَرُونَ (٩).

إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وقوله: ﴿هم يستغفرون﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصيرين فكانهم المختصون به لاستدامتهم له وإطناهم فيه.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله؟ قلت: لا لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها تقول: زيداً لم أضرب؟ ولا تقول: زيداً ما ضربت.

وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ حَقَّ لِسَانِكَ وَالْجَزْمُ (١٠).

السائل الذي يستجدي. ﴿والمحروم﴾ الذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والاكلتان، واللقة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما هو؟ قال: الذي لا يجد ولا يتصدق عليه»^(٢). وقيل: الذي لا ينمى له مال. وقيل: المحارف الذي لا يكاد يكسب.

وَقَدْ أَلْأَرْضَ بَابُ لُتْوَيْنِ (١١).

﴿وفي الأرض آيات﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره، حيث هي مدحوة كالسباط لما فوقها. كما قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهذاً﴾^(٣) وفيها المسالك والفجاج للمتقلين فيها، والماشين في مناكبها. وهي مجزأة فمن سهل وجبل وبر وبحر، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة وعذاء وسبخة، وهي كالطروقة تلحق بالوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح. تسقي بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصلحتهم في صحتهم

(١) قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل ما مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع؛ لأنه فاعله، وقوله: ﴿من الليل﴾ لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بياناً له، ولا يستقيم أن يكون من صلة المصدر؛ لأنه تقدم عليه ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل؛ كانه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون الليل بياناً للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي نكره إنما تبع فيه الزجاج، وقد رد الزمخشري أن =

تكون ما نفيًا، وقليلًا منصوب بيهجعون، على تقدير كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى (الحديث رقم: 101 - 1039).

(٣) سورة طه، الآية: 53.

غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويعذره، قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر ﴿فجاء بعجل سمين﴾.

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾.

والهمزة في ﴿الَا تَأْكُلُونَ﴾ للإنكار أنكروا عليهم ترك الأكل، أو حثهم عليه.

فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِمَلِكٍ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾.

﴿فأوجس﴾ فاضمر، وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه، فظن أنهم يريدون به سوءاً، وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعباد. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه. ﴿بغلام عليم﴾ أي: يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم نبي. والمبشر به إسحاق وهو أكثر الأقاويل وأصحها، لأن الصفة صفة سارة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلا. وعن مجاهد: هو إسماعيل.

فَأَتَيْنَ أُمَّرَأَتَهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَاتَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٧٩﴾.

﴿في صرة﴾ في صريحة من صر الجند وصر القلم، والباب ومحلّه النصب على الحال، أي: فجاءت صارة، قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء وقيل: فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها ﴿فصكت﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت باطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عجوز﴾ أنا عجوز فكيف ألد.

قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْمَكِيدُ الْخَلِيلُ ﴿٨٠﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به. ﴿قال ربك﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين، وروي أن جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت، فإذا جنوعه مورقة مثمرة لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور.

﴿قَالَ مَا خَلْبُكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

﴿قال فما خطبكم﴾ أي: فما شأنكم وما طلبكم.

قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِنْ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ ﴿٨١﴾.

﴿إلى قوم مجرمين﴾ إلى قوم لوط.

الرحمن، فقال: أتل علي فتلوت: والذاريات. فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرتها ووزعها على من أقبل وأبهر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما، وولى. فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالاعرابي قد نحل وأصفر. فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجينا ما وعدنا ربنا حقاً. ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرات فورب السماء والأرض إنه لحق. فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤه إلى اليمين. قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه.

وَلَ أَنْتَ حَزِيتُ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الظَّكْرَيْنِ ﴿٨٢﴾.

﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبية على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم، لأنه في الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وملك معهم. وجعلهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك وإكرامهم أن إبراهيم خنمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى، أو أنهم في أنفسهم مكرمون، قال الله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون﴾^(١).

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿إذ دخلوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم، وإلا فيما في ضيف من معنى الفعل أو بإضمار أنكرو ﴿سلاماً﴾ مصدر ساء مسد الفعل مستغنى به عنه، وأصله نسلم عليكم سلاماً، وأما ﴿سلام﴾ فمعمول به إلى الرفع على الابتداء وخبره محنوف معناه: عليكم سلام. للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بآداب الله تعالى. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. وقرئوا مرفوعين، وقرئ: سلاماً. قال: سلما والسلام السلام، وقرئ: سلاماً. قال: ﴿سلام قوم منكرون﴾ أنكروهم للسلام الذي هو علم الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم. كما لو أبصر العرب قوماً من الخزر، أو رأى لهم حالاً وشكلاً خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم. كأنه قال: أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم.

فَرَأَى إِلَهُ الْآلِئِ فَتَلَوْنِ سَمِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿فراغ إلى أهله﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره^(٢) وأن يباده بالقرى من

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٢) قال أحمد: معنى حسن، ونقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ، إلا إذا ذهب على خفية، ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحكم خاتمه حر طعمه»، فليقمه معه، وإلا فليروغ له لقمة، قال =

= أبو عبيد: يقال: روغ اللقمة وسغلبها وسغسغها ومرغها، إذا غمسها فرويت سمناً. قلت: وهو من هذا المعنى: لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى، ومن مقلوبه غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

وَقَدْ عَلِمَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾

﴿العقيم﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر، أو إلحاق شجر، وهي ريح الهلاك واختلف فيها. فعن علي رضي الله عنه: النكباء، وعن ابن عباس: الدبور، وعن ابن المسيب: الجنوب.

مَا نَذَرَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ ﴿٤٢﴾

الريم: كل ما رم، أي: بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

وَقَدْ تَوَدَّ إِذْ يَدَّ يَدًا لَمْ تَنْصُرْهُ حَتَّىٰ جِيءَ ﴿٤٣﴾

﴿حتى حين﴾ تفسيره قوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾^(٥).

فَتَوَدَّ أَنْ أَمَرَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ففعّلوا عن أمر ربهم﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة، والصاعقة النازلة نفسها. ﴿وهم ينظرون﴾ كانت نهاراً يعاينونها. وروي: أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضربتهم.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ يَمِينٍ وَمَا كَانُوا مُتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فما استطاعوا من قيام﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾^(٦) وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿ممتصرين﴾ ممتنعين من العذاب.

وَقَوْمٌ نُوحَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ كَانُوا قَوْمًا شَافِقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وقوم﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح، وتقوية قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، لأن ما قبله يدل عليه، أو وانكر قوم نوح.

وَأَنبَاءٌ بَنِيهَا يَاقِينَ وَابْنَا لَمُوسَىٰ ﴿٤٧﴾

﴿بانيذ﴾ بقوة، واليد والآد القوة، وقد آد يثيد وهو أيد. ﴿وابنا لموسعون﴾ لقابرون من الوسع، وهو الطاقة، والموسع القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

وَالْأَرْضَ قَرَشْنًا فَتَمَّ الْمَهِدُونَ ﴿٤٨﴾

﴿فنعلم الماهدون﴾ فنعلم الماهدون نحن.

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ومن كل شيء﴾ أي: من كل شيء من الحيوان ﴿خلقنا زوجين﴾ نكرًا وأنثى. وعن الحسن: السماء

لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمُ حِجَابًا مِنْ طِينٍ ﴿٥٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٥١﴾

﴿حجارة من طين﴾ يريد السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الأجبر حتى صار في صلابة الحجارة.

﴿مسومة﴾ معلمة من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به، وقيل: أعلمت بأنّها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدلّ على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين كما سماهم عابدين لإسرافهم وعنوانهم في عملهم، حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم الضمير في. ﴿فيها﴾ للقرية، ولم يجر لها نكر لكونها معلومة، وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد وإنهما صفتان مدح، قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لانجاهم ليعلموا أنّ الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله.

فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَرَكَدُوا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٥٤﴾

﴿آية﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

وَقَدْ مَوَّجَ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ دُحُونَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٥٥﴾

﴿وفي موسى﴾ عطف على وفي الأرض آيات، أو على قوله: وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله: علفتها تناء وماء بارداً.

فَنُوحًا بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِجْرٌ أَوْ يَحْمُودٌ ﴿٥٦﴾

﴿فتولى بركبته﴾ فازور وأعرض. كقوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾^(١) وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ: بركبته بضم الكاف. ﴿وقال ساحر﴾ أي: هو ساحر.

فَأَعْنَتَهُ وَجُودُهُ فَبَدَّلْنَاهُمْ فِي آلِهِمُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٥٧﴾

﴿مليم﴾ أت بما يلام عليه من كفره وعناده. والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه.

فإن قلّت: كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾^(٢) قلّت: موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقابير اللوم. فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وعصوا رسلك﴾^(٣) ﴿وعصى آدم ربه﴾^(٤) لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

(4) سورة طه، الآية: 121.

(5) سورة هود، الآية: 65.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 37.

(1) سورة الإسراء، الآية: 83.

(2) سورة الصافات، الآية: 142.

(3) سورة هود، الآية: 59.

﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كُذِّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت منهم العناد والجأح، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله.

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان، أو يزيد الداخلين فيه إيماناً. وروي أنه لما نزلت: فتول عنهم. حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر. فانزل الله: ﴿وَذَكِّرْ﴾

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا بِمَثَلِ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِينُونَ ﴿٥٩﴾

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أرد من جميعهم إلا إياها^(١).

فَإِنْ قُلْتَ: لو كان مريدًا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا! قُلْتَ: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجبت من جميعهم.

يريد أن شأني من عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإما مجهز في تجارة لفي ربحاً، أو مرتب في فلاحه ليقتل أرضاً، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته، أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق.

فأما مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل

والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، فعدد أشياء قال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كله من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج، إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

يَقْرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِلَٰهُ لَكُمْ إِنَّهُ بُدِّعَ مِنْكُمْ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَحْمِلُوا مَعَ اللَّهِ لَهَا أَخْرَ إِلَٰهُ لَكُمْ إِنَّهُ بُدِّعَ مِنْكُمْ ﴿٥٧﴾

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى طاعته وثوابه من معصيته^(١) وعقابه ووحوه ولا تشركوا به شيئاً، وكرر قوله:

﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾^(٢) والمعنى: قل يا محمد ففروا إلى الله.

كَذَٰلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٧﴾

﴿كذلك﴾ الأمر أي: مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً ومجنوناً. ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿مَا آتَى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة باتى لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت لكان صحيحاً على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا:

أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٨﴾

﴿أتواصوا به﴾ الضمير للقول. يعني: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه. ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي: لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

قَوْلَهُمْ فَمَا آتَى بِمُؤْمِرٍ ﴿٥٩﴾

(١) قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله؛ لأنه لا يكاد يخلي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده من معتقده، فس ههنا: القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالنصارى، ولا تحتل في الآية لما نكر، فإن العناية في قوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ الفرار إلى عبادة الله، فتوعد من لم يعبد الله ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعد على ذلك، وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري المأمور به في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الوعبيين فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى ليطم بها الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

(٢) سورة الانعام، الآية: ١٥٨.

(٣) قال أحمد: من عادته أنه إذا استشعر أن ظاهراً موافق لمعتقده، =

= نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جواباً، فكذلك صنع ههنا؟ فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجب عنه بما نكره، فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به، شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم، والله تعالى لا يطلب من عبيده رزقاً ولا إطعاماً، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً، أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقته وبه نطق، ولكن الهوى يعمي ويصم، فحاصله وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعواهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم، وبإله التوفيق.

وَأَلَيْتِ الْمَعْمُورُ (٤).

﴿والبيت المعمور﴾ الضراح في السماء الرابعة، وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥).

﴿والسقف المرفوع﴾ السماء.

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦).

﴿والبحر المسجور﴾ المملوء. وقيل: الموقد. من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ (٤). وروي أَنَّ الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نَارًا تسجر بها نار جهنم. وعن علي رضي الله عنه «أنه سال يهوديًا: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: في البحر. قال علي: ما أراه إلا صادقًا» (٥) لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ (٨).

﴿لواقع﴾ لنازل قال جبير بن مطعم: «أتيت رسول الله ﷺ اكلمه في الأسارى فآلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب» (٦).

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَدَورًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ (١٢).

﴿تمور السماء﴾ تضطرب وتجيء وتذهب، وقيل: المور تحرك في تموج، وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة. غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكنب ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٧) وخضمت كالذي خاضوا الدع الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلقون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، وينفعونهم إلى النار دفعا على وجوههم، وزخا في أفاقيتهم. وقرأ زيد بن علي: يدعون على الدعاء أي: يقال لهم: هلموا إلى النار، وانخلوا إلى النار.

يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَايُكُمُوهَا (١٤).

﴿دعوا﴾ مدعوين يقال لهم: هذه النار.

أَنسِرُّ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥).

رزقي ولا رزقكم وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي فما هو إلا أنا وحدي. ﴿المتين﴾ الشديد القوة. قرئ بالرفع صفة لنو وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار. والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة. أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: لرائق. وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرائق. الذنوب: اللو العظيمة، وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال: لنأذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتكم قلنا القلبيب ولما قال عمرو بن شاس:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نذك ذنوب قال الملك نعم وأنوبة والمعنيان الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله. مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (١٦).

﴿من يومهم﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعد كل ربح هبت وجرت في الدنيا» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور مكية

وَالطُّورِ (١).

الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين.

وَكُنْتَ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَفٍّ مَشْهُورٍ (٣).

والكتاب المسطور في الرق المنشور والرق الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال. قال الله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ (٢) وقيل: هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن. ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب. كقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ (٣).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطور (الحديث رقم: 4854)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب القراءة في المغرب (الحديث رقم: 174 - 463).

(٧) سورة المدثر، الآية: 45.

(١) رواه الثعلبي والواحدي، وابن مردويه في التفسير، والزليحي 3/367.

(٢) سورة الإسراء، الآية: 13.

(٣) سورة الشمس، الآية: 7.

(٤) سورة التكويد، الآية: 6.

(٥) رواه البيهقي في البعث والنشور والطبري في تفسيره وأخرجه الزليحي 3/371.

متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب.
وقرى: بعبس عين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْمَنَّا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَئِيْفٌ (١١).

﴿والذين آمنوا﴾ معطوف على حور عين أي: قرناهم بالحدود وبالذين آمنوا أي: بالرفقاء والجلساء منهم. كقوله تعالى: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿واتبعناهم ذرياتهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع نرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه ليقرب بهم عنه» (٢). ثم تلا هذه الآية فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعائهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، ثم قال: ﴿بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم﴾ أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء الحقنا بدرجاتهم ذرياتهم وإن كانوا لا يستاهلوننا تفضلاً عليهم وعلى آبائهم لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم.

فإن قلنا: ما معنى تنكير الإيمان؟ قلنا: معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ويجوز أن يراد إيمان النرية الداني المحل. كانه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء الحقناهم بهم. وقرى: واتبعناهم ذرياتهم، واتبعناهم ذرياتهم وذرياتهم. وقرى: ذرياتهم بكسر الهمزة وجه آخر وهو أن يكون والذين آمنوا مبتداً خبره بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم وما بينهما اعتراض. ﴿وما ألتناهم﴾ وما نقصناهم يعني: وفرنا عليهم جميع ما نكرنا من الثواب والتفضل، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل: معناه وما نقصناهم من ثوابهم شيئاً نعطيهم الأبناء حتى يلحقوا بهم، إنما الحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرى: التناهم، وهو من بابين من ألت يالت، ومن ألت يلت، كلمات بميت وألتناهم من ألت يؤلت كآمن يؤمن، ولتناهم من لات يليت، ولتناهم من ولت يلت، ومعناه واحد. ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرهون. كان نفس العبد رهين عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهين الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها.

وَأَمَدَّنْهُمْ بِكَمَرٍ وَلَحِمٍ مِّنَ بَشَرٍ (١٢).

﴿وأمدناهم﴾ وزناهم في وقت بعد وقت.

يَسْتَرْعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا تَلَوُّ فِيهَا وَلَا تَأْتِي (١٣).

﴿يستنازعون﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من اقربائهم وإخوانهم ﴿كأساً﴾ خمرًا ﴿لا لغو فيها﴾ في

﴿أفسح هذا﴾ يعني: كنتم تقولون للوحي هذا سحر. أفسح هذا يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ وبخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾ كما كنتم (١) لا تبصرون في الدنيا يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخير، وهذا تقرير وتهكم.

أَصْلَحُوا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤).

﴿سواء﴾ خبر محذوف أي: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه.

فإن قلنا: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾؟ قلنا: لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازي عليه الصابر جزاء الخير، فاما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع.

إِنَّ الْأَشْقَىٰ فِي جَنَّتٍ وَبَعِيرٍ (١٥).

﴿في جنات ونعيم﴾ في أية جنات وأي نعيم بمعنى: الكمال في الصفة أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة.

تَكْبِهِينَ يَمَّا آتَاهُم رِيْقٌ وَرَقَّتْهُمُ رِجْمٌ عَذَابَ الْبَجْرِ (١٦).

وقرى: فلكهين وفكهين وفلكهون، من نصبه حالاً جعل الظرف مستقراً، ومن رفعه خبراً جعل الظرف لغواً أي: متلذذين ﴿بما آتاهم ربهم﴾.

فإن قلنا: علام عطف قوله: ﴿ووقاهم ربهم﴾؟ قلنا: على قوله في جنات، أو على آتاهم ربهم، على أن تجعل ما مصدرية. والمعنى: فلكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة يقال لهم:

كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٧) مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ مُرُرٍ مَّصْنُونَةٍ وَرَزَقْنَاهُمْ يُحُورٍ عَيْنٍ (١٨).

﴿كلوا واشربوا﴾ أكلاً وشرباً ﴿هنيئاً﴾ أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيص فيه، ويجوز أن يكون مثله في قوله:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مَخَامِرٍ لَعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحْلَتِ

أعني صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعاً به ما استحلت، كما يرتفع بالفعل كانه قيل: هنا عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى هنيئاً هينا: هناكم الأكل والشرب أو هناكم ما كنتم تعملون أي: جزاء ما كنتم تعملون والباء مزيدة كما في: كفى بالله والباء

(2) رواه الحاكم في المستدرک 468/2.

(1) قوله تعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ (قال فيه: يريد هذا المصداق أيضاً سحر، وبخلت الفاء لهذا المعنى: أم أنتم لا تبصرون كما كنتم إلخ).

وريب المنون ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال: أمن المنون وريبه تتوجع. وقيل: المنون الموت. وهو في الأصل فعل من منه إذا قطعه لأن الموت قطع ولذلك سميت شعوب. قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والناطقة.

قُلْ رَضُّوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

﴿من المتربصين﴾ اتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُقُوا بِإِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ مَا نَحْنُ بِأَعْلَمُ بِمَا نَقُولُ ﴿٣٣﴾

﴿أحلامهم﴾ عقولهم والبابهم، ومنه قولهم أحلام عاد. والمعنى: أأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول وهو قولهم: كاهن وشاعر. مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى كَوْنِ الْأَحْلَامِ أَمْرًا؟ قُلْتَ: هُوَ مَجَازٌ لِأَدَائِهِا إِلَى نَكِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْلَوَاتُكَ تَامِرُكَ أَنْ تَنَزَّكَ مَا يَعْجِدُ أَبَاؤُنَا﴾ (١) وقرئ: بل هم قوم طاغون. ﴿تَقُولُهُ﴾ اختلفه من تلقاء نفسه.

﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمنقول لعجز العرب عنه وما محمد إلا واحد من العرب.

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

وقرئ: بحديث مثله على الإضافة والضمير لرسول الله ﷺ ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادر عليه، فليأتوا بحديث ذلك المثل.

أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿أَمْ خَلِقُوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم. ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير مقدر. ﴿أَمْ هُمْ﴾ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق.

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾

﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض. قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب، وقيل: أخلقوا من غير أب وأم.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُنْيِطُونَ ﴿٣٧﴾

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوة من

شربها ﴿وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: لا يتكلمون في أثناء الشرب يسقط الحديث وما لا طائل تحته، كفعل المتنادمين في الدنيا على الشراب في سفههم وعربيتهم ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكلف من الكذب والشتيم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متذنين بذلك، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء. وقرئ: لا لغو فيها ولا تأثيم.

وَيُطَوَّرُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْرُونٌ ﴿٣٨﴾

﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مَكْرُونٌ﴾ في الصف لأنه رطباً أحسن وأصفى أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١) وعنه عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف بياحه لبيك لبيك» (٢).

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يتساءلون﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استوجب به نيل ما عند الله.

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَوَّلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٤٠﴾

﴿مشفقين﴾ أرقاء القلوب من خشية الله.

فَرَجَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَرَوَّكَ عَذَابَ الْأَسْوَرِ ﴿٤١﴾

وقرئ: ووقايا بالتشديد ﴿عَذَابَ السَّمُومِ﴾ عذاب النار ووجهها ولغفها، والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة.

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿من قبل﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه يعنون في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ونسأله الوقاية. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن. ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد آثاب، وإذا سئل أجاب. وقرئ: إنه بالفتح بمعنى لأنه.

نَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِمُعْتَدٍ لِّرَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا يُحْشَرُ ﴿٤٣﴾

﴿فَذَكَّرْ﴾ فأنشئت على تنكير الناس وموعظتهم ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض. لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصلى النبوة ورجاحة العقل أحد هذين.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِ الْأَمْنُونَ ﴿٤٤﴾

وقرئ: يتربص به ريب المنون على البناء للمفعول

(3) سورة هود، الآية: 87.

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/373.

(2) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/373.

سنين، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد الله دون ذلك قريباً.

وَأَصِيرَ لِمَكْرٍ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾

﴿لحكم ربك﴾ بإمھالھم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فإنك باعيننا﴾ مثل أي: بحيث نراك ونكلوك وجمع العين لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾ ^(١) وقرئ: باعينا بالإدغام ﴿حين تقوم﴾ من أي مكان قمت. وقيل: من منامك.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿١٩﴾

﴿وابار النجوم﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ: وإدبار بالفتح بمعنى: في أعقاب النجوم وأثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ومن الليل صلاة العشاءين، وإدبار النجوم صلاة الفجر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته» ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم مكية

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾

النجم الثريا، وهو اسم غالب لها. قال:

إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء

أو جنس النجوم. قال: فباتت تعد النجم في مستحيرة. يريد النجوم. ﴿إذا هوى﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به إذا هوى إذا انقض، أو النجم من نجوم القرآن. وقد نزل منجماً في عشرين سنة إذا هوى إذا نزل، أو النبات إذا هوى إذا سقط على الأرض. وعن عروة بن الزبير: «أن عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتين محمداً فلاؤنيته. فأتاه. فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالنزى دنى، فتدلى ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنه وطلقها. فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها. وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة. فرجع عتبة إلى أبيه فأنخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فاشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبغة فقال أبو لهب لأصحابه: أغثونا يا معشر قريش هذه الليلة

شأوا، أو أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة. ﴿إم هم المسيطرون﴾ الأرباب الغالبون حتى يلبسوا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم. وقرئ: المسيطرون بالصاد.

أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَقَاءٌ يَوْمَ بُعْثُوا فَامْتَحِنُوا أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ لَا يُخْشَىٰ لَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ بَعْثُوا يَوْمَ يَكْفُرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿إم لهم سلم﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العقابة بونه كما يزعمون ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْراً فَهُمْ مِن مَّجْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٣٠﴾

المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك في اتباعك.

أَمْ عِنْدَهُ الْفَيْفُ نَعَمْ يَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾

﴿إم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فهم يكتبون﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعب. أَمْ يُدْرِكُونَ كَيْدًا فَلَا يَعْنِي كُرْهُهُ أَلَمْ يَكْذِبُوا ﴿٣٢﴾ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِزٌّ اللَّهُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إم يريدون كيداً﴾ وهو كيدهم في دار النبوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فالنين كفروا﴾ إشارة إليهم، أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هم المكيدون﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرمهم، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايته فكنته. وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٣٤﴾

الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحب مركوم بعضه فوق بعض، يطرنا ولم يصبقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يَلْتَمِتُوا بِوُجُوهِهِمْ أَلَيْسَ فِيهِ يَوْمٌ لَّيْسَ لَهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْزَرُونَ ﴿٣٥﴾

وقرئ: ﴿حتى يلقوا﴾ ولقوا ﴿يصعقون﴾ يموتون، وقرئ: ﴿يصعقون﴾. يقال: صعقه فصعق، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق.

وَأِلَّا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابٌ دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وإن للذين ظلموا﴾ وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عذاباً دون ذلك﴾ دون يوم القيامة وهو القتل ببدر، والقحط سبع

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير والزليعي / 3

الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد ﷺ مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء⁽³⁾.
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨).

﴿ثم دنا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿فتلقى﴾ فتعلق عليه في الهواء، ومنه تدلت الثمرة، وبنى رجله من السرير، والدوالي الثمر المعلق. قال:
تلقى عليها بين سب وخيطة
ويقال: هو مثل القرلي إن رأى خيراً تلى، وإن لم يره تولى.
كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩).

﴿قاب قوسين﴾ مقدار قوسين عربييتين، والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار. وقرأ زيد بن علي: قاد. وقرئ: قيد وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والزراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع ومنه: «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين». وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة، وموضع قده خير من الدنيا وما فيها»⁽⁴⁾. والقَد: السوط. ويقال: بينهما خطوات يسيرة. وقال: وقد جعلتني من خزيمة أصبعاً.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف تقدير قوله: ﴿فكان قاب قوسين﴾ قُلْتَ: تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين⁽⁵⁾، فحذفت هذه المضافات. كما قال أبو علي في قوله: وقد جعلتني من خزيمة أصبعاً. أي: ذا مقدار مسافة أصبع ﴿أو أنسى﴾ أي: على تقديركم. كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾⁽⁶⁾.
فَأَرَىٰ إِنَّ بَيْنِي وَمَا أَنَا بِلَدٍّ (١٠).

﴿إلى عبده﴾ إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه عز وجل ذكر لأنه لا يلبس. كقوله: على ظهرها ﴿ما أوحى﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه⁽⁷⁾، قيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك. مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١).

﴿ما كذب﴾ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه. يعني: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق. وقرئ: ما كذب.

فلنني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناروها حولهم وأحرقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله⁽¹⁾. وقال حسان:
من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع
مَا سَلَ سَاجِدٌ وَمَا عَوَّى (٢).

﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعني: محمداً ﷺ، والخطاب لقريش وهو جواب القسم والضلال نقيض الهدى. والغى نقيض الرشd. أي: هو مهتو راشد وليس كما تزعمون من نسبتم إياه إلى الضلال والغى.
وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْمَوْتِ (٣).

وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه.
إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤).

وإنما هو وحى من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى.
عَلَّمَ مَوْلَايَ الْقُرْآنَ (٥) ذُرِّيَّتَهُ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ (٧).

﴿شديد القوى﴾ ملك شديد قواه، والإضافة غير حقيقية لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها وهو جبريل عليه السلام. ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، ثم قلبها، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين. وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة فنقحه بجناحه نفحة فאלقه في أقصى جبل بالهند. ﴿ذو مرة﴾ ذو حصافة في عقله ورأيه ومتانة في دينه ﴿فاستوى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية لون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وكان ينزل في صورة نحية. وذلك «أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها. فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملا الأفق»⁽²⁾. وقيل: «ما رآه أحد من

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحور العين وصفتهن (الحديث رقم: 2796).

(5) قال أحمد: وقد قال بعضهم: إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة؛ لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء الصفا وتروى قوسيهما.

(6) سورة الصافات، الآية: 147.

(7) قال أحمد: التفخيم لما فيه من الإبهام، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان، وهو كقوله: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وقوله: ﴿فغشيه من اليم ما غشيه﴾.

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي في تفسيره والطبراني في معجمه والحاكم في المستدرک تفسير تبت وأخرجه الزيلعي 378/3.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم «أمين» (الحديث رقم: 3234)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 287 - 177)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة «النجم» (الحديث رقم: 3278).

(3) لم يخرج الزيلعي.

أي: صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.

أَمَرُوا بِرَأْيِهِ عَلَى مَا يَرَى (١٧).

﴿وما يغشى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلاق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنفها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله ﷺ: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله»^(١). عنه عليه السلام: «يغشاها رفرف من طير أخضر»^(٢). وعن ابن مسعود وغيره: «يغشاها فراش من ذهب»^(٣).

مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَوَى (١٨).

﴿ما زاغ﴾ بصر رسول الله ﷺ ﴿وما طغى﴾ أي: أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزها، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى وما جاوز ما أمر برؤيته. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٩).

﴿لقد رأى﴾ والله لقد رأى ﴿من آيات ربه﴾ الآيات التي^(٤) هي كبرها وعظماها يعني: حين رقى به إلى السماء فآري عجائب الملكوت.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (٢٠) وَمَنْزِلَةَ الْآخَرَىٰ (٢١) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢٢).

﴿اللات والعزى * ومناة﴾ أصنام كانت لهم وهي مؤنثات: فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل: كانت بنحلة تعبدما قريش وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا^(٥) يلون عليها ويعكفون للعبادة أو يلتون عليها أي: يطوفون وقرى: اللات بالتشديد وزعموا أنه سمي برجل كان يسلك عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت السوق بالطائف وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً، والعزى كانت لغطفان وهي سمره، وأصلها تانيث الأعز وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرة داعية ويلها واضعة

﴿افتتارونه﴾ من المراء وهو الملاحاة والمجالبة، واشتقاقه من مري الناقة. كأن كل واحد من المتجالين يمرى ما عند صاحبه. وقرئ: افتتارونه افتتارونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى كما تقول غلبته على كذا. وقيل: افتتارونه افتتجونه وأنشؤا: لأن هجرت لأخصق ومكرمة لقد مررت لأما كلن يمرىكا وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته وتعيبته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين.

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (٢٣).

﴿نزلة أخرى﴾ مرة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأن الفعل اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج.

عِنْدَ يَدَرِ الْأُنثَىٰ (٢٤).

قيل: في سدره المنتهى هي شجر نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر، وورقها كأذن الفيل، تنبع من أصلها الأنهار التي نكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والمنتهى بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

عِنْدَمَا جَاءَهُ الْمَلَأَىٰ (٢٥).

﴿جنة الماوى﴾ الجنة التي يصير إليها المتقون عن الحسن، وقيل: تأوى إليها أرواح الشهداء. وقرأ علي وابن الزبير وجماعة: جنة الماوى أي ستره بظلاله وبخل فيه. وعن عائشة أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فاجنه الله.

(١) رواه الطبري في تفسيره والزليعي 381/3.

(٢) قال الزليعي: غريب 381/3.

(٣) رواه إسحاق بن راهوي في مسنده والزليعي 381/3.

(٤) قال أحمد: ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه لا مفعولاً به، ويكون المرثى محوفاً لتخميم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى أموراً عظيماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، وهذا والله أعلم أولى من الأول: لأن فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم وفيه بعد، فإن آيات الله تعالى ما لا يحيط أحد علماً بحملتها، فإن قال: عام أريد به خاص فقد رجع إلى الوجه الذي نكرنا والله أعلم.

(٥) قال أحمد: الأخرى تانيث آخر، ولا شك أنه في الأصل مشتق من=

= التأخير الوجودي، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال، حيث يتقدم نكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالة على المعنى الأصلي بخلاف آخر، وآخرة على وزن فاعل وقاعلة، فإن إشارتهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر على وزن الأفعول، وجمادى الأخرى إلى ربيع الآخر على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي: لأن الأفعول والفعل من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيهما وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر منته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر مع ما نعتده في الوفاء بفاصلة راس الآية، والله أعلم.

الهمزة فيها الإنكار أي: ليس للإنسان ما تمنى. والمراد طمعهم في شفاعاة الآلهة وهو تمن على الله في غاية البعد. وقيل: هو قولهم: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى، وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالا ولذا، وقيل: هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﷺ.

﴿لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (٥).

﴿لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: هو مالكهما فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٦).

يعني أن أمر الشفاعاة ضيق، وذلك أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم، لو شفعوا بجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعاة لمن يشاء الشفاعاة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له. فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّوْنَ الْمَلَائِكَةَ سُمُيَ الْأَنْثَى﴾ (٧).

﴿ليسمون للملائكة﴾ أي: كل واحد منهم «تسمية الأنثى» لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سمو كل واحد منهم بنتا وهي تسمية الأنثى.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْتُمُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ أَظْنَ لَا يَتْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٨).

﴿به من علم﴾ أي: بذلك وبما يقولون، وفي قراءة أبي بها أي: بالملائكة أو التسمية «لا يغني من الحق شيئا» يعني: إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَكَّلَ عَنْ ذِكْرِي وَكَذَّبَ بِرُؤْيُ الْآخِرَةِ الدُّنْيَا﴾ (٩).

﴿فأعرض﴾ عن دعوة من رأته معرضا عن نكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ولا تهالك على إسلامه. ثم قال:

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَبَّلَهُ وَهُوَ أَتَقَرُّ بِمَنْ أَفْتَدَى﴾ (١٠).

﴿إن ربك هو أعلم﴾ أي: إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتعها فإنك لا تهدي من أحببت وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ (١١) اعتراض أي: فأعرض عنه ولا تقابله، إن ربك هو أعلم بالضال والمهتدي.

يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبجانك إي رأيت الله قد أهانك ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «تلك العزى ولن تعبد أبدا» (١). ومناة صخرة كانت لهذيل وخذاعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما لثقيف: وقرى ومناة وكانها سميت مناة لأن بماء النساء كانت تمنى عندها أي: تراق. ومناة مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الانواء تبركا بها. و «الآخري» نم وهي المتأخرة الرضيعة المقدار كقوله تعالى: ﴿وقالت أخراهم لأولاهم﴾ (٢) أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم لللات والعزى، كانوا يقولون: إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاءهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات. فقيل لهم: ﴿الحكم الذكر وله الأنثى﴾ ويجوز أن يراى أن اللات والعزى ومناة إناث وقد جعلتموهن لله شركاء ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث، وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادا لله وتسمونهن آلهة.

﴿تِلْكَ إِذًا فِسْمٌ ضِرَاحٌ﴾ (١٢).

﴿قسمة ضيرى﴾ جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه. والأصل ضورى ففعل بها ما فعل ببيض لتسلم الياء وقرى: ضئرى هن ضازه بالهمزة وضير بفتح الضاد.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَمَا أَزْكُرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (١٣).

﴿هي﴾ ضمير الأصنام. أي: ما هي «إلا أسماء» ليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوهما﴾ (١٤) أو ضمير الأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتوهما بهواكم وشهوتكم ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به، ومعنى «سميتوهما» سميت بها يقال: سميت زيدا وسميته بزيد «إن يتبعون» وقرى: بالتاء «إلا الظن» إلا توهم أن ما هم عليه حق، وإن آلهتهم شفعاءهم وما تشتهيه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والنيل على أن نينهم باطل.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَى﴾ (١٥).

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ هي أم المنقطعة ومعنى

(3) سورة يوسف، الآية: 40.

(4) سورة النجم، الآية: 30.

(1) رواه الواقدي في المغازي وابن سعد في الطبقات والزليعي / 383.

(2) سورة الاعراف، الآية: 39.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمَلُوا
وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ (٢١).

طاعة ونكرها شكر.

وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى (٢٢).

﴿أكدى﴾ قطع عطيته وأمسك. وأصله إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه أجبل الحافر ثم استعير. فقيل: أجبل الشاعر إذا أقحم. روي أن عثمان رضي الله عنه كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي نوباً وخطايا وإنني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه. فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحليها وأنا أحمل عنك نوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت. ومعنى تولى: ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل.

أَعْدِمُ عِلْمَ الْعَلِيِّ فَهُوَ يَرَى (٢٣) أَمْ لَمْ يَلَيْتَ يَمَا فِي صُحُفِ مُوسَى
(٢٤).

﴿فهو يرى﴾ فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق.

وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٢٥).

﴿وفى﴾ قرئ: مخففاً ومشدداً، والتشديد مبالغة في الوفاء، أو بمعنى: قرأ تم، كقوله تعالى: ﴿فَاتِمَهُنَّ﴾ (٢٦) وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية. من ذلك تبليغ الرسالة واستقلاله بأعياء النبوة والصبر على ذبح ولده، وعلى نار نمرود وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسحاً يرتاد ضيفاً وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهذيل ابن شرحبيل: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريدة غيره ويقتل بابيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامراته والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب عهد أن لا يسأل مخلوقاً فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليكما فلا. وعن النبي ﷺ: «وفى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الضحى» (٢٧). وروي: «ألا أخبركم لم سمي الله خليله الذي وفى. كان يقول إذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وإلى حين تظهرون» (٢٨). وقيل: وفى سهام الإسلام وهي ثلاثون: عشرة في التوبة الثابتون، وعشرة في الأحزاب إن المسلمين، وعشرة في المؤمنين قد أفلح المؤمنون. وقرئ في صُحُفٍ بالتخفيف.

أَلَا تَرَى زُرَّةً وَزُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى (٢٩).

وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء. قرئ: ليجزي ويجزي بالياء والنون فيهما. ومعناه: إن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض، وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. ويجوز أن يتعلق بقوله: هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما ﴿بما عملوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء و ﴿بالحسنى﴾ بالمتوبة الحسنى وهي الجنة، أو بسبب ما عملوا من السوء ويسبب الأعمال الحسنى.

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ
هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِذْ أَنْشَأَ رَبُّكَ الْأَرْضَ وَإِذْ أَنْشَأَ آجَتًا فِي بَطْنِ أُمَمَتِكُمْ
فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٠) أَتَرَى الَّذِينَ أَلْزَى نَوَى (٣١).

﴿كبائر الإثم﴾ أي: الكبائر من الإثم، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة، وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها. ﴿والفواحش﴾ ما فحش من الكبائر. كانه قال: والفواحش منها خاصة. وقرئ: كبير الإثم أي: النوع الكبير منه. وقيل: هو الشرك بالله. واللمم ما قل وصغر، ومنه اللمم المس من الجنون، واللثة منه. والم بالمكان إذا قل فيه لبثه، والم بالطعام قل منه أكله، ومنه لقاء أخلاء الصفاء لمام. والمراد الصغائر من الذنوب ولا يخلو قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ من أن يكون استثناءً منقطعاً أو صفة كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣٢) كانه قيل: كبائر الإثم غير اللمم، وآله غير الله. وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة. وعن السدي: الخطرة من الذنب. وعن الكلبي: كل ذنب لم ينكر الله عليه حداً ولا عذاباً، وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين. ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناّب الكبائر والكبائر بالتوبة. ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ فلا تنسبوا إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها. فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وأخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله ويتفوقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة

(4) أخرجه أحمد في المسند 439/3.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 124.

(3) رواه الطبري والثعلبي وابن مريويه وابن أبي حاتم والثعلبي في تفاسير عم. والزليعي 384/3.

وَأَنْتَ هُوَ أَشَقُّ وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾

﴿أقنى﴾ وأعطى القينة وهي المال الذي تائلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك.

وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الْمَعْرَى ﴿٤٩﴾

﴿الشعري﴾ مرزم الجوزاء وهي التي تطلع وراءها وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان: الغميصاء والعبور وأراد العبور وكانت خزاعة تعبدتها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشراقيهم. «وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ أبو كبشة تشبيها له به لمخالفته إياهم في دينهم يريد أنه رب معبودهم هذا»⁽⁵⁾.

وَأَنْتَ أَمْلَكُ عَادًا الْأَوَّلَى ﴿٥٠﴾ وَتُؤَدُّ مَّا أَتَى ﴿٥١﴾

عاد الأولى قوم هود، وعاد الأخرى إرم. وقيل: الأولى والقدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح أو المتقدمون في الدنيا الأشراف وقرئ: عاد الولي وعاد لولي بإدغام التثنية في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضميتها إلى لام التعريف. «وئموذا».

وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَلَمَى ﴿٥٢﴾

وقرئ: وئمود «أظلم وأظلمى» لأنهم كانوا يؤنونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوها منه، وما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

وَالْمُؤَلَّفُكَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾

﴿والمؤتفكة﴾ والقرى التي ائتفتكت بأهلها. أي: انقلبت وهم قوم لوط، يقال: أفكك فائتفك. وقرئ: والمؤتفكات «أهوى» رفعها إلى السماء على جناح جبريل ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها.

فَسَنَّا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾

﴿ما غشى﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

يُنَادِي أَلَا رَبُّكَ تَمَارَكُ ﴿٥٥﴾

﴿قباي آلاء ربك تتماري﴾ تتشكك. والخطاب

﴿ألا تترز﴾ أن مخففة من الثقيلة والمعنى أنه لا تترز، والضمير ضمير الشأن ومحل أن وما بعدها الجر بدلاً من ما في صحف موسى، أو الرفع على هو أن لا تترز، كان قائلًا قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: أن لا تترز.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٥٦﴾ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٥٧﴾

﴿إلا ما سعى﴾ إلا سعيه.

فإن قلْتُ: أما سعى في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه وله الأضعاف؟ قلتُ: فيه جوابان: أحدهما أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمناً صالحاً، وكذلك الأضعاف كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. والثاني أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه.

ثُمَّ يُجِزُّهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴿٥٨﴾

﴿ثم يجزاه﴾ ثم يجزى العبد سعيه. يقال: جزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثم فسرته بقوله: «الجزاء الأوفى» أو أبدله عنه. كقوله تعالى: «وأسروا النجوى الذين ظلموا»⁽¹⁾.

وَأَنْ إِنْ رَبِّكَ أَلْمَنَ ﴿٥٩﴾

﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾ قرئ: بالفتح على معنى أن هذا كله في الصحف، وبالكسر على الابتداء وكذلك ما بعده. والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله تعالى: «إلى الله المصير»⁽²⁾.

وَأَنْتُمْ هُمْ أَصْحَابُ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتُ أَلَمِيَّا ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ خَلْقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنثَى ﴿٦١﴾

﴿أضحك وابكى﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء⁽³⁾.

مِنْ تَقْدِيرِ إِذَا تُنْفِى ﴿٦٢﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّأْنُ الْآخَرَى ﴿٦٣﴾

﴿إذا تمنى﴾ إذا تدفق في الرحم. يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من منى الماني. أي: قدر المقدر. قرئ: النشأة والنشأة بالممد، وقال: عليه لأنها واجبة عليه⁽⁴⁾ في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة.

= محتملة، هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى، وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي، وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي: هو الأصل فيه والسند، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (الحديث رقم: 7)، وقد تقدم.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.
(2) سورة آل عمران، الآية: 28.
(3) قال أحمد: وخلق أيضاً فعل الضحك والبكاء على قواعد السنة، وعليه قلت الآية غير مثابرة لتحريفه، والله موفق.
(4) قال أحمد: هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة للصالح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد الإيجاب على رب الأرباب تعالى الله عن ذلك، ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهمين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفي فيها كلمة =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر مكية

اَفَتَرَى السَّاعَةَ وَاتَى الْقَمَرَ ١

انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته. السيرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشق القمر مرتين^(٥). وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن عباس: انطلق فلقتين فلقة ذهب، وفلقة بقيت^(٦). وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر^(٧). وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة. وقوله:

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُرْجُوا رَجْواً يَرجُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ٢

«وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» يرده وكفى به راء، وفي قراءة حذيفة: وقد انشق القمر أي: اقتربت الساعة. وقد حصل من آيات اقتربها أن القمر قد انشق كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء الميشر بقومه. وعن حذيفة أنه خطب بالمداين ثم قال: ألا إن الساعة قد افترقت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم^(٨). مستمر دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله. قيل فيه قد استمر لما راوا تتابع المعجزات وترانف الآيات. قالوا: هذا سحر مستمر وقيل: مستمر قوي محكم من قولهم استمر مريده. وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أي: مستبشع عندنا مر على لهواتنا لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر. وقيل: مستمر مار ذاهب يزول ولا يبقى تنمية لأنفسهم وتعليلاً. وقرئ: وإن يروا.

وَكَاذِبُوا وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتَبٌ ٣

«واتبعوا أهواءهم» وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره. «وكل أمر مستقر» أي: كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها. وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل، وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر. أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ: بفتح القاف يعني: كل أمر ذو

لرسول الله ﷺ أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعماً ونقماً وسماها كلها آلاء من قبل ما في نعمة من المزاجر والمواعظ للمعتبرين.

هَذَا يَذِّيرُ مِنَ الْذِّكْرِ الْأَوَّلِ ٤

«هذا» القرآن «يذير من الذر الأولي» أي: إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم، أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين. وقال: الأولى على تأويل الجماعة. أَرَأَيْتِ الْأَرْزَاقَ ٥

«أرأيت الأرزقة» قربت الموصوفة بالقرب. في قوله تعالى: «اقتربت الساعة»^(١) «ليس لها» نفس.

لَبَسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٦

«كاشفة» أي: مبينة متى تقوم كقوله تعالى: «لا يجليها لوقتها إلا هو»^(٢) وليس لها نفس كاشفة أي: قاهرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، غير أنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير. وقيل: الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها مما يدعون من نون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية.

أَوَرَّ هَذَا الْكَلِمَاتِ تَجْوُونَ ٧

«أفمن هذا للحديث» وهو القرآن «تعجبون» إنكاراً.

وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٨

«وتضحكون» استهزاء «ولا تبكون» والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله ﷺ أنه لم ير ضاحكاً بعد نزولها^(٣). وقرئ: تعجبون تضحكون بغير واو. وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ٩

«وأنتم سامدون» شامخون مبرطمون. وقيل: لاهون لابعون وقال بعضهم لجاريته: أسمى لنا أي: غني لنا.

فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ١٠

«فأسجدوا لله واعبدوا» ولا تعبدوا الآلهة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النجم: أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة»^(٤).

= اقتربت الساعة (الحديث رقم: 4868)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 43 - 2800).

(7) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب «وانشق القمر» (الحديث رقم: 4864)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 45 - 2801) والحاكم في المستدرک 471/2.

(8) أخرجه الحاكم في المستدرک 609/4.

(1) سورة القمر، الآية: 1.

(2) سورة الاعراف، الآية: 187.

(3) الثعلبي وابن مردويه في التفسير زيلعي 385/3.

(4) الثعلبي ابن مردويه الواقدي في تفسيرهم زيلعي 386/3.

(5) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب: «وانشق القمر» (الحديث رقم: 4867)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (الحديث رقم: 46 - 2802).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب: سورة=

الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ: يخرجون من الأحداث من القبور ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مِّنْتَشَرٌ﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرة.

مُطْعِنِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِثْرٍ (٨).

﴿مُطْعِنِينَ إِلَى الدَّاعِي﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم قال:

تعبني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومطع

كَدَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُّوحٌ نَّكَذِبُوا عِدَّةً رَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرٌ (٩).

﴿قبلهم﴾ قبل أهل مكة ﴿فكذبوا عبدا﴾ يعني: نوحاً.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى: ﴿فكذبوا﴾ بعد قوله: كذبت؟ قُلْتُ: معناه كذبوا عبداً أي: كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب. كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نوح (٢) الرسل فكذبوا عبداً. أي: لما كانوا مكذبين بالرسول جاحدين للنبوّة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل. ﴿مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون ﴿وَازْدَجَرٌ﴾ وانتهزوه بالشتم والضرب والوعيد. وبالرجم في قولهم: لتكونن من المرجومين. وقيل: هو من جملة قبلهم. أي: قالوا: هو مجنون وقد أزدجرتة الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَرْغُوبٌ فَانْتَهَرَ (١٠).

قرئ: ﴿أَنِّي﴾ بمعنى: فدعا باني مغلوب وإني على إرادة القول. فدعا فقال: إني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي. ﴿فَانْتَهَرَ﴾ فانتقم منهم بعذاب تبعته عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الزبا. فقد روي أَنَّ الواحد من أمته كان يلقاه فيخنفه حتى يخر مغشياً عليه، فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فَقَنَعًا آتَوْبَ السَّمَاءِ بِمَا كُنْتُ مَفْتُونٌ (١١).

وقرئ: ﴿فَقَنَعْنَا﴾ مخففاً ومشدداً. وكذلك فجرنا. ﴿مَنْهَمُ﴾ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً.

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّرَ (١٢) وَحَمَلَتْهُ عَالِ دَانِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ (١٣).

﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها

مستقر أي: نو استقرار أو نو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبي جعفر: مستقر بكسر القاف والجر عطفاً على الساعة. أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (١٤).

﴿من الأنباء﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية وأنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مَزْدَجَرٌ﴾ ازدجار أو موضع ازدجار والمعنى هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له. كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَ حَسَنَةٌ﴾ (١) أي: هو أسوة. وقرئ: مزجر بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها.

حِكْمَةً بَلِغَةً فَمَا تَتَنَذَّرُ (١٥).

﴿حكمة بالغة﴾ بدل من ما أو على هو حكمة، وقرئ: بالنصب حالاً من ما.

فإن قُلْتُ: إن كانت موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالاً، فكيف تعمل إن كانت موصوفة وهو الظاهر؟ قُلْتُ: تخصصها الصفة فيحسن نصب الحال عنها ﴿فَمَا تَغْنِي النَّذْرُ﴾ نفي أو إنكار وما منصوبة أي: فاي غناء تغني النذر.

فَوَرَّكَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَكْفُ الْأَدْعَى إِلَى مَوْتِهِمْ نُكْرٌ (١٦).

﴿فقتل عنهم﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم. نصب ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ يخرجون أو بإضمار أنكر وقرئ: بإسقاط الياء اكتفاء بالكسر عنها، والداعي إسرافيل أو جبريل. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ينادِ المُنَادِ﴾ إلى شيء نكر منكر فظيغ تنكره النفوس لأنها لم تعد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر.

خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْشَعُونَ مِنَ الْأَعْيَادِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَهَرٌ (١٧).

﴿خشعاً أبصارهم﴾ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر. كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرئ: خاشعة على خشع أبصارهم وخشعاً على يخشعون أبصارهم وهي لغة من يقول: اكلوني البراغيث وهم طيء، ويجوز أن يكون في خشعاً ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه، وقرئ: خشع أبصارهم على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله:

وجدته حاضراه الجود والكرم

وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال لأن ذلة

(1) سورة الاحزاب، الآية: 21.

(2) قال أحمد: قد تقدم كلامه على قوله تعالى: ﴿وَكُذِّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعَارَشَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وإجاب عنه بجوابين، أحدهما: متعذر ههنا، والآخر: ممكن، وهو أن ذلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مضى لي جوابان: أحدهما: يمكن إجراؤه هنا، وحاصله منع ورود السؤال؛ لأنَّ الأوَّلَ مطلق والثاني مقيد، فليس تكراراً وهو =

= كقوله في هذه السورة ﴿فَتَعَالَى فَعَقَرُ﴾ فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن نكره من جهة عمومته ثم من ناحية خصوصه إسهاباً، وهو بمثابة نكره مرتين، وجواب آخر هنا، وهو أن المكذب أوَّلًا محذوف دل عليه نكر نوح، فكانه قال: كذبت قوم نوح نوحاً، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله: عبداً، فوصف نوحاً بخصوص للعربية، وأضافه إليه إضافة تشريف، فالتكذيب المخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المذكور أوَّلًا لتلك اللعنة، والله أعلم.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِدَٰكَرِ الْفَرَّانِ لِلَّذِي هُوَ مِنْ مِّنْكَرٍ ﴿٧﴾

«ولقد يسرنا القرآن للذكر» أي: سهلناه للإبكار والاعتناء بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد. «فهل من» متعظ؟ وقيل: ولقد سهلناه للحفظ واعتناء عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر من يسر ناقلته للسفر إذا رحلها ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه والجمه، قال:

وقمت إليه باللجام ميسراً هنالك يجزيني الذي كنت أصنع
ويروى أن كتب أهل الألبان نحو التوراة والإنجيل
لا يتلوا أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٨﴾

«ونذر» وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله أو إنذار أتى في تعنيهم لمن بعدهم.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿٩﴾

«في يوم نحس» في يوم شؤم وقرئ: في يوم نحس. كقوله: في أيام نحسات «مستمر» قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة. وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور، ويجوز أن يريد بالمستمر الشديد المرارة والبشاعة.

تَنَزَّاعُ النَّاسُ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِدَٰكَرِ الْفَرَّانِ لِلَّذِي هُوَ مِنْ مِّنْكَرٍ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿١٢﴾

«تنزع الناس» تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخزين أيديهم بأيدي بعض ويتدخلون في الشعب ويحفرن الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتلق رقابهم «كانهم أعجاز نخل منقعر» يعني: إنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل، وهي أصولها بلا فروع. منقعر منقطع عن مغارسه. وقيل: شبهوا بأعجاز النخل لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس، وذكر صفة نخل على اللفظ ولو حملها على المعنى لانت كما قال: «أعجاز نخل خالية».

فَقَالُوا ابْشِرْنَا مِنَّا رَجَدًا نَّيْمُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا سَلَكِلَ وَسُئِرَ ﴿١٢﴾

«ابشرونا منّا واحداً» نصب بفعل مضمر يفسره «تتبعه» وقرئ: ابشرونا واحد على الابتداء وتنبه خبره والأول أوجه للاستفهام. كان يقول إن لم تتبعوني

عيون تنفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض، ونظيره في النظم واشتعل الرأس شيباً. «فالتقى الماء» يعني: مياه السماء والأرض. وقرئ: المآن أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي ونحوه قولك: عندي تمران. تريد ضربان من التمر برني ومعقلي. قال لنا: إبلان فيهما ما علمتم. وقرأ الحسن: الماوان بقلب الهمزة وأوا كقولهم: علباوان «على أمر قد قدر» على حال قدرها الله كيف شاء. وقيل: على حال جاءت مقنرة مستوية، وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

«على ذات ألواح ودسر» أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتتوب منابها وتؤدي مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ونحوه: ولكن قميصي مسروبة من جيد. أراد ولكن قميصي لرع وكذلك: ولو في عيون النازيات باكراً؛ أراد ولو في عيون الجراد، ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والسر: جمع نيسار وهو المسمار، فعال من ساره إذا بقعه لأنه يسر به منفضه.

تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾

«جزاء» مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أي: فعلنا ذلك جزاء «لمن كان كفراً» وهو نوح عليه السلام وجعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (١) فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ومن هذا المعنى ما يحكى أن رجلاً قال للرشيدي: الحمد لله عليك. فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حميت الله عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة: كفر أي: جزاء للكافرين. وقرأ الحسن: جزاء بالكسر أي: مجازاة. الضمير في.

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مِّنْكَرٍ ﴿١٥﴾

«تركناها» للسفينة أو للفعلة أي: جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة: أبقاها الله بارض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والممكر المعتبر. وقرئ: منكر على الأصل، ومنكر بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها وهذا نحو منجر.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾

والنذر جمع نذير وهو الإنذار.

الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافٍ هَالِكَةٍ ﴿٣٣﴾

﴿صيحة واحدة﴾ صيحة جبريل، والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به يبيس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار أي الحظيرة.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لَوُطٌ نَجَسَهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾

﴿حاصبًا﴾ ريحًا تحصبهم بالحجارة أي: ترميهم ﴿بسحر﴾ يقطع من الليل وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه. وأنشد:

مرت بأعلى السحرين تدال

وصرف لأنه نكرة. ويقال: لقيته سحر إذا لقيته في سحر يومه.

يَعْمَهُ يَنْ عَيْنًا كَذَلِكَ يَجْرِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾

﴿نعمة﴾ إنعاء مفعول له ﴿من شكر﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَارَاوَا بِالذِّكْرِ ﴿٣٦﴾

﴿ولقد أنذرهم﴾ لوط عليه السلام ﴿بطشتنا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فتماروا﴾ فكذبوا ﴿بالذکر﴾ متشاكين.

وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَسَّأَ عَلَيْهِمْ فَنُودُوا عَذَابِي وَنَذِرَ ﴿٣٧﴾

﴿فطمسنا أعينهم﴾ فمسخناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روي أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة: خلهم يدخلوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فَنُودُوا﴾ فقلت لهم: نودوا على السنة الملائكة.

وَلَقَدْ سَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَنُودُوا عَذَابِي وَنَذِرَ ﴿٣٩﴾

وَلَقَدْ بَرَأَ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ نَالَ رَعُونَ الذِّكْرَ ﴿٤١﴾

﴿٤١﴾

﴿بكرة﴾ أول النهار وبكره كقوله: مشرقين ومصبحين. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: بكرة غير منصرفة. تقول أثبتته بكرة وغدوة بالتوين إذا أردت التنكير وبغيره إذا عرفت وقصلت بكرة نهارك وغدوته. ﴿عذاب مستقر﴾ ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله: ﴿فَنُودُوا عَذَابِي وَنَذِرَ﴾ يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟ قلت: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبي من أنباء الأولين إنكارًا واتعاظًا وأن يستأنفوا تنبيهًا واستيقاظًا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات ويقعق لهم الشن تارات لثلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة. وهكذا

كنتم في ضلال عن الحق. وسعر ونيران جمع سعيير فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إنن كما تقول. وقيل: الضلال الخطأ والبعد عن الصواب، والسعر الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كان بها سعة إذا العيس هزها نميل وإرخاء من السير متعب

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرًا منهم واحدًا؟ قلت: قالوا أبشرا؟ إنكارًا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة. وقالوا: منا. لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا: واحدًا. إنكارًا لأن تتبع الأمة رجلًا واحدًا، أو أرادوا واحدًا من أقتانهم ليس بأشرفهم وأفضلهم ويدل عليه قولهم:

أَتَلَقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَفِرٌّ ﴿٤٥﴾

﴿اللقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وفيها من هو أحق منه بالاختيار للنبوَّة ﴿أشرف﴾ بطر متكبر حمله بطره وشطارته وطلبة التعظم على ادعاء ذلك.

سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابُ الْآخِرُ ﴿٤٦﴾

﴿سيعلمون عذاب﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿ومن الكذاب الأشرف﴾ أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبًا لهم، أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشرف بضم الشين. كقولهم: حدث وحدث، وحزن وحزن، وأخوات لها. وقرئ: الأشرف: وهو الأبلغ في الشرارة والآخر. والأشرف أصل قولهم: هو خير منه وشر منه وهو أصل مرفوض. وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره.

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ وَنَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٤٧﴾

﴿مرسلوا الناقة﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فتنته لهم﴾ امتحانًا لهم وابتلاء. ﴿فارقبهم﴾ فانتظروهم وتبصر ما هم صانعون ﴿واصطبر﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

وَيَنْبَغُ أَنْ أَلَاكَ فَمَنْ يَنْبَغُ كُلُّ شَيْءٍ مَحْضَرٌ ﴿٤٨﴾

﴿قسمة بينهم﴾ مقسوم بينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وإنما قال: بينهم. تغليبًا للعلاء. ﴿محضر﴾ محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها.

فَأَدَا سَاحِبُ نَمَلِي مَمَرٌ ﴿٤٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِرَ ﴿٥٠﴾

﴿صاحبهم﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فتعاطى﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر للتعظيم غير مكتث له. فحدث العقر بالناقة. وقيل: فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّمَةً رَجِدَةً نَكَارًا كَهَيِّبِ الْخَظِيرِ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ بَرَأَ

الدرع ويقول: سيهزم الجمع. عرف تأويلها⁽³⁾. «ويولون النبر» أي: الأبار. كما قال:

كلوا في بعض بطنكم تغفوا
وقرى: الأدبار.

«أدهى» أشد وأقطع، والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه. «وأمر» من الهزيمة والقتل والأسر. وقرى: سنهزم الجمع.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٧).

«في ضلال وسعر» في هلاك ونيران أو في ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة.

يَوْمَ يُسْعَوْنَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مِن سُفْرِ (١٨).

«مس سقر» كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب، لأن النار إذا أصابتهم بحرما ولحفتهم بإيلامها فكانها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذي ويؤلم. ونوقوا على إرادة القول. وسقر علم لجهم من سقرته النار، وصقرته إذا لوحته. قال نو الرمة: إذا ذابت الشمس اتقي صقراتها بأفنان مربوع الصريمة معبل وعدم صرفها للتعريف والتأنيث.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (١٩).

«كل شيء» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر⁽⁴⁾ وقرى: كل شيء بالرفع. والقدر: التقدير. وقرى: بهما. أي: خلقنا كل شيء مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه.

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا رَجَدٌ كَمَجِّ الْيَمِّ (٢٠).

«وما أمرنا إلا واحدة» إلا كلمة واحدة سريعة التكوين «كلمج بالبصر» أراد قوله: «كن» يعني: أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢١).

حكم التكرير كقوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان»⁽¹⁾ عند كل نعمة عذها في سورة الرحمن. وقوله: «ويل يومئذ للمكذبين»⁽²⁾ عند كل آية أوردتها في سورة. والمرسلات وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان منكورة غير منسية في كل أوان.

«النذر» موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون، أو جمع نذير وهو الإنذار.

كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ (٢٢).

«بآياتنا كلها» بالآيات التسع. «أخذ عزيز» لا يغالب «مقتدر» لا يعجزه شيء.

أَكْثَرُكُمْ يَسْتَكْبِرُونَ أَفَؤُلُوكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٢٣).

«أكفاركم» يا أهل مكة «خير من أولئكم» الكفار المعوليين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون. أي: أهم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا، أو أقل كفرًا وعنادًا. يعني: أن أكفاركم مثل أولئك بل شر منهم. «أم» أنزلت عليكم يا أهل مكة «براءة» في الكتب المتقدمة أن من كفر منكم وكذب الرسل كان أمناً من عذاب الله فامتنع بذلك البراءة.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ (٢٤).

«نحن جميع» جماعة أمرنا مجتمع «منتصر» منتقم لا نلام ولا نضام. وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه فنزلت.

سَبِّحْ لِلْمَلِكِ ذِكْرًا وَتُحْمَ ذِكْرًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٢٥).

«سيهزم الجمع» عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: أي جمع يهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في

(1) سورة الرحمن، الآية: 13.

(2) سورة الطور، الآية: 11.

(3) عبد الرزاق في تفسيره والطبراني في معجمه الأوسط وإسحاق بن راهويه في مسنده زيلعي 3/391.

(4) قال أحمد: كان قياس ما مهد النحاة اختيار رفع كل، لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأن الكلام مع الرفع، جملة واحدة ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعني الأمر والنهي إلى آخرها، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعتونه من محال اختيارهم للنصب، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعاً لسر لطيف يعين اختيار النصب، وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي خلقناه صفة لشيء ورفع قوله: بقدر خبراً عن كل شيء المفيد بالصفة ويحصل الكلام على تقدير: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فافهم ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله =

= تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع، مع ما في الرفع من نقصان المعنى، ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاماً واضحاً، كفلق الصبح لا جرم أجمعوا على العنول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله، فيقولون: هذا لله بزمعهم وهذا لنا، فخرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح الشفاء وينقل قراءتها بالرفع، فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية مع أنها هي الأولى في العربية، لولا ما ذكرناه يجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا، وهو المخير فيما يحكم به، فيألى الله ترجع الأمور.

الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④

و **«الرحمن»** مبتدا وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترافعة، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤

«بحسبان» بحساب معلوم وتقدير سوى **«يجريان»** في بروجهما ومنازلهما وفي تلك منافع للناس عظيمة منها علم السنين والحساب.

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥

«والنجم» والنبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول، **«والشجر»** الذي له ساق. وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له وأنهما لا يمتنعان تشبيها بالساجد من المكلفين في انقياده.

فإن قلنا: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن؟ قلنا: استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره. كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان له.

فإن قلنا: كيف أخل بالعاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد؟ قلنا: بكت بتلك الجمل الأول وإرادة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقرير الذين أنكروا الرحمن والآله، كما يبيك منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعبيدها عليه في المثال الذي قدمته. ثم رد الكلام إلى مناهجه بعد التبيكت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قلنا: أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟ قلنا: إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبوليين تناسب من حيث التقابل. وأن السماء والأرض لا تزالان تنكران قرينتين وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر. وقيل: علم القرآن جعله علامة وآية. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإنسان آدم.

«إنشأكم» أشباهكم في الكفر من الأمم.

رَكَّلَتْهُ وَفَعَّلُوهُ فِي الزَّبْرِ ⑦

«في الزبر» في نواوين الحفظة.

وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ⑧

«وكل صغير وكبير» من الأعمال ومن كل ما هو كائن **«مستطر»** مسطور في اللوح.

إِنَّ لِلنَّافِثِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ⑨

«ونهر» وأنهار اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء، ونهر جمع نهر كاسد وأسد.

فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ ⑩

«في مقعد صدق» في مكان مرضي. وقرئ: في مقاعد صدق **«عند ملك مقتدر»** مقربين عند ملك مبهم أمره في الملك والاقتدار فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كل غيب بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن مكية

عدد الله عز وعلا آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قلماً من ضروب آلائه⁽²⁾ وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه. لانه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية ومصادقها والعيار عليها. وأخر نكر خلق الإنسان عن نكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله، وكان العرض في إنشائه كان مقدماً عليه وسابقاً له. ثم نكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب⁽³⁾ عما في الضمير.

(1) أخرجه الثعلبي وابن مريويه والواحدي والزليعي 392/3.

(2) قال أحمد: نغير من هذا الكلام قوله: أن خلق الإنسان كان الغرض فيه، أي: المراد منه أن يحيط علماً بالكتب والوحي، ويعوض بأن المراد بخلقه أن يدعى إلى ذلك، لا أن يقع ذلك منه، فهذا هو المراد العام، ثم منهم من أراد الله أنه أن يحيط علماً بالدين فيفسر له ذلك، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: وإنما خص الجمل الأول بنكرها تبيكتاً للإنسان لاجل =

= التصاق معانيها به، لا ترى أنه منكر فيها نطقاً وإضماراً وحذفاً مدلولاً عليه في الكلام، فهو منطوق به مظهر في قوله: «خلق الإنسان» ومضمر في قوله: «علمه البيان» ومدلولاً على حذفه في قوله: «علم القرآن» فإنه المفعول الثاني أما قوله: «الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» فليس للإنسان فيهما نكر البتة، وجل المقصود من سياقهما التنبيه على عظمة الله تعالى.

وعنه أيضاً: محمد رسول الله ﷺ. وعن مجاهد: النجم نجوم السماء.

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾

«والسمااء رفعها» خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه، ومنزل أوامره ونواهيه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكوته وسلطانه «ووضع الميزان» وفي قراءة عبد الله: وحفص الميزان، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيالي ومقياس أي: خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عبادته وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾

«ألا تطغوا» لئلا تطغوا، أو هي أن المفسرة وقرأ عبد الله: لا تطغوا. بغير أن على إرادة القول.

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾

«واقيموا الوزن بالقسط» وقوموا وزنكم بالعدل «ولا تخسروا الميزان» ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكثر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه. وقرئ: والسماء بالرفع. ولا تخسروا بفتح التاء، وضم السين، وكسرهما وفتحها، يقال: خسر الميزان يخسره ويخسره. وأما الفتح فعلى أن الأصل ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل.

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنبَاءِ ﴿١٠﴾

«وضعها» خفصها مدحوة على الماء «للأنام» للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن: الإنس والجن. فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها.

فِيهَا فَتَكِهٌ وَالْقَلْءُ ذَاتُ الْأَكْمَارِ ﴿١١﴾

«فتكهة» ضروب مما يتفكه به «والأكمار» كل ما يكمل أي: يغطي من ليفه وسعفه وكفراه وكله منتفع به كما ينتفع بالكموم من ثمره وجماره وجنوعه. وقيل: الأكمار أوعية الثمر الواحد كم بكسر الكاف.

وَالْجَبَّ دُوِّ النَّفِّ وَالرِّيحَانَ ﴿١٢﴾ فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ كَذِبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾

«العصف» ورق الزرع وقيل: التبين «والريحان»

الرزق وهو اللب. أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه. والجامع بين التلذذ والتغذي وهو تمر النخل وما يتغذى به وهو الحب. وقرئ: والريحان بالكسر، ومعناه: والعصف الذي هو علف الأنعام، والريحان الذي هو مطعم الناس. وبالضم على وئو الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه وفيها الريحان الذي يشم وفي مصاحف أهل الشام، والحب ذو العصف والريحان. أي: وخلق الحب والريحان، أو وأخص الحب والريحان، ويجوز أن يراد هذا الريحان فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه.

فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ كَذِبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ كَذِبَانِ ﴿١٨﴾

والخطاب في «ربكما كذبان» للثقلين بدلالة الانام عليهما. وقوله: سنفرغ لكم أيها الثقلان. الصلصال الطين اليابس له صلصلة. والفخار الطين المطبوع بالنار وهو الخزف.

فإن قلت: قد اختلف التنزيل في هذا وذلك قوله عز وجل من حمأ مسنون من طين لازب من تراب! قلت: هو متفق في المعنى ومفيد أنه خلقه من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصلاً و «الجان» أبو الجن وقيل: هو إبليس. والمارج اللهب الصافي الذي لا بخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط به.

فإن قلت: فما معنى قوله: «من نار»؟ قلت: هو بيان لمارج كأنه قيل: من صاف من نار أو مختلط من نار، أو أراد من نار مخصوصة. كقوله تعالى: «فانذرتم ناراً تملأ» (١) قرئ: رب المشرقين ورب المغربين بالجر بدلاً من ربكما، وأراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾

«مرج البحرين» أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين المائين في مرأى العين.

يَبْتَهِمُ بَرِّحٌ لَّا يَبْتَغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ كَذِبَانِ ﴿٢١﴾

«يبتهما بررخ» حاجز من قدرة الله تعالى «لا يبتغيان» لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ:

يَخْرُجُ مِنْهَا الذُّلُوعُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ كَذِبَانِ ﴿٢٣﴾

قرئ: يخرج، ويخرج من أخرج وخرج ويخرج - أي: الله عز وجل - اللؤلؤ والمرجان بالنصب ونخرج بالنون. واللؤلؤ الدر، والمرجان هذا الحرز الأحمر وهو البسذ. وقيل: اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.

يَسْتَكْمِلُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَهُ
رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾

﴿كل يوم هو في شأن﴾ أي: كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً. «كما روي عن رسول الله ﷺ أنه تلاها فقليل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»^(٥). وعن ابن عيينة: الدهر عند الله تعالى يومان: أحدهما اليوم الذي هو مد عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع، والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب، وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهل إلى الغد وذهب كتيباً يفكر فيها. فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل يسهل لك على يدي فأخبره. فقال له: أنا أفسرها للملك. فاعلمه. فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافاً، ويعافي مبتلياً، ويعز نبيلاً، ويذل عزيزاً، أو يفقر غنياً ويغني فقيراً. فقال الأمير: أحسنت، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي هذا من شأن الله، وعن عبد الله بن ظاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله تعالى: ﴿فأصبح من النادمين﴾^(٦) وقد صح أن الندم توبة، وقوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾. وقد صح أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾^(٧) فما بال الأضعاف. فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة ويكون توبة في هذه الأمة لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم يشار لهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله. وأما قوله: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾^(٧) فمعناه ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. وأما قوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ فإنها شؤون بيديها لا شؤون يبتدئها. فقام عبد الله وقبّل رأسه وسوّغ خراجه.

سَتَرْتُ لَكُمْ أَنَّهُ أَفْقَالَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾

فإن قلت: لم قال منهما، وإنما يخرجان من الملح^(١) قلت: لما التقيا وصار كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما. كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره. وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعنب.

وَلَهُ لِبَوارِ الْمَسَنَاتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾

﴿الجواري﴾ السفن وقرئ: الجواري بحذف الياء ورفع الراء ونحوه:

لها ثانياً أربع حسان وأربع فكلها ثمان
و﴿المنشآت﴾ المرفوعات الشرع وقرئ: بكسر الشين وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشثن الأمواج بجريهن. والأعلام جمع علم وهو الجبل الطويل.

كُلٌّ مِّنْ عِلْيَا فَأَنِّي

﴿عليها﴾ على الأرض.

وَبَيْنَ يَمِينِهِ رَيْكٌ ذُو الْجُنْدِ وَالْأَكْرَابِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾

﴿وجه ربك﴾ ذاته والوجه يعبر به عن الجملة والذات. ومسكين مكة يقولون^(٢): أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان؟ و﴿ذو الجلال والإكرام﴾ صفة الوجه. وقرأ عبد الله: ذي على صفة ربك ومعناه: الذي يجله الموحسون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم، أو الذي يقال له: ما أجلك وأكرمك! أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. ولقد قال رسول الله ﷺ: «الظلوا بياذا الجلال والإكرام»^(٣). وعنه عليه الصلاة والسلام: «أنه مر برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك»^(٤).

فإن قلت: ما النعمة في ذلك؟ قلت: أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك. كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودينهم.

(1) قال أحمد: هذا القول الثاني مردود بالمشاهدة، والصواب هو الأول، ومثله: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وإنما أريد إحدى القريتين هذا هو الصحيح الظاهر، وكما تقول: فلان من أهل ديار مصر، وإنما بلده محلة واحدة منها.

(2) قال أحمد: المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التي دل عليها العقل، فكيف بالصفات السمعية؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر، ولم ير بيانها صفات سمعية. ثم قال: فإن قلت: كيف عد هذا من الآلاء والنعم وحاصله فناء الخلق؟ وأجاب: بأن معناه: أنهم يفتنون ثم يبعثون إلى دار الجزاء إلى دار النعيم المقيم الحقيق، بأن يكون هو النعيم لا غير.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3524).

(4) كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3527).

(5) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (الحديث رقم: 202). وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: العتق والزهد والقناعة (حديث رقم: 689).

(6) سورة المائدة، الآية: 31.

(7) سورة النجم، الآية: 39.

كانهما مزاناً متعجل فریان لماتدهنا بدهان
وقيل: الدهان الأديم الأحمر. وقرأ عمرو بن عبید ردة
بالرفع بمعنى: فحصلت سماء ردة، وهو من الكلام الذي
يسمى التجريد كقوله:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحوي الغنائم أو يموت كريم
فَيُؤَيِّزُ لَا يَشْتَلُ عَنْ دُؤْيِهِ إِنْشَ وَلَا جَانُّ (٣١) فَيَأْيِءُ آلاءَ رَبِّكَ مَا
تُكْذِّبَانِ (٣٢).

﴿إنس﴾ بعض من الإنس ﴿ولا جان﴾ أريد به ولا
جن. أي: ولا بعض من الجن فوضع الجان الذي هو أبو
الجن موضع الجن، كما يقال: هاشم ويراد ولده، وإنما وحد
ضمير الإنس في قوله عن ننبه لكونه في معنى البعض.
والمعنى: لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي
سواد الوجوه وزرقة العين.

فإن قلنت: هذا خلاف قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم
أجمعين﴾ (٢) وقوله: ﴿وقفهم إنهم مسؤولون﴾ (٣) قلنت: ذلك
يوم طويل وفيه مواطن فيسألون في موطن ولا يسألون في
آخر. قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم
وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: لا يسأل
عن ننبه ليعلم من جهته ولكن يسأل سؤال توبيخ. وقرأ
الحسن وعمرو بن عبید: ولا جان فراراً من النقاء الساكنين
ولن كان على حذ.

يُؤَيِّزُ الْتَجْرِمُونَ بِسَبِّهِمْ فَيُؤَيِّزُ بِالْوَيْسِ وَالْأَقْدَامِ (٣١) فَيَأْيِءُ آلاءَ
رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٣٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٣٣).

﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ عن الضحاك: يجمع بين
ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره. وقيل: تسحبهم
الملائكة تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام.
يَطْرُقُونَ بَيْنَ وَبَيْنَ جَيْرِ مَائِ (٣٤) فَيَأْيِءُ آلاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٣٥).

﴿حميم أن﴾ ماء حار قد انتهى حره ونضجه أي:
يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم. وقيل:
إذا استغاثوا من النار جعل غيائهم الحميم. وقيل: إن وادياً
من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم
في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم
يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً. وقرئ:
يطوفون من التطويف ويطوفون. أي: يطوفون ويطافون.
وفي قراءة عبد الله: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان
تصليان لا تموتان فيها ولا تحببان يطوفون بينها. ونعمة الله
فيما نكره من هول العذاب نجاة الناجي منه برحمته
وفضله وما في الإنذار به من اللطف.

وَلَمَّا كَانَتْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٣٦) فَيَأْيِءُ آلاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٣٧) ذَرَأَاتُ

﴿سنفرغ لكم﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده
سافرغ لك، يريد: سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني
عنا حتى لا يكون لي شغل سواه، والمراد التوفر على
النكاية فيه والانتقام منه. ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا
وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها
بقوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ (١) فلا يبقى إلا شأن واحد
وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل.
وقرئ: سيفرغ لكم، أي الله تعالى. وسافرغ لكم وسنفرغ
بالتون مفتوحاً ومكسوراً وفتح الراء وسيفرغ بالياء مفتوحاً
ومضموماً مع فتح الراء. وفي قراءة أبي سنفرغ إليكم
بمعنى سنقصد إليكم والثقلان الإنس والجن سمياً بذلك
لأنهما ثقل الأرض.

يَسْتَمَرُّ الْحَيْنُ وَالْآخِرُ إِنْ اسْتَمَلْتُمْ أَنْ تَتَذَكَّرُوا مِنْ أَفْوَاحِ الْمَكْرَمَاتِ
وَالْأَرْضِ فَاتَذَكَّرُوا لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَّا يَطْلُبُنِ (٣٢) فَيَأْيِءُ آلاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ
(٣٣).

﴿يا معشر الجن والإنس﴾ كالترجمة لقوله: أيها
الثقلان ﴿إن استطعتم﴾ أن تهربوا من قضائي وتخرجوا
من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا. ثم قال: لا تقدرين
على النفود، ﴿إلا بسلطان﴾ يعني بقوة وقهر وغلبة، وإنى
لكم تلك ونحوه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في
السماء. وروى أن الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط
بجميع الخلائق، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون
وجهاً إلا وجنوا الملائكة أحاطت به.

يُرْسَلُ عَلَيْكَ شَوَاطِلٌ مِنْ نَارٍ وَفُؤَاهُ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٤) فَيَأْيِءُ آلاءَ
رَبِّكَ تَكْذِبَانِ (٣٥).

قرئ: ﴿شواظ﴾ و﴿ونحاس﴾ كلاهما بالضم والكسر،
والشواظ اللهب الخالص والنحاس الدخان، وأنشد:
تضيء كوضوء سراج السليد طلم يجعل الله فيه نحاساً

وقيل: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم. وعن ابن
عباس رضي الله عنهما: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم
شواظ إلى المحشر. وقرئ: ونحاس مرفوعاً عطفاً على
شواظ، ومجروراً عطفاً على نار. وقرئ: ونحاس جمع
نحاس وهو الدخان، نحو لحاف ولحف. وقرئ: وتحس أي:
ونقتل بالعذاب، وقرئ: نرسل عليكم شواظاً من نار
ونحاساً ﴿فلا تنتصران﴾ فلا تمتنعان.

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٦) فَيَأْيِءُ آلاءَ رَبِّكَ
تَكْذِبَانِ (٣٧).

﴿وردة﴾ حمراء ﴿كالدّهان﴾ كدهن الزيت. كما قال:
كالْمِهْل وهو بردى الزيت وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن
به كالخزام والإدام قال:

أَفَنَّا ^(٨) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿مقام ربه﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ونحوه لمن خاف مقامي ويجوز أن يراد بمقام ربه أن الله قائم عليه. أي: حافظ مهيم. من قوله تعالى: ﴿أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ ^(١) فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل: هو مقم كما تقوله: أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك. وأنشد:

نعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين يريد: ونفيت عنه الذئب.

فإن قلْتُ: لم قال ﴿جنتان﴾؟ قلْتُ: الخطاب للثقلين كأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الأنسي، وجنة للخائف الجنى، ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي؛ لأن التكليف دائر عليهما. وإن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل كقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ ^(٢) خص الأفنان بالذكر وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة؛ لأنها هي التي تورق وتثمر فمنها تمتد الظلال ومنها تجتني الثمار. وقيل: الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال:

ومن كل أفنان اللذات والصبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

فيهما عَيْنَانِ تَحْرِيكَانِ ^(٥) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿عينان تحريان﴾ حيث شأوا في الأعلى والأسفل. وقيل: تحريان من جبل من مسك. وعن الحسن: تحريان بالماء الزلال أحدهما: التسليم والأخرى: السلسيل.

فيهما من كل نكهة رَيَّانِ ^(٦) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿زوجان﴾ صنفان قيل: صنف معروف، وصنف غريب. مُكْنَيْنِ عَلَى رُئُوسِ بَطَائِنٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ^(٧) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿متكئين﴾ نصب على المدح الخائفين، أو حال منهم؛ لأن من خاف في معنى الجمع. ﴿بطائنها من استبرق﴾ من لبياح تخين وإذا كانت البطائن من الاستبرق فما ظنك بالظواهر، وقيل: ظواهرها من سنس، وقيل: من نور. ﴿دان﴾ قريب يناله القائم والقاعد والناثم. وقرئ: وجنى بكسر الجيم.

فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ لَمْ يَلْمَهُنَّ إِسْ بَلْ لَهُنَّ وَلَا جَانَّ ^(٨) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ^(١٠) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿فيهن﴾ في هذه الآلاء المعودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس. ﴿قاصرات الطرف﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الإنسيات منهن أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن ^(٣) وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس. وقرئ: لم يطمثهن بضم الميم.

قيل: هن في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، وصفار الدر أنصع بياضاً. قيل: إن الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البياض.

مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ^(١١) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿هل جزاء الإحسان﴾ في العمل ﴿إلا الإحسان﴾ في الثواب. وعن محمد بن الحنفية: هي مسجلة للبر والفاجر. أي: مرسلة. يعني: أن كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أساء إليه.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ^(١٢) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿ومن دونهما﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿جنتان﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين.

مُدَّامَتَانِ ^(١٣) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿مدامتان﴾ قدار هامتا من شدة الخضرة.

فِيهِمَا عَيْنَانِ صَخَّاتَانِ ^(١٤) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

﴿نضاختان﴾ فوارتان بالماء. والنضخ: أكثر من النضج لأن النضج غير معجمة مثل الرش. فإن قلْتُ: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها!.

فِيهَا نَكِهَةٌ وَخَلٌّ رِيَّانٌ ^(١٥) يَا أَيُّهَا رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ^(٩).

قلْتُ: اختصاصاً لهما وبياناً لفضلهما كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران. كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكائيل﴾ ^(٤) أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا ياكل فاكهة فاكل رماناً أو رطباً لم يحنث وخالفه أصحابه.

= صفة الأوليين، حتى قال: ﴿ومن دونهما﴾؛ لأنه قال: ﴿مدامتان﴾ وذلك دون نواتا أفنان ونضاختان، وذلك دون تجريان وفاكهة، وذلك دون من كل فاكهة وكذلك صفة الحور.

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

(1) سورة الرعد، الآية: 33.

(2) سورة يونس، الآية: 36.

(3) قال أحمد: يشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم، وإنما جزأهم ترك العقوبة وجعلهم تراباً. وقال في قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾: إنما تقاصرت صفة هاتين الجنتين عن =

فِيهِ سَرَتْ جَسَدٌ ﴿٧٥﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكََا تَكْذِبَانِ ﴿٧٦﴾.

﴿خيرات﴾ خيرات فخفت كقوله عليه السلام: «هينون لينون»^(١) وأما خير الذي هو بمعنى أخير فلا يقال فيه: خيرون ولا خيرات. وقرئ: خيرات على الأصل والمعنى: فاضلات الأخلاق حسان الخلق.

حُرِّ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكََا تَكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾.

﴿مقصورات﴾ قصرن في خورهن يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة. وقيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة.

لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكََا تَكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾.

﴿قبلهم﴾ قبل أصحاب الجنتين دل عليهم نكر الجنتين.

مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرَفٍ خَضِرٍ وَتَعَبَرِي جَسَدَانِ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكََا تَكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ تَكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ تَكْذِبَانِ رَبِّكََا وَبِالْأَكْثَرِ ﴿٧٨﴾.

﴿متكبرين﴾ نصب على الاختصاص والرفرف ضرب من البسط. وقيل: البسط. وقيل: الوسائد. وقيل: كل ثوب عريض رفرف. ويقال لأطراف البسط وفصول الفسطاط: رفارف، ورفرف السحاب: هيد به. والعبقري: منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ: رفارف خضر بضمين، وعباقري كمدائني نسبة إلى عباقر في اسم البلد. وروى أبو حاتم: عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا الوجه لصحته.

فإن قلْتُ: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن نونهما؟ قلْتُ: مدهامتان بون نواتا أفنان، ونضاختان بون تجربان، وفلكهة بون كل فاكهة، وكذلك صفة الحور والمتكا. وقرئ: نو الجلال صفة للاسم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرحمن أدّى شكر ما أنعم الله عليه»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الواقعة مكية

إِذَا وَجَعِ اللَّوْأَمَةُ ﴿١﴾.

﴿وقعت الواقعة﴾ كقولك: كانت الكائنة، وحدثت الحابثة، والمراد: القيامة. وصفت بالوقوع أنها تقع لا محالة. فكانه قيل: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها. ووقوع

الامر نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه. أي: نزل ما كنت أتربح نزوله.

فإن قلْتُ: بم انتصب إذا؟ قلْتُ: بليس. كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل، أو بمحذوف يعني: إذا وقعت كان كيت وكيت. أو بإضمار انكر.

لَيْسَ لِرُفْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾.

﴿كاذبة﴾^(٣) نفس كاذبة، أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات. كقوله تعالى: ﴿فلما راوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾^(٤) لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم^(٥) ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾^(٦) أو ليس لها نفس تكذبها وتقول لها: لم تكوني. كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبها يقلن لها: لن تكوني. أو هي من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعت على مباشرته. وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه فتعرض له ولا تبال به، على معنى أنها وقعة لا تطاق شدة وفظاعة، وأن لا نفس حينئذ تحث صاحبها بما تحدث به عند عظام الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها؛ لأنهم يومئذ أضعف من نك وأذل، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿والفراش المبثوث﴾^(٧) والفراش مثل في الضعف وقيل: ﴿كاذبة﴾ مصغر كالعاقبة. بمعنى: التكذيب من قولك حمل على قرنه فما كذب. أي: فما جبن وما تثبط. وحقيقته: فما كذب نفسه فيما حدثته به من إطاقته له وإقدامه عليه. قال زهير:

إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا
أي: إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد.

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾.

﴿خافضة رافعة﴾ على هي خافضة رافعة ترفع أقواماً وتضع آخرين. إما وصفاً لها بالشدة؛ لأن الوقائع العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس، وإما لأن الأشقياء يحطون إلى الدركات والسعداء يرفعون إلى الدرجات، وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً، حيث تسقط السماء كسفاً وتنتثر الكواكب وتتكسر وتسير الجبال فتمز في الجو مر السحاب. وقرئ: خافضة رافعة بالتصبي على الحال.

إِذَا رَجَّزَ الْآرْضُ رَجَا ﴿٤﴾.

﴿رجت﴾ حركت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء

(١) تقدم في الفرقان.

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مريويه في تفسيره وأخرجه الزيلعي 3/399.

(٣) قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ قال فيه: كاذبة صفة تقدير موصوفاها نفس كاذبة.

(٤) سورة غافر، الآية: 84.

(٥) سورة الشعراء، الآية: 201.

(٦) سورة الفجر، الآية: 24.

(٧) سورة القارة، الآية: 4.

فوقها من جبل وبناء.

وَسَيِّتَ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾

﴿وبست الجبال﴾ وفنت حتى تعود كالسويق، أو سيق، من بس الغنم إذا ساقها. كقوله: ﴿وسيرت الجبال﴾^(١) ﴿منبثًا﴾ متفرقًا. وقرئ: بالتاء أي: منقطعًا. وقرئ: رجت وبست. أي: ارتجت وذهبت. وفي كلام بنت الخس: عينها هاج وصلها راج وهي تمشي وتقاج.

فإن قلْتُ: بم انتصب إذا رجت؟ قلْتُ: هو بدل من ﴿إذا وقعت﴾، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض.

وَسَيِّتُ أَرْوَاكًا نَلْنَةً ﴿٧﴾

﴿أزواجًا﴾ اصنافًا، يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو ينكر بعضًا بعض: أزواج.

مَا صَحَبَ الْيَمِينَ مَا أَصَحَبَ الْيَمِينَ ﴿٨﴾ وَمَا صَحَبَ الْيَمِينَ مَا أَصَحَبَ الْيَمِينَ ﴿٩﴾

﴿فأصحاب اليمين﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم. و﴿أصحاب المشأمة﴾ الذين يؤتونها بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة النية. من قولك: فلان مني باليمين وفلان مني بالشمال، إذا وصفتها بالرفعة عندك والضعفة. وذلك لتمكنهم باليمين وتشاؤمهم بالشمال، ولتفاؤلهم بالسنانح وتطيرهم من البارح. ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمين وسموا الشمال الشومي. وقيل: أصحاب اليمين وأصحاب المشأمة. أصحاب اليمين والشؤم؛ لأن السعداء ميامن على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال.

وَالْيَمِينُ الْيَمِينُ ﴿١٠﴾

﴿والسابقون﴾ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عز وجل. وقيل: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ثم يزل

عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال. ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشأمة تعجيب من حال^(٢) الفريقين في السعادة والشقاوة والمعنى: أي شيء هم. ﴿والسابقون السابقون﴾ يريد والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقوله: وعبد الله عبد الله. وقول أبي النجم: وشعري شعري. كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته، وقد جعل السابقون تأكيداً وأولئك المقربون خبراً، وليس بذلك. ووقف بعضهم على ﴿والسابقون﴾ وأبتدا: السابقون.

أُولَئِكَ الْمَقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ الْيُسْبَىٰ ﴿١٢﴾

﴿أولئك المقربون﴾ والصواب أن يوقف على الثاني؛ لأنه تمام الجملة وهو في مقابلة أصحاب الميمنة وما أصحاب المشأمة.

﴿المقربون في جنات النعيم﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم. وقرئ: في جنة النعيم.

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾

والثلة: الأمة من الناس الكثيرة قال:

وجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كثير من السيل مزبد وقوله عز وجل: ﴿وقليل من الآخرين﴾ كفى به ليلياً على الكثرة، وهي من الثل وهو: الكسر، كما أن الأمة من الأم، وهو الشج كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم. والمعنى: أن السابقين من الأولين كثير، وهم: الأمم من لنن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمة محمد ﷺ. وقيل: ﴿من الأولين﴾ من متقني هذه الأمة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخريها. وعن النبي ﷺ: «الثلاثان جميعاً من أمتي»^(٣).

فإن قلْتُ: كيف قال: ﴿وقليل من الآخرين﴾ ثم قال: ﴿وثلة من الآخرين﴾^(٤) قلْتُ: هذا في السابقين، وذلك في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً.

فإن قلْتُ: فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت ﴿ثلة من الأولين﴾ ﴿وثلة من الآخرين﴾! قلْتُ: هذا لا يصح لأمرين أحدهما: أن هذه الآية واردة في السابقين وروداً

= السامع بما ليس عنده منه علم سابق، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله: ﴿أولئك المقربون﴾ فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف وبين الإخبار عنه بقوله: ﴿المقربون﴾ معرّفاً بالآلاف واللام العهدية، وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين، فإنه مصدر بقوله: ﴿في سدر مخضود﴾.

(٣) رواه الطبراني في معجمه.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٤٠.

(١) سورة النبا، الآية: ٢٠.

(٢) قال أحمد: اختار ما هو المختار؛ لأنه اتعد بالفصاحة، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المنكوريين، فنقول: التعظيم المؤدي بقوله: السابقون أبلغ من قرينه، وذلك أن مؤدي هذا أن أمر السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور، وأما المنكور في قوله: ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ فإنه تعظيم على =

قري: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ بالرفع على وفيها حور عين، كبيت الكتاب إلا رواكد جمرهن هباءً وشمجج، أو للعطف على ولدان وبالجر عطفًا على جنات النعيم. كأنه قال: هم في جنات النعيم، وفاكهة ولحم وحورًا وعلى أكواب؛ لأن معنى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب﴾: ينعمون بأكواب، وبالنصب على ويؤتون حورًا.

جَزَاءً يَمَا كَاوًا يَمَلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿جزاء﴾ مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كله جزاءً بأعمالهم.

لَا يَسْمَعُونَ نَبَأًا لَوْ لَا تَأْنِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾

﴿سلامًا سلامًا﴾ إما بدل من ﴿قِيلًا﴾ بلبيل قوله: ﴿لَا يسمعون فيها لغوًا﴾ إلا سلامًا. وإما مفعول به لقيلًا بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا: سلامًا سلامًا. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلامًا بعد سلام. وقرئ: سلام سلام على الحكاية.

فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾

السدر: شجر النبق. والمخضود: الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه. وعن مجاهد: الموقر: الذي تثني أغصانه كثرة حملة، من خضد الغصن: إذا ثناه وهو رطب.

وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾

والطلح: شجر الموز. وقيل: هو شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة. وعن السدي: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ: وطلع، وما شأن الطلح؟ وقرأ قوله لها: طلع نضيد. فقيل له: أَوْحَوْهَا. فقال: أي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول. وعن ابن عباس نحوه. والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة.

وَطَلِّ مَّنْذُودٍ ﴿٣٠﴾

﴿وطلّ مندود﴾ ممتد منبسط لا يتقلص كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَأْوًى مَّكَرٍ ﴿٣١﴾

﴿مسكروب﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا لا يتعنون فيه وقيل: دائم الجرية لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجري على الأرض في غير أخدود.

وَنَكَبَهُ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا تَمْنَعُ ﴿٣٣﴾

﴿لا مقطوعة﴾ هي دائمة لا تنقطع في بعض الاوقات كفاوكه الدنيا ﴿ولا ممنوعة﴾ لا تمنع عن تناولها بوجه

ظاهرًا، وكذلك الثانية في أصحاب اليمين. ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم، والثاني: أن النسخ في الإخبار غير جائز. وعن الحسن رضي الله عنه: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمة، وثلة خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة.

عَلَى سُرُرٍ مَّوْشَوْنَ ﴿٣٤﴾

﴿موشونة﴾ مرمولة بالذهب مشبكة بالدرّ والياقوت قد تدخل بعضها في بعض كما توضع حلق الدرع. قال الأعشى:

ومن نسج داود موشونة

وقيل: متواصلة أدنى بعضها من بعض.

مُتَكَبِّرِينَ عَلَيَّاءَ مُتَكَبِّرِينَ ﴿٣٥﴾

﴿متكبرين﴾ حال من الضمير في على وهو العامل فيها. أي: استقروا عليها متكبرين ﴿متكبرين﴾ لا ينظر بعضهم في آقاء بعض، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿مخلدون﴾ مبقون أبدًا على شكل الولدان وحدّ الوصافة لا يتحولون عنه، وقيل: مقرطون والخلدة: القرط، وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. روي عن علي رضي الله عنه وعن الحسن وفي الحديث: «أولاد الكفار خدام أهل الجنة» (١).

يَأْكُوبُ وَيُكَيِّسُ وَيَكْبِتُ رَبَّنَا ﴿٣٧﴾

الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم، والأباريق نوات الخراطيم.

لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَرْوُونَ ﴿٣٨﴾

﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها. أو لا يفرقون عنها، وقرأ مجاهد: لا يصدعون بمعنى: لا يتصدعون لا يفرقون كقوله: يومئذ يصدعون ويصدعون أي: لا يصدع بعضهم بعضًا لا يفرقونهم.

وَنَكَبَهُ مِمَّا يَشْتَرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يتخبرون﴾ ياخذون خيره وأفضله.

وَلَيْسَ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٤٠﴾

﴿يشتهون﴾ يتمنون. وقرئ: ولحوم طير.

وَحُورٌ عَيْنٌ ﴿٤١﴾ كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمَكْرُونِ ﴿٤٢﴾

(١) كشف الاستار كتاب: القدر، باب: في أطفال المشركين (الحديث رقم: 2172).

وَلَيْلٍ مِّن يَّسُورٍ ﴿٣٧﴾

﴿وظل من يحوم﴾ من دخان أسود بهيم.

لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا بَلَدًا مَّزْمُونًا ﴿٣٩﴾

﴿لا بارد ولا كريم﴾ نفى لصفتي الظل عنه، يريد: أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال. سماه ظلًّا ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوي إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في ملول الظل من الاسترواح إليه، والمعنى: أنه ظل حار ضار، إلا أن للنفي في نحو هذا شأنًا ليس للاثبات وفيه تهكم بأصحاب المشامة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. وقرئ: لا بارد ولا كريم بالرفع، أي: لا هو كذلك.

وَكَاؤًا يُّصْرُونَ عَلَى الْيَنبِ الْعَظِيمِ ﴿٤٠﴾ وَكَأْوًا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكَأْوًا ثَرَابًا وَعَظْمًا إِنَّا لَنَبْعَثُونَهُ ﴿٤١﴾

﴿الحنث﴾ الذنب العظيم. ومنه: قولهم: بلغ الحنث، أي: الحلم ووقت المؤاخذه بالمآثم، ومنه حنث في يمينه خلاف برّ فيها. ويقال: تحنث إذا تأثم وتخرج.

أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَدُولُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٣﴾

﴿أو أبائنا﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف.

فإن قلّت: كيف حسن العطف على المضمّر في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن؟ قلّت: حسن للفواصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله تعالى: ﴿ما أشركنّا ولا أبائنا﴾^(١) لفصل لا المؤكدة للنفي. وقرئ: أو أبائنا.

لَنَجْوَِعَنَّهُمْ إِذَا زُرَّكَتْ يَوْمَ الْمُؤِذِ ﴿٤٤﴾

وقرئ: ﴿لمجمعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى من كخاتم فضة، والميقات: ما وقت به الشيء أي: حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي أَلَمَّاؤُنَ الْكَذِبُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أيها الضالون﴾ عن الهدى ﴿المكذبون﴾ بالبعث وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم.

لَأَكُونَنَّ مِن شَعَرٍ مِّن زُفُورٍ ﴿٤٦﴾

﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى: لابتداء الغاية والثانية: لبيان الشجر وتفسيره. وأنت ضمير الشجر على المعنى ونكره على اللفظ في قوله: منها وعليه. ومن قرأ: من شجرة من زقوم فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما

ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وقرئ: ﴿وفاكهة كثيرة﴾ بالرفع على وهناك فاكهة. كقوله: وحور عين.

وَرُفُوشٌ مَّرْوَعَةٌ ﴿٤٧﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٤٨﴾ لَّجَمْلُهُنَّ أَكْبَرًا ﴿٤٩﴾ عَرَبًا أَزْرَبًا ﴿٥٠﴾

﴿وفرش﴾ جمع فرش. وقرئ: ﴿وفرش﴾ بالتخفيف ﴿مرفوعة﴾ نضدت حتى ارتفعت أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى بالفرش مرفوعة على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾^(١) ويدل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ وعلى التفسير الأول: اضممر لهن؛ لأن نكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن أنشأناهن إنشاءً أي: ابتدأنا خلقهن ابتداءً جيّداً من غير ولادة، فلما أن يراد اللاتي ابتدئ إنشاءهن أو اللاتي أعيد إنشاءهن. وعن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَأَلَتْهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ هُنَّ اللَّوَاتِي قَبِضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَازَنَ شَمَطًا رَمَضًا جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ أَتْرَابًا» عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الْاِسْتَوَاءِ كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ.

وجوهن أبكاراً، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: وأوجعاه. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك وجع»^(٢). وقالت عجوز لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «إن الجنة لا تدخلها العجائز»، فولت وهي تبكي فقال عليه الصلاة والسلام: أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز»^(٣). وقرأ الآية.

﴿عرباً﴾ وقرئ: عرباً بالتخفيف جمع عروب وهي: المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعيل. ﴿أتراباً﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهن أيضاً كذلك. وعن رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة جرداً مرداً أبيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين»^(٤).

لَا صَحْبَ الْيَمِينِ ﴿٥١﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٢﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمَالِ مَا أَصْحَابُ الْيَمَالِ ﴿٥٤﴾

واللام في ﴿أصحاب اليمين﴾ من صلة أنشأنا وجعلنا.

فِي سُورٍ وَبِمِيزٍ ﴿٥٥﴾

﴿في سموم﴾ في حر نار ينفذ في المسام ﴿وحميم﴾ وماء حار متناه في الحرارة.

= (رقم: 241).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في سنن أهل الجنة (الحديث رقم: 2545)، وأخرجه أحمد في المسند (343/2).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل ص 117، باب: مزاحه ﷺ (الحديث) = (٥) سورة الانعام، الآية: 148.

(١) سورة يس، الآية: 56.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3296).

ذكر الثاني على تأويل الزقوم لأنه تفسيرها وهي في معناه.

فَالَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا (٥٦) فَتَرْوُونَ عَلَيْهِمِ الْهَيْمَ (٥٧) فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ (٥٨).

﴿شرب الهيم﴾ قرئ: بالحركات الثلاث فالفتح والضم مصدران. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أيام أكل وشرب، بفتح الشين. وأما المكسورة فبمعنى المشروب. أي: ما يشربه الهيم، وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء تشرب منه فلا تروى جمع أهيم وهيماء. قال نو الرمة:

فأصبحت كالهيما لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيماها

وقيل: الهيم الرمال، ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو: الرمل الذي لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض. والمعنى: أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا **﴿ملؤوا منه البطون﴾** يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم.

فإن قلنا: كيف صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لنوات متفقة وصفتان متفتتان فكان عطفاً للشيء على نفسه؟ قلنا: ليستا بمتفتتين من حيث إن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً فكانتا صفتين مختلفتين.

هَذَا تَرْوُونَ يَوْمَ الْيَوْمِ (٥٩).

النزل: الرزق الذي بعد للنازل تركة له وفيه تهكم كما في قوله تعالى: **﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾** (١) وكقول أبي الشعر الضبي:

وكنا إذا الجبار بالحيش ضافنا جعلنا القنا والمرفات له نزلا

وقرئ: **﴿نزلهم﴾** بالتخفيف.

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تَسْتَدِينُونَ (٦٠).

﴿فلولا تصدقون﴾ تحضيض على التصديق إما بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكانهم مكذبون به. وإما بالبعث؛ لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٦١).

﴿ما تمنون﴾ ما تمنونه. أي: تقنقونه في الأرحام من النطف. وقرأ أبو السمال بفتح التاء. يقال: أمني النطفة ومناها. قال الله تعالى: **﴿من نطفة إذا تمنى﴾** (٢).

أَنزَلْنَاهُ فَنُفِثْنَاهُ ثُمَّ نَحْنُ مُخْلِقُونَ (٦٢).

﴿تخلقونه﴾ تقدرونه وتصورونه.

نَحْنُ قَدَرْنَا يَتَنَزَّلُ الْمَوْتَ وَمَا عَنْهُمْ مَسِيرُونَ (٦٣) عَلَّ أَنْ يُبُولَ آمَنَّاكُمْ وَنُلَيْسَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٤).

﴿قدرنا بينكم الموت﴾ تقديرًا وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا، فاختلقت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط. وقرئ: **﴿قدرنا﴾** بالتخفيف. سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه. فمعنى قوله:

﴿وما نحن بمسبوقين﴾ على أن تبدل أمثالككم؛ إنا قادرون على ذلك لا تغلبونا عليه وأمثالككم جمع مثل أي: على أن تبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق وعلى أن **﴿وننشئكم﴾** في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنا نقرر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعانتكم. ويجوز أن يكون أمثالككم جمع مثل أي: على أن تبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم وننشئكم في صفات لا تعلمونها.

وَلَقَدْ عَهِتُ الْأَنْبَاءُ الْأُولَىٰ أَن يُذَكَّرُونَ (٦٥).

قرئ: النشأة والنشأة وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جعلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٦).

﴿أفرايتم ما تحرثون﴾ من الطعام أي: تبنون حبه وتعملون في أرضه.

أَنزَلْنَاهُ رَزَقًا وَهَؤُلَاءِ كَالْحَارِثُونَ (٦٧).

﴿أنتم تزرعون﴾ تنبتونه وتربونه نباتاً يرف وينمي إلى أن يبلغ الغاية. وعن رسول الله ﷺ: «لا يقول أحدكم زرع وليل حرث».

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَلا تَعْلَمُونَ (٦٨).

قال أبو هريرة: أرايتم إلى قوله: أفرايتم الآية والحطام، من حطم كالفتات والجذات من فت وجذ وهو ما صار هشيماً وتحطم **﴿فظللتهم﴾** وقرئ: بالكسر وفضلتم على الأصل **﴿تفكهنون﴾** تعجبون. وعن الحسن رضي الله عنه: تندمون على تعبك فيه وإنفاقكم عليه أو على ما اقترفت من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها. وقرئ: تفكهنون، ومنه الحديث: «مثل العالم كمثل الحمة ياتيها البعداء ويتركها القرباء فيينا هم إذ غار ماؤها فانتنع بها قوله: وبقي قوم يتفكهنون أي: يتندمون».

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٩) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٧٠).

﴿إننا لمغرمون﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون

﴿تُورُونَ﴾ تقبحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعورين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى: الزند والأسفل: الزنده، شبهوهما بالفحل والطرقة.

﴿أَنْتُمْ أَنْتُمْ سَجَرًا أَمْ عَنْ أَلْمُتَشُونَ﴾ (٧٦).

﴿شَجَرَتِهَا﴾ التي منها الزناد.

﴿عَنْ جَمَلَتِهَا تَذَكُّرًا وَمَتَمًّا لِلْمُتَوِينَ﴾ (٧٧).

﴿تَذَكُّرًا﴾ تنكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعایش كلها وعمماً بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به، أو جعلناها تذكرة وأنموذجاً من جهنم لما روي عن رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» (١). ﴿وَمَتَمًّا﴾ ومنفعة ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ للذين ينزلون القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم أو مزادهم من الطعام، يقال: أقويت من أيام. أي: لم أكل شيئاً.

﴿سَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٨).

﴿سَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك، أراد بالاسم: الذكر. أي: بذكر ربك و ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة المضاف أو للمضاف إليه. والمعنى: أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عباده قال: فأحدث التسبيح، وهو أن يقول: سبحان الله إما تنزيهاً له عما يقول الظالمون الذين يجدون وحدانيته ويكفرون نعمته، وإما تعجباً من أمرهم في غمط آلائه وآيابه الظاهرة، وإما شكراً لله على النعم التي عدها ونبه عليها.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْجِعِ الْجُبُورِ﴾ (٧٩) وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لَوْ تَكُونُ

عَظِيمٌ (٨٠)

﴿فَلَا أَقْسَمُ﴾ معناه فأقسم ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله: لئلا يعلم أهل الكتاب. وقرأ الحسن: فلا أقسم، ومعناه: فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي: أنا أقسم. كقولك: لزيد منطلق ثم حذف المبتدأ، ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين: أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة والإخلاق بها ضعيف قبيح، والثاني: أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال. ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها. ولعل الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لانه وقت قيام المتجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم. فلذلك

لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك.

﴿يَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارفون محذونون لا حظ لنا ولا بخت لنا ولو كنا مجبدين لما جرى علينا هذا. وقرئ: أئنا.

﴿أَوَّيْتَهُ الْمَاءَ أَلَيْسَ تَشْرَبُونَ﴾ (٨١) ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٨٢).

﴿الماء الذي تشربون﴾ يريد: الماء العذب الصالح للشرب و ﴿الْمُزْنِ﴾ السحاب، الواحدة: مزنة. وقيل: هو السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب ماء.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٨٣).

﴿أُجَاجًا﴾ ملحاً زعاقاً لا يقدر على شربه.

فإن قلنا: لم أدخلت اللام على جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله: لجعلناه حطاماً ونزعت منه ههنا! قلنا: إن لو لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتها بالاولى تعلق الجزء بالشرط ولم تكن مخصصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيت هذه اللام لتكون علماً على ذلك فإذا حذف بعد ما صارت علماً مشهوراً مكانه فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مالوفاً ومأنوساً به لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناءً بمعرفة السامع. ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤية أنه كان يقول: خير لمن قال له: كيف أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه وتساوى حالي حنقه وإثباته لشهرة أمره، وناهيك بقول أوس:

حتى إذا الكلاب قال لها كالأيوم مطلوبوا ولا طلبا
وحنقه لم أر فإن حنقها اختصار لفظي وهي ثابتة في المعنى فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما على أن تقدم نكرها والمسافة قصيرة مغن عن نكرها ثانية ونائب عنه. ويجوز أن يقال إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد يفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعد أن تطعمه، ولو عكست قدعت تحت قول أبي العلاء:

إذا سقيت ضيوف الناس محضاً سقوا ضيافهم شيماً زلاً
وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

﴿أَوَّيْتَهُ أَنْتَارَ أَلَيْسَ يُورُونَ﴾ (٨٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وإنها مخلوقة (الحديث رقم: 3265) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (الحديث رقم: 30 - 2843).

اقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله:

﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أو أراد بمواقعها: منازلها ومسائرهما وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف. وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراض؛ في اعتراض لانه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه⁽¹⁾. وهو قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُكَ كَرِيمٌ (٧٧).

﴿إنه لقرآن كريم﴾ واعترض لو تعلمون بين الموصوف وصفته وقيل: مواقع النجوم أوقات وقوع نجوم القرآن. أي: أوقات نزولها كريم حسن مرضي في جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع أو كريم على الله. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨).

﴿في كتاب مكنون﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩).

وهم المطهرون من جميع الاناس اناس الذنوب وما سواها. إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمس إلا من هو على الطهارة من الناس، يعني: مس المكنوت منه، ومن الناس من حملة على القراءة أيضاً. وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا وهو طاهر. وعن ابن عباس في رواية: أنه كان يبيع القراءة للجنب. ونحوه قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»⁽²⁾. أي: لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه. وقرئ: المتطهرون والمطهرون بالإدغام، ﴿والمطهرون﴾ من أظهره بمعنى: طهره. والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحي الذي ينزلونه. تَنْزِيلَ مِنْ رَبِّكَ الْكَرِيمِ (٨٠).

﴿تنزيل﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: منزل من رب العالمين، أو وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجومًا من بين سائر كتب الله تعالى فكانه في نفسه تنزيل ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل، أو هو تنزيل على حذف المبتدأ وقرئ: تنزيلًا على نزل تنزيلًا.

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ (٨١).

﴿أفبهذا الحديث﴾ يعني: القرآن ﴿أنتم مذهبون﴾ أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا

يتصلب فيه تهوّنًا به.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ (٨٢).

﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ على حذف المضاف يعني: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب أي: وضعت التكذيب موضع الشكر، وقرأ علي رضي الله عنه: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، والمعنى: وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به. وقيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها والرزق المطر يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونوه إلى النجوم. وقرئ: تكذبون وهو قولهم: في القرآن شعر وسحر وافتراء، وفي المطر هو من الأنواء ولأن كل مكذب بالحق كاذب.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْأُمُورُ (٨٣) وَأَنْتَ جَبِلٌ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَكَأَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ لَا يُبْصَرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَزَّزَيْنِ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧).

ترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مبينين، و﴿فلولا﴾ الثانية مكررة للتوكيد والضمير في ﴿ترجعونها﴾ للنفس وهي الروح وفي ﴿أقرب﴾ إليه للمحضر.

﴿غير مبينين﴾ غير مريبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت. والمعنى: إنكم في جحوبكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابًا معجزًا قلتم سحر وافتراء، وإن أرسل إليكم رسولا قلتم ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرًا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد.

فَلَا إِنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٨٨).

﴿فأما إن كان﴾ المتوفى ﴿من المقربين﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة.

فَرَحٌ وَرَحْمَةٌ وَجَنَّتْ زَيْبُ (٨٩).

﴿فروح﴾ فله استراحة. وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ فروح بالضم⁽³⁾. وقرأ به الحسن وقال: ﴿الروح﴾ الرحمة؛ لأنها كالحياء للمرحوم⁽⁴⁾. وقيل: البقاء. أي: فهذا له معًا وهو الخلود مع الرزق

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 2938).

(4) أخرجه عبد بن حميد (راجع الدر المنثور 166/6) وأخرجه الزيلعي 411/3.

(1) قال أحمد: وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسباً للمقسم، مثل قوله: ﴿حم والكتاب المبين﴾ إنا جعلناه قرآنًا عريباً ومن واهيه وثناياك أنها أغريض كما تقدم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 58 - 2580).

والنعيم، والريحان: الرزق.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْمَحَ الَّذِينَ يَفْتَنُكَ اللَّهُ فَنَسَ لَكَ مِنْ أَعْمَحَ الَّذِينَ
(١١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (١٢).

﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليك. كقوله تعالى: ﴿إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾.

فَنَزَلَ مِنْ جَبَرٍ (١٣) وَنَصِيحَةٍ جَبَرٍ (١٤).

﴿فنزل من حميم﴾ كقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وقرئ: بالتخفيف ﴿وتصلية جحيم﴾ قرئت بالرفع والجر عطفًا على ﴿نزل﴾ و﴿حميم﴾.

إِنَّ هَذَا لَهُمْ حَقُّ الْيَمِينِ (١٥) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (١٦).

﴿إن هذا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الحق الثابت من اليقين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحديد مكية

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١).

جاء في بعض الفواتح سَبِّحَ على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع. وكل واحد منهما معناه: أن من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيره ودينه. وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: ﴿وتسبحون﴾ (٢) وأصله التعدى بنفسه؛ لأن معنى سبحته بعثته عن السوء، منقول من سبج: إذا ذهب وبعد. فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ ﴿سبح الله﴾ أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً.

﴿ما في السموات والأرض﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح.

لَمْ تَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِشَيْءٍ قَدِيرٌ (٢).

فإن قلنا: ما محل ﴿يحيي﴾؟ قلنا: يجوز أن لا يكون له محل ويكون جملة برأسها.

كقوله: ﴿له ملك السموات﴾ وإن يكون مرفوعاً على هو يحيي ويميت ومنصوباً حالاً من المجرور في له والجار عاملاً فيها. ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء.

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمَا مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَمْ تَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ تَرْبَعُ أَمْوَرٌ (٥) يُؤْتِي الْكَلِمَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِي الْكَلِمَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا تُدَارِكُ السُّجُودَ (٦).

﴿هو الأول﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء و﴿الآخر﴾ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء و﴿الظاهر﴾ بالآلة الدالة عليه و﴿الباطن﴾ لكونه غير مدرك بالحواس.

فإن قلنا: فما معنى الواو؟ قلنا: الواو الأولى معناها الدالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالآلة والخفاء فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. وقيل: ﴿الظاهر﴾ العالي على كل شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه، و﴿الباطن﴾ الذي بطن كل شيء أي: علم باطنه وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَلَخِينَ بِهِ فَاذْكُرُوا أَنفُسَكُمْ وَأَنفِقُوا ثُمَّ أَنتُمْ كَارِهِونَ (٧).

﴿مستخلفين فيه﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخلوكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب. فأنفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أنن له فيه، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به وأنفقوا بالانفاق منها أنفسكم.

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُرُكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَنَّكُمْ يَشْفَعُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨).

﴿لا تؤمنون﴾ حال من معنى الفعل في ما لكم كما تقول مالك قائماً بمعنى ما تصنع قائماً؟ أي: وما لكم كافرين بالله. والواو في ﴿والرسول يدعوكم﴾ واو الحال فهما حالان متداخلتان. وقرئ: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم﴾ والمعنى: وای عذر لكم في

(2) سورة الفتح، الآية: 9.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تعظيم القرآن فضل في فضائل السور والآيات (الحديث رقم: 2498).

مَنْ ذَا الَّذِي يَرْفُضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُكُمْ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَوًى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ يُضْرَكُونَ أَلَيْسَ
بِجَنَّتٍ بُجِّرَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾.

القرض الحسن: الإنفاق في سبيله شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكانه أقرضه إياه ﴿فِيضَاعُفَهُ لَهُ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿أَضْعَافًا﴾ من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه. وقرئ: فيضعفه وقرئنا منصوبين على جواب الاستفهام والرفع عطف على يقرض أو على فهو يضاعفه.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو منصوب بإضمار انكر تعظيماً لذلك اليوم. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحافتهم البيض اقلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور جنباً لهم ومتقدماً. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ وقرئ: ذلك الفوز.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا فَقَالُوا نَارُكُمْ
قِيلَ ارْجِعُوا وَارْجِعُوا فَالْتَمَسُوا نَوْراً فَنُصِرَ بِهِمْ وَسُورَ لَهُمْ بَابٌ بَاطِلٌ فِيهِ الرِّجْمَةُ
وَلَقَدْ أُحْضِرُوا مِنْ وَكَيْهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿انظُرُونَا﴾ انتظرونا؛ لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطفة على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة. أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: انظرونا من النظرة وهي الإسهال. جعل اتئادهم في المضى إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم. ﴿فَنُصِرَ بِهِمْ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنبهوا به. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَارْجِعُوا فَالْتَمَسُوا نَوْراً﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين وتحنوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم

ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهمكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج. وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان حيث ركب فيكم العقول^(١) ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وإزاح غلكم فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْنَئِي لِحُجْرَتِكَ مِنْ أَنْ ظُلُمْتَ إِيَّاهُ وَبَرَّ أَلَمُ اللَّهِ بِكُورُوتٍ رِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿ليخرجكم﴾ الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان أو ليخرجكم الرسول بدعوته. ﴿لِرُءُوفٍ﴾ وقرئ: لرؤوف.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُؤْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُورُشَلِيمَ أَكْثَرَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَنْفِقَاءِ مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَأَنَّ اللَّهَ الْحَسْبُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥﴾.

﴿وما لكم لا تنفقوا﴾ في أن لا تنفقوا ﴿وشه ميراث السموات والأرض﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باقٍ لأحد من مال وغيره. يعني: وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله، والله مهلككم فوارث أموالكم وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ﴾ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في بين الله أقواجا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢) ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وقرئ: قبل الفتح ﴿وَكُلًّا﴾ وكل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي: الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرئ: بالرفع على وكل وعده الله. وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (الحديث رقم: 3673)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (الحديث رقم: 222 - 2541)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 4658)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل من بايع تحت الشجرة (الحديث رقم: 3861)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أهل بدر (الحديث رقم: 161).

(1) قال أحمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالى: ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ولقد يربيني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً ووقوعها بالسمع قطعاً إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخيلاً، فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضر ما يومي إليه، أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره، والله الموفق.

القرآن، وعن الحسن رضي الله عنه: أما والله لقد استبطنهم وهم يقرؤون من القرآن أقل مما تقرأون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق. وعن أبي بكر رضي الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ: نزل وأنزل وأنزل ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ عطف على تخشع. وقرئ: بالتاء على الالتفات، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره.

فإن قلنت: ما معنى لنكر الله وما نزل من الحق؟ قلنت: يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن؛ لأنه جامع للامرين للذكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء وإن يراد خشوعها إذا نكر الله وإذا تلى القرآن بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَانَتْهُمْ إِيمَانًا﴾⁽³⁾ أراد بالآمد الأجل كقوله: إذا انتهى أمده. وقرئ: الأمد أي: الوقت الأطول. وكثير منهم فاسقون خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَمَلَكُمْ تَقُولُونَ ﴿٧﴾

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ قيل: هذا تمثيل لأثر النكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ قَرَّةً حَسْبًا يَصْنَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾

﴿المصدقين﴾ المتصدقين وقرئ: على الأصل والمصدقين من صلوق، وهم الذين صدقوا الله ورسوله، يعني: المؤمنين.

فإن قلنت: علام عطف قوله: ﴿واقترضوا﴾؟ قلنت: على معنى الفعل في المصدقين؛ لأن اللام بمعنى: الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كانه قيل: إن الذين اصدقوا واقترضوا، والقرض الحسن أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُصْدِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وإنما هو تخيير وإقناط لهم. ﴿فضرب بينهم بسور﴾ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. قيل: هو الأعراف لذلك السور ﴿باب﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بباطنه﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿وظاهره﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿من قبله﴾ من عنده ومن جهته ﴿العذاب﴾ وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: فضرب بينهم على البناء للفاعل.

يَا دُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرْتَمَتُمْ وَارْتَمَتْكُمْ الْأُمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿٩﴾

﴿الم نكن معكم﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر ﴿فتنتم أنفسكم﴾ محنتموها بالنفق وأهلكتموها ﴿وترتمتم﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وغرتمكم الأمان﴾ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وهو الموت ﴿وغرتمكم بالله الغرور﴾ وغرکم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: الغرور بالضم.

قَالِيمٌ لَا يُوْعَدُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ أَنْثَارٌ مِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴿١٠﴾

﴿فدية﴾ ما يفتدى به ﴿هي مولاكم﴾ قيل: هي أولى بكم وأنشد قول لبيد:

فغنت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وإمامها

وحقيقة مولاكم محارمكم ومقمنكم أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم. كما قيل: هو مثنة للكرم، أي: مكان لقول القائل إنه لكريم. ويجوز أن يراد هي ناصركم أي: لا ناصر لكم غيرها، والمراد: نفى الناصر على البنات. ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: ﴿يَغَاثُوا بِمَاءِ كَأْمَلٍ﴾⁽¹⁾ وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَمِهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَفَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَفُتِنُوا ﴿١١﴾

﴿الم يان﴾ من أنى الأمر يائي إذا جاء إياه أي: وقته. وقرئ: ألم يثن، من أن يثين بمعنى: أنى يائي المأ يان قيل: كانوا مجبيين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت. وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين⁽²⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشر من نزول

(3) سورة الأنفال، الآية: 2.

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿الم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ (الحديث رقم: 24 رقم 3027 -).

المصيبة في الأرض نحو الجذب وآفات الزروع والثمار وفي الأنفس نحو الأدواء والموت.

﴿في كتاب﴾ في اللوح ﴿من قبل أن نبرأها﴾ يعني: الأنفس أو المصائب ﴿إنَّ ذلك﴾ إنَّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿على الله يسير﴾ وإن كان عسيراً على العباد ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال:

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾.

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا﴾ يعني: انكم إذا علمتم أنَّ كل شيء مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي؛ لأنَّ من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاجم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنَّ بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله. ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ لأنَّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه اختال واقتخر به وتكبر على الناس. قرئ: بما آتاكم وآتاكم من الإيتاء والإتيان. وفي قراءة ابن مسعود: بما أوتيتم.

فإنَّ قُلْتُ: فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح! قُلْتُ: المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر. فاما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

﴿الذين يبخلون﴾ بدل من قوله: ﴿كل مختال فخور﴾ كانه قال: لا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمة في عيونهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطهرهم عند إصابته. ﴿ومن يتول﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإنَّ الله غني عنه. وقرئ: بالبخل. وقرأ نافع: فإنَّ الله الغني، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالزِّبْرَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۚ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ رُسُلَهُ ۚ الْكُفِيُّ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾.

﴿لقد أرسلنا رسلنا﴾ يعني: الملائكة إلى الأنبياء ﴿بالبينات﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وأنزلنا معهم

لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٦﴾.

وقرئ: يضعف ويضعاف بكسر العين أي: يضاعف الله يريد: أنَّ المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله. ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي: مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم.

فإنَّ قُلْتُ: كيف يسوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت؟ قُلْتُ: المعنى أنَّ الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضلهم حتى يساوي أجرهم مع إضعافه أجر أولئك. ويجوز أن يكون والشهداء مبتدأ ولهم أجرهم خبره.

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْغَنَاءُ الدُّنْيَا لَبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافٌ فِي الْأُمُورِ ۚ وَالَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ الْكُفَّارِ نَابَهُمْ ثُمَّ يَبْسُجُ مَقَرُّهُ مُضْمَرٌ ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۚ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَقَرُّهُ يَنْ أَلَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْغَنَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٧﴾.

أراد أنَّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي للعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله. وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل، وأعجب به الكفار الجاحون لتعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين وقيل: الكفار الزراع. وقرئ: مصفراً.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَقَرِّ رَبِّكُمْ وَرَجَعُوا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٩﴾.

﴿سابقوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار إلى جنة ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين. ونكر العرض دون الطول؛ لأنَّ كل ماله عرض وطول فإنَّ عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أنَّ طوله أبسط وأمد. ويجوز أن يراد بالعرض البسطة كقوله تعالى: ﴿ففدو دعاء عريض﴾^(١) لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة. ﴿ذلك﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فضل الله﴾ عطاؤه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ وهم المؤمنين

فعالة. أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه في صفة أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم. والرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة. وذلك أَنَّ الجبابة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان⁽³⁾ وهو الخائف. فعلم أن رهب كخشيان من خشى. وقرئ: رهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان. وانتصابها بفعل مضمّر⁽⁴⁾ يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية «ابتدعوها» يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونزروها. «ما كتبناها عليهم» لم نفرضها نحن عليهم «إلا ابتغاء رضوان الله» استثناء منقطع أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله «فما رعوها حق رعايتها» كما يجب على الناصر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه. «فأتينا الذين آمنوا» يريد: أهل الرحمة والرافة الذين اتبعوا عيسى «وكثير منهم فاسقون» الذين لم يحافظوا على نذرهم ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحدثنا ما كتبناها عليهم إلا ليعتقوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب. على أنه كتبها عليهم والزعماء إياهم ليتخلصوا من الفتنة ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم. فأتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجهرهم وكثير منهم فاسقون، وهم الذين لم يراعوها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَمْفِزْكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٨)

«يا أيها الذين آمنوا» يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم فإن كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا

للكتاب أي: الوحي «والميزان» روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنون به «وانزلنا الحديد» قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان والكلبتان والمبقة والمطرقة والإبرة. وروي: ومعه المِرْ والمسحاة. وعن النبي ﷺ: «أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح»⁽¹⁾. وعن الحسن: وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى: «وانزل لكم من الأنعام»⁽²⁾ وذلك أَنَّ أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه «فيه بأس شديد» وهو القتال به «ومنافع للناس» في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد. «وليعلم الله من ينصره ورسله» باستعمال السيوف والرمح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. «بالغيب» غائباً عنهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه «إن الله قوي عزيز» غني بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلّفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٦٩)

«وَالْكِتَاب» والوحي وعن ابن عباس: الخط بالقلم يقال: كتب كتاباً وكتابة. «فمنهم» فمن النرية أو من المرسل إليهم. وقد دل عليهم نكر الإرسال والمرسلين وهذا تفصيل لحالهم. أي: فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُؤُسِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٧٠)

قرأ الحسن: الانجيل بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر الليوطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء؛ لأن الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ: رافة على

(1) أخرجه الثعلبي وهو في القرونوس. وأخرجه الزليفي 418/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 6.

(3) قال أحمد: وفيه إشكال، فإن النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفردة، إلا أن يقال: إنه لما صار للرهبان طائفة مخصوصة، صار هذا الاسم، وإن كان جمعاً كلعلم لهم فلحق بإنصاري ومدائني وأعرابي.

(4) قال أحمد: في إعراب هذه الآية تورط أبو علي الفارسي، وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمّر يفسره الظاهر وعلل امتناع العطف، فقال: ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا مع وصفها بقوله: ابتدعوها؛ لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونهم هم، والزمخشري ورد أيضاً مورد التميم وأسلمه شيطانه الرجيم، فلما أجاز ما =

= منعه أبو علي من جعلها معطوفة أعذر لذلك، بتحريف الجعل إلى التوفيق قراراً مما قرأه من أبي علي من اعتقاد أن تلك مخلوق لله تعالى وجنوحاً إلى الإشراك، واعتقاد أن ما يفعلونه هو لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقده، فإنه ذكر محل الرحمة والرافة مع العلم بأن محلها القلب، فجعل قوله: «في قلوب الذين اتبعوه» تأكيداً لخلقه هذه المعاني، وتصويراً لمعنى الخلق بنكر محله، ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعموا، لم يبق لقوله: «في قلوب الذين اتبعوه» موقع، ويأبى الله أن يشتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له، ألهمنا الحجة وأنهج بنا واضح المحجة، إنه ولي التوفيق وواهب التحقيق.

(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيعلي 423/3.

عدداً لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبه لم يبالوا به لضرارتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ مَا فِي السَّحَابِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَسْرَةَ إِلَّا هُوَ سَائِمُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُلْقِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ما يكون﴾ من كان التامة. وقرئ: بالياء والياء والياء على أنَّ النجوى ثانيها غير حقيقي ومن فاصلة أو على أنَّ المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة أي: من نجوى ثلاثة نفر أو موصوفة بها أي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى: ﴿خلصوا نجياً﴾^(١) وقرأ ابن أبي عيلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأنَّ نجوى يدل عليه أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قلَّت: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قلَّت: فيه وجهان أحدهما: أنَّ قومًا من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايبة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ﴿ولا أنى من﴾ عندهم ﴿ولا أكثر إلا﴾ والله معهم يسمع ما يقولون. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أترى أنَّ الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله. وصدق؛ لأنَّ من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأن كونه عالمًا بغير سبب ثابت له مع كل معلوم. والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالفين للشورى والمندوبين لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتابة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي التجارب وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فنكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ولا أنى من ذلك فدل على الاثنين والأربعة. وقال: ولا أكثر فدل على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا. وقرئ: ﴿ولا أنى من ذلك ولا أكثر﴾ بالنصب على أن لا لنفي الجنس، ويجوز أن يكون ﴿ولا أكثر﴾ بالرفع

فإن قلَّت: فإن اعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس قلَّت: عليه أن يستأنف نهار أمس أو ليلاً ناسياً أو عامداً عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف. ومحمد عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المس يفسد الصوم استقبل وإلا بنى.

فإن قلَّت: كم يعطي المسكين في الإطعام؟ قلَّت: نصف صاع من برٍّ أو صاعاً من غيره. عند أبي حنيفة وعند الشافعي مداً من طعام بلده الذي يقات فيه.

فإن قلَّت: ما بال التماس لم ينكر عند الكفارة بالإطعام كما نكر عند الكفارتين! قلَّت: اختلف في ذلك فعند أبي حنيفة أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك نكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله وعند غيره لم ينكر للدلالة على أن التكفير قبله ويعدّه سواء.

فإن قلَّت: الضمير في أن يتمسك بالإم يرجع؟ قلَّت: إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها.

﴿ذلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصبقوا ﴿بإياه ورسوله﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم. ﴿وتلك حدود الله﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿وللكافرين﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿عذاب اليم﴾.

مَنْ لَمْ يَحْذَرِ فَإِنَّهُ يَسْتَأْذِنُ مِمَّنْ بَيْنَ أَيْمَانَةٍ مِّنْ لَّدُنَّ يَسْطِطُ عَلَىٰ طَعَامِ سِتِّينَ سَنَةً ذَلِكَ لِتُؤْمَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْيُسُفُوفَ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾

﴿يحادون﴾ يعاونون ويشاقون ﴿كبتوا﴾ اخنوا واهلكوا ﴿كما كبت﴾ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وللكافرين﴾ بهذه الآيات ﴿عذاب مهين﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنْفِثُهُمْ فِي مَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَرَوَّهُ وَآلَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠﴾

﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم أو بمهين أو بإضمار أنكر تعظيماً لليوم ﴿جميعاً﴾ كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول حي جميع ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أحصاه الله﴾ أحاط به

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ النَّبِطَيْنِ يَخُتِرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾

﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بليل قوله تعالى: ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم فكانها منه ليغيب الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿ببصارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾.

فإن قلت: كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا. فقال: لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله أي: بمشيئته. وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن وليحزن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعُّوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْحَرُوا بِسَجِّ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْآيَةَ دَرَجَةً وَاللَّهُ يَسْمَعُ سَوَاقِيتَكُمْ ﴿١٧﴾

﴿تفسحوا في المجالس﴾ توسعوا فيه، وليفسح بعضهم عن بعض. من قولهم: أفسح عني أي: تنح. ولا تتضاموا. وقرئ: تفاسحوا. والمراد: مجلس رسول الله وكانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: مقاعد للقتال. وقرئ: في المجالس قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ: في المجلس بفتح اللام وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿يفسح الله لكم﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك. ﴿انفشروا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا. ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة⁽³⁾ ﴿درجات﴾. ﴿بما تعملون﴾ قرئ: بالتاء والياء. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قراها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد

معطوفاً على محل ﴿لا﴾ مع ﴿اننى﴾ كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة، ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل من نجوى كأنه قيل: ما يكون أننى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفاً على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أننى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر بالياء ومعنى كونه معهم أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه فكانه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم ينبتهم على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَا عَنْهُ وَيَنْتَحِرُونَ بِالْآثِرِ وَالْمُنُونِ وَمَعَصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ بَسُورَةً فِئْتَنَ الْمَصِيرِ ﴿١٨﴾

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعيانهم إذا راوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم. فنهاهم رسول الله ﷺ فعاثوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعنوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعنوان بكسر العين ومعصيات الرسول.

﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ يعني: أنهم يقولون: في تحيكت السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾⁽¹⁾ ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ما له إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول. فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ عذاباً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْآثِرِ وَالْمُنُونِ وَمَعَصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْإِثْرِ وَالْقَوَى وَأَتُوا اللَّهَ الْبَرَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بالسنتهم ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيهم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والقوى﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجأ اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه». وروي: «دون الثالث»⁽²⁾. وقرئ: فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا تنجيتم فلا تنتجوا.

(1) سورة النحل، الآية: 59.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (الحديث رقم: 6290) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (الحديث رقم: 37 - 2184).

(3) قال أحمد: في الجزء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل؛ لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان =

= الرفع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جوزي على تواضعه برفع الدرجات، كقوله: من تواضع لله رفعه الله، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزء، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله تعالى.

بعدها. وقيل: هي منسوخة بالزكاة.

«أَتَشْفَقُونَ أَنْ تَمُوتُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبْرَتِكُمْ سَدَقْتُ فَإِذَا لَمْ تَعْمَلُوا وَتَأْتِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَاوُا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (١٧).

«الشفقة» اخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأن الشيطان يعذبكم الفقر ويأمركم بالفحشاء «فإذا لم تفعلوا» ما أمرتم به وشق عليكم و «تأبى الله عليكم» وعزركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه. فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات «بما تعملون» قرئ بالياء والياء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْلًا عَصَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٨).

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: «من لعنه الله وغضب الله» (١٠) ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين «وما هم منكم» يا مسلمون «ولا منهم» ولا من اليهود كقوله تعالى: «من يذب بينك وبين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» (١١) «ويحلفون على الكذب» أي: يقولون والله إنا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام. «وهم يعلمون» أن المحلف عليه كذب بحت.

فإن قلنا: فما فائدة قولهم وهم يعلمون؟ قلنا: الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم. فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغفوس، وقيل: «كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان»، فدخل ابن نبتل وكان أزيق. فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني اثنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل. فقال عليه السلام: «فعلت». فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه (١٢) فنزلت.

مائة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة» (١). وعنه عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (٢). وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» (٣) فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: «خير سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه» (٤). وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» (٥). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم، وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبير: العلم نكر فلا يحبه إلا نكورة الرجال.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَزَّيْتُمْ أَنْزِلُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبْرَتِكُمْ سَدَقْتُ لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْرَهُ فَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧).

«بين يدي نجواكم» استعارة ممن له يدان. والمعنى: قبل نجواكم. كقول عمر: «من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللثيم» (٦) يريد: قبل حاجته «تلكم» التقييم «خير لكم» في بينكم «وأطهر» لأن الصدقة طهرة. روي «أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ بما يريدن حتى أملاه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدم قبل مناجاته صدقة. قال علي رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «كم قلت حبة أو شعيرة». قال: إنك لزميد. فلما راوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا وكفوا، أما الفقير فلعسرته، وأما الغني فلشحه» (٧). وقيل: كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي رضي الله عنه: «إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فصرفته فكننت إذا ناجيته تصدقت ب درهم» (٨). قال الكلبي: «تصلق به في عشر كلمات سألهم رسول الله ﷺ» (٩). وعن ابن عمر: كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهز كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطائه الراية يوم خيبر، وآية النجوى، قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي

(٥) رواه ابن عبد البر في كتاب: العلم من غير سند. والزليعي 429/3.

(٦) لم يخرج الزليعي.

(٧) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، ومن سورة المجادلة (الحديث رقم: 3300)، وابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6941).

(٨) رواه الحاكم في المستدرک 482/2.

(٩) قال الزليعي لم أجده 431/3.

(١٠) سورة المائدة، الآية: 60.

(١١) سورة النساء، الآية: 143.

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک 482/2 وأحمد في المسند 267/1.

(١) أخرجه أبو يعلى بلفظ فضل العالم على العابد سبعين درجة (الحديث رقم: 856).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث من طلب العلم (الحديث رقم: 223)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم (الحديث رقم: 3641)، وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الله على العبادة (الحديث رقم: 2682).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: نكر الشفاعة (الحديث رقم: 4313)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طلب العلم فصل في فضل العلم وشره (الحديث رقم: 1707).

(٤) مسند الفردوس.

يعني: أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة.

أَتَحَرَّوْا عَلَيْهِمُ الْكَيْفَ فَنَسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ أَلَّا يَنْفَعُوا اللَّهَ إِنَّ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ (٨).

﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إذا جمعها وساقها غالباً لها، ومنه كان أحوذياً نسيج وحده وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق أي: ملكهم ﴿الشيطان﴾ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه. ﴿فانساهم﴾ أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بالسننهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّوْا اللَّهَ رُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْآلَافِينَ (٩).

﴿في الآلئين﴾ في جملة من هو أدل خلق الله لا ترى أحداً أدل منهم.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (١٠).

﴿كتب الله﴾ في اللوح ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ بالحنة والسيف أو بأحدهما.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَمِلَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١١).

﴿لا تجد قوماً﴾ من باب التخجيل خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملايسته والتوضيعة بالتصلب في مجانية أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ ويقول: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاودة أعدائه بل هو الإخلاص بعبئته ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أثبتة فيها بما وفقهم فيه وشرح له صبورهم ﴿وأيدهم بروح منه﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢).

﴿عذاباً شديداً﴾ نوعاً من العذاب مفقماً ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعني: أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاوّل على سوء العمل مصرين عليه أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

أَتَعَذَّبُوا لِذُنُوبِكُمْ فَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٣).

وقرى: ﴿إيمانهم﴾ بالكسر أي: اتخذوا إيمانهم التي حلفوا بها أو إيمانهم الذي أظهره ﴿جنة﴾ أي ستره يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم.

﴿فصدوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عن سبيل الله﴾ وكانوا يبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

أَنْ تَقَىٰ عَذَابَ اللَّهِ أَتَوَلَّوْا وَلَا أُولَدُكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَاٰهِهِمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٤).

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصددهم كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب﴾ ﴿من الله﴾ من عذاب الله ﴿شبيهاً﴾ قليلاً من الاغناء. روي أن رجلاً منهم قال: لننصرن يوم القيامة بانفسنا وأموالنا وأولادنا.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْفِقُونَ لِمَا كَانُوا يَمْسِكُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٥).

﴿فيحلفون﴾ الله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا على ذلك ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وإن لهم نفعاً في ذلك نفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد نبوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون. ولكن العجب من حلفهم الله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونتهم عليه وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باقي فيهم لا يضمحل. كما قال: ولو ردوا لعابوا لما نهوا عنه. وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بشبائه نطقاً مكشوفاً كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (١) نظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، ونحو حساباتهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقبضوا من نورهم لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عن ذلك: يختم على أفواههم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾

ثلاثة أبيات على بعير ما شأوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا واذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة⁽⁵⁾.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا
ظَنُّوا أَنْ يَخْرُجُوا وَلَظَنُوا أَنَّهْمْ مَا يَمْنَهُمْ خُصُومُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّغْبُ يَخْرُجُونَ بِرُؤْسِهِمْ وَأَبْيَاسِهِمْ
وَأَكْبَادِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْيَرُوا بِأَوَّلِ الْأَنْبَسِرِ ﴿٢﴾.

اللام في ﴿أَوَّلِ﴾ الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾⁽⁶⁾ وقولك جئته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى ﴿أَوَّلِ الحشر﴾: أن هذا أول حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأن المحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أن المحشر هنا يعني الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقاتلهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم وثيقة حصونهم وكثرة عددهم وعنتهم وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فَاتَاهُمْ﴾ أمر الله ﴿مَنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمانينة بما قذف فيها من الرعب والهمم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حساباتهم ومنه اتاهم الهلاك.

فَإِنْ قُلْتَ: أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قُلْتُ: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصوير ضميرهم أسما لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطعم في معازتهم وليس ذلك في قولك:

وظنوا أن حصونهم تمنعهم

وقرى: ﴿فَاتَاهُمْ اللَّهُ﴾ أي: فاتاهم الهلاك. و﴿الرعب﴾

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قوماً»⁽¹⁾. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا تحافة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله ﷺ: «أوفعلته؟» قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته»⁽²⁾. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله ﷺ: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»⁽³⁾. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحمة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعتة في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الانصاري فقتل كعباً غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك. فقتلناهم بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ففسد عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخلنكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم. فدرّبوا على الأرقعة وحصنوها فحاصروهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند 3/438.

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا.

(1) رواه ابن مرويّه في تفسيره وفي مسند الفردوس. والزيلعي 3/432.

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 3/433.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 3/433.

(4) رواه الثعلبي وابن مرويّه والواحد في تفسيرهم 3/434.

اللين. قال ذو الرمة:

كأن قنودى فوقها عش طائر على لينة سرقاء تهفو جنوبها
وجمعها لين. وقرئ: قوماً وعلى أصلها وفيه وجهان: أنه
جمع أصل كرهن ورهن، أو اكتفى فيه بالضمّة عن الواو
وقرئ: قائماً على أصوله ذهاباً إلى لفظ ما ﴿فبإذن الله﴾
فقطعها بإذن الله وأمره ﴿وليخزي الفاسقين﴾ وليذل
اليهود ويغيظهم إن في قطعها، وذلك أن رسول الله ﷺ
حين أمر أن تقطع نخلمهم وتحرق قالوا: يا محمد قد كنت
تنتهي عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها،
فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء (2) فنزلت. يعني:
أن الله إن لم يقطعها ليزيكم غيظاً ويضاعف لكم
حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا،
ويتصرفون فيها ما شاؤوا. واتفق العلماء أن حصون الكفرة
وبيارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى
بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقطعها مثمرة كانت أو
غير مثمرة، وعن ابن مسعود: قطعوا منها ما كان موضعاً
للقاتل.

فإن قلنت: لم خصت اللينة بالقطع؟ قلنت: إن كانت من
الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من
كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق. وروي أن رجلين
كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما
رسول الله ﷺ فقال: هذا تركتها لرسول الله. وقال: هذا
قطعتها غيظاً للكفار (3). وقد استدل به على جواز الاجتهاد
وعلى جوازه بحضرة الرسول ﷺ؛ لأنهما بالاجتهاد فعلا
ذلك. واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤).

﴿أفاء الله على رسوله﴾ جعله له فيأخذ خاصة.
والإيجاف من الوجيف، وهو: السير السريع، ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات: «ليس البر
بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل على هينتكم» (4). ومعنى
﴿فما أوجفتكم عليه﴾ فما أوجفتكم على تحصيله وتغنمه
خيلاً ولا ركاباً ولا تعبت في القتال عليه وإنما مشيتم إليه
على أرجلكم. والمعنى: أن ما خول الله رسوله من أموال
بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن
سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله
على أعدائهم. فالأمر فيه مفوض إليه يضعه حيث يشاء

الخوف الذي يربع الصدر أي: يملؤه. وقذفه إثباته وركزه.
ومنه قالوا في صفة الأسد مقنف كأنما قذف باللحم قنفاً
لاكتنازه وتداخل أجزائه. وقرئ: يخربون ويخربون مثقلاً
ومخففاً والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم،
والخربة الفساد. كانوا يخربون بواطنها والمسلمون
ظواهرها لما أراد الله من استئصال شافتهم وأن لا يبقى
لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخريب
حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة،
وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائهم مساكن للمسلمين،
وأن ينقلوا معهم ما كان في أبينتهم من جيد الخشب
والساج المليلح، وأما المؤمنون فداعيتهم إزالة متحصنهم
ومتمنعهم وأن يتسع لهم مجال الحرب.

فإن قلنت: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلنت:
لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به
وكلفوهم إياه. ﴿فاعتبروا﴾ بما دبر الله ويسر من أمر
إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل: وعد
رسول الله ﷺ المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم
بغير قتال فكان كما قال يعني: أن الله قد عزم على تطهير
أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم
أموالهم.

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَمَذَّبْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ (٥) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَاقُوا اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٦).

فلولا أنه كتب ﴿عليهم الجلاء﴾ واقتضته حكمته ودعاه
إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت ﴿لعليهم في
الدنيا﴾ بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿ولهم﴾
سواء أجلا أو قتلوا ﴿عذاب النار﴾ يعني: إن نجوا من
عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

مَا قَلَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ نَضَعْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُومِهَا فَيَاذَنْ اللَّهُ
وَلِيخْزِي الْفَاسِقِينَ (٧).

﴿من لينة﴾ بيان لما قطعتم ومحل ما نصب بقطعتم
كانه قال: أي شيء قطعتم وأنث الضمير الراجع إلى ما في
قوله: ﴿أو تركتموها﴾ لأنه في معنى اللينة، واللينة النخلة
من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية
وهما أجود النخيل (1). وبأزها عن أو قلبت لكسرة ما قبلها
كالديمة وقيل: اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من

(3) قال الزيلعي غريب، وساق حديث نحوه عند البيهقي في دلائل
النوبة وآخر عند الواحدي في المغازي 3/439.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: أمر النبي ﷺ عند الإفاضة
(الحديث رقم: 1671) وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: الدفعة من
عرفة (الحديث رقم: 1920).

(1) قال أحمد: والظاهر أن الإن عام في القطع والترك؛ لأنه جواب
الشرط المضمحل لهما جميعاً، ويكون التعليل بإجزاء الفاسقين لهما
جميعاً، وأن القطع يحسرهم على ذهابها، والترك يحسرهم على
بقائها للمسلمين ينتفعون بها، فهم في حسرتين من الأمرين
جميعاً.

(2) أخرجه أبو داود في المراسيل باب: في قطع الشجر (الحديث رقم:
346).

يعني أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت. لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها.

مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا دَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحُذِرُوا وَمَا تَنْهَكُمْ عَنْهُ فَأْتُوا وَأَنْتُمْ آفَاءُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفَقْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ قَضَاءً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَنَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴿٨﴾.

بَيَّنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَصْنَعُ بِمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَضْعَهُ حَيْثُ يَضَعُ الْخُمْسَ مِنَ الْغَنَائِمِ مَقْسُومًا عَلَى الْأَقْسَامِ الْخُمْسَةِ. وَالِدُولَةُ وَالنُّوْلَةُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا مَا يَدُولُ لِلْإِنْسَانِ أَيُّ: يَدُورُ مِنَ الْجَدِّ يُقَالُ: دَالَتْ لَهُ الدُّوْلَةُ، وَأَبْدِلْ لِفُلَانٍ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ كَيْلَا يَكُونَ الْفِيءُ الَّذِي حَقُّهُ أَنْ يُعْطِيَ الْفُقَرَاءَ لِيَكُونَ لَهُمْ بَلْعَةً يَعِيشُونَ بِهَا جِدًّا بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ يَتَكَاثَرُونَ بِهِ، أَوْ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً جَاهِلِيَّةً بَيْنَهُمْ، وَمَعْنَى الدُّوْلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَنَّ الرُّؤَسَاءَ مِنْهُمْ كَانُوا يَسْتَخَارُونَ بِالْغَنِيمَةِ: لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّيَاسَةِ وَالِدُولَةُ وَالْغَلْبَةُ وَكَانُوا يَقُولُونَ: مِنْ عَزِيزٍ. وَالْمَعْنَى: كَيْلَا يَكُونَ أَخْذُهُ غَلْبَةً وَاثَرَةً جَاهِلِيَّةً،

ومنه قول الحسن: اتخنوا عباد الله خولاً ومال الله دولا يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل: الدولة ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف يعني: كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء. والدولة بالفتح بمعنى التداول أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولاً بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء. وقريء: دولة بالرفع على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان نو عسرة يعني: كيلا يقع دولة جاهلية وليتقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء. ﴿وَمَا تَأْكُمُ لِرَسُولٍ﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ﴾ عن أخذن منها ﴿فَانْتَهُوا﴾ عنه ولا تتبعه أنفسكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسوله والأجود أن يكون عاماً في كل ما أتى رسول الله ﷺ ونهى عنه

وأمر للفيء داخل في عمومه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لقي رجلاً محرماً وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: اقرأ علي في هذا آية من كتاب الله. قال: نعم فقرأها عليه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ بدل من قوله: ﴿لِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من الله والرسول (١) والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

(١) قال أحمد: مذهب أبي حنيفة: أن استحقاق نوي القربى لسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنيائهم، وقد أغلظ الشافعي رضي الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب، بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرباية، ولم يشترط الحاجة، وعدم اعتبار القرباية مضادة محاذة، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة، بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة نكرهم في خمس الفيء والغنيمة، أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم اتبع هذا العنبر بأن قال: لا ينبغي أن يعبر به، فإن صيغة الآية ناصة على الاستحقاق لهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على عظم أفسارهم، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم، فقد عطل قبحوى الآية، ثم استعظم الإمام وقع ذلك عليهم: لأنهم يذهبون إلى اشتراط الإيمان في رتبة الظهار زيادة على النص، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس: لأنه يستنتج وليس من شأنه الثبوت بالقياس، قال: فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرباية واشتراط الحاجة لقرب ما نكروه بغرض القرب، فاما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالجمعة، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه، انتهى كلام الإمام، وإنما أورثه ليعلم إن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة عن الآية، فلذلك لزمه أن تكون زيادة على النص، فاما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البديل المذكور في الآية، فإنما يسلك معه في واد غير هذا، فيقول: هو بدل من المساكين لا غير، وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم، ويحمل الأغنياء على إيثارهم،

= وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا، فلما قصد ذلك، وقد فصل بين نكرهم وبين ما يقصد من نكر صفاتهم، بقوله: ﴿كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ طري نكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبيلة منها، وهي: الفقر لتشهد النظرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر، ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك، وهي: إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين، وابتغائهم الفضل والرضوان من الله، ونصرهم الله ورسوله، وصنعهم في نياتهم إلى آخر ذلك، فهذا هو الذي يرشد إليه السياق مؤيداً بالأصل، فإن نوي القربى نكروا بصفة الإطلاق، فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد، وما نكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفي في إقامة وزن الكلام، فيبقى نوي القربى على أصل الإطلاق، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمال، يخلص بالجملة الأخيرة؛ لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقى ما تقدمهم على الأصل، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبديل، وكل ما سوى هذا مع أنه لو جعل بدلاً من نوي القربى مع ما بعده، لم يكن إبداله من نوي القربى إلا بدل بعض من كل، فإن نوي القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء، ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلاً للشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، فيلزم أن يكون هذا البديل محسوساً بالنوعين المذكورين في حالة واحدة، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين وكل منهما يتقاضى ما يبايه الآخر، فهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى، وعليه أعرب الزجاج الآية، فجعله بدلاً من المساكين خاصة، والله تعالى الموفق للصواب.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ عطف أيضاً على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد وقيل: التابعون بإحسان ﴿غلا﴾ وقرئ: غمراً وهما الحقد ﴿لاخوانهم﴾ للذين بينهم وبينهم اخوة الكفر ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَمْرًا أَبَدًا وَإِنَّ قُلُوبَهُمْ لَتَصَرَّعُونَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ولا تطيع فيكم﴾ في قتالكم أحداً من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو في خذلانكم وإخلاف ما وعيناكم من النصرة ﴿لكانبون﴾ أي: في مواعيدهم لليهود وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيوب.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُتِلُوا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلَوْنَ أَلْدَبَرُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٩﴾ لَئِنْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٠﴾﴾

فإن قلّت: كيف؟ قيل:

﴿ولئن نصرهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قلّت: معناه ولئن نصرهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحيطن عملك﴾ (2) وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمين المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي: يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو لينهزمين اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿رهبة﴾ مصدر رهب المبني للمفعول كأنه قيل: أشد مرهوبة. وقوله:

﴿في صدورهم﴾ دلالة على نفاقهم يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله. فإن قلّت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد! قلّت: معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله. ويجوز أن يريد أن اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قوماً أولى بأس ونجدة فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم. ﴿لا يفقهون﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه وحق خشيته.

لَا يَفْقَهُونَ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى حُصَصَ أَوْ مِنْ رَلَّةٍ جُذِيَ بِأَسْمِهِمْ

أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل. ﴿أولئك هم الصادقون﴾ في إيمانهم وجهادهم.

وَالَّذِينَ يَبُوءُ بِوَدْعِ الْإِيمَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتُوبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُورُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾

﴿والذين تبوءوا﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار.

فإن قلّت: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال تبوءوا الإيمان؟ قلّت: معناه تبوءوا الدار، واخصوا الإيمان كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً، أو جعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فاقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه، أو سمى المدينة؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان. ﴿ومن قبلهم﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿ولا يجنون﴾ ولا يعلمون في أنفسهم ﴿حاجة مما أوتوا﴾ أي: طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفء وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة. يقال: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته. يعني: أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: خلة وأصلها خصاص البيت وهي فروجه. والجملة في موضع الحال أي: مفروضة خصاصتهم. وكان رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبا لجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة. وقال لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة»، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة. فقالت الأنصار: بل تقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت. الشح بالضم والكسر وقد قرئ: بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل: فهو المنع نفسه ومنه قوله تعالى: ﴿وأحضرت الانفس الشح﴾ (1) ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بما أربوا، وقرئ: ومن يوق.

(2) سورة الزمر، الآية: 65.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والامارة والفن، باب: في خبر

النضير (الحديث رقم: 3004).

يَنْهَرُ سُرِيحُهُ تَحْسِبُهُ جَيْمًا وَقُلُوبُهُمْ شَقٌّ ذَلِكَ يَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَمُوتُونَ (٧).

﴿لَا يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ لا يقرون على مقاتلتكم ﴿جميعاً﴾ مجتمعين متساندين يعني: اليهود والمنافقين ﴿إلا﴾ كائنين ﴿في قرى محصنة﴾ بالخنادق والدروب ﴿أو من وراء جدر﴾ نون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقنف الله الرعب في قلوبهم، وأن تاييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر بالتخفيف، وجدار وجدر وجدرهما الجدار ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ يعني: أن لباس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم تلك البأس والشدة؛ لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله ﴿تحسبهم جميعاً﴾ مجتمعين نوري الفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ متفرقة لا الفة بينها يعني: أن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَمَنْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨)
﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمِ انتصب ﴿قريباً﴾؟ قُلْتُ: بمثل على كوجود مثل أهل بدر قريباً ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ من قولهم: كلا وبيل وخيم سيء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ثم متاركتهم لهم وإخلاقهم.

كَتَلِ الَّذِينَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفَرُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرَأْتَ مِنكَ إِلَىٰ عَمَّاكَ اللَّهُ رَبِّيَ الْكَافِرِينَ (٩) فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٠).

﴿كمثل الشيطان﴾ إذا استغوى الإنسان بكيد ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشاً يوم بدر وقوله لهم: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جبار لكم﴾ إلى قوله: ﴿إني بريء منكم﴾ وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها على أنه خبر إن ﴿وفي النار﴾ لغو وعلى القراءة

(1) قال أحمد: وقد قيل في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ حتى قيل: إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه، كقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ فمعنى رب مهنا: هو معنى كم وأبلغ منه قول القائل:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

إلا أن الزمخشري قرأ من هذا المعنى: لأن الواقع قلة النفوس النازلة في أمر المعاد، فنزله على معنى يطابق الواقع، ويمكن أن =

المشهورة الظرف مستقر ﴿خالدين فيها﴾ حال. وقرئ: أنا بريء وعاقبتكما بالرفع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِسْرٍ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١).

كرز الأمر بالتقوى تأكيداً و﴿اتقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل، واتقوا الله في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد. والغد يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له (1). وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: كان لم تغن بالأمس. يريد: تقرب الزمان الماضي وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كان الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى تنكير النفس والغد؟ قُلْتُ: أما تنكير النفس فاستقلال للنفس النواظر فيما قدم للآخرة. كانه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كانه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٢) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْكَافِرُونَ (١٣).

﴿نسوا الله﴾ نسوا حقه فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان (2) حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لا يرد إليهم طرفهم﴾. هذا تنبيه للناس وإيدان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إثبات العاجلة واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة. فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينهوا عليه كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدلت أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية. على أن المسلم لا يقتل بالكافر وإن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

لَوْ أَنَّنَا هَذَا أَقْرَبُ نَاقَةٍ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاكَ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ حَشِيعَةِ اللَّهِ وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَصْرَهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (١٤).

= يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التذكير للنفوس المأمورات بالنظر في المعاد، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر، وهو نظر حسن، فإن الفعل المسند إلى النفس مهنا ليس وقوع النظر حتى يستقل، وإنما هو طلب النظر، وهو عام يتعلق بكل نفس، والإنصاف أن ما نكره الزمخشري أمكن واحسن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: بل خلق فيهم النسيان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الممتحنة مدنية

روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها: سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي. تعني: قتلوا يوم بدر، فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزولوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاهم عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسختها: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، اعلمو أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم. فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرساناً وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوها عنقها». فادركوها، فجدت وحلفت، فهما بالرجوع. فقال علي رضي الله عنه: والله ما كنينا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه وقال: أخرجني الكتاب أو تضعي رأسك. فأخرجته من عقاص شعرها⁽⁵⁾. وروي أن رسول الله ﷺ آمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم⁽⁶⁾. فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملك عليه؟» فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش، وروي: عزيزاً فيهم أي: غريباً. ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قربات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فارتيت أن اتخذ عندهم بداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدقه وقبل عذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذَرُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ تَقَرَّبُوا إِلَيَّ بِالْكُودِ وَكَرَّوْا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ أَلْفٍ يَخْرُجُونَ أَرْسُولَ رَبِّكُمْ أَنْ تَقُولُوا يَا اللَّهُ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَابْنَةِ مَرْحَاتِي شَرُونَا

هذا تمثيل وتخيل كما مر في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ وقد دل عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾. والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تشعشه عند تلاوة القرآن وتبذر قوارعه وزواجه. وقرئ: مصدعاً على الإدغام ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ⁽²⁾.

﴿الغيب﴾ المعلوم ﴿والشهادة﴾ الموجود المدرك كانه يشاهده. وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل: السر والعانية، وقيل: الدنيا والآخرة.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَلَكَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَمِيمُ الْمَرْبُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ⁽³⁾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁽⁴⁾.

﴿القدوس﴾ بالضم والفتح، وقد قرئ: بهما البليغ في النزاهة عما يستقبح ونظيره السبوح. وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح. و﴿السلام﴾ بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في وصف كونه سليماً من النقائص، أو في إعطائه السلام. و﴿المؤمن﴾ وأحب الأمن. وقرئ: بفتح الميم بمعنى المؤمن به، على حذف الجار كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽²⁾ المختارون بلفظ صفة السبعين. و﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء الحافظ له. مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاء. و﴿الجبار﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد أي: أجبره. و﴿المتكبر﴾ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده. و﴿الخالق﴾ المقدر لما يوجده. و﴿البارئ﴾ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة. و﴿المصور﴾ الممثل. وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ: البارئ المصور بفتح الواو ونصب الراء أي: الذي يبرأ المصور أي: يميز ما يصوره بتفاوت الهيئات. وقرأ ابن مسعود: وما في الأرض، عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بأخضر الحشر فأكثر قراءته»⁽³⁾ فأعنت عليه، فأعاد علي. فأعنت عليه فأعاد علي. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»⁽⁴⁾.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الممتحنة باب: ﴿لَا تَخْذَرُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ تَقَرَّبُوا إِلَيَّ بِالْكُودِ وَكَرَّوْا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ أَلْفٍ يَخْرُجُونَ أَرْسُولَ رَبِّكُمْ أَنْ تَقُولُوا يَا اللَّهُ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَابْنَةِ مَرْحَاتِي شَرُونَا﴾ (الحديث رقم: 4890)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (الحديث رقم: 161 - 2494).

(6) رواه الدارقطني في السنن في كتاب: الحج، باب: المواقيت (الحديث رقم: 292).

(1) قال أحمد: وهذا مما تقتضي إنكاره عليه فيه، أقل كان يتألب باب الأية، حيث سمي الله هذا مثلاً، ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق.
(2) سورة الاعراف، الآية: 155.
(3) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما والزليعي 442/3.
(4) رواه الثعلبي في تفسيره والزليعي 443/3.

باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة. كأنه قيل: ووبوا قبل كل شيء كفركم وارتدباكم يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل النفس وتمزيق الأعراض ورتكم كفاراً. ورتكم كفاراً سبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أولاحكم؛ لأنكم بذالون لها بونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه.

لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣).

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قربابتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذي توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾. الآية. فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرض منكم غداً خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أولاً ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانياً ليريهيم أن ما أقيموا عليه من أي جهة نظرت فيه وجبته باطلاً. قرئ: يفصل ويفصل على البناء للمفعول ويفصل ويفصل على البناء للفاعل. وهو الله عز وجل. ونفصل ونفصل بالنون.

تَدَّ كَانَتْ لَكُمْ أَسْرُهُ حَسَنَةً فِي إِزْجِيرٍ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِيَرْجِهْ إِنَّا بِرَأْيَاكُمْ وَمَا تَصَدَّقُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا بَكْرًا وَيَسًا وَيَسَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لَا تُعْبُدُوا اللَّهَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنِّي خَشِيتُ أَنِّي مِمَّنْ لَّا يَتَذَكَّرُ إِلَّا عَذَابُ اللَّهِ وَمَا آمَنَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْزُقْنَا رِزْقًا إِنَّا نَتَّقُكَ أَتَقَرُّ أَمْ نَنُكَرُ (٥).

وقرئ: أسوة وأسوة وهو اسم المؤتسى به. أي: كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن يؤتسى به ويتبع أثره. وهو قولهم لكفار قومهم: ما قالوا حيث كاشفوههم بالعداوة وقشروا لهم العصا وأظهروا البغضاء والمقت وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وأمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة والبغضاء محبة والمقت مقة، فاقصحو عن محض الإخلاص. ومعنى ﴿كفرونا بكم﴾ وبما تعبدون من دون الله أننا لا نعتد بشانكم ولا بشأن آلهم وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قُلْتُ: مم استثنى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؟ قُلْتُ: من قوله: ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لأنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم: الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها.

فإن قُلْتُ: فإن كان قوله: ﴿لَا تَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ﴾ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فمال بال قوله: ﴿وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. قُلْتُ: أراد استثناء

إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا تُخْفُونَ مِنِّي وَأَعْلَنُ مِمَّنْ يَقُولُ إِنَّكَ بَدَدْتِ السَّيْلَ (٦).

عدى اتخذ إلى مفعوليه وهما: ﴿عدوي﴾ ﴿أولياء﴾ والعدو فعلول من عدا كعفو من عفا، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد.

فإن قُلْتُ: ﴿تتلقون﴾ بم يتعلق؟ قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بلا تتخونا حالاً من ضميره وبأولياء صفة له، ويجوز أن يكون استثناءً.

فإن قُلْتُ: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هو له فأين الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمودة! قُلْتُ: ذلك إنما اشترطوه في الأسماء بون الأفعال. لو قيل: أولياء ملقن إليهم بالمودة على الوصف لما كان بد من الضمير البارز والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإقضاء بها إليهم. يقال: ألقى إليه خراشي صدره، وأقضى إليه بقشوره. والباء في ﴿بالمودة﴾ إما زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محنوف معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وكذلك قوله: تسرون إليهم بالمودة. أي: تفضون إليهم بموالتكم سرّاً أو تسرون إليهم أسرار رسول الله بسبب المودة.

فإن قُلْتُ: ﴿وقد كفروا﴾ حال مماذا؟ قُلْتُ: إما من ﴿لا تتخنوا﴾ وإما من ﴿تلقون﴾ أي: لا تتولهم أو توالوهم وهذه حالهم. و﴿يخرجون﴾ استثناء كالتفسير لكفرهم وعتوهم أو حال من كفروا و﴿أن تؤمنوا﴾ تعليل ليخرجون أي: يخرجونكم لإيمانكم. و﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بلا تتخنوا. يعني: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي. وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محنوف لدلالة ما قبله عليه. و﴿تسرون﴾ استثناء ومعناه: أي طائل لكم في أسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما. وأنا مطلع رسولي على ما تسرون. ﴿ومن يفعله﴾ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدري: لما جاءكم أي: كفروا لأجل ما جاءكم. بمعنى: أن ما كان يجب أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سبباً لكفرهم.

إِنْ يَفْقَرُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ آيَاتِهِمْ وَالَّذِينَ يَفْقَرُونَ لَوْ كَفَرُوا (٧).

﴿إن يفقروكم﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم. ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ خالصي العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وييسطوا إليكم آياتهم﴾ واليسطهم بالسوء. بالقتال والشتم وتمنوا لو ترتلون عن بينكم فإن مواد أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغلطة لأنفسكم. ونحوه قوله تعالى: ﴿لا يالونكم خبالاً﴾.

فإن قُلْتُ: كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ثم قال: ﴿ووبوا﴾ بلفظ الماضي؟ قُلْتُ: الماضي وإن كان يجري في

لَا يَهْتَكُرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَكَرِهَتْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ
أَنْ يُزَوِّجَهُمْ وَتَقْتُلُوا أَيْهَمَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ
عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجَكُم بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَلَمْ يُهَاجِرُوا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنْ
تُزَوِّجَهُمْ وَنَزَّاهُمْ عَنْ أَنْ يُزَوِّجَهُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

﴿ان تبروهم﴾ بدل من ﴿الذين لم يقاتلوكم﴾. وكذلك
﴿ان تولوهم﴾ من ﴿الذين قاتلوكم﴾ والمعنى: لا ينهاكم
عن مبرة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا أيضاً
رحمة لهم لتشددهم وجدهم في العداوة متقدمة لرحمته
بتيسير إسلام قومهم حيث رخص لهم في صلة من لم
يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم. وقيل:
أراد بهم خزاعة. وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن
لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد: هم الذين آمنوا
بمكة ولم يهاجروا. وقيل: هم النساء والصبيان. وقيل:
قدمت على أسماء بنت أبي بكر أمها قتيلة بنت عبد العزى
وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها في الخول
فنزلت، فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم
أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها⁽²⁾. وعن
قتادة: نسختها آية القتال ﴿وتقتلوا﴾ إليهم، وتقضوا
إليهم بالقسط ولا تظلموهم. وناهيك بتوصية الله المؤمنين
أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم،
مترجمة عن حال مسلم يجترى على ظلم أخيه المسلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَحْسَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ جِلٍّ لَكُمْ
وَلَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ زَوَّاجُهُنَّ مَا أَنتَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا
مَاتَتْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَلَا تَنْكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَمَتَّلُوا مَا أَنتَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُ
أَنْتَقُوا وَلَكُمْ حَكَمُ اللَّهِ بِحَكْمِ يَنْكِحُ اللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ نَفْسٌ
مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا عَلَيْكُمْ قَاتِلُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ بِمِثْلِ مَا
أَنْتَقُوا وَأَنْتَقُوا اللَّهُ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿١١﴾

﴿إذا جاءكم المؤمنات﴾ ساهن مؤمنات لتصديقهن
بالسنتهن ونطقهن بكلمة الشهادة ولم يظهر منهن ما ينافي
نلك، أو لأنهن مشارفات لشبات إيمانهن بالامتحان.
﴿فامتحنوهن﴾ فابتلوهن بالحلف والنظر في الامارات
ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن. وكان رسول الله ﷺ
يقول للممتحنة: «بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من
بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، بالله
ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله
ولرسوله»⁽³⁾. ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ منكم لأنكم لا تكسبون
فيه علماً تطمئن معه نفوسكم وإن استحلقتوهن ورزتم
أحوالهن وعند الله حقيقة العلم به ﴿فإن علمتموهن﴾

جملة قوله لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده
مبني عليه وتابع له. كانه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي
إلا الاستغفار.

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾؟ قلت:
بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة، ويجوز أن
يكون المعنى قولوا: ﴿ربنا﴾ أمراً من الله تعالى للمؤمنين
بأن يقولوه، وتعليماً منه لهم تمييزاً لما وصاهم به من قطع
العلائق بينهم وبين الكفار، والانتساء بإبراهيم وقومه في
البراءة منهم، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من
فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم. وقرئ: براء
كشركاء، وبراء كظراف، وبراء على إبدال الضم من الكسر،
كرخال ورباب، وبراء على الوصف بالمصدر. والبراء والبراءة
كالظماء والظماء. ثم كرر الحث على الانتساء بإبراهيم
وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم ولذلك جاء به مصدراً بالقسم
لانه الغاية في التأكيد.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَنَزَّاهُ
بِرَّوْلِهِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿١٢﴾

وأبدل عن قوله: ﴿لحكم﴾ قوله: ﴿لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر﴾ وعقبه بقوله: ﴿ومن يقول فإن الله هو
لغني الحميد﴾ فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به ولما
نزلت هذه الآيات تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم
وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم. فلما رأى الله
عز وجل منهم الجد والصبر على الوجد الشديد وطول
التمني للسبب الذي يبيع لهم الموالاة والمواصلة رحمهم،
فوعدهم تيسير ما تمنوه فلما يسر فتح مكة ظفروهم الله
بأمنيتهم فاسلم قومهم وتم بينهم من التحاب والتصافي ما
تم. وقيل: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة فلانت عند ذلك
عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة. وكانت
أم حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبي
جحش إلى الحبشة فتنصر وأرادها على النصرانية فابت،
وصبرت على نبينا ومات زوجها. فبعث رسول الله ﷺ إلى
النجاشي فخطبها عليه وساق عنه إليها مهرها أربعمائة
دينار. وبلغ ذلك أباه فقال: ذلك الفحل لا يقدر أنفه⁽¹⁾.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ وَفِيرٌ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾

و﴿عسى﴾ وعد من الله على عادات الملوك حيث
يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل. فلا تبقى شبهة
للمحتاج في تمام نلك، أو قصد به إطماع المؤمنين والله
قدير على قلباب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب
المودة. ﴿والله غفور رحيم﴾ لمن أسلم من المشركين.

= رقم: (2620) وأخرجه الحاكم في المستدرک 485/2، وأحمد في
المسند 347/6.

(3) أخرجه الزيلعي 459/3 عن الطبري واليزار.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الولي (الحديث رقم: 2086).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الہیة، باب: الہدیة للمشرکین (الحديث =

أجورهن أي: مهورهن؛ لأن المهر أجر البضع ولا يخلو إما أن يراد بهما كان يدفع إليهن ليفدعهن إلى أزواجهن، فيشترط في إباحة تزواجهن تقديم أدائه، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به باس. وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر وإنه لا بد من إصداق. وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بئمة وبقي الآخر حربياً وقعت الفرقة. ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملاً. **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب يعني: إياكم وإياهن ولا تكن بينكم وبينهن عصمة ولا علق زوجية. قال ابن عباس: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. وعن النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد: أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار معارفتهن. **﴿واسئلوا ما انفقت﴾** من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار **﴿وليسئلوا ما انفقوا﴾** من مهور نسائهم المهاجرات. وقرئ: ولا تمسكوا بالتخفيف، ولا تمسكوا بالثقل، ولا تمسكوا أي: ولا تتمسكوا **﴿ذلكم حكم الله﴾** يعني: جميع ما نكر في هذه الآية **﴿يحكم بينكم﴾** كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي: يحكمه الله أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة. روي أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤثروا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين. فنزل قوله:

﴿وان فاتكم﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم **﴿شيء من أزواجكم﴾** أحد منهن إلى الكفار وهو في قراءة ابن مسعود أحد.

مؤمنات العلم الذي تبلفه طاعتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات **﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾** فلا ترنوهن إلى أزواجهن المشركين؛ لأنه لا حل بين المؤمنة والمشرک⁽¹⁾. **﴿وأتوهن ما انفقوا﴾** وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور. وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة رد إليهم ومن أتى منكم مكة لم يرد إليكم وكتبوا بذلك كتاباً وختموه. فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي ﷺ بالحديبية. فاقبل زوجها مسافر المخزومي. قيل: صيفي بن الراهب فقال: يا محمد أريد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف فنزلت بياناً، لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء⁽²⁾. وعن الضحاك: كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على نيك إلا رددتها إلينا، فإن نخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي انفق عليها. وللنبي ﷺ من الشرط مثل ذلك⁽³⁾. وعن قتادة: ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة فاستحلها رسول الله ﷺ فحلقت فأعطى زوجها ما انفق وتزوجها عمر⁽⁴⁾.

فإن قلّت: كيف سمى الظن علماً في قوله: **﴿فإن علمتموهن﴾**! قلّت: إيداناً بأن الظن الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وإن صاحبه غير داخل في قوله: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**⁽⁵⁾.

فإن قلّت: فما فائدة قوله: **﴿الله أعلم بإيمانهن﴾** وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قلّت: فائتته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب، وأن ما يؤذي إليه الامتحان من العلم كافٍ في ذلك، وأن تكليفكم لا يعده، ثم نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات إذا أتوهن

على وجه لو حصل لكانت متوعة على حصوله، وإما فعل الكافر وهو الوطء مثلاً فمنفى حله، باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء لما يشتمل عليه من المفسدة، وللشرع قصد في أن لا تقع المفسدة، وليس الكافر مورداً للخطاب، ولكن الأئمة مثلاً أو من يقوم مقامهم مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كي لا يقع هذا الفعل المنطوي على المفسدة في نظر الشرع، فكلا الفعلين إذا من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع، لكن مورد الخطاب المنطوي على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلاً، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار، وعلى أن للشرع غرضاً في أن لا تحصل المفسدة في الوجود، ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب رده عن ذلك ومنعه عنه، وما ذاك إلا لما فهم عن الشرع، من طلب سلامه الوجود عن المفسدة، ومورد الخطاب يردع الكافر كي لا يجهر بالفساد يعم الأئمة، والله الموفق.

(2) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(3) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(4) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(5) سورة الإسراء، الآية: 36.

(1) قال أحمد: هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع؛ لأنه تعالى قال: **﴿لا من حل لهم﴾** والضمير الأول للمؤمنات، والثاني للكفار، والمراد به: يحرم على الكفار؛ لأن قسمه متفق على أن المراد به: تحريم الكفار على المؤمنات، فيكون كل من القبوليين المؤمنات والكفار مخاطباً بالحرمة، ولما كان المذهب المعزي إلى أصحاب أبي حنيفة أن الكفار غير مخاطبين، سلك الرمخشري بتفسير الآية ما يوافق ذلك، فعملها على أن المراد نفى الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر وهذا لا متخلص فيه، فإن الحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة لا بد وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما إذ هو حكم، فإن تعلق بفعل كل واحد منهما أعني التمكن من المرأة والفعل من الرجل، تحقق خطاب الكافر بالحرمة وتعليقه بفعل المرأة دون فعل الرجل ياباه نظم الآية، فإنه نفى الحل من الجهتين جميعاً، ولو كان كذلك لكفى قوله: **﴿ولا هم يحلون لهن﴾** والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول هو ما نذكره إن شاء الله تعالى، فنقول: كل من فعلتي المؤمنة والكافر ينفي عنه الحل بالتفسير اللائق، فاما فعل المؤمنة وهو التمكن فلا شك في تعلق الحرمة للشرع، باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود؛

بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهأهن عنه من المقيحات. وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف.

فإن قُلْتَ: لو اقتصر على قوله: ولا يعصينك. فقد علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف! قُلْتَ: نَبَهَ بذلك على أن طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب. وروي أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يباليهعن بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متكررة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها⁽²⁾ فقال عليه الصلاة والسلام: «أباعدن عن أن لا تشركن بالله شيئاً». ففرقت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال. تباع الرجال على الإسلام والجهاد. فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يسرقن». فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنني أصبت من ماله هنات فما أري أنحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة». قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: «ولا يزني». فقالت: أو تزني الحرة. وفي رواية: ما زنت منهن امرأة فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يقتلن أولادهن». فقالت: ربيناهم صفاراً وقتلتهن كباراً فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان». فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: «ولا يعصينك في معروف». فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، وقيل: في كيفية المبايعة دعا بقدر من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن⁽³⁾، وقيل: صافحهن وكان على يده ثوب قطري⁽⁴⁾، وقيل: كان عمر يصافحهن عنه⁽⁵⁾. روي أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم⁽⁶⁾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ

فإن قُلْتَ: هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة؟ قُلْتَ: نعم الفائدة فيه أن لا يغير شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوض منه تخليطاً في هذا الحكم وتشديداً فيه ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ من العقبة وهي التوبة، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهوور نساء أولئك تارة، وأولئك مهوور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره ومعناه: فجاءت عقبتكم من أداء المهر فأتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. وهكذا عن الزهري: يعطي من صدق من لحق بهم. وقرئ: فاعقبتم فعقبتم بالتشديد فعقبتم بالتخفيف بفتح القاف وكسرهما فمعنى أعقبتم نخلتم في العقبة، وعقبتم من عقبه إذا قفاه؛ لأن كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه، وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال: عقبه يعقبه وعقبتم نحو تبعتم وقال الزجاج: فعاقبتم فاصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم والذي ذهب زوجته كان يعطي من الغنيمة المهر وفسر غيرها من القراءات فكانت العقبي لكم أي: فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم. وقيل: جميع من لحق بالمشركون من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وقاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس ابن عثمان، وعبدية بنت عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبود، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جبرول كانت تحت عمر. فاعطاهم رسول الله ﷺ مهوور نساءهم من الغنيمة⁽¹⁾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَهَانٍ عَلَيْكَ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفَعْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِنَّ وَأُولَئِكَ لَا يَصْلَحْنَ فِي مَرْوَرٍ فَأَمَّا هُنَّ فَاسْتَعِزَّزْنَ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ (٧)

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وقرئ: يقتلن بالتشديد يريد: وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبَهَانٍ﴾ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك كنى بالبهتان المفترى بين يديها وأرجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه

(1) قال الزيلعي غريب نكره هكذا للثعلبي ثم البيهقي عن ابن عباس من غير سند ولا راو 461/3.

(2) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، وروي الطبري في تفسيره مختصراً 462/3.

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (365/6) ونكره الهيثمي في مجمع الزوائد (38/6).

(4) أبو داود في المراسيل باب: ما جاء في الغني والإمارة (الحديث رقم: 373).

(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: الجنائز، باب: فضل حمل الجنابة وقلوها (الحديث رقم: 3041)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 226).

(6) قال أحمد: قد كان الزمخشري نكر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لِحِمَاءٍ طَرِيقاً﴾ أن آخر الآية استطراد، وهو من فنون البيان ميوّب عليه عند أهله، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جداً، فإنه ذم اليهود، واستطرد ذمهم بذم المشركون على نوع حسن من النسبة، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن، ولا أمكن منه ومما صدروا هذا الفن به قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَى اللَّهُ الْفِتْنَى وَاطَاعَهُ. فَلَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، وَإِنْ كَانَ مِنْ جَرَمٍ، وَقَوْلُهُ: إِنْ كُنْتَ كَاتِبَةُ الَّتِي حَسَنَتِي فَتَجِدْتِ مَنْجَى الْحَرِّ بْنِ هِشَامٍ، وَقَوْلُهُ: تَرَكَ الْأَحْبَةَ أَنْ يَقَاتِلَ لَوْنَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طُمْرَةٍ وَلِجَامٍ

الْآخِرَةُ كَمَا تَبَيَّنَ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿٣٧﴾

آخر. فقال عمر لصهيب: أخبر النبي عليه السلام (2) أنك قتلت، فقال: إنما قتلتك لله ولرسوله، فقال عمر: يا رسول الله قتله صهيب، قال: «كذلك يا أبا يحيى» قال: نعم. فنزلت في المنتحل، وعن الحسن: نزلت في المنافقين وندأهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم هذا من أقصَح كلام وأبلغه في معناه.

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

قصد في «كبر» التعجب من غير لفظه كقوله: غلت ناب كليب بواؤها ومعنى: التعجب تعظيم الأمر (3) في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا: ونصب «مقتًا» على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ومنه قيل: نكاح المقت للعقد على الرابة ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرًا حتى جعل أشده وأقشعه «وعند الله» أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدة وانزاحت عنه الشكوك، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا. فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: تأمروني أن أقول ما لا أفعل.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْصُوسٌ ﴿٤١﴾

فاستجمل مقت الله في قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ» عقيب ذكر مقت المخلَف (4) دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا، وقرا زيد بن علي: يقاتلون بفتح التاء. وقرئ: يقتلون «صفا» صافين أنفسهم أو مصفوفين «كانهم» في تراصهم من غير فرجة ولا خلل. «بنيان» رص بعضه إلى بعض مرصف، وقيل: يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص، وعن بعضهم: فيه دليل على فضل القتال راجلاً لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة، وقوله: صفاً كانهم بنيان حالان متداخلتان (5).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَمَلُّونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْهَاسِلِينَ ﴿٤٢﴾

= أصواتكم فوق صوت النبي، فالنهي العام ورد أولاً، والمقصود اندراج هذا الخاص فيه، كما تقول للمقترِف جرماً معيناً: لا تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشاتم زبداً، وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين، متدرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين، فإن ذلك معبود في حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل، والله أعلم.

(5) قال أحمد: يريد أن معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية، لأن التراص هيئة للإصطفاف، والله أعلم.

فقبل لهم: «لا تتولوا قوماً» مغضوباً عليهم «قد يمشوا» من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة «كما ينس للكفار» من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: «من أصحاب القبور» بيان للكفار أي: كما ينس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة لأنهم تبيينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصف مكية

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

«لم» هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما نخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وقيم ومم وعم والام وعلام. وإنما حذفت الألف لأن ما والحرف كشيء واحد ووقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف، كما سمع ثلاثة أربعة بالهاء والقاء حركة الهمزة عليها محذوفة. وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد. ودوي أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا القتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبلننا فيه أموالنا وأنفسنا. فبلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله، فولوا يوم أحد، فغيرهم، وقيل: لما أخبر الله بثواب شهداء بدر، قالوا: لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت، ولم يصبر، وقيل: كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله

(1) الثعلبي ابن مروييه الواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 465/3.

(2) الثعلبي في تفسيره الزيلعي 7/4.

(3) قال أحمد: وزلئت على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس، وهو تكراره لقوله: «ما لا تفعلون» وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام. وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل: «كبر مقتاً عند الله» ذلك فما إدعته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية، والله أعلم.

(4) قال أحمد: صدق والأول كاليسطة العامة لهذه القصة الخاصة، كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقفوا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا =

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾.

من معنى الإرسال أم بالإيحاء! قُلْتُ: بل بمعنى الإرسال، لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئاً، لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل. وقرئ: هذا ساحر مبين، وأي الناس أشد ظمناً ممن يدعو ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله: لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا ساحر، لأن السحر كذب وتمويه. وقرأ طلحة بن مصرف: وهو يدعي، بمعنى: يدعي دعاء وأدعاه نحو لمسه والتمسه، وعنه: يدعي بمعنى يدعو وهو الله عز وجل.

رُبُّدُنْ يُلْفِتُنْأُ رُبُّ اللَّهِ يَأْفُكُومُ وَاللَّهُ مِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦﴾.

أصله يريدون أن يطفؤا كما جاء في سورة براءة، وكان هذه اللام زينة مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتكم لإكرامكم. كما زينت اللام في لا أبالك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أبالك. وإطفاء نور الله بأفواههم تهكم بهم في إراستهم إبطال الإسلام بقولهم: في القرآن: هذا ساحر، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿والله متم نوره﴾ أي: متم الحق ومبلغه غايته. وقرئ: بالإضافة.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٧﴾.

﴿ودين الحق﴾ الملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جميع الأديان المخالفة له، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام، وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام، وقرئ: أرسل نبيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى عَزْرِكُمْ شَيْكْرُ رَّبِّ عَالَمِينَ ﴿٨﴾.

﴿تنجيكم﴾ قرئ: مخففاً ومثقلاً.

﴿وإن﴾ منصوب بإضمار انكر أو وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا ﴿تؤذنونني﴾ كانوا يؤنونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعييه في نفسه، وجود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبائهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضيق حق الله وحقه ﴿وقد تعلمون﴾ في موضع الحال أي: تؤنوني عالمين^(١) علماً يقيناً ﴿إني﴾ رسول الله إليكم ﴿وقضية علمكم بذلك وموجبة تعظيمي وتوقيري﴾ لا أن تؤنوني وتستهنوا بي؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله علماً بأن تعظيمه في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقاً به ﴿فلما زاغوا﴾ عن الحق ﴿ازاغ الله قلوبهم﴾ بأن منع الطافه عنهم ﴿والله﴾ لا يهدي القوم الفاسقين، لا يطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف.

فإن قُلْتُ: ما معنى قد في قوله: ﴿وقد تعلمون﴾؟ قُلْتُ: معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه. قيل: إنما قال: يا بني إسرائيل، ولم يقل: يا قوم كما قال: موسى لأنه لا نسب له فيهم^(٢) فيكونوا قومه والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُبَشِّرًا لِمَن بَدَأَ مِنَ الْوَرْدَةِ وَنَذِيرًا لِمَن بَدَأَ آمَنَهُ أَحَدٌ لَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ شَيْنٌ ﴿٩﴾ وَمَنْ أَأَقْلَرُ مِنْ أَفْرَكٍ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾.

﴿من التوراة﴾ وفي حال تبشيري ﴿برسول يأتي من بعدي﴾ يعني: أن يبني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتاخر وقرئ: ﴿من بعدي﴾ بسكون الياء وفتحها. والخليل وسيبويه يختار أن الفتح، وعن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعنا من أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد حكماء علماء أبرار اتقياء كانهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

فإن قُلْتُ: بم انتصب مصلاً ومبشراً بما في الرسول

= في تقليل الأصل وعليه:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

ولنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس بينه الأصلي، ولا يقال: أن حملها في الآية على التكرير متعذر؛ لأن العلم معلوم التعلق لا يتكرر ولا يتنقل؛ لأننا نقول يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتلكه وبلوغه الغاية في نوعه، بما يعبر به عن التكرير، وهو تعبير صحيح، ألا ترى أن قوله: ﴿ربما يؤذون الذين كفروا﴾ وهو من هذا القبيل، فإن المراد شدة ودمم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير، والله الموفق.

(٢) قال أحمد: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾: لأن شعيباً لم يكن من قوم من أرسل إليهم.

(١) قال أحمد: أهل العربية تقول: إن قد تصحب الماضي لتقريبه من الحال، ومنه قول المؤنن: قد قامت الصلاة، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضاً على معنى التوقع، فلذلك قال سيبويه: قد فعل جواب لما يفعل، وقال الخليل: هذا الخبر ليقوم بانتظرونه، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل، مثل: ربما كقولهم: إن الكذب قد يصلح، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل، قد دخلت في الآية على مضارع، فالوجه والله أعلم أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفرط فيما ينعكس عنه، وتكون قد في هذا المعنى نظير ربما في قوله: ﴿ربما يؤذون الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكرير، فلما أوردت ربما في التكرير على عكس معناه الأصلي في التقليل، فنكلك إيراد قد ههنا لتكرير علمهم، أي: تحقيق توكيده على عكس معناها الأصلي =

وَأُفْرِى يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنْ أَلَّاهُ وَفَتْحَ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣).

﴿وآخرى تحبونها﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ثم فسرهما بقوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي: عاجل وهو فتح مكة، وقال الحسن: فتح فارس والروم. وفي تحبونها شيء من التبويخ على محبة العاجل.

فإن قلْت: علام عطف قوله: ﴿وبشِّر المؤمنين﴾؟ قلْت: على تؤمنون لأنه في معنى الأمر كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يشكم الله وينصركم، وبشِّر يا رسول الله المؤمنين بذلك.

فإن قلْت: لم نصب من قرأ نصرًا من الله وفتحًا قريبًا! قلْت: يجوز أن ينصب على الاختصاص أو على تنصرون نصرًا ويفتح لكم فتحًا، أو على يغفر لكم ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى نصرًا من الله وفتحًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُذِّبَ أَنْصَارُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِمَوَازِينَ مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْمَوَازِينُ عَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ فَانْتَبَهَتْ عَلَيْهِمْ وَمِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَخْبَتُوا عَلَيْهِمْ (١٤).

قري: كونوا أنصار الله وأنصار الله. وقرأ ابن مسعود كونوا أنتم أنصار الله وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم.

فإن قلْت: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارًا^(١) يقول عيسى صلوات الله عليه: ﴿من أنصاري إلى الله﴾! قلْت: التشبيه محمول على المعنى وعليه يصح والمراد: كونوا أنصارًا لك كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله.

فإن قلْت: ما معنى قوله: من أنصاري إلى الله؟ قلْت: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين.

﴿نحن أنصار الله﴾ والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندي متوجهًا إلى نصرته الله وإضافة أنصاري خلاف إضافة أنصار الله، فإن معنى نحن أنصار الله نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصاري من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرته الله، ولا يصح أن

تؤمن بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله يأتواكم وأنهم لكم خير لكونهم لكم مثلكم (١١) بغير لكونهم مثلكم جئتكم من غيري أنتم خير منكم في جئت عندي ذلك القول العظيم (١٢).

و﴿تؤمنون﴾ استئناف كأنهم قاما كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون^(١)، وهو خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾ وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا.

فإن قلْت: لم جاء به على لفظ الخبر؟ قلْت: للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجاهاد موجودين، ونظيره قول الداعي: غفر الله لك، ويغفر الله لك، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت.

فإن قلْت: هل لقول الفراء أنه جواب هل أنلكم وجه؟ قلْت: وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد، فكانه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم.

فإن قلْت: فما وجه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما: تؤمنوا وتجاهدوا؟ قلْت: وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر كقوله:

محمد تغد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا

وعن ابن عباس أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فنزلت هذه الآية. فمكثوا ما شاء الله يقولون: ليتنا نعلم ما هي فعلهم الله عليها بقوله: ﴿تؤمنون﴾. وهذا دليل على أن تؤمنون كلام مستأنف وعلى أن الأمر الوارد على النفوس بعد تشوف وتطلع منها إليه أوقع فيها وأقرب من قولها له مما فوجئت به ﴿أنلكم﴾ يعني: ما نكر من الإيمان والجهاد ﴿خير لكم﴾ من أموالكم وأنفسكم.

فإن قلْت: ما معنى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾؟ قلْت: معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرًا لكم^(٢) حينئذ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون.

= مرتباً عليه، وكذلك ههنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم، وامتثالهم سبباً في المغفرة محققاً عوامل معاملة تحقيق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: كأنه يجري الشرط على حقيقته وليس بالظاهر؛ لأن علمهم لذلك محقق، إذ الخطاب مع المؤمنين والظاهر أنه من وادي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ونروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ والمقصود بهذا الشرط: التنبيه على المعنى الذي يقتضي الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عبوه: إن كنت حراً فانتصر، تريد أن تثير منه حمية الانتصاف لا غير، والله أعلم.

(3) قال أحمد: كلام حسن وتمام على الذي أحسن أن يميز بين الإضافتين المذكورتين، بأن الأولى محضة والثانية غير محضة فتنبه لها، والله الموفق.

(1) قال أحمد: إنما وجه إعراب الفراء بما نكر؛ لأنه لو جعله جواباً لقوله: ﴿هل أنلكم﴾ فإنلكم إن أنلكم على كذا وكذا أغفر لكم، فتكون المغفرة حينئذ مرتتبة على مجرد دلالة أيامهم على الخير وليس كذلك إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما بلهم عليه لا على نفس الدلالة، فلذلك أوّل ﴿هل أنلكم على تجارة﴾ بتأويل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مرتتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة، وهذا التأويل غير محتاج إليه، فإن حاصل الكلام إذا صار إلى هل أنلكم، أغفر لكم التحقق ذلك بأمثال قوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ فإنه رتب فعل الصلاة على الأمر بها، حتى كأنه قال: فإنك إن تقل لهم اقيموا يقيموها. وللتأثيل أن يقول: قد قيل لبعضهم: اقم الصلاة فتركها، فالجواب عنه: أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ في الإيمان لما كان مظنة لحصول الامتثال، جعل كالمحقق وقوعه =

وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾

﴿وَأَخْرَجَ﴾ مجرور عطف على الأميين يعني: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم. وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله؟ فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء». وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة. ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في ويعلمهم أي: يعلمهم ويعلم آخرين، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله، فكانه هو الذي تولى كل ما وجد منه. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ في تمكنه رجلاً أميناً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر.

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٨﴾

﴿ذلك﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغواير هو ﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته.

مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا إِلَى اللَّهِ نَزَلَتْ عَنْهُمْ لَمْ يَحْمِلُوا كَثَلُ الْخِصَامِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا يَتَرَبَّصُّ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾

شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقرأوها وحفاظ ما فيها ثم أنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفارا أي: كتباً كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبش المثل. ﴿بشس﴾ مثلاً.

﴿مثل القوم الذين كتبوا بآيات الله﴾ وهم اليهود الذين كتبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ. ومعنى حملوا التوراة كلفوا علمها والعمل بها. ثم لم يحملوها، ثم لم يعملوا بها فكانهم لم يحملوها. وقرئ: حملوا التوراة أي: حملوها، ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ: يحمل الأسفار.

فَإِنْ قُلْتَ: يحمل ما محله؟ قُلْتَ: النصب على الحال أو الجر على الوصف، لأن الحمار كاللثيم في قوله: ولقد أمر على اللثيم بسبني. هاد يهود إذا تهود.

قُلْ يَكْفِيكَ الْآيَةُ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَرْسِلَ اللَّهُ مِنْ دُونِ

يكون معناه من ينصرني مع الله لأنه لا يطابق الجواب. والليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله والحواريون أصفياءه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل صفيه وخلصانه من الحور وهو البياض الخالص، والحواري الدرمك ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي^(١) وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب يبيضونها. ونظير الحواري في زنته الحوالي للكثير الحيل. ﴿فأمنت طائفة﴾ منهم بعبسى ﴿وكفرت﴾ به ﴿طائفة فليتنا﴾ مؤمنينهم على كفارهم فظهروا عليهم، وعن زيد بن علي كان ظهورهم بالحجة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الصف^(٢) كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجمعة مدنية

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَظِيمِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

قرئت صفات الله عزّ وعلا بالرفع على المدح. كانه قيل: هو الملك القدوس، ولو قرئت منصوبة لكان وجهها كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد. الأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم، وقيل: بدأت الكتابية بالطائف أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار.

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾

ومعنى: ﴿بعث في الأميين رسولا منهم﴾ بعث رجلاً أميناً في قوم أميين كما جاء في حديث شعيب: «إني أبعث أعمى في عيمان وأمياً في أميين^(٣)». وقيل: منهم كقوله تعالى: من أنفسكم يعلمون نسب وأحواله، وقرئ: في الأميين بحذف ياء النسب ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يقرأها عليهم مع كونه أميناً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمي بغير تعلم آية بينة ﴿ويزكّيهم﴾ ويظهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة. وإن في ﴿وإن كانوا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه.

(3) قال الزيلعي لم أجده إلا من قول وهب بن منبه رواه الحافظ أبو

نعيم في دلائل النبوة 11/4.

(1) النسائي في سننه الكبرى كتاب المناقيق زيلعي 7/4.

(2) الثعلبي والواحدي وابن مريويه زيلعي 8/4.

الْأَنبِيَاءِ فَتَسْتَرْوُا أَلْوَنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾

«أولياء الله» كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه أي: إن كان قولكم حقاً وكنتم على ثقة **«فتمنوا»** على الله أن يميّتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه: وَلَا يَمُنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا فَدَمْتُ يَدَيَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

ثم قال: **«ولا يتمنونه أبداً»** بسبب ما قدموا من الكفر. وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه، فلو لا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى. وهي إحدى المعجزات. وقرئ: فتمنوا الموت بكسر الواو تشبيهاً بلو استطعنا. ولا فرق بين لا وإن في أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا. فأتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه، ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه. ثم قيل لهم:

قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّيْ تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مِنْكُمْ ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

«إن الموت الذي تقرّون منه» ولا تجسرون أن تمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملائكم لا محالة. **«ثم تقرّون»** إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: إنه ملائكم. وفي قراءة ابن مسعود: تقرّون منه ملائكم وهي ظاهرة، وأما التي بالفاء فلتضمن الذي معنى الشرط. وقد جعل أن الموت الذي تقرّون منه كلاماً برأسه في قراءة زيد أي: إن الموت هو الشيء الذي تقرّون منه. ثم استؤنف إنه ملائكم يوم الجمعة، يوم الفوج المجموع كقولهم: ضحكة للمضحوك منه، ويوم الجمعة بفتح الميم يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة ولعنة ولعبة. ويوم الجمعة تثقيل للجمعة، كما قيل: عسرة في عسرة، وقرئ: بهنّ جميعاً.

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَازِجِهِمْ فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

فإن قلّت: من في قوله:

«من يوم الجمعة» ما هي؟ قلّت: هي بيان لإدا وتفسير له. والنداء الأذان. وقالوا: المراد به الأذان عند قعود

الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله ﷺ مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد، فإذا نزل أقام للصلاة^(١). ثم كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ذلك حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤنناً آخر فامر بالتأنيّن الأوّل على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر أذن المؤنّن الثاني فإذا نزل أقام للصلاة فلم يعب ذلك عليه. وقيل: أوّل من سماها جمعة كعب بن لؤي. وكان يقال لها: العروبة. وقيل: إنّ الانصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك. فهلّموا بجعل لنا يوماً يجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلي فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى. فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصرى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه. فانزل الله آية الجمعة فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام^(٢) وأما أوّل جمعة جمعها رسول الله ﷺ، فهي أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فادركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة^(٣). وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله: **«فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»**^(٤) وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة. وعن النبي ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة. وهو عند الله يوم المزيّد»^(٥)، وعنه عليه السلام: «أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمّك من بعدك، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيّد». وعنه ﷺ: «إنّ الله تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار»^(٦). وعن كعب: إنّ الله فضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. وقال عليه السلام: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقى فتنة القبر»^(٧) وفي الحديث: «إذا كان يوم الجمعة، قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم»^(٨)، وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصّة

(٦) أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 3434).

(٧) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز (الحديث رقم: 1074)، وعبد الرزاق في المصنف 3/369 (الحديث رقم: 5595)، وأحمد في المسند 2/176.

(٨) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة باب: الاستماع إلى الخطبة (الحديث رقم: 929).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: المؤنّن الواحد يوم الجمعة (الحديث رقم: 913).

(٢) عبد الرزاق في مصنفه 159/3 (الحديث رقم: 5144).

(٣) ابن هشام في السيرة 1/494.

(٤) سورة الجمعة، الآية: 6.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة (الحديث رقم: 17 - 854).

لهذا المقام مقالاً، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوَال، وستأتيكم الخطب، ثم نزل، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد⁽⁷⁾. وعند صاحبيه والشافعي: لا بد من كلام يسمى خطبة.

فإن قُلْتُ⁽⁸⁾: كيف يفسر نكر الله بالخطبة وفيها نكر غير الله! قُلْتُ: ما كان من نكر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم نكر الله، فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقّاء بعكس ذلك، فمن نكر الشيطان. وهو من نكر الله على مراحل وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه: صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام. أراد الأمر بترك ما يذهل عن نكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خص البيع من بينها. لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبوابيهم وينصبون إلى المصر من كل أوب، ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء. فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن نكر الله والمضي إلى المسجد قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى نكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح. **«وذرّوا البيع»** الذي نفعه يسير وربحه مقارب.

فإن قُلْتُ: فإذا كان البيع في هذا الوقت مأموراً بتركه محرّماً فهل هو فاسد؟ قُلْتُ: عامّة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع، قالوا: لأنّ البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب، وعن بعض الناس إنه فاسد.

وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١٠).

بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرّج. وقيل: أوّل بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وعن ابن مسعود «أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول: أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد⁽¹⁾. ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة رضي الله عنه⁽²⁾ إلا في مصر، جامع لقوله عليه السلام: «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع⁽³⁾. والمصر الجامع ما أقيمت فيه الحدود ونفقت فيه الأحكام، ومن شروطها: الإمام أو من يقوم مقامه لقوله عليه السلام: «فمن تركها وله إمام عادل أو جائر⁽⁴⁾، الحديث وقوله ﷺ: «أربع إلى الولاة: الفياء والصنقات والحدود والجماعات⁽⁵⁾. فإنّ أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة لم يجز فإن لم يمكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم جاز، وهي تنعقد بثلاثة سوى الإمام، وعند الشافعي بأربعين ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ولا على الأعمى. عند أبي حنيفة ولا على الشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد. وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم: فامضوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: فاسعوا، فقال: من أقرّك هذا، قال: أبي بن كعب، فقال: لا يزال يقرأ بالمنسوخ، لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي⁽⁶⁾، وقيل: المراد بالسعي القصد دون العدو، والسعي التصرف في كل عمل ومنه قوله تعالى: **«فلما بلغ معه السعي»**. **«وإن ليس للإنسان إلا ما سعى»**. وعن الحسن: ليس السعي على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب. ونكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطنه أن ابن عمر سمع الإقامة وهو بالبيقع فأسرع المشي قال محمد: وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه. **«إلى نكر الله»** إلى الخطبة والصلاة ولتسمية الله الخطبة نكراً له. قال أبو حنيفة رحمه الله: إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى نكر الله كقوله: الحمد لله سبحانه الله جاز، وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال: الحمد لله وأرتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان

(6) لم يخرج الزيلعي.

(7) قال أحمد: ساءه بلا اشتباه، فإن عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات، ألا ترى إلى قوله: وستأتيكم بعد ذلك الخطب، فإنّ ذلك يحقق أنّ مقالته هذه ليس بخطبة، ولو كان في الجمعة لكان تاركاً للخطبة بالكليّة، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عي بياناً، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوَال وستأتيكم الخطب.

(8) قال أحمد: الدعاء للسُّلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال، وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسُّلطان ظالم، فقيل له: اتدعوا له وهو ظالم؟ فقال: إي، والله ادعوا له، إن ما يدفع الله ببقائه أعظم مما ينفع بزواله، لا سيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه، والله الموفق.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في التهجير إلى الجمعة (الحديث رقم: 1094).

(2) قال أحمد: ولا دليل فيه، فإن العرب تسمى الشيء باسم بعض ما يشتمل عليه، كما سميت الصلاة: مرة قرأاً ومرة سجوداً ومرة ركوعاً؛ لأنها مشتملة على ذلك، فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على نكر الله سميت به، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه، لا سيما والمسمى خطبة عند العرب لا بدّ وأن يزيد على القدر الذي اكتفى به أبو حنيفة، قال بعض أصحاب مالك رحمه الله: أقلها حمد الله والصلاة على نبيه وتحنين وتبشير وقرآن.

(3) ابن أبي شيبة في المصنف 101/2 كتاب: الجمعة، باب: من قال لا جمعة ولا...

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (الحديث رقم: 1081).

(5) قال الزيلعي غريب 25/4.

من لم يأتها في أمصار المسلمين⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المنافقون مدنية

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَلَّهِ يَظُنُّ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَذِبُونَ^(١).

أرأيتما بقولهم: ﴿نشهد أنك لرسول الله﴾ شهادة وأطاعت فيها قلوبهم الاستتھم فقال الله عز وجل: قالوا ذلك ﴿والله يعلم﴾ أن الأمر كما يدل عليه قولهم: إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم: نشهد. وادعائهم فيه المواطأة⁽³⁾ أو إنهم لكاذبون فيه، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو أراد الله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم: إنك لرسول الله كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

فإن قلْتَ: أي فائدة في قوله تعالى: والله يعلم إنك لرسوله؟ قلْتَ: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون لكان يوهم أن قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله: والله يعلم إنك لرسوله ليميط هذا الإيهام.

أَتَخَذُوا آيَاتِنَا جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَوَّنُوا يَمْلُكُونَ^(٢).

﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ يجوز أن يراد أن قولهم: نشهد إنك لرسول الله يمين من إيمانهم الكاذبة، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد يقول الرجل: أشهد، وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله، في موضع أقسم وأولى. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن أشهد يمين⁽⁴⁾ ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين في استجنائهم بالإيمان وقرأ الحسن البصري: إيمانهم، أي: ما

ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح مع التوصية بإكثار الذكر وإن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وإن تكون همهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتفصسون عنه لأن فلاحهم فيه وفوزهم منوط به. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله، وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم، وقيل: صلاة التطوع. وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظراً في هذه الآية.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^(٣).

روي أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم حنيفة بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبى ﷺ يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشوا أن يسبقوا إليه فما بقي معه إلا يسير قيل: ثمانية وأحد عشر وأثنا عشر وأربعون فقال عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي نارا»^(١). وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو، وعن قتادة: «فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير».

فإن قلْتَ: فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع؟ قلْتَ: إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة فعند أبي حنيفة يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع، وعند صاحبيه إذا كبروهم معه مضى فيها وعند زفر إذا نفروا قبل التشهد بطلت.

فإن قلْتَ: كيف؟ قال: ﴿إليها﴾ وقد ذكر شيئين؟ قلْتَ: تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه. فحذف أحدهما لدلالة المنكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ انفضوا إليه، وقراءة من قرأ لهواً أو تجارة انفضوا إليها، وقرئ إليهما. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعده

= المطابقة، لا سيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، إلا تراهم كيف غاظوا أنفسهم متعاطين وليسوا على ضعفهم متجاهلين، عندما أنزل قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾.

(4) قال أحمد: أحد القولين عند مالك رحمه الله إذا قال: أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو بالله ولا بغيره، كما نقل عن أبي حنيفة أنه يمين، وليس بالمشهور أما لو نوى بالله وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال، وليس فيما نكره دليل على ما نكره، فإن قوله: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ غايته أن ما نكروه يسمى يميناً، وليس الخلاف في تسميته يميناً، وإنما الخلاف: هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا، وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسمياً يوجب حكماً، لا ترى أنه لو قال: أحلف ولم يقل بالله ولا بغيره، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به، وإن كان حلفاً لغة باتفاق؛ لأنه فعل مشتق منه.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة (الحديث رقم: 936)، ومسلم كتاب: الجمعة، باب: في قول الله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا قائما﴾ (الحديث رقم: 36 - 863)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6876)، وحديث كعب بن عجرة أخرجه مسلم في المصنر السابق (الحديث رقم: 39 - 864)، وأخرجه أبو داود في المراسيل. باب: الجمعة (الحديث رقم: 62).

(2) رواه الثعلبي وابن مريويه والواحدي في تفاسيرهم 29/4.

(3) قال أحمد: ومثل هذا من نمطه المليح، قوله: ﴿قالت الأعراب أمنا، قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا﴾ وقد كان المطابق لقوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أن يقال لهم: لا تقولوا أمنا، ولكنه لما كان موهماً للنهي عن قول الإيمان، عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ما سلم الكلام فيه من الوهم، وذلك أجل وأعظم من فائدة =

أَنْ يُزَكَّرَ ۚ ﴿٤﴾

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله:

﴿كَانَهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدٌ﴾؟ قُلْتُ: شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأنَّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبها به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم. والخطاب في رأيهم تعجيبك لرسول الله أو لكل من يخاطب. وقرئ: يسمع على البناء للمفعول وموضع كانهم خشب رفع على هم كانهم خشب، أو هو كلام مستأنف لا محل له، وقرئ: خشب جمع خشبة كبذرة وبن، وخشب كثرة وبثر، وخشب كمرة ومد، وهي في قراءة ابن عباس، وعن اليزيدي أنه قال في خشب: جمع خشبائه، والخشباء الخشبة التي دعر جوفها شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ثاني مفعولي يحسبون أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم⁽³⁾ وضارة لهم لجبنهم وعلعهم، وما في قلوبهم من الرعب إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم. وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهلك أستارهم ويبيح دماؤهم وأموالهم. ومنه أخذ الأخطل:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكرر عليهم رجلاً
يوقف على عليهم ويبتدا ﴿هم للعدو﴾ أي: الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدو المدجج الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء النوي ﴿فاحذرهم﴾ ولا تغتر بظاهرهم. ويجوز أن يكون هم العدو المفعول الثاني كما لو طرحت الضمير.

فَإِنْ قُلْتَ: فحقه أن يقال هي العدو قُلْتُ: منظور فيه إلى الخير كما نكر في هذا ربي وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. ﴿أَنْ يُوَفَّكَونَ﴾ كيف يعملون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا بَيْنَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أُرْسِلَ رَسُولٌ مِنْكُمْ

أظهروه من الإيمان بالسنتهم. ويعضده قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾⁽¹⁾ ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصددهم الناس عن سبيل الله، وفي ساء معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۚ ﴿٣﴾

ذلك إشارة إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِ﴾ سبب.

﴿إِنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستعجان بالإيمان أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ففسدوا على كل عظمة.

فَإِنْ قُلْتَ: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم⁽²⁾. فما معنى قوله: آمنوا ثم كفروا؟ قُلْتُ: فيه ثلاثة أوجه: أحدها آمنوا أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير. وقولهم في غزوة تبوك: أبطع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقبصر هيهات ونحوه قوله تعالى: يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم أي: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. والثاني آمنوا أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤْنَ﴾﴾⁽³⁾. والثالث أن يراد أهل الردة منهم. وقرئ: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ زيد بن علي: طبع الله كان عبد الله بن أبي رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً نلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستنلون فيه ولهم جهارة المناظرة وفصاحة الألسن⁽⁴⁾. فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْ خَشْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ فَازَتْهُمْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ

(1) سورة المنافقون، الآية: 3.

(2) قال أحمد: ويحتمل وجهاً رابعاً، وهو: أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المذكورة في التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة، ولعل في المنافقين يهوداً، وإن لم يكن فقد كان الإيمان قبل مبعثه من الفريقين اليهود وعبيدة الأوثان من العرب، إلى نزول قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كيف حكى الله تعالى عن الفريقين وما كانوا يقولونه والبينة النبي ﷺ.

(3) سورة البقرة، الآية: 14.

(4) قال أحمد: وفيما قال اليزيدي نظر من حيث مقتضى العربية، وإلا فهو متمكن المعنى، ذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءتين مستقيضتين، ففيه دليل أن أصلها الضم والسكون إنما هو طاري عليه تخفيفاً، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء؛ لأنَّ قياس جمعه فعل يسكون العين كحمرام وحمر، ولا يطرا الضم، فلو كان كما قال لم تضم شينها، والله تعالى أعلم.

(5) قال أحمد: وغلا المتنبي في المعنى فقال:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾.

وروي أنه قال له: «لئن لم تقرّ الله ورسوله بالعرض لأضربن عنقك، فقال: ويحك أفاعل أنت؟ قال: نعم فلما رأى منه الجِدَّ قال: أشهد أنّ العزة لله ورسوله وللمؤمنين فقال رسول الله لابنه «جرك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً»⁽⁴⁾. فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه ثم قال: أمرتوني أن أومن فأمنت، أمرتوني أن أزكي مالي فزكيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد»⁽⁵⁾ فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾. ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات.

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾.

﴿سواء عليهم﴾ الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتنون به لكفرهم أو لأن الله لا يغفر لهم، وقرئ: استغفرت على حذف حرف الاستفهام لأنّ لم المعاملة تدل عليه. وقرأ أبو جعفر: استغفرت، إشباعاً لهزمة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلباً لهزمة الوصل ألفاً كما في الأسحر والله.

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلْزَمُوا السَّعَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾.

﴿ينفضوا﴾ يتفرقوا، وقرئ: ينفضوا، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم، وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاولهم. ﴿وهه خزلن السموات والأرض﴾ وببيده الأرزاق والقسم فهو رازقهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفضوا عليهم، ولكن عبد الله واضربه جاهلون ﴿لا يفقهون﴾ ذلك فيهنون بما يزين لهم الشيطان. وقرئ: ليخرجن الأعز منها الأذل بفتح الياء وليخرجن على البناء للمفعول، وقرأ الحسن وابن أبي عبيدة: لنخرجن بالنون، ونصب الأعز والأذل. ومعناه: خروج الأذل أو إخراج الأذل أو مثل الأذل. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ مِنْهَا آلَافٌ وَلَوْ آلِافَةً وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿وهه العزة﴾ الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أنّ المذلة والهوان للشيطان ونويه من الكافرين والمنافقين، وعن

﴿لَوْوَا رؤوسهم﴾ عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً. قرئ: بالتخفيف والتشديد للكثير. روي أنّ رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم. أرحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسنان: يا للانصار؟ فأعان جهجاهاً جعال من فقراء المهاجرين ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعالم: وأنت هناك، وقال: ما صاحبنا محمداً إلا لنلطم، والله ما مثنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم احللتموهم بلانكم وقاسمتموهم أموالكم؟ أما والله لو أمسكتهم عن جعالم ونويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولا وشكوا أن يتحولوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال: أنت والله الذليل القليل الميغض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين. فقال عبد الله: أسكت، فإنما كنت اللعب. فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال: «إن ترعد انف كثيرة بيثرب». قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً، فقال: «فكيف إذا تحدث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه، وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله أنت صاحب الكلام الذي بلغني». قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيد الكاتب»⁽¹⁾. وهو قوله تعالى: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾⁽²⁾ فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصنق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. وروي أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا. قال: فلعله شبه عليك؟ قال: لا. فلما نزلت لحق رسول الله زيدا من خلفه فعرك أذنه وقال: «وفت أنك يا غلام إنّ الله قد صدقك وكتب المنافقين». «ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن عبد الله غير رسول الله اسمه. وقال: إنّ حباباً اسم شيطان. وكان مخلصاً وقال: وراك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل. فلم يزل حبيباً في يده حتى أمره رسول الله بتخليته»⁽³⁾.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: (يقولون لك لئن رجعنا...) (الحديث رقم: 4907).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره والواحدي في أسباب النزول ص 240 - 241.

(5) راجع الحديث 163.

(6) سورة المنافقون، الآية: 5.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ (الحديث رقم: 4901)، ومسلم في كتاب: في صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 2774/1)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المنافقين (الحديث رقم: 3313).

(2) سورة المجادلة الآية: 16.

وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة ﴿لَوْلَا أُخْرَتْنِي﴾ وقرئ: أخرتن، يريد هلا أخرت موتي ﴿إِلَى لَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليل ﴿فَاصْصِقْ﴾ وقرأ أبي فأتصق على الأصل. وقرئ: وأكن عطفًا على محل فاصصق كأنه قيل: إن أخرتني أصصق وأكن. ومن قرأ وأكون على النصب فعلى اللفظ. وقرأ عبيد بن عمير: وأكون على، وأنا أكون عدة منه بالصلاحي.

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ﴾ نفى للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه: منافاة النفي الحكمة، والمعنى: أنكم إذا علمتم أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه وأنه هاجم لا محالة وأن الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الوجبات والاستعداد للقاء الله، وقرئ: تعملون بالياء. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التغابن مدنية

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل، وذلك لأن الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه. وكذلك الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمله اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَعَمَرَكُمْ وَفَكَرَكُمْ مَوْتًا وَهُوَ اللَّهُ يُمَاتُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

﴿هو الذي خلقكم فعمركم وكافركم مؤمن﴾ يعني: فممنكم آت بالكفر وفاعل له وممنكم آت بالإيمان^(٢) وفاعل له. كقوله تعالى: ﴿وجعلنا في نريتهما النبوة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾^(٣) والليل عليه قوله تعالى:

بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألتست على الإسلام وهو العز الذي لا نذل معه، والغني الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيبًا، قال: ليس بتيب، ولكنه عزة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣﴾

وتلا هذه الآية: ﴿تلهيكم﴾ تشغلكم ﴿أموالكم﴾ والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها، والتهاكك على طلب النماء فيها بالتجارة والافتتال وابتغاء النجاج والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها. ﴿ولا أولادكم﴾ وسروركم بهم وشغفتكم عليهم والقيام بمؤنهم وتسوية ما يصلحهم من معاشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وألونه في جنب ما عند الله ﴿عن نكر الله﴾ وإثاره عليها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني وقيل: نكر الله الصلوات الخمس وعن الحسن: جميع الفرائض. كأنه قال: عن طاعة الله وقيل: القرآن. وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله ﷺ من في.

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَا تُؤَخِّرْني إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأُصَدِّقُكَ وَأَكْفُرُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤﴾

من في ﴿مما رزقناكم﴾ للتبويض والمراد الإنفاق الواجب ﴿من قبل أن يأتي لحنكم الموت﴾ من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الإنفاق ويغوث وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ما كان متمكنًا منه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل. وعنه: ما يمنع لحنكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسال ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه أنها نزلت في مانعي الزكاة ووالله لو رأى خيرًا لما سال الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله يسال المؤمنون الكرة. قال: نعم أنا أقرا عليكم به قرآنًا يعني: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها. وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سال الرجعة،

(١) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم والزليعي 4/37.

(٢) قال أحمد: لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً السالك فيه هالك والغابر فيه عائر، وإنما ينصب إلى مهاري الأراك ويحوم حول مراتع الإشراف، ويبحث ولكن على حثفه بظلفه ويتحنق، وما هو إلا يتشقق ويتحقق وما هو إلا يتفسق، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتطافرة على أن الله تعالى خالق كل شيء، واطرد له في الشاهد ما ادعاه ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق

= العبد الفاعل للعبية، وإن خلق العبد الفاعل للعبية بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر، وأن هذا تبعية شاهدة، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحاً في خلق الله تعالى، أقلاً يجوز أن يكون منطوياً على حكمة استأثر الله تعالى بعلمها، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استتبعها العقلاء مخلوقة لله تعالى، وفي خلقها حكمة استأثر الله تعالى بعلمها، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم ونفس اتباع الهوى هذا، ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد أن يمكن من القنات اختراط، ومن الجمل أن يلج في سم الخياط.

(3) سورة الحديد، الآية: 26.

منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان. نَبَهَ بعلمه ما في السموات والأرض.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُشِيرُونَ وَمَا تُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ عَزِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤).

ثم يعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم يعلمه نوات الصنور أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه ولا عازب عنه. فحقه أن يتقي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكل ما نكره بعد قوله تعالى: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (١) كما ترى في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته. فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملة، والخلق أعظم نعمة من الله على عباده، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم.

أَلَمْ يَأْكُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَكَلَّ أَمْرُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥).

﴿الم ياتكم﴾ الخطاب لكفار مكة.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَعْزُوبُونَ وَكُفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ عَزِيمٌ حَكِيمٌ (٦).

﴿وذلك﴾ إشارة إلى ما نكر من الويال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿بأنه﴾ بأن الشأن والحديث ﴿كانت تأتيهم رسلهم﴾ لبشر يهدوننا ﴿أنكروا أن تكون الرسل بشرًا﴾ ولم ينكروا أن يكون الله حجرًا ﴿واستغنى الله﴾ أطلق ليتناول كل شيء ومن جملة إيمانهم وطاعتهم.

فإن قلنا: قوله: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معاً (٢). والله تعالى لم يزل غنياً قلنا: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

رَعَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنْ يُعَذِّبُكَ اللَّهُ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ (٧).

الزعم ادعاء العلم ومنه قوله عليه السلام: «زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شيء كنية وكنية الكذب، زعموا» (٣) ويتعدى إلى المفعولين تعدي العلم قال:

ولم أزعمك عن ذاك معزلاً وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما والذين كفروا أهل مكة و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد لن وهو البعث ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي: لا يصرفه

﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعباً وتفرقتم أمماً فمنكم كافر ومنكم مؤمن. وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ومنكم مؤمن به.

فإن قلنا: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم، وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحداً؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيقاً باتراً لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرمة فقتل به مؤمناً. أما يطبق العقلاء على نم الواهب وتعينه والحق في فروته كما ينمون القاتل بل إنحاءهم باللوائم على الواهب أشد! قلنا: قد علمنا أن أفعاله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعلة فوجب أن يكون حسناً وإن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها.

عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْحَقُ بِهِمْ صُورُهُمْ فَتَرَاهُمْ أَشْهُباً مُتَهَيِّئَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٨).

﴿بالحق﴾ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم. ﴿وصورهم﴾ فاحسن صورهم. وقرئ: صورهم بالكسر لتشكروا. وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه.

فإن قلنا: كيف أحسن صورهم؟ قلنا: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاء ببليد أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿في أحسن تقويم﴾.

فإن قلنا: فكيف من دميم مشوه الصورة سمح الخلقة تقتحمه العين! قلنا: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب. فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاط بيئاً وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حده. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن

(3) قال الزليعي بهذا اللفظ 41/3.

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) قال أحمد: إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيماناً ولا قدرة عليه، فكان قادراً أن يخلق لهم الإيمان والقدرة عليه، وإنما حرّفها الزمخشري إلى قاعدته.

عنه صارف.

فَأَمَّا يَا أَيُّهَا رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾.

وعنى برسوله والنور محمداً ﷺ والقرآن.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَجْعَلْهُ جَنَّةً يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرُ ﴿١٠﴾.

وقرى: نجمعكم ونكفر ونخله بالياء والنون.

فإن قلنت: بم انتصب الطرف؟ قلت: بقوله: لتنبؤن أو
بخبير، لما فيه من معنى الوعيد، كانه قيل: والله معاقبكم يوم
يجمعكم أو بإضمار أنكر ﴿ليوم الجمع﴾ ليوم يجمع فيه
الأولون والآخرين. التغابن مستعار من تغابن القوم في
التجارة، وهو أن يغيب بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل
الاشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الاشقياء
منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا اشقياء، وفيه
تهكم بالاشقياء لأن نزولهم ليس بغيب، وفي حديث
رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من
النار لو أساء ليزداد شكراً وما من عبد يدخل النار إلا أرى
مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»^(١). ومعنى ﴿ذلك
يوم التغابن﴾ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم
استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في
أمر الدنيا. وإن جلت وعظمت ﴿صالحاً﴾ صفة للمصدر
أي: عملاً صالحاً.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿إلا بإذن الله﴾ إلا بتقديره ومشيئته كانه أذن للمصيبة
أن تصيبه ﴿يهدي قلبه﴾ يلفظ به ويشرحه للزيادة من
الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة، وعن
الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه،
وما أخطاه لم يكن ليصيبه، وعن مجاهد: إن ابتلى صبر
وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر. وقرئ: يهد قلبه على البناء
للمفعول والقلب مرفوع أو منصوب ووجه النصب أن يكون
مثل سغه نفسه أي: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى:
أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه والمؤمن واجد له مهتد
إليه كقوله تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾. وقرئ: نهدي قلبه
بالنون. ويهد قلبه بمعنى: يهتد، ويهد قلبه يطمئن، ويهد

ويهدأ على التخفيف ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما
يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه
ويمنعه.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ
الْمُبينُ ﴿١٢﴾.

﴿فإن توليتم﴾ فلا عليه إذا توليتم لانه لم يكتب عليه
طاعتكم إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَبَرَأَكِلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ بعث لرسول الله ﷺ
على التوكل عليه والتقوى به في أمره حتى ينصره على
من كذبه وتولى عنه. إن من الأزواج إزواجاً يعادين بعولتهن
ويخاصمنهن ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون
آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الفصص والأذى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَرْزَيْكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ
فَأَعْرِضْهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا فَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿فاحذروهم﴾ الضمير للعدي أو للأزواج والأولاد
جميعاً أي: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عتو فكونوا
منهم على حذر ولا تآمنوا غوائلهم وشرهم ﴿وإن تعفوا﴾
عنهم إذا طلعتهم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها
فإن الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل: إن ناساً
أرادوا الهجرة عن مكة فقبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا:
تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا، فلما هاجروا بعد
ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين أراؤا أن
يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو، وقيل: قالوا لهم:
أين تذهبون وتدعون ولكم وعشيرتكم وأموالكم؟ فغضبوا
عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم
بخير. فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا أن يعفوا عنهم
ويرثوا إليهم البر والصلة. وقيل: كان عوف بن مالك
الاشجعي ذا أهل وولد، فإذا أراد أن يغزو وتعلقوا به وبكوا
إليه ورقوه، فكانه هم بأذاهم فنزلت.

إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَبَرَأَ اللَّهُ عَنْهُ آبَاءُ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾.

﴿فتنة﴾ بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة
ولا بلاء أعظم منهما ألا ترى إلى قوله: ﴿والله عنده أجر
عظيم﴾ وفي الحديث يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: «أكل
عياله حسناته»^(٢). وعن بعض السلف العيال سوس

= والعشي (الحديث رقم: 1379) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة
نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار... (الحديث رقم:
65 - 2866).

(2) قال الزيلعي غريب مرفوعاً وهو في الحلية لأبي نعيم من قول
سفيان الثوري رواه في ترجمته 42/3.

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة
والنار (الحديث رقم: 6569) وعن أنس أخرجه البخاري في كتاب:
الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (الحديث رقم: 1338)
ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من
الجنة والنار عليه (الحديث رقم: 2870.70) وعن ابن عمر أخرجه
البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغةة =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطلاق مدنية

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِیَدِّهِنَّ وَأَصْرُوا أَلْمَدَّةَ وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحَةٍ مِّنْهُنَّ وَإِنَّكَ تُدْرِكُهُنَّ بِأَعْيُنِكَ وَأَنْتَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ وَلَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب^(٣) لَأَنَّ النبي إمام أمته وقنوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لتروسه وأنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدر عن رأيه ولا يستبشرون بأمر بونه، فكان هو وحده في حكم كلهم وساداً مسد جميعهم. ومعنى: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إذا أردتم تطليقهن وهن منكم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٤) ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمُنْتَظَر لها في حكم المصلي ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن^(٥) كقولك: أتيت له ليلة بقيت من المحرم أي: مستقبل لها، وفي قراءة رسول الله ﷺ: في قبل عدتهن وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبل لعدتها، والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه^(٦)، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعد من الندم. ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أَنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون

الطاعات، وعن النبي ﷺ «أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجره على المنبر فقال: صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَاكُمْ فَنَفْسُكُمْ﴾، رايته هذين الصبيين فلم أصبر عنهما ثم أخذ في خطبته^(١). وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ جهنكم ووسعكم أي: اقبلوا فيها استطاعتكم ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما تأمرون به وتنهون عنه ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ نصب بمحذوف تقديره اتقوا خيراً لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفع. وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لَأَنَّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِنْ تَرَوْهُا فَقَدْ وَصَّاهَا بِعَيْنَيْكُمْ لَكُمْ وَتَمَرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

ونكر القرض تطف في الاستدعاء. ﴿يُضَاعَفُهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشر أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه ﴿شُكُورٌ﴾ مجاز أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب. وكذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التغابن نفع عنه موت الفجأة»^(٢).

الإقراء الحيض، ولا يتم له ذلك، فقد استدل أصحابنا بالقراءة = المستفيضة، واكدوا الدلالة بالشاذة على أن الإقراء الإظهار، ووجه الاستدلال لها على ذلك: أَنَّ الله تعالى جعل العدة وإن كانت في الأصل مصدرًا ظرفًا للطلاق المأمور به، وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً، مثل: خفوق النجم ومقدم الحاج، وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به وزمانه هو الطهر وفاقاً، فالطهر عدة إذاً، ونظير اللام هنا على التحقيق اللام في قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قُتِلْتُ لِحَيَاتِي﴾ وإنما تمنى أن لو عمل عملاً في حياته، وقرأته عليه السلام في قبل عدتهن تحقق ذلك. فإن قيل: الشيء جزء منه ودخل فيه، وفي صفة مسح الرأس فاقبل بهما والبر، أي: مسح قبل الرأس وهو مقدمها، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر.

(٦) قال أحمد: الأمر كما نقله وضابط السنة عند مالك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة، والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعاً، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره العقيد بالاستقبال، فلأن الطلاق المأمور به أي المأثور فيه في الآية مقيد بوقت تكون العدة مستقبل بالنسبة إليه، وهذا يابى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها، وأما على تأويلنا؛ فلأنه مقيد بزمان يكون أولاً للعدة وقبلها لها، وهذا يابى من وقوعه مرافقاً في الطهر الثاني والثالث، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت =

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث (الحديث رقم: 1109)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين (الحديث رقم: 3774)، والنسائي في كتاب: الجمعة، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (الحديث رقم: 1412)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: ليس الأحمر للرجال (الحديث رقم: 3600)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الفرائض، باب: نوي الرحم، (الحديث رقم: 6039)، أخرجه الحاكم في المستدرک 1/287.

(2) الثعلبي والواحدي وابن مريويه في تفسيرهم زيلعي 44/6.

(3) قال أحمد: وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى إلى حكاية عن فرعون ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى﴾ فافرد موسى عليه السلام بالنداء؛ لأنه كان لجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب، وقد تقدم فيه وجه آخر.

(4) تقدم في سورة البقرة.

(5) قال أحمد: حمل القرامتين المستفيضة والشاذة على أن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبل بالنسبة إليه، وأدعى أن ذلك معنى المستقبل فيها، ونظر اللام فيها باللام في قوله: مؤرخاً الليلة لليلة بقيت من المحرم، وإنما يعني: أن العدة بالحيض، كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أن =

والصغائر والحوامل فكيف صح تخصيصه بذوات الإقراء المدخول بهن! قُلْتُ: لا عموم ثم ولا خصوص، ولكن النساء اسم جنس للإنثى من الإنس وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك، فلما قيل: «فطلقوهن لعنتهن» علم أنه أطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض **﴿وألحسوا العدة﴾** واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبليات⁽⁶⁾ كوامل لا نقصان فيهن **﴿ولا تخرجوهن﴾** حتى تنقضي عنتهن **﴿من بيوتهن﴾** من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة وهي بيوت الأزواج واضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى.

فإن قُلْتُ: ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن؟ قُلْتُ: معنى الإخراج أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو حاجة لهم إلى المساكن. وأن لا يأنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيداً بأن إذهبنه لا أثر له في رفع الحظر ولا يخرجن بأنفسهن إن أرين ذلك **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** قرئ: بفتح الياء وكسرهما قيل: هي الزنى يعني: إلا أن يزينن فيخرجن لإقامة الحد عليهن. وقيل: إلا أن يطلقن على النشوز، والنشوز يسقط حقها في السكنى، وقيل: إلا أن يبنون، فيحل إخراجهن لبدائهن، وتؤكد قراءة أبي إلا أن يفحش عليكم. قيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه الأمر الذي يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فليراجعها والمعنى: فطلقوهن لعنتهن وأحصوا العدة لعلمكم ترغبن وتندمون فتراجعن.

إِذَا بَلَغَ الْهُجْرَ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَرْوٍ أَوْ فَارِثُوهُنَّ بِمَرْوٍ وَأَنْهَدُوا ذَوْقَ عَذْلِ يَنْكِرُ وَأَقِمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يَرْغَبُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَنْكِحَ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا.

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ وهو آخر العدة وشارفنه، فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمسك بالمعروف والإحسان، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرر وهو أن يراجعها في آخر عنتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها **﴿وأشهدوا﴾** يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً وهذا الإشهاد منسوب إليه عند أبي حنيفة كقوله: **﴿وأشهدوا﴾**

أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة. وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة. وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد فاما مفراً في الأطهار فلا، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض ما هكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة⁽¹⁾، وروي أنه قال لعمر: مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء⁽²⁾. وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده.

فإن قُلْتُ: هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ قُلْتُ: نعم وهو آثم. لما روي عن النبي ﷺ أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه، فقال: أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم⁽³⁾؟ وفي حديث ابن عمر أنه قال: يا رسول الله أرايت لو طلقها ثلاثاً، فقال له: إن عصيت وبانت منك امرأتك⁽⁴⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً وأجاز ذلك عليه⁽⁵⁾. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فالوقعه في حيض أو ثلث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف.

فإن قُلْتُ: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها! قُلْتُ: الصغيرة والأيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا واحدة، وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعي الوقت.

فإن قُلْتُ: هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ قُلْتُ: اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا والظاهر الكراهة.

فإن قُلْتُ: قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من نوات الإقراء والآيسات

(3) أخرجه السنائي في كتاب: الطلاق باب: الثلاث المجموعة وما فيه من التقليل (الحديث رقم: 3401).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 332/6 (الحديث رقم: 1065) وابن أبي شيبة 11/5 كتاب الطلاق باب من كره أن يطلق النخ.

(6) قال أحمد، وقوله: «واتقوا الله ربكم» توطئة لقوله: «لا تخرجوهن من بيوتهن» حتى كانه نهى عن الإخراج مرتين، مندرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وقد تقدمت أمثاله.

= فلا جرم، قال: إن طلقها في الحيض أجبر على الرجعة، فإن أبي ارتجع عليه الحاكم، وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أريف الطلاق لم يجبره.

(1) الدارقطني في كتاب الطلاق (الحديث رقم: 6).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: قول الله تعالى: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعنتهن» (الحديث رقم: 5251) ومسلم في كتاب: الطلاق باب: تحريم طلاق الحائض (الحديث رقم: 1471/1).

مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً، فأتى رسول الله فقال: أسر ابني. وشكا إليه الفاقة، فقال: ما أمسى عند آل محمد إلا مد فائق الله واصبر وأكثر من قول لا حول لا قوة إلا بالله ففعل، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت هذه الآية⁽⁶⁾ ﴿بَالِغٌ أَمْرِهِ﴾ أي: يبلغ ما يريد لا يقوته مراد ولا يعجزه مطلوب وقرئ: بالغ أمره بالإضافة وببالغ أمره بالرفع أي: نافذ أمره، وقرأ المفضل بالغاً أمره على أن قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾ خبر إن وبالفعل حال ﴿قَدْ رَأَى﴾ تقديرًا وتوقيفًا وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه⁽⁷⁾ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيفه لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

وَأَلَيْسَ يَسَّرَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ سَائِرِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَيَذَرُكُمْ تَرْكُهُ أَشْهَرُ وَأَلَيْسَ لَمْ يَحْضَنْ وَأَزَلَّتْ أَلْحَمَلُ أَجْلُهُمْ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤١.

روي أن ناساً قالوا: قد عرفنا عدة نوات الاقراء فما عدة اللائي لا يحضن. فنزلت فمعنى ﴿إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدن فهذا حكمهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة. ﴿فَعَنَّتَهُنَّ﴾ ثلاثة أشهر، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ هن الصغائر المعنى فعننهن ثلاثة أشهر فحذف لدلالة المنكور عليه. اللفظ مطلق في أولات الاحمال فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن وكان ابن مسعود وإبي وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون، وعن علي وابن عباس: عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الاجلين⁽⁸⁾، وعن عبد الله: من شاء لاعنته أن سورة النساء القصصى نزلت بعد التي في البقرة⁽⁹⁾ يعني: أن هذا اللفظ مطلق في الحوامل. وروت أم

إذا تبايعتم⁽¹⁾ وعند الشافعي: هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها ولثلا يموت أحدهما فيدعى الباقي ثبوت الزوجية ليرث ﴿منكم﴾ قال الحسن: من المسلمين، وعن قتادة: من أحراركم ﴿لَهُ﴾ لوجهه خالصاً وذلك أن تقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ونبع الظلم كقوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ﴿نُكَلِّمُ﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعِظُ بِهِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة وطريقة الأحسن والأبعد من الندم، ويكون المعنى: ومن يتق الله فطلق للسنة، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فاشهد ﴿بِجَعْلِ﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجًا﴾ مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص.

وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٤٢.

﴿وَيُزَوِّجُهُ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقيل: ماله، وعن النبي ﷺ أنه سئل عمن طلق ثلاثاً أو ألفاً هل له من مخرج فتلاها⁽³⁾. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال: لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجاً بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند نكر قوله: ﴿نُكَلِّمُ يُوَعِظُ بِهِ﴾ يعني: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قرأها فقال: مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شداثد يوم القيامة⁽⁴⁾. وقال عليه السلام: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله فما زال يقرؤها ويعيدها⁽⁵⁾». وروي أن عوف بن

= وقعت بدونها، وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لمخالفتها للإرادة الربانية تأثير في منع وقوعها، فمن يتوغل في ادغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذي يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل، فمهما أرادته وقع ومهما لم يرد له لم يقع شاء العبد أو أبى فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والعبد مجرى لحنوت الكائنات الواقعة بقدرته الله تعالى وإرادته لا غير، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، فما القدي من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحلة الإنصاف وزاد التقوى، ولبيل التوفيق والله حسبنا ونعم الوكيل.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطلاق باب: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الحديث رقم: 4909).

(9) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة البقرة، باب: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ﴾ (الحديث رقم: 4532)، وأبو داود في كتاب: الطلاق باب: في عدة الحامل (الحديث رقم: 2307)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها (الحديث رقم: 3522).

(1) سورة البقرة، الآية: 282.

(2) سورة النساء، الآية: 135.

(3) الدارقطني في السنن 20/4 (الحديث رقم: 53).

(4) أبو نعيم في الحلية في ترجمة قتادة والشعبي في تفسيره والواحدي في تفسيره الوسيط زيلعي 50/4.

(5) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (الحديث رقم: 4220).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 492/2.

(7) قال أحمد: ليس بعشك فأنرجي إبراء القدي، وابن التسليم للقدر، وليس هذا نينه ولا معتقده، من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام، فمنها: ما يريد الله تعالى وجوده، وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها، ومنها: ما يريد عدمه، وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده، ومنها: ما لا يريد عدمه ولا وجوده، فإن وجد فيغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك، فيتحصل من هذا الهينان الذي لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق؛ لأنها لا تقع إلا بها، فإن وافقت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعاً لها؛ لأنها =

والنفقة⁽⁵⁾، «ولا تضاروهن» ولا تستعملوا معهن الضرار «لنضيّقوا عليهن» في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل: هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها، وقيل: هو أن يلجئها إلى أن تفتدي منه.

فإن قلّت: فإذا كانت كل مطلقة عنكم تجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله: «وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن»؟ قلّت: فائدته أن مدة الحمل ربما طالعت فظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل فنفي ذلك الوهم.

فإن قلّت: فما تقول في الحامل المتوفى عنها؟ قلّت: مختلف فيها فأكثروهم على أنه لا نفقة لها لوقوع الإجماع على أن من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته فكذلك الحامل. وعن علي وعبد الله وجماعة أنهم أوجبوا نفقتها «فإن أرضعن لكم» يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية «فأتوهن لجورهن» حكمهن في ذلك حكم الأظفار، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبين ويجوز عند الشافعي. الائتمار بمعنى التآمر كالاشتورار بمعنى التشاور يقال: اتئمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً، والمعنى: وليأمر بعضهم بعضاً، والخطاب للأبّاء والأمهات «بمعروف» بجميل وهو المسامحة وإن لا يملكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما معاً وهما شريكان فيه وفي وجوب الاشفاق عليه. «وإن تعاسرتم فسترضعن له أخرى» فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة. كما تقول لمن تستقصيه حاجة⁽⁶⁾ فيتوانى سيقضيها غيرك تريد لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم وقوله له: أي للأب أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه.

لِنُفِقَ ذُو سَمَرٍ مِّن سَعْيٍ وَمَنْ قَرَّ عَليَّ رَفَعَهُ فَلْيُنْفِقْ وَمَا أُنِيتُ اللَّهُ لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ شَيْئاً إِلَّا مَا أَنْتَ سَاجِدٌ لِلَّهِ بَعْدَ عَرِّ شِرِّكَ (٧).

«لينفق» كل واحد من المومس والمعسر ما بلغه

سلمة أن سبعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليلال فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لها: قد حلت فانكحي⁽¹⁾ «يجعل له من امره يسراً» ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى.

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ بَنَى اللَّهَ يَكْفُرَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَرِطَمَ لَهُ أَبْرًا (٥).

«ذلك أمر الله» يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات والمعنى: ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرر والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

أَتَيْكُم مِّن حَيْثُ سَكَّرْتُمْ مِنْ وَبَيْكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمْلًا فَلْيَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَرُوا بِتَكْرِمْهُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ فَتَرْضَعْنَ لَهُ أُخْرَى (٦).

«أسكنوهن» وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله: «ومن يتق الله»⁽²⁾ كأنه قيل: كيف تعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقيل: أسكنوهن.

فإن قلّت: من في «من حيث سكنتم» ما هي؟ قلّت: هي من التبعية مبعضها محظوف معناه أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم أي: بعض مكان سكناكم كقوله تعالى: «يغضوا من أبصارهم»⁽³⁾ أي: بعض أبصارهم، قال قتادة: إن لم يكن إلا بيت واحد فأسكنها في بعض جوانبه.

فإن قلّت: فقوله: «من وجحكم»! قلّت: هو عطف بيان لقوله: «من حيث سكنتم» وتفسير له كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه والوجد الوسع والطاقة. وقرئ: بالحركات الثلاث والسكنى والنفقة واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك والشافعي: ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها، وعن الحسن وحماة: لا نفقة لها ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها أبت طلاقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»⁽⁴⁾. وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعليها نسيت أو شبه لها سمعت النبي ﷺ يقول لها: السكنى

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: «أولات الأحمال أجلهن...» (الحديث رقم: 5318)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها (الحديث رقم: 57 - 1485).

(2) سورة الطلاق، الآية: 4.

(3) سورة النور، الآية: 30.

(4) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (الحديث: 36 - 1480).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها =

(6) قال أحمد: وخص الأم بالمعاتبة؛ لأن المبتول من جهتها هو لبنها لولدها، وهو غير متمول ولا مضمون به في العرف، وخصوصاً في الأم على الولد، ولا كذلك المبتول من جهة الأب فإنه المال المضمون به عادة، فالأم إذا أجدى بالولم وإحق بالعقب، والله أعلم.

وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات كما قال: ﴿ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾⁽¹⁾ وقرئ: ليفنق بالنصب، أي: شرعنا ذلك ليفنق. وقرأ ابن أبي عبيدة قدر ﴿سيجعل الله﴾ موعدا لفقراء ذلك الوقت يفتح أبواب الرزق عليهم أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

وَكَايْنِ يَنْ قَرِيْبَهُ عَنَّتْ عَنْ أُمِّي رَبِّيَا وَرُسُلِهِ مَمَاتِيْنَهَا حَسَابًا شَدِيْدًا وَطَبَقَهَا عَذَابًا نَكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَكَأَلَتْ أَشْرَهَا وَكَأَلَتْ عَنِيَّةُ أَشْرَهَا خَيْرًا (٩).

﴿عنت عن أمر ربها﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿حساباً شديداً﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿عذاباً نكراً﴾ وقرئ: نكر منكرًا عظيمًا، والمراد حساب الآخرة وعذابها وما ينوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾⁽²⁾ ﴿ونادى أصحاب النار﴾⁽³⁾.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلِ الْكَاذِبُ الْإِنِّي مَأْمُرًا قَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠).

ونحو ذلك لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكان قد وقوله: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقباً كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ﴿يا لولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه، ويجوز أن يراد حصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظ وما أصيبوا به من العذاب في العاجل. وأن يكون عنت وما عطف عليه صفة للقرية وأعد الله لهم جواباً لكائن.

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحِلُّوا الْمُنَافِقِينَ إِلَى الْأُثُرِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ كَفَرَ اللَّهُ لِمَنْ رَفَقًا (١١).

﴿رسولاً﴾ هو جبريل صلوات الله عليه أبداً من نكراً لأنه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال النكر⁽⁴⁾ فصح إبداله منه، أو أريد بالنكر الشرف. من قوله: ﴿ولأنه لنكر لك ولقومك﴾ فأبدل منه كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أو جعل لكثرة نكره لله وعبادته كأنه نكر أو أريد ذا نكر أي: ملكاً

منكوراً في السموات وفي الأمم كلها، أو دل قوله: أنزل الله إليكم نكراً علي أرسل فكانه قيل: أرسل رسولاً أو أعمل نكراً في رسولاً إعمال المصدر في المفاعيل. أي: أنزل الله أن نكر رسولاً أو نكره رسولاً، وقرئ: رسول على هو رسول. أنزل ﴿ليخرج الذين آمنوا﴾ بعد إنزاله أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ، أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون. قرئ: يدخله بالياء والنون ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْثَرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢).

﴿الله الذي خلق﴾ مبتدا وخبر. وقرئ: مثلهن بالنصب عطفًا على سبع سموات، وبالرفع على الابتداء وخبره من الأرض. قيل: ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه. وقيل: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وغلط كل سماء كذلك، والأرضون مثل السموات ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن، وعن قتادة: في كل سماء وفي كل أرض من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضاؤه وقيل: هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره. وقرئ: ينزل الأمر. وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأل هل تحت الأرضين خلق؟ قال: نعم. قال: فما الخلق؟ قال: إما ملائكة أو جن ﴿لتعلموا﴾ قرئ: بالتاء والياء عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ»⁽⁵⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التحريم مدنية

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِوَايَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١).

روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها: اكتمي علي وقد حرمت مارية على نفسي⁽⁶⁾ وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان

(6) قال أحمد: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي ﷺ تقول وإفتراء، والنبي ﷺ منه براء، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين، اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمة الله عز وجل، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمه الإيمان، وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه. الثاني: الامتناع مما أحله عز وجل وحمل التحريم بمجرده صحيح، لقوله: ﴿وحرمتنا عليه المراضع من قبل﴾ أي: منعنا لا

(1) سورة البقرة، الآية: 236.
(2) سورة الأعراف، الآية: 44.
(3) سورة الأعراف، الآية: 50.
(4) قال أحمد: وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولاً، إما بالفعل المحنوف أو بالمصدر، وعلى الأربعة المتقدمة بدلاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(5) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي 4/55.

فإن قُلْتُ: ما حكم تحريم الحلال؟ قُلْتُ: قد اختلف فيه فابو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثاً فكما نوى. وإن قال: نويت الكذب دين فيما بينه وبين الله تعالى ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو إلا فعلى ما نوى. ولا يراه الشافعي يميناً ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده. وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم أنّ الحرام يمين⁽⁷⁾، وعن عمر إذا نوى الطلاق فرجعي، وعن علي رضي الله عنه ثلاث⁽⁸⁾، وعن زيد واحدة بائنة. وعن عثمان ظهار. وكان مسروق لا يراه شيئاً ويقول: ما بأبي أحرمتها أم قصعة من ثريد، وكذلك عن الشعبي قال: ليس بشيء محتجاً بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾⁽⁹⁾ وقوله تعالى: ﴿تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾⁽¹⁰⁾ وما لم يحرمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرمه ولا أن يصير بتحريمه حراماً. ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما أحله الله هو حرام عليّ وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله عليه السلام: «والله لا أقرّبها بعد اليوم». فقيل له: لم تحرم ما أحلّ الله لك، أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: قدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك ونحوه قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾⁽¹¹⁾ أي

بعدي أمر أمّي فأخبرت به عائشة وكانت متصادقتين⁽¹⁾ وقيل: خلا بها في يوم حفصة فأرضاهما بذلك واستكتمها فلم تكتم⁽²⁾ فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية⁽³⁾ وروي أنّ عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة⁽⁴⁾ وروي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله ﷺ يكره الثقل فحرم العسل⁽⁵⁾ فمعناه: ﴿لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين أو العسل و﴿تبتغي﴾ إما تفسير لتحرم أو حال أو استئذان وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله لأنّ الله عزّ وجلّ إنما أحلّ ما أحلّ لحكمة ومصصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة «والله غفور» قد غفر لك ما زلت فيه «رحيم» قد رحمك فلم يؤاخذك به.

قد فرض الله لكؤيلاً لئلا يبتغيكم والله مزلزلة وهو العليم الحكيم^(٦).

قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم فيهما: أحدهما قد شرع الله لكم الاستثناء في إيمانكم من قولك: حل فلان في يمينه، إذا استثنى فيها. ومنه حلّ آبيت اللعن بمعنى استثنى في يمينك إذا أطلقها وذلك أن يقول: إن شاء الله عقبيها حتى لا يحدث. والثاني قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة ومنه قوله عليه السلام: لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم⁽⁶⁾. وقول ذي الرمة: قليلاً كتليل الألي.

- (1) الطبراني في معجمه.
- (2) قال الزيلعي غريب. ورواه ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن سعد في الطبقات ثم ساق الحديثين 61/4.
- (3) لم يخرج الزيلعي.
- (4) الحاكم في المستدرک 15/4.
- (5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة التحريم باب: «يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك...» (الحديث رقم: 4912)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امراته ولم ينو الطلاق (الحديث رقم: 20 - 1474).
- (6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحسبه (الحديث رقم: 150 - 2632).
- (7) حديث أبي بكر رواه ابن أبي شيبة 74/5 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث عمر رواه ابن أبي شيبة 73/5 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث ابن عباس رواه مسلم في كتاب: الطلاق باب: وجوب الكفارة على من حرم امراته... (الحديث رقم: 18 - 1473)، وحديث ابن مسعود رواه عبد الرزاق في المصنف 401/6 (الحديث رقم: 11364)، وحديث زيد لم يخرج الزيلعي.
- (8) رواه عبد الرزاق في المصنف 404/6 (الحديث رقم: 11390).
- (9) سورة النحل، الآية: 116.
- (10) سورة المائدة، الآية: 87.
- (11) سورة القصص، الآية: 12.

= غير، وقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف حلال ومحض، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال، فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح بعضه، فإن النبي ﷺ حلف بالله «لا أقرب مارية» ولما نزلت الآية كفر عن يمينه، ويدل عليه «قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم» وقال مالك في المونة عن زيد بن أسلم: إنما كفر النبي ﷺ في تحريمه أم ولده؛ لأنه حلف أن لا يقربها، ومثله عن الشعبي، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح، وإنما قيل له: ﴿لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ رفقا به وشفقة عليه، وتوحيها لقره ولمنصبه ﷺ أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه، ورفع عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه، ومن أجله خلقوا ليظهر الله كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه، والزمخشري قطعاً لم يحمل التحريم على هذا الوجه؛ لأنه جعل زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول، ومعاذ الله وحاش لله وأنّ أحاد المؤمنين حاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحلّ الله له، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله، وإطلاق القول من غير تحرير، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير، نعوذ بالله من ذلك، وهو المسؤول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيماً لبنينا صلوات الله عليه، وأن يجنبنا خطوات الشيطان ويقبلنا من عثرات اللسان آمين.

حريصاً على أن أسال عمر عنهما حتى حج وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل وعملت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده فتوضأ فقلت: من هما؟ فقال: عجبا يا ابن عباس. كأنه كره ما سألته عنه، ثم قال: هما حفصة وعائشة⁽⁴⁾. **﴿فقد صغت قلوبكما﴾** فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حب ما يحبه وكرامة ما يكرهه، وقرأ ابن مسعود: فقد زانفت **﴿وإن تظاهرا﴾** وإن تعاونوا **﴿عليه﴾** بما يسوءه من الإقراط في الغيرة وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهاه، وكيف يعلم المظاهر من الله مولاة أي: وليه وناصره، وزيادة هو إيدان بأن نصرته عزيمة من عزائمه وأنه يتولى ذلك بذاته. **﴿وجبريل﴾** رأس الكروبيين وقرن نكره بنكره مفرداً له من بين الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته عنده **﴿وصالح المؤمنين﴾** ومن صلح من المؤمنين يعني: كل من آمن وعمل صالحاً، وعن سعيد بن جبير: من برئ منهم من النفاق وقيل: الاتبياء، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء منهم.

فإن قلت: صالح المؤمنين واحد أم جمع؟ **قلت:** هو واحد أريد به الجمع، كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس، تريد الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم، ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر، ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ بوزن وضع الخط **﴿والملائكة﴾** على تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم **﴿بعد ذلك﴾** بعد نصرة الله وناموسه وصالحي المؤمنين **﴿ظهري﴾** فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاينيه، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهرأوه.

فإن قلت: قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم! **قلت:** مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله فكانه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى لفضلهم على جميع خلقه. وقرئ: تظاهرا وتظاهرا وتظاهرا.

عَنْ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَزْوَاجُ خَيْرٍ مِنْكَ مُؤْمِنَاتٍ مَوَدَّاتٍ قَبْلَكَ عِذَاتٍ سَخِيحَاتٍ تَبَيَّنَ وَأَبْكَارًا (٥).

قرئ: يبيله بالتخفيف والتشديد للكثرة **﴿مسلمات مؤمنات﴾** مقررات مخلصات **﴿سائحات﴾** صائحات وقرئ: سيحات، وهي أبلغ، وقيل للصائم: سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به

منعناه منها وظاهر قوله تعالى: **﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾** أنه كانت منه يمين.

فإن قلت: هل كفر رسول الله ﷺ لذلك؟ **قلت:** عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تاخر⁽¹⁾ وإنما هو تعليم المؤمنين، وعن مقاتل أن رسول الله ﷺ اعتق رقبة في تحريم مارية⁽²⁾.

﴿والله مولاكم﴾ سيحكم ومتولي أموركم **﴿وهو للعليم﴾** بما يصلحكم فيشرعه لكم **﴿الحكيم﴾** فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة، وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته انفع لكم من نصائحكم لأنفسكم.

وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَبِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّتْ يَدَهُ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَاكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْمَلِئُكَ الْخَبِيرُ (٦).

﴿بعض أزواجه﴾ حفصة والحديث الذي أسر إليها حديث مارية. وإمامة الشيخين **﴿نبات به﴾** افشته إلى عائشة وقرئ: أنبات به **﴿وظاهره﴾** وأطلع النبي عليه السلام **﴿عليه﴾** على الحديث أي: على إفشائه على لسان جبريل، وقيل: أظهر الله الحديث على النبي ﷺ من الظهور **﴿عرف بعضه﴾** أعلم ببعض الحديث تكريماً، قال: سفيان ما زال التغافل من فعل الكرام، وقرئ: عرف بعضه أي: جاز عليه من قولك للمسيء: لا أعرفن لك ذلك، وقد عرفت ما صنعت، ومنه أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم وهو كثير في القرآن. وكان جزأوه تليلقه إياها وقيل: المعروف حديث الإمامة والمعرض عنه حديث مارية، وروي أنه ﷺ قال لها: «الم اقل لك اكنمي علي»، قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها إياها.

فإن قلت: هلا قيل: فلما نبات به بعضهن وعرفها بعضاً! **قلت:** ليس الغرض ببيان من المذاع إليه ومن المعروف وإنما هو ذكر جنابة حفصة في وجود الإنبياء به وإفشائه من قبلها، وأن رسول الله ﷺ بكرمه وحلمه لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه وهو حديث الإمامة ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله: **﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا﴾**⁽³⁾ نكر المنبأ كيف أتى بضميره.

إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَدًّ ذَٰلِكَ عَلَيْهِ (٧).

﴿إن تتوبا﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، وعن ابن عباس: لم ازل

(3) سورة التحريم، الآية: 3.

(4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (الحديث رقم: 2468).

(1) أخرجه أبو داود في المرسلين، باب في الحرام (الحديث رقم: 240).

(2) لم يخرج الزيلعي، وقال المحقق ورد من حديث أنس عن ابن مربيوه راجع الدر المنثور 6/240، [64/4].

معاً على لفظ المخاطب ﴿نَارًا وَقُودًا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ﴾^(١) نوعاً من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي حجارة الكبريت وهي أشد الأشياء حرّاً إذا أوقد عليها وقرئ: وقودها بالضم أي: نو وقودها ﴿عليها﴾ يلي أمرها وتعنيب أهلها ﴿ملائكة﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غلاظ شداد﴾ في أجرامهم غلظة وشدة أي: جفاء وقوة أو في أفعالهم جفاء وخشونة لا تأخذهم رافة في تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه ﴿ما أمرهم﴾ في محل النصب على البذل أي: لا يعصون ما أمر الله أي: أمره كقوله: أفعصيت أمري أو لا يعصونه فيما أمرهم.

فإن قلّلت: اليست الجملتان في معنى واحد؟ قلّلت: لا فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون بها ولا يأتونها^(٢) ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤبسون ما يؤمرون به لا يتأقّلون عنه ولا يتوانون فيه.

فإن قلّلت: قد خاطب الله المشركين المكذّبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾^(٣) وقال: ﴿اعنت للكافرين﴾^(٤) فجعلها معدّة للكافرين فما معنى مخاطبته به المؤمنين؟ قلّلت: الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنهم مساكنون للكفار في دار واحد فقيل: للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين اعنت لهم هذه النار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقّي من الارتداد والندم على الخول في الإسلام وإن يكون خطاباً للذين آمنوا بالسنّتهم وهم المنافقون ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره.

يَأْتِيَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنْزُكُمْ سَكُونًا ﴿٧﴾
﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتدوا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتدوا لأنه لا عذر لكم أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره، وقيل: سائحات مهاجرات. وعن زيد بن أسلم لم تكن في هذه الأمة سياحة إلا الهجرة.

فإن قلّلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهم ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟ قلّلت: إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه ورضاه خيراً منهم، وقد عرض بذلك في قوله: قانتات لأنّ القنوت هو القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله.

فإن قلّلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف^(١) ووسط بين الثيبات والابكار؟ قلّلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بد من الواو.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْكَ مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَصْرُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

﴿قوا أنفسكم﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وأهليكم﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم وفي الحديث رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعهم معي في الجنة^(٢) وقيل: إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله وقرى وأهلوك^(٣) عطفاً على وأوقروا وحسن العطف للفاصل.

فإن قلّلت: اليس التقدير قوا أنفسكم وليق أهلوك أنفسهم؟ قلّلت: لا ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده فكانه قيل: قوا أنتم وأهلوك أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما

- (٢) قال الزيلعي غريب 66/4.
(٣) قال أحمد: ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، كأنه قال: قوا أنتم وأهلوك أنفسكم، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة. ثم قال: فإن قلت قوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ اليس الجملتان في معنى واحد؟ والجواب: بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون بالأوامر ولا يأتونها.
(٤) قال أحمد: جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانته من هذا الباطل، نعوذ بالله منه، وإلا فالسؤال غير وارد، فإنه لا يمتنع أنّ المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان، كقوله في آل عمران خطاباً للمؤمنين: ﴿واتقوا النار التي اعنت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.
(٥) سورة البقرة، الآية: 24.
(٦) سورة البقرة، الآية: 24.

- (١) قال أحمد: وقد نكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحلاج رحمه الله أنّ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي الكاتب رحمه الله كان يعتقد أنّ الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية؛ لأنها تكررت مع الصفة الثامنة، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ عند قوله: ﴿والناهيون عن المنكر﴾ والثانية في قوله: ﴿ويؤاخذونهم كلبهم﴾ والثالثة في قوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ قال الشيخ أبو عمرو بن الحلاج: ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه، إلى أن نكره يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقرّي فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل، وأحال البيان على المعنى الذي نكره الرّمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا، لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للإشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة، فأنصفه القاضي رحمه الله واستحسن ذلك منه، وقال: أرشدتنا يا أبا الجود.

نورهم ﴿على الصراط﴾ **﴿اتمم لنا نورنا﴾** قال ابن عباس: يقولون ذلك: إذا طغى نور المنافقين إشفاقاً، وعن الحسن الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله كقوله تعالى: **﴿واستغفر للنبي﴾** (١) وهو مغفور له وقيل: يقوله أنفاهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً وقيل: السابقون إلى الجنة يمزون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبواً وزحفاً فالولئك الذين يقولون ربنا اتمم لنا نورنا.

فإن قلنت: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون أم من يأتي أمنا يوم القيامة لا خوف عليهم لا يحزنهم الفزع الأكبر أو كيف يتقربون وليست الدار دار تقرب؟ قلت: أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن وأما التقرب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة سماه تقرباً.

يَتَأْتِي النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَعْلَفُ عَلَيْهِمْ وَمَا وَهَنُ جَهَنَّمَ وَبَشَّ الْمَصِيرُ (١٦).

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف **﴿والمنافقين﴾** بالاحتجاج. واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة، وعن قتادة مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم، وعن مجاهد بالوعيد وقيل: بإقضاء أسرارهم. مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمه نسب أو وصلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله بحال.

حَرَبَ اللَّهُ مَلَكَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْزَلَ نُوحًا وَاَمَرَاتُ لُوطٍ كَانَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَذْنَا مِنْهُمَا وَلَهُ يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِطِينَ (١٧).

امراً نوح وامراً لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله. **﴿وقيل﴾**: لهما عند موتهما أو يوم القيامة **﴿ادخلا النار مع﴾** سائر **﴿الداسطين﴾** الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى. ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً، وفي طي هذين التمثيلين

يَتَأْتِي النَّبِيَّ مَا مَاتُوا نُورُهُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصْرًا عَنْ رَبِّكَ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَخْلُصُكُمْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَاكَ تُوبَةً وَكَانَ لَكَ نُورُنَا وَكَانَ لَكَ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨).

﴿توبة نصوحاً﴾ وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسياآت وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها ناسمين عليها مغتمين أشد الإغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعولون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبث في الضرع موطنين أنفسهم على ذلك، وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه سمع أعرابياً يقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، قال: وما التوبة، قال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وأن تذيبها مرارة الطاعات كما أنقذتها حلالة المعاصي، وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه، وعن شهر بن حوشب أن لا يعود ولو خز بالسيف وأحرق بالنار، وعن ابن السماك أن تنصب الذنب الذي أقلت فيه الحياء من الله أمام عينك ويستعد لمنظرك وقيل: توبة لا يتاب منها، وعن السدي لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقيل: نصوحاً من نصيحة الثوب أي: توبة توفر خروك في دينك وترم خلك وقيل: خالصة من قولهم: غسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها وقرأ زيد بن علي توباً نصوحاً وقرئ: نصوحاً بالضم هو مصدر نصح والنصح والنصوح كالشكر والشكور والكفر والكفور أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحاً أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له **﴿عسى ربكم﴾** إطماع من الله لعباده وفيه وجهان أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبارة من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع واللبت والثاني أن يجيء به تعليماً للعباد وجوب الترجع بين الخوف والرجاء والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البت قراءة ابن أبي عتبة ويدخلكم بالجزم عطفاً على محل عسى أن يكفر كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم ويدخلكم **﴿يوم لا يخزي الله﴾** نصب بيدخلكم ولا يخزي تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق واستحجام إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم **﴿يسعى﴾**

فرفعها إلى الجنة فهي تاكل وتشرب وتتنعّم فيها، وقيل: لما قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾. أريت بيتها في الجنة بيني، وقيل: إنه من ذرة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظللها الملائكة.

فإن قلّت: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ **قلّت:** طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها: في الجنة، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: عندك ﴿من فرعون وعمله﴾ من عمل فرعون أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ من القبط كلهم. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والاتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين. الآية ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني من المؤمنين﴾⁽³⁾. ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾⁽⁴⁾.

وَمِمَّنْ آتَتْ عَمْرَأَتٌ آلَ أَخِيَّ أَحْصَتْ رَجْعَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْخَيْرِ ﴿١٧﴾.

﴿فيه﴾ في الفرج وقرأ ابن مسعود: فيها، كما قرئ في سورة الأنبياء والضمير للجملة. وقد مر لي في هذا الظرف كلام ومن بدع التفاسير أن الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته منعت جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلياً للارامل وتطبيعاً لأنفسهن **﴿وصدقت﴾** قرئ: بالتشديد والتخفيف، على أنها جعلت الكلمات والكتب صائقة. يعني: وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه.

فإن قلّت: فما كلمات الله وكتبه؟ **قلّت:** يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها⁽⁵⁾، وكتبه الكتب الأربعة وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرئ: بكلمة الله وكتابه أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل.

فإن قلّت: لم قيل: ﴿من القانتين﴾ على التنكير؟ قلت: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره

تعريضاً بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحنير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه في التغليب قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾⁽¹⁾ وأشار إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يبق عن قفطن العالم ويزل عن تبصره.

فإن قلّت: ما فائدة قوله: من عبادنا؟ **قلّت:** لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائناً من كان وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله، قال: عبيد من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبادان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانه، لأنّ عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأنّ ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب المرجحان عنده.

فإن قلّت: ما كانت خيانتهم؟ **قلّت:** نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرها على الرسولين. فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط نلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمح في الطباع نقیصة عند كل أحد بخلاف الكفر، فإنّ الكفار لا يستسمجون بل يستحسنونه ويسمونهم حقاً.

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ زَكَّرٍ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَنِي مِنَ قَرْعُونَ وَعَلَيْهِمْ وَبَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بغت امرأة نبي قط. وامرأة فرعون أسية بنت مزاحم»⁽²⁾. وقيل: هي عمة موسى عليه السلام أمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعنيتها فرعون. عن أبي هريرة أنّ فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحي على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فدعت الله فرقى بروحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، وعن الحسن: فنجأها الله أكرم نجاة

= حصرتها بقوله: جميع وآين، وصفه لها بالقصر. والحصر من الآيتين التوأمين اللتين إحداهما قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ والأخرى قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وما هو في التحقيق إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى، فالحق أن كلام الله تعالى صفة من صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية، فهكذا أمنت امرأة فرعون المتلو نثاؤها في كتاب الله العزيز، ثبتنا الله على الإيمان ووقانا الخذلان، والله المستعان.

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره والزليعي 66/4.

(3) سورة الشعراء، الآية: 118.

(4) سورة يونس، الآيتان: 85 - 86.

(5) قال أحمد: هو يعتقد حدوث كلام الله ويوجد الكلام للقيم، فلا جرم أن كلامه لا يعنو الإشعار بأنّ كلمات الله متناهية؛ لأنه في الوجه الأول جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها، وفي الثاني =

وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيُبلوكم﴾ ويسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلِنَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: من أين تعلق قوله: ﴿إِيَّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بفعل البلوى؟ قُلْتُ: من حيث أنه تضمن معنى العلم⁽⁵⁾، فكانه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو، كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً.

فإن قُلْتُ: تسمى هذا تعليقاً؟ قُلْتُ: لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعاً كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرًا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقاً لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق وعلمت زيدا منطلقاً أحسن عملاً. قيل: اخلصه واصوبه، لأنه إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صواباً غير خالص. فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة، وعن النبي ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله: ﴿إِيَّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله⁽⁶⁾. يعني: أيكم أتم عقلاً عن الله وفهماً لا غرضه، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه، وقدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب من أهل الإساءة.

الَّذِي عَلَّمَ سَخَّ سَوَّكَرَ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّجَمَنِ مِنْ تَفَرُّقٍ فَاتَّبِعْ آبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ⁽⁷⁾.

﴿طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو على طويقت طباقاً ﴿مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ وقرئ: من تفوت، ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم

على إنائه ومن للتبعيض ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»⁽¹⁾. وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ: كيف سمى الله المسلمة - تعني مريم - ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضاً لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واهلة، واسم امرأة لوط واهلة. فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبعض لسمي آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع امرأة تنم عليه وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التحريم أتاه الله توبة نصوحاً»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الملك مكية

بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَلْمُوتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽³⁾.

﴿تبارك﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿الذي بيده الملك﴾ على كل موجود ﴿وهو على كل﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

الَّذِي عَلَّمَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَلْعَلُكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ⁽⁴⁾.

والموت عدم تلك⁽³⁾ فيه، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصصح وإعدامه، والمعنى خلق موتكم

= وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقاً حادثاً، وعدم الحوادث مقرر أزلاً للزم قطع الحوادث أزلاً، وذلك أبشم من القول بقديم العالم، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه، وكيف أهوى بصاحبه فاراده، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

(4) سورة محمد، الآية: 31.

(5) قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة والأصح ما أجازوه، وهو في هذا الفن يمشي، وفيه يدرج ويدي كيف يدخل فيه ويخرج.

(6) تقدم تخريجه سابقاً.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (الحديث رقم: 7114)، وأخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (الحديث رقم: 3719)، وأبو نعيم في الحلية 99/5.

(2) رواه الثعلبي وابن مرويّه والواحدي في تفاسيرهم والزليعي 4/68.

(3) قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت بينه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله نكرها: أن الموت عدم وهو خطأ صراح، ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة، =

الكواكب، والناس يزينون مساجدهم وبورهم بإتقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها **﴿بمصابيح﴾** أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة وضمنا إلى تلك منافع أحرانا **﴿جعلناها رجوماً﴾** لـ أعدائكم لـ **﴿لشياطين﴾** الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتون بها في ظلمات البر والبحر، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم به. وعن محمد بن كعب: في السماء نجم والله ما لأحد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجع للشياطين: أن الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسهم لأنها قارة في الفلك على حالها وما ذاك إلا كقيس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص، وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب ومنهم من يخبله، وقيل: معناه وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب⁽²⁾ لشياطين الإنس وهم النجामون. **﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾** في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ السَّمِيرُ⁽¹⁾.

والذين كفروا بربهم أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم. **﴿عذاب جهنم﴾** ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: عذاب جهنم بالنصب عطفاً على عذاب السعير.

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ⁽²⁾.

﴿إذا ألقوا فيها﴾ أي: طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به. ومثله قوله تعالى: **﴿حصب جهنم﴾** **﴿سمعوا لها شهيقة﴾** إما لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها أو من أنفسهم. كقوله **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾**. وإما للنار تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق **﴿وهي تفور﴾** تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

كَذَٰكَ نَمِيزُ مِنَ النَّارِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْكُلُوا نَارُكَ

أَشْيَاءَ⁽³⁾.

وجعلت كالمفتظة عليهم لشدة غليانها بهم ويقولون: فلان يتميز غيظاً، ويتقصف غضباً. وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. **﴿الم يأتكم نذير﴾**

وتظهروا، وتعامته وتعته، أي: من اختلاف واضطراب من الخلقة، ولا تناقض إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت عدم التناسب كان بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ومنه قولهم: خلق متفاوت وفي نقيضه متناصف.

فإن قللت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله: طباقاً. وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله: خلق الرحمن تعظيماً لخلقهن وتنبئها على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه يباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب. والخطاب في ما ترى الرسول أو لكل مخاطب وقوله تعالى: **﴿فارجع البصر﴾** متعلق به على معنى التسبب أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن، ثم قال: فارجع البصر حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعانية ولا تبقى معك شبهة فيه **﴿هل ترى من فطور﴾** من صنوع وشقوق، جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فأنفطر، ومنه فطر ناب البعير كان يقال: شق ويزل. ومعناه: شق اللحم فطلع.

ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ⁽¹⁾.

وأمره بتكرير البصر فيهن متصفاً ومتتبعا يلتبس عيباً وخللاً **﴿ينقلب إليك﴾** أي: إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخل وإدراك العيب بل يرجع إليك بالخسوء والحسور. أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والقماء وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد.

فإن قللت: كيف ينقلب البصر خاسئاً خاسيراً برجعه كرتين اثنتين! قلت: معنى التثنية التكرير⁽¹⁾ بكثرة قفولك: لبك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهرين سعد القين من ذلك أي: باطلاً بعد باطل.

فإن قللت: فما معنى **﴿ثم ارجع﴾**؟ قلت: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى بالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّمِيرِ⁽²⁾.

﴿الدنيا﴾ القريبى لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناه السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج سميت بها

(1) قال أحمد: وفي قوله: **﴿ينقلب إليك البصر﴾** وضع للظاهر موضع المضمر، وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسئاً خاسيراً غير منك الفطور هو الآلة التي يلتبس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء، ومن هذا القبيل قوله: **﴿خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من﴾**

(2) قال أحمد: وهذا من الاستطراد لما ذكر وعيد الشياطين لستطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً، والله أعلم.

= تفاوت، وأصله ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه نكرهن منسويات لخلق الرحمن، تنبهاً على السبب الذي رباهن على الفطور والتفاوت.

توبيخ يزدانون به عذاباً إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخرزنتها مالك وأعواته من الزبانية.

قَالُوا يَا قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ كَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمْعٍ إِنَّ اسْتَرْ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ (٩).

﴿قَالُوا بلى﴾ اعتراف منهم بعذل الله وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤثروا من قدره كما تزعم المجبرة وإنما أثروا من قبل أنفسهم واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ مِنَ الْمَخَاطِبِينَ بِهِ! قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ جَمَلَةِ قَوْلِ الْكُفَّارِ وَخَطَابِهِمُ لِلْمُنْذَرِينَ عَلَى أَنَّ النَّذِيرَ بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ، وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَهْلٌ نَذِيرٌ أَوْ وَصَفَ مُنْذَرُوهُمْ لَغْلُوهُمْ فِي الْإِنْذَارِ كَانْتَهُمْ لَيْسُوا إِلَّا إِنْذَارًا، وَكَذَلِكَ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آي: حَامِلًا رِسَالَتَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْخَزَنَةِ لِلْكَفَّارِ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ أَرَادُوا حِكَايَةَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ أَرَادُوا بِالضَّلَالِ الْهَلَاكِ، أَوْ سَمَوْا عِقَابَ الضَّلَالِ بِاسْمِهِ، أَوْ مِنْ كَلَامِ الرِّسَالِ لَهُمْ حِكَايَةُ لِلْخَزَنَةِ، آي: قَالُوا لَنَا هَذَا فَلَمْ نَقْبَلْهُ.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّعِيرِ (١٠).

﴿لو كنا نسمع﴾ الإنذار سماع طالبين للحق^(١). أو نعقله عقل متأملين، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي^(٢)، كان هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكان سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكان من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة، وعدة المبشرين من الصحابة عشرة لم يضم إليهم حادي عشر كان من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعو باسم هذين الفريقين.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ النَّوَرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢).

﴿بئذنبهم﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فسحقاً﴾ قريء بالتخفيف والتثقل آي: فبعذاً لهم اعترفوا أو جحدوا فإن ذلك لا ينفعهم.

وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣).

ظاهره الأمر بأحد الأمرين الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستو عنكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ثم أنه علله. ﴿أنه عليم بذات الصدور﴾ آي: بضماثرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟ ثم أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمهر والمسر والمجهر.

أَلَا يَسَمُّ مَنْ خَلَقَ رَحْمَةً الْلطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤).

﴿من خلق﴾ الأشياء^(٣) وحاله أنه اللطيف الخبير والمتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، ويجوز أن يكون من خلق منصوباً بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. ودوي أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر الله رسوله عليها فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد، فنبه الله على جهلهم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قَدَرْتُ فِي الْأَيَّامِ مَفْعُولًا عَلَى مَعْنَى الْأَيَّامِ تِلْكَ الْمَذْكُورِ مِمَّا أَضْمَرَ فِي الْقَلْبِ وَأَظْهَرَ بِاللِّسَانِ مِنْ خَلْقٍ فَهَلَا جَعَلْتَهُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: هُوَ يُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَهَلَا كَانَ الْمَعْنَى الْأَيَّامُ عَالِمًا مِنْ هُوَ خَالِقٌ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ! قُلْتُمْ: أَبَتِ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الْلطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. لَأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ الْأَيَّامُ عَالِمًا مِنْ هُوَ خَالِقٌ وَهُوَ الْلطِيفُ الْخَبِيرُ لَمْ يَكُنْ مَعْنَى صَحِيحًا لِأَنَّ الْأَيَّامَ مَعْتَمِدٌ عَلَى الْحَالِ وَالشَّيْءِ لَا يَوْقُتُ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَقَالُ: الْأَيَّامُ عَالِمٌ، وَلَكِنْ الْأَيَّامُ يَعْلَمُ كَذَا وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دَلْوًا فَاتَّسُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكُفُّوا يَدَيَّاهُ مِنَ الرَّفْوِ (١٥).

المتشي في مناكبها مثل لفرط التلذذ ومجاورته الغاية، لأن المنكبين وملتحاقهما من الغارب أرق شيء من البعير وإنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الدل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك، وقيل: مناكبها

(١) قال أحمد: إن عني أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتجبيح، فهو غير بعيد من أصحاب السمع، وإن عني أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية، فهو مع أهل السنة.

(٢) قال أحمد: ولو تفتن نبيه لهذه الآية لقدها بليلاً على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدلل على ذلك بأخفى منها.

(٣) قال أحمد: هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم، فإن أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال ينفي اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة بلغت الآية، فإن الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود

= اللازم، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للباري عز وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله وإعراي الآية، ينزل على هذا المعنى، فإن الوجه فيها أن يكون من فاعلاً مراداً به الخالق، ومفعول العلم محنوف تقديره ذلك إشارة إلى السر والجهر، ومفعول خلق محنوف ضميره، عائد إلى ذلك والتقدير في الجميع ألا يعلم السر والجهر من خلقهما، ومتى حنونا غير هذا الوجه من الإعراي لقانا إلى مضايق التكلف والتعسف، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر والتقدير، ألا يعلم الله المسيرين والجاهريين، وليس مطابقاً للمفصل فإنه لم يقع على نوات الفاعلين، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر، وعليه وقع الاستدلال، ويحتمل غير ذلك أبعد منه والأول هو الأولى لفظاً ومعنى، والله الموفق.

أَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَسْكَنْتَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١١﴾

﴿أمن﴾ يشار إليه ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم. فكانهم الجند الناصر والرازق ونحوه قوله تعالى: ﴿إم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾. ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ بل تمايدوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه. يجعل أكب مطاوع كبه يقال: كبته فأكب من الغرائب والشواذ، ونحوه قشعت الريح السحاب فاقشع. وما هو كذلك ولا شيء من بناء أقعل مطاوعاً ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكب من باب انفض والام ومعناه: دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك اقشع السحاب دخل في القشع ومطاوع كب وقشع انكب وانقشع.

أَنْ يَتَّبِعَ مِكْيَا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ رَجُلًا وَكَلَّمَكُمُ الرَّسُولَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾

فإن قلت: ما معنى:

﴿يمشي مكباً على وجهه﴾ وكيف قابل يمشي سويًّا على صراط مستقيم؟ قلت: معناه يمشي معتسفاً في مكان معتاد غير مستوفية وفيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخرب على وجهه منكباً فحالته نقيض حال من يمشي سويًّا أي: قائماً سالماً من العثور والخور، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستوي. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهدى له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام وبالسوي رسول الله ﷺ. وقيل: حمزة بن عبد المطلب.

قَلَّمَ رَأَوْهُ زَلْفَةً سَبَيْتَ وَجْهُهُ الْزَيْنَ كَفَرُوا وَيَقِيلُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ نَدُّعُونَ ﴿١٧﴾

﴿فلما راوه﴾ الضمير للوعد والزلفة القرب وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: راوه ذا زلفة أو مكاناً ذا زلفة. ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد

جبالها، قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل. وقيل: جوانبها. والمعنى: وإليه تشوركم فهو مسائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

أَأَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ ﴿١٨﴾

﴿من في السماء﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته، وثم عرشه وكرسیه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياء وكتبه وأوامره ونواهيها، والثاني أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأيته يركب بعض المعاصي. ﴿فستعلمون﴾ قرئ: بالتاء والياء ﴿كيف نفير﴾ أي: إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

أَمْ أَأَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْكُلْبِ فَوَقَّهُمْ رَبُّهُمْ فَوَقَّعَ وَبَقِيَ مِمَّا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرِّجْلُ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾

﴿صافات﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها لانهن إذا بسطتها صففن قوادمها^(١) صفاً ﴿ويقبضن﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

فإن قلت: لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران وهو صف الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجاء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى: أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿ما يمسكهن إلا للرحمن﴾ بقدرته وبما لبر لهن من القوادم والخوافي وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتي منها الجري في الجو. ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

أَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٢﴾

﴿أمن﴾ يشار إليه من الجموع ويقال: ﴿هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه.

(١) قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله: ﴿والطير محشورة﴾ بعد قوله: ﴿إننا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ ولم يقل: مسبحات مثل محشورة، لقربه من هذا التفسير، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القلم مكية

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١).

قري: ن والقلم بالبيان والإدغام ويسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم، وأما قولهم: هو الدواة. فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي، ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنساً فإين الإعراب والتنوين؟ وإن كان علماً فإين الإعراب؟ وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجزئه وتنوّه ويكون القسم بدواة منكّرة مجهولة. كأنه قيل: ودواة والقلم. وإن كان علماً أن تصرفه وتجزئه أو لا تصرفه وتفتحها للعلمية والتأنيث. وكذلك التفسير بالحوت. إما أن يراد نون من النينان، أو يجعل علماً لليهموت الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر في الجنة نحو ذلك وأقسم بالقلم تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتب من كتب، وقيل: ما يستره الحفظة، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر أو الحفظة.

مَا أَنْتَ بِشَيْءٍ مِّمَّنْ رَزَقْتَ يَمَجُتُونَ (٢).

فإن قُلْتَ: بم يتعلق الباء في.

﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وما محله؟ قُلْتَ: يتعلق بمجنون منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً في قولك: أنت بنعمة الله عاقل مستوياً في تلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً. وما ضرب زيد عمراً تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي. والمعنى: استبعاد ما كان ينسب إليه كفار مكة عداوة وحسداً وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة بمنزلة.

رَأَى لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣).

﴿وإن لك﴾ على احتمال ذلك وإساعة الغصة فيه والصبر عليه ﴿لأجراً﴾ لثواباً ﴿غير ممنون﴾ غير مقطوع

وجوههم بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والفترة وكلحوا وكما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب ﴿وقيل﴾: القائلون الزبانية ﴿تدعون﴾ تفتعلون من الدعاء أي: تطلبون وتستعجلون به، وقيل: هو من الدعوى أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون، وقري: تدعون، وعن بعض الزهاد أنه تلاها في أول الليل في صلاته فبقى يكررها وهو يبكي إلى أن نوى لصلاة الفجر ولعمري أنها لوقادة لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَنَ مَيَّ أَوْ رَحِمَاً فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٤).

كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار لا بد لكم منه؟ يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه، أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم والأخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم فإن المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بنزونا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

فإن قُلْتَ: لم آخر مفعول آمناً وقدم مفعول توكلنا؟ قُلْتَ: لوقوع آمناً تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب نكرهم.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي سَكَلٍ شِينٍ (٥).

كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَمْسَحَ مَا زُكُّرَ عَزْرًا مِّنْ بَيْنِكُمْ يَلَوْ مَعِينٍ (٦).

﴿عزراً﴾ غائر إذا هيا في الأرض وعن الكلبي: لا تناله الدلاء وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الملك فكانما أحيا ليلة القدر» (١).

إدهانك. قال سيبويه: وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ونوا لو تدهن فيدهنوا.

وَلَا تُطِيعُ كُلَّ سَلَاةٍ مُّهِينٍ ﴿١٥﴾

﴿حلاف﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾. ﴿مهيين﴾ من المهانة وهي القلة والحقارة. يريد القلة في الرأي والتمييز، أو أراد الكذاب لانه حقير عند الناس.

هَازِجٌ مَّشَامَ بَنِيهِ ﴿١٦﴾

﴿ههاز﴾ عياب طعان، وعن الحسن: يلوي شذقيه في أافية الناس ﴿مشاء بنميم﴾ مضرب نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، والنميم والنميمة السعاية. وأنشدني بعض العرب: تشبي تشبب النميمة تشبي بها زهراً إلى تميمه

مَنَّاغٍ لِلْبَحْرِ مُمْتَرٍ أَمِيرٍ ﴿١٧﴾

﴿مناع للخير﴾ بخيل، والخير المال أو مناع أهله الخير وهو الإسلام. فنكر الممنوع منه دون الممنوع كأنه قال: مناع من الخير، قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي كان موسراً وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم: وللحمته من أسلم منكم منعتي رددى. عن ابن عباس وعنه أنه أبو جهل. وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث. وعن السدي: الأخنس بن شريق أصله في ثقيف وعداده في زهرة ولذلك قيل زعيم ﴿معتد﴾ مجاوز في الظلم حذه ﴿ائتم﴾ كثير الأثام.

عُقِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿عقل﴾ غليظ جاف من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿بعد ذلك﴾ بعد ما عتله من المثالب والنقائص ﴿زعيم﴾ دعي قال حسان:

وانت زعيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده⁽⁵⁾. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت. هذه الآية جعل جفاءه ودعوته أشد معاييه لانه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ولد الزنى، ولا

كقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾⁽¹⁾ أو غير ممنون عليك به. لانه ثواب تستوجب على عملك وليس بتفضل ابتداء وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال. استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم.

رَأَيْكَ لَعَلَّ خُلِّيَ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ فَسَيُورُ وَيُصِيرُونَ ﴿٢٠﴾

وقيل: هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، ألسن تقرأ القرآن؟ قد أفلح المؤمنون⁽³⁾.

يَأْتِيَكُمُ الْفِتْنَةُ ﴿٢١﴾

﴿المفتنون﴾ المجنون لانه فتن أي: محن بالجنون، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخيل الجن وهم الفتان للفتاك منهم والباء مزيدة، أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أي: بايكم الجنون، أو باي الفريقين منكم الجنون: أبفريق المؤمنين، أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الإسم وهو تعريض بابي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وإضرابهما. وهذا كقوله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشهر﴾⁽⁴⁾.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَخْفَى عَنْ سَرِيرِهِ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ ﴿٢٣﴾

﴿إن ربك هو أعلم﴾ بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وهو أعلم﴾ بالعقلاء وهم المهتدون أو يكون وعيداً ووعداً وأنه أعلم بجزاء الفريقين.

فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿فلا تطع المكذبين﴾ تهيج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم وكانوا قد أراوه على أن يعبد الله مدة وألهتهم مدة ويكفوا عنه غوائلهم.

وَدُّوا أَنْ يُدْرِكُوا يَوْمُهُمْ ﴿٢٥﴾

﴿لو تدهن﴾ لو تلين وتصانع ﴿فيدهنون﴾.

فإن قلت: لم رفع فيدهنون ولم ينصب بلضمار أن وهو جواب التمني قلت: قد عدل به إلى طريق آخر وهو إن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: فهم يدهنون كقوله تعالى: فمن يؤمن بربه فلا يخاف على معنى ونوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، أو ونوا إدهانك، فهم الآن يدهنون لطمعهم في

(1) قال أحمد: ما كان النبي ﷺ يرضى من الرمزخشري بتفسير الآية

(4) سورة القمر، الآية: 26.

(5) قال أحمد: وإنما أخذ كون هذين أشد معاييه من قوله بعد ذلك، فإنه يعطي تراخي المرتبة فيما بين المنكور أولاً والمنكور بعده في الشر والخير، ونظيره في الخير قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ ومن ثم استعملت ثم لتراخي المراتب، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي.

هكذا، وهو ﷺ يقول: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعلمه»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمني الله بفضله منه ورحمة». ولقد بلغ الرمزخشري سوء الأدب إلى حد يوجب الحد، وحاصل قوله: إن الله لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة؛ لانه قام بواجب عليه نعوذ بالله من الجراءة عليه.

(2) سورة الاعراف، الآية: 199.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل... =

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ إِذْ أَقْبَرُوا لَيْسَ مِنْهُمْ مَصِيْبٌ ﴿١٧﴾

أنا بلونا أهل مكة بالقطح والجوع بدعوة رسول الله ﷺ عليهم، ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة نون صنعاء بفرسخين⁽⁴⁾، فكان يأخذ منها قوت سنه ويتصدق بالباقي، وكان يترك للمساكين ما أخطأ المنجل وما في أسفل الأكادس، وما أخطأ القطاف من العنب، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلّفوا ليصرمنها مصبحين في السفف خفية عن المساكين، ولم يستثنوا في يمينهم، فأحرق الله جنتهم، وقيل: كانوا من بني إسرائيل ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصبح مبكرين.

وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾

﴿ولا يستنون﴾ ولا يقولون: إن شاء الله.

فإن قلّت: لم سمى استثناء وإنما هو شرط؟ قلّت: لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد.

طَلَّ عَلَيْنَا مَلِئَةٌ مِن زُكُوتٍ وَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ ﴿١٩﴾

﴿قطاف عليها﴾ بلاء أو هلاك ﴿طائف﴾ كقوله تعالى: وأحيط بشمره⁽⁵⁾ وقرئ: طيف.

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴿٢١﴾

﴿فأصبحت كالصريم﴾ كالصرومة لهلاك ثمرها، وقيل: الصريم الليل أي: احترقت فاسوت، وقيل: النهار أي: يبست وزهبت خضرتها أو لم يبق شيء فيها من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال.

أَنِ اقْتَدَوْا عَلَىٰ حَرِّكَوْا إِنَّكُمْ مُّرْجِنُونَ ﴿٢٢﴾

﴿صارمين﴾ حاصدين.

فإن قلّت: هلا قيل اغنو إلى حرثكم، وما معنى على؟ قلّت: لما كان الغنوّ إليه ليصرموه ويقطعوه كان غنوّاً عليه، كما تقول غداً عليهم الغنوّ، ويجوز أن يضمن الغنوّ معنى الإقبال، كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين.

فَأَنظَرُوا وَمُؤَنَّا بَنَاتُنَّ ﴿٢٣﴾

﴿يتخافتون﴾ يتسارون فيما بينهم، وخفى وخفت

ولده، ولا ولد ولده،⁽¹⁾ وبعد ذلك نظير، ثم في قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾⁽²⁾ وقرأ الحسن: عتل رفعاً على الذم، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك والزني من الزنمة، وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلو معلقة في حلقتها لأنه زيادة معلقة بغير أهله.

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٢٤﴾ إِذَا تَوَلَّىٰ عَصَىٰ فَإِنَّهَا غَالِيَةٌ أَزَلِيلٌ ﴿٢٥﴾

﴿أن كان ذا مال﴾ متعلق بقوله: ولا تطع يعني: لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي: ليساره وحظه من الدنيا، ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهِراً بالبنين. كذب آياتنا ولا يعمل فيه، قال: الذي هو جواب إذا لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولكن ما نلت عليه الجملة من معنى التكنيب. وقرئ: أن كان على الاستفهام على إلا أن كان ذا مال وبنين كذب، أو أطيعه لأن كان ذا مال؟ وروى الزبيري عن نافع إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أي: لا تطع كل خلاف شرطاً يساره لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكانه اشتراط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى: ﴿لعله يتذكر﴾.

سَيَرُّهُ عَلَىٰ عَرْسٍ مُّزْدَوِجٍ ﴿٢٦﴾

الوجه أكرم موضع في الجسد والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين. وقالوا: في النيل جدد أنفه، ورغم أنفه. فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة لأن السمة على الوجه شين وإذالة فكيف بها على أكرم موضع منه. ولقد رسم العباس أباعرة في وجوها، فقال له رسول الله ﷺ: «أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها»⁽³⁾.

وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة، وقيل: معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة. كما عادی رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم. وقيل: خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه، وقيل: سنشهره بهذه الشتمة في الدارين جميعاً فلا تخفي كما لا تخفي السمة على الخرطوم، وعن النضر بن شميل أن الخرطوم الخمر، وأن معناه سنحده على شربها وهو تعسف. وقيل: للخرطوم كما قيل: لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية 3/308.

(2) سورة البلد، الآية: 17.

(3) رواه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه (الحديث رقم: 108 - 2118) وأخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: رمي الجمار أيام التشريق (الحديث رقم: 3889).

(4) قال أحمد: وفائدة التذكير الإبهام تعظيماً لما أصابها، ومعنى كالصريم أي: لهلاك ثمرها، وقيل: الصريم: الليل؛ لأنها احترقت واسوت، وقيل: النهار أي: خالية فارغة من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفود للخفاش.

أَنْ لَا يَسْأَلَنَّا الْيَوْمَ عَلَيْكَ مَسْكِينًا ﴿١٦﴾

﴿أَنْ لَا يَسْأَلَنَّا﴾ أن مفسرة، وقرأ ابن مسعود: بطرحها بإضمار القول أي: يتخافتون يقولون: لا يدخلنها، والنهي عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل. كقولك: لا أرينك ههنا.

وَصَدَّقَ عَلَىٰ حَرْمِ قَدِيرٍ ﴿١٧﴾

الحرد من حرمت السنة إذا منعت خيرها، وحاربت الإبل إذا منعت برها. والمعنى: وغنوا قادرين على نكد لا غير عاجزين عن النفع. يعني: أنهم عزموا أَنْ يَتَنَكَّدُوا على المساكين ويحرموهم، وهم قادرون على نفعهم. فغنوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة، أو وغنوا على محاربة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها. أي: غنوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع أو لما قالوا: غنوا على حرككم وقد خبثت نيتهم عاقبتهم الله بأن حاربت جنتهم وحرموها فلم يغنوا على حرث وإنما غنوا على حرد.

و﴿قادرين﴾ من عكس الكلام للتهكم. أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين، وعلى حرد ليس بصلة قادرين، وقيل: الحرد بمعنى الحرد، وقرئ: ﴿على حرد﴾ أي: لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض. كقوله تعالى: ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾^(١) وقيل: الحرد القصد والسرعة. يقال: حردت حركك. وقال: أقبل سيل جاء من أمر الله. يحدد حرد الجنة المغلة وقطا حراد سراع يعني: وغنوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقدر على صرامها وزي منفعتها عن المساكين. وقيل: حرد علم للجنة. أي: غنوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان.

لَقَدْ رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿١٨﴾

﴿قالوا﴾ في بديهة وصولهم ﴿إنا لضالون﴾ أي: ضللنا جنتنا وما هي بها لما راوا من هلاكها.

بَلْ عَمَّ غَوْرُؤُكُمُ ﴿١٩﴾

فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا. ﴿بل نحن محرومون﴾ حرمانا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

قَالَ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَتُذَكِّرًا ﴿٢٠﴾

﴿أرسلهم﴾ أعلمهم وخبرهم من قولهم: هو من سطة قومه، وأعطني من سطات مالك، ومنه قوله تعالى: ﴿أمة وسطا﴾^(٢) ﴿لولا تسبحون﴾ لولا تذكرون الله وتتوبون

إليه من خبث نيتكم كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: انكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه، فغيرهم. والدليل عليه قولهم: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة. وقيل: المراد بالتسبيح الاستثناء لالتقاءهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. وعن الحسن: هو الصلاة كانهم كانوا يتوانون في الصلاة، وإلا لَنَهْنَهُمْ عن الفحشاء والمنكر وكانت لهم لطفاً في أن يستثنوا ولا يحرموا.

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّكَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿سبحان ربنا﴾ سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح، ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء.

فَأَنبَلَّ بِصُهُمُ عَلَىٰ بُغْيِهِمْ يَتْلَوْنَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا مُتَعِدِينَ ﴿٢٣﴾

﴿يتلاومون﴾ يلوم بعضهم بعضاً لأن منهم من زين، ومنهم من قبل، ومنهم من أمر بالكف، وغنرو منهم مَنْ عصى الأمر، ومنهم مَنْ سكت وهو راضٍ.

عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا حَزْبًا مِنَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ان يبدلنا﴾ قرئ: بالتشديد والتخفيف. ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه.

كَذَلِكَ أَفْتَابَ الْقَدَرُ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿كذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أشد وأعظم منه. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتنني تعباً، وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيراً منها، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصديق فأبدلهم بها جنة، يقال لها: الحيوان فيها عنب البغل منه عنقوداً.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ أَتَجِدُ لِلَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿عند ربهم﴾ أي: في الآخرة ﴿جنتات النعيم﴾ ليس فيها إلا التمتع الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا. كان صنابير قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي

﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم. يعني: أَنْ أَحَدًا لَا يَسْلَمُ لَهُمْ هَذَا وَلَا يَسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ لَا كِتَابَ لَهُمْ يَنْطِقُ بِهِ، وَلَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا زَعِيمَ لَهُمْ يَقُومُ بِهِ.

يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجْرِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٦﴾ خَشِيعَةً أَسْرَمُوا رَمَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجْرِ وَلَمْ يَسِيرُوا ﴿٤٧﴾.

الكشف عن الساق، والإبداء عن الخدام. مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب. وأصله في الروع والهزيمة وتشهير المخدرات عن سوقهن في الهرب وإبداء خدامهن. عند ذلك قال حاتم:

لخو الحرب إن غصت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وقال ابن الرقيات:

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العنزة

فمعنى «يوم يكشف عن ساق» في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم. ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبه فيضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يكشف الرحمن عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً».

أما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأن فيها سفاقيده،⁽³⁾ ومعناه: يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله وهو الفرع الأكبر يوم القيامة، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن.

فإن قلّت: فلم جاءت منكراً في التمثيل؟ قلّت: للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله: «يوم يدع الداع إلى شيء نكر» كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل. ويحكي هذا التشبيه عن مقاتل، وعن أبي عبيدة: خرج من خراسان رجلاً أحدهما شبه حتى مثل وهو مقاتل بن سليمان، والآخر نفى حتى عطل وهو جهم بن صفوان. ومن أحس بعظم مضارّ فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه، وقرئ: يوم تكشف بالنون، وتكشف بالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال أي: يوم تشتدّ الحال أو الساعة كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز، وقرئ: تكشف بالياء المضمومة وكسر الشين من اكشف إذا دخل في الكشف، ومنه اكشف الرجل فهو مكشوف إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف فلياتوا أو إضماراً نكر أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ. وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم أي: ترد عظاماً بلا مفاصل لا تثني

في الدنيا وإلا لم يزيديا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يسارونا، فقيل: اتحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَعْبُرُونَ ﴿٤٦﴾.

ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: «ما لكم كيف تحكمون» هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٤٧﴾.

«لم لكم كتاب» من السماء «تدرسون» في ذلك الكتاب أَنْ ما تختارونه وتشتهونه لكم. كقوله تعالى: «أم لكم سلطان مبين فاتوا بكتابتكم»⁽¹⁾ والأصل ندرسون.

إِنَّ لَكُمْ لَذُرِّيَّةً لَوْ لَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٨﴾.

أن لكم ما تخيرون بفتح أَنْ لانه مدروس، فلما جاءت اللام كسرت، ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو. كقوله: «تركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين»⁽²⁾. وتخير الشيء واختاره، أخذ خيره، ونحوه تنخله وانتخله إذا خذ منخوله. لفلان علي يمين بكذا إذا ضمته منه وحلفت له على الوفاء به يعني: أم ضمناً منكم، وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد.

أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَيْنًا يَتَنَبَّأُ بِآيِ الْآيَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأَعْلَافًا ﴿٤٩﴾.

فإن قلّت: بم يتعلق. بـ «إلى يوم القيامة»؟ قلّت: القدر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدها إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون، ويجوز أن يتعلق ببالغة على أنها تبلغ نلكم اليوم وتنتهي إليه وإفارة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. وقرأ الحسن: بالغة بالنصب على الحال من الضمير في الظرف «إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» جواب القسم لأن معنى أم لكم إيمان علينا أم أقسمنا لكم.

سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾.

«إليهم بذلك» الحكم «زعيم» أي: قائم به وبالاحتجاج لصحته كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمرهم.

أَمْ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا بِآيَاتِ الْكِتَابِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾.

«لم لهم شركاء» أي: ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه «فلياتوا» بهم

(3) رواه الحاكم في المستدرک 4/582.

(1) سورة الصافات، الآية: 156.

(2) سورة الصافات، الآية: 78.

تَمَرِّ لِيَكْرَ رِيكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْبِ إِذْ نَادَىٰ رَوْهُ مَكْظُومٌ ﴿١٨﴾

﴿لحكم ريك﴾ وهو إهمالهم وتأخير نصرتك عليهم
﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني: يونس عليه السلام
﴿إذ نادى﴾ في بطن الحوت ﴿وهو مكظوم﴾ مملوء غيظاً
من كظم السقاء إذا ملاه والمعنى: لا يوجد منك ما وجد
منه من الضجر والمغاضبة فتبلي ببلائه.

لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرَ يَمَّةً مِنْ رَبِّهِ لَئِذَا الْمَرَّةُ رَوْهُ مَذْمُومٌ ﴿١٩﴾

حسن تنكير الفعل لفصل الضمير في تداركه. وقرأ ابن
عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تداركه. أي:
تتداركه على حكاية الحال الماضية. بمعنى: لولا أن كان
يقال فيه: تتداركه كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان.
أي: كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقفاً منه القيام.
ونعمة ربه أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه، وقد
اعتمد في جواب لولا على الحال. أعني قوله: ﴿وهو
مذموم﴾ يعني: أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذا
بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذم. روي أنها نزلت
بأحد حين حل لرسول الله ﷺ ما حل به فأراد أن يدعو
على الذين انهزموا، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف.
وقرى: رحمة من ربه.

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَمَلَأَهُ مِنَ الْمَقَالِيقِ ﴿٢٠﴾

﴿فاجتباها ربه﴾ فجمعه إليه وقربه بالتوبة عليه. كما
قال: ثم اجتباها ربه فتأب عليه وهدي. ﴿فجعلته من
لصالحين﴾ أي: من الأنبياء. وعن ابن عباس رد الله إليه
الوحي وشفعه في نفسه وقومه.

وَلَا يَكْدُ اللَّيْلُ كَرُوا لِبَرْئَتِكَ بِأَمْرِهِمْ لَمَّا شِمُوا الذِّكْرَ وَفُؤُورُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢١﴾

أن مخففة من الثقيلة واللام علما. وقرى: ليزلقونك
بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه. بمعنى: زلق الرأس
وأزلقه حلقه. وقرى: ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها،
يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون
العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من
قولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ويكاد ياكلني. أي: لو
أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال: يتقارضون إذا
التقوا في موطن. نظراً يزل مواطئ الأقدام وقيل: كانت
العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا
يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عانه. فأريد
بعض العيانين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك
فقال: لم أر كاليوم رجلاً. فعصمه الله. وعن الحسن: دواء
الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية.

﴿لما سمعوا النكر﴾ أي: القرآن ويملكوا أنفسهم حسداً
على ما أوتيت من النبوة ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ حيرة

عند الرفع والخفض، وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقاً
واحداً. أي: فقارة واحدة.

فَإِنْ قُلْتُ: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف! قُلْتُ: لا
يدعون إليه تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم
السجود في الدنيا مع إقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين
الاستطاعة تحسيرًا لهم وتنبيهاً على ما فرطوا فيه حين
دعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصل
ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

فَذَرَىٰ مَنْ يَكْذِبُ يَدَا الْكُذِبِ سَتَتِيهُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَرُونَ ﴿٢٢﴾

يقال: نرني وإياه، يريدون كله إلي فإني أكفيكه كأنه
يقول: حسبك إيقاعًا به أن تكل أمره إلي وتخلي بيني
وبينه، فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطبق له والمراد:
حسبي مجازيًا لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه
وتوكل علي في الانتقام منه تسلياً لرسول الله ﷺ وتهديدًا
للمكذبين. استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فرجة
حتى يورطه فيه، واستدرج الله العصاة أن يرزقهم الصحة
والنعمة فيجعلوا رزق الله نريعةً ومتسلقًا إلى ازدياد الكفر
والمعاصي ﴿من حيث لا يعلمون﴾ أي: من الجهة التي لا
يشعرون أنه استدرج وهو الإتيان عليهم لأنهم يحسونه
إيثارًا لهم وتفضيلًا على المؤمنين وهو سبب لهلاكهم.

وَأَمَّا لِمَنْ إِذْ كَبُرَ بَيْنُهَا

﴿وأملي لهم﴾ وأملهم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم
ليزدادوا إثمًا﴾^(١) والصحة والرزق والمدة في العمر إحسان
من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم
يجعلونه سببًا في الكفر باختياراتهم. فلما تدرجوا به إلى
الهلاك وصف المنعم بالاستدرج، وقيل: كم من مستدرج
بالإحسان إليه وكم من مفتون بالثناء عليه وكم من مغرور
بالستر عليه. وسمى إحسانه وتمكينه كيدًا كما سماه
استدرجًا لكونه في صورة الكيد حيث كان سببًا للتورط
في الهلكة ووصفه بالمنانة لقوة أثر إحسانه في التسبب
للهلك.

أَمْ تَحْتَسِبُ أَنَّا نَكُونُ مَعَهُ مِنْ مَّغْرِبٍ مُتَقَلَّبُونَ ﴿٢٣﴾

المغرم الغرامة أي: لم تطلب منهم على الهداية والتعليم
أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك
عن الإيمان.

أَمْ عِنْدَهُمُ الْآخِرَةُ كَالْأُولَىٰ كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿لم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح ﴿فهم يكتبون﴾ منه
ما يحكمون به.

في أمره وتنفيراً عنه وإلا فقد علموا أنه أعلهم. والمعنى: إنهم جنونه لأجل القرآن.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾

﴿بالطاغية﴾: بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، واختلف فيها. فقيل: الرجفة. وعن ابن عباس: الصاعقة. وعن قتادة: بعث الله عليهم صيغة فاهمبتهم. وقيل: الطاغية مصدر كالغافية. أي: بطغيانهم. وليس بذلك لعدم الطباق بينها وبين قوله.

وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْكَأُ بِرِيحٍ سَرَاسٍ عَائِيَةٍ ﴿٦﴾

﴿بريح صرصر﴾: والصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة، وقيل: الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر، فهي تحرق لشدة بردها. ﴿عائية﴾: شديدة العصف، والعتو استعارة. أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم. وقيل: عتت على خزائنها، فخرجت بلا كيل ولا وزن. وروي عن رسول الله ﷺ: «ما أرسل الله سفينة من ريح إلا بمكيل، ولا فطرة من مطر إلا بمكيل، إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل»⁽²⁾. ثم قرأ: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ»⁽³⁾ وَإِنَّ الرِّيحَ يَوْمَ عَادَ عَتَتْ عَلَى الْخَزَانِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهَا سَبِيلٌ. ثم قرأ ﴿بريح صرصر عائية﴾. ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها.

سَخَرْنَا عَلَيْهِمْ سَحَابَ لَيْلٍ وَنَجِيَّةَ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَانَتْهُمْ أَعْيَارٌ مِّنْ عِلَالٍ خَالِيَةٍ ﴿٧﴾

الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود، أو مصدرًا كالشكور والكفور، فإن كان جمعاً فمعنى قوله: حُسُومًا نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة، أو متتابعة هبوب الرياح ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كَرَّةً بعد أخرى حتى ينحسم. وإن كان مصدرًا فلما أن ينتصب بفعله مضمر أي: تحسم حُسُومًا بمعنى: تستأصل استئصالاً، أو يكون صفة كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولاً له أي: سخرها عليهم للاستئصال. وقال عبد العزيز: ابن زرار الكلابي:

ففرق بين بينهم زمان تتابع فيه أعوام حسوم وقرأ السدي حُسُومًا بالفتح حالاً من الريح أي: سخرها عليهم مستأصلة. وقيل: هي أيام العجوز وذلك أن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعها الريح في اليوم الثامن فاهلكتها. وقيل: هي أيام العجز، وهي آخر الشتاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحاقة وهي مكية

لَمَّا تَعْلَمُ ﴿١﴾

﴿الحاقة﴾: الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها، أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب، أو التي تحوق فيها الأمور. أي: تعرف على الحقيقة. من قولك: لا أحق هذا. أي: لا أعرف حقيقته. جعل الفعل لها وهو لاهلها، وارتفاعها على الابتداء وخبرها.

مَا لَمْ تَلَمْسْ ﴿٢﴾

﴿ما لم تلمس﴾: والاصل: الحاقة ما هي أي: شيء هي. تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها. فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها.

وَمَا أَذْرَكَ مَا لَمْ تَلَمْسْ ﴿٣﴾

﴿وما أذرك﴾: أي شيء أعلمك ما الحاقة؟ يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمتها على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه. وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، وما في موضع الرفع على الابتداء، وأذرك معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انْقَضَىٰ عَهْدُهُ ﴿٤﴾

القارعة التي تقرر الناس بالإفزع والاهوال، والسماء بالإنشقاق والانفطار، والأرض والجيال بالذك والنسف، والنجوم بالطمس والإنكار. ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شنتها. ولما ذكرها وفخمها أتبع نكر تلك نكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تنكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم.

(1) رواه الثعلبي والواقدي وابن مروي في تفاسيرهم والزبيعي /4 = الطبري والثعلبي وابن مروي والطبراني والزبيعي 83/4.

(3) سورة الحاقة، الآية: 11.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة شهر بن حوشب وكذلك رواه = 79.

وحسن تنكيره للفصل.

إِنَّا نُنْخِثُ فِي السَّمَرِ نَفْخَةً وَاجِدَةً ﴿١٧﴾

وقرأ أبو السمال: نَفْخَةً واحدة بالنصب مسنداً للفعل إلى الجار والمجرور.

فإن قُلْتُ هما نفختان⁽³⁾. فلم قيل: واحدة! قُلْتُ: معناها أنها لا تثني في وقتها.

فإن قُلْتُ: فاي النفختين هي؟ قُلْتُ: الأولى، لأن عندها فساد العالم. وهكذا الرواية عن ابن عباس وقد روى عنه أنها الثانية.

فإن قُلْتُ: إما قال بعد يومئذ تعرضون والعرض إنما هو عند النفخة الثانية! قُلْتُ: جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب. فلذلك قيل: يومئذ تعرضون، كما تقول جئته عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته.

رُجِلَ الْأَرْضَ وَالْجِبَالُ فَذُكُّهُ وَاجِدَةً ﴿١٨﴾

«وحملت» ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بخلق من الملائكة. أو بقدرة الله من غير سبب. وقرئ: وحملت بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة «فدكتنا» فكت. الجملتان جملة الأرضين وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيراً مهبطاً وهباءً منبثاً. واليك أبلغ من النقص. وقيل: فبسطنا بسطة واحدة فصارت أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً. من قولك: اندك السنام، إذا انفرش. ويعبر أدك، وناقعة نكاه ومنه النكان.

يَوْمَئِذٍ وَقَّتْ زُرُومُ الْوَأْنِ ﴿١٩﴾

«فيومئذ وقعت الواقعة» فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة.

وَأَنْفَتِ النَّمَاءُ نَفْيَ يَوْمِئِذٍ وَاهِيَةً ﴿٢٠﴾

«واهية» مسترخية ساقطة القوة جداً بعد ما كانت محكمة مستمسكة.

وَاللَّكَ عَلَى أَنْبَاءِهِمْ وَبِئْسَ رَكِبٌ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجِيَّةٌ ﴿٢١﴾

يريد والخلق الذي يقال له: الملك. ورد إليه الضمير مجموعاً في قوله: فوقهم على المعنى.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة؟ قُلْتُ: الملك أعم من الملائكة إلا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة. «على أرجائها» على جوانبها الواحد رجا مقصور يعني: أنها

واسماؤها: الصن والصنبر والوبر والأمر والمؤتمر والمعلل ومطفيء الجمر. وقيل: مكفى الظعن. ومعنى:

«سخرها عليهم» سلطها عليهم كما شاء. «فيها» في مهابها أو في الليالي والأيام. وقرئ: أعجاز نخيل.

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاطِلٍ ﴿٢٢﴾

«من باقية» من بقية أو من نفس باقية أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان.

وَبَايَعُوا بِرَبِّهِمْ فَذُكِّرُوا كَذِبًا ﴿٢٣﴾

«ومن قبله» يريد ومن عنده من تباعه. وقرئ: ومن قبله أي: ومن تقدمه. وتعصد الأولى قراءة عبد الله وإبي ومن معه وقراءة أبي موسى ومن تلقاءه. «والمؤتفكات» قرئ: قوم لوط. «بالخاطئة» بالخطأ أو بالفعل أو الأفعال ذات الخطأ العظيم.

نَمَرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَتَدْرَأُونَ ﴿٢٤﴾

«رالية» شديدة زائدة في الشدة كما زالت قبائحهم في القبح. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد ليربو في أموال الناس.

إِنَّا لَنَّا ظَنَّا أَنَّا مَحْنُكُمُ فِي الْبَاطِلِ ﴿٢٥﴾

«حملناكم» حملنا آباءكم «في الجارية» في سفينة لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين كان حمل آبائهم مثلاً عليهم وكانهم هم المحمولين لأن نجاتهم سبب ولانتهم.

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَرَبِّمَا أَذْنٌ رَافِعَةٌ ﴿٢٦﴾

«لنجعلها» الضمير للفعلية وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة. «تذكرة» عظة وعبرة «أذن رافعة» من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضعه بترك العمل. وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته، وما حفظته في غير نفسك⁽¹⁾ فقد أوعيته. كقولك: وعيت الشيء في الظرف. وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه عند نزول هذه الآية: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي». قال علي رضي الله عنه: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: لم قيل أذن رافعة على التوحيد والتنكير! قُلْتُ: للإيدان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتبويج الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الآن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملثوا ما بين الخافقين. وقرئ: «وتغيبها» بسكون العين للتخفيف شبه تعي بكبد. أسند الفعل إلى المصدر

(3) قال أحمد: وأما فائدة الإشعار بعظم هذه النفخة أن المؤثر لندك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى أخرى.

(1) قال أحمد: هو مثل قوله: «ولتنظر نفس ما قدمت لعد» وقد نكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الإشعار بقلة الناظرين.

(2) سعيد بن منصور والعلبي وابن مروي زيلي 84/4.

وقد استحسب إثبات الوقف إثباتاً لثباتها في المصحف. وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعاً لاتباع المصحف.

إِنِّي كُنْتُ أَرَى مَلَكِي حَيًّا ٦٧

﴿ظننت﴾ علمت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت..

نَهَوَّ فِي يَمِينِ رَأْسِي ٦٨

﴿راضية﴾ منسوبة إلى الرضا، كالدراع والنابل. والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وهو لصاحبها.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٦٩

﴿عالية﴾ مرتفعة المكان في السماء أو رفيعة الدرجات أو رفيعة المباني والقصور. والأشجار.

ظُهُورُهَا دَائِمَةٌ ٧٠

﴿دائمة﴾ ينالها القاعد والنائم.

كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الدَّائِيَةِ ٧١ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ إِشْرَاكَ. يَقُولُ يَلَيِّنُ لَرَأْسِ كَيْفَ ٧٢ وَرَأْسُ مَا حَيَّيَّة ٧٣

يقال لهم ﴿كلوا واشربوا هنيئاً﴾ أكلاً وشراباً هنيئاً، أو هنيئتم هنيئاً على المصدر ﴿بما أسلفتم﴾ بما قمتم من الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتكم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى: يقول الله عز وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشرية وغارت أعينكم وخمضت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

يَلَيِّنَا كَنَّى الْقَائِيَةِ ٧٤

الضمير في ﴿يا ليتها﴾ للموتة. يقال: يا ليت الموتة التي مئتها ﴿كانت القاضية﴾ أي: القاطعة لأمري، فلم أبعث

تتشق وهي مسكن الملائكة فينبضون إلى أطرافها^(١) وما حولها من حافاتهما. ﴿ثمانية﴾ أي: ثمانية منهم. وعن رسول الله ﷺ: هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين^(٢)، فيكونون ثمانية. وروى: ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون. وقيل: بعضهم على صورة الإنسان، وبعضهم على صورة الأسد، وبعضهم على صورة الثور، وبعضهم على صورة النسر. وروى: ثمانية أملاك في خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً. وعن شهر بن حوشب: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وعن الحسن: الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف؟ وعن الضحاك: ثمانية صفوف لا يعلم عندهم إلا الله. ويجوز أن تكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر فهو القادر على كل خلق سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

يَوْمَيزُ شَرُّوْنَ لَا تَخَفْ مِنْكَ حَيَّيَّة ٧٥

العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لمعرفة أحواله. وروى أن في يوم القيامة ثلاثة عرضات: فاما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، واما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله.

﴿خافية﴾ سريرة. وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم.

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ يَسْبِيهِ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَزْوَاجُ كَيْفَ ٧٦

﴿قاما﴾ تفصيل للعرض. هاء صوت يصوت به فيفهم منه معنى: خذ كاف وحس وما أشبه ذلك. و﴿كتابيه﴾ منصوب بهائم عند الكوفيين وعند البصريين باقروا لأنه أقرب العاملين. وأصله: هائم كتابي، أقرؤا كتابي. فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. ونظيره: أتوني أقرغ عليه قطراً. قالوا: ولو كان العامل الأول، ل قيل: أقرؤه وأقرغه والهاء للسكت في كتابيه، وكذلك في حسابيه وماليه وسلطانيه^(٣). وحق هذه الهاء أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل،

= لا ينبغي فتح باب، فإنه نورية إلى ما هو أكبر منه، ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبي عمرو رحمه الله مفارضة في قوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾ على قراءة حفص انتهت: إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة؛ لاني حججته بإثبات القراء المشاهير لها كذلك، ففهمت من رده لذلك ما فهمه من كلام الزمخشري ههنا، ولم أقبله منه رحمه الله، فتراجع عنه، وكانت هذه المفارضة بمكانة بيني وبينه، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرني به خاصته، وذلك صحيح؛ لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه الله، والله أعلم.

(١) قال أحمد: كلاهما معرّف تعريف الجنس، فالواحد والجمع سواء في العموم.

(٢) قال الزليعي رواه الطبري ونكره الثعلبي من غير سند وهو في حديث الصور الطويل وقد استوفينا الكلام عليه في غير هذا الباب 85/4

(٣) قال أحمد: تعليل القراءة باتباع المصحف عجيب، مع أن المعتقد الحق أن القراءات السبع بتفاصيلها منقولة تواتراً عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتها من التواتر عن قراءة النبي ﷺ أيها، كذلك قيل أن تكتب في المصحف وما نفس هؤلاء إلا إيهال الاجتهاد في القراءات المستفيضة، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري، وهذا خطأ =

القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم. وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين. وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أقلنا نخلع نصفها الآخر. وقيل: هو منع الكفار. وقولهم: ﴿انقطع من لو يشاء الله اطعمهم﴾. والمعنى: على بذل طعام المسكين.

قَلِيلٌ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا بَبْ ﴿٢٥﴾

﴿حميم﴾ قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾.

وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَلِيلٍ ﴿٢٦﴾

والغسلين غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم فعلين من الغسل.

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٢٧﴾

﴿الخاطئون﴾ الآثمون أصحاب الخطايا، وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب، وهم المشركون عن ابن عباس. وقرئ: الخاطيون بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها. وعن ابن عباس: ما الخاطون كلنا نخطو. وروى عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون. ما الصابون؟ إنما هو الصائبون. ويجوز أن يراد الذين يخطئون الحق إلى الباطل ويتعمدون حدود الله.

فَلَا أَقْرَبَ بِمَأْثُورٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا بُعُورَ ﴿٢٩﴾

هو أقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة لأنها لا تخرج من قسمين مبصر وغير مبصر. وقيل: الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة أن هذا القرآن.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾

﴿لقول رسول كريم﴾ أي: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وما هو بقول شاعر﴾ ولا كاهن كما تدعون. والقلّة في معنى العدم. أي: لا تؤمنون ولا تذكرون البتة. والمعنى: ما أكفركم وما أغفلكم.

نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٣٣﴾

﴿تنزيل﴾ هو تنزيل بياناً لأنه قول رسول نزل عليه ﴿من رب العالمين﴾. وقرأ أبو السمال: تنزيل أي: نزل تنزيلًا. وقيل: الرسول الكريم جبريل عليه السلام. وقوله: ﴿وما هو بقول شاعر﴾^(١) دليل على أنه محمد ﷺ، لأن المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن.

بعدها ولم ألق. ما ألقى. أو للحالة أي: ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليّ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها.

مَا أَقْنَى عَنِّي مَالِي ﴿٣٤﴾

﴿ما أغنى﴾ نفى أو استفهام على وجه الإنكار، أي: أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار.

مَلِكٍ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٍ ﴿٣٥﴾

﴿ملك عني سلطانية﴾ ملكي وتسلطي على الناس، وبقيت فقيراً ثليلاً. وعن ابن عباس أنها نزلت في الأسود بن عبد الأسد. وعن فنا خسرو الملقب بالعضد أنه لما قال: عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية. وقال ابن عباس: ضلت عني حجتى. ومعناه: بطلت حجتى التي كنت أحتج بها في الدنيا.

مَلِكٍ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٍ ﴿٣٦﴾ عُدَّةٌ مَقْدُورَةٌ ﴿٣٧﴾

﴿ثم الجحيم صلوه﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس. يقال: صلى النار وصلاه النار.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٨﴾

سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه اثناؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف بالطول. كما قال أن تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد، والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية. أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أقطع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ومعنى: ثم، الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم وما بينها وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدة.

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ بِآلِهِمْ إِلَّا الظَّيِيرَ ﴿٣٩﴾

﴿إنه﴾ تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كانه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وَلَا يَحْصُرُ عَنْهُمْ مَغَالِمُ الْأَسْكِينَ ﴿٤٠﴾

وفي قوله: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين أحدهما: عطفه على الكفر وجعله قرينة له، والثاني نكر الحض بون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. وما أحسن قول القائل:

إذا نزل الأضياف كان عنوراً

على الحي حتى تستقل مراجله يريد حضهم على

وَلَوْ نَفَعْنَا عَنَّا بَعْضَ الْأَقْوَالِ (٤٤).

سَجَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ الْمَطِيلِ (٤٥).

التقول افتعال القول؛ لأن فيه تكلفاً^(١) من المفتعل، وسمي الأقوال المتقولة أقاويل تصغيراً بها وتحقيراً. كقولك: الأعاجيب والأصاحك كانها جمع أفعولة من القول. والمعنى: ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلةً بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته، وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جبهه وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه.

لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٦).

معنى: «لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» لَاخِذْنَا بيمينه.

ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْإِثْمَ (٤٧).

كما أن قوله: «لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» لقطعنا وتينه وهذا بَيْنٌ، والوتين نياط القلب وهو حبل الوريد إذا قطع مات صاحبه. وقرئ: ولو تقول على البناء المفعول.

فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرِهِ حَازِجٌ (٤٨) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلَّيْقِينِ (٤٩).

قيل: «حَازِجٌ» في وصف أحد لأنه في معنى الجماعة، وهو اسم يقع في النفي العام مستوياً فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. ومنه قوله تعالى: «لا نفرق بين أحد من رسله»^(٢) «لستن كاحد من النساء». والضمير في عنه للقتل. أي: لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويوقعه عنه. أو لرسول الله أي: لا تقبرون أن تحجزوا عنه القتال وتحولوا بينه وبينه والخطاب للناس.

وَأَنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَنْكُرُ تُكْذِبِينَ (٥٠).

وكذلك في قوله تعالى: «وَأَنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مَكْنِبِينَ» وهو إبعاد على التكذيب. وقيل: الخطاب للمسلمين. والمعنى: أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن، وأنه الضمير للقرآن.

وَإِنَّهُ لَحَرَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥١).

«لِحسرة» على الكافرين به المكذبين له إذا راوا ثواب المصنفين به أو للتكبيب.

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥٢).

وأن القرآن لليقينين حق اليقين. كقولك: هو العالم حق العالم وجد العالم. والمعنى لعين اليقين ومحض اليقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المعارج مكية

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١).

ضمن سال معنى دعا فدعى تعديته كانه قيل: دعا داع «بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» من قولك: دعا بكذا، إذا استدعى وطلبه، ومنه قوله تعالى: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهِةٍ»^(٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث، قال: «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»^(٤) وقيل: هو رسول الله ﷺ استعجل بعذاب.

لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ (٢).

للكافرين، وقرئ: سال سائل: وهو على وجهين: إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش يقولون: سلت تسأل وهما بتسylan، وإن يكون من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس: سال سيلاً، والسيل مصدر في معنى السائل كالغور بمعنى الغائر. والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب فذهب بهم وأهلكهم. وعن قتادة: سال سائل عن عذاب الله على من ينزل، وبمن يقع فنزلت. وسال على هذا الوجه مضمن معنى: عنى واهتم.

فَإِن قُلْتُ: بِمَ يَتَصَلُّ قَوْلُهُ: «لِّلْكَافِرِينَ»؟ قُلْتُ: هو على القول الأول متصل بعذاب صفة له، أي: بعذاب واقع كائن للكافرين، أو بالفعل أي: دعا للكافرين بعذاب واقع، أو بواقع أي: بعذاب نازل لأجلهم. وعلى الثاني هو كلام مبتدأ جواب للسائل، أي: هو للكافرين.

فَإِن قُلْتُ: فَقَوْلُهُ: «مِّنَ اللَّهِ» بِمَ يَتَصَلُّ؟ قُلْتُ: يتصل بواقع، أي: واقع من عنده، أو بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه.

يَوْمَ نَبِّئُ الْوَهَّابِ (٣).

«ذي المعارج» ذي المصاعد، جمع معرج. ثم وصف

(٣) ابن مريويه الثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 85/4.

(٤) سورة ص، الآية: 51.

(٥) سورة الانفال، الآية: 32.

(١) قال احمد: وبناء أفعولة من القول، وهو معتل كما ترى غيب عن القياس التصريفي، ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع، كالأناعم جمع اقوال وأنعم وهو الظاهر، والله أعلم.

(٢) سورة البقرة، الآية: 285.

المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع. فقال:

تَرَجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤١﴾

﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره ﴿في يوم كان مقداره﴾ كمقدار مدة ﴿خمسین ألف سنة﴾ مما بعد الناس. والروح جبريل عليه السلام أفرده لتمييزه بفضله. وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما أنَّ الملائكة حفظة على الناس.

فإن قلَّت: بم يتعلق قوله:

فَأَمَرَ صَبْرًا حَبِيلًا ﴿٥﴾.

﴿فأصبر﴾! قلَّت: بسائل سائل لأن استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي، وكان ذلك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو، فإنما سأل على طريق التعتن وكان من كفار مكة. ومن قرأ: سأل سائل أو سيل، فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعه فأصبر فقد شارفت الانتقام وقد جعل في يوم من صلة واقع، أي: يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنينكم وهو يوم القيامة. إما أن يكون استطالة له لشدة على الكفار، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل: فيه خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر. الضمير في.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيِّدًا ﴿٦﴾.

﴿يرونه﴾ للعذاب الواقع أو ليوم القيامة فيمن علق في يوم بواقع، أي: يستبعدونه على جهة الإحالة.

وَرَزَقَهُ قُرْبًا ﴿٧﴾.

﴿و﴾ نحن ﴿نراه قريبًا﴾ هيئًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر. فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان، وبالقريب القريب منه. نصب.

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾.

﴿يوم تكون﴾ بقربيا، أي: يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم، أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه، أو يوم تكون السماء كالمهل كان كيت وكيت، أو هو بدل عن في يوم فيمن علقه بواقع. ﴿كالمهل﴾ كدرى الزيت، وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها.

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾.

﴿كالعهن﴾ كالصوف المصبوغ الوانًا، لأن الجبال جدد بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرابيب سود فإذا بسط وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿ولا يسأل حميم حميمًا﴾ أي: لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه لأن بكل أحد ما يشغله عن المسألة.

يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَڤْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيٍّ يَنْبِيءُهُ ﴿١١﴾ وَصَاحِبُهُ وَآخِيهِ ﴿١٢﴾.

﴿يصرونهم﴾ أي: يبصر الإحماء الإحماء فلا يخفون عليهم^(١) فما يمنعونهم من المسألة أن بعضهم لا يبصر بعضًا، وإنما يمنعونهم التشاغل. وقرئ: يبصرونهم وقرئ: ولا يسئل على البناء للمفعول، أي: لا يقال: الحميم أين حميمك ولا يطلب منه لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب.

فإن قلَّت: ما موقع ﴿يبصرونهم﴾؟ قلَّت: هو كلام مستأنف كانه لما قال: ولا يسأل حميم حميمًا قيل: لعله لا يبصره؟ فقيل: يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قلَّت: لم جمع الضميران في يبصرونهم وهما للحميمين؟ قلَّت: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، ويجوز أن يكون يبصرونهم صفة أي: حميمًا مبصرين معرفين إياهم. قرئ: يومئذ بالجر والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن، ومن عذاب يومئذ بتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب.

وَصَلَّيْهِ إِلَى تَوْبِهِ ﴿١٣﴾.

﴿وفصلته﴾ عشيرته، الأذنون الذين فصل عنهم. ﴿وتوَّبه﴾ تضمه انتماء إليها أو لياذًا بها في النواصب.

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَمِيمًا ثُمَّ يُنْبِئُهُ ﴿١٤﴾.

﴿ينبئيه﴾ عطف على يفتدى، أي: يؤد لو يفتدى، لو ينبئيه الافتداء أو من في الأرض، وثم لاستبعاد الإنجاء، يعني: تمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وببذلهم في فداء نفسه، ثم ينبئيه ذلك وهيئات أن ينبئيه.

لَا إِلَهَ إِلَّا لَكَ ﴿١٥﴾.

﴿كلا﴾ رد للمجرم عن الودادة وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينبئيه من العذاب، ثم قال: ﴿إنها﴾ والضمير للنار ولم يجر لها نكر لأن نكر العذاب دل عليها، ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا ترجم عنه الخبر أو ضمير القصة. ﴿ولظى﴾ علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب، ويجوز

(١) قال أحمد: وفيه دليل على أنَّ الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعم، كما التزم في: والله لا أشرب ماء من إدفلة أنه عام في المياه والأدوات، خلافاً لبعضهم في الأدوات.

أن يراد اللهب.

وهو الذي إذا ناله شرًا أظهره شدة الجزع.

نَزَاعَةُ الشَّوَى (١١).

وَإِذَا سَأَلَ أَخِيكَ مَتَاعًا (١٢) إِلَّا التَّعْلِيلَ (١٣).

وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس. والخير المال والغنى والشر الفقر، أو الصحة والمرض. إذا صحَّ الغني منع منه المعروف وشحَّ بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصي والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه كأنه (١) مجبول عليهما مطبوع وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري. كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ (٢) والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه نَمَّ والله لا يذمُّ فعله، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره، وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين، وعن النبي ﷺ: «شر ما أعطى ابن آدم شحَّ هالِع وجبن خالِع» (٣).

فإن قُلْتَ: كيف؟ قال:

الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (١٤).

﴿على صلواتهم دائماً﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟ قُلْتُ: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل (٤). كما روي عن النبي ﷺ: «أفضل العمل أوممه وإن قل» (٥). وقول عائشة: كان عمله ديمة (٦). ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الرضوء لها ومواقبتها وقياموا أركانها ويكملوها بسنتها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام يرجع إلى انفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها.

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (١٥).

﴿حق معلوم﴾ هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صفة يوظفها الرجل على نفسه يؤدِّيها في أوقات معلومة. السائل الذي يسأل.

لِلنَّازِلِ وَالسَّرَّارِ (١٦).

﴿والمحروم﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيًا فيحرم.

و﴿نزاعة﴾ خبر بعد خبر لأنَّ أو خبر للملأى إن كانت الهاء ضمير القصة، أو صفة له إن أرادت اللهب والتأنيث لانه في معنى النار أو رفع على التهويل، أي: هي نزاعة. وقرئ: نزاعة بالنصب على الحال المؤكدة، أو على أنها متظلية نزاعة، أو على الاختصاص للتهويل. والشوى الأطراف أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس تنزعها نزاعًا فتبتكها ثم تعاد.

تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَكَّلْ (١٧).

﴿تدعو﴾ مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم، ونحوه قول ذي الرمة: تدعو أنفة الريب، وقوله: ليالي اللهو يطيني فاتبعه. وقول أبي النجم: تقول للرائد أعشبت أنزل، وقيل: تقول لهم: إني إلي يا كافر يا منافق. وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح، ثم تلتقطهم التقاط الحب. فيجوز أن يخلق الله فيها كلامًا كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة، ويجوز أن يكون دعاء الزبانية، وقيل: تدعرك تهلك، من قول العرب: دعاك الله، أي: أهلكك. قال دعاك الله من رجل باقعى ﴿من أذبر﴾ عن الحق ﴿وتوكل﴾ عنه.

وَمَعَ قَارَعٌ (١٨).

﴿وجمع﴾ المال فجعله في وعاء وكنزّه ولم يؤدِّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وزهى باقتنائه وتكبر. أريد بالإنسان الناس فلنك استثنى منه إلا المصلين.

إِذَا الْإِنْسَانُ حَقِيقًا مَلُومًا (١٩).

والهلع سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى: قال لي محمد بن عبد الله بن ظاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره.

وَإِذَا سَأَلَ أَخِيكَ مَتَاعًا حَرُومًا (٢٠).

= الجرة والجبن (الحديث رقم: 2511)، وأحمد في المسند 320/2.

(4) قال أحمد: حفظها من الإحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة، فلا يحبط ما سواه خلافاً للقدريّة، وقد تعيّن أمثاله، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6461)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (الحديث رقم: 216 - 782).

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6466)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: فضيلة العمل الدائم (الحديث رقم: 217 - 783).

(1) قال أحمد: هو يشرك باطنًا وينزّه ظاهراً، فينفى كون الهلع الذي هو موجود للأدنى مخلوقاً لله تعالى تنزيهاً له عن ذلك، ويثبت خالقاً مع الله ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية، لذلك فإنك إذا قلت: برئت القلم رقيقاً، فقد نسبت إليك الحال وهو ترفيقه، كما نسبت إليك البري، وكذلك الآية، وأمّا قوله: والله لا يذمُّ خلقه، فالله تعالى له الحمد على كل حال، وإنما المذموم العبد، بحجة أنه جعل فيه اختياراً يفرّق به بالضرورة بين الاختيارات والقسريات، ألا الله الحجة البالغة، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب الزكاة، باب الوعيد لمائع الزكاة (الحديث رقم: 3250)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب في =

المذرة، وهي منصبتهم الذي لا منصب أوضع منه. ولذلك أبهم وأخفى إشعاراً بأنه منصب يستحيا من نكره. فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخل الجنة قبلهم. وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل.

لَا أَقِيمُ رَبِّيَ الشَّرْقَ وَالْمَغْرِبَ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴿١٠﴾ عَلَّ أَنْ يُكَلَّ خَيْرًا يَنْفَعُ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُورِينَ ﴿١١﴾ مَذَرَهُ يَحْمِلُوهُ وَيَلْمِزُوهُ يَلْمِزُوهُ يَوْمَهُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿١٢﴾
وقرى: برب المشرق والمغرب ويخرجون ويخرجون، ومن الأحداث سراعاً بالإظهار والإدغام ونصب ونصب وهو كل ما نصب فعيد من دون الله.

يَوْمَ يَحْمِلُونَ مِنَ الْجَحْدَانِ رِيبًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَقُونَ ﴿١٣﴾ خَشِيتُهُ أَصْرَهُمْ زَهْمُهُمْ وَلَهُ ذِكْرُ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٤﴾.

﴿يؤفقدون﴾ يسرعون إلى الداعي مستبشرين كما كانوا يستبقون إلى انصابتهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة سال^(١) سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة نوح مكية

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِنْ قَوْمِي أَنَّ أَنْذِرُ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِئَیْ لَكُمْ دَرَكٌ شَیْءٌ ﴿٢﴾.

﴿أن أنذر﴾ أصله بأن أنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل، وهي أن الناصبة للفعل، والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر. أي: أرسلناه بالامر بالإنذار. ويجوز أن تكون مفسرة لأن الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: أنذر بغير أن على إرادة القول.

أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٣﴾.

﴿أن اعبدوا﴾ نحو أن أنذر في الوجهين.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ؟ قَالَ:

يَتَّبِعُونَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قلنا: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة. فقليل لهم: آمنوا يؤخرهم إلى أجل مسمى. أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمداً، انتنهمون إليه لا تتجاوزونه.

وَالَّذِينَ يُصَلُّونَ بِحُورٍ الْبَاقِينَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّعُونَ ﴿٦﴾.
﴿يصلون بيوم الدين﴾ تصديقاً بأعمالهم واستعدادهم له ويشفقون من عذاب ربهم. واعترض بقوله:

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا تُنَاسِبُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ حَسِبُونَ ﴿٨﴾ إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٩﴾ فَمَنْ أَتَى رُكَّةَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَدِّهِمْ ذَعُونَ ﴿١١﴾.

﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي: لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء.

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ يَتَكَبَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٣﴾.

قري: بشهادتهم وبشهاداتهم والشهادة في جملة الأمانات وخصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها في زياها تضييعها وإبطالها. أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُتَّكِرُونَ ﴿١٤﴾.

كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً وقرقاً فرقاً يستمعون ويستهنئون بكلامه ويقولون: إن نخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلتدخلنا قبلهم فنزلت.

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُتَّبِعُونَ ﴿١٥﴾.

﴿مضطعين﴾ مسرعين نحوك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

عَنِ الَّذِينَ رَوَوْا أَمْثَالَ حِينَ ﴿١٦﴾ أَطْلَعَ كُلُّ أَمْرٍ أَمْرَهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَجِيمٍ ﴿١٧﴾.

﴿عززين﴾ فرقا شتى، جمع عزة وأصلها عزوة. كان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون. قال الكمي:

ونحن وجندل باغ تركنا كتاب جندل شتى عزينا وقيل: كان المستهنئون خمسة أهرط.

كَلَّا إِنَّا عَلَّمْنَاهُمْ مِمَّا يَلْمِزُونَ ﴿١٨﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إلى آخر السورة. وهو كلام دال على إنكارهم البعث. فكانه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة.

فإن قلنا: من أي وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث؟ قلنا: من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى كالاتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله: خلقناهم مما يعلمون أي: من النطف، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناساً خيراً منهم، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء. والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة، ويجوز أن يراد إنا خلقناهم مما يعلمون. أي: من النطفة.

منصوب بدعوتهم نصب المصدر لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهازاً، أي: مجاهراً به. أو مصدرًا في موضع الحال أي مجاهراً.

قُلْتُ أَتَسْتَعِينُونَ بِرَبِّكُمْ إِنَّكُمْ كَأَنْ عَصَاكُمْ ﴿١٢﴾

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحب إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجية ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال: وأخرى تحبونها نصر من الله ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروي سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيك استسقيت؟ فقال: لقد استسقيت بمجابهج السماء التي يستنزل بها القطر⁽²⁾، شبه الاستغفار بالأنوار الصادقة التي لا تخطيء. وعن الحسن أن رجلاً شكاً إليه الجنب، فقال: استغفر الله. وشكاً إليه آخر الفقير، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه. فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبواً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فقتل له هذه الآية: والسماء المظلة لأن المطر منها ينزل إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم.

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَأَكُمْ ﴿١١﴾

والمرار الكثير الدور، ومفعال مما يستوي فيه المنكر والمؤنث كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتقال.

وَيُنَادِي بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾

﴿جَنَّتٍ﴾ بسايتين.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾

﴿لا ترجون لله وقاراً﴾ لا تأملون له توقيراً أي: تعظيماً. والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله⁽³⁾ إياكم في دار الثواب، والله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار؟ وقوله:

وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيلة، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ رَبِّي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾

﴿ليلاً ونهاراً﴾ دائماً من غير فتور مستغرقاً به الاوقات كلها.

قَلَّمَ يَرْزُقُهُمْ دَعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

﴿قلم يرزقهم دعائي﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار، والمعنى: على أنهم ازدادوا عنده فراراً لأنه سبب الزيادة، ونحوه فزادهم رجساً إلى رجسهم فزانتهم إيماناً.

وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ دَعَوْتُهُمْ لَتَغَيَّرَ لَهُمْ جَمَلًا أَسِيمٌ فِي مَكَائِهِمْ وَأَسْتَفْزَنُوا يَابَهُمْ وَأَصْرًا وَأَسْتَكْبَرُوا أَتَيْكَارًا ﴿٧﴾

﴿لتغفر لهم﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فنكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقيح لإعراضهم عنه. سدا مسامعهم عن استماع الدعوة، ﴿وأسفشوا ثيابهم﴾ وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحه في دين الله. وقيل: لئلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى: ﴿إلا أنهم يثنون صبورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم﴾⁽¹⁾ الإصرار من أصر الحمار على العانة إذ أصر أنثيه وأقبل عليها يكسها ويطردها. استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها. ﴿واستكبروا﴾ واخنتهم العزة من اتباع نوح وطاعته، ونكر المصدر تأكيد ودولة على فرط استقبالهم وعتوهم.

فَإِنْ قُلْتُ:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَكَلْتُ لَمْ وَأَسْرَرْتُ لَمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾

نكر أنه دعاهم ليلاً ونهاراً ثم دعاهم جهازاً ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف! قُلْتُ: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يامر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأمور والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمنصحة في السر فلما لم يقبلوا، ثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر، ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى: ثم، الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين وأغلظ من أفراد أحدهما. ﴿وجهازاً﴾

(1) سورة هود، الآية: 5.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 87/3 (الحديث رقم: 4902).

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يبيح الرجاء على بابه، ونقل قولاً آخر لمحله على الخوف، أي: لا تخافون لله عظمة، وعن ابن =

= عباس: أن الوقار العاقبة لاستقرار الثواب، وثبات العقاب من وقر إذا ثبت، قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ قال فيه: وإنما هو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة.

واكد بالمصدر كانه قال: يخرجكم حقاً ولا محالة جعلها بـساطاً مبسوطاً تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه.

لَسْتَلَكُمَا فِيهَا سُلَاطِنًا ﴿٧٠﴾

﴿فجاءا﴾ واسعة منفجة.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنِّي أَعِزُّوهُ وَأَتَّبِعُوهُ مَن لَّرَ بَرَّةً مَّالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَارًا ﴿٧١﴾

﴿وتابعوا﴾ رؤوسهم المقدمين أصحاب الاموال والاولاد، وارتمسوا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الاصنام. وجعل اموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة ﴿خساراً﴾ في الآخرة، ولجى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها تحقيقاً له وتثبيتاً وإبطالاً لما سواه. وقرئ: وولده بضم الواو وكسرهما.

وَمَكَّرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٧٢﴾

﴿ومكروا﴾ معطوف على لم يزه وجمع الضمير وهو راجع إلى من لانه في معنى الجمع والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على اذاه وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لا تذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح ﴿مكراً كبيراً﴾ قرئ: بالتخفيف والتثقيب، والكبار اكبر من الكبير والكبار اكبر من الكبار ونحوه طول وطول.

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٧٣﴾

﴿ولا تذرون ودا﴾ كان هذه المسميات كانت اكبر صناتهم واعظمها عندهم فخصوها بعد قولهم: لا تذرن آلهتكم. وقد انتقلت هذه الاصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمنحج ويعوق لمراد ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من اولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم. ففعلوا. فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبوهم. وقيل: كان وداً على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر. وقرئ: وداً بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثاً ويعوقاً بالصرف. وهذه قراءة مشككة لانهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سبباً منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل وإما

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٧٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ يَلِيَّكَا ﴿٧٥﴾

﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ في موضع الحال، كانه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه؟ وهي حال موجبة للإيمان به لانه خلقكم أطواراً أي: تارات، خلقكم أولاً تراباً ثم خلقكم نطقاً ثم خلقكم علقاً ثم خلقكم مضغاً ثم خلقكم عظاماً ولحمًا ثم أنشاكم خلقاً آخر. أو لا تخافون الله حلماً وترك معالجة العقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون الله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون الله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقرأ إذا ثبت واستقر. نيههم على النظر في أنفسهم أولاً لانها اقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والارض والشمس والقمر.

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ زِينَةً ﴿٧٦﴾

﴿ففيهن﴾ في السموات وهو في السماء الدنيا^(١)، لأن بين السموات ملابس من حيث أنها طباق. فجاز أن يقال: فيهن كذا، وإن لم يكن في جميعهن. كما يقال في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أن الشمس والقمر وجوهما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض^(٢). ﴿وجعل للشمس سراجاً﴾ يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى أبصاره، والقمر ليس كذلك إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء للشمس. ومثله قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾^(٣) والضياء أقوى من النور.

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧٧﴾

استعير الإنبات للإنشاء كما يقال: زرعك الله للخير. وكانت هذه الاستعارة أدل على الحوث، لانهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حوث النبات. ومنه قيل: للحشوية النابتة. والنوابت لحوث مذهبهم في الإسلام من غير أولية لهم فيه. ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة، والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم.

ثُمَّ يُبْدِلُكُمُ بَنِيًا وَيَحْطِمُ بَنِيكُمْ إِخْرَاقًا ﴿٧٨﴾

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ مقبورين، ثم ﴿يخرجكم﴾ يوم القيامة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٧٩﴾

(2) قال الزيلعي غريب وروى نحوه ابن مريويه وعبد الرزاق في تفسيرهما 94/4.

(3) سورة يونس، الآية: 5.

(1) قال احمد: ويلاحظ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾. عاد كلامه قوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ قال فيه: كيف جاز أن يزيد الضلال؟ وأجاب: بأن المراد به منع اللطاف: قلت: هذا على قاعته.

وإن خلا من الخطيئة الكبرى، وقرئ: خطيئاتهم بالهمزة، وخطيئاتهم بقلبها ياء وإدغامها، وخطاياهم، وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد الكفر. ﴿فَانْخَلُوا نَارًا﴾ جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم لاقترباه ولأنه كائن لا محالة، فكانه قد كان أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يفرقون من جانب، ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها أو لأن الله أعلمهم على حسب خطيئاتهم نوعاً من النار. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم. كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله. كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ (5).

وَقَالَ مُجْرٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٦).

﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيام وقيوم. وهو فيعال من النور أو من الدار أصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ولو كان فعلاً لكان دَوَّارًا.

فإن قُلْتُ: بم علم أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قُلْتُ: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم. وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حنرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وقد أخبره الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. ومعنى.

إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٧).

﴿لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» (8).

رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مَرْؤَةً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِرِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٩).

= وينجز الكلام منها إلى حكم الله علينا في العدو إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذرائعهم، إن ذلك لا يوجب الإكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمغرية، ويستدل برمي النبي ﷺ على أهل الطائف بالمجانيق، وقيل لهم: فيهم الذرية، فقال: «هم من آبائهم»، وإما رميهم بالنار وفيهم الذرية، فمنعه مالك رحمه الله إلا أن يخاف غائتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها، والله تعالى أعلم.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 43.

(6) تقدم في أول البقرة.

التعريف والعجمة، ولعله قصد الازواج فصرفهما لمصافيته أخواتهما منصرفات وذاً وسواً ونسراً. كما قرئ: وضاحاً بإمالة لوقوعه مع الممالات للازواج.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (١٠).

﴿وقد أضلوا﴾ الضمير للرؤساء، ومعناه: وقد أضلوا ﴿كثيراً﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام، ليسوا بأول من أضلوهم، أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيراً. يعني: أن هؤلاء المضلين فيهم كثرة، ويجوز أن يكون للأصنام. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ (11).

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ؟﴾ قُلْتُ: على قوله: ﴿وَرَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ (2) على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائية عنه. ومعناه قال: رب إنهم عصوني. وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً. أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال كقولك: قال زيد. نودي للصلاة وصل في المسجد. تحكى قولي معطوفاً أحدهما على صاحبه.

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قُلْتُ: المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الإلطف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال الضياع والهلاك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (3) تقميم.

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَكَرَّ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (١١).

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإذلالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم (4) وأكد هذه المعنى بزيادة ما. وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئاتهم ما أغرقوا بتأخير الصلاة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهن، وقد نعت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أن معه ما يستوجب به العذاب

(1) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(2) سورة نوح، الآية: 21.

(3) سورة نوح، الآية: 28.

(4) قال أحمد: هذا السؤال مفصّل عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى، وعليه يبنى أنه لا يجوز الآلم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق أو لإعواض مترقية، أو لغير ذلك من المصالح بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح، والصبيان لا جنابة سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم، فيرد السؤال على ذلك، وأما أهل السنة فالتعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح، =

قضى: ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً **﴿عجباً﴾** بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز وعجب مصدر يوضع موضع العجيب وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره.

يَهْدِي إِلَى الْآرْثِيِّ فَأَمَّا يَوْمَئِذٍ وَلَنْ تُشْرَكَ بِرَبِّكَ لَمَّا

﴿يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب. وقيل: إلى التوحيد والإيمان. والضمير في **﴿بِهِ﴾** للقرآن، ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك. قالوا: **﴿وَلَنْ تُشْرَكَ بِرَبِّنا لَحْذًا﴾** أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان، ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل. لأن قوله: ربنا يفسره.

وَأَنْتُمْ تَقُولُ جَدُّ رَبِّنَا مَا أَتَعَدَّ صَحِجَةً وَلَا وَلَدًا

﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمت من قولك: جد فلان في عيني أي: عظم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا. وروي: في أعيننا أو ملكه وسلطانه أو غناه⁽³⁾. استعارة من الجد الذي هو الدولة والبيخ لأن الملوك والأغنياء هم المجدوبون. والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والوالد لعظمته أو سلطانه وملكوته أو لغناه. وقوله: **﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾** بيان لذلك. وقرئ: جدًّا ربنا على التمييز، وجد ربنا بالكسر. أي: صدق ربوبيته وحق ألهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد. وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان تنبهوا عن الخطأ فيما اعتقدوه كفر الجن من تشبيهه الله بخلقه واتخاذها صاحبةً وولداً فاستعظموه ونزهوه عنه.

وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ سُبْحَانَكَ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا

سفيهم: إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجن، والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره، ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه. أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، الفط ما أشط فيه وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنشَ وَالْإِنشَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

وكان في ظننا أن أحداً من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفترى عليه ما ليس بحق فكنا نصلقهم فيما أضافوا إليه من ذلك حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم واقتراؤهم. **﴿كَذِبًا﴾** قولاً كذباً، أي: مكنوياً فيه، أو نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول. ومن قرأ: أن لن تقول، وضع كذباً موضع تقولاً ولم يجعله صفة لأن القول لا يكون إلا كذباً.

وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ الْإِنشَ بَوْدُونَ رَبَّكَ لَمَّا يَنْزِلُ رَأْدُكُمْ رَهَقًا

﴿وَلَوْلَا الَّذِي﴾ أبو ملك بن متوشلخ وامه شمعاء بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدم وحواء. وقرأ الحسين بن علي: ولولادي، يريد ساماً وحاماً. **﴿بَيْتِي﴾** منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي. خص أولاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه. ثم عم المؤمنين والمؤمنات **﴿تَبَارَكَ﴾** هلاكاً.

فَإِنْ قُلْتَ: ما فعل صبيانهم حين أغرقوا؟ قُلْتُ: أغرقوا معهم لا على وجه العقاب، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق. وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون. ومنه قوله عليه السلام: «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصابراً شتى»⁽¹⁾. وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فاهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسلاتهم وأبیس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرهم دعوة نوح عليه السلام»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجن مكية

قُلْ أُوْحِي إِلَيْكَ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اللَّيْلِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا رُؤُوسًا مِّمَّا

(1)

قرئ: أوحى وأصله وحي. يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزة. كما يقال: أعد وزن. وإذا الرسل أقتت وهو من القلب المطلق جوازه في كل وار مضمومة، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كاشاح وإسادة وإعاء أخيه، وقرأ ابن أبي عبلة: وحي على الأصل **﴿إِنَّهُ اسْتَمَعَ﴾** بالفتح لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقى، فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجن كسر. وكلهن من قولهم: إلا الثنتين الأخريين، وأن المساجد، وأنه لما قام ومن فتح كلهن، فعملاً على محل الجار والمجرور في أمنا به. كانه قيل: صلقتاه وصلقتنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهما وكذلك البواقى. **﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾** جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عبداً، وعامة جنود إبليس منهم. **﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾** أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم، كقوله: فلما

(3) قال الزيلعي: غريب من حديث عمر وقد تقدم من حديث أنس. رواه أحمد 99/4.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (الحديث رقم: 8 - 2884).

(2) رواه الثعلبي وابن مرمويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 95.

وقال عوف بن الخرع:

يرد علينا العير من دون إلفه أو الشور كالسرى يتبعه السهم
ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال، فلما
بعث رسول الله ﷺ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى
تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً. وعن معمر:
قلت للزهري: إكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم.
قلت: رأيت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ كُنَّا نَقْعُدُ﴾ فقال: غلظت.
وشد أمرها حين بعث النبي ﷺ وروى الزهري عن
علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما: بينا
رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذا رمى بنجم
فاستنار. فقال: «ما كنتم تقولون في مثل هذا في
الجاهلية؟ فقالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم⁽²⁾.
وفي قوله: ﴿مَلَأْتُ﴾ دليل على أن الحادث هو الملاء
والكثرة. وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدُ﴾ أي: كنا نجد
فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت
المقاعد كلها، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد
حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته.

وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا^(١).

يقولون: لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع
الاستراق، قلنا: ما هذا إلا لأمر أَرَادَهُ اللهُ بَاهِلِ الْأَرْضِ وَلَا
يَخْلُو مِنْ يَكُونُ شَرًّا أَوْ رَشَدًا. أي: خيراً من عذاب أو من
رحمة أو من خذلان أو توفيق.

وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَا^(١١).

﴿مِمَّا الصَّالِحِينَ﴾ منا الأبرار المتقون ﴿وَمِمَّا دُونَ﴾
ذلك، ومنا قوم دون ذلك، فحنف الموصوف. كقوله: وما
منا إلا له مقام معلوم، وهم المقتصدون في الصلاح غير
الكاملين فيه، أو أرادوا الطالحين ﴿كُنَّا طَرِيقَ قَدَا﴾ بيان
للقسمة المذكورة، أي: كنا نوي مذاهب مفترقة مختلفة، أو
كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة، أو كنا في
طرائق مختلفة. كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

أو كانت طرائقنا طرائق قدداً على حنف المضاف الذي
هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه. والقدّة: من
قد كالقطعة من قطع، ووصفت الطرائق بالقدد لداليتها على
معنى التقطع والتفرق.

وَأَنَا نَعْلَمُ أَنَّ لَنَ شَجَرًا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَ شَجَرًا هَرَا^(١٢).

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿هَرَا﴾ حالان أي: لن نعجزه كائنين
في الأرض أينما كنا فيها ولن نعجزه هاربين منها إلى
السما. وقيل: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن

الرهب: غشيان المحارم، والمعنى: أن الإنس باستعانتهم
بهم زأوهم كبراً وكفرًا. وذلك أن الرجل من العرب كان إذا
أمسى في وادٍ قفر في بعض مسابره وخاف على نفسه
قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد الجن
وكبيرهم. فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سيدنا الجن
والإنس. فنلك رهبهم أو فزاد الجن الإنس رهبًا بإغوائهم
وإضلالهم لاستعانتهم بهم.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَن يَمُتَ اللَّهُ أَحَدًا^(٧).

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأن الإنس ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ وهو من
كلام الجن بقوله: بعضهم لبعض. وقيل: الآيتان من جملة
الوحي، والضمير في ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ للجن، والخطاب في
ظننتم لكفار قريش. اللبس: المس فاستعير للطلب لأن
الماس طالب متعرف قال:

مسنا من الآباء شيئاً وكننا إلى نسب في قومه غير واضح

وَأَنَا لَمَسْنَا أَلْسَنَةً فَوَدَّعَتْهَا حَرَسًا شَدِيدًا وَثَمِبًا^(٨) وَأَنَا
كَمَا تَقَعَّدُ مِنْهَا مَقْعِدٌ لِلشَّيْءِ فَمَنْ يَسْتَجِجْ الْآنَ يَجِدْ لَمْ يَهَبْكَ رَمَدًا^(٩).

يقال: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه،
ونحوه: الجس. وقولهم: جسوه بأعينهم ويجسسوه،
والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. والحرس
اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام،
ولذلك وصف بشديد، ولو ذهب إلى معناه لقليل: شدائد
ونحوه. أخشى رجلاً أو ركبياً غادياً. لأن الرجل والركب
مفردان في معنى الرجال والركاب.

والرصد: مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى
نوي شهاب راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين
يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن
يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعني جياهاً
يعني: يجد شهاباً راصداً له ولأجله.

فَإِن قُلْتُ: كان الرجم لم يكن في الجاهلية وقد قال الله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا
لِّلشَّيَاطِينِ﴾. فنكر فائدتين في خلق الكواكب التزيين ورجم
الشياطين^(١٠)؛ قُلْتُ: قال بعضهم حدث بعد مبعث
رسول الله ﷺ وهو إحدى آياته والصحيح أنه كان قبل
المبعث. وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية قال بشر بن
أبي خازم:

والعير يرهقها الخبر وجحشها
وقال أوس بن حجر:

وانقض كالسرى يتبعه نفع يشور تخاله طنبا

(1) قال أحمد: ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعاً مرادان لله تعالى يقولهم: ﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة سبا (الحديث رقم: 3224).

(1) قال أحمد: ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعاً مرادان لله تعالى يقولهم: ﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. ولقد أحسنوا الألب في ذكر إرادة الشر محنوفة الفاعل، والمراد بالمريد: هو الله عز وجل وإبراهيم لاسمه عند

وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا ﴿٦٨﴾

﴿عبد الله﴾ النبي ﷺ.

فَإِنْ قُلْتُ: هَلَا قِيلَ رَسُولُ اللَّهِ أَوْ النَّبِيُّ! قُلْتُ: لَا نَقْتِيرُهُ وَأَوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ وَقَعًا فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَفْسِهِ جِيءَ بِهِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ التَّوَاضُعُ وَالتَّنَزُّلُ، أَوْ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ ﷺ لَيْسَتْ بِأَمْرٍ مُسْتَبَعَدٍ عَنِ الْعَقْلِ وَلَا مُسْتَنَكِرٍ حَتَّى يَكُونُوا عَلَيْهِ لِبْدًا. وَمَعْنَى قَامَ يَدْعُوهُ قَامَ يَعْبُدُهُ يَرِيدُ قِيَامَهُ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ بِخَلَّةٍ حِينَ آتَاهُ الْجَنُّ فَاسْتَمَعُوا لِقَرَاتِهِ ﷺ ﴿كَانُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبْدًا﴾ أَي: يَرْجَحُونَ عَلَيْهِ مَتْرَاكِمِينَ تَحْجِبًا مِمَّا رَأَوْا مِنْ عِبَادَتِهِ وَإِقْتِدَاءِ أَصْحَابِهِ بِهِ قَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، وَإِعْجَابًا بِمَا تَلَا مِنَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ وَسَمِعُوا بِمَا لَمْ يَسْمَعُوا بِظَهْرِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَمَّا قَامَ رَسُولًا يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخَالَفًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَلْهَةِ مِنْ نُونِهِ، كَادَ الْمُشْرِكُونَ لَتَظَاهَرَهُمْ عَلَيْهِ وَتَعَاوَنَهُمْ عَلَى عِدَاوَتِهِ يَرْجَحُونَ عَلَيْهِ مَتْرَاكِمِينَ لِبْدًا، جَمْعُ لِبْدَةٍ وَهُوَ مَا تَلْبُدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا لِبْدَةُ الْأَسَدِ. وَقُرَى: لِبْدًا وَاللِبْدَةُ فِي مَعْنَى لِبُودٍ كَصِبُورٍ وَصَبِيرٍ. وَعَنْ قَتَادَةَ: تَلْبُدَتْ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ فَايَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصَرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ. وَمَنْ قَرَأَ وَإِنَّهُ بِالْكَسْرِ جَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ الْجَنِّ قَالُوهُ لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ حَاكِيْنَ مَا رَأَوْا مِنْ صَلَاتِهِ وَازْدِحَامِ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فِي اتِّمَامِهِمْ بِهِ.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٦٩﴾

﴿قَالَ﴾: لِلْمُتَظَاهِرِينَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ يَرِيدُ مَا آتَيْتَكُمْ بِأَمْرِ مُنْكَرٍ إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ وَلَيْسَ ذَاكَ مِمَّا يُوْجِبُ إِطْبَاقَكُمْ عَلَى مَقْتِي وَعِدَاوَتِي. أَوْ قَالَ لِلْجَنِّ عِنْدَ اَزْدِحَامِهِمْ مُتَعَجِّبِينَ: لَيْسَ مَا تَرَوْنَ مِنْ عِبَادَتِي اللَّهُ وَرَفْضِي الْإِشْرَاقَ بِهِ بِأَمْرِ يَتَعَجَّبُ مِنْهُ، إِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُ شَرِيكًَا. أَوْ قَالَ الْجَنُّ لِقَوْمِهِمْ: ذَلِكَ حِكَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مَرًا وَلَا رَشَدًا ﴿٧٠﴾

﴿وَلَا رَشَدًا﴾ وَلَا نَفْعًا أَوْ أَرَادَ بِالضَّرِّ الْغِي. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي: غِيًّا وَلَا رَشَدًا، وَالْمَعْنَى: لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَضْرِكَمْ وَأَنْ أَنْفَعَكُمْ إِنَّمَا الضَّرَّارُ وَالنَّافِعُ اللَّهُ ^(١)، أَوْ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَقْسِرَكُمْ عَلَى الْغِيِّ وَالرَّشْدِ إِنَّمَا الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧١﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَنْ يَمَسَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٧٢﴾.

﴿وَلَا بَلَاغًا﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْهُ أَي: لَا أَمْلِكُ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ. وَقُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ اعْتَرَضَ بِهَا لِتَكْدِيدِ نَفْيِ الْاسْتَطَاعَةِ عَنْ نَفْسِهِ وَبَيَانِ عِزِّهِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّ اللَّهَ إِنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا مِنْ مَرَضٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ غَيْرِهَا لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُخَيِّرَهُ مِنْهُ أَحَدٌ أَوْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلَاذًا يَأْوِي إِلَيْهِ. وَالْمُلْتَحَدُ الْمُلْتَجِأُ وَأَصْلُهُ الْمُنْخَلُ مِنَ اللَّحْدِ. وَقِيلَ: مُحِيضًا وَمُعْدَلًا. وَقُرَى: قَالَ: لَا أَمْلِكُ. أَي: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ أَوْ لِلْجَنِّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ حِكَايَةِ الْجَنِّ لِقَوْمِهِمْ. وَقِيلَ: بَلَاغًا بَدَلٌ مِنْ مُلْتَحَدٍ ^(٢). أَي: لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُنْجِي إِلَّا أَنْ أَبْلِغَ عَنْهُ مَا أُرْسَلَنِي بِهِ. وَقِيلَ: إِلَّا هِيَ أَنْ لَا، وَمَعْنَاهُ: أَنْ لَا أَبْلِغَ بَلَاغًا، كَقَوْلِكَ: أَنْ لَا قِيَامًا فَقَعُودًا. ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عَطَفَ عَلَى بَلَاغًا كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا التَّبْلِيغَ وَالرِّسَالَاتِ. وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ أَبْلِغَ عَنِ اللَّهِ، فَاقُولُ: قَالَ اللَّهُ: كَذَا نَاسِيًا لِقَوْلِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ أَبْلِغَ رِسَالَاتِهِ الَّتِي أُرْسَلَنِي بِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ.

فَإِنْ قُلْتُ: أَلَا يَقَالُ بَلَّغَ عَنْهُ؟ وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بَلِّغُوا عَنِّي بَلِّغُوا عَنِّي» ^(٣). قُلْتُ: مِنْ لَيْسَتْ بِصَلَةٍ لِلتَّبْلِيغِ، إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ فِي قَوْلِهِ: «بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ» ^(٤) بِمَعْنَى بَلَاغًا كَأَنَّكَ مِنَ اللَّهِ. وَقُرَى: فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ عَلَى فَجْزَائِهِ أَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ. كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ» ^(٥) أَي: فَحُكِمَ أَنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ وَقَالَ: «خَالِدِينَ» حَمَلًا عَلَى مَعْنَى الْجَمْعِ فِي مَنْ.

(1) «وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرَّ أَرِيدَ بَعْنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا» فَاضْأَفُوا الرُّشْدَ نَفْسَهُ إِلَى إِرَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدَّرَتْ.

(2) قَالَ أَحْمَدُ: فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ أَوْ مُسْتَفَادًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تَوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمْدًا﴾ قَالَ: لَنْ قُلْتُ: مَا مَعْنَى التَّقْسِيمِ وَالْأَمْدُ يَكُونُ قَرِيبًا وَبَعِيدًا لِقَوْلِهِ: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ أَمْدًا بَعِيدًا﴾ وَاجَابَ: بِأَنَّهُ كَانَ ﷺ يَسْتَقْرِبُ الْمَوْعِدَ، وَكَانَهُ قَالَ: مَا أَدْرِي هَلْ هُوَ حَالٌ مُتَوَقَّعٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ أَمْ لَهُ غَايَةٌ مُضْرُوبَةٌ؟

(3) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ: الْأَنْبِيَاءِ، بَابِ: مَا نَكَرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الْحَدِيثَ رَقْم: 3461).

(4) سُورَةُ التَّوْبَةِ، آيَةُ: 1.

(5) سُورَةُ الْأَنْفَالِ، آيَةُ: 41.

(1) قَالَ أَحْمَدُ: فِي آيَةِ لَدِيلٍ بَيِّنٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ لِعِبَادِهِ الرُّشْدَ وَالْغِيَّ يَخْلُقُهُمَا لَا غَيْرَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا سَلَبَ ذَلِكَ عَنْ قُدْرَتِهِ لِيَحْضُرَ إِضَافَتُهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَفُطِنَ الزَّمْخَشَرِيُّ لِنَظَرِهِ، فَأَخَذَ يَحْمِلُ الْحَبْلَ فَتَارَةً يَحْمِلُ الرُّشْدَ عَلَى مُطْلَقِ النَّفْعِ فَيُضَيِّفُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَارَةً يَكْنَعُ عَنْهُ: لِأَنَّ فِيهِ إِطْلَالًَا لِخُصُوصِيَّةِ الرُّشْدِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ فِي آيَةِ، فَيُثَوِّرُ لَهُ مِنْ تَقْلِيدِهِ الرَّايِ الْفَاسِدِ ثَوَائِرَ تَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ، وَعَنْ اعْتِقَادِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الرُّشْدَ لِعَبِيدِهِ مَقَارِنًا لِاخْتِيَارِهِمْ فَيَبْخُلُ زِيَادَةُ الْقَسْرِ: لِأَنَّ مَعْنَى مَا وَرَدَ مِنْ إِضَافَةِ الرُّشْدِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ أَنْ يَخْضَعَ لَهَا الرُّقَابُ، فَيَخْلُقُ الْبَعْدَ لِنَفْسِهِ عِنْدَ ظَهْرِهِمَا رَشَدًا، فَيُضَافُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ خَلَقَ السَّبِيحَ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَخْلُوقٌ بِقُدْرَةِ الْعَبْدِ هَذِهِ قَاعِدَةُ الْقُدْرَةِ، وَعَقِيدَتُهُمْ، وَمَا الْجَنُّ بَعْدَ هَذَا إِلَّا أَوْفَرُ عَنْهُمْ عَقْلًا وَسَدُّ مِنْهُمْ نَظَرًا؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: =

الغيث وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. ﴿فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من ارتضى للرسالة ﴿وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطربونهم عنه ويعصمونهم من وسوسهم وتخليطهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك: ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك.

لَمَّا أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتَهُمْ وَأَمَّا بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْمَى كُلِّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

﴿ليعلم﴾ الله ﴿أن قد لبغوا رسالات ربهم﴾ يعني: الأنبياء. وحد أولاً على اللفظ في قوله: من بين يديه ومن خلفه، ثم جمع على المعنى كقوله: ﴿فإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِئِينَ﴾ (٢) والمعنى: لبغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان، ونكر العلم كتركه في قوله تعالى: ﴿حتى نعلم المجاهدين﴾، وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول. ﴿ولاحظ بما لديهم﴾ بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً فهو مهين عليها حافظ لها. ﴿ولأحصى كل شيء عدداً﴾ من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه، وعدداً حال أي: وضبط كل شيء معدوداً محصوراً، أو مصدر في معنى إحصاء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنّي صلتٌ محمداً ﷺ وكتب به عتق رقبة» (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المزمل مكية

يَأْتِيهَا الرِّزْلُ ﴿١﴾

﴿المزمل﴾ المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي: تلفف بها بإدغام الباء في الزاي. ونحوه: المندر (٤) في المندر. وقرئ: المتزمل على الأصل، والمزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرهما على أنه اسم فاعل أو مفعول من زمله وهو

فإن قلّت: بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له؟ قلّت: بقوله: يكونون عليه لبدأً على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم.

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْمَعُونَ مِمَّنْ أَوْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٩﴾

﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة. ﴿فيسعلمون﴾ حينئذٍ أنهم ﴿أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾، ويجوز أن يتعلق بمحذوف بليت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده. كانه قال: لا يزالون على ما هم عليه ﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ قال المشركون: متى يكون هذا الموعد إنكاراً له؟ فقيل: ﴿قل﴾ إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه.

قُلْ إِنْ أَتَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا ﴿٣٠﴾

فإن الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد، وأما وقته فما أدري متى يكون لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قلّت: ما معنى قوله: ﴿لم يجعل له ربي أمداً؟﴾ والامد يكون قريباً وبعيداً، ألا ترى إلى قوله تود لو أن بيننا وبينه أمداً بعيداً! قلّت: كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد فكانه قال: ما أدري أحوال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية. أي: هو.

عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣١﴾

﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ فلا يطلع، و﴿من رسول﴾ تبين لمن ارتضى يعني: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين (١) فليسوا برسل.

إِلَّا مَنْ أَرْثَقَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٢﴾

وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على

(٣) نكره الثعلبي، وابن مروي، والواحدي في تفاسيرهم: 104/4.

(٤) قال أحمد: أما قوله الأول: إِنَّ نَدَاءَهُ بِتِلْكَ تَهْجِينٌ لِلْحَالَةِ الَّتِي نَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا، واستشهاده بالآيات المنكورة فخطأ وسوء أدب، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء: أنه لم يخاطب باسمه نداء، وإنَّ ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً، فأين ندائه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه، واستشهاده على تلك بالآيات قيلت نداءً في جفاة حفاة من الرعاء، فإنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربابه ﷺ ولقد نكرت بقوله:

أوردناها سعد وسعد مشتمل

(١) قال أحمد: ادعى عاماً واستدل خاصاً، فإنَّ دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها، والمندلول عليه بالآية: إبطال اطلاع الولي على الغيب خاصة، ولا يكون كرامة وخارق العادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها، وذلك أنَّ الله عز وجل لا يتخذ منهم ولياً أبداً، وهم لم يحدثوا بذلك عن أنبيائهم قط، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار، ولا يعلمون أنَّ شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوقة عنهم اتفاقاً، وأما سلب الإيمان فمسألة خلاف، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة؛ لأنه لم يؤتتها، والله الموفق.

(٢) سورة الجن، الآية: 23.

الساكنين فباي الحركات تحرّك فقد وقع الغرض.

يَسْمُهُ أَوْ أَشْغَى مَهْ قِيلَا (٢٧) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ رَزَيْلَا أَلْفَرَاكَ تَزَيْلَا (٢٨).

﴿نصفه﴾ بدل من الليل وإلا قليلاً استثناء من النصف
كانه قال: قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه
لنصف، والمعنى: التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من
نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما
النقصان من النصف والزيادة عليه، وإن شئت جعلت نصفه
بدلاً من قليلاً وكان تخييراً بين ثلاث. بين قيام النصف
بتمامه، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما
وصف النصف بالقلّة بالنسبة إلى الكل، وإن شئت قلت لما
كان معنى قم الليل إلا قليلاً نصفه إذا أبطلت النصف من
الليل قم أقل من نصف الليل رجع الضمير في منه وعليه
إلى الأقل من النصف، فكانه قيل: قم أقل من نصف الليل،
أو قم انقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلاً، فيكون
التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث. ويجوز إذا
أبطلت نصفه من قليلاً وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني
بمعنى نصف النصف وهو الربع: كأنه قيل: أو انقص منه
قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل، أعني الربع
نصف الربع، كأنه قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه، ويجوز أن
تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمّة الثلث فيكون تخييراً بين
النصف والثلث والربع.

فإن قُلْتُ: إكان القيام فرضاً أم نفلاً؟ قُلْتُ: عن عائشة
رضي الله عنها أنّ الله جعله تطوعاً بعد أن كان فريضة.
وقيل: كان فرضاً قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ
بهنّ إلا ما تطوعوا به. وعن الحسن: كان قيام ثلث الليل
فريضة وكانوا على ذلك سنة وقيل: كان واجباً وإنما وقع
التخيير في المقدار، ثم نسخ بعد عشر سنين. وعن الكلبي:
كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين
النصف والثلث والثلثين. ومنهم من قال: كان نفلاً بدليل
التخيير في المقدار. ولقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به
نافلة لك﴾ (٣) ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدّة بتبيين
الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً
بالنثر المرتل، وهو المقلج المشبه بنور الأقحوان وألا يهذه
هذا ولا يسرده سرّاً. كما قال عمر رضي الله عنه: شر
السير الحقيقة، وشر القراءة الهزيمة حتى يشبه المتلو في
تتابعه النثر إلا لص (٤) وسئلت عائشة رضي الله عنها عن

الذي زمه غيره أو زمّل نفسه. وكان رسول الله ﷺ نائماً
بالليل مترملاً في قטיפه، فنه ونودي، بما يهجن إليه الحالة
التي كان عليها من التزمّل في قטיפه واستعداده للاستتقال
في النوم كما يفعل من لا يهيم أمر ولا يعنيه شأن. ألا
ترى إلى قول ذي الرمة:

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها مترمّل
يريد الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معازم
الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب
ونحوه:

فانت به حوش الفؤاد مبطناً سهلاً إذا ما نام ليل للهوجل
وفي أمثالهم:

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورّد ياسعد الإبل

فذهه بالاشتغال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد
والكيس وأمر بأن يختار على الجهود التهجّد، وعلى التزمّل
التشمر والتخفّف للعبادة. والمجاهدة في الله لا جرم أن
رسول الله ﷺ قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر
واقبلوا على إحياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة،
وتجاهلوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم
وظهرت السيمي في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد
رحمهم له ربهم فخفف عنهم. وقيل: كان مترملاً في مرط
لعائشة يصلي. فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء
عليه وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يقوم على
ذلك ويؤاظب عليه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت
ما كان تزميله قالت: كان مرطاً طوله أربع عشرة راعاً،
نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي. فسئلت: ما
كان؟ قالت: والله ما كان خرقاً ولا قرّاً ولا مرعزي ولا
إبريسماً ولا صوقاً كان سداه شعراً ولحمته وبراً (١). وقيل:
دخل على خديجة وقد جثت فرقاً أول ما أتاه جبريل
وبوانره ترعد فقال: زملوني زملوني. وحسب أنه عرض له
فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمّل (٢). وعن
عكرمة: أنّ المعنى يا أيها الذي زمّل امرأ عظيماً أي: حملة،
والمزمّل الحمل، وأزمله احتمله.

فُرْ أَيْلَ إِلَّا قِيلَا (٢٩).

وقرى: قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن
جني: الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من التقاء

= ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري،
ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإلحاقه في الاختصار
بمعاني كلام سيويو حتى سماه ابن خروف البرنامج، وأنشد عليه
أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورّد ياسعد الإبل
وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضي الله عنها فبعيد،
فإن السورة مكية وبنى النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها
بالمدينة، والصحيح في الآية ما نكره آخر؛ لأنّ ذلك كان في بيت
خديجة عندما لقبه جبريل أوّل مرة، فبذلك وردت الأحاديث
الصحيحة، والله أعلم.

(١) قال الزيلعي: غريب: 107/4.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (٣) (الحديث رقم: 3)،
وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ
(الحديث رقم: 252 - 160).

(٣) سورة الإسراء، الآية: 79.

(٤) قال الزيلعي: غريب، وساق حديث أخرجه الخطيب البغدادي في
أوائل، كتاب: الجامع لأدب الراوي والسامع 108/4.

السلام: اللهم اشد وطأتك على مضر⁽⁶⁾ **﴿واقوم قبلاً﴾** وأشد مقالا وأثبت قراءة لهنو الأصوات، وعن أنس رضي الله عنه أنه قرأ: وأصوب قبلاً. فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي واقوم. فقال: إن أقوم وأصوب وأهيا واحد. وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ: فحاسوا، بحاء غير معجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا بالجيم، فقال: وجاسوا وحاسوا واحد.

إِنَّكَ فِي الْآخِرِ سَيِّئٌ طَوِيلٌ (٧).

﴿سيخاً﴾ تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالحاء فاستعارة من سخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرق القلب بالشواغل. كلفه قيام الليل ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه وهو أن الليل أعون على المواظاة وأسد للقراءة لهنو الرجل وخفوت الصوت، وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد. وقيل: فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨).

﴿وانكر اسم ربك﴾ ودم على نكره في ليلك ونهارك واحرص عليه، ونكر الله يتناول كل ما كان من نكر طيب تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعة ليله ونهاره. **﴿وتبتل إليه﴾** وانقطع إليه. **فَإِنْ قُلْتَ: كيف؟ قيل: ﴿تبتيلاً﴾** مكان تبتلاً؟ قلْتُ: لأن معنى تبتل بتل بنفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل.

رَبُّ لِّلشَّرِّ لَّا تَلْبِسَ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْ وَكِيلًا (٩).

﴿رب المشرق والمغرب﴾ قرئ مرفوعاً على المدح ومجروراً على البذل من ربك. وعن ابن عباس: على القسم بإضممار حرف القسم. كقولك: الله لأفعلن وجوابه **﴿لا إله إلا هو﴾** كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن عباس: رب المشرق والمغرب **﴿فاتخذ وكيلاً﴾** مسبب على التهليل لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحيده بالربوبية أن توكل إليه الأمور. وقيل: وكيلاً كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار.

وَأَصْرِعْ عَلَى مَا يَبُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا حِيلًا (١٠).

قراءة رسول الله ﷺ فقالت: لا كسر بكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدّها. **﴿وترتيلاً﴾** تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه ما لا بد منه للقارئ.

إِنَّا سَلَّمْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا تَبِيلًا (١١).

هذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبهر له. وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأن الليل وقت السبات والراحة والهنو فلا بد لمن أحياء من مضادة لطبيعته ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتريد له جلده⁽¹⁾، وعن عائشة رضي الله عنها: رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليبرض عرقاً⁽²⁾. وعن الحسن: ثقل في الميزان، وقيل: ثقل على المنافقين، وقيل: كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف.

إِنَّا نُنشِئُ اللَّيْلَ مِنْ أَشَدِّ وَكَلَّا وَأَقْرَبُ قِيلًا (١٢).

﴿ننشئ الليل﴾ النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعتها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع، من نشأت السحابة إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز إذا نهض قال: نشأنا إلى⁽³⁾ خوص بريئها السرى والصق منها مشرفات القملحد⁽⁴⁾

وقيام الليل على أن الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعافية، ويدل عليه ما روي عن عبيد بن عمير: قلت لعائشة: رجل قام من أول الليل اتقولين له قام ناشئة؟ قالت: لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع⁽⁵⁾، أو العبادة التي تنشأ بالليل. أي: تحدث وترتفع، وقيل: هي ساعات الليل كلها لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، وقيل: الساعات الأول منه، وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: **﴿وإن ناشئة الليل﴾**. هذه ناشئة الليل **﴿هي أشد وطأ﴾** هي خاصة بون ناشئة النهار أشد مواظاة، يواطى قلبها لسانها إن أردت النفس، أو يواطى فيها قلب القائم لسانه إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات أو أشد موافقة لما يراود من الخشوع والإخلاص، وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلاق. وقرئ: أشد وطأ بالفتح والكسر، والمعنى: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار. من قوله عليه

(1) أخرجه أحمد في المسند 238/1.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، (الحديث رقم: 2)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (الحديث رقم: 86 - 2333).

(3) خوص: جمع خوصاء، وهي غائرة العين.

(4) القملحدة: ما خلف الرأس.

(5) تقدم في سورة الأنبياء.

(6) قال أحمد: فإن حملت الناشئة على النفس فإضافة المواظاة إليها حقيقة، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازي.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى رِجْوَنَ رَسُولًا
(٧).
﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم
وتكذيبكم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لَمْ نَكْرِ الرَّسُولَ ثُمَّ عَرَفْ؟ قُلْتُمْ: لَأَنَّهُ أَرَادَ
أَرْسَلَنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بَعْضَ الرُّسُلِ فَلَمَّا أَعَادَهُ وَهُوَ مَعَهُودٌ
بِالنَّكَرِ ادْخَلَ لَامَ التَّعْرِيفِ إِشَارَةً إِلَى الْمَذْكُورِ بَعِينَهُ.

فَمَنْ رِجْوَنَ الرَّسُولَ فَلَعَنَهُ أَخَذًا رِبَاً (٨).

﴿وَبِيلًا﴾ ثَقِيلًا غَلِيظًا مِنْ قَوْلِهِمْ: كُلًّا وَبِيلٍ وَخَمٍ
لَا يَسْتَمِرُّ لثَقْلِهِ، وَالْوَبِيلُ الْعَصَا الضَّخْمَةُ وَمِنْهُ الْوَابِلُ
لِلْمَطَرِ الْعَظِيمِ.

فَكَيْفَ تَنْفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (٩).

﴿يَوْمًا﴾ مَفْعُولٌ بِهِ أَي: فَكَيْفَ تَقُونَ أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَهَوَلُهُ إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ تَتُوبُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحًا.
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا أَي: فَكَيْفَ لَكُمْ بِالتَّقْوَى فِي يَوْمِ
الْقِيَامَةِ إِنْ كَفَرْتُمْ فِي الدُّنْيَا؟ وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَسِبَ بِكُفْرَتُمْ عَلَى
تَأْوِيلِ جَحْدَتُمْ أَي: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ اللَّهَ وَتَخْشَوْنَهُ إِنْ جَحَدْتُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْجَزَاءُ لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَوْفُ عِقَابِهِ. ﴿وَيَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ مِثْلُ فِي الشَّيْخَةِ، يُقَالُ: فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ يَوْمٍ
يَشِيبُ نَوَاصِي الْأَطْفَالِ، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ الْهَمُومَ وَالْأَحْزَانَ
إِذَا تَقَالَمَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَسْرَعَ فِيهِ الشَّيْبُ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيَشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرَمُ

وَقَدْ مَرَّ بِي فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ رَجُلًا أَمْسَى فَاحَمَ
الشَّعْرَ كَحَنَكِ الْغُرَابِ، وَأَصْبَحَ وَهُوَ أَبْيَضُ الرَّاسِ وَاللَّحْيَةِ
كَالثَّغَامَةِ، فَقَالَ: أَرَيْتَ الْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ فِي الْمَنَامِ، وَرَأَيْتَ
النَّاسَ يَقَانُونَ فِي السَّلَاسِلِ إِلَى النَّارِ، فَمَنْ هُوَ ذَلِكَ
أَصْبَحَتْ كَمَا تَرَوْنَ. وَيَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ الْيَوْمُ بِالطُّولِ وَأَنَّ
الْأَطْفَالَ يَبْلُغُونَ فِيهِ أَوَانَ الشَّيْخُوخَةِ، وَالشَّيْبُ.

أَلَسْنَا مُنْفِطِرٌ يَوْمَ كَانَ رَعْدُهُ مُنْقَلَبًا (١٠).

﴿السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِهِ﴾ وَصَفَ لِلْيَوْمِ بِالشَّيْخَةِ أَيْضًا، وَأَنَّ
السَّمَاءَ عَلَى عَظَمَتِهَا وَإِحْكَامِهَا تَنْفَطِرُ فِيهِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهَا
مِنَ الْخَلَائِقِ. وَقُرِئَ: مُنْفَطِرٌ وَمُتْفَطِرٌ، وَالْمَعْنَى: ذَاتُ انْفِطَارٍ
أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ السَّمَاءِ بِالسَّقْفِ أَوْ عَلَى السَّمَاءِ شَيْءٌ مُنْفَطِرٌ.
وَالْبَاءُ فِيهِ بِه مِثْلُهَا فِي قَوْلِكَ: فَطَرْتَ الْعُودَ بِالْقُدُومِ فَانْفَطَرَ
بِهِ، يَعْنِي: أَنَّهَا تَنْفَطِرُ بِشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَوَلِهِ كَمَا يَنْفَطِرُ
الشَّيْءُ بِمَا يَفْطُرُ بِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ السَّمَاءُ مَثْقَلَةً بِه إِتْقَالًا
يُؤَدِّي إِلَى انْفِطَارِهَا لِعَظَمَتِهَا عَلَيْهَا وَخَشْيَتِهَا مِنْ وَقُوعِهِ.
كَقَوْلِهِ: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١١) ﴿وَعَدَهُ﴾ مِنْ
إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ وَالضَّمِيرِ لِلْيَوْمِ، وَيَجُوزُ أَنْ

الْهَجْرُ: الْجَمِيلُ أَنْ يَجَانِبَهُمْ بِقَلْبِهِ وَهَوَاهُ وَيَخَالِفُهُمْ مَعَ
حَسَنِ الْمَخَالَفَةِ وَالْمُدَارَاةِ وَالْإِغْضَاءِ وَتَرَكَ الْمَكَافَاةَ. وَعَنْ
أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وَجْهِهِ قَوْمٌ
وَنَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِبُهُمْ (١٢)، وَقِيلَ: هُوَ مَنْسُوخٌ
بِآيَةِ السَّيْفِ.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّفْسِ وَمَنْ عَصَاكُمْ يُبَرِّأ إِلَيَّ (١٣).

إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ مِنْ صَاحِبِهِ أَنَّهُ مُسْتَهْمٌ بِخُطْبِ يَرِيدُ أَنْ
يُكَفَاهُ، أَوْ بَعْدَ يَشْتَهِي أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْهُ وَهُوَ مُضْطَلَعٌ بِذَلِكَ
مُقْتَدِرٌ عَلَيْهِ، قَالَ: ذَرْنِي وَإِيَّاهُ، أَي: لَا تَحْتَاجُ إِلَى الظَّفَرِ
بِمَرَاكٍ وَمُسْتَهَاتِكٍ إِلَّا أَنْ تَخْلِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَأَنْ تَكُلْ أَمْرَهُ
إِلَيَّ وَتُسْتَكْفِينِيهِ، فَإِنَّ فِي مَا يَفْرُغُ بِكَ وَيَجْلِي هَمَّكَ. وَلَيْسَ
ثُمَّ مَنَعَ حَتَّى يُطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَنْزِعَهُ وَإِيَّاهُ إِلَّا تَرَكَ الْاِسْتِكْفَاءَ
وَالْتَفْوِضَ كَانَهُ إِذَا لَمْ يَكُلْ أَمْرَهُ إِلَيْهِ فَكَانَهُ مَنَعَهُ مِنْهُ، فَإِذَا
وَكَلَّهُ إِلَيْهِ فَقَدْ أَزَالَ الْمَنَعَ وَتَرَكَهُ وَإِيَّاهُ. وَفِيهِ لَدِيلٌ عَلَى
الْوَثُوقِ بِأَنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْوَفَاءِ بِأَقْصَى مَا تَدُورُ حَوْلَهُ أَمْنِيَّةُ
الْمُخَاطَبِ وَبِمَا يَزِيدُ عَلَيْهِ. النِّعْمَةُ بِالْفَتْحِ التَّنْعِمُ بِالْكَسْرِ
الْإِنْعَامُ وَبِالضَّمِّ الْمَسْرَةُ. يُقَالُ: نَعَمْ وَنِعْمَةٌ عَيْنٌ، وَهَمْ
صَنَائِدُ قَرِيشٍ وَكَانُوا أَهْلَ تَنْعَمٍ وَتَرْفَةٍ.

إِنَّ لَدَيْنَا أَكْثَرَ كَلَامًا وَجْهًا (١٤).

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ مَا يُضَادُّ تَنْعَمَهُمْ: مِنْ اِنْكَالٍ وَهِيَ الْقِيُودُ
الْثِقَالُ. عَنِ الشَّعْبِيِّ: إِذَا ارْتَفَعُوا اسْتَفْلَتْ بِهِمُ الْوَاحِدُ نَكْلٌ
وَنَكْلٌ، وَمِنْ جَحِيمٍ وَهِيَ النَّارُ الشَّدِيدَةُ الْحَرِّ وَالْاِتْقَادُ.

وَكُلَّمَا نَا عَصَوُ وَعَدَا أَلِيمًا (١٥).

وَمِنْ طَعَامٍ ذِي غِصَّةٍ وَهُوَ الَّذِي يَنْشَبُ فِي الْحُلُوقِ فَلَا
يَسَاغُ. يَعْنِي: الضَّرِيعُ وَشَجَرُ الرُّقُومِ. وَمِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ مِنْ
سَائِرِ الْعَذَابِ فَلَا تَرَى مُوَكَّلًا إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ مُوَنُورًا بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُمْ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْاِنْتِقَامِ. وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ فَصَعِقَ (١٦). وَعَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَمْسَى صَائِمًا
فَأَتَى بِطَعَامٍ فَعَرَضَتْ لَهُ هَذِهِ آيَةُ فَقَالَ: أَرْفَعُهُ، وَوَضَعَ
عِنْدَهُ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ فَعَرَضَتْ لَهُ فَقَالَ: أَرْفَعُهُ. وَكَذَلِكَ اللَّيْلَةَ
الثَّالِثَةَ. فَأَخْبَرَ ثَابِتَ الْبَنَانِي وَيَزِيدَ الضُّبَيْيَ وَيَحْيَى الْبُكَّاءَ
فَجَاؤُوا فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى شَرِبَ شَرِبَةً مِنْ سَوِيقٍ.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهْلًا (١٧).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ مَنْصُوبٌ بِمَا فِي لَدَيْنَا، وَالرَّجْفَةُ الزَّلْزَلَةُ
وَالزَّرْعُزَعَةُ الشَّدِيدَةُ. وَالكَيْبُ الرَّمْلُ الْمَجْتَمِعُ، مِنْ كَتَبَ
الشَّيْءَ إِذَا جَمَعَهُ كَانَهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ فِي أَصْلِهِ وَمِنْهُ
الْكُتْبَةُ مِنَ اللَّبَنِ. قَالَتِ الضَّائِنَةُ: أَجْزَ جَفَالًا وَأَحْلَبَ كُتْبًا
عَجَالًا. أَي: كَانَتْ مِثْلَ رَمْلِ مَجْتَمِعٍ هِيلَ هِيلًا أَي: نَثَرَ
وَأَسِيلَ. الْخُطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ.

(2) أخرجه أحمد في الزهد، وأسند ابن عدي في الكامل، زيلعي 4/

111.

(3) سورة الاعراف، الآية: 187.

(1) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب: الباب، الموارد مع الناس.
وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق، فصل في
حسن العشرة (الحديث رقم: 8103).

يكون مضافاً إلى الفاعل وهو الله عز وعلا، ولم يجز له ذكر لكونه معلوماً.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٨﴾

﴿إن هذه﴾ الأيات الناطقة بالعيد الشديد ﴿تذكرة﴾ موعظة ﴿فمن شاء﴾ اتعظ بها. واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه التقرب والتوسل بالطاعة.

إِنَّ رَبَّكَ يَمْلَأُ انْكَ تَقُومُ أَتَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَصَمَّ وَكَلَّمَ وَكَلَّمَ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمٌ أَنْ لَوْ نَحْنُ مَا قَارَعُوا قَارَعُوا مَا يَنْتَرُونَ مِنَ الْفَرَائِدِ عِلْمٌ أَنْ سَكُونُ مِنْكَ مَرَحَىٰ وَمَا لَكُمْ يَنْتَرُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَرُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا لَكُمْ يَنْتَرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَارَعُوا مَا يَنْتَرُونَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذِنُوا لِلَّهِ فَضْلًا حَسَنًا وَمَا تَقِيَمُوا يَتَمَكَّرُ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَمِرُّوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ

﴿أننى من ثلثي الليل﴾ أقل منهما وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياء وإذا بعنت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث، وهو مطابق لما مر في أول السورة من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين وقرئ: ونصفه وثلثه بالجزء. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أننى من الثلثين، وقرئ: ونصفه وثلثه بالجزء. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أننى من الثلثين، والثلث وهو أننى من النصف، والربع وهو أننى من الثلث وهو الوجه الأخير. ﴿وطائفة من اثنين معك﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك، ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقايير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير. والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه الضمير في ﴿لن تحصوه﴾ لمصدر يقدر. أي: علم أنه لا يصح منكم ضبط الاوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿فتاب عليكم﴾ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله: ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم. فالآن باشروهن﴾⁽¹⁾ والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها

بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود، يريد فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ثم نسخاً جميعاً بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها. قيل: يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل: خمسين آية، وقد بين الحكمة في النسخ وهي تعذر القيام على المرضى والضرابين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء⁽²⁾، وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتةً أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله⁽³⁾ و﴿علم﴾ استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ، و﴿واقموا للصلوة﴾ يعني: المفروضة والزكاة الواجبة، وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك، ومن فسرهما بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيّاً. و﴿واقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يجوز أن يريد سائر الصلقات وأن يريد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وأن يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال. ﴿خيراً﴾ ثاني مفعولي وجد وهو فصل وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعول من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجراً بالرفع على الابتداء والخبر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المدثر مكية

بِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ

﴿المدثر﴾ لايس الثثار وهو ما فوق الشعار، وهو الثوب الذي يلي الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار»⁽⁵⁾. وقيل: هي أول سورة نزلت. وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «كنت على جبل حراء فنويت يا محمد إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً فنظرت فوقي فرأيت

(4) ذكره الثعلبي وابن مريويه والواحدي في تفاسيرهم 113/4.

(5) تقدم في آل عمران.

(1) سورة البقرة، الآية: 187.

(2) قال الزيلعي: رواه الثعلبي في تفسيره، وابن مريويه: 112/4.

(3) رواه البيهقي في الشعب، قاله الزيلعي: 113/4.

وَأَلْزَجَ فَأَجْبَرُ ﴿٥﴾

﴿وَالزَّجْزُ﴾ قرئ بالكسر والضم وهو العذاب. ومعناه: أخرج ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم، والمعنى: الثبات على هجره لأنه كان بريئاً منه.
وَلَا تَنْشُ شَكْكَرُ ﴿٦﴾

قرا الحسن: ولا تمن وتستكثر مرفوع منصوب المحل على الحال. أي: ولا تعط مستكثراً رائيًا لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير، نهى عن الاستغفار وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث «المستغفر يثاب من هيبته»، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون نهياً خاصاً برسول الله ﷺ لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق، والثاني أن يكون نهياً تنزيهياً لا تحريم له ولأتمته، وقرا الحسن: تستكثر بالسكون وفيه ثلاثة أوجه الإبدال من تمنن. كأنه قيل: ولا تمنن، لا تستكثر على أنه من المن في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا انفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (٤) لأن من شأن المنان بما يعطي أن يستكثره أي: يراه كثيراً ويعتد به، وإن يشبه ثرو بعضد فيسكن تخفيفاً وإن يعتبر حال الوقف. وقرا الأعمش بالنصب بإضمار أن كقوله:

الأيهنا الزاجري أحضر الوغى

وتؤيده قراءة ابن مسعود: ولا تمنن أن تستكثر. ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها. كما روى: أحضر الوغى بالرفع.

وَلَرَبُّكَ فَاصِرٌ ﴿٧﴾

﴿ولربك فاصبر﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر. وقيل: على أذى المشركين، وقيل: على أداء الفرائض. وعن النخعي: علي عطيتك، كأنه وصله بما قبله وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار. والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه، ويراد الصبر على أذى الكفار لأنه أحد ما يتناوله العام. والفاء في قوله:

فَإِذَا يَرَىٰ فِي الْآخِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَهُزَىٰ عُيِّرُ ﴿٩﴾

والفاء في قوله ﴿فَإِذَا نَقَرُ﴾ للتسبيب كأنه قال: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.
والفاء في ﴿فَنَلِكُ﴾ للجزاء.

فَإِنْ قُلْتَ: بم انتقم إذا؟ وكيف صبح إن يقع ﴿يَوْمُنْذُ﴾ ظرفاً ليوم عسير؟ قُلْتَ: انتصب إذا بما دل عليه الجزاء لأن

شيئاً^(١). وفي رواية عائشة: فنظرت فوقى فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض. يعني: الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقالت: «ثروني ثروني». فنزل جبريل وقال: يا أيها المنذر^(٢). وعن الزهري: أول ما نزل سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٣) فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواحق الجبال فاتاه جبريل فقال: إنك نبي الله. فرجع إلى خديجة وقال: ثروني وصبوا علي ماء بارداً، فنزل يا أيها المنذر. وقيل: سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفكراً كما يفعل المغمو فامر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآنوه. وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول من نشره وقال: نشرت هذا الأمر وعصب بك.

قُرْ فَأَنْزِرُ ﴿١٠﴾

كما قال في المزمّل: قم من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم. ﴿فانذر﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، والصحيح أن المعنى فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد.

وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿وربك فكبير﴾ واختص ربك بالتكبير وهو الوصف بالكبرياء وأن يقال: الله أكبر. ويروى أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر». فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي، وقد يحمل على تكبير الصلاة وبخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيرة.

وَرَبَّابَكَ فَطَوِّرُ ﴿١٢﴾

﴿وربابك فطهر﴾ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى والأحب في غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً. وقيل: هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذنيل ونلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات. وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقر من الأفعال ويستجهن من العادات. يقال: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان، إذا وصفوه بالتقاء من المعائب ومدانس الأخلاق. وفلان نسن الثياب للغادر ونلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويشتمل عليه فكفي به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبني زيد عقله وخلقه، ويقولون: المجد في ثوبه والكرم تحت حلته. ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عني بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء.

= ﴿خلق﴾ (الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث: 401).

(3) سورة العلق، الآيات: 1 - 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 262.

(1) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: 3 (الحديث رقم: 4)، ومسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 257 - 161).

(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي﴾

للتصرف في عمل أو تجارة لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم، فهو مستانس بهم لا يشتغل قلبه بغيباتهم وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه. وعن مجاهد: كان له عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد وخالد وعماره وهشام والعاص وقيس وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعماره.

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيِّدًا ﴿٤﴾

﴿ومهدت له تمهيدًا﴾ وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتتته عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش.

ثُمَّ يَطَّعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿٥﴾

﴿ثم يطعم﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه⁽²⁾. يعني: أنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة. وقيل: إنه كان يقول إن كان محمد صانعًا فما خلقت الجنة إلا لي.

كَلَّا إِنَّكَ كَأَنَّ لَآيَاتِنَا عِندَكَ ﴿٦﴾

﴿كلام﴾ ردع له وقطع لرجائه وطمعه ﴿إنه كان لآياتنا عنيذًا﴾ تعليل للردع على وجه الاستئناف. كان قائلًا قال: لم لا يزد؟ فقول: إنه عائد آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد. ويروى أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك.

سَأُرْفَعُهُ سَعْوًا ﴿٧﴾

﴿سارقه صعودًا﴾ ساغشيه عقبة شاقة، المصعد وهو مثل لما يلقي من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطلق. وعن النبي ﷺ: «يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت فإذا رفعها عانت، وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عانت»⁽³⁾، وعنه عليه السلام: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوي فيه كذلك أبدًا»⁽⁴⁾.

إِنَّكَ تَكَّرَ وَتَدَّرَ ﴿٨﴾

﴿إنه فكر﴾ تعليل للوعيد، كأن الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى والنذل بعد العز في الدنيا لعناده، ويعاقبه في

المعنى: فإذا نقر في الناقد عسر الأمر على الكافرين، والذي أجاز وقوع يومئذٍ ظرفًا ليوم عسير أن المعنى: فذلك وقت النقر، ووقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقد. واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية، ويجوز أن يكون يومئذٍ مبنياً مرفوع المحل بدلاً من ذلك ويوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير.

عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿غير يسير﴾ وعسير مغن عنه! قلت: لما قال على الكافرين فقصر العسر عليهم. قال: غير يسير، ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرًا هينًا ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرًا كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

ذَرَى وَنَ حَلَّتْ وَجِهَا ﴿١٠﴾

﴿وحيدًا﴾ حال من الله عز وجل على معنيين: أحدهما نرني وحدي معه فانا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم، والثاني خلقتة وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو حال من المخلوق على معنى: خلقتة وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد. كقوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾⁽¹⁾ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية، فإن كان ملقبًا به قبل فهو تهكم به ويلقبه وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمنونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا إلى وجه الذم والعيب، وهو أنه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد، فأتاه الله نلك فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه.

وَجَعَلَ لَهُ مَالًا مَنُودًا ﴿١١﴾

﴿ممدودًا﴾ ميسوفاً كثيراً أو ممدًا بالنماء، من مدّ النهر ومدّه نهراً آخر. قيل: كان له الزرع والضرع والتجارة. وعن ابن عباس: هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال، وقيل: كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفًا وشتاءً، وقيل: كان له ألف مثقال، وقيل: أربعة آلاف، وقيل: تسعة آلاف، وقيل: ألف ألف، وعن ابن جريج: غلة شهر بشهر.

وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٢﴾

﴿وبينين شهودًا﴾ حضورًا معه بمكة لا يفارقونه

(1) سورة الانعام، الآية: 94.

(2) قال احمد: لأن الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر لم يتمالك أن نطق بها من غير تليث. قال: فإن قلت: لم لم يوسط بين الجمليتين عاطفًا؟ وأجاب: بأن الثانية أخرجها مخرج التوكيد للأولى.

(3) رواه البزار والبيهقي في البعث والنشور، والطبري والثعلبي (الزبلي 120/4).

(4) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (الحديث رقم: 33260)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (الحديث رقم: 4299).

فإن قُلْتُ: ما معنى ثم الداخلة في تكرير الدعاء؟ قُلْتُ: الدلالة على أن الكثرة الثانية أبلغ من الأولى ونحوه قوله: إلا يا أسلمي ثم أسلمي ثم أسلمي.

فإن قُلْتُ: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قُلْتُ: الدلالة على أنه قد تأنى في التأمل وتمهل وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

نَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا عَزَّ يَزُورُ (١١) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (١٢).

فإن قُلْتُ: فلم قيل: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟ قُلْتُ: لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن ينطق بها من غير تلبث.

فإن قُلْتُ: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قُلْتُ: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد.

سَأَلِيهِ سَرَّ (١٣) وَمَا أَذْرَكَ مَا سَرَّ (١٤).

﴿سأصليه سقراً﴾ بدل من سأرهقه صعوداً.

لَا تَبَيَّ وَلَا تَذُرُّ (١٥).

﴿لا تبقني﴾ شيئاً يلقي فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد، أو لا تبقني على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

لَرَأَيْتُ الْبَشَرَ (١٦).

﴿لوحلة﴾ من لوح الهجير قال:

تقول ما لاحك يا مسافر يا ابنة عمي لاحني الهولجر قيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل. والبشر أعالي الجلود. وعن الحسن: تلوح للناس، كقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرُوهُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (١). وقرئ: لوحاة نصباً على الاختصاص للتهويل.

عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ (١٧).

﴿عليها تسعة عشر﴾ أي: يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفاً. وقيل: نقيباً. وقرئ: تسعة عشر بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم اسم واحد. وقرئ: تسعة عشر جمع عشير مثل يمين وايمن. جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعصيين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرافة والرقعة ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوانتهم ولأنهم أشد الخلق بأساً وأقواهم بطشاً. عن عمرو بن دينار: واحد منهم يدفع بالدفع الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وعن النبي ﷺ: «كان أعينهم البرق، وكان أقواهم الصياصي، يجرون أشعارهم لأحدهم مثل قوة

الأخرة بأشد العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وإقصاه في تفكيره وتسميته القرآن سحرًا. ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله: سأرهقه صعوداً رداً لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له وأخباراً بأنه من أشد أهل النار عذاباً ويعمل ذلك بعناده، ويكون قوله: إنه فكر بدلاً من قوله: إنه كان لأياتنا عنيداً بياناً لكثرة عناده. ومعناه: فكر ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقوله وهياه.

قُلْتُ كَيْفَ قَدَّرَ (١٨) ثُمَّ يُلْ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩).

﴿فقتل كيف قدر﴾ تعجب من تقديره وإصابته فيه المحن ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش، أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به، أو هي حكاية لما كزروه من قولهم: قتل كيف قدر تهكمًا بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله: ومعنى قول القائل: قتله الله ما أشجعه، وأخزاه الله ما شعره الأشعار، بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده. بذلك روي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغلق، وإنه يعلو وما يعلو، فقالت قريش: صباً والله الوليد والله لتصبان قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقع إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فاتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيء من الكذب، فقالوا: في كل ذلك اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يائره، عن مسيلمة وعن أهل بابل: فارتج النادي فركاً وتفرقوا معجبين بقوله: متعجبين منه.

ثُمَّ نَظَرَ (٢٠).

﴿ثم نظر﴾ في وجوه الناس.

ثُمَّ عَسَّ رَجَزَ (٢١).

ثم قطب وجهه ثم زحف مديراً وتشاوس مستكبراً لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء وهم بأن يرمى بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاء به. وقيل: قدر ما يقوله، ثم نظر فيه ثم عيس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول. وقيل: قطب في وجه رسول الله ﷺ.

ثُمَّ أَتَى رَأْسَكَ (٢٢).

﴿ثم أتى﴾ عن الحق ﴿واستكبر﴾ عنه فقال ما قال، وثم نظر عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراضاً بينهما.

شاء بدلاً من للبشر على أنها منثرة للمكلفين الممكنين الذين إن شأوا تقموا ففازوا وإن شأوا تأخروا فهلكوا.

كُلٌّ نَفْسٍ بِمَا كَبَتْ رَهْنَةً (٢٨).

﴿رهينة﴾ ليست بتأنيث رهين⁽²⁾ في قوله: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾⁽³⁾ لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين. لأنّ فعلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشئيمة بمعنى الشتم. كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة:

أبعد الذي بالنفع نفع كويكب رهينة رمس ذي تراب وجنل
كانه قال: رهن رمس، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك.

إِلَّا أَحَبَّ إِلَيْنِ (٢٩).

﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. وعن علي رضي الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتنون بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة.

فِي جَنَّةٍ يَنْعَمُونَ (٣٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٣١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٣٢).

﴿في جنات﴾ أي: هم في جنات لا يكتنه وصفها. ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ يسأل بعضهم بعضاً عنهم⁽⁴⁾، أو يتساءلون غيرهم عنهم. كقولك: دعوته وتداعيناه.

فإن قلّنا: كيف طابق قوله: ﴿ما سلككم﴾ وهو سؤال للمجرمين قوله: ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما كان يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم؟ قلّنا: ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم لأنّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم ما سلككم.

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٣٣) وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ الْمُسْكِينِ (٣٤).

﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه.

يعلمها. وقيل: هو جواب لقول أبي جهل أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلى قوله: إلا هو اعتراض. وقوله: ﴿وما هي إلا نكرى﴾ متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي: وما سقر وصفتها إلا تنكرة ﴿للبشر﴾، أو ضمير الآيات التي نكرت فيها.

كَلَّا وَالْقَرَى (٣٥).

﴿كلا﴾ إنكار بعد أن جعلها نكرى أن تكون لهم نكرى لأنهم لا يتنكرون أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبير نكيراً.

وَأَنبَرِ (٣٦) وَالشَّجِ بِمَا أَشَرَّ (٣٧).

﴿وأنبر﴾ بمعنى: أبر، كقبل بمعنى أقبل، ومنه صاروا كامس الدابر، وقيل: وهو من ببر الليل النهار إذا خلفه. وقرئ: إذا أبر.

إِنَّمَا إِحْدَى الْكَبِيرِ (٣٨).

﴿إنها إحدى الكبير﴾ جواب القسم أو تعليل للكلام، والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التانيث كتابتها فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها. ونظير ذلك السواقي في جمع السافياء والقواصع في جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة. أي: لإحدى البلايا أو الدواهي الكبير، ومعنى كونها إحداً أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها، كما تقول هو أحد الرجال وهي إحدى النساء.

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٩).

﴿ونذيراً﴾ تمييز من إحدى على معنى إنها إحدى الدواهي إنذاراً كما تقول هي إحدى النساء عفاً، قيل: هي حال. وقيل: هو متصل بأول السورة، يعني: قم نذيراً، وهو من بدع التفسير، وفي قراءة أبي: نذير بالرفع خبر بعد خبر لأن أو بحذف المبتدأ.

لِنَ شَأْنٍ يَنْكُرُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٤٠).

﴿أن يتقدم﴾ في موضع الرفع بالابتداء ومن شاء خبر مقدم عليه. كقولك: لمن توضع أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه. وهو كقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون لمن

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) سورة الطور، الآية: 21.

(3) قال أحمد: لأنه فعل بمعنى مفعول يستوي مذكروه ومؤنثه كقتيل وجديد.

(4) قال أحمد: إنما أورد السؤال نريفة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركي الصلاة مثلاً يسلكون في النار مخلصين مع الكفار، فجعل كل واحدة من الخلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود، والصحيح في معنى الآية أنها خاصة بالكفار، =

= ومعنى قولهم: ﴿لم نك من المصلين﴾ لم نك من أهل الصلاة، وكذلك إلى آخرها؛ لأنهم يكتبون بيوم الدين، والمكتب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات، ولو فعلها لم تنفعه، وقدرت كالعدم، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم. قال: وفي تشبيههم بالحرر تهجين لهم وشهادة عليهم بالبلاهة، وأيضاً المقصود تشبيه إبراهيم عن الحق وتسارعهم إلى الإعراض عنه بنفاز حمر الوحوش، وعادة العرب أنها تشبه في السرعة بعنود الحمر، خصوصاً إذا أحست بقائص فجرى على ما عهدوه، والله أعلم.

وَكُنَّا نَحْمُوسُ مَعَ الْخَافِيَيْنِ ﴿١٥﴾

الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي.

فإن قلْت: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك؟ قلْت: توبيخاً لهم وتحسيراً وليكون حكاية الله تلك في كتابه تنكرةً للسامعين، وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار.

فإن قلْت: يريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟ قلْت: يحتمل الأمرين جميعاً.

وَكَا تَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٦﴾

فإن قلْت: لم أخرج التذكير وهو أعظمها؟ قلْت: أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب كقوله: ثم كان من الذين آمنوا.

حَتَّى أَتْنَا آلِيَيْنِ ﴿١٧﴾ فَمَا نَعْنَهُنَّ شَعْمَةً أَلْسِنَيْنِ ﴿١٨﴾

«ولليقين» الموت ومقدماته، أي: لو شفع لهم الشافعون جميعاً من الملائكة والنبیین وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم، وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ لأنها تزيد في درجات المرتضين.

فَمَا لَمْ يَ التَّنْكِرةُ مُرْصِنِ ﴿١٩﴾

«عن التنكرة» عن التذكير وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ. و«معرضين» نصب على الحال كقولك: ما لك قائماً.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّتَبَدِّلَةٌ ﴿٢٠﴾ تَرْتَبِ مِنْ قُورَءٍ ﴿٢١﴾

والمستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه، وقرئ بالفتح وهي المنفرة المحمولة على النفار، والقسورة جماعة الرماة الذين يتصيدونها، وقيل: الأسد يقال ليوث قساور، وهي فعولة من القسر وهو القهر والغلبة، وفي وزنه الحيدة من أسماء الأسد. وعن ابن عباس: ركز الناس وأصواتهم. وعن عكرمة: ظلمة الليل، شبههم في أعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر حدث في نفارها مما أقرعها. وفي تشبيههم بالحمر منمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله: «كمثل الحمار يحمل أسفارا»^(١) وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل. ولا ترى مثل نفار حمير الوحش وأطرافها في العدو إذا رابها رائب، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر

وعبوا إذا وردت ماء فاحست عليه بقانص.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ أَن يُؤَيَّ شَيْعًا مِّنْهُنَّ ﴿٢٢﴾

«صحفاً منشرة» قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يكتب بها، أو كتباً كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان ابن فلان نؤمر فيها باتباعك، ونحوه قوله: وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، وقال: ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم الآية وقيل: قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. وقيل: كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وهذا من الصحف المنشرة بمعزل إلا أن يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة. وقرأ سعيد بن جبیر: صحفاً منشرة بتخفيفهما على أن أنشر الصحف ونشرها واحد كأنزله ونزله. ردعهم بقوله:

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾

«كلا» عن تلك الإرادة وزجرهم عن اقتراح الآيات ثم قال: «بل لا يخافون الآخرة» فلذلك أعرضوا عن التنكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ثم ردعهم عن إعرضهم عن التنكرة. وقال:

كَلَّا إِنَّ تَذْكَرَ ﴿٢٤﴾

«إنه تنكرة» يعني: تنكرة بليغة كافية مبهم أمرها في الكفاية.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْ ﴿٢٥﴾

«فمن شاء» أن يذكره ولا ينسأه ويجعله نصب عينه فعل فإن نفع ذلك راجع إليه والضمير في أنه و«تذكره» للتنكرة في قوله: فما لهم عن التنكرة معرضين وإنما نكر لأنها في معنى النكر أو القرآن.

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّوَى وَأَهْلُ الْآخِرَةِ ﴿٢٦﴾

«وما ينكرون إلا أن يشاء الله» يعني: إلا أن يقسروهم على النكر ويلجئهم إليه لأنهم مطبوع على قلوبهم معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً. «هو أهل للتقوى وأهل للمغفرة» هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا. وروى أنس عن رسول الله ﷺ: هو أهل أن يتقى وأهل أن يغفر لمن اتقاه^(٢) وقرئ: ينكرون

= (الحديث رقم: 3328)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، (الحديث رقم: 4299).

(1) سورة الجمعة، الآية: 5.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الم نشر =

كريم ﴿. وقرئ: لا أقسم على أن اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف. معناه: لانا أقسم. قالوا: ويعضده أنه في الإمام بغير ألف.

وَلَا أَقْسِمُ بِاللَّيْلِ وَاللَّوَامِ (٢)

﴿بالنفس اللوامة﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أي: في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى، أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان. وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لاثماً نفسه وإن الكافر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه. وقيل: هي التي تتلوم يومئذ على ترك الزيادة إن كانت محسنة، وعلى التفريط إن كانت مسيئة، وقيل: هي نفس آدم لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وجواب القسم ما دل عليه قوله:

أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)

﴿أيحسب الإنسان أن يجمع عظامه﴾ وهو لتبعثر. وقرأ قتادة: أن لن يجمع عظامه على البناء للمفعول، والمعنى: نجعلها بعد تفرقتها ورجوعها رماً ورفاً مختلطاً بالتراب وبعدما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض، وقيل: إن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: «اللهم اكفني جار السوء». قال لرسول الله ﷺ يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف امره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: «لو عاينت ذلك اليوم لم أصفك يا محمد ولم أمؤمن به أو بجمع الله العظام فنزلت» (٤).

بَلْ قَدِيرٌ عَلَيَّ أَنْ نَسْوَ بَنَاتٍ (٥)

﴿بلى﴾ أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع. فكانه قيل: ﴿بلى﴾ نجعلها وقادرين على تأليف جميعها. وإعادتها إلى التركيب الأول إلى أن نسوي بناته أي: أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، أو على أن نسوي بناته ونضم سلامياته على صغرها ولطاقتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام. وقيل: معناه بلى نجعلها ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه. أي: نجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفردة ذات المفصلات والأناامل من فنون الأعمال والبسط والقبض

بالباء والتاء مخففاً ومشدداً، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الم نشر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْيَوْمِ (١)

إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض (٢) في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس:
لا أوبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنني امر
وقال غوية بن سلمى:

ألا نانت إمامة باحتمال لتحزنني فلابك ما أبالي
وفائنتها تركيد القسم، وقالوا: أنها صلة مثلها في لثلا يعلم أهل الكتاب. وفي قوله: في بشر لا حور سرى وما شعر. واعتراضوا عليه بأنها إنما تراه في وسط الكلام لا في أوله، واجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض، والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ألا ترى إلى امرؤ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته والوجه أن يقال: هي للنفي والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له بذلك عليه قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ (٣) فكانه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني: أنه يستاهل فوق ذلك. وقيل: أن لا نفي لكلام ورد له قبل القسم كانهم أنكروا البعث. فقيل: لا، أي: ليس الأمر على ما نكرتم. ثم قيل: أقسم بيوم القيامة.

فَإِنْ قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ (٤) والآيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي فهل زعمت أن لا التي قبل القسم زيت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً. كقولك: لا أقسم بيوم القيامة لا تزكون سدى! قلْتُ: لو قصر الأمر على النفي لكان لثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر. ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان﴾ وكذلك ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن

= كبد. وقوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾.

(3) سورة الواقعة، الأيتان: 75 - 76.

(4) سورة النساء، الآية: 65.

(5) قال الزيلعي غريب 127/4، ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 248.

(1) نكره الثعلبي وابن مروي، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 123.

(2) قال أحمد: إن لا التي قبل أقسم زيت توطئة للنفي بعده، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً تقديره: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ لا تزكون سدى، واجاب: بأنه لو قصر الأمر على النفي لكان لثبات لكان له مساغ، ولكنه ليس بقاصر عليه، ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في

بما قدم من عمل الخير والشرّ وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده. وعن مجاهد: بأول عمله وآخره، ونحوه فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿٧﴾

﴿بصيرة﴾ حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالأبصار في قوله: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة. أو لأعين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزي عن الإنبياء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَوَدَّ أَنْ يُدْرِكَ مَآذِيرَهُ ﴿٨﴾

﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها. وعن الضحاك: ولو أرخى ستوره. وقال: المعاذير الستور ولحدها معذار فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب.

فإن قلّت: ليس قياس المعذرة أن تجمع معاذير لا معاذير؟ قلّت: المعاذير ليس بجمع معذرة إنما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر. الضمير في ﴿به﴾ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتقلت منه فامر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه ثم يقف به بالدراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل صلوات الله عليه يقرأ

لَا تَحْرَكْ بِهِ، لِسَانَكَ لِتَسْجَلَ بِهِ ﴿١١﴾

﴿لتسجل به﴾ لتأخذه على عجلة ولئلا يتقلت منك، ثم علل النهي عن العجلة بقوله:

إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُكُمْ ذُرّاً وَمِثْرَةً ﴿١٢﴾

﴿إن علينا جمعه﴾ في صدرك وإثبات قراءته في لسانه. ﴿فإذا قرأناه﴾ جعل قراءة جبريل قراءته. والقرآن القراءة.

فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٣﴾

﴿فاتبع قرآنه﴾ فكن مقفياً له فيه ولا ترأسه وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه.

ثُمَّ لَنْ عَلَيْنَا مِثْرَهُ ﴿١٤﴾

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه.

كَلَّا بَلْ يُؤْمِنُ الْغَافِلُونَ ﴿١٥﴾

﴿كلا﴾ ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة وإنكار لها عليه وحث على الأناة والتؤدة وقد بالغ في ذلك باتباعه

والتأني لما يريد من الحواشي. وقرئ: قانرون أي: نحن قانرون.

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ ﴿١٦﴾

﴿بل يريد﴾ عطف على أychسب فيجوز أن يكون مثله استفهاماً وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب. ﴿ليفجر أمامه﴾ ليذوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يقدم الذنب ويؤخر التوبة يقول: سوف أتوب سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله.

يَسْأَلُ أَتَىٰ يَوْمَ الْآزِمَةِ ﴿١٧﴾ فَإِنِ رَقَّ الْعَرْسُ ﴿١٨﴾

﴿يسأل﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله: ﴿إبان يوم القيامة﴾ ونحوه. ويقولون: متى هذا الوعد؟ ﴿يرق البصر﴾ تحير فزعاً وأصله برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. وقرئ: برق من البريق أي: لمع من شدة شخصه. وقرأ أبو السمال: بلق إذا انفتح وانفرج. يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

وَحَسَبَ الْفُتُورُ ﴿١٩﴾

﴿وحسب القمر﴾ وذهب ضوءه أو ذهب بنفسه. وقرئ: وخسف على البناء للمفعول.

وَرَجَّحَ الْكَلْبُشُ وَالْفُتُورُ ﴿٢٠﴾

﴿وجمع الشمس والقمر﴾ حيث يطلعهما الله من المغرب وقيل: وجمعا في ذهاب الضوء، وقيل: يجتمعان أسودين مكدورين كأنهما ثوران عقيران في النار، وقيل: يجمعان ثم يفتغان في البحر فيكون نار الله الكبرى.

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنِّي لَكَلَرٌ ﴿٢١﴾

﴿الكفر﴾ بالفتح المصدر وبالكسر المكان، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمرجع، وقرئ: بهما.

كَلَّا لَا وَرَرَ ﴿٢٢﴾

﴿كلا﴾ ردع عن طلب المفترّ ﴿لا وزر﴾ لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جيل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك.

إِلَّا رَيْكَ يَوْمَئِذٍ أَتَتْكَ ﴿٢٣﴾

﴿إلى ربك﴾ خاصة ﴿يومئذ﴾ مستقرّ العباد أي: استقرارهم، يعني: أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره وينصبوا إليه، أو إلى حكمة ترجع أمور العباد لا يحكم فيها غيره. كقوله: لمن الملك اليوم؟ أو إلى ربك مستقرهم. أي: موضع قرارهم من جنة أو نار، أي: مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة من شاء أدخله النار.

يَبْكُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿٢٤﴾

﴿بما قتم﴾ من عمل عمله ﴿و﴾ بما ﴿أخر﴾ منه لم يعمل أو بما قتم من ماله فتصنق به وبما أخره فخلقه، أو

﴿تَنْظُنْ﴾ تتوقع ﴿أَنْ يَفْعَلَ بِهَا﴾ فعل هو في شدته وفظاعته ﴿فَاقْرَأْ﴾ داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناضرة أَنْ يَفْعَلَ بِهَا كل خير.

لَا إِنَّا بَلَمَيَّ الْفَرَاقِ ﴿٦١﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين. والضمير في ﴿بَلِغْتَ﴾ للنفس وإن لم يجر لها نكر لأن الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم:

أماوى ما يغني الثراء عن الفتى إنا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
وتقول العرب: أرسلت، يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء. ﴿التراقي﴾ العظام المكتنفة لغرة النحر عن يمين وشمال. نكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها.

وَقِيلَ مَنْ رَأَى ﴿٦٢﴾.

وقال حاضرو صاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض: ﴿مَنْ رَأَى﴾ أيكم يرقيه مما به؟ وقيل: هو من كلام ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب.

وَرَأَى أَنَّهُ الْفَرَاقُ ﴿٦٣﴾.

﴿وُظُنْ﴾ المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفَرَاقُ﴾ أَنَّ هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة.

وَاللَّيْلِ أَلَسَاقَ يَا سَاقِ ﴿٦٤﴾.

﴿وَالْتَفَتْ﴾ ساقه يساقه والتوت عليها عند عزل الموت، وعن قتادة: ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالاً. وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن السياق مثل في الشدة. وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تلقان في أكفانه.

إِلَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ أَلَسَاقُ ﴿٦٥﴾.

﴿أَلَسَاقُ﴾ أي: يساق إلى الله وإلى حكمه.

قوله: ﴿يَبْلُ تَحْبُونُ العاجلة﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتُم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة.

وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٦٦﴾.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ وقرئ: بالياء وهو أبلغ.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله: لا تحرك به لسانك إلى آخره بذكر القيامة، قُلْتُ: اتصاله به من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة.

وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَازِرَةٌ ﴿٦٧﴾.

الوجه: عبارة عن الجملة، والناضرة: من نضرة النعيم.

إِلَ رَبِّهَا نَازِرَةٌ ﴿٦٨﴾.

﴿إِلَ رَبِّهَا نَازِرَةٌ﴾ ^(١) تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره. وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله: إلى ربك يومئذ المستقر، إلى ربك يومئذ المساق، إلى الله تصير الأمور، وإلى الله المصير، وإليه ترجعون، عليه توكلت وإليه أنيب، كيف دل فيها القديم على معنى الاختصاص. معلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة تلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظور إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر نونك زنتني نعماً

وسمعت سرورية مستجدة بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأتون إلى مقائلهم تقول: عيينتي نويظرة إلى الله وإليكم، والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

وَجُودُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٦٩﴾.

والباسر الشديد العبوس، والباسل أشد منه ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوجه.

تَنْظُرُ أَنْ يَمْلِكَ بِهَا قَافِرَةٌ ﴿٧٠﴾.

(١) قال أحمد: ما أقصر لسانه عند هذه الآية، فكم له يندن ويطل في جحد الرؤية، ويشقق القياء ويكثُر ويتعمق، فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصامحتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول؛ لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ولا يؤثر عليه غيره ولا يعدل =

= به عزل وعلا منظوراً سواء، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثل شيء، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبية لم يصرف عنه لحظه، ولم يؤثر عليه، فكيف بالمحب لله عز وجل إذا لحظه النظر إلى وجهه الكريم، نسال الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه، وأن يعيننا من مزالق البدعة ومزلات الشبهة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فَلَا مَلْفَ وَلَا مَلًى ﴿٧٧﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٧٨﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإنسان مكية

هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ اللَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾.

﴿هَل﴾ بمعنى قد في الاستفهام خاصة، والأصل أهل
بإلليل قوله: أهل رأونا بسفع القاع ذي الأكُم. فالمعنى: أقَد
أتى على التقدير والتقريب جميعاً. أي: أتى على الإنسان
قبل زمان قريب **﴿حين من الدهر لم يكن﴾** فيه **﴿شيئاً**
منكوراً﴾ أي: كان شيئاً غير مذكور نطفةً في
الأصلا ب. والمراد بالإنسان جنس بني آدم بإلليل قوله:

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ حين من الدهر طائفة
من الزمن الطويل الممتد.

فإن قلْت: ما محل لم يكن شيئاً منكوراً؟ قلْتُ: محل
النصب على الحال من الإنسان. كأنه قيل: هل أتى عليه حين
من الدهر غير منكور، أو الرفع على الوصف لحين كقوله:
«يوماً لا يجزي والد عن ولده» ⁽⁶⁾ وعن بعضهم أنها تليت
عنده فقال: ليتها تمت، أراد ليت تلك الحالة تمت وهي كونه
شيئاً غير منكور ولم يخلق ولم يكلف. **«نطفة أمشاج»**
كبرمة أعشار وبرد أكباش، وهي ألفاظ مفردة غير جموع
ولذلك وقعت صفات للأفراد. ويقال أيضاً: نطفة مشج قال
الشماع:

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾.

﴿فَلاَ صَدَقَ وَلاَ صَلَّى﴾ يعني: الإنسان في قوله: **﴿أَحْسِبَ الْإِنْسَانَ أَلَّنْ يَجْمَعَ عَظَامَهُ﴾** ⁽¹⁾ ألا ترى، إلى قوله: **﴿أَحْسِبَ الْإِنْسَانَ أَنْ يَتْرَكَ سَدَى﴾** ⁽²⁾ ومعطوف على **﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**، أي: لا يؤمن بالبعث فلا صدق بالرسول والقرآن ولا صلى. ويجوز أن يراد فلا صدق ماله بمعنى فلا زكاه. وقيل: نزلت في أبي جهل.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْكُنُ ﴿٣٣﴾ .

﴿يَتِمَطَّى﴾ يتبختر وأصله يتمطط أي: يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه، وقيل: هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه، وفي الحديث: «إذا مشى أمتي المطيء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم»⁽³⁾ يعني: كذب برسول الله ﷺ وتولى عنه وأعرض ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخاراً بذلك.

أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ ﴿٢٥﴾ أَيْخَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى
﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَفْثَةً مِنْ مَنِّ يُمْنٍ ﴿٢٧﴾

﴿أولى لك﴾ بمعنى: ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره.

ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ .

﴿فخلق﴾ فقدر ﴿فسوى﴾ فعدل.

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾

﴿منه﴾ من الإنسان ﴿للزوجين﴾ الصنفين.

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُجِئِيَ النَّوَى ﴿٤٠﴾.

﴿ليس نك﴾ الذي أنشأ هذا الإنشاء ﴿بقاسر﴾ على الإعادة، وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك بلى»⁽⁴⁾، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القيامة شهت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً بيوم القيامة»⁽⁵⁾.

(1) سورة القيامة، الآية: 3.

(2) سورة القيامة، الآية: 36.

(3) أخرجه الترمذی فی کتاب: الفتن، باب: (174) (الحديث رقم: 2261).

(4) لم أجده عند أبي داود، وأخرجه الحاكم في المستدرک 2/510.

(5) نكره الثعلبي، وابن مريويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/130.

(6) سورة لقمان، الآية: 33.

غايته، وأما العين فيها يمزجون شرابهم. فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول شربت الماء بالعسل. **﴿يَفْجُرُونَهَا﴾** يجرونها حيث شأؤوا من منازلهم **﴿تَفْجِيرًا﴾** سهلاً لا يمتنع عليهم.

يُؤْنِ وَيَنْزِلُ وَيَكُونُ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧).

﴿يُؤْفُونَ﴾ جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى **﴿مُسْتَطِيرًا﴾** فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ، من استطار الحريق واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر.

وَيُطْمِئِنُّ الظَّالِمُ عَلَى حَيْدٍ وَيَسْكُنُ أَهْلُهَا وَيَأْتِي (٨).

﴿على حبه﴾ الضمير للطعام أي: مع اشتهاؤه والحاجة إليه. ونحوه وآتى المال على حبه لن تتلوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وعن الفضيل بن عياض: على حب الله **﴿واسيراً﴾** عن الحسن: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير فيبغضه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه. فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه (٩). وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات. وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشرك وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وعن سعيد بن جبير: وعطاء هو الأسير من أهل القبلة. وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون، وسمى رسول الله ﷺ الغريم أسيراً فقال: غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك (٧).

إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ زَيْبَةُ أَهْلُهَا لَا تُزِيدُ بِشَيْءٍ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩).

﴿إنما نطعمكم﴾ على إرادة القول، ويجوز أن يكون قولاً باللسان منعاً لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله فلا معنى لمكافأة الخلق وإن يكون قولهم لهم: لطفاً وتقفيها وتبنيها على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله، وعن عائشة رضي الله عنها أنها

وهو من التعسف شاكراً وكفوراً حالان من الهاء في هديناه (١) أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً أو دعواناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع. كان معلوماً منه (٢) أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً. كقوله: **﴿وهديناه النجدين﴾** (٣) وصف السبيل بالشكر والكفر مجاز. وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في أما وهي قراءة حسنة والمعنى: أما شاكراً فبتوقيقنا وأما كفوراً فبسوء اختياره، ولما نكر الفريقين اتبعهما الوعيد والوعد.

إِنَّمَا أَهْلُهَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْلَمْ أَنَّكُمْ رَمَيْتُمْ (٤).

وقرى: سلاسل غير منون وسلاسل بالتونين وفيه وجهان: أحدهما أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق (٤) ويجري الوصل مجرى الوقف، والثاني أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف.

إِنَّ الْأَثَرَارَ يَتَرَبَّوْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥).

﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشاهد. وعن الحسن: هم الذين لا يؤنون النذر، والكأس الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتسمى الخمر نفسها كأساً **﴿مزاجها﴾** ما تمزج به. **﴿كافوراً﴾** ماء كافور وهو اسم عين في الجنة مأوها في بياض الكافور ورائحته وبرده (٥).

عِنَا يَتَرَبَّوْنَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يَتَجَرَّبُهَا تَجَرُّبًا (٦).

﴿وعيناً﴾ بدل منه. وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكانها مزجت بالكافور. وعيناً على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير حنف مضاف كانه قيل: يشربون فيها خمرًا عين أو نصب على الاختصاص.

﴿فإن قلنت﴾ لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً وبحرف الإصاق آخرًا **﴿قلنت﴾** لأن الكأس مبدأ شربهم وأول

= لا ينصرف إلا أفعل، والقراءات مشتملة على اللغات المختلفة، وأما قراراتير قرارير فقري بترك تنوينهما، وهو الأصل وتنون الأولى خاصة بدلاً من ألف الإطلاق؛ لأنها فاصلة وتنوين الثانية كالأولى اتباعاً لها، ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية وترك تنوين الأولى، فإنه عكس أن يترك تنوين الفاصلة مع الحاجة إلى المجانسة وتنوين غيرها من غير حاجة.

(٥) قال أحمد: هذا الجواب على القولين الأولين الآخرين وهو أن العين بدل من الكأس، ومعنى مزاجها بالكافور: إما اشتغالها على أوصافه، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدم، فلا يتم الجواب المنكسر، فيجيب عن السؤال بأنه لما نرك الشراب أولاً باعتبار الوقوع في الوجود نكره ثانياً مضمناً للالتذاذ به، وكأنه قال: فيشربون منها فيقتلون بها، وعليه حمله أبو عبيد.

(٦) لم يخرج الزيلعي.

(٧) لم يخرج الزيلعي.

(١) قال أحمد: هذا من تحريفه المنكر، وهو عند أهل السنة على ظاهره.

(٢) قال أحمد: واستحسانه لقراءة أبي السمال لتخيله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد، وليس كذلك فإن التقسيم يحتمل الجزء إما شاكراً فمثناب، وإما كفوراً فمعاقب، ويرشد إليه نكر جزء الفريقين بعد قوله تعالى: **﴿سلاسل وأغلالاً﴾**.

(٣) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٤) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول؛ لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي ﷺ في تفصيلها، وإنما موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم، كما مر له ولم على ذلك ههنا، فجعل تنوين سلاسل من قبيل الغلط الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه لتمرنه عليه في موضعه، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواتراً عنه ﷺ، وتنوين هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميعاً =

كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم! وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فاقراه السورة⁽²⁾.

فإن قلّت: ما معنى نكر الحرير مع الجنة؟ قلّت: المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستاناً فيه ماكل هنّي وحريراً فيه ملبس بهي: يعني: أن هواها معتدل لا حرّ شمس يحمي ولا شدة برد تؤذي وفي الحديث: هواء الجنة سحسج لا حرّ ولا قرّ، وقيل: الزمهرير القمر. وعن ثعلب أنه في لغة طييّ وأنشد:

ليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر والمعنى: أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَوْدَانُهَا بِذَلِيلٍ (٧)

فإن قلّت: ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ علام عطف؟ قلّت: على الجملة التي قبلها لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم، إلا أنها اسم مفرد وتلك جملة في حكم مفرد تقديره غير راثنين فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وبخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم كأنه قيل: وجزاهم جنةً جامعين فيها بين البعد عن الحرّ والقرّ وندوّ الظلال عليهم. وقرئ: ودانية بالرفع على أن ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة في موضع الحال. والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. والحال أن ظلالها دانية عليهم ويجوز أن تجعل متكئين ولا يرون ودانية كلها صفات لجنة، ويجوز أن يكون ودانية معطوفة على جنة أي: وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين، كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾⁽³⁾ لأنهم وصفوا بالخوف إنا نخاف من ربنا.

فإن قلّت: فعلام عطف ﴿ونللت﴾؟ قلّت: هي إذا رفعت ودانية جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية، وإذا نصبها على الحال فهي حال من دانية أي: تندو ظلالها عليهم، في حال تنليل قطوفها لهم، أو معطوفة عليها على ودانية عليهم ظلالها ومنللة قطوفها، وإذا نصبت ودانية على الوصف فهي صفة مثلها ألا ترى أنك لو قلت: جنة نللت قطوفها كان صحيحاً وتنليل القطوف أن تجعل ذليلاً لا تمتنع على قطوفها كف شاؤا أن تجعل ذليلة لهم خاضعة متقاصرة من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصيراً.

رَبِّانًا عَلَيْهِمُ الْكُتُبُ وَكَانَ كِتَابُ الزَّكَاةِ لَا تُبَدَّلُ فِيهِ الصُّلَّةُ وَكَانَ ثَوْبُ الْبَرِّ (٨)

كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا نكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله، ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً. وعن مجاهد: أما أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله منهم فأنشئ عليهم. والشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر.

إِنَّا نَخَافُ ﴿١٠﴾

﴿إنا نخاف﴾ يحتمل إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة، ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقتين أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم. روي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وأن يشبه في شنته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل. والقمطيرير الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه. قال الزجاج: يقال أقمطرت الناقة إذا رفعت نذبتها وجمعت قطريها وزمت بانفها، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعصة:

واصلطيت الحروب في كل يوم باسل الشر قمطيرير^(١) الصباح

فَوَنَّهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَكِنَّهُمْ تَنَزَّاهُ وَسُرُورًا (١١)

﴿ولقاهم نضرة وسرور﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب. وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله.

يَبْرَأُهُمْ مِمَّا سَبَّوْا جَنَّةً وَزَكَّرَهُمْ (١٢) تُنَكِّسُ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا مَسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)

﴿يما صبروا﴾ صبرهم على الإيثار. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وقضة - جارية لهما - إن برأ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخبيري اليهودي ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروهم وياتوا لم ينوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروهم، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون

(3) سورة الرحمن، الآية: 55.

(1) قمطيرير: شر قمطير، أي شديد.

(2) نكره التعليلي في تفسيره، ورواه الحكيم الترمذي في كتاب: نوادر الأصول، زيلعي: 4/134.

مَرْوَعًا تَقِيرًا (١٦).

الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداء وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبداع، وفي شعر بعض المحدثين:

سل سبيلاً فيها إلى راحة النفس سـ بـراح كأنها سلسبيل
وعيناً بدل من زنجبيلاً، وقيل: تمزج كاسهم بالزنجبيل
بعينه أو يخلق الله طعمه فيها، وعيناً على هذا القول مبيلة
من كاساً كأنه قيل: ويسقون فيها كاساً كأس عين، أو
منصوبة على الاختصاص.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ عَلِيمَ اللَّذَاتِ فَذَرْوْنَهُنَّ إِذَا زَنَّيْتُمْ لُزُومًا فَتُزَكَّوْا﴾ (١٧).

شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبتائهم في مجالسهم ومنازلهم باللولؤ المنثور. وعن المأمون: أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال: لله در أبي نؤاس كأنه أبصر هذا حيث يقول:
كل صغري وكبري من فواقعا حصباء در على أرض من الذهب
وقيل: شبهوا باللولؤ الرطب إذا نثر من صنفه لأنه أحسن وأكثر ماء.

﴿إِذَا زَأَتْ نَمَّ زَأَتْ نَمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (١٨).

﴿زأيت﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ثم ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير و﴿ثم﴾ في موضع النصب على الظرف يعني: في الجنة. ومن قال: معناه ما ثم فقد أخطأ لأن ثم صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة. ﴿كبيراً﴾ واسعاً وهنيئاً. يروى أن أدنى أهل الجنة منزلة ينتظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى إناه. وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أرادوا شيئاً كان، وقيل: يسلم عليهم الملائكة ويستأنسون عليهم. قرئ: عاليهم بالسكون على أنه مبتدأ خبره.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مَبْنُوءَةٌ خَضرُ وَاسْتَبْرَقُ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ مِنْ دُونِهِمْ وَفِيهِمْ رُحَمَاءُ مُنْقَضُوا أَعْيُنُهُمْ أَفْرَادٌ يَجْعَلُ الْوَقْتُ عَلَيْهِمْ حَسْبًا﴾ (١٩).

﴿ثياب سندس﴾ أي: ما يعلمهم من لباسهم ثياب سندس، وعاليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم. أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا للمطوف عليهم ثياب أو حسبتهم لؤلؤاً عاليًا لهم ثياب، ويجوز أن يراد رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب وعاليتهم بالرفع والنصب على ذلك وعليهم، وخضر واستبرق بالرفع حملاً على الثياب بالجر على السندس (١). وقرئ: واستبرق نصباً في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف

﴿قوارير قوارير﴾ قرئاً غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لاتباعه الأول، ومعنى قوارير من ﴿فضة﴾ أنها مخلوقة من فضة وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها

فإن قلْتُ: ما معنى كانت؟ قلتُ: هو من يكون في قوله: كن فيكون. أي: تكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ومنه كان في قوله: كان مزاجها كافوراً. وقرئ: قوارير من فضة بالرفع على هي قوارير. ﴿قدروها﴾ صفة لقوارير من فضة ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا. وقيل: الضمير للطائفين بها دل عليهم قوله: ﴿ويطاف عليهم﴾ على أنهم قدروا شربها على قدر الري وهو الذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز، وعن مجاهد: لا تفيض ولا تغيض، وقرئ: قنروها على البناء للمفعول ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر، تقول قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً له ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شأوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهاوا.

﴿وَيُتَمَرَّنَ فِيهَا كَأَنَّهَا كَلَامٌ غَزِيرٌ﴾ (٢٠).

سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها والعرب تستلذه وتستطيعه قال الأعشى:

كان القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وإريامشورا

وقال المسيب بن علس:

وكان طعم الزنجبيل به إذنفته وسلافة الخمر

﴿يَا أَيُّهَا شَمْسُ سَبِيلًا﴾ (٢١).

﴿سلسبيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق سهولة مساقها. يعني: أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وقد زينت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية وثلث على غاية السلاسة. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة. وقرئ: سلسبيل على منع الصرف لاجتماع العلمية والتانيث، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معناه سل سبيلاً إليها وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علماً للعين كما قيل: تأبط شراً ونرى حباً، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سال إليها سبيلاً بالعمل

= التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللولؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤاً، ويحتمل أن يصحح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالاول.

(١) قال أحمد: في هذا الوجه الآخر نظر، فإنه يجعله داخلاً في مضمون الحساب، وكيف يكون ذلك وهم لا يسمون السندس حقيقة لا على وجه التشبيه باللولؤ بخلاف كونهم لؤلؤاً، فإنه على طريق =

الثالث. وقيل: الأثم عتبة، والكفور الوليد، لأنَّ عتبة كان ركباً للمأثم متعاطياً لأنواع الفسوق، وكان الوليد غالباً في الكفر شديد الشكيمة في العقوب.

فإن قُلْتُ: معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جاء بالواو ليكون نهياً عن طاعتها جميعاً؛ قُلْتُ: لو قيل: ولا تطعهما جاز أن يطيع أحدهما. وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أنَّ الناهي عن طاعته أحدهما عن طاعتها جميعاً انتهى كما إذا نهى أن يقول لأبويه: أقب، علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى.

وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥٥﴾

﴿وانكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً﴾ ودم على صلاة الفجر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ نَيْلًا طَوِيلًا ﴿٥٦﴾

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ ويعض الليل فصل له أو يعني صلاة المغرب والعشاء، وأدخل من على الظرف للتبعض كما دخل على المفعول في قوله: ﴿يغفر لكم من دنوبكم﴾^(١) ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وتهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا ﴿٥٧﴾

﴿إن هذا﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدّم من عطاء الله لهم ما جوزيتم به على أعمالكم وشكر به سعيكم، والشكر مجاز تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لأنَّ تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل، لينتقز في نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمةً وصواباً، كانه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا أنا لا غيري، وقد عرفتني حكيمًا فاعلاً لكل ما أفعله بدواعي الحكمة ولقد دعيتي حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافاة والمصابرة وسانزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُلَاحِظْ بِهِنَّ فَإِنَّكَ أَزْ كَفُورًا ﴿٥٨﴾

﴿فاصبر لحكم ربك﴾ الصابر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح وتأخيره نصرته على أعدائك من أهل مكة، ولا تطع منهم أحداً قلة صبر منك على أذاهم وضجراً من تأخر الظفر. وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونهم إلى أن يرجع عن أمره ويبطلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم. إن أجابهم.

فإن قُلْتُ: كانوا كلهم كفراً فما معنى القسمة في قوله: ﴿أثماً أو كفوراً﴾؟ قُلْتُ: معناه ولا تطع منهم ركباً لما ما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر فنهى أن يساعدهم على الاثنين نون

نَحْنُ عَلَّمْنَاهُمْ سَبْعًا وَنُنَزِّلُ الْكِتَابَ لَئِيْلًا لَّيْلًا ﴿٥٩﴾

﴿وإذا شئنا﴾ أهلكناهم و﴿يبلينا أمثالهم﴾ في شدة الأسر. يعني: النشأة الأخرى وقيل: معناه بدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يجيء ببلن لا ببلداً كقوله: وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، إن يشأ يذهبكم.

وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٦٠﴾

﴿هذه﴾ إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة ﴿فمن شاء﴾ فمن اختار الخير لنفسه وحسن العقوبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة.

(3) سورة الاعراف، الآية: 187.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 10.

(2) سورة الأعلى، الآية: 16.

ففرّق بين الحق والباطل.

فَالْمُتَّقِينَ ذَكَرًا (٥).

فالقين نكراً إلى الانبياء.

عَذْرًا أَوْ تَذَرًا (٦).

﴿عذراً﴾ للمحققين ﴿أو تذاراً﴾ للمبطلين، أو أقسم بريح عذاب أرسلهن ففصفن بريح رحمة نشرن السحاب في الجوف ففرّقن بينه كقوله: ﴿ويجعله كسفاً﴾ (٣) أو بسحاب نشرن الموات ففرّقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر كقوله: ﴿ولاسقيناهم ماءً غدقاً لنفتنهم فيه﴾ (٤) فالقين نكراً إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا راوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإما إنذاراً للذين يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت.

فإن قلّت: ما معنى عرفاً؟ قلّت: متتابعة كشعر العرف، يقال: جاوزوا عرفاً واحداً، وهم عليه كعرف الضبع إذا تالبوا عليه ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر وانتصابه على أنه مفعول له أي: أرسلن للإحسان والمعروف، والاول على الحال. وقرئ: عرفاً على التثقيب نحو نكر في نكر.

فإن قلّت: قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب فكيف يكون إرسالهم معروفًا؟ قلّت: إن لم يكن معروفًا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم.

فإن قلّت: ما العذر والنذر وبما انتصب؟ قلّت: هما مصدر أن من عذر إذا محا الإساءة، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والشكر، ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذرة، وجمع نذير بمعنى الإنذار أو بمعنى العاذر والمندر وأما انتصابهما فعلى البدل من نكراً على الوجهين الأولين، أو على المفعول له، وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عانزين أو منترين. وقرئ مخفيين ومثقلين.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لِرَبِّعٍ (٧).

أن الذي توعدون من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه وهو جواب القسم. وعن بعضهم أن المعنى:

﴿وما تشاءون﴾ الطاعة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ بقسرمهم عليها ﴿إن الله كان عليماً﴾ بأحوالهم وما يكون منهم. ﴿حكيماً﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم وقرئ: تشاؤون بالتاء.

فإن قلّت: ما محل أن يشاء الله (١)؟ قلّت: النصب على الظرف وأصله إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله، لأن ما مع الفعل كان معه.

يَذِلُّ مَنْ يَسْأَلُ فِي رَحْمَةٍ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٨).

﴿يذل من يشاء﴾ هم المؤمنون، ونصب ﴿والظالمين﴾ بفعل يفسره أعد لهم نحو: أو عذراً كافاً، وما أشبه ذلك، وقرأ ابن مسعود: وللظالمين علي، وأعد للظالمين وقرأ ابن الزبير: والظالمون، على الابتداء وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها مع مخالفتها للمصحف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنةً وحريراً» (٢).

سورة الفرقان الزم

سورة المرسلات مكية

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ (٩).

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره.

فَالْمُتَّقِينَ عَمَّا (١٠).

فصصن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، وبطوائف منهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ (١١).

نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين.

فَالْمُتَّقِينَ عَمَّا (١٢).

لا تكون إلا إذا قسره الله عليها، والقسر مناف للمشية، فصار الحاصل أن مشية العبد لا توجد إلا إذا انتفت، فإذا لا مشية للعبد البتة، والاختيار وما هو إلا فر من إثبات قدرة العبد غير مؤثرة، ومشية غير خالقة لبت له إثبات قدرة ومشية مؤثرين، فوقع في سلب القدرة والمشية أصلاً ورأساً، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال، انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزاً إلى الجبر، فبا بعضاً توجه بسوء نظره، والله الموفق.

(2) نكره الثعلبي وابن مربي والواحد في تفسيره 136/4.

(3) سورة الروم، الآية: 48.

(4) سورة الجن، الآية: 16.

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للنصوص وتسوؤه على خزائن الكتاب العزيز، كدأب الشطار واللصوص فلنقطع يد حجة التي أعدها، وذلك حكم هذه السرقة وحدها فنقول: الله تعالى نفى وأثبت على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه، إلا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي والإثبات؛ لأن هذا النظم أعلق شيء بالحصر وألله عليه، فنفي الله تعالى أن يفعل العبد شيئاً له في لختيار ومشية، إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل، فمقتضاه ما لم يشأ الله وقوعه من العبد لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه وقع وهو رفيف: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وانظر إسخاله القسر في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به، فإن معنى الآية عنده: أن مشية العبد الفعل =

ورب المرسلات.

فَإِذَا الْكُتُوبُ أُنْزِلَتْ ﴿٤٨﴾

﴿طمست﴾ محيت ومحقت، وقيل: ذهب بنورها ومحق نوانها موافق لقوله: انتشرت وانكسرت ويجوز أن يحق نورها ثم تنتشر محوقة النور.

وَإِذَا الْأَسْكَةُ فَجَتْ ﴿٤٩﴾

﴿فرجت﴾ فتحت فكانت أبواباً. قال الفارسي: باب الأمير المبهم.

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتٌ ﴿٥٠﴾

﴿نسفت﴾ كالحب إذا نسف بالمنسف ونحوه، وبست الجبال بساً وكانت الجبال كثيباً مهيلًا، وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختلطفته. وقرئت: طمست وفرجت ونسفت مشددة.

وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْتُتِ ﴿٥١﴾

قرئ: اقتت وقتت بالتشديد والتخفيف فيهما والأصل الواو ومعنى توقيت الرسل تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم. والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت.

لَا يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٥٢﴾

﴿لاي يوم لجلت﴾ تعظيم لليوم وتعجيب من هوله.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٤﴾

﴿ليوم للفصل﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، والوجه أن يكون معنى وقتت بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة وأجلت أخرت.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾؟ قلْتُ: هو في أصله مصدر منصوب ساءَ مسدُ فعله ولكنه أعدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه. ونحوه: سلام عليكم، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به يقال: ويلاً له ويلاً كيلاً.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٥٥﴾ أَرْثُكَ الْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قرأ قتادة نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه. قال العجاج: ومهمه هالك من تعرجا.

ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ثم تتبعهم﴾ بالرفع على الاستئناف وهو وعيد لاهل مكة، يريد ثم تفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالآولين ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم. ويقويها قراءة ابن مسعود: ثم سنتبعهم. وقرئ: بالجزم

للعطف على نهلك، ومعناه أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم اتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى.

كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٥٩﴾ أَرْثُكَ الْآخِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَجَّلَتْهُ فِي فَرَارٍ مُّكِينٍ ﴿٦١﴾

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نفعل﴾ بكل من أجرم إنذاراً وتحذيراً من عاقبة الجرم وسوء أثره.

إِنَّكَ مُدْرِ مُتَوَلِّينَ ﴿٦٢﴾

﴿إلى قدر معلوم﴾ إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به وهو تسعة الأشهر أو ما بونها أو ما فوقها.

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٦٤﴾ أَرْثُكَ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿فقدرونا﴾ فقدرونا ذلك تقديرًا ﴿فنعم القادرون﴾ فنعم المقدرين له نحن، أو فقدرونا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن. والأول أولى لقراءة من قرأ فقدرونا بالتشديد. ولقوله: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾^(١) الكفات من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت. كقولهم: الضمام والجماع لما يضم ويجمع، يقال هذا الباب جماع الأبواب وبه انتصب.

أَنبَاءُ وَأَمْرًا ﴿٦٧﴾

﴿أحياء وأمواتاً﴾ كانه قيل: كافته أحياء وأمواتاً، أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت، والمعنى: تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها، وقد استدلت بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النبش بأن الله تعالى جعل الأرض كفأً للأموات فكان بطنها حرراً لهم فالنبش سارق من الحرز.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل أحياء وأمواتاً على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعاً؟ قلْتُ: هو من تنكير التفخيم. كانه قيل: تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات، ويجوز أن يكون المعنى: تكفتكم أحياء وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لانه قد علم أنها كفات الإنس.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٦٨﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٦٩﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ ثُبَاتُهَا ﴿٧٠﴾

فَإِنْ قُلْتَ: فالتنكير في ﴿رواسي شامخات﴾ و﴿ماء فرائقاً﴾! قلْتُ: ليحتمل إفادة التبويض لأن في السماء جبالاً. قال الله تعالى: ﴿وننزل من السماء من جبال فيها من برد﴾^(٢) وفيها ماء فرائق أيضاً، بل هي معدنه ومصبه. وأن يكون للتفخيم أي: يقال لهم:

أَنْطَلِقُوا إِنْ مَا كُنْتُمْ بِهِ، تَكْذِبُونَ ﴿٢٦﴾.

انطلقوا إلى ما كنيتم به من العذاب وانطلقوا الثاني تكرير، وقرئ: انطلقوا على لفظ الماضي أخبَارًا بعد الأمر عن عملهم بموجبه لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعًا منه.

أَنْطَلِقُوا إِنْ مَا ظَلَّ ذِي ثَلَاثٍ شَعْبٍ ﴿٢٧﴾.

﴿إلى ظل﴾ يعني نخان جهنم. كقوله: ﴿وظل من يحموم﴾^(١) ذي ثلاث شعب، بتشعب لعظمه ثلاث شعب وهكذا النخان العظيم تراه يتفرق نواثب، وقيل: يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسراد ويتشعب من نخانها ثلاث شعب فتظلمهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.

لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَتَّبِعِي مِنَ اللَّهِ ﴿٢٨﴾.

﴿لا ظليل﴾ تهكم بهم وتعريض بأن ظلمهم غير ظل المؤمنين. ﴿ولا يغني﴾ في محل الجر أي وغير مغني عنهم من حر اللهب شيئًا.

إِنَّمَا تَرَى بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ﴿٢٩﴾.

﴿بشور﴾ وقرئ: بشرار ﴿كالقصر﴾ أي: كل شررة كالقصر من القصور في عظمها. وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمره وجمر، وقرئ: كالقصر بفتح الحاء وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر. وقرأ ابن مسعود: كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن، وقرأ سعيد بن جبير: كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج.

كَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ سُبُورًا ﴿٣٠﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾.

﴿جماليات﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل شبهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه، إلا نراهم يشبهون الإبل بالافدان والمجادل. وقرئ: جمالات بالضم وهي قلوس الجسور. وقيل: قلوس سفن البحر الواحدة جمالة. وقرئ: جمالة بالكسر بمعنى جمال، وجمالة بالضم وهي القلوس وقيل: ﴿صفر﴾ لإرادة الجنس. وقيل: صفر سود تضرب إلى الصفرة، وفي شعر عمران بن حطان الخارجي: دعته بأعلى صوتها ورمته بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وقال أبو العلاء:

حمراء ساطعة النواثب في اللجى ترمى بكل شرارة كطراف فشبها بالطراف وهو بيت الادم في العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبججه بما سؤل له من توهم الريادة جاء في صدر بيته بقوله: حمراء، توطئة لها ومناداة عليها وتنبئها للسامعين على مكانها ولقد

عمى جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا: ﴿كانه جمالات صفر﴾ فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر، وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجماليات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول والصفرة. فابعد الله أغرابه في طرافه وما نفخ شقيقه من استطرافه.

مَذَا يُؤْمِنُ لَا يَطْفُونَ ﴿٣٢﴾.

قرئ: بنصب اليوم، ونصبه الأعمش. أي: هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ويوم القيامة طويل نو مواطن ومواقيت ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت. ولذلك ورد الأمران في القرآن، أو جعل نطقهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع.

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿فيعتذرون﴾ عطف على يؤذن منحرف في سلك النفي، والمعنى: ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن، ولو نصب لكان مسبباً عنه لا محالة.

مَذَا يُؤْمِنُ الْفَصْلُ جَمْعُكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿جمعناكم والأولين﴾ كلام موضح لقوله: هذا يوم الفصل لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأمهم فلا بد من جمع الأولين والآخرين حتى يقع ذلك الفصل بينهم.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ النَّارَ فِي ظِلِّيلٍ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿فإن كان لكم كيد فكيدوا﴾ تقرير لهم على كيدهم لدين الله ونويه وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتَا مَا كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾.

﴿كلوا واشربوا﴾ في موضع الحال من ضمير المتقين في الطرف الذي هو في ظلال. أي: هم مستقرون في ظلال مقولاً لهم ذلك.

كُلُوا وَاشْرَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْزَوْنَ ﴿٤٢﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿كلوا وتمتعوا﴾ حال من المكذبين أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: كلوا وتمتعوا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة؟ قُلْتُ: يقال لهم ذلك في الآخرة إيداناً بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم وكانوا من أهله، تنكيراً بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إثارة المتاع القليل على النعيم والمك

الخالد. وفي طريقته قوله:

إخوتي لا تبعدوا أبداً وبلى الله قد بعثوا
يريد كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك، وعلى
ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ما له إلا
الاكل والتمتع أياماً قلائل ثم البقاء في الهلاك أبداً، ويجوز
أن يكون: كلوا وتمتعوا كلاماً مستأنفاً خطاباً للمكذبين في
الدنيا.

وَإِذَا يَلُفُّهُ أَرْكَمٌ لَا يُرْكَمُونَ ﴿١٦﴾ وَيَلُفُّهُ لَمَكٌ كَذِبٌ ﴿١٧﴾

﴿أركعوا﴾ اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحية
وإتباع بينه واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة، لا يخشعون
ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم، وقيل: ما كان
على العرب أشد من الركوع والسجود. وقيل: نزلت في
تقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا نجبي
فإنها مسبة علينا، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين
ليس فيه ركوع ولا سجود»^(١).

فَإِنِّي حَوِيْتُ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

﴿بعده﴾ بعد القرآن، يعني: أن القرآن من بين الكتب
المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة فحين لم يؤمنوا به
فبأي كتاب بعده ﴿يؤمنون﴾. وقرئ: تؤمنون بالتاء. عن
رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه
ليس من المشركين»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة عم يتساءلون مكية

وتسمى سورة النبا

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾

﴿عم﴾ أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما
الاستفهامية، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر. قال
حسان رضي الله عنه:

على ما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في رمال
والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل، ومعنى
هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال: عن أي شأن

يتساءلون. ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد^(٣). جعلته
لانتقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك جنسه
فانت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول: ما
الغول وما العنقاء؟ تريد: أي شيء هو من الأشياء، هذا
أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من
لا تخفى عليه خافية^(٤). ﴿يتساءلون﴾ يسأل بعضهم
بعضاً، أو يتساءلون غيرهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين
نحو يتداعونهم ويتراءونهم، والضمير لأهل مكة. كانوا
يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويتساءلون غيرهم عنه
على طريق الاستهزاء.

عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾

﴿عن النبا العظيم﴾ بيان للشأن المفخم. وعن ابن
كثير أنه قرأ عمه بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يجري
الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدئ: يتساءلون عن
النبأ العظيم، على أن يضمّر يتساءلون لأن ما بعده يفسره
كنشي بيهم ثم يفسر.

أَلَمْ يَرَوْا فِيهِ مَخْلُوقًا ﴿٣﴾

فإن قلّت: قد زعمت أن الضمير في يتساءلون للكفار
فما تصنع بقوله: ﴿هم فيه مختلفون﴾! قلّت: كان فيهم
من يقطع القول بإنكار البعث ومنهم من يشك. وقيل:
الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً، وكانوا جميعاً يسألون
عنه. أما المسلم فليزداد خشية واستعداداً، وأما الكافر
فليزداد استهزاء، وقيل: المتساءل عنه القرآن، وقيل: نبوة
محمد ﷺ وقرئ: يتساءلون بالإدغام، وستعلمون بالتاء.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

﴿كلا﴾ ردع للمتسائلين، هزؤاً، و﴿سيعلمون﴾ وعيد
لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون
منه حق لأنه واقع لا ريب فيه، وتكرير الردع مع الوعيد
تشديد في ذلك.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

ومعنى: ﴿ثم﴾ الأشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول
وأشد.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ يَهْدًا ﴿٦﴾

فإن قلّت: كيف اتصل به قوله: ﴿الم نجعل الأرض
مهاداً﴾^(٥)! قلّت: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من

(٤) قال أحمد: لأن بعضهم يشك في البعث وبعضهم يبيت النفي ومن
ثم قيل: الضمير للمسلمين والكافرين، فسؤال المسلمين ليزدانوا
خشية، وإنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر.

(٥) قال أحمد: جوابه الأول سيد، وأما الثاني فغير مستقيم، فإنه
مفرع على المذهب الأعوج في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح،
واعتماد أن الجزء واجب على الله تعالى عقلاً ثواباً وعقاباً
بمقتضى إيجاب الحكمة، وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء
في خبر الطائف (الحديث رقم: 3026) وأخرجه أحمد في المسند:
218/4، وابن أبي شعبة 197/3، كتاب: الزكاة، باب: ليس على
المسلمين عشور.

(٢) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم 140/4.

(٣) قال أحمد: وقد أكثر أم زرع من هذا التفخيم في قولها: وأبو
زرع ما أبو زرع، إلى آخر حديثها.

أي: يحملان على العصر، ويمكن منه.

فَإِنْ قُلْتَ: فما وجه من قرأ من المعصرات وفسرها بالرياح نوات الأعاصير، والمطر لا ينزل من الرياح! **قُلْتَ:** الرياح هي التي تنشئ السحاب وتدرّ أخلافه فصَحَّ أن تجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب فإن صحَّ ذلك فالإنزال منها ظاهر.

فَإِنْ قُلْتَ: نكر ابن كيسان أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات، والعاصر هو المغيث لا المعصر. يقال: عصره فاعصر! **قُلْتَ:** وجهه أن يريد اللاتي أعصرن. أي: حان لها أن تعصر أي: تغيث **﴿تَجَلَّجًا﴾** منصبا بكثرة، يقال: ثجه وثج بنفسه. وفي الحديث: «أفضل الحج: والعج والثج»⁽²⁾ أي: رفع الصوت بالتلبية وصب بماء الهدي. وكان ابن عباس مثجًا يسبل غربًا يعني: يثج الكلام ثجًا في خطبته، وقرأ الأعرج: بحلًا، ومثاجع الماء مصابه والماء ينثجج في الوادي.

يُنْثَجُّ بِمَاءٍ وَتَنَاجٍ ⁽³⁾.

﴿حَبًا وَنَبَاتًا﴾ يريد ما يتقوّت من نحو الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش. كما قال: كلوا وارعوا أنعامكم. والحبّ نو العصف والريحان.

رَجَّتْ أَلْفَا ⁽⁴⁾.

﴿أَلْفَا﴾ ملتفة ولا واحد له كالأوزاع والأخفاف. وقيل: الواحد لف. وقال صاحب الإقليد: انشدني الحسن بن علي الطوسي:

جنة لف وعيش مغسق وندامى كلهم بيض زهر
وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ثم ألفاف، وما أظنه واجداً له نظيراً. من نحو خضر وأخضر وحممر وأحمرار. ولو قيل: هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً.

إِنَّ يَوْمَ الْقَسْلِ كَانَ مِيقَاتًا ⁽⁵⁾.

﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ كان في تقدير الله وحكمه حداً توقّت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدّ للخلائق ينتهون إليه.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَأَتَوْنَ أَفْوَاجًا ⁽⁶⁾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان. **﴿فَأَتَوْنَ أَفْوَاجًا﴾** من القبور إلى الموقف أمّا كل أمة مع إمامهم، وقيل: جماعات مختلفة، وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل عنه رسول الله ﷺ فقال: «يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور، ثم أرسل عينيهِ وقال: «تحتشر عشرة أصناف من أمتي: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمياء، وبعضهم صمّا

يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة، فما وجه إنكار قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات، أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة والحكيم لا يفعل فعلاً عبثاً، وما تنكرونها من البعث والجزاء مؤدٍ إلى أنه عابث في كل ما فعل. مهاداً فرأشاً. وقرئ: مهذاً. ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يمهّد له فينوم عليه تسمية للممهد بالمصدر كضرب الأمير، أو وصفت بالمصدر، أو بمعنى: ذات مهد.

وَأَجِبَالٌ أَزْوَاجًا ⁽⁷⁾ **وَتَقَلْعُكَرُ أَرْوَاجًا** ⁽⁸⁾.

أي: أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالآوتاد.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⁽⁹⁾.

﴿سُبَاتًا﴾ موتاً، والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة، والنوم أحد التوفيين وهو على بناء الأنواء. ولما جعل النوم موتاً جعل البقظة معاشاً أي: حياة. في قوله: **﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾**⁽¹⁾ أي: وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. وقيل: السبات الراحة.

وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّاسِ ⁽¹⁰⁾ **وَجَعَلْنَا أَثَرًا مَنَاقِبًا** ⁽¹¹⁾.

﴿لِبَاسًا﴾ يستركم عن العيون إذا أرتبتم هرباً من عو أو بيئاتاً له أو إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور.

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبران المانوية تكذب **وَبَيَّنَّا نَوْمَكُمْ سِمًا إِشْدَادًا** ⁽¹²⁾.

﴿سِبْعًا﴾ سبع سموات. **﴿إِشْدَادًا﴾** جمع شديدة، يعني: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان.

وَجَعَلْنَا يَرْكَبًا وَهَاجًا ⁽¹³⁾.

﴿وهَاجًا﴾ متلألئاً وقادراً. يعني: الشمس. وتوهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَجَّابًا ⁽¹⁴⁾.

المعصرات: السحاب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. كقولك: أجز الزرع إذا حان له أن يجز، ومنه أعصرت الجارية إذا ننت أن تحيض. وقرأ عكرمة: بالمعصرات، وفيه وجهان: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحاب، لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها. كما تقول: أعطى من يده درهماً، وأعطى بيده، وعن مجاهد: المعصرات الرياح نوات الأعاصير. وعن الحسن وقتادة: هي السموات، وتأويله أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكان السموات يعصرن

(1) سورة النبا، الآية: 11.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (الحديث رقم: 2998).

الحقْب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها والاشتقاق يشهد لذلك، ألا ترى إلى حقبة الراكب والحقْب الذي وراء التصدير. وقيل: الحقْب ثمانون سنة ويجوز أن يراد لابئين فيها أحقابًا غير ذائقين فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبيلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب، وفيه وجه آخر وهو أن يكون من حقْب عامنا إذا قل مطره وخيره وحقْب فلان إذا أخطاه الرزق فهو حقْب وجمعه أحقاب فينتصب حالاً عنهم، يعني: لابئين فيها حقبين جحدين. وقوله:

لَا يَذُرُّونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٦٧).

﴿لَا يَذُرُّونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ تفسير له والاستثناء منقطع، يعني: لا يذوقون فيها بردًا وروحًا ينفس عنهم حر النار، ولا شرابًا يسكن من عطشهم. ولكن يذوقون فيها حميمًا وغساقًا. وقيل: البرد النوم. وأنشد: فلو شئت حرمت للنساء سواكم وإن شئت لم أطمع نقاحًا ولا بردًا وعن بعض العرب: منع البرد البرد.

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا (٦٨).

وقرى: غساقًا بالتخفيف والتشديد، وهو ما يفسق. أي: يسيل من صليدهم.

جَرَاءً وَفَاقًا (٦٩) إِيَّاهُمْ كَأَنَّهُ لَا يَزِيْرُ حِسَابًا (٧٠).

﴿وفاقًا﴾ وصف بالمصدر أو ذا وفاق، وقرأ أبو حيوة: وفاقًا فعال من وفقه كذا.

وَكَذِبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا (٧١).

﴿كذبًا﴾ تكذيبًا، وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره. وسمعتهم بعضهم أفسر آية فقال: لقد فسرتها فسارًا ما سمع بمثله، وقرى: بالتخفيف وهو مصدر كذب بلبيل قوله:

فصنعتُها وكذبنتُها والمرء ينفعه كذاب وهو مثل قوله: «أنيتكم من الأرض نباتًا»^(٤) يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابًا، أو تنصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا فكانوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرى: كذابًا وهو جمع كاذب أي: كذبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب. كقولك: حسان ويخال فيجعل صفة لمصدر كذبوا. أي: تكذبيًا كذابًا مفرطًا كذبه، وقرأ أبو السمال: وكل شيء أحصيناه بالرفع على الابتداء.

بكمًا، وبعضهم يعضفون السنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جنوع من نار، وبعضهم أشد نتنًا من الجيف، وبعضهم ملبسون جبابًا سابيةً من قطران لازقة بجلودهم. فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فاهل السحت، وأما المنكسون على وجوهكم فاكلة الربا، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم، وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم، وأما الذين يعضفون السنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤنون الجيران، وأما المصلبون على جنوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، وأما الذين هم أشد نتنًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم، وأما الذين يلبسون الجباب فاهل الكبر والفخر والخيلاء^(١).

وَوُحِّتَ الْمَلَكَةُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (٧٢).

وقرى: وفتحت بالتشديد والتخفيف، والمعنى: كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبوابًا مفتحة، كقوله: «وفجرنا الأرض عيونًا»^(٢) كان كلها عيون تتفجر. وقيل: الأبواب الطرق والمسالك، أي: تكشف فينفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدها شيء.

وَسَيَّرَ لِلْبَإِئِ فَكَانَتْ سَرَابًا (٧٣).

﴿فكانت سرابًا﴾ كقوله: «فكانت هباءً منبثًا»^(٣) يعني: أنها تصير شيئًا كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٧٤) لِلطَّاغِينَ مَنَآبًا (٧٥).

المرصاد: الحد الذي يكون فيه الرصد، والمعنى: أن جهنم هي حد الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب، وهي مأبهم أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهي مأب للطاغين. وعن الحسن وقتادة نحوه قالوا: طريقًا وممرًا لأهل الجنة. وقرأ ابن يعمر أن جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصادًا للطاغين. كانه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء.

لَابِئِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٧٦).

قرى: لابئين ولبئين واللبث أقوى؛ لأن اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال لبث إلا لمن شأنه اللبث كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه. ﴿أحقابًا﴾ حقبًا بعد حقب كلما مضى حقْب تبعه آخر إلى غير نهاية، ولا يكاد يستعمل

(3) سورة الواقعة، الآية: 6.

(4) سورة نوح، الآية: 17.

(1) نكره ابن مردويه، والثعلبي في تفسيرهما، زيلعي 4/144.

(2) سورة القمر، الآية: 12.

للمتقين مفازاً⁽²⁾ كانه قال: جازي المتقين بمفاز. و﴿عطاء﴾ نصب بجزاء نصب المفعول به أي: جزاءهم عطاءً. و﴿حساباً﴾ صفة بمعنى كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حق. قال: حسي. وقيل: على حسب أعمالهم. وقرأ ابن قطيب: حساباً بالتشديد، على أن الحساب بمعنى المحسب كالدرّك بمعنى المدرّك.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٦﴾

قري: رب السموات والرحمن بالرفع على هو رب السموات الرحمن، أو رب السموات مبتدأ والرحمن صفة ولا يملكون خبر، أو هما خبران. وبالجاء على البذل من ربك وبجر الأول ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره لا يملكون. أو هو الرحمن لا يملكون. والضمير في ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض. أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيون فيه أو ينقصون منه، أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه.

يَوْمَ يَوْمُ الزُّلْزَلِ وَاللَّيْلَةِ سَوَاءً لَا يَسْكُوتُونَ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ سَوَابًا ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ اتَّقُوا لِكُلِّ رَيْبٍ مَتَابًا ﴿٣٨﴾

و﴿يوم يقوم﴾ متعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون. والمعنى: إن الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعةً وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض. والروح أعظم خلقاً من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين. وقيل: هو ملك عظيم ما خلق الله بعد العرش خلقاً أعظم منه. وقيل: ليسوا بالملائكة، وهم يكلون. وقيل: جبريل. هما شريطان⁽³⁾ أن يكون المتكلم منهم ماثوئاً له في الكلام، وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾⁽⁴⁾.

إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا ﴿٣٩﴾

﴿المرء﴾ هو الكافر لقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾⁽⁵⁾ والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعني: ﴿ما قَدَّمَتْ يداؤه﴾ من الشر. كقوله: ﴿وذوقوا عذاب

وَلَكِنْ شَرٌّ أَحْمَقُهُ كِتَابًا ﴿٤٠﴾

﴿كتاباً﴾ مصدر في موضع إحصاء وإحصينا في معنى كتبنا للتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل، أو يكون حالاً في معنى مكتوباً في اللوح وفي صحف الحفظ والمعنى: إحصاء معاصيهم. كقوله: إحصاء الله ونسوه وهو اعتراض. وقوله:

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٤١﴾

﴿فَذُوقُوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وهي آية في غاية الشدة، وناهيك بلن نزيككم وبدالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة وبمجيئها على طريقة الالتفات شاهداً على أن الغضب قد تبالغ وعن النبي ﷺ: هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار⁽¹⁾.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٤٢﴾

﴿مفازاً﴾ فوزاً وظفراً بالبغية أو موضع فوز. وقيل: نجاة مما فيه أولئك، أو موضع نجاة. وفسر المفاز بما بعده.

حَلَالٍ وَأَعْنَابٍ ﴿٤٣﴾

والحلائق: البساتين فيها أنواع الشجر المثمر. والأعناب الكروم.

وَكُؤُوبٍ أَرْبَابًا ﴿٤٤﴾

والكواعب: اللاتي فلكت ثديهن وهن النواهد. والأتارب اللذات.

وَأَسَافًا وَمَهَاقًا ﴿٤٥﴾

والدهاق: المترعة، وأدهق الحوض ملأه حتى قال قطني. وقري: ولا كذاباً بالتشديد والتخفيف.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٤٦﴾

أي: لا يكتب بعضهم بعضاً ولا يكتبه أو لا يكاتبه. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين.

جَزَاءً مِّنْ رَبِّكَ عَذَابٌ جَسَدًا ﴿٤٧﴾

﴿جزاء﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: ﴿إن

= ثم أخطأ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه، إلا وقد ارتضاهم لذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم﴾ فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضياً لله تعالى وصاحبه مرتضى.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 28.

(5) سورة النبا، الآية: 40.

(1) ذكره الثعلبي، وابن حاتم في تفسيرهما، وأخرجه البيهقي في البعث والنشور، زيلعي 145/4.

(2) سورة النبا، الآية: 31.

(3) قال أحمد: يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبي الكبائر من الموحدين، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت له، ويتلقى ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين، ونحو الكبائر ليسوا مرتضين، ومن

فَالْتَفَتَتْ سَبَاً ① فَأَلْدَرَّتْ أَمْرًا ②.

فتسبقت فتدبر أمرًا من علم الحساب. وقيل: النازعات أيدي الغزاة أو أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الأوهاق، والمقسم عليه محنوف وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من نكر القيامة.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ③.

و «يوم ترجف» منصوب بهذا المضمّر، و «الراجفة» الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها.

تَتَّبِعُهَا الرَّاغِبَةُ ④.

«تتبعها الراجفة» أي: الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الراجفة من قوله تعالى: «قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون»⁽³⁾ أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها وهي رانفة لهم لاقترابها. وقيل: الراجفة الأرض والجبال من قوله: «يوم ترجف الأرض والجبال». والراجفة السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك.

فإن قُلْتُ: ما محل تتبعها؟ قُلْتُ: الحال، أي: ترجف تابعتها الراجفة.

فإن قُلْتُ: كيف جعلت يوم ترجف ظرفًا للمضمّر الذي هو لتبعثن ولا يبعثن عند النفخة الأولى؟ قُلْتُ: المعنى لتبعثن في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان وهم يبعثن في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى يدل على ذلك أن قوله: تتبعها الراجفة، جعل حالاً على الراجفة، ويجوز أن ينتصب يوم ترجف بما دل عليه.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑤.

«قلوب يومئذ واجفة» أي: يوم ترجف، وجفت القلوب «واجفة» شديدة الاضطراب، والوجيب والوجيف أخوان.

أَبْصَرُوهَا خَائِفَةً ⑥.

«خاشعة» نائلة.

فإن قُلْتُ: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ قُلْتُ: قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وأبصارها خاشعة خبرها. فهو كقوله: «ولعبد مؤمن خير من مشرك»⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب؟ قُلْتُ: معناه أبصار أصحابها. بدليل قوله: يقولون:

يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرُودُونَ فِي الْمَكَافِرِ ⑦.

«في الحافرة» في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت.

الحريق تلك بما قدّمت أيديكم⁽¹⁾ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق تلك بما قدّمت يداك بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت أي: ينظر أي شيء قدّمت يده، وموصولة منصوبة بينظر، يقال: نظرته، بمعنى: نظرت إليه والراجع من الصلة محنوف. وقيل: المرء عام وخصص منه الكافر. وعن قتادة: هو المؤمن «يا ليتني كنت ترابًا» في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو ليتني كنت ترابًا في هذا اليوم فلم أبعث، وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماة من القرآن ثم يرده ترابًا، فيؤد الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يرى آدم ولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عم يتساءلون سقاء الله برد الشراب يوم القيامة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النازعات مكية

وَالْقُرْآنُ غَرَامٌ ①.

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضياها أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمرًا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم. «غرقًا» إغراقًا في النزاع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها، أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزاعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب.

وَالنَّوْطَاتِ نَشْطًا ②.

والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط، إذا خرج من بلد إلى بلد.

وَالْأَنفِثَتِ سَبَاً ③.

والتي تسبح في جريها فتسبق الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه، أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب وإغراقها في النزاع أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب، والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة.

(3) سورة النمل، الآية: 72.

(4) سورة البقرة، الآية: 221.

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 181 - 182.

(2) نكره الثعلبي وابن مريويه والواحدي في تفسيرهم 4/146.

وفي ضدها نائمة. قال الأشعث بن قيس:

وسامرة يضحى السراب مجللاً لانتظارها قد جبتها متلثماً
أو لأن سالكها لا ينال خوف الهلكة. وعن قتادة: فإذا هم
في جهنم.

أَذْهَبَ إِلَاكَ يَهْوَنَ إِثْرُ طَلْحٍ (٧).

﴿أذهب﴾ على إرادة القول. وفي قراءة عبد الله إن
أذهب لأن في النداء معنى القول هل لك في كذا وهل لك
إلى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب إليه.

قُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ (٨).

﴿إلى أن تركب﴾ إلى أن تتطهر من الشرك. وقرأ أهل
المدينة: تركب بالادغام.

وَأَمَّا يَكُ إِذَا يَكُ فَتَخْتَضِ (٩).

﴿واهديك إلى ربك﴾ وأرشدك إلى معرفة الله أنبهك
عليه فتعرفه، ﴿فتخشى﴾ لأن الخشية لا تكون إلا
بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده
العلماء﴾ أي: العلماء به، ونكر الخشية لأنها ملاك الأمر
من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجتراً على كل
شر. ومنه قوله عليه السلام: من خاف ألجج ومن ألجج بلغ
المنزل^(٢)، بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما
يقول الرجل لضييف: هل لك أن تنزل بنا؟ وأرفقه الكلام
الرفيق ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزل به بالمداورة من
عتوه. كما أمر بذلك في قوله: ﴿فقلوا له قولاً ليناً﴾^(٣).

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (١٠).

﴿الآية الكبرى﴾ قلب العصا حية؛ لأنها كانت المقدمة،
والأصل والأخرى كالتابع لها لأنه كان يتقيها بيده. فقيل له:
اخذ بك في جيبك أو أرادهما جميعاً إلا أنه جعلهما
واحدة لأن الثانية كانها من جملة الأولى لكنها تابعة لها.

مَكَذَّبَ وَعَمَى (١١).

﴿فكذب﴾ بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحراً
وسحراً. ﴿وعصى﴾ الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر
وأن الطاعة قد وجبت عليه.

ثُمَّ أَذْبَرَ بَشَرًا (١٢).

﴿ثم أذبر يسعى﴾ أي: لما رأى الثعبان أذبر مرعوباً^(٤)،
يسعى يسرع في مشيئته، قال الحسن: كان رجلاً طياشاً
خفيفاً. أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكابדתه
واريد: ثم أقبل يسعى، كما تقول: أقبل فلان يفعل كذا،

فإن قُلْتُ: ما حقيقة هذه الكلمة؟ قُلْتُ: يقال رجع فلان
في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي: أثر
فيها بمشيئه فيها جعل أثر قدميه حفراً، كما قيل: حفرت
أسنانه حفراً، إذا أثر الأكال في أسنخها، والخط المحفور في
الصخر. وقيل: حافرة. كما قيل: عيشة راضية، أي: منسوبة
إلى الحفر والرضا. أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن
كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرتة، أي:
إلى طريقته وحالته الأولى. قال:

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وعار
يريد أرجوعاً إلى حافرة. وقيل: النقد عند الحافرة
يريدون عند الحالة الأولى وهي الصفة. وقرأ أبو حية في
الحفرة والحفرة بمعنى المحفورة. يقال: حفرت أسنانه
فحفرت حفراً وهي حفرة، وهذه القراءة ليل على أن
الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة.

أَوْدَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَهُ (١٣).

يقال: نخر العظم فهو نخر وناخر. كقولك: طمع فهو
طمع وطماع وفعل أبلغ من فاعل. وقد قرئ بهما وهو
البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخير.
و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف تقديره أذا كنا عظاماً نرد
ونبعث.

فَأَلَا يَكُ إِذَا كَرَّ غَايَرَهُ (١٤).

﴿كرة خسارة﴾ منسوبة إلى الخسران أو خاسر
أصحابها، والمعنى: أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون
لتكدينا بها وهذا استهزاء منهم.

فَلَمَّا هَمَّ زَجَرَهُ زَجْرَةً (١٥).

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة؟﴾
قُلْتُ: بمحذوف معناه لا مستصعبها فإنما هي زجرة
واحدة. يعني: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل
فإنها سهلة هينة في قدرته ما هي إلا صيحة واحدة –
يريد النفخة الثانية^(١).

فَلَمَّا هَمَّ بِالنَّاهِرَةِ (١٦) هَلْ أَنْتَ حَيٌّ مَوْسَى (١٧) إِذْ نَادَتْ رَبُّهُ بِالْوَادِ
الْقُدْسِ مَوْسَى (١٨).

﴿فإذا هم﴾ أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً
في جوفها، من قولهم: زجر البعير إذا صاح عليه،
والساهرة الأرض البيضاء المستوية. سميت بذلك لأن
السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة جارية الماء

(١) قال أحمد: وما أحسن تسهيل أمر الإعادة بقوله: ﴿زجرة﴾ عوضاً
من صيحة: لأن الزجرة أخف من الصيحة ويقولوه: ﴿واحدة﴾ أي
محتاجة إلى مثنتي، وهو يحقق لك ما أجبته به من السؤال الوارد
عند قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ حيث قيل:
كيف وحدها وهما نفختان؟ وجند به عهداً.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک 308/4، وأخرجه أبو نعيم في الحلية =

= 377/8، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الخوف من الله
تعالى (الحديث رقم: 881) وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة
القيامة والرفاق والورع، باب: 18 (الحديث رقم: 245).

(٣) سورة طه، الآية: 44.

(٤) قال أحمد: وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جداً، وهو على هذا من
أفعال المقاربة.

وهو في الأصل موضع الرعي ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسي وهو الإضمار على شريطة التفسير وقراها الحسن مرفوعين على الابتداء.

فَإِنْ قُلْتَ: هلا أدخل حرف العطف على أخرج (4)؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما أن يكون معنى دحاها بسطها ومدھا للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأني سكنائها من تسوية أمر الماكل والمشرب، وإمكان القرار عليها والسكون بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتاداً لها حتى تستقر ويستقر عليها. والثاني أن يكون أخرج حالاً بإضمار قد كقوله: أو جاؤكم حصرت صدورهم. وأراد بمرعاها ما ياكل الناس والأنعام واستعير الرعى للإنسان كما استعير الرتع في قوله: **«نرتع ونلعب»** (5) وقرئ: يرتع من الرعي. ولهذا قيل: دل الله سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح لأنه من الماء.

ثُمَّ لَكُمْ وَرَءَكُمْ (٦).

«مَتَاعًا لَكُمْ» فعل ذلك تمتيعاً لكم **«وولانعامكم»**، لأن منفعة ذلك التمهيد واصله إليهم وإلى أنعامهم.

إِذَا بَلَغَ الْكُلَّةُ الْكُلُوبَ (٧).

«للطامة» الداهية التي تطم على الدواهي، أي: تعلق وتغلب. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطم على القرى، وهي القيامة لطموها على كل هائلة. وقيل: هي النفخة الثانية. وقيل: الساعة التي تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٨).

«يوم يتذكر» بدل من إذا جاءت يعني: إذا رأى أعماله مبنية في كتابه تنكرها وكان قد نسيها. كقوله: أحصاه الله ونسوه. وما في **«ما سعى»** موصولة أو مصدرية.

وَوَرِثَ الْجَحِيمَ لِمَنْ رِئَى (٩).

«وبرزت» اظهرت. وقرأ أبو نهيك: وبرزت **«لمن يرى»** للرئين جميعاً. أي: لكل أحد يعني: انها تظهر إظهاراً بيناً مكشوفاً (6) يراها أهل الساهرة كلهم. كقوله: قد بين الصبح لذي عينين، يريد لكل من له بصر، وهو مثل في الأمر المكتشف الذي لا يخفى على أحد. وقرأ ابن مسعود: لمن رأى. وقرأ عكرمة: لمن ترى، والضمير للجحيم، كقوله: إذا رأته من مكان بعيد وقيل: لمن ترى يا محمد.

بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أكبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال.

تَحْتَرَّ فَنَادَى (١٠).

«فحشر» فجمع السحرة. كقوله: **«فارسل فرعون في المدائن حاشرين»** (1) **«فنادى»** في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك. وقيل: قام فيهم خطيباً. فقال: تلك العظيمة. وعن ابن عباس: كلمته الأولى ما علمت لكم من إله غيري والآخرة أنا ربكم الأعلى.

فَأَنذَرْتُ اللَّهَ تَاجِرَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (11) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ يَخْشَى** (12).

«نكال» هو مصدر مؤكد كوعد الله وصيغة الله، كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة، والأولى والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم. يعني: الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة (2). وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة. وهي قوله: أنا ربكم الأعلى. والأولى وهي قوله: ما علمت لكم من إله غيري. وقيل: كان بين الكلمتين أربعون سنة، وقيل: عشرون. الخطاب لمنكري البعث.

وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَيْنَاهَا (13).

يعني: **«الأنتم»** أصعب **«خلقاً»** وإنشاء **«لم السماء»** ثم بين كيف خلقها فقال: **«بناها»** ثم بين البناء فقال:

رَفَعَ سَمَكًا فَرَوَّهَا (14).

«رفع سمكها» أي: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام **«فسواها»** فعلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور، أو فتممها بما علم أنها تتم به. وأصلها من قولك: سوى فلان أمر فلان. **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَتَتْهُمُ** (15) **وَالْأَرْضُ بِمَدِّ ذِكِّهَا** (16).

غطش الليل وأغطشه الله كقولك: ظلم وأظلمه. ويقال أيضاً: أغطش الليل كما يقال: اظلم. **«ولخرج ضحاها»** وأبرز ضوء شمسها، يدل عليه قوله تعالى: **«والشمس وضحاها»** (3) يريد وضوئها. وقولهم: وقت الضحى للوقت الذي تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلها، والشمس هي السراج المتقّب في جوها.

أَنزَجَ يَتَاءَ مَاكَا وَرَعَاهَا (17) **وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا** (18).

«ماءها» عيونها المتفجرة بالماء **«ومرعاها»** ورعيها

= ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال: بناها بغير عاطف، ثم فسر البناء فقال: **«رفع سمكها»** بغير عاطف أيضاً.

(5) سورة يوسف، الآية: 12.

(6) قال أحمد: وفائدة هذا النظم الإشعار بأنه أمر ظاهر لا يتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة، أي: لا شيء يحجبه ولا بعد يمنع رؤيته ولا قرب مفرط إلى غير ذلك من موانع الرؤية.

(1) سورة الشعراء، الآية: 53.

(2) قال أحمد: فعلى الأول يكون قريباً من إضافة الموصوف إلى الصفة: لأن الآخرة والأولى صفتان للكلمتين، وعلى الثاني لا يكون كذلك.

(3) سورة الشمس، الآية: 1.

(4) قال أحمد: والأول أحسن، وهو مناسب لقوله: **«السماء بناها»** لأنه لما قال: **«الأنتم أشد خلقاً أم السماء»** تم الكلام لكن مجزئاً =

فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَخُشَ (٢٧) وَآمَرَ لِقَبْوَةَ اللَّهِ (٢٨).

أحدًا من خلقه، وقيل: فيم إنكار لسؤالهم أي: فيم هذا السؤال (٢٧) ثم قيل: أنت من نكرها. أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسمة الساعة نكر من نكرها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلًا على دنوها ومشارقتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها.

إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا (٢٩).

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتتنر من أهرالها من يكون من إنذارك لطفًا له في الخشية منها. وقرئ: منذر بالتثنية وهو الأصل، والإضافة تخفيف. وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة كقولك: هو منذر زيد أمس. أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، وقيل: في القبور.

كَلِمَةً يَوْمَ يُنْفَخُ الرَّبْعُ إِلَّا عِيشَةً أَوْ حَبْنًا (٣٠).

﴿إلا عشية أو ضحاها﴾.

فإن قلت: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية قلت: لما بينهما من الملاسة لاجتماعهما في نهار واحد.

فإن قلت: فهذا قيل: إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة؟ قلت: الدلالة على أن مدة لبثهم كانها لم تبلغ يومًا كاملاً ولكن ساعةً منه عشيته أو ضحاها، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته فهو كقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾ (٣٠) عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة» (٣١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة عبس مكية

عَبَسَ وَوَلَّى (١).

أتى رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم (٣٢)، وأم مكتوم أم أبيه، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا

﴿فأما﴾ جواب ﴿فإذا﴾، أي: فإذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك، والمعنى: فإن الجحيم مأواه. كما تقول للرجل غص الطرف تريد طرفك وليس الالف واللام بدلاً من الإضافة، ولكن لما علم أن الطافي هو صاحب المأوى وأنه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الإضافة ودخل حرف التعريف في المأوى، والطرف للتعريف لأنهما معروفان.

فَإِنَّ الْجَحِيمَ إِلَى الْآخِرَةِ (٣٣).

﴿وهي﴾ فصل أو مبتدأ.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٣٤) فَإِنَّ الْجَنَّةَ إِلَى الْآخِرَةِ (٣٥).

﴿ونهى النفس﴾ الامارة بالسوء ﴿عن الهوى﴾ المردي، وهو اتباع الشهوات، وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إثبات الخير، وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله ﷺ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه (٣٦).

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْآخِرَةِ إِنَّا نُنْشِئُهَا (٣٦).

﴿إيان مرساها﴾ متى إرساؤها أي: إقامتها، أرابوا متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها، وقيل: إيان منتهاها ومستقرها (٣٧)، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه.

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٣٨).

﴿فيم أنت﴾ في أي شيء أنت من أن تنكر وقتها (٣٩) لهم وتعلمهم به يعني: ما أنت من نكرها لهم وتبيين وقتها في شيء، وعن عائشة رضي الله عنها: لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت (٤٠)، فهو على هذا تعجب من كثرة نكره لها. كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من نكرها والسؤال عنها، والمعنى: أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسال عنها، ثم قال:

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلًا (٤١).

﴿إلى ربك منتهاه﴾ أي: منتهى علمها لم يؤت علمها

(٥) قال أحمد: فعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله: فيم ليفصل بين الكلامين.

(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٧) نكره الثعلبي وابن مروي والواحي في تفاسيرهم، زيلعي: ٤/ ١٥١.

(٨) قال أحمد: وإنما أخذ الاختصاص من تصدير الجملة بضمير المخاطب، وجعله مبتدأ مخبراً عنه، وهو كثيراً ما يتلقى الاختصاص من ذلك، ولقد غلط في تفسير الآية، وما كان له أن يبلغ ذلك.

(١) لم يخرج الزيلعي.

(٢) قال أحمد: وفيه إشعار بثقل اليوم، كقوله: «وينرون وراءهم يوماً ثقيلاً» ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال.

(٣) قال أحمد: وفي هذا الوجه نظر، فإن الآية الأخرى تردده، وهي قوله: «يستلونك كأنك حفي عنها» أي: أنك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك، وهم يستلونك كما يستل الحفي عن الشيء، أي: الكثير السؤال عنه، فالوجه الأول أصوب.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥/ ١.

وقرى: تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر: تصدى بضم التاء أي: تعرض. ومعناه: يدعوك داعٍ إلى التصدي له من الحرص والتهاكك على إسلامه.

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي^(٧)

وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام إن عليك إلا البلاغ.

وَأَنَا مِنْ جَاهِلِكُمْ^(٨)

﴿يسعى﴾ يسرع في طلب الخير.

وَمَوْعِدُهُمْ^(٩)

﴿وهو يخشى﴾ الله أو يخشى الكفار وإذا هم في إتيانك. وقيل: جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة.

فَأَنْتَ عَنْهُ لَغَفْلٌ^(١٠)

﴿تلهي﴾ تتشاغل من لهي عنه والتلهي وتلهي. وقرأ طلحة بن مصرف: تلهي، وقرأ أبو جعفر: تلهي، أي: يلهيك شأن الصناديد.

فَإِنْ قُلْتَ: قوله فانت له تصدى فانت عنه تلهي كان فيه اختصاصاً. قُلْتُ: نعم ومعناه: إنكار التصدي والتلهي عليه. أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهي عن الفقير.

كَلَّا إِنَّمَا تَنكِرُهُ^(١١)

﴿كلا﴾ ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله، ﴿إنها تنكرة﴾ أي: موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

فَنْ تَلَا تَكْزُرُهُ^(١٢)

﴿فمن شاء نكره﴾ أي: كان حافظاً له غير ناسٍ، ونكر الضمير لأن التنكرة في معنى الذكر والوعظ.

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ^(١٣)

﴿في صحف﴾ صفة لتنكرة، يعني: أنها مثبتة في صفحة منتسخة من اللوح. ﴿مكرمة﴾ عند الله.

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ^(١٤)

﴿مرفوعة﴾ في السماء، أو مرفوعة المقدار. ﴿مطهرة﴾ منزهة عن أيدي الشياطين لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين.

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ^(١٥)

﴿سفرة﴾ كتبة ينتسخون الكتب من اللوح.

كَرِيمٍ مُّذَكَّرٍ^(١٦)

﴿مبررة﴾ اتقياء. وقيل: هي صحف الأنبياء كقوله: ﴿إِنْ

ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكبر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه^(١)، فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين. وقال أنس: رأيته يوم القانسية وعليه درع وله راية سوداء^(٢). وقرى: عبس بالتشديد للمبالغة، ونحوه كلح في كلح.

أَنْ جَاءَهُ الْآخَرُ^(٣)

﴿أن جاءه﴾ منصوب بتولي أو بعبس على اختلاف المذهبيين ومعناه عبس لأن جاءه الأعمى، أو أعرض لذلك. وقرى: أن جاءه بهمزتين وبالف بينهما ووقف على عبس وتولى، ثم ابتدئ على معنى: لأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكاراً عليه. وروي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدى لغني. وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب ليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانباً جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهها بالتوبيخ وإلزام الحجة. وفي نكر الأعمى نحو من ذلك كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى وكان يجب أن يزيده لعماء تعطفاً وتروفاً وتقريباً وترحيباً. ولقد تأنب الناس بآب الله في هذا تأنباً حسناً. فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله: أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ يَزْكِي^(٤)

﴿وما يدريك﴾ وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى. ﴿لعله يزكي﴾ أي: يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوصار الإثم.

أَوْ يَلْكَرُ فَنَنْتَعِمُ إِلَٰهِيكَ^(٥) أَمَا مَنِ اسْتَفَى^(٦)

﴿أو ينكر﴾ أو يتعظ، ﴿فتنتفعه﴾ نكرارك، أي: موعظتك، وتكون له لطفاً في بعض الطاعات. والمعنى: أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكٍ أو تنكر، ولو برئت لما فرط ذلك منك. وقيل: الضمير في لعله للكافر. يعني: أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يتنكر فتقربه النكري إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرى: فتنتفعه بالرفع عطفاً على ينكر وبالنصب جواباً للعل. كقوله: فاطلع إلى إله موسى.

فَأَنْتَ لَمْ تَكُنْ^(٧)

﴿تصدى﴾ تتعرض بالإقبال عليه والمصاداة المعارضة.

(2) أخرجه عبد الرزاق في التفسير، زيلعي 4/156.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة عبس

هذا لفي الصحف الأولى⁽¹⁾ وقيل: السفارة القراء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ.

قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ⁽²⁾.

«قتل الإنسان» دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأنَّ القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها. **«وما تكفره»** تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله. ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا خشن مساً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المنمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأنمة على قصر متنه. ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلا أن انتهى وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه، وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ⁽³⁾.

«من أي شيء خلقه» من أي شيء حقير مهين خلقه، ثم بيّن ذلك الشيء بقوله:

مِنْ تُلْفَةٍ خَلَقْتُمْ قَدَرَكُمْ⁽⁴⁾.

«من نطفة خلقه قَدَرَهُ» فهياه لما يصلح له ويختص به، ونحوه: وخلق كل شيء قَدَرَهُ تقديرًا.

ثُمَّ أَوَّيَلَىٰ يَٰزَيُّرُ⁽⁵⁾.

نصب السبيل بإضمار يسر وفسر بيسر، والمعنى: ثم سهل سبيله، وهو مخرجه من بطن أمه، أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه. كقوله: **«إنا هديناه السبيل»**⁽⁶⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر.

ثُمَّ أَمَّا تَآكُفِرُ⁽⁷⁾.

«فأكفیره» فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان. يقال: قبر الميت إذا دفنه، وأقبره الميت إذا أمره أن يقبره ومكنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحاً.

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرْ⁽⁸⁾.

«أنشره» أنشأه النشأة الأخرى. وقرئ: نشره.

كَلَّا لَمَّا بُدِئَ مَا بَشَرُ⁽⁹⁾.

«كلا» ردع للإنسان عما هو عليه. **«لما يقض»** لم يقض بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية. **«ما أمره»** الله حتى يخرج عن جميع أوامره. يعني: أن إنساناً لم يخل من تقصير قط. ولما عدد النعم في نفسه اتبعه نكر النعم فيما يحتاج إليه فقال:

يَنْتَلُو الْإِنْسَانُ إِلَّا طَمَئِينَ⁽¹⁰⁾.

«فلينظر الإنسان إلى طعامه» إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبّرنا أمره.

أَنَا سَيِّئٌ آلَاءَةً سَيِّئًا⁽¹¹⁾.

«إنا صبينا للماء» يعني: الغيث. قرئ: بالكسر على الاستئناف، وبالفتح على البذل على الطعام. وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما: أنى صبينا بالإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صبينا الماء.

ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا⁽¹²⁾.

وشققنا من شق الأرض بالنبات⁽³⁾، ويجوز أن يكون من شقها بالكرباب على البقر وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

فَأَنبَأْنَا فِيهَا جَاءَ⁽¹³⁾ وَبَعَا وَفَعَا⁽¹⁴⁾ وَزَوَّجْنَا وَفَعَلَا⁽¹⁵⁾.

والحب كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، والقضب الرطبة والمقضب أرضه سمى بمصدر قضبه إذا قطعه لانه يقضب مرّة بعد مرّة.

وَمَدَّيْنَاهُ عَلَيْنَا⁽¹⁶⁾.

«وحدائق غلبا» يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول: حديقة ضخمة. وأن يجعل شجرها غلباً أي: عظماً غلاظاً، والأصل في الوصف بالغلب الرقاب فاستعير. قال عمرو بن معد يكرب:

يمشي بها غلب الرقاب كأنهم بزل كسين من الكحيل جلالاً
والآب المرعى لانه يؤب أي: يؤم وينتجع، والآب والأب أخوان. قال:

جئنا قيس ونجد دارنا ولنا الآب به والمكعر⁽⁴⁾

= إضافة الفعل إلى الله تعالى من باب إضافة الشق إلى الحرات: لانه السبب قتل القنبري ما أكفره، على قول: وما أضله على آخر، وإذا جعل شق الأرض مضافاً إلى الحرات حقيقة، وإلى الله مجازاً فما يمنعه أن يجعل الحرات، هو الذي صلب الماء وانبت الحب والعنب والقضب حقيقة، وهل هما إلا واحد؟
(4) المكعر: النخل القريبة من المحل.

(1) سورة الأعلى، الآية: 18.

(2) سورة الإنسان، الآية: 3.

(3) قال أحمد: ما رأيت كالיום قط عبداً ينازع ربه، الله تعالى يقول:

«ثم شققنا» فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله: **«من نطفة خلقه»** وهلم جرا، والزمخشري يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه، فيجعل

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أي سماء تظلني، أي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به⁽¹⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفنا، فما الأب؟ ثم رفض عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب. ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. قُلْتُ: لم يذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبر همهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم.

وَرَجِعُوا وَيَوْمًا عَلَيَّا غَبْرَةٌ

﴿غَبْرَةٌ﴾ غبار يعلوها.

رَفَعْنَا قُرْءَهُ

﴿قُرْءَهُ﴾ سواد كاللحان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكان الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبر.

أَوَلَيْكُم مِّنَ الْكُفْرِ الْقِيَرَةُ

كما جمعوا الفجور إلى الكفر، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر»⁽⁴⁾.

وَفِيكُمْ وَأَيَّامًا مِّنَّا لَكُمْ وَلَافِيكُمْ

فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكر وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعاً له أو لإتعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك. ولم يشكل مما عُدَّ من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتفِ بالمعرفة الجميلة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت. ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن.

وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ

يقال: صَحَّ لحديثه مثل أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأنَّ الناس يصخون لها.

يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِرَّةً مِّنْ أَيْهِ وَيَوْمًا وَيَوْمًا وَيَوْمًا

﴿يَفِرُّ﴾ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب. كانه قال: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبه وبنيه. وقيل: يفر منهم حذراً من مطالبهم بالتبعات. يقول الأخ لم تواسني بمالك، والأبوان قصرت في برنا، والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا. وقيل: أول من يفر من أخيه هانيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبه نوح ولوط، ومن ابنه نوح.

لِكُلِّ أَمْرٍ أَمْرٍ يَوْمَ يَوْمًا شَأْنٌ يَوْمًا

﴿يَغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به وقرئ: بعينه أي: يهيم.

وَيَوْمَ يَوْمًا مِثْرَةٌ

﴿مِثْرَةٌ﴾ مضيئة متهلة من أسفر الصبح إذا اضاء.

إِذَا انشَرَّتْ كُرُورٌ

في التكوير وجهان: أن يكون من كُورَت العمامة إذا لففتها أي: يلف ضوءها لفاً فيذهب انبساطه وانتشاره في الأفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطة غير ملفوف. أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها لأنَّ الثوب إذا أريد رفعه لف وطوى. ونحوه قوله: يوم نطوي السماء، وأن يكون من طعنه فجوره وكُورَه إذا القاه أي: تلقى وتطرح عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار.

فإن قُلْتُ: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية! قُلْتُ: بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كُورَت، لأنَّ إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط.

وَإِذَا انشَرَّتْ أَنْكَدَرَتْ

﴿انكدرت﴾ انقضت. قال: أبصر خربان فضاء فانكدر. ويرى في الشمس والنجوم أنها تطرح في جهنم ليراهن من عبدها. كما قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾.

وَإِذَا الْكِبَالُ سُيرَتْ

(3) تقدم في سورة الفتح.

(4) نكره الثعلبي والواحدي وابن مربي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 512/10، كتاب: فضائل القرآن، باب: من كره أن يفسر القرآن.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 514/2.

ولدت ابناً حبسته.

فَإِنْ قُلْتُ: ما حملهم على واد البنات؟ **قُلْتُ:** الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن، أو الخوف من الإملاق كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (4) وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به فهو أحق بهن، وصعصعة ابن ناجية ممن منع الواد، فبه اقتخر الفرزق في قوله:

ومنا الذي منع الواثت فأحيا الوئيد فلم تواد
فَإِنْ قُلْتُ:

يَايَ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (5).

فما معنى سؤال المؤودة عن ذنبها الذي قتلت به. وهلا سئل الواثت عن موجب قتله لها. **قُلْتُ:** سؤالها وجوابها تبكى لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى: ﴿أَنْتَ قَتَلْتَ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿سَبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. وقرئ: سألت أي: خاصمت عن نفسها وسألت الله أو قاتلها. إنما قيل: قتلت بناءً على أن الكلام إخبار عنها، ولو حكى ما خطبت به حين سئلت. فقيل: قتلت. أو كلامها حين سئلت لقيل: قتلت. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: قتلت على الحكاية. وقرئ: قتلت بالتشديد، وفيه دليل بَيِّن على أن الأطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالنذب، وإذا بَكَتِ الكافر ببراءة المؤودة من الذنب فما أقبح به وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يَكْرَ عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل الميكت من العذاب الشديد السرمذ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية.

وَإِذَا أَلْمَسْتُ ثِيْرَتَ (6).

«نشرت» قرئ: بالتخفيف والتشديد، يريد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب. عن قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ثم تنشر يوم القيامة، فلينظر رجل ما يملئ في صحيفته، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وعن النبي ﷺ أنه قال: «يحشر الناس عراة حفاة». فقالت أم سلمة: كيف بالنساء؟ فقال: «شغل الناس يا أم سلمة». قالت: وما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل» (5). ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها. أي: فرقت بينهم. وعن مرثد بن وداعة: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع

«سيرت» أي: على وجه الأرض وأبعثت، أو سيرت في الجو تسيير السحاب. كقوله: ﴿وَهِيَ تَمْزُجُ السَّحَابَ﴾ (1) والعشار في جمع عشاء كالنفاس في جمع نفساء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر. ثم هو اسمها إلى أن تضع لتتمام السنة وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم.

وَإِذَا أَلْمَسْتُ عَطَلَتَ (2).

«عطلت» تركت مسيبة مهمة، وقيل: عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم. وقرئ: عطلت بالتخفيف.

وَإِذَا أَلْوَشْتُ حِشْرَتَ (3).

«حشرت» جمعت من كل ناحية. قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، وقيل: إذا قضى بينها رُئِتْ تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها: موتها. يقال: إذا أجمعت السنة بالناس وأموالهم، حشرتهم السنة. وقرئ: حشرت بالتشديد.

وَإِذَا أَلِمَّارُ سُجِّرَتْ (4).

«سجرت» قرئ: بالتخفيف والتشديد، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا. وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار. وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة.

وَإِذَا أَلْتَوُسُ رُؤِجَتْ (5).

«رُؤِجَتْ» قرنت كل نفس بشكلها، وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد، وقيل: بكتبها وأعمالها. وعن الحسن: هو كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (2) وقيل: نفوس المؤمنين بالحدود، ونفوس الكافرين بالشياطين.

وَإِذَا أَلْمَوْدَةُ سُيِّلَتْ (6).

وإذ يئد مقلوب من آد يؤد، إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْخُذُهُمْ فِيهَا﴾ (3) لأنه إنقال بالتراب، كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها البسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحماثها. وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض. وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفر حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن

(5) أخرجه الثعلبي وأصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (8)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات الجنة ونعيمها 56.

(1) سورة النمل، الآية: 88.
(2) سورة الواقعة، الآية: 7.
(3) سورة البقرة، الآية: 255.
(4) سورة الإسراء، الآية: 31.

أن يتزبد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن قارئاً قرأها عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال: وانقطاع ظهر ياء.

لَا أَمِمْ لَأَمِمْ (١٥).

﴿الخنس﴾ الرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذا كر راجعاً إلى أوله.

لَبَّارِ الْكَثَرِ (١٦).

﴿الجواري﴾ السيارة. و﴿الخنس﴾ الغيب من كنس الوحشي إذا دخل كناسه، قيل: هي الدراري الخمسة بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل. أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها.

وَاللَّيْلِ إِذَا عَمَسَ (١٧) وَالْفُجَيْ إِذَا نَفَسَ (١٨).

عسس الليل وسعس إذا أبرد. قال العجاج:

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليها وعسسا

وقيل: عسس إذا أقبل ظلامه.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠).

فإن قلنت: ما معنى تنفس الصحيح؟ قلنت: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح. ﴿إنه﴾ الضمير للقرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ هو جبريل صلوات الله عليه. ﴿ذو قوة﴾ كقوله تعالى: ﴿شديد القوى نو مرة﴾^(١) لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن. قال: ﴿عند ذي العرش﴾^(٢) ليدل على عظم منزلته ومكانته. ﴿ثم﴾ إشارة

صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم. أي مكتوب فيها ذلك. وهي صحف غير صحف الأعمال.

وَإِذَا أَنشَأَ كِبَلَتْ (١١).

﴿كشطت﴾ كشفت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء. وقرأ ابن مسعود: كشطت، واعتقاب الكاف والقاف كثير. يقال: لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور.

وَإِذَا الْجَبَمُ سُوتَتْ (١٢).

﴿سعرت﴾ أوقدت إيقاداً شديداً، وقرئ: سعرت بالتشديد للمبالغة، قيل: سعرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم.

وَإِذَا لَمَسَّتْ تُرَابًا (١٣).

﴿أزلفت﴾ أنذيت من المتقين. كقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾^(١) قيل: هذه اثنتا عشرة خصلة ست منها في الدنيا وست في الآخرة. وعلمت هو عامل النصب في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤).

فإن قلنت: كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾^(٢) لا نفس واحدة، فما معنى قوله: ﴿علمت نفس﴾؟ قلنت: هو من عكس كلامهم الذي يقصون به الإفراط فيما يعكس عنه. ومنه قوله عز وجل: ﴿يما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾^(٣) ومعناه معنى كم وأبلغ منه وقول القائل: قد أترك القرن مصفراً أئامه

وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندي، أو لا تعدم عندي فارساً، وعنده المقانب، وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه أراد إظهار براءته من التزبد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً

(1) سورة الشعراء، الآية: 90.

(2) سورة آل عمران، الآية: 30.

(3) سورة الحجر، الآية: 2.

(4) سورة النجم، الآيتان: 5 - 6.

(5) قال أحمد: ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوي على التخصيص في حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تمهيد أصول مذهبه الفاسد، فأخطأ على الأصل والفرع جميعاً، ونحن نبين ذلك بحول الله وقوته فنقول أولاً: اختلف أهل التفسير فذهب منهم الجهم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر النعوت: محمد ﷺ، فإن يكن كذلك والله أعلم، فلذلك فضل الله المعتاد على نبيه، وإن كان المراد جبريل عليه السلام، فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسول، والمشهور عن أبي الحسن تفضيل الرسول، ومذهب المعتزلة تفضيل الملائكة، إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلتين الجليلتين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسول؛ لأن =

= التفضيل وإن كان ثابتاً إلا أن في التعيين إيذاء للمفضل، وعليه حمل الحذاق قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، أي: لا تعينوا مفضلاً على التخصيص؛ لأن التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين، أي: تفضيل النبي ﷺ على النبيين أجمعين، وكان جدي رحمه الله يوضح ذلك بمثال فيقول: لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء: فلان أفضل أهل عصره، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل، وإن لزم اندراجهم في المفضولين، ولو عنيت واحداً منهم وقلت: فلان أفضل منك وأتقى لله، لأسرع به الأذى إلى بغضك، وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص، علمت أن الزمخشري أخطأ على أصله؛ لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد لا يجوز أن يقال عن أحد من الملائكة على التخصيص أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص، لا سيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل، وبعد أن نكله في تعيينه النبي ﷺ مفضلاً إلى الله، فنقول: لم يذكر فيها نعت إلا وللنبي ﷺ مثله =

الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثانيا العليا وهي أحد الأحرف الذوقية أخت الذال والثاء، ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الحكمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب.

فإن قُلْتُ: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه! قُلْتُ: هو كواضع الذال مكان الجيم والثاء مكان الشين لأن التفاوت بين الضاد والطاء كالتفاوت بين أخواتها.

وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَكَنِي رَجِيمٌ (١٥).

«وما هو» وما القرآن «بقول شيطان رجيم» أي: بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

فَإِنَّ تَذَهُبُونَ (١٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٧).

«فإن تذهبون» استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق أين تذهب مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

لِمَنْ شَاءَ يَسْكُنْ أَنْ يَسْتَعِيمَ (١٨).

«لمن شاء منكم» بدل من للعالمين وإنما أبطلوا منهم لأن النزين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكانه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موغظين جميعاً.

وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٩).

«وما تشاؤون» الاستقامة يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه، أو وما تشاؤون أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاده الله أن يفرضه حين تنشر صحيفته» (٢).

إلى الظرف المنكور، أعني عند ذي العرش على أنه عند الله مطاع في ملائحته المقربين يصدرين عن أمره ويرجعون إلى رايه.

مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ (٢٠).

وقرى: «ثم» تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعودة.

وَمَا سَاجِدٌ بِمَنْزُونٍ (٢١) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ آلَيْنِ (٢٢).

«وما ساجدكم» يعني: محمداً ﷺ «بمجنون» كما تبهته الكفرة. وناهيك بهذا ليلياً على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة، ومباينة لمنزلة أفضل الإنس محمد ﷺ إذا وازنت بين النكرين حين قرن بينهما وقايست بين قوله: «إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين» (١) وبين قوله: «وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه» ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل.

«بالأفق للمبين» بمطلع الشمس الأعلى.

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِعَلِيمٍ (٢٣).

«وما هو» وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك «بظننين» بمتهم، من الظنة وهي التهمة. وقرى: بضنين من الضن وهو البخل، أي: لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه. وهو في مصحف عبد الله بالطاء، وفي مصحف أبي بالضاد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، وإتقان الفصل بين الضاد والطاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضبط يعمل بكلماته وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الأحرف الشجرية أخت

تعطه واشفع تشفع، وأما أمين فقد قال وهو الصادق المصدوق: والله إنني لأمين في الأرض أمين في السماء، وحسبك قوله: «وما هو على الغيب بضنين» إن قراته بالطاء فمعناه: أنه ﷺ أمين على الغيب غير متهم، وإن قراته بالضاد رجع إلى الكرم، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضل سواء، وما لي مباحة في أصل المسألة، ولكن الرد عليه في خطئه على كل قول بتعين، وإلا فالمسألة في غير هذا الكتاب، فنسأل الله أن يثبتنا على الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يعمر قلوبنا بحبهم، وأن يجعل توسلنا إليهم بهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) سورة التكوين، الآية: ١٩.

(٢) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي / 164.

= أولها رسول كريم، فقد قال في حقه ﷺ في آخر سورة الحاقة: «إنه لقول رسول كريم» وقد قيل أيضاً: أن المراد جبريل إلا أنه ياباه، قوله: «وما هو بقول شاعر» وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم، فهذا أول النعوت وأعظمها، وأما قوله: «ذي قوة» فليس محل الخلاف، إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية، ومن يقتلع المداخن بريشة من جناحه لا مرأ في فضل قوته على قوة البشر، وقد قيل هذا في تفسير قوله: «هو مرة فاستوى» وقوله: «عند ذي العرش مكين، مطاع» ثم فقد ثبت طاعة الملائكة أيضاً لنبينا ﷺ، وورد أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله يقرئك السلام، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عندما أذنك قريش فسلم عليه الملك وقال: إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين ففعلت، ففسر النبي ﷺ واختسب، وأعظم من ذلك وأشرف مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى، يوم لا يتقدمه أحد إذ يقول الله تعالى له: ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الانفطار مكية

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ﴿٢﴾.

﴿انفطرت﴾ انشقت.

وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾.

﴿فجرت﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العنب بالمالح وزال البرزخ الذي بينهما وصارت البحار بحراً واحداً. وروي أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية. وهو معنى التسجير عند الحسن. وقرئ: فجرت بالتخفيف. وقرأ مجاهد: فجرت على البناء للفاعل والتخفيف بمعنى بغت لزوال البرزخ. نظراً إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾^(١) لَأَنَّ الْبَغْيَ وَالْفَجْورَ أَخَوَانِ.

وَإِذَا الْغُيُورُ بُيِّرَتْ ﴿٤﴾ عِلَيْتَ نَفْسٍ تَا فَدَمَتْ وَأَلْزَمَتْ ﴿٥﴾.

بعثر ويحتر بمعنى وهما مركبان من البعث والبعث مع راء مضمومة إليهما. والمعنى: يحتر وأخرج موتاهما. وقيل: لبراءة المبعثرة لأنها بعثت أسرار المنافقين.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾.

^(٢) فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿ما غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاعتزاز به وإنما يغتر بالكرم كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كُرَات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب فقال له: ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه^(٣). وقالوا: من كرم الرجل سوء أئب غلماناً! قُلْتُ: معناه: أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكريم الله عليه حيث خلقه حياً لينفعه، ويتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب اغتراراً بالتفضل الأول، فإنه منكر خارج من حد الحكمة ولهذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها: غَرَّبَ جَهْلُهُ^(٤). وقال عمر رضي الله عنه: غَرَّبَ حَمَقَهُ وَجَهْلَهُ. وقال الحسن: غَرَّبَهُ وَالله شيطانه الخبيث. أي: زين له المعاصي وقال له: افعل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولاً وهو متفضل عليك آخراً حتى ورطه. وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ماذا

تقول؟ قال: أقول غَرَّبَتْنِي ستورك المرخاة. وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاعتزاز بالستر، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية. ويروون عن أمتهم إنما قال: بربك الكريم، لئن سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غَرَّبَتْنِي كرم الكريم. وقرأ سعيد بن جبير: ما أغرَّكَ، إما على التعجب وإما على الاستفهام. من قولك: غَرَّ الرجل فهو غار إذا غفل. من قولك: بيتهم العنق وهم غارون، وأغرَّه غيره جعله غاراً.

أَلَيْسَ خَلْقَكَ سَوْنَكَ فَعَدْلَكَ ﴿٧﴾.

﴿فسوئك﴾ فعملك سوياً سالم الأعضاء. ﴿فعدلك﴾ فصيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر. أو جعلك معتدل الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم. وقرئ: فعدلك بالتخفيف وفيه وجهان: أحدهما أن يكون بمعنى المشدّد أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت، والثاني فعدلك فصرفك. يقال: عدله عن الطريق. يعني: فعدلك عن خلقه غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات.

فِي أَيِّ شَرٍّ مَّا شَأْنُ رَبِّكَ رَبِّكَ ﴿٨﴾.

ما في ﴿ما شاء﴾ مزيدة، أي: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه.

فإن قُلْتُ: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قُلْتُ: لأنها بيان لعدلك.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق الجار؟ قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بربك على معنى: وضعت في بعض الصور ومكنت فيه، وبمحذوف أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك ويكون في أي معنى التعجب، أي: فعدلك في صورة عجيبة، ثم قال: ما شاء ركبك. أي: ركبك ما شاء من التركيب. يعني: تركيباً حسناً.

لَا يَلْ تَكْذِبُونَ وَالَّذِينَ ﴿٩﴾.

﴿كلاً﴾ ارتدعوا عن الاعتزاز بكرم الله والتسلق به وهو موجب الشكر والطاعة إلى عكسهما الذي هو الكفر

= ورود السمع بإثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتعين المصير إليه، لكن ما نكرناه في الجواز والاحتمال، فإن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(3) لم يخرج الزيلعي.

(4) نكره الثعلبي، ورواه الواحدي في تفسيرهما، وأبو عبيدة في كتاب: فضائل القرآن، زيلعي 167/4.

(1) سورة الرحمن، الآية: 20.

(2) قال أحمد: حجة الزمخشري مهنا فارغة، فإن الآية إنما وردت في الكفار، لبليلى قوله: ﴿كلاً بل تكذبون بالدين﴾ ونحن نوافق على خلودهم وانقطاع معانيهم، لا على أن تخليدهم واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، فإن الله لا يجب عليه شيء ويجوز عقلاً أن يثيب الكافر ويخلده في الجنة، وبالعكس في المؤمن، ولولا =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المطففين مكية

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ (١)

التطفييف: البخس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس شيء طفيف حقير. وروي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وكانوا من أخبت الناس كيلاً فنزلت. فأحسنوا الكيل (٣). وقيل: قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر (٤). وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابرة والملاسة والمخاطرة فنزلت. فخرج رسول الله ﷺ فقراها عليهم (٥) وقال: خمس بخمس. قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس. قال: ما نقض قوم العهد إلا سلب الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر (٦). وعن علي رضي الله عنه أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح. فقال له: أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت، كأنه أمره بالتسوية أولاً ليعتادها ويفصل الواجب من النقل، وعن ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال، والميزان. وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعاً وكانا مفرقين في الحرمين. كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون، وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له: اتق الله وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمان حتى إن العرق ليلجمهم. وعن عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار. فقيل له: إن ابنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. وعن أبي رضي الله عنه: لا تلتبس الحواشي ممن رزقه في رؤوس المكاييل والسن الموازين.

الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٧)

لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم (٧) ويتحامل فيه عليهم أبلد على مكان من للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لإفادة

والمعصية. ثم قال: ﴿بَلِّغْ تَكْنِبُونَ بِاللَّيْنِ﴾ أصلاً وهو الجزاء، أو دين الإسلام فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً وهو شر من الطمع المنكر.

وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحُفُوظِينَ (٨)

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ تحقيق لما يكنبون به من الجزاء، يعني: أنكم تكنبون بالجزاء.

كِرَامًا كَثِيرِينَ (٩) يَتْلُونَ مَا يُعْمَلُونَ (١٠) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْمٍ (١١) وَلَوْلَا أَفْجَارٌ لَّيْ جَحِيمٍ (١٢) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٣)

والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها وفي تعظيم الكتب بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتب، وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين. وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

وَمَا تُمْ عَنَّا بِمَلَكَيْنِ (١٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٥) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٦)

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ (١) ويجوز أن يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك. يعني: في قبورهم. وقيل: أخبر الله في هذه الصورة أن لابن آدم ثلاث حالات: حال الحياة التي يحفظ فيها عمله، وحال الآخرة التي يجازى فيها، وحال البرزخ. وهو قوله: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ يعني: أن أمر يوم الدين بحيث لا تترك دراية دار كنهه في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه، والتكرير لزيادة التهويل ثم لجمال القول في وصفه فقال:

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٧)

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعا لها بوجه ولا أمر إلا الله وحده، من رفع فعلى البذل من يوم الدين أو على هو يوم لا تملك، ومن نصب قبضاً ضمراً يدانون لأن الدين يدل عليه أو بإضمار أنكر ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا السماء انقطرت كتب الله له بعد كل قطرة من السماء حسنة» وبعد كل قبر حسنة (٢).

(٧) قال أحمد: لا منافرة فيه، ولا يجعل هذا القائل الضمير دالاً على مباشرة ولا إشعاراً أيضاً فيه بذلك، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه، إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه، سواء بأشروه أو لا، وهذا انظم كلاماً وحسنه، والله أعلم. والذي يدلك على أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل أن لك أن تقول: الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوق، لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم، وإنما معناه: أن فعل ذلك من جهتهم خاصة.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

(٢) ذكره الثعلبي، وابن مروي، ورواه الواحدي في تفسيرهم، زيلعي 168/4.

(٣) أخرجه ابن حبان في كتاب: البيوع (الحديث رقم: 4919)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 33/2.

(٤) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 25.

(٥) قال الزيلعي غريب 172/4.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک 126/2.

المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل. وقيل: الظن بمعنى اليقين والوجه ما ذكر.

وَمَا آذَنَكَ مَا يَحْيَىٰ ﴿٨﴾ كَذَّبَ مَرْثُومٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾

ونصب ﴿يوم يقوم﴾ بمبعوثون. وقرئ: بالجر بدلاً من يوم عظيم. وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. بكى نحيباً وامتنع من قراءة بعده.

كَلَّا إِنَّ كَذَّبَ الْفَجَّارَ لَنِي سَجِينٌ ﴿٧﴾

﴿كلا﴾ ردهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن نكر البعث والحساب ونبيههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه، ثم اتبعه وعيد الفجار على العموم. وكتاب الفجار ما يكتب من أعمالهم.

وَمَا آذَنَكَ مَا يَحْيَىٰ ﴿٨﴾ كَذَّبَ مَرْثُومٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾

فإن قلنا: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه من سجين ودون سجيناً بكتاب مرقوم. فكانه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟ قلنا: سجين كتاب جامع هو ديوان الشر ودون الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه. فالمعنى: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمى سجيناً فعلاً من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس ونزيتة استهانة به وإزالة وليشهده الشياطين المنحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون.

فإن قلنا: فما سجين أصفة هو أم اسم؟ قلنا: بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف.

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَمِينِهِمْ ﴿١١﴾ وَمَا يَكُودُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُتَعَثٍّ أَمِيرٍ ﴿١٢﴾

﴿لذين يكفون﴾ بما يمينهم، وما وصف به للذم لا للبيان كقولك: عاد كلامه.

إِنَّا نَقُلُّ عَلَىٰ يَدَيْهِمَا قَالٌ أَتُؤَمَّرُونَ ﴿١٣﴾

﴿قال﴾ والتعلق في إبطال هذا بخط المصحف لعدم الألف بعد الواو ركيك إلخ... فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث.

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿كلا﴾ رذع للمعتدي الأثيم عن قوله: ﴿ران على

الخصوصية. أي: يستوفون على الناس خاصة، فاما أنفسهم فيستوفون لها. وقال القراء: من وعلى يعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه. فإذا قال: اكثلت عليك. فكانه قال: أخذت ما عليك، وإذا قال: اكثلت منك فكوله: استوفيت منك.

وَإِذَا كَانُوا عَلَىٰ أَوْسَافٍ ﴿١٥﴾ وَتَوَلَّوْهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾

والضمير في ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾ ضمير منصوب راجع إلى الناس وفيه وجهان: أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال:

ولقد جنيتك كمأوأعساقلاً ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

والحريص يصيبك لا الجواد، بمعنى: جنيت لك ويصيد لك. وإن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف هو المكيل أو الموزون ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد. وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا. وهو كلام متنافر لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر والتعلق في إبطاله بخط المصحف، وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه ركيك، لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط. على أنني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقدمين هذه الألف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى: جميعاً، لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: هم لم يدعوا وهو يدعو فمن لم يثبتها قال: المعنى كاف في التفرقة بينهما. وعن عيسى بن عمر وحزمة أنهما كانا يرتكبان ذلك. أي: يجعلان الضميرين للمطففين ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا.

فإن قلنا: هلا قيل: أو اتزنوا كما قيل: أو وزنوهم! قلنا: كان المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يدععون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً. ﴿يخسرون﴾ ينقصون، يقال خسر الميزان وأخسره.

أَلَا يَنظُرُ أَزَلَّتْكُمْ عَنْهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾

﴿ألا يظن﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجترار على التطفيف كأنهم لا يخطررون ببالهم ولا يخمنون تخميناً ﴿أنهم مبعوثون﴾ ومحاسبون على مقدار الذرة والخرلة. وعن قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، وأعدل كما تحب أن يوفى لك، وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين. أراد بذلك أن

من النعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك.

تَرَوْنِي فِي رُؤُوسِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٦).

﴿نضرة النعيم﴾ بجهة التمتع وماءه ورونقه، كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه. وقرئ: تعرف على البناء للمفعول، ونضرة النعيم بالرفع. الرقيق الشراب الخالص الذي لا غش فيه.

يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَةٍ مَخْشُورٍ (٧).

﴿مخشوم﴾ تختم أوانيهِ من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة.

خِشْمُهُ بِسَكٍّ وَفِي ذَلِكَ قَلِيلٌ مِّنَ النَّعْتِاقِ (٨).

وقيل: ﴿خشمه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك إذا شرب. وقيل: يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك. وقرئ: خاتمه بفتح التاء وكسرهما، أي: ما يختم به ويقطع. ﴿قليتناقس﴾ للمتناقسون، فليرتقب المرتقبون.

وَرَبَابُهُ مِنْ تَنِيمٍ (٩).

﴿تسنيم﴾ علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إمّا لأنها أرفع شراب في الجنة، وإمّا لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء متسمة فتتصب في أوانيهم.

فِيهَا أَلْمُرُورُ (١٠).

و﴿عيناً﴾ نصب على المدح، وقال الزجاج: نصب على الحال. وقيل: هي للمقربين يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة.

إِنَّ أَلْوَيْكَ أَتَمَرُوا كَأَوْا مِنْ أَلْوَيْنَ مَأْمُورًا يَسْمَكُونَ (١١).

هم مشركو مكة: أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهنئون بهم. وقيل: جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلح، فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل علي إلى رسول الله ﷺ.

وَإِذَا مَرَأٌ يَوْمَ يُنْفَخُونَ (١٢).

﴿يتغامزون﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم. وَإِذَا أَتَقَبَّرُوا إِلَى أَهْلِهِمْ أَتَقَبَّرُوا فَكَيْهِنَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ

قلوبهم﴾ ركبها كما يركب الصداً وغلب عليها، وهو أن يصير على الكبائر ويسوق التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب، يقال: ران عليه الذنب وغان عليه رنياً وغيثاً والغين الغيم. ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه، ورائنت به الخمر ذهبت به، وقرئ: بإدغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجدو وأملت الألف وفخمت.

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ (١٤) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْكَيْبِ (١٥) ثُمَّ بُالَ هَذَا أَلْوَى كُتْمٌ يَدُ تَكْوِينٍ (١٦).

﴿كلا﴾ ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم. وكونهم محجوبين عنه تمثيل^(١) للاستخفاف بهم وإمانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنى المهانون عندهم. قال:

إذا اعتروا باب ذي عبية رجبوا

والناس من بين مرجوب ومحجوب. وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة: محجوبين عن رحمته. وعن ابن كيسان: عن كرامته.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِثْرٍ (١٧).

﴿كلا﴾ ردع عن التكنيب. و﴿كتاب الأبرار﴾ ما كتب من أعمالهم.

وَمَا أَتَيْنَاكَ مَا عَلَوْنَ (١٨) كِتَابٌ تَرْوُهُ (١٩).

و﴿عليون﴾ علم لديوان الخير الذي يؤن فيه كل ما علمته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع علي فعيل من العلو كسجين من السجن، سمي بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة.

يَسْهَرُ الْمُرُورُ (٢٠) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢١).

حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً. وروي أن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم، أنكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين فقد غفرت له. وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين^(٢).

عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ (٢٢).

﴿الأركان﴾ الأسرة في الحجال. ﴿ينظرون﴾ إلى ما شاؤوا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله

= الحق وما بعد الحق إلا الضلال، وما أرى من جحد الرؤية المبلول عليها بقواطع الكتاب والسنة يخطئ بها، والله المسؤول في العصمة.

(1) قال أحمد: هذا عند أهل السنة على ظاهره من أئمة الرؤية، فإن الله تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك بالعين، وإلا فالحجاب على الله تعالى بغير هذا التفسير محال، هذا هو =

(2) قال الزيلعي، رواه ابن المبارك في كتاب: الزهد والرقائق 4/173.

مُؤَلَّاةً لَّصَّالُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿فكهيّن﴾ ملتذنين بنكرهم والسخرية منهم، أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال.

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٧﴾ قَالِيَمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿وما أرسلوا﴾ على المسلمين ﴿حافظين﴾ موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدكم وضلالهم وهذا تهكم بهم أو هو من جملة قول الكفار: وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إن هؤلاء لضالون، وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك.

عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿على الأراك ينظرون﴾ حال من يضحكون أي: يضحكون أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفة وهم على الأراك آمنون. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: أخرجوا إليها، فإذا وصلوا إليها أغلق بونهم يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم.

هَلْ يُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَمْكُونُ ﴿٤٠﴾.

ثوبه واثابه بمعنى إذا جازاه. قال أوس: ساجزيك أو يجزيك عني مؤوب وحسبك أن يثني عليك وتحمدي وقرئ: بإدغام اللام في الناء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّازِ الرَّحِيمِ

سورة انشقت مكة

إِذَا انشَقَّتْ انشَقَّتْ ﴿١﴾.

حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويز والانفطار، وقيل: جوابها ما دل عليه فملاقيه أي: إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كبحه، ومعناه: إذا انشقت بالغمام. كقوله تعالى: ﴿ويوم

تنشق السماء﴾^(٢) بالغمام، وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ رِجًا رَحَّةً ﴿٢﴾.

أذن له، استمع له^(٣)، ومنه قوله عليه السلام: ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن^(٤). وقول جحاف بن حكيم: أننت لكم لما سمعت هريركم. والمعنى: أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطويع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم ياب ولم يمتنع. كقوله: ﴿أتينا طائعين﴾^(٥) ﴿ووحقت﴾ من قولك: هو محقوق بكذا وحقيق به، يعني: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه: الإيذان بأن القادر بالذات يجب أن يتأتى له كل مقبور ويحق ذلك.

وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ مَدَّتْ ﴿٣﴾.

﴿مدت﴾ من مد الشيء فامتد، وهو أن تذال جبالها وأكامها وكل امت فيها حتى تمتد وتنسبط ويستوي ظهرها. كما قال تعالى: قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مدت مد الأديم العكاظي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه وامت واستوى، أو من مد بمعنى: أمده، أي: زينت سعة وبسطة.

وَأَنزَلْنَا مَاءً يَبًّا وَطَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَنزَلْنَا رِجًّا وَطَلَّتْ ﴿٥﴾.

﴿وانزلت ما فيها﴾ ورمت بما في جوفها مما نفن فيها من الموتى والكنوز. ﴿وطلّت﴾ وخلت غاية، والخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرم الكريم وترحم الرحيم إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما في طبيعتهما. ﴿وانت لربها﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها.

يَنَازِلُهَا السَّيْءُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَيْ رَيْكَ كَدًّا فَلْيَصْغِرْ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَرَوْفَ كَيْبًا بِسَبِّهِ ﴿٧﴾.

الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده إذا خدشه. ومعنى: ﴿كادح إلى ريك﴾ جاهد إلى لقاء ريك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء. ﴿فملاقيه﴾ فملاقى له لا محالة لا مفر لك منه. وقيل: الضمير في ملاقيه للكدح.

فَرَوَّحَ بِحَاسِبٍ حِسَابًا يَبِيرًا ﴿٨﴾.

﴿يسيرا﴾ سهلاً هيناً لا يناقش فيه ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه، كما يناقش أصحاب الشمال. وعن عائشة رضي الله عنها: هو أن يعرف نوبه ثم يتجاوز عنه.

= يسمع له ويطاع، فيثبت له صفة الكمال، ويوحده حق توحيده، وهو خير من سلب صفة الكمال عن الله تعالى، وإشراك مخلوقاته به جل ربنا وعز.

(١) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 174.

(٢) سورة الفرقان، الآية: 25.

(٣) قال أحمد: ننص تفسير الآية بقوله: القادر بالذات وما باله لا يقول: القادر الذي عمت قبرته الكائنات، حتى لا كون إلا بقبرته حقيق أن =

(٤) تقدم في سورة إبراهيم.

(٥) سورة فصلت، الآية: 11.

الشمس، ويسقطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه في إحدى الروايتين أنه البياض، وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه سمي لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان رقة القلب عليه.

وَأَلَّيْ وَمَا وَسَقَ ﴿٧٠﴾

﴿وما وسق﴾ وما جمع وضم. يقال: وسقه فاتسق واستوسق. قال: مستوسقات لو وجدن سائقا ونظيره في وقوع افتتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه وستره وأوى إليه من الدواب وغيرها.

وَأَقَمَرٍ إِذَا أَتَقَ ﴿٧١﴾

﴿إذا اتسق﴾ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة.

لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿٧٢﴾ فَمَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾

قري: لتركن على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان، ولتركن بالضم على خطاب الجنس لأن النداء للجنس، ولتركن بالكسر على خطاب النفس، وليركن بالياء على ليركن الإنسان. والطبق ما طبق غيره. يقال: ما هذا طبق لكذا. أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق. وإطباق الثرى ما تطابق منه. ثم قيل للحال المطابقة لغيرها: طبق، ومنه قوله عز وجل: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: حالاً بعد حال كل واحدة مطابقة لاختها في الشدة والوهل، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة. من قولهم: هو على طبقات، ومنه طبق الظهر لفقاره الواحدة طبقة على معنى لتركن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها.

فَإِن قُلْتُمْ: ما محل عن طبق؟ قُلْتُمْ: النصب على أنه صفة لطبقاً، أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو حال من الضمير في لتركن، أي: لتركن طبقاً مجاوزين لطبق، أو مجاوزة على حسب القراءة. وعن مكحول: كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٧٤﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٥﴾

﴿لا يسجدون﴾ لا يستكينون ولا يخضعون، وقيل: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم: واسجد، واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر فنزلت ﴿٧٤﴾ وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على وجوب السجدة، وعن ابن عباس: ليس في المفصل سجدة. وعن

وعن النبي ﷺ أنه قال: «من يحاسب يعذب». فقيل ﴿٧٤﴾: يا رسول الله فسوف يحاسب حساباً يسيراً. قال: «نلكم العرض من نوقش في الحساب عذب». وَتَنَزَّلُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٧٦﴾

﴿إلى أهله﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين أو إلى فريق المؤمنين أو إلى أهله في الجنة من الحور العين. وَأَمَّا مَنْ أَوَّلَ كَيْتَمَ وَرَأَهُ ظَهْرَهُ ﴿٧٧﴾

﴿وراء ظهره﴾ قيل: تغل يمتد إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقيل: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره. مَرَّو يَدْعُوا بُرًّا ﴿٧٨﴾

﴿يدعو ثبوراً﴾ يقول: يا ثوراه والثبور الهلاك.

وَيَسْلَى سَيْرًا ﴿٧٩﴾ لَمَّا كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٨٠﴾

وقرئ: ﴿ويصلى سعيراً﴾ كقوله ﴿وتصلية جحيم﴾ (2) ويصلى بضم الياء والتخفيف. كقوله: ﴿ونصله جهنم﴾ (3) ﴿في أهله﴾ فيما بين ظهرانيهم أو معهم على أنهم كانوا جميعاً مسرورين، يعني: أنه كان في الدنيا مترفاً بطراً مستبشراً كعادة الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب، ولم يكن كئيلاً حزيناً متفكراً كعادة الصالحاء والمتقين وحكاية الله عنهم إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. لَمَّا ظَنَّ أَنَّ كَرَّ يَحُورَ ﴿٨١﴾

﴿ظن أن لن يحور﴾ لن يرجع إلى الله تعالى تكنيهاً بالمعاد. يقال: لا يحور ولا يحول. أي لا يرجع ولا يتغير، قال لبيد: يحور رماً بعد إذ هو ساطع. وعن ابن عباس: ما كنت أدرى ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها: حوري. أي: ارجعي.

يَكُ إِذْ رَمَىٰ كَانَ يَدُهُ بَحِيرًا ﴿٨٢﴾

﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي في لن يحور أي: بلى ليحورن. ﴿إِنْ ربه كان به بصيراً﴾ وباعماله لا ينساها ولا تخفى عليه فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها. وقيل: نزلت الآيات في أبي سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد.

فَلَا أَقْسِمُ بِأَلْسِنَتِي ﴿٨٣﴾

الشفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط

(2) سورة الواقعة، الآية: 94.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) لم يخرج الزليعي.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فراجع حتى

يعرفه (الحديث رقم: 103) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة، باب:

إثبات الحساب (الحديث رقم: 2876 - 2877).

محمد وسائر الأمم. وقيل: يوم التروية ويوم عرفة. وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة. وقيل: الحجر الأسود والحجيج. وقيل: الأيام والليالي وبنو آدم. وعن الحسن: ما من يوم إلا وينادي إني يوم جديد وإني على ما يعمل في شهيد، فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تتركني إلى يوم القيامة. وقيل: الحفظة وبنو آدم. وقيل: الأنبياء ومحمد عليه السلام.

تِلْ أَمَحَبُ الْأَخْدَرِ ①.

فإن قلت: أين جواب القسم؟ قلت: محذوف يدل عليه قوله: «قتل أصحاب الأخدود». كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونين. يعني: كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحروقين بالنار ملعونين إلقاءً بأن يقال فيهم: قتل قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود. وقتل دعاء عليهم، كقوله: «قتل الإنسان ما كفره»⁽²⁾ وقرئ: «قتل» بالتشديد، والأخدود: الحُذ في الأرض وهو الشق ونحوها بناء ومعنى الحق والأخقوق ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جردان. روي عن النبي ﷺ أنه قال: كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس فاخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتله، فقتلها، فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكهم والابرس ويشفي من الأدواء. وعمي جليس للملك فابراه فابصره الملك فسأله فقال: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن بينه، فقد بالمنشار وأبى الغلام. فذهب به إلى جبل ليطرح من نروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به ليغرقوه، فدعا فانكفات بهم السفينة فغرقوا ونجا. فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جرز، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: أمانة برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فامر بأخايد في أقواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاغت أن تقع فيها فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق

أبي هريرة رضي الله عنه أنه سجد فيها. وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها⁽³⁾. وعن أنس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إلى المنكوريين.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ②.

﴿بما يوعون﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغى والبغضاء.

فَيَرْتَهُمْ يَمْكُرُ بِآيِهِ ③.

أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من العذاب.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ④.

﴿إلا الذين آمنوا﴾ استثناء منقطع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة انشقت أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البروج مكية

وَالشَّمْسُ تَارِي الْبُرُوجِ ①.

هي البروج الاثنا عشر وهي قصور السماء على التشبيه، وقيل: البروج النجوم التي هي منازل القمر، وقيل: عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها، وقيل: أبواب السماء.

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ②.

﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة.

وَنَارٍ وَنُجُومٍ ③.

﴿وشاهد ومشهور﴾ يعني: وشاهد في تلك اليوم ومشهود فيه. والمراد بالشاهد من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من عجائب وطريق تنكيرهما: إما ما نكرته في قوله علمت نفس ما أحضرت، كأنه قيل: وما أقرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما الإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما فقيل: الشاهد والمشهود محمد ﷺ ويوم القيامة، وقيل: عيسى وأمه. لقوله: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. وقيل: أمة

(2) نكره التعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي 4/

178.

(3) سورة عبس، الآية: 17.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجدة إذا السماء انشقت (الحديث رقم: 1074)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (الحديث رقم: 1018).

الرقيات:

ما نقصوا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وقرأ أبو حوية: نقموا بالكسر والفصيح: هو الفتح،
ونكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو
كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه، حميداً منعماً يجب له
الحمد على نعمته ويرجى ثوابه.

الَّذِي لَمْ يَمَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿له ملك السموات والأرض﴾، فكل من فيها تحقق
عليه عبادته والخشوع له تقديرًا لأن ما نقصوا منهم هو
الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي وإن الناقمين
أهل للانتقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب. ﴿والله على
كل شيء شهيد﴾ وعيد لهم. يعني: أنه علم ما فعلوا أو
هو مجازيهم عليه.

إِنَّ الَّذِينَ نَسُوا الذِّكْرَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا دَعَابَ جَهَنَّمَ لَكُمْ
عَذَابٌ لَّعِيبٌ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَكُمُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الثَّوَرُ الْكَبِيرُ ﴿٨﴾

يجوز أن يريد بالذين نسينا أصحاب الأخدود خاصة،
وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود، ومعنى: فتنوهم،
عذبهم بالنار وأحرقوهم. ﴿فلهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب
جهنم﴾ بكفرهم ﴿ولهم عذاب للحريق﴾ وهي نار أخرى
عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين، أو لهم
عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا. لما
روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد
الذين فتنوا المؤمنين أي: بلوهم بالأذى على العموم،
والمؤمنين المفتونين وأن لفاتنين عذابين في الآخرة:
لكفرهم ولقتلتهم.

إِنَّ بَلَدَكُمْ لَكَلْبٌ لَّعِيبٌ ﴿٩﴾

البطش الأخذ بالعنف، فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف
وتفاقم وهو بطشه بالجبايرة والظلمة وأخذهم بالعذاب
والانتقام.

إِنَّهُ هُوَ بَيِّنٌ وَبَيِّنٌ ﴿١٠﴾

﴿إنه هو بيِّنٌ ويعيد﴾ أي: يبدئ البطش ويعيده،
يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دل باقتداره
على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، أو أوعد الكفرة بأنه
يعيدهم كما أبداهم لبيطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء
وكتبوا بالإعادة. وقرئ: يبدأ.

فافتحمت^(١). وقيل: قال لها قعي ولا تنافقي. وقيل: قال لها
ما هي إلا غميضة فصبرت. وعن علي رضي الله عنه أنهم
حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا
متمسكين بكتابتهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولوها
بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندب وطلب
المخرج. فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها
الناس إن الله أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك
فتقول إن الله حرمه، فخطب فلم يقبلوا منه، فقالت له:
أبسط فيهم السوط. فلم يقبلوا. فقالت له: أبسط فيهم
السيف. فلم يقبلوا، فأمرته بالأخايد وإيقاد النيران وطرح
من أبي فيها. فهم الذين أرادهم الله بقوله: قتل أصحاب
الأخدود^(٢). وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين
عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم نو نواس
اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية
فأبوا. فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخايد. وقيل:
سبعين ألفاً^(٣). ونكر أن طول الأخدود أربعون نراعاً
وعرضه اثنا عشر نراعاً^(٤). وعن النبي ﷺ أنه كان إذا نكر
أصحاب الأخدود تعودت من جهد البلاء^(٥).

أَلَا تَرَ نَارَ الْوُوقُودِ ﴿١١﴾

﴿النار﴾ بدل اشتغال من الأخدود ﴿نار الووقود﴾
وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من
الحطب الكثير وإبدان الناس. وقرئ: الووقود بالضم.

إِذْ هَرَّ عَلَيْهَا سُودٌ ﴿١٢﴾

﴿إذ﴾ ظرف لقتل أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين
حولها. ومعنى: ﴿عليها﴾ على ما يدنو منها من حافات
الأخدود. كقوله: ويات على النار الندى والمهلح. وكما تقول:
مررت عليه ترصد مستعليًا لمكان يدنو منه.

وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿١٣﴾

ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين أنهم وكلوا بذلك
وجعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً
منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب. ويجوز
أن يراد أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤنون
شهادتهم يوم القيامة يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم
وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيبِ الْغَرِيبِ ﴿١٤﴾

﴿وما نقصوا منهم﴾ وما عابوا منهم وما نكروا إلا
الإيمان، كقوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم، قال ابن

= المعرفة 184/4.

(3) نكره ابن هشام في السيرة 35/1.

(4) نكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 155/4.

(5) رواه ابن أبي شيبة 227/13 في كتاب: الزهد، باب: عن النبي ﷺ في الزهد.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الادعية، (الحديث رقم: 873) وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج، (الحديث رقم: 3340) وأخرجه أحمد في المسند 17/6.

(2) قال الزيلعي: رواه عبد بن حميد في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحد في الوسيط، وأخرجه البيهقي في كتاب: =

في الدنيا عشر حسنات»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطارق مكية

وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ ۖ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ (٢) إِنَّهُمْ أَكْثَرُ (٣)

﴿النجم الثاقب﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه. كما قيل: درى لأنه يدرؤه أي: يدفعه، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالميل، كما يقال: للآتي ليلاً طارق، أو لأنه يطرق الجنى أي: يصكه. والمراد: جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرحم بها.

فإن قلنا: ما يشبه قوله: وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب، إلا ترجمة كلمة بأخرى. فبين لي أي فائدة تحته؟ قلنا: أراد الله عز من قائل أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيماً له لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة، وأنه ينبه على ذلك. فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره وهو الطارق. ثم قال: وما أدراك ما الطارق؟ ثم فسره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ كل هذا إظهار لفخامة شأنه. كما قال: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وأنه لقسم لو تعلمون عظيم»⁽⁴⁾ روي أن أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ فأنحط نجم فامتلا ماثم نوراً فجزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال عليه السلام: «هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله». فعجب أبو طالب فنزلت⁽⁵⁾.

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۚ (٤)

فإن قلنا: ما جواب القسم؟ قلنا:

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ لأن إن لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة بمعنى: إلا أن تكون نافية، وفيمن قرأها مخففة على أن ما صلة تكون مخففة من الثقيلة، وأينهما كانت فهي مما يتلقى به القسم حافظ مهيم عليها رقيب وهو الله عز وجل وكان الله على كل شيء رقيباً وكان الله على كل شيء مقبلاً، وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر. وروي عن النبي ﷺ: وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يكتبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين⁽⁶⁾.

وَمَا الْقَوْمُ الْوَدُودُ ۚ (٥)

وقرئ: يبدأ ﴿الودود﴾ الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

ذُو الْوَرَىٰ لِلْجِدِّ (٦)

وقرئ: ذي العرش صفة لربك، وقرئ: المجيد بالجر صفة للعرش ومجد الله عظمته، ومجد العرش علوه وعظمته.

فَأَلَّا لَمَّا يُرِيدُ (٧) هَلْ أَنتَ حَيْثُ لَمْ تُدِ (٨)

﴿فعال﴾ خبر مبتدأ محذوف. وإنما قيل: فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة⁽¹⁾.

يُرْعَوْنَ وَشُودُ (٩)

﴿فرعون وثمود﴾ بدل من الجنود وأراد بفرعون إياه وآله كما في قوله ﴿من فرعون وملثهم﴾⁽²⁾. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود المرسل وما نزل بهم لتكذيبهم.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٠)

﴿بل الذين كفروا﴾ من قولك: ﴿في تكذيب﴾ أي: تكذيب واستيجاب للعذاب والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه.

وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي السَّحَابِ (١١)

والإحاطة بهم من ورائهم، مثل لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به، ومعنى الإضراب أن أمرهم عجب من أمر أولئك لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم وراوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا وكنبوا أشد من تكذيبهم.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (١٢)

﴿بل هو﴾ أي: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قرآن مجيد﴾ شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه، وقرئ: قرآن مجيد بالإضافة: أي: قرآن رب مجيد. وقرأ يحيى بن يعمر: في لوح: واللوح، الهواء. يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح.

فِي تَوَجِّعٍ مَّخْمُومٍ (١٣)

﴿محفوظ﴾ من وصول الشياطين إليه. وقرئ: محفوظ بالرفع صفة القرآن. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون

(3) نكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/186.

(4) سورة الواقعة، الآيتان: 75 - 76.

(5) رواه الواحدي في أسباب النزول ص 250.

(6) رواه الطبراني في معجمه.

(1) قال أحمد: ما قدر الله حق قدره، هلا قال: إنه لا فاعل إلا هو، وهل المخالف لذلك إلا مشرك، وكما أراد الله تعالى على معتقد القدرية من فعل فلم يفعله، وهب أنا طرحنا النظر في مقتضى مبالغة الصيغة، اليس قد دل بقوله لما يريد على عموم فعله في جميع مراده، فما رده إلى الخصوص إلا تكوص عن النصوص.

(2) سورة يونس، الآية: 83.

لِنَظُرَ الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُخْلَقُ (٥).

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿فليُنظر﴾ بما قبله؟ قلت: وجه اتصاله به أنه لما نكر أن على كل نفس حافظاً اتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من نشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ولا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. و﴿مخلق﴾ استفهام جوابه.

يُخْلَقُ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦).

﴿خلق من ماء دافق﴾. والنفع صب فيه نفع، ومعنى دافق: النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر نفق، كاللابن والتامر، أو الإسناد المجازي والدفق في الحقيقة لصاحبه. ولم يقل مامين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه.

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧).

﴿من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام الصدر حيث تكون القلاية، وقرئ: الصلب بفتحيتين، والصلب بضميتين. وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصلب، قال العجاج: في صلب مثل: العنان المؤتم، وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

إِنَّهُ عَلَّمَ رَجِيمَهُ لَقَائِرَ (٨).

﴿إنه﴾ الضمير للخالق لدلالة خلق عليه. ومعناه: أن ذلك الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفة ﴿على رجمه﴾ على إعادته خصوصاً ﴿للقادر﴾ لبين القدرة لا يلتاث عليه ولا يعجز عنه. كقوله: إني لفقير.

يَوْمَ تَبْلَى التَّرَائِبُ (٩).

﴿يوم تبلى﴾ منصوب برجمه ومن جعل الضمير في رجمه للماء وفسره برجمه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بمضمر. ﴿السرائر﴾ ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفي من الأعمال. وبلاؤها تعرّفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث. وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد:

سبيقي لها في مضر القلب والحشا سريرة ويوم تبلى السرائر فقال: ما أغفله عما في السماء والطارق.

فَأَلَمْ يَنْفَخْ فِي قُوفٍ وَلَا نَافِيرٍ (١٠).

﴿فما له﴾ فما للإنسان ﴿من قوّة﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها، ﴿ولا ناصر﴾ ولا مانع يمنعه، سمي المطر رجماً كما سمي أوباً قال:

رباه (١) شماء (٢) لا يايوي لقلتها (٣) إلا السحاب ولا الأوب (٤) والسبيل وأنتو ذات الأرج (٥).

تسمية بمصدر رجع وآب، وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرابوا التفاؤل فسموه رجماً وأوباً ليرجع ويؤب. وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً قالت الخنساء: كالرجع في المبعثة للسارية.

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنِيعِ (١١).

والصدع ما يتصدع عنه الأرض من النبات.

إِنَّهُ لَقَوْلُ فَسَلٍّ (١٢).

﴿إنه﴾ الضمير للقرآن، ﴿فصل﴾ فاصل بين الحق والباطل. كما قيل له: فرقان.

وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٣).

﴿وما هو بالهزل﴾ يعني: أنه جد كله لا هوادة فيه. ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصور معظماً في القلوب، يترفع به قارنه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وإن يلقي ذهنه إلى أن جبار السموات يخاطبه فيأمره وينهاه ويوعده ويوعده، حتى إن لم يستغزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فأنى أمره أن يكون جاداً غير هازل. فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله: وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامعون والقوا فيه.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٤).

﴿إنهم﴾ يعني: أهل مكة يعملون المكائد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق.

وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٥).

وأنا أقابلهم بكيدي من استدرجي لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم.

فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَبُّوا (١٦).

﴿فويل للكافرين﴾ يعني: لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به. ﴿إنهم ربوا﴾ أي: إمهالاً يسيراً، وكثر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصيير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات» (١٧).

(٤) الأوب: النحل.

(٥) ذكره الثعلبي، والواحدي، وابن مروي في تفاسيرهم، زيلعي: ٤/

(١) رباه: من ربا إذا علا وارتفع.

(٢) شماء: من شمم بمعنى الارتفاع، ويقال: اسم أكمة.

(٣) لقلتها: أي لعلوها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبح اسم ربك الأعلى مكية

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١).

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَرْبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (٧).

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته، كقوله: أو ننسها، وقيل: كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل فقيل: لا تعجل فإن جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ثم لا تنساه إلا ما شاء الله ثم ننكره بعد النسيان، أو قال: إلا ما شاء الله، يعني: القلة والنثرة، كما روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فساله فقال: نسيته. أو قال: إلا ما شاء الله (٢). والغرض نفي النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء. وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وقيل قوله: فلا تنسى، على النهي والألف مزيدة للفاصلة كقوله: السبيل. يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنسها إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ يعني: أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر فلا تفعل فإنا أكفيك ما تخافه، أو يعلم ما أسرتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم وما ظهر وبطن من أحوالكم وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه فينسى من الوحي ما يشاء ويترك محفوظاً ما يشاء.

وَيُبَيِّنُكَ لِلشَّرِّ (٨).

﴿وَيُبَيِّنُكَ لِلشَّرِّ﴾ معطوف على سنقرتك وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراض، ومعناه: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، يعني: حفظ الوحي. وقيل: للشرعية السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً. وقيل: نوفقك لعمل الجنة.

﴿فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ الرُّسُولُ﴾ مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع؟ قُلْتُ: هو على وجهين: أحدهما أن رسول الله ﷺ قد استفرغ مجهوده في تنكيرهم وما كانوا يزيبون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغياناً، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلفاً، ويزداد جداً في تنكيرهم وحرصاً عليه. فقيل له: وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وأعرض عنهم وقل سلام.

فَذَرْنِي إِن نَّمَعِ الْوَكْرَى (٩).

تسبيح اسمه عز وعلا تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه كالجبر والتشبيه. ونحو ذلك مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاعتدار لا بمعنى العلو في المكان والاستواء على العرش حقيقة، وأن يصابن عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم. ويجوز أن يكون الأعلى صفة للرب والاسم. وقرأ علي رضي الله عنه: سبحان ربي الأعلى. وفي الحديث: لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال: «اجعلوها في سجودكم» (١). وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود اللهم لك سجدت.

الَّذِي عَلَّمَ نَوَى (٦).

﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يات به متفاوتاً غير ملتئم، ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم وأنه صنعة حكيم.

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٢) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأَرْضَ (٤)

﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به. يُحْكِي أَنْ الْأَفْعَى إِذَا أَتَتْ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ عَمِيَتْ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها. فريماً كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحبك بها عينها وترجع باصرة بإنان الله. وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يحذر من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغنيته وألويته وفي أبواب دنياه ودينه. وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع وشوط بطين لا يحيط به وصف واصف فسبحان ربي الأعلى. وقرئ: قدر بالتخفيف. أحوى صفة لغناء أي.

﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾، أنبته.

تَجَمَّلَ غَنَاءَ أَحْوَى (٥) سَتَرْتُكَ فَلَا تَنَظَّرُ (٦).

﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته ورفيفه ﴿غَنَاءَ أَحْوَى﴾ ربيّاً

= أحمد في المسند 4/155.

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، والطبري والبخاري في الآداب المفردة، زيلعي 4/194.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: صفة الصلاة، (الحديث: 1898) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (الحديث رقم: 869) وأخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب: التسبيح في الركوع، (الحديث رقم: 887) وأخرجه =

وعن ابن عباس رضي الله عنه: نكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له. وعن الضحاك: ونكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦﴾

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ فلا تفعلون ما تفعلون به. وقرئ: تؤثرون على الغيبة. ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود: بل أنتم تؤثرون.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧﴾

﴿خير وأبقى﴾ أفضل في نفسها وأنعم وأبوم. وعن عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفة أرنب.

إِنَّ هَذَا لَبَى الْأَوَّلَى ﴿٨﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾، يعني: أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف وقيل: إلى ما في السورة كلها. ودوي عن أبي نر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة كتب: منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى اخنوخ وهو إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان⁽²⁾. وقيل: إن في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسان عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعد كل حرف»⁽³⁾.

صَبَّحُوا بِرَأْسِ الْخَيْلِ مُشْتَرِكِينَ ﴿٩﴾

أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد، وكان إذا قراها قال: سبحان ربي الأعلى⁽⁴⁾، وكان علي وابن عباس يقولان ذلك وكان يحبها⁽⁵⁾، وقال: أول من قال سبحان ربي الأعلى ميكائيل⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الغاشية مكية

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقُنْيَةِ ﴿١﴾

﴿الغاشية﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. من قوله: يوم يغشاهم الصلبي إلخ. قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ ونكر اسم ربه

ونكر إن نفعت النكرة وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التنكير، والثاني أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذمًا للمنكرين وإخبارًا عن حالهم واستبعادًا لتأثير النكرة فيهم وتسجيلًا عليهم بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: عظم المكاسين إن سمعوا منك. قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون.

سَيَذَرُكَ مَنْ كَتَبَتْ ﴿١٠﴾

﴿سَيَذَرُكَ﴾ فيقبل التنكرة وينتفع بها ﴿من يخشى﴾ الله وسوء العاقبة فينظر حتى يقوده ويفكر النظر إلى اتباع الحق. فاما هؤلاء فغير خاشعين ولا ناظرين فلا تأمل أن يقبلوا منك.

وَيَنْجِبُهَا أَهْلُ الْمُنَى ﴿١١﴾

﴿ويجنبها﴾ ويتجنب النكرة ويتحاشاها ﴿الاشقى﴾ الكافر لأنه أشقى من الفاسق، أو الذي هو أشقى من الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

الَّذِي يَصِلُ أَثَارُ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾

﴿النار الكبرى﴾ السفلى من أطباق النار⁽¹⁾. وقيل: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا. وقيل: ثم لأن الترجيح بين الحياة والموت أقطع من الصلبي فهو متراح عنه في مراتب الشدة. والمعنى: لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾

﴿تزكى﴾ تطهر من الشرك والمعاصي، أو تطهر للصلاة، أو تكثر من التقوى، من الزكاة وهو النماء، أو تفعل من الزكاة كتمسك من الصلوة.

وَنُكِّرَ اسْمُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾

﴿فصلى﴾ أي: الصلوات الخمس. نحو قوله: وأقام الصلاة وآتى الزكاة. وعند ابن مسعود: رحم الله امرئ تصلى وصلّى. وعن علي رضي الله عنه أنه التصلى بصدقة الفطر. وقال: لا إبالي أن لا أجد في كتابي غيرها لقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: أعطى زكاة الفطر فتوجه إلى المصلى فصلى صلاة العيد ونكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح. وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة، (الحديث رقم: 883). وأخرجه الحاكم في المستدرک 1/263.

(5) نكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 4/197 - 198.

(6) نكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 4/197.

(1) قال أحمد: يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر في أسافل النار، والفاسق أعلى منه كما تقدم له التصريح بذلك كثيراً.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: اللبر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، (الحديث رقم: 361).

(3) نكره ابن مروييه، ونكره الثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/197.

تَشَقُّ مِنْ عَيْنٍ مَّكِينَةٍ ﴿٥﴾

﴿أَنِية﴾ متناهية في الحر. كقوله: ﴿وبين حميم أن﴾ (3) الضريع يبس الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل. قال أبو نؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا نوى وعاد ضريعاً بان عنه النحائص وقال:

وحسن في هزم الضريع فكلها حبياء دامية اليبس حرود
لَيْسَ لَمْ طَعَامُ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي الحاقة ولا طعام إلا من غسيلين! قُلْتَ: العذاب ألوان والمعدبون طبقات: فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسيلين، ومنهم أكلة الضريع. لكل باب منهم جزء مقسوم.

لَا يَسْمُنُ وَلَا يُبْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

﴿لا يسمن﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع، يعني: أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الإبل (4) وتتولع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه. ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إمطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن، أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد، وقيل: قالت كفار قريش إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿لا يسمن﴾ فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنثوا بذلك وهو الظاهر فيرد قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا. فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغنٍ من جوع.

وَجُوعٌ يُمَوِّجُ نَاعَةً ﴿٨﴾

﴿ناعمة﴾ ذات بهجة وحسن. كقوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ (5) أو متتمة.

لَسَمَها رَاضِيَةً ﴿٩﴾

فصلي (1) نقل عن علي أنه قال: هو التصلّق بصدقة الفطر. وقال: لا أبالي أن لا أجد في كتابي غيرها إلخ. قال أحمد: في تلقى هذين الحكمين الآخرين من الآية تكلف، أما الأول فلأن العطف وإن اقتضى المغايرة فيقال بموجبها فنحن إن قلنا: أن تكبيرة الإحرام جزء من الصلاة فالجزء مغاير للكل فلا غرو أن يعطف عليه، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه. وأما الثاني فلأن الاسم معرف بالإضافة، وتعريف الإضافة عهدي عند محققي الفن حتى أن القائل إذا قال: جاءني غلام زيد، ولزيد غلامان، فلإنما تفهم من قوله: معيناً منهم بسابق عهد بينك وبينه. وهذا مهيح تعريف الإضافة والمعهود في افتتاح الصلاة ما استمر النبي ﷺ على العمل به قولاً وفعلًا وهو التكبير المعروف. ولو تنزلنا على أنه في الآية مطلق فالحصر في قوله: تحريمها التكبير قيد إطلاقه. وعاد كلامه ونقل عن الضحاك: أن المراد نكر الله بالتكبير في طريق المصلي فصلى صلاة العبد. العذاب وقيل: النار. من قوله: وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواشٍ.

وَجُوعٌ يُمَوِّجُ خَيْمَةً ﴿١٠﴾

﴿يومئذ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خاشعة﴾ نليلة.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿١١﴾

﴿عاملة ناصبة﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل (2) والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في حور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتنت بها وتنعمت فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة. من قوله: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل وهم يحسبون أنهم محسنون صنعاً أولئك الذين حبطت أعمالهم. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب. وقرئ: عاملة ناصبة على الشتم.

تَصَلَّى نَارًا كَابَةً ﴿١٢﴾

قرئ: ﴿تصلى﴾ بفتح التاء، و﴿تصلى﴾ بضمها، وتصلى بالتشديد. وقيل: المصلى عند العرب أن يحفر حفيراً فيجمعوا فيه جمرًا كثيراً ثم يعملوا إلى شاة فيدسوها وسطه. فاما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلّى أو في التنور فلا يسمى مصلياً.

(1) سورة الأعلى، الآية: 14.

(2) قال أحمد: الوجه الأول متعين: لأن الطرف المنكسر وهو قوله: يومئذ مقطوع عن الجملة المضاف إليها تقديرها يوم إذ غشيت، وذلك في الآخرة بلا إشكال، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها، أعني ﴿خاشعة عاملة ناصبة﴾ فكيف يتناول أعمال الدنيا.

(3) سورة الرحمن، الآية: 44.

(4) قال أحمد: فعلى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة نكرت شارحة لحقيقة الضريع، وعلى الثاني تكون صفة مخصصة.

(5) سورة المطففين، الآية: 24.

سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى إن اظماءها لترتفع إلى العشر فصاعدًا وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاها سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحًا القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة. قلت: وما تصنع بها، قال: انظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قلت: كيف حسن نكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة! قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبوايهم فانتظمها النكر على حسب ما انتظمها نظرهم. ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة، ولعله لم يراد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك. وإنما رأى السحاب مشبهًا بالإبل كثيرًا في أشعارهم فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز.

وَأَلَى أَتَّهَى كَيْفَ رُمَتْ (٨) وَلَى لَبَّالٍ كَيْفَ نُصِبَتْ (٩) وَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (١٠).

«كيف رفعت» رفعًا بعيد المدى بلا مساك وبغير عمد. و«كيف نصبت» نصبًا ثابتًا فهي راسخة لا تميل ولا تنزل.

و«كيف سطحت» سطحًا بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها، فحنف المفعول، وعن هرون الرشيد أنه قرأ سطحت بالتشديد والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعبدوا للقاءه. أي: لا ينظرون فنكرهم ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا ينكرون.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (١١).

«إنما أنت منكر» كقوله: إن عليك إلا البلاغ.

لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ (١٢).

«لست عليهم بمصيطر» بمتسلط. كقوله: وما أنت عليهم بجبار. وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعدٍ عندهم. وقولهم: تسيطر، يدل عليه.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (١٣).

«إلا من تولى» استثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم ولكن من تولى «وكفر» منهم فإن الله الولاية والقهر فهو يعذبه.

«لسعيتها راضية» رضيت بعملها لما رأت ما آذاهم إليه من الكرامة والثواب.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٤).

«عالية» من علو المكان أو المقدار.

لَا تَسْعُ فِيهَا لَيْعَةٌ (١٥).

«تسمع» يا مخاطب أو الوجه. «لاغية» أي: لغوا، أو كلمة ذات لغو، أو نفسًا تلغو. لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. وقرئ: لا تسمع، على البناء للمفعول بالتاء والياء.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٦).

«فيها عين جارية» يريد عيونًا في غاية الكثرة. كقوله: علمت نفس.

فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ (١٧).

«مرقوعة» من رفعة المقدار أو السمك ليرى المؤمن يجلسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والتعيم. وقيل: مخبوة لهم، من رفع الشيء إذا خباه.

وَأَكْوَابٌ مَوْسُوعَةٌ (١٨).

«موضوعة» كلما أراها وجبها موضوعة بين أيديهم، عديدة حاضرة لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار أوساط بين الصغر والكبر. كقوله: «قدروها تقديرًا» (١).

وَنَارًا مَّصْفُوعَةٌ (١٩).

«مصفوفة» بعضها إلى جنب بعض. مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مسودة واستند إلى أخرى. وَنَارًا مَبْنُوعَةً (٢٠) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (٢١).

«ووزي» وبسط عراض فاخرة. وقيل: هي الطنافس التي لها خمل وقيق جمع زربية. «مبثوثة» مبسوبة أو مفرقة في المجالس.

«أفلا ينظرون إلى الإبل» نظر اعتبار، «كيف خلقت» خلقًا عجيبًا دالًا على تقدير مقدر شامدًا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالاثقال وجزمها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تترك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادًا لكل من اقتادها بأزمته لا تعاز ضعيفًا ولا تملأ صغيرًا، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء أنه حث عن البعير ويبيع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون

يَمْدِيهِ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٦﴾.

في التنكير، ولأنَّ الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الألفاظ والتعمية.

وَالشَّعْ وَالْوَتْرُ ﴿٢﴾.

وبالشع والوتر إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالي ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة لأنه تاسع أيامها وذاك عاشورها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه فسرهما بذلك. وقد أكثروا في الشع والوتر حتى كانوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة.

وَأَكْبَلُ إِنَّا سِرٌّ ﴿٤﴾.

أقسم بالدليل على العموم. ﴿إِذَا يَسِرُّ﴾ إذا يمضي. كقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا أَنْبَرُ﴾ (٧) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ﴾ (٨) وقرئ: والوتر بفتح الواو، وهما لغتان كالخبر والحبر في العدد وفي الثرة الكسر وحده. وقرئ: الوتر بفتح الواو وكسر التاء. رواها يونس عن أبي عمرو. وقرئ: والفجر والوتر، ويسر بالتونين وهو التونين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق، وعن ابن عباس: وليالٍ عشر، بالإضافة يريد وليالٍ أيام عشر، وياء يسر تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وقيل: معنى يسرى يسرى فيه.

هَلْ فِي ذَلِكَ فَمَّ لِيْ جَمْرٌ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاؤِ ﴿٦﴾

﴿هل في ذلك﴾ أي: فيما إقسمت به من هذه الأشياء ﴿قسم﴾ أي: مقسم به ﴿لذي حجر﴾ يريد: هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها، أو هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر، أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه. والحجر العقل لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهيةً لأنه يعقل وينهي، وحصة من الإحصاء وهو الضبط. وقال الفراء: يقال إنه لنو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، والمقسم عليه محذوف وهو ليعنبن يدل عليه قوله: ألم تر إلى قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب. قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لبني هاشم هاشم، ثم قيل: للأوليين منهم عاد الأولى، وإرم تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة. قال ابن الرقيات:

مجدًا تليدًا بناه أوله اترك عادًا وقبلها إرمًا

فلزم في قوله: ﴿بعاد * إرم﴾ عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي

﴿العذاب الأكبر﴾ الذي هو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فنكر﴾ (١) أي: فنكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض، وقرئ: إلا من تولى على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه وقرأ أبو جعفر المدني: إياهم التشديد، وجهه أن يكون فيعلاً مصدر إيب فيعمل من الإياب، أو أن يكون أصله أوأباً فعلاً من أوب.

إِنَّ لَنَا إِيَّاهُمْ ﴿١٦﴾.

ثم قيل إيوأباً كديوان في نوآن، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد وميت.

فَإِنْ قُلْتُ: ما معنى تقديم الظرف؟ قُلْتُ: معناه التشديد في الوعيد (٢) وأن إياهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٧﴾.

وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي يحاسب على النكير والقطمير. ومعنى: الوجوب، الوجوب في الحكمة (٣)، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً» (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفجر مكية

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾.

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ (٥) ﴿والصبح إذا تنفس﴾ (٦) وقيل: بصلاة الفجر.

وَلَيْلٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾.

أراد: بالليالي العشر، عشر ذي الحجة.

فَإِنْ قُلْتُ: فما بالها منكراً من بين ما أقسم به؟ قُلْتُ: لأنها ليالٍ مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها.

فَإِنْ قُلْتُ: فهل عرفت بلام العهد لأنها ليالٍ معلومة معهودة! قُلْتُ: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي

(١) سورة الغاشية، الآية: ٢١.

(٢) قال لحمد: ومعنى ثم الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبإدارته.

(٣) قال لحمد: أخطأ على عاتقه ليس على الله واجب، وقد تقدم معنى على في غير هذا، والله أعلم.

(٤) سورة الفجر، الآية: ١٧.

(٥) سورة الفجر، الآية: ١٧.

(٦) سورة الفجر، الآية: ١٧.

نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة.

وَرَمَوْا ذِي الْأَوْتَادِ (١٦)

قيل له: نو الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته وبأسية.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ (١٧) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٨)

﴿الذين طغوا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على هم الذين طغوا، أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمرود وفرعون.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٩)

يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، ونكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وعن عمرو بن عبدي: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها.

إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ رَمَادٍ (٢٠)

المرصاد المكان الذي يترتب فيه، الرصد مفعال من رصده، كالميقات من وقته. وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب، وأنهم لا يفوتونه. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبدي رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إن ربك لبالمرصاد يا فلان. عرض له في هذا النداء بانه بعض من توعد بذلك من الجبابرة فله دره أي: أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجازه.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَّهُ رَبٌّ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (٢١)

فإن قلنا: بم اتصل قوله: ﴿فأما الإنسان﴾ (٢١)؟ قلنا: بقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (٢٠) كانه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي. فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمله إلا لعاجله وما يلذه وينعمه فيها.

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَنَّهُ فَقَدَرَهُ فَوَقَّعَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (٢٢)

فإن قلنا: فكيف توازن قوله: ﴿فأما الإنسان﴾ (٢١). ﴿إذا

كانوا فيها. ويدل عليه قراءة ابن الزبير: بعاد إرم، على الإضافة، وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: واسأل القرية، ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. وقرأ الحسن: بعاد إرم، مفتوحتين، وقرئ: بعاد إرم، بسكون الراء على التخفيف، كما قرئ: بورقكم. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، بإضافة إرم إلى ذات العماد. والإرم: العلم. يعني: بعاد أهل أعلام ذات العماد.

إِرم ذات العماد (٢٣)

و﴿ذات العماد﴾ اسم المدينة. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، أي: جعل الله ذات العماد رميماً بدلاً من فعل ربك. وذات العماد إذا كانت صفةً للقبيلة، فالمعنى: أنهم كانوا بنويين أهل عمد، أو طوال الأجسام على تشبيه قنودهم بالأعمدة. ومنه قولهم: رجل معمد وعمدان إذا كان طويلاً وقيل: ذات البناء الرفيع، وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين. وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد فملكا وقهرا، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها. فسمع بنكر الجنة فقال: ابني مثلاً، فبنى إرم في بعض صحارى عين في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد وسيخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله نك الرجل (١).

الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ (٢٤)

﴿لم يخلق مثلاً﴾ مثل عاد ﴿في البلاد﴾ عظم أكرام وقوة كان طول الرجل منهم أربعمائة نراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقبها على الحي فيهلكهم. ولم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير: لم يخلق مثلاً أي: لم يخلق الله مثلاً.

وَسَوَّاهُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْأَوَّلِ (٢٥)

﴿جاءوا الصخر﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً كقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ (٢) قيل: أول من

(4) سورة الفجر، الآية: 14.

(5) سورة الفجر، الآية: 15.

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي 206/4.

(2) سورة الشعراء، الآية: 149.

(3) قال أحمد: قوله: لا يريد من الإنسان إلا الطاعة، ولا يأمره إلا بها فاسد المصدر مبني على أصله الفاسد سليم العجز.

فأكرمه⁽⁵⁾. وقرئ: فقدر بالتخفيف والتشديد، وأكرمن وأهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الباء في الدرج مكتفياً منها بالكسرة.

كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (٧)

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله: ثم قال: بل هناك شر من هذا القول⁽⁶⁾ وهو أن الله يكرمهم بكثرة المال فلا يؤنن ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة.

وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ (٨)

وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ويحبونه فيشحون به. وقرئ: يكرمون وما بعده بالياء والتاء. وقرئ: تحاضون أي: يحض بعضهم بعضاً. وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون بضم التاء من المحاضّة.

وَتَأْكُلُونَ التَّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا (٩)

﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ ذا لم، وهو الجمع بين الحلال والحرام. قال الحطّية:

إذا كان لما يتبع الذمّ ربه فلا نُسّ الرحمن تلك الطولحنا يعني: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل: كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جيبته فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوارث البطالون.

وَيُؤْتُونَ الْكَلَّ حَبًّا جَمًّا (١٠)

﴿حَبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

كَلَّا إِذَا دُكِّيَ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (١١)

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة ويومئذ بدل من ﴿إِذَا دُكِّيَ الْأَرْضُ﴾ وعامل النصب فيهما يتنكر. ﴿دَكَّا دَكًّا﴾ دكاً بعد دك. كقوله: حسبته باباً باباً، أي: كرّر عليها الدك حتى عانت هباءً منبثاً.

ما ابتلاه ربه⁽¹⁾، وقوله: ﴿وَمَا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما، وأما تقول أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك؛ قلّت: هما متوازنان من حيث إنّ التقدير، وأما هو إذا ما ابتلاه ربه. وذلك أن قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنُ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان وبخول الفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل: فإما الإنسان فقاتل ربي أكرمن وقت الابتلاء، فوجب أن يكون فيقول الثاني خبر المبتدأ وجب تقديره.

فإن قلّت: كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ قلّت: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، إذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾⁽²⁾.

فإن قلّت: هلا قال فأهانته وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه. قلّت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير فليس بإهانة له لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركاً للكرامة، وقد يكون المولى مكرماً لعبده مهميماً له وغير مكرم ولا مهين. وإذا أهدى لك زيد هدية قلّت: أكرمني بالهدية، ولا تقول أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

فإن قلّت: فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبتته ثم أنكر قوله: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنُ﴾⁽³⁾ ونمّه عليه كما أنكر قوله: ﴿أَهَانَنُ﴾ ونمّه عليه؛ قلّت: فيه جوابان: أحدهما أنه إنما أنكر قوله: ربي أكرمن، ونمّه عليه. لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبتته وهو قصده إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً مستوجباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم. كقوله: إنما أوتيته على علم⁽⁴⁾ عندي. وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله إلا به وهو التقوى نون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها. والثاني أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله: ربي أهانن. يعني: أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرمه به اعترف بتفضل الله وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هواناً وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله:

- (1) قال أحمد: يريد أنه صبر ما بعد أما الأولى بالاسم، وما بعد أما الثانية بالفعل، ومقصود السائل أن يكونا مصدرين إما بإسمين أو بفعلين.
- (2) سورة الأنبياء، الآية: 35.
- (3) سورة الفجر الآية: 15.
- (4) قال أحمد: والقدري لا يبعد عن ذلك؛ لأنه يرى أن النعيم الأعظم في الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه، ليس بتفضل ولا منون.
- (5) قال أحمد: كأنه يجعل قوله: فأكرمه توطئة لذمة على قوله: أهانن =

- = لا أنه منموم معه.
- (6) قال أحمد: وفي هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثاني في جوابي الزمخشري، فإنه جعل قوله: أكرمن غير منموم، ودلت هذه الآية على أن المعنى أن للمكرم بالبسط بالرزق حالتين، إحداهما: اعتقاده أن إكرام الله له عن استحقاقه الثانية أشد من الأولى، وهي أن لا يعترف بالإكرام أصلاً؛ لأنه يفعل أفعال جاحدي النعمة، فلا يؤذي حق الله الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمسكين.

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ (١٧).

﴿يا ليتها النفس﴾ على إرادة القول أي: يقول الله للمؤمن يا أيتها النفس. إما أن يكلمه إكراماً له كما كلم موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك. ﴿والمطمئنة﴾ الآمنة التي لا يستفزها خسوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها تلج اليقين فلا يخالجه شك، ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة.

فإن قلّ: متى يقال لها ذلك؟ قلّ: إمّا عند الموت، وإمّا عند البعث، وإمّا عند دخول الجنة.

أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّنِئَةً (١٨).

على معنى ﴿ارجعي﴾ إلى موعد ربك ﴿راضية﴾ بما أوتيت ﴿مرضية﴾ عند الله.

فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي (١٩).

﴿فادخلي في عبادي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلوكهم.

وَأَدْخِلْ جَنِّي (٢٠).

﴿وادخلي جنّتي﴾ معهم. وقيل: النفس الروح، ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: فادخلي في عبادي، وقرأ ابن مسعود: في جسد عبادي، وقرأ أبي: انثني ربك راضية مرضية، ادخلي في عبادي، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة. فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك، فحوّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله، والظاهر العموم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة» (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البلد مكية

لَا أُقْسِمُ بِدَعَا الْكَلْبِ (١).

اقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغموّاً في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله:

وَأَنَّ لِلَّهِ لَهْلَهً بِدَعَا الْكَلْبِ (٢).

فإن قلّ: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قلّ: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٣).

﴿صفاً صفاً﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفّاً بعد صف محدقين بالجن والإنس.

يَوْمَئِذٍ يُؤْمِنُ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّ لَهُ أَلْزَمَ كَرِي (٤).

﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾ كقوله: «برزت الجحيم» (١) روي أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه. فآخبروا عليّاً رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه، ثم قال: يا نبي الله - بابي أنت وأمي - ما الذي حدث اليوم؟ وما الذي غيرك؟ فتلا عليه الآية. فقال علي له: كيف يجاء بها، قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقولونها بسبعين ألف زمام فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع (٢). أي: يتذكر ما فرط فيه أو يتعظ. ﴿والنّس له للذكرى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى، لا بد من تقدير حذف المضاف. وإلا فبين: يوم يتذكر وبين: وأنّى له الذكرى تنافٍ وتناقض.

يَوْمَئِذٍ يَلْبَسُ قَمِيصًا مِّنَ النَّارِ (٥).

﴿قدمت لحياتي﴾ هذه وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا. كقولك: جثته لعشر ليالٍ خلون من رجب، وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كمنهزم أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر.

يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ عَنْفَاهُ أَحَدٌ (٦) وَلَا يُؤْنَسُ وَكَافَهُ أَحَدٌ (٧).

قرئ: بالفتح يعذب ويؤثّق، وهي قراءة رسول الله ﷺ. وعن أبي عمرو: أنه رجع إليها في آخر عمره. والضمير للإنسان الموصوف. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يؤثّق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله: «ولا تزد وزدة وذر أخرى» (٣) وقرئ: بالكسر، والضمير لله تعالى أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٦.

(٢) نكده الواحدي والثعلبي وابن مروي في تفاسيرهم، الزيلعي ٤/

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٨.

(٤) نكده الواحدي وابن مروي والثعلبي في تفاسيرهم، الزيلعي ٤/

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فانتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة. ومنه اشتقت المكابدة كما قيل: كبته، بمعنى: أهلكه. وأصله كبده إذا أصاب كبده. قال لبيد:

يا عين هلا بكيت أريد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَغْدِرَ عَلَيَّ أَحَدٌ ⑤

والضمير في «أحسب» لبعض صناديد قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، والمعنى: أظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين أن لن تقوم قيامته ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه.

يَقُولُ أَهْلَكُ مَا لَا بَدَأَ ⑥

ثم نكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه يقول: «أهلك ما لبدا» يريد كثرة ما انفق فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر.

أَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦

«أحسب أن لم يره أحد» حين كان ينفق ما ينفق رثاء الناس وافتخارًا بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبًا، ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف، ومن شرفه أنك حل به مما يقتربه أهله من المآثم متحرج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به. لقد خلقنا الإنسان في كبد أي: في مرض وهو مرض القلب وفساد الباطن. يريد الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد هو أبو الأشد وكان قويًا بسيط له الأنيم العكازي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعًا ويبقى موضع قديمه. وقيل: الوليد بن المغيرة، لبدا: قرى بالضم والكسر، جمع لبدة، ولبدة وهو ما تلبد يريد الكثرة. وقرى: لبدا بضمين، جمع لبود، ولبداً بالتشديد جمع لابد.

أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ⑧

«لم يجعل له عينين» يبصر بهما المرثيات.

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨

«ولسانًا» يترجم عن ضمائره، «وشفتين» يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب والنفخ وغير ذلك.

«وانت حل بهذا البلد» يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ ويعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده بفتح مكة تنميًا للتسلي والتنفيس عنه. فقال: وانت حل بهذا البلد، يعني: وانت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابه وغيرهما وحرم دار أبي سفيان⁽¹⁾. ثم قال: إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يخلو خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد. فقال العباس: يا رسول الله إلا الأنحر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا. فقال ﷺ: إلا الأنحر⁽²⁾.

فإن قلنت: أين نظير قوله: وانت حل في معنى الاستقبال؟ قلنت: قوله عز وجل: «إنك ميت وإنهم ميتون»⁽³⁾ ومثله واسع في كلام العباد. تقول لمن تعدد الإكرام والحياء: أنت مكرم محبو. وهو في كلام الله واسع لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفأك دليلًا قاطعًا على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتحة.

وَوَالِدٍ وَآلَةٍ ⑩

فإن قلنت: ما المراد بوالد وما ولد! قلنت: رسول الله ﷺ ومن ولده. أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه.

فإن قلنت: لم نكر؟ قلنت: للإبهام المستقل بالمدح والتعجب.

فإن قلنت: هلا قيل ومن ولد؟ قلنت: فيه ما في قوله: والله أعلم بما وضعت. أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعًا عجيب الشأن. وقيل: هما آدم ولده. وقيل: كل والد وولد.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ⑪

(1) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: قتل الأسير (الحديث رقم: 3044)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز دخول مكة بغير إحرام (الحديث رقم: 1357، 450).

(2) رواه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يحل القتال بمكة (الحديث رقم: 1834)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة =

= وصيدها (الحديث رقم: 445، 1353).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/217، وأحمد في المسند 4/299 والبيهقي في الشعب، باب: في العتق ووجه التقرب إلى الله عز وجل (الحديث رقم: 4335).

وَعَدَيْتَهُ أَتَجِدَنِي ﴿١٦﴾

أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمِ ذِي سَعْيٍ ﴿١٧﴾ يَمِينًا ذَا مَقَرَّةٍ ﴿١٨﴾ أَوْ يَسْكُنَ ذَا مَقَرَّةٍ ﴿١٩﴾

﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقَي الخير والشر. وقيل: الشئين.

فَلَا أَقْنَمَ أَلْفَةً ﴿٢٠﴾

والمسغبة والمقربة والمترية: مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب. وأما أترب فاستغنى. أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة. كما قيل: أترى، وعن النبي ﷺ في قوله: ذا مترية؛ الذي مأواه المزابل⁽²⁾. ووصف اليوم بذى مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة نصبه بإطعام، ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير، بل غطت النعم وكفر بالمنعم والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله لا أن يهلك مالا لبداً في الرياء والفخر فيكون مثله كمثل ربح صر أصابت حرث قوم الآية.

فإن قلت: فلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكررة. ونحو قوله: فأي أمر سيم. لا فعله لا يكاد يقع فما لها لم تكرر في الكلام الألف. قلت: هي متكررة في المعنى لأن معنى: فلا اقتحم العقبة، فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً، إلا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك. وقال الزجاج قوله ثم كان من الذين آمنوا يدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. والاقترام، الدخول والمجازة بشدة ومشقة، والقحمة الشدة وجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحاماً لها لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة، والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا أَلْفَةٌ ﴿٢١﴾

نَرُكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَوْا بِالرِّحْمَةِ ﴿٢٢﴾

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ جاء بثم لترآخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت، لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به، والمرحمة، والرحمة. أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن. وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله.

أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٢٤﴾

﴿وما أدراك ما ألفة﴾ اعتراض ومعناه: أنك لم تدركه صعوبتها على النفس وكثرة ثوابها عند الله.

فَكَ رَقِيٍّ ﴿٢٥﴾

اليمين والمشامة اليمين والشمال، أو اليمين والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهم.

قرئ: موصدة بالواو والهزمة، من أوصلت الباب وأصدته إذا أطبقته وأغلخته. وعن أبي بكر بن عياش: لنا إمام يهزم مؤصدة فاشتبه أن أسد أنني إذا سمعته، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ: لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة»⁽³⁾.

وفك الرقبة تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: بلني على عمل يدخلني الجنة. فقال: تعتق النسمة وتفك الرقبة. قال: أوليسا سواء. قال: لا إعتاقها أن تنفرد بعنتها، وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم. والعتق والصدقة من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة أبيضه في ذي قرابة أو تعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأن النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار»⁽¹⁾. قرئ: فك رقبة أو إطعام، على هي فك رقبة أو إطعام. وقرئ: فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم العقبة. وقوله:

(3) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم. الزيلعي 4/

(1) رواه الحاكم في المستدرک 2/211.

(2) ذكره ابن مردويه من رواية مجاهد عن ابن عمر وأخرجه الحاكم في المستدرک عند ابن عباس بنحوه. ابن حجر ص 185.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

سورة الشمس مكية

وَأَنفَسٍ وَجَنَافًا ①

ضحاها ضوءها إذا أشرقت وقام سلطانها. ولذلك قيل: وقت الضحى، وكان وجهه شمس الضحى. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف.

وَأَنفَسٍ إِذَا لَنَّا ②

② إذا تلاها طالعاً عند غروبها آخذاً من نورها، وذلك في النصف الأول من الشهر، وقيل: إذا استدار فتلاها في الضياء والنور.

وَأَنفَسٍ إِذَا جَلَّا ③

③ إذا جلاها عند انتفاخ النهار وانبساطه لأن الشمس تنجلي في تلك الوقت تمام الانجلاء، وقيل: الضمير للظلمة أو للندى أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر. كقولهم: أصبحت باردة، يريون الغداة، وأرسلت، يريون السماء.

وَأَنفَسٍ إِذَا يَسَّنَّا ④

إذا يغشاها فتغيب وتظلم الآفاق.

فَإِنْ قُلْتَ: الأمر في نصب إذا معضل؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فت نصب بها وتجر فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: مررت أمس بزيد واليوم عمرو. وإما أن تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على

استكراهه! قُلْتُ: الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطاراً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل وأضمر فكانت الواو قائمة مقام الفعل والباء ساذة مسددة معاً. والواوات العواطف نواصب عن هذه الواو فحقق أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعاً. كما تقول: ضرب زيد عمراً، وبكر خالدًا فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها.

جعلت ما مصدرية في قوله: ﴿وما بناها﴾ ﴿وما طحاها﴾ ﴿وما سواها﴾. وليس بالوجه لقوله: فالحق، وما يؤدي إليه من فساد النظم. والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية. كانه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها في كلامهم سبحانه ما سخرن لنا.

فَإِنْ قُلْتَ: لم نكرت النفس؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يريد نفساً خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم كانه قال: وواحدة من النفوس، والثاني أن يريد كل نفس وينكر للتكثير عن الطريقة المذكورة في قوله: علمت نفس.

فَأَنفَسَ جُورًا وَتَوَنَّى ⑤

ومعنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقالهما وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه⁽¹⁾ عن اختيار ما شاء منهما بليليل قوله:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ⑥ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑦

﴿قد أفلح من رزأها وقد خاب من دسأها﴾ فجعله فاعل التزكية والتسسية ومتوليها. والتزكية الإنماء والإعلاء بالتقوى.

(1) قال أحمد: بين في هذا الكلام نوعين من الباطل أحدهما: في قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقالهما، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، والذي يكتنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مبركان بالعقل، ألا ترى إلى قوله: إعقالها أي: خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح، وإنما اغتنم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد، والذي يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا: إن الحسن والقبح لا يدركان بالسمع؛ لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التي ليست عندنا بصفات الأفعال، فإننا لا نلغي حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية، بل لا بد في علم كل حكم شرعي من المقدمتين العقلية، وهي الموصلة إلى العقيدة، وسمعية مفرعة عليها وهي الدالة على خصوص الحكم على أن تعلقه بظاهر لو سلم ظهوره في قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب. النزعة الثانية: وهي التي كشف القناع في إبرازها أن التزكية وتقسيمها ليسا مخلوقين لله تعالى، بل لشركائه المعتزلة، وإنما تعارضه في الظاهر من فعوى الآية، على أنه لم ينكر وجهاً في الرد على من قال: وأن الضمير لله تعالى، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة، فنقول، لا مراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذي النفس، لكن عوده =

= إلى الله تعالى أولى لوجهين، أحدهما: أن الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله: ﴿والسماء وما بناها﴾ وهلم جرا، والضمائر فيما تقدم مدين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالاتفاق، ولم يجر لغير الله تعالى ذكر، وإن قيل يعود الضمير إلى غيره، فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمناً واستلزاماً، لا نكراً ونطقاً، وما جرى نكروه أولى أن يعود الضمير عليه، الثاني: أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ تفعل ولا شك أن تفعل مطاوع فعل، فهذا بان يدل لنا أولى من أن يدل له؛ لأن الكلام عندنا نحن قد أفلح من رزأه الله تزكى، وعنده للفاعل في الاثنين واحد، أضاف إليه الفعلين المختلفين، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ونحن عنه في غنية، على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتسسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات؛ لأن له عندنا اختياراً وقدره ومقارنته، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى، ونفي الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقة، فهذا جوابنا على الآية تنزلاً، وإلا فلم يذكر وجهاً من الرد فيلزمنا الجواب عنه، وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة فالكسوت، والله الموفق.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٥٦﴾

﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لشود على معنى: فسواها بالأرض، أو في الهلاك ولا يخاف عقبي هلاكها. وفي مصاحف أهل المدينة والشام فلا يخاف. وفي قراءة النبي ﷺ: ولم يخف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشمس فكانما تصلّى بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الليل مكية

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾

المغشى إما الشمس من قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾^(٢) وإما النهار من قوله: ﴿يغشى الليل النهار﴾^(٣) وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إذا وقب﴾^(٤).

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾

﴿تجلى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾

﴿وما خلق﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقيل: هما آدم وحواء. وفي قراءة النبي ﷺ والذكر والأنثى، وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى، وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى، بالجر على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى: وما خلقه الله. أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لتفريده بالخلق إذ لا خالق سواه. وقيل: إن الله لم يخلق خلقاً من نوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه نكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً كان خائناً؛ لأنه في الحقيقة إما نكراً وأنثى وإن كان مشكلاً عندنا.

إِنَّ سَوَكَ لَنَثَى ﴿٤﴾

﴿شثى﴾ جمع شثيت أي: إن مساعيكم أشتات مختلفة وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

﴿أعطى﴾ يعني: حقوق ماله. ﴿ولتقى﴾ الله فلم يعصه.

والتنسية: النقص والإخفاء بالفجور وأصل نسي دس كما قيل: في تقضض تقضى، وسئل ابن عباس عنه فقال: اتقرا قد أفلح من تزكى وقد خاب من حمل ظلماً. وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ونسي لله تعالى وإن تانيث الراجع إلى من لأنه في معنى النفس فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ومتعالٍ عنه، ويحيون ليلاليهم في تحمل فاحشة ينسبون لها إليه.

فَإِنْ قُلْتَ: فإين جواب القسم؟ قُلْتُ: هو محنوف تقديره ليدمنن الله عليهم أي: على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود: لأنهم كذبوا صالحاً، وأما قد أفلح من زكاهما فكلام نابع لقوله: فآلهما فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿٦﴾

الباء في: ﴿بطغواها﴾ مثلها في كتبت بالقلم، والطغوى من الطغيان. فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الباء بأن قلبوا الباء واواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا: امرأة خزيًا وصليًا يعني: فعلت التكذيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجرأته على الله، وقيل: كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى، كقوله: فاهلكوا بالطاغية. وقرأ الحسن: بطغواها بضم الطاء، كالحسنى والرجعى، في المصادر.

إِذْ أَبَيْتُ أَشْقَاهَا ﴿٧﴾

﴿إذ أبعت﴾ منصوب بكذبت أو بالطغوى، و﴿أشقاها﴾ قدار بن سالف، ويجوز أن يكونوا جماعة، والتوحيد لتسويتك في أفعال التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. وكان يجوز أن يقال: أشقوها كما تقول أفاضلهم. والضمير في ﴿لهم﴾ يجوز أن يكون للآشقين، والتفضيل في الشقاوة لأن من تولى العقر وبأشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٨﴾

و﴿ناقة الله﴾ نصب على التحذير كقولك الأسد والأسد والصبي الصبي بإضمار نروا أو احذروا عقرها. و﴿وسقياها﴾ فلا تزوها عنها ولا تستأثروا بها عليها.

فَكَذَّبُوهُ فَعَرَّوْهَا فَفْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَبْنَا ﴿٩﴾

﴿فكذبوه﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا. ﴿فدمدم عليهم﴾ فاطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة دمومة إذا ألبسها الشحم. ﴿بذنبهم﴾ بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر. ﴿فسواها﴾ الضمير للدممة أي: فسواها بينهم لم يقلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

(3) سورة الاعراف، الآية: 54.

(4) سورة الفلق، الآية: 3.

(1) نكروه الثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 219/4.

(2) سورة الشمس، الآية: 4.

وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ①.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ②.

﴿وصدق بالحقني﴾ بالخصلة الحسنة وهي الإيمان، أو بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، أو بالمتوبة الحسنى وهي الجنة.

فَسَيَّرَهُ لِلْإِسْرِ ③.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ④.

﴿فسيسره للإسرى﴾ فسنيؤه لها، من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها والجمها، ومنه قوله عليه السلام كل ميسر لما خلق له⁽¹⁾. والمعنى: فسئلط⁽²⁾ به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها. من قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

الَّتِي تَمْ يَخْلُقُ تِلْكَ فِي أَلْبَانٍ ⑤ وَتَمُودَ الْإِنِّ جَاوَا الصَّخَرِ بِالْوَادِ ⑥.

﴿واستغنى﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة لأنه في مقابلة واتقى.

فَسَيَّرَهُ لِلْإِسْرِ ③.

﴿فسيسره للعسرى﴾ فسندخله ونمنعه الاطلاف حتى تكون الطاعة أيسر شيء عليه وأشدّه. من قوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾⁽³⁾ أو سمى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسنيهيهما في الآخرة للطريقين، وقيل: نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه. وفي أبي سفيان بن حرب.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف قال: ﴿لا يضلها إلا الأتقى﴾؟ وقد علم أن كل شقي يضلها⁽⁴⁾، وسيجنبها الاتقى؟ وكل بقي بجنبها، لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارا بعينها مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾⁽⁶⁾ فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة لا الاتقى منهم خاصة؛ قُلْتُ: الآية وإردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبلغ في صفتيهما المتناقضتين. فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلى كان النار لم تخلق إلا له.

= يشوى فوق الجمر أو على المقل أو على التنور فليس بمصلى، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقله عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضاً، وأنا وقفت عليه في كتبهم، فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الإحراق بالنار، وفي علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف: مؤمن صالح فائز، ومؤمن عاص وكافر، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفيئ نوره لهبها، ولا يؤلم بمسها البتة، وإنما يرددها تحلة القسم، والعاصي إن شاء الله تعنيبه ومجازاته، فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه، وأشدهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها البتة بوعده الله تعالى، والكافر هو المعذب بين أطباقها تبين لك أن النار لا يضلها أي: يعذب بين أطباقها كما علمت تفسيره في اللغة إلا الكافر، وهو الأشقى؛ لأن المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء، وأن المؤمن الفائز هو الاتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجنب النار بالكلية، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها، وإن المؤمن العاصي الذي بالاتقى ولا بالأشقى لا يضلها ولا يجنبها بالكلية؛ لأن وروده تحلة القسم لا يعذب فيها إلا بالصلى، فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة، وأما الزمخشري فينحرف عنها، فلا جرم أنه في عبدة الجواب يفكر ويقدّر، والله أعلم.

(1) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر (الحديث رقم: 1362)، ومسلم في كتاب القدر بكيفية الخلق (الحديث رقم: 6، 2647).

(2) قال أحمد: لا يطيل لسانه ههنا على أهل السنة؛ ولكن قصره الحق فتراه يؤول الكلام بل يعطله؛ لأنه يحمله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثاله روعة السارق الخائف.

(3) سورة الانعام، الآية: 125.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(5) قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أن التخصيص ههنا لفائدة أخرى غير النفي، مما عدا المخصص وتلك الفائدة المقابلة، وحيث تمحض لك السؤال والجواب فهو يلاحظ نظر الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ فإنه لم يقل بمفهوم حصراً وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية لا لنفي ما عدا المحصور، على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المنكور التفاته إلى قاعته الفاسدة، وحذره أن تنقض ويأبى الله إلا نقضها ورفضها، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قتله، فتقول: المصلى في اللغة أن يحفرها حفيراً فيجمعوا فيه جمرأ كثيراً ثم يعملوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه، فأما ما =

الناس ضحى⁽³⁾ وقيل: أريد بالضحى النهار بيانه قوله: إن يأتيهم بأسنا ضحى في مقابلة بيئات.

وَأَلَيْ إِذَا سَجَى^(٤).

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلامه، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكوت الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

مَا دَعَكَ رَبَّكَ دَمَا قَلَّ^(٥).

﴿ما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ: بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر

والتدويع: مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي أن الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاده⁽⁴⁾. وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت⁽⁵⁾. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذكارات في قوله: والذاكرين الله كثيراً. والذكارات يريد والذاكراته ونحوه. فأوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحنوق.

وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى^(٦).

فإن قلنت: كيف اتصل قوله: ﴿وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله؟ قلنت: لما كان في ضمن نفي التدويع والقلى أن الله مواسلك بالوحي إليك⁽⁶⁾، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من تلك ولا نعمة أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية.

وَلَوْ يَشَاءُ رَبُّكَ فَنَزَّلَ^(٧).

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعده شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة وبخول الناس في الدين أوقاجاً. والغلبة على قريظة والنضير وأجلانهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوا الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما أخبره من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

وقيل: الاتقى وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

أَلَيْ يُوْقَى مَا مَآ يَرْكَى^(٨) وَمَا لِحَاحٍ عِنْدَهُ مِنْ يَمَوِّ نَجْرَى^(٩).

﴿يتزكى﴾ من الزكاة أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة.

فإن قلنت: ما محل يتزكى؟ قلنت: هو على وجهين إن جعلته بدلاً من يؤتى فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلاة، والصلاة لا محل لها، وإن جعلته حالاً من الضمير في يؤتى فمحلها نصب.

إِلَّا أَنْبَاءَ دَمِيءٍ رِئَاسَ الْأَعْلَى^(١٠).

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حماراً. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمار. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاء قفاراً لا أنيس بها إلا الجائر⁽¹⁾ والظلمان تختلف

وقول القائل:

ويلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير ولا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولاً له على المعنى، لأن معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا كمكافأة نعمة.

وَلَسَوْفَ يَرْضَى^(١١).

﴿ولسوف يرضى﴾ موعده بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الضحى مكية

وَالضُّحَى^(١).

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجداً، لقوله: ﴿وإن يحشر

(1) الجائر: ولد العقرة الوحشية.

(2) نكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم الزيلعي 4/224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿وما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 - 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

بالصانع. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

وَوَعَدَكَ عَلِيًّا فَأَغْنِي (٨).

﴿عائلاً﴾ فقيراً. وقرئ: عيلاً كما قرئ: سيحات وعديماً، ﴿فاغني﴾ فاغناك بمال خديجة، أو بما آفأ عليك من الغنائم. قال عليه السلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي (٢). وقيل: قنعت وأغنى قلبك.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ (٩).

﴿فلا تهزأ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبي وأمي هو ما كهرني النهر (٣)، والنهم الزجر عن النبي ﷺ. «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليك أن تزبره».

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠).

وقيل: إما أنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء، وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن فحدث، أقرئه وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً قرأت كذا وصليت كذا. فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا. قال: يقول الله تعالى:

وَأَمَّا يَنْصَرِفُ رَبِّكَ نَحَرَ (١١).

﴿وإما بنعمة ربك فحدث﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره. وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخير. والمعنى: أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فأواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خلقت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد نقت اليتيم. وهو أنه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقد بمعرفتك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فاغناك بعد الفقر، وحث بنعمة الله كلها. ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسنات يكتبها الله له بعد كل يتيم وسائل» (٤).

عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قلَّت: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلَّت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. كما ذكرنا في لأقسم أن المعنى: لأنا أقسم: وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء. فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

فإن قلَّت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلَّت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. عند عليه نعمه وإياديه وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه ترشيعاً لما أراد به ليقبس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَكَأْوَى (١٢).

و﴿الم يجدك﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولاً وجد، والمعنى: ألم تكن يتيماً، وذلك أن أباه مات وهو جنين قد آتت عليه ستة أشهر، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته (١). ومن بدع التفسير أنه من قولهم: برة يتيمة، وأن المعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظر فأواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى: أواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين أوي هذه الموقسة؟ وإما من أوى له إذا رحمه.

وَوَعَدَكَ خَالاً فَهَدَى (١٣).

﴿ضالاً﴾ معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع. كقوله: ما كنت تدري ما الكتاب! وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليلة عند باب مكة، حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. فهذا فعرك القرآن والشرائع، أو فزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوصهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائبة فما بال الكفر والجهل

= الكلام في الصلاة (الحديث رقم: 33 - 537).

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 234.

(1) رواه الحاكم في المستدرک 2/ 605.

(2) رواه البخاري تعليقاً في الكتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في الرماح، وأحمد في مسنده 2/ 50.

(3) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم=

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ألم نشرح مكية

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه فكانه قيل: شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه وضعنا اعتباراً للمعنى. ومعنى شرحنا صدرك. فسحناه حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين جميعاً، أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم.

وَوَضَعْنَا عَنَّا وِزْرَكَ ۖ

وأزلنا عنه الضيق والحرَج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملئ حكمةً وعلمًا. وعن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: ألم نشرح لك بفتح الحاء. وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها.

أَلَيْسَ أَنتَ نَافِثَ ظَهْرِكَ ۖ

والوزر: الذي انقضض ظهره أي: حملة على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك للثقل، مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ ويغمه من فرطاته قبل النبوة، أو من جهله بالأحكام والشرائع، أو من تهالكه على إسلام أولي العباد من قومه وتلفه. ووضعناه عنه أن غفر له، أو علم الشرائع، أو مهد عنده بعد ما بلغ وقرأ أنس وحللتنا وحططنا. وقرأ ابن مسعود: وحللتنا عنك وقرَك.

وَرَوَّعْنَا لَكَ إِزْرَكَ ۖ

ورفع نكره أن قرن بنكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والشهادة والخطب وفي غير موضع من القرآن. «وَأَلَّهَ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ» (1) «وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (2) «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» (3) وفي تسميته رسول الله ونبي الله ومنه نكره في كتب الأولين والأخذ على الأنبياء وأمهم أن يؤمنوا به.

فَإِنْ قُلْتَ: أي فائدة في زيادة لك والمعنى مستقل بدونه (4) قُلْتَ: في زيادة لك ما في طريقة الإبهام والإيضاح. كانه قيل: ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحاً. ثم قيل: صدرك. فأوضح ما علم مبهمًا، وكذلك لك نكرت وعنك وزرك.

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ

فإن قُلْتَ: كيف تعلق قوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» بما قبله؟ قُلْتَ: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فنكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثم قال: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. كانه قال: خولناك ما خولناك فلا تياس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسر.

فَإِنْ قُلْتَ: إن مع للصحية فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قُلْتَ: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة في التسلية وتقوية القلوب.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين (5). وقد روي مرفوعاً أنه خرج ﷺ ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين! قُلْتَ: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء، وإن موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول في أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى كما كرر قوله: «وَيَلِ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ» (6) لتقرير معناه في النفوس وتمكينها في القلوب. وكما يكرر المفرد في قولك: جاعني زيد زيد، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مرئوف بيسر لا محالة.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ

والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وإنما كان العسر واحداً لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالا، إن مع زيد مالا. وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضاً وأما اليسر فمكرر متناول لبعض الجنس فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال.

فَإِنْ قُلْتَ: فما المراد باليسرين؟ قُلْتَ: يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله ﷺ وما تيسر لهم في أيام الخلفاء، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة. كقوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرْتَبِصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» (7) وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب.

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة النور، الآية: 52.

(3) سورة المائدة، الآية: 92.

(4) قال أحمد: وقد تقدم عند الكلام على نظيرها في قوله: «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي» قريب من هذا المعنى، والله أعلم.

(5) أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبي حمزة عن إبراهيم عن ابن مسعود، ابن حجر ص 185.

(6) سورة الطور، الآية: 11.

(7) سورة التوبة، الآية: 52.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التين مكية

وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ (١)

اقسم بهما لانهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة. وروي انه أهدى لرسول الله ﷺ طبق من تين فاكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت أن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» (٣). ومز معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فاخذ منها قضيباً واستاك وقال: إنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة» (٤). وسمعته يقول: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي». وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو تينكم هذا وزيتونكم وقيل: جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما: بالسريانية: طور تيناً وطور زيتاً لانهما منبتا التين والزيتون. وقيل: التين جبال ما بين حلوان وهمدان، والزيتون جبال الشام لانها منابتها. كانه قيل: ومنابت التين والزيتون.

وَطُورِ سِينٍ (٢)

وأضيف الطور، وهو الجبل إلى سينين وهي البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)

والبلد: مكة حماها الله. والأمين: من أمن الرجل أمانة فهو أمين. وقيل: أمان، كما قيل: كرام في كريم، وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل، كما وصف بالأمن في قوله تعالى: «حرماً آمناً» (٥) بمعنى: ذي أمن. ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه، والطور: المكان الذي نودي منه موسى. ومكة: مكان البيت الذي هو هدًى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)

فإن قلْت: فما معنى هذا التنكير؟ قلْت: التفخيم. كانه قيل: إن مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر. وهو مصحف ابن مسعود مرة واحدة.

فإن قلْت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه إنه لن يغلب عسر يسرين! قلْت: كانه قصد باليسرين ما في قوله: يسراً من معنى التفخيم فتأوله بيسر الدارين وذلك يسران في الحقيقة.

فإن قلْت: فكيف تعلق قوله:

إِذَا رَعَتْ فَانْصَبْ (٥)

«فإذا فرغت فانصب» بما قبله؟ قلْت: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الأنفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ويتابع ويحرص على أن لا يخلو وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ننبها بأخرى. وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء. وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك. وعن الشعبي أنه رأى رجلاً يشيل حجراً فقال: ليس بهذا أمر الفارغ وقعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في بيته أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة. ولقد قال عمر رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحكم فارغاً سبيللاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخره (١). وقرأ أبو السمال: فرغت بكسر الراء وليست بفصيحة. ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد أي: فانصب علياً للإمامة، ولو صح هذا للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض على وعداوته.

وَلِلَّهِ رِيكُ فَارِغٍ (٦)

«وللى ربك فارغ» واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. وقرئ: فرغب أي: رغب الناس إلى طلب ما عنده. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم نشرح فكانما جاءني وأنا مغتم ففرج عني» (٢).

(١) حديث عمر قال عنه الزيلعي 236/4 وحديث ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة 300/13 كتاب: الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(٢) ذكره الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/237.

(٣) أخرجه أبو نعيم في كتاب: الطب، الزيلعي 241/4.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والتعلبي في تفسيره، الزيلعي 242/4.

(٥) سورة القصص، الآية: 57.

﴿ليس الله باحكم الحاكمين﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله. وعن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين⁽²⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العلق مكية

عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت. وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم.

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢).

محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل بسم الله ثم اقرأ.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿خلق﴾ فلم ينكر له مفعولاً. ثم قال: ﴿خلق الإنسان﴾؟ قُلْتَ: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناول الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان﴾⁽⁴⁾ فقيل الذي خلق مبهماً، ثم فسره بقوله خلق الإنسان تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته.

فإن قُلْتَ: لم قال: ﴿من علق﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقه. كقوله: ﴿من نطفة﴾⁽⁵⁾ ثم من علقه؟ قُلْتَ: لأن الإنسان في معنى الجمع. كقوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾⁽⁶⁾.

أَقْرَأْ رَبُّكَ الْأَكْرَمَ (٣).

﴿الأكرم﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظام. فما لكرمه غلبة ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: الأكرم.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ (٥).

﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه.

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٦).

ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمته تلك الخلقة الحسنة القويمة لسوية أن رددناه أسفل من سفلى خلقاً وتركيباً، يعني: أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقاً وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفلى من أهل الدرجات، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفلى. وحسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشين جلده وكان بضاً، وكل سمعه وبصره وكانا حيين، وتغير كل شيء منه فمشيه بليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف. وقرأ عبد الله: أسفل السافلين.

فإن قُلْتَ: فكيف الاستثناء على المذهبين؟ قُلْتَ: هو على الأول متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٧).

يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي فلم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيوخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.

فإن قُلْتَ:

فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِاللَّيْنِ (٨).

﴿فما يكدبك﴾ من المخاطب به؟ قُلْتَ: هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل. يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾⁽¹⁾ والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر. لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعاقته، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لَتَكْفِيكُمْ (٩).

(1) سورة النمل، الآية: 100.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 510/2.

(3) ذكره الثعلبي والواحدي، وابن مريويه، زيلعي 243/4.

(4) سورة الرحمن، الآية: 1 - 3.

(5) سورة النمل، الآية: 4.

(6) سورة العصر، الآية: 2.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾

وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن.

أَرَأَيْتَ بَأْسَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ ﴿١٨﴾

﴿الم يعلم بأن الله يرى﴾ ويطلع على أحواله من ههنا وضلاله فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد.

فإن قُلْتُ: ما متعلق أرايت؟ قُلْتُ: الذي ينهى مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين.

فإن قُلْتُ: فإين جواب الشرط؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة نكرة في جواب الشرط الثاني.

فإن قُلْتُ: فكيف صح أن يكون ألم يعلم جواباً للشرط؟ قُلْتُ: كما صح في قولك: إن أكرمك أكرمك. وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟

فإن قُلْتُ: فما أرايت الثانية وتوسطها بين مفعول أرايت! قُلْتُ: هي زائدة مكررة للتوكيد. وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

كَلَّا لَنْ نَسْتَنْتِزَ إِلَّا نَارًا ﴿١٩﴾

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات. ثم قال: ﴿لئن لم ينته﴾ عما هو فيه ﴿لنسفعا بالناصية﴾ لناخذن بناصره ولنسحبنا بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. قال عمرو بن معدي كرب:

قوم إذا يقع الصريخ رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع وقرى: لنسفعا بالنون المشددة. وقرأ ابن مسعود: لاسفعا. وكتبها في المصحف بالالف على حكم الوقف ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفى بلام العهد عن الإضافة.

نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَالِفَةٍ ﴿٢٠﴾

﴿ناصية﴾ بدل من الناصية وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت فاستقلت بفائدة. وقرى: ناصية على هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطا على الإسناد المجازي وهما في الحقيقة لصاحبها، وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاتب خاطيء.

فَلْيَعْزُزْ نَادِيَهُ ﴿٢١﴾

والنادي المجلس الذي يندى فيه القوم، أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي. كما قال جرير:

﴿الذي علم بالقلم﴾ علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط ليكفي به. ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم^(١) رفش كمثل أراقم قطف للخطا نبالة أقصى المدى سواد القوائم ما يجد مسيرها إلا إذا لعبت بها بيض المدى وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا ﴿٢٢﴾

﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم ينكر لدلالة الكلام عليه.

أَن رَّاهُ أَنتَهَى ﴿٢٣﴾

﴿أن رآه﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني، وذلك بعض خصائصها، ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين واستغنى هو المفعول الثاني.

إِنَّ إِلَهَكُمْ الْوَاحِدُ ﴿٢٤﴾

﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان، والرجعى مصدر كالشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبي جهل.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٢٥﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٢٦﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿٢٧﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿٢٨﴾

وكذلك ﴿أرايت الذي ينهى﴾ وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: اتزعم أن من استغنى طفى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع بيننا ونتبع دينك. فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة. فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاء عليهم^(٢). وروى عنه لعنه الله أنه قال: هل يغفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي يحلف به لئن رأيت توطأت عنقه. فجاءه ثم نكص على عقبيه. فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحةً فنزلت: ﴿أرايت الذي ينهى﴾ ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد.

(2) قال الزيلعي: لم أجده. وقال ابن حجر: وآخره تقدم في الإسراء بغير هذا السياق.

(1) رواقم: من الرقم أي الكتابة. أراقم جمع رقم، وهي الحية التي على ظهرها نقش.

لهم مجلس صهب السبال أئمة

وقال زهير:

وفيههم مقامات حسان وجوهم

والمقامة: المجلس. روي أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهلك. فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتتهنّني وأنا أكثر أهل الوادي نائياً فنزلت⁽¹⁾. وقرأ ابن أبي عتبة: سيدعى الزبانية على البناء للمفعول.

سَنَعُ الزَّيْنَةَ (٨)

والزبانية في كلام العرب: الشرط. الواحد: زبينة كعفوية من الزين وهو الرفع. وقيل: زبني وكأنه نسب إلى الزين ثم غير للنسب كقولهم: إمسى وأصله زباني. فقيل: زبانية على التعويض، والمراد ملائكة العذاب. وعن النبي ﷺ: ولو دعا نائيه لأخذته الزبانية عياناً⁽²⁾.

كَلَّا لَا يُلْمُهُ وَأَسْبَدَ وَأَقْرَبَ (٩)

﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل ﴿لَا تَطْعَمُهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه. كقوله: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمَكْنِبِينَ﴾⁽³⁾ ﴿وَأَسْبَدَ﴾ ودم على سجورك يريد الصلاة، ﴿وَأَقْرَبَ﴾ وتقرّب إلى ربك. وفي الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد⁽⁴⁾ عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله»⁽⁵⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القدر مختلف فيها

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)

عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره، والثاني أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنبأمة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها فأكثروهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها. ولعل

الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريد بها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفترطوا في غيرها. ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها. من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يَفْقَرُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾⁽⁶⁾ وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرقها على سائر الليالي.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)

ثم بيّن تلك بأنّها خير من ألف شهر، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي نكرها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم ونكر في تخصيص هذه المدة أن رسول الله ﷺ نكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة تلك الغزاة⁽⁷⁾. وقيل: لأن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد.

نَزَلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)

﴿نَزَلَ﴾ إلى السماء الدنيا. وقيل: إلى الأرض، ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: من كل امرئ أي: من أجل كل إنسان. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة.

سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

﴿سَلَّمَ مِنْ﴾ ما هي إلا سلامة. أي: لا يقتر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ: مطلع بفتح اللام وكسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر»⁽⁸⁾.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ﴿اقرأ﴾ (الحديث رقم: 3349).

(5) نكره الثعلبي في تفسيره وابن مرويّه والواحدي، زيلعي 4/ 249 - (250).

(6) سورة النّاز، الآية: 4.

(7) نكره الواحدي في أسباب النزول، ص 255.

(8) نكره الثعلبي وابن مرويّه والواحدي، زيلعي 4/ 253 - 254.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ﴿اقرأ﴾ (الحديث رقم: 3349).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة: «اقرأ»، باب: ﴿كَلَّا لَنْ لَمْ يَنْتَه﴾ (الحديث رقم: 4958).

(3) سورة القلم، الآية: 8.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ (١).

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبداء الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ﷺ لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ. فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (١) يعني: أنهم كانوا يعنون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفكٍ مما أنا فيه حتى يبرزني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً. وانفكك الشيء من الشيء أن يزيله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة. و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة.

رَسُولٌ مِنْ آتَاهُ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢).

﴿رسول﴾ بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله رسولاً حالاً من البينة. ﴿صحفاً﴾ قراطيس، ﴿مطهرة﴾ من الباطل.

فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤).

﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. والمراد بتفرقهم تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرقهم فرقاً فمنهم من آمن ومنهم من أنكر. وقال: ليس به ومنهم من عرف وعاند.

فإن قلنا: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أولاً؟ ثم أقرد أهل الكتاب في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ؟﴾ قلنا: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ عَالِمِينَ لَهُ الْبَيِّنَاتُ حُفَاءً وَيُحْيُوا السَّكْوَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥).

﴿وما أمروا﴾ يعني: في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ولكنهم حرّفوا وببّلوا ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي: دين الملة القيمة. وقرئ: وذلك الدين القيمة على تأويل الدين بالملة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي تَارِ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦).

فإن قلنا: ما وجه قوله: وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ قلنا: معناه. وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧).

وقرأ ابن مسعود: إلا أن يعبدوا. بمعنى بأن يعبدوا. قرأ نافع البرية بالهمز والقراء على التخفيف. والنبي والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل. وقرئ: خيار البرية جمع خير كجياذ وطياض في جمع جيد وطيب. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساءً ومقبلاً» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزلزلة مختلف فيها

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا (١).

﴿زلزالها﴾ قرئ: بكسر الزاي وفتحها، فالكسور مصدر، والمفتوح اسم. وليس في الأبنية فعلاً بالفتح إلا في المضاعف.

فإن قلنا: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلنا: معناه زلزالها الذي تستوجب في الحكمة ومشية الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقى إكرامه، وأمن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه.

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢).

الاثقال: جمع ثقل وهو متاع البيت، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من البقائن أثقالاً لها.

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَنَا (٣).

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين ترتل وتلفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر القطيع. كما يقولون: من بعثنا من مردقنا؟ وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: ﴿هذا

ما وعد الرحمن وصنق المرسلون».

فَإِنْ قُلْتُ: ما معنى تحديث الأرض والإحياء لها؟ **قُلْتُ:** هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان حتى ينظر من يقول: ما لها؟ إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير وشر. وروي عن رسول الله ﷺ تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها^(١).

يَوْمَ يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَخْبَارَهَا ۖ (٤)

فَإِنْ قُلْتُ: إذا ويومئذ ناصبهما! **قُلْتُ:** يومئذ بدل من إذا وناصبهما تحدث، ويجوز أن ينتصب إذا بمضمر ويومئذ بتحدث.

فَإِنْ قُلْتُ: أين مفعولا تحدث؟ **قُلْتُ:** قد حذف أولهما، والثاني إخبارها. وأصله: تحدث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود نكر تحديثها الأخبار لا نكر الخلق تعظيماً لليوم.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَرْحَمَ لَهَا ۖ (٥)

فَإِنْ قُلْتُ: بم تعلق الباء في قوله: «بأن ربك»؟ **قُلْتُ:** بتحدث معناه تحدث أخبارها بسبب إحياء ربك لها وأمره إياها بالتحديث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها. كما تقول: نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين. ويجوز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها. كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها، لأنك تقول: حديثه كذا وحديثه بكذا. و«أوحى لها» بمعنى: أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: أن نقول له كن فيكون. قال: أوحى لها القرار فاستقرت. وقرأ ابن مسعود: تنبئ أخبارها. وسعيد بن جبير: تنبئ بالتخفيف. يصرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف.

يَوْمَ يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَشْأَنًا يُرَوُّا عَنْهُمْ (٦)

«أَشْأَنًا» بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين أو يصرون عن الموقف أشْأَنًا يتفرق بهم طريقاً الجنة والنار ليروا جزاء أعمالهم. وفي قراءة النبي ﷺ ليروا بالفتح. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي يره بالضم.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

ويحكي أن أعرابياً آخر خيراً يره. فقيل له: قدمت وأخرت. فقال:

خذا بطن هرشي اقفاها فإنه كلا جانبي هرشي لهن طريق

والذرة، النملة الصغيرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

فَإِنْ قُلْتُ: حسنات الكافر محبطة بالكفر^(٢)، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر؟ **قُلْتُ:** المعنى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال ذرة شراً من فريق الأشقياء. لأنه جاء بعد قوله: يصدر الناس أشْأَنًا، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات مختلف فيها

وَاللَّيْلِ نَبْهًا (١)

اقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت انفاسها^(٤) إذا عدون. وعن ابن عباس أنه حكاها فقال: أح

= حكم الكبائر، تكفر بأحد أمرين: إما بالتوبة النصوح المقبولة، وإما بالمشيئة لا غير ذلك، وإما اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة، فالسؤال المذكور إذا ساقط عن أهل السنة، ولكن الرّمخشري التزم الجواب عنه للزومه على قاعته الفاسدة، والله الموفق.

(3) أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت، وله شاهد من حديث أنس مرفوعاً، نكره ابن كثير في تفسيره: 480/8. والخطيب في تاريخه 380/11.

(4) قال أحمد: ولم يذكر حكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم فنقول: إنما عطف اثرن على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعلى معنى الفعل وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل تصوير هذه الأفعال في النفس، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير =

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة «إذا زلزلت الأرض» (الحديث رقم: 3353) وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس، (الحديث رقم: 7360) وأخرجه الحاكم في المستدرک 532/2.

(2) قال أحمد: السؤال المبني على قاعدتين إحداهما: أن حسنات الكافر محبطة بالكفر وهذه فيها نظر، فإن حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم، وأما تخفيف العذاب بسببها فغير منكر، فقد وردت به الأحاديث الصحيحة، وقد ورد أن حاتماً يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، ورد ذلك في حق غيره كإبي طالب أيضاً، فحينئذ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرثي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأما القاعدة الثانية: وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصفات ويكفرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنة فإن الصفات عندهم حكمها في التكفير =

أح. قال عنتره:

والخيل تكدح حين تضرب في حياض الموت ضبْحًا
وانتصاب ضبْحًا على يضبحن ضبْحًا، أو بالعانيات.
كانه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو. أو على
الحال أي: ضابحات.

فَأُتُورِيَتْ قَدْحًا (٢).

﴿فالموريات﴾ توري نار الحباب، وهي ما ينقدح من
حواقرها. ﴿قُلْحًا﴾ قالحات صاكات بحواقرها الحجارة،
والقدح: الصك. والإبراء: إخراج النار. تقول: قدح فأوري،
وقدح فاصلد، وانتصب قدحًا بما انتصب به ضبْحًا.

فَأُتُورِيَتْ سَبَا (٣).

﴿فالمغيرات﴾ تغير على العدو ﴿صَبْحًا﴾ في وقت
الصبح.

فَأَنْزَلَ يَدَهُ نَعْمًا (٤).

﴿فأنزل به نفعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غبارًا.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا (٥).

﴿فوسطن به﴾ بذلك الوقت أو بالنقع، أي: وسطن النقع
الجمع، أو فوسطن ملتبسات به ﴿جمعًا﴾ من جموع
الأعداء ووسطه بمعنى: توسطه. وقيل: الضمير لمكان
الغارة، وقيل: للعدو الذي دل عليه والعانيات. ويجوز أن
يراد بالنقع الصباح من قوله عليه السلام: ما لم يكن نقع
ولا لقلقة^(١). وقول لبيد: فمتى ينقع صراخ صائق، أي:
فهيجن في المغار عليهم صياحًا وجلبًا، وقرأ أبو حيوة:
فأثرن بالتشديد، بمعنى: فآظهن به غبارًا، لأن التأثير فيه
معنى الإظهار أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة.
وقرى: فوسطن بالتشديد للتعبية، والباء مزيدة للتوكيد،
كقوله: ﴿وأتوا به﴾^(٢) وهي مبالغة في وسطن، وعن ابن
عباس: كنت جالسًا في الحجر فجاء رجل فسالني عن
العانيات ضبْحًا ففسرتها بالخيل، فذهب إلى علي وهو
تحت سقاية زمزم فساله ونكر له ما قلت. فقال: ادعه لي،
فلما وقفت على رأسه قال: فتقتي الناس بما لا علم لك به،
والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا
فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العانيات ضبْحًا الإبل
من عرفة إلى المزلفة، ومن المزلفة إلى منى^(٣)، فإن
صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل، كما استعير

المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والنفر للثورة،
وما أشبه ذلك. وقيل: الصبح لا يكون إلا للفرس والكلب
والثعلب. وقيل: الضبح، بمعنى: الضبع، يقال: ضبحت الإبل،
وضبحت إذا مدت أضباعها في السير، وليس بثبت وجمع
هو المزلفة.

فإن قُلْتُ: علام عطف فائرن؟ قُلْتُ: على الفعل الذي
وضع اسم الفاعل موضعه لأن المعنى: واللاتي عدون
فاورين فاورن فائرن.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦).

الكنود: الكفور، وكند النعمة كنودًا، ومنه سمي كندة لأنه
كند أباه ففارقه. وعن الكلبي: الكنود بلسان كندة العاصي،
وبلسان بني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور،
يعني: أنه لنعمة ربه خصوصًا لشديد الكفران، لأن تفريطه
في شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة، لأن
أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه، ثم إن
عظماها في جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة.

وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧).

﴿وإنه﴾ وإن الإنسان ﴿على نلك﴾ على كنوده
﴿لشاهد﴾ يشهد على نفسه ولا يقتر أن يجحده لظهور
أمره، وقيل: وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد.

وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨).

﴿الخير﴾ المال من قوله تعالى: إن ترك خيرًا. والشديد:
البخيل الممسك. يقال: فلان شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموت يعنام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني: وإنه لأجل حب المال وإن إنفاقه يثقل عليه لبخيل
ممسك، أو أراد بالشديد القوي، وأنه لحب المال وإيثار
الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته
ضعيف متقاعس. تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا
كان مطيقًا له ضابطًا، أو أراد أن لحب الخيرات غير هش
منبسط ولكنه شديد منقبض.

أَفَلَا يَظُنُّ إِنْ يُعْزَرَ مَا فِي الْفُجُورِ (٩).

﴿يعثر﴾ بعث وقرى: بحثر وبحث وبحثر وحصل على
بناثهما للفاعل وحصل بالتخفيف.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠).

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة
على الميت وأخرجه الحاكم في المستدرک 217/3.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک 533/2.

= بالمضارع بعد الماضي، وقد تقدمت له شواهد أقربها قول ابن
معيكر:

بأني لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهمش فجرت صريعاً لليبين وللجران

وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف.
فَأَنَّهُ مَكَاوِبَةٌ ﴿١٠﴾

﴿فأما هاهوية﴾ من قولهم: إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه⁽³⁾ لأنه إذا هوى أي: سقط وهلك فقد هوت أمه تكلاً وحزناً. قال:

هوت أمه ما يبعث الصبح غائباً وماذا يرث الليل حين يؤب
فكانه قيل: وأما من خفت موازينه فقد هلك. وقيل: هاهوية من سماء النار، وكانها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً. كما روي: يهوي فيها سبعين خريفاً⁽⁴⁾. أي: فملأوه النار. وقيل: للماوى أم على التشبيه لأن الأم ماوى الولد ومفرغه. وعن قتادة: فأما هاهوية أي: فأم رأسه هاهوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوساً.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١١﴾

﴿هيه﴾ ضمير الداهية التي دل عليها قوله: فأما هاهوية. في التفسير الأول، أو ضمير هاهوية والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حنقها وقيل: حقه أن لا يندرج لثلاً يسقطها الإدراج لأنها ثابتة في المصحف، وقد أجيز إثباتها مع الوصل. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القارة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة»⁽⁵⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التكاثر مكية

الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

الهاه عن كذا وأقهاه إذا شغله. و﴿التكاثر﴾ التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء نحن أكثر هؤلاء نحن أكثر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثروهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعانونا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم، والمعنى: انكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات. عبر عن بلوغهم نكر الموتى بزيارة المقابر تهكمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا

ومعنى حصل جمع في الصحف أي: أظهر محصلاً مجموعاً. وقيل: ميز بين خيره وشره، ومنه قيل للمنخل: المحصل. ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم على مقايير أعمالهم لأن ذلك أثر خبره بهم.
إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

وقرأ أبو السمال: إن ربهم بهم يومئذٍ خبير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزيلة وشهد جمعاً»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القارة مكية

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

الطرف نصب بمضمر دلت عليه القارة أي: ترفع.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

﴿يوم يكون الناس كالفرش المبعثوث﴾. شبههم بالفرش في الكثرة والانتشار والضعف والنزلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار. قال جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفرش غشين نار المصطلي
وفي أمثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل، وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره.

وَيَكُونُ الْأَجْكَالُ كَالْمُفْشُوثِ ﴿٥﴾

وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ الواناً لأنها ألوان، وبالمفوش منه لتفرق أجزائها. وقرأ ابن مسعود: كالصوف.

فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوَازِينَهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾

الموازين جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، أو جمع ميزان. وثقلها رجحانها. ومنه حديث أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته⁽²⁾ له وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

= جهنم (الحديث رقم: 2575)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 4/ 597.

(5) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، (الحديث رقم: 6478).

(1) نكره الخطابي والواحدي وابن مريويه 297/4.

(2) رواه ابن أبي شيبة 573/14، كتاب: المغازي، باب: خلافة عمر.

(3) قال أحمد: والأول أظهر؛ لأنه مثل معروف كقولهم لامة: الهبل.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة قعر =

وتعظيمه في التهديد وزيادة في التهويل. وقرئ: لتروُن بالهمز وهي مستكرهه.

فإن قُلْتُ: لم استكرهت الواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرداً قُلْتُ: ذاك في الواو التي ضمتها لازمة وهذه عارضة لالتقاء الساكنين.

ثُمَّ لَتَرَوْهَا بَعِيدَ الْآلِينَ ﴿٧﴾

وقرئ: لتروُن ولترونها على البناء للمفعول. ﴿عين اليقين﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ويجوز أن يراد بالرؤية العلم والإبصار.

ثُمَّ لَتُنْشَأَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿عن النعيم﴾ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذات به عن الدين وتكاليفه.

فإن قُلْتُ: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه فما من أحد إلا وله نعيم؟ قُلْتُ: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعيش إلا لياكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما، فاما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل وكان ناهضاً بالشكر فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى أنه أكل هو وأصحابه تمرًا وشربوا عليه ماء فقال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»^(١). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ الهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العصر مكية

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

اقسم بصلاة العصر لفضلها ببديل قوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى﴾^(٣) صلاة العصر في مصحف حفصة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(٤). ولأن التكليف في أدائها

قبر فلان عند تفاخرهم. والمعنى: الهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وأخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعني من كل مهم، أو أراد الهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت لا هم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لأخرتكم. وزيارة القبور عبارة عن الموت قال:

لن يخلص العام خليل عشرًا ذاق الضماد أو يزور القبر وقال:

زار القبور أبو مالك فاصبح الأم زوارها

وقرأ ابن عباس: الهاكم، على الاستفهام الذي معناه التقرير.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه. ﴿سوف تعلمون﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم. والتكرير تأكيد للردع والإنذار عليهم.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

و﴿ثم﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل. والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدأمكم من هول لقاء الله، وإن هذا التنبية نصيحة لكم ورحمة عليكم.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٤﴾

ثم كرر التنبية أيضًا وقال: ﴿لو تعلمون﴾، محذوف الجواب، يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أي: كعلمكم ما تستيقنونونه من الأمور التي وكلتم بعلمها همكم لفعلتم ما لا يوصف، ولا يكتنه ولكنكم ضلال جهلة، ثم قال:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٥﴾

﴿لتروُنَّ للجحيم﴾ فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به. وقد مر ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه

(2) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/278.

(3) سورة البقرة، الآية: 238.

(4) أخرجه أحمد في المسند 54/2، 134 - 145. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 342/1.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة، (الحديث رقم: 3411) والنسائي في كتاب: الوصايا، باب: قضاء الدين قبل الميراث، (الحديث رقم: 3640) أخرجه أبو داود في كتاب: الاطعمة، باب: ما يقول الرجل إذا طعم (الحديث رقم: 3850) وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام، (الحديث رقم: 3457).

والوعيد عامًا ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جاريًا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أجزر له وأنكى فيه.

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٦﴾

﴿الذي﴾ يدل من كل أو نصب على الذم. وقرئ: جمع بالتشديد وهو مطابق لعدده، وقيل: عدده جعله عدة لحوائث الدهر. وقرئ: وعدده، أي: جمع المال وضبط عدده وأحصاه، أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه. من قولك: فلان وعدد وعدد، إذا كان له عدد وافر من الانتصار وما يصلحهم، وقيل: وعدده معناه وعدده على فك الإدغام نحو ضننوا.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٧﴾

﴿أخلده﴾ وخلده بمعنى: أي طول المال أملة ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أملة يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والأجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض عمل من يظن أن ماله أبقاه حياً، أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فاما المال فما أخلد أحداً فيه. وروي أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار. وقيل: عشرة آلاف، وعن الحسن أنه عاد موسراً فقال: ما تقول في الوف لم أفتد بها من لثيم، ولا تفضلت على كريم، قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزمان، وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر. قال: إن تدعه لمن لا يحمك وترد على من لا يعذرك.

كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّهُ فِي لَحْمَتِهِ ﴿٨﴾

﴿كلا﴾ ردع له عن حسبانته. وقرئ: لينبذان، أي هو وماله. ولينبذن بضم الذال أي: هو وأنصاره. ولينبذنه ﴿في اللحمية﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها. ويقال للرجل الأكل: إنه لحمة.

وَمَا أَذْرَكَ مَا لَحْمَتُهُ ﴿٩﴾

وقرئ: ﴿الحاطمة﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان المطف من الفؤاد ولا أشد تالماً منه بأدنى أدنى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه.

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿١٠﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿١١﴾

فيها وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء، فهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضاربة بحطم كل ما يلقى إليها.

اشق لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ ﴿١٢﴾

والإنسان للجنس. والخسر الخسران. كما قيل: الكفر في الكفران، والمعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٣﴾

﴿وتواصوا بالحق﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهّد في الدنيا والرغبة في الآخرة. ﴿وتواصوا بالصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلى الله به عباده، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالْحَصْرِ غُفِرَ لَهُ وَكَانَ مِنَ تَوَاصِيِ بِالْحَقِّ وَتَوَاصِيِ بِالصَّبْرِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الهمة مكية

الهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن. يقال: لمزه ولهزه، طعنه، والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم، واغتيالهم والطعن فيهم. وبناء فعله يدل على أن تلك عادة منه قد ضرى بها. ونحوهما: اللعنة والضحكة. قال:

وَلِنْ أَغْيَبَ فَاثَتِ الْهَامِزِ لِلْمَزَةِ

وَبِلْ لِكُلِّ هَمْزٍ لَمْزٍ ﴿١﴾

وقرئ: ويل للهمة للمزة^(٢). وقرئ: ويل لكل همزة لمزة، بسكون الميم وهو المسخرة الذي يأتي بالأوايد والأصاحيك فيضحك منه ويشتم. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقية، وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ وغضه منه، ويجوز أن يكون السبب خاصاً

(١) نكده الثعلبي وابن مرويّه والواحي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 281.

(٢) قال أحمد: وما أحسن مقابلة الهمة للمزة بالحطمة، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه، اتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سماها بالحطمة، لما يلقى =

يكسوم وطاره يخلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه.

وقيل: كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ بأربعين سنة وقيل: بثلاث وعشرين سنة. وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان. وفيه أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فجهره وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني جثت لأهدم البيت الذي هو دينك وبين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فإلهاك عنه نود أخذك. فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول: لا هم إن المرء يم نعوامه فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالكم إن كنت تاركهم وكعد بتنا فأمراً بادللك يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع منهم حمك فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحر اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي بحرية ولا تهامية. وفيه أن أهل مكة قد احتوا على أموالهم وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور وكان سبب يساره، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سئل عن الطير فقال: حمام مكة منها. وقيل: جاءت عشية ثم صبحتهم، وعن عكرمة: من أصابته جدرته وهو أول جدري ظهر.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ آلِ يُثُلُ (١)

وقرئ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم. والمعنى: أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة فقامت لك مقام المشاهدة.

﴿وكيف﴾ في موضع نصب بفعل ربك، لا بآلهم تر لما في كيف من معنى الاستفهام.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)

﴿في تضليل﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلل كيداً، إذا جعله ضلالاً ضائعاً، ومنه قوله تعالى: وما كيد الكافرين إلا في ضلال. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل، لأنه ضلل ملك أبيه، أي ضيعه، يعني: أنهم كانوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه وكانوه، ثانياً بإرادة دمه فضلل بإرسال الطير عليهم.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)

﴿أبَابِيل﴾ حزائق الواحدة إبالة، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الحزقة من الطير في

نار جهنم واستولت عليه، ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والتيات الخبيثة. ومعنى: اطلاع النار عليها أنها تلوها وتغلبها وتشتمل عليها، أو تطالع على سبيل المجاز معانٍ موجبها.

إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٤) فِي عَرَصٍ مُّندَوٍ (٥)

﴿مؤصدة﴾ مطبقة قال:

نحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها ابواب صنعاء مؤصدة

وقرئ: في عمد بضميتين، وعمد بسكون الميم، وعمد بفتحيتين، والمعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فنؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيقاظاً في استيقاظ. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة موثقتين.

في عمد ممددة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرتنا من النار يا خير مستجار. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ محمد وأصحابه» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفيل مكية

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أوصحة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسمها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أجمت رفقاً من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها. فحلف ليهذ من الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً، وأثنا عشر فيلاً غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: كان معه ألف فيل وكان وحده. فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى، وعبا جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هروا. فأرسل الله طيراً سوداً، وقيل: خضراً. وقيل: بيضاً، مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجله أكبر من العدة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه. ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل. ونوى أبرهة فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو

(١) نكروه الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/

بلا فصل، وعن عمر أنه قراها في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى والثين⁽³⁾ والمعنى: أنه اهلك الحبيشة الذين قصدهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترئ أحد عليهم، وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام. فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم، والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلافاً إذا أفته فأنما مؤلف، قال: من المؤلفات الزهو غير الأوراك، وقرئ: لثلاف قريش، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال أفته إلفاً وإلافاً. وقرأ أبو جعفر: إلف قريش. وقد جمعهما من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم ألف وليس لكم إلف
وقرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف، وقريش ولد النضر بن كنانة سماوا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن ولا تطاق إلا بالنار. وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تاكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلق. وأنشد:

وقريش هي التي تسكن البحر ربها سميت قريش قريشاً
والتصغير للتعظيم. وقيل: من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد، أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف. وتنكيراً بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به كما نصب يتيماً بإطعام. وأراد رحلتي الشتاء والصيف فافرد لأن الإلباس كقوله: كلوا في بعض بطنكم. وقرئ: رحلة بالضم، وهي الجهة التي يرحل إليها. والتنكير في جوع وخوف لشدةتهما يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وأمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسائرهم، وقيل: كانوا قد أصابته شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وأمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل: نلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وأمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في غيرهم. وقرئ: من خوف بإخفاء النون. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»⁽⁴⁾.

تضامها بالإبالة، وقيل: أبابيل، مثل عبايد، وشمايط لا واحد لها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: يرميهم، أي: الله تعالى أو الطير، لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى.

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤).

«وسجيل» كانه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجيناً علم للديوان أعمالهم. كانه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المنون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأنَّ العذاب موصوف بذلك وأرسل عليهم طيراً فأرسلنا عليهم الطوفان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر، وقيل: هو معرب من سنككل، وقيل: من شديد عذابه، ورووا: بيت بن مقبل. ضرباً تواصت به الأبطال سجيلاً وإنما هو سجيناً. والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه وشبهوا بوق الزرع إذا اكل. أي: وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو بتبن أكلته الدواب وراثته ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن. كقوله: «كانا ياكلان الطعام»^(١) أو أريد أكل حبه فبقي صفراً منه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة قريش مكية

إِلَافٍ قُرَيْشٍ (١) لِيَكُنَّمْ رِحْلَةَ الْإِسَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) قَلْبُكُمْ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) أَلَزَّتْ أَعْمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤).

«إيلاف قريش» متعلق بقوله: «فليعبوا»، أمرهم أن يعبوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

فإن قلت: فليعبوا؟ قلت: لما في الكلام من معنى الشرط لأنَّ المعنى إما لا فليعبوه لإيلافهم على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبوه لسائر نعمه فليعبوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وقيل: المعنى عجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هو متعلق بما قبله. أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش. وهذا بمنزلة التضمنين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبي سورة واحدة

(1) سورة المائدة، الآية: 75.

(2) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/289.

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف: 2/109، (الحديث رقم: 2697).

(4) نكره الثعلبي والواحدي وابن مروييه في تفاسيرهم، زيلعي 4/293.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة أرايت مكية

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ وَيَلْمِزُ (١)

قري: «أرايت» يحذف الهمزة وليس بالاختيار لأن حنفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب ريت، ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام ونحوه:

صاح هل ريت أو سمعت براع رد في الضرع ما قرى في العلاب وقرأ ابن مسعود: أرايتك بزيادة حرف الخطاب. كقوله: «أرايتك هذا الذي كرمت علي» (١)، والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ (٢)

«فذلك الذي» يكذب بالجزاء هو الذي «يدع اليتيم»، أي: ينفعه نفعاً عنيماً بجفوة وأذى ويردّه ردّاً قبيحاً بزجر وخشونة. وقرئ: «يدع» أي: يترك ويجفو.

وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣)

«ولا يحض» ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكتيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك فحين قدم عليه علم أنه مكذب، فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام وما أبلغه في التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)

ثم وصل به قوله: «فويل للمصلين» كأنه قال فإذا كان الأمر كذلك. فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث

بالحجية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السور.

الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ (٦)

كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عابتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم. والمعنى: أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفرق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام. علماً على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل من العلماء منهم من هو على هذه الصيغة فيا مصيبتاه! وطريقة أخرى أن يكون فذلك عطفاً على الذي يكذب، إمّا عطف ذات على ذات أو صفة على صفة. ويكون جواب أرايت محنوقاً لدلالة ما بعده عليه. كأنه قيل: أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين، أنعم ما يصنع! ثم قال: فويل للمصلين، أي: إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين، على معنى: فويل لهم! إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكتيب، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مراثنين غير مزكين أموالهم.

فإن قلّت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب وهو واحداً قلّت: معناه الجمع لأن المراد به الجنس.

فإن قلّت: أي: فرق بين قوله: عن صلاتهم، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلّت: معنى عن أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى: في أن السهو يعترتهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره (٢). ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم، وقرأ ابن مسعود: لاهون.

فإن قلّت: ما معنى المراءاة؟ قلّت: هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها. لقوله عليه الصلاة والسلام: ولا غمة في فرائض الله (٣)

= في كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة، حيث كان (الحديث رقم: 401)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة، والسجود له، (الحديث رقم: 89 - 572) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: سجدتي السهو فيما تشهد، (الحديث رقم: 1039)، أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: سجود السهو، (الحديث رقم: 2674)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إذا صلى خمساً، (الحديث رقم: 1023).

(3) تقدم في سورة يونس.

(1) سورة الإسراء، الآية: 62.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الألب، باب: ما يجوز من نكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير.. (الحديث رقم: 6051)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 97 - 573) وأخرجه البخاري في كتاب: السهو، باب: ما جاء في السهو إذا قام من ركعتين الفريضة (الحديث رقم: 1224)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 86 - 570)، وأخرجه البخاري =

الجنة وعنده ربي فيه خير كثير»⁽⁵⁾. وروى في صفته: أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، والين من الزبد، حافته الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء⁽⁶⁾. وروى: لا يظلم من شرب منه أبداً، أول وأرديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث لرؤوس الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو أقسم على الله لأبره⁽⁷⁾، وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير. فقال له سعيد بن جبير: إن ناساً يقولون: هو نهر في الجنة. فقال: هو من الخير الكثير.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَعِزَّهُ (٢)

والنحر نحر البدن، وعن عطية هي صلاة الفجر بجمع، والنحر بمنى. وقيل: صلاة العبد والتضحية، وقيل: هي جنس الصلاة، والنحر وضع اليمين على الشمال. والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرة من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين⁽⁸⁾، فاجتمعت لك الغبطتان السببتان إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معطٍ وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرّفك وصانك من ممن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله، وأنحر لوجهه وباسمه إذا نحرته مخالفاً لهم في النحر للآوثان.

إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْآبِتَرُ (٣)

«إن» من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم «هو» الأبتر، لا أنت. لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، ونكرت مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنما الأبتر هو شأنك المنسى في الدنيا والآخرة، وإن نكر تُكْرَ باللعن. وكانوا يقولون: إن محمداً صنوبر إذا مات مات نكره. وقيل: نزلت في العاص بن وائل وقد سماه الأبتر، والأبتر الذي لا عقب له. ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له. عن رسول الله ﷺ⁽⁹⁾: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قرب به العباد في يوم النحر أو يقربونه»⁽¹⁰⁾.

لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت. فوجب إمطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفى لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه العين فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك! وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: الرياء أخفى من بيبب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود.

وَيَتَعَوَّنَ الْمَاعُونَ (٧)

«الماعون» الزكاة. قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمتنعوا، ماعونهم ويضيئوا التهليلاً وعن ابن مسعود: ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والبلو والمقبحة ونحوها: وعن عائشة: الماء والنار والملح. وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة أرايت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكوثر مكية

في قراءة رسول الله ﷺ: إنا أنطينك بالنون⁽²⁾، وفي حديثه ﷺ: «وأنطوا النجبة»⁽³⁾. والكوثر فوعل من الكثرة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم أب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل⁽⁴⁾ كوثرًا

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)

وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال: «أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في

(1) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مروي في تفسيرهم زيلعي 4/ 299.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک في کتاب القراءة...

(3) تقدم في يونس.

(4) العقائل: جمع عقيلة وهي في الأصل المرأة للكريمة النفيسة.

(5) أخرجه مسلم في کتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: بسملة آية من أول كل سورة (الحديث رقم: 53 - 400).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 3/ 171.

(7) أخرجه ابن ماجه في کتاب: الزهد، باب: نكر الحوض (الحديث رقم: 4303)، وأخرجه أحمد في المسند (الحديث رقم: 275/5).

(8) قال أحمد: جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزئين مفيد للاختصاص؛ لأن إفادته ههنا لذلك بيئة مكشوفة.

(9) أخرجه الثعلبي وابن مروي والواحدي في تفسيرهم زيلعي 4/ 305.

(10) نكره الزبيدي في الاتحاف 9/ 645، وصدره عند الترمذي من حديث انس في کتاب: ثواب القرآن (10).

ما مصدريه أي: لا أعبد عبائكم ولا تعبدون عبائتي.
لَكُمْ وَيَكُونُ وَلِي دِينٌ ①.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ①.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أنه رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا وتبّع دينك، تعبد آلّهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض آلّهتنا نصديقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فإيسوا.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أن أصله لا أن. والمعنى: لا أفعّل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلّهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④.

﴿ولا أنا عابد ما عبثتم﴾ أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف ① ما عبثتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي: وما عبثتم في وقت ما أنا على عبائتي.

فإن قلّت: فهلا قيل: ما عبثت، كما قيل: ما عبثتم؟ قلّت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فإن قلّت: فلم جاء على ما دون من؟ قلّت: لأن المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: إن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①.

﴿إذا﴾ منصوب يسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فإن قلّت: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ قلّت: النصر الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه نصر الله الأرض غائها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان فتح مكة لعشر ماضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خير، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فاعتقهم رسول الله ﷺ ③. وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيا فلذلك سمي أهل مكة

= في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأن الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على مجرد توحيد الله تعالى ومعرفته، فإن ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل البعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿إلم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبغ الأرض خضرة﴾ والأصل: فاصبحت، وإنما عدل عنه للمعنى المذكور وهو وجه حسن فتامله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: باب: غزوة الفتح في رمضان (الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 343/3).

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على أصله القنري، فإنه وإن كان مقتضاه أن النبي ﷺ لم يكن قبل البعث على دين نبي قبله، لا اعتقاد القنرية أن تلك غميرة في منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وإنالة توحيده ومعرفته، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم أن لا يظنوا به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضي أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد الله تعالى، قال زمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل، والحق أن النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحنن

الطلقاء. ثم بايعوه على الإسلام.

وَرَأَيْتُكَ الْنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢).

﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. ﴿أفواجًا﴾ جماعات كثيفة كانت تدخل في القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا» (١). وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية» (٢). وقال: «أجد نفير ربكم من قبل اليمن» (٣). وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان. وقد كان الله أجارهم من أصحاب القيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَحَلْ يَدْخُلُونَ؟ قُلْتُ: النَّصَبُ إِمَّا عَلَى الْحَالِ عَلَى أَنْ رَأَيْتَ بِمَعْنَى ابْصُرْتَ أَوْ عَرَفْتَ، أَوْ هُوَ مَفْعُولُ ثَانٍ عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى عِلِمَتْ.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣).

﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدًا له، أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبإل أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فأنكره مسبحًا حامدًا زيادةً على عبادته والثناء عليه لزيادته أنعمه عليك، أو فصلًا له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمانين ركعات، وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللهم ويحمدك استغفرك وأتوب إليك» (٤). والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع

- (6) أخرجه الثعلبي في تفسيره زيلعي 319/4.
- (7) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (الحديث رقم: 3904)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل أبي بكر رضي الله عنه (الحديث: 2382/2).
- (8) سورة النصر، الآية: 1.
- (9) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ (الحديث رقم: 4970).
- (10) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل، وابن مروي في تفسيره، زيلعي 322/4، وله شاهد عند البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3623).
- (11) أخرجه الثعلبي وابن مروي والواحدي في تفاسيرهم زيلعي: 4/324.

- (1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه (الحديث رقم: 52/82).
- (2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 583.
- (3) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، فإن ظاهره يومه أنه صلاها داخل الكعبة، وفي الصحيح ما أخرجه في كتاب: المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح (الحديث رقم: 4292)، ورواه أبو داود بنحو آخر في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الضحى (الحديث رقم: 1290).
- (4) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (الحديث رقم: 817)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث رقم: 484/217).
- (5) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (الحديث رقم: 2702/41).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة تبت وهي مكية

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①.

التب: الهلاك، ومنه قولهم: إشلبة أم تابة. أي: هالكة من الهرم والتعجيز. والمعنى: هلكت يداه⁽¹⁾، لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمى به رسول الله ﷺ. «وتب» وهلك كله أو جعلت يداه هالكيتين، والمراد هلاك جملته. كقوله تعالى: «بما قدمت يدك»⁽²⁾ ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقوله:

جزاني جزاءه الله شر جزائه جزاء الكلاب العلويات وقد فعل

ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب. وروي أنه لما نزل: «وانذر عشيرتكم الأقربين» رقى الصفا وقال: «يا صباحاه». فاستجمع إليه الناس من كل أوب. فقال: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تباً لك لهذا دعوتنا⁽³⁾ فنزلت.

فإن قلّت: لم كناه والكنية تكرمة؟ قلّت: فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له نكر الأشهر من علميه. ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يداً أبو لهب. كما قيل: علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان. لثلا يغير منه شيء فيشكل على السامع. ولقليته بن قاسم أمير مكة ابنان: أحدهما: عبد الله بالجر، والآخر عبد الله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له: عبد الله بجرة الدال لا يعرف إلا هكذا، والثاني: أنه كان اسمه عبد العزى فعُدل عنه إلى كنيته، والثالث: أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديراً بأن ينكر بها. ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير. وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلّب: أبا صفرة⁽⁴⁾ بصفرة في وجهه. وقيل: كني بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما. فيجوز أن ينكر بذلك تهكماً به وبافتخاره بذلك. وقرئ: أبي لهب بالسكون وهو من تغيير الأعلام كقوله: شمس بن مالك بالضم.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ②.

«وما أغنى» استفهام في معنى الإنكار ومحلّه النصب، أو نفي «وما كسب» مرفوع وما موصولة أو مصدرية بمعنى: ومكسوبه أو وكسبه. والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله. يعني: رأس المال والأرباح أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها. وكان ذا سايباء⁽⁵⁾ أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه، أو ماله التالذ والطارف. وعن ابن عباس: ما كسب ولده. وحكى أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاقترلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع. فغضب فقال: اخرجوا عني الكسب الخبيث. ومنه قوله عليه السلام: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». وعن الضحّاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث. يعني: كيد في عداوة رسول الله ﷺ، وعن قتادة: عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل»⁽⁶⁾ وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فانا افتدى منه نفسي بمالي وولدي.

سَيَصِلُ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③.

«سيصلي» قرئ بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً والسين للوعيد. أي: هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وَأَمْرًا لَهُمْ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ④.

«وامراته» هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنترها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويقال: للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم. أي: يوقد بينهم النائرة ويورث الشر. قال: من البيض لم تصطد على ظهر لامة ولم تش بين الحي بالحطب الرطب جعله رطباً ليند على التخخين الذي هو زيادة في الشر، ورفعت عطفًا على الضمير في سيصلي. أي: سيصلي هو وامراته.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسٍ ⑤.

«وفي جيدها» في موضع الحال أو على الابتداء وفي جيدها الخبر. وقرئ: حمالة الحطب بالنصب على الشتم، وأنا استحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل. وقرئ: حمالة للحطب وحمالة للحطب بالتثنية والرفع والنصب. وقرئ: ومريته بالتصغير. المسد الذي قتل من الحبال قتلاً شديداً من ليف

= (رقم: 4507)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: «وانذر عشيرتكم الأقربين» (الحديث رقم: 208/355).

(4) انظر الإصابة في تمييز الصحابة 108/4.

(5) سايباء: أي كثير المال والنتاج والإبل.

(6) سورة الفرقان، الآية: 23.

(1) قال أحمد: وفي هذا نليل: لأنّ الرفع أسبق وجوه الإعراب وأولها، ألا تراهم إنما حافظوا على صيغته التي بها اشتهر الاسم، وكانت أول أحواله.

(2) سورة الحج، الآية: 10.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة تبت (الحديث =

كان أو جلدًا أو غيرهما. قال:

ومسد أمر من إيانئق

ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون، تخسيسًا لحالها وتحقيرًا لها وتصويرًا لها بصورة بعض الخطابات من المواهر، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلمها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدّة. ولقد غير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أريت إلى شمتي ومنقصتي
ثم ما تعير من حملة الحطب
غراء شائخة⁽¹⁾ في المجد غرتها كانت
سليلة شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإخلاص مكية

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ⁽¹⁾.

﴿هو﴾ ضمير الشأن و﴿الله أحد﴾ هو الشأن. كقولك: هو زيد منطلق: كانه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له.

فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء، والخبر الجملة.

فإن قلت: فالجملة الواقعة خبر الأبد فيها من راجع إلى المبتدأ فاين الراجع! قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك أن قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيدًا والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قریش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه فنزلت، يعني: الذي سألتوني وصفه هو الله واحد، يدل من قوله الله أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد. وقرأ

عبد الله أبي: هو الله أحد بغير قل. وفي قراءة النبي ﷺ: «الله أحد بغير قل هو». وقال: «من قرأ الله أحد كان بعدل القرآن». وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد. وقرئ: أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف ونحوه، ولا ذاكراً لله إلا قليلاً. والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

اللَّهُ الصَّمَدُ⁽²⁾.

﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقربون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ⁽³⁾.

﴿لم يلد﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالد. وقد دل على هذا المعنى بقوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. ﴿ولم يولد﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة. سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وقاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قاهر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. وقوله: الصمد، وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه. وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأولية. وقوله: لم يلد، نفي للشبه والمجانسة. وقوله: ولم يكن له كفواً أحد، تقرير لتلك وبت للحكم به.

فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد قص سيبويه على ذلك⁽³⁾ في كتابه فما باله مقدماً في أقصص كلام وأعرابه؟ قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لتلك أهم شيء وأعانه وأحقه بالتقدم وإحراه.

وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُواً أَحَدٌ⁽⁴⁾.

وقرئ: كفواً بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها مع سكنون الفاء.

فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على

(3) نكره ابن حجر في لسان الميزان (442/6) ونكره الذهبي في ميزان الاعتدال (8915).

(1) شائخة: أي شديت شلوخاً اتسعت في الوجه.

(2) أخرجه الثعلبي وابن مربي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/

فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وماهم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم. فقال: لا أبالي اليس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٦)

﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه وشرهم، ما يفعله المكلفون^(٣) من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارة بعضهم بعضاً من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك. وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس والدغ والعص كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

وَمِنْ شَرِّ عَاسِي إِذَا وَقَبَ (٧)

والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾^(٤) ومنه غسقت العين امتلات دمعاً، وغسقت الجراحة امتلات دماً، ووقبه دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هذا حين حلها». يعني صلاة المغرب^(٥). وقيل: هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوذ بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»^(٦). ووقبه دخوله في الكسوف واسوداده. ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ونقبه، والوقب النقب. ومنه وقبة الثريد والتعوذ من شر الليل لأن انبثائه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر. وأسند الشر إليه لملاسته له من حدوثه فيه.

وَمِنْ شَرِّ الْفَعْنَةِ فِي الْأَمْعَرِ (٨)

﴿الفعنات﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقن عقداً في خيوط وينقشن عليها^(٧) ويرقن، والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم

قصر متنها وتقارب طرفيها! قُلْتُ: لامر ما يسود، من يسود. وما ذاك إلا احتوائها على صفات الله تعالى وعمله وتوحيده وكفى نليلاً من اعترف بفضله. وصديق بقول رسول الله ﷺ فيها أن علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضيق بضيقه، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق بونه، ومن ازدهاه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلو من خشيته وبعده من النظر لعاقبته. اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك العالمين لك القائلين بعبدك وتوحيديك الخائفين من وعيك. وتسمى: سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين. وروى أبي وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»^(١). يعني: ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطق بها هذه السورة. عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت». قيل: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفلق مختلف فيها

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)

الفلق والفرق الصبح لأن الليل يفلق عنه، ويفرق فعل بمعنى مفعول. يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر. وقيل: هو كل ما يفلقه الله كالارض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وإو في جهنم أوجب فيها. من قولهم: لما أطمأن من الأرض الفلق، والجمع

(1) قال أحمد: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد كفواً له، وجري هذا الجلف على عاتقه، فجفا طبعه عن لطف المعنى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الإسم، وذلك أن الغرض التي سيق له الآية نفى المكافاة والمساواة عن ذات الله تعالى فكان تقديم المكافاة المقصود بأن يسلب عنه أولى، ثم لم تَقَم لتسلب نكر معها الظرف ليبين الذات المقنسة بسلب المكافاة، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (الحديث رقم: 2897)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الحديث رقم: 994).

(3) قال أحمد: لا يسعه على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقده خالفاً

= لأفعاله، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات، وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك فلا؛ لأنه يعتقد أن الله لا يخلق أفعال الحيوانات، وإنما هم يخلقونها؟ لأنها شر والله تعالى لا يخلق له قبحة، كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضع فسادها حتى حُرِف بعض القدرية الآية فقرا: ﴿من شر ما خلق﴾ بتوئين وجعل ما نافية.

(4) سورة الإسراء، الآية: 78.

(5) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، زيلي 335/4.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعونتين (الحديث رقم: 3366).

(7) قال أحمد: وقد تقدم أن قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه، والأمر بالتعوذ منه، وقد سحر ﷺ

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ المعوذتين فكانما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها» (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الناس مكية

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاِنْسَانِ ﴿١﴾

قريء قل أعوذ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونحوه فخذ أربعة.

فإن قُلْتُ: لم قيل ﴿بِرَبِّ الْاِنْسَانِ﴾ مضافاً إليهم خاصة؟ (5) قُلْتُ: لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكانه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخلومهم ووالي أمرهم.

مَلِكِ الْاِنْسَانِ ﴿٢﴾ إِنَّهُ الْاِنْسَانِ ﴿٣﴾

فإن قُلْتُ: ﴿ملك الناس إله الناس﴾ ما هما من رب الناس؟ قُلْتُ: هما عطف بيان كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق. بين بملك الناس ثم زيد بياناً بإله الناس لأنه قد يقال لغيره: رب الناس. كقوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله. وقد يقال: ملك الناس. وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فَجَعَلَ غاية البيان.

فإن قُلْتُ: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة؟ قُلْتُ: لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار.

مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ﴿٤﴾

﴿الوسواس﴾ اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال. والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كانه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعتها وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد ذو الوسواس، والوسوسة الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلى، و﴿الخنس﴾ الذي عادت أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات لما روي عن سعيد بن جبير:

إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه. ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبث على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسب الحشو والرعاع إليهم وإلى نفثهم، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعيئون به.

فإن قُلْتُ: فما معنى الاستعاذة من شرهم؟ (1) قُلْتُ: فيها ثلاثة أوجه: أحدها أن يستعاذ من عملهم الذي هو صنعة السحر ومن إثمهم في ذلك، والثاني أن يستعاذ من فتنتهم الناس بسحرهم وما يخدعونهم به من باطلهم، والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهم. ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات، من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ﴾ (2) تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك.

وَمِنْ سَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿إذا حسد﴾ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد. ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره.

فإن قُلْتُ: قوله من شر ما خلق تعميم في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد؟ قُلْتُ: قد خص شر هؤلاء من كل شر لخباء أمره وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر.

فإن قُلْتُ: فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؟ قُلْتُ: عرفت النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين» (3). وقال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال:

إن العلا حسن في مثلها الحسد

(الحديث رقم: 73)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (الحديث رقم: 816/268).

(4) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 338 وقال ابن حجر: والحديث المرفوع في ذلك موضوع الكاف الشاف ص 190.

(5) قال أحمد: وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف، فإنه معه أم.

= في مشط ومشاطة في جف طلعة نكر، والخنيث مشهور. وإنما الزمخشري استقره الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزله ويغطي بكفه وجه الغزالة.

(1) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول فعذ عنه جانباً، ولو فسر غيره النفاثات في العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتم إنكار وجود السحر، لعذه من بدع التفاسير.

(2) سورة يوسف، الآية: 28.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة =

إذا نكر الإنسان ربه خنس الشيطان ولى، فإذا غفل وسوس إليه.

الَّذِي يُوسُّوهُ فِي صُدُورِ الْكَافِرِينَ (٥).

﴿الذي يوسوس﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث: فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين.

مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦).

﴿من الجنة والناس﴾ بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان جنى وإنسى كما قال شياطين الإنس والجن. وعن أبي نر رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس. ويجوز أن يكون من متعلقاً بيوسوس ومعناه ابتداء الغاية. أي: يوسوس في صلورهم من جهة الجنّ ومن جهة الناس. وقيل: من الجنة والناس بيان للناس وأن اسم الناس ينطلق على الجنة، واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجن. وما أحقه لأن الجن سموا جنّاً لاجتماعهم، والناس ناساً لظهورهم من الإناس وهو الإبصار، كما سموا بشراً، ولو كان يقع الناس على القبيلين وصح ذلك وثبت لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبعده من التصنع واجود منه أن يراد بالناس الناسي كقوله: ﴿يوم يدع الداع﴾^(١) وكما قرئ: من حيث أقاض الناس. ثم يبين بالجنة والناس لأنّ الثقليين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل. عن رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لن تقر سورتين أحب ولا أَرْضَى عند الله منهما، يعني: المعوذتين، ويقال: للمعوذتين: المقشقشتان: قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامة، والوذ بكشف رحمته الشاملة العامة، من كل ما يكلم الدين، ويثلم اليقين، أو يعود في العقابة بالندم. أو يمدح في الإيمان المسوط باللحم والدم. وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر، ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر. مستشفعاً إليه بنوره الذي هو الشبية في الإسلام متوسلاً بالتوبة المحصنة للأثام. وبما

عنيت به من مهاجرتي إليه ومجاورتتي ومرابطتي بمكة ومصابرتي. على توكل من القوى. وتخاذه من الخطأ. ثم أسأله بحق صراطه المستقيم. وقرأه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين. وعرق الجبين. في عمل الكشاف عن حقائقه. المخلص عن مضايقه. المطلع على غوامضه. المثبت في مداخضه. الملخص لنكته ولطائف نظمه. المنقري عن فقره وجواهر علمه. المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه. المخيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه. مع الإيجاز الحائف للفضول. وتجنب المستكره المملول. ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه. لكفى به ضالة ينشدها محققه الأحبار. وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار. وبما شرفني به ومجديني واختصني بكرامته وتوحيثني. من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونزله. ومنتزل آياته وسوره. من البلد الأمين بين ظهرائي الحرم. وبين يدي البيت المحرم. حتى وقع التأويل. حيث وجد التنزيل. أن يهب لي خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء ويتجاوز عن فرطاتي يوم التناد. ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد. ويحلني دار المقامة من فضله. بوسع طوله وسابغ نوله. إنه الجواد الكريم الرؤوف الرحيم.

في نسخة ما نصه

في أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى: وهذه النسخة هي نسخة الأصل الأولى التي نقلت من السواد وهي أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها المحققة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها في السنة الشهباء فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح دار السليمانية التي على باب أجياذ الموسومة بمدرسة العلامة: ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسائة وهو حامد لله على باهر كرمه ومصل على عبده ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

نبذة من ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى

فلإنها في غاية البرودة ومنها خلق كثير سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعده من لا يعرفه، وقيل أن الزمخشري لما نخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأل عن سبب قطع رجله، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي، فأدركته وقد نخل في خرق فجنبتة فانقطعت رجله في الخيط فتأملت والذتي لذلك، وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخاري أطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي، وعملت عليّ عملاً، أوجب قطعها. والله أعلم بالصحة وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي قد كتب إليه من الإسكندرية وهو يومئذ مجاور مكة حرسها الله يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فردّ جوابه بما لا يشفي الغليل فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل وله في ذلك الأجر الجزيل فكتب إليه الزمخشري ما لم يكن له في حساب ولولا خوف التطويل لنكرت الاستدعاء والجواب لكن لا بأس بذكر بعض الجواب وهو ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثّل السها مع مصابيح السماء والجهم الصفر من الرهام مع الغواصي الغامرة للقيعان والأكام والسكيت المخلف مع خيل السباق والبلغات مع الطير العتاق وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم بالعلامة والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين نو بضاعه مزجاة ظلي فيه أقص من ظل حصاة أما الرواية فحديثه الميلاد قريبة الإسناد لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير وأما الدراية فتمد فيّ وفلان وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها ولو سردها لطلال الحال ثم قال فإنّ ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذي غرهم مني ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وإيصال الشفقة إلى المستفيدين وقطع المطامع عنهم وإفاضة المبرار والصنائع عليهم وعزة النفس والرب بها عن السفاسف الذنباة والإقبال على خويصتي والإعراض عما لا يعنيني فجعلت في عيونهم وغلطوا فيّ ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولا دبير وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسي كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه وليتكم ولست بخيركم إن المؤمن ليهضم نفسه وإنما صدقت الفاحص عني وعن كنه روایتي ودرایتي ومن لقيت وأخذت عنه وما بلغ علمي وقصارى فضلى وأطلعت طلع أمري وأفضيت إليه بخبية سرى والقيت إليه عجري وبجري وأعلمته نجمي وشجري وأما المولد فقريبة مجهولة من قرى خوارزم تسمى: زمخشر وسمعت أبي رحمة الله تعالى يقول: اجتاز بها أعرابي فسأل عن اسمها واسم عبيرها

قد ذكر الأستاذ الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح دار الطباعة المصرية الميرية سابقاً رحمه الله، جملة من ترجمة مؤلف الكشف نيل بها النسخة التي جرى عليها الطبع، فاستحسن نقلها بنصها لتكون مرآة للاطلاع على بعض ما للمؤلف من رفيع المزاي وحמיד السجاي ولسان صدق في الآخرين وأنموذجاً لفضله المتين ونصها:

هو إمام الأئمة وهادي هداة هذه الأمة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري من هو بأحسن النعوت حرى صاحب التأليف الزاهرة والتصانيف الفائقة الباهرة فهو الإمام الكبير في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغيرها بلا معاني كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحال من كل مكان شاسع، أخذ الألب عن شيخه منصور أبي مضر، وصنف التصانيف البديعة الغرر، منها هذا الكتاب في تفسير القرآن، ولم يدرك شاوه فيه إنسان، والمحااجة بالمسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفائق في تفسير الحديث، ولم ير مثله في القديم ولا في الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، ولم يبلغ كتاب قبله في التمييز مبلغه، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ومتشابه أسامي الرواة والنصائح الكبار، والنصائح الصغار، وضالة الناشد والرائض، في علم الفرائض، والمفصل في النحو وهو كتاب كبير، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، والأنموذج في علم العربية، والمفرد والمؤلف في المسائل النحوية، ورؤوس المسائل الفقهية، والمستقصى في الأمثال العربية، والنبور السافرة. في الأمثال السائرة. والكتاب الجليل: المسمى بديوان التمثيل، وشقائق النعمان: في حقائق النعمان، وشافي العي: من كلام الشافعي، والقسطاس في العروض ومعجم الحدود والمنهاج في الأصول ومقدمة الألب في اللغة وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسائل الناصحة والامالي الواضحة في كل فن وغير ذلك وكان شروعه في تأليف المفصل في غرة شهر رمضان سنة 513 ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه في غرة المحرم سنة 515 خمس عشرة وخمسمائة وكان قد سافر إلى مكة حرسها الله تعالى وجاور بها زماناً فصار يقال له: جار الله لذلك وكان هذا الاسم علماً عليه وقد اشتهر أنّ إحدى رجله كانت ساقطة وأنه كان يمشي في جازن من خشب واختلف في سبب سقوطها فقيل: إنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لرغبة والثلج والبرد كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط به خصوصاً خوارزم

والذي من نقر الفتاة ليلها
البيت سهران الدجى وتبيت
ومن كلامه:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به
فإن حنفيًا قلت قالوا بآثني
وإن مالكيًا قلت قالوا بآثني
وإن شافعيًا قلت قالوا بآثني
وإن حنبلية قلت قالوا بآثني
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه
تعجبت من هذا الزمان وأهله
وأخبرني دهري وقدم معشرا
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني

وكانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين
من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشري
وتوفي رحمه الله تعالى ليلة عرفة سنة 538 ثمان وثلاثين
وخمسائة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة رحمه الله
تعالى ورثاه بعضهم بأبيات ومن جملتها:

فأرض مكة تدرى الممقنتها
حزنًا لفرقة جلاله محمود
وزمخشري بفتح الزاي والميم وسكون الخاء وفتح الشين
المعجمتين وبعدها راء. قرية كبيرة من قرى خوارزم
وجرجانية بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء
بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من
تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة وهي قصبة خوارزم
قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: يقال لها بلغتهم
كركانج فعربت وقيل لها: جرجانية وهي على شاطئ
جيحون. انتهى ما ذكره الأستاذ للسوقي رحمه الله تعالى.

بِعَوْنِهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ وَمُنْه
تَمَّ تَفْسِيرُ الْكَشَافِ لِلزَّمْخَشَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ

فقل له: زمخشري فقال: لا خير في شر ورد ولم يلزم بها
ووقت الميلاد شهر الله الأصم في عام سبع وستين
وأربعمائة والله المحمود والمصلى على سيدنا محمد وآله
وأصحابه هذا آخر الإجازة وقد أطل الكلام فيها ولم
يصرح له بمقصوده فيها ولا يعلم هل أجازه بعد ذلك أولًا.
ومن شعره السائر قوله وقد ذكره السمعاني في الذيل قال
أنشدني أحمد بن محمود الخوارزمي إملاء بسمرقند قال
أنشدنا محمود بن عمر الزمخشري لنفسه بخوارزم:

ألا قل لسعدي ما لنا فيك من وطر
وما نطلبن النجل من أعين البقر
فإننا اقتصرنا بالذين تضايقت
عيونهم والله يجزى من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة
ولم أنس إذ عازلته قرب روضة
فقلت له جئني بورد وإنما
فقال انتظرنى رجع طرف أجي به
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر
ومن شعر يرثي شيخه أبا مضر المذكور أولًا:

وقائلة ما هذه الدرر التي
تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا
أبو مضر أنني تساقط من عيني
ومما أنشد لغيره في كتابه الكشف عند تفسير قوله
تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾:

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب عن فرطاته
ما كان منه في الزمان الأول

وقيل: إن الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره
هذه الأبيات:

ومن كلامه رضي الله عنه:
زمان كل حب فيه خب
لهم سوق بضاعته نفاق
ونفاق فالنفاق له نفاق
ومن كلامه:

سهرى لتنقيح العلوم الذلي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة
اشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامى على أوراقها
أحلى من اللوكاء والعشاق

فهرس الموضوعات

841	32 - سورة السجدة	5	مقدمة المحقق
846	33 - سورة الأحزاب	7	ترجمة الإمام الزمخشري
867	34 - سورة سبأ	11	التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه
879	35 - سورة فاطر	19	المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة
889	36 - سورة يس	23	مقدمة المؤلف
901	37 - سورة الصافات	25	1 - سورة فاتحة الكتاب
917	38 - سورة ص	30	2 - سورة البقرة
933	39 - سورة الزمر	160	3 - سورة آل عمران
949	40 - سورة غافر	214	4 - سورة النساء
964	41 - سورة فصلت	276	5 - سورة المائدة
973	42 - سورة الشورى	318	6 - سورة الأنعام
984	43 - سورة الزخرف	355	7 - سورة الأعراف
998	44 - سورة الدخان	402	8 - سورة الأنفال
1004	45 - سورة الجاثية	421	9 - سورة التوبة
1108	46 - سورة الأحقاف	455	10 - سورة يونس
1017	47 - سورة محمد ﷺ	476	11 - سورة هود
1024	48 - سورة الفتح	502	12 - سورة يوسف
1030	49 - سورة الحجرات	533	13 - سورة الرعد
1043	50 - سورة ق	544	14 - سورة إبراهيم
1049	51 - سورة الذاريات	557	15 - سورة الحجر
1055	52 - سورة الطور	566	16 - سورة النحل
1058	53 - سورة النجم	589	17 - سورة الإسراء
1064	54 - سورة القمر	612	18 - سورة الكهف
1069	55 - سورة الرحمن	631	19 - سورة مريم
1074	56 - سورة الواقعة	650	20 - سورة طه
1081	57 - سورة الحديد	671	21 - سورة الأنبياء
1086	58 - سورة المجادلة	689	22 - سورة الحج
1092	59 - سورة الحشر	703	23 - سورة المؤمنون
1097	60 - سورة الممتحنة	717	24 - سورة النور
1102	61 - سورة الصف	738	25 - سورة الفرقان
1105	62 - سورة الجمعة	754	26 - سورة الشعراء
1108	63 - سورة المنافقون	774	27 - سورة النمل
1111	64 - سورة التغابن	793	28 - سورة القصص
1114	65 - سورة الطلاق	812	29 - سورة العنكبوت
1118	66 - سورة التحريم	824	30 - سورة الروم
1124	67 - سورة الملك	835	31 - سورة لقمان

1206	92 - سورة الليل	1128	68 - سورة القلم
1208	93 - سورة الضحى	1134	69 - سورة الحاقة
1210	94 - سورة ألم نشرح	1138	70 - سورة المعارج
1211	95 - سورة التين	1141	71 - سورة نوح
1212	96 - سورة العلق	1145	72 - سورة الجن
1214	97 - سورة القدر	1149	73 - سورة المزمل
1215	98 - سورة القيامة	1153	74 - سورة المدثر
1215	99 - سورة الزلزلة	1160	75 - سورة القيامة
1216	100 - سورة العاديات	1163	76 - سورة الإنسان
1218	101 - سورة القارعة	1168	77 - سورة المرسلات
1218	102 - سورة التكاثر	1171	78 - سورة عم يتساءلون
1219	103 - سورة العصر	1175	79 - سورة النازعات
1220	104 - سورة الهمزة	1178	80 - سورة عبس
1221	105 - سورة الفيل	1181	81 - سورة التكوير
1222	106 - سورة قريش	1185	82 - سورة الانفطار
1223	107 - سورة أرايت	1186	83 - سورة المطففين
1224	108 - سورة الكوثر	1189	84 - سورة انشقت
1225	109 - سورة الكافرون	1191	85 - سورة البروج
1225	110 - سورة النصر	1193	86 - سورة الطارق
1227	111 - سورة تبت	1195	87 - سورة سبى اسم ربك الأعلى
1228	112 - سورة الإخلاص	1196	88 - سورة الغاشية
1229	113 - سورة الفلق	1199	89 - سورة الفجر
1230	114 - سورة الناس	1202	90 - سورة البلد
1232	نبذة من ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى	1205	91 - سورة الشمس

ISBN 9953-420-87-4



9 789953 420875